
رواية
عيد مبارك
كين فوليت
عَالمٌ بلا نِهايةٍ
ترجمة: عزّة حسون
مكتبة



عَالمَ بلا نِهَايةِ



Author: **Ken Follett** | اسم المؤلف: كين فوليت

Title: **World Without End** | عنوان الكتاب: عَالمٌ بلا نِهَايَةٍ

Translated by: **Azza Hassoun** | ترجمة: عزّة حسون

P.C.: **Al–Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2022** | الطبعة الأولى: 2022



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 · +964 (0) 780 808 0800 · +964 (0) 790 1919 290

بيروت: شامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 · +961 706 15017 · +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 · +963 11 232 2275 · +963 11 232 2289 · ص.ب: 8272

كين فوليت

عَالمٌ بلا نِهَايةٍ

ترجمة: عزّة حسون



«ما يمتازُ به فوليت هو قُدرتُه على سردِ الحكاياتِ ففي حبكاته المتداخلة مُتعةٌ كافيةٌ لأسرِ القارئ لواحدٍ وتسعين فصلاً... لن تكون قادراً على وضعِ الكتابِ من يدكَ».

الإندبندنت

«هذا كتابٌ ضخمٌ بامتيازٍ، وهو شاملٌ ومُفصّلٌ في آنٍ معاً. بين دفتيه حكايةٌ عظيمةٌ تفيضُ بشخصياتٍ آسرةٍ جداً وتستَحْضِرُ بكلِّ براعةٍ حِقبةَ وباءِ الطاعون الأسود الفتّاكِ وولادةَ الطبِّ الحديثِ».

مجلة تشويس

إلى باربرا

قائمة بأسماء الشخصيات

عائلة وولر

إدموند (تاجر صوف)
روز (زوجة إدموند)
ابنتيه:
أليس
كاريس
أنتوني (شقيقُ إدموند)
بيترانيلا (شقيقةُ إدموند)
غودوين (ابن بيترانيلا)
الطبَّاخة تاتي

عائلة فيتزجيرالد

السير جيرالد
الليدي مود
أبناؤهما:
ميرثن
رالف
أحفادهما:
لورا (لولا)
جيرالد (جيري)
رولاند (رولي)

شايرنغ

الإيرل رولاند
اللورد ويليام (سيد كاستر والإيرل لاحقاً)
الليدي فيليبا
الأسقف ريتشارد
الأب جوفروي
لورين (زوجة توماس لانغلي)
مارجري (ابنة شقيق الإيرل رولاند)
ماتيلدا (تيلي) (نسيبة الإيرل رولاند)

ويغلي

غويندا
ولفريك
ساموبل (سام)
ديفيد (ديفي)
جوبي (والد غويندا)
إثنا (والدة غويندا)
بيركن
بيغ
آنيت (ابنة بيركن)
بيلي هاورد
نيثان ريف (وكيل قرية ويغلي)
جونو (ابن نيثان)
آرون أبلتري

فلورنسا

بونافينتورا كارولي
لورو فيوريتينو
سيلفيا كريستي

أليساندرو كريستي (والد سيلفيا)

السينور جياني (شقيق سيلفيا)

لينا (عبدة أليساندرو الآسيوية)

كينغزبريدج

البنَّاء إلفريك

غريزيلدا

المأمور جون

البنّاء بول واتكين

مارك ويبر (نسّاج)

مادج ويبر (زوجة مارك)

بين ويلر (سائق عربة)

ليب ويلر (زوجة بين)

بول بيل (صاحب حانة ونزل بيل)

بيسي بيل

إليزابيث كلرك

سيري كلارك (والدة إليزابيث)

ماتي وايز (حكيمة كينغزبريدج)

هارولد ميسن

جيرامايا (جيمي)

جيك تشيبستو

سوزانا تشيبستو

إدوارد بوتشر

ديك بروير

دير كينغزبريدج

الأب أنتوني

الأم سيسيليا

الراهب والفارس السابق توماس لانغلي

الراهب فيليمون

الراهبة الشابة مير

الراهبة جوان

الراهبة أوناغ

الأسقف هنري مونز

مساعده المرتّل كلود

رئيس الشمامسة لويد

الراهب سيميون

الراهب الأعمى كارلوس

الراهبة العجوز جولي

الراهب والطبيب العجوز جوزيف

الراهب والطبيب سايم

الأب جوفروي (كاهن كنيسة سانت مارك)

سول وايتهيد (راهب ورئيس دير سانت جون إن ذا فوريست)

الراهب المتجول موردو

لندن

السير غريغوري لونغفيلو (محامي ومستشار الملك إدوارد الثالث)

معركة سيرسي

إدوارد الثالث ملك إنكلترا

فيليب السادس ملك فرنسا

الكونت شارل ألونكون شقيق الملك فيليب

جان ملك بوهيميا

هنري لي موني (صديق ملك بوهيميا)

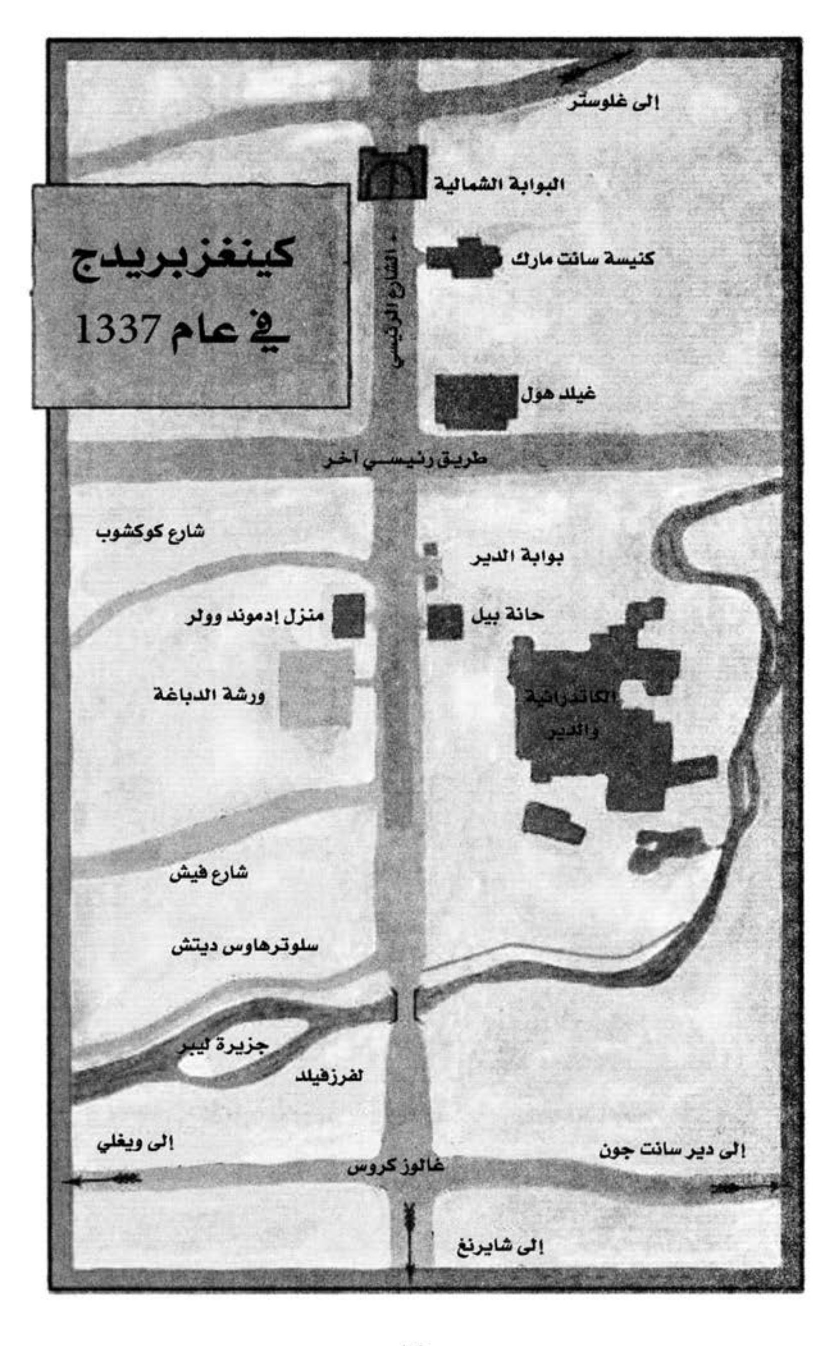
ملك روما

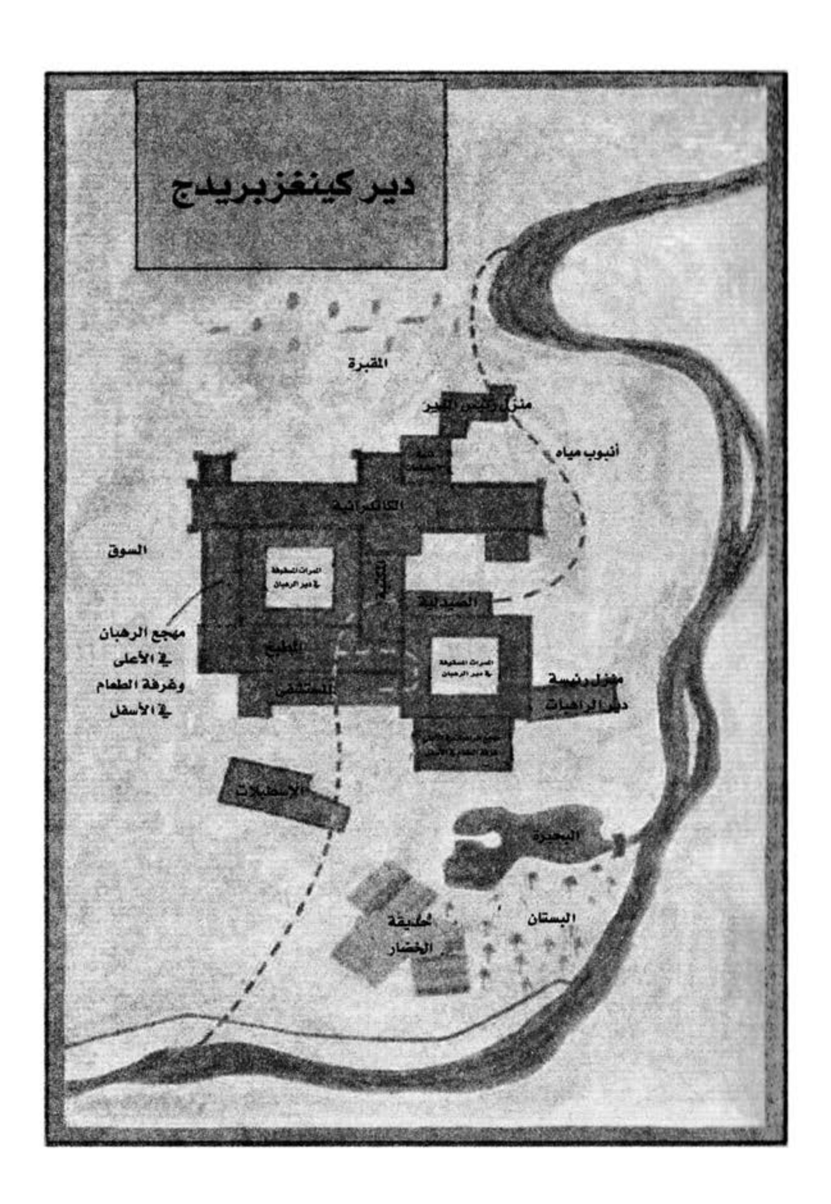
ملك مايوركا

رئيس أساقفة الرون

رئيس أساقفة السين

قائد النشابين الجنويين أتوني دوريا


كينغزبريدج
في عام 1337
إلى غلوستر
البوابة الشمالية
الشارع الرئيسي
كنيسة سانت مارك
غيلد هول
طريق رئيسي آخر
شارع كوكشوب
بوابة الدير
منزل إدموند وولر
حانة بيل
ورشة الدباغة
الكاتدرائية
والدير
شارع فيش
سلوترهاوس ديتش
جزيرة ليبر
لفرزفيلد
إلى ويغلي
إلى دير سانت جون
غالوز كروس
إلى شايرنغ



دير كينغزبريدج
المقبرة
منزل رئيس الدير
أنبوب مياه
الكاتدرائية
السوق
الصيدلية
مهجع الرهبان
في الأعلى
وغرفة الطعام
في الأسفل
المطبخ
المستشفى
منزل رئيسة
دير الراهبات
الإسطبلات
البحيرة
البستان
حديقة
الخضار

الجزء الأول

الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1327

-1-

كانت غويندا في الثامنةِ إلَّا أنَّها لم تكن خائفةً من العتمة.

عندما فتحت عينيها لم ترَ شيئاً ولكنها لم تشعر بالخوفِ من العتمة لأنّها تعرفُ أين هي الآن. كانت في ديرِ كينغزبريدج، وبالتحديد في المبنى الحجري الطويل الذي كانوا يطلقون عليه اسم المستشفى، وقد استلقت فوق فراشٍ من القشِّ على الأرضيَّة، وإلى جانبها استلقت والدتها. وتكهنت غويندا من رائحةِ الحليبِ الدافئ أنّ والدتها تُرضع المولودَ الجديدَ الذي لم يعطوه اسماً بعد، وإلى جانبِ والدتها نامَ والدها وبجانبه شقيق غويندا الأكبر فيليمون الذي يبلغ من العمرِ اثني عشر عاماً.

كان المستشفى مُكتظاً بالزوارِ ولذلك لم تتمكن غويندا من رؤية بقيةِ العائلاتِ المستلقية على الأرضيّةِ والمتراصّة بعضها بجانبٍ بعض كخرافٍ في حظيرةٍ، إلا أنّها كانت قادرةً على شمِّ رائحةِ أجسادهم النتنةِ. عندَ انبلاج الفجر سيكون قد حلّ عيدُ جميع القديسين والموافق هذا العام يومَ أحد، وهذا يعني أنّه سيكون مُقدساً بشكلٍ خاصٍ. تُعتبرُ الليلة السابقة لعيدِ جميع القديسين ليلةً خطيرةً لأنَّ الأرواحَ الشريرة تتجول بحُريّةٍ ولهذا السببِ أتى المئاتُ من الناسِ من القرى المجاورةِ، كعائلة غويندا التي أتت من قريةِ ويغلي، إلى كينغزبريدج لقضاءِ عيد جميع القديسين في أراضي الديرِ المقدسة وحضور قُدّاس العيدِ عند الفجرِ.

كأيِّ شخصٍ عاقلٍ كانت غويندا خائفةً من الأرواحِ الشريرةِ، غير أنَّها لم تكن خائفةً منها كما كانت خائفةً مما عليها القيام بهِ خلالَ مراسمِ القُداس.

حدّقت أمامها في الظلمةِ وهي تحاول عدم التفكيرِ بما يُخيفها. كانت تعلم أنَّ قبالتها في الجدارِ نافذةً مُقَنطرة. لم يكن للنافذةِ زجاجٌ فالأبنية الهامَّة فقط تبنى بنوافذ زجاجية، وبدلاً من الزجاج وُضعت ستارة كتانية لتقيهم من الهواءِ الخريفي البارد. لم ترَ أيّ بقعة ضوءٍ رمادي في المكانِ

الذي يُفترض أن تكون فيه النافذة، وشعرت بالسعادةِ فهي لم تكن تريدُ لهذا الصباح أن يأتي.

لم تكن قادرةً على رؤيةِ شيءٍ، ولكن كان هناك الكثيرُ من الأصواتِ لتُصغي إليها، فالقشّ الذي يغطي الأرضية هسهسَ بلا توقفٍ عندما تقلّبَ الناسُ فوقه وغيروا وضعيات نومهم. بكى طفلٌ كأنّه استفاقَ من حُلمٍ ما، إلا أنّه سرعانَ ما هدأ بعد أن تناهى إلى سمعِ غويندا همسُ كلماتٍ تحببٍ. بين الفينة والأخرى يتكلمُ أحدُهم بكلامٍ غيرِ مفهومٍ كأنّه يتحدثُ في نومِه، وفي مكان ما كان هناك زوجان يقومان بما يقومُ به الأهلُ ولا يتحدثون عنه، وقد أطلقت غويندا على هذا الفعلِ اسم القِباع فهي لم تعرف له تسميةً أخرى.

وأخيراً ظهر شعاعُ شمسِ الفجرِ، وعندَ الطرفِ الشرقي للغرفةِ الطولانيةِ ومن خلف المذبحِ دخلَ راهبٌ من البابِ وبيدِهِ شمعةٌ واحدة. وضعَ الراهبُ الشمعةَ على المذبحِ، وأخذَ قبساً منها ثمّ أشعلَ فتائلَ المصابيحِ الجدارية، وفي كل مرةٍ أشعلَ فيها مصباحاً ارتفعَ ظلُّه على طولِ الجدارِ كأنّه انعكاسٌ له واتحدّت الشمعةُ مع ظلّها عندَ فتيلِ المصباحِ.

أضاءَ النورُ القوي صفوفاً من الأجسادِ المحدودبةِ على الأرضيّةِ والمُتلفّعة بأرديتِها الرماديةِ الباليةِ أو المتراصّةِ بعضها بقربِ بعض من أجلِ الدفءِ. شغلَ المرضى الأسرّةَ النقالةَ قربَ المذبحِ طمعاً بأكبرِ قدرٍ من بركاتِ المكانِ. أمّا على الجانبِ المُقابلِ فهناك درجٌ يُفضي إلى طابقٍ علوي حيث الغرفُ المُخصصةُ للزوارِ الأرستوقراطيين. كان إيرل شايرنغ يشغلُ إحداها الآن مع بعضٍ من أفرادِ عائلتِه.

انحنى الراهبُ فوق غويندا ليُشعلَ المصباحَ فوق رأسِها فالتقت أعينهما وابتسَما بعضهما لبعض. تفحّصت وجهَه تحت الضوءِ المتُراقصِ للشعلةِ وتعرّفت عليهِ: إنّه الأخ غودوين. كان غودوين شاباً وسيماً وقد تحدَّثَ بلطفٍ مع شقيقها فيليمون مساءَ البارحةِ.

وبجانبِ غويندا هناك عائلةٌ أخرى من قريتِها وهي عائلةُ ساموبل الفلاحُ الثريُّ وصاحب ملكيةٍ كبيرةٍ وإلى جانبه كانت زوجته وولداه. يدعى أصغرُ ولديه ولفريك وهو فتى في السادسة ومزعجٌ ويجدُ رمي الفتياتِ بالبلوطِ ثمّ الهرب أعظمَ تسلية في العالمِ.

لم تكن عائلةُ غويندا ثريّةً فوالدها لا يملكُ أرضاً بل يعملُ بالأجرةِ عند أيّ

شخصٍ قد يدفعُ له. هناك عملٌ على الدوامِ في فصلِ الصيفِ ولكن عندما ينتهي موسمُ الحصادِ ويغدو الطقسُ أكثرَ برودةً تجوعُ العائلةُ.

وهذا جعلَ غويندا تلجأُ إلى السرقةِ.

لطالما تخيلت غويندا أنَّ يداً قويةً تُمسكها من ذراعِها بقبضةٍ لا فكاكَ منها وهي تتلوى بيأسٍ وصوتٌ أجشّ وقاسٍ يقول لها: «حسناً، حسناً، ها هي لصّةٌ صغيرةٌ». تخيلت الألمَ والمهانةَ اللذين ستشعرُ بهما عندما تُجلد بسبب فعلتها هذهِ، إلا أنّ الألم المُبرّح الذي ستشعرُ به عندَ قطعِ يدها سيكون أسوأ.

كان والدها قد واجهَ مثلَ هذا العقابِ قبلاً، ففي يدهِ اليُسرى تلوحُ تلكَ النهاية القبيحة والمُشوهة لطرفٍ مبتورٍ. كان يجيدُ العملَ بيدٍ واحدةٍ، وبإمكانه أن يستخدمَ المجرفة أو يُسرجَ الحصان، بل حتّى أن ينصبَ شبكةً لصيدِ العصافير، ولكنّه لطالما كان آخر أولئكَ العمال الذين يتمُ استئجارهم في الربيع وأوّلَ من يتمُّ تسريحهم في الخريفِ. لم يكن قادراً على مغادرةِ القريةِ والبحثِ عن عملٍ في مكانٍ آخر فهذا العضو المقطوع يفضحُ حقيقةَ كونهِ لصاً، ولذلك سيرفضُ الناسُ الاستعانةَ بهِ للعملِ لديهم. عندما يُسافر يرتدي قفازاً في يدهِ اليُسرى حتى يتجنبَ نفورَ أيِّ غريبٍ قد يلتقيه، ولكنّ هذه الحيلة لم تخدع الناسَ طويلاً.

لم تشهد غويندا على حادثةِ قطعِ يدِ والدها لأنّ هذا حدثَ قبلَ ولادتها، ولكنها لطالما تخيلت الأمرَ، ولم تستطع قط التوقف عن التفكيرِ بأنّ الأمرَ ذاته قد يحدث لها يوماً ما. كانت تتخيلُ نصلَ الفأسِ وهو يهوي على معصمِها ويخترقُ جلدَها وعظامَها ويبتر يدَها عن ذراعِها إلى الأبد ومن دون أملٍ إعادة وصلهما. وكلما تخيلت هذا المشهد تصرُّ على أسنانها لمنعِ نفسها من الصراخِ عالياً.

نهضَ الناسُ وهم يتمططون ويتثاءبون ويفركون وجوهَهم. نهضت غويندا أيضاً ونفضت الغبارَ عن ثيابِها القديمة التي كانت يوماً ما مُلكاً لشقيقِها الأكبر. ارتدت قميصاً داخلياً صوفياً يصل إلى الركبتين وسترةً فوقه وقد أحكمت ربطهما حول الخصرِ بحزامٍ مصنوعٍ من حبلِ قُنّبٍ. كان لحذاءيها أشرطةٌ فيما مضى، ولكن ثقوب الأشرطةِ في الحذاءِ بُليت وضاعت الأشرطةُ أيضاً ولهذا أحكمت ربطَ الحذاءين في قدميها باستخدامِ ضفيرةٍ من القشّ. وحالما انتهت من لَفِ شعرها ودسّه تحت غطاءِ رأسٍ مصنوعٍ من فراءِ ذيولِ السناجبِ كانت قد انتهت من ترتيبِ هندامها.

التقت عيناها بعيني والدها الذي أشارَ بخفيةٍ إلى إحدى العوائل على الجهةِ المقابلةِ. كانت العائلةُ مؤلفةً من زوجين في منتصفِ العمرِ وولدين أكبر من غويندا بقليلٍ. كان الرجلُ قصيراً وهزيلاً ويملكُ لحيةً صهباء مُجعدةً وقد ثبتَ سيفاً إلى خصرِه، وهذا يعني أنّه إمّا جندي أو فارس؛ فلم يكن حملُ السيوفِ مسموحاً به للناسِ العاديين. كانت زوجتُه امرأةً نحيلةً ومفعمةً بالحيويةِ رغم أن وجهها يبدو غضوباً، وبينما كانت غويندا تتفحصهم أومأ الأخُ غودوين لهم باحترامٍ وقال: «صباح الخير أيّها السير جيرالد والسيدة مود».

وانتبهت غويندا إلى الشيء الذي لفتَ انتباهَ والدها. كان السير جيرالد يحملُ مِحفظةً وقد ثبّتها إلى حزامِه بسيرٍ جلديّ. بدت المحفظةُ مُنتفخةً كأنّها تحوي على مئاتِ البنساتِ وأنصافِ البنساتِ الفضيّةِ الصغيرةِ وقطعِ الفارذنغ النقديّةِ التي كانت عملةً متداولةً في إنكلترا، وهذا مبلغٌ يعادل ما سيجنيه والدها في عامٍ، هذ إن وجدَ عملاً أولاً، وأكثرُ من كافٍ لإطعامِ عائلتها حتّى موعدِ الحراثةِ في الربيعِ القادمِ، وقد تحوي المحفظةُ على بعضِ العملاتِ النقديّةِ الذهبيّةِ الأجنبيةِ من فلورنسا، أو بعضِ الدوكات من البندقية.

تحمل غويندا معها على الدوامِ سكيناً صغيرةً في غُمدٍ خشبيٍّ معُلق بخيطٍ حول رقبتِها. يُمكن لنصلِ السكّينِ الحادِ أن يقطعَ السِير بسُرعةٍ ويجعلَ المحفظةَ المُنتفخةَ تستقرُ في يدِها الصغيرةِ ما لم تُثِر الحركةُ الغريبةُ الناجمة عن هذا ارتيابَ السير جيرالد الذي سيُمسكها من يدِها قبل أن تنتهي من فعلتِها.

رفع غودوين صوتَه كي يعلو فوق ضجةِ الأحاديثِ وقال: «بحقِ المسيحِ الذي علّمنا البِرَّ سيتمُ تقديم الفطور بعد قُداسِ عيدِ جميع القديسين». ثم تابع: «وحتّى ذلك الوقت هناك مياهٌ للشربِ في نافورةِ الفناءِ. ومن فضلكم اقضوا حاجاتكم خارجاً، فالتبول في الداخلِ ممنوعٌ!»

كان الرهبانُ والراهباتُ متشددين جداً حيال مسائلِ النظافةِ، فقد أمسكَ غودوين البارحةَ بولدٍ في السادسةِ وهو يتبولُ في إحدى الزوايا وعقاباً على فعلتِهِ طردَ عائلته من الكاتدرائيةِ. وما لم يكن معهم مالٌ كافٍ للمبيتِ في نُزلٍ فلا بدَّ أنّهم قضوا هذه الليلة الباردة من شهر تشرين الأول/ أكتوبر وهم يرتجفون على الأرضيّةِ الحجريةِ للرواقِ الشمالي للكاتدرائيةِ. كان إحضار الحيوانات ممنوعاً أيضاً ولهذا لم يُسمح لغويندا بإدخالِ كلبها هاب ذي الثلاث قوائم، ولذلك تساءلت في نفسِها عن المكان الذي قضى فيه الكلبُ الليلةَ الماضيةَ.

عندما انتهى غودوين من إشعالِ جميعِ المصابيحِ فتحَ باباً خشبياً كبيراً يُفضي إلى الخارجِ، وعندها لسعَ الهواءُ الليلي أذني غويندا وطرفَ أنفِها بضراوةٍ. انبرى الضيوفُ الذين باتوا الليلةَ هنا بشدّ معاطفهم حول أجسادهم ومغادرةِ المكان. وعندما همَّ السير جيرالد وعائلته بالخروج وقف والد غويندا ووالدتها خلفهم ووراءهما غويندا وفيليمون.

يمارسُ فيليمون أعمالَ السرقةِ أيضاً، ولكن أمرهُ كادَ يُفتضح البارحة في سوقِ كينغزبريدج عندما سرقَ مرطباناً صغيراً من الزيتِ الباهظِ من كشكِ تاجرٍ إيطالي ثمّ أوقعَهُ أرضاً ورآه الجميع. لحسنِ الحظِ لم ينكسر المرطبانُ عندما اصطدمَ بالأرضِ، واضطرَّ فيليمون إلى التظاهرِ بأنّه أوقعه دون قصدٍ عن رفِ الكُشكِ.

حتّى وقتٍ قريبٍ كان فيليمون ضئيلَ البنيةِ كغويندا وبالكادِ يُمكن ملاحظتُه، ولكنه في السنةِ الماضيةِ كبرَ قليلاً، وغدا صوتُه أجشَّ وبدأ يتصرف بارتباكٍ وعلى نحوٍ أخرق كأنّه لم يعتد بعد على جسدِه الكبيرِ والجديدِ. في الليلةِ الماضيةِ وبعد حادثةِ مرطبانِ الزيت أعلنَ والدُها أنَّ فيليمون كبرَ جداً على القيام بأعمالِ سرقةٍ جادّةٍ، ولذلك فإنَّ هذا العمل قد أصبحَ من مهامِ غويندا.

ولهذا بقيت غويندا صاحيةً طوال الليلِ.

كان اسمُ فيليمون الحقيقيّ هو هوغر، ولكنه عندما كان في العاشرةِ من العمرِ قررَ أنّه سيُصبحُ راهباً ولهذا أخبرَ الجميع أنّه غيّرَ اسمَهُ إلى فيليمون لأنَّ هذا الاسم يبدو دينياً أكثر من اسم هوغر، وبما يدعو للدهشةِ جاراه معظمُ الناسِ في أمنيتِه هذه رغم أنَّ والدته ووالده مازالا يناديانه باسمِ هوغر.

عندما غادروا من البابِ رأوا صفين من الراهباتِ المُرتجفاتِ برداً يحملن مشاعل لإضاءةِ الممرِ الذي يصلُ بين المستشفى والباب الغربي العظيم لكاتدرائيةِ كينغزبريدج. تراقصت الظلالُ عند حوافِ المشاعلِ كأنّها عفاريت وغيلان ليلية تثبُ في مرحٍ وبعيداً عن الأنظارِ دونَ أن يمنعها شيءٌ من الاقترابِ سوى قداسةِ الراهباتِ.

كانت غويندا على ثقةٍ من أنّ كلبَها هاب بانتظارها خارجاً إلا أنّها لم تجدهُ حيث توقعت، وفكرت بأنّ هاب قد عثرَ على مكانٍ ما دافئٍ ونامَ فيه. وخلال سيرهم إلى الكنيسةِ حرصَ والدُها على بقائهم قريباً من السير جيرالد وعائلته. ولم تشعر غويندا إلا وأحدُهم وراءها قد شدّها من شعرِها على نحوٍ مؤلمٍ فأطلقت صرخةً طويلةً مُعتقدةً أنّ أحدَ العفاريتِ قد أمسكَها من شعرِها. وعندما

التفتت إلى الوراءِ رأت جارَها ذا الستة أعوام ولفريك. ثمّ اندفعَ ولفريك هارباً منها وهو يضحكُ بينما دمدمَ والدُه قائلاً: «فلتُحسن التصرف يا ولفريك!» وضربَه على رأسه فأخذَ الفتى الصغيرُ يبكي. بدت الكنيسةُ الواسعةُ ككتلةٍ بلا شكلٍ آخذةٍ بالارتفاعِ فوق الجموعِ المُحتشدةِ، ولم تكن سوى الأجزاء الأخفض منها واضحةً كالأقواسِ والأعمدةِ التي بدت بلونٍ برتقالي وأحمر بفعلِ ضوءِ المشاعلِ المتذبذبِ. ومع اقترابِ الناس من مدخلِ الكنيسةِ أخذ تقدّمهم يتباطأُ، وتمكنت غويندا من رؤيةِ مجموعةٍ من الريفيين تتقدمُ من الاتجاهِ المعاكسِ. وخمّنت غويندا عددهم بالمئاتِ، أو ربما بالآلافِ، رغم أنّها لم تعرف كيف هو شكلُ ألفٍ من الناسِ فهي لا تستطيع العدَّ إلى هذا الرقم.

اندفعَ الناسُ عبرَ الردهةِ، وعندما سقطَ ضوءُ المشاعلِ المُتذبذبُ على أجسادِهم راحت أخيلتُها تتراقصُ بجنونٍ على الجدرانِ. رأت غويندا على المستوى الأخفض من الجدرانِ ما يُشبه الشياطين والوحوش، وأخذت تُحدق باضطرابٍ إلى تنانين وحيوانات الغرفين[1]، ودبٍ برأسِ رجلٍ، وكلبٍ بجسدين وخطمٍ واحدٍ. كانت بعضُ هذه الشياطين تتصارعُ مع البشرِ؛ هناك شيطانٌ يضعُ أنشوطةً حول عُنقِ رجلٍ، ووحشٌ كالثعلبِ يجرُّ امرأةً من شعرِها، ونسرٌ بمخلبين كرمحٍ يخترقان جسدَ رجلٍ عارٍ، وفي أعلى هذه المشاهدِ اصطفَّ القديسون تحت قبابٍ مسقوفةٍ، ومن فوقهم جلسَ الحواريون على العروشِ، وعلى القنطرةِ فوقَ البابِ الرئيسي حملَ القديسُ بطرس مفتاحَه، والقديسُ بولس لفافةً من ورقِ البُردي وكلاهما ينظران بافتتانٍ إلى الأعلى حيث تمثال المسيح.

تعلمُ غويندا أنَّ المسيحَ يريدُ منها ألا تقترفَ الذنوب وإلا تعرّضت للتعذيب على أيدي الشياطين، ولكن غويندا خافَت من البشرِ أكثر مما خافَت من الشياطين. إن فشلت في سرقةِ محفظة السير جيرالد فسيجلدها والدُها، ولكن لم يكن هذا أسوأ ما في الأمرِ؛ فإن لم تنجح في سرقةِ المحفظة لن يكون لدى عائلتها ما تأكله باستثناءِ حساءِ البلّوط، وستقع هي وفيليمون تحتَ رحمةِ الجوعِ لأسابيع متواصلةٍ، وسيجفُّ صدرُ والدتِها، وسيموتُ المولودُ الجديدُ كما ماتَ آخرُ طفلين قبلَهُ، وسيغيبُ والدُها لأيامٍ ثمّ يعود من دونِ شيءٍ باستثناءِ مالكٍ حزينٍ أعْجَف أو بضعة سناجب. كان الجوعُ أسوأ من الجَلد، فهو يؤلمُ لوقتٍ أطول.

1- حيوان أسطوري له رأس وجناحا نسر وجسد أسد. (المترجمة)

تعلّمت وهي صغيرة سرقةَ أشياء بسيطةٍ كتفاحةٍ من كُشكٍ، أو بيضة طازجة من أحدِ الجيران، أو سكين أوقعَها سِكيرٌ بطيشٍ عن طاولةٍ في إحدى الحاناتِ، إلّا أنّ سرقةَ المالِ أمرٌ مختلفٌ. إن أُمسكَ بها وهي تسرقُ السير جيرالد فلن ينفعها الانخراطُ في البكاءِ على أملِ أن يعاملوها كطفلةٍ مشاغبةٍ كما حدثَ معها قبلاً عندما سرقَت زوجاً من الأحذيةِ الجلديةِ الأنيقةِ من راهبةٍ طيّبةِ القلبِ. لن يكونَ قطعُ الخيوط التي شدَّ بها فارسٌ محفظته هفوةَ طفلةٍ بل جريمةَ شخصٍ بالغٍ، وستُعامل على هذا الأساس حتماً.

حاولت ألا تفكر في الأمرِ. كانت ضئيلةَ الحجمِ ورشيقةً وسريعةً، وستأخذُ المحفظةَ خلسةً كشبحٍ هذا إن نجحت في منعِ نفسِها من الارتجافِ.

اكتظت الكنيسةُ الواسعةُ بالناسِ، وفي الممراتِ الجانبية وقفَ رهبانٌ بقلنسواتٍ حاملين مشاعل تُلقي بوهجٍ أحمر متراقصٍ بينما بدت الأعمدةُ المتاخمةُ عند صحنِ الكنيسةِ كأنّها ترتفعُ عالياً في قلبِ العتمةِ. لازمت غويندا السير جيرالد بينما كان الحشدُ يندفعُ نحو المذبح. لم يلحظها هذا الفارس ذو اللحيةِ الصهباءِ، ولا حتّى زوجتُه النحيلةُ، كما أنّها لم تُثر اهتمام ولديهما كأنّها مجرّد جدارٍ حجري آخر في الكاتدرائية. تلكأت عائلة غويندا في الخلفِ حتّى اختفت عن أنظارِها.

امتلأ صحنُ الكنيسةِ بسرعةٍ. لم ترَ غويندا في حياتِها مثلَ هذا العدد من الناسِ في مكانٍ واحدٍ. كان المكانُ أكثرَ اكتظاظاً من السوقِ إبانَ أعيادِ الميلادِ. أخذَ الناس يُحيون بعضَهم بابتهاجٍ، وقد سيطرَ عليهم الشعورُ بالأمانِ من الأرواحِ الشريرةِ في هذا المكانِ المقدّسِ، وعلَت أصواتُ أحاديثهم في ما يشبهُ الجلبةَ.

ثمّ قُرعَت الأجراسُ وصمتَ الجميعُ.

كان السير جيرالد يقفُ بقربِ عائلةٍ أخرى من القريةِ. كانوا جميعاً في عباءاتٍ من القماشِ الفاخرِ، وهم على الأغلب من تُجارِ الصوفِ. وبجانبِ الفارس وقفَت فتاةٌ في العاشرةِ من العُمرِ. وقفَت غويندا خلفَ السير جيرالد والفتاة، وحاولت أن تُخفي نفسها إلا أنّها شعرت باليأسِ عندما نظرَت إليها الفتاةُ وابتسمَت لها في تطمينٍ كأنّها تقول لها: «لا تخافي».

أخذَ الرهبانُ عند أطرافِ الحشدِ يُطفئون مشاعلَهم، الواحدَ تلو الآخر، إلى أن غرقت الكنيسةُ في ظلامٍ دامسٍ.

تساءلت غويندا في نفسِها إن كانت الفتاةُ الثريَّةُ ستتذكرها لاحقاً، ولكن الفتاةَ بالكادِ حدّقت إليها ثمَّ تجاهلتها كما يفعلُ معظمُ الناسِ. لقد لاحظتها الفتاةُ وفكرت بأمرِها، وتوقعت أن تكون غويندا خائفةً لذلكَ ابتسمت لها ابتسامةً وديَّةً، ولكن هناكَ مئات الأطفالِ في الكاتدرائيةِ، ومن المستحيل بمكانٍ أن تكون قد رأت بوضوحٍ قسماتِ وجهِ غويندا في هذا الضوءِ الضعيفِ... هل يمكن أن تكون قد رأتها بوضوحٍ؟ حاولت غويندا ألا تُفكرَ بالأمرِ.

وتحتَ جُنحِ الظُلمةِ تقدَّمت غويندا خِفيةً، وانسلَّت بهدوءٍ بين شخصين وهي تشعرُ بالصوفِ الناعمِ لمعطفِ الفتاةِ من جهةٍ وللقماشِ الخشنِ لمعطفِ الفارس القديمِ من جهةٍ أخرى. أصبحت أخيراً في موقعٍ مناسبٍ لانتشالِ المحفظةِ.

مدّت يدَها إلى عُنقِها وأخذت السكين من غُمدِها.

ثمَّ قطعَت صرخةُ رهيبةٌ الصمتَ في المكانِ. كانت غويندا قد توقعت حدوثَ هذا لأنَّ والدتها أخبرَتهما قبلاً عمَّا سيحدثُ خلالَ المراسمِ، إلّا أنّها صُدمت رغمَ توقعها لحدوثِ هذا. كانت صرخةً أشبهَ بصرخةِ شخصٍ يتعرضُ للتعذيبِ.

وتعالى صوتُ قرعِ طبولٍ حادٍ كأنَّ أحدَهم يقرعُ على صفيحةٍ معدنيةٍ ثمّ تتالت أصواتٌ عاليةٌ: نحيبٌ، وضحكٌ جنوني، وصوتُ بوقِ صيدٍ، وصليلٍ، وأصواتُ حيواناتٍ، ورنينُ جرسٍ مكسورٍ.

انخرطَ طفلٌ بينَ الحشدِ بالبكاءِ، وانضمَّ إليهِ أطفالٌ آخرون. أخذَ بعض الكبار يضحكونَ بحماسٍ فقد كانوا يعلمون أنَّ الرهبان من يصدرونَ هذهِ الأصوات الناشزة جداً.

فكرت غويندا بخوفٍ أنَّ هذه اللحظة غيرُ مناسبةٍ لسرقةِ المحفظةِ، فقد كان الجميعُ متوتراً ويقظاً، وسيكون الفارسُ متيقظاً لأقلِّ لمسةٍ.

ارتفعت الأصواتُ الشيطانيةُ مع صوتٍ جديدٍ هذه المرَّة. كان صوتَ موسيقى وقد بدأ هادئاً جداً في البدايةِ إلى درجةٍ لم تكن معها غويندا واثقةً من أنّهُ مسموعٌ، ثمّ أخذَ يرتفعُ شيئاً فشيئاً. أخذت الراهباتُ بالغناءِ، وشعرت غويندا بجسدِها يرزحُ تحتَ التوترِ فقد اقتربت اللحظةُ المؤاتيةُ. تحركت غويندا بخفّةٍ كأنّها إحدى الأرواحِ، أو كالهواء، ثمّ التفتت حتى أصبحت قبالةَ السير جيرالد.

كانت غويندا قد حفظت شكلَ ثيابه، فقد كان في رداءٍ صوفيٍّ ثقيلٍ، وقد جمعَ أطرافَهُ عند الخصرِ بحزامٍ عريضٍ مُزينٍ بمسامير للزينةِ. كانت محفظته مربوطةً إلى حزامِهِ بسيرٍ جلديٍّ، وفوقَ الرداءِ ألقى على نفسِهِ عباءةً واسعةً

مُطرَّزةً باهظةً إلا أنّها باليةٌ ولها أزرارٌ من العظامِ الضاربةِ إلى الصفرةِ في الأمامِ. كانَ السير جيرالد قد أغلقَ بعضَ الأزرارِ، وقد يكون قد قامَ بهذا بدافعِ الكسلِ الناجمِ عن النعاسِ، أو ربما لأنّ المسافةَ بينَ المستشفى والكنيسة قصيرةٌ جداً.

وبأقلِّ لمسةٍ ممكنةٍ أدخلت غويندا يدَها الصغيرةَ في معطفِهِ. تخيلت أنَّ يدَها عنكبوتٌ خفيفٌ لدرجةٍ لا يُمكن للسيرِ جيرالد أن يشعرَ بِهِ، ثمَّ حرَّكَت يدَها في فتحةِ المعطفِ من الأمامِ وعثَرَت على موطئ يدٍ مناسبٍ. دسَّت يدَها تحتَ حافةِ المعطفِ وعلى طولِ الحزامِ الثقيلِ إلى أن وصلت إلى المحفظةِ.

تعالَت أصواتُ الموسيقى وتراجعَ الهرجُ والمرجُ، ومن مُقدمةِ الحشدِ أتَت همهمةٌ ورعةٌ. لم تكن غويندا قادرةً على رؤيةِ شيءٍ، ولكنها عَلِمَت أنَّ مِصباحاً قد أُشعِلَ على المذبحِ، وأضاءَ صندوقَ الذخائرِ المُقدّسةِ الذي كانَ عبارةً عن صندوقٍ من الذهبِ والعاجِ المُزخرفِ ببراعةٍ يحوي على عظامِ القديس أدولفوس. لم يكن الصندوقُ موجوداً عندما أُطفئت المشاعل. أخذَ الحشدُ يتقدمُ فالجميعُ يريدُ الاقترابَ من الذخائرِ المُقدّسةِ، وشعرَت غويندا بنفسِها تُسحقُ بين السير جيرالد والرجلِ الذي أمامَه فرفعَت يدَها اليُسرى ووضعَت نصلَ السكينِ على سِيرِ محفظتِه.

كانَ جلدُ السِيرِ قاسياً ولم تنجح بتحريرِهِ في أولِّ محاولةٍ. أخذَت تقطعُه بالسكينِ في اهتياجٍ على أملٍ كبيرٍ بأن يكونَ السير جيرالد مأخوذاً جداً بالمشهدِ أمامهُ عند المذبحِ وألا يلاحظَ ما يحدثُ تحتَ أنفِهِ. حدّقَت إلى الأعلى وأدركَت أنّها تستطيعُ رؤيةَ شكلِ الناسِ من حولِها: الرهبانِ والراهباتِ وهم يُشعلونَ الشموعَ، والضوء الذي يزدادُ توهجاً مع مرور الدقائقِ. وعرفَت أنّها لم تكن تملكُ الكثيرَ من الوقتِ.

ضرَبَت بالسكينِ بقوةٍ وشعرَت بالسِيرِ يتحرَّر. نخرَ السير جيرالد بهدوءٍ. هل شعر بشيءٍ أم كان يتفاعلُ مع مشهدِ المذبحِ؟ سقطَت المحفظةُ في يدِها، ولكنَّها كانت كبيرةً جداً، ولم تستطع إمساكَها بسهولةٍ فانزلقَت من بينِ يديها، وفي لحظةِ رعبٍ حقيقيٍّ اعتقدَت أنّها ستُسقِطها على الأرضِ بينَ أقدامِ الحشدِ المتدافعِ، إلا أنّها أحكمَت قبضَتها عليها ورفعَتها.

شعرَت بلحظةٍ من الراحةِ والفرحِ. فها هي قد حصلَت على المحفظةِ أخيراً.

ولكن غويندا ما زالتَ رهنَ خطرٍ عظيمٍ ولهذا خفقَ قلبُها بقوةٍ، وشعرَت أنَّ الجميعَ يستطيعُ سماعَ وجيبَ قلبها السريعِ. استدارَت بسرعةٍ إلى أن أصبحَ

ظهرُها للفارسِ وحشرَت المحفظةَ داخلَ ردائها. أحسَّت أنَّ المحفظةَ تحتَ ثيابها صنعَت انتفاخاً واضحاً، وأنّها تتدلى من فوقِ حزامِها كبطنِ رجلٍ عجوزٍ لذلكَ دفعتها جانباً ليغطيها ساعدُها بشكلٍ جزئيٍّ. سيبقى الانتفاخُ ملحوظاً عندما تشعُّ الأضواءُ مجدداً إلا أنّها لم تملك مكاناً آخر لوضعِ المحفظةِ فيهِ.

أعادت السكينَ إلى الغُمدِ فقد كان عليها الآن أن تهربَ بأقصى سُرعةٍ ممكنةٍ وقبلَ أن يلاحظَ السير جيرالد فقدانَه للمحفظةِ. كان تدافعُ المُصلين قد ساعدَها على انتشالِ المحفظةِ سِراً إلا أنّه أعاقَ هربَها الآن. حاولت التراجعَ إلى الوراءِ على أملِ فتحِ طريقٍ بين الأجسادِ خلفَها ولكن الحشدَ استمرَ بالتقدم إلى عظامِ القديسِ أدولفوس. كانت عالقةً وغيرَ قادرةٍ على الإتيانِ بخطوةٍ واحدةٍ أمامَ الرجلِ الذي سرقتْهُ للتوِ.

ثمَّ سمعت صوتاً يهمسُ في أذنِها قائلاً: «هل أنتِ بخير؟»

كان الصوتُ للفتاةِ الثريَّةِ ذاتها وجاهدت غويندا لكبحِ هلعِها. لم يكن من المفترضِ أن يشاهدَها أحدٌ، ولذلكَ كانَ وجودُ طفلٍ أكبرَ منها يعرضُ عليها المساعدةَ آخر شيءٍ قد تريدُه. لم تتفوه غويندا بكلمةٍ.

«مهلاً»، قالت الفتاةُ للناسِ حولها. «تكادون تسحقونَ هَذِه الفَتاة الصَّغيرة».

كانت غويندا على مشارفِ الصراخِ من الهلعِ فاهتمامُ هذهِ الفَتاةِ الثريَّةِ كفيلٌ بالتسببِ في قطعِ يدها.

أرادَت الهربَ من هذا المكانِ بشدةٍ لذلكَ وضعت يدَيها على الرجلِ الذي أمامها وأخذَت تدفعُ بنفسِها بكلِّ قوةٍ إلى الأمامِ، ولكنَّها لم تنجح سوى في إثارةِ انتباهِ السير جيرالد. «ألا يمكنكِ أن تري شيئاً؟» قالت ضحيتُها بصوتٍ لطيفٍ، وأصيبت غويندا بالرُّعبِ عندما أمسَكَها السير جيرالد من تحتِ ذراعيها ورفعَها للأعلى.

وعندما استقرَّت يدُه الضخمةُ تحتَ إبطِها قريباً جداً من مكانِ المحفظةِ اجتاحَها شعورٌ بالعجزِ. أشاحَت بوجهِها إلى الأمامِ حتى لا يرى الفارسُ سوى مؤخرةِ رأسِها، ونظرَت من فوقِ الحشدِ إلى المذبحِ حيث أضاءَ الرهبانُ والراهباتُ المزيدَ من الشموعِ وهم يُغنون للقديسِ المتوفى منذُ زمنٍ بعيدٍ، ومن خلفهم بمسافةٍ كبيرةٍ كشفَت نافذةٌ كبيرةٌ لها شكلُ وردةٍ عند النهايةِ الشرقيةِ من المبنى عن ضوءٍ ضعيفٍ؛ ها هو الفجرُ ينبلجُ ويأخذُ معه الأرواحَ الشريرةَ. هدأت الضجةُ وعلَت أصواتُ الغناءِ الآن. تقدَّمَ راهبٌ طويلٌ ووسيمٌ من

المذبحِ وعرفَت غويندا أنتوني رئيس ديرِ كينغزبريدج. قال أنتوني بصوتٍ عالٍ رافعاً يديه كأنّه يقدمُ مباركتَه: «ها هي موسيقى ونورُ كنيسةِ الرَّبِّ المُقدَّسةِ تطردُ مجدداً، وبنعمةِ يسوع المسيح، الشَّرَ والعتمةَ من هذا العالمِ».

نمَّت عن الحشدِ صيحةُ نصرٍ عالية ثمّ تراجعَ صخبُ تهليلهم فها هي ذروةُ المراسمِ المُقدّسةِ تنتهي. أخذَت غويندا تتلوى بين يدي السير جيرالد وفهمَ ما أرادته بهذا فأنزلها أرضاً. وبينما كانت تجاهدُ لإبقاءِ وجهها على ذاتِ الوضعيةِ اندفعت مبتعدةً عنه باتجاهِ مؤخرةِ الحشدِ. كانَ حماسُ الناسِ لرؤية المذبح قد خفَّ، وأصبحت غويندا الآنَ قادرةً على فتح طريقٍ بين كل هذهِ الأجسادِ. وكلما ابتعدت أكثر باتجاهِ المؤخرةِ غدا طريقُها أكثرَ سهولةً إلى أن وجدَت نفسَها أخيراً عند البوابةِ الغربيةِ العظيمةِ ورأت عائلتَها.

نظرَ إليها والدُها في ترقبٍ واستعدادٍ لصبِّ جامِ غضبِهِ عليها إن لم تنجح في تنفيذِ مهمتها. أخرجَت المحفظةَ من تحتِ قميصِها، وأقحمتها تحتَ قميصِهِ بكلِّ سعادةٍ على تخلصها من هذا العبء. أمسكَ والدُها بالمحفظةِ واستدارَ قليلاً ثمَّ نظرَ داخلها بمكرٍ. رأته يبتسمُ في ابتهاجٍ ثمَّ يُمررُ المحفظةَ إلى والدتِها التي عاجلَت إلى إقحامِها بينَ طيَّاتِ دثارِ الطفلِ.

ها هي المحنةُ تنتهي إلا أنَّ الخطرَ لم ينتهِ بعد. «لقد لمحتني فتاةٌ ثريَّةٌ»، قالت غويندا وقد شعرت بأنّها تستطيعُ سماعَ هديرِ خوفٍ صاخبٍ في صوتِها.

لمعَت عينا والدِها الصغيرتان والداكنتان في غضبٍ: «هل رأت ما كُنتِ تقومينَ بهِ؟»

«لا، ولكنَّها طلبَت من الآخرين عدمَ دفعي. ثمَّ حملَني الفارسُ حتى أرى المراسمَ بشكلٍ أفضل».

نمَّت عن والدتِها آهةٌ مكتومةٌ.

قال والدها: «إذاً، لقد رأى وجهَك».

«حاولت قدرَ الإمكان أن أشيحَ بوجهي بعيداً».

«أيّاً يكن، من الأفضلِ ألا يلتقي بكِ مجدداً»، قال والدُها. «فنحنُ لن نعودَ إلى مستشفى الرهبانِ بل سنتوجَّهُ إلى النُزلِ لتناولِ فطورِنا».

«لا يمكننا الاختباءُ طوالَ اليومِ»، قالت والدتُها.

«هذا صحيح ولكن يمكننا أن نتماهى بينَ الحشودِ».

بدأ شعورٌ بالراحةِ يجتاحُ غويندا؛ يبدو أنَّ والدَها لا يعتقدُ بوجودِ خطرٍ

حقيقيٍّ. على أيِّ حالٍ سكنها شعورٌ بالطمأنينةِ لأنّه استلمَ زمامَ الأمورِ والمسؤوليةِ عنها مجدداً.

«علاوةً على هذا»، قال والدُها وتابع قائلاً: «أشتهي تناولَ الخبزِ واللحمِ بدلاً من العصيدة الرخوةِ جداً التي أعدَّها الرهبانُ فأنا أستطيع شراءهما الآن!»

غادرت عائلةُ غويندا الكنيسةَ. بدت السماءُ بلونٍ لؤلؤي رماديٍّ تتخلله ألوان ضوءِ الفجرِ. أرادَت غويندا أن تمسكَ بيدِ والدتها، ولكنَّ الطفلَ انخرطَ في البكاءِ وتشتتَ انتباهُ الأمِّ. ثم رأت غويندا كلباً صغيراً بثلاثِ قوائمَ أبيض اللونِ وأسودَ الوجهِ يقتربُ من الكنيسةِ بخُطىً عرجاء مألوفةٍ.

«هاب!!!»، صاحَت غويندا ثمَّ حملَت الكلبَ وعانقَته.

-2-

كان ميرثن في الحادية عشرة ورغم أنّه أكبر من شقيقهِ رالف بعامٍ فإنَّ قامةَ رالف كانت أطولَ من قامتهِ وكان هذا مصدرَ إزعاجٍ دائمٍ له.

لم يكن هذا الفارقُ مُزعجاً لميرثن وحدَهُ بل لوالديهِ أيضاً؛ فلم ينجح والدُهما السير جيرالد الذي كان فارساً في ما مضى بإخفاءِ خيبةِ أملِهِ كلما فشلَ ميرثن في رفعِ رمحٍ ثقيلٍ، أو أصيبَ بالتعبِ قبل الانتهاءِ من قطعِ شجرةٍ، أو عندما يعودُ إلى المنزلِ باكياً بعد هزيمتهِ في شجارٍ ما. وزادت والدتهما الليدي مود الطينَ بلَّةً بالمبالغةِ في حمايةِ ميرثن وإحراجهِ في الوقتِ الذي جُلُّ ما أرادهُ منها هو عدم المبالغةِ في ردِّ الفعلِ. وفي كل مرّةٍ استعرض فيها الأبُ فخرَهُ بقوّةِ رالف لجأت والدتُهُ إلى التعويضِ بانتقادِ غبائهِ. لم يكن رالف سريعَ البديهةِ إلا أنَّ الأمرَ لم يكن بيدِهِ، وقد كان التذمرُ المستمرُ من غبائهِ يزيدُ غضبَه ويدفعُهُ أكثر إلى الدخولِ في مشاجراتٍ مع فتيةٍ آخرين.

كان الصبيان نزقين جداً صباحَ عيدِ جميعِ القديسين، والأبُ منذُ البدايةِ لم يكن راغباً بالمجيءِ إلى كينغزبريدج ولكنهُ أُجبرَ على القدومِ لأنّهُ يدينُ بالمالِ لديرِ الرهبانِ إلا أنّه لم يكن قادراً على إعادةِ المبلغِ. قالت والدتُهما إنّهم سيضعونَ أيديهم على أراضِيهِ فقد كانَ لورداً على ثلاثِ قرى قريبةٍ من كينغزبريدج. أعادَ والدُهما على مسامعهما قصةَ انحدارهِ بشكلٍ مباشرٍ من سلالةِ توماس الذي أصبح إيرل شايرنغ في العامِ الذي قُتلَ فيهِ هنري الثاني

رئيسَ أساقفةِ بيكيت[1]. كان الإيرل توماس ابن المعماري جاك الذي بنى كاتدرائيةَ كينغزبريدج والليدي أليانا شايرنغ. كانت قصةُ هذين الزوجين أشبهَ بالأسطورةِ التي تروى حولَ نارِ المدفأةِ في أماسي الشتاءِ الطويلةِ مع القصصِ البطوليةِ الأخرى كقصصِ تشارلمان ورولاند. ولأنَّهُ ينحدرُ من هذه السلالةِ النبيلةِ اعترضَ السير جيرالد بصوتٍ عالٍ قائلاً إنَّهُ لا يحقُّ لأيِّ راهبٍ مصادرة أراضيهِ، وبالأخصِّ رئيسُ الديرِ أنتوني الأشبه بالعجوزِ الشمطاءِ. عندما أخذَ جيرالد يصرخُ في وجهِ الرهبانِ علا تعبيرٌ ينمُّ عن إذعانٍ مُضنٍ وجهَ الليدي مود وأشاحَت بنظرِها بعيداً ثمّ سمعها ميرثن تدمدمُ: «كان لدى الليدي أليانا شقيقٌ يدعى ريتشارد، ولم يكن يتقنُ شيئاً سوى القتال».

قد يكون رئيسُ الديرِ أنتوني أشبهَ بعجوزٍ شمطاءَ إلا أنّه على الأقلِ تصرَّفَ كرجلٍ عندما تأخرَ السير جيرالد عن سدادِ ديونِهِ، فقد ذهبَ إلى إيرل شايرنغ الحالي وهو نسيبُ السير جيرالد وأخبرهُ بالأمرِ. استدعى الإيرلُ رولاند جيرالد إلى كينغزبريدج اليوم للقاءِ رئيس الديرِ وإنهاءِ هذا الخلافِ، ولهذا السببِ كان والدُهما في مزاجٍ عكرٍ.

وها قد تعرَّضَ والدُها إلى السرقةِ الآن.

أدركَ جيرالد أنّه فقدَ النقودَ بعدَ انتهاءِ مراسمِ عيدِ جميع القديسين. لطالما استمتعَ ميرثن بالمشهدِ الدرامي لهذهِ المراسم؛ بالعتمة والأصوات الغريبة، والموسيقى التي تعلو بهدوءٍ إلى أن تملأَ الكنيسةَ الضخمةَ وأخيراً بالإضاءةِ الهادئةِ للشموعِ. كان ميرثن قد لاحظَ أيضاً، ومع بدايةِ عودةِ الأضواءِ إلى المكانِ، أنَّ بعضَ الناسِ يستغلونَ العتمةَ لاقترافِ خطايا يعلمونَ مُقدماً أنّهم سينالون المغفرةَ عليها في هذا اليوم. كان قد رأى راهبين يتوقفان بسرعةٍ عن تقبيلِ بعضهما بعضاً، وتاجراً ماكراً يسحبُ يدَهُ من بينِ ثديين عارمين لامرأةٍ مُبتسمةٍ ويبدو عليها أنّها زوجةُ رجلٍ آخرٍ. عندما عادوا جميعاً إلى المستشفى كان ميرثن ما يزال في مزاجِهِ الحماسي.

1- كان توماس بيكيت ابن تاجر إلا أنّه وصلَ إلى السلطةِ خلال فترةِ حُكمِ الملك هنري الثاني. انتهت حياتُهُ بشكلٍ عنيفٍ إثرَ اغتياله عند مذبحِ كاتدرائيةِ كانتربري في التاسع والعشرين من شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 1170. يُشاع أن هنري الثاني الذي كان يحاول إضعاف سلطة الكنيسة قال: «من سيُخلصني من هذا الكاهن المتمرد؟» فسارع أحدُ الجنودِ عند سماعِهِ هذا إلى قتلِ بيكيت في الكاتدرائيةِ. (المترجمة)

وفي أثناءِ انتظار تقديم الراهبات للإفطار عبرَ صبي يعملُ في المطبخِ حاملاً إبريقاً كبيراً من الجعةِ وصحناً ساخناً من اللحمِ البقري المملحِ. قالت والدتُهما في تجهم: «اعتقدتُ أنَّ نسيبكَ الإيرل الذي كانَ جدّهُ شقيقَ جدتكَ سيدعوكَ إلى الإفطارِ معه في جناحِهِ الخاصِ».

أجابَها جيرالد: «إن كنتِ لا تريدين تناولَ العصيدةِ يمكنكِ الذهابُ إلى النُزلِ».

تناهى إلى سمعِ ميرثن ما قالَهُ والدُه وكان يحبُّ وجباتِ الإفطارِ في الحاناتِ حيث الخبزُ الطازجُ والزبدةُ المملحةُ، ولكن مود قالت: «لا يمكننا تحملُ كلفةِ هذا».

«بل يمكننا»، قال والدُه وهو يتحسسُ مكانَ محفظتِهِ وفي هذهِ اللحظةِ أدركَ أنَّهُ فقدَها.

في البدايةِ أخذَ يبحثُ عنها على الأرضيةِ كأنَّها سقطَت منهُ للتو، وعندما لاحظَ نهاياتِ السيرِ الجلدي المقطوعةِ أخذ يصرخ عالياً بكلِ نقمةٍ. نظرَ الجميعُ إليهِ باستثناءِ والدةِ ميرثن فقد أشاحَت بنظرِها بعيداً وسمعَها ميرثن تدمدمُ: «كان المبلغُ كل ما بحوزتنا من مالٍ».

حدَّقَ والدُهُ بنظراتٍ اتهاميةٍ إلى الزوارِ الآخرين في المستشفى، وبدت الندبةُ الطويلةُ التي امتدت من صدغِهِ الأيسرِ وحتى عينِهِ اليُسرى أشدُّ احتقاناً من شدةِ الغضبِ. سادَ المكانُ هدوءٌ متوترٌ؛ فقد كانَ غضبُ فارسٍ أمراً خطيراً خاصةً إن كان في موقفٍ لم يحالفهُ الحظُ فيهِ.

ثم قالت والدةُ ميرثن: «لا شكَ أنَّكَ تعرضتَ للسرقةِ في الكنيسةِ».

وفكرَ ميرثن بأنَّ ما قالتهُ صحيحٌ ففي العتمةِ يسرقُ الناسُ أشياء أخرى غير القُبل.

«سرقةٌ وعملٌ تدنيسي في آنٍ معاً!» قال والدُه.

«أعتقدُ أنَّ الأمرَ حدثَ عندما رفعتَ تلكَ الفتاةَ الصغيرةَ»، تابعت والدتُه وبدا وجهُها مشوهاً كأنَّها ابتلعت دواءً مُرّاً، «لا بدَّ أن اللصَ مدَّ يدَه إلى خصركَ من الوراءِ».

«يجب أن يُلقى القبضُ عليهِ!» قال والده.

وهنا تحدثَ راهبٌ شابٌ يدعى غودوين قائلاً: «يؤسفني حدوث هذا أيُّها السير جيرالد» ثمَّ تابع: «سأذهب إلى المأمورِ جون، وأطلعهُ على الأمرِ فوراً وهو بدورِهِ سيقومُ بالبحثِ عن رجلٍ قروي فقير غدا ثرياً بين ليلةٍ وضحاها».

وفكرَ ميرثن بأنَّ هذهِ الخطةُ لن تكونَ مجديةً فقد كان هناك آلاف الريفيين ومئاتُ الزوارِ، وليسَ بوسعِ المأمورِ مراقبتهم جميعاً.

ولكن يبدو أنَّ والدَهُ قد هدأ قليلاً لأنَّه قالَ بصوتٍ أهدأ: «يجبُ أن يُعدمَ ذلكَ المحتال!»

«وفي هذه الأثناء يمكنكَ أنت والليدي مود ولديك أن تُشرفونا بالانضمامِ إلى الطاولةِ التي جهزناها قربَ المذبح»، قال غودوين بلطفٍ.

نمّت عن والدِ ميرثن شخرةٌ، وأدركَ ميرثن أن والدهُ كان راضياً لأن الراهب ميَّزه عن بقيَّةِ الضيوفِ الجالسين على الأرضيةِ حيث ناموا الليلةَ الماضيةَ.

وها هو مدُّ الخطرِ العظيم يتراجع. عندما جلسوا أربعتهم على كراسيهم شعرَ ميرثن بالاسترخاء قليلاً وبدأ يفكرُ في قلقٍ بمصيرِ العائلةِ الآن. كان والدُه جندياً شجاعاً، وهذا ما يشهدُ بهِ الجميعُ؛ فقد حاربَ إلى جانبِ الملكِ في بوروبريدج وحصلَ خلال المعاركِ على الندبةِ في جبهتِهِ بفعلِ ضربةِ سيفِ أحدِ ثوارِ لانكشاير، إلا أنَّه لم يكن فارساً محظوظاً. كان بعضُ الفرسانِ قد عادوا إلى منازلِهم مُحملينَ بالغنائمِ من مجوهراتٍ مسروقةٍ، أو أحمالِ القماشِ الفلمنكي والحرير الإيطالي الفاخرِ، أو بأسيرٍ من عائلةٍ نبيلةٍ تصلُ قيمةُ فديتهِ إلى آلافِ الجنيهاتِ. ولكن يبدو أنَّ السير جيرالد لم تتح لهُ فرصٌ للنهبِ وفوقَ هذا كانَ مضطراً لشراءِ الأسلحةِ والدروعِ وجيادِ الحربِ الباهظةِ الثمنِ حتى يقومَ بواجبِهِ في خدمةِ الملكِ. علاوةً على هذا، لم تكن الإيجارات التي يحصلُ عليها من أراضيهِ كافيةً، ولهذا، ورغماً عن إرادةِ والدةِ ميرثن، بدأ السير جيرالد باقتراضِ المالِ.

أحضرَ المساعدون في المطبخِ قدراً يغلي، وكانت عائلةُ السير جيرالد أولَّ عائلةٍ يُقدّمُ لها الطعامُ المكونُ من عصيدةِ الشعيرِ وإكليلِ الجبلِ والملحِ. بدأ رالف، الذي لم يفهم الأزمةَ التي تعيشها عائلتهُ الآن، بالتحدثِ في حماسٍ عن مراسمِ عيد جميع القديسين، ولكن الصمت الكئيب الذي أعقبَ تعليقاتِهِ على الحدثِ دفعهُ في نهايةِ المطافِ إلى التوقفِ عن الكلامِ.

عندما أنهوا تناولَ العصيدةِ توجهَ ميرثن إلى المذبحِ فقد خبّأ قوسهُ وسهامهُ خلفهُ. سيترددُ الناسُ في سرقةِ أيِّ شيء من المذبح وقد يتغلبون على هذا الترددِ إن كانت اللُقيةُ مغريةً حقاً، ولكن قوساً منزليَّ الصُنعِ ليسَ لُقيةً ثمينةً، ولهذا وجدَ ميرثن القوسَ والسهامَ في مكانِها.

كان ميرثن فخوراً بقوسِهِ الذي كان بلا شكٍ صغيراً فشدُّ وترِ قوسٍ كبيرٍ بطولِ

ستةِ أقدام يتطلبُ قوةَ رجلٍ بالغ. يصلُ طولُ قوسِ ميرثن إلى أربعةِ أقدام، وهو رفيعٌ إلا أنّه مطابقٌ لمعاييرِ صناعةِ الأقواسِ الإنكليزيةِ التي قتلَت الكثيرَ من رجالِ الجبالِ الإسكتلنديين والمتمردين الويلزيين والفرسان الفرنسيين المُدرعين.

لم يُبدِ والدُه أيَّ تعليقٍ بشأنِ القوسِ قبلاً إلا أنّه نظرَ إليهِ الآن كأنّه يراهُ للمرةِ الأولى ثمَّ سأله: «من أينَ حصلتَ على السِهامَ؟ تبدو باهظةَ الثمنِ».

«هذه ليست سهاماً باهظةً فهي قصيرةٌ جداً. لقد أعطاني إياها أحدُ باعةِ السِهامِ».

أومأ والدُه برأسِهِ وقالَ: «ولكنها تبدو سِهاماً مثاليةً. إنَّها مصنوعةٌ من الجزءِ الداخلي وحيث يوجدُ النَسغُ لخشبِ الطقسوس الصنوبري»، وأشارَ إلى الاختلافِ بين لوني المنطقتين.

«أعلمُ»، قال ميرثن في لهفةٍ فلم تكن تتسنى له فُرصاً كثيرةٍ لإثارة إعجابِ والدِهِ. «يعدُّ الجزءُ الخشبي النسغي الرخو ممتازاً لمقدمةِ القوسِ فهو مرنٌ ويسمحُ للقوسِ بالعودةِ إلى شكلِهِ الأصلي، أمَّا الجزءُ القاسي فهو ممتازٌ للقسمِ الداخلي من القوسِ لأنَهُ يرتدُّ بشدةٍ عندَ سحبِ القوسِ إلى الداخلِ».

«بالضبط»، قالَ والدُه وأعادَ إليهِ القوسَ. «ولكن لا تنسَ أنَّ هذا ليسَ بسلاحِ رجلٍ نبيلٍ؛ فأبناءُ الفرسانِ لا يُصبحون رماةَ سهامٍ. أعطهِ إلى أحدِ الفتيةِ القرويين ليلعبَ بهِ».

شعرَ ميرثن بالإحباطِ وقال: «ولكنني لم أجرّبهُ بعد».

تدَخَّلت والدتُه قائلةً: «دعهم يلعبون. إنَّهم مجردُ فتيانٍ».

«أنتِ على حقٍ»، قالَ والدُه وقد فقدَ اهتمامَهُ بالأمرِ ثمَّ سأل: «أتساءلُ إن كان هؤلاء الرهبانُ سيُحضرون لنا إبريقاً من الجعةِ؟»

«هيا اذهبا»، قالت والدتُهُ. «ولتهتَم بأخيكَ يا ميرثن».

شخرَ الأبُ قائلاً: «أعتقدُ أنَّ الأمرَ سيكون بالعكسِ».

بوغتَ ميرثن بهذا الرَّدِّ فلم يكن لدى والدِهِ أدنى فكرةٍ عن حقيقةِ سيرِ الأمورِ. كان ميرثن قادراً على الاهتمامِ بنفسِهِ أمّا رالف فلا يكف عن توريطِ نفسِه في المشاجراتِ، ولكن ميرثن يعلمُ جيداً أنَهُ لا يستطيعُ مجادلةَ والدِه وهو في مزاجِهِ الحالي لذلكَ غادرَ المستشفى دونَ أن يقولَ شيئاً وانطلقَ رالف في إثرِهِ.

كانَ نهاراً صافياً وبارداً من نهاراتِ شهرِ تشرين الثاني/ نوفمبر، وقد غطَّت

السماء غيومٌ عاليةٌ بلونٍ رمادي كالح. غادرَ ميرثن ورالف الكاتدرائيةَ معاً واتخذَا الطريقَ الرئيسي ثمَّ تجاوزا شارعَي كوكشوب وليذر يارد وفيش لاين، وعندما وصلا إلى أسفلِ التلّةِ عبرا جسراً خشبياً فوق نهرٍ، وأصبحَت المدينةُ القديمةُ خلفَهما وضاحيةُ نيوتاون أمامَهما. تخللَت الشوارعُ بين المنازلِ الخشبيةِ في الضاحيةِ مراعٍ وحدائق. قادَ ميرثن شقيقهُ إلى مرجٍ يدعى ليفرزفيلد حيثُ نصبَ مأمورُ المدينةِ ومساعدوه أهدافاً من أجلِ الرمي بالقوسِ بحكمِ أنَّ التدَّرب على الرمي بعد حضورِ مراسمِ الكنيسةِ إجباريٌّ وبأمرٍ من الملكِ.

لم يكن هناكَ من حاجةٍ إلى فرضِ أوامرِ الملكِ بالقوة، فلم يكن رمي بضعةِ سهامٍ صباحَ الأحدِ بالأمرِ المزعجِ. اصطفَّ مئاتٌ من شبابِ القريةِ بالدورِ بينما أخذَت النساءُ والأطفالُ والرجالُ ممن يعتبرونَ أنفسهم عجائز جداً أو ذوي مكانةٍ أرقى على القيامِ بهذا في مراقبتهم. كان البعضُ قد جلَبَ قوسهُ الخاصّ، أمّا الفقراء منهم وممن لم يكونوا قادرينَ على شراءِ قوسٍ فقد زودهم المأمورُ جون بأقواسِ تدريبٍ رخيصةٍ ومصنوعةٍ من خشبِ الدردار أو البندقِ.

كان يوماً أشبهَ بيومِ عيدٍ فصانعُ الجعةِ ديك وضعَ برميلاً من الجعة على عربةٍ وأخذَ يبيعُها في أباريقَ معدنيةٍ مُترعةٍ بينما طافَت بناتُ بيتي باكستر الأربعُ في الأرجاءِ يحملن صواني ويبعنَ الكعكَ المتبّل. أتى سكانُ القريةِ الأثرياءِ في معاطفَ من الفرو وأحذيةٍ جديدةٍ، بل حتّى النساءُ الأكثرُ فقراً صففنَ شعورهن وزيّنَ أرديتهن بشرائط جديدةٍ.

كان ميرثن الفتى الوحيدَ الذي يحملُ قوساً، وسرعانَ ما اجتذبَ بقوسهِ اهتمامَ بقيةِ الأطفالِ فاحتشدوا حولَهُ وحول رالف، وأخذَ الصبيةُ منهم يطرحون عليهما أسئلةً يفيضُ منها الحسدُ، أمّا الفتيات فنظرنَ إليهما في إعجابٍ أو ازدراءٍ.

سألَت إحدى الفتياتُ قائلةً: «كيف تعلّمت صُنعَ القوسِ؟»

تعرّفَ ميرثن على الفتاةِ فقد كانت الفتاةُ نفسها التي وقفَت بالقربِ منهُ في الكاتدرائيةِ، ورأى أنّها أصغرُ منهُ بعامٍ وترتدي ثوباً ومعطفاً من القماشِ الصوفي الفاخرِ. عادةً، ينظرُ ميرثن إلى الفتياتِ اللواتي في مثلِ عُمرِهِ كمصدرٍ للإزعاج؛ فقد كُنَّ يضحكن كثيراً ويرفضن أخذَ الأمورِ بجديّةٍ، ولكن هذه الفتاة نظرَت إليهِ وإلى قوسِهِ بفضولٍ حقيقي وأعجبهُ هذا.

«تكهّنتُ بكيفيةِ صنعِهِ»، قال لها.

«ما أذكاك. هل يعملُ القوسُ؟»

«لم أجرّبهُ بعد. ما اسمك؟»

«كاريس وولر، ومن تكون؟»

«ميرثن ووالدي السير جيرالد»، قال ميرثن وسحبَ قلنسوةَ ردائهِ إلى الوراءِ ثمَّ مدَّ يدَهُ في داخلِها ليُخرجَ لفَّةَ خيوطٍ من أجلِ القوسِ.

«لماذا تحتفظُ بالخيطِ في قبعتِكَ؟»

«حتى لا يبللهُ المطرُ فهذا ما يفعلُهُ الرماةُ الحقيقيون»، أجاب ميرثن وثبّتَ خيط القُنَّبِ في الثُلمينِ عندَ نهايتي العَصا ثمَ ثنا القوسَ قليلاً حتى يساعدهُ الضغطُ في تثبيتِ الخيطِ في مكانِهِ.

«هل ستُطلقُ السهامَ نحو الأهدافِ؟» سألته.

«أجل».

وقال فتىً آخر: «لن يسمحوا لكَ بهذا».

نظرَ ميرثن إلى الفتى. كان في الثانية عشرة وطويلاً ونحيلاً، ولديهِ يدان وقدمان كبيرة. لقد رآهُ ميرثن الليلةَ الماضيةَ في مستشفى الديرِ مع عائلتِهِ وهو يدعى فيليمون، وكان يتسكعُ قربَ الرُهبانِ يطرحُ عليهم الأسئلةَ ويساعدُهم في تقديمِ العشاءِ.

«بالطبعِ سيسمحون لي»، قال له ميرثن. «ولماذا لن يسمحوا لي؟»

«لأنَّكَ صغيرٌ جداً».

«هذا غباءٌ»، قال ميرثن هذا دونَ أن يكونَ واثقاً مما يقولهُ فغالباً ما يتصرفُ البالغون بغباءٍ، ولكن ما أغضبَ ميرثن هو ادعاءُ فيليمون بأنَّه يمتلكُ معرفةً أفضلَ بخاصةٍ بعد الثقةِ التي أظهرها أمامَ كاريس.

تركَ ميرثن الأولادَ وتوجهَ نحو مجموعةٍ من الرجالِ ينتظرونَ دورَهم للتصويبِ إلى الهدفِ. تعرَّفَ ميرثن على أحدِهم وكان رجلاً طويلاً جداً وعريضَ المنكبين يدعى مارك ويبر. انتبهَ مارك إلى القوسِ وقال لميرثن بصوتٍ ودودٍ خفيضٍ: «من أينَ حصلتَ على هذا؟»

«لقد صنعتُهُ بنفسي»، قال ميرثن بفخرٍ.

«انظرْ إلى هذا يا إلفريك»، قال مارك إلى رجلٍ يقفُ بالقربِ منهُ ثمَّ أضاف: «لقد أبلى الفتى حسناً في عملِهِ».

كان إلفريك رجلاً مفتولَ العضلاتِ وينظرُ بطريقةٍ ماكرةٍ. ألقى إلفريك على القوسِ نظرةً خاطفةً وقال بازدراءٍ: «إنَّ القوسَ صغيرٌ جداً ولن يُفلحَ أيّ سهمٍ يُطلقهُ في اختراقِ درعِ فارسٍ فرنسي».

«قد لا ينجحُ»، قالَ مارك بوداعةٍ ثمَّ أضاف: «ولكنّي أعتقدُ أنَّه مازال أمامَ الفتى عامٌ أو عامان قبل الذهابِ لمحاربةِ الفرنسيين».

صرخَ المأمورُ جون قائلاً: «نحنُ جاهزون للبدءِ. هيّا يا مارك ويبر فلتكُن البادئ»، وتقدَّمَ الرجلُ العملاقُ في صفِّ المنتظرين ثمَّ أخذَ قوساً متيناً واختبَرَهُ بأن قامَ بثني القوسِ الخشبي بسهولةٍ.

كانَ المأمورُ قد لاحظَ وجودَ ميرثن منذُ البدايةِ وقد قالَ الآن: «لا يُسمح للصبيةِ بالمشاركةِ».

«لِم لا؟» اعترضَ ميرثن.

«لا تسأل عن السببِ ولتبتعد عن الطريقِ فقط».

سمعَ ميرثن بعضَ الأولادِ يكتمونَ ضحكاتِهم فقال في سخطٍ: «ما من سبب يمنعني من المشاركةِ!»

«أنا لستُ مُضطراً لتقديمِ أسبابٍ إلى الأطفالِ»، قال جون. «حسناً يا مارك فلتُجرِّب حظَّكَ».

شعرَ ميرثن بالإحراجِ فها هو فيليمون قد أثبتَ، وعلى الملأ، أنَّ ميرثن كان مُخطئاً، واستدارَ ميرثن مُبتعداً عن مجالِ الرَّمي.

«لقد أخبرتُك بأنَّهم لن يسمحوا لكَ»، قال فيليمون.

«فلتصمُت ولتغرُب بعيداً».

«لا يمكنكَ أن تجعلني أغربُ بعيداً»، قال فيليمون الذي كانَ أطولَ من ميرثن بستةِ إنشاتٍ.

وهنا تدخّل رالف قائلاً: «يمكنني أن أجعلَكَ تغربُ بعيداً».

نمَّت عن ميرثن تنهيدةٌ؛ فها هو رالف مجدداً يتصرفُ بولاءٍ خالصٍ ولكنَّهُ دونَ أن يدركَ أنَّه في حال تعاركَ مع فيليمون فسيبدو ميرثن ضعيفاً وغبياً في آنٍ معاً.

«كنتُ سأغادرُ على أيِّ حالٍ. سأذهبُ لمساعدةِ الأخ غودوين»، قال فيليمون وابتعدَ.

أمّا بقيةُ الأولادِ فقد أخذوا بالانسحابِ وانطلقوا يبحثونَ عن أمورٍ أخرى أكثرَ إثارةٍ للاهتمامِ. «يمكنكَ تجربةُ قوسكَ في مكانٍ آخرَ»، قالت كاريس لميرثن في اهتمامٍ كبيرٍ وواضحٍ بمعرفةِ نتيجةِ تجربةِ القوسِ.

نظرَ ميرثن من حولِهُ وقال: «ولكن أين؟» فإن شوهدَ وهو يستخدمُ القوسَ من دونِ مراقبةِ البالغين فقد يأخذونَهُ منهُ.

«يمكننا الذهابُ إلى الغابةِ»، قالت كاريس.

فوجئ ميرثن باقتراحِها. كان يُمنعُ على الأطفالِ الذهابُ إلى الغابةِ بسبب وجودِ خارجين عن القانونِ وأناسٍ يعيشونَ على السرقةِ ممن قد يسلبونَ الأطفالَ ثيابَهم أو يحولونهم إلى عبيدٍ لهم. بل هناك أخطارٌ أسوأ من هذهِ ولكن الأهالي لا يتحدثونَ عنها صراحةً بل إلماحاً. وإن نجوا من هذهِ المخاطرِ فسيواجُهونَ عقوبةَ الجلدِ على يدِ آبائهم لأنهم خرقوا القانونَ.

ولكن يبدو أنَّ كاريس لم تكن خائفةً ولهذا ترددَ ميرثن في رفضِ اقتراحها فهو لم يرغب بأن يظهر بمظهرِ الجبان. علاوةً على هذا أثارَ رفضُ المأمورِ رغبتهُ بالتحدي.

«حسناً»، قال ميرثن. «ولكن لا يجبُ أن ندعَ أحداً يرانا».

وكان لدى كاريس جوابٌ جاهزٌ على هذا: «أعرفُ طريقاً».

توجّهت إلى النهرِ ولحقَ بها ميرثن ورالف ثمَّ انضمَّ إليهم كلبٌ بثلاث قوائم: «ما اسمُ كلبكِ؟» سألَ ميرثن.

«هذا ليسَ كلبي»، قالت كاريس، «قدّمتُ لهُ قطعةً من اللحمِ المتعفنِ ولم أستطع التخلصَ منه بعد هذا».

ساروا على طولِ الضفّةِ المُوحلةِ للنَّهرِ ومرّوا بمستودعاتٍ وأرصفةٍ ومراكب لنقلِ البضائعِ، وخفيةً بدأ ميرثن يتفحصُ الفتاةَ التي أخذت، ومن دونِ جهدٍ، موقعَ القيادةِ. كانَ لها وجهٌ مدور يفيضُ بالحزمِ. لم تكن جميلةً ولا قبيحةً إلا أنَّ شيئاً من الشقاوةِ يلوحُ في عينيها الخضراوين الضاربتينِ إلى اللون العسلي. كانَ شعرُها مضفوراً في جديلتين كما هي الصيحةُ الدارجةُ بين النساءِ الثريات، ورغمَ ثيابِها الفاخرةِ فإنها كانت تنتعلُ جزمةً جلديّةً عمليّةً بدلاً من الأحذيةِ القماشيّةِ المطرّزة التي تُفضلها النساءُ النبيلاتُ.

انعطفَت كاريس بعيداً عن النهرِ ثمَّ قادَتهما إلى فناءِ ورشةِ نجارةٍ، وفجأةً وجدوا أنفسهم في أرضٍ حراجيةٍ بشجيراتٍ قصيرةٍ. شعرَ ميرثن ببعضِ الارتباكِ

فقد أصبحَ الآنَ في الغابةِ وربما أحدُ الخارجين عن القانونِ يتربصُ خلفَ شجرةِ بلوطٍ. انتابهُ شعورٌ بالندمِ على ادعائهِ الشجاعةَ إلّا أنّه خجلَ من التراجعِ الآنَ.

تابعوا سيرَهم وهم يبحثون عن منطقةٍ مفتوحةٍ وكبيرةٍ بما يكفي لرمي السهامِ، ثمَّ قالت كاريس بصوتٍ خبيثٍ بعضَ الشيءِ: «أترَيانِ شجيرةَ البهشيةِ تلكَ؟»

«أجل».

«حالما نصلُ إليها فلتقرفصا إلى جانبي ولتلزما الهدوءَ».

«لماذا؟»

«سترى».

بعدَ برهةٍ كان كلٌّ من كاريس وميرثن ورالف مقرفصاً خلفَ الشجيرةِ، وقد جلسَ الكلبُ ذو القوائمِ الثلاث إلى جانبِهم وهو يرمقُ كاريس بنظرةٍ مفعمةٍ بالأملِ. أرادَ رالف أن يطرحَ سؤالاً ولكن كاريس أخرستهُ.

وبعدَ هُنيهةٍ وصلَت فتاةٌ صغيرةٌ فقفزَت كاريس وأمسكَت بها فما كانَ من الفتاةِ إلا أن صرخَت.

«اهدأي!» قالت كاريس. «نحن بعيدون عن الطريقِ ولا نريدُ لأحدٍ أن يسمعنا. لماذا تلحقينَ بنا؟»

«كلبي معكم وهو لا يرغبُ بالعودةِ!» قالت الفتاةُ وهي تنشُجُ.

«أنا أعرفُكِ. لقد التقيتُ بكِ في الكنيسةِ هذا الصباح»، قالت كاريس بصوتٍ أكثرَ لطفاً. «حسناً، لا داعي للبكاءِ. نحنُ لن نُلحقَ بكِ أيَّ أذى. ما اسمُكِ؟»

«غويندا».

«والكلب؟»

«هاب»، قالت غويندا ورفعَت الكلبَ فأخذَ يلعقُ أذنيها.

«حسناً، ها قد استعدتِ كلبَكِ الآن. قد يكونُ من الأفضلِ أن ترافقينا في حال هربَ مُجدداً. علاوةً على هذا قد لا تجدينَ طريقَ العودةِ إلى المدينةِ وحدَكِ».

وتابعوا سيرهم.

«ما هو الشيء الذي يملكُ ثماني أذرع وإحدى عشرة ساقاً؟» قال ميرثن.

«عجزتُ»، سارعَ رالف إلى القولِ كما هي عادتُهُ.

«أعلمُ الجوابَ»، قالت كاريس بابتسامةٍ. «إنَّه نحن: أربعةُ أطفالٍ وكلبٍ بثلاثِ قوائم». ثمَّ ضحكت وقالت: «هذهِ أحجيةٌ جيدةٌ».

شعرَ ميرثن بالسرورِ. عموماً، لم يفهم الناسُ دعاباتِهِ وأحاجيهِ وبالأخصِّ الفتيات فهنَّ لا يفهمنها البتةَ. بعدَ برهةٍ سمعَ ميرثن غويندا تشرحُ الأحجيةَ لرالف: «ذراعانِ وذراعانِ زائداً ذراعين وذراعين يصبحُ الناتُجُ ثمانية»، ثم تابعَت: «وساقان...»

لم يصادفوا أحداً في الطريقِ وهذا أمرٌ جيدٌ. لم يكن هناكَ سوى عددٍ محدودٍ من الناسِ الذين يملكونَ مصالحَ مشروعةٍ في الغابةِ كالعاملين في قطعِ الأخشابِ وصنعِ الفحمِ وصهرِ الحديدِ، ولكنَّهم لا يعملونَ اليومَ، وسيكونُ من الغريبِ حقاً إن التقوا مصادفةً بمجموعةٍ من الصيَّادين الأرستوقراطيين في يومِ الأحدِ، وهذا يعني أنَّهم لو التقوا بأيِّ أحدٍ فسيكونُ على الأغلبِ خارجاً عن القانونِ إلَّا أنَّ احتمالَ حدوثِ هذا ضعيفٌ. كانت الغابةُ كبيرةً وشاسعةً جداً، ولم يكن ميرثن قد توغلَ فيها كفايةً ووصلَ حتى نهايتها.

وصلوا إلى أرضٍ كبيرةٍ خاليةٍ من الأشجارِ وقال ميرثن: «سيفي هذا المكانُ بالغرضِ».

في زاويةِ المكانِ وعلى بُعدِ خمسين قدماً منهم هناكَ شجرةُ بلوطٍ بجذعٍ ضخمٍ. وقفَ ميرثن بشكلٍ جانبي قبالةَ الهدفِ كما رأى الرجالَ يفعلون، وأخرجَ أحدَ سهامِهِ الثلاثةِ ثمَّ شدَّ وترَ القوسِ إلى الثُلمِ في نهايةِ القوسِ الخشبي. كان صُنع السهامِ صعباً بقدرِ صُنعِ القوسِ وقد استخدمَ ميرثن خشبَ شجرةِ الدردار في صناعتها وثبَّتَ في نهايةِ كلِ سهمٍ ريشةَ إوزةٍ. لم يتمكن من الحصولِ على نهاياتٍ معدنيَّةٍ ولهذا، وبكلِّ بساطةٍ، قامَ بشحذِ النهايةِ ثمّ سفعَها إلى أن قست. ركّز ميرثن نظرَهُ على الشجرةِ ومن ثمَّ شدَّ وترَ القوسِ وتطلَّبَ منهُ شدُّ الوترِ جُهداً كبيراً إلا أنّه أطلقَ السهمَ أخيراً.

وقعَ السهمُ أرضاً قربَ الهدفِ فهرعَ الكلبُ هاب إليه ليحضرَهُ.

فوجئ ميرثن بما حصلَ فقد توقعَ أن يطيرَ السهمُ في الهواءِ وتستقرَّ نهايتُهُ في الشجرةِ، ولكنَّه أدركَ أنّه لم يثنِ القوسَ كفايةً.

حاولَ أن يُمسكَ بالقوسِ في يدهِ اليُمنى والسَّهمَ بيدهِ اليُسرى إلا أنَّهُ لم يكن مُعتاداً على هذهِ الوضعيةِ فهو لم يكن أيمن أو أعسر بل مزيجاً من الإثنين، وعندَ إطلاقِ السهمِ الثاني سحبَ وترَ القوسِ بأقصى قوتِهِ ونجحَ في إطلاقِهِ إلى مسافةٍ أبعد من المسافةِ السابقةِ، وكادَ السهمُ في هذهِ المرَّةِ أن يصلَ إلى الشجرةِ.

وفي المحاولةِ الثالثة رفعَ القوسَ إلى الأعلى على أملِ أن يطيرَ السهمُ في

الهواءِ بشكلِ قوسٍ ويصيبَ الجذعَ إلا أنَّه بالغَ جداً في رفعِهِ وأصابَ السهمُ الأغصانَ ثمَّ هوى على الأرضِ بين كومةٍ من الأوراقِ الجافَّةِ.

شعرَ ميرثن بالإحراج من فشلِهِ. يبدو أنَّ رميَ السهامِ أصعبُ بكثيرٍ مما تخيلَ، وأخذَ يفكرُ بأنَّ المشكلةَ ليست في القوسِ بل في مهارتِهِ، أو ربما في عدمِ امتلاكِهِ أيّ مهارةٍ أصلاً.

وللمرةِ الثانيةِ فشلَت كاريس في رؤيةِ شعورِهِ بالخيبةِ وقالت: «دعني أجرِّب».

«لا تستطيعُ الفتياتُ إطلاقَ السهامِ»، قال رالف واقتنَصَ القوسَ من بين يدي ميرثن. وقف رالف قبالةَ الهدفِ بشكلٍ جانبي، كما فعلَ ميرثن، إلا أنَّه لم يُطلق السهمَ على الفورِ بل أخذَ يشدُّ ويُرخي القوسَ لمراتٍ عديدةٍ حتى فهمَ مرونتهُ، وكما حصلَ مع ميرثن قبلاً وجدَ رالف القوسَ أكثر قسوةً مما توقَّعَ إلا أنَّه، وبعدَ برهةٍ، بدا كأنَّه اعتادَ عليهِ.

كان الكلبُ هاب قد جلبَ السهامَ الثلاثَةَ ووضعها عندَ قدمي غويندا. قامَت الفتاةُ الصغيرةُ بالتقاطها وقدَّمتها إلى رالف.

صوَّبَ رالف القوسَ وهو ينظرُ على طولِ السهمِ إلى الهدفِ في جذعِ الشجرةِ إلا أنَّه لم يقمْ بسحبِهِ. لم يكن هناكَ أيُّ ضغطٍ على ذراعي رالف، وهنا أدركَ ميرثن أنَّه كان عليهِ فعلُ هذا، وتساءلَ في نفسِهِ عن مصدرِ قدرةِ رالف الطبيعيةِ على فهمِ مثلِ هذهِ الأمورِ في الوقتِ الذي يعجزُ فيهِ عن حلِّ أحجيةٍ ما. سحبَ رالف السهمَ إلى الوراءِ، ولكن ليس بحركةٍ سريعةٍ بل بحركةٍ رشيقةٍ، وبدا كأنَّه استمدَّ كلَّ قوتِهِ من فخذيهِ ثمَّ أطلقَ السهمَ فأصابَ جذعَ شجرةِ البلوطِ. انغرزَ السهمُ بعمقِ إنشٍ أو أكثر في القشرةِ الخشبيةِ الخارجيةِ الرقيقةِ، وأطلقَ رالف ضحكةَ ظفرٍ.

اندفعَ الكلبُ هاب في إثرِ السهمِ وعندما وصلَ إلى الشجرةِ بدا مُحتاراً.

كانَ رالف يقومُ بسحبِ القوسِ مجدداً وفهمَ ميرثن على الفورِ ما كان ينوي القيامَ بهِ.

«لا تفعل!!» قال ميرثن إلا أنَّه كان قد تأخَّر فقد أطلقَ رالف السهمَ نحو الكلبِ. استقر السهمُ في ظهرِ ورقبةِ الكلبِ الذي سقطَ إلى الأمامِ وبدأ يتلوى.

صرخَت غويندا وقالت كاريس: «أوه، لا»، ثمَّ ركضَت الفتاتان باتجاهِ الكلبِ.

كان رالف يضحكُ وهو يقولُ في فخرٍ: «وما الضيرُ في هذا؟»

«لقد قتلتَ كلبَها!» قالَ ميرثن بغضبٍ.

«هذا غيرُ مهمٍ. إنَّه مجردُ كلبٍ بثلاث قوائم».

«والفتاةُ تحبُّهُ أيُّها الأحمقُ. انظر إليها إنَّها تبكي».

«أنتَ تشعرُ بالغيرةِ لأنني أستطيع رمي السهام...» ولفتت حركةٌ ما انتباهَ رالف، فأخذَ بحركة رشيقة سهماً آخر، والتفتَ بالقوسِ بشكلٍ مُنحنٍ ثمَ أطلقَ السهمَ بينما الهدف ما يزالُ يتحركُ. لم يرَ ميرثن ما صوَّبَ إليهِ، ولكن عندما أصابَ السهمُ الهدفَ قفزَ أرنبٌ بريٌّ في الهواءِ وسهمٌ عالقٌ في مؤخرتِهِ.

لم يكن ميرثن قادراً على إخفاءِ إعجابِهِ فحتى بعدَ تدريبٍ طويلٍ على استخدامِ القوسِ ما من أحدٍ قادرٍ على إصابةِ أرنبٍ يركضُ. يملكُ رالف موهبةً طبيعيةً، وشعرَ ميرثن بالغيرةِ منهُ إلا أنَّه لن يعترفَ بهذا أبداً. كان يتوقُ لأن يُصبحَ فارساً مغواراً وقوياً، ويقاتلَ إلى جانبِ الملكِ كما فعلَ والدُهُ. أثارَ عجزُهُ عن القيامِ بأمورٍ يقومُ بها الفرسانُ كرمي السهامِ شعورَهُ باليأسِ.

التقطَ رالف حجراً وهشَّمَ بهِ جمجمةَ الأرنبِ مُخلصاً إياهُ من عذابِهِ.

ركعَ ميرثن بجانبِ الفتاتين والكلبِ هاب. لم يكن الكلبُ يتنفسُ. سحبَت كاريس السهمَ بلطفٍ من عنقِهِ، وأعادتهُ إلى ميرثن. لم يخرج الدمُ وماتَ هاب.

ولوهلةٍ حلَّ الصمتُ ثمَّ سمعوا صوتَ رجلٍ يصرخُ.

قفزَ ميرثن على قدميهِ وشعرَ بضرباتِ قلبِهِ تتسارع ثمَّ سمعَ صرخةً أخرى إلَّا أنَّها كانت مختلفةً وأدركَ أنَّ هناكَ أكثر من شخصٍ. كان الصوتُ عدائياً وغاضباً وتكهن بأنَّ هناكَ شجاراً دائراً. شعرَ بالرعبِ وشعرت الفتاتان بهذا أيضاً فلزموا أمكنتهم وهم يصغونَ وقد تجمدوا من الخوفِ. سمعوا صوتاً آخر لشخصٍ ما يركضُ دون توقفٍ عبرَ الأحراجِ ويكسرُ الأغصان بقدميهِ وهو يفتحُ الطريقَ بينَ الأشجارِ ويهزُّ أوراقَ الأشجارِ الميتةِ.

الشخصُ قادمٌ باتجاهِهم.

كانت كاريس أولَ من بدأ الكلامَ. «باتجاهِ الشجيرةِ»، قالت وهي تشيرُ إلى أجمةٍ كبيرة من الشجيراتِ الدائمةِ الخُضرةِ، وفكرَ ميرثن بأنَّها قد تكونُ موطنَ الأرنبِ الذي اصطادَه رالف للتو. وبعدَ وهلةٍ كانت كاريس قد استلقَت على بطنِها وبدأت تزحف باتجاهِ الأجمةِ. لحقَت بها غويندا مُحتضنةً جسدَ كلبِها هاب. التقطَ رالف جثَّةَ الأرنبِ وانضمَّ إليهم. كانَ ميرثن يزحفُ على ركبتيهِ عندما أدركَ أنَّهم تركوا خلفَهم سهماً مغروزاً بالشجرةِ يفضَحُ فعلتَهم فانطلقَ

بسرعةٍ باتجاهِ الأرضِ الخاليةِ من الشجرِ وسحبَ السهمَ ثمَّ ركضَ عائداً إلى الأجمةِ.

سمعوا رجلاً يتنفس ولكنهم لم يروه. كانَ يلهثُ بشدةٍ وهو يركضُ ويتنشقُ الهواءَ بقوةٍ وبطريقةٍ توحي بأنَّه منهكُ القوى، وتعالى صياحُ مُتقفيهِ وهم ينادونَ بعضَهم: «من هنا... هناك!» وتذكرَ ميرثن ما قالته كاريس عن أنَّهم لم يكونوا بعيدين عن الطريقِ، وتساءلَ إن كانَ الرجلُ الهاربُ مسافراً يلاحقُهُ اللصوصُ.

وبعدَ هُنيهةٍ اندفعَ الرجلُ باتجاهِ الأرضِ الخاليةِ من الشجرِ التي كانوا فيها قبلَ قليلٍ.

كانَ فارساً في مطلعِ العشرين من عمرهِ وعلى حزامِهِ سيفٌ وخنجرٌ طويلٌ. بدا حسنَ الهندامِ وقد ارتدى سترةَ سفرٍ جلديَّةً وجزمةً عاليةً وقد قلبَ أعلى رقبتِها إلى الخارجِ. تعثَّرَ الفارسُ وسقطَ، تدحرجَ ونهضَ، ثم وقفَ وأدارَ ظهرَهُ لشجرةِ البلوطِ وهو يتنفسُ بصعوبةٍ وسحبَ سلاحَه.

حدَّقَ ميرثن إلى رفاقِهِ؛ كانت كاريس شاحبةً من الخوفِ وتعضُّ شفتَها العُليا؛ وغويندا تحتضنُ جثةَ كلبِها كأنَّها تمدُّها بالأمانِ؛ وبدا رالف خائفاً أيضاً إلَّا أنَّه لم يبدُ خائفاً جداً فقد سحبَ السهمَ من مؤخرةِ الأرنبِ البري وحشرَ الحيوانَ الميِّتَ داخلَ سترتِه.

ولوهلةٍ بدا الفارسُ كأنَّه يُحدِّق إلى الأجمةِ، وشعرَ ميرثن بهلعٍ كبيرٍ. ربما رأى الأولادَ المختبئين، أو ربما لاحظَ الأغصانَ المكسورةَ والأوراقَ المسحوقةَ في الطريقِ الذي شقُّوهُ إلى داخلِ الأجمةِ، ومن زاويةِ عينِهِ رأى ميرثن رالف يثبت سهماً إلى القوسِ.

ثمَّ وصلَ المُتقَفّون ولم يكونوا سوى جنديين ببنيةٍ قويَّةٍ وهيئةٍ توحي بالعنفِ وقد استلَّا سيفين. كانا في سترتين بلونين مميزين؛ فالجانبُ الأيسرُ من السُترةِ أصفر، أمَّا الجانبُ الأيمن فقد كان بالأخضرِ. ارتدى أحدُهما عباءةً فضفاضةً فوقَ ثيابِهِ وكانت مصنوعةً من الصوفِ البني الرخيصِ، أمَّا الآخر فقد وضعَ عباءةً سوداء قذرةً فوقَ ثيابِهِ. توقفَ الرجالُ الثلاثةُ ليلتقطوا أنفاسَهم. كان ميرثن واثقاً من أنَّه على وشكِ مشاهدةِ الفارسِ يُطعنُ حتَّى الموتِ، وقاومَ دافعاً مُخجلاً في الانخراطِ بالبكاءِ، ثمَّ قامَ الفارسُ بإمساكِ سيفِهِ من النصلِ وقدَّمَهُ ومقبضُه للأمامِ في حركةٍ تعني أنَّه استسلمَ.

تقدَّمَ الجندي الأكبرُ عمراً في العباءةِ السوداء مادَّاً يدَهُ اليسرى، وبكلِّ حذرٍ

أخذَ السيفَ وسلّمَهُ إلى شريكِهِ ومن ثمَّ أخذَ خنجرَ الفارسِ وقالَ: «لا أريدُ أسلحتَك بل أريدُ توماس لانغلي».

«أنتَ تعرفني، ولكنني لا أعرفكُ»، قال الفارسُ الذي يبدو أنّه يُدعى توماس، وإن كانَ توماس يشعرُ بالخوفِ فقد نجحَ بإخفائِهِ. «بالنظرِ إلى معطفيكما لا بدَّ أنكُما من رجالِ الملكة».

وضعَ الجنديُ الأكبرُ عُمراً طرف سيفِهِ على حنجرةِ توماس ودفعَهُ باتجاهِ الشجرةِ قائلاً: «أنتَ تحملُ رسالةً».

«هذهِ تعليماتٌ من الإيرل إلى المأمورِ وهي بخصوصِ الضرائبِ. يمكنكَ أن تقرأها». كان توماس يمزحُ فلا يستطيعُ الجنديان قراءةَ الرسالة أبداً، وفكَّر ميرثن بأنَّ توماس يتمتعُ ببرودةِ أعصابٍ لأنّه كانَ يسخرُ من جنديين مستعدين لقتلِهِ.

مدَّ الجندي الثاني يدَهُ تحتَ سيفِ الجندي الأوّل وأمسكَ بالمحفظةِ المُعلّقةِ إلى حزامِ توماس وبعجلةٍ قطع الحزامَ بسيفِهِ. رمى الحزام جانباً ثمَّ فتحَ المحفظةَ وأخذَ حقيبةً أصغرَ منها في الداخلِ تبدو كأنّها مصنوعةٌ من الصوفِ الخامِ. أخرجَ من الحقيبةِ الأصغر قطعةَ ورقٍ بنيَّة على شكلِ لفافةٍ ومختومة بالشمعِ.

وتساءلَ ميرثن في نفسهِ إن كانَ هذا القتالُ من أجلِ أمرٍ آخر أكثر أهمية من رسالة، وإن كان الأمرُ كذلكَ فلماذا الرسالةُ على شكلِ لفافةٍ؟ من المستبعدِ أن تكونَ رسالةَ تعليماتٍ روتينيةٍ بخصوصِ الضرائبِ؛ لا بدَّ أنها رسالةٌ تحوي على سرٍ رهيبٍ.

«إن قتلتني»، قالَ الفارس وتابع: «سيشهدُ على الجريمةِ أولئكَ المختبئون في الأجمةِ».

وتجمَّدَ الجميعُ في أمكنتِهم لأجزاء من الثانيةِ؛ فقد استمرَّ الرجلُ في العباءةِ السوداءِ بالضغطِ بطرفِ سيفِهِ على حُنجرةِ توماس وهو يقاوم إغراءَ النظرِ من فوقِ كتفيهِ، أمّا الرجلُ في العباءةِ الخضراء فقد بدا مُتردداً في البدايةِ إلّا أنّه نظرَ أخيراً باتجاهِ الأجمةِ.

وفي تلكِ اللحظةِ صرخَت غويندا.

رفعَ الرجلُ في العباءةِ الخضراءَ سيفَهُ وعبرَ المساحةَ الخاليةَ من الشجرِ بخطوتين واسعتين باتجاهِ الأجمةِ. وقفَت غويندا واندفعَت راكضةً من الدغلِ فهرعَ الجندي خلفَها محاولاً الإمساكَ بها.

وقفَ رالف على حينِ غرَّةٍ رافعاً القوسَ وأطلقَ سهماً بحركةٍ رشيقةٍ فأصابَ الرجلَ في عينِهِ وانغرزَ السهمُ في رأسِهِ بعمقِ عدَّةِ إنشات. رفعَ الرجلُ يدهُ اليسرى كأنّه يريدُ الإمساكَ بالسهمِ وانتزاعهُ، ثمَّ أخذَ يمشي باضطرابٍ وسقطَ ككيسٍ من الحبوبِ. شعرَ ميرثن بأنَّ سقطةَ الرجل كانت مدويةً.

اندفعَ رالف من الأجمةِ ولحقَ بغويندا، ومن طرفِ عينِهِ لاحظَ ميرثن أنَّ كاريس كانت تجهزُ نفسَها للحاقِ بهما. أرادَ ميرثن أن يهربَ أيضاً، ولكنَّه شعرَ بقدميهِ مُسمَّرتين إلى الأرضِ.

علَت صرخةٌ من الجانبِ الآخرِ للأرضِ الخاليةِ من الشجرِ، ورأى ميرثن توماس يطيحُ بسيفِ الجندي بخنجرٍ صغيرٍ لهُ نصلٌ بطولِ يدِ رجلٍ، ولكن الجندي في العباءةِ السوداءِ كان يقظاً وقفزَ إلى الوراءِ بعيداً عن مدى الضربةِ ثمَّ رفعَ سيفَهُ ولوَّحَ بهِ باتجاهِ رأسِ الفارسِ.

تفادَى توماس الضربةَ ولكنَّه لم يكن سريعاً بما يكفي، فقد أصابتهُ حافَّةُ النصلِ في ساعدِهِ الأيسر واخترقَت سترتَهُ الطويلة وغرزَت في اللحمِ. زمجرَ توماس من الألمِ ولكنَّه لم يسقط أرضاً، وبحركةٍ سريعةٍ بدَت رشيقةً بشكلٍ مُدهشٍ لوَّحَ بيدهِ اليُمنى عالياً ثمَّ غرزَ الخنجرَ في حنجرةِ الخصمِ، ومن ثمَّ أدارَ يدَه بحركةٍ كالقوسِ مُحرِّكاً السكينَ جانباً ونحرَ كاملَ العنقِ تقريباً.

انبجسَ الدمُ من عنقِ الرجلِ كالنافورةِ، وتراجَعَ توماس إلى الوراءِ محاولاً تفادي نافورةِ الدمِ. سقطَ الرجلُ في العباءةِ السوداءِ على الأرضِ ورأسُهُ يتأرجحُ فوقَ جسده.

رمى توماس بالخنجرِ من يدِهِ اليمنى وأمسَكَ بساعدِهِ الأيسر المُصاب ثمَّ جلسَ على الأرضِ وقد انتابهُ فجأةً شعورٌ بالضعفِ.

بقيَ ميرثن وحده مع الفارسِ المصابِ والجنديين الميتين وجثةِ الكلبِ ذي القوائمِ الثلاثِ. كان يعرفُ أنَّ عليهِ اللحاقَ بالأطفالِ الآخرين، ولكنَّ فضوله دفعهُ إلى البقاءِ في مكانِه، وأخبرَ نفسَهُ بأنَّ توماس الآن غيرَ مؤذٍ.

كانَ الفارسُ ثاقبَ النظرِ فقد نادى ميرثن قائلاً: «اخرج! لستُ خطراً عليكَ وأنا في هذهِ الحالةِ».

وعلى مضضٍ نهضَ ميرثن على قدميهِ وشقَّ طريقه خارجَ الأجمةِ ثمَّ عبرَ الأرضَ الخاليةَ من الشجرِ وتوقفَ على بُعدِ عدَّةِ خطواتٍ من الفارسِ الجالسِ على الأرضِ.

قالَ توماس: «إن اكتشفوا أنّك كنت تلعبُ في الغابةِ ستتعرضُ للجَلدِ».

أومأ ميرثن برأسِهِ موافقاً.

«لن أُفشي سرَّكَ إن لم تُفشِ سِريّ».

أومأ ميرثن برأسِهِ مجدداً. كانت الموافقةُ على هذهِ الصفقة تعني أنّه لن يُقدّم أيَّ تنازلاتٍ. لن يتحدث أيٌّ من الأطفالِ الآخرين عمّا جرى؛ لأنّهم إن فعلوا هذا فسيتعرضون لمتاعب لا يمكنُ تخيلُها، وتساءلَ ميرثن في نفسِهِ عمّا سيحدثُ لرالف إن عرفوا بأنّه قتلَ أحدَ رجالِ الملكةِ.

«هلّا تلّطفتَ بمساعدتي على تضميدِ جُرحِي؟» قال توماس، ولاحظَ ميرثن أنّه كانَ يتحدثُ بلباقةٍ رغمَ كلِّ ما حدثَ. كان وقارُ الفارسِ لافتاً، وشعرَ ميرثن بأنّه يريدُ أن يصبحَ مثله عندما يكبر.

وأخيراً تمكنَ ميرثن العاجزُ عن الكلامِ من النطقِ وقالَ: «أجل».

«لو سمحتَ أحضر الحزامَ المقطوعَ ومن ثمَّ فلتَقُمْ بلفِّه حولَ ذراعي».

نفَّذَ ميرثن ما طُلبَ منهُ. كان قميصُ توماس الداخلي مُشبعاً بالدمِ، ولحمُ ساعِدِهِ مفتوحاً كأنّه قطعةُ لحمٍ على منضدةِ جزارٍ. شعرَ ميرثن ببعضِ الغثيانِ، ولكنَّه أجبرَ نفسَهُ على شدِّ الحزامِ حولَ ذراعِ توماس حتى يُغلقَ الجرحُ ويُبطأ من النزيفِ. أحكمَ ربطَ الحزامِ، واستخدمَ توماس يدَهُ اليمنى لشدِّها.

ومن ثمّ جاهدَ توماس ليقفَ على قدميهِ.

نظرَ إلى الرجلين الميتين: «لا يمكننا دفنُهما. سأنزفُ حتى الموتِ قبلَ أن أنتهي من حفرِ قبرِهما»، وأضافَ مُحدِّقاً إلى ميرثن: «حتَّى لو ساعدتني في هذا». أخذَ يفكرُ لبرهةٍ ثمَّ قال: «ولكن من ناحيةٍ أخرى لا أريدُ أن يكتشفهما أيُّ عاشقين باحثين عن مكانٍ... لينفردا ببعضِهما. دعنا نجرُّهما باتجاهِ الأجمة حيثُ كنتم تختبئونَ. فلنبدأ بصاحبِ المعطفِ الأخضرِ.»

اقتربا من الجثةِ.

«ليمسكَ كلٌّ واحدٍ منهما بقدمٍ»، قالَ توماس وأمسكَ بيدِهِ اليمنى الكاحلَ الأيسرَ للرجلِ الميتِ بينما أمسكَ ميرثن بالقدمِ الأخرى بكلتا يديهِ وناضَلَ في جرِّهِ. تعاونا معاً ونجحا في إخفاءِ الجثةِ داخلَ الأجمةِ إلى جانبِ جثّةِ الكلبِ هاب.

«سيفي هذا بالغرضِ»، قال توماس. كانَ وجهُه شاحباً من شِدّة الألمِ. وبعدَ وهلةٍ، انحنى وسحبَ السهمَ من عينِ الجُثةِ ثمَّ سألَ في استغرابٍ: «هل هذا سهمُكَ؟»

أخذَ ميرثن السهمَ ومسحَهُ بالأرضِ ليتخلَّصَ من الدمِ وأشلاءِ الدماغِ العالقةِ بطرفِهِ.

وبالطريقةِ ذاتِها جرَّا الجثةَ الثانيةَ باتجاهِ الأرضِ الخاليةِ من الشجرِ والرأس شبه المقطوعِ يتدحرجُ وراءهما وهو ما يزالُ عالقاً بالجثةِ، وألقيا بها بجانبِ الجثةِ الأولى.

التقطَ توماس سيفي الرجلين ورماهما في الأجمةِ بجانبِ الجثتين، ومن ثمَّ التقطَ سلاحه.

«والآن»، قال توماس. «أريدُ أن أطلبَ منكَ معروفاً كبيراً»، ثم قدَّمَ خنجره إلى ميرثن وقال: «هلَّا حفرتَ حفرةً صغيرةً؟»

«حسناً»، قال ميرثن وأخذَ الخنجرَ منهُ.

«هنا تماماً، قبالةَ شجرةِ البلوطِ».

«ما العمقُ الذي تريده؟»

التقطَ توماس المحفظةَ الجلديَّةَ التي كانت مُعلَّقةً بحزامِهِ وقالَ: «كبيرة بما يكفي لإخفاءِ هذهِ المحفظةِ لخمسين عاماً».

استجمعَ ميرثن شجاعته وقال: «لماذا؟»

«فلتَحفر، وسأخبركَ بقدرِ ما أستطيعُ إخباركَ بِهِ».

بدأ ميرثن يحفرُ حُفرةً أشبه بمربعٍ متوغلاً بالخنجرِ في التربةِ الباردةِ وجارفاً الترابَ بيديهِ.

أخذَ توماس اللفافةَ الورقيةَ ووضعَها في حقيبةٍ صوفيَّةٍ، ومن ثمّ وضعَ الحقيبةَ داخلَ المحفظةِ الجلديَّةِ وقال: «أُعطيتُ هذهِ الرسالةِ حتَّى أسلِّمها إلى إيرل شايرنغ، ولكنَّها تحوي على سِرٍ خطيرٍ إلى درجةٍ كفيلةٍ بالتسببِ في موتِ حاملِها حتَّى لا يُفتضحَ السِّرُ فيها ولهذا يجبُ أن أختفي فقررت أن ألجأ إلى ديرِ الرهبان وأصبحَ راهباً. لقد اكتفيتُ من القتالِ، ولدي الكثيرُ من الذنوبِ لأكفّر عنها. حالما اختفيتُ بدأ الناسُ الذين أعطوني الرسالةَ بالبحثِ عني... ولم يحالفني الحظُ قط. لقد عثروا عليَّ في حانةٍ في بريستول».

«لِمَ كان رجالُ الملكةِ في إثركَ؟»

«لأنَّ الملكة أيضاً ترغبُ بمنعِ افتضاحِ هذا السِّرِ».

عندما وصلَ عُمقُ الحفرةِ التي يحفرها ميرثن إلى ثمانيةَ عشر إنشاً قالَ توماس: «سيفي هذا بالغرضِ»، ورمى المحفظةَ في الحُفرةِ.

أهالَ ميرثن الترابَ فوقَ المحفظةِ، وغطى توماس الترابَ فوقَ الحفرةِ بالأوراقِ والأغصانِ إلى أن غدَت امتداداً للأرضِ التي حولَها.

«إن سمعتَ بأنني مُتُّ»، قالَ توماس. «أريدكُ أن تحفرَ هذهِ الحُفرةَ، وتأخذَ هذهِ الرسالةَ ثمَّ تسلمها إلى كاهنٍ. هل ستقومُ بهذا من أجلي؟»

«حسناً».

«وإلى أن يحدثَ هذا، لا يجبُ أن تخبرَ أحداً بما حصلَ. فطالما يعلمونَ بأنني أحملُ الرسالةَ ويجهلونَ مكاني لن يكونَ بوسعِهم القيامُ بشيءٍ، ولكن إن فضحتَ السِّرَ سيحدثُ أمران: أولاً، سيقتلونني وسيقتلونكَ ثانياً».

شعرَ ميرثن بالذُعرِ، وبدا له من الظُلمِ أن يكونَ عرضةً لمثلِ هذا الخطرِ العظيمِ لأنَّهُ ساعدَ رجلاً على حفرِ حفرةٍ فقط.

«يؤسفني أنني سببتُ لكَ الذعرَ»، قالَ توماس. «ولكن هذا ليس خطأي بالكاملِ؛ فأنا لم أطلب منكَ المجيء إلى هنا».

«لا»، قال ميرثن وندمَ بشدةٍ لأنَّه لم يُطعْ والدته ويبتعد عن الغابةِ.

«سأعودُ إلى الطريقِ. لم لا تعودُ من الطريقِ الذي أتيتَ منهُ؟ لا بدَّ أنَّ أصدقاءكَ بانتظارك في مكانٍ قريبٍ من هنا».

استدارَ ميرثن ليغادرَ.

«ما اسمكُ؟» سأله الفارس.

«ميرثن، ابن السير جيرالد».

«حقاً؟» قال توماس كأنَّه عرفَ والدَ ميرثن. «حسناً، لا تقلْ شيئاً، حتى لوالدكَ».

أومأ ميرثن برأسهِ وغادرَ.

عندما ابتعدَ لمسافةِ خمسين ياردة بدأ يتقيأ وتحسنَ حالهُ قليلاً.

وتماماً كما توقعَ توماس، كان البقيةُ بانتظارِهِ عندَ حافةِ الغابةِ بالقربِ من ورشةِ النجارةِ. احتشدوا حولَهُ يلمسونهُ كأنَّهم يتأكدون من أنَّه على ما يرام، وقد بدوا مرتاحين ولكن خجلين كأنَّهم يشعرون بالذنبِ لتخليهم عنهُ. كانوا مضطربين بمن فيهم رالف.

«ذلكَ الرجلُ الذي أصبتُهُ بالسهمِ. هل إصابتُهُ خطيرةٌ؟» سألَ رالف.

«إنَّهُ ميتٌ»، قالَ ميرثن وعرضَ على رالف السهمَ الذي ما زالَ ملطخاً بالدماءِ.

«هل أخرجتَهُ من عينِهِ؟»

رغبَ ميرثن جداً بالقولِ بأنَّه فعلَ هذا، ولكنَّهُ قررَ أن يقولَ الحقيقةَ: «لقد أخرجَهُ الفارسُ».

«ما الذي حدثَ للجندي الآخر؟»

«قطعَ الفارسُ عنقَهُ ومن ثمّ خبأ الجثتين في الأجمةِ».

«وتركَكَ تذهبُ؟»

«أجل»، قالَ ميرثن دونَ أن يتفوهَ بكلمةٍ عن الرسالةِ المدفونةِ.

«يجبُ أن نحتفظَ بهذا السِّرِ»، حثَّتهم كاريس. «سنقعُ في متاعب رهيبةٍ إن عرفَ أحدٌ بالأمرِ».

«لن أخبرَ أحداً البتَّة»، قالَ رالف.

«يجبُ أن نؤدي قَسماً»، قالت كاريس.

وقفوا بعضهم بجانبِ بعضٍ في حلقةٍ صغيرةٍ ومدَّت كاريس يدَها إلى أن أصبحَت في وسطِ الدائرةِ ثمَّ وضعَ ميرثن يدهُ فوقَ يدِها، كانت بشرتُها ناعمةً ودافئةً، ومن ثمَّ وضعَ رالف يدهُ، وحذَت غويندا حذوَهُ، وأقسموا بدمِ المسيحِ على عدمِ إفشاءِ السِّرِ.

وعادوا إلى البلدةِ.

كانَ التَّدربُ على رمي السهامِ قد انتهى، وقد حانَ الوقتُ الآن لتناولِ وجبةِ منتصفِ النهارِ. وبينما كانوا يعبرونَ الجسرَ قال ميرثن لرالف: «عندما أكبرُ أريدُ أن أصبحَ مثلِ ذلكَ الفارس. أريدُ أن أكون دمثَ الطبعِ لا أهاب شيئاً وفتاكاً في أي قتالٍ أدخلُ فيهِ».

«وأنا أيضاً»، قالَ رالف. «أريدُ أن أكونَ فتَّاكاً».

إبانَ عودتِهم إلى المدينةِ القديمةِ انتابَ ميرثن إحساسٌ غريبٌ فقد كان مصدوماً برؤيةِ الحياة تجري من حولِهم بكلِّ طبيعيةٍ؛ أصواتُ الأطفالِ يبكون، ورائحةُ اللحمِ المشوي، ومنظرُ الرجالِ يشربونَ الجعةَ خارجَ الحاناتِ.

توقفَت كاريس عند منزلٍ كبيرٍ في الشارعِ الرئيسي قبالةَ مدخلِ الديرِ ثمَّ وضعَت ذراعَها حول كتفي غويندا وقالت: «لدى كلبتي جراء، هل تريدين أن تريها؟»

كانت غويندا ما تزالُ خائفةً وعلى وشكِ البكاءِ في أيِّ لحظةٍ، ولكنَّها أومأت برأسِها بشدّة وقالت: «أجل، من فضلك».

وفكرَ ميرثن بأنَّ بادرةَ كاريس تشي بأنَّها ذكيَّة وحنونة. ستكونُ الجراءُ عزاءً للفتاةِ الصغيرةِ وستُبعدُ تفكيرها عن فقدانِ كلبِها أيضاً، وعندما تعودُ إلى أهلِها ستتحدثُ عن الجراءِ أكثر مما ستحاولُ التحدثَ عن الغابةِ.

ودعوا بعضهم بعضاً، ودخلَت الفتاتان إلى المنزلِ ثمَّ وجدَ ميرثن نفسَهُ يتساءلُ إن كان سيرى كاريس مجدداً ولكن المتاعب الأخرى عادَت لتشغلَ باله، وتساءلَ في نفسِهِ عمَّا سيفعلُه والدُه بشأنِ ديونِهِ. سارَ ميرثن ورالف عائدين إلى الكاتدرائيةِ وقد حملَ رالف القوسَ والأرنبَ الميّتَ بينما الهدوءُ يعمُّ المكانَ.

كانَ منزلُ الزوارِ خالياً باستثناءِ بعضِ المرضى، وقالَت لهما راهبةٌ: «إنَّ والديكما في الكنيسةِ مع إيرلِ شايرنغ».

دخلا معاً إلى الكنيسةِ العظيمةِ ووجدا والديهما في الردهةِ. كانت والدتُهما جالسةً على قاعدةِ أحدِ الأعمدةِ، وتحديداً على الزاويةِ البارزةِ حيثُ يلتقي العمودُ المدورُ بالقاعدةِ المُربَّعةِ. وفي الضوءِ الباردِ الذي تسللَ من النوافذِ العاليةِ بدا وجهُها هادئاً كأنَّها جزءٌ من الحجرِ الرمادي ذاتهُ للعمودِ الذي اتكأت عليهِ. وقفَ والدُهما بجانبِها وقد أرخى كتفيهِ العريضتين في وضعيةٍ تشي بالاستسلامِ. كانَ الإيرل رولاند يقفُ قبالتهما، ورغمَ أنَّه كانَ أكبر من والدِهما فإنَّه بدا، بشعرِهِ الأسودِ وحيويتِهِ، أكثرَ شباباً منه، وبقربِ الإيرل وقفَ رئيسُ الديرِ أنتوني.

وقفَ الصبيانِ عندَ البابِ، ولكنَّ والدتهما حثَّتهما على التقدمِ قائلةً: «تعالا إلى هنا. لقد ساعدنا الإيرل رولاند على الوصولِ إلى ترتيبٍ مع رئيسِ الديرِ أنتوني وحلِّ جميعِ مشاكلِنا».

نمَّت عن والدِهما نخرة تشي بأنَّه لم يكن ممتناً كوالدتهما على ما قامَ بهِ الإيرل.

«وسيضعُ الديرُ يدهُ على الأراضي. ولن يكون لديكما ما ترثانِهِ»، قالَ والدهما.

«سنبقى هنا في كينغزبريدج»، تابعَت الأمّ بابتهاجٍ، «وسنعيشُ كمستفيدين من الديرِ».

قالَ ميرثن: «ما الذي يعنيهِ مستفيدٌ؟»

«يعني أنَّ الرهبان سيقدمونَ لنا منزلاً لنعيشَ فيهِ، ووجبتين يومياً لبقيةِ حياتِنا. أليسَ هذا رائعاً؟»

عرفَ ميرثن أنَّها لم تكن تعتقدُ أنَّ الأمرَ رائعٌ بل تتظاهرُ بأنَّها سعيدةٌ. لا بدَّ أن والدهُ يشعرُ بالخجلِ لخسارتِهِ أراضيهِ، وأدركَ ميرثن أنَّ هناكَ ما هو أكثرُ من العارِ في هذهِ الصفقةِ.

وتوَّجهَ الأبُ بالكلامِ إلى الإيرل: «ماذا عن الصّبيّين؟»

التفتَ الإيرل رولاند ونظرَ إليهما: «يبدو الفتى الأضخمُ واعداً. هل قتلتَ هذا الأرنب البرّيَّ يا فتى؟»

«أجل يا سيدي»، قال رالف بفخرٍ. «قتلتُه بسهمٍ».

«بعدَ بضعِ سنواتٍ يمكنُهُ أن يأتي إلى قلعتي ويعملَ كمرافقٍ»، قالَ الإيرل على عجلٍ. «يمكننا أن ندربهُ ليُصبحَ فارساً».

بدا والدُهما سعيداً.

شعرَ ميرثن بالاضطراب؛ فكثيرٌ من القراراتِ الكبيرةِ كانت تؤخذُ بسرعةٍ، وانتابهُ غيظٌ شديدٌ لتفضيلِ شقيقهِ الأصغر عليهِ بينما لم يأتِ على ذكرِهِ أحدٌ قط.

«هذا ليسَ عدلاً!» انفجرَ ميرثن قائلاً: «أريدُ أن أصبحَ فارساً أيضاً».

قالت والدته: «لا!»

«ولكنني صنعتُ قوساً!»

تنهَّد والدُهُ تنهيدةَ سُخطٍ وبدا مُشمئزاً.

«أنتَ من صنعَ القوسَ؟! هذا القوسُ الصغيرُ، صحيح؟» قال الإيرل بازدراء واضحٍ ثمَّ تابعَ: «في هذهِ الحالةِ يجبُ أن تتدربَ لتصبحَ نجّاراً».

-3-

كان منزلُ كاريس مبنى فخماً ومؤطراً بالألواحِ الخشبيةِ وأرضياته ومدافئه حجريَّة، وفي الطابقِ الأرضي ثلاثُ غرفٍ: قاعةٌ مع طاولةٍ كبيرةٍ لتناولِ الطعامِ، وغرفةُ جلوسٍ صغيرةٍ حيث يحظى والدها بالخصوصيةِ خلالَ تسييرهِ أمورَ العملِ، ومطبخٌ في الخلفِ. عندما دخلَت كاريس وغويندا كان المنزلُ يعبقُ برائحةِ لحمٍ مسلوقٍ يسيلُ لها اللعابُ.

قادَت كاريس غويندا عبرَ الردهةِ وباتجاهِ الدرجِ الداخلي.

«أين الجراءُ؟» سألَت غويندا.

«أرغبُ برؤيةِ أمي أولاً»، أجابَت كاريس ثمَّ أضافت: «إنَّها مريضةٌ».

دخلنا إلى غرفةِ النومِ الأماميةِ حيث كانت والدةُ كاريس مستلقية على سريرٍ خشبي مزخرفٍ. كانت امرأةً ضئيلةً وضعيفةً وفي مثلِ طولِ كاريس. بدَت الأمُّ أكثر ضعفاً من المعتادِ ولأنَّ شعرَها لم يكن مُصففاً بعد فقد التصقَت الخصلاتُ بوجنتيها الرطبتين.

«كيف تشعرين؟» سألتها كاريس.

«ببعضِ الضعفِ اليوم»، قالت الأمُّ وجهدُ الحديثِ جعلَ أنفاسَها تتقطعُ.

انتابَ كاريس مزيجٌ أليفٌ ومؤلمٌ من القلقِ وانعدامِ الحيلةِ. كانت والدتُها قد وقعت صريعةَ المرضِ منذُ عامٍ، وبدأ الأمرُ بآلامٍ في المفاصلِ ولكن سرعانَ ما بدأت تعاني من تقرحاتٍ داخلَ فمِها وظهورِ رضوضٍ كثيرةٍ على جسدِها. كانت واهنةً جداً وهذا منعَها من القيامِ بأيِّ شيءٍ. أصيبَت في الأسبوعِ الماضي بالزكامِ، وهي الآن تعاني من الحمى وتجدُ صعوبةً في التقاطِ أنفاسِها.

«هل تحتاجين إلى أيِّ شيءٍ؟» سألَت كاريس.

«لا، شكراً لكِ»، أجابت والدتها.

كان هذا جوابُها المعتادُ إلَّا أنَّ شعوراً بالغضبِ يعصفُ بكاريس في كلِّ مرَّةٍ تسمعُه فيه لأنَّها عاجزةٌ عن القيامِ بأيِّ شيءٍ لمساعدتِها.

«هل أنادي الأمَّ سيسيليا؟» سألتها كاريس.

كانت رئيسةُ ديرِ راهبات كينغزبريدج الوحيدة القادرة على توفيرِ الراحةِ لوالدتِها فقد كانت تمزجُ مستخلصَ بذورِ الخشخاش مع العسلِ والنبيذِ الدافئ ويساعد هذا على تهدئةِ الألم لبعضِ الوقتِ. كانت كاريس تحترمُ الأمَّ سيسيليا وتعتبرُها أفضلَ من الملائكةِ.

«لا داعي لهذا يا عزيزتي»، قالَت الأمُّ ثمَّ سألتها: «كيف كان قداسُ عيدِ جميعِ القديسين؟»

لاحظَت كاريس أن شفتي والدتِها شاحبتان جداً وقالَت: «مخيفٌ».

توقفت الأمّ عن الكلام قليلاً ثم قالت: «ما الذي كنتِ تفعلينه هذا الصباح؟»

«أشاهدُ تدريبات الرمي بالسهامِ»، قالت كاريس وحبسَت أنفاسَها خوفاً من أن تتكهنَ والدتها بسرها المشين كما تفعلُ عادةً.

ولكنَّ الأمَّ نظرَت إلى غويندا وسألتها: «من تكونُ صديقتُكِ الصغيرةُ؟»

«تدعى غويندا وقد أحضرتُها لتشاهدَ الجراءَ».

«كم هذا لطيفٌ!» قالَت والدتها وبدَت متعبةً فجأةً فأغلقَت عينيها وأدارَت رأسَها جانباً.

وخرجت الفتاتان من الغرفةِ بهدوءٍ.

بدَت غويندا مصدومةً وسألت كاريس: «ما خطبُها؟»

«مرضٌ خبيثٌ»، قالت كاريس التي كانت تكره التحدثَ عن الأمرِ فلطالما أثارَ فيها مرضُ والدتها شعوراً مخيفاً بأنَّه لا يوجدُ أيُّ يقينٍ، وأنَّ أيَّ شيءٍ ممكنُ الحدوثِ، وأنَّه ما من أمانٍ في العالمِ. كانَ الأمرُ أكثرَ روعاً من القتالِ الذي شهدوهُ في الغابةِ، وعندما تفكرُ بما قد يحصلُ وباحتمالِ موتِ والدتِها، تشعرُ في صدرِها بفزعٍ يرفرفُ كطائرٍ وتحس بأنَّها على حافةِ الرغبةِ بالصراخِ.

عادةً، تُستخدمُ الغرفةُ الوسطى في الصيفِ وهي مخصصةٌ لتجارِ الصوفِ الذين يعقدون الصفقاتِ مع والدِها والقادمين من فلورنسا وبراتو ولكنَّ الغرفةَ الآن فارغةٌ. كانت الجراءُ في الغرفةِ الخلفيةِ التي تشغرها كاريس وأختُها أليس. لا يتجاوز عمرُ الجراءِ سبعةَ أسابيعٍ وقد فُطمَت عن والدتِها التي بدأت تتململُ منها. عندما رأتها غويندا نمَّت عنها آهةُ فرحٍ وسرعان ما انحنَت أرضاً لتقتربَ منها.

التقطَت كاريس أصغرَ الجراءِ وكانَت أنثى مفعمةً بالنشاطِ وتحبُّ التنقلَ وحدها في الأرجاءِ واستكشافِ العالمِ.

«سأحتفظُ بهذهِ الجروة»، قالَت ثم تابعَت: «لقد أسميتها سكرابِ»، وساعدَها الإمساكُ بالكلبةِ على الاسترخاءِ قليلاً ونسيانِ الأمورِ الأخرى التي تُقلقُها.

احتشدَت الجراءُ الأربعةُ الأخرى حول غويندا تشمّها وتلوكُ فستانَها. التقطت غويندا جرواً بنياً بشعاً بخطمٍ طويلٍ وعينين قريبتين بعضهما من بعض.

«أريدُ هذا الجرو»، قالَت وتكورَ الجرو على نفسِهِ في حضنِها.

«هل تريدين الاحتفاظَ بهِ؟» قالَت كاريس.

انحدرَت الدموعُ من عيني غويندا وقالَت: «هل يمكنني؟»

«لقد سُمح لنا بالتخلي عنها».

«حقاً؟»

«لا يريدُ أبي المزيدَ من الكلابِ وإن أحببتهِ يمكنكِ الاحتفاظُ بهِ».

«أوه، أجل»، قالَت غويندا في صوتٍ أقرب إلى الهمسِ. «أجل من فضلكِ».

«وما الاسمُ الذي ستُطلقينهُ عليه؟»

«اسماً يُذكرني بكلبي هاب. قد أُطلقُ عليه اسمَ سكيب».

«هذا اسمٌ جيدٌ». ورأت كاريس أنَّ سكيب قد نامَ في حضنِ غويندا.

جلسَت الفتاتان مع الكلابِ ولزمتا الصمتَ. كانت كاريس تفكرُ بالصبيين اللذين قابلتهما، وتحديداً بالصبي الأصهبِ ذي البنية الضئيلةِ والعينين العسليتين، وفكرت أيضاً بأخيهِ الصغيرِ الوسيم. لم تكن هذهِ المرَّةَ الأولى التي تنجرفُ وراءَ دافعٍ غبي، وعادةً ما يحدثُ هذا عندما ينهاها شخصٌ ذو سلطةٍ عن القيامِ بأمرٍ ما. كانت عمتُها بيترانيلا تحبُّ وضعَ القواعدِ: «لا تُطعمي الهرَّ فلن نستطيعَ التخلصَ منهُ»، و«يُمنعُ اللعبُ بالكُرةِ داخلَ المنزلِ»، و«ابتعدي عن ذلكَ الفتى فعائلتُهُ من الفلاحين»، ويبدو أنَّ هذا النوعَ من القوانينِ التي تقيّدُ السلوكَ يدفعُ بكاريس إلى الجنونِ.

ولكنَّها لم تفعل شيئاً بمثلِ هذا الجنونِ قبلاً. أخذَت ترتعشُ عندما فكرت بالأمرِ. لقد ماتَ رجلان ولكنَ الأسوأ من هذا هو ما كان يمكن أن يحدثَ؛ فقد كانَ الأطفالُ الأربعةُ معرضين للقتلِ أيضاً.

تساءلَت في نفسِها عن سببِ القتالِ الذي جرى في الغابةِ وعمَّا دفعَ بالجنديين إلى ملاحقةِ الفارسِ. بدا واضحاً أنَّ المسألةَ لم تكن مجرَّد سرقةٍ بسيطةٍ فقد تحدثوا عن رسالةٍ ما، ولكنَّ ميرثن لم يخبرهم بأيِّ تفصيلٍ إضافيّ، وربما لم يحصل على مزيدٍ من المعلوماتِ في هذا الشأنِ. كان هذا لغزاً آخر من ألغازِ حياةِ البالغين.

أحبَّت كاريس ميرثن، أمَّا شقيقهُ المُضجر رالف فهو لا يختلفُ عن بقيَّةِ الصبيةِ في كينغزبريدج ممن يتباهون ويتصرفون بعنفٍ وغباءٍ، ولكن ميرثن يبدو مختلفاً وقد أثارَ اهتمامَها منذُ البدايةِ.

وفكرَت في نفسِها وهي تنظرُ إلى غويندا بأنَّها كسبَت صديقين في يومٍ واحدٍ. لم تكن الفتاةُ الصغيرةُ جميلةً فلها عينان بنيتان داكنتان قريبتان بعضهما من بعض وأنف طويلٍ وكبير. وأدركَت كاريس بابتهاجٍ أنَّ غويندا اختارَت كلباً يشبُهها. كانت ثيابُ غويندا قديمةً وهذا يعني أن أطفالاً آخرين قبلَها قد ارتدوها. وها هي غويندا قد هدأت الآن، ولم تعد تبدو كأنَّها على وشكِ الانخراطِ في البكاءِ في أيّ لحظةٍ. يبدو أنَّها أيضاً تأثرَت برؤيةِ الجراءِ وهدأت.

سُمِعَ صوتُ وقعِ خطواتٍ عرجاء مألوفةٍ في الردهةِ بالأسفلِ، وبعدَ برهة علا صوتٌ يقولُ: «بحقِّ القديسين أحضروا لي زجاجةً كبيرةً من الجعةِ فأنا أشعرُ بعطشِ حصانٍ يجرُّ عربةً».

«إنَّه والدي»، قالت كاريس ثمَّ أضافت: «هيا نذهبُ لمقابلتِهِ». وعندما رأت القلقَ على ملامحِ غويندا قالت: «لا تقلقي، إنَّه يصرخُ على هذا النحو دوماً، ولكنَّه شخصٌ لطيفٌ في الواقعِ».

هبطَت الفتاتان الدرجَ وهما تحملان جرويهما.

«ما خطبُ خدمي؟» زأرَ والدُها بصوتٍ عالٍ. «هل هربوا وانضموا إلى الجانِ؟»

خرجَ والدُها من المطبخِ يسيرُ الهوينا وهو يُجرجرُ ساقهُ اليمنى الملتويةَ ويحملُ قدحاً خشبياً كبيراً طافحاً بالجعةِ.

«مرحباً يا زهرتي الصغيرة»، قال لكاريس بصوتٍ أكثرَ لُطفاً ثمَّ جلسَ على كرسي كبيرٍ عندَ رأسِ الطاولةِ وأخذَ من قدحِهِ جرعةً كبيرةً.

«هذا أفضل بكثيرٍ»، قالَ ومسحَ لحيتهُ المُشعَثة بكُمِّهِ ثمَّ انتبهَ إلى وجودِ غويندا وسأل غويندا: «من هذهِ الاقحوانةُ الصغيرةُ التي ترافق زهرتي؟ ما اسمكِ؟».

«أنا غويندا من ويغلي يا سيدي»، قالَت غويندا في رهبةٍ.

«لقد أعطيتها جرواً»، شرحَت له كاريس.

«يا لها من فكرةٍ جيدةٍ!» قال والدها. «تحتاجُ الجراءُ إلى الحنانِ، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يُحبَّ جرواً كما قد تفعلُ فتاةٌ صغيرةٌ».

جلسَت كاريس على كرسيّ عالٍ قربَ الطاولةِ ورأت معطفاً قرمزياً. لا بدَّ أنه معطفٌ مستوردٌ فلا يعرفُ الدباغون الإنكليز كيفيةَ صناعةِ مثل هذا اللون الزاهي. انتبهَ والدُها إلى ما كانت تنظرُ إليهِ وقال: «إنَّه من أجلِ أمِّكِ. لطالما أرادَت معطفاً باللونِ القرمزيِ الإيطالي. آملُ أن يشجعها هذا على التعافي جيداً لترتديهِ».

أخذَت كاريس تتلمسُ المعطفَ ونعومةَ ملمسِ الصوفِ المنسوجِ بدقةٍ شديدةٍ كما هي الأقمشةُ الإيطاليةُ.

«إنَّهُ جميلٌ»، قالت كاريس.

دخلَت العمة بيترانيلا من الباب المُفضي إلى الشارعِ. كانَت بيترانيلا تشبهُ والدَ كاريس الطيِّب القلبِ بعضَ الشيءِ إلا أنَّ شخصيتها تختلفُ عن شخصيتهِ

فقد كانت متزمتةً وأكثر شبهاً بشقيقها الآخر أنتوني، رئيس دير كينغزبريدج؛ فكلاها طويلٌ ومهيبٌ بينما كانَ والدُها قصيراً ومربوعاً وعاجزاً.

لطالما كرهت كاريس العمَّة بيترانيلا التي كانت ذكيَّةً ولئيمةً في آنٍ معاً، وهذا مزيجٌ قاتلٌ في أيِّ إنسانٍ بالغ. لم تنجح كاريس يوماً في خداعِها، وشعرَت غويندا بكره كاريس لبيترانيلا لذلك نظرَت إلى القادمةِ الجديدةِ في توجسٍ. لم يُسر أحدٌ بقدومِها باستثناءِ والدِ كاريس الذي قال لها: «تعالي يا أختاه. أين ذهبَ جميعُ خدمي؟»

«لا يمكنني التفكيرُ بسببٍ قد يدفعكَ للاعتقادِ بأنني أعرفُ هذا فقد أتيتُ للتو من منزلي على الجانبِ الآخرِ من الشارعِ، ولكن يمكنني التكهن يا إدموند بأنَّ طباختَك في قِنِّ الدجاجِ تبحثُ عن البيضِ لتعدَّ لكَ البودينغ والخادمةَ في الطابقِ العلوي تساعدُ زوجتَك في الجلوسِ على كرسي المُقعدين الذي تحتاجه في فترةِ منتصفِ النهارِ؛ أمّا بالنسبةِ لمتدربيك، فأنا أرجو أنهما يقومان بواجبِ الحراسةِ في المستودعِ عندَ ضفةِ النهرِ ويحرصان على ألّا يقومَ أيٌّ من المُحتفلين الثملين بإضرامِ نارٍ من شأنِ أيّ شرارةٍ متطايرةٍ منها إشعالُ مخزنِ الصوفِ خاصَّتكَ».

كانت هذهِ الطريقةُ التي تتحدثُ بها بيترانيلا فهي تقدمُ موعظةً موجزةً كجوابٍ على سؤالٍ بسيطٍ إلّا أنَّ والدَ كاريس لم يُمانع هذا، أو ربما تظاهر بأنَّه لا يُمانع، وقال لها: «أختي الرائعةُ، أنتِ الوحيدةُ التي ورثَت حكمةَ والدِنا».

استدارَت بيترانيلا نحو الفتاتين وقالت: «ينحدرُ والدنا من سلالةِ البنَّاءِ توم، زوج والدةِ البنَّاءِ جاك ومُعلمِهِ والمهندس المعماري لكاتدرائيةِ كينغزبريدج. كان والدي قد أقسمَ على تقديمِ مولودِهِ الأوّلِ لخدمةِ الرَّب، ولكن لسوءِ الحظِّ كان المولودُ الأوّل أنثى – أنا، ومنحاني اسمَ ابنةِ القديسِ بطرس، كما أفترضُ أنَّكَ تعلمُ، وأخذَ يُصلي ليكونَ مولودهُ التالي ذكراً، ولكنَّ ابنَهُ الأوّل ولدَ مشوهاً ولم يرغب بتقديمِ هديةٍ مشوهةٍ إلى الرَّبِّ، ولهذا قامَ بتنشئةِ إدموند ليتسلَّمَ تجارةَ الصوفِ. لحسنِ الحظِّ كان طفلُهُ الثالثُ، شقيقنا أنتوني، طفلاً مهذباً ويخشى الرَّبَّ، وانضمَّ أنتوني إلى الديرِ وهو صبي وأصبحَ الآن، وبكلِّ فخرٍ، رئيسَ الديرِ».

كانت بيترانيلا ستصبح كاهناً لو أنَّها ولدت ذكراً، إلّا أنَّها قامَت ببديلٍ أفضل عن هذا فقد أنشأت ابنها غودوين ليُصبحَ راهباً في الديرِ، وتماماً كما فعلَ

والدُها وولر قامَت بتقديمِ ابنها لخدمةِ الرَّبِّ. لطالما شعرَت كاريس بالأسى على نسيبِها الأكبر غودوين لأنَّ بيترانيلا والدتهُ.

انتبَهت بيترانيلا إلى المعطفِ القرمزي وقالَت: «لمن هذا المعطفُ؟ إنَّه من أفخمِ أنواعِ الأقمشةِ الإيطاليةِ!»

«اشتريتُه من أجلِ روز»، قالَ والد كاريس.

حدَّقَت بيترانيلا إلى المعطفِ لهنيهةٍ وشعرَت كاريس بأنَّها كانت تفكرُ بأنَّ شقيقها أحمق لشرائِهِ مثلَ هذا المعطفِ لامرأةٍ لم تغادر المنزلَ منذُ عام ولكنَّها اكتفَت بالقولِ: «أنتَ طيبٌ جداً معها»، ولكن مثل هذا القول يمكن أن يكون إطراء أو ذماً.

ولكن والدَ كاريس لم يبالِ بما قالته. «فلتصعدي ولتطمئني عليها»، حثَّها إدموند. «ستُبهجينها بزيارتِكِ».

كانت كاريس تشكُّ في صحةِ هذا الكلامِ إلا أنَّه لم يكن لدى بيترانيلا أيُّ هواجس حيالَ عدمِ صحةِ الأمرِ وصعدَت إلى الطابقِ العلوي.

دخلَت أليس شقيقةُ كاريس إلى المنزلِ من الباب المُفضي إلى الشارعِ. كانت في الحادية عشرة من العمرِ وأكبر بعامٍ واحدٍ من كاريس.

حدَّقت أليس نحو غويندا وسألت: «من هذهِ؟»

«صديقتي الجديدةُ غويندا»، قالت كاريس. «ستأخذُ أحدَ الجراءِ».

«ولكنَّها تحملُ الجرو الذي أريدُه!» احتجّت أليس.

لم تكن أليس قد عبَّرت عن هذا قبلاً ولذلك قالت كاريس في غيظٍ: «أووووه... ولكنَّكِ لم تنتقي أيَّ واحدٍ من الجراءِ! أنتِ تقولين هذا بدافعِ اللؤمِ فقط».

«لمَ قد تحظى بأيِّ جرو من جرائنا؟»

تدخَّل والدهما قائلاً: «مهلاً، مهلاً. لدينا جراءٌ أكثر مما نحتاج».

«كانَ على كاريس أن تسألني أولاً عن الجرو الذي أريدُهُ».

«أجل، كان عليها أن تفعلَ هذا»، قال والدُهما رغمَ أنّه يدركُ جيداً أنَّ أليس تحاولُ افتعالَ المتاعبِ فقط، وتابع قائلاً: «لا تكرري هذا مرةً أخرى يا كاريس».

«أجل يا أبي».

دخلَت الطاهيةُ إلى القاعة قادمةً من المطبخِ وتحملُ إبريقاً وأكواباً. عندما

بدأت كاريس تتعلمُ الكلامَ كانت تُنادي الطاهية باسمِ توتي ولم يعرف أحدٌ سببَ قيامِها بهذا ولكن ومنذئذٍ التصقَ الاسم بالطاهيةِ.

«شكراً لكِ يا توتي. هيّا يا فتيات فلتجلسنَ إلى الطاولةِ»، قال إدموند.

أبدَت غويندا تردداً فلم تكن واثقةً من أنّها كانت مدعوةً أيضاً، ولكنَّ كاريس أومأت لها فهي تعلمُ أنَّ والدَها شملَها بالدعوةِ. عموماً، كان يطلبُ من أيِّ أحدٍ ضمن نطاقِ رؤيتِهِ الانضمامَ إليهِ على طاولةِ العشاءِ.

أعادَت توتي ملء كأسِ والدِ كاريس بالجعةِ، وقدَّمَت إلى أليس وكاريس وغويندا الجعةَ المخففةَ بالماءِ. وعلى الفورِ تجرَّعَت غويندا كأسَها بالكاملِ وبكلِّ سعادةٍ وتكهنَت كاريس بأنَّها لا تحظى بالجعةِ كثيراً فالفقراءُ يشربون عصيرَ التفاحِ المصنوع من التفاحِ البريِّ.

ومن ثمَّ وضعَت الطاهيةُ أمامَ كلِّ واحدٍ منهم شريحةً كبيرةً بعرضِ قدمٍ من خبزِ الجودار. أمسكَت غويندا بقطعةِ الخبزِ لتأكلها، وأدركَت كاريس أنَّ غويندا لم تجلس إلى طاولةٍ قبلاً.

«مهلاً»، قالت كاريس بكلِّ هدوءٍ وأعادَت غويندا شريحةَ الخبزِ إلى مكانِها.

أحضرَت توتي لوحاً عليه فخذٌ من لحمِ الخنزير المملح وصحناً من الملفوفِ. تناولَ والدُ كاريس سكيناً وبدأ بتقطيعِ اللَّحمِ ووضعِهِ على شرائحِ الخبزِ. حدَّقَت غويندا بعينين واسعتين إلى كميَّةِ اللَّحمِ التي أُعطيت لها ثمَّ أخذَت كاريس تغرفُ في وعاءِ الملفوفِ وتضعُ أوراقَهُ فوقَ اللَّحمِ.

وهنا أتت خادمةُ غرفِ النومِ إيلين مُسرعةً عبرَ الدرجِ وقالت: «يبدو أنَّ حالة السيدةِ قد ساءت. تقولُ السيدةُ بيترانيلا إنَّ علينا الإرسالَ بطلبِ الأمِّ سيسيليا».

«فلتهرعي إذاً إلى الديرِ ولتطلبي منها القدومَ»، قالَ الأب.

وهرعَت الخادمةُ خارجاً.

«فلتأكلنَ يا فتيات»، قالَ الأبّ وهو يُشرّحُ قطعةً من اللحمِ الساخنِ بسكينِهِ، ولكنَّ كاريس رأت أنَّ متعةَ تناولِ الطعامِ قد فارقتهُ وبدا كأنّه ينظرُ إلى شيءٍ بعيدٍ جداً.

تناولَت غويندا بعضَ الملفوفِ وقالَت همساً: «هذا طعامٌ كطعامِ الجنَّةِ»، وجرَّبتهُ كاريس. كان الملفوفُ مطهواً مع الزنجبيلِ، ومن المُرجَحِ أنَّ غويندا لم تتذوقَ الزنجبيلَ قبلاً؛ فالأغنياءُ فقط من يستطيعونَ شراءَه.

هبطَت بيترانيلا الدرجَ ووضعَت بعضَ اللَّحمِ في صحنٍ خشبي ثمَّ أخذتهُ

إلى الأمِّ في الطابقِ العلوي ولكنَّها عادَت بعدَ برهةٍ قصيرةٍ والطعامُ مازال في الصحن فجلسَت إلى الطاولةِ وأكلتهُ ثمَّ قدَّمت لها الطاهيةُ شريحةً من الخبزِ.

«عندما كنتُ فتاةً صغيرة، كانت عائلتنا العائلةَ الوحيدة في كينغزبريدج التي تحظى باللَّحمِ على العشاءِ كلَّ يومٍ، باستثناءِ فترةِ الصيامِ، فقد كانَ والدي متديناً جداً. كانَ أوَّلَ تاجرِ صوفٍ في المدينةِ يتعاملُ مع الإيطاليين بشكلٍ مباشرٍ. ورغم أنَّ الجميع يفعلُ هذا الآنَ فإنَّ أخي إدموند ما زال أهمَّ تاجرٍ بينهم».

كانت كاريس قد فقدَت شهيَّتها واضطرَّت إلى مضغِ الطعامِ لفترةٍ طويلةٍ جداً قبلَ أن تتمكنَ من ابتلاعِهِ. وأخيراً وصلَت الأمُّ سيسيليا. كانت سيسيليا امرأةً ضئيلةً وحيويةً ورغم أنّها تملكُ أسلوباً مُتسلطاً فإنَّه كان باعثاً على الطمأنينةِ. كانت برفقتِها الأختُ جوليانا وهي امرأةٌ بسيطةٌ وتملكُ قلباً عطوفاً. عندما رأتهما كاريس تصعدان السلالمَ إلى الطابقِ العلوي، الأختُ سيسيليا كسنونوةٍ مرحةٍ والأختُ جوليانا كدجاجةٍ تتهادى في إثرِها، انتابها شعورٌ بالراحةِ فهما ستقومان بمسحِ جلدِ والدتها بماءِ الوردِ للتخفيفِ من شدةِ الحمى وستساعدُ الرائحةُ العطرةُ على رفعِ معنوياتِها.

أحضرَت توتي التفاحَ والجبنةَ. قشَّرَ والدُ كاريس تفاحةً بسكينِهِ وهو شاردٌ ثمَّ تذكَّرت كاريس كيف أنَّه عندما كانَت أصغرَ عمراً أطعمها التفاحَ المُقشَّرَ بينما أكلَ هو قشور التفاحِ.

هبطَت الأختُ جوليانا الدرجَ والقلقُ بادٍ على وجهها البدين ثمَّ قالت: «تريدُ رئيسةُ الديرِ أن يأتي الطبيبُ ليعاينَ السيدةَ روز». كان جوزيف كبيرُ أطباءِ الديرِ وقد تدرَّبَ على أيدي معلمين في جامعةِ أوكسفورد. «سأذهبُ لإحضارِهِ»، قالت جوليانا وهرعَت خارجةً من بابِ المنزلِ.

وضعَ والدُ كاريس التفاحةَ المُقشَّرةَ على الطاولةِ دونَ أن يمسَّها.

قالت كاريس: «ما الذي سيحدثُ الآن؟»

«لا أعلمُ يا زهرتي. هل ستُمطرُ؟ ما عددُ أكياسِ الصوفِ التي طلبها الفلورنسيون؟ هل ستصابُ الخرافُ بطاعونِ الماشيةِ؟ هل سيكونُ الطفلُ فتاةً أم صبياً بقدمٍ عرجاءٍ؟ لا نعلم شيئاً، صحيح؟ هذا...» وأشاح بنظرِهِ بعيداً ثمَّ أضاف: «هذا ما يجعلُ الأمورَ صعبةً جداً».

قدَّمَ لكاريس التفاحةَ وبذورِها قدَّمتها إلى غويندا التي أكلتها كلها بلُبِها وببذورِها.

بعدَ فترةٍ قصيرةٍ وصلَ الأخُ جوزيف مع مساعدٍ شابٍ تعرفُهُ كاريس ويُدعى سول وايتهيد[1] بسببِ الشقرةِ الرمادية لشعرِ رأسِهِ الذي لم يبقَ منهُ سوى القليل بعد حلاقتِهِ على طريقةِ الرهبانِ.

غادرَت سيسيليا وجوليانا الطابقَ العلوي وهبطنا الدرجَ لتفسحا المجالَ للرجلين في غرفةِ النومِ الصغيرةِ. جلسَت سيسيليا إلى الطاولةِ، ولكنَّها لم تأكل. كانت تملكُ وجهاً ضئيلاً بملامح صارمةٍ: أنفٌ مدببٌ وعينان ذكيتان وذقنٌ كمقدمةِ مركبٍ. نظرَت بفضولٍ نحو غويندا وقالت بابتهاجٍ: «حسناً. من هذهِ الفتاةُ الصغيرةُ؟ وهل تُحبُّ المسيحَ ووالدتهُ الطاهرة؟»

قالت غويندا: «أدعى غويندا وأنا صديقةُ كاريس» ثمَّ نظرَت بقلقٍ نحو كاريس كأنّها خشيت أن تكون أدلت بافتراضٍ وادعت صداقةً بينهما.

قالت كاريس: «هل ستجعلُ العذراء مريم أمي في صحةٍ أفضلٍ؟»

رفعَت سيسيليا حاجبيها وقالت: «يا لهُ من سؤالٍ صريحٍ، لا بدَّ أنّكِ ابنةُ إدموند».

«الجميعُ يُصلونَ للعذراءِ من أجلِ الصحةِ ولكن صحتهم لا تتحسن»، قالت كاريس.

«وهل تعرفين سببَ هذا؟» سألت سيسيليا.

«ربما لأنّها لا تساعدُ أحداً، ولذلكَ يشفى الأقوياء والضعفاءُ يموتون».

«حسناً، لا تتحدثي بُسخفٍ»، قالَ والدُها ثمَّ أضاف: «الجميعُ يعلمُ أنَّ الأمَّ المُقدسةَ تساعدنا».

«لا بأس»، قالَت سيسيليا. «من الطبيعي أن يطرحَ الأطفالُ الأسئلةَ، بخاصَّةٍ الأذكياء منهم. كاريس، القديسون أقوياءٌ على الدوامِ ولكن هناكَ صلواتٍ أكثر تأثيراً من صلواتٍ أخرى. هل تفهمين هذا؟»

أومأت كاريس برأسِها على مضضٍ وشعرَت بأنَّ سيسيليا تفوقَت عليها أكثرَ ممّا أقنعتها.

«يجبُ أن ترتادَ مدرستنا»، قالَت سيسيليا. تديرُ الراهباتُ مدرسةً مخصصةً لبناتِ النبلاءِ وبعضِ سكانِ المدينةِ الميسورين وديرُ الرهبانُ يديرُ مدرسةً خاصَّةً للصبيانِ.

بدا والدها حروناً وقالَ: «علَّمت روز الفتاتين الأحرفَ الأبجديةَ، وكاريس تعرفُ الأعداد كما أعرفُها أنا، وهي تساعدني في عملي».

1- الرأس الأبيض (المترجمة)

«يجبُ أن تتعلمَ ما هو أكثر من هذا، فأنتَ حتماً لا تريدُها أن تقضي حياتَها كخادمةٍ لكَ؟»

تدخَّلت بيترانيلا قائلةً: «لا تحتاجُ إلى التعلّمِ من الكتبِ لأنَّها ستحظى بزواجٍ جيدٍ جداً. سيكون هناكَ حشودٌ من الخاطبين لكلتا الأختين، وسيتوقُ أبناءُ التُجارِ بل وحتَّى أبناءُ الفرسانِ، إلى الزواجِ من العائلةِ، ولكنَّ كاريس فتاةٌ عنيدةٌ وعلينا أن نحرصَ على ألا تهينَ مكانتَها بالزواجِ من موسيقي أو مُغنٍ مُعدمٍ».

لاحظَت كاريس أنَّ بيترانيلا لم تتحدَث عن أيِّ متاعبٍ محتملةٍ قد تحدثُ مع أختِها المطيعةِ أليس التي ستتزوجُ من أيِّ رجلٍ يختارونَهُ لها.

قالت سيسيليا: «وقد يستدعي الرَّبُّ كاريس لتخدمهُ».

قالَ والدُها بتجهم: «لقد استدعى الرَّبُّ اثنين من هذهِ العائلةِ لخدمتِهِ – أخي وابن أختي. وأعتقدُ أنَّه اكتفى بهذا في الوقتِ الحاضرِ».

نظرَت سيسيليا إلى كاريس وقالت: «ما رأيكِ؟ هل ترغبين بأن تصبحي تاجرةَ صوفٍ أم زوجةَ فارسٍ أم راهبةً؟»

ارتعدَت كاريس رعباً من فكرةِ التحول إلى راهبةٍ لأنَّ هذا سيعني أنَّ عليها إطاعةَ أوامرِ شخصٍ آخر طوالَ اليومِ. سيكونُ الأمرُ أشبه ببقائها طفلةً لبقيةِ حياتِها، وبأن تصبحَ بيترانيلا بمنزلة أمٍ لها. وبدَت لها فكرةُ الزواجِ من فارسٍ، أو من أيِّ أحدٍ آخرَ، سيئةً أيضاً لأنَّ علَى النساءِ إطاعةَ أزواجهن. كانت مساعدة والدِها في عملِهِ وتسلّمها للمهنةِ من بعدِهِ عندما يكبر في السنِ الخيارَ الأقلَّ سوءاً إلا أنَّه لم يكن ما حلمت بهِ.

«لا أريدُ أن أكونَ أيَّاً من هذا»، قالت كاريس.

«وماذا تريدين أن تصبحي إذاً؟» سألَت سيسيليا.

كان هناكَ أمرٌ أخفتهُ كاريس عن الجميعِ ولم تخبر بهِ أحداً، وهي في الحقيقةِ لم تدركهُ تماماً حتَّى الآن ولكن يبدو أنَّ حلمها قد تجلَّى بوضوحٍ أمامها في هذهِ اللحظةِ وأيقنَت دونَ أدنى مجالٍ للشَّكِ أنَّهُ قدرُها وقالَت: «سأصبحُ طبيبةً».

حلَّ صمتٌ وجيزٌ ثمَّ انخرطَ الجميعُ في الضحكِ.

احمرَّت كاريس خجلاً دونَ أن تعلمَ ما المُضحكُ في الأمرِ.

شعرَ والدُها بالشفقةِ عليها وقال: «الرجالُ فقط من يصبحونَ أطباء. ألم تعلمي هذا يا زهرتي؟»

شعرَت كاريس بالإرباكِ وتوجَّهت بكلامِها إلى سيسيليا: «ولكن ماذا عنكِ؟»

«أنا لستُ طبيبةً»، قالت سيسيليا ثمَّ تابعت: «نحنُ، الراهباتِ، نعنى بالمرضى حتماً ولكننا نلتزم بتعليماتِ الرجالِ المُدربين؛ فالرهبانُ الذينَ درسوا على أيدي المُعلمين يفهمونَ عملَ الجسدِ، وكيفَ يختلُّ توازنُهُ في المرضِ، والطريقةَ لاستعادةِ هذا التوازنِ الدقيق من أجلِ صحةٍ أفضل. إنَّهم يعلمون أيّ الأوردةِ يجبُ أن تُفصدَ لعلاجِ الصداعِ، وأيّها للجُزامِ وضيقِ النفسِ، وأينَ يجبُ وضعُ كؤوس الحجامةِ أو كيِّ الجسدِ، وإن كانَ يجبُ استخدامُ الكماداتِ أو الاستحمام».

«ألا يُمكنُ لامرأةٍ أن تتعلمَ هذهِ الأمور؟» سألت كاريس.

«ربما، ولكنَّ الرَّبَّ رسمَ الرجالَ لهذهِ المُهمةِ».

وشعرت كاريس باليأس من الطريقةِ التي يلجأ فيها البالغون إلى هذهِ البديهيةِ في كلِّ مرَّةٍ يعجزونَ فيها عن الإجابةِ على سؤالٍ، وقبلَ أن تتفوهَ بأيّ كلمةٍ أتى الأخُ سول هابطاً الدرجَ وبيدِهِ وعاءٌ من الدم ثمَّ دخلَ إلى المطبخ باتجاهِ الحديقةِ الخلفيَّةِ للتخلصِ منهُ. أثارَ هذا المشهدُ رغبةَ كاريس بالبكاءِ. كانَ جميعُ الأطباءِ يستخدمونَ فصدَ الدمِ كأنّه علاجٌ فعَّالٌ ولكنَّها كرهَت أن ترى المادة التي تعطي والدتها الحياة في وعاءٍ يرمى ما بداخلهِ.

عادَ سول إلى غرفةِ المريضةِ وبعدَ برهة عادَ مع الأخِ جوزيف.

«لقد قمتُ بكلِّ ما بوسعي من أجلِها»، قالَ جوزيف برزانةٍ لوالدِ كاريس. «وقد اعترفَت بخطاياها أيضاً».

اعترفَت بخطاياها! ولأنَّ كاريس تعلمُ ما الذي يعنيه هذا انخرطَت في البكاءِ.

أخذَ والدُها ستة بنساتٍ فضيَّةٍ من محفظتِهِ ونقدَها للراهبِ.

«شكراً لكَ أيُّها الأخُ»، قالَ إدموند بصوتٍ أجشّ.

بعدَ أن غادرَ الراهبان عادَت الراهبتان إلى الطابقِ العلوي.

جلسَت أليس على حضنِ والدِها ودفنَت وجهَها في عنقِهِ بينما بكَت كاريس وهي تحتضنُ كلبَها سكراب. طلبَت بيترانيلا من توني تنظيفَ الطاولةِ وراقبت غويندا كلَّ شيءٍ في ذهولٍ.

وجلسَ الجميعُ إلى الطاولةِ في صمتٍ وانتظارٍ.

-4-

كانَ الأخُ غودوين يشعرُ بالجوعِ، وعلى الرغمِ من أنَّهُ تناولَ عشاءَهُ المكون من يخنةِ اللِفت المُقطَّعِ والسمكِ المملح فإنَّه لم يشبع. غالباً ما تتألف وجبةُ عشاءِ الرهبانُ من السمكِ والجعةِ المُخففةِ بالماءِ حتى خارج فترةِ الصيام.

ولكن هذا ليسَ عشاءَ جميعِ الرهبانِ فرئيسُ الديرِ أنتوني يحظى بوجبةٍ مميزةٍ، وهو الليلة سيحظى بعشاءٍ جيّدٍ لأنَّ رئيسةَ ديرِ الراهباتِ، الأمّ سيسيليا، ستحلُّ ضيفةً عليهِ. كانت سيسيليا مُعتادةً على الطعامِ الدسمِ. يبدو أنَّ الراهبات يحظين بمالٍ أكثر من الرُهبان فقد كُنَّ يحصلنَ على ذبيحةِ خنزيرٍ أو خروفٍ كلَّ بضعةِ أيامٍ ويشربنَ نبيذَ غاسكون الفرنسي مع اللَّحم.

كانَ الإشرافُ على إعدادِ العشاءِ من مهامِ غودوين، وهذهِ مهمَّةٌ قاسيةٌ عندما يكونُ المرءُ جائعاً. تحدَّثَ غودوين إلى طبَّاخِ الديرِ وتفقدَ الإوزَّةَ السمينةَ في الفرنِ وقدرَ صلصةِ التفاحِ التي تغلي على النارِ ثمَّ طَلبَ من المسؤولِ عن المؤونةِ أن يُحضرَ إبريقاً من عصيرِ التُفاحِ من البرميلِ. أحضرَ رغيفاً من خبزِ الجودار من المخبزِ، وقد كان رغيفاً بائتاً فلا أحدَ يخبزُ أيامَ الآحادِ، ثمَّ أخذَ الأطباقَ والكؤوسَ الفضيَّةَ من الخزانةِ المُقفلةِ ووضعَها على الطاولةِ في حُجرةِ الجلوسِ الرئيسيةِ في منزلِ رئيسِ الديرِ.

يتعشَّى رئيسُ ورئيسةُ الديرِ مرَّةً شهرياً. كانَ ديرُ الرهبانِ وديرُ الراهباتِ مؤسستين منفصلتين ولهما مبانٍ خاصَّةٍ وموارد ومداخيل مختلفة، وفي الوقتِ الذي كانَ فيهِ رئيسُ ورئيسةُ الديرِ مسؤولين بشكلٍ مُستقلٍ أمامَ رئيسِ أساقفةِ كينغزبريدج فإنهما كانا يتشاركان الكاتدرائيةَ العظيمةَ والأبنيةَ الأخرى بما في ذلكَ المستشفى الذي يعملُ فيهِ الرهبانُ والأطباءُ والراهباتُ والممرضاتُ، وهناكَ تفاصيل يجبُ أن تُناقشَ على الدوامِ: طقوسُ الكاتدرائيةِ، زوارُ المستشفى والمرضى، وسياساتُ المدينةِ. يحاولُ أنتوني أحياناً دفعَ سيسيليا إلى دفعِ التكاليفِ التي يجبُ أن تكونَ موزعةً بالتساوي بينهما كتكلفةِ زجاجِ نوافذِ مُجمعِ رجالِ الكنيسةِ وهياكل الأسرَّةِ للمستشفى، وإعادةِ طلاءِ الكاتدرائيةِ من الداخلِ، وعادةً ما كانت سيسيليا توافقُ على الدفعِ.

من المرجحِ أن تكون السياسة محورَ النقاشِ اليومَ فقد عادَ أنتوني البارحةَ من رحلةٍ لأسبوعين إلى غلوستر حيثُ ساعدَ في دفنِ الملكِ إدوارد الأول الذي خسرَ عرشَهُ في كانون الثاني/ يناير وحياتَهُ في أيلول/ سبتمبر. كانت الأم

سيسيليا ترغبُ بسماعِ كلِّ الأحاديثِ التي دارَت في مراسمِ الدفنِ رغمَ أنَّها تتظاهرُ بأنَّها تترفعُ عن مثلِ هذه الصغائرِ.

كانَ هناكَ أمرٌ آخر يشغلُ بالَ غودوين؛ فقد أراد التحدث إلى أنتوني عن مستقبلِهِ، ومنذُ عودةِ رئيسِ الديرِ وهو يتحين وبفارغِ الصبرِ اللَّحظةَ المناسبةَ. لقد تدرَّبَ على ما سيقولُهُ، ولكنهُ لم يجد فرصةً للحديثِ مع أنتوني، وكانَ يأملُ في الحصولِ على هذهِ الفرصةِ عصرَ اليومِ.

دخلَ أنتوني إلى قاعةِ الاستقبالِ الرئيسيةِ بينما كان غودوين يضعُ الجبنةَ وصحناً من الإجاصِ على الطاولةِ. بدا رئيسُ الديرِ كنسخةٍ طبقِ الأصلِ عن غودوين ولكن أكبرَ عُمراً. كانا طويلين، ولهما ملامحُ عاديةٌ وشعرٌ بُني فاتح، وكبقيَّةِ أفرادِ العائلةِ كان لعيونهما لونٌ أخضر ضاربٌ للعسلي. وقفَ أنتوني بالقربِ من المدفأةِ فقد كانت الغرفةُ باردةً والبناءُ قديماً ولذلك لا يصدُّ التياراتِ الهوائيةَ الباردةَ. صبَّ لهُ غودوين قدحاً من عصيرِ التفاحِ ثمَّ قالَ وأنتوني يشرب العصيرَ: «أيُّها الأبُ رئيس الديرِ اليوم عيدُ ميلادي وقد بلغتُ الواحدة والعشرين».

«حقاً»، قالَ أنتوني. «أتذكرُ ولادتَك جيِّداً فقد كنتُ في الرابعةَ عشرةَ وأتذكرُ أنَّ أختي بيترانيلا صرخَت كخنزيرٍ بريٍّ مصابٍ بسهمٍ في أمعائهِ وهي تنجبُكَ»، ثمَّ رفعَ قدحَهُ عالياً كأنّه يقومُ بنخبٍ ونظرَ بحبٍ إلى غودوين. «وها قد أصبحَت رجلاً الآن».

وقررَ غودوين أنَّ هذهِ هي اللحظةُ المناسبةُ لفتحِ موضوعِهِ لذلكَ قالَ: «مضى على وجودي في الديرِ عشرُ سنواتٍ».

«هل هذا صحيحٌ؟»

«أجل بدأتُ كصبي في المدرسةِ ثمَّ كراهبٍ تحتَ التدريبِ وأخيراً كراهبٍ».

«يا إلهي!».

«آملُ أنني كنتُ موضعَ فخرٍ لأمي ولكَ».

«كلانا فخوران بكَ».

«شكراً لكَ»، ابتلعَ غودوين لعابهُ وتابعَ: «وأرغبُ الآن بالذهابِ إلى أوكسفورد».

لطالما كانَت مدينةُ أوكسفورد مركزاً لمُعلمي اللاهوتِ والطبِّ والقانونِ، ويتوجَّه إليها الكهنةُ والرهبانُ للدراسةِ والمجادلةِ مع المعلمين والطلّابِ

الآخرين. في القرنِ الماضي وبإذنٍ ملكي جُمعَ المُعلمون في عصبةٍ، أو جامعةٍ إن جازَ التعبيرِ، لإجراءِ امتحاناتٍ ومنحِ الدرجاتِ. يملكُ ديرُ كينغزبريدج فرعاً له، أو صومعةً في المدينةِ، وهذا الفرعُ معروفٌ باسمِ «كُلية كينغزبريدج»، حيثُ يُمكنُ لثمانيةِ رُهبانٍ متابعة حياةِ التَّعبدِ ونكرانِ الذاتِ والدراسةِ في آنٍ معاً.

«أوكسفورد»، قالَ أنتوني وعلا وجههُ تعبيرٌ يوحي بالوجلِ والقرفِ: «لماذا؟»

«لأدرسَ فهذا ما يُفترضُ بالرهبانِ أن يفعلوه».

«لم أذهَب إلى أوكسفورد وها قد أصبحتُ رئيسَ الديرِ».

كانَ هذا صحيحاً، ولكن أحياناً وبسببِ هذا لا تسيرُ الأمورُ على هوى أنتوني عندما يتعاملُ مع زملائهِ الأكبر منهُ؛ فأمينُ الذخائرِ المُقدسةِ وأمينُ الخزانةِ والعديدُ من موظفي الديرِ الآخرين من خريجي الجامعةِ وهم أطباءٌ أيضاً. كانوا سريعي البديهةِ وبارعين في المجادلةِ، ومقارنةً بهم كان أنتوني يبدو أحياناً كأنّه يتلعثمُ، بخاصَّةٍ خلالَ الاجتماعِ اليومي للرهبانِ. تاقَ غودوين إلى اكتسابِ ذلكَ المنطقِ الحذقِ وذاكَ التفوقِ الرفيعِ اللذين لاحظهما عند خريجي أوكسفورد، ولم يرغب أن ينتهي به المطافُ كخالِهِ أنتوني.

ولكن لم يكن بوسعِهِ قولُ هذا لذلكَ اكتفى بالقولِ: «أريدُ أن أتعلَّمَ».

«لِمَ تريدُ تعلَّمَ الهرطقةِ؟» قالَ أنتوني بازدراءٍ. «إنَّ طُلابَ أوكسفورد يشككونَ بتعاليمِ الكنيسةِ».

«من أجلِ فهمِها بشكلٍ أفضلٍ».

«هذا أمرٌ لا طائلَ منهُ وخطيرٌ».

تساءلَ غودوين في نفسِهِ عن سببِ إثارةِ أنتوني لكلِّ هذا الهرجِ والمرجِ حيالَ الأمرِ؛ فلم يبدُ على رئيسِ الديرِ القلق مسبقاً حيال مسألةِ الهرطقةِ، ولم يكن غودوين مُهتماً أصلاً بتحدي العقيدةِ المُسلَّمِ بها.

اكفهرَّ وجه غودوين وقالَ لأنتوني: «اعتقدتُ أنَّكَ ووالدتي ترغبان بأن أكونَ طموحاً. ألا تريدني أن أتطورَ، أن أصبحَ موظفاً في الديرِ، وربما رئيسَ ديرٍ في يومٍ من الأيامِ؟»

«ستصبحُ رئيساً للديرِ في نهايةِ المطافِ، ولكن لماذا تريدُ مغادرةَ كينغزبريدج لتحققَ هذا!».

وفكرَ غودوين في نفسِهِ: «أنتَ لا تريدني أن أتطورَ بسرعةٍ كبيرةٍ حتَّى لا

أتفوقَ عليكَ، ولا تريدني أن أغادرَ المدينةَ حتَّى لا تفقدَ السيطرةَ علي». كانَ غودوين قد أدركَ هذا في لحظةِ تبصرٍ سريعةٍ، وتمنى لو أنَّه توَّقعَ مثلَ هذهِ المقاومةِ لمخططاتِهِ.

«لا أرغبُ بدراسةِ اللاهوتِ»، قال غودوين أخيراً.

«ما الذي ستدرسُهُ إذاً؟» سأل أنتوني.

«الطبُّ. إنَّهُ جزءٌ مهمٌ من عملِنا هنا».

زمَّ أنتوني شفتيهِ في امتعاضٍ، وكان غودوين قد رأى التعبيرَ الساخطَ ذاته على وجهِ والدتِهِ. «لا يستطيعُ الديرُ التكفّل بدراستِكَ»، قالَ أنتوني. «هل تدركُ أنَّ كتاباً واحداً فقط يُكلِّفُ أربعةَ عشر شلناً على الأقلِّ».

فوجئَ غودوين بهذا الكلامِ، فهو يعلمُ أنَّ الطلابَ يستطيعونَ استئجارَ الكُتبِ بالصفحةِ، ولكن لم يكن هذا جوهرَ الأمرِ.

«ماذا عن الطلابِ الموجودين هناك حالياً؟» قالَ غودوين. «من يتكفلُ بدراستِهم؟»

«هناكَ طالبان تمولُهما أسرتاهما وواحدٌ تكفّلت بهِ الراهباتُ والديرُ يمولُ الطلاب الثلاثة الآخرين، ولذلك لا يمكننا أن نمولَ مزيداً من الطُلابِ. في الحقيقةِ هناكَ مقعدان شاغران في الكُليةِ بسببِ قلّةِ التمويلِ».

يعلمُ غودوين أنَّ الديرَ يعاني من مشاكلَ ماديَّةٍ إلَّا أنَّه ومن جهةٍ أخرى يملكُ موارد هائلةً: آلافُ الفدادين من الأراضي ومطاحن ومزارعُ تربيةِ أسماكٍ وغاباتٌ ومدخولٌ هائلٌ من سوقِ كينغزبريدج. لم يكن بوسعِهِ التصديقُ بأنَّ خالَهُ رفضَ تمويلَ ارتيادِهِ جامعةَ أوكسفورد، وشعرَ كأنّه خُدعَ. كان أنتوني مُعلّمهُ وقريبهُ أيضاً، ولطالما فضَّلَ غودوين على بقيَّةِ الرُهبانِ الشُبانِ، ولكنَّهُ الآن يحاولُ أن يكبحَ طموحَ غودوين.

«يجلبُ الأطباءُ المالَ للديرِ»، جادلَ غودوين، «وإن لم تقم بتدريبِ الشبابِ سيغدو الديرُ أكثرَ فقراً عندما يموتُ الأطباءُ الكبارُ».

«سيتكفَّلُ بنا الرَّبُّ».

كانَ هذا الجوابُ البديهي والمُزعج جوابَ أنتوني الدائمَ. منذُ بضعِ سنواتٍ بدأ مدخولُ الديرِ من سوقِ الصوفِ بالتراجع فحثَّ سكانُ البلدةِ أنتوني على الاستثمارِ في بناءِ مرافقَ أفضل لتجارِ الصوفِ كنصبِ الخيمِ والأكشاكِ والمراحيضِ، بل حتَّى في بناءِ مكانٍ مخصصٍ لتجارةِ الصوفِ، ولكنَّهُ رفضَ

على الدوام مُدّعياً الفقرَ، وعندما أخبرَهُ شقيقهُ إدموند بأنَّ وضعَ السوقِ سيستمرُ بالتدهورِ إلى أن يتداعى قالَ له أنتوني: «سيتكفَلُ بنا الرَّبُّ».

قالَ غودوين: «إذاً، قد يتكفَلُ بأمرِ المالِ الذي أحتاجُهُ للذهابِ إلى أوكسفورد».

«قد يفعلُ».

شعرَ غودوين بخيبةِ أملٍ مؤلمةٍ فقد كان يتوقُ إلى الابتعادِ عن مدينتِهِ وتجربةِ هواءٍ مختلفٍ عن هوائها. بالطبعِ سيخضعُ في كُليةِ كينغزبريدج إلى الانضباطِ الرهباني ذاتهُ، ولكنَّهُ سيكونُ بعيداً عن خالِهِ وأمِهِ، وكانت هذهِ الفكرةُ بحدِّ ذاتِها مُغريةً.

ولكنَّهُ لم يكن مُستعداً للتخلي عن حجتِهِ وقالَ: «سيخيبُ أملُ أمي إن لم أذهب».

بدا أنتوني مُرتبكاً فهو لا يرغبُ بإثارةِ غضبِ أختِهِ المُرعبةِ ولذلك قال: «إذاً، اطلب منها أن تُصلي من أجلِ المالِ».

«قد أتمكنُ من الحصولِ عليهِ من مكانٍ آخرٍ»، ارتجلَ غودوين.

«كيفَ ستفعلُ هذا؟» سأل أنتوني.

أخذَ غودوين يفكرُ بجوابٍ وهبطَ عليهِ الإلهامُ. «يمكنني أن أقومَ بما تقومُ بهِ وأطلبَ المالَ من الأمِّ سيسيليا». كان هذا خياراً ممكناً رغمَ أنَّ سيسيليا تثيرُ توترهُ فهي مخيفةٌ كبيترانيلا إلّا أنّها كانت أكثر تأثراً بسحرِهِ الصبياني، وقد يتمكنُ من إقناعِها بتمويلِ راهبٍ شابٍ وذكي.

بوغِتَ أنتوني بهذا الاقتراحِ، ورأى غودوين أنَّ أنتوني يفكرُ باعتراضٍ ما إلا أنَّ حجتهُ الأساسية كانت المالَ ولذلكَ باتَ من الصعبِ عليه الآن أن يغيرَ هذهِ الحجة.

وبينما كانَ أنتوني يفكرُ بإجابةٍ دخلَت سيسيليا.

كانت سيسيليا في عباءةٍ ثقيلةٍ من الصوفِ الفاخرِ، وكانَ هذا الانغماس الوحيد الذي سمحَت بهِ لنفسِها فهي تكره البردَ الشديدَ. بعدَ إلقائها التحيَّةَ على رئيسِ الديرِ التفتَت نحو غودوين وقالت: «زوجةُ عمِّكِ روز في حالةٍ صحيَّةٍ سيئةٍ جداً، وقد لا تعيش لترى صباحَ الغدِ».

«فليكن الرَّبُّ في عونِها»، قالَ غودوين وشعرَ ببعضِ الشفقةِ على زوجةِ عمهِ؛ ففي عائلةِ الجميعُ فيها قادةٌ كانت روز التابعَ الوحيدَ فيها، ولكن يبدو أنَّ

بتلاتِها كانت هشّةً جداً على نباتِ العُليقِ المحيطِ بها، وأضاف غودوين قائلاً: «لستُ متفاجئاً بهذا الخبر، ولكن ابنتي خالي، أليس وكاريس، ستحزنان على خسارتها».

«لحسنِ الحظِ لديهما والدتك لتواسيهما».

«أجل»، أجابَ غودوين وفكرَ بأنَّ بيترانيلا لا تملكُ مهارةَ مواساةِ أحدٍ فقد كانت أكثرَ مهارةً في تقويمِ الآخرين ومنعِهم من الارتدادِ عن الصراطِ المستقيمِ. لم يقم غودوين بتصحيحِ كلامِ رئيسةِ الديرِ في هذا الشأنِ، وبدلاً من هذا سكبَ لها قدحاً من عصيرِ التفاحِ.

«هل تشعرين بالبردِ هنا أيّتها الأمُّ الموقرةُ؟» سأل غودوين.

«أكادُ أتجمّدُ»، أجابَت بصراحةٍ.

«سأُغذي النارَ في المدفأةِ».

وقالَ أنتوني بمكرٍ: «ابن أختي غودوين يتصرفُ بلطفٍ لأنّهُ يريدكِ أن تمولي ارتياده أوكسفورد».

حدَّقَ غودوين نحوه في غيظٍ شديدٍ فقد خططَ بدقةٍ لما سيقولُه لها وللوقتِ الذي سيُفاتحها بالموضوعِ، ولكن ها هو أنتوني يُفشي مخطّطهُ بأكثرِ الطرقِ بُغضاً.

قالَت سيسيليا: «لا أعتقدُ أننا نستطيعُ تحمّلَ مصاريفِ طالبين آخرين».

وكانَ الآن دور غودوين قد فوجئ حقاً: «هل طلبَ منكِ شخصٌ آخر الذهابَ إلى أوكسفورد؟»

«ربما من الأفضلِ ألا أقولَ اسمَهُ»، أجابَت سيسيليا ثمَّ أضافت: «فأنا لا أريدُ أيَّ عواقب».

«لن يكونَ هناكَ عواقب»، قالَ أنتوني كأنّه تلقى إهانةً ثمَّ تمالكَ نفسَهُ وأضافَ: «إننا ممتنون لكرمِكِ على الدوامِ».

وضعَ غودوين المزيدَ من الحطبِ في المدفأةِ وغادرَ. كانَ منزلُ رئيسِ الديرِ على الجانبِ الآخرِ من الكاتدرائيةِ، وأماكنُ الانعزالِ ومباني الديرِ على الجانبِ الجنوبي منها. عبرَ غودوين مرتجفاً حديقةَ الكاتدرائيةِ باتجاهِ مطبخِ الديرِ.

كان غودوين قد توقَّع أن يراوغَ أنتوني بشأنِ الذهابِ إلى أوكسفورد وأن يقولَ إنَّ على غودوين الانتظار إلى أن يصبحَ أكبرَ عُمراً، أو ربما حتّى يتخرَّج أحدُ الطلابِ الحاليين؛ فقد كان أنتوني مراوغاً بطبعِهِ، ولكنه كان كلبَ أنتوني

المدللَ، ولهذا كانَ واثقاً من أنَّ خالَهُ سيدعمُهُ في نهايةِ المطافِ، ولكن رفض أنتوني الصريح خلَّفَ في نفسِ غودوين شعوراً بالصدمةِ.

وتساءلَ غودوين في نفسهِ عن الشخصِ الآخرِ الذي طلبَ دعمَ رئيسةِ الديرِ. من بين الرهبانِ الستةِ والعشرين هناكَ ستةُ رهبانٍ في مثلِ عُمرِ غودوين، وقد يكون هذا الشخصُ أيَّ واحد منهم. في المطبخِ كان نائبُ أمينِ المؤونة ثيودريك يُساعدُ الطبَّاخَ، وتساءلَ غودوين إن كان ثيودريك غريمَهُ في الحصولِ على دعمِ سيسيليا. أخذَ غودوين يراقبهُ وهو يضعُ الإوزةَ على طبقٍ فضي كبيرٍ مع وعاءٍ من صلصةِ التفاحِ. كان ثيودريك ذكيّاً بما يكفي ليدرسَ في أوكسفورد وقد يكون منافسه.

حملَ غودوين العشاءَ إلى منزلِ رئيسِ الديرِ والقلقُ يعتملُ في داخلهِ. إن قررَت سيسيليا أن تساعدَ ثيودريك فهو لا يعلمُ ما الذي يتوجبُ عليهِ القيام به وهو لا يملك أيّ خطةٍ بديلةٍ.

أرادَ غودوين أن يصبحَ رئيسَ ديرِ كينغزبريدج في يومٍ من الأيام، وكانَ واثقاً من أنَّهُ سيقومُ بهذا العملِ بشكلٍ أفضلٍ مما يقومُ بهِ أنتوني، وإن نجحَ كرئيسِ ديرٍ فقد يحصلُ على ترقيةٍ ويصبحُ أسقفاً، أو رئيسَ أساقفةٍ، أو ربما موظفاً ملكياً أو مستشاراً. لم يكن لديهِ سوى فكرة ضبابية عمَّا سيفعلُه بكلِّ تلك السُلطةِ، ولكنَّهُ شعرَ بقوةِ الانتماء إلى مكانةٍ عاليةٍ في الحياةِ، ولم يكن هناكَ سوى سبيلين للوصولِ إلى هذهِ المكانةِ العاليةِ: أن يكونَ من مُحتدٍ أرستقراطي أو بالتعليمِ، ولأنَّه ينحدرُ من عائلةِ تُجارِ صوفٍ كان الذهابُ إلى الجامعةِ أمله الوحيد لتحقيقِ طموحِهِ ولكنه بحاجةٍ إلى تمويلِ سيسيليا كي يحققَ هذا.

وضعَ غودوين الطعامَ على الطاولةِ وسألت سيسيليا: «ولكن كيفَ ماتَ الملكُ؟»

«لقد سقطَ»، قالَ أنتوني.

قطَّعَ غودوين الإوزةَ ثم قالَ لسيسيليا: «هل تريدين بعضاً من لحمِ الصدرِ أيتّها الأمُّ الموقرةُ؟»

«أجل من فضلكِ، عمَّا سقطَ إذاً؟» سألت بارتيابٍ ثمَّ تابعت: «تتحدثُ كأنَّ الملكَ عجوزٌ خرفٌ. لقد كان في الثالثة والأربعين من العمرِ».

«هذا ما قالهُ سجَّانُهُ»، أجاب أنتوني لقد عُزلَ الملكُ وسُجنَ في قلعةِ بيركلي التي تبعدُ مسيرَ يومين على الجياد من كينغزبريدج.

«أجل، سجّانُهُ»، قالَت سيسيليا ثمَّ تابعت: «رجالُ مورتمور». استهجنت سيسيليا أفعال إيرل مقاطعةِ مارش روجر مورتمور؛ فهو لم يقد عصياناً على الملكِ إدوارد الثاني وحسب بل أغوى زوجتَهُ الملكةَ إيزابيلا.

بدأ بتناولِ الطعامِ، وتساءلَ غودوين إن كان سيتبقى من الطعامِ أيُّ شيءٍ.

قالَ أنتوني لسيسيليا: «يبدو كأنّكِ تُشككين بوجودِ شيءٍ مريبٍ في الأمرِ».

«بالطبعِ لا، ولكن هناكَ آخرين يشكونَ. هناكَ أحاديثٌ...»

«حولَ أنّهُ قُتلَ؟ أعلمُ بهذهِ الأحاديث، ولكنني رأيتُ الجثّةَ عاريةً. لم يكن هناكَ أيُّ علائم على تعرُّضِ الجثةِ إلى أيِّ عملٍ عنيفٍ».

علمَ غودوين بأنّه لا يتوجبُ عليهِ مُقاطعتهما ولكنّهُ لم يستطع المقاومةَ: «هناكَ إشاعةٌ تقولُ إنَّ الملكَ عندما قُتلَ صرخَ عالياً من الألمِ وسمعَ صراخهُ جميعُ سكانِ مدينةِ بيركلي».

استنكرَ أنتوني كلام غودوين بقولهِ: «عندما يموت الملوك تكثرُ الإشاعاتُ».

«لم يمت الملكُ»، قالَت سيسيليا. «إنّهُ أوّلُ ملكٍ يعزلُهُ البرلمانُ، وهذا أمرٌ لم يحدث قبلاً».

أخفضَ أنتوني صوتَهُ قائلاً: «كانت أسبابُ العزلِ قويّةً. لقد اقترفَ خطيئةَ الفجورِ».

تحدَّثَ أنتوني بشكلٍ غامضٍ ولكنَّ غودوين فهمَ ما رمى إليهِ. كان لدى الملك إدوارد «أشخاص مُفضلون»... شباب بدا مُولعاً بهم بشكلٍ غير طبيعي. يعدُّ بيتر غيفستون أوّلَهم فقد حظي بسلطةٍ وامتيازاتٍ كبيرةٍ إلى درجةٍ أثارَ معَها الغيرةَ والاستياءَ بين البارونات، وأُعدمَ في النهايةِ بتهمةِ الخيانةِ، إلّا أنَّ هناكَ آخرين غيرهُ، ولم يُبدِ الناسُ استغرابهم عندما اتخذَت الملكةُ عشيقاً لها.

«لا يمكنني تصديقُ مثلَ هذا الكلامِ»، قالت سيسيليا التي كانت من أشدِّ أنصارِ المَلكيّة ثمَّ تابعت: «قد يكون الأمرُ صحيحاً لو أننا نتحدثُ عن خارجين عن القانونِ في الغابةِ ممن سيسمحون لأنفسِهم بممارسةِ هذهِ الأفعالِ المشينةِ، ولكن لا يُمكنُ لرجلٍ يحملُ في عروقِهِ دماءً ملكيّةً أن ينحدرَ إلى هذا المستوى. هل يوجدُ المزيدُ من لحمِ الأوزةِ؟»

«أجل»، قالَ غودوين بخيبةٍ وهو كانَ يقطعُ القطعةَ الأخيرةَ من لحمِ الأوزةِ ويُقدِّمِها إلى رئيسةِ ديرِ الراهبات.

قالَ أنتوني: «على الأقلِّ لن يواجه الملك الجديد أيَّ تحدياتٍ». كان ابن

إدوارد الثاني والملكة إيزابيلا قد توِّجَ رسمياً وأصبحَ الملكَ إدوارد الثالث.

«إنَّهُ في الرابعة عشرة ومورتمور من وضعهُ على العرشِ»، قالَت سيسيليا ثمَّ سألت: «من سيكونُ الحاكمَ الحقيقي؟»

«النبلاءُ سعداءُ باستقرارِ الأمورِ».

«بخاصَّةٍ أولئكَ النبلاء المُقربون من مورتمور».

«هل تعنين بكلامِكِ نبلاءَ من أمثالِ رولاند، إيرل شايرنغ؟»

«كان يبدو مُتحمساً جداً اليومَ».

«أنتِ تفترضينَ...»

«أنَّ له يداً في «سقطةِ» الملكِ؟ بالطبعِ لا»، قالت رئيسةُ الديرِ وأنهت قطعةَ اللَّحمِ ثمَّ أضافت: «إنَّ التحدثَ في هذا الشأنِ أمرٌ خطيرٌ بخاصَّةٍ بينَ الأصدقاءِ».

«حقاً».

سُمعَ صوتُ قرعٍ على البابِ ودخلَ سول وايتهيد. كان سول بعُمرِ غودوين، وتساءلَ غودوين إن كان سول منافسَهُ فهو ذكي وكفءٌ ولديهِ ميزةٌ كبيرةٌ ألا وهي صلةُ القربى البعيدةِ التي تربطه بإيرل شايرنغ، ولكن غودوين لم يكن واثقاً من أنَّ سول يطمح إلى الذهابِ إلى أوكسفورد. كانَ ورعاً وخجولاً ومن النوعِ الذي لا يعتبرُ الفضيلةَ فضيلةً بل سمةً طبيعيةً، ولكن جميع الاحتمالاتِ واردةٌ.

«لقد وصلَ فارسٌ إلى المستشفى وهو مصابٌ بجرحٍ جرَّاءَ طعنةِ سيفٍ»، قال سول.

«هذا مثيرٌ للاهتمامِ»، قالَ أنتوني. «ليسَ طارئاً بما يكفي لتقاطعَ عشاءَ رئيسِ ورئيسةِ الديرِ».

بدا سول مُرتعباً وقالَ مُتلعثماً: «أرجو المعذرةَ أيُّها الأبُ رئيس الديرِ»، ثمَّ تابعَ: «لكن هناكَ خلافٌ على العلاجِ».

تنَّهدَ أنتوني وقالَ: «حسناً، لقد انتهينا من تناولِ الإوزةِ»، ونهضَ على قدميهِ.

رافقته سيسيليا ولحقَ بهما غودوين وسول. دخلوا جميعاً إلى الكاتدرائيةِ من جناحِ الكنيسةِ الشمالي وعبروا التقاطعَ ثمَّ اتجهوا إلى الجناحِ الجنوبي وتجاوزوا مُعتزل الرهبانِ باتجاهِ المستشفى. كان الفارسُ المُصاب ممدداً على سريرٍ بالقربِ من مذبحٍ وكما يليقُ بمكانتِهِ.

أطلقَ رئيسُ الديرِ أنتوني نخرةً عفويَّةً تنُمُّ عن المفاجأةِ، ولوهلةٍ بدا مصدوماً

وخائفاً إلَّا أنَّه تعافى من صدمتِهِ على الفورِ وتمالَكَ نفسَهُ بسرعةٍ ثمَّ بدا وجهه خالياً من أيِّ تعبيرٍ.

ولكن سيسيليا لم تفتها ملاحظةُ هذا وسألَت أنتوني: «هل تعرفُ هذا الرجلَ؟»

«أعتقدُ أنني أعرفُهُ. إنَّهُ السير توماس لانغلي، وهو من رجالِ الإيرل مونماوث».

كانَ الفارسُ رجلاً وسيماً في العشرين من عمرِهِ بكتفينِ عريضتين وجذعٍ مفتولِ العضلاتِ وموسومٍ بجروحِ معاركَ قديمةٍ. بدا شاحباً ومُنهكاً.

«لقد هوجمَ على الطريقِ»، شرحَ لهم سول، «ورغمَ أنَّهُ تغلَّبَ على المُعتدين فإنَّهُ اضطُرَّ إلى جرِّ نفسِهِ لمسافةِ ميلٍ أو أكثر باتجاهِ المدينةِ. لقد فقدَ الكثيرَ من الدماءِ».

كانت ذراعُ الفارسِ اليسرى مصابةً بجرحٍ من المرفقِ وحتَّى الرسغِ. كان جرُحاً مفتوحاً وبدا واضحاً أن سيفاً حاداً قد سببه.

وقفَ كبيرُ أطباءِ الديرِ الأخُ جوزيف بجانبِ المريضِ. كان جوزيف في الثلاثين وهو ضئيلُ البنيةِ وله أنفٌ كبيرٌ وأسنانٌ منخورةٌ.

قالَ جوزيف: «يجبُ أن يبقى الجرحُ مفتوحاً ومعالجتُهُ بالمراهمِ حتَّى يخرجَ القيحُ، وبهذهِ الطريقةِ ستتوازن أخلاطُ الجسدِ ويُداوى الجرحُ من الداخلِ وحتَّى الخارجِ».

أومَأ أنتوني برأسِهِ وقالَ: «إذاً، ما هو وجهُ الخلافِ؟»

«لدى الحلاق ماثيو اقتراحٌ آخر».

كانَ ماثيو حلاقاً وجرَّاحاً من المدينةِ وقد وقفَ في الخلفِ بدافعِ الاحترامِ ولكنه الآن تقدَّمَ حاملاً حقيبةً جلديَّةً تحوي على مباضع حادَّةٍ وباهظةٍ. كانَ رجلاً ضئيلاً ونحيلاً بعينين زرقاوين ذكيتين وعلى وجههِ تعبيرٌ يشي بالرزانةِ.

لم يتعرَّف أنتوني على ماثيو ولكن قالَ لجوزيف: «ما الذي يفعلُهُ هنا؟»

«الفارسَ يعرفُهُ وهو من أرسلَ بطلبِهِ».

تحدَّثَ أنتوني إلى توماس وسأله: «إن أردتَ أن تُذبحَ لماذا أتيتَ إلى مستشفى الدير؟»

وارتعشَ شبحُ ابتسامةٍ على وجهِ الفارسِ الشاحبِ إلَّا أنه كان مُتعباً جداً على الإتيانِ بأيِّ جوابٍ.

أخذَ ماثيو يتحدَّثُ بثقةٍ مُفاجئةٍ ودونَ أن يردعهُ احتقارُ أنتوني. «رأيتُ الكثيرَ من الجروحِ المشابهةِ في ساحات القتالِ أيُّها الأبُ رئيس الديرِ، وأبسط علاجٍ هو الأفضلَ: غسلُ الجرحِ بنبيذٍ دافئٍ ومن ثمَّ خياطتُهُ وتضميدُهُ»، وعلى عكسِ ما كان ظاهراً لم يبدُ ماثيو خانِعاً في كلامهِ.

قاطعتهُ الأمّ سيسيليا سائلةً: «أتساءلُ إن كان لراهبينا الشابين أيُّ رأيٍ في هذا الخصوصِ؟»

بدا أنتوني كأنَّ صبرَهُ قد نفد ولكنَّ غودوين أدركَ ما كانت سيسيليا تخططُ له. كان هذا اختباراً، وسول منافسهُ على دعمِها المادي.

كانَ الجوابُ سَهلاً ولذلك استهلَّ غودوين الكلامَ: «درسَ الأخُ جوزيف تعاليمَ المُعلمين القدامى لذلكَ لا بدَّ أنهُ الأفضل معرفةً. لا أعتقدُ أنّ ماثيو يستطيع القراءة أصلاً».

«يمكنني أن أقرأ أيُّها الأخُ غودوين»، احتَجَ ماثيو. «وقد قرأتُ كتاباً أيضاً».

ضحكَ غودوين فقد كانَ مشهدُ حلَّاقٍ يقرأ كتاباً سخيفاً كمشهدِ حصانٍ يضعُ قبعة.

«ما هو هذا الكتابُ؟» سأل غودوين.

«القانون للطبيب الإسلامي العظيم ابن سينا وهو مترجمٌ من العربيةِ إلى اللاتينية. لقد قرأتُه بالكاملِ وبتأنٍ».

«وهل علاجُكَ الذي تقترحُهُ من كتابِ ابن سينا؟»

«لا، ولكن...»

«حسناً إذاً».

ولكنَّ ماثيو أصرَّ على كلامِهِ مُتابعاً: «ولكنني تعلَّمتُ الكثيرَ عن الشفاءِ من السفرِ مع الجيوشِ ومعالجةِ الجرحى أكثر مما تعلمتُهُ من الكتابِ».

قالت الأم سيسيليا: «ما رأيكُ يا سول؟»

توقّع غودوين أن يُقدِّمَ سول الإجابةَ ذاتَها حتَّى تبقى المنافسةُ بينهما غيرَ محسومة، ولكن سول، وعلى نقيضِ ما كان يوحي بهِ توتّرُهُ وخجلُهُ، قدَّمَ رأياً مُناقضاً لرأي غودوين. «قد يكون الحلَّاقُ على حقٍ»، وسُرَّ غودوين لأنَّ سول قدَّمَ هذهِ الإجابةَ ثمَّ تابعَ سول دفاعَهُ عن رأيِ الطرفِ الآخرِ: «قد يكونُ الحلُّ الذي اقترحَهُ الأخُ جوزيف ناجعاً في حالاتِ الكسورِ أو الجروحِ الخطيرةِ كالتي تحدثُ في مواقعِ البناءِ حيثُ يتعجَّنُ الجلدُ واللحمُ حولَ الجرحِ، وقد

يُساهمُ إغلاقُ الجرحِ بشكلٍ نهائي إلى منعِ الجسدِ من استعادةِ توازن خلائطِهِ. هذا جرحٌ مفتوحٌ، وكلَّما سارعنا إلى إغلاقِهِ شُفي بسرعةٍ أكبر».

«هذا هراءٌ»، قالَ رئيسُ الديرِ أنتوني وتابع: «كيفَ يُمكنُ لحلاقِ المدينةِ أن يكونَ على صوابٍ وراهبٌ متعلمٌ على خطأ».

وكبحَ غودوين ضحكةَ انتصارٍ كادَت تُفلتُ منه.

فُتحَ البابُ على مصراعيهِ ودخلَ على عجلٍ شابٌ في رداءٍ كهنوتي. تعرَّفَ غودوين على ريتشارد أصغر أولادِ رولاند إيرل شايرنغ ولاحظ أنَّ انحناءَهُ السريعَ لرئيسٍ ورئيسةِ الديرِ بدا جلفاً بعضَ الشيء. توجَّهَ ريتشارد مباشرةً إلى سريرِ المريضِ وخاطبَ الفارسَ قائلاً: «ما الذي حدثَ بحقِّ الشيطانِ؟»

رفعَ توماس يدَهُ الضعيفةَ وأشارَ إلى ريتشارد بالاقترابِ منهُ. انحنى الكاهنُ الشابُ فوقَ المريضِ الذي همسَ بشيءٍ في أذنِهِ.

ابتعد الأبُ ريتشارد عن توماس مصدوماً ثمّ قال: «بالطبع لا!».

أشارَ لهُ توماس بالاقترابِ مجدداً وتكررَ المشهدُ ذاتهُ: همسٌ، وردُ فعلٍ غاضبٍ، ولكنَّ ريتشارد قالَ هذه المرَّةَ: «ولكن لماذا؟»

لم يُجب توماس.

قالَ ريتشارد: «أنتَ تطلبُ أمراً لا تخولنا سُلطتنا منحكَ إياه».

أومأ توماس برأسِهِ بحزمٍ كأنّه يقولُ: «أجل يمكنكم».

«أنتَ لا تتركُ لنا أيَّ خيارٍ آخر».

هزَّ توماس رأسَهُ بوهنٍ إلى كلا الجانبين.

التفتَ ريتشارد إلى رئيسِ الديرِ أنتوني وقالَ: «يتمنى السير توماس أن يُصبحَ راهباً هنا في الديرِ».

حلَّ صمتٌ مُطبقٌ لبرهةٍ، وكانت سيسيليا أوَّلَ من قطعَهُ قائلةً: «ولكنه رجلٌ يستخدمُ العنفَ».

«باللّهِ عليكِ، إنَّ هذا ليسَ بالأمرِ الجديدِ»، قالَ ريتشارد بنفاد صبرٍ. «قد يقررُ المقاتلُ أحياناً هجرَ حياةِ الحربِ والبحثَ عن المغفرةِ على خطاياه».

«قد يحدثُ هذا عندما يطعنُ في السِّنِ»، قالَت سيسيليا وتابعت: «ولكن الرجلَ لم يُكملْ عامَهُ الخامسَ والعشرين بعد، وهو يبدو كهاربٍ من خطرٍ ما»، ثمَّ نظرَت بقسوةٍ إلى ريتشارد وسألت: «من يهددُ حياتَهُ؟»

«فلتلجمي فضولَك»، قال ريتشارد بفظاظةٍ، «يريدُ أن يصبحَ راهباً، وليسَ راهبةً، ولهذا لا داعي لإمعانِكِ في الاستجواب». كانت الطريقةُ التي تحدَّثَ بها ريتشارد مع رئيسةِ ديرٍ صادمةً، ولكن يُمكنُ لأبناءِ الإيرل ألا يُعاقبوا على هذهِ الفظاظةِ، ثمَّ التفتَ ريتشارد نحو أنتوني وقال: «يجبُ أن تقبلَ بهِ في الديرِ».

قالَ أنتوني: «ولكنّ الديرَ فقيرٌ جداً ولا يمكنُهُ قبولُ المزيدِ من الرهبانِ، ما لم تكن هناك عطيَّةٌ ما تتكفلُ بمصاريفِ...»

«سيتّمُ التكفلُ بهذا الأمرِ».

«ويجبُ أن تكونَ متناسبةً مع الحاجةِ...»

«سيتّمُ التكفلُ بهذا الأمرِ!».

«حسناً».

بدَت سيسيليا مرتابةً وقالَت لأنتوني: «هل لديكَ معلوماتٌ أخرى غير التي أخبرتَني بها عن الرجلِ؟»

«لا أرى سبباً يستدعي رفضَ الديرِ لدخولِهِ».

«ما الذي يجعلكَ تعتقدُ أنّه تائبٌ حقيقي؟»

وحدَّقَ الجميعُ إلى توماس الذي كان مغمضَ العينين.

قالَ أنتوني: «سيكونُ عليهِ إثباتُ صدقِهِ خلالَ فترةِ تعلُّمِهِ الرهبنَةَ كما يفعلُ أيُّ قادمٍ جديدٍ».

بدَت سيسيليا مستاءةً ولكن وللمَّرةِ الأولى لم يطلب منها أنتوني أيَّ مالٍ، ولأنّه لم يكن بوسعِها القيامُ بشيءٍ قالت: «إذاً، من الأفضلِ أن نبدأ بمعالجةِ الجرحِ».

قالَ سول: «رفضَ الفارسُ علاجَ الأخِ جوزيف، ولهذا أرسلنا في طلبِ الأبِ رئيسِ الديرِ».

انحنى أنتوني فوقَ المريضِ وقالَ بصوتٍ عالٍ كأنّه يتحدثُ إلى شخصٍ أصمّ: «يجبُ أن تقبلَ بالعلاجِ الذي وصفَهُ الأخُ جوزيف فهو على درايةٍ أكبر».

بدا توماس غائباً عن الوعي.

التفتَ أنتوني إلى جوزيف وقالَ: «لا يبدو أنّه يعترضُ».

قالَ الحلَّاقُ ماثيو: «قد يفقدُ ذراعَهُ!».

«من الأفضلِ أن تغادرَ»، قالَ أنتوني.

غادرَ مائيو وعلائم الغضبِ بادية على وجهِهِ.

قالَ أنتوني لريتشارد: «ربما يجبُ أن ترافقنا إلى منزلِ رئيس الديرِ لتناولِ قدحٍ من عصيرِ التفاحِ».

«شكراً لكَ»، أجاب ريتشارد.

وبينما كانوا يهمّون بالخروج قالَ أنتوني لغودوين: «ابقَ هنا وساعد الأمَّ رئيسةَ الديرِ. فلتأتِ قبلَ صلاةِ المساءِ وأطلعني على وضعِ الفارسِ».

عادةً، لم يكن رئيسُ الديرِ أنتوني يهتمُّ بشفاءِ أيٍّ من المرضى، ولكن من الواضحِ أنَّه مهتمٌّ بشكلٍ خاصٍ بهذا المريضِ.

راقبَ غودوين الأخَ جوزيف وهو يضعُ المراهمَ على ذراعِ الفارسِ الغائب عن الوعي. كان يعتقدُ أنَّه فازَ بدعمِ سيسيليا المادي بعدَ إعطاءِ الجوابِ الصحيحِ على السؤالِ، ولكنَّهُ أرادَ الحصولَ على موافقةٍ صريحةٍ منها. عندما انتهى الأخُ جوزيف من عملِهِ، أخذَت سيسيليا تمسحُ جبهةَ توماس بماءِ الوردِ قالَ غودوين: «أرجو أن تأخذي طلبي بعينِ الاعتبارِ».

نظرَت إليهِ بحدَّةٍ وقالت: «يمكنني أيضاً أن أخبرِكَ الآن أنني قررتُ إعطاءَ المالِ إلى سول».

بدا غودوين مصدوماً: «ولكنني قدَّمتُ الإجابةَ الصحيحةَ!»

«هل فعلت؟»

«بالتأكيد أنتِ لا تتفقين مع الحلَّاقِ؟»

رفعَت حاجبيها في استغرابٍ وقالت: «لن أخضعَ لاستجوابٍ من قبلكَ أيُّها الأخُ غودوين».

«آسفٌ»، قالَ على الفورِ ثمَّ أضاف: «ولكنني لا أفهمُ ما الذي جرى».

«أعلمُ».

إن كانَت ستتصرفُ بغموضٍ فلن تكون للحديثِ معها أيّ فائدةٍ. استدارَ غودوين وغادرَ وهو يرتعشُ من اليأسِ والخيبةِ. ستُعطي المالَ إلى سول! وتساءلَ غودوين في نفسِهِ إن كان السببُ صلةَ القرابةِ التي تربطُ سول بالإيرلِ، ولكنه لم يكن مقتنعاً بأنَّ هذا هو السببُ الحقيقي فقد كانت سيسيليا مستقلةً جداً في قراراتِها، وقررَ غودوين أخيراً أنَّ تواضعَ سول المُبهرج قد أمالَ كفَّةَ الميزانِ لمصلحته، ولكن سول لن يُصبحَ قائداً في أيِّ شيءٍ. يا لها من خسارةٍ! وتساءلَ غودوين في نفسِهِ عن الطريقةِ التي سيُخبرُ بها والدتهُ بهذا. ستستشيطُ

غضباً، ولكن على من ستُلقي اللومَ؟ على أنتوني؟ أم غودوين؟ وعندما تخيلَ غضبَ والدتِهِ شعرَ بخوفٍ عظيمٍ.

وهنا دخلَت والدتُهُ إلى المستشفى من البابِ الذي يقعُ في أقصى المكانِ. كانت امرأةً طويلةً بصدرٍ بارزٍ. التقَت أعينهما ووقفَت قربَ البابِ تنتظره هناك كي يوافيها. سارَ ببطءٍ وهو يحاولُ التفكير بشيءٍ ليقولَهُ.

«إنَّ عمَّتكَ روز تحتضرُ»، قالت بيترانيلا حالما اقتربَ منها.

«فليرحم الرَّبُّ روحَها. لقد أخبرتني بهذا الأمُّ سيسيليا».

«تبدو مصدوماً رغمَ أنَّكَ تعلمُ أنَّ مرضَها شديدٌ».

«ليسَ للأمرِ علاقةٌ بالعمَّةِ روز فلدي أخبارٌ سيئةٌ أخرى»، قالَ وابتلعَ لعابهُ.

«لا يمكنني الذهابُ إلى أوكسفورد فقد رفضَ الخالُ أنتوني دفعَ المالِ، والأمُّ سيسيليا رفضتني أيضاً».

لم تنفجر غاضبةً على الفورِ وكان هذا مدعاةً لراحةٍ كبيرةٍ، ولكنَّها زمَّت شفتيها بشدَّةٍ وقالت: «ولكن لماذا؟»

«قالَ إنَّه لا يملكُ المالَ المطلوبَ، والأمُّ سيسيليا سترُسلُ سول إلى أوكسفورد».

«سول وايتهيد؟ إنَّهُ لا يرقى لأن يصبحَ أيَّ شيءٍ».

«حسناً، ولكنَّهُ سيُصبحُ طبيباً على الأقلِّ».

حدَّقَت في عينيهِ بشكلٍ مباشرٍ وتجمَّدَ غودوين في مكانِهِ ثمّ قالت: «أعتقد أنَّكَ لم تُجد التعاملَ مع الأمرِ. كانَ عليكَ أن تناقشَهُ معي أولاً».

كانَ غودوين يخشى أن تأخذَ هذا الموقف واحتجَّ قائلاً: «كيفَ يسعكِ القولُ إنّي أسأتُ التعاملَ مع الأمرِ؟»

«كانَ عليكَ أن تدعني أتحدث مع أنتوني أولاً فقد كنتُ سأنجح في تليينِ عريكتِهِ».

«ولكنَّهُ كانَ سيصرّ على رفضِهِ».

«وكانَ عليكَ قبلَ التحدث إلى سيسيليا أن تتأكدَ من أنَّ ما من أحدٍ آخر قد طلبَ منها الدعمَ، وعندما تتأكد كانَ بإمكانكَ أن تطيحَ بسول قبلَ التحدث معَها».

«وكيف هذا؟»

«لا بدَّ أنهُ يملكُ نقطةَ ضعفٍ، وكانَ بإمكانِكَ أن تكتشفها ثمَّ تحرصَ على

لفتِ نظرِ سيسيليا إليها، وعندها ستشعرُ بأنّها كانت مخدوعةً، وبعدَ ذلكَ كان بوسعكَ أن تُقدّمَ نفسَكَ».

رأى غودوين أنَّ كلامَها منطقي وقالَ: «لم أفكر بهذا»، ثمَّ أحنى رأسَهُ في خنوع.

تمالكَت غضبَها وقالت: «عليكَ أن تخططَ لمثلِ هذهِ الأمورِ كما يفعلُ أيُّ إيرل عندما يُخططُ لمعركةٍ ما».

«فهمتُ الأمرَ الآن»، قالَ غودوين وأشاحَ بنظرِهِ، «لن أكررَ هذا الخطأ مجدداً».

«آملُ ألا تكرر هذا».

نظرَ إليها وقالَ: «وما الذي عليَّ فعلُهُ الآن؟»

«لن أستسلمَ»، قالت واكتسحَ وجهها تعبيرٌ مألوفٌ ينُمُّ عن الإصرارِ ثمَ أضافت: «سأحصلُ على المالِ».

شعرَ غودوين بالأملِ مجدداً إلا أنَّه لم يكن قادراً على تخيُّلِ الطريقةِ التي ستحققُ بها والدتُهُ مثلَ هذا الوعدِ وسألَها: «من أين ستحصلين على المالِ؟»

«سأبيعُ منزلي وأنتقلُ للعيشِ مع أخي إدموند».

«هل سيقبلُ بكِ في منزلِهِ؟» سأل غودوين. كان إدموند رجلاً كريماً ولكنَّهُ أحياناً يصطدمُ مع أختِهِ.

«أعتقدُ أنَّهُ سيستقبلني فهو سيُصبحُ أرملاً عمَّا قريبٍ وسيحتاجُ إلى مدبرةِ منزلٍ رغمَ أنَّ روز لم تكن بارعةً قط في هذا الدورِ».

هزَّ غودوين رأسَهُ وقالَ: «ولكن ستكونين بحاجةٍ إلى المالِ».

«من أجلِ ماذا؟ سيُقدمُ لي إدموند مكاناً لأنامَ فيه وطعاماً وسيدفعُ للحاجياتِ البسيطةِ التي قد أحتاجُها، وبالمقابلِ سأديرُ خدمَه وأربي بنتيهِ، وستحصلُ أنتَ على المالِ الذي ورثتُهُ عن والدِكَ».

تحدَّثت بحزمٍ ولكن غودوين رأى مرارةَ الندمِ متجليةً على شفتيها المزمومتين، وعلمَ حجمَ التضحيةِ التي كانت على وشكِ القيامِ بها. كانت فخورةً باستقلاليتِها فهي تعد من أبرزِ نساءِ البلدةِ، وابنةَ رجلٍ ثري، وأختَ أهمِّ تاجرِ صوفٍ، وقد ناضلت من أجلِ هذهِ المكانةِ. كانت تُحبُّ دعوةَ أبرزِ رجالِ ونساءِ كينغزبريدج لتناولِ العشاءِ معها وتناولِ أفضلِ أنواعِ النبيذِ، وها هي الآن تقترحُ الانتقال إلى منزلِ شقيقها وقضاء حياتِها كأختٍ فقيرةٍ والعملِ كخادمةٍ بطريقةٍ ما والعيش عالةً عليه في كلِّ شيءٍ. ستكونُ خسارةً رهيبةً لها.

«هذه تضحيةٌ كبيرةٌ جداً»، قالَ غودوين، «لا يمكنكِ القيامُ بهذا».

غدا وجهُها قاسياً وهزَّت كتفيها قليلاً كأنّها تُجهزُ نفسَها لحملِ عبءٍ ثقيلٍ ثمّ قالت: «بل يمكنني».

-5-

أخبرت غويندا والدَها بكلِّ شيءٍ.

كانت قد أقسمت بدمِ المسيحِ على عدمِ إفشاءِ السِّرِ، وعرفت أنّها ستذهبُ إلى الجحيمِ الآن لأنّها حنثت بقسمها إلا أنّها كانت تهابُ والدَها أكثرَ مما تهابُ الجحيمَ.

بدأ كلامَهُ بالاستفسارِ عن المكانِ الذي حصلَت منهُ على جروها الجديدِ سكيب، ومن ثمَّ أُجبرَت على شرحِ الطريقةِ التي حصلَت بها على سكيب، وفي النهايةِ أفشَت له بكاملِ القصَّةِ.

وما يدعو للدهشةِ أنّها لم تتعرض للجَلد بسببِ ذهابِها إلى الغابةِ بل على العكسِ فقد بدا والدُها سعيداً، وأجبرَها على أخذِهِ إلى الغابةِ حيثُ حدثَت عملياتُ القتلِ. لم يكن العثورُ على المكانِ مجدداً أمراً سهلاً ولكنَّها عثرَت عليهِ في النهايةِ، ووجدا جُثتي الرجلين في ثيابِهما الخضراءِ والصفراءِ.

قامَ والدها أولاً بفتحِ محفظتي الجنديين، وقد كانتا تحويان على عشرين أو ثلاثين بنساً. وسُرَّ كثيراً بأخذِ سيفيهما اللذين يساويان أكثرَ بكثيرٍ من بضعة بنساتٍ. ثم أخذَ يُجرّدُ الرجلين من ثيابِهما، ولكن هذا لم يكن بالعملِ السَهلِ، ولهذا أجبرَ غويندا على مساعدتِهِ. كانت الجثتان ثقيلتين بشكلٍ مُفاجئٍ وملمسهما غريباً. أجبرَها والدها على تجريدهما من كلِّ شيءٍ يرتديانه بما في ذلكَ جواربهما المُلطخةُ بالوحلِ وثيابهما الداخليةُ المُتسخة.

قامَ بلفِّ الأسلحةِ بالثيابِ في ما يُشبهُ صُرَّةً من الخِرَقِ. ثمّ جرَّت غويندا الجثتين، وأعادتهما إلى مكانِهما في الأجمةِ الدائمةِ الخُضرةِ.

كانَت معنويات والدها عاليةً في طريقِ عودتهما إلى كينغزبريدج. أخذَها إلى شارع سلوترهاوس ديتش القريبِ من النهرِ، ودخلا إلى حانةٍ كبيرةٍ وقذرةٍ تدعى «وايت هورس». أحضرَ لغويندا كأساً من الجعةِ وبعدها اختفى في القسمِ الخلفيِ من منزلِ صاحبِ النُزلِ الذي ناداه باسمِ «الفتى ديفي». كانَت هذهِ المرَّةَ الثانيةَ التي تحظى فيها غويندا بفرصةٍ ثانيةٍ لشُربِ الجعةِ في يومٍ واحدٍ. بعدَ برهةٍ عادَ والدُها مجدداً ولكن من دونِ الصُرَّةِ التي كانَت معهُ.

عادا إلى الشارعِ الرئيسي ووجدا الأمَّ وفيليمون والطفلَ في نزلٍ بيل بجانبِ الديرِ. غمزَ والدُها والدتَها غمزةً عريضةً، وأعطَاها حفنةً كبيرةً من المالِ لتُخبئِها في دثارِ الطفلِ.

كانَ الوقتُ منتصفَ الظهيرةِ وقد غادرَ معظمُ الزوارِ وعادوا إلى قُراهم، إلَّا أنَّ الوقتَ كان قد تأخرَ جداً على العودةِ إلى ويغلي، ولهذا ستقضي العائلةُ الليلةَ في النُزلِ. قالَ والدُها إنَّهم قادرون الآن على تحمُّلِ تكلفةِ البقاءِ في نُزلٍ رغمَ أنَّ والدتَها قالت في توترٍ: «لا تدع الناسَ يعلمونَ أنَّكَ تملكُ المالَ!»

كانَت غويندا تشعرُ بالتعبِ فقد نهضَت باكراً وسارَت لمسافةٍ طويلةٍ ولذلك عندما استلقَت على مقعدٍ غطَّت في النومِ على الفورِ.

استيقظَت على صوتِ بابٍ داخلي يُفتحُ بعنفٍ فنظرَت إلى الأعلى مرتاعةً ورأت جنديين يقتربان. اعتقدَت في البدايةِ أنَّهما شبحا الجنديين اللذين قُتلا في الغابةِ، ولوهلةٍ أحسَّت برعبٍ حقيقي، ثمَّ أدركَت أنَّهما رجلان مختلفان رغمَ أنهما كانا يرتديان ثياباً مشابهةً لثيابِ الجنديين الآخرين: ثيابٌ صفراء من الداخلِ وخضراء من الخارجِ. كان أصغرُهما يحملُ صُرَّةَ خُرقٍ مألوفةٍ.

تحدثَ أكبرُهما بشكلٍ مباشرٍ مع والدها: «هل أنتَ جوبي من ويغلي؟»

شعرَت غويندا بالهلعِ مجدداً فقد كانَت لهجةُ الرجلِ توحي بتهديدٍ حقيقي، وهو لم يكن مُتبجحاً بل صارماً، وأعطَاها هذا انطباعاً بأنَّه مستعدٌ لفعلِ أيِّ شيءٍ للحصولِ على ما يريدُه.

«لا»، كذبَ والدُها على الفورِ، «أنا لستُ الرجلَ المطلوبَ».

تجاهلا ما قالَهُ والدُها وقامَ الرجلُ الثاني بوضعِ الصُرَّةِ على الطاولةِ ثمَّ فتحَها. كانت تحوي على عباءتين بلونٍ أصفر وأخضر وملفوفتين حولَ سيفين وخنجرين. نظرَ الجندي إلى والدِها وسأله: «ولكن من أينَ حصلتَ على هذهِ الأشياءِ؟»

«لم أرَها قبلاً أقسمُ بالصليبِ».

وفكرَت غويندا في رعبٍ أنَّه لمن الغباءِ إنكارُ الأمرِ؛ فهما سيُجبرانِهِ على قولِ الحقيقةِ، كما أجبرَها على قولِها.

وقالَ الجندي الأكبرُ: «قالَ ديفي صاحبُ حانةِ وايت هورس أنَّهُ ابتاعَ هذهِ الأغراضَ من رجلٍ يدعى جوبي من ويغلي»، وغدا صوتُهُ أكثرَ غُلظةً مع نبرةِ التهديدِ فيه فنهضَت المجموعةُ الصغيرةُ من الزبائنِ الآخرين في الغرفةِ عن المقاعد وانسلوا خارجَ النُزلِ بسرعةٍ تاركين عائلةَ غويندا وحدها.

«لقد غادرَ جوبي المكانَ منذُ برهةٍ»، قالَ والدُها بيأسٍ.

أومأ الرجلُ برأسِهِ: «مع زوجتِهِ وولدِهِ وطفلِه».

«أجل».

تحرَّكَ الرجلُ بسرعةٍ مُفاجئةٍ وأمسكَ بوالدها من عباءتِهِ بقبضةٍ قويَّةٍ ثمَّ دفعَ بِهِ نحو الحائطِ. صرخَت والدتُها وبدأ الطفلُ بالبكاءِ. رأت غويندا أنَّ الرجلَ يرتدي في يدِهِ اليمنى قُفازاً مبطناً ومغطى بالزرَدِ. سحبَ الرجلُ ساعدَهُ إلى الوراءِ ومن ثمَّ لكمَ والدَها على بطنِهِ.

صرخَت والدتُها: «النجدةُ! جريمةُ قتلٍ!» وبدأ فيليمون بالبكاءِ.

شَحُبَ وجهُ والدِها من الألمِ وخرَّ على الأرضِ عاجزاً، ولكنَّ الرجلَ رفعَهُ قبالةَ الحائطِ ليمنعَهُ من السقوطِ ثمَّ لكمَهُ مجدداً ولكن هذهِ المرَّةَ على وجههِ فانبجسَ الدَّمُ من أنفِ والدِها وفمِهِ.

أرادَت غويندا أن تصرخَ. كانَ فمُهَا مفتوحَاً على اتساعِهِ ولكن لم يخرج أيُّ صوت من حنجرتها. كانت تعتقدُ أنَّ والدَها لا يُقهرُ، رغمَ أنَّهُ في بعضِ الأحيانِ كانَ يتظاهرُ بأنَّهُ ضعيفٌ أو جبانٌ من أجلِ كسبِ العطفِ، أو لصَدِّ الغضبِ، ولذلك شعرت بالرعبِ عندما رأتهُ عاجزاً.

ظهرَ صاحبُ النُزلِ عندَ البابِ الذي يُفضي إلى القسمِ الخلفي من النزلِ. كانَ رجلاً ضخماً في الثلاثين من العمرِ وخلفَهُ ظهرت فتاةٌ صغيرةٌ ممتلئةٌ.

قال صاحبُ النزلِ بصوتٍ آمرٍ: «ما الذي يحدثُ؟»

لم ينظر إليهِ الجندي بل قالَ: «هذا ليسَ من شأنكَ»، ومن ثمَّ لكمَ والدَها على بطنِه مجدداً.

وتقيأ والدُها دماً.

«فلتتوقف عمَّا تفعلُهُ»، قالَ صاحبُ النُزلِ.

قالَ الجندي: «من تعتقدُ نفسكَ؟»

«أنا بول بيل، وهذا منزلي».

«حسناً إذاً يا بول بيل، فلتهتمَّ بشؤونكَ إن كنتَ تريدُ مصلحتك».

«أفترضُ أنَّكَ تعتقدُ أنّه بوسعِكَ فعلُ ما تريدُ وأنتَ في هذا الرداءِ الرسمي»، تحدَّثَ بول بازدراء.

«هذا صحيحٌ».

«ومن تمثلُ في هذهِ الثياب؟»

«الملكةَ».

التفتَ بول برأسِهِ وقالَ: «بيسي اذهبي بسرعةٍ وأحضري المأمورَ جون. إن كانا سيقتلان رجلاً في حانتي فأريدُ أن يكونَ المأمور شاهداً»، واختفَت الفتاةُ الصغيرةُ التي كانت تقفُ وراءَ صاحبِ النُزلِ.

«لن تحصلَ جريمةُ قتلٍ هنا»، قالَ الجندي، «لقد غيَّرَ جوبي رأيَهُ وقررَ أن يقودَني إلى المكانِ الذي سرقَ فيهِ من الجنديين المقتولين، أليسَ هذا صحيحاً يا جوبي؟»

لم يكن والد غويندا قادراً على التحدثِ إلّا أنّه أومأ برأسِهِ موافقاً فأفلتَهُ الجندي وسقطَ على الأرضِ على ركبتيهِ وهو يسعلُ ويتقيأ.

نظرَ الرجلُ إلى بقيةِ العائلةِ وقال: «أينَ الفتاةُ التي شهدَت على القتالِ...»

صرخَت غويندا: «لا!»

هزَّ الجندي رأسَهُ في رضا: «من الواضحِ أنّها الفتاةُ ذاتُ الوجهِ الشبيهِ بوجهِ الجُرذِ».

ركضَت غويندا نحو والدتها التي قالَت بدورِها: «مريم يا أمَّ الرَّبِّ أنقذي طفلتي».

أمسكَ الجندي بذراعِ غويندا وسحبَها بعنفٍ بعيداً عن أمِّها فصرخَت غويندا ثمَّ قالَ الرجلُ بخشونةٍ: «فلتصمتي أو ستنالين ما نالَهُ والدكُ التعسُ».

أطبقَت غويندا فكيها حتى تمنعَ نفسَها من الاستمرارِ بالصراخِ.

«انهض يا جوبي»، قال الجندي وجرَّ والدَها على قدميهِ، «تمالك نفسَك فأنتَ ذاهبٌ في رحلةٍ».

التقطَ الجندي الآخرُ الثيابَ والأسلحةَ.

وبينما كانوا يهمّون بالمغادرةِ صرخَت والدةُ غويندا بهلعٍ: «افعلا ما يطلبانِهِ منكما».

كان لدى الجنديين حصانان فركبَت غويندا في المقدمةِ مع الجندي الأكبر عُمراً، وصعدَ والدُها في ذاتِ الوضعيةِ على الحصانِ الآخرِ. كانَ والدها عاجزاً ويئنُّ من الألمِ، ولهذا أرشدتهم غويندا إلى المكانِ وقد باتت الآن تتذكرُ بكلِّ وضوحٍ الطريقَ الذي قطعتهُ مرّتين. تقدَّموا بسرعةٍ على الجيادِ ولكنَّ الظلامَ كان قد بدأ يحلُّ عندما وصلوا إلى الفسحةِ الخاليةِ من الشجرِ.

أمسكَ الجندي الأصغرُ بغويندا ووالدها بينما سحبَ الآخرُ جثتي رفيقيه من تحتِ الأجمةِ.

«لا بدَّ أن ذلكَ المدعو توماس مقاتلٌ شرسٌ ليقتلَ هاري وألفرد معاً»، قالَ الجندي الأكبرُ عمراً مُفكراً وهو يتأملُ الجثتين. أدركَت غويندا أنَّ الجنديين لا يعلمان شيئاً بخصوصِ الأطفالِ الآخرين. كانت ستعترف بأنَّها لم تكن هناكَ وحدَها، وبأنَّ رالف قتلَ أحدَ الرجلين، ولكنَّها كانت مرتاعةً جداً إلى درجةٍ عجزت معها عن الكلامِ. «لقد قطعَ رأسَ ألفرد بشكلٍ شبهِ كاملٍ»، تابعَ الجندي والتفتَ نحو غويندا ثمَّ سألها: «هل سمعتِ أيَّ كلامٍ عن رسالةٍ ما؟»

«لا أعلمُ!»، قالت وهي تحاولُ بجهدٍ إخراجَ صوتِها، «فقد أغمضتُ عيني من شدةِ الخوفِ، ولم يكن بوسعي سماعُ ما يقولونَهُ! هذهِ هي الحقيقةُ، ولو أني سمعتُ شيئاً لأخبرتكَ بِهِ».

«إن حصلا على الرسالةِ منهُ منذُ البدايةِ فلا بدَّ أنه استعادَها منهما بعدَ قتلِهما»، قالَ الرجلُ لرفيقِهِ ثمَّ نظرَ إلى الأشجارِ التي تحيطُ بالبقعةِ الخاليةِ من الشجرِ كأنَّ الرسالةَ تتدلى بين الأوراقِ الذابلةِ وقال: «لا بدَّ أنَّها معهُ الآن في الديرِ، ولا نستطيعُ الإمساكَ بِهِ هناكَ من دونِ انتهاكِ قداسةِ ديرِ الرهبان».

قالَ الجندي الآخرُ: «ولكننا على الأقلِّ سنتمكنُ من الإبلاغ عمَّا حدث، وإعادةُ الجثتين معاً لتحظيا بدفنٍ مسيحي».

كان هناكَ جلبةٌ مفاجئةٌ وحررَ والدُها نفسَهُ من قبضةِ الرجلِ الثاني ثمَّ اندفعَ راكضاً عبرَ الفسحةِ الخاليةِ من الشجرِ. تحرَّكَ الجندي للحاقِ بِهِ ولكنَّ الجندي الأكبرُ عُمراً أوقفَهُ قائلاً: «دعهُ يذهبُ، ما الفائدةُ من قتلِهِ الآنَ؟»

انخرطَت غويندا في البكاءِ بصمتٍ.

«وماذا بشأنِ الطفلةِ؟» قالَ الجندي الأصغرُ.

كانت غويندا واثقةً من أنَّهما سيقتلانِها. لم تكن قادرةً على رؤيةِ شيءٍ أمامها بسببِ دموعها فقد كانت تنتحبُ بشدةٍ كأنَّها تستعطفهما لتركِها تعيشُ؛ كانت ستموتُ وستذهبُ إلى الجحيمِ. وانتظرَت هذهِ النهايةَ.

«دعَها تذهبُ»، قالَ الجندي الأكبرُ عُمراً، «لم أولدْ لأقتلَ فتياتٍ صغيراتٍ».

أفلَتَ الجندي الأصغرُ غويندا ودفعَها إلى الأمامِ لتذهبَ فتعثَّرت وسقطَت على الأرضِ ثمَّ نهضت ومسحَت دموعَها حتَّى ترى أمامَها وبدأت تمشي باضطرابٍ.

«هيَّا اركضي»، قالَ الرجلُ في إثرِها، «فهذا يومُ سعدِكِ».

***

عجزَت كاريس عن النومِ فنهضَت من فراشِها وتوجَّهت إلى غرفةِ والدتِها. وجدت والدَها جالساً على كرسي ويُحدقُ إلى الجسدِ الخامدِ على السريرِ.

كانت عينا والدتها مُغمضتين وكان وجهُها على ضوءِ الشموعِ لامعاً من التعرُّقِ. بدَت كأنَّها تتنفسُ بصعوبةٍ. أخذَت كاريس يدَها الشاحبة والباردة جداً وأمسكتها بكلتَا يديها وهي تحاولُ أن تُدفئهما.

«لمَ قاموا بفصدِ دمِها؟» قالَت كاريس.

«يعتقدون أنَّ المرضَ أحياناً يحدثُ بسببِ اختلالٍ شديدٍ في أخلاطِ الجسدِ، ويأملونَ باستعادةِ هذا التوازن من خلالِ فصدِ الدمِ».

«ولكن هذا لم يجعلها تتحسنُ».

«لا، بل جعلَ وضعَها يسوءُ أكثر».

انحدرَت الدموعُ من مُقلتي كاريس وقالَت: «إذاً، لمَ سمحت لهُ بفعلِ هذا؟»

«يدرسُ الكهنةُ والرُّهبانُ أعمالَ قدماءِ الأطباء وهم يعرفونَ أكثرَ مِنا».

«لا أصدقُ هذا».

«من الصعبِ معرفةُ ما يُمكنُ تصديقُهُ يا زهرتي الصغيرة».

«لو كنتُ طبيبةً لفعلتُ أموراً من شأنِها أن تجعلَ صحةَ الناسِ تتحسنُ».

لم يكن والدُها يُصغي إليها بل ينظرُ بإمعانٍ إلى والدتِها ثمَّ انحنى فوقَها ووضعَ يدَهُ تحتَ الغطاءِ ولمسَ صدرَها تحتَ ثديها الأيسر. رأت كاريس تضاريسَ يدِهِ الضخمةِ تحتَ الغطاءِ الصوفي الفاخرِ وينمُّ عنهُ صوتُ اختناقٍ مُقتضبٍ، ومن ثمَّ حرَّكَ يدَهُ وضغطَ بقوةٍ أكبر، وأبقى يدَهُ في مكانِها لبضعِ دقائق. أغمضَ عينيهِ.

بدا كأنّه يقعُ إلى الأمامِ إلى أن أصبحَ على ركبتيهِ بجانبِ السريرِ وتهيأ لها بجبهتِهِ على فخذِ والدتِها ويدِه التي ما زالت على صدرِها أنّهُ يُصلي.

أدركَت كاريس أنّه كان يبكي وكانَ هذا أكثرَ موقفٍ مخيفٍ تواجهه في حياتها حتّى الآن؛ كان مخيفاً أكثر من رؤيةِ رجلٍ يُقتلُ في الغابةِ. يبكي الأطفالُ، تبكي النساءُ، يبكي الضعفاءُ والعاجزون، ولكنَّ والدها لم يبكِ قط، وشعرَت كأنَّ العالمَ ينتهي.

كانَ يتعينُ عليها الذهابُ لجلبِ المساعدةِ فتركَت يدَ والدتها الباردةَ تنزلقُ

من بين يديها على الغطاءِ حيثُ استقرّت بلا حراكٍ وعادَت إلى غرفتِها ثمَّ أخذَت تهزُّ كتفي أليس النائمة وهي تقول لها: «يجب أن تستيقظي!»

في البدايةِ لم تفتح أليس عينيها.

«أبي يبكي!» قالت كاريس.

جلسَت أليس على السريرِ وقالت: «لا يمكن أن يحدثَ هذا».

«انهضي!»

غادرَت أليس السريرَ وأمسكت كاريس بيدِ أختِها الكبرى ثمَّ توجهتا إلى غرفةِ والديهما. كان والدها واقفاً بجانبِ السرير وينظرُ إلى الوجهِ الساكنِ على الوسادةِ والدموع ترطبُ خدَّه. حدَّقَت أليس إلى والدها مصدومةً وهمسَت كاريس لأختِها: «لقد أخبرتُكِ».

وعلى الجانبِ الآخرِ من السريرِ وقفَت العمّةُ بيترانيلا.

رآهما والدُهما واقفتين عندَ البابِ فغادرَ مكانَهُ قربَ السريرِ وتوجهَ نحوهما ثمَّ وضعَ ذراعيهِ حولهما وقرَّبهما منهُ وعانقهما.

«لقد غادرَت والدتُكما مع الملائكةِ»، قالَ بهدوءٍ وتابعَ: «فلتصليا من أجلِ روحِها».

«فلتتحليا بالشجاعةِ أيتُّها الفتاتان»، قالت بيترانيلا ثمَّ أضافت: «من الآن فصاعداً سأكونُ أمّكما».

مسحَت كاريس الدموعَ من عينيها ثمّ نظرَت إلى عمتِها قائلةً: «لا لن تكوني».

الجزء الثاني

من 8 وحتَّى 14 حزيران/ يونيو من عام 1337

-6-

في عيدِ العُنصرةِ في السنةِ التي بلغَ فيها ميرثن عامهُ الواحدَ والعشرين غرقَت كاتدرائيةُ كينغزبريدج تحتَ وابلٍ من الأمطار الغزيرةِ.

كانت قطراتُ المطرِ الكبيرةُ ترتدُّ عن ألواحِ السطحِ حالما ترتطمُ بها وفاضَت الميازيبُ في جداولَ غزيرةٍ وخرجَت المياهُ من أفواهِ الكراغلِ كنوافير، وعلى دعائمِ الكاتدرائيةِ جرَت مياهُ المطرِ كأنّها صحائف تنفتحُ في طريقِها إلى الأرضِ، ووصلَ المطرُ إلى الأقواسِ والأعمدةِ فتشبَّعَت تماثيلُ القديسين بالماءِ، واكتسَت كلٌّ من السماءِ والكنيسةِ العظيمةِ والمدينةِ من حولِها بتدرجاتِ اللونِ الرمادي.

يُحتفَلُ في عيدِ العُنصرةِ بنزولِ الروحِ القُدسِ على حواري المسيحِ، ويحلُّ هذا العيد في الأحدِ السابعِ بعدَ عيدِ الفصحِ، أي في أيار/ مايو أو حزيران/ يونيو وبعدَ جزِّ صوفِ آخرِ خروفٍ في إنكلترا، ولهذا يُصادفُ في مثلِ هذا اليوم أيضاً أولُّ يومٍ من أيام أسبوعِ سوقِ الصوفِ في كينغزبريدج.

كانَ ميرثن يشقُّ طريقَهُ الذي يمرُّ بسوقِ الصوفِ تحتَ وابلِ المطرِ باتجاهِ الكنيسةِ لحضورِ مراسمِ الصباحِ ويشدُّ القلنسوةَ بلا طائلٍ فوقَ جبينِهِ لإبقاءِ وجهِهِ جافاً. على امتدادِ الحديقةِ الخضراءِ غربَ الكنيسةِ نصبَ التجارُ أكشاكَهم وقد غطّوها على عجلٍ بقطعٍ من أكياسٍ مصنوعةٍ من قماشٍ زيتي أو اللّبادِ لحمايةِ معروضاتِهم من المطرِ. كان تُجارُ الصوفِ أهمَّ الشخصياتِ في السوقِ، بدءاً من صغارِ العُمالِ الذينَ يجمعونَ الصوفَ من القُرى المتفرقةِ إلى التُجارِ الكبارِ كإدموند الذين يملكونَ مخزناً ممتلئاً بأكياسِ الصوفِ الجاهزةِ للبيعِ. وحولَ هذهِ الأكشاكِ اكتظَّت الأكشاكُ الجانبيةُ التي تبيعُ كلَّ شيءٍ يُمكن شراؤه بالمالِ: نبيذٌ حلو من ألمانيا، قماشٌ مُقصَّبٌ بخيوطٍ من الذهبِ من لوكا، وآنية زجاجية من البندقية، وزنجبيلٌ وبهارٌ من بلادٍ في الشرقِ لا يعرفُ اسمَها سوى القلّة. وأخيراً، هناكَ الباعةُ المياومون ممن يزودون الزوارَ وأصحابَ

الأكشاكِ باحتياجاتِهم العاديَّة كالخبازين وباعة الجعةِ، وصانعي الحلوياتِ، والعرَّافات والعاهرات.

تعاملَ أصحابُ الأكشاكِ من تجارِ صوفٍ بشجاعةٍ مع المطرِ وأخذوا يتندرون بعضهم مع بعضٍ في محاولةٍ لخلقِ جوٍ احتفالي إلَّا أنَّ الطقسَ كان سيئاً جداً على تجارتِهم. كانَ على بعضِ الناسِ العملُ أيّاً كانت الأحوالُ الجويَّةُ، في المطرِ أو في الصحو، كالمشترين الإيطاليين والفلمنكيين الذينَ يحتاجونَ إلى الصوفِ الإنكليزي الناعمِ من أجلِ آلافِ الأنوالِ العاملةِ في فلورنسا وبروغ، ولكنَّ الزبائنَ العرضيين ممن سيبقونَ في منازلِهم كزوجاتِ الفرسانِ سيقررنَ أنهنَّ لسن في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى جوزِ الطيبِ والقرفةِ؛ أو سيقررُ فلاحٌ ميسورٌ بأنَّ معطفَهُ القديمَ سيكفيهِ لشتاءٍ آخرٍ؛ أو سيعيدُ محامٍ ما النظرَ في حاجةِ عشيقتِهِ الشديدةِ إلى خلخالٍ ذهبي.

لم يكن ميرثن يريدُ شراءَ أيِّ شيءٍ فهو لا يملكُ المالَ لأنَّه مُتدربٌ لا يتقاضى أجراً ويعيشُ مع مُعلِّمِهِ البنَّاء إلفريك. كان يتناولُ الطعامَ مع عائلةِ البنَّاءِ وينامُ على أرضيَّةِ المطبخِ ويرتدي ثيابَ إلفريك القديمةَ ولا يتلقى أيَّ أجرٍ، وخلالَ ليالي الشتاءِ الطويلةِ كانَ يصنعُ ألعاباً جميلةً من الخشبِ ويبيعُها مقابلَ بضعة بنساتٍ، ومن بين هذهِ الألعابِ التي كان يصنعها صناديق خشبيةٌ بحُجيراتٍ سريّةٍ، أو ديكٌ بلسانٍ ينتأ عندما يُضغط على ذيله إلَّا أنَّه صيفاً لا يحظى بأيِّ وقتِ فراغٍ لأنَّ البنَّائين يعملونَ حتَّى هبوطِ الظلامِ.

كانَت فترةُ تدريبِهِ على وشكِ الانتهاءِ وبعدَ أقلِّ من ستَّةِ أشهرٍ، أي في أولِ يومٍ من أيامِ شهرِ كانون الأول/ ديسمبر، سيُصبحُ عضواً في نقابةِ البنَّائين في كينغزبريدج وهو بعمرِ الواحد والعشرين. كانَ متحمساً جداً لمجيءِ ذلكَ اليومِ.

كانت البوابةُ العظيمةُ الغربيةُ للكاتدرائيةِ مفتوحةً حتَّى يدخلَ آلافٌ من سُكانِ المدينةِ والزوارِ ممن يؤمون مراسمَ هذا العيدِ. دخلَ ميرثن وهو ينفضُ ماءَ المطرِ عن ثيابِهِ. كانت الأرضيَّةُ الحجريةُ زلقةً بسببِ المياهِ والوحلِ. ففي أيَّامِ الصحو تكونُ الكنيسةُ في الداخلِ مضاءةً بأشعةِ الشمسِ، ولكنَّ الطقسَ اليومَ ضبابي وزجاجُ النوافذِ الملوّنُ يُضفي عتمةً على المكانِ. احتشدَ المصلونَ في الظلامِ بثيابِهم المبللة.

أينَ يذهبُ كلُّ هذا المطر؟ لم يكن هناكَ ترعاتٌ للتصريفِ حولَ الكنيسةِ، وكانَ مصيرُ آلافٍ وآلافٍ من غالوناتِ الماءِ هو أن تمتصَّها الأرضُ. هل تغورُ

في الأرضِ عميقاً إلى أن تسقطَ مجدداً كمطرٍ؟ لا فقد كانت الكاتدرائيةُ على مُرتفعٍ والمياهُ تغورُ للأسفلِ عميقاً داخلَ الهضبةِ من الشمالِ وحتّى الجنوب. كانَت أساساتُ المباني الحجريةِ الكبيرةِ مُصممةً للسماحِ للمياهِ بالتغلغلِ لأنَّ تراكمَ الماءِ يعدُّ أمراً خطيراً، وكلُّ هذا المطر سيصلُ في النهايةِ إلى النهرِ عندَ التُخمِ الجنوبي لأراضي الديرِ.

تخيَّلَ ميرثن تدفقَ المياهِ تحتَ الأرضِ وهديرَه الصاخبَ يترددُ صداهُ عبر الأساساتِ والأرضيَّةِ المرصوفةِ وشعوره بهِ تحتَ قدميهِ.

اندفعَت كلبةٌ سوداء صغيرةٌ نحوه وهي تهزُّ ذيلَها وحيَّته بسعادةٍ: «مرحباً سكراب»، قالَ لها ميرثن وربَّتَ عليها ثمَّ رفعَ نظرَهُ ليرى صاحبةَ الكلبةِ، كاريس، وتسارعَت دقاتُ قلبِهِ.

كانَت كاريس في عباءةٍ بلونٍ قرمزي زاهٍ ورثتها عن والدتِها، وبدت أشبهَ بدفقٍ من الألوانِ وسطَ هذهِ الظُلمةِ. ابتسمَ ميرثن ابتسامةً عريضةً مسروراً برؤيتِها. كانَ من الصعبِ تحديدُ ما يجعلُ كاريس جميلةً جداً فهي تملكُ وجهاً مدوراً بتقاسيم دقيقةٍ ومتناسقةٍ وشعراً بنيّاً فاتحاً قليلاً وعينين خضراوين ببقعٍ ذهبيَّةٍ. لم تكن مُختلفة كثيراً عن مئاتِ الفتياتِ الأخرياتِ في كينغزبريدج إلّا أنَّها كانَت ترتدي قبعتَها بزاويةٍ مائلةٍ وشيءٌ من الذكاءِ الساخرِ يلمعُ في عينيها. نظرَت كاريس إليهِ وابتسمت ابتسامة مشاغبة تعدُ بمُتعٍ سريَّةٍ إلّا أنَّها كانت ابتسامةً عذبةً أيضاً. يعرفُها ميرثن منذُ عشرِ سنواتٍ ولكنه في الشهورِ الأخيرةِ بدأ يُدركُ أنَّه كانَ واقعاً في غرامِها.

سحبتهُ كاريس خلفَ أحدِ الأعمدةِ وقبَّلتهُ على فمِهِ وهي تُحرِّكُ بخفَّةٍ طرفَ لسانِها على شفتيهِ.

كانا يُقبلان بعضهما بعضاً كلَّما سنحَت لهما الفرصةُ؛ في الكنيسةِ، في السوقِ، وعندما يلتقيان في الشارعِ؛ ولكن أفضل هذهِ الأمكنةِ كانَ منزلُها عندما يجدانِ نفسيهما وحدهما. عاشَ ميرثن من أجلِ هذهِ اللحظاتِ، وكانَ يفكرُ بتقبيلِها قبلَ أن يخلدَ إلى النومِ وحالما يصحو مجدداً.

اعتادَ ميرثن المرورَ بمنزلِها مرتين أو ثلاثَ مرَّاتٍ أسبوعياً. أحبّهُ والدُها إدموند ولكنَّ عمتَها بيترانيلا لم تحبّهُ، ولأنَّ إدموند رجلٌ مرحٌ غالباً ما كانَ يدعو ميرثن للبقاءِ على العشاءِ، ويقبلُ ميرثن دعوتَهُ بكلِّ امتنانٍ وهو يعلمُ أنَّ وجبةَ الطعامِ هنا أفضل من تلكَ التي سيحظى بها في منزلِ إلفريك. كانَ يقضي

الوقتَ مع كاريس بلعبِ الشطرنجِ والداما أو بالتحدثِ، وأحبَّ مراقبتَها وهي تروي قصةً ما، أو تشرحُ شيئاً ما ويداها ترسمان الكلماتِ في الهواءِ ووجهها يفيضُ بالمُتعةِ أو الدهشةِ وهي توضحُ كلَّ تفصيلٍ بأبهةٍ، ولكنَّهُ في معظمِ الوقتِ كان ينتظرُ تلكَ اللحظاتِ التي سيسرقُ منها قبلةً.

ألقى ميرثن نظرةً حولَهُ في الكنيسةِ ولم يرَ أحداً ينظرُ باتجاههما فدسَّ يدَهُ داخلَ معطفِها وتحسسَها فوقَ القماشِ الرقيقِ لثوبِها. كانَ جسدُها دافئاً. تحسسَ ثديَها براحةِ يدِهِ وشعرَ بهِ صغيراً ومدوراً. كانَ يُحبُّ الطريقةَ التي يستجيبُ فيها لحمُها لضغطِ أطرافِ أصابعِهِ. لم يرَها عاريةً قبلاً ولكنَّهُ يعرفُ شكلَ ثدييها جيداً.

كانَ يذهبُ إلى أبعدِ من هذا في أحلامِه ويتخيلُ أنَّهما وحدهما، في مكانٍ ما، في فسحةٍ خاليةٍ من الأشجارِ في الغابةِ، أو في غرفةٍ في قلعةٍ ما، وكلاهما عاريان. ولكن، وبما يدعو للعجبِ، كانَت أحلامُهُ تنتهي في اللحظةِ التي يوشكُ فيها على مضاجعتها ويستيقظُ وهو يشعرُ باليأسِ.

وفكرَ في نفسهِ بأنَّ هذا سيحدثُ يوماً ما.

لم يتحدثا عن الزواجِ بعد فهو ما زال متدرباً ولا يستطيعُ المُتدربُ الزواجَ قبلَ إنهاءِ تدريبِهِ ولهذا كانَ عليهِ الانتظارُ. لا بد أن كاريس تتساءل في نفسِها عمَّا سيفعلانِهِ عندما ينتهي من تدريبِهِ إلَّا أنَّها لم تعبر عن هذهِ الأفكارِ بل بدَت قانعةً بالحياةِ يوماً بيوم أمَّا هو فقد كان يشعرُ بخوفٍ تطيري من التحدثِ عن مستقبلِهما معاً. يُقالُ إنَّه ليس على الحُجاجِ أن يمضُوا الكثيرَ من الوقتِ في التخطيطِ لرحلتِهم لأنَّهم قد يفكرونَ بالمخاطرِ الكثيرةِ التي قد تواجههم وعندها قد يتراجعونَ عن الذهابِ.

مرَّت راهبةٌ بهما وسحَبَ ميرثن يدَهُ من بين ثديي كاريس كأنَّه أمسكَ بجرمٍ إلَّا أنَّ الراهبةَ لم ترَهُما. كانَ الناسُ يقومونَ بشتى الأمورِ في المساحاتِ الشاسعةِ للكنيسةِ ففي العامِ الماضي رأى ميرثن شخصين يتضاجعان قبالةَ حائطِ الممرِّ الجنوبي في العتمةِ خلالَ مراسمِ قداسِ عيدِ الميلادِ رغمَ أنَّهما طُردا من المكانِ بعدَ افتضاحِ أمرهما. تساءلَ ميرثن إن كان سيبقى هو وكاريس طوالَ فترةِ المراسمِ يعبثان في الخفاءِ.

ولكن كانَ لدى كاريس رأي آخر وقالَت لهُ: «فلنذهب إلى الواجهةِ المائيةِ»، ثمَّ أمسكَت بيدِهِ وقادته عبرَ الحشودِ. كان ميرثن يعرفُ كثيراً من الحاضرين ولكن ليسَ جميعهم فقد كانت كنيغزبريدج من كبرياتِ المدنِ الإنكليزيةِ ويبلغُ

تعدادُ سكانِها سبعةَ آلافِ نسمةٍ ولا يعرفُ الجميعُ بعضهم بعضاً. لحقَ ميرثن بكاريس باتجاهِ تقاطعٍ حيث يلتقي صحنُ الكنيسةِ بأجنحتِها، وهناك وصلا إلى حاجزٍ خشبي يحجبُ المدخلَ في الطرفِ الشرقي، أو في المذبح المخصصِ لرجالِ الدين.

وجدَ ميرثن نفسَهُ بجانبِ بونافينتورا كارولي أهمِّ تاجرٍ إيطالي. بدا بونافينتورا رجلاً قوياً في معطفهِ المصنوع من القماشِ الصوفي السميكِ والمطرز بسخاءٍ. كان قادماً من فلورنسا وقد قال عنها إنَّها أعظمُ مدينةٍ في العالمِ المسيحي وأكبرُ بعشرِ مرَّاتٍ من كينغزبريدج إلَّا أنَّه كانَ يعيشُ حالياً في لندن ويديرُ أعمالَ عائلتِهِ الكبيرةِ مع منتجي الصوفِ الإنكليز. كانت عائلةُ كارولي غنيةً جداً وتُقدمُ القروضَ إلى الملوكِ إلّا أنَّ بونافينتورا كانَ رجلاً دمثاً ومتواضعاً، رغمَ أنَّ الناسَ كانوا يقولون عنهُ إنَّهُ قد يكون قاسياً جداً في أمورِ العملِ.

حيَّت كاريس الرجلَ بشكلٍ عرضي ولكن ودي فقد كانَ ينزلُ في منزلِهم، وأومأ الرجلُ بودٍ إلى ميرثن رغمَ أنَّهُ عرفَ من عمرِ ميرثن وثيابِهِ المُستعملةِ أنَّهُ مجرَّدُ متدربٍ.

كان بونافينتورا يتفحصُ هندسةَ عمارةِ الكنيسةِ وقالَ في محاولةٍ لفتحِ حديثٍ: «أزورُ كينغزبريدج منذُ خمسةِ أعوامٍ ولكني حتَّى الآن لم أنتبه إلى أنَّ نوافذَ أجنحةِ الكنيسةِ أكبرُ بكثيرٍ مقارنةً ببقيةِ نوافذِها». تحدَّثَ بفرنسيةٍ ومزيجٍ من كلماتٍ من منطقةِ توسكاني الإيطاليةِ.

لم يواجه ميرثن مشكلةً في فهمِ كلامِهِ لأنَّهُ وكمعظمِ أبناءِ الفرسانِ الإنكليزِ تعلَّمَ التحدثَ بالفرنسيةِ النورمانديةِ مع والديهِ وبالإنكليزيةِ مع رفاقِ اللعبِ، ونجحَ في تكهنِ الكثيرِ من معاني الكلماتِ الإيطاليةِ لأنَّهُ تعلَّمَ اللاتينيةَ في مدرسةِ الرُهبانِ.

«يمكنني أن أخبركَ عن السببِ في أنَّ النوافذَ تبدو على هذا النحو»، قال ميرثن.

رفعَ بونافينتورا حاجبيهِ مُتعجباً وقد تفاجأ من ادعاءِ متُدربٍ معرفتَهُ بمثلِ هذهِ الأمورِ.

«بُنيت الكنيسةُ منذُ مئتي عامٍ عندما كانت هذهِ النوافذُ الضيقةُ ذاتُ الحوافِ المُدببةِ في صحنِ ومذبحِ الكنيسةِ تصميماً جديداً وثورياً»، قال ميرثن ثمَّ تابع: «ثمَّ وبعد مئةِ عامٍ أرادَ الأسقفُ بناءَ برجٍ أعلى وإعادةَ بناءِ الأجنحةِ في الوقتِ عينِهِ لذلكَ اختارَ نوافذَ أكبرَ من التي كانت حينئذٍ التصميمَ الدارجَ».

بدا بونافيتورا مبهوراً بما سمعَهُ وقالَ: «وكيفَ لكَ أن تعرفَ مثلَ هذهِ الأمورِ؟»

«في مكتبةِ ديرِ الرهبانِ كتابٌ عن تاريخِ الديرِ يدعى «كتاب تيموثي»، وهو يروي قصَّةَ بناءِ الكاتدرائيةِ، وقد كُتبَ معظمُه في زمنِ رئيسِ الديرِ فيليب، ولكن كُتَّابًا لاحقين أضافوا إليهِ. قرأتُهُ عندما كنتُ فتىً في مدرسةِ الرهبانِ»، أجاب ميرثن.

حدَّقَ بونافيتورا إلى ميرثن لوهلةٍ كأنّه يحاولُ أن يحفظَ وجهَهُ ثمَّ قالَ بشكلٍ عرضي: «إنَّهُ بناءٌ جميلٌ».

«هل تختلفُ الأبنيةُ في إيطاليا عن الأبنيةِ هنا؟» سألَ ميرثن الذي افتتنهُ دوماً الحديثُ عن البلدانِ الأجنبيةِ والحياةِ فيها والعمارة بشكلٍ خاصٍ.

بدا بونافيتورا كأنّه سرحَ بخيالِهِ ثمَّ قالَ: «أعتقدُ أنَّ أسسَ البناءِ هي ذاتُها في جميعِ البلدانِ إلَّا أنني لم أرَ أيَّ قبابٍ في إنكلترا؟»

«ما هي القُبةُ؟»

«سطحٌ مدورٌ يشبهُ نصفَ كُرةٍ».

بدا ميرثن ذاهلاً بما سمعهُ وسأل: «لم أسمع بمثلِ هذا الشيء قبلاً! كيف يتم بناؤها؟»

ضحكَ بونافيتورا وقالَ: «أيُّها الشاب أنا تاجرُ صوفٍ ويمكنني أن أخبركَ إن كانَ الصوفُ من خرافِ كوستولد أو خراف لينكولن من خلالِ اختبارِ الصوفِ بينَ سبابتي وإبهامي، ولكني لا أعلمُ كيف يُبنى قِنُّ دجاجٍ فما بالكَ ببناءِ قُبةٍ».

وهنا وصلَ مُعلِّمُ ميرثن إلفريك. كانَ إلفريك رجلاً ميسورَ الحالِ ويرتدي ثياباً باهظةً إلَّا أنَّ ثيابه على الدوامِ تبدو كأنّها ثيابُ شخصٍ آخرٍ، ولأنَّهُ كانَ مُتزلفاً على الدوامِ تجاهلَ وجودَ كاريس وميرثن وانحنى بشدةٍ لبونافيتورا قائلاً: «إنَّهُ لشرفٌ لنا أن نحظى بكَ في مدينتنا مجدداً يا سيدي».

استدارَ ميرثن.

«كم عددُ لغاتِ العالمِ برأيكَ؟» سألت كاريس ميرثن.

كانَت تتفوهُ بأمورٍ جنونيةٍ طوالَ الوقتِ.

«خمس»، أجابَ ميرثن من دونِ تفكيرٍ.

«لا، فلتكن جدياً»، قالَت كاريس، «يوجدُ الإنكليزيةَ والفرنسيةَ واللاتينيةَ وهذهِ ثلاثُ لغاتٍ. ولدينا أيضاً لغةُ سكانِ فلورنسا، وأهلُ البندقيةِ يتحدثونَ بطريقةٍ مختلفةٍ عنهم رغمَ وجودِ كلماتٍ مشتركةٍ بينهم».

«أنتِ على حقٍ»، قالَ وقد بدأ يلعبُ معَها، «هذهِ خمسُ لغاتٍ، ولدينا أيضاً اللغةُ الفلمنكية». في كينغزبريدج قلّةٌ من الناسِ يستطيعون فهمَ لغةِ التجارِ القادمينَ من المدنِ المشهورةِ بأعمالِ الغَزلِ في منطقةِ الفلاندر كمدينةِ إيبرس وبروج وغِنت.

«والهولنديةُ».

«وللعربِ أيضاً لغةٌ خاصةٌ بهم، ويكتبونَ بحروفٍ مختلفةٍ عن حروفنا».

«لقد أخبرتني الأمُّ سيسيليا أنَّ جميعَ البربرين يملكونَ لغاتٍ خاصَّةً بهم، ولا يعرفُ أحدٌ الطريقةَ التي يكتبون بها كالإسكتلنديين والويلزيين والإيرلنديين، وربما هناكَ آخرون غيرهم. وبهذا يُصبحُ العددُ إحدى عشرة لغةً وقد يكون هناكَ شعوبٌ لم نسمع عنها قبلاً!».

ابتسمَ ميرثن ابتسامةً عريضةً. كانت كاريس الشخصَ الوحيدَ الذي يمكنُهُ أن يتحدثَ معهُ بهذهِ الطريقةِ، فمن بينِ أصدقائِهِ الذين كانوا في مثلِ عُمرِهِ لا يفهمُ أحدٌ منهم متعةَ تخيّل أناسٍ غرباء وأساليب حياةٍ مُختلفةٍ كما تفعلُ كاريس. كانت تسألُ أسئلةً اعتباطيةً كسؤال كيفَ هي الحياةُ على حافةِ العالمِ؟ هل الكهنةُ مخطئونَ بشأنِ الرَّبِّ؟ كيفَ يمكنُ أن تعرفَ أنَّكَ لستَ في حلمِ الآن؟ أو يتخيلان رحلاتٍ افتراضيةً ويتنافسان على اختراعِ أشدِّ التفاصيلِ غرابةً.

وفجأةً هدأت ضجَّةُ الأحاديثِ في الكنيسةِ ورأى ميرثن الرهبانَ والراهبات يجلسونَ في أمكنتِهم. كانَ قائدُ جوقةِ المرتلين، كارلس الأعمى، آخرَ الواصلين ورغمَ أنَّهُ أعمى فإنَّهُ مشى من دونِ مساعدةٍ في الكنيسةِ وفي الأبنيةِ المخصصةِ للرهبانِ. كانَ يتحرَّكُ ببطءٍ ولكن بثقةِ رجلٍ مُبصرٍ وبمعرفةٍ بكلِّ عمودٍ وبلاطةٍ في المكانِ. بدأ يغني بطبقةِ جهيرٍ قويَّةٍ ومن ثمَّ لحقت بهِ الجوقةُ وبدأت بغناءِ ترنيمةٍ.

كانَ ميرثن مُشككاً في عملِ رجالِ الدينِ إلا أنّه كانَ هادئاً في تشكيكهِ، فهو يعتقد أنَّ الكهنةَ يمتلكون سُلطةً لا تتناسبُ طرداً مع معارفِهم، تماماً كمُعلمِهِ إلفريك. ولكنه وعلى الرغمِ من هذا أحبَّ الذهابَ إلى الكنيسةِ فمشاهدةُ المراسمِ والموسيقى والعمارةُ والغناءُ باللاتينيةِ تثيرُ فيهِ نشوةً. كانَ يشعرُ كأنّه نائمٌ ولكن بعينين مفتوحتين، ومجدداً انتابهُ ذلكَ الإحساسُ الغريبُ بمياهِ المطرِ تتدفقُ كسيلٍ تحتَ قدميهِ.

طافَ بنظرِهِ عبرَ المستوياتِ الثلاثةِ لصحنِ الكنيسةِ: الممرُ المُقنطرُ والبهو

والنوافذُ العلويةُ. كانَ يعلمُ أنَّ الأعمدةَ بُنيت بوضعِ حجرٍ فوق آخر، رغمَ أنّها كانَت تُعطي انطباعاً بأنّها بُنيت بطريقةٍ مختلفةٍ، على الأقلّ من النظرةِ الأولى. كانَت الكتلُ الحجريةُ مزخرفةً جداً وبدا معها كلُّ عمودٍ كأنّه حُزمة من السهامِ الشاقوليةِ. تابعَ ميرثن بنظرِهِ كيفَ ترتفعُ إحدى الدعامات العملاقةِ في المعبرِ بدءاً من القاعدةِ المُربعةِ وتتفرعُ شمالاً ليتشكلَ بذلكَ قوسٌ يمتدُ في الأعلى حتّى الممر الجانبي وعلى مستوى المنبرِ حيثُ عمود آخر يتفرعُ غرباً مُشكلاً رواقَ القاعةِ ويصلُ حتى الجناحِ الغربي وينبثقُ منهُ قوس تتوزعُ فيهِ الأفرعُ المتبقيةُ كأغصانِ الزهورِ وتعملُ كأضلاعٍ منحنيةٍ لسقفِ القبةِ التي تعلوها. ومن الشكلِ المحدبِ المركزي في أعلى نقطةٍ من القُبةِ لاحقَ بعينيهِ الضلعَ وهو يميلُ مرّةً أخرى نحو القاعدةِ المربعةِ لعمودٍ مشابهٍ في الزاويةِ المقابلةِ للمعبرِ.

وهنا وقعَ أمرٌ غريبٌ، ولوهلةٍ شعرَ ميرثن كأنَّ بصرَهُ قد زاغَ وأنَّ الجانبَ الشرقي من جناحِ الكنيسةِ يتحرَّكُ.

سمعَ همهمةً خفيضةً وبعيدةً جداً وبالكادِ يُمكنُ سماعُها ثمَّ أحسَّ باهتزازٍ تحتَ قدميهِ كأنَّ شجرةً سقطَت على مقربةٍ من المكانِ.

بدت أصواتُ الغناءُ كأنّها تتذبذبُ.

وعندَ المذبحِ ظهرَ صدعٌ على الجدارِ الجنوبي تماماً بالقربِ من الدعامةِ التي كانَ يُحدِّقُ بها ميرثن منذُ برهةٍ.

وجدَ ميرثن نفسَهُ يلتفتُ باتجاهِ كاريس ومن زاويةِ عينهِ رأى حجرةً تسقطُ بينَ جوقةِ المرتلين والمعبرِ ثمَّ لم يكن هناكَ سوى أصوات نساءٍ يصرخنَ ورجالٍ يصيحون وصوت يصمُّ الآذانَ لحجارةٍ كبيرةٍ تسقطُ على الأرضيَّةِ. لم يدم الأمرُ سوى لحظةٍ سريعةٍ وعادَ الصمتُ ليطغى على المكانِ شيئاً فشيئاً. اكتشفَ ميرثن أنّه كانَ يحتضنُ كاريس وقد أحاطَ كتفيها بساعدِهِ الأيسر وضمَّها إليهِ وغطّى رأسَها بذراعِه اليمنى. كان يقفُ بجسدِهِ بينها وبينَ المكانِ الذي تكوَّمَ فيهِ جزءٌ من الكنيسةِ في خرابٍ.

***

لا بد أن الأمرَ برمتِهِ معجزة فما من أحدٍ ماتَ.

كان المعبرُ الجنوبي باتجاهِ المذبحِ قد تعرضَ إلى أكبرِ ضررٍ، ولحسنِ الحظِ كانَ خالياً من الناسِ خلالَ المراسمِ. لم يكن المُصلونَ قد أُدخلوا إلى المذبحِ بعد، وكانَ رجالُ الدينِ يقفونَ في القسمِ الأوسطِ – جوقةِ المرتلين، وبأعجوبةٍ نجحَ

العديدُ من الرهبانِ في الهربِ مما صعَّدَ الأحاديثَ حولَ أنَّ الأمرَ برمّتِهِ معجزةٌ، ولكن آخرين عانوا من جروحٍ ورضوضٍ بسببِ قطعِ الحجارةِ المُتطايرةِ. لم يُصب المُصلون بأذياتٍ خطرةٍ واقتصرت على الخدوشِ. يبدو أنَّ ما حمَاهُم جميعاً، وبشكلٍ عجائبي، هو رفاتُ القديسِ أدولفوس تحتَ المذبحِ العالي. لقد كانَ القديسُ مشهوراً بمآثرِهِ كشفاءِ المرضى وإنقاذِ الناسِ من الموتِ. عموماً، اتفقَ الجميعُ على أنَّ الحادثَ رسالةٌ من الرَّبِّ إلى سكانِ كينغزبريدج، ولكن ما لم يكن واضحاً بعد هو ما هي هذهِ الرسالة التي أرادَ إيصالَها.

بعدَ مرورِ ساعةٍ بدأ أربعةُ رجالٍ بتفحصِ الدَّمارِ في المكانِ ومن بينهم نسيبُ كاريس، الأخُ غودوين، الذي يعملُ في المكانِ مسؤولاً عن أبنيةِ الكنيسةِ وجميعِ ممتلكاتِها، والأخُ توماس الذي كان موظفاً أقلّ شأناً من غودوين والمسؤول عن عملياتِ البناءِ والإصلاحاتِ في الكاتدرائيةِ وهو نفسهُ السير توماس لانغلي الذي انضمَّ إلى الديرِ منذُ عشرِ سنواتٍ. كانَت صيانةُ الكاتدرائيةِ من مسؤوليةِ إلفريك وأحد البنَّائين تحتَ التدريبِ وبنَّاء يعملُ كتاجرٍ لمعدَّاتِ البناءِ، ولأنَّ ميرثن متدربٌ لدى ولفريك فقد انضمَّ إلى المجموعةِ أيضاً.

كانَت الزاويةُ الشرقيةُ من الكنيسةِ مقسومةً بالأعمدةِ إلى أربعةِ أقسام تدعى الحجيرات، وقد أثَّرَ الانهيارُ على الحجيرتين القريبتين من المعبرِ الذي ينتهي عندَ المذبحِ، ودمرَ القنطرةَ الحجرية فوق الحُجيرةِ الأولى عندَ المعبرِ الجنوبي بالكاملِ وفوقَ الحجيرةِ الثانيةِ بشكلٍ جزئي. كانت هناكَ صدوعٌ في الرواقِ وتساقطَت العضاداتُ الحجريَّةُ لصفِّ النوافذِ العلويةِ.

قالَ إلفريك: «تسببَ بعضُ الضعفِ في الملاطِ بتداعي القنطرةِ، وهذا بدورِهِ تسببَ بصدوعٍ عندَ المستوياتِ الأعلى».

لم يقتنع ميرثن بما قالَهُ إلفريك إلَّا أنَّه لم يملك تفسيراً بديلاً.

كانَ ميرثن يكرهُ مُعلمهُ إلفريك. في بدايةِ فترةِ تدريبهِ عملَ ميرثن مع خواكيم -والد إلفريك- وهو بنَّاءٌ واسعُ الخبرةِ عملَ على بناءِ الكنائسِ والجسورِ في لندن وباريس، ولطالما وجدَ البنَّاءُ العجوزُ متعةً في شرحِ علمِ البناءِ لميرثن، أو ما كانَ يُطلقُ عليهِ البناؤون «أسرارَ» البناءِ التي كانت بمعظمها صيغاتٍ رياضيَّةً كالنسبةِ بينَ ارتفاعِ البناءِ وعُمقِ أساساتِهِ. أحبَّ ميرثن العملَ مع الأرقامِ وتشرَّبَ كلَّ شيءٍ علَّمهُ إيَّاه خواكيم.

ولكن خواكيم توفي وتسلَّمَ ابنه إلفريك مكانَهُ. كانَ إلفريك يعتقدُ أنَّ الشيءَ

الوحيدَ الذي يتوجبُ على المُتدربِ تعلُّمُهُ هو الطاعة ووجدَ ميرثن صعوبةً في تقبلِ هذا فعاقبهُ إلفريك على ذلك بأن خفَّض حصصَ طعامِهِ ومنحهُ ثياباً خفيفة وكلَّفهُ بأعمالٍ خارجيةٍ في الأجواءِ الصقيعيةِ، وما زادَ الطينَ بلَّةً ابنةُ إلفريك السمينةُ غريزيلدا التي كانت في مثلِ عمرِ ميرثن وتحظى بغذاءٍ وكساءٍ جيدين.

توفيت زوجةُ إلفريك منذ ثلاثِ سنواتٍ فتزوجَ مرةً أخرى وكانت زوجتهُ هذهِ المرَّةَ أليس – أختَ كاريس الكبرى. لطالما اعتقدَ الناسُ أنّ أليس الأختُ الأجملُ وكانَ هذا صحيحاً فقد كانت ملامحُ وجهها أكثر تناسقاً إلّا أنّها لم تكن تملكُ أسلوبَ كاريس الساحر، ووجدها ميرثن مُملةً. لطالما أحبَّت أليس ميرثن كما أحبَّتهُ أختُها، وتمنى ميرثن أن تدفعَ أليس إلفريك إلى معاملتِهِ بطريقةٍ أفضل، ولكن هذا ما لم يحدث قط بل بدَت أليس كأنّها تعتقدُ أنَّ واجبَها الزوجي يفرضُ عليها مشاركةَ إلفريك في تعذيبِ ميرثن.

يعلمُ ميرثن أنَّ المُتدربين الآخرين يلقون المعاملةَ ذاتَها وأنّهم يتحمَّلون هذهِ المعاناة لأنَّ التدريبَ فرصتهم الوحيدة كي يتعلموا مهنةً بأجرٍ جيدٍ فقد عملَت نقاباتُ المهنِ بفعاليةٍ على إقصاءِ مُحدثي الثراءِ ولذلك لم يكن بوسعِ أحدٍ القيام بأيِّ عملٍ أو المتاجرة في البلدةِ من دونِ أن يكونَ عضواً في نقابةٍ ما. وسواء كان المرءُ كاهناً أم راهباً أم امرأةً فلا يُمكنه المتاجرة في الصوفِ أو صُنع الجعةِ ما لم يكن عضواً في نقابةٍ، وخارجَ المدينةِ لم يكن هناكَ الكثيرُ من الأعمالِ فالفلاحون يقومونَ بأنفسهم ببناءِ منازلِهم وحياكةِ ثيابِهم.

بعدَ انتهاءِ فترةِ التدريبِ عادةً ما يختارُ معظمُ المُتدربين البقاءَ مع مُعلميهم والعمل معهم كعمالٍ مأجورين، لكن قلَّةٌ منهم فقط يصبحونَ شركاء ويرثونَ المهنةَ عن مُعلمِيهم عندما يكبرونَ في العُمرِ ويموتون. لن يكونَ هذا قدرَ ميرثن فقد كانَ يكرهُ إلفريك، وسيتركُهُ في اللحظة التي سيصبحُ فيها قادراً على فعلِ هذا.

«فلنتحقق من الأمرِ من الأعلى»، قالَ غودوين.

توجهوا إلى الزاويةِ الشرقيةِ وقالَ إلفريك: «تُسعدني رؤيتكَ أيُّها الأخُ غودوين بعدَ عودتِكَ من أوكسفورد، لا بدَّ أنّكَ تفتقدُ صحبةَ كلِّ أولئكَ الناسِ المُتعلمين».

أومأ غودوين برأسِهِ وقالَ: «إنّ المُعلمينَ هناكَ مُذهلون حقاً».

«والطُلابُ الآخرون، لا بدَّ أنّهم شبابٌ رائعون رغمَ أننا نسمعُ عن قصصٍ حولَ وجودِ سلوكياتٍ سيئة هناكَ أيضاً».

بدا غودوين حزيناً وقالَ: «أخشى أنَّ بعضَ هذهِ القصصِ حقيقي. عندما يبتعدُ كاهنٌ أو راهبٌ شابٌ عن موطنِهِ لأوّل مرَّةٍ يُصبحُ عرضةً للإغواءِ».

«ولكن وعلى الرُغمِ من هذا كلهِ ما زلنا محظوظين بوجودِ رجالٍ مُتعلمين في الجامعاتِ هنا في كينغزبريدج».

«لطفٌ منكَ أن تقولَ هذا».

«أوه، ولكنَّ هذا حقيقي».

أرادَ أن يقولَ لهُ ميرثن: «فلتصمتْ بحقِّ الرَّبِّ»، إلا أنَّ هذا لم يكن أسلوبهُ في التصرُّفِ بل أسلوبَ إلفريك. كانَ إلفريك حِرفَياً سيئاً ويعوزُ عملُهُ الدِّقَةَ ويفتقدُ مَلكَةَ الحُكمِ الجيدِ إلّا أنّه كانَ يتقنُ المداهنةَ، وقد راقبهُ ميرثن يفعلُ هذا مراراً وتكراراً. أجادَ إلفريك التصرفَ بطريقةٍ آسرةٍ مع الناسِ الذين يريدُ منهم شيئاً تماماً كما أجادَ التصرفَ بوقاحةٍ مع من لا مصلحة له معهم.

ولكن ميرثن تفاجأ أكثرَ من غودوين، وتساءلَ في نفسِهِ كيفَ يُمكن لرجلٍ ذكي ومُتعلّمٍ ألا يرى حقيقةَ إلفريك. ربما لم يكن الأمرُ واضحاً جداً للأشخاصِ الذين كانوا في مرمى مُجاملاتِهِ.

فتحَ غودوين باباً صغيراً وقادَهم عبرَ درجٍ حلزوني خفي خلفَ أحدِ الجدرانِ. شعرَ ميرثن بالحماسةِ فقد كانَ يحبُّ دخولَ ممراتٍ سريَّةٍ في الكاتدرائيةِ، علاوةً على هذا انتابهُ فضولٌ كبيرٌ لمعرفةِ سببِ الانهيارِ الكبيرِ وتاقَ إلى فهمِ السببِ.

كانت الممراتُ عبارةً عن بُنى بارتفاعِ طابقٍ واحدٍ وهي بارزةٌ من كلا جانبي الكتلةِ الرئيسيةِ للكنيسةِ ولها سقوفٌ مُقنطرةٌ، وفوقَ القنطرةِ سقفٌ مائلٌ يبدأ من الحافةِ الخارجيةِ للممرّ إلى قاعدةِ النوافذِ العلويةِ، وتحتَ هذا السقفِ المائل فراغٌ مثلثي أرضيتهُ الجانب الخفي أو ما يُعرفُ بالأقواسِ الخارجيةِ لسقفِ الممرِ المُقنطرِ. صعدَ الرجالُ الأربعةُ إلى هذا الفراغِ لمعاينةِ الضررِ من الأعلى.

أضاءت النوافذُ التي تُفتحُ مصاريعها إلى داخلِ الكنيسةِ المكان، وبِبصيرتهِ النافذةِ تكهنَ توماس أنَّ المكانَ سيكونُ مُظلماً فأحضرَ معهُ مصباحاً زيتياً. كانَ أولَ أمرٍ لاحظَهُ ميرثن هو أنَّ القناطرَ في كلِّ حُجيرةٍ لا تبدو تماماً كما تبدو عليهِ من الأسفلِ، ولاحظَ أيضاً أنَّ أبعدَ قنطرةٍ شرقيَّةٍ متقوسةٌ بشكلٍ أوسع من القنطرةِ المجاورةِ بل وبدت مُحطمةً جزئياً، وبدورها القنطرةُ التاليةُ بدت مختلفةً عن القنطرةِ التي قبلها.

ساروا على طولِ الحافةِ الخارجيَّةِ للقنطرةِ وقد حرصوا على البقاءِ عندَ

الحافةِ –المنطقةِ الأقوى من القنطرةِ– إلى أن أصبحوا على أقربِ مسافةٍ ممكنةٍ من منطقةِ الانهيارِ. كانت القنطرةُ مبنيةً بالطريقةِ ذاتها التي بُنيت بها بقيةُ الكنيسة، وذلكَ برصفِ الحجارةِ وتثبيتها بالملاط، باستثناءِ أحجارِ السقفِ التي كانت أقلَّ سماكةً وأخفَّ. تبدو القنطرةُ عندَ قاعدتِها كأنّها شاقوليةٌ ولكن عندما تأخذُ بالارتفاعِ تميلُ إلى الداخلِ إلى أن تنتهي عندَ قاعدةِ القنطرةِ التاليةِ.

قالَ إلفريك: «حسناً يبدو أنَّ أولَ شيءٍ علينا القيامُ بهِ هو إعادةُ بناءِ القنطرةِ فوقَ أولِ حجيرتين في المعبرِ».

قالَ توماس: «لقد مرَّ زمنٌ طويلٌ منذُ أن قامَ أحدٌ ببناءِ قنطرةٍ»، ثمَّ استدارَ نحو ميرثن وقالَ: «هل يمكنكَ أن تصنعَ قالباً للقنطرةِ؟»

علمَ ميرثن ما عناهُ توماس بكلامِهِ فعندَ حافةِ القنطرةِ كانت الحجارةُ ما تزالُ قائمةً، وهي على الأغلب ستبقى في مكانِها بتأثيرِ وزنِها، إلّا أنّه وعلى مستوى أعلى يميلُ الانحناءُ لأن يصبحَ أفقياً ولذلك سيحتاجُ إلى بعضِ التدعيمِ ليبقى كلُّ شيءٍ في مكانِهِ إلى أن يجفَّ الملاطُ. كانت الطريقةُ الوحيدة والواضحة هي صُنعَ إطارٍ خشبي يُدعى بالقالبِ أو الهيكلِ المؤقتِ ورصفَ أحجارِ البناءِ فوقَهُ.

إنَّ مثل هذا العمل يعتبرُ تحدياً لأيِّ بنَّاءٍ فالمنحنيات يجبُ أن تكونَ صحيحةً ودقيقةً. كان توماس يدركُ أهميةَ قدراتِ ميرثن الحرفيَّة فقد أشرفَ عن قربٍ ولسنواتٍ عديدةٍ على عملِ ميرثن وإلفريك في الكاتدرائيةِ إلّا أن توجيه الحديثِ إلى المُتدربِ بدلاً من المُعلمِ لم يكن تصرفاً لبقاً، ولهذا سارعَ إلفريك إلى الرَّدِ: «تحتَ إشرافي سيتمكنُ من صُنعِهِ».

«يمكنني أن أصنعَ القالبَ»، قالَ ميرثن الذي انخرطَ من فورِهِ في التفكيرِ بكيفيةِ صُنعِ القالبِ الذي سيدعمُ السّقالةَ أو المنصةَ التي سيرصفُ عليها البناؤونَ الحجارةَ، «ولكن لم يُستخدم قالبٌ لبناءِ القناطرِ من قبل».

«لا تتفوه بالترهاتِ أيُّها الفتى»، قالَ إلفريك، «بالطبعِ استخدمت القوالب لبنائِها. أنتَ لا تعرفُ شيئاً».

يعرفُ ميرثن أنَّ الجدالَ مع مُعلمِهِ تصرفٌ غيرُ حكيم، ولكنه من جهةٍ أخرى وبعدَ ستةِ أشهرٍ من الآن سيتنافسُ مع إلفريك في مجالِ العملِ ولذلكَ فهو يحتاجُ إلى أناسٍ كالأخِ توماس ليؤمنوا بمقدرتِهِ. علاوةً على هذا فقد تضايقَ من الاحتقارِ الواضحِ في نبرةِ صوتِ إلفريك، وانتابتهُ رغبةٌ لا تقاومُ بإثباتِ خطأ معلمِهِ. «فلتنظر إلى المنحنياتِ الخارجيَّةِ للقنطرةِ»، قال ميرثن بسخطٍ وتابع:

«عندما ننتهي من العملِ على الحُجيرةِ سنستخدمُ القالبَ نفسَهُ لرصفِ حجارةِ البناءِ، وفي هذهِ الحالةِ، سيكونُ لجميعِ القناطرِ المنحنى ذاتَهُ ولكن القناطرَ في الحقيقةِ ليست متشابهةً».

«من الواضحِ أنَّهم لم يعيدوا استخدامَ القالبِ ذاته»، قالَ إلفريك باهتياج.

«ولكن ما الذي دفعهم إلى القيامِ بهذا؟» أصرَّ ميرثن. «لا بدَّ أنَّهم أرادوا الاقتصادَ في استخدامِ الخشبِ وتوفيرَ أجورِ النجارين المَهرةِ».

«على أيِّ حالٍ من غيرِ الممكنِ بناءُ قنطرةٍ من دونِ قالبٍ».

«بل الأمرُ ممكنٌ»، قالَ ميرثن. «هناكَ طريقةٌ...»

«هذا يكفي»، قالَ إلفريك. «أنتَ هنا لتتعلمَ وليس لتُعلّم».

وهنا تدخّلَ غودوين قائلاً: «مهلاً يا إلفريك، إن كانَ الفتى على حقٍ فهذا كفيلٌ بتوفيرِ مالٍ كثيرٍ على الديرِ»، ونظرَ إلى ميرثن ثمَّ سأله «ما الذي كنتَ تقولُهُ عن الطريقةِ الأخرى؟»

لم يكن ميرثن راغباً بفتحِ هذا الموضوعِ حقاً لأنَّه سيدفعُ ثمنه باهظاً، ولكنَّهُ ألزمَ نفسهُ بالإجابةِ عليهِ وإن تراجعَ الآن فسيعتقدون أنَّهُ لا يعلمُ عمَّا كانَ يتحدثُ. «إنَّ الطريقةَ موجودةٌ في أحدِ كُتبِ ديرِ الرُهبانِ وهي بسيطةٌ جداً»، قالَ ميرثن وتابع: «عندما تُرصفُ الأحجارِ يُمدُّ فوقَها حبلٌ مربوطٌ إلى الجدارِ من جهةٍ إلى جهةٍ أخرى وهو مُثبتٌ بقطعةٍ خشبيّةٍ. سيرسمُ الحبلُ الزاويةَ المناسبةَ فوقَ حافةِ الحجرِ ويحميهِ من السقوطِ من مكانهِ على الأرضِ بعدَ تثبيتِهِ بالملاطِ».

حلَّ صمتٌ وجيزٌ بينما غرقَ الجميعُ في التفكيرِ بما قالَه وتخيَّلَ الأمرَ، ثمَّ أومأ توماس برأسِهِ موافقاً وقال: «ستنجحُ هذهِ الطريقة».

بدا إلفريك مُغتاظاً جداً.

كان غودوين مُهتماً بما قالَهُ ميرثن وسألَهُ: «ما اسمُ الكتابِ؟»

«يُدعى كتاب تيموثي»، أجابَهُ ميرثن.

«أعرفهُ، ولكني لم أطلع عليهِ قط. كانَ عليَّ الإطلاعُ عليهِ حتماً»، ثمَّ توجّهَ غودوين بالحديثِ إلى الآخرين قائلاً: «هل اكتفينا من المعاينةِ؟»

أومأ كلٌ من إلفريك وتوماس برأسه بالموافقةِ، وبينما كانَ الرجالُ الأربعةُ يغادرون المكانَ همسَ إلفريك لميرثن: «هل تدركُ بأنَّ فعلتَك هذهِ كلَّفتكَ عملاً لأسابيع عديدةٍ؟ أراهنُ بأنَّكَ لم تكن لتقومَ بهذا لو كنتَ صاحبَ العملِ».

لم يفكر ميرثن بهذا. كانَ إلفريك على حقٍ فقد كلَّفَهُ إثباتُ عدمِ أهميَّة

القالبِ عملَهُ، ولكنّ هناكَ خطباً خطيراً في الطريقةِ التي يُفكر بها إلفريك، ولم يكن السماحُ لأحدٍ بإهدارِ المالِ من أجلِ الحفاظِ على عملِهِ فقط عملاً عادلاً. لم يكن ميرثن راغباً في العيشِ على خداعِ الناسِ.

هبطوا الدرجَ الحلزوني وتوجهوا إلى المذبحِ.

قالَ إلفريك لغودوين: «سآتي غداً مع تخمينٍ بتكلفةِ العملِ».

«هذا جيدٌ».

التفتَ إلفريك إلى ميرثن وقالَ لهُ: «فلتبقَ أنتَ هنا ولتُحصِ الحجارةَ في الممرِ المُقنطرِ ثمَّ عُد إلى المنزلِ عندما يصبحُ لديكَ جوابٌ».

«أجل».

غادرَ إلفريك وغودوين ولكن توماس بقي وقالَ: «لقد سببتُ لكَ المتاعبَ».

«كُنت تحاولُ تقديم الدعم لي».

هزَّ الراهبُ كتفيهِ وقامَ بحركةٍ بذراعِهِ اليمنى بما معناه أنَّه لم يكن باليدِ حيلةٌ. كانت ذراعُه اليسرى مبتورةً من المرفقِ منذُ عشرِ سنوات جرَّاءَ عدوى أصيبَ بها الجُرح الذي تعرَّضَ لهُ في القتالِ الذي شهدَهُ ميرثن.

لم يكنْ ميرثن يستعيد ذلكَ المشهدَ الغريبَ في الغابةِ كثيراً فقد اعتادَ على رؤيةِ توماس في ردائهِ الرهباني إلا أنَّه استعادَ المشهدَ في ذاكرتِهِ الآن: الجنودُ والأطفالُ المُختبئونَ في الأجمةِ والقوسُ والسهمُ والرسالةُ المدفونةُ. لطالما كان توماس لطيفاً معه، وتكهنَ ميرثن أنَّ السببَ في ذلكَ يعودُ إلى ما حدثَ في ذلكَ اليومِ. «لم أخبر أحداً البتة عن تلك الرسالةِ»، قالَ ميرثن بهدوءٍ.

«أعلمُ»، أجابَ توماس. «لأنَّك لو فعلتَ لكنتَ ميتاً الآن».

***

تُدارُ معظمُ المدنِ الكبرى من قبل نقابةٍ تدعى نقابة التجار وهي هيئةٌ تضمُّ وجهاءَ المدينةِ. تعملُ العديدُ من النقاباتِ الحرفيةِ تحتَ قيادةِ هذهِ الهيئةِ، وهناكَ نقابةٌ محددةٌ لكلِّ مهنةٍ: البناء والنجارة والدباغة والحياكة والخياطة، وهناكَ أيضاً نقاباتُ الأبرشيةِ وهي مجموعاتٌ صغيرةٌ متمركزةٌ في الكنائسِ المحليَّةِ وقد تأسست لغايةٍ وهي جمعُ المالِ لأرديةِ الكهنةِ وزينةِ الأعيادِ ودعمِ الأرامل واليتامى.

لم تكن المُدنُ التي تحوي على كاتدرائياتٍ متشابهةً؛ فمدنٌ ككينغزبريدج وسانت ألبانز وبيري سانت إدموندز يحكمُها الديرُ الذي يضعُ يدَهُ على كلِّ

الأراضي المحيطةِ بالمدينةِ، ولذلكَ يرفضُ رؤساءُ الأديرةِ على الدوامِ السماحَ بإنشاءِ نقابةِ التجارِ، إلّا أنَّ معظمَ كبارِ الحرفيين والتُجار ينتمونَ إلى نقابةِ أبرشيةِ سانت أدولفوس. لا بدَّ أنَّ هذهِ النقابة قد بدأت منذُ وقتٍ طويلٍ كمجموعةٍ دينيةٍ ورعةٍ تجمعُ المالَ من أجلِ الكاتدرائيةِ إلّا أنها اليومَ باتت أهمَّ هيئةٍ في المدينةِ. كانت الهيئةُ تضعُ قوانينَ إدارةِ الأعمالِ وتنتخبُ رئيساً وستةَ قائمقامين لفرضِ هذهِ القوانين، وفي قاعةِ النقابةِ التي تدعى غيلد هول يحتفظونَ بأدواتِ القياسِ والوزنِ التي يُحددُ بواسطتها الوزنُ المقياسي لكيسٍ من الصوفِ، أو عرضِ ثوبٍ من القماشِ، أو مكيال الحبوبِ من أجلِ جميعِ المهنِ في كينغزبريدج. على أيِّ حالٍ لم يكن بإمكانِ التُجارِ عقدُ جلساتٍ في المحكمةِ وإحقاق العدلِ كما يحدثُ في المدنِ ذاتِ الإدارةِ المحليةِ لأنَّ رئيس ديرِ كينغزبريدج احتفظَ بهذهِ السلطاتِ لنفسِهِ.

أقامت نقابةُ الأبرشيةِ في فترةِ ما بعد الظهرِ من يومِ عيدِ العُنصرة وليمةً في قاعةِ النقابةِ ودعت إليها أبرزَ زوارِ كينغزبريدج من التجارِ. كانَ إدموند وولر رئيسَ النقابةِ، ورافقتهُ كاريس بصفتِها المُضيفةَ ولهذا كانَ على ميرثن أن يروحَ عن نفسِهِ من دونِها.

لحسنِ الحظِ حضرَ إلفريك وأليس المأدبةَ ولذلكَ كانَ بوسعِ ميرثن الجلوسَ في المطبخِ والاستماعَ إلى صوتِ المطرِ والغرقِ في التفكيرِ. لم يكن الطقسُ بارداً إلا أنَّ هناكَ ناراً ضعيفةً في موقدِ المطبخِ من أجلِ الطَبخِ، وكان وهجها الأحمر مثارَ بهجةٍ لميرثن.

كانَ بوسعِ ميرثن سماعُ صوتِ ابنةِ إلفريك غريزيلدا وهي تتحركُ في الطابقِ العلوي، ورغمَ أنَّ المنزلَ أصغرُ من منزلِ إدموند فإنَّه كانَ منزلاً جميلاً؛ ففي الطابقِ السفلي قاعةٌ ومطبخٌ فقط، ويُفضي الدرجُ إلى مساحةٍ مفتوحةٍ في الطابقِ العلوي حيثُ تنامُ غريزيلدا وهناك غرفةُ نومٍ مُغلقة من أجلِ المُعلمِ وزوجتِهِ أمّا ميرثن فكان ينام في المطبخِ.

في ما مضى -منذُ ثلاثةِ أو أربعةِ أعوام- عانى ميرثن من خيالاتٍ ليليةٍ عابثةٍ حثتهُ على صعودِ الدرج والتدثرِ بالأغطيةِ إلى جانبِ جسدِ غريزيلدا الدافئ والممتلئ، ولكنَّها كانت تعتبرُ نفسَها أرفعَ مكانةً ولطالما عاملتهُ كأنّه خادمٌ وهي بذلكَ لم تشجعهُ قط على تحقيقِ هذا الخيالِ.

ومن مكانِهِ على المقعدِ حدّقَ ميرثن إلى النارِ وتخيلَ السقالةَ الخشبيةَ التي

سيبنيها من أجلِ البنَّائين الذين سيعيدونَ بناءَ القنطرةِ المُتهدمةِ في الكاتدرائيةِ. كانَ الخشبُ باهظاً والجذوعُ الطويلةُ نادرة لأنَّ مالكي أراضي الغاباتِ عادةً ما يقعونَ ضحيةَ إغراءِ بيعِ الخشبِ قبل اكتمالِ نموهِ، ولهذا السببِ يحاولُ البنَّاؤون الاكتفاءَ بعددٍ محدودٍ من السقالاتِ، وبدلاً من بناءِ سقالاتٍ من الأرضيَّةِ وحتَّى الأعلى كانوا يوفرونَ الخشبَ من خلالِ تثبيتِ السقالاتِ على الجدرانِ.

كانَ يفكرُ بهذا عندما دخلَت غريزيلدا إلى المطبخِ وأخذَت قدحاً من الجعةِ من البرميلِ.

«هل تريدُ بعضَ الجعةِ؟» سألتهُ غريزيلدا وقبلَ ميرثن عرضها متفاجئاً بهذهِ البادرةِ اللطيفةِ، ولكن هذهِ لم تكن مفاجأته الوحيدة فقد أخذَت غريزيلدا الكرسي قبالتهُ وجلسَت لتشرَبَ معهُ.

اختفى حبيبُ غريزيلدا، تريستن، منذُ ثلاثةِ أسابيع ولذلك لا بدَّ أنَّها تشعرُ بالوحدةِ وتبحثُ عن الصحبةِ برفقةِ ميرثن الآن. دفأ المشروبُ معدتَهُ وساعدهُ على الاسترخاءِ. كانَ يبحثُ عن موضوعٍ ليُحدثها بهِ وسألها: «ما الذي حدث لتريستن؟»

حرَّكَت رأسَها كمُهرةٍ لعوبٍ وقالت: «أخبرتُهُ أنني لا أريدُ الزواجَ منهُ».

«لمَ لا تريدين الزواجَ منهُ؟»

«إنَّهُ أصغرُ مني بكثير».

لم يقتنع ميرثن بهذا الكلامِ فعلى الرغمِ من أنَّ تريستن في السابعةَ عشرة وغريزيلدا في العشرين فإنّها لم تكن ناضجةً بشكلٍ لافتٍ بالنسبةِ إلى شخصٍ في مثلِ عمرها، وفكرَ ميرثن في نفسِهِ بأنَّ السببَ الحقيقي هو انتماءُ تريستن إلى طبقةٍ اجتماعيةٍ متدنيةٍ جداً. كان تريستن قد وصلَ إلى كينغزبريدج منذُ بضعةِ أعوامٍ من مكانٍ مجهولٍ وعملَ لدى العديد من حرفيّي المدينةِ كعاملٍ غير مُتدرب، وربما أصابهُ المللُ من غريزيلدا وكينغزبريدج وقررَ متابعةَ حياته في مكانٍ آخر بكلِّ بساطةٍ.

«إلى أين ذهبَ؟»

«لا أعلمُ ولا يهمني. سأتزوجُ من شخصٍ في مثلِ عمري... شخصٍ يملكُ حسَّ المسؤوليةِ. ربما من رجلٍ يمكنهُ أن يستلمَ عملَ أبي في يومٍ ما».

وهنا خطرَ ببالِ ميرثن أنَّها ربما تعنيهِ بكلامِها إلَّا أنَّ هذا لا يمكنُ أن يكونَ صحيحاً فهي تحتقرُهُ. نهضَت عن كرسيها واقتربَت منهُ ثمَّ جلسَت على المقعدِ بقربِهِ.

«أبي يحقدُ عليكَ»، قالت غريزيلدا. «ولطالما فكرتُ بهذا».

ذُهلَ ميرثن مما سمعهُ وقالَ: «حسناً، لقد أخذتِ وقتاً طويلاً لتعترفي بهذا، فأنا أعيُش هنا منذُ ستِ سنواتٍ ونيفٍ».

«من الصعبِ عليَّ أن أعارضَ عائلتي».

«ولكن لماذا يتصرفُ معي بخسَّةٍ؟»

«لأنَّكَ تعتقدُ أنَّكَ أفضلُ منهُ، وأنتَ لا تحاولُ إخفاءَ هذا».

«ربما أنا أفضلُ منهُ».

«هذا ما قصدتُهُ»».

ضحكَ ميرثن وكانت هذهِ المرَّةَ الأولى التي تجعلُهُ فيها يضحكُ.

اقتربَت منهُ أكثر حتَّى باتَ فخذُها تحتَ ثوبِها الصوفي مُلتصقاً بفخذِهِ. كان يرتدي قميصاً قطنياً مُهترئاً يصلُ إلى منتصفِ فخذهِ وسروالاً قصيراً من النوعِ الذي يرتديهُ جميعُ الرجالِ، وشعرَ بدفءِ جسدِها تحتَ الثيابِ التي تفصلُ بين جسديهما. كانَ شعرها داكناً ولامعاً وعيناها عسليتين ووجهها مُثيراً كما يمكنُ للوجهِ الممتلئِ أن يكونَ مثيراً، وتملكُ فماً جميلاً يُغري بالتقبيلِ.

قالت لهُ: «أحبُّ البقاءَ في المنزلِ خلالَ العواصفِ المطريةِ فهو يمنحني شعوراً بالدفءِ».

شعرَ بنفسِهِ كأنّه بدأ يُستثارُ بما كانت تقوله لذلكَ أشاحَ بنظرِهِ بعيداً عنها، وتساءلَ في نفسِهِ عمَّا ستفكرُ بهِ كاريس إن دخلَت الآن ورأتهما. حاولَ أن يقمعَ رغبتَهُ ولكن كبحهُ لها زادَ الطينَ بلَّةً.

عادَ بنظرِهِ إلى غريزيلدا ولاحظَ أن شفتيها رطبتان ومفترتان قليلاً. انحنَت نحوهَ فقبَّلها وسرعانَ ما أقحمَت لسانَها في فمِهِ. كانت قبلةً حميمةً مُفاجئةً وصادمةً ووجدَها مثيرةً لذلكَ استجابَ لحركةِ لسانِها وأقحمَ لسانَهُ. لم تكن هذهِ القبلةُ كقُبلهِ مع كاريس...

وعندما خطرَ له هذا توقفَ عمَّا كانَ يفعلهُ وابتعدَ عن غريزيلدا ثمّ وقفَ.

قالت له: «ما الخطبُ؟»

لم يرغب بإخبارِها الحقيقةَ ولذلكَ قالَ لها: «ولكنكِ لم تُحبيني يوماً».

بدَت متضايقةً وقالت: «ولكنِّي أخبرتُكَ أنني كنتُ مضطرةً لأخذِ صفِّ والدي».

«لقد تغيرتِ بشكلٍ مفاجئ».

وقفَت واقتربَت منهُ فابتعدَ عنها حتَّى باتَ ظهرُهُ للحائطِ. أخذَت يدهُ بيدِها وضغطتها على ثدييها. كان ثدياها مدورين وكبيرين، ولم يكن بوسعِهِ مقاومةُ إغراءِ لمسهما، ثمّ قالت: «هل فعلتها يوماً... فعلتها حقاً.. مع فتاةٍ؟»

اكتشفَ أنَّهُ كانَ عاجزاً عن الكلامِ وأومأ برأسِهِ نافياً.

«هل فكرتَ بفعلِ هذا معي؟»

«أجل»، تمكنَ أخيراً من إخراجِ صوتِهِ.

«بما أنَّ الجميعَ في الخارجِ يمكنكَ أن تفعلَ هذا معي الآن إن أحببتَ. يمكننا الصعودُ إلى الطابقِ العلوي والاستلقاءُ على سريري».

«لا».

ضغطَت بجسدِها على جسدِهِ وقالت: «جعلتني قبلتكَ أشعرُ بالحرارةِ والرطوبةِ في داخلي».

دفعَها بعيداً عنهُ، وكانت دفعةً أقوى مما أرادَها لأنَّ غريزيلدا سقطَت على ظهرِها واستقرَّت على مؤخرتِها الممتلئةِ جداً.

«دعيني وشأني»، قالَ لها.

لم يكن واثقاً من أنَّ هذا ما أرادَهُ، ولكن يبدو أنَّها صدقت ما قالَه وقالت له: «فلتذهب إلى الجحيمِ إذاً»، ثمَّ نهضَت على قدميها وتوجهت إلى الطابقِ العلوي.

لبثَ ميرثن في مكانِهِ يلهثُ، وها هو يشعرُ بالندمِ الآن بعد أن صدَّها.

لا تعتبرُ الشاباتُ المُتدربين رجالاً مثيرين فهنَّ لم يكنَّ يرغبنَ بالانتظارِ لسنواتٍ حتى يتزوجن. ولكن ميرثن توددَ إلى العديدِ من فتياتِ كينغزبريدج، إحداهنَّ تدعى كيت براون كانت معجبةً بهِ بما يكفي لتنامَ معهُ في إحدى فتراتِ ما بعدِ الظهيرةِ الصيفيةِ الدافئةِ في بستانِ والدها منذُ عام، ولكنَّ والدَها توفي فجأةً وأخذَت والدتها العائلةَ وعاشوا في بورتسماوث. كانت هذهِ المرَّةَ الأولى التي تُتاح فيها لميرثن فرصةُ مضاجعةِ امرأةٍ، وفكرَ بأنَّهُ لا بدَّ أن يكون مجنوناً لرفضِهِ عرضَ غريزيلدا.

قالَ في نفسهِ إنَّه كان محظوظاً للنجاةِ منها فقد كانت غريزيلدا فتاةً لئيمةً وهي لم تحبه قط، وإن عليه أن يكونَ فخوراً بنفسهِ لأنَّه قاومَ الإغراءَ ولأنَّه لم يخضع لغريزتِهِ كحيوانٍ غبي، ولأنَّه أخذَ قراراً كرجلٍ.

ولكن غريزيلدا بدأت بالبكاءِ.

لم يكن صوتُ نحيبِها عالياً إلّا أنّه كان قادراً على سماعهِ. توَّجَهَ إلى البابِ الخلفي، وكأيِّ منزلٍ في المدينةِ كانَ فناءُ منزلِ إلفريك عبارةً عن قطعةِ أرضٍ طويلةٍ وضيِّقةٍ بمرحاضٍ خارجي ومكبٍّ للنفاياتِ. دأبَ معظمُ أصحابِ المنازلِ على تربيةِ الدجاج والخنازيرِ وزراعةِ الخضارِ والفواكه في هذهِ الحدائقِ الخلفيةِ، ولكن إلفريك استخدمَ حديقتَهُ الخلفيَّةَ لتخزينِ أحمالِ الخشبِ والحجارةِ ولفائفِ الحبالِ والدلاءِ وعرباتٍ تُجرُّ باليدِ وسلالم. حدَّقَ ميرثن إلى المطرِ وهو يتساقطُ في الحديقةِ وصوتُ بكاءِ غريزيلدا ما زالَ يصلُ إلى مسامعه.

قررَ مغادرةَ المنزلِ، وعندما وصلَ إلى البابِ الأمامي فكرَّ بأنَّهُ لا يملكُ مكاناً ليذهبَ إليهِ. ففي منزل كاريس لا يوجدُ أحدٌ سوى بيترانيلا التي لن ترحِّبَ بِهِ، ثمَّ فكرَ بالذهابِ لزيارةِ والديهِ، ولكنَّهما كانا آخرَ شخصين قد يرغبُ برؤيتِهما وهما في ذلكَ الوضعِ التعسِ. كانَ بوسعِهِ التحدثُ إلى أخيهِ ولكن رالف لن يعودَ إلى كينغزبريدج قبلَ نهايةِ الأسبوعِ. علاوةً على هذا أدركَ ميرثن أنَّهُ لا يستطيعُ مغادرةَ المنزلِ من دونِ معطفٍ، ولكن ليسَ بسببِ المطرِ فهو لا يُمانعُ التعرضَ للبللِ ولكن بسببِ هذا الانتفاخِ في مقدمةِ سروالِهِ الذي يبدو كأنّه لن ينتهي.

حاولَ أن يفكرَ بكاريس وبأنَّها الآن تحتسي النبيذَ وتتناولُ اللحمَ البقري المشوي مع خبزِ القمحِ، وتساءلَ في نفسِهِ عن الثوبِ الذي ترتديهِ. كانَ أفضلُ أثوابها ثوباً بلونٍ وردي ضاربٍ للحمرةِ الخفيفةِ مع ياقةٍ مُربعةٍ تكشفُ عن البشرةِ الشاحبةِ لعنقِها النحيلِ. ولكنَّ بكاءَ غريزيلدا استمرَّ في مقاطعةِ أفكارِهِ عن كاريس. أرادَ أن يروّحَ عنها ويُخبرها بأنّه آسفٌ لأنّه دفعَها، ويقول لها إنَّها امرأةٌ جذابةٌ ولكنهما غير مناسبين بعضهما لبعض.

جلسَ ثم وقفَ مجدداً. كانَ سماعُ امرأةٍ تبكي من الضيقِ أمراً لا يُحتمل، ولم يكن بوسعِهِ التفكيرُ بالسّقالةِ وكيفيةِ صُنعِها وصوتُ البكاءِ يملأُ المنزلَ. لم يكن بوسعهِ البقاء أو المغادرة ولا حتّى الجلوس من دونِ حراكٍ.

وصعدَ إلى الأعلى.

وجدها مُستلقيةً ووجهها إلى الأسفلِ على فراشٍ من القشِّ وقد التفت ثيابُها حولَ فخذيها الممتلئين، ورأى أن بشرةَ فخذيها من الوراءِ شديدةُ البياضِ وناعمةٌ.

«أنا آسفٌ»، قالَ لها.

«اغرب عن وجهي».

«لا تبكي».

ركعَ بجوارِها وربَتَ على ظهرِها ثمَّ قالَ: «لا يمكنني الجلوسُ في المطبَخِ وسماعكِ وأنتِ تبكين».

تقلَّبَت وغيَّرت وضعيتَها ثمّ نظرَت إليه كان وجهها رطباً من الدموعِ.

«أنا بشعةٌ وسمينةٌ وأنتَ تكرهني».

«أنا لا أكرهكِ»، قال ومسحَ خديها الرطبين بظاهرِ يدِهِ.

أمسكت بمعصمِهِ وقرَّبتهُ منها: «هل هذا صحيحٌ؟ حقاً؟»

«لا، ولكن...»

ووضعَت يدَها وراءَ رأسِهِ ثمَّ جذبتهُ نحوها وقبَّلتهُ. أخذَ ميرثن يئنُّ فقد كانَ يشعرُ بإثارةٍ لم يشعر بها قبلاً. استلقى قربَها على الفراش وقالَ في نفسِهِ إنَّهُ سيغادرُ على الفورِ، وإنَّهُ سيواسيها قليلاً فقط ثمَّ سينهضُ وينزلُ.

أخذَت يدَهُ ووضعَتها على تنورةِ ثوبها ثمَّ أقحمتها بينَ ساقيها. عندما تحسسَ الشَعرَ المتشابكَ والجلدَ الناعمَ تحتَ الشَعرِ والشَّقَّ الرَّطبَ علمَ أنَّه قد ضاعَ الآنَ وإلى الأبدِ. أخذَ يداعبها بعنفٍ وبدأت أصابعُه تنزلقُ إلى الداخلِ فأحسَّ كأنّه على وشكِ الانفجارِ ثمَّ قالَ لها: «لا يمكنني التوقفُ».

«بسرعةٍ»، قالَت له وهي تلهثُ ثمَّ نزعَت عنهُ قميصَهُ وأنزلَت سروالهُ وصعدَ فوقَها.

شعرَ بنفسِهِ وهي تقودُهُ داخلها بأنَّه يفقدُ السيطرةَ ثمَّ وقبلَ أن ينتهي من الأمرِ الذي لم يدم طويلاً اجتاحَهُ شعورٌ بالندمِ فتهاوى فوقَها بعينين مُغمضتين ثمّ قالَ: «يا إلهي! كم أتمنى لو أني ميتٌ».

-7-

في يومِ الإثنين وبعدَ يومٍ على الوليمةِ الكبيرةِ في غيلد هول قامَ بونافينتورا كارولي بإعلانٍ صادمٍ على الفطورِ.

شعرت كاريس ببعضِ التوعكِ وهي تأخذُ كرسياً إلى الطاولةِ المصنوعةِ من خشبِ الصنوبر في قاعةِ الطعامِ في منزلِ والدِها. كانت تعاني من الصداعِ وتشعرُ بالغثيانِ فتناولَت صحناً صغيراً من الخُبزِ والحليبِ الدافئ لتهدئةِ اضطرابِ معدتِها. وبينما كانت تسترجعُ ذكرى النبيذِ اللذيذ الذي حظيت بهِ

في الوليمةِ تساءَلت في نفسها إن كانت قد أفرطَت في تناولِ الشرابِ. هل هذا هو الشعورُ الصباحي الذي يتندرُ حولَهُ الرجالُ والصبيةُ عندما يتفاخرون في ما بينهم بكميَّةِ الشرابِ القوي الذي يُمكنهم تناولُهُ.

كانَ والدُها وبونافيتورا يتناولان لحمَ الضأنِ الباردِ والعمَّةُ بيترانيلا تروي قصَّةً: «عندما كنتُ في الخامسةَ عشرة خُطبتُ إلى ابن أخي إيرل شايرنغ، وكانَ هذا يُعتبرُ زواجاً جيداً فوالدُه فارسٌ من الطبقةِ الوسطى ووالدي تاجرُ صوفٍ ثري. ومن ثمَّ ماتَ الإيرل وابنهُ الوحيدُ في إسكتلندا في معركةِ لاوندن هيل[1]. أصبحَ خطيبي رولاند الإيرل وفُسخَت الخطوبةُ. ما يزال رولاند إيرلاً حتَّى اليوم، ولو أنني تزوجتُ بهِ قبلَ المعركةِ لكنتُ الآن كونتيسةَ شايرنغ». وغمسَت قطعةَ خُبزٍ في قدحٍ من الجعةِ.

«ربما لم تكن هذهِ مشيئةَ الرَّبِّ»، قالَ بونافيتورا ورمى عظمةً إلى الكلبةِ سكراب التي انقضت عليها كأنَّها لم تتناول الطعامَ منذُ أسبوعٍ، ثمَّ توجَّهَ بكلامِهِ إلى والدِ كاريس: «أرغبُ بإطلاعكَ على بعضِ الأمورِ يا صديقي قبلَ أن نبدأ أعمالَ اليومِ».

شعرَت كاريس من نبرةِ بونافيتورا أنَّ لديهِ أخباراً سيئةً، ولا بد أن والدَها انتابَهُ ذاتُ الإحساسِ لأنَّهُ قالَ: «هذا نذيرٌ بالشؤمِ».

«خلالَ السنواتِ الأخيرةِ تراجعت تجارتُنا»، قال بونافيتورا ثمَّ تابع: «ومع مرورِ كلِّ عامٍ تبيعُ عائلتي قماشاً أقلَّ وهذا يعني أنَّها تشتري صوفاً أقلَّ من إنكلترا».

«الأعمالُ تسيرُ على هذا النحو دوماً»، قالَ إدموند، «إنها تزدهرُ وتتراجعُ، ولا أحد يعرفُ سببَ هذا».

«ولكنَّ ملككم باتَ يتَّدخلُ في هذهِ التجارةِ الآن».

كانَ كلامُ بونافيتورا صحيحاً فقد اكتشفَ الملكُ إدوارد الثالث أنَّ الصوفَ يدرُّ الكثيرَ من المالِ، ولهذا قررَ أن التاج يجب أن يستفيد أكثر من عوائدِهِ ففرضَ ضريبةً جديدةً مقدارُها جنيه على كلِّ كيسٍ من الصوفِ. إنَّ الوزنَ المتعارفَ عليهِ لكيسِ الصوف هو 364 باونداً، ويُباعُ بأربعةِ جنيهاتٍ وكانت

1- وقعَت المعركةُ في أيار/ مايو من عام 1307 بين القواتِ الإسكتلندية والإنكليزية جنوبَ منطقةِ لاوندن هيل في مقاطعة إيرشاير. انتهت المعركةُ بانتصارِ القواتِ الإسكتلنديةِ، وكانَ هذا أول نصرٍ عسكري للملكِ الإسكتلندي الشهيرِ روبرت ذا بروس. (المترجمة)

الضريبةُ الجديدةُ تعادلُ ربعَ قيمةِ الصوفِ الموجودِ في الكيسِ، وهذهِ حصَّةٌ كبيرةٌ من الأرباحِ.

تابعَ بونافينتورا: «والأسوأ من هذا كلِّهِ أنَّه وضعَ المزيدَ من العراقيلِ على تصديرِ الصوفِ من إنكلترا، وأصبحتُ مُضطراً إلى دفعِ رشى كبيرةٍ لتسييرِ الأمورِ».

«سيُرفعُ الحظرُ على التصديرِ قريباً»، قالَ إدموند، «إنَّ تُجارَ الصوفِ في لندن يتفاوضون مع الموظفين الملكيين...»

«آملُ أن تكونَ مُصيباً في ما تقولُه»، قالَ بونافينتورا، «ولكن بسببِ سوءِ الأوضاعِ الراهنةِ تعتقدُ عائلتي أنه لم يعد هناكَ من حاجةٍ لأن أزورَ سوقين للصوفِ في هذا الجزءِ من البلدِ».

«هذا صحيحٌ!» قال إدموند. «تعالَ إلى هنا ولتنسَ أمرَ سوقِ شايرنغ».

تبعدُ بلدةُ شايرنغ عن كينغزبريدج سفرَ يومين على الحصانِ، وتعادلُ مساحتها مساحةَ مدينةِ كينغزبريدج. ورغمَ عدمِ وجودِ كاتدرائيةٍ أو ديرٍ فيها فإنَّها كانت تتفاخرُ بقلعةِ الشريفِ ومحكمتِها، وكانت أيضاً تقيم مرَّةً سنوياً سوقَ صوفٍ منافساً لسوقِ كينغزبريدج.

«أخشى أن أقولَ لكَ إنني لا أجدُ أنواعَ الصوفِ التي أريدُها هنا. فكما ترى فإن سوقَ كينغزبريدج يتراجعُ، والمزيدُ من الباعةِ يذهبون إلى سوقِ شايرنغ الذي يوفرُ تشكيلةً أكبرَ من حيثِ النوعِ والجودةِ».

ارتاعَت كاريس لدى سماعِها بهذا لأنَّه سيكون كارثياً على والدِها ولذلكَ سألت بونافينتورا: «لمَ يُفضلُ الباعةُ سوقَ شايرنغ؟»

هزَّ بونافينتورا كتفيهِ وقالَ: «عملت نقابةُ التُجارِ هناك على جعلِ السوقِ أكثرَ جذباً، ولم يعد هناكَ صفوف انتظارٍ طويلةٌ أمامَ بوابةِ البلدةِ، ويُمكنُ للباعةِ أن يستأجروا خيماً وأكشاكاً، وهناكَ بناءٌ مخصصٌ لتبادلِ الصوفِ حيثُ يستطيعُ الجميعُ متابعةَ الأعمالِ عندما تُمطرُ كما حدثَ...»

«يمكننا أن نقومَ بهذا»، قالَت كاريس.

شخرَ والدُها قائلاً: «لو كان هذا باستطاعتنا فقط».

«لِمَ لا يا أبي؟»

«إنَّ شايرنغ منطقةٌ مستقلةٌ وتملكُ امتيازاً ملكيّاً، ونقابةُ التُجارِ هناكَ تملكُ سلطةَ تنظيمِ مثلِ هذهِ الأمورِ بما يصبُّ في مصلحةِ تُجارِ الصوفِ، ولكن أعمالَ كينغزبريدج يديرُها الديرُ...»

تدخلَت بيترانيلا: «المجدُ للرَّبِّ».

«لا شكَّ في هذا»، قالَ إدموند ثمَّ أضاف: «ولكنَّ نقابةَ الأبرشيةِ لا تستطيعُ القيامَ بأيِّ شيءٍ من دونِ أخذِ موافقةِ الديرِ، ورؤساءُ الديرِ أناسٌ حذرون ومحافظون، وأخي لا يختلفُ عنهم كثيراً، ولهذا السببِ تُرفضُ معظمُ خططِ تحسينِ السوقِ».

تابعَ بونافينتورا: «وبسببِ علاقةِ عائلتي الطويلةِ معكَ يا إدموند ومع والدكَ قبلكَ لم نتوقف عن الشراءِ من سوقِ كينغزبريدج، ولكن في الأوقاتِ العصيبةِ لا يمكننا تحملُ تكلفةِ السلوكياتِ العاطفيةِ».

«إذاً وإكراماً لتلكَ العلاقة الطويلة التي ربطتنا أرغبُ بطلبٍ معروفٍ صغيرٍ منك»، قالَ إدموند ثمَّ أضاف: «لا تتعجل في أخذِ قرارٍ نهائي.»

وفكرت كاريس أنَّ والدها تصرَّفَ بذكاءٍ. كانت حنكةُ والدِها في المفاوضاتِ تصدمها في أحيانٍ كثيرةٍ فهو لم يجادل بونافينتورا ليعدلَ عن قرارِهِ لأنَّهُ إن قامَ بهذا سيُصرُّ الأخيرُ على قرارِهِ أكثر. من المرجحِ أنّ يوافقَ الإيطالي على عدمِ اتخاذِ قرارٍ نهائي لأنَّ هذا لن يُلزمه بشيءٍ بل سيتركُ البابَ مفتوحاً على الاحتمالاتِ.

وجدَ بونافينتورا صعوبةً في رفضِ هذا الطلبِ وقالَ: «حسناً، ولكن ما الغايةُ من هذا الطلبِ؟»

«أرغبُ بفرصةٍ لتحسينِ السوقِ وبخاصَّةٍ ذلكَ الجسر»، أجابَ إدموند، «إن وفرنا مرافق أفضلَ مقارنةً بمرافقِ شايرنغ وجذبنا المزيدَ من الباعةِ هل ستستمرُ في زيارتنا؟»

«بالطبعِ».

«إذاً، هذا ما سنقومُ بهِ»، قالَ إدموند ووقفَ ثمَّ أضاف: «سأذهبُ لمقابلةِ أخي الآن. فلترافقيني يا كاريس. سنريه صفَّ الانتظارِ الطويلِ عندَ الجسرِ، مهلاً، انتظري، فلتذهبي ولتُحضري صديقكِ البنَّاء الشاب والذكي ميرثن فقد نحتاجُ إلى خبرتِهِ».

«إنَّهُ يعملُ الآن».

قالَت بيترانيلا: «أخبري مُعلمَهُ أنَّ رئيسَ نقابةِ الأبرشيةِ يُرسلُ بطلبِ مُتدربِهِ»، كانت بيترانيلا فخورةً لكونِ شقيقها يشغلُ منصبَ رئيسِ النقابةِ ولا تفوّتُ فرصةً لذكرِ هذا.

ولكنَّها كانت على حقٍ؛ كان يجبُ أن يأخذَ إذنَ إلفريك لجلبِ ميرثن.

قالَت كاريس: «سأذهبُ لإحضارِهِ».

ارتدَت كاريس عباءةً بقلنسوةٍ وخرجَت. كانَ المطرُ مازالَ يهطلُ ولكن لم يكن بغزارةِ مطرِ البارحةِ، وكمعظمِ وجهاءِ كينغزبريدج عاشَ إلفريك في بيتٍ على الشارعِ الرئيسي الذي يبدأ من الجسرِ وحتَّى بواباتِ الديرِ. كانَ الشارعُ العريضُ مُكتَّظاً بالعرباتِ والناسِ المتوجهين إلى السوقِ وهم يخوضونَ في البركِ والجداولِ المائيةِ التَّي خلَّفها المطرُ.

كانت كاريس دوماً تتحين أيّ فرصةٍ لرؤيةِ ميرثن فقد أحبَّتهُ منذُ عشر سنواتٍ وبالتحديد منذُ عيدِ جميعِ القديسين عندما رأتهُ مع قوسِهِ المنزلي الصُنعِ في تدريبِ الرمايةِ. كانَ ذكياً ومسلياً، وبدا مثلَها يعرفُ أنَّ العالمَ مكانٌ أكبرُ وأكثرُ إذهالاً مما يتصورُهُ معظمُ سكانِ كينغزبريدج، ولكنَّها ومنذ ستةِ أشهرٍ اكتشفَت شيئاً أكثرَ امتاعاً من الصداقةِ.

قبَّلَت كاريس فتياناً آخرين قبلَ ميرثن، رغمَ أنَّ هذا لم يحدث كثيراً، فإنَّها لم تجد هذا الفعلَ ممتعاً كما كانت تظن، ولكن مع ميرثن كانَ الأمرُ مختلفاً؛ فقد كانَ ممتعاً ومثيراً. ولأنَّهُ يتحلى بشيءٍ من الشقاوةِ كانَ أيُّ عملٍ يقومُ بهِ يبدو مشاكساً بعضَ الشيءِ. أحبَّت أيضاً الطريقةَ التي كانَ يتحسسُ بها جسدَها، وأرادَت أنَ تقومَ معهُ بأمورٍ أخرى، ولكنَّها حاولَت ألا تفكرَ بالأمرِ لأنَّ هذهِ الأمورَ الأخرى تعني الزواجَ، وهذا يعني أنَّها كزوجة يجبُ أن تخضعَ لزوجِها الذي سيكونُ بمنزلة سيدِها، وقد كرهت كاريس هذهِ الفكرةَ. لحسنِ الحظِ لم تكن مُجبرةً على التفكيرِ بالأمرِ لأنَّ ميرثن ما زالَ غيرَ قادرٍ على الزواجِ وفترةُ تدرّبِهِ لم تنتهِ بعد فما زالَ أمامهُ ستةُ أشهرٍ لينتهي منها.

وصلَت كاريس إلى منزلِ إلفريك ودخلَت من البوابةِ. كانَت أختُها أليس في الغرفةِ الأماميةِ جالسةً إلى الطاولةِ مع ابنةِ زوجِها غريزيلدا وتتناولان الخبزَ مع العسلِ. تغيَّرَت أليس كثيراً خلال السنواتِ الثلاثِ الأخيرةِ بعدَ زواجِها من إلفريك. كانت تملكُ طبيعةً قاسيةً كالعمَّةِ بيترانيلا إلَّا أنَّها وبتأثيرٍ من زوجها غدَت أكثرَ ارتياباً وامتعاضاً وتقشفاً.

ولكنَّها كانت لطيفةً بما يكفي اليومَ وقالت لأختها: «إجلسي يا أختي. إنَّ الخبزَ طازجٌ هذا الصباح».

«لا يمكنني فأنا أبحثُ عن ميرثن».

بدَت أليس كأنّها تستهجن ما قالتهُ كاريس وسألتها: «في مثلِ هذا الوقتِ الباكرِ؟»

«أبي يريدُهُ»، قالَت كاريس وتوجَّهَت عبرَ المطبخِ إلى البابِ الخلفي لتبحثَ عنهُ في الحديقةِ الخلفيةِ. كانَ المطرُ يتساقطُ على خُردةِ إلفريك في الحديقةِ ويمنحها مظهراً كئيباً. رأت عاملاً من عُمالِ إلفريك يُحمّلُ أحجاراً في عربةٍ تُجرُّ باليدِ ولكنها لم ترَ أيَّ أثرٍ لميرثن فعادَت إلى الداخلِ.

قالَت أليس: «قد يكونُ في الكاتدرائيةِ. لقد كانَ يصنعُ باباً».

تذكرَت كاريس أنَّ ميرثن ذكرَ الأمرَ أمامَها. كانَ بابُ الرواقِ الشمالي في الكاتدرائيةِ قد بُلي وميرثن يعملُ على صنعِ بابٍ بديلٍ لهُ.

وأضافَت غريزيلدا: «كان ينقشُ صورَ عذارى» ثمَّ ابتسمَت ابتسامةً عريضةً ووضعَت المزيدَ من الخبزِ مع العسلِ في فمِها.

كانت كاريس تعلمُ عن هذا أيضاً؛ فالبابُ كانَ مزخرفاً برسوماتٍ تحاكي قصَّةَ المسيحِ وهو يتحدثُ من على قمةِ جبلِ الزيتونِ عن العذارى الحكيماتِ والجاهلاتِ، وكانَ على ميرثن نسخُ هذهِ النقوشِ. ولكن كاريس رأت أنَّ ابتسامةَ غريزيلدا كانت بغيضةً كأنّها تهزأ بكاريس لأنّها عذراء.

«سأذهبُ إلى الكاتدرائيةِ»، قالَت كاريس وغادرَت دون أن تلقي بالاً لهما.

توجهت إلى الشارعِ الرئيسي وأخذَت طريقَ الكاتدرائيةِ وخلال سيرها عبرَ أكشاكِ السوقِ أحسَّت بجوٍ موحشٍ يحيطُ بالمكانِ فتساءلَت في نفسها إن كانَت تتخيلُ هذهِ الوحشة الآنَ وبعد ما سمعتهُ من بونافينتورا، ولكنَّها قررَت أنَّ الأمر لا علاقةَ له بما قالَهُ بونافينتورا لأنَّها عندما عادَت بذاكرتِها إلى سوقِ الصوفِ في طفولتِها وتذكرت أنّه كان أكثرَ اكتظاظاً وازدحاماً. لم يعد فناءُ الكنيسةِ هذه الأيام كبيراً بما يكفي للسوقِ وعرقلت الأكشاكُ غيرُ المرَخّصةِ الشوارع المحيطة به، وهذهِ الأكشاك بمعظمها لم تكن أكثرَ من طاولةٍ لبيعِ حلي رخيصةٍ، أو لباعةٍ متجولين مع صوانٍ، أو بهلوانيين، أو قارئي الحظِ، أو موسيقيين، أو رهبان متجولين يدعونَ الخطائين إلى التوبةِ. ولاحظَت الآنَ أنَّ هناك مساحةً كافيةً لبضعةِ أكشاكٍ إضافيةٍ داخلَ فناءِ الكنيسةِ، وقالت كأنّها تتحدثُ إلى نفسِها: «بونافينتورا على حقٍ في أنَّ السوقَ متراجعٌ». رمقَها أحدُ الباعة بقسوةٍ، وأدركَت أنَّها لم تكن تفكرُ في نفسِها بل تتحدثُ علانيةً. كانَت عادةً سيئةً؛ فقد كانَ الناسُ يعتقدون أنَّها

تتحدثُ إلى الأرواحِ. ورغمَ تدريبِ نفسِها على عدمِ فعلِ هذا فإنَّها كانت تنسى أحياناً وبخاصَّةٍ عندما تكونُ متوترةً.

دارَت حولَ الكنيسةِ المهيبةِ لتصلَ إلى طرفِها الشمالي.

كانَ ميرثن يعملُ في الرواقِ الفسيحِ حيثُ يعقدُ الناسُ اجتماعاتٍ أحياناً، وقد ثبَّتَ الباب الذي يعملُ عليهِ إلى إطارٍ خشبي متينٍ لينقشَ عليهِ بحريَّةٍ. خلفَ البابِ الجديدِ كانَ البابُ القديمُ لا يزالُ في مكانِهِ عندَ المدخلِ وقد بدا مُتصدِّعاً ومتداعياً. وقفَ ميرثن وظهرُهُ لها ليسقطَ الضوءُ من فوقِ كتفيهِ على قطعةِ الخشبِ التي أمامَهُ. لم يرَها وكتمَ صوتُ المطرِ وقعَ خطواتِها، ولذلكَ تمكنَت من تأملِهِ لبضعِ دقائق دونَ أن يلاحظَها.

كانَ رجلاً ضئيلَ البنيةِ ولا يفوقها طولاً بكثير، ويبدو رأسه فوقَ جسدِهِ الهزيل كبيراً وذكياً. تحرَّكت يداهُ الصغيرتان ببراعةٍ فوقَ النقوشِ ونشارةُ الخشبِ الناعمةُ تتساقط بفعلِ السكينِ الحادَّةِ وهو ينقشُ الصورَ على البابِ. كانَ جلدُهُ أبيض اللونِ وشعرُهُ أصهب وكثيفاً. «إنَّه غيرُ وسيمٍ»، قالَت لها أليس بامتعاضٍ عندما اعترفَت لها كاريس بأنَّها واقعةٌ في غرامِهِ. صحيحٌ أنَّ ميرثن لم يكن وسيماً جداً كشقيقِهِ رالف ولكنَّ كاريس تعتقدُ أنَّهُ يملكُ وجهاً مُذهلاً؛ وجهاً غيرَ متناسق القسماتِ وغريباً وحكيماً ويفيضُ بالمرحِ تماماً كشخصيتِهِ.

«مرحباً»، قالت لهُ وقفزَ في مكانِهِ هلعاً فضحكَت وقالت: «لستَ من النوعِ الذي يجفلُ بسهولةٍ».

«لقد باغتني»، قالَ في ترددٍ ثمَّ قبَّلَها وبدا مرتبكاً قليلاً، ولكن هذا يحدثُ أحياناً عندما يكونُ غارقاً في عملِهِ.

نظرَت إلى النقشِ الذي كان يقومُ بِهِ: هناكَ خمسُ عذارى على كل جانبٍ من جوانبِ البابِ. العذارى الحكيمات يتناولنَ الطعام في مأدبةِ حفلِ زفافٍ، والعذارى الجاهلات في الخارجِ يحملنَ مصابيح بشكلٍ معكوسٍ في دلالةٍ على أنها فارغةٌ من الزيتِ. كان ميرثن قد نسخَ تصميمَ البابِ القديمِ ولكنه أجرى بعضَ التغييراتِ المُتقنةِ. اصطفَّت خمسُ عذارى إلى أحدِ الجوانبِ، وخمسٌ أخريات إلى الجانبِ الآخرِ بشكلٍ يشبهُ القناطرَ في الكاتدرائيةِ، ولكن على البابِ الجديدِ لم تكن العذارى متشابهاتٍ؛ فقد رسمَ ميرثن كلَّ عذراء بشكلٍ مميزٍ ومنحَ كلَّ واحدةٍ سمةً خاصَّةً: هناكَ الجميلةُ، وذاتُ الشعرِ المُجعدِ،

والباكيةُ، وأخرى تغمزُ بشقاوةٍ. لقد رسمهنَّ بطريقةٍ بدونَ فيها مُفعماتٍ بالحياة، وبدا معَها البابُ القديمُ جامداً ورتيباً.

«إنَّها رائعةٌ»، قالَت كاريس. «ولكن أتساءلُ إن كانَ الرهبانُ سيعتقدون هذا أيضاً».

«لقد أحبَّها الأخُ توماس»، أجابَ ميرثن.

«ماذا عن رئيسِ الديرِ يا ميرثن؟» سألت كاريس.

«لم يرَها بعد، ولكنَّهُ سيقبلُ بها فهو لا يرغبُ بالدفعِ مرتين».

فكرَت كاريس بأنَّ كلامَهُ صحيحٌ. لم يكن عمُّها أنتوني شخصاً مملاً فحسب بل بخيلاً جداً. وعلى سيرةِ رئيسِ الديرِ تذكّرَت الغرضَ الذي جاءَت من أجلِهِ فقالت له: «يريدُ والدي منكَ أن توافيهِ أنتَ ورئيسُ الديرِ عندَ الجسرِ».

«ألم يخبركِ بالسببِ؟» سأل ميرثن.

«أعتقدُ أنَّهُ سيطلبُ من أنتوني بناءَ جسرٍ جديدٍ».

وضعَ ميرثن أدواتِهِ في حقيبةٍ جلديَّةٍ وكنسَ النشارةَ والرقاقاتِ الخشبيةَ عن أرضيَّةِ الرواقِ بسرعةٍ ثمَّ توجَّهَ مع كاريس تحتَ المطرِ وعبرَ السوق في الشارعِ الرئيسي باتجاهِ الجسرِ. أخبرتهُ كاريس عمَّا قالَهُ بونافينتورا على الإفطارِ صباحاً. كان لدى ميرثن الشعورُ نفسهُ الذي انتابَ كاريس فهو أيضاً يشعرُ بأنَّ السوقَ في السنواتِ الأخيرةِ لم يعد مزدحماً كما يتذكرُهُ في طفولتِهِ.

بغضِّ النظرِ عن هذا كانَ صفُّ الناسِ والعرباتِ الداخلةِ إلى كينغزبريدج طويلاً عندَ الجسرِ. بالقربِ من نهايةِ الجسرِ بيتٌ للحارسِ يجلسُ فيهِ راهبٌ يتقاضى بنساً من كلِّ بائعٍ يدخلُ المدينةَ وبحوزتِه بضائع للبيع. كانَ الجسرُ ضيقاً، ولم يكن بإمكانِ أحدٍ تجاوزَ صفِّ الانتظارِ، وبسببِ هذا كانَ الناسُ، من سكانِ المدينةِ بشكلٍ رئيسي، ممن لا يتحتمُ عليهم دفعُ تعرفةٍ أن يقفوا في الصَّفِ أيضاً. علاوةً على هذا كانت بعضُ ألواحِ الجسرِ الخشبيَّة ملتويةً ومكسورةً مما اضطرَ سائقي العربات إلى قيادتِها ببطءٍ. ونتيجةً لهذا كانَ صفُّ الانتظار طويلاً على طولِ الطريقِ بين أكواخِ ضواحي المدينةِ وبدا بلا نهايةٍ تحتَ وابلِ المطرِ.

كانَ الجسرُ قصيراً جداً وفي مرحلةٍ ما كانت نهايتاه فوقَ أرضٍ جافَّةٍ ولكن قد يكونُ اتساعُ سريرِ النهرِ، أو ربما مرورُ العرباتِ والناسِ المستمرُّ فوقَهُ ولعقودٍ وقرونٍ قد ساهمَ في توسيعِ الضفتين ولهذا باتَ الناسُ الآن يخوضونَ في الوحلِ عندَ كلا الجهتين.

لاحظَت كاريس أنَّ ميرثن يتفحصُ بنيةَ الجسرِ فهي تعرفُ تلكَ النظرةَ في عينيهِ: كانَ يفكرُ بالجسرِ وكيفَ أنَّهُ ما زالَ قائماً. أحياناً تضبطُهُ يحدِّقُ إلى شيءٍ ما بتلكَ الطريقةِ وغالباً عندما يكونان في الكاتدرائيةِ، ولكنه قد يفعلُ هذا أحياناً أمامَ منزلٍ، أو شجرةٍ شوكيَّةٍ مُزهرةٍ، أو عندما يرى باشقاً يحومُ في السماءِ. عندها يغدو ساكناً جداً ونظرتهُ لامعة وحادة كأنَّه يلقي ضوءاً على مكانٍ مظلمٍ محاولاً فهمَ ما يوجدُ فيهِ، وإن سألتهُ عمَّا يفعلهُ يقولُ لها إنَّه يحاولُ سبرَ غورِ هذهِ الأشياءِ من الداخلِ.

نظرَت إلى حيث كانَ ينظرُ وجاهدَت لتتخيلَ ما كانَ يراهُ في هذا الجسرِ القديمِ. يبلغُ طولُ الجسرِ من بدايتِهِ حتَّى نهايتِهِ ستينَ ياردة، وكانَ أطولَ جسرٍ تراهُ كاريس. كانَ طريقُ الجسرِ مدعوماً بصفين من الدعاماتِ الكبيرةِ جداً والمصنوعةِ من خشبِ البلوطِ كالأعمدةِ التي تدعمُ جانبي صحنِ الكاتدرائيةِ. هناك خمسةُ أزواجٍ من الدعاماتِ، وآخرُ زوجين منهما حيثُ المياهُ ضحلةٌ قصيران حقاً بينما يصلُ ارتفاعُ الأزواجِ الثلاثةِ في المنتصفِ إلى خمسة عشر قدماً فوقَ حدِّ المياهِ.

تتكون كلُّ دعامةٍ من مجموعةٍ من أربعِ عوارضَ من خشبِ البلّوطِ وهي مُثبَّتةٌ بمشابك خشبيَّةٍ. تقولُ الأسطورةُ إنَّ الملكَ قدَّمَ إلى مدينةِ كينغزبريدج أربعاً وعشرين شجرةً من أفضلِ أشجارِ البلّوطِ في إنكلترا لبناءِ الأزواجِ الثلاثةِ من الدعاماتِ في منتصفِ الجسرِ. استخدمت أفضل هذهِ الأشجار لصنعِ الدعامات العليا التي وصلتها عوارض في صفين متوازيين، وتوزعت العوارضُ الأقصر في صفين متوازيين أيضاً مشكلةً بذلكَ جسمَ الطريقِ بينما رُصفَ سطحُ الطريقِ بالألواحِ الخشبيَّةِ الطولانية. هناك حاجزٌ خشبي على كلا الجانبينِ ولكنَّه لم يكن ثابتاً، وكلَّ عامين أو ثلاثة يقودُ فلاحٌ ثملٌ بعربتِهِ عبرَ الحاجزِ ويقتلُ نفسَهُ وحصانَهُ غرقاً في النهرِ.

«إلى ماذا تنظرُ؟» سألت كاريس ميرثن.

«إلى الصدوعِ».

«لا أرى أيَّ صدوعٍ».

كانَ الخشبُ في كلِّ دعامةٍ مركزيةٍ على كلا الجانبين مُتصدعاً.

«يمكنكِ أن تلاحظي أينَ قامَ إلفريك بتدعيمِها باستخدامِ مشابك معدنية»، قال لها.

بعدَ أن أشارَ ميرثن إلى هذهِ المشابكِ باتت كاريس قادرةً على رؤيةِ القطعِ المعدنيَّةِ المُثبتةِ بالمساميرِ بينَ الشقوقِ.

«تبدو قلقاً»، قالت له.

«لا أعلمُ سببَ تصدعِ الخشبِ أصلاً».

«هل هذا مهمٌ؟»

«بالطبعِ هذا مهمٌ».

لم يبدُ مستعداً للأخذِ والرَّدِّ هذا الصباح وكانت على وشكِ سؤالِهِ عن السببِ عندما قالَ لها: «ها هو والدك».

نظرَت كاريس عبرَ الطريقِ وتأملت الشقيقين ولاحظت أنهما يبدوان غريبين؛ كان أنتوني الطويل يرفعُ طيَّاتِ ردائهِ الرهباني بكلِّ أناقةٍ ويتفادى بحذرٍ بُركَ ماءِ المطرِ وقد ارتسمَ على وجهِهِ الشاحبِ في ضوءِ النهارِ تعبيرٌ يشي بالقرفِ؛ أمَّا إدموند فقد كانَ أكثرَ حيوية رغمَ أنَّهُ كانَ أكبرَ عُمراً، وله وجهٌ مُحمرّ ولحيةٌ رمادية مشعثةٌ. كان يسيرُ بلا مبالاةٍ وهو يجرُّ قدمَهُ المعاقة عبرَ الوحلِ ويتحدثُ مُجادلاً ويحرِّكُ ذراعيهِ كثيراً. لطالما شعرَت كاريس في كلِّ مرَّةٍ ترى والدَها من بعيدٍ، وكما قد يراهُ أيُّ غريبٍ، بدفقٍ من الحُبِّ نحوه.

كانَ الجدالُ في أوجِهِ عندما وصلا إلى الجسرِ واستمرَّ الشقيقان بالجدالِ دونَ توقفٍ. «انظر إلى صفِّ الانتظارِ!» صرخَ إدموند، «يعجزُ الكثيرونَ عن المتاجرةِ في السوقِ لأنَّهم لا يستطيعونَ الوصولَ إليهِ! ولعلمكَ فإنَّ نصفَهم يلتقي بشارٍ أو بائعٍ وهم واقفون في صفِّ الانتظار ويعقدون الصفقات هناك ثمَّ يعودون إلى منازلِهم من دونِ أن يدخلوا إلى المدينةِ حتَّى!»

«هذهِ سرقةٌ وعملٌ مخالفٌ للقانونِ أيضاً»، قالَ أنتوني.

«يمكنكَ الذهابُ وإخبارهم بهذا إن استطعتَ عبورَ الجسرِ أولاً، ولكنكَ لن تستطيعَ لأنَّهُ ضيقٌ جداً! أصغِ إليَّ يا أنتوني، إن انسحبَ الإيطاليون لن يعودَ سوقُ الصوفِ إلى سابقِ عهدِهِ، ورخاؤك ورخائي يعتمدان على استمرارِ السوقِ، ولذلكَ يجبُ ألّا نتجاهلَ الأمرَ!».

«ولكن لا يمكننا أن نُجبرَ بونافينتورا على التجارةِ هنا».

«يمكننا أن نجعلَ السوقَ أكثرَ جذباً للتجارِ من سوقِ شايرنغ. نحتاجُ إلى بدءِ مشروعٍ كبيرٍ ورمزيٍ على الفور وهذا الأسبوع، يجب أن نقوم بأيِّ شيءٍ لنُقنعَ الجميعَ بأنَّ سوقَ الصوفِ في كينغزبريدج لم ينتهِ أمرُهُ. يجبُ أن نخبرَهم بأننا

سنهدمُ الجسرَ القديمَ ونبني جسراً جديداً بضعفِ المساحةِ»، ومن ثمَّ استدارَ على نحو مفاجئ باتجاهِ ميرثن وقالَ: «كم سيستغرقُ بناءُ الجسرِ الجديدِ أيُّها الشاب؟»

بدا ميرثن كأنّه بوغتَ ولكنَّه أجابَ: «إنَّ أصعبَ جزءٍ في الأمرِ هو إيجادُ الأشجارِ المناسبةِ. نحتاجُ إلى جذوعٍ طويلةٍ جداً وجافةٍ بما يكفي، ومن ثمَّ علينا أن نجرَّ الدعائمَ إلى قاعِ النهرِ، وهذا سيكونُ عملاً صعباً لأننا نعملُ وسطَ مياهٍ جاريةٍ. وسيكونُ الباقي من اختصاصِ النجارين. يمكننا الانتهاءُ منهُ في عيدِ الميلادِ».

قالَ أنتوني: «لا ضمانة على عدمِ تغييرِ عائلةِ كارولي خططها إن قُمنا ببناءِ الجسرِ الجديدِ».

«بل سيفعلون»، قالَ إدموند بتعنتٍ وأضاف: «أضمنُ لكَ هذا».

«على أيِّ حالٍ لا يمكنني تحملُ تكاليفِ الجسرِ فأنا لا أملكُ المالَ».

«لا يمكنكَ أن تتحملَ تكاليفَ عدمِ بناءِ الجسرِ»، صرخَ إدموند. «ستُدمرُ نفسَكَ والمدينةَ معكَ».

«هذا غير وارد فأنا أصلاً لا أعلمُ من أين سأحصلُ على المالِ لإصلاحِ المعبرِ الجنوبي للكاتدرائيةِ».

«إذاً، ما الذي ستفعلهُ الآن؟»

«فلنَثق بالرَّبِّ».

«إنَّ الذين يثقونَ بالرَّبِّ يزرعونَ ثم يحصدونَ، ولكنكَ لا تقومُ ببذرِ أيِّ شيءٍ».

اهتاجَ أنتوني وقالَ: «أعلمُ أنَّكَ تجدُ صعوبةً في فهمِ الأمرِ يا إدموند، ولكن دير كينغزبريدج ليس مشروعاً تجارياً. نحنُ هنا لنعبدَ الرَّبَّ وليسَ لكسبِ المالِ».

«لن تتمكنَ من عبادةِ الرَّبِّ لوقتٍ طويلٍ إن لم يعد لديكَ ما تأكلُهُ».

«سيعيننا الرَّبُّ».

امتقعَ وجهُ إدموند من الغضبِ وبات ضارباً للونِ الأرجواني. «عندما كنتَ فتىً أمّن لكَ عملُ والدنا الطعامَ والكساءَ والتعليمَ. ومذ أن أصبحتَ رئيساً للديرِ وأنتَ تعيشُ على ما يدفعهُ سكانُ هذهِ المدينةِ وفلاحو المناطقِ المجاورةِ من إيجاراتِ الأراضي وضريبةِ العُشرِ وإيجاراتِ الأكشاكِ وتعاريفِ استخدام

الجسرِ والكثير من الرسومِ الأخرى. لقد عشتَ حياتكَ كطفيلي على ظهورِ العاملين بجدٍ، وها أنتَ الآن وبكلِّ قحةٍ تقولُ إنَّ الرَّبَّ سيعينُ».

«إنَّ كلامَكَ يكادُ يكون تجديفاً».

«لا تنسَ أنني أعرفكَ منذُ ولادتك يا أنتوني، ولطالما برعتَ في تجنبِ القيامِ بأيِّ عملٍ»، قال إدموند بصوتٍ خفيضٍ وهو الذي يتحدثُ غالباً كأنَّه يصرخُ، وعرفَتْ كاريس أنَّه كان غاضباً بحقٍ. «عندما يحلُّ وقتُ تنظيفِ المرحاضِ كنتَ تخلدُ للنومِ حتَّى ترتاحَ قبلَ ذهابكَ إلى المدرسةِ في اليومِ التالي. كنتُ عطيَّةَ والدي للرَّبِّ ولذلكَ حظيت دوماً بالأفضلِ من كلِّ شيءٍ، ولم تُحرك ساكناً لتكسبَ رزقَكَ. لطالما تناولتَ الطعامَ المغذي وحظيتَ بأدفأ فراشٍ ولبستَ أفضلَ الثيابِ. كنتُ الفتى الوحيد الذي يرتدي ثيابَ أخيهِ الصغير الباليةَ».

«وأنتَ حرصتَ على ألا أنسى هذا».

كانت كاريس تنتظرُ الفرصةَ المواتيةَ لإيقافِ هذا الجدالِ والتدخلِ وقد انتهزتها الآن قائلةً: «لا بد أن هناكَ طريقةً أخرى لحلِّ الأمرِ».

نظرَ الرجلان إليها وقد تفاجآ بمقاطعتِهما لجدالِهما.

تابعت كاريس: «هل يُمكنُ لسكانِ المدينةِ بناءَ الجسرِ على سبيلِ المثالِ؟»

«لا تتحدثي بالسخافاتِ»، قالَ أنتوني. «إنَّ المدينةَ ملكٌ للديرِ، ولا يُمكنُ للخادمِ أن يؤثثَ منزلَ سيدهِ».

«ولكن إن حصلنا على موافقتِكَ فلن يعودَ لديكَ سببٌ لرفضِ الأمرِ».

لم يعارض أنتوني اقتراحَ كاريس على الفورِ ورأت في هذا إشارةً مُشجعةً، ولكن إدموند كانَ يهزُّ رأسَهُ في رفضٍ ويقول: «لا أعتقدُ أنني أستطيعُ إقناعَهم بدفعِ المالِ. سيصبُّ بناءُ الجسرِ في مصلحتهم على المدى البعيدِ بالطبعِ، ولكنَّ الناسَ يعزفونَ عن التفكيرِ على المدى البعيدِ عندما يُطلبُ منهم تقديمُ المالِ».

«آها»، قال أنتوني. «وتتوقعُ مني، أنا أن أفكرَ على المدى البعيدِ».

«أنتَ تعملُ من أجلِ الحياةِ الأبديَّةِ، أليسَ هذا صحيحاً؟» عاجلَهُ إدموند، «ولذلك أنتَ، من بينِ جميعِ الناسِ، من يجبُ أن يكونَ قادراً على الرؤيةِ لما هو أبعدُ من الغدِ. علاوةً على هذا، أنتَ تتقاضى تعرفةً مقدارُها بنسٌ عن كلِّ شخصٍ يعبرُ الجسرَ. وهذا يعني أنَّكَ ستستردّ أموالكَ وستستفيدُ من التحسنِ التي ستشهدهُ الأعمال».

قالَت كاريس: «ولكنَّ عمي أنتوني قائدٌ روحي ويشعر بأنَّ هذا ليسَ من مهامِهِ».

«ولكنَّهُ يدينُ بهذا للمدينةِ»، احتجّ والدُها. «إنَّهُ الشخصُ الوحيدُ القادرُ على فعلِ هذا!» ومن ثمَّ حدَّقَ نحوها متسائلاً وقد أدركَ أنَّها لن تخالفه الرأي ما لم يكن لديها سببٌ وجيهٌ ثمَّ سألها: «ما الذي يدورُ بذهنكِ؟»

«فلنفترض أنَّ سكانَ المدينةِ قاموا ببناءِ الجسرِ وحصلوا على أجرِهم من التعاريفِ التي ستتقاضاها لعبورِ الجسرِ».

كادَ إدموند أن يُبدي اعتراضاً ولكنَّ ذهنهُ لم يسعفهُ بسببٍ وجيهٍ لرفضِ ما قالتهُ.

نظرَت كاريس إلى أنتوني.

قالَ أنتوني: «عندما كان الديرُ حديثَ العهدِ كان تقاضي تعاريف عبورِ الجسرِ مصدرَ دخلِهِ الوحيدَ ولذلك لا يمكنني التخلي عن هذا».

«ولكن خُذْ بعينِ الاعتبارِ ما ستكسبهُ إن عاودَ سوقُ الصوفِ والسوقُ الأسبوعي نشاطهما السابق. ولن يكونَ مكسبكَ الوحيد تعاريفَ عبورِ الجسرِ بل أجورَ الأكشاكِ والنسبةَ التي ستأخذُها من جميعِ الصفقاتِ التي ستتمُ في السوقِ، ومن الهدايا التي ستُقدمُ إلى الكنيسةِ».

أضافَ إدموند: «والفوائدُ التي ستترتبُ على مبيعاتِكَ من الصوفِ والحبوبِ والجلودِ والكتبِ وتماثيلِ القديسين...»

قالَ أنتوني: «لقد خططتَ لهذا، أليسَ هذا صحيحاً؟» ووجهَ إصبعَ اتهامٍ نحو شقيقهِ الأكبر. «أخبرتَ ابنتَكَ بما عليها قولُهُ، والفتى... لن تخطرَ ببالِهِ مثلُ هذهِ الخطةِ. إنَّها مجرّدُ امرأةٍ والخطةُ تفوحُ برائحةِ تواطئكَ. هذهِ مؤامرةٌ لسلبي تعرفةَ جسري. حسناً، لقد فشلَت الخُطةُ. الحمدُ للرّبِّ أنني لستُ شخصاً غبياً!» ثمَّ استدارَ وغادرَ وهو يغوصُ في الوحلِ.

قالَ إدموند: «لا أفهمُ كيف أنجبَ والدي شخصاً بهذا المستوى من الوعي»، وبدورِهِ استدارَ مغادراً وهو يعرجُ.

استدارَت كاريس نحو ميرثن وقالت: «حسناً، ما رأيكَ بهذا؟»

«لا أعلمُ»، وأشاحَ بنظرِهِ بعيداً مُتجنباً نظراتها. «من الأفضلِ لي أن أعودَ إلى العملِ». وغادرَ من دونِ أن يُقبلها.

«كما تشاءُ»، قالَت كاريس ثمَّ أضافت بعد أن أصبح بعيداً ولا يمكنُهُ سماعها: «ما الذي دهاهُ؟»

-8-

وصلَ إيرلُ شايرنغ إلى كينغزبريدج في يوم الثلاثاءِ من أسبوعِ سوقِ الصوفِ، وأحضرَ معه ولديهِ والعديدَ من أفرادِ العائلةِ وحاشيةً من الفرسانِ والمرافقين. كان الجسرُ قد أُخلي قبلَ ساعةٍ على وصول الإيرلِ ولم يُسمح لأحدٍ بعبورِهِ حتَّى لا يشعرَ بامتهانِ الانتظارِ مع عوامِ الناسِ. ارتدى مرافقوه عباءاتٍ حمراء وسوداء، وقد اندفعوا جميعهم داخلين المدينة يحملون راياتٍ مرفرفةً بينما رشقَت أحصنتُهم بوقعِ حوافرِها على الأرضِ المواطنين بمياهِ المطرِ والوحلِ. كانت أوضاعُ الإيرلِ رولاند قد ازدهرَت في السنواتِ العشرِ الأخيرةِ تحتَ حُكمِ الملكةِ إيزابيلا، ولاحقاً في ظلِّ حُكمِ ابنها إدوارد الثالث، وأرادَ الإيرلُ، شأنه شأن أي غني أو متنفذٍ، أن يعلمَ الناس بهذا.

كانَ رالف ابن السير جيرالد وشقيقُ ميرثن بصحبةِ الإيرلِ فعندما بدأ ميرثن فترةَ تدريبِهِ مع والدِ إلفريك أصبحَ رالف مرافقاً في قلعةِ الإيرل رولاند وكانَ سعيداً بهذا مُذّاك. يحظى رالف بغذاءٍ وكساءٍ جيدين في قلعةِ الإيرل، وقد تعلَّمَ ركوبَ الخيلِ والقتالَ، وقضى معظمَ وقتِهِ في الصيدِ وممارسةِ جميع أنواعِ الرياضاتِ والألعابِ، وخلالَ السنواتِ الستِ والنصفِ التي قضاها في القلعةِ لم يطلب منهُ أحدٌ القراءةَ أو كتابةَ كلمةٍ واحدةٍ، وها هو رالف اليوم على ظهرِ جوادهِ في حاشيةِ الإيرل ويعبرُ الأكشاكَ في سوقِ الصوفِ. راقبَ الوجوهَ الحاسدةَ والمرتعدةَ وشعرَ بالشفقةِ على التُجارِ والباعةِ وهم يهرعونَ لالتقاطِ البنساتِ من الوحلِ.

ترجّلَ الإيرل عن جوادِهِ أمامَ منزلِ رئيس الدير الذي يقعُ عندَ الجانبِ الشمالي للكاتدرائيةِ، وترجّلَ ابنهُ الأصغر ريتشارد أيضاً. كانَ ريتشارد أسقفَ كينغزبريدج، ونظرياً كانت الكاتدرائية كنيستَهُ. ولكنّ منزل الأسقفِ في مقاطعةِ شايرنغ والرحلة إليها تستغرقُ يومين، وكان هذا مناسباً للأسقفِ الذي كانت مهامُهُ سياسيةً بقدرِ ما كانت دينيةً، وهذا أيضاً كانَ مناسباً للرهبانِ الذينَ يفضلونَ ألّا يكونوا تحتَ أنظارِ الأسقفِ الدائمةِ.

كانَ ريتشارد في الثامنةِ والعشرين من العمرِ فقط، ولكن لأنَّ والدهُ حليفٌ قوي للملكِ لم يكنْ صغرُ عمرِهِ عائقاً في طريقهِ ليصبحَ أسقفاً.

توجَّهت بقيَّةُ الحاشيةِ إلى الطرفِ الجنوبي من طريقِ الكاتدرائية، وطلبَ ويليام ابن الإيرل الأكبر ولورد كاستر من المرافقين الاهتمامَ بالجيادِ بينما

توجَّهَ نصفُ الفرسانِ إلى المستشفى. سارعَ رالف لمساعدةِ زوجةِ ويليام، الليدي فيليبا، على الترجّلِ عن جوادِها. كانت فيليبا إمرأةً طويلةً ومثيرةً بساقين طويلتين وثديين كبيرين، وكانَ رالف واقعاً في غرامها بشكلٍ ميئوسٍ منهُ.

عندما انتهى رالف من أمرِ الجيادِ ذهبَ لزيارةِ والدته ووالده اللذين يعيشان مجاناً في منزلٍ صغيرٍ في القسمِ الجنوبي الغربي من المدينةِ بالقربِ من النهرِ وفي حي تفوحُ منهُ روائح كريهة بسببِ أعمالِ دباغةِ الجلودِ. وعندما اقتربَ من المنزلِ بدأ يرتجفُ تحتَ ردائهِ الأحمر والأسود من شدةِ شعورهِ بالعارِ وأحسَّ بالامتنان الشديدِ لأنَّ الليدي فيليبا لا يمكنها رؤيةُ الحالة المهينة التي يعيشُ فيها والداه.

لم يرَ والديهِ منذُ عامٍ وبدوا أكبرَ عُمراً. كان الشيبُ قد غزا شعرَ والدته، وبدأ والدُه يفقدُ بصرَهُ. قدَّما له عصيرَ تفاحٍ من صنعِ الرُهبانِ وتوتاً برياً جمعتهُ والدتُهُ من الغابةِ. تحدَّثَ والدُهُ بإعجابٍ عن ردائهِ وسألَهُ بحماسٍ: «ألم يجعلك الإيرل فارساً بعد؟»

كانَ طموحُ أيّ مرافقٍ هو أن يصبحَ فارساً، ولكن رالف أرادَ أن يصبحَ فارساً بشدَّةٍ أكبر مقارنةً ببقيةِ المرافقين. لم يتجاوز والدُهُ الإذلالَ الذي تعرَّضَ له منذُ عشرِ سنواتٍ عندما خسرَ مكانتَهُ كفارسٍ وأصبحَ عالةً على ديرِ الرهبانِ. في ذلكَ اليومِ شعرَ رالف كأنَّ سهماً أصابَهُ في قلبِهِ، ولن يتوقف الألمُ الذي سببهُ له هذا إلى أن يتمكن من استعادةِ شرفِ عائلتِهِ. لا ينجحُ جميعُ المرافقين في أن يصبحوا فرساناً، ولكن هذا لم يمنع والدَه من التحدثِ باستمرارٍ عن أنَّ الأمرَ بالنسبةِ لرالف مسألةُ وقتٍ لا أكثر.

«ليسَ بعد»، قالَ رالف، «ولكن من المرجحِ أن ندخلَ قريباً في حربٍ مع فرنسا وستكونُ هذهِ فرصتي». تحدَّثَ رالف بلا مبالاةٍ فهو لا يرغبُ بأن يعبرَ بشدةٍ عن توقِهِ إلى الحصولِ على فرصةٍ لإثباتِ نفسِهِ في معركةٍ ما.

بدَت والدتُه مشمئزةً وقالت: «ما السببُ الذي يدفعُ الملوكَ لشنِّ حروبٍ على الدوامِ؟»

ضحكَ والدُهُ وأجابَ: «هذا ما جُبلَ عليهِ الرجالُ».

«لا، هذا ليسَ صحيحاً»، قالَت بحدَّةٍ، «لم أنجب رالف بألمٍ ومعاناةٍ كي يأتي ذلكَ اليوم الذي يُقطعُ فيه رأسهُ بسيفٍ فرنسي، أو أن يخترقَ قلبَهُ سهمٌ أطلقهُ أحدهم من نشَّابِهِ».

لوَّحَ والدُه بيدِهِ نحو والدتِه في إشارةٍ إلى أنَّ كلامها غيرُ مُهمٍ وقال رالف: «ما الذي يجعلكَ تعتقدُ أنَّ حرباً ستندلعُ؟»

«قامَ الملكُ فيليب بمصادرةِ مقاطعةِ غاسكون».

«أوه، لا يمكننا السماحُ بهذا».

حكمَ الملوكُ الإنكليز الإقليمَ الفرنسي الغربي غاسكون لأجيالٍ، وقدَّموا امتيازاتٍ تجاريَّةً لتجارِ بوردو وبايون الذين كانوا يعقدونَ صفقاتٍ في لندن أكثر مما كانوا يفعلونَ في باريس، ولكن ورغمَ هذا كانت المتاعبُ موجودةً على الدوام.

قالَ رالف: «أرسلَ الملكُ إدوارد سفراءهُ إلى إقليمِ الفلاندر من أجلِ عقدِ تحالفاتٍ».

«قد يرغبُ الحلفاءُ بالمالِ».

«لهذا السبب أتى الإيرل رولاند إلى كينغزبريدج. يريدُ الملكُ قرضاً من تجارِ الصوفِ».

«كم يبلغُ القرضُ؟»

«تقولُ الإشاعاتُ إنَّه يريدُ مئتي ألف باوند من جميعِ تجارِ البلدِ كدفعةٍ أوليةٍ على ضريبةِ الصوفِ».

قالَت والدتُه في عبوسٍ: «يجبُ أن يحرصَ الملكُ على عدمِ فرضِ ضرائب أكثر من اللازمِ على تجارِ الصوفِ».

قالَ والدُهُ: «لدى التجار أموال كثيرة. يمكنكِ معرفةُ هذا من النظرِ إلى ثيابهم الفاخرة». كانت نبرةُ صوتِهِ تفيضُ بالمرارةِ ولاحظَ رالف أنَّه كان يرتدي قميصاً داخلياً قطنياً مهترئاً وحذاءً قديماً، «على أيِّ حالٍ، يريدون منا أن نمنعَ البحريةَ الفرنسيةَ من التدخلِ في تجارتِهم». خلالَ العامِ الماضي أغارت السفنُ الفرنسيةُ على المدنِ الواقعةِ على الساحلِ الجنوبي لإنكلترا ونهبَت الموانئ وأضرمَت النيرانَ في السفنِ الراسيةِ فيها.

«الفرنسيون هاجمونا ونحن نهاجمهم»، قالَت والدتُه، «ما الفائدةُ من هذا؟»

«لا تستطيعُ النساءُ فهمَ مثلِ هذهِ الأمور»، قالَ والدُهُ.

«ولكن هذهِ هي الحقيقةُ»، قالَت على نحو مبهمٍ.

قامَ رالف بتغييرِ الموضوعِ وسألهما: «كيف هي أحوالُ شقيقي؟»

«إنَّهُ بنَّاءٌ ماهرٌ»، قالَ والدُهُ بطريقةٍ بدت لرالف كأنَّ والدهُ تاجر جيادٍ يجادلُ بأنَّ الجيادَ القصيرةَ مطيَّةٌ جيدةٌ للنساءِ.

قالت والدتُهُ: «إنَّهُ مغرمٌ بابنةِ إدموند وولر».

«كاريس؟» ابتسمَ رالف. «لطالما أحبَّها. كنا نلعبُ معاً عندما كُنا أطفالاً. إنَّها فتاةٌ وقحةٌ ومتسلطةٌ ولكن يبدو أنَّ ميرثن لا يمانعُ هذا. هل سيتزوجها؟»

«أتوقعُ هذا»، قالت والدته. «عندما ينتهي من تدريبِهِ».

«أعتقدُ أنَّهُ سيكون مشغولاً على الدوامِ»، ونهضَ رالف ثم سألَ: «أين هو الآن؟»

«إنَّه يعملُ في المدخلِ الشمالي للكاتدرائيةِ»، قالَ والده. «وربما يتناولُ غداءَهُ الآن».

«سأعثرُ عليهِ»، قالَ رالف وقبَّلهما ثمَّ غادرَ.

وفي طريقهِ إلى ديرِ الرهبانِ تجوَّلَ في سوقِ الصوفِ. كانَ المطرُ قد توقفَ والشمسُ تُشعُ بقوةٍ في السماءِ وتلتمعُ أشعتُها في البركِ المطريةِ والبخارُ يتصاعدُ من الأغطيةِ الرطبةِ فوقَ أكشاكِ الباعةِ. رأى وجهاً مألوفاً وتسارعت نبضاتُ قلبِهِ. رأى ذلكَ الأنفَ المستقيمَ والفكَّ القوي لليدي فيليبا. كانت أكبرُ عُمراً من رالف الذي تكهنَ بأنَّها في الخامسةِ والعشرين. وقفَت الليدي بقربِ أحدِ الأكشاكِ تعاينُ قطعةَ قماشٍ من الحريرِ الإيطالي. أخذَ رالف يتأملُ الطريقةَ المثيرةَ التي التفَّ فيها ثوبُها الصيفي الخفيف حول تضاريسِ وركيها. انحنى لها انحناءةً كبيرةً وغير ضرورية.

حدَّقَت نحوه وأومأت برأسِها بشكلٍ عرضي.

«أقمشةٌ جميلةٌ»، قال وهو يحاول بدء حديثٍ معها.

«أجل».

في تلكَ اللحظةِ اقتربَ شخصٌ ضئيلُ البنيةِ بشعرٍ أصهب مشعثٍ. كان ميرثن وسُرَّ رالف لرؤيتِهِ.

«هذا أخي الأكبر والذكي»، قالَ رالف لفيليبا.

قالَ ميرثن لفيليبا: «اشتري القماشَ الأخضر الفاتح فهو يتماشى مع لونِ عينيكِ».

بوغتَ رالف فلم يكن على ميرثن مخاطبتها بهذهِ الطريقةِ الوديَّةِ جداً.

ولكن يبدو أنّها لم تمانع كثيراً، وتحدَّثت بلهجةٍ تأنيبية خفيفةٍ قائلةً: «لو كنتُ أريدُ رأيَ فتى لسألتُ ابني»، ولكنها نطقَت بهذهِ الكلماتِ وهي تبتسمُ ابتسامةً تكادُ تكون مغناجةً.

قالَ رالف: «هذه الليدي فيليبا أيُّها الأحمق! أعتذرُ عن وقاحةِ أخي يا سيدتي».

«ما اسمهُ؟»

«أدعى ميرثن فيتزجيرالد وأنا في خدمتكِ في أيِّ وقتٍ تجدين فيه نفسَكِ مترددةً في مسألةِ الأقمشةِ الحريريةِ».

أمسكَ رالف بميرثن من ذراعِهِ وجرَّهُ بعيداً قبلَ أن يتلفظَ بكلمةٍ أخرى حمقاء. «لا أفهمُ كيف تقومُ بهذا!» قالَ رالف بمزيجٍ من السخطِ والإعجابِ. «يتماشى مع لونِ عينيها، ما هذا؟ لو تجرَّأتُ على قولِ هذا لها لتعرَّضتُ للجلدِ». كان رالف يبالغُ بقولهِ هذا ولكن فيليبا عادةً ما تتعاملُ بصرامةٍ مع الوقحين، وشعرَ بالحيرةِ حيالَ ما إن كانَ عليهِ الشعور بالسرور أو الغضب لأنّها عاملَت ميرثن بتسامحٍ.

«هذهِ طبيعتي»، قالَ ميرثن. «أنا حلمُ كلِّ امرأةٍ».

انتبهَ رالف إلى أنَّ نبرةَ صوتِهِ تفيضُ بالمرارةِ وسأله: «هل تعاني من خطبٍ ما؟ كيف هي كاريس؟»

«لقد قمتُ بأمرٍ غبي»، أجابَ ميرثن. «سأخبركَ بِهِ لاحقاً. فلنتجول في الأنحاءِ بما أنَّ الطقسَ مشمسٌ».

لاحظَ رالف كشكاً يبيعُ فيهِ راهبٌ له شعر أشقر رمادي.

«فلتراقب ما سيحدثُ»، قالَ لميرثن واقتربَ من الكشكِ قائلاً: «يبدو هذا الجبن لذيذاً، أين يُصنعُ؟»

«نصنعهُ في ديرِ سان جون إن ذا فوريست، وهي صومعةٌ صغيرةٌ أو فرعٌ لديرِ كينغزبريدج وأنا رئيسُ الديرِ هناك وأدعى سول وايتهيد».

«لقد أثارَ منظرها جوعي. كم أتمنى لو أنّه كان بوسعي شراءُ البعضِ ولكن الإيرل لا يعطي المرافقين أيَّ مالٍ».

قطعَ الراهبُ شريحةً من قرصِ الجبنةِ وقدَّمَها إلى رالف ثمَّ قال: «إذاً ومن أجلِ المسيحِ يجبُ أن تحصلَ على بعضِ الجبنةِ دونَ مقابلٍ».

«شكراً لكَ أيُّها الأخُ سول».

وعندما ابتعدا ابتسمَ رالف ابتسامةً عريضةً نحو ميرثن وقال: «أترى؟ الأمرُ أسهلُ من أخذِ تفاحةٍ من طفلٍ».

«ومثيراً للإعجابِ بالقدرِ ذاتِهِ»، قال ميرثن.

«ولكنَّه أحمق لأنَّه يقدّمُ الجبنةَ مجاناً لأيِّ أحدٍ يخبرُهُ بقصةٍ محزنةٍ!»

«أو ربما يعتقدُ أنَّهُ من الأفضلِ لو كان أحمق بدلاً من أن يمتنعَ عن تقديمِ الطعامِ إلى رجلٍ جائعٍ».

«أنتَ نكدٌ بعضَ الشيءِ اليوم فقد سمحتَ لنفسكَ بالتصرفِ بوقاحةٍ مع امرأةٍ نبيلةٍ بينما استهجنتَ محاولتي إقناع راهبٍ غبيٍ إعطائي قطعة مجانيةً من الجبنِ؟»

وباغتَهُ ميرثن بابتسامةٍ ثمَّ قالَ: «كأننا مازلنا صبيةً، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«تماماً!» ووقفَ رالف حائراً الآن بين شعورين: أن يكونَ غاضباً أم سعيداً. وقبلَ أن يقررَ تقدَّمَت منهُ فتاةٌ جميلةٌ تحملُ بيضاً على طبقٍ. كانت نحيلةً بثديين صغيرين تحتَ ثوبٍ منزلي الصُنعِ. تخيَّلَ رالف ثدييها شاحبين ومدورين كالبيضِ الذي تحملُه وابتسمَ لها.

«كم السعرُ؟» قالَ لها دون أن يكونَ بحاجةٍ إلى شراءِ البيضِ.

«بنساً لكي اثنتي عشرة بيضةٍ».

«هل هي جيدةٌ؟»

أشارَت إلى قنٍ قريبٍ وقالت: «إنَّها من دجاجاتِ ذلك القن».

«وهل حصلت الدجاجاتُ على خدمةٍ جيدةٍ من ديكٍ مُعافى؟» ورأى رالف ميرثن يُحرِّكُ عينيهِ بطريقةٍ تنمُ عن يأسٍ ساخرٍ من السخافةِ التي تفوهَ بها رالف للتو.

ولكنَّ الفتاةَ جارَت رالف في ما قاله وأجابته: «أجل يا سيدي»، ثمَّ ابتسمَت.

«يا لها من دجاجاتٍ محظوظةٍ، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«لا أعلمُ».

«بالطبعِ أنها محظوظةٌ. إنَّ الفتيات لا يفهمن مثلَ هذهِ الأمور»، وتفحصَها رالف. كانت فتاةً شقراء بأنفٍ ناتئٍ، وتكهنَ أنَّها في الثامنةَ عشرة من العمرِ.

أغمضَت عينيها بخجلٍ وقالت: «لا تحدق بي من فضلكَ».

خلفَ الكشكِ كان هناكَ فلاحٌ ولا بدَّ أنَّه والدُ الفتاةِ لأنه صاحَ بها: «آنيت، تعالي إلى هنا».

«إذاً، اسمكِ آنيت»، قالَ رالف.

تجاهلَت دعوةَ والِدها.

قال رالف: «من هو والدك؟»

«بيركن من ويغلي».

«حقاً؟ صديقي اللورد ستيفن من ويغلي هل يعاملكُ ستيفن بشكلٍ جيدٍ؟»

«إنَّ السيدَ ستيفن عادلٌ ورحيمٌ»، قالت بخضوعٍ.

دعاها والدُها مجدداً: «آنيت. أريدكِ هنا».

عرفَ رالف سببَ استدعاءِ بيركن لها؛ فهو لن يمانعَ زواجَ ابنتِهِ من مرافقٍ لأنَّ هذا سيعني أنَّها سترتقي على السُلَّمِ الاجتماعي، ولكنَّهُ كان يخشى أن يكونَ رالف راغباً بالعبثِ معها فقط ثمَّ التخلي عنها. وكان بيركن مُحقاً في تخمينهِ هذا.

«لا تذهبي يا آنيت من ويغلي»، قالَ رالف.

«ليسَ قبل أن تشتري ما أعرضُهُ».

بجانبِهما وقفَ ميرثن الذي قالَ بامتعاضٍ: «وكلا الخيارين سيئان بالقدرِ ذاتِهِ».

قالَ رالف: «لم لا تضعينَ البيضَ من يدكِ وترافقينني. يمكننا أن نتمشى على ضفةِ النهرِ». كان هناكَ ضفةٌ عريضةٌ بينَ النهرِ وأراضي الديرِ، وفي مثلِ هذا الوقتِ من العامِ تغطيها الزهورُ البريَّةُ والأجماتُ ولذلكَ كانت مقصداً دائماً للعشاقِ.

ولكن آنيت لم تكن سهلةَ المنالِ وقالت له: «ولكن والدي سيستاءُ».

«دعينا لا نشغل بالنا بأمرِهِ».

ليس هناك ما يمكنُ لفلاحٍ فعلهُ أمامَ إرادةِ مرافقِ الإيرلِ بخاصَّةٍ إن كانَ يرتدي عباءةً تابعةً لإيرلٍ عظيمٍ حيثُ ستُعتبرُ الإساءةُ إلى أحدِ خدمِ الإيرل إهانةً لهُ. قد يحاولُ الفلاحُ ثني ابنتِهِ عن الذهابِ مع المرافقِ، ولكن إن حاولَ منعَها بالقوةِ فسيكونُ الأمرُ محفوفاً بالخطرِ.

ولكن جاءَ من ساندَ بيركن في محنتِهِ وكانَ له صوتُ شابٍ: «مرحباً يا آنيت، هل أنتِ بخيرٍ؟»

استدارَ رالف نحو القادمِ الجديدِ ورأى فتىً في السادسةَ عشرة إلَّا أنَّهُ كان بطولِ رالف وبكتفينِ عريضتين ويدينِ كبيرتين. كانَ شاباً وسيماً بشكلٍ صارخٍ وتقاسيمُ وجههِ دقيقةٌ كأنَّها منحوتةٌ على يدِ نحَّاتٍ في كاتدرائيةٍ. كانَ شعرُه بلونٍ نحاسيٍ وقد بدأت لحيتُه التي تحملُ ذات اللون بالنمو على وجهِهِ.

قالَ رالف: «من أنتَ بحقِّ الجحيمِ؟»

«أنا ولفريك من ويغلي يا سيدي». كان ولفريك مهذباً إلّا أنّه لم يكن خائفاً. استدارَ نحو آنيت وقالَ: «أتيتُ لمساعدتكِ في بيعِ البيضِ».

ووقفَ الشابُ المفتول العضلاتِ بينَ رالف وآنيت، وكان بوقفتِهِ هذهِ يحمي الفتاةَ ويُبعدُ رالف عنها إلا أنّها كانت وقفةً تنمُّ عن بعضِ الوقاحةِ وهذا ما أثارَ غضبَ رالف.

«ابتعد عن طريقي يا ولفريك من ويغلي»، قالَ رالف. «وجودكَ هنا غيرُ مرغوبٍ بهِ».

استدارَ ولفريك مجدداً ورمقَهُ بنظرةٍ شجاعةٍ ثمَّ قالَ: «أنا وهذه المرأة مخطوبان يا سيدي»، ومجدداً تحدَّثَ بلهجةٍ مُهذبةٍ ولكن بأسلوبٍ لا تعوزهُ الشجاعةُ.

تحدَّثَ بيركن بصوتٍ عالٍ قائلاً: «هذا صحيحٌ يا سيدي. إنَّهما مخطوبان».

«لا تناقشني في عاداتكُم أيُّها الفلاح»، قالَ رالف باشمئزازٍ. «فلا يهمني إنَ كانت ستتزوجُ من هذا الأحمقِ». شعرَ رالف بالحُنقِ لأنَّ أناساً أقلَّ مكانةً منه يتحدثونَ معهُ بهذهِ الطريقةِ. لم يكن يحقُّ لهم إخبارُهُ بما عليهِ فعله.

وهنا تدَّخلَ ميرثن قائلاً: «فلنذهب يا رالف. أنا جائعٌ وبيتي باكستر تبيعُ فطائر ساخنة».

«فطائر؟» قالَ رالف وتابع: «يهمني البيضُ أكثرُ مما تهمني الفطائرُ». أخذَ رالف بيضةً من طبقِ آنيت وربَّتَ عليها بشكلٍ داعرٍ وأعادَها إلى الطبقِ ثمَّ تحسسَ ثدي آنيت الأيسر. وأحسَّ بهِ تحتَ أصابعِهِ مُكتنزاً وله شكلُ البيضةِ أيضاً.

«ما الذي تعتقدُ نفسكَ أنّكَ فاعلٌ؟» قالت آنيت بصوتٍ ينمُّ عن الامتهانِ إلّا أنّها لم تبتعد.

أخذَ يعتصرُ ثديها بلطفٍ واستمتاعٍ ثم قالَ: «أتفحصُ بضاعةً معروضةً».

«أبعد يديكَ عني».

«بعدَ قليلٍ».

وعندها دفعَهُ ولفريك جانباً بكلِّ قوةٍ.

بوغتَ رالف بالحركةِ فهو لم يتوقع أن يهاجمَهُ فلاحٌ، وترَنَحَ إلى الوراءِ وتعثرَ ثمَّ سقطَ أرضاً بكلِّ قوةٍ. سمعَ أحدهم يضحكُ وحلَّ الشعورُ بالمهانةِ مكانَ الذهولِ ثمَّ قفزَ على قدميهِ واقفاً وهو يفورُ غضباً.

لم يكن سيفُهُ معهُ ولكنَّهُ كانَ يحملُ خِنجراً طويلاً في حزامِهِ. لم يكن استخدامُ الأسلحةِ مع فلاحٍ أعزل أمراً مُشرفاً وقد يفقدُ بسببِ هذا احترامَ فرسانِ ومرافقي الإيرل الآخرين. كانَ عليهِ أن يلكمَ ولفريك.

تقدَّمَ بيركن من وراءِ كشكِهِ وأخذَ يتحدثُ بسرعةٍ: «لقد اقترفَ الفتى حماقةً يا سيدي، لم تكن مقصودةً وهو متأسفٌ جداً، أؤكدُ لكَ...»

ولكنَّ ابنتَهُ بدَت غيرَ خائفةٍ وقالَت بلهجةِ تأنيبٍ ساخرةٍ ولكنها تنم عن رضا: «رويداً أيُّها الفتيان!»

تجاهلَ رالف بيركن وآنيت وتقدَّم خطوةً إلى الأمامِ باتجاهِ ولفريك ورفعَ قبضتَهُ اليمنى وعندها رفعَ ولفريك كلا ذراعيهِ لحمايةِ وجهِهِ من الضربةِ فلوَّحَ رالف بقبضتِهِ اليسرى إلى بطنِ الفتى.

وعلى عكسِ ما توقعَ ولفريك كانت ضربةً قويةً انحنى معها إلى الأمامِ وتلوى وجهُهُ من الألمِ ووضعَ كلتا يديهِ على بطنِهِ، وهنا وجهَ رالف لكمةً قويَّةً إلى وجهِ ولفريك بقبضتِهِ اليُمنى فأصابَهُ في عظمِ وجنتِهِ. آلمت الضربة يدَ رالف إلَّا أنَّها ملأت روحهُ بالسعادةِ.

ولكنَّ رالف بوغتَ عندما لكمَهُ ولفريك.

وبدلاً من التدحرجِ على الأرضِ والبقاءِ في مكانِهِ ليتابعَ رالف ركلَهُ وجَّهَ الفتى الريفي لكمةً بيدِهِ اليُمنى وبكاملِ قوَّةِ كتفيهِ المفتولتين. بدا الدمُ كأنَّه انفجرَ من أنفِ رالف وزمجرَ غاضباً.

تراجعَ ولفريك إلى الوراءِ وقد أدركَ الخطأَ الفادحَ الذي ارتكبَهُ للتو ثمَّ أنزلَ ذراعيه وبسطَ راحتي يديهِ إلى الخارجِ.

ولكنَ الأسفَ لم يعد مُجدياً الآن فقد انهالَ رالف بقبضتيهِ على وجهِ ولفريك وجسدِهِ. كانَ الأمرُ أشبهَ بعاصفةٍ من الضرباتِ وحاولَ ولفريك بضعفٍ صدَّها بأن وضعَ ذراعيهِ أمامَ وجهِهِ الذي أخفضَهُ كي لا تصيبهُ الضرباتُ. عندما كانَ رالف يكيلُ له اللكمات تساءلَ عن السببِ الذي يمنع ولفريك من الهربِ من وابلِ الضربِ، وتكهنَ بأنَّهُ اختارَ تلقي عقابَهُ الآن بدلاً من تلقي عقابٍ أقسى لاحقاً، وعندما أدركَ رالف هذا اشتعلَ غضباً من وقاحةِ الفتى فضربَهُ بقوةٍ أكبر ومن دونِ توقفٍ وقد فاضت روحهُ بالغضبِ والنشوةِ في آنٍ معاً. حاولَ ميرثن التدخلَ قائلاً: «بحقِّ المسيحِ يكفي»، ووضعَ يدَهُ على كتفِ رالف ولكن رالف نفضَ يدَ ميرثن عنهُ بقوةٍ.

وأخيراً تراخت لكماتُ رالف على كلا جانبي ولفريك الذي ترنَّح دائخاً. كانَ وجهُهُ الجميلُ مغطى بالدمِ وقد أغمضَ عينيه ثمَّ سقطَ على الأرضِ. بدأ رالف يركلُهُ ومن ثمَّ ظهرَ رجلٌ فظٌ في سروالٍ جلدي وتحدَّث بلهجةٍ آمرةٍ: «توقف أيُّها الشاب رالف ولا تقتل الفتى».

تعرَّف رالف على صوتِ جون مأمورِ المدينةِ وقال بامتعاضٍ: «لقد هاجمني».

«ولكنَّهُ توقفَ عن مهاجمتِكَ الآن يا سيدي، أليسَ هذا صحيحاً؟ ها هو مسجى على الأرضِ وعيناه مغمضتين». قالَ جون الذي وقفَ أمامَ رالف. «وأنا أحبذُ عدمَ الاضطرارِ إلى التعاملِ مع الطبيبِ الشرعي».

احتشدَ الناسُ حولَ ولفريك؛ بيركن وآنيت التي توَرَّدَت من الحماسةِ والليدي فيليبا والعديدُ من عابري السبيلِ.

كانَ الشعورُ بالنشوةِ قد غادرَ رالف وبدأ يشعرُ بألمٍ عظيمٍ في أنفِهِ ولم يكن قادراً على التنفسِ سوى من فمِهِ، وشعرَ بطعمِ الدم على شفتيهِ.

«ضربني هذا الحيوان على أنفي» قال رالف في صوتٍ أشبهَ بصوتِ رجلٍ يعاني من الزكامِ.

«يجبُ أن يلقى العقابَ على فعلتِهِ»، قال جون.

ظهرَ رجلان يشبهان ولفريك، وتكهنَ رالف أنَّهما والدُهُ وشقيقهُ الأكبر- ساعدَ الرجلان ولفريك في الوقوفِ على قدميهِ وهما يرمقان رالف بنظراتٍ غاضبةٍ.

تحدَّثَ بيركن الذي كان رجلاً سميناً بوجهٍ ماكرٍ: «كانَ المرافقُ البادئَ».

قالَ رالف: «لقد دفعني الفتى الفلاح عن قصدٍ».

«لقد أهانَ المرافقُ خطيبةَ الفتى»، قال بيركن.

قالَ المأمور: «ما فعلهُ المرافقُ غيرُ مهمٍ فقد كانَ الأجدرُ بولفريك أن يدركَ أنَّهُ لا يستطيعُ رفعَ يدِهِ على خادمِ الإيرل رولاند. أعتقدُ أنَّ الإيرلَ سيتوقعُ مني أن أعاقبَهُ بقسوةٍ على فعلتِهِ».

تحدَّثَ والدُ ولفريك قائلاً: «أيُّها المأمورُ جون هل هناك قانونٌ جديدٌ يُبيح لرجلٍ بعباءةٍ فعلَ ما يحلو له؟»

علَت همهمةُ قبولٍ من الحشدِ الصغيرِ الذي تجمَّعَ الآن. كانَ المرافقون الشباب يسببون الكثيرَ من المتاعبِ، وغالباً ما ينجونَ من العقابِ لأنَّهم يرتدونَ

عباءة تحملُ الألوانَ الرسميَّةَ لإيرلٍ ما، وأثار هذا دوماً الامتعاض الشديد للتجارِ والفلاحين الذين يحترمونَ القانونَ.

تدخّلت الليدي فيليبا قائلةً: «أنا زوجةُ ابن الإيرل ورأيتُ الأمرَ برمتِهِ». كانَ صوتُها منخفضاً ورخيماً إلّا أنّها تحدثت بتلكَ اللهجةِ الآمرةِ للنبلاءِ. توقّعَ رالف أن تأخذَ صفَّهُ ولكن أملَهُ خابَ عندما سمعَها تقولُ: «يؤسفني القولُ إنَّ الأمرَ خطأ رالف بالكاملِ. كان يداعبُ جسدَ الفتاةِ بطريقةٍ مشينةٍ جداً».

«شكراً لكِ أيّتها الليدي»، قالَ المأمور جون بتهذيبٍ ثمَّ تابعَ بنبرةِ صوتٍ خفيضةٍ: «ولكن أعتقدُ أنَّ الإيرل لن يرغبَ بأن يفلتَ الفتى الفلاح بفعلتِهِ من دونِ عقابٍ».

أومأت برأسها برزانةٍ وقالت: «لا نريدُ أن يصبحَ هذا مثارَ جدلٍ طويلٍ. قيّد الفتى لأربعٍ وعشرين ساعةٍ. لن يُلحق بِهِ هذا أيَّ أذى وهو في هذا العُمرِ، ولكن سيعلمُ الجميع أنَّ العدالةَ قد تحققَت. وهذا سيُرضي الإيرل وأنا سأقنعُه بهذا».

أبدى جون تردداً، ورأى رالف أنَّ المأمورَ لم يكن يُحبُ تلقي الأوامرَ من أحدٍ آخرَ غيرِ سيدِهِ رئيسُ ديرِ كينغزبريدج، ولكن قرارَ فيليبا سيُرضي جميعَ الأطرافِ حتماً. كانَ رالف يرغبُ برؤيةِ الفتى يُجلدُ إلّا أنّه بدأ يشكُّ في أنَّ الأمرَ سيجعلهُ يبدو كبطلٍ، وبأنَّ موقفَهُ سيغدو أسوأ إن طالبَ بعقوبةٍ قاسيةٍ، وبعدَ برهةٍ قالَ جون: «حسناً أيتها الليدي فيليبا إن كُنتِ مستعدةً لتحملِ المسؤوليةِ».

«سأفعلُ».

«حسناً»، قالَ جون وأمسكَ بولفريك من ذراعِهِ وأخذَهُ. كانَ الفتى قد تعافى سريعاً وباتَ قادراً على السيرِ بشكلٍ طبيعيٍ ولحقَت بِهِ عائلتُه. ربما سيُحضرونَ لهُ الطعامَ والشرابَ وهو مُقيَّدٌ، ويحرصونَ على عدمِ تعرّضِهِ للجلد.

قالَ ميرثن لرالف: «هل أنتَ بخيرٍ؟»

كانَ رالف يشعرُ كأنَّ منتصفَ وجههِ متورمٌ كمثانةٍ مُنتفخةٍ، ولم يكن قادراً على الرؤيةِ بشكلٍ واضحٍ، وعندما يتحدث يخرجُ صفيرٌ من أنفهِ، وبالرغمِ من كل هذا الألمِ الذي شعرَ بِهِ فإنَّه قالَ لميرثن: «أنا بخير. لم أكن بحالٍ أفضل يوماً».

«فلنذهب ونطلب من أحدِ الرهبانِ الاهتمامَ بأنفكَ».

«لا»، قالَ رالف الذي لم يخشَ يوماً الدخولَ في عراكٍ إلّا أنّه كرهَ الأمورَ التي يقومُ بها الأطباءُ كفصدِ الدماءِ والحُجامةِ وفقءِ الدماملِ. «كل ما أحتاجهُ الآن هو زجاجةٌ من النبيذِ القوي. خُذني إلى أقربِ حانةٍ».

«حسناً»، قالَ ميرثن ولكنَّهُ لم يتحركْ من مكانِهِ فقد كانَ يرمقُ رالف بنظرةٍ غريبةٍ.

قالَ رالف: «ما خطبكَ؟»

«أنتَ لم تتغير»، أجاب ميرثن

هزَّ رالف كتفيهِ بلامبالاةٍ ثمَّ قال: «وهل هناكَ من يتغيرُ؟»

-9-

افتُتِنَ غودوين بكتابِ تيموثي الذي يتناولُ تاريخَ ديرِ كينغزبريدج، وكمعظمِ كُتبِ التاريخ يبدأ الكتاب بقصّةِ خلقِ الرَّبِّ للجنَّةِ والأرضِ إلّا أنَّهُ يستفيضُ في الحديثِ عن حقبةِ رئيسِ الديرِ فيليب قبلَ قرنين عندما بُنيت الكاتدرائية، وهي الحقبةُ التي يشيرُ إليها الرهبانُ بالعصرِ الذهبي. كانَ مؤلفُ الكتابِ يُدعى الأخ تيموثي وقد ادعى في الكتابِ أنَّ فيليب الأسطوري كانَ شخصاً صارماً جداً وعطوفاً في الوقتِ عينهِ. لم يفهم غودوين كيف يُمكنُ للرجلِ أن يتحلّى بهاتين السمتين.

وفي أربعاءِ أسبوعِ سوقِ الصوفِ خلالَ ساعةِ الدراسةِ السابقةِ لصلاةِ الظُهرِ جلسَ غودوين على كرسي عالٍ في مكتبةِ الديرِ والكتابُ أمامَهُ على مسندٍ للقراءةِ. كان هذا مكانَهُ المفضَّلَ في الديرِ؛ فالغرفةُ واسعةٌ والإضاءةُ جيدةٌ من النوافذِ العاليةِ وهناكَ مئةُ كتابٍ تقريباً في خزانةٍ مُغلقةٍ. عادةً ما يكونُ الجو هادئاً هنا ولكن اليوم كانت تصلهُ أصواتٌ من أقصى زاويةٍ في الكاتدرائيةِ؛ كانت أصواتاً صاخبةً من السوقِ حيثُ آلافُ الناسِ يشترونَ ويبيعونَ ويساومونَ ويتجادلونَ وينادونَ على البضائعِ إضافةً إلى صراخِ المُشجعين في قتالِ الديوكِ والدببةِ.

في القسمِ الأخيرِ من الكتابِ وضعَ المؤلفون اللاحقون أصولَ بنّائي الكاتدرائيةِ حتّى هذهِ اللحظةِ. كانَ غودوين مسروراً، في الحقيقةِ مُتفاجئاً، عندما عثرَ على إثباتٍ على صحّةِ نظريةِ والدتِهِ بأنَّها تنحدرُ من سلالةِ البنّاء توم من جهةِ ابنتِهِ مارثا، وتساءلَ في نفسهِ عن الصفاتِ التي قد يكونُ ورثَها من هذا الجدِ. كانَ على البنّاءِ أن يكونَ رجلَ أعمالٍ فطناً، يملكُ جدُّ غودوين وخاله إدموند هذهِ السمةَ، وتُظهر ابنة خالِه كاريس علائمَ الفطنةِ ذاتَها أيضاً. وقد يكونَ لون عيني توم خضراوين ببقعٍ ذهبيةٍ كعيونِ هؤلاءِ الثلاثةِ أيضاً.

قرأ غودوين أيضاً عن ابنِ زوجةِ البنّاءِ توم، جاك، مهندس كاتدرائيةِ كينغزبريدج الذي تزوجَ من الليدي أليانا وأنجبَ سلالةَ إيرلات شايرنغ. كانَ

جدّ حبيبِ كاريس، ميرثن فيتزجيرالد، ولهذا يُمكنه أن يفهمَ لماذا يُظهرُ الشاب ميرثن قدرةً فذَّةً كبنَّاءٍ، بل ومذكورٌ في كتابِ تيموثي أنَّ جاكْ يملكُ شعراً أصهب ورَثَهُ السير جيرالد وميرثن ولكن رالف لم يرثه.

ولكن ما أثارَ اهتمامَهُ في الكتابِ الفصلُ الخاصُّ بالنساءِ. يبدو أنَّهُ لم يكن في ديرِ رهبانِ كينغزبريدج راهباتٌ فقد حُرّم على النساءِ دخولُ مباني الدير. ويقتبسُ المؤلفُ عن فيليب قولَهُ إنّه لا يجب أن تقع عينُ الراهبِ على أيّ أنثى مخافةَ أن يفقدَ سلامهُ الداخلي. رفضَ فيليب أن يكونَ ديرُ الرهبانِ والراهباتِ مُشتركاً بحجَّةِ أنَّ فوائدَ المرافقِ المُشتركةِ لا تتغلب على فُرصِ إغراءِ الشيطانَ، وأضافَ أنَّه في حالِ وجودِ مبنى مشتركٍ يجبُ أن يكونَ الفصلُ بينَ الرهبانِ والراهباتِ صارماً قدرَ الإمكانِ.

شعرَ غودوين بالإثارةِ لعثورِهِ على دليلٍ دامغٍ يُثبُت اعتقادهُ الراسخَ حيالَ ضرورةِ الفصلِ بين الرهبان والراهبات. عندما كان في أوكسفورد تمتعَ بجو كلية كينغزبريدج الذكوري. كانَ أساتذةُ الجامعةِ والطلابُ من الرجالِ فقط، وبالكادِ تحدَّثَ إلى أنثى منذَ سبعةِ أعوامٍ، وإن سارَ في المدينةِ مُطرقاً نظرَهُ إلى الأرضِ فيستطيعُ تجنُّبَ النظرَ إليهن. إبانَ عودتِهِ إلى الديرِ أزعجتهُ رؤيةُ الراهباتِ باستمرارٍ، رغمَ أنَّهنَّ كنَّ يملكنَ مساكن وحجرةَ طعامٍ ومطبخاً وأبنيةً أخرى خاصَّةً بهنَّ، فإنَّهُ كانَ يلتقي بهنَّ باستمرارٍ في الكنيسةِ والمستشفى والأماكنِ الأخرى المشتركةِ، وفي هذهِ اللحظةِ بالتحديدِ هناكَ راهبةٌ جميلةٌ تدعى مير على بُعدِ عدَّةِ خطواتٍ عنهُ تدرسُ في كتابٍ مصورٍ عن الأعشابِ الطبيَّةِ. ولكن أسوأ ما في كل هذا هو الالتقاء بفتياتِ المدينةِ في ثيابهن الضيِّقةِ وتسريحاتِ شعرهنَّ خلالَ تجوالهن في الديرِ لقضاءِ حاجاتٍ يوميَّةٍ وإيصالِ المؤنِ إلى المطبخِ أو زيارةِ المستشفى.

يعتقدُ غودوين أنَّ الديرَ لم يعد يراعي المعايير العاليةَ التي سنَّها فيليب، وهذا مثالٌ إضافي على التراخي الذي حلَّ بالديرِ في ظلِّ حكمِ أنتوني، خال غودوين، ولكن لم يكن بوسعِ غودوين فعلُ شيءٍ حيالَ الأمرِ.

رنَّ جرسٌ إيذاناً ببدءِ صلاةِ الظهرِ فأغلقَ غودوين كتابَهُ، وقامَت الأخت مير بفعلِ الأمرِ عينِهِ ثمَّ ابتسمَت لهُ بشفتيها الحمراوين ابتسامةً حلوةً. أشاحَ بنظرهِ بعيداً بينما هرعَت مير خارجَ القاعةِ.

كانَ الطقسُ قد بدأ يتحسنُ والشمسُ تشعُّ بقوةٍ بين زخَّاتِ المطرِ المتفرقةِ،

أمَّا في الكنيسة فتارةً ما تلمعُ النوافذُ ذاتُ الزجاجِ الملوّنِ وتارةً ما تبهَتُ بتأثيرِ عبورِ السحابِ في السماءِ. كان غودوين مشغولَ البالِ وشتّته عن صلاتِهِ أفكارُهُ حولَ أفضلِ الطرقِ للاستفادةِ من كتابِ تيموثي في إنهاضِ الديرِ. وقررَ أن يطرحَ الموضوعَ في الكنيسةِ خلالَ اجتماعِ الرهبانِ.

لاحظَ غودوين أنَّ البنَّائين بعد انهيارِ الأحدِ الماضي قطعوا شوطاً كبيراً في عملِهم على الإصلاحاتِ في الكنيسةِ فقد أُزيحَ الركامُ وطوقَت المنطقةُ بالحبالِ، وهناكَ كومةٌ من حجارةِ البناءِ الخفيفةِ في جناحِ الكنيسةِ. عندما بدأ الرهبانُ في الغناءِ لم يتوقَّف الرجالُ عن العملِ؛ فهناكَ الكثيرُ من المراسمِ التي يتوجبُ على الرهبانِ تأديتُها خلالَ النهارِ وسيتأخرُ الرجالُ في إنهاءِ العملِ إن توقفوا كثيراً. كان ميرثن فيتزجيرالد الذي تركَ عملَهُ على البابِ الجديدِ بشكلٍ مؤقتٍ في المعبرِ الجنوبي يبني شبكةً دقيقةً من الحبالِ بتفرعاتٍ وحواجزَ ليقفَ عليها البنَّاؤون وهم يعيدونَ بناءَ القنطرةِ في السقفِ بينما وقفَ توماس لانغلي المعني بالإشرافِ على البنَّائين في جناحِ الكنيسةِ الجنوبي مع إلفريك وهو يشيرُ بيدِهِ إلى القنطرةِ المتداعيةِ كأنّه يناقشُ إلفريك في عملِهِ.

في الكنيسةِ كانَ توماس شخصاً عملياً وحازماً، ولم يكن يسمحُ لشيءٍ بأن يمرَّ مرورَ الكرامِ؛ فإن لم يجد البنَّائين صباحاً –وقد كانَ هذا مصدرَ إزعاجٍ دائمٍ– يذهبُ للبحثِ عنهم ويطلبُ منهم تبريرَ غيابِهم. وإن كانَ هناكَ عيبٌ ما في شخصيتِهِ فهو استقلاليته الشديدة، وهو نادراً ما يناقشُ سيرَ العملِ أو يطلبُ من غودوين إبداءَ رأيِهِ ويقومُ بالعملِ كأنّه سيدُ نفسِهِ وليسَ مرؤوساً لغودوين ولهذا السببِ لطالما انتابَ غودوين شكٌّ مزعجٌ بأنَّ توماس يشككُ بقدراتِهِ. كان غودوين أصغرَ سناً من توماس ولكن الفارقَ لم يكن كبيراً فغودوين في الواحدة والثلاثين وتوماس في الرابعةِ والثلاثين. ربما اعتقدَ توماس أنَّ أنتوني قامَ بترقيةِ غودوين بضغطٍ من بيترانيلا إلّا أنه لم يُظهر أيَّ نوعٍ من الازدراءِ نحوه بل اكتفى بإنجازِ الأمورِ بطريقتِهِ.

وبينما كان غودوين يراقبُ ويُصلي مدمدماً بشكلٍ مكيانيكي توقفَت المحادثةُ بين توماس وإلفريك عندما دخلَ اللورد ويليام كاستر إلى الكنيسةِ بخطواتٍ واسعةٍ. كان اللوردُ رجلاً طويلاً بلحيةٍ سوداء وجلفاً كوالدِهِ رغمَ أنَّ الناس يقولون إنَّه لطيفٌ أحياناً وإنَّ هذا بتأثير زوجتِهِ فيليبا. تقدَّمَ ويليام من توماس ولوّحَ لإلفريك حتَّى يتركهما وحدهما. التفتَ توماس نحو ويليام،

وشيءٌ ما في وقفةِ توماس ذكّرَ غودوين بحقيقةِ أنَّ توماس كان فارساً في ما مضى، وأنّهُ وصلَ إلى الديرِ لأولِ مرَّةٍ وهو ينزفُ جرَّاءَ ضربةِ سيفٍ أدّت في النهايةِ إلى بترِ ذراعِهِ اليسرى من المرفقِ.

تمنى غودوين لو أنَّه يستطيع سماعَ ما يقولهُ اللورد ويليام لتوماس فقد مالَ ويليام بجسدِهِ إلى الأمامِ وتحدّثَ بعدائيةٍ واضحةٍ وهو يشيرُ بإصبعِهِ بينما بدا توماس متماسكاً وتحدث بحميّةٍ، وفجأةً تذكرَ غودوين أنَّ توماس أجرى مثلَ هذهِ المحادثةِ الحادَّةِ والشرسةِ منذُ عشرِ سنواتٍ في اليومِ الذي وصلَ فيهِ إلى الديرِ. آنذاكَ كانَ يتجادلُ مع أخي ويليام الأصغر ريتشارد الذي كان كاهناً وقتئذٍ وأصبحَ الآن أسقفَ كينغزبريدج. تخيَّلَ غودوين، رغمَ أنَّ الأمرَ بدا له ضرباً من الخيالِ، أنّهما كانا يتجادلان حولَ الموضوعِ ذاتِهِ. هل يمكن أن يكونَ هذا صحيحاً؟ أمازالَ هناكَ، وحتَّى بعد مرور عشرِ سنواتٍ، قلاقل بين الراهبِ والعائلةِ النبيلةِ؟

اندفعَ اللورد ويليام خارجاً والضيقُ بادٍ على وجههِ وعادَ توماس إلى إلفريك.

أسفرَ الجدالُ الذي دارَ منذُ عشرِ سنواتٍ عن انضمامِ توماس إلى الديرِ. تذكَّر غودوين أنَّ ريتشارد وقتها قد وعدَ بتقديمِ تبرعٍ لتغطيةِ تكاليفِ دخولِ توماس، إلَّا أنَّه لم يسمع أيَّ شيءٍ بشأنِ هذا التبرعِ وتساءلَ في نفسهِ إن كان ريتشارد قد دفعَهُ أم لا.

في ذلكَ الوقتِ لم يعرف أحدٌ في الديرِ الكثيرَ عن حياةِ توماس السابقةِ. ولأنَّ هذا كانَ مثيراً للفضولِ تحدَّثَ عنهُ الرهبانُ باستمرارٍ، ولأنَّهم مجموعةٌ صغيرةٌ من ستةَ عشرَ راهباً حالياً فهم كانوا يعيشون معاً ويعرفون كلَّ شيءٍ تقريباً بعضهم عن بعض. ولكن من هو اللورد الذي خدمهُ توماس؟ وأينَ عاشَ؟ يحكمُ معظمُ الفرسانِ قرىً ويتقاضونَ إيجاراتٍ من الفلاحين ويستخدمونَ هذا المالَ لتغطيةِ نفقاتِ الجيادِ والدروعِ والأسلحةِ. هل كان لدى توماس زوجة وأطفال؟ إن كان هذا حقيقياً فكيف آلَ بهم الحالُ الآن؟ لا أحد يعلمُ.

وبعيداً عن الغموضِ الذي أحاطَ بماضيهِ كانَ توماس راهباً صالحاً وتقيّاً ومُجدّاً. بدا كأنَّ هذهِ الحياةَ تناسبُهُ أكثرَ من حياتِهِ كفارسٍ، ورغمَ أنَّ مهنتَهُ السابقةَ كانت عنيفةً فإنَّه يتحلى بسِمةٍ أنثوية كحالِ العديدِ من الرهبانِ. كانَ مُقرَّباً جداً من الأخِ ماتياس وهو رجلٌ لطيفُ المعشرِ وأصغرُ منهُ ببضعِ سنواتٍ، ولكن إن كانا يمارسان الرذيلةَ فقد كانا متكتمين جداً حيالَ الأمرِ لأنَّ ما من اتهاماتٍ وجهّت إليهما.

عندما شارفَت المراسمُ على الانتهاءِ حدَّقَ غودوين باتجاهِ صحنِ الكنيسةِ الشديدِ العتمةِ ورأى والدتَه بيترانيلا واقفةً بسكونٍ كأيِّ عمودٍ في المكانِ وقد أضاءَ شعاعٌ قادمٌ من النافذةِ رأسَها المعتدَّ الذي غزاهُ الشَيبُ. كانت تقفُ وحدها وتساءلَ غودوين في نفسِهِ منذُ متى وهي تقفُ وتراقبُ المكانَ. لم يكن حضورُ العوام الصلواتِ اليوميةَ في الكنيسةِ أمراً مُستحباً، ولكن غودوين تكهنَ بأنَّها أتت إلى هنا لرؤيتِهِ. انتابَهُ مزيجٌ من السرورِ والخوفِ. يعلمُ جيداً أنَّها مستعدةٌ لفعلِ أيِّ شيءٍ من أجلِهِ؛ فقد باعَت منزلَها وانتقلَت إلى منزلِ شقيقها إدموند لتعملَ كمدبرةٍ للمنزلِ حتَّى يتمكنَ غودوين من الدراسةِ في أوكسفورد. وعندما فكَّرَ بالتضحيةِ التي قدمتها والدتُهُ المُعتدةُ بنفسها رغبَ بالبكاءِ من شدَّةِ الامتنانِ، إلَّا أنَّ وجودَها يثير فيه دوماً الشعورَ بالتوترِ، كأنَّه سيلقى منها تأنيباً على إثمٍ ما اقترفهُ.

بدأ الرهبان والراهبات بمغادرةِ المكان فابتعدَ غودوين عنهم واقتربَ منها قائلاً: «صباحُ الخيرِ يا أمي».

قبَّلتهُ على جبهتِهِ. «تبدو نحيلاً»، قالَت لهُ بتلكَ اللهجةِ القلقةِ التي تتحدثُ بها الأمهاتُ ثمَّ سألته «ألا تحظى بطعامٍ كافٍ؟»

«أتناولُ السمكَ والعصيدةَ فقط وهناكَ كمياتٌ كبيرةٌ منهما».

«لمَ أنتَ سعيدٌ جداً؟» لطالما نجحَت بقراءةِ مزاجِه.

أخبرَها بأمرِ كتابِ تيموثي وقال لها: «يمكنني أن أقرأ المقطعَ خلالَ اجتماعِ الرهبانِ».

«هل سيقدمُ الآخرون الدعمَ لكَ؟»

«سيدعمني ثيودريك والرهبانُ الشبابُ؛ فالكثيرُ منهم تُزعجهم رؤيةُ النساءِ طوالَ الوقتِ، ولكن في نهايةِ المطافِ ألم يختر جميعُ من أتى إلى هنا العيشَ في مجتمعٍ ذكوري بالمطلقِ؟»

أومأت رأسَها في موافقةٍ وقالت: «هذا الكلامُ يجعلكَ تبدو كقائدٍ. أحسنت».

«علاوةً على هذا، فإنَّهم يستلطفونني بسببِ أحجاري الحارَّة».

«أحجارٌ حارَّةٌ؟»

«لقد أدخلتُ إلى الديرِ عادةً جديدةً؛ ففي الليالي الشتائيةِ الصقيعيةِ عندما نتوجهُ إلى الكنيسةِ من أجلِ صلاةِ الصُبحِ يُقدَّمُ لكلِّ راهبٍ حجرٌ حارٌ ملفوفٌ بخُرقةٍ وهذا يقيهم من تقرُّحِ أقدامهم».

«عملٌ ذكيٌ للغايةِ ولكن احصل على الدعمِ أولاً قبلَ أن تُقدمَ على هذا».

«بالطبعِ وهذا يتوافق مع تعاليمِ الأساتذةِ في أوكسفورد».

«وماذا يقولون؟»

«إنَّ البشرَ غيرُ معصومين عن ارتكابِ الأخطاءِ، ولهذا علينا أن نعتمدُ على حسنُ تقديرِنا للأمورِ. لا يمكننا أن نأملَ بفهمِ هذا العالم وكلُّ ما بوسعنا فعلُهُ هو الوقوفُ مشدوهين أمامَ عظمةِ الخالقِ. إنَّ المعرفةَ الحقيقيةَ تأتي بالوحي فقط، ويجبُ علينا ألّا نشكك بالحكمةِ المُسلَّم بها».

بدَت والدتُهُ مشككةً في ما قالَهُ، ولكن هذا موقفُ العوامِ عندما يحاولُ الرجالُ المتعلمونَ شرحَ الفلسفةِ الساميةِ لهم.

«وهل هذا ما يؤمنُ بهِ الأساقفةُ والكرادلةُ؟» سألته.

«أجل. لقد حظرَت جامعةُ باريس أعمالَ أرسطو وتوما الإكويني لأنَّها تستندُ في حججِها إلى المنطقِ بدلاً من الإيمانِ».

«هل ستعود هذه الطريقةُ في التفكيرِ بالفائدةِ عليك مع من هم أعلى منكَ؟»

كانَ هذا كلُّ ما اهتمت بهِ فهي لا تريدُ شيئاً سوى أن يصبحَ ابنها رئيسَ ديرٍ أو أسقفاً أو رئيسَ أساقفةٍ أو حتَّى كاردينالاً. ورغمَ أنَّ غودوين كانَ يريد هذا أيضاً فإنَّهُ كان يأملُ ألا يصبحَ شديدَ الانتقادِ مثلها. «أنا واثقٌ من هذا»، أجابها غودوين.

«جيدٌ ولكن هذا ليسَ السببَ الذي أتيتُ من أجلِهِ. إنَّ خالكَ إدموند مصدومٌ فقد هدّدَهُ الإيطاليون بنقلِ تجارتِهم إلى شايرنغ».

صُدمَ غودوين بهذا الكلامِ وقال: «سيقضي هذا على عملِهِ». ولكنهُ لم يفهم سببَ زيارتها الخاصَّة لإخبارِهِ بهذا.

«يعتقدُ إدموند أنَّه يستطيعُ كسبَ ودِّهم مجدداً إن أجرى تحسيناتٍ على سوقِ الصوفِ، وبالأخصِّ إن هدمَ الجسرَ القديمَ وبنى جسراً جديداً أوسع».

«والخالُ أنتوني رفضَ هذا».

«ولكن إدموند لم يستسلم».

«تريدين مني أن أتحدثَ إلى أنتوني؟»

هزَّت رأسها بالإيجابِ ثمَّ قالت: «لا يمكنكَ أن تنجحَ في إقناعِهِ، ولكن إن طُرِحَ الموضوعُ خلالَ اجتماعِ الرهبانِ يجب أن تدعمَ اقتراحَ خالكَ إدموند».

«وأخالف خالي أنتوني؟»

«عندما يعارضُ أحدُ المحاربين القدامى اقتراحاً منطقياً عليك دوماً أن تُميزَ نفسَك بلعبِ دور قائدِ المُصلحين».

ابتسمَ غودوين في إعجابٍ وقال: «أماه كيف لكِ أن تفهمي بأمورِ السياسةِ؟»

«سأخبركَ»، قالت له وأشاحَت بنظرِها نحو النافذةِ العظيمةِ التي لها شكلُ زهرةٍ في الزاويةِ الشرقيةِ للمكانِ وغرقَت في ذكرياتِ الماضي، «عندما بدأ والدي بالمتاجرةِ مع الإيطاليين عاملَهُ عليةُ القومِ في كينغزبريدج كمُحدثِ نعمةٍ، وترفّعوا عن التعاملِ معهُ ومع عائلتِهِ، وفعلوا كلَّ ما بوسعِهم لمنعِهِ من تطبيقِ أفكارِهِ الجديدةِ. آنذاك كانت والدتي متوفاة وكنتُ بالغةً ولهذا أصبحت كاتمةَ أسرارِهِ. كانَ يخبرني بكلِّ شيءٍ». ووجهها الذي عادةً ما يبدو جامداً جداً تلوى من المرارةِ والحَنَقِ، فضيَّقت عينيها وبدا الامتعاضُ على شفتيها وتورَّدَ وجهها عندما استعادت ذكرى العار. «قررَ وقتَها أنّه لن يتحرّرَ منهم ما لم يسيطر على نقابةِ الأبرشيةِ، وهذا ما قامَ بهِ وقد ساعدتُهُ ليحققَهُ». أخذَت نفساً عميقاً كأنّها تستجمعُ قواها مجدداً من أجلِ حربٍ طويلةٍ. «فرّقنا المجموعةَ الحاكمةَ بتأليبِهم بعضهم على بعضٍ وعقدنا تحالفاتٍ ومن ثمَّ انقلبنا عليها وقوضنا معارضينا بلا رحمةٍ، واستخدمنا من دعمَنا إلى أن استنفدناهم ثمَّ تخلينا عنهم. تطلَّبَ منا الأمرُ عشرَ سنواتٍ ولكن في النهايةِ أصبحَ والدي رئيسَ النقابةِ وأغنى رجلٍ في المدينةِ».

كانت قد أخبرتهُ بقصَّةِ جدِّهِ قبلاً، ولكنَّها لم تستخدم مثلَ هذهِ المفرداتِ الصريحةِ جداً قبلاً.

«إذاً، كنت مساعدته تماماً كما تفعلُ كاريس الآن مع إدموند؟» سألها غودوين.

أطلقَت ضحكةً قاسيةً ومقتضبةً ثمَّ أجابت: «أجل، باستثناءِ أنّنا في الوقتِ الذي تسلَّمَ فيهِ خالك إدموند زمامَ الأمورِ كنا من عليةِ القومِ في كينغزبريدج. تسلقتُ أنا ووالدي الجبلَ ولكن إدموند لم يفعل شيئاً سوى الجلوس على القمَّةِ».

قاطعهما فيليمون الذي دخلَ إلى الكنيسةِ قادماً من دير الرهبانِ. كانَ رجلاً طويلاً بعنقٍ نحيلٍ في الثانيةِ والعشرين ويسيرُ كأنّه طائرٌ بقوائم قصيرةٍ كالحمامِ. كان يحملُ مكنسةً فقد وظفَه الديرُ عامل نظافةٍ.

بدا فيليمون متحمساً وقالَ: «كنتُ أبحثُ عنكَ أيُّها الأخ غودوين».

تجاهلَت بيترانيلا العجالة الواضحةَ في كلامِهِ: «مرحباً يا فيليمون، ألم تصبح راهباً بعد؟»

«لم أفلح في جمعِ المالِ اللازمِ لتحقيقِ هذا أيتها السيدة بيترانيلا فأنا من عائلةٍ متواضعةٍ».

«ولكن يحدثُ أن يرفض الديرُ التبرعَ في حالِ كانَ المُتقدمُ للرهبنةِ شخصاً ورعاً، وأنتَ تخدمُ الديرَ منذُ سنواتٍ».

«كانَ الأخُ غودوين قد اقترحَ قبولي في الديرِ ولكن بعض الرهبانِ الكبارِ رفضوا».

تدخّلَ غودوين قائلاً: «يكرهُ كارلوس الأعمى فيليمون ولا أفهمُ سببَ هذا».

قالت بيترانيلا: «سأتحدثُ إلى أخي أنتوني. يمكنُهُ أن ينقضَ حكمَ كارلوس في هذا الشأنِ. أنتَ صديقٌ صالحٌ لابني، وأريدُ أن أراكَ تُحدث تقدماً في حياتكَ».

«شكراً لكِ يا سيدتي».

«حسناً، يبدو أنّكَ تتوقُ لإخبارِ غودوين بشيءٍ لا تستطيع قولَهُ أمامي ولهذا سأغادرُ»، وقبّلت غودوين ثمّ قالت: «تذكر ما قلتهُ لكَ».

«سأفعل يا أماه».

انتابَ غودوين شعورٌ بالراحةِ عندما غادرت والدتهُ وكأنَّ غيمةً تحملُ معها عاصفةً انقشعَت من فوقِهِ وابتعدَت باتجاهِ مدينةٍ أخرى.

حالما أصبحَت بيترانيلا بعيدةً عن مرمى السمع قال فيليمون: «للأمرِ علاقةٌ بالأسقف ريتشارد».

رفعَ غودوين حاجبيهِ في استغرابٍ. كان لدى فيليمون طريقةٌ في اكتشافِ أسرارِ الناسِ.

«وعلى ماذا وقعت؟» سأل غودوين.

«إنّهُ في المستشفى الآن في غرفةٍ خاصةٍ في الطابقِ العلوي مع نسيبتِهِ مارجري!» أجابَ فيليمون.

كانت مارجري فتاةً جميلةً في السادسةَ عشرة ووالدها الأخُ الأصغرُ للإيرل رولاند وأمُّها كونتيسة مار متوفيان ولهذا كانت تحتَ وصايةِ عمها. رتّبَ رولاند لزواجِها من ابن إيرل مونماوث كنوعٍ من التحالفِ السياسي الذي من شأنِهِ أن يُمتنَ مكانتهُ في دائرةِ عليةِ النبلاءِ في جنوبِ غربِ إنكلترا.

«ما الذي يفعلانه؟» سألَ غودوين رغمَ معرفتِهِ للجوابِ.

قالَ فيليمون في صوتٍ خفيضٍ: «يتبادلان القبلَ!»

«كيف تعلمُ هذا؟»

«سأريكَ».

قادَ فيليمون غودوين خارجَ الكنيسةِ وعبرا الجناحَ الجنوبي للكنيسةِ وصولاً إلى ديرِ الرهبانِ ثمَّ صعدا باتجاهِ المهجعِ. كانَ المهجعُ عبارةً عن غرفةٍ بسيطةٍ بصَفين من الأسرَّةِ الخشبيَّةِ والقشيَّةِ وهي مفصولةٌ عن المستشفى بجدارٍ فاصلٍ. توجَّه فيليمون إلى الخزانةِ الكبيرةِ التي تحوي على الأغطيةِ، وبكثيرٍ من الجهدِ دفعَها جانباً. كان في الجدارِ الذي يقعُ خلفَها حجرٌ غيرُ ثابتٍ. أثناء هذا الوقتِ تساءلَ غودوين في نفسهِ كيف يُمكن لفيليمون أن يكتشفَ هذا الثقبَ، وتكهنَ أنَّ فيليمون يخبئ أشياء في الفجوةِ. أزاحَ فيليمون الحجرَ وحرصَ على عدمِ إصدارِ ضجةٍ ثمَّ همسَ: «انظر بسرعةٍ!»

ترددَ غودوين وقال بصوتٍ خفيضٍ: «ما عددُ الذين راقبتهم من هنا؟»

«جميعهم»، أجابَ فيليمون كأنَّ الأمرَ مُسلماً بِهِ.

كانَ غودوين يعرفُ ما الذي يوشكُ على رؤيتِهِ ولهذا لم يكن سعيداً بالأمرِ. إنَّ اختلاسَ النظرِ إلى أسقفٍ يسيءُ التصرفَ قد يكون العملَ الصائبَ بالنسبةِ لفيليمون، ولكنه يبقى أمراً سريَّاً مشيناً لرجلِ دين. على رغمِ كلِّ هذه الأفكارِ تغلَّب عليهِ فضولُه أخيراً، وتساءلَ في نفسِهِ عمَّا ستنصحُهُ بِهِ والدتُهُ في مثلِ هذهِ الحالةِ وأيقنَ أنَّها ستطلبُ منهُ أن ينظرَ.

ولأنَّ الثقبَ في الجدارِ ليسَ على مستوى النظرِ انحنى لينظرَ من خلالِهِ.

كان غودوين يحدقُ إلى داخلِ غرفةِ النزلاءِ الخاصَّةِ في الطابقِ العلوي التي كانت مع غرفةٍ أخرى الغرفتين الخاصَّتين الوحيدتين في المستشفى. في إحدى زوايا الغرفةِ مصلى صغير قبالةَ جداريةٍ تصورُ مشهدَ الصلبِ. كان هناك كرسيان مريحان وبضعة مقاعد، وعندما يكون هناك حشدٌ من الزوارِ المُهمين ينزلُ الرجالُ في غرفةٍ والنساءُ في الغرفةِ الأخرى. وبالنظرِ إلى الطاولةِ الصغيرةِ التي عليها أغراضٌ نسائيةٌ خاصَّةٌ كالأمشاطِ والشرائطِ ومرطبانات صغيرةٍ غريبةٍ وقوارير لم يكن هناكَ مجالٌ للشكِ أنَّها غرفةُ النساءِ.

على الأرضيةِ فراشان من القشِّ ونامَ ريتشارد ومارجري على أحدهما. كانا يقومان بأمورٍ أخرى غيرِ التقبيلِ.

كانَ الأسقفُ ريتشارد رجلاً جذاباً بشعرٍ بني مموج وتقاسيمِ وجهٍ متناسقةٍ،

أمّا مارجري، الأصغرُ منهُ بكثيرٍ، فقد كانت فتاةً نحيلةً ببشرةٍ بيضاء وحاجبين داكنين. استلقيا أحدهما إلى جانبِ الآخر وبدأ ريتشارد يقبلُ وجهها ويهمسُ في أذنِها وابتسامةٌ تشي بالمتعةِ تتراقصُ على شفتيهِ. كان ثوبُ مارجري مرفوعاً حتى خصرِها كاشفاً عن ساقيها البيضاوين الطويلتين والجميلتين. كانت يدُ ريتشارد بينَ فخذيها يُحركها بحركةٍ مدروسةٍ ومنتظمةٍ. لم يكن لدى غودوين خبرةٌ في أمورِ النساءِ إلّا أنّهُ عرفَ ما الذي يفعلهُ ريتشارد. كانت مارجري تنظرُ إلى ريتشارد بشغفٍ وبفمٍ مُفترّ وهي تتأوهُ من الإثارةِ بينما توردَ وجهها من شدةِ الهيامِ، وانتابَ غودوين شعورٌ، وقد يكونُ تحاملاً أكثر مما هو شعورٌ، بأنّ ريتشارد يلهو مع مارجري بينما الأخيرةُ تعتقدُ بأنّه حبُّ حياتِها.

ولوهلةٍ حدَّقَ غودوين إليهما مرتاعاً. حرّكَ ريتشارد يدَهُ، وفجأةً وجدَ غودوين نفسه ينظرُ إلى مثلثٍ من الشعرِ الخشنِ بين فخذي مارجري. بدا الشعرُ داكناً بشكلٍ صارخٍ على أرضيّةِ بشرتِها البيضاء. كانَ بلونِ حاجبيها. وبسرعةٍ أشاحَ غودوين نظرَهُ بعيداً.

«دعني أرى»، قالَ فيليمون.

تراجعَ غودوين بعيداً عن الجدارِ فما رآهُ صدمهُ وتساءلَ عمّا عليهِ فعلُهُ حيالَ الأمرِ إن حدثَ شيءٌ ما.

حدَّقَ فيليمون من الثقبِ وشهقَ من الإثارةِ ثمّ قالَ: «يمكنني أن أرى فرجَها!» ثمّ همسَ: «إنّهُ يقومُ بفركِهِ!»

«ابتعد على الفورِ»، قالَ غودوين. «لقد رأينا ما يكفي».

أبدى فيليمون تردداً فقد كان مبهوراً بما يراه ثمّ ابتعدَ على مضضٍ وأعادَ الحجرَ إلى مكانِهِ ثمّ قالَ: «يجب أن نفضحَ ممارسةَ الأسقفِ للرذيلةِ على الفورِ!»

«اصمت ودعني أفكر»، قالَ غودوين.

إن قامَ غودوين بما اقترحهُ عليه فيليمون فسيصبحُ ريتشارد وعائلتُهُ القويةُ أعداءً من دونِ داعٍ، إلّا أنّه لا بدَّ من وجودِ طريقةٍ ما لاستغلالِ هذا لمصلحته. حاولَ غودوين أنْ يفكرَ بالأمرِ بالطريقةِ التي تفكرُ بها أمُّهُ: إن لم يكن هناكَ فائدةٌ من فضحِ خطيئةِ ريتشارد فهل يمكنُ الاستفادةُ من إخفائِها؟ ربما سيكون ريتشارد ممتناً جداً لغودوين إن وعدهُ بكتمانِ السرِ.

بدا له أنَّ الخيارَ الأخيرَ واعداً أكثر، ولكن كي يكونَ هذا الخيارُ فعّالاً يجب أن يعلمَ ريتشارد أنَّ غودوين يحميهِ.

«رافقني»، قالَ غودوين لفيليمون.

أعادَ فيليمون الخزانةَ إلى مكانِها، وتساءلَ غودوين في نفسِهِ إن كانَ صوتُ صريرِ الخشبِ على الأرضيةِ يصلُ إلى الغرفةِ المجاورةِ إلّا أنّه شككَ بإمكانيةِ هذا. على أيِّ حالٍ لا بد أن ريتشارد ومارجري منغمسان جداً في ما يفعلان ولن يسمعا الضجيجَ من وراءِ الحائطِ.

نزلَ غودوين الدرجَ وعبرَ الأروقةَ المسقوفةَ. كان هناك درجان يُفضيان إلى الغرفتين الخاصّتين؛ أحدُهما يبدأ من الطابق الأرضي للمستشفى، والثاني يقعُ خارجَ المبنى من أجلِ دخولِ وخروجِ النزلاءِ دونَ الاضطرارِ للمرورِ بأماكنِ العوامِ، وهرعَ غودوين نحو الدرج الخارجي.

توقفَ لبرهةٍ أمامَ الغرفةِ التي فيها ريتشارد ومارجري، وتحدَّثَ إلى فيليمون بهدوءٍ: «الحقني. لا تفعل شيئاً، ولا تتفوه بكلمةٍ واحدةٍ، ولتغادر عندما أغادرُ».

وضعَ فيليمون مكنسته أرضاً.

«لا»، قال غودوين. «احملها».

«حسناً».

فتحَ غودوين البابَ ودخلَ الغرفةَ ثمَّ قال: «أريدُ هذهِ الغرفةَ نظيفةً جداً»، ثمّ قالَ بصوتٍ عالٍ: «قُمْ بكنسِ كل زاويةٍ.. أوه. عفواً! اعتقدتُ أنَّ الغرفةَ فارغةٌ».

خلالَ الوقتِ الذي أخذَهُ غودوين وفيليمون في مغادرةِ المهجعِ والتوجهِ إلى المستشفى كان العاشقان قد اشتبكا تماماً، وقد أصبحَ ريتشارد الآن فوقَ مارجري وثوبُهُ الكهنوتي الطويلُ مرفوعٌ من الأمامِ بينما رفعَت مارجري ساقيها البيضاوين في الهواءِ على كلا جانبي وركي الأسقفِ. لم يكن هناكَ أدنى شكٍّ بما كانا يفعلانِهِ.

توقفَ ريتشارد عن الحركةِ ونظرَ إلى غودوين وقد علا وجهُهُ مزيجٌ بينَ اليأسِ الغاضبِ والشعورِ الرهيبِ بالذنبِ. أطلقَت مارجري صرخةً تنمُّ عن صدمتِها أيضاً، وحدَّقَت إلى غودوين والخوفُ في عينيها.

وتقمَّص غودوين هنا الدورَ الذي أعدَّهُ: «أيُّها الأسقفُ ريتشارد!» قالَ مُتصنعاً الدهشةَ. أرادَ من ريتشارد أن يعرفَ حقَّ المعرفةِ أنَّ غودوين عرفهُ. «ولكن كيف... ومارجري؟» وتظاهرَ بأنّه يفهمُ الأمرَ فجأةً ثمَّ قال: «سامحني!» ثمّ استدارَ على عقبيه وصرخ بفيليمون: «اخرج! الآن!» والتفتَ فيليمون نحو البابِ وخرجَ منهُ وهو ما يزال ممسكاً بمكنستِهِ.

لحقَ بهِ غودوين ولكنَّه استدارَ عندَ البابِ ليتأكدَ من أنَّ ريتشارد قد رآهُ

جيداً. تجمَّدَ العاشقان في وضعيتهما الجنسيةِ ولكن تعابيرَ وجهيهما قد تبدَّلت تماماً. كانت مارجري قد رفعَت يدَها ووضعتها على فمِها في إشارةٍ واضحةٍ إلى شعورِها المفاجئ بالذنبِ، وتغيرَت معالمُ وجهِ ريتشارد وباتت تشي بحذرٍ شديدٍ. أرادَ ريتشارد أن يتحدثَ ولكن لم يسعفهُ التفكيرُ بما عليه قوله. قررَ غودوين أنّ يريحهما من عذابِهما ويخرجَ فقد قامَ بما أرادَ القيامَ بهِ.

وعندما همَّ بالخروجِ وقبلَ أن يُغلقَ الباب وراءَهُ صُدمَ برؤيةِ امرأةٍ تصعدُ الدرجَ، وشعرَ بالهلعِ يسري في أطرفِهِ لوهلةٍ. كانت فيليبا زوجة الابن الآخر للإيرل.

أدركَ على الفورِ أنَّ السرَّ المشينَ سيفقدُ قيمتَهُ إن علمَ بهِ شخصٌ آخرٌ، ولهذا كان عليه أن يُحذرَ ريتشارد. «أيتها الليدي فيليبا!» قالَ بصوتٍ عالٍ. «أهلاً بكِ في دير كينغزبريدج!»

سمعَ غودوين ضجّةَ أقدامٍ خلفَهُ ومن زاويةِ عينهِ رأى ريتشارد ينهضُ على قدميهِ.

لحسنِ الحظِّ لم تتجاوز فيليبا غودوين بل وقفَت وقالت لهُ: «قد تستطيع مساعدتي». ورأى غودوين أنّها، من مكانها حيثُ تقفُ، لم تكن قادرةً على رؤيةِ ما في الغرفةِ. «لقد أضعتُ سواري. إنّه ليسَ سواراً ثميناً فهو مصنوعٌ من قطعٍ خشبيةٍ ولكنّي أحبُّهُ جداً».

«هذا مؤسفٌ»، قالَ غودوين بتعاطفٍ، «سأطلبُ من الرهبانِ والراهبات أن يبحثوا عنهُ».

قال فيليمون: «أنا لم أرهُ».

قالَ غودوين لفيليبا: «ربما وقعَ من معصمِكِ».

اكفهرَّ وجهُ فيليبا وقالت: «الغريبُ في الأمرِ أنني لم أرتده منذُ وصولي إلى هنا. لقد خلعتُهُ عندما وصلت ووضعتُهُ على الطاولةِ، ولا يمكنني إيجادُه الآن».

«ربما وقعَ على الأرضِ في زاويةٍ معتمةٍ. ها هو فيليمون هنا وسيُبحثُ عنه من أجلكِ فهو من ينظفُ غرفَ النزلاءِ».

نظرَت فيليبا إلى فيليمون وقالت: «أجل، لقد رأيتُكَ عندما غادرتُ منذ ساعة أو أكثر. ألم تره في مكانٍ ما وأنتَ تكنسُ الغرفةَ؟»

«لم أكنس الغرفةَ فالآنسةُ مارجري قد دخلت عندما كنتُ على وشكِ البدءِ بكنسِها».

قالَ غودوين: «وها هو فيليمون قد عادَ الآن لتنظيفِ غرفتِكِ، ولكن الآنسة مارجري...» ونظرَ إلى داخل الغرفةِ ثم تابعَ: «تُصلي». كانت مارجري راكعةً عند المصلى الصغير وقد أغمضَت عينيها، وأملَ غودوين أنّها تصلي ليغفرَ لها الرَّبُّ خطيئتها. كان ريتشارد يقفُ خلفَها مطأطئ الرأسِ شابكاً يديه ويحرّك شفتيهِ كأنّه يُدمدمُ.

ابتعدَ غودوين عن طريقِ فيليبا حتى تدخلَ الغرفةَ وألقت على شقيقِ زوجِها نظرةً مشككةً. «مرحباً يا ريتشارد. ليسَ من عادتِك أن تصلي في أيامِ الأسبوعِ».

وضعَ ريتشارد إصبعهُ على شفتيهِ في إشارةٍ لها لتسكتَ ثمَّ أشارَ إلى مارجري الراكعة على مقعدِ الصلاةِ.

قالت فيليبا على عجلٍ: «يُمكن لمارجري أن تصلي قدرَ ما تشاء، ولكن هذهِ غرفةُ النساءِ وأريدكَ أن تغادرها».

أخفى ريتشارد ارتياحَهُ وغادرَ مُغلقاً البابَ على المرأتين.

في الردهةِ وقفَ ريتشارد وغودوين وجهاً لوجهٍ. وبالنظرِ إلى وجهِ ريتشارد عرفَ غودوين أنَّ الأخير حائرٌ من أين يبدأ كلامَهُ. كان على وشكِ القولِ لغودوين: «كيف تجرؤ على الدخولِ إلى غرفةٍ من غيرِ أن تطرقَ البابَ»، ولكنَّ خطأهُ كان أكبر بكثيرٍ ومنعهُ من الانفجارِ غضباً في وجهِ غودوين، ولكنهُ من جهةٍ أخرى وجدَ التوسلَ إلى غودوين كي لا يفضحَهُ أمراً صعباً لأنَّهُ بهذا سيُصبحُ تحتَ رحمتِهِ. كانَ ريتشارد يعيشُ لحظةَ ارتباكٍ مؤلمٍ.

وبينما وقفَ ريتشارد متردداً تحدَّثَ غودوين: «لن أخبر أحداً بما رأيتُه».

بدَت علائمُ الراحةِ على وجهِ ريتشارد ومن ثمَّ حدَّقَ إلى فيليمون وقال: «وماذا عنهُ؟»

«يريدُ فيليمون أن يصبحَ راهباً وهو يتعلمُ فضيلةَ الطاعةِ».

«أنا مدينٌ لكَ».

«الرجل يعترفُ بخطاياه وليسَ بخطايا الآخرين».

«ولكن أنا ممتنٌ لكَ أيُّها الأخ...؟»

«غودوين، أمينُ الذخائرِ المقدسةِ وابن أخت رئيس الديرِ أنتوني». أرادَ غودوين من ريتشارد أن يعلمَ أنَّ مكانتَهُ عاليةٌ حتى يدركَ أنَّ مصيبتَهُ أكبر مما يعتقد إلَّا أنَّه أيضاً لم يرد أن تكونَ هذهِ المكانةُ تهديداً لريتشارد ولهذا أضافَ: «كانت والدتي مخطوبةً إلى والدكَ منذ سنواتٍ عديدةٍ وقبلَ أن يصبحَ إيرلاً».

«لقد سمعتُ بالقصَّةِ».

أرادَ غودوين أن يضيفَ: «وتخلي والدكَ عن والدتي كما كنتَ تنوي التخلي عن المسكينةِ مارجري»، ولكن بدلاً من هذا قال بلطفٍ: «كنا سنكون أخوةً».

«أجل».

رنَّ الجرسُ إيذاناً بموعدِ العشاءِ فحررهم هذا من حرجِ الموقفِ الذي كانوا فيه وغادروا منفصلين. توجهَ ريتشارد إلى منزلِ رئيسِ الديرِ أنتوني، وغودوين إلى حجرةِ طعامِ الرهبانِ، وفيليمون إلى المطبخِ ليساعدَ في تقديمِ الطعامِ.

وفي طريقِهِ إلى مسكنِ الرهبانِ غرقَ غودوين في التفكيرِ. لقد أزعجَهُ ذلكَ المشهدُ الحيواني الذي شهدَهُ إلَّا أنَّه شعر بأنَّه تعاملَ مع الموقفِ بشكلٍ جيدٍ، ويبدو أنَّ ريتشارد يثقُ بهِ.

في غرفةِ طعامِ الرهبانِ جلسَ غودوين إلى جانبِ ثيودريك الذي كان راهباً ذكياً وأصغرَ منهُ ببضعةِ أعوامٍ. لم يدرس ثيودريك في أوكسفورد ولهذا السببِ كان يعتبرُ غودوين قدوةً له. كانَ غودوين يعاملهُ كشخصٍ مساوٍ له وشعرَ ثيودريك بالإطراءِ على هذا. «قرأتُ شيئاً قد يُهمكَ»، قالَ غودوين. كان قد لخَّص ما قرأهُ عن موقفِ رئيسِ الديرِ الموقرِ فيليب حيالَ النساءِ عموماً والراهبات خصوصاً. «لقد قالَ ما كنتَ ترددُهُ على الدوامِ»، في الحقيقةِ لم يُعبر ثيودريك عن أيِّ رأيٍ حيالَ هذا الموضوعِ إلَّا أنَّه كان في صفِّ غودوين كلما اشتكى من تراخي رئيسِ الديرِ أنتوني.

«بالطبعِ»، قالَ ثيودريك. كان لثيودريك عينان زرقاوان وبشرةٌ فاتحة وقد تورَّدت الآن من الإثارةِ. «كيف يمكنُ لأفكاركَ أن تكونَ طاهرةً والنساءُ يشتتنها على الدوامِ بوجودهن؟»

«ولكن ما الذي يسعنا القيامُ بهِ حيالَ الأمرِ؟»

«يجبُ أن نواجهَ رئيسَ الديرِ».

«هل تعني أن نواجههُ خلالَ اجتماعِ رجالِ الكنيسةِ؟» قالَ غودوين كأنَّها فكرةُ ثيودريك وليست فكرتهُ. «أجل، هذهِ خطةٌ ممتازةٌ، ولكن هل سيدعمنا الآخرون؟»

«سيفعلُ الرهبانُ الشبابُ».

وفكَّر غودوين بأنَّ الشبابَ ينحونَ إلى الموافقةِ بدرجةٍ ما ولكن من دونِ توجيهِ أيِّ انتقاداتٍ إلى الكبارِ، إلَّا أنَّه يعلمُ أيضاً أنَّ العديدَ من الرهبانِ يشاركونَهُ وجهةَ

نظرِهِ في الحياةِ حيثُ لا وجودَ للنساءِ، أو على الأقلِّ أن يكون وجودهن غير مرئي. «إن تحدثتَ إلى أيِّ أحدٍ بهذا الخصوصِ من الآن وحتَّى موعد الاجتماعِ فلتُطلعني على آرائِهم». يعلمُ غودوين أنَّ هذا كفيلٌ بتشجيعِ ثيودريك للسعي وراءَ الدعمِ.

وصلَ العشاء وكانَ عبارةً عن يخنةِ سمكٍ مملحٍ وبازلاء. ولكن قبلَ أن يبدأ غودوين بتناولِ الطعامِ قاطعَهُ الراهبُ موردو.

كان الرهبانُ من أمثالِ موردو يعيشونَ بينَ العوامِ بدلاً من النأي بأنفسِهم في الأديرةِ فهم يعتقدون أنَّ نكرانَ الذاتِ خارجاً أكثرُ صرامةً مما هو في الأديرةِ حيثُ تتأثرُ نذورِ الفقرِ التي يأخذُها الرهبانُ بالأبنيةِ الجميلةِ والأراضي الشاسعةِ التي يعيشونَ فيها. عادةً، لا يمتلكُ هؤلاءُ الرهبان من أمثالِ موردو أيَّ ممتلكاتٍ، ولا يتبعونَ لكنائسَ معينةٍ، رغمَ أنَّ العديدَ منهم يبايعُ أيَّ شخصٍ ورعٍ يقدمُ لهم قطعةَ أرضٍ أو مالاً، أمَّا من كانوا يعيشونَ على المبادئ الحقيقيةِ لهذا الاعتقادِ فقد كانوا يستجدونَ طعامَهم، وينامونَ على أرضياتِ المطابخِ، ويلقون بالعظاتِ في الأسواقِ وأمامَ الحاناتِ مقابلَ الحصولِ على مبالغ زهيدةٍ. وهم لا يترددونَ أبداً في التماسِ الطعامِ والمسكنِ من الرهبانِ العاديين وفي أيِّ وقتٍ يرغبونَهُ. وبما لا يدعو للدهشةِ، كان ادِّعاؤهم بالتفوقِ على الرهبانِ العاديين أمراً باعثاً على الامتعاضِ.

كانَ الراهب موردو من النوعِ المزعجِ بشكلٍ خاصٍ؛ فقد كان سميناً وقذراً وجشعاً وثملاً معظمَ الوقتِ، ويُشاهدُ أحياناً برفقةِ العاهراتِ إلَّا أنَّه كان واعظاً ساحراً يجذبُ مئات الناسِ بعظاتِهِ الحماسيَّةِ والمُشككِ بصحتِها الدينيةِ.

وقفَ الراهب موردو من دونِ دعوةٍ وبدأ يُصلي بصوتٍ عالٍ: «أبانا باركْ هذا الطعامَ لأجسادنا النجسةِ والدنسةِ التي تملأها الخطايا كما تملأ اليرقاتُ جسدَ كلبٍ ميتٍ...»

لم تكن صلواتُ موردو قصيرةً قط ولهذا وضعَ غودوين ملعقتَهُ على الطاولةِ وتنهَّد.

***

يقرأ الرهبان دوماً خلالَ اجتماعِ رجالِ الكنيسةِ، وعادةً ما تكون القراءةُ من كتابِ أحكام بنيديكت[1]، إلاَّ أنَّها في أحيانٍ أخرى قد تكون من الإنجيلِ أو من الكتبِ الدينيةِ. وبينما كان الرهبانُ يأخذونَ أمكنتهم على المقاعدِ الحجريَّةِ

1- كتاب وضعه بنيديكت النيرسي عام 516 وهو موجه للرهبان الذين يعيشون معاً تحت سلطةِ رئيس الدير. (المترجمة)

الخشنةِ في قاعةِ الاجتماعاتِ المثمنةِ الزوايا، بحثَ غودوين عن الراهبِ الشابِ الذي يُفترضُ بهِ أن يقرأ اليومَ وأخبرَه، بهدوءٍ ولكن بحزمٍ، أنَّهُ سيقرأ بدلاً منهُ، وعندما أتت اللحظة التي ترقبَها قرأ ذلكَ الفصلَ الحسَّاسَ من كتابِ تيموثي.

كانَ يشعرُ بالتوترِ فلم يمضِ سوى عام على عودتِهِ من أوكسفورد، وهو منذئذٍ يتحدثُ مع الناسِ خفيةً حولَ إصلاحِ الديرِ إلّا أنّه وحتّى هذهِ اللحظةِ لم يواجه أنتوني صراحةً. كانَ رئيسُ الديرِ شخصاً ضعيفاً وكسولاً وبحاجةٍ لمن يوقظهُ بقوةٍ من كسلِهِ. علاوةً على هذا، كان القديس بنيديكت قد كتبَ: «يجبُ أن يؤمَّ الجميعُ اجتماعَ رجالِ الكنيسةِ لأنَّ الرَّبَّ قد يكشفُ لراهبٍ شابٍ ما هو الأفضل». كان يحقُّ لغودوين أن يتحدثَ خلالَ الاجتماعِ والدعوةُ لامتثالٍ أكبر للمبادئ الرهبانية، ولكنَّه على حينِ غرَّةٍ شعرَ كأنّه يخاطرُ وتمنى لو أنّه أخذَ وقتاً أطولَ للتفكيرِ بمناورتِه واستخدامِ كتاب تيموثي على نحو أفضل.

ولكن الوقتَ كان قد تأخّر على الندمِ. أغلقَ غودوين الكتابَ وقالَ: «سؤالي الذي أوجهُهُ إلى نفسي وإخوتي هو: هل تراخينا في تطبيقِ المبادئ التي وضعَها رئيسُ الديرِ فيليب حولَ فصلِ الرهبانِ والراهبات؟» كان غودوين قد تعلَّمَ خلالَ سجالاتِ الطلابِ في أوكسفورد أن يُقدمَ حجتَه في شكلِ سؤالٍ إن أمكنه هذا والتضييق على خصمِهِ قدرَ الإمكانِ.

أتاهُ الرَّدُ الأولُ من الأعمى كارلوس، الذي كان نائبَ رئيسِ الديرِ أنتوني: «تقعُ بعضُ الأديرةِ في أماكنَ بعيدةٍ عن التجمعاتِ السكانيةِ، على جزرٍ غير مأهولةٍ، أو في مجاهلِ غاباتٍ، أو على قممِ جبالٍ موحشةٍ»، وأثارَ حديثُ الأعمى البطيء والمتروي تململ غودوين وكادَ يفقدُ صبرَه. «في مثلِ هذهِ المنازلِ يعزلُ الأخوةُ أنفسهم بعيداً عن أي اتصالٍ مع العالمِ الدنيوي»، وتابعَ كلامَهُ متمهلاً: «لم تكن كينغزبريدج يوماً كهذهِ الأماكن قط؛ فنحنُ في مركزِ مدينةٍ عظيمةٍ يستوطنها سبعةُ آلافِ روحٍ، ونعتني بإحدى أعظمِ الكاتدرائياتِ في المملكةِ المسيحيةِ. إنَّ العديدَ منا أطباءٌ لأنَّ القديسَ بنيديكت قال: «يجبُ أن يحظى المرضى بعنايةٍ خاصَّةٍ كأنّهم المسيحُ نفسه». لم نحظَ بنعمةِ الانعزالِ التَّامِ إلّا أنَّ الرَّبَّ كلفنا بمهمةٍ مختلفةٍ».

كانَ غودوين قد توقَّع مثل هذا الكلامِ. لطالما كرهَ كارلوس تغييرَ أماكنِ الأثاث لأنَّ هذا يعني أنّه سيقعُ، ورفضَ أيَّ نوعٍ من التغييرِ في خوفٍ موازٍ لخوفهِ من أماكنِ الأثاثِ الجديدِ واضطرارهِ إلى التأقلمِ مع ما هو غير مألوفٍ له.

وعاجلَهُ ثيودريك بجوابٍ سريعٍ: «وهذا سببٌ إضافي لنتشددَ في تطبيقِ مبادئنا. إنَّ الرجلَ الذي يعيشُ قربَ بابِ حانةٍ يجبُ أن يكونَ أكثرَ حذراً حتَّى لا يسقطَ في هوَّةِ الثمالةِ».

علَت همهمةُ استحسانٍ؛ فالرهبانُ يستمتعون بالأجوبةِ اللاذعةِ، وأومأ غودوين برأسِهِ في استحسانٍ، واحمرَّ الفتى ثيودريك ذو البشرة البيضاء من الرضا.

تجرأ أحدُ الرهبانِ الجددُ وكان يُدعى جولي قائلاً في صوتٍ أقرب إلى الهمسِ العالي: «إنَّ النساءَ لا يُزعجنَ الأعمى كارلوس فهو لا يستطيعُ رؤيتهن»، وضحكَ العديدُ من الرهبانِ رغمَ أنَّ آخرين هزوا رؤوسَهم في استهجانٍ.

شعرَ غودوين أنَّ الأمورَ تسير كما خططَ لها، وحتَّى الآن كل الدلائلِ تشيرُ إلى أنَّهُ سيربحُ الجدالَ، ومن ثمَّ قالَ رئيسُ الديرِ أنتوني: «ما الذي تقترحهُ بالضبط أيُّها الأخُ غودوين؟» لم يكن أنتوني قد ارتادَ أوكسفورد ولكنَّهُ يعلم بما يكفي ليضغطَ على خصمهِ حتَّى يُفصحَ عن أجندتِهِ الحقيقيةِ.

وضعَ غودوين على مضضٍ بطاقاتِ ملاحظاتِهِ على الطاولةِ وقالَ: «أن ننظرَ في العودةِ إلى الوضعِ الذي كان عليه الديرُ أيامَ رئيسِ الديرِ فيليب».

وألحَّ أنتوني قائلاً: «ما الذي تعنيهِ بالضبط؟ ألا يكون هناكَ أيّ راهبةٍ؟»

«أجل».

«ولكن إلى أين سيذهبنَ؟»

«يمكننا نقلُ ديرِ الراهباتِ إلى موقعٍ آخرٍ، ويصبحُ هذا الموقعُ فرعاً بعيداً تابعاً للديرِ ككلية كينغزبريدج في أوكسفورد أو دير سان جون إن ذا فوريست».

صُدمَ الجميعُ بما سمعوهُ، وعلا صخبُ تعليقاتٍ كثيرةٍ وجدَ رئيسُ الديرِ صعوبةً في إيقافِها. كان الصوتُ الأعلى وسطَ هذا الصخب لكبيرِ الأطباءِ جوزيف الذي كان رجلاً ذكياً إلَّا أنَّه متكبرٌ وقد تعاملَ معهُ غودوين بحذرٍ على الدوامِ. «كيف ستتمكنُ من إدارةِ المستشفى من دونِ راهباتٍ؟» كانَ يُصدرُ صفيراً مع مخارجِ الأحرفِ الساكنةِ وهذا بسببِ أسنانِهِ المنخورةِ، وجعلَهُ هذا يتحدثُ كشخصٍ ثملٍ ولكن دونَ أن يبدو أقلَّ هيبةً. «إنَّ الراهباتِ يُنظمن العلاجاتِ ويغيرنَ الأغطيةَ والملابسَ ويُطعمن العجزةَ ويُسرِّحنَ شعرَ العجائزِ الخرفين...»

قالَ ثيودريك: «يُمكن للرهبانِ أن يقوموا بهذا».

«وماذا عن حالاتِ الولادةِ؟» قالَ جوزيف. «نتعاملُ أحياناً مع نساءٍ يواجهنَ صعوبةً في الولادةِ. كيف يُمكنُ للرهبانِ أن يساعدوهن من دونِ الراهبات اللواتي

يقمن بالتوليدِ... على أرضِ الواقعِ». عبّرَ العديدُ من الحاضرين عن موافقتِهم على هذا الكلامِ، ولكنَّ غودوين كان قد توقَّع طرحَ هذا السؤالِ ولذلكَ قالَ: «فلنفرض أنَّ الراهباتِ انتقلنَ إلى مبنى المجذومين القديمِ؟» كانت مستعمرةُ المجذومين، أو مبنى المجذومين، عبارة عن جزيرةٍ صغيرةٍ وسطَ النهرِ جنوبَ المدينةِ، وقد امتلأت في ما مضى بالمصابين بالجُذامِ، ولكن يبدو أنَّ مرضَ الجذام يختفي، ولم يعد هناك سوى مريضين عجوزين في المكانِ.

ودمدمَ الأخ كوثبيرت الذكي قائلاً: «لا أريدُ أن أكونَ الشخص الذي سيُخبرُ الأمّ سيسيليا أنَّ عليها الانتقال إلى مستعمرةِ المجذومين»، وعلَت موجةٌ من الضحكاتِ.

«الرجالُ قوَّامون على النساءِ»، قال ثيودريك.

وهنا قالَ رئيسُ الديرِ أنتوني: «والأسقفُ ريتشارد قوَّامٌ على الأمِّ سيسيليا، وعلى عاتقِهِ يقعُ اتخاذُ هذهِ القرارات».

«لا سمحَ الرَّبُّ»، علا صوتٌ جديدٌ. كان صوتُ أمينِ الخزنةِ سيميون وهو رجلٌ نحيلٌ بوجهٍ طويلٍ ومعارضٌ دؤوبٌ لأيِّ عرضٍ فيهِ إنفاقٌ للأموالِ. «لا يمكننا الاستغناءُ عن الراهباتِ».

بوغتَ غودوين بهذه الإجابةِ وسأل: «ولم لا؟»

«لا نملكُ ما يكفي من المالِ»، قالَ سيميون بحزم. «عندما تحتاجُ الكاتدرائيةُ إلى إصلاحٍ من يدفع للبنّائين برأيك؟ نحنُ لا ندفعُ لأنه لا يسعنا تحملُ التكاليف. إنَّها الأمُّ سيسيليا؛ فهي من يشتري مستلزمات المستشفى وأوراقَ المخطوطاتِ وأعلاف الإسطبلاتِ. إنَّها تقومُ بدفعِ كلِّ شيءٍ مشتركٍ بينَ الرهبان والراهبات».

شعرَ غودوين بالخيبةِ وسأل: «كيف يُمكن أن يحدث هذا؟ لماذا نعتمد عليهن؟»

هزَّ سيميون كتفيهِ بلامبالاةٍ وقال: «مع مرورِ السنواتِ قدَّمت الكثيرُ من النساءِ الورعات الأراضي والممتلكاتِ لديرِ الراهباتِ».

كان غودوين واثقاً من أنَّ هذه لم تكن القصَّة كاملةً؛ فالرهبان يملكونَ مواردَ كثيرةً وهم يجمعونَ الإيجاراتِ والمال من جميع مواطني كينغزبريدج تقريباً، ويسيطرونَ على آلافِ الهكتارات من الأراضي الزراعية أيضاً، وهذا يعني أنَّ العاملَ الأساسي في الحكايةِ هو إدارةُ هذهِ الثروةِ، ولكن الجدال لم يعد مُجدياً فقد خسرَ فرصتَهُ، وحتَّى ثيودريك التزمَ الصمتَ.

قالَ أنتوني برضا: «حسناً، كان هذا النقاشُ الأكثر إثارةً. شكراً لكَ يا غودوين على طرحِ هذا السؤالِ. دعونا نصلي الآن».

ولكنّ غودوين كان غاضباً جداً ولم يكن بوسعِهِ الصلاة فهو لم يحقق ما أرادَهُ ولم يعرف الخطأ الذي ارتكبهُ.

وبينما كانَ الرهبانُ يهمّونَ بالمغادرةِ حدَّق ثيودريك في هلعٍ وقال: «لم أكن أعلم أنَّ الراهبات يدفعنَ كلَّ هذهِ الأموالِ».

«لا أحدَ منا كانَ يعلمُ»، قالَ غودوين وقد أدركَ على الفورِ أنَّه أجابَ ثيودريك بغضبٍ ولهذا سارعَ للتعويضِ عن ردِّ فعلِهِ: «ولكنك كنتَ رائعاً. لقد جادلتَ على نحوٍ أفضلَ من أيِّ طالبٍ في أوكسفورد».

كان هذا ما عليهِ قولُه وبدا ثيودريك سعيداً بما سمعَهُ.

حانَت الآن الفترةُ التي يقضيها الرهبانُ يطالعون في المكتبةِ أو يتمشون وهم يتأملون في الردهاتِ، إلا أنَّه كان لغودوين خططٌ أخرى فقد كان هناكَ أمرٌ يزعجُه طوالَ فترةِ العشاءِ وأثناءِ الاجتماعِ، ورغم أنَّه وضعَه جانباً لأنَّ أموراً أخرى أكثر أهميَّةً قد حدثَت فإنَّه عادَ إلى التفكيرِ بِهِ الآن.

كان يعتقدُ أنَّه يعرفُ مكان سوارُ الليدي فيليبا.

في الديرِ مخبأن. كانَ الرهبانُ ينامون في مهجعٍ واحدٍ، باستثناءِ رئيسِ الديرِ الذي كان يمتلكُ غرفةً خاصَّةً بِهِ، بل كانوا يستخدمونَ حوضَ المرحاضِ ذاتهُ الذي يُنظفُ باستمرارٍ بمياهٍ تُنقلُ إليهِ. لم يكن يُسمحُ لهم بالاحتفاظِ بممتلكاتٍ شخصيَّةٍ؛ فلا أحدَ منهم يملكُ خزانةً أو حتَّى صندوقاً.

ولكن غودوين رأى مخبأً اليومَ.

صعدَ إلى الطابقِ العلوي وتوجهَ إلى المهجعِ ثمَّ أزاحَ خزانةَ الأغطيةِ بعيداً عن الجدارِ وأزالَ الحجرَ من مكانِه، ولكنَّهُ لم ينظر من الثقبِ بل وضعَ يدَهُ فيهِ وتحسسَ أعلاه وأسفلَهُ وجوانبَهُ، وإلى اليمين شعرَ بوجودِ صدعٍ صغيرٍ. أقحمَ غودوين أصابعَهُ في الداخلِ ولمسَ شيئاً لا يشبهُ الحجرَ أو الملاطَ ثمَّ أمسكَهُ بأطرافِ أصابعِهِ وسحبَهُ.

كانَ سواراً خشبياً بنقوشٍ عليهِ.

رفعَهُ غودوين عالياً باتجاهِ الضوءِ وعاينهُ. كان مصنوعاً من خشبٍ قاسٍ، ربما من خشبِ البلوطِ. كانَ السطحُ الداخلي لهُ مُصنفراً بنعومةٍ، ولكن على السطحِ الخارجي نقوشٌ لأشكالٍ مُتداخلةٍ من مربعاتٍ ومنحنياتٍ منحوتةٍ بعُمقٍ وبدقَّةٍ مُرضيةٍ، وفهمَ غودوين سببَ تعلُّقِ الليدي فيليبا بهذا السوارِ.

أعادَ السوارَ إلى مكانِهِ وأغلقَ الفجوةَ ثمَّ جرَّ الخزانَةَ إلى موضعِها الأصلي.

وتساءلَ في نفسِهِ عن غرضِ فيليمون من سرقةِ السوارِ فهو لن يتمكنَ من بيعِهِ بثمنٍ جيدٍ، علاوةً على هذا، سيكون بيعهُ أمراً خطيراً لأنَّ السوارَ مميزٌ جداً، ولن يتمكنَ من ارتدائِهِ أيضاً.

غادرَ غودوين المهجعَ وهبطَ الدرجَ باتجاهِ الممرِ المسقوفِ. لم يكن في مزاجٍ للتأملِ أو الدراسةِ، كان بحاجةٍ إلى من يتحدثُ معهُ حولَ مجرياتِ اليومِ وشعرَ بحاجةٍ إلى رؤيةِ والدتِهِ.

وعندما فكرَ بهذا شعرَ بالخوفِ ولكنهُ كان واثقاً من أنّها ستمتدحُهُ على حُسنِ تدبيرِهِ في قصَّةِ الأسقفِ ريتشارد، وتاقَ إلى إخبارِها بالقصَّةِ، ولهذا قررَ الذهابَ والبحثَ عنها.

نظرياً، لم يكن يُسمحُ للرهبانِ بالخروجِ من الديرِ، فلم يكن يُفترضُ بهم التجوالُ في شوارعِ المدينةِ متى شاؤوا، ولكي يخرجوا يجبُ أن يكونَ لديهم سببٌ يبررُ خروجهم من الديرِ، وطلبُ الإذنِ من رئيسِ الديرِ قبلَ مغادرةِ الديرِ، ولكن عملياً يملكُ الرهبانُ ممن يسيرونَ شؤونَ الديرِ الكثيرَ من الأعذارِ التي تبررُ خروجَهم؛ فهناكَ أعمالٌ مستمرةٌ بينَ الديرِ والتجارِ وباعةِ الطعامِ والثيابِ والأحذيةِ والأوراقِ والشموعِ وأدواتِ البستنةِ والمعداتِ الخاصَّةِ بالخيولِ وكلِّ الحاجيات الأساسيةِ اليوميةِ. علاوة على هذا، يُستدعى الأطباءُ في أيِّ وقتٍ لعيادةِ مريضٍ غير قادرٍ على المشيِ إلى المستشفى. ولهذهِ الأسباب لم تكن رؤيةُ الرهبانِ في شوارعِ المدينةِ أمراً غريباً، وبما أنَّ غودوين أمينُ الذخائر المقدسة في الكنيسةِ فلم يكن عليهِ تقديمُ عذرٍ لمغادرتِهِ الدير.

ولكن على أيِّ حالٍ كان عليهِ التزامُ السريَّةِ لذلكَ حرصَ على الخروجِ من دونِ أن يلاحظهُ أحدٌ. تجاوزَ السوقَ المزدحمَ وعبرَ بعجلةٍ الشارعَ الرئيسي الذي يُفضي إلى منزلِ خالِهِ إدموند.

كان يأملُ أن يكونَ إدموند وكاريس خارجَ المنزلِ يهتمان بأعمالهما وقد تحققَ رجاؤه فقد وجدَ والدتَهُ وحدها مع الخدمِ.

«إنَّها لهديةٌ رائعةٌ لأمّكَ أن تراكَ مرتين خلالَ يومٍ واحدٍ! سأتمكنُ الآن من إطعامِك جيداً»، قالت له وسكبَت له قدحاً من الجعةِ القويةِ وطلبت من الطباخةِ أن تُحضرَ صحناً من اللحمِ الباردِ. «كيفَ جرى الاجتماعُ؟» سألته.

وأخبرَها بالقصَّة ثمّ ختمَ: «كنتُ على عجلةٍ من أمري».

أومأت برأسها وقالت: «اعتادَ والدي القولَ إنَّه لا يتعين عليكَ تركُ اجتماعٍ ما لم تصل إلى نتيجةٍ حاسمةٍ».

ابتسمَ غودوين وقالَ: «يجب ألا أنسى هذا».

«ولكن لا أعتقدُ أنَّك بهذا أحدثتَ أيَّ أذى».

كان هذا مدعاةً لراحتِهِ لأنَّ هذا يعني أنَّها لم تكن غاضبةً: «ولكنّي خسرتُ حُجتي».

«ولكنَّكَ رسختَ موقعكَ كقائدٍ للشبابِ الإصلاحيين».

«حتَّى وإن بدوتُ كأحمق؟»

«هذا أفضل من أن تبدو تافهاً».

لم يكن غودوين واثقاً من أنَّها محقَّةٌ في ما قالتهُ، ولكنه في كلِّ مرَّةٍ يُشككُ فيها بحكمةِ نصيحةِ والدتِهِ لا يتحداه بل يضعهُ جانباً ليُفكرَ بِهِ لاحقاً. «لقد حدثَ أمرٌ غريبٌ جداً»، قالَ لها وأخبرَها بقصَّةِ ريتشارد ومارجري متجنباً التفاصيلَ الجنسيةَ المقززةَ.

بدَت متفاجئةً جداً وقالت له: «لا بد أن ريتشارد مجنونٌ! سيُلغى الزواج إن اكتشفَ إيرل موتماوث أنَّ مارجري ليست عذراءً، وسيستشيطُ الإيرل رولاند غضباً. يجبُ تجريد ريتشارد من منصبِهِ».

«ولكن الكثيرَ من الأساقفةِ يتخذونَ عشيقاتٍ، أليس هذا صحيحاً؟» سأل غودوين.

«هذا مختلفٌ تماماً. قد يتخذُ كاهنٌ عشيقةً تحتَ مسمى «مدبرةِ منزلٍ» وهي عملياً ستكونُ مثلَ زوجتِهِ من جميعِ النواحي باستثناءِ الناحيةِ الرسميةِ، ويمكن للأسقفِ أن يتخذَ العديدَ من العشيقاتِ ولكنَّهُ لا يستطيعُ فضَّ بكارةِ امرأةٍ نبيلةٍ قبيلَ حفلِ زفافها. وحتَّى بالنسبةِ لابن إيرل قد يغدو احتفاظهُ بمنصبِهِ الديني أمراً صعباً».

«ما الذي يجبُ أن أقومَ به؟»

«لا تقمْ بشيءٍ. لقد تعاملت مع الموقفِ ببراعةٍ حتى الآن»، وأضاءَ وجهها من الفخرِ بِهِ، ثمَّ أضافَت: «يوماً ما ستكونُ هذهِ المعلومةُ سلاحاً قوياً بيدكَ. لا تنسَ هذا!».

«هناكَ أمرٌ آخرٌ. كنتُ أتساءلُ في نفسي عن الطريقةِ التي اكتشفَ فيها فيليمون الحجرَ المتحرِّكَ، وخطرَ ببالي أنَّهُ كان يستخدمهُ كمخبأ، وقد تأكدتُ من هذا فقد عثرتُ على سوارِ الليدي فيليبا فيه».

«هذا مثيرٌ للاهتمام»، قالت والدته ثمَّ تابعت: «أعتقدُ أنَّ فيليمون سيكونُ مفيداً لكَ فهو مستعدٌ للقيامِ بأيِّ شيءٍ ولا يملكُ أي وازعٍ أو رادعٍ. كان لدى والدي موظفٌ مثله ومهمتُهُ القيامُ بكلِّ الأعمالِ القذرةِ كنشرِ الشائعاتِ والكلامِ المسمومِ وإثارةِ الصراعاتِ، ولذلك فإنَّ أمثالَ هذا الرجلِ لا يقدرونَ بثمنٍ».

«إذاً، تعتقدينَ أنَّه لا يجب عليَّ التبليغُ عن هذهِ السرقةِ».

«بالطبعِ لا، أجبرهُ على إعادةِ السوار إن كنتَ ترى للأمرِ أهميةً، ويمكنهُ القولُ إنَّه عثرَ عليهِ وهو ينظفُ، ولكن لا تفضحهُ. ستحصدُ نتاجَ هذا لاحقاً، وأنا أضمنُ لكَ هذا».

«إذاً، يجب أن أحميهِ؟» سأل غودوين

«كما قد تحمي كلباً مسعوراً يفتكُ بالدخلاءِ، ربما يكون خطيراً ولكنَّه يستحقُّ الحمايةَ».

-10-

انتهى ميرثن من العملِ على البابِ يومَ الخميسِ.

أنهى عملهُ في الجناحِ الجنوبي للكنيسةِ وأعادَ السقالةَ إلى مكانِها. لم يكن هناكَ حاجةٌ إلى صُنعِ قوالبَ مؤقتةٍ من أجلِ البنَّائين فقد كان غودوين وتوماس عاقدي العزمِ على توفيرِ المالِ باللجوءِ إلى الطريقةِ التي اقترحَها ميرثن، ولهذا عادَ إلى العملِ على زخرفةِ الباب وقد أدركَ أنَّه لم يتبقَ لديهِ الكثير ليُنهيهِ. قضى ساعةً كاملةً في العملِ على شعرِ إحدى العذراوات الحكيماتِ، وساعةً أخرى على ابتسامةٍ بلهاء ارتسمت على وجهِ عذراء جاهلةٍ، إلَّا أنَّه وقفَ حائراً أمامَ إمكانيةِ تحسين مظهرهن. وجدَ صعوبةً في اتخاذِ أيِّ قرارٍ فقد كانَ عقلُهُ مشغولاً بكاريس وغريزيلدا.

لم يتمكن طوالَ الأسبوعِ من إجبارِ نفسهِ على التحدثِ إلى كاريس فقد كانَ يشعرُ بالخجلِ الشديدِ من نفسِهِ. ففي كلِّ مرَّةٍ يرى فيها كاريس يتذكرُ كيفَ عانقَ غريزيلدا وقبَّلها ومارسَ معها الفعلَ الأكثرَ تعبيراً عن الحبِّ في حياةِ أيِّ إنسانٍ؛ لقد مارسهُ مع فتاةٍ لا يستلطفها أصلاً. ورغمَ أنَّه قضى الكثيرَ من الساعاتِ السعيدةِ قبلاً يتخيلُ ممارسةَ هذا مع كاريس، فإنَّ التفكير بالأمرِ الآن أصابَهُ بالهلعِ. لم يكن هناك أيُّ خطبٍ في غريزيلدا، حسناً، هناك خطبٌ ما ولكن لم يكن هذا سبب اضطرابهِ. كان سيشعر بذاتِ الشعورِ لو قامَ بهذا مع أيّ امرأةٍ

أخرى غير كاريس. لقد قضى على أيِّ معنى قد يكون لهذا الفعلِ بممارستِهِ مع غريزيلدا. وها هو الآن غير قادرٍ على مواجهةِ المرأةِ التي يحبها.

وبينما كان يتأملُ عمله لصرفِ ذهنهِ عن التفكير بكاريس وأخذِ قرارٍ بخصوصِ إنهاءِ العملِ على البابِ دخلَت إليزابيث كلرك قادمةً من الرواقِ الشمالي. كانت فتاةً جميلةً نحيلةً وشاحبةً في الخامسة والعشرين من العمرِ بشعرٍ أشقر مجعدٍ وكثيفٍ. شغلَ والدُها منصبَ أسقفِ كينغزبريدج قبل ريتشارد وعاشَ في قصرِ الأسقفِ في شايرنغ تماماً كريتشارد، ولكن خلالَ زياراتِهِ المتكررةِ إلى كينغزبريدج وقعَ في غرامِ ساقيةٍ في نزلِ بيل، وهذه الساقيةُ هي والدةُ إليزابيث. ولأنَّها طفلةٌ غير شرعية كانت إليزابيث حساسةً جداً حيال مكانتِها الاجتماعيةِ وشديدةَ اليقظةِ حيالَ أدنى إلماحةٍ إلى هذا وسريعةً في ردودِ فعلِها واعتبارِ كلِّ شيءٍ إهانةً، ولكنَّ ميرثن استلطفها لذكائِها، ولأنَّها عندما كان في الثامنة عشرة قبَّلته وسمحت له بلمسِ ثدييها اللذين كانا يبدوان ناهدين رغم أنَّهما كانا مُسطحين كأنَّهما مسكوبين في قالبين غير عميقين، ولها حلمتان تتصلبان عند أقلِّ لمسةٍ. انتهت علاقتهما الرومانسية بسببِ أمرٍ سخيفٍ من وجهةِ نظرِهِ، ولا يمكن مغفرتُه من وجهةِ نظرِها. كان انفصالهما بسببِ مزحةٍ ألقاها عن الكهنةِ الشهوانيين، ولكن وعلى الرغمِ مما حصل مازال ميرثن يستلطفُها إلى الآن.

لامسَت كتفهُ ونظرَت إلى البابِ ثمَّ وضعَت يدَها على فمِها وشهقَت: «يبدونَ كأنَّهنَّ حقيقيات!»

انتابهُ فرحٌ عارمٌ لسماعِهِ هذا فهي لا تأخذُ المديحَ باستخفافٍ، ولكن ميرثن شعرَ بأنَّ عليهِ التصرَّفَ بتواضعٍ ولذلك قال: «كلُّ ما في الأمر أنني عملتُ على جعلِ كلِّ واحدةٍ منهنَّ مميزةً. على البابِ القديمِ كانت جميعُ العذراوات متشابهاتٍ».

«إنَّ للأمرِ بُعداً أكبر من هذا فهنَّ يبدونَ كأنَّهن على وشكِ الخروجِ من البابِ والتحدثِ معنا».

«شكراً لكِ».

«وهذا مختلفٌ تماماً عن أيِّ شيءٍ آخر هنا في الكاتدرائيةِ. ماذا سيكون رأي الرهبان؟»

«أبدى الأخُ توماس إعجابَهُ به».

«ماذا عن أمينِ الذخائرِ المقدسةِ؟»

«غودوين؟ لا أعلم ما الذي يفكرُ بهِ، ولكن إن حدثَ لغطٌ حول الموضوعِ فسألتمسُ إلى رئيس الدير أنتوني الذي سيرفضُ صنعَ بابٍ آخرٍ والدفعَ مرتين».

«حسناً»، قالت مُفكرةً ثمَّ أضافت: «لم يذكر الإنجيل شيئاً عن تشابههن بل تحدَّث فقط عن أنَّ خمساً منهن جهزنَ أنفسهنَ مُسبقاً، أمّا الخمسُ الأخريات فقد تركنَ التحضيراتِ حتّى اللحظةَ الأخيرةَ وانتهى بهنَّ الأمرُ إلى تفويتِ الحدثِ. ولكن ماذا عن إلفريك؟»

«هذا البابُ ليسَ من اختصاصِهِ».

«ولكنّه مُعلمكَ».

«إنَّه لا يهتّمُ إلّا بالحصولِ على المالِ».

لم تبدُ إليزابيث مقتنعةً بكلامِهِ وقالت: «المشكلة هي أنّك أفضلُ منه، والأمرُ واضحٌ للجميع منذُ بضعِ سنواتٍ. لن يعترفَ إلفريك بأنّك أفضل منه ولكنَّهُ سيكرهكَ على هذا، وقد يجعلكَ تندمُ على صنعِ هذا البابِ».

«أنتِ تنظرين إلى نصفِ الكأسِ غير الملآنِ على الدوامِ».

«هل أفعلُ هذا حقاً؟» قالت هذا وقد شعرَت بالإهانةِ. «حسناً، سنكتشف إن كنتُ على حقٍ. آمل أن أكونَ مخطئةً»، والتفتت ثم غادرَت.

«إليزابيث؟»

«نعم».

«أنا سعيدٌ حقاً لأنّكِ تعتقدين أنَّ البابَ جيدٌ».

لم تُجبه ولكنها بدت كأنّها قد هدأت قليلاً ثمَّ لوّحت لهُ مودعةً وغادرَت.

قررَ ميرثن أنَّ العملَ على البابِ قد انتهى لذلكَ قامَ بتغطيتِهِ بكيسٍ مصنوعٍ من قماشٍ خشنٍ. كانَ عليه أن يعرضَهُ على إلفريك ويبدو أنّه الآن وقتٌ جيدٌ كأيِّ وقتٍ آخر. كانَ المطرُ قد توقفَ، حتى الآن على الأقلِّ.

طلبَ ميرثن من أحدِ العمالِ مساعدته على حملِ البابِ. يستخدمُ البنّاؤون تقنيةً خاصّةً لحملِ الأغراضِ الثقيلةِ والصعبةِ فهم يضعونَ عمودين قويين متوازيين على الأرضيّةِ وفوقهما بشكلٍ عرضي في الوسطِ ألواحاً خشبيةً وعندها يُصبح لديهم قاعدةٌ متينةٌ، ثمّ يضعونَ الغرضَ على الألواحِ وعندَ نهايةِ كل عمودٍ يقفُ رجلٌ ويُرفعُ الغرضَ. تدعى هذهِ التقنيةُ بالنقّالة، وكانت تُستخدمُ أيضاً لحملِ المرضى.

كانَ البابُ ثقيلاً جداً إلّا أنَّ ميرثن معتادٌ على رفعِ الأغراضِ الثقيلةِ. لم يسمح له إلفريك باستخدامِ عذرِ قصرِ قامتِهِ كي يتهرَّبَ من هذا العملِ، ونتيجةً لهذا غدا ميرثن قوياً بشكلٍ مفاجئ.

وصلَ الرجلانِ إلى منزلِ إلفريك وأدخلا البابَ إلى المنزلِ. كانت غريزيلدا جالسةً في المطبخِ، وبدَت كأنّها تزدادُ شهوانيةً يوماً بعد يومٍ فقد بدا ثدياها أكبر وأكبر مع مرورِ الأيامِ. كان ميرثن يكرهُ التخاصمَ مع الآخرين ولهذا حاولَ أن يتصرفَ بودٍ.

«هل تريدينَ رؤيةَ بابي؟» قالَ لها عندما مرَّا بقربِها.

«ما الذي قد يدفعني إلى النظرِ إلى بابٍ؟»

«إنَّه بابٌ حُفرت عليهِ قصَّة العذراوات الحكيمات والجاهلات».

أطلقَت غريزيلدا ضحكةً جادةً وقالت: «لا تتحدث معي عن العذراواتِ».

وخرجَ ميرثن مع العاملِ إلى الحديقةِ الخلفيةِ. لم ينجح ميرثن قط في فهمِ النساءِ. كانت غريزيلدا تتصرفُ ببرودٍ معه منذ أن تضاجعا، وتساءلَ عن السببِ الذي دفعَها لمضاجعتهِ ما دامَت تكرههُ إلى هذهِ الدرجةِ، وقد أوضحَت له أنّها لا تريدُ تكرارَ الأمرِ معهُ. كان يرغبُ بأن يؤكدَ لها أنّه يشعرُ بالمثلِ، وأنّه يكرهُ الفكرةَ بحدِّ ذاتها، ولكن سيكونُ هذا أشبهَ بإهانتِها، ولهذا اختارَ ألّا يقولَ شيئاً.

وضعا النقّالةَ أرضاً وغادرَ العاملُ الذي حملَ البابَ مع ميرثن. كان إلفريك في الحديقةِ الخلفيةِ وقد انحنى بجسدهِ القويِّ فوق كومةٍ من الألواحِ الخشبيَّةِ يعدُّها ويطرقُ على كلِّ لوحٍ بقطعةٍ خشبيَّةٍ مربعةٍ بطولِ قدمٍ بينما تحرَّك لسانُهُ داخلَ فمِهِ كما بدا من خديهِ، وهو يفعلُ هذا كلّما واجهَ تحدياً عقلياً. حدَّق إلفريك نحو ميرثن وتابعَ عملَهُ، ولهذا لم يقلْ ميرثن شيئاً بل اكتفى بإزالةِ الغطاءِ عن البابِ ووضعهِ قبالة كومةٍ من الحجارةِ. كان فخوراً جداً بما أنجزَهُ، فعلى الرغمِ من التزامهِ بالتصميمِ الأصلي للبابِ فإنَّه، وفي الوقت عينه، أضفى لمستهُ الإبداعيةَ الكفيلة بإذهالِ الناسِ. لم يكن بوسعِهِ الانتظارُ حتَّى يرى البابَ في مكانِهِ في الكنيسةِ.

«سبعاً وأربعين»، قالَ إلفريك والتفتَ نحو ميرثن.

«لقد انتهيتُ من العملِ على البابِ»، قال ميرثن بفخرٍ. «ما رأيكَ؟»

نظرَ إلفريك إلى البابِ لوهلةٍ. كان لهُ أنف كبير ورأى ميرثن أنَّ منخريهِ ارتعشا من المفاجأةِ، ومن ثمَّ ومن دون سابقِ إنذارٍ ضربَ ميرثن على وجهِهِ

بالقطعةِ الخشبيَّةِ التي يحملها ويستخدمُها في عدِّ الألواحِ. كانت قطعةُ الخشبِ قاسيةً ولذلكَ كانت الضربة موجعةً جداً. صرخَ ميرثن من الألمِ المفاجئ وترنّح إلى الوراءِ ثمَّ سقطَ على الأرضِ.

«أيُّها الحثالة!» صرخَ إلفريك. «لقد دنّستَ ابنتي».

حاولَ ميرثن أن يحتجَّ ولكن فمه كان ممتلئاً بالدمِ.

«كيف تجرأتَ على فعلِ هذا؟» صرخَ إلفريك.

وكأنَّ ما قالَهُ إلفريك كان إشارةً من نوعٍ ما لأنَّ أليس خرجت إلى الحديقةِ الخلفيةِ الآن. «أيُّها الخبيث!» صرخَت أليس. «لقد تسللتَ إلى منزلنا ودنَّست ابنتنا الصغيرةَ».

كانا يحاولان أن يبدوا عفويين إلَّا أنَّ ميرثن رأى أنَّهما خططا لهذا فبصقَ الدمَ من فمِهِ وقالِ: «دنَّستها؟ لم تكن عذراءَ في الأصلِ».

وهنا لوَّحَ إلفريك بقطعةِ الخشبِ محاولاً توجيهَ ضربةٍ ثانيةٍ. وحاولَ ميرثن تفادي الضربة إلَّا أنَّها أصابتهُ في كتفِهِ.

قالت أليس: «كيف يمكنكَ أن تفعلَ هذا بكاريس؟ أختي المسكينة! عندما ستعرفُ بالأمرِ سيتحطمُ قلبُها».

فوجئ ميرثن بهذا الكلام واندفعَ قائلاً: «وأنتِ ستحرصين على إخبارِها أيتها العاهرةُ».

«حسناً، أنتَ لن تتزوج من غريزيلدا سِراً»، قالت أليس.

بدا ميرثن مذهولاً وقال: «أتزوجها؟ لن أتزوجها. إنَّها تكرهني».

وهنا ظهرت غريزيلدا: «أنا بالتأكيد لا أريدُ الزواج منك ولكن يجبُ أن أفعلَ هذا فأنا حاملٌ».

حدَّقَ ميرثن إليها وقال: «هذا مستحيلٌ. لم نفعلها سوى مرة واحدة».

ضحكَ إلفريك بقسوةٍ وقال: «إنَّ الأمرَ لا يتطلبُ سوى مرةٍ واحدةٍ أيُّها الشابُ الغبي».

«لن أتزوجَها».

«إن لم تفعل ستُصرفُ من الخدمةِ»، قال إلفريك.

«لا يمكنكَ أن تفعلَ هذا!».

«لم لا؟»

«لا يهمني هذا فأنا لن أتزوجَها».
رمى إلفريك القطعةَ الخشبيةَ من يدِهِ وأخذَ فأساً.
قال ميرثن: «يا يسوع المسيح!»
تقدمت أليس وقالت: «إلفريك، لا ترتكب جريمةً».
«ابتعدي عن طريقي يا امرأة»، قالَ إلفريك وتناولَ الفأسَ.
حاولَ ميرثن الذي ما يزال على الأرضِ أن يبتعدَ ويهربَ.
وهوى إلفريك بالفأسِ ولكن ليس على ميرثن بل على البابِ.
«لا!!» صرخَ ميرثن.
استقرَّ نصلُ الفأسِ في وجهِ العذراءِ ذاتِ الشعرِ الطويلِ واخترقَ الخشبَ.
صرخَ ميرثن: «توقف!»
رفعَ إلفريك الفأس مجدداً وهوى بها بقوةٍ أكبر ففلقَ البابَ إلى نصفين.
وقفَ ميرثن على قدميهِ، وانتابهُ الرعبُ عندما شعرَ بالدموعِ تملأ عينيهِ. «أنتَ لا تملكُ الحقَّ بفعلِ هذا!» كان يحاولُ أن يصرخَ ولكنَّ صوتَهُ خرجَ أقربَ إلى الهمسِ.
رفعَ إلفريك الفأسَ واستدارَ نحوه: «ابتعد أيُّها الفتى... لا تُغرني بقتلكَ».
رأى ميرثن عينَي إلفريك تشعَّان بجنونٍ ولذلكَ ابتعدَ.
وهوى إلفريك بالفأس مجدداً على البابِ.
وقفَ ميرثن يراقبُ المشهدَ والدموعُ الحارَّةُ تنحدرُ على وجنتيهِ.

-11-

حيَّا الكلبان سكيب وسكراب بعضهما بعضاً بحماسٍ وابتهاجٍ، ورغم أنهما كانا من الأمِّ والأبِ نفسيهما فإنَّهما لم يكونا متشابهين، فقد كان سكيب كلباً بنياً وسكراب كلبةً سوداء صغيرة، وفي الوقت الذي كان فيه سكراب كلباً ريفياً نحيلاً وشديد التوجسِ كانت سكراب كلبة مدينة ممتلئةً ومطيعةً.

مرَّت عشرُ سنواتٍ على اختيار غويندا لسكراب من بين الجراءِ الهجينةِ على أرضيَّةِ غرفةِ نوم كاريس في منزلِ والدها تاجر الصوفِ الكبير. في ذلك اليوم توفيت والدةُ كاريس، ومنذئذٍ أصبحت الفتاتان صديقتين مُقرَّبتين رغمَ أنَّهما لم تلتقيا سوى مرتين أو ثلاث سنوياً، فإنهما كانتا تبوحان بعضهما

لبعض بأسرارِهما. كانت غويندا تشعرُ بأنَّها تستطيعُ إخبارَ كاريس بأيِّ شيءٍ دونَ الخوفِ من أن تصلَ كلمةٌ واحدةٌ إلى والديها أو إلى أيِّ إنسان آخر في ويغلي، وافترضَت أنَّ كاريس تشعرُ بالمثلِ لأنَّ غويندا لا تملكُ صديقةً أخرى في كينغزبريدج، ولذلكَ فإنَّ احتمالَ إفشاءِ أسرارِ كاريس في لحظةِ تهورٍ أمرٌ مستبعدٌ.

وصلَت غويندا إلى كينغزبريدج يومَ الجمعةِ من أسبوعِ سوقِ الصوفِ. توجَّه والدُها إلى منطقةِ السوقِ قبالةَ الكنيسةِ لبيعِ فراءِ السناجيب التي اصطادها من الغابةِ المجاورةِ لويغلي وذهبَت هي إلى منزلِ كاريس على الفورِ، وهناكَ التمَّ شملُ الكلبين.

وكعادتِهما تحدَّثت غويندا وكاريس عن الفتيانِ. «الميرثن مزاجٌ غريبٌ»، قالت كاريس. «ففي يومِ الأحدِ كانَ شخصاً طبيعياً وقد قبَّلني في الكنيسةِ، وفي يومِ الإثنين باتَ يتفادى النظرَ إلي بشكلٍ مباشرٍ».

«إنَّه يشعرُ بالذنبِ حيالَ شيءٍ ما»، قالت غويندا على الفورِ.

«قد يكون هناكَ شيءٌ بينَهُ وبين إليزابيث كلرك فهو محطُّ أنظارِها على الدوامِ، رغمَ أنَّها عاهرةٌ باردةٌ وكبيرةٌ جداً عليه».

«هل قُمتما أنتِ وميرثن بفعلِها؟»

«فعلُ ماذا؟»

«أنتِ تعلمين... عندما كنتُ صغيرةً كنتَ أطلقُ على الأمرِ اسمَ «الشخيرِ» بسببِ الصوتِ الذي كان يُصدره البالغون عندما يقومون بهِ».

«آه، تقصدين هذا؟ لا، ليسَ بعد».

«لِم لا؟»

«لا أعلمُ...»

«ألا ترغبين بهِ؟»

«أجل، ولكن... هل تريدينَ قضاءَ حياتِكِ في تلبيةِ رغباتِ الرجالِ؟»

هزَّت غويندا كتفيها وقالت: «لا أحبُّ الفكرةَ، ولكن من جهةٍ أخرى لست قلقةً بشأنِها».

«ماذا عنكِ؟ هل قُمتِ بها؟»

«ليسَ كما يجب. وافقتُ على طلبِ فتىً من القريةِ المجاورةِ منذ سنواتٍ

بدافعِ فضولِ استكشافِ الأمرِ، وقد كان الأمرُ أشبهَ بتلكَ الحرارةِ الدافئةِ واللطيفةِ التي يتركها شربُ النبيذِ. كانت هذهِ المرّةَ الوحيدةَ ولكنني سأفعلها مع ولفريك متى أرادَ».

«ولفريك؟ هذه معلومةٌ جديدةٌ!»

«أعلمُ هذا. ما عنيتهُ بكلامي هو أنني أعرفهُ مذ كانَ صغيراً عندما كان يشدُّ شعري ويهربُ. وفي أحدِ الأيامِ اللاحقةِ لعيدِ الميلادِ نظرتُ إليه وهو يدخلُ إلى الكنيسةِ وأدركتُ أنّه غدا رجلاً. حسناً، لم يصبح رجلاً فحسب، بل رجلاً وسيماً حقاً. دخلَ بشعرِهِ الأشقر الثلجي وبوشاحِهِ الأصفر. كان يفيضُ بهاءً».

«هل تحبينَهُ؟»

تنهّدت غويندا فهي لم تكن تعرفُ كيف تعبرُ عمّا تشعرُ بهِ. لم يكن الأمرُ مجرّدَ حبٍ فقد كانت تفكرُ بهِ طوالَ الوقتِ، ولا تعلمُ كيف ستستطيعُ العيشَ من دونِهِ. كانت تحلمُ بخطفهِ وسجنهِ في كوخٍ في أعماقِ الغابةِ حتى لا يهربَ منها أبداً.

«حسناً، إنَّ النظرةَ التي على وجهِكِ خيرُ جوابٍ على سؤالي»، قالت كاريس. «هل يُحبكِ؟»

هزّت غويندا رأسَها وقالت: «إنّه حتّى لا يتحدثُ إلي. أتمنى لو أنّه يفعلُ شيئاً يشي بأنّه يعرفُ بوجودي، حتّى ولو كان هذا الشيءُ شدَّ شعري، ولكنّه مغرمٌ بآنيت ابنة بيركن. إنّها بقرةٌ أنانيةٌ ولكنّه يعبدُها، ووالدُها ووالدُه من أغنياءِ القريةِ؛ فوالدها يربي الدجاجَ ويبيعُ بيضَهُ، ووالدُهُ يملكُ خمسين فداناً من الأراضي».

«تتحدثين كأنَّ الأمرَ ميئوسٌ منهُ».

«لا أعلمُ. هل هو حبٌ ميئوسٌ منهُ؟ قد تموتُ آنيت، أو قد يدركُ ولفريك فجأةً أنّه لطالما أحبّني، أو قد يصبحُ والدي إيرلاً ويجبرُهُ على الزواجِ مني».

ابتسمَت كاريس وقالت: «أنتِ على حقٍ. لا يمكننا أن نيأسَ في الحبِّ. أرغبُ بلقاءِ هذا الفتى».

وقفَت غويندا وقالت: «كُنتُ آملُ أن تقولي هذا. فلنذهب ونبحث عنهُ».

غادرتا المنزلَ ولحقَ بهما الكلبان. كانت العاصفةُ المطرية التي ضربَت المدينةَ بدايةَ هذا الأسبوعِ قد خلّفت وراءها سُحبَ أمطارٍ مُتفرقةٍ تهطلُ بينَ الفينةِ والأخرى، ولذلكَ ما يزالُ الشارعُ الرئيسي موحلاً. وبسببِ السوقِ كانَ

الوحلُ ممزوجاً بروثِ الحيوانات وبقايا الخضارِ المُتعفنةِ وقمامةِ ونفاياتِ آلافِ الزوارِ.

وبينما كانتا تتفاديان البركَ المطريَّةَ المُقززةَ استفسرت كاريس عن أحوالِ عائلةِ غويندا.

«لقد ماتت البقرةُ»، قالت غويندا، «ويحتاجُ أبي إلى شراءِ واحدةٍ أخرى، ولكن لا أعلمُ ما الذي سيفعلُهُ حيالَ الأمرِ فهو لا يملكُ سوى القليل من فراءِ السنجابِ لبيعهِ».

«تُكلِّفُ البقرةُ سنوياً اثني عشر شلناً»، قالت كاريس باهتمامٍ. «وهذا يعني مئةً وأربعة وأربعين بنساً فضيَّاً». كانت كاريس تقومُ بالحسابِ ذهنياً فقد تعلَّمت الأرقامَ العربيةَ من بونافينتورا كارولي، وقالت إنَّ هذا قد سهَّلَ عليها عملياتِ الحسابِ.

«أعانتنا البقرةُ في السنواتِ القليلةِ الأخيرةِ وأبقتنا على قيدِ الحياةِ، بخاصَّةٍ أخوتي الصغار». كان ألمُ الجوعِ الممضّ مألوفاً جداً لغويندا، ورغمَ الحليبِ الذي قدمتهُ البقرةُ فإنَّ أربعة من إخوتها توفوا. لا عجبَ أن فيليمون تاقَ لأن يصبحَ راهباً. كان الحصولُ على وجبةٍ مغذيةٍ كلَّ يومٍ ومن دونِ انقطاعٍ أمراً يستحقُّ التضحيةَ».

«وما الذي سيفعلُهُ والدكِ؟»

«أنا واثقةٌ من أنَّه سيقومُ بأمرٍ سري وماكرٍ. قد لا تكونُ سرقةُ بقرةٍ بالأمرِ السهلِ، فلا يمكنكِ إخفاؤها في حقيبتِكِ، ولكن لا بدَّ أنَّه وضعَ مخططاً ماكراً». وعكسَ كلامُ غويندا ثقةً لم تكن تشعرُ بها حقاً في داخلها. كانَ والدها شخصاً تعوزهُ النزاهةُ إلّا أنّه لم يكن ذكياً، وهو مستعدٌ لفعلِ أيِّ شيءٍ، قانوني أو غيرِ قانوني، للحصولِ على بقرةٍ أخرى، إلّا أنّه قد يفشلُ في مسعاه.

عبرتا بوابةَ الديرِ إلى منطقةِ السوقِ. بعدَ ستةِ أيام من الطقسِ السيئ وقفَ الباعةُ يقطرونَ ماءً وتعاسةً. كانوا قد عرَّضوا بضاعتَهم للمطرِ ونالوا نصيبهم منهُ أيضاً.

شعرَت غويندا بالإرباكِ فهي لم تتحدث مع كاريس يوماً عن فروقِ الثراءِ بين عائلتيهما؛ ففي كلِّ مرَّةٍ تُعرّج فيها غويندا على بيتِ كاريس ترسلُ الأخيرةُ معها هديةً في طريقِ عودتِها للمنزلِ، وقد تكونُ الهديةُ بعضَ الجبنِ أو السمكِ المدخنِ أو قطعةً من القماشِ أو مرطباناً من العسلِ. كانت غويندا تشكرُها في

امتنانٍ شديدٍ، ولكنهما لم تتحدثا قط في هذا الأمرِ صراحةً. عندما حاولَ والدها أن يدفعَها لاستغلالِ ثقةِ كاريس بها وللسرقةِ من منزلها جادلته غويندا بأنَّها إن فعلت هذا فلن تستطيعَ زيارتها مجدداً، ولن يعودَ بإمكانها العودةُ إلى المنزلِ حاملةً معها هديةً مرتين أو ثلاثَ مرَّاتٍ سنوياً. ولم يفشل والدُها في رؤيةِ المنطقِ في كلامِها.

بحثَت غويندا عن الكشكِ الذي يبيعُ فيهِ بيركن الدجاجَ فلا بد أن آنيت هناك وحيثُ تكون آنيت سيكونُ ولفريك قريباً منها. كانت غويندا على حقٍ في اعتقادها هذا لأنَّها وجدت بيركن السمينَ والماكرَ يُداهنُ زبائن ويتصرَّفُ بفظاظةٍ مع آخرين وبقربه آنيت تحملُ طبقاً من البيضِ وهي تبتسمُ بخفرٍ بينما الطبقُ أمامها يحفُّ بثوبِها الذي التصقَ بصدرِها، وخصلاتُ شعرِها الأشقرِ تحتَ قبعتِها تتراقصُ حول وجنتيها الورديتين وعنقِها الطويلِ. كان ولفريك هناك أيضاً وبدا كملاكٍ تائهٍ أخطأ طريقهُ بينَ بني البشرِ.

«ها هو»، دمدمَت غويندا. «الفتى الطويل...»

«عرفتُ على الفورِ أنَّه هو»، قالت كاريس. «يبدو شهياً جداً ليؤكل».

«إذاً تفهمين ما كنتُ أعنيهِ».

«إنَّه صغيرٌ قليلاً، أليس هذا صحيحاً؟»

«إنَّه في السادسة عشرة وأنا في الثامنة عشرة وآنيت في مثلِ عمري أيضاً».

«حسناً».

«أعلمُ بما تفكرين به»، قالت غويندا. «إنَّه أكثرُ وسامةً مني بكثيرٍ».

«لا...»

«لا يقع الرجالُ الوسيمين في حُبِّ النساءِ القبيحاتِ، أليس هذا صحيحاً؟»

«أنتِ لستِ قبيحة...»

«لقد رأيتُ نفسي في المرآةِ»، وارتسمَت تكشيرةٌ على وجهِ غويندا فقد كانت ذكرى هذا الأمرِ مؤلمةً لها، «بكيتُ عندما عرفتُ كيف يبدو شكلي؛ فأنفي كبيرٌ وعيناي قريبتان بعضهما من بعضٍ. أنا أشبه والدي».

واحتجَّت كاريس قائلةً: «تملكين عينين عسليتين جميلتين ورقيقتين وشعركِ كثيفٌ ورائعٌ».

«ولكنَّي لستُ من مستوى ولفريك».

وقفَ ولفريك بشكلٍ جانبي قبالةَ غويندا وكاريس، وكانتا تستطيعان رؤيةَ وجههِ الجانبي الدقيق القسماتِ بشكلٍ جيدٍ، ولبرهةٍ حدَّقتا إليهِ في إعجابٍ، ثمّ استدارَ وعندها شهقَت غويندا. كان الجانبُ الآخرُ من وجههِ مُختلفاً تماماً فقد كان مرضوضاً وعينهُ متورمةً ومُغلقةً.

ركضَت نحوه وصرخَت قائلةً: «ما الذي حدثَ لكَ؟»

أجفلَ ولفريك وقال: «أوه، مرحباً يا غويندا. لقد تورطتُ في عراكٍ»، قالَ هذا وأشاحَ بوجههِ وعلائمُ الخجلِ باديةٌ عليهِ.

«مع من؟»

«مع أحدِ مرافقي الإيرل».

«لقد تأذيت».

بدا كأنَّ صبرَهُ قد نفد ثمَّ قال: «لا تقلقي، أنا بخير».

بالطبعِ لم يفهم سببَ اهتمامِها الشديدِ، وربما اعتقدَ أنها تستمتعُ برؤيةِ مصابهِ، وهنا تحدَّثَت كاريس: «من هو هذا المرافق؟»

نظرَ إليها ولفريك في اهتمامٍ وأدركَ بالنظرِ إلى فستانِها أنّها غنيَّةٌ: «رالف فيتزجيرالد».

«آه، شقيقُ مرتين!» قالت كاريس. «هل تأذّى رالف؟»

«لقد كسرتُ أنفَه»، قالَ ولفريك بفخرٍ.

«ألم تُعاقب؟»

«قضيتُ ليلةً مُكبلاً بالأغلالِ».

وأطلقت غويندا صرخَةَ ألمٍ قصيرة: «أيّها المسكينُ!»

«حتَّى وإن...»، كانت غويندا مذعورةً فقد بدَت لها فكرةُ التعرضِ للسجنِ بأيِّ شكلٍ من الأشكالِ أسوأ أنواعِ التعذيبِ.

كانت آنيت قد انتهت من بيعِ أحدِ الزبائن وانضمَّت إلى الحديثِ. «آه، هذه أنتِ يا غويندا»، قالت ببرودٍ. قد يكون ولفريك جاهلاً بمشاعرِ غويندا نحوه إلّا أنَّ آنيت لم تكن كذلك، ولهذا السببِ كانت تعاملُ غويندا بمزيجٍ من العدائيةِ والاحتقارِ. «تعاركَ ولفريك مع المرافقِ لأنّه وجهَ إليَّ إهانةً»، قالت هذا دونَ أن تُخفي سعادتَها بالأمرِ. «لقد كانَ مثلَ ذلكَ الفارسِ في إحدى الأغاني».

وأجابَت غويندا بحدَّةٍ: «لم أكن لأقبلَ بأن يتعرضَ وجههُ لأيِّ أذى بسببي».

«لحسنِ الحظِ أنَّ مثلَ هذا الاحتمال مستبعدٌ، أليسَ هذا صحيحاً؟» قالت آنيت وابتسمت ابتسامةَ ظفرٍ.

قالت كاريس: «لا أحدَ يعلمُ ما الذي يخبئُهُ المستقبلُ».

نظرَت آنيت إليها وقد بوغتَت بهذا الكلامِ وعلَت المفاجأةُ وجهها عندما رأت أن رفيقةَ غويندا ترتدي ثياباً باهظةً.

تأبطَت كاريس ذراعَ غويندا وقالت بتهذيبٍ: «إنَّه لمن دواعي سروري مقابلةُ سكانِ ويغلي. وداعاً».

تابعَت الفتاتان طريقَهما. قهقَهت غويندا وقالت: «كُنتِ متعاليةً جداً مع آنيت».

«لقد أزعجتني. إنَّ أمثالَها من يُلطخنَ سمعةَ النساءِ».

«بدَت سعيدةً جداً بتلقي ولفريك ضرباً مُبرحاً بسببها! كم رغبتُ بفقء عينيها».

وسألت كاريس باهتمامٍ: «بغضِّ النظرِ عن شكلهِ كيف هي شخصيتُهُ؟»

«قوي وذو كبرياءٍ ومُخلصٌ... من النوعِ الذي قد ينخرطُ في قتالٍ من أجلِ أيِّ أحدٍ، ولكنَّه رجلٌ من النوعِ الذي سيعيلُ عائلتَه بلا كللٍ أو مللٍ إلى أن يموتَ».

لم تتفوه كاريس بشيءٍ.

قالت غويندا: «إنَّه لا يروقُ لكِ، أليس هذا صحيحاً؟»

«تتحدثينَ عنهُ بطريقةٍ يبدو معها مملاً قليلاً».

«لو أنَّكِ نشأتِ مع أبٍ كأبي لن تعتبري الشخصيةَ المسؤولةَ شخصيةً مملةً».

«أعلمُ»، قالت كاريس وشدَّت على ذراعِ غويندا، «أعتقدُ أنَّه رائعٌ لكِ، ولأثبتَ لكِ هذا سأساعدكِ في الحصولِ عليه».

لم تكن غويندا تتوقعُ مثلَ هذا الجوابِ وسألتها: «كيف؟»

«رافقيني».

غادرتا منطقةَ السوقِ وتوجهتا إلى الطرفِ الشمالي من البلدةِ. قادَت كاريس غويندا إلى منزلٍ صغيرٍ في شارعٍ جانبي قربَ كنيسةِ سان مارك الصغيرةِ. «هنا تعيشُ امرأةٌ حكيمةٌ»، قالت كاريس، وتجاوزَت الفتاتان الكلابَ أمامَ المنزلِ وعبرتا برأسين خفيضين المدخلَ الواطئَ إلى الداخلِ.

في الطابقِ الأرضي غرفةٌ صغيرةٌ وضيقةٌ تقسمها ستارةٌ، وهناك كرسي ومقعدٌ في القسمِ الأمامي منها. فكرت غويندا بأنَّ المدفأة لا بدَّ أنَّ تكونَ في الخلفِ، وتساءلت عن السببِ الذي قد يدفعُ أحداً ما إلى إخفاءِ ما يجري في المطبخ. كانت الغرفةُ نظيفةً وتفوحُ منها رائحةٌ عشبيَّةٌ قويةٌ وحادةٌ قليلاً، لم تكن عطريَّةً إلَّا أنَّها لم تكن سيئةً أيضاً. «ماتي... هذهِ أنا»، نادَت كاريس.

وبعدَ برهةٍ سحبَت امرأةٌ في عقدها الرابع الستارةَ جانباً ودخلَت. كان شعرُها رمادياً وبشرتُها شاحبةً بسبب البقاءِ داخلَ المنزلِ. ابتسمَت المرأةُ عندما رأت كاريس ثمَّ ألقَت نظرةً مُتفحصةً على غويندا وقالَت: «أرى أنَّ صديقتَكِ واقعةٌ في الحبِّ ولكن الفتى لا يهتمُّ لأمرِها».

شهقَت غويندا وقالت: «كيف عرفتِ هذا؟»

جلسَت ماتي على الكرسي بتثاقلٍ. كانت امرأةً سمينةً وأنفاسُها تبهتُ بسرعةٍ. «يأتي الناس إلى هنا من أجلِ ثلاثةِ أسبابٍ: المرض والانتقام والحب. وأنتِ تبدين بحالةٍ جيدةٍ، ومازلتِ صغيرةً على الانتقام لذلكَ لا بدَّ أنَّكِ واقعةٌ في الغرامِ، ولا بدَّ أنَّ الفتى غيرُ مهتمٍ بكِ ولهذا أتيتِ لطَلبِ المساعدةِ مني».

حدَّقَت غويندا إلى كاريس ورأت أنَّها كانت مسرورةً ثمَّ قالت: «أخبرتُكِ أنَّها حكيمةٌ»، ثم جلسَت الفتاتان على المقعدِ ونظرتا إلى المرأةِ في ترقبٍ.

تابعَت ماتي: «يعيشُ الفتى بالقربِ منكِ، ربما في القريةِ نفسِها، ولكنَّ عائلتهُ أكثرُ ثراءً من عائلتكِ».

«صحيحٌ»، قالت غويندا وقد ذُهلت بما سمعتهُ، لا شكَّ أنَّ ماتي تتكهنُ إلَّا أنَّها كانت دقيقةً جداً في تكهناتِها إلى درجةٍ بدت معها كأنَّها تملكُ بصيرةً أخرى.

«هل هو وسيمٌ؟»

«جداً».

«ولكنَّه واقعٌ في الغرامِ بأجملِ فتياتِ القريةِ».

«بوسعكِ قولُ هذا».

«وعائلتها أيضاً أغنى من عائلتكِ».

«أجل».

أومأت ماتي وقالت: «هذهِ قصةٌ شائعةٌ. يمكنني أن أساعدَكِ، ولكن عليكِ أن تفهمي أمراً واحداً وهو أنَّ لا علاقةَ لي بعالمِ الأرواحِ؛ فالرَّبُّ وحدَهُ صانعُ المعجزاتِ».

بدَت غويندا محتارةً. يعلمُ الجميعُ أنَّ أرواحَ الموتى تتحكمُ بصُدفِ الحياةِ فإن كانت راضيةً عنكِ فستقودُ الأرانبَ إلى أفخاخكِ، وتمنحك أطفالاً أصحاء، وتجعلُ الشمسَ تشرقُ باستمرارٍ على محصولِ الذرةِ خاصتك لينضجَ، ولكن إن فعلت ما يُغضبها يمكنها أن تضعَ الديدانَ في تفاحِكِ، وتتسببَ في ولادةِ عجولٍ مشوهةٍ، وعقمِ الأزواجِ، وحتّى الأطباءُ في الديرِ يعترفون بأنَّ الصلوات للقديسين أكثرُ فاعليةً من علاجِهم.

تابعَت ماتي: «لا تيأسي. يمكنني بيعكِ خلطةً للحبِ».

«أنا آسفة فأنا لا أملكُ المالَ».

«أعلمُ. إنَّ صديقتَكِ كاريس تُحبكُ جداً وهي تريدكِ أن تكوني سعيدةً. لقد أتت إلى هنا مستعدةً لدفعِ ثمنِ الخلطةِ. ولكن لينجحَ الأمرُ عليكِ أن تقومي بالأمرِ بشكلٍ صحيحٍ. هل يمكنكِ أن تختلي بالشابِ لساعةٍ؟»

«سأجدُ طريقةً».

«ضعي الخلطةَ في مشروبِهِ، وخلالَ وقتٍ قصيرٍ سيغدو عاشقاً ولهذا يجب أن تكوني معه وحدَكِ، فإن كانت هناك فتاةٌ أخرى إلى جوارِهِ فسيُغرمُ بها بدلاً منكِ. ولهذا أبعديه عن أيّ امرأةٍ أخرى، ولتتصرفي معهُ بلطفٍ شديدٍ. عندها سينظرُ إليكِ كأكثرِ امرأةٍ يرغبها في العالمِ. قبّليهِ وأخبريهِ أنّه رائعٌ، وإن كانَ بوسعِكِ ممارسةُ الحبِ معهُ فلتفعلي. وبعدَ برهةٍ سيغطُّ في النومِ، وعندما يصحو سيتذكرُ أنّه قضى أسعدَ وقتٍ في حياتِه معكِ، وسيرغبُ بتكرارِ الأمرِ في أقربِ فرصةٍ ممكنةٍ».

«ولكن ألن أحتاجَ إلى جرعةٍ أخرى من الخلطةِ؟»

«لا، في المرةِ الثانيةِ سيكونُ حبكِ ورغبتكِ وأنوثتكِ كافية. يُمكن لأيّ امرأةٍ أن تسعدَ رجلاً إن منحَها الرجلُ الفرصةَ لفعلِ هذا».

كانَ التفكيرُ بالأمرِ كفيلاً بإثارةِ غويندا: «لا يمكنني الانتظارُ».

«إذاً، فلنصنع الخلطةَ». ودفعَت ماتي نفسَها للنهوضِ عن الكرسي. «يمكنكما مرافقتي إلى ما وراءِ الستارةِ». ولحقَت بها غويندا وكاريس. «فقط الجاهلون لا يسمحُ لهم بالدخولِ إلى المطبخِ».

كانَ للمطبخِ أرضيةٌ حجريّةٌ نظيفةٌ وموقدٌ كبيرٌ مجهّزٌ بالكثيرِ من الرفوفِ وخطاطيفِ الطبخِ بل وأكثر مما قد تحتاجهُ امرأةٌ وحيدةٌ في مطبخها. هناكَ طاولةٌ قديمةٌ وثقيلةٌ مُلطخةٌ بالبقعِ ومُحترقةٌ ولكنّها بدت نظيفةً جداً، وهناك

أيضاً رفٌ من مرطباناتٍ فخاريةٍ، وخزانةٌ مقفلةٌ من المفترضِ أنّها تحوي على المكوناتِ الثمينة التي تستخدمها ماتي في خلطاتِها. على الجدارِ لوحٌ عليهِ أرقامٌ وأحرفٌ مشطوبةٌ وهي أغلبُ الظنِ تشيرُ إلى الوصفاتِ. «لمَ تحتاجين إلى إخفاءِ هذا خلفَ الستارةِ؟» سألت غويندا.

«الرجلُ الذي يصنعُ المراهمَ والأدويةَ يطلقونَ عليهِ اسمَ العطّار إلّا أنَّ المرأةَ التي تفعلُ المثلَ سيقولون إنّها ساحرةٌ. هناكَ امرأةٌ في المدينةِ تدعى نيل المجنونة وهي تتجولُ في الشوارعِ وتصرخُ متحدثةً عن الشيطانِ، وقد اتهمها الراهبُ موردو بالهرطقةِ. صحيحٌ أنَّ نيل مجنونةٌ إلا أنّها لم تكن مهرطقةً لكنّ موردو أصرّ على محاكمتِها بتهمةِ الهرطقةِ. يحبُّ الرجالُ بين الفينةِ والأخرى أن يقتلوا امرأةً، وقد أعطاهم موردو سبباً، وأخذَ منهم الصدقاتِ بعدَ هذا، ولهذا السببِ أقولُ للناسِ دوماً أنَّ الرّبَّ وحدهُ صانعُ المعجزاتِ. لا أستحضرُ الأرواحَ أنا فقط أستخدمُ أعشابَ الغابةِ وقوّةَ ملاحظتي».

وبينما كانت ماتي تتحدثُ تنقلت كاريس في أرجاءِ المطبخِ بكلِّ حريةٍ كأنّها في منزلِها. وضعَت وعاءً للخلطِ وزجاجةً على الطاولةِ، ثمَّ ناولتها ماتي مفتاحاً، وفتحت بهِ كاريس الخزانةَ. «ضعي ثلاثَ قطراتٍ من خلاصةِ بذورِ الخشخاشِ مع ملعقةٍ من النبيذِ المُقطرِ»، قالت ماتي وتابعت: «يجبُ أن نحذرَ حتى لا تكون الخلطةُ قويةً جداً، أو سينام الفتى على الفورِ».

كانت غويندا مذهولةً: «هل ستقومين يا كاريس بإعدادِ الخلطةِ؟»

«أحياناً أساعدُ ماتي. لا تخبري بيترانيلا فهي ستحتجُّ على هذا».

«لن أخبرها حتّى لو كانت حياتُها متوقفةً على هذا». لم تكن عمّةُ كاريس تستلطفُ غويندا، وربما للسببِ نفسِهِ الذي ستكرَه ماتي من أجله؛ فكلتاهما من طبقةٍ حقيرةٍ بالنسبةِ لبيترانيلا ومثلُ هذهِ الأمورِ تعني الكثيرَ لها».

ولكن ما السبب الذي قد يدفعُ كاريس، ابنةَ التاجرِ الثري، للعملِ كمتدربةٍ في مطبخِ طبيبةٍ تعيشُ في زقاقٍ؟ وبينما كانت كاريس تعدُّ الخلطةَ تذكّرت غويندا أنَّ صديقتَها كانت مهتمةً على الدوام بالأمراضِ والأدويةِ. فعندما كانت كاريس فتاةً صغيرة أرادت أن تصبحَ طبيبةً، ولكنّها حينذاك لم تعلم أنَّ الكهنةَ فقط من يحقُّ لهم دراسة الطبِ، وتذكرت غويندا ما قالته كاريس بعدَ وفاةِ والديها: «ولكن لماذا يمرضُ الناسُ؟» أخبرتها الأم سيسيليا أنَّ السببَ هو وقوعُ الناسِ في الخطيئةِ، أمّا إدموند فقالَ لها إنَّ ما من أحدٍ يعرفُ السببَ الحقيقي. وكلتا

الإجابتين لم تُرضيا كاريس. ربما كانت ما تزالُ تسعى إلى الحصولِ على إجابةٍ على سؤالها هنا، في مطبخِ ماتي.

سكبَت كاريس السائلَ في مرطبانٍ صغيرٍ وأغلقتهُ ثمَّ أحكمَت الغطاءَ بخيطٍ وعقدَت نهايتَه، ثمَّ سلمتهُ إلى غويندا.

وضعَت غويندا المرطبان في حقيبتِها الجلديَّةِ المُثبتةِ إلى حزامِها وهي تتساءلُ في نفسِها كيف ستختلي بولفريك لساعةٍ. كانت قد قالتْ إنَّها ستجدُ طريقةً لفعلِ هذا، ولكنَّها الآن وبعد أن أصبحَت خلطةُ الحبِّ بحوزتِها بدَت لها المهمةُ شبهَ مستحيلةٍ فقد كانت تبدو على ولفريك علائمُ التململِ عندما تتحدثُ معهُ، وهو يريدُ البقاءَ مع آنيت طوالَ الوقتِ. ما السببُ الذي يُمكن أن تقدمَهُ غويندا لتختلي بهِ؟ «أعرفُ مكاناً يمكننا أن نحصلَ فيهِ على بيضِ البط البريِّ». ولكن ما السبب الذي قد يدفعها لتختارهُ لهذا الأمرِ؟ ولمَ لا تُخبر والدَها بهذا؟ كان ولفريك ساذجاً بعضَ الشيء إلَّا أنَّه لم يكن غبياً. سيعلمُ أنَّها تخططُ لشيءٍ.

نقدَت كاريس ماتي اثني عشر بنساً فضيَّاً، وهذا يعادلُ أجرَ والدِ غويندا لأسبوعين. «شكراً لكِ يا كاريس. أرجو أن تأتي إلى حفلِ زفافي»، قالت غويندا.

ضحكَت كاريس وقالت: «هذا ما أريدُ رؤيتهُ... الثقةُ!»

غادرتا منزلَ ماتي وعادتا إلى السوقِ. وقررَت غويندا أن تبحثَ عن المكان الذي يبيتُ فيه ولفريك. كانت أحوالُ عائلتِهِ جيِّدةً ولا يمكنهم ادعاءُ الفقر والمبيت مجاناً في الديرِ. لا بدَّ أنَّهم ينزلون في نُزلٍ. يمكنها أن تتحدثَ إليه، أو إلى أخيهِ، بشكلٍ عرضي ومن ثمَّ وفي سياقِ الحديثِ ستسألُ عن الخدمةِ في النُزل، وستحاولُ أن تبدو كأنَّها مهتمةٌ بمعرفةِ أفضلِ نُزلٍ في المدينةِ.

مرَّ راهب بالقربِ منها، وانتابَ غويندا إحساسٌ مفاجئٌ بالذنبِ لأنَّها لم تفكرْ بزيارةِ شقيقها فيليمون. لم يزرهُ والدُها فقد كان الأب والابن يكرهان بعضهما بعضاً منذُ سنواتٍ، ولكنَّ غويندا تحبُ شقيقَها. كانت تعلمُ أنَّه ماكرٌ وغيرُ جديرٍ بالثقةِ وخبيثٌ ولكنَّه كان يحبها. لقد قاسيا معاً فصولَ شتاءٍ من الجوعِ. قررَت غويندا أن تبحثَ عنهُ لاحقاً، بعد أن تقابلَ ولفريك.

ولكن قبلَ أن تصل هي وكاريس إلى السوقِ التقتا بوالدِ غويندا.

وقفَ جوبي قربَ بواباتِ الديرِ خارجَ نُزل بيل. كان برفقتِهِ رجلٌ بمظهرٍ خشنٍ في عباءةٍ صفراء وحقيبة على ظهرِهِ وبجانبهِ بقرةٌ بنية.

لوَّحَ لغويندا وقالَ: «لقد عثرتُ على بقرةٍ».
أمعنَت غويندا النظرَ. كانت البقرةُ بعمرِ السنتين ونحيلةً ومظهرها يشي بأنَّ مزاجها سيئ، ولكنها بدَت في صحة جيدةٍ.
«تبدو بحالةٍ جيدةٍ»، قالت غويندا له.
«هذا سيم تشابمان»، قالَ والدها مشيراً بإبهامِهِ نحو صاحبِ الرداءِ الأصفر. كان تشابمان يتنقلُ بين المدنِ ويبيعُ الحاجياتِ الصغيرةَ الضروريةَ كالإبرِ والدلاءِ والمرايا الصغيرةِ والأمشاطِ، وقد تكونُ البقرة مسروقةً، ولكن هذا لم يكن مهماً لوالدِها إن كانَ السعرُ جيداً.
قالَت غويندا لوالدِها: «من أين حصلتَ على المالِ؟»
«لستُ مضطراً للدفعِ بطريقةٍ ما»، قالَ مراوغاً.
توقعَت غويندا أن يكونَ جوبي قد خططَ لشيءٍ ما ولذلكَ سألتهُ: «كيف؟»
«سيكونُ الأمرُ أشبهَ بمُبادلةٍ».
«وما الذي ستعطيهُ مقابلَ البقرةِ؟»
«أنتِ»، قالَ والدها.
«لا تكن سخيفاً»، قالت غويندا وشعرَت كأنَّ حبلاً وقعَ فوقَ رأسها وأُحكمَ حولَ جسدِها وثبَّت ذراعيها إلى جانبِيها.
انتابتها الحيرةُ فلا يمكنُ لهذا أن يحدثَ، وصارعَت لتحريرِ نفسِها إلَّا أن تشابمان أحكمَ الحبلَ حولَها.
«حسناً، لا تُحمِّلي الموضوعَ أكبرَ من حجمِهِ»، قالَ والدُها.
لم تكن غويندا قادرةً على تصديقِ جديَّةِ الرجلين في هذا. «ما الذي تعتقدُ نفسكَ أنَّكَ فاعلٌ؟» وقالت غير مصدقة ما يجري. «لا يمكنكَ بيعي أيُّها الأحمق!»
«يريدُ سيم امرأةً، وأنا أحتاجُ إلى بقرةٍ»، قالَ والدها. «إنَّ الأمرَ بهذهِ البساطةِ».
وهنا تحدَّثَ سيم لأولِ مرَّةٍ: «ابنتكَ قبيحةٌ جداً».
«يا لهذهِ السخافةِ!» قالت غويندا.
ابتسمَ سيم لها وقالَ: «لا تقلقي يا غويندا. سأعاملكِ بشكلٍ جيدٍ طالما تحسنينَ التصرفَ وتفعلين ما يُطلبُ منكِ».
رأت غويندا أنَّهما كانا يعنيان ما يقولانِهِ، وأنَّهما يعتقدان حقاً أنَّهما قادران

على القيامِ بهذهِ المقايضةِ. شعرت بخوفٍ، كأنَّ إبرةً باردةً تخترقُ قلبها، وهي تدركُ أنَّ هذا قد يحدثُ حقاً.

وهنا تحدَّثت كاريس. «لقد طالَ أمدُ هذه المزحةِ بما يكفي»، قالت بصوتٍ عالٍ وواضحٍ ثمّ تابعَت: «اترك غويندا على الفورِ».

لم يبدُ على سيم أنّه تأثرَ بلهجتِها الآمرةِ وقالَ: «ومن تكونين حتى تُلقي بالأوامرِ؟»

«والدي رئيسُ نقابةِ الأبرشيةِ».

«ولكنَّكِ لستِ الرئيسة»، قالَ سيم. «وحتّى وإن كنتِ فلا تملكين سلطةً عليَّ أو على صديقي جوبي».

«لا يمكنكما مقايضةُ فتاةٍ ببقرة!»

«لِم لا؟» قالَ سيم. «إنَّها بقرتي وهذهِ الفتاةُ ابنتُهُ».

جذبَت أصواتُهم العاليةُ اهتمامَ العابرين الذين توقفوا ليحدقوا إلى الفتاةِ المربوطةِ بحبلٍ، وسألَ أحدهم: «ما الأمرُ؟» فأجابَ آخر: «لقد باعَ ابنته لقاءَ بقرةٍ». ورأت غويندا نظرةَ الرعبِ على وجهِ والدِها وبدا كأنّه كانَ يتمنى لو أنّه أجرى هذه الصفقة في زقاقٍ هادئٍ، ولكنَّه لم يكن ذكياً بما يكفي ليتوقعَ ردَّ فعلِ الناسِ، وأدركَت غويندا أنَّ المارةَ أملُها الوحيدُ الآن.

لوَّحَت كاريس إلى راهبٍ خارجٍ من الديرِ ونادته: «أيُّها الأخُ غودوين! تعال وضع حداً لهذا الجدلِ من فضلكَ». ثمّ نظرَت إلى سيم في ظفرٍ وقالت: «يملكُ الديرُ سلطةً على كل الصفقاتِ التي تجري على أرضِ السوقِ. إنَّ الأخَ غودوين أمينُ الذخائرِ المقدسةِ، وأعتقدُ أنّكَ ستقبلُ بسلطتِهِ».

قالَ غودوين: «مرحباً يا ابنة خالي كاريس. ما الخطبُ؟»

شخرَ سيم في قرفٍ: «ابن عمَّتكِ إذاً؟»

ألقى غودوين على سيم نظرةً باردةً كالصقيع وقال: «أيّاً يكن الخلاف هنا وبصفتي رجلَ الرَّبِّ سأحاولُ تقديم رأيٍ عادلٍ. أرجو أن تكون على ثقةٍ من هذا».

«يسعدني سماعُ هذا يا سيدي»، قالَ سيم في تزلفٍ.

وتحدَّثَ جوبي بلهجةٍ مُتزلفةٍ أيضاً: «أعرفكُ أيها الأخ. إن ابني فيليمون يكنُّ لكَ كلَّ الإخلاصِ. لقد كنتَ مثالاً للطيبةِ معهُ».

«حسناً، يكفي»، قالَ غودوين. «ما الذي يجري هنا؟»

قالت كاريس: «يريدُ جوبي بيعَ غويندا مقابلَ بقرةٍ. أخبرهُ بألّا يفعلَ هذا».

قال جوبي: «إنَّها ابنتي يا سيدي وهي في الثامنةَ عشرة وعازبةٌ، ولهذا فإنها مُلكي ويمكنني أن أفعلَ بها ما أشاءُ».

قالت غويندا: «ولكنّ بيعَ أطفالكَ أمرٌ مُخزٍ».

وهنا بدأ جوبي يتصرَّفُ على نحو مثيرٍ للشفقةِ: «أنا لا أفعلُ هذا يا سيدي، ولكن لديّ ثلاثة أطفالٍ آخرين في منزلي، وأنا عاملٌ بلا أرضٍ ولا أملكُ أيّ مواردٍ لإطعامِ أطفالي في الشتاء ما لم يكن لدي بقرةٌ، وبقرتي السابقةُ ماتت».

علَت همهمةٌ تنمُ عن الشفقةِ من الحشدِ الذي كبرَ الآن فقد كانوا يعرفونَ مشاقَ فصلِ الشتاءِ والحدود القصوى التي قد يذهبُ إليها أيُّ رجلٍ لإطعامِ عائلتِهِ، وهنا انتابَ غويندا اليأسُ.

قالَ سيم: «إنَّه لأمرٌ مُخزٍ عندما تفكر بِهِ أيُّها الأخُ غودوين ولكن هل هو خطيئةٌ؟» تحدَّثَ كأنّه يعرفُ الجوابَ مُسبقاً، إلّا أنَّ غويندا تكهنَت أنّه جادلَ بهذهِ الطريقةِ قبلاً، وفي مكانٍ آخر.

وبترددٍ واضحٍ قالَ غودوين: «يبدو أنَّ الإنجيلَ لا يحرِّمُ بيعَ ابنتكَ كعبدةٍ كما هو مذكورٌ في سفرِ الخروجِ، الآية الواحدة والعشرين».

«حسناً، هذا ما نتحدثُ عنهُ!» قال جوبي. «إذاً، ما نفعلهُ عملٌ مسيحي».

استشاطَت كاريس غضباً وقالَت بازدراءٍ: «سفرُ الخروجِ!»

انضمَّت امرأةٌ من بينِ المارَّةِ إلى الحديثِ قائلةً: «لسنا من قومِ إسرائيل». كانت امرأةً ضئيلةَ الحجمِ وسمينةً ولها فكٌّ سفلي متقدمٌ منحها مظهراً حازماً، ورغمَ ثيابِها المهلهلةِ فإنَّها بدَت جريئةً. وعرفَت غويندا أنّها مادج زوجة مارك ويبر. «لم يعد للعبوديةِ وجودٌ في زمننا»، قالت مادج.

قالَ سيم: «إذاً، ماذا تُسمينَ وضعَ المُتدربين الذين لا يحصلونَ على أيِّ نقودٍ ويتلقونَ الضربَ من قبلِ معلميهم؟ أو وضعُ الرهبانِ والراهباتِ الجُدد؟ أو من يخدمونَ في قصورِ النبلاءِ من أجلِ كسرةِ خبزٍ ومأوى؟»

قالت مادج: «إنَّ حياتَهم شاقةٌ حتماً إلا أنّهم لا يُباعون أو يُشترونَ، أليسَ هذا صحيحاً أيُّها الأخُ غودوين؟»

«لا يمكنني القولُ إنّ المقايضةَ قانونيةٌ»، أجابَ غودوين. «فقد درستُ الطبَّ في أوكسفورد ولم أدرس القانونَ، ولكن لا يسعني التفكيرُ بأيِّ سببٍ في الكتابِ المقدسِ أو تعاليمِ الكنيسةِ يمنعُ هذين الرجلين من القيامِ بالمقايضةِ»، ثمّ نظرَ إلى كاريس وهزَّ كتفيهِ بلا مبالاةٍ وقال: «عذراً يا ابنة خالي».

قاطعَت مادج ساعديها على صدرِها وقالت: «حسناً يا تشابمان، كيف ستأخذُ معكَ الفتاةَ خارجَ المدينةِ؟»

«مربوطةً بالحبلِ»، قالَ الرجل. «بالطريقةِ ذاتها التي أحضرتُ بها البقرةَ».

«آه، ولكنكَ لم تكن مُضطراً لجرِّ البقرةِ أمامي وأمامَ الآخرين».

ففزَ قلبُ غويندا من الأملِ. لم تكن واثقةً من عددِ المارَّةِ الذين يدعمونها، ولكن إن وصلَ الأمرُ إلى العوامِ فسيأخذونَ جانبَ مادج التي كانت من أهلِ المدينةِ على عكسِ الغريبِ سيم.

«تعاملتُ مع نساءٍ عنيداتٍ من قبلٍ»، قالَ سيم بفمٍ تلوى في ابتسامةٍ ساخرةٍ. «ولم يسببن لي متاعب كبيرةً».

وضعَت مادج يدَها على الحبلِ وقالت: «ربما حالفكَ الحظ حتَّى الآن».

سحبَ الحبلَ منها وقالَ: «أبعدي يدكِ عن ممتلكاتي وإلَّا آذيتكِ».

وضعَت مادج عمداً يدَها على كتفِ غويندا.

دفعَ سيم مادج بخشونةٍ فترنَّحت إلى الوراءِ، وعلَت همهمةُ احتجاجٍ من الناسِ.

قالَ أحدُ المارةِ: «لو رأيتَ زوجها لما فعلتَ هذا!».

علَت موجةٌ من الضحكِ، وتذكرت غويندا أنَّ زوجَ مادج، مارك، رجلٌ عملاقٌ إلَّا أنَّه لطيفٌ. وتمنت غويندا أن يأتي مارك الآن.

ولكن بدلاً من مارك وصلَ المأمورُ جون وقد قادهُ أنفُهُ الخبير باستشعارِ المشاكلِ في أيِّ حشدٍ وبمجرَّدِ تجمعهِ. «لا مزيد من التدافعِ»، قال جون. «هل تسببُ المتاعبَ يا تشابمان؟»

وعادَ الأملُ إلى قلبِ غويندا مجدداً لأنَّ تشابمان يملكُ سمعةً سيئةً ولهذا افترضَ المأمورُ أنَّ سيم متورطٌ في المتاعبِ.

وتبدَّل سلوكُ سيم وأخذَ يتصرَّفُ بتزلفٍ، وقد كانَ سريعاً في ذلكَ كسرعتِهِ في تغييرِ قبعةٍ. «أرجو المعذرةَ يا سيدي المأمور، ولكن عندما يدفعُ الرجلُ سعراً مُتفقاً عليهِ مقابلَ بضاعةٍ يجبُ أن يُسمح لهُ بمغادرةِ كينغزبريدج بسلامةٍ مع بضاعتِهِ».

«بالطبعِ»، اضطرَّ جون إلى موافقتِهِ على كلامِهِ لأنَّ سوقَ المدينةِ قائمٌ على سمعتِهِ الطيبةِ في التجارةِ. «ولكن ما الذي اشتريتَهُ؟»

«هذهِ الفتاة».

«أوه»، وأمعنَ جون النظرَ إلى غويندا. «ومن باعَكَ إيَّاها؟»

«أنا»، قال جوبي. «أنا والدُها».

تابعَ سيم: «وهذهِ المرأةُ ذاتُ الذقنِ الضخمِ تهددني بأنّها ستقفُ في طريقي ولن تسمحَ لي بأخذِ الفتاةِ».

«هذا ما فعلتُهُ»، قالت مادج. «لم أسمع قط عن امرأةٍ تُشترى وتُباعُ في سوقِ كينغزبريدج».

قالَ جوبي: «يمكنُ للرجلِ أن يفعلَ ما يريدُهُ بأطفالِهِ». ونظرَ إلى الحشدِ مُخاطباً. «هل هناكَ من يختلفُ معي في هذا؟»

علمَت غويندا أنَّ ما من أحدٍ سيقولُ العكسَ. يُعاملُ بعضُ الناسِ أطفالَهم بلطفٍ، وآخرونَ بقسوةٍ، ولكن الجميعَ متفقونَ على أنَّ الوالدَ صاحبُ السلطةِ المُطلقةِ على أطفالِهِ، وهنا انفجرَت قائلةً: «هل كنتم ستقفون هنا صُماً وبكماً لو كان لديكم آباء مثلهُ؟ كم واحداً منكم أجبرَهُ والدُه على السرقةِ عندما كان طفلاً وعندما كانت يداه صغيرتين بما يكفي لاختلاسِ محفظاتِ الناسِ؟»

ارتسمَ القلقُ على وجهِ جوبي وقال: «إنَّها تهذي الآن يا سيدي المأمور. لم يقترف أيٌّ من أطفالي السرقةَ».

«لا تلقِ بالاً لهذا»، قالَ جون. «الجميع يُصغي إلي، وأنا من سيقررُ في هذا الشأنِ، ومن سيعترضُ على قراري يمكنهُ التشكي إلى رئيسِ الديرِ. إن أقدمَ أحدهم على التدافعِ أو اقترفَ عملاً عنيفاً فسأعتقلُ جميعَ المتورطين. أرجو أن يكونَ كلامي واضحاً». ثمَّ نظرَ من حولِهِ في ضراوةٍ والتزمَ الجميعُ الصمتَ؛ فقد كانوا يتوقون لسماعِ رأيِهِ في الأمرِ. تابعَ المأمورُ كلامَهُ قائلاً: «لا أجدُ سبباً يجعلُ هذهِ المقايضةَ غيرَ قانونيةٍ، ولذلك فإنَّ تشابمان حرٌ في المضي بطريقِهِ مع الفتاةِ».

قالَ جوبي: «أخبرتُك بهذا، ألم...»

«فلتصمتْ أيُّها الغبي جوبي»، قالَ المأمور. «سيم، تابعْ طريقَك ولكن بسرعةٍ. مادج، إن رفعتِ يداً فسأقيدكِ ولن يمنعني زوجكِ من القيامِ بهذا، وكاريس وولر، لا تتفوهي بكلمةٍ من فضلكِ، يمكنكِ أن تشتكي إلى والدكِ إن أردتِ».

قبلَ أن ينتهي جون من كلامِهِ شدَّ سيم الحبلَ بقوةٍ، وكادَت غويندا تقع على وجهها لو لم تُثبت قدمَها أمامَها لحمايةِ نفسها من السقوطِ أرضاً. ومن ثمَّ

وبشكلٍ ما بدأت تتحركُ وراءَ سيم متعثرةً وشبهَ راكضةٍ على طولِ الشارعِ. ومن زاويةِ عينيها رأت كاريس بجانبها، ثمَّ أمسكَ المأمورُ كاريس من ذراعِها وعندما التفتت لتحتجَّ اختفَت بلمحِ البصرِ من أمام ناظري غويندا.

في الشارعِ الرئيسي الموحلِ سارَ سيم بسرعةٍ وهو يشدُّ الحبلَ وراءهُ مما تسببَ في فقدانِ غويندا لتوازنِها، وعندما اقتربا من الجسرِ بدأت غويندا تشعرُ باليأسِ فحاولَت أن تشدَّ الحبلَ نحوها إلَّا أنَّ سيم جذبَ الحبلَ بقوةٍ كبيرةٍ تسببت بسقوطها في الوحلِ. كانت ذراعاها مكبلتين حتَّى لا تستخدمَ يديها لحمايةِ نفسِها، ولهذا سقطَت أرضاً على وجهها، وأصيبَ صدرُها بكدمةٍ ووجهها برضٍ. جاهدَت لتنهضَ على قدميها وقد تخلَّت عن المقاومةِ. وكحيوانٍ مربوطٍ ومذعورٍ مغطى بالوحلِ ترنَّحت في سيرِها وراءَ مالكِها الجديدِ عبرَ الجسرِ وإلى الطريق باتجاهِ الغابةِ.

***

قادَ سيم تشابمان غويندا عبرَ ضاحيةِ نيوتاون إلى مفترقِ طرقٍ معروفٍ باسم «غالوز كروس»، حيثُ يُعدمُ المجرمون، وهناكَ اتخذَ الطريقَ الجنوبي باتجاهِ ويغلي. كان قد ربطَ الحبلَ إلى خصرِهِ حتَّى لا تهرب غويندا إن تشتتَ انتباهُهُ. لحقَ بهما كلبُها سكيب ولكن سيم رماهُ بالحجارةِ وأصابهُ أحدها على أنفهِ فلاذَ بالفرار وذيلُه بين قائمتيهِ.

بعدَ أن قطعا عدَّةَ أميالٍ وبدأت الشمسُ بالغروبِ أخذَ سيم طريقَ الغابةِ. لم ترَ غويندا أيَّ علامةٍ مميزةٍ على جانبي الطريقِ لتحددَ المكانَ، ولكن يبدو أنَّ سيم اختارَ هذا الطريقَ عن قصدٍ لأنَّهما وبعدَ أن قطعا ما يعادلُ المئةَ خطوةٍ بينَ الأحراشِ وصلا إلى طريقٍ. نظرَت غويندا إلى الأرضِ ورأت آثارَ حوافر كثيرةٍ وأدركَت أنَّه طريقُ غزلانٍ وهذا يعني أنَّ الطريقَ يُفضي إلى مكانٍ تتوافرُ فيهِ المياهُ. وبعد برهةٍ، وكما توقعت غويندا، وصلا إلى جدولٍ صغيرٍ محاطٍ بالنباتاتِ من جميعِ الجوانبِ وخاضَا في الوحلِ.

ركعَ سيم بالقربِ من الجدولِ وملأ راحتي يديهِ المضمومتين بالمياهِ العذبة ثمَّ شربَ. حرَّكَ الحبلَ حتَّى التفَّ حول عنقِ غويندا وتحررت يدَاها ثمَّ أشارَ لها نحو الماءِ.

غسلَت يديها في الجدولِ وشربَت بنهمٍ.

«اغسلي وجهك»، أمرَها. «ألا يكفي أنَّكِ قبيحةٌ!»

فعلَت ما طُلبَ منها وهي تتساءلُ في نفسها عن سببِ اهتمامِهِ بمظهرِها.

استمرَّ الطريقُ من الجانب الآخرِ لجدولِ الماءِ، وتابعا سيرهما. كانت غويندا فتاةً قويَّةً وقادرةً على السيرِ طوالَ اليوم، ولكنَّها كانت تشعرُ بالهزيمةِ والبؤسِ والخوفِ وتسببَ لها هذا بالإرهاقِ. أيّاً يكن المصيرُ الذي ينتظرُها في نهايةِ طريقهما سيكونُ على الأغلب أسوأ مما تمرُّ بِهِ الآنَ، وعلى رغمِ هذا تاقَت للوصولِ حتَّى تتمكنَ من الجلوسِ.

بدأ الظلامُ يهبطُ واستمرَّ طريقُ الغزلانِ بين الأشجارِ لمسافةِ ميلٍ ثمَّ وصلَ إلى بدايةِ هضبةٍ. وقفَ سيم بجانبِ شجرةِ بلوطٍ عملاقةٍ جداً وصفَّرَ تصفيرةً قصيرةً.

بعدَ برهةٍ لاحَ خيالٌ من الغابةِ شبهِ المعتمةِ وقالَ: «حسناً يا سيم».

«حسناً يا جِيذ».

«ماذا لديك هنا؟ حلوى بالفواكه؟»

«ستحصلُ على نصيبكَ منها كالآخرين إن كنتَ قادراً على دفعِ ستة بنساتٍ».

وأدركَت غويندا ما كانَ يخططُ لهُ سيم: سيُجبرها على العملِ في الدعارةِ. ونزلَ عليها الأمرُ كضربةٍ أصابتها بالترنحِ وسقطَت على ركبتيها.

«ستةَ بنساتٍ؟» بدا صوتُ جِيذ كأنَّه قادمٌ من مكانٍ بعيدٍ إلَّا أنَّ غويندا استشعرت الحماسةَ فيهِ. «كم عُمرها؟»

«ادَّعى والدها أنَّها في الثامنة عشرة»، وهزَّ سيم الحبلَ. «قِفي أيَّتها البقرةُ الكسولةُ فنحن لم نصل بعد».

ونهضَت غويندا على قدميها.

إذاً، لهذا السببِ أرادَها أن تغسلَ وجهَها ودفعها شيءٌ دفينٌ في هذا الإدراك إلى البكاءِ.

بكَت في يأسٍ بينما تابعت السيرَ بتعثرٍ وراءَ سيم إلى أن بلغا فُسحةً خاليةً من الشجرِ مع نارٍ مشتعلةٍ في الوسطِ، ومن وراءِ دموعِها رأت غويندا خمسةَ عشر إلى عشرين شخصاً مستلقين على أطرافِ الفسحةِ ومعظمُهم يلتفعُ ببطانيةٍ أو عباءةٍ.

كان معظمُهم، ممن راقبوها على ضوءِ النارِ المُشتعلةِ، من الرجالِ، ولكنها رأت وجهاً أنثوياً أبيض لهُ تعابير صارمةٌ وذقنٌ رقيقٌ. حدَّقَت نحوها المرأةُ لفترةٍ وجيزةٍ ثمَّ اختفَت خلفَ كومةٍ من الأقمشةِ الرَّثةِ. ورأت غويندا أيضاً برميلَ نبيذٍ مقلوباً وكؤوساً خشبيةً متناثرةً في الأرجاءِ وهذا يعني أنَّها كانت حفلةَ شرابٍ.

أدركَت غويندا أنَّ سيم أحضرَها إلى عرينِ خارجين عن القانونِ.

أخذَت تتأوهُ وتفكرُ بعددِ الذين ستُجبر على الخضوعِ لهم.

ولم تنتهِ من طرحِ السؤالِ على نفسِها حتَّى علمَت بالإجابةِ: ستخضعُ لهم جميعاً.

جرَّها سيم عبرَ الفسحةِ باتجاهِ رجلٍ يجلسُ باستقامةٍ وقد أسندَ ظهرَهُ إلى شجرةٍ ثمَّ قال له: «حسناً يا تام».

علمَت غويندا على الفورِ من يكون هذا الرجلُ؛ إنَّه أشهرُ خارجٍ عن القانونِ في البلدِ، وكان يدعى تام المُتخفي. يملكُ تام وجهاً جميلاً رغمَ أنَّه بدا مُحمرّاً من الشرابِ. يقولُ الناسُ إنَّه رجلٌ نبيلُ المولدِ، ولكنهم يقولونَ هذا دوماً عن مشاهيرِ الخارجين عن القانونِ. حدَّقت غويندا إلى تام وتفاجأت بيفاعتِهِ؛ فقد كانَ في منتصفِ العشرينيات من عمرِهِ، إلَّا أنَّ قتلَ أيِّ خارجٍ عن القانونِ لم يكن جريمةً ولهذا السببِ لم يصلْ إلى سنِّ الشيخوخةِ سوى القلَّةِ منهم.

وقالَ تام: «حسناً يا سيم».

«لقد قايضتُ بقرةَ آلوين بفتاةٍ».

«أحسنتَ صُنعاً». تحدَّث تام بشيءٍ من التلعثمِ.

«ستاقضى على الصبيةِ ستةَ بنساتٍ، ولكن يمكنكَ أن تحظى بها مجاناً. ولهذا توقعتُ أنكَ تريدُ أن تكونَ أوّلَهم».

استرقَ تام النظرَ إلى عيني غويندا المُحمرّتين من البكاءِ. أرادت غويندا الاعتقادَ أنَّها رأت شيئاً من الشفقةِ في نظرتِهِ. ثمَّ قال تام: «لا شكراً يا سيم. فلتذهبْ ولتدعِ الصبيةَ يحظون بوقتٍ ممتعٍ، مع أنني أعتقدُ أنَّه عليكَ تأجيلُ الأمرِ حتَّى الغدِ فقد حصلنا على برميلٍ من النبيذِ الجيدِ من راهبين كانا يحملانِهِ إلى كينغزبريدج، ومعظمُ الصبيةِ الآن مخمورون جداً».

قفزَ قلبُ غويندا من الأملِ فقد يتأجلُ تعذيبها حتى الغدِ.

«يجبُ أن أستشيرَ آلوين»، قالَ سيم مُشككاً. «شكراً يا تام». ثمّ استدارَ وسحبَ غويندا وراءَهُ.

على بُعدِ عدَّةِ خطواتٍ كان هناكَ رجلٌ عريضُ المنكبين يصارعُ للنهوضِ على قدميهِ. «حسناً يا آلوين»، قالَ سيم. يبدو أنَّ هذه العبارةَ أشبهُ بتحيَّةٍ أو توجيهِ كلامٍ محددٍ إلى شخصٍ محددٍ بينٍ مجموعةِ الخارجين عن القانونِ.

كانَ آلوين في تلكَ المرحلةِ من الثمالةِ التي يغدو فيها مزاجُ المرء سيئاً: «ماذا لديكَ؟»

«فتاةٌ شابة جديدة».

أخذَ آلوين ذقنَ غويندا بيدِهِ وشدَّهُ بقوةٍ غيرِ ضروريةٍ، ثمَّ أمالَ وجهها نحو ضوءِ النارِ وأجبرها على النظرِ في عينيه. كانَ شاباً مثلَ تام المُتخفي ولهُ هيئةُ شخصٍ منغمسٍ في الملذات. وفاحَت من فمِهِ رائحةُ المشروبِ. «بحقِّ المسيحِ، لقد اخترتَ فتاةً بشعةً».

ولوهلةٍ شعرَت غويندا بالسعادةِ لأنَّهُ اعتقدَ أنَّها بشعةٌ وهذا يعني أنَّه قد لا يرغبُ بفعلِ شيءٍ معها.

«هذا ما استطعتُ الحصولَ عليهِ»، قالَ سيم بانفعالٍ. «لن يقومَ أيُّ أبٍ له ابنةٌ جميلةٌ ببيعها مقابلَ بقرةٍ، أليسَ هذا صحيحاً؟ بل سيُزوجها إلى ابنِ تاجرِ صوفٍ ثري».

وشعرَت غويندا عندَ ذكرِ سيرةِ والدِها بالغضبِ. كان عليها أن تعلمَ أو تتوقعَ حدوثَ هذا. وتساءلت في نفسها كيفَ استطاعَ والدها فعلَ هذا بها؟

«حسناً، حسناً، هذا غيرُ مهمٍ»، قالَ آلوين لسيم. «لدينا امرأتان فقط في المجموعةِ ومعظمُ الصبيةِ يائسونَ».

«قالَ تام إنَّه يجبُ أن ننتظرَ حتَّى الغدِ لأنَّ الجميعَ ثملٌ الليلةَ. ولكن القرارَ النهائي لكَ».

«تام على حقٍ. نصفُ الصبيةِ يغطُّ في النومِ الآن».

وأحسَّت غويندا بخوفِها ينحسرُ فقد يحدثُ أيُّ شيءٍ بين ليلةٍ وضحاها.

«لا بأس»، قال سيم. «فأنا متعبٌ جداً على أيِّ حالٍ». ثمّ نظرَ إلى غويندا وقال: «أنتِ، استلقي». لم يدعُها باسمِها قط.

استلقَت غويندا واستخدمَ سيم الحبلَ لربطِ قدميها ويديها معاً خلفَ ظهرِها، ثمَّ استلقى هو وآلوين على كلا جانبيها، وسرعان ما غطَّ الرجلان في النومِ.

كانت غويندا مرهقةً إلَّا أنَّها لم تكن قادرةً على النومِ. ولأنّ ذراعيها مقيدتان خلفَ ظهرِها شعرَت بالألمِ في كلِّ حركةٍ تقومُ بها. حاولَت أن تُحرِّكَ رسغيها المربوطينِ إلَّا أن سيم كان قد أحكمَ ربطهُ وعقدهُ، وكلُّ ما نجحَت في تحقيقِهِ هو كشطُ جلدِها من حرارةِ احتكاكِ الحبلِ بلحمِها.

تحولَ يأسُها إلى غضبٍ عارمٍ وتخيلَت نفسَها تثأرُ من مختطفيها وتجلدُهم بسوطِها وهم متكومون بخنوعٍ أمامَها. كان حلماً لا طائلَ منهُ ولهذا أعملت ذهنها في التفكيرِ بطريقةٍ للهربِ.

بدايةً كان عليها دفعهم إلى تحريرها من قيدها وعندما تنجحُ في هذا ستهربُ، ولكن عليها أن تحرصَ على عدمِ لحاقِهم بها وإمساكِها مجدداً.
ولكن هذا بدا مستحيلاً.

-12-

عندما استفاقَت غويندا من النومِ شعرَت بالبردِ، ورغمَ أنّهم في منتصفِ الصيفِ فإنَّ الطقسَ كان بارداً، ولم يكن يستر جسدَ غويندا شيءٌ سوى فستانٍ خفيفٍ. بدأت السماءُ الحالكةُ تكتسي بلونٍ رمادي، وفي الضوءِ الضعيفِ نظرَت غويندا من حولها في الفسحةِ الخاليةِ من الشجرِ ورأت أنَّ الجميعَ نيامٌ.

رغبَت بالتبولِ، وفكرت بأن تفعلَ هذا في مكانِها وتلويثِ فستانِها. إن لوثت نفسَها وبدت مقززةً فسيكونَ هذا أفضل إلّا أنّها تخلَّت عن الفكرةِ. ولكن هذا يعني الاستسلامَ، وهي لن تستسلمَ أبداً.

ولكن ما الذي ستفعلُهُ؟

كان آلوين نائماً بجانبِها وما يزالُ خنجرُهُ الطويلُ مُعلقاً بحزامِهِ وخطرَت ببالها فكرةٌ. لم تكن واثقةً من قدرتِها على تنفيذِ مخططِها الذي بدأت ترسمُهُ في عقلِها إلّا أنها رفضَت التفكيرَ بالخوفِ. كان عليها أن تقومَ بالأمرِ.

كانَ كاحلاها مربوطين إلّا أنّها كانت قادرةً على تحريكِ قدميها. ركلَت آلوين. في البدايةِ لم يبدُ عليه كأنّه أحسَّ بالضربةِ. ركلتهُ مجدداً وتحرَّكَ هذهِ المرة. في المرَّةِ الثالثةِ جلسَت وقالَ لها زائغَ البصرِ: «ما خطبُكِ؟»

«أريدُ التبولَ»، قالت له.

«لا يمكنكِ فعلُ هذا هنا. هذهِ إحدى قواعدُ تام. عليكِ أن تبتعدي لعشرين خطوةً حتّى تتبولي، ولخمسين لتتبرزي».

«إذاً، حتّى الخارجون عن القانونِ يرضخونَ للقانونِ».

حدَّقَ إليها عاجزاً عن استيعابِ ما قالتهُ فقد فاته فهمُ السخريةِ في كلامِها، وأدركَت أنّه لم يكن رجلاً ذكياً، وسيكون هذا مفيداً لها في خطتِها، ولكن آلوين رجلٌ قوي وحقيرٌ، ولهذا عليها أن تكونَ حذرةً جداً.

قالت لهُ: «لا يمكنني الذهابُ إلى أيِّ مكانٍ وأنا مقيدةٌ».

زمجرَ وفكَّ الحبلَ حول كاحليها.

لقد نجحَ أولُ جزءٍ من خطتِها وانتابها رعبٌ أكبر الآنَ.

جاهدَت للنهوضِ على قدميها وشعرَت بالألمِ في كلِّ عضلاتِ ساقيها بسببِ بقائها مقيدةً طوالَ الليلِ. خطَت خطوةً وتعثَّرت ثمَّ سقطَت على الأرضِ مجدداً. «الأمرُ صعبٌ ويداي مربوطتان»؟

تجاهلَ ما قالتهُ.

لم ينجح الجزءُ الثاني من مخططِها.

كان عليها أن تستمرَّ في المحاولةِ.

نهضَت مجدداً وسارَت باتجاهِ الأشجارِ وآلوين في إثرِها ويعدُّ الخطوات بأصابِعه. وعندما وصلَ إلى الرقمِ عشرة بدأ مجدداً. وعندما وصلَ إلى العددِ عشرين قالَ لها: «هذا يكفي».

نظرَت إليهِ وقالت بعجزٍ: «لا يمكنني أن أرفعَ ثوبي».

وتساءلَت في نفسِها إن كان سيصدقُها.

حدَّقَ نحوها بنظرةٍ بلهاء إلى درجةٍ شعرت معها غويندا كأنَّها تسمعُ صوتَ عقلِهِ يُعمِلُ في الأمر ويقعقعُ كطاحونةٍ. كان بوسعِهِ رفعَ فستانها لتتبولَ ولكن هذا العمل تقومُ بِهِ أمٌّ لطفلِها الصغيرِ وهو عملٌ مهينٌ. وبدلاً من هذا يمكنُهُ أن يحررَها من قيودها، ولكن إن حررَ يديها وقدميها فقد تهربُ. كانت ضئيلةَ البنيةِ وخائفةً وتعاني من التشنجِ ويستحيلُ عليها أن تسبقَ رجلاً بساقين قويتين وطويلتين. لا بدَّ أنَّه كان يفكرُ بأنَّ المخاطرةَ بتحريرِها ليست بالخطيرةِ.

وحلَّ الحبلَ حولَ معصميها.

أشاحَت بنظرِها بعيداً عنهُ حتَّى لا يرى نظرةَ النصرِ في عينيها.

فركَت ساعديها حتَّى يعودَ الدمُ إليهما، وشعرت برغبة في فقء عينيهِ بإبهاميها، إلَّا أنَّها بدلاً من هذا ابتسمَت لهُ بأكثر ابتساماتها عذوبةً وشكرتهُ كمن تشكرُ أحداً على قيامِهِ بعملٍ لطيفٍ.

لم يقلْ شيئاً بل وقفَ وشاهدَها وهي تنتظرُ.

توقعَت أن يشيحَ بنظرِهِ عندما ترفعُ تنورةَ فستانِها وتقرفص إلَّا أنَّه أمعنَ التحديقَ بها بقوةٍ أكبر. شعرت بحرجٍ كبيرٍ ونظرَت إليه في عجزٍ عن فعلِ ما هو طبيعي. رأت فمَهُ مفتوحاً قليلاً وأدركَت أنَّه كان يتنفسُ بصعوبةٍ.

وها قد حانَ وقتُ الجزءِ الأصعبِ.

وقفَت على مهلٍ حتَّى تتسنى له فرصةُ استراقِ نظرةٍ قبلَ أن تتركَ ثوبَها ينزلُ. لعقَ شفتيهِ وعلمَت أنّه وقعَ في حبالِها.

اقتربَت منهُ ووقفَت أمامَه: «هل يمكنكَ أن تحميني؟» قالت لهُ بصوتِ طفلةٍ صغيرةٍ لا يناسبُ شخصيتها.

لم يبدُ عليهِ الارتيابُ قط ولم يُجبها بل أمسكَ ثديها بيدِهِ الخشنةِ وأخذَ يعصرُهُ.

شهقَت من الألمِ وقالت: «لا، ليسَ بقوةٍ!» ثمّ أخذَت يدَهُ بيدِها وقالت: «كُن أكثرَ لطفاً». وحرَّكَت يدَهُ على صدرِها وعلى حلمتِها حتى تصلّبَت. «إنَّ الأمرَ أجمل عندما تكونُ ألطف».

زمجرَ وتابعَ تحريكَ يدِهِ في لطفٍ، ثمَّ أمسكَها من ياقةِ فستانِها بيدِهِ اليسرى وسحبَ خنجرَهُ. كان الخنجرُ بطولِ قدمٍ وبنصلٍ حادٍ ولامعٍ وهذا يعني أنّهُ شُحذَ مؤخراً. بدا واضحاً أنّه ينوي تقطيعَ فستانِها، وهذا لن يكون جيداً لأنّه سيتركها عاريةً.

أمسكَت معصمَهُ بخفَّةٍ وكبحتهُ مؤقتاً: «لا تحتاجُ إلى الخنجرِ»، قالت له. «انظر». تراجعَت إلى الوراء وحلَّت حزامَها، وبحركةٍ سريعةٍ رفعَت ثوبَها حتَّى رأسها ثمّ خلعتهُ. كان هذا الرداءُ الوحيدُ الذي عليها.

تمددَت على الأرضِ وحاولت أن تبتسمَ له وشعرَت بالثقةِ من أنَّ ابتسامتَها بدت كتكشيرةٍ ثمّ باعدَت بين ساقيها.

ترددَ لوهلةٍ.

حملَ الخنجرَ في يدِهِ اليمنى وخلعَ سروالَهُ الداخلي بيدِهِ الأخرى ثمَّ ركعَ بين فخذيها. لوَّحَ بخنجرِهِ قربَ وجهها وقال: «إن افتعلتِ أيَّ متاعبٍ فسأطعنكِ في خدِّكِ».

«لن تحتاجَ إلى فعلِ هذا»، قالت لهُ. كانت تحاولُ بجدٍ التفكيرَ بالكلماتِ التي سيحبُّ مثل هذا الرجلِ سماعَها من امرأةٍ. «يا فارسي الكبير والقوي».

لم تظهر على وجهِهِ أيُّ ردِّ فعلٍ.

استلقى فوقَها محاولاً اقحامَ عضوِهِ بعجلٍ. «ليسَ بهذهِ السرعةِ»، قالت له وهي تصرُّ على أسنانِها من الألمِ الذي تسببهُ ضرباتُ عضوهِ الخرقاءِ. مدَّت يدَها إلى فرجِها وأرشدتهُ داخلَها رافعةً ساقيها حتَّى يدخلَ عضوه بسهولةٍ أكبر. رفعَ نفسَهُ فوقها مقوساً ظهرَهُ وكامل وزنِهِ على ذراعيهِ، ثمَّ وضعَ الخنجرَ

على العشبِ قربَ رأسِها وغطّى بيدِهِ اليمنى غمدَهُ. أخذَ يتأوه وهو يتحرَّكُ في داخلِها. تحرَّكَت معه كي توهمهُ برغبتِها بالأمرِ وهي تراقبُ وجههُ وتجبرُ نفسَها على عدمِ النظرِ جانباً إلى الخنجرِ بانتظارِ اللحظةِ المؤاتيةِ. شعرَت بالخوفِ والتقززِ في آنٍ معاً، ولكن في زاويةٍ ما في عقلها بقيت هادئةً ويقظةً.

أغلقَ عينيهِ ورفعَ رأسَهُ كحيوانٍ يتشممُ الهواءَ. كانت ذراعاه اللتان تحملان وزنَهُ مستقيمتين. وهنا خاطرَت غويندا بالنظرِ إلى الخنجرِ. حرَّكَ يدَهُ قليلاً وأبعدَها عن الغُمدِ. يمكنها الآن أن تمسكَ بهِ ولكن ما السرعة التي يجبُ أن تعملَ بها؟

نظرَت إلى وجهِهِ مجدداً ورأت فمَهُ ملتوياً في تكشيرةٍ تنمُ عن التركيزِ. أخذَ يدفع عضوهُ بوتيرةٍ أسرع وواكبتهُ في حركتِهِ.

انتابتها الخيبةُ عندما شعرَت بحرارةٍ في أعضائها، وارتاعَت من نفسِها. كان الرجلُ مجرماً خارجاً عن القانونِ، ولا يختلفُ عن وحشٍ بريٍّ بكثيرٍ، ويخططُ لتحويلها إلى عاهرةٍ يمكنُ مضاجعتها بستةِ بنساتٍ. كانت تفعلُ هذا لإنقاذِ نفسِها وليسَ للمتعةِ! ولكنها شعرَت بدفقٍ رطبٍ في داخلِها جعلَ عضوهُ يتحركُ بسرعةٍ أكبر.

شعرَت بأنَّهُ يكادُ يقتربُ من ذروتِهِ وكانت هذهِ اللحظةَ التي تنتظرها. أخذَ يئنُّ كأنّه يستسلمُ وتحرَّكَت.

سحبَت الخنجرَ من تحتِ يدِهِ، ولكن لم يطرأ أيُّ تغييرٍ على مستوى النشوةِ المرتسمةِ على وجهِهِ كأنّه لم يلحظ حركتَها. وخوفاً من أن يرى ما فعلتهُ ويوقفها في اللحظةِ الأخيرةِ نهضَت رافعةً كتفيها عن الأرضِ. أحسَّ بحركتَها ففتحَ عينيهِ والصدمةُ والخوف مرتسمان على وجهِهِ. طعنتهُ بقوةٍ في حنجرتِهِ تحتَ فكِّهِ. أخذت تطلقُ اللعناتِ عندما أدركَت أنّها لم تُصب الأجزاءَ الحساسةَ من الرقبةِ – الرغامى والوريدَ الوداجي. أخذَ يزأرُ من الألمِ والغضبِ، إلّا أنّه لم يكن عاجزاً وعلمت أنّها أقربُ من الموتِ كما لم تكن يوماً.

تحرَّكَت بشكلٍ غريزي ومن دونِ تفكيرٍ فضربتهُ في باطنِ مرفقِهِ بذراعِها اليسرى. لم يستطع منعَ ذراعِهِ من الالتواءِ وسقطَ أرضاً رغماً عنهُ. أغمدَت الخنجرَ الطويلَ أكثر ووزنُ جسدِهِ المُترنّح الآن دفعهُ للأسفلِ فوقَ الخنجرِ المغروزِ في رقبتِهِ. وبينما كانَ الخنجرُ يخترقُ رأسَهُ من الأسفلِ بدأ الدمُ يتدفقُ من فمِهِ المفتوحِ ويسيلُ على وجهِها فما كان منها إلّا أن أمالت رأسَها جانباً واستمرَّت بغرزِ الخنجرِ أكثر فأكثر. وصلَ الخنجرُ إلى منطقةٍ وتوقفت لوهلةٍ ثمَّ تابعَت التغلغلَ إلى أن بدت إحدى

عينيهِ على وشكِ الانفجارِ، ورأت غويندا نهايةَ الخنجرِ تخرجُ من محجرِ عينهِ ودماءٌ وأجزاءٌ من الدماغ تخرجُ معها، ثمَّ انهارَ فوقَها ميتاً، أو شبهَ ميتٍ، وشعرت بأنَّ أنفاسها تبهتُ تحتَ وطأةِ ثقلِ وزنِهِ فوقها. كان الأمرُ أشبهَ بوقوعِ شجرةٍ على المرءِ، ولوهلةٍ كانت عاجزةً عن التحرّكِ.

وهلعَت عندما شعرَت بهِ يقذفُ في داخلِها.

اكتسَحها خوفٌ غيرُ عقلاني؛ فقد كانَ، في حالتِهِ هذه، مخيفاً أكثر مما كانَ عليهِ عندما هددَها بالخنجرِ، ومدفوعةً بالذعرِ الذي انتابَها تحرَّكَت تحتَهُ وحررَت نفسَها.

نهضَت على قدميها وهي ترتعشُ وتتنفسُ بصعوبةٍ. كانَ دمه على ثدييها ومنيُه على فخذيها. حدَّقَت بخوفٍ إلى مخيمِ الخارجين عن القانونِ، وتساءلت في نفسها إن كانَ أحدُهم يقظٌ وسمعَ صراخَ آلوين؟ أو إن استفاقَ أحدهم على صوتِهِ؟

سحبَت ثوبَها وهي ما تزالُ ترتجفُ ثم ارتدتهُ وأحكمتْهُ حولها بالحزامِ. لم يكن لديها سوى محفظتِها وسكينها الصغيرةِ التي تستخدمها لتناولِ الطعامِ بشكلٍ رئيسي. وبالكادِ أشاحَت بنظرِها عن آلوين حتَّى اجتاحَها ذلكَ الشعورِ المريعِ بأنَّه ما زالَ على قيدِ الحياةِ. علمَت أنَّهُ كانَ عليها القضاءُ عليهِ نهائياً إلَّا أنها لم تنجح في دفعِ نفسها للقيامِ بهذا. ثمَّ سمعَت صوتاً قادماً من الفسحةِ الخاليةِ من الشجرِ، وباتَ لزاماً عليها أن تهربَ بسرعةٍ. ألقت نظرةً حولَها وأخذَت أغراضَها ثمَّ انطلقَت باتجاهِ الطريقِ.

وتذكرَت في لحظةِ هلعٍ حقيقيةٍ أنَّ هناكَ نقطةَ مراقبةٍ بالقربِ من شجرةِ البلوطِ الكبيرةِ لذلكَ سارَت بحذرٍ بينَ الأشجارِ متوخيةً الحذرَ كي لا تُحدثَ أيَّ صوتٍ وهي تقتربُ من الشجرةِ. ثمَّ رأت نقطةَ المراقبةِ حيث كان الفتى جِيدْ مُستغرقاً في النومِ على الأرضِ. سارَت على أطرافِ أصابِعها بمحاذاتِهِ، واستعانَت بكلِّ قوةِ إرادتِها حتى لا تذعنَ لدافعِ الهربِ ركضاً ولكنَّ الفتى لم يقمْ بأيِّ حركةٍ.

عثرَت على طريقِ الغزلانِ وتبعتْه إلى أن وصلَت إلى الجدولِ. لم ترَ أحداً في إثرِها. غسلَت الدمَ عن وجهها وصدرِها ثمَّ رشقَت الماءَ على عضوها. شربَت بشراهةٍ؛ فالطريقُ أمامَها طويلٌ.

تابعَت سيرها على طريقِ الغزلانِ وقد تراجعَ ذُعرها الآن. سارت وهي تُصيخ السمعَ حولها وتتساءلُ في نفسها متى سيكتشفُ الخارجون عن القانونِ

جثةَ آلوين التي لم تحاول إخفاءها. عندما يكتشفونَ ما حدثَ لا بدَّ أنَّهم سيقتفونَ أثرَها لأنَّهم دفعوا ثمنها بقرةً، أي اثني عشر شلناً، أو ما يُعادلُ أجرَ نصف عامٍ لعاملٍ كوالِدِها.

وصلَت إلى الطريقِ الرئيسي، ولامرأةٍ وحيدةٍ كان الطريقُ المفتوح خطِراً بقدرِ طريقِ الغابةِ. لم تكن عصابةُ تام المُتخفي عصابةَ الخارجين عن القانونِ الوحيدةَ في المنطقةِ؛ فهناكَ الكثيرُ من الرجالِ والمرافقين والفتية الفلاحين ومجموعاتِ الجنودِ ممن قد يستغلونَ امرأةً عاجزةً، ولكن أولويتَها الآن هي الهربُ من سيم تشابمان ورفاقِه، ولهذا كانت السرعةُ العاملَ الأهمَّ.

وتساءلَت عن الاتجاهِ الذي ستأخذُهُ. إن عادَت إلى منزلِها في ويغلي فسيلحقُ بها سيم إلى هناكَ ويعيدُها، ولم تكن لديها أدنى فكرةٍ عن الكيفيةِ التي سيتعاملُ بها والدُها مع الموقفِ. كانت تحتاجُ إلى أصدقاء تستطيعُ الوثوقَ بهم. يمكنُ لكاريس أن تساعدَها.

وانطلقَت باتجاهِ كينغزبريدج.

كان نهاراً صافياً إلَّا أنَّ الطريقَ كانَ موحلاً بسببِ الهطولِ المطري المتواصلِ لأيامٍ ولذلكَ لم يكن السيرُ على الطريقِ سهلاً. بعدَ برهةٍ وصلَت إلى أعلى تلَّةٍ، ألقَت نظرةً إلى الوراءِ وكان بوسعِها رؤيةُ الطريقِ وراءَها لمسافةِ ميلٍ. وبعيداً لمحَت خيالَ شخصٍ يمشي في عباءةٍ صفراء.

كانَ سيم تشابمان.

وأخذت تركضُ هرباً.

***

عُقدَت جلسةُ الاستماعِ إلى قضيَّةِ نيل المجنونةِ في جناحِ الكنيسةِ الشمالي في الكاتدرائيةِ يومَ السبت ظُهراً. ترأسَ الأسقفُ ريتشارد المحكمةَ الكنسيةَ مع رئيسِ الديرِ أنتوني على يمينِه وعلى يسارِهِ مساعدُهُ الشخصي رئيسُ الشمامسةِ لويد الذي كان كاهناً بشعرٍ أسود فاحمٍ وهو معروفٌ بأنَّه القائم الحقيقي على أعمالِ الأبرشيةِ.

احتشدَ جمعٌ كبيرٌ من سكانِ المدينةِ. كانت المُحاكمات بتهمةِ الهَرطقةِ مصدرَ ترفيهٍ مُسلٍ، ولم تشهد كينغزبريدج مثلَ هذهِ المحاكمةِ منذُ سنواتٍ. في منتصفِ النهارِ من أيَّامِ السبتِ ينتهي العديدُ من الحرفيين والعمال من عملِهم، وفي حديقةِ الكنيسةِ شارفَ أسبوعُ سوقِ الصوفِ على نهايتِهِ، وقد بدأ التجارُ

بتفكيكِ أكشاكِهم وتوضيبِ بضائِعهم غير المُباعةِ بينما كانَ الزبائنُ يجهزونَ أنفسهم لرحلةِ العودةِ إلى منازِلهم، أو يتفقونَ مع أصحابِ المراكبِ النهريةِ لنقلِ بضائعِهم إلى مرفأ ميلكومب البحري.

وفي أثناءِ انتظارِ بدءِ المحاكمةِ فكرت كاريس في حزنٍ بما حصلَ لغويندا، وتساءلت في نفسها عمّا تفعلُهُ في هذهِ اللحظةِ. سيُجبرُها سيم تشابمان على ممارسةِ الجنسِ معهُ، ولكن قد لا يكون هذا أسوأ ما سيحدثُ لها. ما الذي قد يفعلُه أيضاً بعبدتِهِ؟ لم يكن لدى كاريس أدنى شكٍّ في أنَّ غويندا ستحاولُ الهربَ، وتساءلت إن كانت ستنجحُ. ثمَّ أدركَت أنّها قد لا تعرفُ ما سيحدثُ لغويندا أبداً.

كانَ أسبوعاً غريباً؛ لم يغير بونافينتورا كارولي رأيَهُ، ولن يعودَ تجارُ فلورنسا إلى كينغزبريدج، على الأقلِّ إلى أن يُحسِّنَ الديرُ المرافقَ من أجلِ سوقِ الصوفِ. قضَى والدُ كاريس وكبارُ تجارِ الصوفِ الآخرين في المدينةِ نصفَ الأسبوعِ مشغولين بزيارةِ الإيرلِ رولاند، وما زالَ ميرثن على مزاجِهِ الغريبِ، بعيداً ومكتئباً، وعادَ المطرُ للهطولِ من جديدٍ.

قادَ المأمورُ جون والراهبُ موردو نيل من الكنيسةِ. لم تكن ترتدي سوى معطفٍ قصيرٍ بلا أكمامٍ ومُغلقٍ من الأمامِ إلّا أنَّ كتفيها الناحلتين تبرزان منهُ. لم تكن تعتمرُ أيَّ قبعةٍ ولا تنتعل حذاء، وكانت تقاومُ بضعفِ الرجلين اللذين أمسكا بها وتكيلُ اللعناتِ.

عندما نجحا بتهدئتِها تقدَّمَت مجموعةٌ من سكانِ المدينةِ للشهادةِ بأنَّهم سمعوها تنادي الشيطانَ. كانوا يقولونَ الحقيقةَ فقد كانت نيل تهددُ سكانَ المدينةِ بالشيطانِ طوالَ الوقتِ كلَّما رفضوا أن يمنحوها صدقةً، أو إن اعترضَت طريقَهم في الشارعِ، أو لارتدائِهم معاطفَ جيدةً، أو حتَّى من دونِ سببٍ أحياناً.

قامَ كلُّ شاهدٍ بسردِ بعضِ الأحداثِ المأساويةِ التي لحقَت بهِ بعدَ لعنةِ نيلِ. قالَت زوجةُ صائغٍ إنَّها فقدَت دبوساً قيِّماً؛ وصاحبُ نُزلٍ قالَ إنَّ دجاجاتِه ماتت، وادعت أرملةٌ بأنَّها عانَت من بثرةٍ في مؤخرتِها ودفعَ هذا الجمهورَ إلى الضحكِ؛ فقد كان هناكَ اعتقادٌ سائدٌ بأنَّ الساحرات يملكنَ حسَّ فكاهةٍ شرّيراً.

وأثناءَ هذا كلِّهِ ظهرَ ميرثن إلى جانبِ كاريس. «ما يحدثُ محضُ غباءٍ»، قالت كاريس في سُخطٍ. هناكَ عشرةُ أضعاف عددِ الشهودِ الحاليين ممن يستطيعونَ الشهادةَ بأنَّ نيل لعنتهم دونَ أن يحدثَ لهم شيءٌ».

هزَّ ميرثن كتفيهِ بلا مبالاةٍ وقالَ: «يؤمنُ الناسُ بما يرغبونُ في الإيمانِ بِهِ».

«ربما الناس العاديون، ولكن على الأسقفِ ورئيسِ الديرِ أن يكونا أدرى منهم لأنَّهما متعلمان».

«يجبُ أن أخبركِ بشيءٍ»، قالَ ميرثن.

ابتهجَت كاريس فقد شعرَت أنَّها على وشكِ معرفةِ سببِ مزاجِهِ السيئ. كانت تنظرُ إليهِ جانبياً إلَّا أنَّه عندما قال هذا استدارَت ورأت الرضَّ المهولَ على الجانبِ الأيسرِ من وجهِهِ. «ما الذي حدثَ لكَ؟»

غاصَ الحشدُ في الضحكِ بسببِ شيءٍ قالته نيل، واضطرَّ رئيسُ الشمامسةِ لويد إلى الطلب منهم مجدداً التزامَ الهدوءِ. وعندما هدأ الحشد وباتَ كلامُ ميرثن مسموعاً قال: «ليسَ هنا. هلَّا ذهبنا إلى مكانٍ هادئ؟»

كادَت تستديرُ وتغادرُ معهُ، ولكن شيئاً ما أوقفَها. كان ميرثن قد أثارَ حيرتَها ببرودِهِ طوالَ الأسبوعِ، وها هو الآن يقررُ أنَّهُ جاهزٌ ليقولَ لها ما يشغلُ بالَهُ ويتوقعُ منها أن ترافقَهُ حالما يأمرها. لمَ هو صاحبُ القرارِ؟ لقد جعلها تنتظرُ لخمسةِ أيامٍ، لمَ لا تجعله ينتظرُ لساعةٍ أو أكثر. «لا»، قالت له. «ليسَ الآن».

بدا متفاجئاً وسألها: «لِم لا؟»

«لأنَّ الوقتَ لا يناسبني»، قالت له. «دعني الآن أستمعُ إلى ما يجري». وأشاحت بنظرها بعيداً عنه. لمحت ألماً بادياً على وجهِهِ، وتمنت على الفورِ لو أنَّها لم تتصرف بهذا البرودِ معهُ، ولكن الأمر قُضي وهي لن تعتذر.

انتهى الشهود من تقديمِ شهاداتِهم وقالَ الأسقفُ ريتشارد: «أيتها المرأةُ، هل تقولين إنَّ الشيطانَ يحكمُ الأرضَ؟»

استشاطَت كاريس غضباً عند سماعها لهذا السؤالِ. يعبدُ المهرطقون الشيطانَ لأنَّهم يعتقدون أنَّه صاحبُ السلطةِ على الأرضِ بينما الرَّبُّ يحكمُ السماءَ. لم تكن نيل المجنونةُ قادرةً على استيعابِ هذهِ العقيدة المُعقدة، ووجدَت أنَّ انسياقَ ريتشارد وراءَ هذا الاتهامِ السخيفِ الذي وجههُ الراهبُ موردو أمرٌ مشينٌ.

وصرخَت نيل قائلةً له: «فلتنكح نفسكَ».

ضحكَ الجمهور في ابتهاجٍ عند سماعهم للأسقفِ يتلقى مثلَ هذهِ الإهانةِ المُقذعةِ.

قالَ ريتشارد: «إن كان هذا دفاعُها...»

وقاطعهُ رئيسُ الشمامسةِ لويد قائلاً: «يجبُ أن يدافعَ أحدٌ عنها». تحدَّثَ لويد باحترامٍ ولم يبدُ عليهِ القلقُ لأنَّه صحّحَ كلامَ من هو أعلى منه مرتبةً. لا شكَّ أنَّ الكسولَ ريتشارد يعتمدُ على لويد في تذكيرِهِ بالقوانينِ.

نظرَ ريتشارد حولَهُ في جناحِ الكنيسةِ وصرخَ قائلاً: «من سيُدافع عن نيل».

انتظرَت كاريس ولكن لم يتطوع أحدٌ. لم تكن كاريس قادرةً على السماحِ بحدوثِ هذا. لا بدَّ أن يقومَ أحدُهُم بالاعتراضِ على سخافةِ الأمرِ برمتِهِ. وعندما رأت أنَّ الجميعَ التزمَ الصمت وقفت كاريس وقالت: «إنَّ نيل امرأةٌ مجنونةٌ».

نظرَ الجميعُ حولَهم متسائلين عن هذا الشخصِ الغبي الذي أخذَ صفَّ نيل. وعلَت همهمةُ إقرارٍ بمعرفتِهم بهويةِ هذا الشخصِ؛ فقد كان معظمُ سكانِ المدينةِ يعرفونَ كاريس، ولم يبدُ عليهم الاستغرابُ فهي مشهورةٌ بقيامِها بأمورٍ غريبةٍ.

انحنى رئيسُ الديرِ إلى الأمامِ وهمسَ بشيءٍ في أذنِ الأسقفِ ثمَّ قالَ ريتشارد: «إنَّ كاريس ابنةُ إدموند ولِن تقولُ لنا إنَّ المتهمةَ مجنونةٌ، وقد وصلنا إلى هذهِ النتيجةِ من دونِ مساعدتِها».

شعرَت كاريس بالاستياءِ من هذهِ السخريةِ الباردةِ. «لا تملكُ نيل أدنى فكرة عمَّا تتفوهُ بهِ! إنَّها تناجي الشيطان والقديسين والقمرَ والنجومَ ولا يعني هذا أكثر مما قد يعنيهِ نباحُ كلبٍ. وكأنَّكَ تُعدمُ حصاناً لأنَّه صهلَ في وجهِ ملك». لم يكن بوسعها كبحُ رنَّةِ الاحتقارِ في صوتِها، رغمَ علمِها بأنَّ إظهارَ ازدرائِها عندَ مخاطبةِ النبلاءِ تصرفٌ غير حكيمٍ.

دمدمَ بعضُ الحاضرين في استحسانٍ فقد كانوا يحبون الجدالات الحماسيةِ.

قالَ ريتشارد: «سمعتُ شهادةَ الناسِ بالأضرارِ التي لحقَت بهم بعدَ اللعنةِ».

«لقد أضعتُ بِنساً البارحةَ»، تابعت كاريس. «سلقتُ بيضةً وتبينَ أنَّها فاسدةٌ. بقي والدي صاحياً طوالَ الليلِ بسببِ السعالِ. حدثَ كل هذا ومن دونِ أن يلقي أحدٌ علينا اللعنةَ. الأمورُ السيئةُ تحدثُ».

أومأ الكثيرُ برؤوسِهم في موافقةٍ على ما قالتْهُ كاريس. يعتقدُ معظمُ الناسِ أنَّ هناكَ تأثيراً شريراً وراءَ كلِّ مصيبةٍ، سواءَ أكانت كبيرةً أم صغيرةً. وها هي كاريس تكسبُ دعمَ الحشدِ.

كانَ عمُّها رئيسُ الديرِ أنتوني على علمٍ سابقٍ بآرائها وقد جادلَها فيها قبلاً. انحنى أنتوني إلى الأمامِ وقالَ: «أنتِ بالتأكيدِ لا تعتقدين أنَّ الرَّبَّ مسؤولٌ عن الأمراضِ والمصائبِ والخسائرِ؟»

«لا...»

«من المسؤولُ إذاً؟»

وقالت كاريس التي شعرت بالرهبةِ من لهجةِ أنتوني الصارمةِ: «حتماً أنتَ لا تعتقدُ أنَّ كلَّ مصيبةٍ في الحياةِ سببها الرَّبُّ أو المجنونةُ نيل؟»

وقالَ رئيسُ الشمامسةِ لويد بحدَّةٍ: «تحدثي باحترامٍ إلى رئيسِ الديرِ». لم يكن يعلم أنَّ أنتوني عمُّها، وضحكَ سكانُ المدينةِ فهم يعرفونَ رئيسَ الديرِ المُتزمّت وابنةَ أخيهِ ذاتِ الآراءِ المستقلةِ.

وأنهت كاريس كلامَها قائلةً: «أعتقدُ أنَّ نيل غير مؤذيةٍ. قد تكون مجنونةً ولكنَّها غيرُ مؤذيةٍ».

وفجأةً وقفَ الراهبُ موردو على قدميهِ وقالَ بصوتٍ جهوري: «يا سيدي الأسقفُ، يا رجالَ كينغزبريدج، أيُّها الأصدقاءُ، إنَّ الأشرارَ يعيشونَ بيننا ويزينون لنا خطايا الكذبِ والطمعِ بالطعامِ والثمالةِ بالنبيذ والكبرياءِ الشديدِ وشهوةِ الجسدِ». أحبَّ الحشدُ كلامَ موردو لأنَّ التوصيفَ الذي كان يقدمُهُ للخطايا أثارَ في مخيلتِهم مشاهدَ الانغماسِ في الملذاتِ التي طهرها رفضُهُ للخطيئةِ. «ولكنَّهم لا يستطيعونَ إخفاءَ أنفسهم»، تابعَ موردو وقد رفع صوتَهُ من الحماسةِ. «وكما يتركُ الحصانُ علائمَ حوافرِهِ على الطينِ وفأرُ المطبخِ آثارَ أسنانِهِ على الزبدةِ، وكما يُلقي الفاجرُ ببذورِهِ الشريرةِ في رحمِ فتاةٍ مُخدوعةٍ كذلكَ يفعلُ الشيطان؛ إنَّه يتركُ علامتَهُ».

صرخَ الحشدُ في استحسانٍ. كانوا يعلمون عمَّا كان موردو يتحدَّثُ عنهُ، وكذلكَ كاريس.

«يُمكن معرفةُ عبدةِ الشيطان من العلامةِ التي يتركها عليهم فهو يمصُّ دمَهم الحار كما يمصُّ الطفلُ الحليبَ الحلو من ثدي أمِّهِ الأعجفِ، وكالطفلِ، يحتاجُ الشيطانُ إلى حلمةٍ ليمصَّ، إنَّه يحتاجُ إلى حَلمةٍ ثالثةٍ!»

ولاحظَت كاريس أنَّ الجمهورَ انتشى بكلامِهِ. كان موردو يبدأ الحديثَ بصوتٍ خفيضٍ وهادئٍ ثمَّ يرفعَهُ عالياً بعباراتٍ انفعاليةٍ حتَّى يصلَ إلى الذروةِ فيستجيبُ له الحشدُ في ترقبٍ ويُصغي إليهِ في صمتٍ إلى أن يهللوا أخيراً في استحسانٍ لكلامِهِ.

«يجبُ أن تكونَ العلامةُ غامقةً ولها شكلُ الحلمةِ وبارزةً على الجلدِ حولها. قد تكون جزءاً من الجسدِ، ولكنَّها أحياناً تتموضعُ في ذلكَ الخندقِ الناعمِ بينَ

ثديي المرأةِ وتأخذُ شكلاً غريباً يحاكي الطبيعي بشدَّةٍ، ولكنَّ الشيطانَ يحبُّ التواجد في الأماكنِ السريَّةِ للجسدِ؛ في الأعضاءِ الحساسةِ خاصَّةً...»

قالَ الأسقف ريتشارد بصوتٍ عالٍ: «شكراً لكَ أيُّها الأخ موردو. لا حاجةَ للاستفاضةِ في الكلامِ فقد بِتنا نعرفُ بأنَّكَ تطلبُ فحصَ جسدِ المرأةِ بحثاً عن علامةِ الشيطانِ».

«أجل، يا سيادةَ الأسقفِ لأنَّ...»

«حسناً، لا حاجةَ لقولِ المزيدِ لقد أوضحت فكرتَكَ جيِّداً». ثمّ نظرَ ريتشارد حولَهُ وقالَ: «هل الأمُّ سيسيليا قريبةٌ من هنا؟»

كانت رئيسةُ ديرِ الراهبات جالسةً على مقعدٍ عندَ أحدِ جدرانِ الكنيسةِ مع الأختِ جوليانا وبعض راهباتٍ يتمتعنَ بمكانةٍ عاليةٍ. لا يُمكن للرجالِ أن يفحصوا جسدَ نيل المجنونةِ فهذهِ مهمةُ النساءِ اللواتي عليهن أن يقمن بهذا سِرَّاً ويقدِّمن تقريراً بما رأينَ. ولذلكَ كان اختيارُ الراهبات الخيارَ الطبيعي.

لم تكن كاريس تحسدهنَّ على المهمةِ التي كُنَّ بصددِها؛ فسكانُ المدينةِ يغسلونَ أيديهم ووجوههم كلَّ يومٍ وأعضاءهم الحساسةَ مرَّةً أسبوعياً. إنهم لا يستحمون استحماماً كاملاً سوى مرَّتين سنوياً، ورغمَ أنَّ الاستحمامَ الكاملَ ضروري إلَّا أنَّه كانَ خطيراً على الصحَّةِ. وبدا أنَّ نيل المجنونة لم تغتسل قط فقد كان وجهها قذراً من السخامِ ويدَاها مُتسختين وتفوحُ منها رائحةٌ نتنةٌ كالروثِ.

وقفَت سيسيليا وقالَ لها ريتشارد: «من فضلكِ خُذي هذهِ المرأة إلى غرفةٍ خاصَّةٍ، وانزعي عنها ثيابَها ثمَّ تفحصي جسدَها بعنايةٍ، وعودي وأخبرينا بأمانةٍ بما رأيتِهِ».

نهضَت الراهباتُ على الفورِ واقتربنَ من نيل. تحدَّثت سيسيليا بلطفٍ إلى المرأةِ المجنونةِ، وأمسكتها بلطفٍ من ذراعِها، ولكن نيل لم تنخدع بهذا بل ابتعدَت رافعةً ذراعيها في الهواءِ.

في تلكَ اللحظةِ صرخَ موردو: «رأيتها! رأيتها!»

تمكّنت أربعُ راهباتٍ من إمساكِ وتثبيتِ نيل.

قالَ الراهب موردو: «لستنَّ بحاجةٍ لنزعِ ملابسِها. انظرن تحتَ إبطِ ذراعِها اليمنى». وعندما بدأت نيل تتلوى مجدداً اندفعَ موردو نحوها ورفعَ ذراعَها عالياً فوقَ رأسِها. «هنا!»، قالَ وأشارَ إلى إبطِها.

تدافعَ الحشدُ إلى الأمامِ لإلقاءِ نظرةٍ. «أراها!» صرخَ أحدُهم، وكررَ آخرون

ما قالهُ. لم ترَ كاريس شيئاً ما عدا شعرَ إبطٍ طبيعي، ولم تكن قادرةً على تحمُّلِ مهانةِ استراقِ النظرِ إلى المرأةِ المسكينةِ.

لم يكن لدى كاريس أدنى شكٍ في أنَّ نيل تعاني من عيبٍ خلقي ما؛ فالكثيرُ من الناسِ يحملونَ علاماتٍ على جلودِهم بخاصَّةٍ العجائز منهم.

صاحَ رئيسُ الشمامسةِ لويد مُطالباً الحشدَ بالتزامِ الهدوءِ، وأخذَ المأمورُ جون يدفعُ الحشدَ بهراوتِهِ إلى الوراءِ. وعندما حلَّ الصمتُ أخيراً في أرجاءِ الكنيسةِ وقفَ ريتشارد وقالَ: «أيتها المجنونةُ نيل من مدينة كينغزبريدج أجدكُ مُذنبةً بتهمةِ الهرطقةِ. ستُربطين في عربةٍ من الخلفِ وتُجلدين بينما تدور العربة في أنحاءِ المدينةِ ثمَّ ستُؤخذين إلى مكانٍ يدعى غالوز كروس حيث ستُعدمين».

هللَ الحشدُ وأشاحَت كاريس بعيداً في تقززٍ: في ظلِّ قضاءٍ كهذا لا يمكنُ للنساءِ أن يكنَّ في أمانٍ. ووقعَت عيناها على ميرثن الذي كان ينتظرُها بفارغِ الصبرِ: «حسناً»، قالت بمزاجٍ عكرٍ. «ما الأمرُ الآن؟»

«لقد توقفَ المطرُ»، قالَ لها. «فلنذهب إلى النهرِ».

***

لدى الدير مجموعةٌ من الجيادِ القصيرةِ القوائم والمخصصةِ لكبارِ الرهبانِ والراهبات من أجل السفرِ إضافةً إلى جيادِ العرباتِ المُخصصةِ لنقلِ البضائعِ، وجميعها تودعَ مع جيادِ الزوارِ الأثرياءِ في الإسطبلات الحجريَّةِ في الطرفِ الجنوبي من طريقِ الكاتدرائيةِ، ولهذا كانَ القشُ يملأ حديقةَ المطبخِ القريبة من الإسطبلات.

كان رالف في فناءِ الإسطبلِ مع بقيَّةِ حاشيةِ الإيرل رولاند، وقد أُسرِجَت خيولُهم وباتت جاهزةً للانطلاقِ في رحلةِ العودةِ التي ستستغرقُ يومين إلى قلعةِ الإيرلِ بالقربِ من شايرنغ. كانوا جميعاً بانتظارِ الإيرلِ.

أمسكَ رالف بلجامِ حصانِهِ الكُميت غريف وهو يتحدَّث إلى والدِيه. «لا أعلمُ كيف أصبحَ ستيفن لورد ويغلي بينما لم أحصل أنا على شيءٍ. إننا في العمرِ نفسهِ، وهو ليسَ أفضل مني في ركوبِ الخيلِ والمبارزةِ والمسايفةِ».

في كلِّ مرَّةٍ تجتمعُ العائلةُ يطرحُ السير جيرالد الأسئلةَ ذاتَها التي تفيضُ بالأملِ، ويضطرُّ رالف إلى تقديمِ ذاتِ الأجوبةِ غيرِ المناسبةِ. يستطيعُ رالف أن يتحمَّلَ خيبةَ أملِهِ بسهولةٍ أكبرَ لولا والده المثير للشفقةِ الذي يتوقُ لرؤيتِهِ في مصافِّ عليةِ القومِ.

كان غريف حصاناً فتيّاً، ولأنَّ رالف مجرَّدُ مرافقٍ فهو لن يحظى بحصانٍ حربي باهظِ الثمنِ. ولكن رالف أحبَّ غريف الذي كان يستجيبُ بطيبِ خاطر كلما حثَّه على الركضِ في رحلاتِ الصيدِ. أثارت الحركةُ في الفناءِ حماسَ غريف ونفاد صبرِه للانطلاقِ فهمسَ رالف في أذنِهِ: «على رسلكَ أيُّها الفتى الجميل، ستركضُ عمَّا قريب». هدأ الجوادُ بعدَ سماعِ صوتِ رالف.

«كُن جاهزاً على الدوام لإرضاءِ الإيرل بأيّ طريقةٍ ممكنةٍ»، قالَ السير جيرالد. «لأنَّه سيتذكرك عندما يرغبُ بملءِ منصبٍ ما».

أدركَ رالف أنَّ كلامَ والدِه دقيقٌ جداً ولكنَّ الفرصَ الحقيقيةَ لا تأتي إلّا في المعاركِ، وها هي الحربُ تقرعُ طبولها أعلى فأعلى مع غروبِ شمسِ كلِّ يومٍ. لم يحضر رالف اجتماعَ الإيرلِ وتجارَ الصوفِ إلّا أنَّه فهمَ أنَّ التجار مستعدون لإعطاءِ المالِ إلى الملكِ إدوارد. كانوا يريدونَ أن يأخذَ الملكُ خطوةً حاسمةً بخصوصِ فرنسا ويثأرَ للهجماتِ الفرنسيةِ على المرافئِ الإنكليزيةِ الجنوبيةِ.

في هذهِ الأثناءِ كان رالف يتوقُ لإيجادِ طريقةٍ يرفع بها من شأنِهِ واستعادةِ شرفِ العائلةِ الذي فقدتْهُ منذُ عشرِ سنواتٍ. لم يكن يرغبُ بفعلِ هذا من أجلِ والدِهِ فحسب، بل من أجلِ كبريائِهِ الشخصي أيضاً.

بدأ غريف يرفسُ ويحرِّكُ رأسهُ متململاً، ولتهدئتِهِ سارَ معهُ رالف في المكانِ ووالدهُ برفقتِهِ. وقفَت والدته بعيداً فقد كانت مستاءةً من منظرِ أنفِهِ المكسورِ.

سارَ رالف مع والدِه قريباً من الليدي فيليبا التي أمسكت بإحكامٍ لجامَ فرسٍ سريعةٍ وهي تتحدثُ إلى زوجها اللورد ويليام. كانت في ثيابٍ ضيِّقةٍ عند الصدرِ وهي ثيابٌ مناسبةٌ لرحلةٍ طويلةٍ، وتُبرزُ صدرَها بالكاملِ وساقيها الطويلتين. يبحثُ رالف دوماً عن سببٍ للتحدثِ إليها، ولكن هذا لم يكن مفيداً بشيءٍ لأنَّه مجردُ تابعٍ من أتباعِ والدِ زوجها ولهذا لم تتحدث إليه ما لم تكن مضطرةً لفعلِ هذا.

شعرَ رالف أنَّ حياتَهُ بأكملها مطامح، وتساءلَ في نفسِهِ متى سيتمكنُ من تحقيقِ شيءٍ. تمشّى مع والدِه لبعضِ الوقتِ في الفناءِ وعادا.

رأى راهباً بيدٍ مقطوعةٍ يخرجُ من المطبخِ ويعبرُ الفناءَ، وذُهلَ من شكلِهِ المألوفِ. وبعدَ بُرهةٍ تذكَّرَ أينَ رأى هذا الوجه؛ كان توماس لانغلي، الفارس الذي قتلَ أحدَ الجنودِ في الغابةِ منذُ عشرة أعوامٍ. لم يرَ رالف الرجلَ منذُ ذلكَ اليومِ، ولكن شقيقهُ ميرثن رآه لأنَّ الفارسَ أصبح راهباً الآن والمشرف على

إصلاحِ مباني الديرِ. كان توماس في رداءٍ مُهلهلٍ بدلاً من ثيابِ الفارسِ الفاخرةِ وقد حلَقَ رأسه في المنتصفِ كما يفعلُ الرهبانُ. بدا أكثرَ سُمنةً عندَ الخصرِ وما زال يمشي كرجلٍ مقاتل.

مرَّ توماس بالقربِ منهما وقالَ رالف للورد ويليام بشكلٍ عرضي: «ها هو.. الراهبُ الغامضُ».

وقال توماس بحدَّةٍ: «ما الذي تعنيه؟»

«كانَ الأخ توماس فارساً في ما مضى ولا يعلمُ أحدٌ سببَ انضمامِهِ إلى الديرِ».

«وما الذي تعلمُهُ عنه بحقِّ الشيطانِ؟» بدا الغضبُ واضحاً في لهجةِ ويليام رغم أنَّ رالف لم يوجه له إهانةً. ربما كان مزاجُهُ عكراً رغمَ أنَّ زوجتَهُ الجميلةَ تبتسمُ بلطفٍ.

وتمنى رالف الآن لو أنَّه لم يُثر هذا الموضوع. «كنتُ هنا في اليومِ الذي وصلَ فيهِ إلى كينغزبريدج»، قالَ رالف ثم ترددَ عندما تذكَّر القسمَ الذي أقسمُهُ مع البقيةِ عصرَ ذلكَ اليومِ. وبسببِ هذا القسمِ وضيقِ ويليام غيرِ المفهومِ لم يقصّ رالف القصَّةَ كاملةً. «دخلَ إلى البلدة مُترنحاً وينزفُ من جرحِ سيفٍ. سيتذكرُ أيُّ فتى مثلَ هذا الأمرِ».

قالت فيليبا: «هذا مثيرٌ للاهتمامِ». ونظرَت إلى زوجِها قائلةً: «هل تعرفُ قصة الأخ توماس؟»

«بالطبعِ لا»، انفجرَ ويليام غاضباً. «كيف لي أن أعرفَ مثلَ هذا الأمرِ؟»

هزَّت كتفيها بلا مبالاةٍ وابتعدَت.

ابتعدَ رالف في ارتياحٍ ثمَّ قالَ لوالدِه بصوتٍ خفيضٍ: «إنَّ اللورد ويليام يكذبُ. أتساءلُ عن سببِ قيامِهِ بهذا؟»

«لا تطرح المزيدَ من الأسئلةِ حولَ الراهبِ»، قالَ والدُه بقلقٍ. «يبدو أنَّ المسألةَ حساسةٌ».

وأخيراً ظهرَ الإيرل رولاند وبرفقتِهِ رئيسُ الديرِ أنتوني. اعتلى الفرسانُ والمرافقون صهوات جيادِهم. قبَّلَ رالف والدِيه مودعاً واعتلى حصانَه. أخذَ الحصانُ غريف يتحرَّكُ يمنةً ويسرةً في توقٍ للانطلاقِ، وبسبب حركةِ الحصانِ شعر رالف بألمٍ كالنارِ في أنفِهِ المكسورِ. أخذَ يصرُّ على أسنانِهِ من شدَّةِ الألم. لم يكن بوسعِهِ فعلُ شيءٍ حيالَ الأمرِ سوى تحمُّلِه.

توجهَ رولاند إلى حصانِهِ «فيكتوري». كان حصاناً أسود ببقعةٍ بيضاء فوقَ إحدى عينيهِ. لم يعتلِهِ على الفورِ بل أمسكَ باللجامِ وأخذَ يسيرُ وهو مستمرٌ بالحديثِ إلى رئيسِ الديرِ. وصرخَ ويليام: «أيُّها السير ستيفن ورالف فيتزجيرالد تقدَّما وأخليا الجسرَ».

انطلقَ رالف وستيفن عبرَ حديقةِ الكاتدرائيةِ. كان عشبُ الحديقةِ قد سُحقَ تحتَ وطءِ الأقدامِ والطريقِ موحلاً بسببِ سوقِ الصوفِ، وما زال هناك بضعة أكشاكٍ تعملُ إلّا أنَّ معظمَها كان قد أُغلقَ والعديدُ من الباعةِ قد غادرَ المكانَ بحلولِ هذا الوقتِ. وعبر الجميعُ بواباتِ الديرِ.

على الطريقِ الرئيسي رأى رالف الفتى الذي لكمَهُ وكسرَ أنفَهُ. كان يدعى ولفريك، وهو من قريةِ ويغلي التي يحكمها ستيفن. رأى الرضوضَ على جانب وجهِهِ الأيسر المتورمِ حيث لكمهُ رالف. كان ولفريك خارجَ نُزلِ بيل مع والدِه ووالدتِه وشقيقِهِ كأنَّهم على وشكِ المغادرةِ.

وفكرَّ رالف في نفسِهِ: «من الأفضلِ لكَ ألّا تلتقي بي مجدداً».

حاولَ التفكيرَ بإهانةٍ ما ليصرخَ بها نحوه ولكن صوتَ الحشدِ شتتَ انتباهَهُ.

وبينما كان يعبرُ مع ستيفن الشارعَ الرئيسي وجواداهما يخبَّان برشاقةٍ على الطريقِ الموحل رأيا أمامهما حشداً من الناسِ.

كانَ الطريقَ مسدوداً بمئاتٍ من الرجالِ والنساءِ والأطفالِ، وجميعهم يصرخون ويضحكون ويتدافعون. كانت ظهورهُم لرالف الذي نظرَ من فوقِ رؤوسِهم.

رأى أمامَ هذا الحشدِ الجامحِ عربةً يجرُّها ثورٌ وقد رُبطت امرأةٌ شبهُ عاريةٍ في العربةِ. كان رالف قد رأى هذا مسبقاً؛ فقد كان العقاب بالجلد على عربةٍ تتجولُ في أرجاء المدينةِ شائعاً. لم تكن المرأةُ ترتدي شيئاً سوى تنورةٍ من الصوفِ الخشنِ المُحكمَة حولَ خصرِها بحبلٍ. وعندما تمكنَ من رؤيةِ وجهها اكتشفَ أنَّه ملطخٌ بالسخامِ وشعرُها قذرٌ وهذا سببُ اعتقادِهِ بأنَّها عجوزٌ. ولكن عندما رأى ثدييها أدركَ أنَّها في العشرين من عمرِها.

كانت يداها مربوطتين بحبلٍ إلى نهايةِ العربةِ وتترنحُ في سيرِها خلفَها فتقعُ أحياناً والعربةُ تجرُّها وهي تتلوى في الوحلِ إلى أن تنجحَ في الوقوفِ على قدميها مجدداً. سارَ مأمورُ المدينةِ خلفَها وهو يسوطها على ظهرِها العاريِ بسوطٍ للثيرانِ كان عبارةً عن هراوةٍ وقطعة من الجِلدِ.

سخرَ الحشدُ الذي قادتهُ مجموعةُ شبابٍ من المرأةِ وضحكوا عليها ورموها بالشتائمِ وقطعِ الطينِ والقمامةِ وقد ابتهجوا بصراخها وشتائمها وبصقها على كلِّ من يقتربُ منها.

دفعَ رالف وستيفن حصانيهما عبرَ الحشدِ، وقالَ رالف بأعلى صوتِهِ: «أخلوا الطريقَ! أفسحوا الطريقَ للإيرلِ!»

وفعلَ ستيفن الأمرَ عينهُ.

ولكن ما من أحدٍ لاحظهما.

***

إلى الجنوبِ من الديرِ منحدرٌ ينتهي عندَ النهرِ. كانت ضفةُ النهرِ من هذه الجهةِ صخريَّةً وغيرَ مناسبةٍ لتحميلِ السفنِ والعواماتِ، ولهذا كانت جميعُ أرصفةِ التحميلِ على الجانبِ الجنوبيِ المنبسطِ في ضاحيةِ نيوتاون. في مثلِ هذا الوقتِ من العامِ تزهرُ الشجيراتُ الخضراء وتتفتحُ الزهورُ البريَّةُ على الجانبِ الشمالي الهادئ. جلسَ ميرثن وكاريس على الجرفِ العالي المُطل على النهرِ.

كان النهر مُترعاً جداً بمياهِ الأمطارِ، ولاحظَ ميرثن أنَّ جريانَ الماءِ سريعٌ جداً مقارنةً بحالةِ النهرِ العاديةِ وعرفَ سببَ هذا. كانَ سريرُه أضيقَ من ذي قبل بسبب كلِّ أعمالِ البناءِ على ضفتهِ. عندما كان طفلاً كانت الضفةُ الجنوبيةُ أوسع وأشبه بشاطئ موحلٍ مع حقلٍ مستنقعي خلفه. كان النهرُ آنذاك يتدفقُ بسرعةٍ ثابتةٍ، وتذكرَ كيف أنَّه كانَ يسبحُ على ظهرِهِ ويقطعُ النهر من جهةٍ إلى أخرى، ولكنَّ الأرصفة الجديدةَ والمحميّةَ من الطوفانِ بجدرانٍ حجريَّةٍ قلَّصت المساحةَ وأصبحَ السريرُ أضيق وتدفقت المياه بسرعةٍ أكبر كأنَّها على عجلةٍ لتجاوزِ الجسرِ حيثُ يغدو النهرُ بعدَهُ أوسع وأبطأ حولَ جزيرةِ ليبر.

«لقد اقترفت أمراً رهيباً»، قال ميرثن لكاريس.

لسوءِ الحظِ بدت كاريس اليومَ جميلةً بشكلٍ مميزٍ؛ فقد ارتدَت ثوباً قطنياً أحمرَ داكناً وبدَت بشرتُها كأنَّها تشُعُّ حيويةً. كانت ما تزالُ غاضبةً من محاكمةِ نيل المجنونةِ، إلَّا أنَّها الآن كانت قلقةً وأضفى هذا عليها مظهراً هشَّاً خفقَ له قلبُ ميرثن. لا بدَّ أنَّها لاحظت أنَّه لم يكن قادراً على النظرِ في عينيها طوالَ الأسبوعِ، ولكنه الآن على وشكِ إخبارها بالسببِ الذي قد يكون أسوأ بكثيرٍ مما تخيلت.

لم يتحدَّث إلى أحدٍ عن هذا منذُ شجارِهِ مع غريزيلدا وإلفريك وأليس. لم يعلم أحدٌ أنَّ البابَ دُمِّر. كان يتوقُ إلى إزاحةِ هذا العبءِ عن كاهلِهِ ولكنَّهُ لجمَ نفسَهُ. لم يرغبْ بالتحدثِ إلى والديهِ، فوالدتُهُ ستنتقدهُ وسيطلبُ والده منهُ أن يتصرَّفَ كرجلٍ. كان بوسعِهِ التحدثُ إلى رالف ولكن علاقتهما باتت باردةً منذُ عراكِ رالف مع ولفريك، فقد اعتقدَ ميرثن أنَّ رالف تصرفَ كمُتنمرٍ، وعلمَ رالف بما جالَ في ذهنِ ميرثن في هذا الشأنِ.

كان يهابُ إخبارَ كاريس بالحقيقةِ، ولوهلةٍ تساءلَ عن سببِ خوفهِ. لم يكن السببُ خوفهُ مما قد تفعله إن عرفت، فقد تعاملهُ بازدراءٍ. ورغمَ براعتها في هذا فإنَّها لن تتفوه بما هو أسوأ مما قالهُ في نفسهِ سرّاً.

وأدركَ ميرثن أنَّ خوفَهُ الحقيقي هو في احتمالِ إيذائها. كان بوسعِهِ تحمّلُ غضبها إلّا أنّه لا يستطيعُ مواجهةَ ألمها.

قالت له: «أما زلتَ تحبني؟»

كان يتوقعُ منها هذا السؤال ولكنَّهُ أجابَ دون ترددٍ: «أجل».

«وأنا أحبّكَ وسنحلُّ أيّ مشكلةٍ معاً».

وتمنى أن تكون على حقٍ في هذا، تمنى هذا بقوةٍ كبيرةٍ دفعَتهُ إلى البكاءِ. أدارَ وجههُ حتَّى لا ترى دموعَهُ. كان هناك حشدٌ من الناسِ يعبرونَ الجسرَ خلفَ عربةٍ تسيرُ ببطءٍ، وأدركَ أنَّ نيل المجنونة تُجلدُ خلفَ عربةٍ تتجولُ في أرجاءِ المدينةِ وهي في طريقِها إلى غالوز كروس في نيوتاون. كانَ الجسر مزدحماً أصلاً بالباعةِ وعرباتِهم ولهذا كانت الحركةُ عليهِ بطيئةً جداً.

«ما الأمرُ؟» قالت كاريس. «هل تبكي؟»

«لقد نمتُ مع غريزيلدا»، قال ميرثن بشكلٍ مفاجيء.

فغرَت كاريس فمها من الدهشةِ وقالت غير مصدقةٍ: «غريزيلدا؟»

«أنا خجلٌ من نفسي جداً».

«اعتقدتُ أنّك نمتَ مع إليزابيث كلرك».

«إنَّها متعاليةٌ جداً ولن تعرضَ نفسَها».

وفاجأهُ ردُّ فعلِ كاريس عندما قالت: «أوه، كنت ستفعلها معها أيضاً إن أبدَت موافقتَها؟»

«لم يكن هذا ما عنيتُهُ!»

«بحقِّ العذراءِ لقد ضاجعتَ غريزيلدا! اعتقدتُ أنني أستحقُّ خيانةً مع امرأةٍ أفضلَ منها».

«وأنتِ تستحقين هذا».

«مع عاهرةٍ!»، قالتها باللاتينيةِ.

«وأنا أصلاً لا أحبُّها بل أكرهُها».

«هل من المفترضِ أن يجعلني هذا أشعرُ بشكلٍ أفضل؟ هل تعني بكلامِكَ أنّكَ لم تكن لتشعرَ بالأسفِ لو أنّك تمتعتَ بالأمرِ؟»

«لا!» قال ميرلن بخيبةٍ. يبدو أنَّ كاريس مصممةٌ على إساءةِ تفسيرِ كلِّ شيءٍ يقولهُ.

«ما الذي دفعَكَ لفعلِ هذا؟»

«كانت تبكي».

«يا إلهي! هل تفعل هذا مع كلِّ فتاةٍ تراها تبكي؟»

«بالطبعِ لا. أنا أحاولُ أن أشرحَ لكِ كيف حدثَ الأمرُ رغماً عني».

بدأ ازدراؤها لهُ يتعاظمُ مع كلِّ كلمةٍ يتلفّظُ بها. «لا تتفوه بالترهاتِ»، قالت له. «لو لم تكن راغباً بالأمرِ لما حدثَ».

«أصغِي إليَّ من فضلكِ»، قالَ لها في يأسٍ. «لقد طلبت مني وأنا رفضتُ، ثمَّ بكَت وعندما وضعَتُ ذراعي حولها لتهدئتها...»

«اعفني من التفاصيلِ لو سمحتَ. لا أريدُ أن أعرفَ».

بدأ الامتعاضُ يسيطرُ عليه. كان يعلمُ أنّه اقترفَ خطأً وتوقعَ منها أن تغضبَ، ولكن ازدراءها آذاه. «حسناً»، قال ثمَّ صمتَ.

ولكنَّها لم تكن تريدُ منه أن يصمتَ ولذلكَ نظرَت نحوه باستياءٍ وقالت: «ماذا أيضاً؟»

هزَّ كتفيهِ وقال: «ما الفائدةُ من أيِّ شيءٍ أقولُهُ؟ فأنتِ تزدرين كلَّ شيءٍ أتفوه بهِ».

«لا أريدُ سماعَ أعذارٍ واهيةٍ. أعرفُ أنَّ هناكَ أمراً تخفيهِ عني. أشعرُ بهذا».

تنهد وقال: «إنَّها حامل».

وتفاجأ مجدداً بردِ فعلِها. لم تغضب ووجهها الذي كان حتَّى الآن مُسربلاً بالسُخطِ فقد كلَّ تعابيرهِ ولم يبقَ سوى الحزنِ بادياً عليهِ. «طفلٌ. ستُنجبُ غريزيلدا طفلاً لكَ».

«قد لا يحدثُ هذا»، قال لها. «أحياناً..»

هزَّت كاريس رأسَها وقالت: «إنَّ غريزيلدا فتاةٌ موفورةُ الصحةِ وتتناولُ طعاماً مغذياً ولهذا ما من سببٍ قد يدفعُها للإجهاضِ».

«لا أعني بكلامي أنني أتمنى حدوثَ هذا»، قال لها رغمَ أنَّه كان يتمنى في سريرتِهِ حدوثَ هذا.

«ولكن ما الذي ستفعلُه؟» قالت له. «سيكونُ لكَ طفلٌ وستحبُهُ حتَّى وإن كرهتَ والدتَهُ».

«يجبُ أن أتزوجَ بها».

«شهقَت كاريس وقالت: «تتزوجها! ولكن هذا يعني أنَّكَ ستكون معها إلى الأبدِ».

«سيكونُ لدي طفلٌ ولهذا عليَّ أن أعتني بِهِ».

«ولكنَّكَ ستقضي بقيةَ حياتِكَ مع غريزيلدا!»

«أعلمُ».

«ليسَ عليكَ أن تفعلَ هذا»، قالت بحزمٍ. «لا تنسَ أنَّ والدَ إليزابيث كلرك لم يتزوج من والدتها».

«لأنَّه كان أسقفاً».

«ومود روبرتس من سلوترهاوس ديتش لديها ثلاثةُ أطفالٍ والجميعُ يعلمُ أنَّ والدهم إدوارد بوتشر».

«إنَّهُ متزوجٌ ولديهِ أربعةُ أطفالٍ من زوجتِهِ».

«أنا أقصدُ أنَّ الناسَ ليسوا مُجبرينَ على الزواج من بعضِهم دوماً. يمكنكَ أن تبقى عازباً».

«لا، لا يمكنني لأنَّ إلفريك سيطردُني».

بدت غارقةً في التفكيرِ ثمَّ قالت: «إذاً، تحدَّثت إلى إلفريك».

«تحدَّثتُ؟» قالَ ميرثن ولمس الرضَّ على خدِه. «اعتقدتُ أنَّه على وشكِ قتلي».

«وزوجتُهُ... أختي؟»

«لقد صرخَت في وجهي».

«إذاً، إنَّها تعلمُ».

«أجل، وقالت إنَّه عليَّ الزواجُ من غريزيلدا. لم تكن موافقةً أبداً على علاقتي بكِ ولا أعلمُ السببَ».

وهمهمت كاريس قائلةً: «إنَّها تريدكَ لنفسِها».

تفاجأ ميرثن بما سمعَهُ، وبدا له إعجابُ المتغطرسةِ أليس بمتدربٍ وضيعٍ أمراً مستبعداً. «لم أرَ ما يدلّ على هذا».

«لأنَّك لم تنظر إليها قط، وهذا ما جعلَها غاضبةً منكَ فتزوجت من إلفريك بدافعِ اليأسِ. لقد كسرتَ قلبَ أختي، وها أنتَ تكسرُ قلبي الآن».

أشاحَ ميرثن بنظرهِ بعيداً. لم يكن قادراً على تخيُّلِ نفسِهِ شخصاً يُحطِّمُ القلوبَ، وتساءلَ في نفسِهِ أينَ ساءت الأمورُ. صمتت كاريس وأخذَ ميرثن يُحدقُ بكآبةٍ في النهرِ في جريانهِ باتجاهِ الجسرِ.

رأى أنَّ الحشدَ قد توقفَ عن التقدمِ، وهناكَ عربةٌ تنوءُ تحتَ حملٍ من أكياس الصوفِ عالقةٌ عند الطرفِ الجنوبي وقد يكونُ السببُ عجلةً مكسورةً. كانت العربةُ التي تجرُّ نيل قد توقفَت فهي لم تعد قادرةً على شقِّ طريقِها والتقدم، وقد تجمهرَ الحشدُ حولَ العربتين وصعدَ البعضُ على أكياسِ الصوفِ من أجلِ رؤيةٍ أفضلَ، وحتَّى الإيرل رولاند الذي كان يحاولُ المرورَ أيضاً على ظهرِ جوادِهِ مع حاشيتِهِ عندَ طرفِ الجسرِ الذي يُفضي إلى المدينةِ وجدَ صعوبةً في تفريقِ الحشدِ أمامَهُ. رأى ميرثن شقيقَهُ رالف على جوادِهِ الكميت ذي الشعرِ الأسود. وقفَ رئيسُ الديرِ أنتوني الذي أتى لوداعِ الإيرل يفركُ يديهِ في توترٍ بينما رجالُ رولاند على أحصنتِهم يحاولون شقَّ الطريقِ بين الحشدِ من أجلِ الإيرلِ ولكن دونَ طائل.

وشعرَ ميرثن بأنَّ حدسَهُ ينذرُهُ بشيءٍ. كان واثقاً من وجودِ خطبٍ خطيرٍ جداً، رغمَ أنَّهُ لم ينجح في تحديدِهِ. أمعنَ النظرَ بدقةٍ أكبر نحو الجسر. كان قد لاحظَ يومَ الإثنين أنَّ الدعامةَ الأساسيةَ المصنوعةَ من شجرِ البلوطِ، التي تربط الدعائم الأخرى على طولِ الجسرِ، تعاني من صدوعٍ في منطقةِ أعلى النهرِ، وأنَّ المشابكَ المعدنيةَ قد غُرزَت على طولِ الصدوعِ لتمتين الدعامةِ. لم يعمل ميرثن على هذهِ المهمةِ ولهذا لم يتمكن من إلقاءِ نظرةٍ فاحصةٍ عليهِ سابقاً. لم يكن الضعفُ في منتصفِ القائمتين كما يمكن لأيِّ أحد أن يتوقع بالنظرِ إلى تداعي الأخشابِ مع مرورِ الوقتِ، بل كانت الصدوعُ قريبةً من الدعامةِ الرئيسيةِ حيث يفترضُ بالجهدِ أن يكون أقل.

لم يكن قد فكرَ بالأمرِ منذُ يومِ الإثنين فقد كانت هناكَ أمورٌ كثيرةٌ تشغلُ بالَهُ، ولكنَّهُ الآن وصلَ إلى تفسيرٍ. بدا الأمرُ كأنَّ الدعامةَ المركزيةَ لا تدعمُ

العوارضَ بل تشدُّها إلى الأسفل، وهذا يعني أنَّ شيئاً ما قوَّضَ البنيان تحتَ الدعامةِ المركزيةِ، وحالما فهمَ الأمرَ أدركَ سببَ الصدوعِ. لا بد أن جريانَ النهرِ السريعِ قد جرفَ سريرَ النهرِ تحتَ الدعامةِ.

وتذكرَ في ما مضى عندما كانَ طفلاً كيف مشى حافي القدمين على شاطئٍ رملي، ولاحظَ وهو واقفٌ على حافةِ الماءِ والموجُ يلطمُ قدميهِ أنَّ الموجةَ عندما تتراجعُ تسحبُ معها الرمالَ تحتَ قدميهِ. لطالما سحرتْهُ هذه الظاهرة.

إن كانَ على حقٍ في ما اعتقدَهُ فلا وجودَ ما يُثبِّتُ الدعامة المركزية في الأسفل، ولهذا السببِ توجد صدوعٌ، ومشابكُ إلفريك المعدنيةُ لم تكن مفيدةً وربما زادت من سوءِ الأمرِ بأن جعلَت استقرارَ الجسرِ في وضعيَّةٍ جديدةٍ ثابتةٍ أمراً مستحيلاً.

وتكهنَ ميرثن أنَّ الدعامةَ الأخرى على الجانب الأقصى والأسفل من الجسرِ ما زالت ثابتةً. لا بدَّ أنَّ تيارَ النهرِ قد ضربَ بقوةِ العارضةَ في أعلى النهرِ وضربَ الثانيةَ بعنفٍ أقلّ. لم تتأثر سوى عارضةٍ واحدة، ويبدو أنَّ بقيةَ هيكلِ الجسرِ متماسكةٌ بقوةٍ كافيةٍ للحفاظِ على ثباتِ الجسرِ في مكانِهِ ما لم يخضع لضغطٍ كبيرٍ جداً.

ولكن اليومَ بدت لهُ الصدوعُ أكبرَ مما كانت عليهِ يومَ الإثنين، وكان السببُ واضحاً، فهناكَ مئاتُ الناسِ على الجسرِ وهذا حِملٌ أكبر من المعتادِ، وهناكَ العربةُ المُثقلةُ بحمولةِ الصوفِ إضافةً إلى الوزنِ الزائدِ لعشرين أو ثلاثين شخصاً يجلسونَ فوقَ الأكياسِ.

وتملَّكَ الخوفُ قلبَ ميرثن فهو لا يتوقعُ أن يتحمَّلَ الجسرُ هذا المستوى من الضغطِ لوقتٍ طويلٍ.

وبالكادِ انتبهَ إلى أنَّ كاريس كانت تتكلمُ ولكن كلامَها لم يفلح في تشتيتِ ما كانَ يجولُ في رأسِهِ إلى أن رفعَت صوتَها قائلةً: «أنتَ لا تُصغي إليَّ حتَّى!»

«سيقعُ حادثٌ رهيبٌ»، قال لها.

«ما الذي تعنيهِ؟»

«يجبُ أن نطلبَ من الجميعِ إخلاءَ الجسرِ».

«هل أنتَ مجنونٌ؟ إنهم يعذبونَ نيل المجنونة. حتَّى الإيرل رولاند لا يستطيعُ تجاوزهم. لن يُصغوا إليكَ».

«أعتقدُ أنَّ الجسرَ سيتداعى».

«أوه انظر»، قالت كاريس وهي تشيرُ بيدِها. «هل يمكنكَ أن ترى ذلكَ الشخصَ الذي يركضُ عبرَ طريقِ الغابةِ ويقتربُ من الطرفِ الجنوبي للجسرِ؟»

وتساءلَ ميرثن في نفسِهِ عن علاقةِ هذا بالأمرِ، ولكنَّه نظرَ إلى حيثُ أشارَت بإصبعِها، ورأى خيالَ شابةٍ تجري وشعرها يتطايرُ وراءها.

قالت كاريس: «إنَّها تشبهُ غويندا».

كان في إثرِها رجلٌ بعباءةٍ صفراء يركضُ بسرعةٍ.

***

شعرَت غويندا بتعبٍ لم تشعر بهِ في حياتِها.

كانت تعلم أنَّ الطريقةَ الأسرعَ لقطعِ مسافةٍ طويلةٍ هي بالركضِ عشرينَ خطوةً والمشي لعشرين خطوةً أخرى. كانت قد بدأت تقطعُ الطريقَ وفقَ هذه الطريقةِ لنصفِ نهارٍ إلى أن رأت سيم تشابمان خلفَها. ولوهلةٍ اختفى عن أنظارِها ولكنَ الطريقَ انفتحَ خلفها مجدداً ورأتهُ يسيرُ ويركضُ بالتناوبِ. وميلاً بعدَ ميلٍ، وساعةً بعد ساعةٍ نجحَ سيم أخيراً في اللحاقِ بها. وعندَ منتصفِ الصباحِ أدركَت أنَّهُ، وبهذا المُعدلِ، سيلحقُ بها قبلَ أن تصلَ إلى كينغزبريدج.

دفعها اليأسُ إلى أخذِ طريقِ الغابةِ، ولكنَّها لم تغامر بالابتعادِ جداً عن الطريقِ الرئيسي حتَّى لا تضيعَ عنهُ. وفي النهايةِ سمعَت صوتَ أحدٍ يجري ويتنفسُ بصعوبةٍ، وتلصصَت من وراءِ أجمةٍ لترى سيم يسيرُ على الطريقِ قريباً منها فأدركت أنَّه عندما يصلُ إلى فسحةٍ مقطوعةِ الشجرِ سيدركُ ما قامَت بهِ، وهذا ما حدثَ لأنَّها رأتهُ بعدَ قليلٍ يعودُ أدراجهُ.

اندفعَت بسرعةٍ عبرَ الغابةِ وكانت تتوقفُ كلَّ بضعِ دقائق في صمتٍ وتُصيخ السمعَ. نجحت لوقتٍ طويلٍ في التملُّصِ منهُ؛ فقد كانت تعلمُ أنَّه سيفتشُ الغابةَ من كلا جانبي الطريق ليتأكدَ من أنَّها لا تختبئ، إلَّا أنها أيضاً لم تتقدم بسرعةٍ فقد كان عليها شقُّ طريقِها بينَ الشجيراتِ الصيفيةِ ومتابعةُ النظرِ إلى الطريقِ حتى لا تتوهَ عنهُ.

أتاها صوتُ حشدٍ بعيدٍ وعلمَت أنَّها لم تكن بعيدةً عن المدينةِ، وأدركت أنَّها قد تنجو. توجهت إلى الطريقِ وبحذرٍ أخذَت تعاين المكانَ من وراءِ أجمةٍ. كان الطريق آمناً من كلا الاتجاهين، وعلى بعدِ ربع ميلٍ شمالاً رأت برجَ الكاتدرائيةِ.

ها قد شارفت على الوصولِ إلى المدينةِ.

ثمّ سمعَت صوتَ نباحٍ مألوفٍ وظهرَ كلبُها سكيب من وراءِ الأجماتِ على

أحد جوانبِ الطريقِ. وبينما انحنَت لتربّت عليهِ وهو يهزُّ ذيلَهُ بفرحٍ ويلعقُ يديها غلبتْها الدموعُ.

لم يكن سيم مرئياً لها وخاطرَت بالخروجِ إلى الطريقِ المفتوحِ لتعاودَ السير في تعبٍ عشرينَ خطوةً والركضَ عشرينَ أخرى بينما سارَ سكيب إلى جانبِها سعيداً لاعتقادِهِ أنّهما يلعبان لعبةً جديدةً. وفي كل مرّةٍ تنتقلُ فيها من الركضِ إلى المشيِ أو بالعكسِ تنظرُ إلى الوراءِ من فوقِ كتفيها. وفي المرةِ الثالثةِ التي فعلَت هذا رأت سيم.

كان على بُعدِ مئتي ياردةٍ عنها.

وضربها اليأسُ كموجةٍ عملاقةٍ. أرادَت الاستلقاء أرضاً والموتَ، إلّا أنّها كانت قد وصلَت إلى الضواحي، ولا يبعدُ عنها الجسرُ سوى مسافة ربعِ ميلٍ، ولهذا أجبرَت نفسَها على المتابعةِ.

حاولت أن تهرولَ ولكن خانتها قدماها ولم تنجح سوى بالهرولةِ بشكلٍ مترنحٍ. كانت قدماها تؤلمانها. نظرَت إلى الأسفلِ ورأت الدمَ يسيلُ من بينِ ثقوبِ حذائها المهترئ، وعندما تجاوزَت زاوية غالوز كروس رأت حشداً هائلاً على الجسرِ أمامَها. كانوا ينظرون إلى شيءٍ ما، ولم يلاحظ أحدٌ أنّها كانت تركضُ نجاةً بحياتِها من وسيم الذي يركضُ خلفَها.

لم يكن بحوزتِها أيُّ سلاحٍ باستثناءِ سكينِ الطعامِ التي قد تقطعُ لحمَ أرنبٍ مشويٍ إلّا أنّها بالكادِ تؤذي رجلاً. وتمنت الآن لو أنّها أخرجَت خنجرَ آلوين الطويل من رأسِه وأخذتْهُ معها؛ فها هي الآن عزلاء تقريباً.

على أحدِ جانبي النهرِ صفٌّ من المنازلِ الصغيرةِ. يسكنُ منازلَ الضواحي أناسٌ فقراءُ جداً على العيشِ في المدينةِ، وعلى الجانبِ الآخرِ مرعى لافرز فيلد الذي تعودُ ملكيتُهُ إلى الديرِ. كان سيم وراءها وقريباً جداً منها إلى درجةِ أنّها كانت قادرةً على سماعِهِ يتنفسُ بصعوبةٍ وتعبٍ مثلَها، ومنحَها الرعبُ دفقاً جديداً من الطاقةِ. أخذَ سكيب ينبحُ، إلّا أنَّ نباحَهُ فضحَ خوفاً وليسَ تحدياً فهو لم ينسَ الحجرَ الذي رماهُ بهِ سيم وأصابَهُ في أنفِهِ.

كانَ الطريقُ الذي يؤدي إلى الجسرِ عبارةً عن مستنقعٍ من الوحلِ اللزجِ بآثارِ الأحذيةِ والحدواتِ وعجلاتِ العرباتِ. خاضَت غويندا الطريقَ الموحلَ على أملٍ كبيرٍ بأن يُعرقلَ الطينُ تقدُّمَ سيم الأثقل وزناً منها.

وأخيراً وصلَت إلى الجسرِ، واندفعَت بينَ الحشدِ الذي كان أقلَّ كثافةً في

نهايتِهِ. كانوا جميعاً ينظرونَ إلى الجانبِ الآخرِ حيثُ سدَّت عربةٌ مثقلةٌ بحمولةٍ من الصوفِ الطريقَ أمامَ عربةٍ يجرُّها ثورٌ. كانَ عليها أن تصلَ إلى منزلِ كاريس، وكانَ بوسعها رؤيةُ الشارعِ الرئيسي حيث يقعُ المنزلُ. أخذت تصرخُ بالناسِ: «دعوني أمرُّ!» وهي تشقُّ طريقَها بينهم. ويبدو أنَّ ما من أحدٍ سمعَها باستثناء شخصٍ واحدٍ أدارَ رأسَهُ لينظرَ ورأت وجهَ أخيها فيليمون الذي فغرَ فاه من الدهشةِ وحاولَ أن يقتربَ منها ولكنَّ الحشدَ منعَهُ تماماً كما منعها.

حاولت غويندا أن تشقَّ طريقَها عبرَ قطيعِ الثيرانِ الذي يجرُّ عربةَ الصوفِ، ولكنَّ أحدَ الثيرانِ لوحَ برأسِهِ العملاقِ ورمَاها جانباً ففقدَت توازنَها، وفي تلكَ اللحظةِ أمسكَت يدٌ كبيرةٌ قويةٌ ذراعَها، وعرفَت أنَّ سيم ألقى القبضَ عليها.

«لقد أمسكت بكِ أيتها العاهرة»، شهقَ سيم قائلاً وسحبَها نحوه ثمَّ صفعَها على وجهها بكلِّ قوتِهِ. لم يكن قد تبقى لديها طاقةٌ كبيرةٌ لمقاومتِهِ، وأخذَ سكيب ينبحُ بشراسةٍ عندَ قدميهِ. «لن تهربي مني مجدداً».

شعرت باليأسِ يجتاحها وبدا لها أنَّ كلَّ ما فعلتهُ حتَّى الآن كان بلا طائلٍ. لقد أغوت آلوين وقتلتهُ ثمَّ ركضت لأميالٍ وها هي الآن تعودُ إلى نقطةِ البدايةِ؛ إلى قبضةِ سيم.

وهنا بدأ الجسرُ يتحرَّكُ.



-13-

رأى ميرثن الجسرَ يتحرَّك.

تمايلت أرضيَّةُ الجسرِ فوقَ الدعامةِ الأساسيةِ القريبةِ من ميرثن الذي رأى الجسرَ ينحني كحصانٍ مكسورِ الظهرِ. وفجأةً، لم يشعر أولئكَ الذين كانوا يعذبونَ نيل إلَّا والأرضُ تميدُ بهم فترنحوا محاولينَ التشبثَ بعضهم ببعضٍ إلَّا أنَّهم سقطوا من فوقِ الحاجز، الواحدَ تلو الآخرِ، وسرعانَ ما تحولَ صراخُهم على نيل وسخريتُهم منها إلى صيحاتِ استغاثةٍ هلعةٍ.

صرخ ميرثن: «أوه لا».

وصاحَت كاريس: «ما الذي يجري؟»

أرادَ القولَ لها إن كلَّ هؤلاءِ الناس الذين كبرنا معهم سيموتون جميعاً؛ النسوةُ اللواتي كُنَّ لطيفات معنا، والرجالُ الذين كانوا يبغضوننا، والأطفالُ

المعجبون بنا، والأمهاتُ وأبناءُ وبناتُ الأعمام، بل حتَّى الأسيادُ القساةُ والأعداءُ اللدودون والعشاقُ الولهون، إلَّا أنَّ الكلمات خانتهُ.

ولبرهةٍ وجيزةٍ كان أملُ ميرثن الوحيد هو أن يصمدَ الجسرُ على وضعهِ الجديدِ إلَّا أن رجاءه خابَ لأنَّ الجسر ترنَّح مجدداً، وفي هذهِ المرَّةِ بدأت الألواحُ الخشبيَّةُ المُثبتةُ تنفلتُ من مفاصلِها، وراحَت الألواحُ الطولانيةُ التي يقفونَ عليها تنخلعُ من أوتادِها الخشبيَّةِ، كما خرجَت المفاصلُ العَرْضية التي كانت تدعمُ هيكلَ الجسرِ من مغارزِها، أمَّا المشابكُ الحديديةُ التي ثبَّتها إلفريك بين شقوق الألواحِ فقد انخلعَت من مكانِها.

بدا أنَّ الجزءَ الأوسطَ من الجسرِ من جهةِ ميرثن يهبطُ نحو الأسفلِ وعكسَ جريانِ النهرِ، فمالت عربةُ الصوفِ وسقطَ في النهرِ كلٌّ من وقفَ وجلسَ على أكياسِ الصوفِ المُكدسةِ عليها. بعدَ هذا بدأت الألواحُ الخشبيَّةُ الكبيرةُ تتكسرُ وتطايرَت في الهواءِ مما أدَّى إلى مقتلِ جميعِ من أصابتهم، وما لبثَ أن تداعى الحاجزُ فانزلقَت العربةُ عن الحافةِ ومعها الثورُ العاجزُ والخائفُ ليسقطا ببطءٍ شديدٍ وبصوتٍ مدوٍ كهديرِ الرعدِ. فجأةً، بدأ العشراتُ يقفزون في النهرِ وتبعهم المزيدُ. أمَّا أولئكَ الذين كانوا قد سقطوا في الماءِ فقد أصابتْهُم الألواح الخشبيَّةُ المتكسرةُ، الكبيرةُ منها والصغيرةُ، وأصابت أيضاً من سقطَ بعدَهم. بعد هذا بدأت العرباتُ والجيادُ مع فرسانِها ومن دونهم بالسقوطِ في النهرِ.

كان أوّلُ ما فكرَّ به ميرثن هو والديه اللذين لم يرغب أيٌّ منهما بحضورِ محاكمةِ نيل المجنونةِ، أو مشاهدةِ عقابِها، فقد كانت أمُّه تعتبرُ نفسها أرفعَ مقاماً من حضورِ مثلِ هذه المشاهدِ العامَّةِ، كما لم يكن والدُه ليهتمَّ بأمرِ حياةٍ أو موتِ امرأةٍ مجنونةٍ. وبدلاً من ذلك توجها إلى الديرِ لوداعِ رالف.

لكن رالف كانَ على الجسرِ في هذهِ الأثناءِ.

لمحَ ميرثن شقيقهُ يكافحُ للسيطرةِ على حصانِهِ غريف الذي كان يتراجعُ إلى الوراءِ ويركلُ بقائمتيهِ الأماميتين. «رالف»، ناداه ميرثن ولكن عبثاً لأنَّ الألواحَ الخشبيةَ سرعانَ ما انهارت من تحتِ قدمي رالف. «لا!» صاحَ ميرثن والحصانُ والفارسُ يبتعدان عن ناظرَيه.

نظرَ ميرثن إلى الجهةِ الأخرى ورأى كاريس تراقبُ غويندا وهي تصارعُ رجلاً في سترةٍ صفراء. بعد هذا تهاوى ذلكَ الجزءُ وغرقَت نهايتا الجسرِ في المياهِ بفعلِ انهيارِ القسمِ الأوسطِ.

أصبحَ النهرُ الآن يعجُّ بأناسٍ يصارعونَ وخيولٍ مذعورةٍ وشظايا ألواحٍ خشبيّةٍ وعرباتٍ مُحطَّمةٍ وأجسادٍ تنزفُ. أدركَ ميرثن أنَّ كاريس لم تعد إلى جانبِهِ، ورآها تسرعُ على طولِ الضفةِ باتجاهِ الجسرِ، ثمَّ تتسلقُ الصخورَ وتجري على طولِ الممرِ الموحلِ. نظرَت إليه وصاحَت: «أسرع! ما الذي تنتظره؟ تعالَ وساعد!»

***

لا بد أن هذا أشبه بما يحدثُ في ساحةِ المعركةِ كما تصوّرها رالف في عقلِهِ: صراخٌ وعنفٌ عشوائي وأناسٌ يسقطونَ وجيادٌ هائجةٌ مذعورة. كان هذا آخرَ ما فكّر بهِ رالف قبلَ أن تنخسفَ الأرضُ من تحتِهِ.

ولبرهةٍ شعرَ رالف بخوفٍ شديدٍ لعجزهِ عن فهمِ ما يحدثُ؛ فقد كان الجسرُ موجوداً تحتَ حوافرِ حصانِهِ وفجأةً لم يعد كذلك. وطارَ مع جوادهِ في الهواء فانفصلا، ولم يعد يشعرُ بذاكَ الجزء المألوف بينَ فخذيهِ ثمَّ سقطَ في الماءِ البارِدِ بلمحِ البصرِ.

غادرهُ الشعورُ بالذعرِ عندما حبسَ أنفاسَه تحتَ الماءِ، ورغمَ الخوفِ الذي باغتَهُ الآن حافظَ على هدوئهِ. كان يعرفُ أنَّ الأمرَ لن يطولَ حتّى يصعدَ إلى السطحِ مجدداً فقد سبقَ له أن سبحَ في البحرِ في إحدى القرى الساحليةِ التي كانت مُلكاً لوالدِهِ في ما مضى. أثقلَ سيفُه وملابسُ السفرِ السميكةُ المُشبعةُ بالماءِ حركتَهُ، ولو أنّه كان يرتدي درعاً لغرقَ حتّى القاع وظلَّ هناكَ إلى الأبدِ، بيدَ أنّه تمكنَ في النهايةِ من الصعودِ إلى السطحِ والتقاطِ أنفاسِهِ.

لقدَ سبحَ كثيراً عندما كان صغيراً، إلّا أنَّ هذا حدثَ منذُ سنواتٍ طويلةٍ. وبطريقةٍ ما استعادَ قدرتَه على السباحةِ ونجحَ في إبقاءِ رأسِه فوقَ سطحِ الماءِ والسباحةِ حتّى الضفةِ الشماليةِ. رأى إلى جانبِهِ حصانَه الكميت غريف بلِبدتِهِ السوداء يسبحُ أيضاً إلى أقربِ ضفةٍ.

رأى رالف تغيراً في مشيةِ حصانهِ فأدركَ أنَّ قوائمَه قد لامسَت القاعَ. أرخى رالف بقدميهِ للأسفلِ فاكتشفَ أنّه يستطيعُ الوقوفَ أيضاً لذلكَ تابعَ سيرَه متخبطاً في المياهِ الضحلةِ. بدا كأنَّ الطينَ اللزجَ في القاعِ يسحبهُ إلى منتصفِ مجرى النهرِ، إلّا أنَّ الحصانَ غريف ورالف تمكنا من جرِّ نفسيهما ليصلا إلى شريطٍ ضيقٍ من اليابسةِ تحتَ جدارِ الديرِ.

استدارَ لينظرَ خلفَهُ فرأى المئات في الماءِ، منهم من كانَ ينزفُ ومنهم من

كانَ يصرخُ ومنهم من فارقَ الحياةَ. لمحَ قربَ الحافةِ جسماً يطفو على سطحِ الماءِ ووجههُ للأسفلِ في زيٍّ إيرل شايرنغ الأحمر والأسود. عادَ رالف إلى الماءِ وأمسكَ الرجلَ من حزامِهِ ثمَّ سحبَهُ إلى الشاطئ.

قلبَ الجسدَ الثقيلَ وأصيبَ بالهلعِ عندما اكتشفَ أنّه صديقُه ستيفن. كان وجهُه سليماً لكن صدرَه قد تهشَّمَ ولم يكن يتنفسُ، كما أنَّ أماراتِ الموتِ باديةٌ في عينيهِ الجاحظتين. لم يكن بوسعِ رالف التحقق من نبضِه؛ فالجثةُ مُهشَمةٌ بالكاملِ. «كنتُ أحسدُه قبلَ بضعِ دقائقَ ولكن ها أنا الآن من حالفهُ الحظ»، فكَّر رالف.

أغلقَ عيني ستيفن وقد انتابَهُ شعورٌ مبهمٌ بالذنبِ، ثمّ فكّر بوالدَيه اللذَين تركهما منذُ دقائقَ في باحةِ الإسطبلِ، لا بدَّ أنّهما بأمانٍ فحتّى لو لحقا به لن يكونا قد وصلا إلى الجسرِ بعد.

وتساءلَ رالف عن مكانِ السيدةِ فيليبا واستعادَ بذهنِه صورةَ المشهدِ على الجسرِ قبلَ حدوثِ الانهيارِ مباشرةً. كان اللورد ويليام وفيليبا في نهايةِ موكبِ الإيرل ولم يكونا قد بلغا الجسرَ بعد على عكسِ الإيرل.

يمكنُ لرالف تصورُ المشهد بوضوحٍ تامٍ الآن. كان الإيرل رولاند يسيرُ خلفَهُ ويحثُّ حصانَهُ فيكتوري على التقدُّمِ عبرَ الطريقِ الذي فتحَهُ رالف وحصانُه غريف بينَ الحشودِ.

لا بد أن رولاند قد سقطَ بالقربِ من رالف.

وهنا تذكرَ كلمات والدِهِ: «كُن جاهزاً على الدوامِ لإرضاءِ الإيرل بأيِّ طريقةٍ». وفكرَّ رالف بحماسٍ بأنَّ فرصتَهُ التي يبحثُ عنها قد أتت. قد لا يضطرّ إلى انتظارِ نشوبِ حربٍ؛ فإن أنقذَ الإيرل رولاند، أو حتّى حصانَه فيكتوري، سيسطعُ نجمُهُ في الحالِ.

مدفوعاً بهذهِ الفكرةِ جالَ ببصرِه عبرَ النهرِ. كان الإيرل في رداءٍ أرجواني مميزٍ ومعطفٍ مخملي أسود، إلّا أنَّ تمييزَ فردٍ بعينِه وسطَ هذا الحشدِ المضطربِ من الأجسادِ الحيّةِ والميتةِ أمرٌ صعبٌ. ثمَّ رأى حصاناً أسودَ ببقعةٍ بيضاء مميزةٍ فوقَ إحدى عينيه فرقصَ قلبُه طرباً: حصانُ رولاند. كان فيكتوري يتخبّطُ في الماءِ في عجزٍ عن السيرِ بشكلٍ مستقيمٍ، ويبدو أنَّ ساقَهُ مكسورةٌ أو ربما كانَ مصاباً إصابةً أخطر.

بالقربِ من الحصانِ طفا جسدٌ طويلٌ في رداءٍ أرجواني.

وها هي فرصةُ رالف المواتيةُ.

خلعَ ملابسَه الخارجيةَ كي لا تُثقلَ حركتَه، ثم ألقى بنفسِه في الماءِ مرةً أخرى وسبحَ نحو الإيرل في سروالِه الداخلي. كان عليه أن يشقَّ طريقَه بين حشودِ الرجالِ والنساءِ والأطفالِ ممن دفعَهم اليأسُ للتشبثِ بهِ وإعاقةِ تقدمِهِ فدفعَهم عنه بوحشيةٍ مكيلاً إليهم اللكماتِ الموجعة.

وصلَ أخيراً إلى فيكتوري الذي كان الإنهاكُ قد أعياه فظلَّ ثابتاً بلا حراكٍ وهو يغرقُ شيئاً فشيئاً، وما إن أصبحَ رأسه تحت الماءِ حتى بدأ يصارعُ مجدداً. «برويةٍ أيُّها الفتى، برويةٍ»، همسَ رالف في أذنِ الحصانِ رغمَ علمِهِ بأنّه سيغرقُ.

كان رولاند طافياً على ظهرِهِ وعيناه مغمضتان وقد يكونُ فاقداً للوعي أو ميتاً. ما زالت إحدى قدميهِ عالقةً بالسرجِ وهذا حالَ دونَ غرقِ جسدِهِ، وبدا رأسُه، بلا قبعةٍ، مُضرجاً بالدماءِ. لم يتوقع رالف أن ينجو الإيرل بعدَ إصابةٍ كهذهِ إلَّا أنَّه سينقذُهُ بكلِّ الأحوالِ، إذ لا بدَّ من وجودِ مكافأةٍ مقابلَ جثةٍ خاصَّةً إن كانت جثةَ إيرلٍ.

حاولَ أن يحررَ قدمَ رولاند من السرجِ إلّا أنَّ الحزامَ كان ملتفاً حول كاحلِه بإحكامٍ. بحثَ عن سكينِهِ لكنَّه تذكر أنَّها مربوطةٌ بحزامِهِ الذي تركَه على الضفةِ مع بقيةِ ملابسِهِ الخارجيةِ. ولكن الإيرل يحملُ سلاحاً أيضاً، لذلك سحبَ رالف خنجرَ رولاند من غمدِهِ إلّا أنَّ تشنجات فيكتوري صعَّبت عليهِ مهمةَ قطعِ الحزامِ، ففي كلِّ مرّةٍ يُمسكُ بها السرجَ كان الحصانُ ينتفضُ فينفلتُ السرجُ من يدِهِ قبلَ أن يتمكنَ من قطعِهِ، وتسببَ له هذا بجرحٍ في ظاهرِ يدِه. وأخيراً تمكنَ من تثبيتِ نفسِه بكلتا قدميهِ على جانبي الحصانِ ونجحَ بقطعِ الحزامِ.

كان عليه الآن أن يسحبَ الإيرل الغائبَ عن الوعي نحو الضفةِ، لكن رالف لم يكن بالسبَّاحِ القوي وقد بلغَ منهُ الإعياءُ منتهاهُ. وما زادَ الطينَ بِلَّةً أنَّه لم يكن قادراً على التنفسِ جيداً بسببِ أنفِه المكسور ولذلكَ ابتلعَ الكثيرَ من مياهِ النهرِ باستمرارٍ. توقفَ لبرهةٍ مُتكئاً على فيكتوري الهالك لا محالة في محاولةٍ لالتقاطِ أنفاسِهِ، لكن لم يكن بوسعِه أخذُ قسطٍ من الراحةِ لأنَّ جسدَ الإيرل الحُر قد بدأ يغرقُ مجدداً.

أمسكَ رالف بيدِه اليمنى كاحل رولاند وبدأ يجرُّه نحو الشاطئ، وقد وجدَ صعوبةً في إبقاءِ رأسِه فوقَ الماءِ وهو يسبح بيدٍ واحدةٍ. لم ينظر خلفه نحو رولاند؛ فلن يكون بوسعِهِ فعلُ شيءٍ إن نزلَ رأسه تحتَ الماءِ. وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى شعرَ بألمٍ في أطرافِهِ وبدأ يلهثُ طلباً للهواءِ.

لم يكن معتاداً على ذلكَ رغمَ أنّه كان شاباً قوياً قضى حياتَه كلَّها في الصيدِ والمبارزة والمسايفةِ. كان يركبُ الخيلَ طوالَ اليومِ ثم يفوزُ بنزالٍ في الليلةِ ذاتِها. ولأنّه الآن يستخدمُ عضلاتٍ لم يستخدمْها منذ زمنٍ بدأ عنقُه يؤلمُهُ وهو يحاولُ إبقاءَ رأسِه فوقَ الماءِ، كما لم يكن بوسعِه الحيلولةُ دونَ ابتلاعِ الماءِ الذي سبّبَ له السعالَ والشعور بالاختناقِ. استمرَّ بضربِ الماءِ بذراعِه اليسرى بشكلٍ محمومٍ ليبقى عائماً قدرَ الإمكانِ وليتمكن، ببطءٍ مؤلمٍ، من جرِّ جثةِ الإيرلِ الضخمةِ التي أثقلتها الملابسُ المشبعةُ بالماءِ نحو الشاطئِ.

أخيراً، اقتربَ رالف من الشاطئِ بما يكفي ليطأ قاعَ النهرِ. بدأ يسيرُ في النهرِ لاهثاً وهو يجرُّ جسدَ الإيرلِ. عندما بلغَ مستوى المياهِ فخذيهِ استدارَ وأمسكَ بالإيرلِ من ذراعيهِ ثمَّ حملَهُ لبضعِ خطواتٍ نحو الشاطئِ.

طرحَ الجثة أرضاً وانهارَ بجوارِها، وبما تبقى لديهِ من قوةٍ تحسسَ صدرَ الإيرلِ فشعرَ بنبضِه قوياً.

ما يزال الإيرل رولاند حياً.

***

شعرَت غويندا بالخوفِ يشلُّها عندَ انهيارِ الجسرِ، ولكن حالما سقطَت في المياهِ الباردةِ استدركَت ما حدثَ. عندما رفعَت رأسَها فوقَ الماءِ وجدَت نفسَها محاطةً بأشخاصٍ يصرخونَ ويتعاركونَ؛ منهم من أمسكَ بقطعةِ خشبٍ طافيةٍ، ومنهم من حاولَ التشبثَ بغيرِهِ كيلا يغرقَ ليجدَ هؤلاء أنفسَهم يغرقونَ فاندفعوا يحررونَ أنفسَهم بتوجيهِ لكماتٍ غيرِ ناجحةٍ بمعظمِها، أمّا اللكماتُ الناجحةُ فقد تم الردُّ بمثلِها. بدا المشهدُ كأنّه خارجَ حانةٍ في كينغزبريدج عندَ منتصفِ الليلِ وأشبهَ بالمسرحيةِ الهزليةِ باستثناءِ أنَّ الناسَ هنا كانوا يموتون.

أخذَت غويندا نفساً لكن سرعانَ ما بدأت تغرقُ مجدداً فهي لم تكن تجيدُ السباحةَ.

تمكّنت من الصعودِ إلى السطحِ مجدداً ثمّ تملّكها الرعبُ عندما رأت أمامها مباشرةً سيم تشابمان يبصقُ الماءَ من فمِهِ كنافورةٍ. بدا واضحاً أنّه لا يجيدُ السباحةَ مثل غويندا وأنّه بدأ يغرقُ مجدداً، وبحركةٍ يائسةٍ أمسكَ بكتفِها في محاولةٍ للبقاءِ عائماً فغرقَت معهُ على الفورِ، وأدركَ حينها أنّها لن تبقيَهُ عائماً لذلكَ أفلتَها.

تحتَ الماءِ حبسَت أنفاسَها وهي تصارعُ الخوفَ، وفكرت في نفسِها بأنّها لا يجبُ أن تغرقَ الآن، ليس بعدَ كلِّ ما مرَّت بهِ.

عندما صعدَت إلى السطحِ مجدداً شعرَت بجسمٍ ثقيلٍ يدفعُها جانباً، فرأت من زاويةِ عينها الثورَ الذي ضربَها قبلَ لحظاتٍ على انهيارِ الجسرِ. لم يبدُ مصاباً فقد كان يسبح بقوةٍ. أخذَت تسبحُ بيديها وقدميها إلى أن تمكنَّت من الإمساكِ بأحدِ قرنيه. سحبَت رأسَه جانباً لوهلةٍ فأرجعَ عنقهُ القوي إلى الوراءِ واستقامَ رأسُه مجدداً.

ونجحَت غويندا بالتشبثِ بهِ.

نبحَ كلبُها سكيب الذي سبحَ إلى جانبِها فرحاً برؤيتِها. ورغمَ إحساسِها بألمِ تمزقٍ في يدِها بقيت غويندا ممسكةً بقرنِ الثورِ الذي سبحَ باتجاهِ الشاطئ. أمسكَ أحدُهم بها فنظرت ورأت سيم يحاولُ التشبثَ بها مجدداً كي يُبقي نفسه عائماً ويسحبَها إلى الأسفلِ. ومن دون أن تفلتَ قرنَ الثور دفعَتْ سيم بيدِها الأخرى فتراجعَ إلى الوراءِ وأصبحَ رأسُه بمحاذاةِ قدمِها. ركّزت على هدفِها جيداً ثم ركلتْهُ على وجهِهِ بكلِّ قوتِها. أخذَ يصرخُ متألماً ولكن سرعانَ ما ابتلعَ الماءُ صوتَه.

وبمجرَّدِ أن أصبحَت غويندا قادرةً على الوقوفِ في الماءِ أفلتت قرنَ الثورِ الذي خرجَ وهو يشخرُ وينثرُ الماءَ من حولِهِ.

أطلقَ سكيب نباحاً مذعوراً فنظرت غويندا حولَها بحذرٍ إلا أنّها لم ترَ سيم على الضفةِ. مسحَت النهرَ بنظرِها بحثاً عن سترةٍ صفراء طافيةٍ بين الجثثِ وألواحِ الخشبِ.

رأتهُ متشبثاً بلوحٍ خشبيٍ ويركلُ بقدميهِ متجهاً نحوها مباشرةً.

لن يكون بمقدورِها الهربُ فقد كانت خائرةَ القوى كما أنَّ الماء قد أثقلَ ثوبَها، فضلاً عن أنّه لا يوجدُ، على هذا الجانبِ من النهرِ، مكانٌ مناسبٌ للاختباءِ. والآن وبعدَ أن انهارَ الجسرُ لم يعد هناكَ من طريقٍ للدخولِ إلى كينغزبريدج.

لكنَّها لن تدعَهُ ينال منها.

يمكنُ للّوحِ الذي طفا عليه سيم أن يبقيَهُ عائماً إن ظلَّ ساكناً وبلا حراكٍ، إلَّا أنَّها رأتهُ يصارعُ وهو يركلُ الماءَ ممسكاً باللوحِ حتَّى يصلَ إلى اليابسةِ وهذا منحها بعضَ الأملِ؛ فكلُّ هذا الركلِ يزعزعُ ثباتَهُ. لقد وضعَ كلَّ ثقلِهِ على اللوحِ ليرفعَ نفسَهُ، وعندما يعاودُ الركلَ مجدداً ينخفضُ رأسُهُ تحتَ الماءِ من جديدٍ. إن استمرَّ على هذا النحو فقد لا يصلُ إلى الضفةِ.

أدركَت غويندا أنَّ عليها الحرصَ على حدوثِ هذا.

ألقَت نظرةً سريعةً حولَها. اكتظَّ النهرُ بقطعِ الخشبِ المُختلفةِ، من الدعاماتِ الضخمةِ إلى الشظايا. لمعَت عيناها عندما رأت لوحاً خشبياً ضخماً بطولِ ياردة تقريباً. سحبَت اللوحَ من النهرِ ثم خاضَت في الماءِ لملاقاةِ الرجلِ الذي يملكُها.

شعرت بالارتياحِ لرؤيةِ مِسحةِ الخوفِ في عينيهِ.

توقفَ سيم عن الركلِ عندما رأى أمامَهُ المرأةَ التي حاولَ استعبادَها غاضبةً عازمةً وبيدِها عصاً كبيرة والموت غرقاً خلفهُ.

تقدَّمَ إلى الأمامِ.

وقفَت غويندا حتَّى خصرِها في الماءِ منتظرةً اللحظةَ المناسبةَ.

رأت سيم يتقدَّمُ مجدداً فخمنت من حركاتِهِ أنَّه يحاولُ وطء القاعِ.

إنَّها فرصتي الأخيرة.

رفعَت غويندا العصا فوقَ رأسها وتقدَّمَت. رأى سيم ما كانت توشكُ على القيامِ به فاندفعَ بيأسٍ مُبتعداً عن طريقِها، إلا أنَّه فقد توازنهُ ولم يعد قادراً على السباحةِ أو المراوغةِ. وصلَت غويندا إليهِ وهوت بالعصا على رأسِهِ بكل قوتِها.

جحظَت عينا سيم وأُغمي عليه.

اقتربَت منهُ وأمسكتهُ من سترتِهِ الصفراء. لن تدعَ الماءَ يأخذُه فقد ينجو، لذا أدنتهُ منها وأمسكَت رأسَهُ بذراعيها ثمّ دفعتهُ تحتَ سطحِ الماءِ.

كان إبقاءُ جسدٍ تحتَ الماءِ أصعبَ بكثيرٍ مما تخيلت. صحيحٌ أنَّه كان غائباً عن الوعي إلَّا أنَّ شعرَهُ الدهني زلقٌ، لذا أخذت رأسَهُ تحتَ ذراعِها ورفعَت قدميها عن القاعِ حتَّى يساعدها وزنُها على إبقائِهِ تحتَ الماءِ.

بدأت تشعرُ بأنَّها تهزمُهُ، لكن لم يكن لديها أدنى فكرةٍ عن الوقتِ الذي تحتاجهُ لإغراقِ رجلٍ. لا بد أن رئتيهِ قد امتلأتا بالماءِ الآن، لكن كيفَ لها أن تعرفَ متى تستطيعُ إفلاته؟

ثم تلوّى فجأةً، فأحكمَت قبضتَها على رأسِهِ وكافحَت لبرهةٍ من أجلِ تثبيتِهِ. لم تكن واثقةً من أنَّهُ يستعيدُ وعيهُ أو أنَّه يختلجُ اختلاجاتِه الأخيرة فقد كان ينتفضُ بقوةٍ ويتخبطُ. وطئت القاعَ مرةً أخرى وثبتت نفسَها وهي مازالت ممسكةً بهِ.

نظرَت حولها ولم ترَ أحداً يراقبُ ما كانت تفعلُه فقد كان الجميعُ مشغولين بإنقاذِ أنفسِهم.

بعد برهةٍ أخذَت حركةُ سيم تباطأ وسرعانَ ما خمدَ في مكانِهِ فأرخت قبضتَها بالتدريجِ ليغرقَ ببطءٍ إلى القاعِ.

ودونَ أن يرفعَ رأسهُ خارجَ الماءِ مجدداً.

عادَت غويندا إلى اليابسةِ وهي تلهثُ ثمَّ جلسَت على الأرضِ الموحلةِ وقد أعياها التعبُ. تحققَت من أنَّ المحفظةَ الجلديةَ في حزامِها مازالت موجودةً؛ تلكَ المحفظةُ التي لم يتمكن اللصوصُ من سرقتِها والتي احتفظَت بها طوالَ المشاق التي مرَّت بها. فتحتها لتتحققَ من وجودِ جرعةِ الحبِّ الثمينةِ التي صنعتها ماتي وايز إلَّا أنَّها لم تجد سوى شظايا فخارية: لقد تحطَّمَت الزجاجةُ الصغيرةُ.

وشرَعَت في البكاءِ.

***

كان شقيقُ ميرثن أولَّ شخصٍ تراهُ كاريس يتصرَّفُ بشكلٍ مُتزنٍ. لم يكن رالف يرتدي شيئاً سوى سروالٍ داخلي مبللٍ، وبدا كأنّه لم يصب بأذى باستثناءِ أنفِهِ الأحمر المتورم بسببِ العراكِ السابقِ. سحبَ رالف إيرل شايرنغ من الماءِ، ووضعَهُ على الشاطئ بجوارِ جثةٍ بملابسِ حاشيةِ الإيرل. كان الإيرل قد أصيبَ في رأسِهِ إصابةً بليغةً، وقد تكون قاتلةً، كما أنَّ رالف كان مُنهكاً وحائراً حيالَ ما عليهِ فعلُه بعدَ ذلكَ. وفكرت كاريس بما يجبُ عليها القولُ لهُ.

ألقَت نظرةً من حولِها. كان هذا الجانبُ من ضفةِ النهرِ عبارةً عن شواطئ طينيةٍ صغيرةٍ تفصلها نتوءاتٌ صخريةٌ، لذا لم يكن هناك متسعٌ لوضعِ القتلى والجرحى هنا وتحتَّمَ نقلُهم إلى مكانٍ آخرٍ.

على بعد بضعِ ياردات رأت درجاتٍ حجريةً من النهرِ إلى بوابةٍ في جدارِ الديرِ وعندها وصلَت كاريس إلى قرارٍ. قالت لرالف وهي تشيرُ إلى هذهِ الدرجاتِ: «خُذْ الإيرل من ذاكَ الطريقِ إلى الديرِ، مددْهُ برفقٍ في الكاتدرائيةِ ثمَّ انطلقْ إلى المستشفى وقُلْ لأولِ راهبةٍ تراها أن تستدعي الأمَّ سيسيليا على الفورِ».

سُرَّ رالف بوجودِ شخصٍ حاسمٍ يصدرُ الأوامرَ، ونفّذ ما أخبرتهُ بِهِ على الفورِ.

أرادَ ميرثن أن يعودَ إلى النهرِ لكن كاريس أوقفتهُ وهي تشيرُ إلى طرفِ الجسرِ المدمَّرِ من جهةِ المدينةِ حيثُ وقفَ العشراتُ يحدقون ببلاهةٍ إلى المذبحةِ التي

وقعَت أمامَ أنظارهم وقالت له: «انظر إلى هذا الحشدِ من الحمقى، اطلب من الرجالِ الأقوياء النزولَ إلى النهرِ»، ثمَّ تابعت: «يمكنهم انتشالُ الناسِ من الماءِ وأخذُهم إلى الكاتدرائيةِ».

قالَ متردداً: «لا يمكنُهم النزولُ من هنا».

فهمَت كاريس ما رمى إليه، إذ سيتحتَّمُ عليهم عبورُ هذا الحطامِ وهذا يعني حدوثَ المزيد من الإصاباتِ. ولكن كانَ للمنازلِ على هذا الجانبِ من الشارعِ الرئيسي حدائق قبالةَ جدرانِ الديرِ. كان لمنزلِ بين ويلر عندَ الزاويةِ بابٌ صغيرٌ في الجدارِ من أجلِ النزولِ إلى النهرِ مباشرةً عبر الحديقةِ.

كانَ ميرثن يفكّر بذاتِ الطريقةِ فقال: «سأطلبُ منهم النزولَ من بابِ حديقةِ منزلِ بين».

«جيدٌ».

تسلَّقَ الصخورَ وفتحَ البابَ ثم توارى عن الأنظارِ.

رأت كاريس شخصاً يخوضُ في المياهِ مُتجهاً نحو الضفةِ القريبةِ. كان ذلك الشخصُ هو فيليمون. سألَها وهو يلهثُ: «هل رأيتِ غويندا»؟

«نعم. رأيتُها قبلَ انهيارِ الجسرِ مباشرةً، كانت تهرب من سيم تشابمان»، أجابَت كاريس.

«أعلمُ ذلك، لكن أين هي الآن»؟

«لم أرَها. أفضلُ ما يمكنك فعلُه الآن هو إخراجُ الناس من المياهِ».

«يجبُ أن أعثرَ على أختي».

«إن كانت على قيدِ الحياةِ فستكونُ بين أولئك الذين يجبُ إخراجهم من النهرِ».

«حسناً»، قالَ ثم عادَ إلى الماءِ.

كانت كاريس تتوقُ لمعرفةِ مكانِ عائلتِها الآن إلَّا أنَّ ثمَّةَ الكثيرُ مما يجبُ القيامِ بِهِ هنا، فقطعَت على نفسِها وعداً بأن تبحثَ عن والدِها في أقربِ وقتٍ ممكنٍ.

كان بين ويلر رجلاً قصيراً بديناً عريضَ المنكبين وغليظَ العنقِ، وهو يعملُ سائقَ عربةٍ وهذا يعني أنَّه يستخدمُ عضلاتِه لا عقلَه في تسييرِ أمورِ حياتِهِ. خرجَ من بيتِهِ ونزلَ إلى النهرِ، ثمَّ نظرَ حولَه حائراً لا يعرفُ ما الذي عليه فعلُه.

عند قدمَي كاريس تمدّدَ أحدُ رجالِ الإيرل رولاند بلباسِهِ الأحمر والأسود. بدا الرجلُ ميتاً فقالت: «خُذْ هذا الرجل إلى الكاتدرائيةِ يا بين».

ظهرَت ليب، زوجةُ بين، تحملُ طفلاً صغيراً. بدَت أكثرَ ذكاءً من زوجِها فسألت كاريس: «ألا ينبغي إنقاذُ الأحياء أولاً»؟

«علينا أن نُخرِجَهم من المياهِ أولاً قبلَ أن نتبين إن كانوا أحياءً أم أمواتاً. كما لا نستطيعُ تركَ الجثثِ هنا كي لا تعيقَ وصولَ المُنقذين. خُذه إلى الكنيسةِ».

أدركَت ليب أنَّ ما قالتهُ كاريس صائبٌ فقالت: «حريٌّ بكَ أن تنفذَ ما تقولهُ كاريس يا بين».

حملَ بين الجثةَ بسهولةٍ وتوجهَ إلى الكاتدرائيةِ.

فكرت كاريس بأنَّهم يستطيعون نقلَ الجثثِ بشكلٍ أسرع إن وضعوها على نقالاتٍ كالتي يستخدمُها عمالُ البناءِ.

بإمكانِ الرهبانِ تولي هذا الأمر، ولكن لمَ لم يصلوا حتَّى الآن؟ كانت قد طلبَت من رالف أن يُحضرَ الأمَّ سيسيليا لكن ما من أحدٍ أتى حتَّى الآن. يحتاجُ الجرحى إلى الضماداتِ والمراهمِ والمُعقمات، كما سيحتاجون إلى كل راهبٍ وراهبةٍ.

ولا بدَّ من استدعاء ماثيو باربر إذ ستكون هناك الكثيرُ من العظامِ المكسورةِ التي ستحتاجُ إلى جبيرةٍ. كما يجبُ إحضارُ ماتي وايز لتقديمِ المسكنات إلى الجرحى وتخفيفِ آلامهم. كان على كاريس أن تنطلقَ لإخطارِ الجميعِ، إلَّا أنَّها كانت مترددةً في مغادرةِ ضفةِ النهرِ قبل تنظيمِ عمليةِ الإنقاذِ بشكلٍ صحيحٍ. أين هو ميرثن؟

رأت كاريس امرأةً تزحفُ نحو الشاطئ فسارعَت إلى المياهِ وسحبَتها؛ كانت غريزيلدا وقد التصقَ ثوبُها المبللُ بجسدِها فشفَّ عن صدرِها والتورم في فخذيها. تعلمُ كاريس أنَّها حبلى فسألتها بقلقٍ: «هل أنتِ بخير؟»

«أظنُّ هذا».

«هل تنزفين؟»

«لا».

«الشكرُ للرَّبّ». نظرَت كاريس حولَها وقد شعرَت بالراحةِ عندما رأت ميرثن قادماً من حديقةِ بين ويلر على رأسِ مجموعةٍ من الرجالِ يرتدي بعضُهم ملابسَ حاشيةِ الإيرل. قالت لهُ: «فلتساعد غريزيلدا على الصعودِ إلى الديرِ فهي

بأمسِّ الحاجةِ للجلوسِ والراحةِ قليلاً»، ثمَّ أضافَت في تطمينٍ: «إنَّها بخيرٍ على أيِّ حالٍ».

نظَرَ إليها ميرثن وغريزيلدا بغرابةٍ فأدركَت في لمحِ البصرِ أنَّ الموقفَ كان مُحرجاً جداً. وقفَ ثلاثتُهم والصمتُ رابعهم. ها هم: المرأةُ الحاملُ ووالدُ طفلِها والمرأةُ التي تحبُّهُ.

كسرَت كاريس هذا الصمت بأن استدارَت وبدأت بإلقاءِ الأوامرِ على الرجالِ.

بكَت غويندا قليلاً ثمَّ توقفَت. لم يكن تحطُّمُ القارورةِ ما أثارَ حزنَها؛ إذ يمكن لماتي صنعُ جرعةِ حبٍ أخرى وستدفعُ كاريس ثمنها، هذا إن كانتا ما تزالان على قيدِ الحياةِ، إنَّما ذرفَت دموعَها على كلِّ ما مرَّت بهِ خلالَ الأربع والعشرين ساعةً الماضية؛ من خيانةِ والدِها إلى ألمِ قدميها الداميتين.

لم تندم على قتلِ الرجلين لأنَّهما يستحقان الموتَ؛ فقد حاولَ سيم وآلوين استعبادَها واستغلالَها في ممارسةِ البغاءِ، علاوةً على هذا لم يكن قتلُ خارجين عن القانون جريمةً أو حتَّى خطيئةً. رغمَ ذلك، كانت يداها ترتجفان، فقد كانت فَرِحةً لأنَّها هزمَت أعداءَها ونالَت حريتها، وفي الوقتِ نفسِه شعرَت بالغثيانِ بسببِ ما ارتكبتهُ. لن تنسى أبداً كيف كان جسدُ سيم المحتضر ينتفضُ في النهايةِ، كما خشيت من أن يلاحقَها في نومِها منظرُ خنجرِ آلوين وهي تُخرجُه من محجرِ عينهِ. استبدت بها هذهِ المشاعرُ القويةُ والمتناقضةُ حدَّ الارتجافِ وحاولت أن تُخرجَ صورَ القتلِ من رأسِها. من ماتَ أيضاً؟ خططَ والداها لمغادرةِ كينغزبريدج البارحةَ، لكن ماذا عن شقيقها فيليمون؟ ماذا عن كاريس صديقتها العزيزة؟ وعن ولفريك، الرجل الذي تحبُّ؟

نظَرَت عبرَ النهرِ وشعرَت بالراحةِ لرؤيتِها كاريس واقفةً على الجانبِ البعيدِ مع ميرثن حيث كانا يُنظمان مجموعةً من الرجالِ لإخراجِ الناسِ من النهرِ. شعرَت غويندا بالامتنانِ؛ فهي على الأقلِّ لن تبقى وحيدةً في هذا العالم.

لكن ماذا عن فيليمون؟ كان آخرَ شخصٍ رأتهُ قبلَ الانهيارِ. لا بدَّ أنَّه سقطَ بالقربِ منها كما حدثَ لجميعِ من كان بقربِها، لكنَّها لا تراه الآن.

وأين ولفريك؟ تساءلت في نفسِها إن كان يشاهدُ الساحرةَ تُجلدُ وراءَ عربةٍ في أرجاءِ المدينةِ، ولكنَّه كان يخططُ للعودةِ إلى المنزلِ في ويغلي مع عائلتِهِ اليومَ، وربما، لا قدرَ الرَّبُّ، كانوا يعبرون الجسرَ في طريقهم إلى المنزلِ عندما

وقعَ الانهيارُ. جالت ببصرها بشكلٍ محموم فوقَ سطحِ النهرِ باحثةً عن شعرِهِ الأشقرِ المميزِ وهي تتضرعُ في نفسها أن تراهُ يسبحُ نحو اليابسةِ بدلاً من أن تراه جثةً طافيةً. لكنَّها لم تلمحهُ قط.

ورغمَ أنَّها لا تجيدُ السباحةَ فإنَّها قررَت عبورَ النهرِ، وأخذَت تفكرُ بالبحثِ عن قطعةِ خشبٍ كبيرةٍ بما يكفي لإبقائِها عائمةً ولعبورِ النهرِ. عثرَت على لوحٍ خشبي فسحبَته من المياهِ ثم سارَت لخمسين ياردةً أعلى النهر بحثاً عن طريقٍ خالٍ من الجثثِ. عادَت إلى المياهِ وتبعها سكيب بشجاعةٍ. كان الأمرُ أصعب مما اعتقدَت فثوبُها المبللُ أعاقَ تقدمَها إلَّا أنَّها وصلَت أخيراً إلى الضفةِ المقابلةِ.

هرعَت نحو كاريس التي قالت بعد أن تعانقتا: «ما الذي حدثَ»؟

«لقد هربتُ».

«وماذا عن سيم»؟

«لقد كان مجرماً».

«كانَ»؟

«إنَّه ميتٌ».

أصيبَت كاريس بالذهولِ.

أضافَت غويندا على عجلٍ: «لقد قُتلَ عند انهيارِ الجسرِ». لم تكن غويندا ترغب بأن يعرفَ أحدٌ ما حدثَ، بمن فيهم صديقتُها المقربةُ، ثمَّ تابعَت قائلةً: «هل رأيتِ أحداً من عائلتي؟»

«غادرَ والداكِ البلدةَ البارحةَ، لكنِّي رأيتُ فيليمون منذُ لحظاتٍ وقد كان يبحثُ عنكِ».

«الشكرُ للرَّبّ، وماذا عن ولفريك»؟

«لا أدري، لم يخرج من النهرِ. غادرَت خطيبتُه البارحةَ لكن شقيقهُ ووالديهِ كانا في الكاتدرائيةِ هذا الصباح من أجلِ حضورِ محاكمةِ نيل المجنونة».

«سأذهبُ للبحثِ عنهِ».

«حظاً طيباً».

صعدَت غويندا الدرجَ نحو الديرِ ثم عبرَت الحديقةَ.

لم تصدق غويندا كيف يمكن لبعضِ أصحابِ الأكشاكِ ممن رأتهم يوضبونَ

بضائعَهم أن يتابعوا أعمالَهم المعتادةَ بينما مئاتُ الأشخاصِ ماتوا في حادثٍ للتو. ولكن لم يكونوا قد علموا بعد بما حدثَ، إذ لم يمضِ على وقوعِ الحادثِ سوى بضعِ دقائق شعرت بها غويندا تمرُّ طويلةً وثقيلةً.

خرجَت من بوابةِ الديرِ إلى الشارعِ الرئيسي.

دخلَت غويندا إلى نُزُلِ بيل حيثُ يقيم ولفريك وعائلتُهُ.

وقفَ صبيٌ يافعٌ قربَ برميلِ جعةٍ وقد بدا خائفاً.

قالت غويندا: «أبحثُ عن ولفريك ويغلي».

«ما من أحدٍ هنا»، ردَّ الصبي. «أنا متدربٌ جديدٌ وقد تركوني هنا لأحرسَ الجعةَ».

خمنت غويندا أنَّ أحداً ما استدعى الجميعَ للنزولِ إلى النهرِ.

خرجَت من النُزُلِ وعندما كانت تجتازُ البوابةَ ظهرَ ولفريك.

شعرَت بالارتياحِ الشديدِ إلى درجةِ أنّها غمرتهُ بذراعيها.

«أنتَ حيٌّ، شكراً للرَّبّ». قالت باكيةً.

«قالَ أحدُهم إنَّ الجسرَ قد انهارَ، هذا صحيحٌ إذاً»؟ قال ولفريك.

«أجل، كانَ حادثاً مروِّعاً. أين بقيةُ عائلتك؟»

«غادروا قبلَ قليلٍ وبقيتُ أنا هنا لأستردَّ دَيناً». كان يحمل محفظةَ نقودٍ صغيرةً مصنوعةً من الجلدِ. «آملُ أنّهم لم يكونوا على الجسرِ عندما سقطَ».

«يمكنني التأكدُ من ذلكَ»، قالت غويندا. «فلتُرافقني».

أمسكتهُ من يدِه فتركَها تقودُه إلى حرمِ الديرِ دونَ أن يفلتَها. لم تكن قد لمستهُ منذُ فترةٍ طويلةٍ. كانت يدُه كبيرةً وقد سببَ العملُ خشونةً في أصابعِهِ ولكن ليسَ في راحةِ يدِهِ التي بقيت ناعمةً. ورغمَ كلِّ ما حدث شعرَت بالإثارةِ تسري في جسدِها.

عبرا الحديقة ودخلا إلى الكاتدرائيةِ.

شرحَت له قائلةً: «يُحضرون الناسَ الذين يخرجونهم من النهرِ إلى هنا».

كان هناكَ عشرون أو ثلاثون جثةً ممددةً على الأرضيّةِ الحجريةِ لصحنِ الديرِ واستمرَّ وصولُ المزيدِ منها. قامَت مجموعةٌ صغيرةٌ من الراهبات، اللواتي بدَونَ كأقزامٍ تحتَ تلك الأعمدةِ الهائلةِ، برعايةِ الجرحى. تولى الراهبُ الأعمى الذي يقودُ الجوقةَ عادةً زمامَ الأمورِ اليومَ. «ضعوا القتلى في الجانبِ

الشمالي»، صاحَ مع دخولِ ولفريك وغويندا صحنَ الديرِ، «والجرحى في الجانبِ الجنوبي».

وفجأةً صرخَ ولفريك مذعوراً. نظرَت غويندا إلى حيث كانَ ينظرُ فرأت شقيقَه ديفيد بينَ الجرحى.

جثيا بجانبِ ديفيد على الأرضيةِ. كان ديفيد أكبر من ولفريك بعامين ويملكُ البنيةَ القويةَ ذاتها. كان يتنفسُ وعيناه مفتوحتان، ولكنَّه بدا كأنّه لا يراهما. ناداه ولفريك بصوتٍ منخفضٍ مُلحٍّ: «ديف، هذا أنا ولفريك».

أحسَّت غويندا بشيءٍ لزج وأدركَت أنَّ ديفيد يرقدُ فوق بركةٍ من الدمِ.

قال ولفريك: «ديف، أين أمي وأبي؟»

إلا أنَّ ديف لم يُجبهُ.

نظرَت غويندا حولَها ورأت والدةَ ولفريك ممددةً في الجانبِ المقابلِ من الصحنِ حيثُ أوعزَ كارلوس الأعمى بوضعِ الموتى. «ولفريك»، قالت غويندا بهدوءٍ.

«ماذا؟»

«أمّكَ».

نهضَ ونظرَ قائلاً: «أوه، لا».

عبرا الكنيسة ووجدا والدةَ ولفريك ممددةً بجانبِ السير ستيفن، لورد ويغلي. ها هو الموتُ يُساوي بين القنِّ وسيدهِ الآن».

لمن المذهلِ بحقٍ أن تنجبَ امرأةٌ ضئيلةُ الحجمِ مثلَها هذين الولدين الكبيرين. كانت امرأةً قويَّةً تضُجُّ بالحيويةِ، ولكنَّها بدَت الآن شاحبةً ونحيلةً كدميةٍ شاحبةٍ. وضعَ ولفريك يدَه على صدرِها ليتحسسَ نبضَها، وعندما ضغطَ عليه خرجَ بعضُ الماءِ من فمِها.

«لقد غرقَت»، همسَ ولفريك.

أحاطَت غويندا كتفَه العريضَة بذراعِها في محاولةٍ لمواساتِه، لكنَّها لم تعرف إن كانَ قد لاحظَ هذا أم لا.

دخلَ رجلٌ مسلحٌ في زي حاشيةِ الإيرل رولاند يحملُ جثةً هامدةً لرجلٍ ضخمٍ، وشهقَ ولفريك مجدداً: لقد كان والدَهُ.

«ضعهُ هنا بجانبِ زوجتِهِ»، قالت غويندا.

كان ولفريك مصعوقاً ولم ينبس ببنتِ شفةٍ فما يحدثُ يفوقُ قدرتَهُ على الاستيعابِ. حتّى غويندا نفسُها كانت مصدومةً. ما الذي يسعُها قولهُ للرجلِ الذي تحبُّ في مثلِ هذه الظروفِ؟ فأيُّ شيءٍ ستتفوهُ به سيكونُ كلاماً فارغاً. كانت تتوق لمنحِهِ بعضَ الراحةِ لكنَّها لم تعرف كيف تفعلُ هذا.

وبينما حدَّقَ ولفريك إلى جثتي والديهِ نظرَت غويندا إلى أخيهِ الممدد في الجهةِ الأخرى من الكنيسةِ. بدا ديفيد ساكناً تماماً فركضت غويندا نحوه. كانت عيناهُ مفتوحتين وقد توقفَ عن التنفسِ، كما توقفَ نبضُه أيضاً.

كيف سيتحمَّلُ ولفريك كل هذا؟

مسحَت دموعَها وعادَت إليهِ.

لم يكن هناكَ جدوى من إخفاءِ الحقيقةِ. «مات ديفيد أيضاً». قالت غويندا.

بدا ولفريك غافلاً كأنّه لم يفهم ما قيلَ لهُ.

وارتعدَت غويندا من تلكَ الفكرةِ المروعةِ التي جالَت في ذهنِها وهي أنَّ ولفريك قد فقدَ عقلَهُ جرَّاءَ هذه الصدمةِ.

لكنَّه تكلَّمَ أخيراً: «لقد ماتوا جميعاً»، ثمّ نظرَ إلى غويندا وقد ملأتِ الدموعُ عينيهِ.

أحاطتهُ بذراعيها فشعرَت بجسدِهِ يرتجفُ وهو ينشجُ في أسى. عانقتهُ بقوةٍ أكبر وقالت له: «ولفريك المسكين، ولفريك، أيُّها الحبيبُ المسكينُ».

«الشكرُ للرَّبِّ مازال لدي آنيت»، قال.

***

لم تمضِ ساعةٌ على الحدثِ حتى غصَّت أرضيةُ الكنيسةِ بجثثِ القتلى والمصابين. وقفَ كارلوس الأعمى، نائبُ رئيسِ الدير، وسطَ كل هذا وإلى جانبِه أمينُ الخزانةِ سيميون ذو الوجهِ النحيلِ الذي كان بمنزلة عينيهِ. كان كارلوس المسؤولَ الآن لأنَّ رئيسَ الديرِ مفقودٌ. «أيُّها الأخ ثيودوريك هل هذا أنت»؟ يبدو أنَّه عرفَ الراهبَ ذا البشرةِ الفاتحةِ والعينين الزرقاوين من مشيتِهِ عندما دخلَ. «ابحث عن الحانوتي وقُل لهُ أن يجلبَ معه ستةَ رجالٍ أقوياءٍ، سنحتاجُ إلى مئةِ قبرٍ جديدٍ على الأقلِّ. لا نريدُ تأجيلَ الدفن في مثلِ هذا الوضعِ».

«حالاً أيُّها الأخ»، قال ثيودوريك.

أُعجبَت كاريس بقدرةِ كارلوس على تنظيمِ الأمور على الرغم من أنَّه كانَ أعمى.

تركَت كاريس ميرثن يديرُ عمليةَ انتشالِ الجثثِ من المياهِ بكفاءةٍ بعدَ أن تأكّدت من وصولِ خبرِ الكارثةِ إلى الرهبانِ والراهباتِ. عثرَت بعدها على ماثيو باربر وماتي وايز ثمّ تفرَّغَت أخيراً لتفقدِ أفرادِ عائلتِها.

لم يكن على الجسرِ أثناءَ الانهيارِ سوى العمِّ أنتوني وغريزيلدا، فقد عثرَت على والدِها في قاعةِ النقابةِ مع بونافينتورا كارولي. قالَ لها إدموند: «سيتعين عليهم بناءُ جسرٍ جديدٍ الآن»، ثمَّ توجَّهَ إلى ضفةِ النهرِ وهو يعرجُ ليساعدَ في انتشالِ الناسِ من المياهِ. كان الآخرون بأمانٍ؛ فالعمَّةُ بيترانيلا كانت تعدُّ الطعامَ في المنزلِ، وأليس شقيقةُ كاريس برفقةِ إلفريك في نُزلِ بيل، أمَّا ابن عمتِها غودوين فقد كان في الكاتدرائيةِ يتفقدُ الإصلاحاتِ في الجانبِ الجنوبي من المذبحِ.

ذهبَت غريزيلدا إلى منزلِها لترتاحَ ولكن أنتوني بقي في عدادِ المفقودين. لم تكن كاريس معجبةً جداً بشخصيةِ عمِّها إلَّا أنّها لم تتمن لهُ الموتَ، لذا بحثَت عنه بقلقٍ في كلِّ مرةٍ أحضروا فيها جثةً جديدةً من النهرِ إلى الكنيسةِ.

قامَت الأمُّ سيسيليا والراهباتُ بغسلِ الجروحِ وتطهيرِها بالعسلِ، كما وضعنَ الضمَّادات وقدَّمن أكواباً منعشةً من الجعةِ المُتبَّلةِ الحارّةِ. كان الحلّاقُ ماثيو جرَّاحاً ميدانياً وقد عملَ بكفاءةٍ ونشاطٍ إلى جانبِ ماتي البدينة واللاهثة التي كانت تُعطي المصابين دواءً مُهدئاً قبلَ أن يقومَ ماثيو بتجبيرِ أرجلِهم وأذرعِهم المكسورةِ.

توجَّهت كاريس إلى القسمِ الجنوبي، فهناك وبعيداً عن الضَّجةِ والصخبِ والدماءِ في صحنِ الكنيسةِ تجمَّعَ كبارُ الرهبانِ الأطباءِ حولَ جسدِ إيرل شايرنغ الغائبِ عن الوعي. كانوا قد نزعوا عنهُ ملابسَه المبللةَ وغطّوه ببطانيةٍ سميكةٍ. «إنّه حيٌّ»، قال الأخ غودوين، «لكنَّ إصابتَهُ بليغةٌ جداً». ثمَّ أشارَ إلى مؤخرةِ رأسِ الإيرل وقالَ: «لقد تهشَّمَ جزءٌ من جمجمتِهِ».

نظرَت كاريس من فوقِ كتفِ غودوين فرأت الجمجمةَ كما لو أنّها فتاتُ فطيرةٍ مُلطخةٍ بالدماءِ، ومن خلالِ الفجواتِ رأت المادةَ الرماديةَ تحتَ الجمجمةِ. حتماً ليسَ بالإمكانِ فعلُ شيءٍ حيالَ مثلِ هذهِ الإصابةِ المروعةِ.

كانَ كبيرُ الأطباءِ، الأخ جوزيف، يفكّرُ بالطريقةِ ذاتِها. حكَّ أنفَهُ الكبيرَ وخرجَت كلماتُه من فمهِ المليءِ بالأسنانِ المُهترئةِ: «يجبُ أن نُحضرَ رفاتَ القديس». وكالعادةِ، همهمَ بهذهِ الكلماتِ كما لو أنّه ثملٌ. «إنّها أملُه الوحيد بالشفاءِ».

لم تكن كاريس تؤمن بقدرةِ عظامِ قديسٍ ماتَ منذُ زمنٍ طويلٍ على شفاءِ رأسِ رجلٍ حيٍّ، لكنَّها التزمَت الصمتَ من كلِّ بدٍ. كانت تعرفُ أنَّ آراءها مختلفةٌ عن آرائهم بهذا الشأنِ ولذا احتفظَت بها لنفسِها مُعظمَ الوقتِ.

وقفَ ابنا الإيرل اللورد ويليام والأسقفُ ريتشارد يتابعان ما يجري. كان ويليام بقامتِهِ الطويلةِ المتينةِ وشعرِه الأسود نسخةً مُصغَّرة عن الرجلِ الممددِ أمامَهم على الطاولةِ. كان رالف شقيقُ ميرثن برفقتهما. «لقد انتشلتُ الإيرل من المياهِ»، قال رالف وقد كانت هذه المرَّةَ الثانيةَ التي تسمعُه فيها كاريس يرددُ هذهِ العبارةَ.

«أجل، أحسنتَ»، قالَ ويليام.

وككاريس لم تقتنع فيليبا، زوجةُ ويليام، بقرارِ الأخِ جوزيف ولذلكَ قالت: «ألا يوجدُ ما يمكنكم فعلُهُ لمساعدةِ الإيرل»؟

أجابَ غودوين: «الصلاةُ هي العلاجُ الأنجعُ».

كانت الرفاتُ محفوظةً في حُجرةٍ مُغلقةٍ تحتَ المذبحِ العالي. حالما غادرَ جوزيف وغودوين لإحضارهِ، انحنى الحلاق ماثيو فوقَ الإيرل يتفحصُ جرحَ رأسِه، «لن يُشفى بهذهِ الطريقةِ أبداً، ولا حتَّى بمساعدةِ القديسِ».

قالَ ويليام بحدَّةٍ: «ما الذي تعنيهِ»؟ وبدا حينها لكاريس شبيهاً جداً بوالدِه الإيرل.

«إنَّ الجمجمة عظمةٌ كغيرِها من العظامِ»، أجابَ ماثيو. «يمكنُ أن تلتئمَ بنفسِها لكن يجبُ أن توضعَ الأجزاءُ المُهشَّمةُ في مكانِها الصحيحِ».

«وإلَّا ستصبحُ متعرِّجةً».

«أتعتقدُ نفسكَ أكثرَ درايةً من الرهبانِ؟»

«سيدي، يعرفُ الرهبانُ كيف يتضرعونَ للمساعدةِ من العالمِ الروحاني، أمَّا عملي فهو تجبيرُ العظامِ فحسب».

«ومن أينَ تعلَّمتَ هذا؟»

«عملتُ جرَّاحاً في جيوشِ الملكِ لسنواتٍ، وشاركتُ مع والدِكَ الإيرل في الحروبِ الإسكتلنديةِ، لذا فقد شاهدتُ رؤوساً مهشَّمةً من قبل».

«ما الذي يمكنكَ فعلهُ لوالدي الآن»؟

شعرَت كاريس بتوترِ ماثيو بسببِ استجوابِ ويليام العدواني لهُ إلَّا أنَّه بدا موقناً من صحةِ كلامِهِ. «سأُخرجُ قطعَ العظامِ المكسورةِ من الدماغِ وأقومُ بتنظيفِها ومحاولةِ تجميعِها مرَّةً أخرى».

شهقَت كاريس فلم يكن بوسعِها تخيُّلُ إمكانيةِ إجراءِ مثلِ هذهِ العمليَّةِ الجريئةِ.

كيف تجرَّأ ماثيو على مثلِ هذا الاقتراحِ؟ وماذا لو اقترفَ خطأً ما؟

قالَ ويليام: «وهل سيتعافى؟»

أجابَ ماثيو: «لا أدري. في بعضِ الأحيانِ يكون لجرحِ الرأسِ آثارٌ غريبةٌ تضعفُ قدرةَ الشخصِ على المشيِ أو الكلامِ. كل ما يمكنني فعلُهُ هو ترميمُ جمجمتِهِ، أمَّا إن أردتَ المعجزات فاطلبها من القديسِ».

«إذاً النجاحُ غير مضمون».

«الرَّبُّ وحدَه كليُّ القدرةِ، أمَّا الإنسانُ فعليهِ أن يبذلَ ما بوسعِهِ أملاً بالأفضلِ، لكني أكادُ أجزمُ أنَّ والدَكَ سيموتُ إن لم تُعالَج إصابتُه».

«لكنَّ جوزيف وغودوين قرآ كتباً كتبَها قدماءُ الأطباءِ الفلاسفةِ».

«وأنا رأيتُ رجالاً جرحى يموتون ويتعافون في ساحةِ الحربِ، لكَ أن تقررَ بمن ستضعُ ثقتَكَ».

نظرَ ويليام إلى زوجتِهِ فيليبا التي قالت: «دع الحلَّاقَ يقدِّمُ ما لديهِ وتضرَّع إلى القديسِ أدولفوس ليساعدَهُ».

أومأ ويليام برأسِهِ موافقاً وقال لماثيو: «حسناً، فلتبدأ».

قالَ ماثيو بحزمٍ: «أريد أولاً نقلَ الإيرل إلى طاولةٍ قريبةٍ من النافذةِ حيثُ الإضاءةُ قويةٌ».

أشارَ ويليام بأصابعِهِ إلى راهبين شابين وأمرَهما قائلاً: «نفذا كلَّ ما يطلبُهُ هذا الرجلُ».

قال ماثيو: «كلُّ ما أحتاجُهُ الآن هو وعاءٌ من النبيذِ الدافئِ».

أحضرَ الراهبان طاولةً خشبيَّةً من المستشفى ووضعوها تحتَ النافذةِ الكبيرةِ في الجناحِ الجنوبي بينما حملَ مرافقان الإيرل رولاند ووضعاه على الطاولةِ.

«أديرا وجههُ إلى الأسفلِ رجاءً»، قالَ ماثيو.

فقاما بقلبِهِ على وجهِهِ.

كان لدى ماثيو حقيبةٌ جلديَّة تحوي أدواتِ حلاقةٍ حادةً ومنها حصلَ الحلَّاقون على اسمِهم. أخرجَ في البدايةِ مقصّاً صغيراً وانحنى فوقَ رأسِ الإيرل ثم أخذَ يقصُّ الشعرَ المحيطَ بالجرحِ. كان شعرُ الإيرل الأسود كثيفاً

ودهنياً. قصَّ ماثيو خصلَ الشعرِ ورماها جانباً لتسقطَ على الأرضِ. عندما صنعَ دائرةً صلعاء حولَ الجرح أصبحت الإصابةُ أكثرَ وضوحاً.

ظهرَ الأخُ غودوين يحملُ صندوقاً من الذهبِ والعاجِ المحفورِ بداخلِهِ جمجمةُ القديس أدولفوس وعظامُ ذراعٍ ويدٍ واحدةٍ. عندما رأى ماثيو مُنكباً على رأسِ الإيرلِ قال بسخطٍ: «ما الذي يجري هنا؟»

نظرَ إليهِ ماثيو وقال: «إن وضعتَ الرفاتَ المقدَّس على ظهرِ الإيرل، أقربُ مكانٍ ممكنٍ إلى رأسهِ، أعتقدُ حينها أنَّ القديسَ سيُثبّتُ يدي».

ترددَ غودوين الذي بدا غضبُه واضحاً من أنَّ مجرَّدَ حلاقٍ قد تولّى زمامَ الأمورِ الآن.

قالَ اللورد ويليام: «افعل ما يقولُهُ أيها الأخ غودوين وإلّا سيموتُ والدي على أعتابِكم».

لم يُذعِن غودوين لذلكَ، بل توجَّه بالحديثِ إلى كارلوس الأعمى الذي وقفَ على بعدِ يارداتٍ قليلةٍ، «أيُّها الأخ كارلوس لقد أمرني اللورد ويليام أن...»

«سمعتُ ما قالَه اللورد ويليام»، قالَ كارلوس مُقاطعاً. «حريٌّ بكَ أن تنفذَ ما يقول».

ارتسمت علائمُ الغضبِ والإحباطِ على وجهِ غودوين؛ فلم يكن هذا الجواب الذي انتظرَهُ، وبنفورٍ واضحٍ وضعَ الصندوقَ المقدَّسَ على ظهرِ الإيرل رولاند.

تناولَ ماثيو مَلقطاً رفيعاً، وبحركةٍ دقيقةٍ أمسكَ الحافةَ المرئيةَ لقطعةٍ من العظمِ ورفعَها دونَ أن يلمسَ المادةَ الرماديَّةَ تحتَها. راقبَت كاريس ما يجري في ذهولٍ. أخرجَ ماثيو القطعةَ مباشرةً من الرأسِ مع الجلدِ والشعرِ الملتصقِ بها ثمَّ وضعَها برفقٍ في وعاءٍ من النبيذِ الدافئ.

وكررَ الحركةَ ذاتَها مع قطعتين صغيرتين أُخريين. بدا حينَها كأنَّ الضجيجَ القادمَ من صحنِ الكنيسةِ وأنينَ الجرحى ونحيبَ الثكالى قد خفُتَ وأصبحَ جزءاً من خلفيةِ المشهدِ. أحاطَ الأشخاصُ الواقفون بماثيو وبالإيرل الفاقدِ للوعي بكلِّ هدوءٍ وسكونٍ.

بعدَ ذلكَ انتقلَ ماثيو للعملِ على الشظايا التي بقيَت مُعلَّقةً ببقيةِ الجمجمةِ. كان في كلِّ مرّةٍ يقصُّ فيها الشعرَ يغسلُ المنطقةَ بعنايةٍ مُستخدماً قطعةً من الكتانِ المبللِ بالنبيذِ، ثم يأخذُ الملقطَ لوضعِ العظامِ برفقٍ في المكانِ الذي يَعتقدُ أنّه موضعُها الأصلي.

كانَ التوترُ على أشدِّهِ إلى درجةٍ بالكاد كانت معها كاريس قادرةً على التنفسِ. لم يسبق قط أن أُعجبَت بأيِّ شخصٍ بقدرِ إعجابِها في هذهِ اللحظةِ بماثيو وبما يمتلكُهُ من شجاعةٍ ومهارةٍ وثقةٍ، ناهيكَ عن أنَّهُ كان يُجري هذهِ العمليَّةَ البالغة الدقة لإيرلٍ؛ أيّ أنّه لو فشلَ فقد يكون مصيرُهُ الإعدام. رغمَ هذا كلِّهِ كانت يداه ثابتتان كما لو أنَّهما يدا ملاكٍ محفورتين في الصخرِ فوقَ مدخلِ الكاتدرائيةِ.

أخيراً، أعادَ ماثيو القطعَ الثلاثَ التي كان قد وضعَها في وعاءِ النبيذِ إلى مكانِها كما لو أنَّه يصلحُ إناءً مكسوراً، ثم سحبَ جلدةَ فروةِ الرأسِ فوقَ الجرحِ وخاطَها بدقَّةٍ وخفَّةٍ.

والآن عادت جمجمةُ رولاند كاملةً.

«يجبُ أن ينامَ الإيرلُ الآن ليومٍ وليلةٍ، وإن استفاقَ أعطوهُ جرعةً قويَّةً من المنومِ الذي تصنعُهُ ماتي وايز»، قالَ ماثيو. «كما أنَّ عليهِ أن يظلَّ راقداً لأربعين يوماً وأربعين ليلةً، وإن لزمَ الأمرُ اربطوه».

ثم طلبَ من الأمِّ سيسيليا أن تضمّدَ الرأسَ.

***

غادرَ غودوين الكاتدرائيةَ وتوجَّه إلى ضفةِ النهرِ مُحبطاً ومتضايقاً من غيابِ سُلطةٍ حازمةٍ في الكنيسةِ؛ فالأخُ كارلوس يسمحُ للجميعِ بأن يفعلوا ما يشاؤون. يجبُ العثورُ على رئيسِ الديرِ أنتوني. صحيحٌ أنَّهُ رجلٌ ضعيفٌ إلا أنَّهُ يظلُّ أفضل من كارلوس.

كانَت معظمُ الجثثِ قد انتُشلت من النهرِ الآن، فأولئكَ الذين أصيبوا بالرضوضِ أو تعرَّضوا للصدمةِ فقط كانوا قد غادروا، كما نُقلَ مُعظمُ القتلى والجرحى إلى الكاتدرائيةِ، أمّا من تُركوا فقد كانوا عالقين في الحطامِ.

أثارَ احتمالُ موت أنتوني في نفسِ غودوين حماسةً ورعباً في الوقتِ ذاتِهِ؛ فقد كان يتوقُ لإحلالِ نظامٍ جديدٍ في الديرِ، نظام قائم على تفسيرٍ أكثرَ صرامةً لقواعدِ بينيدكت وإدارةِ الشؤونِ الماليَّةِ بدقةٍ. لكنَّهُ، وفي الوقتِ عينِهِ، كانَ يعلمُ أنَّ أنتوني من يساندُه وأنَّهُ قد لا يترقى مجدداً في عهدِ رئيسٍ آخر للديرِ.

كان ميرثن قد ركبَ بصحبةِ شابين آخرين أحدَ القواربِ ونزلوا إلى المياهِ حيث طافَت بقايا الجسرِ. كان الثلاثةُ يحاولون، وهم بسراويلهم الداخليةِ فقط، أن يرفعوا جِذعاً ضخماً لتحريرِ شخصٍ عالقٍ. كانَ ميرثن ضئيلَ الحجمِ

لكنَّ الشابين الآخرين كانا قويين وممتلئين، وخمن غودوين أنّهما من رجالِ حاشيةِ الإيرل. وعلى الرغمِ من لياقتِهما الواضحةِ فإنَّهما وجدا صعوبةً في رفعِ الأخشابِ الثقيلة كما لو أنّهما كانا واقفين في قعرِ قاربٍ صغيرٍ.

وقفَ غودوين مع حشدٍ من سكانِ المدينةِ وقد استبدَّ بهم الخوفُ وحداهم الأملُ وهم يشاهدونَ المرافقَين يرفعان جذعاً ثقيلاً وميرثن يسحبُ جثةً من تحتِهِ. بعدَ أن تفحَّصَ ميرثن الجثةَ صاحَ: «مارغريت جونز ميتةٌ».

كانت مارغريت عجوزاً بسيطةً. صاحَ غودوين بلهفةٍ: «أما من أثرٍ لرئيسِ الديرِ أنتوني؟»

تبادلَ الرجالُ على القاربِ النظرات فأدركَ غودوين أنّه تكلَّمَ بنبرةٍ حازمةٍ وردَّ عليهِ ميرثن قائلاً: «أرى رداءَ راهبٍ».

«إذاً، إنَّهُ رئيسُ الديرِ»، صاحَ غودوين. كان أنتوني الوحيدَ الذي ما يزالُ في عدادِ المفقودين. «هل يمكنكَ معرفةُ وضعِهِ؟»

انحنَى ميرثن على جانبِ القارب. لم يكن قادراً على الاقترابِ بما يكفي ليتأكدَ فنزلَ إلى المياهِ وصاحَ أخيراً: «مازالَ يتنفس».

سُرَّ غودوين وخابَ أملُهُ في الوقتِ نفسهُ ثمَّ صرخَ: «أخرجوه من هناك بسرعةٍ...رجاءً».

لم يُجبه أحدٌ إلّا أنّه رأى ميرثن يغطسُ تحتَ لوحٍ مغمورٍ في الماءِ حتى نصفِهِ وهو يعطي تعليماتٍ للشابين الآخرين. قامَ الشابان بإنزالِ الجذعِ الذي أمسكا بهِ إلى جانبِ القارب ثمَّ انحنيا فوقَ مقدمتِهِ وأمسكا باللوحِ الذي كانَ ميرثن تحتَهُ. بدا ميرثن كأنّه يكافحُ من أجلِ تحريرِ ملابسِ أنتوني من بينِ الألواحِ والشظايا المتشابكةِ.

راقبَ غودوين كل هذا في إحباطٍ لعجزِهِ عن القيامِ بأيِّ شيءٍ لتسريعِ العمليّةِ. توجَّهَ بالكلامِ إلى اثنين ممن كانوا يراقبونَ ما يجري: «اذهبا إلى الديرِ واطلبا من راهبين جلبَ حمَّالةٍ، وقولا لهما أنَّ غودوين أرسلكُما». صعدَ الرجلان الدرجَ ثم دخلا إلى الديرِ.

أخيراً، تمكّنَ ميرثن من سحبِ جسدِ ذاكَ الشخصِ الفاقدِ للوعي من بينِ الحطامِ ثمَّ أدناهُ ليتمكنَ الرجلان من وضعِهِ في القاربِ. صعدَ ميرثن إلى القاربِ ثمَّ توجهوا جميعاً نحو الضفةِ.

حملَ متطوعون أنتوني من القاربِ ووضعوهُ على الحمَّالةِ التي جلبَها

الراهبان. قامَ غودوين بتفقدِ حالةِ رئيسِ الديرِ على عجلٍ. كان أنتوني يتنفسُ إلّا أن نبضَهُ كان ضعيفاً كما كانت عيناه مغلقتين ووجهُه شديد البياض وينذرُ بالشؤم. لم يُصب سوى بكدماتٍ في رأسِهِ وصدرِهِ إلّا أنّه بدا كأنَّ حوضَهُ قد تهشّمَ كما أنّه كانَ ينزفُ.

قادَ غودوين الرهبان الذين حملوا أنتوني عبرَ الديرِ وصولاً إلى الكاتدرائيةِ. «أفسحوا الطريقَ»، صرخَ غودوين. عبَرَ برئيسِ الديرِ صحنَ الكنيسةِ وصولاً إلى المذبحِ، أقدسُ جزءٍ فيها. أمرَ الرهبان بوضعِ جسدِهِ أمامَ المذبحِ العالي. شفَّ رداءُ أنتوني المبللُ عن وركيهِ وساقيهِ وقد التوتا بشكلٍ لم يبدُ معهُ سوى النصفِ الأعلى من جسدِهِ بشرياً.

ماهي إلا لحظاتٌ حتّى تحلّقَ كلُّ الرهبانِ حولَ رئيسِ الديرِ الغائبِ عن الوعي. أخذَ غودوين صندوقَ الرفاتِ من فوق الإيرل رولاند ووضعَه عندَ قدمي رئيسِ الدير، ثمَّ وضعَ جوزيف صليباً مُرصّعاً بالجواهرِ على صدرهِ ولفَّ يدي أنتوني حولَهُ.

ركعَت الأمُّ سيسيليا إلى جانبِ أنتوني ومسحَت وجهَهُ بقطعةِ قماشٍ مبللةٍ بسائلٍ مُهدِّئ، ثمَّ توجهت بالحديثِ إلى جوزيف قائلةً: «يبدو أنَّ عظامَهُ مكسورةٌ، هل ترغبُ بأن يلقي الحلّاقُ ماثيو نظرةً عليها»؟

رفضَ جوزيف بهزِّ رأسِهِ في صمتٍ.

سُرَّ غودوين برفضِ جوزيف فقد دنَّسَ الحلّاقُ الحرمَ المُقدسَ وآنَ لهُ أن يتركَ مشيئةَ الرَّبِّ تأخذُ مجراها.

أتمَّ الأخُ كارلوس الطقوسَ الأخيرةَ وأدّى ترنيمةً مع الرهبانِ.

حارَ غودوين في ما يتمناه الآن فقد كان لسنواتٍ عديدةٍ يتطلّعُ إلى انتهاءِ عهدِ أنتوني، ولكن وفي الساعةِ الأخيرةِ من حياةِ أنتوني اتضحَت أمامهُ الشخصيةُ التي ستشغلُ منصبَ رئيس الدير بعده. سيكون هناكَ عهدٌ مشتركٌ بين كارلوس وسيميون، وبما أنّهما صديقا أنتوني فهما لن يكونا أفضلَ منهُ.

فجأةً، رأى غودوين الحلّاقَ ماثيو خلفَ حشدِ الرهبانِ وهو ينظرُ من فوقِ أكتافِهم مُتفحصاً النصفَ السفليَ من أنتوني. وعندما كان على وشكِ أن يأمرَهُ في سخطٍ بمغادرةِ المذبحِ رآه يهزُّ رأسَهُ سريعاً ويبتعدُ.

وفتحَ أنتوني عينيهِ.

«المجدُ للرّبِّ»، صاحَ الأخُ جوزيف.

بدا أنَّ رئيسَ الديرِ يرغبُ بالكلامِ فاقتربَت منهُ الأمُّ سيسيليا التي كانت ما تزال جاثيةً بقربِه، وانحنَت فوق وجهِه في محاولةٍ لفهمِ كلامِهِ.

رأى غودوين شفتي أنتوني تتحركان وتمنى لو أنَّه يستطيعُ سماعَ ما كانَ يقولُهُ.

ماهي إلّا لحظاتٌ حتَّى صمَتَ رئيسُ الديرِ مجدداً.

بدَت سيسيليا مصدومةً وصاحَت: «هل هذا صحيحٌ؟»

نظروا إليها جميعاً ثم سألَها غودوين: «ماذا قال أيتها الأمُّ سيسيليا؟»

لم تُجب.

أغمضَ أنتوني عينيهِ وطرأ تغيرٌ طفيفٌ على وجهِهِ ثمَّ بدا ساكناً تماماً.

انحنى غودوين فوقَ جسدِهِ واكتشفَ أن أنتوني لم يكن يتنفسُ ثمَّ وضعَ يدَهُ على صدرِهِ ولم يشعر بدقاتِ قلبِهِ فأمسكَ بمعصمِهِ متحسساً نبضَه، ولكنه لم يشعر بشيءٍ.

ثمَّ وقفَ وأعلنَ: «لقد رحلَ رئيسُ الديرِ أنتوني عن هذا العالم، فليبارك الربُّ روحَهُ وليجلسهُ في ملكوتِهِ».

رددَ الرهبان جميعاً: «آمين».

وقال غودوين في نفسِهِ: «إذاً، هناك انتخاباتٌ قادمةٌ».

الجزء الثالث

من حزيران/ يونيو وحتَّى كانون الأول/ ديسمبر من عام 1337

-14-

أصبحت كاتدرائيةُ كينغزبريدج الآن مكاناً مثيراً للرعبِ يضجُّ بأنينِ الجرحى وتضرعاتهم إلى الرَّبِّ والقديسين وأمهاتِهم، فلا تكادُ تمضي برهةٌ من الزمن حتَّى يأتي أحدُهم يبحث عن عزيزٍ ليكتشفَ أنَّهُ ماتَ فيبدأ بالنحيبِ والعويلِ. كانت أجسادُ الأحياءِ وجثثُ القتلى مشوهةً ومضرَّجةً بالدماءِ وعظامُها مكسورةً وقد انتزعَت ثيابُها المبللةُ، كما أنَّ الأرضيَّةَ الحجريةَ للكنيسةِ باتت زلقةً بفعلِ مزيجِ المياهِ والدَّمِ والطينِ.

ووسطَ كلِّ هذا الرعبِ حلَّت سكينةٌ وكفاءةٌ كبيرةٌ في شخصيَّة الأمِّ سيسيليا فتنقلت كطائرٍ صغيرٍ نشطٍ بينَ الأجسادِ المُمددةِ وخلفها لحق بها حشدٌ صغيرٌ من الراهباتِ من بينهنَّ الأختُ جوليانا، معاونتها منذُ أمدٍ بعيدٍ والمعروفةُ الآن من بابِ الاحترام باسم جولي العجوز. خلالَ فحصِ كلِّ مريضٍ على حدة أعطَت الأمُّ سيسيليا أوامرها بغسلِ الجروحِ وتقديمِ المراهمِ والضماداتِ والأعشابِ الطبيَّةِ، وفي الحالاتِ الأكثر خطورةً طلبت استدعاءَ ماتي وايز وماثيو بابر أو الأخ جوزيف. كانت تتحدثُ على الدوامِ بهدوءٍ ووضوحٍ، وتعطي تعليماتِها ببساطةٍ وحزمٍ، كما كانت تُهدىء معظمَ المرضى وتُطمئِن ذويهم وتبثُّ الأملَ في نفوسِهم.

أعادَت كلُّ هذهِ الضوضاء المروعةِ إلى كاريس ذكرى وفاةِ والدتها. في ذلكَ اليومِ شعرَت بأن الارتباك والخوف يملآن قلبَها، وحينَها، تماماً كالآن، عرفَت الأمُّ سيسيليا ما يجبُ فعله إلَّا أنَّ والدةَ كاريس ماتت رغمَ مساعدةِ سيسيليا كما سيموتُ الكثيرُ من الجرحى اليومَ. عندما يحلُّ الموتُ يطغى جو من النظامِ... شعورٌ بأنَّ كلَّ شيءٍ يمكنُ فعلهُ قد تمَّ فعلهُ.

عندما يمرضُ أحدُهم يتضرعُ الناس إلى روحِ العذراءِ والقديسين ولكن ما أثار خوف كاريس وشكوكها هو عدمُ وجود طريقةٍ للتأكدِ من أنَّ هذهِ الأرواحَ تقدم المساعدةَ حقاً، أو حتَّى إنَّها تسمعُ هذهِ التضرعات أصلاً. مُذ كانت كاريس

في العاشرةِ وهي تعي أنَّ الأمَّ سيسيليا لم تكن قويةً كالقديسين إلّا أنَّ حضورَها الواثقَ أثارَ في كاريس مزيجاً من الأملِ والتسليمِ أحلَّ السلامَ في روحِها.

أصبحَت كاريس الآن إحدى معاونات سيسيليا دونَ أن تقررَ هذا أو حتّى تفكر فيهِ، ونفّذت أوامرَ أكثرِ الأشخاصِ حَزماً في المكانِ، تماماً كما نفّذَ الناسُ توجيهاتها عندَ النهرِ مباشرةً بعدَ الانهيارِ عندما لم يعرف أحدٌ ما الذي يجبُ فعلهُ.

عملَت سيسيليا بكفاءةٍ نشطةٍ ومُعديةٍ، وأصيبَ كلٌّ من حولَها بحمى هذهِ الكفاءةِ المُذهلةِ. وجدَت كاريس نفسَها تحملُ إناءً صغيراً من الخلِّ بينما راهبةٌ مبتدئةٌ جميلةٌ تدعى مير تضعُ خرقةً فيهِ وتمسحُ بها الدمَ عن وجهِ زوجةِ تاجرِ أخشابٍ تدعى سوزانا تشيبستو.

لم يتوقفوا عن العمل حتَّى بعدَ أن حلَّ المساءُ وبفضلِ ليلِ الصيفِ الطويلِ انتهوا من انتشالِ جميعِ الجثثِ العائمةِ من النهرِ قبلَ هبوطِ الظلامِ رغمَ أنَّ ما من أحدٍ توصلَ إلى العددِ الكامل لمن غرقوا في قاعِ النهرِ أو من جرفَهم التيارُ. لم يكن هناك أثرٌ لنيل المجنونة. لا بدَّ أنَّ العربةَ التي كانت مقيدةً إليها قد سحبتها إلى القاعِ.

ودونَ وجهِ حقٍ نجا الراهب موردو. لم يُصب سوى بالتواءٍ في الكاحلِ ولكن هذا لم يمنعْهُ من التوجهِ وهو يعرجُ إلى نزلٍ لاستردادِ عافيتِهِ بتناولِ لحمِ الخنزيرِ الساخنِ والجعةِ القويّةِ.

ومع أنَّ الظلامَ قد هبطَ فإنَّ علاجَ المصابين استمرَّ على ضوءِ الشموعِ. أصيبَت بعضُ الراهباتِ بالإرهاقِ فاضطررنَ إلى التوقفِ بينما أثقلَت المأساةُ كاهلَ أُخريات فانْهرْنَ، وبعضهنَّ كنَّ حمقاواتٍ ولم يفهمن ما قِيلَ لهنَّ فتعينَ صرفهنَّ، إلّا أنَّ كاريس ومجموعةً أساسيةً صغيرةً تابعنَ العملَ حتى لم يعد هناكَ ما يُمكن فعلُهُ أكثر. كانَ الوقتُ منتصفَ الليلِ عندما رُبطت العقدةُ الأخيرةُ في الضمادةِ الأخيرةِ وتوجهت كاريس مترنحةً من التعبِ إلى منزلِ والدِها.

جلسَ والدُها وبيترانيلا معاً في قاعةِ الطعامِ ممسكين بعضهما بيدي بعض حزناً على موتِ شقيقهما أنتوني. ملأت الدموعُ عيني إدموند وبكَت بيترانيلا بحرقةٍ.

قبّلتْهما كاريس دونَ أن يكونَ لديها ما تقولهُ لهما. أدركت أنّها إن جلسَت معهما ستغفو على كرسيّها لذلكَ صعدَت الدرجَ إلى الطابقِ العلوي ثمَّ نامَت

على السريرِ إلى جانبِ غويندا التي كانت تقيمُ عندها كلَّما زارت كينغزبريدج. كانت غويندا التي أعياها التعبُ غارقةً في النومِ ومن دونِ حراكٍ.

أغمضَت كاريس عينيها فالتعبُ أنهكَ جسدَها واعتصرَ الحزنُ قلبَها.

انتحبَ والدُها على موتِ شخصٍ واحدٍ من بين كثيرين ماتوا اليومَ إلَّا أنَّ كاريس ناءت بحملِ موتِهم جميعاً. فكّرت بأصدقائِها وجيرانِها ومعارفِها مُسجين أمواتاً على الأرضيَّةِ الحجريةِ الباردةِ للكاتدرائيةِ. تخيَّلَت مدى حزنِ ذويهم وأطفالِهم وحزنِ إخوتِهم وأخواتهم إلى أن سحقَها هذا الكمُّ الهائلُ من الألمِ فأجهشَت بالبكاءِ فوقَ وسادتِها، ودونَ أن تتفوهَ بكلمةٍ أحاطتها غويندا بذراعِها وعانقتها، وما هي إلَّا لحظاتٌ حتَّى غلبَها الإعياءُ وغطَّت في النومِ.

عندَ الفجرِ نهضَت مجدداً. تركَت غويندا نائمةً في السريرِ وتوجَهت إلى الكاتدرائيةِ كي تتابعَ عملَها. كانَ معظمُ المصابين قد أُرسلوا إلى منازلِهم، بينما أُرسلَ أولئكَ الذين ما زالوا بحاجةٍ للعنايةِ كالإيرلِ الغائبِ عن الوعي إلى المستشفى. وضعَت جثثُ الموتى في صفوفٍ منتظمةٍ عندَ المذبحِ في الطرفِ الشرقي للكنيسةِ إلى أن يحينَ موعدُ دفنِها.

مرَّ الوقتُ دونَ أن يكونَ هناكَ مجالٌ للراحةِ. لاحقاً من بعدِ ظهرِ يومِ الأحدِ طلبَت الأمُّ سيسيليا من كاريس أن تأخذَ قسطاً من الراحةِ. نظرَت كاريس حولَها فوجدَت أنَّ معظمَ العملِ قد أُنجزَ، وحينها بدأت تفكرُ بالمستقبلِ.

حتَّى هذهِ اللحظةِ لم تكن تعي أنَّ الحياةَ العاديةَ قد انتهت، وأنَّها تعيشُ في عالمٍ جديدٍ يملؤهُ الرعبُ والمآسي. وها هي الآن تدركُ أنَّ كلَّ هذا سينقضي كأيِّ شيءٍ آخر؛ سيُدفنُ الموتى ويشفى الجرحى وبطريقةٍ ما ستكافحُ المدينةُ للعودةِ إلى سابقِ عهدها. تذكّرت أنَّه، وقبلَ انهيارِ الجسرِ مباشرةً، كان هناك مأساةٌ أخرى عنيفةٌ ومدمرةٌ، لكن بطريقتِها الخاصّة.

رأت ميرثن عند النهر برفقةِ إلفريك وتوماس لانغلي ينظمون عملياتِ التنظيفِ وبمساعدةِ ما يزيدُ على خمسين متطوعاً. بدا واضحاً أنَّ ميرثن وإلفريك قد نحّيا خلافاتهما جانباً في ظلِّ هذه الحالةِ الطارئةِ. أُخرجَت معظم الأخشابِ الطافيةِ على سطحِ المياهِ وكُدسَت عندَ الضفة، إلَّا أنَّ الكثيرَ من القطعِ الخشبيةِ المُتصلةِ بعضها ببعض في ما يشبهُ مجموعة من الألواحِ الخشبيةِ المتشابكةِ بقيت طافيةً تتهادى مع حركةِ المياهِ بذلكَ الهدوءِ البريءِ لوحشٍ عملاقٍ أكلَ طريدتهُ وشبعَ.

كان الرجالُ يحاولونَ تفكيكَ الحطامِ إلى أجزاءٍ يسهلُ التعاملُ معها غير أنَّ عملهم هذا كان خطيراً فالجسرَ بأكملهِ قد ينهارُ في أيِّ لحظةٍ فوقَ رؤوسِ المتطوعين. ربطوا حبلاً حولَ الجزءِ الأوسطِ من الجسرِ الذي كانَ مغموراً في المياهِ بينما وقفَت مجموعةٌ من الرجالِ على الضفةِ يسحبونَ الحبلَ. وقفَ ميرثن مع مارك ويبر العملاق في قاربٍ وسطَ النهرِ وبصحبتِهما شخصٌ يُجدفُ القاربَ. وعندما يُرخي الرجالُ على الضفةِ الحبلَ يقتربُ القاربُ من الحطامِ، ويقومُ مارك، بتوجيهٍ من ميرثن، بضربِ العوارضِ الخشبيةِ بفأسٍ تقطيعٍ ضخمةٍ ليتراجعَ بعدها القاربُ إلى مسافةٍ آمنةٍ ثمَّ يعطي إلفريك الإشارةَ للرجالِ بشدِّ الحبلِ مرةً أخرى.

وعلى مرأى أنظارِ كاريس نجحَ الرجالُ في تحريرِ قسمٍ كبيرٍ من حطامِ الجسرِ.

هللَ الجميعُ مبتهجين ثمَّ قامَ الرجالُ بجرِّ الأخشابِ المُتشابكةِ نحو الشاطئ.

حضرَت زوجاتُ بعضِ المتطوعين وهنَّ يحملْنَ أرغفةَ الخبزِ وأباريقَ الجعةِ. أعلنَ توماس لانغلي عن فترةِ استراحةٍ. وبينما كان الرجالُ يأخذونَ قسطاً من الراحةِ تقدَّمَت كاريس من ميرثن الذي كان بمفردِهِ وقالت على حينِ غرَّةٍ ومن دونِ مقدماتٍ: «لا يمكنكَ الزواجُ من غريزيلدا».

لم يتفاجأ ميرثن بنبرتها الحاسمةِ وقالَ: «لا أعرفُ ماذا يجبُ عليَّ فعلهُ، لا أنفكُّ أفكرُ بالأمرِ».

«هلَّا تمشينا معاً؟»

«حسناً».

تركا الحشدَ عندَ الضفةِ وصعدا إلى الشارعِ الرئيسي. كانت المدينةُ هادئةً كالمقابرِ بعدَ انتهاءِ سوقِ الصوفِ وصخبِهِ؛ فالجميعُ في منازلِهم إمَّا يعتنون بالجرحى أو يرثونَ الموتى. «ليسَ هناكَ عائلةٌ في المدينةِ لا يوجد فيها ميتٌ أو مصابٌ»، قالت كاريس. «لا بدَّ أنَّ ألفَ شخصٍ كانوا على الجسرِ. وقد كانوا يغادرون المدينة أو يعذبون نيلَ المجنونة». تابعَت قائلةً: «هناكَ أكثرُ من مئةِ جثةٍ في الكنيسةِ وقد عالجنا حوالي أربعمئةِ مصابٍ».

«وخمسمئةٍ من المحظوظين»، قالَ ميرثن.

«كان احتمالُ وجودنا، أنا وأنت، على الجسرِ أو بالقربِ منهِ كبيراً، ولربما

كنَّا الآن مُسجيين على أرضيَّةِ الكنيسةِ جثتين هامدتين باردتين، إلَّا أننا مُنحنا نعمةَ متابعةِ حياتنا، ويجب ألَّا نُهدرَها بسببِ غلطةٍ واحدةٍ».

«إنَّها ليست غلطة»، ردَّ ميرثن بحدَّةٍ. «إنَّه طفلٌ. إنسانٌ وله روحٌ».

«وأنتَ إنسانٌ ولكَ روحٌ، إنسانٌ استثنائي أيضاً. انظر إلى ما كنتَ تفعلُهُ منذُ قليلٍ، ثلاثةُ رجالٍ يتولون المهام هناكَ عندَ النهر، وأحدُهم أثرى بنَّاء في المدينةِ والآخرُ موظف السجلاتِ في الدير. أمَّا الثالث... فهو مجردُ شابٍ مبتدئ لم يبلغ عامَهُ الواحدَ والعشرين بعد إلَّا أنَّ رجالَ المدينةِ يطيعونهُ بانصياعٍ كما يطيعونَ إلفريك وتوماس».

«ولكن هذا لا يعني أنني أستطيعُ التنصلَ من مسؤولياتي».

وانعطفا نحو مبنى الدير. كانت الحفرُ والأخاديدُ قد ملأت حديقةَ الكاتدرائيةِ بعدَ انتهاءِ أسبوعِ السوقِ وتشكلت مستنقعاتٌ موحلة وبرَكٌ كبيرة، ومن النوافذِ الغربيةِ العظيمةِ الثلاث في الكنيسةِ رأت كاريس الشمسَ وقد اكتنفتها سحبٌ ماطرةٌ مبعثرةٌ في ما يشبه لوحةً ثلاثية الأوجهِ كالتي توضعُ فوقَ المذبحِ، ثمَّ سمعَت صوتَ جرسِ صلاةِ المساءِ يُقرعُ.

قالت كاريس: «أتذكرُ كم كنتَ تتحدثُ عن السفرِ إلى باريس وفلورنسا لرؤيةِ مبانيهما؟ هل ستتخلى عن كلِّ هذا؟»

«أعتقدُ هذا. فلا يمكنُ للمرءِ أن يتخلَّى عن زوجتِهِ وطفلِهِ».

«إذاً، أنتَ تفكرُ بها كزوجتكَ فعلاً».

استدارَ نحوها وأجابَها بمرارةٍ: «لن أفكّر بها كزوجتي أبداً، فأنتِ تعلمين من أحب».

ولأولِ مرَّةٍ عجزَت عن التفكيرِ بإجابةٍ ذكيَّةٍ. حاولَت أن تتكلمَ لكن الكلماتِ خذلتها وأحسَّت بالاختناقِ. غصَّت بعَبَراتها وأطرقَت النظرَ كي تخفي مشاعرَها.

أمسكَها من ذراعِها وجذبَها إليه. «أنتِ تعلمين، أليسَ كذلك؟»

أجبرَت نفسها على النظرِ في عينيهِ وقالت: «حقاً؟» ثم أغشَت الدموع عينيها.

قبَّلها من فمِها. كانت قبلةً من نوعٍ جديدٍ، قبلةً مختلفةً عن كلِّ ما اختبرتهُ قبلاً. ضغطَ بشفتيهِ على شفتيها بلطفٍ ولكن بشغفٍ كما لو أنَّه أرادَ لهذهِ اللحظةِ أن تبقى عالقةً في ذاكرتِهِ، وأدركَت في فزعٍ بأنَّه يريدها أن تكونَ قبلتَهما الأخيرةَ.

تشبَّثَت بِهِ مدفوعةً برغبتِها في أن تدومَ هذهِ اللحظةُ إلى الأبدِ، لكن سرعان ما أفلتَها.

وقالَ لها: «أحبكِ، لكنني سأتزوجُ من غريزيلدا».

***

استمرَّت دورةُ الحياةِ والموتِ بولادةِ الأطفالِ وموتِ العجائزِ، فيومَ الأحدِ هاجمَت إيما بوتشر زوجَها الزاني إدوارد بأكبرِ ساطورٍ لديه في نوبةِ غيرةٍ غاضبةٍ، وفُقدَت يومَ الإثنين إحدى دجاجاتِ بيس هامبتون ليُعثرَ عليها لاحقاً في قدرٍ يغلي في مطبخِ غليني ثومبسون حيثُ قامَ المأمورُ جون بتجريدِ غليني من ثيابِها وجلدِها.

ويومَ الثلاثاءِ كان هاول تايلر يعملُ على سطحِ كنيسةِ القديسِ مارك عندما تحرَّكَت عارضةٌ خشبيةٌ عفنةٌ تحته فهوى من أعلى السقفِ إلى الأرضِ وماتَ على الفورِ.

بحلولِ يومِ الأربعاء كانوا قد أزالوا حطامَ الجسرِ باستثناءِ دعامتين من الدعائمِ الرئيسيةِ، وكَدَّسوا الأخشابَ على الضفةِ وفتحوا الممرَ المائي حتَّى تتمكن المراكبُ والزوارقُ من مغادرةِ كينغزبريدج إلى ميلكومب مُحمَّلةً بالصوفِ والبضائعِ الأخرى التي تُشحن من سوقِ الصوفِ إلى إقليمِ الفلاندرز في إيطاليا.

عندما ذهبَت كاريس وإدموند إلى ضفةِ النهرِ للتحققِ من التقدمِ الذي تمَّ إحرازُه، كان ميرثن يستخدمُ الأخشابَ التي سُحبَت لبناءِ طوفٍ ونقلِ الناسِ عبرَ النهرِ. «إنَّه أفضلُ من القاربِ، إذ يمكنُ نقل الماشيةِ والعرباتِ عليهِ»، قال شارحاً.

أومأ إدموند برأسِهِ في كآبةٍ: «سيكونُ هذا كافياً من أجلِ السوقِ الأسبوعي. لحسنِ الحظِ سيكون لدينا جسرٌ جديدٌ بحلولِ موعدِ سوقِ الصوفِ المقبلِ».

«لا أعتقدُ هذا»، قالَ ميرثن.

« لكنَّك أخبرتني أنَّ بناءَ جسرٍ جديدٍ سيستغرقُ عاماً تقريباً!»

«هذا صحيحٌ. لكن إن بنينا جسراً خشبياً آخر فسينهارُ كسابقِهِ».

«لماذا؟»

«تعالا معي لأريكما»، قالَ ميرثن وقادهما إلى كومةٍ من الأخشابِ ثمَّ أشارَ إلى مجموعةٍ من الدعائمِ الضخمةِ ثمَّ قالَ: «هذهِ هي الركائزُ، وهي على الأرجحُ

من بينِ أفضل أربع وعشرين شجرة بلوط في المنطقةِ وقد وهبَها الملكُ للدير. انظرا إلى أطرافِها».

رأت كاريس أنَّ حوافَ هذهِ الدعائمِ الضخمةِ مدببةٌ، لكن وبتأثيرِ مرورِ كلِّ تلكَ الأعوامِ وهي تحتَ المياهِ فقد بُليت الحوافُ.

قالَ ميرثن: «ليسَ للجسرِ الخشبي أساساتٌ، إنَّما تُغرَسُ الدعائمُ في المياهِ فحسب وهذا ليس جيداً كفايةً».

«ولكن الجسر بقي ثابتاً لمئاتِ السنين»، قالَ إدموند في سُخطٍ. اعتادَ إدموند على المجادلةِ بعدوانيةٍ.

ولكن ميرثن كان مُعتاداً على طبعِهِ ولم يلقِ بالاً لنبرتِهِ العدوانيةِ. «لكن ها هو الجسرُ قد سقطَ الآن»، قالَ ميرثن بتأنٍ.

«طرأ تغيرٌ ما. إذ لطالما كانت الركائزُ ثابتةً لكنَّها لم تعد كذلكَ».

«وما الذي تغيرَ؟ لا يزالُ النهرُ ذاتَهُ».

«حسناً. بدايةً، قُمتَ ببناءِ حظيرةٍ ورصيفٍ صغيرٍ على الضفةِ، ثم سوَّرتَ ملكيتَكَ لحمايتِها. حذا عدَّةُ تجارٍ آخرين حذوكَ، وهذا على الأغلب سببُ اختفاءِ الشاطئ الطيني في الجهةِ الجنوبيةِ حيثُ كنتُ ألعبُ عندما كنتُ صغيراً، ونجمَ عن هذا تضييقٌ في مجرى النهرِ باتجاهِ الحقولِ. وكنتيجةٍ لكلِّ ذلك باتَ جريانُ ماءِ النهرِ أسرع مما كان عليهِ خصوصاً بعد كلِّ المطرِ الغزيرِ الذي انهمرَ هذا العام».

«هل يتحتَّمُ علينا بناءُ جسرٍ حجري جديدٍ إذاً؟»

«أجل».

نظرَ إدموند للأعلى فوجدَ إلفريك واقفاً ينصتُ إليهم.

«يقولُ ميرثن إنَّ بناءَ جسرٍ حجري سيستغرقُ ثلاثةَ أعوامٍ».

هزَّ إلفريك رأسَهُ قائلاً: «ثلاثةُ مواسم بناءٍ».

علمَت كاريس أنَّ مُعظمَ أعمالِ البناءِ تحدثُ في الأشهرِ الدافئة.

كان ميرثن قد أوضحَ لها عدمَ إمكانيةِ بناءِ الجدرانِ الحجريةِ خلالَ موسمِ الصقيعِ مخافةَ أن يتجمَّدَ الطين قبل أن يتصلَّب كما يجب.

تابعَ إلفريك: «يلزمنا عامٌ لبناءِ الأساساتِ وآخر لبناءِ القناطر وثالثٌ لبناءِ الطريقِ، وبعدَ كلِّ مرحلةٍ يجبُ أن يُترك الطين لثلاثةِ أو أربعةِ أشهر قبل البناء فوقه».

«ثلاثةُ أعوامٍ دونَ جسرٍ»، قالَ إدموند مُكفهراً.

«بل أربعة إن لم نبدأ على الفورِ».

«من الأفضلِ أن تجهّز الكلفةَ التقديرية لنقدمَها إلى الديرِ».

«لقد بدأتُ بذلكَ فعلاً لكنَّها مهمةٌ شاقةٌ وتتطلبُ يومين أو ثلاثةَ أيامٍ إضافيةٍ».

«حاول أن تُسرعَ فيها».

غادرَت كاريس وإدموند ضفةَ النهرِ وسارا في الشارعِ الرئيسي. مشى إدموند بحيويَّةٍ وبخطواتٍ عرجاء، فعلى الرغمِ من ساقِهِ الضامرةِ فإنَّه لم يكن يتكئ على ذراعِ أحدٍ، لذلكَ وليحافظَ على توازنِهِ كان يؤرجحُ يدهُ كما لو أنَّهُ يعدو. كان سكانُ المدينةِ يفسحونَ له الطريقَ دوماً وخصوصاً عندما يكون على عجلةٍ من أمرِهِ. «ثلاثُ سنواتٍ»، قال إدموند خلالَ سيرهما. «سيلحقُ هذا ضرراً كبيراً بسوقِ الصوفِ السنوي. لا أدري كم من الوقتِ نحتاجُ لتعود الحياةُ إلى طبيعتِها. ثلاثُ سنواتٍ!»

عندما وصلا إلى المنزلِ وجدا أليس أختَ كاريس هناك.

كان شعرُها مربوطاً تحتَ قبعتِها بطريقةٍ جديدةٍ ودقيقةٍ تماماً كما تفعلُ الليدي فيليبا. كانت تجلسُ إلى الطاولةِ مع العمَّةِ بيترانيلا، فعرفَت كاريس من نظراتِهما أنَّهما كانتا تتحدثان عنها.

توجهت بيترانيلا إلى المطبخِ وعادَت تحملُ الجعةَ والخبزَ والزبدةَ الطازجةَ، ثمَّ قدَّمَت كأساً إلى إدموند.

بكَت بيترانيلا يومَ الأحد، لكنَّها منذُ ذلكَ الحينِ لم تُبدِ ما يدلُّ على حزنِها على شقيقِها المتوفى أنتوني.

ما يدعو للدهشةِ أنَّ إدموند الذي لم يحب أنتوني يوماً بدا أكثرَ حزناً على شقيقِهِ، فقد كانت كاريس تراهُ يبكي فجأة في لحظاتٍ غير متوقعةٍ لكنَّه سرعان ما يتوقفُ.

حملَ إدموند في جعبتِهِ الآن الكثيرَ من الأخبارِ عن الجسرِ. كانت أليس ميَّالةً للتشكيكِ في رأيِ ميرثن، لكنَّ إدموند رفضَ شكوكها على الفورِ قائلاً: «إنَّه عبقري، ورغمَ أنَّه لم يُنهِ فترةَ تدريبِهِ بعد إلا أنَّه واسع المعرفةِ مقارنةً بأبرعِ البنائين».

قالت كاريس بمرارةٍ: «من المؤسفِ أنَّه سيكملُ حياتَه مع غريزيلدا».

انبرَت أليس للدفاعِ عن ابنةِ زوجِها قائلةً: «ما من شيءٍ يعيبُ غريزيلدا».

«بلى» قالت كاريس. «يعيبُها أنَّها لا تحبُّهُ. لقد أغوتهُ لأنَّ حبيبَها غادرَ المدينة».

«هل هذا ما قالهُ لكِ ميرثن»؟ ضحكَت أليس ساخرةً. «إن لم يكن الرجلُ راغباً بذلكَ فسيمتنعُ عن فعلِهِ، صدقيني».

شخرَ إدموند قائلاً: «الرجال عرضةٌ للإغواءِ».

«أوه، إذاً أنتَ تتفقُ مع كاريس يا أبي، أليسَ كذلك؟» قالت أليس، «حسناً لا ينبغي أن أتفاجأ فأنتَ تأخذُ صفَّها على الدوامِ».

«ليسَ الأمرُ أنني منحازٌ إلى طرفٍ دونَ آخرٍ»، أجابَ إدموند. «قد لا يرغبُ الرجلُ بفعلِ أمرٍ ما في البدايةِ ثمَّ يندمُ على ذلكَ، لكن، ولبرهةٍ، قد تتغيرُ رغباتُهُ خصوصاً إن استخدمَتِ المرأةُ حيلَها».

«حيلَها؟ ولمَ تظن أنَّها قد تلقي بنفسِها عليهِ»؟

«لم أقل ذلكَ لكنني أعرفُ أنَّ الأمرَ بدأ عندما كانت تبكي وذهبَ ميرثن لمواساتِها».

كانت كاريس قد أخبرَت والدَها بهذا التفصيلِ.

قالت أليس باشمئزازٍ: «لطالما كنتَ ضعيفاً أمامَ هذا المبتدئ المتمرّد».

تناولَت كاريس بعضَ الخبزِ والزبدة دونَ شهيّةٍ ثمَّ قالت: «أعتقدُ أنَّهما سينجبان ستةَ أطفالٍ بدينين وسيخلفُ ميرثن إلفريك في عملِهِ ويصبح مجرَّدَ بنَّاءٍ عادي يبني منازلَ التجارِ ويتزلفُ لرجالِ الدينِ من أجلِ الحصولِ على عقودٍ كوالدِ زوجتِهِ تماماً».

قالت بيترانيلا: «حينها سيكونُ محظوظاً جداً وسيصبحُ من الرجالِ البارزين في البلدةِ».

«يستحقُّ مصيراً أفضلَ من هذا».

«حقاً؟» قالت بيترانيلا بدهشةٍ ساخرةٍ. «وهو ابن الفارس الذي سقطَ من عليائِهِ وخسرَ كلَّ شيءٍ إلى درجةِ أنَّه لا يستطيعُ شراءَ حذاءٍ لزوجتِهِ. ما الذي سيكونُ مصيرُ مثل هذا الشخصِ بالضبطِ؟»

وخزتها السخريةُ الكامنةُ في كلامِ عمتها. صحيحٌ أنَّ والدي ميرثن فقيران جداً ويعيشان على ما يقدّمُهُ الديرُ من طعامٍ وشرابٍ، لذا فإنَّ وراثةَ مهنةٍ ناجحةٍ في البناءِ سيعني ارتقاءَهُ السلَّمَ الاجتماعي بالفعلِ. رغمَ هذا كلّه كانت كاريس

تعتقدُ أنَّه يستحقُّ ما هو أفضل من هذا المصير. لم يكن في وسعِها أن تحددَ بالضبطِ ماهيةَ هذا المصير الذي يستحقُّهُ، إلَّا أنَّها كانت تعلمُ أنَّه مختلفٌ عن جميعِ من في المدينةِ كما أنَّها لم تكن قادرةً على احتمالِ فكرةِ أن ينتهي بهِ الحالُ كالبقيَّةِ.

قامَت كاريس يومَ الجمعةِ بأخذِ غويندا لرؤيةِ ماتي وايز.

بقيت غويندا في المدينةِ لأنَّ ولفريك مازالَ فيها لحضورِ جنازةِ أفرادِ عائلتِهِ.

كانت إلين الخادمةُ في منزلِ إدموند قد جففَت فستانَ غويندا أمامَ النارِ، كما ضمدَت كاريس قدميها وأعطتها حذاءً قديماً من أحذيتها.

أحسَّت كاريس بأنَّ غويندا لم تقلِ الحقيقةَ كاملةً بخصوصِ مغامرتِها في الغابةِ. أخبرتها غويندا بأنَّ سيم قد سلَّمَها إلى الخارجين عن القانونِ إلَّا أنَّها هربَت ولكن سيم طاردَها إلى أن ماتَ في انهيارِ الجسرِ. أقنعَت غويندا المأمورَ جون بهذهِ الروايةِ؛ فالخارجون عن القانونِ هم أشخاصٌ يخرقونَ القانون كما يوحي اسمُهم بذلكَ، لذلكَ لم يكن هناكَ نقاشٌ في مسألةِ توريثِ أملاكِ سيم.

أصبحت غويندا الآن حرَّةً، إلَّا أنَّ كاريس كانت واثقةً من أنَّ شيئاً ما قد حدثَ في الغابةِ، وأن هناكَ ما تخفيهِ غويندا إلَّا أنَّها لم تضغَط على صديقتِها لتخبرها؛ فمن الأفضلِ أن تبقى بعضُ الأمورِ طيَّ الكتمانِ.

انشغلَت المدينةُ بالجنائزِ طيلةَ الأسبوعِ. لم يكن للطريقةِ الاستثنائيةِ التي توفي فيها هؤلاء الناس تأثيرٌ على طقوسِ الدفنِ؛ فلم تتغير طريقةُ غسلِ الجثثِ ولا خياطةُ أكفانِ الفقراءِ ولا صنعُ توابيتِ الأغنياءِ ولا حفرِ القبورِ ولا دفعُ المالِ للكهنةِ. لم يكن إلَّا قلةٌ من الرهبانِ مؤهلين ككهنةٍ، كما أنَّ معظمَ الرهبانِ كانوا يعملونَ في مناوباتٍ طيلةَ اليومِ وكلَّ يوم لإتمامِ شعائرِ الدفنِ في المقبرةِ على الجانبِ الشمالي من الكاتدرائيةِ. كان هناكَ ستُّ كنائس صغيرة في كينغزبريدج وجميعُ كهنتها كانوا مشغولين جداً.

كانت غويندا تبذلُ كلَّ ما بوسعِها لمواساةِ ولفريك ومساعدتِهِ في ترتيباتِ الدفنِ وقامَت بما تقومُ بهِ النساءُ عادةً كغسلِ الموتى وخياطةِ الأكفانِ. أشرفَ ولفريك على إجراءاتِ الدفنِ بشكلٍ جيدٍ إلَّا أنَّه كان في حالةِ ذهولٍ، وكانَ يحدِّقُ في الفراغِ لساعاتٍ وارتسمَ على وجهِهِ عبوسٌ حائرٌ كما لو أنَّه يحاولُ حلَّ معضلةٍ كبيرةٍ.

وبحلولِ يومِ الجمعةِ كانت الجنائزُ قد انتهت إلَّا أنَّ كارلوس، رئيسَ الديرِ

بالوكالةِ، أعلنَ عن إجراءِ مراسمَ خاصَّةٍ يومَ الأحدِ للصلاةِ على روحِ من ماتَ، وهكذا سيبقى ولفريك حتَّى يومِ الإثنين. أسرَّت غويندا لكاريس أنَّ ولفريك كان ممتناً لوجودِ شخصٍ من قريتِهِ إلى جانبِهِ إلَّا أنَّه لم يكن يُظهر حيويةً إلَّا عند الحديثِ عن آنيت، فاقترحَت كاريس عليها أن تشتري لها جرعةَ حبٍ أخرى.

كانت ماتي وايز في مطبخِها تعدُّ بعضَ الأدويةِ.

كان منزلُها الصغيرُ عابقاً برائحةِ الأعشابِ والزيتِ والنبيذِ. «لقد نفدَ كلُّ ما لدي يومي السبت والأحد». قالت ماتي. «أحتاجُ إلى شراءِ الموادِ».

«لا بدَّ أنَّكِ جنيتِ بعضَ النقودِ على أيِّ حالٍ»، قالت غويندا.

«أجل، هذا إن تمكّنتُ من تحصيلِها».

قالت كاريس مصدومةً: «هل يتهرَّبُ الناسُ من الدفعِ؟»

«أجل يتهرَّبُ بعضهم، لذلكَ أحاولُ على الدوام الحصولَ على مالي مُقدماً وهم ما زالوا يتألمون، لكن إن لم يدفعوا حينها سيكونُ من الصعبِ أن أرفضَ علاجَهم. يدفعُ معظمُهم لاحقاً لكن ليسَ الجميع».

شعرَت كاريس بالسخطِ نيابةً عن صديقتِها: «وماذا يقولون؟»

«كلّ ما قد يخطرُ على البالِ، من أنَّهم لا يستطيعونَ الدفعَ وأنَّ الدواء أُعطي لهم رغماً عنهم، أو أنَّ الدواءَ لم يكن ناجعاً. يقولون كلَّ شيء. لكن لا تقلقي فهناكَ ما يكفي من الشرفاءِ لأتمكنَ من الاستمرارِ. والآن ما الذي تريدانِهِ؟»

«فقدت غويندا جرعةَ الحبِ في حادثِ الجسرِ».

«يمكننا حلُّ هذهِ المسألةِ بسهولةٍ. لمَ لا تعدينها لها بنفسكِ يا كاريس؟»

وبينما كانت كاريس تحضِّرُ المزيجَ توجهت بالسؤالِ إلى ماتي: «ما عددُ حالاتِ الحملِ التي تنتهي بالإجهاضِ؟»

عرفَت غويندا سببَ سؤالِ كاريس فقد أخبرتها الأخيرةُ عن ورطةِ ميرثن، وقد قضَت الفتاتان جلَّ وقتِهما في الحديثِ إمَّا عن لامبالاةِ ولفريك أو عن القيمِ الأخلاقيةِ العاليةِ لميرثن، حتَّى إنَّ فكرةَ شراءِ جرعةِ الحبِّ قد أغرَت كاريس نفسَها لاستخدامها مع ميرثن إلَّا أنَّ سبباً ما منعَها من فعلِ هذا. نظرَت إليها ماتي بحدَّةٍ وأعطتها جواباً غامضاً.

«ما من أحدٍ يعلمُ بهذهِ الأمورِ؛ ففي كثيرٍ من الأحيانِ قد تفوت المرأةُ عادتَها لشهرٍ واحدٍ ثمَّ تعاودها في الشهرِ الذي يليهِ. هل كانت حاملاً ثم خسرَت الطفلَ؟ أم أنَّ هناكَ أسباباً أخرى؟ يستحيلُ معرفةُ ذلكَ».

«أوه».

«لستما حاملَين، إن كانَ هذا ما يقلقكما».

قالت غويندا بسرعةٍ: «كيف عرفتِ هذا؟»

«بالنظرِ إليكما فحسب؛ فالمرأةُ الحاملُ تتغيرُ بسرعةٍ. ناهيكِ عن بطنِها وثدييها، تتغيرُ بشرتُها وحركتُها ومزاجُها أيضاً. يمكنني تمييزُ مثل هذهِ الأمورِ أفضلَ من أيِّ أحدٍ آخر ولهذا يدعونني بالحكيمةِ. إذاً، من هي الحاملُ؟»

«غريزيلدا ابنة إلفريك».

«أوه أجل لقد رأيتُها، إنَّها في الشهرِ الثالثِ الآن».

قالت كاريس مذهولةً: «في أيِّ شهرٍ؟»

«في حدودِ الشهرِ الثالثِ. انظري إليها، رغمَ أن غريزيلدا لم تكن يوماً فتاةً رقيقةً إلّا أنّها أصبحَت الآن أكثرَ ابتهاجاً. لمَ أنت مصدومةٌ هكذا؟ أعتقدُ أنّه طفلُ ميرثن، أليس كذلك؟»

لطالما أصابَت ماتي في مثلِ هذهِ الأمورِ.

قالت غويندا لكاريس: «لكنَّكِ قلتِ لي إنَّ ذلك حدثَ منذُ وقتٍ قريبٍ».

«لم يقل لي متى حدثَ ذلكَ بالضبطِ، إلّا أنّه أعطاني انطباعاً بأنّه حدثَ منذُ زمنٍ قصيرٍ ولمرَّةٍ واحدةٍ فقط. يبدو لي أنّه كانَ يفعلُ ذلكَ معها منذُ شهورٍ».

عبسَت ماتي ثمَّ قالت: «ولمَ قد يكذب؟»

«كي لا يبدو سيئاً»، اقترحَت غويندا.

«هل يمكن لهذا أن يكونَ أكثرَ سوءاً؟»

«الرجالُ غريبون، كذلكَ طريقةُ تفكيرهم».

«سأسألهُ على الفورِ»، قالت كاريس ثمَّ وضعت الإناءَ وملعقةَ القياسِ من يدِها.

«ماذا عن جرعةِ الحبِّ خاصتي؟» قالت غويندا.

«سأكملُ صنعَها بنفسي»، قالت ماتي. «إنَّ كاريس على عجلةٍ من أمرِها».

«شكراً لكِ»، قالت كاريس ثم خرجَت.

توجهت كاريس إلى النهرِ إلّا أنَّ ميرثن لم يكن هناك هذهِ المرَّة كما لم تجدهُ في منزلِ ولفريك أيضاً، لذا توقّعت أن تجدَهُ في سقيفةِ ورشةِ البنّائين في الكاتدرائيةِ.

في الواجهةِ الغربيةِ للكاتدرائيةِ التي كانت مركّبةً بعنايةٍ وفي أحدِ الأبراجِ

غرفةٌ لكبارِ البنّائين. وصلَت كاريس إليها عن طريقِ سلَّمٍ حلزوني ضيقٍ على كتفِ البرجِ.

كانت السقيفةُ عبارةً عن غرفةٍ واسعةٍ مضاءةٍ جيداً بنوافذَ طويلةٍ، وقد تكدَّسَت على طولِ أحدِ جدرانِها قوالبُ خشبيةٌ جميلةٌ استخدمها نحاتو الكاتدرائيةِ الأوائلِ وحُفظت بعنايةٍ من أجلِ استخدامِها في الإصلاحاتِ.

كانت الأرضيةُ معدَّةً للرسمِ إذ كانت الألواحُ مغطاةً بطبقةٍ من الجصِّ حيثُ قامَ المعلمُ الأول، البنَّاء جاك، بوضعِ رسوماتِهِ على الطينِ مستخدماً أدوات رسمٍ حديديةً. في البدايةِ تبدو الرسومُ بيضاء إلَّا أنَّها تتلاشى مع مرورِ الوقتِ، وبالتّالي يمكنُ نقشُ رسوماتٍ جديدةٍ فوقَها. وحينَ تكثرُ الرسوم بحيث يصعبُ تمييز القديمةِ منها والجديدةِ، تُبسطُ طبقةٌ جديدةٌ من الجصِّ فوقَها لتُعادَ الكرَّةُ.

في ما مضى قامَ الرهبانُ بنسخِ نصوصٍ من الكتابِ المقدَّسِ على الرقِّ وهو جلدٌ رقيقٌ باهظُ الثمنِ ولذلكَ لم يكن يُستخدمُ للرسمِ. خلالَ حياةِ كاريس ظهرَت مادَّةٌ جديدةٌ للكتابةِ تدعى الورق، لكن ولأنَّ العرب من جلبها فقد رفضَها الرهبان بحجةِ أنَّها اختراعٌ مسلمٌ وثني. على أيِّ حالٍ كان يجب استيرادُ الورقِ من إيطاليا كما أنَّه لم يكن أرخص من الرقِّ. تملكُ أرضيةُ الرسمِ هذهِ ميزةً أخرى إذ يمكنُ لأيِّ نجارٍ أن يضعَ قطعةً من الخشبِ على الأرضيَّة والرسمُ عليها ثمَّ ينقشُ الخطوطَ على القالبِ تماماً كما رسمَها المعلمُ.

وجدت ميرثن راكعاً على الأرضيَّةِ يحفرُ في قطعةٍ من خشبِ البلوط متبعاً إحدى الرسومِ إلَّا أنَّه لم يكن يصنعُ قالباً إنَّما كان يحفرُ عجلةً مسننةً بست عشرة سِناً، وإلى جانبِهِ على الأرضِ عجلةٌ أصغر. توقفَ ميرثن عن الحفرِ للحظةٍ ليجمعَ القطعتين معاً ويتأكد من مدى تطابقِهما.

كانت كاريس قد رأت مثلَ هذهِ العجلاتِ أو التروسِ في طواحينِ المياهِ، وقد كانت تربطُ ذراعَ الطاحونةِ وحجرَ الطحنِ.

لا بدَّ أنَّهُ سمعَ وقعَ خطواتِها وهي تصعدُ الدرجَ الحجري إلَّا أنَّه كان مُنغمساً في عملِهِ. تأملَتْهُ للحظةٍ ومزيجٌ من الحبِّ والغضبِ يعتصرُ قلبها. علَت وجهَهُ نظرة تركيزٍ تام؛ كانت تعرفُ هذهِ النظرة جيداً، كلما انكبَّ بجسدِهِ الضئيلِ على عملِهِ بينما يداه القويتان وأصابعُهُ الماهرةُ تقوم بالتعديلاتِ الدقيقةِ. كان وجهُهُ خالياً من أيِّ تعبيرٍ ونظرتُهُ ثابتةً ويكللهُ ذلكَ البهاءُ المُطلق لغزالٍ صغيرٍ أحنى رأسَهُ ليشربَ من ماءِ الجدولِ. فكّرت كاريس بأنَّ هذا ما يبدو عليهِ الرجال

عندما يقومون بما وُلدوا من أجلِهِ. كان في حالةٍ من السعادةِ العميقةِ؛ فهو يحفرُ مصيرَه.

انفجرَت قائلةً: «لمَ كذبتَ عليّ؟»

انزلقَ الإزميلُ من يدِهِ فنظرَ إلى إصبعِهِ وصرخَ متألماً: «يا إلهي!» ثمَّ وضعَها في فمِهِ.

«أنا آسفة»، قالت كاريس، «هل تأذيت؟»

«لا إنَّه جرحٌ طفيفٌ، متى كذبتُ عليكِ؟»

«أوهمتني أنَّ غريزيلدا قد أغرتك لمرَّةٍ واحدةٍ، لكنّ الحقيقة هي أنكما تقومان بذلكَ منذُ أشهرٍ».

«كلا إننا لم نقم بهذا»، قالها ثمَّ مصَّ إصبعَهُ النازفة.

«إنَّها حبلى منذُ ثلاثةِ أشهرٍ».

«هذا غيرُ ممكنٍ، لقد فعلناها منذُ أسبوعين فقط».

«بلى إنَّها كذلك، يمكنكَ أن تعرفَ من شكلِ جسدِها».

«هل يمكنكِ أنتِ معرفةُ ذلكَ؟»

«ماتي وايز أخبرتني بذلكَ، لم كذبتَ عليَّ؟»

نظرَ في عينيها ثمَّ قالَ: «لمَ قد أكذبُ عليكِ، حدثَ ذلك يومَ الأحدِ من أسبوعِ سوقِ الصوفِ. كانت تلكَ المرَّةَ الأولى والوحيدة».

«كيف يسعها أن تعلمَ إذاً أنَّها حاملٌ وبعدَ أسبوعين فقط؟»

«لا أملكُ أدنى معرفةٍ متى تصبحُ المرأةُ حاملاً».

«حقاً؟»

«لم أسأل عن هذا يوماً، فمنذُ ثلاثةِ أشهر كانت غريزيلدا ماتزال مع...»

«أوه يا إلهي!» صاحَت كاريس وقد اشتعلَت شرارةُ أملٍ في داخلِها.

«كانت ما تزال مع حبيبِها القديم تريستن ثورستن»، ثمَّ تحولَت الشرارةُ إلى لهيب. «لا بدَّ أنَّه طفلُ ثورستن وليسَ طفلكَ. أنتَ لست الوالد».

«هل هذا ممكنٌ؟» قالَ ميرثن في خوفٍ من أن يتفاءل.

«بالطبعِ، وهذا يفسرُ كلَّ شيءٍ فلو أنَّها أُغرمَت بكَ فجأةً لسعَت إلى الظفرِ بكَ في كلِّ فرصةٍ سانحةٍ، لكنَّكَ قلتَ لي أنَّها بالكادِ تتحدثُ معكَ».

«اعتقدتُ أنَّها تفعلُ هذا لأنني كنتُ متردداً في الزواجِ منها».

«لم تحبكَ يوماً، فكلُّ ما أرادتهُ هو والدٌ لطفلِها. ربما هربَ ثورستن عندما أخبرتهُ بأنَّها حبلى منهُ ووجدتكَ أمامها في المنزلِ. وكنتَ غبياً بما يكفي لتنطلي عليكَ خدعتُها، الشكرُ للرَّبّ».

«الشكرُ لماتي وايز»، قال ميرثن.

التفتت إلى يدِهِ اليسرى إلى إصبعه النازفةِ. «أوه، لقد تسببتُ بجرحِكَ» ثمَّ أمسكَت بيدِهِ وأخذت تتفحصُ الجرحَ. «إنَّهُ جرحٌ صغيرٌ لكنَّه عميقٌ. أنا آسفةٌ».

«إنَّه ليسَ بهذا السوءِ».

«بلى إنَّهُ كذلك». قالت ذلكَ دونَ أن تعرفَ إن كانَ قصدُها الجرحَ أم أمراً آخر. قبَّلَت يدَهُ فأحسَّت بالدمِ الساخنِ على شفتيها. وضعَت يدَهُ في فمِها وأخذت تمصُّ الجرحَ لتنظفَهُ في حالةٍ حميمةٍ أحسَّت بها كأنّها فعلٌ جنسي. أغلقَت عينيها والنشوة تغمرُها، ابتلعَت دمَهُ وتذوقتهُ ثمَّ ارتعشت مُستمتعةً.

بعد أسبوعٍ على انهيارِ الجسرِ بنى ميرثن عبّارةً. كان قد عملَ عليها على ضوءِ المصباحِ طيلةَ ليلِ الجمعةِ لتجهزَ فجرَ يومِ السبت وفي موعدِ سوقِ كينغزبريدج الأسبوعي، ولذلكَ خمنت كاريس أنَّه لم يحظَ بوقتٍ للتحدثِ إلى غريزيلدا وإخبارِها بأنَّ ثورستن هو والدُ طفلها. توجهت كاريس مع والدها إلى ضفةِ النهرِ لتفقدِ العبّارةِ مع وصولِ التجار أولاً ثمَّ النساءِ من القرى المجاورةِ يحملنَ سلالَ البيضِ، ويليهنَّ الفلاحون بعرباتِهم المحملةِ بالزبدةِ والجبنةِ ثمَّ الرعاةُ وقطعانُ خرافِهم.

أُعجبت كاريس بما صنعَهُ ميرثن فقد كانَ الطوفُ كبيراً بما يكفي لحملِ حصانٍ وعربةٍ من دونِ الاضطرارِ إلى تركِ الحيوانِ على الضفةِ، كما كان للطوفِ درابزين خشبية متينة كي لا تقع الخرافُ في المياهِ. وبنى منصّاتٍ خشبيّةً جديدة على مستوى النهرِ في كلتا الضفتين لتسهيلِ نزولِ وصعودِ العرباتِ. كانَ الرهبانُ يجمعونَ بنساً من كلِّ مسافرٍ؛ فالعبَّارة كانت بمنزلة الجسرِ الذي تعودُ ملكيتهُ إلى الديرِ.

أمَّا التفصيلُ الأروعُ في هذا فهو النظامُ الذي ابتكرَهُ ميرثن لنقلِ الطوفِ من ضفةٍ إلى أخرى، حيثُ لفَّ حبلاً طويلاً على عمودٍ في الطرفِ الجنوبي للطوفِ ليعبرَ الحبلُ فوقَ النهرِ ويلتفّ بعدها حولَ أسطوانةٍ ثمَّ يعود إلى الطوفِ في طرفِهِ الشمالي. وجرى تعشيقُ عملِ الأسطوانةِ بعجلاتٍ مُسننةٍ مع عجلةٍ يجرُّها ثورٌ سريعٌ. كانت كاريس قد رأت ميرثن يصنعُ هذهِ العجلاتِ بالأمسِ.

لقد استخدمَ ذراعاً للتبديلِ بينَ العجلاتِ بحيث يمكنُ للأسطوانةِ أن تدورَ في كلا الاتجاهين من أجلِ حركةِ الطوفِ ذهاباً وإياباً، ولذلكَ لم يكن هناك حاجةٌ لإخراجِ الثورِ من مسارِهِ أو جعلهِ يستدير.

«الأمرُ في غايةِ البساطةِ»، قالَ ميرثن عندما لاحظَ إعجابَها بما رأت. كان الأمر بسيطاً فعلاً عندما عاينتهُ عن كثب: تقومُ الذراعُ برفعِ إحدى العجلاتِ المسننةِ الكبيرةِ ليحلَّ محلَّها عجلتان صغيرتان وهكذا يعُكسُ الاتجاهُ الذي تدورُ فيه الأسطوانةُ. ورغمَ بساطةِ الأمرِ فما من أحدٍ في كينغزبريدج قد رأى شيئاً مثلهُ قبلاً.

صباحاً أتى نصفُ سكانِ المدينةِ لرؤيةِ عبّارة ميرثن الجديدة المُدهشةِ وملأ هذا كاريس بالفخرِ. وقفَ إلفريك يشرحُ آليةَ العملِ لمن يسألُ وينسبُ فضلَ عملِ ميرثن لنفسِه.

تساءلت كاريس في نفسها أنّى لإلفريك مثلَ هذهِ الوقاحةِ؛ فقد سبقَ أن حطَّمَ البابَ الذي صنعهُ ميرثن، وقد كانَ تصرُّفُه عنيفاً من شأنِهِ أن يروّعَ المدينة لولا مأساة انهيارِ الجسرِ. كما أنَّه ضربَ ميرثن بعصا وآثارُ الكدماتِ لا تزال باديةً على وجههِ، فضلاً عن تواطئِهِ في خداعِ ميرثن ليتزوجَ غريزيلدا ويربي طفلَ رجلٍ آخرٍ. ولكن ميرثن استمرَّ بالعملِ معهُ مدفوعاً بإحساسهِ أنَّ حالةَ الطوارئ هذهِ أهمُّ من شجارهما. لكن لم تفهم كاريس كيف يمكنُ لإلفريك أن يرفع رأسَهُ في فخرٍ.

كانت العبَّارةُ رائعةً إلَّا أنَّها لم تكن كافيةً.

وقد أشارَ إدموند إلى هذهِ النقطةِ. على الجانبِ الآخرِ من النهرِ اصطفَّ التجار والعرباتُ على طولِ الطريقِ على مشارفِ المدينةِ. كانَ الصفُّ طويلاً لا نهاية لهُ.

«ستكون العمليةُ أسرع بوجودِ ثورين»، قالَ ميرثن.

«هل ستكون أسرع بمرَّتين؟»

«لا، ليس تماماً، ولكني أستطيعُ بناءَ عبارةٍ أخرى».

«هناك عبَّارةٌ أخرى بالفعلِ»، قالَ إدموند مشيراً إلى إيان على قاربهِ. كانَ إيان بوتمان يجذِّفُ القاربَ وينقلُ الأشخاصَ فقط فهو لا يستطيع نقلَ العرباتِ كما رفضَ نقلَ المواشي بل كانَ يتقاضى بنسين على التوصيلةِ.

كانَ إيان يكسبُ رزقهُ بمشقَّةٍ؛ فقد كانَ ينقلُ راهباً إلى جزيرةِ ليبر مرَّتين

يومياً وقد يجد بعضَ الأعمالِ الأخرى رغمَ أنَّها كانت قليلةً. أمَّا اليوم فقد كانَ أمامَ إيان طابورٌ ينتظرُ عبورَ النهرِ.

قالَ ميرثن: «أنتَ محق فالعبَّارةُ ليست جسراً».

قال إدموند: «هذهِ كارثةٌ. كانت أخبارُ بونافينتورا سيئةً كفايةً ولكن هذا كفيلٌ بالقضاءِ على سكانِ المدينةِ. يجب أن نبني جسراً جديداً».

«هذا ليسَ عملي إنَّما عملُ الديرِ، ثمَّ إنَّ رئيسَ الديرِ توفي وما من أحدٍ يعرفُ متى سينتخبون رئيساً جديداً. علينا الآن أن نضغطَ على رئيسِ الديرِ بالوكالةِ ليتخذَ قراراً بهذا الشأنِ. سأذهبُ للتحدثِ مع كارلوس الآن. هيا بنا يا كاريس».

سارا باتجاهِ الشارعِ الرئيسي ثمَّ دخلا الديرَ. كان على معظمِ الزوارِ الذهابُ إلى المستشفى وإخطارُ خادمٍ أنَّهم يودون التحدُّثَ مع الراهبِ، لكنَّ إدموند كان شخصيةً هامَّةً وعتيدةً للغايةِ على طلبِ مقابلةِ الراهبِ بهذهِ الطريقةِ. صحيحٌ أنَّ رئيسَ الديرِ هو عملياً لورد كينغزبريدج إلَّا أنَّ إدموند كان عضواً في نقابةِ الأبرشيةِ كما أنَّه كبيرُ التجارِ الذين وصلوا بالمدينةِ إلى ما هي عليهِ اليوم، ولهذهِ الأسبابِ يتعاملُ إدموند مع رئيسِ الديرِ كشريكٍ في إدارةِ المدينةِ. إلى جانبِ ذلكَ وعلى مدى الثلاث عشرة سنةً الماضية كان رئيسُ الديرِ شقيقهُ الأصغر، لذلكَ توجَّه مباشرةً إلى منزلِهِ على الجانبِ الشمالي من الكاتدرائيةِ.

كان المنزلُ خشبياً كمنزلِ إدموند بقاعةٍ كبيرةٍ وصالةِ استقبالٍ في الطابقِ الأرضي وغرفتي نومٍ في الطابقِ العلوي. لا يوجد مطبخٌ لأنَّ وجباتِ رئيسِ الديرِ تُحضَّرُ في مطبخِ الديرِ. عاشَ العديدُ من الأساقفةِ ورؤساءُ الأديرةِ في القصورِ. يمتلكُ أسقفُ كينغزبريدج منزلاً جميلاً في شايرنغ إلَّا أنَّ رئيسَ ديرِ كينغزبريدج يعيشُ حياةً متواضعةً. بأيِّ حالٍ كانت الكراسي مريحةً كما أنَّ الجدرانَ مزينة بمنسوجاتٍ تصورُ مشاهدَ من الكتابِ المقدَّسِ، وإضافةً إلى هذا هناكَ موقدٌ كبيرٌ يُبقي المنزلَ دافئاً في الشتاءِ.

وصلَ إدموند وكاريس صباحاً عندما كان الرهبانُ الشبابُ منخرطينَ في العملِ والكبارُ منهم في القراءةِ.

وجدَ إدموند وكاريس كارلوس الأعمى في القاعةِ الكبيرةِ منخرطاً في نقاشٍ مع سيميون أمينِ الخزانةِ. «يجبُ أن نناقشَ أمرَ الجسرِ الجديدِ»، قالَ إدموند من دونِ مقدماتٍ.

«حسناً يا إدموند»، قالَ كارلوس وقد عرفَهُ من صوتِهِ. لاحظَت كاريس أنَّ ترحيبَهُ لم يكن وديًّاً، وتساءلت في نفسها إن كانَ توقيتهما سيئاً.

انتابَ إدموند الشعورُ ذاتُهُ إلَّا أنَّه كان متبجحاً بما يكفي ليتجاهلَ هذا. وسحبَ كرسياً ثمَّ قالَ: «متى تعتقدُ أنَّك ستُجري انتخاباتِ رئيسِ الديرِ الجديدِ؟»

«بإمكانكِ الجلوسُ أنتِ أيضاً يا كاريس»، قالَ كارلوس. لم يكن لديها أدنى فكرة كيفَ عرفَ بوجودِها. ثمَّ تابعَ قائلاً: «لم نحدد موعداً للانتخاباتِ بعد، ثمَّ إنّ للإيرلِ رولاند الحقَّ في تسميةِ مرشحٍ لكنَّه لم يستعد وعيهُ بعد».

«لا يمكننا الانتظارُ»، قال إدموند. أحسَّت كاريس بأنَّ والدها يتصرَّفُ بفظاظةٍ ولكن هذهِ هي عادتُهُ لذا لم تقل شيئاً، ثمَّ تابعَ والدُها قائلاً: «علينا أن نبدأ العملَ على الجسرِ الجديدِ في الحالِ، ويجب أن يكونَ جسراً حجرياً؛ فالخشبُ غيرُ نافعٍ، كما أنَّ البناءَ سيستغرقُ ثلاثَ سنواتٍ وربما أربعاً إن قمنا بالتأجيلِ».

«جسرٌ حجري؟»

«إنَّ الأمرَ عاجلٌ. تحدَّثت مع إلفريك وميرثن وقالا لي إنَّ الجسرَ الخشبي سينهارُ كما انهارَ الجسرُ القديمُ».

«لكن ماذا عن التكلفةِ؟»

«وفقاً لحساباتِ إلفريك سيكلّفُ الجسرُ قرابةَ المئتين وخمسين جنيهاً، وهذا يعتمدُ على التصميمِ».

قالَ الأخُ سيميون: «سيكلّفُ بناء جسرٍ خشبي جديدٍ خمسين جنيهاً وقد رفضَ رئيسُ الديرِ أنتوني ذلكَ منذُ أسبوعٍ بسببِ هذهِ التكلفةِ».

«انظر إلى ما آلت إليهِ الأمورُ، ماتَ مئةُ شخصٍ وكثيرون أصيبوا، كما خسرنا ماشيةً وعرباتٍ، وتوفي رئيسُ الديرِ والإيرلُ بينَ الحياةِ والموتِ».

قالَ كارلوس بحزمٍ: «آملُ أنَّكَ لا تلقي باللائمةِ على رئيسِ الديرِ الراحلِ أنتوني».

«لا يمكننا الادعاءُ بأنَّ قرارَهُ كان صائباً».

«لقد عاقبنا الرَّبُّ على خطايانا بانهيارِ الجسرِ».

تنهَّد إدموند وشعرَت كاريس بالإحباطِ؛ ففي كلِّ مرَّةٍ يفشلُ فيها الرهبانُ في شيءٍ ما يقحمونَ الرَّبَّ في النقاشِ. قالَ إدموند: «يصعبُ علينا، نحن البشر،

معرفةُ نوايا الرَّبِّ، إلَّا أنَّ هناكَ أمراً واحداً نعرفهُ وهو أنَّ المدينةَ ستنتهي من دونِ جسرٍ. إننا نخسرُ الآن لمصلحة شايرنغ، وما لم نبنِ جسراً جديداً بأقصى سرعةٍ ستصبحُ كينغزبريدج مجرَّد قريةٍ صغيرةٍ».

«قد تكون هذهِ خطَّةُ الرَّبِّ لنا».

بدا الحنقُ جلياً على وجهِ إدموند وقالَ: «هل يُمكنُ أن يكونَ الرَّبُّ مستاءً جداً منكم أيُّها الرهبان؟ لأنَّه، وصدِّقني في ما أقولُ، إن انتهى أمرُ سوقِ الصوفِ وسوقِ كينغزبريدج، فسينتهي أمرُ الديرِ أيضاً برهبانِهِ الخمسة والعشرين وراهباتِهِ الأربعين والمشفى والجوقة والمدرسة وحتَّى الكاتدرائية ذاتها. لطالما عاشَ أسقفُ كينغزبريدج في شايرنغ، ولكن ماذا لو عرضَ عليهِ التجارُ الأثرياءُ بناءَ كاتدرائيةٍ جديدةٍ ورائعةٍ في بلدتِهم من أرباحِ سوقِهم الآخذِ في الازدهارِ. سينتهي أمرُ سوقِ كينغزبريدج والبلدة والكاتدرائية والدير، هل هذا ما تريدُه؟»

بدا كارلوس مستاءً. من الواضح أنه لم يفكر بالتبعاتِ البعيدةِ المدى لانهيارِ الجسرِ على وضعِ الديرِ.

وهنا قالَ سيميون: «إن لم يكن الديرُ قادراً على تحمُّلِ كلفةِ بناءِ جسرٍ خشبي، فما بالك بكلفةِ بناءِ جسرٍ حجري».

«لكن يتحتَّمُ عليكم ذلكَ».

«هل سيعملُ البنَّاؤون مجاناً؟»

«قطعاً لا، لديهم عائلاتٌ ليعيلوها إلَّا أننا وضَحنا كيف يمكنُ لسكانِ المدينةِ أن يجنوا المالَ ويقرضوهُ للديرِ كتأمينٍ على رسومِ عبورِ الجسرِ».

«وتسلبنا دخلنا من الجسرِ!» قالَ سيميون بغضبٍ. «عدتَ إلى الاحتيالِ، أليسَ كذلك؟»

وهنا تدخلت كاريس قائلةً: «ولكن ليسَ لديك دخلٌ من الجسرِ الآن».

«على العكسِ فنحنُ نجمعُ أجرةَ ركوبِ العبَّارةِ».

«إذاً، لديكَ المالُ لتدفعهُ لإفريك».

«مالٌ أقل مما كنا نكسبهُ من الجسرِ، ورغمَ هذا فإنَّ خزائننا فارغةٌ».

«لن تعودَ عليكَ أجورُ العبَّارةِ بالكثيرِ من المالِ فهي بطيئةٌ جداً».

«قد يأتي وقتٌ في المستقبلِ يصبحُ فيهِ الديرُ قادراً على بناءِ الجسرِ، وسيرسلُ لنا الرَّبُّ الوسائلَ لذلكَ إن شاءَ هذا. وحتى ذلكَ الوقت سيكونُ لدينا تعاريفُ العبَّارةِ».

قال إدموند: «الرَّبُّ أرسلَ الوسائلَ فعلاً؛ فقد ألهمَ ابنتي بطريقةٍ لم تخطر على بالٍ من قبل لجمعِ الأموالِ».

وقال كارلوس بتحفظٍ: «رجاءً، اتركوا لنا أمرَ ما يقررُ الرَّبُّ فعلهُ».

وقفَ كلٌّ من كاريس وإدموند وقالَ الأخيرُ: «حسناً، يؤسفني حقاً أنَّ هذا هو موقفكم. وهو موقفٌ كارثي على كينغزبريدج وكلِّ من يعيش فيها بمن فيهم الرهبان».

«أسترشدُ بالرَّبِّ وليسَ بكَ».

استدارَ إدموند وكاريس ليغادرا.

«هناك أمرٌ آخر إن سمحتما لي»، قال كارلوس.

«بالطبعِ هناكَ»، قال إدموند.

«يُمنعُ دخولُ الأشخاصِ العاديين إلى مباني الديرِ متَّى رغبوا بذلكَ. في المرَّةِ القادمةِ التي ترغبُ فيها برؤيتي فلتتوجه إلى المستشفى وأرسل كاهناً أو خادماً من الديرِ للبحثِ عني كما هي الأعرافُ».

«أنا عضو في نقابةِ الأبرشيةِ»، قال إدموند مُحتجّاً، «لطالما كنتُ أقابلُ رئيسَ الديرِ بشكلٍ مباشرٍ».

«لا شكَّ في أنَّ الرئيسَ الراحلَ أنتوني ترددَ في فرضِ القوانين عليكَ لأنَّكَ شقيقهُ، لكن تلكَ الأيامُ ولَّت».

نظرَت كاريس إلى وجهِ والدِها ورأت أنَّه كانَ يكظمُ غضبَهُ. «حسناً»، قال إدموند بتوترٍ.

«فليباركُكما الرَّبُّ».

خرجَ إدموند وتبعتهُ كاريس.

عبرا حديقةَ الكاتدرائيةِ الموحلة ومرَّا بمجموعةٍ صغيرةٍ بائسةٍ من أكشاكِ السوقِ. شعرَت كاريس بثقلِ الالتزاماتِ الملقاةِ على عاتقِ والدِها؛ فالجميعُ قلقٌ حيالَ تأمين لقمةِ عيشِ عائلاتِهم. كان إدموند قلقاً على المدينةِ بأكملِها. وعندما نظرَت إليه كاريس رأت عبوساً قلقاً على وجهِهِ. لن يقومَ إدموند، على عكس كارلوس، برفعِ يديهِ في الهواءِ والقول إنَّ مشيئةَ الرَّبِّ ستنفذُ، إنَّما كان يعتصرُ دماغَهُ لإيجادِ حلٍّ لهذهِ المشكلةِ. شعرَت كاريس بموجةِ تعاطفٍ معه وهو يحاولُ إيجادَ حلٍ من دون مساعدةِ الديرِ المُتنفذِ. لم يشتكِ إدموند من المسؤوليةِ يوماً إنَّما احتملها وهذا جعلها ترغبُ في البكاءِ.

غادرا حرمَ الديرِ وعبرا الشارعَ الرئيسي، وعند وصولِهما إلى بابِ المنزلِ سألتهُ كاريس: «ماذا سنفعل الآن؟»

«الأمر واضحٌ، أليسَ كذلك؟» ردَّ والدُها ثمَّ أضاف: «يجبُ أن نحرصَ أولاً على عدمِ انتخابِ كارلوس رئيساً للديرِ».

-15-

لطالما أرادَ غودوين أن يصبحَ رئيسَ ديرِ كينغزبريدج وكان يتوقُ إلى ذلكَ من كلِّ قلبِهِ. كان يرغب بتحسينِ مواردِ الديرِ الماليَّةِ وإحكامِ السيطرةِ على أراضيهِ وممتلكاتِهِ بحيث لا يتعينُ على الرهبانِ الذهاب إلى الأمِّ سيسيليا لطلبِ المالِ. أرادَ بشدةٍ تطبيقَ فصلٍ أكثر صرامةً بينَ الرهبانِ والراهبات، وبينهم وبينَ سُكانِ المدينةِ ليتمكن الجميع من تنفسِ هواءِ القداسةِ النقي. فضلاً عن هذهِ الدوافعِ النزيهةِ كان هناكَ أمرٌ آخر. كان يتوقُ للسلطةِ والامتيازاتِ التي تأتي مع اللَّقبِ. سرحَ في خيالِهِ ليلاً حيثُ كانَ يرى نفسَهُ رئيساً للديرِ فعلاً.

«نظِّف هذهِ الفوضى في الرواقِ»، تخيلَ غودوين نفسَهُ يقولُ هذا لأحدِ الرهبانِ.

«حالاً أيُّها الأب».

لطَّالما أحبَّ غودوين وقعَ كلمةِ الأبِ.

«طابَ يومكَ أيُّها الأسقفُ ريتشارد». كان سيقولها بكياسةٍ ولطفٍ وليس بتزلفٍ.

وسيردُّ الأسقفُ ريتشارد كما قد يردّ رجلُ دينٍ على رجلِ دينٍ آخرٍ قائلاً: «طابَ يومكَ أيُّها الأبُ غودوين».

«أرجو أن يكونَ كلُّ شيءٍ عندَ حُسنِ ظنّك أيُّها الأسقف»، سيقولها غودوين بنبرةٍ أكثر تبجيلاً هذه المرَّة ولكن كزميل أصغر لرجلٍ عظيمٍ ولكن ليسَ كتابعٍ.

«أوه، أجل يا غودوين لقد قمتَ بعملٍ رائعٍ».

«هذا من لطفِ قداستِك».

وقد يتجولُ يوماً ما في الديرِ إلى جانبِ حاكمٍ في ثيابٍ فاخرةٍ ويخاطبه قائلاً: «إنَّ زيارتَكَ لديرنا المتواضع شرفٌ كبيرٌ لنا».

«شكراً يا غودوين، لكن زيارتي من أجلِ طلبِ مشورتكَ».

أرادَ غودوين هذا المنصب بشدةٍ لكنَّه لم يعرف كيف يصلُ إليهِ.

كانَ يفكِّرُ بهذا الأمرِ طيلةَ الأسبوعِ الذي أشرفَ فيهِ على دفنِ المئاتِ وخططَ لمراسمِ الأحدِ الكبيرةِ حيث سيتم تشييعُ أنتوني وإحياءُ ذكرى أرواحِ جميعِ القتلى في كينغزبريدج.

طوالَ هذا الوقتِ لم يُفصح غودوين لأحدٍ عن آمالِهِ فهو لم يعلم عاقبةَ التصرُّف بسذاجةٍ إلّا منذُ عشرةِ أيّامٍ خلت.

توجهَ إلى اجتماعِ الكنيسةِ حاملاً معه «الرسالةَ الأولى إلى تيموثاوس» من العهدِ الجديدِ وبجعبتِهِ حججٌ قويّةٌ تدعمُ الإصلاحاتِ، إلّا أنَّ أفرادَ الحرسِ القديمِ انقلبوا عليهِ وبتنسيقٍ مُحكمٍ في ما بينهم كما لو أنَّهم تدرَّبوا على ذلكَ مسبقاً وسحقوه كضفدعٍ تحتَ عجلاتِ عربةٍ.

لن يسمحَ بحدوثِ ذلك مجدداً.

صباحَ يومِ الأحد وبينما كانَ الرهبان يتوجهون إلى قاعةِ الطعامِ لتناولِ الإفطارِ، همسَ راهبٌ شابٌ لغودوين بأنَّ والدتَهُ ترغبُ برؤيتِهِ في الرواقِ الشمالي للكاتدرائيةِ.

فانسلَّ بحذرٍ.

انتابهُ القلق بينما كانَ يعبرُ بهدوءٍ الديرَ والكنيسةَ. يمكنُهُ أن يخمن سببَ زيارتها: لا بدَّ أنَّ شيئاً ما حدثَ بالأمسِ وأقلقَ بيترانيلا إلى درجةِ أنَّها بقيت مستيقظةً حتّى منتصفِ الليلِ تفكرُ فيه. استيقظَت عندَ الفجرِ بخطّةِ عملٍ في جعبتِها، فهي تتصرفُ بهذهِ الطريقةِ على الدوامِ. ستتصرفُ بتسلّطٍ ونفاد صبرٍ، وستكونُ خطتُها جيّدةً على الأرجحِ لكن حتّى وإن لم تكن كذلكَ فإنَّها ستصرّ على أن ينفّذَها.

وقفَت في زاويةٍ مظلمةٍ من الرواقِ في معطفٍ مبللٍ فقد كانت تمطرُ مجدداً. قالت بيترانيلا: «التقى شقيقي إدموند البارحةَ بكارلوس الأعمى وأخبرني أنَّ كارلوس تصرَّف كما لو أنَّه أصبحَ رئيساً للديرِ بالفعلِ والانتخاباتُ مجرَّد إجراءٍ شكلي».

أحسَّ بنبرةِ اتهامٍ في صوتِها كما لو أنَّها كانت غلطتهُ وأجابها بنبرةٍ دفاعيةٍ: «أخذَ الحرسُ القديمُ صفَّ كارلوس حتّى قبلَ أن تبردَ جثة أنتوني. لن يسمحوا بالحديثِ عن مرشحين منافسين».

«وماذا عن الرهبان الشباب؟»

«حتماً يريدونني أن أترشّح، فقد أعجبوا بالطريقةِ التي دافعتُ بها عن رئيسِ الديرِ أنتوني واستخدامي لـ «الرسالة الأولى إلى تيموثاوس» رغمَ أنّه تم تجاوزي. لكنني لم أقل شيئاً».

«هل من مرشحين آخرين؟»

«توماس لانغلي مرشحٌ ولكن دونَ حظٍ إذ يرفضه البعضُ لأنّه كان فارساً في يومٍ من الأيامِ، وقد اعترفَ بقتلِهِ أشخاصاً، إلّا أنّه شخصٌ كفءٌ ويقوم بعملِهِ على أكملِ وجهٍ ولا يضايقُ الرهبان المبتدئين».

سألتهُ والدتهُ وقد بدت غارقةً في التفكيرِ: «ما قصتهُ؟ ولماذا أصبحَ راهباً؟»

بدأ قلقُ غودوين يتلاشى إذ بدا كأنّها لن توبّخَهُ على تقاعسِهِ. «يقولُ توماس إنَّه لطالما تاقَ لعيشِ حياةٍ مقدسةٍ، وعندما أتى إلى هنا لمعالجةِ جرحٍ أصابَه قررَ عدمَ المغادرةِ أبداً».

«أذكرُ ذلكَ فقد حدثَ منذُ عشرةِ أعوامٍ، لكني لم أعرف كيف جُرح».

«ولا أنا فهو لا يحبُّ الحديثَ عن ماضيهِ العنيفِ».

«من دفعَ كلفةَ قبولِهِ في الديرِ؟»

«الغريبُ في الأمرِ أنني لا أعرفُ». لطالما أُعجبَ غودوين بقدرةِ والدتِهِ على طرحِ أسئلةٍ موحيةٍ. قد تكون مستبدةً إلّا أنّه لم يكن بوسعهِ إلّا الإعجاب بها. «قد يكون الأسقفُ ريتشارد فأنا أذكرُ أنّه وعدَ بتقديمِ العطيّةِ المعتادةِ، لكن لم يكن لديهِ موارد كافيةٌ فهو لم يكن أسقفاً حينها بل مجرد كاهن لذا أعتقدُ أنّه كان يتحدَّثُ باسم الإيرل رولاند».

«تحقق من الأمرِ».

كانَ غودوين متردداً لأنَّ هذا يعني أنّ عليهِ البحث في جميعِ وثائقِ مكتبةِ الديرِ. قد لا يطرحُ أمينُ المكتبةِ الأخ أوغستين الأسئلةَ على أيِّ كاهنٍ يبحثُ في مكتبةِ الديرِ إلّا أن أحداً آخر قد يفعل. حينها سيواجهُ غودوين صعوبةً في اختلاقِ قصَّةٍ تبررُ ما يفعله. وإن كانت العطيَّةُ نقديةً بدلاً من أن تكونَ قطعةَ أرضٍ أو أيّ ملكيةٍ أخرى، وهو أمرٌ مستبعدٌ إلّا أنّه قائمٌ، حينها سيتحتم عليهِ مراجعةُ جميعِ قوائمِ الحساباتِ.

«ما الأمرُ؟» سألت والدتُهُ بحدّةٍ.

«لا شيء. أنتِ على حقٍ». ذكّرَ نفسَهُ بأنَّ موقفَ والدتِهِ المتسلّط نابعٌ من

حبُها له ولربما هي الطريقةُ الوحيدةُ التي تعرفُها لتعبرَ بها عن حبِها. «لا بدَّ أنَّ هناك سجلاً، فلنفكر بالأمرِ...»

«ماذا؟»

«عادةً ما يقومُ رئيسُ الديرِ بالإعلانِ عن هديَّةٍ كهذهِ في الكنيسةِ ويدعو للمتبرعِ بالبركةِ، ثم يعظُ في خطبتِهِ عن أنَّ أولئكَ الذين يقدمون الأراضي للديرِ سيكافئهم الرَّبُّ. ولكن لا أذكرُ أنَّ مثلَ هذا قد حدثَ حين جاءَنا توماس».

«وهذا سببٌ إضافي لتبحث في الوثائقِ. أعتقدُ أنَّ توماس يخفي سراً ودائماً ما يكون السِّرُ نقطة ضعفٍ».

«سأبحثُ في ذلكَ. برأيك ما الذي يجبُ أن أقوله للأشخاصِ الذين يودون مني الترشُّحَ للانتخاباتِ؟»

ابتسمَت بيترانيلا بمكرٍ ثمَّ قالت: «أعتقدُ أنَّه ينبغي عليكَ إخبارهم بأنَّك لن تكون مُرشَحاً».

كان الإفطارُ قد انتهى حينَ تركَ غودوين والدتهُ.

هناكَ قانونٌ قديمٌ ينصُّ على عدمِ السماحِ للمتأخرين بتناولِ الطعامِ، لكن الطبَّاخ، الراهب رينارد، يتركُ بعضَ الطعامِ لأولئكَ الذينَ يحبهم. دخلَ غودوين إلى المطبخِ وحصلَ على شريحةٍ من الجبن وقطعةٍ من الخبزِ. تناولَ غودوين طعامَهُ واقفاً بينما كان الخدم يعيدون أواني الفطور الفارغة ويغسلونَ القدورَ المعدنية التي تُطهى فيها العصيدةُ.

وبينما كانَ يأكل فكَّرَ ملياً بخطةِ والدتِهِ التي كلَّما تعمَّقَ فيها بدَت أكثر ذكاءً. فبمجرَّد إعلانِهِ عن عدمِ ترشيحِ نفسهِ للانتخاباتِ فإنَّ كل شيءٍ سيقولُهُ سيكون مجرَّدَ تعليقاتٍ صادرةٍ عن شخصٍ غير معني بالأمرِ، وسيكون بإمكانِهِ التلاعبُ بالانتخاباتِ دونَ إثارةِ شكوكِ أحدٍ في دوافعِهِ الشخصيَّةِ، وهذا إلى أن تتاح له الفرصةُ للقيامِ بخطوتِهِ الأخيرةِ. غمرَهُ شعورٌ دافئٌ بالامتنانِ لدهاءِ والدتِهِ وذهنِها الوقادِ والحبِّ الذي لا يُقهر في قلبها.

عندما وجدَهُ الأخُ ثيودوريك هناك قالَ وقد تغضَّنَ وجههُ الأبيضُ غضباً: «تحدَّث إلينا الأخُ سيميون أثناءَ وجبةِ الإفطارِ وأخبرنا بأنَّ كارلوس سيصبحُ رئيساً للدير. كان الحديثُ برمتِهِ يدورُ حول مواصلةِ التقاليدِ الحكيمةِ لأنتوني، وهذا يعني أنَّه لن يكونَ هناكَ أيُّ تغييرٍ».

«يا لهُ من عملٍ ماكرٍ»، قالَ غودوين في نفسهِ. لقد استغلَّ سيميون غيابَ غودوين ليقولَ من موقعِ سلطةٍ أموراً كان غودوين سيعترضُ عليها لو أنّه كان حاضراً. قالَ متعاطفاً: «هذا أمرٌ مشينٌ».

«سألتُهُ ما إن كان بإمكانِ المرشحين الآخرين التحدثُ مع الرهبانِ خلالَ فترةِ الإفطارِ بنفسِ الطريقةِ».

ابتسمَ غودوين قائلاً: «أحسنت».

«لكن سيميون قالَ إنَّه لا حاجةَ لوجودِ مرشحين آخرين فنحنُ لا نقيمُ مسابقةً في الرمايةِ، وهو يرى بأنَّ القرارَ قد اتخذ مسبقاً حين اختارَ رئيسُ الديرُ أنتوني كارلوس خلَفاً له عندما عيَّنهُ رئيساً للديرِ بالوكالةِ».

«هذا محضُ هراءٍ».

«بالضبطِ، كما أنَّ الرهبان غاضبون جداً».

كانت تلك أخباراً طيبة لغودوين، فقد أساءَ كارلوس حتَّى لمؤيديهِ بمحاولتِهِ مصادرةِ حقهم في التصويتِ. وها هو يهددُ ترشيحَهُ لنفسهِ بنفسِهِ.

تابعَ ثيودوريك قائلاً: « أعتقدُ أنه علينا الضغطُ على كارلوس لينسحبَ».

أرادَ غودوين أن يقولَ «هل جننتَ؟» لكنَّه التزمَ الصمتَ وتظاهرَ بأنّه يفكرُ بما يقولُهُ ثيودوريك.

«هل هذهِ هي الطريقةُ المثلى للتعاملِ مع الأمرِ؟» سألَه كما لو أنّه لم يكن متأكداً فعلاً.

فاجأ هذا السؤالُ ثيودوريك الذي قالَ: «ماذا تعني؟»

«أنتَ تقولُ إنَّ الإخوة جميعاً غاضبون من كارلوس وسيميون، وإن استمرَّ الوضعُ على هذا الحال فإنَّهم لن يصوتوا لكارلوس، لكن إن انسحبَ كارلوس فسيجدُ الحرسُ القديمُ مرشحاً آخر. قد يكون اختيارهم أفضل هذهِ المرة فقد يختارون أحداً يتمتعُ بشعبيةٍ أكبر كالأخِ جوزيف مثلاً».

بدا ثيودوريك مذهولاً: «لم أفكر بالأمرِ بهذهِ الطريقةِ قط».

«ربما علينا أن نأملَ بقاءَ كارلوس مرّشحَ الحرسِ القديمِ. يعرفُ الجميعُ أنّه ضدَّ أيِّ شكلٍ من أشكالِ التغييرِ، والسببُ في استمرارهِ كراهبٍ هو الحرصِ على أن تمرَّ الأيامُ متشابهةً، حيثُ سيمشي في الممراتِ ذاتها ويجلس على المقاعدِ ذاتها ويأكل ويصلي وينام في الأماكنِ ذاتِها. ربما لأنّه أعمى مع أنني أظنُّ أنه لطالما كان كذلك حتّى عندما لم يكن أعمى. بغضِّ النظرِ عن الأسبابِ،

فهو لا يعتقدُ أنَّ شيئاً ما يحتاجُ إلى التغييرِ. لذا فإنَّ كثيراً من الرهبانِ ليسوا راضين الآن عمَّا يجري وهذا يجعلُ هزيمةَ كارلوس سهلةً نسبياً، فالمرشَّحُ الذي يمثلُ الحرسَ القديم ويدعو إلى إجراءِ بعضِ الإصلاحاتِ الطفيفةِ سيكون الأوفرَ حظّاً. أدركَ غودوين أنَّه نسي التظاهرَ بالترددِ وأنَّه قد بدأ بفرضِ رأيِهِ فقالَ مُستدركاً: «لا أدري، ماذا تظنُّ؟»

«أظنُّ أنَّكَ عبقري» قالَ ثيودوريك.

«لستُ عبقرياً، لكنني أتعلم بسرعة»، فكّر غودوين في نفسِهِ.

توجهَ غودوين إلى المستشفى حيث وجدَ فيليمون يكنسُ غرفَ الضيافةِ الخاصَّة في الطابقِ العلوي. كان اللورد ويليام ما زالَ هنا يراقبُ وضعَ والدِهِ وينتظرُ موتَه أو استفاقتَه، كما كانت الليدي فيليبا معه. عادَ الأسقفُ ريتشارد إلى قصرِه في شايرنغ، إلَّا أنَّه قد يعودُ اليومَ من أجلِ مراسمِ الجنازةِ الكبيرةِ.

بالكادِ يستطيعُ فيليمون القراءةَ لكنَّه سيكون مفيداً في إيجادِ الوثائقِ لذلكَ أخذَهُ غودوين إلى المكتبةِ.

يحتفظُ الدير بأكثر من مئةِ وثيقةٍ ومعظمُها سنداتُ ملكيَّةٍ لأراضٍ تقعُ غالبيتها قربَ كينغزبريدج ويتوزعُ بعضها في مناطقَ بعيدةٍ من إنكلترا وويلز إضافةً إلى وثائق أخرى تجيزُ للرهبانِ أن يبنوا الأديرةَ والكنائسَ وأن يأخذوا الحجارةَ من مقلعِ إيرل شايرينغ دونَ مقابلٍ، وأن يقسموا الأرضَ حول الديرِ، ويبنوا فيها منازلَ ويؤجروها. كما تجيزُ هذهِ الوثائقُ للرهبانِ عقدَ المحاكمِ وإقامةَ الأسواقِ الأسبوعيةِ وتحصيل تعاريفِ عبورِ الجسرِ وإقامةَ سوقٍ سنوي للصوفِ وشحنَ البضائعِ عن طريقِ النهرِ إلى ميلكومب من دون دفعِ الضرائبِ لمالكي الأراضي التي يمرونَ بها.

كُتبت هذهِ الوثائقُ بالحبرِ على الرَّقِ وهو جلدٌ رقيقٌ تم كشطُهُ وتبييضُهُ وتمديدُهُ بعنايةٍ ليصبحَ سطحاً صالحاً للكتابةِ. أمَّا الوثائقُ الطويلةُ فقد كانت تُلفُ وتُربط برباطٍ جلدي ناعمٍ. كانت الوثائقُ في صندوقٍ مُحكمِ الإغلاقِ إلَّا أنَّ مفتاحَهُ كان في المكتبةِ في صندوقٍ صغيرٍ بنقوشٍ.

اكفهرَّ وجه غودوين عندما فتحَ الصندوق إذ لم تكن الوثائقُ مرتبةً في صفوفٍ لكنَّها وضعَت كيفما اتفقَ ومن دونِ ترتيبٍ واضحٍ. كانت بعضُ الوثائقِ تعاني تمزقاتٍ صغيرةً وحوافَّ مهترئةً كما كانت جميعُها مغطاةً بالغبارِ. فكَّرَ غودوين بأنَّ عليهِ الاحتفاظَ بها تبعاً لتسلسلِ تاريخِها وأن ترقَّمَ جميعها وتوضع

قائمةٌ بالأرقامِ داخلَ الغطاءِ من أجلِ سهولةِ وسرعة البحثِ عن الوثائقِ. إن أصبحتُ رئيساً للديرِ...

أخرجَ فيليمون الوثائقَ الواحدةَ تلو الأخرى، ونفخَ عنها الغبارَ ثمَّ وضعَها على الطاولةِ أمامَ غودوين. كان معظمُ الناسِ يكرهونَ فيليمون، كما أنَّ واحداً أو اثنين من الرهبانِ الكبارِ لا يثقان بهِ، لكن غودوين لم يكن كذلك لأنَّه من الصعبِ ألَّا تثقَ بإنسانٍ يعاملكَ كإلهٍ. كان معظمُ الرهبانِ قد اعتادوا على وجودِهِ فهو في الديرِ منذُ زمنٍ طويلٍ جداً. يتذكّرُ غودوين عندما كان طفلاً طويلاً وغريباً يتجولُ حولَ الديرِ ويسألُ الرهبان عن أجدرِ قديسٍ يمكنُ الصلاةُ إليهِ، وإن كانوا قد شهدوا حدوثَ معجزةٍ.

عادةً توضعُ نسختان من أيِّ وثيقةٍ على الرّقِّ نفسهِ، وتكتبُ عبارةُ «وثيقةٌ بخطِّ اليدِ» بأحرفٍ كبيرةٍ بين النسختين، ثم يُقصُّ الرّقُّ إلى نصفين بخطٍ متعرجٍ يمر عبرَ هذهِ العبارة. ويحتفظُ كلُّ طرفٍ في العقدِ أو الوثيقةِ بنصفِ الرّقِ، ويعتبرُ التطابقُ بين الخطينِ المتعرجين دليلاً على أنَّ الوثيقةَ أصليةٌ.

كانت تعاني بعضُ الرقوقِ من ثقوبٍ، وربما كانَ السببُ في هذا أنَّ الخروفَ عندما كانَ حيَّاً قد تعرَّضَ إلى لسعِ الحشراتِ، وبعضُها الآخر قضمتْهُ الفئرانُ في مرحلةٍ ما في الديرِ. كانت الوثائقُ مكتوبةً باللاتينيةِ طبعاً، وكان أحدثُها أكثرَ سهولةً في القراءةِ فقد كان يصعبُ على غودوين أحياناً فكُّ رموزِ الأسلوبِ القديمِ للكتابةِ. تفحَّص كلَّ واحدةٍ منها إلى أن حددَ تاريخاً معيناً. كان يبحثُ عن شيءٍ كُتبَ بعد فترةٍ وجيزةٍ من عيدِ جميع القديسين وقبلَ عشرِ سنواتٍ.

تفحَّص جميعَ الرقوقِ إلَّا أنّه لم يجد شيئاً.

كان التاريخُ الأقربُ يعودُ إلى صلكٍ مؤرخٍ بعدَ بضعةِ أسابيع من العيدِ ويعطي فيهِ الإيرل رولاند الإذنَ للسير جيرالد بنقلِ أراضيهِ إلى ملكيةِ الديرِ مقابلَ شطبِ الديرِ لديونِ جيرالد وإعالتهِ هو وزوجتِه لبقيةِ حياتهما.

لم يتضايق غودوين من عدمِ عثورهِ على الوثيقةِ، بل على العكسِ، لأن هذا يعني أنَّ قبولَ توماس جرى من دونِ العطيَّةِ المعتادةِ، وهذا أمرٌ غريبٌ بحدِّ ذاتِهِ، أو تمَّ الاحتفاظُ بالوثيقةِ في مكانٍ آخر بعيداً عن أعينِ المُتطفلين. في كلتا الحالتين إن هذا يزيدُ من احتمالِ إصابةِ حدسِ بيترانيلا بأنَّ توماس يحتفظُ بسرٍ ما. لم يكن هناكَ الكثيرُ من الأماكنِ الخاصَّةِ في الديرِ إذ يُمنعُ على الرهبان أن يكون لديهم أسرارٌ أو ممتلكاتٌ خاصَّةٌ. وعلى الرغم من أنَّ بعضَ الأديرةِ الثريَّةِ

قد قامَت ببناءِ صوامعَ خاصَّةٍ بكبارِ الرهبانِ، فإنَّهم في ديرِ كينغزبريدج كانوا جميعاً ينامون في مهجعٍ كبيرٍ باستثناءِ رئيسِ الديرِ الذي يملكُ غرفتَهُ الخاصَّةَ. باتَ من المؤكدِ أنَّ الوثيقةَ التي ضمنت قبولَ توماس في الديرِ موجودةٌ في بيتِ رئيسِ الديرِ حيثُ يقطنُ كارلوس حالياً.

كان من شأنِ ذلكَ أن يصعِّبَ الأمورَ على غودوين لأنَّ كارلوس لن يسمحَ لهُ بالبحثِ في منزلِ رئيسِ الدير، ولكن قد لا يكونُ البحثُ ضرورياً فربما هناكَ صندوقٌ أو حقيبةٌ في مكانٍ ما على مرأى الجميع وهي تحتوي على وثائق شخصيَّةٍ لرئيسِ الديرِ الراحلِ أنتوني كدفترِ مذكراتٍ عندما كان شاباً، أو رسالةٍ ودّيةٍ من رئيسِ الأساقفةِ أو بعضِ العظاتِ.

لربما تفحَّصَ كارلوس جميعَ المحتوياتِ وما من سببٍ يدعوه للسماحِ لغودوين بفعلِ الأمرِ عينِهِ. عبسَ غودوين وهو يفكرُ، هل يمكنُ لشخصٍ آخر أن يبحثَ؟

قد يطالب إدموند أو بيترانيلا برؤيةِ ممتلكاتِ شقيقهما الراحل، وحينها سيكونُ من الصعبِ على كارلوس رفضُ هذا الطلبِ إلَّا أنَّه قد يخفي مسبقاً أيّ وثيقةٍ تخصُّ الديرَ.

يجبُ أن يكونَ البحثُ سريّاً.

دقَّ الجرسُ إيذاناً بموعدِ الصلاةِ الثالثةِ، وأدركَ غودوين حينها أنَّ الحالةَ الوحيدةَ التي يمكنُ أن يغادِر فيها كارلوس منزلَ رئيسِ الديرِ هي أثناء أداءِ الصلاةِ في الكاتدرائيةِ.

سيتغيبُ غودوين عن الصلاةِ الثالثةِ وسيجدُ عذراً مُقنعاً لذلك. لن يكونَ الأمرُ سهلاً، فهو كاهنٌ ويجبُ ألَّا يتغيبَ عن الطقوسِ لكن ليسَ لديهِ حلٌّ آخر.

«أريدكَ أن توافيني إلى الكنيسةِ»، قالَ غودوين لفيليمون.

«حسناً»، قالَ فيليمون الذي بدا قلقاً إذ لا يُسمح لموظفي الديرِ بالدخولِ إلى الهيكلِ أثناءَ المراسمِ والصلواتِ.

«ادخل مباشرةً بعدَ قراءةِ الآياتِ، واهمس في أذني بأيِّ شيءٍ ولا تلقِ بالاً لردِ فعلي ولتستمر بالكلامِ فحسب».

عبسَ فيليمون في قلقٍ إلَّا أنَّه أومأ برأسِهِ موافقاً فهو مستعدٌ لفعلِ أيِّ شيءٍ من أجلِ غودوين.

غادرَ غودوين المكتبةَ وانضمَّ إلى الموكبِ في الكنيسةِ. لم يكن هناكَ سوى عددٍ قليلٍ من الأشخاصِ في صحنِ الكنيسة لأنَّ معظمَ سكانِ البلدةِ سيصلونَ لاحقاً لحضورِ قدّاسِ ضحايا انهيارِ الجسرِ. أخذَ الرهبانُ أماكنَهم في المذبحِ ثم بدأت الصلاةُ. «اللّهم التفت إلى معونتي»، رددَ غودوين مع البقيةِ. انتهوا من تلاوةِ الآيةِ وبدؤوا بالترنيمةِ الأولى حينَ ظهرَ فيليمون. حدَّقَ بهِ جميعُ الرهبانِ كما يحدّقُ الناسُ عادةً إلى أيِّ شيءٍ خارجٍ عن المألوفِ يحدثُ أثناءَ أداءِ طقوسٍ اعتياديةٍ. عبسَ الأخ سيميون مستاءً وشعرَ كارلوس أثناءَ الترتيلِ باضطرابٍ ما وبدا محتاراً.

توجَّه فيليمون إلى مقعدِ غودوين وانحنى ثمَّ همسَ له: «طوبى للرجلِ الذي لم يسأل مشورةَ الأشرارِ».

تظاهرَ غودوين بالدهشةِ وهو يستمعُ إلى فيليمون الذي استمرَّ في تلاوةِ المزمورِ الأولِ، وبعدَ لحظاتٍ قليلةٍ هزَّ رأسَهُ بقوّةٍ كأنّه يرفضُ طلباً ما ثمَّ أنصتَ مجدداً. كان عليه أن يفكّر في قصةٍ مُفصّلةٍ لتفسيرِ هذه التمثيليةِ. يمكنهُ القول إنَّ والدتَهُ أصرَّت على التحدثِ معه على الفورِ بشأنِ جنازةِ شقيقِها، الأب أنتوني، وأنّها كانت تهددُ بالدخولِ إلى المذبحِ بنفسِها ما لم يحمل فيليمون الرسالةَ إلى غودوين فإضافةً إلى حقيقةِ أنَّ العائلةَ في حالةِ حدادٍ ستعطي شخصيَّةُ بيترانيلا المستبدة مصداقيةً ما لهذهِ الحجةِ.

عندما أنهى فيليمون قراءةَ المزمورِ، أوحت تعابيرُ غودوين بالاستسلامِ فنهضَ وتبعَ فيليمونَ إلى خارجِ الهيكلِ.

توجّها بسرعةٍ إلى منزلِ رئيسِ الديرِ فوجدا هناك شاباً يكنسُ الأرضيَّة. لن يجرؤ الشابُ على سؤالِ الراهبِ إلّا أنه قد يخبر كارلوس أنَّ غودوين وفيليمون كانا هنا، لكنَّ الأوان حينها سيكون قد فاتَ.

رأى غودوين أنَّ منزلَ رئيسِ الديرِ كان مدعاةً للخزي، فهو أصغرُ من منزلِ العمِّ إدموند في الشارعِ الرئيسي. يجبُ أن يحظى رئيسُ الديرِ بقصرٍ يليقُ بموقعِهِ تماماً كما هو حالُ الأسقفِ. ما من شيءٍ بهيّ في هذا المبنى، فقد غطّت الجدرانَ بضعُ منسوجاتٍ تصورُ مشاهدَ مأخوذةً من الكتابِ المقدسِ لتَرّد البردَ عن المكان الذي يبدو مملاً وباهتاً كالراحلِ آنتوني.

فتشا المكانَ بسرعةٍ وسرعان ما وجدا ما كانا يبحثان عنهُ. في الطابقِ العلوي وفي صندوقٍ بجانبِ كرسي الصلاة وجدا محفظةً بنيّةً كبيرةً مصنوعةً من جلدِ

الماعز الناعمِ وقد حيكت بخيوطٍ قرمزية جميلةٍ. كان غودوين متأكداً من أنّها هديةٌ من أحدِ عمّالِ الجلودِ في المدينةِ.

راقبَهُ فيليمون باهتمامٍ وهو يفتحها.

وجدَ في داخلِها حوالي ثلاثين رقاً مُرتَّبةً بشكلٍ مسطحٍ وقد تمَّت تغطيتها بقماشٍ كتاني لحمايتها، فتفحَّصها غودوين بسرعةٍ.

كانت معظمُها ملاحظاتٌ على المزاميرِ. لا بدَّ أنَّ أنتوني قد فكَّر في مرحلةٍ ما بإعدادِ كتابٍ من التفسيراتِ لكن يبدو أنَّه قد تخلَّى عن ذلكَ.

لكن ما أثارَ دهشتَهُ وجودُ قصيدةٍ حبٍ باللاتينية بعنوانِ *عينان خضراوان*، مُرسلة إلى رجلٍ ذي عينين خضراوين. كانت عينا العمِّ أنتوني خضراوين ببقعٍ ذهبيةٍ كجميعِ أفرادِ أسرتِهِ.

تساءلَ غودوين عن هويّةِ كاتبِ القصيدةِ، فقلّةٌ من النساءِ يعرفنَ اللاتينية كفايةً لكتابةِ قصيدةٍ. هل هي من راهبةٍ مغرمةٍ بأنتوني؟ أم أنَّ رجلاً قد كتبَها؟ كان الرِّقُ قديماً ومصفرَّاً. إن كانت علاقةً غراميةً فقد كان ذلك في أيام شبابِ أنتوني. لقد احتفظَ أنتوني بالقصيدةِ؛ وهذا يعني أنَّه قد لا يكون مملاً بالقدرِ الذي اعتقدَه غودوين.

«ما هذا؟» سألَ فيليمون.

أحسَّ غودوين بالذنبِ لأنَّه أقحمَ أنفهُ في جزءٍ خاصٍ للغايةِ في حياةِ عمِّهِ، وتمنى لو أنَّه لم يفعلِ ذلك. «لا شيء»، قالَ ثمَّ تابع: «إنَّها مجردُ قصيدةٍ». تفحَّصَ الرِّقَ التالي وأشرقَ وجههُ كما لو أنَّه عثرَ على كنزٍ. كانت وثيقةً يعودُ تاريخُها إلى عيدِ الميلادِ منذُ عشرِ سنواتٍ خلت وهي تتحدثُ عن ملكيةِ خمسمئةِ فدانٍ قرب قريةِ لين في نورفولك. كان مالكُ الأرضِ قد توفي مؤخراً، وبموجبِ الصكِّ فقد انتقلَت ملكيتُها إلى ديرِ كينغزبريدج، وحُددَت الاستحقاقاتُ السنوية من حبوبٍ وصوفٍ وعجولٍ ودجاجٍ على الأقنانِ والمستأجرين أن يدفعوها مما يزرعونَ ويربون. كما نصَّ الصكُّ على تكليفِ أحدِ الفلاحين وكيلاً مسؤولاً عن تسليمِ المحصولِ للديرِ سنوياً وحددَ المبالغ المالية التي يمكن دفعها بدلاً من المحصولِ الفعلي وهو أمرٌ باتَ شائعاً جداً الآن خاصّةً حين تكون الأراضي بعيدةً عن مكانِ إقامةِ المالكِ.

كانت وثيقةً نموذجيةً، ففي كلِّ عامٍ بعدَ الحصادِ يتوافدُ إلى الديرِ العشراتُ من ممثلي مجموعاتٍ كهذهِ لتسليمِ ما يدينونَ بهِ. يأتي القريبون في أوائلِ

الخريفِ، بينما يصلُ آخرون على فتراتٍ متلاحقةٍ خلالَ فصلِ الشتاءِ، أمَّا القلّةُ ممكن يسكنونَ بعيداً فلا يصلون إلّا بعدَ عيدِ الميلادِ.

وجاءَ في العقدِ على أن تُقدَّمَ العطيّةُ للديرِ مقابلَ قبولِ الأخيرِ بالسير توماس لانغلي راهباً فيهِ. كان هذا أمراً روتينياً أيضاً.

ولكنّ هناك أمراً واحداً لم يكن مألوفاً في الوثيقةِ وهو أنها كانت موقعةً باسمِ الملكةِ إيزابيلا.

كانَ هذا أمراً غريباً؛ فقد كانت إيزابيلا الزوجةُ الخائنةُ للملكِ إدوارد الثاني وقد تمرَّدَت عليهِ ونصَّبَت مكانَهُ ابنهما البالغَ أربعةَ عشرَ عاماً. بعدها بوقتٍ قصيرٍ توفي الملكُ المخلوعُ، وكان الأبُ أنتوني حاضراً في جنازتِهِ في غلوستر، وقد وصلَ توماس إلى كينغزبريدج في هذهِ الفترةِ تقريباً.

حكمَت الملكةُ وحبيبها روجر مورتمر إنكلترا لسنواتٍ معدودةٍ قبلَ أن يثبّت إدوارد الثالث حكمَهُ رغمَ حداثَةِ سنِه. إنَّ الملكَ الجديدَ في الرابعةِ والعشرين الآن، وقد أحكمَ قبضتَهُ على الحكمِ بقوَّةٍ. توفي مورتمر وحظيت إيزابيلا، التي تبلغ الآن اثنين وأربعين عاماً، بتقاعدٍ فخمٍ في قلعةِ رايزنغ في نورفولك وقريباً من قريةِ لين.

«هذا ما نبحثُ عنه»، قالَ غودوين لفيليمون، «إنَّ الملكةَ إيزابيلا من رتَّبَ الأمورَ لتوماس ليصبحَ راهباً».

عبسَ فيليمون: «ولكن لماذا؟»

على الرغم من أن فيليمون لم يكن مُتعلماً فإنَّه كان فطناً. أجابَ غودوين: «فعلاً، لماذا؟ أفترضُ أنَّها أرادَت إسكاتَه أو مكافأتَهُ أو كليهما معاً، وقد حدثَ هذا في العامِ الذي قامَت فيهِ بالانقلابِ».

«لا بدَّ أنَّه أسدى إليها خدمةً ما».

هزَّ غودوين رأسَهُ موافقاً. «ربما حملَ لها رسالةً، أو فتحَ بوابات قلعةٍ ما، أو أفشى خططَ الملك لها، أو أمن لها دعمَ بارونات مُتنفذين. لكن لماذا الأمرُ سرٌّ؟»

«إنَّه ليسَ سرّاً»، قالَ فيليمون. «لا بدَّ أنَّ أمينَ الخزنةِ وجميعَ من في قريةِ لين يعلمونَ بذلكَ، إذ يتحتمُ على مبعوثِ المحكمةِ أن يتحدَّثَ إلى عددٍ من الأشخاصِ عندما يأتي إلى هنا».

«لكن لن يعرفَ أحدٌ أنَّ الأمرَ برمّتِهِ قد رُتبَ لمصلحة توماس ما لم يطَّلعوا على هذهِ الوثيقةِ».

«هذا هو السرُّ إذاً: الملكةُ إليزابيث صاحبةُ عطيةِ توماس إلى الديرِ».

«بالضبطِ». حزمَ غودوين الوثائقَ ووضعَ قطعةَ القماشِ الكتاني بينها بعنايةٍ ثمَّ أعادَ المحفظةَ إلى الصندوقِ.

«لكن لماذا تكتموا على الأمرِ؟» سألَ فيليمون، «فالامرُ ليسَ مُخجلاً أو ينضوي على خداعٍ، وهي تحصلُ على الدوامِ».

«لا أعلمُ وربما لا يوجدُ حاجةٌ لذلك أصلاً؛ فحقيقةُ أنَّهم يريدون إبقاءَ الأمرِ مخفيّاً قد يخدمُ غايتنا. فلنخرج من هنا».

شعرَ غودوين بالارتياحِ إذ كان لدى توماس سرٌّ، وها هو غودوين الآن باتَ يعرفُهُ وهذا منحَهُ القوَّةَ والثقةَ الكافيتين للمخاطرةِ بتقديمِ توماس كمرشحٍ لرئاسةِ الديرِ، إلّا أنّه أحسَّ بالخوفِ أيضاً فتوماس ليس أحمق.

عادا إلى الكاتدرائيةِ قبلَ لحظاتٍ على انتهاءِ الصلاةِ الثالثةِ، وبدأ غودوين يحضّرُ الكنيسةَ لمراسمِ الجنازةِ الكبيرةِ. وبناءً على توجيهاتِهِ حملَ ستةُ رهبانٍ تابوتَ أنتوني ووضعوه على حاملٍ أمامَ المذبحِ وأحاطوه بالشموعِ. بدأ سكانُ المدينةِ يتوافدونَ إلى صحنِ الكنيسةِ. أومأ غودوين لكاريس التي غطَّت رأسَها بمنديلٍ من الحريرِ الأسودِ، ثمَّ رأى توماس يحملُ كرسياً كبيراً مزخرفاً يساعدُهُ راهبٌ شابٌ. كان هذا عرش الأسقفِ أو كرسيه الذي يمنحُ الكنيسةَ مكانتَها الكنسيةَ الخاصَّةَ.

«دع فيليمون يفعلُ هذا»، قالها وهو يلمسُ ذراع توماس الذي أحسَّ بالضيقِ ظنّاً منه أنَّ غودوين يقدِّمُ لهُ المساعدةَ لأنَّ ذراعَهُ مقطوعةٌ فقالَ: «يمكنني حملُها».

«أعلمُ ذلكَ لكنني أريدُ التحدُّثَ معكَ».

كان توماس أكبرَ سناً فهو في الرابعةِ والثلاثين من عمرِهِ بينما كان غودوين في الواحدة والثلاثين إلا أنَّ غودوين كان أعلى منهُ في التسلسلِ الهرمي للرهبانيةِ. وعلى الرغمِ من هذا كان غودوين يخشى توماس بعضَ الشيءِ؛ فعادةً ما يُعاملُ أمينُ السجلاتِ الكهنةَ بالاحترامِ الذي يليقُ بمكانتهم العاليةِ، لكنَّ غودوين كان يشعرُ بأنَّ توماس يوليهِ الاحترامَ الذي يعتقدُ بأنّه يستحقُّهُ فقط. ورغمَ التزامِ توماس بجميعِ قواعدِ القديس بينيدكت، فإنَّه جلبَ معَهُ إلى الديرِ نوعاً من الاستقلالِ والاكتفاءِ الذاتيِ الذي لم يخسرهُ قط.

لن يكون من السهلِ خداعُ توماس، وهذا بالضبطِ ما خططَ له غودوين.

حمل فيليمون الكرسي عن توماس وسارَ مع غودوين في الممرِ. قال غودوين: «هناكَ أحاديث عن احتمال تنصيبكَ رئيساً للديرِ خلفاً لرئيسِ الديرِ الراحلِ».

«ويقولونَ هذا عنكَ أيضاً»، ردَّ توماس.

«سأرفضُ الترشُّحَ».

رفعَ توماس حاجبيهِ قائلاً: «أنتَ تُفاجئني أيّها الأخُ».

«هناكَ سببان لذلكَ»، قالَ غودوين، «أولاً، أعتقدُ أنّك ستؤدي العملَ بشكلٍ أفضل».

ازدادَت دهشةُ توماس عندَ سماعهِ هذا فلم يكن يعتقد أنَّ غودوين متواضعٌ إلى هذهِ الدرجةِ، وقد كان مُحقّاً في ذلكَ؛ فغودوين كان يكذبُ.

«ثانياً، أنتَ الأوفرُ حظاً للفوزِ بالمنصبِ»، كان غودوين يقولُ الحقيقةَ هنا. «صحيحٌ أنَّ الرهبان الشباب يحبونني إلّا أنّكَ تتمتعُ بشعبيةٍ بينَ الجميعِ».

اعتلت وجهُ توماس الوسيم نظرةُ استغرابٍ وتوقٍ لمعرفةِ زبدةِ هذا الحديثِ.

«أريدُ مساعدتكَ»، قالَ غودوين. «أعتقدُ أنَّ الشيءَ الوحيدَ الذي يهمُّ هو وجودُ رئيسٍ يقومُ بإصلاحِ الديرِ ويحسّنُ أوضاعَهُ الماليَّةَ».

«أعتقدُ أنّه بإمكاني القيامُ بهذا، ولكن ما الذي تريدُه مقابلَ دعمِك هذا؟»

عرفَ غودوين أنّهُ إن لم يطلب مقابلاً فلن يصدّقه توماس لذلكَ اختلقَ كذبةً معقولةً: «أريدُ أن أكون نائبك».

أومأ توماس برأسِهِ لكنَّه لم يوافق على الفورِ. «كيف يمكنكَ أن تساعدني؟»

«أولاً، سأؤمنُ لكَ دعمَ أهلِ المدينةِ».

« وستحققُ هذا لأنَّ إدموند وولر عمُّكَ؟»

«ليسَ الأمرُ بهذهِ البساطةِ؛ فأهلُ المدينةِ قلقون حيالَ أمرِ الجسرِ، وكارلوس لم يقل متى سيبدأ بالبناءِ، هذا إن بدأ أصلاً. إنّهم مستميتون لمنعِ تنصيبهِ رئيساً للديرِ، وإن أخبرتُ إدموند أنّكَ ستبدأ في العملِ على الجسرِ حالما يتمُّ انتخابُكَ فسيقفُ جميعُ سكانِ المدينةِ في صفّكَ».

«لن يُكسبني هذا أصواتاً كثيرةً من الرهبانِ».

«لا تهتم بهذا وتذكّر أنَّ الأسقفَ من يُصادق على اختيارِ الرهبانِ، كما أنَّ معظمَ الأساقفةِ حكماءُ بما يكفي للتشاورِ مع السكان المحليين في الأمرِ،

وريتشارد، شأنه شأنُ الآخرين، حريصٌ على تجنبِ المشاكلِ. إن دعمَكَ سكانُ المدينة فسيشكلُ هذا فرقاً».

تفحّصهُ توماس جيداً فأحسَّ غودوين أنَّ توماس لم يثق بهِ، وشعر بقطرةِ عرقٍ تسري على ظهرهِ، وكافحَ ليُبقي وجهَه خالياً من أيِّ تعبيرٍ تحتَ تلك النظرةِ الفاحصةِ، إلّا أنَّ توماس كان يُصغي إلى نقاشِه ثمَّ قالَ: «إننا بحاجةٍ إلى جسرٍ جديدٍ من كلِّ بدٍ، وسيكون كارلوس أحمق إن ماطلَ في الأمرِ».

«إذاً، ستعدهُم بشيءٍ تنوي فعلَهُ أصلاً».

«تبدو واثقاً جداً».

رفعَ غودوين يديهِ في إشارةٍ دفاعيةٍ ثمَّ قالَ، «لا أقصدُ التصرَّفَ على هذا النحو. ولكن على المرءِ أن ينفذَ ما يشعرُ بأنَّه مشيئةُ الرَّبِّ».

بدا توماس مُشككاً إذ لم يصدق أنَّ غودوين يتصرفُ ببراءةٍ لكنَّه قالَ: «حسناً»، ثمَّ أضافَ: «سأُصلي من أجلِ هذا».

شعرَ غودوين بأنَّهُ لن يحصلَ على التزامٍ أقوى من توماس، وأنَّه من غيرِ المُجدي الضغطُ عليهِ أكثر. «وأنا أيضاً»، قالها ثمَّ غادرَ.

سيفعلُ توماس ما وعدَ بهِ، وسيُصلي من أجلِ هذا. كان لديهِ رغبةٌ في الأمرِ، وإن اعتقدَ أنَّها مشيئةُ الرَّبِّ بأن يكون رئيساً للديرِ فسيصلي لهُ وإلّا لن يحصلَ هذا. لم يكن بوسعِ غودوين فعلُ المزيدِ في الوقتِ الحالي.

توهجَت الشموعُ حولَ تابوتِ أنتوني، واكتظَّ صحنُ الكنيسةِ بسكانِ المدينةِ والفلاحين من القرى المجاورةِ. ألقى غودوين نظرةً على الحشودِ بحثاً عن كاريس التي رآها منذُ قليلٍ فوجدَها في الجناحِ الجنوبي تنظرُ إلى السقالات التي وضعَها ميرثين في الممرِّ.

كانت لديهِ ذكرياتٌ دافئةٌ مع كاريس عندما كانت طفلةً وهو نسيبها الراشد الذي يعرفُهُ الجميعُ.

كانت كئيبةً منذُ انهيارِ الجسرِ إلّا أنَّها بدَت فرحةً اليومَ. سُرَّ لذلكَ فقد كان قلبهُ يرقُّ عندما يراها. لمسَها من مرفقِها ثمَّ قالَ: «تبدين سعيدةً اليومَ». ابتسمَت وقالت: «نعم، فقد حُلَّت العقدةُ الرومانسيةُ. لكنَّكَ لن تفهم ما أقصدهُ بكلامي».

«بالطبعِ لا»، قال غودوين ثمَّ فكّر في نفسهِ: «لا فكرةَ لديكِ عن كمّيةِ العقدِ الرومانسيةِ بين الرهبانِ»، إلّا أنَّه لم يقل شيئاً، فمن الأفضلِ ألا يعرفَ الناسُ

العاديون ما يُرتكبُ من خطايا داخلَ الديرِ. قال لها: «يجبُ أن يتحدثَ والدكِ مع الأسقفِ ريتشارد بخصوصِ إعادةِ بناءِ الجسرِ».

«حقاً»، قالَت في ارتياب. كان الأسقفُ بطلَها المعبود عندما كانت طفلةً، أمّا الآن فلم تعد تخشاه كما كانت تفعلُ قبلاً. «ما الغايةُ من ذلكَ فالجسرُ ليسَ بجسرِهِ».

يجبُ أن يصادقَ الأسقفُ على اختيارِ الرهبانِ لرئيسِ الديرِ. بوسعِ ريتشارد القولُ إنَّه لن يوافقَ على أيِّ شخصٍ يرفضُ إعادةَ بناءِ الجسرِ. قد يرفضُ بعضُ الرهبانِ هذا لكنّ الآخرين سيقولونَ إنَّ التصويتَ على شخصٍ لن يصادقَ عليهِ الأسقفُ لا فائدة منهُ».

«فهمتُ. هل تعتقد أنَّ والدي قادرٌ على المساعدةِ؟»

«قطعاً».

«سأخبرُهُ إذاً».

«شكراً لكِ».

رنَّ الجرسُ فخرجَ غودوين من الكنيسةِ وانضمَّ مرَّةً أخرى إلى موكبِ الرهبان في الأروقةِ. كان الوقت منتصفَ النهارِ وقد قامَ بعملٍ جيدٍ هذا الصباحِ.

-16-

غادرَ ولفريك وغويندا كينغزبريدج في وقتٍ باكرٍ من صباحِ يومِ الإثنين وسلكا الدرب الطويل إلى قريةِ ويغلي حيثُ يقطنان.

راقبَهما ميرثن وكاريس يقطعان النهرَ على عبّارةِ ميرثن الجديدةِ التي كانَ مسروراً بنجاحِها أيما سرورٍ رغمَ علمِهِ بأنَّ التروسَ الخشبيَّةَ ستهترئ بسرعةٍ وأنَّ التروسَ الحديديةَ ستكونُ أفضل ولكن...

كانت كاريس سارحةً بأفكارِها في مكانٍ آخر وتنهّدت قائلةً: «غويندا مغرمةٌ جداً بذلكَ الفتى».

«لا تملكُ فرصةً مع ولفريك»، قالَ ميرثن.

«لن تعرفَ أبداً فهي فتاةٌ بإرادةٍ قويةٍ وأكبر دليلٍ على هذا هروبها من سيم تشابمان».

«لكن ولفريك خطبَ آنيت وهي أجملُ من غويندا بكثيرٍ».

«إنَّ جمالَ الشكلِ ليسَ كلَّ شيءٍ في الحبِّ»، أجابته كاريس.

«وهو ما أشكرُ الرَّبَّ عليهِ كلَّ يوم».

ضحكَت كاريس ثمَّ قالت: «أحبُّ وجهكَ المضحك».

«لكن ولفريك تشاجرَ مع شقيقي من أجلِ آنيت وهذا يعني أنَّهُ يحبُها».

«تملكُ غويندا جرعةَ حبٍ».

رمقَها ميرثن بنظرةٍ استنكار وقالَ: «أتعتقدين أنَّ قيام فتاةٍ بخداعِ شخصٍ ليتزوجَها وهو يحبُ فتاةً أخرى أمرٌ مقبولٌ؟»

صمتت لبرهةٍ وتورَّدت بشرتها الناعمةُ خلالها ثمَّ قالت: «لم أفكر بالأمرِ على هذا النحو قط، هل ما تقولهُ صحيحٌ؟»

«تقريباً».

«لكنَّها لن تجبرَهُ على ذلكَ إنَّما تريدهُ أن يقعَ في حُبها».

«عليها فعلُ هذا من دونِ مساعدةِ جرعةِ الحبِّ».

«أشعرُ الآن بالخجلِ لأنني ساعدتُها».

«فاتَ الأوانُ»، قال ميرثن.

كان ولفريك وغويندا الآن على الجانبِ الآخر من النهرِ ينزلان من العبَّارةِ. استدارا ولوحا لكاريس وميرثن ثمَّ سارا على الطريقِ الذي يمرُّ بالضواحي وكلبُ غويندا في أعقابِهما.

عادَت كاريس وميرثن إلى الشارعِ الرئيسي. «أنتَ لم تتحدث مع غريزيلدا بعد»، قالت كاريس.

«سأتحدَّثُ معها الآن، ولكني لا أدري إن كنتُ أتطلَّع إلى ذلك أم أخشاهُ».

«ليسَ لديكَ ما تخشاهُ فقد كذبَت عليكَ».

«هذا صحيحٌ». قالَ وتحسسَ الرضَّ على وجههِ؛ كانت الكدمةُ قد اختفَت تقريباً. وتابع ميرثن قائلاً: «أرجو ألا يتصرَّفَ والدُها بعنفٍ مجدداً».

«هل تريدُ أن آتي معكَ؟»

سيدعمهُ وجودَها إلَّا أنَّه هزَّ رأسَهُ وقالَ: «أنا من أحدثَ هذهِ الفوضى وأنا من سيسويها».

وقفا أمامَ منزلِ إلفريك. «حظاً موفقاً»، قالت له كاريس.

«شكراً لكِ». قبَّلَها على شفتيها بسرعةٍ مقاوماً رغبتَهُ في تقبيلها مجدداً ثمَّ دخلَ.

كان إلفريك جالساً إلى الطاولةِ يتناولُ الخبزَ والجبنَ وأمامَهُ كوبٌ من الجعةِ. رأى ميرثن أليس والخادمةَ في المطبخِ ولكن لم يكن هناكَ أثرٌ لغريزيلدا.

قالَ إلفريك: «أين كنتَ؟»

قررَ ميرثن أنَّه طالما لا يملكُ ما يخشاه فمن الأفضلِ أن يتصرَّفَ بشجاعةٍ لذلكَ تجاهلَ سؤالَ إلفريك وقالَ: «أين غريزيلدا؟»

«ما تزالُ في سريرِها».

صرخَ ميرثن من جهةِ الدرجِ قائلاً: «غريزيلدا، أريدُ التحدُثَ معكِ».

«لا وقتَ لذلك فلدينا عملٌ ننجزُهُ».

تجاهلَهُ ميرثن مجدداً وصاحَ: «غريزيلدا من الأفضلِ أن تنهضي في الحالِ».

«هيه»، صرخَ إلفريك. «من تظنُّ نفسكَ لتُلقي بالأوامرِ؟»

«تريدني أن أتزوجَها، أليسَ كذلك؟»

«إذاً؟»

«إذاً من الأفضلِ لها أن تعتادَ على فعلِ ما يأمرُ بهِ زوجُها». رفعَ صوتَهُ مجدداً وصاحَ: «انزلي إلى هنا الآن وإلَّا ستسمعينَ ما في جعبتي من شخصٍ آخر».

ظهرَت غريزيلدا أعلى الدرج وقالت بانفعالٍ: «أنا قادمةٌ، علامَ كلُّ هذا الصراخ؟»

انتظرَ ميرثن نزولَها ثمَّ قالَ: «لقد عرفتُ من هو والدُ طفلكِ».

لمعَ الخوفُ في عينيها: «لا تكن غبياً إنَّه طفلُك».

«كلا، إنَّهُ طفلُ ثورستن».

«لم أضاجع ثورستن قط»، قالت ونظرَت إلى والدِها، «صدقوني لم أفعل هذا».

قالَ إلفريك: «إنَّها لا تكذبُ».

خرجَت أليس من المطبخِ وقالت: «هذا صحيحٌ».

قالَ ميرثن: «لقد ضاجعتُ غريزيلدا يومَ الأحدِ في أسبوعِ سوقِ الصوفِ، أي قبلَ خمسةَ عشرَ يوماً وغريزيلدا حاملٌ في شهرِها الثالثِ».

«لستُ كذلكَ».

أمعن ميرثن النظرَ إلى أليس وقالَ: «كُنتِ تعرفين، أليسَ كذلك؟» أشاحَت أليس بنظرِها ثمَّ تابعَ ميرثن قائلاً: «ومع ذلكَ فقد كذبتِ حتَّى على أختكِ كاريس».

قالَ إلفريك: «أنتَ لا تعرفُ منذُ متى وهي حامل».

أجابَ ميرثن قائلاً: «يمكنكَ أن ترى انتفاخَ بطنِها إن أمعنتَ النظرَ إليها، ليسَ كبيراً إلّا أنَّه ظاهرٌ».

«كيفَ لكَ أن تعرفَ عن أمورٍ كهذهِ؟ فأنتَ مجرَّدُ فتى».

«أجل، وكنتم جميعاً تراهنون على جهلي، أليسَ كذلك؟ وكادَ الأمرُ ينجحُ».

هزَّ إلفريك إصبعَهُ قائلاً: «لقد ضاجعتَ غريزيلدا وستتزوجُها الآن».

«أوه لا لن أتزوجَها، لقد ضاجعتني لأنَّها أرادَت والداً لطفلِها بعدَ أن هربَ ثورستن. أعرفُ أنَّ ما ارتكبتُهُ أمرٌ خاطىءٌ ولكنني لن أعاقبَ نفسي لبقيَّةِ حياتي بالزواجِ منها».

وقفَ إلفريك وقالَ: «بل ستتزوجُها».

«كلا».

«عليكَ أن تفعلَ هذا».

«كلا».

احمرَّ وجهُ إلفريك وصرخَ قائلاً: «ستتزوجها».

قالَ ميرثن: «كم مرَّةً سأكرر كلمةَ «كلا» حتى تقتنع أنني لن أتزوجها؟»

أدركَ إلفريك أنَّ ميرثن كانَ جادَّاً فقالَ: «إذاً، فأنتَ مطرودٌ. اخرج من منزلي ولا تعد أبداً».

ارتاحَ ميرثن لسماعِ هذا فقد كانَ يعني أنَّ النقاشَ قد انتهى. «حسناً» قالَ وتجاوزَ إلفريك الذي وقفَ في طريقِهِ: «إلى أين تظنُّ نفسكَ ذاهباً؟»

«إلى المطبخِ لأحضرَ أشيائي».

«تقصدُ معدَّاتِكَ».

«أجل».

«إنَّها ليست لكَ فأنا من دفعَ ثمنها».

«عادةً ما يحصلُ المتدربُ على أدواتِهِ عندَ نهايةِ...» وخفتَ صوتُ ميرثن تدريجياً.

«لم تنهِ فترةَ تدريبكَ بعد لذا لن تأخذَ معداتكَ». لم يتوقع ميرثن هذا، «لقد تدرَّبتُ لستِ سنواتٍ ونصفٍ».

«عليكَ أن تتدربَ لسبعِ سنواتٍ».

لا يمكنُ لميرثن كسبُ رزقِهِ من دونِ المعدَّاتِ. «هذا ظلمٌ، سأتظلَّمُ إلى نقابةِ النجارين».

قالَ إلفريك بتعجرفٍ: «أتطلَّع إلى ذلكَ. ستكونُ رؤيتُكَ وأنتَ تناقشُ بضرورةِ مكافأةِ المتدرِّبِ الذي طُردَ لأنّه ضاجعَ ابنةَ سيدهِ بمجموعةٍ مجانيةٍ من المعداتِ أمراً مسلياً. لدى جميعِ النجارين في النقابةِ متدربون، ومعظمهم لديهم بناتٌ أيضاً. سيطردونكَ ويرمونك خارجاً على قفاكَ».

وعرفَ ميرثن أنَّ إلفريك على حقٍ.

قالت أليس: «ها أنتَ واقعٌ في مشكلةٍ حقيقيةٍ الآن».

«نعم، أياً تكن التعاسةُ التي ستسببها هذهِ المشكلةُ فهي لن تكونَ بتعاسةِ العيشِ مع غريزيلدا وعائلتِها».

***

في وقتٍ لاحقٍ من صباحِ ذلكَ اليومِ توجهَ ميرثن إلى كنيسةِ سان مارك لحضورِ جنازةِ هاول تايلر أملاً في أن يعرضَ عليهِ شخصٌ ما عملاً.

نظرَ ميرثن إلى السقفِ الخشبي، ووجدَ أنَّ الكنيسة لا تملكُ قنطرةً حجريَّةً. رأى في الخشبِ المطلي فتحةً على شكلِ رجلٍ في إشارةٍ إلى الطريقةِ المريعةِ التي توفي بها هاول.

كانَ عمالُ البناءِ يعلمون أنَّ السقفَ بأكملهِ مُتعفنٌ، ولكنهم لم يقولوا هذا إلَّا بعدَ الحادثِ إذ لم تسعفهم فطنتُهم إلَّا بعدَ فواتِ الأوانِ. بدا واضحاً أنَّ إصلاحَ السقفِ مستحيلٌ وتتعينُ إزالتُهُ والبدءُ ببنائِهِ من جديدٍ، وهذا يعني إغلاقَ الكنيسةِ.

تعدُّ كنيسةُ القديسِ مارك كنيسةً فقيرةً وأملاكُها قليلة إلى درجةٍ باعثةٍ على الشفقةِ وهي لا تتعدى مزرعةً على بعدِ عشرةِ أميالٍ ويشرفُ عليها شقيقُ الكاهنِ الذي بالكادِ يعيلُ أسرتَهُ. كان على الكاهنِ، الأبِ جوفروي، أن يحصِّلَ دخلَهُ من الثمانمئةِ أو التسعمئةِ مواطنٍ من رعيتِهِ ممن يعيشونَ في الطرفِ الشمالي الأفقر من المدينةِ. أمَّا أولئك الذين لم يكونوا فقراء فعلاً فقد تظاهروا بذلكَ وبالتالي كانت المبالغ التي تُحصَّلُ منهم متواضعةً. يكسبُ الأبُ جوفروي رزقَهُ

من التعميدِ والزواجِ والدفنِ، كما أنَّه يتقاضى أقلَّ بكثيرٍ مما يتقاضاهُ الرهبانُ في الكاتدرائيةِ. يتزوَّجُ أبناءُ رعيتِهِ في سنٍ مبكرة، وينجبونَ أطفالاً كُثراً ويموتونَ باكراً، وهذا يعني أنَّ هناكَ الكثيرُ من العملِ على عاتقِهِ إلَّا أنَّه كان يُبلي جيداً بما يكفي. إن أُغلقَت الكنيسةُ سيتوقفُ مصدرُ دخلِهِ ولن يعود قادراً على دفعِ تكاليفِ البناءِ.

ولهذا توقفَ العملُ على إصلاحِ السقفِ.

حضرَ جميعُ بنَّائي المدينةِ إلى الجنازةِ بمن فيهم إلفريك. حاولَ ميرثن أن يبدو بمظهرِ الواثقِ من نفسهِ وهو في الكنيسةِ إلّا أنّ الأمرَ كان صعباً، إذ يعرفُ معظمهم أنَّه فُصلَ من عملِهِ. صحيحٌ أنَّه قد ظُلم إلَّا أنَّه لم يكن بريئاً تماماً.

كانت زوجةُ هاول شابةً وصديقةً لكاريس التي دخلَت معها ومع عائلتِها المكلومةِ. وقفَ ميرثن إلى جانبِ كاريس وأخبرَها بما جرى معهُ في منزلِ إلفريك.

أقامَ الأخُ جوفروي مراسمَ الجنازةِ في رداءٍ قديم.

فكّر ميرثن في السقفِ، وبدا له أنَّه بالإمكانِ تفكيكهُ من دونِ إغلاقِ الكنيسةِ. كان النهجُ المتبعُ في حالاتِ تأجيل الإصلاحاتِ لفترةٍ طويلةٍ إلى أن تغدو الأخشابُ متعفّنةً بحيث لا تتحملُ وزنَ العمالِ، بناءُ سقالاتٍ حولَ الكنيسةِ ثمَّ تفكيكُ الأخشابِ ورميها في صحنِ الكنيسةِ، ولكن حينها سيكون البناءُ عرضةً لعواملِ الطقسِ حتَّى ينتهي بناءُ السقفِ. ولكن أولاً ينبغي بناءُ رافعةٍ دوارةٍ مُثبتةٍ إلى الجدارِ الجانبي السميكِ للكنيسةِ، واستخدامها لإنزالِ ألواحِ السقفِ، الواحد تلو الآخر، بدلاً من رميها إلى الأسفلِ فتتأرجح على الجدارِ إلى أن تستقرَّ في المقبرةِ. بهذهِ الطريقةِ سيبقى السقفُ الخشبي سليماً إلى أن يُستبدل بعدَ الانتهاءِ من بناءِ السقفِ الخارجي.

في المقبرةِ عاينَ ميرثن الرجالَ الواقفين، الواحد تلو الآخر، متسائلاً في نفسهِ عن الشخصِ الذي سيحظى بهذا العملِ. وقررَ الاقترابَ من بيل واتكين ثاني أكبر بنَّائي المدينةِ ومن بنى معظمَ المنازلِ في كينغزبريدج، كما أنَّه من غير المعجبين بإلفريك. كانَ رأسُهُ عبارةً عن بقعةٍ صلعاء يحيطُ بها شعرٌ أسود تماماً كرؤوسِ الرهبانِ.

وعلى غرارِ إلفريك كان لدى بيل نجارٌ ومعماري ومجموعةٌ من العمالِ ومتدربٌ أو اثنان.

لم يكن هاول غنياً ولذلكَ دُفنَ مكفناً ومن دونِ تابوتٍ.

عندما غادرَ الأب جوفروي توجهَ ميرثن إلى بيل واتكين وحيَّاه بشكلٍ رسمي قائلاً: «طابَ يومكَ أيُّها المعلمُ واتكين».

لم يكن ردُّ واتكين ودوداً: «ماذا هناك أيُّها الشاب؟»

«لقد انفصلتُ عن إلفريك».

«علمتُ بهذا وعلمتُ بالسببِ أيضاً» قالَ بيل.

«لقد سمعتَ القصَّةِ من جانبِ إلفريك فقط».

«سمعتُ ما فيهِ الكفاية».

أدركَ ميرثن أنَّ إلفريك كان يخبرُ الناسَ بما جرى قبلَ الجنازةِ وخلالَها، كما أنَّه كان متأكداً من أنَّ إلفريك لم يذكر حقيقةَ أنَّ غريزيلدا حاولت خداعهُ ليكونَ والداً بديلاً لطفلِ ثورستن، إلَّا أنَّه شعرَ بأنَّ ما من فائدة ترجى من اختلاقِ الأعذارِ وأنَّه من الأفضلِ الاعترافُ بخطئِهِ فقال: «أعرفُ أنني ارتكبت خطأً وأنا آسفٌ على ذلك، لكنني مازلت نجاراً جيداً».

هزَّ بيل رأسَهُ موافقاً: «والعبَّارةُ الجديدةُ تشهدُ بذلكَ».

تشجَّعَ ميرثن وسألَهُ: «هل ستوظفني؟»

«بأيِّ صفةٍ؟»

«بصفةِ أنني نجارٌ. قلتَ لتوكَ إنني نجارٌ جيدٌ».

«لكن أين هي معداتكُ؟»

«رفضَ إلفريك إعطائي إيَّاها».

«إنَّه محقٌّ في ذلكَ فأنتَ لم تُنهِ فترةَ تدريبكَ بعد».

«إذاً، وظفني عندكَ كمتدربٍ لستةِ أشهرٍ».

«وأعطيكَ في النهايةِ مجموعةً جديدةً من المعداتِ من دونِ مقابلٍ؟ لا أتحمَّلُ هذا النوعَ من الكرمِ». كانت المعداتُ باهظةَ الثمنِ بسببِ الكلفةِ المرتفعةِ للحديدِ والفولاذِ.

«سأعملُ كعاملٍ وأدَّخرُ المالَ لشراءِ معدَّاتٍ جديدةٍ». سيستغرقُ هذا الأمرُ وقتاً طويلاً لكنَّ ميرثن كان يائساً.

«لا».

«لماذا؟»

«لأنّه لدي ابنةٌ أيضاً».

كان كلاماً شائناً ولذلكَ قالَ ميرثن: «أنا لستُ خطراً على الفتياتِ وأنتَ تعلمُ هذا».

«أنتَ مثالٌ لبقيةِ المتدربين. إن نجوتَ بفعلتكَ فمن سيمنعُ البقيَّةَ من المحاولةِ؟»

«هذا ظلمٌ».

هزَّ بيل كتفيهِ قائلاً: «قد تظنُّ أنَّهُ ظلمٌ ولكن اذهب واسأل أيَّ معلمٍ آخر وستعرف أنّه يشعرُ بالمثلِ».

«لكن ماذا علي أن أفعلَ؟»

«وما أدراني! كانَ عليكَ أن تفكرَ بذلكَ قبلَ مضاجعتِها».

«ألا يهمُّكَ أن تخسرَ نجاراً جيداً؟»

هزَّ كتفيهِ مجدداً وقال: «ولكني سأكسبُ أنا والبقيةُ مزيداً من العملِ».

استدارَ ميرثن مُفكراً بمرارة. تلكَ كانت مشكلةُ النقابةِ إذ كان من مصلحتِهم استبعادُ الأشخاصِ بغضِّ النظرِ عن الأسبابِ، وإن قلَّ عددُ النجارين من شأنِها أن تزيدَ من أجرِهم ولذلكَ لم يكن من مصلحتهم أن يتصرفوا بإنصافٍ.

غادرَت أرملةُ هاول برفقةِ والديها فتحررَت كاريس من واجبِ المواساةِ وتوجهَت إلى ميرثن.

قالت كاريس: «ما الأمرُ؟ لمَ تبدو حزيناً؟ فأنتَ بالكادِ تعرفُ هاول».

«قد أُضطرُّ إلى مغادرةِ كينغزبريدج»، ردَّ ميرثن.

شحبَ وجهُها لدى سماعِها هذا وقالت: «لماذا قد تُضطرُّ إلى ذلكَ بحقِّ السماءِ؟»

وأخبرَها بما قالَهُ بيل واتكين ثمَّ تابعَ قائلاً: «لذا كما ترين، لن يوظفني أحدٌ في كينغزبريدج ولا يمكنني أن أعملَ وحدي لأنني لا أملكُ المعدَّاتِ. قد أعيشُ مع والديّ ولكنني لا أريدُ أن أقاسمَهما لقمتهما، لذا يجب أن أبحثَ عن عملٍ في مكانٍ لم يسمع فيه أحدٌ بقصَّةِ غريزيلدا. وحتَّى ذلكَ الوقتِ قد أتمكنُ من توفيرِ ما يكفي من المالِ لشراءِ مطرقةٍ وإزميلٍ ثمَّ الانتقالُ إلى بلدةٍ أخرى أحاولُ فيها نيلَ القبولِ في نقابةِ النجارين».

شعرَ ميرثن وهو يشرحُ لكاريس بشدةِ مأساويةِ الوضعِ. حدَّقَ إلى ملامِحها

المألوفةِ كما لو أنَّه يراها للمرةِ الأولى وقد فتنهُ مجدداً بريقُ عينيها الخضراوين وأنفُها الصغير الناعم والشكلُ الدقيق لفكها. وجد أنَّ فمَها لا يتناسبُ مع بقيَّةِ وجهها فقد كانَ عريضاً جداً، كما كانت شفتاها مكتنزتين ما أخلَّ بانسجامِ ملامحِ وجهِها بالطريقةِ ذاتها التي تخلُّ فيها طبيعتُها الحسيَّةُ مع عقلِها الصافي. أمَّا شفتاها فقد خُلقتا للقُبلِ، وفكرةُ رحيلهِ واحتمالُ عدمِ تقبيلها مجدداً أغرقاهُ في اليأسِ.

كانت كاريس غاضبةً جداً حين قالت: «هذا ظلمٌ كبيرٌ ولا حقَّ لهم في ذلكَ».

«هذا ما أعتقدُهُ أيضاً، لكن يبدو أنَّه ليسَ هناك ما يسعني فعلُهُ حيالَ ذلك. عليَّ أن أُسلِّمَ بما حدثَ فحسب».

«انتظر لحظةً ولنفكر بالأمرِ. يمكنكَ العيشُ في منزلِ والديكَ وتناولُ العشاءِ في منزلي».

«لا أريدُ أن أصبحَ عالةً كوالدي».

«لا ينبغي عليكَ ذلكَ أصلاً. يمكنكَ شراءُ معداتِ هاول فقد كانت زوجته تخبرني بأنَّها ستبيعُها بجنيهٍ واحدٍ».

«لا أملكُ أيَّ نقودٍ».

«اطلب من والدي أن يقرضَكَ، إنَّهُ يحبكُ وأنا متأكدةٌ من أنَّهُ سيقبلُ».

«لكن توظيفُ نجارٍ من خارجِ النقابةِ مخالفٌ للقانونِ».

«القوانين تُخرقُ على الدوامِ، كما أنَّه لا بدَّ من وجودِ أحدٍ في البلدةِ يائس بما يكفي لتحدي النقابةِ».

أدركَ ميرثن أنَّه سمحَ لذلكَ العجوزِ واتكين بسحقِ روحِهِ، وكان ممتناً لكاريس لرفضِها الهزيمةَ.

بالطبعِ كانت على حقٍ وكان عليهِ أن يبقى في كينغزبريدج ويقفَ في وجهِ هذهِ القوانين الجائرةِ، كما أنَّه كان يعرفُ شخصاً في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى قدراتِهِ.

«الأبُ جوفروي» قالَ ميرثن.

«لمَ هو بحاجةٍ إليكَ؟»

شرحَ لها ميرثن وضعَ السقفِ.

«فلنذهب لرؤيتِهِ الآن» قالت كاريس.

يعيشُ الكاهنُ في منزلٍ صغيرٍ بجوارِ الكنيسةِ. عثرَ عليهِ ميرثن وكاريس يحضِّرُ يخنةً من السمكِ المملحِ وأوراقٍ خضراء. كان جوفروي في الثلاثينات

من عمرِهِ، طويلَ القامةِ عريضَ المنكبين وله بنيةُ جندي. كان أسلوبُهُ فظّاً لكنَّه اشتهرَ بحنوهِ على الفقراءِ.

قالَ ميرثن للكاهنِ: «يمكنني إصلاحُ السقفِ من دونِ الحاجةِ إلى إغلاقِ الكنيسةِ».

بدا جوفروي مُتحفظاً: «ستكون صلواتي قد استجيبت إن تمكنتَ من فعلِ هذا».

«سأبني رافعةً لإنزالِ أخشابِ السقفِ ووضعِها في المقبرةِ».

«ألم يطردكَ إلفريك؟» قالَ ذلك ورمقَ كاريس بنظرةٍ مُحرجةٍ.

ردَّت كاريس: «أنا أعلمُ بما جرى أيُّها الأبُ».

قالَ ميرثن: «لقد طردني لأنني لم أتزوج من ابنته التي تحملُ طفل رجلٍ آخر».

أومأ جوفروي برأسِهِ قائلاً: «يقولُ البعض إنّك ظُلمتَ ويمكنني تصديقُ ذلكَ فأنا لا أكنُّ الودَّ للنقابةِ فمعظمُ قرارتها شخصيَّةٌ، على أيِّ حالٍ أنتَ لم تنهِ فترةَ تدريبك».

«هل يمكنُ لأيِّ أحدٍ من النقابةِ إصلاحُ السقفِ من دونِ إغلاقِ الكنيسةِ؟»

«سمعتُ أنَّكَ خسرتَ معدَّاتكَ أيضاً».

«دع حلَّ هذهِ المشكلةِ لي».

وسألَهُ جوفروي بعدَ تفكيرٍ: «كم تريدُ مقابلَ ذلكَ؟»

حرَّكَ ميرثن عنقه ثم قالَ: «أربعةَ بنساتٍ في اليومِ إضافةً إلى ثمنِ الموادِ».

«هذا أجرُ نجارٍ عتيدٍ».

«إن لم أمتلك مهارةَ النَّجارِ العتيد فلا تمنحني هذا العمل».

«أنتَ مغرورٌ».

«أنا أقول ما يمكنني فعلُهُ فحسب».

«قد لا يكونُ الغرورُ أسوأَ الخطايا في هذا العالمِ، كما يمكنني دفعُ أربعةِ بنساتٍ في اليومِ إن تمكنتَ من إبقاءِ كنيستي مفتوحةً. كم سيستغرقُ الأمرُ لبناءِ الرافعةِ؟»

«أسبوعين كحدٍ أقصى».

«لن أدفعَ لكَ حتى أتأكدَ من أنَّها ستعملُ».

تنهّدَ ميرثن في أسى فهذا يعني أنَّه سيكونُ مُفلساً، ولكنه قرر أنَّه سيتدبرُ أمرَهُ فهو يستطيع العيش في منزلِ والديه وتناول الطعامِ في منزل إدموند وولر. حتماً سينجح في تجاوزِ ذلكَ.

«فلتدفع لي كلفةَ الموادِ ولتحتفظ بأجري إلى أن يُزال أولُ لوحٍ خشبي من السقفِ ويوضع على الأرضِ»، قال ميرثن.

«سيكرهونني لفعلِ هذا... ولكن لا خيار آخر أمامي».

ثمَّ مدَّ يدَهُ وصافحَ ميرثن.

-17-

تبعدُ كينغزبريدج عن ويغلي عشرين ميلاً وهذا يعني مسيرَ يوم كامل. كانت غويندا تأمل أن تتسنى لها الفرصةُ لاستخدامِ جرعةِ الحبِّ على الطريقِ إلّا أن أملها خابَ.

لم تنجح في ذلكَ لأنَّ ولفريك كان حذراً أو بالأحرى كان لطيفاً ومُنفتحاً وتحدَّثَ عن عائلتِهِ، وأخبرَها كيف أنَّه يبكي عندما يستيقظُ كلَّ صباحٍ ويدركُ أنَّ موتَهم لم يكن حلماً، كما أنَّه أبدى اهتماماً بسؤالِها عمَّا إذا كانت متعبةً وبحاجةٍ إلى أخذِ قسطٍ من الراحةِ. أخبرَها كيف أنَّهُ يعتبرُ الأرضَ ضمانةً يحتفظُ بها الرجل طيلةَ حياتِهِ إلى أن تُصبحَ لورثتِهِ، وأنَّهُ عندما يحسّنُ أرضَهُ بإزالةِ الأعشابِ الضَّارةِ وتسييجِ حظائرِ الأغنامِ أو إزالةِ الأحجارِ من المراعي فإنَّهُ يحققُّ قدرَهُ.

حتَّى إنَّه ربَّتَ على الكلبَ سكيب.

ومع نهايةِ اليومِ أحسَّت أنَّها تحبهُ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى إلّا أنَّه، ولسوءِ الحظِّ، لم يُظهر لها ما هو أكثر من الصداقةِ الحميمةِ. كان اهتماماً وليس شغفاً. عندما كانت في الغابةِ مع سيم تشابمان كانت تتمنى من كلِّ قلبِها ألّا يكون الرجالُ وحوشاً بريَّةً إلّا أنَّها أرادَت ولفريك الآن أن يتوحشَ ولو قليلاً، وحاولَت طيلةَ اليومِ لفتَ نظرِهِ إلى أشياء بسيطةٍ كما لو أنَّها تشير إليها بطريقةٍ عرضيةٍ كأن تكشفَ عن ساقيها الجميلتين المتناسقتين، أو تتذرع بكثرة التلالِ على الطريقِ لتأخذَ نفساً عميقاً وتبرزَ صدرَها. كانت تلمسُهُ كلما أتاحت لها الفرصةُ أو تلمس ذراعَهُ أو تضع يدَها على كتفِه ولكن لم يؤثر فيه أيٌّ من هذا. تعلمُ غويندا أنَّها ليست جميلةً إلّا أنَّها تملكُ شيئاً يجعلُ الرجالَ يحدقونَ بها ويلهثونَ لدى رؤيتها، ولكن لم يكن ولفريك من بينهم.

توقفا عندَ الظهيرةِ ليستريحا ويتناولا الخبزَ والجبنَ اللذين بحوزتهما. شربا الماءَ من غديرٍ صافٍ بيديهما ولذلكَ لم تتمكن من إعطائِهِ جرعةَ الحبِّ.

رغمَ هذا كلِّه كانت سعيدةً إذ إنَّه كان مُلكَها، وحدها، ليومٍ كاملٍ، تنظرُ إليه وتتحدثُ معهُ وتضحكهُ وتتعاطفُ معه وتلمسُهُ بينَ الفينةِ والأخرى. تظاهرَت بينها وبينَ نفسِها بأنَّها تستطيعُ تقبيلهُ متى شاءت إلَّا أنَّها لا ترغبُ بهذا الآن. كان الأمرُ بالنسبةِ لها كأنَّهما متزوجان. ولكن سرعان ما وصلَ الأمرُ إلى نهايتِهِ.

وصلا إلى ويغلي في وقتٍ مُبكرٍ من المساءِ.

تقعُ ويغلي على مرتفعٍ وسطَ حقولٍ منخفضةٍ من جميعِ الجهاتِ وهذا جعلَ القريةَ في مهبِّ الريحِ دوماً. بدا المكانُ المألوفُ صغيراً وهادئاً بعدَ أسبوعين من صخبِ كينغزبريدج. هناك بعضُ البيوتِ المتناثرةِ على طولِ الطريقِ المؤدي إلى قصر اللورد والكنيسةِ. كان القصر كبيراً كمنزلِ تاجرٍ من كينغزبريدج بغرفِ نومٍ في الطابقِ العلوي، ومنزلُ الكاهنِ أيضاً كانَ جميلاً. قلَّةٌ من الفلاحين يمتلكون منازل كبيرةً، لكنّ معظمَ البيوتِ كانت عبارةً عن أكواخٍ بغُرفتين؛ إحداها مخصصةٌ للماشيةِ بينما الأخرى تستخدمُ كمطبخٍ وغرفةِ نومٍ للعائلةِ بأكملها. كانت الكنيسةُ البناءَ الحجري الوحيد في القريةِ.

أحدُ هذهِ المنازلِ الكبيرةِ منزلُ عائلةِ ولفريك إلَّا أنَّه بدا بأبوابِهِ ونوافذِهِ المُغلقةِ كما لو أنَّه كان مهجوراً. تجاوزَ ولفريك منزلَ والديهِ وتوجهَ إلى المنزلِ المجاورِ حيث تقطنُ آنيت وعائلتُها. لوحَ لغويندا بطريقةٍ عاديةٍ ودخلَ المنزلَ مُبتسماً.

أحسَّت غويندا بثقلِ الخسارةِ المؤلمةِ كما لو أنَّها استيقظَت من حلمٍ جميلٍ. تجرَّعَت سخطَها وانطلقَت عبرَ الحقولِ. كانت أمطارُ حزيران/ يونيو التي هطلَت باكراً مفيدةً لمحاصيلِ القمحِ والشعيرِ الخضراء، إلَّا أنَّها تحتاجُ إلى الشمسِ الآن لتنضجَ. لوَّحت لها بعضُ نساءِ القريةِ ممن كنَّ يتنقّلنَ بين صفوفِ الزرعِ وينحنينَ لاقتلاعِ الأعشابِ الضَّارةِ. أحسَّت وهي تقتربُ من منزلِها بمزيجٍ من الخوفِ والقلقِ، فلم تكن قد رأت والديها منذُ باعها والدُها إلى سيم تشابمان مقابلَ بقرةٍ. لا بدَّ أنَّ والدها يعتقدُ أنَّها ما زالت مع سيم تشابمان، وسيكونُ ظهورها بمنزلة صدمةٍ. ماذا سيقولُ عندما يراها؟ وماذا ستقولُ لوالدها الذي خانَ ثقتَها؟

كانت واثقةً من أنَّ والدتها لا تعرفُ شيئاً عن قصَّةِ بيعِها فلا بدَّ أنَّ والدَها قد أخبرَها قصَّةً عن هروبِ غويندا مع أحدِ الشبانِ. وهذا يعني أنَّ غضبَ والدتها سيكونُ عارماً.

كانت سعيدةً لأنَّها سترى أخوتَها الصغار: كاث وجوني وإيريك، وأدركَت كم كانت تفتقدهُم.

عندَ حافةِ الغابةِ وعلى الجانبِ الآخرِ من الحقلِ الذي تبلغُ مساحتُهُ مئة فدانٍ يقعُ منزلها الذي يتوارى نصفُهُ خلفَ الأشجارِ. كان منزلاً أصغر من أكواخِ الفلاحين ولا يتكون إلَّا من غرفةٍ واحدةٍ يتقاسمونَها جميعاً مع البقرةِ في الليلِ. كان المنزلُ مبنياً من الخشبِ والطينِ حيثُ توضعُ الأغصانُ بشكلٍ مستقيمٍ على الأرضِ تتخللها فروعٌ متشابكةٌ على شكلِ سلَّةٍ، وبعدها تُملأ الفجواتُ بمزيجٍ لزجٍ من الطينِ والقشِّ وروثِ البقرِ. وهناكَ فتحةٌ في منتصفِ السقفِ المصنوعِ من القشِّ ليخرجَ الدخانُ من الطابقِ الأرضي. لا يصمدُ هذا النوعُ من المنازلِ سوى لبضعِ سنواتٍ إذ يتعينُ إعادةُ بنائِه مجدداً. بدا المنزلُ في عيني غويندا الآن أكثرَ حقارةً من أيِّ وقتٍ مضى، وكانت مصممةً على عدم قضاءِ حياتِها في هذا المكانِ وإنجابِ الأطفالِ كلَّ عامٍ أو عامينِ ليموتَ معظمُهم بسببِ نقصِ الطعامِ. وقررت أنَّها لن تعيشَ مثلَ والدتها، وأنَّها تفضلُ الموتَ على ذلكَ.

وبينما كانت على بُعدِ مئةِ ياردةٍ من المنزلِ، رأت والدَها قادماً باتجاهِها يحملُ إبريقاً ليشتري الجعةَ من بيغ بيركن صانعةِ الجعةِ في القريةِ ووالدة آنيت. لطالما امتلكَ والدُها المالَ في مثلِ هذا الوقتِ من العامِ حيثُ تكثرُ الأعمالُ التي يتعينُ إنجازُها في الحقولِ.

لم يرَها في البدايةِ.

أمعنَت غويندا النظرَ إلى جسدِهِ النحيلِ وهو يسيرُ على طولِ الممرِ الضيقِ بينَ حقلين. كان يلبسُ رداءً طويلاً حتَّى ركبتيهِ وقبعةً رثَّةً وحذاءً برباطٍ من القشِّ، ويمشي بخلسةٍ وخفَّةٍ كما لو أنَّهُ دخيلٌ متوترٌ يتظاهرُ بكلِّ تحدٍ بأنَّه في منزلِهِ. كانت عيناه قريبتين من أنفِهِ الكبيرِ ولهُ فكٌّ عريضٌ وذقنٌ بارز. ألقى نظرةً خاطفةً على المرأةِ التي مرَّ بها في الحقلِ كما لو أنَّهُ لا يريدُ أن تعرفَ أنَّه رآها. عندما اقتربَ منها اختلسَ النظرَ إليها من تحتِ عينيهِ ثمَّ أشاحَ بنظرِهِ للأسفلِ ليعودَ وينظرَ إليها مجدداً. استدارَت نحوه وحدَّقَت إليهِ بغطرسةٍ.

علَت الدهشةُ وجههُ ثمَّ قالَ لها: «هذه أنتِ! ما الذي جرى؟»

«لم يكن سيم تشابمان سبَّاكاً بل خارجاً عن القانونِ».

«وأين هو الآن؟»

إنَّه في الجحيمِ يا أبي حيثُ ستلتقي بهِ».

«هل قتلتهِ؟»

كانت قد قررَت أن تكذبَ في هذا الشأنِ منذُ البدايةِ ولذلكَ قالت: «كلا، بل قتلَهُ الرَّبُّ وعاقبَهُ على خطيئتِهِ حين انهارَ جسرُ كينغزبريدج وسيم يعبرهُ. ألم يعاقبكَ الرَّبُّ أنت بعد؟»

«الرَّبُّ يغفرُ للمسيحيين الطيبين».

«هل هذا كل ما لديكَ لتقولهُ لي؟ الرَّبُّ يغفرُ للمسيحين الطيبين؟»

«كيف هربتِ؟»

«بذكائي».

قالَ بعدَ أن رمقَها بنظرةٍ ماكرةٍ: «أنتِ فتاةٌ طيبةٌ».

نظرَت إليهِ في ريبةٍ وقالت: «ما الذي تخططُ له الآن؟»

أعادَ كلامَهُ قائلاً: «أنتِ فتاةٌ طيبةٌ، اذهبي إلى والدتِك الآن. ستتناولين كوباً من الجعةِ على العشاءِ». ثمَّ تابعَ سيرَهُ.

عبسَت غويندا إذ رأت أنَّ والدَها لم يكن خائفاً مما ستقولُهُ والدتها عندما تعرفُ الحقيقةَ. ربما اعتقدَ أنَّ غويندا لن تخبرَها بدافعِ الخجلِ إلَّا أنَّه مخطئٌ في هذا الشأنِ.

كانت كات وجوني تلعبان بالطينِ خارجَ المنزلِ، وعندما رأتا غويندا قفزتا وركضتا نحوها كما نبحَ كلبُها سكيب بشكلٍ هستيري. عانقَت غويندا شقيقتيها وتذكرت كيف اعتقدَت أنَّها لن تراهما مجدداً، وشعرَت في تلكَ اللحظةِ بالسعادةِ لأنَّها غرزَت الخنجرَ في رأسِ آلوين.

دخلَت غويندا المنزلَ فوجدَت والدتَها جالسةً إلى الطاولةِ تُعطي الحليبَ لإيريك الصغير وتساعدُهُ في حملِ الكأسِ كي لا يريقَ شيئاً منهُ. صرخَت من الفرحِ عندما رأت غويندا ووضعَت الكأسَ من يدها لتقفَ وتعانقَها، فبدأت غويندا بالبكاءِ.

وجدت صعوبةً في التوقفِ عن البكاءِ حينها. بكَت لأنَّ سيم تشابمان أخرجَها من المدينةِ مربوطةً بحبلٍ، وبكَت لأنَّها سمحَت لآلوين بأن يضاجعَها.

بكت على جميعِ من ماتوا في حادثةِ الجسرِ، وبكَت لأنَّ ولفريك لا يحبها بل يحبُّ آنيت.

كانت عاجزةً عن الكلامِ وهي تنشجُ، وحينَ توقفَت عن البكاءِ قالت: «لقد باعني والدي مقابلَ بقرةٍ يا أماه وأُجبرتُ على الذهابِ مع الخارجين عن القانونِ».

«هذا عملٌ خاطئٌ»، قالت والدتُها.

«بل هو أسوأ من ذلكَ، إنَّه عملٌ شريرٌ وخبيثٌ. إنَّ والدي شيطانٌ».

تحللَت والدتُها من عناقِها قليلاً وقالت: «لا تقولي أشياء كهذهِ».

«بل إنَّه كذلكَ».

«إنَّه والدكُ».

«لا يبيعُ الأبُ أبناءَهُ كما لو أنَّه يبيعُ الماشية. أنا لم يعد لي أبٌ».

«لقد أطعمَكِ لثمانية عشرَ عاماً».

نظرَت غويندا إليها غيرَ مُصدقةٍ وقالت: «كيف يمكنكِ أن تكوني بهذهِ القسوةِ؟ لقد باعني للخارجين عن القانونِ!»

«وجلبَ لنا بقرةً لنطعمَ إيريك من حليبِها فقد جفَّ ثدياي، ثمَّ ها أنتِ هنا، أليسَ كذلك؟»

قالت غويندا مصدومةً: «أنتِ تدافعين عنهُ!»

«إنَّه كلُّ ما أملكُ يا غويندا، صحيحٌ أنَّه ليسَ بأميرٍ ولا فلاحٍ حتَّى، بل مجرَّدُ عاملٍ لا يملكُ أرضاً، إلَّا أنَّه فعلَ كلَّ ما بوسعِهِ من أجلِ عائلتِهِ لما يقارب العشرين عاماً. عملَ عندما استطاعَ وسرقَ عندما اضطرَّ. لقد أبقاكما، أنتِ وأخاك، على قيدِ الحياةِ، وبشيءٍ من الحظِ الجيدِ سيفعلُ الأمرَ ذاتَهُ مع كاث وجوني وإيريك. وبغضِّ النظرِ عن أخطائِهِ، سيكون حالنا أسوأ من دونِهِ لذا لا تنعتيهِ بالشيطان».

أخرسَت الصدمةُ غويندا، فهي لم تتقبل فكرةَ خيانةِ والدِها لها والآن عليها أن تواجهَ حقيقةَ أنَّ والدتَها تعادلهُ سوءاً. شعرَت غويندا بالارتباكِ، وأحسَّت بالشعورِ ذاته الذي أحسَّت به عندما مادَ الجسرُ تحتَ قدميها: كانت عاجزةً عن فهمِ ما يحدثُ معها.

دخلَ والدُها إلى المنزلِ حاملاً إبريقَ الجعةِ من دونِ أن يلاحظَ الجو العام، ثمَّ تناولَ ثلاثةَ أكوابٍ خشبيةٍ من فوقِ الموقدِ وقال مبتهجاً: «والآن، فلنشرب نخبَ عودةِ ابنتنا الكبرى».

كانت غويندا جائعةً وعطشى بعدَ مسيرِ يومٍ كاملٍ فأخذَت الكأسَ وشربَت بنهم، إلّا أنّها كانت تعرفُ والدها حين يكونُ في هذا المزاجِ فسألتهُ: «ما هي خطّطكُ الآن؟»

«حسناً، سيقامُ سوقُ شايرنغ الأسبوعَ المقبلَ، أليسَ كذلك؟»

«إذاً؟»

«إذاً، يمكننا أن نعيدَ الكرّةَ».

لم تكن غويندا قادرةً على تصديقِ ما سمعتهُ فقالت «نعيدُ ماذا؟»

«أبيعكُ فتذهبين مع المشتري ثمَّ تهربين وتعودين إلى المنزلِ. إنَّ الأمرَ ليسَ بهذا السوءِ».

«ليسَ بهذا السوءِ؟»

«ثمَّ إنَّ لدينا بقرة تساوي اثني عشر شلناً، لماذا عليَّ إذاً أن أعملَ ستة أشهرٍ لأجني اثني عشر شلناً؟»

«وبعدَ ذلكَ؟»

«توجدُ أسواقٌ أخرى كسوقِ وينشستر وغلوستر، لا أدري فهناكَ الكثيرُ من الأسواقِ الأخرى». وملأ كوبَها بالجعةِ مجددا ثمَّ قالَ: «أمّا لماذا، فقد يكون هذا أفضلَ من العامِ الذي سرقتِ فيهِ محفظةَ السير جيرالد».

لم تشرب الجعةَ فقد أحسّت بطعمٍ مُرٍّ في فمِها كما لو أنّها تناولت شيئاً فاسداً. فكّرت في مناقشتِهِ وأرادَت قولَ كلماتٍ قاسيةٍ وتوجيهَ اتهاماتٍ غاضبةٍ وأن تصبَّ عليهِ اللعناتِ، إلّا أنّها صمتَت، فما كانت تشعرُ بهِ يتجاوزُ الشعورَ بالغضبِ، فما الفائدةُ من الخوضِ في نزاعٍ؟ لن تستطيعَ الوثوقَ بوالدِها مرةً أخرى، ولا بوالدتِها التي رفضَت التخلي عنهُ.

«ماذا عليَّ أن أفعلَ؟» قالت بصوتٍ عالٍ إلّا أنها لم تُرد إجابةً من أحدٍ في الغرفةِ بل وجهت السؤالَ لنفسِها: لقد أصبحَت في هذهِ العائلةِ مجرّدَ سلعةٍ تُباعُ في أسواقِ المدنِ.

إن لم تكن مستعدةً للقبولِ بهذا فماذا يمكنها أن تفعلَ؟

يمكنُها أن تغادرَ.

لم يعد هذا المنزلُ مأوىً لها، وقد زعزعَت هذهِ الصدمةُ أساسَ وجودِها. عاشَت في هذا المكانِ منذُ زمنٍ طويلٍ لكنّها لم تعد تشعرُ بالأمانِ فيهِ ولهذا عليها الخروجُ منهُ.

لن ترحلَ الأسبوعَ القادمَ ولا حتّى صباحَ الغدِ، بل سترحلُ الآنَ.

لم يكن لديها مكانٌ تذهبُ إليه، ولكنْ هذا لن يُحدثَ فرقاً فإن بقيت هنا وتناولَت الخبزَ الذي جلبَهُ والدُها ستكونُ خاضعةً لسلطتِهِ وستقبلُ اعتبارها سلعةً. شعرت بالندمِ على شربِها كأسَ الجعةِ الأولى، وكانت فرصتُها الوحيدة هي الرفضَ الفوري لعرضه والخروجَ من بيتِهِ.

نظرَت غويندا إلى والدِتها وقالت: «أنتِ مخطئةٌ. إنَّه شيطانٌ والمثلُ القديمُ يقولُ: عندما تعقدُ صفقةً مع الشيطانِ سينتهي بكَ الأمرُ بدفعِ أكثر مما كنتَ تعتقدُ».

وقفَت غويندا وكوبُ الجعةِ الممتلئ مازال في يدِها فسكبتهُ على الأرضِ وسارعَ سكيب إلى لعقِهِ.

صاحَ والدُها غاضباً: «لقد دفعتُ ربعَ بنسٍ مقابلَ إبريقِ الجعةِ هذا».

«وداعاً»، قالت غويندا وخرجَت من المنزلِ.

-18-

في يوم الأحدِ التالي ذهبَت غويندا إلى جلسةِ المحكمةِ التي ستقررُ مصيرَ الرجلِ الذي تحبُّ. عادةً ما تُعقدُ المحاكمُ الإقطاعيةُ في الكنيسةِ بعدَ الصلاةِ، وكانت المحكمةُ بمنزلة اجتماعٍ يتخذُ فيهِ سكانُ القريةِ إجراءاتٍ جماعيَّةً لمعالجةِ بعضِ القضايا الخلافيةِ كالنزاعاتِ على حدودِ الحقولِ وتُهمِ السرقةِ أو الاغتصابِ والخلافاتِ حول الديونِ، لكن غالباً ما كانت المحكمةُ تصدرُ قراراتٍ عمليَّةً كموعدِ بدءِ الحراثةِ بالثيرانِ الثمانيةِ.

نظرياً، كان الإقطاعيون من يصدرونَ الأحكامَ على أتباعِهم إلى أن بدأ العملُ بقانونِ نورمان الذي جلبَهُ الغزاةُ من فرنسا إلى إنكلترا قبلَ ثلاثةِ قرونٍ خلت، وألزمَ اللوردات على اتباعِ نهجِ أسلافِهم. يفرضُ هذا النهجُ على اللوردات أن يستشيروا رسمياً اثني عشر رجلاً من عُليةِ عائلاتِ القريةِ، ويُعرفُ هؤلاء باسمِ هيئةِ المحلَّفين. لهذا السببِ غالباً ما كانت هذهِ الإجراءات عبارةً عن عمليةِ مفاوضاتٍ بينَ اللورد والقرويين.

في هذا الأحدِ بالذاتِ لم يكن هناك لورد في ويغلي، فقد أخبرَت غويندا أهالي القرية أنَّ السير ستيفن قد قُتلَ في انهيارِ الجسرِ، وأنَّ الإيرل رولاند المُكلَّف بتعيينِ بديلٍ لستيفن أصيبَ إصابةً بالغةً. استفاقَ الإيرلُ في اليومِ

السابقِ لمغادرتِها كينغزبريدج لكنَّه كان مُصاباً بحمى شديدةٍ عجزَ معها عن نطقِ جملةٍ مفهومةٍ، ولهذا السببِ لم يكن اختيار لورد جديد في ويغلي ممكناً في الوقتِ الحالي.

لم يكن هذا الظرفُ استثنائياً؛ فغالباً ما يذهبُ اللوردات إلى الحربِ أو البرلمان، أو يخوضونَ في الدعاوى القضائية، أو يذهبون إلى مجلسِ الإيرلِ أو الملكِ. اعتادَ الإيرلُ رولاند على تعيين نائبٍ له من بينِ أحدِ أبنائِهِ إلَّا أنَّه لم يكن قادراً على فعلِ هذا في حالتِهِ الراهنةِ. لذلكَ وفي غيابِ اللوردِ يتعينُ على المأمورِ إدارةُ شؤونِ الأرضِ على أفضلِ نحو.

تقتضي وظيفةُ المأمورِ تنفيذَ قراراتِ اللوردِ، وهذا حتماً يمنحهُ نوعاً من السلطةِ على أهلِ قريتِهِ. ولكن مقدارَ هذهِ السُلطةِ يعتمدُ على التفضيلِ الشخصي للوردِ، حيثُ يفرضُ بعضهم سيطرتَهُ بإحكامٍ بينما يتراخى آخرون كالسير ستيفن، أمَّا الإيرل رولاند فقد كان معروفاً بصرامتِهِ.

عملَ نيثان ريف مأموراً لدى السير ستيفن والسير هنري من قبلِهِ، ويفترضُ أنَّهُ سيكون مأموراً لمن يأتي بعدَهُ. كان رجلاً ضئيلَ الحجمِ أحدب، نحيلاً ونشيطاً، كما كان داهيةً وجشعاً يحرصُ على استغلالِ سلطتِهِ المحدودةِ أبعد استغلالٍ من خلالِ طلبِ الرشى من القرويين كلما أُتيحت له الفرصةُ.

لم يكن جشعُ نيثان ما جعلَ غويندا تكرهُه فهذا حالُ جميعِ المأمورين، إنَّما كانت تكرهُهُ لأنَّ الحقدَ شوهَ دخيلتهُ وهذا جعلهُ مشوهاً من الداخلِ والخارجِ. عملَ والدُه مأموراً لدى إيرل شايرنغ إلَّا أنَّ نيت لم يرث عن والدِهِ هذا المنصب إنَّما انتهى بِهِ الأمرُ في قرية ويغلي الصغيرة مُلقياً باللوم على حدبتِهِ، وهذا جعلَهُ يكرهُ جميعَ الشبابِ الأصحَّاءِ والوسيمين. يستمتعُ نيثان في أوقاتِ فراغِهِ بشربِ النبيذِ مع بيركن والد آنيت الذي كان يدفعُ ثمن الكحولِ دائماً.

أمَّا القضيةُ المطروحةُ للنقاشِ في المحكمةِ اليومَ فهي البحثُ في ما يجبُ فعلهُ بملكيةِ عائلةِ ولفريك.

كانت ملكيةُ عائلةِ ولفريك كبيرةً. لم يكن جميعُ الفلاحين يُعاملون بسواسيةٍ، كما أنَّهم لم يمتلكوا حصصاً متساويةً من الأراضي كما يفرضُ العرفُ السائدُ في هذا الجزءِ من إنكلترا. كانت وحدةُ القياسِ المعتمدةُ هي الـ«فيرغيت» وهي تعادلُ ثلاثين فداناً.

نظريّاً، تُعدُّ مساحةُ ثلاثين فداناً كافيةً لأي فلاحٍ كي يزرعَها وينتج منها ما

يكفيه لإطعامِ عائلتِه، إلَّا أنَّ ملكيةَ معظمِ فلاحي ويغلي لا تتجاوزُ الخمسةَ عشر فداناً أو ما يقاربُها، ولذلكَ كانوا مضطرين إلى الاستعانةِ بوسائلَ أخرى لإعالةِ أسرهم كصيدِ الطيورِ بالشباكِ في الغاباتِ أو صيدِ السمكِ من النهرِ الذي يمرُّ في بروكفيلد، أو صناعةِ الأحزمةِ والأحذيةِ من الجلودِ الرخيصةِ إضافةً إلى صناعةِ الأقمشةِ لمصلحة تجارِ كينغزبريدج، أو الصيدِ غير القانوني لغزلانِ الملكِ في الغابةِ. قلَّة من الفلاحين امتلكت أكثرَ من ثلاثينَ فداناً، ومن بين هؤلاءِ القلَّة كان بيركن الذي يملكُ مئةَ فدانٍ، وساموِيل، والد ولفريك، الذي امتلكَ تسعين فداناً، وبسببِ هذا كانَ هؤلاء الفلاحون الأثرياء بحاجةٍ إلى المساعدةِ دوماً في زراعةِ أراضيهم إمَّا بطلبها من أبنائِهم وأقاربِهم، أو بالاستعانةِ بعمَّالٍ مُستأجرين كوالدِ غويندا.

عندما يموتُ أحدُ الأتباعِ ترثُ أرملتُهُ أرضَهُ أو أولادُهُ أو ابنتُهُ المتزوجة، وأيّاً كان الوارثُ يجبُ أولاً أن يصادقَ اللورد على التسليمِ بعدَ أن يفرضَ ضريبةً صارمةً تدعى ضريبةَ الإرثِ. في الظروفِ العاديةِ وبشكلٍ تلقائي كان ابنا ساموِيل سيرثان الأرضَ ومن دونِ الحاجةِ إلى جلسةِ استماعٍ في المحكمةِ، حيث يجتمعان ويدفعان ضريبةَ الإرثِ، ثمَّ يقسمان الأرضَ بينهما أو يزرعانها معاً ويسويان الأمرَ مع والدتِهما، إلَّا أنَّ أحدَ أبناءِ ساموِيل قد ماتَ معهُ وهذا زادَ من تعقيدِ الأمورِ.

حضرَ جميعُ البالغين في القريةِ إلى المحكمةِ، ومن بينهم غويندا التي كانت مهتمةً بالأمرِ على نحوٍ خاصٍ حيثُ سيتقررُ مستقبلُ ولفريك الذي رغمَ أنَّه قررَ قضاءَ بقيةِ حياتِهِ مع امرأةٍ أخرى، فإنَّ غويندا ما زالت تهتمُ لأمرِهِ. كانت تفكرُّ أحياناً بأن تتمنى له حياةً بائسةً مع آنيت، لكنَّها لم تستطع فعلَ هذا فقد أرادتهُ أن يكون سعيداً.

عندما انتهَت الصلاةُ أحضروا مقعدين وكرسياً خشبياً كبيراً من قصرِ اللورد. جلسَ نيت على الكرسي بينما أخذَ أعضاءُ هيئةِ المحلفين أمكنتهم على المقعدين ووقفَ البقيةُ.

تحدَّثَ ولفريك ببساطةٍ قائلاً: «امتلكَ والدي تسعين فداناً من أراضي لورد ويغلي: ورثَ خمسين فداناً من والدِهِ وأربعين من عمِهِ الذي توفي قبلَ عشرِ سنواتٍ، وبما أنَّ والدتي وأخي قد توفيا فأنا الوريثُ الوحيدُ لهذهِ الأراضي».

«كم عمرك؟» سأله نيثان.

«ستةَ عشرَ عاماً.»

«لا يمكنكَ حتّى أن تعتبرَ نفسكَ رجلاً».

بدا واضحاً أنَّ نيثان يريدُ تصعيبَ الأمورِ، وأدركت غويندا أنّه يريدُ رشوةً لكنَّ ولفريك لا يملكُ المالَ.

«لا تُقاسُ الأمورُ بعددِ السنواتِ، فأنا أطول وأقوى من معظمِ الرجال البالغين»، أجابهُ ولفريك.

وهنا قال آرون آبلتري وهو أحدُ أعضاءِ هيئة المحلفين: «ورثَ ديفيد جونز عن والدِهِ وهو بعُمرِ الثامنة عشرة».

«الأمران مُختلفان. فأنا لم أسمع قط عن أحدٍ سُمح له بأن يرثَ وهو في السادسة عشرة من عمرِهِ».

لم يكن ديفيد جونز عضواً في الهيئةِ وكان واقفاً إلى جانبِ غويندا عندما قالَ: «وأنا لم أمتلك تسعين فداناً أيضاً». علَت موجةٌ من الضحكِ إذ لم يمتلك ديفيد سوى خمسةَ عشرَ فداناً تماماً كبقيةِ الفلاحين.

تحدَّثَ عضو آخر قائلاً: «تسعون فداناً أرضٌ كبيرةٌ على رجلٍ واحدٍ فما بالك بصبي، ويا للعجبِ فقد زرعَها ثلاثةُ رجالٍ حتّى الآن. أنا أمتلكُ أربعين فداناً ومع ذلكَ أحتاجُ لاستئجارِ عمالٍ في موسمِ الحصادِ». كان المتحدث بيلي هاورد، رجلٌ في العشرينات من عمرهِ فشلَ في جذبِ انتباهِ آنيت لذلكَ أرادَ الوقوفَ في صفِّ نيثان بهدفِ وضعِ العقباتِ أمام ولفريك.

هزَّ معظمُ الرجالِ رؤوسَهم بالموافقةِ، وشعرت غويندا بالتشاؤمِ؛ فالأمورُ لا تسيرُ في مصلحة ولفريك.

«بإمكاني الحصولُ على المساعدةِ». قال ولفريك.

«وهل تملكُ المالَ لدفعِ أجورِ العمالِ؟» سأله نيثان.

وهنا انفطرَ قلبُ غويندا. أجابَ ولفريك الذي بدا يائساً قليلاً: «فُقدت محفظةُ والدي عندما انهارَ الجسرُ، وأنفقتُ كلَّ ما كان بحوزتي من مالٍ على الجنازةِ، لكن يمكنني أن أعرضَ على العمالِ أخذَ حصَّةٍ من الحصادِ».

هزَّ نيثان رأسَهُ وقال: «يعملُ جميعُ من في القريةِ في أراضيهم طيلةَ اليوم، وحتّى أولئك الذين لا يملكون أراضي يعملون أيضاً، لذا من غيرِ المرجح أن يتخلى أحدُهم عن عملٍ يتقاضى عليهِ أجراً نقداً مقابلَ عملٍ يعرضُ عليهِ حصَّةً من محصولٍ غير مضمونٍ».

قالَ ولفريك بشغفٍ وإصرارٍ: «سأنجزُ أعمالَ الحصادِ حتّى لو اضطررتُ للعملِ ليلاً ونهاراً، وسأثبتُ لكم أنني قادرٌ على ذلكَ».

أفصحَت ملامِحُهُ حينها عن لهفةٍ كبيرةٍ رغبَت معها غويندا بالقفزِ والتهليلِ دعماً له. لكن جميعَ الرجالِ كانوا يهزون رؤوسَهم لأنَّهم يعرفون أنهَّ لا يمكنُ لرجلٍ واحدٍ أن يحصدَ تسعين فداناً بمفردِهِ.

استدارَ نيثان نحو بيركن وتوجَّهَ إليهِ بالسؤالِ قائلاً: «إنَّه خطيبُ ابنتكَ ألا يسعكَ فعلُ شيءٍ لمساعدتِهِ؟» فكّر بيركن ثمَّ قالَ: «ربما عليكَ أن تنقلَ ملكيةَ الأرضِ إلي في الوقتِ الحالي إذ بإمكاني دفعُ ضريبة الميراثِ، وحين تتزوج آنيت أعيدُ ملكية الأرض إليك».

«لا»، قال ولفريك مباشرةً.

كانت غويندا تعلمُ سببَ رفضِ ولفريك لهذهِ الفكرةِ، فقد كان بيركن خبيثاً صرفاً وسيستغلُ كلَّ لحظةٍ من الآن وحتّى يوم الزفافِ في التفكيرِ بطريقةٍ يحتفظُ من خلالِها بأرضِ ولفريك لنفسِهِ.

قال نيثان لولفريك: «كيف ستدفعُ الضريبةَ إن كنتَ لا تملكُ المالَ؟»

«سأحصلُ على المالِ عندما أجني المحصول».

«وماذا لو جنيتَ المحصولَ ولم يكن كافياً. كان والدك يدفعُ ثلاثة جنيهاتٍ عن أرضِ والدِه واثنين عن أرضِ عمّهِ».

شهقَت غويندا من الدهشةِ فقد كان مبلغُ خمسةِ جنيهاتٍ يعتبرُ ثروةً، ويستحيلُ على ولفريك جني كلِّ هذا وقد يتطلبُ الأمرُ كلَّ مدخراتِ عائلتِهِ.

تابعَ نيثان الكلامَ قائلاً: «علاوةً على هذا يجبُ دفعُ الضريبةِ قبلَ استلامِ الوريثِ للأرضِ وليسَ بعدَ الحصادِ».

وهنا قالَ آرون آبلتري: «لربما عليكَ أن تتساهلَ بهذا الشأنِ وفي ظلِّ هذهِ الظروفِ يا نيثان».

«حقاً؟ قد يتساهلُ اللورد في ذلكَ لأنَّه من يديرُ شؤونَ ممتلكاتِهِ الخاصَّةِ، لكن إن تساهلَ المأمورُ فإنَّهُ يهدرُ مالَ شخصٍ آخر».

«لكننا سنكتفي بتقديمِ توصيةٍ على أيِّ حالٍ، ولن يُتخذَ أيُّ قرارٍ نهائي حتّى يوافقَ عليهِ لورد ويغلي الجديد أيّاً يكن».

وفكّرت غويندا بأنَّ هذا الكلام صحيحٌ نظرياً، ولكن من غيرِ المحتملِ أن يمنعَ اللوردُ الجديدُ نقلَ الميراثِ من الأبِ إلى الابنِ.

قالَ ولفريك: «الضريبةُ التي كان يدفعها والدي لم تكن خمسةَ جنيهاتٍ يا سيدي».

«علينا أن نتحققَ من القوائمِ». كان ردُّ نيثان سريعاً إلى درجةٍ اعتقدَت معها غويندا أنّه كان ينتظرُ هذا الاعتراض من ولفريك. وفكرت غويندا أنَّ نيثان عادةً ما يلزمُ الصمتَ في منتصفِ النقاشِ كما لو أنّه يمنحُ الأطرافَ فرصةً لإعطائِهِ رشوةً. ربما اعتقد نيثان أنَّ ولفريك يخفي بعضَ المالِ.

أحضرَ اثنان من أعضاءِ الهيئة صندوقاً من الخزانةِ يحتوي على القوائمِ الخاصَّةِ بالأراضي وسجلاً بقراراتِ المحكمةِ الإقطاعيةِ المكتوبةِ على لفائف طويلةٍ من الرِّقِّ. يستطيعُ نيثان القراءةَ والكتابةَ؛ فالمأمورُ يجب أن يكونَ مُتعلماً ليتمكنَ من جمعِ حساباتِ اللورد. أخذَ نيثان يبحثُ في الصندوقِ عن اللفافةِ المطلوبةِ.

رأت غويندا أن ولفريك لا يبلي جيداً فحديثُهُ الصريحُ وصدقُهُ الواضحُ لم يكونا كافيين. أرادَ نيثان، وقبلَ كلِّ شيءٍ، أن يحصِّلَ ضريبةَ الميراثِ الخاصَّة باللورد، كما كانَ بيركن يناورُ ليحظى بالأرضِ لنفسِه بينما أرادَ بيلي هاورد، مدفوعاً بحقدِهِ الأعمى، أن يذلَّ ولفريك الذي لم يكن يملكُ نقوداً ليقدمِها كرشوةٍ.

لا يتحلى ولفريك بالبديهةِ اللازمةِ كي يتعامل مع مثلِ هذا الوضعِ، كما أنّه كان ساذجاً لاعتقادِهِ بأنّه بشرحِ قضيتِه سينالُ العدالةَ.

قد تستطيعُ غويندا مساعدتَهُ فجميعُ أبناءِ جوبي يتحلونَ ببعضِ الدهاءِ.

لم يتحدث ولفريك عن مصالحِ القرويين أنفسِهم خلالَ نقاشِه، لكنَّها ستفعلُ ذلكَ من أجلِهِ. التفتت غويندا إلى ديفيد جونز الذي وقفَ بقربِها ثمَّ قالت: «ما يثيرُ استغرابي حقاً هو أنَّ ما يجري لا يثيرُ قلقكم أيُّها الرجالُ». نظرَ إليها بخبثٍ ثمَّ قالَ: «إلامَ ترمين أيتها الفتاةُ؟»

«بصرفِ النظرِ عن الموتِ المفاجئِ، هذهِ حالةُ توريثٍ من الأبِ إلى الابنِ، وإن تركتم نيثان يراوغُ بهذا الشأنِ فإنَّهُ سيشككُ في جميعِ حالاتِ الإرثِ وسينجحُ في ابتداعِ أسبابِ إثارةِ الجدلِ حولَ الميراثِ. ألا تخشونَ من أن يتدخلَ في ميراثِ أبنائِكم؟»

«قد تكونين مصيبةً في ذلكَ»، قالَ ديفيد وقد بدا قلقاً ثمَّ استدارَ ليتحدَّثَ إلى جارِهِ الواقفِ بجانبِهِ.

أحسَّت غويندا أنَّ ولفريك ارتكبَ خطأ المطالبةِ بإصدارِ حكمِ نهائي اليومَ، فقد كان من الأفضلِ أن يطلبَ حُكماً مؤقتاً وسيوافقُ أعضاءُ الهيئةِ على ذلكَ بسرعةٍ. ذهبَت للتحدثِ مع ولفريك الذي كان واقفاً يتحدَّثُ مع آنيت وبيركن. بدا بيركن مرتاباً حينَ وصلت غويندا ورمقتها آنيت بنظرةٍ متعجرفةٍ لكنَّ ولفريك تصرَّفَ بلطفٍ كالمعتادِ إذ قالَ: «مرحباً يا رفيقةَ السفرِ. سمعتُ أنَّكِ غادرت منزلَ والدكِ».

«لقد هددَ ببيعي».

«مرَّةً أخرى؟»

«بل لمرَّاتٍ عديدةٍ طالما أنجحُ بالهروبِ في كلِّ مرَّةٍ. يعتقدُ أنَّه عثرَ على مصدرِ رزقٍ لا ينضبُ».

«أين تعيشين الآن؟»

«استقبلتني الأرملةُ هوبرتس وأنا أعملُ الآن لدى المأمورِ في أراضي اللورد مقابلَ بنسٍ في اليومِ من الشروقِ حتَّى الغروبِ فهو يحبُّ إنهاكَ عمَّالِهِ. هل تعتقدُ أنَّه سيعطيكَ ما تريد؟»

اكفهرَّ وجهُ ولفريك وقال: «يبدو متردداً».

«لو أنَّ امرأةً في هذا الموقفِ لتعاملت معهُ بطريقةٍ مختلفةٍ».

«كيفَ ذلكَ؟» قالَ متفاجئاً.

حدَّقَت بها آنيت لكنَّ غويندا تجاهلَت نظراتِها وتابعَت القولَ: «لن تطالبَ المرأةُ بإصدارِ حكمٍ نهائي بخاصَّةٍ عندما يكونُ الجميعُ على علمٍ بأنَّ قرارَ اليومِ ليسَ نهائياً، فهي لن تخاطرَ بالحصولِ على رفضٍ في ظلِّ احتمالِ بالموافقةِ لاحقاً».

فكر ولفريك في ما قالته وسألها: «ماذا كانت ستفعل؟»

«ستطلبُ السماحَ لها بمواصلةِ العملِ في الأرضِ في الوقتِ الحالي، وستتركُ القرارَ المُلزمَ قيدَ الانتظارِ حتَّى يتُمّ تعينُ اللوردِ الجديدِ، وفي غضونِ ذلكَ سيعتادُ الجميعُ على كونها مالكةَ الأرضِ بحيثُ ستكونُ موافقةُ اللوردِ الجديدِ إجراءً شكلياً فحسب. ستنالُ ما تريدُ ومن دونِ أن تفسحَ المجالَ للآخرين لمناقشةِ ذلكَ حتَّى».

«حسناً...» بدا ولفريك مُشككاً.

«لا يتعلَّقُ الأمرُ بما تريدهُ إنَّما بما يمكنكَ الحصول عليهِ اليومَ، ثمَّ كيف لنيثان أن يرفضَ طلبكَ فهو لا يملكُ أحداً آخر لجني المحصول».

أومأ ولفريك برأسِهِ موافقاً وراحَ يقلّبُ الاحتمالاتِ في رأسِهِ فقالَ: «سيراني الناسُ أجني المحصولَ وسيعتادون على ذلكَ؛ ففي نهايةِ المطافِ سيكونُ من الظلمِ إنكارُ حقي في الميراثِ، وسأكونُ قادراً على دفعِ الضريبةِ أو جزءٍ منها».

«وستكون قريباً من تحقيقِ هدفكَ آنذاك أكثرَ مما أنتَ عليهِ الآن».

«شكراً لكِ. أنتِ حكيمةٌ بالفعلِ»، قالَ ذلك ولمسَ ذراعَها ثمَّ استدارَ نحو آنيت التي وبختهُ بصوتٍ خفيضٍ بينما بدا والدُها مُنزعجاً.

ابتعدَت غويندا وهي تتحدثُ إلى نفسها: «لا تقلْ إنني حكيمةٌ بل قُل إنني... ماذا؟ جميلةٌ؟ مطلقاً. إنني حبُّ حياتكِ؟ بل هي آنيت. إنني صديقةٌ حقيقيةٌ؟ سحقاً لذلكَ. ماذا أريد إذاً؟ ولمَ أنا مستميتةٌ لمساعدتكَ؟»

لم يكن لديها أجوبةٌ.

لفتَ نظرَها ديفيد جونز وهو يتحدَّثُ بحزمٍ إلى آرون آبلتري، أحدِ أعضاءِ هيئةِ المُحلفين.

لوَّحَ نيثان بالقوائمِ ثمَّ قالَ: «دفعَ ساموِيل، والد ولفريك، ثلاثين شلناً ليرثَ أرضَ والدِهِ وجنيهاً ليرثَ أرضَ عمهِ». كان الشلن يساوي اثني عشر بنساً، لكن عملةَ الشِلن لم تعد متداولةً إلَّا أنَّ الجميعَ يذكرون الشِلنَ كأنَّه موجود. تساوي عشرون شلناً جنيهاً، لذلكَ فإنَّ المبلغَ المذكور هو بالضبطِ نصفُ المبلغِ الذي قالَهُ نيثان في البدايةِ.

قالَ ديفيد جونز: «يجب أن يرثَ المرءُ أرضَ والدِهِ، فلا نريدُ أن نعطي اللوردَ الجديدَ أيّاً يكن الانطباعَ بأنَّه يستطيعُ اختيارَ من سيرثُ الأراضي».

علَت همهماتٌ بالموافقةِ.

خطا ولفريك إلى الأمامِ وقالَ: «أعلمُ أيُّها المأمورُ أنَّه ليسَ بمقدوركَ إصدارُ قرارٍ نهائي اليومَ. أستطيعُ الانتظارَ إلى حين تعيينِ اللوردِ الجديدِ، وكلُّ ما أطلبُهُ هو السماحُ لي بمتابعةِ العملِ في الأرضِ، وسأجني المحصولَ. أقسمُ لكَ بذلكَ. لن يُنسبَ إليكَ أيُّ تقصيرٍ ولن يُعزى إليَّ أيُّ نجاحٍ، وعندما يصلُ اللورد الجديد سأضعُ نفسي تحتَ رحمتِهِ».

باتَ نيثان مُحاصراً الآن، وأدركَت غويندا أنَّه كان يأملُ في إيجادِ طريقةٍ ما لكسبِ المالِ من هذا الموقفِ. ربما كان يتوقعُ الحصولَ على رشوةٍ من بيركن الثري، والد خطيبةِ ولفريك، وراقبَت غويندا وجهَهُ وهو يحاولُ إيجادَ طريقةٍ لرفضِ طلبِ ولفريك البسيط. وبينما وقفَ نيثان حائراً حيالَ اتخاذِ قرارٍ سمعَ

بعضَ القرويين يتمتمون فأدركَ أنَّ ترددَهُ لا يعودُ عليهِ بأيِّ فائدةٍ فقالَ بكياسةٍ زائفةٍ: «حسناً، ماذا تقولُ هيئةُ المحلفين؟»

تشاورَ آرون آبلتري لبرهةٍ مع زملائِهِ المُحلفين ثمَّ قالَ: «طلبُ ولفريك بسيطٌ ومعقولٌ، سيعملُ في أرضِ والدِهِ إلى أن يتم تعيين لوردٍ جديدٍ في ويغلي».

تنفَّست غويندا الصعداءَ.

قالَ نيثان: «أشكركُم أيُّها الأعضاء».

انفضَّت المحكمةُ وتوجَّه الناسُ إلى منازلِهم لتناولِ العشاءِ. كانَ بمقدورِ معظمِ القرويين تناولُ اللحوم مرَّةً واحدةً أسبوعياً، وكان يومُ الأحدِ اليومَ المُعتاد لهذا الحدثِ. حتَّى جوبي وإثنا يمكنُهما إعدادُ يخنةٍ من لحمِ السنجابِ أو القنافذِ، كما تكثرُ في هذا الوقتِ من العامِ الأرانبُ الصغيرةُ. لدى الأرملة هوبرتس قطعةٌ من لحمِ الضأنِ تُطهى في قِدرٍ على النارِ.

تلاقَت أعينُ ولفريك وغويندا أثناءَ خروجِهما من الكنيسةِ. «أحسنتَ صُنعاً، لم يتمكن من رفضِ طلبكَ رغمَ أنَّه أرادَ ذلكَ». قالت له وهما يخرجان معاً.

«كانت فكرتُكِ فقد عرفتِ ما يتوجبُ عليَّ قولُهُ بالضبطِ، لا أعرفُ كيفَ أشكركِ»، قالَ لها بإعجابٍ.

قاومَت رغبةً بإخبارِهِ كيف يمكنهُ شكرها حقاً. سارا عبرَ المقبرةِ ثمَّ سألتْهُ: «كيف ستتدبرُ أمرَ الحصادِ؟»

«لا أعلمُ».

«لم لا تدعني أعملُ لديكَ؟»

«لا أملكُ المالَ».

«لا يهمني، سأعملُ لديكَ فحسب».

توقفَ عندَ البوابةِ واستدارَ نحوها ثمَّ نظرَ في عينيها مباشرةً وقالَ: «لا يا غويندا، لا أعتقدُ أنَّها خطةٌ جيدةٌ فآنيت لن تحبذها، وهي ستكونُ على حقٍ في رفضها».

احمرَّت غويندا خجلاً فلم يكن لديها أدنى شكٍ بما كانَ يعنيهِ. إن أرادَ رفضَها لأنَّها ضعيفةٌ جداً على القيامِ بهذا العملِ فلن يكونَ هناكَ من داعٍ لتلكَ النظرةِ المباشرةِ ولا لذكرِ اسمِ خطيبتِهِ.

أدركَت وإحساسٌ بالذُّلِ يسربلها أنَّهُ يعرفُ أنَّها تحبهُ، وها هو يرفضُ عرضَها لأنَّهُ لم يرغب منح هذا الحبِّ الميئوسِ منهِ أملاً.

-19-

استيقظَت غويندا قبلَ شروقِ الشمسِ.

كانت قد افترشَت القشَّ على أرضيَّةِ منزلِ الأرملةِ هوبرتس.

وكأنَّ عقلَها النائمُ كانَ واعياً بمرورِ الوقتِ فأيقظَها قبلَ الفجرِ. حين أزاحَت غطاءَها ونهضَت لم تتحرك الأرملةُ النائمةُ إلى جانبِها. تلمَّست طريقَها إلى أن وصلَت إلى البابِ الخلفي ففتحتهُ وخرجَت وكلبها سكيب في إثرها ينفضُ جسدهُ.

هبَّ نسيمٌ منعشٌ كما هو الحال دوماً في ويغلي فوقفَت في مكانها لبرهةٍ. لم يكن الظلامُ حالكاً وكانت قادرةً على رؤيةِ أشكالٍ مُبهمةٍ كخمِّ البطِ والمرحاضِ الخارجي وشجرةِ الإجاصِ إلَّا أنَّها لم تكن قادرةً على رؤيةِ منزلِ ولفريك المجاورِ رغمَ أنَّها سمعَت همهمةَ كلبِهِ المربوط خارجَ حظيرةِ الخرافِ الصغيرةِ فأصدرَت صوتاً خفيضاً ليتعرَّفَ عليها ويطمئنَ.

كانت مثلُ هذهِ اللحظاتِ هادئةً وهانئةً وقد ملأت عليها حياتَها في الآونةِ الأخيرةِ. عاشَت غويندا طيلة حياتها في منزلٍ صغيرٍ يعجُّ بالأطفال والرُّضع، فهناكَ من يصرخُ طالباً الطعام وآخر يبكي بسبب جرحٍ صغيرٍ وثالثٌ يصرخُ محتجّاً أو يبكي بغضبٍ طفولي عقيم. لم تتوقع قط أن تشتاقَ إلى كلِّ ذلكَ إلَّا أنَّ هذا الصمتُ الذي يلفُّ حياتَها مع أرملةٍ هادئةٍ تُبادلها أطرافَ الحديثِ بلطفٍ جعلها تسترخي وتشعرُ بالراحةِ. اشتاقَت إلى سماعِ صوتِ طفلٍ يبكي حتّى تحملهُ وتهدئهُ.

وجدَت الدلو الخشبي القديمَ فغسلَت وجهها ويديها ثم عادَت إلى الداخلِ. تحسسَت مكانَ الطاولةِ في الظلامِ ففتحَت صندوقَ الخبزِ واقتطعَت شريحة سميكة من رغيفٍ قد مضى عليهِ أسبوعٌ ثم انطلقَت إلى الخارجِ وهي تتناولها.

كان السكون يلفُّ القريةَ فقد كانت أولَ من استيقظَ هذا الصباحِ. يعملُ الفلاحون هنا منذُ شروقِ الشمسِ إلى غروبِها، وفي هذا الوقتِ من العامِ الأيامُ طويلةٌ ومرهقةٌ لذا فقد يقدِّرونَ كلَّ لحظة من لحظاتِ الراحةِ. وحدَها غويندا من استغلَّت تلكَ الساعة بين الفجرِ وشروقِ الشمسِ وساعة الغسقِ.

غادرَت المنزلَ مع بزوغِ الفجرِ وانطلقَت عبرَ الحقولِ. في ويغلي ثلاثةُ حقولٍ كبيرةٍ: هاندردإيكر وبروكفيلد ولونغفيلد. تُزرع في كلِّ حقلٍ منها محاصيل مختلفةٌ في دورةٍ زراعيةٍ من ثلاثِ سنواتٍ. يُزرع في السنةِ الأولى

القمحُ والشيلم، وهما من المحاصيلِ الغاليةِ، تليها في السنةِ الثانيةِ المحاصيلُ الأقلُّ قيمةً كالشوفانِ والشعيرِ والبازلاءِ والفاصولياءِ، وفي السنةِ الثالثةِ تُتركُ الأرضُ بوراً.

زُرِعَ في حقلِ هاندردإيكر هذا العام القمح والشيلم، وزُرِعَ حقلُ بروكفيلد بمزروعاتٍ ثانويةٍ أخرى بينما تُركَ حقلُ لونغفيلد بوراً. ويُقسَّم كلُّ حقلٍ من هذه الحقولِ إلى أقسامٍ تبلغُ مساحة كلّ حقلٍ منها فداناً وكلُّ فلاحٍ يمتلكُ قطعاً موزعةً على الحقولِ الثلاثةِ.

توجَّهت غويندا إلى حقلِ هاندردإيكر وبدأت باقتلاعِ الأعشابِ الضارةِ الدائمةِ النمو من بينِ سنابلِ القمحِ المزروعةِ في أرضِ ولفريك كالقطيفةِ والماروت. كانت سعيدةً لمساعدتهِ والعملِ في أرضِهِ سواء أعرفَ بذلكَ أم لا، ففي كلِّ مرَّةٍ تنحني فيها كانت تحمي ظهرَهُ من انحناءةٍ مماثلةٍ، وفي كلِّ مرَّةٍ تقتلعُ فيها الأعشابَ كانت تزيدُ من محصولِهِ. كانَ الأمرُ كما لو أنَّها تقدّمُ له الهدايا. فكّرت فيهِ وهي تعملُ، وتراءى لها وجههُ وهو يضحكُ وتخيلت صوته يتناهى إلى مسامعِها، كمزيجٍ بينَ الصوتِ العميقِ لرجلٍ بالغٍ والحماسي لشابٍ يافعٍ. لمسَت براعمَ القمحِ الخضراءَ وتخيلت أنّها تمسدُ شعرَهُ.

استمرَّت باقتلاعِ الأعشابِ حتَّى شروقِ الشمسِ لتنتقلَ بعدَها إلى الأراضي الإقطاعيةِ والعملِ بالأجرةِ في الأراضي التي زرَعها اللورد، أو عمَّاله بالأحرى. على الرغمِ من أنَّ السير ستيفن توفي فإنَّه لا يزالَ يتعين على الفلاحين جني محاصيلِهِ حيثُ سيطلبُ وريثهُ حساباً دقيقاً بالمدخولِ. ومع غروبِ الشمس وبعد أن تنالَ أجرَها اليومي تتوجه غويندا إلى جزءٍ آخر من أراضي ولفريك لتعملَ هناكَ حتَّى يحلّ الظلام، بل ولفترةٍ أطول إن كانت الليلةُ مقمرةً.

لم تخبر ولفريك بذلكَ لكن إخفاء مثل هذهِ الأمورِ صعبٌ جداً في قرية يبلغُ عددُ سكانِها المئتين. وسألتْها الأرملةُ هوبيرتس بفضولٍ لطيفٍ عمَّا تتمنى أن تحققه حين قالَت لها: «سيتزوجُ ولفريك من ابنةِ بيركن كما تعلمين، فلا يمكنكِ منعُ ذلكَ».

«أريدُهُ أن ينجحَ فحسب فهو يستحقُّ ذلكَ. إنَّه رجلٌ صادقٌ طيبُ القلبِ وعاملٌ مُجدٌ. أريدُهُ أن يكون سعيداً حتى لو تزوجَ من تلكَ العاهرةِ».

كان العمال التابعون للوردِ يجنونَ المحاصيلَ المبكرةَ كالفاصولياء والبازلاء من حقلِ بروكفيلد، بينما كان ولفريك يحفرُ بالقربِ منهم خندقاً لتصريفِ المياه

إذ تحولت الأرضُ إلى مستنقعٍ بعدَ الأمطارِ الغزيرةِ التي هطلَت في أوائلِ شهرِ حزيران/ يونيو. راقبتْهُ غويندا. كان في سروالِهِ الداخلي وقد انحنى فوقَ مجرفتِهِ يعملُ بنشاطٍ كطاحونةٍ، ووحدها قطراتُ العرقِ التي تلمعُ على جلدِهِ فضحت ما كان يبذلهُ من جهدٍ. عندَ الظهيرةِ جاءَت إليهِ آنيت حاملةً إبريقاً من الجعةِ وبعضَ الخبزِ والجبنِ وقد لفّتهما بقطعةٍ من القماشِ. بدت آنيت جميلةً وقد ربطَت شعرَها بشريطٍ أخضر.

قرعَ نيثان رييف الجرسَ فتوقفَ الجميعُ عن العملِ وذهبوا ليجلسوا تحتَ الأشجارِ في الطرفِ الشمالي من الحقلِ. وزّعَ نيثان على العمالِ التابعين للوردِ عصيرَ التفاحِ والخبزَ والبصلَ؛ فالغداءُ جزءٌ من أجرتِهم. جلسَت غويندا وظهرُها إلى جذعِ شجرةِ الزان تراقبُ ولفريك وآنيت بافتتانِ محكومٍ بالإعدامِ بعملِ النَّجارِ وهو ينصبُ المشنقةَ.

في بادئ الأمرِ تصرَّفَت آنيت بغنجٍ كالمعتادِ فكانت تميلُ برأسِها وتغمزُ بعينيها أو تضربُ ولفريك على نحوٍ لعوبٍ كأنّها تعاقبُهُ على شيءٍ ما قالَهُ، ثمَّ أخذَت تتحدثُ معهُ بجديّةٍ وإصرارٍ وهو يحتجُّ ببراءةٍ. نظرَ كلاهُما إلى غويندا فعرفَت أنّهما كانا يتحدثان عنها. توقعت غويندا أنَّ آنيت قد اكتشفَت أنّها تعملُ في أرضِ ولفريك صباحاً ومساءً. في النهايةِ غادرَت آنيت غاضبةً وأنهى ولفريك طعامَهُ وحيداً وغارقاً في التفكيرِ.

بعدَ الانتهاءِ من تناولِ الطعامِ يستغلُ الجميعُ ما تبقى من ساعةِ الغداءِ لأخذِ قسطٍ من الراحةِ فيتمددُ الكبارُ على الأرضِ من أجلِ إغفاءةٍ قصيرةٍ بينما يتحادثُ الشبابُ. توجهَ ولفريك إلى حيثُ جلست غويندا وجلسَ القرفصاءَ قربَها. «تقومين بقلعِ الأعشابِ الضّارةِ من أرضي»، قالَ لها. لم تكن غويندا لتعتذرَ فقالت: «أعتقدُ أنَّ آنيت قد وبختكَ».

«لا تريدكِ أن تعملي لدي».

«وماذا تريد مني أن أفعل؟ هل أعيدُ الأعشابَ من حيثُ اقتلعتُها؟»

نظرَ حولَهُ وقالَ لها بصوتٍ خفيضٍ حتّى لا يسمع أحدٌ ما يقولهُ رغمَ أنَّ الجميعَ يمكنُهم تخمينُ ما يتحدثُ بهِ هو وغويندا: «أعلمُ أنَّ نيتَكِ طيبةٌ وأنا ممتنٌّ لذلكَ ولكن هذا يجلبُ لي المتاعبَ».

استمتعَت غويندا بقربِها منهُ وبرائحةِ الترابِ والعرقِ التي تفوحُ منهُ. «أنتَ بحاجةٍ للمساعدةِ وآنيت غيرُ مفيدة في ذلكَ».

«لا تنتقديها رجاءً، بل لا تتحدثي عنها أبداً».

«حسناً، لكن لا يمكنكَ حصادُ المحصولِ وحدَك».

تنهّدَ قائلاً: «لو أنَّ الشمس تبقى مشرقةً»، ونظرَ إلى السماءِ عندَ قولِهِ هذا تماماً كما يفعلُ جميعُ الفلاحين.

اكتنفَت السماءَ غيمةٌ كثيفةٌ امتدّت على طولِ الأفقِ. كانت جميعُ محاصيلِ الحبوبِ تكافحُ في هذا الطقسِ البارِدِ الرطبِ.

قالتَ غويندا لولفريك في ترجٍّ: «دعني أعملُ لديكَ. أخبر آنيت أنّك بحاجتي، يجبُ أن يكونَ الرجلُ سيدَ زوجتِهِ وليسَ العكس».

«سأفكرُ بذلكَ»، أجابها ولفريك.

إلّا أنّه استأجرَ عاملاً في اليومِ التالي.

كانَ رجلاً غريباً وصلَ عصراً وقد تجمّعَ حولَهُ القرويون عندَ الغسقِ لسماعِ قصتِهِ. يدعى الرجلُ غرام وقد أتى من سالزبري.

أخبرهم غرام أنَّ زوجتَهُ وأطفالَهُ ماتوا في حريقٍ التهمَ منزلَهُ، وأنَّه في طريقِهِ إلى كينغزبريدج لإيجادِ عملٍ في الديرِ حيث كان شقيقهُ راهباً فيهِ.

قالت غويندا: «ربما أعرفُهُ فقد عملَ أخي فيليمون في الديرِ لسنواتٍ؟ ما اسم شقيقكَ؟»

«جون». هناك راهبان في دير كينغزبريدج يحملان اسمَ جون لكن قبلَ أن تتمكنَ غويندا من سؤالِهِ أي منهما شقيقهُ تابعَ الرجلُ كلامَه قائلاً: «عندما انطلقت في رحلتي كان لدي ما يكفي من مالٍ لشراءِ الطعامِ أثناء سفري ثمّ سرقني الخارجون عن القانونِ وها أنا مفلسٌ الآن».

وفازَ الرجلُ بقدرٍ كبيرٍ من التعاطفِ من الفلاحين وقد دعاهُ ولفريك للنومِ في منزلِهِ. في اليومِ التالي، يومَ السبت، بدأ غرام بالعملِ لدى ولفريك وقبلَ بالطعامِ والمسكنِ وحصَّةٍ من المحصولِ كأجرٍ على عملِهِ.

عملَ غرام بجدٍ طيلةَ يومِ السبت حيثُ عملَ مع ولفريك على حراثةِ أرضِهِ البور في حقلِ لونغفيلد لإزالةِ الأشواك منها، وبما أنّه عملٌ يتطلبُ رجلين فقد قاد غرام الحصان وحثّه بالسوطِ بينما أمسكَ ولفريك بالمحراثِ. استراح الرجلان يومَ الأحدِ.

انفجرَت غويندا بالبكاءِ عندما رأت كات وجوني وإيريك يومَ الأحد في الكنيسةِ. لم تدرك كم اشتاقَت لهم. أمسكَت بإيريك أثناءَ الصلاةِ لتأتي أمُّها

بعدها وتتحدثَ معها بقسوةٍ: «أنتِ تفطرين قلبكَ من أجلِ ذاكَ المدعو ولفريك، ثمَّ إنَّ إزالةَ الأعشابِ من أرضِهِ لن تجعلَهُ يحبكِ فقد أعمَت آنيت التافهةُ بصرَهُ».

«أعلمُ هذا ولكنني أرغبُ بمساعدتِهِ على أيِّ حالٍ»، قالت غويندا.

«يجبُ أن تغادري القريةَ فلم يتبقَ لكِ شيءٌ هنا».

علمت غويندا أنَّ والدتها محقَّةٌ في ما قالتهُ ولذلكَ قالت: «سأرحلُ في اليومِ الذي يلي زفافَهما».

قالت الأم بصوتٍ منخفضٍ: «حذارِ من والدِك إذا ما بقيتِ هنا فهو لم يفقد الأملَ في الحصولِ على اثني عشر شلناً أخرى».

«ماذا تقصدين؟» سألتْها غويندا.

هزَّت الأمُّ رأسَها فحسب.

«لا يمكنُهُ بيعي الآن، لقد تركتُ منزلَهُ فلم يعد يطعمني أو يؤويني كما أنني أعملُ لدى لورد ويغلي ولذلكَ لم أعد ملكَهُ ليتخلصَ مني».

«كوني حذرةً فحسب»، قالت والدتها من دونِ أن تبوحَ بالمزيدِ.

تحدَّثَ الرجلُ الغريب غرام مع غويندا خارجَ الكنيسةِ وسألَها أسئلةً عن نفسِها ثمَّ اقترحَ عليها أن يقوما بنزهةٍ معاً بعدَ العشاءِ. وتكهنت غويندا بما قصدَه بكلمةِ نُزهة، فرفضت عرضَهُ، لكنَّها رأتهُ لاحقاً يتحدَّثُ مع جوانا الشقراءِ ابنةِ ديفيد جونز التي لم تتجاوز الخامسةَ عشرة من عمرِها والتي كانت غبيةً بما يكفي لتقعَ في حبائلِ رجلٍ غريبٍ.

يومَ الإثنين كانت غويندا تقلعُ الأعشابَ الضَّارة من بين سنابلِ القمحِ في أرضِ ولفريك في حقلِ هاندردايكر قبلَ شروقِ الشمسِ عندما رأتهُ قادماً نحوها وهو يقطعُ الحقلَ على عجلٍ بوجهٍ مُكفهرٍ وغاضبٍ. لقد استمرَّت في عصيانِ رغباتِهِ وتابعَت العملَ في أراضيهِ كل صباحٍ ومساءٍ، فبدا الأمرُ كما لو أنَّها أخرجتْهُ عن طورِهِ. ماذا سيفعلُ؟ هل سيضربُها؟ ربما بعد استفزازها لهُ بهذهِ الطريقةِ قد يؤذيها دونَ الخشيةِ من العقابِ، وسيقولُ الناسُ إنَّها جلبت ذلكَ لنفسِها، ولن يكون لديها من يدافعُ عنها بعد أن تركَت منزلَ والديها.

انتابَها الخوفُ فقد رأت ولفريك يكسرُ أنفَ رالف فيتزجيرالد.

ثم قالت في سرِّها إنَّ هذا غباءٌ، صحيحٌ أنَّهُ دخلَ في أكثرِ من عراكٍ إلَّا أنَّها لم ترَهُ يضربُ امرأةً أو طفلاً قبلاً. ولكن وعلى رغمِ هذا كانت ترتجفُ خوفاً من غضبِهِ.

إلا أنَّ الأمرَ لم يكن ما توقعتهُ قط فحالما وصلَ إلى مسافةٍ يمكنُها سماعُه منها صاحَ قائلاً: «هل رأيتِ غرام؟»

«كلا، لماذا؟»

وصلَ إليها وهو يتنفسُ بصعوبةٍ ثمَّ توقفَ. «منذُ متى وأنتِ هنا؟»

«نهضتُ قبلَ الفجرِ».

أرخى ولفريك كتفيهِ وقال: «إن جاءَ من هذه الطريقِ فهو بعيدٌ عن متناولنا الآن».

«ماذا جرى؟»

«لقد اختفى، واختفى حصاني معهُ أيضاً».

إذاً، هذا هو سببُ غضبِ ولفريك؛ فالحصانُ يعدُّ من الممتلكاتِ الثمينةِ، ووحدهم الفلاحون الأثرياء كوالدِ ولفريك قادرون على امتلاكِهِ. تذكَّرَت غويندا كيفَ أنَّ غرام قد غيرَ الحديثَ بسرعةٍ عندما قالت إنَّها قد تعرفُ شقيقهُ. لم يكن لديه شقيقٌ في الديرِ، وبالطبعِ لم يكن لديهِ زوجةٌ أو أطفالٌ ماتوا في الحريقِ. لقدَ كذبَ لينالَ ثقةَ الفلاحين بقصدِ السرقةِ. «كم كنا حمقى عندما صدقنا قصتهُ»، قالت غويندا.

«وأنا أكبرُ أحمق على الإطلاقِ بأخذي إياه إلى منزلي حيث بقي فترةً طويلةً بما يكفي لتعتادَ عليه الحيوانات فينصاع لهُ الحصانُ ولا ينبح عليهِ الكلبُ حين يغادر»، قال ولفريك بمرارةٍ.

فُطرَ قلبُ غويندا حزناً على ولفريك لأنَّه خسرَ حصانَهُ في وقتٍ هو أحوج ما يكون إليهِ. «لا أعتقدُ أنَّه جاءَ من هذا الطريق أو أنَّه غادر قبلي؛ فالظلامُ كان حالكاً جداً، كما أنني كنتُ سأراه لو أنَّه لحقَ بهِ»، قالت غويندا وهي غارقة في التفكيرِ. لم يكن هناكَ سوى طريقٍ واحدٍ للدخولِ والخروجِ إلى القريةِ وهو ينتهي عندَ القصرِ الريفي، لكن كان هناكَ الكثيرُ من الطرقِ الفرعيةِ بينَ الحقولِ. أردفَت بالقولِ: «ربما أخذَ الطريقَ بين حقلي بروكفيلد ولونغفيلد فهو أقصرُ طريقٍ إلى الغابةِ».

«قد أتمكنُ من اللحاقِ بهِ فالحصانُ لا يستطيعُ العدو بسرعةٍ في الغابةِ»، قالَ ذلك ثمَّ استدارَ وعادَ راكضاً من حيث جاءَ. «حظاً طيباً»، قالت غويندا في إثرِهِ، ولوّحَ لها في شكرٍ ولكن من دونِ أن يلتفتَ.

لم يكن حظُّهُ طيباً على أيِّ حالٍ.

لاحقاً من عصرِ ذلكَ اليومِ وبينما كانت غويندا تنقلُ كيساً من البازلاءِ من حقلِ بروكفيلد إلى حظيرةِ اللورد، تجاوزَت حقلَ لونغفيلد ورأت ولفريك مجدداً يحرثُ أرضَهُ البور بمجرفةٍ. بدا من الواضحِ أنَّه لم يلحق بغرام ولم يستعد حصانَهُ.

وضعَت الكيسَ أرضاً وعبرَت الحقلَ للتحدثِ إليهِ. «لا يمكنكَ القيام بذلكَ. تبلغُ مساحةُ أرضكَ ثلاثين فداناً وكم ستحرثُ منها بهذهِ الطريقةِ؟ عشرة؟ لا يمكنُ لأحدٍ أن يحرثَ أكثرَ من عشرين فداناً بهذهِ الطريقةِ».

تابعَ عملهُ بوجهٍ خالٍ من أيِّ تعبيرٍ واستمرَّ في عملهِ قائلاً: «لا يمكنني أن أحرثَ من دونِ حصانٍ».

«خُذ مكانَ الحصانَ فأنتَ قوي والحرثُ خفيفٌ فهو لإزالةِ الأشواكِ فحسب».

«لا يوجدُ أحد يوجهُ المحراثَ».

«بل يوجد».

وحدَّقَ بها.

«سأقومُ بذلكَ»، قالت غويندا.

هزَّ رأسه رافضاً.

«لقد خسرتَ عائلتكَ وها قد خسرتَ حصانَكَ، لا يمكنكَ أن تُدبرَ أمركَ وحدكَ كما أنَّه لا خيارَ لديكَ. يجب أن تدعني أساعدكَ».

أشاحَ بوجهِهِ بعيداً عبرَ الحقولِ باتجاهِ القريةِ. كانت تعرفُ أنَّهُ يفكرُ بآنيت.

«سأكونُ جاهزةً غداً صباحاً»، قالت غويندا.

عادَ بنظرِهِ إليها وفضحَ وجهُه ما يشعرُ بهِ؛ فقد كان ممزقاً بينَ حبهِ لأرضِهِ وبين رغبتِهِ في إرضاءِ آنيت.

«سأطرقُ بابكَ وسنحرثُ ما تبقى من أرضِكَ معاً». استدارَت ومشت مبتعدةً ثمَّ توقفَت ونظرَت إلى الخلفِ.

لم يوافق.

لكنَّه لم يرفض أيضاً.

***

حرثَ ولفريك وغويندا ليومين وحزما القشَّ ثمَّ جمعَا الخضار الربيعية بعدَها.

وبما أنَّ غويندا لم تعد تكسبُ مالاً لتدفعَ للأرملةِ هوبيرتس ثمن الطعامِ والمبيتِ فقد كانت بحاجةٍ لإيجادِ مكانٍ آخرَ للنومِ فانتقلت إلى حظيرةِ أبقارِ ولفريك الذي لم يبدِ أيَّ اعتراضٍ بعدَ أن شرحَت له الوضعَ.

بعدَ اليومِ الأول توقفَت آنيت عن جلبِ الطعامِ لولفريك عندَ الظهيرةِ، لذا كان على غويندا أن تُحضِّرَ الطعامَ لكليهما من الموادِ في خزانتِهِ كالخبزِ والجعةِ والبيضِ المسلوقِ أو اللحمِ المقددِ الباردِ وبعض البصلِ الأخضرِ والشوندر. ومرَّةً أخرى قبِلَ ولفريك بهذا التغييرِ من دونِ تعليقٍ.

كانت جرعةُ الحبِّ ما تزال بحوزتِها. وضعَت القارورة الفخارية الصغيرة تحتَ ثيابها في كيسٍ جلدي صغيرٍ ربطتْهُ بخيطٍ رفيعٍ وارتدتْهُ حولَ عنقِها بعيداً عن الأعين. كان بوسعِها دسُّ الجرعةِ في الجعةِ لكنَّها لن تكون قادرةً على الاستفادةِ من آثارِها في الحقولِ في منتصفِ النهارِ.

يذهبُ ولفريك كلَّ مساءٍ إلى منزلِ بيركن ويتناولُ العشاءَ مع آنيت وعائلتِها بينما تجلسُ هي وحيدةً في مطبخِهِ. غالباً ما يعودُ إلى المنزلِ مُتجهماً من دونِ أن يتحدثَ مع غويندا التي تدركُ حينها أنَّه تجاهلَ اعتراض آنيت، ثم يتوجهُ إلى غرفتِهِ من دونِ أن يأخذَ معهُ ما يأكلُهُ أو يشربُهُ لذلكَ لم تكن قادرةً على استخدامِ الجرعةِ.

في يومِ السبت التالي على هروبِ غرام أعدَّت غويندا لنفسِها عشاءً من الخضروات المسلوقةِ ولحمِ الخنزير المملح. كان الطعامُ في بيتِ ولفريك وفيراً ويكفي أربعةَ أشخاصٍ بالغين لذلكَ كانت تستطيعُ تناولَ القدرَ الذي تشاءَهُ. كانت الأماسي باردةً رغمَ حرِّ شهرِ تموز/ يوليو. بعد أن فرغَت من تناولِ طعامها وضعَت غويندا قطعةَ حطبٍ في موقدِ المطبخِ وجلسَت تراقبُها تحترقُ وهي تفكرُ في الحياةِ البسيطةِ المتوقعةِ التي عاشتها قبلَ أسابيع قليلةٍ وتأملت في عجبِ انهيارها تماماً مع انهيارِ جسرِ كينغزبريدج.

عندما فُتحَ البابُ اعتقدت أنَّ ولفريك قد عادَ، ومع عودتِهِ كانت تعودُ إلى حظيرةِ الأبقارِ إلَّا أنَّها كانت تستمتعُ بالكلماتِ اللطيفةِ القليلةِ التي كانا يتبادلانها قبلَ النومِ. نظرَت إلى الأعلى بشوقٍ متوقعةً رؤية وجهِهِ الوسيمِ إلَّا أنَّ مفاجأةً مزعجةً كانت في انتظارِها.

لم يكن ولفريك إنَّما والدها.

وإلى جانبِهِ وقفَ رجلٌ غريبٌ خشنُ المظهرِ.

نهضَت وقد اعتراها الخوفُ ثمَّ قالت: «ماذا تريد؟»

نبحَ كلبها سكيب بعدائيةٍ لكنَّه تراجعَ أمامَ جوبي في خوفٍ.

«حسناً يا صغيرتي لا داعي للخوفِ الآن فأنا والدكِ»، قالَ جوبي.

تذكَّرت بخوفٍ تحذيرَ والدتها الغامضَ في الكنيسةِ. «من هذا؟» سألتْه وهي تشيرُ إلى الرجلِ الغريبِ.

«إنَّه تاجرُ الجلودِ جونا من أبينغدون».

ربما كان جونا تاجراً في يومٍ من الأيامِ، فكَّرت غويندا بكآبةٍ، وربما كان من أبينغدون حقاً لكنَّ حذاءَهُ كان ممزقاً وثيابَهُ قذرةً كما بدا بشعرِهِ المُلبّدِ ولحيتِهِ الشعثاء أنَّه لم يذهب إلى الحلّاقِ منذُ عدَّةِ سنواتٍ.

أظهرَت غويندا شجاعةً أكبر مما أحسَّت به حين قالت: «ابتعد عني».

«أخبرتُكَ أنَّها فتاة مشاكسة لكنَّها طيبةٌ وقويةٌ». قالَ جوبي للرجلِ.

وهنا تحدَّثَ جونا للمرةِ الأولى قائلاً: «لا داعي للقلقِ، فقد روَّضتُ مُهراتٍ كثيراتٍ في حياتي»، ثمَّ لعقَ شفتيهِ وهو يتفحصُ غويندا التي تمنت لو أنَّها كانت ترتدي شيئاً آخر غيرَ فستانِ الصوفِ الخفيفِ.

لم ينتَبِ غويندا أدنى شكٍ في أنَّ والدَها نفَّذَ تهديدَهُ وباعَها مجدداً رغمَ اعتقادِها أنَّ مغادرتَها للمنزلِ ستجعلها آمنةً. لا بدَّ أنَّ سكانَ القريةِ لن يسمحوا باختطافِ عاملةٍ تعملُ لدى واحدٍ منهم، لكنَّ الظلامَ قد حلَّ ولن يدري أحدٌ بما جرى إلَّا بعدَ أن تبتعدَ عن القريةِ.

لم يكن هناكَ أحدٌ لمساعدتِها.

ولكن ورغم كل ذلكَ فهي لم تكن لتذهبَ من دونِ قتالٍ.

نظرَت حولَها في يأسٍ تبحثُ عن سلاحٍ ما. كانت قطعةُ الحطبِ بطولِها البالغ ثماني عشرةَ بوصة والتي وضعتْها في النارِ منذُ دقائق تشتعلُ من أحدِ طرفيها داخلَ الموقدِ بينما برزَ طرفُها الآخرُ خارجةً بشكلٍ مغرٍ فانحنت بسرعةٍ وسحبتها.

«إذاً، تريدين حلَّ الأمورِ بهذهِ الطريقةِ ولكن لا تودين إيذاءَ والدكِ العجوز، أليس كذلك؟» قالَ الرجلُ ثمَّ دنا منها.

انتابتها موجةٌ من الغضبِ العارمِ، فكيفَ يجرؤ على الإشارةِ إلى جوبي بصفتِهِ والدَها في الوقتِ الذي يحاولُ هذا الوالدُ بيعها؟ راودتْها الرغبةُ في إيذائِهِ على نحوٍ مفاجئ فقفزَت نحوه وهي تصرخُ غاضبةً وتدفعُ بالجذعِ المُحترقِ صوبَ وجهِهِ.

تراجعَ إلى الخلفِ لكنَّها استمرت بالتقدمِ نحوه وقد جنَّ جنونها. نبحَ كلبها سكيب باهتياجٍ بينما رفعَ جوبي يدَهُ ليحمي نفسَهُ وليحاولَ إبعادها إلَّا أنَّها كانت قويةً. فشِلَت ذراعاه العاليتان في إيقافِ اندفاعتِها حيثُ دفعَت بطرفِ الجذعِ الأحمرِ المشتعلِ نحو وجهِهِ. صرخَ متألماً من حرق في خدِّهِ واشتعلَت النارُ في لحيتِهِ القذرةِ ففاحَت رائحةٌ كريهةٌ للحمٍ يُشوى.

أمسكَها جونا من الخلفِ وأحاطَها بذراعيهِ ليثبّتَ ذراعيها إلى جانبيها. أفلتت الجذعَ المحترقَ من يدِها فاندلَعت النيرانُ على الفورِ في القشِّ على الأرضِ. ارتعدَ سكيب خوفاً من النارِ فركضَ خارجاً من المنزلِ. أخذَت غويندا تصارعُ وتتلوى وترمي بنفسِها من جانبٍ إلى آخرٍ لتفلت من قبضةِ جونا الذي كان قوياً بشكلٍ مفاجئٍ وقد رفعها عن الأرضِ. وظهرَ ظلٌّ طويلٌ عندَ المدخلِ، لم ترَ غويندا سوى هذا الظلِ الذي اختفى مجدداً. شعرَت بنفسِها وهي تُرمى على الأرضِ. بقيت مصدومةً للحظاتٍ وحين استعادَت رشدَها وجدَت جونا راكعاً قربَها يربطُ يديها بحبلٍ.

ظهرَ الظلُّ الطويلُ مجدداً فعرفَت غويندا أنَّه ولفريك. كان يحملُ دلواً كبيراً مصنوعاً من خشبِ البلوطِ. أفرغَ الماءَ فوقَ القشِّ المشتعلِ وأطفأ النارَ، ثمَّ أمسكَ بالدلو الفارغِ ولوَّحَ بهِ وضربَ جونا الراكع ضربةً قويةً على رأسِهِ.

أرخى جونا قبضتَهُ وحررَت غويندا يديها من الحبلِ. لوَّحَ ولفريك بالدلو مجدداً وضربَ جونا مرَّةً أخرى وبقوةٍ أكبر. أغمضَ جونا عينيهِ وسقطَ على الأرضِ.

أطفأ جوبي النار المشتعلةَ في لحيتِهِ بكميهِ ثم خرَّ على ركبتيهِ يئنُّ من الألمِ.

أمسكَ ولفريك بجونا الغائب عن الوعي من سترتِهِ.

«من هذا بحقِّ الجحيمِ؟» قال ولفريك.

«اسمهُ جونا، أرادَ والدي أن يبيعني له».

أمسكَ ولفريك بالرجلِ من حزامِهِ وحملَهُ إلى البابِ الأمامي ورماهُ في الشارعِ.

تأوه جوبي قائلاً: «ساعدني، وجهي يحترقُ».

«أساعدكُ؟ لقد أشعلتَ النارَ في منزلي وهاجمت عاملةً عندي وتريدُ مني أن أساعدَكَ؟ اخرج من هنا».

نهضَ جوبي على قدميهِ ومشا مترنِّحاً حتَّى وصلَ إلى البابِ وهو يئنُّ بشكلٍ مثيرٍ للشفقةِ. بحثَت غويندا عن شيءٍ من التعاطفِ في قلبِها ولكن عبثاً.

وذلكَ النزرُ اليسيرُ من الحبِّ الذي كان في قلبِها نحو والدها دمَّره جوبي اليومَ، ومع خروجِهِ من البابِ الأمامي تمنت ألّا يتحدثَ معها مُطلقاً.

دخلَ بيركن من البابِ الخلفي حاملاً مشعلاً. «ما الذي جرى؟ ظننتُ أنني سمعتُ صراخاً». رأت غويندا آنيت خلفَ والدها.

ردَّ ولفريك على السؤالِ: «لقد جاءَ جوبي إلى هنا بصحبةِ رجلٍ همجي آخر وحاولا أخذَ غويندا».

«يبدو أنَّكَ عالجت الأمرَ»، نخرَ بيركن قائلاً.

«من دون أيِّ صعوبةٍ»، أجابَ ولفريك وقد أدركَ أنّه ما يزالُ يحملُ الدلو في يدِهِ فرماه أرضاً.

قالت آنيت: «هل تأذيت؟»

«أبداً».

«هل تحتاجُ إلى أيِّ شيءٍ؟»

«أريدُ أن أنامَ فحسب».

فهمَ بيركن وآنيت ما رمى إليهِ فغادرا. لا يبدو أنَّ أحداً آخر قد سمعَ هذهِ الجلبةَ فأغلقَ الأبوابَ ونظرَ إلى غويندا على ضوءِ النارِ. «كيف حالك؟»

«أنا أرتجفُ». قالت وهي تجلسُ على المقعد وقد أسندَت مرفقيها إلى طاولةِ المطبخِ.

توجهَ إلى الخزانةِ وأخرجَ برميلاً صغيراً ثمَّ وضعَهُ على الطاولةِ وتناول كأسين عن الرَّفِّ. «اشربي بعضَ النبيذ لتهدّئي من روعِكِ».

وفجأةً أدركَت غويندا شيئاً. أيمكن أن تكونَ هذهِ فرصتُها؟ حاولَت أن تتمالكَ نفسَها فعليها أن تتصرفَ بسرعةٍ.

سكبَ ولفريك النبيذَ في الكأسين ثم استدارَ ليعيدَ البرميلَ إلى مكانِهِ.

لم يكن لدى غويندا سوى ثانية أو ثانيتين. عندما أدارَ ظهرَهُ أخرجَت من صدرِها الكيسَ الصغيرَ الذي علقتهُ بخيطٍ حولَ عنقِها. أخرجَت القارورةَ من الكيسِ ثمَّ فتحتها، وبيدٍ مرتعشةٍ أفرغتها في كوبِهِ.

استدارَ ولفريك عائداً وهي تعيدُ الكيسَ إلى صدرِها فتظاهرَت بأنَّها تسوي ملابَسَها. وكأيِّ رجلٍ عادي لم يلحظ أي شيءٍ مريبٍ وجلسَ قبالتها إلى الطاولةِ.

أمسكَت كوبَها ورفعتْه في نخبِهِ قائلةً: «شكراً لكَ. لقد أنقذتني».

«يدكُ ترتجفُ، لا بدَّ أنَّها كانت صدمةً بشعة».

وشربَ كلاهما النبيذَ.

تساءلَت غويندا كم ستستغرقُ جرعةُ الحبِ حتَّى يسري مفعولُها.

قالَ ولفريك: «لقد أنقذتني أنتِ بمساعدتي في الحقلِ. شكراً لك».

وشربا مجدداً.

«لا أدري أيهما أسوأ. أن يكونَ للمرءِ والد كوالدي، أو أن يكونَ بلا أبٍ مثلكَ».

«أشعرُ بالأسفِ لحالكِ، فأنا على الأقلِّ لدي ذكرياتٌ طيبةٌ عن والديّ»، قالَ ولفريك ثمَّ شربَ ما بقي في كأسِهِ وقالَ: «عادةً لا أشربُ النبيذَ فأنا أكرهُ الشعورَ بالدوارِ، لكن هذا النبيذ رائعٌ».

راقبتهُ غويندا بعنايةٍ. قالت ماتي وايز أنَّ جرعةَ الحبِّ ستفتنُهُ. ترقَّبَت غويندا الإشارات؛ لا بدَّ أنَّه ينظرُ إليها الآن كأنَّه يراها لأوَّلِ مرَّةٍ.

قالَ بعدَ برهةٍ: «أتعلمين، لديكِ وجهٌ جميلٌ يشعُّ بالكثيرِ من اللطفِ».

كانَ من المفترضِ الآن أن تستخدمَ حيلَها الأنثويةِ لإغرائِهِ، إلَّا أنَّها أدركَت في ذعرٍ أنَّها لم تتدرب على مثلِ هذهِ الأمورِ؛ النساءُ من أمثالِ آنيت يفعلنَ ذلكَ طيلةَ الوقتِ.

وعندما تذكّرت كيفَ تبتسمُ آنيت بحياءٍ أو تحرّك شعرَها أو تغمزُ بعينيها، لم تستطع حملَ نفسِها على تجريبِ ذلكَ لأنَّها ستشعرُ بالغباءِ لفعلها هذا.

قالت وهي تحاولُ كسبَ الوقتِ: «أنتَ لطيفٌ ولكن وجهَكَ يوحي بشيءٍ آخر».

«بماذا؟»

«بذاكَ النوعِ من القوَّةِ التي تأتي مع العزمِ وليسَ مع العضلاتِ الكبيرةِ».

ابتسمَ ابتسامةً عريضةً ثمَّ قالَ: «أشعرُ بالقوةِ اليومَ. قُلتِ إنَّه لا يمكنُ لرجلٍ أن يحرثَ عشرين فداناً، لكنني أشعرُ أنني قادرٌ على فعلِ ذلكَ الآن».

وضعَت يدَها على يدِهِ فوقَ الطاولةِ وقالت: «تمتع بفترةِ راحتك الآن فهناكَ متسعٌ من الوقتِ للحراثةِ».

نظرَ إلى يدِها الصغيرةِ فوقَ يدِهِ الكبيرةِ ثمَّ قالَ كأنّه اكتشفَ حقيقةً مذهلةً: «لون بشرتنا مختلفٌ».

«انظري. بشرتكِ سمراء وبشرتي زهرية».

«بشرةٌ مختلفةٌ وشعرٌ مختلفٌ وعينان مختلفتان، أتساءل كيفَ سيبدو أطفالنا».

ابتسمَ لهذهِ الفكرة ثم تبدّلت تعابيرُ وجهِهِ كما لو أنّه أدركَ أنَّ ثمّةَ خطباً في ما قالتهُ إذ أصبحت ملامحُهُ قاسيةً فجأةً. وكانت ستعتبر هذا التغير فكاهياً لو لم تكن تهتمُ بمشاعرِهِ تجاهَها. «لن ننجبَ أطفالاً»، قالَ بجديّةٍ ثمّ سحبَ يدَهُ.

«دعنا لا نفكرُ في هذا»، قالت بيأسٍ.

«ألا تتمنين أحياناً أن...» وخفَتَ صوتُهُ.

«أن ماذا؟»

«ألا تتمنين أحياناً أن يكونَ للكلماتِ وقعٌ مختلفٌ عما هي عليهِ؟»

نهضَت والتفَّت حولَ المائدةِ ثمَّ جلسَت بالقربِ منهُ.

قالت: «لا تتمنَّ فحسب. نحن وحدنا الآن والليلُ يلفُّنا، يمكنكَ فعلُ أيِّ شيءٍ». ونظرَت في عينيهِ مباشرةً ثمَّ تابعَت: «أيّ شيءٍ».

حدَّق إليها أيضاً فرأت ذاكَ التوقَ في عينيهِ، وأدركَت بشيءٍ من الانتصارِ أنّه يريدُها أيضاً. تطلَّبَ الأمرُ جرعةَ حبٍ لتحريكِ تلكَ الرغبةِ لكنَّها كانت رغبةً حقيقيةً بشكلٍ جليٍّ.

إنّه لا يريدُ شيئاً في العالمِ الآن أكثر من أن يمارسَ الحبَّ معَها.

مع ذلكَ لم يقم بأيِّ حركةٍ في هذا الاتجاهِ.

أمسكَت يدَهُ وأدنتها من شفتيها فلم يقاوم.

كانت يدهُ كبيرةً وأصابعُهُ خشنةً فضغطَت براحته على شفتيها. قبّلتها ولعقتها بطرفِ لسانِها ثمَّ ضغطَت بيدِهِ على أحدِ ثدييها.

أحكمَ يدَهُ على ثديها مما جعلَهُ يبدو صغيراً للغايةِ. افترَّت شفتاهُ قليلاً فلاحظَت أنّه كانَ يتنفسُ بصعوبةٍ. أمالت رأسَها للخلفِ لكي يقبّلَها لكنَّه لم يفعل شيئاً.

نهضَت بسرعةٍ ونزعَت فستانَها من فوقِ رأسِها وألقتهُ على الأرضِ. وعلى ضوءِ النارِ وقفَت أمامَهُ عاريةً. حدَّقَ إليها وقد اتسعَت عيناه وفغرَ فاه كما لو أنّه يرى معجزةً تقعُ أمامهُ.

أمسكَت يدَهُ مجدداً لكنَّها في هذهِ المرّة لامسَت بها تلكَ البقعةَ الناعمةَ، مثلثَ الشعرِ، بينَ فخذيها.

كانت البقعةُ رطبةً جداً فانزلقَت إصبعَهُ داخلَها وتأوهَت مستمتعةً.

لم يكن يقومُ بشيءٍ بمحضِ إرادتِهِ فأدركَت أنَّ الترددَ أصابَهُ بالشللِ. كانَ يريدها لكنَّه لم ينسَ آنيت. يمكنُ لغويندا أن تحركَهُ كدميةٍ طيلةَ الليلِ إلى أن تمارسَ الجنسَ مع جسدِهِ الجامدِ، لكن هذا لن يغيرَ في الأمرِ شيئاً فقد كانت بحاجةٍ لأن يتخذَ هو زمامَ المبادرةِ.

انحنَت للأمامِ وهي ما تزالُ ممسكةً بيدِهِ على فخذِها.

«قبِّلني»، قالت له وأدنَت وجهها منهُ، «أرجوكَ». كان فمُها على بعدِ بوصةٍ عن فمِهِ. لم تكن لتقتربَ أكثر إذ كان عليهِ هو أن يملأ فراغَ هذهِ البوصةِ.

لكنَّهُ تحرَّكَ فجأةً.

سحبَ يدَهُ وأشاحَ وجههُ ثمَّ نهضَ.

«هذا أمرٌ خاطىء»، قال ولفريك.

وعلمَت حينَها أنّها خسرَت.

ملأت الدموعُ عينيها فالتقطَت فستانها عن الأرضِ وحملتْهُ أمامَها لتغطي عريها.

«أنا آسفٌ. لم يكن ينبغي لأيٍّ من هذا أن يحصلَ. لقد ضلّلتكِ وكنت فظّاً معكِ».

«لا لستَ كذلكَ، فأنا من ضللتكَ وأنا من كنتُ فظّةً. لقد كنتَ قوياً جداً ومخلصاً ووفياً جداً. أنت أفضل من أن تكون معي». فكّرت بكلِّ ذلكَ لكنَّها لم تقل شيئاً.

أبقى نظرَهُ بعيداً عنها ثمَّ قالَ: «يجب أن تذهبي إلى الحظيرةِ لتنامي. ستكونُ مشاعرنا مختلفة في الصباحِ، وقد تكون الأمورُ على ما يرامُ حينها».

ركضَت من البابِ الخلفي غيرَ مكترثةٍ لارتداءِ ملابسِها. كان ضوءُ القمر ساطعاً لكن ما من أحدٍ هناك ليراها ولم تكن لتهتمَّ بأيِّ حالٍ. وما هي إلا ثوانٍ حتَّى كانت داخلَ الحظيرةِ.

في أحدِ طرفَي المبنى الخشبي هناكَ طابقٌ علوي يوضعُ فيهِ القشُّ النظيفُ حيث كانت تعدُّ سريرَها كل ليلةٍ. صعدَت السلَّمَ وألقَت بنفسِها أرضاً يلفُّها بؤسٌ شديدٌ جعلها غير مكترثة لوخزاتِ القشِّ على جسدِها العاري. ومسربلةً بعارِها وخيبتِها انتحبَت.

عندما هدأت أخيراً وقفَت وارتدَت فستانَها ثمَّ لفَّت الغطاءَ حولَها. خُيِّلَ

إليها حينها أنَّها تسمعُ وقعَ خطواتٍ في الخارجِ فنظرَت من خلالِ فتحةٍ في جدارِ الجصِّ والقشِّ.

كانت قادرةً على الرؤيةِ بوضوحٍ حيثُ القمرُ مُكتملٌ تقريباً. كان ولفريك في الخارجِ ويتجهُ نحو بابِ الحظيرةِ.

رقصَ قلبُ غويندا فربما لم ينتهِ الأمرُ بعد، إلَّا أنَّه ترددَ عندَ البابِ وذهبَ مُبتعداً. عادَ إلى المنزلِ ثمَّ استدارَ عندَ بابِ المطبخِ ليتوجَهَ نحو الحظيرةِ مجدداً ويرجع عنها مرَّةً أخرى.

رأتهُ يسيرُ ذهاباً وإياباً وقلبُها يخفقُ بشدَّةٍ إلَّا أنَّها لم تتحرك ولم تفعل شيئاً فقد قامت بكلِّ ما بوسعِها لتشجعيهِ.

عليه هو أن يقومَ بالخطوةِ الأخيرةِ.

توقفَ عندَ بابِ المطبخِ. وسقطَ ضوءُ القمرِ على جسدِهِ بوضعِهِ الجانبي كخيطٍ فضِّي يمتدُ من رأسِهِ حتَّى قدميهِ.

رأتهُ يضعُ يدَهُ في سروالِهِ وعرفَت تماماً ما الذي كان يوشكُ على فعلِهِ فقد رأت شقيقها الأكبر يفعلُ الأمرَ ذاتَهُ، وسمعَت ولفريك يتأوه وهو يفركُ عضوهُ بيدِهِ بطريقةٍ تحاكي ممارسةَ الجنسِ. حدَّقت إليهِ وبدا جميلاً تحتَ ضوءِ القمرِ. وأحسَّت بقلبِها على وشكِ الانفجارِ وهي تشاهدُهُ يهدرُ شهوتَهُ أمامَ عينيها.

-20-

قامَ غودوين بمناورة الإطاحةِ بالأعمى كارلوس في يوم الأحدِ السابقِ لعيدِ القديس أدولفوس.

تُقامُ في مثلِ هذا اليوم من كلِّ عامٍ مراسم خاصَّةٌ في كاتدرائيةِ كينغزبريدج حيثُ يقومُ رئيسُ الديرِ بحملِ رفاتِ القديسِ والطوافِ بها في الكنيسةِ ويتبَعُهُ موكبُ الرهبانِ وهم يصلّونَ طلباً لحصادٍ جيِّدٍ.

وكالعادةِ تُلقى على عاتقِ غودوين مهمةُ تجهيزِ الكنيسةِ ابتداءً من وضعِ الشموعِ إلى تجهيزِ البخورِ ونقلِ الأثاثِ بمساعدةِ مجموعةٍ من الرهبان المبتدئين والموظفين من أمثالِ فيليمون.

يتطلب الاحتفال بعيدِ القديسِ أدولفوس وجودَ مذبحٍ ثانوي وهو عبارة عن طاولةٍ خشبيَّةٍ مزخرفةٍ بإتقانٍ توضعُ على منصَّةٍ يمكنُ تحريكُها في أرجاءِ

الكنيسةِ عندَ الحاجةِ. وضعَ غودوين المذبحَ عندَ الطرفِ الشرقي للممرِ ووضعَ عليه زوجاً من الشمعدانات الفضيَّةِ المطليَّةِ بالذهبِ إلَّا أنَّه كان قلقاً ويُعملُ التفكيرَ بموقفهِ.

أما وقد أقنعَ توماس بالترشح لانتخاباتِ رئيسِ الديرِ فإنَّ خطوتَهُ التالية تتمثلُ في إقصاءِ المعارضةِ. من المفترضِ أن يكون كارلوس هدفاً سهلاً ولكن لا يجب أن يكون هناكَ خسائر إذ لا يريدُ غودوين أن يظهرَ بمظهرِ القاسي.

في منتصفِ المذبحِ وضعَ غودوين صليباً قديماً وصليباً ذهبياً مرصَّعاً بالجواهرِ احتوى في داخلِهِ على خشبٍ من «الصليب الأصلي».

كان هذا الخشبُ جزءاً من الخشبِ الحقيقي لصليبِ المسيح وقد عثَرت عليه بأعجوبةٍ هيلينا والدةُ قسطنطين العظيم منذُ ألف عامٍ، ووجدَت قطعٌ منهُ طريقَها إلى الكنائسِ في جميعِ أنحاءِ أوروبا.

وبينما كان غودوين يرتِّبُ لكلِّ ذلكَ على المذبحِ رأى الأم سيسيليا في الجوارِ فتوقَّف عن العملِ ليتحدَّثَ إليها قائلاً: «أرى أنَّ الإيرل رولاند قد استعادَ وعيهُ. المجدُ للرَّبِّ».

ردَّت قائلةً: «آمين. لقد عانى من الحمَّى لفترةٍ طويلةٍ وخشينا على حياتِهِ. لا بدَّ أنَّ بعضَ المياه الشريرةِ دخلَت دماغَهُ عندما كُسرت جمجمتُهُ ولهذا كانَ يهذرُ بكلامٍ لا معنى له ولكنهُ استيقظَ هذا الصباح ويتكلَّمُ بشكلٍ طبيعي».

«لقد عالجتِهِ».

«بل الرَّبُّ من فعل».

«على أيِّ حالٍ يجب أن يكون الإيرل ممتناً لكِ».

ابتسمَت قائلةً: «مازلتَ شاباً أيّها الأخُ غودوين، وستتعلمُ أنَّ أصحابَ السلطةِ لا يُظهرون الامتنانَ أبداً فمهما فعلنا من أجلِهم سيعتبرونَهُ حقاً لهم».

انزعَج غودوين من محاولتها التصرفَ بتواضعٍ إلَّا أنّه أخفى انزعاجَهُ فقال: «يمكننا أخيراً إجراءُ الانتخاباتِ».

«من سيربحُ؟»

«قطعَ عشرةُ رهبانٍ وعداً جازماً بالتصويتِ لمصلحة كارلوس مقابلَ سبعة أصواتٍ لتوماس، وإذا ما حسبنا صوتي المرشحَين تصبح النتيجةُ أحدَ عشر صوتاً مقابلَ ثمانيةٍ، مع وجودِ ستةٍ حياديين».

«إذاً، فقد يربحُ أيُّ واحدٍ منهما».

«لكن كارلوس في الصدارةِ، أمّا توماس فيمكنُه أن يربح إن دعمتِهِ».

«لا يحقُّ لي التصويت».

«ولكنَّكِ شخصيةٌ مؤثرةٌ؛ فإن قُلتِ إنَّ الديرَ بحاجةٍ إلى ضوابط أكثرَ صرامة وإنَّه بحاجةٍ إلى بعضِ الإصلاحاتِ وإنَّكِ تشعرين بأنَّ توماس هو الأجدر لتنفيذِ هذا البرنامج فستؤثرين بذلكَ على قرارِ بعضِ المترددين».

«لا ينبغي أن أنحازَ لأحدٍ».

«ربما ولكن يمكنكِ القولُ إنَّكَ لن تستمري بدعمِ الرهبان ما لم يتصرفوا بأموالهم بشكلٍ أفضلٍ. ما الخطأ في ذلكَ؟»

لمعَت عيناها الذكيتان بمرحٍ إذ لم يكن من السهلِ إقناعُها، وقالت «ستكونُ تلكَ رسالةً مشفَّرةً لدعمِ توماس».

«أجل».

«أنا ملتزمةٌ بالحيادِ تماماً، وسأكونُ سعيدةً بالعملِ مع أيٍّ ممن يختارهُ الرهبان. هذا آخرُ كلامٍ لدي أيُّها الأخ غودوين».

أحنى غودوين رأسَهُ باحترامٍ ثمَّ قالَ: «أحترمُ قرارَكِ بالطبعِ».

أومأت برأسِها ثمَّ انصرفَت.

سُرَّ غودوين لذلكَ إذ لم يتوقعها قط أن توافقَ على توماس فقد كانت شخصيَّةً محافظةً ويعلمُ الجميعُ أنَّها تفضلُ كارلوس، لكن يمكن لغودوين الآنَ أن يشيعَ أنَّها ستوافقُ في حالِ فوزِ أيٍّ منهما. لقد قوَّضَ غودوين دعمَها الضمني لكارلوس. قد تعترضُ عندما تعرف باستغلالِهِ لكلماتِها إلَّا أنَّها لن تتراجعَ عن حيادِها.

«أنا ذكي جداً وأستحقُّ أن أكونَ رئيساً للديرِ»، فكّر غودوين.

كانت حياديةُ سيسيليا مفيدةً لكنَّها غيرُ كافيةٍ لهزيمةِ كارلوس، لذا كان غودوين بحاجةٍ إلى أن يقدّمَ للرهبانِ دليلاً حيَّاً على عدمِ قدرةِ كارلوس على قيادتِهم، وكان اليوم يتحينُ بقلقٍ الفرصةَ المواتيةَ لذلكَ.

كان كارلوس وسيميون في الكنيسةِ يتدربان على أداءِ المراسم، وبصفتِهِ رجلَ الدينِ الأول كان على كارلوس أن يقودَ الموكبَ حاملاً صندوقَ رفاتِ القديس المصنوعَ من العاجِ والذهبِ. رأى غودوين كارلوس وهو يعدُّ خطواتِه بمساعدةِ صديقِه الحميمِ سيميون وأمينِ الصندوقِ حتَّى يتمكن من أداءِ المراسمِ بمفردِهِ.

أُعجبَ المتواجدون بكارلوس وهو يتحرَّكُ بثقةٍ رغمَ أنَّه أعمى وبدا كأنَّهم

يشهدونَ معجزةً صغيرةً. يبدأ الموكب دائماً من الطرفِ الشرقي للكنيسةِ حيث يُحفظُ الرفاتُ تحتَ المذبحِ الكبيرِ، ثمَّ يقومُ رئيسُ الديرِ بفتحِ الخزانةِ وأخذِ صندوقِ الرفاتِ ليحملَهُ على طولِ الممرِ الشمالي للهيكلِ ثمَّ يتابعُ حول الجناحِ الشمالي وصولاً إلى الممرِ الشمالي لصحنِ الكنيسةِ ليعبرَ الطرفَ الغربي ويعودَ إلى وسطِ صحنِ الكنيسةِ ثمَّ إلى نقطةِ التقاطعِ حيثُ سيصعدُ درجتين ويضع الصندوقَ على المذبحِ الثاني الذي أعدَّهُ غودوين. سيبقى الرفات المقدس هناكَ ليتمكنَ الجميعُ من النظرِ إليهِ طوالَ فترةِ المراسمِ.

جالَ غودوين ببصرِهِ في أرجاءِ الكنيسةِ فوقعت عيناه على الإصلاحاتِ التي كانت تجري في الممرِ الجنوبي للهيكلِ فاقتربَ ليُلقي نظرةً على ما أحرزهُ البناؤون من تقدم. لم يعد ميرثن يعملُ على هذهِ الإصلاحاتِ بعدَ أن أقالَهُ إلفريك لكنَّ طريقتَهُ البسيطةَ والمذهلةَ كانت ما تزال مُتَبعةً، فبدلاً من القوالبِ الخشبيةِ الباهظةِ التكلفةِ والمستخدمةِ لتدعيمِ البناءِ الجديدِ إلى حين ثباتِ الملاطِ، وضعوا كلَّ حجرٍ في مكانهِ تماماً بالاستعانةِ بحبلٍ بسيطٍ مُثقل بحجرٍ يمرُّ فوقَ الحافةِ الطويلةِ لكلِّ حجرٍ. لا يمكنُ استخدامُ هذا الطريقةِ في بناءِ أضلاعِ القنطرةِ المكونةِ من حجارةٍ طويلةٍ ورفيعةٍ موصولةٍ بعضها ببعض لذا كان لا بدَّ من صنعِ قوالب لها، وقد وفّرَ ميرثن بهذا على الديرِ ثروةً صغيرةً كان سينفقُها على الإصلاحاتِ.

أدركَ غودوين مدى عبقريةِ ميرثن إلّا أنّه لم يكن يرتاحُ إليه ويفضلُ العملَ مع إلفريك الذي كان جديراً بالثقةِ من جهةٍ وأداةً طيّعةً لا تسببُ أيّ مشاكلَ من جهةٍ ثانيةٍ، في الوقت الذي سيُفضلُ فيهِ ميرثن العملَ بأسلوبهِ وعدمَ الانصياعِ للآخرين.

غادرَ كارلوس وسيميون الكنيسةَ بعدَ أن أصبحت جاهزةً لأداءِ المراسمِ.

صرفَ غودوين جميعَ الرجالِ الذين كانوا يساعدونَهُ ما عدا فيليمون الذي كان يكنسُ أرضيةَ الممرِّ.

ولبرهةٍ وجيزةٍ كانت الكاتدرائية العظيمة فارغةً إلّا منهما.

كانت هذه فرصةَ غودوين؛ فالخطةُ التي وضعَ نصفَها بدَت مكتملةً الآن في ذهنِهِ. ورغمَ ترددِهِ في تنفيذها لكونها محفوفةً بالمخاطرِ فإنَّه قرّرَ المقامرةَ.

أشارَ إلى فيليمون قائلاً: «هيا بسرعةٍ، حرّكِ المنصةَ إلى الأمامِ لمسافةِ ياردةٍ».

في معظمِ الوقتِ لم تكن الكاتدرائيةُ بالنسبةِ لغودوين سوى مكان يستخدمُ للعملِ ويجبُ ترميمُهُ. كانت مصدراً للدخل وعبئاً مالياً في الوقتِ ذاتِهِ. لكن في مناسبةٍ كهذهِ تستعيدُ الكاتدرائيةُ عظمتَها حيث تضاءُ الشموعُ ويتألقُ انعكاسها على الشمعدانات المذهّبة، وينسلُّ الرهبانُ والراهبات بثيابهم المميزةِ من بينِ الأعمدةِ الحجريةِ القديمةِ وتتعالى أصواتُ الجوقةِ تحتَ القنطرةِ المرتفعةِ، ولذلكَ لا عجبَ أنْ يسكتَ المئاتُ من سكانِ البلدةِ المجتمعين وهم يشاهدونَ المراسمَ.

مع بدءِ الرهبانِ بالترتيلِ قادَ كارلوس الموكبَ، وعن طريقِ اللمسِ فتحَ الحُجرة الموجودةَ تحتَ المذبحِ الكبيرِ وأخرجَ صندوقَ الرفاتِ المصنوعَ من العاجِ والذهبِ. رفعَهُ عالياً ثم بدأ بالسيرِ في أرجاءِ الكنيسةِ. بدا بلحيتِهِ البيضاء وعينيهِ اللتين لا تبصران، صورةً عن البريء المقدَّسِ.

هل سيسقطُ في الفخِ الذي أعدَّه له غودوين؟ لقد كان فخاً بسيطاً وسهلاً جداً. على بُعدِ خطواتٍ قليلةٍ خلفَ كارلوس، عضَّ غودوين شفتَهُ محاولاً البقاءَ هادئاً.

كان حشدُ المُصلّين مذهولاً، وما انفكَّ غودوين يتعجبُ من قابليةِ التلاعبِ بهم فهم لم يروا العظامَ يوماً، ولو تمكنوا من رؤيتِها لما استطاعوا تمييزها عن أيِّ بقايا بشريةٍ أخرى. لكن بسبب هذا الإسرافِ المفرطِ في تزيينِ الصندوقِ والجمال الغريب للتراتيلِ وأرديةِ الرهبان والراهبات والبناءِ الشاهقِ الذي بدَوا داخلَهُ كأقزامٍ كانوا يشعرون أنّهم في حضرةِ شيءٍ مقدَّسٍ.

راقبَ غودوين كارلوس بعنايةٍ. وعندما وصلَ إلى منتصفِ الفسحةِ أقصى الجهةِ الغربيةِ للممرِّ الشمالي، انعطفَ يساراً بحدَّةٍ. توقفَ سيميون في استعدادٍ لتصحيحِ سيرِ كارلوس إن أخطأ في التقديرِ لكن لم يكن ذلك ضرورياً. كان هذا أمراً جيداً؛ فكلما زادَت ثقةُ كارلوس زادَ احتمالُ تعثرِهِ في اللحظةِ الحاسمةِ.

توجَّهَ كارلوس وهو يعدُّ خطواتِهِ إلى وسطِ صحنِ الكنيسةِ تماماً ثمَّ استدارَ مجدداً ليتوجَّهَ مباشرةً نحو المذبحِ. وعندَ الإشارةِ توقفت الجوقةُ عن الترتيلِ واستمرَّ الموكبُ في صمتٍ مهيبٍ.

وفكرَ غودوين أنَّ الأمرَ أشبه بتلمسِ المرءِ لطريقِهِ إلى المرحاضِ في منتصفِ الليلِ. أدى كارلوس هذهِ الطقوسَ لمراتٍ عديدةٍ خلال حياته، لكنَّه الآن يقومُ بذلكَ وهو يقودُ الموكبَ وهذا ما أثارَ توترَهُ بالتأكيدِ رغمَ أنّه بدا هادئاً.

وحدَها حركاتُ شفتيهِ فضحت أمره وأنّه كان يعدُّ خطواتِه، إلّا أنَّ غودوين عملَ على أن تكون حساباتُهُ خاطئةً، فهل سيجعلُ من نفسِهِ أضحوكةً؟ أم سيتدبرُ أمرَه بطريقةٍ ما؟

ألقى مرور الرفاتِ المقدَّسِ الخشيةَ في نفوسِ الموجودين فتراجعوا إلى الخلفِ. كانوا يعلمونَ أنَّ لمسَ الصندوقِ قد يصنعُ المعجزاتِ، لكنَّهم يعتقدون أيضاً أنَّ عدمَ احترامِ الرفات سيأتي بعواقب وخيمةٍ، فقد كانت أرواح من ماتوا حاضرةً تراقبُ رفاتَها إلى حين قيامِ الساعةِ، وأولئكَ ممن عاشوا حياةً مقدَّسةً تمتعوا بقوىً لا محدودةٍ تمكنهم من مكافأةِ الأحياءِ أو معاقبتِهم.

وجالت في ذهنِ غودوين فكرةً بأنَّ القديسَ أدولفوس قد يكون منزعجاً منهُ لما خطَّطَ لحدوثِهِ في كاتدرائيةِ كينغزبريدج فارتجفَ خوفاً للحظةٍ، ثمَّ ما لبثَ أن طمأنَ نفسَهُ فقد كانَ يقومُ بذلكَ من أجلِ مصلحةِ الديرِ الذي يحتضنُ العظامَ المقدَّسةَ وأنَّ القديسَ الحكيمَ الذي يمكنُهُ سبرُ غورِ الرجالِ سيدركُ أنَّ ما فعلهُ غودوين هو من أجلِ خيرِ الدير.

أبطأ كارلوس سيرَهُ عندما اقتربَ من المذبحِ لكنَّه استمرَّ بعدِّ خطواتِه. حبسَ غودوين أنفاسَهُ حين بدا كارلوس متردداً وهو يخطو الخطوةَ التي يجبُ أن تقرِّبَه قليلاً، وفقاً لحساباتِهِ، من المنصةِ التي وُضعَ عليها المذبحُ. وقفَ غودوين يراقبُ في عجزٍ وخوفٍ من حدوثِ تغييراتٍ في اللحظةِ الأخيرةِ.

بعدها وبكلِّ ثقةٍ خطا كارلوس إلى الأمامِ.

ارتطمَت قدمُهُ بحافةِ المنصَّةِ وأقربَ بياردةٍ مما كان يتوقعُ. كسرَ صوتُ صندلِه الذي ارتطمَ بالخشبِ المجوف صمتَ المكانِ، ثمَّ صرخَ مذعوراً ومصدوماً. ودفعَهُ زخمُ حركتِهِ نحو الأمامِ.

دغدغَ غودوين شعورٌ بالنصرِ إلّا أنَّ ذلكَ لم يدم سوى للحظةٍ واحدةٍ لتحلَّ الكارثةُ بعدَها.

اندفعَ سيميون ليمسكَ بذراعِ كارلوس لكنَّ الأوان كان قد فات فقد سقطَ الصندوقُ من بين يدي كارلوس فشهقَ جميعُ الحاضرين وقد اعتراهم الخوفُ. ارتطمَ الصندوقُ الثمين بالأرضيَّةِ الحجريةِ فانفتحَ الغطاءُ وتبعثرَت عظامُ القديس، ثم ارتطمَ كارلوس بالمذبحِ الخشبي الثقيلِ والمزخرفِ ودفعَهُ عن المنصَّةِ فسقطَت كلُّ الحلي والشموع على الأرضِ.

ذُعرَ غودوين مما رآه فقد كان ذلكَ أسوأ بكثيرٍ مما خططَ له.

تدحرجَت جمجمةُ القديسِ على الأرضِ لتستقرَ عند قدمي غودوين.

لقد نجحَت خطتُهُ ولكنها خرجت عن نطاقِ السيطرةِ. أرادَ لكارلوس أن يفشلَ وأن يظهرَ بمظهرِ العاجزِ لكنَّه لم يقصد تدنيسَ الرفاتِ المقدَّسِ. حدَّقَ مذعوراً إلى الجمجمةِ المُلقاةِ على الأرضيةِ وقد بدَت بعينيها الفارغتين كأنّها تنظرُ إليهِ نظرةَ اتهامٍ. فما العقوبةُ المروعةُ التي ستحلُّ عليهِ؟

هل سيتاحُ له التعويضُ عن جريمةٍ كهذهِ؟

ولأنّه كان يتوقعُ حدوثَ هذا كانت صدمتُهُ أقلَّ من صدمةِ الآخرين وكان أولَ من استعادَ تركيزهُ. ومن مكانِهِ فوقَ العظامِ رفعَ ذراعيهِ وصاحَ ليعلو بصوتِهِ على كلِّ الجلبةِ التي عمَّت المكانَ قائلاً: «فليركع الجميعُ. يجب أن نصلي».

ركعَ في الحالِ أولئكَ الواقفون في المقدمةِ ليحذو البقيةُ حذوهم على عجلٍ. بدأ غودوين بتلاوةِ صلاةٍ معروفةٍ ثمَّ انضمَّ إليهِ الرهبانُ والراهبات، وعندما ضجَّت الكنيسةُ بالترانيمِ عدَّلَ غودوين الصندوقَ الذي كان سليماً ثم تحرَّكَ ببطءٍ مصطنعٍ وحملَ الجمجمةَ بيديه. كان يرتجفُ من الخوفِ بسببِ الخرافاتِ التي سمعها عن الرفاتِ إلّا أنّه نجحَ بالإمساكِ بها.

حملَ الجمجمةَ ووضعَها داخلَ الصندوقِ وهو يتلو الصلاةَ باللاتينيةِ.

رأى كارلوس وهو يجاهدُ للوقوفِ على قدميهِ فأشارَ إلى اثنتين من الراهبات قائلاً: «خذا رئيسَ الديرِ إلى المستشفى. أيّها الأخ سيمون، أيتها الأخت سيسليا هلا ذهبتما معه».

التقطَ عظمةً أخرى وهو ما يزال خائفاً ومدركاً أيضاً أنّه المسؤول عمّا جرى أكثر من كارلوس، إلّا أنَّ نواياه كانت طيبةً وكان ما يزالُ يأملُ في تهدئةِ روحِ القديسِ. وفي الوقتِ ذاتِهِ أدركَ أنَّ الحاضرين سينظرونَ بعينِ الرضا إلى ما يقومُ بِهِ فها هو يتولى المسؤوليةَ في هذهِ الأزمةِ كما يجدرُ بالقائدِ الحقيقي أن يفعل.

على أيِّ حالٍ لم يكن بوسعهِ إطالةُ لحظةِ الرعبِ والهلعِ هذه فقد كانَ بحاجةٍ لجمعِ العظامِ بسرعةٍ أكبر. «أيُّها الأخ توماس، أيُّها الأخ ثيودوريك تعالا وساعداني». تقدَّمَ فيليمون إلى الأمامِ لكنَ غودوين لوّحَ له ليتراجعَ فهو لم يكن راهباً ووحدهم رجالُ الدينِ من يستطيعونَ لمسَ العظامِ المقدَّسةِ.

خرجَ كارلوس من الكنيسةِ وهو يعرجُ ويساعدهُ سيمون وسيسليا تاركاً غودوين وقد أصبحَ سيدَ الموقفِ بلا منازعٍ.

نادى غودوين على فيليمون وعلى موظفٍ آخر يدعى أوثو وطلبَ إليهما أن

يعدلا المذبحَ، فوضعاه بشكلٍ مستقيمٍ فوقَ المنصَّةِ. التقطَ أوثو الشمعدانات بينما حملَ فيليمون الصليبَ المرصَّع ووضعوها بوقارٍ على المذبحِ ثم جمعا الشموعَ المبعثرةَ.

بعد أن جُمعت العظامُ كلُّها أرادَ غودوين أن يغلقَ الصندوقَ إلّا أنَّ الغطاءَ كان ملتوياً فلم يُغلق الصندوق. حاولَ غودوين إغلاقهُ قدرَ الإمكانِ ثم وضعَه على المذبحِ بطريقةٍ احتفاليةٍ.

وهنا تذكرَ غودوين أنَّه يحاولُ تسليطَ الضوءِ على توماس ليكونَ رئيساً للديرِ فأمسكَ بالكتابِ الذي كان يحملُهُ سيمون وأعطاهُ إلى توماس الذي لم يكن بحاجةٍ لأن يخبرَه أحدٌ بما عليهِ فعلهُ، ففتحَ الكتابَ على الصفحةِ المطلوبةِ وبدأ بالقراءةِ. وقفَ الرهبانُ والراهبات على جانبي المذبحِ يرتلون المزمورَ بقيادةِ توماس.

وبطريقةٍ ما تمكنوا من إتمامِ المراسمِ.

ما إن خرجَ غودوين من الكنيسةِ حتَّى بدأ يرتجفُ؛ فالكارثةُ كانت قابَ قوسين إلّا أنَّه نجا منها.

عندما وصلَ الموكبُ إلى الأروقةِ ثمَّ تفرَّقَ انطلقَ الرهبان يتحدثونَ بحماسٍ. استندَ غودوين إلى أحدِ الأعمدةِ محاولاً استعادةَ توازنِهِ واستمعَ إلى تعليقاتِ الرهبان، هناكَ من شعرَ بأنَّ تدنيسَ الرفاتِ هو إشارةٌ من الرَّبِّ بأنَّه لا يريدُ كارلوس رئيساً للدير، إلَّا أنَّ معظمهم أعربوا عن تعاطفهم مع كارلوس، وأثارَ هذا خوفَ غودوين فلم يرغب بأن يقودَ هذا إلى موجةِ تعاطفٍ مع كارلوس.

لملمَ غودوين شتاتَ نفسِهِ ثمَّ سارعَ إلى المستشفى. كان عليهِ أن يرى كارلوس وهو ما يزال مُحبطاً وقبلَ أن يصلَهُ خبرُ تفهمِ الرهبانِ لما حدثَ.

كان رئيسُ الديرِ جالساً على السريرِ وقد ضُمِّدَ رأسُهُ وعُلقت ذراعُهُ على حمَّالةٍ. بدا شاحباً وكان يرتعش ووجهه ينتفضُ بعصبيةٍ بينَ الفينةِ والأخرى بينما وقفَ سيمون إلى جوارِهِ.

رمقَ سيمون غودوين بنظرةٍ قذرةٍ ثمَّ قال: «أعتقدُ أنَّكَ سعيدٌ الآن».

تجاهلَهُ غودوين وتوجه بحديثِهِ إلى كارلوس قائلاً: «ستُسرُّ لدى معرفتكَ بأنَّ رفاتَ القديس عادَ إلى مكانِهِ المعتاد مصحوباً بالصلواتِ والتراتيلِ. أنا واثقٌ من أنَّ القديس سيغفرُ لنا جميعاً على هذا الحادثِ المأساوي».

هزَّ كارلوس رأسَهُ قائلاً: «ما من حوادث تقعُ جزافاً؛ فكلُّ شيءٍ يسيرُ بمشيئةِ الرَّبِّ».

عادَ الأملُ إلى غودوين فما سمعَهُ للتو بدا واعداً.

فكَّر سيميون بالطريقةِ ذاتِها فحاولَ منعَ كارلوس قائلاً: «لا تتسرع أيها الأخ».

«إنَّها إشارةٌ من الرَّبّ بأنَّه لا يريدني أن أصبحَ رئيساً للديرِ»، قال كارلوس.

هذا ما كان ينتظرُهُ غودوين.

قالَ سيميون: «هذا هراءٌ». ثمَّ أخذَ كأساً من على الطاولةِ قربَ السريرِ. تكهنَ غودوين بأنَّها تحوي على نبيذٍ دافئٍ وعسلٍ، وهذهِ وصفةُ الأمِّ سيسيليا لمعظمِ الأمراضِ. وضعَ سيميون الكأسَ في يدِ كارلوس قائلاً: «اشرب».

شربَ كارلوس النبيذَ إلَّا أنَّ ذلكَ لم يصرفْهُ عن موضوعِهِ.

«سنرتكبُ خطيئةً إن تجاهلنا إشارةً كهذهِ».

«تفسيرُ الإشاراتِ أمرٌ معقدٌ»، احتجَّ سيميون قائلاً.

«ربما. لكن حتَّى ولو كنتَ محقاً هل سيصوتُ الأخوةُ لرئيسِ ديرٍ لا يمكنُهُ حملُ رفاتِ القديسِ من دونِ أن يقع؟»

قالَ غودوين: «في الواقعِ قد يصوتُ بعضهم لكَ لمواساتِكَ بدلاً من الوقوفِ ضدَّكَ».

نظرَ إليه سيميون بحيرةٍ متسائلاً عمَّا يخططُ له الآن.

كان سيميون محقاً في شكوكِهِ إذ إنَّ غودوين كان يلعبُ دورَ محامي الشيطان لأنَّه يريدُ ما هو أكثر من عباراتِ الشكِّ الغامضةِ التي يقولُها كارلوس: كان يريدُ انتزاعَ انسحابٍ مؤكدٍ منهُ.

وما تمناه غودوين حدثَ فقد استمرَّ كارلوس في النقاشِ.

«يجبُ أن يصبحَ الرجلُ رئيساً للديرِ لأنَّ الإخوةَ يحترمونَهُ ويؤمنونَ بأنَّه سيقودُهم بحكمةٍ، وليس من بابِ الشفقةِ». تحدَّث كارلوس عن قناعةٍ مريرةٍ يحكمُها إحساسٌ بالعجزِ مدى الحياةِ.

«أعتقدُ أنَّكَ محقٌّ»، قالَ غودوين بترددٍ مصطنعٍ كأنَّ ما قاله انتُزعَ رغماً عنه، ثمَّ أضافَ مخاطراً: «لكن قد يكون سيميون مُحقاً أيضاً، عليكَ أن تؤجلَ اتخاذَ أيِّ قرارٍ نهائي حتَّى تشعرَ بأنَّكَ على ما يرام».

«أنا على ما يرام»، قالَ كارلوس ذلك رافضاً الاعترافَ بالضعفِ أمامَ غودوين الشاب ثمَّ تابعَ: «ما من شيءٍ سيتغيرُ فأنا سأشعر غداً كما أشعرُ اليومَ ولذلكَ لن أرشحَ نفسي لانتخاباتِ رئيسِ الديرِ».

كانت تلكَ هي الكلمات التي انتظرَها غودوين. وقفَ بغتةٍ وأحنى رأسَهُ كما لو أنَّه كان موافقاً إلّا أنَّه كان يخفي وجههُ خشيةَ أن يفضحَ شعورهُ بالنصرِ ثمَّ قال: «كعادتك أنتَ واضحٌ أيُّها الأخُ كارلوس. سأنقلُ رغبتَكَ هذهِ إلى الرهبانِ».

أرادَ سيميون أن يحتجَّ لكن منعهُ دخولُ الأم سيسيليا إلى الغرفةِ والاضطرابُ بادٍ عليها إذ قالت: «يطلبُ الإيرل رولاند رؤيةَ رئيسِ الديرِ ويهددُ بالنهوضِ من سريرِهِ لكنَّه ممنوعٌ من الحركةِ فقد لا تكون جمجمتُهُ قد شفيت بعد، والأخُ كارلوس ممنوع من الحركةِ أيضاً».

نظرَ غودوين إلى سيميون قائلاً: «فلنذهب».

ثم صعدا الدرجَ معاً.

راودَ غودوين شعورٌ جيدٌ؛ فكارلوس لم يشك بأنَّه تمَّ التلاعب بهِ بل يعتقدُ أنَّه انسحبَ من المنافسةِ تاركاً الساحةَ خاليةً لتوماس الذي يستطيعُ غودوين إقصاءَهُ متى أرادَ.

إنَّ خطتَهُ تحققُ نجاحاً باهراً حتَّى الآن.

كان الإيرل رولاند مستلقياً على ظهرِهِ وقد ضُمِّدَ رأسُهُ بالكاملِ إلّا أنَّه حافظَ على مظهرِهِ كرجلٍ قوي. لا بدَّ أنَّ الحلاق ماثيو كان عندَه إذ كانت لحيتهُ قد حُلقت وخصلاتُ شعرِهِ التي لم تُغطِها الضمادات مشذَّبةً بعنايةٍ. كان يرتدي سترةً أرجوانيةً قصيرةً وسروالاً جديداً أنيقاً باللونين الأحمر والأصفر. وعلى الرغمِ من أنَّه كانَ طريحَ الفراشِ فإنَّه ارتدى حزاماً وخنجراً وحذاء جلدياً قصيراً. وقفَ ابنه الأكبر ويليام وزوجتُهُ الليدي فيليبا إلى جوارِه بينما جلسَ موظفه الشاب الأب جيروم بزيهِ الكهنوتي إلى طاولةٍ قريبةٍ عليها أقلامٌ وشمعٌ للأختامِ.

كانت الرسالةُ واضحةً: لقد عادَ الإيرل رولاند.

قالَ بصوتٍ قوي وواضحٍ: «هل جاءَ رئيسُ الديرِ؟»

كان غودوين صاحبَ بديهةٍ أسرعٍ من بديهةِ سيميون فأجابَ: «لقد تعرَّضَ الأخُ كارلوس إلى سقطةٍ وهو يرقدُ هنا في المستشفى أيُّها اللورد. أنا الأخ غودوين ومعي أمينُ الصندوقِ سيميون. نشكرُ الرَّبَّ على معجزةِ تعافيك فهو من أرشدَ أيدي الأطباء الرهبان الذين كانوا يعالجونَكَ».

«الحلاق ماثيو من عالجَ كسورَ رأسي»، قال الإيرل.

«شكراً له».

لم يتمكن غودوين من رؤيةِ وجهِ الإيرل جيداً لأنّه كان مستلقياً على ظهرهِ ووجهه إلى السقف، لكن كان لديهِ انطباعٌ بأنَّ ملامحَ الإيرل كانت جامدةً على نحو غريبٍ، وتساءلَ في نفسهِ إن كانت الإصابةُ قد سببت لهُ ضرراً دائماً.

قالَ غودوين: «هل وفروا لكَ كلَّ وسائلِ الراحةِ؟»

«كنتَ ستعلم في الحالِ إن كانَ هناكَ ما ينقصني. أصغِ إلي الآن، ستتزوجُ ابنة أخي مارجري من روجر الابن الأصغر لمونماوث. أفترضُ أنّك على علمٍ بذلكَ».

«أجل»، ثم عادت إلى ذهنهِ ذكرى الحادثةِ وكيفَ كانت مارجوري مستلقيةً على هذا السريرِ بالذات وساقاها البيضاوان مرفوعتان في الهواءِ تزني مع قريبها ريتشارد أسقفُ كينغزبريدج.

«لقد تأجلَ حفلُ الزفافِ بسببِ إصابتي». وفكّرَ غودوين بأنَّ هذا لم يكن صحيحاً؛ فحادثةُ الجسرِ وقعَت منذُ شهرٍ فقط. قد تكونُ الحقيقة أنَّ الإيرلَ يريدُ أن يثبتَ أنَّ الإصابةَ لم تضعف مكانتهُ وأنّه مازالَ حليفاً قوياً يستحقُ أن يتحالفَ الإيرل مونماوث معهُ.

تابعَ رولاند قائلاً: «سيقامُ حفلُ الزفافِ في كاتدرائيةِ كينغزبريدج بعدَ ثلاثةِ أسابيع من اليومِ».

نظرياً كان على الإيرلِ أن يطلبَ ذلك طلباً لا أن يصدرهُ كأمرٍ، ولو كان هناكَ رئيسٌ جديدٌ منتخبٌ للديرِ لغضبَ من غطرستِهِ، ولكن بالطبعِ لم يكن هناكَ رئيسٌ جديدٌ للديرِ بعد.

على أيِّ حالٍ لم يجد غودوين أيَّ سببٍ يمنعُه من تحقيقِ رغبةِ الإيرل رولاند. «حسناً يا سيدي، سأباشرُ بالإجراءاتِ اللازمةِ»، قال غودوين.

تابعَ الإيرل قائلاً: «وإلى حينهِ أريد أن ينتهي أمرُ انتخابِ رئيسٍ جديدٍ للديرِ».

نخرَ سيميون مُتفاجئاً.

ووفقاً لخطةِ غودوين فقد كان الاستعجالُ لمصلحتِهِ. «حسناً. هناكَ مُرشّحان اثنان إلّا أنَّ الأخَ كارلوس انسحبَ اليومَ تاركاً الأخَ توماس، أمين السجلات، مرشحاً وحيداً. بإمكاننا أن نجري الانتخابات متى أردت»، قال غودوين ذلكَ وهو بالكادِ يصدِّقُ الحظ الذي يحالفهُ.

علمَ سيميون أنّه تعرّضَ إلى هزيمةٍ مباشرةٍ فقال: «انتظر لحظةً».

لكنَ رولاند لم ينصت إليهِ وقال: «لا أريدُ توماس».

لم يكن غودوين يتوقعُ ذلكَ.

ابتسمَ سيميون ابتسامةً عريضةً مسروراً بتأجيلِ اللحظة الحاسمةِ.

قال غودوين المصدوم: «ولكن يا سيدي...»

لم يسمح له رولاند بالمقاطعةِ فأكملَ كلامَهُ قائلاً: «أرسلوا في طلب ابن أخي سول وايتهيد من كنيسة القديس سان جون إن ذا فوريست».

وغاصَ قلبُ غودوين توجساً. كانَ سول من جيلِهِ وعندما كانا راهبين مبتدئين ذهبا إلى أوكسفورد معاً لكنهما درسا منفصلين. أصبحَ سول أكثر تديناً بينما أصبحَ غودوين أكثر دنيويةً. والآن باتَ سول قادماً من صومعتِهِ البعيدةِ في كنيسة القديس جون مؤهلاً ليكونَ رئيساً للديرِ.

كان سول قد تبنى فضيلةَ التواضعِ الرهبانيةِ وكان يأخذها محمل الجدِّ ولذلك لم يكن ليرشحَ نفسه على الإطلاقِ. كان ذكياً ومتديناً ومحبوباً من الجميعِ.

«أحضروه إلى هنا بأسرعِ ما يمكن. أريدُ ترشيحَهُ ليكون رئيسَ الديرِ الجديدِ»، قال رولاند.

-21-

جلسَ ميرثن على سطحِ كنيسةِ سانت مارك التي تقع على الطرفِ الشمالي لمدينةِ كينغزبريدج فمن موقعهِ هذا يستطيع رؤية البلدةِ بأكملِها فإلى الجنوبِ الشرقي يحتضن النهرُ عندَ نقطةِ انعطافِهِ الدير بينما تشغلُ أبنيةُ الديرِ والأراضي المحيطةُ بِهِ ربعَ البلدةِ بما في ذلكَ مقبرةٌ وسوقٌ وبستانٌ وحديقةُ خضراوات، كما تبدو الكاتدرائية شامخةً فوقَ كل ما يحيطُ بها كشجرةِ بلوطٍ في حقلٍ من نباتِ القرّاص. ومن مكانهِ على السطح كان بوسعِ ميرثن رؤيةُ موظفي الديرِ وهم يقطفون الخضراوات من الحديقةِ وينظفون الإسطبل من الرَّوث ويُفرغونَ حمولةَ عربةٍ من البراميل.

يقع الحيُّ الراقي في مركز المدينةِ ويمتدُّ الشارع الرئيس صعوداً من أسفلِ منحدرِ النهرِ الذي عبرهُ الرهبان الأوائل منذُ مئات السنين. هناكَ وعلى طولِ هذا الشارع سارَ بضعةُ تجارٍ أثرياء بنشاطٍ وقد ميزهم ميرثن من ألوان معاطفِهم البرَّاقَةِ والمصنوعةِ من أجودِ أنواعِ الصوفِ. لطالما كان التجار نشيطين جداً. هناكَ شارعٌ عامٌ آخر في منتصفِ المدينةِ يمتدُ من الغربِ إلى الشرقِ ويقطع

الشارعَ الرئيسي بزاويةٍ قائمةٍ عند الناصيةِ الشماليةِ الغربيةِ للديرِ، وهنا رأى ميرثن السطحَ العريض لمبنى غيلد هول وهو المبنى الأضخم في المدينةِ بعد أبنيةِ الديرِ.

تُطلُّ بواباتُ الديرِ على الشارع الرئيس وقريباً منها هناك حانةٌ وقبالتها منزلُ كاريس الذي يفوقُ معظمَ المباني المجاورةِ لهُ علواً. رأى ميرثن خارجَ الحانةِ حشداً من الناسِ حولَ الأخِ موردو، الراهب الذي لم يكن منتمياً إلى أيِّ تنظيمٍ أخويّ محددٍ والذي بقي في كينغزبريدج بعدَ انهيارِ الجسرِ. بدا الناسُ، المفجوعون والمصدومون على وجهِ الخصوصِ، متأثرين بعظاتِهِ الحماسيَّةِ التي اعتادَ إلقاءَها على قارعةِ الطريقِ وهو يُحصِّلُ قطعَ النقودِ الفضيَّة من أنصافِ البنسات وسواها، وفكَّرَ ميرثن بأنَّ الرجلَ محتالٌ وبأنَّ غضبَهُ المقدَّسَ مزيفٌ ودموعه ليست سوى غطاء للانتهازيةِ والجشعِ، ميرثن كان من الأقليَّةِ التي لم تصدق الرجلَ قط.

عندَ نهايةِ الشارعِ العام رأى بقايا العوارضِ الخشبيَّةِ العالقةِ التي استُخدمت لبناءِ الجسرِ خارجَ المياهِ، وبقربِها كانت عبَّارةُ ميرثن تعبرُ النهرَ حاملةً على متنِها عربةً محمَّلةً بجذوعِ الأشجارِ. إلى الجنوبِ الغربي لاحت المنطقةُ الصناعيةُ حيث امتدت مبانٍ كبيرةٌ على مساحاتٍ واسعةٍ من الأراضي ومن بينها مسالخ ومدابغ ومصانع جعةٍ ومخابز وورشات من جميعِ الأصنافِ. ورغمَ قذارةِ هذهِ المنطقةِ ونتانةِ رائحتِها التي لا تتناسبُ مع جو عليةِ قومِ المدينة فإنَّها كانت منطقةً يمكنُ للمرءِ فيها أن يكسب مالاً وفيراً. هناك يتسعُ النهرُ ويتفرَّعُ إلى جزءين على جانبي جزيرةِ ليبر. رأى ميرثن إيان بوتمان وهو يجذِّفُ بقاربِهِ الصغيرِ نحو الجزيرةِ ومعه راهبٌ يحملُ على الأرجحِ طعاماً إلى المجذومِ الوحيد الباقي على الجزيرةِ. امتدت أرصفةُ الميناءِ والمستودعاتِ على الضفةِ الجنوبيةِ للنهرِ حيثُ تُفرَّغُ عدَّةُ أطوافٍ وقواربَ راسيةٍ حمولتِها، ووراء هذا ظهرت ضاحيةُ نيوتاون بصفوفٍ من البيوتِ الفقيرةِ بينَ البساتين والمراعي والحدائق حيث كان موظفو الديرِ يزرعون المحاصيلَ للرهبانِ والراهبات.

تقعُ كنيسةُ سان مارك في الطرف الشمالي للمدينةِ حيثُ الأحياءُ الفقيرةُ وتحيطُ بها مجموعةٌ من البيوتِ التي يقطنها العمالُ والأراملُ وعاثرو الحظِّ وكبارُ السنِّ. كانت كنيسةً فقيرةً، وكان هذا من حُسنِ حظِّ ميرثن.

منذُ أربعةِ أسابيع مضت استعانَ الأب البائسُ جوفروي بخدماتِ ميرثن لبناءِ

رافعةٍ من أجلِ إصلاحِ سقفِ الكنيسةِ. كانت كاريس قد أقنعَت إدموند بإقراضِ ميرثن النقودَ اللازمةَ لشراءِ المعدَّاتِ، كما قامَ ميرثن بتشغيلِ صبي في الرابعة عشرة من عمرِهِ يدعى جيمي للعملِ مقابلَ نصفِ بنسٍ في اليومِ.

كانت الرافعةُ جاهزةً الآن.

وبطريقةٍ ما انتشرَت الأخبارُ في الجوارِ بأنَّ ميرثن على وشكِ تجريبِ آلةٍ جديدةٍ. كان الجميعُ قد أُعجبَ بالعبَّارةِ التي صنعَها، وها هم الآن متحمسون لرؤيةِ اختراعِهِ الجديد. اجتمعَ حشدٌ صغيرٌ من الناسِ عندَ المقبرةِ وكان جلُّهم من العاطلين عن العملِ، وحضرَ أيضاً الأبُ جوفروي وإدموند وكاريس وبعضِ بنَّائي المدينةِ، كما لاحظ ميرثن وجود إلفريك بينهم. إن فشلَ ميرثن اليومَ فإنَّ إخفاقَهُ سيكون على مرأى أصدقائِهِ وأعدائِهِ.

ولكن هذا لن يكون أسوأ ما في الأمرِ، فهذهِ المُهمَّةُ أنقذتهُ من ضرورةِ مغادرةِ المدينةِ بحثاً عن عملٍ ولكن هذا المصيرُ ما زال يحومُ فوقَ رأسِهِ. إن لم تسر أمورُ الرافعةِ على ما يرام فحينها سيدركُ الناسُ أنَّ توظيفَ ميرثن لهذا العملِ قد جلبَ النحسَ، وسيقولون إنَّ الأرواحَ لا تريدُهُ في المدينةِ، وسيزداد الضغطُ عليهِ ليغادر وعندها سيودعُ كينغزبريدج وكاريس.

في الأسابيعِ الأربعةِ الأخيرةِ وخلال عمله على صُنعِ قطعِ الرافعةِ الخشبيَّةِ وربطِها معاً فكَّرَ ميرثن جديّاً وللمرةِ الأولى باحتمالِ خسارةِ كاريس وأصابَهُ هذا بالفزعِ فقد أدركَ أنَّها مصدرُ الفرحِ الوحيد في حياتِهِ. لطالما شعرَ برغبةٍ في المشي معها تحتَ أشعةِ الشمسِ عندما يكونُ الطقسُ لطيفاً، وإن رأى شيئاً جميلاً ساورتهُ الرغبةُ بأن يريها إيَّاه، ولو سمعَ بشيءٍ ممتعٍ فهي أوَّلُ من يخطرُ ببالِهِ ويسارع إلى إخبارها به كي يرى ابتسامتها. حتماً أدخلَ هذا العمل السرورَ إلى قلبِهِ فقد كان إيجاد حلولٍ ذكيَّةٍ لمشكلاتٍ عويصةٍ مصدرَ بهجةٍ، ولكنَّ هذا السرور لم يكن أكثر من حالةٍ عقليةٍ باردةٍ توحي بالرضا وخاصة بعد أن أدركَ أنَّ حياتَهُ ستغدو شتاء طويلاً من دونِ كاريس.

نهضَ بعزمٍ فقد حانَ الوقتُ ليضعَ مهارتَهُ قيدَ الاختبارِ.

صنعَ ميرثن رافعةً عاديَّةً إلَّا أنَّها كانت تتمتعُ بميزةٍ مبتكرةٍ. بدايةً وكجميعِ الروافعِ الأخرى كانت تتكون من حبلٍ يمرُّ عبرَ مجموعةٍ من البكراتِ، وقد بنى ميرثن في أعلى جدارِ الكنيسةِ عندَ طرفِ السقفِ هيكلاً خشبياً يشبهُ المشنقةَ ولهُ ذراعٌ تمتدُّ على طولِ السقفِ وهناكَ حبلٌ يمتدُّ على طولها ويصلُ إلى طرفِها،

وعندَ الطرفِ الآخرِ من الحبلِ على أرضِ المقبرةِ هناكَ عجلةٌ لها دواساتٌ ووظيفتها لفُّ الحبلِ وأشرفَ الصبي جيمي على تشغليها. كل ذلك كان عاديًّا ولكن الجزء المبتكر فيها هو أنَّ الهيكل الشبيه بالمشنقةِ يحتوي على محورٍ دوَّارٍ يسمحُ للذراعِ بالتأرجحِ.

لفَّ ميرثن حزاماً تحتَ إبطيهِ ليحمي نفسَهُ من مصيرٍ مشابهٍ لمصيرِ هاول تايلر ثمَّ ربطَ الحزامَ إلى نتوءٍ صخريٍ ثابتٍ كي لا يقعَ في حالِ سقوطِهِ. أخذَ ينزعُ ألواحَ القرميدِ بطريقةٍ آمنةٍ جداً عندَ أحدِ أطرافِ السقفِ ثمَّ ربطَ حبلَ الرافعةِ بإحدى العوارضِ الخشبيَّةِ. في هذهِ اللحظةِ نادى على جيمي في الأسفلِ قائلاً: «أدر العجلةَ»، ثمَّ حبسَ أنفاسَه. كان واثقاً من أنَّها ستعملُ، بل يجبُ أن تعمل، ولكنه وعلى الرغمِ من هذا انتابهُ قلقٌ شديدٌ. على الأرضِ بدأ جيمي يمشي داخلَ العجلةِ الدوارةِ التي تدورُ باتجاهٍ واحدٍ فقط ولها مكبحٌ يضغطُ على مسنّاتِها غير المتناظرةِ. كان أحدُ الجانبين وعندَ كلِّ سنٍّ مائلاً قليلاً ليتيحَ للمكبحِ التحرُّكَ تدريجياً مع ميلانِ العجلةِ، أمَّا الجانبُ الآخرُ فكان عمودياً ليكبحَ فوراً أيّ حركةٍ عكسيةٍ.

حالما دارَت العجلةُ بدأت عارضةُ السقفِ بالارتفاعِ.

عندما انفصلَت العارضةُ عن هيكلِ السقفِ صرخَ ميرثن: «مهلاً!»

توقفَ جيمي عن الحركةِ فتعشَّقَ المكبحُ وتأرجحَت العارضةُ في الهواءِ بهدوءٍ. حتَّى هذهِ اللحظةِ كان كلُّ شيءٍ يسيرُ على ما يرامِ، ولكن قد تخرجُ الأمورُ عن السيطرةِ في الخطوةِ التاليةِ.

أدارَ ميرثن الرافعةَ فبدأت ذراعُها بالتأرجحِ وراقبَها حابساً أنفاسَهُ. وخلالَ تحرُّكِ الثقلِ المحمولِ بات هناك جهدٌ جديدٌ على هيكلِ الرافعةِ وصرَّ خشبها وتأرجحَت ذراعُها في نصفِ دائرةٍ وهي تنقلُ العارضةَ من مكانِها الأصلي في السقفِ إلى موضعٍ جديدٍ على أرضِ المقبرةِ. نمَّت عن الجمهورِ المحتشدِ همهمةُ عجبٍ جماعيَّةٍ، وفهم ميرثن من هذا أنهم لم يروا قبلاً رافعةً تدورُ على محورٍ.

«أنزلها»، صاحَ ميرثن.

شغَّلَ جيمي المكبحَ وسمحَ هذا لحمولةِ الرافعةِ بالسقوطِ تدريجياً وبمعدلِ قدمٍ في كلِّ مرَّةٍ بينما تابعت العجلةُ الدوران وإرخاء الحبل. راقبَ الجميعُ في صمتٍ إلى أن لامسَ الجذعُ الأرضَ وهنا دوت عاصفةٌ من التصفيقِ.

فكَّ جيمي الحبلَ عن العارضةِ الخشبيَّةِ.

سمحَ ميرثن لنفسِهِ بالتمتع بنشوةِ النصرِ فقد نجحَ اختراعُهُ.

نزلَ السلَّمَ فأخذَ الحشدُ يهتفُ له. قبَّلتهُ كاريس وصافحَهُ الأبُ جوفروي قائلاً «إنَّها أعجوبةٌ. لم أرَ شيئاً كهذا من قبل».

«بل لم يرَ أيُّ أحدٍ ذلكَ، فأنا من اخترعَها»، قالَ ميرثن بفخرٍ.

هنَّأهُ عدَّةُ رجالٍ آخرين وكان الجميع مسروراً لأنَّهم كانوا من بينِ أوائلِ من شهدوا على هذهِ الظاهرةِ. هنَّأه الجميع باستثناءِ إلفريك الذي وقفَ في مؤخرةِ الحشدِ وعلائم الغضبِ على وجهِهِ.

تجاهلَهُ ميرثن وتوجَّهَ بالحديثِ إلى الأب جوفروي: «لقد كان اتفاقنا أن تدفعَ لي في حال نجحَ الأمر».

قال جوفروي: «بكلِّ سرورٍ، وأنا أدينُ لكَ بثمانيةِ شلناتٍ حتَّى الآن. وكلما أسرعت بالدفعِ لكَ لإزالةِ بقيَّةِ العوارضِ الخشبيَّةِ وإعادةِ بناءِ السقفِ غدوت أكثرَ سروراً». ثمَّ فتحَ محفظتَهُ المُثبتة إلى خصرِه وأخرجَ بضعَ قطعٍ نقدية مربوطةٍ في صُرَّةٍ.

صاحَ إلفريك: «انتظر لحظةً».

نظرَ الجميعُ باتجاهِهِ.

قالَ إلفريك: «لا يمكنكَ أن تدفعَ لهذا الفتى أيُّها الأبُ جوفروي إنَّه ليسَ نجَّاراً مؤهلاً».

وفكرَ ميرثن بأنَّه لا يمكنُ لهذا أن يحدثَ. لقد أنجزَ العملَ وتأخرَ الوقتُ جداً على المراوغةِ وحرمانهِ من أتعابِهِ، ولكن إلفريك لم يكن يهتمُّ بالإنصافِ.

قالَ جوفروي: «هذا هراءٌ! لقد نجحَ بفعلِ ما يعجزُ عنهُ أيُّ نجارٍ في المدينةِ».

«هذا لا يهم فهو ليسَ عضواً في النقابةِ».

وهنا علَّقَ ميرثن: «لقد رغبتُ بالانضمامِ لكنَّكَ لم تقبل بي».

«ذلكَ امتيازٌ تمنحه النقابة».

قالَ جوفروي: «أرى أنَّ هذا عملٌ ظالمٌ وسيوافقني العديدُ من سكانِ المدينةِ على ذلكَ. لقد أنهى ستةَ أعوامٍ ونصفَ عام من التدريبِ من دونِ أجرٍ، عدا طعامه ومبيته على أرضيةِ المطبخِ، والجميعُ يعلمُ أنَّه يقومُ بعملِ نجَّارٍ مؤهلٍ منذُ أعوامٍ، ولم يكن عليكَ أن تصرفَهُ من دونِ أدواتِهِ».

سرَت همهمةُ إجماعٍ بينَ الرجالِ المُتجمهرين حولَهم.
كان الجميعُ يعتقدُ أنَّ إلفريك قد بالغَ هذهِ المرَّةَ.

قالَ إلفريك: «مع احترامي لحضرتك، هذا أمرٌ يعودُ تقريرهُ إلى النقابةِ وليسَ لكَ».

عقدَ جوفروي ذراعيهِ وقال: «حسناً، أنتَ تقول لي ألا أدفعَ لميرثن رغمَ أنّه الرجلُ الوحيدُ في المدينةِ القادر على إصلاحِ كنيستي من دونِ إغلاقِها. أنا أتحداك إذاً». ثم ناولَ ميرثن نقودَهُ: «بإمكانكَ الآن أن ترفعَ هذهِ القضيَّةَ إلى المحكمةِ».

«محكمةُ الديرِ»، وتلوى وجهُ إلفريك في حقدٍ. «حينَ يتظلَّمُ رجلٌ من جورِ قسٍ إلى محكمةٍ قضاتُها رهبانٌ فهل سيلقى آذاناً صاغيةً فيها؟»

سرَت بينَ الحضورِ أصواتٌ متعاطفةٌ مع إلفريك. لقد سمعوا عن حوادث عديدةٍ قضت فيها محكمةُ الديرِ ظلماً لمصلحة رجالِ الدينِ.

لكن جوفروي ردَّ الصَّاعَ قائلاً: «وهل يستطيعُ متدربٌ أن يحصلَ على شهادةِ حقٍ من نقابةٍ يقضي فيها المعلمون؟»

ضحكَ الجمهورُ فقد أعجبوا بهذهِ الحجةِ الذكيةِ.

بدا إلفريك مُحطماً فهو يستطيعُ الفوزَ في أيّ محكمةٍ وفي أيِّ خلافٍ له مع ميرثن، لكنه لن يتغلبَ على قسٍ بسهولةٍ ولذلك قالَ في استياءٍ: «إنَّه ليومٌ مظلمٌ في تاريخِ البلدةِ حينَ يتحدى متدربون معلميهم ويدعمُهم في ذلك رجالُ الدينِ».

وأحسَّ إلفريك بأنَّه خسرَ هذهِ المعركة فاستدارَ مبتعداً.

شعرَ ميرثن بثقلِ القطعِ النقديَّةِ في يدِهِ. كانت ثماني شلناتٍ؛ أي ستةً وتسعين بنساً فضياً أو خُمسَي الجنيهِ، وعلمَ أنّه يجبُ عليهِ عدُّها إلَّا أنَّه كان سعيداً جداً إلى درجةِ أنَّهُ تجاهلَ هذا، فها هو يكسبُ أولَ أجرٍ لهُ.

عادَ إلى إدموند وقال: «هذهِ نقودُكَ».

«ادفع لي الآن خمسَ شلناتٍ فقط أمَّا الباقي فلتدفعه لاحقاً. احتَفِظْ ببعضِ المالِ فأنتَ تستحقُهُ»، قالَ إدموند بكرمٍ وابتسمَ ميرثن فهذا يعني أنّه سيبقى معهُ ثلاثةُ شلنات ليصرفِها. كان هذا أكبر مبلغٍ امتلكهُ في حياتِهِ، ولم يكن يعلم ما الذي سيفعلهُ بالنقودِ. ربما سيشتري دجاجةً لوالدتهِ.

حلَّت الظهيرةُ وبدأ الحشدُ يتفرَّقُ عائدين إلى منازِلِهم لتناولِ الغداءِ. ذهبَ

ميرثن مع كاريس وإدموند، وأحسَّ بأنَّ مستقبلهُ باتَ مضموناً فقد أثبتَ نفسَهُ كنجارٍ، وقلَّةٌ من الناسِ سيترددونَ في توظيفِهِ بما أنَّ الأب جوفروي قد بادرَ إلى فعل ذلكَ، وأصبحَ بإمكانِهِ كسبُ عيشِه وامتلاكُ منزلٍ خاصٍ.

وبإمكانِهِ أيضاً أن يتزوج.

كانت بيترانيلا بانتظارِهم. وعندما كان ميرثن يناولُ إدموند الخمسَ شلناتٍ وضعَت بيترانيلا على المائدةِ طبقاً من السمكِ المطهو بالأعشابِ تفوحُ منهُ رائحةٌ زكيَّةٌ، واحتفالاً بنصرِ ميرثن سكبَ إدموند لكلِّ واحدٍ منهم كوباً من نبيذِ رينيش الحلو.

لكن إدموند لم يكن رجلاً يسرحُ في الماضي طويلاً لذلكَ قالَ بنفاد صبرٍ: «علينا أن نتابعَ أمرَ الجسرِ الجديدِ، لقد مرَّت خمسةُ أسابيع ولم يُنجز أيُّ شيءٍ».

قالت بيترانيلا: «سمعتُ أنَّ الإيرل بدأ يتماثلُ للشفاءِ بسرعةٍ لذا من المتوقع أن يُجري الرهبانُ الانتخابات قريباً. يجبُ أن أسألَ غودوين عن هذا الأمر ولكنني لم أره منذُ البارحة حينما وقعَ الأعمى كارلوس أثناءَ القُداس».

«أريدُ تصميماً جاهزاً للجسرِ وبعدها يمكننا البدءُ بالعملِ حالما يُنتخبُ الرئيسُ الجديدُ للديرِ»، قال إدموند.

أثارَ هذا اهتمامَ ميرثن الذي قال: «ما الذي يجولُ في بالكَ؟»

«نعلمُ أنَّه يجبُ أن يكون جسراً حجرياً. أريدُهُ أن يكون واسعاً بما يكفي لمرورِ عربتين.» أومأ ميرثن برأسِهِ موافقاً. «كما ينبغي أن يكونَ منحدراً عندَ كلا الطرفين كي ينزلَ الناسُ عن الجسرِ إلى أرضٍ جافةٍ وليس على شاطئ موحلٍ».

«أجل. هذا اقتراحٌ ممتازٌ».

قالت كاريس: «ولكن كيف ستتمكنُ من بناء جدارٍ حجري وسطَ النهرِ؟»

قال إدموند: «ليسَ لدي أدنى فكرة لكن لا بدَّ أنَّ ذلكَ ممكنٌ، فهناكَ الكثيرُ من الجسورِ الحجريَّةِ».

قال ميرثن: «سمعتُ رجالاً يتحدثون عن ذلكَ وقد قالوا إنَّه يتوجبُ بناءُ حاجزٍ يدعى سدَّ إنضابٍ لإبقاءِ المياه بعيدةً عن منطقةِ بناءِ الجسرِ. الأمرُ شديدُ السهولةِ، ولكنهم يقولون أيضاً إنَّ عليك أن تحرصَ جيداً على ألا يتسرب الماء».

دخلَ غودوين والقلقُ بادٍ على وجههِ. نظريَّاً، لا يُفترضُ بهِ أن يقومَ بزياراتٍ اجتماعيةٍ في المدينةِ، إذ لا يمكنهُ مغادرةُ الدير إلَّا في مهمةٍ خاصَّةٍ. وتساءلَ ميرثن في نفسهِ عمَّا قد يكون الخطبُ.

قالَ غودوين: «لقد سحبَ كارلوس ترشحهُ للانتخاباتِ».
قالَ إدموند: «هذه أخبارٌ جيِّدةٌ. هيا تناول كوباً من هذا النبيذِ».
«لم يحن وقتُ الاحتفالِ بعد»، قال غودوين.
«ولم لا؟ على هذهِ الحال فإنَّ توماس المرشّح الوحيد وهو يرغبُ ببناءِ الجسرِ الجديدِ. ها قد حُلّت مشكلتنا».
«لم يعد توماس المرشّحَ الوحيد فقد رشحَ الإيرل سول وايتهيد».
غرقَ إدموند في أفكارِهِ: «آه! وهل ذلك أمرٌ سيءٌ بالضرورةِ؟»
«نعم. إنَّ سول محبوب جداً وقد أثبتَ نفسَهُ كمنافسٍ كفءٍ من ديرِ سان جون. إن قبلَ بالترشّح فمن المتوقع أن يحصلَ على أصواتِ الداعمين السابقين لكارلوس وهذا يعني أنّه قد يفوز. وبصفتِهِ مرشحَ الإيرل ونسيبهُ أيضاً فمن المحتمل أن ينفّذ سول مشيئةَ داعمِهِ. قد يعارضُ الإيرل بناءَ الجسرِ الجديدِ بحجةِ أنه سيضعِفُ الحركة التجارية في سوقِ شايرنغ».
«هل بمكننا فعلُ شيءٍ ما؟» قالَ إدموند الذي بدا قلقاً.
«آملُ ذلكَ. على أحدهم أن يذهبَ إلى ديرِ سان جون وإخبارُ سول بالأمرِ ثمَّ إحضارُه إلى كينغزبريدج. لقد تطوعتُ للقيامِ بهذهِ المهمَّةِ، وآملُ أن أجدَ طريقةً لإقناعِهِ بالرفضِ».
وهنا تكلمت بيترانيلا قائلةً: «قد لا يحلُّ ذلكَ المشكلةَ».
أصغى ميرثن إليها بانتباهٍ، ورغمَ أنَّ بيترانيلا لم تكن تروق له إلا أنّها كانت ذكيةً. «قد يسمي الإيرل مرشحاً آخر، وأيُّ مرشحٍ من طرفِهِ سيعارضُ بناءَ الجسرِ»، تابعت بيترانيلا.
أومأ غودوين برأسِهِ موافقاً: «لذلكَ وعلى فرضِ أنني نجحتُ في إقصاءِ سول عن المنافسةِ علينا أن نضمن أنَّ مرشحَ الإيرل التالي شخصٌ لن يحصلَ على أصواتٍ كثيرةٍ».
«هل تفكرُ بشخصٍ معينٍ؟» سألتهُ والدتُهُ.
«الأخُ موردو».
«ممتاز».
قالت كاريس: «لكنّه شخصٌ فظيعٌ».
«تماماً»، أكملَ غودوين قائلاً: «إنّه طمّاعٌ وسكيرٌ ومتطفلٌ ومغرورٌ وغوغائي ولن يصوتَ له الرهبانُ أبداً، ولذا نريدُه أن يكونَ مرشحَ الإيرلِ».

أدركَ ميرثن أنَّ غودوين يشبهُ والدتهُ فكلاهما يملكان موهبةً في التخطيطِ.
قالت بيترانيلا: «كيف ستنفذُ الأمرَ؟»
«نحتاجُ أولاً إلى اقناعِ موردو بترشيحِ نفسِهِ».
«لن يكون ذلك صعباً. أخبرهُ فقط أنَّه يملكُ فرصةً بالفوزِ إن تقدَّمَ، وستعجبهُ فكرةُ أن يكونَ رئيسَ الديرِ».
«هذا صحيحٌ، لكن لا أستطيعُ فعلَ هذا. سيشكُّ موردو بدوافعي فوراً؛ فالجميع يعلمُ أنني أدعمُ توماس».
«سأتكلمُ معه أنا وسأخبرُه أنني وإياك على خلافٍ، وأنني لا أريدُ توماس. سأقولُ إنَّ الإيرلَ يبحثُ عن شخصٍ ليرشحَه وموردو قد يكون الرجلَ المناسبَ. فهو يمتلكُ شعبيَّةً في المدينةِ، وخصوصاً بينَ الفقراءِ والجهلةِ الواهمين بأنَّه يشبههم. كلُّ ما يحتاجهُ ليحصلَ على الترشيحِ هو أن يعلنَ عن رغبتِهِ بأن يكونَ بيدقَ الإيرل»، قالت بيترانيلا.
«هذا جيّد، سأحرصُ على الحضورِ عندما يتكلمُ موردو مع الإيرلِ رولاند»، قال ذلكَ ثم وقفَ وقبّلَ والدتهُ على خدها ثمَّ خرجَ.
لم يُبقوا شيئاً من السمكةِ وتناولَ ميرثن الخبزَ المُشبع بالعُصارةِ. عرضَ عليه إدموند المزيدَ من النبيذِ إلّا أنَّه رفضَ فقد خشي أن يسقطَ عن سطحِ كنيسةِ سان مارك عصرَ اليومِ إن أكثرَ من الشرابِ. توجهت بيترانيلا الى المطبخِ ودخل إدموند إلى غرفةِ الجلوسِ لينامَ. بقي ميرثن وكاريس وحدهما. نهضَ ميرثن وجلسَ على المقعدِ بجانبِها ثمَّ قبّلها. «أنا فخورةٌ بك جداً»، قالت له. وتوهّج وجهُهُ فقد كان فخوراً بنفسِهِ أيضاً. قبّلها مجدداً قبلةً رطبةً وطويلةً هذهِ المرَّةَ فأحسَّ بعضوِهِ ينتصبُ. تلمّسَ صدرَها فوقَ ثوبِها وعصرَ حلمتيها بلطفٍ بأطرافِ أصابعِهِ.
لمسَت عضوه المنتصب وقهقهت: «هل ترغب بأن أريحكَ منهُ؟»
كانت تقومُ بذلكَ أحياناً في الأمسياتِ بعدَ أن يخلدَ والدُها وبيترانيلا إلى النومِ وعندما يكونان وحيدين في الطابقِ الأرضي من المنزلِ، لكنهما الآن في وضحِ النهارِ وقد يدخلُ أحدهم في أيّ لحظةٍ لذلكَ أجابها قائلاً: «لا!»
«يمكنني أن أفعلَ ذلكَ بسرعةٍ»، وأحكمَت قبضتَها.
«أنا محرجٌ للغايةِ». نهضَ وانتقلَ إلى الجانبِ الآخرِ من المائدةِ.
«أنا آسفةٌ.»
«حسناً ربما لن يكون علينا أن نفعلَ ذلكَ لوقتٍ طويلٍ».

«نفعلُ ماذا؟»

«نختبئ ونقلقُ حيالَ من سياغتنا بالدخولِ».

قالت وقد بدَت مجروحةً: «ألا تحبُّ هذا؟»

«بالطبعِ أحبُّهُ! ولكنَّه سيكون أجمل لو قمنا بِهِ على انفرادٍ. بإمكاني الحصولُ على منزلٍ الآن بما أنني أنالُ أجراً».

«لكنكَ لم تنل أجراً سوى مرةٍ واحدةٍ».

«هذا صحيحٌ... لم تشاءمتِ فجأةً؟ هل أخطأت في شيءٍ ما؟»

«لا لكن... لماذا تريدُ أن تغيرَ الطريقةَ التي تجري فيها الأمورُ؟»

أربكهُ هذا السؤال. «أنا فقط أريدُ المزيدَ من ذلكَ لكن على انفرادٍ».

نظرت في تحدٍ إليهِ وقالت: «أنا راضيةٌ حالياً».

«حسناً وأنا كذلك... لكن لا شيء يستمرُّ إلى الأبدِ».

«ولم لا؟»

شعرَ كما لو أنَّه يشرحُ شيئاً ما لطفلٍ. «لأنَّه ليس بإمكاننا أن نمضي بقية حياتنا نعيشُ مع أهلنا ونسرقُ القبلاتِ بعيداً عن الأعينِ. علينا الحصولُ على منزلٍ خاصٍ بنا لنعيشَ كزوجٍ وزوجة، ولننام مع بعضنا كلَّ ليلةٍ ونمارسَ الجنس الحقيقي بدلاً من مداعبةٍ بعضنا، ولنؤسّسَ عائلة أيضاً».

«لماذا؟» سألتهُ.

ردَّ ساخطاً: «لا أعلمُ لماذا ولكن هكذا تجري الأمورُ، ولن أحاول أن أفسرَ لكِ أكثرَ من هذا لأني أعتقدُ أنَّك عازمةٌ على عدمِ فهمي أو، على الأقلِّ، تتظاهرين بعدمِ الفهمِ».

«حسنٌ».

«كما أنَّه عليَّ العودةُ إلى العملِ».

«انطلق إذاً».

لم يكن قادراً على فهمِ ما حدثَ فقد كانَ مصاباً بالإحباطِ لنصفِ عامٍ لعدمِ تمكنهِ من الزواجِ من كاريس، وافترضَ أنَّها تشاركُهُ الشعورَ ذاتهُ. لكنها تبدو كما لو أنَّها لم تكن كذلك. لقد استاءت من افتراضِهِ هذا، لكن هل اعتقدت حقاً أنَّه بإمكانهما الاستمرارُ بعلاقةِ المراهقين هذهِ إلى ما لا نهايةٍ؟ نظرَ إليها محاولاً أن يقرأ تعابيرَ وجهها، ولم يرَ فيها سوى عناد واستياء. استدارَ وخرجَ من البابِ.

عندَ خروجِهِ إلى الشارعِ بدا متردداً ثمَّ فكرَ في نفسِهِ بأنّه ربما يجب أن يعودَ ويجبرها على قولِ ما تفكرِ بهِ لكنَّه عرفَ من النظرةِ التي ارتسمت على وجهها أنَّ اللحظةَ لم تكن مناسبةً لإجبارها على القيام بأيِّ شيءٍ فتابع سيرَهُ إلى كنيسةِ سان مارك وهو يفكرُ بأنَّ الأمور تغيرت بسرعةٍ من رائعةٍ إلى سيئةٍ وفي نهارٍ واحدٍ فقط.

-22-

كان غودوين يُجهزُ كاتدرائيةَ كينغزبريدج من أجل حفلِ الزفافِ الكبيرِ إذ يجبُ أن تكونَ الكنيسةُ في أبهى حُلَّتها في مثلِ هذهِ المناسباتِ، وإلى جانبِ إيرل مونماوث وإيرل شايرينغ سيحضرُ العديدُ من البارونات ومئاتُ الفرسانِ ولهذا كان يجبُ استبدال البلاطِ المكسورِ وإصلاحُ ما تهدَّمَ من المباني وترميمُ المنحوتات، كما يجبُ غسلُ الجدرانِ حتّى تعود بيضاء وطلاءُ الأعمدةِ وغسلُ كلِّ شيءٍ ليبدو نظيفاً.

«أريدكَ أن تنتهي من الإصلاحاتِ في الطرفِ الجنوبي من المعبرِ المؤدي إلى المذبحِ»، قالَ غودوين لإلفريك بينما كانا يمشيان في الكنيسةِ.

«لستُ واثقاً من أنَّ هذا ممكنٌ ...»

«يجبُ الانتهاءُ منها، فلن نسمحُ بوجودِ سقّالاتٍ في المذبحِ خلالَ مراسمِ زفافٍ بهذهِ الأهميةِ». ثمَّ رأى فيليمون يلوّحُ له بإلحاح عندَ بابِ الجناحِ الجنوبي للكنيسةِ. «المعذرةُ»، قالَ غودوين لإلفريك.

«ليسَ لديّ ما يكفي من الرجال»، نادى إلفريك وراءَهُ.

«لم يكن عليكَ التسرُّعُ في طردِهم»، قال غودوين من فوقِ كتفِهِ.

بدا فيليمون مُهتاجاً: «يطالبُ الأخُ موردو برؤيةِ الإيرل».

«هذا جيدٌ»، قال غودوين. كانت بيترانيلا قد تكلّمت مع موردو الليلةَ الماضيةَ، وهذا الصباح طلبَ غودوين من فيليمون أن يتسلّلَ قريباً من المستشفى ويراقبَ موردو. كان يتوقعُ أن يقوم موردو بزيارةٍ مُبكرةٍ.

هرعَ غودوين إلى المستشفى يتبعُهُ فيليمون، وشعرَ بالرّاحةِ لرؤيةِ موردو مُنتظراً في الغرفةِ الكبيرةِ في الطابقِ الأرضي. كان الرّاهبُ البدين قد هذَّبَ هندامَهُ فنظَّفَ وجهَه ويديه ومشَّطَ الشعرَ حولَ الجزءِ الحليقِ من رأسِهِ، كما نظَّفَ ثوبه من البقع. لم يبدُ كرئيسِ ديرٍ إلَّا أنّه بدا كراهبٍ تقريباً.

تجاهلَهُ غودوين وصعدَ السلالمَ إلى الطابقِ العلوي. رأى هناكَ رالف شقيقَ ميرثن يقفُ حارساً على بابِ غرفةِ الإيرل فقد كان أحدَ مرافقيهِ. كان رالف وسيماً لولا أنفِهِ المكسورِ الذي يبدو كأنّه كُسرَ مؤخراً. كانَ المرافقون يكسرونَ عظامهم على الدوامِ.

قالَ غودوين بودٍ: «مرحباً يا رالف، ما الذي حدثَ لأنفكَ؟»

«تشاجرتُ مع قروي وغد».

«لا بدَّ أنّكَ أنهيتَ الأمرَ بشكلٍ ملائمٍ. هل صعدَ ذلكَ الراهبُ إلى هنا؟»

«أجل، وطلبوا منهُ الانتظارَ».

«من؟ الإيرل؟»

«الليدي فيليبا وموظفهُ الأب جيروم».

«اسألهم إن كان بإمكاني مقابلتهم».

«قالت الليدي فيليبا إنّه لا ينبغي على الإيرل أن يرى أحداً».

ابتسمَ غودوين لرالف ابتسامةً لن يفهمها سوى الرجال قائلاً: «لكنّها مجرّدُ امرأةٍ».

ابتسمَ رالف بدورهِ وفتحَ الباب ثمَّ أدخلَ رأسَهُ وقال: «الأخ غودوين أمينُ الذخائرِ المُقدسةِ؟»

سادَ صمتٌ قصيرٌ ثمَّ خرجَت الليدي فيليبا وأغلقَت البابَ وراءَها: «أخبرتكُ بأنّه يمنعُ استقبالُ الزائرين فالإيرل رولاند لا يحظى بالراحةِ التي يحتاجُها»، قالت غاضبةً.

قالَ رالف: «أعلمُ يا سيدتي ولكنَّ الأخ غودوين لن يزعجَ الإيرل بلا داعٍ».

وشيءٌ ما في نبرةِ رالف جعلَ غودوين ينظرُ إليهِ فعلى الرغمِ من أنَّ رالف تحدَّثَ بلهجةٍ عاديَّةٍ إلّا أنَّ تعابير وجههِ أظهرت توقيراً. ثمَّ لاحظَ أنَّ فيليبا تبدو مثيرةً جداً في ثوبٍ أحمر داكن وحزامٍ حولَ الخصرِ وقد التصقَ القماش الصوفي الناعم على ثدييها ووركيها. بدت كتمثالٍ يجسدُ الإغراءَ. أمعنَ غودوين النظرَ وهو يفكرُ، وتمنى مجدداً لو أنّه يجدُ طريقةً لمنعِ النساءِ من دخولِ الديرِ. أن يقعَ مرافقٌ في غرامِ امرأةٍ متزوجة لأمرٌ سيئ بما فيهِ الكفايةِ، لكن أن يقعَ راهبٌ في غرامها فهذهِ كارثةٌ.

«أعتذرُ بشدةٍ لأنني بحاجةٍ إلى رؤيةِ الإيرل، لكنَّ راهباً ينتظرُ مقابلتهُ في الأسفلِ».

أعلمُ... إنَّه موردو. هل الأمرُ ضروري؟»

«على العكسِ، ولكني أحتاجُ إلى تحذيرِ الإيرل مُسبقاً حيالَ ما سيحدثُ».

«إذاً أنتَ تعلمُ ما سيقولهُ الراهبُ؟»

«أعتقدُ أنني أعرفُ».

«حسنٌ. أعتقدُ أنَّه من الأفضلِ أن تريا الإيرل كلاكما معاً».

قال غودوين: «لكن...» ثمَّ تظاهرَ بكتمِ اعتراضِهِ.

نظرَت فيليبا إلى رالف ثمَّ قالت: «أحضر الراهب موردو إلى هنا من فضلكَ».

استدعى رالف موردو وأرشدتهما فيليبا إلى الداخلِ. كانَ الإيرلُ مستلقياً على السريرِ بكاملِ ملابسهِ كما كانَ في السابقِ، إلّا أنَّه هذهِ المرة جلسَ باستقامةٍ وأراحَ رأسَهُ المضمَّد على وسائد محشوة بالريشِ. «ما الأمرُ؟» قالَ بمزاجِهِ السيئ المعتاد. «اجتماعٌ لرجالِ الكنيسةِ؟ ماذا تريدان أيُّها الراهبان؟»

كانت هذهِ المرَّةَ الأولى بعدَ انهيارِ الجسرِ التي ينظرُ فيها غودوين مباشرةً إلى وجهِ الإيرلِ وصُدمَ عندما رأى أنَّ الجانبَ الأيمن بأكملِه من وجههِ كان مشلولاً فقد ارتخى الجفنُ وتحرَّكَ الخدُّ بصعوبةٍ إلا أنَّ الفم كان رخواً، وما جعلَ الأمرُ مروعاً بحقٍ هو بقاءُ الجانب الأيسر طبيعياً في حركتِهِ. حينَ يتكلَّم رولاند يتغضنُ الجانبُ الأيسرُ من جبينهِ وتتسعُ عينه اليسرى ويبدو كأنَّه يُحدِّقُ بنظرةٍ سلطويةٍ ويدفعُ بكلماتهِ من الطرفِ الأيسرِ لفمِهِ. لقد ذُهلَ الطبيبُ الكامن داخلَ غودوين من هذا المنظر. ورغمَ علمهْ بعدمِ إمكانيةِ التنبؤ بآثارِ إصاباتِ الرأس فإنَّه لم يرَ مثيلاً لهذا قبلاً.

«لا تحدقا بي كالبُلهاء. تبدوان كبقرتين تنظران من فوقِ سياجٍ. هيا أفصحا عمَّا أتيتما من أجلِهِ». قالَ الإيرل بنفاد صبرٍ.

تمالكَ غودوين نفسهُ إذ عليه أن يتصرّف بحذرٍ في الدقائقِ القليلةِ القادمةِ. كان يعلمُ أنَّ رولاند سيرفضُ طلبَ موردو لترشيحهِ لمنصبِ رئيسِ الديرِ، ولكن في الوقت ذاته كان عليه أن يزرعَ في عقلِ رولاند فكرةَ أنَّ موردو بديلٌ مقبولٌ لسول وايتهيد، ولذلكَ كانت مهمةُ غودوين هي تعزيز طلبِ موردو وذلكَ باستخدامِ أسلوبٍ متناقضٍ حيث سيعترضُ على موردو كي يعتقدَ رولاند أنَّ موردو لا يدينُ بأيِّ ولاءٍ للرهبان، فالإيرل في النهايةِ يرغبُ برئيسِ ديرٍ لخدمتِهِ وحدَهُ، ولكن من جهةٍ أخرى، كان عليهِ ألّا يتشددَ في معارضتِهِ فهو لا يريدُ أن

يفطنَ الإيرلُ إلى أنَّ موردو مرشحٌ ميئوسٌ منه في حقيقةِ الأمر. كان الطريقُ أمامَ غودوين محفوفاً بالعذابِ.

تكلَّمَ موردو أولاً بصوتِ الواعظِ الجهوري: «سيدي، جئتُ أسألكَ أن تنظرَ في أمري كمرشحٍ لرئاسةِ ديرِ كينغزبريدج. وأنا أعتقدُ...»

«لا ترفع صوتَك بحقِّ القديسين»، قال رولاند مُعترضاً.

تابعَ موردو كلامهُ بصوتٍ خفيضٍ: «مولاي أعتقدُ أنني...»

«لماذا ترغبُ بأن تصبحَ رئيسَ الديرِ؟» قاطعهُ رولاند مجدداً. «ظننتُ أنَّ الأخَ هو راهبٌ متجولٌ... كما يقالُ». كانت تلكَ وجهةُ نظرٍ قديمةٍ؛ فالأخوةُ من أمثالِ موردو كانوا رهباناً متجولين لا يحتفظون بممتلكاتٍ، إلَّا أنَّ بعضهم الآن أثرياءٌ بقدرِ الرهبان التقليديين أنفسهم. كان رولاند يعرفُ ذلكَ إلا أنَّه كان ينشدُ الاستفزازَ.

ردَّ موردو بالجوابِ التقليدي: «أعتقدُ أنَّ الرَّبَّ يقبلُ كِلا الشكلين من التضحيةِ».

«إذاً فأنتَ ترغبُ بتغييرِ مُعتقَدكَ».

«أعتقدُ أنَّ المواهب التي منحني إيَّاها الرَّبُّ ستعودُ بمنفعةٍ أكبر في الديرِ، ولهذا أجل سأكون مسروراً باعتناقِ تعاليمِ القديس بينيدكت».

«لكن لِمَ يجبُ عليَّ أن أفكرَ بكَ كمرشحٍ؟»

«لقد رُسمتُ قسَّاً أيضاً».

«ليسَ لدينا نقصٌ في هؤلاء».

«ولديَّ أتباعٌ في كينغزبريدج وفي الريفِ المحيط بها ولهذا، إن جازَ لي أن أتباهى، فلا بدَّ أنّني رجلُ الدينِ الأكثرُ تأثيراً في المنطقةِ».

وهنا تكلَّمَ الأبُ جيرومِ للمرَّةِ الأولى. كان جيروم شاباً واثقاً من نفسهِ تنمُّ ملامحُهُ عن ذكاءٍ وأحسَّ غودوين بأنَّه شخصٌ طموحٌ مثلهُ. قال جيروم: «هذا صحيحٌ. إنَّ الأخَ يملكُ شعبيةً استثنائيةً».

لم تكن شعبيتُهُ بينَ الرهبان طبعاً، لكن لم يعلم أيّ من الإيرل والأب جيروم بذلكَ، ولم يكن غودوين بصدد تنويرِهما حيالَ هذا الأمرِ.

وموردو أيضاً لم يكن راغباً بذلكَ. أحنى رأسَهُ وقالَ بتملقٍ: «أشكركَ من قلبي أيُّها الأبُ جيروم».

قالَ غودوين: «إنَّه يملكُ شعبيَّةً في أوساطِ الأغلبيةِ الجاهلةِ».

ووجهَ موردو ضربةً معاكسةً: «كما كان مخلصُنا».

«على الرهبانِ أن يعيشوا حياةَ الزُهدِ وإنكار الذاتِ»، قال غودوين.

أضافَ رولاند: «ملابسُ الأخ بائسةٌ بما يكفي. أمَّا في ما يتعلقُ بإنكار الذّات فيبدو لي أنَّ رهبان كينغزبريدج يأكلون أفضل من كثيرٍ من الفلاحين».

«لقد شوهدَ الأخُ موردو ثملاً في الخمَّاراتِ»، اعترضَ غودوين.

قال موردو: «تسمحُ تعاليمُ القديس بينيدكت للرهبانِ بشربِ الخمرِ».

«فقط إن كانوا مرضى أو يعملونَ في الحقولِ».

«أنا أعظُ في الحقولِ».

ولاحظَ غودوين أنَّ موردو خصمٌ بارعٌ في المناظراتِ، وكانَ سعيداً بهذا فهو فعلياً لم يكن يرغبُ بالفوزِ هذهِ المرَّة. التفت غودوين إلى رولاند وقالَ: «كلّ ما أستطيعُ قولَهُ بوصفي أمينَ الذخائر المقدسةِ هو أنني أوصي سيادتَك بشدَّةٍ ألَّا ترشحَ موردو لمنصبِ رئيسِ ديرِ كينغزبريدج».

«عُلم»، قال رولاند ببرودٍ.

نظرَت فيليبا إلى غودوين بشيءٍ من الدهشةِ، فأدركَ أنَّه استسلمَ بسهولةٍ وبسرعةٍ سابقتين لأوانهما إلَّا أنَّ رولاند لم يلحظ هذا فهو لم يكن مثلها قادراً على رؤيةِ الفوارقِ الدقيقةِ.

لم يكن موردو قد انتهى ولذلكَ أردف قائلاً: «يجبُ أن يخدمَ رئيسُ ديرِ كينغزبريدج الرَّبَّ بالطبعِ، لكنّه في الأمور الدنيويةِ عليه أن يعملَ بما يرضي الملكَ وممثليهِ من الإيرلات والبارونات».

وفكرَ غودوين بأنَّ كلامَ موردو يفضحُ خنوعاً واضحاً جداً كأنّه يقولُ للإيرل: «سأكونُ رجلكَ». كان هذا تصريحاً شائناً من شأنهِ بثُّ الذعرِ بينَ الرهبان وكفيلٌ بتقويضِ أيِّ دعمٍ لموردو من قبلهم.

لم يُعلّق غودوين على ذلك إلَّا أنَّ رولاند نظرَ إليه متسائلاً: «هل لديكَ ما تقولُهُ في هذا الشأنِ يا أمين الذخائرِ المقدسةِ؟»

«أنا واثقٌ من أنَّ الأخ لم يقصد القولَ إنَّ ديرَ كينغزبريدج ينبغي أن يخضعَ لإيرل شايرنغ في المسائل الدنيويةِ أو غيرها، أليسَ كذلك يا موردو؟»

«لقد قلتُ ما قلتُهُ»، قالَ موردو بصوتِ الواعظِ.

قالَ رولاند الذي سئمَ هذهِ اللعبةَ الآن: «هذا يكفي، كلاكما تضيعان الوقتَ. سأرشحُ سول وايتهيد. فلتنصرفا».

***

كان دير سان جون نموذجاً مصغّراً عن ديرِ كينغزبريدج؛ فالكنيسةُ صغيرةٌ وكذلكَ أروقةُ الديرِ الحجريَّةُ والمهجع، أمّا بقيةُ المباني فقد كانت مجرّد هياكل خشبيةٍ بسيطةٍ. في الديرِ ثمانيةُ رهبانٍ ولا يوجد أيّ راهبة. فضلاً عن قضاءِ حياتِهم في الصلاةِ والتأملِ كانوا يزرعون معظمَ طعامهم ويصنعونَ جبنةَ الماعزِ الشهيرةِ في الجنوبِ الغربي من إنكلترا.

قطعَ غودوين وفيليمون مسيرَ يومين إلى الديرِ ووصلا في وقتٍ مبكرٍ من المساءِ إلى طريقٍ يُفضي خارجَ الغابةِ ويطلُّ على أرضٍ مكشوفةٍ تتوسطُها الكنيسةُ. أدركَ غودوين على الفورِ أنَّ مخاوفَهُ كانت في محلها، وأنَّ التقارير التي تحدَّثت عن قيامِ سول وايتهيد بعملِهِ على أحسنِ وجهٍ كرئيسٍ لهذهِ الصومعةِ لم تفهِ حقَّهُ. كانت لمساتُ الترتيبِ والأناقةِ باديةً على كلِّ شيءٍ، على الأسيجةِ المشذَّبةِ والحفرِ المستويةِ والأشجارِ المزروعةِ بطريقةٍ مدروسةٍ في البستانِ وحقول القمحِ الناضجِ خاليةٌ من الأعشابِ الضّارةِ. كان غودوين واثقاً من أنّه سيجدهم يقومون بالقداديس في ميعادها وأنّهم يؤدونها بكلِّ وقارٍ. وأمِلَ ألا تكون قدرةُ سول الواضحةُ على القيادةِ قد جعلت منهُ شخصاً طموحاً.

وبينما كانا يقطعان الطريقَ عبرَ الحقولِ قالَ فيليمون: «لِمَ يريدُ الإيرل تنصيبَ نسيبِهِ رئيساً لديرِ كينغزبريدج؟»

«لنفسِ السببِ الذي دفعهُ إلى تنصيبِ ابنه الأصغر أُسقفاً لكينغزبريدج؛ فالأساقفةُ ورؤساءُ الأديرةِ يتمتعون بالنفوذِ لذلكَ يرغب الإيرل بأن يكون أيُّ جارٍ ذي نفوذ حليفاً له وليسَ عدواً»، أجاب غودوين.

«علامَ قد يتنازعون؟»

استمتعَ غودوين برؤيةِ فيليمون ينشغلُ بفهمِ لعبةِ الشطرنج التي يمارسُها أهلُ السلطةِ.

«على الأراضي والضرائبِ، على الحقوقِ والامتيازاتِ... على سبيلِ المثالِ، قد يرغبُ رئيسُ الديرِ ببناءِ جسرٍ في كينغزبريدج لتنشيطِ سوقِ الصوف،

وقد يمانعُ الإيرل مخططاً كهذا من منطلق أنَّ هذا المشروع سيُخفضُ الأعمال التجاريةَ في سوقِ شايرينغ»

«لكني لا أرى كيف يمكنُ لرئيسِ الديرِ أن يواجه الإيرل حقاً؛ فرئيسُ الديرِ لا يملكُ جنوداً».

«يمكنُ لرجلِ الدين أن يؤثرَ في جموعِ الناسِ؛ فإن ألقى موعظةً ضدَّ الإيرل أو استدعى سخط القديسين عليهِ فسيبدأ الناسُ بالاعتقادِ أنَّ الإيرل ملعونٌ، ثمَّ سيستخفون بسلطتِهِ ويفقدون ثقتَهم به وسيعتبرون أنَّ جميعَ مشاريعِهِ محكومٌ عليها بالهلاكِ. من الصعبِ جداً على رجلٍ من طبقةِ النبلاء أن يعارضَ رجلَ دينٍ قوي. انظر إلى ما حصلَ للملكِ هنري الثاني بعدَ جريمةِ قتل توماس بيكيت».

وصلا إلى ساحةِ البستانِ ثمَّ ترجلا عن مطيتهما. شربَ الحصانان في الحالِ من خندقٍ مخصصٍ للجياد. لم يكن في الأرجاءِ أيُّ أحدٍ باستثناءِ راهبٍ يزيلُ الروثَ من زريبةِ الخنازير خلفَ الإسطبلاتِ. لا بدَّ أنَّه راهبٌ صغيرٌ في السنِ بما أنَّه يقوم بهذا العملِ. ناداه غودوين قائلاً: «هيه يا فتى! تعال وتولَّ أمرَ حصانينا».

«حسناً»، صاحَ الراهبُ الذي أنهى تنظيفَ الحظيرةِ بعدَّةِ ضرباتٍ من مجرفتِهِ ثمَّ أسندَها إلى جدارِ الإسطبلِ وسارَ باتجاهِ الزائرين. كان غودوين على وشكِ أن يحثَّهُ ليتحرَّك بشكلٍ أسرع عندما ميزَ تلكَ الغرَّةَ الشقراء لسول وايتهيد. لم يكن غودوين راضياً عن مظهرِه هذا، إذ ليسَ من الملائمِ لرئيسِ ديرٍ أن ينظفَ زريبةً؛ فالمباهاةُ بالتواضعِ في نهايةِ الأمرِ مباهاةٌ من نوعٍ ما. على أيِّ حالٍ إنَّ تواضعَهُ هذهِ المرَّة قد يخدمُ غايةَ غودوين.

بادرَه بابتسامةٍ ودودةٍ قائلاً: «مرحباً أيُّها الأخ. لم أقصد أن أطلبَ من رئيسِ الديرِ أن يأخذَ السرجَ عن حصاني».

«لمَ لا؟ على أحدهم فعلُ ذلكَ، وأنتما متعبان من السفرِ طوال النهارِ». وقادَ سول الحصانين إلى الإسطبلِ ثمَّ صاحَ من الداخلِ: «الإخوةُ في الحقولِ لكنهم سيعودونَ قريباً من أجلِ صلاةِ المساءِ». وعاودَ الظهورَ قائلاً: «ادخلا إلى المطبخِ».

لم يكن غودوين وسول مقربين قط، لكنَّ غودوين لم يستطع التغلُّب على الشعورِ بأنَّه موضعُ انتقادٍ بسببِ صلاحِ سول الذي لم يكن شخصاً بارداً في صلاحِهِ بل كانَ يعملُ بعزمٍ هادئٍ وبساطةٍ في تسييرِ الأمورِ بشكلٍ مختلفٍ. كان على غودوين الحرصُ على عدمِ الشعورِ بالغضبِ فقد عانى من التوترِ بما يكفي.

لحقَ غودوين وفيليمون سول عبرَ المزرعةِ إلى مبنى بطابقٍ واحدٍ ذي سقفٍ مرتفعٍ. ورغمَ أنَّه مبنىً خشبي فإنَّه احتوى على مدفأةٍ حجريةٍ ومدخنةٍ. جلسا بامتنانٍ على مقعدٍ إلى مائدةٍ واطئةٍ. ملأ سول كوبين كبيرين بالجعةِ من برميلٍ ضخمٍ.

جلسَ سول قبالتهما. تجرَّعَ فيليمون شرابَهُ بنهمٍ، لكن غودوين ارتشفه على مهلٍ. لم يعرض عليهما الطعامَ وخمن غودوين أنَّهما لن يحصلا على المزيدِ إلى حينِ الانتهاءِ من صلاةِ المساءِ. على أيِّ حالٍ كانَ يشعرُ بتوترٍ كبيرٍ يمنعه من الأكلِ.

كانت تلك لحظةً حساسةً أُخرى واستغرقَ في التفكيرِ قلقاً. كانَ عليهِ أن يقفَ ضدَّ ترشحِ موردو بطريقةٍ واهيةٍ كي لا يُثني الإيرل رولاند. والآن عليهِ أن يدعو سول إلى أخذِ موقفٍ لن يقبلَ بهِ على الأغلبِ. كان يعلمُ ما عليهِ قولُهُ ولكن يجبُ أن يقولهُ بطريقةٍ صحيحةٍ؛ فإن ارتكبَ خطأً واحداً فسيثيرُ ريبةَ سول وهذا يعني أنَّ أيّ شيءٍ قد يحدث.

لم يمهلْه سول وقتاً طويلاً وسألَه: «ما الذي أحضركَ إلى هنا أيُّها الأخُ؟»

«لقد استعادَ الإيرل رولاند رشدهُ».

«الشكرُ للرّبِّ».

«هذا يعني أننا نستطيعُ إجراء انتخاباتِ رئاسةِ الديرِ».

«هذا جيدٌ فلا يجوز أن نبقى من دونِ رئيسٍ للديرِ لوقتٍ طويلٍ».

«لكن من سيكون الرئيسُ الجديد؟»

تجنَّبَ سول السؤال: «هل طُرحت أيّ أسماءٍ؟»

«الأخُ توماس، أمينُ سجلاتِ الديرِ».

«سيكونُ مديراً جيّداً. هل من مرشّحٍ آخر؟»

أجابَ غودوين بنصفِ الحقيقةِ: «ليسَ بشكلٍ رسمي».

«ماذا عن كارلوس؟ عندما جئتُ إلى كينغزبريدج لحضورِ جنازةِ رئيسِ الديرِ أنتوني كانَ نائبُ الرئيس هو المرشح الرئيسي».

«يشعر كارلوس بأنَّه غيرُ قادر على الاضطلاعِ بهذهِ المهمةِ».

«بسببِ عماه؟»

«ربما». لم يعلم سول بحادثةِ وقوعِ كارلوس أثناءَ قدَّاسِ عيدِ القديس أدولفوس، كما قررَ غودوين عدمَ إخبارِهِ. «على أيِّ حالٍ، يبدو أنَّه فكرَ بالأمرِ وصلَّى من أجلِهِ واتخذَ قرارَه بهذا الشأنِ».

«ألم يبادر الإيرلُ إلى تسميةِ بديلٍ؟»

ترددَ غودوين إلّا أنّه قال: «إنَّه يفكرُ بالأمرِ ولهذا السببِ نحن هنا، الإيرل يفكرُ بـ... ترشيحكَ». وفكرَ غودوين في سريرتِه بأنَّه لم يكذب حقاً بل قامَ بتوكيدٍ مُضلِّلٍ فحسب.

«أتشرَّفُ بذلكَ».

تفحّصَهُ غودوين بإمعانٍ ثمَّ قال: «لكنكَ لا تبدو مُتفاجئاً على ما يبدو؟»

احمرَّ وجهُ سول وقال: «سامحني، لقد كان الرئيس العظيم فيليب مسؤولاً عن ديرِ سان جون وبعدَها أصبحَ رئيساً لديرِ كينغزبريدج، وتبعَهُ آخرون على نفسِ الطريقِ. هذا لا يعني أنني أستحقُّ ما نالوه بالطبعِ لكن عليَّ الاعتراف بأنَّ هذهِ الفكرةَ خطرت ببالي».

«ليسَ هناكَ ما تخجلُ منهُ. ما شعوركُ حيالَ أمرِ ترشيحكَ؟»

«ما شعوري؟» أجابَ سول في حيرةٍ. «لمَ تسأل عن ذلكَ؟ إن رغبَ الإيرل بي فسيرشحني، وإن أرادني الإخوةُ سيصوتون لي، وسأعتبرُ هذا دعوةً من الرّبِّ. وهذا يعني أنَّ شعوري حيالَ الأمرِ لا يشكلُ أيَّ فرقٍ».

لم يكن هذا الجواب الذي انتظرَ غودوين سماعَه. أرادَ أن يتخذَ سول قرارَهُ بنفسِهِ، أمَّا الحديثُ عن إرادةِ الربِّ هنا فقد يحملُ معهُ نتائج عكسيةً. قالَ غودوين: «ليسَ الأمرُ بهذهِ البساطةِ إذ ليسَ عليكَ أن تقبلَ الترشيحَ إن لم تكن راغباً بهِ، ولهذا أرسلني الإيرل إلى هنا».

«ليسَ من شيمِ رولاند أن يسألَ أحداً في أمرٍ يُصدرهُ».

بوغتَ غودوين لوهلةٍ وذكّرَ نفسَهُ أنَّ سول شخصٌ فطنٌ فتراجعَ في الحالِ. «أجل بالطبعِ. على أيِّ حالٍ إن كنتَ تفكرُ برفضِ الترشيحِ فهو يرغبُ بمعرفةِ هذا بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ كي يتمكن من ترشيحِ شخصٍ آخر». من المرجحِ أن يكون هذا صحيحاً رغمَ أنَّ رولاند لم يفصح عنهُ قط.

«لم أعلم أنَّ الأمورَ تجري هكذا».

وفكّرَ غودوين في نفسهِ بأنَّها لا تجري على هذا النحو لكنَّه قالَ: «في آخرِ انتخاباتٍ وعندما انتُخبَ الرئيس أنتوني كنا، أنا وأنت، راهبين مبتدئَين لذلكَ لا نعلمُ بكيفيةِ سيرِ الأمورِ».

«هذا صحيحٌ».

«هل تشعرُ بأنَّكَ قادرٌ على شغلِ منصبِ رئيسِ ديرِ كينغزبريدج؟»

«كلا بالتأكيد».
«أوه»، وتظاهرَ غودوين بخيبةِ الأملِ رغمَ أنَّه كان يعولُ على تواضعِ سول لسماعِ ذلكَ الجواب.
«على أيِّ حالٍ...»
«ماذا؟»
«بمعونةِ الرَّبِّ أيُّ شيءٌ يمكنُ أن يحدث».
«هذا صحيحٌ»، قال غودوين وقد أخفى انزعاجَهُ فالجوابُ المتواضعُ كان شكلياً فحسب. في الحقيقةِ كانَ سول يعتقدُ أنَّه قادرٌ على القيامِ بهذا العملِ. «عليكَ بالطبعِ أن تمعنَ التفكيرَ بالأمرِ وتصلي من أجلِهِ الليلةَ».
«أنا واثقٌ من أنني لن أفكر بأمرٍ سواه الليلةَ». ثمَّ سمعوا أصواتاً بعيدةً.
«عادَ الإخوةُ من عملهم».
قالَ غودوين: «بإمكاننا متابعةُ الحديثِ في الصباحِ. إن قررَت أن تقبلَ الترشيح فعليك مرافقتنا إلى كينغزبريدج».
«حسن جداً».
خشي غودوين من وجودِ خطرٍ فعلي في موافقةِ سول، إلَّا أنَّه ما يزالُ يملكُ سهماً إضافياً في جعبتِهِ ولذلكَ قال: «عليكَ ألا تنسى شيئاً آخر أثناءَ صلواتك؛ فالرجلُ النبيلُ لا يمنح هدايا مجانيةً».
بدا سول قلقاً وقال: «ماذا تعني؟»
«يوزع الإيرلات والبارونات الألقابَ والأراضي والمناصبَ والاحتكارات... لكن لهذهِ الأشياء دوماً ثمنٌ».
«وفي هذهِ الحالةِ؟»
«إن انتخبتَ فسيتوقعُ منكَ رولاند التعويضَ لهُ؛ فأنتَ نسيبهُ في نهايةِ المطافِ، وستدينُ له بمنصبك، لذا ستكونُ بمنزلة صوتِهِ في اجتماعِ الكنيسةِ، وسيحرصُ على ألَّا تتعارضَ قراراتُ الديرِ مع مصالحِهِ».
«هل سيجعلُ من هذا شرطاً واضحاً للترشيحِ؟»
«واضحاً؟ لا، ولكن عندما تعودُ معي إلى كينغزبريدج سيقومُ بطرحِ أسئلةٍ عليكَ، وستكون أسئلتُهُ مصممةً لكشفِ نواياك. إن كنتَ مُصراً على أن تكونَ رئيسَ ديرٍ مستقلاً، وأنَّك لن تعاملَ قريبكَ وراعيك معاملةً خاصةً فسيرشحُ شخصاً آخر».
«لم أفكر بذلكَ».

«طبعاً تستطيعُ، وبكلِّ بساطةٍ، أن تعطيهِ الأجوبةَ التي يودُّ سماعَها وتغيرُ رأيكَ بعد انتخابكَ».

«لكن هذا السلوكُ يفتقرُ إلى النزاهةِ».

«سيعتقدُ البعضُ ذلكَ».

«والرَّبُّ سيعتقدُ ذلكَ».

«عليكَ أن تصلي بشأنِ هذا الأمرِ الليلةَ».

دخلَت مجموعةٌ من الرهبان الشبابِ بأرديةٍ ملطخةٍ بطينِ الحقولِ إلى المطبخِ وهم يتحدثونَ بصخبٍ. نهضَ سول ليقدّمَ لهم الجعةَ لكن القلقَ كان بادياً على وجهِهِ ولم يفارقهُ حتَّى عندما ذهبوا لأداءِ صلاةِ المساءِ في الكنيسةِ الصغيرةِ ذات الجداريةِ التي تصورُ مشهدَ يومِ القيامةِ فوقَ المذبحِ. كما ظلَّ كذلكَ إلى أن قُدّمَت أخيراً وجبةُ المساءِ وأشبعَ غودوين جوعَهُ بالجبنِ اللذيذِ الذي صنعهُ الرهبانُ.

بقي غودوين صاحياً تلكَ الليلة رغم الألم الذي كان يعاني منه جرَّاءَ ركوبِ الحصانِ ليومين. لقد واجهَ سول ووضعهُ أمامَ معضلةٍ أخلاقيةٍ. كان معظمُ الرهبانِ سيراوغون رولاند أثناءَ الكلامِ وسيعطونهُ وعوداً توحي بخضوعٍ أكبر قليلاً مما ينوونهُ حقاً، لكن سول ليسَ واحداً من هؤلاءِ الرهبان فقد كانَ مُخلصاً لالتزامِهِ الأخلاقي. هل سيجدُ مخرجاً لهذهِ المعضلةِ ويقبل الترشيحَ؟ لم يرَ غودوين إمكانيةً لإيجادِ مخرجٍ. كانت سيماءُ القلقِ ما زالت تعلو وجهَ سول حينما نهضَ الرهبانُ مع أولِ خيط للشمسِ من أجلِ أداءِ صلاةِ الفجرِ.

بعدَ الانتهاءِ من وجبةِ الفطورِ توجّهَ سول إلى غودوين وأخبرهُ بأنَّه لا يستطيعُ قبولَ الترشيحِ.

***

لم يستطع غودوين الاعتيادَ على منظرِ وجهِ الإيرل رولاند فقد كان أغربَ منظرٍ يراه في حياتهِ. كانَ الإيرل الآن يرتدي قبعةً لإخفاءِ الضمَّاداتِ على رأسِهِ حتَّى يبدو مظهرهُ مقبولاً إلَّا أنَّها لم تُخفِ الشللَ في الجانبِ الأيمنِ من وجهِهِ. بدا رولاند سيئ المزاجِ أكثرَ من المعتادِ فخمن غودوين أنَّه ما يزالُ يعاني من نوباتِ صداعٍ شديدةٍ.

«أينَ قريبي سول؟» سألَ بمجرَّدِ دخولِ غودوين إلى الغرفةِ.

«مازالَ في ديرِ سان جون يا سيدي. لقد أبلغتُهُ رسالتَكَ...»

«رسالة؟ لقد كان أمراً».

وقالت الليدي فيليبا التي وقفت بجانبِ السريرِ برفقٍ: «لا تُجهد نفسَك أيُّها اللورد... تعلمُ أنَّ ذلكَ يزيدُ من سقمكَ».

قال غودوين: «قالَ الأخُ سول إنَّه لا يستطيعُ قبولَ الترشيحِ».

«ولِمَ لا بحقِّ الشيطانِ؟»

«لقد فكَّرَ وصلَّى...»

«بالطبعِ لقد صلَّى فهذا ما يفعلُهُ الرهبان. وما حجةُ عصيانهِ لأمري؟»

«قالَ إنَّه يشعرُ بأنَّه غيرُ قادرٍ على تحمُّلِ تحدياتِ مثل هذا المنصبِ».

«هذا هُراء. أيّ تحديَّاتٍ؟ لا أحد يطلبُ منه أن يقودَ ألف فارس إلى معركةٍ، كل ما عليهِ القيامُ بهِ هو الحرص على أن تتلو حفنةٌ من الرهبانِ الصلوات في مواعيدها المحددةِ».

كانَ كل ذلكَ هراء لذا أحنى غودوين رأسَهُ ولم يتفوه بكلمةٍ.

وتغيرت لهجةُ الإيرلِ فجأةً: «أدركتُ للتو ابن من أنتَ. أنتَ ابن بيترانيلا، ألستَ كذلك؟»

«نعم يا سيدي». وفكّر غودوين في نفسهِ: «بيترانيلا ذاتها التي هجرتَها».

«لقد كانت خبيثةً وأراهنُ أنَّكَ مُثلها أيضاً. كيفَ لي أن أعرفَ أنَّكَ لم تقنع سول بالرفضِ؟ أنتَ ترغبُ بأن يصبحَ توماس لانغلي رئيساً للدير، أليسَ كذلك؟»

«بل خطتي أكثرُ خبثاً من ذلكَ بكثيرٍ أيُّها الأحمقُ»، فكَّرَ غودوين في نفسهِ إلَّا أنَّه قالَ: «لقد سألني سول عمَّ قد تريدُهُ منهُ مقابلَ ترشيحكَ».

«آه، ها نحنُ نصلُ إلى لبِّ الموضوعِ. وبمَ أخبرتُهُ؟»

«أنَّكَ تتوقعُ منه أن يُصغي إلى نسيبهِ وراعيهِ وسيِّدِهِ».

«وكان عنيداً بما يكفي فرفضَ ذلكَ كما أفترضُ. حسناً، لقد حُسمَ الأمرُ. سأرشحُ ذلكَ الراهب البدين. والآن اغرب عن وجهي».

جاهدَ غودوين لإخفاءِ ابتهاجِهِ وهو ينحني خارجاً من الغرفةِ. لقد نجحَت المرحلةُ ما قبلَ الأخيرة من خطتِهِ نجاحاً باهراً. لم يخامر الإيرل أدنى شك في أنَّه خُدعَ لكي يرشحَ أكثر شخصٍ ميئوسٍ منه قد يُفكرُ بهِ غودوين.

والآن إلى الخطوةِ الأخيرةِ.

غادرَ غودوين المستشفى متوجهاً إلى الديرِ. إنَّها الساعةُ المخصصةُ للدراسةِ

قبلَ أداءِ صلاةِ منتصفِ النهارِ، ومعظمُ الرهبان كانوا إمّا واقفين أو جالسين في الأرجاءِ يقرؤون أو يُقرأ لهم أو يتأمّلون. لمحَ غودوين حليفَهُ الشاب ثيودوريك فاستدعاهُ بإيماءةٍ من رأسِهِ.

وأخبرَهُ بصوتٍ خفيضٍ: «لقد رشحَ الإيرلُ رولاند الأخَ موردو ليكونَ رئيساً للديرِ».

صاحَ ثيودوريك: «ماذا؟»

«أخفض صوتَكَ».

«هذا مستحيلٌ».

«بالطبعِ مستحيلٌ».

«لن يصوّتَ لهُ أحدٌ».

«ولذا أنا مسرورٌ».

بدا ثيودوريك وقد فهمَ ما يجري فقالَ: «آه... فهمتُ. ذلكَ يصبُّ في مصلحتنا إذاً».

تساءلَ غودوين لِم عليه أن يشرحَ مثلَ هذهِ الأمور حتّى للرجالِ الأذكياءِ. لا أحد يقرأ ما بين السطور ما عداه هو ووالدتهُ. «اذهب وأخبر الجميع بهدوءٍ فلا فائدة ترجى من إظهارِ غضبكَ لأنّهم سيغضبون بما يكفي ولا داعيَ إلى دفعِهم إلى ذلكَ».

«هل عليَّ القولُ إنَّ ذلكَ في مصلحة توماس؟»

«قطعاً لا».

«حسنٌ، لقد فهمت»، قالَ ثيودوريك.

بدا واضحاً أنّه لم يفهم لكن غودوين شعرَ بأنّه يستطيعُ الوثوقَ بهِ لينفذَ إرشاداتِهِ.

تركهُ غودوين وذهبَ للبحثِ عن فيليمون فوجدَهُ يكنسُ غرفةَ الطعامِ، «هل تعلمُ أين موردو؟» سألهُ غودوين.

«في المطبخِ على الأرجحِ».

«اعثر عليهِ واطلب منهُ أن يوافيكَ إلى منزلِ رئيس الديرِ حين يكون جميعُ الرهبانِ في الكنيسةِ من أجلِ صلاةِ الظهرِ. لا أريد أن يراكَ أحدٌ معهُ هناك».

«حسناً. وبماذا أخبرُه؟»

«بدايةً قُلْ له: أيُّها الأخ موردو، لا ينبغي أن يعلم أحد بأنني أخبرتُكَ بهذا. هل هذا واضحٌ؟»

«لا ينبغي أن يعلم أحدٌ أبداً أنني أخبرتُكَ بهذا. حسناً».

«ثمَّ أرِهِ الوثيقة التي وجدناها. أنتَ تذكرُ أين هي... في غرفةِ النومِ بجانبِ المصلى، هناك صندوقٌ وبداخلِهِ محفظةٌ جلديَّةٌ بلون الزنجبيلِ».

«أهذا كلُّ شيءٍ؟»

«فلتُشر في حديثكَ إلى أن الأرضَ التي أعطاها توماس للديرِ تعودُ ملكيتها أصلاً إلى الملكةِ إيزابيلا، وأنَّ هذا الأمر بقي سرّاً لعشرةِ أعوام».

بدا فيليمون حائراً: «لكننا لا نعلمُ ما الذي يحاولُ توماس أن يخفيهِ».

«لا، ولكن دوماً ما يكون هناكَ سببٌ لإبقاءِ أمرٍ ما سراً».

«ألا تعتقدُ أنَّ موردو سيحاولُ أن يستغل هذهِ المعلومة ضدَّ توماس؟»

«بالطبع».

«وماذا سيفعلُ موردو؟»

«لا أعلمُ، ولكن مهما فعل فمن المؤكدِ أنّه أمرٌ سيئٌ لتوماس».

تجهمَ فيليمون وقالَ: «ظننت أننا من المفترضِ أن نساعدَ توماس».

ابتسمَ غودوين قائلاً: «هذا ما يظنّهُ الجميعُ».

قُرِعَ الجرسُ إيذاناً بصلاةِ الظهرِ.

انطلقَ فيليمون يبحثُ عن موردو بينما انضمَّ غودوين إلى بقيَّةِ الرهبانِ في الكنيسةِ. وفي انسجامٍ مع الآخرين أخذَ يقولُ: «ربَّاه عجّل بمعونتي». ولكن في هذهِ المرَّة صلّى بصدقٍ غير معتادٍ، فعلى الرغمِ من الثقةِ التي أظهرَها أمامَ فيليمون فإنَّه لم ينسَ أنّه كان يُقامر. لقد راهنَ بكلِّ شيءٍ على سرِّ توماس ولكن دونَ أن يكون واثقاً من أنَّ الحظ سيحالفُهُ.

على أيِّ حالٍ بدا واضحاً أنَّ الحظَّ حالفه في إثارةِ الرهبانِ الذين بدوا قلقين وكثيري الكلامِ بحيث توجبَ على كارلوس أن يطلبَ منهم التزامَ الهدوءِ مرَّتين أثناءَ ترتيل المزاميرِ. لقد كانوا يكرهون الأخوة المتجولين عموماً لاتخاذهم موقفَ التسامي الأخلاقي في مسألةِ حيازةِ الممتلكاتِ الدنيويةِ، وفي نفسِ الوقتِ يستغلون من يدينونهم، كما أنَّهم يكرهون موردو على وجهِ الخصوصِ لأنَّه مغرورٌ وجشعٌ وثملٌ. سيرغبون بأيِّ شخصٍ آخر سواه.

بعدَ الصلاة وعندما كانوا يغادرون الكنيسةَ، تكلَّمَ سيميون مع غودوين قائلاً: «لا يمكننا قبولُ الأخ موردو».

«أتفقُ معكَ».

«أنا وكارلوس لن نضيفَ أيَّ اسمٍ آخر. إن بدا الرهبان مشتّتين فسيستغلُ الإيرلُ هذا لفرضِ مرشحِه كضرورةٍ لتسويةِ الأمرِ. يجبُ أن ندفنَ خلافاتنا ونلتف حولَ توماس، فإن أظهرنا للعالمِ أننا جبهةٌ متحدةٌ سيصعبُ على الإيرل حينها مواجهتنا».

توقفَ غودوين وواجهَ سيميون: «أشكركَ أيها الأخُ»، قالَ مُجبراً نفسه على التصرف بتواضعٍ، وإخفاءِ ما شعرَ بهِ من ابتهاجٍ.

«نقومُ بذلكَ من أجلِ مصلحةِ الديرِ».

«أعلمُ هذا وأنا أقدّرُ سماحتكم».

أومأ سيميون وانصرفَ.

واشتمَّ غودوين رائحةَ النصرِ.

دخلَ الرّهبان إلى غرفةِ الطعامِ لتناولِ الغداءِ وانضمَّ موردو إليهم. قد يفوت موردو الصلاةَ لكنه لن يفوتَ وجباتِ الطعامِ. كانت القاعدةُ عموماً، تُرحب الأديرة بانضمام جميعِ الرهبانِ، أيّاً كانت أخويتهمُ، إلى مائدةِ الطعامِ، لكن عدداً قليلاً منهم كانَ يستغلُ هذهِ القاعدة وأقل بكثير يستغلها كما يفعلُ موردو.

أمعنَ غودوين في قسماتِ وجههِ. بدا مُتحمِّساً كما لو أنَّه يحملُ أخباراً لا يطيقُ الانتظارَ حتَّى يشاركهم إياها. ولكن موردو تمالكَ نفسَهُ خلالَ تقديمِ الغداءِ والتزمَ الصمتَ طوالَ الوجبةِ مُصغياً إلى راهبٍ مبتدئٍ يقرأ من كتابٍ.

كان النصُّ الذي اختيرَ للقراءةِ يتحدثُ عن قصَّةِ سوزانا والشيوخ. اعترضَ غودوين عليهِ فقد كان نصاً مليئاً بالتصاوير الجنسيةِ ولم يكن من اللائقِ قراءتُهُ على مسامعِ جمعٍ من العازبين وبصوتٍ مرتفعٍ. لكن اليوم وحتَّى محاولات شيخَين داعرين ابتزازَ امرأةٍ لتمارسَ معهما الجنسَ فشلَت في الاستحواذِ على اهتمامِ الرُهبان الذين تحدثوا في همسٍ وهم ينظرون شزراً إلى موردو.

فرغوا من تناولِ طعامِهم مع وصولِ القصَّةِ إلى حيثُ قامَ النبي دانيال بإنقاذِ سوزانا من الإعدامِ مستجوباً الشيخين بشكلٍ مُنفصلٍ ومُثبتاً بذلكَ أنَّ كلّاً منهما يروي القصَّةَ بشكلٍ يتعارض مع روايةِ الآخر. في تلك اللحظة وعندما كان الرهبانُ يستعدون لمغادرةِ قاعةِ الطعامِ تكلَّمَ موردو مخاطباً توماس.

«عندما جئتَ إلى هنا أيّها الأخُ توماس كنت مصاباً بطعنةِ سيفٍ كما أعتقد».
تحدَّث موردو بصوتٍ مرتفعٍ كفايةً كي يسمعَهُ الجميعُ فتوقفَ الرهبان ليصغوا إلى ما يجري.
رمقهُ توماس بنظرةٍ باردةٍ وأجاب: «نعم».
«وتسببَ ذلكَ الجرحُ في النهايةِ بقطعِ ذراعكَ اليسرى كما أظنُ، هل أُصبتَ بالجرحِ أثناءَ خدمةِ الملكةِ إيزابيلا؟»
وشحَب وجهُ توماس ثمَّ قالَ: «أنا راهبٌ في كينغزبريدج منذُ عشرةِ أعوامٍ وحياتي السابقة باتت طيَّ النسيانِ».
ومن دونِ أن يشوشه ذلكَ تابعَ موردو كلامَهُ قائلاً: «سببُ سؤالي هو قطعةُ الأرضِ تلك التي أعطيتها للديرِ عند انضمامِك إليهِ، قريةٌ صغيرةٌ وفيرةُ الإنتاجِ في نورفولك، خمسةُ آلاف فدَّانٍ بالقربِ من لين... حيث تعيشُ الملكةُ».
قاطعَهُ غودوين متظاهراً بالسخطِ، «ما الذي يعرفهُ دخيل مثلكَ عن ممتلكاتنا؟»
قال موردو: «آه، لقد قرأتُ الصّك. إنَّ مثلَ هذه الأمورِ ليست سرّاً».
نظرَ غودوين إلى كارلوس وسيمون الجالسين جنباً إلى جنبٍ.
بدا كلٌّ منهما مذهولاً. كانا يعلمان بأمرِ الصّكِّ بصفتهما نائبَ رئيسِ الديرِ وأمينَ الخزنةِ. لا بدَّ أنَّهما يتساءلان في نفسيهما كيفَ تمكنَ موردو من إلقاءِ نظرةٍ عليهِ. ثمَّ همَّ سيميون بالكلامِ.
وتابعَ موردو: «حسناً، على الأقلِّ لا يفترضُ بها أن تكون سراً».
ومجدداً كبحَ سيميون نفسهُ؛ فإن طالبَ موردو بكشفِ طريقةِ وصولِهِ إلى الصكِ فسيتعينُ عليه الإجابة على أسئلةٍ مُتعلقةٍ بسببِ إبقاءِ هذا الأمرِ سراً.
أردفَ موردو يختتم كلامهُ: «والمزرعةُ في لين تمَّ التبرعُ بها للديرِ من قِبل...» وتوقفَ ليضفي تأثيراً دراميا ثمَّ قال: «الملكة إيزابيلا».
نظرَ غودوين حوله. سادَ ذعرٌ بينَ الرهبان جميعهم ماعدا كارلوس وسيميون اللذين بقيت تعابير وجهيهما جامدة.
انحنى الأخُ موردو عبرَ الطاولةِ وقد التصقَت أعشابٌ من يخنةِ الغداءِ على أسنانِهِ ثمَّ قالَ بعدوانيةٍ: «أسألك مجدداً، هل أُصبتَ بجرحِكَ أثناءَ خدمتكَ للملكةِ إيزابيلا؟»

قالَ توماس: «يعرفُ الجميعُ ما كنتُ أقومُ بهِ قبل أن أصبحَ راهباً. كنت فارساً وخضتُ معارك وقتلتُ رجالاً. لقد اعترفتُ بذلك ونلتُ الغفرانَ».

«قد يضعُ راهبٌ ماضيه خلفهُ لكن رئيس ديرِ كينغزبريدج سيحملُ عبئاً أثقل، فقد يُسأل عمّن قتل ولِمَ فعل ذلك، والأهمُّ من ذلكَ سيُسأل عن المكافأة التي تلقّاها لقاءَ ذلكَ».

نظرَ توماس إلى موردو من دونِ أن يتكلم. حاولَ غودوين أن يقرأ تقاسيم وجههِ الذي باتَ جامداً بطريقةٍ تنُمُّ عن انفعالٍ قويٍّ، ولكن ما هو هذا الشعورِ؟ لم يكن هناك ما يدلُّ على شعورٍ بالذنبِ أو حتّى الحرجِ. وأياً كانَ السّرُّ، فإنَّ توماس لا يشعرُ بأنَّه اقترفَ عملاً شائناً، كما أنَّها لم تكن نظرةَ غضبٍ أيضاً. كانت اللهجةُ الحقيرةُ لموردو كفيلة بإثارةِ غضبِ رجالٍ آخرين، لكن توماس لم يبدُ كأنّه سيُطلق العنان لغضبهِ، لا، إذ بدا كأنّه يشعرُ بشعورٍ مختلفٍ، شيء أشدّ برودةً من الإحراجِ وأهدأ من الغضبِ. وأدركَ غودوين أخيراً أنَّ توماس كان يشعرُ بالخوفِ. كانَ توماس خائفاً، ولكن من موردو؟ لا فهو بالكادِ يخشاه، إنَّه يخافُ من أمرٍ قد يحصلُ بسببِ موردو، من بعضِ العواقبِ التي قد تترتبُ عن كشفِ موردو للسرِ.

استمرَّ موردو كما لو أنَّه كلبٌ يلهثُ وراءَ عظمةٍ: «إن رفضتَ الإجابةَ عن هذا السؤال هنا في هذهِ القاعةِ فسيُطرحُ في مكانٍ آخر».

وفقَ حساباتِ غودوين كان على توماس أن يستسلمَ في هذهِ المرحلةِ، لكن ذلك لم يكن مضموناً فقد كان توماس صلباً. على مدارِ السنواتِ العشرِ الماضيةِ أثبتَ توماس نفسهُ كشخصٍ هادئٍ وصبور ومرن. فعندما حدَّثهُ غودوين لإقناعِهِ بالترشحِ إلى منصبِ رئيسِ الديرِ اعتقدَ جازماً أنَّ دفنَ الماضي ممكنٌ، وها هو الآن يدركُ أنّه كان مُخطئاً. لكن كيف سيتصرَّفُ حيالَ هذا الأمرِ؟ هل سيرى خطأه ويتراجع؟ أم سيواجه الأمرَ ويشاهد إلى ماذا ستؤول إليهِ الأمورُ؟ عضَّ غودوين شفتَهُ وانتظرَ.

وأخيراً تكلَّمَ توماس: «أعتقدُ أنَّكَ قد تكون مُحقاً في مسألةِ أنَّ السؤالَ سيُطرحُ في مكانٍ آخر، أو على الأقلِّ أعتقدُ أنَّكَ، وبعيداً عن مُثلِ الأخوية أو حتَّى عن خطورةِ الأمرِ، ستبذلُ ما بوسعِكَ لجعلِ نبوءتكَ تتحققُ».

«لا أعلمُ إن كنتَ تلمحُ إلى...»

«ما من داعٍ لتتفوهَ بالمزيدِ»، قالَ توماس ذلك ثمَّ وقفَ بسرعةٍ وتراجعَ

موردو إلى الخلفِ. كان طولُ قامةِ توماس وبنيتُهُ البدنية المتينة مع نبرةِ صوتهِ الحادَّةِ قد أدَّت مفعولَها وأخرست الراهب.

«لم أُجب عن سؤالٍ يخصُّ ماضي قط»، قالَ توماس ذلكَ وقد عاد صوتُهُ هادئاً من جديدٍ. لزمَ بقيةُ الرهبان في القاعةِ الهدوءَ وقد بدوا مأخوذين بما يجري. «ولن أفعلَ أبداً»، ثمَّ أشارَ بإصبعِه إلى موردو. «لكن هذهِ... البزَّاقةُ... جعلتني أدركُ أنّني إن أصبحتُ رئيسَ ديركم، فإنَّ أسئلةً كهذهِ لن تتوقف. قد يحتفظُ الرّاهب بماضيهِ لنفسِهِ إلَّا أنّ وضعَ رئيسِ الديرِ مختلفٌ، وأنا أفهمُ هذا الآن. قد يكون لرئيسِ الديرِ أعداءٌ وأيُّ غموضٍ في حياتهِ قد يغدو نقطةَ ضعفٍ، وأيُّ ضعفٍ في القائدِ يهددُ المؤسسة التي يقودها. كان على عقلي أن يقودني إلى حيث قادَ الأخَ موردو حقدُهُ، حتّى أدركَ أنَّ الرجلَ الذي لا يرغبُ بالإجابةِ عن أسئلةٍ حولَ ماضيهِ لا يمكنُ لهُ أن يكونَ رئيسَ ديرٍ. ولهذا...»

صاحَ ثيودوريك الشاب قائلاً: «لا».

«ولهذا أنا الآن أسحبُ ترشيحي للانتخاباتِ المُقبلةِ».

تنهّدَ غودوين تنهيدةَ رضا عميقةً: لقد حقّق هدفه.

جلسَ توماس وبدا موردو راضياً عن نفسِهِ، وراحَ الآخرون يتكلمون بعضهم مع بعض في الوقتِ ذاته.

ضربَ كارلوس بقوّةٍ على الطاولةِ فهدؤوا رويداً رويداً. ثمَّ قالَ: «أيُّها الأخُ موردو، بما أنّكَ لا تستطيع التصويتَ في هذه الانتخابات عليّ أن أطلبَ منكَ أن تغادرنا الآن».

خرجَ موردو من القاعةِ على مهلٍ وهو يمشي مشيةَ المنتصرِ.

عندما غادرَ قال كارلوس: «إنّها كارثةٌ... موردو المرشح الوحيد».

قال ثيودوريك: «لا يمكننا السماحُ لتوماس بالانسحابِ».

«لكن يجبُ عليهِ ذلكَ».

قال سيميون: «لابدَّ من وجودِ مرشحٍ آخر».

قال كارلوس. «نعم، وأنا أرشحُ سيميون».

«لا!» قال ثيودوريك.

قالَ سيميون: «دعني أتكلم، ينبغي أن نختار مرشحاً سيوحدُ الإخوة ضدَّ موردو، وذلكَ الشخصُ ليس أنا. أعلمُ أنني لا أملكُ تأييداً كافياً بينَ الرهبانِ الشباب، وأعتقدُ أننا جميعاً نعلمُ من هو الذي سيحظى بالتأييدِ من كل الشرائحِ».

التفتَ ونظرَ إلى غودوين.

قالَ ثيودوريك: «نعم، إنَّه غودوين»

هللَ الشبانُ من الرهبانِ بينما بدا كبارُ السنِ صاغرين. هزَّ غودوين رأسَهُ كما لو أنَّه مترددٌ في الاستجابةِ لمطلبهم. أخذوا يضربونَ على الطاولاتِ وهم يرددون اسمه: «غودوين غودوين».

وأخيراً نهضَ غودوين وكانَ قلبهُ عارماً بالفرحِ إلَّا أنَّه كبحَ افتضاح مشاعره على وجههِ. رفعَ يديهِ عالياً يطلبُ منهم الهدوءَ وعندما عمَّ الصمتُ في القاعةِ قالَ بصوتٍ خفيضٍ متواضعٍ: «سأخضعُ لرغبةِ إخوتي».

وعمَّ التهليلُ أرجاءَ الغرفةِ.

-23-

أرجأ غودوين موعدَ الانتخابات لأنَّ نتيجتَها ستغضبُ الإيرل رولاند، كما أنَّه لم يرغب بإعطاءِ الإيرل وقتاً لتغييرِ القرارِ قبلَ حفلِ الزفافِ. في الحقيقةِ كان غودوين خائفاً فهو سيقفُ في وجهِ أحد أقوى الرجالِ في المملكةِ. كانت إنكلترا محكومةً من قبلِ ثلاثة عشر إيرلاً فقط مع عددٍ من البارونات الأقل شأناً وواحد وعشرين أُسقفاً وحفنة من رجال متنفذين آخرين. حين يستدعي الملكُ البرلمان كانوا يمثلون اللوردات -المجموعة الأرستقراطية- ويقفون في مواجهةِ العموم الذين كانوا فرساناً وأعياناً وتجاراً، وفي الوقت الذي كان فيه إيرل شايرينغ أحد أكثرِ الرجالِ نفوذاً ورفعةً بين أفرادِ طبقتِهِ كان الأخُ غودوين ابن الأرملة بيترانيلا والبالغُ من العمر واحداً وثلاثين عاماً وهو لم يشغل منصباً أرفع من منصبِ أمينِ الذخائرِ المقدسةِ في ديرِ كينغزبريدج في نزاع معهُ... وما زادَ من خطورةِ هذا النزاعِ هو أن كفةَ الربحِ تميلُ لمصلحة غودوين.

ولهذا السببِ تردّد غودوين في إجراءِ الانتخاباتِ، ولكن قبلَ ستة أيامٍ من الزفافِ أعلنَ رولاند بعنادٍ قائلاً: «غداً يجبُ أن تجرى الانتخاباتُ».

كانَ الضيوفُ قد بدؤوا بالتوافدِ من أجلِ الزفافِ. نزلَ إيرل مونماوث في مستشفى الديرِ وشغلَ الغرفةَ الخاصَّةَ المجاورةَ لغرفةِ رولاند، فكان على اللورد ويليام والليدي فيليبا أن ينتقلا إلى نُزلِ بيل. كان الأسقفُ ريتشارد يتشاركُ منزلَ رئيسِ الديرِ مع كارلوس. ملأ البارونات والفرسانُ الأقل شأناً الحاناتِ مع زوجاتِهم وأبنائِهم ومرافقيهم وخدمِهم وخيولِهم. استمتعَ أهلُ البلدةِ

بتدفقِ هذه الأموالِ التي كانوا بأمسِّ الحاجةِ إليها بعدَ الأرباحِ المخيبةِ للآمالِ لسوقِ الصوفِ الذي غمرتهُ الأمطارُ الغزيرةُ. وفي صباحِ يومِ الانتخابات ذهبَ غودوين وسيميون إلى غرفةِ الخزنة، وهي غرفةٌ صغيرةٌ بلا نوافذ خلفَ بابٍ ثقيلٍ من خشبِ البلوطِ قبالةَ المكتبةِ. توضعُ في هذهِ الغرفةِ الحلي الثمينة التي تُستخدمُ للمراسمِ الخاصَّةِ وقد حُفظت في صندوقٍ حديديٍ مقفولٍ ومفاتيحها بحوزةِ سيميون أمين الخزنةِ.

كانت نتيجةُ الانتخاباتِ محسومةً، أو هكذا اعتقدَ الجميعُ ماعدا الإيرل رولاند. لم يشك أحدٌ بتلاعبِ غودوين بمجرياتِ الأمرِ ولكنه بدا متوتراً للحظةٍ وجيزةٍ عندما تساءلَ توماس بصوتٍ مرتفعٍ عن كيفيةِ تمكنِ موردو من معرفةِ أمرِ صكِّ إيزابيلا. قالَ موجهاً كلامهُ لغودوين: «حتماً لم يكتشف الأمرَ صدفةً فهو لم يُشاهَد يوماً وهو يقرأ في المكتبةِ، كما أنَّ ذلكَ الصك غير محفوظٍ مع الوثائقِ الأخرى».

تابعَ قائلاً: «لا بدَّ أنَّ أحدهم قد أخبرَه بهِ ولكن من؟ كارلوس وسيميون وحدَهما من يعلمان بأمرِهِ، فلماذا سمحا بإفشاءِ السرِ؟ فهما لم يكونا راغبين بمساعدةِ موردو». لم يقل غودوين شيئاً تاركاً توماس يتخبَّطُ في حيرتِهِ.

أخرجَ غودوين وسيميون الصندوقَ إلى ضوءِ المكتبةِ. كانت جواهرُ الكاتدرائيةِ ملفوفةً بقماشٍ أزرق فوقَ وسادةٍ جلديةٍ. أثناءَ تفقدهما محتوياتِ الصندوقِ، فتحَ سيميون بعضَ اللفائفِ مُبدياً إعجابَهُ بها ثمَّ تحققَ من سلامتِها. كان هناكَ لويحةٌ مصنوعةٌ من العاجِ بعرضِ بضعة إنشاتٍ نُقش عليها ببراعةٍ حادثةُ صلبِ القديسِ أدولفوس الذي طلبَ من الرَّبِّ حينها أن يُنعمَ بالصحةِ والعمرِ المديدِ على جميعِ من يمجّدُ ذكراه. كان هناكَ عددٌ من الشمعدانات والصلبان الذهبيَّةِ والفضيَّةِ المطعمةِ بمعظمِها بالأحجارِ الكريمةِ. لمعَ الذهبُ وتوهجَت الأحجارُ في الضوءِ القوي القادمِ من النوافذِ الطويلةِ للمكتبةِ. كانَ متعبدون مخلصونَ قد وهبوا هذهِ الأشياء إلى الديرِ على مرِّ القرونِ، وقيمتُها مجتمعةً لا تقدرُ بثمنٍ. احتوت هذه الغرفة على ثرواتٍ أكثرَ مما يمكنُ لمعظمِ الناسِ رؤيتُهُ في مكانٍ واحدٍ.

جاءَ غودوين بحثاً عن صولجانٍ خاصٍ بالمناسبةِ أو ما يدعى بـ«عصا الراعي»؛ وهو صولجانٌ مصنوعٌ من الخشبِ المكسو بالذهبِ وبقبضةٍ مرصَّعةٍ بالجواهرِ. يُقدَّمُ هذا الصولجان إلى رئيسِ الديرِ الجديدِ ضمن مراسمِ انتهاءِ

الانتخاباتِ. كان الصولجانُ في أسفلِ الصندوقِ إذ إنَّه لم يُستخدم منذُ ثلاثة عشر عاماً. وبينما كان غودوين يخرجُ الصولجانَ من الصندوقِ صاحَ سيميون في عجبٍ.

نظرَ غودوين للأعلى بحذَرٍ، كان سيميون يحملُ صليباً ضخماً على حاملٍ يُفترضُ وضعُهُ على المذبحِ. «ما الأمر؟» سألَه غودوين.

أراه سيميون الجهة الخلفية من الصليبِ وأشارَ إلى فجوةٍ سطحيةٍ على شكلِ كوبٍ تحتَ تقاطعِ الصليبِ تماماً.

ولاحظَ غودوين على الفورِ أنَّ هناك ياقوتةٌ مفقودةٌ. «لا بدَّ أنَّها وقعَت». قال ذلكَ ثم ألقى نظرةً في أرجاءِ المكتبةِ. لقد كانا وحدهما.

كانا قلقَين بشأنِ الأمرِ فهما يشغلان منصبَ أمين الخزنة وأمينَ الذخائرِ المقدسة وتلكَ المسؤوليةُ تقعُ على عاتقهما معاً، وسيكونان الملامين الوحيدين على أيِّ خسارةٍ تحدثُ. قاما معاً بتفحصِ كلِّ قطعةٍ في الصندوقِ، وفتحا كلَّ اللفائف وهزَّا كلَّ قطعةِ قماشٍ زرقاء، وبحثا بينَ قطعِ الجلدِ، وتفحّصا باهتياجٍ الصندوقَ الفارغَ والأرضيةَ من حولِهِ لكنهما لم يجدا الياقوتة في أيِّ مكانٍ. قالَ سيميون: «متى استُخدمَ الصليبُ آخرَ مرَّةٍ؟»

«في عيدِ القديسِ أدولفوس حينَ وقعَ كارلوس وأسقطَهُ عن الطاولةِ».

«قد تكون الياقوتةُ سقطَت حينَها، لكن كيف لم يلحظ أحدٌ ذلكَ؟»

«كان الحجرُ الكريمُ على الجهةِ الخلفيةِ من الصليبِ، لكن لا بدَّ أنَّ أحدَهم رآه على الأرضِ بكلِّ تأكيدٍ؟»

«من رفعَ الصليبَ؟»

ردَّ غودوين بسرعةٍ: «لا أذكرُ، لقد كان الوضعُ مضطرباً آنذاك». ولكنهُ في الحقيقةِ تذكرَ هذا الشخصَ وبكلِّ وضوحٍ.

لقد كان فيليمون.

واستعادَ غودوين المشهدَ كاملاً في مخيلتهِ. قامَ كلٌّ من فيليمون وأوتو بتسويةِ المذبحِ معاً حيث وضعاه على قاعدتِه ثمَّ التقطَ أوتو الشمعدان ورفعَ فيليمون الصليبَ. واستعادَ غودوين وهو يشعرُ بالفزعِ حادثةَ اختفاءِ سوارِ الليدي فيليبا. هل سرقَ فيليمون مجدداً؟ ارتجفَ لمجرَّدِ التفكيرِ بكيفيةِ تأثيرِ هذا عليهِ فقد كان الجميعُ يعرفُ أنَّ فيليمون مساعدُهُ غير الرسمي. يا لهُ من إثمٍ رهيبٍ! إنَّ سرقةَ جوهرةٍ من حليةٍ مقدَّسةٍ سيجلبُ العارَ على أيِّ شخصٍ

له علاقةٌ بهذهِ الجريمةِ، وهذا من شأنِهِ أن يشوش على الانتخاباتِ بكلِّ سهولةٍ. من الواضح أنّ سيميون لم يتذكر المشهد تماماً، وقَبِلَ من دون تساؤلٍ بعجزِ غودوين المزعوم عن تذكرِ من رفع الصليب، لكنَّ رهباناً آخرين سيتذكرون بالتأكيدِ رؤيةَ الصليبِ بينَ يدي فيليمون. على غودوين أن يصوبَ الأمرَ في الحالِ قبلَ أن تحيطَ الشكوكُ بفيليمون، ولكن عليه أولاً أن يتخلص من سيميون.

قالَ سيميون: «علينا أن نبحث عن الياقوتة في الكنيسةِ».

عارضَهُ غودوين قائلاً: «لقد مضى على القداسِ أسبوعان، لا يمكنُ لياقوتةٍ أن تبقى ملقاةً على الأرضيةِ لهذهِ الفترةِ من دونِ أن يلحظَها أحدٌ».

«قد تكونُ فرصتنا ضعيفةً ولكن علينا أن نبحثَ عنها».

رأى غودوين أنَّ عليهِ الذهاب برفقةِ سيميون وانتظارِ فرصةٍ سانحةٍ ليبتعدَ عنهُ ويبحثَ عن فيليمون ولذلكَ ردَّ عليهِ قائلاً: «بالطبعِ».

أعادا الحلي إلى مكانِها وأقفلا بابَ الخزنة، وبينما كانا يغادران غرفةَ المكتبةِ قالَ غودوين: «أقترحُ ألّا نذكر شيئاً عن الموضوعِ حتّى نتأكد من أنَّ الجوهرة قد فُقدت إذ إنَّه لا فائدة من تلقينا اللوم مُسبقاً».

«أوافقكَ الرأي».

أسرعا باتجاهِ الأروقةِ ووقفا في منتصفِ التقاطعِ ثمَّ جالا ببصرهما على الأرضيةِ من حولهما. قبلَ شهرٍ كانت فكرةُ بقاءِ ياقوتةٍ مختفيةٍ في مكانٍ ما على أرضيةِ الكنيسة أمراً مُحتملاً، ولكن البلاطَ قد أُصلحَ مؤخراً وأزيلت التصدعات والحفرُ، ولذلكَ لا بدَّ أنَّ تكون الياقوتة ظاهرة للعيانِ. قال سيميون: «الآن وقد أُتيح لي الوقتُ للتفكيرِ بالأمرِ، ألم يكن فيليمون من رفعَ الصليب؟»

نظرَ غودوين إلى وجهِ سيميون بإمعانٍ بحثاً عن نظرةِ اتهامٍ في عينيهِ ولكنه لم يكن واثقاً من رؤيتِهِ لهذا في نظرةِ سيميون فقالَ: «قد يكون فيليمون». ثم رأى فرصةً للابتعادِ فقالَ مُقترحاً: «سأذهبُ وأحضرُه. ربما يستطيعُ تذكر مكان وقوفهِ بالضبط وقتَها».

«فكرةٌ جيدةٌ. سأنتظرُ هنا.» ثمَّ ركعَ سيميون على ركبتيهِ وبدأ يربتُ على الأرضيةِ بيديهِ كما لو أنَّ العثورَ على الياقوتةِ باللمسِ أسهلُ وأسرعُ من النظرِ.

أسرعَ غودوين خارجاً، وتوجه أولاً إلى المهجعِ حيث كانت خزانةُ البطانيات ما تزالُ في نفسِ المكانِ. سحبَها بعيداً عن الجدارِ وبحثَ عن الحجرِ الرخو وانتزعَهُ ثمَّ وضعَ يدَهُ في حفرةِ المخبأ حيثُ وضعَ فيليمون سوارَ الليدي فيليبا قبلاً.

لم يجد شيئاً هناكَ.

أطلقَ شتيمةً. لن يكونَ الأمرُ بتلكَ السهولةِ.

سيكونُ عليَّ أن أطردَ فيليمون من الديرِ. فكَّرَ في هذا بينما كان يذرعُ كلَّ مكانٍ في أبنيةِ الديرِ بحثاً عنه. وقرّرَ في نفسهِ إن كان فيليمون قد سرقَ هذهِ الياقوتةَ فلن يغطي عليهِ مجدداً وسيطردهُ.

ثمَّ أدركَ في فزعٍ وصدمةٍ أنّه لا يستطيعُ طردَ فيليمون، ليسَ الآن وربما ليسَ في أيِّ وقتٍ آخرٍ أبداً. لقد كانَ فيليمون من أخبرَ موردو عن صكِّ إيزابيلا وإن طُردَ فسيعترفُ بكلِّ ما فعلَ، وسيكشفُ أنّه قامَ بالأمرِ بتحريضٍ من غودوين وسيصدقونَهُ. تذكَّرَ غودوين تساؤل توماس عن الشخصِ الذي أخبرَ موردو بالسرِ وعن دافعهِ. وسيكونُ اعترافُ فيليمون إدانةً لغودوين ودليلاً على تورطهِ في ما حدثَ وهذا بدورهِ سيثيرُ الاحتجاجات على عمليةِ الاحتيالِ هذهِ. حتّى وإن اكتشفَ الأمرُ بعدَ الانتخابات فإنَّ ذلكَ سيقوضُ سلطةَ غودوين ويشلُّ قدرتَهُ على قيادةِ الرهبانِ. وتكشفت أمامهُ الآن الحقيقةُ المشؤومةُ: عليهِ أن يحمي فيليمون إن أرادَ حمايةَ نفسِهِ.

وجدَ فيليمون يكنسُ أرضيةَ المستشفى. أومأ له ليتبعَهُ إلى الخارجِ وقادَهُ إلى وراءِ المطبخِ حيث احتمالُ أن يراهما أحدٌ ضعيفٌ.

نظرَ في عيني فيليمون وقالَ لهُ: «هناكَ ياقوتةٌ مفقودةٌ».

أشاحَ فيليمون بناظريهِ قائلاً: «يا لهُ من أمرٍ فظيعٍ!»

«إنّها ياقوتةٌ من الصليبِ الذي وقعَ على الأرضِ عندما سقطَ كارلوس».

تظاهرَ فيليمون بالبراءةِ: «كيف لها أن تضيعَ؟»

«لا بدَّ أنّها سقطَت من مكانِها عندما ارتطمَ الصليبُ بالأرضِ، لكني بحثت عنها على الأرضيةِ للتو ولم أجدها. وجدها أحدُهم واحتفظَ بها».

«لا بالتأكيد».

استشاطَ غودوين غضباً من ادعاء فيليمون المزيف بالبراءةِ.

«أيُّها الأحمق، لقد رآكَ الجميعُ وأنتَ ترفع الصليب عن الأرضيةِ».

ارتفعَ صوتُ فيليمون قليلاً: «لا أعرفُ شيئاً عن الموضوعِ».

دفعَهُ غودوين باتجاهِ الجدارِ الخلفي ثمَّ قال: «لا تضيّع الوقتَ بالكذبِ علي، علينا أن نسوي هذا الأمر فقد أخسرُ الانتخابات بسببكَ. أين الياقوتة؟»

وتفاجأ غودوين عندما رأى فيليمون يُجهشُ في البكاءِ.

قالَ غودوين باشمئزازٍ: «كُرمى للقديسين أوقف هذا الهراء فأنتَ رجلٌ بالغٌ».

استمرَّ فيليمون بالنحيبِ قائلاً: «أنا آسف، أنا آسف».

«إن لم تتوقف فسوف...» ثم انتبَه غودوين إلى نفسِهِ، لن يكسبَ شيئاً بتوبيخِ فيليمون الذي كان في حالةٍ يُرثى لها فعلاً ولذلكَ قالَ بلطفٍ أكبر: «حاولْ أن تتماسك، أين هي الياقوتةُ؟»

«لقد خبّأتُها».

«نعم...»

«في مدفأةِ غرفةِ الطعامِ».

استدارَ غودوين في الحالِ وتوجهَ إلى غرفةِ الطعامِ.

«أنقذينا أيتها العذراء مريم، فربما سقطت الياقوتةُ في النارِ!»

تبعَهُ فيليمون وقد توقفَ عن البكاءِ ثمَّ قالَ: «لا نار في شهرِ آب/ أغسطس. كنتُ سأنقلُها قبلَ أن يحلَّ الطقسُ الباردُ».

دخلا إلى غرفةِ الطعامِ حيثُ تقعُ المدفأة في إحدى زوايا الغرفةِ الطويلةِ. أدخلَ فيليمون ذراعَهُ في المدفأة وأخذَ يتلمَّسُ لوهلةٍ ثمَّ أخرجَ ياقوتةً بحجمِ بيضةِ طائرِ الدوري وقد غطَّاها السخامُ. مسَحها بكمِّهِ لينظفها ثمَّ أخذَها غودوين وقالَ: «تعالَ معي الآن».

«ماذا سنفعلُ؟»

«سيجدُها سيميون».

ذهبا إلى الكنيسةِ حيثُ ما يزال سيميون جاثياً على يديهِ وركبتيهِ. قال غودوين لفيليمون: «والآن حاول أن تتذكر أين كنتَ تماماً حين رفعتَ الصليبَ».

نظرَ سيميون إلى فيليمون ورأى آثارَ انفعالٍ على وجهِهِ فخاطبهُ في لطفٍ: «لا تخفْ أيُّها الفتى، فأنتَ لم ترتكب خطأً».

وقفَ فيليمون في الجانبِ الشرقي لمكانِ الصليب وقريباً من الدرجاتِ المُفضيةِ إلى المذبحِ ثمَّ قال: «أظنُّ أنَّه كان هنا».

صعدَ غودوين الدرجتين وألقى نظرةً تحتَ منصَّةِ جوقة المرتلين كأنّه يبحثُ. دسَّ الياقوتةَ خلسةً تحتَ أحدِ صفوفِ المقاعدِ على الطرفِ القريبِ حيث لم تكن مرئيةً للناظرِ العادي ثمَّ بدا كما لو أنَّهُ غيَّرَ رأيهُ بخصوصِ المكانِ

الأنسبِ للبحثِ فانتقلَ إلى الجانبِ الجنوبي للمذبحِ وقال: «تعال وابحث هنا في الأسفلِ يا فيليمون».

وكما كان يأملُ انتقلَ عندها سيميون إلى الجانبِ الشمالي وركعَ على ركبتيهِ لينظرَ أسفلَ المقاعدِ متمتماً صلاةً وهو يفعلُ ذلكَ.

توقّعَ غودوين أن يعثرَ سيميون على الياقوتةِ فوراً، وتظاهرَ بالبحثِ في الممرِ بينَ مقاعدِ الصفِّ الشمالي مُنتظراً أن يجدَها سيميون. بدأ يفكرُ أنّه لا بدَّ أنَّ سيميون يعاني من خطبٍ ما في نظرهِ، وفكرَ بالذهابِ «ليجدَها» بنفسِهِ إلّا أنَّ سيميون صاحَ أخيراً: «آوه، هنا».

تظاهرَ غودوين بالحماسِ قائلاً: «هل وجدتَها؟»

«نعم! هللويا!»

«أين كانت؟»

«هنا، تحتَ مقاعدِ جوقةِ المرتلين».

«حمداً للرَّبِّ»، رددَ غودوين.

***

قالَ غودوين لنفسِهِ إنَّه لن يخافَ من الإيرلِ رولاند.

وبينما كانَ يصعدُ درجات المستشفى الحجريَّة إلى غرفةِ الضيوفِ سألَ نفسَهُ عمَّا قد يفعلهُ الإيرلُ بهِ. حتَّى وإن كانَ رولاند قادراً على النهوضِ من فراشِهِ وسحبِ سيفِهِ فهو لن يكونَ أحمقَ إلى درجةِ قتلِ راهبٍ داخلَ أراضي الديرِ؛ فحتَّى الملكُ لا يمكنهُ النجاةُ من فعلةٍ كهذهِ.

أعلنَ رالف فيتزجيرالد عن قدومِهِ ودخلَ إلى الغرفةِ. كانَ أبناءُ الإيرل واقفين إلى جانبي السريرِ: ويليام الطويل في بنطالٍ عسكري ضيقٍ وحذاءٍ موحلٍ، وخطُّ شعرِ رأسهِ منحسرٌ جداً إلى الوراءِ؛ وريتشارد في رداءِ الأسقفِ الأرجواني وبنيتِهِ المستديرةِ التي تدلُّ على طبيعتِهِ المُحبةِ للملذاتِ وعلى وفرةِ وسائلِ انغماسِهِ بها. كان ويليام في الثلاثين من عمرِهِ وهو أصغرُ من غودوين بعامٍ. كانَ يتمتعُ بعزيمةِ والدِهِ التي ترقُّ أحياناً تحتَ تأثيرِ زوجتِهِ فيليبا. كان ريتشارد في الثامنةِ والعشرين ويشبهُ والدتَهُ الراحلةَ كما يبدو لأنَّه لم يتحلَ إلّا بالقليلِ من قوَّةِ الإيرل وجلَدِهِ المفروضين.

«حسناً أيها الراهبُ؟» قالَ الإيرل من جانبِ فمهِ الأيسر، «هل أجريتَ انتخاباتِك الصغيرةَ؟»

أحسَّ غودوين بالاستياءِ للحظةٍ بسببِ هذا الأسلوبِ الذي يفتقرُ إلى الكياسةِ، وأقسمَ في سرِّهِ أنّه سيجعلُ رولاند يدعوه «أبانا رئيسَ الديرِ» في يومٍ من الأيام. منحتهُ هذهِ الإهانةُ الشجاعةَ اللازمةَ لنقلِ الأخبارِ إلى الإيرل فقالَ: «أجريناها يا سيدي، وأتشرّفُ بإخبارِكَ أنَّ رهبان كينغزبريدج قد اختاروني رئيساً لديرهم».

«ماذا؟» رفعَ الإيرل صوتَه عالياً، «أنت؟»

أحنى غودوين رأسَهُ في تواضعٍ مُتكلّفٍ وقال: «لا يمكن لأحدٍ أن يكون متفاجئاً بهذا الأمرِ أكثرَ مني».

«أنتَ مجرّدُ صبي».

وخزتْهُ هذهِ الإهانةُ ودفعتهُ إلى الرّدِّ قائلاً: «إني أكبرُ سناً من ولدكم أسقف كينغزبريدج».

«ما عدد الأصواتِ التي حصلتَ عليها؟»

«خمسةٌ وعشرون صوتاً».

«والأخُ موردو؟»

«لا شيء، لقد أجمعَ الرهبانُ عليّ ...»

«لاشيء؟» زمجرَ رولاند. «لا بدَّ من وجودِ مؤامرةٍ وراءَ هذا. هذهِ خيانةٌ»

«راعينا في الانتخاباتِ التزامَ القوانين بدقّةٍ».

«لا آبه لقوانينِكَ البتّة، ولن أسمحَ لمجموعةٍ من الرهبان المخنثين بتجاهلي».

«لقد اختارني إخوتي أيُّها اللورد، كما أنَّ مراسمَ التنصيبِ ستجري الأحدَ القادم قبلَ الزفافِ».

يجبُ أن يُصادقَ أسقفُ كينغزبريدج على «اختيارِ الرهبان»، وأستطيعُ إخباركَ منذُ الآن أنّه لن يقومَ بذلك. أعد الانتخابات، وهذهِ المرّة أحضر إليَّ النتيجةَ التي أبتغيها».

«حسناً أيُّها الإيرل رولاند»، قال غودوين وتوجهَ نحو الباب. ما زالَ بحوزتِهِ عدّةُ بطاقاتٍ ليلعب بها إلّا أنّه لن يرميها على الطاولةِ دفعةً واحدةً. استدارَ وتوجَّه بالكلامِ إلى ريتشارد: «سيدي الأسقف، عندما ترغبُ بالتحدثِ معي عن الموضوعِ ستجدني في منزلِ رئيسِ الديرِ».

قالَ ذلكَ ثمَّ خطا خارجَ الغرفةِ فصرخَ رولاند بهِ بينما كانَ يغلقُ البابَ: «أنتَ لست رئيسَ الديرِ».

كانَ غودوين يرتجفُ فقد كان رولاند شخصاً مروعاً، بخاصَّةٍ عندما يغضبُ، وهو كذلك في معظمِ الوقتِ، لكن غودوين تشبَّثَ بموقفِهِ وستكون بيترانيلا فخورةً بهِ.

نزلَ الدرج وساقاه ترتجفان وتوجهَ إلى منزلِ رئيسِ الديرِ. لقد انتقلَ كارلوس في وقتٍ سابقٍ من المنزلِ، ولأوَّلِ مرَّةٍ منذُ خمسةَ عشرَ عاماً سيكون لغودوين غرفة خاصَّة بهِ. ولكن لم يكن بوسعهِ الابتهاجُ كثيراً بهذا في الوقتِ الحالي لأنَّ عليهِ مشاركةَ غرفته مع الأسقفِ الذي عادةً ما ينزلُ فيها حين يزورُ المكانَ. من الناحيةِ النظريةِ وبحكمِ منصبهِ كان الأسقفُ بمنزلة رئيسِ دير كينغزبريدج، ورغمَ سلطتِهِ المحدودةِ فإن مكانتَهُ كانت أرفع من مكانةِ رئيسِ الديرِ. نادراً ما يتواجدُ ريتشارد في منزلِ رئيسِ الديرِ خلالَ النهارِ، لكنَّه في المساءِ يعودُ للنومِ في أفضلِ غرفةٍ فيهِ.

دخلَ غودوين إلى بهو الطابقِ الأرضي وجلسَ على الكرسي الكبير منتظراً. لن يطولَ الوقتُ قبلَ أن يظهرَ الأسقفُ ريتشارد وأذناه تشتعلان من تعليماتِ أبيهِ اللاذعةِ. كان ريتشارد رجلاً قويّاً وغنياً ولكنه لم يكن مخيفاً كوالدِهِ. وأيّاً يكن فها هو راهبٌ جريءٌ يتحدَّى أسقفه، ولكن لدى غودوين أفضليَّة في هذهِ المواجهةِ لأنَّه يعلمُ شيئاً مشيناً عن ريتشارد وتلكَ كانت ورقتهُ الرابحة التي احتفظَ بها لوقتِ الحاجةِ.

بعدَ عدَّةِ دقائق اندفعَ ريتشارد داخلَ البهو في ثقةٍ عرفَ غودوين أنَّها مزيفةٌ ثمَّ قالَ من دون مقدماتٍ: «لقد عقدتُ صفقةً من أجلكَ، يمكنكَ أن تكون نائبَ رئيسِ الديرِ تحتَ إمرةِ موردو. ستكون مسؤولاً عن تسييرِ الشؤونِ اليوميةِ للديرِ. على أيِّ حالٍ لن يرغبَ موردو بالعملِ على إدارةِ هذهِ الأمورِ فهو لا يرغبُ إلا بأبهةِ المنصبِ فحسب. ستكونُ السلطةُ الحقيقيةُ كلُّها بين يديكَ وسيكون أبي راضياً».

قالَ غودوين: «دعني أستوضحُ الأمرَ تماماً. يوافقُ موردو على تعييني نائباً له، ثمَّ نخبرُ بقيَّةَ الرهبان بأنَّهُ الشخصُ الوحيدُ الذي ستصادقُ عليهِ، وأنتَ تعتقدُ أنَّهم سيقبلونَ بذلكَ».

«لا يملكونَ خياراً آخر».

«لدي اقتراحٌ بديلٌ. أخبر الإيرل أنَّ الرهبان لن يقبلوا بأحدٍ سواي وأنّه يجب أن تتم المصادقةُ عليَّ قبلَ حفلِ الزفافِ، وإلَّا لن يشاركَ الرهبان في مراسم الزفافِ وسترفضُ الراهبات المشاركةَ أيضاً». لم يكن غودوين واثقاً من أنَّ الرهبان سيسايرونهُ في ذلكَ ناهيكَ عن الأمِّ سيسيليا والراهباتِ ولكنه ذهب بعيداً في جرأتِهِ.

«لن يتجرؤوا على ذلكَ».

«أخشى أنّهم سيفعلون».

بدا ريتشارد مرعوباً: «لن يخضعَ والدي للترهيب».

ضحكَ غودوين وقال: «ليسَ هناك من يحاولُ ترهيبهُ، ولكني آملُ بأن يجعلهُ أحدهم يتعقّل».

«سيقولُ إنَّ الزفافَ سيتم بأيِّ حالٍ من الأحوال، فأنا الأسقفُ وبإمكاني أن أزوجهما. لا أحتاجُ إلى رهبان لمساعدتي».

«حتماً. ولكن لن يكون هناكَ غناءٌ أو شموعٌ أو تراتيل أو بخورٌ، فقط أنتَ ورئيسُ الشمامسةِ لويد».

«ومع ذلك سيتزوجان».

«وكيف سيشعرُ إيرل مونماوث حيالَ إقامةِ حفلِ زفافٍ وضيعٍ كهذا لابنهِ؟»

«سيغضبُ بشدَّةٍ لكنَّهُ سيتقبَّلُ الأمرَ؛ فالتحالفُ بين إيرل شايرنغ وإيرل مونماوث هو الأهم».

وفكَّرَ غودوين بأنَّ هذا صحيحٌ، وشعر بجفافٍ باردٍ لفشلٍ مُحدقٍ بهِ.

وهنا حانَ الوقتُ لسحبِ سكينِهِ الخفيّةِ.

«أنتَ تدينُ لي بمعروفٍ».

في البدايةِ تظاهرَ ريتشارد بأنّه لا يعرفُ عمَّا يتحدثُ عنهُ غودوين فقالَ: «حقاً؟»

«لقد أخفيتُ إثماً ارتكبتَهُ أنتَ فلا تتظاهر بالنسيانِ. والأمرُ وقعَ منذ شهرين فقط».

«آه، نعم، ذلكَ كرمُ أخلاقٍ منكَ».

«رأيتكَ بأمِّ عيني مع مارجري على السريرِ في غرفةِ الضيوفِ».

«اصمت بحقِّ السماءِ».

«والآن حانَت فرصتكَ لتردَّ لي ذلكَ الجميل. توسط من أجلي عندَ والدِك وأخبرهْ بأن يتخلى عن هذا الأمرِ. جادلهُ بأنَّ الزفافَ أكثرُ أهميَّةً وأصرّ على أن يُصادقَ على اختياري».

برزت علائمُ يأس على وجهِ ريتشارد، وبدا ممزقاً بين قوتين متعارضتين فقال: «لا أستطيعُ. لا يمكن تحدي أبي فأنتَ تعلمُ طبعَهُ»، قال بصوتٍ وجلٍ.

«حاول».

«لقد حاولت بالفعلِ. لقد أجبرته على التنازلِ والقبولِ بإمكانيةِ بقائِكَ نائباً لرئيسِ الديرِ».

وانتابَ غودوين شكٌّ بأنَّ رولاند قد رضي بشيءٍ كهذا. كان شبه واثق من أنَّ ريتشارد اختلق هذا فوعدٌ كهذا يمكن أن يُخلفَ بسهولةٍ، ورغمَ هذا قالَ غودوين: «أشكركَ على ذلكَ»، ثمَّ أضافَ: «لكن هذا غير كافٍ».

استعطفَهُ ريتشارد قائلاً: «فكر بالأمرِ فحسب. هذا كلُّ ما أطلبُهُ».

«سأفعلُ وأقترحُ عليكَ أن تقنعَ والدكَ بفعلِ ذلكَ أيضاً». وأخذَ ريتشارد يندبُ قائلاً: «أوه يا إلهي، سينقلبُ الوضعُ إلى كارثةٍ».

***

حُددَ موعدُ الزفافِ يومَ الأحدِ. في نهارِ السبت وبدلاً من صلاةِ الظهرِ طالبَ غودوين بإجراءِ تدريبٍ يبدأ باحتفاليةِ تنصيبِ رئيسِ الديرِ الجديدِ ثمَّ مراسمِ الزفافِ. في الخارجِ كان الجو غائماً كالعادةِ؛ فالسماءُ ملبدةٌ بغيومٍ رماديةٍ منخفضةٍ ومحمَّلةٍ بالأمطارِ، وداخلَ الكاتدرائيةِ كان الجو كئيباً. بعدَ التمرين وبعدَ أن توجهَ الرهبان والراهبات خارجاً لتناولِ الطعامِ وبدأ المبتدئون بترتيبِ الكنيسةِ اقتربَ كارلوس وسيميون من غودوين والوقار يكللهما.

«أعتقدُ أنَّ الأمورَ جرَت بسلاسةٍ، ألا تعتقدان ذلكَ؟» قال غودوين بابتهاجٍ.

قالَ سيميون: «هل ستُجرى حقاً مراسم لتنصيبكَ؟»

«بكلِّ تأكيدٍ».

«سمعنا أنَّ الإيرل قد طلبَ إعادةَ إجراءِ الانتخاباتِ».

«هل تعتقدُ أنَّه يمتلكُ الحقَّ بفعلِ ذلكَ؟»

«أبداً، إنَّه يمتلكُ سلطةَ الترشيحِ فقط، لكنَّه يقول إنَّ الأسقفَ ريتشارد لن يصادقَ عليكَ كرئيسٍ للديرِ».

«هل أخبركَ ريتشارد بذلكَ؟»

«لا، ليسَ شخصيّاً».

«لا أظنُ ذلكَ، ثِقا بي. سيقومُ الأسقفُ بالمصادقةِ على انتخابي». وسمعَ غودوين صوتَهُ يصدحُ بنبرةٍ صادقةٍ وواثقةٍ، وتمنى لو أنَّه كانَ يشعرُ بهذا حقاً.

قالَ كارلوس في قلقٍ: «هل أخبرتَ ريتشارد أنَّ الرهبان سيرفضونَ المشاركةَ في حفلِ الزفافِ؟»

«أجل».

«ذلكَ أمرٌ خطيرٌ فنحن لسنا هنا لمخالفةِ إرادةِ النبلاءِ».

وتكهّنَ غودوين بأنَّ كارلوس سيضعفُ عندَ أولِ إشارةٍ لمعارضةٍ جديَّةٍ. لحسنِ الحظِ لم يكن ينوي أن يختبرَ عزيمةَ الرهبانِ فقالَ: «لن يكون علينا فعلُ ذلكَ، لا تقلقا، ما هو إلا تهديدٌ فارغٌ لكن لا تخبرا الأسقفَ أنني قلتُ ذلكَ».

«إذاً، أنتَ لا تنوي أن تطلبَ من الرهبانِ مقاطعةَ حفلِ الزفافِ؟»

«لا».

قال سيميون: «أنتَ تلعبُ لعبةً خطيرةً».

«ربما، لكنني واثقٌ من أنني الوحيدُ الذي يخاطرُ».

«أنتَ لم تكن راغباً حتّى في أن تصبحَ رئيساً للديرِ، ولم ترغب بالترشحِ كذلكَ. قبلتَ فقط عندما فشلَ البقيةُ».

«أنا لا أرغبُ في أن أكونَ رئيسَ الديرِ». كان غودوين يكذبُ، «لكن لا يجبُ السماحُ لإيرلِ شايرينغ بالاختيارِ بدلاً عنا، وهذا أمر أكثرُ أهميةً من مشاعري الشخصيّةِ».

نظرَ سيميون إليهِ باحترام: «أنتَ تتصرفُ بنبلٍ كبيرٍ».

«أنا مثلكَ أيُّها الأخ، أحاولُ فقط أن أحققَ مشيئةَ الرَّبِّ».

«فليبارك الرَّبُّ مسعاكَ».

تركَهُ الراهبان العجوزان فشعرَ بضميرِهِ يؤنبهُ لجعلهما يصدقان زعمَهُ بأنَّه يتصرَّف بإيثارٍ. لقد نظرا إليهِ كما لو أنَّهُ شهيدٌ من نوعٍ ما، لكنَّه قالَ لنفسِهِ إنَّ ذلكَ صحيحٌ، وإنَّه يحاولُ تحقيقَ مشيئةِ الرَّبِّ حقاً.

نظرَ حولَهُ ورأى أنَّ الكنيسةَ قد عادت إلى وضعِها الطبيعي. كان على وشكِ الذهابِ إلى منزلِ رئيسِ الديرِ لتناولِ العشاءِ عندما ظهرَت ابنةُ خالهِ كاريس

بفستانِها الأزرق الذي بدا مُذهلاً على أرضيةِ الكنيسةِ الرماديةِ القاتمةِ. قالت له: «هل سيتمُّ تنصيبُكَ غداً؟»

ابتسمَ لها ثمَّ قالَ: «الجميعُ يسألُ هذا السؤال والجوابُ هو نعم».

«سمعنا أنَّ الإيرلَ يتجهزُ للقتالِ».

«سوف يخسر».

شعرَ بعينيها الخضراوين الذكيتين تخترقانهِ وهي تُحدّقُ فيهِ بإمعانٍ ثمَّ قالت: «أعرفكَ منذُ أن كنتَ ولداً، وأستطيعُ أن أعرف متى تكذبُ».

«أنا لا أكذبُ».

«إنَّكَ تتظاهرُ بأنَّك متيقنٌ جداً من النتيجةِ ولكنكَ لا تشعر بهذا حقيقةً».

«ذلكَ ليس ذنباً».

«أبي قلقٌ حيالَ مسألةِ الجسرِ، إذ من المحتملِ أن يطيعَ الأخُ موردو إرادةَ الإيرل بل وأكثر مما كان سول وايتهيد سيفعل».

«لن يصبحَ موردو رئيسَ ديرِ كينغزبريدج».

«ها أنتَ تكذبُ مجدداً».

انزعجَ غودوين من فطنتِها فانفجرَ قائلاً: «لا أعلمُ ما علي قولهُ لكِ. لقد تمَّ انتخابي، وأنا أنوي أن أقبلَ بالمنصبِ. يريدُ الإيرل رولاند أن يوقفني لكنَّه لا يملكُ الحقَّ بذلكَ، وأنا أحاربُهُ بكل الوسائلِ التي أملكُها. هل أنا خائفٌ؟ نعم، لكنني ما أزال أنوي أن أهزمَهُ».

ابتسمَت ثمَّ قالت: «هذا ما رغبتُ في سماعِهِ». ثمَّ لكمتهُ في كتفِهِ وأردفَت: «اذهب لرؤيةِ والدتكَ. إنها في دارك تنتظرُ مجيئكَ. هذا ما جئتُ لأخبركَ بهِ»، ثمَّ استدارت على عقبيها وغادرَت.

خرجَ غودوين عبرَ الجناحِ الشمالي للكنيسةِ. وفكَّرَ غودوين بمزيجٍ من الإعجابِ والغضبِ أنَّ كاريس فتاةٌ ذكيَّةٌ. لقد خدعتهُ ليعطيها تقيماً حقيقياً للوضعِ، وقد كانَ صادقاً معها وأكثر مما كان مع أيِّ أحدٍ آخر.

لكنَّه كان سعيداً بفرصةِ التحدثِ مع والدتِهِ. شككَ الجميعُ بقدرتِه على الفوزِ في هذا النزاعِ إلَّا بيترانيلا التي كانت واثقةً من قدرتِهِ وقدمت لهُ بعضَ الأفكارِ الاستراتيجيةِ.

وجدَ غودوين بيترانيلا في البهو جالسةً إلى مائدةٍ مجهزةٍ لشخصين عليها

خبزٌ وجعةٌ وطبقٌ من السمكِ المملحِ. قبَّلَ جبهتها وتلا صلاةً ثمَّ بدأ بتناولِ الطعامِ. سمحَ لنفسِه بالتمتعِ قليلاً بلحظةِ الانتصارِ وقالَ: «حسناً، أنا على الأقلِّ رئيسُ الديرِ المنتخبِ، وها نحنُ نتناولُ العشاءَ في منزل رئيسِ الديرِ».

قالت: «لكن رولاند ما زال يحاربكَ».

«وبأشدِّ مما كنتُ أتصور. ولكنه في نهايةِ المطافِ لا يملكُ سوى حقِّ الترشيحِ وليسَ الاختيار. ومعروفٌ لمن هم في منصبِهِ أن من يختارونه قد لا ينتخبُ».

«قد يقبلُ معظمُ الإيرلات بذلكَ ولكن ليس رولاند. إنَّه يشعرُ بالفوقيةِ تجاهَ أيِّ شخصٍ يقابلُهُ»، قالت بيترانيلا والمرارةُ ترنُّ في صوتِها. ظنَّ غودوين أنَّها مرارةٌ نابعةٌ من ذكرياتِها عن ارتباطهما الفاشل منذُ أكثر من ثلاثين عاماً. ابتسمَت بطريقةٍ انتقاميةٍ وقالت: «سرعان ما سيدركُ كم استهانَ بقوتنا».

«إنَّه يعلمُ أنني ابنك».

«إذاً، سيكون هذا عاملاً آخر؛ فأنتَ تُذكره بالطريقةِ الحقيرةِ التي عاملني بها، وهذا كافٍ لجعلِهِ يكرهكَ».

«يا لهُ من أمرٍ مُخزٍ»، قالَ غودوين بصوتٍ خفيضٍ تحسباً لخادمٍ يسترقُ السمعَ وراءَ البابِ ثمَّ تابعَ قائلاً: «لقد نجحت خطتك تماماً حتَّى هذهِ اللحظةِ. لقد نزعَ انسحابي من المنافسةِ المصداقيةَ عن الآخرين. كانت فكرةً عبقريةً».

«ربما، لكن قد نكون على وشكِ أن نخسرَ كلَّ شيءٍ. هل قلتَ شيئاً آخر للأسقفِ؟»

«لا، لقد ذكَّرتُه بأننا نعلمُ بأمرِ مارجري. بدا خائفاً لكن ليسَ بما يكفي ليتحدى والدَهُ كما يبدو».

«ينبغي أن يكونَ كذلكَ، فإن افتضحَ أمرُهُ فلن يغفرَ لهُ أحدٌ. سينتهي الأمرُ بهِ فارساً وضيعاً من مستوى السير جيرالد، ويهدر أيَّامَهُ كمتقاعدٍ من الخدمةِ. ألا يدركُ ذلكَ؟»

«قد يعتقدُ أنني لا أملكُ الشجاعةَ لأكشفَ ما أعرفُهُ على الملأ».

«إذاً، عليكَ أن تخبرَ الإيرل بهذهِ المعلومات».

«يا للسماء! سينفجرُ غضباً»

«تمالك أعصابَكَ واهدأ».

لطالما كانت تتفوّه بمثلِ هذهِ العباراتِ ولهذا كان يترقب لقاءها بشوقٍ.

أرادتْهُ دوماً أنْ يتحلى بالجرأةِ وأن يخاطرَ بأكثر مما يرغب. لكنَّه لم يستطع قط أن يقابلها بالرفضِ.

تابعَت قائلةً: «إن ذاعَ خبرُ أنَّ مارجري ليست عذراء فسيُلغى الزفاف وهذا ما لا يريدُهُ رولاند، وعندها سيقبلُ بأهونِ الشَّرين وهو أن تصبحَ أنتَ رئيسَ الديرِ».

«لكنَّه سيكون عدوّي لبقيةِ حياتِه».

«سيكون عدوَّكَ مهما حصلَ».

فكَّرَ غودوين في نفسِهِ: «يا لهُ من عزاءٍ صغيرٍ». لكنَّه لم يجادل لأنّه رأى أنَّ والدتَهُ محقَّةٌ.

طرقَ أحدهم البابَ ثمَّ دخلَت الليدي فيليبا.

وقفَ غودوين وبيترانيلا.

قالت فيليبا مخاطبةً غودوين: «أحتاجُ إلى التحدثِ معكَ».

«هل لي أن أقدّمَ لكِ والدتي بيترانيلا؟»

انحنَت بيترانيلا بأدبٍ ثمَّ قالت: «من الأفضلِ أن أرحلَ. من الواضحِ أنَّكِ هنا لعقدِ اتفاقٍ يا سيدتي».

رمقتها فيليبا بنظرةٍ مَرِحةٍ وقالت: «إن كنتِ مُطلعةً على الأمرِ إلى هذهِ الدرجةِ فلا بدَّ أنَّكِ تعرفين كلَّ ما هو مهمٌ ولذلكَ ربما ينبغي عليكِ البقاءُ».

وعندما وقفَت السيدتان وجهاً لوجهٍ لاحظَ غودوين أنَّهما تشبهان بعضهما بعضاً، إذ كلتاهما تتمتعان بنفسِ الطولِ والقوامِ الجميلِ ونفسِ المظهرِ الاستبدادي. كانت فيليبا أصغرَ سنّاً بالطبعِ، وبما يقاربُ العشرين عاماً، وكانت تتحلى بسلطويةٍ طبيعيةٍ وبشيءٍ من حسِّ الفكاهةِ، وهذا يتناقضُ بشكلٍ صارخ مع عزمِ بيترانيلا المرير الذي قد يعود إلى كون فيليبا تحظى بزوجٍ، أما بيترانيلا فأرملة. كانت فيليبا امرأةً قويةَ الإرادةِ وتمارسُ سلطتَها عبرَ رجلٍ هو اللورد ويليام، وأدركَ غودوين الآن أنَّ بيترانيلا تمارس سلطتها من خلالِ رجلٍ أيضاً، وأنه هو هذا الرجل.

«دعونا نجلس»، قالت فيليبا.

سألت بيترانيلا: «هل وافقَ الإيرل على ما ستقترحينَهُ الآن؟»

«لا»، وأشارَت بيديها بحركةٍ تشي بانعدامِ الحيلةِ، «رولاند أشدُّ غطرسةً من أن يوافقَ مُسبقاً على شيءٍ قد لا يقبلهُ الطرفُ الآخرُ. إن استطعتُ الحصولَ على

موافقةِ غودوين على ما سأقترحُهُ الآن، حينها ستتاحُ لي الفرصةُ لإقناعِ رولاند بمصالحةٍ ترضي الطرفين».

«كما توقعت».

قال غودوين: «هل ترغبين بتناولِ الطعامِ يا سيدتي؟»

رفضَت فيليبا العرضَ بحركةٍ من يدِها تشي بالضيقِ ثمَّ قالت: «توحي الأمورُ على وضعِها الحالي بأنَّ الجميعَ سيخسرُ، سيُقام حفلُ الزفافِ ولكن من دونِ الأبهةِ والمراسمِ الاحتفاليةِ المُلائمةِ مما سيفسدُ التحالفَ بين رولاند وإيرل مونماوث وحتى قبلَ أن يبدأ. سيرفضُ الأسقفُ أن يصادقَ عليكَ كرئيسٍ للديرِ يا غودوين، وسيُستدعى رئيسُ الأساقفةِ ليحلَّ الخلافَ الذي سيصرفُ كلاًّ منكما، أنتَ وموردو، ويرشحُ شخصاً جديداً. قد يكون شخصاً من حاشيتِه يرغبُ بالتخلصِ منهُ، ولن ينال أيُّ أحدٍ ما يريدهُ. ألستُ محقَّةً؟»

وجَّهت كلامها إلى بيترانيلا التي أصدرَت صوتاً مُبهماً.

تابعَت فيليبا كلامَها: «لذلكَ، لمَ لا نتحاشى مصالحةَ رئيسِ الأساقفةِ؟ أشارَت بإصبعِها إلى غودوين وأكملَت قائلة: «رشح اسماً ثالثاً الآن، مرشحٌ تختارهُ أنتَ ويعدُ بجعلكَ نائبَهُ».

وفكَّرَ غودوين بأنَّ هذا الاقتراح سيعفيهِ من الحاجةِ إلى مواجهةِ الإيرل وجهاً لوجهٍ، وإلى تهديدِهِ بكشفِ سلوكياتِ ابنه المشينةِ، ولكن هذهِ التسوية ستحكمُ عليهِ بالبقاءِ نائبَ رئيسٍ للديرِ لفترةٍ غير معلومةٍ، وبعدها حينَ يموتُ رئيسُ الديرِ الجديدِ سيتوجبُ عليهِ أن يخوضَ المعركةَ ذاتَها مجدداً. لقد كان يميلُ إلى الرفضِ رغمَ تخوّفهِ فاختلسَ نظرةً إلى والدتِهِ التي هزَّت رأسَها بطريقةٍ بالكادِ تُرى. لم يعجبها الاقتراحُ أيضاً.

قال غودوين لفيليبا: «أنا آسفٌ. لقد أجرى الرهبانُ انتخاباتٍ ويجب أن تُصادق نتيجتُها».

وقفَت فيليبا ثم قالت: «في هذه الحالةِ عليَّ أن أبلّغكَ بالرسالةِ التي أتيتُ من أجلها إلى هنا. غداً صباحاً سينهضُ الإيرلُ من فراشِ المرضِ على أملِ أن يجدَ الكاتدرائيةَ جاهزةً قبلَ الزفافِ بوقتٍ لا بأسَ بهِ. عليكَ أن تقابلهُ في الكنيسةِ عندَ الساعةِ الثامنة، كما أنَّ على الرهبانِ والراهباتِ أن يكونوا جاهزين بأرديتهم وأن تُزين الكنيسةُ بالزينةِ المعهودةِ».

وعندما خرجَت أحنى غودوين رأسَهُ في انصياعٍ.

***

عندَ الساعةِ المحددةِ وقفَ غودوين وسطَ كنيسةٍ جرداء وساكنةٍ.

وقفَ وحدهُ من دونِ رهبانٍ أو راهباتٍ معه، ومن دونِ أثاث في المكانِ باستثناءِ مقاعدِ جوقةِ المرتلين الثابتةِ. لم يكن هناك شموعٌ أو صلبانٌ أو كؤوسُ قربانٍ أو زهور. لم يكن هناكَ سوى تلكَ الشمس التي شعّت بشكلٍ متقطعٍ من بينِ الغيومِ الماطرةِ معظمَ هذا الصيفِ، وقد ألقت الآن ضوءاً بارداً في صحنِ الكنيسةِ. عقدَ غودوين ذراعيهِ بإحكامٍ خلفَ ظهرِهِ للتحكمِ بارتجافهما.

وفي الوقتِ المحددِ دخلَ الإيرل.

كانَ برفقتهِ اللورد ويليام والليدي فيليبا والأسقفُ ريتشارد ورئيسُ الشمامسةِ لويد وسكرتير الإيرل الأب جيروم. كان غودوين سيرغب بأن يحيطَ نفسَهُ بحاشيةٍ لكن لا أحد من الرهبان يدركُ حقاً مدى خطورةِ خطتِهِ، ولو أنّهم علموا لما امتلكوا الشجاعةَ لدعمِهِ، لذلكَ قررَ مواجهة الإيرل وحيداً. كانت الضمادات قد أُزيلت عن رأسِ رولاند الذي مشى ببطءٍ ولكن بثبات. فكَّرَ غودوين بأنّه حتماً يشعرُ بضعفٍ في ساقيهِ بعد إمضاءِ أسابيع عديدةٍ في الفراشِ، لكنَّه كان عازماً على عدم إظهارِ ذلكَ ولذلكَ بدا طبيعياً إن استثنى نصفَ وجههِ المشلول. كانت رسالتهُ للعالم اليومَ أنّه شفي تماماً وعادَ إلى موقعِ المسؤوليةِ، ولكن غودوين كان يهددُ هذهِ الخطةَ.

نظرَ الآخرون بارتيابٍ إلى الكنيسةِ الفارغةِ لكن الإيرل لم يَبدُ مُندهشاً وقالَ لغودوين من طرفِ فمهِ الأيسر: «إنّكَ راهبٌ متغطرسٌ». كان غودوين يخاطرُ بخسارةِ كلِّ شيءٍ، ولكن لم يعد لديهِ ما يخسرهُ بعدَ تحديهِ للإيرل ولذلكَ قال: «وأنتَ إيرلٌ متعنّتٌ». وضعَ رولاند يدَهُ على مقبضِ سيفِهِ قائلاً: «حريٌّ بي أن أطعنكَ لقولكَ هذا».

«هيا افعلها»، وفتحَ غودوين ذراعيهِ كأنّه يستعدُّ للصلبِ، «اقتل رئيسَ ديرٍ في كينغزبريدج هنا في الكاتدرائيةِ كما فعلَ فرسان الملك هنري الثاني حين قتلوا رئيسَ الأساقفةِ توماس بيكيت في كانتربري. أرسلني إلى النعيمِ واجلب لنفسِكَ اللعنةَ الأبديَّةَ».

شهقَت فيليبا مصدومةً من قلَّة احترامِ غودوين، وتحرَّكَ ويليام كما لو أنَّه ينوي إسكاتَهُ، فكبحَهُ رولاند بإشارةٍ منهُ وقالَ لغودوين: «أمركَ أسقفكَ بتجهيزِ الكنيسةِ من أجلِ الزفافِ، ألم يأخذوا عليكم كرهبانٍ عهداً بالطاعةِ؟»

«لا يمكن لليدي مارجري أن تتزوج هنا».

«ولِمَ لا... لأنَّكَ تريدُ أن تكونَ رئيسَ ديرٍ؟»

«لأنَّها ليست عذراء».

وضعَت فيليبا يدَها على فمِها. تأوَّه ريتشارد وسحبَ ويليام سيفَهُ وقال رولاند: «هذهِ خيانةٌ».

قالَ غودوين: «أعِدْ سيفَكَ إلى غمدِهِ أيُّها اللورد ويليام. لا يمكنكَ استعادةُ عذريتها بِهِ».

قال رولاند: «وماذا تعرفُ عن أمورٍ كهذهِ أيُّها الراهبُ؟»

«شهدَ رجلان من هذا الدير على أمرٍ حدثَ في غرفةٍ خاصَّةٍ من غرفِ المستشفى، في الغرفةِ ذاتها التي تقيمُ فيها يا سيدي».

«لا أصدقكَ».

«إيرل مونماوث سيفعلُ».

«لن تجرؤ على إخبارِهِ».

«عليَّ أن أشرحَ له السببَ الذي يمنع ابنَهُ من الزواجِ بمارجري في كاتدرائيةِ كينغزبريدج، على الأقلِّ حتى تعترفَ بذنبِها وتتلقى الغفران».

«ليسَ لديكَ دليلٌ على هذا الافتراءِ».

«لديَّ شاهدان، ولكن فلتسأل الفتاة أنا أعتقدُ أنَّها ستعترفُ، وأتصورُ أنَّها تفضلُ العشيقَ الذي أخذَ عذريتَها على هذا الزوجِ الملائمِ سياسياً الذي اختارَهُ عمُّها». ومجدداً كان غودوين يجازفُ بتخميناتِهِ لكنه كان قد رأى وجهَ مارجري عندما كان ريتشارد يقبلُها وكانَ واثقاً من أنَّها مغرمةٌ بهِ. لا بدَّ أنَّ اضطرارها للزواجِ من ابن الإيرل فطرَ قلبَها. ورأى غودوين أنَّه من الصعبِ على فتاةٍ شابةٍ أن تكذبَ بشكلٍ مقنعٍ إن كانت عواطفُها مضطربةً.

كانَ النصفُ الحي من وجهِ رولاند يفورُ بالغضبِ.

«ومن هذا الرجلُ الذي تدَّعي أنَّهُ اقترفَ هذهِ الجريمة؟ لأنَّه إن استطعتَ إثباتَ زعمكَ هذا فسيُشنقُ هذا الوغد، أقسمُ على ذلكَ، وإن لم تستطع فستُشنقُ أنتَ. لذلكَ دعهم يرسلون وراءَهُ وسنرى ما قوله في الأمرِ».

«إنَّهُ هنا بالفعلِ».

نظرَ رولاند بارتيابٍ إلى الرجال الأربعة المرافقين لهُ؛ ولداه وليام وريتشارد وكاهنان هما لويد وجيروم.

حدَّق غودوين بريتشارد.

ولحقت عينا رولاند بمسارِ نظرِ غودوين، وبعد وهلةٍ كانوا جميعاً ينظرونَ إلى ريتشارد.

حبسَ غودوين أنفاسَهُ، ماذا سيقولُ ريتشارد؟ هل سيهددُ ويتوعد؟ هل سيتَّهِمُ غودوين بالكذبِ؟ هل سيفقدُ صوابَهُ غضباً فيهاجم الرجل الذي اتهمَهُ؟

لكن ما ظهرَ على وجههِ كان الهزيمةَ وليس الغضب، وبعد لحظةٍ أحنى رأسَهُ وقال: «لا فائدة من إخفاءِ هذا. الراهبُ الملعون محقٌّ وهي لن تحتملَ الاستجواب».

شحبَ وجهُ الإيرل رولاند وقالَ: «أنتَ من فعلَ هذا؟» ولأوَّلِ مرَّةٍ لم يكن الإيرل يصرخ ولكن ذلكَ جعلَهُ أكثرَ رُعباً. «الفتاة التي خُطبت إلى ابن إيرل... ضاجعتَها أنتَ؟»

لم ينبس ريتشارد ببنتِ شفةٍ، لكنَّه أطرقَ رأسهُ أرضاً.

وقالَ الإيرل: «أيُّها الأحمقُ، أيُّها الخائن، أيُّها...»

قاطعتَهُ فيليبا: «من يعلمُ أيضاً؟»

أوقفَ قولُها هذا سيلَ الشتائمِ ونظرَ الجميعُ إليها.

ثمَّ تابعت: «ربما ما يزالُ بإمكاننا إقامةُ الزفافِ. شكراً للرّبِّ أنَّ إيرل مونماوث ليسَ حاضراً هنا». نظرَت إلى غودوين وقالت: «من يعرفُ أيضاً عن هذا الأمرِ غير الناسِ الحاضرين هنا الآن والرجلين من الدير اللذين شهدا هذا الفعل؟»

حاولَ غودوين أن يهدِّئ أعصابهُ المضطربةَ، لقد كان قريباً من النجاحِ إلى درجةِ أنَّه استطاعَ تذوقِ طعمِهِ فقال: «لا أحدَ آخر يعلم بالأمرِ يا سيدتي».

قالت فيليبا: «إننا جميعاً أقاربُ الإيرل ونستطيع إبقاءَ الأمرِ سراً. ماذا عن رجليك؟»

«سيطيعان رئيسَ ديرهم المنتخب»، قالها بتشديدٍ خفيفٍ على كلمةِ «منتخب».

التفتت فيليبا إلى رولاند قائلةً: «إذاً يمكننا إقامةُ الزفاف».

أضافَ غودوين: «بشرط أن تتمَ مراسمُ التنصيبِ أولاً».

نظرَ الجميعُ إلى الإيرلِ.

اتخذَ الإيرل خطوةً إلى الأمامِ وصفعَ ريتشارد فجأة. كانت صفعةً قويَّةً من

كفُّ جندي يعرفُ كيفَ يضعُ كاملَ ثقلِهِ فيها، ورغمَ أنّه صفعةٌ بيدٍ مفتوحةٍ فإنَّ ريتشارد ارتمى أرضاً.

تمددَ ريتشارد أرضاً والذعرُ مرتسمٌ على وجههِ والدمُ يسيلُ من فمِهِ.

شحبَ وجهُ الإيرلِ وبدأ يتعرَّقُ فقد استنفدت الصفعةُ مخزون قواه ثمّ أخذ يرتعشُ. خيَّمَ الهدوء على الأجواءِ لبرهةٍ ولكن الإيرل في النهايةِ بدا كأنّه استعادَ قواه، وألقى نظرةَ ازدراءٍ على الشخصِ في الرداءِ الأرجواني والمنكمش على نفسهِ خوفاً على الأرضيةِ ثمَّ استدار على عقبيهِ ومشى ببطءٍ ولكن بثباتٍ خارجاً من الكنيسةِ.

-24-

وقفَت كاريس مع نصفِ سكانِ المدينةِ في الحديقةِ الأماميةِ لكاتدرائيةِ كينغزبريدج ينتظرون خروج العروسِ والعريسِ من البوابةِ الغربيةِ العظيمةِ للكنيسةِ.

لم تفهم كاريس السبب الذي دفعَها للقدومِ إلى هُنا فمنذُ ذلكَ اليوم الذي أنهى فيهِ ميرثن العملَ على الرافعةِ وأجريا تلكَ المحادثة المزعجة حول مستقبلهما انتابتها مشاعر سلبيةٌ حيالَ الزواجِ. كانت غاضبةً من ميرثن رغمَ أنَّ كلامه كان منطقياً فهو يريدُ منزلاً خاصّاً يعيشان فيهِ، وأن ينامَ معها كل ليلةٍ، وينجبان الأطفال. كان هذا ما يريدهُ الجميع باستثناءِ كاريس.

في الحقيقةِ أرادَت كاريس كلَّ هذا أيضاً ولكن بشروطِها فقد أحبَّت فكرةَ النومِ مع ميرثن كلَّ ليلةٍ، وأن تلفّ ذراعيها حولَ جسدهِ النحيلِ متى شاءت، وأن تشعرَ بيديهِ البارعتين على بشرتِها عندما تستيقظُ صباحاً، وأن تنجبَ نسخةً مصغرةً عنهُ يعتنيان بها ويحبانها، ولكن كاريس لم ترغب بالأمورِ الأخرى التي تأتي مع الزواجِ. لقد أرادت حبيباً وليسَ سيداً، أرادَت أن تعيشَ مع ميرثن ولكن ألّا تكرّسَ حياتَها من أجلهِ. كانت غاضبةً من ميرثن لأنّه أجبرَها على مواجهةِ هذهِ المعضلةِ، وتساءلت في نفسِها عن السببِ الذي يمنعهما من إكمالِ حياتهما بالطريقةِ التي يعيشانها الآن.

مضت ثلاثةُ أسابيع وهما بالكاد يتحدثان بعضهما مع بعض. كانت تتظاهر بأنّها تعاني من نزلةِ بردٍ صيفيةٍ، وكانت شفتُها متورمةً بشكلٍ مؤلمٍ فتهرَّبت من تقبيله ولكنّ ميرثن استمر بتناولِ وجباتِ الطعامِ في منزلها وبالتحدُّثِ بودٍ إلى والدها ولكنه لم يكن يطيل البقاء بعدَ ذهابِ إدموند وبيترانيلا إلى النومِ.

وها قد شُفيت شفةُ كاريس الآن وهدأ غضبُها، ورغمَ أنّها ما زالت غيرُ راغبة بأن تصبحَ ملكيَّةَ ميرثن فإنَّها كانت تتمنى أن يعودَ إلى تقبيلها مجدداً. على أيِّ حالٍ لم يكن ميرثن برفقتها الآن لأنَّه كان بينَ الحشد بعيداً عنها يتحدثُ إلى بيسي بيل ابنة مالكِ نزلِ بيل. كانت بيسي فتاةً ضئيلةَ البنيةِ وممتلئةً وتملكُ ابتسامةً تدفعُ الرجال إلى الاعتقادِ بأنَّها جريئة والنساء إلى اعتبارها عاهرةً. كان ميرثن يُضحك بيسي ولذلكَ أشاحَت كاريس بنظرِها بعيداً عنهما.

فُتحَ البابُ الخشبي الكبير للكنيسةِ، وعلَت أصواتُ التهليلِ من الحشدِ ثمَّ ظهرَت العروس. كانت مارجري فتاةً جميلةً في السادسة عشرة من العمرِ في ثوبٍ أبيض وبزهورٍ في شعرِها. لحقَ بها العريس الذي كان رجلاً طويلاً له مظهرٌ جاد وأكبر منها بحوالي عشرِ سنواتٍ.مكتبة .. سُر مَن قرأ

بدا العروسان تعيسين حقاً.

بالكادِ كانا يعرفان بعضهما بعضاً، وقبلَ هذا الأسبوع لم يلتقيا سوى مرة واحدة منذُ ستةِ أشهرٍ عندما رتَّبَ الإيرلان لزواجهما. سرَت إشاعات أنَّ مارجري تحبُّ شخصاً آخر، ولكنَّها لم تكن لتعصي أوامرَ الإيرل رولاند. كان لزوجها مظهرُ رجلٍ مولعٍ بالدراسةِ، وبدا كأنَّه يفضلُ الآن أن يكون في مكتبةٍ يقرأ كتاباً عن علمِ الهندسةِ بدلاً من أن يكون هنا. كيفَ ستكون حياتهما معاً؟ من الصعبِ تخيُّلُ أنّ رابطةَ الحبِّ التي ستنشأ بينهما كرابطةِ الحبِّ بين كاريس وميرثن.

رأت كاريس ميرثن قادماً نحوها عبرَ الحشدِ وفجأةً صدمتها فكرةُ أنَّها شخصٌ جاحدٌ، ثمَّ شعرت بأنَّها محظوظةٌ لأنَّها ليست نسيبةَ الإيرل؛ فلن يجبرها أحدٌ على زواجٍ مدبرٍ، وكانت حرَّةً في الزواجِ بمن تحب، وكل ما فعلتهُ حتَّى الآن هو البحثُ عن أسبابٍ تمنعها من الزواجِ بهِ.

حيَّته بضمَّةٍ وقبلةٍ على شفتيهِ. بدا متفاجئاً، ولكنهُ لم يُدلِ بأيِّ تعليقٍ. قد يثيرُ تغيرُ أمزجتِها غضبَ بعضِ الرجالِ ولكن ميرثن شخصٌ متزنٌ جداً ومن الصعبِ أن يهزهُ شيءٌ.

وقفا جنباً إلى جنب وراقبا الإيرل رولاند يخرجُ من الكنيسةِ ووراءهُ إيرل وكونتيسة مونماوث ومن ثمَّ الأسقف ريتشارد ورئيس الديرِ غودوين. لاحظتْ كاريس أنَّ غودوين يبدو مسروراً ومرتبكاً كأنَّه العريس. لا بدَّ أن يكون السببُ تنصيبهُ رئيساً للديرِ.

واحتشدَ مرافقو كلا الإيرلين: مرافقو إيرل شايرنغ في أرديةٍ حمراء وسوداء، ومرافقو مونماوث في أرديةٍ صفراء وخضراء.

تحرَّكَ الحشدُ باتجاه غيلد هول؛ فالإيرل رولاند يقيمُ وليمةً لضيوفِ حفلِ الزفافِ. سيذهب إدموند إلى الوليمةِ وسترافقهُ بيترانيلا، إلّا أنَّ كاريس نجحَت بالتملصِ من الذهابِ.

وحالما غادرَ العروسان وجميعُ الحاضرين الكنيسةَ بدأ المطرُ يهطلُ في زخاتٍ خفيفةٍ. التجأت كاريس وميرثن من المطرِ في رواقِ الكنيسةِ. «فلترافقيني إلى مذبحِ الكنيسةِ»، قال ميرثن. «أريدُ أن أطّلع على الإصلاحاتِ التي أجراها إلفريك».

كان ضيوفٌ ما يزالون يغادرون حفل الزفافِ ولهذا كان على ميرثن وكاريس شقُّ طريقهما عكسَ السيرِ باتجاهِ صحنِ الكنيسةِ ثمَّ إلى الممرِّ الجنوبي للمذبحِ. كان هذا الجزءُ من الكنيسةِ مخصصاً لرجالِ الدينِ ولا يسمحُ لكاريس بالتواجدِ هنا، ولكن الرهبان والراهبات كانوا قد غادروا المكان ولذلكَ ما من أحدٍ فيهِ.

ألقَت كاريس نظرةً حولها ولم ترَ أحداً باستثناءِ امرأةٍ مجهولةٍ حسنةِ الهندامِ وشعرٍ أحمر وفي حدود الثلاثين من العمرِ. قد تكون من ضيوفِ حفلِ الزفاف. بدت كأنّها تنتظرُ أحداً.

رفعَ ميرثن رأسَهُ عالياً لينظرَ إلى السقفِ المُقنطرِ فوقَ الممرِ. لم تكن الإصلاحات قد انتهت بعد؛ فما زال هناك قسمٌ صغيرٌ من القنطرةِ مفتوحاً، وهناك قطعةٌ من القماشِ الكتاني الأبيض تحت الفجوةِ حتى يبدو السقفُ كأنّه كامل للناظرِ العادي.

«إنّه يبلي جيداً في العملِ»، قال ميرثن. «أتساءل كم سيطولُ الأمرُ؟»

«ولِم قد يطول الأمر؟»

«لأننا لا نعرف بعد سببَ انهيارِ القنطرةِ. هناكَ أسبابٌ وراءَ حدوث مثلِ هذهِ الأمور وهي ليست من عملِ الرَّبِّ أيّاً يكن ما يقولهُ الكهنةُ. وإن لم نعرف سبب انهيارِ القنطرةِ فمن المرجح أن تنهار مرّةً أخرى».

«هل هناك احتمال بأن تعرفوا السببَ؟»

«الأمرُ ليسَ سهلاً. لن يتمكن إلفريك من معرفتِهِ ولكن قد أعرفهُ أنا».

«ولكنكَ طُردت».

«تماماً». لبثَ ميرثن في مكانِهِ لبرهةٍ وهو ينظرُ للأعلى ثمَّ قالَ: «أريدُ أن أرى العملَ من فوق، ولهذا سأصعدُ إلى السقيفةِ».

«سأرافقكَ».

نظرا من حولهما ولم يريا أحداً في الجوار باستثناءِ ضيفةِ حفلِ الزفافِ ذات الشعرِ الأحمر التي مازالت في الجناحِ الجنوبي. قادَ ميرثن كاريس باتجاهِ بابٍ صغيرٍ يُفضي إلى درجٍ حلزوني ضيّقٍ. لحقَت بهِ كاريس وهي تتساءل في نفسِها عمَّا سيُفكر بهِ الرهبان إن علموا أنَّ امرأةً كانت تستكشفُ ممراتِهم السِّرية. أفضى الدرجُ إلى عليّةٍ فوقَ الممرِ الجنوبي للمذبح.

كانت كاريس متحمسةً لرؤيةِ القنطرة من الجانبِ الآخرِ. «إن ما تنظرين إليهِ يُسمى القوس الخارجي للقنطرةِ»، قال ميرثن. لطالما أحبَّت كاريس الطريقة العرضيةَ التي يقدمُ فيها ميرثن المعلومات المعمارية لها مفترضاً أنَّها ستهتمُ بما ستسمعهُ وستفهمهُ. ولم يُلقِ قط أيّ دعابةٍ غبيةٍ عن عجزِ النساءِ عن فهمِ الأمورِ التقنيةِ.

سارَ ميرثن في الممرِ الضيّقِ ثمَّ استلقى أرضاً ليفحصَ الإصلاحاتِ عن كثبٍ. استلقَت بالقربِ منهُ عابثةً ووضعَت ذراعها حولَهُ كأنَّهما نائمان في سريرٍ. تحسسَ ميرثن بإصبعهِ الملاط بينَ الحجارةِ الجديدةِ ومن ثمّ وضعَ إصبعهُ على لسانهِ وقال: «إنَّهُ يجفُّ بسرعةٍ جيّدةٍ».

«أنا واثقةٌ من أنَّ الأمرَ سيكونُ خطيراً لو أنَّ هناك أيّ رطوبةٍ بينَ الشفرين».

نظرَ إليها وقال: «سأُرطِّبُ شفريكِ».

«إنَّهُما رطبان الآن».

قبَّلها فأغلقت عينيها لتتمتعَ بالقبلةِ أكثر.

وبعدَ بُرهةٍ قالت: «لنعد إلى منزلي. لا أحد فيه وسيكون لنا وحدنا. لقد ذهبَ أبي وعمتي إلى وليمةِ حفلِ الزفافِ».

وعندما كان على وشكِ مغادرةِ المكانِ سمعا أصواتاً. كان في الممرِ الجنوبي للمذبحِ تحتَ القنطرةِ التي يتمُّ إصلاحها رجلٌ وامرأة. كانا يتحدثان ولكنَّ حديثهما وصلَ إلى ميرثن وكاريس عبرَ القطعةِ القماشيةِ التي تغطي الفجوةَ مكموماً بعضَ الشيء. «أصبحَ ابنكَ في الثالثة عشرة الآن»، قالت المرأة. «وهو يريدُ أن يصبحَ فارساً».

«هذا ما يرغبُ بهِ جميعُ الصبيةِ»، جاءَ جوابُ الرجلِ.

وهمسَ ميرثن لكاريس: «لا تتحركي وإلا سمعانا».

تكهنَت كاريس أنَّ الصوت النسائي يعودُ إلى ضيفةِ حفلِ الزفافِ إلَّا أنَّ

الصوتَ الذكوري كان مألوفاً، وانتابها شعورٌ بأنّهُ أحدُ الرهبانِ، ولكن ممنوعٌ على الرهبان أن يكون لديهم أبناءٌ.

«وابنتكَ أصبحت في الثانية عشرة، وهي جميلةٌ».

«جميلةٌ كوالدتها».

«قليلاً». وحلَّ صمتٌ قصيرٌ ومن ثمَّ تابعَت المرأةُ كلامَها: «لا يمكن أن أبقى طويلاً، فالكونتيسة ستبحثُ عني».

إذاً، كانت من حاشيةِ كونتيسة مونماوث، وتكهنت كاريس أنّها ربما تكون وصيفةً. بدا كأنّها تقدّمُ أخباراً عن أطفالٍ لأبٍ لم يرهم منذُ سنواتٍ، ولكن من هو هذا الأب؟

«لمَ أردتِ مقابلتي يا لورين؟» قال لها.

«انظر إلى نفسكَ. تؤسفني خسارتكَ لذراعكَ».

شهقَت كاريس ثمَّ غطَّت فمَها على أملِ ألا يكونا قد سمعاها. لم يكن هناكَ سوى راهبٍ واحدٍ بذراعٍ مقطوعةٍ، وهذا الراهب هو توماس. وبما أنّها باتت تعرفُ من يكون تأكّدت من أنَّ الصوتَ صوتُه. هل لتوماس زوجةٌ؟ وطفلان؟ نظرَت كاريس إلى ميرثن ورأت على وجههِ علائم عدمِ التصديقِ.

«ما الذي قلتهِ للطفلين عني؟» سألها توماس.

«أنَّ والدهما قد مات»، أجابت لورين بقسوةٍ، ثمَّ انخرطَت في البكاءِ. «لماذا فعلتَ هذا؟»

«لم أملك أيَّ خيارٍ. ولو لم آتِ إلى هنا لكنتُ قُتلتُ. وأنا لا أجرؤ حتّى الآن على مغادرةِ الكاتدرائيةِ».

«لمَ قد يرغب أحدٌ في قتلكَ؟»

«لحمايةِ سرٍ».

«كنتُ عشت في وضعٍ أفضل لو أنّكَ كنتَ ميتاً. لو كنتُ أرملةً لوجدتُ لنفسي زوجاً، أباً لأطفالي، ولكن وأنا على هذا الوضعِ يقعُ على كاهلي كلُّ أعباءِ الزوجةِ والأمِّ ومن دونِ أيِّ سندٍ... من دونِ شخصٍ يحضنني ليلاً».

«أنا آسفٌ لأنني ما زلتُ على قيدِ الحياةِ».

«أوه، لم أعنِ هذا. لا أتمنى موتَكَ فقد أحببتكَ في ما مضى».

«وأنا أيضاً أحببتكِ كما قد يحبُ أيُّ رجلٍ مثلي امرأةً».

اكفهرَّ وجهُ كاريس وتساءلت في نفسِها عمَّا كان يعنيهِ بعبارةِ «رجلٌ مثلي». هل كان من النوع الذي يحبُّ الرجال؟ كان الرهبان كذلكَ في أغلبِ الأحيانِ.

أيّاً يكن معنى ما قالهِ، يبدو أنَّ لورين فهمت مقصدَهُ لأنَّها قالت بلطفٍ: «أعلمَ أنَّكَ أحببتني».

سادَ صمتٌ طويلٌ. كانت كاريس تعرفُ أنَّهُ لا يتوجب عليهما هي وميرثن استراقُ السمعِ إلى هذهِ المحادثةِ الحميمة، إلَّا أنَّ الوقتَ الآن كانَ قد تأخرَ على كشفِ نفسيهما.

قالت لورين: «هل أنتَ سعيدٌ؟»

«أجل. لم يكن قدري أن أكون زوجاً ولا فارساً. أصلي لأولادي كلَّ يومٍ... وأصلي لكِ أيضاً. وأطلبُ من الرَّبِّ أن يغسلَ يديّ من دماءِ كل من قتلتهم. هذهِ هي الحياة التي لطالما أردتها».

«في هذهِ الحالةِ أتمنى لكَ كلَّ الخيرِ».

«أنتِ كريمةٌ جداً».

«وأغلب الظنِ لن تراني مرَّةً أخرى».

«أعلمُ».

«قبّلني وودعني».

وحلَّ صمتٌ طويلٌ مرَّةً أخرى ثمَّ سُمعَ صوتُ وقعِ أقدامٍ تبتعدُ. بقيت كاريس في مكانِها ساكنةً وهي بالكادِ قادرةٌ على التقاطِ أنفاسِها. وبعدَ فترةِ صمتٍ وجيزةٍ سمعَت توماس ينتحبُ. كانَ ينشجُ بصوتٍ مكمومٍ إلَّا أنّه بدا كأنّه يبكي من سريرتهِ. ترقرقت الدموعُ من عينيهِ بينما أصغت كاريس إلى بكائهِ.

تمالكَ توماس نفسه أخيراً وتنشَّقَ بأنفهِ وسعلَ ثمَّ دمدمَ بشيءٍ قد يكون صلاةً، وسمعَت كاريس صوتَ خطواتٍ تبتعدُ.

أصبحَ بوسعهما هي وميرثن التحرّك في مكانِهما أخيراً. وقفا وسارا عبرَ السقيفةِ نحو الدرجِ الحلزوني. لم يتحدثا وهما يقطعان صحنَ الكنيسةِ العظيمةِ. وشعرَت كاريس كأنّها كانت تحدقُ إلى لوحةٍ تصورُ قصةً تراجيدية جداً والشخصياتُ فيها متجمدة في وضعياتها الدراميةِ دون أن يكون ماضيها ومستقبلها متاحين للرؤيةِ بل للتخمينِ.

وكما في أيّ لوحةٍ كانَ المشهدُ الذي تصورهُ مثارَ مشاعر مختلفةٍ بين الناسِ،

ولذلكَ لم يكن ردُّ فعلِ ميرثن كرّدِ فعلها. أصبحا في الخارجِ وكان الوقتُ الآن فترة ما بعد الظهرِ وهي فترةٌ رطبةٌ صيفاً. قالَ لها ميرثن: «يا لها من قصةٍ حزينةٍ!»

«إنَّها تثيرُ غضبي»، قالت كاريس. «لقد دمرَ توماس حياةَ تلكَ المرأة».

«لا يمكنكِ أن تلقي اللومَ عليهِ. كان عليهِ إنقاذ حياتِهِ».

«أنقذَ حياتَهُ ولكنَّ حياتَها انتهت الآن، فهي لا تملكُ زوجاً ولا يمكنها أن تتزوج مرَّةً أخرى، بل أجبرت على تربيةِ ولدين وحدها في حين عاشَ توماس في الدير ولديهِ حياتهُ كراهبٍ».

«لديها بلاطُ الكونتيسة».

«كيف بوسعكَ أن تضعَ الحالتين في كفتين متساويتين؟» قالت كاريس مهتاجةً. «لا بدَّ أنَّها نسيبةٌ بعيدةٌ وسمحوا لها بالبقاءِ بدافعِ الشفقةِ مقابلَ القيامِ بمهام وضيعةٍ كمساعدةِ الكونتيسة على ترتيبِ شعرها واختيارها ملابسها. لم يكن لديها أيُّ خيار. كانت محاصرةً».

«وهو محاصرٌ أيضاً. سمعتِ ما قاله عن عدمِ قدرتِهِ على مغادرةِ الكنيسةِ».

«ولكن توماس يمارسُ دوراً فهو أمينُ السجلاتِ في الديرِ ويأخذُ قراراتٍ. إنَّه يقومُ بشيءٍ ما».

«لدى لورين أطفال».

«تماماً! إنَّ توماس يعنى بأهمِّ مبنى في هذهِ المنطقةِ بينما هذهِ المرأةُ متورطةٌ بالاهتمامِ بأولادها».

«لدى الملكةِ إيزابيلا أربعةُ أطفالٍ، وقد كانت لفترةٍ من الزمنِ من أقوى الشخصياتِ في أوروبا».

«ولكنها تخلَّصت من زوجها أولاً».

خيَّمَ الصمتُ بينهما وهما يخرجان من الديرِ باتجاه الطريقِ الرئيسي. توقفا أمامَ منزلِ كاريس التي أدركَت أنَّهما تشاجرا مجدداً ولكن حولَ الموضوعِ ذاتِهِ ألا وهو الزواج.

«سأتوجه إلى نزلِ بيل لتناولِ العشاءِ»، قال ميرثن.

كان النزلُ الذي يملكهُ والدُ بيسي. «حسناً»، قالت كاريس في قنوطٍ.

وعندما ابتعدَ ميرثن نادتْه قائلةً: «كانت لورين ستكون في حالٍ أفضل لو أنَّها لم تتزوج».

وتحدَّثَ ميرثن من فوقِ كتفهِ قائلاً: «وهل لديها خيارٌ آخر غير الزواج؟»

«هذهِ هي المشكلة؟» فكرت كاريس بامتعاضٍ وهي تدخلُ منزلها. ما الخيار الآخر الذي تملكهُ المرأة؟

كانَ المنزلُ فارغاً فقد توجهَ إدموند وبيترانيلا إلى المأدبةِ وأخذَ الخدمُ عطلةً بعد الظهرِ. لم يكن هناكَ سوى الكلبة سكراب التي حيّت كاريس وهي تهزُّ ذيلها بكسلٍ. ربتت كاريس على رأسِها الأسود بشرودٍ ثمَّ جلست إلى طاولةٍ في القاعةِ تفكرَ بكلِّ ما جرى.

لم يكن هناكَ امرأةٌ في العالم المسيحي ترغبُ بأكثر من الزواجِ من الرجلِ الذي تُحب، فلماذا تخشى كاريس من هذه الفكرةِ؟ ومن أين لها بهذهِ الأفكارِ غير التقليدية؟ بالتأكيد لم تحصل عليها من والدتِها. لم تكن روز ترغبُ بشيءٍ أكثر من أن تكون زوجةً صالحةً لإدموند. كانت تؤمن بما يقولُهُ الرجال عن دونيةِ النساءِ. لطالما شعرَت كاريس بالخجلِ من انصياع والدتها رغمَ أنَّ إدموند لم يشتكِ من هذا إلّا أنَّ كاريس كانت تشكُّ بأنَّه يسأمُ هذا الانصياع. كانت كاريس تكنُّ لعمتها القويَّةِ والقاسيةِ بيترانيلا احتراماً أكبر من ذلك الذي كانت تكنهُ لوالدتِها الخنوعةِ.

حتّى بيترانيلا سمحَت للرجالِ برسمِ حياتها لها؛ فقد عملَت مع والدِها لسنواتٍ ليتسلقوا السُلمَ الاجتماعي إلى أن أصبحَ من عليةِ القومِ في كينغزبريدج. كان الشعور الأقوى الذي حرَّكها هو الامتعاضُ نحو الإيرل رولاند لأنَّهُ تخلّى عنها ونحو زوجها لأنَّه توفي، وكرَّست حياتَها كأرملةٍ من أجلِ عملِ غودوين.

إنَّ حياةَ الملكة إيزابيلا شبيهةً بحياةِ بيترانيلا فقد تخلَّصَت من زوجِها، الملك إدوارد الثاني، إلّا أنَّ النتيجة كانت إحكام حبيبها، روجر مورتمر، على زمامِ الحكمِ في إنكلترا إلى أن كبرَ ابنها وأصبحَ قادراً على طردِهِ.

هل هذا ما يجبُ على كاريس فعلهُ؟ هل عليها أن تعيشَ حياتها من خلالِ حياةِ الرجالِ؟ يريدها والدُها أن تعملَ لمصلحته في تجارةِ الصوفِ، وتستطيعُ أيضاً أن تديرَ عملَ ميرثن وتساعدَه في تأمينِ العقودِ لبناءِ الكنائسِ والجسورِ وتوسيعِ عملهِ إلى أن يصبحَ أغنى وأهمَّ معماري في إنكلترا.

أيقظها طرقٌ على البابِ من لُجَّةِ أفكارها، وبرزت أمامَ ناظريها تلكَ الهيئة التي تشبهُ هيئةَ الطيور للأمِّ سيسيليا وهي تدخلُ على عجلٍ.

«طابَ نهارُكِ»، قالت كاريس متفاجئةً. «كنت أتساءل إن كان مصيرُ جميعِ النساءِ أن يعشن من خلالِ الرجالِ ودخلت أنت كأنّك مثالٌ مناقضٌ لهذا».

«أنت لست على حقٍ»، قالت سيسيليا بابتسامةٍ ودودةٍ. «أعيشُ من خلالِ المسيحِ وهو رجلٌ وربٌّ في الوقتِ عينِهِ».

لم تقتنع كاريس بهذا المثالِ، وتوجهت إلى الخزانةِ وفتحتها ثمَّ أخرجت صندوقاً صغيراً من أفضلِ أنواعِ النبيذِ. «هل ترغبين بكأسٍ من نبيذ الراين الخاص بوالدي؟»

«القليل فقط وليكن مخلوطاً بالماءِ».

ملأت كاريس نصفَ الكأسينِ بالنبيذِ والنصفَ الآخر بالماءِ من إبريقٍ. «أنتِ تعلمين أنَّ والدي وعمتي ذهبا إلى الوليمةِ».

«أجل. لقد أتيتُ لرؤيتكِ».

كانت قد تكهّنت كاريس أنَّ الأمَّ أتت من أجلها. لم تكن رئيسةُ الديرِ لتتجولَ في المدينةِ وتقومَ بزياراتٍ اجتماعية من دونِ سببٍ.

تجرَّعَت سيسيليا من كأسها وقالت: «كنتُ أفكرُ بأمركِ وبالطريقةِ التي تصرفتِ فيها يومَ انهارَ الجسرُ».

«هل ارتكبتُ خطأً ما؟»

«على العكسِ. لقد قُمتِ بكلِ شيءٍ على أكملِ وجهٍ. تصرفتِ بلطفٍ ولكن بحزمٍ مع المصابين، وأطعتِ الأوامر ولكن، وفي الوقتِ عينِهِ، قمتِ بمبادراتٍ. ذهلتُ جداً مما فعلتِهِ».

«شكراً لكِ».

«ويبدو أنّكِ... لا تستمتعين بهِ إلّا أنَّ العملَ يحققُ لكِ الرضا».

«كانَ الناسُ في ضائقةٍ وقمنا بإراحتهم. لا يمكن أن يكون هناكَ ما هو مُرضٍ أكثر من هذا».

«هذا هو شعوري، ولهذا أنا راهبةٌ».

وفهمتْ كاريس ما كانت ترمي إليهِ. «لا يمكنني أن أقضي حياتي في الديرِ».

«إنَّ المقدرةَ الطبيعيةَ التي أبرزتِها وأنتِ تعتنين بالمرضى جزءٌ فقطٌ مما لاحظتُهُ. عندما بدأ الناس يدخلونَ إلى الكاتدرائية حاملين المصابين والموتى سألتهم من أخبرهم بما عليهم فعلهُ، وكانَ جوابهم كاريس وولر».

«كان هذا الخيار المنطقي».

«أجل... لكِ»، قالت سيسيليا وانحنَت إلى الأمامِ بجديةٍ ثمَّ قالت: «لا

يحظى بمَلَكةِ التنظيمِ سوى قلّةٍ من الناسِ. أعلمُ هذا فأنا أملكُها وأميزُها في الآخرين. عندما يكون من حولنا مضطربون أو مرتعبون أو خائفون نقوم، أنا وأنتِ، باستلامِ زمامِ الأمورِ».

شعرَت كاريس أنَّ هذا لم يكن صحيحاً ولكنَّها قالت على مضضٍ: «أعتقدُ هذا».

«لقد راقبتكِ لعشرِ سنواتٍ منذُ وفاةِ والدتكِ».

«لقد جلبتِ لها الراحةَ من الألمِ».

«وبمجردِ الحديثِ معكِ حينها علمتُ أنكَ ستكبرين لتصبحي امرأةً استثنائيةً. وتأكدتُ من إحساسي عندما دخلتِ إلى مدرسةِ الراهباتِ. ها أنتِ قد أصبحتِ في العشرين من عمركِ، ولا بدَّ أنَّكِ تفكرين بما تريدين فعلهُ في حياتكِ. أعتقدُ أنَّ الرَّبَّ يريدكِ أن تعملي لأجلهِ».

«كيف لكِ أن تعرفي ما يُفكرُ بهِ الرَّبُّ؟»

بوغتت سيسيليا وقالت: «لو أنَّ أحداً آخر في المدينةِ سألني هذا السؤال لطلبتُ منه الركوعَ على ركبتيهِ والصلاةَ من أجلِ المغفرةِ، ولكن، ولأنَّكِ صادقةٌ، سأجيبكِ. أعلمُ ما يفكرُ بهِ الرَّبُّ لأنني أقبلُ تعاليمَ كنيستهِ، وأنا على أتمِّ قناعةٍ بأنَّهُ يريدكِ أن تصبحي راهبةً».

«أنا أحبُّ الرجالَ كثيراً».

«لطالما كانت هذهِ مشكلتي أيضاً عندما كنتُ شابةً، ولكن أؤكدُ لكِ أنَّ هذهِ المشكلةَ ستتراجعُ مع كل عامٍ يمرُّ».

«لا أحبُّ أن يُملي عليَّ أحد طريقةَ حياتي».

«لا تتصرفي كبوغوينية».

«لم أفهم».

«لا تعترفُ راهباتُ أخويةِ بوغويني بأيِّ قانونٍ، ويعتبرن نذورهن نذوراً مؤقتةً. إنهن يعشن معاً ويزرعن أراضيهن ويرعينَ قطعانهن ويرفضن حكمَ الرجالِ عليهن».

لطالما شعرت كاريس بالحماسِ لدى سماعها عن نساءٍ يتحدينَ القوانين: «وأين يقطن؟»

«في مملكةِ الأراضي المنخفضةِ. لديهن قائدةٌ وتدعى مارغريت بوريت وقد وضعَت مؤلفاً اسمهُ «مرآةُ الأرواحِ البسيطةِ».

«سأحبُ قراءة هذا الكتاب».

«هذا غيرُ ممكنٍ فقد أدانت الكنيسةُ أخويةَ بوغويني بتهمةِ الهرطقةِ والدعوةِ إلى تحريرِ الروحِ وهو اعتقادُ يقول إننا نستطيعَ تحقيقَ الكمال الروحي هنا على الأرضِ».

«الكمال الروحي؟ ما الذي يعنيهِ هذا؟ أهو مجردُ تعبير؟»

«إن أصررتِ على إغلاقِ طريقكِ إلى الرَّبِّ فلن تفهميهِ».

«آسفة أيتها الأمُ سيسيليا ولكن في كُلِ مرةٍ يخبرني فيها بشريٌّ بشيءٍ عن الرَّبِّ أبدأُ بالتفكيرِ. البشر خطاؤون ولهذا قد تكونُ الحقيقةُ مختلفةً».

«كيف يمكن أن تكون الكنيسةُ على خطأ؟»

«حسناً، إنَّ للمسلمينَ معتقداتٍ مختلفةً».

«إنَّهم وثنيون».

«وهم يقولون عنا كفاراً... إنَّه الأمر عينهُ. ويقول بونافينتورا كارولي أنَّ عددَ المسلمين في العالم أكبر من عددِ المسيحيين، ولذلك لا بدَّ أنَّ يكون هناك خطبٌ ما في تعاليم أحدِ الدينين».

«فلتحذري»، قالت سيسيليا بقسوةٍ. «لا تسمحي لحبكِ للمجادلة بأن يقودكَ إلى التجديفِ».

«آسفةٌ أيتها الأمُّ». تعلمُ كاريس أنَّ سيسيليا تحبُ الخوضَ في جدالٍ معها، ولكنهما تصلان إلى مرحلةٍ تتوقفُ فيها رئيسةُ الديرِ عن المجادلة وتبدأ بالوعظِ، ولهذا كان على كاريس أن تتراجع، وهذا ما تركَ في داخلها شعوراً بأنَّها خُدعت بطريقةٍ ما.

وقفَت سيسيليا وقالت: «أعلمُ أنني لن أستطيعَ إقناعَكِ رغماً عنكِ، ولكن أريدكِ أن تعلمي ماهية أفكاري. إنَّ أفضلَ شيءٍ قد تقومين به هو الانضمامُ إلى الديرِ وتكريس حياتكِ لسر الشفاءِ. شكراً لكِ على النبيذ».

وبينما كانت سيسيليا تهمُّ بالمغادرة قالت كاريس: «ماذا كان مصير مارغريت بوريت؟ هل ما زالت على قيدِ الحياةِ؟»

«لا»، قالت رئيسةُ الدير. «لقد أُحرقت». وخرجت إلى الشارعِ وهي تغلقُ البابَ خلفها.

حدَّقت كاريس إلى البابِ المغلقِ. كانت حياةُ النساءِ أشبهَ بمنزلٍ أبوابُهُ موصدةٌ. فالمرأةُ لا تستطيعُ أن تكون متدربة، أو أن تدرسَ في الجامعةِ، أو أن

تصبحَ كاهنةً أو طبيبةً، ولا يمكنها أن تُطلقَ سهماً أو تنخرطَ في قتالٍ بالسيوفِ، ولا يمكنها الزواجُ دون أن تُخضعَ نفسها لطغيانِ زوجِها.

تساءلت في نفسها عمَّا يفعلهُ ميرثن في هذا الوقتِ. هل كانت بيسي جالسةً إلى طاولتهِ في نُزلِ بيل تراقبه وهو يشربُ أفضلَ أنواعِ الجعةِ التي يصنعها والدُها وتبتسمُ له ابتسامةً واعدةً وهي تشدُّ صدَّارَ فستانِها لتحرصَ على أن يرى ثدييها الجميلين؟ هل كان ميرثن يعاملُها بطريقةٍ ساحرةٍ وممتعةٍ ويُضحكها؟ هل كانت تباعدُ بين شفتيها ليرى أسنانَها المتساوية، وهل كانت تُلقي برأسها للوراءِ حتى يتأملَ البشرةَ الرقيقةَ لعنقِها الأبيض؟ هل يتحدثُ إلى والدها بول بيل ويطرحُ عليهِ أسئلةً مهذبةً ومثيرةً حولَ عملِهِ وكفيلةً بأن يجعلَ بول يقول لابنتِهِ لاحقاً إنَّ ميرثن شابٌ صالحٌ؟ هل سيثملُ ميرثن ويضعُ ذراعَهُ حول خصرِ بيسي، ويريحَ يده على وركها ثمَّ يتلمسُ بأطرافِ أصابعهِ، وبكلِّ مكرٍ، ذلكَ المكانَ الحساس بينَ فخذيها الذي يتوقُ إلى لمسهِ كما فعلَ مع كاريس اليومَ؟

انحدرَت الدموعُ من عينيها، وشعرت بأنَّها تصرَّفت بغباءٍ. كان لديها أفضلُ رجلٍ في المدينةِ، وها هي تُسلمهُ إلى نادلة في حانةٍ. أخذت تتساءلُ في نفسِها عن سببِ قيامها بمثلِ هذهِ الأفعال بحقِ نفسِها.

وفي تلكَ اللحظةِ دخلَ ميرثن.

نظرَت إليه من بينِ غشاوةِ دموعِها. لم تكن ترى بشكلٍ واضحٍ ولهذا لم يكن بوسعِها قراءةُ تعابيرِ وجههِ. هل أتى ليصالحها؟ أم ليوبخها وينفس عن غضبهِ بعد أن منحتهُ أباريقَ كثيرةٌ من الجعةِ الشجاعةَ على فعلِ هذا؟

وقفت كاريس، ولوهلةٍ ومن شدَّة الترقب جمدَت في مكانِها وهي تراقبهُ يغلقُ البابَ خلفَهُ ويقفُ أمامَها ثمَّ يقول لها: «لا يهمني أيٌّ مما تفعلينَهُ أو تقولينَهُ فأنا ما زلتُ أحبكِ».

ألقت بذراعيها حوله وانخرطَت في البكاءِ.

أخذَ يمسدُ شعرَها ولم يقل شيئاً، وكان هذا هو التصرفُ الصائبُ.

بعد وهلةٍ بدآ بتقبيلِ بعضهما بعضاً. شعرَت كاريس بذلكَ الجوعِ المألوفِ ولكن أقوى من ذي قبلٍ. أرادَت يديهِ على جسدِها بالكامل، ولسانَه في فمها، وأصابعَه داخلَها. كان شعورها مختلفاً، وأرادَت لحبها أن يتجلى بطريقةٍ مختلفةٍ هذهِ المرَّة. «لنخلع ملابسنا»، قالت لهُ ولم يكونا قد قاما بهذا قبلاً.

ابتسمَ ميرثن في سعادةٍ وقالَ: «حسناً ولكن ماذا لو دخلَ أحدٌ ما؟»

«ستستمرُّ الوليمةُ لساعاتٍ، ولكن بأيِّ حالٍ يمكننا الصعودُ إلى الطابقِ العلوي».

صعدا إلى غرفةِ نومِها. خلعَت كاريس حذاءَها، وفجأةً انتابها الحرجُ وأخذَت تفكرُ بما سيعتقدهُ عندما يراها عاريةً. كانت تعلمُ أنّهُ يحبُّ جسدَها بكلِّ تفاصيلِهِ: ثدييها، ساقيها، عنقها، فرجها. ولطالما أخبرها بجمالِ تفاصيلها عندما يأخذ بتقبيلِ ومداعبةِ هذهِ الأجزاءِ. ولكن هل سيلاحظُ الآن أن وركيها عريضان جداً وساقيها قصيرتان قليلاً وثدييها صغيران حقاً؟

بدا كأنّه لا يفكر بهذهِ الأمورِ فقد خلعَ قميصَهُ وسروالهُ ووقفَ أمامها دونَ حرجٍ. كان جسدهُ نحيلاً ومتيناً وتفيضُ منهُ طاقةٌ كبيرةٌ كجسدِ غزالٍ صغيرٍ. لاحظَت وللمرَّةِ الأولى أنَّ الشعرَ حولَ عضوهِ بلونِ ورقِ الخريفِ، وأنَّ عضوه منتصبٌ في توقٍ. تغلَّبَت رغبتُها على حيائها، وخلعَت ثوبها بسرعةٍ.

حدَّقَ إلى جسدِها العاري إلّا أنّها لم تعد تشعرُ بالحرجِ، وشعرت بالإثارةِ من تحديقهِ بها كأنّه يداعبها بحميميةٍ.

«أنتِ جميلةٌ»، قالَ لها.

«وأنتَ كذلك».

استلقيا جنباً إلى جنبٍ على فراشٍ من القشِ كان سريرها، وبينما أخذا بتقبيلِ وملامسة بعضهما بعضاً أدركَت كاريس أنَّ ممارسة ألعابهما المعتادة اليوم لن تشبعها.

«أريدُ أن نقومَ بالأمرِ كما يجب»، قالت لهُ.

«أتعنين أن نقومَ بهِ كاملاً؟»

وفجأةً خطرت لها فكرة احتمالِ الحملِ، ولكنها دفعَت بالفكرةِ بعيداً. كانت مهتاجةً جداً على التفكيرِ بالعواقبِ. «أجل»، همست لهُ.

«وأنا أريدُ هذا».

وصعدَ ميرثن فوقها.

لقد قضت كاريس نصفَ حياتها وهي تفكرُ بهذهِ اللحظةِ. نظرَت إلى وجههِ، ورأت نظرةَ التركيزِ التي تُحبها كثيراً. كانت النظرةُ نفسها التي ترافقهُ وهو يعملُ، وعندما تكون يداه مشغولتين بتشكيلِ الخشبِ في رقةٍ ومهارةٍ، وبكلِّ لطفٍ أفردَ بأطرافِ أصابعهِ بتلاتِ زهرتِها التي كانت زلقةً وتتوقُ إليهِ.

قال لها: «هل أنتِ واثقةٌ؟»

ومرّةً أخرى كبحت فكرةَ الحملِ وقالت: «أنا واثقةٌ».

عندما أدخلَ عضوهُ شعرَت بالخوفِ فعصرَت نفسها بشكلٍ تلقائي، وترددَ ميرثن عندما شعرَ أنَّ جسدها يقاومُه.

«لا بأس، يمكنكَ أن تدفع بقوةٍ أكبر فأنتَ لن تؤذيني»، قالت له ولكنها كانت مخطئةً في هذا الشأنِ لأنّها شعرت بألمٍ حادٍ وهو يُقحمُ عضوهُ. لم تكن قادرةً على كتمانِ صرختها.

«أنا آسف»، همسَ لها.

«انتظر قليلاً»، قالت لهُ.

استلقيا ساكنين. قبّلَ ميرثن جفنيها وناصيتها وأرنبةَ أنفها، أما هي فداعبت وجهه ونظرت إلى عينيهِ العسليتين. واختفى الألم وعاودتها الرغبةُ وبدأت تتحركُ وهي تستمتعُ بإحساس أن يكون عضو الرجل الذي تحبهُ في داخلها لأوّلِ مرَّةٍ. شعرَت بالسعادةِ عندما رأته سعيداً جداً بهذا. وبينما كانا يتحركان بشكلٍ أسرعِ حدَّقَ ميرثن إليها وقد ارتسمَت على شفتيهِ ابتسامةٌ خجولةٌ ولمعَ جوعٌ شديدٌ في عينيهِ.

«لا يمكنني أن أتوقف»، قالَ لها بأنفاسٍ مبهورةٍ.

«لا تتوقف، لا تتوقف».

راقبتهُ بعنايةٍ، وخلالَ دقائقَ معدودةٍ تملّكتهُ المتعةُ فأغلقَ عينيهِ وفتحَ فمهُ وتصلَّبَ جسدهُ كوترِ قوسٍ. شعرَت بتشنجاتِ عضوهِ في داخلِها وبقوةِ قذفهِ، وفكَّرَت بأنَّ ما من شيءٍ في الحياةِ يمكن أن يجهزها لمثلِ هذهِ المتعةِ. وبعد وهلةٍ شعرَت بنفسِها تنقبضُ من النشوةِ. كانت قد شعرت بهذا قبلاً ولكنه لم يكن بهذهِ القوةِ. أغلقَت عينيها وأسلمَت نفسها لهذهِ النشوةِ بينما ميرثن يضغطُ بجسدهِ على جسدِها وهي تهتزُ كشجرةٍ في مهبِ الريحِ.

عندما انتهيا استلقيا في سكونٍ لفترةٍ طويلةٍ ثمَّ دفنَ ميرثن وجههُ في عنقها وشعرَت بأنفاسهِ المبهورةِ على جلدِها. أخذَت تُمسدُ ظهرَهُ وشعرَت ببشرتهِ رطبةً من العرقِ، وبالتدريجِ عادَت نبضاتُ قلبِها إلى إيقاعِها الطبيعي واكتسى وجهُها برضا عميقٍ كحُمرةِ سماءِ أمسيةٍ صيفيةٍ.

«حسناً»، قالت بعد وهلةٍ ثمَّ أضافت: «الأمرُ لا يستحقُ كلَّ هذهِ الجلبةِ حولهُ».

في اليومِ التالي على تثبيتِ غودوين في منصبِ رئيسِ الديرِ توجّهَ إدموند وولر إلى منزلِ والدي ميرثن في الصباحِ الباكرِ.

كان ميرثن ينسى أحياناً رفعة مكانةِ إدموند لأنَّ الأخير يعاملهُ دوماً كأنّه فردٌ من أفرادِ العائلةِ، ولكن السير جيرالد والليدي مود تصرَّفا كأنّهما يستقبلان زائراً ملكياً على حين غرَّة، وعبَّرا عن شعورهما بالإحراجِ لأنَّ إدموند سيلاحظُ فقر منزلهما المكون من غرفةٍ واحدةٍ ينامُ فيها ميرثن ووالداه على مفارش قشّيّةٍ على الأرضيةِ، وما من أثاثٍ آخر في الغرفةِ سوى موقدٍ وطاولة، وهناكَ حديقةٌ خلفيةٌ صغيرةٌ.

لحسنِ الحظِّ استيقظ أفرادُ العائلةُ منذُ الفجرِ واغتسلوا وارتدوا ملابسهم ورتبوا المكانَ، ولكن عندما وصلَ إدموند ودخلَ المنزلَ بمشيتِهِ العرجاء مسحَت والدةُ ميرثن الغبارَ عن كرسيٍ عالٍ ورتبت شعرَها وأغلقَت الباب الخلفي ثمَّ فتحتهُ مجدداً ووضعت قطعةَ حطبٍ في الموقدِ. ارتدى والدُهُ معطفاً فضفاضاً وقد انحنى كثيراً لإدموند وعرضَ عليهِ كوباً من الجعةِ.

«لا، شكراً لكَ أيُّها السير جيرالد»، قال إدموند وقد علمَ أنَّ العائلة بالكادِ تملكُ ما يكفيها. «ولكن سأتناول وعاءً صغيراً من الحساء من فضلكِ أيتها الليدي مود». في بيوتِ جميع العائلات هناكَ دوماً قدرٌ من حساءِ الشوفانِ يُطهى على النارِ. يضافُ إلى هذا القدرِ العظام وبقايا التفاح وقرون البازلاءِ والأعشاب العطرية ولذلك لا يمكن أن يكون طعمُ الحساء هو نفسهُ في كلِ مرةٍ يُطبخُ فيها. كان هذا أرخصَ طعامٍ.

وبكلِ سرورٍ سكبَت مود بعضَ الحساءِ في وعاءٍ ووضعتهُ على الطاولةِ مع ملعقةٍ وصحنٍ من الخبزِ.

كان ميرثن ما يزال في حالةِ نشوةٍ مما حدثَ عصرَ البارحةِ كأنّه كان ثملاً بعضَ الشيءِ، ونامَ الليلةَ الماضية وهو يفكرُ بجسدِ كاريس العاري واستفاقَ على ابتسامةٍ. ولكن على حينِ غرّةٍ تذكر المواجهةَ التي وقعَت بينهُ وبينَ إلفريك من أجلِ غريزيلدا، وانتابهُ إحساسٌ خاطئٌ بأنَّ إدموند سيصرخُ في وجههِ قائلاً: «لقد دنستَ ابنتي!» ومن ثمَّ سيضربُهُ على وجههِ بقطعةٍ من الخشبِ.

ولكن هذا الفزع لم يدم طويلاً واختفى حالما جلسَ والد كاريس إلى

الطاولةِ. التقطَ إدموند الملعقةَ ولكن قبلَ أن يبدأ في الأكلِ قال لميرثن: «الآن وبما أنَّه أصبحَ لدينا رئيسُ ديرٍ أريدُ أن أبدأ العملَ على الجسرِ الجديدِ بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ».

«هذا جيدٌ»، قال ميرثن.

تناولَ إدموند ملعقةً من الحساءِ ثمَّ تمطَّقَ بشفتيهِ في استمتاعٍ وقال: «هذا أفضلُ حساءٍ أتذوقهُ أيتها الليدي مود»، وبدت والدة ميرثن مسرورةً.

شعرَ ميرثن بالامتنانِ نحو إدموند لأنَّه كان يعاملُ والديهِ بطريقةٍ ساحرةٍ. كان والداه يشعران بالخِزيِ من وضعِهِما البائس، ولهذا كانت زيارةُ كبيرِ شيوخِ المدينةِ إلى منزلهما وتناولُه الطعامَ على طاولتهما ومناداتهما بالسير جيرالد والليدي مود أشبه بوضعِ البلسمِ على جُرحِهما.

وقال والد ميرثن: «كدتُ ألاّ أتزوجَ بها يا إدموند. هل كنتَ تعلمُ بهذا؟»

كان ميرثن واثقاً من أنَّ إدموند قد سمعَ بالقصَّةِ ولكنهُ أجابَ: «يا إلهي لا، ما الذي حدثَ؟»

«حدثَ هذا في عيدِ الفصحِ. رأيتها في الكنيسةِ ووقعتُ في غرامها على الفورِ. كان هناك آلافُ الناسِ في كاتدرائية كينغزبريدج وكانت أجملَ امرأةٍ في المكانِ».

«ما من داعٍ للمبالغةِ يا جيرالد»، قالت مود بجديَّةٍ.

«ومن ثمَّ اختفت بينَ الحشودِ ولم أعثر عليها! لم أكن أعرف اسمها، وأخذت أسأل الناس إن كانوا يعرفون اسم الفتاةِ الجميلةِ ذاتِ الشعرِ الأشقرِ وقالوا لي إنَّ جميعَ الفتياتِ جميلاتٍ وشقراوات».

قالت مود: «كنتُ على عجلةٍ من أمري بعدَ انتهاءِ مراسمِ الكنيسةِ فقد كنا ننزلُ في نُزلِ هولي بوش، وكانت والدتي متوعكةً ولهذا عدتُ إلى النُزلِ للاعتناءِ بها».

قال جيرالد: «بحثتُ في جميعِ أرجاءِ المدينةِ، ولكني لم أعثر عليها. بعدَ عيدِ الفصحِ عادَ الجميعُ إلى منازلهم. كنتُ أعيشُ في شايرنغ وهي في كاسترهام رغم أنني لم أعرف هذا حينئذٍ. ظننتُ أنني لن أراها مجدداً، واعتقدتُ أنَّها كانت ملاكاً نزلَ على الأرضِ ليرى إن كان الجميع قد حضرَ مراسمَ عيد الفصحِ».

«من فضلكَ يا جيرالد»، قالت مود.

«ولكنها أسرَت قلبي ولم أهتم بأيِّ امرأةٍ أخرى. توقعت أن أقضي بقيةَ

حياتي وأنا أتوقُ إلى ملاكِ كينغزبريدج. واستمرَّ هذا لعامين ثمَ رأيتها في دورة مباريات في وينشستر».

وقالت مود: «تقدَّمَ هذا الغريب نحوي وقال لي: 'هذهِ أنتِ بعدَ كل هذا الوقت! يجب أن تتزوجيني قبلَ أن تختفي مجدداً'. واعتقدتُ أنّه رجلٌ مجنونٌ».

«هذا مذهلٌ»، قال إدموند.

ورأى ميرثن أنَّ والديه استغلا طيبةَ قلبِ إدموند بما يكفي ولهذا تدخّلَ قائلاً: «لقد رسمتُ بعضَ التصاميمِ على أرضيةِ الرسمِ في سقيفةِ البنائين في الكاتدرائيةِ».

أومأ إدموند برأسِهِ وسأل: «هل سيكون الجسرُ الحجري واسعاً بما يكفي لمرور عربتين معاً؟»

«أجل تماماً كما طلبتَ. علاوةً على هذا سيكون الطريقُ منحدراً عند بداية ونهايةِ الجسر لتسهيل حركةِ دخولِ العربات إليهِ، وقد عثرتُ على طريقةٍ لتقليلِ النفقات إلى الثُلثِ».

«هذا مذهلٌ! ولكن كيف؟»

«سأريكَ حالما تنتهي من تناولِ الطعامِ».

أنهى إدموند حساءَهُ ووقفَ. «لقد انتهيت، فلنذهب»، قال إدموند واستدارَ نحو جيرالد ثمَّ أحنى رأسهُ قليلاً وقالَ: «شكراً لكما على حُسنِ ضيافتكما».

«إنّه لمن دواعي سروري استقبالُ كبير الشيوخِ».

خرجَ ميرثن وإدموند من المنزلِ وتفاجآ بهطولِ مطرٍ خفيفٍ، وبدلاً من التوجهِ إلى الكاتدرائيةِ قادَ ميرثن إدموند باتجاهِ النهرِ. كانت مشيةُ إدموند العرجاء مألوفةً ولم تمرَّ ثانيةٌ واحدةٌ دونَ أن يلقي أحدٌ في الشارعِ التحيَّة عليهِ مع كلمةٍ ودودةٍ أو انحناءةِ تقديرٍ.

وفجأةً انتابَ ميرثن القلقُ. لقد قضى شهوراً في التفكيرِ بتصميمِ الجسرِ. وعندما كان في كنيسةِ سانت مارك يشرفُ على النجارين وهم يصنعونَ السقفَ الجديدَ بعدَ هدمِ السقفِ القديم كان يفكرُ بالتحدي العظيم لبناءِ جسرٍ حجري. والآن، ولأوّلِ مرّةٍ، ستخضعُ أفكارهُ لتقييمِ أحدٍ ما.

ولكن لم يكن لدى إدموند أدنى فكرة عن مدى تطرفِ خطةِ ميرثن.

كان الدربُ هبوطاً ومتعرجاً ويلتفُّ حول المنازلِ والورشِ، وتحولَ سورُ المدينةِ إلى أنقاضٍ خلالَ القرنين اللذين دامَ فيهما السلام الأهلي، ولم يبقَ منهُ في بعضِ الأماكنِ سوى أكوامٍ من الترابِ التي تحولت اليومَ إلى حدائقَ

جداريَّةٍ، وعندَ حافةِ النهرِ استغلَّت الصناعات اليدويةُ حصَّةً كبيرةً من مياهِهِ، بخاصَّةٍ صباغو الصوفِ ودباغو الجلودِ.

وقفَ ميرثن وإدموند على الشاطئ النهري الموحلِ بينَ المسلخِ الذي تفوحُ منهُ رائحةُ دماءٍ قويَّةٌ ودكانِ حدادٍ تعلو فيهِ أصواتُ المطارقِ على الحديدِ، وأمامَهم مباشرةً لاحَت جزيرةُ ليبر. قال إدموند: «لماذا أتينا إلى هنا؟ إنَّ الجسرَ على بُعدِ ربعِ ميلٍ في أعلى مجرى النهرِ».

«لقد كان»، قال ميرثن ثمَّ أخذَ نفساً وقال: «أعتقدُ أننا نستطيعَ بناء جسرٍ جديدٍ هنا».

«جسرٌ يصلُ إلى الجزيرةِ».

«وجسرٌ آخرٌ من الجزيرةِ حتَّى الضفةِ الأخرى. جسران صغيران بدلاً من جسرٍ كبيرٍ، وهو أرخصُ بكثيرٍ».

«ولكن سيكون على الناسِ السيرُ عبرَ الجزيرةِ من جسرٍ إلى آخرٍ».

«ولِم لا؟»

«ولكنَّها مستعمرةُ المصابين بالجذامِ».

«ولكن لم يعد هناكَ سوى مريضٍ واحدٍ، ويمكنهُ أن ينتقلَ إلى أيِّ مكانٍ آخر. يبدو أنَّ المرضَ يختفي».

تأمَّلَ إدموند كلامَ ميرثن وقال: «إذاً، من يصلُ إلى كينغزبريدج سينزلُ هنا حيثُ نقفُ».

«سيتعينُ علينا بناءُ شارعٍ جديدٍ وهدمُ بعضِ هذهِ الأبنيةِ. ولكن ستبقى الكلفةُ أقلَّ مقارنةً بالمالِ المخصصِ لبناءِ الجسرِ».

«وماذا عن الضفةِ الأخرى؟»

«يوجد فيها مرعى تابعٌ للديرِ. أستطيعُ أن أتخيلَ شكلَ التصميمِ عندما أقفُ على سطحِ كنيسةِ سانت مارك حيثُ خطرَت لي الفكرةُ».

بدا إدموند مبهوراً بما سمعَهُ وقال: «هذهِ فكرةٌ ذكيَّةٌ جداً. أتساءل عن سببِ عدمِ بناءِ الجسرِ هنا أصلاً».

«لقد أُقيمَ الجسرُ الأولُ منذُ مئاتِ السنين، ومن المرجحِ أنَّ شكلَ النهرِ كان مختلفاً آنذاك. لا بدَّ أنَّ ضفتي النهر قد تغيرتا مع مرور القرونِ، وفي مرحلةٍ ما ربما كانت القناةُ بين الجزيرةِ والمرعى أوسع، وبناءً على هذا لا يوجدُ أيّ ميزةٍ لإعادةِ بناءِ الجسرِ هناك».

حدَّقَ إدموند عبرَ المياهِ وبدورهِ نظرَ ميرثن إلى حيثُ كان ينظرُ إدموند. كانت مستعمرةُ المصابين بالجذام عبارةً عن بيوتٍ خشبيَّةٍ مُهدمة وموزعة على مساحةِ ثلاثةِ أو أربعةِ فدادين. لم تكن الجزيرةُ صالحةً للزراعةِ بسببِ طبيعتِها الصخريَّةِ، ولكن هناكَ بعضَ الشجيرات والأعشابِ القصيرةِ. كانت الأرانبُ قد غزت المكانَ وتكاثرت فيه لأنَّ سكانَ المدينةِ لم يتجرؤوا على أكلِها تطيراً منها ولاعتقادهم بأنَّها أرواحُ من ماتوا بالجُذام. في ما مضى كان المعزولون على هذه الجزيرةِ يربون الدجاج والأرانب، ولكن باتَ سهلاً على الديرِ الآن إرسالُ الطعامِ إلى آخر قاطنيها.

«أنتَ على حقٍ»، قال إدموند. «لم تسجل حالةُ جذامٍ واحدةٍ في المدينةِ منذُ عشرِ سنواتٍ».

«لم أرَ مجذوماً في حياتي»، قال ميرثن. «وعندما كنتُ طفلاً كنت أعتقدُ أنهم يقولون «فهوداً» وكنتُ أتخيلُ أنَّ الجزيرةَ تقطنُها الفهودُ المُرقطةُ».

ضحكَ إدموند ثمَّ أدارَ ظهرهُ للنهرِ ونظرَ إلى الأبنيةِ حولهُ وقال متأملاً: «سيتعينُ علينا المداهنةُ قليلاً عندَ إقناع من ستُهدمُ منازلهم بأنَّهم محظوظون أكثر من جيرانِهم لأنَّهم سينتقلون إلى منازلِ جديدةٍ أفضل من منازلِهم القديمةِ، ويجب أن تطهرَ الجزيرةُ بالمياهِ المقدسةِ لإقناعِ الناسِ أنَّها آمنةٌ، ولكننا سننجحُ في كلِّ هذا».

«لقد صممتُ الجسرين بأقواسٍ مدببةٍ كأقواسِ الكاتدرائية»، قال ميرثن. «سيكونان جميلين».

«أرِني».

غادرا ضفَّةَ النهرِ وصعدا التلَّ عبرَ المدينةِ متجهين إلى الديرِ. كانت الكاتدرائيةُ تقطرُ مطراً تحتَ غيمةٍ منخفضةٍ شبيهةٍ بغمامةِ دخانٍ مُتصاعدٍ من نارٍ أُطفئت بالماءِ. كان ميرثن يتطَّلعُ إلى رؤيةِ رسوماتهِ مجدداً فهو لم يصعد إلى السقيفةِ منذُ أسبوعٍ أو أكثر، ويتطلع أكثر إلى شرحِ هذهِ الرسومِ لإدموند. لقد فكَّرَ كثيراً بالطريقةِ التي قوَّضَ فيها تيارُ النهرِ الجسرَ القديمَ، وبالطريقةِ التي سيحمي بها الجسرَ الجديدَ من المصيرِ ذاتهِ.

قادَ ميرثن إدموند عبرَ الرواقِ الشمالي باتجاهِ السُلمِ الحلزوني. كان حذاؤهُ الرطبُ ينزلقُ على درجاتِ السُلمِ الحجري المتهالكِ بينما إدموند وراءهُ يرفع قدمهُ بكلِّ همَّةٍ على الدرجِ.

كان هناك بضعةُ مصابيح مُشتعلةٍ في سقيفةِ البناءين. في البدايةِ سُرَّ ميرثن لأنَّ هذا يعني أنّه سيتمكنُ من رؤيةِ رسومهِ بشكلٍ أوضح، ثمَّ رأى إلفريك يعملُ على أرضيةِ الرسمِ.

انتابَهُ اليأسُ لوهلةٍ، فقد كانت العداوةُ بينهُ وبينَ مُعلمهِ السابق أعظمَ من ذي قبلٍ. كان إلفريك قد فشلَ في منعِ سكانِ البلدةِ من الاستعانةِ بميرثن، إلّا أنّه استمرَّ بحجبِ طلبِ ميرثن في الانضمامِ إلى نقابةِ النجارين تاركاً إياه في وضعٍ غير مستقرٍ؛ فهو الآن نجارٌ غير شرعي ولكن الناس يستعينون بهِ. كان سلوكُ إلفريك أحمق ويفيضُ بالحقدِ.

وبوجودُ إلفريك في المكانِ لن يتمكن ميرثن من التحدّثِ إلى إدموند بأريحيةٍ، ولكن ميرثن قالَ لنفسِهِ إنَّه يجبُ ألا يتوتر جداً حيالَ هذا، وإنَّ إلفريك من عليهِ الشعورِ بعدمِ الارتياحِ.

أمسكَ ميرثن البابَ حتَّى يدخلَ إدموند. عبرَ الرجلان الغرفةَ باتجاهِ أرضيَّةِ الرسمِ، وأصيبَ ميرثن بصدمةٍ.

انحنى إلفريك فوقَ الأرضيَّةِ يرسمُ مستخدماً فرجارين على طبقةٍ جديدةٍ من الجصِّ فوقَ رسومات ميرثن بالكاملِ.

قال ميرثن في عدمِ تصديقٍ: «ما الذي فعلتَهُ؟»

نظرَ إليهِ إلفريك في ازدراءٍ وتابعَ عملهُ دونَ أن يقولَ شيئاً.

«لقد مسحَ عملي»، قال ميرثن لإدموند.

لم يكن بوسعِ إلفريك تجاهل والد زوجتهِ. «لا يوجد أيُّ تفسيرٍ لما حدث»، قال إلفريك. «يجب تجديدُ أرضيَّةِ الرسمِ بين الحينِ والآخر».

«ولكنكَ غطيتَ بعملكِ هذا تصاميم مهمَّةً».

«هل هي كذلك حقاً؟ لم يُكلّف الدير هذا الفتى القيامِ بأيّ رسم، وهو لم يطلب الإذن باستخدامِ أرضيَّةِ الرسمِ».

كان إدموند سريعَ الغضبِ وقد بدأت وقاحةُ إلفريك بازعاجهِ. «لا تكن غبياً»، قال إدموند. «طلبتُ من ميرثن أن يُعدَّ الرسوم من أجلِ الجسرِ الجديدِ».

«أنا آسفٌ ولكن الدير فقط من يُعطي الإذنَ بفعلِ هذا».

«اللعنةُ، إنَّ النقابةَ من تقدمُ المالَ».

«إنَّهُ قرضٌ وسيتمُّ دفعُهُ».

«ورغمَ هذا ما زلنا نملكُ الحقَ بأن يكونَ لنا رأي بخصوصِ التصميمِ».

«هل هذا صحيحٌ؟ يجب أن تتحدثَ إلى رئيسِ الديرِ بهذا الخصوصِ، ولكن لا أعتقدُ أنّه سيكون سعيداً باختيارِكَ هذا المتدرب الغر ليضعَ التصميمَ».

كانَ ميرثن ينظرُ إلى رسوماتِ إلفريك على طبقةِ الجصِّ الجديدةِ. «أفترض أنَّ هذا الرسم تصميمُكَ للجسرِ»، قال ميرثن.

«لقد كلفني رئيسُ الديرِ غودوين ببنائِهِ»، قال إلفريك.

كان إدموند مصدوماً. «من دونِ أن يستشيرنا في هذا أولاً؟»

قال إلفريك بامتعاضٍ: «ما الخطبُ؟ ألا تريدُ أن يعملَ زوج ابنتكَ على التصميمِ؟»

«أقواسٌ مدورةٌ وفتحاتٌ ضيقةٌ»، قالَ ميرثن وهو يدرسُ تصميمَ إلفريك. «كم يبلغُ عددُ الدعائم التي ستستخدمها؟»

بدا إلفريك متردداً في الإجابةِ ولكن إدموند نظرَ إليهِ منتظراً الجواب. «سبعةٌ».

«كان للجسرِ الخشبي خمسةُ دعائم فقط!» قال ميرثن. «ولماذا الدعائمُ غليظةٌ والفتحاتُ ضيقةٌ؟»

«لتحملَ وزنَ الطريقِ المرصوفِ بالحجرِ».

«لا تحتاجُ إلى دعائم غليظةٍ من أجلِ هذا. انظر إلى الكاتدرائيةِ وكيف تحملُ أعمدتها وزنَ السقفِ بالكاملِ رغمَ أنّها رفيعةٌ وبعيدةٌ جداً بعضها عن بعض».

وقال إلفريك ساخراً: «ولكن ما من أحدٍ سيسيرُ بعربةٍ على سطحِ الكنيسةِ».

«هذا صحيح ولكن...» توقفَ ميرثن. إنَّ المطر الذي يتساقطُ ويتجمعُ على سطحِ الكاتدرائية الواسع جداً يزنُ أكثر من عربةٍ مُحمَّلةٍ بالحجارةِ يجرها ثورٌ، ولكن ميرثن قال في نفسهِ إنّه غيرُ مضطرٍ لشرحِ هذا لإلفريك، فهو غير معني بتثقيفِ بنّاءٍ جاهلٍ. كان تصميمُ إلفريك ضعيفاً، ولكن ميرثن لم يرغب بتحسينهِ بل باستبدالِهُ بتصميمهِ الخاص، ولهذا لزمَ الصمتَ.

أدركَ إدموند أيضاً أنّه كان يضيعُ وقتَه. «لا يمكنُ أن يحسمَ رجلان هذا القرار»، قال إدموند واندفعَ خارجَ الغرفةِ.

***

في الكاتدرائيةِ عمّدَ رئيسُ الديرِ غودوين طفلةَ المأمورِ جون، وقد حصلَ

المأمورُ على هذا الشرفِ لأنَّهُ موظفٌ مهمٌ في الديرِ. حضرَ المراسمَ جميعُ كبارِ المدينةِ رغمَ أنَّ جون لم يكن ثرياً أو لهُ علاقاتٌ جيِّدةٌ بل إن والدهُ عمل في اسطبلاتِ الديرِ إلَّا أنَّ بيترانيلا قالت إنَّ الناسَ المُحترمين يجبُ أن يهتمّوا بإظهارِ صداقتهم ودعمهم لهُ في الوقت الذي رأت فيه كاريس أنّهم تنازلوا بقدومِهم لحضورِ مراسمِ التعميد لأنّهم بحاجةٍ إلى جون في حمايةِ ممتلكاتهم.

هطلَ المطرُ مجدداً، وكان الناس الذين احتشدوا حولَ جُرنِ المعموديةِ مبللين بالماءِ أكثر من الطفلةِ نفسها التي كانت تتلقى المياهَ المقدسةَ. وانتابَت كاريس مشاعرُ غريبةٌ وهي تحدقُ إلى الطفلةِ الصغيرةِ العاجزةِ، فمنذُ أن نامَت مع ميرثن لم تسمح لنفسِها بالتفكيرِ في الحملِ إلَّا أنّها شعرَت بذلكَ الدفقِ الدافئِ من مشاعرِ الحمايةِ عندما رأت الطفلةَ.

سُميت الطفلةُ جيسيكا على اسم ابنةِ أخِي النبي إبراهيم.

لم يكن نسيبُ كاريس غودوين يحبُّ التعاملَ مع الأطفالِ ولهذا عندما انتهى طقسُ التعميدِ السريعِ التفتَ ليغادرَ إلَّا أنَّ بيترانيلا أمسكَت بهِ من كُمِ ردائه ذي الطرازِ البنيديكتي وقالت له: «ما قصَّةُ الجسرِ؟»

تحدَّثَت بصوتٍ منخفضٍ ولكن كاريس سمعتهما وقررَت الاستماعَ إلى بقيةِ الحديثِ.

قال غودوين: «لقد طلبتُ من إلفريك تجهيزَ التصميمِ وتقديرَ الكُلفةِ».

«هذا جيدٌ. يجب أن نُبقي الأمرَ محصوراً بالعائلةِ».

«إنَّ إلفريك البنَّاءُ الرسمي للديرِ».

«قد يرغب آخرون بالتدخلِ».

«أنا من يقررُ بناءَ الجسرِ».

شعرَت كاريس بضيقٍ لا يحتمل من هذا الحديثِ وقالت لبيترانيلا: «كيفَ تجرئين؟»

«لم أكن أتحدثُ إليكِ»، قالت عمتها.

تجاهلَت كاريس ما قالتهَ عمتها وتابعت: «ولمَ لا يؤخذ تصميم ميرثن بعينِ الاعتبارِ؟»

«لأنَّهُ ليسَ من العائلةِ».

«إنَّه فعلياً يعيش معنا».

«ولكنك لستِ متزوجةً منهُ. لو كنتِ متزوجةً منه لاختلفَ الأمرُ».

أدركَت كاريس أنَّ حُجتَها هنا لم تكن قويَّةً ولهذا غيرتها قائلةً: «لطالما كانت لديكِ أحكامٌ مسبقةٌ نحو ميرثن، ولكن الجميع يعلمُ أنَّهُ أفضل من إلفريك».

سمعَت أليس أختُ كاريس الحديثَ وانضمَّت: «علَّمَ إلفريك ميرثن كلَّ شيءٍ وها هو ميرثن الآن يتظاهر بأنَّه أكثرُ عِلماً».

عرفَت كاريس أنَّ هذا الكلام تضليلٌ ولهذا انتابها الغضبُ. «من بنى العبَّارةَ؟» قالت بصوتٍ أعلى. «من أصلحَ سقفَ كنيسةِ سانت مارك؟»

«كان ميرثن يعملُ مع إلفريك عندما بنى العبَّارةَ، ولم يطلب أحدٌ من إلفريك إصلاح كنيسةِ سانت مارك».

«لأنَّهم يعلمون أنَّهُ لن يتمكن من معرفةِ المشكلةِ!»

قاطعَهما غودوين قائلاً: «من فضلكن!» ورفعَ يديهِ أمامَ وجههِ كأنَّه يحميهِ. «أعلمُ أننا أقرباء ولكني رئيسُ الديرِ ورئيسُ هذهِ الكاتدرائيةِ ولا أتحمَّلُ أن تحاضرني النساءُ في العلنِ».

انضمَّ إدموند إلى الحلقةِ قائلاً: «هذا ما كنتُ على وشكِ قولهِ. أخفضوا أصواتَكم».

قالت أليس في اتهامٍ: «يجب أن تدعمَ زوجَ ابنتكَ».

وخطرَ لكاريس أنَّ أليس تزدادُ شبهاً ببيترانيلا. ورغمَ أنَّها لم تتجاوز الواحدة والعشرين من العمرِ وبيترانيلا أكبرُ منها بمرَّتين فإنَّ لأليس تلكَ النظرة العابسة والمستهجنة التي تملكها عمتها، وقد غدت أكثر ضخامةً وبرزَ صدرُها في مقدمةِ ثوبها كشراعٍ عبَّتهُ ريحٌ.

حدَّق إدموند عابساً إلى أليس: «لن يُبنى هذا القرار على أساسِ الصلةِ العائليةِ، وحقيقةُ أنَّ إلفريك متزوجٌ من ابنتي لن تساعدهُ في الحفاظِ على الجسرِ قائماً».

تعرفُ أليس أنَّ إدموند يملكُ آراءً جادةً حيالَ الأمرِ، فلطالما آمن بضرورةِ العملِ مع من يمكنُ الاعتمادُ عليهم أكثر، ولطالما استعانَ بأفضلِ الرجالِ لأداءِ أيِّ عملٍ بغضِّ النظرِ عن الصداقةِ أو العلاقاتِ العائليةِ. واعتادَ القولَ إنَّ أيَّ شخصٍ يحيطُ نفسهُ بالتابعين المُخلصين شخصٌ غير واثقٍ من نفسِهِ، وإن لم يكن هذا الشخصُ واثقاً من نفسهِ فكيفَ له أن يثقَ بهِ.

قالت بيترانيلا وهي تحدِّقُ نحوهَ بنظرةٍ ماكرةٍ: «وكيفَ سيؤخذُ القرارُ؟ يبدو أن لديكَ خطةً».

«سينظرُ الديرُ والنقابةُ في تصميمي إلفريك وميرثن وأيِّ شخصٍ يريدُ تقديمَ تصاميمِهِ»، قال إدموند بحزمٍ. «يجبُ أن تكون جميعُ التصاميمِ مرسومةً ومعها تقديرُ الكُلفةِ التي سيتفحصها بناؤون آخرون بشكلٍ مستقلٍ».

وهمهمَت أليس قائلةً: «لم أسمع بمثلِ هذا الأمرِ قبلاً. هذا أشبهُ بمسابقةٍ لرمي السهامِ. إنَّ إلفريك بنَّاءُ الدير الرسمي وهو من يجب أن يقومَ بالعملِ».

تجاهلَ والدُها ما قالتهُ. «وأخيراً، سيقومُ كبارُ المدينةِ بطرحِ الأسئلةِ على المصممين خلالَ اجتماعِ نقابةِ الأبرشيةِ، ومن ثمَّ..» ونظرَ إلى غودوين الذي يحاول ألا يبدو مرتاعاً من الطريقةِ التي يُسحب فيها القرارُ من بينِ يديهِ. «سيقومُ رئيسُ الديرِ غودوين بأخذِ القرارِ».

***

أُقيمَ الاجتماعُ في غيلد هول على الطريقِ الرئيسي. كان للمبنى سردابٌ حجري تحتَ الكتلةِ الخشبية ذات السقفِ القرميدي والمدخنتين الحجريتين.

وفي القبو مطبخٌ كبيرٌ لإعدادِ طعامِ الولائمِ وسجن ومكتب للمأمورِ. كان الطابقُ الأرضي فسيحاً ككنيسةٍ وبطولِ مئتي قدم وعرضِ ثلاثين، وفي إحدى الزوايا مصلى صغير. ولأنَّ المكان واسعٌ والألواحُ الخشبيةُ الطويلةُ كفايةً لتغطي السقف البالغ ثلاثين قدماً نادرةٌ وباهظةٌ امتدت سلسلةٌ من الأعمدةِ الخشبيَّة لدعمِ الركائزِ الأساسيةِ.

كان المبنى متواضعاً ومبنياً من مواد تُستخدم في بناءِ البيوتِ البسيطة التي لا تمجدُ أحداً. اعتادَ إدموند القولَ إنَّ المالَ الذي يدفعُهُ الناسُ في هذا المكان يذهبُ إلى أبهةِ الكاتدرائيةِ بجدرانها المطليَّةِ بالجيرِ ونوافذها الملونةِ. كانت غيلد هول مريحةً بمظهرها غير المبهرج فقد عُلّقت على الجدرانِ أقمشةٌ مزدانةٌ بالرسوماتِ وكانت النوافذُ زجاجيةٌ وهناكَ مدفأتان تبقيان المكانَ دافئاً في الشتاءِ، وعندما تزدهرُ الأعمالُ في هذا المكان يصبحُ الطعامُ الذي يُقدَّمُ لائقاً بملوكٍ.

تأسسَت نقابةُ الأبرشيةِ منذُ مئاتِ السنين عندما كانت كينغزبريدج مجرَّدَ بلدةٍ صغيرةٍ. كانت مجموعةٌ من التجارِ قد تعاونت وجمعت المالَ من أجلِ تزيينِ الكاتدرائيةِ، ولكن عندما يأكلُ ويشربُ الأثرياءُ في مجموعةٍ لا بدَّ أنَّهم سيتناقشون في مصالحِهم المشتركةِ وعاجلاً أم آجلاً ما تصبحُ عمليَّةُ جمعِ الأموالِ أمراً ثانوياً وتأخذ السياسةُ المكانةَ الأساسيةَ، وهذا ما يفسرُ وجود

ميزانين ووزنٍ خاصٍ لأكياس الصوف يُقدر بثلاثمئةٍ وأربعة وستين باونداً في إحدى زوايا المكان. ومع اتساعِ مدينةِ كينغزبريدج تأسست نقاباتٌ أخرى لتمثلَ المزيدَ من المهن كالنجارةِ والبناءِ وصُنعِ الخمرِ والحدادةِ إلّا أنَّ كبارَ هذهِ النقاباتِ كانوا تابعين لنقابةِ الأبرشيةِ التي كانت تحتلُ الصدارةَ. كانت هذهِ النقابةُ نسخةً مُصغَّرةً عن نقابةِ التجارةِ التي أسسها التجارُ وحكمت معظمَ المدن الإنكليزيةِ إلّا أنَّ مالكَ المدينةِ، ديرُ كينغزبريدج، منعها هنا.

لم يحضر ميرثن أيَّ اجتماعٍ أو وليمةٍ هنا، ولكنه دخلَها مرّاتٍ عديدةٍ من أجلِ أغراضٍ عاديةٍ. لطالما أحبَّ النظرَ إلى السقفِ وتأمل الهندسة المُعقدة لألواحِ السقفِ الخشبيةِ وقد كانت درساً لهُ في الطريقةِ التي يمكن أن تقومَ فيهِ بضعةُ أعمدةٍ رفيعةٍ في حملِ وزنِ سقفٍ عريضٍ، إلّا أنَّهُ وجدَ عموداً أو عمودين غير ضروريين أو بالأحرى خطيرين لأنهما يحولان وزن السقفِ إلى مناطقَ ضعيفةٍ. ويعودُ السبب في هذا إلى جَهلِ الناسِ بالطريقةِ التي تجعلُ الأبنيةَ تقفُ. كان البناؤون يعملون بالغريزةِ والخبرةِ ولذلك كانت الأمور تسوءُ أحياناً.

هذهِ الليلة كان ميرثن في حالةٍ من التوترِ الشديدِ، ولم يكن قادراً على تأملِ بناءِ المكانِ؛ فالنقابةُ ستقررُ مصيرَ تصميمهِ، وتساءلَ في نفسهِ إن كانوا سيقررون أنَّ تصميمهُ أفضل بكثيرٍ من تصميمِ إلفريك.

يمتلكُ إلفريك ميزةَ أنَّ تصميمهُ مرسومٌ. كان بوسع ميرثن أن يطلبَ من غودوين الإذنَ باستخدامِ الأرضيةِ إلّا أنّه خافَ من أن يُخرّبَ إلفريك التصميمَ مجدداً، ولهذا لجأ إلى حلٍ بديلٍ. كان قد شدَّ قطعةً كبيرةً من جلدِ الماعزِ داخلَ إطارٍ خشبي ورسمَ تصميمهُ على الجلدِ بالقلمِ والحبرِ، وهذهِ ميزةٌ لأنَّ هذا يعني بأنّه قادرٌ على حملِ تصميمهِ إلى غيلد هول حتّى يراه جميعُ الأعضاءِ بينما تصميمُ إلفريك سيكون في ذاكرتهم.

وضعَ ميرثن التصميمَ في مدخلِ القاعةِ على حاملٍ بثلاث أرجلٍ صممهُ لهذا الغرضِ، وبينما توافدَ الجميعُ إلى القاعةِ ألقوا نظرةً على التصميمِ رغمَ أنهم رأوه لمرَّةٍ واحدةٍ على الأقلِ خلالَ الأيام القليلةِ الماضيةِ. كانوا قد صعدوا الدرجَ الحلزوني إلى سقيفةِ البنائين وألقوا نظرةً على تصميمِ إلفريك. اعتقدَ ميرثن أنَّ معظمَ الناسِ فضّلوا تصميمهُ إلّا أنَّ البعضَ كانَ متردداً في دعمِ شابٍ في مواجهةِ رجلٍ خبيرٍ، ولهذا السببِ احتفظَ العديد بآرائهم لأنفسهم.

علا الضجيجُ في القاعةِ التي بدأت تمتلئُ بالرجالِ وبضعِ نساءٍ. كان الجميعُ

متأنقين من أجلِ اجتماعِ النقابةِ كأنّهم ذاهبون إلى الكنيسةِ. ارتدى الرجالُ معاطفَ صوفيةً باهظةً رغمَ الطقسِ الصيفي المعتدل وكانت النساءُ في قبعاتٍ أنيقةٍ. ورغم أنَّ الجميعَ كان يتصرفُ بمداهنةٍ حيالَ قلّةِ الثقةِ بالنساءِ والنظرةِ الدونيةِ إليهن، ولكنْ عمليّاً العديدُ من الشخصياتِ الثريّةِ والهامةِ في المدينةِ من النساءِ. حضرَت الأم سيسيليا التي جلست في الأمامِ مع مساعدتِها الشخصيّةِ الراهبةُ العجوزُ جولي، حضرَت كاريس التي كانت بإقرارِ الجميعِ ساعدَ إدموند الأيمن. رآها ميرثن تجلسُ على المقعدِ قربَهُ وشعرَ برعشةِ رغبةٍ عندما احتكَّ فخذاها الدافئان بفخذيهِ. كان على جميعِ العاملين في المهنِ في المدينةِ أن ينتسبوا إلى النقابةِ؛ فالغرباء لا يسعهم القيامُ بالأعمالِ سوى خلال أيامِ السوقِ. وإن أرادَ الرهبان والكهنةُ العملَ في أيِّ مهنةٍ كانوا يجبرون أيضاً على الانضمام إلى نقابةٍ، وهذا ما قاموا بهِ أغلبَ الأحيانِ. وعندما يموتُ رجلٌ ما جرت العادةُ أن تأخذَ عنهُ زوجتهُ الأرملة عملهُ وتستمرَّ بهِ ومن بين تلكَ النسوة بيتي باكستر التي كانت أكثر خبازي البلدةِ ثراءً، وسارةَ تيفيرنر التي تديرُ نُزلَ هولي بوش. إنَّ منعَ مثل تلكَ النسوةِ من كسبِ لقمةِ العيشِ أمرٌ صعبٌ وقاس ولهذا كان تنسيبهن إلى النقابةِ أسهل بكثير.

عادةً ما كان إدموند يرأسُ هذهِ الاجتماعاتِ جالساً على عرشٍ خشبي كبيرٍ على منصَّةٍ عاليةٍ في المقدمةِ إلّا أنَّ اليومَ كان هناكَ كرسيانِ على المنصَّةِ وقد جلسَ إدموند على أحدهما وعندما وصلَ رئيسُ الدير غودوين إلى المكانِ دعاهُ إدموند إلى الجلوسِ على الآخرِ. كان جميعُ كبارِ الرهبانِ برفقتهِ وسُرَّ ميرثن لرؤيةِ توماس بينهم. كان فيليمون ببنيتهِ الهزيلةِ وسلوكهِ الأخرق برفقتهم أيضاً، وتساءلَ ميرثن عن سببِ إحضارِ غودوين لهُ.

بدا غودوين مكروباً، وأثناء افتتاحِ الجلسةِ حرصَ إدموند على أن يعرف الجميع أنّه رئيسُ الدير المسؤول عن الجسرِ، وأنَّ الخيارَ النهائي بين يديهِ، ولكن يعرفُ الجميع أنَّ إدموند سحبَ القرارَ من بين يدي غودوين باستدعائِهِ لهذا الاجتماع، وإن كانَ القرار الليلة جماعياً فسيجدُ غودوين صعوبةً في مخالفةِ إرادةِ التُجارِ في أمرٍ تجاري أكثر مما هو ديني. طلبَ إدموند من غودوين أن يبدأ الاجتماعَ بصلاةٍ فأطاعهُ غودوين. ولأنَّ إدموند قد التفَّ عليهِ وناورهُ بدا غودوين كأنّه يشتمُّ رائحةً سيئةً في المكانِ.

وقفَ إدموند وقال: «قامَ كل من ميرثن وإلفريك بتخمينِ كلفةِ كلِّ تصميمٍ، وقد استخدما طريقةَ الحسابِ ذاتها».

تدخَّل إلفريك قائلاً: «بالطبعِ استخدمنا الطريقةَ ذاتها فقد تعلَّمَها مني». وعلَت موجةُ ضحكٍ من كبارِ الحاضرين.

كان ما قيلَ صحيحٌ؛ فهناكَ صيغةٌ لحسابِ الكُلفِ لكلِّ قدمٍ مربعٍ مع أيِّ جدارٍ، ولكلِ ياردةٍ مكعبةٍ من المواد المالئةِ، ولكلِّ قدمٍ من السطحِ، وطريقةُ حسابٍ دقيقةٍ لأجزاءٍ أخرى كالأقواسِ والقناطرِ. استخدمَ جميعُ البنائين الطرق ذاتها ولكن مع فروقاتٍ فرديَّةٍ. كان حسابُ كلفةِ الجسرِ أمراً معقداً على عكسِ حسابِ كلفةِ إصلاحاتِ الكنيسةِ.

تابعَ إدموند قائلاً: «واطلعَ كلا الرجلين على حساباتِ الآخرِ حتَّى لا يكون هناكَ مجالٌ للخلافِ».

وصاحَ إدوارد بوتشر: «أجل، جميعُ البنائين يتقاضون الأتعابَ ذاتها!» وأثارَ هذا موجةَ ضحكٍ واسعةً. كان إدوارد مشهوراً بين الرجالِ بأجوبتهِ السريعةِ، وبينَ النساءِ بوسامتهِ وعينيهِ العسليتين المغويتين. لم تكن علاقتُهُ بزوجتهِ جيِّدةً فقد كانت تعلمُ بخياناتهِ، وقد هاجمتهُ مؤخراً بإحدى سكاكينهِ الثقيلةِ ولهذا ما زالَت ذراعهُ اليسرى مُضمَّدة.

«سيُكلفُ جسرُ إلفريك مئتي وخمسة وثمانين جنيهاً»، قال إدموند وتوقفَ الحاضرون عن الضحكِ. «وتصميمُ ميرثن يُكلفُ ثلاثمئةٍ وسبعةَ جنيهات. وكما احتسبَ بعضكم بشكلٍ أسرعَ مني فإنَّ الفرقَ إثنان وعشرون جنيهاً». وسرَت ضحكاتٌ مكمومةٌ على ما قالهُ إدموند فغالباً ما تتم ممازحتهُ بشأنِ تولي ابنتِهِ أمورَ الحسابِ عنهُ. كان ما يزالُ يستخدمُ الأرقام اللاتينية ولم يعتد بعد على استخدامِ الأرقامِ العربيةِ الجديدةِ التي سهّلت أمورَ الحسابِ.

وعلا صوتٌ جديدٌ قائلاً: «إنَّ اثنين وعشرين جنيهاً مبلغٌ كبيرٌ»، قال بيل واتكين البنَّاء الذي رفضَ أن يعملَ ميرثن لديهِ وذو التسريحةِ الشبيهةِ بتسريحةِ الرهبانِ.

وأجابَ ديك بروير: «هذا صحيح ولكنَّ جسرَ ميرثن أعرض بمرتين ولهذا من الطبيعي أن تكونَ كلفتهُ الضعفَ. ورغم هذا لا يكلّفُ الضعفَ لأنَّ تصميمهُ أذكى». أحبَّ ديك الجعةَ التي كان ينتجها ولهذا كان بطنهُ مدوراً وبارزاً كبطنِ امرأةٍ حاملٍ.

انضمَّ بيل إلى الحديثِ قائلاً: «ومتى سنحتاجُ إلى جسرٍ عريضٍ بما يكفي لمرورِ عربتين خلال العامِ؟»

«سنحتاجهُ خلال أيامِ السوقِ وطوالَ أسبوعِ سوقِ الصوفِ».

«هذا ليسَ صحيحاً»، قال بيل. «نحتاجهُ لساعةٍ في الصباحِ ولساعةٍ أخرى بعد الظهرِ».

«لقد انتظرتُ قبلاً ساعتين بعربةٍ مُحملةٍ بالشعيرِ».

«كان عليكَ أن تحسنَ التفكير وتُحضرَ الشعير في الأيامِ التي تكونُ فيها الحركةُ خفيفةً».

«أنا أحضرُ الشعيرَ كلَّ يومٍ». كان ديك أكبر مصنّعٍ للجعةِ في المنطقةِ، ويمتلكُ مرجلاً نحاسياً هائلاً يتسعُ لخمسمئةِ غالون ولهذا كانت تدعى حانتهُ بحانةِ كوبر[1].

قاطعَ إدموند هذا الجدالَ قائلاً: «وهناكَ مشاكل أخرى يسببها التأخيرِ في بناءِ الجسرِ. يذهبُ بعضُ التجار إلى شايرنغ حيث لا يوجدُ جسرٌ ولا صفُّ انتظارٍ بينما يعقدُ آخرون الصفقات وهم في صفِّ الانتظارِ ويعودون إلى منازلهم من دون أن يدخلوا إلى المدينة ويوفرون بذلكَ على أنفسِهم تعرفةَ استخدامِ الجسرِ وضرائبَ السوقِ. هذا عملٌ استباقي وغير قانوني ولم نتمكن قط من إيقافهِ. وهناكَ أيضاً مسألة طريقة تفكير سكان كينغزبريدج؛ فنحن الآن في مدينةٍ بجسرٍ مُنهارٍ، وإن أردنا أن نجذبَ الأعمالَ التي خسرناها نحتاجُ إلى تغيير هذا الواقعِ. أرغبُ جداً بأن تصبحَ كينغزبريدج مدينةً مشهورةً بامتلاكها لأفضلِ جسرٍ في إنكلترا».

كانت شخصيةُ إدموند مؤثرةً وبدأ ميرثن يشمُ رائحةَ النصرِ.

وقفت بيتي باكستر التي كانت امرأة سمينةً جداً في الأربعين من عمرها وأشارَت إلى شيءٍ على تصميمِ ميرثن وقالت: «ما هذا الذي في وسطِ حاجزِ الجسرِ فوقَ الدعامةِ؟ هناكَ شيءٌ مدببٌ وناتئ بعض الشيء كأنّه منصةُ عرضٍ. ما هذا؟ أهو من أجلِ الصيدِ؟» وضحكَ بقيةُ الحاضرين.

«إنَّه ملاذٌ للمارةِ»، أجابَ ميرثن. «إن كنتِ تمشين على الجسرِ وفجأة مرَّ إيرل شايرنغ ومعهُ عشرون فارساً على جيادهم يمكنكِ أن تبتعدي عن طريقهم باللجوءِ إليها».

وقال إدوارد بوتشر: «آمل أن تكون واسعةً بما يكفي لتتسعِ لبيتي».

1- حانة النحاس. (المترجمة)

ضحكَ الجميع ولكن بيتي تابعت الاستفسارَ: «ولماذا الدعامةُ التي تحتَ المنصةِ مدببةٌ من الأعلى حتى الأسفل؟ إنَّ دعائم إلفريك ليست مدببةً».

«لإبعادِ البقايا التي قد تعلقُ بالجسرِ. انظري إلى أيِّ جسرٍ فوقَ نهرٍ وسترين الدعائم مشوهةً ومتصدعةً. وما هو السببُ برأيكِ؟ لا بدَّ أنّها قطعُ الخشبِ الكبيرةِ وجذوعِ الأشجارِ أو الأخشاب من البيوتِ التي هُدمت وألقي بها في النهرِ وترينها تطفو عبرَ مجرى النهرِ وتحطّمُ الدعائم».

«أو بسبب اصطدام إيان بوتمان بها عندما يكون ثملاً»، قالَ إدوارد.

«قوارب أو بقايا، لا يُمكن لكليهما أن يحدثا أيّ أذيةٍ بدعائمي المدببةِ على عكس ما سيحدثُ لدعائم إلفريك التي ستتلقى أذيّةً كبيرةً».

قال إلفريك: «إنَّ جدراني قويةٌ جداً ولا يمكن أن تهدمها قطعٌ من الخشبِ».

«على العكسِ»، قال ميرثن. «إنَّ أقواسكَ أضيقُ من أقواسي وهذا يعني أنَّ الماءَ سيجري عبرها بسرعةٍ أكبر وستصطدمُ البقايا بالدعائم بقوة أكبر مُحدثةً ضرراً أكبر».

ورأى ميرثن على وجهِ إلفريك أنّه لم يفكر بالأمرِ، ولكن لم يكن جميعُ الحاضرين من البنّائين فكيفَ لهم أن يعرفوا ما هو صائب.

وحولَ قاعدةِ كل دعامةٍ رسمَ ميرثن كومةً من الأحجارِ غير الملساءِ وهو معروفٌ للبنائين باسم الحاجزِ الصخري. سيمنعُ هذا الحاجز التيار من تقويضِ الدعامةِ كما حصلَ مع الجسرِ الخشبي. ولكن لم يسألهُ أحد عن الحاجزِ الصخري ولهذا لم يشرح الأمرَ.

كان لدى بيتي المزيدُ من الأسئلةِ: «لماذا جسركَ طويل؟ يبدأُ جسرُ إلفريك عندَ حافةِ النهرِ بينما جسركَ يبدأ قبلَ مسافةٍ من الحافة. هل كلفة هذا الشيء ضرورية؟»

«ينحدرُ الجسرُ عندَ بدايتِهِ ونهايتِهِ»، قال ميرثن شارحاً. «وهذا كي تطئي أرضاً جافةً بدلاً من الوحلِ عندما تنزلينَ من الجسرِ. وهذا بدورهِ سيحولُ دون أن تعلقَ العربات التي تجرها الثيرانُ بالوحلِ وتُعطلَ الحركةَ لساعةٍ».

«سيكونُ من الأرخص أن نبني طريقا معبداً»، قالَ إلفريك.

كانَ إلفريكَ قد بدأ يتحدثُ بيأسٍ، ومن ثمَّ وقفَ بيل واتكين وقالَ: «أجدُ صعوبةً في تحديدِ من على صوابٍ ومن على خطأ لأنهما عندما يتجادلان يغدو من الصعبِ اتخاذ قرارٍ، وهذا أمرٌ صعبٌ عليَّ أنا البنّاء فما هو حال من

لا يفهمون في البناءِ». وعلت همهمةُ تأييدٍ ثمَّ تابعَ بيل قائلاً: «ولهذا أعتقد أننا يجب أن ننظرَ إلى الرجلين وليسَ إلى التصميمين».

كان ميرثن يخشى حدوثَ هذا وتابعَ الإصغاءَ ويأسهُ يتعاظم.

«أيٌّ من الرجلين تعرفونهُ حقَّ المعرفةِ؟» قال بيل. «أيٌّ منهما تعتمدون عليه؟ إنَّ إلفريك بنَّاءٌ في هذه المدينةِ منذ عشرين عاماً، أي مُذ كان صبياً إلى أن أصبحَ رجلاً. يمكنكم أن تنظروا إلى البيوتِ التي بناها فهي ما تزال قائمةٌ، ويسعنا أن نطلعَ على الإصلاحات التي قامَ بها في الكاتدرائيةِ. ومن جانبٍ آخر نعرفُ الفتى الذكي ميرثن رغمَ أنَّه طائشٌ بعضَ الشيءِ ولم يُنهِ فترتهُ التدريبية، ولا أرى ما يوحي بأنَّه قادرٌ على تسلمِ زمام بناءِ أكبر مشروعٍ تشهدهُ كينغزبريدج منذُ بناءِ الكاتدرائيةِ. أنا أعرف بمن أثقُ». أنهى كلامهُ وجلسَ.

عبَّرت مجموعةٌ من الرجال عن موافقتِهم على كلامِ بيل، ولم يحكموا على التصاميم بل على الشخصياتِ وكان هذا ظُلماً ما بعدهُ ظلمٌ.

ثمَّ تحدَّثَ الأخ توماس قائلاً: «هل انخرطَ أيُّ شخصٍ في كينغزبريدج بمشروعٍ يتضمنُ البناءَ تحتَ الماء؟»

وعلمَ ميرثن أنَّ الجوابَ بالنفي ثمَّ شعرَ بطاقةِ أملٍ تفتحُ مجدداً. قد يُنقذُ هذا مشروعهُ.

تابعَ توماس كلامهُ قائلاً: «أريد أن أعرف من الرجلين الطريقةَ التي سيتعاملان بها مع هذه المشكلةِ».

كان جوابُ ميرثن جاهزاً ولكنه خافَ من أن يبدأ الكلامِ فينسخُ عنه إلفريك بكلِ بساطةٍ. أطبقَ على شفتيه على أملِ أن تصلَ الرسالةُ إلى توماس الذي يساعدهُ في أغلبِ الأحيانِ.

التقت نظرات توماس وميرثن. «إلفريك ما الذي ستفعلهُ؟» سأل توماس.

«الجوابُ أبسط مما قد تعتقد»، قال إلفريك. «سنُلقي بركامٍ في النهرِ حيثُ ستُبنى الدعائم. سيستقرُ الركامُ في قاعِ النهرِ، ونستمرُّ بإلقاءِ المزيدِ إلى أن يعلو الركامُ فوقَ سطحِ النهرِ وتُبنى الدعائم فوقَ هذا الأساس».

توقَّع ميرثن من إلفريك مثلَ هذا الجواب وبأنَّ حلَّهُ للمشكلةِ سيكون ساذجاً. قال ميرثن: «هناك مشكلتان في طريقةِ إلفريك. الأولى هي أنَّ ركام البقايا لا يمكن أن يستقرَ تحتَ الماءِ كما قد لا يستقر فوق اليابسةِ. فمع مرور الوقتِ سيتحركُ من مكانهِ ويتداعى وعندما يحدثُ هذا سيتداعى الجسرُ. وهذا

حسنٌ إن أردتم جسراً يستمرُ لبضعِ سنينٍ، إلَّا أنني أعتقدُ أنَّه علينا بناءُ جسرٍ يستمرُ طويلاً».

وتناهت إلى مسامع ميرثن همهمةُ موافقةٍ.

«أمَّا المشكلة الثانية فهي شكلُ الركام. ستتموضع حجارةُ الركامِ بشكلٍ منحدرٍ تحتَ سطحِ الماءِ وهذا بدورهِ سيعيقُ حركةَ عبورِ القواربِ بخاصَّةٍ عندما يكون مستوى النهر منخفضاً، وإضافةً إلى هذا فإنَّ الأقواس التي اختارها إلفريك واطئةٌ».

وقال إلفريك باهتياج: «وما الحلُ الذي تقترحهُ؟»

جاهدَ ميرثن لقمعِ ابتسامتهِ فقد كان هذا ما أرادَ سماعهُ؛ أن يعترف إلفريك بأنَّه لا يملكُ جواباً أفضل. «سأخبركَ»، قال ميرثن وهو يفكرُ في نفسه بأنَّه سيُثبتُ للجميعِ بأنَّه أكثر معرفةً من ذلكَ الغبي الذي حطَّمَ بابهُ. نظرَ ميرثن من حوله ورأى أنَّ الجميع يصغي إليه. يتوقفُ القرار الآن على ما سيقولهُ.

أخذَ نفساً عميقاً وقال: «أولاً، سآخذُ وتداً خشبياً مدبباً وأغرسُهُ في سريرِ النهرِ ثمَّ سأضعُ واحداً آخر إلى جانبهِ وهكذا دواليك حتى يصبحَ لدي حلقةٌ من الألواح حول المكان الذي أريد وضعَ الدعامةِ فيهِ».

«حلقةٌ من الأوتادِ الخشبية؟» قال إلفريك ساخراً. «هذا لن يمنعَ دخولَ الماءِ».

الأخُ توماس الذي طرحَ السؤال قال لإلفريك: «فلتُصغِ إليهِ رجاءً فقد أصغى إليكَ».

قال ميرثن: «ثمَّ سأبني حلقةً ثانيةً داخلَ الأولى بفارقِ مسافةِ قدمٍ بينهما». وشعرَ بأنَّ اهتمامَ الجمهورِ يتعاظم الآن.

«لن يكون منيعاً أمام المياه»، قالَ إلفريك.

قال إدموند: «اخرس يا إلفريك. إنَّ ما يقال مثيرٌ للاهتمام».

تابعَ ميرثن قائلاً: «ثمَّ سأضعُ ملاطاً من الطينِ في الفجوةِ بينَ الحلقتين، وهذا كفيلٌ بسدِّ أيِّ فجواتٍ بين الأوتادِ الخشبيةِ وجعلِ الحلقةِ منيعةً من دخولِ الماءِ. ويدعى هذا بسدِ إنضاب».

ورانَ الصمتُ في الغرفةِ.

«أخيراً سأفرغُ الماءَ من الداخل بالدلاءِ حتى يظهرَ سريرُ النهرِ وأبني أساساً من الحجارة والملاطِ».

بدا إلفريك مصعوقاً. وحدّقَ كلٌ من إدموند وغودوين إلى ميرثن.

قال توماس: «شكراً لكما. وأنا أتحدثُ عن نفسي عندما أقولُ إنَّ القرار الصائب واضحٌ».

«أجل»، قال إدموند. «أعتقدُ أنَّهُ كذلك».

***

تفاجأت كاريس عندما علمت أنَّ غودوين أرادَ من إلفريك أن يبني الجسرَ، وفهمت أنَّ إلفريك يبدو كخيارٍ آمنٍ ولكن غودوين كان إصلاحياً وليسَ محافظاً وتوقعت منهُ أن يتحمسَ للتصميم الذكي والراديكالي الذي وضعهُ ميرثن، ولكن بدلاً من هذا فضَّلَ الخيارَ المتحفظ.

ولكن لحسنِ الحظِ نجحَ إدموند في التلاعبِ بغودوين، وستحظى كينغزبريدج الآن بجسرٍ متقنٍ وجميلٍ ويتسعُ لمرورِ عربتين في الوقتِ ذاتِه. كانَ توقُ غودوين إلى تعيينِ ذلك المتملق الضيق الأفقِ إلفريك بدلاً من الشابِ الجريء والموهوبِ نذيرٌ شؤمٍ في قادمِ الأيامِ.

لم يكن غودوين يتمتعُ بروحٍ رياضيةٍ في الخسارةِ. فعندما كانَ صبياً علّمتهُ بيترانيلا لعبَ الشطرنجِ وكانت تجعلهُ يربح لتشجعهُ على التعلمِ، وعندما تحدَّى خالهُ إدموند وخسرَ مرَّتين معهُ تجهمَ ورفضَ اللعبَ مجدداً. وبالنظرِ إلى وجههِ بعد الاجتماعِ في غيلد هول ميَّزت كاريس التجهمَ في ملامحهُ. قد لا يكونُ منحازاً لتصميمِ إلفريك على وجهِ الخصوصِ إلّا أنّه، ومن دونِ أدنى شكٍ، كرهَ أن يُسحبَ القرارُ من بينِ يديهِ، وفي اليومِ التالي عندما توجهت مع والدها إلى منزلِ رئيسِ الدير توقعت كاريس حدوثَ المتاعبِ.

حيَّاهم غودوين ببرودٍ ولم يعرض عليهما أيَّ شيءٍ ليشرباه. وكعادتهِ تظاهرَ إدموند بأنَّهُ لم يلحظ هذهِ الأمور البسيطة. «أريد أن يُباشر ميرثن العملَ على الجسرِ»، قال إدموند وهو يأخذ مكاناً إلى الطاولةِ في القاعةِ. «لدي عهودٌ بتقديمِ المبلغِ بأكملهِ من أجلِ ميزانيةِ ميرثن...»

«ممن هذهِ العهود؟» قاطعهُ غودوين.

«من أغنى تجارِ المدينةِ».

وأمعنَ غودوين النظرَ باستفهامٍ إلى إدموند.

هزَّ إدموند كتفيهِ وقالَ: «خمسون جنيهاً من بيتي باكستر وثمانون من ديك بروير وسبعون مني وعشرة جنيهاتٍ عن كلِّ تاجرٍ من البقيةِ ويبلغُ عددهم أحدَ عشر».

«لم أكن أعلمُ أنَّ مواطنينا يملكون مثلَ هذهِ الثرواتِ»، قال غودوين بذهولٍ وحسدٍ. «لقد كان الرَّبُّ كريماً».

أضافَ إدموند: «كريم بما يكفي لمكافأةِ الناسِ على حياةٍ كاملةٍ من العملِ والجُهدِ».

«لا شكَّ في ذلكَ».

«ولهذا السبب أحتاجُ إلى تقديمِ تطميناتٍ لهم حيالَ استعادتهم لأموالهم. عندما يُبنى الجسرُ سيذهبُ مالُ التعرفات إلى نقابةِ الأبرشية ثم يُستخدمُ بدورهِ لإعادة القروضِ ولكن من سيجمعُ المالَ من عابري الجسرِ؟ أعتقدُ أنَّ هذا الشخص يجب أن يكونَ من النقابةِ».

«لم أوافق على هذا»، قال غودوين.

«أعلمُ ولهذا أفتحُ الموضوعَ الآن».

«أعني أنني لم أوافق على تقديمِ التعرفاتِ إلى نقابةِ الأبرشيةِ».

«ماذا؟»

حدَّقت كاريس إلى غودوين في دهشةٍ، وفكرت في نفسها أنّه بالطبعِ وافق على هذا وتساءلت عما كان يقصدهُ بكلامهِ هذا. لقد تحدَّثَ إليها كما تحدَّثَ إلى إدموند، وأكدَّ لهما أنَّ الأخ توماس...

«أوه»، قالت كاريس. «لقد أعطيتَ وعداً ببناءِ الجسرِ إن انتخبتَ رئيساً للديرِ. وعندما انسحبَ توماس وأصبحتَ المرشح افترضنا...»

«افترضتما»، قال غودوين وعلَت شفتيهِ ابتسامةُ نصرٍ مُتكلفةٌ.

وهنا لم يعد إدموند قادراً على تمالكِ نفسهِ فقالَ في صوتٍ مخنوقٍ: «هذهِ ليست صفقة يا غودوين. كنتَ تعلم أنَّ بيننا تفاهماً».

«لم أكن أعرفُ بهذا التفاهم، ومن الأفضل أن تقولَ أيّها الأب رئيس الدير عندما تخاطبني».

وعلا صوتُ إدموند وهو يقول: «إذاً، عدنا إلى حيثُ تركنا رئيسُ الدير أنتوني منذ ثلاثةِ أشهرٍ! إلّا أننا الآن وبدلاً من امتلاكنا لجسرٍ غير لائقٍ لا نملكُ أيَّ جسرٍ. لا تفكر بأنكَ لن تدفعَ شيئاً لبناءِ الجسر. قد يُقرضُ المواطنون مدخراتهم للديرِ بوجود ضمانةِ استعادةِ أموالهم من تعرفاتِ الجسرِ، إلّا أنّهم لن يتبرعوا بأموالهم... أيُّها الأب رئيس الدير».

«إذاً، عليهم التكيف مع حقيقةِ عدمِ وجودِ جسرٍ. استلمت المنصب مؤخراً فكيف لي أن أتخلى عن حقٍ يعودُ للديرِ منذ مئاتِ السنين؟»

«ولكنّ الأمرَ مؤقت!» انفجرَ إدموند غاضباً. «وإن لم تفعل هذا لن يجني أحدٌ أيَّ مالٍ من تعرفاتِ الجسرِ لأنّه لن يكون هناكَ أيُّ جسرٍ لعين».

كانت كاريس تستشيطُ غضباً أيضاً إلّا أنّها كبحت غضبها حتّى تفهم ما يخططُ لهُ غودوين. كان يأخذُ بثأرِهِ على ما حدثَ الليلةَ الماضية، ولكن هل هذا غرضُهُ؟ وقالت لهُ: «ما الذي تريدهُ؟»

تفاجأ إدموند بالسؤال ولكنه لم يتفوه بكلمةٍ. كانَ السبب الذي يدفعهُ لاصطحابِه كاريس إلى الاجتماعاتِ هو قدرتها على رؤية أمورٍ تفوتهُ وطرح أسئلةٍ لا تخطرُ على بالهِ.

«لا أفهم ما الذي تقصدينهُ»، أجابها.

«لقد فأجأتنا»، قالت له. «ووضعتنا في موقفٍ صعبٍ. حسناً جداً. نعترفُ بأنَّ افتراضنا لم يكن مبرراً، ولكن ما الذي تبغيهِ؟ أن نبدو أغبياء؟»

«أنتما من طلبَ هذا الاجتماع وليسَ أنا».

وانفجرَ إدموند قائلاً: «ما هذهِ الطريقةُ التي تتحدثُ فيها إلى خالكِ وابنةِ خالكِ؟»

«رويدك يا أبي»، قالت كاريس. كانت كاريس على ثقةٍ من أن لغودوين أجندةً سريّةً إلّا أنّه لم يكن يرغب بالاعترافِ بهذا، وفكرت في نفسها قائلةً: «حسناً، سأحاول أن أتكهن بها».

«فلتُعطني بعضَ الوقتِ لأفكر»، قالت لغودوين.

ما زال غودوين يرغبُ ببناءِ الجسر، بل عليهِ أن يبنيهُ. هذا هو الأمرُ المنطقي. وكل ذلكَ الكلام عن التخلي عن حقوقٍ قديمةٍ للديرِ كلامٌ بلاغي لا يعدو أكثر من مجردِ ثرثرةٍ متعاليةٍ يتعلمها جميعُ طلابِ أوكسفورد. هل يريدُ غودوين أن يُجبرَ إدموند على الموافقةِ على تصميمِ إلفريك؟ لم ترَ كاريس في هذا احتمالاً وارداً. من الواضح أنَّ غودوين امتعضَ من الطريقةِ التي تجاوزهُ فيها إدموند أمامَ المواطنين ولكنه لا بدَّ أنّه رأى أنَّ اعتمادَ تصميم ميرثن يعني الحصولَ على جسرٍ بقدرةِ جسرين وبتكلفةِ بناءِ جسرٍ واحدٍ فقط. إذاً، ما هو الأمر؟

ربما كان يرغب بصفقةٍ أفضل.

وتكهنت كاريس أنَّ غودوين قد عاين بدقةٍ الموارد الماليةَ للديرِ. كانَ قد انتقدَ بكلِ أريحيةٍ انعدامَ كفاءةِ أنتوني خلال سنواتٍ عديدةٍ، وها هو الآن في مواجهةِ الواقع الذي يملي عليهِ ضرورةَ العملِ بأفضل ما أمكنهُ. يبدو أنَّ الأمرَ

لم يكن سهلاً كما تخيلَ، وربما لم يكن ذكياً في الأمورِ الماليةِ والإداريةِ كما كانَ يعتقدُ نفسهُ. ولذلكَ، وبدافعِ اليأسِ، أرادَ الجسرَ ومال التعرفاتِ ولكن كيف لهَ أن يفكر بأنَّ هذا قد يحدث؟

قالت كاريس لغودوين: «ما الذي يمكننا أن نقدمهُ لكَ لتغير رأيكَ؟»

«أن تبنوا الجسرَ من دون أخذِ التعرفاتِ»، قالَ على الفورِ.

وفكرت كاريس في نفسها: «هذهِ أجندتكَ إذاً. لطالما كنتَ ماكراً بعضَ الشيءِ يا غودوين».

وهبطَ عليها الإلهامُ كالصاعقةِ فقالت: «ما هو المبلغ الذي تريدهُ؟»

بدا غودوين مرتاباً في ما قالتهُ وسألها: «ولماذا ترغبين بالمعرفةِ؟»

قال إدموند: «يمكننا أن نجدَ مخرجاً للأمرِ. إن لم نحتسب المواطنين ممن لا يدفعون التعرفةَ هناك ما يقاربُ المئةَ شخصٍ يعبرون الجسرَ في كلِ يومٍ من أيامِ السوقِ، وتعرفةُ العربات بنسان. إنَّ المبلغَ أقلَّ الآن بوجودِ العبّارةِ».

قالت كاريس: «فلنقل إنَّ المبلغ أسبوعياً يصلُ إلى مئةٍ وعشرين بنساً، أو عشرة شلنات وهذا يعني ستة وعشرين جنيهاً سنوياً».

قال إدموند: «وخلالَ أسبوعِ سوقِ الصوفِ يدخلُ ألفُ شخصٍ في اليومِ الأولِ، ومئتان في كل يومٍ وحتى نهايةِ السوقِ».

«هذا يعني ألفين ومئتين إضافةً إلى العرباتِ، ولنقل أنَّ المبلغَ سيكون ألفين وأربعمئةِ بنسٍ وهذا يعني عشرةَ جنيهاتٍ. ويصبحُ الناتجُ الإجمالي ستة وثلاثين جنيهاً سنوياً»، نظرت كاريس إلى غودوين وقالت: «أليسَ هذا صحيحاً؟»

«أجل»، أقرَّ غودوين على مضضٍ.

«إذاً، المبلغُ الذي تريدهُ منا هو ستة وثلاثون جنيهاً سنوياً».

«أجل».

«مستحيل!»، قال إدموند.

«ليس بالضرورةِ مستحيلاً»، قالت كاريس، «فلنقل إنَّ الدير سيؤجرُ الجسرَ إلى نقابةِ الأبرشيةِ»، ووقفت كاريس وهي تفكرُ ثمَّ أضافت: «إضافةً إلى فدانٍ من الأرضِ على كل ضفةٍ مع الجزيرةِ في المنتصفِ مقابلَ ستة وثلاثين جنيهاً في عقدِ إيجارٍ أبدي». تعرفُ كاريس أنَّ قيمةَ الأرضِ بعد أن يُبنى الجسرُ لن تقدرَ بثمنٍ. «هل هذا ما تريدهُ أيُّها الأب رئيس الديرِ؟»

«أجل».

بدا واضحاً أنَّ غودوين اعتقدَ أنَّهُ سيحصل على ستة وثلاثين جنيهاً سنوياً مقابلِ شيءٍ لا قيمة لهُ. لم تكن لديهِ أدنى فكرة عن مبلغِ إيجارِ قطعةٍ من الأرضِ عندَ الجسرِ، وفكرت كاريس بأنَّ أسوأ مفاوضٍ في العالمِ رجلٌ يعتقدُ نفسه ذكياً.

وسأل إدموند: «ولكن كيف ستستردُ نقابةُ الأبرشيةِ كلفةَ البناءِ؟»

«سيضمنُ تصميم ميرثن ارتفاعَ عددِ الناسِ والعرباتِ التي ستعبرُ الجسرَ، ونظرياً سيتضاعفُ المبلغُ، وكل ما يزيدُ على الستة والثلاثين باونداً سيعودُ إلى النقابةِ. يمكننا حينها أن نبني أبنيةً على كلا الضفتين لخدمةِ المسافرين كالحاناتِ والإسطبلاتِ والمطابخ. سيكون الأمرُ مربحاً ويمكننا أن نتقاضى إيجارات جيدةً».

«لا أعلم»، قال إدموند ثمَّ أضاف: «يبدو الأمرُ كمخاطرةٍ».

ولوهلةٍ استشاطت كاريس غضباً من والدها فها هي تقترحُ حلَّاً مذهلاً وهو يحاول أن يجدَ عيباً لا داعي له في هذا الحلِ، وعندها أدركت أنَّه كان يتظاهر، ورأت لمعةَ الحماسِ الواضحةِ في عينيهِ. لقد أحبَّ الفكرةَ ولكنهُ لم يكن يريد أن يعرفَ غودوين بهذا. لقد أخفى مشاعرَهُ مخافةَ أن يحاولَ رئيسُ الديرِ التفاوض من أجلِ صفقةٍ أفضل. كان الأب والابنة يعرفان هذهِ الخدعة فقد استخدماها قبلاً خلالَ صفقاتِ شراءِ الصوفِ.

وحالما أدركَت كاريس ما كان والدها يقومُ بهِ سايرته وتظاهرَت بأنَّها تشاركهُ مخاوفهُ: «أعلمُ أنَّ الأمر محفوفٌ بالمخاطرِ»، قالت عابسةً ثمَّ أضافت: «فقد نخسرُ كل شيءٍ ولكن لا نملكُ حلاً آخر وليسَ بيدنا حيلةٌ. إن لم نبنِ الجسرَ سنخسرُ عملنا».

هزَّ إدموند رأسهُ مشككاً وقال: «ولكني لا أستطيعُ الموافقة على هذا بالنيابةِ عن النقابةِ. يجب أن أتحدث مع الناسِ الذين وضعوا أموالهم في هذا المشروع، ولا أعرف ماذا سيكونُ جوابهم»، ثمَّ نظرَ إلى غودوين مباشرةً وقال: «ولكني سأفعلُ ما بوسعي لإقناعهم إن كان هذا أفضلُ عرضٍ تقدمهُ».

وفكرت كاريس بأن غودوين لم يقدم عرضاً في الأصلِ إلا أنَّه نسي هذا وقالَ بحسمٍ: «أجل».

«لقد وقعتَ في الفخِ»، فكرت كاريس وهي تشعرُ بالنصرِ.

***

«أنتِ ماكرةٌ حقاً»، قال لها ميرثن.

كان ميرثن مستلقياً بين ساقي كاريس رأسهُ على فخذها ويداعبُ شعرَ عانتها. لقد مارسا الحبَ للمرةِ الثانيةِ ووجدا الأمرَ أكثر إمتاعاً من المرّةِ الأولى. وبينما كانا غارقين في وسنةِ أحلامِ اليقظةِ الجميلةِ لعاشقين سعيدين أخبرتهُ عن مفاوضاتها مع غودوين، وأثارَ ما سمعهُ إعجابهُ.

قالت كاريس: «إنَّ أفضلَ ما في الأمرِ أنَّ غودوين يعتقدُ أنَّه قامَ بصفقةٍ صعبةٍ. في الحقيقةِ أنَّ قيمةَ إيجارٍ أبدي للجسرِ والأرضِ المحيطة بهِ لا تقدرُ بثمنٍ».

«ولكن من المؤسفِ حقاً أنَّه لن يكونَ أفضلَ من خالهِ أنتوني في إدارةِ أموالِ الديرِ».

كانا في الغابةِ في فسحةٍ خاليةٍ من الأشجار تحيطُ بها شجيراتُ العليق تحتَ أشجارِ زانٍ باسقةٍ وحيثُ جدولُ ماءٍ يجري بينَ الصخورِ يُشكلُ بركةً. ربما كانَ المكانُ مقصداً للعشاقِ منذُ مئاتِ السنينِ. سبحا في البركةِ عاريين قبلَ أن يمارسا الحبَّ على الضفةِ المعشوشبةِ. سيتجنبُ أيُّ مسافرٍ التوغلَ في هذا الدغلِ، ولهذا كان اكتشافُ أمرهما مستبعداً ولكن قد يراهم أطفالٌ يقطفونَ ثمارَ العليقِ فقد اكتشفت كاريس المكانَ بهذهِ الطريقةِ كما أخبرت ميرثن.

وسألَ ميرثن على مهلهِ: «لماذا طالبتِ بتلكَ الجزيرة؟»

«لا أعرف. من الواضح أنَّها ليست قيّمةً كالأراضي عندَ بدايةِ ونهايةِ الجسرِ، وهي غير صالحةٍ للزراعةِ ولكن يمكن العمل على تطويرها. في الحقيقة لم أعتقد أنَّه سيعترضُ على الأمر لهذا طرحتها».

«هل ستتولين أعمالَ والدكِ يوماً ما؟»

«لا».

«جوابٌ حازمٌ! لماذا؟»

«إنَّ فرضَ الملوكِ ضريبةً على تجارةِ الصوفِ أمرٌ سهلٌ، فقد فرضَ الملكُ للتو ضريبةَ جنيه على كلِ كيسِ صوفٍ إضافةً إلى الضريبةِ الأساسيةِ التي تبلغُ قيمتها ثُلثي جنيه. وقد غدت أسعارُ الصوفِ عاليةً جداً لدرجةِ أنَّ الإيطاليين يشترون الصوفَ من بلدانٍ أخرى كإسبانيا. يخضعُ هذا العمل بشدةٍ لرحمةِ الملكِ».

«ولكنه ما زال وسيلةً لكسبِ لقمةِ العيشِ. ألديكِ وسيلةٌ أخرى؟» كان ميرثن يحرفُ الحديثَ باتجاهِ الزواجِ وهو موضوعٌ لم تطرحه كاريس قط.

«لا أعلم»، قالت كاريس مبتسمةً. «عندما كنتُ في العاشرةِ أردتُ أن أصبحَ

طبيبةً. اعتقدتُ وقتها أنني لو كنت أفهم في أمورِ الطبِ لكنتُ أنقذتُ حياة والدتي. ضحكَ الجميعُ علي، ولم أدرك وقتها أنَّ الرجال فقط من يحقُّ لهم أن يصبحوا أطباء».

«يمكنكِ أن تصبحي امرأةً حكيمةً مثلُ ماتي وايز».

«سيكون هذا بمنزلة صدمةٍ لعائلتي. تخيل ما الذي ستقولهُ بيترانيلا! تعتقدُ الأمُ سيسيليا أنَّ قدري أن أصبحَ راهبةً».

ضحكَ ميرثن وقال: «لو أنَّها تراكِ الآن!» وقبّلَ بشرةَ عضوها الناعمةَ.

«لربما أرادت حينها أن تقومَ بما تقومُ بهِ الآن»، قالت كاريس. «أنتَ تعلمُ ما الذي يقولهُ الناسُ عن الراهباتِ».

«وما السببِ الذي دفعها للاعتقاد بأنكِ تريدين الانضمامَ إلى الديرِ؟»

«بسبب ما قمتُ بهِ بعدَ انهيار الجسرِ عندما ساعدتُ في الاعتناءِ بالمصابين. قالت لي إنني أمتلكُ موهبةً طبيعيةً».

«حتَّى أنا أرى أنكِ تملكين موهبةً طبيعية».

«لقد نفذتُ تعليماتِ سيسيليا فحسب».

«ولكن يبدو أنَّ الناس تحسنوا عندما تحدثتِ إليهم. علاوةً على هذا، لطالما أصغيتِ إلى ما لدى الناس ليقولوهُ قبلَ أن تخبريهم بما عليهم القيامُ بهِ».

داعبت خدهُ وقالت: «لا يمكنني أن أصبحَ راهبةً فأنا مغرمةٌ بكَ جداً».

كانَ شعرُ عانتها بلونٍ بني ضاربٍ للحمرة مع لمعةٍ ذهبيةٍ. «لديكِ شامةٌ صغيرةٌ»، قال لها. «هنا على الجانبِ الأيسر قربَ الشفرِ».

«أعلمُ لطالما كانت هنا مُذ كنتُ فتاةً صغيرةً، وكنت أعتقدُ وقتها أنَّها بشعةٌ. سُعدتُ كثيراً عندما نما شعرُ عانتي لأنني اعتقدتُ وقتها أنَّ زوجي لن يراها. لم أتخيل قط أن ينظر إليها أحدٌ عن قربٍ كما تفعلُ».

«لو رآها الراهبُ موردو لقالَ إنَّكِ ساحرةٌ. من الأفضلِ ألا تدعيهِ يراها».

«لن يراها حتَّى وإن كانَ آخرَ رجلٍ على وجهِ الأرضِ».

«هذا هو العيبُ الذي ينجيكِ من تهمةِ التجديفِ».

«ما الذي تتحدثُ عنهُ؟»

«يعتقدُ العربُ أنَّ أيَّ عملٍ فني يجبُ أن تشوبهُ شائبةٌ بسيطةٌ حتَّى لا يكون نظيراً دنساً لكمالِ عملِ الرَّبِّ».

«كيف علمتَ بهذا؟»

«أخبرني بهِ أحدُ سكان فلورنسا. أصغِي إلي، هل تعتقدين أنَّ نقابةَ الأبرشيةَ قد ترغبُ بالأرضِ؟»

«لمَ تسأل؟»

«لأنني أريدُ أن أمتلكها».

«أربعةُ فدادين من الصخور والأرانب!؟ لماذا؟»

«سأبني رصيفاً وباحة بناءٍ. يمكنُ إيصالُ الحجارةِ والخشبِ القادمة عبرَ النهرِ بشكلٍ مباشرٍ إلى رصيفي. عندما ينتهي العملُ على الجسرِ، سأبني منزلاً على الجزيرةِ».

«فكرةٌ رائعةٌ، ولكنهم لن يمنحوكَ إياها مجاناً».

«ما رأيكُ أن تكونَ لقاءَ جزءٍ من أتعابِ بناءِ الجسرِ؟ ستكون بديلاً لنصفِ أجري على مدى عامين».

«أنتَ تتقاضى أربعة بنساتٍ يومياً... وبهذا يكون سعرُ الجزيرةِ خمسَ جنيهاتٍ. أعتقدُ أنَّ النقابةَ ستُسرُّ بالتخلصِ من هذهِ الجزيرةِ القاحلةِ».

«هل تعتقدين أنَّها فكرةٌ جيدةٌ؟»

«أعتقدُ أنَّه سيكون بوسعكَ بناءُ منازل هناك وتأجيرها حالما ينتهي العمل على الجسرِ ويصبحُ الناسُ قادرين على الانتقال من وإلى الجزيرةِ بكلِّ سهولةٍ».

«أجل»، قال ميرثن مُفكراً. «من الأفضل أن أتحدثَ إلى والدكِ بهذا الشأنِ».

-26-

إبانَ العودةِ إلى قلعةِ الإيرل بعد يومٍ من الصيدِ في البريَّةِ كان جميعُ رجالِ حاشيةِ الإيرل رولاند في مزاجٍ جيدٍ وانتابَ رالف فيتزجيرالد شعورٌ بالسعادةِ الغامرةِ.

عبرَ الرجال الجسرَ المتحرّكَ كجيشٍ غازٍ من الفرسانِ والمرافقِين والكلابِ بينما انهمرت زخاتٌ خفيفةٌ من المطرِ كأنَّها ترحيبٌ لطيفٌ بالرجالِ وجيادهم المُتعرقة والمُتعبة والسعيدةِ أيضاً. كانوا قد اصطادوا عدَّةَ ظباء أسمنها الصيفُ سينتهي بها المطاف وليمةً مغذيةً لهم، وإضافةً إلى الظباء اصطادوا أيلاً طاعناً في

السنِ. كان لحمُ الأيلِ قاسياً ولا يُمكن إلا للكلابِ أن تأكله ولكنهم اصطادوه من أجلِ قرونهِ المهيبةِ.

ترجّلوا عن أحصنتِهم في الساحةِ الخارجية للحلقةِ الأخفض من الخندقِ المائي الذي له شكلُ الرقم «8». نزَعَ رالف السرجَ عن الحصانِ غريف وهمسَ في أذنِهِ ببضعِ كلماتِ شُكرٍ ثمَّ قدَّمَ له جزرةً وسلّمهُ إلى السائس ليُنظفه. جرَّ فتيةُ المطبخ جثثَ الأيائلِ والرجالُ يتحدثونَ بصخبٍ عن مجرياتِ اليومِ ويتفاخرون ويسخرون ويضحكونَ ويستعيدون قفزاتِ الأيائلِ العظيمة وسقطاتها الخطيرةِ وكيف أنّها كانت على وشكِ أن تفرَّ بجلدِها. وشمَّ رالف في الأجواء رائحةً يُحبها وكانت مزيجاً من عرَقِ الجيادِ والكلابِ والجِلدِ والدمِ.

وجدَ رالف نفسَه يقفُ قرب اللورد ويليام كاستر أكبر أبناءِ الإيرل.

«يا لها من رياضةٍ عظيمةٍ»، قال رالف.

«مُذهلةٌ»، أجابَه ويليام وهو ينزعُ قبعتَه ويحكُّ رأسَه الأصلع ثمَّ أضاف: «مع أنني حزينٌ على خسارةِ برونو العجوز».

كان الكلب برونو قائد قطيع الكلابِ وقد ماتَ جرّاء اللحاقِ بالطريدةِ في وقتٍ سابقٍ لأوانهِ. كان الأيلُ متعباً جداً وغير قادر على الاستمرار في الركضِ لمسافةٍ أبعد ولهذا استدارَ لاهثاً وبكتفين مضرجتين بالدمِ لمواجهةِ كلبِ الصيدِ الذي ركضَ في إثرهِ. انقضَّ برونو على عنقِ الأيلِ ولكن في حركةِ مقاومةٍ أخيرةٍ هجمَ الأيلُ برأسِهِ وعنقِهِ القوي وبقرَ بطرفِ قرنهِ البطن الطري للكلب. كلّفَ هذا الجهد الأيلَ حياته فقد انقضت عليهِ الكلابُ الأخرى ومزقته إرباً مُنهيةً حياتَه بينما التفَّت أمعاءُ برونو على قرني الأيل كأنّها حبلٌ متشابكٌ فاضطرَّ ويليام إلى نحرِ عنقهِ بخنجرٍ لتخليصهِ من عذابِهِ.

«كان كلباً شجاعاً»، قالَ رالف ووضعَ يده على كتفِ ويليامِ مواسياً.

«كان كالأسدِ»، قال ويليام.

وفي تلكَ اللحظة قررَ رالف أن يتحدَّث عن مستقبلِهِ فقد لا تتكرر فرصةٌ جيدةٌ كهذه مجدداً. كان مرافقاً لرولاند منذُ سبعِ سنينٍ وخلالها قد أثبتَ نفسهُ شخصاً شجاعاً وقوياً وأنقذَ حياةَ سيدهِ بعدَ انهيارِ الجسرِ ومع ذلكَ لم يحصل على أيِّ ترقيةٍ بل لا يزالُ مجرَّد مرافقٍ. ما الذي يمكن أن يقدمه أكثر من هذا لسيده؟

كان رالف البارحة قد التقى صدفةً بشقيقهِ في حانةٍ على الطريقِ بين كينغزبريدج وشايرنغ. حملَ ميرثن الذي كان في طريقِهِ إلى مقلعِ حجارةِ الدير

الكثيرَ من الأخبارِ فهو سيبني أجملَ جسرٍ في إنكلترا وسيُصبح غنياً ومشهوراً. كان والداهما متحمسين جداً حيالَ الأمرِ وأصابَ هذا رالف باليأسِ.

وعندما كانَ يتحدثُ مع اللورد ويليام لم يكن بوسعهِ التفكير بطريقةٍ محكمةٍ لفتحِ الموضوع الذي يشغَلُ بالَهُ ولهذا دخلَ فيهِ من دونِ مقدماتٍ.

«لقد مرَّت ثلاثة أشهرٍ مُذ أنقذتُ حياةَ والدكَ في كينغزبريدج»، قال رالف.

«يدَّعي الكثيرُ من الناسِ أنَّهم حظوا بهذا الشرفِ»، قال ويليام وعلت وجهه نظرةٌ قاسيةٌ ذكَّرت رالف جداً بنظرةِ رولاند.

«لقد سحبتُهُ من النهرِ»، تابع رالف.

«وقامَ الحلاق ماثيو بتطبيبِ رأسِهِ والراهبات غيَّرن ضماداتِهِ وصلَّى الرهبان من أجلِهِ، ولكن الرَّبّ من أنقذَه».

«آمين»، قال رالف ثمَّ تابع: «ولكنني كنتُ آملُ أن يكونَ لي فضلٌ في هذا».

«والدي رجلٌ يصعبُ إرضاؤه».

كان ريتشارد شقيقُ ويليام بوجههِ المُحمر والمتعرقِ قريباً منهما ولذلكَ سمعَ كلامهما. «هذا كلامٌ صحيحٌ صحّةَ ما جاءَ في الإنجيلِ»، قال ريتشارد.

«لا تبدأ بالشكوى»، قال ويليام. «إنَّ قساوةَ والدنا السببُ في أننا أقوياء».

«ولكنها وعلى حدِّ علمي جعلتنا بؤساء».

أشاحَ ويليام بنظرهِ بعيداً فربما لم يرغب بمجادلةِ أخيهِ أمامَ تابعٍ.

بعدَ أن أُودعت الجيادُ في الإسطبلِ عبرَ الرجالُ الساحةَ متجاوزين المطبخَ والثكنةَ والكنيسةَ الصغيرةَ باتجاهِ جسرٍ معلَّقٍ آخر يُفضي إلى ساحةٍ داخليةٍ صغيرةٍ وقد كانت تُشكلُ الحلقة الأعلى من الخندقِ المائي الذي لهُ شكلُ الرقم «8». هنا عاشَ الإيرل في قلعةٍ تقليديةٍ بمخازن أرضيَّة وقاعةٍ كبيرةٍ مع طابقٍ علوي صغير حيثُ غرفةُ نومِ الإيرل الخاصَّةُ. استوطنت مستعمرةٌ من الغربان الأشجارَ العاليةَ حول القلعةِ وكانت تختالُ على أسطحِ الأسوارِ كجنودٍ تنعبُ في تذمرٍ. كان رولاند في القاعةِ الكبرى وقد بدَّلَ ثيابَ الصيدِ المُعفَّرة بالترابِ وارتدى عباءةً أرجوانية. وقفَ رالف بجانبِ الإيرل عازماً على طرحِ مسألةِ ترقيتِهِ عندَ أوَّلِ فرصةٍ تتاحُ له.

كان رولاند يُجادلُ وبطيبِ خاطرٍ زوجةَ ابنهِ ويليام الليدي فيليبا التي كانت من القلائلِ الذين يستطيعون مخالفةَ الإيرل دون الخوفِ من العقابِ. كانا يتحدثان عن القلعةِ.

«لا أعتقدُ أنَّ القلعةَ قد تغيرت منذُ مئةِ عام»، قالت فيليبا.

«هذا لأنَّها حسنةُ التصميم»، قال رولّاند من الزاوية اليسرى لفمِهِ. «سيستنزفُ العدو كلَّ قوتِه لاختراقِ الساحةِ السفلية وإبانَ وصولِهِ إلى القلعةِ سينخرطُ في معركةٍ جديدةٍ ويخسر».

«هذا بالضبط ما أقصدُهُ بكلامي»، قالت فيليبا. «لقد بُنيت القلعةُ من أجلِ الدفاعِ وليس الراحةِ، ولكن متى كانت آخرُ مرَّةٍ تعرضَت فيها قلعةٌ في هذا الجزءِ من إنكلترا إلى الهجومِ؟ لا أتذكرُ حدوثَ هذا مُذ أبصرتُ النورَ».

«ولا أنا»، ابتسمَ الإيرل ولم يتحركْ سوى نصفِ وجهه. «ربما لأنَّ الدفاعات منيعة جداً».

«يُحكى أنَّ أسقفاً اعتادَ نثرَ حبات البلوطِ على الطريقِ أينما ذهبَ لحمايةِ نفسِهِ من الأسودِ»، قالت فيليبا ثمَّ تابعت: «وعندما أخبروه بأنّه لا وجود للأسود في إنكلترا قال لهم: «يبدو أنَّ ما أفعله أكثر فاعليةً مما اعتقدت»».

ضحكَ رولاند.

وأضافَت فيليبا: «تعيشُ معظمُ العائلات النبيلةِ حالياً في منازل مريحة».

لم يكن رالف يهتَّمُ بالرفاهيةِ، ولكنَّه كان مُهتماً بفيليبا. أخذَ يُحدقُ إلى قوامِها المثيرِ وهي تتحدثُ دون أن تكون واعيةً بوجودِهِ، وتخيلها مستلقيةً تحتَهُ وجسدها العاري يتلوى وهي تصرخُ من شدَّةِ اللذةِ أو الألمِ، أو كليهما معاً. لو كان فارساً لتمكنَ من الحصولِ على امرأةٍ مثلها.

«يجدرُ بكَ أن تهدمَ هذه القلعة القديمة وتبني منزلاً عصرياً»، قالت فيليبا لوالدِ زوجها. «منزلٌ بنوافذ كبيرةٍ والكثير من المدافئ. ويمكنكَ أن تجعلَ القاعةَ في الطابقِ الأرضي وغُرفَ أفرادِ العائلةِ في جهةٍ ما حتَّى نحظى بمخادعِ خاصَّةٍ لننامَ فيها عندما نزورك. ولتبنِ المطابخَ في جهةٍ أخرى حتَّى يصلَ الطعامُ إلى المائدةِ ساخناً».

وفجأةً أدركَ رالف أنَّه يستطيع أن يُقدِّمَ مداخلةً في هذه المحادثةِ: «أعرفُ الشخصَ المناسب ليقومَ بهذا التصميم».

التفتَ الجميعُ نحوه متفاجئين فما الذي يمكنُ لمرافقٍ أن يعلمهُ عن تصميمِ البيوتِ. «من يكون هذا الشخص؟» سألت فيليبا.

«أخي ميرثن».

بدت فيليبا غارقةً في التفكيرِ. «أليس هو الفتى الذي قالَ لي أن أشتري الحرير الأخضرَ لأنَّه يُناسبُ لونَ عيني؟»

«لم يكن يقصدُ الإساءةَ».

«لستُ واثقةً من قصدِهِ الحقيقي. هل هو بنَّاءٌ؟»

«إنَّه الأفضل»، أجابَ رالف بزهوٍ. «لقد صممَ عبَّارةً جديدةً في كينغزبريدج، وتوصلَ إلى طريقةٍ لإصلاحِ سقف كنيسةِ سانت مارك في الوقتِ الذي عجزَ فيه الجميعُ عن إصلاحِهِ. وها هم الآن قد كلفوهُ ببناءِ أجملِ جسرٍ في إنكلترا».

«هذا لا يُفاجئني»، قالت فيليبا.

«أيُّ جسرٍ؟»

«الجسرُ الجديدُ في كينغزبريدج. سيكون للجسرِ قناطر مدببةٌ كما في الكنائسِ، وسيكون عريضاً بما يكفي لمرور عربتين بعضهما بجانب بعض».

«لم أسمع بهذا!»، قال رولاند.

أدركَ رالف أنّ الإيرل لم يكن سعيداً بما سمعَه، وتساءلَ في نفسِهِ عن سببِ انزعاجِهِ من هذا الكلام. «يجبُ إعادةُ بناءِ الجسرِ، أليس هذا صحيحاً؟» قال رالف.

«لست واثقاً جداً من هذا!»، أجابَ رولاند. «ففي الوقتِ الراهنِ لا يُمكن لسوقين قريبين بعضهما من بعض كسوقي كينغزبريدج وشايرنغ أن يستقطبا الكثيرَ من الأعمالِ، ولكن إن اضطررنا لقبولِ وجودِ سوقِ كينغزبريدج فهذا لا يعني أن نغضَّ الطرفَ عن محاولةِ الديرِ الخسيسة لسرقةِ الزبائنِ من سوق شايرنغ». كان الأسقف ريتشارد قد دخلَ في هذه اللحظةِ وتوجهَ إليه رولاند بكلامِهِ: «لم تُخبرني عن الجسرِ الجديدِ في كينغزبريدج».

«لأنني لم أكن أعلمُ بشأنِهِ».

«يجبُ أن تكون على إطلاعٍ أكبر على مثلِ هذه الأمورِ فأنتَ الأسقفُ». احمرَّ ريتشارد خجلاً من هذا التوبيخِ. «منذ قرنين من الزمنِ وعندما اندلعت الحربُ الأهليةُ بينَ الملكِ ستيفن والإمبراطورة استقرَّ أساقفةُ كينغزبريدج في شايرنغ أو بالقربِ منها؛ والرهبان يُفضلون بقاءَ الأمورِ على هذا النحو، والأساقفة أيضاً يفضلونَ هذا الترتيبَ».

«هذا لا يبرر عدمَ متابعتك لما يجري. يجبُ أن تكون لديكَ فكرةٌ عن سيرِ الأمورِ هناكَ».

«وبما أنني لا أعلمُ ما يجري فهلَّا تكرَّمت عليَّ وأخبرتني بما تعلمه».

لم ينتبه رولاند إلى السخريةِ المُبطنةِ في كلامِ ريتشارد وأجابهُ: «سيكون

الجسرُ عريضاً بما يكفي لمرور عربتين معاً. سيُكلفنا هذا الجسرُ عملنا في سوقِ شايرنغ».

«لا يمكنني فعلُ شيءٍ حيال الموضوعِ».

«لِم لا؟ بحكمِ منصبكَ كأسقف أنتَ مسؤولٌ عن الديرِ أيضاً. يُفترضُ بالرهبانِ أن يفعلوا ما تطلبُهُ منهم».

«لا، لا يفترضُ بهم».

«قد يفعلون إن سلبنَاهم بنَّاءهم. رالف، هل يمكنكَ أن تُقنعَ شقيقكَ بالتخلي عن المشروعِ؟»

«يمكنني أن أحاول».

«اعرض عليه فرصةً أفضل. أخبرهُ أنني أريدُ بناءَ قصرٍ جديدٍ هنا في القلعةِ».

شعرَ رالف بالحماسِ لأنَّ الإيرل قد كلَّفَهُ بمهمةٍ خاصَّةٍ إلَّا أنَّه كان مرتاعاً أيضاً فهو لم ينجح قط في اقناعِ ميرثن بأيِّ شيءٍ، بل لطالما حدثَ العكس. «حسناً»، قالَ رالف.

«هل سيكونون قادرين على متابعةِ العملِ من دونهِ؟»

«لقد حصلَ على العملِ لأنَّ ما من أحدٍ في كينغزبريدج يعرفُ كيفَ يبني جسراً تحتَ الماءِ».

وانبرى ريتشارد قائلاً: «لا يمكن أن يكون الوحيدَ القادر على تصميمِ جسرٍ في جميعِ أرجاءِ إنكلترا».

فأجابه ويليام: «ولكن إن أخذنا منهم بنَّاءهم فسيُعطلهم هذا بلا شكٍ، وقد يتأخرون عن البدءِ بالعملِ لعامٍ».

«إذاً، الأمرُ يستحقُ المحاولةَ»، قال رولاند بحسمٍ، وعلَت الجزءَ السليمَ من وجهِهِ نظرةٌ تطفحُ بالحقدِ ثمَّ أضافَ: «يجبُ أن نضعَ رئيسَ الديرِ المغرورِ في مكانهِ الحقيقي».

***

أدركَ رالف أنَّ شيئاً ما قد تغيرَ في حياةِ جيرالد ومود؛ فقد ارتدت والدتُهُ ثوباً أخضر جديداً إلى الكنيسةِ، وانتعلَ والدهُ حذاءً جلدياً. وفي المنزلِ كان هناك إوزةٌ محشوةٌ بالتفاحِ تشوى على النارِ، وقد عبقَ المنزلُ برائحةٍ يسيلُ لها اللعابُ. وكان هناكَ أيضاً رغيف من خُبزِ القمحِ الباهظِ جداً على الطاولةِ.

وسرعان ما عرفَ رالف أنَّ مصدرَ المالِ من شقيقِهِ ميرثن. «إنَّه يتلقى مبلغَ أربع بنساتٍ كلَّ يومٍ من عملِهِ في كنيسةِ سانت مارك»، قالت والدتُه بفخرٍ ثمَّ أضافت: «وإضافةً إلى عملِهِ على بناءِ الجسرِ الجديدِ فهو يبني منزلاً جديداً لصانعِ الجعةِ ديك».

لم يكن ميرثن يتقاضى أجراً مرتفعاً لقاءَ عملِهِ على الجسرِ لأنَّه حصلَ على جزيرة ليبر كدفعةٍ جزئيةٍ، وقد شرحَ الأمرَ برمتِهِ بينما كان والدُهِ يقطعُ الإوزةَ. لقد نُقِلَ آخر المصابين بالجذامِ، وهو رجلٌ عجوزٌ مُقعدٌ إلى منزلٍ صغيرٍ في بستانِ الرهبان على الجانبِ البعيدِ من النهرِ.

وشعرَ رالف بسعادةِ والدتِه الواضحةِ تتركُ مرارةً في قرارةِ نفسِهِ. لطالما آمن، مذ كان طفلاً صغيراً، أنَّ مصيرَ العائلةِ بين يديهِ، وقد أُبعد عن والديه في عُمرِ الرابعة عشرة لينضمَّ إلى حاشيةِ إيرل شايرنغ، وكان يعلمُ آنذاك أنَّه المسؤولُ عن تخليصِ والدِهِ من عارِهِ بأن يصبحَ فارساً، أو ربما باروناً، أو حتَّى إيرلاً. وعلى العكسِ منه غدا ميرثن مُتدرباً تحتَ يدي نجارٍ، وانطلقَ في طريقٍ من شأنِهِ أن ينتهي بِهِ إلى دركٍ اجتماعي أكثر انحطاطاً؛ فلا يمكن للبنَّائين أن يصبحوا فرساناً.

ووجدَ رالف بعضَ العزاءِ في عدم انبهارِ والدِهِ بنجاحِ ميرثن، وكانت تظهرُ على وجهِهِ أماراتُ الضيقِ كلَّما تحدَّثت مود عن مشاريعِ البناءِ. «لا بدَّ أنَّ أكبرَ أبنائي قد ورثَ دماءَ البنَّاءِ جاك، السلفُ الوحيد الوضيعُ الشأنِ»، قال والدُهُ بلهجةٍ بدا فيها أقربَ للدهشةِ منهِ للفخر. «ولكن أخبرنا يا رالف عن أمورِكَ في بلاطِ الإيرل رولاند».

لسوءِ حظِ رالف فقد فشلَ فشلاً يصعبُ فهمُه في تحقيقِ ارتقاءٍ على سلمِ النبالةِ في الوقتِ الذي كان فيه ميرثن يشتري ثياباً جديدةً ووجباتِ عشاءٍ باذخةً لوالديه. يعلمُ رالف أنَّ عليهِ أن يكون ممتناً لأنَّ أحدهما حققَ النجاحَ، ولأنَّ والديهِ، على الرغمِ من بساطةِ عيشهما، مرتاحان. ورغمَ أنَّه كان يفكرُ بضرورةِ أن يفرحَ لهذا فإنَّ الاستياءَ أكلَ قلبهُ.

وليس عليه الآن سوى إقناعِ شقيقِهِ بالتخلي عن بناءِ الجسرِ. إنَّ المشكلةَ الحقيقيةَ مع ميرثن هي أنَّه يعجزُ عن تبسيطِ الأمورِ. لم يكن يشبهُ الفرسان والمرافقين الذين قضى معهم رالف السنواتِ السبع الأخيرة. لقد كانوا محاربين، ففي عالمِهم الولاءاتُ واضحةٌ والشجاعةُ فضيلةٌ والأمورُ مسألةُ

حياةٍ أو موتٍ؛ لم يكونوا بحاجةٍ إلى إعمالِ العقلِ كثيراً، ولكن ميرثن يفكرُ بكلِّ شيءٍ، وحتَّى عندما يلعبُ الداما يُطالبُ بتغييرِ القوانين.

كان يشرحُ لوالديهِ سببَ قبولهِ بتلك الجزيرةِ القاحلةِ التي لا تتجاوزُ مساحتُها أربعةَ فدادين كجزءٍ من لقاءِ أتعابهِ مقابلَ العملِ على الجسرِ. «يعتقدُ الجميعُ أنَّ الأرضَ لا قيمةَ لها لأنَّها جزيرة»، قال ميرثن. «ولكن ما لا يدركونَهُ هو أنَّه وبعدَ بناءِ الجسرِ ستُصبحُ الجزيرة جزءاً من المدينةِ، وسيعبرُ سكانُ البلدةِ الجسر كأنَّهم يعبرونَ شارعاً رئيسياً. وعندها ستكون لهذهِ الأربعةِ فدادين من أرضِ المدينة قيمةٌ. وإن بنيتُ منازلَ عليها ستحققُ إيجاراتُها ثروةً».

«ولكن هذا لن يحدث قبلَ بضعِ سنواتٍ»، قال جيرالد.

«بدأت أحصلُ على بعضِ العوائدِ منها. لقد استأجرَ جيك تشيبستو نصفَ فدانٍ ليستخدمها كساحةٍ لوضعِ الأخشابِ لأنَهُ يجلبُ الخشبَ من ويلز».

«ولمَ يُحضرهُ من ويلز؟» سألَ جيرالد. «إن غابةَ نيوفوريست أقربُ وأخشابَها أرخصُ».

«من المفترض أنَّها كذلك، ولكن إيرل شافتسبيري يأخذُ تعرفةً أو ضريبةً على عبورِ النهرِ واستخدامِ الجسرِ في منطقته».

وبدأوا يأكلون ثمّ قالَ رالف لميرثن: «أحضرتُ لكَ فرصةَ عملٍ أخرى. يريدُ الإيرلُ بناءَ قصرٍ جديدٍ في قلعتهِ».

وبدا ميرثن مُرتاباً حيالَ هذا العرضِ: «هل أرسلكَ لتطلبَ مني أن أُصممَ القصرَ؟»

«أنا من اقترحكَ لهُ. كانت الليدي فيليبا تعاتِبُه لأنَّ قلعتَهُ قديمةُ الطرازِ، وأنا قلتُ إنني أعرفُ الشخصَ المناسبَ لبناءِ القصرِ».

بدت مود متحمسةً: «أليسَ هذا خبراً رائعاً؟»

ولكن ميرثن بقي مرتاباً حيالَ العرضِ. «والإيرلُ قالَ إنّه يريدني أنا؟»

«أجل».

«هذا مذهلٌ. منذُ بضعة أشهرٍ لم أكن قادراً على إيجادِ عملٍ وها أنا الآن أملكُ ما يفوقُ طاقتي. تبعدُ قلعة الإيرل عن هنا مسيرَ يومين، ولذلكَ لا أعتقدُ بأنني أستطيعُ بناءَ القصرِ هناك والجسرَ هنا في الوقتِ عينِهِ».

«أوه ولكن عليكَ التخلي عن بناءِ الجسرِ»، قالَ رالف.

«ماذا؟»

«من المفترضِ أن تكونَ الأولويةُ هي لعملكِ لمصلحة الإيرل قبلَ أيِّ شيءٍ آخر».

«لستُ واثقاً من أنَّ هذا ما يجبُ فعلُهُ».

«فلتسمع كلامي».

«هل هذا ما قالهُ الإيرلُ؟»

«في حقيقةِ الأمر لقد قالَ هذا».

وانضمَ والدهما إلى الحديثِ. «إنَّها فرصةٌ رائعةٌ جداً يا ميرثن. ستبني قصراً لإيرلٍ!»

«بالطبعِ أنَّها فرصةٌ رائعةٌ»، أجاب ميرثن. «ولكنّ بناء جسرٍ للبلدةِ لا يقلُّ قيمةً عن هذا».

«لا تكن غبياً»، قالَ والدهُ.

«أبذلُ قصارى جهدِي كي لا أكون كذلكَ»، قال ميرثن ساخراً.

«إنَّ إيرلَ شايرنغ من عظماءِ رجالِ هذا البلدِ ولا يضاهيهِ في هذا رئيس ديرِ كينغزبريدج».

اقتطعَ رالف قطعةً من فخذِ الإوزةِ ووضعها في فمهِ إلَّا أنَّه وجدَ صعوبةً في ابتلاعِها. كان يتوجسُ من عنادِ ميرثن؛ فهو لن يأخذَ الأوامرَ من والدِهما أيضاً. لم يكن شخصاً مطيعاً في يومٍ من الأيامِ، وحتَّى عندما كانَ طفلاً.

شعرَ رالف باليأسِ يجتاحُهُ وقال لميرثن: «أصغِ إلي. لا يريدُ الإيرلُ لهذا الجسرِ الجديدِ أن يُبنى. فهو يعتقدُ أنَّهُ سيؤثرُ على سيرِ الأعمالِ في شايرنغ.»

«آها»، قال جيرالد. «لا يُمكنكَ أن تقفَ في وجهِ رغبةِ الإيرلِ يا ميرثن».

«إذاً، هذا هو السببُ الحقيقي يا رالف؟» سألَ ميرثن. «هل يعرضُ رولاند العملَ علي حتَّى يمنعني من بناءِ الجسرِ؟»

«ليسَ لهذا السببِ فقط».

«ولكن هذا شرطُهُ: إن أردتُ بناءَ قصرٍ له عليَّ أن أتخلى عن بناءِ الجسرِ».

وهنا قالَ جيرالد في نفاد صبرٍ: «أنتَ لا تملكُ خياراً يا ميرثن! الإيرلُ لا يطلبُ بل يأمرُ».

ورغبَ رالف بإخبارِ والدِهِ في هذه اللحظةِ بأنَّ استخدام حجةِ السُلطةِ لاقناعِ ميرثن لا تُجدي نفعاً.

وقال ميرثن: «لا أعتقدُ أنَّهُ يملكُ سُلطةَ إلقاءِ أوامر على رئيسِ ديرِ كينغزبريدج الذي كلَّفني بمهمةِ بناءِ الجسرِ».

«ولكنَّهُ يستطيعُ أن يلقي الأوامرَ عليكَ».

«هل هذا صحيح؟ ولكنَّهُ ليسَ سيدي».

«لا تكن غبياً يا بني. لا يمكنكَ أن تربحَ في معركةٍ مع إيرلٍ».

«لا أعتقدُ أنَّ مشكلةَ رولاند معي يا أبي بل مع الديرِ. وهو يريدُ استخدامي كما يستخدمُ الصيادُ كلباً، ولذلكَ أعتقدُ أنَّهُ من الأفضلِ لي أن أبقى بعيداً».

«أعتقدُ أنَّه يتوجب عليكَ فعلُ ما يطلبُه الإيرل. لا تنسَ أنَّهُ قريبكَ أيضاً».

وهنا حاولَ ميرثن أن يستخدمَ حُجةً مختلفةً: «ألم يخطر لكَ أنني إن فعلتُ هذا فسأكون قد خُنتُ رئيسَ الديرِ غودوين؟»

نمَّ عن جيرالد صوتٌ يشي بالتقزز وقالَ: «ما هو الولاءُ الذي ندين للديرِ بهِ؟ إنَّ الرهبان من أجبرونا على العيشِ في فاقةٍ».

«وجيرانكَ؟ سكان كينغزبريدج الذين عشتَ معهم لعشرِ سنينٍ؟ إنَّهم بحاجةٍ إلى الجسرِ فهو عصبُ حياتهم».

«نحنُ من النبلاءِ»، قال والده. «ولسنا مطالبين بأخذ احتياجاتِ التجارِ بعينِ الاعتبارِ».

أومأ ميرثن برأسهِ وقال: «ربما هذا ما تشعرُ بهِ، ولكن بما أنني مجرَّد بنَّاءٍ فأنا لا أشاركك رأيكَ».

«الأمرُ أكبرُ منكَ»، انفجرَ رالف قائلاً وقد أدركَ أنّ عليه توضيحَ نفسهِ. «لقد كلفني الإيرل بمهمةٍ. إن نجحتُ فيها فقد يجعلني فارساً أو سيداً صغيراً، وإن فشلت فقد أبقى مرافقاً إلى الأبدِ».

وهنا قالت مود: «من المهمِ جداً أن نحاولَ إرضاءَ الإيرلِ».

بدا ميرثن مضطرباً. لطالما واجهَ والدهَ ولكنه لم يحب قط مجادلةَ والدتهِ. «لقد وافقتُ على بناءِ الجسرِ لذلكَ فالبلدةُ تعتمدُ علي. لا يمكنني أن أتخلى عنهم».

«بالطبع تستطيعُ».

«لا أريدُ أن أحصلَ على سمعةِ الشخصِ الذي لا يعتمدُ عليه».

«سيتفهمُ الجميعُ موقفكَ إن أعطيتَ أولويتكَ للإيرلِ».

«قد يتفهمون ولكنهم لن يحترموني على موقفي».

«يجبُ أن يكون ولاؤك الأول لعائلتكَ».

«لقد حاربتُ من أجلِ هذا الجسرِ يا أمي»، قال ميرثن بعنادٍ. «ووضعتُ تصميماً جميلاً وأقنعتُ سكانَ المدينةِ بأن يثقوا بي. لا يمكن لأحدٍ آخر أن يبني الجسر... ليسَ بالطريقةِ الذي ينبغي بناؤه فيها».

«إن تحديتَ الإيرل فسيؤثرُ هذا على حياةِ رالف!»، قالت والدته. «لمَ لا تفهمُ هذا؟»

«لا تجبُ أن تعتمد حياتهُ بأكملِها على أمرٍ كهذا».

«ولكنّها كذلك. هل ترغبُ بالتضحيةِ بأخيكَ من أجلِ جسرٍ؟»

قالَ ميرثن: «أعتقدُ أن الأمرَ أشبه بأن أطلبَ منه عدمَ الذهابِ إلى الحربِ لإنقاذ حياة رجالٍ».

قال جيرالد: «باللهِ عليكَ لا تقارن البنّاءَ بالجندي».

رأى رالف أن ما قالهُ والدهُ لم يكن لائقاً لأنّ هذا يعني أنّه يُفضلُ ابنه الأصغر. وانتبه رالف إلى أن ميرثن شعرَ بالألم مما قالهُ والدُهُ، وقد احمرَّ وجهُه من الغضبِ وعضَّ على شفتِهِ لمنعِ نفسِهِ من الإتيانِ بأيِّ عبارةٍ هجوميةٍ.

وأخيراً وبعدَ فترةِ صمتٍ وجيزةٍ تحدَّثَ ميرثن بصوتٍ هادئٍ وعلمَ رالف أنَّ ميرثن قد اتخذَ قراراً لا رجعةَ فيهِ. «أنا لم أخترِ مهنة البنَّاء»، قال ميرثن. «لقد أردتُ أن أصبحَ فارساً كرالف. وأعلمُ الآن أنّه كانَ طموحاً غبياً، ولكن أنتَ من اختارَ مهنتي، أنتَ من اتخذَ قراراً وأصبحت ما عليهِ الآن. وتبينَ لاحقاً أنني بنَّاءٌ ماهرٌ، وسأنجحُ في العملِ الذي أجبرتني عليهِ. أرغبُ في يومٍ من الأيامِ أن أبني أعلى منزلٍ في إنكلترا. هذا ما صيَّرتني إليهِ... ولذلكَ من الأفضلِ أن تعتادَ عليهِ».

***

أخذَ رالف يُعملُ عقلَهُ في طريقةٍ لتحويلِ الهزيمةِ إلى نصرٍ قبلَ عودتِهِ إلى قلعةِ الإيرل حاملاً معهُ الأخبارَ السيئةِ. إن لم ينجح بإقناعِ شقيقهِ في التخلي عن بناءِ الجسرِ فلا بدَّ أنَّ هناك طريقةً ما لإلغاءِ أو تعطيلِ المشروعِ.

كان رالف واثقاً من أنّ التحدثَ مع رئيسِ الدير غودوين أو إدموند وولر لن يكون مفيداً لأنَّهما أكثر التزاماً ببناء الجسرِ من ميرثن، علاوةً على هذا، فهما لن يأخذا بكلامِ مرافقٍ للإيرل. وتساءل عمَّا قد يفعلُه الإيرل. قد يُرسلُ جيشاً من الفرسانِ لقتلِ عُمالِ البناءِ، ولكن هذا سيوقعُه في متاعب أكبر.

ولكنّ هناك أمراً ذكرهُ ميرثن أعطاهُ فكرةً عمّا يمكنه فعلُه. كان ميرثن قد قالَ إنّ تاجرَ الخشبِ جيك تشيبستو الذي يستخدمُ جزيرةَ لير كساحةٍ لتخزينِ الخشبِ، يشتري الأشجارَ من ويلز ليتجنبَ دفعَ أيّ ضرائب لإيرلِ شافتسبيري.

«يرى شقيقي أنَّ عليه الخضوعَ لسلطةِ الديرِ في كينغزبريدج»، قالَ رالف للإيرل رولاند عندَ عودتِهِ. وعاجلَ الإيرلَ قبل أن يتسنى الوقتُ لغضبِهِ ليشتعلَ بالقولِ: «ولكن قد تكون هناكَ طريقةٌ أفضل لتعطيلِ بناءِ الجسرِ. يقعُ مقلعُ حجارةِ الديرِ في قلبِ أراضيك بينَ شايرنغ وقلعتك».

«ولكنَّهُ ملكٌ للرهبانِ»، دمدمَ رولاند. «لقد منحَهم إياه الملكُ منذُ قرونٍ، ولا يمكننا منعُهم من أخذِ الحجارةِ».

«ولكن يمكنكَ أن تفرضَ ضريبةً عليهم»، قالَ رالف وقد انتابَهُ شعورٌ بالذنبِ لأنَّه بهذا يُدمرُ مشروعاً عزيزاً على قلبِ شقيقِهِ، ولكن كان عليهِ القيامُ بهذا ولهذا قمعَ صوتَ ضميرِهِ وتابعَ: «سيقومون بنقلِ الحجارةِ عبر أراضيكَ، وستُبلي عرباتهم طرقاتكَ وتُعكر صفوَ نهركَ لذلك عليهم أن يدفعوا.»

«سينبحون كالكلابِ ويشتكون إلى الملكِ».

«لا تعبأ بأمرهم»، قال رالف بثقةٍ كبيرةٍ لا يشعرُ بها حقاً. «سيأخذُ منهم الأمرُ وقتاً ولم يبقَ من موسمِ البناءِ لهذا العام سوى شهرين لأنَّ عليهم وقفَ جميع عملياتِ البناءِ قبلَ أوّلِ موجةِ صقيعٍ. وبمساعدةٍ من الحظِّ قد تتمكنُ من تأخيرِ انطلاقةِ العملِ على الجسرِ حتّى العام القادم».

ألقى رولاند على رالف نظرةً فاحصةً وقال: «ربما قللتُ من شأنكِ يا فتى، وقد تكونُ أكثرَ نفعاً وأكثر من مجرد مُنقذٍ لإيرلٍ يغرقُ في النهرِ».

كبحَ رالف ابتسامةَ نصرٍ كادَت تعلو وجهه وقال: «شكراً لكَ يا سيدي».

«ولكن كيفَ سنفرضُ هذه الضريبة؟ فهناك مفارقُ طرقٍ وأمكنةٌ أخرى لعبورِ النهرِ، مكانٌ آخر يمكن فيهِ لكلِّ عربةٍ أن تعبرهُ».

«وبما أنَّ اهتمامنا هو قطع الحجارةِ يمكننا، وبكلِّ بساطةٍ، أن نضعَ مجموعةً من الرجالِ خارجَ المقلعِ».

«ممتاز»، قالَ الإيرل. «ويمكنكَ أن تقودهم».

بعدَ يومين توجهَ رالف إلى مقلعِ الحجارةِ مع أربعةِ جنودٍ يحملونَ خياماً وطعاماً كافياً لأسبوعٍ. كانَ رالف راضياً عن نفسهِ حتى الآن، فهو لم ينجح في

أداءِ مهمةٍ صعبةٍ بل قلبَ الطاولةَ. فها هو الإيرل يعتقدُ أنَّه أكثر من مجرد مرافقٍ يقومُ بأعمال إنقاذٍ، وبدت الأمورُ واعدةً.

إلَّا أنَّهُ لم يكن راضياً عمَّا يقومُ بهِ بحقِّ شقيقِهِ ميرثن، وكان يقضي معظمَ الليلِ صاحياً وهو يستعيدُ ذكرياتِ طفولتهما معاً. لطالما شعرَ رالف بالاحترامِ نحو شقيقِهِ الذكي. كانا يتشاجران في بعضِ الأحيان، وعندما يفوزُ عليهِ ينتابه شعورٌ سيئ حيالَ الأمرِ وأكثر سوءاً مما كان يشعرُ بهِ إن خسرَ. في تلكَ الأيامِ كانا يتصالحان على الدوامِ، ولكن شجاراتِ البالغين لا يُمكن أن تُنسى بسهولةٍ.

لم يكن قلقاً حيالَ المواجهةِ المرتقبةِ مع عُمالِ مقلعِ حجارةِ المقلع؛ فالأمرُ لن يُشكلَ تحدياً على مجموعةٍ من الجنودِ. لم يرافقْهُ أيٌّ من الفرسان فهم أعلى مقاماً من قيامهم بمثلِ هذا العملِ، ولكن كان برفقتِهِ جوزيف وورودستوك وهو معروفٌ بأنَّهُ رجلٌ قوي وثلاثةُ رجالٍ. سيكون رالف سعيداً عندما ينتهي الأمرُ برمتِهِ ويحققُ هدفهُ.

كان الوقتُ قد تجاوزَ الفجرَ ولذلك خيَّموا الليلةَ السابقةَ في الغابةِ على بعدِ عدَّةِ أميالٍ من مقلعِ الحجارةِ. كان رالف قد خططَ للوصولِ إلى المقلعِ في الوقتِ المناسبِ لإيقافِ أول عربةٍ تحاولُ المغادرة صباحاً.

وقفَت الجيادُ بكلِّ هدوءٍ على طولِ الطريقِ الذي لوثتهُ حوافرُ الثيرانِ بالطينِ ورسمت عجلاتُ العرباتِ المُثقلةِ بأحمالِها أخاديد عليهِ، وظهرَت الشمسُ في سماءٍ مُلبدةٍ بغيومٍ مطريةٍ تظهرُ من بينها بقعٌ سماويةٌ. كانت المجموعةُ التي برفقةِ رالف في مزاجٍ طيبٍ وتتطلّع قُدماً إلى ممارسةِ سلطتِها على رجالٍ عُزَّلٍ دون أن يكونَ هناك خطرٌ حقيقي عليها.

اشتَمَ رالف رائحةَ خشبٍ يحترقُ ورأى أدخنةَ عدةِ نيرانٍ تتصاعدُ فوقَ الأشجارِ. وبعد برهةٍ أخذَ الطريقُ بالاتساعِ لينفتحَ أخيراً على فُسحةٍ موحلةٍ وخاليةٍ من الأشجارِ أمامَ فجوةٍ كبيرةٍ لم يكن رالف قد رآها قبلاً. كانت الفجوةُ بعرضِ مئةِ ياردة وتمتدُ لما لا يقلُّ عن ربعِ ميلٍ. قادَهم الطريقُ الموحلُ إلى خيامٍ وأكواخٍ خشبيةٍ عاشَ فيها عُمالُ المقلعِ الذين تحلَّقوا حول النيرانِ يُعدون الفطورَ، رغم أنَّ بعضَهم قد بدأ العملَ في أقصى زاويةٍ من المكانِ، وكان بوسعِ رالف سماعُ ضرباتِ مطارقِهم الرتيبةِ على شقوقِ الصخورِ فتنفصلُ بلاطاتٌ كبيرةٌ عن كتلةِ الحجرِ العملاقةِ.

يبعدُ المقلعُ عن كينغزبريدج مسيرَ يومٍ، ولهذا كانت العرباتُ تصلُ مساءً

وتغادرُ في صباحِ اليومِ التالي. رأى رالف العديدَ من العرباتِ الموزعةِ في أرجاءِ المقلعِ، وبعضها قد تمَّ تحميليه بالحجارةِ بينما انطلقت عرباتٌ أخرى ببطءٍ على طولِ الطريقِ بينَ أماكن الحفرِ والمخرجِ الذي كان طريقاً منحدراً.

رفعَ عُمالُ المقلعِ أنظارهم عندما سمعوا صوتَ الجيادِ، ولكن ما من أحدٍ منهم اقترب. لم يكن العمالُ على عجلةٍ من أمرِهم لمحادثةِ الجنودِ. انتظرَ رالف بكلِّ صبر ثمَّ تبينَ له أنَّ الطريق المنحدر الذي يقفُ عليهِ طريقُ الخروجِ الوحيد من المقلعِ.

تهادَت العربةُ الأولى ببطءٍ صاعدةً المنحدرَ بينما السائقُ يحثُّ الثورَ على المضي قدماً بسوطٍ طويلٍ والحيوانُ يتقدَّمُ الخطوةَ تلوَ الأخرى بامتعاضٍ صامتٍ، وعلى العربةِ أربعُ حجارةٍ خام هائلةٍ، وعلى كل واحدةٍ منها علامةٌ حفرَها الرجلُ الذي اقتلعها. كان يتمُّ احتسابُ ما يقتلعُهُ كلُّ رجلٍ مرتين، مرةً في المقلعِ ومرّةً أخرى في موقعِ البناءِ، ويتلقى أجراً على كلِّ حجرٍ.

وعندما أخذَت العربةُ تقتربُ رأى رالف أنَّ سائقَها رجلٌ من كينغزبريدج ولم يكن سوى بين ويلر نفسه. بدا بين بعُنقهِ الغليظِ وكتفيهِ الهائلتين أشبهَ بثورٍ، وعلى وجهِهِ ارتسمَ تعبيرٌ ينمُّ عن عدائيةٍ دائمةٍ، وفكَّرَ رالف بأنَّهُ قد يثيرُ المتاعبَ إلَّا أنَّه قد لا يفعل.

قادَ بين العربةَ على الطريقِ الذي سدتهُ الجيادُ، ولكن بدلاً من التوقفِ قبلَ مسافةٍ من الجيادِ تركَ ثورَهُ يقتربُ أكثر فأكثر. لم تكن الجيادُ جيادَ حربٍ مُدرّبةً على المواجهةِ بل على المناوراتِ اليوميةِ، وأخذت تنخرُ بتوترٍ وتتراجعُ إلى الوراءِ، وتوقفَ الثورُ بدورهِ أيضاً.

أثارَ سلوكُ بين غضبَ رالف الذي صرخَ: «يا لكَ من مغفل».

قال بين: «لماذا تقفُ في طريقِي؟»

«لتحصيلِ الضريبةِ».

«ليسَ هناكَ أيّ ضريبةٍ».

«يجبُ أن تدفعَ بنساً عن كلِّ عربةٍ تمرُّ بممتلكاتِ إيرل شايرنغ».

«ليسَ لدي نقودٌ».

«إذاً عليك أن تحضرها».

«وهل ستمنعني من المضي في طريقي؟»

لم يكن الرجلُ الأحمقُ خائفاً كما يجب عليهِ أن يكون، وهذا أثار غضبَ

رالف بشدَّةٍ. «لا تفكر بأنَّكَ تستطيعُ استجوابي»، قال رالف. «ستبقى الأحجار هنا إلى أن يدفعَ أحدٌ ضريبةَ مرورها».

حدَّقَ بين إلى رالف لوهلةٍ، وتكهن رالف بأنَّ الرجلَ يفكرُ بإسقاطهِ عن جوادِهِ ثمَّ قالَ أخيراً: «ولكنني لا أملكُ نقوداً».

أرادَ رالف أن يطعنهُ بسيفهِ ولكنَّهُ تمالك أعصابه وقالَ باحتقارٍ: «لا تتظاهر بأنَّكَ أغبى مما أنتَ عليهِ. فلتذهب إلى رئيسِ المقلعِ ولتخبرهُ بأنَّ رجالَ الإيرلِ لن يغادروا».

حدَّقَ بين نحو رالف لوهلةٍ أطول وهو يفكرُ بالأمرِ ملياً ومن ثمَّ، ومن دونِ أن يتفوهَ بكلمةٍ، استدارَ وعادَ هابطاً المنحدرَ دونَ عربتِهِ.

انتظرَ رالف وهو يغلي غضباً ويحدقُ إلى الثورِ.

دخلَ بين إلى كوخٍ خشبي وسطِ المقلعِ، وبعدَ عِدَّة دقائق ظهرَ وبصحبتِهِ رجلٌ نحيلٌ في عباءةٍ بنيةٍ. في البدايةِ افترضَ رالف أنَّ الرجلَ الآخر رئيسُ المقلعِ، ولكن شكلَهُ بدا مألوفاً عندما اقتربَ الرجلان وميَّزَ رالف شقيقهُ ميرثن.

«أوه، لا»، قال رالف بصوتٍ عالٍ.

لم يكن قد جهزَ نفسَهُ لهذا، وبدأ يعذبُهُ الشعورُ بالخجلِ من نفسهِ بينما كان ميرثن يستهلُّ طريقهُ صعوداً على المنحدرِ الطويلِ. كان يعلمُ أنّ وجودَهُ هنا خيانةٌ لشقيقهِ، ولكنه لم يتوقع أن يرى ميرثن هنا.

«مرحباً يا رالف»، قال ميرثن وهو يقترب منهم ثمَّ تابع: «يقولُ بين إنَّك لم تسمح لهُ بالمرورِ».

وتذكرَ رالف في يأسٍ قدرةَ ميرثن على التفوقِ عليهِ في أيِّ جدال، ولذلكَ قررَ أن يتصرفَ بشكلٍ رسمي، فسيسمحُ له هذا بإخفاءِ مشاعرِهِ، ولا يمكنهُ أن يقعَ في المتاعبِ إن أعادَ توجيهاتِ الإيرل. «لقد قررَ الإيرل أن يمارسَ حقَّهُ في جمعِ ضرائب على حمولاتِ الحجارةِ التي تعبرُ طرقَ ملكيتهِ»، قال رالف في حزمٍ.

تجاهلَ ميرثن ما قالهُ رالف وسأله: «ألن تنزلَ عن حصانِك لتتحدثَ إلى أخيكَ؟»

كان رالف يفضلُ البقاءَ على صهوةِ جوادِهِ ولكنه لم يُرد رفضَ هذا التحدي على ما يبدو، ولهذا ترجَّلَ عن جوادِهِ وعندها شعرَ كأنَّ حالتَهُ قد تحسنت.

«لا يوجدُ ضريبةٌ على الحجارةِ من هذا المقلعِ»، قال ميرثن.

«وها هي فُرضت الآن».

«يعملُ الرهبانُ في هذا المقلع منذ مئات الأعوامِ، وكاتدرائية كينغزبريدج مبنية من هذهِ الحجارةِ وهي لم تخضع قط لأيّ ضريبةٍ».

«ربما لم يُطالب الإيرلُ بالضريبةِ لأنَّ الحجارةَ كانت للكنيسةِ».

«إنَّهُ لا يريدُ لأهلِ البلدةِ أن يحظوا بجسرٍ جديدٍ. هذا هو السببُ الحقيقي. أرسلكَ أولاً لرشوتي، وعندما فشلَ اخترعَ هذهِ الضريبة الجديدة». نظرَ ميرثن إلى رالف بتمعنٍ. «ألم تكن هذهِ فكرتكَ؟»

وشعرَ رالف بالحرجِ متسائلاً في نفسهِ كيفَ لميرثن أن يحزر. «لا!» قال رالف ولكنه شعرَ بنفسهِ يحمرُّ خجلاً.

«أرى من وجهكَ أنَّ كلامي صحيح. أنا واثقٌ من أنني أوحيتُ لكَ بالفكرةِ عندما تحدثتُ عن جيك تشيبستو وكيفَ أنّهُ يستوردُ الأخشابَ من ويلز ليتجنبَ دفعَ الضرائبِ لإيرل شافتسبيري».

ومع مرورِ كلِّ دقيقةٍ من هذا الحديثِ تعاظمَ شعورُ رالف بالغباءِ والغضبِ. «لا علاقةَ لي بالأمرِ»، قال رالف بعنادٍ.

«لقد وبختني لأنني اخترتُ الجسرَ بدلاً من أخي، وها أنتَ سعيدٌ بتحطيمِ آمالي من أجلِ إرضاءِ سيدكَ الإيرل».

«لا يهمُ من هو صاحبُ الفكرةِ، فلقد قرر الإيرلُ المطالبةَ بضريبةٍ على مرورِ الحجارةِ».

«ولكنهُ لا يملكُ الحقَّ».

كان بين ويلر الذي وقفَ بجانبِ ميرثن يتابعُ الحديثَ بانتباهٍ وقد باعدَ بين قدميهِ ووضعَ يديهِ على خصرهِ. انضمَ بين إلى الحديثِ في هذه اللحظةِ قائلاً: «هل تعني بكلامكَ أنَّ هؤلاء الرجال لا يملكونَ الحقَ بإيقافي؟»

«هذا بالضبطِ ما أعنيه»، قال ميرثن.

أرادَ رالف أن يقول لميرثن أنَّ معاملةَ رجلٍ مثل بين على أنّهُ رجلٌ ذكي غلطةٌ. أخذَ بين بكلامِ ميرثن معتبراً إياهُ إذناً بمتابعةِ طريقهِ، وانهالَ بسوطهِ على كتفي الثور. حرَّكَ الحيوانُ رأسهُ المطوق بسيرٍ خشبي وبدأ يخطو.

صرخَ رالف بغضبٍ: «توقف!»

هالَ بين بسوطهِ مجدداً على الثورِ وصرخَ: «هيا!»

أخذَ الثورُ يسحبُ بقوةٍ واندفعت العربةُ إلى الأمامِ بقوةٍ جفلت معها الجيادُ. صهلَ جوادُ جوزيف ودستوك ووقفَ على قوائمهِ الخلفيةِ في ضيقٍ.

أمسكَ جوزيف باللجامِ وسيطرَ على الحصانِ مجدداً، ومن ثمَّ أخرجَ من سرجهِ مضرباً خشبياً طويلاً. «فلتبقَ في مكانكَ كما أقول لكَ»، قال جوزيف لبين وحثَّ حصانهُ على التقدمِ ثمَّ انهالَ بمضربهِ.

تفادى بين الضربةَ وأمسكَ بالمضربِ ثمَّ سحبهُ من يدِ جوزيف.

وعندما انحنى جوزيف إلى الأمامِ فوقَ سرجهِ حتّى يتمكنَ من توجيهِ الضربةِ فقدَ توازنه بفعلِ هذهِ الحركةِ المفاجئةِ من قبلِ بين وسقطَ عن الحصانِ.

صرخَ ميرثن: «أوه، لا!»

وعلمَ رالف أنَّ ميرثن تضايقَ مما حدثَ لأنَّ إسقاطَ جندي عن مطيتهِ يُعتبرُ أمراً مهيناً. لم يعد تجنب العنفِ الآن ممكناً، ولكن رالف لم يأسف على هذا. لقد فشلَ شقيقهُ في معاملةِ رجالِ الإيرلِ بذلكَ الاحترامِ الذي يستحقونهُ، وسيكونُ للأمرِ عواقب الآن.

أمسكَ بين بمضربِ جوزيف بكلتا يديه فقفزَ جوزيف واقفاً على قدميهِ، وعندما رأى بين يلوحُ بمضربهِ استلَّ خنجرهُ إلّا أنَّ بين كان أسرعَ منهُ، وأدركَ رالف أنَّ سائقَ العربة قد حاربَ في وقتٍ ما. لوحَ بين بالمضربِ وانهالَ في ضربةٍ قويةٍ على رأسِ جوزيف الذي خرَّ على الأرضِ من دونِ حراكٍ.

زأرَ رالف في غضبٍ ثمَّ سحبَ سيفهُ واندفعَ نحو سائقِ العربةِ.

صرخَ ميرثن: «لا!!!»

طعنَ رالف بين في صدرهِ ودفعَ بالسيفِ بينَ ضلوعهِ بكل ما أوتي من قوةٍ. اخترقَ السيفُ جسدَ بين ليخرجَ من الجهةِ الأخرى ثمَّ سقط إلى الوراء وسحبَ رالف السيفَ. انبجسَ الدمُ كنافورةٍ وشعرَ رالف برعشةِ رضا كأنّه انتصر. ها هو بين ويلر ميتٌ ولا يمكنه الاستمرار في التصرفِ بوقاحةٍ.

ركعَ رالف بجانبِ جوزيف. كانت عينا الرجل مفتوحتين كأنّه يحدق إلى الفراغِ ولم يكن هناك أيُّ نبضٍ. كان ميتاً.

بالنسبةِ لرالف كان موت الرجلِ أمراً جيداً لأنّه وبطريقةٍ ما سيُبسطُ التبريرات فقد قتلَ بين ويلر أحد رجالِ الإيرل ولذلك كان يجبُ قتلهُ، ولذلكَ لن يرى أحدٌ في ما حدثَ ظُلماً، على الأقلِّ من جهةِ الإيرلِ رولاند الذي لن يشفعَ لأحدٍ يتحدى سلطتهُ.

ولكن ميرثن لم يرَ الأمور كما رآها رالف، وكانَ يتألمُ وقد شوهَ الألم وجهه.
«ما الذي فعلتَهُ؟» قال ميرثن غير مصدقٍ. «لدى بين ويلر ابنٌ في الثانيةِ واسمهُ بيني!»
«إذاً، سيتعينُ على الأرملةِ أن تبحثَ عن زوجٍ آخر»، قال رالف ثمَّ أضاف: «وهذهِ المرة عليها أن تختارَ رجلاً يعرفُ مقامَهُ».

-27-

كان الحصادُ شحيحاً في ويغلي فلم تكن أشعةُ الشمسِ قويةً بما يكفي خلالَ شهرِ آب/ أغسطس ولم تنضج الحبوب بحلولِ شهرِ أيلول/ سبتمبر. كانت المعنويات في القريةِ منخفضةً، ولم تَحُم في الأجواءِ تلكَ الغبطةُ المعتادةُ التي تسود أجواءَ الحصادِ وتتمظهرُ في الرقصِ والشُربِ والعلاقاتِ الغراميةِ المفاجئةِ، ولأنَّ الحصادَ غير الناضج عرضة للتعفنِ فقد كان مصيرُ العديد من سكانِ المدينة التضور جوعاً قبلَ قدومِ الربيعِ.

حصدَ ولفريك الشعيرَ في أرضهِ تحتَ وابلٍ من المطرِ الغزيرِ. كان يقطعُ سويقات الشعير بالمنجلِ وغويندا وراءَهُ تربطُ الحِزم. بدأ بحصادِ القمح الذي كانَ أهمَّ محصولٍ في أوَّلِ يومٍ مُشمسٍ من شهرِ أيلول/ سبتمبر، على أمل أن يستمرَ الصحو لوقتٍ كافٍ ويجفَّ المحصولُ.

وفي مرحلةٍ ما أدركت غويندا أنَّ ولفريك يعملُ بدافعِ الغضبِ فالخسارةُ المفاجئة لعائلتِهِ أثارت حنقهُ، ولو كانَ بوسعِهِ لوم أحدٍ على مصابِهِ هذا لفعلَ، ولكن انهيارَ الجسرِ المفاجئ كان حدثاً اعتباطياً، عملاً شريراً من أعمالِ الأرواحِ أو عقاباً من الرَّبِّ ولهذا لم يكن هناك من منفذٍ لِيُنفسَ فيه عن غضبِهِ سوى العملِ، أمَّا غويندا فكانت مدفوعةً بقوةِ الحُبِ المكافئةِ لقوةِ الغضبِ.

يذهبان إلى الحقلِ قبلَ انبلاج الفجرِ ولا يتوقفا عن العملِ إلى أن يهبط الظلامُ. كانت غويندا تذهبُ إلى النومِ كل ليلةٍ وظهرها يؤلمها ولا تستيقظ إلى أن يطرقَ ولفريك على بابِ المطبخ قبلَ الفجرِ، ورغمَ هذا كلهِ كانا متأخرين في العملِ عن الجميعِ.

كانت غويندا قد بدأت تشعر بأنَّ موقفَ سكان البلدةِ نحوها ونحو ولفريك يتغيرُ تدريجياً. لقد عاشت حياتها حتَّى الآن والجميعُ ينظرُ إليها في دونيةٍ لأنَّها ابنةُ جوبي السيئ السمعةِ، وكانت نساءُ البلدةِ أكثر من احتقرنها لأنَّهن اعتقدن

أنَّها تسعى إلى سرقة ولفريك من آنيت. كان ولفريك محبوباً، ولكن البعضَ شعرَ بأنَّ رغبتهُ في وراثةِ مثلِ هذه الأرضِ الكبيرةِ رغبةٌ جشعةٌ وغير عملية. على أيِّ حالٍ لطالما كانَ الناسُ مبهورين بالجهودِ التي يبذلونها في حصادِ محاصيلهم، فكيفَ الأمر عندما يقومُ فتى وفتاة بعملِ ثلاثةِ رجالٍ وعلى نحوٍ أفضل مما قد يتوقعهُ أحدٌ، وبدأ الرجال ينظرون إلى ولفريك بإعجاب والنساءُ إلى غويندا في شفقةٍ.

وفي النهايةِ احتشدَ سكانُ البلدةِ لمساعدتهما، وغضَّ الكاهنُ والأبُ غاسبارد النظرَ عن عملِهما أيامَ الآحادِ، وعندما انتهت عائلةُ آنيتِ من جني محصولِها انضمَّ والدُها بيركن وشقيقها روب إلى غويندا وولفريك، بل حتَّى والدةُ غويندا، إثنا، أتت لمساعدتِهم. وعندما كانوا ينقلون آخر الحُزمِ بالعربةِ إلى حظيرةِ ولفريك سادت الأجواء تلك الروح الاحتفالية التقليدية التي تسودُ في أوقاتِ الحصادِ وأخذَ الجميعُ يُغني أغاني قديمةً وهم يسيرون خلفَ العربةِ.

كانت آنيت موجودةً أيضاً رغمَ أنَّها، وكما يقولُ المثلِ، لم تكن وراءَ المحراثِ أولاً لترقصَ رقصةَ الحصادِ أخيراً. سارَت وولفريك إلى يمينها في إقرارٍ رسمي بأنهما مخطوبان. راقبتهما غويندا من الخلفِ ولاحظت بكلِّ مرارةٍ كيف أنَّها كانت تهزُّ وركيها وتديرُ رأسها وتضحكُ بكلِّ جمالٍ على كل شيءٍ كان يقولهُ، وتساءلت في نفسها كيف يمكن لولفريك أن يكون بهذا الغباءِ ويقع في غرامِها، وكيف لم يلاحظ أنَّ آنيت لم تعمل في أرضهِ.

لم يكن موعدُ زفافهما قد حُدد بعد فقد كان بيركن رجلاً حاذقاً وهو لن يسمحَ لابنتهِ بالزواجِ من ولفريكِ قبلَ حسمِ مسألةِ الميراثِ أولاً.

لقد أثبتَ ولفريك قدرتَهُ على العنايةِ بالأرضِ ولم يعد الأمرُ موضعَ شكٍ الآن، ويبدو أنَّ عمرَهُ لم يكن مهماً ولذلك لم تكن هناكَ سوى عقبةٍ وحيدةٍ ألا وهي ضريبةُ الميراثِ. سيعتمدُ كلُّ شيءٍ على ما سيحصلُ عليهِ من مالٍ من محصولهِ. كان الحصادُ شحيحاً ولكن إن استمرَّ الطقسُ الجيد فإنَّ أسعارَ القمحِ سترتفعُ على الأرجحِ. عموماً يحتفظ الفلاحون الموسرين بالمالِ من أجلِ ضريبةِ الميراثِ ولكن مدخرات عائلة ولفريك غرقَت معهم في نهرِ كينغزبريدج. لم تكن الأمورُ قد حُسمت بعد وهذا يعني أنَّه ما زال بوسعِ غويندا الحلم بأن يرثَ ولفريك الأرضَ وبطريقةٍ ما أن تتغيرَ عاطفتُه نحوها مع تغيرِ أحوالهِ.

كان كلُ شيءٍ ممكناً.

وبينما كانوا يُفرغون حمولةَ العربةِ في الحظيرةِ وصلَ وكيلُ المزرعةِ الأحدب نيثان رييف وهو مهتاجٌ بشدَّةٍ.

«تعالوا بسرعةٍ إلى الكنيسةِ»، قال نيثان ثمَّ تابع: «جميعكم! واتركوا كلَّ شيءٍ من أيديكم».

قال ولفريك: «لن أتركَ محصولي في العراءِ فقد يهطلُ المطر».

قالت غويندا: «سنُدخلُ العربةَ إلى الداخل. ما الأمرُ العاجلُ يا نيثان؟»

كان الوكيلِ قد أسرعَ باتجاهِ المنزلِ التالي وهو يقول: «لقد وصلَ السيدُ الجديدُ».

«انتظر!» ركضَ ولفريك وراءهُ قائلاً: «هل ستُركيني أمامه لأرثَ الأرضَ؟»

وقفَ الجميعُ دونَ حراكٍ يراقبون وينتظرون جوابَ الوكيلِ.

التفتَ نيثان على مضضٍ لمواجهةِ ولفريك، واضطر للنظرِ إلى الأعلى لأنَّ ولفريك كان أطولَ منهُ بقدمٍ ثمَّ قال بتروٍ: «لا أعلم».

«لقد أثبتُّ قدرتي على العنايةِ بالأرضِ، ويمكنك أن ترى هذا. فلتنظر إلى الحظيرةِ!»

«لقد قمتَ بعملٍ جيدٍ بلا شك، ولكن هل تستطيع دفعَ ضريبةِ الإرث؟»

«يتوقف هذا على سعرِ القمحِ».

وتحدّثت آنيت هنا قائلةً: «أبي؟»

وتساءلت غويندا في نفسِها عما سيحدث.

بدا بيركن متردداً.

حثّتهُ آنيت مجدداً قائلةً: «هل تتذكرُ ما وعدتني بهِ؟»

«أجل أتذكر»، قال بيركن أخيراً.

«أخبر نيثان إذاً».

التفتَ بيركن نحو وكيلِ الأرضِ وقال: «سأضمنُ دفعَ مالِ ضريبةِ الإرثِ إن وافقَ السيدُ على السماحِ لولفريك بأخذِ الأرضِ».

ووضعت غويندا يدَها على فمها من الدهشةِ.

قال نيثان: «هل ستدفعُ الضريبةَ عنهُ؟ إنَّ المبلغَ هو جنيهان وعشرة شلناتٍ».

«إن لم يتمكن من دفعِ المال فسأقرضهُ إياه. بالطبع سيتحتم عليهما الزواجُ أولاً».

وقال نيثان بصوتٍ خفيضٍ: «وإضافةً إلى....؟»

وهمسَ بيركن بشيءٍ لم تتمكن غويندا من سماعهِ ولكنها حزرت ما هو. كان بيركن يعرضُ على نيثان رشوةً، وقد تكون عُشرَ الضريبةِ وهذا يُعادلُ خمسة شلناتٍ.

«حسناً»، قال نيثان. «سأزكي ولفريك. أمَّا الآن فعلى الجميع التوجه إلى الكنيسةِ بسرعةٍ». ثمَّ انطلقَ ركضاً إلى المنزلِ التالي.

ابتسمَ ولفريك ابتسامةً عريضةً وقبّلَ آنيت ثمَّ صافحهُ الجميع.

فُطرَ قلبُ غويندا بهذا فها هي آمالها تذهبُ أدراجَ الرياح. لقد كانت آنيت أذكى منها بكثير، وأقنعت والدها بأن يُقرضَ ولفريك المالَ الذي يحتاجهُ. سيرثُ ولفريك الأرض... وسيتزوجُ من آنيت.

أجبرَت غويندا نفسها على مساعدتِهم في دفعِ العربةِ إلى الحظيرةِ، ثمَّ لحقَت بالخطيبين السعيدين وهما يسيران عبرَ القريةِ باتجاهِ الكنيسةِ. لقد انتهى كلُّ شيءٍ. وهذا السيدُ الجديدُ الذي لا يعرفُ شيئاً عن القريةِ أو السكانِ سيأخذُ بنصيحةِ الوكيلِ في مثلِ هذه الأمورِ على الأغلبِ. وحقيقةُ أنَّ نيثان قد كلّفَ خاطرهُ بالتفاوضِ على الرشوةِ أكبرُ دليلٍ على ثقتهِ في إقناعِ السيدِ.

ولكنها تتحملُ اللومَ في هذا أيضاً. فها هي قد كسرت ظهرَها وهي تساعدُ ولفريك في حصادِهِ على أملٍ خائبٍ بأن يدركَ بطريقةٍ ما أنّها ستكون زوجةً أفضل من آنيت. وفكرت وهي تعبرُ المقبرةَ باتجاهِ بوابةِ الكنيسةِ أنّها كانت تحفرُ قبرَها بيدها طوالَ الصيفِ، ولكنها لم تكن نادمةً فهي لم تكن قادرةً على رؤيةِ ولفريك وهو يعاني. وأياً يكن ما يحدث سيعلمُ دوماً أنّها الشخصُ الوحيدُ الذي كان معهُ على الدوام. وقدمت لها هذه الخاطرةُ الأخيرةُ شيئاً من العزاءِ.

تجمَّع معظمُ سكانِ القريةِ في الكنيسةِ ولم يكونوا بحاجةٍ إلى تشجيعِ نيثان للذهابِ ولقاءِ السيدِ الجديدِ. كانوا يتوقون إلى تقديمِ الولاءِ إلى سيدهم الجديد، وكانوا، أيضاً، مدفوعين بدافعِ الفضولِ إلى رؤيتِهِ ومعرفةِ إن كان عجوزاً أم شاباً، قبيحاً أم وسيماً، بشوشاً أم نكداً، ذكياً أم غبياً، والأهمُ من هذا كلهِ إن كان قاسياً أم لطيفاً. فكل شيءٍ في شخصيتِهِ سيؤثرُ على حياتِهم ما دام هو السيدُ عليهم وهذا يعني أنَّ الأمر قد يطولُ لسنواتٍ وعقودٍ. إن كان شخصاً عقلانياً سيقومُ بالكثيرِ ليجعلَ ويغلي مكاناً سعيداً ومزدهراً، وإن كانَ أحمقَ سيتخذُ قراراتٍ غير حكيمةٍ وسيُصدرُ أوامر غير عادلةٍ، وسيفرضُ

ضرائبَ ظالمةً وعقوباتٍ قاسيةً، وسيكون أول قرارٍ من قرارته الفصلُ في أمرِ إرثِ ولفريك.

تراجعَت دمدمةُ الأحاديثِ عندما سمُعت صلصةُ غُدَّةِ حصانٍ، وسمعت غويندا نيثان يتحدثُ بصوتٍ خفيضٍ وخانعٍ ثمَّ رنَّةً آمرةً من السيدِ، وفكرت غويندا أنَّ للسيدِ صوتَ رجلٍ ضخمٍ وواثقٍ ولكنهُ صغيرٌ في العمرِ. استقرَّت أنظارُ الجميعِ على بوابةِ الكنيسةِ التي انفتحت على مصراعِيها.

وشهقَت غويندا من الصدمةِ.

كان الرجلُ الذي دخلَ شاباً في العشرين في العمرِ حسنَ الهندامِ في معطفٍ طويلٍ فضفاضٍ ومسلحاً بسيفٍ وخنجرٍ. كان شاباً طويلاً ويبدو من سيمائهِ أنَّه معتدٌّ بنفسهِ. بدا مسروراً جداً لكونهِ سيدَ ويغلي رغم أنَّ مظهرهُ المتغطرسِ يوحي بشيءٍ من انعدامِ الثقةِ بالنفسِ. شعرُهُ أسود ومجعد ولهُ وجهٌ وسيمٌ رغمَ أنفهِ المشوهِ.

ولم يكن سوى رالف فيتزجيرالد.

***

كان الاجتماعُ الأوَّلُ لرالف في يومِ الأحدِ القادمِ.

وخلالَ هذا الوقتِ غرقَ ولفريك في اليأسِ. رغبت غويندا بالبكاءِ في كلِّ مرَّةٍ نظرت إليهِ. كان يسيرُ مُطرقَ العينين وكتفيه العريضتين متراخيتين. بدا نشيطاً طوالَ الصيفِ وهو يعملُ في الحقولِ بتلكَ الكفاءةِ الصامتةِ لحصانِ حراثةٍ، إلَّا أنَّه الآن بدا مهموماً. لقد قام بكلِّ ما يُمكن لرجلٍ فعلهُ، ولكن مصيرهُ أصبحَ بين يدي الرجلِ الذي يكرهُهُ.

أرادَت أن تقولَ لهُ شيئاً يبعثُ الأملَ فيهِ، أن تحاولَ الترفيهَ عنه، ولكنها في الحقيقةِ كانت تشاركُهُ تشاؤمَهُ. غالباً ما يكون الأسيادُ وضيعين وحقودين، ولم يكن هناكَ أيُّ شيءٍ في رالف يشجعُها على الاعتقادِ بأنَّهُ قد يتصرفُ بشهامةٍ. فعندما كان طفلاً كان غبياً وقاسياً، ولن تنسى غويندا اليومَ الذي قتلَ فيهِ رالف كلبَها بقوسٍ وسهمِ ميرثن.

لم يكن هناكَ ما يشي بأنَّه قد تغيرَ مع مرورِ الأيامِ. لقد انتقلَ إلى قصرِ السيدِ مع مرافقهِ آلان فيرنهيل وهو شابٌ بدينٌ. كان الرجلان يشربان أفضلَ نبيذٍ ويتناولانَ الدجاجَ ويلمسان أثداءَ الخادماتِ بذلكَ الطيشِ المعروفِ في تلكَ الطبقةِ الاجتماعيةِ.

وتأكدت من مخاوفِها عندما رأت سلوكَ نيثان ريف. لم يُكلف الوكيلُ نفسهُ عناءَ التفاوضِ لرفعِ مبلغِ الرشوةِ، وهذهِ إشارةٌ واضحةٌ على أنّهُ يتوقعُ الفشلَ.

ويبدو أن آنيت أيضاً كانت تنظرُ بتشاؤمٍ إلى مستقبلِ ولفريك، ولاحظت غويندا تغيراً واضحاً في سلوكها؛ فهي لم تعد تزيحُ شعرها بكلِّ ابتهاجٍ، أو تسيرُ وهي تهزُّ أردافها، ولم تعد تلكَ الرّنةُ الأشبهُ برقرقةِ الماءِ في ضحكتِها مسموعةً كثيراً. كانت غويندا تأملُ ألا يرى ولفريك التغير في آنيت فقد كانَ لديه ما يكفيهِ من المصائبِ. ولكن بدا لها أنّهُ لم يكن يطيلُ المكوثَ في منزلِ بيركن في الأماسي، وأنّهُ عندما يعودُ إلى المنزلِ لا يتحدثُ كثيراً.

وتفاجأت عندما علمَت صباحَ الأحد أنَّ ولفريك ما زال يحملُ بعضَ الأملِ. عندما انتهت مراسمُ القداسِ وقدّمَ الأب غاسبارد مكانهُ للورد رالف، رأت رالف يُغمضُ عينيهِ ويُحركُ شفتيهِ كأنّه يتلو صلاةً إلى قديستهِ المُفضلة، مريم العذراء.

احتشدَ جميعُ سكانِ القريةِ في الكنيسةِ بمن فيهم جوبي وإثنا. لم تكن غويندا تطيقُ والديها، وهي لا تتحدثُ إلى والدتِها في حضورِ والدها. رأت على خدِّ جوبي علامةً شديدةَ الاحمرارِ حيث أحرقتهُ بجذعٍ خشبي مشتعلٍ. لم ينظر إليها قط. ما زالت تخافُ منه، إلَّا أنّها تشعرُ الآن بأنّه باتَ يهابها.

جلسَ رالف على كرسي خشبي كبيرٍ يُحدقُ إلى أقنانهِ بتلك النظرةِ التقييميةِ التي يملكها مشترٍ في سوقٍ للقطعانِ. كان اجتماعُ هذا اليوم مكوناً من سلسلةٍ من الإعلاناتِ. أعلنَ نيثان عن الترتيبات الخاصَّةِ بنقلِ الحصادِ من أراضي اللورد، وحددَ مواعيد في الأسبوعِ القادمِ لقرويين آخرين حتَّى يؤدي واجبهم المعتاد بالعملِ في أراضي اللورد. لم يكن بابُ النقاشِ مفتوحاً، وباتَ واضحاً أنَّ رالف لا يرغبُ بوجودِ اتفاقٍ عامٍ على سيرِ الأمورِ.

كان هناكَ تفاصيل أخرى يهتمُ بها نيثان كتنظيفِ بقايا الحصادِ في مئةِ فدانٍ بحلولِ ليلِ الإثنينِ حتَّى تتغذى المواشي على البقايا ابتداءً من صباح الثلاثاء، أو البدءِ بالحراثة الخريفية في حقلِ لونغفيلد يوم الأربعاءِ. تدورُ على الدوامِ جدالاتٌ بسيطةٌ حولَ هذه الخططِ مع القرويين الأكثر ميلاً للمجادلةِ أو من يرغبونَ بترتيباتٍ مختلفةٍ للأمورِ، ولكن الجميع اليومَ التزمَ الهدوء بانتظارِ القرارِ من اللوردِ الجديدِ.

وعندما أدلى رالف برأيهِ لم يكن، وبما يدعو للاستغرابِ، فذاً. وعرضَ

القرارَ كأنّه يقدمُ برنامجَ عملٍ مُختلفاً. وقال نيثان: «لن يُسمح لولفريك بأخذِ أرضِ والدهِ لأنّه لم يتجاوز السادسةَ عشرة».

نظرَت غويندا إلى رالف ورأته يحاولُ كبحَ ابتسامةِ ظفرٍ ثمَّ يرفعَ يدَهُ إلى وجههِ بشكلٍ عفوي، كما اعتقدت، وتلمس أنفه المكسور.

تأوّهَ ولفريك بصوتٍ عالٍ سمعهُ الجميعُ. ها هو القرار الذي توقعه يصدرُ، إلّا أن وقعَ حدوثِهِ على أرضِ الواقعِ كان مريراً. رأتهُ غويندا يديرُ ظهرَهُ للحشدِ في الكنيسةِ وهو يُخفي وجههُ، ويتكئ على الجدارِ كأنّه يقي نفسهُ من السقوطِ.

«انتهى الاجتماعُ لهذا اليومِ»، قال نيثان.

وقفَ رالف وسارَ على طولِ ممرِ الكنيسةِ بكلِ هدوءٍ وعيناهُ لا تفارقان ولفريك المضطرب، وتساءلت غويندا في نفسِها كيف سيعملُ رالف كسيدٍ إن كانَ، وبشكلٍ غريزي، قد استخدمَ سلطتهُ من أجلِ الانتقامِ. لحقَ نيثان برالف مُطرقاً بنظرهِ أرضاً؛ كان يعلمُ حجمَ الظلمِ الذي وقعَ. وبينما كانا يُغادران الكنيسةَ علَت همهمةٌ من بينِ الحاضرين. لم تتحدث غويندا مع أحدٍ واكتفت بمراقبةِ ولفريك.

ابتعدَ ولفريك عن الجدارِ وعلى وجههِ ارتسمَ تجلٍّ حقيقي للبؤسِ. جالَ بنظرهِ بين الحشدِ وعثرَ على آنيت. بدت آنيت غاضبةً جداً، وانتظرت غويندا أن تنظرَ آنيت إلى ولفريك، ولكنها بدت عازمةً على عدمِ النظرِ إليهِ. وتساءلت غويندا عمّا كان يجولُ في ذهنِ آنيت.

سارت آنيت نحو البابِ برأسٍ مرفوعٍ، ولحقَ بها والدها وعائلتها. ألن تتحدثَ إلى ولفريك؟

كانت الفكرةُ ذاتها قد عبرَت في ذهنِ ولفريك لأنّه لحقَ بها وهو يناديها: «آنيت! انتظري!»

وعمَّ الصمتُ المكانَ.

التفتت آنيت وأصبحَ ولفريك أمامها. «ستتزوجُ على أيِّ حالٍ؟ صحيح؟» سألها ولفريك. وساءَ غويندا أن تسمعَ رنَّةَ التماسٍ مهينةٍ في صوتهِ. حدّقت آنيت إليهِ، ويبدو أنّها كانت على وشكِ قولِ شيءٍ ولكن صمتها رانَ طويلاً فتحدثَ ولفريك مجدداً: «إنَّ الأسياد بحاجةٍ إلى أقنانٍ ماهرين لزراعةِ الأرضِ. قد يمنحني رالف أرضاً أصغر...»

«لقد كسرتَ أنفهُ»، قالت بقسوةٍ. «ولذلكَ لن يُعطيكَ شيئاً».

تذكرت غويندا كم كانت آنيت مسرورةً لأنَّ الرجلين تصارعا من أجلها.

قال ولفريك: «إذاً، سأصبحُ عاملاً. أنا قوي، ولن أجدَ مشقةً في الحصولِ على عملٍ».

«ولكنكَ ستكون فقيراً طوال حياتكَ. هل هذا ما تعرضُهُ علي؟»

«سنكون معاً كما كنا نحلمُ وكما أخبرتني في ذلكَ اليوم الذي كنا في الغابةِ، ألا تتذكرين؟»

«ولكن ما هي الحياةُ التي سأعيشها؟ زوجةُ عاملٍ بلا أرضٍ؟» أصرَّت آنيت بغضبٍ. «سأخبركَ بشيءٍ»، ورفعت ذراعها مشيرةً إلى والدةِ غويندا الواقفة بجانبِ جوبي مع ثلاثةِ أطفالٍ صغار. «سأكونُ مثلها، بوجهٍ أنهكهُ القلق، وجسدٍ نحيلٍ كعصا المكنسةِ».

صُعقَ جوبي بما سمعهُ وقال ملوحاً بذراعهِ ذاتِ اليدِ المقطوعةِ: «حاذري في ما تقولينهُ أيتها الفتاةُ الوقحةُ».

تقدَّمَ بيركن باتجاهِ ابنتهِ وربَّتَ بكلتا يديهِ على جوبي ثمَّ قال: «اغفر لها يا جوبي، إنَّها مضطربةٌ جداً ولا تقصدُ الأذية».

قال ولفريك: «عُذراً من جوبي ولكنني لستُ مثلهُ يا آنيت».

«ولكنكَ كذلك!» قالت آنيت. «فأنتَ لا تملكُ أرضاً مثلهُ ولهذا ستكون فقيراً مثلهُ أيضاً، وسيكون أطفالكَ جياعاً وزوجتكَ قذرة».

كان ما قالتهُ آنيت صحيحاً؛ ففي الأوقاتِ العصيبةِ كان أولئك العمالُ ممن يعملون بالأجرةِ أول من يعانون. كان طردُ العمالِ أسهلَ وأسرعَ طريقةٍ لتوفيرِ المالِ، إلَّا أنَّ غويندا لم تكن قادرةً على التصديقِ بأنَّ هناك امرأةً على وجهِ الأرضِ قد ترفضُ فرصةَ قضاءِ حياتها مع ولفريك.

ولكن يبدو أنَّ هذا ما كانت تقومُ بهِ آنيت.

وهذا ما اعتقده ولفريك أيضاً، ولهذا قال لأنيتِ بنبرةٍ حزينةٍ: «هل توقفتِ عن حُبي؟»

كان قد أهدرَ كل ماءِ وجههِ وغدا مظهرُهُ مثيراً للشفقةِ ولكن، وفي تلكَ اللحظةِ شعرت غويندا أنَّها تهيمُ بهِ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.

«الحبُّ لن يضعَ طعاماً في فمي»، قالت آنيت وغادرَت الكنيسةَ.

***

بعدَ مرورِ أسبوعين تزوجَت آنيت من بيلي هاورد.

ذهبَت غويندا إلى حفلِ الزفافِ كبقيةِ سكانِ القريةِ ولكن ولفريك لم يذهب. ورغم شُحِّ الحصادِ هذا العام فإنَّ طعامَ وليمةِ الزفافِ كان وافراً. وبهذا الزواجِ اتحدَ اثنان من أكبر مالكي الأراضي في القريةِ: عائلةُ بيركن التي تملكُ مئةَ فدانٍ مع عائلةِ بيلي التي تملكُ أربعينَ فداناً. علاوةً على هذا، طلبَ بيركن من رالف أن يعطيهِ أرضَ عائلةِ ولفريك، وإن وافقَ رالف فسيرثُ أطفالُ آنيت نصفَ القريةِ. ولكن رالف توجهَ إلى كينغزبريدج بعدَ أن وعدَ بإعطاءِ قرارٍ بالأمرِ إبانَ عودتهِ.

فتحَ بيركن برميلَ جعةٍ من براميلِ زوجتهِ التي تحوي على أقوى أنواعِ الجعةِ وذبحَ بقرةً. تناولت غويندا الطعامَ وشربت الجعةَ بنهمٍ. لم يكن مستقبلها مجهولاً تماماً، ولم يكن هناكَ ما يمنعها من تناولِ طعامٍ جيدٍ.

لعبت مع أختيها الصغيرتين كات وجوني لعبةَ رمي والتقاطِ الكرةِ الخشبيةِ، ثمَّ حملت الطفلَ إيريك على ركبتيها وغنَّت لهَ. وبعد برهةٍ أتت والدتها وجلست بقربها ثمَّ قالت: «ما الذي ستفعلينهُ الآن؟»

لم تكن غويندا ضمنياً متصالحةً تماماً مع إثنا. إنهما تتحدثان ولطالما طرحت عليها والدتُها أسئلةً تنمُّ عن الاهتمامِ. وعلى الرغمِ من أن غويندا ما زالت مستاءةً من والدتِها لأنَّها سامحت جوبي فإنَّها كانت تجيبها على أسئلتها دوماً. «سأعيشُ في حظيرةِ ولفريك طالما أمكنني هذا»، قالت غويندا. «وقد أتمكن من البقاء هناكَ إلى أجلٍ غير مسـمى».

«وإن انتقلَ ولفريك، أو غادرَ البلدةَ؟»

«لا أعلمُ ما الذي سيحدثُ».

ما زال ولفريك حتَّى الآن يعملُ فهو يحرثُ أرضَ عائلتِهِ بعدَ حصادها ويُمهدُ تربتها بمساعدةِ غويندا. كان نيثان يعطيهما أجراً يومياً كبقيةِ العمالِ، ولكن لن يكون لهما حصَّةٌ في حصادِ العامِ القادمِ. كان نيثان حريصاً على بقائهما لأنَّ أحوالَ الأرضِ قد تتدهور بسرعةٍ. سيُتابعان العملَ إلى أن يُعلنَ رالف عن المستأجرِ الجديدِ للأرضِ، وبعدَ هذا سيتحتمُ عليهما عرضُ خدماتهما على المالكِ الجديدِ.

«أين هو ولفريك الآن؟» سألت والدتها.

«أعتقد أنَّه غير قادرٍ على الاحتفالِ بهذا الزفافِ».

«ما هو شعورهُ حيالكَ؟»

نظرَت غويندا إلى والدتِها نظرةً صريحةً وقالت: «أخبرني أنني أفضلُ صديقةٍ لديهِ».

«وما الذي يعنيهِ هذا؟»

«لا أعلمُ. قد يعني أنّهُ يحبني، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«لا»، قالت والدتها. «لا، لا يعني هذا».

سمعَت غويندا صوتَ موسيقى تصدح. كان آرون آبلتري الذي يعزفُ على القُربةِ يمررُ أصابعهُ ويجربُ النغمات. رأت بيركن يخرجُ من المنزلِ مع زوجٍ من طبولٍ لها أحزمة. وبدأ الرقصُ.

لم تكن غويندا في مزاجٍ للرقصِ. كان بوسعها الحديثُ إلى النساءِ العجائز، ولكنهن سيطرحن ذات الأسئلة التي طرحتها والدُتها، ولم تكن ترغب بقضاءِ بقيةِ اليومِ وهي تشرحُ معضلتها لهنَّ. وتذكرت حفلَ الزفافِ الأخيرِ في القريةِ عندما ثملَ ولفريكُ قليلاً وأخذَ يرقصُ بخطواتٍ كبيرةٍ ويحتضنُ جميعَ النساءِ رغمَ أنّه كان مغرماً بآنيت. في غيابه لم يكن هناك احتفالٌ حقيقي. أعادَت غويندا إيريك إلى والدتِها وانسحبَت من حفلِ الزفافِ. بقي كلبُها في الحفلِ فهو يعرفُ أنّه في مثل هذهِ الاحتفالات سيحصلُ على وليمةٍ من الطعامِ الذي يقعُ أرضاً أو من الفضلاتِ التي ستُرمى.

توجهت إلى منزلِ ولفريك وهي تأملُ أن تجدهُ هناكَ، ولكنها وجدَت المنزلَ فارغاً. كان منزلاً خشبياً متيناً مبنياً من الأعمدةِ والعوارضِ ولكن من دونِ مدخنةٍ، فمثلُ هذهِ الرفاهية لم يحظَ بها سوى الأغنياء. بحثت عنهُ في الغرفِ الأرضيةِ وغرفةِ النومِ في الطابقِ العلوي. كان المكان مرتباً ونظيفاً كما كان بالضبطِ عندما كانت والدتُهُ على قيدِ الحياةِ، ولكن السبب في نظافةِ المنزلِ وترتيبه هو أنَّ ولفريك لم يكن يستخدم سوى غرفة واحدة. كان يأكلُ وينامُ في المطبخِ. بدا المكانُ بارداً وموحشاً؛ كان منزلاً عائلياً ولكن من دونِ عائلةٍ.

توجهت إلى الحظيرةِ الممتلئة بأكوامِ القش من أجل العلفِ في الشتاءِ وحُزمِ الشعير والقمح المعُدةِ للدراسةِ. صعدَت السُلم إلى العُلّية واستلقَت على القشِّ، وبعدَ وهلةٍ غطّت في النومِ.

عندما استفاقَت كان الظلامُ قد هبطَ. لم يكن لديها أدنى فكرة عن الوقتِ، ولذلك خرجَت من الحظيرةِ لتنظرَ إلى السماءِ. كان القمرُ منخفضاً خلفَ نُدفِ غيمةٍ، وقدَّرت غويندا بأنَّ الظلامَ قد هبط منذ ساعةٍ أو ساعتين فقط. ومن مكانِها أمامَ بابِ الحظيرةِ وهي ما تزال ناعسةً سمعت صوتَ نحيبٍ.

علمَت على الفورِ أنّه صوتُ ولفريك. كانت قد سمعت بكاءَهُ قبلاً عندما رأى جثث والديه وأخيه على أرضيَّةِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج. كان يبكي ويشهقُ بصوتٍ عالٍ كأنَّ البكاء يخرجُ من أعماقِ صدرهِ. انحدرَت الدموعُ من مقلتيها وهي تسمعُه يبكي.

وبعدَ وهلةٍ دخلَت إلى المنزلِ.

تمكنت من رؤيتهِ في ضوءِ القمرِ الذي تسلل إلى المنزلِ. كان ولفريك مستلقياً ووجهه على القشِ بينما ظهرهُ يتحركُ للأعلى والأسفل وهو يشهقُ. لا بدَّ أنّهُ سمعها ترفعُ مزلاجَ البابِ، ولكنه كان مغموماً جداً ولذلكَ لم يرفع ناظريه إلى الأعلى.

انحنَت غويندا بالقربِ منهُ ومسَّدَت بهدوءٍ شعرَ غرتهِ. لم يقم بأيِّ ردِ فعلٍ. لم تلمسهُ غويندا إلّا نادراً، وقد كانت تجدُ في تمسيدِ شعرهِ متعةً غريبةً. ويبدو أنّ هذا قد هدَّأ من روعهِ لأنَّ بكاءَهُ قد خفتَ.

وبعد وهلةٍ تجرأت على الاستلقاءِ بجانبهِ. كانت تتوقعُ منه أن يدفعها بعيداً ولكنه لم يفعل بل أدارَ وجهه نحوها مغمضَ العينين. مسحَت الدموعَ عن وجنتيه بكميها. كانت سعيدةً بقربها منهُ، ولأنّه سمحَ لها بأن تقومَ بهذهِ الأمورِ الحميمةِ البسيطةِ. كانت تتوقُ إلى تقبيلِ جفنيهِ المُغمضين، ولكنها خافت من أن تأتي بحركةٍ متسرعةٍ جداً، ولهذا كبحت نفسها.

بعدَ مرورِ عدَّةِ دقائق أدركَت أنّه غطَّ في النومِ.

كانت مسرورةً فهذا يعني أنّهُ مرتاحٌ جداً لوجودِها، وأنّها تستطيعُ البقاءَ معهُ حتّى يستيقظ على الأقل.

كانَ الوقتُ خريفاً والليالي باردة. وعندما غدا تنفسُ ولفريك أبطأ وأكثر انتظاماً نهضَت خلسةً وأخذَت بطانيتهُ المُعلقة على خطافٍ على الحائطِ. ألقَت البطانيةَ عليه وتابع هو النومَ بهدوءٍ.

على الرغمِ من برودةِ الجو خلعَت غويندا فستانَها واستلقَت بجانبهِ عاريةً وهي ترتبُ البطانيةَ لتغطيهما معاً.

اقتربَت منهُ ووضعت رأسَها على صدرهِ. كان بوسعِها سماعُ نبضاتِ قلبهِ والإحساسُ بشهيقهِ وزفيرهِ فوقَ رأسِها. وشعرَت بأنَّ حرارةَ جسدهِ الكبيرِ قد أدفأتها. وفي هذه الأثناء غابَ القمرُ وسربلَ الغرفةَ ظلامٌ دامسٌ. كانت تشعرُ بأنّها تستطيعُ البقاءَ على هذهِ الحالةِ إلى الأبدِ.

لم تغفُ فهي لم تكن تريد أن تضيعَ أيّ دقيقةٍ من هذا الوقتِ الثمينِ معه، وتلذذت بكلِّ ثانيةٍ مرَّت فهي تعلمُ علمَ اليقين أنَّها لن تتكرر. أخذَت تتلمسهُ بحذرٍ حتَّى لا توقظهُ. وفوقَ قميصِهِ الصوفي الخفيفِ تحسست بأطرافِ أصابِعها عضلاتِ صدرهِ وظهرهِ، وعظامَ أضلاعهِ ووركيهِ، واستدارةَ كتفيهِ وعقدةَ مرفقهِ.

تحرَّكَ ولفريك في نومِهِ مرّاتٍ عديدةً. استدارَ واستلقى على ظهرهِ فوضعت رأسَها على كتفهِ وذراعَها على بطنِهِ المُسطحِ. استدارَ لاحقاً واقتربَت منه جداً وأخذَ جسدُها وضعيةَ جسدهِ من الوراء وضغطت بثدييها على ظهرهِ العريضِ ووركيها على وركيهِ وركبتيها خلفَ ركبتيهِ. ثمَّ استدارَ وأصبحَ قبالتها. ألقى بذارعِهِ حول كتفيها وساقاً فوقَ فخذيها. كانت ساقهُ ثقيلةً بشكلٍ مؤلمٍ، ولكنها استمتعت بالألمِ كأنّه دليلها المحسوس على أنَّ هذا كلهُ ليسَ حلماً.

ولكن ولفريك كان يحلم. وفجأةً وفي منتصفِ الليلِ قبَّلها مُقحماً لسانَهُ بخشونةٍ في فمِها، وأمسكَ ثديها بيدِهِ الغليظةِ، وشعرَت بانتصابِ عضوهِ وهو يفركُ جسدَهُ بجسدِها على نحوٍ أخرق. انتابتها الحيرةُ لبعضِ الوقتِ. كان يستطيعُ امتلاكها بأيِّ طريقةٍ أرادها، ولكنهُ شخصٌ رقيقٌ بطبعهِ. وضعَت يدَها على منفرجيه وأمسكَت بعضوهِ الذي انتصبَ من فتحةِ سروالهِ الداخلي. ثمَّ وعلى حينِ غرَّةٍ استدارَ واستلقى على ظهرهِ وهو يتنفسُ بانتظامٍ، وأدركت أنَّهُ ما يزالُ نائماً بل كان يتحسسها في نومهِ. شعرت بالأسى عندما أدركَت أنَّهُ ومن دونِ أدنى شكٍ كان يحلمُ بآنيت.

لم تنم بل غرقَت في أحلامِ اليقظةِ. تخيَّلتهُ وهو يُقدمها إلى غريبٍ قائلاً: «هذهِ زوجتي غويندا»، وتخيلت نفسها حاملاً وتعملُ في الحقلِ وأنَّهُ أغمي عليها في منتصفِ النهارِ. تخيَّلتهُ يمسكها ويحملها عائداً إلى المنزلِ ثمَّ يرشُ وجهها بماءٍ باردٍ، وتصورتهُ رجلاً عجوزاً يلعبُ مع أحفادِهما ويعطيهم التفاحَ وأقراصَ العسلِ.

«أحفادٌ؟» قالت هازئةً من نفسِها. كانت قد كابدت مشقةً كبيرةً للتحلي بالقوةِ على السماحِ لنفسِها بوضعِ ذراعها حولَه وهو يبكي إلى أن غطَّ في النومِ فكيفَ لها أن تفكرَ بالأحفادِ.

عندما فكَّرت بهذا كان الوقتُ قد أصبحَ فجراً، ولهذا كان بقاؤها في الجنةِ قد قاربَ على نهايتهِ فقد بدأ يتحرَّكُ في نومهِ. تغيَّرَ إيقاعُ تنفسهِ، ونامَ على ظهرِهِ.

وضعَت ذراعَها على صدرِهِ وأقحمت يدَها تحتَ إبطِهِ. وبعد مرورِ عدَّةِ دقائق أحسَّت بأنَّهُ كان مستيقظاً ويفكر. بقيت على وضعيتها ساكنةً مخافةَ أن يُبطلَ كلامُها أو حركتُها هذه التعويذةَ.

وأخيراً استدارَ وأصبحَ قبالتها. وضعَ ذراعهُ حولها وشعرَت بيدِهِ على جلدِ ظهرها العاري. أخذَ يداعبها على ظهرِها، ولكنها لم تفهم معنى هذهِ المداعبةِ. بدا كأنّه يستكشفُ وقد تفاجأ لكونها عاريةً. صعدَ بيدِهِ إلى عنقِها ثمَ أنزلها إلى وركيها المكورين.

وأخيراً تحدَّثَ ولكن بصوتٍ أقرب للهمسِ كأنّه يخشى أن يسمعهُ أحد: «لقد تزوجتهُ».

وهمسَت لهُ غويندا: «أجل».

«إنَّ حبَّها لي واهٍ».

«الحبُ الحقيقي ليسَ واهياً أبداً».

أبقى يدَهُ على وركِها. كان قريباً جداً من الأماكنِ التي أرادتهُ أن يلمسَها.

قال لها: «هل سأتوقفُ عن حُبها؟»

أخذَت غويندا يدَه وحرَّكتها. «إنَّها تملكُ ثديين كهذين الثديين»، قالت وهي ما زالت تهمسُ دونَ أن تفهمَ سبباً لقيامها بهذا. كان الحدس يقودها، وقد رضخت لحدسِها مقامرةً بالنتيجةِ خيراً أم شراً.

تأوَّهَ وشعرَت بهِ يُطبقُ يدهُ برقةٍ فوق أحدِ ثدييها ثم ينتقلُ إلى الآخر.

«وهي تملكُ أيضاً شعراً في الأسفلِ كهذا الشعرِ»، قالت وحرَّكَت يدَهُ مجدداً فأخذَ يتنفسُ بسرعةٍ. وبينما كانت يدَهُ على عانتِها استكشفت جسدَهُ تحتَ قميصهِ الصوفي، واكتشفَت أنَّ عضوه منتصبٌ فأمسكت بهِ وقالت: «وملمسُ يدِها كملمسِ هذهِ اليد»، ثمَّ أخذَ ولفريك يحرِّكُ وركيهِ بإيقاعٍ.

وفجأةً شعرت غويندا بالخوفِ من أن ينتهي كلُّ هذا قبلَ أن يكتملَ اللقاءُ وهي لم ترغب بحدوثِ هذا؛ فإمَّا أن يحدثَ الآنَ أو لن يحدثَ أبداً. دفعتهُ برفقٍ على ظهرِهِ وبسرعةٍ صعدَت فوقَهُ. «وفي الداخلِ إنَّها حارةٌ ورطبةٌ أيضاً»، قالت وهي تميلُ فوقهُ، ورغمَ أنّها فعلَت هذا مُسبقاً فإنَّ هذا لم يكن كأيِّ شيءٍ فعلتهُ قبلاً. شعرَت بنفسها ممتلئةً إلَّا أنَّها وفي الوقتِ عينهِ ترغبُ بالمزيدِ. أخذَت تتحركُ مع حركةِ وركيهِ وترتفعُ للأعلى وللأسفلِ وهو يُدخلُ ويخرجُ عضوهُ. انحنت بوجهها فوق وجههِ وقبَّلته من فمِهِ المطوقِ بلحيتِهِ.

أمسكَ رأسَها بيديهِ وقبَّلها بدورهِ.

«وهي تحبكَ»، همسَت غويندا لهُ. «إنَّها تحبكَ جداً».

تنَّهدَ عالياً من حرارةِ الشغفِ بينما استمرَّت بحركتِها للأعلى والأسفل فوقَ وركيهِ كأنّه تمتطي حصاناً بريّاً إلى أن شعرَت به أخيراً يقذفُ في داخلِها ويطلقُ تنهيدةً أخيرةً ويقول: «أحبكُ أيضاً! أحبكُ أيضاً يا آنيت!»

-28-

غطَّ ولفريك في النومِ مجدداً إلّا أن غويندا بقيت صاحيةً. لم تكن قادرةً على العودةِ إلى النومِ من فرطِ حماسِها فقد باتت تعلمُ أنّها فازَت بُحبهِ ولم تشعر بالضيقِ أبداً لتظاهرها بأنّها آنيت. لقد مارسَ معها الحبَّ بكلِّ جوعٍ وقبَّلها في النهايةِ برِّقةٍ وامتنانٍ شعرت معهما بأنَّه باتَ مُلكها إلى الأبدِ.

عندما هدأ قلبُها وعقلُها أخذت تفكرُ بإرثهِ. لم تكن مستعدةً للتخلي عن هذا الإرثِ لاسيما الآن. في الخارج كان الفجرُ قد بدأ ينبلجُ وهي لا تزالُ تعصرُ ذهنها في التفكير بطريقةٍ لإنقاذِ هذا الإرثِ، وعندما استيقظَ ولفريك قالت لهُ: «سأذهبُ إلى كينغزبريدج».

بدا مذهولاً وقالَ لها: «لماذا؟»

«لأجدَ طريقةً تمكنك من الاحتفاظ بإرثكَ».

«كيف؟»

«لا أعلمُ، ولكن رالف لم يُعطِ الأرضَ إلى أحدٍ آخر بعد ولهذا مازالت الفرصةُ سانحةً أمامنا، وأنتَ تستحقُّ هذا الإرثَ فقد عملتَ بجدٍ وقاسيتَ الكثيرَ من أجلهِ».

«وما الذي ستفعلينهُ؟»

«سأقابلُ أخي فيليمون. إنَّهُ يفهمُ في هذه الأمورِ أكثرَ منا، وسيعرفُ ما الذي يجبُ علينا القيامُ بهِ».

نظرَ ولفريك إليها نظرةً غريبةً.

قالت له: «ما الأمرُ؟»

«أنتِ مُغرمةٌ بي حقاً؟»سألها.

ابتسمَت والسعادةُ تغمرُها ثمَّ قالت: «لنمارس الحبَّ مجدداً، ما رأيكُ؟»

في صباحِ اليومِ التالي انطلقَت إلى ديرِ كينغزبريدج، وجلسَت على المقعدِ الحجري في حديقةِ الخضارِ التابعةِ للديرِ بانتظارِ فيليمون. خلالَ مسيرِها الطويلِ من ويغلي لم تفكر سوى بما حدثَ ليلةَ الأحد، بكلِّ تفاصيلِهِ، وهي تستعيدُ المتعةَ الجسديةَ وتفكرُ بالكلماتِ التي قيلت. لم يقل لها بعد أنَّهُ يحبها ولكنَّهُ قال لها: «أنتِ مُغرمةٌ بي حقاً». وبدا مسروراً لأنَّها تحبُّهُ رغمَ أنَّه بدا مذهولاً بعضَ الشيءِ من قوةِ عاطفتها.

كانت تتوقُ إلى استعادةِ حقهِ في الإرثِ تماماً كتوقهِ هو لذلكَ، وهي تريد استعادةَ الأرض من أجلهما معاً، وحتى وإن بقي مجرَّد عاملٍ بالأجرةِ كوالدها ستتزوجُ بهِ وتعطيهِ فرصةً، ولكنَّها أرادت ما هو الأفضل لهما، ولهذا صمّمَت على تحقيقِ هذا.

عندما خرجَ فيليمون من الديرِ ودخلَ إلى الحديقةِ ليُلقي التحيةَ عليها لاحظت أنَّه يرتدي رداءَ راهبٍ مبتدئ. «هوغلر!» نادتهُ باسمهِ الحقيقي من فرطِ الصدمةِ. «لقد أصبحتَ راهباً مبتدئاً كما كنت تمنيت على الدوامِ».

ابتسمَ فيليمون بفخرٍ وغضَّ بطيبِ خاطرٍ عن استخدامِها لاسمهِ القديم. «كان هذا من الأمورِ الأولى التي قامَ بها غودوين عندما أصبحَ رئيسَ الديرِ. إنّهُ رجلٌ عظيمٌ، وتُشرفني خدمتهُ»، قال لها ثمَّ جلسَ بالقربِ منها على المقعدِ. كان يوماً من أيامِ الخريفِ المعتدلةِ ورغمَ الجو الغائم فإنَّه كان جافاً.

«كيف تسيرُ أمورُ دروسكَ؟»

«ببطءٍ. إنَّ تعلمَ القراءةِ والكتابةِ في الكبرِ أمرٌ صعبٌ»، قال مُكشراً ثمَّ تابعَ: «يتقدمُ الفتيةُ الصغار في دروسِهم بشكلٍ أسرع مني، ولكنني أستطيعُ نسخَ الصلوات اللاتينية من كتابِ الصلواتِ».

كانت غويندا تحسدهُ فهي لم تكن قادرةً على كتابةِ اسمها. «هذا رائعٌ!» قالت له. كان شقيقها في طريقهِ إلى تحقيقِ حلمهِ بأن يُصبحَ راهباً. قد يساعدهُ وضعهُ كراهبٍ مبتدئ على تحسينِ شعورهِ بالوضاعةِ الذي كان باعتقادها يدفعُه في كثيرٍ من الأحيان إلى التصرفِ بمكرٍ وخداعٍ.

«ولكن ماذا عنكِ؟» قال لها. «ما سببُ قدومكِ إلى كينغزبريدج؟»

«هل علمتَ بأنَّ رالف فيتزجيرالد قد أصبحَ سيد ويغلي؟»

«أجل. إنَّهُ في المدينةِ وهو ينزلُ في نزلِ بيل».

«لقد رفضَ السماحَ لولفريك بوراثةِ أرضِ أبيهِ». وأخبرَت فيليمون بالقصَّةِ كلها. «أريدُ أن أعرف إن كان هناكَ طريقةٌ لنقضِ هذا القرار».

هزَّ فيليمون رأسَه وقال: «الجوابُ هو لا. بالطبع يُمكن لولفريك أن يلتمس إلى إيرل شايرنغ ويطلبَ منهُ نقضَ قرارِ رالف، ولكن الإيرل لن يتدخلَ ما لم تكن لهُ مصلحةٌ شخصيَّةٌ في الأمر. وحتَّى وإن رأى أنَّ القرارَ غيرُ عادلٍ -كما هو في الحقيقةِ- فهو لن يقوضَ سلطةَ السيدِ الذي عيَّنهُ مؤخراً. ولكن ما هي مصلحتكُ في كل هذا؟ اعتقدتُ أنَّ ولفريك سيتزوجُ من آنيت».

«عندما أعلنَ رالف عن قرارهِ تخلَّت آنيت عن ولفريك وتزوجَت من بيلي هاورد».

«وأصبحَ لديكِ الآن فرصةٌ للفوزِ بولفريك».

«أعتقدُ هذا»، قالت هذا وقد توردت وجنتاها.

«كيف لكِ أن تعلمي هذا؟» سألها بدهاءٍ.

«لقد استغللتهُ»، قالت معترفةً. «عندما كان حزيناً بسببِ الزفافِ نمتُ معهُ».

«لا تلقي بالاً للأمرِ. يتوجب علينا نحنُ الفقراء أن نلجأ إلى الدهاءِ لنحصلَ على ما نريدُهُ. إنَّ الندمَ لأصحابِ الامتيازاتِ فقط».

لم تكن تحب سماعهُ يتحدثُ بهذهِ الطريقةِ، فهو أحياناً يبدو كأنّه يعتقدُ بأنَّ أيَّ سلوكٍ يمكن تبريرهُ بأهوالِ الطفولةِ العصيبةِ التي عاشها، إلَّا أنَّها الآن كانت تشعرُ بالخيبةِ الشديدةِ، ولم تهتم بهذا. «ألا يوجد ما يمكننا فعلهُ؟»

«أوه، لم أقل هذا. لقد قلتُ إننا لا نستطيعُ نقضَ القرارِ، ولكن يمكنكِ تليين عريكةِ رالف».

«لن أقومَ أنا بهذا من كلِ بدٍ».

«لا أعلمُ. لمَ لا تذهبين لمقابلةِ كاريس، نسيبةِ غودوين؟ أنتما صديقتان منذُ الطفولةِ. ستقدمُ لكِ المساعدةَ إن استطاعت فهي مُقرّبةٌ من ميرثن، شقيقِ رالف. وربما يفكرُ ميرثن بحلٍ ما».

كان وجودُ أملٍ بشيءٍ أفضل من انعدامِ الأملِ بالمرَّةِ. وقفَت غويندا لتغادر. «سأذهبُ لمقابلتها على الفورِ». وانحنَت لتقبيلِ شقيقها قبلةَ الوداعِ ولكنَّها أدركت أنّه يُحرَّم عليهِ مثلُ هذه الأمور الآن، وبدلاً من هذا صافحتهُ. بدا الأمرُ غريباً.

«سأُصلي من أجلك»، قال لها.

يقعُ منزلُ كاريس قبالةَ بواباتِ الديرِ. عندما توجهت غويندا إلى المنزلِ ودخلتهُ لم تعثر على أحدٍ في قاعةِ الطعام ثمَّ سمعَت أصواتاً في غرفةِ الجلوسِ حيثُ كان إدموند يقومُ بأعمالهِ. أخبرتها الطبَّاخة توتي أنَّ كاريس برفقةِ والدها. جلسَت غويندا في انتظارها وهي تضربُ بقدمِها على الأرضِ في نفاد صبرٍ، ولكن لم يمضِ وقتٌ طويلٌ إلى أن فُتحَ بابٌ.

خرجَ إدموند وبرفقتهِ رجلٌ لم تعرفهُ غويندا. كان رجلاً طويلاً له فتحتا أنفٍ متسعتان جعلتاه يبدو مُتكبراً. ارتدى ثوبَ كاهنٍ ولكن من دونِ صليبٍ أو أيِّ رمزٍ مقدسٍ. أومأ إدموند بودٍ لغويندا وقالَ للغريبِ: «سأرافقكَ إلى الديرِ».

خرجَت كاريس من غرفةِ الجلوسِ واحتضنَت غويندا.

«من هذا الرجلُ؟» سألت غويندا كاريس حالما غادرَ الرجلان.

«يدعى غريغوري لونغفيلو. إنَّهُ محامٍ ويعملُ لمصلحة رئيسِ الديرِ غودوين».

«ولماذا استعانَ بهِ غودوين؟»

«لقد فرضَ الإيرل رولاند على الدير مبلغَ بنسٍ على كلِ حمولةِ حجارةٍ ينقلونها من المقلعِ. سيُقدمُ غودوين التماساً للملكِ في هذا الشأنِ».

«هل أنتِ متورطةٌ في هذا؟»

«يعتقدُ غريغوري أنّه علينا محاججةُ الملكِ في هذا الشأنِ والقولُ لهُ إن المدينة لن تتمكن من دفعِ ضرائبِها ما لم يُبنَ الجسر. إنَّها الطريقةُ المثلى لإقناعِ الملكِ. ولهذا السببِ سيذهبُ والدي مع غودوين للشهادةِ في المحكمةِ الملكيَّةِ».

«هل سترافقينهما؟»

«أجل. ولكن لمَ أنت هنا؟»

«لقد نمتُ مع ولفريك».

ابتسمَت كاريس وقالت: «وأخيراً! كيفَ كان الأمرُ؟»

«كان رائعاً. استلقيتُ بقربهِ وهو نائمٌ طوال الليلِ، وعندما استيقظَ... أقنعتهُ».

«أخبريني بالمزيد. أريدُ أن أعرفَ التفاصيل».

أخبرَت غويندا كاريس بكاملِ القصةِ. وفي النهايةِ ورغمَ نفاد صبرِ كاريس لفهمِ الغرضِ الحقيقي من زيارتها قالت لها غويندا: «ولكني أشعرُ بأنَّ لديكِ أخباراً أيضاً».

أومأت كاريس برأسِها وقالت: «لقد نمتُ مع ميرثن. كنتُ قد أخبرتهُ بأنني لا أريدُ الزواج فذهبَ لرؤيةِ تلكِ الخنزيرةِ السمينةِ بيسي بيل. شعرتُ بالضيقِ الشديدِ عندما تخيلتها تعرضُ ثدييها أمامه، ومن ثمَّ عادَ وكنتُ مسرورةً جداً إلى درجةِ أنني قررتُ النوم معهُ».

«هل أحببتِ الأمرَ؟»

«أحببتهُ جداً. إنَّه أفضل شيءٍ قد يقومُ بهِ المرءُ بل ويصبحُ أفضل مع مرورِ الوقتِ. إننا نقومُ بالأمرِ كلما تسنَّت لنا الفرصةُ».

«ماذا لو حملتِ منهُ؟»

«أنا لا أفكرُ بالأمرِ، ولا أهتَّمُ بشيءٍ حتَّى لو متُ. في إحدى المراتِ سبحنا في بركةٍ في الغابةِ، وبعدها أخذَ يلعقني ... في الأسفلِ».

«أوه، هذا مقرفٌ! كيف كان الأمرُ؟»

«جميلاً. وهو أحبَّهُ أيضاً».

«لا تقولي لي إنَّكِ فعلت الأمر عينه معهُ؟»

«أجل».

«ولكن هل...؟»

أومأت كاريس رأسَها وقالت: «في فمي».

«هل كان الأمرُ كريهاً؟»

هزَّت كاريس كتفيها وقالت: «كانَ طعمهُ غريباً... ولكنّ الشعورُ ممتعٌ. وقد استمتعَ بهِ جداً».

شعرَت غويندا بالصدمةِ إلَّا أنَّها كانت مذهولةً بما سمعتهُ. فكرت بأن تفعل الأمرَ عينه مع ولفريك، وهي تعرفُ مكاناً يستطيعان السباحة فيه. كان جدولاً في أعماقِ الغابةِ وهو بعيدٌ عن الطرقاتِ...

قالت كاريس: «ولكنكِ لم تقطعي كلَّ هذهِ المسافةِ لتخبريني عن ولفريك».

«لا. أتيتُ من أجلِ إرثِه»، قالت لها غويندا وشرَحت لها قرار رالف. «يعتقدُ فيليمون أنَّ ميرثن قادرٌ على اقناعِ رالف بتغيير رأيِهِ».

هزَّت كاريس رأسَها في قنوطٍ: «أشكُّ بذلكَ فهما متخاصمان».

«أوه، لا».

«إنَّ رالف المسؤول عن إيقافِ العربات التي تنقلُ الحجارةَ من المقلعِ.

لسوءِ الحظِ كان ميرثن في المقلعِ وقتئذٍ، وقد قتلَ بين ويلر أحدَ رجالِ الإيرل فقتلهُ رالف».

شهقَت غويندا وقالت: «ولكن زوجةُ ليب ويلر لديها طفلٌ في الثانيةِ».

«أصبحَ بيني المسكين يتيماً الآن».

شعرَت غويندا بالأسفِ على نفسِها وعلى ليب. «إذاً، لن يؤثر شقيقهُ عليهِ».

«لنذهب ولنقابل ميرثن على أيِّ حالٍ. إنَّهُ يعمل على جزيرة ليبر اليوم».

غادرتا المنزل وسارتا على الطريقِ الرئيسي باتجاهِ ضفةِ النهرِ. كانت غويندا تشعرُ بالإحباطِ؛ فالجميعُ يعتقدُ أنَّ فرصتها في النجاحِ ضعيفةٌ. لم يكن في كل ما يحصل أيُّ عدلٍ.

طلبتا من إيان بوتمان أخذهما على القاربِ إلى الجزيرةِ. وشرحَت كاريس لغويندا أنَّهم استبدلوا الجسرَ القديمَ بجسرين جديدين، وأنَّ الجزيرةَ ستكونُ أشبهَ بمحطةِ عبورٍ بينهما.

عثرتا على ميرثن مع مساعدِهِ الصغير الفتى جيمي الذي يبلغُ الرابعةَ عشرة من العمرِ قريباً من الجسرِ الجديدِ. وجدتا ميرثن يقيسُ بعصا القياسِ التي كانت عبارةً عن قضيبٍ حديدي أطول بمرتين من قامةِ رجلٍ، وكان يدقُّ أوتاداً في الأرضِ الحجريةِ لتحديدِ أماكن حفرِ الأساساتِ.

راقبَت غويندا الطريقةَ التي قبَّلَ بها كاريس وميرثن بعضهما بعضاً. كانت قُبلتهما مختلفةً. ولاحظت أنَّ جسديهما يفيضان بالحميميةِ من هذا القُربِ. بدا هذا جديداً عليها وشبيهاً بشعورِ غويندا حيال ولفريك؛ فهي لم تكن ترغبُ بجسدِهِ فحسب بل تستمتعُ بهِ تماماً كما تستمتعُ بجسدِها، كأنَّ جسدَهُ وجسدَها واحدٌ.

ثمَّ راقبَت مع كاريس كيفَ أنهى ميرثن ما كان يقومُ به، ويربطُ خيطاً من القنَّبِ بين وتدين، ثمَّ طلبَ من جيمي أن يوضبَ العدَّةَ.

قالت غويندا: «أعتقدُ أنَّه لا يمكنكَ العملُ من دونِ الحجارةِ».

«أخذنا بعضَ الإجراءاتِ في هذا الشأنِ. لقد أرسلتُ جميعَ البنَّائين إلى المقلعِ ليأخذوا قياسات الحجارةِ هناك بدلاً من أخذِها هنا في الموقعِ. وحالياً كل ما نقومُ به هو تجميعُ الحجارةِ».

«هذا يعني أنَّكَ إن ربحتَ القضيةَ في المحكمةِ الملكيَّةِ، يمكنكَ معاودةُ البناءِ على الفورِ».

«آملُ هذا، ولكن هذا يتوقفُ على المدةِ التي ستأخذها القضيةُ، وعلى

الطقسِ أيضاً. لا يسعنا البناءُ في منتصفِ الشتاءِ لأنَّ الجليدَ سيُجمدُ الملاط. وها هو شهر تشرين الأول/ أكتوبر قد حلَّ. عادةً ما نتوقفُ عن البناءِ في منتصفِ شهر تشرين الثاني/ نوفمبر». ونظرَ ميرثن إلى السماءِ. «وقد نستطيعُ الاستمرارَ لوقتٍ أطول قليلاً هذا الشتاء؛ فالغيوم المُحمَّلةُ بالمطرِ تحافظُ على حرارةِ الأرضِ».

وأخبرتهُ غويندا بما أتت من أجلِهِ.

«أتمنى لو كان بوسعي مساعدتك»، قال ميرثن. «إنَّ ولفريك شابٌ صالحٌ، ولم يكن الشجار غلطتهُ بل غلطةَ رالف. ولكننا أنا وأخي متخاصمان، ويجب أن نتصالح قبلَ أن أطلبَ منهُ أيَّ معروفٍ، وأنا لا أستطيعُ مسامحتهُ على قتلِ بين ويلر».

وفكَّرَت غويندا أنّ هذا ثالثَ جوابٍ بالنفي على التوالي. ربما لم تُحسن تقدير صعوبةِ هذه المهمةِ التي أخذتها على عاتقها.

قالت كاريس: «ربما عليكِ القيامَ بهذا وحدكِ».

«أجل، سأفعل»، قالت غويندا بحزمٍ. كان الوقتُ قد حانَ لتكفَّ عن طلبِ العونِ من الآخرين، وتبدأ بالاتكالِ على نفسها، تماماً كما عاشت حياتَها حتّى الآن. «إن رالف في المدينة، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«أجل»، قال ميرثن. «لقد أتى ليُخبرَ والدي الأخبارَ الطيبةَ عن ترقيتهِ. وأولئكَ الثلاثة هم الوحيدون السعداء بهذا الخبرِ في هذه المقاطعةِ».

«ولكنَّهُ لن يبيتَ عندهم».

«لا، فهو يعتقدُ نفسهُ أنّه باتَ أرفعَ شأناً من البقاءِ في منزلهما، ولذلك ينزلُ في نُزلِ بيل».

«ما هي أفضلُ طريقةٍ لإقناعهِ؟»

وأخذَ ميرثن بعضَ الوقتِ في التفكيرِ ثمَّ قال: «إنَّ رالف شديدُ الحساسيةِ حيالَ الإذلال الذي تعرَّضَ له والدنا بعد خسارتهِ لمكانتهِ كفارسٍ والعيشِ على حسابِ الديرِ. سيفعلُ رالف أيَّ شيءٍ من شأنهِ إعلاءُ مكانتهِ الاجتماعيةِ».

أخذت غويندا تفكرُ بالأمرِ بينما إيان بوتمان يجذّفُ بهما في طريقِ العودةِ إلى المدينةِ. وتساءلت في نفسِها كيف يُمكن لها أن تُقدّمَ قضيتها أمامَ رالف بطريقةٍ تقنعهُ فيها بأنَّ مطلبَها سيرفعُ من مكانتهُ الاجتماعيةِ. كانَ الوقتُ الآن منتصفَ النهارِ وسارت مع كاريس وميرثن عبرَ الشارعِ الرئيسي إلى منزلِ كاريس لتناولِ

الغداءِ. دعَت كاريس غويندا للانضمامِ إليهما، إلّا أن غويندا كانت ترغبُ بمقابلةِ رالف على الفورِ، ولهذا رفضَت الدعوة وتوجهَت إلى نُزلِ بيل.

أخبرَها الساقي أنَّ رالف يشغلُ أفضلَ الغُرفِ في الطابقِ العلوي. كان معظمُ النزلاءِ ينامون في غرفةِ النومِ العمومية، وفكرت غويندا بحسرةٍ في أنَّ رالف يرغبُ بتوكيدِ مكانتِهِ الاجتماعيةِ الجديدةِ من خلالِ دفعِ إيجارِ غرفةٍ بأكملها من المالِ الشحيحِ لمحاصيلِ فلاحي ويغلي.

قرعَت البابَ ودخلت.

كان رالف في الداخلِ مع مرافقهِ آلان فيرنهيل الذي كانَ فتى في الثامنة عشرة بكتفين عريضتين ورأسٍ صغيرٍ. على الطاولةِ إبريقٌ من الجعةِ، ورغيفٌ من الخبزِ وقطعةٌ من اللحمِ الساخنِ يتصاعدُ منهُ بخارٌ. كانا على وشكِ الانتهاءِ من تناولِ طعامِ العشاءِ، وفكَّرَت غويندا بأنهما يبدوان راضيين بنصيبهما من الحياةِ. كانت تأملُ ألا يكونا ثملين جداً؛ فلا يمكن للنساءِ التحدثُ إلى الرجال عندما يكونون ثملين لأنّهم سيتفوهون بأمورٍ بذيئةٍ ويضحكونَ بلا حولٍ على ما يقولونهُ بعضهم لبعض.

أمعنَ رالف النظرَ إليها فالإضاءةُ في الغرفةِ لم تكن جيّدةً وقال: «أنتِ لست الخادمة، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«لا يا سيدي، ولكنني أريدُ أن أكونَ. أنا غويندا، والدي يدعى جوبي، وأنا عاملةٌ من دونِ أرضٍ».

«وما الذي تفعلينهُ هنا بعيداً عن القريةِ؟ لسنا في يومِ السوقِ».

تقدَّمَت غويندا خطوةً إلى الأمامِ حتّى ترى وجههُ بوضوحٍ أكبر. «سيدي، أتيتُ لألتمسَ من أجلِ ولفريك ابنِ الراحل سامويل. أعلمُ أنّه أساءَ التصرف معكَ سابقاً، ولكن منذُ وفاةِ عائلتِهِ وهو يقاسي ما قاساه أيوبُ من ويلاتٍ. لقد توفي والداه وشقيقهُ بانهيارِ الجسرِ، وخسرَ مالَ العائلةِ في الحادث، ومن ثمَّ تزوجَت خطيبتُهُ من رجلٍ آخر. آملُ حقاً أن تكون على يقينٍ من أنَّ الرّبَّ قد عاقبهُ بقسوةٍ على فعلتِهِ معكَ، وأنَّ الوقت قد حانَ لبعضِ الرحمةِ». ثمّ تذكرت ما نصحَها بِهِ ميرثِن فتابعت قائلةً: «والرحمةُ من شيمِ النبلاءِ».

تجشأ رالف بصوتٍ عالٍ ثمَّ تنهدَ وقال: «ولمَ تهتمين بأمرِ إرثِ ولفريك؟»

«أحبهُ يا سيدي. الآن وبما أنَّ آنيت تركتهُ فأنا أتمنى الزواج منه إن تفضلتَ بالسماحِ لنا طبعاً».

«اقتربي»، قال رالف.

تقدَّمَت إلى وسطِ الغرفةِ ووقفَت أمامهُ.

ألقى نظرةً فاحصةً على جسدِها وقال: «أنتِ لستِ جميلة، ولكن هناك شيئاً ما فيكِ. هل أنتِ عذراء؟»

«سيدي.. أنا.. أنا...»

«من الواضح أنكِ لستِ عـذراء»، قال رالف ضاحكاً. «هل نمتِ مع ولفريك؟»

«لا!»

«كاذبةٌ». وابتسمَ في استمتاعٍ. «حسناً، إن سمحتُ لولفريك بأخذِ أرضِ والدهِ، وربما هذا ما يجب أن أفعلَهُ، ما الذي سيحصلُ بعد هذا؟»

«سيعلمُ الجميعُ في ويغلي بل وفي العالمِ أنَّكَ رجلٌ نبيلٌ بحقٍ».

« لن يهتم العالمُ بهذا ولكن هل ستكونين ممتنةً لي؟»

واجتاحَ غويندا شعورٌ مريعٌ بأنّها تعرفُ ما يقصده بكلامهِ. «بالطبعِ، سأكونُ ممتنةً جداً».

«وكيفَ ستُثبتين هذا؟»

تراجعَت غويندا خطوةً إلى الوراء باتجاهِ البابِ وقالت: «بأيِّ طريقةٍ ممكنةٍ لا تجلبُ أي عارٍ».

«هل ستخلعينَ ثوبكَ؟»

وشعرَت بقلبِها يغوصُ في صدرِها: «لا يا سيدي».

«آه، إذاً لن تكوني شديدةَ الامتنانِ».

وصلَت إلى البابِ وأمسكَت بالمقبضِ ولكنها لم تخرج بل قالت: «ما... الذي طلبتهُ مني يا سيدي؟»

«أريدُ أن أراكِ عاريةً، وعندها سأقررُ».

«هنا؟»

«أجل».

نظرَت إلى آلان وقالت: «أمامَهُ؟»

«أجل».

لم يبدُ لها التعري أمامه بالأمرِ الجللِ مقابلَ الحصولِ على الجائزةِ ألا وهي استعادةُ إرثِ ولفريك.

وبسرعةٍ حلَّت حزامَها ورفعَت ثوبَها وخلعتهُ. أمسكَت فستانها بيدها بينما

أبقَت يدَها الأخرى على مقبضِ البابِ وهي تحدقُ في تحدٍ نحو رالف. نظرَ رالف إلى جسدِها بشهوةٍ ثمَّ نظرَ إلى مرافقهِ بابتسامةِ نصرٍ، ورأت غويندا أنَّ للأمرِ علاقةً باستعراضِ قوتهِ ليسَ أكثر.

وقال رالف: «يا لها من بقرةٍ قبيحةٍ ولكنها تملكُ ثديين جميلين، ما رأيكَ يا آلان؟»

أجاب آلان: «لن أسابقكَ للحصولِ عليها».

وضحكَ رالف.

قالت غويندا: «والآن هل ستُلبي طلبي؟»

وضعَ رالف يدهُ على منفرجيهِ وبدأ يداعبُ نفسهُ ثمّ قالَ: «نامي معي على ذلكَ السريرِ».

«لا».

«هيا، لقد فعلتها مع ولفريك وأنتِ لستِ عذراء».

«لا».

«فكري بالأراضي، بالتسعين فداناً من أراضي والدِهِ».

وفكَّرت غويندا. إن قبلت فسيحصلُ ولفريك على ما يشتهيهِ، ويمكن لهما أن يعيشا حياةً رغيدةً. وإن أصرَّت على الرفضِ سيبقى ولفريك عاملاً من دونِ أرضٍ كوالدها جوبي، وسيصارع طوالَ حياتِهِ لإطعامِ أولادِهِ وسيفشلُ في هذا أغلبَ الظنِ.

إلّا أن الفكرةَ كانت مُنفرةً لها؛ فرالف رجلٌ بغيضٌ وتافهٌ وحقودٌ ومتنمرٌ، وهو مختلفٌ جداً عن شقيقهِ. وعلى الرغمِ من طولهِ ووسامتهِ فإنّ هذا لم يُشكل فرقاً. سيكونُ من المقرفِ النومُ مع شخصٍ تبغضهُ إلى هذهِ الدرجةِ.

وحقيقةُ أنَّها مارسَت الحبَّ مع ولفريك البارحةَ فقط جعلت من احتمالِ النومِ مع رالف منفرةً أكثر؛ فبعدَ ليلةٍ حميمةٍ مبهجةٍ مع ولفريك ستكون مضاجعةُ رجلٍ آخر خيانةً رهيبةً.

وقالت لنفسها إنَّها لا يجب أن تتصرفَ بحُمقٍ، فهي لن تحكم على نفسِها بحياةٍ شقيَّةٍ من أجلِ خمسِ دقائق من الضيقِ؟ وفكَّرت بوالدتها وبالأطفالِ الذينَ ماتوا، وتذكرَت كيف أُجبرت هي وفيليمون على السرقةِ. ألن يكون من الأفضلِ لها القبولُ بالنومِ مع رالف لبضعِ دقائق بدلاً من أن تحكمَ على أطفالِها الذين لم تلدهم بعد بحياةٍ من الفقرِ.

بقي رالف هادئاً بينما فكرت هي بالأمرِ. لقد تصرَّفَ بحكمةٍ فأيّ كلمةٍ يتلفظُ بها الآن قد تشعلُ رفضها لهُ.

كان الصمتُ حليفَهُ.

«من فضلكَ»، قالت غويندا. «لا تجبرني على القيامِ بهذا!».

«آه»، قال رالف. «هذا يعني أنّكَ مستعدة للقيام بِهِ».

«هذهِ خطيئةٌ»، قالت في يأسٍ. لم تتحدث كثيراً عن الخطيئةِ، ولكنَّها أرادَت انتهازَ مثل هذه الفرصةِ للتأثيرِ عليهِ. «أنتَ ترتكبُ خطيئةً بطلبكَ هذا مني، وأنا أرتكبُ خطيئةً بالقبولِ».

«الخطايا تُغتفر».

«ما الذي سيُفكر به شقيقكَ إن علمَ بالأمرِ؟»

دفعَهُ هذا إلى التوقفِ قليلاً، وبدا متردداً لبعضِ الوقتِ.

«من فضلكَ»، قالت له. «دعْ ولفريك يرثُ الأرضَ».

واكتنفَت القسوةُ وجههُ مجدداً. «لقد اتخذتُ قراري، وأنا لن أتراجع عنهُ ما لم تقنعيني بهذا. ورجاؤكِ بهذه الطريقةِ لن يفيدكِ». ومضت عينا رالف بالرغبةِ وتسارعَت أنفاسهُ وافترَّ فمه ولمعَت شفتاه تحت لحيتِهِ.

ألقَت بثوبِها على الأرضِ وتوجهت إلى السريرِ.

«اركعي على الفراش»، قال رالف. «لا أريد أن أرى وجهَك».

وفعلت ما طلبهُ منها.

«إنَّ المنظرَ من هذهِ الجهةِ أفضل»، قال رالف وضحكَ آلان بصوتٍ عال.

تساءلت غويندا في نفسها إن كان آلان سيبقى لمشاهدةِ هذا، ولكن رالف قالَ له: «اتركنا وحدنا». خرجَ آلان وصفقَ البابَ وراءَه.

ركعَ رالف على السريرِ خلفَ غويندا التي أغلقَت عينيها وأخذَت تصلي من أجلِ المغفرةِ. شعرَت بأصابعهِ الغليظةِ تستكشفها وسمعته يبصقُ ويمسدُ يدَهُ الرطبةَ عليها ثمَّ وطئها بينما أخذت هي تتأوهُ من العارِ.

اعتقدَ رالف أنّها تتأوه من المتعةِ وقال لها: «أتحبين هذا؟ أليس هذا صحيحاً؟»

أخذَت تتساءلُ في نفسِها إلى متى سيطول الأمرُ. بدأ رالف يتحرَّكُ بإيقاعٍ وحتّى تخففَ من شدةِ ضيقِها أخذَت تتحركُ معهُ وهو يضحكُ في انتصارٍ ظناً

منه أنَّهُ أججَ شبقها. كانت أعظمُ مخاوفها أن يعطبَ هذا تجربتَها في ممارسةِ الحبِّ، وتساءلت إن كانت في المستقبل ستفكرُ بهذهِ اللحظةِ عندما تنامُ مع ولفريك.

ثمَّ ولوهلةٍ شعرَت بالروعِ عندما بدأ دفقٌ شبقٌ ودافئٌ يغزو فرجها. شعرَت بوجهها يحمرُّ من العارِ. وعلى الرغمِ من اشمئزازِها اللامحدود إلَّا أنَّ جسدها قد خانَها، وفاضَ رطوبةً في داخلِها مما سهلَ احتكاكَ عضوهِ. شعرَ بهذا التغييرِ وبدأ يتحركُ بسرعةٍ أكبر. ولأنَّها كانت متقززةً منه توقفت عن الحركةِ مع إيقاعِ حركتهِ، ولكنَّهُ أمسكها من وركيها وهو يُقحمُ ويخرجُ عضوه. كانت عاجزةً عن المقاومةِ، وتذكَّرَت بأسى كيف خانَها جسدُها قبلاً مع آلوين في الغابةِ. وما حدثَ سابقاً قد تكررَ الآن. لقد أرادَت لجسدها أن يكونَ أشبه بتمثالٍ خشبي جامد في كلتا المرَّتين إلَّا أنَّهُ لم يخضع لمشيئتِها.

كانت قد قتلت آلوين بسكينِهِ.

لم يكن بوسعِها فعلُ الأمرِ ذاتِهِ مع رالف حتَّى لو أرادت أن تفعل هذا لأنَّهُ كان وراءَها. لم يكن بوسعِها رؤيته، ولم تكن مُسيطرةً على جسدها: كانت تحتَ رحمتهِ. وأحسَّت بالسعادةِ عندما شعرَت بأنَّهُ يوشكُ على الوصولِ إلى الذروةِ. قريباً سينتهي الأمرُ برمّتهِ، وشعرَت بعضوها يستجيبُ فحاولت أن تكبحَ جسدها وألَّا تفكر بشيءٍ. سيكون من المهين جداً أن تصلَ إلى الذروةِ أيضاً. شعرَت برالف يقذفُ في داخلِها، وارتعدَت ولكن ليسَ من المُتعةِ بل من القرفِ.

تنَهدَ رالف في رضا، وسحبَ عضوهُ منها ثمَّ استلقى على ظهرهِ على السريرِ.

نهضَت غويندا وارتدَت ثوبَها بسرعةٍ.

«كانَ الأمر أفضل مما توقعت»، قال رالف كأنّه يقدمُ مجاملةً مهذبةً.

خرجَت غويندا وأطبقَت البابَ وراءها.

***

في صباحِ الاحدِ التالي وقبلَ مراسمِ القدَّاسِ في الكنيسةِ وصلَ نيثان ريڤ إلى منزلِ ولفريك.

كانت غويندا وولفريك جالسين في المطبخِ وقد انتهيا للتو من تناولِ الفطورِ وكنسِ الغرفةِ. كان ولفريك يرتقُ سروالاً من الجلدِ بينما غويندا تجدلُ حزاماً من الخيوطِ. جلسا بقربِ النافذةِ من أجل الإضاءةِ لأنَّ السماء كانت تمطرُ مجدداً.

كانت غويندا تتظاهرُ بأنّها تعيشُ في الحظيرةِ حتّى لا يعترضَ الأبُ غاسبارد، ولكنّها كانت تقضي كلَّ ليلةٍ مع ولفريك. لكن ولخيبةِ أملها لم يُفاتحها في موضوعِ الزواجِ بعد. على أيِّ حالٍ كانا يعيشان كأيِّ زوجين ينويان الزواج حالما ينتهيان من مسألةِ الشكليات. لم يكن يُسمحُ للنبلاءِ والسادةِ بفعلِ هذا على عكسِ الفلاحين الذين يستطيعون فعلَ ما يشاؤون.

بعد لقائها مع رالف توجست غويندا من أن تصبحَ ممارسةُ الحبِّ مع ولفريك غريبةً وهذا ما حصل. وكلّما حاولت عدمَ التفكيرِ برالف فرضت هذهِ الذكرى نفسها بقوةٍ أكبر. لحسنِ الحظِ لم يلحظ ولفريك هذا التغيير عليها، ومارسَ معها الحبُّ بحماسةٍ ومتعةٍ طغَت، وإن لم يكن تماماً، على تأنيبِ ضميرِها.

كان عزاؤها في كلِّ هذا أنّه سيرثُ أراضي عائلتِهِ، وهذا ما هوَّنَ عليها الأمر. بالطبعِ لن تخبرهُ بهذا لأنّها ستضطرُّ إلى شرحِ سبب تغييرِ رالف لرأيِهِ. أخبرتهُ عن حديثِها مع فيليمون وكاريس وميرثن، ولم تسردْ له كلَّ ما حدثَ بينها وبينَ رالف، واكتفت بالقولِ إنّه وعدَها بإعادةِ التفكيرِ في الأمرِ، ولهذا شعرَ ولفريك بالأملِ وليسَ بالانتصارِ.

«رافقاني إلى منزلِ السيدِ على الفورِ»، قال نيثان الذي ظهرَ رأسهُ المبلل من وراءِ البابِ.

قالت غويندا: «ما الذي يريدهُ السيد رالف؟»

«هل سترفضان القدوم لو أنّه أخبرني بالموضوعِ الذي يريدُ التحدَّثَ بهِ معكما ولم تكونا مهتمين بهِ؟» قال نيثان ساخراً. «لا تطرحي أسئلةً غبيةً، ورافقيني».

وضعَت بطانيةً على رأسِها فهي لم تكن تملكُ عباءةً وسارَت باتجاهِ القصرِ. كان ولفريك قد حصلَ على المالِ من بيعِ المحاصيلِ ويمكنهُ شراءُ عباءةٍ لها إلّا أنّه كان يدخرُ المالَ من أجلِ ضريبةِ الإرثِ.

ركضوا تحتَ المطرِ باتجاهِ منزلِ السيد. كان القصرُ عبارةً عن نسخةٍ مُصغّرةٍ عن قلعةٍ بقاعةٍ كبيرةٍ وغرفةِ طعامٍ طويلةٍ وطابقٍ علوي صغيرٍ حيث غرفةُ نومِ السيد الخاصّةِ. كان القصرُ الآن أشبهَ بمنزلٍ مما هو قلعة بسببِ وجودِ رجالٍ من دونِ زوجاتٍ، وبدت الجدرانُ عاريةً من دون أقمشةٍ مزدانةٍ بالرسوم، وأطلقَ القشُّ الذي كان منثوراً على الأرضيةِ رائحةً نفاذةً. زمجرت الكلابُ على القادمين الجدد وكان هناك فأرٌ يقضمُ قطعةَ خبزٍ على الطاولةِ.

جلسَ رالف عند رأسِ الطاولةِ وإلى يمينهِ جلسَ آلان الذي ابتسمَ بتكلفٍ لغويندا فبذلت أفضلَ ما بوسعها لتجاهلِ الأمرِ. وبعد برهةٍ دخلَ نيثان ولحقَ بهِ بيركن السمين والماكر يفركُ يديهِ وينحني بخنوعٍ. كان شعرُهُ دهنياً جداً إلى درجةٍ أنَّه بدا أصلع. وجاءَ برفقتهِ زوجُ ابنتهِ بيلي هاورد. ألقى بيلي نظرةَ انتصارٍ على ولفريك وبما معناه ها أنا قد حصلتُ على فتاتكِ وسأحصلُ الآن على أرضِكَ. ولكن هناكَ صدمةٌ بانتظارِ بيلي.

جلسَ نيثان إلى يسارِ رالف، وبقي الجميع واقفين.

تطلعَت غويندا قدماً لقدومِ هذهِ اللحظةِ التي كانت بمنزلة جائزةٍ لها على تضحيتها. كانت تتوقُ لرؤيةِ تعابيرِ وجهِ ولفريك عندما يعلمُ أنَّه حصلَ على إرثِ أبيهِ. ستغمرهُ الفرحةُ، وهي كذلك أيضاً، وسيكون مستقبلهما آمناً، أو آمناً قدر الإمكانِ في عالمٍ لا يمكن ضمانُ الطقسِ أو الأسعارِ فيهِ.

قال رالف: «منذُ ثلاثةِ أسابيع قلتُ إنَّ ولفريك ابن ساموئيل لن يرثَ أرضَ والدهِ لأنَّه صغيرٌ جداً». كان يتحدث ببطءٍ ورتابةٍ. وفكَّرَت غويندا بأنَّه مستمتعٌ بما يجري، بأن يكون جالساً عند رأسِ الطاولة وهو يصدرُ حكماً والجميعُ ينصتون إلى كلِّ كلمةٍ يتفوه بها. «يعملُ ولفريك في الأرضِ منذ ذلكَ الوقت وقد قررتُ من سيأخذ أرضَ الراحلِ ساموئيل». ثمَّ توقفَ عن الكلامِ لبرهةٍ. «ولكنني بدأت أشكك بقراري في منعِ ولفريك من أخذِ أرضِ والدهِ».

بدا بيركن كأنَّه بوغتَ. كان واثقاً جداً من النجاحِ وصدمَهُ ما سمعهُ للتو.

قال بيلي هاورد: «ما هذا؟ اعتقدتُ أنَّ نيثان..» ثمَّ وكزهُ بيركن فصمتَ.

لم تكن غويندا قادرةً على منعِ نفسها من الابتسام ابتسامةَ نصرٍ.

قال رالف: «ورغم صغرِ سنِ ولفريك فإنَّه أثبتَ نفسهُ كشخصٍ جديرٍ».

حدَّقَ بيركن إلى نيثان، وتكهنت غويندا أنَّ الأخيرَ قد وعدَ بيركن بالحصولِ على الأرضِ، وربما دفعَ لهُ رشوةً.

كان نيثان مصدوماً بقدرِ بيركن، ولوهلةٍ حدَّقَ نحو رالف مذهولاً، ثمَّ نظرَ إلى بيركن نظرةَ استغرابٍ وبعدها نظرَ إلى غويندا بارتيابٍ.

أضافَ رالف: «وفي عملهِ هذا دعمتهُ غويندا بقوةٍ وإخلاصٍ أثرا بي».

حدَّقَ نيثان نحوها مُفكراً، وكان بوسعِ غويندا أن تتكهنَ بما فكرَ بهِ نيثان. لقد أدركَ أنَّها تدخلت، وتساءلَ في نفسهِ كيف نجحت في التأثير على رالف

ليغيرَ قرارَهُ، وربما قد تكهنَ بما حصلَ حقاً. لم تهتم غويندا بما فكرَ بهِ نيثان ما دام ولفريك جاهلاً بما حصلَ.

وعلى حينِ غرّةٍ بدا نيثان كأنّه اتخذَ قراراً. نهضَ عن كرسيهِ وانحنى فوقَ الطاولةِ ليتحدَّثَ إلى رالف بهدوءٍ. لم تتمكن غويندا من سماعِ ما كانا يقولانِهِ.

«حقاً؟» قالَ رالف بصوتٍ طبيعي. «كم؟»

استدارَ بيركن نحو نيثان وهمسَ بشيءٍ له.

قالت غويندا: «مهلاً! ما الذي تهمسُ بهِ؟»

بدا بيركن غاضباً ولكنَّهُ قال على مضضٍ: «حسناً».

«حسناً، ماذا؟» قالت غويندا في خوفٍ.

«الضِعف؟» قال نيثان.

واجتاحَ غويندا شعورٌ بالارتياعِ.

قال نيثان بصوتٍ عالٍ: «يعرضُ بيركن دفعَ ضعفِ ضريبةِ الإرث، وهذا يعني أنّه سيدفع خمسة جنيهاتٍ».

قال رالف: «لقد اختلفَت الأمور الآن».

صرخَت غويندا: «لا!»

تحدَّثَ ولفريك للمرةِ الأولى قائلاً: «إنَّ مبلغَ الضريبةِ محدَّدٌ وفقَ الأعرافِ وهو مذكورٌ في سجلِ لورد ويغلي»، ثمَّ تابعَ في صوتٍ منخفضٍ لفتى في طورِ البلوغِ. «لا يمكنُ التفاوضُ في الأمرِ».

قال نيثان على الفورِ: «ولكنَّ ضريبةَ الإرثِ يمكن أن تتغير؛ فهي غير مذكورة في كتابِ دومزدي»[1].

«هل أنتما محاميان؟» قال رالف. «إن لم تكونا فلتصمتا. إنَّ مبلغَ ضريبةِ الإرث جنيهان وعشرة شلنات. وأي مبلغٍ آخرٍ يتَّمُ تبادلهُ ليسَ من شأنِكما».

أدركَت غويندا برعبٍ أنَّ رالف على وشك أن يحنثَ بالاتفاقِ بينهما. وتحدَّثَت بصوتٍ منخفضٍ واتهامي واضحٍ: «لقد وعدتني».

«لمَ قد أفعلُ شيئاً كهذا؟» قال رالف.

كانَ هذا السؤالَ الوحيدَ الذي لم يكن بوسعِها الإجابة عليهِ. «لأنني قدَّمْتُ لكَ التماساً»، أجابَت بوهنٍ.

1- يقدم كتاب دومزدي والمعروف أيضاً بكتاب وينشستر مسحاً جغرافياً للمدن والبلدات الإنجليزية. كان ويليام الأول من أمر بوضعه في القرن الحادي عشر. (المترجمة)

«وأنا قلتُ أنني سأعيدُ النظرَ بالأمرِ، ولكن لم أعد بشيءٍ».

كانت عاجزةً عن إجبارهِ على الوفاءِ بوعدِهِ، وأرادَت أن تقتلهُ. «أجل، لقد وعدت»، قالت له.

«لا يتفاوضُ السادةُ مع الفلاحين».

نظرَت إليهِ وقد خانتها الكلماتُ. إذاً، ذهبَ كل ما قامت بهِ هباءً: المسيرُ الطويلُ إلى كينغزبريدج، وإذلالُ التعري أمامَه وأمامَ آلان، والخطيئةُ التي اقترفتها على سريرِ رالف. لقد خانَت من أجلِ إرثِ ولفريك، وها هو ولفريك لن يرثَ أرضَ والدِهِ. أشارَت بإصبعِها إلى رالف وقالت بمرارةٍ: «فلتحلَّ لعنةُ الرَّبِّ عليكَ يا رالف فيتزجيرالد».

شحبَ وجهُ رالف فقد كان معلوماً أنَّ لعنةَ امرأةٍ مظلومةٍ قد تصيب. «حاذري في ما تقولينهُ»، أجابها رالف. «فالساحرات اللواتي يلقين بالتعاويذِ يُعاقبن».

وتراجعَت غويندا، فلا يمكنُ لأيِّ امرأةٍ الاستهانةُ بمثلِ هذا التهديدِ. كان من السهلِ اتهامُها بممارسةِ أعمالِ السحرِ ومن الصعبِ حقاً نقضُ الاتهامِ بعد توجيههِ، ولكنها لم تستطع منعَ نفسها من القولِ: «من يهربون من عدالةِ هذه الحياةِ ستكون بانتظارهم في الحياةِ الأخرى».

تجاهلَ رالف ما قالتهُ والتفتَ إلى بيركن: «أين المال؟»

لم يصبح بيركن غنياً من إخبارِ الناس عن المكانِ الذي يُخبئ فيه أموالَه. «سأذهبُ لاحضارهِ على الفورِ يا سيدي»، قال بيركن.

قال ولفريك: «تعالي يا غويندا. الرحمةُ ليست من نصيبنا هنا».

قاومَت غويندا دموعَها، وحلَّ الحزنُ مكانَ الغضبِ. لقد خسرا المعركةَ بعد كلِّ ما فعلاه. استدارَت ورأسُها مطأطأً لتخفي مشاعرها.

قال بيركن: «انتظر يا ولفريك. أنتَ تحتاجُ إلى عملٍ وأنا أحتاجُ إلى مساعدتكَ. فلتعمل معي، وسأدفعُ لكَ بنساً يومياً».

احمرَّ وجهُ ولفريك من الخزي والخجلِ لأنَّه عُرضَ عليه العملُ كعاملٍ يومي في الأرضِ التي كانت تمتلكُها عائلتهُ يوماً ما.

أضافَ بيركن: «وغويندا أيضاً. كلاكما شابان وقويان».

ولاحظَت غويندا أنَّه لم يقصد بقولِهِ هذا الإساءةَ إليهما، بل كان مُهتماً بتحقيقِ مصالحهِ ويرغبُ في الاستعانةِ بعاملين شابين قويين لزراعةِ أراضيهِ.

لم يكن يهتم، أو ربما لم يكن يعرف، أنَّ هذا كان أبشعَ إذلالٍ قد يتعرضُ له ولفريك».

قال بيركن: «هذا يعني أنّكما ستحصلان على شلنٍ كلَّ أسبوعٍ. سيكون لديكما الكثيرُ من المالِ».

وعلَت وجه ولفريك نظرةٌ تشي بالمرارةِ.

«أن أعملُ مقابلَ أجرٍ في الأراضي التي كانت مُلكاً لعائلتي في يومٍ من الأيامِ... هذا مستحيلٌ»، قال ولفريك واستدارَ مغادراً القصرَ.

لحقَت غويندا بهِ وهي تفكر بما عليهما فعلُه الآن.

-29-

بدَت قاعةُ ويستمنستر عظيمةً فقد كانت تضاهي في مساحتِها الداخليةِ مساحة بعض الكاتدرائيات في البلادِ. كانت قاعةً طويلةً وعريضةً بشكلٍ مهيبٍ، وسقفها العالي مدعّمٌ بصفين من الأعمدةِ الطويلةِ، وتعد هذه القاعة أهمَّ قاعات قصرِ ويستمنستر.

وفكَّرَ غودوين باستياءٍ بأنَّ الإيرل رولاند يتصرفُ كأنّه في مكانهِ الطبيعي فقد سارَ هو وابنه ويليام باختيالٍ في ثيابِهما الأنيقةِ. كانا يرتديان سراويل باللونين الأحمر والأسود. يعرفُ الإيرالات بعضهم بعضاً، ويعرفون البارونات أيضاً، وكانوا يربتون على أكتافِ أصدقائِهم ويمازحونهم ويضحكون بصوتٍ عالٍ على مزاحِهم. أرادَ غودوين أن يذكّرَهم أنَّ هذا البلاط يملكُ السلطةَ على الحكمِ على كلِّ واحدٍ منهم بالموتِ حتَّى وإن كانوا نبلاءً.

لزمَ غودوين ومرافقوه الهدوءَ، فلم يتكلموا إلَّا بعضهم مع بعض وبأصواتٍ مكمومةٍ، ولم يفعلوا هذا بدافعِ الاحترامِ بل من التوترِ. كان غودوين وإدموند وكاريس قلقين، فلم يزر أحدٌ منهم لندن قبلاً. كان الشخصُ الوحيدُ الذي يعرفونهُ هنا هو بونافينتورا كارولي الذي كان أجنبياً. لم يعرفوا كيفَ يجدرُ بهم التصّرفَ، وكانت ثيابهم قديمةَ الطرازِ، والمبلغ الذي أحضروه معهم واعتقدوا أنّه سيكون أكثرَ من كافٍ قد بدأ ينفد.

لم يظهر أيُّ خوفٍ على وجه إدموند بينما بدت كاريس مشتتةَ الانتباهِ كأنَّ شيئاً آخر أكثرَ أهميّة يشغلُ بالها رغمَ استحالةِ أن يكون هناك ما هو أهمُّ من هذا، أمَّا غودوين فقد بدا كأنّه يعاني من القلقِ؛ كان رئيسَ ديرٍ جديداً وفي مواجهةِ

مع أعظم نبيلٍ في البلدِ، وستحددُ هذه القضية مستقبلَ المدينةِ فمن دونِ الجسرِ سينتهي أمرُ مدينةِ كينغزبريدج. والديرُ الذي يعدُّ حالياً القلبَ النابضَ لإحدى أعظمِ المدنِ في إنكلترا سينتهي به المطاف مركزاً وحيداً في قريةٍ صغيرةٍ حيث يقومُ بضعةُ رهبانٍ بتكريسِ أنفسهم من أجل الرَّبِّ وسطَ فراغٍ يترددُ فيه الصدى داخلَ كاتدرائيةٍ متداعيةٍ. لم يكن غودوين قد حاربَ ليصبحَ رئيسَ الديرِ كي تذهبَ جائزتهُ أدراجَ الرياحِ.

ولأنَّ كلَّ هذا كان على المحكِ أرادَ غودوين أن يسيطرَ على سيرِ الأمورِ، فقد كانَ على ثقةٍ تامَّةٍ بأنَّهُ أذكى من جميع الحاضرين تقريباً وأذكى من جميعِ سكانِ كينغزبريدج. إلَّا أنَّه اليومَ شعرَ بعكسِ هذا، وتسببَ شعورُه بانعدامِ الثقةِ إلى تشتتِ انتباهِه.

كان وجودُ غريغوري لونغفيلو عزاءً لهُ فهو صديقٌ قديمٌ له منذ أيامِ الجامعةِ. يمتلكُ غريغوري عقلاً ماكراً ومناسباً لمزاولةِ مهنةِ المحاماةِ. كان البلاط الملكي بالنسبةِ لغريغوري مكاناً مألوفاً، ولذلكَ، وبكلِّ عدوانيةٍ وثقةٍ مفرطتين، قادَ غريغوري غودوين عبرَ المتاهةِ القانونيةِ. كان قد قدَّمَ التماسَ الديرِ إلى البرلمانِ كما فعلَ بقضايا كثيرة من هذا النوعِ قبلاً. لم يخضع الالتماس للمداولةِ في البرلمانِ بل تمَّ تحويلُه إلى مجلسِ الملكِ حيثُ درسَهُ المستشار، وقد يقومُ فريقُ المستشار المكون من محامين، وجميعهم من أصدقاءِ ومعارفِ غريغوري، إلى إحالةِ القضيةِ إلى محكمةِ الملكِ المعنية بالخلافات التي تمسُّ بمصالحِ الملكِ، ولكن، وكما توقعَ غريغوري، قرروا في المحكمةِ أنَّ هذه القضيةَ تافهةٌ جداً لينظرَ فيها الملكُ، ولذلكَ قاموا بتحويلِ القضيةِ إلى المحكمةِ العموميةِ، أو محكمةِ الاستئنافِ العمومي.

أخذَت كلُّ هذهِ الإجراءات ستةَ أسابيع. كان الوقت الآن أواخرَ شهرِ تشرين الثاني/ نوفمبر وقد غدا الطقسُ أكثرَ برودةً، وموسمُ البناءِ يشارفُ على الانتهاءِ.

وأخيراً، ها هم اليوم يقفون أمامَ القاضي العتيد السير ويلبرت ويتفيلد الذي يقالُ إنَّ الملكَ يحبهُ. كان السير ولبرت أصغرَ أبناء أحد بارونات الشمال، وقد ورثَ شقيقهُ الأكبر اللقبَ والمُلكية، ولذلك تدرَّبَ ويلبرت ككاهنٍ، ودرسَ القانون، وأتى إلى لندن وكسبَ ودَّ البلاطِ الملكي. حذَّرهم غريغوري أنَّه وبحكم هذا كلهُ فمن الطبيعي أن يميلَ القاضي إلى الحكمِ لمصلحة الإيرل وليس لمصلحة راهبٍ، ولكنه سيضعُ مصالحَ الملكِ فوقَ كلِّ شيءٍ.

جلسَ القاضي على مقعدٍ عالٍ قبالةَ الجدارِ الشرقي للقصرِ بين نافذتين تُطلّان على غرين يارد ونهر التيمز، وإلى طاولةٍ طويلةٍ أمامَه جلسَ موظفان في الوقتِ الذي لم يكن هناكَ أيُّ مقعدٍ للأطرافِ المتخاصمةِ.

«سيدي، لقد أرسلَ إيرل شايرنغ مجموعةً من الرجالِ المسلحين ومنعوا العاملين في مقلعِ دير كينغزبريدج من المرورِ»، قال غريغوري حالما حصلَ على انتباهِ السير ويلبرت. تحدَّثَ بصوتٍ يفيضُ بالنقمةِ. «إنَّ المقلع الذي يقعُ في أراضي الإيرل عطيّةٌ من الملكِ هنري الأول إلى الديرِ منذُ مئتي عام. وقد قدَّمَت إلى المحكمةِ نسخةً عن هذا الصَّكِ».

كان للسير ويلبرت وجه مورد وشعر غزاه الشيبُ. بدا وسيماً إلى أن بدأ في الكلامِ وظهرت أسنانُه المنخورة: «الصَّكُ أمامي».

وهنا تحدَّثَ الإيرل رولاند قبلَ أن يحصلَ على الإذنِ بالتحدثِ. «حصلَ الرهبانُ على المقلعِ لبناءِ الكاتدرائيةِ فحسب»، قال رولاند في تشدُّقٍ أجوفٍ.

وسارع غريغوري إلى القولِ: «ولكنَّ الصَّكَ لا يحصرُ استخدامَ المقلعِ لغرضٍ واحدٍ».

«وهم الآن يريدون بناءَ جسرٍ».

«لاستبدالِ الجسرِ الذي انهارَ في عيدِ العُنصرة. عمرُ ذلكَ الجسرِ مئاتُ السنين وبُني من خشبٍ قدَّمهُ ملكٌ». تحدَّثَ غريغوري كأنَّ كلَّ كلمةٍ تفوهَ بها الإيرل أثارَت حفيظتَهُ.

«إنَّهم لا يحتاجون إلى إذنٍ لإعادةِ بناءِ جسر موجودٍ أصلاً»، قالَ السير ويلبرت بحميَّةٍ. «ينصُّ الصكُّ على أنَّ الملكَ يشجعُ على بناءِ الكاتدرائيةِ ولا يذكرُ شيئاً بخصوصِ انتهاءِ حقوقِهم في استخدام المقلعِ عندما ينتهي العملُ على الكنيسةِ، أو يُحرِّم عليهم استخدام الحجارةِ لأغراضٍ أخرى».

شعرَ غودوين بعزيمتِهِ تعودُ إليهِ. يبدو أنَّ القاضي، ومنذُ البدايةِ، أخذَ جانبَ الديرِ في هذه القضيةِ.

فتحَ غريغوري يديهِ وراحتاه للأعلى في حركةٍ تعني أنَّ ما تفضلَ القاضي به حقيقةٌ واضحةٌ وضوحَ الشمسِ. «في الحقيقةِ يا سيدي، لقد تفاهمَ رؤساءُ الدير وإيرلات شايرنغ على هذا قبلاً ولثلاثةِ قرونٍ».

يعلمُ غودوين أنَّ هذا الجزء لم يكن صحيحاً؛ فقد وقعَ نزاعٌ حولَ الصَّكِ خلالَ فترةِ رئيس الدير فيليب، ولكن لا السير ويلبرت ولا رولاند يعرفان بهذا.

بدا سلوكُ رولاند متغطرساً كأنَّ الدخولَ في جدالٍ مع محامين لا يرقى إلى مستواه، ولكن هذا كان مجرَّدَ إدعاءٍ لأنّه كان متمسكاً بحجتِهِ: «لا ينصُّ الصّك على أنَّ الديرَ معفي من الضريبةِ».

قال غريغوري: «لمَ لم يفرض أيُّ إيرلٍ سابق مثلَ هذهِ الضريبةِ؟»

كان جوابُ رولاند جاهزاً. «جميعُ من سبقني لم يفرض على الكنيسةِ دفعَ الضريبةِ كنوعٍ من المساهمةِ في بناءِ الكاتدرائيةِ. كان هذا عملاً بدافعِ التقوى، ولكن ما من تقوى قد ترغمني على تقديمِ مساعدةٍ ماليةٍ في بناءِ جسرٍ. ورغمَ هذا يرفضُ الرهبان دفعَ المالِ».

وفجأةً انتقلَ الجدالُ ليصبَّ في مصلحة الطرفِ الآخرِ. وفكَّرَ غودوين أنَّ الموازين تتغيرُ بسرعةٍ، ولم يكن هذا يشبهُ المجادلات بين الرهبانِ خلالَ الاجتماعاتِ الكنسيةِ التي قد تطولُ لساعاتٍ.

قالَ غريغوري: «ورجالُ الإيرل الذين وقفوا في وجهِ حركةِ نقلِ الحجارةِ من المقلعِ قتلوا عاملاً فقيراً».

قالَ السير ويلبرت: «إذاً، من الأفضلِ أن يوضعَ حدٌّ للخلافِ في أسرع وقتٍ. ما رأي الديرِ بحجةِ الإيرل بأنَّه يملكُ الحقَّ بتقاضي ضريبةٍ على مرورِ الحجارةِ في أراضيهِ واستخدامِ العرباتِ لطرقاتِهِ وجسورِهِ وأنهارِهِ التي يملكها بغضِّ النظرِ عن تطبيقِ هذا الحقِّ في الماضي؟»

«بما أنَّ الحجارة لا تعبرُ أراضيه فحسب بل تستخرجُ منها أيضاً، فإنَّ فرضَ ضريبةٍ مساويةٍ على الرهبانِ لقاءَ الحجارة يعني أن يتقاضى ثمنها، وهذا يخالفُ ما جاءَ في صكِ الملكِ هنري الأول».

رأى غودوين بأسى أنَّ القاضي لم يكن مُنبهراً بما قالهُ غريغوري.

ولكن غريغوري لم يكن قد انتهى من كلامِهِ بعد لأنّه تابعَ قائلاً: «والملوكُ الذين قدَّموا إلى كينغزبريدج الجسرَ والمقلعَ قد فعلوا هذا لسببٍ وجيهٍ. لقد أرادوا للمدينةِ أن تزدهرَ. ومعنا هنا كبيرُ شيوخِ المدينةِ ليقدّمَ شهادتَهُ بأنَّه لا يمكنُ لمدينةِ كينغزبريدج أن تزدهرَ من دونِ جسرٍ».

تقدَّمَ إدموند وقد بدا بشعرهِ الشعثِ وثيابِهِ المحليةِ كيقطينةٍ ريفيةٍ مقارنةً بثيابِ النبلاءِ الجميلة من حولِهِ، وعلى خلافِ غودوين لم يبد خائفاً. «أنا تاجرُ صوفٍ يا سيدي»، قال إدموند. «ومن دونِ الجسرِ لن يعودَ هناكَ أيُّ تبادل تجاري في المدينةِ، ومن دون أيِّ تجارةٍ لن تتمكن كينغزبريدج من دفعِ الضرائبِ للملكِ».

انحنى السير ويلبرت للأمامِ وسألَ: «كم تبلغ قيمة آخرِ ضريبةٍ عشرية دفعتها المدينةُ؟»

كان القاضي يتحدَّثُ عن الضريبةِ التي يفرضُها البرلمان بين الحين والآخرِ، وهي تقدَّرُ بعُشْرٍ أو خمسة أعشار القيمةِ التخمينية للممتلكاتِ الفردية المنقولةِ. لم يدفع أحدٌ عُشْرَ قيمة ممتلكاتِهِ لأنَّ ما من أحدٍ يُعلنُ عن قيمةِ ممتلكاتِهِ الحقيقيةِ، ولهذا كان المبلغ الذي كانت تدفعُهُ كلُّ مدينةٍ ثابتاً، وبالتالي يتمُّ تشارُكُ العبء بطريقةٍ عادلةٍ حيث لا يدفعُ الفقراء ولا صغار الفلاحين أيَّ مالٍ.

كان إدموند يتوقعُ أن يطرحَ عليهِ القاضي مثلَ هذا السؤال وأجابَ بدقةٍ: «ألفاً وأحدَ عشرة جنيهاً يا سيدي».

«وما هو التأثير الذي سيكونُ لخسارةِ الجسرِ؟»

«تقديرياً، سيكون مردودُ كلِّ عُشرٍ ثلاثمئةِ جنيه، ولكن سكانُ مدينتنا مستمرون في أعمالِهم التجاريةِ على أملِ إعادةِ بناءِ الجسرِ. فإن خسروا هذا الأملَ في المحكمةِ اليومَ، سينتهي أمرُ سوقِ الصوفِ والسوقِ الأسبوعي، وستنخفضُ عائداتُ العُشرِ إلى ما دونِ الخمسين جنيهاً».

«وهذا يعني لا شيء على مقياسِ احتياجاتِ الملكِ»، قال القاضي. لم يعبر ويلبرت صراحةً عمَّا يعرفونهُ جميعاً ألا وهو أنَّ الملكَ في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى المالِ لأنَّه في الأسابيع القليلةِ الماضيةِ قد أعلنَ الحربَ على فرنسا».

وجفلَ رولاند فاندفعَ قائلاً باحتقارٍ: «هل هذهِ جلسةُ استماعٍ حول ما يحتاجهُ الملكُ؟»

لم يكن السير ويلبرت من النوعِ الذي يرتاع بسرعةٍ حتَّى ولو كان التهديدُ من قبلِ إيرل. «هذهِ محكمةُ الملكِ»، قال بلهجةٍ حياديةٍ. «فما الذي تتوقعه؟»

«العدالةُ»، أجابَ رولاند.

«وستحصلُ عليها». وما ألمحَ إليهِ القاضي ولم يقلهُ صراحةً أنَّ رولاند سيحصل على العدالةِ سواء أحبَّ هذا أم لم يحبه. «إدموند وولر، أينَ يقعُ أقربُ سوقٍ بديلٍ؟»

«في شايرنغ».

«إذاً، العملُ الذي ستخسرهُ سيذهبُ لمصلحة بلدةِ الإيرل».

«سينتقل بعضهُ، ولكن معظمهُ سينتهي أمرُه. لن يكون الكثيرُ من تجارِ كينغزبريدج قادرين على الوصولِ إلى شايرنغ».

التفتَ القاضي إلى رولاند وسألهُ: «كم تبلغُ الضريبةُ العشريةُ في شايرنغ؟»

تداولَ رولاند سريعاً مع سكرتيرهِ الأب جيروم ثمّ قال: «ستمئةٍ وعشرين جنيهاً».

«وإن إزدادت أعمالُ سوقِ شايرنغ فهل ستتمكن من الوصولِ إلى مبلغِ ألفٍ وستمئةٍ وعشرين جنيهاً؟»

«بالطبعِ لا»، قال رولاند بغضبٍ.

وتابعَ القاضي كلامَهُ بلهجةٍ حيادية قائلاً: «إذاً، معارضتكَ لبناءِ الجسر ستُكلفُ الملكَ الكثيرَ».

«لدي حقوقٌ»، قال رولاند متجهماً.

«وللملكِ حقوقهُ أيضاً. هل بإمكانكَ اقتراحُ طريقةٍ لتعويضِ الخزنة الملكيَّةِ خسارةَ ألفِ جنيه سنوياً؟»

«سيكون هذا بالقتالِ إلى جانب الملكِ في فرنسا، وهذا ما لن يفعلهُ تجارُ الصوفِ والرهبانُ أبداً!»

«هذا صحيحٌ»، قال السير ويلبرت. «ولكن فرسانكَ سيطالبون بأتعابِهم».

«إنَّ ما يحدثُ مشينٌ»، قال رولاند الذي باتَ يعلم الآن أنَّ حجته لم تعد ذات فائدةٍ. وجاهدَ غودوين كيلا تظهرَ عليهِ هيئةُ المنتصرِ.

لم يرق للقاضي أن يقولَ الإيرل عن مداولاتِ هذهِ المحكمةِ بأنّها مشينةٌ. ورمقَ رولاند بنظرةٍ حادةٍ ثمَّ قال له: «عندما أرسلتَ رجالكَ لمنعِ مرورِ حمولاتِ حجارةِ مقلعِ الديرِ، أنا واثقٌ من أنّك لم تقم بهذا بدافعِ تدميرِ مصالحِ الملكِ؟» وتوقفَ عن الكلامِ لوهلةٍ في ترقبٍ.

وهنا شعرَ رولاند بأنّه وقعَ في فخٍ، ولم يكن هناكَ سوى جواب واحد يستطيعُ تقديمهُ وهو: «بالطبعِ لا».

«الآن وبعدَ أن اتضحَ للمحكمة ولكَ أنَّ بناءَ جسرٍ جديدٍ سيخدمُ مصالحَ الملكِ كما سيخدمُ مصالحَ مدينةِ كينغزبريدج وديرِها، أعتقدُ أنّكَ ستوافقُ على إعادةِ فتحِ المقلعِ».

أدركَ غودوين أن ويلبرت تصرَّفَ بحنكةٍ؛ فقد أجبرَ رولاند على القبولِ بحكمهِ وصعَّبَ عليه الالتماسَ شخصياً إلى الملكِ لاحقاً».

بعد صمتٍ طويلٍ قال رولاند: «أجل».

«وأنَّكَ ستسمحُ بمرور الحمولاتِ عبرَ أراضيكَ من دونِ ضريبةٍ».

يعلمُ رولاند أنّه خسرَ ولهذا تجلّى غضبٌ في صوتهِ عندما أعادَ: «أجل».

«رُفعَت الجلسةُ»، قال القاضي. «القضيةُ التاليةُ».

***

كانَ نصراً عظيماً، ولكنَّهُ على الأرجحِ أتى متأخراً.

انتهى شهرُ تشرين الثاني/ نوفمبر وحلَّ كانون الأول/ ديسمبر، وعادةً ما تتوقفُ أعمالُ البناءِ في هذا الشهرِ. ما زال الجو ممطراً، وهذا يعني أنَّ الصقيعَ سيتأخرُ هذا العام، ورغمَ هذا لم يكنِ هناكَ بالإمكانِ الاستمرارُ بأعمالِ البناءِ سوى لأسبوعين. كانَ ميرثن قد كدَّسَ مئات الحجارةِ المُقطّعةِ والجاهزةِ للاستخدامِ في المقلعِ. عموماً، سيحتاجون إلى أشهرٍ لنقلِ كلِّ هذهِ الحمولةِ الكبيرةِ إلى كينغزبريدج. ورغمَ خسارةِ الإيرل رولاند لقضيتهِ في المحكمةِ فإنه، ومن كلِّ بدٍ، نجحَ في تأخيرِ أعمالِ بناءِ الجسرِ لعامٍ كاملٍ.

عادَت كاريس إلى كينغزبريدج مع إدموند وغودوين وقد كانت في مزاجٍ كئيبٍ. رأت أنَّ ميرثن قد قامَ ببناءِ سدودٍ على جانبِ النهرِ الذي يمرُّ بالضاحيةِ، وعلى كلا جانبي جزيرةِ ليبر ووسطَ كلِّ جهةٍ من النهرِ نصبَ ألواحاً خشبيةً يبلغُ ارتفاعها بضعةَ أقدامٍ فوقَ سطحِ الماءِ على شكلِ دائرةٍ كبيرةٍ. تذكَّرت كاريس أنَّ ميرثن شرحَ في غيلد هول كيفَ أنَّهُ يخططُ لوضعِ ألواحٍ خشبيةٍ في سريرِ النهرِ على شكلِ حلقتين بعضهما داخلَ بعض، ومن ثمَّ سيملأ الفراغَ بينهما بملاطٍ من الطينِ حتَّى لا يتسرب الماءُ إلى الداخلِ، وبعدَ هذا سيُفرغ الماءَ من داخلِ سدودِ الإنضابِ حتَّى يتمكنَ البناؤون من وضعِ أساساتِ الجسرِ في سريرِ النهرِ.

وبينما كانوا يعبرون النهر رأت كاريس أحدَ عمالِ ميرثن وهو رجلٌ يدعى هارولد ميسن على عبَّارةٍ فسألتهُ إن كانوا قد بدأوا بإفراغِ سدودِ الإنضابِ وأجابها هارولد: «ليسَ بعد. يريدُ الرئيسُ تأجيلَ الأمرِ إلى أن نصبحَ جاهزين للبدءِ بأعمالِ البناءِ».

ابتهجَت كاريس عندما لاحظَت أنَّ ميرثن بات يُدعى بالرئيسِ رغمَ صغرِ سنهِ. «ولِم لا؟» قالت كاريس. «اعتقدتُ أننا أردنا تجهيزَ كلِّ شيءٍ لنعاود العملَ بأسرع ما يمكن».

«يقولُ الرئيس إنَّ قوةَ تدفقِ المياهِ تضغطُ بقوةٍ أكبر على سدِّ الإنضابِ عندما يُفرغ من المياهِ في داخلهِ».

وتساءلَت كاريس في نفسِها كيف لميرثن أن يعلمَ مثلَ هذهِ الأمور. كان قد تعلَّمَ أسسَ البناءِ من خواكيم، والد إلفريك، وأولِ رئيسٍ يعملُ ميرثن تحتَ إمرتهِ. لطالما كان ميرثن مُهتماً بالتحدُّثِ مع الغرباءِ الذين يزورون كينغزبريدج بخاصَّةِ الغرباء الذين رأوا الأبنيةَ العاليةَ في فلورنسا وروما. وقرأ كلَّ شيءٍ عن بناءِ الكاتدرائيات في كتابِ تيموثي. ولكن يبدو أنَّهُ يتمتعُ بحدسٍ مميزٍ حيالَ هذه الأمورِ. لم تتخيل قط أنَّ السدَّ الفارغَ سيكون أضعفَ من السدِّ الممتلئِ بالمياهِ.

ورغمَ جو الهدوءِ الذي خيَّمَ عليهم وهم يدخلون المدينةَ فإنَّهم أرادوا نقلَ الأخبارِ الطيبةِ إلى ميرثن على الفورِ ومعرفةَ ما إن كان بالإمكانِ إنجازُ أيِّ شيءٍ قبلَ نهايةِ موسمِ البناءِ.

توقفوا لبرهةٍ لتسليمِ أحصنتِهم إلى فتيةِ الإسطبلِ، ومن ثمَّ انطلقوا للبحثِ عنه. عثروا عليهِ أعلى إحدى القناطرِ في البرجِ الشمالي الغربي للكاتدرائيةِ يعملُ تحتَ ضوءِ مصباحِ الزيتِ على رسمِ تصميمٍ لمتراسٍ على مخططٍ.

رفعَ نظرَهُ إلى الأعلى وحدَّقَ إلى وجوههم ثمَّ ابتسمَ ابتسامةً عريضةً وقال: «هل فُزنا؟»

«لقد فُزنا»، قال إدموند.

«والفضلُ يعودُ إلى غريغوري لونغفيلو»، أضافَ غودوين. «رغمَ أنّه كلَّفنا مالاً كثيراً فإنّه استحقَ أجرهُ».

احتضنَ ميرثن الرجلين، وتناسى خلافَهُ مع غودوين للآن على الأقل، ثمَّ قبَّلَ كاريس برقةٍ وهمسَ لها: «لقد اشتقتُ إليكِ. لقد مرَّت الأسابيع الماضيةُ ببطءٍ وانتابني إحساسٌ بأنَّكِ لن تعودي أبداً».

لم تُجب فقد كان لديها أمرٌ هامٌ لتخبرهُ بهِ ولهذا أرادَت أن يكونا وحدهما.

لم يلاحظ والدُها تحفظها وقالَ: «حسناً يا ميرثن يمكنكَ البدءُ بالبناءِ على الفورِ».

«جيد».

قالَ غودوين: «يمكنكَ البدءُ بجلبِ حمولاتِ الحجارةِ من المقلعِ ابتداءً من الغدِ، ولكن أعتقدُ أنَّ الوقتَ قد تأخرَ على إحرازِ تقدمٍ في عمليةِ البناءِ قبلَ حلولِ موسمِ الصقيعِ الشتوي».

«كنتُ أفكرُ بهذا»، قالَ ميرثن وحدَّقَ عبر النافذةِ. كان الوقتُ منتصفَ ما بعدِ الظهيرةِ وقد بدأ النهارُ يستسلمُ لظلمةِ الليلِ باكراً. «هناكَ طريقةٌ للقيامِ بالأمرِ».

تحمَّسَ إدموند على الفورِ وقال: «حسناً، فلتخبرنا بها أيُّها الفتى! ما هي طريقتكَ؟»

التفتَ ميرثن إلى رئيسِ الدير: «هل يمكنكَ أن تقدِّمَ «صكوكَ غفرانٍ» لمن يتطوع لنقلِ الحجارةِ من المقلعِ؟» كان الصَّكُ الخاصُّ يقدِّمُ غفراناً على الذنوبِ، وهو أشبهُ بهديةٍ ماليةٍ تغطي ديوناً قديمةً، أو تفي بديونٍ مستقبليةٍ.

«يمكنني أن أفعلَ هذا»، قال غودوين. «ما الذي تفكرُ فيهِ؟»

استدارَ ميرثن نحو إدموند وقال: «كم يبلغُ عددُ الناسِ ممن يملكون عرباتٍ في كينغزبريدج؟»

«دعني أفكر قليلاً»، قال إدموند في عبوسٍ. «كلُّ عاملٍ في مصلحةٍ مهمةٍ يملكُ عربةً... لا يمكن أن يكونَ عددهم أقلَّ من مئتي شخصٍ».

«فلنفرض أننا مررنا بهم جميعاً الليلةَ وطلبنا منهم التوجهَ إلى المقلعِ بحلولِ الغدِ وإحضار الحجارةِ».

ابتسمَ إدموند لميرثن وارتسمت بهدوءٍ ابتسامةٌ على وجههِ. «الآن»، قال بحبورٍ. «يا لها من فكرةٍ رائعةٍ!»

«سنخبرُ الجميعَ بما حدثَ»، تابعَ ميرثن. «سيكون الأمرُ أشبهَ بعطلةٍ، ويمكن لعوائلهم مرافقتهم، ويستطيعون أخذَ الطعامِ والجعةِ أيضاً. إن أحضرَ كلٌّ واحدٍ منهم حمولةً من الحجارةِ أو الأنقاضِ سيكون لدينا خلال يومين ما يكفي لبناءِ دعائمِ الجسرِ».

وأثارَت براعةُ الفكرةِ عجبَ كاريس. هذهِ هي شخصيةُ ميرثن، فهو دوماً ما يأتي بحلولٍ لم تخطر على بالِ أحدٍ. وتساءلت في نفسِها إن كانت الفكرةُ ستنجحُ.

«ماذا عن الطقسِ؟» قال غودوين.

«لقد كان المطرُ أشبهَ بنقمةٍ على الفلاحين ولكنه نعمةٌ علينا لأنّه سيؤخرُ قدومَ البردِ الشديد لأسبوعين كما أعتقد».

بدا إدموند مُتحمساً وهو يذرعُ المكانَ بمشيتِهِ العرجاء وقال: «ولكن إن استطعتَ بناءَ الدعائم خلالَ الأيام القليلةِ القادمةِ...»

«بحلولِ نهايةِ العامِ القادمِ يمكننا أن ننتهي من بناءِ الهيكلِ».

«وهل سنتمكنُ من استخدامِ الجسرِ العامَ القادمَ؟»

«لا... ولكن انتظر. يمكننا أن نضعَ طريقاً مؤقتاً من الخشبِ فوقَ الهيكلِ بحلولِ موعد سوقِ الصوفِ».

«إذاً، سيكون لدينا جسرٌ قابلٌ للاستخدامِ بحلولِ العامِ الذي يلي العام القادم، ولن يفوتنا سوى موسم واحد لسوقِ الصوفِ!»

«وعلينا أن ننتهي من العملِ على جسمِ الجسرِ الحجري بعدَ سوقِ الصوفِ وسيكون لدينا وقتٌ كاف ليجفَّ بشكلٍ طبيعي في العامِ الثالثِ».

«اللعنةُ، علينا أن ننجحَ في هذا»، قال إدموند بحماسٍ.

قالَ غودوين محذراً: «عليك أن تُفرغَ سدودُ الإنضاب من المياهِ».

أومأ ميرثن برأسِهِ وقال: «هذا عملٌ صعبٌ، ووفقاً للمخططِ الذي وضعتُه فإنَّ هذه المهمة تأخذُ أسبوعين، ولكن لدي فكرة لحلّ هذا المشكلةِ أيضاً. على أيِّ حال علينا أن ننظمَ العربات أولاً.

توجهوا جميعاً إلى البابِ مدفوعين بالحماسِ، وبينما كان غودوين وإدموند يهبطان الدرجَ الحلزوني الضيق أمسكَت كاريس ميرثن من كُمهِ وأوقفته. اعتقدَ أنَّها أرادَت تقبيلَه، ولهذا وضعَ يدهُ حول خصرها ولكنَّها دفعته وقالت: «لدي خبرٌ».

«مزيدٌ من الأخبارِ؟»

«أنا حامل».

راقبَت وجهَهُ. بدا متفاجئاً في البدايةِ وقد ارتفعَ حاجباه البنيان الضاربان للحمرةِ، ثمَّ غمزَ بعينِهِ وأمالَ رأسَه جانباً وهزَّ كتفه كأنّه أرادَ القول إنَّ هذا لم يفاجئه. ابتسمَ بأسى أولاً ثمَّ بسعادةٍ واضحةٍ، ولاحقاً أضاءَ وجهه ثمَّ قال: «هذا رائعٌ!»

وكرهتهُ على الفورِ على غباءِ ردِّ فعلِهِ وقالت: «لا، إنَّه ليسَ رائعاً».

«لِم لا؟»

«لأنني لا أرغبُ بقضاءِ بقيةِ حياتي عبدةً لأيِّ أحدٍ، حتَّى وإن كان هذا الشخصُ طفلي».

«عبدةً؟! هل الأمهات عبداتٌ؟»

«أجل! كيف يمكن لكَ ألا تعرف أنني أشعرُ بهذه الطريقةِ؟»

بدا محتاراً ومتألماً، وشعرَت كاريس برغبةٍ في التراجعِ عمَّا قالتهُ، ولكن

غضبها كان يغلي لفترةٍ طويلةٍ. «أفترضُ أنني كنتُ أعلم»، قالَ لها. «ولكن عندما نمتِ معي، اعتقدتُ...» وتردد. «أنكِ كُنتِ تعرفين أنَّ هذا قد يحدثُ... عاجلاً أم آجلاً».

«بالطبع كنتُ أعلمُ، ولكنني كنتُ أتصرَّفُ كأنني لا أعلم».

«أجل، أفهم هذا».

«باللهِ عليكَ توقف عن التصَّرفِ بهذا التفهمِ. يا لكَ من شخصٍ ضعيف!»

تجمَّدَ وجهه وبعد فترةٍ صمتٍ طويلةٍ قال: «حسناً، سأتوقفُ عن التصرّفِ بتفهمٍ شديدٍ. أطلعيني على تفاصيل خطتك؟»

«ليسَ لدي خطَّةٌ أيُّها الأحمق. أنا أعلمُ فقط أنني لا أريدُ أن أنجبَ طفلاً».

«إذاً، أنت لا تملكين خطَّةً، وأنا غبي وضعيفٌ. هل تريدين أيَّ شيءٍ مني؟»

«لا!»

«إذاً، ما الذي نفعلهُ هنا؟»

«لا تحاول التذاكي».

تنهَّد ميرثن وقال: «سأكف عن محاولةِ التصرّفِ كما تملين علي لأنَّ ما تقولينهُ غير منطقي». ودارَ في أرجاءِ الغرفةِ وهو يُطفئ المصابيحَ. «أنا سعيدٌ لأننا سننجبُ طفلاً، وأرغبُ بأن نتزوج ونعتني بطفلٍ معاً على فرضِ أنَّ ما تمرين بهِ الآن أمرٌ مؤقتٌ». وضبَ معدَّاتِ الرسمِ في حقيبةٍ جلديةٍ ووضعَ الحقيبةَ على كتفهِ. «ولكنكِ الآن ترغبين بالشجارِ ولذلكَ أفضَلُ عدمَ الحديث معك على الإطلاق. علاوةً على هذا، لدي عملٌ لأقومَ بهِ». وتوجهَ إلى البابِ ثمَّ توقفَ: «ومن جهةٍ أخرى يمكننا أن نُقبلَ بعضنا بعضاً ونتصالح».

«اغرب عن وجهي!» صرخت بهِ.

عبرَ الباب المنخفضِ برأسٍ محني واختفى وراء جدارِ الدرجِ الحلزوني.

وانخرطَت كاريس في البكاءِ.

***

لم يكن لدى ميرثن أدنى فكرة عمَّا إن كان سكانُ كينغزبريدج سيتعاونون في هذهِ القضيةِ. كان لجميعهم أعمالهم ومشاغلهم الخاصَّة، فهل سيعتبرون التعاون الجماعي لبناءِ الجسرِ أكثرَ أهمية؟ لم يكن واثقاً من الجوابِ على هذا السؤال، ولكنَّه قرأ في كتابِ تيموثي أنَّ رئيسَ الديرِ فيليب في الأوقاتِ العصيبةِ

أمسكَ بزمامِ الأمورِ وحشدَ الناس العاديين ليقوموا بجهدٍ جماعي، إلَّا أنَّ ميرثن لم يكن فيليب، ولم يكن يملك الحقَّ في قيادةِ الناسِ فهو مجرد بنَّاءٍ.

كان لديهم قائمةٌ بأسماءِ أصحابِ العرباتِ وهي مرتَّبة حسب الشوارعِ. تكفَّلَ إدموند بالتحدثِ إلى عشرة أشخاصٍ من كبارِ المدينةِ، واختارَ غودوين عشرةً من كبارِ الرهبانِ. اتجهَ كلٌّ من إدموند وغودوين وميرثن برفقةِ أشخاصٍ آخرين، وقد ذهبَ ميرثن مع الأخ توماس.

كان أول بابٍ قصَدَهُ ميرثن باب منزلِ ليب ويلر التي تابعَت العملَ في مهنةِ زوجها بين بمساعدةِ عمالٍ آخرين. «يمكنكما أن تأخذا كلتا العربتين مع السائقين. سأفعلُ أيَّ شيءٍ من شأنِهِ أن يُزعجَ ذلكَ الإيرل الملعون».

كان البابُ الثاني الذي قصداه بابَ منزل بيتر داير الذي يمتلكُ عربةً لنقلِ حمولاتِ القماش الصوفي الذي يصبغهُ بالأصفرِ والأخضرِ والوردي وقد اعتذرَ عن مساعدتهم قائلاً: «لا أشعرُ بأنني بخير ولذلكَ لا يمكنني السفر».

وفكَّرَ ميرثن بأنَّ كلامهُ منطقي جداً لأنَّ بيتر، وفي أغلبِ الظنِ، خائفٌ من مواجهةِ رجالِ الإيرل. كان ميرثن واثقاً من أنَّ وقوعَ أيِّ صدامٍ غيرُ واردٍ، ولكنَّه تفهَّمَ الخوفَ، وتساءلَ في نفسهِ إن كان جميعُ المواطنين يشعرونَ بالخوفِ ذاتِهِ.

كانَ المنزل الثالث الذي زاراه منزلَ هارولد ميسن الذي كانَ بنَّاءً صغيراً ويأملُ منذ سنواتٍ عديدةٍ العملَ على بناءِ الجسر لذلكَ وافقَ على الفور: «وسيأتي جيك تشيبنو أيضاً. سأحرصُ على هذا». كان هارولد وجيك صديقين.

وبعد هذا كانت إجابةُ الجميعِ بالموافقةِ.

لم يكن بحاجةٍ إلى التحدثِ معهم عن أهميةِ الجسرِ؛ فقد كان جميعُ مالكي العرباتِ من أصحابِ الأعمالِ، ولهذا كانَ لديهم دافعٌ آخر إضافةً إلى الحصولِ على صكوكِ غفرانٍ على خطاياهم. ولكن يبدو أنَّ العاملَ الأهمَّ في هذا هو الوعدُ بعطلةٍ مفاجئةٍ.

عندما انتهى ميرثن وتوماس من مهمتهما تركَ ميرثن توماس وتوجَّه إلى العبَّارةِ. كان عليهم نقلُ العرباتِ خلالَ الليلِ كي تكون جاهزةً للانطلاقِ بحلولِ الفجرِ. لم يكن بوسعِ العبَّارة حملُ سوى عربةٍ واحدةٍ في كلِّ مرَّةٍ، وسيتطلبُ نقلُ مئتي عربةٍ ساعاتٍ طويلةً، ومن أجلِ هذا كان الجسرُ ضرورياً من كلِّ بدٍ.

كان هناك ثورٌ يُحرِّكُ عجلةً عظيمةً وقد بدأت العرباتُ في عبورِ النهرِ. على

الجانبِ الآخرِ فكَّ أصحابُ العرباتِ الحيوانات عن العرباتِ وتركوها ترعى ومن ثمَّ عادوا إلى العبَّارةِ ثمَّ إلى منازلِهم. كان إدموند قد أحضرَ المأمورَ جون مع ستةٍ من مرافقيهِ لقضاءِ الليلةِ في نيوتاون وحراسةِ العرباتِ والحيوانات.

كانت العبَّارةُ ما زالت تعملُ على نقلِ العرباتِ عندما خلدَ ميرثن إلى النومِ بعد ساعةٍ من منتصفِ الليلِ. استلقى وهو يفكرُ بكاريس لبعضِ الوقتِ. كانت غرابتُها وسلوكُها غير المتوقع أحدَ أسبابِ حبهِ لها، ولكنها كانت أحياناً تتصرفُ بعنادٍ. كانت أذكى شخصٍ في كينغزبريدج، إلَّا أنَّها تتصرفُ بطريقةٍ لاعقلانية أحياناً.

ولكن الأهمّ من هذا كله كان كُرهُهُ لنعتهِ بالضعيفِ. لم يكن واثقاً من أنَّهُ سيُسامحِ كاريس على هذهِ الإهانةِ. لقد أهانَهُ الإيرل رولاند منذُ عشرةِ أعوامٍ عندما قالَ له إنَّه لا يستطيعُ أن يصبح مرافقاً له، وأنَّ عليهِ أن يتدرّبَ ليصبحَ نجاراً. ولكنه لم يكن ضعيفاً فقد وقفَ في وجهِ طغيانِ إلفريك، وأجبرَ رئيسَ الديرِ غودوين على قبولِ تصميمِهِ للجسرِ، وها هو الآن على وشكِ إنقاذِ المدينةِ بأكملها. «قد أكون ضئيلَ الحجمِ ولكني، وبحقِ الرَّبّ، قوي»، فكَّرَ ميرثن في نفسِهِ.

ولكنَّه بقي حائراً حيالَ ما عليهِ القيامُ بهِ بخصوصِ كاريس، وغطَّ في النومِ والسؤال يشغلهُ.

أيقظَهُ إدموند مع بزوغ الفجرِ، بحلولِ ذلكَ الوقتِ كانت جميعُ عرباتِ كينغزبريدج على الضفةِ الأخرى من النهرِ وفي صفٍ متعرجٍ يمتدُ من ضاحيةِ نيوتاون ولنصفِ ميلٍ داخلَ الغابةِ. تطلَّبَ منهم نقلُ الناسِ بالعبَّارةِ ساعتين، وشغلَ حماسُ تنظيمِ أولئكَ الناسِ الأشبهُ بحماسِ الحجِ عقلَ ميرثن عن التفكيرِ بكاريس وحملِها، وسرعان ما اكتظَّ أقصى المرعى بحشودٍ فوضوية تفور بهجةً بينما الكثيرُ منهم أخذوا أحصنتهم وثيرانهم وقادوها إلى عرباتِهم ثمَّ وضعوها في مكانها لتجرَّ العرباتِ. كان ديك بروير قد أحضرَ برميلاً كبيراً جداً من الجعةِ ومنحَهُ للمسافرين قائلاً: «أقدمُ لكم هذا البرميل تشجيعاً مني لكم في مهمتكم». واختلطَت ردودُ الفعل على ما قاله فقد ازدادَ حماسُ البعضِ وجلسوا في أماكنهم كأنَّهم سيحتفلون.

تجمَّعَ حشدٌ من المتفرجين على الجانبِ الآخرِ من النهرِ يراقبون ما يجري. وعندما بدأ صفُّ العرباتِ بالتحرّكِ علَت صيحاتُ التهليلِ.

ولكن نقل الحجارةِ كان نصفَ المشكلةِ.

وانتقلَ اهتمامُ ميرثن الآن إلى التحدي التالي. إن كان سيرصفُ الحجارةَ حالَ وصولها من المقلعِ فعليهِ أولاً أن يُفرغَ سدودَ الإنضابِ، ويجبُ أن يقومَ بهذا خلالَ يومين بدلاً من أسبوعين. بعدَ أن تراجعَت أصواتُ التهليلِ تحدَّثَ إلى الحشدِ بصوتٍ عالٍ فهذهِ هي اللحظةُ المناسبةُ للفتِ انتباههم بعد أن يتراجع الحماسُ ويبدأ الناسُ في التساؤلِ عن الخطوةِ التاليةِ.

«أريدُ من تبقى من أقوى رجالِ المدينةِ!» صرخَ ميرثن. صمَتَ الجميع فقد أثارَهم الموضوع. «هل هناكَ من رجالٍ أقوياء في كينغزبريدج؟» كان هذا السؤال في جزءٍ منه دعوةً للعملِ الذي قد يكون مُجهداً، ولكن أن يوجهَ كلامهُ إلى الأقوياءِ فهذا أشبهُ بتحدٍ سيجدُ الشبابُ المتحمسُ صعوبةً في مقاومتهِ. «قبلَ أن تعودَ العرباتُ من المقلعِ غداً، علينا أن نُفرغَ المياه من سدودِ الإنضابِ. سيكون هذا أصعبَ عملٍ قد تقومون بهِ. لا أريدُ ضعفاء من فضلكم». قالَ هذا وألقى نظرةً على كاريس الواقفة وسطَ الحشدِ والتقت أعينهما، ورآها تجفلُ وقد تذكَّرَت أنَّها استخدمت تلكَ الكلمةِ رغمَ عِلمها تماماً بأنَّها أهانته. «ويمكنُ لأيّ امرأة تعتقدُ نفسها أنَّها صنو للرجالِ أن تنضم إلينا». ثمَّ تابعَ ميرثن كلامهُ قائلاً: «أريدُ من كلِّ واحدٍ منكم أن يُحضرَ دلواً ويلقاني عندَ الشاطئ المقابلِ لجزيرةِ ليبر بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ. ولتتذكروا... أريدُ الأقوياء فقط».

لم يكن ميرثن واثقاً من أنَّه كسبَ دعمهم. وحالما انتهى من كلامِهِ رأى قامةَ مارك ويبر الطويلةَ. شقَّ ميرثن طريقَهُ وسطَ الحشدِ واقتربَ منهُ ثمَّ قال بلهفةٍ: «هلَّا قمتَ بتشجيعهم يا مارك؟»

كان مارك عملاقاً لطيفاً ومحبوباً جداً من سكانِ المدينةِ. ورغمَ فقرهِ فإنَّ لهُ نفوذاً، بخاصَّةٍ بين الشبابِ. «سأحرصُ على انضمامِ الشبابِ»، قال مارك.

«شكراً لكَ».

ثمَّ عثرَ ميرثن على إيان بوتمان، وقال له: أعتقدُ أنني سأكون بحاجةٍ إليكَ طوالَ اليومِ لنقلِ الناسِ بالعبَّارةِ من وإلى سدودِ الإنضاب. يمكنكَ أن تعملَ مقابلَ المالِ أو الحصول على صكِّ غفرانٍ. الخيارُ لكَ». كان إيان مُغرماً جداً بأصغرِ شقيقاتِ زوجتهِ ولهذا قد يُفضلُ صكَّ غفرانٍ على خطاياه السابقةِ أو على خطايا قد يرتكبها لاحقاً.

شقَّ ميرثن طريقَهُ عبرَ طرقاتِ المدينةِ باتجاهِ شاطئ النهرِ حيثُ كان يقومُ بتجهيزاتِ بناءِ الجسرِ وهو يتساءل في نفسهِ إن كان سيتمكن من إفراغِ سدودِ

الإنضابِ خلالَ يومين. واكتشفَ أنّه لم يملك أدنى فكرة إن كانَ سينجحُ في الأمرِ، وأخذَ يفكرُ بكميةِ المياهِ في كلِّ سدٍ. آلافُ الغالونات؟ مئاتُ الألوفِ؟ لا بدَّ أنَّ تكون هناك طريقةٌ للإحصاءِ. لا بدَّ أنَّ الفلاسفةَ اليونانيين قد وضعوا طريقةً ما لحسابِ مثلِ هذا الأمرِ، ولكن إن كانت هناكَ مثلُ هذهِ الطريقةِ فمدرسةُ الديرِ لم تقم بتدريسِها، ولذلكَ إن أرادَ استقصاءَ الأمرِ فربما عليهِ التوجه إلى أوكسفورد حيث دارسو الرياضيات مشهورون حولَ العالمِ، كما قالَ لهُ غودوين.

انتظرَ عندَ حافةِ النهرِ وهو يتساءلُ في نفسهِ إن كان الناسُ سيستجيبونَ لدعواه.

كانت ميغ روبنز أوّلَ الواصلين وهي ابنةُ بائعِ ذُرةٍ. كانت فتاةً قويّةَ البنيةِ وقد اكتسبت كتلةً عضلية بمرورِ السنين من رفعِ أكياسِ الحبوبِ. «يمكنني التفوق على جميعِ رجالِ المدينةِ»، قالت له ميغ ولم يكن ميرثن يشكُّ في صحةِ كلامِها.

ثمَّ أتت مجموعةٌ من الشبابِ وثلاثةُ رهبانٍ مبتدئين.

وحالما أصبحَ لدى ميرثن عشرةُ متطوعين مع دلائِهم طلبَ من إيان بوتمان نقلَهم بالعبَّارةِ إلى أقربِ سدّ إنضابٍ.

كان ميرثن قد بنى على حافةِ كلِّ سدٍ منصَّةً فوقَ مستوى سطحِ الماءِ وقد كانت قويةً بما يكفي لتحملَ رجلاً. ومن المنصَّةِ هناكَ أربعةُ سلالمٍ تصلُ حتَّى سريرِ النهرِ. وفي وسطِ السدِّ كان هناك عوامةٌ كبيرةٌ طافيةٌ فوقَ سطحِ الماءِ. بينَ العوامةِ والمنصَّةِ فجوةٌ بعمقِ قدمين، حيث استقرَّت العوامةُ في المنتصفِ بسببِ وجودِ محاور خشبيةٍ ناتئةٍ تكادُ تصلُ إلى جدارِ السدِّ وتمنعُ حركةَ العوامةِ لأكثرِ من بضعِ إنشاتٍ وفي أيِّ اتجاهٍ.

«يجبُ أن تعملوا في أزواجٍ»، قال لهم ميرثن. «واحدٌ على العوامةِ وآخر على المنصَّةِ. ويجب على من سيقفُ على العوامةِ أن يملأ الدلو ويمررهُ إلى من يقفُ على المنصَّةِ الذي بدورهِ سيتخلَّصُ من الماءِ برميهِ في النهر خارجَ السدِّ. يجبُ ألَّا تتوقف عمليةُ ملء وإفراغِ الدلاءِ».

وهنا سألت ميغ: «ما الذي سيحدثُ عندما ينخفضُ مستوى الماء داخلَ السدِّ، لن نستطيعَ حينها تبادلَ الدلاءِ؟»

«أحسنتِ التفكيرَ يا ميغ. يجب أن تصبحي كبيرةَ العمَّالِ لدي هنا. عندَ انخفاضِ مستوى الماءِ عليكم أن تعملوا ثلاثةً حيث سيكون الشخصُ الثالثُ واقفاً على السُلَّمِ».

وفهمَت ميغ الأمرَ على الفورِ قائلة: «وعندما ينخفضُ أكثر سنعملُ أربعةً واثنان منا سيقفان على الدرجِ...»

«أجل، ولكن بحلولِ ذلكَ الوقت سيتعينُ علينا إراحةُ الرجالِ وإحضارُ رجالٍ جددٍ».

«صحيحٌ».

«فلتبدأوا العملَ. سأحضرُ عشرةً آخرين لمساعدتكم، فما يزال بالإمكانِ استقبالُ الكثيرِ من العمَّالِ».

التفتت ميغ ونادَت عليهم: «اختاروا شركاءكم جميعاً!»

بدأ المتطوعون في إنزالِ الدلاءِ، وسمعَ ميرثن ميغ تقول: «لنعمل وفقَ الإيقاعِ التالي: أنزل، ارفع، مرر، أفرغ! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. ما رأيكم بأغنيةٍ حتَّى يعلقَ الأمرُ في أذهاننا؟» ثمَّ أخذَت تغني بصوتٍ رنانٍ آخاذٍ: «في قديمِ الزمان فارسٌ فتَّان...»

عرفَ الجميعُ الأغنيةَ وانضمّوا إلى ميغ: «سيفهُ مسلولٌ وصادقٌ».

راقبَهم ميرثن وهم يقطرون ماءً دونَ أن يمضي على بدئهم العملَ سوى دقائق، ولاحظَ أنَّ مستوى الماءِ لم ينخفضِ بشكلٍ واضحٍ، وأنَّ هذا العمل سيأخذُ وقتاً طويلاً.

قفزَ ميرثن من جدارِ السدِ إلى مركبِ إيان.

بحلولِ الوقتِ الذي وصلَ فيهِ إلى الضفةِ كان هناك ما يقارب الثلاثين متطوعاً مع دلائِهم.

أشرفَ ميرثن على بدءِ العملِ على إنضابِ السدِّ الثاني وقد عيَّنَ مارك ويبر رئيساً للعمَّالِ، ووزعَ بقيَّةَ العمَّالِ على الموقعين، ثمَّ استبدلَ العمالَ المتعبين بعمالٍ جددٍ مكانهم. تعبَ إيان من التجديفِ، وسلّمَ المجاديف إلى ابنهِ. كان مستوى الماء داخلَ السدِّ ينخفضُ ببطءٍ شديدٍ. ومع انخفاضِ مستوى المياه تباطأ سيرُ العملِ أكثر لأنَّ المسافةَ بين الحافةِ والمياهِ قد بدأت تتباعد.

كانت ميغ أوَّلَ من اكتشفَ أنّه ليسَ بوسعِ شخصٍ واحد أن يحملَ دلواً ممتلئاً بيدٍ واحدةٍ وآخر فارغاً باليدِ الأخرى ويحافظ على توازنهِ على السُلّمِ في آنٍ معاً، واقترحَت طريقةَ سلسلةِ دلاء باتجاه واحدٍ حيث يصعدُ الدلو الممتلئ على سلمٍ وتنزلُ الدلاء الفارغةُ من على آخر. وسارعَ مارك إلى اعتمادِ الطريقةِ ذاتِها في سدِّهِ.

عملَ المتطوعون لساعةٍ وارتاحوا لساعةٍ، ولكن ميرثن لم يتوقف. كان ينظّمُ الفرقَ ويشرفُ على نقلِ المتطوعين من وإلى السدَّين، ويستبدلُ الدلاء التي تتكسرُ. خلالَ فتراتِ الاستراحةِ شربَ معظمُ الرجالِ، ونتيجةً لهذا وقعَ العديدُ من الحوادثِ خلالَ فترةِ ما بعدَ الظهرِ؛ فمنهم من أوقعَ الدلاء وآخرون سقطوا عن السُلَّمِ. حضرَت الأم سيسيليا واهتمَّت بالمصابين بمساعدةِ ماتي وايز وكاريس.

وسرعان ما بدأ ضوءُ النهارِ يخفتُ واضطروا إلى التوقفِ عن العملِ، ولكن نصف ما في كلِّ سدٍّ كان قد فرغَ. طلبَ ميرثن من الجميعِ العودةَ صباحَ اليومِ التالي، ومن ثمَّ توجهَ إلى المنزلِ. وبعد تناولِ بضعِ ملاعقَ من حساءِ والدتِهِ غطَّ في النومِ على الطاولةِ، ولم يستيقظ حتَّى وقتٍ متأخرٍ ليلفَّ البطانيةَ حول نفسِهِ ويستلقي على فراشٍ من القشِّ. عندما استيقظَ في صباحِ اليومِ التالي، كانت أول فكرة تخطرُ ببالِهِ هي هل سيأتي أيٌّ من المتطوعين في اليومِ الثاني من العملِ.

ومع بزوغِ أوَّلِ شعاعٍ للشمسِ هرعَ إلى النهرِ بقلبٍ وجلٍ، ووجدَ مارك ويبر وميغ روبنز بانتظارِهِ. كانَ مارك يلتهمُ رغيفاً من الخبزِ أشبه بعتبةِ بابٍ وميغ تربطُ جزمتَها العاليةَ على أملِ أن تبقى قدماها جافتين. وخلال نصفِ الساعة التالية لم يظهر أحدٌ، وبدأ ميرثن يتساءلُ عمَّا سيفعلهُ من دون متطوعين، ثمَّ وصلَ بعضُ الشبان حاملين معهم فطورَهم، ولحقَ بهم رهبان مبتدئون ومن ثمَّ بقية من تطوعَ للعملِ البارحةَ.

وصلَ إيان صاحبُ القاربِ أيضاً وطلبَ منه ميرثن أن يأخذَهُ مع ميغ ومتطوعين آخرين، وبدؤوا العملَ مجدداً.

إنَّ العملَ اليومَ أصعبُ من اليومِ الذي سبقهُ؛ فالجميع متعبٌ من الجهدِ الذي بذلوه البارحةَ. كان عليهم رفعُ الدلاءِ لأكثرِ من عشرةِ أقدامٍ، ولكن القعر باتَ مرئياً، واستمرَّ مستوى الماءِ بالانخفاضِ، وبدأ المتطوعون يرون بداية سريرِ النهرِ.

وصلَت أولى العربات القادمةِ من المقلعِ في منتصفِ الظهيرةِ. طلبَ ميرثن من سائقي العرباتِ إفراغَ حمولاتهم في المرعى وإعادة العرباتِ إلى المدينةِ على العبَّارةِ، وبعد فترةٍ قصيرةٍ ارتطمَت عوامةُ سدِّ ميغ بسريرِ النهرِ.

ولكن ما يزالُ هناكَ الكثيرُ من العملِ. عند الانتهاءِ من إفراغِ السدِّ من الماءِ يجبُ تفكيكُ العوامةِ ورفعها، لوحاً تلو الآخر، عبرَ السَّلمِ خارجَ السدِّ. وفي

القعرِ تخبَّطَت مجموعاتُ السمكِ في بُركِ الوحلِ، ولذلك كان يجبُ التقاطُها وتشاركها بين المتطوعين. وعندما انتهوا من كلِّ هذا، وقفَ ميرثن على الحافةِ متعباً ولكن سعيداً، ونظرَ إلى الحفرةِ التي يبلغُ عمقها عشرين قدماً وإلى الوحلِ في سريرِ النهرِ.

سيبدأ ميرثن غداً بردمِ العديدِ من أطنانِ الحصى في كلِّ حفرةٍ ثمَّ سيغمرُ الحصى بالملاطِ ويتكونُ بهذا أساسٌ مُصمتٌ وثابتٌ.

وبعدها سيبدأ ببناءِ جسمِ الجسرِ.

***

غرقَ ولفريك في اليأسِ.

بالكادِ كان ولفريك يتناولُ أيَّ طعامٍ وينسى الاغتسالَ. كان ينهضُ بشكلٍ طبيعي مع الفجرِ ويذهبُ للنومِ مع هبوطِ الظلامِ إلّا أنَّهُ لم يقم بأيِّ عملٍ، ولم يمارس الحبَّ مع غويندا ليلاً. وعندما سألته عن الخطبِ قالَ لها: «لا أعلمُ حقاً». أجابَ على كلِّ الأسئلةِ بهذهِ الأجوبةِ الغامضةِ أو بالتأوه فحسب.

لم يكن هناك عملٌ كثيرٌ في الحقولِ، فهذا هو الفصلُ الذي يجلسُ فيهِ القريون حولَ المدافئ يخيطون أحذيةً جلديةً أو يصنعون مجارف من خشبِ البلوطِ أو يأكلون اللحمَ المقددَ والتفاح والملفوف المحفوظين في الخلِّ. لم تكن غويندا قلقةً حيالَ تأمين طعامهم فما زال ولفريك يملكُ المالَ من بيعِ محاصيلِهِ، ولكنَّها كانت قلقةً جداً عليهِ.

لطالما عاشَ ولفريك من أجلِ عملِهِ. كان بعضُ القرويين يقامرون على الدوامِ ولم يكونوا سعداء سوى في أيامِ الراحةِ، ولكن ولفريك لم يكن مثلهم، فقد كانَ جلُّ اهتمامِهِ الحقول والحيواناتِ وحالة الطقسِ. وفي أيامِ الآحادِ يظلُّ متوتراً إلى أن يجدَ عملاً يقومُ به ولكن دونَ أن يكون من الأعمالِ المحرَّمةِ أيامَ الأحدِ. وفي الأعطالِ كان يقومُ بأعمالٍ فيها التفافٌ على هذهِ القوانينِ.

كانت تعلمُ أنَّه يجب أن يعودَ إلى حالتِهِ الطبيعية أو سيقعُ صريعَ المرضِ. والمالُ الذي بحوزتِهِ لن يبقى إلى الأبدِ، وعاجلاً أم آجلاً سيتوجبُ عليهما العملُ.

ولكنَّها لم تُطلعهُ على الأخبارِ إلّا بعدَ مرورِ شهرين وباتت على ثقةٍ من صحتِها.

وفي أحدِ صباحاتِ تشرين كانون الأول/ ديسمبر قالت له: «لدي شيءٌ لأخبركَ بهِ».

تأوَّهَ عندما سمعَ ما قالتهُ. كان جالساً إلى طاولةِ المطبخِ يشحذُ عوداً، ولم يرفع ناظريهِ عن عملهِ.

مدَّت يدَها عبرَ الطاولةِ وأمسكَت بمعصميهِ فتوقفَ عن الشحذِ: «من فضلكَ يا ولفريك هلَّا نظرتَ إلي؟»

نظرَ إليها وقد علا وجههُ تعبيرٌ يشي بالقسوةِ وبالامتعاضِ لأنَّه تلقى أمراً إلَّا أنَّهُ كان يشعرُ بالكسلِ الشديدِ على تحديها.

«الأمرُ هامٌ»، قالت له.

نظرَ إليها في صمتٍ.

«سأنجبُ طفلاً»، قالت لهُ.

لم تتغير تعابيرُ وجههِ، إلَّا أنَّ السكين والعود وقعا من يديهِ.

نظرَت إليهِ لبرهةٍ طويلةٍ وقالت له: «هل فهمتَ ما قلتهُ؟»

أومأ برأسِهِ وقال: «طفلٌ!»

«أجل، سننجبُ طفلاً».

«متى؟»

ابتسمَت غويندا. لقد كان هذا أوّلَ سؤالٍ يطرحهُ منذُ شهرين. «قبلَ الحصادِ في الصيفِ القادمِ».

«يجبُ الاهتمام بالطفلِ»، قال لها. «وبكِ أيضاً».

«أجل».

«يجبُ أن أعمل»، وبدا مكتئباً مجدداً.

حبسَت غويندا أنفاسَها بانتظارِ ما سيقولهُ بعد هذا.

تنهّدَ ولفريك ثمَّ فتحَ فمهُ وقال: «سأذهبُ لمقابلةِ بيركن. لا بدَّ أنَّه بحاجةٍ إلى مساعدةٍ في الفلاحةِ».

«وفي التسميدِ»، قالت بسعادةٍ. «سأرافقكَ. لا بدَّ أنَّه سيستعين بنا».

«حسناً»، قال وهو مازال يُحدقُ بها. «طفلٌ»، قال هذا كأنَّ الأمرَ أعجوبةٌ. «أتساءل إن كان صبياً أم فتاةً».

نهضَت من مكانِها واستدارت حولَ الطاولةِ لتجلسَ على المقعدِ المقابلِ لهُ. «أيهما تُفضل؟»

«فتاةً صغيرةً. كانت عائلتي مكونةً من الصبيةِ فقط».

«أريدُ صبياً. نسخةً مصغرةً عنكَ».

«قد نحظى بتوأمٍ».

«صبي وفتاة».

وضعَ ذراعهُ حولها وقال لها: «يجب أن نطلبَ من الأب غاسبارد أن يزوجنا أولاً».

تأوّهَت غويندا بسعادةٍ ووضعَت رأسَها على كتفهِ. «أجل. ربما يجدرُ بنا أن نفعلَ هذا».

***

انتقلَ ميرثن من منزلِ عائلتهِ قبلَ حلولِ عيدِ الميلادِ. كان قد بنى لنفسهِ منزلاً مؤلفاً من غرفةٍ واحدةٍ على جزيرةِ ليير التي أصبحَت جزيرتهُ الآن. قال لهما إنَّ عليهِ حمايةَ الأكوامِ المتعاظمةِ من موادِ البناءِ القيّمةِ على الجزيرةِ: الأخشابُ والحجارة والكلس والحبال والمعدّاتُ الحديدية.

ولكنَّهُ في الوقتِ عينهِ كان يُعرِّجُ إلى منزلِ كاريس لتناولِ الطعامِ.

وقبلَ نهايةِ شهرِ كانون الأول/ ديسمبر توجهت كاريس إلى منزلِ ماتي وايز.

«ما من داعٍ لإخباري بسببِ قدومكِ إلى هنا»، قالت ماتي. «هل مرَّت ثلاثةُ أشهرٍ؟»

أومأت كاريس برأسِها وتفادَت النظرَ إليها بشكلٍ مباشرٍ. أخذَت تنظرُ في أرجاءِ المطبخِ الصغيرِ بما فيهِ من زجاجاتٍ ومرطباناتٍ. كانت ماتي تطبخُ شيئاً في قدرٍ معدني وتفوحُ منهُ رائحةٌ لاذعةٌ أثارت في كاريس الرغبةِ بالعطاسِ.

«لا أريدُ أن أنجبَ طفلاً»، قالت كاريس.

«كم تمنيتُ لو أنني أحصلُ على دجاجةٍ في كلِّ مرةٍ أسمعُ فيها هذهِ الجملة».

«هل سأكونُ شريرةً إن فعلتُ هذا؟»

هزَّت ماتي كتفيها بلامبالاةٍ وقالت: «أنا أصنعُ الخلطات ولا أصدرُ الأحكام. يعلمُ الناسُ الفرقَ بينَ الخطأ والصواب، وإن لم يكونوا على درايةٍ فهنا يأتي دورُ الكهنة».

شعرَت كاريس بخيبةِ الأملِ فقد كانت تأملُ الحصول على التعاطفِ من ماتي وقالت ببرودٍ: «هل لديكِ خلطةٌ للتخلصِ من هذا الحملِ؟»

«أجل...» قالت ماتي وقد بدت مرتبكةً.

«هل الأمرُ خطرٌ؟»

«إن الطريقةَ الكفيلةَ بالتخلصِ من الحملِ هي بتسميمِ نفسكِ. تلجأ بعضُ

الفتياتِ إلى شربِ غالونٍ من النبيذِ القوي. لقد صنعتُ جرعةً مكونةً من مجموعةٍ من الأعشابِ السّامةِ، وهي تنجحُ أحياناً وتفشلُ في أحيانٍ أخرى، ولكنني لطالما شعرتُ بالجزعِ كلما صنعتها».

«هل هي خطيرةٌ؟ هل ستقتلني؟»

«أجل، ولكنها ليست بخطورةِ الولادةِ».

«سآخذها».

أنزلَت ماتي قدرها عن النارِ ووضعتهُ على قطعةٍ حجريةٍ حتّى يبرد. استدارت من مكانِها على مقعدِ العملِ القديمِ والمليء بالخدوشِ وأخذت وعاءً فخارياً صغيراً من الخزانةِ ثمَّ سكبَت فيه كمياتٍ صغيرةً من أنواعٍ مختلفةٍ من المساحيق.

قالت كاريس: «ما الخطبُ؟ لقد قُلتِ إنَّكِ لا تطلقين الأحكام ولكن يبدو أنكِ تستنكرين».

أومأت ماتي برأسِها وقالت: «أنتِ على حقٍ. أنا أطلقُ الأحكامَ من كلِّ يدٍ، هذا ما يفعلهُ الجميعُ».

«وأنتِ تحكمين عليّ».

«أنا أفكرُ بأنَّ ميرثن رجلٌ صالحٌ وأنّكِ تحبينهُ، ولكن يبدو أنّكِ غير قادرةٍ على إيجادِ السعادةِ معه، وهذا ما يحزنني».

«وأنتِ تعتقدين أنّه يجبُ عليَّ أن أقومَ بما تقومُ بهِ النساءُ الأخريات، وأرمي بنفسي تحتَ قدمي رجلٍ».

«يبدو أنَّ الأمرَ يُسعدهم، ولكني اخترتُ طريقي الخاص في الحياةِ ويبدو أنك اخترتِ طريقَكِ أيضاً».

«هل أنتِ سعيدةٌ؟»

«لم تكن السعادةُ قدري، ولكني أساعدُ الناسَ وأجني مالاً وأنا حُرَّة». وسكبَت المزيجَ في كأسٍ وأضافَت بعضَ النبيذِ ثمَّ حرَّكَت المزيجَ حتّى تذوبَ المساحيقُ. «هل تناولتِ طعامَ الفطور؟»

«شربتُ حليباً فقط».

وضعَت ماتي بعضَ العسلِ في كأسٍ وقالت: «اشربي هذا، ولا تتناولي طعامَ العشاءِ لأنّكِ ستتقيّئينهُ».

أخذَت كاريس الكأسَ في ترددٍ ثمَّ ابتلعَت الخلطةَ وقالت لماتي: «شكراً لكِ». كانَ للخلطةِ طعم مُر كالعلقمِ، ولكنَّ حلاوة العسلِ خففت من حدَّةِ هذهِ المرارةِ.

«بحلولِ صباحِ الغدِ يفترض أن تكون الأمور منتهيةً - بطريقةٍ أو بأخرى».

دفعَت لها كاريس وغادرت عائدةً إلى المنزلِ. على الطريقِ شعرت بمزيجٍ من السعادةِ والحزنِ فقد كانت معنوياتها مرتفعةً لأنّها اتخذت قراراً بعد أسابيع من القلقِ، ولكنَّها، وفي الوقتِ عينِه، شعرَت بأنها تفقدُ شيئاً، كأنّها تودعُ شخصاً ما. قد يكون هذا الشخصُ ميرثن. تساءلت في نفسِها إن كان انفصالهما دائماً. يمكنها أن تفكّرَ بهذا الاحتمالِ بهدوءٍ فهي ما زالت غاضبةً منهُ رغمَ علمِها بأنّها اشتاقَت إليهِ بشدَّةٍ. سيعثرُ على حبيبةٍ أخرى في نهايةِ المطافِ وقد تكون بيسي بيل، ولكن كاريس كانت واثقةً من أنّها لن تجدَ حبيباً آخر، ولن تُحبَّ شخصاً آخر كما أحبَّت ميرثن.

عندما وصلَت إلى المنزلِ أثارَت رائحةُ لحمِ الخنزير المشوي غثيانها، ولهذا غادرتهُ مجدداً. لم تكن ترغبُ بالتحدثِ إلى النساءِ الأخريات الماراتِ في الشارعِ الرئيسي، أو أن تتحدثَ في أمورِ العملِ مع الرجالِ في غيلد هول، ولذلكَ توجهت إلى الديرِ وقد أحكمَت عباءتَها الصوفية الثقيلة حولها من أجلِ الدفءِ. جلسَت على شاهدِ قبرٍ في المقبرةِ وتطلَّعت إلى الحائطِ الشماليِّ للكاتدرائيةِ وهي تتأملُ نقوشَ وجمال دعائمِ الحائطِ النافرةِ.

ولم يطل الأمرُ حتَّى بدأت تشعرُ بالغثيانِ.

تقيأت على قبرٍ. لكن ولأنَّ معدتها فارغة لم تتقيأ سوى سائلٍ حامضٍ وبدأ رأسُها يؤلمها.

أرادَت الاستلقاءَ، ولكنَّها ترددت في العودةِ إلى المنزلِ بسببِ الرائحة القادمةِ من المطبخِ. وقررَت أن تتوجه إلى مستشفى الديرِ. ستسمحُ لها الراهباتُ هناك بالاستلقاءِ لبعضِ الوقتِ. غادرَت المقبرةَ، وعبرَت الحديقةَ التي تقعُ أمامِ الكاتدرائية ثمَّ دخلت إلى المستشفى، وفجأة أحسَّت بعطشٍ شديدٍ.

حيَّتها الراهبةُ اللطيفةُ وذات الوجهِ المدور العجوز جولي. «آهٍ، أيتها الأختُ جوليانا»، قالت كاريس بامتنانٍ. «هلَّا أحضرتِ لي كوباً من الماءِ؟» كانت المياه تصلُ إلى الدير عبرَ أنبوبٍ من المجرى الأعلى للنهرِ ولذلك كانت مياهاً باردةً وصافيةً ونظيفةً.

«هل أنتِ مريضةٌ يا ابنتي؟» قالت العجوز جولي في قلقٍ.

«أشعرُ ببعضِ الغثيانِ. هل يمكنني أن أستلقي لبعضِ الوقتِ».

«بالطبعِ. سأذهبُ لإحضارِ الأم سيسيليا».

استلقت كاريس على إحدى الحشيَّاتِ القشيَّة المصفوفةِ على الأرضيةِ. شعرَتَ لبعضِ الوقتِ بأنَّ حالتها قد تحسنت، ولكنَّ الصداع عاودها بشكلٍ أسوأ. عادت جولي مع إبريقٍ وكأسٍ والأمّ سيسيليا. شربَت كاريس بعضَ الماءِ وتقيأتهُ ثمَّ شربَت المزيدَ.

طرحَت عليها سيسيليا بعضَ الأسئلةِ ثمَّ قالت: «هل تناولتِ طعاماً فاسداً؟ تحتاجين إلى تطهير أمعائكِ».

كانت كاريس تشعرُ بألمٍ شديدٍ منعَها من الاتيانِ بأيّ ردٍ. غادرت سيسيليا وعادَت بعدَ دقائق تحملُ زجاجةً وملعقةً ثمَّ أعطَت كاريس ملعقةً من دواءٍ يشبه الدبسَ ولهُ طعمُ كبشِ القرنفلِ.

استلقت كاريس على ظهرِها وأغلقَت عينيها وهي تتوقُ إلى نهايةِ هذا الألمِ. بعد برهةٍ شعرَت بمغصٍ وإسهالٍ شديدين، وافترضَت أنَّ السببَ في هذا هو الدواءُ الذي يشبهُ الدبسَ. وبعدَ ساعةٍ توقفَ الإسهالُ والمغصُ. خلعَت جولي عنها ملابسها وأعطتها رداءَ راهبةٍ بدلاً من ثيابِها الملوثةِ ووضعتها على فراشٍ نظيفٍ. استلقت كاريس على الفراشِ وأغلقَت عينيها في إرهاقٍ شديدٍ.

أتى رئيسُ الدير غودوين لرؤيتِها وأشارَ بفصدِ دمها، ثمَّ أتى راهبٌ آخر ليقومَ بالعملِ. أجلسها الراهبُ وأخذَ ذراعَها ووضعَ مرفقها فوقَ وعاءٍ كبيرٍ ثمَّ أخذَ سكيناً حادةً وفتحَ الوريدَ في باطنِ ذراعِها. لم تشعر بألمِ الجرحِ أو بالتدفقِ البطيء للدمِ، وبعد برهةٍ وضعَ الراهبُ ضمادةً على الجرحِ وطلَبَ منها أن تمسكَ بها بقوةٍ ثمَّ أخذَ وعاءَ الدمِ وغادرَ.

بالكادَ كانت كاريس تعي من أتى لزيارتها ولم تميز والدها أو بيترانيلا أو ميرثن. بينَ الفينةِ والأخرى كانت الراهبةُ العجوزُ جولي ترفعُ كأساً إلى شفتيها ولأنَّها كانت تشعرُ بعطشٍ شديدٍ تجرعت منهُ على الدوامِ. في مرحلةٍ ما لاحظت وجودَ شموعٍ وأدركت أنَّ الوقتَ ليلٌ، وأخيراً استسلمت لنومٍ قلقٍ ورأت أحلاماً مخيفةً فيها دماءٌ وفي كل مرَّةٍ تصحو فيها من النوم تقدمُ لها جولي الماءَ.

وأخيراً استفاقت كاريس واكتشفت أنَّ الوقت نهار. كان الألم قد انحسر ولم تعد تشعر بشيءٍ سوى بصداعٍ خفيفٍ ثمَّ أدركَت أنَّ أحداً ما يغسلُ فخذيها ورفعت نفسها على مرفقيها.

بجانبِ فراشها قرفصت راهبةٌ مبتدئةٌ بوجهٍ ملائكي. كان ثوب كاريس مرفوعاً حتَّى خصرِها والراهبةُ تمسحُ فخذيها بقطعةٍ من القماشِ المبللِ بماءٍ فاترٍ ثمَّ وبعد وهلةٍ تذكَّرَت كاريس اسم الفتاة.

«مير!» قالت كاريس.

«أجل»، أجابت الراهبةُ المبتدئةُ بابتسامةٍ.

وعندما عصرت مير قطعةَ القماشِ في وعاءٍ ارتاعت كاريس عند رؤيةِ القماشِ بلونِ الدمِ.

«دمٌ!» قالت في خوف.

«لا تقلقي»، قالت مير وتابعت: «إنَّه دمُ حيضكِ وهو غزيرٌ ولكنَّهُ طبيعي».

رأت كاريس أنَّ ثوبها والفراش مُشبعان بالدماءِ.

استلقَت على ظهرِها وهي تنظرُ إلى السقفِ ثمَّ شعرت بدموعها تنحدرُ على خديها ولكنها لم تكن واثقةً من أنَّها دموعُ فرحٍ أم حُزنٍ.

لقد أجهضَت الطفل.

الجزء الرابع

من حزيران/ يونيو 1338 وحتّى أيار/ مايو 1339

-30-

كانَ شهرُ حزيران/ يونيو من عام 1338 جافاً ومشمساً إلّا أنَّ سوقَ الصوفِ كان كارثةً على كينغزبريدج عموماً وعلى إدموند وولر بشكلٍ خاصٍ، وبحلولِ منتصفِ الأسبوعِ أدركت كاريس أنَّ والدها قد أفلسَ.

ولأنَّ سكانَ المدينةِ توقعوا حدوثَ هذا قاموا بكلِّ الاستعداداتِ الممكنةِ، فقد كلَّفوا ميرثن ببناءِ ثلاثةِ أطوافٍ تقطعُ النهرَ باستخدام العصي إضافةً إلى العبَّارةِ وقارب إيان بوتمان. كان بوسعِ ميرثن أن يبني المزيدَ من الأطوافِ ولكن لم يكن هناكَ مساحةٌ كافيةٌ للرسو على كلتا ضفتي النهرِ. فتحَ الديرُ أرضَهُ المخصصة للسوقِ قبلَ يومٍ من الافتتاحِ، وعملت العبَّارةُ طوالَ الليلِ على ضوءِ المشاعلِ، وأقنعوا غودوين بإعطاءِ أصحابِ المتاجرِ في كينغزبريدج الإذنَ بعبورِ النهرِ إلى الضفةِ الأخرى وبيعِ الناسِ في صفوفِ الانتظارِ على أمل أن تساعدَ جعةُ ديك بروير وكعكُ باكستر في تهدئةِ الناسِ المنتظرين.

ولكن هذا لم يكن كافياً.

كان عددُ الزائرين أقل مقارنةً بالأعوامِ الماضيةِ ولكنَّ صفوفَ المنتظرين كانت أسوأ من ذي قبلٍ. لم تكن الأطوافُ الإضافيةُ كافيةً، وعلاوةً على هذا غدا الشاطئ على كلا الضفتين أشبه بمستنقعٍ موحلٍ جداً إلى درجة أنَّ العربات كانت تعلق باستمرارٍ في الوحلِ واضطروا إلى انتشالها بمساعدةِ الثيران. وما زادَ الطينَ بلَّةً هو أنهم واجهوا صعوبةً في توجيه الأطوافِ، ففي مناسبتين اصطدمَ طوفان وأطاحا بالرُكابِ في المياه، ولحسنِ الحظِ لم يغرق أحدٌ منهم.

توقعَ بعضُ التُجارِ حدوثَ مثلِ هذهِ المشاكلِ ولهذا فضلوا البقاءَ بعيداً، بينما استدارَ البعضُ الآخر على أعقابهِ عندما رأوا صفَّ الانتظارِ الطويلِ، ومن اختاروا الانتظارَ لنصفِ يومٍ حتَّى يدخلوا المدينة كانت تجارتهم بسيطةً وغادروها بعدَ يومٍ أو يومين. بحلولِ يومِ الأربعاءِ كانَ عددُ من نقلتهم العبَّارة خارجَ المدينة أكبر من عددِ الداخلين إليها.

في ذلكَ الصباحِ ذهبَت كاريس وإدموند في جولةٍ إلى ورشةِ العملِ على الجسرِ مع غيوم القادم من لندن. لم يكن غيوم زبوناً دسماً مثل بونافيتورا كارولي، ولكنَّهُ كانَ أفضلَ زبائنِ هذا العام، ولهذا انشغلَ بهِ كلٌّ من كاريس وإدموند. كان غيوم رجلاً طويلاً وممتلئاً وقد ارتدى عباءةً حمراء زاهية من القماش الإيطالي الفاخر.

استعاروا طوفَ ميرثن الذي كانَت لهُ منصةٌ عالية ورافعة لنقلِ موادِ البناءِ. وجذَّفَ جيمي مساعدُ ميرثن الطوفَ بهم عبرَ النهرِ.

ما زالت تلكَ الدعائمُ التي بناها ميرثن على عجلٍ وسط النهرِ في كانون الأول/ ديسمبر الماضي محاطةً بسدودِ الإنضابِ، وشرحَ ميرثن لإدموند وكاريس أنَّهُ سيُبقي على السدود إلى أن تنتهي أعمالُ بناءِ الجسرِ لحمايةِ الهيكلِ من أيِّ ضررٍ عرضي قد يُحدثُهُ العمالُ. وبعدَ هدمِها سيضعُ مكانها أكواماً من الحجارةِ الكبيرةِ والركامِ، وقالَ إنَّ هذا سيمنعُ التيار من تقويضِ الدعائمِ.

كانَ حجمُ الأعمدةِ الحجريةِ الآن قد ازدادَ بشكلٍ هائلٍ وباتت أشبه بأشجارٍ باسقةٍ تمتدُ بأقواسها جانبياً باتجاهِ دعائم أصغر في المياه الضحلةِ قربَ الضفتين، وحتَّى هذه الدعائم الأصغر كانت لها أقواسٌ باتجاهِ الدعائمِ المركزيةِ من جهةٍ وباتجاهِ الركائزِ على الضفةِ من جهةٍ أخرى. كانَ هناكَ ما يقاربُ الاثني عشرَ بنَّاءً أو أكثر على سقالةٍ مرتجلةٍ تتدلى من الهيكلِ كأنَّها عشُّ نورسٍ فوقَ جُرفٍ.

نزلوا على جزيرةِ ليبر ووجدوا ميرثن مع الأخ توماس يشرفان على البنَّائين الذين كانوا يبنون ركائز الجسرِ من الجانبِ الشمالي للنهرِ. ما زال الدير يمتلكُ ويتحكَّمُ بالجسرِ رغمَ أنَّ نقابةَ الأبرشيةِ استأجرت الأرضَ منهُ وسكانُ المدينةِ من موّلوا أعمال البناءِ. يتواجدُ الأخ توماس في الموقعِ أغلبَ الأحيانِ فقد كانَ رئيسُ الديرِ مُهتماً بهذا المشروعِ، وعلى الأخصِّ في شكلِ الجسرِ، وبدا واضحاً أنَّه يشعرُ بأنَّ الجسرَ سيكونُ وبطريقةٍ ما صرحاً لهُ.

رفعَ ميرثن عينيهِ العسليتين إلى الزوارِ وشعرَت كاريس بقلبِها يخفقُ بسرعةٍ. لم تكن تراه في هذهِ الأيامِ إلّا نادراً، وعندما يتكلمان كانا يتحدثان في أمورِ العملِ، إلَّا أنَّ شعوراً غريباً لم يفارقها في حضورهِ. بذلت جهداً لتتمالك نفسَها وتتنفس بشكلٍ طبيعي، ولتبادلهُ النظرات بلامبالاةٍ مزيفةٍ، ولتتحدثَ برويةٍ واعتدالٍ.

لم يتصالحا قط بعدَ شجارهما، ولم تخبرهُ عن الإجهاضِ ولذلكَ لم يكن

لديهِ أدنى فكرة عما إذا كانَ حملها قد انتهى بطريقةٍ طبيعيةٍ أم لا. لم يتحدث أيٌّ منهما عن الأمرِ، ومنذُ إجهاضها أتى إليها مرَّتين وتحدثَ معها بكلِ رزانةٍ ورجاها أن يبدآ بدايةً جديدةً. وفي كلتا المرَّتين قالت لهُ إنَّها لن تحبَ رجلاً آخر، ولكنها لن تقضي حياتها كزوجةٍ وأمٍ. «وكيفَ ستقضينَ حياتكَ إذاً؟» سألها وأجابته بكلِ بساطةٍ بأنَّها لا تدري.

لم يعد ميرثن ذلكَ الفتى المهلهل الذي كانَ عليهِ في ما مضى فقد شذَّبَ شعرَهُ ولحيتهُ وأصبحَ زبوناً دائماً للحلاقِ مائيو. كان يرتدي سترةً قصيرةً خمريةً كستراتِ البنَّائين وعباءةً صفراء بحوافّ من الفرو في دلالةٍ على مكانتهِ كسيدٍ وقبعةً بريشةٍ جعلتهُ يبدو أطول.

اعترضَ ولفريك الذي ما زال على عدائهِ لميرثن على ارتداءِ الأخير لثيابٍ كثيابِ المعلمين بحجةِ أنَّهُ ليسَ عضواً في أيّ نقابةٍ. وكان جوابُ ميرثن على هذا هي أنَّهُ معلمٌ وأنَّه يمكنُ حلُّ هذهِ المشكلةِ بتنسيبهِ إلى النقابةِ. وبقي الأمرُ عالقاً من دونِ حلٍ.

كان ميرثن في الواحدةِ والعشرين من العمرِ. نظرَ غيوم وقال: «إنَّه شابٌ!»

وأجابَت كاريس بشكلٍ دفاعي: «إنَّهُ أفضلُ بنَّاءٍ في المدينةِ مُذ كانَ في السابعةَ عشرة».

همسَ ميرثن ببضعِ كلماتٍ لتوماس واقتربَ منهم.

«يجب أن تكونَ ركائزُ الجسرِ ثقيلةً وأساساتها عميقةً»، قال ميرثن مُتحدثاً عن القوسِ الحجري الضخم الذي كانَ يبنيهِ.

قال غيوم: «ولماذا أيُّها الشاب؟»

كان ميرثن معتاداً على المعاملةِ المتعاليةِ ولهذا لم يأخذ الأمرَ بجديةٍ وقال بابتسامةٍ مقتضبةٍ: «دعني أريك. قِفْ وباعد بينَ قدميكَ قدرَ الإمكان كما أفعلُ أنا». عرضَ عليهِ ميرثن ما يجب عليهِ فعلهُ، وبعد شيءٍ من الترددِ حذا غيوم حذوهُ. «أنتَ تشعرُ كأنَّ قدميكَ قد تتباعدان أكثر، صحيح؟»

«أجل».

«وتنحو نهايتا أيِّ جسرٍ إلى التباعدِ كقدميكَ، وهذا يضغطُ على الجسرِ تماماً كالضغطِ الذي تشعرُ بهِ بينَ منفرجيكَ». وقفَ ميرثن بانتصابٍ وثبّتَ قدمَهُ قبالةَ حذاءِ غيومِ الجلدي الناعم ثمَّ أضاف: «لا يُمكنك أن تحركَ قدمكَ الآن والضغطُ بين منفرجيكَ تراجع، صحيح؟»

«أجل».

«إنَّ للركائز ذات التأثير الذي لقدمي أمامَ قدمكَ؛ فهي تُثبتُ قدمكَ وتحررُ الضغطَ».

«هذا مثيرٌ جداً»، قال غيوم متأملاً وهو يستعيد وضعيةَ الوقوفِ الطبيعيةِ، وعلمت كاريس في قرارةِ نفسها أنَّ غيوم في هذهِ اللحظةِ يقولُ لنفسهِ إنّ ميرثن شخصٌ لا يستهانُ بهِ.

«دعني أريكَ المكان»، قال ميرثن.

كانت جزيرةُ ليبر قد تغيرت تماماً خلالَ الأشهرِ الستةِ الماضيةِ، وكلُّ شيءٍ يمتُ بصلةٍ إلى مستعمرةِ المصابين بالجذامِ اختفى، واحتلَّت معداتُ البناءِ معظمَ مساحةِ الجزيرةِ الصخريةِ: أكوامُ الحجارةِ المرتبةِ وبراميلُ الكلسِ وأكوامُ الخشبِ وبكراتُ الحبالِ. ما زالَ المكانُ مستعمرةً للأرانبِ التي كانت تنافسُ البنَّائين على المساحةِ. هناكَ دكانُ حدادةٍ حيث يقومُ حدادٌ بإصلاحِ معداتٍ قديمةٍ ويصنعُ أخرى جديدة، وهناكَ أيضاً أماكن مبيتٍ للبنَّائين، ومنزلُ ميرثن الجديد الذي كان صغيراً إلَّا أنَّه متقنُ الصُنعِ وجميلٌ في تناسقهِ. كان النجارون وعمالُ الحجارةِ وصانعو الملاط يكدحون لمدِّ العمالِ على السقالات بالموادِ.

«يبدو أنَّ عدد العمال أكثر من العادةِ»، همست كاريس في أذنِ ميرثن.

ابتسمَ ميرثن وأجابَ بهدوءٍ: «وزعتُ العمالَ على الأماكنِ البارزةِ. أريد من كلِّ زائرٍ أن يلاحظَ السرعةَ التي نعملُ بها لبناءِ الجسرِ الجديدِ، وأنَّ السوقَ سيعودُ إلى سابقِ عهدهِ في العامِ القادمِ».

عندَ الزاوية الغربيةِ للجزيرةِ وبعيداً عن الجسرين التوأمين كان هناكَ باحاتٌ ومخازنُ على الأرضِ التي أجّرَها ميرثن لتجارِ كينغزبريدج. ورغمَ تقاضيهِ إيجاراً منخفضاً من التجارِ مقارنةً بالإيجاراتِ في المدينةِ فإنَّ ميرثن كان يكسبُ أكثر من المبلغِ الذي يدفعهُ سنوياً مقابلَ عقدِ إيجارِ الجزيرةِ.

كان ميرثن يُشاهدُ كثيراً بصحبةِ إليزابيث كلرك التي اعتبرتها كاريس فتاةً حقيرةً وباردةً إلَّا أنَّها كانت المرأةُ الوحيدةُ التي تملكُ الذكاءَ الكافي لتحدي ميرثن. كان لديها صندوقٌ صغيرٌ من الكتبِ ورثتهُ عن والدِها الأسقف، وكان ميرثن يقضي الأماسي يطالعُ في منزلِها. ولم تعلم كاريس إن كانا يقومانِ بأمورٍ أخرى غير المطالعةِ.

عندما انتهت الجولةُ عادَ إدموند مع غيوم عبرَ النهرِ بينما بقيت كاريس للتحدثِ مع ميرثن.

«هل هو زبونٌ مهمٌ؟» سألها بينما كان الرجلانِ يبتعدانِ على الطوفِ.

«لقد بعناهُ للتو كيسين من الصوفِ الرخيصِ بأقلِّ مما كلفنا. يبلغُ وزنُ كلِّ كيسٍ من الصوفِ المغسولِ والمجففِ ثلاثمئةٍ وأربعةً وستين باونداً، ووصلَ سعرُ كيسِ الصوفِ الرخيصِ هذا العام إلى ستةٍ وثلاثين شلناً، أمَّا الصوف من نوعيةٍ أفضل فقد كان بضعفِ المبلغِ».

«لماذا؟»

«عندما تهبطُ الأسعار فمن الأفضل أن يكونَ لديكَ مالٌ بدلاً من الصوفِ».

«ولكنكِ حتماً توقعتِ ألا تبلي جيداً في السوقِ».

«لم نتوقعه أن يكونَ بهذا السوءِ».

«أنا متفاجئٌ حقاً. لطالما امتلكَ والدكِ قدرةً خارقةً على توقعِ سيرِ الأمورِ».

أبدَت كاريس تردداً ثمَّ قالت: «ما حدثَ سببهُ الطلبُ الضعيفُ على البضائعِ وغيابُ الجسرِ». في الحقيقةِ كانت كاريس متفاجئةً من سيرِ الأمورِ أيضاً. لقد رأت والدها يشتري الكميةَ ذاتها من الصوفِ رغمَ أنَّ الأوضاع لم تكن مُبشرةً، وتساءلت في نفسِها عن السببِ الذي منعهُ من أخذِ حذرهِ وشراءِ كميةٍ أقل.

«أعتقدُ أنّكما ستبيعان الفائضَ في سوقِ شايرنغ»، قال ميرثن.

«هذا ما يريدُ الإيرل رولاند من الجميعِ أن يفعلهُ، والمشكلةُ في الأمرِ هي أننا لسنا زبائن دائمين هناك، وهذا يعني أنَّ سكانَ شايرنغ سيضعون أيديهم على أفضلِ الصفقاتِ. هذا ما حدثَ في كينغزبريدج؛ فقد وضعَ والدي وتاجران أو ثلاثةٌ آخرون أيديهم على الصفقاتِ الكبيرةِ مع كبارِ المشترين تاركين الفتات للتجارِ الصغارِ والغرباءِ. وأنا واثقةٌ من أنَّ تجارَ شايرنغ سيقومون بالمثلِ، ولكن لا نملكُ فرصةً حقيقيةً للتخلصِ من البضاعةِ كلها».

«وما الذي ستفعلينهُ؟»

«هذا هو سببُ قدومي للتحدثِ إليكَ. قد يتحتمُ علينا التوقفُ عن العملِ على الجسرِ».

حدّقَ بها وقالَ بهدوءٍ: «لا».

«أنا آسفةٌ، ولكن والدي لا يملكُ المالَ فقد أنفقهُ كلَّه على شراءِ صوفٍ لا يستطيعُ بيعَهُ».

بدا ميرثن كأنّه تعرّضَ لطعنةٍ وبعدَ برهةٍ قال: «يجبُ أن نجدَ طريقةً أخرى».

اعتصرَ قلبها ألماً عليهِ، ولكن عقلها لم يُسعفها بشيءٍ يبعثُ على التفاؤلِ لقولهِ. «أعلنَ والدي أنّه سيتكفلُ بتقديمِ سبعين جنيهاً لأعمالِ بناءِ الجسرِ، وقد دفعَ نصفَ المبلغِ، ولكن أخشى أنَّ النصفَ الآخر موجودٌ في أكياسِ صوفٍ في مخزنِهِ».

«لا يمكن أن يكون مفلساً».

«إنّهُ على وشكِ الإفلاسِ، وهذا ينطبقُ على العديدِ من السكانِ ممن وعدوا بتقديمِ المالِ».

«يمكنني أن أبطئ أعمالَ البناءِ»، قال ميرثن في يأسٍ. «أن أسرّحَ بعضَ الحرفيين وأقتصدَ في شراءِ الموادِ».

«ولكن هذا يعني أنَّ الجسرَ لن يكونَ جاهزاً بحلولِ موعدِ السوقِ العام القادم، وهذهِ مشكلةٌ أسوأ».

«هذا أفضل من التوقفِ عن العملِ بالمرّةِ».

«أجل، إنّهُ كذلك»، قالت كاريس. «ولكن لا تقم بأيِّ شيءٍ الآن. عندما ينتهي سوقُ الصوفِ سنفكرُ بالأمر مجدداً. أردت أن أطلعكَ على الوضعِ فقط».

وقالَ ميرثن الذي ما يزال شاحبَ الوجهِ: «أقدرُ لكِ هذا».

عادَ الطوفُ وانتظرَ جيمي كاريس ليوصلها إلى الضفةِ، وبينما كانت تصعدُ على الطوفِ سألت بطريقةٍ عرضيةٍ: «كيف هي أحوالُ إليزابيث كلرك؟»

تظاهرَ ميرثن بأنَّ السؤال لم يفاجئهُ كثيراً وأجابَ: «إنّها بخيرٍ على ما أعتقد».

«يبدو أنّكَ تراها كثيراً هذهِ الأيام».

«لا، لا أراها لسببٍ خاصٍ. لطالما كُنّا صديقين».

«أجل بالطبع»، قالت كاريس رغمَ أنَّ هذا لم يكن صحيحاً. لقد تجاهلَ ميرثن إليزابيث معظمَ العامِ السابقِ الذي قضاه بمعظمهِ مع كاريس. لم ترغب بمعارضتِهِ فهي لم ترَ أنَّ هذا يستحقُ العناءَ، ولهذا لم تُضف أيَّ شيءٍ.

لوحَت لهُ مودعةً، ودفعَ جيمي بالقاربِ بعيداً عن الضفةِ. كان ميرثن يحاولُ الإيحاءَ بأنَّ علاقتَهُ مع إليزابيث لم تكن علاقةً رومانسيةً، وقد يكون هذا صحيحاً، أو ربما كان يشعرُ بالحرجِ من الاعترافِ لكاريس بأنّه على علاقةٍ غراميةٍ مع امرأةٍ أخرى. لم يكن بوسعِ كاريس أن تعرفَ أيَّ السيناريوهين هو الصحيحُ، ولكنها كانت واثقةً من أمرٍ واحدٍ وهو أنَّ الأمرَ بالنسبةِ لإليزابيث

علاقةٌ رومانسيةٌ، وعرفَت هذا من الطريقةِ التي كانت تنظرُ فيها إليهِ. قد تكونُ إليزابيث شابةً باردةً إلّا أنّها مثيرةٌ بالنسبةِ إلى ميرثن.

وصلَ الطوفُ إلى الضفةِ الأخرى وقفزَت كاريس منهُ ثمَّ صعدَت التلةَ باتجاهِ مركزِ المدينةِ.

لقد هزَّت الأنباءُ ميرثن بشدةٍ، وعندما استرجعَت كاريس الصدمةَ والخيبةَ على وجههِ رغبت بالبكاءِ؛ لقد علت وجهَهُ التعابير ذاتُها التي رأتها عندما رفضَت تجديد علاقةِ حبهما.

لم يكن لديها أدنى فكرة عن الطريقةِ التي ستقضي بها بقيةَ حياتِها. لطالما افترضت أنّه، ومهما يحدثُ، ستعيشُ في منزلٍ مريح ومن عملٍ مُربح. وها هي الآن تشعرُ بأنَّ هذا الأساس متزعزعٌ، وأخذت تفكر جاهدةً في حلٍ للخروجِ من هذه الفوضى. بدا والدها هادئاً على نحوٍ غريبٍ، كأنّه لم يستوعب حجمَ الخسارةِ بعد، إلّا أنّها كانت تعلمُ أنّه يجبُ القيام بشيءٍ حيال الأمرِ.

وأثناءَ ما كانت تقطعُ الشارعَ الرئيسي رأت ابنةَ إلفريك غريزيلدا مع ابنها البالغِ من العمرِ ستةَ أشهرٍ. كان صبياً وقد أسمتهُ ميرثن كأنّها بهذا أرادتهُ أن يكونَ عتاباً دائماً على عدمِ زواجِ ميرثن منها. ما زالت غريزيلدا تتظاهرُ بأنَّ براءتها قد دُنست، وبحلولِ الآن تقبَّلَ الجميع فكرةَ أنَّ ميرثن لم يكن الأب، رغمَ أنَّ بعضَ سكانِ المدينةِ ما زالَ يعتقد أنّه كان يجبُ عليه الزواجُ منها بأيِّ حالٍ بما أنّه نامَ معها.

وعندما دخلَت كاريس إلى المنزلِ كانَ والدها على وشكِ مغادرتِهِ. حدَّقت نحوهُ في ذهولٍ. كان في ثيابِهِ الداخلية المكونةِ من قميصٍ داخلي طويلٍ وسروالٍ تحتاني وجوارب. «أينَ ثيابكَ؟» قالت لهُ.

نظرَ إلى نفسِهِ ونمَّ عنهُ صوتٌ يشي بالتقززِ. «يبدو أنني بدأتُ أشردُ»، قال إدموند وعادَ إلى داخلِ المنزلِ.

وفكَّرَت كاريس أنّهُ خلعَ معطفهُ كي يذهب إلى المرحاضِ، ولكنهُ نسي أن يرتديهِ مجدداً، أو ربما يكون السببُ عمرهُ، ولكنه لم يتجاوز الثامنةَ والأربعين من العمرِ، ولكن يبدو أنَّ الأمرَ أكثر سوءاً من الشرودِ، وهزَّها هذا في صُلبِ عزيمتِها.

عادَ مجدداً في ثيابِهِ العاديةِ، وعبرا الشارع الرئيسي معاً ثمَّ دخلا إلى أرضِ الديرِ حيثُ يقامُ سوقُ الصوفِ. «هل أخبرتِ ميرثن بشأنِ المالِ؟» قالَ إدموند.

«أجل، وبدا مصدوماً جداً».

«وماذا كانَ جوابهُ؟»

«قالَ إنَّه يستطيعُ تخفيضَ النفقاتِ من خلالِ إبطاءِ سيرِ العملِ».

«ولكنَ هذا يعني أننا لن نحظى بالجسرِ بحلولِ العامِ القادمِ».

«ولكنهُ قالَ إنَّ هذا الحل أفضل من التخلي عن بناءِ الجسرِ الآن».

مرَّا بكشكِ بيركن الذي يبيعُ فيهِ الدجاجَ. كانت ابنةُ اللعوبُ آنيت تحملُ طبقاً من البيضِ وقد ربطتْهُ بحزامٍ حول عنقها. وخلفَ المنضدةِ رأت كاريس صديقتَها غويندا التي باتت تعملُ الآن لمصلحة بيركن. كانت في الشهرِ الثامنِ من حملِها وبدا ثدياها ثقيلين وبطنها مُنتفخاً، وقد وقفت ويدها على وركها في تلكِ الوضعية الكلاسيكية لأمٍّ على وشكِ إنجابِ طفلِها وتعاني من آلامٍ في الظهرِ.

وفكَّرَت كاريس أنَّها هي أيضاً كانت ستكون في شهرِها الثامن لو أنَّها لم تتناول الشرابَ الذي أعدَّتهُ ماتي. بعدَ الإجهاضِ أفرز ثدياها حليباً، وشعرت كاريس أنَّ هذا عتابُ جسدِها لها على ما فعلتهُ. كان الألمُ يخزها أحياناً، ولكن لو عادَ بها الزمنُ مرَّةً أخرى لكررَت فعلتَها.

التقطَت غويندا نظرةَ كاريس وابتسمَت. وعلى عكسِ جميعِ التوقعات حصلت غويندا على ما أرادتهُ وأصبحت زوجةَ ولفريك. كان ولفريك برفقتها أيضاً وبدا قوياً جداً وأشدَّ وسامةً وهو يضعُ أقفاصَ الدجاجِ على العربةِ. كانت كاريس سعيدةً جداً من أجلِ غويندا. «كيف حالكِ اليومَ؟» قالت كاريس.

«إنَّ ظهري يؤلمني منذُ الصباحِ».

«اقتربَ موعدُ ولادتكِ».

«بعدَ أسبوعين كما أعتقد».

قال إدموند: «من هذهِ يا عزيزتي؟»

«ألا تتذكرُ غويندا؟» قالت كاريس. «كانت تحلُّ ضيفةً على منزلكِ مرَّةً واحدةً على الأقلِ كل عامٍ وعلى مدارِ الأعوامِ العشرةِ الماضيةِ!»

ابتسمَ إدموند وقال: «لم أعرفكِ يا غويندا، ولا بدَّ أنَّ يكون السببُ هو حملكِ، ولكنكِ تبدينَ بصحةٍ جيدةٍ».

وتابعَ إدموند وكاريس طريقهما. تعلمُ كاريس أنَّ ولفريك لم يحصل على إرثِه، وأنَّ غويندا فشلت في تلكَ المهمةِ. لم تكن كاريس على درايةٍ بما جرى في أيلول/ سبتمبر الفائت عندما ذهبَت غويندا لمقابلةِ رالف والتماسهِ من أجلِ

إرثِ ولفريك، ولكن يبدو أنَّ رالف وعدها وأخلَّ بوعدِهِ لاحقاً، وباتت غويندا الآن تكرهُ رالف بقوةٍ شديدةٍ تكادُ تكونُ مخيفةً.

في مكانٍ قريبٍ كان هناكَ صفٌ من الأكشاكِ الخاصَّةِ بتجارِ قماشٍ محليين يبيعون القماشَ الصوفي البني الخشن، والقماش الذي يُستخدم في صناعةِ الملابس البيتيةِ وقد كان الجميعُ، باستثناءِ الأغنياءِ، يشترون منهُ. بدا هؤلاءِ التجار كأنّهم يبلون حسناً على عكسِ تجارِ الصوفِ. كانت تجارةُ الصوفِ الخامِ تجارةً بالجملةِ، وغيابُ بعض الزبائن المهمين كفيلٌ بتدميرِ سوقِ هذهِ السلعةِ، إلَّا أنَّ تجارةَ القماشِ بالمفرقِ مزدهرةٌ فالجميعُ بحاجةِ القماشِ ولذلكَ يشترونهُ؛ حتَّى في الأزمنةِ الصعبةِ يحتاجُ الناسُ إلى الثيابِ.

وخطرَ لكاريس خاطرٌ غريبٌ وهو أنَّ التجار عندما يفشلون في بيعِ صوفهم يقومون بحياكتِهِ وبيعِهِ كقماشٍ، ولكن هذا يتطلبُ الكثيرَ من العملِ، ولا يعودُ القماشُ الصوفي البني والخشنِ بربحٍ كبيرٍ، فالجميعُ يبحثون عن أرخصِ أنواعِ الأقمشةِ ولهذا يضطرُّ الباعةُ إلى تخفيضِ السعرِ.

ونظرَت كاريس إلى أكشاكِ بيعِ القماشِ بطريقةٍ مختلفةٍ هذهِ المرة. «ما القماشُ الذي يدرُّ ربحاً أكبر؟» تباعُ ياردةٌ من القماشِ البني باثني عشرَ بنساً، ويتعينُ دفعُ نصفِ هذا المبلغِ من أجلِ تنظيفهِ ومعالجتهِ بضربهِ بقوةٍ في المياهِ، وسيحتاجُ إلى مزيدٍ من المالِ لإضافةِ ألوانٍ بدلاً من بيعِهِ بلونهِ البني الباهتِ. يعرضُ بيتر داير أقمشةً باللونِ الأخضرِ والأصفرِ والوردي مقابلَ شلنين، وهذا يعني أربعةً وعشرين بنساً للياردةِ ولكن، ورغمَ هذا السعرِ المرتفعِ، لم تكن الألوانُ زاهيةً.

التفتت لتخبرَ والدها بالفكرةِ التي بدأت تتشكلُ في رأسِها، ولكن قبل أن تتمكنَ من الحديثِ حدثَ شيءُ ما منعَها من ذلكَ.

***

كان التواجدُ في سوقِ الصوفِ يذكّرُ رالف بذلكَ الحدثِ البغيضِ الذي وقعَ منذُ عامٍ مضى وأدى إلى تشوهِ أنفهِ. كيف حدث هذا؟ لقد بدأ الأمرُ بتوددٍ بريءٍ إلى تلكَ الفتاةِ القرويةِ آنيت، وانتهى بتلقينِ حبيبها الساذج درساً في الاحترامِ، ولكن، وبطريقةٍ ما، انتهى الأمرُ بشكلٍ مهينٍ لرالف.

وبينما كان رالف يقتربُ من كشكِ بيركن أخذَ يُعزي نفسَهُ بالتفكيرِ بما جرى منذئذٍ. لقد أنقذَ حياةَ الإيرل رولاند بعدَ انهيارِ الجسرِ، وكسبَ رضاهُ بتصرّفِهِ

الحازم في المقلعِ، وها قد أصبحَ سيداً حتَّى وإن كان سيداً على قريةٍ ويغلي الصغيرةِ. لقد قتلَ سائق العربةِ بين ويلر، ولم يكن هناك أيُّ مدعاةٍ للفخرِ في قتلِهِ، ولكنه أثبتَ نفسهُ أنَّهُ يستطيعُ القتلَ.

وتصالحَ مع أخيهِ بعدَ أن أجبرتهما والدتهما على ذلكَ بأن دعتهما إلى عشاءِ عيدِ الميلادِ، وأصرَّت على أن يتصافحا. وقال والدها إنَّه لمن سوءِ الحظِ أنهما يخدمان سيدين خصمين بعضهما لبعض، ولكن من واجبِ كلِّ واحدٍ منهما أن يبذلَ قصارى جهدِهِ في عملِهِ كالجنودِ الذين يجدون أنفسهم على الجانبِ الآخرِ في حربٍ أهليةٍ. كان رالف سعيداً بالمصالحةِ واعتقدَ أنَّ ميرثن شعرَ بالمثلِ.

كان راضياً عن انتقامِهِ من ولفريك فقد حرَمَهُ من إرثِهِ ومن خطيبتِهِ معاً فها هي آنيت الجذابةُ قد تزوجت من بيلي هاورد بينما أقنعَ ولفريك نفسهُ بتلكَ الفتاةِ البشعةِ –ولكن الشهوانية– غويندا.

من المؤسفِ حقاً أنَّ ولفريك لم يبد مُحطماً جداً، فقد كان يمشي في أرجاءِ القريةِ بقامةٍ منتصبةٍ وبفخرٍ، كأنَّه من يمتلكُ المكان وليسَ رالف. كان جميعُ الجيرانِ يحبونهُ وزوجته تعبدُهُ. ورغمَ كلِ الهزائمِ التي ألحقها بهِ رالف فإنَّهُ برزَ كبطلٍ بطريقةٍ ما. ربما السببُ في هذا شبقُ زوجتِهِ.

كم رغبَ رالف بأن يخبرَ ولفريك بزيارةِ غويندا لهُ في نُزلِ بيل. «لقد نمتُ مع زوجتكَ»، أرادَ أن يقول لهُ. «وقد أحبّت ذلكَ». إنَّ هذا كفيلٌ بمسحِ تلكَ النظرةِ المتعاليةِ من على وجهِ ولفريك، ولكن سيعلمُ ولفريك عندها أنَّ رالف وعدَ وأخلَّ بوعدِهِ بشكلٍ مُخزٍ، وهذا بدورهِ سيدفعُ ولفريك للشعورِ بالتفوقِ عليهِ مجدداً. وارتعدَ رالف عندما فكَّرَ بالبغضِ الذي سيشعرُ بهِ ولفريك وآخرون نحوهَ عندما يعلمون بأمرِ تلك الخيانةِ، وشقيقهُ ميرثن بالتحديدِ سيحتقرهُ على فعلتِهِ هذهِ. لا، يجب أن تبقى سقطتُه مع غويندا طيَّ الكتمانِ.

وجدَهم جميعهم في الكشكِ. كانَ بيركن أوَّلَ من رأى رالف يقترب وحيَّاه بتملقٍ كعادتهِ. «طابَ يومكَ أيُّها اللورد رالف»، قال بيركن وهو يُحني رأسهُ احتراماً، وبدورها زوجتُهُ بيغ حيَّت اللورد أيضاً. كانت غويندا موجودةً ورآها تفركُ ظهرها كأنّه يؤلمها، ثمَّ رأى آنيت تحملُ طبقَ البيضِ، وتذكرَ أن ملمسَ ثدييها الصغيرين والمدورين والمتينين كالبيضِ الذي على الطبقِ. رأتهُ ينظرُ فأطرقَت بنظرها حياءً. أرادَ رالف أن يلمسَ ثدييها مجدداً، وقال لنفسهِ

إنَّ ما من شيءٍ قد يمنعهُ من فعلِ هذا فهو سيدها، ومن ثمَّ رأى ولفريك خلفَ الكشكِ. كانَ الفتى يرفعُ أقفاصَ الطيورِ إلى العربةِ إلا أنه وقفَ ساكناً في مكانهِ عندما رأى رالف. بدا وجههُ خالياً من أيِّ تعبيرٍ إلّا أنَّ نظرتَه كانت قويةً ورابطةَ الجأشِ. لم تكن نظرةً وقحةً إلّا أنَّ رالف رأى فيها تهديداً واضحاً كأنَّ ولفريك أرادَ القولَ: المسْها وسأقتلك.

وفكَّرَ رالف: «ربما يجب أن ألمسها. وإن هاجمني فسأقطعُهُ بسيفي وسيكون الحقُّ إلى جانبي، فأنا سيدٌ أدافعُ عن نفسي من فلاحٍ أعماهُ الحقدُ»، ودونَ أن يزيحَ ناظريهِ عن ولفريك رفعَ رالف يدَهُ ليداعبَ ثدييِ آنيت، وهنا نمَّت عن غويندا صرخةُ ألمٍ وكربٍ دفعت بأنظارِ الجميعِ نحوها.

-31-

سمعَت كاريس صرخةَ ألمٍ وعرفت أنَّ الصوت صوتُ غويندا، وشعرت بتشنجٍ مؤلمٍ كأنَّ هناكَ خطباً ما.

توجهت كاريس بخطى مستعجلةٍ إلى كشكِ بيركن وعندما وصلت وجدت غويندا جالسةً على الكرسي. بدت غويندا شاحبةً والألمُ يعتصرُ وجهها وقد وضعَت يديها على وركِها وكان فستانها رطباً.

قالت بيغ زوجةُ بيركن ببداهةٍ: «لقد نزلت مياهُ الرحمِ. إنَّها في بدايةِ المخاضِ».

قالت كاريس بقلقٍ: «ولكن لم يحن موعد ولادتها بعد».

«الطفلُ قادمٌ على أيِّ حالٍ».

«هذا خطيرٌ» قالت كاريس ثمَّ قررت: «لنأخذها إلى المستشفى». عادةً لا تذهبُ النساءُ للولادةِ في المستشفى، لكنهم سيقبلون بغويندا إن أصرَّت كاريس؛ ففي الولادةِ المبكرةِ قد يأتي الطفلُ ضعيفاً والجميعُ يعرفُ ذلكَ.

ظهرَ ولفريك فصُدمَت كاريس من يفاعةِ مظهرِه. كان في السابعةَ عشرة وعلى وشكِ أن يصبحَ أباً.

قالت غويندا: «أنا أرتجفُ بعضَ الشيءِ فقط وسأكون على ما يرامٍ بعد وهلةٍ».

قالَ ولفريك: «سأحملكِ»، وحملَها من دونِ عناءٍ.

قالت كاريس له: «فلتتبعني»، وسارت أمامَهُ متجاوزةً الأكشاكَ وهي تنادي: «تنحوا جانباً من فضلكم، تنحوا جانباً». وفي غضون دقيقةٍ كانوا في المستشفى.

كان الباب مفتوحاً على مصراعيهِ فقد أُخرج زوارُ الليلةِ الماضيةِ منذُ ساعاتٍ وفُرشُ القشِّ الخاصة بهم مُكدَّسةٌ قبالة أحدِ الجدرانِ. كان العديدُ من الموظفين والرهبان المبتدئين ينظفون الأرضيَّةَ بالمماسحِ والدلاءِ. خاطبت كاريس أقربَ عاملةٍ وكانت امرأةً حافيةَ القدمين في منتصفِ العمرِ قائلة: «أحضري العجوز جولي بسرعةٍ. أخبريها أنَّ كاريس قد أرسلتك».

وجدَت كاريس فراشاً نظيفاً إلى حدٍ ما وفرشتهُ على الأرضيةِ قربَ المذبحِ. لم تكن كاريس مقتنعةً بفعاليةِ المذبحِ في مساعدةِ المرضى إلَّا أنَّها ارتأت احترامَ التقليدِ. وضعَ ولفريك غويندا على السريرِ بعنايةٍ كما لو أنها مصُنوعة من زجاجٍ، واستلقت غويندا وركبتاها للأعلى وباعدت بينَ ساقيها.

بعدَ لحظاتٍ وصلت الراهبةُ العجوز جولي وفكَّرَت كاريس بالمرَّات التي ارتاحَت فيها على يدي هذهِ الراهبةِ التي رغم أنَّها لم تتجاوز الأربعينَ فإنَّها بدت طاعنةً جداً في السنِ.

قالت كاريس: «هذهِ غويندا من ويغلي وقد تكون بخير فموعدُ ولادتها لم يحن بعد وما زالَ أمامها أسبوعان، ولكني اعتقدت أنَّه من الأفضلِ أن أجلبها إلى هنا فقد كنَّا في الخارجِ على أيِّ حالٍ».

قالت جولي: «تصرفٌ حكيمٌ»، ثمَّ أبعدت كاريس بلطفٍ لتجثو قربَ السريرِ.

«كيف تشعرين يا عزيزتي؟» قالت جولي لغويندا. وبينما كانت جولي تتحدثُ إلى غويندا بصوتٍ خفيضٍ نظرَت كاريس إلى ولفريك ورأت القلقَ على وجهِ الفتي والوسيم. علمَت كاريس أنَّه لم يكن ينوي الزواجَ من غويندا مطلقاً، فلطالما أرادَ آنيت، ولكن على الرغمِ من ذلكَ بدا مُهتماً بها كما لو أنَّه يحبها منذُ سنواتٍ.

صرخَت غويندا من الألمِ وقالت جولي: «ها هو، ها هو»، ثمَّ جثَت بين ساقي غويندا ونظرَت أسفلَ فستانِها وأضافت: «الطفلُ قادمٌ الآن».

ظهرَت راهبةٌ أخرى، ورأت كاريس أنَّها مير الراهبةُ المبتدئةُ ذاتُ الوجهِ الملائكي. قالت مير: «هل أُحضرُ الأمَّ سيسيليا؟»

ردَّت جولي: «لا داعي لإزعاجِها، اذهبي فقط إلى المخزنِ وأحضري

لي الصندوق الخشبي الذي كُتبَ في أعلاه (ولادة)». وهرعَت مير لجلبِ الصندوقِ.

قالت غويندا: «يا إلهي! هذا مؤلمٌ!»

«استمري بالدفعِ»، قالت جولي.

«ما الخطبُ بحقِّ الرَّبِّ؟» قال ولفريك.

قالت جولي: «ليسَ هناكَ أيُّ خطبٍ. إنَّه أمرٌ طبيعي فهكذا تلدُ النساء. لا بدَّ أنَّكَ الأصغر بين أفرادِ عائلتك وإلَّا لكنتَ قد رأيتَ والدتك في موقفٍ كهذا».

كانت كاريس الطفلة الأصغر في عائلتِها أيضاً، وهي تعلمُ أنَّ الولادةَ مؤلمةٌ لكن لم يسبق لها أن شاهدتها في الواقعِ، وقد صُدمت من سوءِ الوضعِ.

عادَت مير ووضعت صندوقاً خشبياً على الأرضِ بجوارِ جولي. توقفَ أنينُ غويندا وأغمضَت عينيها وبدَت كأنَّها نائمةٌ، ثمَّ بعدَ بضعِ دقائقَ صرخَت مرَّةً أخرى.

قالت جولي لولفريك: «اجلس بجانبِها وأمسك بيدِها». وامتثلَ ولفريك على الفورِ.

كانت جولي ما تزال تنظرُ أسفلَ فستانِ غويندا. «توقفي عن الدفعِ الآن»، ثمَّ قالت بعدَ برهةٍ: «خُذي الكثيرَ من الأنفاسِ القصيرةِ»، وأخذَت تلهثُ لتوضحَ لغويندا ما كانت تعنيهِ. ونفذت غويندا ما أخبرتها بهِ جولي وبدا أنَّ هذا خففَ من محنتِها لبضعِ دقائق، ثمَّ صرخَت مرَّةً أخرى.

وبالكادِ كانت كاريس قادرةً على تحملِ الأمرِ؛ إن كانت هذهِ ولادة سهلةً فكيفُ هو حالُ الولادةِ العسيرةِ؟

وفقدَت إحساسَها بالوقتِ، كان كلُّ شيءٍ يحدثُ بسرعةٍ كبيرةٍ، إلَّا أن عذابَ غويندا لا نهاية لهُ.

كان لدى كاريس شعورٌ بالعجزِ وقد كرهت هذا كثيراً، وقد طغى عليها الشعور ذاتهُ عندَ وفاةِ والدتِها. أرادَت المساعدةَ لكنَّها لم تعرف ما يجبُ فعلُهُ، وأثارَ هذا قلقها بشدةٍ إلى درجةٍ أنَّها عضَّت على شفتِها حتَّى أدمتها.

قالت جولي: «ها هو الطفلُ قادمٌ».

وقفَت كاريس بين ساقي غويندا، تراجعَ ثوبُ غويندا إلى الوراءِ وتمكنت كاريس فجأةً من رؤيةِ رأسِ الطفلِ بوضوحٍ ووجههُ للأسفلِ ومغطى بشعرٍ مبللٍ ويخرجُ من فتحةٍ بدَت عصيَّةً على التمددِ.

قالت كاريس مرتعبةً: «الرحمةُ يا إلهي! لا عجبَ أنَّ هذا مؤلمٌ!»

أمسكَت جولي الرأسَ بيدِها اليُسرى، وببطءٍ أدارت الطفلَ إلى جنبِه ثمَّ خرجَت كتفاه الصغيرتان. كان جلدُهُ زلقاً بفعلِ الدماء وبعضِ السوائلِ الأخرى.

«استرخي الآن»، قالت جولي: «نوشكُ على الانتهاءِ. يبدو الطفلُ جميلاً».

«جميلاً!» فكَّرت كاريس فقد بدا لها فظيعاً.

خرجَ جذعُ الطفل مع حبلٍ أزرق ينبضُ ومُتصلٍ بسُرَّتِهِ، ثمَّ خرجَت ساقاه وقدماه سريعاً. حملَت جولي الطفلَ بكلتا يديها؛ لقد كان صغيراً لا يتجاوزُ حجمُ رأسِهِ راحةَ يدِها.

يبدو أنَّ هناكَ خطبٌ ما، وأدركَت كاريس أنَّ الطفلَ لم يكن يتنفس.

قرَّبت جولي وجهَ الطفلِ من وجهها ونفخَت في منخريهِ الصغيرين. وفجأةً فتحَ الطفلُ فمَهُ وتنفَّس ثمَّ بكى. «الحمدُ للرَّبِّ»، قالت جولي.

مسحَت وجه الطفل بأكمامِها ونظَّفَت بحنانٍ حولَ أذنيهِ وعينيهِ وأنفِهِ وفمِهِ. ثمَّ شدَّت الرضيعَ إلى حضنها وأغمضَت عينيها. في تلكَ اللحظةِ شاهدَت كاريس عُمراً كاملاً من نكرانِ الذاتِ. مرَّت اللحظة ووضعَت جولي الرضيعَ على صدرِ غويندا. نظرت غويندا إلى الأسفلِ قائلةً: «هل هو صبي أم فتاة؟»

أدركَت كاريس أنَّ أيّاً منهن لم تلقِ نظرةً.

انحنَت جولي وباعدَت بين ركبتي الطفلِ وقالت: «إنَّه صبي».

توقفَ الحبلُ الأزرق عن النبضِ وذبلَ متحولاً إلى اللون الأبيض.

أخذَت جولي خيطين قصيرين من الصندوقِ وربطَت الحبلَ السري، ثمَّ تناولت سكيناً صغيرة حادة وقطعَت الحبلَ بين العقدتين.

أخذَت مير السكينَ منها وأعطتها بطانيةً صغيرةً من الصندوقِ. أخذَت جولي الطفلَ من غويندا ولفتهُ بالبطانية وأعادتهُ.

وجدَت مير بعضَ الوسائدِ ووضعتها وراءَ غويندا. أنزلَت غويندا ياقةَ فستانها وأخرجَت ثدياً مُنتفخاً. قرَّبت الرضيعَ من الحلمةِ وبدأ بالرضاعةِ على الفورِ ليغفو بعدَ وهلةٍ.

كان الطرفُ الآخرُ من الحبلِ السري ما يزالُ متدلياً من غويندا. بعدَ بضعِ دقائقَ تحرَّكَ الحبلُ وانزلقَت كتلةٌ حمراء عديمةُ الشكلِ. لقد كانت المشيمة.

بللت الدماءُ الفراشَ. رفعَت جولي الكتلةَ وأعطتها لمير قائلةً: «احرقيها».

فحصَت جولي حوضَ غويندا واكفهرَّ وجهها. تتبعَت كاريس نظرتَها ورأت أنَّ الدماءَ ما زالت تتدفقُ. مسحَت جولي الدماءَ عن جسدِ غويندا لكنَّ الخيوط الحمراء عاودَت الظهورَ على الفورِ.

عندما عادَت مير قالت جولي: «أحضري الأمَّ سيسيليا على الفورِ من فضلكِ».

قالَ ولفريك: «هل هناكَ خطبٌ ما؟»

«كان يجب أن يتوقفُ النزيفُ الآن»، أجابَت جولي.

وفجأةً عمَّ جو من التوترِ وبدا ولفريك خائفاً. بكى الطفل وأعطتْه غويندا الحلمة مجدداً فأخذَ يرضع لفترةٍ وجيزةٍ ثمَّ غطَّ في النومِ بينما واصلت جولي التحديقَ إلى المدخلِ.

وظهرَت سيسيليا أخيراً. نظرَت إلى غويندا وقالت: «هل خرجَت المشيمةُ؟»

«قبلَ عدَّةِ دقائق».

«هل وضعتم الطفلَ على ثديها؟»

«حالما قطعنا الحبلَ السري».

«سأحضرُ طبيباً»، قالت سيسيليا وابتعدَت مُسرعةً.

مضَى على غيابِها بضعُ دقائق، وعندما عادت كانت تحملُ وعاءً زجاجياً صغيراً يحتوي على سائل ضاربٍ للصفرةِ وقالت: «لقد وصفَها غودوين من دونِ أن يأتي».

كانت كاريس ساخطةً وقالت: «ألا يريدُ فحصَ غويندا أولاً؟»

«بالطبع لا»، قالت سيسيليا بحزمٍ: «إنَّه كاهنٌ وراهبٌ، ومثلُ هؤلاءِ الرجال لا ينظرون إلى أعضاءِ النساءِ الخاصَّةِ».

وتفوهت كاريس بازدراءٍ بكلمةٍ لاتينيةٍ تعني «وغد».

تظاهرَت سيسيليا بأنَّها لم تسمع، وجثَت بجانبِ غويندا قائلةً: «اشربي هذا يا عزيزتي».

شربَت غويندا الجرعةَ لكنَّ النزيف استمرَّ. كانت شاحبةً وبدَت أضعف مما كانت عليهِ بعدَ الولادةِ مباشرةً. نامَ الطفل برضا على صدرِها، لكنَّ الجميعَ كانوا خائفين. استمرَّ ولفريك بالنهوضِ والجلوسِ مراراً وتكراراً.

مسحَت جولي الدماءَ عن فخذي غويندا وبدَت كأنّها على وشكِ البكاءِ.

طلبَت غويندا شيئاً ما لتشربَهُ، فأحضرَت لها مير كوباً من الجعةِ.

أخذَت كاريس جولي جانباً وهمسَت: «ستنزفُ حتَّى الموتِ!»

«لقد فعلنا ما بوسعنا،» قالت جولي.
« هل سبق أن رأيتِ حالاتٍ كهذهِ قبلاً؟»
«نعم، ثلاثاً».
«كيف انتهى بهنَّ الأمرُ؟»
«لقد مُتنَ».
تأففت كاريس بيأسٍ وقالت: «لا بدَّ أنَّ يكون هناكَ ما يمكننا القيامُ بهِ».
«إنَّها بين يدي الرَّبِّ الآن. يمكنكِ الصلاةُ لها».
«ليس هذا ما قصدتُهُ بقولي إنَّه علينا فعلُ شيءٍ ما».
«حاذري في ما تقولينه».
شعرَت كاريس بالذنبِ على الفورِ فهي لم تكن ترغبُ بالشجارِ مع شخصٍ لطيفٍ مثل جولي.
«آسفة يا أختاه. لم أكن أقصدُ إنكارَ قوةِ الصلاةِ».
«آمل ذلكَ».
«لكنني لستُ مستعدةً بعد لتركِ غويندا بين يدي الرَّبِّ».
«ما الذي يمكننا فعلهُ غير ذلكَ؟»
«سترين»، وسارعت كاريس بالخروجِ من المستشفى.
وبعجلةٍ شقَّت كاريس طريقَها بين الزبائنِ الذين كانوا يتجولون في السوقِ. بدا لها من المدهشِ حقاً أنَّ الناسَ قادرون على البيعِ والشراءِ في حين أنَّ قضيةَ حياةٍ أو موتٍ تحدثُ على بُعدِ بضعِ ياردات. ولكن سبقَ لها أن كانت في هذا الموقفِ، وسمعَت في مناسباتٍ عديدةٍ عن أمٍ دخلَت المخاضَ دونَ أن تتوقف عمَّا كانت بصددِ فعله مكتفيةً بالتمني لها بالشفاءِ.
غادرت أراضي الدير وركضَت عبرَ شوارعِ المدينةِ باتجاهِ منزل ماتي وايز. طرقَت البابَ وفتحتهُ. شعرت بالراحةِ عندما عثرت على ماتي في المنزلِ.
«أنجبَت غويندا طفلاً للتو،» قالت كاريس.
«هل حدثَ مكروهٌ ما؟» قالت ماتي على الفورِ.
«إنَّ الطفلَ على ما يرام ولكن غويندا ما زالت تنزفُ».
«هل نزلت المشيمةُ؟»
«نعم».
«يجب أن يتوقف النزيفُ إذاً».
«هل يمكنكِ مساعدتُها؟»

«ربما، سأحاولُ».

«بسرعةٍ من فضلكِ».

أنزلَت ماتي قدراً عن النارِ وانتعلت حذاءَها ثمَّ غادرَت معها بعد أن أقفلت البابَ خلفَها.

قالت كاريس بعنفٍ: «لن أنجبَ الأطفالَ أبداً، أقسمُ لكِ».

هرعَت المرأتان إلى الديرِ ودخلتا المستشفى، ولاحظت كاريس أنَّ رائحةَ الدمِ قويةٌ.

حرصَت ماتي على عدمِ تجاهلِ العجوز جولي ولذلك قالت لها: «طابَ يومكِ أيتها الأختُ جوليانا».

«أهلاً ماتي»، وبدَت جولي مستاءةً. «هل تعتقدين أنَّه بإمكانكِ مساعدةُ هذهِ المرأةِ بعد أن فشلَت جميعُ العلاجاتِ المقدَّسةِ السابقةِ؟»

«إن صلَّيتِ من أجلي ومن أجلِ المريضةِ. من يعرفُ يا أختاه ما الذي يمكنُ أن يحدثَ؟»

كانت إجابةً دبلوماسيةً وبقيت جولي هادئةً.

جثَت ماتي بجانبِ الأمِّ وطفلِها. كانت غويندا تبدو أكثرَ شحوباً وعيناها مغلقتان. أخذَ الطفلُ يبحثُ عن الحلمةِ بشكلٍ أعمى، لكنَّ غويندا بدت مجهدةً جداً على مساعدتهِ في إيجادِها.

قالت ماتي للراهبةِ مير: «يجب أن تستمرَ بالشربِ ولكن ليس خمراً قوياً. من فضلكِ أحضري لها إبريقاً من الماءِ الدافئ وامزجيهِ مع كأسٍ صغيرةٍ من النبيذِ، ثمَّ اسألي الطاهي إن كان لديهِ حساءٌ دافئ».

نظرَت مير إلى جولي نظرةَ استفهامٍ وقد بدت مترددةً ثمَّ قالت: «اذهبي، لكن لا تخبري أحداً أنَّك تنفذين توصياتِ ماتي». وهرعت الراهبة خارجاً لتنفذَ ما قالتهُ جولي.

رفعَت ماتي فستانَ غويندا لأعلى كاشفة بطنِها كله. أصبحَ الجلدُ الذي تمددَ بشدَّةٍ منذُ بضعِ ساعاتٍ مُترهلاً ومطوياً. أمسكَت ماتي الجلدَ المترهلَ ودفعت بإصبعِها بلطفٍ ولكن بقوةٍ في بطنِ غويندا. نخرَت غويندا، وكان صوتاً نابعاً من الضيقِ أكثر مما هو من الألمِ.

قالت ماتي: «إنَّ الرحمَ رخو. لقد فشلَ في التقلصِ وسببَ لها نزيفاً».

قال ولفريك وقد بدا على وشكِ البكاءِ: «هل يمكنكِ فعلُ شيءٍ لها؟»

«لا أعلمُ». وبدأت ماتي بالتدليكِ ضاغطةً بأصابعِها على رحمِ غويندا عبرَ جلدِ بطنها ولحمِهِ.

ثمَّ قالت: «في بعضِ الأحيانِ قد يساعدُ هذا على حثِّ الرحمِ على التقلصِ».

تفرَّجَ الجميعُ بصمتٍ. وكانت كاريس متوترةً إلى درجةٍ أنَّها نسيت أن تتنفس.

عادَت مير بخليطِ الماءِ والنبيذِ، ووضعَت كأساً من الخليطِ على شفتي غويندا التي شربَت بعطشٍ. «ليسَ كثيراً»، حذرتها ماتي فأبعدَت مير الكأسَ.

استمرَّت ماتي بالتدليكِ وهي تلقي نظراتٍ خاطفةٍ بين الحينِ والآخرِ إلى حوضِ غويندا. كانت شفاه جولي تتحركُ في صلاةٍ صامتةٍ، والدمُ يتدفقُ دونَ توقفٍ.

غيَّرت ماتي وضعيتها والقلقُ بادٍ عليها. وضعَت يدَها اليسرى على بطنِ غويندا تحتَ السُّرَّة مباشرةً ثمَّ وضعَت اليمنى فوق اليسرى ودفعَت إلى الأسفلِ ببطءٍ وبمزيدٍ من الضغطِ. كانت كاريس خائفةً من أن يؤذي ذلكَ المريضةَ، لكن غويندا بدَت شبهَ واعيةٍ. انحنَت ماتي أكثر على غويندا حتَّى بدا كأنَّها تضعُ كاملَ ثقلِها على يديها.

قالت جولي: «لقد توقفَ النزيفُ!»

لم تغير ماتي وضعيتَها وقالت: «هل يمكنُ لأحدكم أن يعدَّ للخمسمئةِ؟»

«أجل» قالت كاريس.

«ببطءٍ من فضلكِ».

بدأت كاريس العدَّ بصوتٍ عالٍ. مسحَت جولي دماءَ غويندا مرَّةً أخرى، ولكن دونَ أن يكون هناكَ خيوطُ دمٍ حمراء هذهِ المرَّة، وأخذت تصلي بصوت عالٍ. «يا مريم المقدسة، يا أمَّ الرَّبِّ يسوع المسيح».

وقفَ الجميع ساكنينَ كمجموعةٍ من التماثيل: الأمُّ والطفلُ على فراشٍ من القشِّ، المرأةُ الحكيمةُ تضغطُ على بطنِ الأمِّ، الزوجُ والراهبةُ التي تصلي، وكاريس تعدُّ: «مئة وأحدَ عشر، مئة واثنا عشر..».

وإضافةً إلى صوتِها وصوتِ جولي، كان بوسعِ كاريس سماع ضجيجِ السوق خارجاً، وهدير الناسِ يتحدثون جميعاً في وقتٍ واحدٍ. بدا إجهادُ الضغطِ يظهرُ على وجهِ ماتي لكنَّها لم تتحرك. كان ولفريك يبكي بصمتٍ والدموعُ تنهمرُ على وجنتيهِ المحروقتين بفعلِ الشمسِ.

عندما وصلَت كاريس إلى الخمسمئةِ خففت ماتي ببطءٍ من وزنِها عن بطنِ

غويندا. نظرَ الجميعُ إلى فرجها متخوفين من رؤيةِ الدمِ يتدفقُ منهُ لكن لم يكن هناكَ دماءٌ.

تنَفّسَت ماتي الصعداءَ وابتسمَ ولفريك وقالت جولي: «المجدُ للرَّبِّ».

قالت ماتي: «أعطِها شراباً آخر من فضلكِ».

وضعَت مير الكأسَ على شفتي غويندا التي فتحَت عينيها وشربتهُ دفعةً واحدةً.

«ستكونين بخيرٍ الآن»، قالت ماتي.

همسَت غويندا: «شكراً لك»، ثمَّ أغمضَت عينيها.

نظرَت ماتي إلى مير وقالت: «ربما عليكِ الذهابُ وجلبُ ذلكَ الحساءِ. على المرأةِ أن تعيدَ بناءَ قوتِها وإلّا جفَّ حليبها». أومأت مير وذهبَت.

بكى الطفلُ وبدَت غويندا كأنّها عادت إلى الحياةِ. نقلَت الطفلَ إلى صدرِها وساعدتهُ على إيجادِ الحلمةِ، ثمَّ نظرَت إلى ولفريك وابتسمَت.

قالت جولي: «يا لهُ من صبي صغيرٍ وجميلٍ!»

نظرَت كاريس إلى الطفلِ مرَّةً أخرى ولكنها هذهِ المرَّة نظرَت إليهِ كإنسانٍ وتساءلت في نفسها كيف سيكون، هل سيكون قوياً وصادقاً مثل ولفريك؟ أم ضعيفاً ومخادعاً مثلَ جدِّه جوبي؟ وفكَّرت بأنّه لا يشبهُ أيّاً منهما.

قالت كاريس: «من يشبه؟»

قالت جولي: «لديهِ لونُ بشرةِ أمّهِ».

وفكَّرت كاريس بأنَّ هذا صحيحٌ فقد كان للطفلِ شعرٌ داكنٌ وبشرةٌ حنطية اللونِ بينما بشرةُ ولفريك فاتحةٌ وشعره أشقر داكن. ذكَّرها وجهُ الطفلِ بأحدٍ ما، وبعدَ لحظاتٍ أدركَت أنّه يشبه ميرثن. كانت فكرةً غبيةً ولذلكَ استبعدتها على الفورِ. لكن وعلى الرغمِ من غباءِ هذهِ الفكرةِ كان الشبهُ موجوداً. «أتعلمون بمن يذكرني؟» قالت كاريس.

وفجأةً رمقتها غويندا بنظرةٍ اتسعَت معها عيناها وغطى الذعرُ وجهها وبدا لكاريس كأنّها هزَّت برأسها. لم تدم النظرةُ سوى للحظةٍ إلّا أنَّ رسالتها لا لبسَ فيها: كانت غويندا تطلبُ من كاريس ألا تتابعَ كلامها وأطبقَت كاريس فمها.

قالت جولي ببراءةٍ: «من؟»

ترددَت كاريس وهي تفكرُ بيأسٍ في شيءٍ لتقولهُ. وفي النهايةِ نزلَ عليها الإلهام وقالت: «فيليمون، شقيق غويندا».

«بالطبعِ»، قالت جولي. «على أحدهم أن يطلبَ منهُ الحضورَ ورؤيةَ ابن أختهِ».

شعرَت كاريس بالارتباكِ فإن لم يكن الطفلُ ابن ولفريك فمن هو والدهُ الحقيقي إذاً؟ لا يمكنُ أن يكونَ ابن ميرثن. قد يكون ميرثن ضعيفاً أمامَ الإغراءِ وربما جمعتهُ علاقة مع غويندا ولكنه لم يكن ليُبقي الأمرَ سرّاً عنها. إن لم يكن ميرثن...

وعبرت رأسَ كاريس أفكارٌ مريعةٌ. ما الذي حدثَ في ذلكَ اليوم عندما ذهبت غويندا إلى رالف لتحدثهُ بشأنِ ميراثِ ولفريك؟ هل هذا يكون الطفلُ ابن رالف؟ كان التفكيرُ في الأمرِ باعثاً على الإحباطِ.

نظرَت إلى غويندا ثمَّ إلى الطفلِ ثمَّ ولفريك.

كان ولفريك يبتسمُ فرحاً رغمَ وجههِ المبللِ بالدموعِ ولم يبدُ عليهِ الشكُ بأنَّ هذا الطفلَ ابنهُ.

قالت جولي: «هل فكَّرتم في اسمٍ للطفلِ؟»

«أجل» قالَ ولفريك. «أريدُ أن اسميه ساموئيل».

أومأت غويندا وهي تنظرُ إلى وجهِ الطفل: «ساموئيل»، ثمَّ أضافت: «سامي... سام».

«تيمناً باسمِ والدي»، قال ولفريك بسعادةٍ.

-32-

مرَّ عامٌ على وفاةِ أنتوني وأصبحَ ديرُ كينغزبريدج مكاناً مُختلفاً. عبرت هذهِ الفكرةُ رأسَ غودوين وهو واقفٌ في الكاتدرائيةِ يومَ الأحدِ بعدَ انتهاءِ أسبوعِ سوقِ الصوفِ.

إنَّ الفرقَ الوحيدَ الذي طرأ على الديرِ خلالَ هذا العام هو الفصلُ بين الرُّهبانِ والراهباتِ. لم يعد هناكَ أيّ اختلاطٍ بينهم في أروقةِ الديرِ أو في المكتبةِ أو في غرفةِ الكتابةِ. حتَّى هنا في الكنيسةِ كان هناكَ حاجزٌ خشبي مزخرفٌ من خشبِ البلوطِ وسط جوقةِ المرتلين لمنعهم من النظرِ بعضهم إلى بعض خلال المراسمِ، إلّا أنَّ الوضعَ في المستشفى بقي على حالهِ فقد كانوا مُجبرين على الاختلاطِ فيهِ.

خلالَ عظتهِ قالَ رئيسُ الديرِ غودوين إنَّ انهيارَ الجسرِ منذُ عام كانَ عقاباً من الرَّبِّ على انحلالِ الرهبانِ والراهباتِ وعلى الخطايا التي يرتكبها سكانُ المدينةِ، وأنَّ روحَ التشددِ والطهارةِ الجديدةِ والتقوى والطاعةِ في البلدةِ ستقودُ إلى حياةٍ أفضل للجميع في الدنيا وفي الآخرةِ. كان غودوين يشعرُ بأنَّ الأمور تسيرُ على نحو حسن.

بعد هذا تناولَ غودوين طعامَ العشاءِ مع أمينِ الخزنةِ الأخ سيميون في منزلِ رئيسِ الديرِ. قدَّمَ فيليمون العشاء لهما وكان مكوناً من يخنةِ سمكِ الحنكليس مع عصيرِ التفاحِ.

«أريدُ بناءَ منزلٍ جديدٍ لرئيسِ الديرِ»، قال غودوين.

وبدا وجهُ سيميون الطويلِ والنحيل أكثرَ طولاً من وقعِ المفاجأةِ.

«وهل هناكَ سببٌ محددٌ لقيامنا بهذا؟» سأل سيميون.

«أنا على ثقةٍ بأنني رئيسُ الديرِ الوحيد في العالمِ المسيحي الذي يعيشُ في منزلٍ أشبه بدكانِ دبَّاغ. فلتأخذ بالحسبانِ الضيوفَ الذين أتوا إلى هنا خلال العامِ الماضي: إيرل شايرنغ وأسقفُ كينغزبريدج وإيرل مونماوث. هذا البناءُ غيرُ لائقٍ لهؤلاءِ الضيوفِ، فهو لا يتركُ انطباعاً جيِّداً عنا ولا عن أخويتنا. نحتاجُ إلى بناءٍ مُذهلٍ يعكسُ مقامَ دير كينغزبريدج».

«أنتَ تريدُ قصراً»، قال سيميون.

انتبهَ غودوين إلى نبرةِ الاستهجانِ في صوتِ سيميون كأنّه فهمَ من كلامِ غودوين أنه يريدُ التعظيمَ من شأنِهِ وليسَ من شأنِ الديرِ. «فلنقل إنّه قصرٌ»، قال غودوين بعنادٍ. «ما المشكلةُ في هذا؟ يعيشُ الأساقفةُ ورؤساءُ الأديرةِ في قصورٍ، وهذا ليس من أجلِ راحتهم الشخصيةِ بل من أجل راحةِ زوارهم، ومن أجلِ سمعةِ المؤسسةِ التي يمثلونها».

«بالطبعِ»، قال سيميون وقد تخلى عن حجتهِ. «ولكن لن تستطيعَ تحملَ تكاليفهِ».

اكفهرَّ وجهُ غودوين. نظرياً يُشجعُ كبار الرهبانِ على مجادلةِ رئيسِ الديرِ، ولكن في الحقيقةِ لطالما كرهَ غودوين أن يخالفهُ أحدٌ الرأي. «هذهِ سخافةٌ»، قال غودوين. «إنَّ ديرَ كينغزبريدج واحدٌ من أغنى الأديرةِ في البلادِ».

«هذا ما يقالُ. إننا نملكُ مواردَ كبيرةً ولكنَ سعر الصوفِ تراجعَ للعامِ الخامسِ على التوالي، ومدخولنا يتقلصُ».

وفجأة تدخّل فيليمون في الحديثِ قائلاً: «يقولون إنَّ التجار الإيطاليين يشترون الصوفَ من إسبانيا».

لقد تغيرَ فيليمون مُذ حققَ حلمَهُ، فها هو قد أصبحَ راهباً مُبتدئاً ولم يعد مظهرهُ يوحي بأنّه فتى أخرق، وازدادَ ثقةً بنفسِهِ، وباتَ قادراً على الدخولِ في حديثٍ بينَ رئيسِ الديرِ وأمينِ الخزنةِ، ويقدّم اقتراحات مثيرةً للاهتمامِ.

«هل هذا صحيح؟» قال سيميون. «علاوةً على هذا كان سوقُ الصوفِ أضعف بسبب انهيارِ الجسرِ، ولهذا مدخولنا من تعاريفِ الدخولِ تراجعَ ولم يعد كالسابقِ».

قال غودوين: «ولكننا نملكُ آلاف الفدادين من الأراضي».

«في هذا الجزءِ من البلدِ وحيثُ توجدُ أراضينا كانَ الحصادُ شحيحاً العامَ الماضي بسبب الأمطارِ الغزيرةِ جداً، وصارعَ العديدُ من أقناننا للبقاءِ على قيدِ الحياةِ. ومن الصعبِ إجبارِهم على دفعِ الإيجارات إن كانوا جوعى...»

«ولكن عليهم أن يدفعوا»، قال غودوين. «فالرهبان يجوعون أيضاً».

وتدخّلَ فيليمون في الحديثِ مجدداً: «إن قالَ وكلاءُ القرى إنَّ الأقنان تخلّفوا عن دفعِ الإيجار، أو إنّ أجزاءً من الأرضِ خاليةٌ من السكانِ وبالتالي لا يوجدُ أيُّ إيجاراتٍ لن يسعكَ أن تكذبهم لأنّك لا تملكُ طريقةً لمعرفةِ ما إن كانوا يقولون الحقيقةَ أم لا؛ فالأقنانُ يرشون الوكلاء».

وشعرَ غودوين باليأسِ فقد دخلَ في محادثاتٍ كثيرةٍ كهذهِ في العامِ الماضي، ولهذا قررَ أنَّ يُشددَ قبضتَهُ على مواردِ الديرِ الماليةِ، ولكنَّهُ، وفي كلِ مرَّةٍ يحاولُ فيها تغييرَ الأمورِ يصطدمُ بالعوائقِ. «هل لديكَ اقتراحات؟» قال غودوين لفيليمون بانفعالٍ.

«فلتُرسل مُفتشاً في جولةٍ على القرى. سيتحدثُ هذا المفتش مع الوكلاء ويستطلعُ أحوالَ الأراضي ويزور أكواخَ الأقنانِ ممن يدعون أنّهم يتضورنَ جوعاً».

«إن كانت رشوةُ الوكيلِ ممكنةً فهذا يعني أنَّ رشوةَ المفتشِ ممكنةٌ أيضاً».

«هذا غيرُ واردٍ إن كانَ المفتشُ راهباً. فما قيمةُ المالِ بالنسبةِ لنا؟»

وتذكَّرَ غودوين نزعةَ فيليمون القديمةَ إلى السرقةِ. كان ما قالهُ عن عدمِ فائدةِ المال الشخصي للراهبِ صحيحاً ولكن من الناحيةِ النظريةِ، إلّا أن هذا لا يعني أنّهم منيعون أمامَ الفسادِ. على أيِّ حالٍ إنَّ زيارةً من مفتشِ الديرِ ستضعُ الوكلاءَ عندَ حدِهم. «إنَّها فكرةٌ جيدةٌ»، قال غودوين. «هل تريد أن تكونَ المفتشَ؟»

«يُشرفني القيامُ بهذهِ المهمةِ».

«إذاً، حسمنا الأمر»، وعادَ غودوين بحديثِهِ إلى سيميون. «ولكن مازلنا نملكُ مدخولاً هائلاً».

«نفقاتنا هائلةٌ»، أجابَ سيميون. «فنحنُ ندفعُ إعالةً ماليةً لأسقفنا، ونُطعم ونكسي ونؤوي خمسة وعشرين راهباً وسبعةَ رهبان مبتدئين وتسعةَ عشر شخصاً يعيشون على إعاناتِ الديرِ. نوظفُ أناساً لأعمالِ التنظيفِ والطبخِ وفتيةً لخدمةِ الإسطبلِ إضافةً إلى آخرين غيرهم. إننا ننفقُ ثروةً على شراءِ الشموعِ وأرديةُ الرهبان...»

«حسناً، لقد فهمتُ ما ترمي إليهِ»، قال غودوين بنفاد صبرٍ. «ولكن ما زلت أريدُ بناء قصرٍ».

«من أينَ ستحصلُ على المالِ إذاً؟»

تنهَّد غودوين وقالَ: «من المصدرِ الذي نقصدهُ دوماً. سأطلبُ من الأمِّ سيسيليا».

والتقى بها غودوين لاحقاً. عادةً ما كانَ غودوين يستدعيها لملاقاتهِ كنوعٍ من إظهار التفوق الذكوري في الكنيسةِ، ولكن في مناسبةٍ كهذهِ قررَ أنَّهُ من الأفضلِ أن يتملقها بالذهاب إليها.

كانَ منزلُ رئيسةِ الديرِ نسخةً طبق الأصلِ عن منزلِ رئيسِ الديرِ إلَّا أنَّهُ كان يعطي انطباعاً مختلفاً. كان هناك وسائد وسجاجيد وزهورٌ في مزهريةٍ على الطاولةِ وأقمشةٌ مطرزةٌ يدوياً معلقةٌ على الحائطِ تصورُ قصصاً ونصوصاً إنجيلية، وهناك قطةٌ نائمةٌ أمامَ الموقدِ. كانت سيسيليا تتناولُ عشاءها المكون من لحمِ الخروف المشوي ونبيذٍ أحمر داكن. وعندما دخلَ غودوين وضعَت حجاباً وفقَ الطريقةِ التي أوصى بها غودوين عندما يضطرُ الرهبان والراهبات إلى التحدثِ بعضهم مع بعض.

لطالما وجدَ غودوين صعوبةً في قراءةِ تعابيرِ وجهِ سيسيليا مع الخمارِ أو بدونهِ. كانت قد رحبت رسمياً بانتخابهِ رئيساً للديرِ، وطبقت دون أدنى اعتراضٍ أكثر قوانينهِ صرامةً الذي أمرَ فيهِ بفصلِ الرهبانِ والراهباتِ والسماحِ بالالتقاء العرضي في المستشفى فقط. لم تعارضهُ مطلقاً إلَّا أن غودوين لم يشعر قط بأنَّها تقفُ إلى جانبهِ. وبدا لهُ كأنَّه فقد القدرةَ على فتنها بشخصيتهِ. عندما كان أصغر

لطالما نجحَ في إضحاكها كما قد تضحكُ الفتياتُ، ولكنها لم تعد الآن سريعةَ التأثرِ، أو ربما فقدَ غودوين موهبتهُ في إضحاكها.

إنَّ بدءَ أحاديث لكسرِ الجليد مع امرأةٍ ترتدي خماراً أمرٌ صعبٌ، ولذلكَ اختار غودوين الدخولَ في الموضوعِ مباشرةً. «أعتقدُ أنَّهُ علينا بناءُ منزلين جديدين لاستقبالِ ضيوفنا من النبلاء وعليةِ القومِ»، قال غودوين. «منزلٌ للرجالِ ومنزلٌ للنساءِ. وسيُطلق عليهما منزل رئيس الديرِ ومنزل رئيسةِ الديرِ إلّا أنَّ الغرضَ منهما استقبالُ الزوار بتلكِ الفخامةِ التي اعتادوا عليها».

«هذهِ فكرةٌ مثيرةٌ للاهتمام»، قالت سيسيليا، وكعادتها بدت صاغرةً ولكن من دونِ حماسٍ.

«يجب أن تكون أبنيةً حجريةً مذهلةً» تابعَ غودوين. «ففي النهايةِ أنتِ تشغلين منصبَ رئيسة الديرِ منذُ عشرة أعوام، وأنتِ من أكبر رئيسات الأديرة في المملكةِ».

«لا نريدُ أن نُذهلَ الضيوفَ بثروتنا بل بقداسةِ الدير وتقوى الرهبان والراهبات بالطبعِ»، قالت سيسيليا.

«هذا صحيحٌ ولكن الأبنية يجب أن ترمزَ إلى هذا كما ترمزُ الكاتدرائيةُ إلى جلالِ الرَّبِّ».

«وأين يجب أن تكون هذه الأبنيةُ برأيكَ؟»

سُرَّ غودوين بسؤالها فهذا يعني أنَّها تفكرُ بالتفاصيل وأجابها: «قريباً من الأبنيةِ الحاليةِ».

«إذاً، سيكون منزلكَ في الزاويةِ الشرقيةِ من الكنيسةِ قربَ قاعةِ الاجتماعاتِ، ومنزلي هنا قربَ بركةِ الأسماكِ».

وخطرَ ببالِ غودوين أنَّها ربما تستهزئ بهِ، ولكنه لم يكن واثقاً فهو لا يستطيعُ رؤيةَ تعابير وجهها؛ فلفرضِ خمارٍ على المرأةِ مساوئهُ. «يمكنكِ أن تختاري موقعاً آخرَ»، قال لها.

«أجل، قد أفعلُ هذا».

وحلَّ صمتٌ وجيزٌ، ووجدَ غودوين صعوبةً في طرحِ مسألةِ النقودِ. كان يفكرُ بإجراءِ تغييرٍ على قانونِ الخمارِ واستثناءِ رئيسةِ الدير من هذا القانون؛ فالتفاوضُ من وراءِ الخمارِ صعبٌ بحقٍ.

ووجدَ نفسهُ مجدداً مُجبراً على الدخولِ في الموضوعِ بشكلٍ مباشرٍ: «لسوءِ الحظِ لن أتمكن من تقديمِ أيّ مساهمةٍ في نفقاتِ البناءِ؛ إنّ دير الرهبانِ فقيرٌ جداً».

«أنتَ تقصدُ أنكَ لن تستطيعَ المساهمةَ في كلفةِ بناءِ منزلِ رئيسةِ الديرِ؟ لم أكن أتوقع منكَ المساهمةَ». قالت له.

«ليس هذا ما عنيتهُ. كنتُ أقصدُ أنني لا أستطيع تحملَ كلفةَ بناءِ منزلِ رئيس الديرِ».

«أوه، إذاً أنتَ تريدُ من ديرِ الراهبات أن يدفعَ كلفةَ بناءِ منزلكَ الجديدِ ومنزلي أيضاً».

«أخشى أنَّ هذا ما أطلبُهُ. آمل ألا تمانعي».

«حسناً، إن كانَ الأمرُ من أجلِ هيبةِ دير كينغزبريدج...»

«علمتُ أنكِ ستنظرين إلى الأمرِ بهذهِ الطريقة».

«دعني أفهم الأمرَ... نحن نبني الآن ممراتٍ مسقوفةً جديدةً للراهباتِ بما أننا لم نعد نتشارك الممرات الحاليةَ مع الرهبانِ».

لم يُبدِ غودوين أيَّ تعليقٍ. كان قد انزعجَ من تكليفِ سيسيليا لميرثن بتصميمِ الممراتِ المسقوفةِ بدلاً من الاستعانةِ بالفريك الذي يتقاضى أجراً أقل، ورأى في الأمرِ تبذيراً لا فائدة منه، ولكن هذهِ لم تكن اللحظة المناسبة للتعبيرِ عن انزعاجهِ حيالَ الأمرِ.

تابعَت سيسيليا كلامها قائلةً: «وعندما ينتهي العملُ على الممراتِ أحتاجُ إلى بناءِ مكتبةٍ للراهباتِ وشراءِ الكتبِ لها بما أننا لا نستطيعُ استخدام مكتبتكم الآن».

أخذَ غودوين يطرقُ الأرضَ بقدمهِ في نفاد صبرٍ، فقد بدا هذا التفصيل فضفاضاً لا علاقة له بالموضوعِ المطروح.

«وعندها سنحتاج إلى ممراتٍ مسقوفةٍ من الديرِ إلى الكنيسةِ بما أننا نستخدمُ طُرقاً مختلفةً الآن عن الطرقِ التي يستخدمها الرهبان، وطريقنا لا يؤمن لنا حمايةً من الطقسِ السيئ».

«هذا منطقي جداً»، قال غودوين رغمَ أنّهُ رغبَ جداً بأمرها التوقفَ عن الهذارِ.

«إذاً»، قالت سيسيليا في نبرةٍ توحي بأنّها تختتمُ كلامها. «أعتقد أنّهُ يمكننا التفكير بالموضوعِ بعدَ ثلاثةِ أعوامٍ».

«ثلاثةِ أعوامٍ؟ أريد أن أبنيهِ الآن!»

«أوه، لا أعتقد أنّه يمكننا التفكيرُ بهذا».

«لِم لا؟»

«لدينا ميزانية بناءِ الآن كما ترى».

«ولكن أليسَ هذا أكثر أهميةً؟»

«يجب أن نلتزم بميزانيتنا».

«لماذا؟»

«حتّى نبقى أقوياء ومستقلين مادياً»، قالت ثمَّ أضافت بحدَّةٍ: «لا أريدُ اللجوءَ إلى التسولِ».

حارَ غودوين في جوابِهِ، والأسوأ من هذا انتابهُ شعورٌ مريعٌ بأنَّها تضحكُ عليهِ من وراءِ الخمارِ، فهو لم يكن يحتمل أن يصبحَ أضحوكةً لأحدٍ، وفجأةً وقفَ وقال بكلِّ برودٍ: «شكراً لكِ أيتها الأمُّ سيسيليا. سنتحدثُ في هذا الأمرِ مجدداً».

«أجل»، قالت له. «بعدَ ثلاثةِ أعوامٍ. أنا أتطلعُ قدماً لهذا».

وبات واثقاً الآن من أنَّها تضحكُ عليه. استدار وغادرَ المكانَ بأقصى سرعةٍ.

وعندما وصلَ إلى منزلِهِ رمى بنفسهِ على كرسيهِ وهو يغلي غضباً. «أكرهُ تلكَ المرأة»، قال لفيليمون الذي كان ما يزال في المكانِ نفسهِ.

«هل رفضت؟»

«قالت إنَّها ستفكرُ بالأمرِ بعدَ ثلاثِ سنواتٍ».

«هذا أسوأ من الرفضِ»، قال فيليمون. «إنَّه رفضٌ ولكن مؤجلٌ لثلاثِ سنواتٍ».

«إننا خاضعون لها على الدوامِ لأنَّها تملكُ المالَ».

«أصغِ إلى أحاديثِ الشيوخِ»، قال فيليمون وقد خرجَ عن الموضوعِ. «ستتفاجأ بالكمِّ الهائلِ مما قد تتعلمهُ منهم».

«إلى ماذا ترمي بكلامكَ؟»

«عند بناءِ الديرِ بُنيت أولاً المطاحنُ وحُفرت بُركٌ للسمكِ وسُيجت مزارع للأرانبِ، وسَنَّ رؤساءُ الأديرةِ قانوناً يجبرُ سكانَ المدينةِ على الدفعِ للرهبان مقابلَ استخدامِ مرافقِهم. لم يكن يُسمحُ للناسِ بطحنِ الذُرةِ في المنزلِ، أو معالجةِ الأقمشةِ، أو حفرِ بُركٍ أو تسييج مزارع أرانبٍ خاصَّةٍ بهم. وقانونياً كانوا مُجبرين على الشراءِ منا، وضمن هذا القانون استردادَ الديرِ لكلفةِ بنائهِ».

«ولكن القانون لم يعد سارياً».

«لقد تغيَّرت الأحوالُ فقد باتَ الناسُ قادرين على امتلاكِ مرافق خاصَّةٍ بهم إن دفعوا غرامةً مقابلَ هذا، وبالتالي لم يعد القانونُ سارياً. وقد حدثَ هذا في زمنِ رئيسِ الديرِ الراحلِ أنتوني».

«والآنَ هناكَ مطحنةٌ يدويةٌ في كلِّ منزلٍ».

«وجميعُ باعةِ السمكِ يمتلكونَ بركهم الخاصَّة، وهناك ستُ مزارع أرانب، وباتَ الدَّباغون يعالجون أقمشتَهم بأن يجعلوا زوجاتهم وأطفالهم يدوسون عليها بدلاً من أخذِها إلى طاحونةِ المعالجةِ التابعةِ للديرِ».

بدا غودوين متحمساً. «لو أنَّ جميعَ هؤلاءِ الناسِ يدفعون غراماتٍ على امتيازِ التمتعِ بمرافقِهم الخاصَّةِ...»

«سيعودُ هذا بالكثيرِ من المالِ».

«سينبحون كالكلابِ إن فعلنا هذا»، قال غودوين عابساً. «هل يمكننا أن نثبتَ صدقَ ما نقولهُ؟»

«هناكَ أناسٌ كثرٌ يتذكرون الغرامات، ولكن لا بدَّ أنَّها مُسجلةٌ في وثائقِ الديرِ في مكانٍ ما... ربما كانت في كتابِ تيموثي».

«من الأفضلِ أن تتأكد من المبلغِ الدقيقِ للغراماتِ. إن كنا سنفرضها بحجةِ وجودِها سابقاً فمن الأفضلِ أن نفهمها بشكلٍ صحيحٍ».

«هل يمكنني أن أقدِّمَ اقتراحاً؟»

«بالطبع».

«يمكنكَ أن تعلنَ عن النظامِ الجديدِ من على منبرِ الكاتدرائيةِ صباحَ الأحد، فهذا من شأنِهِ أن يجعلَ الأمرَ يبدو كأنَّك تنفذُ إرادةَ الرَّبِّ».

«إنَّها فكرةٌ جيدةٌ»، قال غودوين. «وهذا بالضبط ما سأفعلهُ».

-33-

«لدي الحل»، قالت كاريس لوالدها.

كان إدموند جالساً على كرسي خشبي ضخم عندَ رأسِ الطاولةِ وظلُّ ابتسامةٍ يعلو وجهه. تعرفُ كاريس هذه النظرة جيداً؛ كانت نظرة ارتيابٍ ولكن مع استعدادٍ للإصغاءِ.

«تابعي»، قال لها.

شعرت كاريس بشيءٍ من التوترِ رغم ثقتها بأنَّ فكرتها ناجعةٌ وكفيلةٌ بإنقاذِ ثروةِ والدها وجسرِ ميرثن معاً، ولكن هل ستنجح في إقناعِ والدها؟

«سنأخذُ فائضَ الصوفِ ونسجهُ ليصبحَ قماشاً ونصبغهُ»، قالت بكلِّ بساطةٍ وحبست أنفاسها بانتظارِ رد فعلهِ.

«غالباً ما يلجأُ تجارُ الصوفِ إلى هذا الحلِّ في الأوقاتِ العصيبةِ»، قال والدها ثمَّ أضاف: «ولكن أخبريني عن سببِ اعتقادكِ بأنَّه حلٌّ ناجحٌ وعن التكلفة؟»

«إن كلفةَ التنظيفِ والغزلِ والحياكةِ أربعُ شلناتٍ لكلِ كيسٍ».

«وكم يبلغُ طولُ القماشِ من كيسٍ واحدٍ؟»

«يبلغُ سعرُ كيسٍ من الصوفِ الرديء ستة وثلاثين شلناً، ويُكلفُ نسجهُ أربعة شلناتٍ وطول القماشِ الذي ينتجُ عنه يصلُ إلى ثمانٍ وأربعين ياردةً».

«وبكم ستبيعينهُ؟»

«سنبيعُ ياردةَ القماش البني وغير المصبوغِ بشلن، وهذا يعني أنَّ كيسَ الصوفِ الواحد يحقق ثمانيةً وأربعين شلناً، وهذا أكثر بثمانيةِ شلناتٍ مما دفعناه».

«هذا ليسَ بالمبلغِ الكبير نظراً إلى كلِّ الجهدِ الذي سنبذلهُ».

«ولكن هذا ليسَ أفضلَ ما في الأمرِ».

«تابعي».

«يبيعُ الحائكون القماشَ الصوفي البني لأنَّهم يرغبون بربحٍ سريعٍ، ولكن إن وضعنا عشرين شلناً إضافياً إلى المبلغِ لمعالجةِ القماشِ وصبغِهِ ووضعِ اللمساتِ الأخيرةِ عليهِ فسنحصلُ على ضعفِ الثمنِ. إن كان سعرُ القماشِ المصبوغِ شلنين فهذا يعني أنَّ الكيسَ الواحد يُدرُّ ستةً وتسعين شلناً، أي زيادةً قدرها ستةٌ وثلاثون شلناً إلى المبلغِ الذي سندفعهُ».

بدا إدموند مرتاباً حيالَ ما سمعهُ وقال: «إنَّ كانَ الأمرُ بهذهِ البساطةِ فلمَ لم يقم بهِ أناسٌ أكثر؟»

«لأنَّهم لا يملكون المالَ لتنفيذهِ».

«ولا أنا أيضاً».

«لديكَ ثلاثة جنيهات من غيوم اللندني».

«ولكن لن يعودَ لدي مالٌ كافٍ لشراءِ الصوفِ للعامِ القادمِ؟»

«إن بقيت الأسعارُ كما هي الآن فمن الأفضل أن تتوقفَ عن العملِ في هذهِ المصلحةِ».

ضحكَ إدموند وقال: «بحقِ القديسين أنتِ على صوابٍ. حسناً فلنجرب بالصوفِ الرديء. لدي خمسُ أكياسٍ من صوفِ ديفون الخشن الذي لم يرغب بهِ الإيطاليون قط. سأعطيكِ كيساً منهُ ولتجربي ما اقترحتهِ».

***

بعدَ مرورِ أسبوعين وجدت كاريس مارك ويبر يُحطمُ طاحونتهُ اليدوية.

صُدمت كاريس عندما رأت الرجلَ الفقير يُدمرُ مثلَ هذهِ الأداة القيمة، ولوهلةٍ نسيت متاعبها الخاصةَ.

تتألفُ المطحنةُ اليدويةُ من قرصين حجريين ولكلِّ قرصٍ سطحٌ خشنٌ قليلاً. كانَ السطحُ الخشنُ للقرصِ الأصغر فوقَ السطحِ الخشنِ للقرصِ الأكبر وكلاهما يستقران فوق فجوةٍ سطحيةٍ، وهناكَ قبضةٌ خشبيةٌ ناتئةٌ من أجل تحريكِ القرصِ العلوي فقط لأنَّ القرص السفلي يجب أن يظلَّ ثابتاً. كانت سنابلُ القمحِ توضعُ بينَ الحجرين وتُطحن بسرعةٍ إلى أن تغدو طحيناً.

يملكُ معظمُ فقراءِ كينغزبريدج مثلَ هذهِ المطحنةِ، ولكن أفقرهم لم يكن بوسعهم شراء واحدةٍ، أمَّا الأغنياء فلم يكونوا بحاجةٍ إليها لأنهم يستطيعون شراءَ القمحِ المطحونِ من المطحنةِ. ولكن بالنسبةِ إلى عائلةٍ كعائلةِ ويبر التي كانت بحاجةٍ إلى كل قطعةِ نقودٍ تكسبها لإطعامِ أطفالها كانت المطحنةُ عطيَّةً إلهيةً توفرُ عليهم المالَ.

وضعَ مارك مطحنتهُ على الأرضِ أمامَ بابِ منزلهِ الصغيرِ. كان قد استعارَ مطرقةً برأسٍ معدني ومقبضٍ طويلٍ من مكانٍ ما. وقفَ ولدان من أولادهِ يشاهدان ما يفعلهُ، فتاةٌ نحيلةٌ في ثوبٍ رثٍ وصبي صغيرٌ عارٍ. رفعَ مارك المطرقةَ فوقَ رأسهِ وهوى بها على المطحنةِ. كان مشهداً يغري بالمشاهدة؛ فها هو أضخمُ رجلٍ في كينغزبريدج بكتفين ككتفي ثورِ عربة يحطمُ الحجرَ تحت المطرقةِ ويفتته كقشرِ البيضِ.

قالت كاريس: «ما الذي تفعلهُ؟»

«أصبحَ لزاماً علينا طحنُ الذرة في مطحنةِ الديرِ وندفعَ كيساً من الذرةِ كأجرة طحنِ أربعةٍ وعشرين كيساً»، أجابَ مارك.

بدا غير مبالٍ بالأمر إلّا أنَّ كاريس ذُعرت مما سمعتهُ. «اعتقدتُ أنَّ القوانين الجديدةَ ساريةٌ فقط على الطاحونات الهوائية والمطاحن المائية غير المرخَّصةِ».

«يجب أن أذهبَ غداً مع المأمورِ جون وأفتشَ بيوتَ الناسِ وأحطّمَ كلِ المطاحنِ اليدويةِ غير القانونيةِ، وأنا لا أقبل أن يقول الناسُ عني إنني أحتفظُ بمطحنةٍ في منزلي بينما أحطمُ مطاحنهم، ولهذا أحطمها في الشارعِ على مرأى الجميع».

«لم أكن أعلم أنَّ غودوين ينوي حرمان الفقراءِ من خبزهم»، قالت كاريس بتجهم.

«لحسنِ حظنا لدينا عملنا في الحياكةِ وهذا كلّهُ بفضلكِ».

وأخذت كاريس الآن تفكرُ بعملها الخاص: «كيف هو سيرُ العملِ؟»

«انتهينا».

«كان هذا سريعاً».

«الأمرُ أصعب في الشتاءِ، ولكن في الصيف ومع ست عشرة ساعةً من ضوءِ النهارِ أستطيع حياكةَ ست ياردات من الصوفِ بمساعدة مادج يومياً».

«هذا رائع!».

«ادخلي وسأريكِ».

كانت مادج زوجةُ مارك واقفةً قربَ موقدٍ للطبخِ في نهايةِ المنزلِ المكونِ من غرفةٍ واحدةٍ وهي تحملُ طفلاً على ذراعها وصبي خجول يقفُ بقربها. كانت مادج أقصر من زوجها بكثير إلا أنّها كانت ممتلئةً بصدرٍ كبير ومؤخرةٍ بارزةٍ، وبدت لكاريس كحمامةٍ ممتلئةٍ. منحها فكها البارز للأمامِ مظهراً عدوانياً ولم يكن هذا، بدرجةٍ ما، مُجافياً للحقيقةِ. عرضت مادج على كاريس كوباً من عصيرِ التفاحِ ولكن كاريس رفضتهُ؛ فالعائلةُ كانت فقيرةً.

كانَ نولُ مارك محاطاً بإطارٍ خشبي مربع ويبلغ طولهُ ياردةً مُحتلاً معظمَ مساحةِ الغرفةِ. خلفَ النولِ وبالقربِ من البابِ الخلفي طاولةٌ ومقعدان، وبدا واضحاً أنَّ الجميعَ ينامُ على الأرضيةِ بالقربِ من النولِ.

«يُنتجُ هذا النول قماشاً قليلَ العرضِ» شرحَ مارك. «يبلغُ عرضُ هذا القماش ياردةً وطولهُ اثنتي عشرة ياردة. لا يمكنني صنعُ قماشٍ أعرض لأنَّ المكانَ لا يتسعُ لنولٍ أعرض». وعندَ الجدارِ رأت كاريس أربعَ لفائف من القماشِ البني.

«إنّ كيساً من الصوفِ يُنتجُ أربعَ لفائف من هذا القماشِ».

كانت كاريس قد أحضرت لهُ كيساً نظامياً من الصوفِ الخامِ، وقد جهزت

مادج الصوفَ لتنظيفهِ ورتبتهُ ولفتهُ في كراتٍ. تقومُ نساءُ المدينة الفقيرات بأعمالِ الغزلِ أمَّا أعمالُ التنظيف والترتيبِ فقد كانت من نصيبِ أولادهن».

عاينت كاريس القماشَ. كانت متحمسةً جداً فها هي تنتهي من المرحلةِ الأولى من الخطة. «لما النسيج ليسَ متيناً؟»

أجابَ مارك بخشونةٍ: «إنَّ القماشَ الذي أنسجهُ أمتن قماشٍ في كينغزبريدج».

«أعلم، لم أقصد توجيهَ أيِّ نقدٍ، ولكن ملمس النسيجِ الإيطالي مختلف رغم أنهم يصنعونهُ من الصوفِ أيضاً».

يعتمد الأمرُ في جزءٍ منهُ على قوةِ النساجِ وشدَّةِ ضغطِ العارضةِ الخشبية على الصوفِ».

«لا أعتقد أنَّ النساجين الإيطاليين أقوى منكَ».

«إذاً، لا بدَّ أنَّ يكون السبب آلاتهم، فكلما كانَ النول أفضل غدا القماشُ أمتن».

«كنتَ أخشى من حدوثِ هذا»، قالت كاريس في لهجةٍ تشي بأنَّها لن تستطيعَ منافسةَ القماش الصوفي الإيطالي العالي الجودة من دون شراءِ الأنوال الإيطالية، ولكن هذا بدا أمراً مستحيلاً.

وقالت كاريس في نفسها إنَّها ستحلُ كلَّ مشكلةٍ على حدة. دفعت أربعةَ شلناتٍ إلى مارك وهو بدورهِ سيعطي نصف المبلغِ إلى النساءِ اللواتي قمن بالغزلِ. نظرياً، كانت كاريس قد حققت ربحاً قدرهُ ثمانية شلناتٍ، ولكن ثمانية شلناتٍ لا تكفي لسدِّ نفقاتِ بناءِ الجسرِ، وبهذا المعدل سيتطلب نسجُ فائضِ الصوفِ لدى أبيها سنواتٍ. «هل من طريقةٍ لإنتاجِ القماشِ بشكلٍ أسرع؟»

أجابت مادج قائلةً: «هناكَ نساجون آخرون في كينغزبريدج ولكن جميعهم ملتزمون بأعمالٍ مع تجارِ قماشٍ في المدينةِ، ولكن يمكنني أن أبحث عن نساجين خارج المدينةِ. غالباً ما يكون هناك نسّاجٌ مع نولهِ في القرى الكبيرة، وهو يصنعُ القماشَ لأهلِ القريةِ من الصوفِ الذي ينتجونهُ، ومثل أولئك النساجين قد يقبلون عملاً آخر إن كانَ المالُ جيداً».

أخفَت كاريس قلقَها عنهما وقالت: «حسناً. سأعلمكِ متى أردت. هل يمكنكما الآن أن توصلا هذا القماش إلى بيتر دراير عني؟»

«بالطبع، سآخذه الآن».

عادَت كاريس إلى المنزلِ لتناولِ طعامِ العشاءِ وهي ما تزال مستغرقةً في

التفكيرِ. إن أرادت تحقيقَ فرقٍ حقيقي فيتوجب عليها إنفاقُ مالِ والدها كلهُ، وإن ساءت الأمور سيكون وضعهما أسوأ مما هو عليهِ الآن، ولكن لم يكن هناك بديلٌ آخرٌ. كانت خطتها محفوفةً بالمخاطرِ، ولكن هذا أفضلُ من عدمِ وجودِ أيّ خطةٍ.

عندما وصلت إلى المنزلِ وجدت بيترانيلا تقدمُ يخنةَ لحم الضأنِ. كان إدموند جالساً في مكانهِ عندَ رأسِ الطاولةِ. يبدو أنَّ النكسةَ الماليةَ التي سببها سوقُ الصوفِ أثَّرت عليهِ بشدةٍ أكبر مما توقعت كاريس. كان حماسةُ الطبيعي قد تراجع، وبدا في معظمِ الأحيانِ غارقاً في التفكيرِ أو، إن جازَ التعبير، شارداً. وشعرت كاريس بالقلقِ عليهِ.

«رأيتُ مارك ويبر يُحطمُ مطحنتهُ اليدوية اليوم»، قالت وهي تأخذُ مكانها إلى الطاولةِ. «أين المنطقُ في ما يجري؟»

رفعت بيترانيلا أنفها عالياً وقالت: «إنَّ غودوين يتصرفُ ضمن حدودِ حقوقهِ».

«لقد أكلَ الدهرُ وشربَ على هذهِ الحقوقِ، وهي لم تطبق منذُ سنواتٍ. أما زال هناكَ أديرةٌ تقومُ بمثلِ هذهِ الأمورِ؟»

«في ديرِ سان ألبانز»، قالت بيترانيلا في زهوٍ.

قال إدموند: «لقد سمعتُ عن دير سان ألبانز. إنَّ سكانَ المدينةِ يثيرون أعمال شغبٍ احتجاجاً على ممارساتِ الديرِ بينَ الفينةِ والأخرى».

«يمتلكُ دير كينغزبريدج الحقَ في استردادِ المالِ الذي وضعهُ لبناءِ المطاحن»، جادلتهُ بيترانيلا. «تماماً كما ترغب أنتَ يا إدموند باستردادِ المال الذي دفعتهُ لبناءِ الجسر. كيفَ سيكون شعوركَ إن بُني جسرٌ ثانٍ؟»

لم يُجبها إدموند بل كاريس: «هذا يتوقف على الزمنِ الذي حصلَ فيهِ هذا. لقد بنيت مطاحنُ الدير منذُ مئات السنين تماماً كمزارعِ تربيةِ الأرانبِ وبركِ الأسماكِ. لا أحد يملكُ الحقَ في إيقافِ تطورِ المدينةِ أبداً».

«يملكُ رئيسُ الديرِ الحقَ في جمعِ مستحقاتهِ»، قالت بعنادٍ.

«حسناً، إن استمرَ بفعلِ هذا فلن يعود هناك أحدٌ قادر على دفعِ هذهِ المستحقاتِ، وسينتقلُ الناسُ للعيشِ في شايرنغ حيثُ يسمحُ باستخدامِ المطاحنِ اليدويةِ».

«لمَ لا تفهمين أنَّ احتياجات الديرِ أمرٌ مقدسٌ؟» قالت بيترانيلا بغضبٍ. «يخدمُ الرهبانُ الرَّبَّ! وبالمقارنةِ مع هذا فإنَّ حياةَ سكانِ المدينةِ أمرٌ تافهٌ».

«هل هذا ما يؤمن بهِ غودوين؟»

«أجل».

«كنتُ أخشى هذا».

«ألا تعتقدين أنَّ عملَ رئيسِ الدير مقدسٌ؟»

لم يكن لدى كاريس جواب على هذا، ولهذا هزَّت كتفيها بلا مبالاةٍ بينما علت وجهَ بيترانيلا نظرةُ انتصارٍ.

كانَ العشاءُ لذيذاً إلّا أنَّ كاريس كانت متوترةً جداً ولم تأكل كثيراً، وحالما انتهى الجميعُ من تناولِ العشاءِ قالت: «يجب أن أذهب لرؤيةِ بيتر دراير».

احتجت بيترانيلا قائلةً: «هل ستنفقين المزيدَ من المالِ؟ لقد أعطيتِ مارك ويبر أربعةَ شلناتٍ من مالِ والدكِ؟»

«أجل وقيمةُ القماشِ الآن بات أكثر باثني عشرَ شلناً من قيمةِ الصوفِ وأنا بهذا حققتُ ربحاً قدرهُ ثمانيةَ شلناتٍ».

«لا لم تحقيقيهِ»، قالت بيترانيلا. «فأنتِ لم تبيعي القماشَ بعد».

كانت مخاوفُ بيترانيلا هي المخاوف ذاتها التي تنتابُ كاريس في أسوأ لحظاتِ تشاؤمها، ولكنها سارعت إلى إنكارِ الأمرِ: «سأبيعهُ خاصة إن كان مصبوغاً باللونِ الأحمر».

«وما المبلغ الذي سيتقاضاهُ بيتر لصبغِ ومعالجةِ أربعِ لفائف من القماشِ؟»

«عشرون شلناً، ولكن سعر القماش الأحمر ضعف سعر القماش البني. وهذا يعني أنني سأحقق ربحاً قدرهُ ثمانية وعشرون شلناً».

«إن بعتهِ، ولكن ماذا سيحدث إن لم تبيعيه؟»

«سأبيعهُ».

وهنا تدخّلَ والدها قائلاً لبيترانيلا: «فلتقم بما تشاء. لقد سمحتُ لها بالتجريب».

***

تقعُ قلعةُ شايرنغ على قمةِ هضبةٍ وقد كانت المنزل الذي يقطنهُ شريفُ المقاطعةِ، أما المشانقُ فاحتلت أسفلَ الهضبةِ حيثُ يُحضَرُ السجناء المحكومُ عليهم من القلعةِ على عربةٍ ويُعدمون أمامَ الكنيسةِ.

كانَت ساحةُ الإعدامِ هي ذاتها ساحة السوقِ حيث يقامُ سوقُ شايرنغ بين مبنى النقابةِ ومبنى خشبي كبير تجري فيه صفقات بيعِ الصوف، ويحيطُ بالساحةِ قصرُ الأسقف والعديدُ من الحاناتِ.

هذا العام وبسببِ الأوضاعِ السيئةِ التي تعاني منها مدينةُ كينغزبريدج كان هناك أكشاكٌ أكثر من ذي قبل، وشغلَ السوق الشوارع المجاورةَ للساحةِ. كان إدموند قد جلبَ أربعينَ كيساً من الصوفِ محملة على عشرِ عرباتٍ، وإن تطلَّبَ الأمرُ سيُحضر المزيد من كينغزبريدج قبلَ نهايةِ الأسبوعِ.

ولكن كاريس كانت مستاءةً لأنَّ هذا لم يكن أمراً وارداً، فقد باعَ إدموند عشرةَ أكياسٍ في اليومِ الأول ومن ثمَّ لم يبع شيئاً حتَّى نهايةِ السوقِ عندما باعَ عشرةَ أكياسٍ أخرى ولكن بسعرٍ أقلَ من السعر الذي دفعهُ. لم تره كاريس محبطاً إلى هذهِ الدرجةِ من قبل.

وضعَت كاريس لفائفَ القماشِ البني الضارب للحمرةِ في كشكِ والدها وخلال الأسبوعِ باعت ثلاثاً من اللفائفِ ياردةً تلو أخرى. «فلتنظر إلى الأمرِ من هذهِ الزاويةِ»، قالت لوالدها في آخر يومٍ من أيامِ السوقِ. «كان لديكَ قبلاً كيس من الصوفِ الكاسدِ وأربعةُ شلناتٍ. أمَّا الآن فقد أصبحَ لديكَ ستة وثلاثون شلناً ولفة من القماشِ».

تحدثت كاريس بمرحٍ كي ترفعَ معنوياتهِ وتروح عنهُ إلَّا أنَّها كانت مكتئبةً جداً. لقد تفاخرت بأنَّها ستتمكن من بيعِ القماشِ، ولكن النتيجة لم تكن النصر بل الفشلَ الكامل في تحقيق هذا الهدف. إن لم تتمكن من بيعِ القماشِ بأكثر من كلفةِ إنتاجهِ فلن يكون الحلُّ الذي اقترحته ناجعاً. وتساءلت في نفسها عمَّا ستفعلهُ الآن، وغادرت الكشكَ لتلقي نظرةً على أكشاكِ الأقمشةِ الأخرى.

يُعتبرُ القماشُ الإيطالي من أفضلِ أنواعِ الأقمشةِ ولذلكَ توقفت كاريس أمامَ كشكِ لورو فيورينتينو. لم يكن تجارُ الأقمشةِ من أمثالِ لورو زبائن يشترون الصوف رغمَ أنَّهم يعملون بشكلٍ مباشرٍ مع الباعةِ. تعلمُ كاريس أنَّ لورو يأخذ مالهُ الإنكليزي ويعطيهِ لبونافيتورا الذي بدورهِ يدفعُ بهِ للتجارِ الإنكليز ثمن صوفهم الخام. وعندما يصلُ الصوف إلى فلورنسا تبيعهُ عائلةُ بونافيتورا وتدفعُ المالَ إلى عائلةِ لورو. وبالتالي يتجنبُ الجميعُ مخاطرَ نقلِ العملاتِ الذهبيةِ والفضيةِ عبر أوروبا.

لم يكن لدى لورو سوى لفتين من القماشِ في كشكهِ إلا أنَّ الألوان كانت أزهى من الألوانِ التي ينتجها السكانُ المحليون. «هل هذهِ كلُّ البضاعةِ التي أحضرتها معكَ؟»

«بالطبعِ لا. هذا ما تبقى منها».

كانت مذهولةً: «ولكن مبيعات الآخرين في السوقِ لم تكن جيدةً».
هزَّ كتفيهِ وقال: «إنَّ القماشَ الفاخر مطلوبٌ على الدوامِ».
كانت الفكرةُ قد بدأت تتشكل في رأسِ كاريس: «كم يبلغُ ثمنُ القماشِ القرمزي؟»
«سبعة شلناتٍ للياردة فقط أيتها الآنسة».
هذا سبعةُ أضعافِ سعرِ القماشِ البني. «ولكن من يستطيعُ شراءهُ؟»
«لقد اشترى الأسقفُ الكثير من القماشِ الأحمرِ، واشترت الليدي فيليبا بعضاً من القماشِ الأزرقِ والأخضرِ، واشترت بناتُ صانعي الجعةِ والخبازين في المدينةِ وبعضُ الأسيادِ والسيداتِ من القرى المجاورةِ... حتَّى في الأوقاتِ العصيبة تزدهرُ أحوالُ البعضِ. سيكون هذا اللون القرمزي جميلاً عليكِ».
وبحركةٍ سريعة أفردَ اللفةَ ووضعَ القماشَ على كتفِ كاريس ثمَّ قال: «مذهل. أترين كيف أنَّه يلفتُ أنظارَ الجميع منذُ الآن؟»
ابتسمت كاريس وقالت: «فهمتُ الآن سبب تجارتكَ الناجحةِ». عاينت كاريس القماشَ ولاحظت متانةَ نسيجهِ. كانت تملكُ عباءةً من القماشِ الإيطالي القرمزي وقد ورثتها عن والدتها. كانت تلكَ العباءة أكثرَ قطعةٍ مفضلةٍ لديها. «ما الصباغ الذي تستخدمهُ للحصولِ على هذهِ الدرجةِ من الحُمرةِ؟»
«نستخدمُ نباتَ الفوة الصبغي كما يفعلُ الجميعُ».
«ولكن كيفَ يصبحُ زاهياً هكذا!؟»
«الأمرُ ليسَ سِراً. نستخدمُ حجرَ الشَّبِّ الذي يساعدُ على تفتيحِ اللونِ وتحسينهِ كي لا يبهت. إنَّ عباءةً من هذا اللون ستكون مذهلةً، سعادة غامرة».
«حجر الشَّب»، أعادت كاريس ما قالهُ لورو. «لمَ لا يستخدمهُ الصباغون الإنكليز؟»
«إنَّه باهظُ الثمنِ ويأتي من تركيا. مثلُ هذهِ الرفاهية ليست سوى للنساءِ المميزاتِ».
«وماذا عن اللونِ الأزرقِ؟»
«كلونِ عينيكِ».
كانت عيناها خضراوان ولكنها لم تُصحح لهُ: «يا لهُ من لونٍ غامقٍ».
«يستخدم الصباغون الإنكليز نباتَ الوسمة للونِ الأزرق ولكننا نستخدمُ

النيلة التي نجلبها من البنغال. يجلبُ التجارُ المغربيون النيلة من الهند إلى مصر ويشتريهِ التجارُ الإيطاليون في الإسكندرية»، قال مبتسماً ثمَّ تابعَ: «أتتخيلينَ المسافةَ التي يقطعها ليزيدَ من جمالكِ الرائع».

«أجل»، أجابت كاريس. «هذا ما كنتُ أفكرُ فيهِ».

***

كانت ورشةُ بيتر داير على ضفةِ النهرِ عبارةً عن منزلٍ كبيرٍ كمنزلِ إدموند إلَّا أنَّه كان منزلاً حجرياً من دونِ جدران داخلية أو أرضياتٍ؛ كان أقربَ إلى الهيكلِ منه إلى المنزلِ. نُصبَ قدرانِ كبيران فوقَ موقدين بنارٍ شديدةٍ. هناكَ رافعةٌ إلى جانبِ كلِّ قدرٍ كالرافعةِ التي صنعها ميرثن لأعمالِ البناءِ، وهي تُستخدمُ لرفعِ أكياسِ الصوفِ أو القماشِ الكبيرةِ ووضعها في قدرِ الصبغِ. كانت الأرض رطبةً دائماً والبخار يجعلُ الهواءَ في المكانِ عابقاً. يعملُ المتدربون في المكانِ حفاةً وفي ثيابهم الداخلية بسببِ الحرارةِ حيثُ يبدو شعرهم ووجوههم لامعةً من العرقِ. فاحت من المكانِ رائحةً حمضية بدت لاذعةً لكاريس.

عرضت كاريس على بيتر القماشَ الذي لم يُبَع. «أريدُ اللونَ القرمزي زاهياً كالقماشِ الإيطالي»، قالت كاريس. «فالطلبُ عليهِ أكثر».

كان بيتر رجلاً كئيباً ويبدو مجروحاً على الدوام أياً يكن الكلام الذي يُقالُ له. أومأ برأسهِ في تجهمٍ كأنّه يقرُّ بنقدٍ مُستحقٍ: «سنصبغهُ مرَّةً أخرى بنباتِ الفوة الصبغي».

«مع إضافةِ مادةِ الشّبِ لتصحيحِ اللون وليغدو زاهياً».

«لا نستخدم حجر الشَّب. لم نستخدمهُ قط، ولا أعرفُ أحداً يستخدمهُ».

أخذَت كاريس تكيلُ السبابَ في سرِّها، فهي لم تفكر في التحققِ من هذا الأمر، وافترضت أنَّ أيَّ صباغٍ سيعرفُ كلَّ شيءٍ عن الأصبغةِ. «ألا يمكنكَ أن تحاول؟»

«لا أملكُ هذهِ المادةَ».

تنهدت كاريس. بدا بيتر كواحد من أولئك الحرفيين الذين يبدو لهم كل شيءٍ لم يقمْ بهِ أحدٌ من قبل أمراً مستحيلاً.

«لنفرض أنني جلبتُ لكَ البعضَ منها».

«من أين ستجلبينها؟»

«من وينشستر أو من لندن أو ربما من ميلكومب». كان ميناء ميلكومب أقربَ مرفأ كبير لهم، والسفن تأتي إليهِ من كل أنحاءِ أوروبا.

«حتَّى لو حصلتُ عليه لن أعرفَ طريقةَ استخدامهِ».
«ألا يمكنكَ أن تسألَ عن الأمرِ؟»
«أسأل من؟»
«سأجدُ حلاً للأمرِ إذاً».
هزَّ رأسهُ بتشاؤمٍ وقالَ: «لا أعلم...»
لم تكن كاريس ترغبُ بالجدالِ معهُ فقد كان أكبرَ الصباغين في البلدةِ. «ستتجاوز تلكَ العقبة عندما نصلُ إليها»، قالت بلهجةٍ استرضائيةٍ. «لا أريد أن آخذَ المزيدَ من وقتكَ في مناقشة هذا الآن. يجب عليَّ الآن أن أحصلَ على حجرِ الشَّب».
غادرت كاريس وهي تتساءل في نفسها عمن قد يعرف عن الأمرِ في المدينةِ. تمنت في هذهِ اللحظةِ لو أنَّها طرحت أسئلةً أكثر على لورو فيوريتينو. لا بدَّ أنَّ الرهبان علموا بهذا الأمر ولكن لا يُسمح لهم بالتحدث إلى النساءِ. قررت كاريس أن تذهب إلى ماتي وايز التي تستخدمُ الكثيرَ من المكوناتِ الغريبة، وقد يكون حجرُ الشَّب أحدها، ولكن الأهم من هذا كلهُ لم تكن ماتي لتترددَ في الاعترافِ بجهلها، على عكسِ الرهبانِ والعطارين الذين سيحاولون اختراع شيءٍ ما خوفاً من اعتبارهم جاهلين.
عندما رأت ماتي كاريس سارعت إلى سؤالها: «كيف حالُ والدكِ؟»
«إنَّه مكتئبٌ بعضَ الشيء بسببِ فشلِ سوقِ الصوفِ»، أجابت كاريس. وكعادتها، كانت ماتي تعرفُ على الدوام ما يُقلق كاريس.
«أصبحَ ينسى كثيراً ويبدو أكبرَ عمراً».
«اهتمي بهِ»، قالت ماتي. «إنَّه رجلٌ صالحٌ».
«أعلم»، قالت كاريس دون أن تعلمَ ما ترمي إليهِ ماتي.
«إنَّ بيترانيلا غبيةٌ أنانيةٌ».
«أعلمُ هذا أيضاً».
كانت ماتي تطحنُ شيئاً بالهاونِ، ودفعت بالهاون نحو كاريس قائلةً: «إن قُمتِ بهذا بدلاً عني سأسكبُ لكِ كأساً من النبيذِ».
«شكراً لكِ»، وبدأت كاريس بالطحنِ.
سكبت ماتي نبيذاً أصفرَ اللونِ من إبريقٍ حجري في كوبين خشبيين. «ما سببُ قدومكِ إلى هنا؟ هل أنتِ مريضة؟»

«هل تعرفين ما هو حجرُ الشَّب؟»

«أجل. أستخدمُ منهُ كمياتٍ قليلةً كمادةٍ قابضةٍ لإغلاقِ الجروحِ، وهو مفيدٌ أيضاً لإيقافِ الإسهال، إلا أنّه سامٌ جداً إن استخدمَ بكمياتٍ كبيرةٍ، ويسببُ الإقياءَ كبقيةِ السمومِ الأخرى. لقد وضعتُ منهُ في الجرعةِ التي حضَّرتها لكِ العامَ الماضي».

«هل هو نوعٌ من الأعشابِ؟»

«لا إنَّه نوع من الخامات. يجلبهُ العرب من تركيا وأفريقيا، ويستخدمهُ الدباغون لتجهيزِ الجلودِ أحياناً. أفترضُ أنكِ تريدين استخدامهُ لصبغِ القماشِ».

«أجل». وها هي ماتي تصيبُ مرةً أخرى، وبطريقةٍ خارقةٍ، في تخمينها.

«إنَّه كاوٍ ويساعد في ثباتِ الصبغةِ على الصوفِ».

«وأين يمكنني الحصولُ عليهِ؟»

«أنا أشتريهِ من ملكومب»، قالت ماتي.

***

استغرقت رحلةُ كاريس إلى ملكومب يومين. كانت قد زارت المرفأ مراتٍ عديدةً قبلاً، وقد سافرت بصحبةِ أحدِ عُمالِ والدها.

على رصيفِ الميناءِ وجدت تاجرَ توابل وطيوراً في أقفاصٍ ومعداتٍ موسيقيةٍ وأشياء كثيرةً لافتةً من أجزاءٍ نائيةٍ من العالم. باعها التاجر صبغةً حمراء مأخوذةً من جذور نباتِ الفوة الصبغي والمزروع في فرنسا، ونوعاً من حجرِ الشّبِ وقال إنَّه من إثيوبيا. تقاضى سبعةَ شلناتٍ على برميلٍ صغيرٍ من الصبغةِ الحمراءِ وجنيهاً على كيسٍ من حجرِ الشَّبِ، ولم يكن لديها أدنى فكرة إن كانت هذهِ الأسعارُ مقبولة أم لا. باعها كل ما يملكُ من الصباغِ الأحمرِ وحجرِ الشبِ، ووعدها بجلبِ المزيد على متنِ أقربِ سفينةٍ إيطالية قادمة إلى المرفأ. سألتهُ عن كميات الصباغِ وحجرِ الشَّبِ التي يجب أن تستخدمها، وأجابها بأنَّه لا يعلم.

عندما عادت إلى المنزلِ بدأت تصبغُ قطعاً من الأقمشةِ غير المباعةِ في قدرٍ. اعترضت بيترانيلا على الرائحة لذلك نصبت كاريس ناراً في الحديقةِ الخلفيةِ. كانت تعلمُ أنَّ عليها وضعُ الثيابِ في محلولِ الصبغةِ وغليهُ، وقد أطلعها بيتر داير على الكثافة المطلوبة التي يجب أن يكونَ عليها محلولُ الصبغةِ. ولكن ما من أحد كان يعرف المقدار المطلوب من حجرِ الشّبِ الذي يتوجبُ عليها إضافتهُ ولا كيفَ تستخدمهُ.

وبدأت عملية تعلُّم صعبةٍ بالتجربةِ والخطأ. جرّبت نقعَ القماشِ في منقوعِ حجر الشَّب قبلَ أن تصبغه ووضعتهُ، في الوقتِ عينِهِ، في الصباغِ، ثمَّ قامت بغلي القماشِ في محلولِ حجرِ الشّبِ. وجرَّبت استخدامَ كمياتٍ متساويةٍ من الإثنين ومن ثمَّ كميةً أكبر من حجرِ الشَّبِ وبعدها جرّبت كمية أقل. وبناءً على اقتراح ماتي جرَّبت مكوناتٍ أخرى: صمغُ شجرِ البلوط والطباشير وماء الكلس والخل والبول.

لم يكن لديها الكثيرُ من الوقت ففي جميعِ المدن لم يكن يُسمح سوى لأعضاءِ النقابةِ ببيعِ القماش، باستثناءِ أوقاتِ الأسواق حيث يتراخون في تطبيقِ القوانين المعتادةِ. تقامُ جميعُ الأسواقِ في الصيفِ، وآخرها سوقُ سان غليزَ الذي يقامُ على التلالِ شرق وينتستر في يوم عيدِ القديس غيلز في الثاني عشر من أيلول/ سبتمبر. كان الوقتُ الآن منتصف شهر تموز/ يوليو ولم يكن لديها سوى ثمانيةِ أسابيع قبلَ نهايةِ موسمِ الأسواقِ.

كانت تبدأُ العملَ في الصباحِ الباكرِ وحتَّى وقتٍ متأخرٍ من الليلِ. أصابها تحريكُ القماشِ ورفعهُ باستمرارٍ من وإلى القدرِ بأوجاعٍ في الظهرِ. احمرّت يداها وتقرحتا من التغطيسِ الدائم للقماشِ في المحاليلِ الكيميائيةِ وأصبحَ لشعرها رائحةٌ نتنةٌ، إلَّا أنَّها ورغم الإحباطِ شعرتْ بينَ الفينةِ والأخرى بالسعادةِ، وفي أحيانٍ أخرى كانت تهمهمُ بل تغني أغاني قديمةً من الطفولةِ بالكادِ تتذكرُ كلماتها. كان الجيران يراقبونها من وراءِ أسيجةِ حدائقهم الخلفية بفضولٍ.

كانت بين الحينِ والآخر تقول لنفسها: «هل هذا قدري؟» ورغمَ أنَّها عبَّرت أكثر من مرَّة عن جهلها بما ستفعله في حياتها غير أنَّها كانت حرَّةً في الاختيارِ. لم يكن يُسمحُ لها بأن تصبحَ طبيبةً، وفكرةُ أن تصبحَ تاجرةَ صوفٍ ليست بالجيدةِ، وهي أيضاً لم ترغبْ بأن يستعبدها زوجٌ وأطفالٌ، إلَّا أنَّها لم تحلم قط بأن تصبحَ صابغةَ قماشٍ. وعندما فكرت بالأمرِ ملياً علمت أنَّ هذا لم يكن ما تريده. وبما أنَّها بدأت في عملها هذا فقد كانت مُصرّةً على النجاحِ إلا أنَّها كانت على ثقةٍ الآن أن هذا لن يكونَ مصيرها.

في البدايةِ لم تحصل سوى على قماشٍ بلونٍ بني ضاربٍ للحمرةِ أو باللونِ الوردي الباهت. وعندما بدأت تقتربُ من النجاحِ في تحقيقِ درجةِ القرمزي المطلوبةِ اكتشفتْ بحنقٍ أنَّ اللون يبهت عندَ تجفيفهِ في الشمسِ أو عندما يُغسل. حاولت أن تصبغهُ بشكلٍ مضاعف إلَّا أنَّ اللون لم يثبت إلا مؤقتاً.

وبشكلٍ متأخرٍ أخبرها بيتر أنَّ القماشَ سيمتصُّ الصبغة بشكلٍ كامل إن صبغت الصوف مغزولاً أي قبلَ نسجِهِ، أو إن صبغت الصوفَ الخام. وهذا من شأنهِ أن يُحسِّن الدرجةَ اللونية ولكن سيأخذ وقتاً أطول.

«هناك طريقةٌ واحدةٌ لتعلمِ الصبغِ وهي التعلُّم على يدِ معلم»، كرّرَ لها، وأدركت كاريس أن الجميعَ يفكرُ بهذهِ الطريقةِ فرئيسُ الدير غودوين تعلَّم الطبَ من قراءةِ كتبٍ عمرها مئات السنين وكان يصفُ الأدويةَ من دون أن يعاينَ مرضاه، وعاقب إلفريك ميرثن على نحتِ حكايةِ العذراوات على البابِ بطريقةٍ مختلفةٍ، ولم يحاول بيتر حتَّى تجربةَ صبغِ القماشِ باللونِ القرمزي. لم يكن هناكَ سوى ماتي التي كانت قراراتها مبنيةً على ما تراهُ بنفسها ومن دونِ مرجعيةٍ سلطوية.

في وقتٍ متأخرٍ من إحدى الأماسي وقفت أختها أليس تراقبها وقد قاطعت ذراعيها على صدرها وزمّت شفتيها. وبينما كانت الظلمةُ ترخي بأسدالها على زوايا الحديقةِ الخلفيةِ ألقت نارُ كاريس وهجاً أحمر على وجهِ أليس المستهجن.

«كم صرفتِ من مالِ والدنا على هذا العملِ الغبي؟» سألتها.

جمعت كاريس المبلغَ في ذهنها وقالت: «سبعة شلناتٍ على الصبغةِ الحمراء وجنيهاً[1] على حجرِ الشّبِ واثني عشرَ شلناً على القماشِ وبالتالي يصبحُ المجموعُ تسعةً وثلاثين شِلناً».

«الرحمة يا رباه»، قالت أليس مرتعبةً.

كانت كاريس مرتعبةً أيضاً فهذا المبلغ أكثر من المدخول السنوي لمعظمِ سكانِ كينغزبريدج. «إنَّه مبلغٌ كبيرٌ ولكني سأجني أكثر»، قالت كاريس.

قالت أليس في غضبٍ: «لا يحقُّ لكِ إنفاقُ المالِ بهذهِ الطريقةِ».

«لا حقَّ لي؟» قالت كاريس. «لدي الإذن من أبي وهذا كافٍ».

«بدأت تظهرُ عليه علائمُ الشيخوخةِ وما عادَ يحكمُ على الأمور جيداً كما كان يفعلُ سابقاً».

تظاهرت كاريس بأنَّها لا تعرفُ هذا. «إنَّ حكمهُ ما زال جيداً بل أفضل من حُكمكِ».

«أنت تُبذرين إرثنا!».

1- يساوي الجنيه عشرين شلناً والشلن اثني عشرَ بنساً. (المترجمة)

«هل هذا ما يُزعجكِ؟ لا تقلقي فأنا أجني المال».

«لا أريدُ المخاطرةَ».

«أنت لا تقومين بالمخاطرةِ بل والدكِ».

«لا يجبُ عليهِ أن يهدرَ المالَ الذي سيكون لنا!»

«فلتخبريهِ بهذا».

غادرت أليس المكانَ مهزومةً إلَّا أنَّ كاريس فقدت الثقةَ التي ظهرت عليها قبلَ قليل فهي قد لا تتمكن من النجاحِ في هذا، وتساءلت في نفسها عمَّا ستقومُ به هي ووالدها عندئذٍ.

وعندما وصلت أخيراً إلى الصيغةِ الصحيحةِ كانت بسيطةً بشكلٍ مذهلٍ: أوقيةً من الصباغ الأحمرِ وأوقيتان من حجرِ الشّبِ لكلِ ثلاثِ أوقياتٍ من الصوفِ. أولاً، تقومُ بغلي الصوفِ مع حجرِ الشّبِ ومن ثمَّ تضيف الصباغ الأحمر إلى القدرِ من دونِ إعادةِ غلي السائل. كان المكون الإضافي هو ماءُ الكلس. لم يكن بوسعها تصديقُ النتيجة فقد كان النجاحُ أكبر مما توقعتهُ أو أملت بهِ. كان اللونُ أحمرَ زاهياً كالقماشِ الإيطالي الأحمر. وشعرت بالثقةِ بأنَّه سيبهت ويخيب أملها ولكنَّ اللونَ ظلَّ على ما كان عليهِ خلالَ الصبغِ وإعادةِ الغسلِ والمعالجةِ.

أعطت الصيغةَ إلى بيتر وتحت مراقبتها الشديدةِ استخدمَ ما تبقى لديها من حجرِ الشّبِ لصبغِ اثنتي عشرة ياردةً من أفضلِ أنواعِ الصوفِ في أحدِ قدورهِ العملاقةِ. وعندَ الانتهاءِ من معالجتهِ دفعت كاريس مالاً إلى شخصٍ ليتخلصَ من الخيوطِ الزائدة باستخدامِ نباتٍ بري ذي رأسٍ شوكي وإصلاحِ العيوبِ.

توجهت إلى سوقِ سانت غيلز مع رزمة من القماشِ الأحمرِ الزاهي.

كانت تفردُ الرزمةَ في الكشكِ خاطبها رجلٌ بلهجةٍ لندنية: «ما سعرُ هذا؟»

نظرت كاريس ورأت رجلاً في ثيابٍ فاخرةٍ ولكنها لم تكن استعراضيةً وتكهنت على الفور بأنَّهُ رجلٌ ثري إلا أنَّه لم يكن نبيلاً.

وقالت وهي تجاهد في التحكمِ بارتجافِ صوتها: «سبعة شلناتٍ للياردةِ. إنَّهُ أفضلُ...»

«لا، قصدتُ كم يبلغُ سعرُ القماش كلهُ».

«يبلغُ طولهُ اثنتي عشرة ياردةً وهذا يعني أنَّ سعرهُ أربعة وثمانون شلناً».

أخذَ يتحسسُ القماشَ بينَ سبابتِهِ وإبهامِهِ وقال: «إنَّه ليسَ منسوجاً بمتانةِ كالقماشِ الإيطالي ولكنّه ليسَ سيئاً. سأعطيكِ سبعاً وعشرين قطعةً ذهبيةِ فلورنسية.

كانت العملات الذهبية الفلورنسية شائعةَ الاستخدامِ بسبب افتقارِ إنكلترا إلى العملةِ الذهبيةِ. وكل قطعةٍ ذهبية تعادل ثلاثةَ شلنات أي ستة وثلاثين بنساً فضياً إنكليزياً. ها قد عرضَ هذا اللندني شراءَ القماشِ كلهِ بأقلِ من ثلاثة شلناتٍ من السعرِ الذي كانت ستبيعُ بهِ القماشَ بالمفرقِ. ولكن كاريس أحسّت بأنَّ الرجلَ لا يحبُ المساومة وإلّا كانَ عرضَ عليها مبلغاً أقل. «لا»، قالت له وهي مستغربة تماماً من إجابتها المتهورةِ. «أريد السعرَ كاملاً».

«حسناً»، قالَ على الفورِ كما توقعت. وراقبتهُ كاريس بحماسٍ وهو يأخذُ محفظتهُ. وخلال دقيقةٍ استقرت ثمانٍ وعشرون قطعةً ذهبية فلورنسية في يدها.

تفحصت إحدى القطعِ بعنايةٍ. كانت أكبرَ بقليلٍ من البنسِ الفضي، وعلى أحدِ وجهيها صورة القديس يوحنا المعمدان، راعي فلورنسا، وعلى الوجهِ الآخر زهرة فلورنسا[1]. وضعتها كاريس على ميزانٍ ووضعت في الكفةِ الأخرى قطعة ذهبية فلورنسية مسكوكة حديثاً جلبها والدها لهذا الغرض. كانت القطعة جيدةً.

«شكراً لكَ»، قالت له وهي بالكادِ قادرةٌ على تصديقِ نجاحها.

«أدعى هاري ميرسر من منطقة تشيبسايد في لندن»، قال لها. «ووالدي من أكبر تجارِ القماشِ في إنكلترا. إن حصلتِ على المزيدِ من هذا القماشِ القرمزي فلترسليهِ إلى لندن. سنشتري كل ما ترسلينه إلينا».

***

«فلننسج كُلَّ الصوف!»، قالت لوالدها عندما وصلت إلى المنزلِ. «بقي لدينا أربعون كيساً من الصوفِ، وسنصبغهُ كلهُ باللونِ الأحمرِ».

«هذا مشروعٌ كبيرٌ»، قال لها مُفكراً.

كانت كاريس واثقةً من أنَّ خطتها ناجحةٌ. «لدينا الكثير من الناسجين وجميعهم فقراء، وبيتر ليسَ الصبّاغ الوحيد في كينغزبريدج. يمكننا تعليم الآخرين استخدام حجر الشّبِ».

«سيُقلدكِ الآخرون حالما يخرج السِّر إلى العلنِ».

1- زهرة السوسن. (المترجمة)

علمت أنَّه على حقٍ في التفكيرِ بالعقباتِ ولكنها كانت تشعرُ بنفاد الصبرِ.
«دعهم يقلدوننا»، قالت له. «وسيتمكنون من جني المالِ أيضاً».
ولكن لم يكن دفعُ إدموند للقيامِ بأيِّ شيءٍ أمراً سهلاً. «ستهبطُ الأسعارُ إن كانَ هناكَ الكثير من القماشِ المعروضِ للبيعِ».
«سيمرُ وقتٌ طويلٌ قبلَ أن يأتي ذلكَ اليوم الذي يصبحُ فيهِ هذا العملُ غير مربحٍ».
أومأ برأسهِ وقالَ: «هذا صحيح ولكن هل يمكنكِ بيعُ كل هذهِ الكميةِ في كينغزبريدج وشايرنغ؟ لا يوجد عددٌ كبيرٌ من الأثرياء فيهما».
«عندها سآخذُ القماشَ إلى لندن».
«حسناً»، قال مبتسماً. «يبدو أنَّك عاقدةُ العزمِ. إنَّها خطةٌ جيدةٌ، ولكن حتى وإن كانت خطةً سيئةً فستجعلينها تنجحُ على الأغلبِ».
توجهت كاريس مباشرةً إلى منزلِ مارك ويبر ورتبت معهُ بدءَ العملِ على كيسٍ آخر من الصوفِ، ورتبت أيضاً مع مادج لأخذِ عربةِ إدموند مع أربعةِ أكياسٍ من الصوفِ والطوافِ في البلدات المجاورةِ بحثاً عن نساجين.
ولكن بقية عائلة كاريس لم تكن سعيدةً بما يجري. في اليومِ التالي حضرت أليس لتناولِ طعام العشاءِ مع عائلتها. وحالما جلسوا إلى الطاولةِ قالت بيترانيلا لإدموند: «أعتقد أنا وأليس أنَّه عليكَ إعادةُ التفكيرِ في مشروع صنعِ القماشِ».
أرادت كاريس من والدها أن يخبرها أنَّ القرار في هذا الشأن قد اتخذَ ولا رجعةَ عنهُ الآن، إلا أنَّ إدموند قال بلامبالاةٍ: «حقاً؟ أخبريني بالسببِ».
«لأنَّكَ بهذا ستخاطرُ بكلِ بنسٍ لديكَ. هذا هو السببُ».
«إنَّ كل ما أملكهُ الآن في خطرٍ»، قال لها. «لدي مخزنٌ من الصوفِ الذي لا يمكنني بيعهُ».
«ولكنكَ ستزيدُ الطينَ بلَّةً بعملكَ هذا».
«لقد قررتُ أن أغامرَ».
وانفجرت أليس قائلةً: «ولكن هذا ليسَ عدلاً لي».
«ولماذا؟»
«إنَّ كاريس تنفقُ كلَّ ميراثي».
اكفهرَّ وجه إدموند وقال: «ولكنني لم أمت بعد».
أغلقت بيترانيلا فمها وقد عرفت من نبرةِ صوتهِ أنَّه كان غاضباً إلَّا أنَّ أليس

لم تلحظ مدى غضبِهِ وتابعت كلامها: «يجب أن نفكرَ بالمستقبل. بأيِّ حقٍ تنفقُ كاريس ميراثي الذي هو حقي بالولادةِ؟»

«لأنَّه لم يُصبح لكِ بعد، وربما من الأفضل ألا يصبحَ أبداً».

«لا يمكنكَ أن ترمي بالمال الذي يجب أن يصبحَ ملكي».

«لا أقبل بأن يملي علي أحد ما يجبُ فعلهُ بمالي، بخاصةٍ إن كانَ هذا الشخصُ أحدَ أولادي»، قال بصوتٍ غاضبٍ جداً إلى درجة أنَّ أليس انتبهت لهُ.

وقالت أليس الآن بهدوءٍ أكبر: «لم أقصد إزعاجكَ».

نمّت عن إدموند نخرةٌ. لم يكن هذا اعتذاراً حقيقياً، ولكنه لا يستطيعُ البقاءَ غاضباً لوقتٍ طويلٍ. «لنتناولْ عشاءنا ولنكف عن الحديثِ بهذا الشأنِ»، قال إدموند وعلمت كاريس أنَّ مشروعها قد عاشَ ليشهدَ يوماً جديداً.

توجهت كاريس بعدَ العشاءِ لرؤيةِ بيتر داير لتخبرهُ عن كميةِ العملِ الكبيرةِ التي بانتظارهِ. «لا يُمكننا القيامُ بهذا»، قالَ لها.

بوغتت بما سمعتهُ. لطالما كان بيتر شخصاً ذا مظهرٍ مكتئبٍ ولكنه عادةً ما كان يفعل ما تأمرهُ بهِ. «لا تقلق، لن تقومَ بصبغهِ وحدكَ»، قالت لهُ. «سأكلفُ آخرين بالعملِ».

«المشكلةُ ليست بالصبغِ»، قال لها. «بل بمعالجةِ القماش».

«لماذا؟»

«لا يُسمحُ لنا بمعالجةِ القماشِ بأنفسنا، فرئيسُ الديرِ غودوين أصدرَ قراراً جديداً يلزمنا باستخدام مطحنةِ معالجةِ الصوفِ التابعةِ للديرِ».

«حسناً، سنستخدمها إذاً».

«إنَّها بطيئةٌ جداً فالآلةُ قديمةٌ وتتعطلُ باستمرارٍ. لقد أُصلحت كثيراً حتى باتَ خشبها مزيجاً من الخشبِ القديمِ والجديد، وهي لا تعالجُ الصوفَ بشكلٍ جيدٍ، وليست أسرعَ من رجلٍ يخوضُ في بركةِ ماءٍ. ولا يوجد في كينغزبريدج سوى مطحنةٍ واحدة وهي بالكاد تلبي حاجاتِ نسَّاجي وصبّاغي كينغزبريدج».

كان الأمرُ مثيراً للجنونِ. لا يمكنُ لخطتها أن تفشل بسببِ القانونِ الغبي الذي أصدرهُ نسيبها غودوين، وقالت كاريس بسخطٍ: «إن لم تلبِّ الطاحونةُ الاحتياجاتِ فلا بدَّ أنَّ يسمحَ لنا رئيسُ الدير بمعالجةِ القماشِ بالقدمِ».

هزَّ بيتر كتفيهِ بلامبالاةٍ وقال: «فلتخبريهِ بهذا».

«سأفعل!».

وتوجهت كاريس نحو الدير ولكن قبلَ أن تدخلَ غيرت رأيها. تستخدمُ ردهةُ منزلِ رئيسِ الديرِ للقاءاتِ مع سكانِ المدينةِ، وسيكون من الغريب أن تدخلهُ امرأةٌ وحدها ومن دونِ موعدٍ خاصّةً أنَّ غودوين حساسٌ جداً حيالَ مثلِ هذهِ الأمورِ. علاوةً على هذا قد لا تكون المواجهةُ المباشرةُ أفضلَ طريقة لإقناعهِ بتغيير موقفهِ. أدركت أنّه من الأفضلِ أن تفكرَ بالأمرِ ملياً قبلَ أن تفعل شيئاً. عادت إلى منزلِها، وجلسَت مع والدِها في غرفةِ الجلوسِ.

«إنَّ حجةَ غودوين هنا ضعيفةٌ»، قال إدموند على الفورِ. «فلم يكن هناكَ أيُّ تعرفةٍ على استخدامِ طاحونةِ معالجةِ القماشِ. وكما تقولُ الأسطورةُ بنى أحدُ أبناءِ المدينة، وكان يدعى جاك البنّاء، الطاحونةَ بطلبٍ من رئيس الدير فيليب العظيم. وعندما توفي جاك أعطى فيليب المدينةَ الحقَ باستخدامِ الطاحونةِ للأبدِ».

«ولماذا توقفَ الناسُ عن استخدامها؟»

«بسبب سوءِ التصليحاتِ، وأعتقدُ أنَّ جدالاً دار حولَ من يجبُ أن يدفعَ لصيانتها. لم يُحل الجدلُ وعادَ الناسُ إلى معالجةِ القماشِ بأنفسهم».

«إذاً، لا يملكُ غودوين الحقَ بطلبِ تعرفةٍ أو إجبارِ الناسِ على استخدامها!».

«هذا صحيح».

أرسلَ إدموند رسالةً إلى الدير يطلبُ فيها موعداً يناسبُ غودوين ليلتقيهُ، وأتاهُ الجوابُ أنَّ رئيس الدير متفرغٌ في الوقتِ الحالي فما كان من إدموند وكاريس إلّا أن قطعا الشارعَ باتجاهِ منزلِ رئيسِ الديرِ.

فكرت كاريس بأنَّ غودوين قد تغيرَ كثيراً خلال عامٍ واحدٍ، وغادرتهُ تلكَ الحماسةُ الصبيانية ليحلَّ محلها الحذرُ، وبدا كأنّه يتوقعَ منهما أن يتصرفا بعدوانيةٍ. كانت كاريس قد بدأت تشكُّ في امتلاكهِ قوةَ الشخصيةِ التي يتطلبها منصبُ رئيسِ الديرِ.

كان فيليمون برفقتهِ وهو على حماسهِ المثيرِ للشفقةِ لجلبِ الكراسي وسكبِ المشروباتِ ولكن أصبحَ في سلوكهِ شيءٌ من الثقةِ. كانَ مظهرهُ مظهرَ شخصٍ يعرفُ أنّه ينتمي إلى هذا المكانِ.

«إذاً يا فيليمون لقد أصبحتَ خالاً الآن»، قالت كاريس. «ما رأيكَ بابن أختكَ سام؟»

«أنا راهبٌ مبتدئٌ»، قال بصرامةٍ. «ونحن نتخلى عن كلِ علاقاتنا الدنيويةِ».

هزَّت كاريس كتفيها بلا مبالاةٍ. كانت تعلمُ أنَّه يحبُ أختهُ غويندا حُباً جماً إلَّا أنَّه أراد التظاهرَ بعكسِ هذا ولهذا لم تنوِ مجادلتهُ أكثر في هذا الشأنِ.

عرضَ إدموند المشكلةَ ببساطةٍ على غودوين. «ستوقفُ العملُ على الجسرِ إن لم يتمكن تجارُ كينغزبريدج من زيادة مدخولهم. لحسنِ الحظِ نجحنا بإيجادِ مدخولٍ جديدٍ. لقد اكتشفت كاريس طريقةً لإنتاجِ قماشٍ قرمزيٍ عالي الجودةِ، ولكن هناكَ أمراً واحداً فقط يقفُ في طريقِ نجاحِ هذا المشروعِ ألا وهو طاحونةِ معالجةِ القماشِ».

«لماذا؟» قال غودوين. «يُمكن معالجة القماش القرمزي في الطاحونةِ».

«يبدو أنَّ هذا غير ممكن. إنَّ الطاحونةَ قديمةٌ وغير صالحةٍ، ولا تستوعبُ حملاً زائداً. إمَّا أن تبني طاحونةً جديدةً...»

«هذا غير مطروح»، قاطعهُ غودوين. «لا أملكُ مالاً لمثلِ هذهِ الأمورِ».

«حسناً»، قال إدموند. «فلتسمح للناسِ بمعالجةِ القماشِ بالطرقِ القديمةِ في حوضِ ماءٍ وبالدوسِ عليهِ بأقدامهم العاريةِ».

رأت كاريس نظرةً مألوفةً تعلو وجهَ غودوين. كانت نظرةً يمتزجُ فيها الامتعاضُ والكبرياءُ المجروحُ والعنادُ الشديدُ. عندما كانا طفلين كانت تعلو وجههُ هذهِ النظرةُ في كل مرةٍ يواجهُ فيها معارضةً، وهذا يعني أنَّه سيحاول التنمّرَ على بقيةِ الأولاد إلى أن يرضخوا لهُ أو يضربَ الأرضَ بقدمهِ ويعود إلى المنزلِ. ولم تكن الرغبةُ بأن تسير الأمورُ على هواه سوى جزءٍ من القصةِ فقد كانت كاريس تعتقد أنَّ غودوين يشعرُ بالامتهانِ إن عارضهُ أحد. كانت فكرة أن يعتقدَ أحدٌ ما أنَّهُ على خطأ جارحةً جداً له وأكثر مما يستطيعُ احتمالهُ. أياً يكن التفسير فقد علمت كاريس حالما رأت هذهِ النظرةَ على وجههِ أنَّه لن يتصرفَ بعقلانيةٍ.

«علمت أنكَ ستعارضني»، قال لإدموندٍ بغضبٍ. «يبدو أنكَ تعتقد أنَّ الديرَ موجودٌ لخدمةِ كينغزبريدج ولكن يجب أن تدركَ أنَّ الأمور هي عكسُ هذا».

وسرعان ما فقدَ إدموند أعصابهُ وقال لهُ: «ألا ترى أننا نعتمدُ بعضنا على بعض. تصورنا أنك تفهمُ هذهِ العلاقةَ ولهذا ساعدناكَ لتصبح رئيسَ الديرِ».

«لقد انتخبني الرهبان وليسَ التجارُ. قد تعتمدُ المدينةُ على الديرِ، ولكنَّ الدير كان هنا قبلَ أن يكون هناكَ بلدةٌ، ونستطيع أن نعيش من دونكم».

«قد تستطيعون العيشَ من دوننا ولكن إن كنتم في مكانٍ منعزلٍ وليسَ في القلبِ النابضِ لمدينةٍ نشيطةٍ».

وتدخلت كاريس هنا قائلةً: «لا بدَّ أنَّكَ ترغبُ بازدهارِ كينغزبريدج يا غودوين وإلا لما ذهبت إلى لندن لمعارضةِ الإيرل رولاند».

قال إدموند بسخطٍ: «هذهِ خيانةٌ! لقد دعمناكَ لتصبحَ رئيسَ ديرٍ لأنكَ جعلتنا نعتقدُ بأنكَ ستسمحُ ببناءِ الجسرِ!»

«لا أدين لكم بشيءٍ»، أجابَ غودوين. «باعت أمّي منزلها وأرسلتني إلى الجامعةِ. أين كان خالي الغني وقتها؟»

ذهلت كاريس من أنَّ غودوين ما زال ممتعضاً من أمرٍ حدثَ منذ عشرة أعوامٍ.

واكتست عدائيةً شديدةً تعابيرُ وجهِ إدموند الذي قال: «لا تعتقد نفسك بأنكَ تملكُ الحقَ بإجبارِ الناسِ على استخدامِ المطحنةِ».

ورأت كاريس نظرة على وجهي غودوين وفيليمون وعرفت على الفور بأنهما يعلمان بهذا. قال غودوين: «قد تكون هناكَ أوقاتٌ تكرَّمَ فيها رئيسُ الدير بالسماحِ لسكانِ المدينةِ باستخدامِ الطاحونةِ من دونِ تعرفةٍ».

«كانت هديةً من رئيسِ الديرِ فيليب إلى المدينةِ».

«لا علم لي بهذا».

«لا بدَّ أنَّ تكونَ هناكَ وثيقةٌ بهذا في سجلاتكَ».

غضبَ غودوين وقال: «لقد سمحَ سكانُ المدينةِ للمطحنةِ بأن تتداعى ولهذا سيكونُ على الدير أن يدفعَ كلفةَ إصلاحها، وهذا كافٍ لإلغاءِ أيّ هديةٍ».

إن إدموند على حقٍ، وأدركت كاريس أنَّ حجةَ غودوين ضعيفةٌ. كانَ يعلمُ بأمرِ هديةِ رئيسِ الديرِ فيليب إلّا أنّه كان ينوي تجاهلَ هذهِ الحقيقةِ.

وحاولَ إدموند مجدداً أن يحلَّ الأمر: «بالطبع يمكننا أن نحلَّ الأمرَ بيننا؟»

«لن أتراجع عن أيِّ قرارٍ أتخذهُ»، قال غودوين. «سيجعلني هذا أبدو ضعيفاً».

أدركت كاريس أنَّ هذا ما كانَ يزعجهُ؛ فقد كان يهابُ فكرةَ ألا يحترمهُ سكانُ المدينةِ إن غيَّرَ رأيهُ، لكن وللمفارقةِ كان عنادهُ نابعاً وفي جزءٍ منهُ من الشعورِ بالخجلِ.

قال إدموند: «حتماً كلانا لا يريد احتمال مشقةِ وكلفةِ الذهابِ إلى المحكمةِ الملكيّةِ».

احتدَّ غودوين وقالَ: «هل تُهددني بالذهابِ إلى المحكمةِ الملكيّةِ؟»

«أنا أحاول تجنبَها. ولكن...»

أغمضَت كاريس عينيها وهي تصلي كي لا يدفعَ الرجلان بجدالِهما إلى نقطةِ اللاعودةِ، إلّا أنَّ صلواتها لم تلقَ آذاناً صاغيةً.

«ولكن ماذا؟» قال غودوين في تحدٍ.

تنهَّد إدموند وقال: «ولكن أجل سأفعل. إن أجبرتَ سكانَ المدينةِ على استخدامِ مطحنةِ الديرِ ومنعتَهم من معالجةِ القماشِ منزلياً سألتمسُ إلى الملكِ».

«فليكن كذلك»، قال غودوين.

-34-

كانت الطريدةُ غزالةً يافعةً تكاد تبلغ العامَ أو العامين ورفيعةً عندَ الكفلين وعضلاتها مفتولة جيداً تحتَ فرائها الناعمِ. وفي زاويةِ منطقةٍ خاليةٍ من الأشجارِ وقفت الغزالةُ وهي تدفعُ بعنقها الطويلِ عبرَ أغصانِ إحدى الشجيرات في محاولةٍ للوصولِ إلى رقعةٍ من العشبِ القصيرِ. كان رالف فيتزجيرالد وآلان فيرنهيل على صهوةِ جواديهما اللذين سارا فوقَ أوراقٍ خريفيةٍ رطبةٍ وهذا جعلَ وقعَ حوافرهما غير مسموعٍ. علاوةً على هذا كانَ كلباهما مدرَّبين على البقاءِ هادئين، وبسبب هذا كلهِ أو ربما لأنَّ الغزالةَ كانت منهمكةً بمحاولةِ الوصولِ إلى العشبِ لم تنتبه إلى اقترابهما منها إلّا بعد فواتِ الأوانِ.

رآها رالف أولاً وأشارَ إلى الفسحةِ التي وقفت فيها الغزالةُ. كانَ آلان يحملُ قوساً طويلة بيدهِ اليمنى ويُمسكُ بلجامِ الجوادِ باليدِ اليُسرى، وبسرعةٍ اكتسبها آلان من الممارسةِ ثبَّتَ سهماً إلى القوسِ وأطلقهُ.

كانت حركةُ الكلبين أبطأ ولم ينطلقا إلّا بعدَ أن سمعا صوتَ وترِ القوسِ وصفيرَ السهمِ وهو يطير في الهواءِ. تجمَّدت الكلبةُ بارلي في مكانها بأذنين منتصبتين أمّا جروها بلايد الذي باتَ أكبرَ من والدتهِ الآن فقد نبحَ نباحاً منخفضاً وذاهلاً.

يبلغُ طولُ السهمِ ياردةً وفي نهايتِهِ ريشُ بجعةٍ أمّا رأسهُ فكان بعرضِ إنشين ومصنوعٌ من الحديدِ الصلبِ ومجوفٌ في الداخلِ ليستقرَّ فيه قضيبُ السهمِ

الخشبي بثباتٍ. كانَ رأسُ سهمِ الصيدِ حاداً بينما رأسُ السهمِ الحربي مربعٌ كي يخترقَ الدرعَ فوراً ومن دونِ ميلانٍ.

كانت رميةُ آلان جيدةً إلّا أنّها لم تكن مثاليةً فقد أصابت الغزالةَ أسفلَ عنقها. قفزت الغزالةُ مصدومةً من الضربةِ المؤلمةِ المفاجئةِ وأخرجت رأسها من الأجمةِ. ولوهلةٍ تخيّلَ رالف أنّها ستخرُّ صريعةً إلّا أنّها انطلقت هاربةً والسهمُ مغروزٌ في عنقها والدمُ ينزُّ من الجرحِ، وهذا يعني أنَّ آلان أصابها في عضلاتها ولم يُصب أي شريانٍ حيوي.

انطلقَ الكلبانِ خلفها بسرعةِ البرقِ كأنّهما أصيبا بسهامٍ أيضاً ثمَّ انطلقَ الجوادانِ في إثرِ الكلبين. كانَ رالف على صهوةِ غريف، جوادُ الصيد المفضّلِ لديه، وشعرَ بدفقِ الحماسِ الذي كانَ يعتبرهُ جوهرَ الحياةِ. سببَ له هذا الشعورُ بدغدغةٍ في أوصالهِ وتشنجٍ في عنقهِ وأعطاهُ دافعاً لا يقاوم للصراخِ بأعلى صوتهِ. كانَ هذا الحماسُ شبيهاً بالحماسِ الجنسي، بل لم يكن رالف قادراً على إيجادِ أيِّ فروقٍ بينهما.

يعيشُ الرجالُ من أمثالِ رالف من أجلِ القتالِ؛ فالملكُ وباروناته يُنصبون أولئكَ الرجال أسياداً وفرساناً ويمنحونهم قرى وأراضي لسببٍ محددٍ ألا وهو تأمين الجيادِ والمرافقين والأسلحةِ والدروعِ التي سيحتاجُ الملكُ إليها في حروبهِ، ولكن الحروب لا تحدثُ كلَّ عامٍ، وأحياناً يمرُّ عامان أو ثلاثةُ أعوامٍ دونَ أن يقع أيُّ حدث مهم باستثناءِ بعضِ الأعمالِ البوليسية على الحدودِ مع الويلزيين المتمردينَ أو البرابرةِ الإسكتلنديين، ولذلك يحتاجُ الفرسانُ إلى التريّضِ في هذهِ الفتراتِ من أجلِ الحفاظِ على مقدراتهم في ركوبِ الخيلِ، والأهمُّ من هذا الحفاظُ على تعطشهم للدماءِ. ما كانَ مطلوباً من الجنودِ هو القتلُ وهم يقومون بهذا على أفضلِ وجهٍ عندما يتوقون إليهِ.

ولهذا السببِ تعدُ ممارسةُ الصيدِ الحلَّ المناسبَ. يذهبُ جميعُ النبلاءِ من الملكِ وحتّى السادة الصغار من أمثالِ رالف إلى الصيدِ كلما أتيحت لهم الفرصةُ، وغالباً ما يفعلونَ هذا عدّةَ مرّاتٍ أسبوعياً. كانوا يستمتعون بهذهِ الممارسةِ ويحرصون في الوقتِ عينهِ على الحفاظِ على لياقتهم من أجلِ القتالِ في الحروبِ. اعتادَ رالف على الخروجِ للصيدِ مع الإيرل رولاند خلالَ زياراتهِ المتكررةِ إلى قلعةِ الإيرل، وغالباً ما ينضمُّ إلى اللورد ويليام ابن رولاند في رحلاتِ الصيد في كاسترهام. أمّا عندما يكونُ في قريةِ ويغلي فيخرجُ برفقةَ آلان

إلى الغاباتِ المحيطةِ بالقريةِ. عادةً ما يصطادُ رالف وآلان الخنازير البريَّةِ. لم تكن الخنازيرُ البريَّةُ سمينةً إلَّا أنَّ صيدها ممتعٌ لأنَّها تقاتلُ بضراوةٍ. علاوةً على هذا كانَ رالف يطاردُ الثعالبَ والذئابَ النادرةَ التي تظهرُ أحياناً، ولكن تبقى الغزلانُ الطرائد المثلى فهي رشيقةٌ وسريعةٌ وقد يصلُ وزنُ لحمِها اللذيذِ إلى مئة باوند.

اشتعلَ رالف الآن حماسةً بعد أن شعرَ بحركةِ غريف تحتهُ وبوزنِهِ وقوتِهِ وبحركةِ عضلاتِهِ القويةِ وعَدْوِهِ الأشبهِ بالقرعِ على طبلٍ. كانَت الغزالةُ قد اختفت وراءَ الغطاءِ النباتي، ولكن الكلبَ بارلي عرفَ مكانها ولحقت الجيادُ بالكلبين. حملَ رالف بيدِهِ اليمنى رمحاً طويلاً من خشبِ الدردار برأسٍ مسفوعٍ. وبينما كانَ غريف يميلُ وينحرفُ ويقفزُ أخفضَ رالف رأسه تجنباً لأيِّ أغصانٍ متدليةٍ وأخذَ يميلُ مع حركةِ الحصانِ وقد ثبَّت قدميهِ إلى ركابِ السرجِ محافظاً على وضعيةِ جلوسهِ من دونِ بذلِ جهدٍ كبيرٍ باستثناءِ الضغطِ بركبتيهِ. ورغمَ أنَّ حركةَ الجوادين بينَ الشجيراتِ النامية تحت الأشجارِ الكبيرةِ لم تكن رشيقةً كحركةِ الغزالة فإنَّ الكلبين عوَّضا عن هذا. وأثناء ما كانا يقتربان سمعَ رالف نباحاً مسعوراً ثمَّ حلَّ هدوءٌ، وعرفَ رالف السببَ. كانَت الغزالةُ قد خرجَت من تحتِ الغطاءِ النباتي وأخذت طريقاً بعيداً عن الكلبين، وهنا باتت الأفضليةُ لحركةِ الجوادين اللذين تجاوزا الكلبَين بسرعةٍ وانطلقا في إثرِ الغزالةِ.

رأى رالف أنَّ الغزالةَ قد بدأت تضعفُ والدم غطى كفلها، وتكهنَ أنَّ أحدَ الكلبين قد عضَّها. بدت غير متوازنة في حركتها كأنَّها تصارع للمضي قُدماً. كانت الغزالةُ عدَّاءةً سريعةً ومجهزةً للانطلاقِ المفاجئ إلَّا أنَّها لا تستطيعُ الحفاظَ على سرعةِ عدوها الأوليةِ لوقتٍ طويلٍ.

شعرَ رالف بدمِهِ يضخُّ بقوةٍ في عروقِهِ وهو يقترب من الفريسةِ، وأحكمَ قبضتَهُ على الرمحِ. بذلَ قدراً كبيراً من القوةِ لغرزِ النهايةِ الخشبيةِ للرمحِ في اللحمِ القاسي للحيوانِ فقد كانَ جلدهُ متيناً جداً وعضلاتهُ مكتنزةً وعظامهُ قاسيةً، ولذلكَ كانَ عنقُ الغزالةِ المكانَ الأكثرَ طراوةً إن نجحَ المرءُ في تفادي الفقرات وإصابةِ الوريد الوداجي. كانَ على المرءِ اختيارُ اللحظةِ المناسبةِ ثمَّ الطعنُ بسرعةٍ وبأقصى قوةٍ.

عندما رأت الغزالةُ الجوادين في إثرها قامت بحركةِ انعطافٍ يائسةٍ تجاهَ الشجيراتِ، وأخذت بهذهِ الحركةِ فترةَ استراحةٍ قصيرةٍ. أخذت حركةُ الجوادين

تتباطأ مع اقترابهما من الشجيراتِ التي لجأت إليها الغزالةُ دونَ توقفٍ إلّا أنَّ الكلبين هنا لحقا بالغزالةِ مجدداً، وهنا رأى رالف أنّها لم تعد قادرةً على المتابعةِ لمسافةٍ أبعد.

عادةً وفي مثلِ هذهِ الأحوالِ تُحدثُ الكلابُ جروحاً أكبر في الطريدةِ حتّى تتباطأ حركتها وتلحق الجيادُ بها ليقومِ الصيادُ بضربِ الفريسة ضربةً قاتلةً. هذا ما يحدثُ عادةً عندما لا تقعُ أيُّ حوادث كالحادثِ الذي سيقعُ الآن.

كاد الكلبان والجوادان تقترب من الغزالةِ التي قامَت بحركةِ مراوغةٍ جانبيةٍ فانطلقَ الكلبُ بلايد في إثرها بحماسٍ أكبر من اللازمِ منعطفاً أمامَ الحصانِ غريف. كانَ غريف يركضُ بسرعةٍ شديدةٍ ولم يكن قادراً على التوقفِ أو حتّى تجنُّبِ الكلبِ فركلهُ بقائمتيهِ الأماميتين. كانَ بلايد من فصيلة كلابِ الدرواسِ الضخمةِ ويصلُ وزنهُ إلى سبعين أو ثمانين باونداً ولهذا كانتَ النتيجةُ أن تعثرَ غريف.

وقعَ رالف على الأرضِ ولكنه وفي أثناءِ السقوط رمى برمحهِ في الهواءِ. كانَ خوفُهُ العظيمُ في تلكِ اللحظةِ أن يقعَ عليهِ الحصانُ، ولكنه انتبهَ قبلَ ثوانٍ من ارتطامهِ بالأرضِ أنَّ غريف استعادَ توازنهُ.

وقعَ رالف على شجيرةٍ شوكيةٍ فأصيبَ وجهُهُ بخدوشٍ مؤلمةٍ إلّا أنَّ فروعَ الشجيرةِ خففت من وطأةِ سقطتهِ. واستشاطَ رالف غيظاً.

أوقفَ آلان حصانهُ، وانطلقت الكلبةُ بارلي في إثرِ الغزالةِ وعادت بعدَ عدةِ دقائق. بدا واضحاً أنَّ الغزالةَ هربت. جاهدَ رالف للنهوضِ على قدميهِ وهو يكيلُ السبابَ. أمسكَ آلان بلجامِ غريف ونزلَ عن جوادهِ وهو يمسكُ بلجامِ الجوادين.

تمددَ الكلبُ بلايد على الأوراقِ الجافةِ لأرضِ الغابةِ والدمُ يقطرُ من فمهِ. لقد أصيبَ في رأسهِ بحدوةِ حافرِ غريف الحديديةِ. سارعت الكلبةُ بارلي نحوهُ تشممتهُ ووكزتهُ بخطمها ولعقت الدمَ عن وجههِ ثمَّ استدارت وهي تبدو مضطربةً. لكزَ آلان الكلبَ بطرفِ حذائهِ ولكن الكلبَ لم يتحرك. لم يكن بلايد يتنفس. «لقد ماتَ»، قالَ آلان.

«استحقَ هذا الكلبُ الملعون الموتَ»، قالَ رالف.

سارَ رالف وآلان ممسكين بلجامِ جواديهما عبرَ الغابةِ باحثين عن مكانٍ لأخذِ استراحةٍ. وبعدَ وهلةٍ سمعَ رالف صوتَ مياهٍ جاريةٍ، وعندما لحقَ

بالصوتِ وصلَ إلى جدولٍ سريعِ الجريانِ، وعرفَ رالف هذا الجدول. لقد كانا خارجَ حدودِ أراضي ويغلي بقليلٍ. «فلنتناول وجبةً خفيفةً»، قال رالف. ربطَ آلان الجوادين وأخذَ من جُرابِ حصانهِ كوزاً من الجعةِ وكأسين خشبيين وكيساً كتانياً يحوي على طعام.

انطلقت الكلبةُ بارلي إلى الجدولِ وأخذت تشربُ من الماءِ الباردِ بكلِّ نهم. جلسَ رالف على ضفةِ النهر وأراحَ ظهرهُ إلى جذعِ شجرةٍ. جلسَ آلان بجانبهِ وأعطاهُ كوباً من الجعةِ وشريحةً من الجبنِ. أخذَ رالف الشرابَ ورفضَ الطعامَ.

علمَ آلان أنَّ سيدهُ في مزاجٍ عكرٍ ولهذا لم يتفوه بكلمةٍ. كانَ رالف يشربُ ويعيدُ آلان ملءَ كوبهِ بالجعةِ من الكوزِ. ووسطَ هذا الصمتِ سمعَ الرجلان أصواتَ نساءٍ. نظرَ آلان إلى رالف في دهشةٍ بينما أخذت الكلبةُ بارلي تهرُّ. وقفَ رالف وأمرَ الكلبةَ بالتزامِ الهدوءِ ثمَّ سارَ بهدوءٍ باتجاهِ الصوتِ، ولحق آلان بسيدهِ.

وعلى بعدِ عدَّةِ ياردات أسفلَ الجدولِ توقفَ رالف وأخذَ ينظرُ باتجاهِ الغطاءِ النباتي. رأى مجموعةً من نساءِ القريةِ يغسلن الثيابَ على الضفةِ القريبةِ من الجدولِ حيثُ يتدفقُ الجدولُ بسرعةٍ عندَ صخورٍ بارزةٍ. كانَ يوماً رطباً من أيامِ شهرِ تشرين الأول/ أكتوبر والجو لطيف ومعتدل. كانَ نهاراً لطيفاً وليسَ بارداً وقد رفعت النساءُ أكمامَ أثوابهنَّ وتنانيرهنَّ إلى ما فوقِ ركبهنَّ حتى لا تتبللَ بالمياهِ.

تفحَّصهنَ رالف الواحدةَ تلوَ الأخرى. رأى غويندا بساعديها وربلة ساقيها القويتين وقد ربطت طفلها الذي يبلغُ من العمرِ الآن أربعةَ أشهرٍ إلى ظهرها. رأى أيضاً بيغ زوجةَ بيركن تفركُ ثيابَ زوجها الداخليةِ بحجرٍ، وخادمتهُ فيرا التي كانت امرأةً في الثلاثين وقد رمقتهُ ذات مرَّةٍ بنظرةٍ باردةٍ عندما ربَّتَ على مؤخرتها فلم يجرؤ بعدها على فعلِ هذا مجدداً. أمَّا الصوت الذي سمعهُ فكانَ للأرملة هوبرتس التي كانتَ ثرثارةً كبيرةً بسببِ الوحدةِ التي تعيشُ فيها دونَ أدنى شكٍ. وقفت الأرملةُ في منتصفِ الجدول تتحدثُ إلى الأخرياتِ وهي تتابعُ حديثَ النميمةِ من بعيد.

وكانت آنيت برفقتهن أيضاً.

وقفت آنيت فوقَ صخرةٍ تغسلُ ثياباً داخليةً صغيرةً وهي تنحني فوقَ الجدولِ لتغمرَ الثيابَ بالماءِ ثمَّ تقفُ بانتصابٍ وتفركها. كانت تملكُ ساقينِ بيضاوين طويلتين تحتَ ثوبها المرفوعِ. وفي كلِّ مرَّةٍ انحنت فيها كشفَ ثوبها عن عنقها

وبدا صدرها الصغير كثمرة إغواءٍ يانعة متدليةٍ من شجرةٍ. تبللت نهاياتُ شعرها الأشقرِ بالماءِ وعلت وجهَها الجميلَ نظرةٌ شكسةٌ كأنّها تشعرُ في صميم قلبها بأنّها لم تولد لتقومَ بهذا العمل.

تكهّن رالف أنَّ النساء هنا منذُ وقتٍ طويل ولولا صوتُ الأرملةِ هوبرتس العالي لم يكن ليكتشفَ وجودهنّ. أخفضَ رأسه وركعَ خلفَ شجيرةٍ ليتلصص عليهن من وراءِ الأغصانِ العاريةِ، وقرفصَ آلان بجانبِهِ.

كانَ رالف يُحبُّ التجسسَ على النساءِ، واعتادَ القيامَ بهذا خلال مراهقتِهِ. كُنَّ يقمن بحكِّ أنفسهن ويتمددن على الأرضِ ويباعدن بين سيقانهن، ويتحدثن في أمورٍ لن يتحدثن بها في حضرةِ الرجالِ. في الحقيقةِ كُنَّ يتصرفنَ كالرجالِ.

أمتعَ رالف ناظريهِ بالتلصصِ على نساءٍ ويغلي الغافلات عن وجودهِ، وأجهدَ نفسهُ ليسمعَ ما كُنَّ يقلنهُ. أخذَ يراقبُ غويندا بجسدها الضئيل والمتين وهو يسترجعُ صورتها وهي عاريةٌ وراكعةٌ على السريرِ وتذكرَ الشعورَ الذي أحسَّ بهِ آنذاك وهو يُمسكُ بوركيها ويشدها نحوهُ. وتذكرَ رالف تغير سلوكها معهُ؛ فقد كانت سلبيةً وباردةً في البداية وتصارعُ لإخفاءِ امتعاضها وقرفها من العملِ الذي كانت تقومُ بهِ ثمَّ لاحظَ تغيراً بطيئاً في سلوكها فقد احمرَّت بشرةُ عنقها وفضحَ صدرها تنفسها السريع وقد أحنت رأسها وأغلقت عينيها، وبدا لهُ أنَّ هذا مزيجٌ من الشعورِ بالعارِ والمتعةِ. وعندما استعادَ بذاكرتهِ المشهدَ أخذَ يتنفسُ بسرعةٍ وارتسمَ خطٌّ من العرقِ فوقَ حاجبهِ رغمَ هواء تشرين الأول/ أكتوبر البارد، وتساءلَ في نفسهِ إن كانت ستسنحُ لهُ فرصةٌ أخرى للنومِ مع غويندا.

ولم يطل الوقت إلى أن أخذت النساءُ بالاستعدادِ للمغادرةِ. طوين غسيلهن الرطبَ ووضعنهُ في سلالٍ أو لففنهُ في صررٍ ووضعنهُ على رؤوسهنّ وبدأن يتحركن في طريقِ العودةِ الذي كانَ بمحاذاةِ الجدولِ. وفجأةً وقعَ جدالٌ بينَ آنيت ووالدتها. لم تُنهِ آنيت سوى نصفِ غسيلها الذي أحضرتهُ معها، وكانت تقترحُ على أمِّها أن تعيدَ النصفَ القذرَ معها إلى المنزلِ، ولكن بدا كأنَّ بيغ تريدُ منها أن تبقى وتُنهي العملَ عليهِ. وفي النهايةِ انطلقت بيغ عائدةً بينما بقيت آنيت والعبوسُ مرتسمٌ على وجهها.

لم يكن رالف قادراً على تصديقِ حظِّهِ الجيدِ.

وبصوتٍ واطئٍ قالَ رالف لمرافقهِ آلان: «سنلهو معها قليلاً. فلتتسلل ولتقطع عليها طريقَ الهروبِ».

واختفى آلان.

راقبَ رالف آنيت وهي تغمرُ بلا مبالاةٍ ما تبقى من الغسيلِ في الجدولِ ثمَّ جلست إلى الضفةِ تحدقُ إلى الماءِ بعبوسٍ. وعندما تأكدَ من أنَّ بقيةَ النساءِ أصبحن بعيداتٍ عن مرمى السمعِ وأنَّ آلان وصلَ إلى المكان المطلوب وقفَ وتقدمَ.

سمعته وهو يتقدمُ عبرَ الشجيراتِ ورفعت نظرها إلى الأعلى مرتاعةً. تمتعُ رالف برؤيةِ التغيرات التي طرأت على تقاسيمها شيئاً فشيئاً وكيف انتقلت من المفاجأةِ إلى الفضولِ إلى الخوفِ عندما أدركت أنَّها وحدها في الغابةِ معهُ. قفزت على قدميها ولكنه كانَ قد باتَ بقربها وأمسكها من ذراعها بقبضةٍ رقيقةٍ ولكن متينةٍ. «مرحباً يا آنيت»، قال لها. «ما الذي تفعلينهُ هنا... وحدكِ؟»

نظرت من فوقِ كتفيهِ، وتكهنَ رالف أنَّها كانت تأملُ بأن يكونَ في صحبتِهِ آخرون قد يمنعونهُ من القيامِ بأيِّ شيءٍ ولكنَ خيبةَ أملٍ ارتسمت على وجهها عندما لم ترَ أحداً باستثناءِ الكلبة بارلي. «سأعودُ إلى المنزلِ»، قالت له. «فأمّي قد غادرت للتوِ».

«ليسَ عليكِ الاستعجال»، قال لها. «أنتِ تبدين جذابةً جداً على حالتكِ هذهِ؛ بشعركِ المبللِ وركبتيكِ العاريتين».

سارعَت إلى إنزالِ تنورةِ فستانها، وبيدهِ الحُرَّةِ أمسكَ رالف بذقنها وأجبرها على النظرِ إليهِ. «ما رأيك بأن تبتسمي؟» قال لها. «لا تقلقي. لن أؤذيكِ فأنا سيدكِ».

حاولت أن تبتسمَ وقالت: «أنا مرتبكةٌ بعضَ الشيءِ فقد باغتني». وتمكنت من إظهارِ شيءٍ من غنجها المعتادِ. «ربما يمكنكَ أن ترافقني إلى المنزلِ»، قالت بابتسامةٍ متكلفةٍ. «فالفتاةُ في الغابةِ تحتاجُ إلى حمايةٍ».

«أوه سأحميكِ. سأهتمُ بكِ أكثر مما اهتَّمَ بكِ ذلكَ الأحمقُ ولفريك أو زوجكِ». أنزلَ يدهُ من على ذقنها ليحكمَ قبضتهُ على ثديها. كانَ الملمسُ كما تذكرهُ تماماً؛ ملمس ثديين صغيرين ومتينين. أفلتَ ذراعها حتى يمسك بكلا الثديين.

ولكن حالما أفلتها انطلقت هاربةً. ضحكَ رالف وهو يراها تركضُ على الطريق الذي يمرُّ بالأشجارِ. وبعدَ هنيهة سمعها تصرخُ في صدمةٍ. لم يبارح رالف مكانه، وأحضرها آلان إليهِ وقد لفَّ ذراعها وراءَ ظهرها فبرزَ صدرها بشكلٍ مغوٍ.

سحبَ رالف سكينهُ الذي كانَ خنجراً حادًّاً بطولِ قدمٍ. «اخلعي ثوبكَ»، قال لها.

أفلتها آلان ولكنها لم تُطع رالف على الفور. «من فضلكَ يا سيدي»، قالت له. «لطالما أظهرتُ لكَ الاحترامَ...»

«اخلعي ثوبكَ أو سأجرحكُ في خديكِ وأشوهكِ إلى الأبد».

كان تهديداً مناسباً لامرأةٍ سطحيةٍ ولهذا أطاعت على الفور. أخذت تبكي وهي ترفعُ قميصها الصوفي البني البسيط من فوقِ رأسها. في البدايةِ أمسكت بثوبها الداخلي وغطت بهِ عريها ولكن آلان خطفهُ من بينِ يديها ورماهُ جانباً.

حدَّقَ رالف إلى جسدها العاري. وقفت آنيت وأطرقت بنظرها أرضاً والدموع على وجنتيها. كانَ وركاها ضيقين وشعرُ عانتها أشقر داكناً وبارزاً.

«إلفريك لم يركِ هكذا؟ صحيح؟» قالَ رالف.

هزَّت رأسها في نفي ولكن دونَ أن ترفعَ نظرها.

أقحمَ يدهُ بينَ ساقيها وقال: «ولم يلمسكِ هنا؟»

قالت لهُ: «من فضلكَ يا سيدي. أنا امرأةٌ متزوجةٌ...»

«هذا أفضل فلا يمكنكِ أن تفقدي عذريتكِ ولهذا ليس هناك ما تخافين عليه. استلقي».

حاولت أن تبتعدَ عنهُ ولكنها ارتطمت بآلان الذي وبكلِّ خبرةٍ وضعَ قدمهُ أمامها فوقعت على ظهرها. أمسكها رالف من كاحليها حتَّى لا تتمكن من النهوضِ إلا أنَّها أخذت تتلوى في يأسٍ. «ثبتها»، قالَ رالف لآلان.

أمسكها آلان من رأسها وثبتها بأن وضعَ ركبتيهِ على ذراعيها ويديهِ على ساعديها.

أخرجَ رالف عضوه وفركَهُ لينتصبَ ثمَّ ركعَ بينَ فخذيها.

صرخت آنيت ولكن ما من أحدٍ سمعَ صراخها.

-35-

لحسنِ الحظِ كانت غويندا أول من رأى آنيت بعدَ الحادثِ.

عادت غويندا وبيغ إلى المنزلِ مع الغسيلِ وقامتا بنشرهِ حتَّى يجفَّ حول نارِ المطبخِ في منزلِ بيركن. كانت غويندا ما تزالُ عاملةً لدى بيركن إلَّا أنَّها الآن وخلال الخريف تساعدُ بيغ في المهامِ المنزليةِ. عندما انتهتا من أمرِ الغسيلِ بدأتا

بتحضير وجبةِ الغداء لأجلِ بيركن وروب وبيلي هاورد وولفريك، وبعد مرورِ ساعةٍ قالت بيغ: «ما الذي أَخَّرَ آنيت؟»

«سأذهبُ لأتفقدها»، قالت غويندا إلَّا أنَّها تفقدت طفلها أولاً. كان سامي في مهدٍ من أعوادِ الخوصِ وملفوفاً ببطانيةٍ بنية قديمةٍ ويلاحقُ بعينيهِ دخانَ النارِ الذي تجمَّعَ تحت السقفِ في حلقاتٍ. قبَّلته غويندا على جبينِهِ ثمَّ انطلقت للبحثِ عن آنيت.

أخذت غويندا الطريقَ الذي سارت عليهِ آنيت عبرَ حقولٍ تعصفُ بها الرياحُ. مرَّ اللورد رالف وآلان فيرنيل على جواديهما بالقرب منها وهما في طريقهما إلى القريةِ، يبدو أنَّهما عائدان من رحلةِ الصيدِ باكراً هذا اليوم. دخلت غويندا الغابةَ وسارت على طريقٍ مُختصرٍ يقودُ إلى البقعةِ التي تقومُ فيها النساءُ بأعمالِ الغسيلِ، وقبلَ أن تصلَ إلى هناك رأت آنيت قادمةً من الجهةِ المقابلةِ.

«هل أنتِ بخير؟» قالت غويندا. «لقد قلقت عليكِ والدتك».

«أنا بخير»، أجابت آنيت.

ولكن غويندا شعرت بأنَّ هناكَ خطباً ما. «ما الذي حدث؟»

«لا شيء»، قالت آنيت وتجنبت النظرَ بشكلٍ مباشر في عيني غويندا. «لم يحدث شيء. دعيني وشأني».

وقفت غويندا بمواجهةِ آنيت وعاينتها من رأسها حتَّى قدميها. عرفت غويندا بالنظرِ إلى وجهِ آنيت أنَّ هناكَ خطباً ما. للوهلةِ الأولى لم يبدُ كأنَّها تعاني من أيِّ أذيةٍ جسديةٍ رغمَ أنَّ قميصها الصوفي الطويلِ غطى جسدها بالكاملِ، ولكن وقعت عينا غويندا على لطخاتٍ داكنةٍ على ثوبها تشبهُ بقعَ الدمِ.

وهنا تذكرت غويندا أنَّها رأت رالف وآلان على جواديهما قبلَ قليلٍ. «هل آذاك اللورد رالف؟»

«سأعودُ إلى المنزلِ»، قالت آنيت وتجاوزت غويندا إلَّا أنَّ الأخيرةَ أمسكتها من ذراعها وأوقفتها. لم تمسكها بقوةٍ إلَّا أنَّ آنيت صرخت من الألم ووضعت يدها على ذراعِها.

«أنتِ مُصابةٌ»، قالت غويندا في استفهامٍ.

وانخرطت آنيت في البكاءِ.

وضعت غويندا ذراعها حول ذراعي آنيت وقالت: «رافقيني إلى المنزل، وأخبري أمَّكِ عن الأمرِ».

هزّت آنيت رأسها في رفضٍ وقالت: «لن أخبرَ أحداً».

وفكرت غويندا في نفسها: «لم يعد هذا ممكناً».

عادت غويندا بآنيت إلى منزلِ بيركن وهي تفكرُ بالاحتمالاتِ في رأسها. من الواضح أنَّ آنيت تعرضت إلى اعتداءٍ ما. ربما تعرضت لهجومٍ من أحدِ المسافرين أو ربما مجموعة منهم رغمَ أنّه لا يوجدُ طريقُ سفرٍ قربَ المكان الذي كانت فيه. قد يكون أحد الخارجين عن القانون، ولكن لم تشهد ويغلي ظهور أيِّ خارجين عن القانونِ منذُ وقتٍ طويلٍ. وهذا يعني أنَّ الاحتمالَ الأقرب هو رالف وآلان.

تصرفت بيغ بسرعةٍ فأجلست آنيت على كرسي ونزعت عنها ثوبها الذي كشفَ عن رضوضٍ حمراء متورمةٍ على ذراعيها. «أحدهم قام بتثبيتكِ»، قالت بيغ بغضبٍ.

لم تُجب آنيت.

ألحت عليها بيغ قائلةً: «هل أنا على حقٍ؟ أجيبيني يا ابنتي أو ستقعين في ورطةٍ أسوأ. هل ثبّتك أحدهم؟»

أومأت آنيت برأسها.

«ما عددُهم؟ هيا أخبريني».

لم تتكلم آنيت إلّا أنّها رفعت إصبعين.

امتقعَ وجهُ بيغ غضباً وقالت: «هل ضاجعاكِ؟»

أومأت آنيت برأسها.

«من هما؟»

هزّت آنيت رأسها.

علمت غويندا سببَ امتناعِ آنيت عن كشفِ اسميهما، فقد كان يعتبر توجيهُ أحدِ الأقنانِ أصابعَ الاتهامِ إلى لوردٍ جريمةً. ولذلك قالت غويندا: «لقد رأيت رالف وآلان في الجوار؟»

وقالت بيغ لآنيت: «هل كانا رالف وآلان؟»

أومأت آنيت برأسِها.

وقالت بيغ بصوتٍ أقرب إلى الهمسِ: «وقد قامَ آلان بتثبيتكِ بينما ضاجعكِ رالف».

أومأت آنيت برأسها مجدداً.

هدأت بيغ بعدَ أن عرفت الحقيقةَ، ووضعت ذراعيها حول ابنتها وعانقتها. «أيتها الطفلةُ المسكينةُ. طفلتي المسكينة».

وبدأت آنيت تنتحبُ.

سيعودُ الرجالُ قريباً لتناول وجبةِ منتصفِ النهارِ وسيعرفون على الفورِ أنَّ رالف اغتصبَ آنيت. وسيُجَنُّ والدها وأخوها وزوجها وحبيبها السابق. كان بيركن عجوزاً جداً على القيامِ بأيِّ عملٍ غبي، وسيقوم روب بفعلِ ما يأمرهُ بهِ والدهُ، أما بيلي هوارد فليسَ بالرجلِ الشجاعِ بما يكفي لافتعالِ المشاكلِ، ولكن ولفريك سينفعل بسرعةٍ، وسيقتلُ رالف.

وعندها سيُعدم لقتلهِ رالف.

كانَ على غويندا أن تغيرَ سيرَ الأحداثِ أو ستخسر زوجها. هرعت عبرَ البلدةِ دونَ أن تتحدثَ إلى أحدٍ وتوجهت إلى قصرِ اللورد. كانت تأملُ أن يقولوا لها أنَّ رالف وآلان انتهيا من تناول طعامهما وخرجا مجدداً، إلَّا أنَّ الوقت كان باكراً جداً على ذلك وهذا يعني أنهما ما يزالان في المنزلِ.

وجدتهما في الإسطبلِ خلفَ المنزلِ يفحصان حصاناً بحافرٍ مصابٍ. عادةً ما تشعرُ غويندا بالضيقِ في حضرةِ رالف أو آلان لأنها كانت واثقةً من أنهما، وكلما نظرا إليها، يتذكران مشهدَ ركوعها عاريةً على السريرِ في نزلِ بيل في كينغزبريدج، إلَّا أنَّها اليوم لم تفكر بهذا. كان عليها أن تجعلهما يغادران القريةَ بأيِّ طريقةٍ، وعليها أن تفعلَ هذا قبلَ أن يكتشفَ ولفريك ما فعلاه. وتساءلت في نفسها عمَّا يجبُ عليها قولهُ.

ولوهلةٍ عجزت عن الكلامِ ولكنها قالت أخيراً وبدافعٍ من اليأسِ: «أيها اللورد لقد وصلَ رسولٌ من الإيرل رولاند».

بدا رالف مذهولاً وقال: «منذ متى؟»

«منذُ ساعة؟»

نظرَ رالف إلى السائسِ الذي كان يحملُ قدمَ الحصان من أجل معاينتها وقالَ الرجلُ: «لم يأتِ أحدٌ إلى هنا».

عادةً ما يأتي الرسولُ إلى قصرِ اللوردِ ويخاطبُ خدمَ اللوردِ لذلكَ قالَ رالف: «ولماذا أرسلكَ لتوصلي الرسالةَ؟»

وارتجلت غويندا في يأسٍ: «لقد قابلتهُ على الطريقِ خارجَ القريةِ. سألني عن

اللورد رالف وأخبرتهُ أنّكَ خرجتَ للصيدِ وستعود على العشاءِ، ولكن الرسول قالَ إنّه لن ينتظر».

كان هذا سلوكاً غريباً؛ فالرُسلُ عادةً ما ينزلون لتناولِ الطعام والشرابِ ولإراحةِ أحصنتهم. «هل كانَ على عجلةٍ من أمرهِ؟» سألَ رالف.

وتابعت غويندا ارتجالَ الحججِ قائلةً: «كان عليهِ أن يصلَ إلى كاوفورد بحلولِ غروبِ الشمسِ. لم أجرؤ على طرحِ الأسئلةِ عليهِ».

زمجرَ رالف، فقد كان الجزء الأخير من كلامِ غويندا قابلاً للتصديقِ؛ فرسولٌ من الإيرل رولاند لن يُخضعَ نفسه لتحقيقٍ فلاحةٍ. «لمَ لم تُخبريني بهذا قبلاً؟»

«قطعتُ الحقولَ لأخبركَ، ولكنكَ تجاوزتني على ظهرِ حصانكَ».

«أوه، أعتقدُ أنني رأيتكِ. ما هي الرسالة؟»

«يطلبُ منكَ الإيرل رولاند التوجه إلى قلعتهِ بأقصى سرعة». والتقطت أنفاسها ثمَّ تابعت وهي تضيفُ طبقةً جديدةً من الحججِ: «طلبَ مني الرسولُ أن أخبركَ بأنّه ليسَ عليكَ أن تنتظرَ حتّى تتناول عشاءكَ بل عليكَ أن تُسرجَ جوادكَ وتغادر على الفورِ». لم يكن ما قالتهُ قابلاً للتصديقِ إلّا أنّه كان عليها أن تُبعدَ رالف عن المكان قبلَ أن يعود ولفريك.

«حقاً؟ وهل قال لكِ عن سببِ استدعاءِ الإيرل لي بهذهِ السرعةِ؟»

«لا».

«أمم». بدا رالف كأنّه يفكرُ بالأمرِ ولكنه لم يقل شيئاً لوهلةٍ.

وقالت غويندا بنفاد صبرٍ: «هل ستغادر الآن؟»

حدّقَ رالف نحوها وقال: «هذا ليسَ من شأنكِ».

«كل ما في الأمرِ أنني لا أريد أن يُقال إنني لم أوصل الرسالةَ بسرعةٍ».

«حقاً؟ حسناً. أنا لا أهتم بما تريدينه، فلتغربي عن وجهي».

كان على غويندا الآن أن تغادر.

عادت إلى منزلِ بيركن، وعندما وصلت كانَ الرجال قد عادوا للتوِ من الحقولِ. كان سام سعيداً وهادئاً في مهدهِ، وآنيت ما تزال جالسةً في مكانها وثوبها حاسرٌ ويكشف عن الرضوضِ على ذراعيها.

وبختها بيغ قائلةً: «أينَ كنتِ؟»

لم تُجب غويندا وتشتت انتباهُ بيغ بدخول بيركن وهو يقول: «ما هذا؟ ما خطبُ آنيت؟»

قالت بيغ: «لسوءِ حظها قابلت رالف وآلان عندما كانت وحدها في الغابةِ».

امتقعَ وجهُ بيركن من الغضبِ وقال: «هل كانت وحدها؟»

«إنّه خطأي»، قالت بيغ وانخرطت في البكاءِ. «كانت تغسلُ ببطءٍ كعادتها ولهذا أجبرتها على البقاءِ هناك وإنهاءِ عملها بعد أن رحلت بقيةُ النساءِ وعندها وصلَ هذان الخنزيران».

«رأيناهما منذُ برهةٍ يعبران حقل بروكفيلد»، قال بيركن. «لا بدَّ أنّهما كانا خارجينِ من المكانِ لتوهما». بدا بيركن مرتعباً وتابعَ كلامهُ: «إنَّ هذا خطيرٌ جداً. إنَّ مثل هذا الأمر كفيلٌ بتدميرِ أيِّ عائلةٍ».

«ولكننا لم نرتكب أيَّ خطأ»، اعترضت بيغ.

«إنَّ شعورَ رالف بالذنبِ سيدفعهُ إلى كرهِ براءتنا مما حدثَ».

وأدركت غويندا أنَّ هذا صحيح. كان بيركن شخصاً محنكاً تحتَ ظاهرِ خنوعهِ.

دخلَ بيلي هاورد زوجُ آنيت وهو يمسحُ يديهِ المتسختين بقميصهِ، ولحقَ بهِ أخوها روب. نظرَ بيلي إلى الرضوضِ على ذراعي زوجتهِ وقال: «ما الذي حدثَ لكِ؟»

أجابت بيغ بالنيابةِ عنها: «كان رالف وآلان».

أطرقَ بيلي بنظرهِ أرضاً ولم يقل شيئاً.

«سأقتلهما»، قال بيلي باحتدام إلا أن تهديدهُ بدا فارغاً. كان بيلي رجلاً طيعاً ببنيةٍ نحيلةٍ ولا ينخرطُ في أيِّ عراكٍ حتّى عندما يثمل.

وأخيراً دخلَ ولفريك من البابِ. أدركت غويندا بشكلٍ متأخرٍ أنَّ آنيت تبدو مغريةً جداً وهي في حالتها هذهِ. كانت تملكُ عنقاً طويلاً وكتفين جميلتين وقد برزَ ثدياها قليلاً، وتلكَ الرضوضُ القبيحةُ عززت مفاتنها الأخرى. حدَّقَ ولفريك نحوها في إعجابٍ واضحٍ فلم يكن بوسعهِ إخفاءُ مشاعره نحوها، ولكنه لم ينتبه إلى الرضوضِ الشديدةِ إلّا بعدَ برهةٍ من الزمن وعبسَ عندما رآها.

قال بيلي: «هل اغتصبكِ؟»

راقبت غويندا ولفريك ورأت وجههُ يكتسي بالصدمةِ والخيبةِ وبشرة وجههِ الفاتحةِ تمتقعُ من شدةِ الانفعالِ وهو يتخيلُ ما جرى.

«أخبريني أيتها المرأة، هل اغتصبكِ؟»

شعرت غويندا بدفقٍ من الشفقةِ على آنيت التي تكرهها، وتساءلت في نفسها عن السببِ الذي يدفعُ الجميعَ إلى طرحِ أسئلةٍ مزعجةٍ عليها.

وأخيراً أجابت آنيت على سؤالِ هاورد بإيماءةٍ من رأسها.

وظهرَ على وجهِ ولفريك غضبٌ أسودُ مكبوتٌ ثمَّ زمجرَ قائلاً: «من فعلها؟»

قال بيلي: «هذا ليسَ من شأنكَ يا ولفريك. فلتعد إلى المنزلِ».

ثمَّ قال بيركن بارتياعٍ: «لا أريد أيّ متاعب. لا يجب أن ندعَ هذا يدمرنا».

نظرَ بيلي إلى والدِ زوجتهِ بغضبٍ وقال: «ما الذي تقولهُ؟ يجب أن نقومَ بشيءٍ؟»

«إن أصبحَ اللورد رالف عدواً لنا فقد نعاني لبقيةِ حياتنا».

«ولكنَّهُ اغتصبَ آنيت!»

قال ولفريك في غيرِ تصديقٍ: «هل كان رالف من فعلها؟»

قال بيركن: «سيعاقبهُ الرَّبُّ».

«بحقِّ المسيحِ وأنا أيضاً سأفعلُ هذا»، قال ولفريك.

قالت غويندا: «من فضلكَ يا ولفريك لا تفعل».

واندفعَ ولفريك باتجاهِ البابِ.

هرعت غويندا خلفه وقد استبدَّ بها الهلعُ وأمسكت بذراعهِ. لم يكن قد مضى على إيصالِ الرسالةِ المزيفةِ إلى رالف سوى بضع دقائق، وحتَّى إن صدَّقها فهو لم يكن واثقاً من جديةِ الاستجابةِ لهذهِ الرسالةِ، وهناكَ احتمالٌ كبيرٌ بأنَّه غادرَ القريةَ للتو. «لا تذهب إلى قصرِ اللورد»، قالت غويندا متوسلةً إلى ولفريك. «من فضلكَ لا تفعل».

أبعدها عنهُ بخشونةٍ وقال: «ابتعدي عن طريقي».

«انظر إلى طفلكَ!» صرخَت وهي تشير إلى سامي في مهدهِ. «هل ستتركهُ يعيش من دونِ والدهِ؟»

وخرجَ ولفريك.

لحقت بهِ غويندا وفي إثرها هرعَ الآخرون. اندفعَ ولفريك عبرَ القريةِ كملاكِ الموتِ وقد أحكمَ قبضتيهِ إلى جانبيهِ، وكان يحدقُ إلى الأمامِ والغضبُ يعتصرُ

معالمَ وجههِ. خاطبهُ أفرادٌ آخرون من سكانِ القرية وهم في طريقِ العودةِ لتناولِ وجبةِ الغداءِ إلَّا أنَّه لم يجب عليهم. لحقَ بهِ البعضُ، وخلال الدقائقِ القليلةِ التي استغرقها للوصولِ إلى قصرِ اللورد كان قد جمعَ وراءهُ حشداً صغيراً. خرجَ نيثان ريڤ من منزلهِ وسألَ غويندا عن الخطبِ، ولكن كل ما أجابت بهِ كان: «أوقفهُ، فليفعل أحدكم من فضلكم!» لم يكن الأمرُ مُجدياً؛ فما من أحدٍ قادر على إيقافِ ولفريك حتَّى وإن تجرؤوا على المحاولةِ.

فتحَ ولفريك البابَ الأمامي للقصرِ بقوةٍ ودخلَ. كانت غويندا خلفهُ مباشرةً والحشدُ في إثرهما. قالت مدبرةُ المنزلِ فيرا بامتعاضٍ: «يُفترضُ بكَ أن تقرعَ البابَ!»

«أين سيدكِ؟» سألها ولفريك.

رأت فيرا الغضبَ على وجهِ ولفريك وبدت مرتعبةً. «توجهَ إلى الإسطبلِ فهو على وشكِ التوجهِ إلى قلعةِ الإيرل».

تجاوزها ولفريك ودخلَ إلى المطبخِ. وحالما خرج ولفريك وغويندا من بابِ المطبخِ شاهدا رالف وآلان يعتليانِ صهوةَ جواديهما. كان بوسع غويندا الصراخ من شدةِ الفزع فهاهم يصلون قبلَ رحيلِ رالف وآلان بثوانٍ.

تقدَّمَ ولفريك إلى الأمامِ، ولكن، وبدافعِ اليأسِ الشديدِ، وضعت غويندا قدمَها أمام ولفريك.

سقطَ ولفريك على الأرضِ وتمرَّغَ وجههُ بالطينِ.

لم يرَ رالف أيّاً منهما وهو يهمزُ حصانهُ ويتهادى خارجَ الحديقةِ الخلفيةِ للمنزلِ. لمحَ آلان غويندا وولفريك وعندما فهمَ ما يجري قررَ تجنب المتاعبَ واللحاق برالف. وحالما خرجا من الحديقةِ الخلفيةِ حثَّ آلان حصانهُ ليخبَّ ويتجاوزَ رالف وعندها تحمسَ حصانُ رالف وغذَّى خطاه.

قفزَ ولفريك على قدميهِ وهو يكيلُ السبابَ ثمَّ ركضَ في إثرهما. هرعت غويندا وراءهُ. لم يلحق ولفريك بالجوادين، وارتعبت غويندا من فكرةِ أن ينظرَ رالف خلفهُ ويتوقف ليفهم ما يجري.

ولكن رالف وآلان كانا مستمتعين بالانطلاقةِ الحيويةِ لحصانين مرتاحين، ومن دونِ أن يلقيا نظرةً إلى الوراءِ تابعا طريقهما خارجَ القريةِ، وخلال ثوانٍ غابا عن الأنظارِ.

انهارَ ولفريك على ركبتيهِ في الوحلِ.

سارعت غويندا نحوهُ وأمسكتهُ من ذراعهِ لتساعدهُ على الوقوف على قدميهِ

إلَّا أنَّه دفعها جانباً بقوةٍ جعلتها تترنح وتكاد تسقط. كانت مصدومةً؛ فلم يكن من طبعِ ولفريك معاملتها بخشونةٍ.

«لقد جعلتني أتعثر»، قالَ لها حالما نهضَ على قدميهِ من دونِ عونٍ.

«لقد أنقذتُ حياتكَ»، قالت له.

حدَّقَ نحوها والكرهُ يتطاير كشررٍ من عينيهِ ثمَّ قال: «لن أسامحكِ أبداً».

***

إبانَ وصولِ رالف إلى قلعةِ الإيرل أخبروه أنَّ رولاند لم يرسل في طلبهِ أصلاً. وشعرَ رالف أنَّ الغربانَ على سطحِ الحصنِ تضحكُ عليهِ في سخريةٍ.

وقدّمَ لهُ آلان التفسير قائلاً: «إنَّ للأمرِ علاقةً بآنيت. فحالما غادرنا رأيت ولفريك يخرجُ من البابِ الخلفي للمنزلِ. اعتقدتُ وقتها أنَّ الأمر عادي إلَّا أنني أعتقدُ الآن أنَّه كان ينوي مواجهتكَ».

«لا بدَّ أنَّه كان يريد هذا»، قال رالف وهو يتلمسُ خنجرهُ الطويل المعلق بحزامهِ. «كان يجدرُ بكَ إخباري فأنا أبحثُ عن عذرٍ لأغرزَ خنجري في بطنهِ».

«لا شكَّ أنَّ غويندا علمت بهذا ولهذا السببِ اخترعت قصةَ الرسالةِ العاجلةِ حتى تُبعدكَ عن زوجها المجرمِ».

«بالطبعِ»، قال رالف. «وهذا يفسرُ سببَ عدمِ رؤيةِ أحدٍ آخر للرسولِ الذي لم يأتِ. يا لها من عاهرةٍ ماكرةٍ!»

وفكرَ رالف بأنَّ معاقبتها على ما فعلتهُ أمرٌ واجبٌ ولكن تحقيق هذا قد يكون صعباً؛ فقد تحتج بأنَّها فعلت هذا من أجلِ مصلحة الجميعِ، وسيكون من الصعبِ على رالف محاججتها في عدمِ صوابيةِ هجومِ زوجها على اللورد، ولكن ما هو أسوأ من هذا هو أنَّه لو أثارَ جلَبةً حولَ خداعها لهُ فسيلفتُ الانتباه إلى أنَّها فاقتهُ ذكاءً، ولهذا استبعدَ رالف فكرةَ العقوبةِ الرسميةِ وبدلاً من هذا قررَ أن يعاقبها بطريقةٍ غير مباشرةٍ.

وبما أنَّه الآن أصبحَ في قصرِ الإيرل أرادَ أن يستغلَ الوقتَ في الصيدِ مع الإيرلِ وحاشيتهِ وينسى أمرَ آنيت إلى أن استدعاهُ رولاند إلى غرفتهِ الخاصة في نهايةِ اليوم الثاني. لم يكن برفقةِ الإيرل سوى موظفه الأب جيروم. عندما دخلَ رالف لم يطلب منه رولاند الجلوس. «كاهنُ ويغلي هنا»، قال رولاند.

فوجئ رالف بما سمعهُ وقال: «الأب غاسبارد؟ في القلعةِ؟»

لم يكلف رولاند نفسهُ عناءَ الإجابةِ عن هذهِ الأسئلةِ. «لقد قدمَ شكوى بخصوصِ اغتصابكَ لامرأةٍ تدعى آنيت زوجة بيلي هاورد أحد أقنانك».

شعرَ رالف بقلبِهِ يتوقف لوهلةٍ. لم يتخيل قط أن يمتلكَ الفلاحون الجرأة على تقديمِ شكوى للإيرلِ. كانَ تقديمُ الأقنانِ لسيدهم إلى محاكمةٍ أمراً غايةً في الصعوبةِ، ولكن يمكن للأقنانِ أن يكونوا شديدي الدهاء، ولا بدَّ أنَّ أحداً ما في ويغلي قامَ وبكلِ ذكاءٍ بإقناعِ الكاهن لتقديمِ شكوى.

تظاهرَ رالف باللامبالاةِ وهو يقول: «هذا هراء. حسناً لقد نمتُ معها ولكنها كانت موافقةً». وابتسمَ لرولاند ابتسامةَ رجلٍ إلى رجلٍ. «موافقةً جداً».

علا وجهَ رولاند تعبيرٌ يشي بالقرفِ، والتفتَ إلى الأب جيروم في نظرةٍ مستفهمةٍ.

كانَ جيروم شاباً متعلماً وطموحاً ومن النوعِ الذي لا يستسيغهُ رالف. وبنظرةٍ متعالية قال جيروم: «إنَّ الفتاةَ هنا، أقصدُ المرأة، وهي في التاسعة عشرة فقط. وتغطي ذراعيها الرضوض وترتدي ثوباً ملطخاً بالدماءِ. وهي تقول إنّكَ هاجمتها في الغابةِ وإنَّ مرافقكَ ثبَّتها أرضاً. وهنا أيضاً رجلٌ يدعى ولفريك وهو يقول إنَّك شوهدت على صهوةِ جوادكَ قريباً من المكانِ».

وتكهنَ رالف أنَّ ولفريك من أقنعَ الأب غاسبارد بالحضورِ إلى قلعةِ الإيرل.

«هذا ليسَ صحيحاً»، قال رالف وهو يحاول أن يتحدثَ بنبرةٍ ساخطةٍ.

نظرَ إليهِ جيروم مشككاً وقال: «ولمَ قد تكذب؟»

«ربما رآنا أحدٌ ما وأخبرَ زوجها. وأتوقع أنَّهُ ضربها وسببَ لها الرضوضَ. وعندها قالت له إنَّ الأمرَ كان اغتصاباً حتَّى يتوقف عن ضربها، ولطخت ثوبها بدمِ دجاجةٍ لتثبتَ هذا».

تنهدَ رولاند وقال: «هذا كلامٌ ساذجٌ قليلاً، أليسَ هذا صحيحاً يا رالف؟»

لم يكن رالف واثقاً مما عناه رولاند بكلامهِ، وتساءلَ في نفسهِ إن كانَ رولاند يتوقع من الرجال أن يتصرفوا كرهبانٍ.

تابع رولاند كلامهُ قائلاً: «لقد حذروني من أنَّك ستتصرف بهذهِ الطريقةِ. لطالما قالت زوجة ابني إنك ستجلبُ لي المتاعبَ».

«فيليبا؟»

«سيدتك فيليبا».

وهنا هبطَ الإلهام على رالف وفهمَ ثمَّ قال في تشكيكٍ: «ألهذا السببِ لم تقم بترقيتي بعدَ أن أنقذتُ حياتكَ؟ لأنَّ امرأة كانت ضدي؟ ما هو الجيش الذي ستقودهُ إن سمحتَ للنساءِ باختيارِ الرجال؟»

«أنتَ على حقٍ من كلِّ بدٍ ولهذا السببِ خالفتها الرأي في النهايةِ. ما لا تدركهُ النساءُ هو أنَّ الرجلَ من دون شيءٍ من المرارةِ في داخلهِ غير مفيد في شيءٍ سوى في رصفِ البلاطِ. لا يمكننا أن نأخذَ المخنثين إلى المعركةِ، ولكنها كانت على حق عندما حذرتني بأنك ستسبب لي المتاعبَ. لا أريدُ لشيءٍ أن يزعجني في وقتِ السلمِ، لا أريد كهنةً يشتكونَ من اغتصابِ زوجاتِ الأقنانِ. لا تقمْ بهذا مرةً أخرى. لا يهمني إن نمتَ مع زوجةِ فلاحٍ، ولا يهمني حتَّى إن نمتَ مع الرجال. ولكن إن أخذتَ زوجةَ رجلٍ، بإرادتها أو رغماً عنها، يجب أن تكونَ جاهزاً لتعويضِ الزوجِ بطريقةٍ ما؛ فشراءُ معظم الفلاحين أمرٌ ممكنٌ. أنا لا أريدُ أيّ متاعبٍ».

«أجل يا سيدي».

قال جيروم: «وما الذي سأفعله بأمر غاسبارد؟»

«دعني أرى»، قال رولاند مُفكراً. «إنَّ ويغلي على حدودِ منطقتي وليست بعيدةً عن أرضِ ابني ويليام، صحيح؟»

«أجل»، قال رالف.

«ما هي المسافةُ التي كانت تفصلكَ عن الحدودِ عندما كنتَ مع هذهِ الفتاة؟»

«ميلاً. كنا خارجَ ويغلي».

«هذا غير مهمٍ»، واستدارَ نحو جيروم. «سيعلمُ الجميعُ أنَّ هذا مجرد عذرٍ ولكن أخبر الأبَ غاسبارد أنَّ الواقعةَ حدثت في أرضِ اللوردِ ويليام حتَّى لا أضطر إلى الحُكمِ في هذا الشأنِ».

«هذا جيد جداً يا سيدي».

قال رالف: «ولكن ماذا إن ذهبوا إلى ويليام؟»

«أشكُّ بأنهم قد يفعلون هذا. ولكن إن أصرّوا سيكون عليكَ أن تصلَ إلى ترتيبٍ ما مع ويليام. ولكن سيملُّ الفلاحون من الشكوى في النهايةِ».

أومأ رالف برأسهِ في ارتياحٍ بعدَ أن قاسى من الخوفِ بأنَّهُ أساءَ التصرفَ، وبأنَّه قد يدفع ثمن اغتصابهِ لآنيت. ولكن ها هو ينجو بفعلتهِ كما توقعَ.

«الشكرُ لكَ يا سيدي»، قال رالف.

تساءل رالف في نفسهِ عمّا سيكون رأي شقيقهِ في هذا الشأنِ، وأثارَ هذا الخاطرُ شعورهُ بالخجلِ. ولكن قد لا يعلمُ ميرثن بالأمرِ أبداً.

***

«يجب أن نشتكي إلى اللوردِ ويليام»، قال ولفريك عندما عادوا إلى ويغلي.

اجتمعت القرية بأكملها في الكنيسةِ لمناقشةِ الأمرِ، وكان الأب غاسبارد ونيثان ريف هناك أيضاً، ولكن بطريقةٍ ما بدا ولفريك، برغم يفاعتهِ، قائدهم. تقدَّمَ ولفريك إلى الأمامِ تاركاً غويندا والطفلَ سامي بينَ الحشدِ.

أخذت غويندا تصلي في نفسها أن يقرروا التخلي عن متابعةِ القضيةِ. لم يكن السببُ في هذا عدم رغبتها بمعاقبةِ رالف بل على العكس كانت ترغبُ برؤيته يُعذب حتَّى الموت، وقد قتلت رجلين لمجرد أنَّهما لوحا باغتصابِها. ارتعدت ذعراً عندما تذكرت هذا خلال المناقشةِ. ولكن ما لم تحبه هو أن يأخذَ ولفريك دور القائدِ مدفوعاً، بجزءٍ منهُ، بحبهِ الكبير لأنيت، وهذا الأمر آلمَ وأحزنَ غويندا. ولكن الأهمَّ من هذا كان خوفها عليهِ. كانت العداوةُ بين ولفريك ورالف قد كلَّفت الأخير إرثهُ، وتساءلت في نفسها عن الانتقامِ الذي يحضِّرهُ رالف الآن.

قال بيركن: «أنا والدُ الضحيةِ ولا أريد المزيدَ من المتاعبِ بسببِ هذا. من الخطيرِ حقاً أن نشتكي من سلوكِ سيدٍ فهو دوماً ما يجدُ طريقةً لمعاقبةِ المشتكين، سواء أكانوا على حقٍ أم لا. فلننسِ الأمرَ».

«لقد تأخرَ الوقتُ على فعلِ هذا»، قال ولفريك. «لقد قدمنا شكوى، أو بالأحرى قدمها كاهننا. ولا يمكن أن نكسبَ شيئاً بالتراجعِ عن الأمرِ الآن».

«لقد تجاوزنا الحدَّ»، جادلهُ بيركن. «فها هو رالف قد أُحرجَ أمامَ الإيرل، وباتَ يعلمُ الآن أنَّه لا يستطيع فعلَ ما يريدهُ».

«على العكسِ»، قال ولفريك. «فهو يعتقدُ أنَّه نجا بفعلتهِ وأنا أخشى أن يكررها مرةً أخرى. لن تشعرَ أيّ امرأةٍ في القريةِ بالأمانِ بعدَ الآن».

كانت غويندا قد أخبرت ولفريك بنفسها عن كلِّ الأمورِ التي قالها بيركن. لم يُجب عليها ولفريك؛ فهو بالكادِ يتحدثُ معها مُذ أوقعتهُ عندَ البابِ الخلفي لمنزلِ السيدِ. في البدايةِ اعتقدت أنَّه متجهمٌ لأنَّه شعرَ بالغباءِ من تعثرهِ، وتوقعت أن ينسى الأمر بحلولِ عودتهِ من قلعةِ الإيرل، إلَّا أنَّها كانت مخطئةً في هذا فهو لم يمسها في السريرِ أو خارجهِ لأسبوعٍ، وبالكاد كان ينظر إليها بشكلٍ مباشرٍ، ولم يكن يتحدث معها سوى بكلمةٍ أو كلمتين أو يغمغمُ مجيباً عليها. وقد بدأ الأمرُ يصيبها بالحزنِ.

قال نيثان ريف: «لن تربحَ في مواجهتكَ مع رالف؛ فالأقنان لا يفوزون على السادةِ».

«لستُ واثقاً من صحةِ هذا الكلامِ»، قال ولفريك. «فالجميعُ يملكون أعداءً، وقد لا نكون الوحيدين الراغبين بمواجهةِ رالف. قد لا يدان في محكمةٍ ولكن علينا أن نسببَ لهُ أكبرَ قدرٍ من المتاعبِ والإحراجِ إن كنا نريدهُ أن يُفكرَ مرتين قبلَ أن يكررَ فعلتهُ».

أومأ العديدُ من سكانِ القريةِ برؤوسِهم موافقين، ولكن ما من أحدٍ تحدثَ ودعمَ ولفريك، وهنا بدأت غويندا تأمل بأن يدفعهُ هذا إلى التخلي عن الأمرِ. ولكن زوجها كانَ شخصاً شديدَ العزمِ ولهذا استدارَ نحوَ الكاهن وقالَ: «ما رأيكَ بهذا أيها الأبُ غاسبارد؟»

كان غاسبارد شاباً فقيراً وجاداً ولا يهابُ النبلاءَ. لم يكن شخصاً طموحاً، فهو لم يكن يرغب بأن يصبحَ أسقفاً أو أن يصبح من الطبقةِ الحاكمةِ، ولهذا لم يكن يشعرُ بالحاجةِ إلى إرضاءِ الأرستقراطيين. قال غاسبارد: «تعرضت آنيت إلى اعتداءٍ قاسٍ، والسلامُ الذي يعمُّ بلدتنا قد اهتزَّ بفعلِ عملٍ إجرامي، واللورد رالف ارتكبَ خطيئةً شريرةً وقذرةً ولهذا عليهِ أن يعترف ويتوب. ومن أجلِ الضحيةِ ومن أجلِ احترامنا لذاتنا ولننقذَ اللورد رالف من نيرانِ الجحيمِ علينا أن نذهبَ إلى اللورد ويليام».

وعلت همهمةٌ موافقةٌ من الحشدِ.

نظرَ ولفريك إلى بيلي هاورد وآنيت الجالسين بعضهما بقربِ بعض. ورأت غويندا أنَّ الناسَ سيفعلون ما تريدهُ آنيت وبيلي في نهايةِ المطافِ. «لا أريدُ أيّ متاعبٍ»، قال بيلي. «ولكن يجب أن ننهي ما بدأناه لمصلحة جميعِ النساءِ في القريةِ».

لم ترفع آنيت عينيها عن الأرضِ ولكنها أومأت موافقةً، وأدركت غويندا في أسى أنَّ ولفريك قد نجحَ في تحقيقِ مرادهِ.

«حسناً، لقد حصلتَ على ما أردتهُ»، قالت لهُ وهما يغادرانِ الكنيسةَ.

ونمّت عن ولفريك زمجرةٌ.

تابعت غويندا كلامها بإصرارٍ: «أفترضُ أنكَ ستتابعُ المخاطرةَ بحياتكَ من أجلِ شرفِ زوجةِ بيلي هاورد وستستمرُ برفضِ الكلامِ إلى زوجتك».

لم يُجبها ولفريك وأخذَ سامي يبكي كأنّه شعرَ بالعداءِ بينَ والديهِ.

سيطرَ اليأسُ على غويندا. كانت قد قارعت كلَّ الصعابِ للحصولِ على

الرجلِ الذي تحب وتزوجت منهُ وأنجبت طفلهُ، وها هو الآن يعاملها كأنّها عدو. لم يُعامل والدُها والدتها بهذهِ الطريقة رغمَ أنَّ سلوكَ جوبي ليسَ بالمثالِ المناسبِ للقياسِ. لم يكن لدى غويندا أدنى فكرة عن الطريقةِ التي يجب أن تعاملهُ بها. حاولت أن تستخدمَ سامي بأن تحملهُ على إحدى ذراعيها وتلمسَ بيدِ ذراعها الأخرى ولفريك في محاولةٍ لكسبِ حبهِ بأن تربطَ نفسها به وبالطفلِ الصغيرِ الذي يُحبهُ إلّا أنّه ابتعدَ رافضاً إياهما. وجربت كسبَ ودِّهِ بالجنسِ من خلالِ الضغطِ بصدرها على ظهرهِ ليلاً وتمرير يدها على بطنهِ وتحسسِ عضوه ولكنها لم تنجح في هذا أيضاً، وتذكرت كيفَ كانَ متعتناً جداً خلالَ الصيفِ الماضي قبلَ زواجِ آنيت من بيلي.

ودفعها اليأسُ الشديدُ في تلكِ اللحظةِ إلى الصراخِ قائلةً: «ما خطبكَ؟ كنتُ أحاولُ إنقاذَ حياتكَ فقط!»

«لم يكن عليكِ فعلُ هذا»، قال لها.

«إن تركتكَ تقتلُ رالف لعدموكَ».

«لم يكن لديكِ الحقُّ في ما فعلتهِ».

«وهل يهم إن كان لدي الحقُّ أم لا؟»

«أليست هذهِ فلسفةُ والدكِ؟»

بوغتت غويندا بما قاله. «ما الذي تعنيه؟»

«لا يهتمُ والدكِ بامتلاكهِ أو عدمِ امتلاكهِ للحقِّ؛ فإن كانَ الأمرُ يصبُّ في مصلحته سيقومُ بهِ على أيِّ حالٍ كما فعلَ عندما باعك ليُطعمَ عائلتهُ».

«لقد باعاني لأُغتصب! وأنا أوقعتكَ لأنقذكَ من المشنقةِ. الأمران مختلفان تماماً».

«ما دمتِ تقولين لنفسكِ هذا فلن تفهميني أو تفهميه».

أدركت غويندا أنّها لن تفوز بحبهِ مجدداً إن تابعت محاولة إثباتِ خطئه: «حسناً... أنا لا أفهمُ إذاً».

«لقد سلبتني سلطةَ اتخاذِ قراري. عاملتني بالطريقةِ ذاتها التي عاملكِ بها والدكِ؛ كأنني شيءٌ تتحكمين بهِ ولستُ إنساناً. لا يهمُ إن كنتُ على صوابٍ أم لا. ما يهم هو أنَّ القرار كانَ قراري وليسَ قراركِ، ولكنكِ لا ترين هذا كما لم يكن والدكِ قادراً على رؤيةِ ما أخذه منكِ عندما باعكِ».

لم تقتنع غويندا بأنَّ الأمرين متشابهان، ولكنها لم ترغب بمجادلتهِ في الأمرِ أكثر فقد بدأت ترى أنّها أثارت غضبهُ. كان غيوراً جداً على استقلالهِ كما كانت

هي غيورةٌ على استقلالها أيضاً. لقد حرمتهُ من استقلالِهِ، ولهذا قالت على مضضٍ: «أنا... أعتقدُ أنني أفهم».

«هل هذا صحيح؟»

«سأبذلُ قصارى جهدي كيلا أفعلَ هذا مجدداً».

«جيد».

ورغمَ أنَّها لم تقتنع تماماً بخطأ ما ارتكبتهُ فإنَّها كانت في حاجةٍ ماسةٍ لإنهاءِ هذهِ الحرب بينهما ولذلكَ قالت: «أنا آسفة جداً».

«حسناً».

لم يقل الكثيرَ ولكنها شعرت بأنَّ عريكتهُ قد بدأت تلين.

«أنتَ تعلمُ أنني لا أريدكَ أن تشتكي إلى اللورد ويليام ولكن إن كنتَ مُصراً لن أحاولَ إيقافكَ».

«أنا سعيدٌ بهذا».

«في الحقيقة»، قالت له ثمَّ أضافت: «قد أتمكنُ من مساعدتكَ».

«حقاً؟» قال لها. «وكيفَ ستفعلين هذا؟»

-36-

كان منزلُ اللورد ويليام والليدي فيليبا في كاسترهام قلعةً في ما مضى وما زالت بقايا سور الحصنِ قائمةً إلَّا أنَّها تحولت الآن إلى زريبةِ أبقارٍ. كان الجدارُ المحيط بالفناءِ ما يزال سليماً ولكن الخندق قد جفَّ، وما تبقى من الأرضِ المنحدرةِ حولهُ تحولت إلى حديقةٍ لزراعةِ الخضارِ والفواكه. في الماضي كان هناكَ جسرٌ معلقٌ ولكن حلَّ مكانهُ الآن سُلمٌ بسيط يُفضي إلى البوابةِ.

عبرت غويندا مع ابنها سامي على ذراعها وبرفقةِ الأب غاسبارد وبيلي هاورد وآنيت وولفريك قنطرةَ البوابةِ. كان هناكَ جنودٌ شبان مستلقون على مقعدٍ ويُفترضُ أنَّهم حرَّاس البوابةِ ولكن عندما رأوا الرداءَ الكهنوتي للأب غاسبارد لم يوقفوهم، ومنحَ هذا الجو المريح الذي ساد المكان غويندا الشجاعةَ وأملت أن تنفردَ بالليدي فيليبا.

دخلوا جميعاً إلى المنزلِ من البابِ الرئيسي، ووجدوا أنفسهم في قاعةٍ عظيمةٍ تقليديةِ الطرازِ بنوافذَ عاليةٍ كنوافذِ الكنائس. بدت القاعةُ كأنَّها تحتلُ مساحةَ البيتِ بأكملِهِ، أمَّا بقيةُ المساحة فمن المفترض أنَّها غرفٌ خاصةٌ على

الطرازِ الحديثِ الذي من شأنِهِ أن يعززَ خصوصيةَ العائلةِ النبيلةِ ويخففَ من الطابعِ العسكري للمكانِ.

كان هناكَ رجلٌ في منتصفِ العمرِ في سترةٍ جلديةٍ جالساً إلى الطاولةِ يُحصي الأثلامَ في مسطرةِ حسابٍ. رفعَ الرجلُ نظرَهُ إليهم وتوقفَ عن العدِّ وسجلَ شيئاً على ورقةٍ ثمَّ قال: «طابَ يومكم أيُّها الأغراب».

«طابَ يومكَ سيدي المأمور»، قال غاسبارد متكهناً بمهنةِ الرجلِ. «أتينا لمقابلةِ اللورد ويليام».

«من المفترضِ أن يعود بحلولِ وقتِ العشاءِ أيّها الأب»، قال المأمورُ بتهذيبٍ. «إن سمحتَ لي بالسؤال عن غرضِ هذهِ الزيارةِ؟»

بدأَ غاسبارد يشرحُ للرجلِ غرضَ الزيارة بينما انسلَّت غويندا إلى الخارجِ.

دارت غويندا حول المنزلِ إلى أن وصلت إلى نهايتِهِ. وجدت بناءً خشبياً وتكهنت بأنَّه المطبخ. رأت خادمةً جالسةً على كرسي قربَ بابِ المطبخِ مع كيسٍ من الملفوفِ تنظفهُ من الترابِ في وعاءٍ كبيرٍ مملوءٍ بالمياهِ. كانت الخادمةُ فتيةً ونظرت بحبٍ إلى طفلِ غويندا ثمَّ سألتها: «كم عمرهُ؟»

«يكاد يبلغُ الشهرَ الخامس. اسمهُ ساموئيل ويمكنكِ أن تناديهِ سامي أو سام».

ابتسمَ الطفلُ للفتاةِ التي قالت: «أووه».

قالت لها غويندا: «أنا امرأةٌ عاديةٌ مثلكِ ولكنني أرغب بالتحدثِ إلى الليدي فيليبا».

اكفهرَّ وجهُ الفتاةِ وبدت مضطربةً. «أنا مجرَّدُ خادمة مطبخ»، قالت لغويندا.

«ولكن لا بدَّ أنَّ تكوني قد رأيتها. يمكنك أن تحدثيها عني».

نظرت الفتاة وراءها كأنّها تخشى أن يسمعها أحدٌ ثمَّ قالت: «لا أحبذُ فعلَ هذا».

أدركت غويندا في هذهِ اللحظةِ أنَّ الأمرَ يبدو أصعبَ مما تخيلته. «هلّا أوصلتِ إليها رسالةً مني؟»

هزَّت الخادمةُ رأسها رافضةً.

وأتى صوتٌ من الداخل: «من يريد أن يرسلَ لي رسالةً؟»

توترت غويندا وأخذت تتساءل في نفسها إن كانت قد أوقعت نفسها في المتاعبِ، ونظرت إلى بابِ المطبخِ.

بعد برهةٍ خرجت الليدي فيليبا من بابِ المطبخِ.

لم تكن امرأةً جميلةً جداً إلّا أنّها كانت حسنةَ المظهر. كانَ أنفها مستقيماً وفكها قوياً وعيناها الخضراوان واسعتين وصافيتين. لم تكن تبتسمُ بل ارتسمَ على وجهها شبحُ تقطيبةٍ ولكن مع مسحةِ ودٍ وتفهمٍ.

أجابت غويندا على سؤالِ فيليبا: «أنا غويندا من ويغلي يا سيدتي».

«ويغلي»، قالت فيليبا واتسعت التكشيرةُ على وجهها. «وماذا لديكِ لتقوليهِ لي؟»

«إنَّ للأمرِ علاقةٌ باللورد رالف».

«كنتُ أخشى أن يكون كذلكَ. حسناً، رافقيني إلى الداخلِ حتى يتدفأ الطفلُ بنارِ المطبخِ».

كانت العديد من النساءِ النبيلات سيرفضن التحدثَ إلى امرأةٍ وضيعةٍ كغويندا إلّا أنَّ غويندا تكهنت بأنَّ فيليبا تملكُ قلباً طيباً تحت ظاهرِ القساوةِ على وجهها. لحقت غويندا بفيليبا إلى الداخلِ وبدأ سامي يئنُ فأعطتهُ غويندا ثديها ليرضع.

«يمكنكِ أن تجلسي»، قالت فيليبا.

وهذا أيضاً لم يكن من شيمِ النساءِ النبيلات. عادةً ما يبقى الأقنان واقفين أثناءَ مخاطبتهم لسيدةٍ. وتكهنت غويندا أنَّ فيليبا تتصرفُ بلطفٍ من أجلِ الطفلِ.

«حسناً أخبريني»، قالت فيليبا. «ما الذي فعلهُ رالف؟»

«كما تتذكرين يا سيدتي فقد وقعَ شجارٌ في سوقِ صوفِ كينغزبريدج العامَ الماضي».

«بالطبعِ أتذكر كيفَ تحرشَ رالف بتلكَ الفلاحةِ وكيفَ كسرَ خطيبها الوسيم أنفهُ. بالطبعِ لم يكن على الفتى أن يفعلَ هذا ولكن رالف تصرَّفَ كحيوانٍ».

«في الحقيقةِ لقد كان كذلكَ. في الأسبوعِ الماضي تحرَّشَ بالفتاةِ آنيت نفسها في الغابةِ. قامَ مرافقهُ بتثبيتها بينما اغتصبها رالف».

«أوه، الرحمةَ يا رباه!» وبدت فيليبا متضايقةً جداً. «إنَّ رالف حيوانٌ، إنَّه خنزيرٌ، خنزيرٌ بريٌّ. كنتُ أعلمُ أنَّه لا يجب أن يصبحَ لورداً. أخبرت والد زوجي بألا يقومَ بترقيتهِ».

«من المؤسفِ أنَّ الإيرل لم يأخذ بنصيحتكِ».

«وأعتقدُ أنَّ خطيبَ الفتاة يريدُ العدالة».

ترددت غويندا في الإجابةِ فقد كانت القصةُ معقدةً ولم تعرف كمَّ المعلومات

التي يتوجبُ عليها الكشفُ عنه إلَّا أنَّها شعرت بأنَّ إخفاءَ أيِّ تفصيلٍ سيكون غلطةً. «آنيت متزوجةٌ يا سيدتي ولكن من رجلٍ آخر».

«ومن هي الفتاةُ المحظوظةُ التي تزوجت بالفتى الوسيم؟»

«ولفريك تزوجَ مني».

«تهاني».

«وولفريك موجودٌ هنا كشاهدٍ مع زوجِ آنيت».

ألقت فيليبا نظرةً متفحصةً نحو غويندا، وكانت على وشكِ الإدلاءِ بتعليقٍ إلَّا أنَّها غيرت رأيها قائلةً: «ما سببُ قدومكِ إلى هنا؟ إنَّ ويغلي ليست ضمن أراضي زوجي».

«حدثت الواقعة في الغابةِ وقال الإيرل إنَّها كانت في أراضي اللورد ويليام ولهذا لا يستطيعُ البتَّ بالأمرِ».

«هذا مجردُ عذرٍ. إنَّ رولاند يبتُّ في الأمورِ التي يريدها فقط، وهو لا يريدُ أن يعاقبَ رجلاً قامَ بترقيتهِ منذُ وقتٍ قريبٍ».

«على أيِّ حالٍ إنَّ كاهنَ بلدتنا هنا ليُطلعَ اللورد ويليام على ما حدث».

«وماذا تريدين مني أن أفعل؟»

«أنتِ امرأةٌ ولهذا تفهمين كيفَ يبررُ الرجالُ الاغتصابَ. يقولون إنَّ الفتاةَ كانت تتصرفُ بغنجٍ أو تقوم بحركاتٍ مثيرةٍ».

«أجل».

«إن نجا رالف بفعلتهِ هذه فقد يكررها مرةً أخرى، وقد أكون أنا الضحيةَ التاليةَ».

«أو أنا»، قالت فيليبا. «عليكِ أن تري الطريقةَ التي يُحدق بها نحوي. إنَّه أشبهُ بكلبٍ يحدقُ إلى إوزةٍ في بركةٍ».

عندما سمعَت غويندا هذا تشجَّعَت أكثر وقالت: «ربما تستطيعين جعلَ اللورد ويليام يفهمُ أهميةَ عدمِ نجاةِ رالف بفعلتهِ هذهِ».

أومأت فيليبا برأسها وقالت: «أعتقدُ أنني أستطيعُ فعلَ هذا».

توقفَ سامي عن الرضاعةِ وغطَّ في النومِ. وقفت غويندا وقالت: «شكراً لكِ يا سيدتي».

«أنا سعيدةٌ لأنَّكِ أتيتِ إليَّ»، قالت فيليبا.

***

استدعاهم اللورد ويليام في صباحِ اليومِ التالي واجتمعوا في القاعةِ العظيمةِ. كانت غويندا سعيدةً برؤيةِ الليدي فيليبا جالسةً إلى جانبِ زوجها، وقد رمقت غويندا بنظرةٍ ودودةٍ جددت آمالَ غويندا في أن تكون فيليبا قد تحدثت إلى زوجِها.

كان ويليام رجلاً طويلاً بشعرٍ أسود كوالدِهِ الإيرل إلَّا أنَّه بدأ يصابُ بالصلعِ، ومنحتهُ صلعتهُ فوقَ لحيتِهِ وحاجبيهِ الداكنين هيئةً توحي بسلطةٍ أكثر رصانة ومنسجمة مع سمعتِهِ. تفحصَ ويليام الفستانَ الملطخَ بالدمِ وعاينَ رضوضَ آنيت التي لم تعد حمراء قانيةً الآن بل زرقاء، وقد أثارت هذهِ الرضوض حنقَ الليدي فيليبا كما بدا واضحاً على وجهها. تكهنت غويندا أنَّ هذهِ النظرةَ لم تكن لقسوة مشهدِ الإصابةِ فقط بقدرِ ما هي صورةُ المشهدِ المروعِ لمرافقٍ قوي راكعٍ فوقَ ذراعي فتاةٍ ليثبتها أرضاً بينما يقومُ رجلٌ آخر باغتصابها.

«حسناً، لقد قُمتِ بكلِ شيءٍ على نحو صحيحٍ حتَّى الآن»، قال ويليام لآنيت. «لقد توجهتِ مباشرةً إلى أقربِ قريةٍ، وعرضتِ إصابتكَ على رجالٍ هناكَ يتمتعونَ بسمعةٍ طيبةٍ وعرَّفتِ بهويةِ المعتدي. عليك الآن أن تقدمي شكوى إلى محكمةِ الصلحِ في محكمة مقاطعةِ شايرنغ».

بدت آنيت خائفةً وسألت: «وما الذي يعنيهِ هذا؟»

«شكوى اتهام مكتوبة باللاتينيةِ».

«لا يمكنني أن أكتبَ بالإنكليزيةِ يا سيدي فكيفَ لي أن أكتبَ باللاتينيةِ».

«سيقومُ الأب غاسبارد بهذا عنكِ. ستقدمُ المحكمةُ بدورها الاتهامَ إلى هيئةِ محلفين متخصصين بالجنايات وستخبرينهم بما حدثَ. هل يمكنكِ أن تقومي بهذا؟ سيطرحونَ عليكِ أسئلةً محرجةً».

أومأت آنيت برأسها بحزمٍ.

«إن صدقوكِ سيطلبونَ من الشريفِ استدعاءَ اللورد رالف إلى المحكمةِ بعدَ شهرٍ لمحاكمتِهِ. عندها ستحتاجين إلى كفلاء، وهم أناسٌ يقدمون مبلغاً من المالِ لضمانِ ظهوركِ وقتَ المحاكمةِ».

«ولكن من سيكون كفلائي؟»

«الأب غاسبارد وأنا سنكون كفلاءكِ، وسأدفعُ أنا المال».

«شكراً لكَ يا سيدي».

«الشكرُ لزوجتي التي أقنعتني بأنَّه لا يجبُ تعكيرُ صفو السلام الذي ينعمُ بهِ الملك بأعمالِ الاغتصابِ».

وألقت آنيت نظرةَ امتنانٍ إلى فيليبا.

نظَرَت غويندا إلى ولفريك. كانت قد أخبرت زوجها عن المحادثةِ التي دارت بينها وبينَ زوجةِ اللورد. نظرَ إليها ولفريك مباشرةً، وأومأ بشكلٍ غير ملحوظٍ إيماءةَ شكرٍ وتقديرٍ. كان يعلم أنَّها المسؤولةُ عن حدوثِ هذا.

تابعَ ويليام كلامَهُ قائلاً: «خلال المحاكمةِ سترْوين ما حدثَ مرَّةً أخرى. سيكون أصدقاؤكِ شهوداً. ستقولُ غويندا إنَّها رأتكِ قادمةً من الغابةِ بفستانكِ المُلطخِ بالدماءِ، والأب غاسبارد سيقول إنَّكِ أخبرتِهِ بما حدثَ، وولفريك سيقول إنَّه رأى رالف وآلان على جواديهما في المكان الذي وقعت فيه الحادثة.

أومأوا جميعاً بكلِّ رزانةٍ.

«هناكَ أمرٌ أخيرٌ. بما أنَّكِ قررتِ اتخاذَ هذا الإجراء فلا يمكنكِ التراجعُ عنه متى بدأتِ. إنَّ سحبَ الالتماس يعتبرُ جنحةً وستعاقبين عليهِ بقسوةٍ، هذا إضافةً إلى الانتقامِ الذي سيُلحقهُ بكِ رالف بعد ذلك».

قالت آنيت: «لن أغيرَ رأيي، ولكن ما مصيرُ رالف؟»

«هناكَ عقوبةٌ واحدةٌ للاغتصابِ»، قالَ اللورد ويليام. «سيُعدمُ رالف».

***

ناموا جميعاً في القاعةِ العظيمةِ للقلعةِ مع خدمِ ومرافقي وكلابِ اللورد ويليام وقد تلفعوا بعباءاتهم وتجمعوا على سجادةٍ منسوجةٍ من نباتِ السَّمارِ على الأرضيةِ. وحالما غدا الضوءُ القادمُ من جمرِ المدفأة الكبيرةِ مجرَّدَ وهجٍ مدَّت غويندا يدها بترددٍ نحو زوجها ووضعتها على ذراعهِ تداعبُ صوفَ عباءتهِ. لم يمارسا الحبَّ منذُ حادثةِ الاغتصابِ، ولم تكن واثقةً من أنَّه أرادَ ذلكَ أم لا. لقد أغضبتهُ بشدةٍ عندما أوقعتهُ، وتساءلت في نفسها إن كان تدخلها بالحديثِ مع الليدي فيليبا قد عوَّض عما فعلتهُ.

استجابَ ولفريك للمستها على الفورِ فأدناها منهُ وقبَّلها على شفتيها. استرخت غويندا بامتنانٍ بينَ ذراعيهِ وداعبا بعضهما بعضاً لبرهةٍ. كانت غويندا تشعرُ بسعادةٍ كبيرةٍ حدَّ البكاءِ.

انتظرتهُ ليصعدَ فوقها ولكنه لم يفعل، وعرفت من سلوكهِ الشغوف جداً وصلابةِ عضوهِ في يدِها أنَّه يريدُ هذا إلَّا أنَّه كان متردداً بسبب وجودِ الآخرين. يمارسُ الناسُ الجنسَ في القاعاتِ الكبيرة كهذهِ القاعةِ فالأمرُ طبيعي ولا يثيرُ اهتمامَ أحدٍ، وتكهنت غويندا بأن ولفريك كان مُحرجاً.

كانت غويندا عازمةً على رأبِ الصدعِ الذي أصابَ علاقتهما ولهذا صعدت فوقهُ وسحبت عباءتها فوقهما لتغطيهما، وبينما كانا يتحركان معاً رأت فتى مراهقاً على بعدِ ياردةٍ يراقبهما بإمعانٍ، ولو أنّه كانَ رجلاً بالغاً لأشاحَ بنظرِهِ بكلِّ تهذيبٍ إلّا أنَّ الفتى كان في عُمرٍ يُعتبرُ فيهِ الجنسُ لغزاً آسراً ولهذا السبب لم يُشح بنظرِهِ. كانت غويندا تشعرُ بسعادةٍ غامرةٍ ولذلك لم تبالِ بأمرِ الفتى. وعندما التقت عيناها بعيني الفتى ابتسمت لهُ دونَ أن تتوقفَ عن الحركةِ ففغرَ الفتى فاه من الصدمةِ وصعقهُ خجلٌ مفاجئٌ ثمَّ وبكلِ حياءٍ أدارَ ظهرهُ وغطى عينيهِ بذراعهِ.

سحبت غويندا عباءتها فوقَ رأسها ورأسِ ولفريك ودفنت وجهها في عُنقهِ واستسلمت للمتعةِ.

-37-

شعرت كاريس بالثقةِ وهي تدخلُ قاعةَ المحكمةِ الملكيّةِ؛ فلم تعد قاعةُ ويستمنستر الشاسعة ولا الأعدادُ الهائلةُ من أولئكَ الأثرياءِ والمتنفذين المتحلقين حولَ مقاعدِ الحكامِ ترهبها. باتت تعرفُ المكانَ والأشخاصَ، وكلُّ ما بدا لها غريباً في العام الماضي باتَ مألوفاً هذا العام، وارتدت فستاناً على الطرازِ اللندني بلونٍ أخضر على الجانبِ الأيمن وأزرق على الجانبِ الأيسر. كانت مستمتعةً بتفحصِ وجوهِ الحاضرين وقراءةِ حيواتهم على وجوههم والتكهن بحالتهم وما إن كانوا واثقين أم يائسين، مضطربين أم مخادعين. باتت الآن قادرةً على تمييز أولئكَ الذين يزورون العاصمةَ للمرَّةِ الأولى وعرفتهم من عيونهم المتسعةِ وحيرتهم، وانتابها إحساسٌ جميلٌ بأنّها أكثرُ معرفةً وتفوقاً منهم.

لم يكن لدى كاريس أيُّ مخاوفَ باستثناءِ مخاوفها من محاميها فرانسيس بوكمان، وبوكمان شابٌ حسنُ الاطلاعِ كمعظمِ المحامين ويبدو واثقاً جداً من نفسهِ. كان فرانسيس ضئيل البنيةِ بشعرٍ أشقرَ غامقٍ خفيفَ الحركةِ وجاهزاً على الدوامِ للانخراطِ في أيِّ جدالٍ، وذكّرتها هيئتهُ بهيئةِ عصفورٍ على إفريز نافذةٍ ينقرُ الفتات ويطاردُ بوحشيةٍ الطيورَ الأخرى ليبعدها عن الطعامِ. كان قد أخبرهما بوكمان بأنَّ قضيتهم رابحةٌ.

استعانَ غودوين بغريغوري لونغفيلو الذي ربحَ القضية ضدَّ الإيرل رولاند وطلبَ منهُ تمثيلَ الديرِ هذهِ المرة أيضاً. كانَ لونغفيلو قد أثبتَ كفاءتهُ سابقاً إلّا

أن كفاءةَ بوكمان ما تزالُ قيدَ التجريبِ، ولكن كاريس أتت ومعها سلاحٌ سري، شيءٌ سيقعُ كالضربةِ على رأسِ غودوين.

لم يظهر على غودوين ما يوحي بأنَّه يدركُ خيانتهُ لكاريس ووالدها ولمدينة كينغزبريدج بأكملها. لطالما قدَّمَ نفسهُ كشخصٍ مُصلحٍ ومنتقدٍ لرئيس الدير الرجعي أنتوني، ومتعاطف مع احتياجاتِ المدينةِ، وتوّاقٍ إلى تحقيقِ رفاهِ الرهبانِ والتجارِ على حدٍ سواء. ولكن بعدَ مرورِ عامٍ على تسلّمِهِ المنصب، تغيَّرَ تماماً وأصبحَ شخصاً تقليدياً أكثر من أنتوني نفسه بل ومن دونِ الشعورِ بالحياءِ حيال الأمرِ. استشاطت كاريس غيظاً في كلِ مرّةٍ فكرت فيها بهذا.

لم يكن لديهِ أيُّ حقٍ في إجبارِ سكانِ المدينةِ على استخدامِ مطحنةِ الديرِ. كانت الإجراءات الأخرى التي أخذها كحظرِ استخدامِ الطاحونةِ اليدويةِ وفرضِ ضرائب على برك تربيةِ السمكِ ومزارعِ تربيةِ الأرانبِ الخاصَّةِ قانونيةً رغمَ قساوتها المشينةِ. كان استخدامُ الطاحونةِ مجانياً وغودوين يعلمُ بهذا. تساءلت كاريس في نفسها إن كان غودوين يعتقدُ بأنَّ الرَّبَّ سيغفرُ له أيَّ عملٍ مخادعٍ لأنَّه يقومُ بهِ باسمهِ، ولكن أليسَ على خدمِ الرَّبِّ أن يكونوا أكثرَ دقةً في مسألةِ النزاهةِ من الناسِ العاديين؟

ناقشت كاريس موقفها هذا مع والدها بينما كانا في قاعةِ المحكمةِ بانتظارِ سماعِ قضيتهما. قال لها إدموند: «لم أثق يوماً بشخصٍ يدَّعي الأخلاقَ لأنَّه متدين. إنَّ ذلكَ النوع من المتعالين يجدون الأعذارَ دوماً لخرقِ القوانين. أفضلُ العملَ مع خطَّاءٍ يعتقدُ أنَّ مصلحتهُ على المدى الطويلِ تقتضي قولَ الحقيقةِ والوفاءِ بوعودهِ؛ فمن غير المرجح أن يقومَ هذا الشخصُ بتغييرِ رأيهِ».

في لحظاتٍ كهذهِ وعندما يعودُ والدها إلى شخصيتهِ القديمةِ تدركُ كاريس هولَ التغييرِ الذي طرأ عليهِ. ففي هذهِ الأيامِ لم يعد يتصرفُ بحنكةٍ وسرعةٍ كما كان في ما مضى، وباتَ كثيرَ النسيانِ ومشتتاً. ورأت كاريس أنَّ هذا التراجع قد بدأ منذُ أشهرٍ دونَ أن تلحظَ الأمرَ، وقد يكون السببُ في هذا فشله الذريع في توقعِ فشلِ سوقِ الصوفِ.

بعدَ مرورِ عدَّةِ أيامٍ تمَّ استدعاؤهم للمثولِ أمامَ السير ويلبرت ويتفليد. كان ويتفيلد قاضياً بوجهٍ موردٍ وأسنانٍ مسوسةٍ، وكان من حكمَ العامَ الماضي لمصلحة الدير في القضيةِ مع الإيرل رولاند. عندما أخذَ القاضي مكانهُ على المقعدِ قبالةَ الحائطِ الشرقي شعرت كاريس بثقتها تتراجعُ؛ إنَّه لمن المخيفِ بحق أن يكون لشخصٍ فانٍ كلُّ هذهِ القوةِ. إن أخِذَ القرارُ الخطأ فسيتلقى مشروعُ

صناعةِ الأقمشةِ الخاص بكاريس ضربةً قاتلةً، وسينتهي أمرُ والدها، ولن يكون هناك مالٌ لإنهاءِ الجسرِ.

ولكن عندما بدأ محاميها بالتحدثِ بدأت تسترجعُ ثقتها. بدأ فرانسيس كلامَهُ بالحديثِ عن تاريخ مطحنةِ الديرِ، وبأنَّ البنّاء المشهور جاك من اخترعها، وأنّها الأولى من نوعها، وتحدَّثَ عن منحِ رئيسِ الدير فيليب حقَّ استخدامِ الطاحونةِ مجاناً لسكانِ المدينةِ.

ثمَّ قام فرانسيس مُقدماً بدحضِ كلِ حججِ غودوين قائلاً: «صحيحٌ أنَّ الطاحونةَ في حالةٍ سيئةٍ وتحتاجُ إلى الإصلاحِ وهي بطيئةٌ ومعرضةٌ للأعطالِ المتكررةِ، ولكن كيف يمكنُ لرئيسِ الديرِ أن يقول إنَّ الناسَ فقدوا الحقَّ باستخدامها؟ إنَّ الطاحونةَ في أراضي الدير ولذلك صيانتها من مسؤوليةِ الديرِ. في الحقيقةِ، إنَّ فشلَ رئيسِ الدير في هذهِ المهمةِ لا يشكلُ فرقاً كبيراً؛ فالناس لا يملكون الحقَّ في إصلاحِ الطاحونةِ، وبالتأكيد هم ليسوا ملزمين بفعلِ هذا. لم تكن عطيةُ رئيسِ الديرِ مشروطةً».

وهنا أخرجَ فرانسيس سلاحَهُ السريَّ. «وفي حال ادعى رئيسُ الديرِ أنَّ العطيةَ كانت مشروطةً فأنا أدعو المحكمةَ إلى قراءةِ هذهِ النسخةِ من وصيةِ رئيسِ الديرِ فيليب».

بدا غودوين مذهولاً؛ فقد قالَ لهم إنَّ الوصيةَ ضاعت، ولكن ما لا يعرفهُ أنَّ توماس لانغلي وافقَ على البحث عنها عندما طلبَ منهُ ميرثن هذا، وعندما وجدها هرَّبَها من المكتبةِ ليومٍ واحدٍ وقد كان هذا كافياً ليقومَ إدموند بنسخِها.

لم يكن بوسعِ كاريس كبحَ جماحِ استمتاعها بنظرةِ الصدمةِ والغضبِ التي علت وجه غودوين عندما اكتشفَ أنَّ خدعتهُ فُضحت. تقدَّمَ غودوين وقالَ بسخطٍ: «كيفَ حصلتم على هذهِ الوثيقة؟»

كانَ سؤالهُ دليلاً آخر على تورطهِ فهو لم يسأل: «أين وجدتموها؟» كما يُفترضُ أن يكون السؤالُ عن شيءٍ ضائعٍ.

بدا غريغوري لونغفيلو متضايقاً، ولوحَ لغودوين بيدهِ في إشارةٍ له ليصمتَ. توقفَ غودوين عن الكلامِ وعادَ إلى مكانهِ وقد أدركَ أنّه فضحَ نفسهُ ولكن الوقت تأخرَ على التراجعِ عما فعلهُ. لا بدَّ أنَّ القاضي قد فهمَ بأنَّ السبب الوحيد الذي قد يدفعُ غودوين للغضبِ هو معرفتهُ بأنَّ الوثيقةَ تصبُّ في مصلحة سكانِ المدينة وأنَّه حاولَ إخفاءها.

أنهى فرانسيس مرافعتهُ هنا، ورأت كاريس في هذا تصرفاً حكيماً؛ لأنَّ خداعَ غودوين سيظلُّ حاضراً في عقلِ القاضي خلالَ مرافعةِ غريغوري لمصلحة الديرِ.

ولكنهم فوجئوا جميعاً بأسلوبِ غريغوري في الدفاعِ.

تقدَّمَ غريغوري إلى الأمامِ وقالَ للقاضي: «سيدي إنَّ مدينةَ كينغزبريدج ليست منطقةً إداريةً ذات امتيازٍ ملكي»، وتوقف عن الكلامِ كأنَّ هذا كان كل ما أرادَ قولهُ.

قانونياً، كان كلامهُ صحيحاً؛ فمعظمُ المدنِ تمتلكُ امتيازاً ملكياً يضمنُ لها حريَّةَ التجارةِ وإقامةَ الأسواقِ من دونِ التزاماتٍ نحو الإيرل أو البارون المسؤول عنها. كان مواطنو هذهِ المناطق أحراراً في عدمِ الولاءِ لأحدٍ باستثناءِ الملكِ، إلَّا أنَّ هناك بضع مدنٍ كمدينةِ كينغزبريدج بقيت تابعةً للأسيادِ وهم عادةً من الأساقفة أو رؤساء الأديرةِ كمدينتي سان آلبانز وبيري سان إدموند، ولذلكَ لم يكن الوضعُ القانوني واضحاً تماماً.

قال القاضي: «هذا يغيرُ كلَّ شيءٍ؛ فلا يحقُّ سوى للأحرارِ الالتماسُ للمحكمةِ الملكيةِ. ماذا لديكَ لتقولهُ يا بوكمان؟ هل موكلوكَ أقنان؟»

التفتَ فرانسيس إلى إدموند وسألهُ بصوتٍ خفيضٍ: «هل التمسَ أهلُ المدينةِ إلى المحكمةِ الملكيةِ قبلاً؟»

«لا. رئيسُ الديرِ...»

«إذاً لم تكن نقابةُ الأبرشيةِ؟ ألم يحدث هذا قبلَ أن تتسلمَ رئاسةَ النقابةِ؟

«لم يكن هناكَ أيّ حالةٍ سابقةٍ».

«اللعنةُ، هذا يعني أننا لا نستطيعُ المحاججة بوجودِ سابقةٍ للأمرِ». استدارَ فرانسيس إلى القاضي وقد اختفى القلقُ عن وجههِ بلمحِ البصرِ واكتسى بالثقةِ مجدداً. تحدَّثَ كأنّه يقللُ من شأنِ تفصيلٍ تافهٍ: «سيدي، إنَّ سكانَ المدينةِ أحرارٌ فهم يتمتعون بحقِّ الإيجارِ».

وقالَ غريغوري على عجلٍ: «لا توجدُ صياغةٌ موحدةٌ لحقِّ الإيجارِ، وهو يختلفُ باختلافِ الأماكنِ».

قال القاضي: «هل توجد وثيقةٌ بالمستحقاتِ؟»

نظرَ فرانسيس إلى إدموند الذي بدورهِ هزَّ رأسهُ بالنفي ودمدمَ: «لم يوافق أيُّ رئيس ديرٍ على كتابةِ مثلِ هذهِ الوثائقِ».

استدارَ فرانسيس نحو القاضي وقال لهُ: «لا توجد وثيقةٌ مكتوبةٌ يا سيدي ولكن من الواضحِ...»

«إذاً، على هذهِ المحكمة أنْ تقررَ إن كنتم أحراراً أم لا»، قال القاضي.

وهنا خاطبَ إدموند القاضي بشكلٍ مباشر قائلاً: «سيدي إنَّ المواطنين يتمتعون بحريةِ شراءِ وبيعِ منازلهم». كان هذا حقاً مهماً ولا يتمتع بهِ الأقنان الذين سيحتاجون إلى إذنِ أسيادهم لفعلِ هذا.

قال غريغوري: «ولكن عليكم التزامات إقطاعية، ولذلكَ استخدامُ مطاحنِ ومزارعِ السمكِ واجبٌ عليكم».

قال السير ويلبرت: «فلتنسَ أمرَ مزارعِ تربيةِ السمكِ. إنَّ القضية الرئيسية هنا هي علاقة المواطنين بمنظومةِ العدالة الملكيَّةِ. هل ستسمح المدينة لشريفِ الملكِ بدخولها من دونِ إذنٍ؟»

أجاب غريغوري: «لا، عليهِ أن يطلبَ الإذنَ بدخولها».

قال إدموند بسخطٍ: «ولكن هذا لم يكن قرارنا بل قرارَ رئيسِ الديرِ».

قال السير ويلبرت: «حسناً، هل يخدمُ المواطنون في هيئات المحلفين الملكية أم هم مستثنون؟»

ترددَ إدموند وبدا غودوين مُبتهجاً. كانت الخدمةُ في هيئةِ محلفين مضيعةً للوقتِ، ولذلكَ تجنبها الجميعُ. وبعدَ فترة صمتٍ وجيزةٍ أجابَ إدموند: «نحنُ مستثنون».

«إذاً، هذا يضعُ الأمورَ في نصابها»، قال القاضي. «إن رفضتم ذلكَ الواجب على أساسِ أنّكم أقنان لا يمكنكم أن تتجاوزوا سيدكم وتلتمسوا عدالةَ الملكِ».

وقال غريغوري في ظفرٍ: «في هذهِ الحالةِ أطلبُ من سيادتكم إسقاطَ طلبِ أهلِ المدينةِ».

«وأنا أحكمُ بهذا»، قال القاضي.

وبدا فرانسيس مُغتاظاً جداً: «سيدي هل يمكنني أن أتكلم؟»

«بالطبعِ لا»، قال القاضي.

«ولكن يا سيدي...»

«كلمةٌ أخرى وستوجه إليكَ تهمةُ ازدراءِ المحكمةِ».

صمتَ فرانسيس وأحنى رأسهُ.

قال السير ويلبرت: «القضية التالية».

وبدأ محامٍ آخر بالكلامِ.

شعرت كاريس بالدوارِ.

توجهَ فرانسيس إليها وإلى والدها بالكثيرِ من الاتهاماتِ وقال لهما: «لم تخبراني بأنكم أقنان».

«ولكننا لسنا كذلك».

«لقد حكمَ القاضي للتو بأنَّكم أقنان. لا يمكنني الفوزُ في قضيةٍ بمعلوماتٍ منقوصةٍ».

وقررت كاريس ألا تجادلهُ؛ فقد كانَ شاباً من النوعِ الذي لا يقبل الاعترافَ بالخطأ.

كان غودوين سعيداً جداً إلى درجةٍ كادَ ينفجرُ معها من فرطِ السعادةِ، وبينما كان يغادرُ المكانَ لم يقاوم إغراءَ القيامِ بملاحظةٍ لاذعةٍ. لوحَ باصبعٍ نحو إدموند وكاريس وقال برزانةٍ: «أرجو أن يكون هذا درساً لكما في المستقبلِ عن حكمةِ الخضوعِ لإرادةِ الرَّبِّ».

«فلتغرب عن وجهنا»، قالت كاريس وأدارت ظهرها لهُ.

تحدثت إلى والدها قائلةً: «ما حدثَ جرَّدنا من قوتنا تماماً! لقد أثبتنا حقنا باستخدامِ الطاحونةِ مجاناً إلَّا أنَّ غودوين ما زال يملكُ سلطةَ إعطائنا هذا الحق».

«يبدو أنَّ الأمرَ كذلك»، قال إدموند.

التفتت كاريس نحو فرانسيس وقالت: «لا بدَّ أنَّ يكون هناكَ شيءٌ يسعنا القيامُ بهِ».

«حسناً»، قال فرانسيس. «يمكنكما أن تحولا كينغزبريدج إلى منطقة إداريةٍ رسميةٍ بامتيازٍ ملكي وهذا سيسمحُ لكما بممارسةِ حقوقكما وحريتكما، وعندها يمكنكما التماسُ المحكمةِ الملكيةِ».

رأت كاريس بارقةَ أملٍ وسألت: «كيف يمكننا فعلُ هذا؟»

«بتقديم طلبٍ إلى الملكِ».

«وهل سيوافق عليه؟»

«إن أخبرتهِ بأنَّكِ تحتاجين إلى هذا لتتمكني من دفعِ ضرائبكِ فسيصغي إليكِ من كلِّ بدٍ».

«إذاً، علينا أن نحاول».

حذرها إدموند: «هذا سيُغضب غودوين كثيراً».

«دعهُ يغضب»، أجابتهُ كاريس بحدةٍ.

«لا تُقللي من شأنِ هذا التحدي»، أصرَّ والدها. «أنتِ تعلمين أنَّه لا يرحمُ أحداً حتَّى في الخلافاتِ البسيطةِ؛ إنَّ أمراً كهذا كفيلٌ بإشعالِ حربٍ ضروسٍ».

«إذاً، فلتكن...»، قالت كاريس بتجهمٍ. «حرباً ضروساً».

***

«كيفَ أمكنكَ القيامُ بهذا يا رالف؟» قالت والدتهُ.

تفحصَ ميرثن وجهَ شقيقهِ في الضوءِ الضعيفِ داخلَ منزلِ والديهِ. بدا رالف ممزقاً بين الإنكارِ التامِ والتبريرِ.

وأخيراً أجابها رالف: «لقد أغوتني».

كانت مود قلقةً أكثر مما كانت غاضبةً: «ولكنها يا رالف زوجةُ رجلٍ آخر».

«زوجةُ فلاحٍ».

«لا فرق».

«لا تقلقي يا أمي، لن يقوموا بإدانةِ لورد بسبب أحدِ الأقنانِ».

لم يكن ميرثن واثقاً من أنَّ هذا الكلام دقيقٌ؛ فقد كان رالف لورداً عادياً ويبدو أنَّه بفعلتِهِ هذه قد أثارَ عداوةَ اللورد ويليام كاستر، ولذلكَ لم يكن هناكَ أدنى شكٍّ من الكيفيةِ التي ستنتهي بها الأمور.

وهنا تحدَّثَ والدهما بوجهٍ مكفهرٍ: «حتَّى وإن لم تُدان كما أرجو، فلتفكر بعارِ ما فعلتهُ! أنتَ ابن فارسٍ. كيفَ استطعتَ نسيان هذا؟»

كان ميرثن يشعرُ بالرعبِ والضيقِ ولكن لم يكن متفاجئاً فلطالما كانَ رالف عنيفاً بطبعهِ. في طفولتهما كان رالف على استعدادٍ دائمٍ للدخولِ في عراكٍ، وغالباً ما كان ميرثن يُجنبهُ المشاجرات ويهدئ النفوسَ بكلمةٍ لطيفةٍ أو مزحةٍ. ولو أنَّ أحداً آخر ارتكبَ عمليةَ الاغتصاب الوحشيةَ هذهِ، لتمنى ميرثن لفاعلها عقوبةَ الإعدامِ.

لم يتوقف رالف عن التحديقِ إلى ميرثن. كان قلقاً من استهجانِ أخيهِ لفعلتهِ، وربما أقلقهُ هذا أكثر مما أقلقهُ موقفُ والدتهِ؛ فقد كانَ شقيقهُ بمنزلة القدوةِ له. لطالما تمنى ميرثن أن تكون هناكَ طريقةٌ لتقييدِ رالف ومنعهِ من مهاجمةِ الناسِ، وها هو الآن، ومن دونِ ميرثن إلى جانبهِ، يستمرُ بجلبِ المتاعبِ لنفسهِ.

كان هذا الحديثُ مع والديهما القلقين حيال ما حدث يمكن له أن يستمرَّ لبعضِ الوقتِ، ولكنهم سمعوا طرقاً على بابِ المنزلِ المتواضعِ ودخلت كاريس. ابتسمت كاريس لجيرالد ومود إلَّا أنَّ تعابير وجهها تغيرت عندما رأت رالف.

تكهنَ ميرثن بأنّها أتت من أجلِهِ ولذلكَ وقفَ وقال: «لم أعلم بأنّكِ عدتِ من لندن».

«لقد وصلتُ للتو»، أجابتهُ. «هل يمكننا أن نتحدث على انفرادٍ؟»

أحكمَ ميرثن عباءتهُ حول كتفيهِ وسارَ معها خارجَ المنزل حيثُ ضوءُ النهارِ رمادي كالح كما هي نهاراتُ شهرِ كانون الأول/ ديسمبر الباردةِ. كان قد مرَّ عامٌ مذ أنهيا علاقتهما. علمَ بأنَّ حملها انتهى في المستشفى، وتكهنَ بأنّها فعلت شيئاً للتخلصِ من الطفلِ. وخلالَ الأسابيعِ القليلةِ اللاحقةِ طلبَ منها ميرثن أن تعودَ إليهِ ولكنّها رفضَت. كانَ الأمرُ مُربكاً فهو يشعرُ بأنّها ما زالت تحبهُ إلّا أنّها كانت مصرَّةً على موقفِها. تخلّى ميرثن عن الأملِ بعودتهما وتمنى أن يساعدهُ مرورُ الوقتِ على نسيانِ حزنهُ إلّا أن هذا ما لم يحدث قط؛ فما زال قلبهُ يخفقُ بقوةٍ عندما يراها، وما زال يفرحُ بالحديثِ معها أكثر من أيِّ شيءٍ في العالمِ.

سارا عبرَ الشارعِ الرئيسي باتجاهِ حانةِ بيل. كانت الحانةُ هادئةً في مثلِ هذا الوقتِ من بعدِ الظهرِ. طلبا نبيذاً منكهاً بالتوابلِ.

«لقد خسرنا القضيةَ»، قالت كاريس.

صُعقَ ميرثن لدى سماعهِ بهذا وسألها: «كيفَ حدثَ هذا؟ كانت وصيةُ رئيس الديرِ فيليب...»

«لم يكن لها قيمةٌ»، قالت كاريس، وشعرَ ميرثن بأنّها تشعرُ بخيبةِ أملٍ مريرةٍ. شرحت له كاريس ما حدثَ قائلةً: «لقد جادلَ محامي غودوين الذكي بأنَّ سكان مدينةِ كينغزبريدج أقنانُ رئيسِ الديرِ، وأنَّ الأقنانَ لا يملكون الحقَّ بالالتماسِ إلى المحكمةِ الملكيَّةِ، ولذلكَ رفضَ القاضي القضيةَ».

شعرَ ميرثن بالغضبِ وقال: «ما هذا الغباء! هذا يعني أنَّ رئيسَ الدير قادرٌ على القيامِ بما يريد بغضِ النظرِ عن القوانين والامتيازاتِ...»

«أعلمُ هذا».

أدركَ ميرثن أنّها بدأت تشعرُ بالضيقِ من سماعِ أمورٍ كانت قد قالتها لنفسها مراراً وتكراراً، ولهذا كبحَ سخطهُ وحاول أن يكونَ عملياً: «ما الذي ستفعلينهُ؟»

«سأقدمُ طلباً للملكِ لتحويلنا إلى مقاطعةٍ إدارية ذات امتيازاتٍ ملكيةٍ، وهذا سيحررُ سكان المدينةِ من قبضةِ رئيسِ الديرِ. يعتقدُ محامينا أنَّ قضيتنا قويةٌ رغمَ أنّه اعتقدَ هذا أيضاً حيالَ قضيةِ الطاحونةِ، ولكن الملك في حاجةٍ ماسةٍ إلى المالِ لتمويلِ حربهِ مع فرنسا، ولذلكَ يحتاجُ إلى مدنٍ مزدهرةٍ اقتصادياً وقادرةٍ على دفعِ الضرائبِ».

«وكم سيستغرقُ الحصول على امتيازٍ ملكي؟»
«هذهِ هي الأخبار السيئة. سيستغرقُ الأمرُ عاماً على الأقل أو ربما أكثر».
«وخلال هذا الوقت لن تتمكني من إنتاج قماشٍ قرمزي».
«لن يحدثَ هذا وأنا أستخدمُ مطحنةَ الديرِ».
«وهذا يعني أننا سنتوقفُ عن العملِ على الجسرِ».
«لا أرى مناصاً من هذا».
«اللعنةُ». لم يكن الأمرُ منطقياً؛ فها هي الأدواتُ اللازمةُ لاستعادةِ ازدهارِ المدينةِ بينَ أيديهم ولكنَّ عنادَ رجلٍ يمنعهم من القيامِ بهذا. «لقد فشلنا في الحكمِ على شخصيةِ غودوين»، قال ميرثن.
«لا تذكرني بهذا».
«علينا أن نتحررَ من قبضتهِ».
«أعلمُ».
«ولكن يجب أن نفعلَ هذا قبلَ عامٍ من الآن».
«كم أتمنى لو أنَّ هناكَ طريقةً لفعلِ هذا بأسرعِ وقتٍ».
أعملَ ميرثن ذهنهُ في التفكيرِ وهو يتفحصُ كاريس في الوقتِ عينهِ. كانت في ثوبٍ جديدٍ ابتاعتهُ من لندن، وقد كان بلونينِ كما هي الموضة هذا العام. منحها الفستانُ مظهراً لعوباً رغمَ أنها بدت رزينةً ومهمومةً. ويبدو أنَّ اللون الأخضر الغامق والأزرق المتوسط الدرجةِ يجعلان عينيها تلتمعان وبشرتها تشعُ نضارةً. ويحدثُ كثيراً عندما يكون منغمساً في حديثٍ معها حولَ مشكلةٍ لها علاقةٌ بالجسرِ، لأنهما نادراً ما يناقشان أمراً آخر، أن يدرك ميرثن فجأةً وفي خضمِّ الحديثِ أنَّ كاريس جميلةٌ جداً.
ورغم انشغالهِ بالتفكيرِ بجمالها فإنَّه كان يفكرُ بحلٍ للمشكلة، وتمخّضَ هذا التفكير عن اقتراحٍ. «يجب أن نبني مطحنتنا الخاصَّة».
هزّت كاريس رأسها وقالت: «هذا غير قانوني. سيطلبُ غودوين من المأمورِ جون تدميرها».
«ماذا لو كانت الطاحونةُ خارجَ المدينةِ؟»
«هل تعني أن تكونَ في الغابةِ؟ هذا غير قانوني أيضاً. سيلاحقكَ حراسُ الملكِ». كان حراسُ الغابة من يطبقون القوانين في غاباتِ الملكِ.
«إن لم تكن في الغابةِ، فلتكن في مكانٍ آخر».
«أينما شئت ولكن نحتاجُ إلى إذنِ سيدٍ».

«إن أخي سيد».

وعلت على وجهِ كاريس نظرةُ اشمئزازٍ عندما فكرت برالف، ولكنَّ تعابير وجهها تغيرت عندما فكرت جيداً في ما قالهُ ميرثن: «تقترحُ بناءَ مطحنةٍ في ويغلي؟»

«وما المانع؟»

«هل فيها نهرٌ سريعُ الجريانِ لتحريكِ العجلةِ؟»

«أعتقدُ هذا، ولكن يمكننا الاستعانةُ بثورٍ أو عبَّارةٍ لتحريكها».

«هل سيسمحُ لكَ رالف ببنائها؟»

«بالطبع فهو أخي. سأطلبُ منهُ وسيوافق».

«سيُجن جنون غودوين».

«إنَّ رالف لا يهتم بأمرِ غودوين».

رأى ميرثن أنَّ كاريس سُرَّت وتحمست، وتساءلَ في نفسهِ عن مشاعرها نحوهُ. كانت سعيدةً لأنهما عثرا على حلٍ لمشكلتهما وتواقةً للتفوقِ على غودوين، ولكن عجزَ ميرثن عن قراءةِ ما هو أبعد من ذلكَ.

«فلنفكرِ بالأمرِ ملياً قبلَ أن نفرحَ بهِ»، قالت كاريس. «فقد يقوم غودوين بسنِّ قانونٍ يمنع إخراج القماشِ من كينغزبريدج لمعالجتهِ. هناك مدنٌ كثيرةٌ تعملُ في ظلِّ قوانين كهذهِ».

«سيكون من الصعبِ عليهِ فرضُ مثل هذا القانون من دونِ تعاونِ النقابةِ، وإن تمكن من فعلِ هذا يمكننا أن نتحايلَ عليهِ. ألا تُحاكُ معظمُ الأقمشةِ في قرى أخرى؟»

«أجل».

«إذاً، لا تقومي بإدخالهِ إلى المدينةِ. أرسليهِ إلى النساجين في ويغلي ولتصبغيهِ هناك وتعالجيه في الطاحونةِ ومن ثمَّ خذيهِ إلى لندن. لا سلطةَ لغودوين على ويغلي».

«كم سيأخذُ منكَ بناءُ طاحونةٍ؟»

وأخذ ميرثن يفكر ثمَّ قال: «تأخذُ عمليةُ بناءِ جسمِ الطاحونةِ بضعةَ أيام، أمَّا الآلة فستكون من الخشبِ ولكن بناءها سيأخذُ وقتاً أطول بسبب القياساتِ الدقيقةِ، وبين عمليةِ بناءِ الجسمِ والآلةِ سيأخذُ نقلُ الرجالِ والمواد الوقت بأكملهِ. يمكنني أن أنتهي من العملِ عليها خلالَ أسبوعٍ بعدَ عيد الميلادِ».

«هذا رائع»، قالت كاريس. «فلنقم بالأمرِ إذاً».

***

رمت إليزابيث النردَ وقامت بالحركةِ الأخيرةِ في خانتها على لوحِ اللعبِ ثمَّ قالت: «ربحت! ها أنا أربح لثلاثِ مرَّاتٍ متتاليةٍ. فلتدفع».

أعطاها ميرثن بنساً فضياً. لم يكن هناكَ سوى شخصين قادرين على هزيمتهِ في لعبةِ الطاولةِ وهما إليزابيث وكاريس، ولم يُمانع ميرثن الخسارةَ في اللعبِ لأنَّه كان يُثمن قيمةَ الغريم الكفؤ.

أراحَ ميرثن ظهرهُ إلى الوراءِ وأخذَ يحتسي نبيذَ الإجاصِ. كان الوقت بعدَ الظهيرةِ من أحدِ أيامِ شهرِ كانون الثاني/ يناير الباردةِ ولذلكَ كان الظلامُ يرخي بأستارهِ. نامت والدةُ إليزابيث على كرسي قربَ النارِ وهي تشخرُ بصوتٍ ناعمٍ وفمها مفتوحٌ. كانت تعمل في حانةِ بيل، ولكنها لطالما تواجدت في المنزلِ عند زيارةِ ميرثن لابنتها، وميرثن بدورهِ كان يفضلُ وجودها، لأنَّه لم يأخذ قرارهِ بتقبيلِ إليزابيث بعد. لم يكن يرغبُ بمواجهةِ هذا الموقفِ رغمَ أنَّه يرغبُ بتقبيلها حتماً. كان يتذكر ملمسَ شفاهها الفاترةِ وصلابةَ ثدييها الصغيرين، ولكن قيامهُ بهذا سيعني اعترافاً بأنَّ علاقةَ حبهِ مع كاريس قد انتهت إلى الأبدِ، وهو لم يكن جاهزاً بعد لمواجهة هذا.

«ما هو وضعُ الطاحونةِ في ويغلي؟» سألت إليزابيث.

«انتهت وبدأت تعمل»، قال ميرثن بفخرٍ. «وكاريس تقومُ بمعالجةِ القماشِ هناكَ منذُ أسبوعٍ».

بدت إليزابيث مدهوشةً وسألتهُ: «بنفسها؟»

«لا، لم أكن أعني هذا حرفياً. في الحقيقةِ أنَّ مارك ويبر من يعملُ على الطاحونةِ ويدرب بضعةَ رجالٍ من القريةِ ليعملوا عليها».

«من الجيدِ أن يصبحَ مارك مساعدَ كاريس الأيمن. لطالما عاشَ حياتهُ رجلاً فقيراً وهذهِ فرصتهُ الكبيرة».

«إنَّ مشروعَ كاريس الكبير سيعودُ بالفائدةِ علينا جميعاً، وهو يعني أنني أستطيعُ الانتهاءَ من العملِ على الجسرِ».

«إنَّها فتاةٌ ذكيةٌ»، قالت إليزابيث بصوتٍ متزنٍ. «ولكن ما رأي غودوين في الأمر؟»

«لا شيء، لا أعتقدُ أنَّه يعرف بأمرِ الطاحونةِ بعد».

«ولكنهُ سيعلم».

«لا أعتقد أنَّه قادر على فعلِ شيءٍ».

«إنَّه رجلٌ شديد الكبرياءِ. وإنَّ تفوقت عليهِ لن يسامحك».

«لا يهمني».

«وماذا بشأنِ الجسرِ؟»

«رغمَ كلِّ المشاكل التي حدثت لم نتأخر في جدولِ العملِ سوى أسبوعين. ويجب أن أحصلَ على المال لأعوضَ عمَّا فات، ولكن سنكون قادرين على استخدامِ الجسرِ بطريقٍ خشبي مؤقتٍ بحلولِ موعدِ سوقِ الصوفِ القادمِ».

«أنتَ وكاريس ستنقذانِ المدينة».

«لم ننقذها بعد ولكننا سنفعل».

سُمعَ قرعٌ على البابِ واستفاقت والدةُ إليزابيث مرتاعةً. «من قد يكون؟» سألت. «لقد هبطَ الظلام».

كان الطارقُ أحدَ الصبيةِ المتدربين عندَ إدموند. «إنَّ المعلم ميرثن مطلوبٌ من أجلِ اجتماعِ نقابةِ الأبرشيةِ»، قالَ الفتى.

«من أجلِ ماذا؟» سأله ميرثن.

«طلبَ مني المعلم إدموند إخباركَ بأنَّه عليكَ القدوم إلى اجتماعِ نقابةِ الأبرشيةِ»، قال الفتى. بدا واضحاً أنَّه حفظَ الرسالةَ عن ظهرِ قلبٍ دونَ أن يكون لديهِ أيّ معلوماتٍ أخرى.

«لا بدَّ أنَّ للأمرِ علاقة بالجسرِ»، قال ميرثن لإليزابيث. «إنهم قلقون بشأنِ التكلفةِ». أخذَ ميرثن عباءتهُ وقال: «شكراً لكِ على النبيذِ وعلى اللعبةِ».

«سألعبُ معكَ في أيِّ وقتٍ تشاء»، قالت إليزابيث.

توجه ميرثن مع المتدربِ إلى غيلد هول في الشارع الرئيسي. كان في غيلد هول اجتماعُ عملٍ وليسَ وليمةً، وقد جلسَ عشرون شخصاً من عليةِ القومِ في كينغزبريدج إلى طاولةٍ طويلةٍ بقائمتين لهما على كلا الجانبين شكلُ الحرف (A). كان بعضهم يشرب الجعةَ أو النبيذ ويتحدثون بأصواتٍ واطئةٍ. شعرَ ميرثن بالتوترِ والغضبِ في المكانِ وجعلهُ هذا مستنفراً.

جلسَ إدموند إلى رأسِ الطاولةِ، وجلسَ رئيسُ الديرِ غودوين إلى جانبهِ. لم يكن رئيسُ الديرِ عضواً في النقابةِ ولكن وجودهُ يعني أنَّ ميرثن كان على حقٍّ عندما قالَ إنَّ الاجتماع يخصُّ الجسرَ، ولاحظَ غيابَ توماس أمينِ السجلاتِ وحضورِ فيليمون بدلاً منه، وهذا أمرٌ غريبٌ.

لقد وقعَ خلافٌ بسيطٌ بين ميرثن وغودوين مؤخراً. كان عقدُ ميرثن ينصُّ

على تلقيهِ مبلغَ بنسين يومياً إضافةً إلى استئجارهِ لجزيرة ليبر، وكان هذا العقدُ قابلاً للتجديدِ. اقترحَ غودوين الاستمرارَ بدفعِ مبلغِ بنسين يومياً، ولكن ميرثن أصرَّ على أربعة بنساتٍ، وفي النهايةِ أذعنَ غودوين لطلبِ ميرثن. تساءل ميرثن في نفسهِ إن كانَ غودوين قد قدَّمَ شكوى إلى النقابةِ.

ودخلَ إدموند إلى صلبِ الموضوعِ فجأة كما هي عادتهُ دوماً: «استدعيناكَ لأنَّ رئيسَ الدير غودوين يرغبُ بصرفِكَ من منصبِ رئيسِ البنائين المسؤول عن الجسرِ».

وشعرَ ميرثن كأنّه تلقى لكمةً على وجههِ. لم يكن يتوقع حدوثَ هذا. «ماذا؟» قال ميرثن. «ولكن غودوين من قامَ بتعييني».

قال غودوين: «وهذا يعني أنني أملكُ الحقَّ بصرفِكَ».

«ولكن لماذا؟»

«لقد تأخرت عن جدولِ العملِ وتجاوزتَ الميزانية».

«لقد تأخرَ العمل بسببِ إقفالِ الإيرل للمقلعِ وتجاوزتُ الميزانية لأنني اضطررت للتعويض عما فاتنا».

«هذهِ مجرد أعذارٍ».

«وهل قصةُ موتِ سائقِ العربةِ عذرٌ أيضاً؟»

وأجابهُ غودوين على الفور: «أخوكَ من قتلهُ!»

«وما علاقةُ هذا بالأمرِ؟»

تجاهلَ غودوين السؤالَ وقال: «إنّه رجلٌ متهمٌ بالاغتصابِ».

«لا يمكنكَ أن تعزلَ رئيسَ البنّائين بسبب سلوكِ أخيهِ».

«ومن أنتَ لتخبرني بما يمكنني فعلهُ؟»

«أنا بنّاء جسركَ!» وعندها أدركَ ميرثن أنّ عملهُ على الجسرِ كرئيسِ البنائين قد اكتملَ. فقد صممَ معظمَ الأجزاءِ المُعقدةِ وصنعَ القوالب الخشبية من أجلِ معلمي البناءِ، وبنى سدودَ الإنضابِ التي لم يكن أحد يعرف كيفيةَ بناءها، وبنى أذرعاً عائمة وروافع ضرورية لتحريكِ الحجارةِ الثقيلةِ ووضعها في مكانها وسطَ النهرِ. وأدركَ بأسى أنَّ أيَّ بنّاء سيقول إنّه أنهى عملهُ بحلولِ هذا الوقتِ.

«لا يوجد ضمانةٌ في تجديدِ عقدكَ»، قال غودوين.

كان هذا صحيحاً. نظرَ ميرثن حولهُ بحثاً عن الدعمِ، ولكن لم ينظر أحدٌ

إليهِ، وفهمَ أنَّهم ناقشوا الأمرَ مع غودوين. تملكهُ اليأس وتساءلَ في نفسهِ عن سببِ حدوثِ هذا. لم يكن السببُ الحقيقي تأخرَ العملِ على الجسرِ وتجاوز الميزانيةِ؛ فالتأخير لم يكن بسببِ ميرثن الذي نجحَ في التعويض عن الوقتِ الضائعِ. إذاً، ما هو السببُ الحقيقي؟ وحالما انتهى من طرحِ السؤالِ على نفسهِ أتاه الجواب. «هذا بسببِ الطاحونةِ في ويغلي»، قال ميرثن.

قال غودوين بتزمتٍ: «لا علاقةَ للأمرينِ بعضهما ببعض».

قال إدموند بهدوءٍ ووضوحٍ: «راهبٌ كاذبٌ».

تحدث فيليمون للمرةِ الأولى وقال: «فلتحذرْ يا كبيرَ الشيوخِ!»

ولكن هذا لم يكبح جماحَ إدموند الذي قال: «لقد فاقتك كاريس وميرثن ذكاءً. أليسَ هذا صحيحاً يا غودوين؟ إنَّ الطاحونةَ في ويغلي شرعيةٌ بالكامل. أنتَ من جلبَ الهزيمةَ لنفسكَ بسببِ طمعكَ وتعنتكَ، وهذا هو انتقامكَ».

كانَ إدموند على حق. لم يكن هناكَ من بنَّاءٍ أمهر من ميرثن. لا بدَّ أنَّ غودوين يعلمُ بهذا، ولكن بدا واضحاً أنَّه لا يهتم. «ومن ستُعين بدلاً مني؟» سألَ ميرثن ثمَّ أجابَ على سؤالهِ بنفسهِ: «أفترضُ أنَّك ستستعين بالفريك».

«لم يحسم الأمرُ بعد».

قال إدموند: «كذبةٌ أخرى».

وتحدثَ فيليمون مجدداً بصوتٍ أقرب للصراخِ: «إن مثلَ هذا الكلام كفيلٌ بوضعكَ أمامَ محكمةٍ كنسيةٍ!»

تساءل ميرثن في نفسهِ إن كان هذا مجرَّدَ مناورةٍ من غودوين لإعادةِ التفاوضِ بشأنِ عقدهِ. وتوجه ميرثن بالسؤالِ إلى إدموند: «هل اتفقت نقابةُ الأبرشية مع رئيسِ الديرِ بهذا الشأنِ؟»

قال غودوين: «القرارُ ليسَ بأيديهم».

تجاهله ميرثن ونظرَ بترقبٍ إلى إدموند.

اكتسى وجهُ إدموندِ بالخجلِ وقال: «لا يمكننا أن ننكرَ أنَّ لرئيسِ الديرِ حقاً. إنَّ أعضاءَ النقابة يمولونَ الجسرَ من خلالِ القروضِ ولكن رئيس الدير هو سيدُ المدينةِ، وهذا ما اتفقنا عليه منذُ البدايةِ».

استدارَ ميرثن نحو غودوين وقال: «هل لديكَ شيءٌ آخر لتقولهُ لي أيُّها السيد رئيس الديرِ؟» وانتظرَ ميرثن على أمل أن يبوحَ غودوين بمطالبهِ الحقيقيةِ.

ولكن غودوين قال ببرودٍ: «لا».

«طابَ مساؤكم إذاً».

انتظرَ لوهلةٍ ولكن لم يتحدث أحد، وعرفَ ميرثن من هذا الصمت الذي عمَّ المكان أنَّ الأمرَ محسومٌ.

غادرَ ميرثن الغرفةَ.

عندما أصبحَ خارجَ المبنى أخذَ نفساً عميقاً من هواءِ الليلِ البارِدِ. لم يكن قادراً على تصديقِ ما حدثَ للتو وأنّه لم يعد رئيس بنائي الجسرِ.

سارَ عبرَ الشوارعِ المظلمةِ فقد كانت الليلة صافيةً وسمحَ له ضوءُ النجومِ برؤيةِ طريقهِ. مرَّ بالقربِ من منزلِ إليزابيث إلّا أنّه لم يرغب بالتحدثِ إليها، وخارجَ منزلِ كاريس وقفَ متردداً ولكنه تجاوزهُ أيضاً وتوجهَ إلى ضفةِ النهرِ. كان قاربهُ الصغير مربوطاً قبالة جزيرة ليبر فصعدَ إليه وجدَّف بنفسهِ.

عندما وصلَ إلى المنزل تلكأ قليلاً في الخارجِ وهو يحدقُ إلى النجومِ ويكبح دموعهُ. لقد انتهى الأمرُ بفشلهِ في التفوق على غودوين الذي قلبَ موازين الأمور. كان قد استخفَّ بالمدى الذي سيذهبُ إليهِ رئيسُ الديرِ لمعاقبةِ معارضيه، واعتقدَ نفسهُ ذكياً إلا أنَّ غودوين كان أذكى منه، أو على الأقل أكثر قسوةً فقد كان مستعداً لتحطيمِ المدينةِ والديرِ إن كان هذا ما يتطلبه الانتقام على جرحِ كبريائهِ، ولهذا انتصرَ في النهايةِ.

دخلَ ميرثن إلى المنزلِ واستلقى على السرير وهو يشعرُ بالوحدةِ والهزيمةِ.

-38-

لم يُغمض لرالف جفنٌ طوالَ الليلةِ السابقةِ للمحاكمةِ.

كان قد رأى الكثيرَ من الناس يُعدمون ففي كلِ عامٍ يصعدُ عشرون أو ثلاثون رجلاً وبضعُ نساءٍ على عربةِ الشريف ويتوجهون من السجنِ في قلعةِ شايرنغ إلى ساحةِ السوقِ حيثُ تنتظرهم أعوادُ المشانق.

كان الحدث بحدِّ ذاتهِ عادياً ولكن أولئكَ الناس بقوا في ذاكرةِ رالف، وها هي ذكراهم الليلة تعود إليه لتعذبهُ.

كان بعضهم قد ماتَ بسرعةٍ بعد أن انقصفت رقابهم فوراً بفعل السقطةِ، ولكن الأغلبيةَ اختنقت ببطءٍ وهم يركلون بأرجلهم ويصارعون بأفواهٍ مفتوحةٍ وصرخاتٍ مخنوقةٍ. كانوا يتبولون ويتغوطون من الخوفِ، وتذكرَ رالف كيف

أنَّ امرأةً عجوزاً متهمةً بممارسةِ السحر عضَّت على لسانها عندما سقطت وبصقته وكيف تراجعَ الحشدُ حولَ أعوادِ المشانقِ إلى الوراءِ خوفاً من قطعةِ اللحمِ المدماةِ التي طارت في الهواءِ وحطَّت على الأرضِ الترابية.

قال الجميع لرالف إنَّه لن يُعدم إلَّا أنَّه لم يستطع منع نفسه من التفكيرِ في الأمرِ، وقالوا له أيضاً إنَّ الإيرل رولاند لن يسمح بإعدامِ أحدٍ من لورداتِهِ بسببِ تهمةٍ وجهها أحد الأقنانِ، ولكن الإيرل حتَّى الآن لم يفعل شيئاً لوضعِ حدٍ لهذا المصيرِ.

رفعت هيئةُ المحلفين الأولية قرارَ الاتهامِ بحقِ رالف إلى محكمةِ الصلحِ في شايرنغ. وكأيِّ هيئةِ محلفين كانت الهيئة مؤلفةً بشكلٍ رئيسي من فرسانِ المقاطعةِ وجميعهم يدينون بولائهم إلى الإيرل رولاند، ولكنهم وعلى الرغمِ من هذا أخذوا بالدليل الذي قدَّمهُ فلاحو ويغلي. لم يُبدِ رجال هيئةِ المحلفين -فلا يُسمح للنساء القيام بهذا العملِ- تردداً في مقاضاةِ رجلٍ من لدنهم بل بدا واضحاً من أسئلتهم أنَّهم يتقززون من فعلةِ رالف، ورفضَ العديد منهم مصافحتهُ بعدَ انتهاءِ المحاكمةِ.

خطط رالف لمنعِ آنيت من الشهادةِ ضدَّهُ مرَّةً أخرى في المحاكمةِ بأن يسجنها في ويغلي قبلَ مغادرتها إلى شايرنغ ولكنه عندما توجهَ إلى منزلها لمنعها من المغادرةِ اكتشفَ أنَّها غادرت. لا بدَّ أنَّها توقعت قيامهُ بهذا ولذلك غادرت باكراً كي تُحبطَ مخططهُ.

ستُقدم القضيةُ اليوم أمامَ هيئةِ محلفين جديدة ولكن، ولخيبةِ أملِ رالف، كان هناكَ أربعةُ رجالٍ على الأقل من هيئةِ المحلفين الأولية، وبما أنَّ الأدلة من كلا الطرفين لم تتغير لم يكن لديهِ أيُّ أملٍ بأن تحكم هذهِ الهيئة بقرارٍ مختلفٍ ما لم يكن هناكَ ضغطٌ من جهةٍ ما على المحلفين، ولكن قد يكون الوقتُ فاتَ على القيامِ بهذا.

نهضَ رالف فجراً ونزلَ إلى الطابقِ الأرضي من مبنى المحكمةِ في ساحةِ السوقِ في شايرنغ. عثرَ على فتى يكسرُ مرتجفاً الجليدَ في البئرِ في الحديقةِ الخلفيةِ فطلبَ منهُ أن يُحضرَ لهُ خبزاً وجعةً، ثمَّ عادَ إلى الغرفةِ العموميةِ وأيقظَ شقيقهُ ميرثن.

جلسا معاً في غرفةِ الجلوسِ الباردةِ التي ما زالت تفوحُ برائحةِ الجعةِ والنبيذِ من الليلةِ الماضية. قال رالف لميرثن: «أنا خائفٌ من أن يقوموا بإعدامي».

«وأنا كذلك»، قال ميرثن.

«لا أعرف ما الذي يتوجبُ عليَّ فعلهُ». أحضرَ الفتى كوبين من الجعةِ ونصفَ رغيفٍ من الخبزِ. أمسكَ رالف بكوبهِ بيدٍ ترتعشُ وتجرَّعَ منهُ جرعةً كبيرةً.

تناول ميرثن بعضَ الخبزِ دونَ شهيةٍ وهو عابسٌ وينظرُ من زاويةِ عينيهِ إلى الأعلى كما يفعل عندما يعملُ عقلهُ في أمرٍ ما. «الأمرُ الوحيدُ الذي يمكنني التفكير فيهِ هو محاولة إقناعِ آنيت بإسقاطِ التهمةِ وتسويةِ الأمرِ. ولكن عليكَ أن تقدمَ تعويضاً».

هزَّ رالف رأسهُ وقال: «لا يمكنها أن تتراجع. هذا غير ممكن لأنَّها لو فعلت هذا ستُعاقب».

«أعلم، ولكن قد تحاولُ تقديمَ دليلٍ ضعيفٍ وتتركَ مجالاً للشكِ. أعتقدُ أنَّ الأمورَ تسير على هذا النحوِ عادةً».

واشتعلَ الأملُ في قلبِ رالف الذي قال: «أتساءل إن كانت ستوافق».

أحضرَ الصبي حملاً من الحطبِ وركعَ بجانبِ المدفأة ليُشعلها.

قال ميرثن مفكراً: «ما هو المبلغ الذي يمكنكَ أن تدفعهُ لآنيت؟»

«لدي عشرون قطعةً نقدية فلورنسية». كان هذا المبلغُ يعادل ثلاثَ جنيهاتٍ من البنسات الفضيّة الإنكليزية[1].

مررَّ ميرثن يدهُ في شعرهِ الأصهب غير المرتَّب: «المبلغُ ليسَ كبيراً».

«المبلغُ كبيرٌ بالنسبةِ إلى فلاحةٍ، ولكن عائلة الفتاة غنية رغمَ أنهم من الفلاحين».

«ألا تُدرُّ عليكَ ويغلي مالاً كثيراً؟»

«اضطررتُ إلى شراءِ درعٍ. عندما تكون لورداً يجب عليكَ أن تكون مستعداً دوماً للذهابِ إلى الحربِ».

«يمكنني أن أقرضكَ المالَ».

«كم لديكَ من المال؟»

«ثلاثةَ عشرَ جنيهاً».

ولوهلةٍ ذُهلَ رالف من حجمِ المبلغِ ونسي مصابهُ: «كيفَ حصلتَ على كلِ هذا المال؟»

1- كان الجنيه آنذاك يعادلُ باونداً من قطعِ البنسِ الفضيّة. (المترجمة)

بدا ميرثن ممتعضاً بعضَ الشيء وقال: «أعملُ بجدٍ وأتلقى أجراً جيداً».
«ولكن طردوكَ من عملكِ كرئيسِ بنائي الجسرِ».
«هناك الكثير من العملِ لي، وأنا أؤجرُ الأرض على جزيرةِ ليبر».
بدا رالف ساخطاً وقال: «إذاً النجارُ أغنى من اللورد!»
«لحسنِ حظكَ أنَّ الأمور على هذا النحو. ما هو المبلغ الذي تريدهُ آنيت برأيكَ؟»

وتذكر رالف الآن أنَّ هناكَ مشكلةً أخرى فتراجعت معنوياتُهُ مجدداً: «المشكلة ليست معها بل مع ولفريك فهو قائدُ هذهِ الحملةِ».

«بالطبعِ»، قال ميرثنِ الذي قضى الكثيرَ من الوقت في ويغلي عندما كان يبني الطاحونةَ، وعلمَ أنَّ ولفريك تزوجَ من غويندا بعدَ أن رفضتهُ آنيت. «إذاً سأتحدثُ إليهِ».

لم يكن رالف مقتنعاً بأنَّ هذا الحديث سيأتي بأيِّ نتيجةٍ، ولكن لم يكن لديهِ أيُّ شيءٍ ليخسرَهُ إن حاول.

غادرَ الشقيقان وكان ضوءُ النهار الرمادي مثيراً للكآبةِ. أحكما عباءتهما حولَ كتفيهما إتقاءَ بردِ رياحِ شباط/ فبراير. عبرا ساحةَ السوقِ ودخلا إلى نزلِ بول حيث ينزلُ القادمون من ويغلي، وتوقعَ رالف أنَّ اللورد ويليام من غطّى تكاليف إقامتهم فقد كانَ لمساعدتهِ دورٌ أساسيٌّ في بدءِ كل هذا، ولكن لم يكن لدى رالف أدنى شكٍ بأنَّ عدوهُ الحقيقي لم يكن ويليام بل زوجتهُ الشهوانية والحاقدة فيليبا التي يبدو عليها أنَّها تكره رالف رغم أنَّه، أو ربما لأنَّه، يعتبرها مذهلةً ومثيرةً.

كان ولفريك صاحياً ووجداه يتناول العصيدةَ مع لحمِ الخنزيرِ المقدد. عندما لمحَ ولفريك رالف قادماً اربدَّ وجههُ ونهضَ عن كرسيهِ.

وضعَ رالف يدهُ على سيفهِ في استعدادٍ للقتالِ في أيِّ وقتٍ، ولكن ميرثن عاجلَ إلى التقدمِ ومدَّ يده أمامه في بادرةٍ ترحيبيةٍ. «أتيتُ كصديقٍ يا ولفريك»، قال ميرثن. «لا تغضب، أو سينتهي بكَ الأمرُ في المحكمةِ بدلاً من أخي».

بقي ولفريك واقفاً في مكانهِ ويداه على كلا جانبيهِ. خابَ ظنُ رالف، فقد كان القتالُ سيخفف من ضنكِ ترقبهِ.

بصقَ ولفريك قطعةً من اللحمِ المقددِ على الأرضِ ثمَ ابتلعَ ريقهُ وقال: «إن لم تكن تريدُ المتاعب فما هو غرضكَ؟»

«أن نصلَ إلى تسويةٍ. إنَّ رالف مستعدٌ لدفعِ عشرِ جنيهاتٍ لآنيت تعويضاً لها عمَّا فعلهُ بها».

بدا رالف مذهولاً من المبلغِ مجدداً ومن أنَّ ميرثن سيدفعُ معظمَ المبلغِ من دونِ أدنى ترددٍ.

قال ولفريك: «لا يمكن لآنيت أن تتراجعَ عن الاتهامِ. هذا غير مسموحٍ بهِ».

«ولكنها تستطيعُ تغييرَ دليلها. إن قالت إنَّها وافقت في البداية ثمَّ غيَّرت رأيها، ولكن هذا التغيير جاءَ متأخراً جداً فإنَّ المحكمةَ لن تُجرِّمَ رالف».

راقبَ رالف وجهَ ولفريك بعنايةٍ شديدةٍ وهو يبحثُ فيهِ عن بادرةِ موافقةٍ، ولكن تعابير وجهِ ولفريك بقيت جامدةً وقال: «إذاً، أنتَ تعرضُ رشوة للحنثِ باليمين؟»

بدأ اليأس يسيطر على رالف. بدا واضحاً أنَّ ولفريك لا يريد لآنيت أن تأخذَ الرشوة وأنَّ هدفهُ هو الانتقام وليسَ الحصول على تعويض. كان يريد إعداماً.

قال ميرثن بعقلانيةٍ: «أنا أعرضُ عليكَ عدالةً مختلفةً».

«أنتَ تحاولُ أن تنقذَ شقيقكَ من المشنقةِ».

«ألم تكن لتقومَ بالمثلِ؟ كان لديكَ أخٌ في وقتٍ مضى». تذكرَ رالف شقيقَ ولفريك الذي ماتَ مع والديهما عندَ انهيارِ الجسرِ. تابعَ ميرثن كلامهُ قائلاً: «ألم تكن لتنقذَ حياتهُ حتى وإن كنتَ تقترفُ خطأً؟»

بدا ولفريك مذهولاً من هذا الخطاب العاطفي؛ فلم يخطر ببالهِ أن يكون لرالف شقيقٌ يحبهُ، إلَّا أنَّ لحظةَ الذهولِ هذهِ لم تدم طويلاً وقال: «لم يكن شقيقي ديفيد ليفعلَ ما فعلهُ شقيقكَ».

«بالطبعِ»، قال ميرثن بلطفٍ. «ولكن لا تستطيعُ لومي على محاولتي إيجادَ طريقةٍ لإنقاذِ رالف خاصَّةً وإن لم يكن في هذا أيُّ ظلمٍ لآنيت».

نظرَ رالف بعينِ الإعجابِ إلى لطافةِ أسلوبِ أخيهِ في الحديثِ الذي كان كفيلاً بسحرِ عصفورٍ على شجرة.

ولكن إقناع ولفريك لم يكن بالأمرِ السهلِ. «يريدُ سكانُ القريةِ رحيلَ رالف فهم يخشون أن يكرّرَ فعلتهُ».

تجاهلَ ميرثن هذا التفصيل وقالَ: «ربما عليكَ طرحُ عرضنا على آنيت؛ فالقرارُ قرارها في النهايةِ».

بدا ولفريك غارقاً في التفكير: «ما الضمانةُ بأنكم ستدفعون لنا المال؟»

خفقَ قلبُ رالف من الفرحِ لأن ولفريك قد بدأ يلين.

أجابَ ميرثن قائلاً: «سنُعطي المالَ إلى كاريس وولر قبلَ بدءِ المحاكمةِ، وهي ستدفعُ لآنيت بعدَ تبرئةِ ساحةِ رالف. أنتَ تثقُ بكاريس ونحن نثقُ بها أيضاً».

أومأ ولفريك برأسهِ وقال: «كما قُلتَ إنَّ القرارَ قرارُها وسأطلعها على العرضِ». ثمَّ صعدَ إلى الطابقِ العلوي.

«لقد نجحتَ بتغييرِ رأيهِ»، قال رالف في إعجابٍ.

جلسا إلى الطاولة التي جلسَ إليها ولفريك قبلاً. سألهما ساقٍ إن كانا يريدان تناولَ الإفطارِ وكلاهما رفض. امتلأت غرفةُ الجلوسِ بالضيوفِ وجميعهم طلبوا اللحمَ والجبنة والجعةَ. كانت جميعُ الفنادقِ مكتظةً بالنزلاءِ القادمين لحضورِ المحاكمةِ. ومن دونِ عذرٍ جيدٍ يبررُ الغياب كان لزاماً على جميعِ فرسانِ المقاطعةِ أن يأتوا إضافةً إلى معظمِ كبارِ القومِ في المقاطعةِ: كبار رجالِ الدين والتجارِ الأثرياءِ وأيُّ شخصٍ يتجاوزُ دخلهُ السنوي الأربعين جنيهاً ولذلكَ أتى اللورد ويليام ورئيسُ الديرِ غودوين وإدموند وولر. كان جيرالد والدُ ميرثن ورالف من الزوارِ الدائمين قبلَ أن يفقدَ مكانتهُ، وعلى هؤلاء أن يعرضوا خدماتهم كمحلفين ويهتموا بأمورِ العملِ كدفعِ الضرائبِ أو انتخابِ عضو في البرلمان. وإضافةً إلى أولئكَ كانَ هناك مجموعةٌ من المتهمين والضحايا والشهود والكُفلاء. كانت المحاكماتُ مصدرَ رزقٍ وفير لفنادقِ المدينةِ.

أبقاهم ولفريك منتظرين. «ما الذي يتحدثون عنهُ في الأعلى برأيكَ؟» قال رالف.

قال ميرثن: «قد ترغبُ آنيت بأخذِ المالِ وسيوافقها والدهما على هذا، وربما يوافقُ زوجها بيلي هاورد أيضاً. ولكن ولفريك من النوعِ الذي يعتقدُ أنَّ قولَ الحقيقةِ أهمُّ من المالِ. ستدعمهُ زوجتهُ غويندا بدافعِ الولاءِ والأبُ غاسبارد سيفعلُ هذا مبدئياً، ولكن الأهم من هذا كلّه أنهم سيستشيرون اللورد ويليام، وهو سيفعلُ ما تشير عليهِ فيليبا بفعلهِ. إنَّها تكرهكَ لسببٍ ما، ولكن من جهةٍ أخرى عادةً ما تميلُ النساءُ إلى المصالحةِ وليسَ إلى المواجهةِ».

«ولكن الاحتمالات مفتوحةٌ».

«تماماً».

أنهى النزلاءُ في النُزلِ فطورهم وأخذوا يغادرون متوجهين عبرَ الساحةِ إلى المحكمةِ حيثُ ستُقامُ الجلسة التي بدأ يقتربُ موعدها.

وأخيراً ظهرَ ولفريك. «لقد رفضت»، قال بسرعةٍ وابتعدَ.

«مهلاً»، قال ميرثن.

لم يلتفت ولفريك واختفى مجدداً في الطابقِ العلوي.

أخذَ رالف يكيلُ السباب فقد كان يأملُ أن ينجو من العقوبةِ وها هو يعود ليكونَ تحتَ رحمةِ هيئةِ المحلفين.

سمعَ صوتَ جرسٍ يدوي ويرنُّ بقوةٍ خارجاً. كان نائب الشريف يستدعي جميعَ المعنيين بالقضيةِ إلى المحكمةِ. وقفَ ميرثن ولحقَ بهِ رالف على مضضٍ.

عادا إلى مبنى المحكمةِ ودخلا إلى غرفةٍ خلفيةٍ كبيرةٍ. في الزاويةِ القصيةِ من الغرفةِ استقرَّ مقعدُ القاضي على منصةٍ عاليةٍ. لم يكن مقعداً بالمعنى الحرفي بل كرسياً خشبياً محفوراً وأشبه بالعرشِ. لم يجلس القاضي فقد وقفَ موظفٌ قربَ طاولةٍ أمامَ المنصةِ يقرأ في لفافةِ ورقٍ. وإلى أحدِ جدرانِ المكان هناك مقعدان طويلان مخصصان لهيئةِ المحلفين وباستثنائهما لم يكن هناكَ أيُّ مقعدٍ في الغرفة ولهذا وقفَ الجميعُ حيثما شاؤوا. يحافظُ القاضي على الهدوءِ في قاعةِ المحكمةِ فهو يمتلكُ سلطةَ الحكمِ الفوري على أيِّ أحدٍ بتهمةِ إساءةِ التصرفِ، ولن يكون هناكَ من داعٍ عندها لمحاكمةِ هذا المتهم بجريمةٍ ما دامَ القاضي قد شهدَ على جرمهِ بنفسهِ. رأى رالف أن آلان فيرنهيل الواقف بقربهِ التزمَ الصمت والخوفُ بادٍ على وجههِ.

وبدأ رالف يفكر بأنَّه لم يكن على آلان القدوم أبداً إلى هنا، وأنَّه كان يستطيع التذرعَ بحجةٍ ما كالمرضِ أو اختلاطِ الموعدِ عليهِ أو تعرضِ حصانهِ إلى حادثٍ وهو في طريقهِ إلى المحكمةِ. ولكن هذا لن يفيدَ في شيءٍ سوى في تأجيلِ الأمرِ لأنَّ الشريف سيذهبُ مع قوةٍ مسلحةٍ لاعتقالهِ، وإن حاولَ التهرُّبَ منهم سيعلنونهُ خارجاً عن القانونِ.

ولكن سيبقى هذا أفضل من أن يُعدمَ، وتساءلَ رالف في نفسهِ إن كانَ سيهرب الآن، قد يضطرُ للقتالِ حتَّى يخرجَ من المكانِ ولكنه لن يستطيعَ الابتعادَ أكثر فنصفُ المدينةِ ستلاحقهُ، وإن لم ينجحوا في الإمساكِ بهِ سيلاحقهُ رجالُ الشريفِ على ظهورِ أحصنتهم، وسيُنظر إلى مقاومتهِ كدليلٍ على تورطهِ. ولكن بالنظرِ إلى الوضعِ الراهنِ فهو ما يزالُ يملكُ فرصةَ الحصولِ على حكمِ براءةٍ فقد تشعرُ آنيت بالخوفِ الشديدِ من تقديمِ الدليلِ بوضوحٍ، أو ربما لا يحضر أحدُ الشهودِ الرئيسين، أو قد يتدخلُ الإيرل رولاند في اللحظةِ الأخيرةِ.

امتلأت قاعةُ المحكمةِ. حضرت آنيت وسكانُ القريةِ واللورد ويليام والليدي فيليبا وإدموند وولر وكاريس ورئيسُ الدير غودوين ومساعدهُ الماكر فيليمون. ضربَ موظفُ المحكمةِ على الطاولةِ ليصمتَ الجميع، ومن بابٍ جانبي دخلَ القاضي السير غاي دي بوا وقد كان أحدَ المُلّاكِ الكبارِ في المنطقةِ. كان السير دي بوا رجلاً أصلع وسميناً، وهو رفيقُ سلاحٍ قديمٍ للإيرل وقد يصبُّ هذا في مصلحةِ رالف، ولكن من جهةٍ أخرى كان خالَ الليدي فيليبا وهذا يعني أنّها ربما تحدَّثت بالسوءِ عن رالف أمامهُ. كان وجههُ محمراً كأنّه تناولَ لحماً مملحاً وجعةً قويةً على الفطورِ. جلسَ القاضي وأطلقَ ريحاً بصوتٍ عالٍ ثمَّ تنهدَ في رضا وقال: «حسناً، فلنبدأ».

لم يكن الإيرل رولاند حاضراً.

كانت قضيةُ رالف أولى القضايا المعروضةِ على القاضي؛ فقد كانت القضية التي تهمُّ الجميع بمن فيهم القاضي. قُرئ الاتهام واستدعيت آنيت للشهادةِ.

وجدَ رالف صعوبةً غريبةً في التركيزِ. كان بالطبعِ قد سمعَ كلَّ هذا قبلاً إلّا أنَّ عليهِ اليوم أن يصغي جيداً لاكتشافِ أيِّ تضاربٍ في كلامِ آنيت أو عن أيِّ بادرةِ شكٍّ أو ترددٍ أو تلعثم. كان يشعرُ بأنَّ أمرهُ انتهى؛ فها هم أعداؤه أقوياء والإيرل رولاند، صديقهُ المتنفذ الوحيد، غائبٌ اليوم. لم يقف بجانبهِ سوى شقيقِهِ ميرثن الذي جرَّبَ للتو مساعدتهُ بأقصى إمكاناتِهِ وفشلَ. وشعرَ رالفِ بأنّه هالكٌ لا محالة.

ودخلَ الشهودُ: غويندا وولفريك وبيغ وغاسبارد. فكرَ رالف بأنّه كانَ يملكُ سلطةً مطلقةً على هؤلاءِ الناسِ إلا أنّهم وبطريقةٍ ما تغلبوا عليهِ. كان كبير المحلفين السير هيربرت مونتين أحدَ الرجال الذين رفضوا مصافحةَ رالف وطرحَ أسئلةً من شأنها أن تظهرَ روعَ جريمتهِ: هل كان الألمُ شديداً؟ كم من الدمِ نزفتِ؟ هل كنتِ تبكين؟

عندما حانَ دورُ رالف ليتحدث روى القصةَ التي لم تصدقها هيئة المحلفين، وتحدَّثَ بصوتٍ واطئٍ ومتلعثم. أبلى آلان فيرنهيل بشكلٍ أفضلٍ، وقال بكلِّ ثباتٍ إنَّ آنيت كانت تتوقُ إلى النومِ مع رالف وأنَّ العاشقين طلبا منهُ الابتعادَ عن المكان حتى يتمتعا بممارسةِ علاقةٍ حميمةٍ قربَ الجدولِ، ولكن هيئةَ المحلفين لم تصدقهُ وعرفَ رالف هذا من النظرِ إلى وجوههم، ولذلكَ بدأ يشعرُ بالسقمِ من مجرياتِ الأمورِ وتمنى أن ينتهي الأمر ويحددوا مصيرهُ.

وعندما ابتعدَ آلان انتبهَ رالف إلى أحدهم يقفُ قربهُ ويقولُ لهُ بصوتٍ واطئ: «أصغِ إليّ».

نظرَ رالف خلفهُ ورأى سكرتيرَ الإيرل الأب جيروم، وخطرَ ببالِهِ أنَّ محكمةً كهذهِ لا تملكُ سلطةً على الكهنةِ حتَّى وإن ارتكبوا جرائم.

التفتَ القاضي إلى هيئةِ المحلفين وطلبَ منهم حكمهم على القضيةِ.

ودمدمَ الأب جيروم: «إنَ حصانكَ بانتظاركَ خارجاً وهو جاهزٌ للانطلاقِ».

تجمَّدَ رالف في مكانِهِ وتساءل في نفسِهِ إن كان ما سمعهُ صحيحاً ولذلكَ التفتَ إلى الوراءِ وقال: «ماذا؟»

«اهرب؟»

نظرَ رالف وراءَ الأبِ جيروم ورأى مئةَ رجلٍ يسدون الطريقَ أمامهُ والعديد منهم مسلحون وقال: «هذا غيرُ ممكن».

«استخدم البابَ الجانبي»، قال جيروم وهو يشير برأسِهِ بحركةٍ غير واضحةٍ إلى المدخلِ الذي دخلَ منهُ القاضي. رأى رالف على الفورِ أنَّ سكانَ قرية ويغلي فقط من يقفون عائقاً بينهُ وبينَ الباب الجانبي.

وقفَ كبير المحلفين السير هيربرت وهو يبدو معتداً بنفسِهِ.

التقت عينا رالف بعيني آلان فيرنهيل الواقف بجانبِهِ. كان آلان قد سمعَ كل شيءٍ وبدا عليه الترقب.

«غادر الآن!» همسَ جيروم.

وضعَ رالف يدهُ على سيفِهِ.

«إننا نجدُ اللورد رالف من ويغلي مذنباً بتهمةِ الاغتصاب»، قال كبير المحلفين.

سحبَ رالف سيفهُ ولوح بهِ في الهواءِ ثمَّ انطلقَ باتجاهِ البابِ.

حلَّ صمتٌ ذاهلٌ في المكانِ ثمَّ صرخَ الجميعُ معاً، ولكن رالف كان الرجلَ الوحيدَ في القاعةِ الذي يحملُ سلاحاً في يدِهِ، وعلمَ أنَّ الآخرين سيأخذون دقيقةً على الأقلِّ لاستلالِ أسلحتهم.

كان ولفريك الوحيدَ الذي حاولَ إيقافهما، وقد اندفعَ بلا تفكيرٍ وبكلِّ تصميمٍ ومن دونِ خوفٍ. رفعَ رالف سيفهُ وهوى بكل قوتِهِ على جمجمةِ ولفريك بقصدِ قطعها إلى نصفين، ولكن ولفريك تراجعَ إلى الوراء بشكلٍ جانبي ولم يصبهُ السيفُ سوى في الجانبِ الأيسرِ في وجههِ مسبباً له جرحاً امتدَّ

من الصدغِ إلى الفكِ. صرخَ ولفريك من الألمِ المفاجئِ ووضعَ يديهِ على خدهِ وعندها تجاوزهُ رالف.

فتحَ رالف البابَ على مصراعيهِ وخرجَ ثمَّ استدارَ. اندفعَ وراءهُ آلان فيرنهيل بأقصى سرعةٍ. كان كبيرُ المحلفين وراءَ آلان وقد أشهرَ سيفهُ. شعرَ رالف بلحظةٍ من البهجةِ الصرفةِ؛ فهذهِ هي الطريقةُ التي يجب أن تسوى بها الأمور: بالقتالِ وليسَ بالنقاشِ، بالربحِ أو بالخسارةِ، وبالنسبةِ له كانت هذهِ الطريقةُ المثلى.

صرخَ رالف في ابتهاجٍ ثمَّ اندفعَ وعاجلَ السير هيربرت بسيفهِ. لامست نهايةُ السيفِ صدرَ كبير المحلفين ومزقت سترتهُ الجلدية ولكن الرجل كان بعيداً ولهذا لم تخترق الضربةُ أضلعهُ بل جلدهُ، ولكن هيربرت صرخَ عالياً من الخوفِ أكثر مما كان من الألمِ، وترنّح مصطدماً بمن كانوا وراءهُ. خرجَ رالف وأغلقَ البابَ بقوةٍ على من كانوا في الداخلِ.

وجدَ رالف نفسهُ في ممرٍ بطولِ المبنى وبابٍ يُفضي إلى ساحةِ السوقِ وبابٍ آخر يفضي إلى الإسطبل، وتساءل في نفسه عن مكانِ الجيادِ. لم يخبرهُ جيروم بشيءٍ سوى أنّها بانتظارهِ. ركضَ آلان باتجاهِ البابِ الخلفي ولحقَ بهِ رالف. وعندما أصبحا في الحديقةِ الخلفيةِ حيثُ الإسطبل سمعا هرجاً ومرجاً وعلمَ رالف أنَّ باب قاعةِ المحكمةِ قد فُتحَ وأنَّ الحشدَ يطاردهُ.

لم يشاهدا الجياد في الحديقةِ الخلفيةِ.

ركضَ رالف تحتَ ممرٍ مُقنطرٍ يُفضي إلى واجهةِ المبنى.

وهناكَ رأى رالف المشهدَ الأحبَّ إلى قلبهِ في العالم. كان حصانهُ غريف مسرجاً ويضرب الأرضَ بحافريه إلى جانبِ حصانِ آلان فليتش البالغ من العمرِ عامين وقد أمسكَ بهما صبي إسطبلٍ حافي القدمين وفمهُ ممتلئ بالخبزِ.

أمسكَ رالف بلجامِ جوادهِ وامتطاه، وفعلَ آلان الأمرَ عينه. همزا حصانيهما بينما كان الحشدُ يخرجُ من مبنى المحكمةِ في إثرهما. ابتعدَ صبي الإسطبلِ عن طريقهما مرعوباً، واندفعَ الحصانان بعيداً.

رمى أحدٌ ما من الحشدِ سكيناً إلا أنّها غرزت في خاصرةِ غريف بعمقِ ربعِ إنشٍ ثمَّ وقعت ولم تفعل شيئاً سوى أنّها حثّت الحصان على المضي.

اندفعا بسرعةٍ عبرَ الشوارعِ وابتعدَ سكانُ المدينةِ رجالاً ونساءً وأطفالاً وماشيةً من طريقهما. اندفعا باتجاهِ البوابةِ عندَ السورِ القديم وعبرا ضاحيةً من المنازلِ بحدائق وبساتين. نظرَ رالف خلفهُ، ولم يرَ أحداً في إثرهِ.

بالطبعِ سيلاحقهُ رجالُ الشريفِ ولكن عليهم أولاً أن يجهزوا أحصنتهم، وها هو رالف وآلان قد ابتعدا لميلٍ عن ساحةِ السوقِ دونَ أن يظهرَ على مطيتهما علائمُ تعبٍ. شعرَ رالف بفرحٍ غامرٍ. قبلَ خمسِ دقائق من الآن كان يُجهزُ نفسه لفكرةِ إعدامِهِ، وها هو الآن حرٌّ طليقٌ!

تفرَّعَ الطريقُ أمامهما ولهذا اختارا بشكلٍ عشوائي. التفتَ رالف يساراً ورأى عبرَ الحقولِ وعلى بُعدِ ميلٍ الغابةَ. عندما يصلُ إلى هناك سيبتعدُ عن الطريق ويختفي.

ولكن ما الذي سيفعلهُ بعد هذا؟

-39-

«تصرُّفُ الإيرل رولاند ينمُّ عن ذكاءٍ»، قال ميرثن لإليزابيث كلرك. «لقد تركَ مسارَ العدالةِ يأخذُ مجراه حتَّى النهايةِ تقريباً. لم يقمِ برشوةِ القضاةِ، أو يمارس نفوذهُ على هيئةِ المحلفين، أو يهدد الشهود، وتجنَّب الجدالَ مع ابنِ اللورد ويليام. لقد احتفظ بماءِ وجههِ وجنب نفسه حرجَ رؤيةِ أحدِ رجالهِ يُعدم».

«أينَ شقيقكَ الآن؟» قالت إليزابيث.

«ليسَ لدي أدنى فكرة. لم أتحدث إليهِ أو أراه مُذَّاك».

كانا جالسين في مطبخِ منزلِ إليزابيث بعدَ ظهيرة أحدٍ. حضَّرت إليزابيث له عشاءً مكوناً من لحمٍ مسلوقٍ مع يخنةِ التفاحِ وخضراواتٍ شتويةٍ وإبريقاً صغيراً من النبيذِ اشترتهُ والدتها، أو ربما سرقتهُ من النزلِ الذي تعملُ فيهِ.

سألت إليزابيث: «ما الذي سيحدثُ الآن؟»

«سيظلُ حكمُ الإعدامِ سيفاً مُصلتاً فوقَ رقبتهِ. لا يمكنهُ العودةُ إلى ويغلي أو القدوم إلى كينغزبريدج دونَ المجازفةِ بالتعرّضِ للاعتقالِ. وهو الآن، بوضعهِ الراهن، أصبحَ خارجاً عن القانونِ.

«هل هناكَ ما يمكنهُ القيام بهِ لتغيير هذا؟»

«يمكنهُ أن يحصلَ على عفوٍ من الملكِ، ولكن هذا سيُكلفُ ثروةً أكبر بكثير مما قد نجنيهِ أنا وهو».

«وما هو شعوركَ نحوه؟»

بوغتَ ميرثن بهذا السؤال. «حسناً. إنَّه يستحقُ العقابَ على ما فعلهُ دونَ أدنى شكٍ، ولكن لا يمكن أن أتمنى له هذا. أتمنى أن يكونَ بخيرٍ أينما كان».

كان ميرثن قد روى قصةَ محاكمةِ رالف كثيراً خلالَ الأيامِ القليلةِ الماضيةِ، ولكن إليزابيث طرحت عليهِ أسئلةً ذكيةً. كانت فتاةً فطنةً وعطوفةً، وفكَّر بأنَّ قضاءَ بعدَ ظهرِ كلِّ أحدٍ بهذهِ الطريقةِ لن يكون بالأمرِ السيىء.

كانت سيري والدةُ إليزابيث نائمةً قربَ الموقدِ كما هي العادة إلَّا أنَّها فتحت عينيها الآن وقالت: «رباه! لقد نسيتُ الفطيرةَ».

نهضت سيري وهي ترتبُ شعرها الرمادي: «وعدتُ نقابةَ الدباغين بأنني سأطلبُ من بيتي باكستر إعدادَ فطيرةٍ باللحمِ والبيضِ. إنهم يقيمون عشاء الأحد السابق للصومِ الكبيرِ في نزلِ بيل غداً». ثمَّ لفت كتفيها ببطانيةٍ وخرجت.

لم يكن بقاؤهما وحدهما أمراً عادياً ولذلكَ شعرَ ميرثن ببعضِ الإرباكِ على عكسِ إليزابيث التي بدت مسترخيةً. قالت له: «ما الذي ستفعلهُ الآن بعدَ أن توقفتَ عن العملِ على الجسرِ؟»

«سأبني منزلاً لصانعِ الجعةِ ديك بروير إضافةً إلى مشاريعَ أخرى. إنَّ ديك على وشكِ التقاعدِ وتسليم ابنهِ شؤونَ العملِ، ولكنه يقولُ إنَّه لن يستطيعَ التوقفَ عن العملِ إن استمرَّ بالعيشِ في مصنعِ كوبر للجعةِ ولهذا يريدُ منزلاً بحديقةٍ خارجَ أسوارِ المدينةِ القديمةِ».

«أوه، هل هذا الموقع خارجَ ضاحيةِ لوفرزفيلد؟»

«أجل، سيكونُ أكبرَ منزلٍ في كينغزبريدج».

«لا يعاني صانعو الجعة من الفاقةِ».

«هل تريدين رؤيته؟»

«أتقصد الموقع؟»

«أعني المنزل. إنَّ العملَ عليهِ لم ينتهِ بعد ولكنه يبدو كمنزلٍ».

«الآن؟»

«ما زال لدينا ساعةٌ من ضوءِ النهارِ».

أبدت إليزابيث تردداً كأنَّ لديها مخططاً آخر ولكنها قالت: «أحبُّ أن أراه».

ارتديا عباءتين ثقيلتين بقلنسوتين وغادرا. كان أولَ يومٍ من أيامِ شهر آذار/ مارس ولذلكَ كان هناكَ رياحٌ ثلجية تعصفُ على طولِ الشارعِ الرئيسي. أخذا العبَّارةَ وتوجها إلى الضواحي.

بدَت المدينةُ كأنَّها تكبرُ قليلاً كلَّ عامٍ رغمَ الصعابِ التي تمرُّ بها تجارةُ

الصوف. كان الدير أيضاً يتوسعُ في بناءِ المنازلِ المخصصةِ للإيجارِ في المرعى والبساتين التابعةِ لهُ. وتكهنَ ميرثن بأنَّ خمسين منزلاً قد بُني منذُ وصولهِ إلى كينغزبريدج عندما كان صبياً في الثانية عشرة.

كان منزلُ ديك بروير الحالي مؤلفاً من طابقين وبعيداً عن الطريقِ الرئيسي. لم يكن له نوافذ أو أبواب ولهذا غُطيت فتحاتها في الجدران مؤقتاً بحواجز وسُدَّت الأطر الخشبيةِ بحزمٍ من القصبِ المجدولِ. كان المدخلُ الأمامي مُغلقاً ولكن ميرثن أخذَ إليزابيث إلى الخلفِ حيث بابٌ خشبي مؤقتٌ ومزود بقفلٍ.

جلسَ جيمي مساعد ميرثن الذي يبلغُ الآن السادسةَ عشرة في المطبخِ يحرسُ المكانَ من اللصوصِ. كان جيمي فتىً مُتطيراً يقفزُ في مكانهِ ويرمي الملحَ من فوقِ كتفيهِ لطردِ الأرواحِ. وجداه جالساً على مقعدٍ قربَ نارٍ عظيمةٍ وقد بدا قلقاً. «مرحبا يا معلم»، قال جيمي. «بما أنَّكَ أتيتَ هل أستطيعُ الذهابَ لتناولِ العشاءِ؟ من المفترض أن يحضر تيرنر العشاءَ ولكنه لم يأتِ».

«اذهب ولتعد قبلَ أن يحلَّ الظلام».

«شكراً لكَ»، وهرعَ جيمي خارجاً.

عبرَ ميرثن الردهةَ إلى داخلِ المنزلِ. «أربعُ غرفٍ أرضيةٍ»، قال وهو يعرضُ الغرفَ على إليزابيث.

وقالت إليزابيث في ارتيابٍ: «ولمَ يحتاجون إلى كل هذهِ الغرفِ؟»

«المطبخُ وغرفةُ الجلوسِ وغرفةُ تناولِ الطعامِ والقاعةُ الرئيسية». لم يكن الدَّرجُ قد بُني بعد، ولكن ميرثن صعدَ سلماً إلى الطابقِ العلوي ولحقت بهِ إليزابيث. «أربعُ غرفِ نومٍ»، قال لها ميرثن عندما وصلت إلى الطابق الثاني.

«من سيعيشُ هنا؟»

«ديك وزوجتهُ وابنه داني وزوجتهُ وابنتهما التي حتماً لن تبقى عازبةً إلى نهايةِ حياتها».

عاشت معظمُ عائلاتِ كينغزبريدج في منازل بغرفةٍ واحدةٍ حيثُ نامَ الجميعُ على الأرضيةِ جنباً إلى جنبٍ: الآباءُ والأطفال والأجداد والأقرباء. قالت إليزابيث: «في هذا المنزل غرفٌ أكثر مما في قصرٍ!»

كان كلامُها صحيحاً. عادةً ما يعيشُ نبيلٌ مع حاشيةٍ كبيرةٍ في منزلٍ بغرفتين؛ غرفةُ نومٍ له ولزوجتهِ وقاعةٌ كبيرةٌ للبقيةِ، ولكن ميرثن قد صممَ العديدَ من

المنازلِ لتجارِ كينغزبريدج الأثرياء ولذلكَ كانت الرفاهيةُ التي تاقوا إليها هي رفاهية الخصوصيةِ. وفكرَ ميرثن في نفسهِ بأنَّ هذهِ الرفاهية قد تحولت إلى موضةٍ دارجةٍ بين الناسِ.

«أعتقدُ أنَّ النوافذَ ستكون زجاجية»، قال إليزابيث.

«أجل». كانت النوافذُ الزجاجيةُ تقليعةً جديدةً أيضاً. يتذكرُ ميرثن الوقت الذي لم يكن في كينغزبريدج صانع نوافذ زجاجية بل مجرَّد صانعٍ متجولٍ يأتي مرَّةً أو مرتين سنوياً. ولكن ها هي المدينة قد كبرت وأصبحَ لديها صانعُ نوافذ زجاجية دائم.

عادا إلى الطابقِ الأرضي. جلست إليزابيث على مقعدِ جيمي قبالةَ النارِ وأدفأت يديها، وجلسَ ميرثن إلى جانبها قائلاً: «في يومٍ من الأيام سأبني منزلاً لي كهذا المنزلِ مع حديقةٍ كبيرةٍ وأشجار فواكه».

تفاجأ ميرثن بإليزابيث تريحُ رأسها على كتفهِ وتقول: «يا لهُ من حلمٍ جميلٍ!»

حدَّقا إلى النارِ. شعرَ ميرثن بشعرِها يدغدغُ وجنتهُ، وبعد برهةٍ وضعَت يدها على ركبتهِ. ووسطَ الهدوءِ الذي عمَّ المكانَ كان بمقدورهِ سماعُ صوت تنفسها وتنفسهِ وطقطقة الحطبِ المحترقِ.

«ومن سيكون معكَ في منزلِ أحلامكَ؟» سألتهُ.

«لا أعلم».

«هذا ما يقولهُ جميع الرجال. لا أتخيلُ منزلي من دونِ أشخاصٍ: زوجٌ وبضعةُ أطفالٍ وأمي ووالدا زوجي العجوزان وثلاثُ خدمٍ».

«أحلامُ الرجالِ والنساءِ مختلفةٌ».

رفعت رأسها ونظرت إليه ثمَّ لامست وجهه وقالت: «وعندما تضعهم جميعاً معاً تحصلُ على حياةٍ». ثمَّ قبّلتهُ على فمهِ.

أغلقَ ميرثن عينيهِ وتذّكرَ ملمسَ شفتيها الناعم عندما قبَّلها منذُ سنواتٍ. لبثت بشفتيها على شفتيهِ لبرهةٍ ثمَّ ابتعدت.

استغربَ ميرثن من شعورِ اللامبالاةِ الذي انتابهُ كأنّه كان يراقبُ نفسهُ من زاويةِ الغرفةِ. لم يفهم ماهيةَ شعورهِ، ونظرَ إليها ليتمعن مجدداً بمدى جمالها. تساءلَ في نفسها عمَّا يجعلها ساحرةً، وأدركَ على الفورِ أنَّ كلَّ شيءٍ فيها متناغمٌ كتفاصيلِ كنيسةٍ جميلةٍ. كان فمها وذقنها وعظمُ فكيها وجبهتها في أبهى تصويرٍ وكما سيرسمها تماماً لو كانَ ربّاً يخلق امرأةً.

نظرَت إليهِ بعينيها الزرقاوين الهادئتين وقالت: «فلتلمسني»، ثمَّ حلَّت عباءتها.

أمسكَ ثدييها بلطفٍ بينَ يديهِ، وتذكرَ أنَه فعلَ هذا معها قبلاً. كان ثدياها مكتنزين رغمَ أنّهما صغيران ويكادان يتلصقان بصدرها، وشعرَ بحلمتي صدرها تقسوان فجأةً بينَ أصابعهِ وتخونان سمتهما الطيّعة.

«أريدُ أن أكونَ في منزلِ أحلامكَ»، قالت لهُ وقبَّلتهُ مجدداً.

لم يكن تصرفها عفوياً فإليزابيث لم تكن كذلك. لا بدَّ أنّها فكرت بالأمرِ عندما كان يزورها أحياناً ويستمتع بصحبتها من دونِ أن يفكرَ هو بأبعد مما كانا يعيشانهِ في تلك اللحظةِ. وحتماً كانت تتخيلُ حياتهما معاً، بل قد تكون قد خططت لهذا المشهدِ، وهذا بدورهِ يفسرُ سببَ مغادرةِ والدتها بحجةِ الفطيرةِ. لقد أفسدَ مخططها باقتراحِ عرضِ منزلِ ديك بروير عليها إلّا أنّها ارتجلت.

لم يكن هناكَ ما يعيبُ هذه الطريقة غير العاطفية. إنّها شخصٌ عقلاني، وأحبَّ هذهِ السمة فيها؛ فهو يعلمُ أنَّ المشاعر كانت تحترقُ تحتَ ظاهرها.

ولكنّ هناكَ خطأً ما في هذا وهو غيابُ المشاعرِ. لم يكن ميرثن شخصاً عقلانياً جداً مع النساءِ بل على العكسِ تماماً؛ فعندما يُغرم يتملكهُ العشقُ ويثيرُ فيهِ مشاعر الغضب والاستياء تماماً كما يثيرُ فيهِ الشهوة والرقة. إنَّه الآن يشعرُ بالاهتمامِ وبالإطراءِ وبالمتعةِ ولكن من دونِ فقدانِ السيطرة على نفسهِ.

شعرت إليزابيث بقبلةِ ميرثن فاترةً ولهذا تراجعت، ورأى وجهها يكتسي بطيفِ شعورٍ ما إلا أنّه مكبوحٌ بعنفٍ وقد علمَ أنَّ وراءَ القناعِ خوفاً. كانت رزينةً جداً بطبيعتها ولا بدَّ أنَّ التصرفَ على هذا النحو قد كلفها الكثير فقد كانت تهابُ الرفضَ.

وقفت وابتعدت عنه ثمَّ رفعت فستانها. كانت ساقاها طويلتين ورشيقتين بشعرٍ أشقر ناعمٍ بالكادِ يُرى. ورغمَ أنّها كانت طويلةً ونحيلةً فإنَّ جسدها عند الوركين يميلُ بشكلٍ أنثوي جميلٍ. ورغماً عنه استقرَّتْ نظرتهُ على عانتها. كانَ الشعرُ هناكَ أشقر جداً يشفُّ عن شفرين بالكادِ يبرزان وفالقٍ رقيقٍ بينهما.

رفعَ نظرهُ إلى وجهها وقرأ اليأسَ على محيّاها؛ لقد جرَّبت كلَّ شيءٍ ورأت أنَّ هذا لم يُجدِ نفعاً.

قال ميرثن: «أنا آسف».

أفلتت أطرافَ فستانها.

«اسمعي»، قال لها. «أعتقدُ...»

قاطعتهُ قائلةً: «لا تتحدث». وقد بدأت رغبتها تتحولُ إلى غضبٍ. «فأيُّ شيءٍ ستتفوهُ بهِ سيكون كذبةً».

إنَّها على حقٍ. كان يحاول اختراع كذبةٍ بيضاء لتهدئتها كأن يقول لها إنَّه يشعرُ بالتوعكِ، أو إنَّ جيمي قد يعود في أيِّ لحظةٍ. لم تكن تريدهُ أن يجبرَ خاطرها. لقد تعرضت للرفضِ وأيُّ عذرٍ واهٍ كفيلٌ بأنَّ يزيدَ الطينَ بلةً ويُشعرها بأنَّه يتفضَّلُ عليها.

حدَّقت بهِ وعلا مزيجٌ من الحزنِ والغضبِ وجهها الجميل. انحدرت دموعُ القهرِ من مقلتيها وصرخت قائلة: «ولِم لا؟» ولكنه عندما فتحَ فمهُ ليجيبها تابعت: «لا تُجب! ستكذبُ». وقد أصابت في ما قالتهُ مجدداً.

استدارت لتغادرَ المكان ثمَّ التفتت مجدداً. «السببُ كاريس»، قالت وبدا واضحاً على وجهها أنَّها تكبحُ شعوراً ما. «لقد سحرتكَ تلكَ المشعوذة. لا تستطيع الزواجَ منها ولا يسعكَ الزواجُ بامرأةٍ أخرى. إنَّها شريرةٌ».

وأخيراً، فتحت البابَ على مصراعيه ومن ثمَّ خرجت. سمعَها تشهقُ لمرةٍ واحدةٍ ثمَّ اختفت.

حدَّقَ ميرثن إلى النارِ وقال: «اللعنة!»

***

«أريدُ أن أوضحَ أمراً»، قال ميرثن لإدموند بعدَ أسبوعٍ وهما يهمَّان بمغادرةِ الكاتدرائية.

علت وجهَ إدموند نظرةٌ يعرفها ميرثن جيداً وتشي باستمتاعٍ هادئٍ كأنَّه يقول: «أنا أكبرُ منكَ بثلاثين عاماً ولهذا أنتَ من يجب أن يصغي ويأخذ الدروس مني، ولكن حماسك الشبابي يُمتعني. علاوةً على هذا، أنا لست طاعناً في السنِ إلى الدرجةِ التي تمنعني من تعلمِ شيءٍ جديدٍ».

«حسناً»، قال إدموند. «ولكن فلتشرح الأمرَ في حانةِ بيل. أريد تناول كأسٍ من النبيذ».

دخلا إلى الحانةِ وجلسا قربَ نارِ الموقدِ. أحضرت لهما والدةُ إليزابيث النبيذ، ولكنها رمقتهما بنظرةِ ازدراءٍ ولم تتحدث إليهما. قال إدموند: «هل سيري غاضبةٌ منك أم مني؟»

«لا تُلقِ بالاً»، قال ميرثن. «هل جرَّبتَ الوقوفَ على شاطئِ المحيطِ بقدمين حافيتين في الرملِ وشعرتَ بالبحرِ يغمرُ أصابعكَ؟»

«بالطبعِ، جميع الأطفالِ يحبون اللعبَ في المياه، وحتّى أنا كنتُ صبياً صغيراً في وقتٍ ما».

«هل تتذكرُ حركةَ الأمواجِ جيئةً وذهاباً وكيفَ كانت تسحبُ الرملَ من تحت قدميكَ لتخلّفَ وراءها ما يشبه قناة صغيرة؟»

«أجل. رغمَ أنَّ هذا حدثَ منذُ وقتٍ طويلٍ إلّا أنني أفهمُ ما تعنيهِ».

«هذا ما حدثَ للجسرِ الخشبي القديم. كانت حركةُ النهرِ تجرفُ التربةَ تحتَ الدعامةِ المركزيةِ».

«كيفَ عرفتَ هذا؟»

«من الصدوع على الجسرِ قبلَ انهيارهِ».

«ماذا تقصدُ بهذا الكلامِ؟»

«النهرُ لم يتغير، وهو سيقوضُ الجسرَ الجديدَ تماماً كما فعلَ بالجسرِ القديمِ ما لم نضع حداً لهذا».

«وكيف يمكننا فعلُ هذا؟»

«وفقاً للتصميمِ الذي وضعته هناكَ كومةٌ من الحجارةِ الكبيرةِ المحيطةِ بكلِّ دعامة في الجسرِ الجديدِ من شأنها كسر التيار والتخفيف من تأثيرهِ. إنَّ الفرقَ الذي سيحدثهُ أشبه بالفرقِ بينَ أن يدغدغك أحدٌ بخيطٍ وأن تتعرضَ للجلدِ بحبلٍ متينٍ».

«كيف علمتَ بهذا؟»

«لقد سألتُ بونافينتورا عن الأمرِ بعدَ انهيارِ الجسر مباشرةً وقبلَ عودتهِ إلى لندن. قالَ لي إنَّه رأى أكواماً من الحجارةِ حول دعائم الجسورِ في إيطاليا، وإنّه لطالما تساءل عن سبب وجودها».

«هذا مذهلٌ. هل تخبرني بهذا بهدفِ إطلاعي على معلومةٍ جديدةٍ أم لديكَ غايةٌ معينةٌ؟»

«الناسُ من أمثالِ غودوين وإلفريك لا يفهمون هذا، ولن يُصغوا إلي إن أخبرتهم بهِ. في حال أصرَّ إلفريك في عنادٍ على عدمِ اتباعِ التصميم الذي وضعتهُ بدقةٍ، أريد أن يعرفَ أحدٌ في البلدةِ سببَ وجودِ هذهِ الأكوامِ الحجريةِ».

«ولكن هذا الشخصُ موجودٌ؛ إنَّه أنتَ».

«سأغادرُ كينغزبريدج».

بدا إدموند مصعوقاً وقال: «ستغادر؟ أنتَ؟»

وفي تلكَ اللحظةِ وصلت كاريس وقالت لوالدها: «لا تُطِل المكوثَ هنا. إنَّ العمة بيترانيلا تُحضرُ العشاءَ. ألا تريدُ الانضمامَ إلينا يا ميرثن؟»

قال إدموند: «سيغادرُ ميرثن كينغزبريدج».

وشحبَ وجهُ كاريس.

عندما رأى ميرثن ردَّ فعلها غمرهُ شعورٌ بالرضا. لقد رفضتهُ وها هي الآن تشعرُ بالأسى لسماعها خبرَ رحيلهِ. ولكن سرعان ما شعرَ بالخجلِ من نفسه على هذا الشعورِ الخسيسِ بالرضا. كان يحبها حبّاً جماً ولا يحتملُ رؤيتها تتعذب، إلّا أنّه كان سيشعرُ على نحوٍ أسوأ لو أنها تلقّت الخبرَ برزانةٍ.

«لماذا؟» سألته كاريس.

«لم يعد لدي ما يبقيني هنا. فما الذي سأبنيه؟ لا يمكنني العملُ على الجسرِ، والمدينةُ ليست بحاجةٍ إلى كاتدرائية فهي تملكُ واحدةً. لا أريدُ أن أقضي عمري في بناءِ منازلَ للتجارِ الأثرياءِ».

وبصوتٍ هادئ قالت له: «إلى أين ستذهب؟»

«إلى فلورنسا فلطالما رغبتُ برؤيةِ المباني في إيطاليا. سأطلبُ من بونافينتورا كارولي رسائل توصية، وقد أتمكن من السفرِ مع إحدى شحناتهِ إلى هناكَ».

«ولكن لديكَ ممتلكات هنا في كينغزبريدج».

«أردتُ محادثتك بهذا الشأن. هلّا قمتِ بإدارةِ ممتلكاتي في غيابي؟ يمكنكِ جمعُ الإيجاراتِ وأخذُ عمولةٍ وإعطاء الحسابِ إلى بونافينتورا، وهو بدورهِ سيوصلُ المالَ إلى فلورنسا برسالةٍ».

«لا أريدُ عمولةً لعينةً»، قالت بعبوسٍ.

هزَّ ميرثن كتفيهِ وقال: «ولكنّه عملٌ ويجب أن تتقاضي المالَ لقاءَهُ».

«كيف يمكنكَ التصرف ببرودةٍ حيالَ هذا؟» قالت له في صوتٍ أقرب للصراخِ دفعَ بالعديد من الجالسين في قاعةِ الحانةِ إلى التحديق فيها، ولكن كاريس لم تنتبه إليهم وقالت: «ستغادر وتترك أصدقاءكَ».

«أنا لا أتصرفُ ببرودٍ. إنَّ الأصدقاءَ رائعون، ولكنني أرغبُ بالزواجِ».

وهنا تدخّل إدموند قائلاً: «هناكَ الكثيرُ من الفتيات في كينغزبريدج يحلمن بالزواجِ منكَ. قد لا تكونُ وسيماً ولكنكَ مقتدرٌ وهذا أهمُّ بكثيرٍ من الوسامةِ».

ابتسمَ ميرثن ابتسامةً جانبيةً. يُمكن لإدموند أن يكونَ صريحاً بشكلٍ لاذعٍ، وقد ورثت عنهُ كاريس هذهِ السمة. «اعتقدتُ لوهلةٍ بأنني سأتزوجُ من إليزابيث كلرك».

قال إدموند: «وأنا كذلك».

«إنَّها باردةٌ»، قالت كاريس.

«لا، إنَّها ليست كذلك. وعندما طلبت مني الزواجَ بها تراجعت»، قال ميرثن.

قالت كاريس: «هذا يفسرُ مزاجها السيىء في الآونةِ الأخيرةِ».

«ويفسرُ سببَ اشمئزازِ والدتها منكَ»، قال إدموند.

«ولماذا رفضتَها؟» سألت كاريس.

«هناك امرأةٌ واحدةٌ في كينغزبريدج أريد الزواجَ منها وهي لا تريدُ أن تكون زوجةً لأحد».

«ولكنها لا تريدُ أن تخسركَ أيضاً».

تملَّكَ الغضبُ ميرثن وقال: «وما الذي عليَّ فعلهُ؟» كان صوتهُ عالياً جداً إلى درجةٍ أنَّه دفعَ الناسَ حولهُ للتوقفِ عن الحديثِ والإصغاءِ إليهِ في اهتمامٍ. «لقد طردني غودوين وأنتِ رفضتني وأخي أصبحَ خارجاً عن القانونِ. بحقِّ الرَّبِّ ما الذي يبقيني هنا؟»

«لا أريدكَ أن تغادر»، قالت له.

«هذا لا يكفي»، صرخَ ميرثن.

عمَّ الصمتُ المكانَ. جميعُ الحاضرين يعرفهم: مالكُ الحانةِ بول بيل وابنتهُ المكتنزةُ بيسي وساقيتهُ العجوز سيري، والدةُ إليزابيث، وبيل واتكين الذي رفضَ توظيفَ ميرثن، وإدوارد بوتشر والزوج الخائن السيىء السمعةِ جيك تشيبستو الذي كانَ أحدَ المستأجرين عندَ ميرثن، والراهب موردو وماثيو باربر ومارك ويبر. كانوا جميعاً على علمٍ بتاريخ ميرثن وكاريس ولهذا أثارَ الجدال اهتمامهم.

لم يُلقِ ميرثن بالاً إلى توقفِ الجميع عن الحديثِ والإصغاءِ إلى جدالهِ مع كاريس وقال بغيظٍ شديدٍ: «لن أقضي حياتي وأنا ألاحقكِ ككلبكِ سكراب طلباً لاهتمامكِ. أريد أن أكونَ زوجكَ وليسَ حيوانكَ الأليف».

«حسناً»، قالت لهُ بصوتٍ واطئٍ.

تفاجأ ميرثن بالتغيرِ في نبرةِ صوتِها ولم يصدق ما قالته: «حسناً، ماذا؟»

«حسناً سأتزوجكَ».

ولوهلةٍ بدا ميرثن مصدوماً جداً ولم يستطع التفوهَ بكلمةٍ ثمَّ قال في ارتيابٍ: «هل تعنين ما قلتهِ؟»

رفعت نظرَها إليهِ أخيراً وابتسمت بحياءٍ: «أجل، أعني ما قلتهُ. اعرض عليَّ الزواج فقط».

«حسناً»، وأخذَ ميرثن نفساً طويلاً ثمَّ قال: «هلّا تزوجتِ بي؟»

«أجل سأفعل»، قالت له.

وصرخَ إدموند: «مرحى!!»

هلّلَ جميعُ الحاضرين في الحانةِ وصفقوا.

وانخرطَ ميرثن وكاريس في الضحكِ ثمَّ قال ميرثن: «هل ستتزوجين بي حقاً؟»

«أجل».

تبادلا قبلةً ثمَّ ضمَّها ميرثن بينَ ذراعيهِ وعصرها بكلِّ قوةٍ، وعندما أفلتها رآها تبكي.

«فلتُحضر بعضَ النبيذ لخطيبتي»، قال ميرثن ثمَّ أضاف: «أحضر برميلاً، ولتقدم للجميعِ كأساً منهُ ليشربوه في صحتنا!»

«على الفورِ»، صاحَ صاحبُ الحانةِ بيل وهلّلَ الجميعُ مرَّة أخرى.

***

بعدَ أسبوعٍ دخلت إليزابيث الديرَ كراهبةٍ مبتدئةٍ.

-40-

كان رالف وآلان في حالةٍ مزريةٍ ويعيشانِ على لحمِ الطرائدِ والمياهِ الباردةِ، ووجدَ رالف نفسهُ يحلمُ بأطعمةٍ لطالما كرهها كالبصلِ والتفاحِ والبيضِ والحليبِ. كانا ينامان في مكانٍ مختلفٍ كلَّ ليلةٍ ويبقيان ناراً مشتعلةً على الدوامِ، ورغمَ امتلاكِ كلِّ واحدٍ منهما عباءةً من النوعِ الجيّد إلّا أنّها لم تكن كافيةً لإبقائهما دافئين في العراءِ ولذلك يقضيان الليلَ يرتجفان إلى أن تشرق الشمسُ. كانا يقومان بسرقةِ أيِّ شخصٍ أعزل يلتقيان بهِ على الطريقِ، ومعظمُ المسروقاتِ من سقطِ المتاعِ أو أشياء بلا قيمةٍ كالثيابِ الرَّثةِ وعلفِ الماشيةِ والمالِ الذي لا يستطيعان شراء شيءٍ بهِ في الغابةِ.

في إحدى المرّاتِ سرقا برميلاً كبيراً من النبيذِ، وقاما بجرّهِ لمسافةٍ طويلةٍ جداً في الغابةِ ثمَّ شربا حتّى الثمالةِ وناما. وعندما استيقظا مصابين بصداعِ ما بعدِ الثمالةِ وبمزاجٍ سيئٍ أدركا أنهما لا يستطيعان حملَ البرميلِ الذي ما زال ممتلئاً حتّى ثلاثةِ أرباعهِ ولذلكَ تركاه في المكانِ.

أخذَ رالف يفكرُ في حياتهِ السابقةِ بحنينٍ وبمنصبهِ كسيدٍ وبنارِ المدفئةِ القويةِ والخدمِ ووجباتِ العشاءِ، إلّا أنّه أدركَ في لحظاتٍ من التفكير بواقعية أنّه لم يكن يرغب بتلكَ الحياةِ أيضاً فقد كانت مملةً جداً، وقد يكون هذا السبب الذي دفعهُ إلى اغتصابِ تلكَ الفتاةِ. كان يتوقُ إلى التشويقِ.

بعدَ مرورِ شهرٍ على وجودهما في الغابةِ قررَ رالف أنَّ عليهِ تنظيمَ أمورهِ. كانا بحاجةٍ إلى قاعدةٍ يبنيان فيها مكاناً يلجآنِ إليهِ ويخزنان الطعامَ، وعليهما أيضاً أن ينظما عملياتِ السطو ويحصلا على الأشياءِ القيّمةِ لهما كالثيابِ الدافئةِ والطعامِ الطازجِ.

في هذهِ الأثناءِ أدركَ رالف أنَّ تجوالهما قادهما إلى سلسلةٍ من التلالِ التي لا تبعدُ سوى أميالٍ عن كينغزبريدج. تذكرَ رالف أنَّ تلكَ السلسلة شتاءً تغدو جرداء وصيفاً يغزوها الرعاةُ وقد بنوا ملاجئ حجرية مرتجلة عندَ أسفلِ التلالِ. عندما كانا طفلين اكتشفَ رالف وميرثن هذهِ الملاجئ المرتجلةَ خلال رحلاتِ الصيدِ التي كانا يقومانِ بها، وقد أشعلا النارَ وطبخا الأرانبَ وطيورَ الحجلِ التي اصطاداها بالقوسِ. وتذكرَ رالف أنّه حتّى في تلكَ الأيام كانَ يتوقُ إلى نشوةِ الصيد؛ أن يُطارد ويصوبَ نحو مخلوقٍ مرتعبٍ ثمَّ القضاء عليهِ بسكينٍ أو بمضربٍ. إنَّ الشعورَ بالقدرةِ على سحبِ الحياةِ من جسدٍ ما أمرٌ باعثٌ على البهجةِ.

لن يأتي أحدٌ إلى هنا إلى أن يحلَّ فصلُ الربيع وينمو العشبُ بكثافةٍ. يعودُ الرعاةُ في عيدِ العُنصرةِ الذي يبدأ معهُ أول يومٍ من أيام سوقِ الصوفِ، ولن يحلَّ العيدُ قبلَ شهرين. اختارَ رالف كوخاً بدا متيناً وحوّلَهُ إلى منزلٍ لهما. لم يكن للكوخِ أبوابٌ أو نوافذ بل مجرّد مدخلٍ واطئٍ وفتحةٍ في السقفِ ليخرجَ منها الدخانُ. أشعلا النارَ وناما دافئين لأولِ مرّةٍ منذُ شهرٍ.

منحَ القربُ من مدينةِ كينغزبريدج رالف فكرةً ذكيةً أخرى. فقد أدركَ أنَّ أفضلَ وقتٍ لسلبِ الناسِ هو عندما يكونون في طريقهم إلى السوقِ حاملين الجبنَ وزجاجاتِ شرابِ التفاحِ والعسلِ وكعكَ الشوفانِ وكل ما تنتجهُ القرى ويحتاجهُ سكانُ المدينةِ... والخارجونَ عن القانونِ.

يُقامُ سوقِ كينغزبريدج يومَ الأحد، ولأنَّ رالف لا يسعهُ معرفةُ أيام الأسبوع سألَ أحدَ الرهبان المتجولين قبلَ أن يسرقَ منهُ ثلاثَة شلنات وإوزةً. عرفَ أنَّ الغد سيكون يومَ السبت ولذلكَ في صباحِ اليومِ التالي نصبَ رالف مع آلان مخيماً ليسَ ببعيدٍ عن الطريقِ إلى كينغزبريدج وبقيا ساهرين طوالَ الليلِ قربَ النارِ. عند بزوغِ الفجرِ توجها إلى الطريقِ وانتظرا هناك.

وصلت المجموعةُ الأولى وكانت عبارةً عن عربةٍ مُحمَّلةٍ بعلفِ الحيواناتِ. في كينغزبريدج مئات الجياد ولكنَّ العشبَ فيها قليلٌ ولهذا كانت المدينةُ في حاجةٍ دائمةٍ إلى القشِ. غير أن هذهِ الحمولةَ لم تكن مهمةً لرالف لأنَّ الحصانين غريف وفليتش يرعيان بحريَّةٍ في الغابةِ الغنيةِ بالعشبِ.

لم يُصبِ رالف بالسأمِ من الانتظار؛ فقد كانَ نصبُ كمينٍ أشبه برؤيةِ امرأةٍ تتعرى؛ فكلما طالَ الانتظارُ إزدادَ التشويق.

بعد هذا بقليلٍ سمعا صوتَ غناءٍ، وشعرَ رالف بشعرِ جسدهِ يقفُ فقد كانَ الصوتُ ملائكياً. كان الضباب يلفُّ هذا الصباح وعندما رأى رالف المغنين بدوا لهُ كأنّهم محاطون بهالاتٍ. وهنا خطرَ لآلان ما خطرَ لرالف ولهذا نمَّت عنهُ شهقةُ خوفٍ. لم تكن الهالات حولَ رؤسِ المسافرين حقيقية بل أوحى بها ضوءُ الصباحِ الشتائي الخافت والضباب الذي لفَّ المكان. كانَ المغنون ريفيات يحملن سلالَ البيضِ ولذلك لم تكن سرقتهن تستحقُ المشقةَ. قررَ رالف أن يسمحَ لهن بالمرور ولذلكَ لبثَ في مكانِهِ.

علت الشمسُ في السماءِ، وانتابَ رالف القلق من أن يصبحَ الطريق مكتظاً بالذاهبين إلى السوقِ وتغدو عمليةُ السطو أصعب، ثمَّ رأى عائلةً قادمةً ومكونةً من زوجٍ وزوجةٍ في الثلاثينياتِ وصبي وفتاة بالغين. بدت العائلةُ مألوفةً له. لا شكَّ أنّه التقى بها في سوقِ كينغزبريدج خلالَ السنواتِ التي عاشها في المدينةِ. كانوا يحملون تشكيلةً من البضائع؛ فالزوجُ يحملُ سلَّةً ثقيلةً من الخضراواتِ على ظهرِهِ والزوجةُ وضعت على كتفها عصاً طويلةً قُيِّدَت عليها دجاجاتٌ حيةٌ. حملَ الصبي على كتفِهِ قطعةَ لحم خنزيرٍ ثقيلة بينما حملت الفتاةُ جرَّةً تحوي أغلب الظنِّ على زبدةٍ مملحةٍ. سالَ لعابُ رالف عندما رأى اللحمَ.

واشتعلت الحماسةُ في داخلِهِ فأومأ لآلان.

اقتربت العائلةُ وفجأةً خرجَ رالف وآلان من وراءِ الأجمةِ.

صرخت المرأةُ ونمَّت عن الصبي صيحةُ ذُعرٍ.

حاولَ الرجلُ أنَّ يتخلصَ من السلَّةِ الثقيلةِ التي يحملها ولكن قبلَ أن تقع عن كتفيهِ عاجلهُ رالف بطعنةٍ من سيفهِ اخترقت بطنَهُ تحت أضلاعهِ لتصعدَ بعدها باتجاهِ قلبهِ. صرخَ الرجلُ إلَّا أنَّ صرخة الوجعِ توقفت فجأة عندما اخترقَ السيفُ قلبهُ.

لوّحَ آلان بسيفهِ نحوَ المرأة وقطعَ معظمَ عنقها فانبجسَ الدمُ من العنقِ المقطوعِ كنافورةٍ حمراء.

التفتَ رالف المبتهجُ بالقتلِ إلى الابن إلَّا أنَّ ردَّ فعلِ الفتى كان سريعاً فأسقطَ اللحمَ عن كتفهِ وسحبَ سكيناً. وعندما رفعَ رالف سيفهِ ليُعاجلَ بهِ الفتى اقتربَ الأخير وطعنهُ، إلا أنَّ الطعنةَ لم تكن مدروسةً بل اعتباطيةً ولذلكَ لم تُحدث ضرراً كبيراً. لم تُصب الطعنةَ رالف في صدرهِ إلَّا أنَّها استقرت في أعلى كتفِهِ اليمنى ودفعهُ الألم المفاجئ إلى إيقاعِ سيفهِ. استدارَ الفتى وركضَ باتجاهِ مدينة كينغزبريدج.

نظرَ رالف إلى آلان الذي كان يُنهي على الأمِّ قبلَ أن يلتفتَ لمواجهةِ الفتاةِ ولكن هذا التأخير في القضاءِ على الأخيرةِ كادَ يكلفهُ حياتهُ. رأى رالف الفتاةَ ترمي بجرةِ الزبدةِ نحو آلان. وسواءَ أكانت ضربةَ حظٍ أم تصويباً دقيقاً فقد أصابتهُ في مؤخرةِ رأسهِ، وسقطَ آلان على الأرضِ كأنّه صُرِعَ.

وركضت الفتاةُ في إثرِ أخيها.

انحنى رالف والتقطَ سيفهُ بيدهِ اليسرى ثمَّ ركضَ في إثرهما.

كانا صغيرين وسريعين إلَّا أنَّ ساقي رالف الطويلتين ساعدتاه على اللحاقِ بهما. نظرَ الفتى من فوقِ كتفهِ ورأى رالف في إثرهِ. دُهشَ رالف عندما رأى الفتى يتوقف ويستدير ثمَّ يركض باتجاههِ ويصرخُ حاملاً سكينهُ.

توقفَ رالف عن الركضِ ورفعَ سيفهُ. ركضَ الفتى باتجاهِ رالف ثمَّ توقفَ قريباً منه ولكن بعيداً عن مجالِ سيفهِ. تقدَّم رالف وضربَ بسيفهِ إلَّا أنَّ الضربةَ كانت ضعيفةً. تفادى الفتى الضربةَ وفكرَ باستغلالِ فقدان رالف لتوازنهِ فاقتربَ منهُ ووجهَ طعنةً في صدرهِ، ولكن رالف توقعَ هذا لذلكَ تراجعَ إلى الوراء ووقفَ على عقبي قدميهِ وطعنَ الفتى في عنقهِ حتى خرجت نهايةُ السيفِ من الجهةِ الأخرى.

خرَّ الفتى صريعاً على الفور، وسحبَ رالف سيفهُ من عُنقِ الفتى في سعادةٍ وبدقةِ طعنةِ الموتِ التي قام بها للتو.

رفعَ رالف ناظريهِ للأعلى ورأى الفتاة تختفي بعيداً. أدركَ أنّه لن يستطيعَ اللحاقَ بها على الأقدامِ وأنّه بحلولِ الوقتِ الذي سيُحضر فيه حصانَهُ ستكون قد وصلت إلى كينغزبريدج.

استدارَ رالف ونظرَ إلى الوراءِ. تفاجأ عندما رأى آلان ينهض على قدميهِ مترنحاً. «اعتقدت أنّها قتلتكَ»، قال رالف الذي مسحَ سيفه بعباءةِ الفتى الميت وأعاده إلى غمدهِ ثمَّ وضعَ يدهُ اليسرى على جرحِ ذراعهِ اليمنى محاولاً إيقافَ النزيفِ.

«رأسي يؤلمني بشدةٍ»، أجابَ آلان. «هل قتلتَ الجميع؟»

«لقد هربت الفتاةُ».

«هل تعتقد أنّها تعرَّفت علينا؟»

«ربما تعرَّفت علي فقد رأيتُ عائلتها قبلاً».

«في هذهِ الحالةِ سنوصم الآن كقتلةٍ».

هزَّ رالف كتفيهِ وقال: «الموتُ إعداماً أفضلُ من الموت جوعاً». ونظرَ إلى الجثثِ الثلاث. «فلنُبعد أولئكَ الفلاحين عن الطريقِ قبلَ أن يأتي أحدهم».

وبيدهِ اليسرى جرَّ رالف الرجلَ إلى حافةِ الطريقِ، ثمَّ رفعَ آلان الجثةَ ورماها خلفَ الأجماتِ. وكررا الأمرَ مع جثةِ المرأةِ والفتى. حرصَ رالف على أن تكون الجثثُ مخفيةً جيداً وغير مرئية لأيِّ عابرٍ. وقد جعل الدمُ المُراقُ على الطريق لونَ الطين الذي امتصّهُ أكثر غُمقاً.

قطعَ رالف حزامَ فستانِ المرأةِ وربطهُ حولَ الجرحِ في ذراعهِ. ورغمَ الألمِ الذي يشعرُ به فإنّ النزيف قد خفَّ. شعرَ بشيءٍ من الكآبةِ المألوفةِ بعدَ نهايةِ كلِّ قتالٍ؛ كانت أشبهَ بكآبةِ ما بعد الجنسِ.

بدأ آلان يجمعُ الغنيمةَ. «إنّها غنيمةٌ رائعةٌ»، قال آلان. «لحم خنزير ودجاج وزبدة...» ونظرَ إلى سلّةِ الرجلِ ورأى ما كانَ فيها ثمَّ قال: «وبصلٌ! قد يكون من العام الفائتِ إلّا أنّه ما زال جيداً».

«إنَّه أفضلُ من لا شيء. هذا ما اعتادت والدتي قولهُ».

وعندما انحنى رالف لالتقاطِ جرَّة الزبدةِ التي أوقعت آلان أرضاً وأفقدته الوعي شعرَ بطرفٍ معدني حادٍ يخزُّ مؤخرتهُ. كان آلان أمامهُ يلتقطُ الدجاجَ المربوط إلى العصا. قال رالف: «من...؟»

وأتاهُ صوتٌ خشنٌ: «لا تتحركْ».

لم يُطع رالف يوماً مثلَ هذهِ الأوامر لذلكَ قفزَ إلى الأمامِ بعيداً عن مصدرِ الصوتِ واستدارَ سريعاً. رأى ستةَ أو سبعةَ رجالٍ. كانوا قد ظهروا على حينِ غرَّةٍ. شعرَ بالارتباكِ إلَّا أنَّه نجحَ في سحبِ سيفِهِ بمساعدةِ يدِهِ اليسرى. كان الرجلُ الأقربُ إليهِ من وخزهُ بطرفِ سيفِهِ على الأغلب. رفعَ سيفهُ في استعدادٍ للقتالِ بينما كانَ البقيةُ يجمعونَ الغنيمةَ ويلتقطون الدجاجَ ويتقاتلون على قطعةِ لحمِ الخنزيرِ. لمعَ سيفُ آلان الذي انبرى للدفاعِ عن دجاجاتِهِ بينما انخرطَ رالف في قتالٍ مع الرجلِ. أدركَ رالف بحلولِ الآن أنَّ مجموعةً أخرى من الخارجين عن القانونِ تحاولُ سلبهُ غنيمتهُ. شعرَ رالف بالغيظِ يتملكهُ. لقد قتلَ أناساً من أجلِ هذهِ الغنيمةِ، وها هم يريدون أن يأخذوها منهُ. لم يتملكهُ خوفٌ بل غضبٌ. هاجمَ خصمهُ بكلِ قوَّةِ هذا الغضبِ رغمَ اضطرارهِ إلى القتالِ بيدهِ اليسرى، ثمَّ سمعَ صوتاً آمراً يقول: «أخفضوا أسلحتكم أيُّها الحمقى!»

تجمدوا جميعاً في أمكنتهم بينما أبقى رالف سيفهُ مُستلاً في حال كان الأمرُ خدعةً، ونظرَ إلى مصدرِ الصوتِ. رأى رجلاً وسيماً في العشرين من العمرِ وفي وجههِ سماتٌ تشي بمحتدٍ نبيلٍ. بدت ثيابهُ فاخرةً رغمَ أنَّها كانت مُتسخةً ومعفرةً بالترابِ. كان الرجلُ في عباءةٍ من القماشِ الإيطالي القرمزي المطرز بأوراقٍ وأغصانٍ ومعطفٍ من القماشِ المقصَّبِ ببقعِ طعامٍ كما يبدو وسروالٍ جلدي فاخر كستنائي اللون إلَّا أنَّهُ بدا رثاً وملطخاً بالوحلِ.

«لطالما أمتعتني السرقةُ من اللصوصِ»، قالَ القادمُ الجديدُ. «فلا يمكنُ اعتبارُ هذا جريمةً».

علمَ رالف أنَّه في موقفٍ حرجٍ إلَّا أنَّ مجريات الأمورِ أثارت اهتمامهُ. «هل أنت من يُطلقون عليهِ اسم تام المُتخفي؟»

«عندما كنتُ صغيراً سمعتُ قصصاً عن تام المُتخفي»، أجابَ الرجلُ. «ولكن بينَ الفينةِ والأخرى يأتي من يلعبُ هذا الدور تماماً كما يلعبُ كاهنٌ دورَ الشيطان في مسرحيةٍ ما».

«أنتَ لا تشبهُ الخارجين عن القانونِ العاديين».

«ولا أنتَ. أفترضُ أنَّكَ رالف فيتزجيرالد».

أومأ رالف برأسِهِ.

«سمعتُ عن قصَّةِ هروبك وكنتُ أتساءل متى ستتقاطع طرقنا». نظرَ تام إلى بدايةِ ونهايةِ الطريقِ. «وها قد التقينا بكَ صدفةً. ما الذي جعلكَ تختارُ هذهِ البقعة؟»

«اخترت اليومَ والوقتَ أولاً. إنَّه يومُ الأحد وفي مثلِ هذهِ الساعةِ يأخذ الفلاحون القادمون من قراهم مع منتجاتهم إلى سوقِ كينغزبريدج هذا الطريق».

«حسناً، حسناً. عشتُ كخارجٍ عن القانونِ لعشرِ سنينٍ ولم تخطر ببالي هذهِ الفكرة. ربما علينا أن نوحّدَ صفّاً ونتعاونَ. هلّا أنزلتَ سلاحكَ».

أبدى رالف تردداً إلّا أنَّ تام كانَ أعزل، ولهذا لم يرَ أيّ مشكلةٍ في إخفاضِ سلاحهِ. علاوةً على هذا كانوا يفوقونهُ وآلان عدداً ولهذا كان من الأفضلِ أن يتجنبا القتال، وأعادَ رالف سلاحهُ إلى غُمدهِ ببطءٍ.

«هذا أفضل». ووضعَ تام ذراعهُ حول كتفي رالف. عندها أدركَ رالف أنهما متماثلانِ في الطولِ؛ لم يكن هناكَ كثرٌ بطولِ رالف. قادهُ تام إلى داخلِ الغابةِ وهو يقول: «سيجلبُ الآخرونَ الغنيمةَ. رافقني من هذا الطريق فلدينا، أنا وأنتَ، الكثير لنتحدثَ عنهُ».

***

ضربَ إدموند بيدهِ على الطاولةِ وقالَ: «طلبتُ هذا الاجتماع الطارىء لنقابةِ الأبرشيةِ حتى نناقش مشكلةَ الخارجين عن القانونِ. ولكن بما أني أصبحتُ عجوزاً وكسولاً جداً ستقوم ابنتي بتلخيص الوضع لكم».

باتت كاريس الآن فرداً من أفرادِ نقابةِ الأبرشيةِ وذلكَ بعدَ نجاحها في صناعةِ القماشِ القرمزي. لقد أنقذت ثروة والدها وازدهرت أحوالُ العديدِ من سكانِ البلدةِ بسببِ نجاحها، بالتحديد عائلة ويبر، وبات بوسعِ والدها الآن تقديم المال الذي وعدَ بهِ لبناءِ الجسرِ، وحذا حذوهُ العديد من تجار المدينةِ. عادت أعمال البناءِ على الجسرِ ولكن لسوءِ الحظِ بإشرافِ إلفريك وليسَ ميرثن.

ولكن في هذهِ الأيامِ لم يعد والدُها يقومُ بأيِّ مبادراتٍ كبيرةٍ بل باتت اللحظاتُ التي يكون فيها على طبيعته الحذقةِ السابقةِ نادرةً. كانت قلقةً بشأنهِ، ولكن لم يكن بوسعها فعلُ شيءٍ حيالَ الأمرِ، وشعرت بذاتِ الغضبِ الذي تملَّكها عندما كانت والدتها مريضةً. تساءلت في نفسها عن سببِ عدمِ جدوى أيِّ شيءٍ لحلِّ مشكلتهِ فلم يفهم أحدٌ مشكلتهُ ولم يعرفوا اسماً لمرضهِ. قالوا لها إنَّه بدأ يطعنُ في السنِ، ولكنه لم يتجاوز الخمسينَ من عمرهِ.

كانت تصلي ليعيشَ والدها حتَّى زفافها فهي ستتزوجُ من ميرثن في كاتدرائيةِ كينغزبرديج في أولِ أحدٍ بعد انتهاءِ سوقِ الصوفِ، أي بعدَ شهرٍ من الآنِ. سيكون زواجُ ابنةِ كبيرِ شيوخِ المدينةِ حدثاً كبيراً، وستُقامُ وليمةٌ في غيلد

هول لكبارِ القومِ ونزهة في لوفرزفيلد لمئاتِ الضيوفِ الآخرين. كانَ والدها يقضي أياماً في التخطيطِ لقوائمِ الطعامِ والترفيهِ لينسى ما فكّرَ فيهِ ويبدأ مجدداً في اليومِ التالي.

وضعت كاريس هذهِ الفكرةَ جانباً والتفتت إلى المشكلةِ الأخرى التي قد تكون قابلةً للحلِّ. «خلال الشهرِ الفائتِ ازدادت اعتداءاتُ الخارجين عن القانونِ. وحدثت في معظمها أيامَ الآحادِ وضحاياها من الناسِ القادمين حاملين منتجاتهم إلى كينغزبريدج».

قاطعها إلفريك قائلاً: «إنَّ شقيقَ خطيبكِ من يقومُ بهذهِ الاعتداءاتِ! تحدَّثي بهذا الشأنِ إلى ميرثن وليسَ إلينا».

كبحت كاريس شعوراً سريعاً بنفادِ الصبر؛ لم يكن زوجُ أختها يفوت مناسبةً لانتقادها. تعرفُ حقَّ المعرفةِ أنَّ رالف متورطٌ في هذا، وقد كان هذا مصدرَ ألمٍ لميرثن ولهذا كان إلفريك يستمتعُ بمعاناةِ ميرثن.

قال ديك بروير: «أعتقدُ أنَّه تام المُتخفي».

«قد يكونان كلاهما»، قالت كاريس. «أعتقدُ أنَّ رالف فيتزجيرالد الذي تلقى شيئاً من التدريبِ العسكري قد وحّدَ صفهُ مع عصابةِ حاليةٍ من الخارجين عن القانونِ وساعدهم على تنظيمِ عملياتهم وجعلها أكثرَ فاعليةً».

وهنا قالت بيتي باكستر السمينة وخبّازةُ البلدةِ الناجحةُ: «أيّاً يكن هذا الشخص فإنَّه سيجلبُ الدمارَ لهذهِ المدينة. فلم يعد أحدٌ يأتي إلى السوقِ!»

حملَ كلام بيتي شيئاً من المبالغةِ إلّا أنَّ أعدادَ القادمين إلى سوقِ المدينةِ الأسبوعي تراجعت حقاً وبشكلٍ كبيرٍ، وأثّرَ هذا على كلِّ عملٍ في البلدةِ بدءاً بالمخابزِ وانتهاءً ببيوتِ الدعارةِ. «ولكن هذا ليسَ أسوأ ما في الأمرِ»، قالت كاريس. «بعدَ أربعةِ أسابيع سيُقامُ سوق الصوفِ، والعديدُ من الحاضرين هنا قد استثمروا مبالغ هائلة من المالِ في الجسرِ الجديدِ الذي سيكون جاهزاً للاستخدامِ بطريقٍ خشبي عندَ الافتتاحِ. يعتمدُ ازدهار أحوالِ معظمنا على هذا السوقِ السنوي. وأنا شخصياً لدي مخزنٌ كاملٌ من القماشِ القرمزي الفاخر لبيعهِ. إن عرفَ القادمون إلى كينغزبريدج باحتمالِ تعرّضهم للسطوِ على يدِ خارجين عن القانون فقد لا يكون لدينا أيُّ زبائن».

كان قلقُ كاريس حيالَ الأمرِ أكبر مما كانت تُظهر، فلم يعد بحوزتها هي ووالدها أيُّ أموال بعد أن وضعا كل ما يملكانهِ في قرضِ بناءِ الجسرِ أو في

نسجِ الصوفِ الخام والقماشِ القرمزي. ولذلكَ كان سوق الصوفِ فرصتهما لاستعادةِ مالهما. إن انخفضَ عدد زوارِ السوقِ فسيقعان في ورطةٍ كبيرةٍ، وفوقَ هذا كلهِ لن يكون هناكَ مالٌ للزفافِ.

ولكن كاريس لم تكن المواطنة الوحيدة القلقة حيالَ هذهِ المشكلةِ، فقد قال ريك سيلفرز رئيسُ نقابةِ الصاغةِ: «ستكونُ هذهِ ثالث سنةٍ سيئةٍ على التوالي». كان ريك رجلاً مُتزمتاً ونيقاً وحسنَ الهندامِ على الدوامِ. «سيقضي هذا على بعضِ الناسِ»، تابعَ ريك. «إن نصفَ أعمالنا السنوية تحدثُ خلالَ سوقِ الصوفِ».

قال إدموند: «سيقضي هذا على البلدةِ بأكملها. لا يمكننا أن ندعَ هذا يحدث».

انخرطَ العديدُ من الحاضرين في الحديثِ، وكاريس التي كانت ترأسُ الاجتماعَ، وإن لم يكن بشكلٍ رسمي، تركتهم يتحدثون. سيجعلهم شعورهم الكبيرِ بالخطرِ أكثرَ ميلاً لقبولِ الحلِّ الراديكالي الذي كانت على وشكِ اقتراحهِ.

قال إلفريك: «على شريفِ مقاطعةِ شايرنغ القيام بشيءٍ حيالَ الأمرِ. ألا يتلقى مالاً للحفاظِ على السِلمِ؟»

قالت كاريس: «لا يمكنهُ أن يُفتشَ كامل الغابةِ فهو لا يملكُ ما يكفي من الرجالِ لفعلِ هذا».

«الإيرل رولاند يملكُ هذا العدد».

كان هذا تفكيراً متفائلاً إلا أنَّ كاريس تركتهم يناقشون الأمرَ على راحتهم حتى تطرحَ عليهم الحلَ الذي سيدركونَ أنّه لا بديلَ لهُ.

قال إدموند لإلفريك: «الإيرل لن يساعدنا. لقد طلبتُ منهُ ورفضَ».

وقالت كاريس التي كتبت بنفسها رسالةَ إدموند إلى رولاند: «كانَ رالف أحدَ رجالِ الإيرل وما زال أحدَ رجالهِ. وكما تلاحظون فإنَّ الخارجين عن القانون لا يهاجمونَ الناسَ الذاهبين إلى سوقِ شايرنغ».

قال إلفريك بسخطٍ: «لم يكن يجدرُ بهؤلاءِ الفلاحين من ويغلي القيام بتلكَ الشكوى بحق أحدِ مرافقي الإيرل. من يعتقدون أنفسهم؟»

كانت كاريس على وشكِ أن تجيبهُ بسخطٍ ولكن بيتي باكستر سبقتها: «أوه، أتعتقد أنّه يُمكنُ للأسيادِ اغتصاب من يشاؤون؟»

تدخّلَ إدموند. «هذهِ قضيةٌ أخرى»، قالَ بسرعةٍ وبشيءٍ من حزمهِ القديم. «لقد حدثَ ما حدثَ وباتَ رالف يعتاشُ على حسابنا فما نحن فاعلون الآن؟ لا يمكن للشريفِ أن يساعدنا والإيرلُ رفضَ المساعدةَ أيضاً».

قال ريك سيلفرز: «ماذا عن اللورد ويليام؟ لقد وقفَ إلى جانبِ سكانِ ويغلي وهو المسؤول عن تحولِ رالف إلى خارجٍ عن القانونِ».

«لقد سألتهُ أيضاً»، قال إدموند. «وقال لي إننا لسنا في نطاقِ أراضيهِ».

قال ريك: «وهنا تبرز مشكلةُ أن يكونَ الديرُ صاحبَ الأمرِ الناهي، ما فائدةُ رئيسِ ديرٍ عندما تحتاجُ إلى الحمايةِ؟»

قالت كاريس: «وهذا سببٌ إضافي لتقديمِ طلبٍ إلى الملكِ حتى تصبحَ كينغزبريدج منطقةً إداريةً ذات امتيازاتٍ ملكيَّةٍ. عندها سنصبحُ تحتَ الحمايةِ الملكيَّةِ».

قال إلفريك: «لدينا مأمورٌ خاصٌ بنا، لمَ لا يقومُ بأيِّ شيءٍ؟»

تحدَّثَ مارك ويبر فقد كانَ أحدَ رجالِ المأمورِ. «نحنُ جاهزون للقيامِ بكلِّ ما هو ضروري وبانتظارِ أوامركم».

قالت كاريس: «ليسَ لدينا شكٌّ بشجاعتكَ، ولكن دوركَ هو مواجهةُ مثيري المتاعب داخلَ المدينة وليسَ خارجها. المأمور جون لا يمتلكُ خبرة ملاحقةِ الخارجين عن القانونِ».

اربدَّ وجه مارك الذي كان مُقرباً من كاريس بحكمِ إشرافهِ على عملِ طاحونة علاجِ القماشِ خاصتها في ويغلي: «حسناً ومن يملكُ مثلَ هذهِ الخبرةِ؟»

ما كانت كاريس تفعلهُ طوال الوقتِ هو سَوق النقاشِ باتجاهِ هذا السؤالِ. «في الحقيقةِ هناك جندي خبيرٌ قادرٌ على مساعدتنا»، قالت كاريس. «وقد سمحتُ لنفسي بالطلبِ منه القدوم الليلةَ إلى هنا وهو ينتظرُ في المصلى». ثمَّ رفعت كاريس صوتها قائلةً: «هلَّا انضممتَ إلينا يا توماس؟»

خرجَ توماس من المصلى الذي يقعُ في نهايةِ القاعةِ.

قالَ ريك سيلفرز مشككاً: «راهبٌ؟»

«قبلَ أن يصبحَ توماس راهباً كان جندياً»، قالت كاريس. «وخلال عملهِ كجندي خسرَ ذراعه».

قال إلفريك متجهماً: «كان عليك طلبُ الإذنِ من أعضاءِ النقابةِ قبلَ أن تقومي بدعوتهِ». لم يهتم أحدٌ بملاحظةِ إلفريك وسُرَّت كاريس بهذا. كانَ الجميعُ متحمسين لسماعِ ما لدى توماس ليقولهُ.

«إننا بحاجةٍ إلى تشكيلِ ميليشيا»، بدأ توماس كلامهُ. «وفقاً للأحاديثِ المتداولةِ هناك ما يقاربُ العشرين إلى الثلاثين خارجاً عن القانونِ في تلكَ

العصابةِ، وهذا ليسَ بالعددِ الكبيرِ. يستطيعُ سكانُ المدينةِ استخدامَ القوسِ ببراعةٍ، والفضلُ في هذا يعودُ إلى تدريبات أيامِ الأحدِ. يُمكن لمئةِ رجلٍ مُجهزينَ بشكلٍ جيد وتحت قيادةٍ ذكيةٍ التغلبَ على الخارجينَ عن القانونِ بكلِّ سهولةٍ».

«هذا الكلامُ لا غبارَ عليهِ»، قال ريك سيلفرز. «ولكن علينا أن نعثرَ على هؤلاء الرجال».

«بالطبعِ»، قال توماس. «وأنا أعرفُ شخصاً في كينغزبريدج يستطيعُ أن يخبرنا بمخبأ العصابةِ».

***

طلبَ ميرثن من تاجرِ الأخشابِ جيك تشيبستو أن يحضرَ لهُ لوحاً خشبياً من ويلز وأن تكونَ أكبرَ قطعةٍ يمكنهُ إيجادها هناك. عادَ جيك من رحلة الاحتطابِ التاليةِ ومعهُ لوحٌ خشبي رقيق من الخشبِ الويلزي الرمادي بطولِ أربعة أقدامٍ مربعةٍ. وضعَ ميرثن اللوحَ في إطارٍ خشبي واستخدمهُ كلوحٍ للرسمِ.

في هذهِ الليلةِ وبينما كانت كاريس في اجتماع غيلد هول كان ميرثن في منزلهِ على جزيرةِ ليبر يعملُ على خريطةٍ للجزيرةِ. لم يكن طموحهُ الاكتفاء بالأجزاءِ التي قام بتأجيرها كأرصفةٍ ومخازن بل أن يبني شارعاً كاملاً من الفنادقِ والمحالِ التجاريةِ يصلُ إلى منتصفِ الجسرِ. كان سيبني المنازلَ بنفسهِ ويؤجرها إلى تجارٍ جددٍ في كينغزبريدج. لطالما أثارهُ التفكيرُ في مستقبلِ المدينةِ ، فقد كان يتخيلُ الأبنيةَ والشوارعَ التي ستحتاجها. كان هذا ما على الديرِ القيامُ بهِ فيما لو كانَ تحتَ إدارةٍ أفضل.

وضمن المخطط الذي وضعهُ ميرثن كان هناك منزلٌ جديدٌ لهُ ولكاريس. سيكون المنزلُ صغيراً في بدايةِ زواجها، ولكن في نهايةِ المطافِ سيضيف إليهِ غرفاً أكثر بخاصةٍ إن أنجبا أطفالاً. حدّدَ مكانَ المنزلِ على الضفةِ الجنوبيةِ حيثُ هواءُ النهرِ عليلٌ. كانت طبيعةُ الجزيرةُ صخريةً، ولكن البقعةَ التي اختارها تحوي على مساحةٍ صغيرةٍ من التربةِ القابلةِ للزراعةِ حيثُ سيتمكن من زرعِ بعضِ أشجارِ الفواكه. وبينما كانَ ميرثن يخطط لهذا المنزلِ ويستمتعُ بفكرةِ العيشِ مع كاريس جنباً إلى جنب ويوماً بعد يوم وإلى الأبدِ، أخرجهُ طرقٌ على البابِ من لجّةِ أحلامِهِ. كان طرقاً مُباغتاً فما من أحدٍ يأتي إلى الجزيرةِ ليلاً باستثناء كاريس وهي لن تقرعَ الباب. «من؟» قال ميرثن بتوترٍ.

ودخلَ توماس لانغلي.

«يُفترضُ بالرهبان أن يكونوا نائمين في مثلِ هذا الوقتِ»، قال ميرثن.

«لا يعلمُ غودوين أنني هنا». ونظرَ توماس إلى اللوحِ. «هل ترسمُ بيدكَ اليسرى؟»

«اليسرى أو اليمنى فهذا لا يُشكلُ فرقاً. هل تريدُ كأساً من النبيذ؟»

«لا شكراً. يجبُ أن أبقى صاحياً من أجلِ صلاةِ الصبحِ بعدَ بضعِ ساعاتٍ ولذلكَ لا أريد أن أشرب حتى لا أصابَ بالنعاسِ».

كان ميرثن يحبُّ توماس فهناكَ رابطةٌ عمرها اثنا عشرَ عاماً بينهما، وقد بدأت منذُ ذلكَ اليومِ الذي قدَّمَ فيهِ ميرثن وعداً لتوماس بأنَّه في حال توفي فسيأخذُ كاهناً إلى المكانِ الذي دفنَ فيهِ الرسالةَ. ولاحقاً عندما عملا معاً في مشاريع ترميمِ الكاتدرائيةِ كان توماس يُدلي بتعليماتهِ بكلِّ وضوحٍ ويُعامل المُتدربين بلباقةٍ. لطالما كانَ صادقاً في دعواه الدينية ولم يتحول إلى شخصٍ مغرورٍ. وفكرَ ميرثن بأنَّ جميعَ خدمِ الرَّبِّ يجب أن يكونوا مثلَ توماس.

أشارَ ميرثن لتوماس ليجلسَ على كرسي بقربِ الموقدِ: «كيف يمكنني أن أخدمكَ؟»

«للأمرِ علاقةٌ بأخيكِ. لقد تقررَ وضعُ حدٍ له».

اكفهرَّ وجهُ ميرثن وبدا كأنَّه شعرَ بألمٍ مفاجئ. «لو كانَ بوسعي أن أقومَ بشيءٍ لقمتُ بهِ، ولكنني لم أرَهُ. ولكن حتَّى إن رأيتهُ لستُ واثقاً من أنَّه سيُصغي إلي. في ما مضى كان ينظرُ إلي كقدوةٍ ولكن أعتقد أنَّ تلكَ الأيام قد ولَّت».

«لقد غادرت لتوي اجتماعاً في نقابة الأبرشيةِ، وقد طلبوا مني أن أنظِّمَ ميليشيا».

«لا تتوقع مني أن أكونَ فرداً فيها».

«لا، لم آتِ لهذا الغرضِ». قال توماس في ابتسامةٍ ساخرةٍ. «رغم مواهبك المذهلةِ فإنك تفتقرُ إلى الموهبةِ القتالية».

أومأ ميرثن رأسهُ بأسفٍ وقال: «شكراً لكَ».

«ولكنَّ هناكَ أمراً يمكنكَ مساعدتي فيه إن أردت».

شعرَ ميرثن بالارتباكِ وقال: «حسناً، ما هو؟»

«لا بدَّ أنَّ للخارجِ عن القانونِ مخبأ ليس ببعيدٍ عن كينغزبريدج. أريدكَ

أن تمعنَ التفكير في المكانِ الذي قد يختبئ فيهِ شقيقكَ. لا بدَّ أنَّ يكون مكاناً تعرفانهِ، كهفٌ ربما أو كوخُ حارس حراجي في الغابةِ».

أبدى ميرثن تردداً.

قال توماس: «أعلمُ أنكَ تجد خيانةَ شقيقكَ أمراً كريهاً، ولكن فكر بأولِ عائلةٍ هاجمها رالف. كان الرجلُ فلاحاً محترماً ونشيطاً وزوجته جميلة وابنه يبلغ من العمر أربعة عشرَ عاماً وابنته ما تزال صغيرةً. وها هم ثلاثةٌ منهم قد ماتوا والفتاةُ الصغيرة أصبحت يتيمةً. ورغمَ حُبكَ لشقيقكَ عليك أن تساعدنا في الإمساكِ بهِ».

«أعلم».

«هل بمكنكَ التفكير في المكانِ الذي قد يلجأ إليهِ؟»

لم يكن ميرثن جاهزاً للإجابةِ على هذا السؤال ولهذا قالَ: «هل ستأسرهُ حيّاً؟»

«إن تمكنتُ من هذا».

هزَّ ميرثن رأسهُ رافضاً وقال: «هذا لا يكفي. أحتاجُ إلى ضمانةٍ».

صمتَ توماس لبضعِ دقائقَ ثمَّ قال: «حسناً. سأقومُ بأسرهِ حيّاً. لا أعلمُ كيفَ سأفعلُ هذا، ولكني سأعثرُ على طريقةٍ. أعدكَ بهذا».

«شكراً لكَ»، وصمتَ ميرثن لوهلةٍ. كان يعرف أنَّ عليهِ القيام بهذا، ولكن قلبهُ لم يطاوعه. وبعد وهلةٍ أجبرَ نفسهُ على التحدثِ قائلاً: «عندما كنتُ في الثالثة عشرة اعتدنا الذهاب للصيدِ، وغالباً ما كنا نذهبُ مع فتيةٍ أكبر منا. كنا نبقى طوالَ اليومِ ونطبخُ ما نصطادهُ، وأحياناً نتوجه إلى التلالِ الكلسية ونقابل العائلات التي تقضي فصلَ الصيفِ هناكَ وهي ترعى خرافها. عادةً ما تكون راعياتُ الأغنامِ حرَّاتٍ وطيعاتٍ والبعضُ منهن قد تسمحُ لكَ بتقبيلها». ابتسم ميرثن باقتضابٍ وقال: «في الشتاء عندما لا يكونون هناك نستخدمُ الأكواخَ كملجأ. وأعتقدُ أنَّ رالف يختبئ هناك».

«شكراً لكَ»، قال توماس ونهضَ عن كرسيهِ.

«تذكّر وعدكَ».

«سأفعل».

«لقد ائتمنتني على سرٍّ منذُ اثني عشر عاماً».

«أعلم».

«وأنا لن أخونكَ أبداً».

«أدركُ هذا».

«وأنا الآن أضعُ ثقتي بكَ». يعلمُ ميرثن أن كلامهُ يمكن أن يُفسر بطريقتين؛ فإما أن يكونَ التماساً لفعلِ المثلِ أو تهديداً مبطناً. ولكن ميرثن لم يهتم بالطريقةِ التي سيُفسرُ فيها توماس كلامهُ.

مدَّ توماس يدهُ وصافحهُ ميرثن فيها: «سأحافظُ على وعدي»، قال توماس ثمَّ خرجَ.

***

عبرَ رالف وتام التلالَ جنباً إلى جنبٍ ولحقَ بهما آلان فيرنهيل على حصانهِ وبقيةُ الخارجين عن القانونِ على الأقدامِ. انتابَ رالف شعورٌ جيدٌ؛ فها هو يحقق نجاحاً آخر صباحَ الأحدِ. لقد حلَّ الربيع والمزراعون بدؤوا بالتوافدِ إلى سوقِ كينغزبريدج حاملين معهم منتجات الفصلِ الجديدِ. كانَ أفرادُ العصابةِ يحملون اثني عشرَ حملاً ومرطباناً من العسلِ وإبريقاً مختوماً من الكريمة والعديد من جُعبِ الخمرِ الجلديَّةِ. وكما يحدثُ عادةً فقد أصيبَ الخارجون عن القانون بجروحٍ ورضوضٍ طفيفةٍ من بعضِ أكثر ضحاياهم طيشاً.

كانت شراكةُ رالف مع تام ناجحةً بشكلٍ مذهلٍ؛ فقد كانت ساعاتٌ معدودةٌ من القتالِ السهلِ كفيلةً بتأمين مؤونةِ أسبوعٍ من العيشِ الرغد. كانوا يقضون بقيَّة الوقتِ في الصيدِ والشُربِ في الأماسي. وبالنسبةِ لرالف لم يعد هناك أقنانٌ وقِحون يتذمرون من مسألةِ حدودِ الأراضي أو يغشون في الإيجارِ. كان الشيءُ الوحيد الذي ينقصهم هو النساءُ وقد عالجوا هذا اليوم بخطفهم لفتاتين ممتلئتين. كانت الفتاتان أختين في حدودِ الثالثة والرابعة عشرة.

كان ندمُ رالف الوحيد هو أنَّه لم يقاتل من أجل الملكِ؛ فقد كانَ هذا طموحهُ مُذ كانَ طفلاً وما زال هذا الطموحُ متقداً في داخلهِ حتَّى الآن. إنَّ عملَ الخارجِ عن القانونِ سهلٌ جداً، ولذلكَ لم يشعر رالف بالفخر لقتلهِ أقناناً عُزلاً؛ فالصبيّ الذي في داخلهِ كان يتوقُ إلى المجدِ. ولم يُثبت لنفسهِ وللآخرين بعد بأنَّه يمتلكُ في داخلهُ روحَ فارسٍ حقيقي.

ولكنَّ رالف لم يكن ليسمحَ لهذهِ الأفكار بإحباطهِ. وبينما كانَ يصعدُ التلَّ الذي يُخفي وراءهُ المرعى العالي حيثُ مخبأهم تطلَّعَ قدماً إلى وليمةِ الليلةِ. سيشوونَ حملاً على سيخٍ ويشربون الكريما مع العسل. أمَّا الفتاتان فقد قررَ

رالف أن يجبرهما على الاستلقاءِ جنباً إلى جنب لترى كل واحدةٍ منهما أختها بينما الرجالُ يتناوبون عليهما. أثارتهُ الفكرةُ وجعلت قلبهُ يخفقُ بسرعةٍ.

اقتربوا من الأكواخِ الحجريةِ وفكَّر رالف بأنَّهم لن يتمكنوا من استخدامها لوقتٍ طويلٍ فالعشبُ قد بدأ ينمو والرعاةُ سيعودون قريباً. لقد أتى عيدُ الفصحِ باكراً هذا العام وهذا يعني أنَّ عيدَ العُنصرةِ سيحل بعد الأولِ من أيار/ مايو بقليلٍ، وسيتعين على الخارجين عن القانون أن يجدوا قاعدةً أخرى.

وعندما باتَ على بعدِ خمسين ياردةً من أقربِ كوخٍ صُدمَ رالف عندما رأى شخصاً يخرجُ منهُ.

أوقفَ رالف وتام حصانيهما واحتشدَ الخارجون عن القانونِ حولهما وأيديهم على أسلحتهم.

اقتربَ الرجلُ منهم ورأى رالف من ثيابهِ أنَّه كانَ راهباً. قال تام الذي كان بجانبِ رالف: «ماذا بحقِ السماءِ...؟»

رأى رالف أنَّ طرفَ أحد كُمي عباءة الراهبِ يتحرك بحريةٍ وعرفَ على الفورِ أنَّه الأخُ توماس من كينغزبريدج. سارَ توماس نحوهما كأنَّه يتوجه لملاقاتهما صدفةً في شارعٍ رئيسي. «مرحباً يا رالف»، قال لهُ. «هل تتذكرني؟»

قال تام لرالف: «هل تعرفُ هذا الرجل؟»

اقتربَ توماس من الجانبِ الأيمن لحصانِ رالف ورفعَ يدهُ اليمنى لمصافحتهِ. تساءل رالف في نفسهِ عمَّا يفعلهُ توماس هنا، ثمَّ خَلصَ إلى أنَّ راهباً بذراعٍ واحدةٍ لا يمكن أن يُشكل خطراً عليهم. وفي حيرةٍ مدَّ رالف يدهُ وصافحَ يدَ توماس المرفوعةَ. ثمَّ شعرَ رالفَ بيدِ توماس تنزلقُ نحو مرفقهِ.

ومن زاويةِ عينهِ رأى رالف حركةً قربَ الأكواخِ الحجريةِ. أمعنَ رالف النظرَ ورأى رجلاً يخرجُ من مدخلِ أقربِ كوخٍ ثمَّ لحقَ بهِ رجلٌ ثانٍ وثلاثة آخرون، ثمَّ انتبهَ رالف إلى أنهم يخرجون من جميعِ الأكواخَ وهم يضعون سهاماً على أقواسهم الطويلةِ التي حملوها معهم. أدركَ أنَّه وعصابتهُ قد وقعوا في كمينٍ ولكن في تلكَ اللحظةِ أطبقَ توماس على مرفقهِ بقوةٍ أكبر وبحركةٍ مفاجئةٍ وقويةٍ سحبهُ توماس عن حصانهِ.

صرخَ الخارجون عن القانونِ. وقعَ رالف على الأرضِ وقد استقرَّ على ظهرهِ. جفلَ حصانهُ غريف من الخوفِ. حاولَ رالف أن ينهض ولكن توماس جلسَ عليهِ كأنَّه شجرة مثبتاً إياه إلى الأرضِ ونامَ فوقهُ كأنَّهما عاشقان. «اثبت مكانكَ حتى لا تُقتل»، همسَ توماس في أذنِ رالف.

ثمَّ سمعَ رالف صوتَ وابلٍ من السهامِ تُرشَقُ بالتتابعِ من الأقواسِ الطويلةِ. كانت الضربات مميتةً وصوتها أشبه بعصفٍ مُفاجئٍ لعاصفةٍ رعديةٍ. كانَ الصخبُ هائلاً؛ لا بدَّ أنَّ هناكَ مئةَ رامٍ. يبدو أنَّهم حشروا أنفسهم في الأكواخِ، وكان إمساكُ توماس بذراعِ رالف إشارةً لهم للرمي.

فكَّرَ رالف بقتالِ توماس ولكنَّهُ تخلى عن الفكرةِ. فقد سمعَ صراخَ الخارجين عن القانونِ وقد أصابتهم السهامُ. لم يكن قادراً على رؤيةِ الكثير من مكانهِ على الأرضِ. سحبَ بعضُ الرجالِ سيوفهم إلَّا أنهم كانوا بعيدين عن الرُماةِ؛ فإن ركضوا باتجاهِ العدو سيرديهم قبلَ أن ينخرطوا في القتالِ معهم. هذهِ مجزرةٌ وليست معركة. سمعَ رالف وقعَ حوافر على الأرضِ وتساءل في نفسهِ إن كان تام قد انطلقَ لمواجهةِ الرُماةِ أم ولَّى الأدبار.

عمَّ الاضطرابُ المكان ولكن لم يدم طويلاً؛ فخلال بضعِ دقائق تكهنَ رالف بأنَّ الخارجين عن القانون قد انسحبوا انسحاباً كاملاً.

نهضَ توماس عن رالف وسحبَ خنجراً من تحتِ عباءتِهِ الكهنوتية ثمَّ قال: «لا تفكر بالأمرِ حتَّى».

وقفَ رالف ونظرَ إلى الرماةِ. كان يعرفُ الكثيرَ منهم: ديك بروير السمين وإدوارد بوتشر الشبق وبول بيل المولع باللهو وبيل واتكن المتجهم ومواطنون ملتزمون من كينغزبريدج. لقد أوقعَ بهِ تُجارُ المدينةِ، ولكن هذا لم يكن الجزء المثير للعجبِ في الأمرِ.

نظَرَ رالف إلى توماس وقال: «لقد أنقذتَ حياتي أيّها الراهب».

«فقط لأنَّ شقيقكَ طلبَ مني هذا»، أجابَ توماس بحدَّةٍ. «لو كانَ الأمرُ بيدي لمُتَّ قبلَ أن تقعَ على الأرضِ».

***

يقعُ سجنُ كينغزبريدج في قبو غيلد هول حيثُ الجدران حجرية والأرضُ قذرة ولا توجد أيّ نوافذ أو مواقد، ولهذا كان السجناءُ يموتون أحياناً من البردِ في الشتاءِ ولكن الوقتَ الآن أيار/ مايو ولذلك كانت عباءةُ رالف الصوفية كافيةً لإبقائه دافئاً في الليلِ. هناك بضعُ قطعٍ من الأثاث ككرسي ومقعدٍ وطاولةٍ صغيرةٍ استأجرها ميرثن من المأمورِ جون. على الجانبِ الآخر من البابِ الموصدِ والمصنوعِ من خشبِ البلوط مكتبُ المأمورِ جون حيثُ يجلسُ مع رجالهِ خلالَ أيامِ السوقِ في المدينةِ منتظرين استدعاءهم لحلِّ المشاكل.

كان آلان فرنهيل معهُ في الزنزانةِ ويعاني من إصابةٍ في فخذهِ جرَّاء سهمِ أحد رماةِ كينغزبريدج. لم يكن الجرحُ خطيراً إلّا أنَّ آلان لم يتمكن من الفرارِ على عكس تام المُختفي الذي فرَّ بجلدهِ.

كانَ هذا آخرَ يومٍ لهما في السجنِ؛ فالشريفُ سيصلُ غداً عندَ منتصفِ الظهرِ لأخذهما إلى شايرنغ. لقد حُكمَ عليهما بالموتِ غيابياً لاغتصابِ آنيت وللجرائمِ التي ارتكباها في قاعةِ المحكمةِ، والتي شهدَ عليها القاضي، ولجرحهما رئيسَ هيئةِ المحلفين وجرحِ ولفريك والهروبِ. عندما يصلانِ إلى شايرنغ سيُعدمان.

قبلَ ساعةٍ من حلولِ وقتِ الظهيرةِ أحضرَ والد رالف الغداءَ لهُ وكان مؤلفاً من لحمِ خنزير ساخن وخبزٍ طازجٍ وجعةٍ قويةٍ. أتى ميرثن معهما، وتكهنَ رالف أنَّ هذا هو الوداع.

وتأكدَ من صحةِ هذا التخمين عندما قالَ والدهُ: «لن نرافقكَ إلى شايرنغ».

وأضافت والدتهُ: «لا نريدُ أن نراكَ...» وانهارت ولكن رالف عرفَ ما أرادت قولهُ وهو أنّهما لن يرافقوه إلى شايرنغ ليروه وهو يُعدم.

شربَ رالف الجعةَ ووجدَ صعوبةً في تناولِ الطعام. كان في طريقهِ إلى المشنقةِ ولهذا بدا لهُ تناولُ الطعامِ أمراً عبثياً. علاوةً على هذا لم تكن لديهِ شهيةٌ للطعامِ على عكسِ آلان الذي أخذَ يأكل كأنّه لا يهتم لقربِ نهايتهِ.

جلَست العائلةُ في صمتٍ مُربكٍ، ورغمَ أنّها الدقائق الأخيرة التي سيقضونها معاً فإنّ ما من أحدٍ عرفَ ما عليهِ قولهُ. بكت مود في صمتٍ وبدا جيرالد غاضباً جداً وآلان فيرنهيل ضجراً وجلسَ ميرثن وقد أسند رأسهُ إلى يدهِ.

كان لدى رالف سؤالٌ واحدٌ لشقيقهِ، وتردّدَ في طرحهِ إلّا أنّه أدركَ الآن أنَّ هذهِ فرصتهُ الأخيرة. «عندما سحبني الأخ توماس عن حصاني ليحميني من السهامِ شكرتهُ على إنقاذِ حياتي»، قال رالف وهو ينظرُ إلى شقيقهِ ثمَّ تابع: «وقال توماس أنَّ الفضلَ في هذا يعود لكَ».

أومأ ميرثن برأسهِ.

«هل طلبتَ منهُ هذا؟»

«أجل».

«إذاً كنتَ تعلمُ بما سيحدث».

«أجل».

«إذاً... كيفَ اكتشفَ توماس مكاني؟»

لم يُجب ميرثن.

قال رالف: «لقد أخبرتهُ، هل هذا صحيح؟»

بدا والدهُ مصدوماً. «ميرثن! كيفَ أمكنكَ فعلُ هذا؟»

قال آلان فيرنهيل: «أيُّها الخنزير الخائن!».

قال ميرثن لرالف: «كنتَ تقتل الناسَ! فلاحون بسطاء وزوجاتهم وأولادهم! كان يجبُ وضع حدٍ لكَ».

تفاجأ رالف من أنَّ هذا الكلام لم يغضبهُ بل انتابهُ شعورٌ خانقٌ ثمَّ ابتلع ريقهُ وقال: «ولكن لماذا طلبتَ من توماس أن يُنقذَ حياتي؟ ألأنكَ تفضلُ رؤيتي مشنوقاً؟»

قالت مود: «رالف، لا تقل هذا»، وانخرطت في البكاءِ.

«لا أعلم»، قال ميرثن. «ربما أردتكَ أن تعيشَ لوقتٍ أطول».

«ولكنكَ خُنتني». اكتشفَ رالف أنَّه كان على حافةِ الانهيارِ، وقد أخذت الدموعُ تتجمعُ في عينيهِ وشعرَ بالضغطِ في رأسهِ. «لقد خنتني»، كرر رالف.

وقفَ ميرثن وقالَ بغضبٍ: «بحقِ الرَّبِّ أنتَ تستحقُ هذا!»

قالت مود: «لا تتشاجرا».

هزَّ رالف رأسهُ بحزنٍ وقال: «نحن لن نتشاجر. لقد ولَّت تلكَ الأيام».

فُتحَ البابُ ودخلَ المأمورُ جون ليقولَ معلناً: «لقد وصلَ الشريف».

ضمَّت مود رالف بين ذراعيها وتشبثت بهِ وهي تنتحبُ ليسحبها جيرالد بكلِّ لطفٍ بعد عدةِ دقائق.

سارَ جون ولحقَ بهِ رالف وقد تفاجأ من عدمِ ربطهِ أو تقييدهِ بالسلاسلِ. لقد هربَ قبلاً. ألم يكونوا خائفين من تكرارهِ لفعلتهِ؟ عبرَ رالف مكتبَ المأمورِ باتجاهِ الخارجِ وعائلتهُ من خلفهِ.

لا بدَّ أنَّ السماءَ قد أمطرت هذا اليوم لأنَّ ضوءَ الشمسِ البرَّاقِ قد ارتدَّ عن أسطحِ الطرقاتِ الرطبةِ ودفعَ هذا رالف إلى النظرِ بعينين شبهِ مغمضتين من شدَّةِ الوهجِ. وحالما اعتادَ على الوهجِ رأى حصانهُ غريف مُسرجاً ومستعداً. ملأ هذا المنظرُ قلبَ رالف بالسعادةِ فأمسكَ بزمامِ الحصانِ وهمسَ في أذنهِ: «لم تخُنّي قط أيُّها الفتى». شخرَ الحصانُ وضربَ بحافريهِ الأرضَ سعيداً بعودةِ سيدهِ.

كان برفقةِ الشريفِ العديدُ من المرافقين المدججين بالأسلحةِ على صهوات جيادهم. سيسمحون لرالف بركوبِ حصانهِ حتَّى شايرنغ ولكنهم سيشددون الحراسةَ عليهِ حتى لا يهرب. وهنا أدركَ رالف أنَّ الفرار غيرُ ممكن هذهِ المرة.

ثمَّ نظرَ رالف مجدداً إلى الشريفِ ورجالِه، وأدركَ أنهم لم يكونوا رجالَ الشريفِ بل رجالَ الإيرل رولاند، بل رأى الإيرل بنفسِهِ بشعرِهِ ولحيتِهِ السوداء على صهوةِ حصانِهِ الرمادي. تساءلَ رالف عمَّا يفعلهُ الإيرل هنا.

ومن دونِ أن ينزلَ عن صهوةِ حصانِهِ انحنى الإيرل وسلَّمَ المأمورَ جون ورقةً ملفوفةً. «اقرأ هذهِ الورقة إن كنتَ تستطيعُ القراءةَ»، قال رولاند وهو يتحدثُ من طرفِ فمِهِ كما باتَ يفعلُ بعدَ الحادثِ. «إنَّه أمرٌ ملكي بالعفو عن جميعِ المساجين في المنطقةِ بشرط أن ينضموا إلى جيشِ الملكِ».

صرخَ جيرالد: «مرحى». انخرطت مود في البكاء بينما نظرَ ميرثن من وراءِ كتفي المأمورِ جون وقرأ المرسومَ.

نظرَ آلان إلى رالف الذي قال: «ما الذي يعنيهِ هذا؟»

«يعني أننا حُرَّان»، قال رالف.

قال المأمور جون: «إن كانَ ما أقرأهُ في هذهِ الورقةِ صحيحاً فأنتما حُرَّان»، ونظرَ إلى الشريفِ قائلاً: «هل توافق على هذا؟»

«أجل»، أجاب الشريف.

«إذاً ليسَ لدي ما أضيفهُ. إنهما حُرَّان في مرافقةِ الإيرل»، وأعادَ المأمور لفَّ الورقةِ.

نظرَ رالف إلى شقيقِهِ ورآه يبكي، وتساءل في نفسِهِ إن كانت دموعه دموع فرحٍ أم يأسٍ؟

ولكن لم يكن هناكَ وقتٌ لأيِّ تساؤلاتٍ لأنَّ الإيرل رولاند قال: «هيا بنا. لقد انتهينا من الأمورِ الشكليَّةِ فلننطلق الآن. الملكُ في فرنسا وأمامنا طريقٌ طويلٌ!» ثمَّ همزَ حصانهُ وانطلقَ على الطريقِ الرئيسي.

همزَ رالف جانبي الحصانِ غريف فانطلقَ بحماسٍ في إثرِ الإيرل.

-41-

«لن تربح»، قال غريغوري لونغفيلو لرئيسِ الديرِ غودوين من مكانِهِ على كرسيٍّ في القاعةِ الكبيرةِ بمنزلِ رئيسِ الديرِ. «سيمنحُ الملكُ كينغزبريدج الإذنَ بالتحولِ إلى منطقةٍ إداريةٍ ذات امتيازاتٍ ملكية».

أمعن غودوين النظرَ إليهِ فقد كانَ المحامي الذي ربحَ قضيتين لهُ في

المحكمةِ الملكيّةِ؛ إحداهما قضيّةٌ ضدَ الإيرل والأخرى ضدَ رئيسِ النقابةِ، ولذلك إن أعلن مثلُ هذا البطل الهزيمةَ فلا بدَّ أنّها حتمية.

ولكن غودوين لن يقبل بهذا لأنَّ تحول كينغزبريدج إلى منطقةٍ إداريةٍ ملكيةٍ سيُهمّش دورَ الديرِ الذي حكمَ المدينةَ لمئاتِ السنين، ولا يمكن لغودوين أن يسمحَ بهذا فالمدينة موجودةٌ لخدمةِ الديرِ الذي بدورهِ يخدمُ الرَّبَّ، وإن أصبح الدير الآن جزءاً من المدينةِ فسيحكمه تجارٌ يخدمون ربَّ المالِ، وسيُذكرُ في كتابِ أعمالِ رؤساءِ الديرِ أنَّ رئيسَ الديرِ الذي سمحَ بحدوثِ هذا هو غودوين.

وسألَ غودوين في خيبةٍ: «هل أنتَ واثقٌ تماماً من هذا؟»

«أنا على ثقةٍ تامةٍ دوماً»، أجاب غريغوري.

اغتاظَ غودوين من جوابِ غريغوري فقد كان يُحبُّ سلوكهُ المغرور عندما كان يستهزئ بأعدائهِ ولكن عندما انقلبَ عليه شعرَ بالغيظِ الشديدِ.

قال غودوين في غضبٍ: «لقد قطعتُ كل هذهِ المسافةِ إلى كينغزبريدج لتخبرني بأنّكَ لا تستطيع القيامَ بما طلبتهُ منكَ؟»

«ولآخذَ أتعابي»، أضاف غريغوري بحبورٍ.

وهنا تمنى غودوين بشدَّةٍ لو أنّه يستطيعُ رميه بثيابهِ اللندنيةِ في بركةِ الأسماكِ.

كانَ اليوم سبت أسبوعِ عيد العُنصرةِ وغداً سيكونُ افتتاحُ سوقِ الصوفِ ولذلك احتشد في الحديقةِ الخضراءِ غربَ الكاتدرائية مئاتُ التجارِ ينصبونَ أكشاشهم وقد اختلطت أحاديثهم بصراخهم في ما يشبهُ الجلبةَ التي وصلت إلى القاعةِ العظيمةِ في منزلِ رئيسِ الديرِ حيثُ جلسَ غودوين وغريغوري على جانبي طاولةِ العشاءِ.

جلسَ فيليمون على مقعدٍ في إحدى زوايا المكان وقال لغريغوري: «هلّا شرحت للسيدِ رئيسِ الديرِ ما أوصلكَ إلى هذهِ النتيجةِ المتشائمةِ؟» كانت نبرةُ صوتِ فيليمون قد تغيرت الآن وباتت تشي بمزيجٍ من التضرعِ والاحتقارِ. لم يكن غودوين واثقاً من أنّه أحبَّ هذا التغير من نبرةِ فيليمون.

لم ينفعل غريغوري عندَ سماعهِ نبرةَ فيليمون بل قال: «بالطبع. ما أوصلني إلى هذهِ النتيجةِ وجودُ الملكِ في فرنسا».

قال غودوين: «ولكنَّه في فرنسا منذُ عامٍ تقريباً ولم يتغير أيُّ شيء».

«ستسمع عن وقوعِ أحداثٍ كثيرةٍ هذا الشتاء».

«لماذا؟»

«لا بدَّ أنَّكَ سمعتَ عن الغاراتِ الفرنسيةِ على المرافئِ الجنوبيةِ».

«أجل»، قال فيليمون. «لقد قالوا إنَّ البحارة الفرنسيين اغتصبوا راهباتٍ في كانتربري».

«إننا ندَّعي على الدوامِ بأنَّ العدو اغتصبَ راهباتٍ»، قال غريغوري في تغطرسٍ. «فهذا يدفعُ العوامَ إلى دعمِ الحربِ، ولكن ما فعلهُ الفرنسيون هو أنهم أحرقوا بورتسماوث، وتسببَ هذا بتعطيلِ حركةِ الشحنِ بالسفنِ. لا بدَّ أنَّكَ لاحظتَ هبوطَ سعرِ الصوفِ».

«بالتأكيد لاحظنا».

«وهذا يعودُ في جزءٍ منهُ إلى صعوبةِ شحنِهِ إلى إقليم الفلاندر. وارتفعَ نبيذِ بوردو للسببِ نفسِهِ أيضاً».

قال غودوين في نفسهِ: «ولكن حتَّى بسعرهِ القديم لم نكن قادرين على شرائه». إلَّا أنَّه لم يتفوه بكلمةٍ.

تابع غريغوري قائلاً: «يبدو أنَّ هذهِ الغارات ليست سوى مناوراتٍ أوليةٍ؛ فالفرنسيون يحشدونَ جيشاً للغزو، وأخبرنا جواسيسنا أنَّ قوامهُ حتَّى الآن يزيدُ على مئتي سفينةٍ راسيةٍ في مصبِ نهرِ زوين».

لاحظَ غودوين استخدام غريغوريَ لكلمةِ «جواسيسنا» كأنّه فردٌ من أفرادِ الحكومةِ. في الحقيقةِ كان غريغوري يعيد على مسامعهم إشاعاتٍ، إلَّا أنَّ كلامه بدا مُقنعاً. «ولكن ما علاقةُ الحربِ الفرنسيةِ بتحولِ كينغزبريدج إلى منطقةٍ إداريةٍ ملكيةٍ؟»

«السبب هو رغبةُ الملكِ بتحصيلِ مزيدٍ من الضرائب. إنَّه بحاجةٍ إلى المالِ، وقد حاججت نقابةُ الأبرشيةِ بأنَّ أحوال المدينة ستزدهرُ أكثر وبالتالي سيدفعون ضرائب أكبر إن تحرَرَ التجارُ من ربقِ سيطرةِ الديرِ».

«وهل صدَّقَ الملكُ هذا؟»

«لقد ثبتت صحتهُ قبلاً، ولهذا اخترعَ الملوك المناطقَ الإداريةِ الملكيةِ التي تخلقُ حركةً تجاريةً والتي بدورها تنتجُ عائداً من الضرائبِ».

«المالُ مجدداً»، فكرَ غودوين في تقززٍ. «ألا يوجد ما يمكننا فعلهُ؟»

«لا يمكننا أن نفعلَ شيئاً في لندن، ولذلكَ أنصحكَ بالتركيزِ على حلٍ في كينغزبريدج. هل يمكنكَ أن تقنعَ نقابةَ الأبرشيةِ بسحبِ الطلبِ؟ ما هي شخصيةُ كبير الشيوخِ؟ هل يمكنكَ رشوتهُ؟»

«خالي إدموند؟ إنَّه في صحةٍ سيئةٍ ومترديةٍ، ولكن ابنتهُ كاريس هي العقلُ المدبرُ وراءَ كلِّ هذا».

«أجل، تذكرتُ أنني رأيتها في المحاكمةِ، وشعرتُ بأنَّها متعجرفة».

وفكرَ غودوين بتجهمٍ في أنَّ غريغوري المغرور يرمي أحداً آخر بصفةِ الغرور. «إنَّها ساحرة»، قالَ غودوين.

«هل هي كذلك؟ قد يكون هذا مفيداً».

«لم أقصد هذا حرفياً».

قال فيليمون: «في الحقيقةِ يا سيدي الرئيس هناك إشاعاتٌ».

وارتفعَ حاجبا غريغوري في استغرابٍ: «هذا مثيرٌ!»

تابع فيليمون: «إنَّها صديقةٌ مُقربةٌ من امرأةٍ حكيمة تدعى ماتي، وهذهِ المرأة تقوم بصنعِ عقاقير وخلائط لسكانِ المدينةِ السُذج».

كان غودوين على وشكِ أن يتفوه بتعليقٍ مزدرٍ لتهمةِ السحرِ ولكنه قررَ أن يسكت؛ لا بدَّ أنَّ أيَّ سلاحٍ كفيلٍ بمواجهةِ مشروعِ المنطقةِ الإداريةِ الملكيةِ مُرسلٌ من عندِ الرَّبِّ. وفكّر في نفسهِ أنَّ فكرةَ استخدامِ كاريس للسحرِ أمرٌ واردٌ. من يعلم؟ قد يكون هذا صحيحاً.

قال غريغوري: «أرى أنَّك متردد. بالطبعِ إن كنتَ تحبُ نسيبتكَ...»

«كنتُ كذلكَ عندما كنا صغيرين»، قال غودوين وشعرَ بألمِ الندمِ على حماقاتِ الماضي. «ولكن يؤسفني القولُ إنَّها لم تكبر كامرأةٍ مؤمنةٍ بالرَّبِّ».

«في هذهِ الحالةِ...»

«يجب أن أبحث في هذا الأمرِ»، قال غودوين.

قال غريغوري: «هل يمكنني أن أقدمَ اقتراحاً؟»

كان غودوين قد ضاقَ ذرعاً باقتراحاتِ غريغوري إلَّا أنَّه لم يكن يملك الشجاعةَ على قولِ هذا. «بالطبعِ»، قال غودوين بتهذيبٍ مبالغٍ فيهِ.

«قد يكون البحث في أمرِ الهرطقةِ... قذراً، ولذلكَ لا يجب أن تلوثَ يديكَ فيه؛ فالناسُ قد يتوترون حيالَ التحدثِ إلى رئيسِ الديرِ في أمرٍ كهذا. قُم بتكليفِ أحدهم بهذهِ المهمةِ وليكن هذا الراهب المبتدئ على سبيلِ المثالِ»، وأشارَ غريغوري إلى فيليمون الذي أشرقَ وجههُ سعادةً. «لقد فاجأني بسلوكهِ... المتعقلِ».

وتذكرَ غودوين أن فيليمون من اكتشفَ نقطةَ ضعفِ الأسقف ريتشارد وعلاقته بمارجوري ولهذا فإنَّه الشخصُ الملائم لأداءِ هذهِ المهمةِ.

«حسناً»، قال غودوين. «فلتبحث عما قد يكون مفيداً لنا يا فيليمون».

«شكراً لكَ يا سيدي رئيسَ الديرِ»، قال فيليمون. «سيكون هذا من دواعي سروري».

***

صباحَ يومِ الأحدِ تدفَّقت حشودُ الناسِ إلى مدينةِ كينغزبريدج. وقفت كاريس تراقبهم وهم يعبرون جسرَ ميرثن، الذي كان بعرضِ جسرين، على أقدامهم أو على أحصنتهم أو في عرباتٍ بعجلتين أو أربع عجلاتٍ تجرها جيادٌ أو ثيرانٌ ومُحمَّلةٌ بالبضائعِ باتجاهِ سوقِ الصوفِ. وملأ المشهدُ قلبَ كاريس بالسعادةِ. لم يُقم حفلُ افتتاحٍ كبيرٍ للجسرِ بعد فالعملُ عليه لم ينتهِ رغمَ أنَّه كان صالحاً للاستخدامِ والفضلُ في هذا يعودُ إلى الطريقِ الخشبي المؤقت، ولكن الناس تداولوا أحاديث حول أنَّه افتتحَ وأنَّ الطريقَ إلى المدينةِ بات آمناً من الخارجين عن القانونِ. أتى الجميع بمن فيهم بونافينتورا كارولي.

اقترحَ ميرثن طريقةً مختلفةً لجمعِ تعاريفِ الجسرِ وتبنت نقابةُ الأبرشيةِ هذهِ الطريقة على الفور. وينصُّ اقتراحُ ميرثن على استبدالِ الكشكِ عندَ نهايةِ الجسرِ، الذي يسبب الكثيرَ من الازدحامِ بعشرةِ أكشاكٍ مؤقتةٍ على جزيرةِ ليبر التي تقعُ بينَ الجسرين. وبهذهِ الطريقةِ سلَّمَ معظمُ الناسِ التعاريف من دونِ الاضطرارِ إلى الخروجِ عن مسارهم. «لا يوجد حتَّى صفُّ انتظارٍ»، تحدَّثت كاريس إلى نفسها بصوتٍ عال.

كان الطقسُ مشمساً ومعتدلاً دونَ أن يكون هناكَ أيّ بوادر على هطولِ أمطارٍ. سيحققُ السوقُ هذا العام انتصاراً كاسحاً.

وعندما ينتهي السوقُ، أيّ بعدَ أسبوعٍ من اليومِ، ستتزوج من ميرثن.

مازالت مسألةُ الزواجِ تُضايقها، ولم تتوقف فكرةُ خسارةِ استقلاليتها والتحول إلى مُلكيةِ شخصٍ آخر عن إخافتها رغمَ عِلمها التام بأنَّ ميرثن ليسَ من النوعِ الذي قد يضايقُ زوجتَهُ. وفي الحالاتِ النادرةِ التي تحدثت فيها عن شعورها هذا إلى غويندا أو إلى ماتي وايز كانتا تقولان لها إنَّها تفكرُ كرجلٍ. حسناً، فليكن تفكيرها كتفكيرِ الرجالِ ولكن هذا ما تشعرُ بهِ حقاً.

ولكن من جهةٍ ثانيةٍ بدت لها فكرةُ خسارةِ ميرثن أمراً أكثرَ إحباطاً. إن رحلَ

ميرثن فما الذي سيبقى لديها. لن يبقَى لديها سوى العمل في صناعةِ الأقمشةِ وهذا لم يكن ما تطمحُ إليه. عندما أعلنَ مؤخراً عن نواياه بمغادرةِ المدينةِ إلى فلورنسا بدا لها المستقبلُ فارغاً على حينِ غرةٍ، وأدركت وقتها أنَّ عدمَ الزواجِ من ميرثن أسوأ بكثير من الزواجِ منهُ.

على الأقلِّ هذا ما كانت تقولهُ لنفسها في أكثرِ لحظاتها تفاؤلاً. ولكنها أحياناً عندما تستلقي صاحيةً في منتصفِ الليلِ ترى نفسها تتراجعُ في الدقيقةِ الأخيرةِ أو وسط المراسمِ وترفضُ تقديمَ نذورها وتندفعُ خارجةً من الكنيسةِ وسطَ دهشةِ وذعرِ الحاضرين جميعاً.

ولكن ها هي الآن في ضوءِ النهارِ تشعرُ بأنَّ كل تلكَ الأفكار محضُ هُراءٍ، وأنَّ كلَّ شيءٍ سيسيرُ على نحو أفضل، وستتزوجُ من ميرثن وستكون سعيدةً.

غادرت ضفةَ النهرِ وسارت عبرَ شوارعِ المدينة إلى الكاتدرائيةِ التي اكتظت بالمؤمنين المنتظرين مراسمَ قداسِ الأحدِ. تذكرت كيفَ أن ميرثن لامسها وراء أحدِ هذهِ الأعمدةِ، وشعرت بالحنينِ إلى ذلكَ الشغفِ الذاهلِ الذي ميّزَ بدايةَ علاقتهما؛ إلى المحادثاتِ الطويلةِ المحتدّةِ والقُبلِ المسروقةِ.

عثرت عليهِ بالقربِ من الصفوفِ الأولى حيثُ يجلسُ المصلون. كان يتفحصُ الممرَّ الجنوبي لجوقةِ المرتلين حيثُ انهارَ قسمٌ من الكاتدرائيةِ أمامَ أعينهم منذُ عامين. تذكرت كيف صعدت مع ميرثن إلى سقيفةِ القنطرةِ واسترقا السمعَ إلى المحادثةِ الرهيبةِ التي جرت بينَ الأخ توماس وزوجتِهِ المهجورةِ. كانت تلكَ المحادثة السببَ في بلورةِ جميعِ مخاوفها ودفعها إلى رفضِ ميرثن. طردت كاريس هذهِ الفكرة من ذهنها. «يبدو أنَّ الإصلاحات على القنطرةِ قد انتهت الآن»، قالت لميرثن وقد حزرت بما كانَ يفكرُ.

ارتسمت على وجههِ نظرةٌ مشككةٌ: «إنَّ عامين زمنٌ قصيرٌ في حياةِ أيّ كاتدرائيةٍ».

«لا توجد أيُّ علائم تداعٍ».

«وهذا ما يزيدُ من صعوبةِ الكشفِ عن أيِّ مشكلةٍ؛ فنقاطُ الضعفِ غير الواضحةِ للعيانِ تعملُ لسنواتٍ ومن دون أن يلحظها أحدٌ وفجأة تحلُّ الكارثةُ وينهارُ جزءٌ ما».

«قد لا يكون هناكَ أيُّ نقاط ضعفٍ».

«حتماً هناكَ نقاطُ ضعفٍ»، قال لها بشيءٍ من نفادِ الصبرِ. «هناكَ سببٌ وراءَ

حدوثِ الانهيارِ قبلَ عامين، ونحن لم نكتشف هذا السبب حتَّى الآن، وهذا يعني أننا لم نقم بمعالجتِهِ. إن لم نكتشفهُ ونعالجهُ فسيظلُ الضعفُ موجوداً».

«ربما أصلحَ الضعفُ نفسهُ بنفسهِ بشكلٍ طبيعي».

كانت تحاولُ المجادلةَ فقط إلَّا أنَّ ميرثن أخذَ كلامها بجديَّةٍ. «عادةً، لا تُصلحُ الأبنيةُ نفسها بنفسها، ولكنكِ قد تكونين على حقٍ فمثلُ هذا الاحتمالِ واردٌ. ربما هناك تسريب مائي في مكانٍ ما، من ميزابٍ مسدودٍ بطريقةٍ ما مثلاً، وبعدَ الإصلاحات يتحول جريان الماء باتجاهٍ آخرٍ غير مؤذٍ».

بدأ الرهبان يدخلونَ الكنيسةَ في رتلٍ وهم يغنون والتزمَ المُصلون الهدوء. ظهرت الراهباتُ من مدخلٍ مختلفٍ، وعالياً نظرت إحدى الراهبات المبتدئات بوجهها النحيلِ والجميلِ وسطَ رتلٍ من الرؤوسِ المغطاةِ؛ كانت إليزابيث كلرك. رأت ميرثن وكاريس معاً، ولمعت عيناها بشيءٍ من الخُبثِ أرسلَ في أوصالِ كاريس رعدةً، ثمَّ أحنت إليزابيث رأسها واختفت تحت ردائها الكهنوتي.

«إنَّها تكرهكِ»، قال ميرثن.

«تعتقدُ أنني السببُ في عدمِ زواجكَ منها».

«إنَّها على حقٍ».

«لا، إنَّها ليست كذلك. كنتَ تستطيع الزواجَ بمن تريد».

«ولكن لم أكن أريد أحداً سواكِ».

«لقد تلاعبتَ بإليزابيث».

«اعتقدتُ بأنني كنتُ معجباً بها»، قال ميرثن بندمٍ. «كنتُ أحبُّ الحديثَ معها بخاصَّةٍ بعدَ أن أخذتِ تعاملينني ببرودٍ».

شعرت كاريس بالضيقِ وقالت: «أعلم، ولكن إليزابيث تشعرُ بأنَّها خُدعت. إنَّ الطريقةَ التي تنظرُ فيها إليّ تصيبني بالتوترِ».

«لا تخافي. إنَّها راهبةٌ الآن، ولا يمكنها أذيتكِ».

صمتا لبرهةٍ في مكانهما جنباً إلى جنبٍ وكتفاهما تتلامسان بكلِّ حميميةٍ وشاهدا المراسم. جلسَ الأسقف ريتشارد على العرشِ عندَ الطرفِ الغربي مترئساً المراسمَ. تعلمُ كاريس أن ميرثن يحبُّ رؤيةَ مثل هذهِ المراسمِ، ولطالما انتابهُ شعورٌ جيدٌ بعد حضورهِا، واعتادَ القولَ على الدوامِ إنَّ هذا هو الشعور الذي يُفترضُ بالكنيسةِ أن تمنحهُ. كانت كاريس تحضرُ المراسمَ لأنَّ الناس سيلاحظون غيابها وسيقولون إنَّها تمتلكُ شكوكاً حيالَ الكنيسةِ. كانت تؤمنُ

بالرَّبِّ إلَّا أنَّها لم تكن واثقةً تماماً من أنَّه يكشفُ عن نواياهِ للرجالِ فقطِ كابن عمتها غودوين، وتساءلت في نفسها عن السبب الذي قد يدفعُ بالرَّبِّ إلى طلبِ التمجيدِ. يُطالبُ الملوكُ والإيرلات بعبادتهم وكلما صغرُ مقامهم طالبوا بتقديرٍ أكبر. بدا لها أنَّ الرَّبَّ العظيم لن يهتم إن قامَ سكانُ كينغزبريدج بتسبيحهِ كما لن تهتم هي إن كانَ هناكَ غزالٌ في الغابةِ يهابها. كانت تُفصحُ أحياناً عن هذهِ الأفكارِ، ولكن ما من أحدٍ كان يأخذها بجديَّةٍ.

وغرقت في أفكارها عن المستقبلِ. كانت جميعُ الدلائلِ جيدةً وتشيرُ إلى أنَّ الملكَ سيمنحُ كينغزبريدج امتيازَ المنطقةِ الإداريةِ الملكيةِ، وسيصبحُ والدها العمدة على الأغلب إن استعادَ عافيتهُ، وستزدهرُ تجارةُ الأقمشةِ التي بدأتها، وسيصبحُ مارك ويبر غنياً. ومع الازدهارِ المتنامي يمكنُ لنقابةِ الأبرشيةِ أن تبني مكاناً لتجارةِ الصوفِ يمكنُ للجميعِ العملُ فيه براحةٍ وبعيداً عن الطقسِ السيئ. يُمكن لميرثن أن يصممَ هذا المبنى، ولكن حتى وإن ارتاحَ الديرُ من هذهِ الأعباءِ فإنَّ غودوين لن يشكرها أبداً.

وصلت المراسمُ إلى نهايتها وبدأ الرهبان والراهباتُ بالخروجِ في رتلٍ من الكنيسةِ. خرجَ أحدُ الرهبانِ المبتدئينَ من الصَّفِّ واقتربَ من المُصلين. كانَ فيليمون وتفاجأت كاريس عندما اقتربَ منها. «هل يمكنني أن أتحدثَ معكِ؟»

وكبحت كاريس رعدةً سرت في أوصالها فلطالما شعرت كاريس بوجودِ شيءٍ مُنفرٍ في شقيقِ غويندا. «ما الأمر؟» أجابت وبالكادِ كانت إجابتها مهذبةً.

«أريدُ طلبَ نصيحتكِ»، قال لها وهو يحاولُ الابتسامَ بطريقةٍ ساحرةٍ. «أنتِ تعرفين ماتي وايز».

«أجل».

«ما رأيكُ بطرقها؟»

أمعنت كاريس النظرَ إليهِ وتساءلت في نفسها عمَّا كان يجري، وقررت أنَّه من الأفضلِ لها أن تدافعَ عن ماتي. «هي بالطبعِ لم تدرسِ في كتبِ الأقدمين ولكن، ورغمَ هذا، فإنَّ علاجاتها ناجعةٌ، وهي أحياناً أفضل من علاجاتِ الرهبانِ. أعتقدُ أنَّ السببَ في هذا يعودُ إلى اعتمادها على ما كان ناجعاً قبلاً بدلاً من الاستنادِ إلى نظريةِ خلائطِ الجسدِ».

كانَ الناسُ الواقفين بالقربِ يستمعونَ في فضولٍ، وتطفَّلَ بعضهم فانضمَّ إلى الحديثِ.

«لقد أعطت ابنتنا نورا خلطةً لخفضِ حرارتها»، قالت مادج ويبر.

قال المأمورُ جون: «عندما كَسَرتُ ذراعي ساعدني دواؤها على تسكينِ الألمِ في حين قامَ الحلاق ماثيو بتجبير ذراعي».

وقال فيليمون: «ما هي الرقيات التي تتلفظُ بها عندما تصنعُ أدويتها؟»

«إنَّها لا تقومُ بالرقي!» قالت كاريس في سخطٍ. «إنَّها تطلبُ من الناسِ أن يصلوا عندما يأخذون أدويتها لأنَّها ترى أنَّ الرَّبَّ هو الشافي».

«هل يُمكن أن تكونَ ساحرةً؟»

«لا! يا لها من فكرةٍ غبيةٍ».

«وصلت شكوى بحقها إلى المحكمةِ الكنسيةِ».

وسرت رعدةٌ في أطراف كاريس: «ممن الشكوى؟»

«لا يمكنني الإفصاح ولكن طُلبَ مني أن أستقصي في الأمرِ».

شعرت كاريس بالحيرةِ، وتساءلت عمن قد يكون عدو ماتي ثمَّ قالت لفيليمون: «حسناً، أنتَ ومن بينِ جميعِ الناسِ تعرفُ قيمةَ ماتي. لقد أنقذت حياةَ أختكَ عندما أنجبت ابنها سام. كانت غويندا ستنزف حتَّى الموتِ لو لم تنقذها ماتي».

«على ما يبدو».

«يبدو؟ إنَّ غويندا حيَّةٌ، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«أجل، بالطبعِ. إذاً، أنتِ واثقةٌ من أنَّ ماتي لا تخاطبُ الشيطانَ؟»

لاحظت كاريس أنَّ فيليمون طرحَ هذا السؤالَ بنبرةٍ أعلى كأنَّه أراد من جميعِ الحاضرينِ سماعهُ. شعرت كاريس بالحيرةِ إلَّا أنَّها لم تتردد في إجابتها: «بالطبعِ أنا واثقةٌ وإن أردتَ يمكنني أن أقسمَ على هذا».

«لا داعي لذلك»، قال فيليمون بلطفٍ. «شكراً لكِ على نصيحتكِ». ثمَّ أخفضَ رأسهُ كأنَّه ينحني وابتعدَ.

سارت كاريس وميرثن نحو المخرجِ. «يا لهُ من هراءٍ»، قالت كاريس. «ماتي ساحرةٌ!»

بدا ميرثن مضطرباً وقال: «هل تعتقدين أن فيليمون يريدُ دليلاً لتجريمها؟»

«أجل».

«إذاً، لماذا أتى وطلبهُ منكِ؟ لا بدَّ أنَّه تكهنَ بأنَّكِ ومن بينِ جميعِ الناسِ سترفضين التهمةَ. لمَ قد يكون مهتماً بتبرئةِ ساحتها؟»

«لا أعلم».

عبرا الممشى الغربي العظيم إلى الحديقةِ في الخارج. كانت الشمسُ ساطعةً فوقَ مئاتِ الأكشاكِ المكتظةِ بالبضائعِ الملونةِ. «لا أجدُ منطقاً في ما حدث»، قال ميرثن. «وهذا يقلقني».

«لماذا؟»

«يبدو لي الأمرُ أشبه بمشكلةِ الضعفِ في الممرِ الجنوبي للكنيسةِ. فإن لم تتمكني من كشفهِ فسيتابعُ عملهُ في تقويضكِ دونَ أن تعرفي متى سينهارُ كلُّ شيءٍ حولكَ».

***

لم يكن القماشُ الذي تبيعهُ كاريس في كشكها بجودةِ القماشِ الذي يبيعهُ لورو فيورينتينو رغمَ أنَّ هذا الفرقَ لا يظهر للناظرِ العادي بل لعينِ الخبير في مجالِ الصوفِ. لم يكن نسيجُ أقمشةِ كاريس بمتانةِ نسيجِ الأقمشةِ الإيطاليةِ وهذا يعود إلى أنَّ الأنوال الإيطاليةَ أكثرُ تطوراً. كانَ لونُ القماشِ زاهياً كالقماشِ الإيطالي إلَّا أنَّه لم يغطِّ القماشَ بشكلٍ متساوٍ، وهذا بلا شكٍ يعودُ إلى كون الصَّباغين الإيطاليين أكثرُ مهارةً. وبسببِ هذا كلِّهِ تقاضت كاريس مبلغاً أقلَّ بُعشرِ ما كانَ يتقاضاه لورو.

على الرغم من كلِّ هذهِ الفروقاتِ كانَ قماشُ كينغزبريدج القرمزي من أفضلِ الأقمشةِ القرمزية الإنكليزيةِ وازدهرت صناعتهُ بسرعةٍ. باعَ مارك ومادج القماشَ بالمفرقِ. كانا يقيسانِ ويقصَّان للزبائنِ بينما تسلمت كاريس أمور العملِ مع تجارِ الجملةِ وتفاوضت مع تجارٍ من وينشستر وغلوسستر وحتَّى من لندن على عروضٍ مخفضةٍ لثوبٍ أو عدَّةِ أثوابٍ من القماشِ. بحلولِ منتصفِ يوم الإثنينِ علمت بأنَّها ستبيعُ كلَّ بضاعتها قبلَ أن ينتهي أسبوع السوقِ.

مع تباطؤ سيرِ العملِ خلالَ فترةِ الغداءِ تجولت كاريس في السوقِ في شعورٍ كبيرٍ بالفخرِ. لقد تغلَّبت على جميع المشاق التي اعترضت طريقها وكذلكَ فعلَ ميرثن. توقفت عندَ كشكِ بيركن لتتحدثَ إلى سكانٍ ويغلي. حتَّى غويندا حققت نصراً؛ فها هي قد تزوجت من ولفريك رغمَ كلِّ الاستحالةِ التي بدا عليها الأمرُ سابقاً، ورزقت بطفلها سام الذي يبلغُ من العمرِ الآن عاماً ويجلسُ على الأرضِ بكلِّ حبورٍ وسعادةٍ. كانت آنيت تبيعُ البيضَ على طبقٍ كما اعتادت أن تفعلَ دوماً، وغادرَ رالف إلى فرنسا للقتالِ إلى جانبِ الملكِ وقد لا يعود أبداً.

وفي أقصى زاويةٍ من المكانِ رأت كاريس والدَ غويندا جوبي يبيعُ فراءَ

السناجبِ. لطالما كانَ جوبي رجلاً شريراً إلّا أنّه لم يعد قادراً على إيذاءِ غويندا بعد الآن.

توقفت كاريس عندَ كُشكِ والدها. كانت قد أقنعتهُ بشراءِ الصوفِ بكمياتٍ أقل هذا العام. قد لا ينتعشُ سوقُ الصوفِ العالمي إن استمرَّ الإنكليز والفرنسيون بغزو بعضهم مرافئ بعض وإحراقِ السفن. «كيفَ هو سيرُ العملِ؟» سألتهُ.

«مستقرٌ»، قال لها. «أعتقدُ أنني أحسنتُ الحكمَ على الأمورِ هذا العام». كان قد نسي أنّه لم يكن حُكمهُ بل حُكمَ كاريس التي أشارت عليهِ بتوخي الحذر، ولكن كاريس لم تمانع قولهُ هذا.

ظهرت طبّاختهم تاتي حاملةً غداءَ إدموند الذي كانَ قِدراً من يخنةِ لحمِ الضأنِ ورغيفاً من الخبزِ وإبريقاً من الجعةِ. كانَ مُهماً جداً أن يظهروا بمظهرِ الأثرياءِ ولكن من دونِ المبالغةِ في الأمرِ. كانَ إدموند قد قال لكاريس منذ سنواتٍ عديدة إنّ الزبائن، ورغمَ حرصهم على الشراءِ من تاجرٍ ناجحٍ، كانوا يمتعضون من فكرةِ المساهمةِ في زيادةِ ثروةِ أحدٍ له مظهر شديد الثراءِ.

«هل أنتِ جائعةٌ؟»

«أتضورُ جوعاً».

وقفَ إدموند وأمسكَ بقدرِ اليخنةِ ولكنّه ترنّحَ ونمَّ عنهُ صوتٌ غريبٌ ما بينَ الزمجرةِ والصرخةِ ثمَّ سقطَ على الأرضِ.

صرخت الطبّاخةُ.

صرخت كاريس: «أبي!» ولكنها كانت تعلمُ أنّه لن يجيبها. فقد عرفت على الفورِ من الطريقةِ التي وقعَ فيها على الأرضِ ككيسٍ من البصلِ أنّه قد غابَ عن الوعي. قاومت كاريس رغبةً شديدةً في الصراخِ. ركعت بقربهِ. كانَ على قيدِ الحياةِ لكنه يتنفسُ بصعوبةٍ. أمسكت بمعصمهِ وتحسست نبضهُ. كان قوياً ولكنّه بطيء. بدا وجههُ شديدَ الاحمرار رغمَ أنّه كذلكَ على الدوامِ إلّا أنّه بدا الآن أكثر احمراراً.

قالت تاتي: «ما الأمرُ؟ ماذا حدثَ؟»

أجبرت كاريس نفسها على التحدثِ بهدوءٍ: «لقد أصيبَ بنوبةٍ. اذهبي وأحضري مارك ويبر ليحملَ والدي إلى المستشفى».

ركضت الطباخةُ واحتشدَ الناسُ من الأكشاكِ المجاورةِ. ظهرَ ديك بروير وقال: «إدموند المسكين، ما الذي يمكنني فعلهُ؟»

كان ديك عجوزاً وسميناً جداً على حملِ إدموند. قالت كاريس له: «إنَّ مارك في طريقِهِ إلى هنا ليأخذهُ إلى المستشفى». وبدأت تبكي. «آمل أن يكونَ على ما يرام».

ظهرَ مارك ورفعَ إدموند بسهولةٍ حاملاً إياه على ذراعيهِ بكلِ لطفٍ وسارَ بهِ إلى المستشفى شاقاً طريقهُ بينَ الحشدِ وهو يقول: «ابتعدوا من هنا! ابتعدوا من فضلكم. رجلٌ مصابٌ. رجلٌ مصابٌ».

لحقت كاريس بمارك في اضطرابٍ، ولأنَّها بالكادِ كانت قادرةً على الرؤيةِ من بينِ دموعها لزمت السيرَ وراءَ ظهرِ مارك العريض. وصلا إلى المستشفى ودخلا. شعرت كاريس بالامتنان لرؤيةِ الوجه المتغضن للراهبةِ العجوز جولي.

«أحضري الأم سيسيليا بأسرع ما يمكنكِ»، قالت كاريس لها، وهرعت الراهبةُ العجوز بينما وضعَ مارك إدموند على فراشٍ من القشِّ قربَ المذبح.

كان إدموند ما يزال غائباً عن الوعي مغلقَ العينين ويتنفسُ بصعوبةٍ. تحسست كاريس جبهتهُ. لم تكن باردةً ولا حارَّةً. تساءلت في نفسها عمَّا قد يكون الخطب. حدثَ كل شيءٍ بشكلٍ مفاجئ؛ فقبلَ دقائقَ معدودةٍ كانَ يتحدثُ إليها بشكلٍ طبيعي ثمَّ شعرت بهِ يفقد الوعي. كيف لمثلِ هذا أن يحدث؟

دخلت الأمُّ سيسيليا وهي تفورُ بالطاقةِ الباعثةِ على الطمأنينةِ. ركعت بالقربِ من الفراشِ وجسَّت قلبَ إدموند ثمَّ نبضهُ. أصاخت السمعَ إلى تنفسهِ ولمست وجهه. «أحضري لهُ وسادةً وبطانيةً»، قالت لجولي. «ثمَّ أحضري أحدَ الرهبان الأطباءِ».

وقفت سيسيليا ونظرت إلى كاريس. «لقد أصيبَ بنوبةٍ»، قالت لها. «قد يتعافى منها. كل ما بوسعنا فعلهُ هو العملُ على راحتهِ. قد يقترحُ الطبيبُ فصدَ دمهُ ولكن ما عدا هذا ما من علاجٍ سوى الصلاة».

لم يكن هذا كافياً بالنسبةِ إلى كاريس التي قالت: «سأذهبُ إلى ماتي».

هرعت كاريس خارجةً من المبنى. تفادت المرورَ بالسوقِ وقد تذكرت أنَّها فعلت الأمرَ عينهُ منذُ عامٍ عندما هرعت لإحضار ماتي من أجلِ غويندا التي كانت توشكُ على الموتِ من النزيفِ بعدَ الولادةِ، ولكن المريضَ هذهِ المرة والدُها ولهذا انتابها شعورُ هلعٍ مختلف. آنذاك كانت قلقةً بشكلٍ يائسٍ على غويندا إلَّا أنَّها الآن تشعرُ كأنَّ العالمَ من حولها ينهار. أثارَ فيها الخوفُ من موتِ والدها شعوراً مريعاً كانت تشعرُ بهِ أحياناً في أحلامها عندما ترى نفسها عالقةً على سطحِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج من دونِ طريقٍ للنزولِ أو القفزِ.

ساعدها مجهودُ الركضِ عبرَ الشوارعِ على الهدوءِ قليلاً، وعندما وصلت إلى منزلِ ماتي كانت قد تمالكت أعصابها أخيراً. ستعرفُ ماتي ما يجبُ القيام بهِ. ستقول: «لقد رأيتُ هذا قبلاً وأعلمُ ما الذي سيحدثُ بعدَ هذا. إليكِ هذا العلاج المفيد».

قرعت كاريس على البابِ. لم تسمع جواباً فورياً على الطرقِ فنفدَ صبرها وحاولت أن تفتحَ الرتاجَ ولكنها وجدت البابَ مفتوحاً. اندفعت إلى الداخل وهي تقول: «ماتي تعالي إلى المستشفى على الفور. والدي مريض!»

كانت الغرفةُ الأماميةُ فارغةً. أزاحت كاريس الستارةَ التي تفصلُ الغرفةَ عن المطبخِ. لم تكن ماتي هناك ونادت كاريس بصوتٍ أعلى: «لمَ أنتِ خارجَ المنزلِ في هذهِ اللحظةِ بالذاتِ؟» ثمَّ أخذت تنظرُ حولها بحثاً عن أيِّ دليلٍ عن المكانِ التي قد تكون ماتي ذهبت إليهِ، ثمَّ لاحظت أنَّ الغرفةَ تبدو خاليةً من الأثاثِ وقد اختفت جميعُ المرطباناتِ والزجاجاتِ من على الرفوفِ. لم يكن هناكَ أثرٌ للمدقِ والهاونِ اللذين استخدمتهما ماتي في طحنِ المكوناتِ، ولا لقدورها الصغيرةِ المخصصةِ للتذويبِ والغلي، ولا لسكاكين تقطيعِ الأعشابِ الطبيَّةِ. استدارت كاريس إلى النصفِ الأمامي من المنزلِ ورأت أنَّ أغراضَ ماتي الشخصيَّةَ قد اختفت: علبةُ الخياطةِ وكؤوسها الخشبيّةُ الصقيلةُ المخصَّصة للنبيذِ وشالها المطرز المُعلق على الحائطِ للزينةِ والمشطُ العظمي المزخرف الذي كانت تحتفظُ بهِ.

لقد حزمت ماتي أغراضها ورحلت.

وعرفت كاريس السببَ. لا بدَّ أنَّها سمعت بأسئلةِ فيليمون في الكنيسةِ البارحةَ. عادةً ما تُقامُ المحاكمُ الكنسيةُ في سبتِ أسبوعِ سوقِ الصوفِ. منذُ عامين فقط وفي اليومِ نفسه قامَ الرهبان بمحاكمةِ نيل المجنونة بتهمةِ الهرطقةِ السخيفةِ.

بالطبعِ لم تكن ماتي مهرطقةً لكن، وكما ستقولُ الكثير من العجائزِ، فإنَّ إثباتَ هذا أمرٌ صعبٌ. لقد أحصت كاريس المرَّات التي نجت فيها النساءُ من مثلِ هذهِ المحاكماتِ ووجدت الجوابَ الذي وصلت إليه مخيفاً، ولذلكَ، ومن دونِ أن تخبرَ أحداً، حزمت حقائبها وغادرت المدينةَ. وربما عثرت على فلاحٍ عائدٍ إلى قريتهِ بعدَ بيعِ بضاعتهِ وأقنعتهُ بأخذها على عربتهِ التي يجرها ثورٌ. تخيلتها كاريس تغادرُ مع أوّل خيوطِ الفجرِ وصندوقها إلى جانبها في العربةِ وقد سحبت قلنسوةَ عباءتها إلى الأمامِ لتخفي وجهها. لا يمكن لأحدٍ أبداً أن يتكهن بالمكان الذي ذهبَت إليهِ.

«ما الذي سأفعلهُ الآن؟» قالت كاريس في الغرفةِ الفارغةِ.

كانت ماتي أكثر أفراد مدينة كينغزبريدج علماً بكيفيةِ مساعدةِ المرضى، ولذلك وبينما يرقدُ إدموند غائباً عن الوعي في المستشفى فإنَّ هذا أسوأ وقتٍ لاختفائها.

وهنا انتاب كاريس اليأس.

جلست على كرسي ماتي وهي ما تزال تلهثُ من الجري. أرادت أن تعودَ إلى المستشفى ولكن لم يكن هناكَ فائدةٌ من هذا، فهي لن تتمكنَ من مساعدةِ والدها. لا يمكن لأحدٍ أن يساعدهُ الآن.

وفكرت في نفسها بأنَّه لا بدَّ أنَّ يكون هناكَ معالجٌ آخر في المدينةِ؛ فلا أحد يعتمدُ على الصلواتِ والمياهِ المقدسةِ أو فصدِ الدمِ بل يستخدمون علاجاتٍ بسيطةٍ أُثبتت فاعليتها. وأدركت وهي جالسةٌ في منزلِ ماتي الفارغ أنَّ ما من أحدٍ قادرٍ على أخذِ دور ماتي؛ فما من أحدٍ يعرفُ طرقها ويؤمن بفلسفتها العمليَّةِ. لم يكن هناكَ أحدٌ آخر سوى كاريس.

هبطت الفكرةُ عليها كوحي يُغشي البصرَ، وجلست في سكونٍ وحيرةٍ مما يعنيهِ هذا. كانت تعرفُ مكوناتِ وصفاتِ ماتي الرئيسية: وصفةُ تخفيفِ الألمِ، ووصفةٌ للإقياءِ، وواحدةٌ لتطهيرِ الجروحِ، وأخرى لتخفيضِ حرارةِ الحمى. كانت تعلم باستخداماتِ الأعشابِ المعروفةِ: الشبت لعسرِ الهضمِ والشُمار للحمى والسَّذاب لانتفاخ البطنِ والبقلة لضعفِ الخصوبةِ. كانت تعرفُ أيضاً العلاجات التي لم تقم ماتي بوصفها قط: كماداتٌ مصنوعةٌ من الروثِ وأدويةٌ تحوي على الذهبِ والفضةِ وآياتٌ تُكتبُ على رقٍّ وتُربطِ بالعضو المصابِ.

وكانت تملكُ حدساً طبيعياً حيالَ مثلِ هذهِ الأمور، هذا ما قالتهُ الأم سيسيليا عندما طلبت من كاريس أن تصبحَ راهبةً. حسناً، إنَّها لن تدخلَ إلى الدير ولكنها قد تأخذ مكانَ ماتي. لِم لا؟ يُمكن لمارك ويبر أن يدير شؤون صناعةِ القماشِ فهو يقوم بمعظمِ العملِ الآن.

ستبحثُ عن نساءِ حكيماتٍ أخرياتٍ في شايرنغ وفي وينشستر وربما في لندن، وتسألهنَّ عن طرقهن وعمَّا هو ناجع وغيرُ ناجع. إنَّ الرجال شديدو الكتمان حيال مهاراتهم، أو «أسرارهم» كما يسمونها، وكأنَّ هناكَ شيئاً خارقاً في دبغِ الجلدِ أو في صنعِ الحدواتِ إلَّا أنَّ النساء كُنَّ أكثرَ استعداداً لمشاركةِ معارفهن مع نساءٍ أخرياتٍ.

وستطّلع أيضاً على الكتبِ القديمةِ الخاصّة بالرهبانِ، فقد تحوي على بعضِ الحقائقِ. وقد تساعدها تلكَ الغريزةُ الطبيعيةُ التي قالت لها سيسيليا إنّها تملكها على مساعدتِها في غربلةِ المعالجاتِ الحقيقيةِ وفصلها عن قشورِ الهراءِ الكهنوتي.

وقفت كاريس وغادرت المنزلَ. سارت ببطءٍ في خشيةٍ مما قد تراهُ في المستشفى. شعرت بأنّها هالكةٌ، وبأنَّ والدها قد يكون بخير أو قد لا يكون، ولم يكن لديها ما تقومُ بهِ الآن سوى أخذِ قرارٍ على أن القيامَ بكلِّ ما بوسعها لمساعدةِ من تحبهم عندما يمرضون في المستقبلِ.

قاومت دموعاً كادت تنحدرُ على خدِّها وهي تشقُّ طريقها عبرَ السوقِ إلى مبنى الديرِ. عندما دخلت إلى المستشفى لم تجرؤ على النظرِ إلى وجهِ والدها على الفورِ. اقتربت من السريرِ الذي أحاطَ به الناسُ: الأمُّ سيسيليا والراهبة العجوزَ جولي والأخ جوزيف ومارك ويبر وبيترانيلا وأليس وإلفريك.

وفكرت كاريس أنَّ ما سيحدث سيحدث. لامست كتفَ أختها أليس التي تنحت لتُفسحَ لها مجالاً. وأخيراً نظرت كاريس إلى والدها.

كانَ حيّاً وواعياً رغمَ أنّه بدا شاحباً ومرهقاً. كان قد فتحَ عينيهِ ونظرَ مباشرةً إليها وقد ارتسمَ على وجههِ شبحُ ابتسامةٍ. «أخشى أنني أخفتكِ»، قالَ لها. «آسفٌ يا عزيزتي».

«أوه، الشكرُ للرَّبِّ»، قالت كاريس وانخرطت في البكاءِ.

***

صباحَ الأربعاءِ دخلَ ميرثن إلى كُشكِ كاريس ملهوفاً. «لقد طرحت عليَّ بيتي باكستر سؤالاً غريباً للتو»، قال ميرثن. «أرادت أن تعرفَ من سيقفُ في مواجهةِ إلفريك في انتخابات رئيسِ النقابة».

«أيُّ انتخاباتٍ؟» قالت كاريس. «إنَّ والدي رئيسُ النقابةِ... أوه لا». وفهمت ما كانَ يجري. كانَ إلفريك يُخبرُ الناسَ بأنَّ إدموند عجوزٌ ومريضٌ جداً ليقومَ بدورهِ وأنَّ المدينة بحاجةٍ إلى رئيسٍ جديدٍ، ولهذا كانَ يُقدمُ نفسهُ كمرشحٍ لهذا المنصبِ. «يجب أن نُخبرَ والدي على الفورِ».

غادرت كاريس وميرثن السوقَ وعبرا الشارع الرئيسي باتجاهِ منزلها. كان إدموند قد غادرَ مستشفى الدير البارحةَ بعدَ أن قالَ لهم الرهبان بصدقٍ إنّهم لم يعودوا قادرين على القيامِ بشيءٍ سوى فصدِ دمهِ الأمرُ الذي لم يساهم سوى

في جعلِ حالتِه أسوأ. حملوه إلى المنزلِ ووضعوه على سريرٍ وضعوه في غرفةِ الجلوسِ في الطابقِ الأرضي.

رأته كاريس مستلقياً فوقَ كومةٍ من الوسائد على سريرهِ المرتجلِ. بدا ضعيفاً جداً ولذلكَ ترددت كاريس في إزعاجهِ وإطلاعهِ على الأخبارِ، ولكن ميرثن جلسَ بقربهِ وأوضحَ لهُ الحقائق بكلِّ صراحةٍ.

«إنَّ إلفريك على حقٍ»، قال إدموند عندما أنهى ميرثن كلامهُ. «انظر إليّ. بالكادِ أستطيع الجلوسَ في سريري. تحتاجُ النقابةُ إلى قيادةٍ قويَّةٍ، ولا مكانَ لرجلٍ مريضٍ فيها».

«ولكنكَ ستستردُ عافيتكَ قريباً!» قالت كاريس مستفهمةً.

«ربما ولكنني أكبرُ في العمرِ. لا بدَّ أنَّكما لاحظتما شرودي ونسياني مؤخراً. كان ردُّ فعلي على تراجعِ سوقِ الصوفِ الخام العامَ الماضي بطيئاً وكلفني الكثيرَ من الأموالِ. شكراً للرَّبِّ لنجاحنا في إعادةِ بناءِ ثروتنا من صناعةِ القماشِ القرمزي ولكنني لم أكن صاحبَ الفكرةِ بل أنتِ يا كاريس».

بالطبعِ تعلمُ كاريس كلَّ هذا إلا أنَّها مازالت تشعرُ بالسخطِ ولذلك قالت له: «هل ستسمحُ لإلفريك باستلامِ زمامِ الأمورِ؟»

«بالطبعِ لا. إنَّه بديلٌ كارثي وهو يشبهُ غودوين كثيراً، وحتى بعدَ أن نصبحَ منطقةً إداريةً ملكيَّةً سنحتاجُ إلى رئيسٍ يقفُ في وجهِ الديرِ».

«ومن هو الرجلُ المناسب لهذا المنصب؟»

«تحدَّثي إلى ديك بروير. إنَّه أحدُ أغنياءِ المدينةِ وهذهِ سمةٌ ضروريةٌ. على الرئيسِ أن يكون غنياً حتَّى يحظى باحترام بقيَّةِ التجارِ. وديك بروير لا يخافُ من غودوين أو من أيِّ راهبٍ، وهو قائدٌ جيدٌ».

ووجدت كاريس نفسها مترددةً في القيامِ بما طلبهُ، لأنَّ هذا يعني أنَّها قبلت بفكرةِ موتهِ. كانت قد فتحت عينيها على هذهِ الحياة ووالدها رئيسُ النقابةِ، ولهذا وجدت صعوبةً في تقبلِ الأمرِ. لم تكن ترغب لهذا العالمِ بأن يتغير.

تفهَّمَ ميرثن ترددها ولكنه حثَّها على قبولِ الأمرِ الواقعِ. «علينا أن نقبلَ بما حدثَ»، قال لها. «إن تجاهلنا ما يحدث فقد ننتهي بإلفريك رئيساً للنقابةِ. سيكون هذا كارثةً علينا وقد يقوم بسحبِ الطلبِ الذي قدمناه للملكِ بشأنِ التحويل إلى منطقةٍ إداريةٍ ملكيَّةٍ».

عندما سمعت هذا حسمت كاريس أمرها وقالت: «أنتَ على حقٍ. فلنذهب للتحدثِ إلى ديك».

كان ديك بروير قد وضعَ العديدَ من العرباتِ في مواقع مختلفةٍ في سوقِ الصوفِ، وعلى كلِّ عربةٍ برميلٌ ضخمٌ. كان أطفالهُ وأحفادهُ وزوجات وأزواجِ أولادهِ يبيعونَ الجعةَ من البرميلِ لحشودٍ من الزبائنِ. وجدتهُ كاريس وميرثن جالساً يشربُ جعتهُ من كوبٍ كبيرٍ وهو يراقبُ أفرادَ عائلتهِ يجنون المال لهُ. أخذاه جانباً وشرحا له ما يجري.

قال ديك لكاريس: «عندما يتوفى والدكِ أعتقدُ أنَّ ثروتهُ ستتوزعُ بالتساوي بينكَ وبينَ أختكِ؟»

«أجل». كان إدموند قد أخبرَ كاريس أنَّ هذهِ هي وصيتهُ.

«وعندما يُجمعُ إرثُ أليس مع ثروة إلفريك الحالية سيصبحُ إلفريك ثرياً جداً».

وهنا أدركت كاريس أنَّ نصفَ المالِ الذي كانت تجنيهِ من بيعِ القماشِ القرمزيِ سيذهبُ إلى أختها. لم تفكر بهذا قبلاً لأنَّها لم تفكر بموتِ والدها. ووقعَ الأمرُ عليها كالصدمةِ. لم يكن المالُ بحدِّ ذاتهِ مهماً لها، ولكنها لم ترغب بمساعدةِ إلفريك في الوصولِ إلى منصبِ رئيسِ النقابةِ في المدينةِ.

«إذاً، المسألةُ هي من هو الأغنى»، قالت كاريس. «نحتاجُ إلى شخصٍ يعملُ لمصلحة التجارِ».

«إذاً، عليكِ أن تأتي بمرشحٍ منافسٍ؟» قال ديك.

«هل يمكنكَ أن تكونَ هذا المرشح؟» سألتهُ بشكلٍ مباشرٍ.

هزَّ رأسهُ في رفضٍ وقالَ: «لا تكلفي نفسكَ جُهدَ إقناعي ففي نهايةِ هذا الأسبوع سأُسلمُ العملَ لابني الأكبر. أخططُ لقضاءِ ما تبقى من حياتي في شُربِ الجعةِ بدلاً من صنعها». وأخذَ رشفةً طويلةً من كأسهِ ثمَّ تجشأ في رضا.

شعرت كاريس بأنَّ عليها القبول بما قاله فقد بدا واثقاً جداً من كلامهِ. «من تقترحُ أن نحادثهُ بهذا الأمر؟» سألت كاريس.

«هناكَ خيارٌ حقيقي واحدٌ»، قال ديك. «وهو أنتِ».

بدت كاريس مذهولةً. «أنا! لماذا؟»

«أنتِ العقل المدبر لحملةِ تحويلِ كينغزبريدج إلى منطقةٍ إداريةٍ ملكيّةٍ، وخطيبكِ بنى جسراً أنقذَ سوقَ الصوفِ، وعملكِ في صناعةِ القماشِ أنقذَ المدينة من آثارِ هبوطِ أسعارِ الصوفِ، وأنتِ ابنةُ الرئيس الحالي. ورغم أنَّ المنصبَ لا يورث ولكن الناس يعتقدون أنّ القادةَ ينجبون قادةً، وهم على

حتى في هذا. فأنتِ تتصرفين كرئيسةٍ منذُ عامٍ تقريباً، أي منذُ بدأت قوى والدكِ تخونهُ».

«هل تولّت امرأةٌ منصبَ رئيس النقابةِ قبلاً؟»

«ليسَ على حدِّ علمي. ولكن إن حدثَ واستلمتِ ستكونين أصغرهم عمراً، وستُستخدمُ هذهِ الحُجَّة بقوةٍ ضدَّكِ. أنا لا أقولُ لكِ إنَّكِ ستفوزين. أنا أقولُ لكِ إنَّه ما من أحدٍ غيركِ يمتلكُ فرصةً أفضل لمواجهةِ إلفريك».

شعرت كاريس بدوارٍ خفيفٍ. تساءلت في نفسها إن كانَ هذا ممكناً، وإن كانَ بوسعها أداءُ هذا العملِ. ولكنها أقسمت بأن تصبحَ مداويةً ثمَّ أليسَ هناكَ أحدٌ في المدينة من قد يكون مرشحاً أفضل من إلفريك، «ماذا عن مارك ويبر؟» قالت كاريس.

«سيكون جيداً لهذا المنصبِ بخاصةٍ مع زوجتهِ الفطنةِ إلى جانبهِ، ولكن سكان المدينةِ مازالوا ينظرون إلى مارك كنسَّاجٍ فقيرٍ».

«إنَّ أحوالهُ مزدهرةٌ الآن».

«وهذا بفضلِ قماشكِ القرمزي، ولكن يميلُ الناسُ إلى عدمِ الوثوقِ بالأثرياءِ الجددِ. سيقولون إنَّ مارك نسَّاجٌ صاعدٌ، وهم يريدون الرئيسَ من عائلةٍ عريقةٍ، شخصاً غنياً أباً عن جدٍ».

رغبت كاريس بهزيمةِ إلفريك إلَّا أنَّها لم تكن واثقةً من قدرتها على الفوزِ. فكرت بكلِّ ما تمتعَ بهِ والدها من صبرٍ وحنكةٍ ودماثةٍ وطاقةٍ لا تنضبُ، وتساءلت في نفسها إن كانت تمتلكُ مثلَ هذهِ المقوماتِ، ثمَّ نظرت إلى ميرثن.

«ستكونين أفضلَ رئيسة في تاريخِ المدينة»، قال لها ميرثن.

كانت ثقتهُ الصريحةُ كفيلةً بإقناعها. «حسناً»، قالت كاريس. «سأقومُ بهذا».

***

دعا غودوين إلفريك إلى تناولِ العشاءِ معهُ يومَ الجمعةِ من أسبوعِ سوقِ الصوفِ، وطلبَ تحضيرَ وجبة عشاءٍ مُكلفةٍ ومؤلفةٍ من بجعةٍ مطهوة مع الزنجبيل والعسلِ. قدَّم لهما فيليمون العشاءَ وجلسَ معهما إلى الطاولةِ.

كانَ المواطنون قد قرروا انتخابَ رئيسٍ جديدٍ خلالَ وقتٍ قصيرٍ نسبياً وظهرَ مرشحان رئيسيان لهذا المنصبِ وهما إلفريك وكاريس.

على الرغمِ من عدمِ حُبِ غودوين لإلفريك فإنَّه نظرَ إليه كأداةٍ مفيدةٍ. لم يكن إلفريك بنَّاءً ماهراً جداً، ولكنهُ نجحَ في كسبِ حظوة عندَ رئيسِ الدير أنتوني،

وبالتالي فازَ بعقودِ إصلاحاتِ الكاتدرائيةِ. عندما تسلَّمَ غودوين منصبَ أنتوني رأى في إلفريك مُتزلفاً ذليلاً ولهذا أبقاه إلى جانبهِ. لم يكن إلفريك محبوباً جداً في المدينةِ، ولكنه كان يوظف أو يُكلف ببناءِ معظمِ أبنيةِ الحرفيين والمزودين في المدينةِ، وهذا بدورهِ جعلهم يخطبون ودَّهُ أملاً بالحصولِ على عملٍ. وبما أنَّهم جميعاً كسبوا ثقتهُ فقد أرادوه أن يستمر في منصبهِ لأنَّ هذا من شأنهِ أن يسمح لهُ بردِّ المعروفِ لهم، وهذا ما أكسبهُ قاعدةَ قبولٍ قويةً.

«لا أحبُّ الغموضَ»، قال غودوين.

تذوقَ إلفريك الإوزةَ وهمهمَ في تقديرٍ: «في أيِّ سياقٍ تقصد؟»

«انتخاباتِ رئاسةِ النقابةِ».

«بالشكلِ الطبيعي يكتنفُ الغموضُ جميعَ أنواعِ الانتخابات ما لم يكن هناكَ مرشحٌ واحدٌ للمنصبِ».

«وهذا ما أفضلهُ»..

«وأنا أيضاً ولكن إن كنت أنا هذا المرشح الوحيد».

«وهذا ما أرمي إليهِ».

رفعَ إلفريك ناظريهِ عن طاولةِ العشاءِ وقال: «حقاً؟»

«أخبرني يا إلفريك. هل تريد منصبَ رئيسِ النقابةِ بشدةٍ؟»

ابتلعَ إلفريك اللقمةَ. «أريدهُ»، قالَ بصوتٍ بدا أجشَّ بعضَ الشيءِ ثمَّ تجرَّعَ بعضَ النبيذِ. «أنا أستحقهُ»، تابعَ إلفريك بنبرةٍ تحملُ شيئاً من السخطِ. «أنا كفؤٌ كأيِّ فردٍ منهم فلِمَ لا أصبحَ رئيسَ النقابةِ؟»

«إن تمَّ انتخابكَ هل ستتابعُ طلبَ تحويل كينغزبريدج إلى منطقةٍ إداريةٍ ملكيَّةٍ؟»

حدَّقَ إلفريك نحوهَ وقال مفكراً: «هل تطلبُ مني أن أسحبَ الطلبَ؟»

«إن تمَّ انتخابكَ أرجو أن تسحبَ الطلبَ».

«هل تعرضُ عليَّ المساعدة في الانتخاباتِ؟»

«أجل».

«ولكن كيف؟»

«من خلال إقصاءِ المرشحِ المنافس».

نظرَ إلفريك في ريبةٍ وقالَ: «لا أرى وسيلةً لتحقيق هذا».

أومأ غودوين إلى فيليمون الذي قال: «أعتقدُ أنَّ كاريس مهرطقةٌ».

أوقعَ إلفريك السكينَ من يدهِ وقال: «هل ستُحاكم كاريس بتهمةِ ممارسةِ السحرِ؟»

«لا يجب أن تخبرَ أحداً بهذا»، قال فيليمون. «إن سمعت بالأمر فقد تفرُّ».

«كما فرَّت ماتي وايز».

«لقد دفعتُ بعضَ الناسِ في المدينةِ إلى الاعتقادِ بأنَّ ماتي قد أُسرت وأنَّها ستُحاكم يومَ السبتِ في المحكمةِ الكنسيةِ، ولكن في حقيقةِ الأمرِ سيوجه الاتهام إلى شخصٍ آخرَ في اللحظةِ الأخيرةِ».

أومأ إلفريك برأسهِ وقال: «ولأنَّها محكمةٌ كنسيةٌ لن يكون هناكَ حاجةٌ إلى توجيه اتهامٍ أو وجودِ هيئةِ محلفين». ثمَّ التفتَ إلى غودوين وقال: «وستكون أنتَ القاضي».

«لسوءِ الحظ لن أكونَ القاضي»، قال غودوين. «بل الأسقف ريتشارد سيرأس المحكمةَ. ولهذا علينا أن نثبتَ وجهةَ نظرنا».

«هل لديكَ أيُّ دليلٍ؟» قال إلفريك مشككاً.

أجابَ غودوين: «لدينا بعضُ الأدلةِ ولكننا نرغبُ بالمزيدِ، فما لدينا الآن كافٍ جداً لو أنَّ المتهمة عجوز أو من دونِ عائلةٍ وأصدقاء كما حصلَ مع نيل المجنونة، ولكن كاريس معروفةٌ وتنحدرُ من أسرةٍ غنيةٍ وقويةٍ كما تعرف».

وهنا قالَ فيليمون: «لحسنِ حظنا الشديد أنَّ والدها مريضٌ جداً ولا يمكنهُ مغادرةُ السريرِ. لا بدَّ أنَّ الرَّبَّ سمحَ بهذا حتى لا يتمكنَ من الدفاعِ عنها».

أومأ غودوين برأسهِ ثمَّ قالَ: «ولكنها تملكُ الكثيرَ من الأصدقاء، ولهذا يجبُ أن يكون دليلنا قوياً».

«ما الذي تفكرُ بهِ؟» قال إلفريك.

أجاب فيليمون: «سيكون مفيداً لقضيتنا أن يتقدَّمَ أحدُ أفرادِ عائلتها ويقول إنَّها كانت تخاطب الشيطان أو تقوم بعكسِ الصليبِ أو أنها تخاطبُ أشخاصاً غير مرئيين في غرفٍ فارغةٍ».

بدا إلفريك لوهلةٍ كأنَّه لم يفهم ما قيلَ له ومن ثمَّ هبطَ عليهِ الوحي وقال: «أوه! أتقصدني بكلامكَ؟»

«فكّر جيداً قبلَ أن تجيب».

«أنتَ تطلبُ مني أن أساعدكَ لإرسالِ أخت زوجتي إلى المشنقةِ».

قال غودوين: «أختُ زوجتكَ ونسيبتي».

«حسناً، سأفكرُ بالأمرِ».

رأى غودوين الطموحَ والجشعَ والخيلاءَ على وجهِ إلفريك وتأملَ عظمةَ تسخير الرَّبِّ لضعفِ هذا الإنسان ليحققَ غودوين نوايا مُقدَّسة. كانَ بوسعِ غودوين التكهنَ بما يجولُ في ذهنِ إلفريك. إنَّ منصبَ رئيسِ النقابةِ متعبٌ جداً لرجلٍ عصامي مثل إدموند الذي كانَ يمارسُ سلطتهُ بما يصبُّ في مصلحة تجارِ المدينةِ، ولكن بالنسبةِ لشخصٍ انتهازي كإلفريك فإن هذا المنصب سيُقدمُ له فرصاً لا تعدُّ ولا تحصى للإثراءِ وإعلاءِ شأنهِ.

تابعَ فيليمون كلامهُ في صوتٍ لطيفٍ وواثقٍ: «إن لاحظت أيَّ أمرٍ مريبٍ فسيكون هذا دليلاً كافياً، ولكن أرجو منكَ أن تُقلِّبَ ذاكرتكَ بكلِّ عنايةٍ».

ولاحظَ غودوين مجدداً الشوطَ الكبير الذي قطعهُ فيليمون في التعلمِ خلال عامين فقط، وكيفَ أن شخصيةَ خادمِ الديرِ المرتبكِ قد اختفت لتحلَّ محلَّها شخصيةٌ أشبه بشخصيةِ رئيسِ شمامسةٍ.

«ربما حدثت بضعةُ مواقفٍ بدت عاديةً في حينهِ ولكنها الآن وعلى ضوءِ ما قيلَ اليومِ ستُعطى بُعداً شيطانياً، وبعدَ التمحيصِ الجيد فيها ستصلُ إلى الاستنتاجِ بأنَّها لم تكن مواقف بريئة كما بدت آنذاك»، قال فيليمون.

«فهمت قصدكَ أيُّها الأخ»، قال إلفريك.

ورانَ صمتٌ طويلٌ لم يأكل خلالهُ أحدٌ، وانتظرَ غودوين بصبرٍ قرارَ إلفريك.

قال فيليمون: «وبالطبعِ إن ماتت كاريس فكلُّ ثروةِ إدموند ستُصبحُ لأختها أليس... زوجتكَ».

«أجل»، قال إلفريك. «لقد خطرَ لي هذا».

«حسناً؟» قال فيليمون. «هل لديكَ ما تعتقدُ أنَّه قد يساعدنا؟»

«أوه، أجل»، قال إلفريك. «أعتقدُ أنَّه لدي الكثير».

-42-

لم تتوصل كاريس إلى معرفةِ حقيقةِ ما حدثَ لماتي وايز. قال لها بعضُ الناسِ إنَّها أُسِرت وسُجنت في زنزانةٍ في الديرِ بينما اعتقدَ آخرون أنَّها ستُحاكَمُ

غيابياً، وادعى طرفٌ ثالثٌ أنَّ أحداً آخر سيُحاكم بدلاً عنها. رفضَ غودوين الإجابةَ على أسئلةِ كاريس أمَّا بقيةُ الرهبان فقد قالوا إنَّهم لا يعرفون شيئاً.

توجهت كاريس إلى الكاتدرائيةِ صباحَ يومِ الإثنينِ بنيةِ الدفاعِ عن ماتي وايز سواءَ أكانت حاضرةً أم غائبةً. كانت مستعدةً للدفاعِ عن أيِّ امرأةٍ عجوزٍ فقيرةٍ تواجهُ مثلَ هذا الاتهامِ السخيفِ. وتساءلت في نفسها عن سببِ كُرهِ الرهبانِ والكهنةِ للنساءِ بهذا الشكلِ. فعلى الرغمِ من أنَّهم كانوا يمجدون مريم العذراء المباركة فإنَّهم كانوا يعاملون أيَّ امرأةٍ أخرى كأنَّها تجسيدٌ للشيطانِ. ما خطبهم حقاً؟

لو أنَّ المحكمةَ مدنيةٌ مع هيئةِ محلفين وجلسةِ استماعٍ أوليَّة لتمكنت كاريس مسبقاً من معرفةِ الدليل الذي قُدِّمَ ضدَ ماتي، ولكن للمحاكم الكنسيةِ قوانينها الخاصَّةِ.

وقررت كاريس، أيّا كانت إدعائاتهم، أن تقولَ بكلِّ وضوحٍ وعلى الملأ أنَّ ماتي مُعالجةٌ حقيقيةٌ وأنَّها تستخدمُ الأعشابَ والأدويةَ وفي الوقتِ عينهِ تقولُ للناسِ أن يُصلوا للرَّبِّ أيضاً. لقد ساعدت ماتي الكثيرَ من سكانِ المدينةِ وهم بالتأكيد سيُدافعونَ عنها.

وقفت كاريس مع ميرثن في جناحِ الكنيسةِ الشمالي وهي تسترجعُ ذكرى محاكمةِ نيل المجنونة منذُ عامين. كانت كاريس قد قالت للمحكمةِ إنَّ نيل مجنونةٌ ولكنها ليست مؤذيةً إلا أنَّ هذا لم يجلب نتيجةً.

في الكاتدرائيةِ اليومِ احتشدَ عددٌ كبيرٌ من سكانِ المدينةِ والزوار أملاً بمشاهدةِ هذا الحدثِ الدرامي حيثُ ستتراشقُ الاتهاماتُ والاتهامات المعاكسةُ ويحتدمُ الجدلُ والهرطقاتُ واللعناتُ ومن ثَمَّ منظرُ المرأةِ المتهمةِ وهي تُجلدُ وراءَ عربةٍ وإعدامها أخيراً في كروس غالوز. كان الأخُ موردو حاضراً. لطالما حرصَ موردو على حضورِ هذهِ المحاكماتِ الحماسيَّةِ فقد كانت فرصةً له ليقومَ بما يبرعُ فيهِ ألا وهو إثارةُ الحشدِ.

وفي أثناء انتظارهم وصولَ رجالِ الدينِ أخذت كاريس تفكرُ بأنَّها غداً، وفي هذهِ الكنيسةِ، ستتزوج من ميرثن. كانت بيتي باكستر وبناتها الأربع مشغولاتٍ بصنعِ الخبزِ والحلوى للوليمةِ. في ليلةِ الغدِ ستنامُ كاريس وميرثن جنباً إلى جنب في منزلهِ على جزيرةِ ليبر.

لقد توقفت عن القلقِ حيالَ مسألةِ الزواجِ فقد أخذت قرارها وستتحملُ

عواقبهُ. في الحقيقةِ كانت تشعرُ بالسعادةِ، وتساءلت في نفسها أحياناً عن سببِ خوفها الشديدِ من الأمرِ. لم يكن ميرثن ليحوّلَ أحداً إلى عبدٍ له، فلم يكن هذا من طبعهِ، بل كان لطيفاً مع مساعدهِ جيمي.

ولكنِ الأهمّ من هذا كلّه حُبها لحميميتهما. كانت علاقتهما الجسديةُ أفضلَ شيءٍ حدثَ لها، ولهذا كانت تتطلعُ إلى سقفٍ وسريرٍ واحد يجمعهما وليمارسا الحبّ متى أرادا؛ في نومهما وصحوهما وفي منتصفِ الليلِ أو حتى منتصفِ النهارِ.

وها هم الرهبانُ والراهباتُ يصلونَ أخيراً يقودهم الأسقف ريتشارد ورئيسُ الشمامسةِ لويد. عندما أخذوا أماكنهم نهضَ غودوين وقالَ: «نحنُ هنا اليوم لنحاكمَ كاريس ابنةَ إدموند وولر بتهمةِ الهرطقةِ».

وشهقَ الحشدُ.

صرخَ ميرثن: «لا!»

والتفتَ الجميعُ نحوَ كاريس التي كادت تتقيأ من فرطِ الخوفِ. لم تكن تتوقع حدوثَ هذا، ووقعَ عليها الأمرُ كلكمةٍ من دونِ سابقِ إنذار. قالت في اضطرابٍ: «لماذا؟» ولكن لم يُجب أحد.

تذكرت تحذيرَ والدها لها من أنَّ غودوين سيقومُ بأيّ شيءٍ ليتجنبَ تحويلِ كينغزبريدج إلى منطقةٍ إداريةٍ ملكيةٍ. «أنتِ تعلمين كم هو عديم الرحمةِ حتّى في الخلافاتِ البسيطةِ». قال إدموند. «إنَّ أمراً كهذا كفيلٌ بإشعالِ حربٍ ضروسٍ». وارتعدت أوصالُ كاريس عندما تذكرت إجابتها: «إذاً، فلتكن حرباً ضروساً».

لم يكن غودوين ليملكَ فرصةً كبيرةً في النجاحِ بتحقيقِ هذا لو أن والدها كان بصحةٍ جيدةٍ لأنَّ إدموند عندها سيضعُ غودوين في مكانهِ ولربما دمّرهُ. ولكن أن تواجهَ كاريس كلَّ هذا، وحدها، فلا بدَّ أنَّ تسير الأمورُ على نحو مختلفٍ. لم تمتلكْ بعد قوى والدها أو سلطتهُ أو ذاتَ الدعم الشعبي لهُ. إنَّها ما تزال ضعيفةً من دونهِ.

لاحظت كاريس وجودَ عمتها بيترانيلا بينَ الحشدِ. كانت من بينِ القلائلِ الذين لم ينظروا إلى كاريس، وتساءلت كاريس في نفسها عن سبب التزامها الصمت. كانت بيترانيلا عموماً تدعمُ ابنها غودوين إلّا أنّها ستحاول أن تمنعهُ من الحكمِ بالموتِ على كاريس. لقد قالت في وقتٍ مضى أنّها ستكون بمنزلة الأمّ لكاريس، فهل تتذكرُ كلامها هذا؟ وشعرت كاريس بأن

بيترانيلا تناست ما وعدت بهِ؛ فإخلاصها لابنها كبيرٌ جداً ولهذا السببِ لم تنظر بشكلٍ مباشرٍ نحو كاريس. يبدو أنّها أخذت قرارها مسبقاً بعدمِ الوقوفِ في طريقِ غودوين.

وقفَ فيليمون وقال مخاطباً القاضي بلهجةٍ رسميةٍ: «سيدي الأسقف»، ثمَّ التفتَ إلى الحشدِ. «يعرفُ الجميعُ أنَّ الخوفَ والذنبَ دفعَ المرأةَ ماتي وايز إلى الهربِ من محاكمتها. ولطالما كانت كاريس ولسنواتٍ عديدةٍ من الزوارِ الدائمين إلى منزلِ ماتي، وقد قامت منذُ أيامٍ بالدفاعِ عن المرأةِ أمامَ شهودٍ هنا في الكاتدرائية».

وفهمت كاريس هنا سببَ استجوابِ فيليمون لها قبلَ أيامٍ ثمَّ نظرت إلى ميرثن والتقت أعينهما. كان ميرثن آنذاك قلقاً حيالَ عدمِ فهمهِ لنوايا فيليمون وكان مُحقاً في هذا. وها هما الآن باتا يعرفان هذهِ النوايا.

ولكن في الوقتِ عينهِ انشغلت كاريس في التفكيرِ بالتحولِ الكبيرِ الذي مرَّت به شخصيةُ فيليمون. أصبحَ الفتى المرتبك والتعس رجلاً واثقاً من نفسهِ ومغروراً ويقفُ أمامَ الأسقفِ ورئيسِ الديرِ وسكانِ المدينةِ بكلِّ حقدٍ كأنّه ثعبانٌ على وشكِ الهجومِ.

قال فيليمون: «وقالت كاريس وقتها إنّها مستعدةٌ للقسمِ بأنَّ ماتي ليست ساحرةً. ما السببُ الذي يدفعها للقيامِ بهذا ما لم تكن تحاول إخفاءَ جرمها هي؟»

صرخَ ميرثن: «لأنّها بريئةٌ هي وماتي أيها الكاذبُ الأفاق!».

بقولهِ هذا كان يمكن لميرثن أن يلقى عقاباً ويُربط إلى أوتادٍ طوال الليلِ، ولكن الجميع كانوا يصرخون في الوقتِ عينهِ ومرَّت إهانتهُ مرور الكرام.

تابع فيليمون كلامه قائلاً: «نجحت كاريس مؤخراً وبشكلٍ عجائبي في صبغِ القماشِ بالدرجة اللونية ذاتها للونِ القرمزي الإيطالي، وهذا أمرٌ لم ينجح صبّاغو كينغزبريدج في فعلهِ أبداً. كيفَ نجحت بفعلِ هذا؟ لقد استخدمت تعويذةً سحريةً».

وسمعت كاريس صوتَ مارك ويبر الضخمَ: «هذهِ كذبةٌ».

«بالطبعِ لم تقم بهذا في وضحِ النهارِ بل أشعلت النارَ في الحديقةِ الخلفيةِ ليلاً كما رآها العديدُ من الجيرانِ».

ولاحظت كاريس نذيرَ الشؤمِ في الدقّةِ التي تحدثَ بها فيليمون وعرفت أنّه استجوبَ جيرانها.

«وكانت تغني أغاني غريبة، لماذا؟» لقد غنّت كاريس لنفسها من الضجرِ وهي تغلي الأصبغةَ وتغمرُ القماشَ في المحاليل، ولكن فيليمون يملكُ القدرةَ على تحويلِ أيِّ تفصيلٍ بسيطٍ إلى دليلٍ على وجودِ علاقةٍ مع الشيطان، ثمَّ قالَ بصوتٍ أقرب إلى الهمسِ: «لقد فعلت هذا لأنّها كانت تطلبُ عونَ أميرِ الظلام...» ثم رفعَ صوتهُ في صرخةٍ قائلاً: «إبليس!».

تأوّه الحشدُ في رعبٍ.

«إنَّ ذلكَ القماشَ بلونٍ قرمزيٍ شيطاني».

نظرت كاريس إلى ميرثن لتجدَهُ مذعوراً ثمَّ قالَ: «لقد بدأ الحمقى في تصديقِهِ!»

شعرت كاريس بشجاعتها تعود إليها وقالت لميرثن: «لا تقنط فأنا لم أقل ما لدي بعد».

أمسكَ بيدها.

«ولكن هذهِ ليست التعويذةَ الوحيدةَ التي استخدمتها»، تابعَ فيليمون بصوتٍ طبيعي. «كانت ماتي وايز تصنعُ خلطةً خاصَّةً للحبِّ». ونظرَ إلى الحشدِ في اتهامٍ. «وقد يكون هنا، في الكنيسةِ، والآن كثيرٌ من الفتيات الشريراتِ اللواتي استعنَّ بقوى ماتي لإيقاعِ الرجالِ في حبائلهن».

«بمن فيهن أختكَ»، قالت كاريس في نفسها وتساءلت إن كانَ فيليمون يعلمُ بهذا.

قال فيليمون: «هذهِ الراهبةُ المبتدئةُ ستشهدُ بهذا».

ووقفت إليزابيث كلركُ مُطرقةً بنظرها أرضاً وتحدثت بصوتٍ هادئٍ في تجلٍ واضحٍ لصورةِ الراهبةِ المتواضعةِ. «أقسمُ على قولِ الحقِّ وليشهد الرَّبُّ على كلامي»، بدأت إليزابيث. «لقد كنتُ مخطوبةً إلى البّناءِ ميرثن».

صرخَ ميرثن: «كاذبة!»

«كنا واقعين في الحُبِّ وسعداء»، تابعت إليزابيث. «وفجأة تغيرَ نحوي وباتَ غريباً عني، وأخذَ يعاملني ببرودٍ».

سألها فيليمون: «هل لاحظتِ أيَّ أمرٍ آخر غريبٍ أيّتها الأخت».

«أجل أيُّها الأخ. لقد رأيتهُ يُمسكُ السكينَ بيدهِ اليسرى».

شهقَ الحشدُ فهذهِ علامةٌ معروفةٌ على الوقوعِ تحت تأثيرِ السحرِ، ولكن كاريس تعلم أنَّ ميرثن يجيدُ استخدامَ كلتا يديهِ.

قالت إليزابيث: «ثمَّ أعلنَ أنّهُ سيتزوجُ بها».

وفكرت كاريس بأنَّه من المذهلِ بحقٍ كيف يمكنُ تحريفُ الحقيقةِ، ولو قليلاً، لتصبحَ نذيرَ شؤمٍ، رغمَ أنَّها لم تعرف تماماً ما الذي حدثَ حقاً بين ميرثن والِيزابيث. كانا صديقين إلى أن عبَّرت إليزابيث لميرثن عن نيتها بأن يكونا أكثر من مجرد صديقين، وهنا أخبرها ميرثن بأنَّه لا يبادلها الشعور ذاته وافترقا. ولكن يبدو أنَّ إضافةَ تعويذةٍ شيطانيةٍ إلى القصَّةِ جعلتها أفضل.

لا بدَّ أنَّ إليزابيث أقنعت نفسها بأنَّها تقول الصدقَ، ولكن فيليمون يعلمُ أنَّ الأمرَ كذبةٌ. ولأن فيليمون أداةٌ في يدِ غودوين فكيفَ للأخيرِ أن يقبلَ بكلِّ هذا الخبثِ؟ كيفَ أقنعَ نفسه بأنَّ أيَّ شيءٍ يخدمُ الديرَ مُبررٌ؟

أنهت إليزابيث كلامها قائلةً: «وقررت وقتها أنني لن أقعَ في غرامِ رجلٍ آخر، وأنني سأقدمُ حياتي خدمةً للرَّبِّ»، ثمَّ جلست.

أدركَت كاريس أنَّ الدليلَ الذي قدَّمتهُ إليزابيث قويٌ وشعرَت بالرعبِ في داخلها يهدرُ كسماءٍ شتائيةٍ غائمةٍ. وما رسَّخَ من قوةِ شهادةِ إليزابيث هو حقيقةُ دخولها إلى الديرِ؛ فقد كانت شهادتها نوعاً من الابتزازِ العاطفي كأنَّها أرادت بها القولَ للناسِ كيفَ يمكنكم عدمُ تصديقي وأنا التي قمتُ بهذهِ التضحيةِ؟

غدا سكانُ المدينةِ أكثرَ هدوءاً الآن فلم يعد ما يحدثُ مشهداً مضحكاً لامرأةٍ عجوزٍ مجنونةٍ تُحاكم بتهمةِ ممارسةِ السحرِ، بل باتوا الآن يشاهدون معركةَ حياةٍ أو موتٍ مواطنةٍ مثلهم.

قال فيليمون: «ولكن الدليل الأقوى يا سيدي الأسقفُ في يدِ الشاهدِ الأخير وهو فردٌ مقربٌ من أفرادِ عائلةِ المتهمةِ. إنَّه زوجُ أختها البنَّاء إلفريك».

شهقت كاريس من الصدمةِ. لقد تلقَّت الاتهامات من نسيبها غودوين، ومن شقيقِ أفضلِ صديقاتها، فيليمون، ومن إليزابيث، ولكن أن تواجهَ اتهامَ زوجِ أختها فهذا أسوأ شيءٍ قد يحصلُ لها. كانَ وقوفُ زوجِ أختها والشهادةُ ضدها خيانةً ما بعدها خيانة. هل سيحظى ولفريك بالاحترامِ بعد هذا؟

وقفَ إلفريك وقد ارتسمَ على وجههِ تعبيرٌ يشي بالتحدي، وعرفت كاريس أنَّه كان خجلاً من نفسهِ. « أقسمُ على قولِ الحقِّ وليشهد الرَّبُّ على كلامي»، بدأ إلفريك كلامهُ.

نظرت كاريس حولها باحثةً عن أختها أليس ولكنها لم ترها. لو أنَّها كانت هنا لأوقفت إلفريك من كلِّ يدٍ. لا شكَّ بأنَّ إلفريك اخترعَ عذراً ما لتبقى في المنزلِ، وهي على الأغلب لا تعلمُ شيئاً عمَّا يجري.

قال إلفريك: «تتحدثُ كاريس إلى أشخاصٍ غير مرئيين في غرفٍ فارغةٍ».
«أتعني أرواحاً؟» عاجَلَ فيليمون بالسؤالِ.
«أخشى هذا».
وسرَت همهمةٌ من الحشدِ.
تعلمُ كاريس أنَّها أحياناً تتحدثُ مع نفسها بصوتٍ عالٍ، ولطالما اعتقدت أنَّ لا ضيرَ في فعلِ هذا رغمَ أنَّها عادةٌ مُحرجةٌ بعضَ الشيءِ. اعتادَ والدها القولَ لها إنَّ أصحابَ المخيلةِ الخصبةِ يفعلونَ هذا، وها هم الآن يستخدمون هذهِ السمةَ لإدانتها. كبحت رغبتها بالاحتجاجِ وقالت في نفسها إنَّه من الأفضلِ أن تدعَ الاتهامَ يأخذ مجراه ومن ثمَّ تقوم بتفنيدِ الاتهامات، الواحدَ تلو الآخر.
«متى تقومُ بهذا؟» سألَ فيليمون إلفريك.
«عندما تعتقدُ أنَّها وحدها».
«وما الذي تقولهُ؟»
«من الصعبِ فهمُ الكلماتِ التي تقولها. ربما كانت تتحدثُ بلغةٍ غريبةٍ».
وسرت همهمةٌ بينَ الحشدِ فقد كانَ التحدثُ بلغةٍ غريبةٍ لا يفهمهما أحد من سماتِ الساحراتِ والمقربين منهن.
«وماذا كان يبدو لكَ أنَّها تقول؟»
«بالنظرِ إلى نبرةِ صوتها يبدو أنَّها كانت تطلبُ المساعدةَ، أو تلتمسُ الحظَّ الجيِّد، أو تلعن من سببَ لها شقاءً. هذا النوع من الأمورِ».
صرخَ ميرثن قائلاً: «هذا ليسَ دليلاً!» ونظرَ الجميعُ إليهِ ثمَّ أضافَ: «لقد أقرَّ للتو بأنَّه لم يفهم كلماتها. إنَّه يختلقُ كل هذا!»
سرت دمدمةُ استحسانٍ على ما قالهُ ميرثن من المواطنين العقلاء إلَّا أنَّها لم تكن عاليةً أو ساخطةً بما يكفي وكما أرادتها كاريس.
وهنا قال الأسقف ريتشارد: «هدوء! فمن سيُقاطع مجريات المحاكمةِ سيطرده المأمورُ جون خارجاً. تابع من فضلكَ أيُّها الأخ فيليمون ولكن لا تدعو شهوداً يختلقون أدلةً في الوقتِ الذي يعترفون فيه بأنَّهم لا يعرفون الحقيقةَ».
وفكرت كاريس بأنَّ ريتشارد على الأقلِّ يتحدثُ بعقلانيةٍ. ورغمَ عدم استلطافِ ريتشارد ولا عائلتِهِ لغودوين، بخاصَّةٍ بعدَ الشجارِ قبلَ حفلِ زفافِ مارجوري، فإنَّه وبوصفهِ قساً لم يكن ريتشارد ليسمحَ لأهلِ المدينةِ بالتقليلِ من

شأنِ سلطةِ الديرِ. وهذ يعني أنّه قد يتعامل بحياديةٍ مع القضيةِ، وشعرتَ كاريس بالأملِ يعود إليها.

قال فيليمون لإلفريك: «هل تعتقدُ أنَّ هذهِ الأرواح التي تتحدثُ إليها تساعدها بطريقةٍ ما؟»

«بالطبعِ»، أجاب إلفريك. «إنَّ أصدقاء كاريس محبوبون من تلكَ الأرواح وهي تمن عليهم بالحظِّ الطيبِ. فها هو ميرثن قد أصبحَ بنّاءً ماهراً رغمَ أنَّه لم يُكمل فترةَ تدريبهِ كنجارٍ، ومارك ويبر كان رجلاً فقيراً وأصبحَ الآن رجلاً غنياً، أمّا صديقةُ كاريس غويندا فقد تزوجت من إلفريك الذي كان مخطوباً إلى امرأةٍ أخرى. كيفَ يمكن لكلِّ هذهِ الأمورِ أن تحدث من دونِ مساعدةِ قوى غير طبيعيةٍ؟»

«شكراً لكَ».

جلسَ إلفريك.

وبينما أوجزَ فيليمون الدليلَ الذي قدَّمهُ إلفريك قاومت كاريس شعوراً بالهلعِ يسيطرُ عليها. حاولت عدمَ التفكير بما حدثَ لنيل المجنونة والجَلد وراءَ عربةٍ تطوفُ أرجاءَ المدينةِ، وناضلت للتركيزِ على ما يجب عليها قولهُ للدفاعِ عن نفسِها. تستطيعُ تفنيد كلّ ما قالوه بحقها، ولكن قد لا يكون هذا كافياً. كانت بحاجةٍ إلى توضيحِ الأسباب التي دفعت بهؤلاءِ الناسِ إلى الكذبِ وفضحِ دوافعهم.

عندما انتهى فيليمون من كلامهِ سألها غودوين إن كان لديها ما تقوله. قالت كاريس بصوتٍ عالٍ يشي بثقةٍ كبيرةٍ رغمَ أنّها لم تكن تشعرُ بها حقاً: «بالطبعِ لدي ما أقوله». وشقّت طريقها إلى مقدمةِ الحشدِ. لم تكن لتدع متهميها يحتكرون موقعَ السلطةِ. أخذت وقتها وتركتهم ينتظرونَ ما لديها لتقولهُ. سارت إلى الكرسي العالي حيثَ جلسَ ريتشارد ونظرت إليهِ مباشرةً ثمَّ قالت: «سيدي الأسقف. أقسمُ على قولِ الحقِّ وليشهد الرَّبُّ على كلامي». ثمَّ التفتت إلى الحشدِ وأضافت: «رغم أني لاحظت بأنَّ فيليمون لم يُقسم».

قاطعها غودوين: «بصفتهِ راهباً فهو غيرُ مضطرٍ للقسم».

رفعت كاريس صوتها قائلة: «هذا من حسن حظِّهِ وإلّا لأحرِقَ في الجحيمِ على الأكاذيبِ التي تفوهَ بها اليوم!»

فكرت في نفسها: «وهذا هدفٌ لمصلحتي». وشعرت بأملها يكبرُ أكثر.

تحدثت إلى الحشدِ فعلى الرغمِ من أنَّ الحُكم للأسقفِ فإنَّ قرارهُ سيتأثر بردِّ فعلِ سكانِ المدينةِ. علاوةً على هذا لم يكن ريتشارد صاحبَ مبادئ.

«لقد داوت ماتي وايز العديدَ من سكانِ هذهِ المدينةِ»، استهلّت كاريس كلامها. «وفي مثلِ هذا اليومِ منذُ عامين عندما انهارَ الجسرُ كانت من بينِ أوائلِ من عالجوا المصابين وعملوا إلى جانب الأمِّ سيسيليا والراهباتِ. وها أنا أنظرُ حولي في الكنيسةِ اليومَ وأرى العديدَ من أولئكَ الذين تلقوا عنايتها في ذلكَ الوقتِ العصيبِ. هل سمعها أيُّ أحدٍ منكم تستدعي الشيطان في ذلكَ اليوم؟ إن فعلت فليتقدم ويشهد».

صمتت لبرهةٍ حتى يُحدث الصمتُ تأثيرهُ على الجمهورِ.

أشارت كاريس إلى مادج ويبر وقالت: «لقد قدمت ماتي خلطةً من أجلِ الحمى التي أصابت ابنتكِ. ماذا قالت لكِ عندما قامت بإعدادها؟»

بدت مادج مرتاعةً فلم يكن استدعاء أحدٍ للشهادةِ في محاكمةِ ساحرةٍ بالأمرِ المريحِ، إلّا أنَّ مادج كانت تدين بالكثير لكاريس ولهذا تمالكت نفسها ونظرت في تحدٍ ثمَّ قالت: «قالت ماتي وقتها: 'فلتُصلي للرَّبِّ فهو الشافي'».

أشارت كاريس إلى المأمورِ وقالت: «جون، لقد خففت من آلامكَ عندما جبَّر ماثيو باربر عظامكَ المكسورةَ. ما الذي قالتهُ لكَ وقتها؟»

لطالما كان جون محسوباً على الإدعاءِ ولهذا بدا مرتبكاً ولكنّه قال الحقيقةَ بصوتٍ قوي: «لقد قالت لي: صَلي للرَّبِّ فهو الشافي».

التفتت كاريس إلى الحشدِ وقالت: «يعلمُ الجميعُ أنَّ ماتي ليست ساحرةً. ولكن إن كان هذا صحيحاً، وكما قالَ الأخُ فيليمون، فلماذا هربت من المدينةِ؟ سؤالٌ سهلٌ. لقد خافت من الأكاذيب التي ستُحاكُ ضدها كما فعلوا معي. وأنا أخاطبُ هنا النساء، من منكن ستشعرُ بالثقةِ بأنّها ستُبرأ في محكمةٍ قوامها كهنةٌ ورهبانٌ؟» ونظرت حولها وركزت نظرها على النساءِ البارزاتِ في المدينة: ليب ويلر وساره تافرنر وسوزانا تشيستو.

«لماذا كنتُ أمزجُ الأصبغةَ ليلاً؟» تابعت كاريس كلامها. «لأنَّ النهارَ كان قصيراً! وكما يعلمُ معظمكم فإنَّ والدي لم ينجح في بيعِ كل صوفِ العامِ الماضي، ولهذا أردت أن أحولَ الصوفَ الخام إلى شيءٍ يمكنني بيعه. كانَ اكتشافُ الصيغة المناسبة للصبغةِ أمراً صعباً ولكني نجحت، نجحتُ بالعملِ

الدؤوبِ لساعاتٍ طويلةٍ نهاراً وليلاً... ومن دونِ مساعدةِ الشيطانِ». وتوقفت لتلتقطَ أنفاسها.

وعندما تابعت حديثها استخدمت لهجةً مختلفةً وتحدثت بصوتٍ لعوبٍ: «يتهمونني بسحرِ ميرثن. أعترفُ بأنَّ هذهِ القضية ضدي قويةٌ. انظروا إلى الأختِ إليزابيث. فلتنهضي من فضلكِ يا أختاه».

ووقفت إليزابيث على مضضٍ.

«إنَّها جميلةٌ، أليسَ كذلك؟» قالت كاريس. «وهي ذكيةٌ أيضاً. إنها ابنةُ أسقفٍ. أوه، اعذرني يا سيدي الأسقف لم أقصد الإساءةَ».

قهقهَ الحشدُ عندَ سماعِ هذهِ الملاحظة الوقحةِ وبدا غودوين غاضباً جداً بينما جاهدَ الأسقف ريتشارد لكبحِ ابتسامةٍ كادت تفلتُ منهُ.

«لا تعرفُ الأختُ إليزابيث السببَ الذي قد يدفعُ أيَّ رجلٍ إلى تفضيلي عليها، وأنا أيضاً لا أعرفُ. ومن دونِ سببٍ واضحٍ فإنَّ ميرثن يُحبني رغمَ قبحي، وأنا لا أملكُ تفسيراً لهذا». وتعالى مزيدٌ من الضحكِ في القاعةِ. «يؤسفني أن إليزابيث غاضبةٌ. ولو أننا عشنا في زمنِ العهدِ القديمِ، لكان بامكانِ ميرثن أن يحظى بزوجتين ولكانَ الجميعُ سعداء». وضحكَ الجميعُ على هذا. انتظرت كاريس لموجةِ الضحكِ أن تتراجع ثمَّ قالت بكلِّ رزانةٍ: «ولكن أكثر ما يؤسفني في هذا أن تصبحَ الغيرة الطبيعيةُ لامرأةٍ خائبةٍ حجةً في فمِ راهبٍ مبتدئٍ غير جديرٍ بالثقةِ ليُلقي باتهامٍ خطيرٍ كالاتهامِ بالهرطقةِ».

وقفَ فيليمون ليعترضَ على اتهامهِ بأنَّه غير جديرٍ بالثقةِ ولكن الأسقفَ ريتشارد لوحَ له بيدهِ كأنّه يقولُ له: «دعها تتكلم، دعها تتابع كلامها».

وهنا قررت كاريس بأنَّها أوضحت وجهةَ نظرها في قصَّةِ إليزابيث وتابعت كلامها قائلةً: «أعترفُ بأنني أحياناً أستخدمُ كلماتٍ بذيئةٍ عندما أكون وحيدةً بخاصةٍ عندما أتعرضُ لموقفٍ مؤلم كأن أصدمَ إصبعَ قدمي بشيءٍ ما، ولكن لا بدَّ أنَّكم تتساءلون عن السببِ الذي قد يدفعُ بزوجِ أختي إلى الشهادةِ ضدي والقول إنَّ ما أهمهمُ بهِ هو ابتهالٌ إلى الأرواحِ الشريرةِ. أخشى أنني أملكُ الجوابَ على هذا». توقفت عن الكلامِ لبرهةٍ وجيزةٍ ثمَّ تابعت بكلِّ رزانةٍ: «إنَّ والدي مريض. وإن ماتَ فستقسمُ ثروتهُ بيني وبينَ أختي. ولكني إن مُتُ أولاً ستأخذُ أختي كلَّ الثروةِ، وأختي هي زوجةُ إلفريك».

توقفت لبرهةٍ مجدداً ونظرت إلى الحشدِ بإمعانٍ. «هل أنتم مصدومون؟»

قالت. «وأنا أيضاً مصدومةٌ. ولكن الرجال قد يقتلون من أجلِ شيءٍ أقلَّ من هذا».

وابتعدت من مكانها كأنّها انتهت من كلامها، وعندما نهض فيليمون عن المقعدِ استدارت كاريس وخاطبتهُ باللاتينية: «أنتَ رأسٌ فوقَ مؤخرةٍ».

ضحكَ الرهبان بصوتٍ عالٍ واحمرَّ فيليمون غضباً.

التفتت كاريس إلى إلفريك وقالت: «هل فهمت ما قلتهُ للتو يا إلفريك؟»

«لا»، قال إلفريك بتجهمٍ.

«ولهذا السبب اعتقدتَ أنني كنتُ أتحدثُ بلغةِ السحرِ الشريرةِ». والتفتت إلى فيليمون وقالت له: «وأنتَ أيها الأخ هل عرفتَ اللغةَ التي تحدثت بها للتو؟»

«اللاتينية»، أجابها فيليمون.

«ربما من الأفضلِ أن تخبرنا بمعنى ما قلتهُ».

نظرَ فيليمون إلى الأسقفِ كأنّه يلتمسُ منهُ إعفاءهُ من الإجابةِ على هذا السؤالِ، ولكن ريتشارد كان مستمتعاً بما يحدث ولهذا قال: «أجب على السؤالِ».

أطاعهُ فيليمون وقد بدا مغتاظاً بشدةٍ: «قُلتِ ‹أنتَ رأسٌ فوقَ مؤخرةٍ›».

دوت القاعةُ ضحكاً وعادت كاريس إلى مكانها.

عندما تراجعت موجةُ الضحكِ، استهلَّ فيليمون الكلامَ ولكنَّ ريتشارد قاطعهُ. «لا حاجة إلى سماعِ المزيدِ منكَ. لقد قدمت قضيةً قويةً ضدها وقد تمكنت من الدفاعِ عن نفسها بقوةٍ. هل لدى أحدٍ آخر ما يقولهُ حيالَ هذا الاتهام؟»

«أنا لدي يا سيدي الأسقف»، وتقدَّم الأخ موردو. هللَ بعضُ سكانِ المدينةِ بينما استهجنَ آخرون. كانت ردودُ الفعلِ نحو موردو متعارضةً. «إنَّ الهرطقةَ شرٌّ»، بدأ موردو كلامهُ وقد غيرَ نبرةَ صوتهِ لتصبحَ نبرةَ وعظٍ لطيفٍ: «فهو يُفسدُ روحَ النساءِ والرجالِ...»

«شكراً لكَ أيُّها الأخ ولكني أعرفُ ما تفعلهُ الهرطقةُ»، قال ريتشارد. «هل لديكَ شيءٌ آخر لتضيفهُ؟ إن...»

«هذا فقط»، أجابَ موردو. «أنا أتفقُ وأعيدُ التشديدَ...»

«القيد قيلَ هذا الكلامُ قبلاً...»

«على ما قلتهُ حولَ قوةِ القضيةِ وقوةِ الدفاعِ».

«في هذهِ الحالةِ...»

«لدي حلٌ أودُّ اقتراحهُ».

«حسناً أيُّها الأخ موردو. ما هو هذا الحل؟ وباختصارٍ لو سمحت».

«يجب أن يتمَّ فحصها بحثاً عن علامةِ الشيطانِ».

وشعرت كاريس بقلبها يتوقف من الخوفِ.

«بالطبعِ»، قال الأسقف. «وأتذكرُ الآن أنَّك أدليتَ بالاقتراحِ عينهُ في المحاكمةِ السابقةِ».

«تماماً يا سيدي. لأنَّ الشيطان يمتصَّ بشجعٍ من دمِ مساعديهِ عبرَ حلمةٍ خاصةٍ كما يمتصُّ الحديثُ الولادةِ الحليبَ من الأثداءِ الممتلئةِ...»

«أجل، شكراً لكَ أيّها الأخ. لا حاجةَ للاستفاضةِ في التفاصيلِ. هلَّا قُمتِ أيتها الأم سيسيليا مع راهبتين أخريين بفحصِ المتهمةِ؟»

نظرت كاريس إلى ميرثن. بدا شاحباً من الرعبِ. كانا يفكران بالأمر عينهِ.

كانت كاريس تملكُ شامةً.

إنَّها شامةٌ صغيرةٌ ولكنَّ الراهباتِ سيجدنها وفي المكانِ الذي يعتقدون أنَّ الشيطانَ قد يتركُ علامتهُ. كانت على الجانبِ الأيسر من فرجها بالقربِ من الشفرِ، وهي بلونٍ بني داكنٍ ولا يغطيها شعرُ عانتها النحاسي. عندما رآها ميرثن للمرةِ الأولى مازحها قائلاً: «سيقولُ عنكِ الأخُ موردو إنَّك ساحرةٌ، من الأفضلِ لكِ ألا تدعيهِ يراها». ضحكت كاريس وقتها وقالت: «لن أفعل حتَّى لو كانَ آخرَ رجلٍ على وجهِ الأرضِ».

كيف أمكنهما المزاحُ في هذا الأمرِ وقتها؟ فها هي الآن ستُحكم بالإعدام.

نظرت كاريس حولها في يأسٍ. كانت تريد الهربَ ولكنها محاطةٌ بمئاتِ الناسِ وبعضهم قد يحاولون إيقافها. رأت يدَ ميرثن على الخنجرِ المُعلّقِ بحزامه، ولكن حتى لو أنَّه يحملُ سيفاً فلن يكونَ هذا مُجدياً لأنَّه ليسَ بالمقاتلِ القوي ولم يكن ليتمكن من شقِّ طريقهِ وسطَ مثلِ هذا الحشدِ.

تقدَّمت الأمُّ سيسيليا منها وأمسكتها من يدها.

وقررت كاريس أنهم حالما يخرجون من الكنيسةِ ويعبرون الممر المسقوف ستلوذُ بالفرارِ.

قال غودوين: «من فضلكَ أيُّها المأمور خُذ رجلاً من رجالكَ ورافق المرأة إلى غرفةِ الفحصِ ولتقف على البابِ إلى أن ينتهي الكشفُ عليها».

لم يكن بوسعِ سيسيليا منعُ كاريس من الهروبِ ولكنَّ رجلين سيتمكنان من فعلِ هذا.

وقعَ نظرَ جون على مارك ويبر الذي عادةً ما يكونُ خيارهُ الأوّل بينَ رجالهِ، وشعرت كاريس ببارقةِ أملٍ. لقد كانَ مارك صديقاً مخلصاً لها، ولكن يبدو أنَّ الفكرةَ عينها خطرت للمأمورِ لأنَّهُ التفتَ بعيداً وأشارَ إلى كريستوفر بلاكسميث.

أمسكت سيسيليا يدَ كاريس بلطفٍ.

وكمن يسير في نومهِ تركت كاريس نفسها تحت رحمةِ من قادوها خارجَ الكنيسةِ. تقدَّمت الأم سيسيليا وكاريس ومن خلفهما لحقت بهما الأختُ مير والراهبة العجوز جولي مع المأمورِ جون وكريستوفر بلاكسميث وخرجوا من البابِ الشمالي للكاتدرائيةِ. عبروا الممرَّ المسقوف ودخلوا إلى القسمِ الخاص بالراهباتِ ودخلت النساء إلى المهجع في حين وقفَ الرجلان في الخارج.

أغلقت سيسيليا الباب.

«لا حاجةَ لفحصي»، قالت كاريس بفتورٍ. «أحملُ علامةً».

«نعلمُ بهذا»، قالت سيسيليا.

اكفهرَّ وجهُ كاريس وقالت: «كيف هذا؟»

«عندما حممناكِ». وأشارت إلى مير وجولي. «ثلاثتنا رأيناها عندما دخلتِ إلى المستشفى منذُ عامين بسببِ شيءٍ سممكِ».

لم تعلم سيسيليا، أو تظاهرت بأنَّها لم تتكهن، بأنَّ كاريس تناولت خلطةً للتخلصِ من حملها.

تابعت سيسيليا كلامها قائلةً: «كنتِ تتقيئين بشدةٍ وتنزفين من الأسفلِ، ولهذا اضطررنا إلى تحميمكِ مرَّاتٍ عديدةً ورأينا الشامةَ».

ارتسمَ على وجهِ كاريس اليأسُ والقنوطُ كموجةٍ لا سبيلَ للفرار منها. أغلقت عينيها. «وأنتن الآن ستحكمن عليَّ بالموتِ»، قالت في صوتٍ ضعيفٍ أقربُ إلى الهمسِ.

«ليسَ بالضرورةِ»، أجابت سيسيليا. «فقد يكون هناكَ طريقةٌ أخرى».

***

كانَ ميرثن في حالةِ ذهولٍ شديدٍ. لقد حبسوا كاريس وسيحكمون عليها بالموتِ ولن يكونَ بوسعهِ فعلُ شيءٍ. لم يكن بوسعهِ إنقاذها حتى وإن كان معهُ رالف بمنكبيهِ العريضين وسيفهِ وحُبهِ للعنفِ. حدَّقَ في رعبٍ إلى البابِ الذي اختفت وراءهُ كاريس. كان يعلمُ بشأنِ تلكَ الشامةِ، وكان واثقاً من أنَّ الراهباتِ سيجدنها في المكان الذي سيُفتشنهُ بعنايةٍ.

ارتفعَ صخبُ الثرثرات الحماسيَّةِ للناسِ من حولهِ؛ كانوا يدافعون

ويهاجمون كاريس، ويعيدون تمثيلَ المحاكمةِ، ولكنَّه شعرَ كأنّه داخلَ فقاعةٍ ولذلك بالكادِ كانَ قادراً على متابعةِ أحاديثهم التي وصلت إلى أذنيهِ كأنّه ضربٌ عشوائي على مئاتِ الطبولِ.

وجدَ ميرثن نفسهُ يُحدق إلى غودوين ويتساءل عمَّا كان يفكرُ بهِ. كان ميرثن يستطيع تفهم الآخرين؛ فالغيرة أكلت إليزابيث وتملَّكَ الجشعُ إلفريك وتصرَّفَ فيليمون بحقدٍ صرفٍ، ولكنَّ أمر رئيسِ الديرِ حيَّرهُ.

نشأ غودوين مع ابنةِ خالهِ كاريس وهو يعلمُ أنّها ليست ساحرةً، ورغمَ هذا فهو مستعدٌ لأن يرسلها إلى حتفها. كيفَ أمكنهُ أن يكونَ شريراً إلى هذهِ الدرجةِ؟ ما هي الأعذار التي اختلقها ليبررَ فعلته؟ هل أخبرَ نفسهُ بأنَّ ما يفعلهُ هو من أجلِ إعلاءِ كلمةِ الرَّبِّ؟ فيما مضى كان غودوين يظهرُ بمظهرِ الإنسانِ المتنور والمهذبِ على عكسِ أنتوني رئيس الديرِ السابقِ المُغالي في تحفظهِ. ولكن ها هو يتحولُ إلى شخصٍ أسوأ من أنتوني، إلى شخصٍ أكثر قسوة في سعيهِ وراء أهدافهِ التي أكلَ الدهرُ عليها وشربَ.

«إن ماتت كاريس سأقتلُ غودوين»، قالَ ميرثن في نفسهِ.

توجهَ والداه نحوهَ. كانا في الكاتدرائيةِ طوالَ الوقتِ وحضرا المحاكمةَ. تفوهَ والدهُ بشيءٍ ولكن ميرثن لم يفهمهُ وقال: «ماذا؟»

فُتحَ الباب الشمالي وعمَّ الصمتُ المكانَ. تقدَّمت الأم سيسيليا وحدها وأغلقت البابَ خلفها. سرت همهمات تستفسر عمَّا ستؤول إليهِ الأمورُ الآن.

توجهت سيسيليا نحو كرسي الأسقفِ.

قال ريتشارد: «حسناً أيتها الأم رئيسة الديرِ؟ ما هي نتيجةُ الفحصِ الذي طلبتهُ منكِ هذهِ المحكمة؟»

قالت سيسيليا على مهلٍ: «لقد اعترفت كاريس...»

وعلا ضجيجُ أصواتٍ مصدومةٍ من الحشدِ.

رفعت سيسيليا صوتها قائلةً: «...اعترفت بخطاياها».

وحلَّ الصمتُ مجدداً. لم يفهم أحد ما عنتهُ بكلامها.

«لقد تلقّت الغفران...»

«ممن؟» قاطعها غودوين. «لا يمكن لراهبةٍ أن تمنحَ الغفرانَ!»

«من الأبِ جوفروي». كانَ جوفروي كاهنَ كنيسة سان مارك التي أصلحَ ميرثن سقفها. لم يكن الأبُ جوفروي من المعجبينَ بغودوين.

كان الجميعُ ذاهلاً وانتظروا من سيسيليا أن تشرحَ ما حدثَ.

«لقد تقدمت كاريس بطلبٍ لتصبحَ راهبةً هنا في الديرِ...»
ومجدداً قاطعها صراخٌ مدهوشٌ من الحشدِ.
صرخت سيسيليا حتَّى يطغى صوتها على أصواتهم: «... ولقد قبلتها».
عمَّ الهرجُ والمرجُ المكانَ ورأى ميرثن غودوين يصرخُ بأعلى صوتهِ ولكن صوتهُ ضاعَ وسطَ جوقةِ الأصواتِ الصاخبةِ ثمَّ رأى إليزابيث وبدت مغتاظةً جداً بينما حدَّق فيليمون إلى سيسيليا بكرهٍ أعمى وبدا إلفريك مُضطرباً، أمَّا ريتشارد فقد بدا مستمتعاً بما يحدثُ. دارت أفكارُ ومعاني ما سمعهُ ميرثن في ذهنهِ، وتساءلَ في نفسهِ إن كانَ الأسقفُ سيقبلُ بهذا، وهل هذا يعني أنَّ المحاكمةَ قد انتهت؟ هل نجت كاريس من الإعدامِ؟
في نهايةِ المطافِ تراجعَ صخبُ الأصواتِ، وحالما تمكنَ غودوين من التحدثِ بصوتٍ عالٍ قالَ بوجهٍ خطفَ الغضبُ لونه: «هل اعترفت؟ أم لم تعترف بالهرطقةِ؟»
«الاعتراف سرٌّ مقدسٌ»، أجابت سيسيليا بهدوءٍ. «لا أعلم ما الذي قالتهُ للكاهنِ، وحتَّى إن علمت فأنا لن أفشي اعترافها لمخلوقٍ».
«هل تحملُ علامةَ الشيطانِ؟»
«لم نقم بفحصها». أدرك ميرثن أنَّه جوابٌ مراوغ ولكن سيسيليا أضافت: «لم يعد ضرورياً بعدَ أن قامت بالاعترافِ».
«هذا غير مقبول!» صرخَ غودوين وتخلى عن التمثيليةِ بأنَّ فيليمون المدعي في هذهِ القضيةِ. «لا يمكن لرئيسةِ الديرِ أن تعرقلَ سيرَ المحكمةِ بهذهِ الطريقةِ!»
قال الأسقف ريتشارد: «شكراً لكَ أيُّها الأب رئيس الدير...»
«يجب الحفاظُ على سيرِ المحاكمةِ!»
رفعَ ريتشارد صوتهُ قائلاً: «وهذا ما سيحدث!»
فتحَ غودوين فمهُ ليمعن في الاعتراضِ ولكنَّه فكرَ بأنَّه من الأفضل ألا يفعل هذا.
قال ريتشارد: «لست بحاجةٍ لسماع المزيدِ من الجدالِ. لقد أخذتُ قراري، وسأعلنُ الآن عن حكمي في هذهِ القضيةِ».
وسادَ الصمتُ المكانَ.
«إنَّ اقتراح دخولِ كاريس إلى ديرِ الراهبات مثيرٌ للاهتمامِ. إن كانت ساحرةً

فلن تكونَ قادرةً على التسببِ بأيِّ أذيةٍ ما دامت في حرمِ قدسيةِ المكانِ لأنَّ الشيطان لا يستطيعُ الدخولَ إلى هنا. ولكن من جهةٍ أخرى، إن لم تكن ساحرةً سنكونُ قد أنقذنا حياتها من خطأ تجريمِ امرأةٍ بريئةٍ. قد لا تكون طريقةُ حياةِ الدير خياراً لكاريس ولكن عزاءها سيكون تكريس حياتها لخدمةِ الرَّبِّ. بالنظرِ إلى كفتي الحل أجدُ في هذا الاقتراحِ حلّاً مرضياً».

قال غودوين: «وماذا لو غادرت ديرَ الراهبات؟»

«هذهِ نقطةٌ مهمةٌ»، قال الأسقفُ. «ولهذا سأحكمُ عليها بالموتِ بشكلٍ رسمي ولكني سأعلّقُ الحكمَ ما دامت راهبةً. إن فكرت بالتخلي عن نذورها سينفذُ فيها حكمُ الإعدام».

«هذا كل شيءٍ»، فكر ميرثن في يأسٍ. «حكمٌ بالموتِ». وشعرَ بدموعِ الغضبِ والحزنِ تترقرقُ من عينيهِ.

وقفَ ريتشارد. وقال غودوين: «رفعت الجلسةُ!» غادرَ الأسقفُ وتبعهُ الرهبان والراهباتُ في أرتالٍ.

تحرَّكَ ميرثن كالدائخِ. حاولت والدتهُ التحدثَ إليهِ لتواسيهِ ولكنه تجاهلها. تركَ الحشدَ يحملهُ عبرَ البابِ الغربي العظيم للكاتدرائيةِ إلى الحديقةِ في الخارجِ. كانَ التجارُ يوضبون ما تبقى من بضائعهم ويفككونَ الأكشاكَ. ها هو موسمٌ آخر من سوقِ الصوفِ ينتهي، وأدركَ ميرثن أنَّ غودوين حصلَ على ما أرادهُ. ومع احتضار إدموند وخروج كاريس من مجالِ المنافسةِ سيصبحُ إلفريك رئيسَ النقابةِ ويسحب الطلب بتحويل كينغزبريدج إلى منطقةٍ إداريةٍ ملكيَّةٍ.

حدَّقَ إلى الجدرانِ الحجريةِ الرماديةِ لأبنيةِ الديرِ. كانت كاريس في مكانٍ ما في الداخلِ. استدارَ ميرثن في ذلكَ الاتجاهِ وسارَ عكسَ طريقِ الحشدِ الخارج من الكنيسةِ متوجهاً إلى المستشفى.

كانَ المكان فارغاً ونظيفاً وقد رُتبت بعنايةٍ جميعُ الحشايا القشيَّةِ التي يستخدمها الزوارُ. في الزاوية الشرقية من المكانِ شمعةٌ تحترقُ على المذبحِ. قطعَ ميرثن الغرفةَ على مهلٍ غير واثقٍ مما عليهِ القيام بهِ الآن.

وتذكرَ ما قرأهُ في كتابِ تيموثي عن أنَّ جدَّهُ البنَّاء جاك كان راهباً مبتدئاً لفترةٍ وجيزةٍ. ولمحَ الكاتبُ إلى أنَّ جاك لم يكن راهباً جاداً ولم يستطع تحمُّلَ الانضباطَ الرهباني، وفي نهاية المطافِ انتهت فترةُ رهبنتهِ بشكلٍ مفاجئٍ وفي ظروفٍ أخفاها تيموثي بلباقةٍ.

ولكن الأسقف ريتشارد أوضحَ أنّه في حال قررت كاريس تركَ الرهبنة فإنَّ حكمَ الاعدامِ سيكون لها بالمرصادِ.

دخلت راهبةٌ شابةٌ، وعندما تعرفت على ميرثن بدت خائفةً. «ما الذي تريده؟» سألت الراهبةُ.

«أريد التحدثَ إلى كاريس».

«سأذهب وأستفسر عن الأمرِ»، قالت الراهبةُ وهرعت خارجةً.

حدَّق ميرثن إلى المذبحِ وإلى الصليبِ واللوحِ الثلاثي المعلَّقِ على الحائطِ ويصور القديسةَ إليزابيث الهنغارية، راعيةَ المشافي. يصورُ أحدُ الألواحِ القديسةَ عندما كانت أميرةً ترتدي تاجاً وتطعمُ الفقراءَ، واللوحُ الثاني يصورها وهي تبني مستشفاها، أمَّا اللوحُ الثالث فيستعرضُ معجزةَ تحولِ الطعامِ الذي كانت تحملهُ تحتَ عباءتها إلى زهورٍ. وتساءل ميرثن عمَّا ستفعلهُ كاريس في مثلِ هذا المكان فقد كانت مشككةً في كلِّ تعاليمِ الكنيسةِ تقريباً. لم تصدق أنَّ هناكَ أميرةً قادرةً على تحويلِ الخبزِ إلى زهورٍ. «كيفَ لهم أن يعلموا علمَ اليقين؟» هذا ما كانت تقولهُ عن القصصِ التي يقبلها الجميعُ دونَ التشكيكِ بصحتها؛ قصةُ آدم وحواء وفُلكُ نوح وقصة داوود وجالوت بل وكانت تشككُ بقصةِ ميلادِ المسيحِ. ستكونُ حياتها هنا أشبهَ بحياةِ قطٍ برّيٍ في الأسرِ.

يجب أن يتحدثَ معها ليعرفَ ما يجولُ في دماغها. لا بدَّ أنَّ لديها خطةً ما لم يتمكن من التكهنِ بها. انتظرَ بفارغِ الصبرِ عودةَ الراهبةِ ولكنها لم تعد بل أتت الراهبةُ العجوز جولي. «شكراً للسماءِ!» قال ميرثن. «جولي، أتيتُ لرؤيةِ كاريس. بسرعةٍ من فضلكِ!»

«أنا أسفةٌ أيُّها الشابُ ميرثن»، قالت جولي. «لا تريد كاريس مقابلتكَ».

«لا تتفوهي بالهراءِ»، قال لها. «نحن مخطوبان ويفترضُ بنا الزواجُ غداً. عليها أن تأتي لرؤيتي».

«إنَّها راهبةٌ مبتدئةٌ الآن، وهي لن تتزوج».

وهنا قال ميرثن بصوتٍ مرتفعٍ: «إن كان هذا صحيحاً ألا تعتقدين أنَّ عليها إخباري هذا بنفسها؟»

«هذا ليسَ من شأني. إنَّها تعلمُ أنَّكَ هنا، ولكنها لا تريد التحدثَ معكَ».

«لا أصدقكِ». اندفعَ ميرثن متجاوزاً الراهبةَ العجوز وخرجَ من البابِ الذي دخلَ منهُ قبلَ قليلٍ. وجدَ نفسهُ في ردهةٍ صغيرةٍ. لم يكن قد دخلَ إلى هنا قبلاً،

فلم يدخل سوى قلّة من الرجالِ إلى قسمِ الراهباتِ في الديرِ. دخلَ من بابٍ آخرَ، ووجدَ نفسهُ في رواق مسقوفٍ تابع لديرِ الراهباتِ حيثُ وقفت العديدُ منهن يقرأن أو يتجولن في المكانِ متأملاتٍ أو يتحدثنَ بأصواتٍ هادئةٍ.

ركضَ ميرثن عبرَ الممرّ المسقوفِ. شاهدتهُ إحدى الراهبات وصرخت فتجاهلها. رأى درجاً فصعدهُ ركضاً ودخلَ إلى أوّلِ غرفةٍ فوجدَ نفسهُ في الغرفةِ العموميةِ. كان هناكَ صفّانِ من الحشايا مع أغطية مطويةٍ بعنايةٍ فوقها. لم يجد أحداً هناك. تقدَّمَ في الممرِ قليلاً وحاولَ فتحَ بابٍ آخر إلّا أنّه وجدهُ مقفلاً.

«كاريس!»، صرخَ ميرثن. «هل أنتِ في الداخلِ؟ تحدَّثي إلي!» وقرعَ على البابِ بقبضتهِ فجرحَ مفاصل أصابعهِ وبدأ ينزفُ ولكنه لم يشعر بالألمِ. «دعوني أدخل!» صرخَ ميرثن. «دعوني أدخل!»

وقال صوتٌ خلفهُ: «سأدعكَ تدخل».

قفزَ ميرثن إلى الوراءِ والتفتَ ليرى الأمَّ سيسيليا.

أخذت من حزامها مفتاحاً وفتحت القفلَ بكلِّ هدوءٍ.

فتح ميرثن البابَ على مصراعيهِ وكشفَ عن غرفةٍ صغيرةٍ بنافذةٍ وحيدةٍ ورفوفٍ تملأ المكان كُدست فوقها ثيابٌ مطويةٌ.

«نخزنُ هنا الأرديةَ الشتويةَ»، قالت سيسيليا. «إنَّه مخزن».

«أينَ هي؟» صرخَ ميرثن.

«إنَّها في غرفةٍ مقفلةٍ بناءً على طلبها. لا يمكنكَ أن تعثرَ على الغرفةِ، وحتّى إن وجدتها لن تتمكنَ من دخولها فهي لا تريدُ رؤيتكَ».

«كيفَ أتأكدُ من أنّها ليست ميتةً؟» سمعَ ميرثن صوتهُ ينهار تحت قوةِ عاطفتهِ، ولكنه لم يكن يهتم.

«أنتَ تعرفني»، قالت سيسيليا. «كاريس ليست ميتةً». ونظرت إلى يدهِ. «لقد آذيتَ نفسكَ»، قالت بتعاطفٍ. «رافقني لأضعَ مرهماً على جروحكَ».

نظرَ ميرثن إلى اليد ومن ثمَّ إليها وقال: «أنتِ شيطانٌ».

ركضَ هارباً منها وعادَ من الطريقِ الذي أتى منهُ عبرَ المستشفى وجولي المرتعبةِ ليصبحَ خارجَ المكانِ. شقَّ طريقهُ عبرَ فوضى نهايةِ السوقِ أمامَ الكاتدرائيةِ ليصلَ إلى الشارعِ الرئيسي. كان يفكرُ بالتحدثِ إلى إدموند ولكنَّه عدلَ عن هذا فهو لم يكن يريد أن يكونَ الشخص الذي يُخبرُ والدَ كاريس المريض بالواقعةِ الرهيبةِ. ولكن بمن يمكنهُ الوثوقُ؟ وفكرَ بالتحدثِ إلى مارك ويبر.

انتقلَ مارك وعائلتُه إلى منزلٍ كبيرٍ في الشارعِ الرئيسي. كان للمنزلِ الجديد مخزنٌ حجريٌّ كبيرٌ من أجلِ تخزين أثوابِ القماشِ. لم يعد هناك نولٌ في المطبخِ لأنَّ عمالاً آخرين يقومون بكل أعمالِ النسيجِ تحت إشرافهما الآن. وجدَ ميرثن مادج ومارك جالسين في وقارٍ على مقعدٍ. عندما دخلَ ميرثن قفزَ مارك وصرخَ قائلاً: «هل رأيتها؟»

«لم يسمحوا لي برؤيتها».

«هذا مشينٌ»، قال مارك. «لا يملكونَ الحقَّ بمنعِها من رؤيةِ الرجلِ الذي ستتزوج بهِ!»

«تقولُ الراهبات إنَّها لا تريدُ رؤيتي».

«لا أصدقهنَّ».

«ولا أنا. ذهبتُ وبحثتُ عنها ولكني لم أجدها. كانَ هناكَ الكثير من الأبوابِ الموصدةِ».

«لا بدَّ أنَّها في مكانٍ ما هناك».

«أعلمُ. هلَّا أخذتَ مطرقةً ورافقتني لمساعدتي في كسرِ كلِّ بابٍ إلى أن نجدها؟»

بدا مارك متضايقاً. ربما يكون رجلاً قوياً إلَّا أنَّه يكرهُ العنفَ.

قال ميرثن: «يجب أن أعثرَ عليها. ربما كانت ميتةً».

وقبلَ أن يتمكن مارك من الإجابة قالت مادج: «لديَّ فكرةٌ أفضل».

ونظرَ الرجلان إليها.

«سأذهبُ إلى ديرِ الراهباتِ»، قالت مادج. «ولأنني امرأةٌ فلن تتوترَ الراهباتُ في حضوري، وربما يقنعنَ كاريس بمقابلتي».

أومأ مارك برأسهِ في موافقةٍ وقال: «سنعرفُ على الأقلِّ أنَّها حيَّةٌ».

قال ميرثن: «ولكن... أريد ما هو أكثر من هذا. أريد أن أعرفَ ما الذي تفكرُ فيهِ، وإن كانت ستنتظرُ هدوءَ الأمورِ لتهربَ، أو إن كانَ عليَّ تهريبها من هناك بنفسي، أو الانتظار، وكم علي أن أنتظر؟ لشهرٍ؟ أم لعامٍ؟ أم لسبعةِ أعوامٍ؟»

«سأطرحُ عليها هذهِ الأسئلة إن سمحوا لي بالدخولِ». وقفت مادج ثمَّ قالت: «فلتنتظر هنا».

«لا، سآتي معكِ»، قال ميرثن. «سأنتظرُ خارجاً».

«في هذهِ الحالةِ لمَ لا ترافقنا أنتَ أيضاً يا مارك؟»

ما عنته مادج بقولها هذا هو أن وجودَ مارك كفيلٌ بإبعادِ ميرثن عن المتاعبِ،

ولم يعترض ميرثن على اقتراحها. لقد طلبَ ميرثن عونهما، وكان يشعرُ بالامتنانِ لوجودِ شخصين أهل لثقته.

هرعوا جميعاً باتجاهِ الديرِ. دخلت مادج وانتظرَ مارك وميرثن خارجَ المستشفى. رأى ميرثن كلبَ كاريس العجوز سكراب جالساً عندَ البابِ بانتظارها لتخرج.

بعدَ مرورِ نصفِ ساعةٍ على دخولِ مادج قال ميرثن: «أعتقد أنهن سمحن لها بالدخولِ وإلا كانت خرجت بحلولِ هذا الوقت».

«سنعرفُ هذا قريباً»، قال مارك.

أخذا يراقبان آخر التجارِ يوضبون بضائعهم ويغادرون حديقةَ الكاتدرائيةِ التي تحولت إلى بحرٍ من مخيضِ الطينِ. ذرعَ ميرثن المكانَ جيئةً وذهاباً في حين جلسَ مارك بسكونٍ كأنّه تمثال شمشون. مرَّت ساعةٌ كاملةٌ، ورغمَ نفادِ صبرِ ميرثن فإنَّه استبشرَ خيراً في التأخيرِ فهذا يعني أنَّ مادج تتحدث إلى كاريس.

عندما ظهرت مادج أخيراً كانت الشمسُ تغوصُ على الطرفِ الغربي من البلدةِ. بدا وجهها رزيناً ورطباً من الدموعِ. «كاريس على قيدِ الحياة»، قالت مادج. «ولا تعاني من أيِّ خطبٍ، جسدياً أو عقلياً. إنَّها في كاملِ قواها العقليةِ».

«ما الذي قالتهُ؟» عاجلها ميرثن بهذا السؤال.

«سأخبركَ بكلِ كلمةٍ قالتها. تعالَ معي ولنجلس في الحديقةِ».

توجهوا إلى الحديقةِ وجلسوا على مقعدٍ حجري يراقبون الغروبَ. أثارت رزانةُ مادج في ميرثن شعوراً سيئاً. كان يفضّلُ رؤيتها وشررُ الغضبِ يتطاير من عينيها، وعلمَ من طريقةِ سلوكها أنَّ الأخبارَ كانت سيئةً وتملكهُ اليأسُ. «هل صحيحٌ أنَّها لا تريد رؤيتي؟» سأل ميرثن.

تنهدت مادج وأجابت: «أجل».

«ولكن لماذا؟»

«سألتها عن السببِ وقالت إنَّ هذا سيُحطمُ قلبها».

وبدأ ميرثن بالبكاءِ.

تابعت مادج في صوتٍ واطئٍ وواضح. «تركتنا الأمُّ سيسيليا وحدنا ولهذا تحدثنا بصراحةٍ ومن دونِ أن يسترقَ أحد السمعَ إلينا. تعتقدُ كاريس أنَّ غودوين وفيليمون قد عقدا العزم على التخلصِ منها بسبب طلبِ تحويلِ كينغزبريدج إلى منطقةٍ إداريةٍ ملكيَّةٍ. إنَّها في أمانٍ في ديرِ الراهبات، ولكن إن غادرت فسيعثرانِ عليها ويقتلانها».

«يمكنها أن تهرب ويسعني أخذها إلى لندن!» قال ميرثن. «لن يعثر غودوين علينا هناك!»

أومأت مادج رأسها موافقةً وقالت: «لقد قلتُ لها هذا وناقشنا هذا الحلَّ مطولاً. إنَّها تشعر بأنكما ستعيشان بقيةَ حياتكما كلاجئين، وهي لا تريد أن تحكمَ عليكَ بمثلِ هذهِ الحياة. إنَّ قدركَ هو أن تصبحَ أعظمَ بنّائي جيلكَ، وأن تكونَ مشهوراً، ولكن إن كانت معكَ فستكون مضطراً دوماً إلى الكذبِ بخصوصِ هويتكَ والاختباءِ حتَّى في ضوءِ النهارِ».

«لا أهتمُّ بهذا!»

«أخبرتني بأنَّك ستقولُ هذا ولكنها تعتقد أنَّ الأمرَ يهمكَ. علاوةً على هذا فهي تعتقدُ أنَّه عليكَ الاهتمام بهِ كما تهتم هي بهِ أيضاً. إنَّها لا ترغبُ بحرمانكَ من قدركَ حتَّى وإن طلبتَ منها هذا».

«كان بوسعها قولُ هذا في وجهي!»

«إنَّها تخافُ من أن تقنعها بالعكسِ».

علمَ ميرثن أنَّ مادج تقولُ الحقيقةَ وأنَّ الأمَّ سيسيليا قالت الحقيقةَ أيضاً. لم تكن كاريس راغبةً برؤيتهِ وشعرَ بأنَّه يختنقُ من الحزنِ. ابتلعَ ريقهُ ومسحَ دموعه عن وجهه بكُمِّهِ وهو يناضل لكي يُخرج صوته.

«ولكن ما الذي ستفعله؟» قال ميرثن.

«ستستغل الأمرَ وستحاولُ أن تكونَ راهبةً صالحةً».

«إنَّها تكرهُ الكنيسةَ!»

«أعلمُ أنَّها لا تكن الكثير من الاحترام لرجالِ الدينِ، وهذا ليسَ مثارَ استغرابٍ في هذهِ المدينةِ، ولكنها تعتقدُ بأنَّها قد تستطيعُ إيجادَ عزاءٍ ما في حياةٍ تكرسها لمعالجةِ النساء والرجالِ».

أخذَ ميرثن يفكرُ بالأمرِ بينما راقبهُ مارك ومادج في صمتٍ. كانَ بوسعهِ تخيلَ كاريس تعملُ في المستشفى وتعتني بالمرضى، ولكن ما هو شعورها حيالَ قضاءِ نصفِ ليلها في الغناءِ والصلاةِ؟

وبعد صمتٍ طويلٍ قال ميرثن: «قد تقتلُ نفسها».

«لا أعتقدُ هذا»، قالت مادج في قناعةٍ تامةٍ. «إنَّها حزينةٌ جداً، ولكن لا أعتقد أنَّها قد تسلكُ هذا السبيل».

«قد تقتلُ شخصاً آخر».

«هذا احتمالٌ واردٌ أكثر من احتمالِ قتلِ نفسها».

«ومجدداً»، قال ميرثن متمهلاً وعلى مضضٍ ثمَّ أضاف: «قد تجدُ نوعاً من السعادةِ».

لم تقلْ مادج شيئاً وأمعنَ ميرثن النظرَ إليها فرآها تهزُّ رأسها موافقةً.

أدركَ ميرثن أنَّ هذا الكلامَ ينضوي على حقيقةٍ مرعبةٍ وهي أن كاريس قد تجد السعادةَ في الديرِ. ربما ستفقدُ منزلها وحريتها وخطيبها ولكنها قد تجدُ السعادةَ في النهايةِ.

لم يكن هناك المزيدُ مما يمكن قولهُ.

وقفَ ميرثن وقالَ: «شكراً لكما على وقوفكما معي كصديقين». وانطلقَ مبتعداً عنهما.

قال لهُ مارك: «إلى أينَ أنتَ ذاهبٌ؟»

توقفَ ميرثن واستدارَ فقد كانت هناكَ فكرةٌ تجولُ في رأسهِ إلا أنَّه كان ينتظرها لتنضج جيداً، وعندما اتضحت في ذهنه جيداً أصابتهُ بالذهول وأدركَ على الفورِ أنَّها الفكرةُ الصائبةُ... لم تكن صائبةً فحسب بل مثاليةً.

مسحَ دموعهُ عن وجههِ ونظرَ إلى مارك ومادج في النورِ الأحمر للشمسِ الغاربةِ.

«سأسافرُ إلى فلورنسا»، قال ميرثن. «وداعاً».

الجزء الخامس

من آذار/ مارس 1346 وحتّى كانون الأول/ ديسمبر 1348

-43-

عبرت الأختُ كاريس الممرَّ المسقوف لديرِ الراهبات في عجلةٍ من أمرها لتصل إلى المستشفى حيث استلقى ثلاثة مرضى على أسرَّةٍ قشيَّة: الراهبةُ العجوز جولي التي باتت الآن عاجزةً جداً على حضورِ المراسمِ أو صعود الدرج إلى مهجع الراهباتِ، وبيلا بروير زوجةُ ابن ديك بروير التي تتعافى من ولادةٍ عسرة، وريكي سيلفرز الذي يبلغُ من العمر ثلاثة عشرَ عاماً بذراعٍ مكسورةٍ قامَ الحلاَّق ماثيو بتجبيرها، إضافةً إلى شخصين آخرين في المكانِ جلسا على مقعدٍ وهما راهبةٌ مبتدئةٌ تدعى نيللي وخادم الديرِ بوب.

ألقت كاريس نظرةً خبيرةً على الغرفةِ ووجدت إلى جانبِ كلِّ سريرٍ طبقَ طعامٍ متسخاً رغم أنَّ موعدَ الغداء قد انتهى منذُ وقتٍ طويلٍ.

«بوب!» قالت كاريس وقفزَ الفتى على قدميهِ: «خُذْ هذهِ الأطباق، هذا ديرٌ والنظافةُ فيهِ فضيلةٌ، هيا بسرعة!»

«آسف أيتها الأخت»، قال لها.

«نيللي هل أخذت جولي العجوز إلى المرحاض؟»

«ليس بعد يا أختاه».

«كيف لم تفعلي هذا؟ وأنت تعرفين أنَّها يجبُ أن تذهبَ إلى المرحاض بعد تناولِ الطعام! تماماً كما كانت والدتي تفعل، خذيها بسرعةٍ قبل أن تلوّثَ نفسها».

وسارعت نيللي إلى رفعِ الراهبةِ العجوز وأخذها إلى الحمامِ.

كانت كاريس تحاولُ أن تربي في نفسها سمةَ الصبر ولكن بعدَ سبعِ سنواتٍ من حياتها كراهبةٍ لم تنجح في اكتسابها، وبدأت تشعرُ بالإحباطِ من إعادةِ التعليماتِ ذاتها مراراً وتكراراً. يعلمُ بوب أنَّ عليهِ تنظيفَ المكان حالما ينتهي المرضى من تناولِ وجبةِ الغداءِ؛ فهذا ما كانت تكررهُ كاريس معظم الوقتِ، وبدورها نيللي تعرفُ ما يجبُ عملهُ لجولي العجوز بعدَ أن تنتهي من تناول

وجبتها، ولكنهما ورغم معرفتهما بواجباتهما فإنَّهما جلسا على المقعدِ يثرثران إلى أن أتت كاريس في جولةٍ تفتيشيةٍ مفاجئةٍ.

أخذت كاريس وعاءً من الماءِ يُستخدم لغسلِ اليدين وعبرت الغرفةَ ثمَّ رمت بمحتوياتِهِ خارجاً. وجدت رجلاً غريباً يتبولُ قبالةَ الجدارِ، وتكهنت أنَّه مسافرٌ يبحثُ عن مكانٍ ليبيتَ فيهِ.

«في المرَّةِ القادمةِ استخدم المرحاضَ خلفَ الإسطبلِ»، باغتته قائلةً.

نظر شزراً إليها وعضوهُ في يدهِ وسألها بوقاحةٍ: «ومن تكونين؟».

«أنا المسؤولةُ عن المستشفى، إن أردتَ البقاءَ هنا الليلةَ فعليكَ أن تحسنَ التصرفَ».

«أوه، أنتِ من النوعِ المتسلطِ؟» قالَ لها وأخذَ وقتهُ في هزِّ عضوهِ حتَّى آخر قطرةٍ.

«أبعد عضوكَ المثير للشفقةِ أو سأحرصُ على طردكَ من الديرِ ومن المدينةِ هذهِ الليلة»، وأفرغت كاريس وعاءَ الماءِ على الرجلِ فتراجع إلى الوراءِ مصعوقاً وقد ابتلَّ عضوه بالماءِ.

عادت كاريس إلى الداخلِ وملأت الوعاءَ بالماءِ من النافورةِ. هناك أنبوبٌ تحت الأرضِ يمرُّ تحت الديرِ يغذيهِ بالمياه النظيفةِ من نهرِ المدينةِ ويُغذي النوافير في الممراتِ المسقوفةِ والمطابخ والمستشفى أيضاً، وهناك أنبوبٌ آخر يُصرِّفُ مياهَ الحمامِ. كانت كاريس ترغبُ بالحصولِ على مرحاضٍ جديدٍ مُلاصقٍ للمستشفى ذات يومٍ حتَّى لا يضطر المرضى العجائز كجولي إلى قطعِ مسافةٍ طويلةٍ للوصولِ إلى المرحاضِ.

لحقَ الغريب بكاريس: «اغسل يديكَ»، قالت له وهي تقدمُ لهُ وعاءَ الماءِ.

أبدى الرجلُ تردداً، ثمَّ أخذَ الوعاءَ منها.

نظرت إليه ورأت وأيقنت أنَّه كان في التاسعةِ والعشرين مثلها تماماً: «من تكون؟» قالت له.

«غيلبرت من هيرفورد»،

«أنا حاجٌّ»، قال لها.

«أتيتُ في زيارةٍ مقدسةٍ لرفاتِ القديس أدلفوس».

«إذاً، بقاؤكَ هنا في المستشفى مرحبٌ بهِ، شرط أن تتحدَّثَ معي، ومع الجميعِ هنا باحترامٍ».

«أجل يا أختاه».

عادت كاريس إلى الممرّ المسقوفِ، كان يوماً ربيعياً معتدلاً، وقد انعكست أشعةُ الشمسِ على الحجارةِ العتيقةِ الملساء للفناءِ، عندَ الممشى الغربي كانت الأختُ مير تعلمُ الفتياتِ في المدرسةِ ترتيلةً جديدةً، وقد توقفت كاريس لمراقبتها، يقولُ الناسُ إنَّ مير تبدو كملاكٍ ببشرتها النقيةِ، وعينيها المشرقتين، وفمها المرسوم بدقةٍ.

نظرياً كانت المدرسةُ من ضمنِ مسؤولياتِ كاريس، وتعملُ فيها كمعلمةٍ زائرةٍ، وهي أيضاً مسؤولةٌ عن كلِّ شخصٍ يأتي إلى ديرِ الراهباتِ من خارج الدير، لقد ارتادت كاريس المدرسةَ ذاتها منذُ عشرين عاماً.

في الصَّفِ عشرُ طالباتٍ تتراوحُ أعمارهن بين التاسعةِ والخامسة عشرة، كانت بعضهنَّ من بناتِ تجارِ كينغزبريدج، وأخريات من بناتِ نبلاءٍ، عندما شارفت الترتيلةُ الجديدةُ التي تتحدثُ عن طيبةِ الرَّبِّ على النهايةِ سألت إحدى الفتيات: «أيتها الأختُ مير، إن كان الرَّبُّ طيباً، فلماذا سمحَ بوفاةِ والدي؟»

كان هذا السؤال نسخةً طفوليةً عن السؤالِ الكلاسيكي الذي سيطرحُهُ جميعُ الأطفالِ الأذكياءِ عاجلاً أم آجلاً عندما يكبرون: «لماذا تحدثُ الأمورُ السيئةُ؟» وكاريس نفسها سألت هذا السؤالَ قبلاً، ولهذا نظرت إلى الطفلةِ باهتمامٍ، كانت الفتاةُ تدعى تيلي من شايرنغ، وهي ابنة نسيبِ الإيرل، وتبلغُ من العمرِ اثني عشرَ عاماً، لها مظهرٌ مشاكسٌ أحبَّتهُ كاريس، وقد نزفت والدةُ تيلي بعد ولادتها حتَّى الموتِ، وبعدَ فترةٍ وجيزةٍ كسَرَ والدها عنقهُ في حادثٍ خلالَ رحلةِ صيدٍ، ولهذا السببِ ترعرعت في منزلِ الإيرل.

قدَّمت لها مير الإجابةَ المراوغة الاعتياديةَ ذاتها حولَ أنَّ للرَّبِّ طرقهُ الغامضةَ، وقد بدا واضحاً أن تيلي لم تقتنع بهذهِ الإجابةِ، ولكن لم يكن بإمكانها التعبيرُ عن شكوكها، ولهذا التزمت الصمتَ، كانت كاريس واثقةً من أنَّها ستطرحُ السؤال عينهُ مرةً أخرى، أشارت مير لهن بالبدءِ في غناءِ الترتيلةِ مجدداً ثمَّ خرجت لتتحدثَ إلى كاريس.

«فتاةٌ ذكيةٌ»، قالت كاريس.

«إنَّها الأذكى في صفها، وخلال عامٍ أو عامين ستكون قادرةً على مجادلتي بضراوةٍ».

«تذكرني بأحدهم»، قالت كاريس عابسة.

«أحاولُ أن أتذكرَ والدتها...»

لامست مير كتفَ كاريس برقَّةٍ، إنَّ مثلَ هذهِ المبادراتِ العاطفيةِ كانت ممنوعةً بينَ الراهباتِ، ولكن كاريس لم تكن صارمةً حيالَ هذهِ الأمورِ.

«إنَّها تُذكرُكِ بنفسكِ»، قالت مير.

ضحكت كاريس قائلة: «لم أكن يوماً بهذا الجمال».

ولكن مير كانت على حقٍ في ما قالته؛ فحتى عندما كانت كاريس طفلةً كانت تطرحُ أسئلةً مشككةً، وعندما أصبحت راهبةً مبتدئةً بدأت تجادلُ في صفوفِ اللاهوتِ، وبعدَ أسبوعٍ من انضمامها إلى الديرِ اضطرت الأمُّ سيسيليا إلى إجبارها على التزامِ الصمتِ خلالَ الدروسِ، ثمَّ بدأت كاريس تخرقُ قواعدَ الرهبنةِ، وتردُّ على أيِّ ملاحظةٍ على سلوكها بالتشكيكِ في عقلانيةِ الانضباطِ الرهباني، ومرَّةً أخرى أُجبرت على التزامِ الهدوءِ.

ولم يطلِ الوقتُ حتَّى عرضَت عليها الأمُّ سيسيليا صفقةً تتيحُ لكاريس قضاءَ معظمِ وقتها في المستشفى، وهو الجزءُ الوحيدُ من عملِ الراهبات الذي آمنت بهِ كاريس حقاً، وتفادي المراسم عندما تقتضي الضرورةُ، وبالمقابل كان على كاريس التوقف عن الهزءِ بالانضباطِ الرهباني وعدم التصريح بأفكارها اللاهوتية الخاصَّة، وافقت كاريس على مضضٍ وبتجهمٍ واضح، إلَّا أنَّ سيسيليا امرأةٌ حكيمةٌ وعرفت أنَّ هذا هو الترتيب الناجح، وحتَّى هذهِ اللحظةِ لم تفشل خطة سيسيليا، لأنَّ كاريس الآن تقضي معظمَ وقتها في الإشرافِ على المستشفى، وتفوّتُ نصفَ المراسمِ، ونادراً ما كانت تتفوهُ علناً بأيِّ شيءٍ مسيءٍ.

ابتسمت مير وقالت: «أنتِ جميلةٌ خاصَّة عندما تضحكين».

ووجدت كاريس نفسها لوهلةٍ مسحورةً بعيني مير الزرقاوين ثمَّ سمعت صوتَ طفلٍ يصرخُ.

استدارت كاريس إلى الوراءِ، لم يكن الصراخُ قادماً من الممرِ المسقوفِ بل من المستشفى، هرعت عبرَ الردهةِ، ورأت كريستوفر بلاكسميث يدخلُ إلى المستشفى حاملاً طفلةً في الثامنةِ من العمرِ، كانت ابنةُ ميني وهي تصرخُ من شدةِ الألمِ.

«ضعها على الفراش»، قالت كاريس.

وضعَ كريستوفر الفتاةَ على الفراشِ.

«ما الذي حدثَ؟»

كان كريستوفر رجلاً قوياً، ولكنه في حالةِ هلعٍ ولذلكَ تحدَّثَ بصوتٍ عالٍ على نحوٍ غريبٍ.

«لقد تعثرت في ورشتي ووقعت على قضيبٍ من الحديدِ الحامي، فلتفعلي شيئاً من أجلها على الفورِ يا أختاه، إنَّها تتألمُ بشدَّةٍ».

مسدت كاريس خدَّ الطفلةِ وقالت لها: «فلتهدئي يا ميني فلتهدئي، سنخففُ من ألمكِ قريباً».

وفكرت كاريس أنَّ مستخلصَ بذورِ الخشخاشِ قويٌّ جداً، وقد يقتل طفلةً في مثلِ عمرها، ولذلك فهي بحاجةٍ إلى وصفةٍ أخف.

«نيللي فلتذهبي إلى الصيدليةِ، ولتحضري قارورةً كُتبَ عليها «خلاصة القُنَّبِ الهندي»، أسرعي ولكن لا تركضي حتى لا تتعثري وتكسري القارورةَ، فصنعُ كميةٍ جديدةٍ منها يتطلبُ ساعاتٍ من العملِ».

وهرعت نيللي باتجاهِ الصيدليةِ.

فحصت كاريس ذراعَ ميني، كانت الطفلةُ تعاني من حرقٍ شديدٍ ولكن، ولحسنِ الحظِ، لم يتجاوز ذراعها ولم يكن خطيراً كالحروقِ الكبيرةِ التي يعاني منها الناسُ عندَ احتراقِ منازلهم، ووجدت قروحاً شديدةً تغطي ساعدَ الفتاةِ وفي المنتصفِ احترقَ الجلدُ بأكملهِ كاشفاً عن لحمٍ متفحمٍ تحتَهُ.

رفعت نظرها للأعلى بحثاً عن المساعدةِ ورأت الراهبةَ مير.

«فلتذهبي إلى المطبخِ، ولتحضري أقلَ من ربعِ ليترٍ من النبيذِ وربعَ ليترٍ من زيتِ الزيتونِ في إبريقين منفصلين من فضلكِ ولتحرصي أن يكونا دافئين».

فغادرت مير إلى المطبخِ.

وتحدَّثت كاريس إلى الطفلةِ قائلةً: «ميني، يجب أن تحاولي التوقفَ عن الصراخِ. أعلمُ أنَّكِ تتألمين، ولكن يجب أن تُصغي إلي جيداً، سأجلبُ لكِ دواءً يخففُ من ألمكِ»، تراجع صراخُ الفتاةِ وتحولَ إلى نحيبٍ.

وصلت نيللي مع خلاصةِ القُنَّبِ الهندي، صبَّت كاريس بعضاً منهُ في ملعقةٍ ثمَّ دفعت بها إلى فمِ ميني المفتوح وأغلقت أنفها، ابتلعت الطفلةُ الشرابَ ثمَّ عاودت الصراخَ مجدداً، ولكنها هدأت بعدَ برهةٍ.

«ناوليني منشفةً نظيفةً»، قالت كاريس لنيللي، كانوا يستخدمون في المستشفى الكثيرَ من المناشفِ، والخزانةُ التي تقعُ خلفَ المذبحِ ممتلئةٌ على الدوامِ، وبأمرٍ من كاريس، بالمناشفِ النظيفةِ.

عادت مير من المطبخِ حاملةً الزيتَ والنبيذ، فوضعت كاريس المنشفةَ على الأرضِ بجانبِ فراشِ ميني ووضعت الذراعَ المحترقةَ فوقها: «كيفَ تشعرين؟» سألت كاريس الطفلةَ.

«بالألمِ»، ناحت ميني.

أومأت كاريس رأسها في رضا؛ كانت هذهِ الكلماتِ الأولى الواضحة التي تفوه بها المريضةُ، ها هو الأسوأ قد مرَّ.

وفجأة لاح النعاسُ على وجه ميني وبدا أنَّ خلاصةَ القُنَّبِ قد أخذت مفعولها، قالت كاريس: «سأضعُ شيئاً على ذراعكِ حتى تتحسني، هلَّا حاولتِ البقاءَ هادئةً؟»

أومأت ميني برأسِها.

صبَّت كاريس القليلَ من النبيذ على معصمِ ميني حيثُ كانت الإصابةُ خفيفةً، جفلت الفتاةُ ولكنها لم تحاول سحبَ ذراعها، وشجَّعَ هذا كاريس للانتقالِ إلى أعلى الذراعِ وسكبِ النبيذِ على المنطقةِ التي كانت فيها الإصابةُ على أشدِّها وتنظيفها، وكررت الأمرَ نفسه مع زيتِ الزيتونِ الذي سيخففُ من تهيجِ الإصابةِ ويحمي اللحمَ من التأثيراتِ السيئةِ للهواءِ، وأخيراً أخذت منشفةً نظيفةً ولفتها بإحكامٍ حولَ الذراعِ لتحميها من الذبابِ.

كانت ميني تئنّ إلَّا أنَّها كانت شبهَ نائمةٍ، عاينت كاريس باهتمامٍ بشرةَ الفتاةِ، بدا وجهها بلونٍ ورديٍ من الإجهادِ وهذهِ علامةٌ جيدةٌ، فلو أنَّ لونَ بشرتها كان شاحباً فهذا سيعني أنَّ الجرعةَ التي أعطتها لها قويةٌ جداً.

لطالما انتابَ كاريس القلقُ عندَ استخدامِ العقاقيرِ، فقد اكتشفت أنَّ تأثير كل عقارٍ يختلفُ بينَ شخصٍ وآخر، ولم تكن تملكُ طريقةً لحسابِ المكوناتِ بدقةٍ، وعندما يكونُ العقارُ خفيفاً فهو لا يُحدثُ تأثيراً أمَّا عندما يكون قوياً فهو خطير، وهي تخافُ بشكلٍ خاصٍ من إعطاءِ الأطفال جرعات زائدةً، رغمَ إصرارِ الأهلِ دوماً على تقديم دواءٍ قويٍّ لأطفالهم لإراحتهم من آلامهم الشديدةِ.

وهنا وصلَ الأخ جوزيف الذي غدا الآن رجلاً في نهايةِ عقدهِ الخامس وتساقطت أسنانهُ ولكنَّهُ ما زال أفضلَ طبيبٍ في الديرِ، فقفزَ كريستوفر بلاكسميث على قدميه وقال: «شكراً للرَّبِّ على وجودكَ هنا أيُّها الأخ جوزيف، أصيبت ابنتي الصغيرة بحرقٍ».

«دعني ألقِ نظرةً»، قال جوزيف.

تراجعت كاريس إلى الوراءِ كاظمةً غيظها، يؤمن الجميعُ أنَّ الرهبان أطبَّاءٌ بارعون وقادرون على اجتراحِ المعجزاتِ بينما مهمةُ الراهباتِ هي إطعامُ وتنظيفُ المرضى، كانت كاريس قد توقفت منذُ زمنٍ طويلٍ عن مهاجمةِ هذا الموقفِ رغمَ أنَّه مازال يزعجها.

رفعَ جوزيف المنشفةَ ونظرَ إلى ذراعِ المريضةِ، ثمَّ جسَّ اللحمَ المحروق بأصابعهِ، كانت ميني تنشجُ تحت تأثيرِ المخدرِ، «هذا حرقٌ خطير إلَّا أنَّه ليسَ قاتلاً»، قال جوزيف ثمَّ التفتَ إلى كاريس وقالَ: «فلتُعدي مرهماً من دهنِ الدجاجِ ومن روثِ الماعز والرصاص الأبيض، وغطي الحرقَ بها فهذا كفيلٌ بإخراجِ القيحِ».

«حاضر أيُّها الأخ» قالت كاريس التي كانت تشككُ في فاعليةِ مثلِ هذهِ المراهمِ، لقد لاحظت أنَّ العديدَ من الإصاباتِ تشفى تماماً من دونِ إخراجِ القيحِ الذي يعدهُ الرهبانُ علامة التعافي، ومن تجربتها عرفت أنَّ الجروحَ أحياناً تفسدُ تحتَ هذهِ المراهمِ، ولكن الرهبان اختلفوا معها، باستثناءِ الأخ توماس الذي كان مقتنعاً أنَّهُ خسرَ ذراعهُ بسببِ المرهمِ الذي وصفهُ رئيسُ الديرِ السابق أنتوني منذ عشرين عاماً، على أيّ حالٍ كانت هذهِ معركةٌ أخرى تخلَّت كاريس عن القتالِ فيها؛ فقد كانت لطرقِ الرهبان الطبيَّةِ تلكَ السلطةُ التي تملكها تعاليم أبقراط وغالينوس الطبيةُ القديمةُ، والجميعُ يرونَ أنَّها صحيحةٌ.

غادرَ جوزيف وحرصت كاريس على راحةِ ميني وطمأنةِ والدها.

«عندما تستيقظُ ستقولُ لكَ إنها عطشةٌ، لذلكَ قدّمْ لها الكثيرَ من الجعةِ المخففةِ أو النبيذِ المخففِ بالماءِ».

لم تكن كاريس على عجلةٍ من أمرها لإعدادِ المرهم فهي ستتركُ الرَّبَّ يقومُ بعملهِ بدونِ مساعدةٍ قبلَ أن تطبقَ العلاجَ الذي وصفهُ جوزيف، كانَ احتمالُ عودةِ الراهبِ لتفقدِ حالِ المريضِ ضئيلةً، أرسلت كاريس نيللي لجمعِ روثِ الماعزِ من الحديقةِ التي تقعُ غربَ الكاتدرائيةِ وتوجهت بنفسها إلى الصيدليةِ.

كانت الصيدليةُ بجانبِ مكتبةِ الرهبانِ، ولسوءِ الحظِ لم يكن فيها نوافذ كبيرةٌ مماثلةٌ لنوافذِ المكتبةِ. كانت الغرفةُ صغيرةٌ وحالكةٌ ولكنها تحوي على مقعدٍ للدراسةِ وبعضِ الرفوفِ المخصصةِ للمرطباناتِ والقواريرِ وموقدٍ صغيرٍ لتسخينِ المكوناتِ.

في إحدى الخزائنِ وضعت كاريس دفتراً صغيراً، كانَ الورقُ باهظاً ولم تكن

المجلداتُ ذات الأوراق المتشابهةِ تستخدمُ سوى لكتابةِ النصوصِ المقدَّسةِ، ولكنِ كاريس جمعت كومةً من الأوراقِ المقصوصةِ وخاطتها معاً، كانت تسجلُ حالاتِ المرضى الذين يعانون من مشاكل خطيرةٍ بالأسماءِ والتواريخِ والعوارضِ والعلاجاتِ الموصوفةِ، ومن ثمَّ تضيفُ إليها النتائج مع الحرصِ دوماً على تسجيلِ الساعاتِ أو الأيامِ التي تمر إلى أن تتحسن أو تسوء حالةُ المريضِ، وقد اعتادت على إعادةِ قراءةِ هذهِ الحالات لتنعشَ ذاكرتها حولَ فاعليةِ العلاجاتِ المختلفةِ.

عندما كتبت عمرَ ميني تذكرت أنَّها لو لم تأخذ خلطةَ ماتي لكان طفلها في الثامنةِ الآن، ومن دونِ سببٍ وجيهٍ اعتقدت أنَّ طفلها كانَ سيولد فتاةً، وتساءلت في نفسها عن الطريقةِ التي كانت ستتصرفُ بها لو أن ابنتها أصيبت في حادثٍ مماثلٍ؟ هل كانت ستتعاملُ مع الحادثِ بأعصابٍ باردةٍ ؟ أم ستتصرفُ بهستيريةٍ من الخوفِ كما فعلَ كريستوفر بلاكسميث؟

كانت قد أنهت وضعَ تفاصيلِ الحالةِ عندما رنَّ الجرسُ إيذاناً بصلاةِ العصرِ، نهضت وتوجهت لحضورِ المراسمِ، وبعدَ الصلاةِ ستتوجه الراهبات إلى قاعةِ الطعامِ لتناولِ العشاءِ، ثمَّ سيخلدنَ إلى النومِ لينهضنَ من أجلِ صلاةِ الفجرِ في الساعةِ الثالثةِ صباحاً.

ولكن كاريس لم تخلد إلى النومِ تلكَ الليلة بل ذهبت إلى صيدليتها لإعدادِ المرهم، لم تضايق رائحةُ الروثِ كاريس؛ فمن يعملُ في المستشفى يرَ ويشمّ أموراً أسوأ، ولكنها تساءلت في نفسها كيفَ يمكن لجوزيف أن يعتقدَ أنَّ مثلَ هذا المرهم قد يكون مفيداً على لحمٍ محروقٍ؟

وقررت أنَّها لن تضعهُ الآن بل ستنتظر حتّى الصباح، كانت ميني فتاة بصحةٍ جيدةٍ وسيتحسنُ وضعها بحلولِ الصباحِ.

كانت كاريس تعمل عندما دخلت مير.

نظرت كاريس إلى مير في فضولٍ وقالت: «ما الذي تفعلينهُ في مثلِ هذا الوقتِ؟»

وقفت مير بقربِ مقعدِ كاريس وقالت: «أتيتُ لمساعدتكِ».

«تحضيرُ المرهمِ لا يحتاجُ إلى شخصين، ما الذي قالتهُ الأختُ ناتالي؟» كانت ناتالي نائبةَ رئيسةِ الديرِ والمسؤولةَ عن الانضباطِ؛ فلم يكن بوسعِ أحد مغادرة المهجعِ ليلاً من دونِ إذنها.

«إنَّها غارقةٌ في النومِ، هل تعتقدين حقاً أنَّكِ لستِ جميلة؟»

«هل نهضتِ من سريركِ لتطرحي علي هذا السؤال؟»
«لا بدَّ أنَّ ميرثن رآكِ جميلةً».
ابتسمت كاريس وقالت: «أجل، لقد كان يعتقدُ أنني جميلة».
«هل تشتاقين إليه؟»
أنهت كاريس مزجَ مكوناتِ المرهمِ وذهبت لتغسلَ يديها في وعاءٍ.
«أفكرُ فيهِ كلَّ يومٍ. إنّهُ الآن من أغنى معماري فلورنسا»، قالت كاريس.
«كيفَ عرفتِ هذا؟»
«يُطلعني بونافينتورا كارولي على أخبارِهِ كلَّ عامٍ أثناءَ سوقِ الصوفِ».
«هل تصلُ أخباركِ إلى ميرثن؟»
«أيُّ أخبار؟ ليس هناكَ ما أخبرهُ بهِ فأنا راهبة».
«هل تتوقين إلى رؤيتهِ؟»
استدارت كاريس إلى الوراءِ، وألقت على مير نظرةً مباشرةً: «يُحرَّمُ على الراهباتِ التوق إلى الرجالِ».
«ولكنه لا يُحرَّمُ عليهن التوق إلى النساءِ»، قالت مير وانحنت إلى الأمامِ، ثمَّ قبَّلت كاريس على فمها.
تجمدت كاريس في مكانها من هولِ مفاجأةِ ما فعلتهُ مير، ولبثت مير بشفتيها على شفتي كاريس لبرهةٍ؛ كانَ ملمسُ شفتيها ناعماً وليسَ كشفتي ميرثن، ورغم أنَّ كاريس كانت مصدومةً فإنَّها لم تكن مرتاعةً، لقد مرَّت سبعُ سنواتٍ مُذ أن قبَّلها أحدٌ ما، وأدركت فجأةً أنَّها اشتاقت إلى هذا بشدَّةٍ.
ووسطَ الصمتِ الذي سادَ بينهما سمعتا صوتَ ضجةٍ من المكتبةِ المجاورةِ للصيدليةِ.
سارعت مير إلى الابتعادِ عن كاريس، كأنَّها أُمسكت بجرمٍ ما: «ماذا كانَ هذا؟»
«يبدو كأنَّ صندوقاً وقعَ على الأرضيةِ».
«من أوقعه؟»
اكفهرَّ وجهُ كاريس: «لا يُفترضُ أن يكون هناكَ أحدٌ في المكتبةِ في مثلِ هذا الوقتِ ليلاً فجميعُ الرهبانِ والراهباتِ نائمون».
بدت مير مرتاعةً وقالت: «ما الذي علينا فعلهُ الآن؟»
«من الأفضلِ أن نذهبَ ونلقي نظرةً».

غادرت الراهبتان الصيدليةَ، كانت المكتبةُ لصيقةً بها إلا أنّهما سارتا عبرَ الممرِ المسقوفِ الخاصِ بالراهباتِ باتجاهِ الممرِ المسقوفِ الخاصِ بالرهبانِ للوصولِ إلى بابِ المكتبةِ، كان الليلُ حالكاً لكن ولأنهما عاشتا هنا لوقتٍ طويلٍ، كانتا قادرتين على إيجاد طريقهما معصوبتي الأعين، عندما وصلتا إلى بابِ المكتبةِ رأتا ضوءًا مذبذاً من النافذةِ العاليةِ، والبابُ المقفلُ عادةً مواربٌ الآن، وفتحت كاريس البابَ، لوهلةٍ لم تستطع تمييز ما كانت تنظرُ إليه، رأت بابَ خزانةٍ مفتوحاً وصندوقاً على طاولةٍ، وشمعةً بجانبِهِ وخيالَ شخصٍ، ثمَّ أدركت أنَّ بابَ خزنةِ المالِ حيثُ يحتفظون بالصكوكِ، وأغراضٍ قيّمةٍ أخرى مفتوحٌ، وأنَّ الصندوقَ على الطاولةِ هو الصندوقُ الذي يحوي على الحُليِّ الذهبيةِ والفضيَّةِ التي تُستخدمُ في الكاتدرائيةِ خلالَ المراسمِ الخاصَّةِ، وأنَّ الخيال هو لرجلٍ يأخذُ الأغراضَ من الصندوقِ ويضعها في كيسٍ ما.

نظر الرجل إلى كاريس وتعرفت عليه، كان غيلبرت من هيرفورد، الحاج الذي وصلَ اليومَ، يبدو أنَّه لم يكن حاجاً، وقد لا يكون من هيرفورد أصلاً، بل لصّاً.

حدقوا بعضهم إلى بعض لوهلةٍ دونَ أن يتحرك أيُّ واحدٍ منهم، ومن ثمَّ صرخت مير، فأطفأ غيلبرت الشمعةَ، أغلقت كاريس البابَ لتعيقهُ عن التقدمِ لبعضِ الوقتِ، ثمَّ اندفعت عبرَ الرواقِ المسقوفِ باتجاهِ معتزلٍ وهي تجرُّ مير خلفها.

كانتا عندَ أسفلِ الدرجِ الذي يقودُ إلى مهجعِ الرهبانِ، لا بدَّ أنَّ صرخةَ مير أيقظت الرجالَ إلَّا أنَّهم تلكؤوا في القيامِ بأيِّ شيء.

«أخبري الرهبانَ بما حدثَ!» صرخت كاريس بمير: «هيا، اركضي!» واندفعت مير عبرَ الدرجِ.

سمعت كاريس صوتَ صريرٍ، وتكهنت أنَّ بابَ المكتبةِ قد فُتحَ، أصاخت السمعَ بحثاً عن صوتِ وقعِ أقدامٍ على أرضيةِ الممراتِ المسقوفةِ، ولكن يبدو أنَّ غيلبرت لصٌّ محترفٌ فقد مشى بهدوءٍ، حبست أنفاسها أصاخت السمعَ إلى أنفاسهِ، ثمَّ سُمعَ صوتُ جلبةٍ من الأعلى.

لا بدَّ أنَّ اللصَّ قد أدركَ هنا أنَّه لا يملكُ سوى بضعِ دقائقَ ليهرب، وسمعت كاريس صوتَ عدوهِ السريع.

لم تكن تأبهُ كثيراً لأمرِ الحُليِّ الثمينةِ التي كانت ملكاً للكاتدرائيةِ، فهي

تعتقدُ أنَّ الذهب والجواهر تُسعد الأسقفَ ورئيسَ الديرِ أكثرَ مما تسعدُ الرَّبَّ، إلا أنَّها كرهت غيلبرت وكرهت فكرة أن يغتني من سرقةِ الديرِ، ولهذا خرجت من مخبئها.

ورغم عدمِ قدرتها على رؤيةِ شيءٍ في الظلامِ فإنَّه لم يكن لديها أدنى شك أنَّه كان يركضُ نحوها، ففتحت ذراعيها لتُمسكَ بهِ فاصطدمَ بها كقذيفةِ مدفعٍ، اختلَّ توازنها إلَّا أنَّها أمسكت بثيابهِ وسقطا أرضاً، وتعالت قعقعةُ صلبانٍ وكؤوسِ قربانٍ في الكيس عندما اصطدمَ غيلبرت بالأرضِ.

وصبَّ ألمُ السقطةِ زيتاً على غضبِ كاريس فتركت ملابسَهُ ومدَّت يدها إلى حيثُ اعتقدت أنَّ وجههُ موجودٌ ثمَّ خمشتهُ بأظافرِها بكلِّ قوةٍ، صرخَ غيلبرت من الألمِ وشعرت كاريس بالدمِ يتدفق تحتَ أصابعها.

ولكنه كانَ أقوى منها فأمسكَ بها وصعدَ فوقها. ظهرَ ضوءٌ أعلى درجِ مهجعِ الرهبانِ وفجأة تمكنت كاريس من رؤيةِ وجهِ غيلبرت وهو بدورهِ رأى وجهها، وفي وضعيةِ الركوعِ فوقها وساقاه منفرجتان لكمها بقبضتهِ اليمنى على وجهها ثمَّ لكمة أخرى بالقبضةِ اليُسرى ولكمة بالقبضةِ اليمنى. صرخت كاريس من شدَّةِ الألمِ.

بينما اندفعَ الرهبانُ عبرَ الدرجِ ازداد وهجُ الضوءِ وسمعت كاريس مير تصرخ: «اتركها وشأنها أيُّها الشيطان!» وقفزَ غيلبرت على قدميه ثمَّ أمسكَ بالكيسِ إلَّا أنه تأخرَ لأنَّ مير وعلى حينِ غرَّةٍ رمتهُ بغرضٍ غير حادٍ أصابهُ في رأسه، وعندما التفتَ ليثأرَ منها سقطَ تحت مدّ موجة من الرهبانِ المندفعين.

نهضت كاريس على قدميها وهرعت مير نحوها ثمَّ تعانقتا.

قالت مير لكاريس: «ما الذي فعلتِهِ؟»

«أعقتُهُ ثمَّ خدشتُ وجههُ بأظافري، بماذا ضربتِهِ؟»

«بصليبٍ خشبي أخذتهُ من على جدارِ المهجعِ».

«حسناً»، قالت كاريس ثمَّ أضافت: «يبدو أننا لم ننجح في إدارةِ الخدِّ الأيسر».

-44-

وقفَ غيلبرت هيرفورد أمامَ محكمةٍ كنسيةٍ ووجدَ مذنباً بتهمةِ السرقةِ. حكمَ

عليهِ رئيسُ الديرِ غودوين بالعقابِ المناسبِ لسارقي الكنائس، ألا وهو سلخُ جلدهِ حيّاً.

سيسلخون جلدَ غيلبرت حياً وسينزفُ حتّى الموت.

تزامن موعدُ تنفيذِ عقوبةِ غيلبرت مع موعدِ اللقاءِ الأسبوعي بينَ غودوين والأمّ سيسيليا بحضورِ نائبيهما، نائبِ رئيسِ الديرِ فيليمون، ونائبةِ رئيسةِ الدير ناتالي، وبينما كانا في القاعةِ بانتظارِ وصولِ الراهبتين قال غودوين لفيليمون: «يجب أن نحاولَ إقناعهما ببناءِ خزنةٍ جديدةٍ. لم يعد بالإمكانِ الاحتفاظ بالأغراضِ القيّمةِ في صندوقٍ في المكتبةِ».

قال فيليمون مفكراً: «هل سيكونُ المبنى مشتركاً؟»

«لا بدَّ أن يكونَ مشتركاً فنحنُ لا نملكُ المالَ لبنائهِ»، أجاب غودوين.

وفكرَ غودوين في أسى بطموحاتهِ السابقةِ عندما كانَ شاباً وكيف أنّه أرادَ إصلاحَ مواردِ الديرِ الماليّةِ وإثراءَ الديرِ مجدداً ولكن هذا لم يحدث، وما زالَ غيرَ قادرٍ على فهمِ سببِ هذا. لقد كانَ متشدداً وأجبرَ سكانَ المدينةِ على استخدامِ مطاحنِ ومزارعِ السمكِ والأرانبِ التابعةِ للديرِ، ودفع المالِ مقابلَ استخدامِها، ولكن الناس وجدوا طرقاً للالتفافِ على قوانينهِ وبنوا مطاحنَ في القرى المجاورةِ. فرضَ أحكاماً قاسيةً على الرجالِ والنساءِ ممن يصيدون أو يقطعون أشجار غاباتِ الديرِ بطريقةٍ غير شرعيّةٍ، وقاومَ مداهناتِ أولئكَ الذين حاولوا إغراءهُ بإنفاقِ مالِ الديرِ على بناءِ المطاحنِ، أو هدرِ خشبِ الديرِ بمنحِ رخصِ تفحيمٍ وصهرِ الحديدِ. كانَ واثقاً من أنَّ أسلوبهُ صحيحٌ، ولكنه لم ينجح في زيادةِ المدخول الذي اعتقدَ أنّهُ يستحقهُ.

«إذاً، ستتحدثُ إلى سيسيليا عن المالِ»، قال فيليمون مفكراً، «قد يكون هناك ميزةٌ لاحتفاظنا بثروتنا في المكانِ نفسه الذي تحتفظُ فيهِ الراهباتُ بأموالهن».

ورأى غودوين إلى أين ذهبَ فيليمون بتفكيرهِ الماكرِ فقال له: «ولكن لن نقول هذا لسيسيليا».

«بالطبعِ لن نفعل».

«حسناً، سأقترحُ الأمرَ».

«وبينما ننتظرهما...»

«أجل؟»

«حدثت مشكلةٌ في قريةِ لونغ هام وأريدُ إطلاعكَ عليها».

أومأ غودوين برأسِهِ فقد كانت بلدةُ لونغ هام إحدى البلدات العديدةِ التي تدفعُ مستحقاتٍ إقطاعيةٍ للديرِ.

وبادرَ فيليمون إلى شرحِ المشكلةِ: «إنَّ للأمرِ علاقة بملكيةِ الأرملةِ ماري لين. عندما توفي زوجُ الأرملةِ سمحت لصاحبِ أرضٍ مجاورةٍ بزراعةِ أرضها وهذا الرجل يدعى جون نوت. تزوجت الأرملةُ مجدداً وهي تريدُ الآن استعادةَ أرضها كي يزرعها زوجها الجديدُ».

ذُهلَ غودوين من تفاهةِ المشكلةِ فقد كانت مثلُ هذهِ المشاكلِ شائعةً بينَ الفلاحين ولا تستدعي تدخلهُ الشخصي لحلها: «وما رأي الوكيل؟»

«أن تعودَ الأرض إلى الأرملةِ بما أنَّ الإجراءَ الذي اتخذتهُ كانَ مؤقتاً».

«إذاً، هذا ما يجبُ أن يحدث».

«ولكن القصَّةَ أكثر تعقيداً. لدى الأختُ إليزابيث أخوة وأخوات غيرُ أشقاء في لونغ هام».

«آه». وهنا فهمَ غودوين سببَ اهتمامِ فيليمون فقد كانتَ الأختُ إليزابيث، أو المعروفةُ سابقاً بإليزابيث كلرك، أمينَةَ سجلاتِ الراهباتِ والمسؤولة عن أبنيةِ ديرِ الراهباتِ. كانت راهبةً يافعةً وذكيةً ومقدراً لها أن ترتقي في يومٍ من الأيامِ على السُلَّمِ الرهباني، وهذا يعني أنَّها ستكونُ حليفاً مهماً لهما.

«وهي عائلتُها الوحيدة إضافةً إلى والدتها التي تعملُ في نُزلِ بيل»، قال فيليمون وتابع كلامَهُ: «وإليزابيث تحبُّ أقاربها الفلاحين جداً، وهم بدورهم يرونها كشخصيةٍ مقدَّسةٍ في العائلةِ، وعندما يزورون كينغزبريدج يحضرون معهم إلى ديرِ الراهباتِ الهدايا من الفواكهِ والعسلِ والبيضِ وما إلى هناك من هذهِ الموادِ».

«و..؟»

«إنَّ جون نوت الأخُ غير الشقيقِ للأختِ إليزابيث».

«هل طلبت منكَ إليزابيث التدخُّلَ؟»

«أجل، وطلبت مني أيضاً ألا أخبرَ الأمَّ سيسيليا بهذا الطلبِ».

علمَ غودوين أنَّ فيليمون يحبُّ لعبَ مثلِ هذا الدور: أن يُنظرَ إليهِ كشخصيةٍ قويةٍ تستخدمُ نفوذها للانتصار لطرفٍ على طرفٍ آخر في خلافٍ ما. كان هذا الدور يُغذي غرورهُ الذي لم يشبعهُ شيءٌ قطّ، وحبهُ لكلِّ ما هو سريّ، وحقيقةُ أن إليزابيث لم ترغب بمعرفةِ رئيسة الدير بهذا الطلبِ أسعدت فيليمون؛ فهذا يعني أنَّه الآن يعرفُ عنها سِراً مشيناً، وأنَّه سيحتفظُ بهِ كما يحتفظُ البخيلُ بذهبِهِ.

«ما الذي ترغبُ بفعلِهِ؟» سألَ غودوين.

«الأمرُ بيدكَ من كلِّ بدٍ، ولكني أقترحُ أن ندعَ جون نوت يحتفظُ بالأرضِ، ستكونُ إليزابيث مدينةً لنا، ولا بدَّ أن يكون لهذا فائدةٌ في المستقبلِ».

«سيكونُ حكماً قاسياً بحقِّ الأرملةِ»، قال غودوين بضيقٍ.

«أوافقكَ، ولكن علينا أن نزنَ الأمورَ بميزانِ مصالحِ الديرِ».

«ومصالحُ الرَّبِّ أكثرُ أهميةً من مصالحِ الناسِ، حسناً فلتخبر الوكيل بهذا!».

«ولتأخذ الأرملةُ مكافأتها في الحياةِ الآخرةِ».

«حقاً».

هناك أوقاتٌ يترددُ فيها غودوين بالموافقةِ على مخططاتِ فيليمون السريَّةِ، ولكن كان هذا منذُ وقتٍ طويلٍ، لقد أثبتَ فيليمون نفسهُ أنّه ذو فائدةٍ كبيرةٍ تماماً كما توقعت والدةُ غودوين بيترانيلا طوالَ هذهِ السنواتِ.

سُمعَ صوت قرعٍ على البابِ ودخلت بيترانيلا.

بيترانيلا تعيشُ الآن في منزلٍ صغيرٍ مريحٍ في منطقةِ كاندل كورت على الشارعِ الرئيسي فقد تركَ لها شقيقها إدموند إرثاً كافياً لتعيشَ عليهِ لبقيةِ حياتها، كانت في الثامنةِ والخمسين من العمرِ، ولم تعد تسير بقامةٍ منتصبةٍ الآن بل محدودبةٍ وضعيفةٍ وتستخدمُ عصاً للمشي، إلّا أنَّ عقلها ما زال حادّاً كمصيدةِ دُبٍ، وكالعادةِ انتابت غودوين مشاعر مختلطةٌ نحوها فقد كان مسروراً لرؤيتها، وقلقاً من أن يكونَ قد فعلَ شيئاً أزعجها.

أصبحت بيترانيلا الآن ربَّة العائلةِ بعد أن قُتلَ أنتوني في انهيارِ الجسرِ وموتِ إدموند منذُ سبعِ سنواتٍ، فقد كانت آخرَ الناجين من ذلكَ الجيلِ، لم تكن تترددُ قط في الإملاءِ على غودوين ما عليهِ فعلهُ تماماً كما تفعل مع ابنةِ أخيها أليس، وحتّى إلفريك زوجُ أليس الذي أصبحَ الآن رئيسَ نقابةِ المدينة، لم تتردّد البتة في إلقاءِ الأوامرِ عليهِ، وامتدت سُلطتها لتشملَ ابنةَ إلفريك غريزيلدا، وابنَها ميرثن الصغير والبالغ من العمرِ ثمانية أعوامٍ، فما زالت تتمتع بملكةِ الحُكم الجيدِ حتّى بعدَ كلِّ هذهِ السنواتِ، ولذلكَ كانوا جميعاً يطيعونها أغلبَ الأوقاتِ، وحتّى عندما لا تأمرهم أحياناً، كانوا يسألونها رأيها في أمرٍ ما، كان غودوين واثقاً من أنّهم غير قادرين على تدبيرِ أمورهم من دونها، وفي المناسباتِ النادرةِ التي لا ينفذون فيها مطالبها كانوا يبذلون قصارى جهدهم لإخفاءِ هذا. لم يقف أحدٌ في وجهها سوى كاريس التي

كانت تقول لها: «لا تحاولي إخباري بما يجبُ أن أقومَ بِهِ. كنتِ ستسمحينَ لهم بقتلي».

جلست بيترانيلا ونظرت حولها في الغرفةِ: «هذا ليسَ جيداً بما يكفي».

كانت غالباً ما تتحدثُ بشكلٍ مباغتٍ، ولكن غودوين صار ينفعلُ عندما تتحدثُ بهذهِ الطريقةِ: «ما الذي تقصدينهُ؟»

«يجب أن تسكن في منزلٍ أفضل».

«أعلم».

منذُ ثماني سنواتٍ حاولَ غودوين إقناعَ الأم سيسيليا ببناءِ قصرٍ جديدٍ من مالها، كانت قد وعدتهُ بتقديمِ المالِ بعد ثلاثِ سنواتٍ، ولكنها بعدَ ثلاثِ سنواتٍ أخبرتهُ أنَّها غيَّرت رأيها، لقد كان واثقاً أنَّ السبب في ذلك هو ما فعلهُ بكاريس، فبعدَ محاكمتها لم يعد قادراً على إثارةِ اهتمامِ سيسيليا، وبات الحصولُ على مالٍ منها أمراً صعباً.

قالت بيترانيلا: «أنتَ بحاجةٍ إلى قصرٍ لاستضافةِ الأساقفةِ ورؤساءِ الأساقفةِ والباروناتِ والإيرلات».

«لا يزورنا الكثيرُ منهم هذهِ الأيام، إنَّ الإيرل رولاند، والأسقف ريتشارد في فرنسا منذُ سنواتٍ».

كانَ الملكُ إدوارد قد غزا شمال شرق فرنسا في عام 1339، وقضى عام 1340 هناك ليأخذَ جيشهُ في عام 1342 إلى شمالِ غربِ فرنسا، ويُقاتل في بريتاني، وفي عامِ 1345 قاتلت الجيوش الإنكليزيةُ في معركةٍ جنوب غرب مقاطعة النبيذ المشهور غاسكون، وها هو إدوارد قد عادَ إلى إنكلترا الآن ليحشدَ جيشاً جديداً للغزو مجدداً.

«ولكن رولاند وريتشارد ليسا النبيلين الوحيدين»، قالت بيترانيلا بحدَّةٍ.

«ما من أحدٍ غيرهما يأتي إلى هنا».

وقالت بيترانيلا بصوتٍ أكثر قسوة: «ربما لأنَّك لا تقدمُ لهم الإقامةَ التي يتوقعونها، أنتَ تحتاج إلى قاعةِ ولائم، وكنيسةٍ صغيرةٍ خاصةٍ، وغُرف نومٍ واسعةٍ».

وتكهنَ أنَّها قضت الليلَ بطولهِ تفكرُ في هذا الأمرِ، لقد كانت هذهِ طريقتها، فهي تفكرُ ملياً بالأمورِ ثمَّ تطلقُ أفكارها فجأة كالسهامِ، وتساءلَ غودوين في نفسِهِ عن السببِ الذي جعلَها تُبدي هذهِ الشكوى.

«يبدو هذا كبذخٍ شديدٍ»، قال لها وهو يحاولُ كسبَ الوقت.

«ألا تفهم؟» سألتهُ بشكلٍ لاذعٍ.

«لم يعد للديرِ تأثيرٌ كما كان في السابقِ، وهذا ببساطةٍ يعودُ إلى عدمِ استضافةِ رجالِ البلدِ الأقوياءِ، عندما يصبحُ لديك قصرٌ بغرفٍ جميلةٍ سيأتون».

وفكرَ في نفسهِ أنَّها ربما تكون على حقٍ؛ فالأديرةُ الثريةُ كديرِ دورهام وسان ألبانز يشتكيان من عددِ النبلاءِ والزوارِ الملكيين الذين يضطرون إلى استضافتهم».

وتابعت بيترانيلا: «البارحة كانت الذكرى السنويةُ لوفاةِ والدكَ»، وفكرَ غودوين أنَّ هذا هو سببُ طرحها لهذا الموضوعِ فقد كانت تتذكرُ أمجادَ جدِّهِ، «أنتَ رئيسُ ديرٍ منذُ تسعةِ أعوامٍ، لا أريد أن تعلقَ في هذا المنصبِ؛ فعلى كبارِ الأساقفةِ والملكِ أن يفكروا بمنحكَ أبرشيةً كأبرشيةِ دورهام أو أن تكون مبعوثاً إلى البابا».

لطالما فكرَ غودوين أنَّ رئاسةَ ديرِ كينغزبريدج بدايةَ انطلاقتهِ في طريقهِ إلى مراتبَ أعلى، ولكنَّه أدركَ الآنَ أنَّه نسي هذا الطموحَ وتركهُ يخبو، بدت له السنوات التسع منذُ انتخابهِ كرئيسٍ للديرِ كأنَّها مرَّت بلمحِ البصرِ، كأنَّه استلمَ منصبهُ للتو، ولكنها على حق فها هي قد مرَّت سنواتٌ كثيرةٌ ولم يفعل شيئاً.

«لمَ لا تخطر ببالهم عندما يفكرون بالمناصبِ الأكثر أهمية؟» سألتهُ ولكنه كانَ سؤالاً بلاغياً.

«لأنَّهم لا يعرفونَ بوجودكَ! أنتَ رئيسُ ديرٍ عظيمٍ، ولكنكَ لم تخبر أحداً بالأمرِ، فلتُبرز عظمتكَ! ابنِ قصراً، ولتدع كبير الأساقفةِ في كانتربري ليكون أوَّلَ ضيوفكَ، وخصص كنيسةً صغيرةً لقديسهِ المفضل، أخبر الملكَ أنك بنيتَ غرفةَ نومٍ ملكيَّةٍ على أملِ أن يزوركَ وينزلَ فيها».

«على رسلكِ، فلنأخذ كلَّ أمرٍ على حدةٍ» احتجَّ غودوين.

«أنا أرغبُ حقاً ببناءِ قصرٍ لي ولكني لا أملكُ المالَ».

«إذاً، فلتحصل عليهِ»، قالت لهُ.

أراد أن يسألها عن الطريقةِ للحصولِ على هذا المال، ولكن في تلكَ اللحظةِ دخلت رئيسةُ دير الراهباتِ ونائبتها إلى الغرفةِ، تبادلت بيترانيلا وسيسيليا التحيةَ بلطفٍ حذرٍ ومن ثمَّ غادرت بيترانيلا.

جلست الأمُّ سيسيليا وناتالي، كانت سيسيليا الآن في الخمسين وقد شابَ

شعرها وضَعُفَ نظرها إلا أنّها ما زالت تتحركُ كعصفورٍ نشيطٍ ينقبُ بمنقاره في كلِّ مكانٍ ويغرّدُ بالأوامرِ للراهباتِ والراهباتِ المبتدئاتِ والخدمِ، ولكن يبدو أنّها مع مرور السنين غدت أكثر رقة، ومستعدةً دوماً لفعلِ أيِّ شيءٍ لتجنبِ الصراعاتِ.

حملت سيسيليا بيدها لفافةً ورقيةً: «لقد تلقى ديرُ الراهباتِ إرثاً»، قالت سيسيليا وهي ترتاحُ على كرسيها: «من امرأةٍ تقيّةٍ من ثورنبيري».

قال غودوين: «ما هو المبلغُ؟»

«ما يُعادلُ مئةً وخمسين جنيهاً من القطعِ الذهبيةِ».

ذُهلَ غودوين فقد كان المبلغُ هائلاً، ويكفي لبناءِ قصرٍ متواضعٍ.

«هل تلقاهُ دير الراهبات أم ديرُ الرهبانِ؟»

«ديرُ الراهباتِ»، قالت بحزمٍ. «واللفافةُ التي معي نسخةٌ عن الوصيّةِ».

«ولماذا تركت لكِ هذا المبلغ الكبير من المالِ؟»

«يبدو أننا أوليناها عنايةً جيدةً عندما مرضت وهي في طريقها إلى لندن».

وهنا قالت ناتالي التي كانت أكبرَ من سيسيليا ببضعِ سنواتٍ ولها وجه مدور وتمتلك عريكةً لينةً: «المشكلةُ هي أننا لا نعرفُ أين سنحتفظُ بهذا المبلغ؟»

نظرَ غودوين إلى فيليمون فها هي ناتالي تمهدُ الطريقَ للموضوعِ الذي كانا يريدان مناقشتهُ.

«أين تحتفظون بالمالِ الذي بحوزتكم الآن؟» سألها غودوين.

«في غرفةِ نومِ رئيسةِ الدير، ولا يمكن الوصولُ إليهِ إلا عن طريقِ مهجعِ الراهباتِ».

وقالَ غودوين كأنَّ الفكرةَ خطرت لهُ للتو: «ربما يجب أن ننفقَ بعضاً من هذا المالِ على بناءِ خزنةٍ جديدةٍ».

«أعتقدُ أنَّ هذا أمرٌ ضروري»، قالت سيسيليا.

«ويجبُ أن يكون بناءً حجرياً ببابٍ قوي من خشبِ البلوطِ».

«لن يأخذَ بناؤهُ وقتاً طويلاً»، قال غودوين.

«ولن يكلّفَ أكثر من خمسَة أو عشرَة جنيهاتٍ».

«ومن بابِ الحيطةِ يجب أن تبنى الخزنةُ في الكاتدرائيةِ».

«آه»، قال غودوين. إذاً، سببُ قدومِ الراهبتين هو مناقشة الخطة مع غودوين.

ولم تكونا بحاجةٍ إلى مناقشةِ أمرِ بناءِ الخزنةِ في منطقتهن الخاصَّةِ من الدير ولكن الكنيسةَ ملكيةٌ مشتركةٌ للرهبانُ والراهباتِ. «يمكننا بناؤها قبالةَ جدارِ الكاتدرائيةِ في الزاويةِ بينَ الجناحِ الشمالي، وجوقةِ المرتلين ولكن المدخل إليها يجبُ أن يكون من الكنيسةِ».

«أجل هذا تماماً ما كنتُ أفكرُ بهِ».

«سأتحدثُ إلى إلفريك اليومَ إن أحببتِ، وأطلبُ منهُ تقديرَ كلفةِ الأمرِ».

«فلتفعل من فضلكَ».

كانَ غودوين سعيداً لأنَّه تمكن من اقتطاعِ مبلغٍ من غنيمتها ولكنه لم يكن راضياً، فبعدَ المحادثةِ التي دارت بينهُ وبينَ والدتهِ كان يتوقُ إلى وضعِ يدهِ على مالٍ أكثر، كانَ يريدُ وضعَ يدهِ على المبلغِ بأكملهِ، ولكنه لم يعرف الطريقةَ لفعلِ هذا.

قُرِعَ جرسُ الكاتدرائيةِ، ووقفوا أربعتهم وخرجوا.

وضعوا الرجلَ المُدان بالسرقةِ في الخارجِ عندَ الزاويةِ الغربيةِ للكنيسةِ، كانَ عارياً وقد رُبطَ بإحكامٍ من قدميهِ ويديهِ إلى إطارٍ خشبي عمودي كإطارِ البابِ، وقفَ ما يقارب أو يزيد على مئةِ شخصٍ من سكانِ المدينةِ لمشاهدةِ الإعدامِ، لم تتم دعوةُ الرهبان والراهبات فلم يكن من اللائقِ أن يروا إراقةَ الدماءِ.

كانَ ويل تانر مُنفذ الإعدامِ رجلاً في الخمسين وقد تحولت بشرتهُ إلى اللونِ البني بسببِ عملهِ في الدباغةِ، ارتدى ويل مريولاً قماشياً نظيفاً ووقفَ بالقربِ من طاولةٍ صغيرةٍ وضعَ عليها سكاكينهُ ويشحذُ إحداها على حجرٍ، بعثَ منظرُ كشطِ المعدنِ على الحجرِ رعدةً في أوصالِ رئيسِ الديرِ.

تلا غودوين بضعَ صلواتٍ، وفي نهايتها ارتجلَ بالإنكليزيةِ التماساً أنَّ يكون موتُ السارق خدمةً للرَّبّ، وأن يردع الآخرين من القيامِ بالخطيئةِ ذاتها، ثمَّ أومأ برأسهِ إلى ويل تانر.

وقفَ ويل خلفَ اللصِّ المربوط وأخذَ سكيناً بنهايةٍ رفيعةٍ وحادةٍ ثمَّ وضعها على منتصفِ عنقِ غيلبرت وأكملَ بها للأسفلِ بخطٍ طويلٍ مستقيمٍ حتَّى قاعدةِ العمودِ الفقري، صرخَ غيلبرت من شدَّةِ الألم، وانبجسَ الدمُ من الجرحِ بغزارةٍ، فتحَ ويل بسكينهِ شِقاً آخر بينَ كتفي الرجل، وصار الشِقان على ظهرهِ أشبه بحرفِ T.

وهنا أخذَ ويل سكيناً أخرى طويلةً ورفيعةً ووضعَ نهايتها بعنايةٍ عندَ نقطةِ التقاءِ الشقين وكشطَ الجلدَ من الزاويةِ وصرخَ غيلبرت مجدداً، أمسكَ ويل

بأصابعِ يدِهِ اليسرى طرفَ الزاويةِ، وبكلِّ عنايةٍ سلخَ جلدَ غيلبرت عن جسدِهِ، أخذَ غيلبرت يصرخ.

نمَّ عن الأخت ناتالي صوتٌ واستدارت عائدةً إلى الديرِ، أغلقت سيسيليا عينيها وغرقت في الصلاةِ، شعرَ غودوين بالغثيانِ، وأغمي على شخصٍ ما في الحشدِ، كانَ فيليمون الوحيد الذي لم يتأثر.

عملَ ويل بسرعةٍ على سلخِ الجلدِ عبرَ الدهن الذي كشفَ عن عضلاتٍ مفتولةٍ تحته. ترقرقَ الدمُ بغزارةٍ وتوقفَ ويل بين الفينةِ والأخرى ليمسحَ يديهِ بمريولِهِ، ومع كلِّ ضربةِ سكينٍ كان غيلبرت يصرخ في ألمٍ مُضنٍ. وسرعان ما تدلى جلدُ ظهرِهِ في قطعتينِ عريضتين.

ركعَ نيل على الأرضِ وسطَ بركةٍ من الدماءِ وبدأ يعمل على قدمي غيلبرت.

وفجأة توقفَ الصراخ وبدا كأنَّ غيلبرت قد فقدَ وعيهُ، شعرَ غودوين بالراحةِ، كان يريدُ من الرجلِ أن يعاني لإقدامِهِ على سرقةِ كنيسةٍ، ومن الآخرين أن يشهدوا على عذابِ اللصّ، ولكنّه وجدَ صعوبةً في تحملِ صراخِهِ.

تابعَ ويل عملهُ ببطءٍ ودونَ أن يبدو عليه الاهتمامُ بأمرِ فقدانِ الضحيةِ لوعيِها، أنهى العملَ على كاملِ جلدِ الظهر وباطنِ الذراعين والساقين، ثمَّ انتقلَ بعدها إلى الأمامِ وسلخَ الجلدَ حولَ الكاحلين والمعصمين ونزعَ الجلدَ في تلكَ المنطقة فتدلى الجلدُ من كتفي ووركي غيلبرت، انتقلَ ويل للعملِ على الحوضِ، وأدركَ غودوين أنّه سيحاولُ نزعَ الجلدِ قطعةً واحدةً، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى لم يكن هناكَ أيُّ جلدٍ باستثناءِ جلدِ الوجهِ.

كان غيلبرت مازال يتنفس.

شقَّ ويل بعنايةٍ حولَ الجمجمةِ ثمَّ وضعَ سكاكينَه ومسحَ يديهِ مجدداً، وأخيراً أمسكَ ويل بالجلدِ على كتفي غيلبرت وبحركةٍ سريعةٍ نزعهُ كاملاً مع جلدِ الوجهِ وفروةِ الرأسِ.

أمسكَ ويل بجلدِ غيلبرت الدامي ورفعهُ عالياً في الهواءِ كغنيمةِ صيدٍ وهلّل الحشدُ.

***

انتابت كاريس شكوكٌ حيالَ مسألة الخزنةِ الجديدةِ المشتركةِ ولذلك انهالت على بيث بالكثيرِ من الأسئلةِ حول مدى أمانِ نقودهن فيها فارتأت بيث في النهايةِ أخذها لتفحصَ المكان.

ومن قبيلِ المصادفةِ عندما ذهبت كاريس مع بيث لتفقدِ الخزنةِ وجدت غودوين وفيليمون في الكاتدرائيةِ، وعندما رأى غودوين وفيليمون الراهبتين لحقا بهما.

ساروا جميعاً تحتَ القنطرةِ الجديدةِ عندَ الجدارِ الجنوبي حيثُ تقع جوقةُ المرتلين، ثمَّ دخلوا إلى ردهةٍ صغيرةٍ ووقفوا أمامَ بابٍ مُسمّرٍ ومنيع. أخرجت الأختُ بيث مفتاحاً معدنياً كبيراً ولأنّها كانت كمعظمِ الراهباتِ متواضعةً وغير مدعية قالت لكاريس: «هذهِ خزنتنا»، ثمَّ أضافت: «يمكننا دخولُ الخزنةِ متى شئنا».

«هذا ما يجبُ أن يحدث فقد دفعنا كلفةَ بنائها»، قالت كاريس بحدَّةٍ.

ودخلوا إلى الغرفةِ الصغيرةِ المربعةِ. كان هناك طاولةٌ صغيرةٌ لعدِّ المالِ مع كومةٍ من لفائفِ الورقِ وبضعة كراسٍ وصندوقٌ خشبيٌ كبيرٌ مُدعّمٌ بشرائط حديديةٍ.

«إنَّ الصندوقَ كبيرٌ جداً ولا يمكنُ إخراجهُ من البابِ»، أشارت بيث.

قالت كاريس: «كيفَ أدخلتموه إلى هنا؟»

أجابها غودوين: «أدخلناه في قطعٍ ثمَّ جمّعهُ نجارٌ في الداخلِ».

رمقت كاريس غودوين بنظرةٍ باردةٍ فقد حاولَ هذا الرجلُ قتلها، ومنذ محاكمتها بتهمةِ السحرِ لم تكن ترمقهُ سوى بنظراتِ الاحتقارِ وتتجنبُ الحديثَ معهُ قدرَ الإمكانِ.

«يجب أن يكون للراهباتِ نسخة عن مفتاحِ الصندوقِ»، قالت كاريس بفجاجةٍ.

«هذا ليسَ ضرورياً»، أجابَ غودوين على الفورِ.

«فهو يحوي على حُليِّ الكاتدرائية المُطعّمةِ بالأحجارِ الكريمةِ، وهي تقعُ في نطاقِ عملِ أمين الذخائرِ المقدسةِ، وهو من الرهبانِ دوماً».

قالت كاريس: «أرني».

رأت كاريس أن غودوين شعرَ بالإهانةِ من لهجتها وفكر برفضِ طلبها، ولكنه أرادَ أن يبدو مُنفتحاً وصادقاً ولهذا وافقَ ثمَّ أخذَ مفتاحاً من محفظةٍ في حزامهِ وفتحَ الصندوق. وإضافةً إلى ذخائرِ الكاتدرائية رأت كاريس الكثير من اللفائفِ الورقيةِ التي يُفترض بها أن تكونَ عقوداً خاصّةً بالديرِ.

«إذاً، لا تحوي على الذخائرِ فقط»، قالت كاريس وقد تحققَ ظنها.

«والسجلات الرسمية».

«بما فيها سجلات الراهبات»، تابعت كلامها.

«أجل».

«في هذهِ الحالةِ يجب أن يكونَ لدينا نسخة عن المفتاحِ».

«كنتُ سأقترحُ نسخَ جميعِ الصكوكِ والاحتفاظِ بها في المكتبةِ، وعندما نحتاج إلى النسخةِ الأصليةِ نستعين بنسخةِ المكتبةِ وبذلك سنحافظ على النسخِ الأصليةِ في مكانٍ مقفلٍ وآمنٍ».

كانت بيث تكرهُ الخلافاتِ ولهذا تدخَّلت وقالت في توترٍ: «تبدو فكرةً معقولةً أيتها الأختُ كاريس».

وقالت كاريس على مضضٍ: «ما دامت الراهباتُ قادراتٍ على الوصولِ إلى وثائقهن بطريقةٍ ما»، كانت قضيةُ العقودِ بالنسبةِ لها أمراً ثانوياً ولهذا خاطبت بيث بدلاً من غودوين قائلةً: «ولكن الأهمّ من هذا كله هو أين نحتفظُ بالمالِ؟»

قالت بيث: «في خزنةٍ مخبأةٍ تحتَ الأرضيَّةِ، هناك أربعُ خزناتٍ: اثنتانِ للرهبانِ واثنتان للراهباتِ، إن أمعنتِ النظرَ يمكنكِ أن تلاحظي الحجارةَ المتقلقةَ».

دققت كاريس النظرَ إلى الأرضيةِ وبعد برهةٍ قالت: «لم أكن لألحظها لو لم تخبريني ولكني أراها الآن، هل يُمكن إقفالها بمفتاحٍ؟»

«أفترضُ هذا»، قال غودوين: «ولكن عندها سينكشفُ أمرُ المكان لن يعود لإخفائه تحتَ حجارةِ الأرضية أيّ داعٍ».

«ولكن في هذهِ الحالةِ سيكون الرهبانُ والراهباتُ قادرين على فتحِ بعضهم خزائن بعض».

نظرَ فيليمون إلى كاريس نظرةً اتهاميةً ثمَّ قال: «ولكن لماذا أنتِ هنا؟ أنتِ مجرَّد معلمةٍ زائرةٍ ولا علاقةَ لكِ بالخزنةِ».

كانت كاريس تبغضُ فيليمون بغضاً صرفاً وتعدهُ شخصاً سيئاً؛ فهو يبدو كأنّه لا يميزُ بينَ الصوابِ والخطأ، ولا يملكُ أيَّ مبدأ أو رادعٍ، وفي الوقتِ الذي كانت تمقتُ فيه غودوين لكونهِ رجلاً شريراً يعرفُ حقَّ المعرفةِ أنّه يقترفُ أفعالاً شريرةً. كانت تعتبرُ فيليمون حيواناً متوحشاً أشبه بكلبٍ شرسٍ أو دبٍ متوحشٍ.

«لأنني ثاقبةُ الملاحظةِ»، أجابتهُ كاريس.

«أنتِ شديدةُ الارتيابِ»، قالَ بامتعاضٍ.

ضحكت كاريس ضحكةً صفراء وقالت: «أنتَ يا فيليمون من يقولُ هذا، يا للسخريةِ».

تظاهرَ فيليمون أنَّ كلامها جرحهُ: «لا أعلم ما الذي تقصدينهُ بكلامكِ».

وتحدثت بيث مجدداً في محاولةٍ للحفاظِ على السِلم: «أحضرتُ كاريس إلى هنا لتعاينَ المكان بنفسها، وتطمئن بعدَ أن طرحت أسئلةً لم تكن لتخطر على بالي».

قالت كاريس: «على سبيلِ المثالِ ما هي الضمانةُ في أن الرهبانَ لن يأخذوا مالَ الراهباتِ؟»

«سأريكِ»، قالت بيث وتناولت من على خطافٍ على الجدارِ قطعة من خشبِ البلوطِ تُستخدم كذراعٍ لرفعِ حجرِ الأرضيةِ. رأت كاريس تحتَ الحجرِ فجوةً بداخلها صندوقٌ مُدعمٌ بصفائح حديدية: «لدينا صندوق مقفل وحجمهُ يتناسب مع حجمِ الخزائن الحجريةِ»، ورفعت بيث الصندوقَ من الفجوةِ.

تفحصت كاريس الصندوقَ وبدا لها متيناً، كانَ لغطاءِ الصندوقِ مفاصل ومشبكٌ معززٌ بقفلٍ حديدي وأسطواني الشكل: «من صنعَ لنا القفل؟» سألت كاريس.

«كريستوفر بلاكسميث».

وفكرت كاريس أنَّ هذا أمرٌ جيدٌ فقد كانَ كريستوفر مواطناً مرموقاً في كينغزبريدج ولن يخاطرَ بسمعتهِ ببيعِ نسخةٍ عن المفتاحِ إلى اللصوصِ.

لم تكن كاريس قادرةً على إيجادِ أيِّ عيبٍ في هذهِ الترتيباتِ، وقالت في نفسها إنَّها بالغت في قلقها، واستدارت لتخرجَ من المكانِ.

وهنا ظهرَ إلفريك وبرفقتهِ أحدُ المتدربين يحملُ كيساً: «هل يمكننا أن نضعَ علامةَ التحذير؟» سألَ إلفريك.

أجابَ فيليمون: «أجل من فضلكَ فلتفعل».

أخذَ مساعدُ إلفريكِ من الكيسِ غرضاً بدا كقطعةٍ كبيرةٍ من الجلدِ.

سألت بيث: «ما هذا؟»

«فلتنتظري»، قال فيليمون. «وسترين».

رفعَ المتدربُ الغرضَ عالياً قبالةَ البابِ.

«انتظرتهُ حتَّى جفَّ»، قال فيليمون ثمَّ أضاف: «إنَّه جلدُ غيلبرت هيرفورد».

وصرخت بيث في رعبٍ.

قالت كاريس: «هذا مقرفٌ».

كان الجلدُ قد اصفرَّ وبدأ شعرُ الرأسِ بالتساقطِ إلَّا أنَّ معالمَ الوجهِ ما زالت واضحةً: الأذنان وفتحتا العينين وفتحة الفمِ الذي بدا كأنّه ينمُّ عن ابتسامةٍ.

«هذا كفيلٌ بإخافةِ اللصوصِ»، قال فيليمون في رضا.

أخذَ إلفريك مطرقةً وبدأ بتثبيتِ الجلدِ على بابِ الخزنةِ.

***

غادرت الراهبتان، وانتظر غودوين وفيليمون انتهاءَ إلفريك من مهمتِهِ المقززةِ ليعودا إلى الخزنةِ.

قال غودوين: «أعتقدُ أننا في أمانٍ».

أومأ فيليمون برأسِهِ وقال: «إنَّ كاريس امرأةٌ شديدةُ الارتيابِ ولكنّي أعتقدُ أنّها حصلت على أجوبةٍ وافيةٍ على أسئلتها».

«في هذهِ الحالةِ...»

أغلقَ فيليمون البابَ وقفلهُ ثمَّ رفعَ البلاطةَ الحجريَّةَ عن إحدى الخزنتين الخاصتين بالراهباتِ وأخرجَ الصندوقَ.

«تحتفظُ الأختُ بيث بكميةٍ ضئيلةٍ من المالِ في قسمِ الراهباتِ من أجلِ الحاجاتِ اليوميَّةِ»، شرحَ فيليمون لغودوين ثمّ أضاف: «وهي تأتي إلى هنا فقط عندما ترغبُ بإيداعٍ أو سحبِ مبالغ كبيرة، وهي على الدوامِ تذهبُ إلى الخزنةِ الأخرى التي تحوي في أغلبها على بنساتٍ فضيَّةٍ، ونادراً ما تفتحُ هذا الصندوق الذي يحتوي على إرثِ الأرملةِ».

أدارَ فيليمون الصندوقَ وعاينَ المفصلَ من الخلفِ فوجدَه مُثَبَّتاً إلى اللوحِ الخشبي بأربعة مسامير. أخذَ فيليمون من جيبِهِ إزميلاً فولاذياً وكمَّاشةً، تساءلَ غودوين في نفسِهِ عن كيفيةِ حصولِ فيليمون على هذهِ الأدواتِ ولكنه لم يطرح أيَّ سؤالٍ؛ فمن الأفضلِ للمرءِ أحياناً ألا يعرفَ الكثيرَ من التفاصيلِ.

أقحمَ فيليمون النهايةَ الحادّةَ للإزميلِ تحت حافةِ المفصلِ الحديدي ودفعهُ للأعلى، خرجَ المفصلُ قليلاً فدفعَ فيليمون بالإزميل بشكلٍ أقوى، عملَ بخفَّةٍ وصبرٍ حتَّى لا يحدثَ أذيَّةً قد تبدو واضحةً للعيانِ، وتدريجياً بدأ لوحُ المفصلِ بالخروجِ من مكانِهِ والمساميرُ معهُ، وبعدَ برهةٍ باتَ فيليمون قادراً على استخدامِ الكماشةِ لنزعِ المساميرِ وسحبها ونزعِ المفصلِ ثمَّ رفعِ غطاءِ الصندوقِ.

«ها هو مالُ المرأةِ التقيَّةِ من ثورنبيري»، قال فيليمون.

نظرَ غودوين إلى الصندوقِ ورأى أنَّ المال بالدوكات الفينيسي، على أحد وجهي هذهِ العملةِ المعدنيةِ صورةٌ لدوق البندقية راكعاً أمام القديسِ مارك، وعلى الوجهِ الآخر صورةٌ لمريم العذراء محاطة بنجومٍ كأنّها في الجنةِ، تُستخدمُ هذهِ العملةُ مع العملةِ الفلورنسيةِ للمبادلةِ، فكلتاهما تملكان ذات الحجمِ والوزنِ ونقاء المعدنِ. تقدَّرُ قيمةُ القطعةِ بثلاثةِ شلناتٍ، أو ستةٍ وثلاثين بنساً فضياً إنكليزياً، حالياً أصبحَ لإنكلترا عُملة ذهبية، وهي إحدى بدعِ الملكِ إدوارد، تسمى هذهِ العملة بالنوبلِ الذهبي، ويوجد منها نصفُ نوبل وربعُ نوبل، ورغمَ أنّها قيدُ الاستخدامِ منذُ أقلّ من عامين فإنّها لم تحل محلَّ العملةِ الذهبيّةِ الأجنبيّةِ بعد.

أخذَ غودوين خمسين دوكات أي ما يعادل سبعة جنيهاتٍ وعشرةَ شلناتٍ، ثم أعادَ فيليمون غطاءَ الصندوقِ إلى مكانهِ ولفَّ كلَّ مسمارٍ بقطعةٍ جلديةٍ رقيقةٍ كي لا يتحرك من مكانهِ وثبتَ لوحَ المفصلِ ثمَّ وضعَ الصندوق في الخزنةِ وأعادَ البلاطةَ الحجريَّةَ فوقَ الفجوةِ.

«عاجلاً أم آجلاً سيلاحظنَ النقصَ»، قال فيليمون.

«قد تمرُّ سنواتٌ قبلَ أن يلحظنهُ»، قال غودوين، «وسنكونُ قد غادرنا المدينةَ حينئذٍ».

خرجا وأقفل غودوين البابَ وراءَهُ.

قال غودوين: «فلتبحث عن إلفريك ولتوافياني في المقبرةِ».

غادرَ فيليمون وتوجهَ غودوين إلى الزاويةِ الشرقيةِ من المقبرةِ خلفَ منزلِ رئيسِ الديرِ الحالي، كانَ الوقتُ الأولَ من أيار والجو عاصفاً، لعبَ النسيمُ العليلِ برداءِ غودوين حولَ الساقين. كانَ هناك عنزةٌ شاردةٌ ترعى بين القبورِ وأخذ غودوين يراقبها متأملاً.

يعلمُ غودوين أنّه أقدمَ على مخاطرةٍ بفعلتهِ هذهِ، وأنَّ هذا سيكون شرارةَ نزاعٍ مع الراهباتِ، اعتقدَ أنهنَّ لن يكتشفنَ النقصَ قبلَ عامٍ أو أكثر إلّا أنّه لم يكن واثقاً من هذا، وعندما يكتشفن هذا سيكون الثمن مُكلفاً، ولكن ما الذي سيفعلنهُ؟ لا يمكن اعتبارهُ لصَّاً كغيلبرت هيرفورد الذي سرقَ من أجلِ نفسهِ فهو أخذَ ميراثَ المرأةِ التقيةِ من أجلِ غايةٍ مقدسةٍ.

دفعَ غودوين بمخاوفهِ جانباً، وكانت والدتهُ على حقٍ؛ فهو بحاجةٍ إلى إعلاءِ شأنهِ كرئيسٍ للديرِ إن كان يطمحُ للارتقاءِ بمكانتهِ.

عندما عادَ فيليمون مع إلفريك قال غودوين: «أريدكَ أن تبني قصرَ رئيسِ الديرِ هنا، شرقَ المبنى الحالي».

أومأ إلفريك برأسِهِ وقال: «إنَّه موقعٌ جيدٌ إن سمحتَ لي بالقولِ يا سيدي رئيسَ الدير؛ فهو من جهةٍ قريبٌ من قاعةِ الاجتماعِ والزاويةِ الشرقيةِ للكاتدرائية وهو أيضاً بعيدٌ عن السوقِ والمقبرةِ وهذا يعني أنه سيؤمن الخصوصيةَ والهدوءَ».

«أريدُ قاعةَ طعامٍ كبيرةً في الطابقِ السفلي من أجلِ الولائم»، تابعَ غودوين، «بطولِ مئتي قدمٍ تقريباً ويجب أن تكونَ القاعةُ مهيبةً وعظيمةً من أجلِ استقبالِ النبلاءِ وربما شخصياتٍ ملكيَّةٍ».

«جيدٌ جداً».

«وأريد كنيسةً صغيرةً عندَ الزاويةِ الشرقيةِ من الطابقِ الأرضي».

«ولكن الكاتدرائية لا تبعدُ عن القصرِ سوى بضعِ خطواتٍ».

«لن يحب الضيوف النبلاءُ العبادةَ أمامَ العامّةِ، ولهذا لا بدَّ من تأمينِ مكانٍ خاصٍ بهم ليعبدوا فيه متى أرادوا».

«وفي الطابقِ العلويّ؟»

«غرفة نومٍ خاصَّة برئيسِ الديرِ مع مذبحٍ وطاولةٍ وثلاث غرف كبيرةٍ للضيوفِ».

«مذهلٌ».

«كم ستبلغُ تكلفةُ هذا القصرِ؟»

«قد تبلغ مئةَ جنيهٍ وربما مئتين، سأضعُ مخططاً وأعطيكَ قيمةً أدق».

«لا أريد أن تزيدَ التكلفةُ عن مئةٍ وخمسين جنيهاً فهذا المبلغُ الذي أستطيعُ دفعهُ».

لا بدَّ أن إلفريك قد تساءلَ في نفسِهِ عن مصدر المالِ المفاجئِ الذي هبطَ على غودوين، ولكنه لم يطرح أيَّ سؤالٍ بهذا الخصوصِ، «من الأفضلِ أن أبدأ بتجميعِ الحجارةِ بأسرعِ ما يمكن»، قال إلفريك. «هل يمكنكَ أن تعطيني بعضَ المالِ لأبدأ بهِ؟»

«ما هو المبلغُ الذي تريده؟ خمسة جنيهاتٍ؟»

«من الأفضل أن يكونَ عشرة جنيهاتٍ».

«سأعطيكَ ما قيمتهُ سبعة جنيهاتٍ وعشرة شلناتٍ بالدوكات الفينيسي»، قال غودوين وسلَّمهُ مبلغَ الخمسين دوكاتاً الذي أخذهُ من خزنةِ الراهباتِ.

بعدَ ثلاثةِ أيامٍ وبينما كان الرهبانُ والراهبات يغادرون الكاتدرائيةَ بعدَ مراسمِ صلاةِ الظهرِ تحدثت الأختُ إليزابيث إلى غودوين.

لم يكن يُفترض بالراهباتِ والرهبان التحدث بعضهم إلى بعض بشكلٍ عرضي، ولذلكَ لا بدَّ من اختلاقِ ذريعةٍ وكانت هذهِ الذريعةُ وجودَ كلبٍ في صحنِ الكنيسةِ وهذا الكلب لم يتوقف عن النباحِ طوالَ المراسمِ، تُعد الكلابُ ضيوفاً دائمةً على الكنيسةِ ومصدر إزعاجٍ ثانوياً، ولهذا عادةً ما يتجاهلُ الجميعُ أمرها، ولكن إليزابيث خرجت من رتلِ الراهبات لتهشَّ الكلبَ واضطرَّت إلى قطعِ صفِ الرهبانِ لفعلِ هذا. درست حركتها جيداً لتتزامن مع حركةِ الرهبان وتسيرَ أمامَ غودوين، ابتسمت لهُ في اعتذارٍ وقالت: «أرجو المعذرةَ أيُّها الأب رئيسَ الدير»، ثمَّ قالت بصوتٍ خفيضٍ، «قابلني في المكتبةِ وليبدُ الأمرُ كأنّه صدفة». ولاحقت الكلبَ إلى أن خرجَ من البابِ الغربي.

أثارَ الطلبُ اهتمامَ غودوين فشقَّ طريقهُ إلى المكتبةِ وجلسَ فيها يقرأُ في كتابِ «حُكمُ القديس بينديكت»، وبعدَ برهةٍ قصيرةٍ ظهرت إليزابيث وتناولت إنجيلِ متى، بعدَ استلامِ غودوين لمنصبِ رئيسِ الديرِ بنت الراهباتُ مكتبةً خاصَّةً بهن من أجل تعزيزِ الفصلِ بينَ الذكورِ والإناثِ، ولكن عندما أخذنَ جميعَ كتبهنَ بدت المكتبةُ فارغةً ولهذا عدلَ غودوين عن هذا القرار، وتحولت مكتبةُ الراهباتِ الآن إلى غرفةِ دراسةٍ في الشتاءِ.

جلست إليزابيث وظهرها لغودوين حتَّى لا يراهما أحدٌ ويفترض أنهما يتآمران ولكنها أيضاً كانت قريبةً حتَّى يسمعها بوضوحٍ: «هناك أمرٌ شعرتُ بضرورةِ اطلاعكَ عليهِ» قالت إليزابيث: «إنَّ الأخت كاريس لم تُحبذ وضعَ مالِ الراهباتِ في الخزنةِ الجديدةِ».

«أعرفُ هذا»، قال غودوين.

«وقد أقنعت الأختَ بيث بعدِّ المالِ للتأكدِ من أنّه مازالَ موجوداً، اعتقدت أنكَ يجبُ أن تعرفَ هذا في حال... اقترضتَ منهُ».

شعرَ غودوين بقلبِهِ يخفقُ بسرعةٍ، سيكشفُ الجَردُ نقصَ خمسين دوكاتاً من المخزونِ، وقد كانَ بحاجةٍ إلى بقيةِ المالِ لاستكمالِ بناءِ القصرِ، لم يتوقع أن يحدثَ الأمرُ بهذهِ السرعة، وكالَ في سريرتهِ اللعناتِ على كاريس، وتساءلَ كيفَ لها أن تعرفَ ما فعلهُ بسريَّةٍ؟

«متى؟» قال لها بصوتٍ يشوبهُ بعضُ الضعفِ.

«اليوم، ولكن لا أعرفُ متى فقد تقوم بالجردِ في أيّ ساعةٍ، كانت كاريس

حريصةً أشدَّ الحرصِ على عدمِ إعلامكَ بهذا مسبقاً»، كانَ عليهِ إعادة الدوكاتِ بسـرعةٍ.

«شكراً جزيلاً لكِ»، قال لها «وأقدرُ لكِ إطلاعي على الأمرِ».

«كلُّ هذا لأنَّكَ حكمتَ لمصلحة عائلتي في لونغ هام»، قالت هذا ثمَّ نهضت وغادرت.

حالما غادرت إليزابيث هرعَ غودوين خارجاً. إليزابيث تشعرُ بأنَّها مديونةٌ له! يا لهُ من حظٍ! إنَّ حدسَ فيليمون حيالَ ما هو جديرٌ بالاهتمامِ لا يُقدرُ بثمنٍ. وبينما كان يفكرُ بهذا رأى فيليمون في الممرِ المسقوفِ فقالَ له همساً: «أحضر تلكَ العِدَّةَ وقابلني في الخزنة!» ثمَّ غادرَ الدير.

هرعَ غودوين عبرَ الحديقةِ إلى الشارعِ الرئيسي، كانت زوجةُ إلفريك أليس قد ورثت منزلَ إدموند وولر، ويعدُّ واحداً من أكبرِ المنازلِ في المدينةِ، وورثت أيضاً المالَ الذي جنتهُ كاريس من صبغِ القماشِ، كانَ إلفريك الآن يعيشُ في ترفٍ كبيرٍ.

قرعَ غودوين البابَ ودخلَ إلى القاعةِ، وجدَ أليس جالسةً إلى طاولةٍ عليها بقايا طعامِ الغداءِ وابنةُ زوجها غريزيلدا وابنها الصغيرُ ميرثن بصحبتِها، لم يعد هناك الآنَ من يعتقدُ أنَّ الفتى الصغير ابنُ ميرثن فيتزجيرالد فهو كلَّ يومٍ يزداد شبهاً بحبيبِ غريزيلدا الهارب تريستان، تزوجت غريزيلدا من هارولد ميسن وهو أحدُ العاملينَ لدى والدها، كانَ الناسُ المهذبون ينادون الفتى الصغير بميرثن هارولد أمَّا الآخرون فكانوا ينادونهُ بميرثن اللقيط.

نهضت أليس عن كرسيها بسـرعةٍ عندما رأت غودوين: «حسناً إنَّه نسيبي رئيسُ الديرِ، تسـرنا زيارتكَ إلى منزلنا! هل تريدُ بعضَ النبيذِ؟»

تجاهلَ غودوين هذهِ الضيافةَ اللبقةَ وقال: «أينَ إلفريك؟»

«إنَّه في الطابقِ العلوي يأخذُ قيلولةً قبلَ أن يعودَ إلى العملِ، فلتجلس في غرفةِ الجلوسِ وسأناديهِ لمقابلتكَ».

«بسـرعةٍ من فضلكِ»: قال غودوين وتوجه إلى الغرفةِ التاليةِ، وعلى الرغمِ من وجودِ كرسيين مريحين فإنَّه أخذَ يذرعُ الغرفةَ جيئةً وذهاباً.

دخلَ إلفريك وهو يفركُ عينيه وقالَ: «عذراً على هذا.. لقد...»

«الأمـرُ يخـصُّ القطـع النقديـةَ الذهبيـةَ الخمسـين» قـال غودويـن: «أريد استعادتها».

بدا إلفريك كأنّه بوغتَ: «ولكني سأشتري الحجارةَ بهذا المالِ».
«أعلم أنّه من أجلِ شراءِ الحجارةِ! ولكن يجب أن أستعيده الآن».
«لقد أنفقتُ بعضهُ على سائقي عرباتٍ لينقلوا الحجارةَ من المقلعِ».
«كم أنفقتَ؟»
«نصفَ المبلغِ».
«حسناً هل يمكنكَ أن تدفعَ النصفَ من مالكَ الخاص؟»
«ألا تريدُ بناءَ القصرِ؟»
«بالطبعِ أريد، ولكن أنا بحاجةٍ لهذا المبلغ، لا تسألني عن السبب بل أعده إلي فقط».
«وماذا أفعلُ بالحجارةِ التي اشتريتها؟»
«احتفظ بها لأنّني سأعيدُ لكَ المبلغَ، أنا بحاجةٍ لهُ لبضعةِ أيامٍ، هيا بسرعة».
«حسناً. انتظر هنا لو سمحتَ».
«لن أذهبَ إلى أيِّ مكانٍ».
خرجَ إلفريك وتساءلَ غودوين في نفسهِ عن المكانِ الذي يُخبئ فيهِ إلفريك المالَ، كان إخفاءُ المالِ في المدفأةِ أمراً شائعاً، ولكن إلفريك بنَّاءٌ ولهذا لا بدَّ أن يكونَ لديهِ مخابئ أكثر دهاءً، ولكن أيّا يكن هذا المكان لم يطل الوقت حتى عادَ إلفريك.
ونقدَ إلفريك المالَ في يدِ غودوين.
قال غودوين: «لقد أعطيتكَ دوكات وبعضُ هذهِ القطعِ من العملةِ الفلورنسيةِ، كانت للعملةِ الفلورنسيةِ قياسُ الدوكات ذاته، ولكنَّ الطباعة على الوجهين مختلفةٌ؛ فعلى أحد أوجهِ العملةِ الفلورنسيةِ رسمٌ ليوحنا المعمدان، وعلى الآخر زهرةٌ.
«لا أملكُ دوكات! أخبرتكَ أنني صرفت نصفَ الملبغِ، ولكنَّ قيمةَ العملتين هي ذاتها، أليسَ هذا صحيحاً؟»
كان إلفريك على حقٍ، وتساءلَ غودوين في نفسهِ إن كانت الراهباتُ قد لاحظن الفرقَ.
وضعَ غودوين المالَ في محفظتهِ المعلقةِ بحزامهِ، وغادرَ من دونِ أن يقولَ كلمةً واحدةً.

هرعَ عائداً إلى الكاتدرائيةِ ووجدَ فيليمون في غرفةِ الخزنة، «ستقومُ الراهباتُ بجردٍ»، شرحَ غودوين لفيليمون وهو يلتقطُ أنفاسهُ: «استعدتُ المالَ من إلفريك، افتح الصندوقَ فوراً».

فتحَ فيليمون الخزنةَ تحت البلاطة، وأخرجَ الصندوقَ، وأزالَ المساميرَ ثمَّ رفعَ الغطاء، بحثَ غودوين بين القطعِ النقديةِ، كانت جميعها من الدوكات، لم يكن هناك حلٌّ آخر، حفرَ عميقاً بينَ القطعِ النقديةِ ورمى القطع النقدية الفلورنسيةَ في أسفلِ الصندوقِ: «أغلقْهُ وأعدْهُ إلى مكانهِ» قال غودوين، وأطاعَ فيليمون.

شعرَ غودوين بالراحةِ لبرهةٍ؛ فقدَ تمكّنَ من إخفاءِ جريمتهِ بشكلٍ جزئيٍّ، ولم تكن القطعُ المختلفةُ واضحةً بشكلٍ فاضحٍ.

«أريد أن أكون هنا عندما تقوم بعدِّها»، قال غودوين لفيليمون.

«أخشى أن تلاحظَ وجودَ بعضِ العملاتِ الفلورنسيةِ مع الدوكات».

«هل تعلمُ متى ستأتي؟»

«لا».

«سأكلفُ راهباً مبتدئاً بكنسِ منطقةِ جوقةِ المرتلين، عندما تأتي بيث سيأتي ويخبرنا»، كان لدى فيليمون زمرةٌ من الرهبانِ المبتدئين التواقين لتنفيذ مطالبهِ.

ولكن على أيِّ حالٍ لم يكونا بحاجةٍ إلى راهبٍ مبتدئٍ لأنهما وبينما كانا يهمّانِ بمغادرةِ الخزنة وصلت الأختُ بيث والأختُ كاريس.

تظاهرَ غودوين أنّه في خضم حديثٍ عن الحساباتِ: «سنلقي نظرةً على ورقةِ الحسابِ السابقةِ أيُّها الأخ»، قال لفيليمون: «أوه، طابَ يومكما أيتها الأختان».

فتحت كاريس كلتا الخزنتين وأخرجت الصندوقين: «هل يمكنني أن أساعدكِ بشيءٍ؟» قال غودوين، تجاهلته كاريس ، قالت بيث: «إننا نتحققُ من أمرٍ ما، شكراً لكَ أيُّها الأبُ رئيس الديرِ، لن نطيلَ البقاءَ هنا»

«هيا تابعا عملكما»، قال بلطفٍ رغمَ أنَّ قلبه كانَ يخفقُ بسرعةٍ.

قالت كاريس في اهتياجٍ: «ما من داعٍ للاعتذارِ على وجودنا هنا أيتها الأخت بيث، فهذهِ خزنتنا وأموالنا».

أخذَ غودوين لفافةَ حساباتٍ عشوائية وتظاهر هو وفيليمون أنهما يتفحصانها، عدّت بيث وكاريس النقودَ الفضيّةَ التي كانت من عملةِ الفارذنغ، ونصفِ البنسِ والبنسِ، وعملة من لوكسمبورغ وبنساتٍ مصكوكةٍ من فضةٍ

شائبةٍ تستخدمُ كفكة، كانت هناك أيضاً بعضُ العملاتِ الذهبيةِ كالدوكات من البندقية، وعملاتٌ من جنوه ونابولي، إضافة إلى بعضِ العملات الفرنسيةِ الأعلى قيمةً، وعملةِ النوبل الإنكليزيةِ الجديدة، تحققت بيث من المجموعِ الموجود في دفترٍ صغيرٍ، وعندما انتهتا قالت: «المبلغُ كاملٌ»، أعادتا النقودَ إلى الصندوقِ وأقفلتاه ثمَّ أعادتاه إلى الخزنةِ تحتَ البلاطةِ.

ثم بدأتا بعدِّ العملاتِ الذهبيةِ في الصندوقِ الآخر، ووضعتا القطعَ النقديةَ في أكوامٍ من عشرِ قطعٍ، وعندما وصلتا إلى نهايةِ الصندوقِ اكفهرَّ وجهُ بيث، ونمَّ عنها صوتٌ غريبٌ.

«ما الخطبُ؟»، شعرَ غودوين بذعرِ المتهمِ.

قالت بيث: «هذا الصندوقُ مخصصٌ لإرثِ المرأةِ الورعةِ من ثورنبيري فقط، وقد حرصت شخصياً على هذا، بفصلِهِ عن بقيةِ الأموالِ».

«ما الذي يعنيه هذا؟»

«كان زوجها تاجراً في البندقيةِ، أنا واثقةٌ من أنَّ المبلغَ كان بالدوكات، ولكن توجدُ عملات فلورنسية في الصندوقِ».

تجمَّدَ غودوين وفيليمون في مكانهما وهما يصيخان السمعَ إلى المحادثةِ.

«هذا غريبٌ»، قالت كاريس.

«ربما ارتكبتُ خطأً».

«إنَّ الأمرَ مريبٌ بعضَ الشيءِ».

«ليس كذلك»، قالت بيث، «فاللصوصُ لا يعيدون المالَ إلى الخزنة بعد سرقتها، صحيح؟»

«أنتِ على حق، إنَّهم لا يفعلون هذا»، قالت كاريس على مضضٍ.

انتهتا من عدِّ النقودِ وكان المجموع مئةَ كومةٍ من العشراتِ وتعادلُ قيمتها مئةً وخمسين جنيهاً.

«المبلغُ متطابقٌ تماماً مع المبلغ المسجل عندي»، قالت بيث.

«إذاً، المبلغُ كاملٌ»، قالت كاريس.

«هذا ما أخبرتكِ بهِ»، قالت بيث.

قضَت كاريس ساعات طويلة تفكرُ بأمرِ الأختِ مير. كانت قد بوغتت بما حدثَ إلَّا أنَّ ما فاجأها حقاً هو ردُّ فعلها على القبلةِ؛ فقد وجدتها ممتعةً رغمَ أنَّها، وحتَّى الآن، لم تشعرُ بالانجذابِ إلى مير أو أيِّ امرأةٍ أخرى، في الحقيقةِ لم يكن هناك سوى شخص واحد يجعلها تتوقُ إلى اللمسِ والتقبيلِ وممارسةِ الحبِّ، وهذا الشخصُ هو ميرثن. كانت كاريس قد تعلَّمت في ديرِ الراهباتِ العيش من دونِ أيِّ اتصالٍ جسدي، ولم تلمسها يدٌ بشكلٍ جنسي سوى يدها في عتمةِ المهجعِ وهي تستعيدُ ذكريات فترة الخطبة وتدفنُ رأسها في الوسادةِ حتَّى لا تسمع الراهباتُ الأخرياتُ لهاثها.

لم تشعر نحو مير بذلك الشبقِ المُبهجِ الذي كانَ يثيرهُ فيها ميرثن، ولكن ميرثن بعيدٌ عنها آلاف الكيلومترات ولم ترهُ منذُ سبعةِ أعوامٍ. كانت كاريس مغرمةً بمير وللأمرِ علاقةٌ بوجهها الملائكي وبعينيها الزرقاوين والرقة التي تعامل بها الناس في المستشفى والمدرسةِ.

عندما تكونان وحدهما تتحدث مير إلى كاريس بعذوبةٍ وتلامسُ ذراعَها أو كتفها، وفي إحدى المرات داعبت خدَّها، ورغم أنَّ كاريس لم تصدها فإنَّها لم تستجب لها أيضاً، لم يكن السببُ هو أنَّها ترى في الأمرِ خطيئةً فقد كانت واثقةً من أنَّ الرَّبَّ أكثرُ حكمةً من أن يفرضَ عقاباً على النساءِ اللواتي يُمتعن بعضهن من دونِ أذيةٍ، ولكن كاريس خشيت من إحباط مير، وشعرت بغريزتها أنَّ مير تكنُّ لها شعوراً قوياً وواضحاً في الوقتِ الذي كانت فيهِ مشاعرها نحو مير غير واضحة. أدركت كاريس أنَّ مير واقعةٌ في غرامها إلَّا أنَّ كاريس لم تبادلها هذا الحب، وإن سمحت لمير بتقبيلها مجدداً فقد تعطيها انطباعاً بأنَّهما أصبحتا توأمَ روحٍ وإلى الأبدِ، ولم تكن كاريس واثقةً من أنَّها تستطيعُ وعدها بذلك، ولهذا لم تقم كاريس بشيءٍ إلى أن حلَّ سوقُ الصوفِ، كان سوقُ كينغزبريدج قد تعافى من هبوطِ أسعارِ الصوفِ الذي حدثَ في عام 1338.

كانت تجارةُ الصوفِ الخامِ ما تزالُ تعاني وتفتقرُ إلى تدخلٍ حاسمٍ من الملكِ، ورغمَ عدمِ حضورِ الإيطاليين إلى السوقِ سوى مرَّةٍ كلَّ عامين فإن العملَ على نسجِ وصبغِ الصوفِ عوّض عن الخسارةِ في بيعِ الصوفِ الخام، ما تزال البلدةُ على وضعها فلم يزدهر حالها كما يفترض أن يكون لأنَّ المنعَ الذي وضعَهُ رئيسُ الديرِ على الطواحين الخاصةِ دفعَ بالصناعةِ إلى القرى المجاورةِ

خارجَ المدينةِ، رغم أن معظمَ القماشِ المُصنَّع في تلكَ القرى بيعَ في سوقِ المدينةِ، في الحقيقة بات هذا القماشُ معروفاً بقماشِ كينغزبريدج القرمزي، أنهى إلفريك العملَ على جسرِ ميرثن وتدفقَ الناسُ على طولِ الجسرِ العريضِ بأحصنتهم وعرباتهم المُحملةِ بالبضائعِ، وفي ليلةِ السبتِ، أي قبلَ يومٍ من افتتاحِ سوقِ الصوفِ، اكتظَّت المستشفى بالزوارِ.

لم يكن بينهم سوى مريض واحد، كان المريضُ يدعى مالدوين كوك، وهو يعملُ في صنعِ مقبلاتٍ مالحةٍ من العجينِ وقطعِ اللحمِ الأحمرِ، والسمكِ ومطبوخة سريعاً في الزبدةِ، تباعُ ستُ قطعٍ من هذهِ المقبلاتِ بفارذينغ واحد، بعدَ أن وصلَ مالدوين إلى المستشفى بقليلٍ أصيبَ بمغصٍ شديدٍ ومن ثمَّ بالإقياءِ والإسهالِ، لم يكن بوسعِ كاريس فعلُ شيءٍ له باستثناءِ إعطائهِ سريراً قربَ الباب.

لطالما أرادت كاريس أن يكونَ للمستشفى مرحاض خاص حتَّى تتمكنَ من الإشرافِ على نظافتهِ، ولكن هذا لم يكن إلَّا أحدَ التحسيناتِ التي أملت بها، فقد كانت بحاجةٍ أيضاً إلى صيدليةٍ جديدةٍ ملاصقةٍ للمستشفى، وأرادتها في غرفةٍ واسعةٍ ومضاءةٍ بشكلٍ جيدٍ حتَّى تتمكنَ من تحضيرِ الأدويةِ ووضعِ ملاحظاتها، علاوةً على هذا كانت تفكرُ بطريقةٍ ما لإعطاءِ المرضى خصوصيةً أكبر؛ فحتَّى الآن كان جميعُ الحاضرين في غرفةٍ واحدةٍ وقادرين على رؤيةِ امرأةٍ تلدُ أو رجلٍ يعاني من نوبةٍ أو طفلٍ يتقيأ، كانت تعتقدُ أنَّ مثلَ أولئكَ المرضى يجب أن يحظوا بغرفهم الخاصَّةِ تماماً كما يوجد كنائس خاصَّة قربَ كنيسةٍ كبيرةٍ، إلا أنَّ كاريس لم تكن تعرف كيف يمكن لها أن تحققَ هذا؛ فالمستشفى لم يكن كبيراً كفايةً، وقد ناقشت الأمرَ مراراً مع البنَّاءِ جيمي، الذي كان مساعدَ ميرثن منذُ سبعِ سنواتٍ، ولكنَّه لم يقدم لها حلاً مُرضياً.

في صباحِ اليومِ التالي حضرَ إلى المستشفى ثلاثة أشخاصٍ آخرين يعانون من الأعراضِ ذاتها التي عانى منها مالدوين.

قدَّمت كاريس طعامَ الفطورِ إلى الزوارِ وطلبت منهم بلطفٍ الذهاب إلى السوقِ؛ فلم يكن يُسمح بالبقاءِ سوى للمرضى، كانت أرضيَّةُ المستشفى قذرةً أكثر من المعتادِ، ولذلكَ اضطرت إلى كنسها وتنظيفها بالممسحةِ، ثمَّ توجهت إلى الكاتدرائيةِ لحضورِ المراسمِ.

لم يحضر الأسقف ريتشارد المراسمَ فقد كان برفقةِ الملكِ الذي كانَ

يُعدُّ حملةً لغزو فرنسا، لطالما اعتبرَ ريتشارد منصبهُ كأسقفٍ وسيلةً تؤمن له احتياجاتِ حياةٍ أرستقراطيةٍ، وفي غيابِ ريتشارد شغل رئيسُ الشمامسة لويد مكانَه، وقامَ بمهامهِ في جمعِ ضرائبِ العشرِ والإيجاراتِ، وتعميدِ الأطفال وإجراءِ الطقوسِ بدقةٍ ولكن بشكلٍ رتيبٍ، كان شخصاً غريباً وقد تجلى هذا في العظةِ التي قدّمها حولَ علو قيمةِ الرّبِّ على قيمةِ المالِ في يومِ افتتاحِ أعظمِ الأسواقِ التجاريةِ في إنكلترا.

وكما هي العادةُ كانت معنوياتُ الجميعِ مرتفعةً في أولِ أيامِ السوقِ فهذا هو الحدثُ السنوي الأهم لسكانِ المدينةِ وللفلاحين في القرى المجاورةِ. كانوا يجنونَ المالَ من السوقِ، ويخسرونهُ في المقامرةِ في الحاناتِ، وتقعُ الفتياتُ القروياتُ ذواتُ الأجسادِ المتينةِ في شباكِ فتيانِ المدينةِ الماكرين، ويلجأ الفلاحون الميسورون إلى العاهراتِ ليقدمن لهم خدمات لا يجرؤون على طلبها من زوجاتهم، وعادةً ما تقعُ جريمةٌ أو عدةُ جرائم.

لمحت كاريس رجلاً مربوعاً في ثيابٍ باذخةٍ بينَ المُصلين، كان بونافينتورا كارولي، شعرت بقلبها يرفرفُ من الفرحِ فقد يحملُ أخباراً من ميرثن، تابعت المراسم شاردةً وهي تغمغمُ بكلماتِ المزامير، وبينما كانت تغادرُ التقت نظراتها بنظراتِ بونافينتورا، ابتسمَ لها وحاولت أن توحي لهُ بإيماءةٍ من رأسها أنّها تريدُ لقاءَهُ، لم تكن واثقةً من أنّه فهمَ رسالتها.

توجهت إلى المستشفى فهو المكانُ الوحيد الذي يُمكن فيهِ لراهبةٍ أن تلتقي برجلٍ من الخارجِ، لم يطل الوقتُ إلى أن ظهرَ بونافينتورا، كانَ في معطفٍ أزرق وحذاءٍ بمقدمةٍ مدببةٍ: «في آخرِ لقاءٍ بيننا كانَ الأسقفُ ريتشارد قد رسمكَ راهبةً»، بدأ بونافينتورا كلامهُ.

«أنا معلمةٌ زائرةٌ الآن».

«تهاني! لم أتوقع قط أن تبلي جيداً في حياةِ الرهبنةِ»، كان بونافينتورا يعرفها مُذ كانت طفلةً صغيرةً.

«وأنا أيضاً»، ضحكت كاريس.

«يبدو أن الديرَ يبلي جيداً».

«ما الذي يجعلكَ تقولُ هذا؟»

«أرى أن غودوين يبني قصراً جديداً».

«أجل».

«لا بدَّ أنَّ أحوالهُ مزدهرةً».

«أفترضُ هذا».

«ما أخبارك؟ هل تجري أعمالكَ بشكلٍ جيدٍ؟»

«نعاني من بعضِ المتاعبِ فقد عطلت الحربُ بينَ انكلترا وفرنسا حركةَ المواصلاتِ، ورفعت ضرائبُ ملككم إدوارد على الصوفِ من ثمنهِ فباتَ باهظاً مقارنةً بالصوفِ الإسباني الذي، إضافةً إلى رخصِ ثمنهِ هو من نوعيةٍ أفضل».

يشتكي التجارُ من الضرائبِ على الدوامِ، ولذلكَ قررت كاريس أن تفتحَ الموضوعَ الذي يهمها. «هل من أخبارٍ عن ميرثن؟»

«في الحقيقةِ هناك أخبارٌ»: قال بونافينتورا الذي لم يغير من سلوكِهِ المهذب إلا أنَّه أبدى تردداً. «لقد تزوجَ ميرثن».

شعرت كاريس كأنَّها تلقَّت لكمةً في بطنها، لم تتوقع هذا قط أو حتَّى تفكر بهِ، كيفَ يمكن لميرثن أن يفعلَ هذا؟ لقد كان... لقد كانا...

بالطبعِ لم يكن هناك سببٌ يمنعهُ من الزواجِ، لقد رفضتهُ مرَّاتٍ عديدةً وفي المرةِ الأخيرةِ رفضتهُ رفضاً لا رجعةَ فيها أن دخلت إلى ديرِ الراهباتِ، ومن المذهلِ بحقٍ أنَّه انتظرها حتَّى هذا الوقتِ، لم يكن من حقها الشعورُ بالخيانةِ.

أجبرت نفسها على الابتسامِ وقالت: «يا لهُ من خبرٍ رائعٍ! من فضلكَ أوصل لهُ تهانيَّ. من تكونُ زوجتهُ؟»

تظاهرَ بونافينتورا أنَّه لم يلحظ كربها: «تدعى سيلفيا»، قالَ بلهجةٍ عرضيةٍ كأنَّها نميمةٌ بريئةٌ، «إنَّها أصغرُ بناتِ أليساندرو كريستي، أحد أبرزِ مواطني المدينةِ وتاجر توابل شرقية، ومالك العديد من السفنِ».

«ما العمرُ؟»

ابتسمَ بونافينتورا وقالَ: «أليساندور؟ لا بدَّ أن يكونَ في مثلِ عمري...»

«لا تمازحني!»

كانت ممتنةً لبونافينتورا لأنَّه يحاولُ ترطيبَ الأجواءِ: «ما عمرُ سيلفيا؟»

«ثلاثة وعشرون عاماً».

«أصغرُ مني بستةِ أعوامٍ».

«وهي فتاةٌ جميلةٌ...»

وشعرت أنَّه يتحفظُ عن قولِ شيءٍ: «ولكن...؟»

أمالَ بونافينتورا رأسهُ جانباً بحزنٍ وقال: «ولكنها مشهورةٌ بلسانها السليطِ، بالطبعِ ليسَ هناكَ ما يمنعُ الناسَ من قولِ أيِّ شيءٍ... قد يكونُ هذا سببُ بقائها عازبةً لوقتٍ طويلٍ، فعادةً ما تتزوجُ الفتياتُ في فلورنسا قبلَ أن يبلغنَ الثامنةَ عشرة».

«أنا واثقةٌ من صحةِ هذا الكلامِ»، قالت كاريس، «كانتَ الفتاتان الوحيدتان اللتان أحبَّهما ميرثن في كينغزبريدج هما: أنا وإليزابيث كلرك، وكلتانا سليطتا اللسانِ».

ضحكَ بونافينتورا وقال: «لا ليسَ كذلك».

«متى كانَ حفلُ الزفافِ؟»

«منذُ عامينِ وبعدَ أن رأيتكِ بفترةٍ وجيزةٍ».

أدركت كاريس أن ميرثن بقي عازباً إلى أن رُسمت راهبةً، لا بدَّ أنَّ بونافينتورا من أوصلَ له الخبرَ، وفكرت في نفسها أنَّه انتظرها على أملٍ في بلدٍ أجنبي لأكثر من أربعِ سنواتٍ، وهنا بدأت تمثيليتها الهشَّةُ أنَّها سعيدةٌ من أجلِ ميرثن تتداعى.

قال بونافينتورا: «وأصبحَ لديهما طفلةٌ صغيرةٌ تدعى لولا».

كان هذا أكثر مما تستطيع احتمالهُ، وعادَ كلُّ الحزنِ الذي شعرت بهِ طوالَ سبعِ سنواتٍ، وكلُّ الألمِ الذي اعتقدت أنَّه اختفى كالصاعقةِ، أدركت أنَّها لم تفقدهُ في عام 1339 فقد بقي وفياً لذكراها لأعوامٍ ولكنها الآن فقدتهُ وللأبدِ.

ارتجفت كأنَّها تعاني من نوبةٍ، وعلمت أنَّها لن تستطيع البقاءَ متماسكةً لوقتٍ أطول، قالت لبونافينتورا وهي ترتعشُ: «سعدتُ بلقائكَ والإطلاعِ على الأخبارِ، ولكن يجب أن أعودَ إلى العملِ».

بدا القلقُ واضحاً على محياه وقال: «آمل ألا أكون قد أزعجتكِ كثيراً، اعتقدت أنكِ كنتِ تفضلين معرفةَ هذا».

«لا تتصرف بلطفٍ معي.. لا يمكنني تحملُ هذا»، واستدارت مبتعدةً.

سارت من المستشفى إلى الممرِ المسقوفِ برأسٍ مطأطأ حتَّى تخفي وجهها، كانت تبحثُ عن مكانٍ تنفردُ فيهِ، ولذلك هرعت على الدرجِ الذي يفضي إلى المهجعِ، لم يكن هناكَ أحدٌ في مثلِ هذا الوقتِ من النهارِ، وأخذت تنشجُ وهي تذرعُ الغرفةَ الخاليةَ جيئةً وذهاباً، في نهايةِ الغرفةِ بابٌ يفضي إلى غرفةِ الأمِ سيسيليا، ولم يكن يُسمح لأحدٍ بالدخولِ إلى الغرفةِ دون إذنٍ، ولكن كاريس دخلت وصفقت البابَ وراءها، رمت بنفسها على سريرِ سيسيليا دونَ

أن تهتمَ لأمرِ غطاءِ رأسها الذي سقطَ، ودفنت وجهها في الفراشِ القشي وهي تنتحبُ.

وبعدَ برهةٍ شعرت بيدٍ على رأسها تداعبُ شعرها القصير المقصوص. لم تكن قد سمعت وقعَ أقدامِ هذا الشخصِ وهو يدخلُ الغرفةَ، ولكنها تدريجياً وببطءٍ بدأت تهدأ، وباتت شهقاتها أقلَّ لوعةً، وجفَّت دموعها وبدأت عاصفةُ مشاعرها تتراجعُ. استدارت ونظرت إلى من كان يُهدهدها وأدركت أنها مير.

قالت كاريس: «لقد تزوجَ ميرثن ولديهِ طفلةٌ صغيرةٌ»، وانخرطت في البكاءِ مجدداً.

استلقت مير بقربها على السرير ووضعت رأسَها بينَ ذراعيها فدفنت كاريس وجهها بينَ ثديي مير الطريين وجفف رداء مير الصوفي دموعها.

«فلتهدئي، فلتهدئي»، قالت مير.

بعدَ برهةٍ من الزمنِ هدأت كاريس فقد استنفدَ الحزنُ كلَّ طاقتها على الشعورِ بالأسى، وتخيلت ميرثن يحملُ طفلةً إيطاليةً صغيرةً بشعرٍ أسود ويبدو سعيداً جداً. شعرت بالسعادةِ لسعادتهِ وغرقت في النومِ من شدَّةِ الإرهاقِ.

***

انتشرَ الداءُ الذي عانى منهُ مولدوين كوك كالنارِ في الهشيمِ بينَ حشودِ زوار سوقِ الصوفِ، وفي يومِ الإثنينِ انتقلَ من المستشفى إلى الحاناتِ، ويوم الثلاثاءِ انتقلَ من الزوارِ إلى سكانِ المدينةِ. سجلت كاريس الأعراضَ في دفترها: بدأ المرضُ بمغصٍ في البطنِ ثمَّ وعلى الفورِ تقيؤ وإسهال يدومان يوماً أو يومين. لم يكن تأثيرُ المرضِ سيئاً جداً على البالغين، إلَّا أنّه كانَ قاتلاً لكبارِ السنِ والأطفال.

انتشرَ المرضُ بينَ الراهباتِ والأطفالِ في مدرسةِ البناتِ يوم الأربعاءِ وأصيبت بهِ مير وتيلي، بحثت كاريس عن بونافينتورا في نُزلِ بيل وسألتهُ إن كانَ الأطباءُ الإيطاليون يملكون علاجاً لمثلِ هذهِ الأمراضِ المعديةِ: «لا يوجد أيُّ علاجٍ» قال لها.

«لا شيء مفيدٌ رغمَ أنَّ الأطباءَ يصفون دوماً شيئاً ما ولكن من أجلِ تقاضي المال من الناسِ، ولكن بعض الأطباءِ العرب يعتقدون أنّه بالإمكانِ الحدُّ من انتشارِ المرضِ».

«أوه حقاً؟» قالت كاريس في اهتمامٍ، يقولُ التجار إنَّ الأطباء العرب متفوقون على نظرائهم المسيحيين، رغمَ أنَّ الكهنة الأطباء يُنكرون هذا بشدةٍ.

«كيف؟»

«يعتقدون أنَّ المرءَ يصابُ بالمرضِ عندما ينظرُ إليه شخصٌ مريضٌ، يعتقدون أنَّ البصرَ يعملُ بأشعةٍ تصدرُ من العينين وتلامسُ الأشياءَ التي نراها، والأمرُ أشبه بوضعِ إصبعٍ على شيءٍ ما لاختبارِ حرارتهِ أو جفافهِ أو قساوتهِ، وأنَّ الأشعةَ التي تلامسُ الأشياءَ قد تعكسُ المرضَ، وبذلك يمكن تجنبُ المرضِ بتجنبِ الوجود في غرفةِ المريضِ.

لم تصدق كاريس أنَّ المرضَ ينتقلُ بالبصرِ، ولكن إن كانَ هذا صحيحاً فهذا يعني أنَّ جميعَ المصلين في الأبرشيةِ سيصابون بأيِّ مرضٍ قد يعاني منهُ الأسقفُ، وإن كانَ الملكُ مريضاً فسيصيبُ مئات الناسِ الذينَ ينظرون إليهِ، ومثلُ هذا لا بدَّ أن يلاحظهُ أحدٌ.

على أيِّ حالٍ بدت لها فكرة عدمِ مشاركةِ الغرفةِ مع شخصٍ مريضٍ مقنعةً، ففي المستشفى هنا انتشرَ مرضُ مالدوين بينَ الأشخاصِ القريبين منهُ، بدءاً بزوجتهِ وعائلتهِ ثمَّ المرضى على الأسرَّةِ المجاورةِ.

كانت كاريس قد لاحظت أيضاً أن أمراضاً معينةً كاضطراباتِ المعدةِ والسعال ونزلات البردِ والسفلس بأنواعهِ تنتشرُ على نطاقٍ واسعٍ خلالَ المعارضِ والأسواقِ، ولهذا من البديهي أنَّها تنتقلُ بطريقةٍ ما من شخصٍ إلى آخر.

وفي ليلةِ الأربعاءِ أثناءَ العشاءِ وجدت كاريس أنَّ نصفَ زوارِ المستشفى يعانونَ من المرضِ، وبحلولِ صباحِ الخميسِ أصيبَ بهِ الجميعُ ومن بينهم العديدُ من خدمِ الديرِ، وباتَ لدى كاريس عجزٌ في طاقمِ التنظيفِ، وقد عاينت الأمُّ سيسيليا الفوضى أثناءَ الفطورِ واقترحت إغلاقَ المستشفى.

كانت كاريس مستعدةً في هذا الوضعِ لقبولِ أيِّ إجراءٍ فقد شعرت بالإحباطِ من عجزها على مواجهةِ المرضِ، ومن القذارةِ التي ملأت المكانَ، «ولكن أينَ سيبيتُ الناس؟» سألت كاريس الأمَّ سيسيليا.

«أرسليهم إلى الحاناتِ».

«تعاني الحاناتُ من المشكلةِ ذاتها. يمكننا أن نضعهم في الكاتدرائيةِ».

هزَّت سيسيليا رأسها وقالت: «لن يقبلَ غودوين بوجودِ فلاحين يتقيؤون على أرضيةِ صحنِ الكنيسةِ وجوقةُ المرتلين تغني خلالَ المراسمِ».

«أياً يكن المكانُ الذي سيبيتون فيهِ يجب أن نفصلَ المرضى عن الأصحاءِ، وبهذهِ الطريقةِ سنحدُّ من انتشارِ المرضِ كما قال بونافينتورا».

«كلامٌ منطقي».

وهنا نزلَ الوحيِ على كاريس وشعرت أنَّ أمراً ما بدأ يتوضحُ في ذهنها رغمَ أنَّها لم تفكر بهِ قبلاً. «ربما علينا أن نحسّنَ من وضعِ المستشفى»، قالت كاريس «أن نبني مستشفىً جديداً للمرضى فقط، ونحتفظ بالمستشفى القديم للحجاجِ والزوارِ الأصحاءِ».

بدت سيسيليا غارقةً في التفكيرِ وقالت: «سيكون الأمرُ مُكلفاً».

«لدينا مئةٌ وخمسون جنيهاً»، قالت كاريس وهي تتخيلُ المستشفى: «يمكننا أن نبني صيدليةً جديدةً، وغرفاً خاصةً للناسِ المصابين بأمراضٍ مزمنةٍ».

«ابحثي في تكلفةِ الأمرِ، وتحدثي إلى إلفريك».

كانت كاريس تبغضُ إلفريك وهي تكرهه حتَّى قبلَ أن يشهد ضدها في المحكمةِ، ولذلك لم تكن تريدهُ أن يبني مستشفى جديداً: «إنَّ إلفريك مشغولٌ ببناءِ قصرِ غودوين الجديد»، قالت كاريس.

«أفضّلُ التشاورَ في الأمرِ مع جيرمايا».

«بالطبع».

شعرَت كاريس بدفقٍ من الحبِ نحو سيسيليا التي رغم صرامتِها وتشددِها في الانضباطِ، كانت تمنحُ مساعديها حريةً في قراراتهم الشخصيةِ. لطالما تفهمت سيسيليا المشاعرَ المتضاربةَ التي تسيطرُ على كاريس، وبدلاً من محاولةِ قمعها كانت تجدُ طرقاً لاستغلالها، فقد كلَّفت كاريس بأعمالِ المستشفى لتبقى مشغولةً، ولتكون متنفساً لطاقتها المتمردةِ، فكرت كاريس في نفسها: «ها أنا عاجزةٌ تماماً عن التعاملِ مع الأزمةِ التي أمامي، وها هي رئيستي تخبرني وبكلِّ هدوءٍ أن أمضي قدماً في مشروعٍ طويلِ الأمدِ».

«شكراً لكِ أيتها الأمُّ سيسيليا»، قالت كاريس.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلكَ اليومِ جالت كاريس في الدير مع جيرمايا وشرحت له ما كانت ترغبُ فيهِ. كان جيرمايا شخصاً مُتطيراً ويرى أنَّ كلَّ شيءٍ من عملِ القديسينَ والشياطين بما في ذلكَ مجريات الحياة اليوميةِ البسيطةِ. على أيِّ حالٍ كانَ بنَّاءً ذا مخيلةٍ ومنفتحاً على الأفكارِ الجديدةِ، فقد كان تلميذ ميرثن في وقتٍ من الأوقاتِ، اتفقا حالاً على أفضلِ موقعٍ للمستشفى الجديدِ جنوبَ المطبخِ الحالي بالضبطِ، سيكونُ المستشفى منفصلاً عن بقيةِ الأبنيةِ حتَّى لا يحتك المرضى بالأصحاءِ، والطريق بينَ المطبخِ والمستشفى لن يكون طويلاً،

وسيسهلُ الوصولُ إليهِ عبرَ الممراتِ المسقوفةِ التابعةِ لديرِ الراهباتِ، قال لها جيرمايا إنَّ كلفةَ بناءِ الصيدليةِ والحماماتِ الجديدةِ وطابقٍ من الغرفِ الخاصةِ ستصلُ إلى مئةِ جنيه، وهذا يعني ثلاثة أرباعِ إرثِ الأرملةِ.

عرضت كاريس موقعَ البناءِ على الأمِّ سيسيليا ولكن ولأنَّ قطعةَ الأرضِ تابعةٌ لديرِ الرهبانِ ذهبت كاريس والأمُّ سيسيليا إلى غودوين لمناقشة الأمرِ معه.

عثرتا عليهِ في موقعِ بناءِ قصرهِ الجديدِ حيثُ اكتملَ بناءُ هيكلِ القصرِ مع السقفِ، لم تكن كاريس قد زارت الموقعَ منذُ أسابيع، وتفاجأت بضخامتهِ التي تعادل ضخامةَ المستشفى الذي تريدُ بناءَهُ، وهنا فهمت كاريس سبب قولِ بونافينتورا لها أنَّ القصرَ يبدو مبهراً؛ فقاعةُ الطعامِ وحدها أكبر من حجرةِ الطعامِ في ديرِ الراهباتِ، اكتظَّ الموقعُ بالعمالِ، وكان غودوين على عجلةٍ من أمرهِ لإنهاءِ العملِ، كان البناؤون يرصفون الأرضيةَ ببلاطٍ ملونٍ ووفقَ نمطٍ هندسي محددٍ، والعديدُ من النجارينِ يعملون على الأبوابِ، وصانعُ النوافذِ الزجاجيةِ يبني فرناً لتشكيلِ الزجاجِ، لا بدَّ أنَّ غودوين ينفقُ الكثيرَ من المالِ على بناءِ قصرهِ.

وجدتا غودوين وفيليمون وهما يأخذان نائبَ الأسقف لويد في جولةٍ على المبنى الجديد، قالت سيسيليا: «لا نريدُ تعطيلكم عن عملكم، ولكن عندما تنتهون هلَّا وافيتمونا إلى خارجِ المستشفى؟ هناك شيءٌ أريدُ إطلاعكم عليهِ».

عادت كاريس وسيسيليا إلى السوقِ في حديقةِ الكاتدرائيةِ، كانَ يومُ الجمعةِ يومَ التخفيضاتِ في سوقِ الصوفِ حيثُ يبيعُ التجارُ ما تبقى من بضاعتهم بأسعارٍ مخفضةٍ كي لا يحملوها معهم في طريقِ العودةِ، رأت كاريس مارك ويبر بوجههِ المدورِ وبطنهِ الكبير الآن في معطفٍ من القماشِ القرمزي الزاهي، وحولهُ أبناؤهُ الأربعة يساعدونهُ في كشكهِ، كانت كاريس مغرمةً بابنتهِ دورا التي تبلغُ الآن الخامسةَ عشرة، وتفيضُ بعزيمةٍ ورثتها عن والدتها، وإن كان في جسدٍ أكثرَ نحولاً.

«يبدو أنَّ أحوالكَ مزدهرةٌ»، قالت كاريس لمارك مع ابتسامةٍ.

«يُفترضُ أن تكون هذهِ الثروةُ لكِ»، أجابها: «فأنتِ من اخترعَ الصباغ، وأنا لم أفعل شيئاً سوى تنفيذ ما كنتِ تخبرينني بهِ، أشعرُ كأنني خنتك».

«هذهِ مكافأتكَ على عملك الدؤوب» قالت له، إذ لم تكن كاريس تمانع ازدهارَ أحوالِ مارك ومادج بسببِ اختراعها، ورغمَ المتعةِ التي كانت تجدها في تحدي القيامِ بهذا النوعِ من الأعمالِ، فإنَّها لم تتق قط إلى المالِ، وربما يعودُ السببُ في هذا إلى أنَّها عاشت في منزلٍ ثري حيثُ كان وجودُ المالِ أمراً مُسلَّماً

به، على أيّ حالٍ لم تشعر كاريس بأيِّ ندمٍ على الثروةِ التي كانت عائلةُ ويبر تجنيها، والتي كانَ من المفترض أن تكونَ لها، يبدو أنَّ حياة الدير التي لا تتطلبُ مالاً تناسبها أكثر، كانت سعيدةً لرؤيةِ أطفالِ عائلةِ ويبر بصحةٍ جيدةٍ وفي أفضلِ حُلَّةٍ، وتذكرت أنَّ أولئكَ الأطفال الستة كانوا يضطرون للنومِ على أرضيةِ غرفةٍ ضيقةٍ مع النولِ الذي يعملُ عليهِ والداهما شاغلاً معظمَ المساحةِ.

توجهت كاريس وسيسيليا إلى الزاويةِ الجنوبيةِ من الديرِ، بدت الأرضُ المحيطةُ بالإسطبلاتِ كمزرعةٍ فلم يكن هناك سوى بضعة مبانٍ صغيرة: برجٌ للحمامِ، وقِنُ دجاجٍ وكوخٌ للمعداتِ، كانَ الدجاجُ ينبشُ الترابَ والخنازير تنبشُ في قمامةِ المطبخِ، وشعرت كاريس برغبةٍ في ترتيبِ وتنظيفِ المكانِ.

وعاجلاً ما انضمَّ إليهما غودوين وفيليمون ولويد. أشارت سيسيليا إلى قطعةِ الأرضِ إلى جانبِ المطابخِ وقالت: «سأبني مستشفى جديداً، وأريدهُ أن يكون هناك، ما رأيكَ؟»

«مستشفى جديد؟» قال غودوين: «لماذا؟»، واعتقدت كاريس أنَّ غودوين بدا قلقاً وأثارَ هذا حيرتها.

قالت سيسيليا: «نريدُ مستشفى للمرضى وسنتركُ المستشفى القديمِ للزوارِ الأصحاءِ».

«يا لها من فكرةٍ رائعةٍ!»

«بدأ الأمرُ مع مالدوين كوك الذي أتى يشكي من آلامٍ في المعدةِ، هذا مثالٌ على الأمراضِ المعديةِ التي تنتشرُ خلال موسمِ الأسواقِ، ومن أسبابِ انتشارهِ السريع وجودُ المرضى والأصحاءِ في المكانِ ذاتهِ، حيثُ يتشاركونَ الطعامَ والمبيت ويستخدمون المرحاضَ ذاتهُ».

بدا غودوين ممتعضاً وقال: «حقاً! إذاً أصبحت الراهباتُ طبيباتٍ الآن».

اكفهرَّ وجهُ كاريس فلم تكن السخريةُ أسلوبَ غودوين الذي كانَ يلجأ إلى إبهارِ الآخرين خاصَّة الأقوياء من أمثالِ سيسيليا، لا بدَّ أنّه يُخفي شيئاً وراءَ نوبةِ استيائهِ.

«بالطبعِ لا»، قالت سيسيليا «ولكننا نعلمُ جميعاً أنَّ بعضَ الأمراضِ تنتقلُ من مريضٍ إلى آخر وهذا بديهي».

وهنا تدخلت كاريس قائلةً: «يعتقدُ الأطباءُ المسلمونَ أنَّ المرضَ ينتقلُ من خلالِ النظرِ إلى الشخصِ المريضِ».

«أوه حقاً؟ إنَّه لأمرٌ مثيرٌ للاهتمامِ!» قالَ غودوين في سخريةٍ ممضيةٍ: «نحنُ الذين درسنا الطبَّ لسبعِ سنواتٍ في الجامعةِ يسعدنا على الدوامِ أن تحاضرنا عن الأمراضِ راهباتٌ صغيرات بالكادِ أنهينَ مرحلةَ الرهبنةِ المبتدئةِ».

لم يُرهبها كلامُ غودوين فهي لم تكن تملكُ أيَّ دافعٍ لمعاملةِ منافقٍ كاذبٍ حاولَ أن يقتلها بأيِّ احترامٍ، وقالت لهُ: «إن كنتَ لا تصدِّقُ أمرَ انتقالِ المرضِ لم لا تثبتُ لنا صدقكَ بأن تزورنا في المستشفى ليلاً، وتنامَ مع مئاتِ المرضى الذين يعانون من الغثيانِ والإسهالِ؟»

قالت سيسيليا: «أيتها الأختُ كاريس! هذا يكفي»، واستدارت نحو غودوين قائلةً: «أرجو المغفرةَ أيُّها الأب رئيس الديرِ، لم أكن أنوي جرَّكَ إلى نقاشٍ عن الأمراضِ مع راهبةٍ عاديةٍ، أردت فقط أن أتأكدَ من أنكَ لا تعارض اختياري للموقعِ».

«بأيِّ حالٍ لا يمكنكِ البناء الآن»، قال غودوين: «إنَّ إلفريك مشغولٌ جداً ببناءِ القصرِ».

قالت كاريس: «لا نريد إلفريك فنحن سنستعين بجرمايا».

استدارت سيسيليا نحوها قائلةً: «فلتهدئي يا كاريس وتذكري مقامكَ، لا تقاطعيني وأنا أتحدث مع السيد رئيس الديرِ مجدداً».

أدركت كاريس أنَّها لم تكن تساعد سيسيليا، وأرغمت نفسها على طأطأةِ رأسها والقول: «أنا آسفةٌ أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ».

قالت سيسيليا لغودوين: «سؤالي لكَ ليسَ متى سنبني المستشفى بل أينَ؟»

«أخشى أنني لا أوافق على هذا»، قال غودوين بصرامةٍ.

«أين تفضلُ أن يكونَ موقعُ البناءِ الجديدِ؟»

«لا أعتقد أننا بحاجةٍ إلى مستشفى جديدٍ أصلاً».

«أرجو المعذرةَ ولكنني رئيسةُ ديرِ الراهباتِ» قالت سيسيليا بحدَّةٍ: «لا يمكنكَ أن تملي عليَّ كيفَ أنفقُ مالي، بأيِّ حالٍ نحنُ عادةً ما نستشيرُ بعضنا قبلَ البدءِ ببناءِ مبانٍ جديدة، ولكن يبدو أنكَ نسيتَ أن تقومَ بهذهِ البادرةِ اللبقةِ معي عندما شرعتَ ببناءِ قصركَ، أنا لا أستشيركَ بل أسألكَ عن موقعِ البناءِ»، ونظرت إلى لويد ثمَّ قالت: «أنا واثقةٌ من أنَّ نائبَ الأسقفِ يوافقني على هذا».

«يجبُ أن يكونَ هناكَ اتفاقٌ بين الطرفين»، قال لويد بشكلٍ مبهمٍ.

عبست كاريس في حيرةٍ من السببِ الذي قد يجعلُ غودوين يرفضُ بناءَ

المستشفى، كان قصرهُ في الجانبِ الشمالي من الكاتدرائيةِ، ولن يؤثر عليهِ بناءُ الراهباتِ للمستشفى على الجانبِ الجنوبي، فالرهبان بالكاد يأتون إلى هنا، وتساءلت في نفسها عمَّا يقلقهُ.

قال غودوين: «قلتُ لكِ إنني لا أوافقُ على الموقعِ ولا على البناءِ، وهذهِ هي كلمتي الأخيرةِ في هذا الشأن!»

وفي ومضةِ إلهامٍ اتضحَ لكاريس السببَ وراءَ سلوكِ غودوين، كانت مصدومةً جداً إلى درجةِ أنَّها تلعثمت وهي تقولُ: «لقد سرقتَ مالنا!»

قالت سيسيليا: «كاريس لقد أخبرتكِ...»

«لقد سرقَ إرثَ الأرملةِ من ثورنبيري!» قاطعت كاريس سيسيليا في غضبٍ شديدٍ، «هذا هو مصدرُ المالِ الذي بنى منهُ قصره، وها هو الآن يحاولُ أن يمنعنا من بناءِ المستشفى لأنَّه يعلمُ أننا سنذهبُ إلى الخزنةِ، ونكتشفَ أنَّ المالَ قد اختفى!» كانت تشعرُ بسخطٍ شديدٍ إلى درجةِ الانفجارِ.

قال غودوين: «لا تكوني سخيفةً».

ولأنَّ ردَّ غودوين لم يكن عنيفاً اقتنعت كاريس أنَّها لامست وتراً حساساً، وبدأت تستشيطُ غضباً بعد أن تأكدت من صحةِ شكوكها، «أثبت هذا!» صرخت كاريس ثمَّ أجبرت نفسها على التحدثِ بهدوءٍ أكبر، «سنذهبُ إلى الخزنةِ الآن ونتفقدُ المبلغَ، لن تمانع هذا أيُّها الأبُ رئيس الدير؟

وتدخلَ فيليمون قائلاً: «هذا ينطوي على إهانةٍ وامتثالُ رئيسِ الدير أمرٌ مستبعدٌ تماماً».

تجاهلت كاريس فيليمون وقالت: «يجب أن نجدَ في خزنةِ الراهباتِ مبلغ مئة وخمسينَ قطعةً ذهبيةً».

«مستحيل»، قال غودوين.

قالت كاريس: «حسناً، من الواضحِ أنَّ الراهباتِ سيفقدن الخزائن الآن بعدَ توجيه هذا الاتهام»، ونظرت إلى سيسيليا التي أومأت رأسها في موافقةٍ، «إذاً إن كانَ رئيسُ الديرِ يفضلُ عدمَ وجوده لا شكَّ أنَّ نائبَ الأسقفِ سيسعدهُ الحضور كشاهدٍ».

بدا لويد كأنّه يفضّلُ عدمَ التورطِ في هذا الخلافِ، ولكنهُ وجدَ صعوبةً في رفضِ لعبِ دورِ الحكمِ، ولهذا قال: «إن كانَ بوسعي مساعدةُ الطرفين، بالطبعِ...».

شعرت كاريس بأفكارها تتسارعُ، «كيفَ استطعتَ فتحَ الصندوق؟» قالت كاريس. «لقد صنعَ كريستوفر بلاكسميث القفلَ وهو نزيهٌ جداً، ولن يعطيكَ نسخةً عن المفتاحِ ويساعدكَ على سرقتنا، لا بدَّ أنّكَ كسرتَ القفلَ وأصلحتهْ بطريقةٍ ما، ما الذي فعلتهُ؟ هل نزعتَ المفصل؟» ورأت كاريس غودوين يحدقُ بشكلٍ عفوي إلى نائبِهِ: «آهٍ»، قالت كاريس كأنّها ظفرت بشيءٍ: «إذاً، فيليمون من انتزعَ المفصل، ولكن رئيسَ الديرِ من أخذَ المال وأعطاهُ إلى إلفريك».

قالت سيسيليا: «يكفي تكهناتٍ فلنحسم الأمرَ، سنذهبُ إلى الخزنةِ، ونفتح الصندوق وسنضعُ حداً للأمرِ».

قال غودوين: «لم يكن سرقةً».

حدَّقَ الجميعُ نحو غودوين في صمتٍ مذهل.

قالت سيسيليا: «أنتَ تعترف بالأمرِ!»

«لم يكن سرقةً»، كررَ غودوين، «فالمالُ استخدمَ بما فيهِ منفعةٌ للديرِ وتمجيدٌ للرَّبِّ».

قالت كاريس: «هذا غيرُ مهمٍ فهو لم يكن مالكَ!»

«إنَّه مالُ الرَّبِّ»، قال غودوين بعنادٍ.

قالت سيسيليا: «إنَّ المال لديرِ الراهباتِ وأنتَ تعلمُ هذا، لقد رأيتَ الوصيةَ».

«لا أعلمُ شيئاً بخصوصِ أيِّ وصيةٍ».

«بالطبعِ تعلم، لقد أعطيتكَ إياها لتصنعَ نسخةً عنها...» وتوقفت سيسيليا.

قال غودوين مجدداً: «لا أعلمُ شيئاً بخصوصِ أيِّ وصيةٍ».

قالت كاريس: «لقد أتلفها، قال لنا إنَّه سينسخها ويضع الأصلية في صندوقٍ في الخزنةِ... ولكنَّه أتلفها».

حدَّقت سيسيليا بفمٍ فاغرٍ نحو غودوين، «كانَ يجب أن أعرف، بعد محاكمةِ كاريس لم يكن عليَّ الوثوقُ بكَ مجدداً، ولكني اعتقدت أنَّ روحكَ ستجدُ خلاصها، كنتُ مخطئةً جداً».

قالت كاريس: «من الجيدِ أننا نسخنا الوصيَّةَ قبلَ أن نسلمها لكَ». اخترعت هذا التفصيل بدافعِ اليأسِ.

قال غودوين: «من الواضح أنَّها نسخةٌ مزورةٌ».

قالت كاريس: «إن كانَ المالُ مالكَ أصلاً لن تكونَ مضطراً لكسرِ الصندوقِ للوصولِ إليهِ، لهذا فلنلقِ نظرةً وهذا من شأنهِ أن يحسمَ الأمرَ».

قال فيليمون: «إنَّ حقيقةَ وجودِ تلاعبٍ في المفصلَ لا تُثبتُ شيئاً».

«إذاً، كنتُ على حقٍ!» قالت كاريس «ولكن كيف لكَ أن تعرفَ بأمرِ المفصلِ؟ فالأختُ بيث لم تفتح الخزنةَ منذُ عمليةِ الجردِ وكان الصندوقُ وقتها بحالةٍ سليمةٍ، لا بدَّ أنَّكَ أخرجتَ الصندوقَ بنفسكَ حتى علمتَ أنّه تمَّ التلاعبُ بهِ».

بدا فيليمون مضطرباً ولم يُجب.

التفتت سيسيليا إلى لويد وقالت: «يا نائبَ الأسقفِ أنتَ ممثلٌ عن الأسقفِ، ولذلكَ أعتقدُ أنَّهُ من واجبكَ أن تطلبَ من رئيسِ الديرِ إعادةَ المالِ إلى الراهباتِ».

بدا لويد مضطرباً وقال لغودوين: «هل تبقى لديكَ أيُّ مالٍ؟»

قالت كاريس في غيظٍ شديدٍ: «عندما تمسكُ بلصٍ لا تسأله إن كانَ يستطيعُ أن يتخلى عن مكاسبهِ غير الشرعيةِ!»

قال غودوين: «لقد أنفقتُ أكثرَ من نصفهِ على القصرِ».

«يجب أن تتوقف عمليةُ البناءِ على الفورِ»، قالت كاريس: «لا بدَّ من صرفِ الرجالِ اليوم وهدمِ البناءِ وبيعِ الموادِ، عليكَ إعادةُ كلِّ بنسٍ أخذتهُ، وما لا تستطيعُ دفعهُ نقداً بعدَ هدمِ مبناكَ يمكنكَ أن تعوضَ عنهُ بالأراضي أو الممتلكاتِ».

«أرفضُ هذا»، قال غودوين.

توجهت سيسيليا بحديثها إلى لويد وقالت: «يا سيادة نائبِ الأسقفِ من فضلكَ فلتقم بواجبكَ، لا يمكنكَ أن تسمحَ لأحدِ أتباعِ الأسقفِ بالسرقةِ من أتباعهِ الآخرين بغضِّ النظرِ عن أنهما يقومان بعملِ الرَّبِّ».

قال لويد: «لا يمكنني أن أحسمَ هذا الخلافِ فهو خطيرٌ جداً».

عجزت كاريس عن الكلامِ بسببِ غضبها، ويأسها من ضعفِ لويد.

احتجّت سيسيليا قائلةً: «ولكن عليكَ أن تحسمَ!»

بدا لويد مُحاصراً إلّا أنّه هزَّ رأسهُ في عنادٍ وقالَ: «اتهاماتٌ بالسرقةِ وإتلافُ وصيّةٍ واتهامٌ بالتزوير... لا يمكنُ سوى للأسقفِ حسمُ المسألةِ».

قالت سيسيليا: «ولكنَّ الأسقف رينشارد في طريقهِ إلى فرنسا ولا يعرفُ أحدٌ متى يعود، وفي هذهِ الأثناء ينفقُ غودوين مالنا!»

«أخشى أنني لا أستطيعُ المساعدةَ في هذا الشأن»، قال لويد: «يجب أن تلتمسن ريتشارد».

«حسناً إذاً»، قالت كاريس بنبرةٍ دفعت الجميعَ إلى النظرِ إليها في دهشةٍ: «في هذهِ الحالةِ لا يوجدُ سوى حل وحيد: سأذهبُ للبحثِ عن أسقفنا».

-46-

في الأولِ من تموز/ يوليو عام 1346 حشدَ الملكُ إدوارد الثالث أكبرَ أسطول غزوٍ شهدتهُ إنكلترا فقد بلغَ عددُ السفنِ الراسيةِ في ميناءِ بورتسماوث ما يقاربُ الألفَ سفينةٍ، ولكن بسببِ الرياحِ المعاكسةِ تأخرَ انطلاقُ الأسطولِ حتَّى الحادي عشر من تموز/ يوليو وبقيت وجهتهُ سريَّةً.

وصلت كلٌ من كاريس ومير إلى ميناءِ بورتسماوث بعدَ مرور يومين على مغادرةِ الأسطول، وعندما أدركتا أنهما فشلتا في لقاءِ الأسقفِ ريتشارد الذي أبحرَ مع الملكِ قررتا اللحاقَ بالأسطولِ إلى فرنسا.

لم يكن الحصولُ على إذنِ سفرٍ إلى بورتسماوث أمراً سهلاً فكيفَ بالحصول على إذنِ سفرٍ إلى فرنسا. دعت الأمُّ سيسيليا الراهباتِ إلى قاعةِ الاجتماعاتِ لمناقشةِ الأمرِ وعبرت بعضهن عن مخاوف من مواجهةِ كاريس لمخاطر روحيةٍ وجسديةٍ، ولكن الراهبات يغادرنَ الأديرةَ على الدوامِ وليسَ بغرضِ الحجِ فقط بل للقيامِ بأعمالٍ في لندن وكانتربري وروما. كانت راهبات كينغزبريدج راغباتٍ بشدةٍ في استعادةِ مالهن المسروق.

على أيِّ حالٍ لم تكن كاريس واثقةً من حصولها على إذنِ الديرِ بعبورِ القناةِ، ولحسنِ الحظِ لم يكن بوسعها طلبُ هذا.

لم يكن بوسعِ كاريس ومير اللحاق بالجيشِ على الفورِ حتَّى وإن عرفتا وجهةَ الملكِ فلم يكن هناك أيّ سفينةٍ على الساحلِ الجنوبي لإنكلترا بعد أن أبحرت جميعها مع أسطولِ الغزوِ، ونظراً لهذا نزلت كاريس ومير في أحدِ الأديرةِ خارجَ بورتسماوث تنتظران بفارغِ الصبرِ وصولَ الأخبارِ.

علمت كاريس لاحقاً أنَّ أسطولَ الملكِ إدوارد وجيشهُ رَسَوَا في شاطئٍ واسعٍ في سان فاسيه لا هوغو على الساحل الشمالي لفرنسا قربَ بافلور، ولكن بدلاً من العودةِ أدراجهُ على الفورِ تقدَّمَ على طولِ الساحلِ شرقاً لأسبوعين بالتزامنِ مع تقدُّمِ الجيشِ الإنكليزي حتى مدينةِ كِين، وهناك سطا جيشُ إدوارد

على سكان النورماندي المُقتدرين، وكدَّسوا عنابرهم بالغنائمِ من الجواهرِ، والأقمشةِ الفاخرةِ والصحونِ الذهبيةِ والفضيَّةِ، ثمَّ عادوا أدراجهم.

كانت سفينةُ غريس أولى السفنِ العائدةِ، وهي سفينةٌ شحنٍ عريضةٍ بمقدمةٍ ومؤخرةٍ مدورتين، عادَ قبطانها رولو ذو الوجهِ الخشنِ ممتدحاً الملكَ، فقد حصلَ على دفعةٍ أكبر مما طلبَ على سفينتهِ ورجالهِ، وأخذَ لنفسهِ حصةً جيدةً من الغنيمةِ: «كانَ أكبرَ جيشٍ أراه في حياتي»، قال رولو في حبورٍ، وتحدَّث عن أنَّ عددَ الرجالِ لم يكن يقلُّ عن خمسةَ عشرَ ألف رجلٍ وأنَّ نصفهم من رماةِ السهام، وأنَّ هناك ما يقاربُ الخمسةَ آلافِ حصانٍ: «لن تتمكنا من اللحاقِ بهم»، قال لهما رولو: «سآخذكما إلى مدينةِ كِين حيثُ كنتُ ويمكنكما اللحاقُ بهم من هناك، وأيّاً يكن الاتجاه الذي سيأخذونهُ سيكونون متقدمين عليكما بأسبوعٍ».

تفاوضت كاريس ومير مع رولو على كلفةِ نقلهما وصعدتا إلى السفينةِ غريس مع حصانين قصيرين قويين يدعيان بلاكي وستامب، لم يكن بوسعِ الحصانينِ مجاراةُ جيادِ الحربِ، ولكنَّ كاريس فكَّرت أنَّ الجيشَ لا بدَّ أن يتوقف بينَ الفينةِ والأخرى للقتالِ، وهذا بدورهِ سيُكسبهما بعضَ الوقتِ للحاقِ به.

عندما وصلوا إلى الجانبِ الفرنسي وأبحروا عبر مصبِّ نهرِ أورني في صباحٍ باكرٍ ومشمسٍ من صباحاتِ شهرِ آب/ أغسطس، تنشقت كاريس الهواءَ وشمَّت رائحةَ رمادٍ قديم مزعجةً، أمعنت النظرَ إلى المنظرِ على كلا ضفتي النهرِ ورأت الأراضي الزراعيةَ متفحمةً، بدا الأمرُ كأنَّ المحصولَ قد أُحرقَ في مكانهِ: «هذا تقليدٌ معروفٌ»، قال رولو: «ما لا يُمكن للجيشِ نهبهُ يدمرهُ حتَّى لا يستفيد منهُ العدو». وبينما كانت السفينةُ تدخلُ مرفأ كِين مروا بالقربِ من هياكل سفنٍ محروقةٍ دُمرت على الأغلب لمنعِ الأعداءِ من استخدامها.

«لا أحدَ يعرفُ خطةَ الملكِ»، قال رولو لهما، «فقد يتوجه جنوباً ويتقدمُ نحو باريس أو يتوجهُ إلى كاليه في الشمالِ الشرقي، على أملِ الالتقاءِ بحلفائهِ الفلمنكيين هناك، ولكنكما ستتمكنان من اللحاقِ بهِ إن تقدمتما على دروبِ الحقولِ المحروقةِ».

قبلَ أن ترسو السفينةُ قدَّمَ لهما رولو لحماً: «شكراً لكَ ولكن لدينا بعض السمكِ المجففِ والجبنِ القاسي في جعبنا»، قالت كاريس له.

«لدينا مالٌ ويمكننا أن نشتري ما نحتاجُ إليهِ».

«قد لا يفيدكما المالُ كثيراً»، أجابَ القبطانُ: «فلا يوجدُ شيءٌ لتشترياه، إن دخولَ جيشٍ غازٍ إلى أيِّ مكانٍ أشبه بغزو الجرادِ فهو يأكلُ الأخضرَ واليابس، فلتأخذا اللحمَ».

«هذا لطفٌ كبيرٌ منكَ، وداعاً».

«فلتصلي من أجلي أيتها الأختُ فقد ارتكبتُ ذنوباً كثيرةً».

في مدينةِ كِين منازل كثيرةٌ وهي ككينغزبريدج مقسومةٌ إلى قسمين: المدينةُ القديمةُ والمدينةُ الجديدةُ، ويفصلُ بينهما نهرُ أودون، ويصل بينهما جسرُ سان بيتر، على ضفةِ النهرِ قربَ الجسرِ صيادون يبيعون صيدهم، سألتهم كاريس عن ثمنِ سمكِ الحنكليس ولكنها وجدت صعوبةً في فهمِ الإجابةِ؛ فالصيَّادُ تحدَّثَ بلهجةٍ فرنسيةٍ لم تسمعها قبلاً، وعندما نجحت أخيراً في فهمِ ما كانَ يقولهُ ذُهلت من السعرِ، أدركت أنَّ الطعامَ كان غالياً، بل أغلى من الجواهر، وشعرت بالامتنانِ على كرمِ رولو لإعطائهما اللحمَ.

قررت كاريس ومير أنَّهما لو سُئلتا عما تفعلانهِ هنا ستقولان أنَّهما راهبتان أيرلنديتان في طريقهما إلى روما، ولكن بعد أن قطعتا الجسرَ الآنَ وابتعدتا عن النهرِ تساءلت كاريس في قلقٍ: إن كانَ السكانُ المحليون سيميزون لهجتها، ويعرفون أنَّها إنكليزية.

لم يكن هناكَ سكانٌ محليون كُثر كما تبين لهما من منظرِ الجدرانِ المحطمةِ والنوافذِ المكسورةِ ، فالمنازل فارغة، وخيَّمَ على المكانِ صمتٌ كصمتِ منزلٍ مسكونٍ؛ لم يكن هناكَ باعةٌ ينادون على بضائعهم، أو أطفالٌ يتعاركون أو أجراسُ كنيسةٍ تُقرع، لم يكن هناكَ سوى موتى يُدفنون، ورغمَ أنه لم يمضِ على المعركةِ هنا سوى أسبوعٍ، فإنَّ مجموعاتٍ صغيرةً من رجالٍ بوجوهٍ كالحةٍ مازالت تتدفقُ حاملةً الجثث من المنازلِ وتكدّسها على عرباتٍ، بدا واضحاً وبكلِّ بساطةٍ أنَّ الجيشَ الإنكليزي ارتكبَ مجزرةً بالرجالِ والنساءِ والأطفالِ، مرَّت كاريس ومير قربَ كنيسةٍ حُفرَ في فنائها حفرةٌ هائلةٌ، ورأتا الجثثَ تُلقى في قبرٍ جماعي من دونِ توابيت أو أكفانٍ وكاهناً يجري مراسمَ دفنٍ من دونِ توقفٍ.

خيَّمت على المكانِ رائحةٌ نتنةٌ بشكلٍ لا يوصف.

انحنى لهما رجلٌ حسنُ الهندامِ وسألهما إن كانتا بحاجةٍ إلى أيِّ مساعدةٍ، أوحى سلوكهُ المهذب أنَّه من عليةِ القومِ وحريصٌ على سلامةِ الزوارِ الدينيين إلى المكانِ، رفضت كاريس عرضهُ وقد لاحظت أنَّه يتحدثُ بالفرنسيةِ

النورماندية التي لم تختلف كثيراً عن اللغةِ التي يتحدثُ بها النبلاءُ في إنكلترا، لطالما اعتقدت أنَّ الناسَ العاديين يتحدثونَ بلهجاتٍ محليَّةٍ مختلفةٍ بينما الطبقةُ الحاكمةُ تتحدثُ بلهجةٍ عالميةٍ.

أخذت الراهبتان الطريقَ الشرقي الذي يُفضي إلى خارجِ المدينةِ، وقد سُرَّتا لمغادرةِ تلك الشوارعِ الملعونةِ، إلَّا أنَّ الريفَ كانَ خالياً من السكانِ، أيضاً لم تفارقْ تلكَ الطعمةُ المُرَّةُ للرمادِ فمَ كاريس، كانت جميعُ الحقولِ والبساتين على جانبي الطريقِ محترقةً، وبينَ الفينةِ والأخرى تمرَّانِ بأطلالِ قريةٍ أحرقها الجنود خلالَ مرورهم بها، كانَ الفلاحون قد هربوا قبلَ دخولِ الجيشِ أو ماتوا في الحريقِ؛ فلم يكن هناك أيُّ علائم على الحياة سوى بعضِ الطيورِ والخنازير، أو دجاجاتٍ تظهرُ أحياناً وقد أفلتت من قبضةِ الجيشِ الذي عاثَ فساداً في المكانِ، وفي بعضِ الأحيانِ تريان كلباً يتشممُ الرّدمَ باضطرابٍ، كأنّه يحاولُ التقاطَ رائحةِ سيده تحتَ كومةٍ من الرمادِ البارد.

كانت وجهتهما التالية ديراً يبعدُ مسافةَ نصفِ يومٍ عن مدينةِ كِين، وأنّى سنحت لهما الفرصةُ في طريقهما من كينغزبريدج إلى بورتسماوث كانتا تقضيان الليالي في دورٍ دينية كأديرةِ الراهبات أو الرهبانِ أو المشافي، كانتا تعرفان أسماءَ ومواقعَ واحدة وخمسينَ داراً من هذا النوعِ على طولِ الطريقِ بين كِين وباريس، وإن عثرتا على هذهِ الأماكن وهما تتبعان أثرَ الخرابِ الذي أحدثهُ جيشُ الملكِ إدوارد فستؤمنان لنفسيهما المبيتَ والطعامَ والأمانَ من اللصوصِ ومن الإغراءِات الدنيويّة، على حدِّ قولِ الأمِّ سيسيليا، كالمشروباتِ المُسكرةِ والرفقةِ الذكوريةِ.

تتمتعُ سيسيليا بغريزةٍ حادةٍ إلَّا أنّها لم تستشعر ذلكَ الإغراء الذي يحومُ في الأجواءِ بينَ كاريس ومير، وبسببِ خطرِ هذا الإغراءِ رفضت كاريس في البدايةِ طلبَ مير بمرافقتها فقد كانت تريدُ التحركَ بسرعةٍ، ولم تكن تريد لمهمتهما أن تواجهَ أيّ تعقيداتٍ، كرفضِ علاقةٍ عاطفيةٍ أو الدخولِ في واحدةٍ، ولكن من جهةٍ أخرى كانت كاريس بحاجةٍ إلى مرافقةٍ شجاعةٍ وواسعةِ الحيلةِ، وها هي الآن سعيدةٌ باختيارها؛ فقد كانت مير، ومن بينِ جميعِ الراهباتِ الوحيدةَ التي تملكُ الشجاعةَ على مطاردةِ الجيشِ الإنكليزي عبرَ فرنسا.

كانت كاريس قد خططت لبدءِ حديثٍ صريحٍ مع مير قبلَ أن تغادرا، وتقولَ لها إنَّه لا يمكن أن تجمعهما أيّ علاقةٍ جسديةٍ وهما في رحلتهما، وإنّهما

بغضِ النظرِ عن أيِّ شيءٍ، قد تقعانِ في ورطةٍ رهيبةٍ إن شوهدتا، إلَّا أنَّ كاريس لم تتمكن من فتحِ هذا الحديثِ الصريحِ، وها هما الآن في فرنسا، وما زالَ الموضوعُ مُعلقاً كرفيقٍ ثالثٍ خفي يركبُ معهما على حصانٍ لا يُصدرُ صوتاً.

وعندَ منتصفِ النهارِ توقفتا قربَ جدولٍ على أطرافِ غابةٍ حيث ما زالَ هناك مرجٌ سلمَ من الحرقِ يمكن لجواديهما أن يرعيا فيه، قطّعت كاريس شرائح من قطعةِ اللحمِ التي قدَّمها لهما رولو، وأخرجت مير رغيفاً من الخبزِ اشتراه من بورتسماوث، شربتا ماءً من الجدولِ رغمَ أنَّ طعمهُ كانَ كالرمادِ.

لجمت كاريس توقها للانطلاقِ بسرعةٍ وأجبرت نفسها على تركِ الجوادين يرتاحان خلال أشدِّ ساعاتِ النهارِ حرّاً، وعندما كانتا تستعدان للمغادرةِ بوغتت كاريس برؤيةِ شخصٍ يراقبها، تجمَّدَت في مكانِها، وهي تحملُ اللحمَ في يدٍ والسكينَ في اليدِ الأخرى.

قالت مير: «ما هذا؟» ونظرت إلى حيث كانت كاريس تنظرُ وفهمت.

رأتا رجلين على بُعدِ عدَّةِ ياردات في فيءِ أشجارٍ يحدقانِ إليهما، بدا الرجلان شابين، ولكن من هذهِ المسافةِ لم يكن بالإمكانِ التأكد من الأمرِ، كان وجهاهما ملطخين بالسخامِ وثيابهما قذرةً.

بعدَ وهلةٍ تحدَّثت كاريس إليهما بفرنسيةٍ نورمانديةٍ: «بارككما الرَّبُّ يا أولادي».

لم يجيبا وتكهنت كاريس أنهما كانا حائرين حيالَ ما عليهما القيامُ بهِ، تساءلت كاريس في نفسها عما كانا يفكران بهِ: السرقة؟ الاغتصاب؟ ورأت في عيونهما نظرةَ حيوانٍ مفترسٍ.

تملَّكَ الرعبُ كاريس إلَّا أنَّها أجبرت نفسها على التفكيرِ بهدوءٍ، ما الذي قد يريدانهِ غير السرقةِ والاغتصاب؟ هل يمكن أن يكونا جائعين؟ ثمَّ قالت لمير: «بسرعةٍ أعطني شريحتين من الخبزِ».

قطَّعت مير شريحتين من رغيفِ الخبزِ الكبيرِ بينما قطَّعت كاريس قطعتين من اللحمِ ووضعتهما على الخبزِ، وقالت لمير: «أعطه لهما».

بدت مير مرتعبةً إلا أنَّها عبرت المرجَ بخطى مترددةٍ وقدَّمت الطعامَ إلى الرجلين.

اقتنصَ الرجلان الطعامَ من يدي مير وانقضَّا عليهِ، شكَرت كاريس حظَّها الجيد لأنَّها أصابت في تخمينها.

سارعت كاريس إلى وضعِ اللحمِ في الجرابِ والسكين في حزامها ثمَّ امتطت حصانها بلاكي، لحقت بها مير ووضعت الخبزَ في الجرابِ ثمَّ اعتلت صهوةَ الجواد ستامب، وقد منحَ ركوب الجواد كاريس شعوراً أكبر بالأمانِ.

تقدَّمَ أطولُ الرجلينِ قامةً نحوهما بسرعةٍ، شعرت كاريس بإغراءِ همزِ حصانها والانطلاقِ، ولكن لم يكن لديها الوقتُ وأمسكَ الرجلُ بلجامِ الحصانِ، تحدَّثَ إليها بفمٍ ممتلىءٍ بالطعامِ: «شكراً لكِ»، قال الرجلُ بلكنةٍ محليَّةٍ ثقيلةٍ.

قالت كاريس: «الشُكرُ للرَّبِّ وليسَ لي فهو من أرسلني لمساعدتكَ، إنَّه يحميكَ وهو يرى كل شيءٍ».

«ألديكِ المزيدُ من اللحمِ في حقيبتكِ؟»

«سيرشدني الرَّبُّ إلى من يجب أن أقدم له هذا اللحم».

حلَّ صمتٌ قصيرٌ بينما كانَ الرجلُ غارقاً في التفكيرِ ثمَّ قال: «امنحيني بركتكِ».

ترددت كاريس في مدِّ يدها بالطريقةِ التقليديةِ لمنحِ البركةِ فهذا يعني أنَّ يدها ستكونُ بعيدةً عن الخنجرِ المُعلَّق إلى حزامها، كان خنجراً بنصلٍ قصيرٍ ومن النوعِ الذي يحملهُ الرجالُ والنساءُ، إلَّا أنَّه حادٌ بما يكفي لجرحِ ظاهر يدِ هذا الرجلِ الذي يُمسكُ بلجامِ حصانها، وإجبارهِ على تركهِ.

وفجأة نزلَ عليها الإلهامُ وقالت له: «حسناً. فلتركع»، ترددَ الرجلُ.

«يجب أن تركعَ لتتلقى بركتي»، قالت بصوتٍ عالٍ قليلاً، وببطءٍ ركعَ الرجلُ وهو ما زال يحملُ الطعامَ في يدهِ، نظرت كاريس إلى الرجلِ الآخر وسرعانَ ما ركعَ هو الآخر، فباركت كاريس الرجلين وهمزت جوادها بلاكي لينطلقَ بسرعةٍ، وبعد وهلةٍ نظرت إلى الوراءِ ورأت مير خلفها والرجلين الجائعين يحدقان بهما.

وبينما كانتا تتابعان طريقهما بعدَ الظهرِ فكّرت كاريس بالحادثةِ في قلقٍ، كانت الشمسُ تشعُ ببهجةٍ كما قد تشعُ في أيِّ نهارٍ رائقٍ في الجحيمِ، والدخانُ يتصاعدُ بشكلٍ متقطعٍ من أراضٍ أو من حظائر تحترقُ، وأدركت كاريس تدريجياً أنَّ الريفَ لم يكن مهجوراً بالكاملِ، رأت امرأة حاملاً تحصدُ البازلاء من حقلٍ نجا من مشاعلِ الإنكليز، ورأت أيضاً وجهين مرتعبين لطفلينِ ينظرانِ من وراءِ جدارٍ مُسخمٍ لقصرِ سيّدٍ ما، ومجموعاتٍ عديدةً وصغيرةً من الرجالِ تتنقلُ على عجلٍ بينَ أطرافِ الأراضي الزراعيةِ، بذلكَ الدأبِ الحازمِ لنابشي

القبور، كان الرجالُ مصدرَ قلقٍ لها فهم يبدون جوعى وهذا يعني أنهم خطرون، وتساءلت في نفسها إن كانَ عليها أن تقلقَ حيالَ سرعةِ تقدمهما أم حيالَ أمانهما.

بدا لكاريس أنَّ العثورَ على المؤسساتِ الدينية التي خططتا للتوقفِ عندها سيكونُ أصعبَ مما اعتقدت، لم تتوقع أن يتركَ الجيشُ الإنكليزي وراءَهُ مثل هذا الدمارِ، وافترضت أنَّها ستجدُ فلاحين في المنطقةِ يرشدونها على طولِ الطريقِ ونظراً إلى أنَّ الحصولَ على معلوماتٍ بهذا الشأنِ من أناسٍ لم يسافروا إلى ما هو أبعد من السوقِ أمرٌ صعبٌ، وها هم الأشخاصُ الذين قد تتحدثُ إليهم وتسألهم عنْ الطريقِ يبدون مراوغين أو مرتعبين أو أشراراً.

نظرت إلى الشمسِ وعلمت أنَّهما تتوجهان شرقاً، وتأكدت من آثارِ العجلاتِ العميقةِ في الطينِ الداكنِ أنَّهما على الطريقِ الرئيسي، كانت وجهتهما اليوم قريةً تحملُ اسمَ ديرٍ راهباتٍ فيها وتدعى «أوبيتال دي سور»، وعندما بدأ الظلُّ أمامهما يزدادُ طولاً أخذت كاريس تبحثُ في إصرارٍ متزايدٍ عن شخصٍ ما تسألهُ عن مكانِ الديرِ.

ابتعدَ الأطفالُ عن طريقهما في خوفٍ، لم تصل كاريس بعد إلى تلك الدرجةِ من اليأسِ لتخاطرَ بالاقترابِ من أولئكَ الرجالِ الجائعين، وأملت أن ترى امرأةً في الجوار، وعندما لم تصادف في طريقها أيّ امرأةٍ انتابها هلعٌ سوداوي من المصيرِ الذي قد جلبه عليهن الغزاة الإنكليز، كانت بينَ الفينةِ والأخرى ترى في الأفقِ بعيداً أخيلةَ أناسٍ يحصدونَ في الحقولِ التي نجت من الحرقِ، ولكنها كانت مترددةً في الابتعادِ عن الطريقِ الرئيسي.

وأخيراً عثرتا على امرأةٍ عجوزٍ جالسة تحتَ شجرةِ تفاح قربَ منزلٍ حجري ضخمٍ، كانت تتناولُ تفاحاً غير ناضجٍ من الشجرةِ وتبدو مرتاعةً، ترجّلت كاريس عن جوادها حتَّى لا ترعبَ المرأةَ، حاولت المرأةُ العجوز أن تخبئ وجبتها التعسةَ بينَ طيَّاتِ ثوبها فقد بدت كأنَّها لا تملكُ القوةَ على الهربِ.

تحدَّثت كاريس إليها بلهجةٍ مهذبةٍ: «مساءُ الخيرِ يا أمَّاه، هلَّا أرشدتني إلى الطريق الذي يقودُ إلى أوبيتال دي سور؟»

بدت المرأةُ العجوز كأنَّها قد تمالكت نفسها الآن وأجابت باتّزانٍ مشيرةً بيدها في الاتجاهِ الذي تسيران فيهِ قائلةً: «عبرَ الغابةِ فوقَ التلَّة».

لاحظت كاريس أنَّ المرأةَ لا تملكُ أسناناً، وشعرت بالشفقةِ عليها فهي لن تستطيع تناول تفاحٍ غير ناضجٍ بلثتها: «كم تبلغُ المسافةُ؟» سألتها كاريس.

«إنّها بعيدةٌ».

كانت جميعُ المسافاتِ لامرأة في مثلِ عمرها بعيدةً: «هل يمكننا الوصولُ إلى هناك بحلولِ الليلِ؟»

«يمكنكما على صهوةِ الجيادِ».

«شكراً لكِ يا أماه».

«كانت لدي ابنةٌ»، قالت المرأةُ العجوز: «وحفيدان في الرابعة عشرة والسادسة عشرة، كانا ولدين صالحين».

«يؤسفني سماعُ هذا».

«الإنكليز»، قالت المرأةُ العجوز، «فليُحرقوا في الجحيمِ جميعاً».

من الواضحِ أنّه لم يخطر ببالها أن كاريس ومير إنكليزيتان، وهنا عرفت كاريس جوابَ السؤال الذي طرحتهُ على نفسها؛ لا يمكن للسكانِ المحليين معرفة جنسية الغرباءِ: «ما اسما الصبيين؟»

«غيل وجون».

«سأصلي لروحِ غيل وجون».

«هل لديكِ بعضُ الخبز؟»

نظرت كاريس حولها لتتأكدَ من عدمِ وجودِ أحدٍ متربصٍ وجاهزٍ للهجومِ عليهما، لم ترَ أحداً في الجوارِ، فأومأت كاريس إلى مير التي أخذت ما تبقى من الرغيفِ من جرابها وقدّمتهُ للمرأةِ، اقتنصت المرأةُ الرغيف منها وأخذت تلوكهُ بلثتها، وتابعت كاريس ومير طريقهما.

قالت مير: «إن استمررنا بمنحِ طعامنا للآخرين سنتضورُ جوعاً».

«أعلم»، قالت كاريس: «ولكن كيفَ بوسعنا رفضُ تقديمِ الطعامِ؟»

«لن نتمكن من إنهاءِ مهمتنا إن مُتنا».

«ولكننا راهبتان»، قالت كاريس بقسوةٍ، «ولذلكَ علينا أن نساعدَ المحتاجين، ونتركَ للرّبِّ أن يقررَ موعدَ موتنا».

فوجئت مير بكلامِ كاريس وقالت: «لم أسمعكِ تتحدثين بهذهِ الطريقةِ قبلاً».

«لطالما كرهَ والدي الناسَ الذين يعظون بالأخلاقِ، واعتادَ القولَ إنَّ التصرفَ بنزاهةٍ عندما تكون الرياحُ مواتيةً لا يُحتسبُ عملاً صالحاً، وإنّه عندما

ترغبُ باقترافِ أمرٍ سيئٍ، أو عندما تكون على وشكِ صُنعِ ثروةٍ من صفقةٍ غير نزيهةٍ، أو أن تُقبّل شفتي زوجةِ جارِكَ الشهيتين، أو عندما تكذب لتنقذَ نفسكَ من ورطةٍ، فإنَّكَ هنا تحتاجُ إلى القوانين، واعتادَ القولَ إنَّ نزاهةَ المرءِ كالسيفِ الذي لا يجب أن تلوحَ بهِ قبلَ أن تختبرهُ رغمَ أنَّه لم يكن يفهمُ في أمورِ السيوفِ».

صمتت مير لوهلةٍ، ربما كانت تفكرُ بما قالتهُ كاريس للتو أو ربما، وبكلِّ بساطةٍ تخلّت عن متابعةِ الجدالِ، لم تكن كاريس واثقةً أيّ الاحتمالين صحيحٌ.

لطالما كانَ الحديثُ عن إدموند يذكرُ كاريس أنّها تشتاقُ إليهِ بشدَّةٍ. بعدَ وفاةِ والدتها أصبحَ والدها بمنزلة حجرِ أساسٍ في حياتِها فهو كان بجانبها على الدوامِ، ومستعداً لتقديمِ التعاطفِ أو التفهم أو النصيحةِ الحكيمةِ أو حتَّى المعلوماتِ، كان يملكُ معرفةً كبيرةً بالعالمِ، وها هي عندما تفكرُ بهِ تشعرُ بفراغٍ كبيرٍ في حياتها.

مرَّتا بالقربِ من قطعةِ أرضٍ ثمَّ صعدتا مرتفعاً كما قالت لهما المرأةُ العجوز، وعندما نظرتا من أعلى وادٍ ليسَ بالعميقِ شاهدتا قريةً محترقةً أخرى وكتلةً حجريةً تبدو كديرٍ صغيرٍ: «الشُّكرِ للرَّبِّ لا بدَّ أنَّه دير أوبيتال دي سور».

ومع اقترابِهما من الديرِ أدركت كاريس أنّها اعتادت على حياةِ الرهبنةِ فقد وجدت نفسها وهما تصعدان التل تتطلعُ قدماً إلى طقسِ غسلِ اليدين، وتناولِ الطعامِ في صمتٍ والخلود إلى النومِ عندَ هبوطِ الليلِ، بل وإلى السلامِ الذي يمنحهُ الاستيقاظ في الثالثةِ صباحاً من أجلِ صلاةِ الفجرِ، فبعدَ كلِّ ما مرت بهِ اليومَ شعرت أن الأمان الذي كانت تعدُ بهِ الجدران الرمادية للديرِ كان مغرياً جداً، ولذلكَ همزت الحصان بلاكي المُتعبَ ليخبَّ بشكلٍ أسرع.

وجدتا المكانَ هادئاً وما من حركةٍ في الجوارِ إلَّا أن هذا لم يكن مُفاجئاً، فقد كانَ الديرُ منزلاً صغيراً في قريةٍ، ولا يمكنُ للمرءِ أن يتوقع رؤيةَ حركةٍ نشيطةٍ فيه كما هو الحالُ في الأديرةِ الكبيرةِ كديرِ كينغزبريدج، ولكن وفي مثلِ هذا الوقتِ يجري إعدادُ وجبةِ العشاءِ، ولذلكَ لا بدَّ أن يكون هناكَ عمودُ دخانٍ متصاعدٍ من مدخنةِ المطبخِ، ومع اقترابِ كاريس من المكانِ كانت العلائم المنذرةُ بالشؤمِ تتزايدُ، وشيئاً فشيئاً خيَّمَ عليها شعورٌ بالقنوطِ، بدا المبنى الأقرب إليها الذي يُفترضُ أن يكونَ كنيسةً بلا سقفٍ، والنوافذُ مُخلّعة ومن دونِ مصاريع أو زجاجٍ، وبعضُ الجدرانِ الحجريَّةِ سوداء بسببِ دخانٍ ما.

خيَّمَ صمتٌ على المكانِ فلم تكن هناك أجراسٌ تقرع ولا نداء عاملين في الإسطبلِ أو مساعدين في المطبخ، وبينما كانت تشقُّ طريقها على جوادها أدركت كاريس في خيبةِ أملٍ أنَّ المكانَ مهجورٌ، وأنَّه أُحرقَ كبقيةِ المباني في القريةِ، ورغم أنَّ معظمَ الجدرانِ الحجريةِ ما زالت سليمةً فإن السقوفَ الخشبيةَ انهارت، والأبوابَ والأجزاء الخشبية الأخرى أُحرقت، وزجاج النوافذ تحطمَ بفعلِ حرارةِ النيرانِ.

قالت مير في عدمِ تصديقٍ: «لقد أضرموا النارَ في الديرِ؟»

بدت كاريس مصدومةً أيضاً فلطالما اعتقدت أنَّ الجيوشَ الغازيةَ على اختلافها لا تُدمر الأماكن الدينية، فهذهِ هي القاعدةُ الراسخةُ كما اعتادَ الناسُ القولَ، ولم يكن أيُّ قائدٍ عسكري ليترددَ في إعدامِ جندي يعتدي على مكانٍ مقدسٍ، كانت كاريس مقتنعةً بهذا ولم تساورها الشكوكُ قط حيالَ عدمِ صدقهِ: «ما أبعدَ هذا عن الشهامةِ!» قالت كاريس.

ترجّلَت كاريس ومير عن جواديهما وتجولتا في حذرٍ بينَ الدعائمِ المُحترقةِ والركامِ المُتفَحمِ باتجاهِ القسمِ المنزلي من الديرِ وعندما اقتربتا من بابِ المطبخِ صرخت مير قائلةً: «يا إلهي!! ما هذا؟»

وعلمت كاريس الجوابَ: إنَّها راهبةٌ ميتةٌ، وجدتا على الأرضِ جثةً عاريةً بشعرٍ مقصوصٍ وقصيرٍ، كانت الجثةُ قد نجت من الحريقِ بطريقةٍ ما، وبدا كأنَّه لم يمضِ على وفاتها سوى أسبوع فقد نهشت الطيورُ عينيها، وقضمَ أحدُ حيواناتِ الرِّمةِ أجزاءً من وجهها، كان ثدياها مقطوعين أيضاً.

قالت مير في ذهولٍ: «هل الإنكليز من قاموا بهذا؟»

«لم يكن الفرنسيون حتماً».

«هناك مقاتلون أجانب في جيشنا، أليسَ هذا صحيحاً؟ ويلزيون وألمان وما إلى هناك. ربما كانوا من فعلوا هذا».

«يخضع الجميعُ لأوامرِ الملكِ»، قالت كاريس في استنكارٍ كئيبٍ: «فهو من أحضرهم إلى هنا، ولذلك فهو من يتحملُ مسؤوليةَ ما يفعلهُ أولئكَ الجنود».

وبينما كانت كاريس ومير تحدقان إلى المنظرِ البشعِ خرجَ فأرٌ من فمِ الجثةِ فصرخت مير وابتعدت.

احتضنتها كاريس: «فلتهدئي»، قالت لها بحزمٍ وربتت على ظهرِها لتهدئتها: «هيا»، قالت كاريس بعدَ وهلةٍ: «لنغادر المكان».

عادتا إلى جواديهما وكاريس تقاومُ رغبتها بدفنِ جثةِ الراهبةِ الميتةِ، إن تأخرتا في إيجاد مكانٍ للمبيت فسيحلُّ الليلُ عليهما هنا، ولكن إلى أين ستذهبان؟ لقد خططتا لقضاءِ الليلةِ في الديرِ ولكن يبدو أنَّ هذا مستحيلٌ الآن: «سنعودُ إلى المرأةِ العجوزِ التي وجدناها تحتَ شجرةِ التفاحِ»، قالت كاريس: «إنَّ منزلها المنزلُ الوحيد السليم الذي رأيناهُ مُذ غادرنا كِين»، وحدَّقت كاريس إلى الشمسِ الغاربةِ: «إن حثثنا جوادينا سنصلُ هناكَ قبلَ هبوطِ الظلامِ».

حثتا جواديهما المتعبين على الركضِ وعادتا إلى الطريقِ الرئيسي، كانت الشمسُ تهبطُ بسرعةٍ كبيرةٍ وراءَ خطِ الأفقِ أمام أعينهما، وعندما وصلتا إلى المنزلِ بقربِ شجرةِ التفاحِ كانَ آخرُ شعاعٍ للشمسِ قد اختفى.

فرحت السيدةُ العجوز لرؤيتهما فقد توقعت منهما أن تشاركاها الطعامَ وهذا ما فعلته الراهبتان، وتناولن الطعامَ في الظلامِ، كانت المرأة العجوز تدعى جين، لم يشعلنَ ناراً؛ فالطقسُ كان معتدلاً والتحفنَ بالبطانياتِ جنباً إلى جنبٍ، لم تكن كاريس ومير تثقانِ جداً بمضيفتهما ولذلكَ تمسكتا بجرابيهما اللذين يحويانِ الطعام.

بقيت كاريس صاحيةً لبعضِ الوقتِ، كانت مسرورةً لأنَّهما تمكنتا من متابعةِ طريقهما بعدَ التأخير في بورتسماوث، ولإحرازهما تقدماً جيداً خلالَ اليومين الماضيين، كانت واثقةً من أنَّها لو عثرت على الأسقفِ ريتشارد فإنَّه سيُجبر غودوين على إعادةِ مالِ الراهباتِ، لم يكن ريتشارد مثالاً حيَّاً عن النزاهةِ، ولكنَّه شخصٌ منفتحٌ ويمكنهُ، بطريقتهِ اللامباليةِ، أن يُحققَ العدالةَ بأمانةٍ، لم يحصل غودوين يوماً على مرادهِ كاملاً حتَّى خلالَ محاكمةِ كاريس بتهمةِ السحرِ، ولهذا السببِ كانت واثقةً من أنَّها تستطيعُ إقناعَ ريتشارد بكتابةِ رسالةٍ إلى غودوين يطالبهُ فيها ببيعِ ممتلكاتٍ تابعةٍ للديرِ حتى يعيدَ المالَ المسروق.

على أيِّ حالٍ كانت كاريس الآن قلقةً حيالَ سلامتها وسلامةِ مير بعد أن تأكدت في دير أوبيتال دي سور من عدمِ صحةِ اعتقادها أنَّ الجنودَ يتركونَ الراهباتِ وشأنهن، واستنتجت أنَّها ومير ستحتاجان إلى التنكرِ لإخفاءِ هويتهما.

عندما استيقظت كاريس مع أوّلِ خيوطِ الفجرِ قالت للمرأةِ العجوزِ جين: «هل ما زلتِ تملكين شيئاً من ثيابِ حفيديكِ؟»

فتحت المرأةُ العجوزُ صندوقاً خشبياً وقالت: «خُذا ما أردتما من ثيابٍ، ليسَ لدي أحد لأعطيَه الثياب». وأخذت دلواً وذهبت لإحضارِ الماءِ.

بدأت كاريس تبحثُ بينَ الثيابِ في الصندوقِ، لم تطلب جين أيَّ مالٍ فلم يكن للثيابِ قيمةٌ ماليةٌ كبيرةٌ بعدَ موتِ هذا العددِ الكبيرِ من الناسِ.

«ما الذي تخططينَ لهُ؟» سألت مير.

«لم يعد السفرُ كراهبتين آمناً»، قالت كاريس، «سنتنكرُ كخادمين لأحدِ الأسيادِ، لنقل إنَّه السيد بيير من لونغتشامب في بريتاني، اسمُ بيير شائعٌ ولا بدَّ أنَّ هناك الكثير من الأماكن التي تدعى لونغتشامب، وسندعي أنَّ سيدنا وقعَ أسيراً بيدِ الإنكليز، وقد أرسلتنا زوجتهُ لإيجادهِ والتفاوضِ على فديتهِ».

«حسناً»، قالت مير بحماسٍ.

«كان غيل وجون في الرابعة عشرة والسادسة عشرة ولهذا، وبكثيرٍ من الحظِ، قد تناسبنا ثيابهما».

أخذت كاريس سترةً قصيرةً وسروالاً وعباءةً بقلنسوةٍ، كانت جميعها مصنوعةً من الصوفِ البنيِّ الكامد، عثرت مير على ثيابٍ مشابهةٍ ولكن باللونِ الأخضرِ وبأكمامٍ أقصر وقميصٍ داخلي، عادةً لا ترتدي النساءُ ملابسَ داخلية ولكن الرجالَ يفعلون، ولحسنِ الحظِ كانت جين قد غسلت، وبكلِّ محبةٍ، الثيابَ الداخليةَ لعائلتها الميتةَ، لم تخلع كاريس ومير حذاءيهما؛ فأحذيةُ الراهباتِ العمليَّةُ لا تختلفُ كثيراً عن الأحذيةِ التي ينتعلها الرجالُ.

خلعتا أرديةَ الراهباتِ التي كانتا ترتديانها، لم ترَ كاريس مير عاريةً من قبلِ، ولذلكَ لم تقاوم إغراءَ التلصص والنظرِ، كان جسدُ مير جميلاً جداً إلى درجةِ أنَّه يحبسُ الأنفاسَ، وتبدو بشرتها لامعةً كأنَّها لؤلؤةٌ ورديةٌ، وثدياها ريانان بحلمتين صغيرتين شاحبتين ودغلُ شعرٍ أشقر مترفٍ فوقَ عانتها، وفجأة غدت كاريس واعيةً أنَّ جسدها لم يكن بجمالِ جسدِ مير، فأشاحت بنظرها وعجَّلت بارتداءِ الثيابِ التي اختارتها.

وضعت كاريس القلنسوةَ فوقَ رأسها، وبدت العباءَةُ كثوبٍ نسائي باستثناء أنَّه يصلُ إلى الركبتين وليسَ إلى الكاحلين، ارتدت الثيابَ الداخليةَ والسروالَ ثمَّ انتعلت حذاءها وثبتت حزامها.

«كيفَ أبدو؟» سألتها مير.

أمعنت كاريس النظرَ إليها، ارتدت مير طاقيةً صبيانيةً وقد ربطت شعرها الأشقر تحت الطاقيةِ بشكلٍ مائلٍ، كانت تبتسمُ: «تبدينَ سعيدةً!» قالت لها كاريس متفاجئةً!

«لطالما أحببتُ ثيابَ الفتيانِ»، واختالت مير في الغرفةِ الصغيرةِ، «هذهِ هي

طريقتهم في المشي، يأخذون خطى أوسع مما يحتاجون»، كان تقليدُ مير لمشيةِ الفتيان دقيقاً جداً، ودفعَ هذا كاريس إلى الانفجارِ ضاحكةً.

ثمَّ فوجئت كاريس بخاطرٍ: «هل سنتبولُ واقفتين؟»

«يمكنني أن أتبولَ واقفةً ولكن من دونِ السروالِ فلن أصيبَ بدقةٍ».

ضحكت كاريس وقالت: «لا يمكننا أن نخلعَ السراويل فقد تكشفُ أيُّ نسمةٍ... غطاءنا».

ضحكت مير ثمَّ أخذت تحدقُ إلى كاريس بطريقةٍ غريبةٍ إلا أنَّها لم تكن غريبةً تماماً، كانت تتفحصُ كاريس من رأسها حتَّى أخمص قدميها ثمَّ نظرت وحدَّقت في عينيها ولفتت نظرها إلى حيثُ كانت تنظر.

«ما الذي تفعلينهُ؟» قالت كاريس.

«هذهِ هي الطريقةُ التي ينظر بها الرجالُ إلى النساءِ، ينظرون إلينا كأننا ملكٌ لهم، ولكن حاذري أن تنظري إلى رجلٍ بهذهِ الطريقةِ لأنَّه سيغدو عدوانياً».

«قد يكونُ الأمرُ أصعب مما تخيلت».

«أنتِ جميلةٌ جداً»، قالت مير: «ولا يحتاجُ وجهكُ إلا لبعضِ السخامِ»، توجهت مير إلى الموقدِ ولوثت يديها بالسخامِ ثمَّ لطخت وجهَ كاريس، كانت لمستها أشبهُ بمداعبةٍ، وفكرت كاريس في نفسها أنَّ وجهها لم يكن جميلاً البتةَ، وأنَّ ما من أحدٍ قالَ لها هذا باستثناءِ ميرثن بالطبع.

«لقد أكثرتُ من السخامِ»، قالت مير بعدَ دقيقةٍ ومسحتهُ قليلاً بيدها: «هذا أفضل»، ثمَّ لطخت يدي كاريس وقالت: «والآن افعلي الأمرَ عينهُ معي».

مسحت كاريس انحناءةَ فكِ ورقبةِ مير بالقليلِ من السخامِ لتبدو كأنَّها تملكُ لحيةً خفيفةً، وشعرت بحميميةٍ كبيرةٍ وهي تنظرُ إلى وجهِ مير وتلامسُ بشرتها الناعمة جداً، ثمَّ انتقلت إلى جبهتها ووجنتيها ولطختهما، ولم تعد مير تبدو كامرأة بل كفتى وسيم.

تفحصتا بعضهما بعضاً ثمَّ ارتسمت ابتسامةٌ على شفتي مير الجميلتين، وهنا انتابَ كاريس إحساسٌ بالترقبِ كأنَّ شيئاً ما كانَ على وشكِ الحدوثِ، ثمَّ سمعتا صوتاً يقول: «أينَ الراهبتان؟»

التفتتا معاً في حرجٍ، كانت جين تقفُ عندَ البابِ تحملُ دلواً ممتلئاً بالمياهِ العذبةِ والرعبُ مرتسمٌ على وجنتيها، «ما الذي فعلتماه للراهبتين؟» قالت جين.

وانفجرت كاريس ومير ضاحكتين وهنا ميزتهما العجوز: «كم تغيرتما!» قالت جين في عجبٍ.

شربتا بعضَ الماءِ ووزعت كاريس ما تبقى من السمكِ المدخنِ على الفطورِ، وبينما كنّ يأكلنَ فكرت كاريس أنَّ عدمَ تعرُّف جين عليهما إشارةٌ جيدةٌ، وأنهما وإن تصرفتا بحذرٍ فقد تنجوان من المخاطرِ خلالَ هذهِ المهمةِ.

ودَّعت كاريس ومير العجوزَ جين وركبتا جواديهما ثمَّ غادرتا، وبينما كانتا تصعدان المرتفعَ خارجَ قريةِ أوبيتال دي سور ارتفعت الشمسُ أمامهما تماماً، وألقت أشعةً حمراء على الديرِ فبدا حُطامُ المبنى كأنّه ما زال مشتعلاً، وخلال عبورهما القريةَ غذَّت كاريس ومير من عدو جواديهما وهما تحاولان عدمَ التفكير بجثةِ الراهبةِ المشوهةِ بين الأنقاضِ وتابعتا الطريقَ شرقاً.

-47-

بحلولِ الثلاثاءِ في الثاني والعشرين من شهرِ آب/ أغسطس بدأ الجيشُ الإنكليزي بالانسحابِ.

لم يفهم رالف فيتزجيرالد ما حدثَ حقاً فقد اكتسحَ الجيشُ الإنكليزي النورماندي من الغربِ إلى الشرقِ ونهبَ وحرقَ من دونِ أيّ مقاومةٍ. طوال هذا الوقتِ شعرَ رالف بأنّه في بيئتهِ المناسبةِ؛ هذهِ البيئة التي يمكنُ فيها للجندي أخذ أيِّ شيءٍ يريدهُ من طعامٍ ومجوهراتٍ ونساء ويستطيعُ قتلَ أيّ أحدٍ يقفُ في طريقهِ وبالنسبةِ إلى رالف كانت هذه هي الحياة التي يجبُ أن تُعاش.

احتلَّ الملكُ إدوارد الثالث مكانةً خاصةً في قلبِ رالف فقد كان رجلاً مُحباً للقتالِ وعندما لا يكون في خضمِّ حربٍ يقضي معظمَ وقتهِ في تنظيمِ مبارياتٍ مدروسةٍ ومعارك متخيلةٍ ومُكلفةٍ بجيوشٍ وفرسانٍ في أرديةٍ مصممةٍ لهذا الخصوصِ، ولم يفشل خلالَ هذهِ الحملةِ في إظهارِ استعدادٍ دائمٍ لقيادةِ هجومٍ أو فرقةِ إغارةٍ مخاطراً بحياتهِ دونَ التفكير، ولو لحظةً بالمخاطرِ والمكاسبِ كما يفعلُ تجارُ كينغزبريدج.

استهجنَ واحتجَّ كبارُ الفرسانِ والإيرلات في حاشيتِهِ على مواقف معينةٍ كالاغتصابِ الممنهجِ لنساءِ مدينةِ كين إلّا أنَّ إدوارد لم يلقِ بالاً لكلامهم، وعندما سمعَ أنَّ سكانَ كين يرمونَ الحجارةَ على جنودهِ في أثناء نهبِ منازلِ السكانِ أمرَ بقتلِ جميعِ من في المدينةِ، ولم يتراجعْ عن قرارهِ إلّا بعدَ احتجاجاتٍ حثيثةٍ من السير جيوفري دي هاركورت وآخرين غيره.

كانت الأمورُ قد بدأت تسوءُ عندما وصلوا إلى نهرِ السين، ففي مدينةِ رون

وجدوا الجسرَ مُدمَّراً والمدينة على الضفةِ البعيدةِ من النهرِ مُحصَّنةٌ جداً، وملكُ فرنسا فيليب السادس شخصياً مُرابضٌ هناك برفقةِ جيشٍ عظيمٍ.

زحفَ الإنكليز على طولِ النهرِ بحثاً عن نقطةٍ للعبورِ، ولكنهم اكتشفوا أنَّ فيلبي سبقهم وأمرَ بتدميرِ أو تعزيز تحصين الجسورِ، وصلوا في زحفهم إلى بواسيه التي لا تبعدُ عن باريس سوى عشرين ميلاً واعتقدَ رالف أنَّهم سيزحفون إلى العاصمةِ، ولكنَّ الرجالَ الأكبر عُمراً من رالف هزُّوا رؤوسهم بحكمةٍ وقالوا له إنَّ هذا مستحيلٌ، ففي باريس ما يقاربُ الخمسينَ ألفَ رجلٍ، ولا بدَّ أنَّ خبرَ ما حدثَ لمدينةِ كِين قد وصلهم، ولأنَّهم لا يتوقعون الرحمةَ من الإنكليز فقد جهزوا أنفسهم للقتالِ حتَّى الموتِ.

تساءلَ رالف في نفسهِ إن لم يكن الملك ينوي مهاجمةَ باريس فما هي خطتّه إذاً؟ ولكن إن كان هناك خطةٌ فلا أحد يعلمُ بها، وتوقعَ رالف أنَّ الملكَ لا يملكُ خطةً أخرى غير إحداث الدمار.

كانت مدينة بواسيه مهجورةً فقد تمَّ إجلاء جميع سكانها وبينما عملَ المهندسون الإنكليز على إصلاحِ جسرِ المدينةِ صدَّ الجيشُ الإنكليزي هجوماً لجيشٍ فرنسي ونجحَ أخيراً في قطعِ النهرِ.

بحلولِ ذلكَ الوقت اتضحَ أنَّ الملك فيلبي قد حشدَ جيشاً أضخمَ من الجيشِ الإنكليزي، ولذلكَ قررَ الملك إدوارد أن يتوجهَ شمالاً، بهدفِ الانضمامِ إلى القواتِ الأنغلوفلمنكية القادمة من الشمالِ الشرقي، وطاردَ الملك الفرنسي فيلبي الجيشَ الإنكليزي.

خيَّمَ الجيشُ الإنكليزي اليوم جنوبَ نهرٍ كبيرٍ آخر يدعى سوم حيثُ كررَ الفرنسيون الحيلةَ ذاتها التي قاموا بها على نهرِ السين، عادت فرقُ الهجومِ والكشَّافة بخبرِ أنَّ جميعَ الجسورِ على نهرِ سوم قد دُمرت، وأنَّ المدن المتاخمة للنهرِ قد حُصِّنت جيداً، وفي إشارةٍ تُنذرُ بالشؤمِ لمحَ فصيلٌ إنكليزي على الضفةِ القصيَّةِ من النهرِ علمَ أشهر وأشدِّ حلفاءِ فيلبي ترويعاً: جون الأعمى ملك بوهيميا.

كانَ الملكُ إدوارد قد بدأ حملتهُ بخمسة عشر ألفَ رجلٍ وخلال ستةِ أسابيع من الحملةِ سقطَ الكثير منهم، وفرَّ آخرون عائدون إلى الوطنِ بجرار مليئةٍ بالذهبِ، أحصى رالف عددَ من بقي ووجدَ أنهم يبلغون عشرةَ آلاف رجلٍ، ووصلتهم تقارير من الجواسيس تفيدُ أنَّ فيليب قد حشدَ ستين ألفاً من

المشاةِ، واثني عشرَ ألفَ فارسٍ مع الجيادِ في مدينةِ آميه التي لا تبعدُ سوى بضعةِ أميالٍ على طولِ النهرِ، وهذا يعني أن الفرنسيين متفوقون بالعددِ على الجيشِ الإنكليزي، وبات رالف الآن أكثرَ قلقاً مما كانَ عليهِ عندما نزلوا في النورماندي، كانوا الآن في ورطةٍ حقيقيةٍ.

وفي اليومِ التالي زحفَ الجيشُ إلى أبفيل حيث يوجد جسر آخر قبلَ أن يتسعَ حوض النهرِ عندَ مصبهِ، كانَ سكانُ المدينةِ قد أنفقوا المالَ لسنواتٍ على تعزيزِ حصانةِ أسوارِ المدينةِ ورأى الإنكليز أنَّ هذهِ الأسوار كانت منيعةً، وفي حركةٍ تنمُّ عن ثقةٍ كبيرةٍ أرسلَ مواطنو المدينةِ قوة كبيرة من الفرسانِ لمهاجمةِ طليعةِ الجيشِ الإنكليزي، ووقعت مناوشةٌ شرسةٌ انسحبَ بعدها السكانُ المحليون إلى داخلِ المدينةِ المسوَّرةِ.

عندما غادرَ جيشُ فيلبي آميه وبدأ بالتقدمِ جنوباً وجدَ إدوارد نفسهُ محاصراً في ما يشبهُ رأساً مثلّثاً، على يمينهِ مصبُّ النهرِ وعلى يسارهِ البحرُ، وخلفهُ الجيشُ الفرنسي اللاهث وراءَ الانتقامِ من الغزاةِ البرابرةِ.

في عصرِ ذلكَ اليومِ ذهبَ الإيرل رولاند لرؤيةِ رالف.

حاربَ رالف مع حاشيةِ الإيرلِ رولاند لسبعِ سنواتٍ ولم يعد الإيرل يعتبره صبياً غرّاً، ورغم الانطباع الذي يعطيهِ رولاند بأنّه لا يستلطف رالف، فإنَّه كانَ يحترمُهُ بلا أدنى شكٍّ ويستعينُ بهِ لدعمِ نقاط الضعف في الفيلقِ، أو لقيادةِ هجومٍ أو تنظيمِ غارةٍ. كانَ رالف قد فقدَ ثلاثةَ أصابع من يدهِ اليسرى وعندما يتعبُ يعرجُ في مشيتهِ بسببِ إصابةٍ في عمودهِ الفقري من رمّاح فرنسي خارج نانيت في عام 1342، ولكن الملك حتّى الآن لم يقم بترقيةِ رالف إلى مرتبةِ فارسٍ وأثارَ هذا في رالف شعوراً مريراً بالاستياءِ، وعلى الرغمِ من كلِّ الغنائمِ التي كسبها وأودعها في أمانٍ لدى صائغٍ لندني فإنَّه لم يشعر أنَّه أنجزَ شيئاً، كان يعلمُ أنَّ والدهُ لن يكونَ راضياً عن هذا أيضاً؛ فقد كان رالف مثلَ والدِهِ جيرالد يقاتلُ من أجلِ الشرفِ وليس المال، وها هو حتى الآن لم يرتقِ درجةً واحدةً على سُلمِ النبالةِ.

عندما وصلَ رولاند وجدَ رالف جالساً في حقلِ قمحٍ ناضجٍ سوتهُ أقدامُ الجنودِ بالأرضِ، وبرفقةِ آلان فيرنهيل ومجموعةٍ من الرفاقِ يتناولونَ غداءً تعساً مؤلفاً من حساءِ البازلاء والبصلِ، فقد كانت مؤونةُ الطعامِ بدأت تنفد، ولم يتبقَ لديهم أيُّ لحمٍ، وكبقيةِ الجنودِ نال التعبُ من رالف بسببِ الزحفِ المستمرِ

وتراجعت معنوياتُه بسببِ تكرارِ مشاهدِ الجسورِ المُدمَّرة والمدنِ المُحصَّنةِ جيداً وشعرَ بالخوفِ مما قد يحدث عندَ مواجهةِ الجيشِ الفرنسي.

كانَ الإيرل رولاند الآن قد أصبحَ رجلاً عجوزاً بشعرٍ ولحيةٍ رماديين إلّا أنّه ما زالَ يسيرُ بقامةٍ مرفوعةٍ ويتحدثُ بلهجةٍ سلطويةٍ، ولأنّه تعلَّمَ كيفَ يحافظُ على حياديةِ تعابيرِ وجههِ لذلكَ بالكادِ لاحظ الناسُ شللَ القسمِ الأيمنِ من وجههِ، قال رولاند لرالف: «يتأثرُ مصبُ النهرِ بحركةِ المدِّ والجزرِ؛ فأثناء الجزر يغدو الماءُ في بعضِ الأماكنِ ضحلاً إلّا أنَّ وحلَ القاعِ سميكٌ وهذا يعني أنَّ عبورَهُ غيرُ ممكنٍ».

«إذاً، لا يمكننا العبور»، قال رالف ولأنّه يعرف أنَّ رولاند لم يأتِ إليهِ ليطلعهُ على الأخبار السيئةِ شعرَ بالتفاؤلِ وبمعنوياتهِ ترتفعُ.

«قد يكون هناك نقطةٌ للعبورِ حيثُ قاعُ النهرِ أكثرُ صلابةً»، قال رولاند وتابع كلامه: «وفي حال كان لمثلِ هذهِ النقطةِ وجود فلا بدَّ أنَّ الفرنسيين يعلمونَ بأمرها».

«وأنتَ تريدُ أن تتأكد من هذا».

«بأسرعِ ما يمكنكَ، هناكَ بعضُ السجناءِ في الحقلِ المجاورِ»، هزَّ رالف رأسهُ وقال: «قد يكون أولئكَ الجنودُ من أيِّ مكانٍ في فرنسا أو حتّى من بلدانٍ أخرى، لن يعرفَ بهذا الأمرِ سوى السكانِ المحليين».

«لا يهمني من تستجوب، فلتعد إلى خيمةِ الملكِ حاملاً الجوابَ عند هبوطِ الظلامِ»، قال رولاند وابتعدَ.

أفرغَ رالف صحنهُ ونهضَ على قدميهِ سعيداً لأنَّ لديهِ عملاً عنيفاً ليقومَ بهِ.

«أسرجوا خيولكم أيُّها الفتيةُ»، قال رالف لرفاقهِ.

ما زالَ الجوادُ غريف على قيدِ الحياةِ، لقد نجا بشكلٍ عجائبي من حربٍ دامت لسبعِ سنواتٍ، ورغمَ صغرِ حجمِ غريف مقارنةً بجيادِ الحربِ فإنّه كان أكثر نشاطاً من تلكَ الجياد الضخمةِ التي يفضلها معظمُ الفرسانِ، وها هو غريف قد أصبحَ خبيراً بالمعاركِ، وكانت حوافره بحدواتها الحديديةِ سلاحاً إضافياً من أسلحةِ رالف أثناءَ القتالِ، أحبَّ رالف حصانهُ أكثرَ مما أحبَّ رفاقهُ البشريين، وفي الحقيقةِ كانَ البشري الوحيد الذي شعرَ رالف بالقربِ منهُ هو شقيقهُ ميرثن الذي لم يرهُ منذُ سبعِ سنواتٍ، وقد لا يراه مجدداً لأنَّ ميرثن يعيشُ الآن في فلورنسا.

انطلقت المجموعةُ باتجاهِ الشمال الشرقي، وقدَّرَ رالف أنَّ جميعَ الفلاحين ممن يعيشون على مسافةِ مسيرِ نصفِ يومٍ من المنطقةِ يعلمونَ بوجودِ أو عدمِ وجودِ نقطةِ عبورٍ عبرَ النهرِ، وأنَّهم يستخدمونها بشكلٍ مستمرٍ من أجلِ شراءِ وبيعِ الماشيةِ وحضورِ حفلاتِ الزفافِ وجنازاتِ الأقاربِ أو للذهابِ إلى الأسواقِ والمعارضِ والاحتفالاتِ الدينيةِ، لا بدَّ أنهم سيترددون في تقديمِ معلوماتٍ إلى الغزاةِ الإنكليز، ولكنَّه يعرفُ حلاً لهذهِ المشكلةِ.

ابتعدت المجموعةُ عن الجيشِ ودخلت إلى منطقةٍ لم تتأثر بعد بوصولِ آلافِ الرجال حيثُ الخرافُ ما زالت ترعى والمحاصيل تنضجُ في الحقولِ. وصلوا إلى إحدى القرى وبدا لهم مصبُّ النهرِ بعيداً فهمزوا أحصنتهم لتسرعَ العدو على الطريقِ المعشوشبِ باتجاهِ القريةِ، عندما رأى رالف أكواخَ الوكلاءِ المؤلفة من غرفةٍ أو غرفتين تذكرَ ويغلي، وكما توقّعَ رالف تماماً، كانَ الفلاحون قد هربوا في جميعِ الاتجاهاتِ، وحملت النساءُ الرضعَ والأطفالَ بينما حملَ الرجالُ فؤوساً ومناجل.

خلالَ الأسابيعِ القليلةِ الماضية لعبَ رالف ورفاقهُ مثلَ هذهِ المسرحيةِ عشرينَ أو ثلاثينَ مرةً فقد كانوا مختصين في جمعِ المعلوماتِ، عادةً، يُرسلُ قادةُ الجيشِ فرقاً لمعرفةِ المكان الذي يُخبئ فيهِ السكانُ المحليون مواشيهم، ولكن عندما سمعَ الفلاحون الخُبثاء بوصولِ الإنكليز خبؤوا قطعان الخرافِ في الغاباتِ، وطمروا أكياسَ الطحينِ في حفرٍ تحت الأرضِ، ووضعوا حُزمَ الشعيرِ في برجِ الكنيسةِ، كانوا يعلمون أنّهم سيتضورونَ جوعاً إن أفصحوا عن مخابئ طعامهم، ولكنهم عاجلاً أم آجلاً يرضخون ويفصحون، وفي مناسباتٍ أخرى يحتاجُ الجيشُ إلى معرفةِ اتجاهِ أماكن معينة كبلدةٍ مهمةٍ أو جسرٍ استراتيجي أو كنيسةٍ محصنةٍ، وعادةً ما كانَ الفلاحونَ يجيبون عن هذهِ الاستفساراتِ دونَ أدنى ترددٍ، ولكن كان التأكدُ من أنَّ الفلاحين لا يكذبون أمراً لازماً ضرورياً، فقد يحاولُ الدهاةُ منهم خداعَ الجيشِ الغازي لعلمهم أنَّ الجنود غيرُ قادرين على العودةِ ومعاقبتهم.

وعندما يلاحق رالف ورجالهُ الفلاحين الهاربين عبرَ الحدائقِ والحقولِ كانوا يتجاهلونَ الرجالَ، ويركزونَ على النساءِ والأطفالِ، إذ يعرفُ رالف أنَّ الإمساكَ بهؤلاءِ كفيلٌ بإعادةِ الأزواجِ والآباءِ.

أمسكَ رالف بفتاةٍ في الثالثة عشرة ولاحقها بجوادهِ لبرهةٍ وهو يراقبُ تعبيرَ

الارتياعِ المرسوم على وجهها. كانت فتاةً سمراء بشعرٍ داكنٍ وملامحَ عاديةٍ، وشابةً بجسدٍ أنثوي مكورٍ، كان هذا نوعهُ المفضل وذكرتهُ بغويندا، ولو أنّه كان في ظرفٍ مختلفٍ، لكانَ تمتعَ بها جنسياً كما فعلَ مع العديدِ من الفتياتِ المشابهاتِ لها على مدارِ الأسابيع القليلةِ الماضيةِ.

ولكن رالف اليومَ لديهِ أولوياتٌ أخرى، أدارَ رالف حصانهُ غريف ليقطعَ عليها الطريقَ فحاولت أن تتفاداه إلا أنّها تعثرت وسقطت على وجهها فوقَ رقعةٍ مزروعةٍ بالخضارِ، فقفزَ رالف عن حصانهِ وأمسكَ بها وهي تنهضُ على قدميها، صرخَت الفتاة وأخذت تخدشُ وجههُ فلكمها على بطنها لتهدئتها ثمَّ أمسكها من شعرِها الطويل، أمسكَ رالف بلجامِ حصانهِ وسارَ وهو يجرُّها عائداً إلى القريةِ، تعثرت الفتاةُ وسقطت، ولكنَّ رالف لم يتوقف عن جرِّها من شعرها، جاهدت لتسيرَ على قدميها وهي تصرخُ من الألمِ لتنجح أخيراً في السيرِ وراءه من دون السقوطِ أرضاً.

اجتمعوا في الكنيسةِ الخشبيةِ الصغيرةِ، كانَ الجنودُ الإنكليز قد أسروا أربعَ نساءٍ وأربعةَ أطفالٍ ورضيعين، وأجبروا الجميع على الجلوسِ أرضاً أمامَ المذبحِ، وبعدَ بضعِ دقائق دخلَ رجلٌ راكضاً وهو يهذي بفرنسيةٍ محليةٍ وبدأ يستجدي ويلتمس ثمَّ دخلَ أربعةُ رجالٍ آخرين، ملأ هذا المشهد قلبَ رالف بالسرور.

وقفَ رالف عندَ المذبحِ الذي كانَ عبارةً عن طاولةٍ خشبيةٍ مطليَّةٍ باللونِ الأبيضِ: «هدوء!» صرخَ ملوحاً بسيفه، صمتَ الجميعُ ثمَّ أشارَ رالف إلى شابٍ وقال له: «أنتَ»، وتابعَ قائلاً: «ما هو عملكَ؟»

«أعملُ في صُنعِ الجلودِ يا سيدي، من فضلكَ لا تؤذي زوجتي وطفلي فهما لم يرتكبا أيَّ ذنبٍ»، ثمَّ أشارَ رالف إلى رجلٍ آخر وقال: «وأنتَ؟»

شهقت الفتاةُ التي كانَ رالف قد جرَّها من شعرِها، وتكهنَ أنهما قريبان وقد يكون الرجلُ والدها.

«أنا راعي مواشٍ فقير يا سيدي».

«راعي مواش؟» وفكرَ رالف أنَّ هذا أمرٌ جيدٌ، «وما هو عدد المرَّات التي تعبرُ بماشيتكَ النهرَ إلى الضفةِ الأخرى؟»

«مرَّةً أو مرتين في العامِ يا سيدي عندما أذهب إلى السوقِ».

«وأين تقعُ نقطةُ العبورِ؟»

ترددَ الرجلُ، «نقطةُ عبورٍ؟ لا توجدُ نقطةُ عبورٍ فنحنُ نقطعُ النهرَ على الجسرِ عندَ أبفيل».

«هل أنتَ واثقٌ من هذا؟»

«أجل يا سيدي».

نظرَ رالف حولهُ وقال: «أنتم جميعاً... هل يقولُ الرجلُ الحقيقةَ؟»

أومأ الجميعُ برؤوسهم.

وأخذَ رالف يفكرُ أنهم كانوا خائفين، بل مرعوبين، إلّا أنّهم قد يكذبون: «إنَّ أحضرتُ كاهناً ومعهُ إنجيل هل ستقسمونَ بأوراحكم الفانيةِ على عدمِ وجودِ نقطةِ عبورٍ عبرَ المصبِّ؟»

«أجل يا سيدي».

ولكن إحضار كاهنٍ سيأخذُ وقتاً طويلاً، نظرَ رالف إلى الفتاةِ التي أسرَها وقالَ: «تعالي إلى هنا»، تراجعت الفتاةُ إلى الوراءِ.

سقطَ راعي المواشي على ركبتيهِ وقالَ: «من فضلكَ يا سيدي لا تؤذي طفلة بريئة، إنَّها في الثالثة عشرة...»

حملَ آلان فيرنهيل الفتاةَ كأنّها كيسٌ من البصلِ، ورماها أمامَ رالف الذي أمسكَ بها ورفعها.

«أنتم جميعاً كاذبون، هناكَ نقطةُ عبورٍ وأنا واثقٌ من هذا، أريدُ فقط أن أعرفَ أينَ تقع».

«حسناً»، قال راعي المواشي. «سأخبركَ ولكن اتركْ الطفلةَ وشأنها».

«أينَ نقطةُ العبورِ؟»

«إنَّها على بعدِ ميلٍ من أبفيل أسفلَ مجرى النهر».

«ما اسمُ القريةِ؟»

بدا الراعي لوهلةٍ مذهولاً بالسؤالِ ثمَّ قالَ: «لا توجدُ قريةٌ ولكن تستطيعُ رؤيةَ نُزلٍ على الضفةِ الأخرى من النهرِ».

كانَ الرجلُ يكذبُ فلو أنّه يسافر لأدركَ أنَّ قربَ مناطق عبورِ النهر هناك قرى على الدوام.

أمسكَ رالف بيدِ الفتاةِ ووضعها على المذبحِ ثمَّ سحبَ خنجرهُ وبحركةٍ سريعةٍ قطعَ إصبعاً من أصابعها، اخترقَ النصلُ الثقيلُ عظامها وصرخت الفتاةُ

من الألمِ، ولطّخَ دمها الأحمر المذبحَ الأبيض، صرخَ جميعُ الفلاحين في هلعٍ وتقدَّمَ الراعي في غضبٍ، إلَّا أنَ سيفَ آلان فيرنهيل أوقفهُ.

تابعَ رالف تثبيتَ يدِ الفتاةِ بيدٍ واحدةٍ ورفعَ الإصبعَ المقطوعة بنهايةِ نصلِ خنجرِهِ.

«أنتَ شيطانٌ»: قالَ الراعي وهو يرتعشُ من الصدمةِ.

«لا، لستُ كذلكَ»، على الرغم من سماعِ رالف لهذا الاتهام مسبقاً فإنّه كان يتضايق في كلِّ مرّةٍ. «أنا أنقذُ حياةَ آلافِ الرجالِ»، قال رالف ثمَّ تابع: «وسأفعلُ هذا حتَّى وإن تطلَّبَ الأمرُ مني قطعَ جميعِ أصابعها، الواحدَة تلوَ الأخرى».

«لا، لا!»

«إذاً، أخبرني أينَ تقعُ نقطةُ العبورِ بالضبط»، قالَ رالف ملوحاً بخنجرِهِ.

وصرخَ الراعي: «بلانشوتيك يدعى المكانُ بلانشوتيك، من فضلكِ دعها وشأنها!»

«بلانشوتيك؟» قال رالف وهو يتظاهر أنَّه يشككُ في صحةِ ما سمعهُ رغمَ أنّه رأى فيهِ جواباً واعداً، كانَ الاسمُ غريباً، ولكنه بدا كأنّه يعني منصةً بيضاء ولا يمكنُ لرجلٍ خائفٍ أن يرتجلَ مثلَ هذا الأمرِ.

«أجل يا سيدي، يطلقونَ عليها هذا الاسم بسببِ الحجارةِ البيضاء في قاعِ النهرِ التي ستمكنكَ من عبورِهِ دونَ الخوضِ في الوحلِ». كانَ الرجلُ في حالةِ صدمةٍ والدموعُ تنحدرُ على وجههِ وفكرَ رالف في رضا، أنَّ هذا يعني أنّه يقولُ الحقيقةَ، وتابعَ الرجلُ كلامهُ غير المفهومِ قائلاً: «يقولُ الناس إنَّ الرومان في العصرِ القديمِ هم من رصفوا الحجارةَ، من فضلكَ اتركْ ابنتي».

«أين يقعُ المكان؟»

«على بعدِ عشرةِ أميالٍ من أبفيل أسفلَ النهرِ».

«ليس على بعدِ ميلٍ؟»

«أنا أخبركَ بالحقيقةِ هذهِ المرة يا سيدي على أملِ أن تتركَ ابنتي!»

«وما اسم القريةِ؟»

«سينوفيل».

«هل عبورُ النقطةِ متاحٌ دوماً أو عندَ الجزرِ فقط؟»

«فقط عندَ الجزرِ يا سيدي خاصةً لعبورِ الدواب والعرباتِ».

«وأنتَ تعرفُ الفرقَ بين المدِّ والجزرِ».

«أجل».

«والآن لم يعد لدي سوى سؤالٍ واحدٍ وهو سؤالٌ مهمٌ جداً وإن شككتُ بأنكَ تكذبُ عليَّ فسأقطعُ يدها كلها».

صرخت الفتاةُ لدى سماعها بهذا وقال رالف: «أنتَ تدركُ أنني أعني ما أقولهُ، صحيح؟»

«أجل ياسيدي، سأخبركَ بأيِّ شيءٍ تريدهُ!»

«متى سيكونُ الجزرُ غداً؟»

علَت نظرةُ هلعٍ وجهَ الراعي: «آه.. أوه.. دعني أفكرَ!» كانَ الرجلُ في حالةٍ مزريةٍ جداً وبالكادِ يستطيعُ التفكير.

قال العاملُ في صناعةِ الجلودِ: «سأخبركَ أنا لأنَّ أخي عبرَ البارحةَ ولذلكَ أعرفُ التوقيت بالضبط. سيحدثُ الجزرُ غداً في منتصفِ الصباحِ أيِ قبلَ ساعتين من فترةِ الظهرِ».

«أجل»، قال الراعي.

«هذا صحيح! كنتُ أقومُ بحسابِ الفترةِ، منتصفَ الصباحِ أو بعدَهُ بقليلٍ، ومن ثمَّ في المساءِ مجدداً».

استمرَّ رالف بتثبيتِ يدِ الفتاةِ التي كانت تنزفُ، وقالَ: «إلى أيِّ درجةٍ أنتَ واثقٌ من صحةِ هذا الكلام؟»

«أوه يا سيدي، أنا واثقٌ من هذا كثقتي أنني أعرفُ اسمي، أقسم لكَ!»

من المرجحِ أن الرجل قد نسي اسمَهُ في هذهِ الأثناءِ فقد كانَ مضطرباً جداً من شدةِ الرعبِ، نظرَ رالف إلى العاملِ في صناعةِ الجلودِ، ولم يرَ على وجههِ أيّ علامةٍ على الخداعِ أو التحدي أو التوقِ إلى الإرضاءِ، بل بدا خجلاً من نفسهِ بعضَ الشيءِ كأنَّه أُجبرَ على فعلِ أمرٍ خاطئٍ، وابتهجَ رالف سرّاً لأنَّه حصلَ على جوابٍ وأنجزَ المهمةَ.

قال رالف: «بلانشوتيك على بعدِ عشرةِ أميالٍ من أبفيل أسفلَ مجرى النهرِ في قريةٍ تدعى سينوفيل وهناك حجارةٌ بيضاء في قاعِ النهرِ. سيحدثُ الجزرُ غداً في منتصفِ الصباحِ».

«أجل يا سيدي».

تركَ رالف معصمَ الفتاةِ فركضت باكيةً نحو والدها الذي ضمَّها بينَ ذراعيهِ.
نظرَ رالف إلى بركةِ الدماءِ على طاولةِ المذبحِ البيضاء؛ لقد نزفت الفتاةُ بشدَّةٍ رغمَ أنَّها كانت نحيلةً.

«حسناً أيُّها الرجال»، قال رالف وأضاف: «لقد انتهى عملنا هنا».

***

مع بزوغِ أولِ شعاعٍ للفجرِ استيقظَ رالف على صوتِ الأبواقِ. لم يكن هناك متسعٌ من الوقتِ لإضرامِ نارٍ وتحضيرِ الفطورِ فالجيشُ أزالَ المعسكر وعلى عشرةِ آلافِ رجلٍ المسير لستةِ أميال بحلولِ منتصفِ الصباحِ ومعظمهم سيسير على الأقدام.

قادَ فيلقُ أميرُ ويلز المسير ولحقَ بهِ فيلقُ الملكِ وقافلةُ الأمتعةِ وأخيراً جنودُ المؤخرةِ، وأُرسلت فرقُ الكشَّافةِ لاستطلاعِ تقدّمِ الجيشِ الفرنسي. تحرَّكَ رالف في الطليعةِ مع الأمير إدوارد ابن الملكِ الحالي والبالغ من العمرِ ستةَ عشرَ عاماً.

كانوا يأملون مفاجأةَ الفرنسيين من خلالِ عبورِ منفذِ النهرِ.

في الليلةِ السابقةِ قال الملكُ لرالف: «أحسنتَ عملاً يا رالف فيتزجيرالد»، ولكن رالف يعلمُ ومنذُ أمدٍ بعيدٍ أنَّ مثلَ هذهِ الكلمات لا تعني شيئاً فقد قامَ بالكثيرِ من المهامِ المفيدةِ والشجاعةِ لمصلحة الملكِ إدوراد والإيرل رولاند ونبلاء آخرين إلّاَ أنّه لم يصبح فارساً بعد ولكن رالف اليوم لم يشعر باستياءٍ كبيرٍ فقد كانت حياتهُ هو في خطرٍ كبيرٍ كما هي على الدوامِ، ولذلكَ كانَ سعيداً لإيجادِ مخرجٍ لنفسهِ، وبالكادِ كان مهتماً بالحصولِ على اعترافِ أحدٍ أنّه أنقذَ جيشاً كاملاً.

وخلالَ مسيرِ الجيشِ تجوّلَ عددٌ من المارشالات ومساعديهم باستمرارٍ للحفاظ على المسير في الاتجاهِ الصحيح وعلى تماسكِ التشكيلةِ وعلى تباعدِ الفيالقِ ولحثِّ المتخلفينِ للعودةِ إلى الصفوفِ. كانَ جميع المارشالاتِ من النبلاءِ ولذلك يملكون سلطةَ إلقاءِ الأوامرِ فقد كان الملكُ إدوارد متشدداً جداً حيالَ مسألةِ الحفاظِ على النظامِ خلالَ المسيرِ.

توجهوا شمالاً حيث سترتفع الأرضُ بشكلٍ بسيطٍ وتمنحهم إطلالةً عاليةً على مصبِ النهرِ، ومن هناك عبروا حقولَ الذرةِ والقرى بينما حرصَ المارشلات على عدمِ وقوعِ أعمالِ نهبٍ لأنَّ هذا يعني أنّهم سيحملونَ متاعاً

إضافياً عبرَ النهرِ، وامتنعوا أيضاً عن إضرامِ النيران في المحاصيلِ خوفاً من أن يكشفَ الدخانُ موقعهم للعدو.

كانت الشمسُ قد بدأت تبزغُ عندما وصلَ الجيشُ إلى سينوفيل، تقعُ القريةُ على جرفٍ يرتفعُ عن النهرِ ثلاثين قدماً، ومن الضفةِ ألقى رالف نظرةً على العائقِ العظيمِ أمامهم، هناك ما يُقاربُ ميلاً ونصف الميلِ من المياهِ والمستنقعاتِ، ورأى نقطةَ العبورِ بحجارتها البيضاء المرصوفةِ في القاعِ، على الجانبِ الآخرِ من المصبِ هناك هضبةٌ معشوشبةٌ، وعندما بزغت الشمسُ إلى يمينِهِ رأى على التلِّ البعيدِ بريقاً معدنياً وألواناً متلألئةً فشعرَ بالخيبةِ تغمرُ قلبهُ.

عندما رأى هذا اللمعان ترسّخت مخاوفهُ؛ لقد كان الجيشُ الفرنسي بانتظارهم، يعلمُ الفرنسيون بمكانِ منفذِ النهرِ، ولا بدَّ أنَّ قائداً حكيماً بينهم أشارَ إلى احتماليةِ اكتشافِ الإنكليز لأمرِهِ، وقعَ الأمرُ على الجيشِ الإنكليزي كالمفاجأةِ.

نظرَ رالف إلى المياهِ وهي تتدفقُ جنوباً وتكشفُ عن حركةِ الجزرِ، كانت ما تزالُ عميقةً جداً على خوضِ الرجالِ فيها ولهذا كان عليهم الانتظار.

تابعَ الجيشُ الإنكليزي الاحتشادَ عندَ الضفةِ مع استمرارِ تدفقِ مئاتِ الجنودِ، إن حاولَ الملكُ الآن الاستدارةَ والعودة بالجيشِ فستعمُّ فوضى أشبه بكابوسٍ.

عادَ أحدُ الكشافةِ وأصغَى رالف إلى الأخبارِ التي قُدمت إلى أمير ويلز، كانَ جيشُ الملكِ فيليب قد تركَ أبفيل وتقدَّمَ باتجاهِ هذهِ الضفةِ من النهرِ، أُرسلَ كشافٌ آخر لمعرفةِ سُرعةِ تقدُّم الجيشِ الفرنسي، وأدركَ رالف في رعبٍ أنَّه ما من سبيلٍ للاستدارةِ والعودةِ الآن، ولم يكن أمامَ الإنكليز طريقٌ آخر غير عبورِ النهرِ.

تفحّصَ رالف الجانبَ الآخر في محاولةٍ لتقديرِ عددِ الفرنسيين على الضَّفةِ الشماليةِ، ورأى أنَّ العددَ يفوقُ الألفَ رجلٍ إلَّا أنَّ الخطرَ الحقيقي كان في عشرات الآلافِ القادمين من أبفيل، كان رالف قد تعلَّمَ بعدَ مواجهاتٍ عديدةٍ مع الفرنسيين أنَّهم مقاتلون شجعان بشكلٍ مذهلٍ، ومتهورون في بعضِ الأحيانِ وأنَّهم غير منضبطين أيضاً، كانوا يزحفونَ بشكلٍ فوضوي ويعصونَ الأوامرَ وأحياناً يهاجمون ليثبتوا بسالتهم في الحينِ الذي يكونُ فيهِ من الحكمةِ التروي، ولكنهم قد يتغلبون على عاداتهم الفوضويةِ، ويصلونَ إلى هنا خلال بضعِ

ساعاتٍ، ويطوقونَ جيشَ الملكِ إدوارد وهو يعبرُ النهرَ؛ كانَ تطويقُ الأعداءِ للجهتين كفيلٌ بإبادةِ الإنكليز.

وبعدَ الدمارِ الذي ألحقُه الإنكليز بهم خلالَ الأسابيعِ الستةِ الماضيةِ لا يمكن للإنكليز أن يتوقعوا منهم أيّ رحمةٍ.

وهنا أخذَ رالف يُفكرُ بدرعِه، إذ كان يملكُ درعاً ممتازاً سرقهُ من جندي فرنسي ميتٍ في كامبري منذُ سبعِ سنواتٍ، إلّا أنَّ الدرعَ كانَ بينَ الأمتعةِ، علاوةً على هذا لم يكن واثقاً من قدرتهِ على الخوضِ في المياهِ لمسافةِ ميلٍ حاملاً الدرعَ الثقيل، ارتدى عباءةً معدنيةً وغطاءَ رأسٍ قصيراً من الزردِ، كان هذا أقصى ما يستطيعُ ارتداءهُ أثناءِ المسيرِ وهو كافٍ ويفي بالغرضِ، ارتدى الآخرون وسائلَ حمايةٍ خفيفةً، وثبّتَ معظمُ جنودِ المشاةِ خوذهم إلى أحزمتهم فهم سيرتدونها حالما يصبحون في نطاقِ العدو لا أحد يزحفُ مرتدياً درعهُ بالكاملِ.

ارتفعت الشمس عالياً من جهةِ الشرقِ وتراجعَ منسوبُ المياهِ إلى مستوى الركبتين. وصلَ النبلاءُ من حاشيةِ الملكِ مع أوامر ببدءِ العبورِ، كانَ ويليام ابن الإيرل رولاند من أوصلَ التعليماتِ إلى فيلقِ رالف.

«فليتقدم الرُماةُ أولاً وليبدؤوا بإطلاقِ السهامِ حالما يصبحون قريبين كفايةً من الجانبِ الآخر»، قال لهم ويليام، نظرَ رالف إلى ويليام ببرودٍ فهو لم يسامحهُ بعد على محاولتهِ شنقِهِ بسببِ أمرٍ كانَ الجيشُ الإنكليزي يقومُ بهِ على مدارِ الأسابيعِ الستةِ الماضيةِ.

«وعندما تصلونَ إلى الشاطئ فليبتعد الرماةُ يمنة ويسرة ويفسحوا المجالَ أمامَ الفرسانِ والجنودِ». وفكرَ رالف أنَّ الأوامر تبدو بسيطةً دوماً إلّا أنَّ الأمور تصبح دمويةً في نهايةِ المطافِ، إن موقعَ الأعداءِ على مرتفعٍ من النهرِ مثالي لاصطيادِ الجنودِ الإنكليز الذين يخوضون مياه النهر من دونِ حمايةٍ.

تقدَّمَ رجالُ هيو ديسبنسر حاملين أعلاماً سوداء وبيضاء، خاضَ رماتهُ في المياهِ رافعين أقواسهم فوقَ سطحِ الماءِ وتحرَّكَ الفرسانُ والجنودُ من ورائهم، لحقَ بهم رجالُ رولاند وسرعانَ ما أصبحَ رالف وآلان وجواداهما في النهرِ.

لم تكن مسافةُ ميلٍ ونصفٍ بالمسافةِ الطويلةِ إلّا أنَّ رالف أدركَ الآنَ أنّها طويلةٌ إن خاضها المرءُ في المياه وهي كذلكَ حتّى بالنسبةِ للجيادِ، اضطروا للسيرِ أحياناً في سُبخاتٍ وفي أماكنِ أخرى وصلت المياهُ إلى مستوى الخصرِ،

أصيبت الحيواناتُ والرجالُ بالتعبِ بسببِ أشعةِ شمسِ شهرِ آب/ أغسطس العموديةِ على رؤسهم وتخدرت أقدامهم من الماءِ الباردِ، كانوا ينظرون طوالَ الوقتِ إلى الأمامِ وهم يقتربون أكثر فأكثر من العدو الذي ينتظرهم على الضَّفةِ الشماليةِ.

تفحَّصَ رالف برعبٍ متزايدٍ قوة الأعداءِ على الجانبِ الآخر، كانَ الخطُّ الأمامي على طولِ ضفةِ النهرِ من النشابين، وعلمَ أنَّهم لم يكونوا فرنسيين بل مرتزقة إيطاليون معروفون باسم الجنويين رغم أنهم في الحقيقة مرتزقة من جميعِ أرجاءِ إيطاليا، إن مدى النشابِ أقصر من مدى القوسِ الطويلِ، ولكن سيملكُ المرتزقةُ الجنويّون الكثيرَ من الوقتِ لإعادةِ التلقيمِ بينما أهدافهم تتحركُ بتثاقلٍ في المياهِ الضحلةِ، وخلفَ النشابين على المرتفعِ هناكَ مشاةٌ وفرسانٌ على جيادهم والجميعُ على أتمِّ استعدادٍ للانخراطِ في القتالِ.

نظرَ رالف إلى الوراءِ ورأى آلافَ الجنودِ الإنكليز يعبرون النهرَ خلفهُ، لم تكن الاستدارةُ والعودةُ خياراً، في الحقيقةِ كانَ الجنودُ في الوراءِ يتدافعون ويدفعون بالقادةِ إلى الأمامِ.

باتَ رالف الآن قادراً على رؤيةِ قواتِ العدو بالكاملِ، اصطفَّ النشابون بدروعهم الخشبيةِ المستطيلةِ والثقيلةِ التي تدعى البافيه، وحالما أصبحَ الإنكليز في نطاقِ الإطلاقِ أخذَ المرتزقةُ الجنويون يطلقون السهام.

كانَ الإنكليز على بعدِ مئةِ ياردةٍ ولهذا لم تكن الإصاباتُ دقيقةً وسقطت السهامِ دونَ أن تحدثَ ضرراً كبيراً إلا أنَّ مجموعةً من الجيادِ والرجالِ أصيبت وسقطَ المصابونَ فسحبهم التيارُ ليغرقوا بعدها بينما تخبطت الجيادُ في المياهِ التي باتت بلونِ الدمِ الآن. شعرَ رالف بقلبهِ يدقُّ بسرعةٍ. مع استمرار اقترابِ الإنكليز من الضفةِ تحسنت دقةُ النشابين في الإطلاقِ وحققت السهامُ إصاباتٍ بليغةً، كانَ النشَّابُ بطيئاً إلا أنَّ نهايةَ السهمِ مزودةٌ بقطعةٍ معدنيةٍ كفيلةٍ بإحداثِ ضررٍ كبيرٍ، بدأ الرجالُ والجيادُ من حولِ رالف بالتساقطِ ومنهم من أصابته السهامُ في مقتلٍ سريعٍ، لم يكن بوسعِ رالف فعلُ شيءٍ لحمايةِ نفسهِ فإمَّا أن يحالفهُ الحظُ وينجو أو يموت، اكتنفت ضجةُ المعركةِ الأجواء، إصاباتُ السهامِ القاتلةِ، ولعناتُ المصابين، وصهيلُ الخيولِ المتألمةِ.

بدأ الرماةُ في الصفِ الأمامي للفيلقِ الإنكليزي بإطلاقِ سهامهم إلا أنَّ نهايةَ أقواسهم التي يصلُ طولها إلى ستةِ أقدامٍ كانت مغمورةً في المياهِ ولهذا السببِ

اضطروا إلى رفعها في زاويةٍ مختلفةٍ عن المعتادِ، علاوةً على هذا كانَ قاعُ النهرِ زلقاً، ولكن على الرغمِ من كلِّ هذهِ العوائقِ فقد بذلوا أفضلَ ما بوسعهم.

يُمكن لسهمٍ بنهايةٍ معدنيةٍ أن يخترقَ صفائحَ الدرعِ إن أُطلقَ من مسافةٍ قريبةٍ ولكن ما من أحدٍ من الإنكليز كان يرتدي درعاً حقيقياً، وباستثناءِ الخوذِ لم يكن لديهم ما يحميهم من وابلِ السهامِ القاتلِ.

لو كان بوسع رالف أن يستدير ويهرب لفعل هذا، ولكن هناك ما يقاربُ العشرةَ آلاف رجلٍ، وخمسةَ آلاف حصانٍ خلفه وجميعهم يتقدمونَ، كانت محاولةُ الاستدارة كفيلةً بإيقاعهِ وإغراقهِ، لم يكن لديه خيارٌ سوى إخفاض رأسهِ فوقَ رقبةِ حصانهِ غريف ودفعِ الحصان للتقدمِ.

وأخيراً وصلَ من نجا من الرماةِ الإنكليز إلى المياهِ الضحلةِ وأصبحوا قادرين على استخدامِ أقواسهم بفاعليةٍ أكبر، بدأ الرماةُ برمي سهامهم عالياً فوقَ الدروعِ الثقيلةِ للمرتزقةِ الجنويين، كانَ بوسعِ الرماة الإنكليز إطلاق ما يقاربُ الاثني عشرَ سهماً في الدقيقةِ، ورغمَ أنّها سهامٌ خشبيةٌ مصنوعةٌ من خشبِ الدردارِ فإنّ نهاياتها فولاذيةٌ، ولذلكَ تغدو مخيفةً عندما تتساقطُ كوابلٍ، وفجأة تراجعَ إطلاقُ السهامِ من جانبِ الأعداءِ وسقطت بعضُ الدروعِ تراجعَ المرتزقةُ الجنويون إلى الوراءِ ووضعَ الإنكليز أقدامهم على شاطئِ النهرِ.

وحالما وضعَ الرماةُ أقدامهم على أرضٍ صلبةٍ تفرّقوا يمنةً ويسرةً مفسحين المجالَ أمامَ الفرسانِ الذين خرجوا من المياهِ الضحلةِ إلى خطوطِ العدو، كان رالف الذي ما زالَ يخوض عبرَ النهرِ قد رأى ما يكفي من المعاركِ ليعرفَ التكتيكاتِ التي سيقومُ بها الفرنسيون في هذهِ المرحلةِ، كان على الفرسان الفرنسيين البقاء في أمكنتهم، وترك النشابين يستمرون بذبح الإنكليز بسهامهم على شاطئ النهر وفي وسطِهِ، ولكن العُرف الفروسي لا يسمحُ لهم بالاختباءِ خلفَ رُماةٍ وضيعين ولهذا خرقوا الصَّفَ واندفعوا إلى الأمامِ ثم اشتبكوا مع الفرسانِ الإنكليز، وبذلك خسروا الكثيرَ من أفضليةِ موقعهم، وهنا شعرَ رالف ببارقةِ أملٍ.

تراجعَ الرماة الجنويون إلى الخلفِ وتحولَ شاطئُ النهرِ إلى ساحةِ معركةٍ. شعرَ رالف بقلبِهِ يدقُّ بسرعةٍ من الخوفِ والحماسةِ، مازال الفرنسيون يملكونَ أفضليةَ القتالِ بانطلاقهم من أعلى التلِ بكاملِ عتادهم. ذبحوا رجالَ هيو ديسبنسر جميعاً واندفعت طليعةُ المهاجمين إلى المياهِ الضحلةِ لمقاتلةِ بقيةِ الرجالِ في المياهِ.

وصلَ رُماةُ الإيرل رولاند إلى شاطئ النهرِ قبلَ رالف وآلان، ومن نجا منهم ابتعدَ وأفسحَ المجالِ لعبورِ المقاتلين. شعرَ رالف أنَّ الإنكليز هالكون لا محالة، وكان واثقاً من أنَّه سيموت، لم يكن هناك أيُّ مهربٍ باستثناءِ التقدمِ إلى الأمامِ، وفجأة انطلقَ رالف مهاجماً الخطَّ الفرنسي ورأسهُ على عنقِ حصانهِ غريف وسيفهُ عالٍ، وعندما وصلَ إلى الأرضِ الصلبةِ أخذَ يضربُ بسيفِهِ، إلَّا أنَّ ذلكَ كانَ بلا جدوى فلم يصب سيفهُ سوى الخوذ الفولاذية ثمَّ اندفعَ غريف كقذيفةٍ باتجاهِ حصانٍ آخر، كانَ الحصانُ الفرنسي الآخر أكبر حجماً وأصغر عمراً، ولكنه تعثَّرَ ورمى براكبِهِ في الطينِ، استدارَ رالف بحصانهِ إلى الوراء واستعدَّ للهجومِ مجدداً.

لم يكن لسيفِهِ فائدةٌ كبيرةٌ أمامَ الدروعِ الحديديةِ إلَّا أنَّه كانَ رجلاً ضخماً على حصانٍ هُمامٍ، وأملهُ الوحيدُ هو إسقاطُ جنودِ العدو عن جيادهم، هجمَ رالف مرَّةً أخرى، في هذهِ المرحلةِ من المعركةِ لا يعود رالف يشعر بأيِّ خوفٍ، وبدلاً من ذلك يمتلئ بغضبٍ شديدٍ يدفعهُ لقتلِ أكبرِ عددٍ ممكنٍ من الأعداءِ، عندما تبدأُ المعركةُ يتوقفُ الزمنُ ويشعرُ رالف كأنَّه يقاتلُ لحظةً بلحظةٍ، لاحقاً وعندما يصلُ القتالُ إلى نهايتهِ ينظرُ إلى السماءِ، ويُدهش عندما يرى الشمسَ تغربُ وأنَّ يوماً كاملاً قد مرَّ، كرر هجومهُ على الأعداءِ متفادياً ضرباتِ السيوفِ وضارباً بسيفِهِ أنّى سنحت لهُ الفرصةُ دونَ أن يُبطئ، لأنَّ هذا قد يكونُ سبباً في هلاكهِ.

وفي مرحلةٍ ما، ربما بعدَ عدَّةِ دقائق أو ساعاتٍ، لم يصدق رالف عينيهِ عندما اكتشفَ أنَّ ذبحَ الفرنسيين للإنكليز قد توقفَ، في الحقيقةِ بدا الإنكليز كأنَّهم كسبوا تقدماً وأملاً، ابتعدَ رالف عن المعمعةِ وتوقفَ لبرهةٍ يتنهدُ ويراقب ما يحدث.

رأى شاطئ النهرِ مكتظاً بالجثثِ الإنكليزيةِ والفرنسيةِ وأدركَ حماقةَ الهجومِ الذي قامَ بهِ الفرنسيون، حالما انخرطَ الفرسانُ من كلا الطرفين في القتالِ انسحبَ النشابون الجنويون وتوقفوا عن إطلاقِ السهامِ خوفاً من إصابةِ قواتهم ولهذا باتَ العدو عاجزاً عن قتلِ الإنكليزِ في الماءِ كمن يصيدُ البط في بركةٍ، وعندها اندفعَ الإنكليز من مصبِ النهرِ في جماعاتٍ وهم ينفذون الخطةَ ذاتها: يبتعدُ الرماةُ يمنةً ويسرةً بمجردِ أن يصلوا إلى أرضِ الشاطئ ليندفعَ بعدها الفرسانُ والمشاةُ دون ترددٍ إلى الأمامِ، خسرَ الفرنسيون هذهِ المعركةَ بسبب

تفوقِ الإنكليز عليهم في العددِ، عادَ رالف بنظرِهِ إلى النهرِ ورأى أنَّ منسوبهُ يرتفعُ وأنَّ الإنكليز الذين مازالوا في المياهِ يائسونَ للخروجِ من النهرِ أياً يكن المصيرُ الذي ينتظرهم عندَ الشاطئ.

وبينما كان رالف يلتقطُ أنفاسهُ لاحظَ أن الفرنسيين فقدوا شجاعتهم وأُجبروا على الابتعادِ عن الشاطئ وولوا الأدبار حتَّى أعلى التَّلِ، لقد حاصرهم الجيشُ الذي كانَ في عجلةٍ للخروج من الماءِ ولذلك تقهقروا، كان الإنكليز يندفعون إلى الأمامِ بهمَّةٍ وغير مصدقين حظهم الجيِّدَ، وكما يحدثُ عادةً لم يطلِ الوقتُ حتَّى تحولَ التهقهرُ إلى هروبٍ وبدأ الرجالُ يفرون نجاةً بحياتهم.

عادَ رالف بنظرِهِ إلى المصبِ ورأى قافلةَ الأمتعةِ بالعرباتِ الثقيلةِ التي تجرها الجيادُ والثيرانُ عندَ نقطةِ العبورِ وسطِ النهر والسائقون يضربونها لتُسرع قبلَ أن يحدث المد، على الضفةِ الأخرى رأى بدايةَ معركةٍ أخرى فقد وصلت طليعةُ جيشِ الملكِ فيليب، وانخرطَ المشاةُ من الطرفين في القتالِ، اعتقدَ رالف أنَّه رأى في ضوءِ الشمسِ لمعانَ ألوانِ علمِ سلاحِ الفرسانِ التابعِ للملكِ البوهيمي إلَّا أنهم وصلوا متأخرين.

انهارَ رالف من على سرج حصانهِ وقد انتابهُ فجأة شعورٌ بالوهنِ والراحةِ، لقد انتهت المعركةُ، وبما يدعو للمفاجأةِ، وعلى عكس جميعِ التوقعاتِ، نجا الإنكليز فيها من فخِّ الفرنسيين.

ها هم الآن، ولهذا اليوم على الأقلِّ، قد نجوا من الموتِ.

-48-

وصلَت كاريس ومير إلى أطرافِ قريةِ أبفيل في الخامسِ والعشرين من شهرِ آب/ أغسطس، وأصيبتا بالذعرِ عندما وجدتا الجيشَ الفرنسي هناك، كان عشراتُ الآلافِ من المشاةِ والرُماةِ في مخيمٍ في الحقولِ المحيطةِ بالقريةِ، وخلال مسيرهما لم تسمعا لكنات فرنسية فحسب بل لغاتٍ من مناطق بعيدةٍ كالفلاندر وبوهيميا وإيطاليا وسافوي ومايوركا.

كانَ الجيشُ الفرنسي وحلفاؤهُ يطاردون ملكَ إنكلترا إدوارد وجيشهُ تماماً كما كانت تفعل كاريس ومير، وتساءلت كاريس في نفسها كيف ستتمكن هي ومير من التقدمِ في هذا السباقِ إلى الجيشِ الإنكليزي.

عندما عبرتا بواباتِ المدينة في وقتٍ متأخرٍ من بعدِ ظهرِ ذلكَ اليومِ وجدتا

الشوارعَ مكتظةً بالنبلاءِ الفرنسيين، لم ترَ كاريس قبلاً هذا الكم من الثيابِ الباهظةِ والأسلحةِ الممتازةِ والجياد المهيبةِ والأحذيةِ الجديدةِ، ولا حتّى عندما زارت لندن، وكأنَّ جميع الأرستقراطيين الفرنسيين اجتمعوا هنا، كان أصحابُ الفنادقِ والخبازون وفنانو الشوارعِ والعاهرات في البلدةِ يعملون دونَ توقفٍ لتأمينِ احتياجاتِ ضيوفهم، وامتلأت جميعُ الحاناتِ بالكونتاتِ ولم يخلُ منزلٌ من فرسانٍ افترشوا الأرضَ للنومِ.

كانت كنيسةُ سان بيتر على قائمةِ المؤسساتِ الدينيةِ التي خططت كاريس وميرِ للجوءِ إليها من أجلِ المأوى والطعامِ، ولكن وحتى إن كانتا في ثيابِ الراهباتِ فستجدان صعوبةً في الدخولِ إلى قسمِ الضيوفِ لأنَّ ملكَ فرنسا ينزلُ فيهِ، وتحتلُ حاشيتهُ المكانَ بأسرهِ، وها هما راهبتان من كينغزبريدج متخفيتان تحتَ اسمِ كريستوف دو لونغشامب وميشيل دو لونغشامب تتوجهان إلى الكنيسةِ المهيبةِ حيثُ يبيتُ مئاتٌ من مرافقي الملكِ وساسةِ الخيولِ وخدمٍ آخرون على الأرضيةِ الحجريةِ الباردةِ لصحنِ الكنيسةِ، وهناك أخبرهما مارشالٌ أنّه لا يوجدُ مكانٌ لهما، وأنَّ عليهما النومَ في الحقولِ كبقيةِ الناسِ الأقلِّ شأناً.

كان مستشفى الجرحى يشغل الجناح الشمالي للكنيسةِ، وفي طريقها خارجَ الكنيسةِ توقفت كاريس لبرهةٍ تراقبُ جرّاحاً يخيطُ جرحاً عميقاً في خدِّ جنديٍّ يتأوه، كانَ الجرَّاحُ يعملُ بسرعةٍ وبمهارةٍ وعندما انتهى قالت لهُ كاريس في إعجابٍ: «لقد أبليتَ حسناً».

«شكراً لك»، قال الجرَّاحُ وحدَّقَ نحوها ثمَّ أضافَ: «ولكن كيفَ لكَ أن تعلمَ بهذا أيُّها الفتى؟»

كانت تعلمُ لأنَّها راقبت الحلاق ماثيو وهو يعملُ مرَّاتٍ عديدةً إلا أنّه كانَ عليها أن تختلقَ قصَّةً ما على الفورِ: «في لونغشامب كانَ والدي جرّاحَ السيِّدِ».

«وهل أنتَ برفقةِ السيدِ آلان؟» سأل الجرَّاح.

«لقد وقعَ في أسرِ الإنكليز وأرسلتني سيدتي مع أخي لنتفاوضَ على فديتهِ».

«حسناً، كانَ الأجدرُ بكَ التوّجه إلى لندن، إن لم تعثر على سيدكَ هنا ستجدهُ هناك عاجلاً أم آجلاً، على أيِّ حالٍ، وبما أنّكَ هنا ما رأيكَ بمساعدتي في العملِ مقابلَ مكانٍ للمبيتِ ليلاً»، «بكلِّ سعادةٍ».

«هل رأيتَ والدكَ يغسلُ الجروحَ بالنبيذِ الدافئِ؟»

كان يُمكن لكاريس أن تغسلَ الجروحَ بكلِّ سهولةٍ وسرعةٍ، وخلالَ بضعِ

دقائق انخرطت كاريس ومير في العملِ الذي تجيدانهِ وهو العنايةُ بالمرضى، كانَ معظمُ المرضى قد أصيبوا في معركةِ عبورِ نهرِ سوم البارحة، ولأنَّ المصابين من النبلاءِ أوّل من يتلقى العنايةَ الطبية فقد أصبحَ الجرّاحُ الآن متفرغاً لعلاجِ الجنودِ العاديين، عملوا دونَ توقفٍ ولساعاتٍ عديدةٍ، وعندما حلَّ الظلامُ في هذا اليومِ الصيفي الطويل أُحضرت الشموعُ، وأخيراً انتهوا من تجبيرِ العظامِ وبترِ الأطرافِ المسحوقةِ وخياطةِ الجروحِ، أخذهما الجرّاح مارتن إلى المطبخِ لتناولِ العشاءِ.

حظيت كاريس ومير بمعاملةِ حاشيةِ الملكِ فقد قُدمت لهما يخنة من لحمِ الضأنِ والبصلِ. أكلتا بشراهةٍ فهما لم تتناولا اللحمَ منذُ أسبوعٍ، حظيتا أيضاً بنبيذٍ أحمر جيدٍ وشربت مير الكثيرَ منهُ بابتهاجٍ، رغمَ سعادةِ كاريس بهذهِ الفرصةِ التي أُتيحت لهما لاستعادةِ قواهما فإنَّها كانت ما تزالُ قلقةً حيالَ اللحاقِ بالإنكليز.

وقال لهما فارسٌ جالسٌ إلى طاولتهما: «هل تعرفان أنَّ هناك أربعةَ ملوكٍ ورئيسَي أساقفةٍ يتناولون العشاءِ معاً في غرفةِ الطعامِ المجاورةِ؟» وكانَ يحسبُ عددهم على أصابعهِ وهو يسميهم: «ملكُ فرنسا وملكُ بوهيميا وملكُ روما وملكُ مايوركا ورئيسـا أساقفةِ الرون والسين».

وقررت كاريس أنّها ستتأكدُ من هذا بنفسها، ولذلكَ توجهت إلى الغرفةِ المجاورةِ التي يبدو أنها تُفضي إلى المطبخِ، رأت الخدمَ يحملونَ صحوناً مترعةً بالطعامِ إلى غرفةٍ أخرى وتلصصت من شُقِّ البابِ إلى الداخلِ.

كانَ الرجالُ في الغرفةِ من عليةِ القومِ دونَ شكٍ فقد اكتظت الطاولةُ أمامهم بالطيورِ المشويةِ وبقطعِ لحمِ الضأنِ الكبيرةِ وبالبودينغ الدسمِ وبأهراماتٍ من الفواكهِ الحلوةِ، لا بدَّ أنَّ الرجلَ عندَ رأسِ الطاولةِ الملك فيليبِ الذي كانَ في الثالثةِ والخمسين بلحيةٍ شقراءِ غزاها الشيبُ، وبجانبِ الملكِ كان رجلٌ يشبهه يتحدثُ باستفاضةٍ وبوجهٍ مُحمرٍ من الغضبِ قائلاً: «الإنكليز ليسوا نبلاء، إنهم أشبهُ باللصوصِ الذينَ يسرقونَ ليلاً ثمَّ يولون الأدبار».

وظهرَ الجرّاح مارتن من وراءِ كتفي كاريس ثمَّ همسَ في أذنها: «هذا هو سيدي شارل وهو كونت ألونكون وشقيقُ الملكِ».

وعلا صوتٌ جديدٌ في الداخلِ قائلاً: «أخالفكَ الرأي»، ورأت كاريس أنَّ المتحدثَ رجلٌ أعمى ولذلكَ تكهنت أنّهُ ملكُ بوهيميا جان، «لا يمكن للإنكليز أن يهربوا لمسافةٍ أبعد فمؤونةُ طعامهم قليلةٌ وهم متعبون».

قال شارل: «يريدُ إدوارد أن ينضمَّ إلى الجيشِ الأنغلوفلمنكي الذي يغزو فرنسا من النورماندي في الشمال الشرقي».

هزَّ جان رأسهُ وقال: «علمنا اليومَ أنَّ الجيشَ الأنغلوفلمنكي انسحبَ، أعتقدُ أنَّ على إدوارد الآن البقاء والقتال، وأرى أنَّه كلما أسرع في هذا كانَ أفضل لأنَّ معنوياتِ رجالِهِ ستتراجعُ أكثر مع مرورِ الأيامِ».

قال شارل بحماسٍ: «إذاً، علينا أن نلحقَ بهم غداً، بعدَ الذي اقترفوه في النورماندي يجبُ أن يموتوا جميعاً... فرسانٌ ونبلاءٌ وإدوارد أيضاً!»

وضعَ الملكُ فيلبي يدهُ على ذراعِ شارل في إشارةٍ لهُ ليصمت.

«نتفهمُ غضبَ شقيقنا»، قال الملكُ ثمَّ أضاف: «إنَّ الجرائمَ التي اقترفها الإنكليزُ مقززةٌ ولكن ما هو أهمُّ من هذا كلهُ هو وضع خلافاتنا جانباً، وأن ننسى جميعَ النزاعاتِ والأحقادِ ونثقَ بعضنا ببعض، على الأقل خلالَ المعركة. نحنُ نفوقُ الإنكليز عدداً ولذلكَ نستطيع سحقهم بكلِّ سهولةٍ ولكن علينا أن نقاتلَ معاً، كجيشٍ واحدٍ. فلنشرب نخبَ الوحدةِ».

وفكَّرت كاريس وهي تنسحبُ بخفيةٍ أنَّ هذا النخبَ مثيرٌ للاهتمامِ وأدركت مما سمعتهُ أنَّ الملكَ لا يستطيع التعويل على عملِ حلفائه كفريقٍ، ولكن ما أثارَ قلقَ كاريس بحقٍ في هذا الحديث هو احتمالُ وقوعِ معركة قريباً، وربما تقع غداً، ولهذا عليها هي ومير الحرصُ على عدمِ التورطِ فيها، وفي طريقهما إلى غرفةِ الطعامِ قالَ مارتن لكاريس بهدوءٍ: «يبدو أنَّكَ كالملكِ تملكُ شقيقاً جامحاً».

ورأت كاريس أن مير قد بدأت تثملُ وتبالغُ في لعبِ دورها الصبياني فقد جلست مباعدةً بينَ ساقيها وأسندت مرفقيها على الطاولةِ.

«بحقِ القديسين كانَ الحساءُ جيداً، ولكنهُ يجعلني أرغبُ بإطلاقِ الريحِ بشدَّةٍ»، قالت الراهبةُ ذات الوجه الحلو في ثيابِ الرجال ثمَّ تابعت: «عذراً على الرائحةِ النتنةِ أيُّها الفتيةُ». وأعادت ملءَ كوبها بالنبيذِ وشربت بشهيةٍ.

ضحكَ الرجالُ برحابةِ صدرٍ فقد أمتعهم منظرُ صبيٍّ يثملُ للمرةِ الأولى، لا بدَّ أنَّ هذا أعادَ إليهم ذكريات حوادث مخجلة ومشابهة عاشوها في الماضي.

أمسكت كاريس بذراعِ مير وقالت: «لقد حانَ وقتُ النومِ يا أخي الصغير هيا بنا».

أظهرت مير طواعيةً كافيةً لتتحرك.

«أخي الكبير يتصرفُ كامرأةٍ عجوز»، قالت مير للحاضرين: «ولكنَّه يحبني أليسَ كذلكَ يا كريستوف؟»

«أجل يا ميشيل. أنا أحبُّكَ»، قالت كاريس وضحكَ الرجالُ مجدداً.

في طريقِ العودةِ إلى الكنيسةِ تشبثت مير بكاريس بقوةٍ ثمَّ بحثتا عن المكان الذي تركتا فيه بطانيتهما في صحنِ الكنيسةِ ووجدتاها. أجبرت كاريس مير على الاستلقاءِ وغطتها بالبطانية.

«فلتُقبلني قبلةَ ليلةٍ سعيدةٍ يا كريستوف»، قالت مير.

قبَّلتها كاريس على شفتيها ثمَّ قالت: «أنتَ ثملٌ فلتخلد إلى النومِ، سننهضُ باكراً صباحَ الغدِ».

بقيت كاريس صاحيةً لبعضِ الوقتِ، كانت قلقةً وشعرت أنَّ الحظَ لم يكن إلى جانبهما فها هي ومير على وشكِ الالتقاءِ بالجيشِ الإنكليزي والأسقفِ ريتشارد، إلَّا أنَّهما متورطتان الآن مع الجيشِ الفرنسي، كانَ عليهما البقاءُ بعيداً عن أرضِ المعركةِ، ولكن من جهةٍ أخرى، إن عرقلَ الجيشُ الفرنسي حركتهما فقد لا تتمكنان من اللحاقِ بالإنكليز.

بعدَ حسابِ الأمورِ من جميعِ الجهاتِ قررت كاريس أنَّ أفضلَ شيءٍ تفعلهُ هو المغادرةُ باكراً صباحَ الغدِ ومحاولةُ التقدم على الفرنسيين؛ فلا يمكنُ لجيشٍ بهذا الحجمِ أن يتحركَ بسرعةٍ فسيأخذُ منه تنظيم تشكيلةِ المسيرِ ساعاتٍ، وإن تحركت هي ومير بسرعةٍ فقد تتمكنان من البقاءِ في المقدمةِ، كانَ عملاً خطراً ولكنهما لم تفعلا شيئاً سوى المخاطرةِ منذُ مغادرتهما بورتسماوث.

غطَّت كاريس في النومِ لتصحو على صوتِ أجراسِ الكنيسةِ في الثالثةِ فجراً تدعو إلى الصلاةِ، أيقظت كاريس مير ولم تتعاطف معها عندما اشتكت الأخيرةُ من الصداعِ، وبينما كانَ الرهبان يغنون المزاميرَ في الكنيسةِ توجهت كاريس ومير إلى الإسطبلاتِ وعثرتا على حصانيهما، كانت السماءُ صافيةً وقد منحهما ضوءُ النجومِ رؤيةً واضحةً.

كانَ خبازو المدينةِ يعملونَ طوالَ الليلِ ولهذا تمكنتا من شراءِ خبزٍ من أجلِ رحلتهما، وجدتا أبوابَ المدينة مغلقةً ولذلك اضطرتا إلى انتظارِ بزوغ الشمسِ بصبرٍ وهما ترتجفانِ من البردِ وتتناولان الخبزَ الطازجَ.

بعدَ مرورِ نصفِ ساعةٍ فُتحت البواباتُ وتمكنتا من مغادرةِ أبفيل، أخذتا الطريقَ الشمالي الغربي على طولِ الضَّفةِ اليمنى لنهرِ سوم وفي الاتجاهِ الذي قيلَ إنَّ الجيشَ الإنكليزي قد أخذهُ.

ولم تكونا قد قطعتا سوى ربع ميلٍ عندما سمعتا أصواتَ أبواقِ الإيقاظِ

على أسوارِ المدينةِ، كانَ الملكُ فيلبي قد قررَ الانطلاقَ باكراً كما فعلت كاريس تماماً، بدأ الجنودُ في الحقولِ بالتحركِ من مراقدهم، لا بدَّ أنَّ المارشلات تلقوا أوامر في الليلةِ الماضيةِ فقد بدا عليهم كأنّهم يعرفون ما عليهم فعلهُ، ولم يطل الوقت حتى انضمَّ بعضُ أفرادِ الجيشِ إلى كاريس ومير على الطريقِ.

كانت كاريس ما تزالُ تأملُ بالوصولِ إلى الإنكليز قبلَ القواتِ الفرنسيةِ، لا بدَّ أنَّ الفرنسيين سيتوقفون لتوحيدِ صفهم قبلَ الدخولِ في معركةٍ، وهذا من شأنهِ أن يمنحَ كاريس ومير الوقتَ للوصولِ إلى الإنكليز وإيجادِ مكانٍ آمنٍ بعيداً عن ساحةِ القتالِ، لم ترغب كاريس بالتورطِ بينَ الطرفين المتحاربين، وهنا بدأت تفكرُ بحماقةِ قيامها بهذهِ المهمةِ، لم تكن تعرفُ شيئاً عن الحربِ، ولهذا لم تكن قادرةً على تخيلِ المصاعبِ والمخاطرِ فيها، ولكنَّ الوقتَ الآن قد تأخرَ على الندمِ، وها هما قد قطعتا كلَّ هذهِ المسافةِ من دونِ أن تتعرضا للأذى.

لم يكن الجنودُ الذين بدأوا السيرَ على الطريقِ من الفرنسيين بل من الإيطاليين، كانوا يحملون نشاباتٍ فولاذيةً وحِزماً من السهامِ المعدنيةِ، كانوا ودودين وأخذت كاريس تُدردشُ معهم بمزيجٍ من الفرنسيةِ النورمانديةِ واللاتينيةِ وقليلٍ من الإيطاليةِ التي تعلمتها من بونافينتورا كارولي، أخبروها أنهم في المعاركِ يشكلون صفاً أمامياً ويطلقون سهامهم من وراءِ دروعهم الخشبيةِ الثقيلةِ التي كانت حالياً مُحملةً على عرباتٍ في مكانٍ ما خلفهم، كانوا يتذمرون لأنَّهم تناولوا فطورهم على عجلٍ ولأنَّ الفرسان الفرنسيين مُندفعون ويسببون المتاعبَ، وتحدثوا في إعجابٍ عن قائدهم أنتوني دوريا.

علت الشمسُ في كبدِ السماءِ وبدأ الجميعُ يشعرُ بالحرِّ، ولأنَّ النشابين يعلمونَ أنَّ هناك معركةً بانتظارهم اليومَ ارتدوا معاطف ببطانةٍ ثقيلةٍ، بينما حملوا خوذهم المعدنية وواقياتِ الركبِ، إضافةً إلى الأقواسِ والسهامِ، وبحلولِ الظهرِ قالت لها مير إنّه سيُغمى عليها إن لم تتوقف للاستراحةِ، شعرت كاريس بالتعبِ أيضاً فقد كانتا تسيران على جواديهما منذُ الفجرِ وعلمت أنَّ الحصانين بحاجةٍ إلى راحةٍ أيضاً، لذلكَ ورغمَ رغبتها بمتابعةِ السير اضطرَّت إلى التوقفِ بينما آلافُ الرماةِ يتابعون المسيرَ.

أخذت كاريس ومير الجوادين إلى نهرِ سوم ليشربا وتناولتا بعضَ الخبزِ، وعندما انطلقتا مجدداً وجدتا نفسيهما تسيران مع فرسانٍ وجنودٍ فرنسيين. رأت كاريس شارل الغاضب، شقيق فيلبي، يقودُ المجموعةَ، كانت وسط الجيشِ

الفرنسي ولم يكن هناك ما يمكن القيامُ بِهِ إلّا التحركُ على أملِ أن تحينَ فرصةٌ للتقدم عليهِ.

بعدَ منتصفِ الظهرِ بقليلٍ وصلَ أمرٌ إلى الفيلقِ وقد جاءَ فيهِ أنَّ الإنكليز لم يكونوا في الغربِ كما اعتقدوا بل في الشمالِ، وأنَّ الملكَ الفرنسي قد أصدرَ أوامر للجيشِ بالتحركِ في ذلكَ الاتجاهِ ولكن ليسَ فيلقاً وراءَ الآخر، بل جميعاً وفي الوقتِ ذاته، استدارَ الرجالُ حولَ كاريس ومير بقيادةِ الكونت شارل باتجاهِ طريقِ النهرِ الذي كانَ طريقاً ضيقاً يمرُّ بالحقولِ، وبقلبٍ واجمٍ لحقت كاريس بهم.

حيَّا كاريس صوتٌ مألوفٌ، اقتربَ الجرَّاحُ مارتن منها وسارَ بجانبها: «هذهِ فوضى»، قالَ بعبوسٍ، «لقد انهارت منظومةُ المسيرِ بأكملها».

ظهرت مجموعةٌ من الرجالِ على جيادٍ سريعةٍ في الحقولِ وحيَّت الكونت شارل.

«إنَّهم كشَّافةٌ»، قال مارتن وتقدَّمَ إلى الأمامِ لسماعِ ما لديهم. لحق حصانا كاريس ومير بحصانِ مارتن كأنَّهما مدفوعان بغريزةِ الجيادِ الطبيعيةِ للبقاءِ معاً.

«لقد توقفَ الإنكليز»، قالَ الكشافةُ، «احتلوا موقعاً دفاعياً على تلٍّ بالقربِ من مدينةِ غيرسي».

قال مارتن: «هذا هنري لي موني وهو صديقٌ قديمٌ لملكِ بوهيميا».

كانَ شارل مسروراً بهذا الخبرِ.

«إذاً، علينا أن نخوضَ معركةَ اليومَ!» قال شارل وأطلقَ الفرسانُ من حولهِ صيحةَ تهليلٍ.

رفعَ هنري يدهُ مُحذراً: «أقترحُ أنَ تتوقفَ جميعُ الوحدات لإعادةِ تنظيم صفوفها».

«نتوقفُ الآن؟» صرخَ شارل: «بعدَ أن توقفَ الإنكليز للقتالِ؟ فلننطلق للقضاءِ عليهم!»

«الرجالُ والجياد بحاجةٍ إلى الراحةِ»، قالَ هنري بهدوءٍ: «إنَّ الملك في مؤخرةِ الجيش، أعطهِ فرصةً للّحاقِ بنا ومعاينةِ ساحةِ القتالِ حيثُ يستطيعُ إجراء التنسيقات اليوم من أجل الهجومِ غداً عندما يكونُ الرجالُ مرتاحين ونشطين».

«اللعنةُ على التنسيقِ، لا يوجدُ سوى بضعة آلافٍ من الإنكليز وستغلبُ عليهم بالعددِ».

قامَ هنري بحركةٍ تشي أنَّ لا يداً لهُ في الأمرِ: «أنا لست من أوجهُ لكَ الأمرَ يا سيدي، ولكن سأطلبُ من أخيكَ الملك إعطاءكَ إياه».

«اطلب منه! اطلب!» قال شارل وتابعَ سيره.

قال مارتن لكاريس: «لا أفهمُ سببَ تطرفِ سيدي».

قالت كاريس مفكّرةً: «أعتقدُ أنّه يريد الإثبات أنّه شجاعٌ كفايةً ليحكمَ في هذا الأمرِ حتّى وإن لم يكن الملكَ بالولادةِ».

ألقى مارتن نظرةً ثاقبةً عليها وقالَ: «أنتَ حكيمٌ جداً رغمَ أنكَ مجرّدُ صبي».

تجنبت كاريس النظرَ في عينيهِ وأقسمت على نفسها عدمَ نسيانِ هويتها المزيفةِ مجدداً، لم يتحدث مارتن بعدائيةٍ إلّا أنّه بدا مرتاباً، ولأنّه جرّاح فهو على معرفةٍ جيدةٍ بالاختلافاتِ الدقيقةِ بينَ بنيةِ عظامِ الرجالِ والنساءِ ولا بدَّ أنّه لاحظَ أنَّ كريستوف وميشيل دي لونغشامب يتمتعان ببنيةٍ مختلفةٍ، لحسنِ الحظِ لم يُمعن التفكير في هذا الشأنِ أكثر.

غطّى الغيمُ السماءَ مجدداً رغمَ أنَّ الهواءَ ما يزال دافئاً ورطباً وظهرت غابةٌ في ميسرتهم. قال مارتن لكاريس إنَّ هذهِ الغابةَ تدعى غابة غيرسي، وهذا يعني أنّهم ليسوا بعيدينَ عن الإنكليز، وهنا أخذت كاريس تتساءل في نفسها عن الطريقةِ التي ستنفصلُ فيها عن الفرنسيين وتنضمّ إلى الإنكليز، وتعرّض نفسها ومير إلى الخطرِ من قبلِ أيٍّ من الطرفين.

أثّرت الغابةُ على حركةِ خاصرةِ الجيشِ اليسرى فقد ضيّقت الطريقَ الذي سار عليه الجيش وباتَ مُكتظاً، لتختلطَ الفرقُ المختلفةُ بعضها مع بعض بلا حولٍ ولا قوةٍ.

وصلَ رسلٌ إلى خطِ الهجومِ حاملين معهم تعليماتٍ جديدةً من الملكِ: على الجيشِ أن يتوقف ويخيم هنا، شعرت كاريس بالأملِ مجدداً فها هي ستحظى بالفرصةِ لتتقدمَ على الجيشِ الفرنسي إلّا أنَّ مشاجرةً وقعت بين شارل ورسولِ الملكِ فتوجهَ مارتن إلى شارل ليستمع إلى حوارهما، عادَ مارتن وهو يبدو مدهوشاً: «يرفضُ الكونت شارل إطاعةَ الأوامرِ!».

«لماذا؟» قالت كاريس مُحبطةً.

«يعتقدُ أنَّ شقيقهُ بالغ في حذرهِ، وأنّه لن يتصرفَ بجبنٍ ويتوقف قبلَ أن يدمّرَ العدو».

«أعتقدُ أنّه على الجميعِ إطاعةُ الملكِ في المعركةِ»، قالت كاريس.

«هذا ما يجب فعلهُ إلّا أنّه ما من شيءٍ يهمُّ النبلاءَ الفرنسيين أكثر من استعراضِ بسالتهم، فهم يفضلونَ الموتَ على الظهورِ بمظهرِ الجبناءِ».

تقدَّمَ الجيشُ في عصيانٍ واضحٍ للأوامرِ.

«أنا سعيدٌ لوجودكما أنتما الاثنين»، قال مارتن.

«سأحتاجُ إلى مساعدتكما مجدداً، وسواء ربحنا المعركةَ أم خسرناها سيكونُ هناك الكثيرُ من الجرحى عندَ غروبِ الشمسِ».

أدركت كاريس أنّها لن تتمكنَ من الهربِ إلا أنّها، وبطريقةٍ ما، لم تعد ترغبُ بالهربِ، في الحقيقةِ كانت قد بدأت تشعرُ بتوقٍ غريبٍ، إن كانَ أولئكَ الرجالُ مجانين بما يكفي لتشويهِ بعضهم بعضاً بالسيوفِ والسهامِ فيمكنها على الأقلِّ تقديمُ المساعدةِ إلى الجرحى منهم.

وسرعان ما وصلَ قائد النشابين أتوني دوريا، اندفعَ أتوني على ظهرِ جواده مخترقاً الحشدَ بصعوبةٍ بسبب الاكتظاظِ فقد أتى ليتحدثَ إلى شارل ألونكون.

«أوقف رجالكَ!»، صرخَ أتوني بالكونت،

رأى شارل في هذا إهانةً وقالَ: «كيفَ تجرؤ على إلقاءِ الأوامر؟»

«إنَّها أوامرُ الملكِ! يجب أن نتوقف، ولكن لا يمكنُ لرجالي التوقف بسببِ دفعِ رجالكَ لهم من الخلفِ!»

«فلتدعهم يكملون مسيرهم إذاً».

«إننا على مقربةٍ من العدو، وإن تقدَّمنا أكثر سيكونُ علينا الدخول في معركةٍ».

«فليكن».

«ولكن الرجال يسيرون طوالَ اليومِ وهم جوعى وعطشى ومتعبون والنشابون لا يحملون دروعهم».

«هل هم جبناء جداً على القتالِ من دونِ درعٍ؟»

«هل تقول عن رجالي جبناء؟»

«إن لم يقاتلوا فهم جبناء».

صمتَ أتوني لوهلةٍ ثمَّ تحدَّثَ بصوتٍ خفيضٍ لم تسمع كاريس منه سوى: «أنتَ أحمق يا ألونكون وستكونُ في الجحيمِ بحلول الليلِ»، ثمَّ استدارَ على عقبيهِ وابتعدَ.

شعرت كاريس بشيءٍ كالماءِ على وجهها فنظرت إلى السماءِ.

كانت قد بدأت تمطر.

انهمرَ مطرٌ غزيرٌ إلّا أنّه لم يدم سوى برهةٍ وجيزةٍ ثمَّ توقف، ألقى رالف نظرةً من أعلى الوادي ورأى العدو على الأبوابِ فسرى الخوفُ في أوصالهِ، احتلَّ الإنكليز هضبةً تمتدُ من الجنوب الغربي وحتَّى الشمال الشرقي، في مؤخرة الجيشِ وإلى الشمال الغربي هناك غابةٌ، أمّا في المقدمةِ وعلى كلا الجانبين فالهضبةُ تأخذُ بالانحدارِ، بينما الخاصرة اليمنى للقوات تطلُ على بلدةِ سيرسي أون بونتيو في وادي نهرِ ماي.

من الجنوبِ كانَ الفرنسيون يقتربون وتمركزَ رالف في الخاصرةِ اليمنى للجيشِ مع رجالِ الإيرل رولاند بقيادةِ أمير ويلز الشاب، أخذوا تشكيلةَ المحراثِ التي أثبتت نجاحها في حربهم مع الإسكتلنديين بينما أخذَ الرُماةُ على اليسارِ واليمينِ تشكيلاتٍ مثلثيّة كأسنانِ المحراثِ، بينَ «الأسنانِ» وإلى الوراءِ وقفَ الفرسانُ راجلين مع الجنودِ. تعدُّ هذهِ التشكيلة بدعةً ردايكاليةً ويعارضها العديدُ من الفرسانِ لأنهم يحبونَ امتطاءَ جيادهم؛ ولأنَّ الوقوف على الأقدامِ يصيبهم بالضعفِ، فإنَّ الملكَ كانَ حازماً حيالَ اتخاذِ هذهِ التشكيلةِ وأرادهم جميعاً واقفين، وكانَ الرجالُ قد حفروا حفراً في الأرضِ أمامَ المكانِ الذي وقفَ فيهِ الفرسانُ، وقد كانت بعمقٍ وعرضٍ قدمٍ كي تتعثر خيولُ الفرنسيين بها.

على يمينِ رالف إلى أسفلِ الهضبةِ هناكَ ثلاثُ آلاتٍ غير مألوفةٍ تدعى القاذفات أو المدافع، ويستخدمُ فيها مسحوقٌ متفجر لإطلاقِ حجارةٍ مدورةٍ، كانَ الإنكليز قد جروها عبرَ النورماندي إلّا أنّهم لم يستخدموها حتَّى الآن، لم يكن هناك ثقةٌ كبيرةٌ أنّها ستعملُ، يحتاجُ الملكُ إدوارد اليوم إلى كل الوسائلِ الممكنة فالعدو متفوق بالعددِ، ومقابلَ كلَّ جندي إنكليزي هناك أربعة إلى سبعة جنودٍ فرنسيين.

عندَ الخاصرةِ اليسرى للجيشِ الإنكليزي اتخذَ رجالُ إيرل نورثمبتن تشكيلةَ المحراثِ ذاتها، وخلفَ الخطوطِ الأولى تمركزت كتيبةٌ ثالثةٌ احتياطيةٌ بقيادةِ الملك، ووراءَ منطقةِ تمركزِ الكتيبةِ الاحتياطيةِ كان هناك موقعان للانسحابِ حيث احتلت عرباتُ الأمتعةِ الموقعَ الأول متخذةً شكلَ دائرةٍ من الطباخين والمهندسين والسائسين داخلَ دائرةٍ من الجيادِ ومن دونِ أيّ مقاتلين، أمّا موقعُ الانسحاب الثاني فكانَ الغابة حيثُ يمكن لفلولِ الجيشِ الإنكليزي الهرب بسهولةٍ لأنَّ الفرسانَ الفرنسيين سيجدون صعوبةً في ملاحقتهم وهم على ظهورِ خيولهم.

أخذوا مواقعهم منذُ الصباحِ الباكر دونَ أن يكونَ لديهم ما يأكلونهُ سوى حساء البازلاءِ والبصلِ. كان رالف في درعِهِ ولذلكَ بدأ يتصببُ عرقاً من الحرِّ الشديدِ، وعندما هطلَ المطرُ رحبَ بهِ الجميع لأنّه خففَ من حدَّةِ الحرِّ ولأنّه جعلَ الهضبةَ موحلةً وهذا يعني أنَّ الطريقَ سيكونُ زلقاً بشدةٍ على المقاتلين الفرنسيين.

كانَ بوسعِ رالف التكهن بالتكتيكِ الذي سيستخدمهُ الفرنسيون: سيُطلقُ النشابون الجنويون السهامَ من وراءِ دروعهم لزعزعة الخط الإنكليزي الأمامي، وعندما يُحدثونَ ضرراً كافياً سيتنحون جانباً ليهجمَ الفرسانُ الفرنسيون على جيادهم.

لم يكن هناك ما هو أكثرُ روعة من هذا التكتيك الذي يدعى «هدير فرانسيسكوس»، ويعتبر هذا التكتيك من أقوى أسلحةِ النبلاءِ الفرنسيين وما يدفعهم للتخلي عن أمانهم والاندفاع بتهورٍ إلى أرضِ المعركةِ، وخلالَ الهجوم يبدو الفرسان الفرنسيون على جيادِهم الكبيرةِ وبكاملِ دروعهم كرجالٍ حديديين يخترقون رماةَ السهامِ والدروعَ والسيوفَ والجنودَ.

بالطبعِ لم يكن هذا التكتيك ناجحاً على الـدوامِ خاصّة عندما تكون جغرافية وطبيعةُ الأرضِ لمصلحة المدافعين كما هو الحالُ هنا وعندها يضطرُّ الفرنسيون إلى التراجعِ، ولكن النيلَ من عزيمةِ الفرنسيين لم يكن بالأمرِ السهلِ فهم سيعاودون الهجومَ مجدداً، ولأنَّ أفضليةَ العددِ كانت للفرنسيين لم يكن رالف قادراً على التفكيرِ بطريقةٍ يمكنُ فيها للإنكليز الصمود أمامَ الفرنسيين إلى أجلٍ غير مسمى.

ورغمَ الخوفِ الذي تملكهُ فإنّه لم يكن نادماً على انضمامهِ إلى الجيشِ، فها هو ومنذُ سبعِ سنواتٍ يعيشُ الحياةَ المثيرةَ التي لطالما أرادها حيثُ الأقوياءُ ملوكٌ والضعفاءُ مجرَّد نكرات، كانَ في التاسعةِ والعشرين من العمرِ، ونادراً ما يعيشُ الرجالُ من أمثالهِ ليبلغوا هذا العمرَ، لقد ارتكبَ خطايا شنيعة ولكنه حصلَ على المغفرةِ هذا الصباح من قبلِ أسقفِ شايرنغ الذي وقفَ إلى جانبِ والدهِ الإيرل مسلحاً بصولجانٍ مخيفٍ، لم يكن يُسمح للكهنةِ بسفكِ الدماء وهذهِ قاعدةٌ يسارعون إلى تطبيقها دوماً بحملِ أسلحةٍ غير حادَّة في المعارك.

اصطفَّ النشابون الفرنسيون في ستراتهم البيضاء ووصلَ صفهم إلى أسفلِ الهضبةِ. بدأ الرُماةُ الإنكليز الذين كانوا جالسين أرضاً ونهايات سهامهم مغروزةً

أرضاً أمامهم ينهضون ويشدون أقواسهم، وتكهن رالف أنَّ معظمهم شعروا بما شعرَ بهِ؛ بذلكَ المزيجِ من الراحةِ لانتهاءِ هذا الانتظارِ الطويل وبالخوفِ من الفرصِ التي كانت ضدهم.

اعتقدَ رالف أنَّهم يملكون الكثيرَ من الوقتِ فقد لاحظَ أن النشَّابين الجنويين لا يحملون دروعهم الخشبية الثقيلةَ التي تُعد عنصراً أساسياً في تكتيكهم، كانَ واثقاً من أنَّ المعركةَ لن تبدأ قبلَ أن تصلَ دروعهم وخلفَ خطِّ النشابين تدفّق آلافُ الفرسانِ باتجاهِ الوادي من جهةِ الجنوبِ وانتشروا على ميسرةِ وميمنةِ النشابين. أشرقت الشمسُ مجدداً من وراءِ الغيومِ وألقت بأشعتها على الراياتِ الزاهيةِ وأغطيةِ الجيادِ، وميَّز رالف ستراتِ رجالِ شارل ألونكون، شقيق الملكِ فيلبي.

تمركزَ النشابون أسفلَ الهضبةِ وكانوا بالآلافِ، ثمَّ كأنَّهم تلقوا إشارةً ما أطلقوا صيحةً رهيبةً، فقفزَ بعضهم عالياً وعلت أصواتُ أبواقٍ، لقد كانت هذهِ صيحةَ الحربِ خاصتهم وأرادوا منها إخافةَ العدو، قد تكونُ الصيحةُ مخيفةً لبعضِ الأعداءِ ولكن ليسَ للجيش الإنكليزي الذي يضمُّ مقاتلين ذوي خبرةٍ ويقاتلون منذ ستةِ أسابيع متواصلةٍ، سيتطلبُ الأمرُ أكثر من مجردِ صيحةٍ لإخافتهم ولهذا لم يبدُ عليهم التأثرُ بما سمعوه. وسط دهشةِ رالف بدأ النشابون بإطلاقِ سهامهم وتساءلَ في نفسهِ عمَّا كانوا يفعلونهُ فهم لا يحملون دروعهم.

كانَ صوتُ خمسةِ آلافِ سهمٍ برؤوسٍ معدنيةٍ تطيرُ في الهواءِ مُفاجئاً ومخيفاً ولكنَ مدى السهامِ كانَ بعيداً، ربما لم يأخذوا في الحسبانِ أنهم كانوا يطلقونَ أعلى الهضبةِ، أو ربما أغشت شمسُ ما بعدَ الظهرِ التي كانت وراء الإنكليز بصرهم. أيّاً يكن السبب فإنَّ سهامهم سقطت أرضاً دونَ أن تحدثَ ضرراً.

وفي منتصفِ خطِ الإنكليز سطعَ ضوءٌ وسُمعَ صوتٌ كالرَّعدِ، رأى رالف الذي كانَ مذهولاً الآن الدخان يتصاعدُ من موقعِ المدافعِ، كانَ الصوتُ رهيباً وعندما عادَ رالف بنظرهِ إلى صفوفِ العدو رأى الضررَ الذي تسبّبَت بهِ، أصيبَ العديدُ من النشابين بالصدمةِ مما حدثَ وقد كان هذا كافياً لمنعهم من إعادةِ التلقيمِ.

في تلكِ اللحظةِ أمرَ أمير ويلز الرماةَ بالبدء بالإطلاقِ، رفعَ الرماةُ ألفي قوسٍ عالياً، ولعلمهم أنَّ الهدفَ بعيدٌ ولا يمكنُ إطلاق السهمِ بشكلٍ مستقيم مع الأرضِ صوَّبوا نحو السماءِ بهدفِ تحقيقِ ميلانٍ بسيطٍ لسهامهم، سحبَ الرماةُ أقواسهم معاً في ما يشبهُ تمايلِ سنابل القمح في حقلٍ داعبهُ نسيمٌ صيفي

على حينِ غرَّةٍ، ثمَّ أطلقوا السهامَ وعلا صوتٌ أشبهُ بجرسِ كنيسةٍ يُقرع، طارت السهامُ في الهواءِ أسرعَ من أيِّ طائرٍ ثمَّ أخذت مساراً منحنياً وسقطَت على النشابين كعاصفةِ بَرَدٍ.

كانت قواتُ الأعداءِ متراصَّةً جداً وارتدى النشابون سترات مبطنةً ولكن هذا لم يؤمن لهم حمايةً كبيرةً، فمن دونِ الدروعِ كانَ النشابون ضعفاء جداً، ولهذا سقطَ المئاتُ منهم بينَ قتيلٍ وجريحٍ، ولم تكن هذهِ سوى البدايةِ فقط.

وعندما استعادَ النشابون الفرنسيون السيطرةَ على أقواسهم كانَ الإنكليز قد ضربوا مرتين، لم يكن الرامي يحتاجُ سوى إلى أربعِ أو خمسِ ثوانٍ لأخذِ القوسِ عن الأرضِ وتلقيمهِ وشدّهِ والتصويب والرمي ثمَّ أخذ سهمٍ آخرَ، والرامي الخبير يستطيعُ التحرك بسرعةٍ أكبر، وخلال مدةٍ لم تتجاوز الدقيقة سقطَ ما يعادلُ العشرين ألفَ سهمٍ على النشابين المكشوفين.

كانَ الأمرُ أشبهَ بمجزرةٍ ولذلكَ كانت النتيجةُ حتميةً وهي استدارتهم على أعقابهم والهرب، وخلال دقائقَ معدودةٍ أصبحَ الجنويون خارجَ مجالِ الرمي، ولذلك توقفَ الإنكليز عن الرمي وهم يضحكون على نصرهم غير المتوقع ويسخرون من العدو، ولكن النشابين الفرنسيين الهاربين واجهوا خطراً آخر ألا وهو تقدُّم الفرسان الفرنسيين بعدَ انسحابهم، اصطدمَ الحشدُ الكبيرُ للنشابين الهاربين بجموعِ الفرسانِ التواقين للهجومِ على صهواتِ جيادهم، ولبرهةٍ من الزمنِ عمَّت الفوضى.

ذُهلَ رالف عندما رأى قوات العدو تقاتلُ بعضها بعضاً؛ فقد سحبَ الفرسانُ الفرنسيون سيوفهم وأخذوا يضربونَ النشابين الذينَ رموا سهامهم نحو الفرسانِ ثمَّ قاتلوا بسكاكينهم، كانَ على النبلاءِ الفرنسيين إيقاف المجزرةِ ولكن رالف رأى أنَّ أولئكَ الذينَ كانوا في دروعٍ باهظةٍ وعلى جيادٍ ضخمةٍ في المقدمةِ، يقاتلون قواتهم بغضبٍ لا مثيل لهُ.

دفعَ الفرسانُ بالرماةِ إلى موقعهم السابق أسفلَ الهضبةِ وأصبحوا على مرمى سهامِ الإنكليزِ مرَّةً أخرى، ومجدداً أشارَ أمير ويلز إلى الرماةِ الإنكليز بالإطلاقِ مجدداً لتضرب عاصفةٌ جديدةٌ من السهامِ الفرسان والنشابين الفرنسيين معاً، على مدارِ السنواتِ السبعِ من الحربِ لم يكن رالف قد رأى ما يشبهُ هذا: سقوطُ مئاتِ الأعداءِ بينَ قتيلٍ وجريحٍ دونَ أن يصابَ جندي إنكليزي واحد بأيِّ خدشٍ.

وأخيراً تراجعَ الفرسانُ الفرنسيون، ولاذَ بالفرارِ من بقي من الرُماةِ، واكتظَّ أسفلُ الهضبةِ حيثُ تمركزَ الإنكليز بالجثثِ، هرعَ ويلزيون وكرونويلليون في الجيشِ الإنكليزي بالسكاكين إلى أرضِ المعركةِ للإنهاءِ على الجرحى الفرنسيين، ولاستعادةِ السهامِ السليمةِ كي يستخدمها الرماةُ الإنكليز مرّةً أخرى، ولنهبِ الجثثِ أيضاً دونَ أدنى شكٍ، خلالَ هذا الوقتِ هرعَ فتيةٌ عداؤون إلى قافلةِ المعداتِ وجلبوا دفعاتٍ جديدةً من السهامِ إلى الخطوطِ الأمامية، وعمَّت فترةٌ من الهدوءِ إلا أنَّها لم تدم طويلاً، إذ وحَّدَ الفرنسيون صفوفهم مجدداً وعززوها بالمئاتِ والآلافِ من القواتِ الجديدةِ، عندما نظرَ رالف إلى القواتِ الفرنسيةِ الجديدةِ رأى أنَّ الكونت ألكون قد انضمَّ إلى قواتِ الفلاندريين والنورمانديين، تقدَّمت قواتُ الكونتِ إلى الأمامِ وعلت أصواتُ الأبواقِ، وبدأ الفرسان بالتحرك.

أنزلَ رالف غطاءَ خوذتهِ وسحبَ سيفَه، فكَّرَ بوالدتهِ كان يعلمُ أنَّها تصلي من أجلهِ كلما ذهبت إلى الكنيسةِ وانتابهُ شعورٌ دافئٌ بالامتنانِ لها، ثمَّ عادَ بنظرهِ إلى العدو.

انطلقت الجيادُ ببطءٍ كأنَّ وزن راكبيها ودروعهم تعيقها عن التقدمِ بسرعةٍ، انسكبت أشعةُ الشمسِ الغاربةِ على مقدمات خوذِ الفرنسيين وخفقت الراياتُ مع النسيمِ المسائي، وبشكلٍ تدريجي تصاعدَ وقعُ الحوافرِ ووتيرةُ الهجومِ مجدداً، أخذَ الفرسانُ يحثونَ جيادهم، وصرخَ بعضهم بينما لوحَ آخرون بسيوفهم ورماحهم، انقضوا كموجةٍ تضربُ الشاطئ وبدوا كأنَّهم يكبرون أكثر وأكثر مع اقترابهم. شعرَ رالف بفمهِ يجفُّ وبضرباتِ قلبهِ تتسارعُ كقرعٍ على طبلٍ كبيرٍ.

وعندما أصبحَ الفرنسيون ضمن مدى سهامِ الإنكليز أعطى أمير ويلز الأمرَ بالإطلاقِ لترتفع السهامُ في الهواءِ وتسقطَ على الفرنسيين كمطرٍ فتَّاكٍ.

كانَ المهاجمون مدرعين بالكاملِ ولذلكَ فإنَّ إصابتهم بسهمٍ في منطقةٍ ضعيفةٍ بينَ الصفائحِ المعدنيةِ ستكونُ بمنزلة ضربةِ حظٍ، ولكن جيادهم لم تكن محميةً سوى بخوذاتٍ وأوشحةٍ من السلاسلِ المعدنيةِ حول أعناقها وهذا يعني أنَّها كانت عرضةً لخطرِ الإصابةِ، كان الحصانُ الذي يصيبهُ سهمٌ في كتفيه أو على ردفهِ يخرُّ صريعاً أو يقع أو يدور على عقبيهِ ويحاول الفرار، ملأت أصواتُ الحيواناتِ المتألمة المكان وتسببَ الاصطدامُ بينها بسقوطِ المزيدِ من الفرسانِ

على الأرضِ متكومين إلى جانبِ جثثِ الرماةِ الجنويين، ومن كانوا في المؤخرةِ راوغوا بسرعةٍ كبيرةٍ قافزين فوقَ أجسادِ من وقعوا، ولكن تدفق الفرسان لم يتوقف فقد كان هناك الآلاف منهم، وبدأ مدى إطلاقِ الرماةِ الإنكليز يضيقُ شيئاً فشيئاً، ويستحيلُ مستقيماً أكثر فأكثر، وعندما غدا المهاجمون على بُعدِ مئةِ ياردةٍ انتقل الرماةُ الإنكليز إلى استخدامِ أنواعٍ مختلفةٍ من السهامِ برؤوسٍ فولاذيةٍ مسطحةٍ من شأنها أن تخترقَ الدرعَ بدلاً من استهدافِ نقاطٍ فيهِ، وباتَ بوسعهم الآن أن يقتلوا الفرسان رغمَ أن ضرباتٍ كهذهِ كفيلةٌ بقتلِ الحصانِ أيضاً، وهذا يعني أنّها ستكون ضرباتٍ جيدة.

إضافة إلى لزوجةِ الأرضِ بسببِ المطرِ واجهَ الفرسانُ الفرنسيون الآن الحفرَ التي حفرها الإنكليز في طريقهم مسبقاً، كانَ زخمُ حركةِ الجيادِ كبيراً جداً ولكنّ القلة منها فقط تجاوزت الحفرَ التي يبلغُ عمقها قدماً دونَ أن تقع، سقطَ العديدُ منها وألقت براكبيها أرضاً وأعاقت تقدّمَ جيادٍ أخرى وراءها.

حاولَ الفرسانُ المندفعونَ تفادي الرماة تماماً كما خططَ الإنكليز، فأصبحَ مسارُ الهجوم أضيق، وتحولَ إلى ساحةٍ لقتلِ الفرسانِ من كلا الجانبين.

كانَ هذا العنصرَ الأساسي في التكتيكِ الإنكليزي، وفي هذهِ اللحظةِ بالذات تجلّت الحكمةُ في إبقاءِ الفرسانِ الإنكليز مترجلين عن جيادهم؛ فلو أنهم كانوا على ظهورِ جيادهم لوجدوا صعوبةً في مقاومةِ دافعِ الانطلاقِ لمواجهةِ الفرسانِ الفرنسيين، وعندها سيضطرُ الرماةُ إلى التوقفِ عن إطلاقِ السهامِ خوفاً من إصابةِ أفرادٍ من جانبهم، ولكن ولأنَّ الفرسان والجنود ثبتوا في أمكنتهم نجحوا في ذبحِ العدو بالجملةِ، ومن دونِ إصابةٍ واحدةٍ في الجانبِ الإنكليزي.

ولكن هذا لم يكن كافياً فقد كانت أعدادُ الفرنسيين كبيرةً، وشجاعتهم أيضاً، فقد استمروا بالتدفقِ حتّى وصلوا أخيراً إلى صفِّ الفرسانِ الإنكليز والجنودِ المترجلين عن جيادهم بين صفين من الرماةِ، وهنا وقعَ القتالُ الحقيقي.

وصلت الجيادُ إلى الصفوفِ الإنكليزيةِ الأماميةِ إلّا أنَّ حركتَها كانت بطيئةً بسببِ الطريق صعوداً على هضبةٍ موحلةٍ. كانت أعدادُ الفرسان الفرنسيين قليلةً مقارنةً بأعدادِ الإنكليز المحتشدين بكثافةٍ أعلى الهضبةِ.

وفجأةً وجدَ رالف نفسه وسط معمعةِ القتالِ، حاول تجنُّبَ ضربات فتّاكةٍ من فرسانٍ على صهواتِ جيادهم ملوحاً بسيفهِ إلى قوائم الجيادِ بهدفِ إعاقتها بأكثرِ الطرقِ سهولةً وفاعليةً ألا وهي بترُ أوتار أقدامها، كانَ القتالُ على أشدّهِ؛

فالإنكليزُ لا يمكنهم الهرب والفرنسيون لا يستطيعونَ الانسحابَ لأنّهم سيواجهونَ مجدداً وابلَ السهامِ الفتاكةِ.

بدأ الرجالُ حول رالف بالتساقطِ؛ إمّا بضرباتِ السيوفِ أو الفؤوسِ الحربيةِ لتطأهم بعدها الحدواتُ الحديديةُ لجيادِ الحربِ الضخمةِ، رأى رالف الإيرل رولاند يقعُ بضربةِ سيفٍ فرنسي بينما قامَ ابنهُ الأسقفُ ريتشارد بالتلويحِ بصولجانهِ لحمايةِ والدهِ الذي سقطَ إلّا أنَّ حصاناً دفعَ بريتشارد جانباً ووطأت الجيادُ الإيرلَ.

أُجبرَ الإنكليز على التقهقرِ وأدركَ رالف أنَّ الفرنسيين يريدون النيلَ من أمير ويلز، ورغم أنَّ رالف لا يكنُّ أي شعورٍ نحو وريثِ العرشِ صاحبِ الامتيازاتِ الذي لم يتجاوز السادسةَ عشرة، فإنّه عرفَ أنَّ وقوعهُ في الأسرِ أو مقتلهُ سيكونُ بمنزلة ضربةٍ قاصمةٍ للمعنوياتِ الإنكليزيةِ، تحرَّكَ رالف يساراً وإلى الوراء وانضم إلى العديد ممن كثفوا حاجزَ المدافعين حولَ الأمير، ولكن الفرنسيين عززوا جهودهم، وعلاوةً على هذا، كانوا على صهوات جيادهم.

وجدَ رالف نفسهُ يُقاتلُ إلى جانب الأمير، وقد عرفهُ من سترتهِ التي خِيطت في أرباعٍ زرقاء وحمراء بطبعاتِ زهورٍ على أرضيةِ الأرباعِ الزرقاء وطبعات سوداء تمثلُ شعارَ النبالةِ على المربعاتِ الحمراءِ، وفجأةً تلقى الأميرُ ضربةَ فأسٍ من أحدِ الفرسانِ الفرنسيين وهوى أرضاً، كانت لحظةً رهيبةً.

اندفعَ رالف إلى الأمامِ وطعنَ المهاجمَ بسيفهِ الطويلِ فأصابهُ تحتَ إبطهِ حيثُ تلتقي صفائحُ الدرعِ، انتابهُ شعورٌ بالرضا عندما أحسَّ بالسيفِ يخترقُ اللحمَ والدم يتدفقُ من الجرحِ.

ساندَ شخصٌ آخر الأميرَ المصاب ملوحاً بسيفهِ الذي أمسكهُ بكلتا يديهِ في وجهِ الرجالِ والجياد على حدٍ سواء، رأى رالف أنَّ الرجلَ كان حاملَ رايةِ الأميرِ ويدعى ريتشارد فيتزسيمون وقد أوقعَ الرايةَ فوقَ سيدهِ المصاب، ولبرهةٍ من الزمنِ قاتلَ ريتشارد ورالف معاً وبشراسةٍ لحمايةِ ابنِ الملكِ دونَ أن يكونَ لديهما أدنى فكرة عما إذا كانَ حيّاً أم ميتاً.

وأخيراً وصلت التعزيزات، فقد ظهرَ إيرل أروندل مع قوةٍ كبيرةٍ من الجنودِ المستعدين للقتالِ، انضمَّ القادمُ الجديدُ إلى المعركةِ بكلِّ همةٍ وقلبوا موازينها، وبدأ الفرنسيون بالتقهقرِ.

وقفَ أميرُ ويلز على قدميهِ، بدا مصاباً إلّا أنَّ إصابتهُ لم تبدُ خطيرةً ولهذا

استدارَ رالف وتابعَ القتالَ، دام القتالُ بعد هذا لبرهةٍ وجيزةٍ ثمَّ انسحبَ الفرنسيون، وعلى الرغمِ من جنونِ التكتيكِ الذي اتخذوه فإنَّ شجاعتهم مكنتهم من تمزيقِ الصفِّ الإنكليزي بشكلٍ أو بآخر، وتقهقرَ الفرنسيون وسقطَ المزيدُ منهم وهم يتفادون سهامَ الرماةِ الإنكليزِ، ويتعثرونَ عبرَ الهضبةِ المخضبةِ بالدماءِ عائدين إلى صفوفهم وسطَ تهليلٍ فرحٍ ومنهكٍ من الإنكليز.

واندفعَ المقاتلون الويلزيون للمرة الثانيةِ باتجاهِ أرضِ المعركةِ ينحرون أعناقَ الجرحى ويجمعونَ آلافَ السهامِ، وبدورهم التقطَ الرماةُ السهامَ المستعملةَ لإعادةِ ملء مخزونهم، وخرجَ الطباخون من الخطوطِ الخلفيةِ حاملين أباريقَ الجعةِ والنبيذِ بينما اندفعَ الجراحونَ للعنايةِ بمن أصيبَ من النبلاء.

رأى رالف ويليام كاستر منحنياً فوقَ والدِهِ الإيرل رولاند، كانَ رولاند يتنفسُ ولكن بعينين مغمضتين وبدا شبهَ ميتٍ، مسحَ رالف سيفهُ الملطخ دماً بالأرضِ ورفعَ غطاءَ خوذتهِ الأمامي ليشربَ كأساً من الجعةِ، اقتربَ أمير ويلز منهُ وقال: «ما اسمكَ؟»

«رالف فيتزجيرالد من ويغلي يا سيدي».

«لقد قاتلت بشجاعةٍ يارالف، بحلولِ الغدِ ستُرسمُ فارساً إن قبلَ الملكُ بتزكيتي لكَ».

أضاءَ وجهُ رالف من السعادةِ وقالَ: «شكراً لكَ يا سيدي».

أومأ الأميرُ رأسهُ بتهذيبٍ وابتعدَ.

-50-

راقبت كاريس مجرياتِ المعركةِ من مكانها على الطرفِ الأقصى من الوادي ورأت كيفَ حاولَ النشابون الجنويون الهربَ وكيفَ قطعَ الفرسانُ الفرنسيون الطريقَ عليهم، ثمَّ شاهدت الهجومَ الكبير، وألوانَ راياتِ شارل ألونكون في مقدمةِ حشدٍ من آلاف الفرسانِ والجنودِ.

لم تكن كاريس قد شهدت معركةً قبلاً ولهذا شعرت بالاشمئزاز الشديد، سقطَ المئاتُ من الفرسانِ تحتَ وابلِ السهامِ الإنكليزيةِ وتحتَ حوافرِ جيادِ الحربِ الضخمةِ، ورغمَ أنّها كانت بعيدةً جداً، ولم ترَ المواجهاتِ بشكلٍ مباشرٍ فإنّها رأت السيوف تلمعُ والرجال يسقطون، أرادت البكاءَ بشدةٍ وبما أنّها راهبة

فقد رأت الكثير من الجروحِ الخطيرةِ لرجالٍ سقطوا عن سقالاتٍ عاليةٍ، أو آذوا أنفسهم بأدواتٍ حادةٍ، أو أصيبوا في حوادثَ خلالَ رحلاتِ الصيدِ، ولطالما شعرت بما شعروا به من ألمٍ عند خسارةِ يدٍ مبتورةٍ أو قدمٍ مكسورةٍ أو رأسٍ مهشمٍ، ولذلك كانَ شعورها بالتقززِ سببهُ رؤيةُ رجالٍ يتعمدون التسببَ بهذهِ الأذياتِ بعضهم لبعض.

خيلَ إليها ولفترةٍ طويلةٍ من الزمنِ أنَّ كفةَ القتالِ قد ترجحُ في أيِّ لحظةٍ، ولو أنَّها كانت في مدينتها تسمعُ أخبارَ الحربِ من بعيد لتمنت فوزَ الإنكليز، ولكن بعدَ كلِّ ما رأته على مدارِ الأسبوعين الماضيين شعرت بشيءٍ من الحياديةِ الخفيَّةِ، لم يكن بوسعها الانتصارُ للإنكليز الذين قتلوا الفلاحين وأحرقوا محاصيلهم، ولم يكن لارتكابهم هذه الفظائع في النورماندي أي دورٍ في البحثِ عن تبريرٍ لما فعلوه، بالطبعِ سيقولُ الإنكليز إنَّ الفرنسيين يستحقون هذا لأنَّهم أحرقوا بورتسماوث إلَّا أنَّها عدّت هذا التبرير غبياً جداً، والدليل على ذلك ما تراه من مشاهدِ رعبٍ أمامها الآن.

تراجعَ الفرنسيون وافترضت كاريس أنَّهم فعلوا هذا لإعادةِ توحيدِ صفوفهم وتنظيمِ أنفسهم، وانتظارِ وصولِ الملكِ لوضعِ خطةِ قتالٍ جديدةٍ، وكما بدا واضحاً لكاريس فمازال الفرنسيون متفوقين جداً بالعددِ، وآلافُ الجنودِ في الوادي مستمرون بالتدفقِ من دون توقف.

ولكن الفرنسيين لم يعيدوا توحيدَ صفوفهم، بل انخرطَ كل فيلقٍ جديدٍ في القتالِ مباشرةً مندفعين بشكلٍ انتحاري نحو منطقةِ تمركز الإنكليز، كانَ الهجومان الثاني والثالث أسوأ بكثيرٍ من الهجومِ الأول، جُرِحَ البعضُ بسهامِ الرماةِ قبلَ أن يصلوا إلى الخطِ الإنكليزي الأمامي بينما قضى آخرون على أيدي المشاةِ الإنكليز، وغدا أسفلُ الهضبةِ لامعاً بفعلِ دماءِ مئاتِ الرجالِ والجياد.

بعدَ انتهاءِ الهجومِ الأول توقفت كاريس عن مشاهدةِ المعركةِ، واكتفت بإلقاء نظرةٍ بينَ الحينِ والآخر، كانت مشغولةً بمعالجةِ الجرحى الفرنسيين المحظوظين بما يكفي ليخرجوا من ساحةِ المعركةِ، أدركَ الجراح مارتن أنَّ كاريس ماهرةٌ في ما تفعلهُ تماماً مثلهُ، لذلكَ منحها حريَّةَ استخدامِ معداتهِ وتركها هي ومير تعملان وحدهما وتغسلان وتخيطان وتضمدان الجروح ساعةً وراءَ أخرى.

وصلتهم أخبارٌ عن حدوث إصاباتٍ لشخصياتٍ مهمةٍ في الخطِ الأمامي، كانَ أول القتلى من النبلاءِ شارل ألونكون، ولم يكن بوسعِ كاريس كبحُ شعورها

بأنّه استحقَّ هذا المصير، لقد شهدت بنفسها على حماسِهِ الغبي وافتقارهِ إلى الانضباط، بعد ساعاتٍ وصلت الأخبارُ أنَّ ملك بوهيميا جان توفي، وتساءلت في نفسها عمَّا قد يدفعُ برجلٍ أعمى إلى ساحةِ معركةٍ.

«بحقِّ الرَّبِّ لم لا تتوقفون عن القتالِ؟» قالت كاريس لمارتن عندما أحضرَ لها كوباً من الجعةِ لتنعشَ نفسها بهِ.

«الخوف»، أجابها.

«إنهم يخافون العارَ، ستجلبُ لهم مغادرةُ أرضِ المعركةِ من دونِ تحقيقِ ضربةٍ موجعةٍ للإنكليز العارَ، ولذلكَ يفضلونَ الموتَ على هذا».

«وها قد حصلَ الكثيرُ منهم على ما تمنوه»، قالت كاريس متجهمةً ثمَّ أفرغت كأسها وعادت إلى عملها وهي تفكرُ بأنَّ فهمها ومعرفتها بالجسدِ البشري يتطوران بسرعةٍ، كانت قد رأت داخلَ كلِّ جزءٍ من أجزاءِ الجسدِ البشري: الدماغ تحتَ جمجمةٍ مهشمةٍ، وقنواتِ الحنجرةِ، وعضلات الذراعين المفتوحة، والقلب والرئتين تحتَ قفصٍ صدري مُهشم، والكتلةَ المخاطية للأمعاءِ، والمفاصلَ التي تربطُ العظام عندَ الأوراك والرُّكب والكواحل، خلالَ ساعةٍ واحدةٍ في أرضِ معركةٍ اكتشفت عن الجسدِ البشري أكثر مما اكتشفتهُ خلالَ سنةٍ في مستشفى الدير، وأدركت أنَّ الحلَّاق ماثيو قد حصلَ على معرفتهِ بهذهِ الطريقةِ، ولا عجبَ أنّه كانَ شديدَ الثقةِ بنفسهِ.

استمرَّت المذبحة حتَّى هبوطِ الليلِ، أشعلَ الإنكليز المشاعل خوفاً من أيِّ هجومٍ سري تحتَ غطاءِ الظلامِ إلا أنَّ كاريس رأت أنهم كانوا آمنين فقد كانَ الفرنسيون مهزومين، تمكنت كاريس من سماعِ نداءاتِ الجنودِ الفرنسيين وهم يمشطون ساحةَ المعركةِ بحثاً عن أيِّ نسيبٍ أو رفيقِ سلاحٍ مصابٍ، كانَ الملك قد وصلَ في الوقتِ المناسبِ وانضمَّ إلى الهجماتِ الأخيرةِ اليائسةِ قبلَ أن يغادرَ ساحةَ المعركةِ، وتبدأ القواتُ بالمغادرةِ جماعياً وراءهُ.

غطَّى ضبابٌ قادمٌ من النهرِ الوادي وحجبَ مشهدَ المشاعلِ الإنكليزيةِ البعيدةِ، تابعت كاريس ومير العملَ على تضميدِ الجروحِ على ضوءِ النارِ حتَّى وقتٍ متأخرٍ من الليلِ، ومن كانَ قادراً على السيرِ ولو بشكلٍ أعرجٍ غادرَ أرضَ المعركةِ حالما تمكنَ من هذا في محاولةٍ للابتعادِ عن الإنكليزِ قدرَ الإمكانِ وتجنُّبِ عمليةِ تنظيفِ غير رحيمةٍ لأرضِ المعركةِ صباحَ الغدِ، عندما قامت كاريس ومير بكلِّ ما بوسعهما للضحايا تسللتا بعيداً، كانت هذهِ فرصتهما.

توجهتا إلى حيث تُترك الجياد واقتادتا جواديهما على ضوءِ مشعلٍ قوي، وصلتا إلى أسفلِ الوادي ووجدتا نفسيهما في أرضٍ محايدةٍ، تسللتا تحتَ جنحِ الظلمةِ والضبابِ من دونِ ثيابِ التنكرِ باتجاهِ خطوطِ القواتِ الإنكليزيةِ، ولأنهما بدون سلاح وسطَ أرضٍ معركةٍ فقد كانتا، ولفترةٍ وجيزةٍ من الزمنِ، في خطرٍ كبيرٍ، ولكن ما من أحدٍ يستطيعُ رؤيتهما وسطَ هذا الظلامِ، عندما وضعتا أرديتهما الكنهوتية حزمتا ثيابَ التنكرِ في صندوقٍ في حالِ احتاجتا إليها مرَّةً أخرى في طريقِ العودةِ الطويلِ إلى الوطنِ.

قررت كاريس أن تتخلى عن المشعلِ كي لا يقرر أحدُ الرماةِ الإنكليز التصويبَ باتجاهِ الضوءِ قبلَ الاستفسارِ منهما عن وضعهما، تابعتا سيرهما ممسكة الواحدة بيد الأخرى، وبلجامي حصانيهما حتَّى لا تفترقا وسطَ الظلمةِ والضبابِ، لم تكونا قادرتين على رؤيةِ شيءٍ فالضبابُ حجبَ أي ضوءٍ قد يأتي من القمرِ أو النجومِ، صعدتا الهضبةَ باتجاهِ الخطوطِ الإنكليزيةِ، انبعثت في الأرجاءِ رائحةٌ أشبهُ برائحةٍ منبعثةٍ من دكانِ جزارٍ، غصَّت الأرض بجثثِ الجيادِ والرجالِ ولم يكن بوسعهما الالتفاف حولها لذلك سارتا فوقَ الجثثِ وهما تصرَّان على أسنانهما من القرفِ والتقززِ، وسرعانَ ما غطى مزيجٌ من الطين والدم حذاءيهما.

أخذَ عددُ الجثثِ على الأرضِ يتراجعُ شيئاً فشيئاً وسرعانَ ما عادتا للسير على أرضٍ مستويةٍ، وانتابَ كاريس شعورٌ كبيرٌ بالراحةِ حالما اقتربت من الجيشِ الإنكليزي، قطعت كاريس ومير مئات الأميالِ وعاشتا حياةً قاسيةً لأسبوعين وخاطرتا بحياتهما من أجلِ هذهِ اللحظةِ، وخلالَ كلِّ ما مرَّت بهِ كانت قد نسيت تماماً غضبها من سرقةِ غودوين لمئةٍ وخمسين جنيهاً من خزنةِ ديرِ الراهباتِ، وهو ما كانَ سببَ قيامها بهذهِ الرحلةِ، بعدَ حمامِ الدماءِ الذي شهدتهُ بدا لها أمرُ السرقةِ أقلَّ أهمّيةً، إلَّا أنَّه ما زال عليها التماس الأسقف ريتشارد ليحققَ العدالةَ للراهباتِ.

كان الطريقُ أطولَ مما توقعتهُ كاريس عندما نظرت إليه من الطرفِ الآخر للوادي في وضحِ النهار، وأخذت تتساءلُ في نفسها إن كانت قد ضلَّت وسلكت الاتجاه الخاطئ متجاوزةً الجيش الإنكليزي الذي قد يكونُ خلفها الآن، حاولت أن تصيخ السمعَ إلى أيّ ضجةٍ حولها؛ فلا يمكن لعشرةِ آلافِ جندي التزامُ الصمتِ حتَّى وإن خلدَ معظمهم إلى النومِ من شدةِ التعبِ، ولكن الضبابَ حجبَ الأصواتَ أيضاً.

تمسكت كاريس باعتقادها أنَّ الملكَ تمركزَ مع قواتِهِ في أعلى نقطةٍ، وأنَّها ما دامت تسيرُ صعوداً فهي تقتربُ منهم، ولكن كان عدمُ القدرةِ على رؤيةِ شيءٍ مثيراً للأعصابِ، ولو أن هناك حفرة أمامها لوقعت فيها على الفورِ.

أضفى ضوءُ الفجرِ المنبلج على الضبابِ بياضاً لؤلؤياً، وعندها تمكنتا أخيراً من سماعِ صوتٍ توقفت كاريس، كانَ رجلٌ يتحدثُ في همهمةٍ خفيضةٍ، اعتصرت مير يدها في توترٍ، سمعتا صوتَ رجلٍ آخرٍ يتحدث، لم يكن بوسعِ كاريس تبين اللغة التي كانا يتحدثان بها، وخشيت أن تكونَ قد سارت في دائرةٍ وعادت إلى المكانِ الذي تمركزَ فيهِ الفرنسيون.

التفتت كاريس باتجاهِ الصوتِ وهي ما زالت ممسكةً بيدِ مير، غدا الوهجُ الأحمر عبرَ الضبابِ الرمادي أكثرَ وضوحاً فتوجهت نحوه بسعادةٍ وامتنانٍ، وكلما اقتربت منه غدا الكلامُ أكثرَ وضوحاً وأدركت في راحةٍ كبيرةٍ أنَّ الرجلين يتحدثان الإنكليزيةِ، وبعدَ برهةٍ رأت مجموعةً من الرجالِ حولَ نارٍ، كان العديدُ منهم يغطُّ في النومِ متلفحاً بالبطانيات بينما جلسَ ثلاثةٌ منهم مقاطعين أرجلهم ينظرون إلى ألسنةِ النارِ ويتحدثون، ثمَّ رأت كاريس رجلاً يقفُ ويحدقُ في الضبابِ محاولاً تبيان شيءٍ، كان الرجلُ هو المسؤول عن مهمةِ الحراسةِ بلا شكٍ، ولكن حقيقةَ أنَّه لم يلحظ اقترابها هي ومير أكبرُ دليلٍ على صعوبةِ عملِهِ وسطَ الضبابِ.

ولتجذبَ انتباههم قالت كاريس بصوتٍ خفيضٍ: «بارككم الرَّبُّ يا رجالَ إنكلترا».

باغتت كاريس الرجالَ بما قالتهُ وأطلقَ أحدهم صرخةَ فزعٍ ثمَّ قال الحارسُ بعدَ برهةٍ: «من هنا؟»

«راهبتان من ديرِ كينغزبريدج»، قالت كاريس.

حدَّقَ الرجالُ نحوها في رعبٍ متطيرٍ وأدركت أنهم يعتقدون أنَّها ربما تكونُ شبحاً: «لا تقلقوا نحن راهبتان حقيقيتان، بلحمنا ودمنا، حقيقيتان تماماً كهذين الجوادين».

«هل قُلتِ كينغزبريدج؟» قالَ أحدهم متفاجئاً.

«أنا أعرفكِ»، قال وتابع واقفاً: «لقد رأيتكِ قبلاً».

وعرفتهُ كاريس ثمَّ قالت: «اللورد ويليام كاستر».

«أصبحتُ إيرلَ شايرنغ الآن»، قال ويليام، «لقد توفي والدي متأثراً بجراحهِ منذُ ساعةٍ».

«فلترقد روحهُ في سلامٍ، أتينا هنا لمقابلةِ شقيقكَ الأسقف ريتشارد المسؤول عن ديرنا».

«ولكنك تأخرتِ كثيراً»، قالَ ويليام وتابع: «فقد توفي أخي أيضاً».

***

في وقتٍ متأخرٍ من الصباحِ وعندما انقشعَ الضبابُ وأضاءت الشمسُ بأشعتها أرضَ المعركةِ التي بدت كمذبحٍ أخذَ الإيرل ويليام كاريس ومير لمقابلةِ الملك إدوارد.

ذُهلَ الجميعُ عندَ سماعِهم بقصّةِ الراهبتين اللتين لحقتا بالجيشِ الإنكليزي عبرَ النورماندي، وسُحرَ الجنودِ الذينَ واجهوا الموتَ البارحةَ بمغامراتهما. أخبرَ ويليام كاريس أنَّ الملكَ يرغبُ بسماعِ القصةِ منها شخصياً.

ورغمَ أنَّ الملكَ إدوارد كان في الثالثةِ والثلاثين من العمرِ فإنَّه يجلسُ على العرشِ منذُ تسعةَ عشرَ عاماً. كانَ رجلاً طويلاً وعريضَ المنكبين، وبدا مختالاً أكثر مما هو وسيم، وعلى وجههِ بأنفهِ الكبير وعظامِ وجنتيهِ العاليتين وشعرهِ الطويلِ والغزيرِ الذي بدأ ينحسرُ عندَ الجبهةِ تجلى اعتدادهُ بالسُلطةِ التي يملكها. عندما رأته كاريس فهمت سببَ إطلاق الناس عليهِ لقبَ الأسدِ.

جلسَ الملكُ في ثيابٍ أنيقةٍ على كرسي أمامَ خيمتهِ. كان يرتدي سروالاً بلونين مختلفين ورداءً ذا حواف مموجةٍ، ولا يحمل أيَّ درعٍ أو سلاحٍ فلم يعد هناك من أثرٍ للفرنسيين، وعلاوةً على هذا، أرسلَ الإنكليز فرقة ثأرٍ من الفرنسيين وهي الآن تلاحق فلولهم وتقتلهم، وهناك مجموعةٌ من البارونات التي تخلفت عن الجيش الفرنسي وذهبَ الإنكليز في إثرها.

وبينما كانت كاريس تقصُّ على الملكِ رحلتها هي ومير بحثاً عن الطعامِ والمأوى في أراضي النورماندي المنكوبةِ تساءلت في نفسها إن شعرَ الملكُ وهو يسمع قصةَ عنائها بنقدِها الخفي لما قامَ بهِ، ولكنه بدا كأنَّ معاناةِ الناسِ لم تكن تعنيه بل بدا سعيداً لسماعِ مغامراتها كأنّه يستمعُ إلى أحدٍ ما يصفُ شجاعتهُ في أثناء تحطمُ سفينةٍ ما.

أنهت كلامها بالتحدثِ عن خيبةِ أملها لدى اكتشافها وبعدَ كلِ المشاقِ التي قاستها أنَّ الأسقفَ ريتشارد الذي كانت تأملُ أن يحقق لها العدالةَ قد توفي.

«أرجو من جلالتكَ أن تطلبَ من رئيسِ دير كينغزبريدج أن يعيدَ إلى الراهباتِ المالَ الذي سرقهُ»، اختتمت كاريس كلامها.

ابتسمَ إدوارد في أسفٍ. «أنتِ امرأةٌ شجاعةٌ ولكنكِ لا تعرفين شيئاً عن السياسةِ»، قالَ لها في تعالٍ ثمَّ تابع: «لا يُمكن للملكِ أن يتورطَ في مثلِ هذهِ الخلافاتِ الكنسيةِ، لأننا لو فعلنا هذا سيطرقُ جميعُ أساقفتنا بابنا محتجين».

وفكرت كاريس أنَّ كلامهُ صحيحٌ ولكن هذا لم يُثنِهِ عن التدخلِ في أمورِ الكنيسةِ من أجلِ مصالحهِ الشخصيةِ، وقررت التزامَ الصمتِ وعدم قولِ شيءٍ في هذا الشأن.

وتابع إدوارد كلامهُ قائلاً: «ولن يكون تدخلنا في مصلحة قضيتكِ لأنَّ الكنيسةَ ستستشيط غيظاً، وسيقومُ كل كاهن في البلدِ بالاعتراضِ على الحكمِ بغضِ النظرِ عن مزاياه».

وفكرت كاريس بأنَّ كلامهُ هنا يحملُ شيئاً من الصحةِ أيضاً، إلَّا أنَّه لم يكن عاجزاً تماماً كما كان يتظاهر.

«أعلمُ أنكَ ستتذكرُ الراهبات المغبوناتِ في دير كينغزبريدج»، قالت كاريس ثمَّ تابعت: «عندما تُعينُ أسقفَ كينغزبريدج الجديد، من فضلكَ أخبرهُ بقصتنا».

«بالطبعِ»، قالَ الملك إلا أنَّ كاريس شعرت أنَّه سينسى.

بدت المقابلةُ كأنّها انتهت ولكن ويليام قال: «جلالةُ الملك، بعدَ أن تفضلت بمنحي منصبَ والدي هناكَ مسألةٌ مازالت عالقةً وهي من سيكون سيدَ كاستر».

«آه، أجل. ابننا، أمير ويلز، يقترحُ السير رالف فيتزجيرالد الذي نُصّبَ فارساً البارحة بعدَ إنقاذهِ لحياتهِ».

«أوه لا!»، دمدمت كاريس.

لم يسمعها الملكُ ولكن ويليام سمعها ويبدو أنَّه صُدمَ مثلها بما سمعَ ثمَّ قالَ ويليام دونَ أن يكونَ قادراً على ضبطِ احتقارهِ: «كانَ رالف خارجاً عن القانونِ وقد ارتكبَ العديدَ من السرقاتِ وأعمالِ القتلِ والاعتداءاتِ إلى أن حصلَ على العفو الملكي بانضمامهِ إلى جيشِ جلالتكَ».

لم يبدُ التأثر على الملكِ كما كانت كاريس تأملُ: «ولكن رالف يقاتل معنا منذُ سبعِ سنواتٍ وهو يستحقُ فرصةً ثانيةً».

«بالتأكيد يستحق»، قالَ ويليام بدبلوماسيةٍ وتابع: «ولكن بالنظرِ إلى المتاعبِ التي واجهناها معهُ في الماضي أرى أن يبقى على وضعهِ لعامٍ أو عامين قبلَ أن يصبحَ من النبلاءِ».

«حسناً، ستكونَ أنتَ سيدهُ ولهذا سيتعين عليكَ التعامل معهُ بنفسكَ»، قال

إدوارد. «لن نقومَ بفرضهِ عليكَ رغماً عنكَ ولكنَ الأمير مصرٌ جداً على مكافئتهِ بطريقةٍ ما» وفكرَ الملكُ لبرهةٍ من الوقتِ ثمَّ سأل: «أليسَ لديكَ نسيبةٌ مناسبةٌ للزواجِ منهُ؟»

«أجل، هناكَ ماتيلدا»، قال ويليام. «وندعوها باسمِ تيلي».

كانت كاريس تعرفُ تيلي فقد كانت الفتاة في مدرسةِ الديرِ.

«إنَّ لجلالتكَ ذاكرةً قويةً».

«فلتُزوج الليدي ماتيلدا إلى رالف وأعطهِ قرى والدها»، قالَ الملكُ.

ذُعرت كاريس مما سمعتهُ وبادرت إلى القولِ: «ولكنها في الثانية عشرة من العمر».

قال ويليام لها: «صمتاً!»

رمقها الملكُ إدوارد بنظرةٍ باردةٍ ثمَّ قال: «إنَّ أولادَ النبلاء يكبرونَ بسرعةٍ كبيرةٍ، كانت الملكةُ فيليبا في الرابعةَ عشرة عندما تزوجت منها».

علمت كاريس أنَّ عليها التزامَ الصمتِ ولكنها لم تستطع فعلَ هذا. كانت تيلي أصغر بأربعة أعوام من الابنةِ التي كانت ستنجبها كاريس من ميرثن لو أنها لم تجهضها ولذلك أضافت في يأسٍ: «هناكَ فرقٌ كبيرٌ بينَ الثانية عشرة والرابعة عشرة».

غدا الملكُ الشابُ أكثرَ برودةً وأجابها قائلاً: «في حضرةِ الملكِ الناسُ لا يعبرون عن آرائهم ما لم يُطلبْ منهم هذا، والملكُ لا يطلبُ مشورةَ النساءِ أبداً».

أدركت كاريس أنَّها لجأت إلى تكتيكٍ خاطئ؛ فلم يكن سببُ اعتراضها على زواجِ تيلي عُمرها الصغير بل شخصيةُ رالف.

«أنا أعرفُ تيلي»، قالت كاريس وأضافت: «لا يمكنكَ أن تزوجها إلى ذلكَ الفظِّ رالف».

وهمست لها مير في خوفٍ: «كاريس! لا تنسي مع من تتحدثين!»

نظرَ إدوارد إلى ويليام وقال: «خُذها معكَ إلى شايرنغ قبلَ أن تتفوهَ بأمرٍ لن أتمكن من غضِ النظرِ عنهُ».

أمسك ويليام بذراعِ كاريس وقادها في حزم بعيداً عن الملكِ ثمَّ لحقت مير بهما وسمعت كاريس الملك يقول: «فهمت الآن سبب نجاتها عبرَ النورماندي ووصولها إلى هنا، لا بد أن السكانَ المحليين كانوا مرتعبين منها». وضحكَ النبلاءُ من حولهِ.

«لا بد أنك مجنونةٌ»، همسَ ويليام بصوتٍ كالفحيحِ.

«لا بدَّ؟» قالت كاريس وكانوا قد أصبحوا بعيدين عن مسامعِ الملكِ الآن فأضافت بصوتٍ أعلى، «خلال الأسابيعِ الستةِ الماضيةِ كانَ الملكُ سبباً في موتِ آلافِ الرجالِ والنساءِ والأطفالِ وإحراقِ محاصيلِهم ومنازلهم بينما أنا أحاولُ إنقاذَ فتاةٍ في الثانيةَ عشرة من الزواجِ بقاتلٍ، هيا أيّها اللورد ويليام أخبرني، من هو المجنون فينا؟».

-51-

في عام 1347 كان الحصادُ شحيحاً في قريةِ ويغلي ولذلكَ قامَ سكانُ القريةِ بما يقومونَ بهِ عادةً في مثلِ هذهِ الأوقات وهو استهلاك كميةٍ أقل من الطعامِ وتأجيل شراءِ القبعاتِ والأحزمةِ والنوم متلاصقين من أجلِ الدفءِ، توفيت الأرملة هوبرتس وهي ما تزال شابةً، وماتت جيني جونز بسبب سعالٍ كان يمكن أن تنجو منهُ في عامٍ أفضل، وديفيد، طفلُ جوانا الحديث الولادةِ، كانَ يمكن أن يملك فرصةً في الحياةِ ولكنه توفي قبلَ عيد ميلادهِ الأول.

راقبت غويندا ولديها الصغيرين بعنايةٍ وحرصٍ. كان سام في الثامنةِ ويتمتع ببنيةٍ قويةٍ وضخمةٍ بالنسبةِ إلى فتى في مثلِ عمرهِ، قال لها الناسُ إنّه يمتلكُ ذات البنيةِ الجسديةِ لوالدهِ ولفريك إلّا أن غويندا تعرفُ أنَّ سامَ ورثَ هذهِ البنية الجسدية عن والدهِ الحقيقي رالف فيتزجيرالد، وعلى الرغمِ من بنيةِ سام القويةِ والضخمةِ فإنَّه بدا أكثرَ نحولاً مما كانَ عليهِ في شهرِ كانون الأول/ ديسمبر، أمّا ابنها الثاني ديفيد الذي سُمي على اسم عمِّهِ الذي مات غرقاً بانهيارِ جسر كينغزبريدج فقد كانَ في السادسةِ. كانَ ديفيد ضئيلَ البنيةِ وبشرتُه داكنة كوالدتهِ غويندا، لم يكن قوياً كشقيقهِ ولذلك تسبب الشحُّ في الطعامِ في إضعافهِ وعانى طوالَ الخريفِ من أمراضٍ خفيفةٍ كالزكامِ وحساسيةٍ جلديةٍ وسعالٍ.

اصطحبت غويندا الصبيّين معها عندما خرجت مع ولفريك للانتهاء من بذارِ قمحِ الشتاء في أرضِ بيركن، كانت الرياحُ القارسةُ تعصفُ في الحقولِ الزراعيةِ الشاسعةِ، وبينما كانت غويندا تنثرُ البذارَ في الأخاديدِ هشَّ سام وديفيد الطيورَ التي كانت تحاول اختطافَ بذور الذرةِ قبلَ أنْ يهيلَ ولفريك الترابَ فوقها، وبينما كان الصبيّان يركضان ويقفزان ويصرخان تأملت غويندا بإعجابٍ هاتين الهيئتين البشريتين المصغَّرتين اللتين حملتهما في بطنها، عندما تحولت مطاردةُ الطيورِ إلى لعبةٍ تنافسيةٍ بين الصبيين ابتهجت غويندا من روعةِ خيالهما؛ لقد

كانا جزءاً منها في وقتٍ ما إلا أنّهما الآن مستقلان، ولهما أفكارهما الخاصّة والمختلفة عن أفكارها.

بينما كان الصبيان يقفزان علقَ الطينُ بأقدامهما. كانَ هناك جدولُ ماءٍ سريع يحفُّ بالحقلِ الكبيرِ وفي طرفِهِ الطاحونةُ التي بناها ميرثِن منذُ تسعِ سنواتٍ، لطالما رافقهم الصوتُ البعيدُ لجعجعةِ مطارق الطاحونةِ الخشبيةِ في عملهم، يديرُ الطاحونة الآن أخوان غريبا الأطوارِ ويدعيان جاكِ وإلاي وكلاهما عازبان ولا يملكان أراضي، يساعدهما صبيٌ متدربٌ وهو ابن أختهما أيضاً، كانا الوحيدين من بينِ سكانِ القريةِ اللذين لم يقاسيا آثار الحصادِ الشحيحِ فقد استمر مارك ويبر بدفعِ أجورهما طوالَ الشتاءِ.

كانَ نهاراً شتائياً قصيراً، أنهت غويندا وعائلتها بذارَ الأرضِ عندما اكتست السماءُ بلونٍ رمادي وتلفعت الغابةُ البعيدةُ بحُمرةِ شمسِ الغروب الضبابيةِ، كان التعبُ والإنهاكُ قد نالا منهم جميعاً.

بقي لديهم نصفُ كيسٍ من البذارِ لذلكَ حملوهُ وعادوا بهِ إلى منزلِ بيركن، وعندما اقتربوا من المنزلِ رأوا بيركن قادماً من الجهةِ المقابلةِ يسيرُ بجانبِ عربةٍ جلست عليها ابنتهُ آنيت، كان بيركن وآنيت قد ذهبا إلى كينغزبريدج لبيعِ آخر ما تبقى من محصولِ التفاحِ والإجاصِ.

ما زالت آنيت تحتفظُ بقوامها الرشيق رغمَ أنّها الآن في الثامنةِ والعشرين من العمرِ ولديها طفلةٌ، بدت لافتة في ثوبها القصير بعضَ الشيءِ وشعرها المبعثر بطريقةٍ ساحرةٍ، لطالما اعتقدت غويندا أن آنيت تبدو سخيفةً وشاركتها جميعُ نساءِ القرية في هذا الرأي ولكن الرجالَ رأوا العكسَ.

صُدمت غويندا عندما رأت عربةَ بيركن ممتلئةً بالفاكهةِ، «ما الذي حدثَ؟» سألت غويندا بيركن.

تجهمَ بيركن وقال: «يعاني سكانُ كينغزبريدج من شتاءٍ قاسٍ مثلنا»، قال بيركن. «إنهم لا يملكونَ المالَ لشراءِ التفاحِ ولذلكَ سنضطرُ إلى صنعِ عصيرِ التفاحِ بهذهِ الكميةِ الكبيرةِ».

كانت أخباراً سيئةً فغويندا تعرفُ بيركن وتعرفُ أنّه لم يعد يوماً إلى المنزلِ بهذهِ الكميةِ من المنتجاتِ غير المُباعةِ.

رغم هذا لم تبدُ آنيت قلقةً بل مدَّت يدها لولفريك كي يساعدها على النزولِ من العربةِ، وعندما كانت تطأُ الأرضَ تعثَّرت وسقطت على ولفريك فاتكأت بيدها على صدرهِ.

«أووووه!» قالت آنيت وابتسمت لولفريك وهي تستعيدُ توازنها فاحمرَّ ولفريك من الحماسِ.

وفكرت غويندا في نفسها: «يا لكِ من عمياء وخرقاء!»

ودخلوا جميعاً إلى المنزلِ.

جلسَ بيركن إلى الطاولةِ وأحضرت لهُ زوجتهُ بيغي صحناً من العصيدةِ، اقتطعَ بيركن شريحةً كبيرةً من رغيفِ الخبزِ على الطاولةِ ثمَّ قدَّمت بيغي الطعامَ لعائلتها: آنيت أولاً ثمَّ زوجها بيلي هاورد ثمَّ شقيق آنيت روب وبعدها زوجةَ روب، ووضعتَ القليلَ من العصيدةِ لآمابيل، ابنةِ آنيت البالغة من العمرِ أربعَ سنواتٍ ولابني روب الصغيرين، ثمَّ دعت ولفريك وعائلتهُ للجلوسِ إلى الطاولةِ.

انقضَّت غويندا على العصيدةِ بشراهةٍ فقد كانت أشدَّ كثافةً من العصيدةِ التي تطبخها، والسبب هو أن بيغي تضعُ خبزاً بائتاً فيها وهذا ما لم يكن بإمكانِ غويندا فعلهُ في بيتها لأنَّ الخبزَ لا يبيت عندها أبداً، حصلَ أفرادُ عائلةِ بيركن على كؤوسٍ من الجعةِ ولم يُعرض على غويندا وولفريك أيٌّ منها؛ فحسنُ الضيافةِ في الأوقاتِ العصيبةِ يتوقفُ عند تقديم الجعةِ.

رغمَ أن بيركن مرحٌ في تعاملهِ مع زبائنهِ فإنَّه كانَ حاد الطباعِ في المنزلِ وهذا أضفى على المكانِ شعوراً مخيماً بالكآبةِ. تحدَّثَ بيركن بفتورٍ عن سوقِ كينغزبريدج، وعن أنَّ معظمَ التجار مروا بيوم عصيبٍ، وأنَّ الوحيدين الذين أبلوا جيداً هم باعةُ السلعِ الأساسيةِ كالذرةِ واللحمِ والملحِ، وأن ما من أحد يشتري قماشِ كينغزبريدج القرمزي الذي بات مشهوراً الآن.

بات الظلامُ حالكاً فأشعلت بيغي المصباحَ، أرادت غويندا العودةَ إلى المنزلِ إلا أنَّها كانت تنتظرُ هي وولفريك الحصولَ على أجرهما، أخذَ الصبيان يشاغبان ويركضان في أرجاءِ الغرفةِ ويصطدمان بالكبارِ.

«لقد حانَ وقتُ نومهما»، قالت غويندا رغمَ أنَّ الأمر لم يكن صحيحاً.

وفي النهايةِ قالَ ولفريك: «إن أعطيتنا أجرنا يا بيركن فسنغادر».

«ليسَ لدي مالٌ»، قالَ بيركن.

حدَّقت غويندا نحو بيركن فهو لم يقل أمراً مماثلاً منذُ بدأ ولفريك العملَ لديهِ منذُ تسعِ سنواتٍ.

«لا بد أن نحصلَ على أجرنا من أجلِ الطعامِ»، قال ولفريك.

«ألم تتناولوا القليلَ من العصيدةِ؟» قال بيركن.

استشاطت غويندا غضباً وقالت: «نحنُ نعملُ مقابلَ المالِ وليس مقابلَ العصيدةِ».

«حسناً، لا أملكُ مالاً»، كررَ بيركن: «ذهبنا إلى السوقِ لبيعِ التفاحِ ولكن ما من أحدٍ اشتراهُ ولذلكَ أصبحَ لدينا تفاحٌ أكثر مما نستطيع أكلهُ ولم نحصل على أيِّ مالٍ».

كانت غويندا مصدومةً بشدةٍ عجزت معها عن التفوه بكلمةٍ، لم يخطر ببالها قط أن بيركن سيعجزُ عن دفعِ المالِ لهما، وشعرت بخوفٍ أشبه بطعنةٍ عندما أدركت أنَّها عاجزةٌ عن القيامِ بأيِّ شيءٍ.

قال ولفريك بهدوءٍ: «حسناً، وما العملُ الآن؟ هل نعودُ إلى لونغفيلد ونستخرجُ البذار من الأرضِ؟»

«أدينُ لكما بأجرِ هذا الأسبوعِ»، قال بيركن، «سأدفعهُ لكما عندما تتحسنُ الأوضاعُ».

«وماذا عن أجرِ الأسبوعِ القادمِ؟»

«لن يكونَ لديَّ مالٌ لأجرِ الأسبوعِ القادمِ أيضاً، من أين تعتقد أنني أحصلُ على المالِ؟»

قالت غويندا: «سنقصدُ مارك ويبر فقد يقومُ بتشغيلنا في الطاحونةِ».

هزَّ بيركن رأسهُ وقالَ: «لقد تحدثتُ معهُ البارحة في كينغزبريدج وسألتهُ إن كانَ يستطيعُ تشغيلي معهُ وأجابَ بالرفضِ، ورغمَ أنَّه لا يبيعُ أيَّ قماشٍ الآن فإنَّه سيستمرُ بتشغيلِ جاك وإلاي والمتدرب الصغير ويُكدسُ القماشَ إلى أنَّ تتحسنَ الأمور، ولكن حتَّى ذلك الوقت فهو لا يستطيع تشغيلَ عمالٍ جددٍ».

بدا ولفريك مضطرباً وقال: «كيفَ سنعيشُ الآن؟ وكيفَ ستتمكنُ من الانتهاء من حراثةِ الربيعِ؟»

«يمكنكما العمل مقابلَ الطعامِ»، عرضَ عليهما بيركن.

نظرَ ولفريك إلى غويندا التي جاهدت لتكبحَ نفسها من التفوهِ بردٍّ هازئٍ، كانت هي وعائلتها في ورطةٍ كبيرةٍ، ولم تكن هذهِ اللحظةَ المناسبةَ لبدءِ عداواتٍ، فكّرت سريعاً واستنتجت بأنهم لا يملكون خياراً آخر؛ فإمَّا العمل مقابل الطعامِ أو التضور جوعاً، «سنعملُ مقابلَ الطعامِ وستدينُ لنا بأجرنا»، قالت غويندا.

هزَّ بيركن رأسهُ وقالَ: «يبدو اقتراحاً عادلاً...»

«ولكنَّه عادلٌ!»

«حسناً إنَّهُ عادلٌ ولكن لا أستطيعُ القبولَ بهِ فأنا لا أعرفُ متى سأحصلُ على المالِ، وقد يصلُ المبلغُ إلى الجنيه بحلولِ عيدِ العُنصرةِ! يمكنكما العملُ مقابلَ الطعامِ فقط».

«ستُضطرُّ إلى إطعامنا أربعتنا».

«أجل».

«وسيعملُ ولفريك فقط».

«لا أعلم...»

«تتعدى احتياجاتِ أيّ أسرةٍ الحاجةَ إلى الطعامِ فقط؛ فالأطفالُ بحاجةٍ إلى الثيابِ، والزوجُ بحاجةٍ إلى الأحذيةِ، إن لم تكن قادراً على دفعِ المالِ لي فسأضطرُ إلى البحثِ عن عملٍ آخر، لأوفرَ مثلَ هذهِ الاحتياجاتِ لعائلتي».

«كيفَ ستفعلين هذا؟»

«لا أعلم». وصمتت غويندا لبرهةٍ.

في الحقيقةِ لم تكن لديها أدنى فكرة عن الطريقةِ التي ستقومُ فيها بتوفير هذهِ الاحتياجاتِ، قاومت شعوراً بالهلعِ ثمَّ قالت: «قد أسألُ والدي عن الطريقةِ التي يديرُ بها أمورهُ».

وتدخلت بيغي هنا قائلةً: «لو كنتُ مكانكِ لما فعلتُ هذا؛ لأنَّ جوبي سيخبركِ أن تسرقي».

بوغتت غويندا بهذا الجواب وتساءلت في نفسها عن الحق الذي تملكهُ بيغي لتتصرف بهذا التعالي، لم يقم جوبي قط بتشغيلِ الناسِ ليخبرهم في نهايةِ الأسبوعِ أنّه غيرُ قادرٍ على الدفعِ لهم مقابلَ عملهم، ولكن غويندا لجمت نفسها واكتفت بالقولِ وبكلِ هدوءٍ: «رغمَ أنّه باعني إلى الخارجين عن القانون في وقتٍ ما فإنَّه نجحَ في إطعامي لثمانية عشرَ شتاء».

رفعت بيغي رأسها وبدأت فجأة بجمعِ الصحون عن الطاولةِ.

قال ولفريك: «يجب أن نغادر».

ولكن غويندا لم تتحرك من مكانِها، أيّا تكن الميزات التي قد تستطيعُ الحصول عليها من هذهِ الصفقةِ فلا بد أن تنالها الآن؛ لأنّها وحالما تغادرُ هذا

المنزلِ سيعتقدُ بيركن أنَّه أبرمَ صفقةً ولن يعود بالإمكانِ التفاوض معهُ مجدداً.
أمعنت غويندا في التفكيرِ، وتذكرت كيفَ أنَّ بيغي لم تقدم الجعةَ إلَّا لعائلتها ثمَّ قالت: «لن نقبلَ أن تطعمنا سمكاً بائتاً وجعةً مخففةً، ستطعمنا الطعامَ نفسهُ الذي تأكلهُ أنتَ وعائلتكَ، ستقدمِ لحماً وخبزاً وكل ما إلى هنالك».

ثمَّ عن بيغي صوتُ استهجانٍ، وتأكدت غويندا من صحةِ ظنونها حيالَ هذا.

أضافت غويندا: «هذهِ هي الصفقة إن أردت من ولفريك أن يقومَ بالعمل ذاته الذي يقومُ بهِ روب»، كانوا جميعاً يعلمونَ أنَّ ولفريك يعملُ أكثرَ من روب وأكثر من بيركن بمرتين.

«حسناً»، قال بيركن.

«وهذا إجراءٌ مؤقتٌ فحالما تحصل على المالِ ستعودُ إلى دفعِ أجرٍ لنا ووفقَ المبلغِ المتعارفِ عليهِ: بِنسٌ عن كلِّ يومِ عمل».

«أجل».

وحلَّ صمتٌ وجيزٌ قطعهُ ولفريك قائلاً: «هل انتهينا؟»

«أعتقدُ هذا»، قالت غويندا: «يجبُ أن تتصافح أنتَ وبيركن على إتمامِ الصفقةِ»، وتصافحَ الرجلان.

أخذت غويندا وولفريك طفليهما وغادرا، كانَ الظلامُ قد حلَّ في الخارجِ واختفت النجومُ وراءَ الغيومِ ولذلكَ اضطروا للاستعانةِ بالأضواءِ المتسللةِ من شقوقِ النوافذِ والأبوابِ للاهتداءِ إلى طريقهم، لحسنِ الحظِ كانوا قد قطعوا الطريقَ من منزلِ بيركن إلى منزلهم آلاف المراتِ ولهذا يحفظونهُ عن ظهر قلب.

أشعلَ ولفريك المصباحَ والنارَ في الموقد بينما وضعت غويندا الصبيين في السرير ليناما، على الرغمِ من وجودِ غرفٍ للنومِ في الطابقِ العلويِ، فإنَّهم ما زالوا يعيشون في الطابقِ الأرضي الكبير الذي عاشت فيهِ من قبل عائلةُ ولفريك، ورغم حجمِ المكانِ الكبير فإنهم كانوا ينامون في المطبخِ من أجلِ الدفءِ.

وبينما كانت غويندا تلفُّ الصبيَّين بالبطانياتِ قربَ النارِ انتابها شعورٌ باليأس، لقد كبرت وهي تحاولُ تجنبَ حياةِ القلقِ والعوزِ الدائمين التي عاشتها والدتها، كانت تطمحُ إلى الاستقلالِ مع قطعةِ أرضٍ وزوجٍ مُجدٍ وسيدٍ عقلاني بينما طموحُ ولفريك الوحيد هو استعادةُ أرضِ والدهِ، لقد فشلا في تحقيقِ هذهِ التطلعاتِ فها هي الآن تعيشُ في فاقةٍ وزوجها فلاحٌ من دونِ أرضٍ ويعملُ لدى شخصٍ لا يمكنهُ دفع بنسٍ له يومياً، لقد انتهى بها الأمرُ لتلاقي المصير ذاتهُ

الذي لاقتهُ والدتها، وأثارَ فيها هذا شعوراً بمرارةٍ كبيرةٍ كادت تفجرُ الدموع من عينيها.

أخذَ ولفريك قارورةً فخاريةً من على الرَّفّ وسكبَ بعضَ الجعةِ في كأسٍ خشبي: «فلتتمتع بمشروبكَ»، قالت لهُ بمرارةٍ: «لن تتمكن من شراءِ الجعةِ لنفسكِ لفترةٍ من الزمنِ».

وفي رغبةٍ بفتحِ حديثٍ قالَ ولفريك: «من المذهلِ حقاً أنَّ بيركن لا يملك المالَ، إنّه أغنى رجلٍ في القريةِ بعدَ نيثان ريف».

«يملكُ بيركن المالَ»، قالت غويندا «هناك جرَّةٌ من البنساتِ الفضيَّةِ تحت الموقدِ، لقد رأيتها».

«إذاً، لماذا لا يريدُ أن يدفعَ لنا؟»

«لا يريدُ أن يسحب من مدخراتهِ».

بوغتَ ولفريك بما سمعهُ: «ولكنه يستطيعُ أن يدفعَ لنا إن أرادَ هذا؟»

«بالطبعِ».

«إذاً، لما عليَّ العمل مقابلَ الطعامِ؟»

نمَّت عن غويندا زمجرةٌ تشي بالضيقِ من بطءِ ولفريك في فهمِ ما يجري: «لأنَّ البديل هو ألا نعمل».

وهنا بدأ ولفريك يشعرُ بأنَّهما خُدعا: «كان علينا أن نصرَّ على تقاضي المالِ مقابلَ العملِ».

«لمَ لم تفعل هذا؟»

«لم أكن أعلمُ بأمرِ الجرَّةِ المليئةِ بالبنساتِ الفضيةِ تحتَ الموقدِ».

«بحقِ الرَّبِّ هل تعتقدُ أنَّ رجلاً غنياً كبيركن سيُصابُ بالفاقةِ بعدَ عجزهِ عن بيعِ حمولةٍ من التفاحِ؟ إنَّه أكبرُ مالكٍ للأراضي في ويغلي منذُ عشرةِ أعوامٍ بعدَ أن وضعَ يدهُ على أرضِ والدكِ، ولذلك فإنَّه يملكُ مدخراتٍ من كلِّ بدٍ!»

«أجل، أفهم هذا».

حدَّقت غويندا إلى النارِ بينما أنهى ولفريك مشروبهُ ثمَّ ذهبا إلى النومِ. أحاطها ولفريك بذارعيه وأراحت رأسها على صدرهِ، لم تكن راغبةً بممارسةِ الحب معهُ فقد كانت غاضبةً جداً، قالت في نفسها إنَّها لا تريدُ أن تصبَّ جامَ هذا الغضبِ على زوجها، لم يكن ولفريك من خذلها بل بيركن، ولكنها كانت غاضبةً من ولفريك

أيضاً... كانت غاضبةً منهُ بشدَّةٍ، وعندما شعرت بهِ يستسلمُ للنومِ شيئاً فشيئاً أدركت أنَّ غضبها منهُ لم يكن بسببِ أجرهما فهذا النوعُ من المصائبِ يحدثُ للجميعِ بينَ الفينةِ والأخرى كمصيبةِ الطقسِ الرديء أو عفنِ الشعير.

ولكن ما سببُ غضبها منهُ؟

وتذكرت الطريقةَ التي وقعت فيها آنيت على ولفريك عندما كانت تترجلُ عن العربةِ، وعندما تذكرت ابتسامةَ آنيت اللعوبةَ وإحمرار وجهِ ولفريك من السعادةِ رغبت بشدةٍ في صفعهِ، وفكرت في نفسها: «أنا غاضبةٌ منكَ لأنَّ تلكَ المغناج التافهة والسخيفة جعلتكَ تبدو كغبي».

***

في الأحدِ السابقِ لعيدِ الميلاد وبعد انتهاء مراسمِ الصلاةِ عُقدت محاكمةٌ في الكنيسةِ، كانَ الجو بارداً واحتشدَ سكانُ القريةِ بعضهم قربَ بعض متلفّعين بعباءاتهم وبطانياتهم، كانَ نيثان ريف المسؤول الآن فسيدُ القريةِ رالف فيتزجيرالد لم يظهر منذُ سنواتٍ، وفكرت غويندا في نفسها أنَّ هذا أفضل، علاوةٍ على هذا، كانَ رالف قد أصبحَ فارساً وسيداً على ثلاثِ قرى أخرى، ولهذا لن يعير اهتماماً كبيراً لأمورٍ تافهةٍ كتزويجِ الثيرانِ ورعي الأبقارِ.

توفي ألفريد شورتهاوس خلالَ هذا الأسبوع وقد كانَ أرملاً من دونِ أطفال ويملكُ من الأراضي عشرة فدادين. «ليسَ لدى ألفريد ورثةٌ شرعيون»، قال نيثان ثمَّ أضاف: «وبيركن مستعدٌ لأخذِ أرضهِ».

فوجئت غويندا بما سمعتهُ. كيف يمكن لبيركن أن يفكرَ بأخذِ المزيدِ من الأراضي؟ كانَت مصعوقةً جداً إلى درجةٍ عجزت معها على الإتيانِ بردٍ مباشرٍ، وانبرى آرون آبلتري عازفُ القربةِ أولاً إلى الحديث قائلاً: «بدأت صحةُ ألفريد بالتدهورِ منذُ الصيفِ ولذلك لم يقم بالفلاحةِ في الخريفِ أو ببذرِ القمحِ في الشتاءِ، يجبُ القيامُ بكلِ هذهِ الأعمالِ وبيركن لا يستطيعُ القيامُ بها لأن لديه الكثير من الأراضي».

قال نيثان بعدائيةٍ: «هل تطالبُ بالأرضِ لنفسكَ؟»

هزَّ آرون رأسهُ وقال: «ربما بعدَ بضعِ سنواتٍ عندما يكبرُ أولادي كفايةً لمساعدتي قد أسارعُ لانتهازِ مثلِ هذهِ الفرصِ، ولكني حالياً عاجزٌ عن العملِ فيها وحدي».

«يمكنني العملُ في الأرضِ»، قال بيركن.

اكفهرَّ وجهُ غويندا فقد بدا واضحاً أنَّ نيثان يريد إعطاءَ الأرضِ لبيركن، ولا شكَّ أنَّ بيركن وعدَهُ برشوةٍ. كانت غويندا تعلمُ طوالَ هذا الوقتِ أنَّ بيركن يملكُ المالَ إلا أنَّها لم تكن مهتمةً جداً بفضحِ خداعِ بيركن بل بالطريقةِ التي يمكنها استغلالُ هذا الموقفِ لمصلحتها وإنقاذِ عائلتها من الفقرِ.

قال نيثان: «يمكنكَ أن تستعينَ بعاملٍ آخر يا بيركن».

«انتظر قليلاً»، قالت غويندا وأضافت: «لا يُمكن لبيركن دفعُ المالِ لعمالهِ الحاليين فكيفَ لهُ بامتلاكِ المزيد من الأراضي؟»

بوغتَ بيركن بكلامِ غويندا ولأنَّه لم يكن قادراً على إنكارِ صحةِ ما قالتهُ لزمَ الصمتَ.

قال نيثان: «إذاً، من يستطيعُ أخذَ الأرض»

قالت غويندا على عجلٍ: «سنأخذها».

بدا نيثان متفاجئاً.

ثمَّ أضافت غويندا على عجلٍ: «يعملُ ولفريك مقابلَ الطعامِ وأنا عاطلةٌ عن العملِ، ونحنُ بحاجةٍ إلى الأرضِ».

لاحظت غويندا أن العديدَ من الحاضرين يهزون رؤوسهم في إقرارٍ على صحةِ كلامها، لم يرق لأحدٍ في القريةِ ما فعلهُ بيركن، وكانوا جميعاً يخشون من ذلكَ اليوم الذي سيواجهون فيه الموقفَ عينهُ.

رأى نيثان الخطرَ يحيقُ بخطتهُ ولذلك سارع إلى القولِ: «لا يمكنكما دفعُ رسم استئجارِ الأرضِ؟»

«سندفعهُ بالتقسيط»، أجابت غويندا.

هزَّ نيثان رأسهُ رافضاً. «أريدُ مستأجراً قادراً على دفعِ الرسمِ كاملاً وعلى الفورِ»، قال نيثان وهو ينظرُ من حولهُ إلى أفرادِ القريةِ المجتمعين، ولكن ما من أحد تطوع لأخذِ الأرض. «ديفيد جونز؟»

كان ديفيد جونز رجلاً في منتصفِ العمرِ وأبناؤهُ يملكون أراضي خاصَّةً بهم. «كنتُ سأوافق لو أن هذا حدثَ في العامِ الماضي»، قال ديفيد، «ولكنَّ هطول المطرِ في موسم الحصادِ قضى علي».

عادةً كانَ عرضُ عشرِ فدادين إضافية كفيلاً بإطلاقِ سباقٍ محموم بين سكانِ القريةِ الطامحين إلَّا أن هذا العام لم يكن عاماً جيداً على القرويين ولكن غويندا وولفريك مختلفان عن البقيةِ. أولاً، لم يتوقف ولفريك عن التوقِ إلى الحصولِ

على أرضٍ له فقط، ورغمَ أنَّ أرضَ الأرمل ألفريد لم تكن أرضَ والدِهِ التي كانت إرثهُ الشرعي إلّا أنّها ستكون أفضل من لا شيء، وثانياً كانت غويندا وولفريك يائسين جداً بسبب وضعهما الحالي.

وهنا قال آرون أبلتري: «أعطها لولفريك يا نيثان، إنَّه عاملٌ مُجدٌ وسينتهي من الحراثةِ في الموعدِ. علاوةً على هذا يستحقُّ ولفريك وزوجتهُ بعضَ الحظِ الجيدِ فقد نالهما من المصائب ما يكفي».

بدا نيثان منزعجاً ولكن صخبَ موافقةِ الفلاحين على كلام آرون كان عالياً، وعلى الرغمِ من فقرِ حال ولفريك وغويندا فإنهما كانا يحظيان باحترامٍ كبيرٍ بين القرويين.

حملت هذهِ اللحظةُ مزيجاً من العواملِ التي من شأنها وضعُ غويندا وعائلتها على الطريقِ نحو حياةٍ أفضل ولذلك شعرت بالحماسِ يتعاظمُ في داخلها عندما رأت فرصة الحصولِ على هذهِ الحياةِ سانحةً الآن.

ولكن الشك في صوابِ القرارِ لم يبارح نيثان ولذلك قال: «إنَّ السير رالف يكرهُ ولفريك».

وضعَ ولفريك يدهُ على خدهِ وتلمّس الندبةَ التي تركها سيفُ رالف على وجههِ.

«أعلم»، قالت غويندا ثمَّ أضافت: «ولكن رالف ليسَ هنا».

-52-

بعدَ وفاةِ الإيرل رولاند في معركةِ سيرسي بيومٍ ترقّى العديدُ من الناسِ على السُلَّمِ الاجتماعي. أصبحَ ابنه الأكبر ويليام إيرل وسيِّدَ مقاطعة شايرنغ والعامل بأمرِ الملكِ، بينما أصبحَ نسيبُ ويليام السير إدوارد كورتهوس لورد كاستر وسيداً على أكثر من أربعين قريةً بصفتهِ مستأجراً لدى الإيرل وانتقلَ إلى منزلِ ويليام وفيليبا في كاسترهام، أمّا السير رالف فيتزجيرالد فقد أصبحَ لورد قريةِ تينش.

خلالَ الأشهر الثمانية عشر التاليةِ لم يعد أحدٌ منهم إلى الوطنِ فقد كانوا مشغولين بالتنقلِ مع الملكِ وقتلِ المدنيين الفرنسيين، وفي عام 1347 وصلت الحربُ إلى طريقٍ مسدودٍ. وضعَ الإنكليز أيديهم على ميناءِ كاليهِ الهام ولكن لم يعد لديهم ما يفتخرون بانجازهِ بعدَ عشرِ سنين من الحربِ سوى الغنائمِ الكثيرةِ التي حصلوا عليها.

في كانون الثاني/ يناير من عام 1348 وضعَ رالف يدهُ على ملكيتِه الجديدةِ، كانت تينش قريةً كبيرةً مؤلفةً من مئةِ عائلةٍ من الفلاحين إضافةً إلى قريتين صغيرتين قريبتين منها، واستعادَ رالف أيضاً حُكمه لقريةِ ويغلي التي لم تكن تبعد عن تينش سوى نصف يومٍ على الحصانِ.

شعرَ رالف وهو يدخلُ قريةَ تينش بنشوةِ الفخرِ تسري في أوصالهِ فقد كان يتطلعُ قُدماً إلى هذهِ اللحظةِ. انحنى لهُ الأقنانُ وحدَّق به أطفالهم في إعجابٍ. كانَ سيداً على الجميعِ هنا ومالكاً لكلِّ شيءٍ في المكانِ.

يقعُ قصرُ السيد في تينش وسطَ مُجمّعٍ كبيرٍ من المباني، وبينما كانَ رالف يقتربُ منهُ مع عربةٍ مُحملَّةٍ بالغنائم الفرنسيةِ لاحظ رالف على الفور أنَّ الجدران الدفاعية في المكانِ متداعيةٌ، وتساءَلَ في نفسهِ إن كانَ عليهِ ترميمها، عموماً أهملَ حُكامُ النورماندي تعزيزَ دفاعاتهم وسهَّلَ هذا على إدوارد الثالث إلحاقَ الهزيمةِ بهم، ولكن من جهةٍ أخرى كانَ احتمالُ تعرّضِ الجنوبِ الإنكليزي إلى غزوٍ في الوقتِ الراهنِ ضعيفاً جداً، عندَ بدايةِ الحربِ قُضي على القواتِ الفرنسية في ميناءِ سلوييه، وهذا بدورهِ أحكمَ قبضةَ الإنكليز على القناةِ البحريةِ التي تفصلُ بينَ البلدين. وباستثناءِ الغارات الثانويةِ للقراصنةِ غير المحسوبين على أيٍّ من الطرفين وقعت جميعُ المعاركِ اللاحقةِ لمعركةِ سلوييه على الأراضي الفرنسيةِ، بعدَما أخذَ كل هذا بعينِ الاعتبارِ وجد رالف أن إعادةَ ترميمِ جدرانِ المُجمّعِ لا تستحقُ أي عناءٍ.

عندما وصلَ إلى القصرِ خرجَ العديدُ من سائسي الخيلِ وأخذوا الجيادَ للاعتناءِ بها، تركَ رالف آلان فيرنهيل معهم ليُشرفَ على عمليةِ تفريغِ عربةِ الغنائمِ وسارَ باتجاهِ قصرهِ الجديد، كان يعرجُ لأنَّ ساقهُ المصابةُ تؤلمهُ كثيراً بعدَ قضاءِ وقتٍ طويلٍ على ظهرِ الجوادِ، كان قصرُ السيد في تينش عبارة عن منزلٍ حجري، ولاحظَ رالف في رضا أنَّ البناء مُبهرٌ رغمَ أنَّه كان بحاجةٍ إلى بعضِ الإصلاحاتِ، وهذا أمرٌ طبيعي فالمكانِ مهجورٌ منذُ وفاةِ والدِ الليدي ماتيلدا، كانَ المنزلُ مصمماً بطريقةٍ عصريةٍ، في المنازلِ التقليديةِ الطرازِ تقعُ غرفةُ السيدِ، وهي أهمُّ جزءٍ في المنزلِ، في نهايةِ القاعةِ الكبيرةِ إلا أنَّ رالف لاحظَ من الخارجِ أنَّ الغرفَ الخاصةَ تشغلُ نصفَ مساحةِ المبنى، دخلَ رالف إلى القاعةِ وتضايقَ عندما رأى اللورد ويليام هناك.

في إحدى زوايا القاعةِ كان كرسيٌّ كبيرٌ مصنوعٌ من خشبٍ داكنٍ، ونُقشت عليهِ ببراعةٍ رموزٌ تشي بالقوةِ فهناك ملائكةٌ وأسودٌ على ظهرِ وذراعي الكرسي

وأفاعٍ ووحوش على قوائمهِ، كان الكرسي الخاص بسيدِ القصرِ دونَ أدنى شكٍ إلّا أنَّ ويليام جلسَ عليهِ.

عندَ رؤيتِهِ لهذا المشهد تبخَّرت السعادةُ التي غمرت رالف قبلَ قليل فهو لن يستطيعَ التمتعَ بسلطتِهِ هنا وتحت ناظري سيدهِ، كانَ الأمرُ أشبهَ بالنومِ مع امرأةٍ بينما زوجها يسترقُ السمعَ من وراءِ البابِ.

أخفى رالف استياءَهُ وحيَّا الإيرل ويليام بشكلٍ رسمي، قدَّم الإيرل إلى رالف رجلاً وقفَ إلى جانبِهِ: «هذا دانييل وهو الوكيل هنا منذُ عشرين عاماً. لقد اعتنى بالمكانِ نيابةً عن والدي طوالَ فترةِ طفولةِ تيلي».

حيَّا رالف الوكيلَ بجفافٍ. كانت رسالةُ ويليام واضحةً؛ إنَّه يريدُ بقاء دانييل في منصبِهِ، ولكن دانيـيل خدمَ الإيرل رولاند قبلاً وها هو يصبحُ خادم الإيرل ويليام الآن، ولذلك لم يكن لدى رالف النية في السماحِ لخادمِ الإيرلِ بأن يديرَ ملكيتهُ فهو يريد الوكيل خادماً مخلصاً لهُ وحدَهُ.

انتظرَ ويليام في ترقبٍ ردَّ رالف على ما قالهُ بخصوصِ ويليام، ورالف بدروهِ لم يكن راغباً بالدخولِ في نقاشٍ كهذا الآن، قبلَ عشرِ سنواتٍ كانَ رالف سيسارع إلى التورط في أيِّ جدالٍ إلّا أنّه تعلَّمَ الكثير من الوقت الذي قضاهُ بصحبةِ الملكِ، لم يكن مُلزماً بالحصولِ على موافقةِ سيدهِ الإيرل على الوكيل الذي سيختارهُ، ولهذا لن يحاولَ فعلَ هذا، وقررَ التزامَ الصمتِ حيالَ الأمرِ إلى أن يغادرَ ويليام، وعندها سيُخبرُ دانييل أنّه مُكلفٌ بمهامٍ أخرى.

ولبرهةٍ من الزمنِ التزمَ ويليام ورالف الصمتَ في عنادٍ واضحٍ إلى أن قطعهُ صوتُ قفلٍ يُفتح، ومن بابٍ عظيمٍ في الجهةِ التي تُفضي إلى غرفِ المنزلِ ظهرت الليدي فيليبا بقوامها الرشيق، كانت قد مرَّت سنواتٌ عديدةٌ مُذ رآها رالف آخر مرَّةٍ إلا أنَّ شغفهُ القديم بها عصفَ بهِ بشكلٍ صادمٍ ومفاجئٍ كلكمةٍ تسلبُ منهُ أنفاسهُ، كانت أكبرَ عمراً الآن، في الأربعين على الأغلب، إلا أنّها كانت في قمةِ بهائها، قد تكون الآن أسمن بقليلٍ مما كانت عليهِ في الماضي وردفاها أكثرَ استدارةً وثدياها أكثرَ امتلاءً إلا أنَّ هذا أضفى سحراً إضافياً على سحرها الأصلي، عبرت فيليبا القاعةَ كالملكةِ وتساءلَ رالف في نفسهُ بكلِّ امتعاضٍ عن سببِ عدمِ حصولهِ على زوجةٍ مثلها.

في ما مضى كانت بالكادِ تلاحظُ وجودهُ إلا أنّها اليوم ابتسمت وصافحتهُ ثمَّ قالت: «هل تعرفت على دانييل؟»

إذاً، هي أيضاً تريدهُ أن يُبقي على خادمِ الإيرل وهذا سببُ تصرفها بلباقةٍ، وفكَّرَ رالف بسعادةٍ أنَّه بات يملكُ سبباً إضافياً للتخلصِ من الرجلِ «لقد وصلتُ للتو»، قال رالف على نحو مبهمٍ.

قالت فيليبا موضحةً سببَ وجودهما: «أردنا أن نكونَ هنا عندما تلتقي بالصغيرةِ تيلي فهي فردٌ من العائلةِ».

كانَ رالف قد أمرَ راهباتِ ديرِ كينغزبريدج بإرسالِ خطيبتهِ إلى هنا اليوم للقائها، لا بد أن الراهبات المتطفلات أخبرن الإيرل ويليام بما حدثَ، «كانت الليدي ماتيلدا تحتَ وصايةِ الإيرل رولاند فلترقد روحهُ في سلامٍ»، قال رالف مشدداً على فكرةِ أنَّ الوصايةَ انتهت بموتِ رولاند.

«هذا صحيح وقد توقعتُ أن ينقلَ الملكُ وصايتها إلى زوجي بصفتهِ وريثَ الإيرل»، بدا واضحاً أن فيليبا كانت تفضلُ أن يقوم الملكُ بمثلِ هذا الإجراء.

«ولكنه لم يفعل»، قال رالف: «لقد أعطاني إياها كزوجةٍ»، ورغمَ عدمِ إجراءِ أيِّ مراسم زفاف حتَّى الآن فإنَّ الفتاة أصبحت تحت وصايةِ رالف على الفورِ، بالمختصرِ لم يكن من شأنِ ويليام وفيليبا القدوم إلى هنا اليوم ولعب دور والدي تيلي، ولكن ويليام سيدُ رالف ويستطيعُ القدوم إلى هنا متى شاء.

لم يكن رالف يرغبُ بالدخولِ في جدالٍ مع ويليام الذي لن يجدَ صعوبةً أبداً في عرقلةِ حياةِ رالف، ولكن من جهةٍ أخرى كانَ الإيرل الجديد يبسطُ سلطتهُ هنا، وبضغطٍ من زوجتهِ أغلبَ الظنِ، ولكن رالف لن يسمحَ لهما بالتنمرِ عليهِ، لقد منحتهُ السنوات السبع الماضيةُ الثقةَ اللازمة للدفاعِ عن هذا الاستقلال الذي استحقهُ.

على أيِّ حالٍ كانَ رالف يستمتعُ بالجدالِ مع فيليبا لأنَّ هذا يبررُ تحديقهُ بها، استقرَّت نظراتهُ على فكها القوي وشفتيها الممتلئتين، ورغم تعاليها عليهِ فإنَّها كانت مجبرةً على الحديثِ معهُ، وكانت هذهِ أطولَ محادثةٍ بينهما.

«إنَّ تيلي صغيرةٌ جداً»، قالت فيليبا.

«ستبلغُ الرابعةَ عشرة هذا العام»، قال رالف: «وقد تزوجت ملكتنا بملكنا عندما كانت في مثلِ عمرها، كما أشارَ الملكُ لي وللإيرل ويليامَ بعدَ معركة سيرسي».

«قد لا تكونُ اللحظة اللاحقةُ لانتهاءِ معركةٍ اللحظةَ المُثلى لتحديدِ مصيرِ فتاةٍ صغيرةٍ»، قالت فيليبا بصوتٍ خفيضٍ.

لم يكن رالف ليسمحَ لهذهِ الملاحظةِ أن تمرَّ مرورَ الكرامِ: «بالنسبةِ لي أجدُ نفسي مُلزماً بإطاعة قرارات جلالةِ الملكِ».

«ونحن كذلكَ أيضاً»، دمدمت فيليبا.

أدركَ رالف أنَّه أطاحَ بها وشعرَ بنشوةٍ جنسيةٍ كأنَّه قام بمضاجعتها، وبكلِّ رضا التفتَ رالف نحو دانييل وقال: «ستصلُ عروسي بحلولِ موعدِ العشاءِ فلتحرص على إقامةِ وليمةٍ».

قالت فيليبا: «لقد أمرت بهذا».

أدارَ رالف رأسهُ ببطءٍ إلى أن أصبحَ نظرهُ على فيليبا، لقد تخطَّت حدودَ اللباقةِ بدخولها إلى مطبخهِ وإعطاءِ الأوامرِ.

أدركت فيليبا هذا الآن، فاحمرَّ وجهها حرجاً ثمَّ قالت تبررُ ما فعلتهُ: «لم أكن أعلمُ بموعدِ وصولكَ إلى هنا».

لم يقل رالف شيئاً فهي لن تعتذرَ لهُ، ولكنه كانَ راضياً لإجبارها على تبرير سلوكها، وهذا أشبهُ بارتكاسةٍ لامرأةٍ معتدةٍ بنفسها كفيليبا.

سمعوا ضجيجَ جيادٍ في الخارجِ ثمَّ دخلَ والدا رالف، لم يكن قد رآهما منذُ سنواتٍ ولهذا هرعَ لمعانقتهما.

كانا في الخمسين من عمرهما ولكن رالف لاحظَ علائمَ الزمنِ واضحةً على والدتهِ؛ فقد غدا شعرها أبيض واكتسى وجهها بالتجاعيد مع انحناءٍ بسيطٍ في ظهرها، كما يحدثُ للنساءِ العجائزِ، أمَّا والدهُ فقد بدا أكثرَ نشاطاً والسببُ في هذا سعادتهُ بهذهِ اللحظةِ، كان وجهه مُحمراً من الفخرِ وصافحَ يدَ رالف كأنَّه يضخُّ ماءً من البئرِ، لم يكن هناك شعرة بيضاء واحدة في لحيتهِ الصهباء، ومازال قوامهُ النحيل رشيقاً، كانا في ثيابٍ جديدةٍ فقد أرسلَ لهما رالف المالَ مسبقاً، ارتدى السير جيرالد معطفاً صوفياً ثقيلاً، والليدي مود عباءةً من الفرو.

فرقعَ رالف بأصابعهِ لدانييل وقالَ له: «أحضر النبيذ»، ولوهلةٍ بدا الوكيلُ كأنَّه يريدُ الاعتراضَ على معاملتهِ كخادمةٍ إلَّا أنَّه ابتلعَ كبرياءَهُ وهرعَ باتجاهِ المطبخِ.

قالَ رالف: «أيُّها الإيرل ويليام والليدي فيليبا أقدِّمُ لكما والدي السير جيرالد ووالدتي الليدي مود».

كان رالف يخشى أن ينظرَ ويليام وفيليبا إلى والديهِ بتعالٍ إلا أنَّهما حيَّا والديهِ بكلِّ لباقةٍ.

قال جيرالد لويليام: «كنتُ رفيقَ والدكَ في السلاحِ، فلترقد روحهُ في سلام، في الحقيقةِ أيُّها الإيرل ويليام أنا أعرفكُ عندما كنتَ صبياً صغيراً رغمَ أنَّكَ لن تتذكرني».

وتمنى رالف في قرارةِ نفسهِ ألا يلفتَ والدهُ الأنظارَ إلى ماضيهِ المجيد؛ لأنَّ هذا سيستحضرُ قصةَ سقوطِهِ المخزية.

ولكن يبدو أنَّ ويليام لم يلاحظ: «حسناً أعتقدُ أنني أتذكركَ»، قال ويليام الذي كانَ أغلبَ الظنِّ يتصرفُ بلطفٍ إلا أنَّ جيرالد بدا مسروراً. «بالطبع»، أضافَ ويليام: «أتذكرُ أنَّكَ كنتَ عملاقاً بطولِ سبعة أقدامٍ على الأقل»، كانَ جيرالد قصيرَ القامةِ ولهذا ضحكَ بمرحٍ لدى سماعهِ هذا.

نظرت مود حولها وقالت: «ربَّاه إنَّه لمنزلٌ جميلٌ يا رالف».

«أردتُ أن أزينهُ بالكنوزِ التي أحضرتها من فرنسا»، قال رالف: «ولكنني وصلتُ إلى هنا للتو».

أحضرت خادمةُ مطبخٍ إبريقاً من النبيذِ وكؤوساً على صينيةٍ وتناولَ الجميع الشرابَ، لاحظَ رالف أنَّ النبيذَ من نوعِ بوردو الحلو والخالي من الشوائبِ، وللوهلةِ الأولى فكَّرَ رالف أنَّ الفضلَ في هذا يعودُ إلى دانييل وحرصهِ على بقاءِ المنزلِ مليئاً بالمؤنِ، إلا أنَّه تذكرَ أنَّ المنزلَ كانَ مهجوراً لسنواتٍ وما من أحدٍ فيه ليشربَ النبيذ، باستثناءِ دانييل بالطبع.

«هل من أخبارٍ عن شقيقي ميرثن؟» سألَ رالف والدتهُ.

«إنَّهُ يُبلي حسناً»، أجابته بفخرٍ: «إنَّه ثري ومتزوجٌ ولديه طفلةٌ، وهو الآن يبني منزلاً لعائلة بونافينتورا كارولي».

«ولكن أفترضُ أنَّهُ لم يصبح كونتاً بعد؟» وتظاهرَ رالف، أنَّهُ يمازحُ والدتهُ إلَّا أنَّه أرادَ أن يشيرَ إلى حقيقةِ أنَّ ميرثن، ورغمَ كلّ النجاحِ الذي حققهُ، لم يحصل على لقبٍ نبيلٍ، وأنه هو من حققَ آمال والدهِ بإعادةِ العائلةِ إلى مراتبِ النبلاءِ.

«ليسَ بعد»، قالَ والدهُ بمرحٍ كأنَّ احتمال أن يصبحَ ميرثن كونتاً إيطالياً واردٌ، وأثارَ هذا ضيقَ رالف ولكن لبرهةٍ فقط.

«هل يمكننا أن نرى غرفتنا؟» سألتهُ والدتهُ.

بدا رالف متردداً، وأخذَ يتساءلُ في نفسهِ عمَّا تعنيهِ والدتهُ بسؤالها هذا، وخطرت ببالهِ فكرةٌ مريعةٌ وهي أنَّ والديهِ يفكران بالانتقالِ للعيشِ معه، لا

يمكنهُ أن يسمحَ بحدوثِ هذا؛ لأنهما سيذكرانهِ دوماً بسنواتِ الخزي التي عاشتها العائلةُ، علاوةً على هذا سيحرمانهِ من عيشِ حياتهِ بالطريقةِ التي يحبها، ولكن من جهةٍ أخرى أدركَ لتوهِ أنَّه لا يستطيع فعلَ هذا فمن المشينِ أن يدعَ رجلٌ نبيلٌ والديهِ يعيشان في منزلٍ بغرفةٍ واحدةٍ ويتلقيان إعانةً من الديرِ.

أدركَ أنه لا يستطيع الإمعان في التفكيرِ بالأمرِ أكثر ولذلك اكتفى بالقولِ الآن: «لم تتح لي الفرصةُ لإلقاءِ نظرةٍ على غرفِ المنزلِ بعد، آمل أن تكونَ إقامتكما هنا لبضعِ ليالٍ مريحةً».

«لبضعِ ليالٍ؟» عاجلتهُ والدتهُ ثمَّ تابعت: «هل ستعيدنا إلى الكوخِ الحقيرِ الذي كنا نعيشُ فيه في كينغزبريدج؟»

شعرَ رالف بالحرجِ لأنَّها أشارت إلى هذا الأمرِ أمامَ ويليام وفيليبا: «لا أعتقد أنَّه يوجدُ مكانٌ لكما لتعيشا فيهِ هنا».

«وكيفَ لكَ أن تعرفَ هذا وقد قلتَ للتو أنَّك لم تعاين الغرفَ بعد؟»

قاطعهم دانييل قائلاً: «هناك فلاحٌ يدعى بيركن من ويغلي أيُّها السير رالف، وهو يريدُ أن يلقي التحيةَ عليكَ ويناقش أمراً عاجلاً».

عادةً، كانَ رالف سيصرف الرجلَ لمقاطعتهِ الحديث، ولكنَّه وفي خضمّ هذا الحديثِ مع والديهِ شعرَ بالامتنان على هذا العذرِ: «ألقِ نظرةً على الغرفِ يا أمي»، قال رالف. «وسأرى ما يريدهُ هذا الفلاح».

رافقَ ويليام وفيليبا والدي رالف لمعاينةِ القسمِ الداخلي من المنزلِ بينما أحضرَ دانييل بيركن إلى القاعةِ وأجلسهُ إلى الطاولةِ، قالَ بيركن مخاطباً رالف بذاتِ التذللِ الذي كانَ عليهِ قبلاً: «سعيدٌ جداً بعودةِ سيادتكَ آمناً وسالماً من الحروب الفرنسيةِ».

ألقى رالف نظرةً إلى يدهِ اليسرى التي فقدَ منها ثلاثةَ أصابع، «حسناً، سالماً تقريباً»، أجابه رالف.

«يشعرُ جميعُ سكان ويغلي بالأسى على الجروحِ التي أصبتَ بها يا سيدي ولكنكَ حصدتَ جوائز أيضاً: لقبَ فارس وثلاث قرى إضافية وستتزوجُ من الليدي ماتيلدا».

«شكراً لكَ على تهانيكَ، ولكن ما هي القضيةُ الطارئةُ التي تريدُ مناقشتها معي؟»

«لن آخذَ الكثيرَ من وقتكَ في مناقشةِ القضيةِ يا سيدي، توفي ألفرد

شورتهاوس من دونِ وريثٍ شرعي لأرضهِ البالغةِ عشرة فدادين، وقد عرضتُ أخذَ الأرضِ رغمَ الأوقاتِ العصيبةِ التي نمرُّ بها خاصة بعد العاصفةِ المطريةِ التي حصلت في شهرِ آب/ أغسطس...»

«فلندخل في الموضوع».

«بالطبع، باختصار لقد أخذَ نيثان ريف قراراً أشعرُ أنّكَ لن توافقَ عليه».

بدأ صبرُ رالف بالنفاد فهو غير مهتم بمن سيزرعُ أرضَ ألفرد: «أيّاً يكن قرار نيثان...»

«لقد أعطى الأرضَ لولفريك».

«آه».

«يقولُ بعضُ الفلاحين إنّ ولفريك يستحقُّ الأرضَ بما أنّه لا يملكُ أرضاً، إلا أنّه لا يستطيع دفعَ الرسم المطلوب وعلى أيِّ حالٍ...»

«لستَ بحاجةٍ إلى إقناعي»، قالَ رالف: «لا يمكنني أن أسمحَ لذلكَ المشاغبِ بامتلاكِ أرضٍ في منطقتي».

«شكراً لكَ يا سيدي، هل أخبرُ نيثان ريف أنّكَ ترغبُ بإعطائي أرضَ ألفرد؟»

«أجل»، قال رالف ورأى الإيرل والكونتيسة يخرجان برفقةِ والديهِ من القسمِ الداخلي: «سأذهبُ لأؤكدَ على الأمرِ شخصياً خلالَ أسبوعين»، ولوحَ لبيركن بيدهِ كي ينصرف.

في تلكَ اللحظةِ وصلت الليدي ماتيلدا، ودخلت إلى القاعةِ برفقةِ راهبتين على الجانبين، من جهةٍ كانت كاريس حبيبةُ ميرثن السابقة، ومن حاولت إخبارَ الملكِ أنَّ تيلي صغيرةٌ جداً على الزواجِ، ومن جهةٍ أخرى كانت الراهبةُ التي رافقت كاريس إلى سيرسي وصاحبةُ الوجه الملائكي إلّا أنَّ رالف لم يكن يعرفُ اسمها، وخلفهما راهبٌ بذراعٍ واحدةٍ يسيرُ كما يسيرُ الحرّاس الشخصيون، كانَ هذا الراهب قد أسرَ رالف بذكاءٍ منذُ تسعةِ أعوامٍ، وعرفَ رالف الأخ توماس على الفورِ.

ووسطهم ثلاثتهم سارت تيلي، رأى رالف على الفور السبب الذي دفعَ بالراهبتين إلى الرغبةِ بحمايةِ الفتاةِ من هذا الزواج فقد تجلت على وجهها براءةُ الأطفال بأنفها المليء بالنمشِ والفراغ بينَ السِّنّين الأماميين، أخذت ماتيلدا تنظرُ حولها بعينين مرتاعتين، كانت كاريس قد عززت مظهرها الطفولي

أن جعلتها ترتدي ثوباً كهنوتياً أبيض وقلنسوةً عاديةً إلّا أنَّ هذهِ الثياب فشلت في إخفاءِ مفاتنها الأنثويةِ تحتَ الثيابِ، بدا واضحاً أنَّ كاريس أرادتها أن تبدو صغيرةً جداً على الزواجِ إلا أنَّ التأثير التي أرادت لهذا أن يحدثهُ على رالف كانَ عكسياً.

من بينِ الأمورِ التي تعلَّمها رالف خلالَ فترةِ خدمتهِ للملكِ أنَّ الرجلَ، وفي مواقف عديدةٍ، قادرٌ على فرضِ سيطرتهِ بكلِّ بساطةٍ إن كانَ البادئ بالحديثِ ولهذا قالَ بصوتٍ عالٍ: «تعالي إلى هنا يا تيلي».

تقدَّمت الفتاةُ نحوهُ، ترددَ مرافقوها في التقدمِ معها إلّا أنهم التزموا مكانهم.

«أنا زوجكِ»، قال رالف، «اسمي السير رالف فيتزجيرالد وأنا لورد تينش».

بدت مرتاعةً وقالت: «أنا سعيدةٌ بلقائكَ يا سيدي».

«هذا منزلكُ الآن كما كان عندما كنتِ صغيرةً وكانَ والدكِ السيدَ هنا، أصبحتِ الآن سيدةَ تينش كما كانت والدتكِ في ما مضى، هل أنتِ سعيدةٌ بالعودةِ إلى منزلِ عائلتكِ؟»

«أجل يا سيدي»، قالت دون أن ترتسم سعادةٌ على ملامحها.

«أنا واثقٌ أن الراهبات أخبرنكِ أنّه عليكِ أن تكوني زوجة مطيعة، وأن تفعلي كل ما بوسعكِ لإرضاءِ زوجكِ وسيدكِ».

«أجل يا سيدي».

«وها هما أمي وأبي، وهما الآن والداكِ أيضاً».

وقامت تيلي بانحناءةٍ بسيطةٍ لجيرالد ومود.

قال رالف: «تعالي إلى هنا»، ومدَّ يديهِ.

وبشكلٍ تلقائي مدَّت تيلي يديها لتضعها في يديهِ رأت يدهُ اليسرى المشوهة فنمَّ عنها صوتٌ يشي بالتقززِ وتراجعت مرتاعةً.

كادت لعنة تُفلتُ من رالف إلا أنّه نجحَ بقمعها، وبشيءٍ من الصعوبةِ أجبرَ نفسهُ على التحدثِ بلطفٍ: «لا تخافي من يدي المجروحة بل يجب أن تفخري بها، لقد خسرتُ أصابعي في خدمةِ الملكِ»، قال رالف وهو ما يزالُ فاتحاً ذارعيهِ منتظراً إياها، وبجهدٍ واضحٍ أمسكت ماتيلدا بيديهِ.

«والآن يمكنكِ أن تُقبليني يا تيلي».

كانَ رالف قد جلسَ الآن ووقفت تيلي قبالتهُ ثمَّ انحنت إلى الأمام وأدارَ لها

خدَّهُ. وضعَ يدهُ المصابةُ خلفَ رأسها وأدارَ وجهها ثمَّ قبَّلها على شفتيها وشعرَ بها حائرةً فتكهنَ بأنَّها قبلتها الأولى. أطالَ القبلة لأنَّها كانت عذبةً جداً بطريقةٍ ما ولأنَّه أرادَ إغاظةَ المتفرجين ثمَّ وبحركةٍ دؤوبةٍ وبطيئةٍ ضغطَ بيدهِ السليمةِ على صدرها وتحسسَ ثدييها فشعرَ بهما ممتلئين ومكورينَ مكتبة .. سُر مَن قرأ لم تكن طفلةً قط.

أفلتها وتنهدَ في رضا: «يجبُ أن نتزوج قريباً»، قال رالف واستدارَ نحو كاريس التي بدت كأنَّها تقمعُ غضبها، «في كاتدرائيةِ كينغزبريدج بعدَ أربعةِ أسابيع من الأحدِ»، ونظرَ إلى فيليبا رغمَ أنَّه كان يوجهُ كلامه إلى ويليام: «وبما أننا سنتزوجُ تلبيةً لرغبةِ جلالةِ الملكِ إدوارد، أتشرفُ بحضوركَ حفلَ الزفافِ أيُّها الإيرل ويليام»، وأومأ ويليام برأسهِ باقتضابٍ.

وهنا تحدثت كاريس للمرةِ الأولى: «أيُّها السير رالف يرسلُ رئيسُ ديرِ كينغزبريدج تحياتهِ ويقولُ لكَ إنَّه سيتشرفُ بإجراءِ مراسمِ الزواج في حال لم يكن الأسقف الجديد راغباً بفعلِ هذا».

أومأ رالف برأسهِ بلباقةٍ.

ثمَّ أضافت كاريس: «ولكن نعتقدُ، نحنُ المسؤولين عن هذهِ الطفلةِ، أنَّها ما زالت صغيرةً جداً على العيشِ مع زوجها».

قالت فيليبا: «أنا أتفقُ معكِ».

وتحدَّث والدُ رالف قائلاً: «أنتَ تعلمُ يا بني أنني انتظرتُ سنواتٍ لأتزوجَ من والدتكَ».

لم يكن رالف راغباً بسماعِ تلكَ القصةِ مجدداً لذلكَ قال: «على عكسكَ يا والدي لقد أمرني الملكُ بالزواجِ من الليدي ماتيلدا».

قالت له والدتهُ: «ربما من الأفضلِ أن تنتظرَ يا بني».

«لقد انتظرتُ لأكثر من عامٍ! كانت في الثانية عشرة عندما أعطاني إياها الملكُ».

قالت كاريس: «يمكنكَ إجراءُ مراسم الزواجُ ولكن دعها تعودُ إلى ديرِ الراهباتِ لعامٍ حتى يكتملَ نموها ومن ثمَّ أحضرها إلى منزلكَ».

وشخرَ رالف في احتقارٍ قائلاً: «قد أموتُ خلالَ هذا العامِ خاصةً إن قررَ الملكُ العودةَ إلى فرنسا، وفي هذه الأثناءِ ستحتاجُ عائلةُ فيتزجيرالد إلى وريثٍ».

«إنَّها طفلةٌ...»

قاطعها رالف قائلاً بصوتٍ عالٍ: «إنَّها ليست طفلة... انظري إليها! لا يمكن لرداء الراهباتِ اللعين أن يُخفي ثدييها».

«إنَّها مجرَّد دهون طفولية...»

«هل لديها شعرٌ على عانتها؟» سألَ رالف بإلحاح.

شهقت تيلي من صراحتهِ الفظَّةِ، واحمرَّت وجنتاها خجلاً.

ترددت كاريس في الإجابةِ.

قال رالف: «ربما ستقومُ أمي بفحصها بالنيابةِ عني وتخبرني بالحقيقةِ».

هزَّت كاريس رأسها وقالت: «هذا لن يكونَ ضرورياً، لدى تيلي شعرٌ على عانتها».

«أنا أعرفُ لقد رأيتُ...»، وتوقفَ رالف عن الكلامِ فقد أدركَ أنَّه لا يريدُ لأحدٍ هنا أن يعرفَ الظروفَ التي مرَّ بها ورؤيتهُ لجثثِ فتياتٍ عاريات في عمرِ تيلي، «لقد تكهنتُ بهذا من قوامها»، قالَ مصححاً كلامهُ وتجنبَ النظرَ في عيني والدتهِ.

وهنا اكتسى صوتُ كاريس بلهجة رجاءٍ نادرةٍ. «ولكن يا رالف ما زالَ عقلها عقل طفلةٍ».

«لا يهمني عقلها»، قالَ رالف لنفسهِ إلا أنَّه لم يعبر عن هذا أمامَ الجميع، «لديها أربعةُ أسابيع لتتعلمَ ما لا تعلمهُ». ورمقَ كاريس بنظرةٍ ذات مغزى: «أنا واثقٌ من أنكِ قادرةٌ على تعليمها كلَّ شيءٍ».

احمرّت كاريس خجلاً، لم يكن يفترضُ بالراهباتِ أن يعلمن شيئاً عن الحميميةِ الزوجيةِ، إلا أنَّها كانت حبيبةَ شقيقهِ.

قالت والدتهُ: «قد يسعنا الوصولُ إلى تسويةٍ...»

«أنت لا تفهمين الأمرَ يا أماه»، قال رالف مقاطعاً إياها بوقاحةٍ، «إنَّهم غير مهتمين بعمرها، ولو كنتُ سأتزوجُ من ابنةِ جزَّارِ كينغزبريدج فلن يهتموا حتَّى لو كانت في التاسعةِ من العمرِ، إنهم يعترضون لأنَّ تيلي نبيلةٌ، ألم تفهمي هذا؟ إنهم يعتقدون أنهم أعلى شأناً منا!» كانَ يعلمُ أنَّه يصرخُ وأنَّ الجميعَ يحدقون بهِ في دهشةٍ إلَّا أنَّه لم يكن يهتم؛ «إنَّهم لا يريدون لنسيبةِ إيرل شايرنغ أن تتزوجَ من ابنِ فارسٍ فقيرٍ، يريدون تأجيلَ الزواجِ على أمل أن أُقتلَ في معركةٍ قبلَ أن يتمَّ الزواج»، مسحَ رالف فمهُ وتابعَ: «ولكن ابن هذا الفارسِ الفقير قاتلَ في معركةِ سيرسي وأنقذَ حياةَ أمير ويلز وهذا ما يهمُّ الملك»، وأخذَ ينظرُ إليهم كلّاً على حدة:

إلى ويليام المتعالي وفيليبا الساخطةِ وكاريس الغاضبة وإلى والديهِ المدهوشين: «ولهذا عليكم أيضاً أن تقبلوا بالحقائقِ، رالف فيتزجيرالد فارسٌ ولورد ورفيق سلاحٍ للملكِ وهو سيتزوجُ من الليدي ماتيلدا نسيبةِ الإيرل متى شاء!»

حلَّ صمتٌ صاعقٌ لبرهةٍ من الزمنِ، ثمَّ أخيراً استدارَ رالف نحو دانييل وقال: «فلتُقدمِ العشاءَ الآن».

-53-

في ربيعِ عام 1348 استفاقَ ميرثن من كابوسٍ عجزَ عن تذكّرهِ وعلى شعورٍ بالخوفِ والضعفِ. فتحَ عينيهِ في غرفةٍ تنيرها خيوطُ الشمسِ المتسللة عبرَ مصاريعِ النوافذِ المواربةِ، ورأى سقفاً عالياً وجدراناً بيضاء وبلاطاً أحمر. كانَ الهواءُ القادم من النوافذ لطيفاً وبدأ يعودُ إلى الواقعِ شيئاً فشيئاً وأدرك أنّه في غرفتهِ في منزلهِ في فلورنسا وتذكر أنّه كانَ مريضاً.

كانَ أولَ المصابين بهذا المرض الذي يبدأ بطفحٍ جلدي ثمَّ ببقعٍ قرمزيةٍ ضاربةٍ للسوادِ على الصدرِ والذراعين لينتشرَ أخيراً في كاملِ الجسدِ، وسرعانَ ما ظهرَ تحت إبطهِ ورمٌ مؤلمٌ، وعانى من الحمّى وتعرّق في سريرهِ وهو يتلوى من شدةِ الألمِ ويتقيّأ ويبصق دماً أيضاً. اعتقدَ أنّه سيموت ولكن أسوأ ما في الأمر كانَ ذلكَ الشعور الرهيب بعطشٍ لا يرويه ماء، جعلهُ هذا الشعور يرغبُ برمي نفسهِ بفمٍ مفتوحٍ في نهرِ أرونو.

ولكن لم يكن الوحيدَ الذي قاسى هذا المصابَ فعشراتُ الآلاف من الإيطاليين سقطوا ضحيةً لهذا الوباءِ. اختفى نصفُ العمالِ من مواقعِ البناءِ التي يعملُ عليها ومعظمُ الخدمِ في منزلهِ أيضاً، وتوفي غالبية من أصيبوا بالعدوى بعدَ خمسةِ أيامٍ فقط. أطلقوا على الوباءِ اسمَ *الموتِ الكبير*.

ولكن ميرثن ما زالَ حيّاً.

انتابهُ إحساسٌ مُلحٌّ أنّه عندما كانَ مريضاً أخذَ قراراً هاماً جداً إلّا أنّه لم يكن قادراً على تذكرهِ، أمعنَ التفكيرَ لبرهةٍ كي يتذكرَ هذا القرارَ، ولكنه كلما أمعنَ أكثرَ ابتعدت الذكرى أكثر لتختفي أخيراً.

جلسَ في السريرِ وشعرَ بالضعفِ في أطرافهِ وبدوارٍ في رأسهِ لبعضِ الوقتِ، كانَ في رداءِ نومٍ قطني نظيف وتساءلَ في نفسهِ عن الشخصِ الذي ألبسهُ إياه، وبعد برهةٍ نهضَ من السريرِ.

كان منزل ميرثن مؤلفاً من أربعةِ طوابق وفناءٍ خلفي وقد صممهُ وبناهُ بنفسهِ بواجهةٍ أماميةٍ مستويةٍ بدلاً من الواجهة التقليديةِ المتدرجةِ وبإضافةِ سماتٍ معماريةٍ مميزةٍ كالنوافذِ المدورةِ والأعمدةِ الكلاسيكيةِ وأطلقَ الجيرانُ على المنزلِ اسمَ القصرِ الصغيرِ. حدثَ هذا منذُ سبعِ سنواتٍ ومذاكَ طلبَ منهُ العديد من التجار الفلورنسيين المقتدرين بناءَ قصورٍ مشابهةٍ لينتهي بهِ الأمرُ كأبرزِ المعماريين في المدينةِ.

كانت فلورنسا جمهوريةً لا يحكمها أمير أو دوق بل تسيطرُ عليها نخبةٌ من التجارِ المتنافسين، ورغمَ أنَّ آلاف النساجين يقطنونَ المدينة فإنَّ التجار من امتلكوا الثروات وأنفقوا الأموال على بناءِ منازل فخمة، وهذا بدورهِ جعلَ المدينةَ المكانَ المثالي لأيِّ معماري شاب مثله لتحقيقِ ثروةٍ.

توجهَ ميرثن إلى غرفةِ النومِ ونادى على زوجتهِ: «سيلفيا! أينَ أنتِ؟» تحدّث بلهجةٍ توسكانيةٍ كان قد أتقنها الآن بعدَ مضي تسعِ سنواتٍ على وجودهِ هنا وباتَ يتكلمها بكلِّ طبيعيةٍ.

وعندها تذكرَ أنَّ سيلفيا وابنتهُ البالغةَ من العمرِ ثلاثةَ أعوامِ مريضتان. كانت الطفلةُ تدعى لورا إلَّا أنَّهم كانوا ينادونها لولا، وتملكه خوفٌ رهيبٌ عندما تساءلَ في نفسهِ إن كانت سيلفيا ولولا ما تزالان على قيدِ الحياةِ.

كانَ الهدوءُ يعمُّ المنزلَ وأدركَ على حينِ غرّةٍ أنَّ الهدوءَ يعمُّ المدينةَ أيضاً، وعندما نظر إلى نورِ الشمسِ في الغرفِ أدركَ أنَّ الوقتَ منتصفَ الصباحِ، وفي مثلِ هذا الوقتِ عادةً ما يَسمعُ صراخَ باعةِ الطريقِ المتجولين ووقعَ حوافرِ الجيادِ وضجيج العرباتِ الخشبيةِ والصخبَ البعيد لآلاف الأحاديث، ولكنه لم يسمع أيّاً من هذا اليومَ.

صعدَ الدرجَ وبسببِ ضعفهِ الشديد شعرَ بأنفاسهِ تتقطع من جهدِ الصعودِ، فتحَ بابَ غرفةِ لولا وبدت الغرفةُ خاويةً، أخذَ يتعرقُ من خوفٍ ألمَّ بهِ، رأى مهدَ لولا والصندوق الصغير الذي يحوي على ثيابها وصندوقاً من الألعابِ وطاولةً صغيرةً مع كرسيين صغيرين أيضاً، ثمَّ سمعَ ضجيجاً ووجدَ لولا جالسةً على الأرضِ في الزاوية في ثوبٍ نظيفٍ تلعبُ بحصانٍ خشبي صغير بقوائم متحركة، أطلقَ ميرثن صيحةً مخنوقةً من شدةِ الراحةِ، سمعتهُ لولا ونظرت إليه ثمَّ قالت بنبرةٍ عاديةٍ: «بابا».

حملَ ميرثن لولا وعانقها ثمَّ قال بالإنكليزيةِ: «أنتِ على قيدِ الحياةِ».

سمعَ صوتاً قادماً من الغرفةِ المجاورةِ ودخلت ماريا، كانت ماريا امرأةً في الخمسين من العمرِ وهي تعمل مربيةً لابنتِهِ لولا: «سيدي!» قالت ماريا: «لقد نهضتَ، هل أنتَ بحالٍ أفضلٍ؟»

«أينَ سيدتكِ؟» سألها ميرثن.

تجهمَ وجهُ ماريا وقالت: «أنا أسفة جداً يا سيدي، لقد توفيت السيدةُ».

قالت لولا: «لقد غادرت ماما».

وقعَ الخبرُ على ميرثن كالصاعقةِ، وذاهلاً ناولَ لولا إلى ماريا. أخذَ يتحركُ ببطءٍ وبحذرٍ والتفتَ مغادراً الغرفةَ ثمَّ هبطَ الدرجَ إلى الطابقِ الأول من المنزلِ، حدَّقَ إلى الطاولةِ الطويلةِ والكراسي الفارغةِ والسجاجيد على الأرضيةِ واللوحاتِ على الجدرانِ، بدا له المكانُ كأنّه منزلُ شخصٍ آخر.

وقفَ أمامَ لوحةِ مريم العذراء مع والدتها، كانَ الفنانون الإيطاليون متفوقين على الفنانين الإنكليز، بل على جميعِ الفنانين في أيِّ مكانٍ، فالفنان الذي رسمَ هذهِ اللوحةَ رسمَ القديسةَ آن بشكلٍ يشبهُ سيلفيا بجمالها الشامخ وبشرتها الزيتونيةِ الخالية من أيِّ عيوبٍ وبملامحها النبيلةِ، بل التقطَ ذلكَ الشبقَ الجنسي الكامن في عينيها العسليتين اللامباليتين.

كانَ استيعاب فكرةِ عدمِ وجودِ سيلفيا حيّةً صعباً بحقٍ، وأخذَ ميرثن يسترجعُ في خيالِهِ جسدها الرشيق، وتذكرَ كيفَ أنّه سُحِرَ دوماً بثدييها المثاليين، ذلكَ الجسدُ الذي كانَ قريباً منهُ بكلِّ حميميةٍ ممدَّدٌ الآن تحتَ الأرضِ في مكانٍ ما، وعندما تخيلَ هذا ترقرقت الدموعُ على خديهِ وبدأ ينشجُ من الحزنِ.

ووسط بؤسِهِ هذا تساءلَ في نفسهِ عن مكانِ قبرها ثمَّ تذكر أنَّ الجنائز في فلورنسا توقفت؛ فالناسُ باتوا يهابونَ الخروجَ من منازلهم، وبدلاً من دفنِ الموتى كانوا ببساطةٍ يخرجونَ الجثثَ من المنزلِ ويضعونها على الطريقِ، أصبحَ للصوصِ ومتسولي وسكيري المدينةِ مهنةٌ جديدةٌ وهي حملُ هذهِ الجثثِ، كانوا يتقاضون مبالغ خياليةً على أخذِ الجثثِ ووضعها في قبورٍ جماعيةٍ، ولذلك قد لا يتمكن ميرثن من معرفةِ مكانِ قبرِ سيلفيا أبداً.

كان ميرثن وسيلفيا متزوجين منذُ أربعةِ أعوامٍ ولكنه عندما حدَّقَ إلى اللوحةِ التي تصورُ سيلفيا في هذا الثوبِ الأحمرِ التقليدي للقديسةِ آن اختبرَ لحظةَ صدقٍ مؤلمٍ مع نفسهِ وتساءلَ إن كانَ أحبَّها فعلاً. كانَ مولعاً بها بشدةٍ إلّا أنَّ شعورهُ لم يكن شغفاً مُستنزفاً. امتلكت سيلفيا روحاً مستقلةً ولساناً سليطاً،

وكانَ الرجلَ الوحيدَ في فلورنسا الذي امتلكَ الجرأةَ على التوددِ إليها رغمَ أنَّ والدها كانَ ثرياً، وبالمقابل منحتهُ سيلفيا إخلاصها الكامل إلا أنّها سرعانَ ما فهمت تماماً طبيعةَ حبهِ لها ولذلك كانت تسألهُ أحياناً: «بماذا تفكرُ؟» فينظرُ إليها بنظرةٍ تفيضُ بالذنبِ لانغماسهِ في ذكرياتهِ عن كينغزبريدج، ولكنها سرعان ما تستبدلُ سؤالها بسؤالٍ آخر: «بمن تفكر؟» ورغمَ أنّه لم يتلفظ باسمِ كاريس قط فإنَّ سيلفيا كانت تقولُ لهُ: «لا بد أنها امرأةٌ، أعرفُ هذا من النظرِ إلى وجهكَ»، وفي نهايةِ المطافِ أخذت تشير إلى هذا المرأة بـ «فتاتك الإنكليزيةِ» وتقولُ له: «أنتَ تتذكرُ فتاتكَ الإنكليزية»، كانت على حقٍ دوماً في تخمينها إلا أنها لم تبدُ كأنّها تعترضُ على هذا فميرثن مخلصٌ لها ويعشقُ لولا.

بعدَ بُرهةٍ أحضرت لهُ ماريا الحساءَ والخبز: «في أيِّ يومٍ نحن؟» سألها.

«الثلاثاء».

«كم مضى عليَّ وأنا طريح الفراشِ؟»

«أسبوعان. كنتَ مريضاً جداً».

وتساءلَ ميرثن في نفسهِ عن سببِ نجاتهِ، هناك أناسٌ لم يستسلموا للمرضِ، كأنّهم يمتلكونَ مناعةً طبيعيةً تجاهه ولكنّ آخرين توفوا حالما التقطوا العدوى، على أيِّ حالٍ إنَّ تلكَ النسبة الضئيلة من أولئكَ الذينَ تعافوا محظوظون لشفائهم ولعدم التقاطهم العدوى مرّةً أخرى.

عندما انتهى من تناولِ الطعامِ شعرَ أنّه أقوى وأدركَ أنَّ عليهِ إعادةَ بناءِ حياتهِ، راودهُ شكٌ أنّهُ اتخذَ هذا القرار قبلاً عندما كانَ مريضاً إلّا أنّه عانى مجدداً من شعورهِ أنَّ خيطَ هذهِ الذكرى ينزلقُ من بينِ يديهِ.

كانت المهمةُ الأولى التي عليهِ القيامُ بها هي معرفةُ من تبقى من عائلتهِ، أخذَ الصحون إلى المطبخِ حيثُ كانت ماريا تُطعم لولا خُبزاً مغمساً بحليبِ الماعز، «ما الذي حلَّ بوالدي سيلفيا؟ أما زالا على قيدِ الحياةِ؟» سألَ ميرثن.

«لا أعلم»، أجابت ماريا، «لم أسمعْ شيئاً فأنا لم أخرج من المنزلِ سوى لشراءِ الطعام».

«من الأفضل أن أستطلعَ الأمر».

ارتدى ثيابهُ ونزلَ إلى الطابقِ الأرضي من المنزلِ حيثُ ورشةُ عملهِ وحديقةٌ خلفيةٌ لتخزينِ الأخشابِ والحجارةِ. لم يجد أيّاً من العمالِ في الداخلِ ولا في الخارج ، وغادرَ المنزل.

كانت جميع المنازلِ حجريةً بعضها كبيرٌ جداً، وما من منزلٍ في كينغزبريدج يضاهيها، ورغم أنَّ إدموند وولر كان أغنى رجلٍ في كينغزبريدج فإنَّه عاشَ في منزلٍ خشبي، أمَّا هنا في فلورنسا فما من أحدٍ يعيش في منازل خشبيةٍ سوى الفقراء، وجدَ الشوارع مقفرةً وهو لم يرها على هذهِ الحالِ قبلاً، ولا حتَّى في منتصفِ الليلِ، وتركَ هذا تأثيراً غريباً فيه، تساءلَ في نفسِهِ عن عددِ الضحايا؛ ربما توفي ثلثُ عدد السكان في الوباءِ أو ربما النصف، وتساءلَ إن كانت أرواحُهم ستتجولُ في الأزقةِ والزوايا المظلمةِ تراقبُ بحسدٍ الناجين المحظوظين.

يقعُ منزلُ عائلة كريستي في الشارعِ التالي للشارعِ الذي يقع فيهِ منزل ميرثن. كانَ أليساندرو كريستي، والدُ زوجتِهِ، أوَّلَ وأخلصَ صديقٍ لميرثن في فلورنسا، ولأنَّه زميلُ بونافيتورا كارولي منذ أيامِ المدرسةِ فقد كانَ أوَّلَ من كلفَ ميرثن بعملٍ في فلورنسا فقد طلبَ منهُ بناءَ مستودعٍ، وأليساندرو أيضاً جد لولا.

كانَ باب منزل أليساندرو مغلقاً واستغرب ميرثن الأمر ثمَّ طرقَ على البابِ الخشبي وانتظرَ. فتحت له أخيراً امرأةٌ ضئيلةٌ وممتلئةٌ تدعى إليزابيتا وكانت غاسلة الثيابِ في منزلِ أليساندرو، حدَّقت إليزابيتا نحوَ ميرثن مصدومةً وقالت: «أنتَ على قيدِ الحياةِ!»

«مرحباً بيتا»، قال ميرثن: «تسعدني رؤيتكِ على قيدِ الحياةِ أيضاً».

التفتت إليزابيتا ونادت إلى الداخلِ: «إنَّه اللورد الإنكليزي!»

كانَ ميرثن قد أخبرهم أنَّه لم يكن لورداً ولكن الخدمَ لم يصدقوه.

دخلَ ميرثن إلى المنزل. «ماذا عن أليساندرو؟» سألَ ميرثن إليزابيتا فهزَّت رأسها وانخرطت في البكاءِ.

«وسيدتكِ؟»

«كلاهما متوفيان».

كان هناكَ درجٌ يصلُ بهو المدخلِ بالطابقِ الأساسي، وصعدَه ميرثن ببطءٍ وذهولٍ من مدى الضعفِ الذي مازالَ يشعرُ بهِ ثمَّ جلسَ في القاعةِ الرئيسيةِ ليلتقطَ أنفاسهُ. كانَ أليساندرو رجلاً ثرياً ولذلكَ كانتَ الغرفةُ أشبه بمعرضٍ للسجاجيدِ والأقمشةِ المعلَّقة واللوحاتِ والزينة المُطعّمةِ بالجواهرِ والكتبِ.

«من بقي هنا؟» سألَ ميرثن إليزابيتا.

«لينا وأطفالها فقط»، أجابته.

كانت لينا عبدةً آسيوية ورغم غرابةِ هذا الأمرِ فإنَّه لم يكن نادراً في العائلاتِ

الفلورنسيةِ الموسرةِ. كانَ للعبدةِ طفلان من أليساندرو، فتاةٌ وصبي، وقد عاملهما أليساندرو كولدين شرعيين. في الحقيقةِ كانت سيلفيا تقولُ بمرارةٍ إنَّ والدَها أحبَّ هذين الطفلين أكثر مما أحبها هي وشقيقها. لم ينظر الفلورنسيون المرموقون إلى طبيعةِ هذهِ العلاقةِ بين لينا وأليساندرو على أنَّها فضائحية بل اعتبروها غريبةً.

سألَ ميرثن: «ماذا عن السنيور جياني؟» كانَ جياني شقيقَ سيلفيا.

«لقد توفي هو وزوجتهُ ولكن طفلهما معي هنا».

«ربَّاه!»

وسألت إليزابيتا في ترددٍ: «وماذا عن عائلتكَ أيها اللورد؟»

«لقد توفيت زوجتي».

«يؤسفني سماعُ هذا».

«ولكن لولا مازالت حيَّةً».

«الشكرُ للرَّبِّ!»

«ماريا ترعاها الآن».

«ماريا امرأةٌ صالحةٌ، هل ترغبُ ببعضِ الشرابِ؟»

أومأ ميرثن برأسهِ موافقاً وغادرت إليزابيتا الغرفةَ، فدخلَ طفلا لينا إلى الغرفةِ وحدقا نحو ميرثن. كان الفتى في السابعة بعينين داكنتين كعيني أليساندرو، أمَّا الفتاةُ فكانت في الرابعةِ وهي جميلةٌ ولها عينا والدتها الآسيويةِ. لحقت لينا بالطفلين إلى الغرفةِ وكانت امرأةً في العشرين ببشرةٍ عسليةٍ ووجنتين ناتئتين ثمَّ قدمت لميرثن كأساً فضيّاً من النبيذ التوسكاني الأحمر القاني وصحناً من اللوزِ والزيتونِ.

قالت لينا لميرثن: «هلَّا أتيتَ وعشتَ هنا يا سيدي».

فوجئ ميرثن بما سمعهُ وقال: «لا أعتقدُ أنني أستطيع، ولكن لماذا؟»

«لقدَ أصبحَ المنزلُ لكَ الآن»، ولوحت بيدها في إشارةٍ إلى مدى ثراءِ عائلةِ كريستي: «كل شيءٍ لكَ».

أدركَ ميرثن أنَّها كانت على حقٍ فقد كانَ النسيب الوحيد في عائلةِ أليساندرو الذي نجا من الموتِ، وهذا يعني أنَّه وريث الثروةِ والوصي على الأطفالِ إضافةً إلى لولا.

«كلّ شيءٍ»، كررت لينا وهي تحدقُ نحوه بشكلٍ مباشرٍ.

نظرَ ميرثن إليها بشكلٍ مباشرٍ أيضاً وأدركَ أنّها كانت تعرضُ نفسها عليهِ.

أخذَ ميرثن يفكرُ بالأمرِ. كانَ المنزلُ جميلاً وهو منزلُ لينا وأطفالها ومكانٌ أليفٌ لابنتِهِ لولا ولطفلِ جياني أيضاً، وهذا يعني أنَّ الأطفال سيكونون سعداء هنا. لقد ورثَ مالاً يكفيهِ لبقيةِ حياتِهِ، ولينا امرأةٌ ذكيةٌ وخبيرةٌ وبوسعهِ تخيل متعةَ العيش معها بكلِّ حميميةٍ.

كانت لينا قد قرأت ما جالَ في ذهنهِ فأخذت يدهُ ووضعتها على صدرها وشعرَ ميرثن بثدييها تحتَ ثوبها الصوفي الرقيق طريين ودافئين.

ولكن لم يكن هذا ما أرادهُ ميرثن لذلك أخذَ يدَ لينا وقبّلها ثمَّ قال لها: «لا تقلقي، سأعتني بكِ وبأطفالكِ».

«شكراً لكَ يا سيدي»، قالت له وبدت محبطةً ثمَّ رأى ميرثن في عينيها ما يشي أنَّ عرضها لم يكن تلقائياً وأنها كانت تأملُ أن يكونَ أكثرَ من مجردِ مالكها الجديد، ولكن هذا بالتحديد أحدُ جوانبِ المعضلةِ التي وقعَ فيها ميرثن؛ فهو لم يكن قادراً على تخيلِ ممارسةِ الجنسِ مع امرأةٍ يمتلكها، وأثارت الفكرةُ تقززهُ إلى درجةِ القرفِ.

احتسى ميرثن النبيذَ وشعرَ أنّه أصبحَ أكثرَ قوة الآن ثمَّ قالَ في نفسهِ إن لم تكن حياةُ الرفاهيةِ والتخمةِ الحسيّة ما يبحثُ عنه فما الذي يبحثُ عنه إذاً، ربما خسرَ عائلتهُ بأكملها ولم يبقَ لديهِ سوى لولا، إلا أنّه ما زال يملكُ عملهُ فهناك ثلاثةُ مواقع بناءٍ في المدينةِ من تصميمهِ وهي في طورِ الإنشاءِ، لم يكن ينوي تركَ العمل الذي أحبَّهُ، ليسَ بعدَ نجاتهِ من موتٍ محدقٍ، وتذكرَ طموحهُ عندما كانَ شاباً، أن يبني أطولَ جسرٍ في إنكلترا، سيعاودُ العملَ من حيثُ توقف، وسيتعافى من خسارةِ سيلفيا بالانغماسِ في مشاريعِ البناءِ.

نهضَ ميرثن مغادراً ولكن لينا احتضنتهُ وقالت: «شكراً لكَ، شكراً لكَ لأنّك قلتَ إنّك ستعتني بأطفالي».

ربّتَ على ظهرها وقال: «إنّهم أولاد ألبساندرو»، في فلورنسا يعدُّ أبناءُ العبيدِ عبيداً أيضاً. «عندما يكبرون سيصبحونَ أغنياء»، وأفلتَ من ذراعيها بلطفٍ ثمَّ هبطَ الدرج باتجاهِ مدخلِ المنزلِ.

كانت جميعُ المنازلِ مغلقةً ورأى ميرثن على عتبةِ أحدِ البيوتِ جسداً مسجى فافترضَ أنّها جثة. لم يكن هناك أناسٌ كثرٌ في الشوارعِ ومعظم من رآهم

كانوا من الفقراءِ. أثار هذا الخرابُ شعوره بالإحباط فلم تكن فلورنسا أعظمَ مدينةٍ في العالمِ المسيحي فقط بل مدينةً تجاريةً تضجُّ بالحياةِ وتنتجُ الكثيرَ من القماشِ الصوفي الفاخرِ كل يومٍ، وسوقاً تُدفعُ فيهِ مبالغ مالية كبيرة من دونِ أيِّ ضماناتٍ أكثر من رسالةٍ من أنتورب أو وعدٍ شفوي من أميرٍ ما. كانَ السيرُ في المدينةِ في حالتها هذهِ أشبهَ برؤيةِ حصانٍ مصابٍ يقعُ على الأرضِ ويعجز عن النهوض مجدداً، أو بقوةٍ عظيمةٍ تتلاشى على حينِ غرّةٍ. لم يرَ ميرثن أحداً من دائرةِ معارفهِ فأصدقاؤهُ الذين ما زالوا على قيدِ الحياةِ لزموا منازلهم.

توجهَ أولاً إلى ساحةٍ قريبةٍ من القسمِ الروماني في المدينةِ حيث كان يبني نافورةً للبلديةِ، كان قد صمّمَ منظومةً دقيقةً لإعادةِ تدويرِ المياهِ خلالَ فصلِ الصيف الطويلِ والجافِ في فلورنسا.

عندما وصلَ إلى الساحةِ لم يرَ أحداً من العمالِ في الموقع. قبلَ إصابتهِ بالمرضِ كانَ قد انتهى من تمديدِ الأنابيبِ تحتَ الأرضِ وتغطيتها، وأنهى أيضاً رصفَ البلاطِ حولَ بركةِ النافورةِ، وبالنظرِ إلى الغبارِ على الحجارةِ والمظهرِ الواضحِ للإهمال علمَ أنَّ ما من أحدٍ عملَ عليها منذُ أيامٍ. كان أسوأ ما في المشهد تلك الكومةُ الصغيرةُ من الملاطِ على لوحٍ خشبي وقد تصلّبت في كتلةٍ قاسيةٍ وأطلقت غباراً عندما ركلها بقدمهِ. رأى بعضَ أدوات بناءٍ مرمية على الأرضِ، وكان بقاؤها في مكانها دون أن يسرقها أحدٌ أشبه بمعجزةٍ.

من المفترضِ أن تكونَ نافورةً مذهلةً فقد كان أفضلُ نحاتٍ في المدينةِ يعملُ على القطعةِ الرئيسيةِ، وعلى الرغمِ من شعورِ الخيبةِ الذي سيطر على ميرثن بسببِ توقفِ أعمالِ البناءِ فإنه واسى نفسه بفكرةٍ أن هناك بنائين لم يموتوا جرّاء الوباء وأنهم ينتظرون شفاءهُ لمعاودةِ العملِ.

كانت النافورةُ أكثرَ المشاريعِ الثلاثةِ التي يقومُ بها ميرثن وجاهةً إلّا أنّها كانت أصغرها. غادرَ الساحةَ وتوجهَ شمالاً لمعاينةِ مشروعٍ آخر، ولكن مع تقدمهِ في المسيرِ تعاظم قلقهُ أكثر فأكثر فهو حتّى الآن لم يلتقِ بأحدٍ على درايةٍ كافيةٍ بالوضعِ ليعطيَهُ فكرةً عما يجري، تساءلَ في نفسهِ عمن بقي في مجلسِ المدينة، وإنْ كانَ الوباءُ ينحسرُ أم يزدادُ فتكاً، وعن الوضعِ في بقيةِ أرجاءِ إيطاليا، ثمَّ قال لنفسهِ إنّه سيستطلعُ الأمورَ تباعاً.

كانَ ميرثن يبني منزلاً لشقيقِ بونافينتورا الأكبر، غوليليمو كارولي، وأراده أن يبدو أشبه بقصرٍ حقيقي بواجهتين أماميتين وبمطلعِ درجٍ مهيبٍ وأوسع

من بعضِ شوارعِ المدينةِ. قبلَ إصابتِهِ بالوباءِ كان قد انتهى من العملِ على بناءِ جدرانِ الطابقِ الأرضي، وكانت جدران الواجهةِ الأماميةِ ماثلةً وميلانها البسيط منح الناظر انطباعاً بأنَّها أشبه بجدران حصنٍ، وفي الأعلى نوافذ مكونةٌ من لوحين زجاجيين وأقواسٍ مدببةٍ لها شكل نبتةِ النَّفل. أراد ميرثن من هذا التصميم أن يوحي بأنَّ الناسِ الذين يعيشون داخل هذا المنزلِ أقوياء وراقون، وهذا بالضبط ما أرادتهُ عائلةُ كارولي.

وجدَ ميرثن السقالات التي نُصبت للبدءِ بأعمالِ بناءِ الطابقِ الثاني على حالها ولكن لم يكن هناك أيُّ عاملٍ. من المفترضِ أن يكونَ في الموقعِ خمسةُ بنائين يعملون على رصفِ الحجارةِ ولكن ميرثن لم يرَ أحداً في المكانِ سوى رجل عجوز يعملُ بصفةِ قيّمٍ على الموقعِ ويعيشُ في كوخٍ خشبي خلفَ المنزلِ، كان الرجلُ يطبخُ دجاجةً فوقَ نارٍ وقد استخدمَ الغبيُّ بلاطاتٍ رخاميةً باهظةً كموقدٍ.

«أينَ الجميع؟» سألَ ميرثن من دون مقدماتٍ.

قفزَ القيِّم على قدميهِ قائلاً: «لقد توفي السنيور كارولي ولم يدفع ابنهُ أوغستينو أجور من تبقى حيَّاً من العمال ولهذا غادروا».

حلَّ هذا الخبرُ على ميرثن كالصاعقةِ فعائلة كارولي من أغنى العائلاتِ في فلورنسا وإن شعروا بأنَّهم لم يعودوا قادرين على تحمُّلِ كلفةِ البناء فهذا يعني أنَّ الكارثةَ شديدةُ الوطأةِ.

«إذاً، أوغستينو على قيد الحياةِ؟» سأل ميرثن.

«أجل يا سيدي لقد رأيتهُ صباحَ اليوم»، أجاب الرجل العجوز.

كان ميرثن يعرف أوغستينو جيداً، ولم يكن الرجل ذكياً كوالدِهِ أو عمهِ بونافينتورا ولكنه عوَّضَ عن هذا بالتزامهِ الحيطة والحذر في سلوكِهِ، وهذا يعني أنَّه لن يسمحَ باستئنافِ عملياتِ البناءِ ما لم يكن واثقاً تماماً من أنَّ المواردَ الماليةَ للعائلةِ قد تعافت من آثارِ الوباءِ.

على أيِّ حالٍ كانَ ميرثن واثقاً من أنَّ مشروعهُ الثالث مستمرٌ فهو يبني كنيسةً لأخويةٍ من الرهبانِ المحبوبين من قبلِ تجارِ المدينةِ، ولأنَّ موقعَ البناءِ جنوبَ النهرِ أخذَ ميرثن طريقَ الجسرِ المبني حديثاً.

انتهى العملُ على بناءِ هذا الجسرِ منذُ عامين فقط وقد شاركَ ميرثن في بنائهِ تحت إشرافِ المصمّمِ الرئيسي الرَّسام تديو غادي. كانَ على الجسرِ أن يتحملَ جريان المياهِ السريع بعدَ ذوبان ثلوجِ الشتاءِ، وقد ساعدَ ميرثن المصممَ في بناءِ

الدعائمِ، وعندما عبرَ ميرثن الجسرَ شعرَ بالإحباطِ لرؤيةِ جميعِ متاجرِ الصاغةِ على الجسرِ مغلقةً، فقد كانت هذهِ إشارةً تنذرُ بالشؤمِ.

كانت كنيسةُ سانتا ماريا دي فريري أكثرَ مشاريعهِ طموحاً حتّى الآن فالكنيسةُ كبيرة وأقربُ إلى الكاتدرائيةِ تماماً ككنيسةِ كينغزبريدج. عادةً ما تُبنى الكاتدرائيات في إيطاليا على الطرازِ القوطي وكانت كاتدرائيةُ ميلان أعظمها، ولم يكن الإيطاليون العصريون معجبين بالهندسةِ المعماريةِ المتبعةِ في فرنسا وإنكلترا واعتبروا النوافذ الكبيرة وكتائفَ التدعيم فيتشيةً غريبةً. يبدو أنَّ الهوسَ بالضوءِ في الشمال الغربي المظلم من أوروبا محدودٌ في إيطاليا المشمسةِ حيثُ الناسُ يبحثونَ عن أماكنِ الفيء والبرودةِ، تماهى الإيطاليون في عمارتهم مع العمارةِ الكلاسيكيةِ للإمبراطوريةِ الرومانيةِ القديمةِ التي ما زالت بقاياها حاضرةً في جميعِ الأماكنِ من حولهم، كانوا يحبون أفاريز الجملونات والأقواسَ المدوَّرةَ، وبدلاً من التماثيل الخارجية المنمقةِ تبنوا النماذجَ الزخرفيةَ التي يمكن صنعها من مختلفِ ألوانِ الحجارةِ والرخامِ.

أرادَ ميرثن أن يُفاجئ سكانَ فلورنسا بهذهِ الكنيسةِ فقد خططَ لبناءِ مجموعةٍ من الساحاتِ المقببةِ؛ خمسةٌ على التتالي واثنتان على كلا جانبي المعبرِ. كانَ قد سمعَ عن القبابِ عندما كانَ في إنكلترا ولكنه لم يرها إلا عندما زارَ كاتدرائيةَ سيينا. لم يكن هناكَ أيُّ قبابٍ في فلورنسا وخططَ لبناءِ صفٍ من النوافذِ المدورةِ أو الطاقاتِ في القسمِ الأعلى من جدارِ الكنيسةِ، وبدلاً من الأعمدةِ الضيقةِ التي ترتفع عالياً كأنّها تتوقُ للوصولِ إلى السماءِ سيكونُ لهذهِ الكنيسةِ أعمدة ضخمة تضفي لمسةَ الاكتفاءِ الراسخِ التي تميز تجار فلورنسا.

عندما لم يرَ بنائين على السقالاتِ أو عمالاً يحملون حجارةً كبيرةً أو نساءً يخلطنَ الملاطَ بمجاديف عملاقة. لم يتفاجأ بل أصيبَ بخيبةِ الأملِ فقد كانَ الموقعُ هادئاً كالموقعين السابقين إلا أنّه هنا شعرَ بالثقةِ من قدرتهِ على استئنافِ العملِ فقد كان النظام الديني قائماً بذاتهِ ومستقلاً عن الأفرادِ. التف ميرثن حولَ الموقعِ ودخلَ إلى مبنى الأخويةِ.

وجدَ المكان هادئاً ولكن أليس هذا ما يفترضُ أن تكونَ عليهِ دورُ العبادةِ؟ وأثارَ الهدوءُ الذي خيم على المكان توتر ميرثن. عبرَ الردهةَ باتجاهِ غرفةِ الانتظارِ فعادةً ما يكون هناك راهبٌ يدرسُ في الإنجيلِ ويهتمُ بالزوارِ ولكنَّ الغرفةَ اليوم كانت فارغةً. شعرَ ميرثن برهبةٍ تنذرُ بالشؤمِ وهو يعبرُ باباً آخر

ليجدَ نفسَه في الأروقةِ المسقوفةِ للديرِ، لم يكن هناكَ أحدٌ في الفسحةِ أيضاً. «مرحباً»، صرخَ منادياً ثمَّ تابع: «هل من أحدٍ هنا؟» ورددت جدران الممرات المسقوفةِ صدى صوتهِ.

فتَّش المكانَ واكتشفَ أنَّ جميعَ الرهبانِ قد غادروا. في المطبخ عثرَ على ثلاثةِ رجالٍ جالسين إلى طاولةٍ يأكلونَ اللحمَ ويشربونَ النبيذَ، ولاحظ أنهم في ثيابٍ باذخةٍ كالتي يرتديها التجارُ إلا أنَّ شعرَ رؤوسهم كانَ ملبداً ولحاهم غير مرتبةٍ وأيديهم قذرة... كانوا فقراء في ثيابِ موتى أثرياء. عندما دخلَ ميرثن بدا كأنّه أمسكَ بجرمٍ ولكنه سألَ بجرأةٍ: «أين هم الرهبان؟»

«ماتوا جميعاً»، قالَ أحد الرجالِ.

«جميعهم؟»

«جميعهم فقد التقطوا العدوى وهم يعتنونَ بالمرضى».

رأى ميرثن أنَّ الرجلَ ثملٌ ولكنَّه بدا صادقاً في ما قالهُ. كانَ الرجالُ الثلاثةُ مرتاحين جداً حيالَ جلوسهم في ديرٍ والتهامِ طعامِ الرهبانِ وشربِ نبيذهم. لا بد أنَّهم يعلمونَ أنَّ ما من أحدٍ هنا ليعترضَ على ما يفعلونهُ.

وعادَ ميرثن إلى موقعِ بناءِ الكنيسةِ. كان العملُ على جدرانِ منطقةِ جوقةِ المرتلين وجناحي الكنيسةِ قد انتهى والنوافذ في القسمِ الأعلى من الجدارِ بدأت تتضحُ معالمها. جلسَ في المعبرِ بينَ أكوامٍ من الحجارةِ يتأملُ عملهُ ويتساءلُ في نفسِهِ إلى متى سيبقى العملُ متوقفاً، وإن كانَ جميعُ الرهبانِ أمواتاً فمن سيعطيه المال، ولكن وعلى حدِّ علمِهِ لم يكن الرهبان جزءاً من أخويّةٍ كبيرةٍ وهذا يعني أنَّ الأسقفَ قد يطالبُ بالإرثِ، وربما البابا أيضاً. ووصلَ ميرثن إلى استنتاجٍ بأنَّ المبنى الآن واقعٌ في معضلةٍ قانونيةٍ ستأخذُ تسويتها سنوات عديدة.

قررَ هذا الصباح أن يشغلَ نفسَه بالعملِ ليشفى من صدمةِ موتِ سيلفيا ولكن ما اتّضحَ لهُ الآن، على الأقلِّ، هو أنَّه لم يعد يملك أيَّ عملٍ، ولأنَّه لم يتوقف عن العملِ في مشاريع البناءِ منذ عشرِ سنواتٍ، وبالتحديد بعد إصلاحِ سقف كنيسةِ سان مارك في كينغزبريدج، انتابهُ شعورٌ بالضياعِ والرعبِ لعدمِ وجودِ ما يقوم به الآن.

استيقظ ميرثن اليومَ واكتشفَ أنَّ حياته بالكامل مدمرة، وحقيقةُ أنَّه بات ثرياً الآن لم تغير شيئاً بل زادت من سوداوية ما حدث. كانت لولا كلُّ ما تبقى لديهِ.

وقفَ ميرثن حائراً فهو لا يعرف إلى أين سيذهبُ الآنَ. لا بد أن يعودَ

إلى المنزلِ في نهايةِ المطافِ ولكنه لا يريدُ أن يقضي اليومَ بأكلمهِ في اللعبِ مع طفلةٍ في الثالثةِ وفي التحدثِ مع ماريا، ولهذا بقي في مكانهِ جالساً على قرصٍ حجري مزخرفٍ يُفترضُ أن يكونَ عموداً ويحدّقُ إلى المكان الذي كانَ سيصبح صحنَ الكنيسةِ.

وعندما حلّت فترةُ ما بعد الظهرِ بدأ يتذكرُ مرضهُ. كانَ واثقاً من أنّه سيموت فلم ينجُ من الموتِ سوى قلّةٍ ولم يتوقع أن يكونَ من بينِ المحظوظين. في لحظاتِ صفاءِ الذهنِ التي عاشها كانَ يستعيدُ حياتهُ كأنّه سيخسرها، وعلمَ أنّهُ أخذَ قراراً من نوعٍ ما ولكنه لم يكن قادراً على تذكرهِ، وها هو الآن وسطَ هذا الهدوء الذي يعمُّ كنيسةً ما زالت قيد الإنشاءِ يتذكرُ أنّه وصلَ إلى استنتاجٍ بأنّه ارتكبَ أعظمَ خطأ في حياتهِ، ولكن ما هو هذا الخطأ؟ كانَ قد اختلفَ مع إلفريك ومارسَ الجنسَ مع غريزيلدا ورفضَ إليزابيث كلرك... ولكنه لا يستطيعُ اعتبار أي واحدٍ من هذا خطأ العمرِ.

عندما كانَ مستلقياً على السريرِ يتعرّقُ ويسعلُ وتحت رحمةِ عطشٍ شديدٍ شعرَ برغبةٍ كبيرةٍ في الموتِ إلا أنَّ شيئاً ما أبقاهُ على قيدِ الحياةِ وها هو يتذكرهُ الآن؛ لقد أرادَ أن يرى كاريس مرّةً أخرى.

كانَ هذا سببَ بقائهِ حيّاً، لقد رأى وجهها في ذروةِ هذيانهِ وبكى من الحزنِ لأنّهُ قد يموتُ هنا على بعدِ آلافِ الأميالِ عنها، وأدركَ وقتها أن خطأ عمرهِ كانَ الابتعاد عن كاريس.

وعندما استعادَ تلكَ الذكرى الزئبقية أخيراً وأدركَ الحقيقةَ الساطعة في هذا الكشفِ امتلأ بنوعٍ غريبٍ من السعادةِ، وفكرَ في نفسهِ بأنَّ هذا لم يكن تفكيراً منطقياً لأنَّ كاريس دخلت ديرَ الراهباتِ ورفضت رؤيتهُ أو شرحَ الأمرِ بنفسها، ولكن روحهُ لم تكن عقلانيةً وألحت عليهِ أن يكونَ بقرب كاريس.

تساءلَ في نفسهِ وهو جالس وسطَ كنيسةٍ تُبنى في مدينةٍ محاها الوباءُ تقريباً عمّا كانت كاريس تفعلهُ الآن. كانَ آخرَ خبرٍ وصلهُ عنها هو أنَّ الأسقفَ رسمها راهبةً، وهذا القرار لا يمكنُ عكسهُ، أو هذا ما يقولونهُ، فكاريس لم تكن لتقبل قط أن يُملي عليها أحد ما تفعلهُ، ولكنها من جهةٍ أخرى كانت عنيدةً ولم تكن لتتراجعَ عن أيِّ قرارٍ تتخذهُ. ولم يخامرهُ أدنى شك بأنّها كرّست نفسها لحياتها الجديدةِ.

لم يكن هذا ليشكلَ فرقاً كبيراً لأنَّ كلَّ ما أرادهُ هو رؤيتها مجدداً، وإن لم يفعل فسيكونُ هذا ثاني أكبر خطأ قد يرتكبهُ في حياتهِ.

ها هو الآن قد أصبحَ حُرّاً فجميعُ روابطِهِ بفلورنسا قد حُلَّت: تُوفيت زوجتهُ وجميعُ أقاربِهِ من جهتها أيضاً باستثناءِ الأطفالِ الثلاثةِ، ولم يتبقَ لديهِ أحدٌ سوى ابنتِهِ لولا التي سيأخذها معهُ، ولحسن الحظِّ ما تزال صغيرةً جداً ولن تلحظَ اختلاف الأمكنةِ عليها.

كان الانتقالُ خطوةً هامةً إلا أنَّ عليهِ أولاً أن ينفذَ وصيةَ أليساندرو ويقومَ بالترتيباتِ اللازمةِ من أجلِ الأطفالِ وسيُساعدهُ في هذا أوغستينو كارولي، وبعدَ هذا عليهِ أن يحولَ الثروةَ التي حصلَ عليها إلى عملاتٍ ذهبيةٍ ويرتبَ أمرَ نقلها إلى إنكلترا، يُمكن لعائلةِ كارولي أن تقومَ بهذا أيضاً فعلاقاتها العالميةُ ما زالت سليمةً، ولكن الفكرةَ الأكثرَ روعاً في رحلةِ الألفِ ميل التي سيأخذها من فلورنسا عبرَ أوروبا إلى كينغزبريدج هو أنّه لم يملك أدنى تصورٍ عن الطريقةِ التي ستستقبلهُ بها كاريس عندما يصل.

يحتاجُ مثلُ هذا القرار إلى دراسةٍ طويلةٍ ودقيقةٍ، ولكنه بعدَ بضع دقائقَ حسمَ أمرهُ.

سيعودُ إلى الوطنِ.

-54-

غادرَ ميرثن إيطاليا برفقةِ تجارٍ من فلورنا ولوكا، وركبوا سفينةً نقلتهم من جنوه إلى ميناء مارسيليا الفرنسي القديم، ومن هناك سافروا برّاً إلى مدينةِ أفنيون حيثُ يسكن البابا منذُ أربعين عاماً. وعلى الرغمِ من امتلاكِ هذِ المدينةِ لأكبرِ بلاطٍ مترفٍ في أوروبا فإنّها كانت أكثرَ المدنِ التي زارها ميرثن نتانةً، وهناك انضمّوا إلى مجموعةٍ كبيرةٍ من رجالِ الدين والحجاجِ العائدين في طريقهم شمالاً.

يسافرُ الجميعُ في مجموعاتٍ وكلّما كانت المجموعةُ أكبر كانَ هذا أفضل، ولأنَّ التجار يحملون معهم المالَ والبضائعَ الباهظة كانوا يصحبون جنوداً لحمايتهم من قطاعِ الطرقِ. كان الجميع سعداء بهذِهِ المجموعة فقد تُثني الأرديةُ الكهنوتية وشاراتُ الحجاجِ اللصوصَ عن الاقترابِ، وحتّى المسافرون العاديون من أمثالِ ميرثن كانوا مفيدين فكلما ازداد عددُ المسافرين كان أفضل.

أودعَ ميرثن كلَّ ثروتِهِ لدى عائلةِ كارولي في فلورنسا حيثُ سيزودهُ أقرباؤها في إنكلترا بالمالِ، فعائلةُ كارولي تقوم بمثلِ هذهِ التعاملات الدوليةِ على الدوامِ،

في الحقيقةِ لقد استعان ميرثن بخدماتهم منذُ تسعة أعوام لنقلِ ثروتِه الصغيرةِ آنذاك من كينغزبريدج إلى فلورنسا إلَّا أنَّه يعلم أنَّ هذهِ المنظومة لم تكن خاليةً من العيوبِ تماماً فمثلُ هذهِ العائلات تُفلسُ أحياناً بخاصةٍ إن تورطوا في إقراضِ الأموالِ إلى أناسٍ ليسوا أهلاً للثقةِ كالملوكِ والأمراءِ، ولذلكَ قامَ ميرثن بإخفاءِ كميةٍ كبيرةٍ من النقود الذهبية الفلورنسيةِ في بطانةِ قميصِه الداخلي.

استمتعت لولا بالرحلةِ، ولأنَّها الطفلُ الوحيدُ في هذهِ القافلةِ فقد تلقَّت الكثيرَ من الاهتمامِ والرعايةِ، خلالَ النهارِ الطويلِ كان ميرثن يضعها أمامهُ على سرجِ الحصانِ محتضناً إياها بذراعيهِ وممسكاً بلجامِ الحصانِ بيديهِ، غنى لها الأغاني ودمدمَ بالألحانِ وقصَّ عليها قصصاً وتحدثَ معها عن أشياء رأوها على الطريقِ كالأشجارِ والطواحين والجسورِ والكنائسِ، ربما لم تفهم لولا كلَّ ما قالهُ لها إلَّا أنَّ وقعَ صوتِه أبقاها سعيدةً.

لم يكن قد قضى مثلَ هذا الوقتِ الطويلِ مع ابنتهِ قبلاً، كانا معاً طوالَ الوقتِ، وكلَّ يومٍ، وأسبوعاً تلوَ الآخر، ورغمَ أنَّه كان يحاولُ بهذهِ الحميميةِ تعويضها عن فقدانِ والدتها فإنها من كانت تعوضه فقد كانَ سيشعرُ بالوحدةِ الشديدةِ من دونها، كانت لولا قد توقفت عن طلبِ والدتها ولكنَّها بينَ الفينةِ والأخرى تحتضنهُ وتتشبثُ بهِ بقوةٍ كأنَّها خائفةٌ من فقدانهِ.

شعرَ بالحسرةِ عندما وقفَ أمامَ كاتدرائيةِ شارتر المهيبةِ التي تبعدُ عن باريس ستين ميلاً، ارتفعَ في الزاويةِ الغربيةِ للكاتدرائيةِ بُرجان، ورغم عدمِ انتهاءِ أعمالِ بناءِ البرجِ الشمالي فإنَّ الجنوبي ارتفعَ عالياً لثلاثمئةٍ وخمسين قدماً، ذكّره هذا المشهد بحُلمهِ القديم في تصميمِ مثلِ هذهِ الأبنيةِ، ولكن حظوظه في تحقيقِ هذا الطموحِ في كينغزبريدج لم تكن كبيرةً.

مكثَ في باريس أسبوعين، لم يكن الوباءُ قد وصلَ إلى المدينةِ، وشعرَ ميرثن براحةٍ عظيمةٍ لرؤيةِ حركةِ الحياةِ الطبيعيةِ في مدينةٍ كبيرةٍ حيثُ الناسُ يشترون ويبيعونَ ويتجولونَ بدلاً من مشاهدِ الشوارعِ المقفرةِ والجثثِ عندَ أبوابِ المنازلِ التي رآها في فلورنسا، شعرَ بمعنوياتهِ ترتفعُ وآنذاكَ فقط أدركَ حجمَ وهولَ الرعبِ الذي تركتهُ فلورنسا في داخلِه، تأملَ كاتدرائيات وقصور باريس ووضع في دفترٍ ورقي صغيرٍ من نوعٍ دارجٍ في إيطاليا رسوماتٍ لتفاصيل قد تهمهُ في المستقبل.

عند مغادرتهِ باريس اجتمعَ ميرثن بعائلةٍ نبيلةٍ عائدةٍ إلى شيربورغ، ونظراً

إلى أن لولا كانت تتحدثُ بالإيطالية افترضَ الناسُ أنَّ ميرثن إيطالي وهو بدورهِ لم يحاول تصحيح هذهِ المعلومة لأنَّ الإنكليز كانوا مكروهين بشدةٍ في الشمالِ الفرنسي، عبرَ ميرثن مع العائلةِ وحاشيتها منطقةَ النورماندي بكلِّ رويةٍ، كانت لولا على سرجِ الحصانِ أمامهُ وفي إثرهما سارَ حصانُ الأمتعةِ، تأملَ ميرثن الكنائسَ والأديرةَ التي نجت من الدمارِ الذي ألحقهُ غزو الملكِ إدوارد للمنطقةِ منذُ عامين.

كانَ بوسعهِ السفر بسرعةٍ أكبر إلَّا أنَّه قال لنفسهِ إنَّه يريدُ استغلال هذهِ الفرصة التي قد لا تتسنى له مجدداً ويتأمل العمارةَ الفخمةَ واختلافها، ولكنه في لحظاتِ صدقٍ مع نفسهِ يعترفُ أنَّه خائفٌ مما سيلقاهُ عندما يصلُ إلى كينغزبريدج.

كان عائداً إلى كاريس ولكنهُ لن يجدَ كاريس نفسها التي تركها منذُ تسعةِ أعوامٍ فلا بد أنها تغيرت جسدياً وعقلياً، بعضُ الراهباتِ يزددنَ سمنةً بطريقةٍ مثيرةٍ للغثيانِ، لأنَّ الطعامَ يغدو متعتهنّ الوحيدةَ في الحياةِ ولكن كاريس لم تكن مثلهن، فعلى الأرجح ستكون نحيلةً من تجويعِ نفسها لتنتشي بإنكارِ ذاتها، بحلولِ هذا الوقتِ لا بد أنها أصبحت مهووسةً بالدينِ وتصلي طوالَ الوقتِ وتجلد نفسها على خطايا في خيالها فقط، أو قد تكون ميتةً.

كانت هذهِ الأفكارُ أكثرَ كوابيسهِ جموحاً فقد كانَ يعلمُ علمَ اليقين أنَّها لن تكونَ سمينةً جداً أو متشددةً دينياً، ولو أنَّها ميتةٌ لوصلهُ الخبرُ كما وصلهُ خبرُ وفاةِ والدها إدموند، سيجدها كاريس نفسها التي تركها، كاريس الضئيلة البنيةِ والسريعة البديهةِ والدقيقة والحازمةَ، كانَ قلقاً حيالَ الطريقةِ التي ستستقبلُه بها وكيفَ سيكون شعورها عندما تلتقيهِ بعدَ تسعة أعوامٍ، هل ستعاملهُ بلامبالاةٍ وكشخصٍ من ماضٍ بعيدٍ لم يعد يعنيها قط كما هو شعورهُ حيالَ شخصٍ كغريزيلدا مثلاً، لم يكن لديهِ أدنى فكرةٍ ولهذا كان خائفاً جداً.

أبحرَ إلى بورتسماوث وتابعَ الطريقَ مع مجموعةٍ من التجارِ ثمَّ تركها عندَ معبرِ مودفورد عندما أخذَ التجارُ طريقَ شايرنغ بينما خاضَ هو ولولا في المياه الضحلة لنهرٍ على ظهرِ الجوادِ في طريقهما إلى كينغزبريدج. فكرَ ميرثن أنَّه لمن المؤسفِ بحقٍ عدمُ وجودِ إشارةٍ واضحةٍ على الطريقِ إلى كينغزبريدج، وتساءلَ في نفسهِ عن أعدادِ التجارِ الذينَ تابعوا طريقهم إلى شايرنغ لأنهم وبكلِّ بساطةٍ لم يعلموا أنَّ كينغزبريدج أقربُ من شايرنغ.

وصلَ إلى مشارفِ وجهتهِ في يومٍ صيفي دافئ والشمسُ مشرقةٌ بكاملِ

بهائها، كانَ أولَ شيءٍ رآه هو قمةُ برجِ الكاتدرائيةِ فوقَ ذؤاباتِ الأشجارِ، فكرَ ميرثن أنَّ البرجَ، ولحسنِ الحظِ، ما زالَ قائماً بعدَ الإصلاحات التي قامَ بِهِ إلفريك منذ أحدَ عشرَ عاماً، وشعرَ بالأسى لأنَّ البرجَ غير مرئي من ميدفورد كروسينغ الأمرُ الذي سيُحدثُ فرقاً كبيراً في عددِ زوارِ المدينةِ.

ومع اقترابهِ من كينغزبريدج شعرَ ميرثن بخليطٍ من الحماسِ والخوفِ أثارَ فيهِ الشعورَ بالغثيانِ، وخشيَ لبرهةٍ أنَّ يضطرَ إلى الترجّلِ عن جوادهِ والتقيؤِ، حاولَ تهدئةَ نفسهِ بالقولِ إنّه ما من شيءٍ سيحدث؛ فحتى لو عاملتهُ كاريس بلامبالاةٍ فهو لن يموت.

رأى العديدَ من الأبنيةِ الجديدةِ على أطرافِ ضاحيةِ نيوتاون، ولم يعد المنزل المذهل الذي بناهُ لصانعِ الجعةِ ديك على أطرافِ المدينةِ التي كبرت الآن وتجاوزَ محيطها منزلهُ.

ولوهلةٍ نسي خوفهُ عندما رأى الجسرَ الذي يرتفعُ بشكلٍ منحنٍ من ضفَّةِ النهرِ ويستقرُّ برشاقةٍ على الجزيرةِ وسطَ النهرِ ليرتفعَ من النهايةِ الأخرى للجزيرةِ ويصلَ إلى الضفةِ الأخرى للنهرِ، كانت حجارتهُ البيضاء تلتمعُ تحتَ أشعةِ الشمسِ، ورأى حركة الناسِ والعرباتِ في كلا الاتجاهين، ملأ هذا المشهدُ قلبهُ بالفخرِ فقد بدا الجسر تماماً كما أرادهُ؛ جسراً جميلاً ومفيداً ومتيناً، وفكرَ في نفسهِ: «أنا من قامَ بهذا وهذا عملٌ جيدٌ».

ولكنَّه أصيبَ بصدمةٍ عندما اقتربَ من الجسرِ، كانَ بدنُ الباعِ الأقربِ متضرراً عندَ الدعامةِ المركزيةِ، ورأى صدوعاً في الحجارةِ أصلحت على عجلٍ بمشابكَ معدنيةٍ خرقاءَ تحملُ بصماتِ إلفريك، لاحظَ ما يشبه النز البني الصدئ يتقطرُ من المساميرِ التي تُثبتُ المشابكَ البشعةَ في بدنِ الجسرِ، أعادهُ هذا المشهدُ أحدَ عشرَ عاماً إلى الوراءِ عندما رأى إصلاحاتِ إلفريك على الجسرِ الخشبي القديمِ، وفكرَ ميرثن أنَّ الجميعَ يرتكبونَ أخطاءً ومن لا يتعلمونَ من أخطائهم يرتكبونها مجدداً: «حمقى لعينون!» قال بصوتٍ عالٍ.

«حمقى لعينون!» كررت لولا وراءهُ فقد بدأت بتعلمِ اللغة الإنكليزيةِ.

وبينما كان يعبر الجسرَ رأى أنَّ العملَ على الطريقِ قد انتهى بشكلٍ جيدٍ وسُرَّ ميرثن لرؤيةِ هذا. كانَ مسروراً أيضاً بتصميمِ حاجزِ الجسرِ المتين ذي التيجانِ المزخرفةِ التي تشبهُ مثيلاتها في الكاتدرائيةِ.

كانت الأرانب ما زالت تحتلُّ جزيرة ليبر، ومازال عقدُ إيجارِ ميرثن للجزيرةِ

ساريا، في غيابِ يجمع مارك وير الإيجارات من المستأجرين ويدفع الإيجار الشكليَّ إلى الديرِ كلَّ عامٍ وبعدَ حسمِ أجرِه في جمعِ الإيجاراتِ يرسل المال إلى ميرثن في فلورنسا عن طريقِ عائلةِ كارولي، وعلى الرغمِ من أنَّ المبلغ كانَ صغيراً بعدَ كلِّ هذهِ الاقتطاعاتِ فإنَّه كانَ يزداد سنوياً.

بدا منزلُ ميرثن على الجزيرةِ مأهولاً فمصاريعهُ مفتوحةٌ وعتبتهُ نظيفةٌ. قبيلَ مغادرتهِ كينغزبريدج كانَ ميرثن قد رتبَ أمرَ المنزلِ وأسكن جيمي فيهِ، وفكرَ ميرثن بأنَّ الصبي قد غدا رجلاً الآن.

عندَ النهايةِ القريبةِ للقوسِ الثاني من الجسرِ جلسَ رجلٌ عجوزٌ تحت الشمسِ يجمعُ التعاريف. لم يعرفهُ ميرثن وحدَّق الرجلُ العجوزُ فيه بإمعانٍ كأنَّه يحاولُ أن يتذكرَ أين رآه قبلاً إلا أنَّه لم يقل شيئاً.

بدت المدينةُ مألوفةً وغريبةً في آنٍ معاً، ولأنَّها مازالت على حالها تقريباً صُدمَ ميرثن بشدةٍ عند رؤيةِ التغييرات التي طرأت عليها كأنَّها حدثت بينَ ليلةٍ وضحاها، كانَ صفُ الأكواخِ قد هُدمَ وحلَّ مكانهُ صفٌ من المنازلِ الأنيقةِ ونُزل مزدحم كانَ في ما مضى منزلاً كبيراً بمظهرٍ كئيبٍ تسكنهُ أرملةٌ ثريةٌ، وجفّفت البئرُ التي كانت في المنطقةِ وهُدمت، وأعيدَ طلاءُ منزلٍ رمادي باللونِ الأبيض.

دخلَ إلى نُزلِ بيل الذي يقعُ على الشارعِ الرئيسي بالقربِ من بواباتِ الديرِ، كانَ النزلُ على حالهِ فحانةٌ في مثلِ هذا الموقعِ الجديد ستبقى في مكانها لمئاتِ السنين، تركَ حصانهُ ومتاعهُ مع سائسِ خيلٍ ودخلَ إلى الحانةِ ممسكاً بيدِ لولا.

كانت حانةُ بيل كأيِّ حانةٍ أخرى مؤلفةً من غرفةٍ أماميةٍ مؤثثة بطاولاتٍ ومقاعد غليظةٍ ومنطقةٍ خلفيةٍ حيثُ تكُدس براميل الجعةِ والنبيذ ويطبخ الطعام، ولأنَّ المكان مزدحمٌ ويدرُّ أرباحاً كانَ القشُّ على الأرضيةِ يُبدَّل مراراً وتبيَّض الجدرانُ دوماً، وفي الشتاء تضطرمُ نارٌ قويةٌ في المدفأةِ، كان الوقتُ صيفاً ولذلك فُتحت النوافذُ ودخل هواء عليل إلى الغرفةِ الأماميةِ.

بعدَ بُرهةٍ أتت بيسي بيل من القسمِ الخلفي للمكانِ، كانت بيسي فتاةً ممتلئةً قبلَ تسعةِ أعوامٍ إلا أنَّها الآن امرأةٌ ممتلئة بشكلٍ شهواني، نظرت إليهِ دونَ أن تعرفهُ ولكنه رآها تنظرُ باستحسانٍ إلى ثيابهِ وتستنتجُ أنَّه زبونٌ ثري: «طابَ يومكَ أيُّها المسافر»، قالت له: «ما الذي يمكنني أن أقدمهُ لكَ ولطفلتكَ؟»

ابتسمَ ميرثن وقال: «أرغبُ بغرفةٍ خاصةٍ من فضلكِ يا بيسي».

عرفتهُ حالما تحدَّثَ: «يا إلهي!» صرخت: «ميرثن بنَّاء الجسرِ!» مدَّ ميرثن

يدهُ ليصافحها إلَّا أنّها ألقت بذراعيها حولهُ وعانقتهُ، لطالما كانت بيسي تكن له مشاعر خاصَّةً، أفلتته وأمعنت النظرَ إلى وجههِ: «يا لها من لحيةٍ! كنت سأعرفكَ على الفورِ من دونها، هل هذهِ ابنتكَ الصغيرة؟»

«اسمها لولا».

«حسناً، يا لكِ من فتاةٍ جميلةٍ! لا بد أن والدتك جميلةٌ».

قال ميرثن: «زوجتي متوفاة».

«يا لهُ من أمرٍ مؤسف، ولكن لولا صغيرةٌ ولن تتذكر هذا، لقد توفي زوجي أيضاً».

«لم أكن أعلمُ أنكِ كنتِ متزوجة».

«لقد التقيتُ بهِ بعدَ أن غادرت، يدعى ريتشارد براون من غلوستر، لقد توفي منذُ عام».

«يؤسفني سماعُ هذا».

«ذهبَ والدي إلى كانتربري بقصدِ الحجِ ولهذا أديرُ المكان في غيابهِ حالياً».

«لطالما أحببتُ والدكِ».

«كانَ يحبكَ أيضاً رغم أنّه يعاملُ الرجالَ بشيءٍ من المزاجيةِ، لم يكن لطيفاً قط مع زوجي ريتشارد».

«آه»، قال ميرثن وقد بدأ الحديثُ يغدو حميمياً وبسرعةٍ أضاف: «هل من أخبارٍ عن والدي؟»

«إنهما ليسا في كينغزبريدج بل في منزلِ شقيقك الجديد في تينش».

كان ميرثن قد سمعَ من بونافينتورا أنَّ رالف قد أصبحَ لورد تينش: «لا بد أن والدي سعيدٌ جداً بهذا».

«يتباهى كطاووس»، قالت مبتسمةً ثمَّ اكتسى وجهها بشيءٍ من القلقِ: «لا بد أنّك جائعٌ سأطلبُ من الفتيانِ أن يأخذوا أمتعتكَ إلى الطابقِ العلوي، ومن ثمَّ سأحضرُ إبريقاً من الجعةِ وبعضَ الحساءِ»، استدارت وعادت إلى الغرفةِ الخلفيةِ.

«هذا لطفٌ منكِ ولكن...»، توقفت بيسي عندَ البابِ.

«سأكون ممتناً لكِ إن قدَّمتِ بعضِ الحساءِ إلى لولا، هناك أمرٌ عليَّ أن أقومَ بهِ».

أومأت بيسي وقالت: «بالطبعِ»، ثمَّ انحنت إلى مستوى لولا وقالت: «هل تريدين مرافقةَ الخالةِ بيسي؟» أعتقدُ أنكَ تستطيعينَ تناولَ قطعةٍ من الخبزِ، هل تحبينَ الخبزَ الطازج؟»

ترجمَ ميرثن السؤال إلى الإيطاليةِ وأومأت لولا برأسها سعيدةً.

نظرت بيسي إلى ميرثن وقالت: «ستذهبُ لمقابلةِ الأختِ كاريس؟»

ولسببٍ غريبٍ شعرَ ميرثن بالذنبِ وأجاب: «أجل. أما زالت هنا؟»

«أجل. إنَّها المسؤولةُ عن زوارِ الديرِ الآن، لن أفاجأ إن أصبحت رئيسةَ الديرِ يوماً ما». أمسكت بيسي بيدِ لولا وقادتها إلى الغرفةِ الخلفيةِ. «حظاً موفقاً»، قالت لميرثن من فوق كتفيها، وخرجَ ميرثن.

يُمكن لبيسي أن تخنقَ المرء قليلاً بعاطفتها إلا أنَّها كانت صادقةً وأسعدهُ حقاً ترحيبها الحار بهِ، وصلَ إلى الديرِ وتوقفَ ليتأمل الواجهةَ الغربيةَ العاليةَ للكاتدرائيةِ التي ما زالت مهيبةً وملهمةً كما كانت دوماً رغم مُضي مئتي عامٍ على بنائها.

لاحظَ ميرثن وجودَ بناءٍ حجري جديدٍ شمالَ الكنيسةِ وراءَ المقبرةِ، كانَ قصراً متوسطَ الحجمِ بمدخلٍ مهيبٍ وطابقٍ علوي وقريباً من المنزلِ الخشبي القديمِ لرئيسِ الديرِ وهذا يعني أنَّه منزلُ غودوين الجديد، وتساءلَ ميرثن في نفسهِ عن مصدرِ المالِ الذي موَّلَ منهُ غودوين بناءَ القصرِ.

اقتربَ ميرثن أكثر، كانَ قصراً مهيباً جداً إلَّا أنه لم يُعجب بتصميمهِ فلم يكن، وبأيِّ شكلٍ من الأشكالِ، على مستوى روعةِ الكنيسةِ القريبةِ منهُ، كانت التفاصيلُ خرقاء وحجبَ القسمُ العلوي المبهرج من إطارِ البابِ نافذةَ الطابقِ العلوي، ولكن الأسوأ من هذا كانَ بناءُ القصرِ على محورٍ معاكسٍ لمحورِ الكنيسةِ؛ ولهذا بدا كأنَّه في زاويةٍ غريبةٍ، لا بد أن هذا من عملِ إلفريك.

جلست هرَّةٌ ممتلئةٌ تحتَ الشمسِ على العتبةِ، كانت هرَّة سوداء ببقعةٍ بيضاء في نهايةِ ذيلها، ورمقت الهرَّة ميرثن بنظرةٍ عدائيةٍ.

استدارَ ميرثن وسار على مهلٍ باتجاه مستشفى الديرِ، كانت حديقةُ الكاتدرائيةِ هادئةً وخاليةً فلم يكن هناك سوقٌ اليومَ، ومجدداً شعرَ ميرثن بالحماسِ والرهبةِ يتصاعدانِ لأنَّه قد يلتقي بكاريس في أيِّ لحظةٍ، وصلَ إلى مدخلِ المستشفى ودخلَ، بدت الغرفةُ الطولانيةُ أكثرَ إشراقاً ورائحتها أفضل مما يتذكر وكلُّ شيءٍ فيها نظيفٌ، هناك بضعةُ أشخاص مُستلقين على أسرَّة على الأرضيةِ وكان معظمهم من كبارِ السنِ، عندَ المذبحِ رأى راهبةً شابةً تتلو الصلواتِ بصوتٍ عالٍ، انتظرها ميرثن إلى أن انتهت من الصلاةِ، كانَ متوتراً جداً إلى درجةِ أنَّه كان واثقاً من أنَّه أكثرُ توعكاً من بقيةِ المرضى في المكان، لقد قطعَ ألفَ ميلٍ من أجلِ هذهِ اللحظةِ، وها هو يتساءلُ في نفسهِ إن كانت هذهِ الرحلةُ عبثيةً.

وأخيراً قالت الراهبةُ: «آمين» لآخر مرةٍ والتفتت، لم يعرفها ميرثن، اقتربت منهُ وقالت بتهذيبٍ: «باركك الرَّبُّ أيُّها الغريب»: أخذَ ميرثن نفساً عميقاً وقال: «لقد أتيتُ لرؤيةِ الأختِ كاريس».

***

باتت الآن جميع اجتماعات الراهباتِ تجري في غرفةِ الطعام. في ما مضى كانوا يتشاركون مع الرهبانِ قاعة الاجتماعات المُثمنةَ والفخمةَ في الطرفِ الشمالي الشرقي من الكاتدرائيةِ، ولكن وبما يدعو للأسفِ وبسبب انعدامِ الثقةِ بينَ الرهبانِ والراهباتِ الآن لم تعد الراهباتُ راغبات بالمخاطرةِ في استراقِ الرهبانِ السمعَ إلى مداولاتهن، ولهذا كُنَّ يلتقينَ في الغرفةِ الطولانيةِ الفارغةِ حيثُ يتناولن وجباتهن أيضاً.

جلست المسؤولاتُ عن ديرِ الراهباتِ وراءَ الطاولةِ وتوسطتهم الأمُّ سيسيليا، لم تكن نائبةُ رئيسةِ الديرِ موجودةً فقد توفيت ناتالي منذُ عدَّةِ أسابيع وهي ما تزال في السابعةِ والخمسين، ولم تكن سيسيليا قد نصَّبت بديلاً عن ناتالي بعد. إلى يمينِ سيسيليا جلست بيث وأمينةُ السجلاتِ إليزابيث أو من كانت تُعرفُ سابقاً باسمِ إليزابيث كلرك، أمَّا إلى يسارِها فقد جلست مسؤولةُ المؤنِ مارغريت ومساعدتها كاريس المسؤولةُ عن زوارِ الديرِ بينما توزعت بقيةُ الراهباتُ اللواتي يبلغُ عددهن ثلاثينَ راهبة على مقاعد مصفوفة قبالةَ المسؤولاتِ عنهن.

بعدَ تلاوةِ الصلواتِ والقراءةِ قامت الأمُّ سيسيليا بسلسلةِ إعلاناتٍ، «لقد تلقينا رسالةً من السيدِ الأسقفِ في ردٍ على شكوانا على سرقةِ رئيسِ الديرِ غودوين لمالنا»، قالت سيسيليا وسرت همهمةٌ بين الراهباتِ تشي بالترقبِ.

تأخرَ الجوابُ في الوصولِ لأنَّ الملكَ إدوارد أخذَ عاماً تقريباً لتعيين بديلٍ عن الأسقفِ ريتشارد، وقد مارسَ الإيرلُ ويليام ضغطاً كبيراً ليحلَّ جيروم، الوكيلُ الكُفء الذي عملَ لمصلحة والدِهِ، مكان أخيهِ إلا أنَّ إدوارد اختارَ هنري مونز الذي كانَ نسيبَ زوجتِهِ من مدينة إينو شمال فرنسا، كانَ الأسقف هنري قد وصلَ إلى إنكلترا من أجلِ مراسمِ التنصيبِ ثمَّ سافرَ إلى روما ليرسمهُ البابا، ليعودَ بعدها ويستقرَّ في قصرهِ في شايرنغ وعندها فقط أجابَ على رسالةِ الشكوى الرسمية التي أرسلتها الأمُّ سيسيليا.

تابعت سيسيليا: «رفضَ الأسقفُ أخذَ أيِّ إجراءٍ بخصوصِ السرقةِ قائلاً إنَّ الأمرَ وقعَ خلالَ عهدِ الأسقفِ ريتشارد وما حدثَ في الماضي يبقى ماضياً».

تنهّدت الراهبات في حسرةٍ، كنَّ قد تقبلن تأخرَ الرَّدِ لأنهنَّ كُنَّ واثقاتٍ من أنّهن سينلن العدالةَ في النهايةِ، ولذلكَ كان لوقعِ الرفضِ عليهنَ أثر مؤلم.

كانت كاريس قد قرأت الرسالةَ قبلاً ولذلكَ لم تكن مذهولةً كبقيةِ الراهباتِ، لم يكن أمراً غريباً حقاً أن يتجنبَ الأسقفُ الجديدُ بدءَ عهدِهِ بخلافٍ مع رئيسِ الديرِ، استنتجت كاريس من الرسالةِ أنَّ هنري لن يتصرف بشكلٍ مبدئي بل بنفعيةٍ، وهو بهذا لم يكن مختلفاً جداً عن غالبيةِ أولئكَ الرجالِ الناجحين في السياسةِ الكنسيةِ.

على أيّة حالٍ لم تكن خيبةُ أملها أقلَّ؛ لأنَّ الجوابَ لم يفاجئها فالقرارُ يعني أنَّ عليها أن تتخلى في المستقبلِ المنظورِ عن حُلمِ بناءِ مستشفى جديد للمرضى، وعزلهم عن زوارِ الديرِ الأصحاءِ، قالت لنفسها إنَّه يجب ألّا تحزنَ على هذا فالديرُ موجودٌ منذُ مئةِ عامٍ من دونِ رفاهيةِ مستشفى خاص، ولكنها من جهةٍ أخرى غضبت كثيراً من الانتشارِ السريعِ لمرضِ الإقياءِ الذي جلبهُ معهُ ملدوين كوك إلى سوقِ الصوفِ قبلَ عامين، لم يفهم أحد سببَ انتقالِ عدوى مثلِ هذهِ الأمراضِ بمجردِ النظرِ إلى المريضِ أو لمسِهِ أو التواجد معه في الغرفةِ ذاتها، ولكن ما من شكٍ أن كثيراً من الأمراضِ تنتقلُ من مريضٍ إلى آخرَ، ولذلكَ لا بد أن يكون القربُ عاملاً في حدوثِ هذا، على أيّ حالٍ قالت لنفسها إنَّ عليها وضعَ كل هذا وراءها الآن.

علَت همهمةُ استياءٍ من الراهباتِ الجالساتِ على المقاعدِ فارتفعَ صوتُ مير فوقها قائلةً: «سيتفاخرُ الرهبانُ بهذا».

فكّرت كاريس أنَّ مير محقةٌ في ما قالتهُ، لقد خرجَ غودوين وفيليمون من هذهِ السرقةِ كالشعرةِ من العجينِ، فلطالما قالا إنَّ استخدام الرهبانِ لمالِ الراهباتِ ليسَ سرقةً بما أنَّه سيُستخدمُ في النهايةِ لتمجيدِ الرَّبِّ، لا بد أنهما سعيدان، فما قامَ بهِ الأسقفُ الآن هو حمايتهما، كانت هزيمةً مريرةً خاصة لكاريس ومير.

ولكن الأم سيسيليا لم تكن لتضيعَ الوقتَ في التحسرِ: «هذهِ ليست غلطتنا رغمَ أنني قد أتحملُ اللومَ، لقد أفرطنا في ثقتنا».

وفكرت كاريس في نفسها أنّها لم تثق يوماً بغودوين بل سيسيليا من وثقت بهِ ولكنها قررت ألا تتفوهَ بكلمةٍ، كانت تنتظر ما ستقولهُ سيسيليا بعدَ هذا فهي تعلمُ أنَّ رئيسةَ الديرِ ستقومُ بتغييراتٍ بينَ المسؤولاتِ من الراهباتِ ولكن لم يعرف أحدٌ ما الذي قررتهُ.

«على أيِّ حالٍ علينا أن نكونَ أكثرَ حذراً في المستقبل، سنبني خزنةً خاصةً بنا بعيدةً عن أيدي الرهبان، في الحقيقةِ آمل ألا يكتشفوا مكانها أبداً، ستتقاعدُ الأختُ بيث من منصبها كأمينةٍ للخزنة ونحن نوجهُ لها الشكرَ على خدمتها الطويلةِ والنزيهةِ وستحلُّ الأختُ إليزابيث مكانها، لدي إيمانٌ كاملٌ في إليزابيث».

حاولت كاريس أن تتحكمَ بتعابيرِ وجهها حتَّى لا يرى أحد التقزز الذي كانت تشعرُ بهِ عند سماعها لهذا الإعلان، لقد شهدت إليزابيث ضدَ كاريس وقالت عنها إنَّها ساحرةٌ، ورغمَ أن هذا حدثَ منذُ تسعةِ أعوامٍ وسامحت سيسيليا إليزابيث على فعلتها هذهِ إلَّا أنَّ كاريس لم تفعل، على أيِّ حالٍ لم يكن هذا السببَ الوحيدِ لازدراءِ كاريس لإليزابيث، كانت إليزابيث شخصاً مشاكساً وغريباً، وتسمحُ لامتعاضها بالتدخلِ في حُكمها على الأمورِ، كانت كاريس ترى أنَّه لا يمكن الوثوقُ بأناسٍ من هذا النوع لأنَّهم يميلون دوماً إلى أخذِ القرارات بناءً على أحكامٍ مسبقةٍ.

تابعت سيسيليا قائلةً: «لقد طلبت الأختُ مارغريت الإذنَ بالتنحي من منصبها، وستأخذُ الأختُ كاريس مكانها كمسؤولةٍ عن المؤنِ».

شعرت كاريس بخيبةِ الأملِ فقد كانت ترجو أن تصبحَ نائبةَ رئيسةِ الدير، بذلت جهداً لتبتسمَ كأنَّها سُرَّت بهذهِ الترقيةِ ولكنها وجدت الأمرَ صعباً، بدا واضحاً أنَّ سيسيليا لم تكن تريدُ تعيينَ نائبةٍ لها وبدلاً من هذا سيكونُ هناك راهبتان متنافستان تحتها وهما كاريس وإليزابيث اللتان ستتصارعان من أجلِ هذا المنصبِ، التقت عينا كاريس بعيني إليزابيث ورأت أنَّ الأخيرةَ ترمقها بنظراتٍ تفيضُ كراهيةً.

تابعت سيسيليا: «ستصبحُ الأختُ مير وتحتَ إشرافِ كاريس المسؤولةَ عن زوارِ الديرِ».

أشرقَ وجهُ مير من البهجةِ فقد كانت سعيدةً لأنَّها ترقّت وأكثرَ سعادةً لأنَّها ستعملُ تحتَ إمرةِ كاريس، أحبَّت كاريس هذا القرارَ أيضاً فقد كانت مير تشاركها هوسها بالنظافةِ، وبعدمِ الثقةِ بعلاجاتِ الكهنةِ كفصدِ الدمِ.

رغم أنَّ كاريس لم تحصل على ما كانت ترجوه فإنَّها حاولت أن تبدو سعيدةً بينما تابعت سيسيليا الإعلان عن سلسلةِ مناصب أقل شأناً. وعندَ انتهاءِ الاجتماعِ توجهت كاريس إلى سيسيليا وشكرتها.

«لا يمكنكِ أن تتخيلي صعوبة القرار»، قالت رئيسةُ الديرِ: «إليزابيث ذكيةٌ وحازمةٌ وهادئةٌ بينما أنتِ عاطفيةٌ جداً، ولكنكِ أيضاً واسعةُ المخيلةِ وتستطيعين استفزازَ أفضل ما في المرءِ، أحتاجكما معاً».

وفكرت كاريس بأسى في أنّها لا تستطيعُ مجادلةَ سيسيليا في تحليلها لشخصيتِها فهي تعرفها جيداً بل وأفضل من أيِّ أحدٍ آخر في العالمِ بعدَ والدها وميرثن، شعرت كاريس بموجةِ حبٍ عارمٍ نحو سيسيليا التي كانت أشبهَ بالعصفورةِ الأمِّ التي تتحركُ على الدوامِ تهتمُّ بفراخها: «سأقومُ بكلِّ ما بوسعي لأكونَ عندَ حسنِ ظنكِ»، قالت كاريس.

غادرت كاريس الغرفةَ فقد كانت تريدُ الاطمئنان على الراهبةِ العجوز جولي، على الرغمِ من تشديدها على الراهبات الأصغرِ عُمراً ليهتممن بجولي، ولكن ما من واحدةٍ منهن اهتمت بالراهبةِ العجوز كما كانت تفعلُ، وكأنَّ تلكَ الشاباتِ يعتقدنَ أنَّ شخصاً عجوزاً لا يحتاجُ إلى الكثيرِ ليكونَ مُرتاحاً، لم يكن هناك أحدٌ آخر غير كاريس يهتمُّ بإعطاءِ جولي بطانيةً في الطقسِ الباردِ، وتقديمِ الشرابِ لها عندما تكونُ عطشى، ومساعدتها على دخولِ الحمامِ في تلكَ الأوقاتِ من النهارِ التي عادةً ما تذهبُ فيها إلى الحمام، قررت كاريس أن تأخذَ لجولي مشروباً عشبياً ساخناً كفيلاً برفعِ معنوياتِ الراهبةِ العجوزِ، توجهت كاريس إلى صيدليتها ووضعت قِدراً صغيراً على النارِ ليغلي.

دخلت مير وأوصدت البابَ خلفها: «أليسَ الأمرُ رائعاً؟ سنعملُ معاً!»، قالت مير وأحاطت كاريس بذراعيها ثمَّ قبّلتها على شفتيها، عانقتها كاريس ثمَّ أفلتت نفسها من العناقِ قائلةً: «لا تقبليني بهذهِ الطريقةِ».

«أقبّلكِ لأنني أحبُّك».

«وأنا أحبُّكِ أيضاً ولكن ليسَ بهذهِ الطريقةِ».

كان الأمرُ صحيحاً فكاريس مغرمةٌ جداً بمير وغدت علاقتهما حميمةً في فرنسا عندما خاطرتا بحياتهما معاً فقد اكتشفت كاريس أنَّ جمالَ مير يجذبها، وفي ليلةٍ في كاليهِ عندما كانتا في حانةٍ حظيتا بغرفةٍ وحدهما مع بابٍ يُمكنُ إيصادُه، في تلكَ الليلةِ استسلمت كاريس لمحاولاتِ مير، داعبتها مير وقبّلتها في جميعِ مناطقِها الحميمةِ، وقامت كاريس بالمثلِ مع مير، قالت لها مير إنَّ تلكَ الليلةَ أسعدُ يومٍ في حياتها، لسوءِ الحظِ لم يكن هذا ما شعرت بهِ كاريس، كانت التجربةُ بالنسبةِ لها ممتعةً إلّا أنّها لم تكن مثيرةً ولم ترغب بتكرارها.

«لا بأس»، قالت مير: «ما دُمتِ تحبينني ولو قليلاً فأنا سعيدةٌ أنّكِ لن تتوقفي عن حُبي؟»

سكبت كاريس الماء المغلي فوقَ الأعشابِ الطبيَّةِ: «عندما تصبحين في عُمرِ جولي أعدكُ أنني سأقدمُ لكِ مشروباً طبياً كي تبقي بصحةٍ جيدةٍ»، انحدرت الدموعُ من عيني مير: «هذا ألطفُ شيءٍ قِيل لي على الإطلاق».

لم تقصد كاريس بكلامها تقديم وعودِ بُحبِ أبدي: «لا تتصرفي بعاطفيةٍ»، قالت لها كاريس بلطفٍ ثمَّ قامت بتصفيةِ المزيجِ في كأسٍ خشبي: «فلنذهب ولنتفقد جولي».

عبرتا الممرات المسقوفةَ ودخلتا إلى المستشفى، كان هناك رجلٌ بلحيةٍ حمراء كثَّةٍ يقفُ قربَ المذبحِ: «باركك الرَّبُّ أيُّها الغريب»، قالت كاريس وبدا لها الرجلُ مألوفاً، لم يُجب على تحيَّتها بل اكتفى بالنظرِ إليها بعينيهِ العسليتين وعرفتهُ كاريس، أوقعت الكوب من يدها وقالت: «يا إلهي! هذا أنت!»

***

وجدَ ميرثن تلك اللحظاتِ القليلةَ السابقةَ لرؤيته لها ساحرةً، وعلمَ أنَّهُ ومهما حدثَ سيقُدسُ هذهِ اللحظاتِ لبقيةِ حياتهِ. حدَّقَ في جوعٍ إلى ذلكَ الوجهِ الذي لم يرهُ منذُ تسعةِ أعوامٍ، وتذكّرَ في ما يشبهُ صدمةَ الغطسِ في ماءٍ باردٍ في يومٍ حارٍ غلاوةَ هذا الوجهِ عليهِ. لاحظَ أنّها بالكادِ تغيرت وهذا يعني أنَّ جميعَ مخاوفهِ لم تكن في محلها، بل لاحظَ أنّها لم تبدُ أكبرَ عُمراً رغمَ أنّها الآن في الثلاثين وما زالت نحيلةً وحيويةً كما كانت في العشرينيات. دخلت كاريس إلى المستشفى بسرعةٍ وبهيئةٍ سلطويةٍ قويةٍ وهي تحملُ كوباً ممتلئاً بدواءٍ ما ثمَّ نظرت إليهِ وأوقعت الكأسَ.

ابتسمَ لها في سعادةٍ.

«أنتَ هنا!» قالت كاريس: «اعتقدت أنّكَ في فلورنسا!»

«أنا سعيدٌ جداً بالعودةِ إلى كينغزبريدج»، أجابها.

نظرت إلى السائلِ الذي أريقَ على الأرضيةِ وقالت الراهبةُ التي كانت برفقتها: «لا تقلقي حيالَ هذا سأقومُ بتنظيفِ الأرضيةِ. فلتذهبي ولتتحدثي إليهِ». كانت الراهبةُ جميلةً وقد لاحظ ميرثن أنَّ عينيها اغرورقتا بالدموعِ ولكنه لم يلقِ بالاً للأمرِ بسببِ شدةِ حماسهِ.

قالت كاريس: «متى عُدتَ؟»

«لقد وصلتُ منذُ ساعة، تبدين بصحةٍ جيدةٍ».

«وأنت تبدو كرجلٍ...»

وضحكَ ميرثن.

ثمَّ قالت له: «ما الذي دفعكَ للعودةِ؟»

«إنَّها قصةٌ طويلةٌ»، أجابها ثمَّ أضاف: «ولكني أرغبُ بإطلاعكِ عليها».

«فلنخرج»، قالت ولمست ذراعهُ بلطفٍ وهي تقودهُ خارجَ المبنى. لم يكن يُفترض بالراهباتِ أن يلمسن أحداً ولا أن يتجاذبن أطرافَ حديثٍ خاصٍ مع الرجالِ، ولكن مثلُ هذهِ القواعدِ كانت اختياريةً بالنسبةِ لها. كانَ سعيداً لأنَّها ما زالت لا تراعي أيّ سُلطةٍ بعدَ كل هذهِ السنواتِ التي مرَّت.

أشارَ ميرثن إلى مقعدٍ بالقربِ من حديقةِ الخضارِ وقالت: «جلستُ على هذا المقعدِ مع مارك ومادج ويبر في اليومِ الذي انضممتِ فيهِ إلى الدير منذُ تسعةِ أعوامٍ، ووقتها أخبرتني مادج أنَّكِ ترفضين رؤيتي».

أومأت برأسها قائلةً: «كانَ أتعسَ يومٍ في حياتي، ولكني كنتُ أعلمُ أنَّ رؤيتكَ ستكونُ أسوأ بكثير».

«كانَ هذا شعوري أيضاً باستثناءِ أنني كنتُ أرغب برؤيتكِ آنذاك أيّاً كانت الحالةُ التعسةُ التي سأمُسي إليها بعدَ هذا».

رمقتهُ بنظرةٍ مباشرةٍ بعينيها الخضراوين الضاربتين للونِ العسليِّ والصريحتين وقالت: «يبدو كلامكَ كنوعٍ من العتابِ».

«قد يكونُ كذلكَ. كنتُ غاضباً منكِ جداً وأيّاً يكن القرارُ الذي اتخذتهِ آنذاكِ كنتِ تدينين لي بتفسيرٍ». لم يكن ميرثن ينوي أن يأخذ حديثهُ هذا المسار ولكن لم يكن بيدهِ حيلةٌ.

لم تبد آسفةً على ما حدثَ وقالت: «الأمرُ بسيطٌ جداً. لم يكن بوسعي احتمالُ ترككَ، ولو أُجبرتُ على التحدثِ إليكَ لكنتُ قتلتُ نفسي عندها».

بوغتَ بكلامِها فلطالما اعتقدَ وعلى مدارِ الأعوامِ التسعةِ الماضيةِ أنَّها تصرَّفت بأنانيةٍ في ذلكَ اليومِ الذي افترقا فيهِ، ولكن يبدو الآن أنَّه الأناني وليست هي، وتذكر ميرثن هنا أنَّه لطالما كان لكاريس تلكَ القدرة على دفعهِ إلى إعادةِ التفكيرِ بسلوكهِ، لم يكن هذا مريحاً له إلا أنَّها كانت محقةً على الدوامِ.

لم يجلسا على المقعدِ بل ابتعدا وسارا في حديقةِ الكاتدرائيةِ. امتلأت السماء بالغيوم وغابت الشمسُ.

«هناك وباءٌ رهيبٌ يجتاحُ إيطاليا»، قالَ ميرثن وأضاف: «يسمونهُ بالموتِ الكبيرِ».

«لقد سمعتُ عنهُ»، قالت كاريس وسألته: «ألم يضربْ جنوبَ فرنسا أيضاً؟ يبدو الأمر فظيعاً».

«لقد أصبتُ بالمرضِ وتعافيت وهذا أمرٌ غريبٌ، ولكن زوجتي سيلفيا توفيت».

بدت كاريس مصدومةً وقالت له: «يؤسفني جداً سماعُ هذا. لا بد أنكَ حزينٌ جداً».

«لقد توفيت عائلتها كُلُّها وتوفي عملائي أيضاً ولذلك بدا لي أنَّ اللحظة قد حانت لكي أعودَ إلى الديارِ، ماذا عنكِ؟»

«لقد عُينتُ للتو في منصبِ مسؤولةِ المؤنِ»، قالت في فخرٍ واضحٍ.

بدا الأمرُ لميرثن كأنّه حدثٌ عادي بخاصَّةٍ بعدَ مجزرةِ الوباءِ التي رآها إلا أنَّ مثلَ هذهِ الأمور كانت مهمةً في حياةِ الرهبانِ. رفعَ نظرهُ وحدَّقَ إلى الكنيسةِ المهيبةِ ثمَّ قالَ: «هناكَ كاتدرائيةٌ بديعةٌ في فلورنسا وقد استخدموا فيها الكثيرَ من النقوشِ الحجريةِ الملونةِ ولكني أفضلُ هذا النمط من الكاتدرائيات بمنحوتاتٍ من لونٍ واحدٍ». وبينما كان ميرثن يتفحص البرج بحجارتهِ الرماديةِ على أرضيةِ السماءِ الرماديةِ بدأت تمطرُ.

هربا من المطرِ إلى داخلِ الكنيسةِ. كان هناكَ ما يزيدُ على عشرةِ أشخاصٍ منتشرين في صحنِ الكنيسةِ وكانوا زواراً يتأملونَ عمارةَ المكانِ وسكاناً محليين أتقياء يصلون وبضعةَ رهبانٍ جدد يكنسونَ الأرضيةَ.

«أتذكرُ أنني داعبتكِ خلفَ ذلكَ العمود»، قالَ ميرثن مُبتسماً.

«أتذكرُ هذا أيضاً»، قالت له دونَ أن تنظرَ إليهِ بشكلٍ مباشرٍ.

«مازلتُ أكنَّ لكِ ذاتَ الشعور الذي كنتُ أشعرُ بهِ آنذاك، ولهذا السبب عُدتُ إلى الوطن».

استدارت ونظرت إليه بعينين غاضبتين: «ولكنكَ تزوجتَ».

«وأنتِ أصبحتِ راهبةً».

«ولكن كيفَ استطعتَ الزواجَ منها، من سيلفيا، إن كنتَ تحبني؟»

«اعتقدتُ أنّكِ نسيتِ أمري ولكنني لم أنسَ أمركِ. عندما كنتُ على فراشِ الموتِ أدركت أنني لم أنسكِ قط».

اختفى غضبها بالسرعةِ التي ظهرَ فيها واغرورقت عيناها بالدموعِ.

«أعلمُ»، قالت وأشاحت بوجهها.
«إذاً، مازال شعورك هو نفسهُ».
«لم أتغير».
«هل حاولتِ؟»
ونظرت إليه: «هناك راهبة...»
«الراهبةُ الجميلةُ التي كانت معكِ في المستشفى؟»
«كيفَ عرفتَ؟»
«لقد بكت عندما رأتني وأثارَ هذا استغرابي».
بدت كاريس كأنّها تشعرُ بالذنبِ وتكهنَ ميرثن أنّها تشعرُ بالشعورِ نفسهِ الذي كانت تشعرُ بهِ سيلفيا عندما كانت تقولُ لهُ: «أنتَ تفكرُ بفتاتكِ الإنكليزيةِ».
«إنَّ مير شخصٌ عزيزٌ علي»، قالت كاريس ثمَّ أضافت: «وهي تحبني لكن...»
«ولكنكَ لم تنسي أمري».
«لا».
انتابَ ميرثن شعور بالانتصارِ ولكنَّه حاولَ إخفاءَهُ.
«في هذهِ الحالةِ»، قال لها: «عليكِ أن تتخلي عن نذوركِ وتتركي ديرَ الراهباتِ وتتزوجي بي».
«أتركُ الديرَ؟» سألت كاريس.
«علينا أولاً أن نحصلَ على عفو من تهمةِ ممارسةِ السحرِ، ولكني واثق من أننا نستطيعُ فعلَ هذا. سنرشو الأسقفَ ورئيسَ الأساقفةِ، والبابا إن تطلّبَ الأمرُ. يمكنني أن أتكفلَ بهذا».
لم تكن كاريس واثقةً من أنَّ الأمرَ بهذهِ السهولةِ التي يتحدثُ بها إلا أنَّ هذه لم تكن مشكلتها الأساسية. «لا يمكنني الإدعاءُ أنَّ الأمر غيرُ مغرٍ»، قالت له وتابعت: «ولكنني وعدتُ سيسيليا أنني سأدافعُ عن إيمانها بي... يجبُ أن أساعدَ مير في منصبها الجديدِ كمسؤولةٍ عن الزوارِ.. علينا أن نبني خزنةً جديدةً...، وأنا الوحيدةُ التي تهتمُ بالراهبةِ العجوز جولي كما يجب...»
بدا ميرثن حائراً: «هل كلُّ هذا مهمٌ؟»
«بالطبع إنَّهُ كذلكَ!» قالت بغضب.
«اعتقدت أنَّ الراهبات مجرَّدُ نساءٍ عجائز يصلينَ».
«ويعالجنَ المرضى ويُطعمن الفقراء ويُدرنَ آلاف الفدادين من الأراضي. إنَّ عملهن مهمٌ بقدرِ أهميةِ بناءِ الجسورِ والكنائسِ».

لم يتوقعُ منها هذا الجواب فلطالما كانت مرتابةً حيالَ الأمورِ الدينيةِ، ودخلت إلى الديرِ مُكرهةً فقد كان الطريقة الوحيدة للنجاةِ بحياتِها، ولكن يبدو أنَّها الآن باتت تُحبُّ هذهِ العقوبة، «أنتِ أشبه بالسجينِ الذي يترددُ في مغادرةِ زنزانتهِ حتَّى عندما تكون البوابةُ مفتوحةً على مصراعيها»، قالَ لها.

«البوابةُ ليست مفتوحةً على مصراعيها. يجبُ عليَّ التخلي عن جميعِ نذوري، الأمُّ سيسيليا...»

«سنعملُ على حلِّ جميعِ هذهِ المشاكلِ، فلنبدأ على الفورِ»، قال لها.

بدت تعيسةً وأجابت: «أنا لستُ واثقةً من هذا».

رأى بوضوحٍ أنَّها ممزقةً وأثار هذا عجبهُ. «هل هذهِ أنتِ؟» قالَ بارتيابٍ وأضاف: «أنتِ يا من كُنتِ تكرهين الرياءَ والزيفَ في الديرِ، أولئكَ الكسالى والجشعين والخادعين والمستبدين...»

«هذا صحيح إن تحدثنا عن غودوين وفيليمون».

«فلتغادري إذاً».

«وماذا سأفعلُ عندها».

«الزواج بي من كلِّ بدٍ».

«هل هذا كلُّ ما في الأمرِ؟»

ومرَّةً أخرى انتابت الحيرةُ ميرثن وقال: «هذا كلُّ ما أريدهُ».

«لا، ليسَ كذلكَ. أنتَ تريدُ تصميم قصورٍ وقلاعٍ وبناء أعلى مبنى في إنكلترا».

«إن كنتِ تحتاجين إلى شخصٍ يعتني...»

«ماذا؟»

«لدي ابنة صغيرة تدعى لولا، إنَّها في الثالثةِ».

وجاءَ قوله هذا بمنزلة الدليل الدامغ على ما خشيتهُ.

«أنا مسؤولةٌ كبيرةٌ عن خمسٍ وثلاثين راهبةً في ديرٍ، وهناك عشر راهباتٍ جديدات بينهن، وخمسة وعشرين موظفاً إضافةً إلى مدرسةٍ ومستشفى وصيدلية، وها أنتَ تطلبُ مني أن أتخلى عن كلِّ هذا لأرعى طفلةً صغيرةً لم ألتقِ بها قط»، قالت له.

قررَ ميرثن أن يتخلى عن هذهِ الحجة وقال: «كل ما أعلمهُ أنني أحبكِ وأريدُ أن أكونَ معكِ».

ضحكَت كاريس ولكن بجديَّةٍ ثمَّ قالت: «لو أنَّك اكتفيتَ بقولِ هذا لنجحتَ بإقناعي».

«أنا محتارٌ»، قال ميرثن ثمَّ سألها: «هل هذا رفضٌ أم قبولٌ؟»
«لا أعلم»، قالت لهُ.

-55-

استلقى ميرثن صاحياً معظمَ الليلِ. كانَ معتاداً على المبيتِ في الحاناتِ وساعدتهُ الأصواتُ التي كانت تُصدرها لولا على الاسترخاءِ أكثر، إلا أنَّهُ لم يستطع التوقفَ عن التفكيرِ بكاريس. لقد صدمتهُ بردِّ فعلها على عودتِهِ، وأدركَ الآن أنَّه لم يفكر بمنطقيةٍ حيالَ ما ستشعرُ بِهِ عندما يظهرُ مجدداً. لقد أسلمَ نفسهُ لكوابيس غير واقعية حول مدى تغيرها وتمنى بكلِّ جوارحِهِ أن يكونَ صلحهما سعيداً. بالطبعِ لم تنسهُ ولكن كانَ عليهِ أن يدركَ أنَّها لم تقضِ السنوات التسع الماضية حزينةً عليهِ فهي ليست من هذا النوعِ.

ولكنه لم يتوقع أنْ تُظهرَ كلَّ هذا الالتزام بعملِها كراهبةٍ فلطالما كانت، بطريقةٍ أو بأخرى، عدائيةً حيالَ تعاليم الكنيسةِ. وبالنظرِ إلى خطورةِ نقدِ الكنيسةِ علانيةً ربما أخفت عنهُ عمقَ تشكيكها بالدينِ، ولذلكَ وقعَ عليهِ ترددها في مغادرةِ الديرِ كالصاعقةِ. لقد توقعَ أن تكون خائفة من حُكمِ الموتِ الذي أصدرهُ بحقها الأسقفُ ريتشارد أو قلقها حيالَ الحصولِ على إذنٍ بالتخلي عن نذورها ولكن لم يتوقع أن تجدَ حياةَ الديرِ مُرضيةً إلى درجة الترددِ في تركها لتصبح زوجتَه.

شعرَ بالغضبِ منها وتمنى لو أنَّه قالَ لها: «لقد قطعت ألفَ ميلٍ لأطلبَ يدكِ للزواجِ كيف يمُكنك أن تترددي؟» وأخذَ يفكرُ بالكثيرِ من الملاحظاتِ اللاذعةِ التي كانَ بوسعِهِ قولها. ربما من الجيدِ أنَّها لم تخطر لهُ آنذاك. انتهى حديثهما بطلبها منه أن يمنحها وقتاً لتتجاوز صدمةَ عودتِهِ المفاجئةِ ولتفكر بما تريدُ فعلهُ ووافقَ على طلبها؛ فلم يكن لديهِ أيُّ بديلٍ آخر إلَّا أن هذا تركهُ عالقاً في مكانِهِ كرجلٍ مصلوبٍ.

واستسلمَ في النهايةِ لنومٍ مضطربٍ.

أيقظتهُ لولا باكراً كما تفعلُ دوماً. نزلا إلى غرفةِ الجلوسِ في الأسفلِ من أجلِ تناولِ العصيدةِ. كبحَ ميرثن دافعاً قوياً للذهابِ إلى المستشفى والتحدثِ إلى كاريسٍ. ولكنها طلبت منهُ أن يمنحها وقتاً ولن يكونَ إزعاجها في مصلحته. خطرَ لهُ أنَّ هناك أموراً أخرى صادمةً في انتظارِهِ، وأنَّه من الأفضل أن يحاولَ

معرفة ما الذي حدثَ لمدينةِ كينغزبريدج في غيابِهِ، ولهذا توجهَ بعدَ الإفطارِ لمقابلةِ مارك ويبر.

كانت عائلة ويبر تعيشُ في الشارعِ الرئيسي في منزلٍ كبيرٍ اشتروهُ بعدَ أن أدخلتهم كاريس في صناعةِ القماشِ المصبوغ. وتذكرَ ميرثن تلكَ الأيامَ القديمةَ عندما كان أولادُ ويبر الأربعة يعيشونَ في غرفةٍ واحدةٍ بالكادِ تتسع لنولِ مارك. كانَ الطابقُ السفلي للمنزلِ حجرياً وفيهِ المخزنُ والمتجرُ أمَّا الطابقَ العلوي حيثُ الجزء المنزلي فكان مبنياً من الخشبِ. وجدَ ميرثن مادج في المتجرِ تتفقدُ عربةً من القماشِ القرمزي وصلت للتو من إحدى المطاحنِ التي تعملُ خارجَ المدينةِ. كانت في الأربعين الآن وغزا الشيبُ شعرها الداكن. كانت امرأةً قصيرةً إلَّا أنها الآن كانت مكتنزةً وصدرها عارماً ومؤخرتها كبيرة. عندما نظرَ إليها ميرثن أخذَ يفكرُ بأنَّها تشبهُ حمامةً ولكن حمامةً عدائيةً بسبب ذقنِ مادج الناتئ وسلوكِها الحازمِ.

كان برفقتِها ولداها وهما فتاةٌ جميلةٌ في السابعة عشرة وفتى قويُّ البنيةِ وأكبرُ من الفتاةِ ببضعِ سنواتٍ. تذكرَ ميرثن ابنةَ مادج دورا التي كانت فتاةً نحيلةً في ثوبٍ رثٍ وابنها الكبير جون الذي كانَ فتى خجولاً. وعندئذٍ أدركَ أنَّهما دورا وجون أنفسهما إلا أنهما الآن بالغان. كانَ جون يرفعُ أكداسَ القماشِ الثقيلةِ بسهولةٍ بينما دورا تحصيها برسمِ خطٍ بالعصا. عندَ رؤيتِهِ لهذا المشهدِ شعرَ ميرثن بأنَّه مسنٌ ولكنه قالَ لنفسِهِ إنّه في الثانيةِ والثلاثين فقط إلَّا أنَّه لم يستطع التخلصَ من هذا الشعورِ كلما حدَّقَ إلى جون.

أطلقت مادج صرخةً تنمُّ عن المفاجأةِ والفرحةِ عندما رأتهُ. عانقتهُ وقبَّلتهُ على خديهِ الملتحيين وأثارت جلبةً حولَ لولا. «اعتقدت أنني أستطيعُ إحضارها إلى هنا لتلعبَ مع ولديكِ»، قالَ ميرثن بأسى. «بالطبعِ إنهما الآن أكبر عُمراً».

«دينيس ونواه في مدرسةِ الديرِ»، قالت مادج. «إنهما في الثالثة عشرة والحادية عشرة، ولكن دورا سترفهُ عن لولا فهي تحبُّ الأطفال».

حملت دورا لولا وقالت: «في المنزلِ المجاورِ أنجبت هرَّةٌ قططاً صغيرةً هل تريدين رؤيتها؟»

أجابت لولا بكلماتٍ إيطالية وفهمت منها دورا أنَّها وافقت على العرضِ فانطلقتا.

تركت مادج جون يُنهي أعمالَ تفريغِ العربةِ من الحمولةِ وقادت ميرثن إلى

الطابقِ العلوي: «لقد ذهبَ مالكوم إلى ميلكوب. فنحنُ نصدرُ بعضاً من قماشنا إلى بريتاني وغاسكون. سيعودُ اليوم أو غداً».

جلسَ ميرثن في غرفةِ الجلوسِ وقبلَ من مادج كأساً من الجعةِ. «يبدو أن أحوالَ كينغزبريدج مزدهرةٌ»، قال ميرثن.

«لقد تراجعت تجارةُ الصوفِ»، قالت مادج. «وكل هذا بسببِ ضرائبِ الحربِ. فكلُّ شيء بِيعَ عن طريقِ مجموعةٍ من التجارِ الكبارِ حتّى يتمكنَ الملكُ من الحصولِ على حصَّتهِ. ما زالَ في كينغزبريدج بعضُ التجارِ من بينهم بيترانيلا التي تولّت أمورَ الأعمالِ بعدَ وفاةِ إدموند إلا أنَّ الأمور ليست كسابقِ عهدها. لحسنِ الحظِ ازدهرت تجارةُ القماشِ الجاهزِ وحلَّت محل العملِ بالصوفِ، في هذهِ البلدةِ على الأقلِّ».

«أما زالَ غودوين رئيسَ الديرِ؟»

«بكلِّ أسفٍ أجل».

«أما زالَ يُصَعبُ عليكم الأمورَ؟»

«إنَّه محافظٌ جداً وهو يعترضُ على أيِّ تغييرٍ ويرفض أيَّ شكلٍ من أشكالِ التقدمِ. على سبيلِ المثالِ اقترحَ مارك فتحَ السوقِ أيامَ السبتِ والأحد على سبيلِ التجربةِ».

«وما اعتراضُ غودوين على هذا؟»

«قالَ إنَّ فتحَ السوقِ أيامَ السبتِ يعني أن الناسَ لن يذهبوا إلى الكنيسةِ وهذا أمرٌ سيء».

«قد يذهبُ البعضُ إلى الكنيسةِ أيامَ السبتِ والأحدِ».

«إنَّ غودوين لا ينظرُ إلَّا إلى نصفِ الكأسِ الفارغِ».

«وهل تعارضهُ نقابةُ الأبرشيةِ؟»

«ليسَ كثيراً. إنَّ إلفريك الآن رئيسُ النقابةِ بعدَ أن حصلَ هو وأليسَ على كل شيءٍ تقريباً من إرثِ إدموند».

«ليسَ بالضرورةِ أن يكونَ رئيسُ النقابةِ أغنى رجلٍ في البلدةِ».

«ولكنه عادةً ما يكون كذلكَ. لا تنسَ أنَّ إلفريك يستعينُ بالكثيرِ من الحرفيين من نجارين وبنائين وصانعي الملاطِ والعاملين على السقالاتِ، وهو يشتري من جميعِ باعةِ موادِ البناءِ ولهذا البلدةُ مليئةٌ بأناسٍ مرتبطين بهِ بطريقةٍ أو بأخرى».

«ولطالما كانَ إلفريك مقرباً من غودوين».

«بالضبطِ. إنَّه يقومُ بكلِّ أعمالِ البناءِ الخاصةِ بالديرِ وهذا يعني أنَّه يقومُ بكلِّ المشاريعِ العامَّةِ».

«ويا لهُ من بنَّاءٍ سيئٍ!»

«أمرٌ غريبٌ، أليسَ كذلكَ؟» قالت مادج مفكرةً. «يعتقدُ المرءُ أنَّ غودوين سيرغبُ بتكليفِ أفضلِ رجلٍ ولكنه لا يفعل. لأنَّ الأمرَ بالنسبةِ لهُ متعلقٌ بمن يرضخُ له وينفذ رغباتهِ من دونِ اعتراضٍ».

شعرَ ميرثن بشيءٍ من اليأسِ عندما أدركَ أنَّ الأمورَ لم تتغير فما زالَ أعداؤهُ أقوياء وهذا يعني أنَّ استئنافَ حياتهِ السابقةِ هنا أمرٌ صعبٌ. «إذاً، ما من أخبارٍ طيبةٍ لي هنا»، قال ووقفَ. «من الأفضل أن ألقي نظرةً على جزيرتي».

«أنا واثقةٌ من أنَّ مارك سيبحثُ عنكَ ليقابلكَ حالما يعودُ من ملكوب».

توجهَ ميرثن إلى المنزلِ المجاورِ ليأخذَ لولا إلا أنَّه رآها تستمتعُ بوقتها لهذا تركها في عهدةِ دورا وسارَ عبرَ البلدةِ في طريقهِ إلى ضفةِ النهرِ. ألقى نظرةً على الصدوعِ التي أصابت جسرهُ ولكنهُ لم يكن بحاجةٍ إلى كثيرٍ من الوقتِ ليفهمَ سببها الذي كانَ واضحاً. قامَ بجولةٍ على جزيرةِ ليبر، ولم يلحظ تغييرات كثيرة عليها فلم يكن هناك سوى بضعةِ أرصفةٍ ومستودعاتٍ عندَ الضفةِ الغربيةِ والمنزلِ الذي بناهُ وأجّرهُ إلى جيمي عندَ الضفةِ الشرقيةِ قربَ الطريقِ الذي يصلَ جزءي الجسرِ بعضهما ببعض.

عندما وضعَ يدهُ على الجزيرةِ كانت لديهِ خططٌ طموحةٌ جداً لتطويرها ولكنه لم يوفق في فعلِ شيءٍ خلالَ الفترةِ التي عاشها في فلورنسا. وأخذَ يفكرُ الآن وهو يذرعُ المكانَ ويقومُ بالقياسِ ويتخيلُ الأبنيةَ والشوارعَ بأنَّه قد يستطيعُ فعلَ شيءٍ وبقي على هذهِ الحال إلى أن حلَّ موعدُ الغداء.

توجه إلى بيتِ مارك وبير لأخذ لولا ثمَّ عادَ إلى النزلِ. قدَّمت لهما بيسي يخنةً شهيَّةً باللحمِ والشعير. كانت الحانةُ هادئةً فانضمت إليهما بيسي على العشاءِ وقد أحضرت إبريقاً من أفضلِ أنواعِ النبيذِ الأحمر لديها. عندما انتهوا من تناولِ الطعامِ سكبَت لميرثن كوباً آخر بينما كان يخبرها بأفكارهِ. «إنَّ الطريقَ بين جزءي الجسرِ مكانٌ مثالي لبناءِ المتاجرِ».

«والحاناتِ»، أضافت بيسي. «هذا النُزلُ ونزلُ هولي بوش من أكثر الأماكنِ ازدحاماً في المدينةِ وهذا ببساطةٍ يعودُ إلى موقعهما القريب من الكاتدرائيةِ. إنَّ أيَّ مكانٍ قريب من حركةِ المرور موقعٌ ممتازٌ لبناءِ حانةٍ».

«إن بنيتُ حانةً على جزيرةِ ليبر فستديرينها أنتِ».

رمقتهُ بنظرةٍ صريحةٍ ثمَّ قالت: «يمكننا أن نديرها معاً».

ابتسمَ لها. كان متخماً من الطعامِ الجيد والنبيذِ وسيرغبُ أيُّ رجلٍ في مكانهِ الآن بالنومِ معها والتمتعِ بجسدها المكتنزِ والناعمِ ولكنه يعرفُ أنّه لن يفعلَ هذا. «كنتُ مغرماً جداً بزوجتي سيلفيا»، قال ميرثن. «ولكن طوالَ فترةِ زواجي لم أتوقف عن التفكيرِ بكاريس، وسيلفيا كانت تعلمُ بهذا».

أشاحت بيسي بنظرها بعيداً قائلةً: «كم هذا مؤسفٌ».

«أعلمُ. ولن أرتكبَ مثلَ هذا الأمرِ مع امرأةٍ أخرى. لن أتزوجَ بامرأةٍ أخرى غير كاريس. أنا لستُ رجلاً صالحاً ولكني لستُ بالسيئ أيضاً».

«قد لا تتمكنُ كاريس من الزواجِ أبداً».

«أعلمُ».

وقفت بيسي وتناولت الصحونَ. «أنتَ رجلٌ صالحٌ»، قالت لهُ. «صالحٌ جداً». وعادت إلى المطبخِ.

وضعَ ميرثن لولا في السرير لتغفو ثمَّ جلسَ على المقعدِ أمامَ الحانةِ يتأملُ جزيرةَ ليبر وهو يرسمُ على لوحٍ كبيرٍ متمتعاً بأشعةِ شمسِ شهرِ أيلول/ سبتمبر. لم يحقق تقدماً كبيراً في عملهِ هذا فجميعُ من مرَّ في المكان أرادَ الترحيبَ بهِ وسؤالَهُ عمَّا كانَ يفعلهُ طوال الأعوامِ التسعةِ الماضيةِ.

وفي وقتٍ متأخرٍ من بعدِ الظهرِ رأى هيئةَ مارك ويبر الضخمةَ تصعدُ التلَّ فوقَ عربةٍ تحملُ برميلاً. لطالما كانَ مارك رجلاً عملاقاً إلا أنَّ ميرثن قد لاحظَ أنّه باتَ الآن عملاقاً سميناً.

صافحَ ميرثن يدَ مارك الضخمةَ. «كنتُ في ملكوب»، قال مارك. «أذهبُ إلى هناك كلَّ بضعة أسابيع».

«ما الذي في البرميلِ؟»

«نبيذٌ من بوردو. لقد حصلت عليهِ من السفينةِ مباشرةً مع بعضِ الأخبارِ أيضاً. هل كنتَ تعلمُ أنَّ الأميرةَ جوان في طريقها إلى إسبانيا؟»

«أجل». أيُّ شخصٍ حسنِ الاطلاعِ في أوروبا يعلمُ أنَّ ابنةَ الملك إدوارد البالغةَ خمسةَ عشرَ عاماً ستتزوجُ من الأميرِ بيدرو وريث عرشِ قشتالة. كانَ الزواجُ يهدفِ إلى إحكامِ قوةِ التحالفِ بينَ إنكلترا وأكبرِ الممالكِ الإيبريةِ ولضمانِ تركيزِ إدوارد على حربهِ الدائمةِ على فرنسا دونَ أن يقلقَ حيالَ أيّ تدخلٍ من الجنوبِ.

«حسناً»، قال مارك. «لقد توفيت جوان جرَّاءَ الطاعونِ في بوردو».

كانت صدمةُ ميرثن مضاعفةً فقد فوجئ ميرثن لأنَّ موقفَ إدوارد في فرنسا الآن قد بات مهزوزاً على حينِ غرَّةٍ ولكن أكثر ما فاجأهُ هو وصول الوباءِ إلى هذا الحدِّ. «هل وصلَ الوباءُ إلى بوردو؟»

«إنَّ الجثثَ مكدسةٌ في الشوارعِ. هذا ما أخبرني بِهِ البحارةُ الفرنسيون».

أصيبَ ميرثن بالخيبةِ فقد توقعَ أنَّهُ تركَ وباءَ الموتِ الكبيرِ وراءهُ في إيطاليا. بالتأكيد لن يقطعَ كل هذهِ المسافةِ إلى إنكلترا. لم يكن خائفاً من الإصابةِ بالوباءِ فالناجونُ منهُ لا يصابونَ بهِ مرتين ولهذا كانَ بأمانٍ، وكانت لولا من بينِ الذين، ولسببٍ ما، لم يلتقطوا العدوى إلا أنَّه كانَ خائفاً على البقية، على كاريس خصوصاً.

كانت لدى مارك أمورٌ أخرى تشغلهُ. «لقد عدتَ في الوقتِ المناسبِ. ضاقَ ذرعُ بعضِ التجارِ الشبابِ من إلفريك كرئيسٍ للنقابةِ فهو يتصرف أغلبَ الأوقاتِ كدميةٍ بيدِ غودوين. أخططُ لمواجهتِهِ ويمكن أن يكونَ لوجودكَ دور مؤثر. سيُعقدُ اجتماعٌ في نقابةِ الأبرشيةِ الليلةَ. فلتأتِ وسنقومُ بضمِّكَ على الفورِ».

«ألن يكونَ عدمُ إنهائي لفترةِ تدريبي عائقاً؟»

«لن يكون هناكَ أيُّ عائقٍ بعدَ كلِّ ما بنيتهُ هنا وفي الخارجِ!»

«حسناً»، قال ميرثن فقد كانَ يحتاجُ إلى عضويةِ النقابةِ إن كانَ يرغبُ بتطويرِ الجزيرةِ. لطالما اختلقَ الناسُ أعذاراً للاعتراضِ على بناءِ مبانٍ جديدةٍ ولهذا فهو كانَ بحاجةٍ إلى دعمِ نفسِهِ، إلا أنَّه لم يكن واثقاً كمارك بأنَّه سيحصلُ على العضويةِ.

أخذَ مارك البرميلَ إلى المنزلِ وتوجهَ ميرثن إلى الداخلِ حتَّى يُطعمَ لولا وجبةَ الغداءِ. عندَ غروبِ الشمسِ عادَ مارك إلى نزلِ بيل وتوجهَ مع ميرثن عبرَ الشارعِ الرئيسي بينما النهارُ الدافئ من حرارةِ شمسِ الظهيرةِ يتحولُ إلى ليلٍ باردٍ.

منذُ سنواتٍ وعندما قدَّم ميرثن تصميمَ الجسرِ الخاصِ بهِ أمامَ نقابةِ الأبرشيةِ وقفَ أمامَ مبنى النقابةِ ورآه جميلاً إلا أنَّه الآن وبعدَ كلِّ الأبنيةِ العامةِ العظيمةِ التي رآها في إيطاليا رآه كمبنى بشعٍ ومتهالكٍ. وتساءلَ في نفسهِ عمَّا سيعتقدهُ بونافيتورا كارولي ولورو فيوريتينو إن رأيا سردابَ المبنى الحجري ذا المظهر

الخشن مع السجنِ والمطبخِ والقاعةِ الرئيسيةِ وصفٌ الأعمدةِ البشعِ في منتصفِ المكانِ لدعمِ السقفِ.

قدَّم مارك ميرثن إلى مجموعةٍ من الرجالِ الجدد في مدينةِ كينغزبريدج. كانوا قد أتوا إلى المدينةِ من أجلِ تحقيقِ مكانةٍ خلال السنواتِ التي غابَ فيها ميرثن، ولكن غالبيةَ الوجوه كانت مألوفةً لميرثن رغمَ أنَّها بدت طاعنةً في السنِّ قليلاً. حيَّا ميرثن بعضَ من لم يقابلهم بعد منذُ وصولِهِ قبلَ يومين ومن بينِ هؤلاء كانَ إلفريك الذي كان في معطفٍ مبهرجٍ مشغول بخيوطٍ فضيَّةٍ. لم يبدُ متفاجئاً برؤيةِ ميرثن، وبدا واضحاً أنَّ أحداً ما قدْ أخبرهُ بعودةِ ميرثن، إلا أنَّه كان يحدقُ به في عدائيةٍ واضحةٍ.

ومن بينِ الحاضرين أيضاً رئيسُ الديرِ غودوين ونائبهُ الأخ فيليمون. كانَ غودوين في الثانيةِ والأربعين، ولاحظَ ميرثن أنَّه باتَ شبيهاً بخالِهِ أنتوني بالتجاعيد المنحنيةِ والمتبرمةِ حولَ فمِهِ التي تنمُّ عن عدمِ الرضا. تصرَّفَ بدماثةٍ قد يقتنعُ بها من لا يعرفهُ بأنَّها أصيلةٌ فيهِ. وفيليمون أيضاً تغيرَ فلم يعد ذلكَ الشاب النحيل والأخرق بل امتلأ جسدهُ وبات أشبه بتاجرٍ معتبرٍ. كان يتحرَّك بمظهرٍ واثقٍ وصلفٍ رغمَ أنَّ ميرثن تمنى أن يرى تحتَ هذا المظهرِ المتملقِ قلقاً وكرهاً للذاتِ. صافحهُ فيليمون وشعرَ ميرثن بأنَّه لمسَ أفعى. كانت رؤيةُ كل ذلكَ العداءِ القديم حيَّاً أمراً باعثاً على اليأسِ.

شقَّ شابٌ وسيمٌ داكنُ الشعرِ طريقهُ بينَ الحشدِ عندما رأى ميرثن واكتشفَ الأخير أنَّه تلميذهُ جيمي الذي باتَ معروفاً الآن باسمِ البَّناء جيرمايا. سُرَّ ميرثن عندما عرفَ أنَّ الفتى يبلي بشكلٍ جيدٍ وأنَّه باتَ عضواً في نقابةِ الأبرشيةِ. على الرغمِ من هذا لاحظَ ميرثن أنَّه مازال ذلكَ الشاب المتطير الذي كان عليهِ قبلاً.

أطلعَ مارك جميعَ من تحدَّثَ معهم على أخبارِ الأميرةِ جوان، وأجابَ ميرثن على سؤالٍ أو سؤالين قلقين عن الوباءِ إلا أنَّ تجارَ كينغزبريدج كانوا مهتمين بانهيارِ التحالف مع قشتالة واستمرارِ الحربِ الفرنسيةِ التي كانت تؤثرُ سلباً على أعمالهم.

جلسَ إلفريك على كرسيٍ كبيرٍ قبالةَ ميزانِ صوفٍ عملاقٍ وافتتحَ الاجتماع. اقترحَ مارك على الفور أن يتمَّ تنسيبُ ميرثن في النقابةِ.

وبما لا يدعو للدهشةِ اعترضَ إلفريك قائلاً: «لم يصبح عضواً في النقابةِ لأنَّه لم ينهِ فترةَ تدريبهِ».

«أنتَ تقصدُ أنَّه رفضَ الزواجَ بابنتك»، قالَ أحدُ الرجالِ وضحكَ الجميع. لم يتعرف ميرثن على الرجلِ الذي قالَ هذا فوراً وأخذَ بعضَ الوقتِ ليدركَ أنَّه البَّناء بيل واتكين الذي شابَ ما تبقى من شعرهِ تحتَ قمةِ رأسهِ الصلعاء.

«لأنَّه لم يكن حِرفياً وفقَ المعايير المطلوبةِ»، احتجَّ إلفريك بعنادٍ.

«كيفَ يمكنكَ قولُ هذا؟» احتجَّ مارك. «لقد بنى منازل وكنائس وقصوراً...»

«وجسرنا الذي يتداعى الآن بعدَ ثماني سنواتٍ فقط».

«أنتَ من بنى الجسر يا إلفريك».

«لقد نفَّذت تصميمَ ميرثن بدقَّةٍ، ولكن من الواضح أنَّ القناطر لم تكن بالقوةِ المطلوبةِ لتحمّلِ وزنِ الطريق وحركةِ المرور فوقها. ويبدو أنَّ المشابكَ المعدنيَّةَ التي قمتُ بتثبيتها لم تكن كافيةً لمنعِ استمرارِ الصدوعِ من التمددِ. ولهذا أقترحُ تدعيمَ القناطر على كلا الجانبين من الدعامةِ المركزيةِ لجزءي الجسرِ بطبقةٍ ثانيةٍ من الملاطِ المكثف جداً. اعتقدتُ أنَّ الموضوعَ سيُطرحُ الليلةَ ولهذا قمتُ بتجهيزِ تخمينٍ للكلفةِ».

لا بد أن إلفريك قد خططَ لهذا الهجوم حالما علمَ بوصولِ ميرثن إلى كينغزبريدج. لطالما اعتبرَ إلفريك ميرثن عدواً لهُ وهذا لم يتغير قط. على أيِّ حالٍ لقد فشلَ في فهمِ مشكلةِ الجسرِ، وهنا رأى ميرثن أن أمامهُ فرصةً سانحةً.

تحدثَ ميرثن إلى جيرمايا بصوتٍ منخفضٍ: «هلَّا قمتَ بأمرٍ لي؟»

«بعدَ كلِّ ما فعلتهُ لي. اطلب ما تريد».

«فلتتوجه بسرعةٍ إلى الديرِ واطلب التحدثَ مع الأختِ كاريس بشكلٍ طارئ. اطلب منها أن تبحث عن الرسوماتِ الأصليةِ التي وضعتها لتصميمِ الجسرِ. لا بد أنها في مكتبةِ الديرِ. فلتحضر لي الرسومات على الفورِ».

انسحبَ جيرمايا من الغرفةِ.

تابعَ إلفريك كلامهُ قائلاً: «أرغبُ بإطلاعِ أعضاءِ النقابةِ على أنّي تحدثت مع رئيسِ الديرِ غودوين بهذا الشأنِ وقالَ لي إنَّ الدير لا يستطيعُ تحمّلَ كلفةِ الإصلاحِ. سيتعين علينا تمويلُ عمليةِ الإصلاح كما مولنا كلفةَ بناءِ الجسرِ ونسترجع هذا المال من تعاريف استخدامهِ».

زمجرَ الجميعُ في عدمِ رضا وافتتحوا نقاشاً طويلاً وحاداً حولَ المبلغ الذي يتعينُ على كلِّ عضو دفعهُ. شعرَ ميرثن بجو عدائي نحوه في الغرفةِ. لا بد أن هذهِ كانت نيّةَ إلفريك. لم يفارق ميرثن بنظرهِ البابَ على أملِ أن يظهرَ جيرمايا.

قال بيل واتكين: «ربما على ميرثن دفعُ كلفةِ الإصلاح بما أنَّ خطأ التصميم خطأُهُ».

لم يعد بإمكان ميرثن تجنّبُ النقاشِ بعد هذا ولهذا رمى بحذرِهِ أدراجَ الرياحِ وقال: «أنا موافق».

حلَّ صمتٌ ذاهلٌ.

«إن كانَ سببُ التصدعات خطأً في تصميمي فسأصلحُ الجسرَ على نفقتي»، تابعَ ميرثن في طيشٍ. كانت كلفةُ بناءِ الجسورِ باهظةً وإن كانَ مخطئاً حيالَ المشكلةِ فسيكلفهُ الأمرُ نصفَ ثروتِهِ.

«هذا كلامٌ جميلٌ»، قال بيل.

قال ميرثن: «ولكن لدي شيءٌ لأقولهُ أولاً إن سمحَ لي أعضاءُ النقابةِ».

أبدى إلفريك تردداً وهو يحاولُ التفكيرَ بسببٍ لرفضِ طلبِهِ ولكنَّ بيل سارع إلى القولِ: «دعهُ يتحدث». وعلت همهمةُ قبولٍ من الحاضرين.

أومأ إلفريك برأسِهِ على مضضٍ.

«شكراً لكم»، قال ميرثن. «عندما تتصدعُ قنطرةٌ فإنَّها تتصدعُ وفقَ نمطٍ محددٍ. تضغطُ الحجارةُ في الأعلى على السفلى ولهذا تتباعدُ الأطرافُ السفلى ويظهرُ التصدعُ عندَ تاجِ القنطرةِ من الداخل».

«هذا صحيح»، قال بيل واتكين. «لقد رأيت هذا النوع من الصدوع مرَّاتٍ كثيرةً وهو عادةً ما يكون غير كارثي».

تابعَ ميرثن كلامهُ: «ولكن لا أرى هذا النوع من التصدعِ على الجسرِ. وعلى عكسِ ما قالهُ إلفريك قناطرُ الجسرِ قوية بشكلٍ كافٍ فسماكةُ القنطرةِ واحدٌ على عشرين من مساحةِ قطرِ القاعدةِ، وهذهِ هي النسبة المعياريةُ في جميعِ البلدانِ».

أومأ البناؤون في القاعةِ برؤوسهم موافقين فقد كانوا يعلمون بأمرِ هذهِ النسبةِ.

«إنَّ التاج سليمٌ. على أيِّ حالٍ هناك صدوعٌ عموديةٌ عندَ بدايةِ القنطرةِ عند كلا جانبي الدعامةِ المركزيةِ».

تحدثَ بيل مجدداً قائلاً. «أحياناً ترى مثلَ هذهِ الصدوع في القناطرِ الرباعيةِ».

«ولكن قناطر الجسر ليست رباعيةً»، أشارَ ميرثن. «إنَّها قناطر بسيطةٌ».

«ما سببُ تصدعها إذاً؟»

«لم ينفذ إلفريك تصميمي بشكلٍ دقيقٍ».

قال إلفريك: «لقد فعلت!»

«كنت قد أشرت إلى وضعِ كومةٍ حُرَّةٍ من الحجارةِ الكبيرةِ على كلا جانبي الدعامةِ».

«كومةٍ من الحجارةِ؟» قال إلفريك ساخراً. «وهل تعني بكلامكَ أنَّ هذهِ الكومة ستبقي جسركَ سليماً؟»

«أجل»، قال ميرثن. وعرفَ بالنظرِ إلى وجوهِ البنائين في الغرفةِ أنَّهم كانوا مشككين بكلامهِ تماماً كما كان إلفريك، ولكنهم لا يعرفون ببناءِ الجسورِ المختلفِ جداً عن بناءِ المباني بسببِ وجودِ الماءِ. «يعدُّ وجودُ أكوامِ الحجارةِ جزءاً أساسياً من التصميم».

«لم تكن موجودةً في الرسومات».

«هلّا عرضتَ علينا الرسومات يا إلفريك لتثبتَ وجهةَ نظركَ؟»

«لقد مُحيت الأرضيةُ التي رسمت عليها التصميم منذُ زمنٍ».

«لقد وضعتُ رسوماتٍ على قطعةِ ورقٍ، ولا بد أن تكونَ في مكتبةِ الديرِ».

في تلكَ اللحظةِ نظرَ إلفريك إلى غودوين وبدا التواطؤ واضحاً بينَ الرجلين. تمنى ميرثن أن يرى بقيةُ الأعضاءِ هذا أيضاً. «إنَّ الورق باهظٌ ولذلكَ محونا الرسوماتِ وأعدنا استخدامَ الورقةِ»، قال غودوين.

أومأ ميرثن برأسهِ كأنّه صدَّقَ غودوين رغمَ أنَّ جيرمايا لم يصل بعد. قد يتعينُ على ميرثن الفوزُ بالجدالِ من دونِ مساعدةِ الرسوماتِ الأصليةِ. «كانَ من شأنِ الصخورِ منعُ حدوثِ مشكلةِ الصدوعِ»، قال ميرثن.

تدخّلَ فيليمون في النقاشِ قائلاً: «ستقولُ هذا من كلِّ بدٍ، ولكن لماذا قد نصدقكَ؟ إنه كلامك أمامَ كلامِ إلفريك».

أدركَ ميرثن أنَّ عليهِ المغامرة فإمَّا أن يفوز أو يخسر. «سأخبركَ بالمشكلةِ إذاً وسأثبتُ لكَ هذا في وضحِ النهارِ إن كنتَ جاهزاً لموافاتي عندَ ضفةِ النهرِ فجرَ الغدِ».

وبدا على وجهِ إلفريك نيةٌ رفضِ هذا التحدي ولكنَّ بيل واتكين قال: «هذا عدلٌ! سنكون جميعاً هناك».

«بيل، هل يمكنكَ أن تحضرَ معكَ شابين ضخمين ماهرين في السباحةِ والغطسِ؟»

«هذا أمرٌ سهلٌ».

كانَ إلفريك قد خسرَ سيطرتهُ على الاجتماعِ وهنا تدخّلَ غودوين فاضحاً نفسهُ كمتلاعبٍ. «ما هي المهزلةُ التي تخططُ لها؟» قال غودوين بغضبٍ.

ولكن كلامَ غودوين جاءَ متأخراً فقد أثارَ ميرثن فضولهم. «دعهُ يثبتُ وجهةَ نظرِهِ»، قالَ بيل. «إن كانت مهزلةً فسنعرفُ هذا على الفورِ».

وعندئذٍ دخلَ جيرمايا. سُرَّ ميرثن لرؤيةِ الإطارِ الخشبي والورقةِ الكبيرةِ بين يديه. حدَّقَ إلفريك نحو جيرمايا في صدمةٍ.

بدا غودوين شاحباً أيضاً.

«من أعطاكَ هذهِ؟» سألَ غودوين.

«يا لهُ من سؤالٍ فاضحٍ»، قالَ ميرثن. «ها هو السيدُ رئيسُ الدير لا يسألُ عن ماهيةِ الرسمِ أو عن مصدرِهِ لأنَّه يعلمُ الجوابَ أصلاً بل يسألُ عن الشخص الذي أعطاها».

قال بيل: «لا تلقِ بالاً لهذا. فلترِنا الرسوماتِ يا جيرمايا».

وقفَ جيرمايا قبالةَ الميزانِ وأدارَ الإطارَ الخشبي حتَّى يرى الجميعُ الرسمَ. كان هناكَ رسمٌ لأكوامِ حجارةٍ حول زوايا الدعامةِ كما قالَ ميرثن.

وقفَ ميرثن قائلاً: «في الصباحِ سأشرحُ لكم آليةَ عملِ هذهِ الأكوام».

***

كان الطقسُ الآن ينتقلُ من الصيفي إلى الخريفي ولهذا كانَ الجو بارداً عندَ ضفةِ النهرِ فجراً. بدا أنَّ أخباراً انتشرت في المدينةِ عن أحداثٍ دراميةٍ ستقعُ ولذلكَ وإضافةً إلى أعضاءِ النقابةِ كانَ هناك ما يقاربُ المئتين أو الثلاثمئةِ شخصٍ ينتظرون رؤيةَ المواجهةِ بين ميرثن وإلفريك، حتَّى كاريس كانت حاضرةً. أدركَ ميرثن أنَّ الأمر لم يعد مجرَّدَ جدالٍ حولَ مسألةٍ هندسية بل تحولَ إلى مسألةِ شابٍ يتحدى سلطةَ رجلٍ عجوزٍ والحشد كان يفهمُ هذا.

أحضرَ بيل واتكين معهُ صبيين بعمرِ الثانية عشرة والثالثة عشرة. كان الصبيان عاريَين حتى الخصرِ ويرتجفان من البردِ. اكتشفَ ميرثن أنهما ابنا مارك ويبر الصغيران دينيس ونواه. دينيس في الثالثة عشرة وهو فتى قصيرُ القامةِ ممتلئ كوالدتهِ وبشعرٍ أحمر كأوراقِ الخريف، أمَّا نواه فقد كان أصغر من شقيقهِ بعامين إلَّا أنَّه أطول قامةً ويبدو أنَّه سيصبحُ عملاقاً كوالدهِ مارك.

عندما كان ميرثن في عمر دينيس كان قصيراً وشعرهُ أحمر أيضاً ولهذا تساءلَ ميرثن في نفسهِ إن كانَ دينيس يشعرُ بالإحراجِ من أخيهِ الأصغر الأضخم والأقوى منهُ.

اعتقدَ ميرثن أنَّ إلفريك سيعترضُ على الاستعانةِ بابني مارك نظراً إلى أنَّ والدهما في حلفِ ميرثن وربما أخبرهما بما عليهما قولهُ. على أيِّ حالٍ لم يعترض إلفريك. كانَ مارك نزيهاً جداً مع الجميع ولم يكن أحد ليشكَ بأنّه قد يمارسُ أيَّ نوعٍ من الخداعِ. ربما كان إلفريك واثقاً من هذا، وغودوين أيضاً.

أخبرَ ميرثن الصبيين بما عليهما القيام بهِ. «فلتسبحا إلى الدعامةِ المركزيةِ ثمَّ اغطسا. ستجدان أنَّ الدعامة ناعمةً حتى الأسفل. وهناك حيثُ يوجدُ الأساس كتلةٌ صخمةٌ من الحجارةِ المتصلةِ ببعضها بالملاطِ. عندما تصلانِ إلى سريرِ النهرِ تحسسا أسفلَ الأساس. لن تريا شيئاً على الأغلبِ لأنَّ المياه طينيةٌ جداً. ولكن فلتحبسا أنفاسكما لوقتٍ يكفيكما لتفقدِ الأساسِ من جميعِ الجهاتِ ثمَّ اصعدا إلى السطحِ وأخبرانا بما رأيتماه».

قفزَ الصبيان إلى الماءِ وتوجها إلى الدعامةِ المركزيةِ ثمَّ تحدثَ ميرثن إلى الحشدِ قائلاً: «إنَّ قعرَ النهرِ ليسِ صخرياً بل طينياً. تدورُ تياراتُ النهرِ حولَ دعاماتِ الجسرِ وتجرفُ الطينَ من تحتِ الدعامةِ لتخلّفَ وراءها فجوةً تمتلئُ بالمياهِ فقط. هذا ما حدثَ للجسرِ القديم؛ فلم تكن الدعامةُ الخشبية مغروزةً بسريرِ النهرِ بل معلّقةً ببنيةِ القاعدةِ الفوقانيةِ، ولهذا السببِ تداعى الجسر. وكي أمنعَ حدوثَ هذا للجسرِ الجديدِ كنتُ قد أوضحتُ ضرورةَ وضعِ حجارة كبيرة أسفلَ الدعائم. إنَّ الغرضَ من وجودِ هذهِ الأكوام منع تأثيرِ التيار الخطيرِ الذي من شأنهِ إضعافُ الدعائم. على أيِّ حالٍ لم توضع الأكوام ولهذا تقوضت الدعائم ولم تعد تدعمُ الجسرَ بل معلّقة بهِ وهذا ما يفسرُ الصدوع حيثُ تلتقي الدعامةُ بالقنطرةِ.

شخرَ إلفريك في تشكيك بما قالهُ ميرثن ولكن الاهتمام كان واضحاً على بقية البنائين. وصلَ الصبيان إلى منتصفِ النهرِ حيث الدعامة المركزية ثمَّ أخذا نفساً عميقاً واختفيا تحتَ سطحِ المياه.

قالَ ميرثن: «عندما يعودان سيخبرانا أنَّ الدعامةَ غيرُ مستقرّة على سريرِ النهرِ بل مُعلّقةً فوقَ فجوةٍ ممتلئة بالمياهِ ستكونُ كبيرةً بما يكفي ليسبحَ داخلها».

تمنى ميرثن أنَّ يكونَ صائباً في ما قالهُ.

وبما يدعو للدهشةِ بقي كلا الصبيين تحتَ المياهِ لوقتٍ طويلٍ، ولاحظَ ميرثن أنَّه بدأ يشعرُ بنفسهِ يتقطعُ كأنّه تحتَ الماءِ مع الصبيين. وأخيراً ظهرَ رأسٌ بشعرٍ أحمر مبللٍ ثمَّ آخر بشعرٍ بني. تحدَّث الصبيان باقتضابٍ وهما يومئان برأسيهما كأنّهما يتفقان على رؤيتهما للأمرِ عينهِ ثمَّ توجها عائدين إلى الضفةِ.

لم يكن ميرثن واثقاً جداً من تحليلهِ ولكنهُ لا يستطيعُ التفكيرَ بأسبابٍ أخرى لحدوثِ الصدوعِ، وشعرَ بالحاجةِ إلى الظهورِ بمظهرِ الواثق جداً. إن تبينَ أنَّهُ على خطأ الآن سيبدو أكثرَ غباءً.

وصلَ الصبيان إلى ضفةِ النهرِ وخرجا من المياهِ وهما يلهثان. أعطتهما مادج بطانيتين قاما بلفهما حولَ كتفيهما المرتجفتين. سمحَ لهما ميرثن بأخذِ بعضِ الوقتِ لالتقاطِ أنفاسهما ثمَّ سألهما: «حسناً؟ ما الذي وجدتماه؟»

«لا شيء»، قال الفتى الأكبر دينيس.

«ما الذي تقصدُهُ بأنَّك لم ترَ شيئاً؟» سأل ميرثن.

«لا يوجد شيءٌ أسفلَ الدعامةِ».

بدا إلفريك سعيداً كأنّه انتصرَ ثمَّ سأل: «تعني أنكَ لم تجد شيئاً سوى وحلِ سريرِ النهرِ؟».

«لا»، قال دينيس وتابع: «لا يوجد وحل... ماءٌ فقط».

وتدخلَ نواه قائلاً: «هناكَ فجوةٌ يمكنُ السباحةُ فيها بكلِّ سهولةٍ. تلكَ الدعامة الكبيرة معلقةٌ في الماءِ ومن دونِ أيِّ شيءٍ تحتها».

حاولَ ميرثن ألا يبدو كأنّه ارتاحَ لسماعِ هذا.

انفجرَ إلفريك قائلاً: «لا توجد مرجعيةٌ تشير إلى أنَّ كومةً من الحجارةِ الحُرَّةِ ستحلُّ المشكلةَ»، ولكن ما من أحدٍ كان يصغي إليهِ فقد كانت نظراتُ المحتشدين خيرَ دليلٍ على صحة ما قالهُ ميرثن.

احتشدَ الناسُ حولَ ميرثن يتناقشون ويطرحونَ أسئلةً وبعدَ برهةٍ انسحبَ إلفريك.

شعرَ ميرثن بشفقةٍ آنيةٍ على إلفريك ثمَّ تذكرَ كيفَ ضربهُ الرجلُ على وجههِ بقطعةٍ خشبيةٍ عندما كانَ متدرباً لديهِ وتبخّرت شفقتهُ مع هواءِ الصباحِ الباردِ.

-56-

في صباحِ اليومِ التالي توجهَ أحدُ الرهبانِ إلى نُزلِ بيل لمقابلةِ ميرثن. عندما رفعَ قلنسوة ردائهِ لم يعرفهُ ميرثن على الفورِ ثمَّ وقعَ نظرهُ على يدِ الراهبِ اليسرى المبتورة من المرفقِ وأدركَ أنّه الأخ توماس الذي كانَ الآن في الأربعين من العمرِ بلحيةٍ رماديةٍ وتجاعيد غائرةٍ حولَ عينيهِ وفمهِ. وتساءل ميرثن في نفسهِ إن كانَ سرُّ توماس ما يزالُ خطيراً بعدَ كلِّ هذهِ السنواتِ، وإن كانت حياةُ توماس في خطرٍ إن كُشفت الحقيقةُ الآن.

ولكن توماس لم يأتِ إلى النزلِ للتحدثِ عن هذا.

«كنتَ محقاً بشأنِ الجسرِ»، قال توماس.

أومأ ميرثن برأسهِ وشعرَ برضا مريرٍ. كانَ على حقٍ ولكن رئيسَ الديرِ غودوين فصلهُ من هذا العملِ ولهذا لم يُنجز الجسر بشكلٍ مثالي. «أردت شرحَ أهمية أكوامِ الحجارةِ آنذاك»، قال ميرثن ثمَّ تابع: «ولكن كنتُ أعلمُ أنَّ إلفريك وغودوين لن يصغيا إلي ولهذا أخبرتُ إدموند وولر بالأمرِ ولكنهُ ماتَ».

«كانَ عليكَ أن تخبرني بالأمرِ».

«أتمنى لو أنني فعلت».

«فلترافقني إلى الكنيسةِ»، قالَ توماس وتابع: «بما أنَّك تستطيع معرفةَ الخطب في أيِّ بناءٍ بالنظرِ إلى بضعة صدوع فأنا أريدُ أن أريكَ شيئاً إن سمحتَ لي».

قادَ توماس ميرثن إلى جناحِ الكنيسةِ الجنوبي. هنا في الممرِ الجنوبي لجوقةِ المرتلين أعادَ إلفريك بناءَ القناطرِ بعدَ الانهيارِ الجزئي فيها منذُ تسعةِ أعوامٍ. رأى ميرثن على الفورِ ما كانَ يقلقُ توماس فالصدوع عادت للظهورِ مجدداً.

«قلتَ إنَّها ستعود»، قال توماس.

«أجل ما لم نكتشف جذرَ المشكلةِ».

«كنتَ على حقٍ وأخطأ إلفريك مرتين».

شعرَ ميرثن بدفقِ حماسٍ يسري فيهِ. إن كانَ البرجُ يحتاجُ إلى إعادةِ بناءٍ... «أنتَ تفهمُ هذا الأمر ولكن هل يفهم غودوين هذا؟»

لم يُجب توماس عن السؤال. «وما هو جذرُ المشكلةِ برأيكَ؟»

وعادَ ميرثن إلى المشكلةِ المباشرةِ أمامهُ التي شغلت تفكيرهُ لسنواتٍ. «هذا

ليسَ البرجَ الأصلي للكاتدرائيةِ، صحيح؟» قال ميرثن. «وفقاً لما جاءَ في كتابِ تيموثي فقد أعيدَ بناؤه وباتَ أعلى».

«أجل، منذُ مئةِ عامٍ عندما ازدهرت تجارةُ الصوفِ. هل تعتقد أنَّ البرجَ عالٍ جداً؟»

«يتوقفُ الأمرُ على قوةِ الأساسات». كانت الأرضُ التي بُنيت عليها الكاتدرائيةُ منحدرةً قليلاً باتجاهِ الجنوبِ، أي باتجاهِ النهرِ، وقد يكون هذا عاملاً مؤثراً. سارَ ميرثن عبرَ الممر تحتَ البرجِ إلى أن وصلَ إلى الممرِ الشمالي. وقفَ أسفلَ عمودٍ هائلٍ في الزاويةِ الشماليةِ الشرقيةِ للممرِ ونظرَ إلى القنطرةِ التي تمتدُ من الممرِ الشمالي لجوقةِ المرتلين وحتَّى الجدار.

«ما يقلقني حقاً هو الممرُ الجنوبي»، قال توماس بشيءٍ من السخطِ. «لا توجد أيُّ مشاكل هنا».

أشارَ ميرثن بإصبعهِ قائلاً: «هناك صدعٌ في الجزءِ الداخلي من القنطرةِ عندَ التاجِ. وهذا النوعُ من الصدوعِ وجدتهُ في الجسرِ وهذا يعني أنَّ الدعامات غير ثابتةٍ كما يجب وبدأت تنفصلُ عن الأساس».

«ما الذي تقصدهُ بكلامك؟ هل البرجُ يميلُ بعيداً عن الممرِ الشمالي؟»

عادَ ميرثن إلى الممرِ وعاينَ القنطرةَ الموازية في الجانبِ الجنوبي. «توجدُ صدوعٌ في هذهِ القنطرةِ أيضاً ولكن في الجزء الخارجي منها، هل تراها؟ وفي الجدارِ فوقها أيضاً».

«ولكنها ليست صدوعاً كبيرةً».

«إلا أنَّها تخبرنا بما يحدثُ حقاً. في الجانبِ الشمالي تتمددُ القنطرةُ، وعلى الجانبِ الجنوبي تنضغطُ. وهذا يعني أنَّ البرجَ يميلُ جنوباً».

نظرَ توماس إلى الأعلى في قلقٍ. «يبدو البرجُ مستقيماً».

«لا يمكنكَ أن ترى هذا بالعينِ من هنا ولكن إن صعدتَ إلى البرجِ ورميت حبلاً في نهايتهِ ثقلٌ من فوقِ أحدِ أعمدةِ الممرِ تحتَ تقاطعِ القناطرِ سترى الميلان؛ فعندما يصلُ الحبلُ إلى الأرضِ ستدركُ أنَّه ابتعد عن العمودِ جنوباً بضعة إنشات، وبما أنَّ البرج يميلُ فهو ينفصلُ عن جدارِ جوقةِ المرتلين وهنا نرى التأثير الأسوأ لهذا الميلان».

«وما الذي يمكننا فعلُه؟»

أراد ميرثن القولَ إنَّ عليهم تكليفهُ ببناءِ برجٍ جديدٍ إلا أنَّ مثل هذا الكلامِ

سابقٌ لأوانِه. «المزيد من التقصي قبلَ البدءِ بأي عملية بناء»، قال ميرثن كابحاً حماسةُ. «لقد تأكدنا الآن من أنّ ميلان البرجِ هو ما يسببُ الصدوع، ولكن لماذا يتحركُ البرجُ؟»

«وكيفَ سنعرفُ هذا؟»

«بأن نحفرَ حفرةً»، قال ميرثن.

في النهايةِ كانَ جيرمايا من حفرَ الحفرةَ فلم يُرد توماس الاستعانةَ بميرثن بشكلٍ مباشرٍ. قال توماس إنَّ الأحوال صعبةٌ بما يكفي ولن يكونَ بالإمكان الحصولُ على مالِ التقصي من غودوين الذي يبدو كأنّه لم يعد يملكُ مالاً كافياً إلّا أنَّه لن يكلفَ إلفريك بهذا لأنَّه سيدعي عدمَ وجودِ مشكلةٍ، ولهذا، وكنوعٍ من التسويةِ، استعانَ توماس بتلميذ ميرثن القديم.

كانَ جيرمايا قد تعلَّمَ من أستاذِهِ وأحبَّ العملَ بسرعةٍ. في اليومِ الأولِ رفعَ الحجارةَ المرصوفةَ في الممرِ الجنوبي. وفي اليومِ الثاني بدأ رجالُهُ بحفرِ الأرضِ حولَ الدعامةِ الشماليةِ الشرقيةِ الهائلةِ للممرِ.

وفي أثناءِ الحفرِ بشكلٍ أعمق بنى جيرمايا رافعةً خشبيةً لاستخراجِ أحمالِ الترابِ. بحلولِ الأسبوعِ الثاني اضطرَّ إلى بناءِ سلالم خشبية على كلا جانبي الحفرةِ حتى يتمكن العمال من الوصولِ إلى قاعِ الحفرةِ.

في هذهِ الأثناءِ منحت نقابةُ الأبرشيةِ ميرثن عقدَ إصلاحِ الجسرِ. بالطبع عارضَ إلفريك القرارَ ولكنه لم يكن في موقعٍ يسمحُ لهُ الإدعاءَ بأنَّه أفضلُ رجلٍ لهذهِ المهمةِ ولذلكَ لم يكلِّف نفسهُ عناءَ الدخولِ في جدالٍ.

عادَ ميرثن إلى العملِ بسرعةٍ وبنشاطٍ. بنى سدودَ إنضاب حول الدعامتين المسببتين للمشكلةِ، ومن ثمَّ قامَ بتجفيفِ السدود وبدأ بملء الفجوات تحتَ الدعاماتِ بالركامِ والملاطِ ثمَّ أحاطَ الدعامتين بأكوامٍ من الحجارةِ الكبيرةِ والخشنةِ كما أرادها في المخطط الأساسي. وأخيراً تخلَّصَ من المشابك المعدنيةِ البشعةِ التي وضعها إلفريك وملأ مكانها بالملاطِ. وبما أنَّ الأساسات باتت قويةً الآن فلن تفتح الصدوع مجدداً.

ولكن ما أرادهُ ميرثن حقاً هو إعادةُ بناءِ البرجِ.

لن يكونَ الأمرُ سهلاً وسيتحتمُ عليهِ الحصول على موافقةِ الدير ونقابةِ الأبرشيةِ على التصميمِ وكلاهما يديرهما اثنان من ألدِّ أعدائهِ، غودوين وإلفريك، وسيتوجبُ على غودوين تأمينُ المالِ اللازمِ لتمويلِ المشروعِ.

وكخطوةٍ أولى شجَّعَ ميرثن مارك على ترشيحِ نفسهِ لانتخاباتِ رئيسِ النقابةِ وأخذِ مكانِ إلفريك. عادةً ما يُنتخبُ رئيسُ النقابةِ مرَّةً سنوياً بعدَ عيدِ القديسين في الأولِ من تشرين الثاني/ نوفمبر. بالشكلِ الطبيعي يُعادُ انتخابُ الرئيسِ دوماً إلى أن يتقاعد أو يتوفى، ولكن كان يُسمحُ بالتنافس بينَ مرشحين. في حقيقةِ الأمر قامَ إلفريك بترشيحِ نفسهِ عندما كان إدموند وولر الرئيس.

لم يكن مارك بحاجةٍ إلى كثيرٍ من التشجيعِ فقد كانَ يتوقُ لإنهاءِ حقبةِ إلفريك الذي، وبسبب قربهِ من غودوين، لم يحقق الكثير لنقابةِ الأبرشيةِ بل وضعَ المدينةَ تحتَ الحكمِ الفعلي للديرِ الذي كانَ منغلقاً ومحافظاً ومرتاباً من الأفكارِ الجديدةِ وغير مبالٍ بمصالحِ سكانِ المدينةِ.

وبدأ المرشحان بحشدِ الداعمين لهما. كان لإفريك أتباعُهُ ومعظمهم من الموظفين لديهِ أو من زبائنهِ، لكن ولأنّه خسرَ ماءَ وجههِ في الجدالِ حولَ الجسرِ كانَ جميعُ من أخذَ جانبهُ محبطين على عكسِ داعمي مارك الشديدي الحماس.

كان ميرثن يزور الكاتدرائيةَ كلَّ يومٍ ويتفحص أساساتِ العمود الكبير الذي كانَ جيرمايا يحفر تحتهُ. كانت الأساساتُ من الحجرِ نفسِه الذي بُنيت منهُ الكاتدرائيةُ وقد غطيت بطبقاتٍ من الملاطِ. لم تكن هذهِ الحجارةُ مرصوفة بعنايةٍ كأنَّ وجودها تحتَ الأرضِ بعيداً عن الأنظار لم يعطِ البنائين دافعاً كافياً لرصفها بشكلٍ متقن فكلُّ طبقةٍ من الملاط أعرض من التي فوقها وبدت أشبه بالهرمِ. ومع استمرارهم بالحفرِ تفحصَ ميرثن كلَّ طبقةٍ بحثاً عن نقطةِ ضعفٍ دونَ أن يوفقَ إلى إيجاد خطبٍ ما إلا أنّه كانَ واثقاً من أنّه، وفي نهايةِ المطاف، سيجدُ هذهِ النقطةَ.

لم يُخبر ميرثن أحداً بما كانَ يفكرُ بهِ. إن تحققت مخاوفهُ فهذا يعني أنَّ البرجَ الذي بُني في القرنِ الثالث عشر ثقيلٌ جداً على الأساساتِ التي تعود إلى القرنِ الثاني عشر ولذلكَ لا بد من حلٍ جذري؛ أي هدم البرجِ وبناء واحدٍ جديد وسيكونُ هذا البرج أطولَ برجٍ في إنكترا...

في أحدِ أيام منتصف شهرِ تشرين الأول/ أكتوبر ظهرت كاريس في موقعِ الحفرِ. أتت في الصباحِ الباكرِ وأشعة الشمس الشتائية تتسللُ من النافذةِ الشرقيةِ الكبيرةِ. وقفت على حافةِ الحفرةِ وقلنسوتها على رأسها في ما يشبه الهالةَ. تسارعت نبضاتُ قلبِ ميرثن عندما رآها. هل هذا يعني أنّها أتت حاملةً الجوابَ على سؤالهِ؟ وصعدَ السلمَ بحماسٍ.

بدت جميلةً كما هي دوماً رغمَ أن وهجَ الشمسِ القويةِ فضحَ تغييرات بسيطةً تركتها السنواتُ التسع الماضية على وجهها. لم تعد بشرتها بتلك النعومةِ التي كانت عليها وظهرت عند زوايتي فمها تجاعيد صغيرةٌ إلا أنَّ عينيها الخضراوين لمعتا بتلك الحدَّةِ الذكية التي يحبها كثيراً.

ساراا معاً عبرَ الممرِ الجنوبي لصحنِ الكنيسةِ وتوقفا أمامَ العمودِ الذي يذكرهُ دوماً بأنَّه داعبها وراءهُ في ما مضى. «سعيدٌ برؤيتكِ»، قال ميرثن. «كنت مختبئةً».

«أنا راهبةٌ ولذلكَ من المفترض أن أختبئ».

«ولكنكِ تفكرين بالتخلي عن نذوركِ».

«لم أتخذ قراري بعد».

ذُهلَ ميرثن مما سمعهُ. «كم من الوقتِ تحتاجين لأخذِ قراركِ؟»

«لا أعلم».

أشاحَ بنظرهِ بعيداً. لم يكن يرغبُ أن ترى قدرَ الألم الذي شعرَ بهِ بسببِ ترددها في اتخاذِ القرارِ. لم يقلْ شيئاً. كانَ بوسعهِ أن يقولَ لها إنها تتصرفُ بلا عقلانية ولكن ما الذي سيجنيهِ من قولهِ هذا؟

«لا بد أنك ستزورُ والديكَ في تينش في مرحلةٍ ما كما أعتقد»، قالت له.

أومأ برأسهِ موافقاً. «قريباً جداً. إنهما يريدان رؤيةَ لولا». كانَ ميرثن يتوقُ لرؤيةِ والديهِ أيضاً وقد أجَّل هذا لأنَّه كان منشغلاً في عملهِ على الجسرِ والبرجِ.

«في هذهِ الحالةِ أتمنى أن تتحدثَ مع أخيكَ بخصوصِ ولفريك في ويغلي».

أرادَ ميرثن أن يكونَ حديثهما عنه وعنها وليسَ عن ولفريك وغويندا لذلكَ جاءَ جوابهُ بارداً. «وما الذي تريدين مني أن أقولَ لرالف؟»

«يعملُ ولفريك الآن مقابلَ الطعامِ فقط لأنَّ رالف يرفضُ إعطاءهُ ولو أرضاً صغيرةً ليزرعها».

هزَّ ميرثن كتفيهِ وقال: «لقدَ كسرَ ولفريك أنفَ رالف» إلَّا أنَّه بدأ يشعرُ بأنَّ الحديثَ يأخذُ منحى الشجار وسألَ في نفسهِ عن سببِ غضبهِ. لم تتحدث كاريس معهُ منذُ أسابيع ولكنها كسرت هذا الصمت من أجلِ غويندا، وأدركَ أنَّهُ ممتعضٌ من المكانةِ التي تملكها غويندا في قلبِ كاريس، ورغمَ أنَّه قالَ لنفسهِ إنَّ شعوره سخيفٌ إلا أنَّه لم يستطع الترفعَ فوقهُ.

احمرَّ وجه كاريس من الضيقِ. «حدثَ هذا منذُ اثني عشرَ عاماً! ألم يحن الوقتُ ليتوقفَ رالف عن معاقبةِ ولفريك؟»

كانَ ميرثن قد نسي أنَّه وكاريس اعتادا على الاختلافِ بشدةٍ وها هو يتذكرُ هذا الآن. تحدثَ ميرثن بامتعاضٍ قائلاً: «بالطبعِ أرى أن عليهِ التوقف ولكن ما يهم هو رأيِ رالف في الأمرِ».

«إذاً، فلتحاول أن تغيرَ رأيهُ»، قالت كاريس.

تضايقَ من إلحاحها وقالَ متظارفاً: «أنا ملكُ يديكِ».

«لمَ تتحدثُ بسخريةٍ؟»

«لأنني لستُ ملككِ لتأمريني ولكن يبدو أنك تعتقدين أنني كذلك. أشعرُ بأنني غبيٍ لأنني أسايركِ».

«بحقِّ السماءِ»، قالت كاريس. «هل تشعرُ بالإهانةِ لأنني أطلبُ منكَ شيئاً؟»

ولسببٍ ما شعرَ بأنَّها اتخذت قرارها حقاً وأنَّها سترفضهُ وتبقى في الديرِ. حاولَ أن يتحكمَ بمشاعرهِ. «لو كنا زوجين لكانَ بوسعكِ أن تطلبي مني أيَّ شيءٍ، ولكن بما أنَّكَ لم تحسمي أمركَ حيالَ رفضي أو قبولي فطلبكِ فيه صفاقةٌ». كانَ يعلمُ أنَّه تحدثَ بوقاحةٍ ولكنه لم يكن قادراً على كبحِ نفسهِ، ولو أنَّه تركَ العنانَ لمشاعرهِ الحقيقيةِ لانخرطَ في البكاءِ.

كانت مأخوذةً جداً بشعورها بالمهانةِ مما قالهُ فلم تلاحظ كربهُ. «ولكنني لا أطلبُ شيئاً لنفسي!» قالت في احتجاجٍ.

«أدركُ أنَّ ما يدفعكِ لطلبِ هذا هو كرمُ أخلاقكِ ولكنني أشعرُ بأنَّكِ تقومين باستغلالي».

«حسناً إذاً لا تقم بالأمرِ».

«بالطبعِ سأفعلُ ما طلبتِهِ مني». وفجأةً لم يعد قادراً على ضبطِ نفسهِ فاستدارَ وابتعدَ عنها. كان يرتجفُ تحت وطأةِ شعورٍ لا يفهمهُ، وبينما شقَّ طريقهُ عبرَ ممرِ الكنيسةِ المهيبةِ جاهدَ كي يضبطَ نفسه. وصلَ إلى موقعِ الحفرِ وشعرَ أنَّ الأمرَ برمتهِ سخيفٌ ثمَّ استدارَ لينظرَ خلفهُ إلا أنَّ كاريس كانت قد اختفت.

وقفَ على حافةِ الحفرةِ ونظرَ إلى الأسفلِ بانتظارِ أن تتراجعَ العاصفةُ التي تعتملُ في داخلهِ.

بعدَ برهةٍ أدركَ أن العمالَ وصلوا في الحفرِ إلى مرحلةٍ حاسمةٍ. على عمقِ ثلاثين قدماً تحتهُ كانَ الرجالُ قد تجاوزوا الأساساتِ الحجريةِ وأصبحَ ما تحتها ظاهراً للعيانِ. لم يكن هناكَ الكثيرُ مما يمكنهُ القيامُ بهِ لكاريس في الوقتِ الحالي، ولذلكَ من الأفضلِ أن يركّزَ على عملهِ. أخذَ نفساً عميقاً وبلعَ ريقهُ ونزلَ السُلَّمَ.

كانت هذهِ لحظةَ الحقيقةِ، وبدأ يشعرُ بانحسارِ ضيقهِ من كاريس وهو يراقبُ الرجالَ يحفرون أعمقَ وأعمق. أُخرجت كمياتٌ وحلٍ كبيرة من الحفرةِ وأخذَ ميرثن يتفحصُ طبقاتِ التربةِ التي أحاطت بالأساساتِ. بدت له كأنَّها مزيجٌ من الرملِ والحجارةِ الناعمةِ. وبينما كانَ العمالُ يزيلونَ الوحلَ بدأ الرملُ في طبقةِ التربةِ المحيطةِ بالأساسِ يتساقطُ في الحفرةِ.

وأمرهم ميرثن بالتوقفِ عن الحفرِ.

انحنى والتقطَ حفنةً من المادةِ الرمليةِ. لم تكن المادة تشبهُ التربةَ المحيطة بها بل غريبةً عن طبيعةِ الأرضِ في الموقعِ أيضاً وهذا يعني أن البنَّائين ربما هم مَن وضعوها. تصاعدت شدةُ حماسه أمامَ هذا الاكتشافِ وتغلَّبَ على الحزنِ الذي أثاره شجارهُ مع كاريس. «جيرمايا!» نادى ميرثن. «فلتهرع لإحضارِ توماس بأقصى سرعة».

طلبَ ميرثن من الرجالِ أن يتابعوا الحفرَ ولكن أن يجعلوا الحفرةَ أضيق ففي هذهِ المرحلة باتَ الحفرُ بشكلٍ أوسع خطيراً على البنيةِ. بعدَ برهةٍ عادَ جيرمايا مع توماس وراقبَ الرجالُ الثلاثةُ العمالَ يحفرون بشكلٍ أعمق. في نهايةِ المطافِ انتهت طبقةُ الرملِ كاشفةً عن طبقةٍ من التربةِ الطينيةِ الطبيعيةِ.

«ما هي هذهِ المادةُ الرمليةُ؟» سألَ توماس.

«أعتقدُ أنني أعرف»، قال ميرثن محاولاً ألا يبدو كأنَّه انتصرَ. لقد توقعَ، ومنذُ سنواتٍ طويلةٍ، أنَّ الإصلاحاتِ التي قامَ بها إلفريكَ لم تكن مفيدةً لأنَّ أصلَ المشكلةِ وقتها لم يُعرف. وها هو الآن يتأكد من صحةِ توقعاتهِ، ولكن ليسَ من الحكمةِ أن يقول لتوماس أنَّه قالَ له هذا قبلاً.

نظرَ توماس وجيرمايا إلى ميرثن في ترقبٍ.

وشرحَ لهما ميرثن الأمرَ قائلاً: «عندما تحفرُ حفرةً لبناءِ أساسٍ يجبُ أن تغطي القاعَ بمزيجِ ركامٍ وملاطٍ ثمَّ تقومُ برصفِ الحجارةِ فوقها، وهذهِ طريقةُ عملٍ جيدةٌ جداً ما دامت الأساسات تتناسبُ مع البناءِ الذي يبنى عليها».

قالَ توماس بفارغِ صبرٍ: «كلانا يعلمُ بهذا».

«ما حدثَ أنَّ البرجَ العالي جداً بُني على أساساتٍ لم تكن مصممةً لهُ ولذلك فإنَّ الوزنَ الزائدَ للمبنى وعلى مدارِ مئةِ عامٍ طحنَ الركامَ والملاط وحولهما إلى رملٍ. لم يكن هناك أيُّ تجانسٍ في الرملِ ولذلكَ كانَ يتمددُ للخارجِ باتجاهِ التربةِ المحيطةِ بهِ مما أغرقَ الكتلةَ التي فوقهُ. وكانَ تأثيرُ هذا أسوأ على الجانبِ

الجنوبي من الكاتدرائيةِ لأنَّ طبيعةَ الأرضِ منحدرةٌ». شعرَ ميرثن برضا كبيرٍ عندما اكتشفَ هذا.

بدا الرجلان الآخران غارقين في التفكيرِ. قالَ توماس: «أفترضُ أنَّه علينا تدعيمُ الأساساتِ».

هزَّ جيرمايا رأسهُ بالنفي ثمَّ قالَ: «قبلَ أن نتمكنَ من وضعِ أيّ تدعيماتٍ تحت كتلةِ البناءِ علينا أن نزيلَ المادةَ الرمليةَ وهذا يعني أنَّ الأساسات لن تكونَ مدعّمةً، وسينهارُ المبنى».

كانَ توماس محتاراً. «ما الذي يمكننا فعلهُ؟»

نظر الرجلان إلى ميرثن الذي قالَ: «صنعُ سقفٍ مؤقتٍ فوقَ الممرِ ثمَّ بناءُ سقالةٍ وهدمُ البرجِ حجراً حجراً ثمَّ تدعيمُ الأساساتِ».

«إذاً سيتعينُ عليكم بناءُ برجٍ جديدٍ».

هذا ما أرادهُ ميرثن ولكن لم يعبر عنهُ صراحةً فقد يشكّ توماس بأنَّ طموح ميرثن ما يدفعهُ لقولِ هذا. «أخشى هذا»، قالَ ميرثن في أسى مزيف.

«لن يحبَّ رئيسُ الدير غودوين هذا الكلامَ».

«أعلم»، قالَ ميرثن. «ولكن لا أعتقدُ أنَّه يملكُ خياراً آخر».

***

في اليومِ التالي وضعَ ميرثن لولا أمامهُ على السرجِ وغادرا كينغزبريدج. وبينما كانَ يقطعُ الغابةَ غاصَ في لجةِ التفكيرِ بالجدال العاطفي الذي دارَ بينهُ وبينَ كاريس. علمَ أنَّ تصرفهُ لم يكن لطيفاً، وفكرَ في نفسهِ أنَّه كانَ غبياً لقيامهِ بهذا في الوقتِ الذي كانَ يحاولُ فيهِ أن يكسبَ ودها مجدداً. ما الذي حدثَ له؟ كانَ طلبُ كاريس منطقياً جداً. لمَ لم يرغب بتأديةِ هذهِ الخدمةِ الصغيرةِ للمرأةِ التي أرادَ الزواجَ منها؟

ولكنها لم توافق على الزواجِ منهُ. كانت ما تزالُ تحتفظُ بحقِ رفضهِ وهذا هو سببُ غضبهِ؛ إنَّها تتنعمُ بامتيازاتِ الخطيبةِ قبل أن توافقَ على الارتباطِ.

ورأى الآن أنَّ اعتراضهُ لهذهِ الأسبابِ وضيعٌ وأنَّه كانَ غبياً لأنَّه حوَّلَ ما يمكنُ أن يكونَ لحظةً حميمةً جميلةً بينهما إلى شجارٍ.

ولكن من جهةٍ أخرى لم يكن بوسعهِ أن ينكرَ أن السبب الخفي لكربهِ حقيقي جداً. كيفَ يمكنُ لكاريس أن تتوقعَ منهُ انتظارَ جوابها؟ وإلى متى سيظلُّ منتظراً؟ لم يكن راغباً بالتفكيرِ في هذهِ الأمورِ الآن.

على أيِّ حالٍ سيكونُ من الجيدِ أن ينجحَ في إقناعِ رالف بالتوقف عن معاقبةِ ولفريك المسكين.

تقعُ بلدةُ تينش على الطرفِ الآخرِ من إنكلترا ولذلكَ قضى ميرثن ليلةً في قريةِ ويغلي المقفرةِ قبلَ أن يتابع رحلتهِ في صباح اليوم التالي. وجدَ غويندا وولفريك مصابينِ بالهزالِ بعدَ صيفٍ ماطرٍ وحصادٍ شحيحٍ للسنةِ الثانيةِ على التوالي. كانت ندبةُ ولفريك على خدهِ الهزيلِ أكثرَ وضوحاً الآن، وبدا طفلاهما الصغيران شاحبين بأنفين بسيلانٍ وتقرحاتٍ على شفاههما.

قدَّمَ لهما ميرثن فخذاً من لحمِ الضأنِ وبرميلاً صغيراً من النبيذِ وقطعةَ نقودٍ ذهبية فلورنسيةٍ مُدعياً أنَّها عطايا من كاريس. طبخت غويندا لحمَ الضأنِ على نارِ الموقدِ. كان هناكَ غضبٌ يتملكها وتكلمت بصوتٍ كالهسيسِ ثمَّ بصقت وهي تتحدثُ عن الظلم الذي لحقَ بهما وهي تحركُ اللحمَ فوقَ النار. «وضعَ بيركن يدهُ على نصفِ أراضي القريةِ تقريباً!»، قالت غويندا ثمَّ أضافت: «ولم يكن لينجح في إدارةِ هذهِ الأراضي لو لم يكن ولفريك يقومُ بعملِ ثلاثةِ رجالٍ. وعلاوةً على هذا أغرقنا بمزيدٍ من العملِ لنبقى فقراء».

«يؤسفني أن رالف ما زال يكنّ الضغينةَ لكما»، قال ميرثن.

«كانَ رالف من استفزَّ ولفريك للقتالِ!» قالت غويندا. «حتَّى الليدي فيليبا قالت هذا».

«شجاراتٌ قديمةٌ»، قالَ إلفريك متفلسفاً.

«سأحاولُ التحدثَ إليهِ بعقلانيةٍ»، قالَ ميرثن وأضاف: «وفي حال أصغى إلي ما الذي تريدانني أن أقولَ لهُ؟»

«آه»، قال ولفريك ثمَّ نظرَ بعيداً بطريقةٍ غريبةٍ ليست من طبعهِ، «ما أصلي لهُ كلَّ يومِ أحد هو أن أستردَّ الأراضي التي كانت مُلكاً لوالدي في يومٍ من الأيام».

«هذا ما لن يحدثَ أبداً»، قالت غويندا على عجلٍ، «إنَّ مكانةَ بيركن راسخةٌ جداً. وحتَّى إن توفي فلديهِ ابنٌ وزوجُ ابنةٍ ينتظرانِ إرثهُ وبضعُ أحفادٍ يكبرون بسرعةٍ كلَّ يوم. نريدُ أرضاً لنا وحدنا. فعلى مدارِ أحدَ عشرَ عاماً عملَ ولفريك بجهدٍ لإطعامِ أطفالِ رجالٍ آخرين. لقد حانَ الوقتُ ليستفيدَ بعضَ الشيءِ من قوته».

«سأقولُ لأخي أنهُ عاقبكما بما يكفي»، قال ميرثن.

في اليومِ التالي غادرَ ميرثن ولولا ويغلي إلى تينش. كان ميرثن الآن عازماً على القيامِ بشيءٍ من أجلِ ولفريك ولم يكن السببُ إرضاءَ كاريس والتفكيرَ

عن سلوكِهِ السيئ معها بل لأنَّه شعرَ بالخزي والحزن على شخصين نزيهين ومُجدين كولفريك وغويندا. لقد أصبحا فقيرين ونحيلين مع طفلين مريضين بسببِ رغبةِ رالف بالانتقامِ.

لم يجد والديه في قصرِ تينش بل في منزلٍ في القريةِ. صُدمَ ميرثن عندما رأى والدتهُ وقد كبرت في العمرِ كثيراً رغمَ أنَّها كانت مبتهجةً جداً عندما رأت لولا. بدا والدهُ بحالٍ أفضل. «إنَّ رالف طيبٌ جداً معنا»، قالَ جيرالد بطريقةٍ دفاعيةٍ لم تفلح بإقناعِ ميرثن بصحةِ ما قاله. كانَ المنزلُ جميلاً إلا أنَّهما كانا يفضلان العيشَ في القصرِ مع رالف، وتكهنَ ميرثن أنَّ رالف لم يرغب بأن تراقبهُ والدتُه على الدوامِ.

أخذاهُ في جولةٍ في منزلهما واستفسرَ منهُ جيرالد عن أحوالِ كينغزبريدج. «ما زالت المدينةُ تزدهرُ على الرغمِ من تأثيراتِ حربِ الملكِ في فرنسا»، أجابهُ ميرثن.

«آه، ولكن على إدوارد أن يقاتلَ من أجلِ حقِّهِ بالولادةِ»، قال والدهُ. «فهو الوريث الشرعي لعرشِ فرنسا».

«أعتقدُ أنَّه حلمٌ يا أبي»، قال ميرثن. «لا يهمّ عددُ المراتِ التي سيغزو فيها الملكُ فرنسا فالنبلاءُ الفرنسيون لن يقبلوا برجلٍ إنكليزي ملكاً عليهم، ولا يمكنُ للملكِ أن يحكمَ من دونِ دعمِ نبلائِه».

«ولكن كانَ علينا أن نوقفَ الغزواتِ الفرنسيةِ على مرافئنا الجنوبيةِ».

«لم تكن هذهِ بالمشكلةِ الكبيرةِ بعدَ معركةِ سوليه عندما دمرنا الأسطولَ الفرنسي منذُ ثمانيةِ أعوامٍ. على أيِّ حالٍ لن يُفلحَ إحراقُ محاصيلِ الفلاحين في إيقافِ القراصنةِ بل على العكس فقد يزيدُ من أعدادهم».

«يقدمُ الفرنسيون الدعمَ للإسكتلنديين الذين لا يكفون عن غزو مقاطعاتنا الشماليةِ».

«ألا تعتقد أنَّه من الأفضلِ لو أنَّ الملك عالجَ مسألةَ الخروقاتِ الإسكتلنديةِ في شمالِ إنكلترا وليسَ في شمالِ فرنسا؟»

بدا جيرالد حائراً فهو على الأغلبِ لم يفكر بالحكمةِ من هذهِ الحربِ. «حسناً ها هو رالف قد أصبحَ فارساً»، قالَ جيرالد. «وأحضرَ لوالدتكَ شمعداناً فضياً من كاليه».

«إذاً، هذا هو جوهرُ الأمرِ»، فكرَ ميرثن في نفسِهِ. «الحصول على المجدِ والغنائم».

توجهوا جميعاً إلى القصرِ واكتشفوا أنَّ رالف في رحلةِ صيدٍ مع آلان فيرنهيل. في القاعةِ الكبيرةِ كرسي خشبي مزخرفٌ وبدا واضحاً أنّه كرسي السيدِ. رأى ميرثن فتاةً وظنَّها خادمةً صغيرةً إلّا أنّها كانت تنوءُ تحتَ ثقلِ حملها. شعرَ بالإحباطِ عندما قدموها إليهِ على أنّها تيلي، زوجةُ رالف.

ذهبت تيلي إلى المطبخِ لتحضرَ لهم النبيذَ.

«كم يبلغُ عمرها؟» سألَ ميرثن والدتهُ عندما غادرت تيلي.

«أربعةَ عشرَ عاماً».

لم يكن حملُ فتاةٍ في الرابعة عشرة أمراً غريباً ولكن ميرثن شعرَ بأنَّ الناسِ المحترمين لا يتزوجونَ في هذا العمرِ المبكرِ؛ فالحملُ في هذا العمرِ لا يحدثُ سوى في العائلاتِ الملكيةِ التي تخضعُ لضغطٍ سياسي لإنجابِ وريثٍ وبينَ الفلاحين الأقلّ شأناً والجهلةِ الذين لا يفقهونَ شيئاً، بينما الطبقاتُ الوسطى تحافظُ على معايير أعلى. «إنَّها صغيرةٌ بعضَ الشيءِ، أليسَ هذا صحيحاً؟» قال ميرثن بهدوءٍ.

أجابت مود: «جميعنا طلبنا من رالف أن ينتظر ولكنه أبى ذلكَ». بدا واضحاً أنّها عارضت هذا أيضاً.

عادت تيلي مع خادمةٍ تحملُ إبريقاً من النبيذِ وصحناً من التفاحِ، وفكرَ ميرثن بأنَّ تيلي قد تكونُ جميلةً إلا أنّها بدت منهكةً. خاطبها والدهُ بابتهاجٍ مصطنعٍ: «فلتبتهجي يا تيلي! سيعودُ زوجكِ إلى المنزلِ قريباً ولا يجبُ أنْ تستقبليهِ عابسةً».

«لقد مللتُ من الحملِ»، قالت تيلي. «أرغبُ فقط بأن يخرجَ الطفلُ بأسرعِ ما يمكن».

«لقد اقتربَ موعدُ ولادتكِ»، قالت مود. «أعتقدُ أنكِ ستلدين بعدَ ثلاثةِ أسابيع أو أربعة».

«يبدو وقتاً طويلاً».

سمعوا جميعاً صوتَ جيادٍ في الخارج. «يبدو أن رالف قد عادَ»، قالت مود.

وبينما كانَ ميرثن ينتظرُ دخولَ شقيقهِ في أيّ لحظةٍ انتابهُ كالعادةِ مزيجٌ من المشاعرِ المختلطةِ. لطالما اختلطَ حُبهُ لرالف مع معرفتهِ بالشرور التي اقترفها، ولم يكن اغتصابُ آنيت سوى بدايتها. فخلالَ الأيام التي قضاها رالف خارجاً عن القانونِ قتلَ رجالاً ونساءً وأطفالاً أبرياء. وقد سمعَ ميرثن خلالَ رحلتهِ عبرَ

النورماندي عن الفظائع التي ارتكبها رجالُ جيشِ الملكِ إدوارد. ورغمَ أنَّه لا يعلمُ بالضبطِ ما الذي اقترفه رالف عندما كانَ في النورماندي فإنَّ ميرثن لم يكن غبياً ليعتقدَ أنَّ رالف كبحَ نفسهُ أمامَ حفلةِ الاغتصابِ والسطو والذبحِ الجماعيةِ، ولكن رالف شقيقهُ في نهايةِ المطافِ.

كان ميرثن واثقاً من أن رالف يملكُ أيضاً مشاعرَ مختلطةً حيالَهُ. ربما سامحه على فضحِ موقعِ اختبائه عندما كانَ خارجاً عن القانونِ. ورغمَ إجبارِ ميرثن توماس على وعدهِ بألا يقتلَ رالف فإنَّه كانَ يعلمُ أنَّ رالف سيُعدم حالما يقبضُ عليهِ. كانت كلماتُ رالف الأخيرةُ لميرثن عندما كانَ في قبو سجنِ غيلد هول في كينغزبريدج هي: «لقد خُنتني».

دخلَ رالف مع آلان والوحلُ يغطيهما بعدَ رحلةِ الصيدِ. صُدمَ ميرثن عندما رأى رالف يمشي على نحو أعرج. لم يتعرف رالف على ميرثن على الفورِ ثمَّ ابتسمَ ابتسامةً عريضةً. «شقيقي الكبير!» قال رالف بمودةٍ. كانت هذهِ إحدى دعاباتِ رالف القديمةِ فعلى الرغمِ من أنَّ ميرثن الأخُ الأكبر إلا أنَّه كانَ الأقصر قامةً.

تعانقَ الشقيقان ورغمَ كلِّ شيءٍ شعرَ ميرثن بدفقٍ دافئٍ. كانا على قيدِ الحياةِ رغمَ الحربِ والوباءِ. عندما افترقا تساءلَ ميرثن على الدوام إن كانا سيتقابلان مجدداً.

رمى رالف بنفسهِ على الكرسي الخشبي الكبير. «أحضري بعضَ الجعةِ. إننا عطشى»، قال رالف لتيلي.

واستنتجَ ميرثن أنهما لن يتبادلا الاتهامات.

تفحصَ ميرثن شقيقهُ. كانَ رالف قد تغيرَ تماماً عما كانَ عليهِ في ذلكَ اليومِ من عامِ 1339 عندما ذهبَ إلى الحربِ فقد خسرَ بعضاً من أصابعِ يدهِ اليسرى في أرضِ المعركةِ على الأغلب، وبدا وجهه كوجهِ شخصٍ منغمسٍ في الملذاتِ بعروقٍ بارزةٍ من الخمرِ وببشرةٍ جافةٍ ومتقشِّرةٍ. «هل وفقتَ في رحلةِ الصيدِ؟» سألَ ميرثن.

«أحضرنا معنا ظبيةً سمينةً كبقرةٍ»، أجابَ رالف في رضا. «سأقدمُ لكَ كبدها على العشاء».

سألهُ ميرثن عن القتالِ في جيشِ الملكِ وقصَّ عليهِ رالف بعضاً من أبرزِ مجرياتِ الحربِ. كان والدهما متحمساً. «إنَّ الفارسَ الإنكليزي يعادلُ عشرةَ فرسانٍ فرنسيين»، قال جيرالد. «وهذا ما أثبتته معركة سيرسي».

وبشكلٍ يدعو إلى الدهشةِ كان جوابُ رالف مُحكماً: «من وجهةِ نظري لا أعتقدُ أن هناك اختلافاً كبيراً بين الفارسِ الإنكليزي والفارسِ الفرنسي، ولكن لم يفهم الفرنسيون بعد فكرةَ التشكيلِ الضيقِ الذي كنا نأخذهُ حيثُ الرماةُ على كلا جانبي الفرسانِ الراجلين والجنود. ما زالوا يهاجمون بطريقةٍ انتحاريةٍ وقد يستمرونَ بفعلِ هذا لوقتٍ طويلٍ. ولكن في يومٍ من الأيامِ سيفهمونَ مشكلتهم وسيغيرون تكتيكاتهم، ولكن حتّى ذلك الوقت ما زالَ دفاعنا غير قابلٍ للاختراقِ. لسوءِ الحظِ فالتشكيلُ الضيقُ غير مفيدٍ في الهجومِ ولهذا كان نصرنا صغيراً».

ذهلَ ميرثن من النضجِ الذي وصلَ إليهِ شقيقهُ. لقد منحتهُ سنواتُ الحربِ عمقاً وفطنةً لم يملكها قبلاً.

وبدورهِ تحدَّثَ ميرثن عن فلورنسا وحجمها الهائل وسعةِ ثروةِ تجارها وكنائسها وقصورها. كانَ رالف مأخوذاً جداً بفكرةِ وجودِ عبداتٍ.

هبطَ الظلامُ وأحضرَ الخدمُ المصابيحَ والشموعَ ثمَّ قدموا العشاءَ. شربَ رالف الكثيرَ من النبيذِ، ولاحظَ ميرثن أنّه كانَ قاسياً جداً في حديثهِ مع تيلي. قد لا يكونُ هذا مدعاةً للاستغرابِ فرالف جندي في الواحدة والثلاثين من العمرِ وقد قضى نصفَ حياتهِ البالغةِ في الجيشِ بينما تيلي فتاةٌ في الرابعةَ عشرة تلقَّت تعليماً في الديرِ. لا يمكن أن يكونَ هناك الكثيرُ من المواضيعِ المشتركةِ بينهما.

في وقتٍ متأخرٍ من الأمسيةِ وبعدَ أن عادَ جيرالد ومود إلى منزلهما وخلدت تيلي إلى النومِ طرحَ ميرثن الموضوعَ الذي طلبت منهُ كاريس التحدثَ بهِ مع رالف. كانَ يشعرُ بتفاؤلٍ لم يشعر بهِ قبلاً بخاصةٍ بعد ملاحظتهِ لعلائم النضجِ على رالف. لقد سامحه على خيانتهِ له في عام 1339، وكانَ تحليلهُ الجيد للتكتيكاتِ الإنكليزيةِ والفرنسيةِ خالياً، وبشكلٍ مذهلٍ، من العصبيةِ الوطنيةِ.

قالَ ميرثن: «في طريقي إلى هنا قضيت ليلةً في ويغلي».

«أرى أن الطاحونةَ مازالت تعملُ».

«لقد أصبحت تجارةُ القماشِ القرمزي عملاً مربحاً في كينغزبريدج».

هزَّ رالف كتفيهِ بلا مبالاةٍ. «يدفعُ لي مارك ويبر الإيجار دونَ تأخيرٍ». كانَت مناقشةُ الأعمالِ شيئاً وضيعاً بالنسبةِ إلى رجلٍ نبيلٍ.

«قضيت الليلةَ عندَ غويندا وولفريك»، تابعَ ميرثن. «أنتَ تعلمُ أنَّ غويندا صديقةُ كاريس منذُ الطفولةِ».

«أتذكرُ اليومَ الذي قابلنا فيهِ السير توماس لانغلي في الغابةِ».

ألقى ميرثن نظرةً سريعةً على آلان فرنهيل. كانوا جميعاً قد حافظوا على الوعدِ الذي قطعوه على السير توماس عندما كانوا صغاراً ولم يخبروا أحداً بالحادثةِ. رغبَ ميرثن بشيءٍ من الخصوصيةِ لإكمالِ الحديثِ فقدَ شعرَ أنَّ الأمرَ ما زالَ مهماً لتوماس رغمَ أنَّه لم يعرف السببَ إلا أنَّ آلان لم يقم بأيِّ ردِ فعلٍ فقد كانَ ثملاً جداً وغافلاً عن أيِّ تلميحاتٍ.

تابعَ ميرثن كلامهُ على عجلٍ: «طلبت مني كاريس أن أتحدثَ معكَ بشأنِ ولفريك. إنَّها تعتقدُ بأنَّك عاقبتهُ بما يكفي على ما جرى بينكما وأنا أوافقها على هذا».

«لقد كسرَ أنفي!»

«كنتُ حاضراً ورأيتُ هذا ولكنكَ لم تكن الشخصَ المظلوم آنذاك». حاولَ ميرثن الاستخفافَ بالأمر قائلاً: «لقد تحرشتَ بخطيبتهِ. ما كانَ اسمها؟»

«آنيت».

«إن لم يكن ثدياها يستحقان أنفاً مكسوراً فاللومُ في هذا لا يقعُ على أحدٍ سواكَ».

ضحكَ آلان إلَّا أنَّ رالف لم يضحك. «كادَ ولفريك يتسببُ في إعدامي بتحريضِ اللورد ويليام علي بعدَ أن اِدعت آنيت أنني قمتُ باغتصابها».

«ولكنكَ لم تُعدم بل جرحتَ ولفريك في خدهِ بسيفكَ عندما هربتَ من قاعةِ المحكمةِ. سببتَ لهُ جرحاً رهيباً. يمكنكَ أن ترى أسنانهُ الخلفيةَ من هذا الجرحِ الذي لن يندملَ أبداً».

«هذا أمرٌ جيدٌ».

«لقد عاقبت ولفريك لأحدَ عشرَ عاماً وباتت زوجتهُ هزيلةً وطفلاهُ مريضين. ألا يكفي هذا يا رالف؟»

«لا».

«ما الذي تعنيهِ؟»

«هذا لا يكفي».

«لماذا؟» صرخَ ميرثن في يأسٍ. «أنا لا أفهمكَ».

«سأستمرُ بمعاقبةِ ولفريك والوقوفِ في طريقهِ وإذلالهِ هو ونساءه».

ذُهلَ ميرثن من صراحةِ رالف. «وما غايتكَ من هذا بحقِ السماءِ؟»

«عادةً، لا أجيبُ على مثلِ هذهِ الأسئلةِ فقد تعلَّمتُ أن تبريرَ النفسِ نادراً ما يكون أمراً جيداً، ولكنكَ شقيقي الكبير ومنذُ الطفولةِ وأنا أسعى إلى الحصولِ على استحسانكَ».

أدركَ ميرثن أن التغيراتِ التي طرأت على رالف لم تكن حقيقيةً باستثناء أنَّه الآن يبدو كأنّه يعلمُ ويفهمُ نفسهُ بطريقةٍ لم يكن عليها عندما كانَ أصغرَ عمراً.

«السببُ بسيطٌ»، قال رالف ثمَّ تابع: «ولفريك لا يخافُ مني، لم يكن خائفاً مني في ذلكَ اليوم خلالَ سوقِ الصوفِ وما زالَ غير خائفٍ مني حتَّى بعدَ كلِّ ما فعلتهُ بهِ، ولهذا بالتحديد سأستمرُ بتعذيبهِ».

ارتاعَ ميرثن عندَ سماعهِ هذا وقال: «هذا أشبه بالحكمِ المؤبد».

«في اليوم الذي أراه ينظر إلي والخوفُ في عينيهِ سيحصلُ على ما يريده»، قال رالف.

«وهل هذا مهمٌ لكَ؟» سأل ميرثن في ارتيابٍ ثمَّ أضاف: «أن يخاف منكَ الناس؟»

«هذا أهمُّ شيءٍ في العالمِ»، أجاب رالف.

-57-

كانَ لعودةِ ميرثن أثرها الكبير على المدينةِ برمتها وقد لاحظت كاريس هذهِ التغييرات بكثيرٍ من الدهشةِ والإعجابِ. بدأ الأمرُ بانتصارهِ على إلفريك في نقابةِ الأبرشيةِ فقد أدركَ الناسُ في المدينةِ أنّهم كانوا على وشكِ خسارةِ الجسرِ بسببِ عدمِ كفاءةِ إلفريك ودفعهم هذا إلى الكفِّ عن التصرفِ بلامبالاةٍ. ولأنَّ الجميعَ يعلَمُ أنَّ إلفريك ليسَ سوى أداةٍ بيدِ غودوين كانَ استياؤهم الحقيقي من الديرِ وليسَ منه.

كانَ موقفُ الناسِ من الديرِ يتغيرُ وسيطرَ جو التحدي على الأجواءِ. شعرت كاريس بالتفاؤلِ فقد كان مارك يمتلكُ فرصةً جيدةً للفوزِ بالانتخاباتِ رئيساً للنقابةِ في أولِ أيامِ شهرِ تشرين الثاني/ نوفمبر. إن نجحَ مارك فلن يعودَ رئيسُ الديرِ غودوين قادراً على الحصولِ على ما يريدهُ، وقد تبدأ المدينةُ بالازدهارِ مجدداً مع أسواق أيام السبتِ ومطاحن جديدة ومحاكم مستقلة يحتكمُ إليها التجارُ في ثقةٍ.

ولكن كاريس قضت معظمَ وقتها تفكرُ بوضعها. كانت عودةُ ميرثن أشبهَ بهزةٍ أرضيةٍ زعزعت أساساتِ حياتها لذلكَ كانَ ردُّ فعلها الأولي الهلعَ من احتمالِ تخليها عن كلِّ ما عملت لأجلهِ لتسعِ سنواتٍ من موقعها في تراتبيةِ الديرِ إلى الأمِّ سيسيليا الحنونة ومير الرقيقة والعجوز جولي المريضة، ولكن الأهم من هذا كلهِ هو المستشفى الذي كانَ الآن أكثرَ نظافةً وفاعليةً وترحاباً مما كانَ عليهِ قبلاً.

كانَ النهارُ قد بدأ يقصرُ ويزدادُ برودةً. أنهى ميرثن إصلاحَ الجسرِ وبدأ بوضعِ أساساتِ شارعِ الأبنيةِ الجديدةِ التي أرادَ بناءها على جزيرةِ ليبر وعزمُ كاريس على البقاءِ راهبةً بدأ يَضعفُ فقد بدأت القيودُ الرهبانيةُ التي توقفت عن ملاحظتها بإزعاجها مجدداً، وإخلاصُ مير الذي كانَ بمنزلة سلوى رومانسيةٍ جميلةٍ تحولَ إلى مصدرِ إزعاجٍ الآن. بدأت تفكرُ بالحياةِ التي ستعيشها لو كانت زوجةَ ميرثن.

فكرت كثيراً بشأنِ لولا وبالطفلِ الذي حملت به من ميرثن. كانت لولا طفلةً داكنةَ العينين والشعر كوالدتها الإيطالية على الأغلبِ. ربما كانت ابنتها ستأتي بعينين خضراوين كجميع أفرادِ عائلةِ وولر، وشعرت كاريس بالهلعِ لفكرةِ التخلي عن كلِّ شيءٍ والعنايةِ بطفلةِ امرأةٍ أخرى ولكنها حالما قابلت الفتاةَ الصغيرةَ لانت مشاعرُها.

بالطبعِ لم يكن بوسعها التحدث إلى أيِّ أحدٍ في الديرِ عن هذا الأمرِ فالأمُّ سيسيليا ستقولُ لها أن تبقى على نذورها وستضرعُ إليها مير لكي لا تغادر، ولهذا السببِ كانت كاريس تتألم وحدها ليلاً عندما تفكرُ بالأمرِ.

وضعها جدالها مع ميرثن حولَ ولفريك في حالةِ يأسٍ. بعدَ أن تركها في ذلكَ اليومِ عادت إلى الصيدليةِ وانخرطت في البكاءِ. لماذا الأمورُ بهذهِ الصعوبةِ؟ كلُّ ما أرادتهُ هو أن تقومَ بما هو صائب.

وعندما كانَ ميرثن في تينش أسرَّت بمكنوناتها إلى مادج ويبر.

بعدَ يومين على مغادرةِ ميرثن أتت مادج إلى المستشفى بعدَ الفجرِ بقليلٍ عندما كانت كاريس ومير تقومان بجولاتهما على المرضى.

«أنا قلقةٌ على مارك»، قالت مادج.

قالت مير لكاريس: «لقد ذهبتُ البارحةَ لرؤيتهِ. عادَ من ميلكوب وهو مصابٌ بالحمى وباضطراباتٍ في المعدةِ. لم أخبركِ لأنَّ الأمرَ لم يبدُ خطيراً».

«سأذهبُ لمعاينتهِ»، قالت كاريس. ولأنَّ عائلةَ ويبر من أصدقائها القدامى أرادت الاهتمام بمارك بنفسها. أخذت كاريس حقيبةً مملوءةً بأدويةٍ أساسيةٍ ورافقت مادج إلى منزلها الذي يقعُ في الشارعِ الرئيسي.

تقعُ غرفةُ الجلوسِ في الطابقِ العلوي فوقَ المتجرِ، وفي قاعةِ الطعامِ كانَ أولادُ مارك الثلاثة يحومون بقلقٍ. قادت مادج كاريس إلى غرفةِ النومِ التي كانت تفوحُ منها رائحةٌ سيئةٌ إلّا أن كاريس لم تتضايق منها فقد كانت معتادةً على رائحةِ غرفِ المرضى التي كانت مزيجاً من العرقِ والقيءِ والفضلاتِ البشريةِ. استلقى مارك على فراشٍ قشّيّ. كان يتعرقُ وبطنهُ الكبيرُ يعلو ويهبط كامرأة حامل وبقربِ السرير وقفت ابنتهُ دورا.

ركعت كاريس قربَ مارك وقالت: «كيفَ تشعر؟»

«بالسوءِ»، قالَ مارك بصوتٍ أجشٍ. «هل يمكنني أن أشربَ شيئاً؟»

أعطت دورا كاريس كأساً من النبيذ ورفعتها الأخيرةُ إلى شفتي مارك. كان أمراً غريباً حقاً أن تجدَ هذا الرجلَ الضخمَ عاجزاً. لطالما بدا مارك شخصاً منيعاً وحصيناً من أيِّ شيءٍ ورؤيتهُ في هذهِ الحالةِ أشبهُ برؤيةِ المرءِ لشجرةٍ بلوطٍ كانت موجودةً طوالَ حياته يضربها البرقُ أمام ناظريه وتقع.

لامست جبهتهُ. كانت حرارتهُ مرتفعةً ولذلكَ لا عجبَ أنّه يشعرُ بالعطشِ. «فليشرب قدرَ ما يشاء»، قالت كاريس. «الجعةُ المخففةُ أفضلُ من النبيذِ».

لم تخبر كاريس مادج أنّها كانت محتارةً وقلقةً حيالَ مرضِ مارك. كانت الحرارةُ وتقلباتُ المعدةِ عرضيين عاديين ولكنّ بصقَ الدمِ عرضٌ خطيرٌ جداً.

أخذت كاريس قارورةَ ماء وردٍ من حقيبتها وبللت قطعةً من القماشِ الصوفي ثمَّ مسحت وجه وعنقَ مارك بها وهدأهُ هذا على الفورِ. خففَ الماءُ من حرارتهِ قليلاً، وغطى العطرُ على الروائحِ السيئةِ في الغرفةِ. «سأعطيكِ بعضاً من الماءِ من صيدليتي»، قالت كاريس لمادج. «يصفهُ الأطباءُ من أجلِ حرارةِ الرأسِ. يقول الرهبان إنّ الحمى حارةٌ ورطبةٌ والزهورُ معتدلةُ الحرارةِ وجافةٌ. أيّاً يكن مرضهُ فسيخففُ عنه الماء قليلاً».

«شكراً لكِ».

ولكن كاريس تعلمُ أنّه لا يوجدُ علاجٌ فعالٌ للبصاقِ الدامي. سيصفُ الرهبان الأطباء فصدَ الدمِ الزائدِ فهذا هو علاجهم لجميعِ الأمراضِ إلّا أن كاريس لم تكن تؤمن بهذا العلاجِ.

وبينما كانت تمسحُ عنقَ مارك لاحظت عرضاً آخر لم تذكرهُ مادج. وجدت طفحاً أرجوانياً على عنقٍ وصدرِ مارك.

ولأنَّه مرضٌ لم ترهُ قبلاً فقد كانت مُربكةً إلا أنَّها لم تدع مادج تشعرُ بشيءٍ. «رافقيني وسأعطيكِ ماءَ الوردِ».

كانت الشمسُ قد بدأت تشرق عند سيرهما من المنزلِ إلى المستشفى. «لطالما كنتِ طيبةً مع عائلتي»، قالت مادج. «لقد كنا أفقرَ أناسٍ في المدينةِ إلى أن بدأتِ بالعملِ في صنعِ القماشِ القرمزي».

«طاقتكما ومثابرتكما أنجحَتا هذا العملَ».

أومأت مادج برأسها. كانت تعلمُ أنَّ هذا صحيح إلَّا أنها قالت: «ولكن لم يكن هذا ليحدثَ من دونكِ».

وبعفويةٍ قررت كاريس أن تأخذَ مادج عبرَ ممراتِ ديرِ الراهباتِ إلى صيدليتها حتى تتمكنا من التحدثِ على إنفراد. لم يكن يسمحُ للناسِ العاديين بدخولِ الديرِ ولكن هناك استثناءات بالطبعِ، وكاريس الآن مسؤولةٌ كبيرةٌ ويمكنها التحايل على هذهِ القوانين متى شاءت.

كانتا وحدهما في الغرفةِ الصغيرةِ الضيقةِ. ملأت كاريس عبوةً فخاريةً بماءِ الوردِ وأخذت من مادج ستَّ بنساتٍ لقاءها، ثمَّ قالت: «أنا أفكرُ بتركِ نذوري كراهبةٍ».

أومأت مادج برأسِها في عدمِ استغرابٍ وقالت: «يتساءلُ الجميعُ عما ستقومين بهِ».

صُعقت كاريس لأنَّ سكانَ المدينةِ يعلمونَ بأفكارها وسألت: «كيفَ علموا بالأمرِ؟»

«لا يتطلبُ الأمرُ بصيرةً حادةً فأنتِ دخلتِ إلى الديرِ لتهربي من حكمِ الإعدامِ بتهمةِ ممارسةِ السحرِ. وبعدَ كلِّ ما قمتِ بهِ هنا في الديرِ يجبُ أنَ تحصلي على عفو. أنتِ وميرثن مغرمان، ولطالما كنتما مناسبين بعضكما لبعض. وها هو الآن قد عادَ. لا بد أنكِ تفكرين بالزواجِ منهُ».

«لا أعلمُ ما الذي ستكونُ عليهِ حياتي كزوجةِ أحدهم».

هزَّت مادج كتفيها وقالت: «كحياتي ربما. أديرُ أنا ومارك تجارةَ القماشِ وأنظّم أيضاً أمورَ المنزلِ فهذا ما يتوقعهُ الأزواجُ منا. ولكنّ الأمر ليسَ بهذهِ الصعوبةِ بخاصَّةٍ إن كنتِ تملكينَ المالَ والخدمَ. وسيكونُ الأطفالُ مسؤوليتكِ

وليست مسؤوليتهُ ولكني تدبرت أموري، وستمكنين أنتِ من تدبرِ أمورِكِ أيضاً».

«أنتِ لا تصورين الأمرَ كعملٍ ممتعٍ».

ابتسمت مادج وقالت: «أفترضُ أنّكِ تعرفينَ الأجزاءَ الجيدةَ أيضاً. الإحساسُ بأنّكِ محبوبةٌ وشخصٌ ما يعبدكِ، وأنَّ أحداً ما في هذا العالمِ سيكونُ إلى جانبكِ على الدوام، وأنّكِ ستخلدين إلى النومِ كلَّ ليلةٍ بجانبِ رجلٍ قوي ولطيف يرغبُ بمضاجعتكِ... هذهِ هي السعادةُ بالنسبةِ لي».

رسمت مادج بكلماتها صورةً نابضةً بالحياةِ، وعلى حينِ غرّةٍ انتابَ كاريس شعورٌ بحنينٍ لا يحتمل. شعرت أنّها بالكادِ تستطيعِ الانتظارِ للتخلصِ من حياةِ الديرِ الباردةِ والقاسيةِ والخاليةِ من الحبِ حيثُ أعظمُ الخطايا فيهِ هي لمسُ كائنٍ بشري آخر، ولو أنَّ ميرثن دخلَ الغرفةَ في تلكَ اللحظةِ لسارعت إلى تمزيقِ ثيابهِ ومضاجعتهِ على الأرضيةِ.

رأت كاريس أنَّ مادج تراقبها وشبح ابتسامةٍ مرتسمٌ على وجهها فشعرت بالخجلِ لأنّها قرأت ما جال في فكرها.

«حسناً»، قالت مادج، «أتفهمُ الأمرَ»، ثمَّ وضعت البنساتِ الفضيةَ الستة على المعقدِ وأخذت القارورة، «من الأفضلِ أن أعودَ إلى المنزلِ وأعتني برَجُلي».

تمالكت كاريس نفسها وقالت: «حاولي أن تبقيهِ مرتاحاً ولتأتي إليّ على الفور إن طرأ أيُّ تغييرٍ».

«شكراً لكِ أيتها الأخت»، قالت مادج ثمَّ أضافت: «لا أعلمُ ما الذي كنتُ سأفعله من دونكِ».

***

في رحلةِ العودةِ إلى كينغزبريدج غرقَ ميرثن مجدداً في لجّةِ التفكيرِ ولم تنجح حتّى الثرثرةُ المبهجةُ واللاهيةُ للولا في إخراجه من هذهِ الحالةِ. لقد تعلّمَ رالف الكثير إلا أنَّ جوهرهُ بقي على حالهِ وما زالَ ذلكَ الرجلَ القاسي الذي كان عليهِ في الماضي. إنّه يهملُ زوجتهُ الطفلةَ وبالكادِ يحتملُ والديهِ وتواقٌ بجنونٍ إلى الانتقامِ. كانَ يستمتعُ بصفتهِ الجديدةِ كسيدٍ ولكن من دون الشعورِ بأيِّ اِلتزامٍ نحو الفلاحين تحتَ إمرتهِ، ويرى كل شيءٍ من حولهِ بما في ذلكَ الناس كأنّهم موجودون فقط من أجلِ إعلاءِ شأنهِ.

رغم هذا كلهِ كانت مشاعرُ ميرثن حيالَ كينغزبريدج مفعمةً بالتفاؤلِ فجميعُ

الإشارات تقولُ إنَّ مارك سيغدو رئيسَ النقابةِ الجديد في يومِ عيدِ القديسين وأنَّ هذا سيكون بدايةَ عصرِ ازدهارِ المدينةِ.

وصلَ ميرثن إلى كينغزبريدج في آخر يومٍ من أيامِ شهرِ تشرين الأول/ أكتوبر، أي في الليلةِ السابقةِ لعيدِ القديسين، ويصادفُ العيدُ هذا العام يومَ الجمعةِ ولذلك لم تتدفق حشودٌ كبيرةٌ من الناسِ كما يحدثُ عادةً عندما تأتي ليلةُ خروجِ الأرواحِ الشريرةِ يومَ السبتِ كما حدثَ عندما كانَ ميرثن في الحادية عشرة من العمر وقابلَ كاريس ذات العشرةِ أعوامٍ آنذاك، ولكنَّ الناس كانوا متوترين من هذهِ الليلةِ وخططوا للخلودِ إلى النومِ عندَ هبوطِ الظلامِ.

في الشارعِ الرئيسي رأى ميرثن ابن مارك الأكبر جون.

«أبي في المستشفى»، قالَ الفتى ثمَّ أضاف: «إنَّه يعاني من الحمى».

«يا لهُ من وقتٍ سيئٍ ليمرضَ فيهِ»، قال ميرثن.

«إنَّه يومٌ مشؤومٌ».

«لا أعني بسببِ مناسبةِ هذا اليومِ بل لأنَّ عليهِ حضور اجتماعَ النقابةِ غداً. لا يمكنُ انتخاب رئيس النقابةِ غيابياً».

«لا أعتقدُ أنَّه سيتمكنُ من حضورِ أيِّ اجتماعٍ غداً».

كانَ هذا أمراً مقلقاً بحقٍ. أخذَ ميرثن حصانيهِ إلى نُزلِ بيل وتركَ لولا في عهدةِ بيتي.

وبينما كان ميرثن يدخلُ الديرَ التقى بغودوين وبرفقتهِ والدتهُ. تكهنَ أنهما كانا يتناولان العشاءَ معاً وأنَّ غودوين يرافقها إلى البوابةِ. كانا في خضمِّ حديثٍ محتدمٍ وتكهنَ ميرثن أنهما كانا قلقين حيالَ احتمالِ خسارةِ حليفهما إلفريك لمنصبِ رئيسِ النقابةِ. توقفا فجأة عن الكلامِ عندما رأيا ميرثن. قالت بيترانيلا بمداهنةٍ: «يؤسفني أنَّ صحةَ مارك ليست جيدةً».

أجبرَ ميرثن نفسَهُ على تمالكِ نفسهِ والتصرفِ بتهذيبٍ وأجابها: «إنَّه يعاني من الحمى فقط».

«سنصلي ليعجّل الرَّبُّ في شفائهِ».

«شكراً لكِ».

دخلَ ميرثن إلى المستشفى ووجدَ مادج مضطربةً جداً.

«إنَّه يبصقُ دماً»، قالت لميرثن، «وهو عطشٌ ولا يرويهِ مشروبٌ»، ثمَّ رفعت كوباً من الجعةِ إلى شفتي مارك.

كان مارك يعاني من طفحٍ أرجواني على وجههِ وذراعيهِ ويتعرقُ وينزفُ من أنفهِ.

وسأل ميرثن: «ألا تشعرُ بالتحسنِ اليومَ يا مارك؟»

بدا أنَّ مارك لم يرهُ ولكنَّهُ تحدثَ بصوتٍ أجشٍ: «أنا عطشان جداً». قدَّمت لهُ مادج الكوبَ مجدداً وقالت: «على الرغم من كلِّ ما يشربهُ فإنَّه لا يرتوي أبداً». تحدثت بنبرةِ هلعٍ لم يسمعها ميرثن في صوتها قبلاً.

تملَّكَ الجزعُ من ميرثن فقد ذهب مارك في رحلاتٍ متكررةٍ إلى ميلكوب وتحدَّثَ إلى البحارةِ القادمين من بوردو المنكوبةِ بالطاعونِ.

إنَّ اجتماعَ نقابةِ الأبرشيةِ غداً هو آخر شيءٍ قد يهتمُ به مارك الآن، وميرثن أيضاً.

كانَ ردُ فعل ميرثن العفوي هو إخبارُ الجميعِ بأنَّهم في خطرٍ مميتٍ إلا أنَّه أغلقَ فمهُ. لن يُصغي أحدٌ إلى رجلٍ هلعٍ، وعلاوةً على هذا ما زالَ غيرَ واثقٍ من صحةِ تكهناتهِ. كانَ هناك فرصةٌ صغيرةٌ في ألا يكونَ مرضُ مارك المرضَ الذي يخشاهُ ميرثن، وعندما يتأكدُ من مخاوفهِ سيأخذُ كاريس جانباً ويتحدثُ معها بهدوءٍ ومنطقيةٍ، ولكنه يجبُ أن يقومَ بهذا عاجلاً.

كانت كاريس تمسحُ وجهَ مارك بسائلٍ زكي الرائحةِ وعلى وجهها ارتسمَ تعبيرٌ جامدٌ يعرفهُ ميرثن جيداً؛ كانت تخفي مشاعرها وبدا واضحاً أنها تدركُ درجةَ خطورةِ مرضِ مارك.

كانَ مارك يمسكُ بشيءٍ ويبدو كقطعةٍ من الورقِ، وتكهنَ ميرثن أنَّها ورقةٌ كُتبَ عليها صلاة أو آية من الإنجيلِ، أو ربما تعويذة سحرية. لا بد أنها فكرةُ مادج لأنَّ كاريس لا تؤمنُ بهذا النوعِ من العلاجاتِ.

دخلَ رئيسُ الديرِ غودوين إلى المستشفى وفيليمون في إثرهِ كالعادةِ. «ابتعدوا عن السريرِ!» قال فيليمون على الفورِ. «كيفَ سيشفى الرجلُ إن لم يكن قادراً على رؤيةِ المذبحِ؟»

تراجعَ ميرثن ومادج وكاريس إلى الوراءِ وانحنى غودوين فوقَ المريضِ. لمسَ جبهةَ مارك وعنقهُ، ثمَّ تحسسَ نبضهُ. «أريدُ رؤيةِ بولهِ»، قال غودوين.

يؤمنُ الرهبان الأطباءُ بأهميةِ فحصِ بولِ المريضِ ولذلكَ توجد في المستشفى زجاجاتٌ خاصةٌ تدعى المباول لهذا الغرضِ. ناولت كاريس إحداها لغودوين. ولم يكن الأمرُ يحتاجُ إلى خبيرٍ فالدمُ كانَ واضحاً في بولِ مارك.

أعادَ غودوين الزجاجةَ. «هذا الرجلُ يعاني من حرارةٍ شديدةٍ في دمهِ»، قالَ غودوين. «يجبُ فصدُ دمهِ ثمَّ إطعامهُ تفاحاً حامضاً وأمعاءَ حيوانٍ مجترٍ».

علمَ ميرثن من خبرتهِ بالوباءِ في فلورنسا أنَّ غودوين يتفوهُ بالهراءِ ولكن لم ينبس بأيِّ تعليقٍ حيالَ ما قالهُ، وفي الوقتِ نفسهِ لم يبقَ لديهِ أدنى شكٍّ حولَ ماهيةِ مرضِ مارك بعد رؤيتهِ للطفحِ الجلدي والنزيفِ والعطشِ. إنَّهُ المرضُ نفسهُ الذي عانى منهُ في فلورنسا والمرض الذي قتلَ سيلفيا وكلَّ عائلتها. إنَّه الموتُ الكبيرُ.

لقد وصلَ الوباءُ إلى كينغزبريدج.

***

مع هبوطِ الظلامِ على ليلةِ عيدِ القديسين بدأت كاريس تلاحظ أن مارك ويبر يتنفسُ بصعوبةٍ أكبر ويضعفُ أكثر فأكثر، وشعرت بعجزٍ حانقٍ تماما كما تشعر عندما تعجز من مساعدةِ أيِّ مريضٍ آخر. دخلَ مارك مرحلةَ الهذيانِ والتعرقِ واللهاثِ رغمَ أنَّ عينيهِ مازالتا مغلقتين ودونَ أن تبدو عليهِ علائم الوعي، وبكلِّ هدوءٍ اقترحَ ميرثن على كاريس أن تتحسسَ إبطي مارك وتبحث عن أورامٍ كبيرةٍ بحجمِ بثراتٍ هناك. لم تسألهُ عن أهميةِ ذلك ولكنها ستفعلُ هذا لاحقاً. أخذت الراهباتُ يصلين ويغنين تراتيل بينما وقفت مادج وأولادها الأربعة حولَ الفراشِ في عجزٍ وجزعٍ.

وأخيراً بدأ مارك يرتجفُ وتدفقَ الدمُ فجأةً من فمهِ ثمَّ سقطَ رأسهُ إلى الوراءِ كجثةٍ هامدةٍ وتوقفَ عن التنفسِ.

ناحت دورا بصوتٍ عالٍ وبدا الأبناءُ الثلاثةُ مضطربين وهم يقاومون دموعاً لا تليقُ بالرجالِ. انخرطت مادج في بكاءٍ مرير وهي تقول لكاريس: «كانَ أفضلَ رجلٍ في العالمِ، لمَ أخذهُ الرَّبُّ؟»

اضطرت كاريس إلى مقاومةِ شعورها بالحزنِ. لم تكن خسارتها تقارنُ بخسارتهم. إنَّها لا تعلمُ السببَ الذي قد يدفعُ الرَّبَّ إلى أخذِ أفضلِ الناسِ وتركِ الأشرارِ على قيدِ الحياةِ ليستمروا بأذيةِ الآخرين. وفي لحظةٍ كهذهِ اللحظةِ بدت فكرةُ وجودِ إلهٍ كريمٍ يرعى الجميع أمراً غيرَ قابلٍ للتصديقِ. يقولُ الكهنةُ أنَّ المرضَ عقابٌ على الخطيئةِ. أحبَّ مارك ومادج بعضهما بعضاً، واهتما بأطفالهما وعملا بجدٍ فلمَ قد يعاقبهما الرَّبُّ؟

ولأنَّ الدين لا يُقدم أجوبةً وافيةً على هذهِ الأسئلةِ كان على كاريس أن تقومَ

باستقصاءٍ عمليٍ عاجلٍ لما حدثَ. لقد أثارَ مرضُ مارك قلقها ويمكنها التكهنُ أن ميرثن يعرفُ شيئاً حيالَ الأمرِ. ابتلعت دموعها وتمالكت نفسها.

قامت أولاً بإرسالِ مادج والأولاد إلى المنزلِ ليأخذوا قسطاً من الراحةِ ثمَّ طلبت من الراهباتِ أن يعددنَ الجثةَ لدفنها وبعدَ هذا قالت لميرثن: «أرغبُ بالتحدثِ معكَ».

«وأنا أيضاً»، قالَ لها.

لاحظت كاريس أنَّ ميرثن بدا مرتعباً وهذا نادرُ الحدوثِ ولذلكَ تعاظمَ شعورها بالخوفِ. «رافقني إلى الكنيسة»، قالت له. «يمكننا أن نتمشى على انفراد هناك».

عصفت رياحٌ شتائيةٌ في حديقةِ الكاتدرائيةِ. كانت ليلةً صافيةً ولذلك منحتهما النجوم القدرة على الرؤية. في الكنيسةِ كانَ الرهبانُ يحضرونَ لمراسمِ صلاةِ الفجرِ في عيدِ القديسين. وقفَ ميرثن وكاريس في الزاويةِ الشماليةِ الغربيةِ لصحنِ الكنيسةِ بعيداً عن الرهبانِ كي لا يسمعهما أحدٌ. بدأت كاريس ترتجفُ ولذلكَ أحكمت رداءها حولها. «هل تعلمُ ما الذي قتلَ ماركَ؟» سألته.

أخذَ ميرثن نفساً مضطرباً ثمَّ قالَ: «إنَّه الوباء. الموتُ الكبيرُ».

أومأت برأسها. كان هذا ما خشيت سماعهُ إلا أنَّها سارعت إلى تحديهِ. «كيفَ لكَ أن تعلمَ هذا؟»

«ذهبَ مارك إلى ميلكومب وتحدثَ إلى البحارةِ القادمين من بوردو حيثُ جثثُ الضحايا مكومةٌ في الشوارعِ».

أومأت برأسها. «لقد عادَ للتو». لم تكن ترغبُ بتصديقِ ميرثن. «ولكن هل أنتَ واثقٌ من أنَّهُ الطاعون؟»

«إنَّها الأعراضُ ذاتها: الحمى والبقع الأرجوانية والنزيف والدمامل تحتَ الإبط والعطش. أتذكرهُ بحقِ المسيح. لقد كنتُ من بين القلائلِ الذين تعافوا منهُ. كلُّ من يصابُ بهِ يموت خلالَ خمسةِ أيامٍ، وأحياناً قبلَ هذا».

شعرت كاريس كأنَّ الساعةَ قامت. كانت قد سمعت بالقصصِ الرهيبةِ في إيطاليا وفي جنوبِ فرنسا، عن عائلاتٍ أبادها الوباءُ عن بكرةِ أبيها، وعن الجثثِ غيرِ المدفونةِ التي تركت لتتعفنَ في القصورِ الفارغةِ، وعن الأطفال اليتامى يجولونَ الشوارعَ باكين، وعن المواشي التي تحتضرُ في القرى الخاليةِ. هل سيحدثُ هذا ليكنغزبريدج؟ «وما الذي فعلهُ الأطباءُ الإيطاليون حيالَ هذا؟»

«صلّوا ورتلوا وقاموا بفصدِ الدماءِ ووصفِ عقاقيرهم المفضلةِ وغير المفيدةِ وتقاضي أموالٍ طائلةٍ عليها. لقد فشلَ كل شيءٍ جربوه».

وقفا قريبين بعضهما من بعض يتحدثان بصوتٍ خفيضٍ. كان بإمكانها رؤيةُ وجههِ في الضوءِ الضعيفِ لشموعِ الرهبانِ ورأتهُ يحدقُ نحوها بحدةٍ غريبةٍ. لاحظت أنّه متأثرٌ بشدةٍ، ولكنه لم يبدُ كأنَّ الحزنَ على مارك ما تملّكهُ. كان ينظرُ إليها بإمعانٍ شديدٍ.

سألتهُ: «كيفَ هم الأطباءُ الإيطاليون بالمقارنةِ مع أطبائنا الإنكليز؟»

«بعدَ الأطباءِ المسلمين من المفترضِ أن يكون الأطباء الإيطاليون الأكثرُ علماً في العالمِ، حتّى إنهم قاموا بتشريحِ الجثثِ لمعرفةِ المزيدِ عن المرضِ ولكنهم لم ينجحوا في علاجِ أيٍّ من المصابين بهذا الوباء».

رفضت كاريس القبولَ بفكرةِ عدمِ وجودِ علاجٍ قائلةً: «لا يمكن أن يكونَ الأمرُ ميئوساً منهُ تماماً».

«لا. لا يمكننا أن نعالجهَ ولكن البعض يعتقدون أنّه بالإمكانِ الهربُ منهُ».

سألت كاريس بعجلٍ: «كيف؟»

«يبدو أن الوباء ينتقلُ من شخصٍ إلى آخرٍ».

أومأت كاريس برأسها ثمَّ قالت: «هذا ما يحدثُ مع كثيرٍ من الأمراضِ».

«عادةً، عندما يصابُ فردٌ من أفرادِ العائلةِ بهِ تصابُ العائلةُ بأكملها. إنَّ القربَ من المريضِ عاملٌ أساسي للإصابةِ بالمرضِ».

«هذا كلامٌ منطقي. يقولُ البعضُ إنّ المرءَ يصابُ بهِ بمجردِ النظرِ إلى المصابين».

«في فلورنسا أشارت علينا الراهباتُ بالتزامِ منازلنا قدرَ الإمكانِ وتجنبِ اللقاءاتِ الاجتماعيةِ والأسواقِ واجتماعاتِ النقاباتِ والمجالسِ».

«والصلاة في الكنيسةِ؟»

«لا، لم يقلنَ هذا رغمَ أنَّ الكثيرَ من الناس لزموا منازلهم ولم يذهبوا إلى الكنيسةِ».

كانَ كلامهُ منسجماً مع ما فكّرت بهِ كاريس لسنواتٍ وشعرت بالأملِ في داخلها يتجددُ. قد تنجحُ طريقتها في دحرِ الوباءِ. «ماذا عن الراهباتِ والأطباءِ أنفسهم ممن اضطروا للاختلاطِ بالمرضى ولمسهم؟»

«رفضَ الكهنةُ سماعَ الاعترافاتِ همساً حتّى لا يضطروا إلى الاقترابِ

كثيراً. ارتدت الراهباتُ أقنعةً كتانيةً فوقَ أفواههنِ وأنوفهن حتّى لا يتنفسنَ الهواءَ نفسهُ، ولجأ البعض إلى غسلِ اليدينِ بالخلِّ بعد لمسِ المريضِ. قالَ الكهنةُ الأطباءُ إنَّ هذا كلَّهُ غيرُ مفيدٍ ولكنَّ معظمهم غادرَ المدينةَ خلالَ الوباء».

«وبمَ كانت هذهِ الاحتياطاتُ مفيدةً؟»

«من الصعبِ تحديد فائدتها لأنَّها لم تطبق إلَّا عندما استشرى الوباء، وهي أيضاً لم تكن ممنهجةً فالجميعُ كان يجرّبُ أكثر من وسيلةٍ».

«أياً يكن علينا أن نقومَ بجهدٍ».

أومأ برأسهِ وبعدَ صمتٍ وجيزٍ قالَ: «ولكن هناك إجراءٌ احترازي ثبتت فائدتهُ».

«ما هو؟»

«الهرب».

أدركت كاريس أنَّ هذا ما كانَ ميرثن ينتظرُ قولهُ.

تابعَ كلامهُ قائلاً: «الهربُ باكراً وإلى أبعدِ مكانٍ ولفترةٍ طويلةٍ. من قامَ بهذا نجا من المرضِ».

«لا يمكننا الهربُ».

«لِمَ لا؟»

«لا تكن سخيفاً. هناك ما يقاربُ الستةَ أو السبعةَ آلافِ شخصٍ في كينغزبريدجَ، لا يمكنهم أن يغادروا جميعاً. إلى أينَ سيذهبون؟»

«أنا لا أتحدثُ عنهم بل عنكِ. ربما لم تلتقطي عدوى الوباءِ من مارك بعد، رغم أنَّ مادج والأطفال قد التقطوها من كلِّ بدٍ، فأنتِ لم تقضِ وقتاً طويلاً بقربهِ. إن كنتِ ما تزالين سليمةً يمكننا الهربُ. يمكننا المغادرةُ اليومَ، أنتِ وأنا ولولا».

ذعرت كاريس من الطريقةِ التي اعتقدَ بها ميرثن أنَّ المرضَ قد انتشرَ الآن. هل هذا هو يومُ القيامةِ!؟ «و... إلى أين سنذهب؟»

«إلى ويلز أو إيرلندا. يجبُ أن نذهبَ إلى قريةٍ نائيةٍ لا يزورها الغرباءُ إلَّا من عام إلى آخر».

«لقد أصبتَ بالمرضِ. أنتَ من قلتَ أنَّ الناسَ لا يصابونَ بالعدوى مرتين».

«أبداً وهناك آخرون لا يصابونَ بهِ أبداً. لا بد أن لولا واحدةٌ منهم. فإن لم تلتقطهُ من والدتها فمن غيرِ المرجحِ أن تلتقطهُ من أيِّ شخصٍ آخرِ».

«لماذا إذاً تريدنا أن نذهبَ إلى ويلز؟»

رمقته بنظرةٍ حادةٍ وأدركت أنَّ الخوفَ الذي أحسَّ بهِ كانَ خوفاً عليها. كانَ مرتعباً من فكرةِ أن تموتَ، وانحدرت الدموعُ من عينيها. تذكرت ما قالتهُ مادج: «أن تعلمي أنَّ هناكَ شخصاً في العالم سيكونُ إلى جانبكِ على الدوام». فكرت كاريس بالمسكينةِ مادج المنكوبة بخسارةِ الشخصِ الوحيد الذي لطالما كانَ إلى جانبها. كيفَ أمكنها هي، كاريس، أن ترفضَ ميرثن؟

ولكنها رفضتهُ. «لا يمكنني مغادرةُ كينغزبريدج»، قالت له. «لا يمكنني مغادرتها في مثلِ هذا الوقت، إنهم يعتمدون علي في رعايةِ المرضى. عندما يضربُ الوباءُ سأكونُ الوحيدةَ التي سيلتفتون إليها من أجلِ المساعدةِ. إن هربتُ... حسناً، لا أعلمُ كيفَ أشرحُ الأمرَ لكَ».

«أعتقدُ أنني أفهمكِ»، قالَ ميرثن. «ستكونين كالجندي الذي يهربُ عند إطلاقِ أولِ سهمٍ. ستشعرين بأنَّكِ كنتِ جبانةً».

«أجل، ومخادعةً. بعدَ كلِّ السنواتِ التي قضيتها كراهبةٍ أقولُ فيها إنني سأخدمُ الآخرين».

«أعلمُ أنَّ هذا هو شعوركِ الحقيقي»، قال ميرثن. «ولكني أردتُ المحاولةَ فقط». كادَ الحزنُ في صوتِه عندما تابعَ كلامه أن يفطرَ قلبها. «وأفترضُ أنَّ هذا يعني أنَّكِ لن تتخلي عن نذوركِ في المستقبلِ القريبِ».

«لا، إنَّ المستشفى هو المكانُ الذي يمكنني فيهِ تقديمُ المساعدةِ. يجبُ علي البقاءُ في الديرِ والقيام بواجبي. يجبُ أن أكونَ راهبةً».

«حسناً إذاً».

«لا تستأ كثيراً».

وبحزنٍ مريرٍ قالَ: «ولماذا قد أستاءُ؟»

«أنتَ قلتَ إنَّ الوباءَ قتلَ نصفَ سكانِ فلورنسا؟»

«أجل، أمرٌ من هذا القبيل».

«إذاً، النصفُ الآخرُ من الناسِ لم يلتقط العدوى».

«ومن بينهم لولا. لا أحد يعلمُ السببَ. ربما امتلكوا قوةً خاصَّةً أو ربما كان الوباءُ يضربُ بشكلٍ عشوائي كالسهامِ التي تُطلقُ على فيالقِ العدو فتقتلُ البعضَ ولا تصيبُ البعضَ الآخر».

«على أيِّ حالٍ هناكَ احتمالٌ كبيرٌ في أن أنجو من المرضِ».

«احتمالٌ واحد من اثنين».

«تماماً كرمي قطعةٍ نقديةٍ في الهواءِ».
«طرّةٌ أو نقشٌ»، قال ميرثن. «حياةٌ أو موتٌ».

-58-

حضرَ المئاتُ من الناسِ إلى جنازةِ مارك ويبر، ورغمَ أنّه كان من كبارِ مواطني المدينةِ فإن هذا لم يكن السببَ الوحيد لتدفقِ كلِّ هذا العددِ من الناس. أتى النساجون الفقراءُ من القرى المجاورةِ، ومنهم من مشى لساعاتٍ حتَّى يصلَ إلى كينغزبريدج، وفكرَ ميرثن في نفسهِ أنَّ مارك كانَ محبوباً بشكلٍ غير اعتيادي فذلكَ الخليط بينَ جسدهِ العملاق ودماثةِ طبعهِ قد سحرَ الناسَ بهِ.

كانَ يوماً رطباً وتصببت رؤوسُ الرجالِ الأغنياءِ والفقراءِ حول القبرِ ماءً، واختلطت قطراتُ ماءِ المطرِ الباردةِ بالدموعِ الحارةِ على وجوهِ الحاضرين. وقفت مادج وقد أحاطت بذراعيها كتفي ابنيها الصغيرين دينيس ونواه، وأحاطَ بها على كلا الجانبين ابنها الأكبر جون وابنتها دورا اللذان كانا أطولَ من والدتهما بكثيرٍ ويبدوان كوالدين لمادج ودينيس ونواه.

تساءلَ ميرثن بحزنٍ عمن سيكونُ التالي. هل ستكونُ مادج أم أحد أولادها؟

وبجهدٍ كبيرٍ أنزلَ ستةُ رجالٍ أقوياءٍ التابوتَ الكبير في الحفرةِ. بكت مادج في عجزٍ بينما غنى الرهبانُ الترنيمةَ الأخيرةَ وأهال حفارو القبورِ الترابَ المشبعَ بالماءِ ثمَّ بدأ الحشدُ بمغادرةِ المقبرةِ.

اقتربَ الأخُ توماس من ميرثن وكان يضعُ قلنسوته على رأسهِ ليقي نفسهُ من المطرِ.

«لا يستطيع الديرُ تمويل إعادةِ بناءِ البرجِ»، قال توماس ثمَّ تابع: «وقد كلَّفَ غودوين إلفريك بهدمِ البرجِ القديمِ ودعمِ الممرِ بسقفٍ».

انتزع ميرثن نفسهُ من بينِ أفكارهِ الكوارثيةِ وسأل: «هل سيدفعُ غودوين لإلفريك مقابلَ هذا؟»

«ستتكفلُ الراهباتُ بالمالِ»، أجاب توماس.

«اعتقدتُ أنهنَ يكرهنَ غودوين».

«تشغلُ الأختُ إليزابيث منصبَ أمينة الخزنة ولذلكَ يحرصُ غودوين على محاباةِ عائلتها التي تستأجرُ من أملاكِ الديرِ. صحيحٌ أنَّ معظمَ الراهبات يكرهنهُ ولكنهن بحاجةٍ إلى راعٍ للكنيسةِ».

لم يتخلَ ميرثن عن أملهِ ببناءِ برجٍ أعلى من البرجِ القديمِ وسأل: «إن تمكنت من الحصولِ على المالِ هل سيوافقُ الديرِ على بناءِ برجٍ جديدٍ؟»

هزَّ توماس كتفيهِ وأجاب: «من الصعبِ قولُ هذا».

في ظهيرةِ ذلكَ اليوم أُعيدَ انتخابُ إلفريك رئيساً لنقابةِ الأبرشيةِ، وبعدَ الاجتماعِ ذهبَ ميرثن للبحثِ عن بيل واتكين ثاني أكبر البنائين في المدينةِ بعدَ إلفريك.

«حالما تنتهي أعمالُ إعادةِ بناءِ الأساساتِ يمكننا أن نبني برجاً أعلى»، قال ميرثن لبيل.

«لا يوجدُ سببٌ يمنعنا من فعلِ هذا»، قالَ بيل ثمَّ سأل: «ولكن ما الغاية من بناءِ برجٍ أعلى؟»

«حتى يكون مرئياً من ميدفورد كروسينغ. كثيرٌ من الحجاجِ والتجارِ وغيرهم من المسافرين لا يرون طريقَ كينغزبريدج فيتوجهونَ إلى شايرنغ ولهذا السببِ تفقدُ المدينةُ الكثيرَ من الزبائنِ».

«سيقولُ غودوين أنَّ الدير لا يمكنهُ تحمّلُ كلفةَ بنائهِ»، قال بيل.

«فلنفكر في الأمرِ»، قال ميرثن ثمَّ أضاف: «على فرض أننا قمنا بتمويلِ البرجِ بالطريقةِ نفسها التي قمنا بتمويلِ بناءِ الجسرِ يمكنُ لتجارِ المدينةِ أن يقدموا المالَ ويستردوه من تعاريفِ استخدامِ الجسرِ».

أخذَ بيل يحكُّ الشعرَ الرمادي حولَ صلعتِهِ الشبيهة بصلعة راهبٍ فقد كانَ اقتراح ميرثن غريباً. «ولكن لا علاقةَ للبرجِ بالجسرِ»، قال بيل.

«هل هذا مهمٌ؟»

«لا أعتقدُ».

«إنَّ تعاريفَ الجسرِ ضمانةٌ للتُجار بأنهم سيستعيدون القرضِ».

وهنا بدأ بيل يفكرُ بما يصبُّ في مصلحتِهِ ولذلك سأل: «هل سأكلفُ بأيِّ عملٍ فيهِ؟»

«سيكونُ مشروعاً كبيراً وجميعُ البنائين في البلدةِ سيشاركونَ فيهِ»، أجاب ميرثن.

«هذا مفيد إذاً»، قال بيل.

«حسناً، أصغِ إلي. إن قمتُ بتصميمِ برجٍ كبيرٍ هل ستدعمني في نقابةِ الأبرشيةِ خلالَ الاجتماعِ القادمِ؟» سأل ميرثن.

بدا بيل مرتاباً وقال: «من المحتملِ ألا يوافقَ أعضاءُ النقابةِ على مثلِ هذا البذخِ».

«لا أعتقدُ أنَّه سيكونُ برجاً مُبهرجاً بل عالياً جداً فقط. إن قمنا ببناءِ سقفٍ مقببٍ فوقَ الممرِ فسأتمكنُ من بناءِ البرجِ من دونِ دعائم مركزية».

«قبةٌ؟ هذهِ فكرةٌ جديدةٌ».

«رأيتُ قِباباً في إيطاليا».

«أرى أن هذا سيوفرُ علينا المالَ».

«ويمكننا أن نبني درجاً خشبياً حلزونياً. سيكونُ جميلَ المنظرِ وأقل تكلفة».

«لقد فكَّرت بكلِّ هذا، صحيح؟» سأل بيل.

«ليسَ تماماً ولكنه يشغلُ تفكيري منذُ مغادرتي لفلورنسا».

«حسناً، يبدو مشروعاً جيداً بالنسبةِ لي وجيداً للتجارةِ والمدينةِ».

«وجيداً لخلودنا».

«سأقومُ بكلِّ ما بوسعي لنحصلَ على الموافقة على هذا المشروعِ».

«شكراً لكَ».

غرقَ ميرثن في التفكيرِ بتصميمِ البرجِ وهو يقومُ بأعمالِهِ اليوميةِ العاديةِ كإصلاحِ الجسرِ وبناءِ منازل جديدة على جزيرةِ ليبر. ساعدهُ هذا على صرفِ تفكيرِهِ عن هوسِهِ بتلكَ الرؤيةِ الكابوسية لكاريس مصابةً بالوباءِ. فكَّر كثيراً بالبرجِ الجنوبي في كنيسة شارتر فقد كانَ البرجُ تحفةً فنيةً رغمَ أنَّه قديمُ الطرازِ بعضَ الشيءِ وعمرهُ مئتا عامٍ تقريباً.

وتذكرَ ميرثن أنَّ ما أحبَّهُ حقاً في ذلكَ البرجِ هو انتقاله من الشكلِ المربعِ في الأسفلِ إلى القبةِ المستدقةِ المثمنةِ الزوايا في الأعلى، ففي أعلى البرجِ وعندَ كلِّ زاويةٍ من الزوايا الأربع قبةٌ مستدقةٌ تتجهُ قطرياً نحو الخارجِ، وعلى المستوى نفسِهِ وفي منتصفِ كلِّ جهةٍ من المربعِ نافذةٌ ناتئةٌ لها شكلُ القبةِ المستدقةِ نفسها. كانت هذهِ الكتلُ الثماني متماثلةً مع الجوانبِ الثمانيةِ المائلةِ للبرجِ الذي يرتفعُ خلفها كي لا يلحظ الناظر فرق الانتقالِ من الشكل المربعِ إلى المثمنِ.

على أيِّ حالٍ يعتبرُ برجُ كنيسةِ شارتر ضخماً جداً وفقاً لمعاييرِ القرنِ الرابعِ عشر ولذلك سيبني ميرثن أعمدةً أرفعَ ونوافذ أوسعَ لتخفيفِ الجهدِ على الأعمدةِ السفليةِ الذي بدورهِ سيخففُ الضغطَ على الكتلةِ بسماحهِ للرياحِ بالمرورِ بكلِّ سهولةٍ.

رسمَ ميرثن تصميم البرج على أرضيةِ الرسم في ورشتهِ على جزيرةِ ليبر.
كان مستمتعاً بتخطيطِ التفاصيلِ كأن يُضاعفَ حجم نوافذِ البرجِ الجديد بمرتين أو ثلاث مرات مقارنةً بحجم النوافذِ الضيقةِ في الكاتدرائيةِ وتحديثِ شكلِ الأعمدةِ والتيجانِ.
كان حائراً حيالَ مسألةِ علو البرجِ فهو لا يملكُ طريقةً لحسابِ الطولِ اللازمِ حتَّى يبدو البرجُ عالياً بما يكفي ليراه الناس من ميدفورد كروسينغ. لم يكن هناك حلٌّ سوى التجريب والتعلم من الخطأ. وعندما ينتهي من بناء البرجِ الحجري سيكونُ عليهِ رفعُ قبةٍ مستدقةٍ مؤقتةٍ ثمَّ الذهاب إلى ميدفورد كروسينغ في يومٍ صافٍ ليتأكدَ من أنَّ القبةَ مرئيةٌ. كانت الكاتدرائيةُ مبنيةً على أرضٍ مرتفعةٍ والطريقُ عندَ ميدفورد كروسينغ يمرُّ فوقَ مرتفعٍ قبلَ أن يأخذَ بالانحدارِ باتجاهِ النهرِ. وبالغريزةِ استنتجَ أنَّه لو أرادَ للبرجِ أن يكونَ أعلى من برجِ شارتر بأربعمئةِ قدمٍ تقريباً فإنَّ هذا سيكونُ كافياً.
يصلُ ارتفاعُ البرجِ في سالزبيري إلى أربعمئة وأربعة أقدامٍ ولذلكَ خططَ ميرثن لأن يكونَ ارتفاعُ برجِ كينغزبريدج أربعمئةٍ وخمسةَ أقدامٍ.
عندما انحنى فوقَ أرضيةِ الرسمِ ليرسمَ القبابَ المستدقةَ على السطحِ ظهرَ بيل واتكين. «ما رأيكَ بهذا؟» قالَ ميرثن. «هل نحتاجُ إلى صليبٍ يشيرُ إلى السماءِ أعلى البرجِ؟ أو ربما يمكننا وضعُ ملاكٍ، ملاكٍ حارسٍ علينا؟»
«ولا واحدٌ منهما»، أجابَ بيل. «لن يُبنى البرج».
وقفَ ميرثن بيدهِ اليسرى مسطرةٌ وبيمينهِ أداةُ رسمٍ معدنيةٍ برأسٍ مدببٍ. «لماذا تقولُ هذا؟»
«زارني الأخُ فيليمون، واعتقدتُ أنَّه عليَّ المجيء على وجهِ السرعةِ لأخبركَ بما حصلَ».
«ما الذي قالهُ ذلكَ الثعبان؟»
«تظاهر باللطفِ وبأنَّه يريدُ تقديم نصائح تصبُّ في مصلحتي. قالَ لي إنَّه من الحكمةِ ألا أدعمَ أيَّ خطةِ بناءِ برجٍ تصممهُ أنتَ».
«وما السبب؟»
«لأنَّ هذا سيُزعجُ رئيسَ الديرِ غودوين الذي لن يوافقَ على مخططاتكَ بأيِّ حالٍ».
لم يتفاجأ ميرثن قط بما سمعهُ. ولو أنَّ مارك ويبر أصبحَ رئيسَ النقابةِ لكان

ميزانُ القوةِ في المدينةِ تغيرَ ولربحَ ميرثن التكليفَ ببناءِ البرجِ الجديدِ، ولكن بعدَ موت مارك باتت جميعُ الاحتمالاتِ ضدَّهُ. كانَ عليهِ أن يتمسكَ بالأملِ ولكن خيبةَ الأملِ الكبيرةَ آلمتهُ بشدةٍ. «أفترضُ أنّه سيُكلفُ إلفريك؟»

«هذا ما ألمحَ إليهِ».

«ألن يتعلمَ أبداً؟»

«عندما يتملكُ الكبرياءُ رجلاً فلا يعود للحسِّ السليمِ مكانٌ».

«هل ستدفعُ نقابةُ الأبرشيةِ لإلفريك ليصممَ برجاً صغيراً وضخماً؟»

«على الأغلب سيفعلون هذا. قد لا يكونونَ متحمسين للاستعانةِ بهِ ولكنهم سيجدونَ المالَ لدعمهِ فهم ورغمَ كلِّ شيءٍ فخورون بكاتدرائيتهم».

«كادَ انعدامُ كفاءةِ إلفريك أن يكلفهم الجسرَ!» قال ميرثن بسخطٍ.

«وهم يعلمونَ هذا».

لقد سمحَ لمشاعرهِ المجروحةِ بأن تظهر أمام بيل. «لو لم أكتشف مشكلةَ البرجِ لكانَ إنهار ولربما قادَ إلى انهيارِ الكاتدرائيةِ بأكملها».

«إنهم يعلمونَ هذا أيضاً، ولكنهم لن يدخلوا في صراعٍ مع رئيسِ الديرِ من أجلِ معاملتهِ السيئةِ لكَ».

«بالطبعِ لن يفعلوا»، قال ميرثن كأنّه يُصادقُ على أمرٍ منطقي جداً ولكنه أخفى مرارته. لقد قدّمَ لمدينةِ كينغزبريدج أكثرَ مما قدمهُ غودوين، وشعرَ بالحزنِ لأنَّ سكانَ المدينةِ لن يقاتلوا من أجلهِ إلا أنّه يعلمُ أنَّ معظمَ الناسِ، وفي معظمِ الأوقاتِ، يتصرفونَ وفقاً لمصلحتهم المباشرة.

«إنَّ الناس جاحدون»، قالَ بيل ثمَّ أضاف: «أنا آسف».

«أجل»، قال ميرثن، «هذا صحيح» ثمَّ نظرَ إلى بيل وأشاحَ بنظرهِ بعيداً. رمى بمعداتِ الرسمِ وخرجَ.

***

خلالَ تسابيح ما قبل الفجرِ تفاجأت كاريس عندما رأت امرأةً في صحنِ الكنيسةِ عندَ الممرِ الشمالي. كانت راكعةً على ركبتيها أمامَ جدارٍ ترسمُ عليه «بعثَ المسيحِ» وهناك شمعةٌ إلى جانبها. وفي ضوءِ الشمعةِ المترافصِ تعرفت كاريس على الجسدِ الممتلئِ والذقنِ الناتئ لمادج ويبر.

لم تبارح مادج مكانها طوالَ المراسمِ ولم تلقِ بالاً إلى المزامير التي تُغنى.

بدت منغمسةً في صلاتها. ربما كانت تطلبُ من الرَّبِّ أن يغفرَ ذنوبَ مارك وأن يجعلَ روحهُ ترقد في سلامٍ، رغمَ أنَّ مارك، وعلى حدِّ علمِ كاريس، لم يرتكب الكثيرَ من الخطايا. ربما كانت تناجي مارك في عالمِ الأرواحِ وتطلبُ منهُ أن يرسلَ لها الحظَ الجيدَ فهي ستتحملُ أعباءَ تجارةِ القماشِ مع أكبر أبنائها، فقد كان هذا العرفُ السائد عندما يموتُ تاجرٌ ويتركُ زوجةً وراءَهُ مع تجارةٍ مزدهرةٍ. لا بد أن مادج تشعرُ بأنَّها في حاجةٍ إلى مباركةِ زوجها المتوفَّى على الجهودِ التي ستبذلها لمتابعةِ عملِهِ.

ولكن هذا التفسير لم يُرضِ كاريس تماماً. كانت وضعيةُ مادج تشي بالتوترِ، وشيءٌ ما في هدوئها أوحى بعاطفةٍ كبيرةٍ كأنّها تستجدي السماءَ لتمن عليها بهديةٍ عزيزةٍ جداً.

عندما انتهت مراسمُ الكنيسةِ وبدأ الرهبانُ والراهباتُ بالانصرافِ خرجت كاريس عن صفِّ الراهباتِ وقطعت صحنَ الكنيسةِ الواسعَ والكئيب باتجاهِ وهجِ الشمعةِ المشتعلةِ.

وقفت مادج عندما سمعت صوتَ وقعِ أقدامٍ، وحالما تعرَّفت على كاريس تحدثت بلهجةٍ اتهاميةٍ. «توفي مارك بسببِ الوباءِ، أليسَ هذا صحيح؟»

إذاً، هذا كل ما في الأمرِ. «أعتقدُ هذا»، قالت كاريس.

«لم تخبريني».

«لم أكن واثقةً ولم أرغب بإخافتكِ أو إخافة المدينة بأكملها بسببِ شكٍّ قد لا يكون صحيحاً».

«سمعتُ أنَّ الوباءَ آتٍ من بريستول».

إذاً، سكانُ المدينة يتكلمونَ عن الأمرِ. «ولندن»، قالت كاريس. كانت قد سمعت هذا من أحدِ الحجاجِ.

«ما الذي سيحدثُ لنا جميعاً؟»

شعرت كاريس بحزنٍ موجعٍ يطعنُها في قلبها. «لا أعلم»، كذبت على مادج.

«سمعتُ أنّه ينتقلُ من شخصٍ إلى آخرٍ».

«تنتقلُ العديدُ من الأمراضِ بهذهِ الطريقةِ».

كانت مادج قد أخرجت كلَّ العدائيةِ التي شعرت بها الآن وعلت وجهها نظرةُ تضرع فطرت قلبَ كاريس وسألت مادج في صوتٍ أقرب للهمسِ: «هل سيموتُ أطفالي؟»

«أصيبت زوجةُ ميرثن بالوباءِ»، قالت كاريس. «وتوفيت مع بقيةِ أفرادِ عائلتها ولكنَّ ميرثن تعافى ولولا لم تُصب بهِ».

«إذاً سيكونُ أطفالي على ما يرام؟»

لم يكن هذا ما عنتهُ كاريس إلَّا أنَّها قالت: «قد يكونون، أو قد يلتقط بعضهم العدوى وينجو البعضُ الآخر».

لم يكن هذا الجوابُ مُرضياً لمادج التي كانت أشبه بمريضٍ يرغبُ بتطمينات أكيدةٍ وليسَ مجرد احتمالاتٍ. «ما الذي يمكنني فعلهُ لأحميهم؟»

نظرت كاريس إلى رسمةِ المسيح. «أنتِ تقومين بكلِّ ما يمكنكِ القيامُ بهِ»، قالت كاريس التي كانت قد بدأت تفقدُ رباطةَ جأشها. كانت تخنقُ إجهاشةً كادت تفلتُ منها فأشاحت بنظرها بعيداً لإخفاءِ مشاعرها وخرجت من الكاتدرائيةِ على عجلٍ.

جلست في الممرِّ المسقوفِ لديرِ الراهباتِ لبضعِ دقائق كي تتمالك نفسها ثمَّ توجهت إلى المستشفى كعادتها في مثلِ هذهِ الساعةِ.

لم تكن مير هناك، لا بد أنها استدعيت للاهتمامِ بأحدِ المرضى في المدينةِ. تسلمت كاريس زمامَ الأمورِ، وأشرفت على تقديمِ الفطورِ للزوارِ، وتفقدِ أحوالِ المرضى. خففَ العملُ من ألمها على مادج. قرأت شيئاً من المزامير للراهبةِ العجوزِ جولي. أنهت جميع المهام إلَّا أن مير ما زالت في الخارجِ ولذلكَ خرجت للبحثِ عنها.

وجدتها في غرفةِ النومِ الجماعيةِ في سريرها ووجهها على الوسادةِ. شعرت كاريس بقلبها يخفقُ بسرعةٍ. «مير! هل أنتِ على ما يرام؟» قالت كاريس.

استدارت مير وبدت شاحبةً ومتعرقةً. أخذت مير تسعلُ ولم تتفوه بكلمةٍ.

ركعت كاريس بجوارِها ووضعت يدها على جبهتها. «أنتِ تعانين من الحمى»، قالت كاريس وهي تكبحُ شعوراً بالرعبِ يصعدُ من بطنها كأنَّها على وشكِ التقيؤ. «متى بدأت الحمى؟»

«بدأت أسعلُ البارحةَ»، قالت مير. «ولكني نمتُ بشكلٍ جيدٍ ونهضت باكراً هذا الصباحِ، ثمَّ وعندما كنت في طريقي لتناولِ الإفطارِ شعرتُ فجأة بأنني على وشكِ التقيؤِ. توجهت إلى المرحاض ثمَّ أتيتُ إلى هنا واستلقيت. أعتقدُ أنني نمتُ... ما الوقتُ؟»

«سيُقرع الجرسُ إيذاناً بموعدِ صلاةِ الساعةِ التاسعةِ صباحاً ولكنكِ معفاةٌ

من الذهابِ للصلاةِ». وقالت كاريس لنفسها أن مرض مير عرضي أغلب الظن ثمَّ تحسست عنقَ مير وسحبت ياقةَ ردائها للأسفل.

ابتسمت مير بضعفٍ وقالت: «عل تحاولين النظرَ إلى صدري؟»

«أجل».

«ولكنّ جميع الراهباتِ متشابهات».

لم ترَ كاريس أيَّ طفحٍ. ربما كانت مير مصابةً بزكامٍ. «هل تشعرين بأيّ آلامٍ؟» سألتها كاريس.

«أشعرُ بتورمٍ مؤلمٍ بعضَ الشيءِ تحتَ إبطي».

لم تتفوه كاريس بكلمةٍ فقد كانَت الانتفاخات المؤلمةُ تحتَ الإبطِ أو في المنطقةِ الحساسةِ عرضاً لمرضٍ آخر إضافةً إلى الوباء. «لنأخذك إلى المستشفى»، قالت كاريس.

وعندما رفعت مير رأسها رأت كاريس بقع دمٍ على الوسادةِ.

شعرت بصدمةٍ أشبهَ بالصاعقةِ. كانَ مارك ويبّر يسعلُ دماً ومير أول شخصٍ رعاه عندَ بدايةِ مرضهِ فقد ذهبت إلى منزلِ عائلةِ ويبر قبلَ كاريس بيومٍ واحدٍ.

أخفت كاريس خوفها وساعدت مير على النهوضِ من السرير. شعرت بدموعها تكادُ تنهمرُ إلا أنّها تمالكت نفسها. وضعت مير ذراعها حولَ خصرِ كاريس وأسندت رأسها على كتفها كأنّها تحتاجُ إلى المساعدةِ في المشي وبدورها كاريس وضعت ذراعها حولَ كتفي مير. سارتا معاً ونزلتا الدرجَ ثمَّ عبرتا الممر المسقوف باتجاهِ المستشفى.

أخذت كاريس مير ووضعتها على فراشٍ قربَ المذبح. أحضرت لها كوباً من الماءِ الباردِ من النافورةِ. شربت مير بنهمٍ ثمَّ مسحت كاريس وجهها وعنقها بماءِ الوردِ. بعدَ برهةٍ بدا كأنَّ مير قد خلدت للنومِ.

قُرِعَ الجرسُ إيذاناً بموعدِ صلاةِ التاسعةِ صباحاً. عادةً ما تعفى كاريس من الذهابِ إلى هذهِ الصلاةِ إلّا أنّها كانت اليوم بحاجةٍ إلى بضعِ دقائق من الهدوءِ. انضمت إلى مجموعةٍ من الراهباتِ المتوجهاتِ إلى الكنيسةِ. بدت لها الحجارةُ الرماديةُ العتيقةُ للكنيسةِ باردةً وقاسيةً اليومَ. غنّت بطريقةٍ مكانيكيةٍ وغضبٌ شديدٌ يعصفُ بقلبها.

لقد أصيبت مير بالوباءِ. لم يكن هناك أيُّ طفحٍ ولكنها تعاني من الحمى وتشعرُ بعطشٍ شديدٍ وتسعلُ دماً، وهي ستموتُ على الأغلب.

انتابَ كاريس شعورٌ رهيبٌ بالذنب. أحبتها مير بإخلاصٍ شديدٍ ولم تكن

كاريس قادرةً قط على مبادلتها هذا الحبّ؛ ليسَ بالطريقةِ التي كانت تتوقُ إليها مير. وها هي مير الآن تحتضرُ. تمنت كاريس لو أنّها كانت مختلفةً، لو أنها قادرةٌ على إسعادِ مير، لو أنّها تستطيع إنقاذَ حياتها. أخذت تبكي وهي تغني مزموراً على أملِ أن يعتقد من يراها تبكي أنّها تفعلُ هذا من النشوة الدينيةِ.

عندَ نهايةِ المراسمِ كانَ هناك راهبةٌ مبتدئةٌ بانتظارها على أحرٍّ من الجمرِ خارجَ بابِ الجناحِ الجنوبي للكنيسةِ. «هناك من يطلبكِ بشكلٍ عاجلٍ في المستشفى»، قالت الراهبةِ.

وجدت كاريس مادج ويبر هناك شاحبةً من الخوفِ.

لم تكن كاريس في حاجةٍ إلى سؤالِ مادج عمّا تريدهُ ولذلك التقطت حقيبتها الطبيَّة واندفعتا بسرعةٍ خارجَ المستشفى. عبرتا حديقةَ الكاتدرائيةِ وسطَ رياحِ تشرين الثاني/ نوفمبر القارسةِ في طريقهما إلى الشارعِ الرئيسي حيثُ يقعُ منزلِ عائلةِ ويبر. في الطابقِ العلوي وجدت كاريس أطفالَ مادج في غرفةِ الجلوسِ ينتظرونَ وقد جلسَ الولدان الأكبران إلى الطاولةِ وعلائمُ الرعبِ متجليةٌ بوضوحٍ على وجهيهما، أمّا الصبيان الصغيران فكانا مستلقيين على الأرضيةِ.

فحصتهم كاريس جميعاً على الفورِ واكتشفت أنَّ أربعتهم مصابون بالحمى. كانت الفتاةُ تنزفُ من أنفها أمّا الفتيان الثلاثةُ فكانوا يسعلون.

كانوا جميعاً يعانون من بُقعٍ أرجوانية على أكتافهم وأعناقهم.

قالت مادج: «إنّه الوباء، أليسَ كذلك؟ إنّه المرضُ الذي ماتَ منهُ مارك. لقد أصيبوا بالوباءِ».

أومأت كاريس برأسها وقالت: «يؤسفني هذا».

«أتمنى الموت معهم أيضاً»، قالت مادج ثمَّ أضافت: «حتّى نصعدَ معاً إلى السماءِ».

-59-

في المستشفى بدأت كاريس بتدابيرِ الوقايةِ التي أخبرها عنها ميرثن فجهزت شرائط من الكتانِ لتغطي الراهباتِ أفواههنَ وأنوفهن وهنَّ يعتنين بمرضى الوباءِ، وأجبرت جميع الراهباتِ على غسلِ أيديهن بالخلِّ والماءِ في كلِّ مرّةٍ يلمسن فيها مريضاً إلى أن تشققت أيديهن من الخلِّ.

أحضرت مادج أبناءها الأربعة ثمَّ وقعت طريحةَ الفراشِ أيضاً، وجولي العجوز التي كانت على الفراشِ المجاورِ للفراشِ الذي كانَ مارك ويبر يحتضرُ عليهِ وقعت ضحيةً للعدوى. لم يكن بوسعِ كاريس القيام بالكثير من أجلهم سوى غسلِ وجوههم لتبردَ وتقديمِ الماءِ البارد من النافورةِ في الممرِ المسقوفِ ليشربوه وتنظيفِ قيئهم الدامي وانتظارهم حتَّى يموتوا.

كانت مشغولةً جداً على التفكيرِ بموتها، ولاحظت ما يشبهُ التقديرَ الوجلَ في أعينِ سكانِ المدينةِ عندما كانوا ينظرون إليها وهي تخففُ آلامَ الضحايا المصابين بالعدوى ولكنها لم تشعر بأنَّها تتصرف بإيثارٍ كأنَّها شهيدةٌ فقد كانت ترى نفسها أقرب إلى شخصٍ يكرهُ التفكير ويفضلُ التصرفَ. ولكن السؤال الذي شغلها وشغلَ الجميع هو من سيكون التالي؟ ولكنها أصرَّت على صرف ذهنها عن التفكير في هذا.

أتى رئيسُ الديرِ لتفقدِ أحوالِ المرضى وقد رفضَ إرتداءَ قناعِ الوجهِ قائلاً عنه إنَّه مجرَّد هراءٍ نسائي. كانَ تشخيصهُ للمرضِ كتشخيصهِ لمرضِ مارك، ارتفاعُ حرارةِ الدمِ، ووصفَ فصدَ الدمِ وحميةَ التفاحِ الحامضِ وأمعاءَ كبشٍ.

لم يكن الطعامُ الذي يأكلهُ المرضى مهماً لأنهم يتقيؤونهُ في نهايةِ المطافِ إلا أن كاريس كانت واثقةً من أنَّ فصدَ الدمِ سيزيدُ من سوءِ الحالةِ فالمرضى ينزفونَ بشدةٍ مع السعالِ أو القيءِ أو البولِ، ولكن الرهبان كانوا أطباء مُدربين ولهذا كانَ عليها أن تطبقَ تعليماتهم. لم يكن لديها وقتٌ لتغضبَ في كلِّ مرَّةٍ يركعُ فيها راهبٌ أو راهبةٌ قربَ سريرِ مريضٍ ويمسكان بذراعهِ ويفتحان الشريان بسكينٍ صغيرةٍ حادةٍ ويثبتان الساعدَ ليستقر ما يعادل نصف ليتر أو أكثر من الدمِ في وعاءٍ على الأرضيةِ.

جلست كاريس مع مير المحتضرة وأمسكت بيدها دونَ أن تعبأ باعتراضِ أحدٍ. ومن أجلِ أن تخففَ من عذابها أعطتها كمية قليلة من الدواءِ المخدرِ الذي علمتها ماتي كيفيةِ إعدادهِ من نباتِ الخشخاشِ. لم تتوقف مير عن السعالِ إلا أنَّها لم تتألم كثيراً، وبعدَ كل نوبةِ سعالٍ تعود للتنفسِ بسهولةٍ ولكن لفترةٍ قصيرةٍ وتغدو قادرةً على التكلمِ. «شكراً لكِ على تلكَ الليلةِ في كاليه»، همست لها مير. «أعلم أنَّك لم تستمتعي بها ولكني كنتُ في قمةِ السعادةِ».

حاولت كاريس ألا تبكي. «أنا آسفةٌ لأنني لم أكن كما تريدين».

«أعلمُ أنكِ أحببتني بطريقتكِ الخاصَّةِ».

وسعلت مجدداً. عندما انتهت نوبةُ السعالِ مسحت كاريس الدمَ عن شفتيها.

تركت كاريس العنانَ لدموعها دونَ أن تهتمَّ بما سيفكرُ بهِ من يرونها. ومن بينِ الدموعِ التي كانت تذرفها راقبت مير وهي تزدادُ شحوباً وتتنفسُ ببطءٍ أكثر إلى أن توقفت عن التنفسِ أخيراً.

بقيت كاريس في مكانها على الأرضيةِ بقربِ الفراشِ وممسكةً بيدِ الجثةِ. كانت مير ما تزالُ جميلةً، حتَّى في مماتها، إلا أنَّها الآن بيضاء وساكنةٌ إلى الأبدِ، وهنا تذكرت كاريس وجود شخصٍ آخر غيرَ مير أحبَّها، وأنَّ هذا الشخص هو ميرثن. من الغريبِ حقاً كيفَ رفضت حبهُ أيضاً، وفكرت بأنَّها تعاني من خطبٍ ما دونَ أدنى شكٍ. لا بد أن تشوهاً ما في روحها يمنعها من أن تكونَ كبقيةِ النساءِ وتحتضن الحب بكلِّ سعادةٍ.

في وقتٍ متأخرٍ من تلكَ الليلةِ توفي أبناء مارك ويبر الأربعة وجولي العجوز أيضاً.

كانت كاريس في كربٍ شديدٍ فهي لم تكن تعرفُ ما الذي يمكنها القيامُ بهِ لإيقافِهِ. كانَ الوباءُ ينتشرُ بسرعةٍ ويقتلُ الجميعَ وبات الأمرُ أشبه بالعيشِ في سجنٍ والتساؤلِ عن السجين التالي الذي سيذهبُ إلى المشنقةِ. هل سيكونُ مصيرُ كينغزبريدج كفلورنسا وبوردو حيثُ الجثثُ مرمية في الشوارعِ؟ سيُقامُ سوقٌ في حديقةِ الكاتدرائيةِ في الأحدِ القادمِ وسيأتي مئاتُ الناسِ من جميعِ القرى القريبةِ للشراءِ والبيعِ والاختلاطِ مع سكانِ المدينةِ في الكنيسةِ والحانات. كم عددُ الذين سيعودونَ إلى قراهم وقد التقطوا المرضَ القاتلَ؟ وعندما كانت تفكر بهذهِ الطريقةِ تشعرُ كأنَّها تقفُ عاجزةً أمامَ قوى رهيبةٍ. وعلى الرغمِ من أنها تتفهم السببَ الذي يدفعُ الناس إلى القولِ إنَّ كلَّ شيءٍ بيدِ عالمِ الأرواحِ إلا أنَّها لم تكن مثلهم.

عندما يتوفى أحدٌ من الديرِ تقامُ مراسمُ دفنٍ خاصّةٌ يحضرها الرهبانُ والراهباتُ وتقامُ صلواتٌ إضافيةٌ من أجلِ راحةِ روحِ المتوفَى. كانت مير وجولي محبوبتين جداً، فقد كانت جولي طيبة القلبِ ومير جميلة، ولذلك بكت عليهما جميعُ الراهباتِ. وإلى جانبِ جنازةِ الراهبتين كانت جنازةُ أبناءِ مادجِ الأربعة ولذلكَ حضرَ مئاتٌ من سكانِ المدينة ولكن مادج كانت ضعيفةً جداً على حضورِ جنازةِ أولادها.

احتشدَ الجميعُ في المقبرةِ تحت سماءٍ رمادية داكنةٍ، وفكرت كاريس بأنَّها

تستطيعُ شمَّ رائحةِ الثلج مع الرياحِ الشماليةِ الباردةِ. تلا الأخ جوزيف الصلوات ثمَّ أُنزلت التوابيتُ الستة في القبورِ.

طرحَ أحد الحاضرين السؤالَ الذي كانَ يفكرُ بهِ الجميع. «هل سيموتُ الجميع أيُّها الأخ جوزيف؟»

كانَ جوزيف أشهرَ طبيبٍ بين الرهبانِ وهو الآن يقتربُ من عقدهِ السادسِ ويفقدُ أسنانهُ. كانَ رجلاً مثقفاً ولكنه دافئٌ في تعاملهِ مع المرضى. قال جوزيف: «سنموتُ جميعاً يا صديقي ولكن ما من أحدٍ يعرفُ متى قد يحدثُ هذا، لذا يجبُ علينا أن نكونَ مستعدين دوماً لمقابلةِ الرَّبِّ».

وهنا تحدثت بيتي باكستر التي كانت تطرحُ أسئلةً دقيقةً. «ما الذي يمكننا فعلهُ حيالَ الوباءِ؟» سألت بيتي. «إنَّه الوباءُ، أليسَ كذلك؟»

«إنَّ الصلاةَ أفضلُ وقايةٍ»، قال جوزيف. «وفي حال قررَ الرَّبُّ أن يأخذَ أرواحكم تعالوا إلى الكنيسةِ واعترفوا بخطاياكم».

لم يكن خداع بيتي بالأمرِ السهلِ. «يقولُ ميرثن إنَّ سكانَ فلورنسا بقوا في منازلهم ليتجنبوا التقاطَ العدوى من المرضى. هل هذهِ فكرةٌ جيدةٌ؟»

«لا أعتقدُ هذا. هل نجا سكانُ فلورنسا من الوباءِ؟»

نظرَ الجميعُ إلى ميرثن الذي كان يحملُ لولا على ذراعيهِ. «لا، لم ينجوا»، قال ميرثن. «ولكن من المرجحِ أنَّ عددَ الموتى هناك كان سيكونَ أكبر لو أنَّهم لم يلزموا منازلهم».

هزَّ جوزيف رأسهُ في رفضٍ. «إن بقيتم في المنزلِ لا يمكنكم الذهابُ إلى الكنيسةِ. إنَّ الصلاةَ أفضلُ علاجٍ».

لم يكن بوسعِ كاريس أن تبقى صامتةً. «ينتقلُ الوباءُ من شخصٍ إلى آخرٍ»، قالت بغضبٍ. «إنِ ابتعدتم عن بقيةِ الناسِ فلديكم فرصةٌ في النجاةِ من العدوى».

وهنا تحدثَ رئيسُ الديرِ غودوين. «هل أصبحت النساءُ الآن طبيباتٍ؟»

تجاهلتهُ كاريس. «يجبُ أن نُلغي السوقَ»، قالت للناسِ. «فهذا كفيلٌ بإنقاذِ الأرواحِ».

«إلغاء السوق!» قال غودوين في احتقارٍ. «وكيفَ سنقومُ بهذا؟ نرسلُ رسائل إلى جميعِ البلداتِ؟»

«أغلق بواباتِ المدينةِ»، أجابت كاريس. «أغلق الجسر. أبقِ جميع الغرباءِ خارجَ المدينةِ»

«ولكن يوجد مرضى في المدينةِ».

«أغلق جميعَ الحاناتِ، ألغِ اجتماعاتِ النقاباتِ، ولتمنع قدوم ضيوفٍ إلى حفلاتِ الزفافِ».

قال ميرثن: «في فلورنسا ألغوا اجتماعاتِ مجلسِ المدينةِ».

وهنا تحدثَ إلفريك: «وكيفَ كانَ الناسُ يقومونَ بأعمالهم؟»

«إن قمتَ بعملٍ ستموتُ»، قالت كاريس. «وستقتلُ زوجتكَ وأطفالكَ أيضاً. الخيارُ بيدكَ».

قالت بيتي باكستر: «لا أريدُ أن أغلقَ متجري سأخسرُ الكثير من المالِ، ولكن سأقومُ بهذا لأنقذَ حياتي». ارتفعت آمالُ كاريس عندما سمعت هذا إلا أنَّ بيتي انقلبت عليها مجدداً قائلةً: «ما الذي يقولهُ الأطباء؟ إنهم الأدرى بهذا الشأنِ». ونمَّت عن كاريس زمجرةُ استهجانٍ عاليةٌ.

قالَ رئيسُ الديرِ غودوين: «لقد أرسلَ الرَّبُّ الوباءَ عقاباً لنا على خطايانا وعلى شرورِ الهرطقةِ والفسوقِ وقلةِ الاحترامِ التي تسود العالمَ فقد باتَ الرجالُ يشككونَ في السلطةِ والنساءُ يتباهين بأجسادهن، والأطفالُ يعصونَ أهاليهم. الرَّبُّ غاضبٌ وغضبهُ مخيفٌ. لا تحاولوا الهربَ من عدالتهِ! سيجدكم مهما اختبأتم».

«وما الذي علينا فعلهُ؟»

«إن كنتم تريدونَ الحياةَ يجب أن تذهبوا إلى الكنيسةِ وتعترفوا بخطاياكم وتصلوا وتبدؤوا حياةً أفضل».

علمت كاريس أنَّ المجادلةَ غيرُ مجديةٍ ولكنها قالت: «يُمكنُ لأيِّ جائعٍ أن يذهب إلى الكنيسةِ ولكنهُ يجبُ أن يأكلَ أيضاً».

قالت الأمُّ سيسيليا: «أيتها الأختُ كاريس لا ضرورةَ لقولِ المزيدِ».

«ولكن نستطيعُ أن ننقذَ العديدَ...»

«هذا سيتكفلُ بإنقاذها».

«هذهِ مسألةُ حياةٍ أو موتٍ!»

أخفضت سيسيليا صوتها وهي تقولُ: «ولكن ما من أحدٍ يصغي إليكِ. فلتتوقفي عن الحديثِ».

علمت كاريس أنَّ سيسيليا على حقٍ. لم يكن استمرارها بالمجادلةِ مهماً

فالناسُ لن يصدقوها بل سيصدقون الكهنة ولذلكَ أطبقت فمها ولم تتفوه بكلمةٍ أخرى.

بدأ الراهبُ الأعمى كارلوس بغناءِ ترنيمةٍ وتقدَّمَ الرهبان في صفٍ عائدين إلى الكنيسةِ. لحقت بهم الراهباتُ وتفرّقَ الحشدُ.

وبينما كانوا يعبرونَ الممراتِ المسقوفةَ عائدين من الكنيسةِ عطست الأمُّ سيسيليا.

***

كلَّ ليلةٍ يضعُ ميرثن لولا في سريرٍ إحدى غرفِ نُزلِ بيل ويغني أو يقرأ لها القصائدَ أو يخبرها بالقصصِ، وفي مثلِ هذهِ الأوقات وكأيِّ طفلٍ في الثالثةِ تنتهزُ لولا الفرصةَ لطرحِ أسئلةٍ غريبةٍ. كانت بعضها أسئلةً طفوليةً، وبعضها عميقاً، وبعضها مضحكاً جداً.

هذهِ الليلة وحين كانَ يغني لها تهويدةً انخرطت في البكاءِ.

سألها عن الخطب فقالت له لولا وهي تنوح: «لمَ ماتت دورا؟»

إذاً هذا سببُ حزنها. كانت ابنةُ مادج دورا قد وقعت في غرامِ لولا وقضت الفتاتان أوقاتاً مسليةً في لعبِ لعبةِ العدِّ وضفرِ شعرهما.

«لقد أصيبت بالوباءِ»، قال ميرثن.

«ماما أصيبت بالطاعونِ»، قالت لولا ثمَّ انتقلت للحديثِ بالإيطاليةِ قائلةً: «بالموتِ الكبيرِ».

«لقد أصبتُ بِهِ أيضاً ولكني تحسنتُ».

«وكذلكَ ليبيا». كانت ليبيا لعبةً خشبيةً حملتها لولا معها من فلورنسا إلى كينغزبرديج.

«هل ليبيا مصابةٌ بالوباءِ؟»

«أجل. كانت تعطسُ وحرارتها مرتفعة ولديها بقعٌ ولكن راهبةً قامت بمداواتها».

«أنا مسرورٌ جداً. هذا يعني أنّها بأمانٍ فما من أحدٍ يلتقطُ العدوى مرتين».

«أنتَ بأمانٍ، أليس هذا صحيحاً؟» سألتهُ.

«أجل». وبدا له هذا الجوابُ كنهايةٍ جيدةٍ للحديثِ فقال لها: «فلتنامي الآن».

«ليلةً سعيدةً»، قالت لولا.

توجهَ ميرثن إلى البابِ.

«هل ستكونُ بيسي بأمانٍ أيضاً؟» سألتهُ لولا.

«فلتنامي».

«أحبُّ بيسي».

«هذا لطيفٌ، ليلةً سعيدةً»، قال ميرثن وأغلقَ البابَ خلفهُ.

في الطابقِ السفلي وجدَ ميرثن غرفةَ الجلوسِ فارغةً فقد بات الناس الآن خائفين من الذهابِ إلى الأماكنِ المزدحمةِ، وعلى الرغمِ مما قالهُ غودوين فإنَّ الرسالةَ التي أرادت كاريس إيصالها أدَّت غرضها.

كان بوسعِهِ تنشق رائحةِ الحساءِ اللذيذِ. لحقَ بالرائحةِ فوصلَ إلى المطبخِ ووجدَ بيسي تحرِّكُ قدراً فوقَ النارِ.

«حساءُ البازلاءِ مع اللحمِ»، قالت له.

جلسَ ميرثن إلى الطاولةِ مع والدها بول الذي كانَ رجلاً كبيراً في العقدِ الخامسِ. أخذَ ميرثن قطعةً من الخبزِ وسكبَ لهُ بول كأساً من الجعةِ ثمَّ قدمت له بيسي الحساء.

أدركَ ميرثن أن بيسي ولولا قد بدأتا تتعلقان بعضهما ببعض، ورغمَ استعانتهِ بمربيةٍ لتعتني بابنتهِ طوال اليومِ ولكن بيسي غالباً ما تعتني بها في الأماسي ولولا بدورها تفضلُ البقاءَ معها.

كان منزلُ ميرثن على جزيرةِ ليبر صغيراً بالمقارنةِ مع القصرِ الذي اعتادَ على العيشِ فيهِ في فلورنسا، وكان سعيداً لأنَّه تركَ جيمي يعيشُ فيهِ فنُزل بيل مريح وهو دافئ ونظيف وهناك وفرةٌ من الطعامِ اللذيذِ والمشروبِ الجيدِ، وباستثناءِ دفعِ الأجرةِ كلَّ سبتٍ كانوا يعاملونه في النُزلِ كفردٍ من أفرادِ العائلةِ، ولهذا السببِ لم يكن على عجلةٍ من أمرهِ للانتقالِ إلى منزلهِ الخاص.

من جهةٍ أخرى لا يمكنه البقاءُ هنا إلى الأبدِ ولكن إن انتقل فقد تتضايقُ لولا لابتعادها عن بيسي. لقد تركها الكثيرون خلالَ حياتها ولذلكَ كانت بحاجةٍ إلى الاستقرارِ، ربما عليهِ الانتقال الآن قبلَ أن تتعلقَ ببيسي جداً.

عندما انتهوا من تناولِ الطعامِ توجهَ بول إلى سريرهِ لينامَ، وقدَّمت بيسي لميرثن كوباً آخر من الجعةِ وجلسا بقربِ النارِ.

«كم عدد الذين ماتوا في فلورنسا؟» سألته.

«آلاف بل عشرات الآلافِ على الأغلبِ. لم يُحصِ أحدٌ عددهم».
«أتساءلُ عمن سيكونُ التالي في كينغزبريدج».
«أفكرُ بهذا على الدوامِ».
«قد أكون أنا».
«أخشى هذا».
«أرغبُ بأن أنامَ مع رجلٍ للمرةِ الأخيرةِ قبلَ أن أموتَ».
ابتسمَ ميرثن ولكنه لم يقل شيئاً.
«لم أضاجع رجلاً منذُ عامٍ، أي منذُ وفاةِ زوجي ريتشارد».
«أنتِ مشتاقةٌ إليهِ».
«ماذا عنكَ؟ كم من الوقتِ مضى عليكَ منذُ آخر مرةٍ ضاجعت فيها امرأةً؟»
لم يمارس ميرثن الجنسَ منذُ إصابةِ سيلفيا بالوباءِ، وعندما تذكرها شعرَ بطعنةِ حزنٍ في قلبِهِ. شعرَ بأنَّه لم يكن ممتناً لها كفايةً على الحبِّ الذي قدمتهُ له.
«منذُ عامٍ أيضاً»، قالَ ميرثن.
«مع زوجتكَ؟»
«أجل، فلترقد روحها في سلام».
«هذا وقتٌ طويلٌ».
«أجل».
«ولكنكَ لستَ من النوعِ الذي يضاجعُ أيّ امرأةٍ. أنتَ ترغبُ بالحبِّ».
«أعتقدُ أنّكِ على حقٍ».
«وأنا مثلكَ أيضاً. إنَّ المضاجعةَ أفضلُ شيءٍ في العالمِ ولكن فقط إن كان هناك حبٌ حقيقي بين الرجلِ والمرأةِ. ضاجعت رجلاً واحداً في حياتي وهذا الرجلُ هو زوجي ولم أضاجع أحداً آخر غيرهُ».
أخذَ ميرثن يتساءلُ في نفسِهِ إن كانَ هذا الكلامُ صحيحاً. لم يكن واثقاً من الأمر فقد بدت بيسي صادقةً ولكن ما قالتهُ ستقولهُ أيّ امرأةٍ أخرى.
«وماذا عنكَ؟» قالت له. «ما عددهن؟»
«ثلاث».
«زوجتكَ وقبلها كاريس و... من غيرهما؟ آه تذكرت. غريزيلدا».
«أنا لم أسمهن».

«لا تقلق فالجميعُ يعلمُ».

ابتسمَ ميرثن في أسى. بالطبعِ كانوا جميعاً يعلمونَ، ورغم أنهم ليسوا على ثقةٍ من صحةِ الأمرِ ولكنهم يتكهنون وعادةً ما يصيبون في تكهناتهم.

«ما عمرُ ابن غريزيلدا ميرثن الآن... سبعة أعوامٍ؟ ثمانية أعوامٍ؟»

«عشرة أعوامٍ».

«ركبتاي سميتان»، قالت بيسي ورفعت تنورةَ فستانها لتريه إياهما. «لطالما كرهتُ ركبتيَّ ولكن ريتشارد كانَ يحبهما».

نظرَ ميرثن إلى الركبتين ووجدهما ممتلئتين وفيهما ما يشبهُ الغمازاتِ. كانَ بوسعهِ أيضاً أن يرى فخذيها البضَّين.

«اعتاد تقبيلَ ركبتي»، قالت بيسي، «كانَ رجلاً لطيفاً»، وعدَّلت ثوبها كأنَّها تقومُ بتسويتهِ إلا أنَّها رفعتهُ للأعلى أكثر ولوهلةٍ لمحَ ميرثن تلكَ البقعةَ المُشعرةَ المغويةَ التي تغطي عضوها. «كانَ أحياناً يقبلُ جسدي بأكملهِ خاصَّةً بعدَ الاستحمامِ. أحببتُ هذا كما أحببتُ كلَّ شيءٍ آخر. يمكنُ للرجلِ أن يفعلَ ما يشاء مع المرأةِ التي يحبها. ألا توافقني؟»

شعرَ ميرثن بأنَّه بات يفقدُ السيطرة على الموقف لذلك وقفَ وقالَ: «أظنُّ أنَّكِ على حقٍ ولكن هذا النوعُ من الأحاديثِ يقودُ إلى شيءٍ واحدٍ، ولذلكَ سأذهبُ للخلودِ إلى النومِ قبلَ أن أرتكبَ خطيئةً».

ابتسمت ابتسامةً حزينةً وقالت له: «فلتنم جيداً وإن شعرت بالوحدةِ سأكونُ هنا بقربِ النارِ».

«سأتذكرُ هذا».

***

لم يضعوا الأمَّ سيسيليا على فراشٍ من القشِّ بل على سريرٍ قبالةَ المذبحِ الذي يعدُّ أقدسَ مكانٍ في المستشفى. غنَّت الراهباتُ بالتناوبِ وصلينَ حولَ السريرِ طوالَ النهارِ والليلِ وبجانبِ السرير هناك شخصٌ يمسحُ وجهها بماءِ الوردِ الباردِ طوالَ الوقتِ، ووضعوا إلى جانبها أيضاً كوباً جاهزاً من ماءِ النافورةِ الصافي، ولكن كلَّ هذا لم يُحدث فرقاً فقد تراجعت صحتها بالسرعةِ ذاتها التي تدهورت فيها صحةُ الآخرين ونزفت من أنفها ومهبلها وغدا تنفسها أكثرَ صعوبةً شيئاً فشيئاً وشعرت بظمأ لا ارتواء منه.

في الليلةِ الرابعةِ على وقوعها صريعةَ المرضِ أرسلت سيسيليا بطلبِ كاريس.

كانت كاريس غارقةً في النومِ فقد كانت مرهقةً من العنايةِ بالمرضى في المستشفى. رأت في منامها أن جميع أطفال كينغزبريدج مصابون بالوباءِ وأنها تهرعُ في أرجاءِ المستشفى تهتمُّ بهم جميعاً ثمَّ أدركت على حينِ غرةٍ أنَّها مصابةٌ أيضاً. كان هناك طفلٌ يشدُّها من كُمِ ثوبها إلا أنَّها كانت تتجاهله وهي تحاولُ بيأسٍ إيجادَ طريقةٍ للعنايةِ بكلِّ هؤلاءِ المرضى رغم مرضها، وعندها أدركت أنَّ أحدهم يهزها من كتفيها بعجلةٍ شديدةٍ ويقول: «انهضي أيتها الأختُ من فضلكِ. الأمُّ سيسيليا تريدكِ».

استفاقت كاريس ورأت راهبةً مبتدئةً راكعةً إلى جانبِ سريرها مع شمعةٍ بيدها. «كيف أصبحت؟»

«إنها تتدهورُ ولكنها تستطيعُ الكلامَ وهي تريدك».

نهضت كاريس من السرير وانتعلت صندلها. كانت ليلةً قارسةً جداً ووجدت نفسها أنَّها نامت في رداءِ الراهباتِ لذلك أخذت البطانية عن سريرها ورمتها على كتفيها ثمَّ هرعت راكضةً على الدرجِ الحجري.

كان المستشفى ممتلئاً بالمرضى المحتضرين وقد رتبوا الأسرَّة القشية على الأرضية في ما يشبهُ الهيكل العظمي لسمكةٍ حتَّى يتمكنَ المرضى القادرون على الجلوسِ من رؤيةِ المذبحِ. احتشدت العائلاتُ حولَ الأسرَّةِ وعلقت في الأجواءِ رائحةُ دمٍ. أخذت كاريس قطعةً كتانيةً من السلةِ قربَ البابِ وربطتها على فمها وأنفها.

وجدت كاريس أربع راهباتٍ راكعاتٍ قربَ سريرِ سيسيليا التي كانت مستلقيةً على ظهرها مغمضةَ العينين. عندما رأتها كاريس على هذا الحالِ خشيت أن تكونَ قد تأخرت في الوصولِ ولكن رئيسة الديرِ العجوزَ أحسَّت بقدومها ولذلك أدارت رأسها وفتحت عينيها.

جلست كاريس على حافةِ السريرِ ثمَّ وضعت قطعةً قماشيةً في صحنٍ من ماءِ الوردِ ومسحت بقعةَ الدمِ عن شفةِ سيسيليا العليا.

كانت سيسيليا تكابدُ لأخذِ نفسٍ وبينَ الشهقات قالت: «هل نجا أحدٌ من هذا المرضِ الرهيبِ؟»

«فقط مادج ويبر».

«الشخصُ الوحيد الذي لم يكن يرغب بالبقاءِ على قيدِ الحياةِ».

«ماتَ جيمعُ أبنائها».

«سأموتُ قريباً».

«لا تقولي هذا».

«أنتِ لا تهتمين بسلامتكِ. نحنُ الراهباتِ لا نخافُ من الموتِ لأننا وطوال حياتنا نتوقُ إلى الاتحادِ مع المسيح في السماءِ، ولذلكَ عندما تحينُ ساعةُ الموتِ نرحبُ بها»، ولأنَّ الحديثَ الطويل كان يجهدها أخذت تسعلُ بقوةٍ.

مسحَت كاريس الدم عن ذقنها وقالت: «أجل أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ ولكن من يقون سيكون»، وانحدرت الدموعُ من عيني كاريس. لقد خسرت مير والراهبة العجوز جولي وها هي الآن على وشك أن تخسرَ سيسيليا.

«لا تبكي. يجبُ علينا أن نكون قويات كي نساعد الآخرين».

«لا أفهم السببَ».

«أعتقد أنَّ الرَّبَّ قد قررَ وضعكِ مكاني رئيسةً للديرِ».

وفكرت كاريس بأنَّه لو حدثَ هذا فسيكونُ الرَّبُّ قد قامَ باختيارٍ غريبٍ فهو عادةً ما يختارُ أناساً ينظرونَ إليهِ بطريقةٍ تقليديةٍ ولكنها تعلمتْ ومنذُ وقتٍ طويلٍ أنَّ قولَ أمورٍ كهذهِ لا طائل منها. «إن اختارتني الأخواتُ فسأبذلُ قصارى جهدي».

«أعتقدُ أنهنَّ سيخترنكِ».

«أنا واثقةٌ من أنَّ الأختَ إليزابيث ترغبُ بالترشحِ أيضاً».

«إليزابيث ذكيةٌ ولكنكِ حنونةٌ».

أحنت كاريس رأسها فأغلب الظنِ أن سيسيليا محقةٌ بكلامها هذا، ولأن إليزابيث قاسيةٌ جداً فقد كانت كاريس أفضلَ شخصٍ لإدارةِ الديرِ حتَّى وإن لم تكن تؤمن بقضاءِ الحياةِ في الصلاةِ وغناءِ الترانيم إلَّا أنها كانت تؤمنُ بأهميةِ المدرسةِ والمستشفى، ولذلك لا يمكن للوضع أن ينتهي بإليزابيث مسؤولةً عن إدارةِ المستشفى.

«هناكَ أمرٌ آخرٌ»، قالت سيسيليا بصوتٍ خفيضٍ اضطرت معه كاريس إلى الانحناء والاقتراب منها. «هناكَ أمرٌ أطلعني عليهِ رئيسُ الديرِ أنتوني عندما كان يحتضرُ. لقد أبقى الأمرَ سراً حتَّى مماتِهِ كما أبقيتهُ أنا سراً حتى هذهِ اللحظةِ».

لم تكنَ كاريس واثقةً من أنَّها ترغبُ بتحملِ ثقلِ مثل هذا السرِّ ولكن وجود سيسيليا على فراشِ الموتِ حسمَ حيرتها.

«لم يمت والدُ الملكِ جرَّاءَ سقطةٍ»، قالت سيسيليا.

صُدمت كاريس بما سمعتهُ فقد حدثَ هذا منذُ عشرين عاماً إلّا أنّها مازالت تتذكرُ الإشاعات التي أحاطت بالحدثِ. حينئذٍ اعتبرَ الجميعُ قتلَ الملكِ أسوأ جريمةٍ يُمكنُ للمرءِ تخيلها فهي جريمةٌ مضاعفةٌ لأنّها جريمةُ قتلٍ وخيانةٍ وعقوبتهما الإعدامُ. إنَّ معرفةَ مثل هذه الأمورِ خطيرةٌ ولذلكَ لا عجبَ أنَّ أنتوني أبقى الأمرَ سراً حتى مماتهِ.

تابعت سيسيليا كلامها: «أرادت الملكةُ وعشيقُها مورتمر إزاحة إدوارد الثاني عن الطريقِ وكان وريثُ العرشِ آنذاك ما يزالُ صغيراً. أصبحَ مورتمر الملك بطريقةٍ ما ولكن ليسَ لوقتٍ طويلٍ كما أملَ مورتمر لأنَّ إدوارد الصغير كبرَ بسرعةٍ». وأخذت تسعلُ مجدداً وبوهنٍ أكبر.

«أُعدمَ مورتمر عندما كنتُ يافعةً».

«حتّى الملكُ الحالي إدوارد لم يرغب لأحدٍ بمعرفةِ حقيقةِ ما حدثَ لوالدهِ ولذلكَ بقي السرُّ طي الكتمان».

بدت كاريس مصعوقةً بما سمعتهُ فالملكةُ إيزابيل –والدةُ الملكِ الموقرة– مازالت على قيدِ الحياةِ وتعيشُ برغدٍ في نورفلورك. إن اكتشفَ الناسُ تورطها في قتلِ زوجها فقد يقودُ هذا إلى زلزالٍ سياسي، وشعرت كاريس بالذنبِ لأنها علمت بهذا.

«ولهذا السببِ قُتلَ؟» سألت كاريس.

وعندما لم تجبها سيسيليا أمعنت كاريس النظرَ إليها. كانت رئيسةُ الدير ساكنةً ومعالمُ وجهها جامدة وتحدق إلى الأعلى بعينين مفتوحتين.

كانت سيسيليا ميتةً.

–60–

في اليومِ التالي على وفاةِ سيسيليا دعا غودوين إليزابيث إلى تناولِ العشاء معهُ.

كانت الأوضاعُ خطيرةً فموتُ سيسيليا خلخلَ موازينَ القوى وكان غودوين بحاجةٍ إلى ديرِ الراهباتِ لأنَّ أحوالَ ديرِ الرهبانِ وحده لم تكن مزدهرةً كفاية فهو لم ينجح في تحسينِ وضعهِ المالي، ولكن معظمَ الراهباتِ كنَّ غاضباتٍ حيالَ مسألةِ المالِ الذي أخذهُ منهن ولذلك عاملنهُ بعدائيةٍ مريرةٍ، ولذلك إن

وقعَ تحتَ رحمةِ رئيسةِ ديرٍ مصممةٍ على الانتقامِ ككاريس فستكون هذهِ نهايةُ ديرِ الرهبانِ.

علاوةً على هذا، كانَ غودوين خائفاً جداً من الوباءِ ومن احتمالِ إصابتِهِ بهِ أو من احتمالِ موتِ فيليمون، وعلى الرغم من الإزعاجِ الذي سببتهُ له هذهِ الكوابيس فإنه نجحَ في إبعادها عن ذهنهِ في الوقتِ الحالي فقد كانَ عازماً على عدمِ السماحِ للخوفِ من الوباءِ بتشتيتِ تفكيرهِ بمصالحهِ البعيدةِ الأمد.

نظرَ غودوين إلى انتخاباتِ رئيسةِ ديرِ الراهباتِ كخطرٍ مباشرٍ عليهِ وفي كوابيسهِ شاهدَ ديرَ الرهبانِ يقفلُ وأنّه اضطرَّ إلى مغادرةِ كينغزبريدج في خزي وأُجبر في مكانٍ آخرٍ على البدءِ مجدداً كراهبٍ عادي تحتَ إمرةِ رئيسِ ديرٍ ما يفرضُ عليهِ الانضباط ويذلهُ. إن حدوثَ هذا السيناريو كفيلٌ بدفعهِ إلى الانتحارِ.

من جهةٍ أخرى ورغمَ كلّ التهديد الذي تحملهُ هذهِ اللحظة كانت أمامهُ فرصة سانحة أيضاً، وإن تعاملَ مع الأمورِ بذكاءٍ فقد ينتهي الأمرُ بانتخابِ رئيسةِ ديرٍ متعاطفةٍ معهُ وقانعةٍ بتركهِ يقود ولهذا كانت إليزابيث أفضلَ رهانٍ.

ستكونُ إليزابيث قائدةً مستبدةً لا يعنيها شيءٌ سوى كرامتها ولذلكَ سيتمكنُ من العمل معها بسهولةٍ. ستكونُ رئيسةً عمليةً وقد أثبتت هذا عندما حذرتهُ من أنّ كاريس تخططُ لإحصاءِ موجوداتِ الخزنةِ. ستصبحُ إليزابيث حليفتهُ.

دخلت إليزابيث برأسٍ مرفوعٍ وأدركَ غودوين أنّها الآن وعلى حين غرةٍ باتت تدركُ أهميتها وبأنّها تستمتعُ بهذا، وتساءلَ بقلقٍ إن كانت ستجاريهِ في الخطةِ التي سيعرضها عليها ولذلكَ قررَ أنّه سيتعاملُ معها بحذرٍ.

نظرت حولها في أرجاءِ قاعةِ الطعامِ المهيبةِ. «لقد بنيتَ قصراً مذهلاً»، قالت إليزابيث كأنّها أرادت تذكيرهُ بأنّها من ساعدهُ في الحصولِ على المالِ اللازمِ لبنائهِ.

أدركَ غودوين أنها لم تدخل إلى القصرِ قبلاً رغمَ انتهاءِ أعمالِ البناءِ منذُ عامٍ والسببُ في أن غودوين يفضلُ عدمَ وجودِ إناثٍ في القسمِ الخاصِ بالرهبانِ في الديرِ، وحتى اليوم لم تزر المكان سوى بيترانيلا وسيسيليا. قال لها غودوين: «شكراً لكِ، أعتقدُ أنّه سيُكسبنا احترامَ النبلاءِ وأصحابَ السلطةِ. لقد استضفنا رئيسَ أساقفةِ مومماوث هنا».

كان غودوين قد استخدمَ ما بقي من مالِ الراهباتِ لشراءِ الأقمشة المزدانة

برسومٍ تصورُ حيواتِ الرُسلِ. تفحصت إليزابيث صورةَ دانييل في عرينِ الأسودِ وقالت: «هذهِ لوحةٌ جميلةٌ جداً».

«إنَّها مطرزةٌ».

وقالت في استغرابٍ: «هل هذا هرك الذي تحتَ المنضدةِ؟»

استهجنَ غودوين وأجابها كاذباً: «لا أستطيعُ التخلصَ منهُ» ثمَّ هشَّ الهرَّ خارجَ الغرفةِ. لم يكن يُفترضُ بالرهبانِ تربيةُ الحيواناتِ إلَّا أن غودوين اكتشفَ أن وجودَ الهرِّ يساعدهُ على الاسترخاءِ.

جلسا عندَ نهايتي طاولةٍ ولائمٍ طويلةٍ. لطالما كره غودوين وجودَ النساءِ في هذا المكانِ وجلوسهن لتناولِ العشاءِ كأنّهن على قدمِ المساواةِ مع الرجالِ إلا أنّه أخفى ضيقهُ من الأمرِ.

كانَ قد طلبَ إعدادَ طبقٍ فاخرٍ من لحمِ الخنزيرِ المطبوخِ مع الزنجبيلِ والتفاحِ وسكبَ لهما فيليمونَ نبيذاً من غاسكون. تذوقت إليزابيث اللحمَ وقالت: «إنَّه لذيذٌ».

رغم عدمِ اهتمامِ غودوين الشديد بالطعامِ فإنه رآه مهماً في إبهارِ الناسِ ولكن فيليمونَ في هذهِ الأثناء انقضَّ على الطعامِ بجشعٍ.

ودخلَ غودوين في صلبِ الموضوعِ قائلاً: «كيفَ تخططين للفوزِ بالانتخاباتِ؟»

«أعتقدُ أن فرصَ فوزي أكبر من فرصِ الأختِ كاريس»، قالت إليزابيث.

وأحسَّ غودوين بأنَّها كبحت شعوراً ما عندما تلفظت باسم كاريس وهذا يعني أنَّها مازالت غاضبةً من رفضِ ميرثن لها وتفضيلهِ لكاريس، وها هي الآن على وشكِ الدخول في مجابهةٍ مباشرةٍ مع عدوتها القديمةِ ولذلك اعتقدَ غودوين أنَّها ستفعلُ أيَّ شيءٍ لتحققَ الفوز هذهِ المرة.

وهذا أمرٌ جيدٌ.

قال فيليمون لها: «لماذا تعتقدين أنَّ فرصكَ أكبر؟»

«أنا أكبرُ من كاريس»، قالت إليزابيث. «فقد دخلتُ الديرَ قبلها وتسلمت شؤون الديرِ منذُ وقتٍ أطول إضافةً إلى أنني ولدتُ وتربيتُ في منزلٍ شديد التدين».

هزَّ فيليمون رأسهُ باستنكارٍ وقال: «لن يشكّل أيٌّ من هذهِ الأمورِ فرقاً».

بدت إليزابيث مذهولةً فقد بوغتت بصراحةِ فيليمون وأملَ غودوين ألا

يتصرفَ فيليمون بقسوةٍ شديدةٍ وأرادَ أن يهمسَ لهُ: «نريدها أن تذعنَ لنا لا أن تتراجعَ».

تابعَ فيليمون كلامهُ القاسي: «الديكِ ميزةُ سنةٍ واحدةٍ من الخبرةِ الإضافيةِ، وحقيقةَ أن والدك، فلترقد روحهُ في سلامٍ، كان أسقفاً لن تُحتسب كنقطةٍ لمصلحتك لأنّه لا يفترضُ بالأساقفةِ أن ينجبوا أطفالاً».

احمرّت إليزابيث خجلاً وقالت: «ولا يُفترضُ برؤساءِ الديرِ أن يربوا حيواناتٍ أليفةٍ».

«نحنُ لا نناقشُ مسألةَ رئيسِ الديرِ»، قالَ فيليمون بنفاد صبرٍ. كانَ يتصرفُ بوقاحةٍ وبوغتَ غودوين بهذا فقد كان ماهراً في إخفاءِ عدائيتهِ بأن يفتنَ الآخرين بودهِ ولكن فيليمون لم يتعلم قط هذا الفنَ.

على أيِّ حالٍ جابهت إليزابيث فيليمون وأجابتهُ ببرودٍ: «هل استدعيتني إلى هنا لتخبرني بأنني لا أستطيعُ الفوزَ؟» والتفتت نحو غودوين. «ليسَ من عاداتكَ استخدام الزنجبيل الباهظ في الطعامِ لمجردِ المتعةِ».

«أنتِ على حقٍ»، قال غودوين. «نريدكِ أن تصبحي رئيسةَ الديرِ وسنقومُ بكلِّ ما في وسعنا لمساعدتكِ في هذا».

«وسنبدأ بنظرةٍ واقعيةٍ إلى فرصكِ. إنَّ كاريس محبوبةٌ من الجميعِ، من الراهباتِ والرهبانِ والتجار والنبلاءِ والعملُ الذي تقومُ بهِ يعودُ عليها بفائدةٍ كبيرةٍ. لقد ساعدت معظمَ الرهبانِ والراهباتِ والمئات من سكانِ المدينةِ عندما أتوا إلى المستشفى يعانون من شتى الأمراضِ، وبالمقارنةِ معها فأنت بالكاد معروفة. أنتِ أمينةُ الخزنة والنظرةُ العامةُ إليكِ هي أنّكِ شخصٌ بارد وحريص».

«أقدرُ لكَ صراحتكَ»، قالت إليزابيث. «ربما يجدرُ بي أن أستسلمَ الآن».

لم يكن غودوين قادراً على تحديدِ ما إن كانَ ردها ساخراً أم حقيقياً.

«لا يمكنكِ أن تفوزي»، قال فيليمون. «ولكنها يمكنُ أن تخسر».

«لا تتحدث بغموضٍ فهذا مملٌ»، انفجرت في وجهه قائلةً. «فلتقل لي وبكلماتٍ واضحةٍ ما الذي ترمي إليهِ».

وفهمَ غودوين الآن السببَ في أنّها غير محبوبة من الناسِ.

تظاهرَ فيليمون بأنّه لم يلاحظ نبرةَ صوتها وقال: «إنَّ مهمتكِ خلال الأسابيعِ القليلةِ القادمةِ هي تدميرُ كاريس»، قال لها. «عليكِ أن تغيري نظرةَ الراهباتِ إليها كي تتحول من الأختِ المحبوبةِ والمُجدةِ والحنونةِ إلى وحشٍ».

ولمعت عينا إليزابيث بشيءٍ من اللهفةِ. «هل هذا ممكنٌ؟» سألتهُ.
«بمساعدتكِ أنتِ.. أجل».
«تابع».
«أما زالت تجبرُ الراهباتُ على ارتداءِ أقنعةِ الوجهِ الكتانيةِ في المستشفى؟»
«أجل».
«وغسلِ أيديهن؟»
«أجل».
«لا يوجد أساسٌ لهذه الممارساتِ في كتاباتِ غالينوس أو في أيّ مرجعيةٍ طبيةٍ ولا حتّى الإنجيلِ. يبدو الأمرُ أقرب إلى التطيرِ منهُ إلى ممارسةٍ طبيةٍ حقيقيةٍ».
هزّت إليزابيث كتفيها بلامبالاةٍ وقالت: «يبدو أنَّ الأطباءِ الإيطاليين يعتقدون بأنَّ الوباءَ ينتشرُ عبر الهواءِ ويمكن أن يلتقطَه المرء بالنظرِ إلى المريضِ أو لمسهِ أو تنفسِ الهواءِ الذي يتنفسهُ. لا أفهم لم...»
«وكيفَ خطرت للأطباءِ الإيطاليين مثلُ هذه الفكرة؟»
«ربما من مراقبةِ المرضى».
«لقد سمعتُ ميرثن يقولُ إنَّ الأطباءَ الإيطاليين هم الأفضل بعدَ الأطباءِ العرب».
أومأت إليزابيث برأسها. «لقد سمعت بهذا».
«إذاً، قد تكونُ فكرةُ ارتداءِ الأقنعةِ برمتها فكرة المسلمين».
«هذا محتملٌ».
«إذاً فهي فكرةٌ وثنيةٌ».
«أفترضُ هذا».

أراحَ فيليمون ظهرهُ إلى الكرسي كأنّه أثبتَ وجهةَ نظرهِ للتو.
ولكن إليزابيث لم تكن قد فهمت ما رمى إليهِ ولذلك قالت: «إذاً ستتغلبُ على كاريس بالقولِ إنّها بدأت ممارسةً وثنيةً في ديرِ الراهباتِ؟»
«ليسَ تماماً»، قال فيليمون بابتسامة حاذقةٍ. «سنقولُ إنّها تمارسُ السحرَ».
وفهمت إليزابيث الأمرَ وقتها وقالت: «بالطبعِ! كدتُ أنسى هذا».
«لقد شهدتِ ضدها في محاكمتها!»

«لقد حدثَ هذا منذُ وقتٍ طويلٍ».

«اعتقدتُ أنَّكِ لن تنسي أنَّ عدوتكِ قد اتهمت بجريمةٍ كهذهِ قبلاً»، قال فيليمون.

وفكرَ غودوين بأن فيليمون لن ينسى مثلَ هذهِ الأمورِ أبداً فقد كانَ اختصاصُهُ البحثَ عن نقاطِ ضعفِ الناسِ واستغلالها من دونِ أيِّ رادعٍ. كانَ غودوين أحياناً يشعرُ بالذنبِ من شدةِ مكرِ فيليمون ولكن المكرَ مفيدٌ لغودوين ولهذا كانَ على الدوامِ يقمعُ هذا الشعور فما من أحدٍ آخر غير فيليمون سيفكرُ بتسميمِ عقولِ الراهباتِ لينقلبنَ على محبوبتهن كاريس؟

أحضرَ راهبٌ مبتدئٌ التفاحَ والجبنَ وسكبَ فيليمون المزيدَ من النبيذِ ثمَّ قالت إليزابيث: «حسناً، هذا كلامٌ منطقي. هل فكرتَ بتفاصيلِ خطةٍ لتنفيذِ هذا الأمرِ؟»

«من المهمِ أن نبدأ بتحضيرِ الأرضيةِ»، قال فيليمون. «يجبُ ألا توجهي وبشكلٍ رسمي أيّاً من هذهِ الاتهاماتِ إلى أن تصبحَ رأياً لعددٍ كبيرٍ من الناسِ».

نظرَ غودوين إلى فيليمون بإعجابٍ فقد كان ماهراً في هذا.

قالت إليزابيث: «وكيفَ تقترحُ أن نقومَ بهذا؟»

«العملُ أفضلُ من الكلامِ. ارفضي ارتداءَ القناعِ وعندما تُسألين عن الأمرِ فلتهزي كتفيكِ بلامبالاةٍ ولتقولي بهدوءٍ إنَّك سمعتِ بأنَّها ممارسةٌ يقوم بها المسلمون وإنكِ تفضلينَ طرائقَ الوقايةِ المسيحيةِ. شجعي رفاقكِ على رفضِ ارتداءِ القناعِ كنوعٍ من الدعمِ لكِ ولا تغسلي يديكِ كثيراً أيضاً. وعندما ترين الناسَ يقومونَ بإجراءاتِ كاريس فلتعبسي في استهجانٍ ولكن لا تقولي شيئاً».

أومأ غودوين في موافقةٍ. كان دهاءُ فيليمون أحياناً أقربَ إلى العبقريةِ.

«ألا يجبُ أن نذكرَ الهرطقةَ في هذا؟»

تحدَّثي عن الأمرِ قدرَ ما تشائين ولكن لا تربطيهِ بكاريس ولتقولي إنَّكِ سمعتِ عن مهرطقٍ أُعدمَ في مدينةٍ أخرى أو عن نجاحِ أحدِ عبدةِ الشيطانِ في إفسادِ وحرفِ ديرِ راهباتٍ بأكملهِ في فرنسا مثلاً».

«لا أرغبُ بقولِ شيءٍ ليسَ حقيقياً»، قالت إليزابيث بصرامةٍ.

كانَ فيليمون ينسى أحياناً أنَّ الناسَ ليسوا مثلهُ بلا ضميرٍ ولذلكَ قالَ غودوين على عجلٍ: «بالطبعِ لا تقولي فما يقصدهُ فيليمون هو أنَّه عليكِ تكرار ذكرِ هذهِ القصصِ لتذكيرِ الراهباتِ بالخطرِ في عقرِ دارهن».

«جيدٌ جداً» قالت إليزابيث وعندها سمعوا صوتَ جرسِ الصلاةِ الخامسةِ وقفت إليزابيث.

«لا يمكنني أن أفوتَ المراسمَ ولا أريدُ أن يلحظَ أحدٌ غيابي ويتساءل عن مكانِ وجودي»؟

«حسناً»، قال غودوين. «بأيِّ حالٍ لقد اتفقنا على خطتنا».

أومأت برأسها ثمَّ قالت: «لا أقنعة».

كان بوسعِ غودوين رؤيةُ شكٍ يساورها حيالَ هذا ولذلكَ قال: «أنتِ لا تعتقدين أنَّ هذهِ الممارسات مفيدةٌ؟»

«لا»، أجابت. «بالطبعِ لا أعتقدُ هذا، وكيفَ لها أن تكونَ مفيدةً؟»

«تماماً».

«شكراً لكَ على العشاء»، قالت إليزابيث ثمَّ غادرت.

وفكرَ غودوين بأنَّ الأمورَ سارت على ما يرام إلَّا أنَّه ما زالَ يشعرُ بالهمّ ولذلكَ قالَ بقلقٍ: «لا يمكن لإليزابيث وحدها أنْ تقنعَ الناسَ أنَّ كاريس ما زالت ساحرةً».

«أوافقكَ ولذلك قد نحتاجُ إلى التدخلِ في هذا الأمرِ».

«ربما يمكننا الاستعانةِ بموعظةٍ».

«تماماً».

«سأتحدثُ على منبرِ الكاتدرائيةِ عن الوباءِ».

بدا فيليمون غارقاً في التفكيرِ ثمَّ قال: «قد تكونُ مهاجمةُ كاريس بشكلٍ مباشرٍ أمراً خطيراً وقد يكونُ للأمرِ ردٌّ عكسي».

وافقهُ غودوين على كلامه لأنَّه في حالِ وجودِ عداءٍ صريحٍ بينه وبينَ كاريس فسيأخذُ سكانُ المدينةِ صفَّ كاريس. «لن أذكرَ اسمها»، قال غودوين أخيراً.

«فلتزرع بذورَ الشَّكِ فقط ولتدع الناس يستنتجونَ بأنفسهم».

«سألقي باللومِ على الهرطقةِ وعبادةِ الشيطانِ والممارساتِ الوثنيةِ».

وهنا دخلت والدةُ غودوين بيترانيلا التي على الرغمِ من ظهرها المحدودبِ واستخدامها عصوين للمشي فإنَّها سارت برأسٍ مرفوعٍ. «كيفَ سارَ الأمرُ؟» سألت ثمَّ حثَّت غودوين على مهاجمةِ كاريس ووافقت على خطةِ فيليمون.

«ستقومُ إليزابيث بما نرغبُ بهِ تماماً»، قال غودوين في سرورٍ فقد كان يستمتعُ بإطلاعها على أخبارٍ جيدةٍ.

«هذا جيدٌ والآن أريد الحديثَ معكَ بأمرٍ آخرٍ»، ثمَّ التفتت إلى فيليمون وقالت: «لن نكونَ بحاجةٍ إليكَ».

ولوهلةٍ بدا فيليمون كطفلٍ تلقى صفعةً غيرَ متوقعةٍ ولأنَّه كانَ وقحاً جداً فقد كانَ من السهلِ جرحُ مشاعرِهِ. على أيِّ حالَ تمالكَ نفسهُ على الفورِ وتظاهرَ بأنَّ الأمرَ لم يزعجهُ بل بدا مستمتعاً بعضِ الشيءِ بتعاليها. «بالطبعِ يا سيدتي»، قالَ في دفاعٍ مبالغٍ فيهِ.

وهنا قالَ له غودوين: «فلتتسلم زمامَ الصلاةِ بدلاً عني».

«حسناً».

عندما غادرَ فيليمون جلست بيترانيلا إلى الطاولةِ الكبيرةِ وقالت: «أعلمُ أنني كنتُ المسؤولةَ عن دفعكِ لتبني مواهبِ ذلكَ الشاب ولكن عليّ الاعتراف بأنه يجعلني أرتعد رعباً».

«إنَّه مفيدٌ لي الآن أكثرَ من ذي قبلٍ».

«لا يمكنكَ أن تثقَ برجلٍ لا يعرفُ قلبهُ الرحمةَ، وإن كانَ يخونُ الآخرين فما الذي يمنعهُ من خيانتكَ؟»

«سأتذكرُ هذا»، قال غودوين رغمَ شعورهِ بأنَّه الآن مرتبطٌ بفيليمون أكثرَ من ذي قبلٍ والعمل من دونهِ مستحيل. على أيِّ حالٍ لم يكن يرغب بإخبارِ والدتهِ بهذا ولذلكَ حاولَ تغيير الموضوعِ. «هل تريدينَ كأساً من النبيذِ؟» سألها.

هزَّت رأسها رافضةً ثمَّ قالت: «بالكادِ أستطيعُ الوقوف على قدمي فلتجلس ولتصغِ إلي».

«حسناً يا أماه» قال غودوين وجلسَ قبالتها إلى الطاولةِ.

«أريدكَ أن تغادرَ كينغزبريدج قبلَ أن يستشري الوباء».

«لا يمكنني فعلُ هذا ولكن يمكنك الذهابُ...»

«لا تهتم لأمري فأنا سأموتُ عما قريب».

ملأت الفكرةُ غودوين بالرعبِ وقال لها: «لا تقولي هذا!»

«لا تكن غبياً فأنا في الستين من عمري. انظر إلي أنا لا أستطيعُ الوقوفَ باستقامةٍ. لقد انتهى عمري ولكنكَ ما تزالُ في الثانيةِ والأربعين ولديكَ الكثيرُ أمامكَ! يمكنُ أن تصبحَ أسقفاً أو رئيسَ أساقفةٍ أو حتَّى كاردينالاً».

وهنا عاودهُ ذلكَ الشعور بالدوارِ من طموحاتها التي لا تعرفُ حدوداً. هل

هو قادرٌ حقاً على الحصولِ على منصبِ كاردينال أم هذه مجرد مبالغة أمومية؟ لم يملك جواباً حقيقياً على هذا.

«لا أريدكَ أن تموتَ بالوباءِ قبلَ أن تحققَ قدركَ»، قالت له كأنّها تُنهي كلامها.

«أماه، أنتِ لن تموتي».

«إنسَ أمري!» قالت بغضبٍ.

«لا يمكنني مغادرةُ المدينةِ قبل أن أحرصَ على عدمِ انتخابِ كاريس رئيسةً لديرِ الراهباتِ».

«فلتُجرِ الانتخابات على عجلٍ وإن فشلتَ في هذا غادر فوراً واترك نتيجةَ الانتخابات للرَّبِّ».

كانَ غودوين مرتعباً من الوباءِ إلَّا أنّه كانَ يخافُ الفشلَ أيضاً ولذلكَ قال: «قد أخسرُ كلَّ شيءٍ إن انتخبوا كاريس!»

وهنا قالت له بصوتٍ ألطف: «أصغِ إلي يا غودوين أنتَ طفلي الوحيد ولا يمكنني تحملُ خسارتكَ».

صدمه هذا التغيير في نبرةِ الصوتِ وجعلهُ عاجزاً عن الكلامِ.

تابعت كلامَها قائلةً: «من فضلكَ، أتوسلُ إليكَ، غادر المدينةَ إلى مكانٍ لا يمكنُ للوباءِ أن يصلَ إليه».

لم يرها قبلاً تلتمسه في شيءٍ فأزعجهُ هذا وبثَّ فيهِ الخوفَ وليمنعها من الاستمرارِ في كلامها قالَ لها: «دعيني أفكرُ بالأمرِ».

«هذا الوباء»، قالت له ثمّ تابعت: «أشبهُ بذئبٍ في الغابةِ عندما تراهُ لا تفكر بل.... تركض».

***

قدَّمَ غودوين الموعظةَ في الأحدِ السابقِ لعيد الميلادِ.

كانَ يوماً جافاً وغطَّت غيومٌ رمادية كالحةٌ وعاليةٌ السماء الباردة. كانَ البرجُ المركزي مغطى بشبكةٍ أشبه بعشِّ طائرٍ من سقالاتٍ مصنوعةٍ من الحبالِ والأغصانِ فقد كان إلفريك يهدمُ البرجَ من الأعلى. أمَّا في السوقِ في حديقةِ الكاتدرائيةِ فقد كان هناك بضعةُ تجارٍ يقومون بأعمالٍ عابرةٍ مع زبائن مهتمين، وبعيداً عن السوقِ غطَّت حفرُ مئتي قبرٍ رُدمت حديثاً عشبَ المقبرةِ المتجمّد.

كانت الكنيسةُ ممتلئةً حتّى آخرها ولاحظَ غودوين أنَّ الصقيعَ الذي رآه على جدرانِ الكنيسةِ عندَ صلاةِ الفجرِ قد ذابَ بفعلِ دفءِ آلافِ الأجسادِ بحلولِ الوقتِ الذي دخلَ فيه لتأديةِ الطقوسِ. كانَ الجميع في معاطف وعباءاتٍ ترابية اللونِ كأنّهم قطيعٌ في حظيرةٍ وعلمَ أنّهم أتوا بسببِ الوباءِ فأبناءُ رعيةِ المدينةِ لا يتجاوز عددهم الآلاف ولكن كانَ هناك مئاتٌ إضافيةٌ من سكانِ القرى المجاورةِ وجميعهم يريدونَ التماسَ حمايةَ الرّبِّ من المرضِ الذي أصابَ حتّى الآن كل بيتٍ في كلِّ شارعٍ في المدينةِ والقرى الريفيةِ المحيطة بها. تعاطفَ معهم غودوين فهو نفسهُ كان يصلي بشكلٍ محمومٍ في الآونةِ الأخيرةِ.

عادةً من يجلسُ في الصفِّ الأمامي يتابعُ المراسم في وقارٍ أمّا الناس في الصفوفِ الخلفيةِ فقد كانوا يتحدثونَ مع أصدقائهم وجيرانهم بينما الأطفالُ يلهون بينهم. ولكن الصخبَ اليوم في صحنِ الكنيسةِ كان ضعيفاً وجميعُ الأنظارِ على الرهبانِ والراهباتِ في اهتمامٍ غير مسبوق بالطريقةِ التي كانوا يؤدونَ فيها الشعائرَ. أخذَ الحشدُ يدمدمُ بجديةٍ وراءَ الرهبانِ والراهباتِ في سعي محمومٍ لاكتسابِ ما أمكنَ من قداسةِ تحميهم. تفحصَ غودوين وجوههم وقرأ تعابيرها فلم يرَ سوى الرعب. كانوا مثلهُ يتساءلون عمن سيكونُ التالي، من سيعطسُ أو ينزفُ دماً من أنفهِ أو يشكو من طفحٍ أرجواني ضاربٍ للسوادِ.

قبالتهُ تماماً جلسَ الإيرل ويليام وزوجتهُ فيليبا مع ابنيهما البالغين رولاند وريتشارد وابنتهما الأصغر أوديلا التي كانت في الرابعة عشرة. حكمَ ويليام المقاطعةَ بالطريقةِ نفسها التي حكمَ بها والدهُ، بنظامٍ وعدلٍ وقبضةٍ من حديدٍ أحياناً. بدا ويليام قلقاً فقد كانَ تفشي الوباءِ في مقاطعتهِ أمراً لا يستطيعُ التحكمَ بهِ مهما كانَ قاسياً بينما أحاطت فيليبا بذراعها ابنتها كأنّها تحميها.

بجانبهم جلسَ السير رالف الذي كانَ الآن سيدَ قريةِ تينش، ولأنّه لم يكن ماهراً أبداً في إخفاءِ مشاعرهِ فقد بدا مرتاعاً. كانت زوجتهُ الصغيرةُ تحملُ صبياً صغيراً جداً عمّده غودوين مؤخراً باسم جيرالد، على اسمِ جدهِ الواقف بقربِ مود جدةِ الطفلِ.

تحرّكت عينا غودوين على طولِ الصفِّ لتقعَ على ميرثن شقيق رالف. عندما عادَ ميرثن من فلورنسا تمنى غودوين أن تتخلى كاريس عن نذورها وتتركَ الدير. اعتقدَ أنّها لن تكونَ مصدرَ إزعاجٍ كبيرٍ إن أصبحت زوجةَ أحدِ

المواطنين ولكن هذا لم يحصل. كانَ ميرثن يمسكُ بيدِ ابنتِهِ الإيطاليةِ الصغيرةِ وبجانبِهِ جلست بيسي ابنةُ صاحبِ نزل بيل الذي وقعَ ضحيةَ الوباءِ.

ليسَ ببعيدٍ عن عائلةِ ميرثن جلسَ إلفريك مع ابنتِهِ غريزيلدا والصبي الصغير الذي أسموه ميرثن والذي كانَ الآن في العاشرةِ ومعهم جلسَ البناء هاري الذي تزوجَ من غريزيلدا بعدَ أن يئست من ملاحقةِ ميرثن والزواجِ منهُ. إلى جانبِ إلفريك جلست زوجةُ إلفريك الثانيةِ وابنةُ خالِ غودوين أليس. لاحظ غودوين أن إلفريك لم ينزل عينيهِ عن السقفِ المؤقتِ الذي بناهُ فوقَ الممرِ إلى أن ينتهي من أعمالِ هدمِ البرجِ. ربما كانَ ينظرُ في استحسانٍ إلى عملِهِ أو كانَ قلقاً حيالهُ.

كانَ غيابُ هنري مونز أسقف شايرنغ واضحاً لأن الأسقفَ عادةً ما يقومُ بموعظةِ عيد الميلادِ. لم يأتِ هنري بسببِ وفاةِ العديد من رجالِ الدينِ جرَّاء الوباءِ وانشغالِهِ بزيارةِ الأبرشياتِ والبحثِ عن بدلاء للكهنةِ المتوفين، وهناك أحاديث عن تساهلٍ في شروطِ اختيارِ الكهنةِ وترسيم من أعمارهم تقلُّ عن الخامسةِ والعشرين بل وقبول رجالٍ لقطاء أيضاً.

تقدَّمَ غودوين إلى الأمامِ ليبدأ كلامهُ. كانت أمامهُ مهمةٌ حساسةٌ فهو يحتاجُ إلى إثارةِ الخوفِ والكرهِ نحو أكثر الشخصياتِ شهرةً في كينغزبريدج. كانَ عليهِ أن يقومَ بهذا من دونِ ذكرِ الاسمِ، بل ومن دونِ أن يدعَ الناسَ يعتقدون أنّه يعاديها. يجبُ أن ينقلبوا عليها في غضبٍ وعندما يفعلونَ هذا يجب أن يكونوا على قناعةٍ بأنَّ هذهِ فكرتهم وليست فكرتَهُ.

لم يكن تقديم عظةٍ في جميعِ المراسمِ أمراً حتمياً فهي تقتصرُ على الاحتفالياتِ الكبيرةِ التي يؤمها جمهورٌ كبيرٌ وعندها كانَ غودوين يخاطبُ الرعيةَ أحياناً من دونِ وعظٍ. عادةً ما يتطرقُ إلى الإعلاناتِ أو الرسائلِ من رئيسِ الأساقفةِ أو الملكِ التي تتناولُ أحداثاً وطنيةً كالانتصاراتِ العسكريةِ أو الضرائبِ أو المواليد الملكيين أو الوفيات. ولكن اليومَ لم يكن كأيِّ يومٍ آخر.

«ما هو المرضُ؟» قال غودوين ورغمَ الهدوء الذي كان يعمُّ الكنيسةَ إلّا أن أفرادَ الرعيّةِ هدأوا أكثر في أماكنهم فقد كان هذا السؤال الذي طرحهُ الجميعُ على أنفسهم.

«لماذا يرسلُ الرَّبُّ المرضَ والأوبئةَ ويعذبنا ويقتلنا؟» ووقعت عيناه على والدتِهِ واقفةً خلفَ إلفريك وأليس وتذكرَ على حينِ غرَّةٍ تنبؤها بموتها قريباً. ولوهلةٍ تجمَّدَ في مكانِهِ وقد شلَّهُ الخوفُ فعجزَ عن متابعةِ الكلامِ. أخذَ أفرادُ

الرعيةِ يتململونَ في نفاد صبرٍ وعندما أحسَّ بأنّه بدأ يخسرُ انتباههم انتابهُ الرعبُ وزادَ هذا من سوءِ الشللِ الذي شعرَ بهِ إلّا أن الشعور الآني بالعجزِ انحسرَ في نهاية المطافِ.

«المرضُ عقابٌ على الخطيئةِ»، تابعَ غودوين. كان على مدارِ السنواتِ قد طورَ أسلوباً في الوعظِ فهو لم يكن صاخباً وغوغائياً كالأخِ موردو بل تحدثَ بأسلوبٍ حواري كرجلٍ عقلاني. تساءلَ في نفسهِ إن كان هذا الأسلوب مناسباً لبثِ الكرهِ في نفوسِ الحاضرين ولكن فيليمون أخبرهُ بأنَّ هذا الأسلوب يجعلهُ أكثرَ إقناعاً.

«الوباء مرضٌ يرسلهُ الرَّبّ كعقابٍ خاصٍ». سرى صوتٌ جماعي خفيضٌ يقعُ بينَ الهمهمةِ والأنينِ من الحشدِ. كانَ هذا ما أرادوا سماعهُ ولهذا تشجّع غودوين وأكملَ كلامهُ.

«يجبُ أن نسألَ أنفسنا عن الخطايا التي ارتكبناها لنستحقَّ هذهِ العقوبة». وعندما قالَ هذا لاحظَ أنَّ مادج ويبر تقفُ وحدها. في آخر مرَّةٍ أتت فيها إلى الكنيسةِ كانَ معها زوجٌ وأربعةُ أطفالٍ. كانَ قد فكرَ بالتطرقِ إلى اغتناء مادج من الأصبغةِ المصنوعةِ بأساليبِ السحرِ ولكنَّه قررَ ألا يلجأ إلى هذا التكتيك فقد كانت مادج شخصيةً محبوبةً ومحترمةً جداً.

«أقولُ لكم إنَّ الرَّبَّ يعاقبنا على الهرطقةِ. هناك أناسٌ في هذا العالمِ وفي هذهِ المدينةِ بل وحتَّى في هذهِ الكاتدرائيةِ العظيمةِ اليوم من يشككونَ بسلطةِ كنيسةِ الرَّبِّ المقدسةِ وكهنتها. إنهم يشككونَ بالقداسةِ التي تحول الخبزَ إلى جسدِ المسيحِ وهم ينكرونَ جدوى قداسِ الموتى، ويدّعونَ أنَّ الصلاةَ أمامَ تماثيلِ القديسين عبادةُ أصنامٍ». هناك هرطقات معروفةٌ يناقشها الطلابُ الكهنةُ في أكسفورد ولم يكن سوى قلة من الناسِ في كينغزبريدج مُهتمين بهذهِ السجالاتِ ولذلكَ رأى غودوين الخيبةَ والمللَ على وجوهِ الحشدِ فأضافَ بيأسٍ: «هناك أناسٌ في هذهِ المدينةِ يمارسونَ السحرَ».

جذبت هذهِ العبارةُ الاهتمامَ مجدداً لأنَّ شهقةً جماعيةً سرت بينَ الحاضرين.

«يجبُ أن نكون متيقظين من هذا الدينِ المزيفِ»، قال لهم. «تذكروا أنَّ الرَّبَّ وحدهُ من يشفي من المرضِ وأنَّ الصلاة والاعترافَ والمناولة والتوبة كلها علاجاتٌ مُصادقٌ عليها في الدين المسيحي»، ثمَّ أضافَ بصوتٍ أعلى: «وكل ما عداهُ تجديفٌ!»

وقررَ أن هذا الكلامَ لم يكن واضحاً بما يكفي وأنَّه بحاجةٍ إلى التحدثِ بوضوحٍ أكبر.

«إن أنزل بنا الرَّبُّ عقوبةً وحاولنا الهربَ منها ألا نكونُ بذلكَ نتحدى إرادتهُ؟ يجبُ أن نصلي ليغفرَ لنا وربما بحكمتهِ قد يشفينا فالعلاجاتُ المهرطقةُ لن تفيدَ في شيءٍ سوى في زيادةِ الطينِ بلَّةً». كانَ الجمهورُ منتشياً وتحمَّسَ غودوين أكثر فأضاف: «أحذركم! إنَّ التعويذات السحريةِ وطلبَ المساعدة ممن يتحدثون بالخرافاتِ واللجوء إلى الممارساتِ غير المسيحيةِ، بخاصةِ الممارساتِ الوثنيةِ، سحرٌ وهي مرفوضةٌ في كنيسةِ الرَّبِّ المقدسةِ».

كانَ الجمهور الحقيقي الذي خاطبهُ اليوم هو الاثنتين والثلاثين راهبةً خلفهُ في جوقةِ المرتلين وحتَّى الآن لم تعلن سوى القليلات منهن عن معارضتهن لكاريس ودعمهن لإليزابيث من خلالِ رفضِ ارتداءِ القناعِ الواقي من الوباءِ، وبالنظرِ إلى الوضعِ الراهنِ سيكونُ فوزُ كاريس في انتخاباتِ الأسبوعِ القادمِ سهلاً ولذلك كان غودوين بحاجةٍ إلى إيصالِ رسالة واضحة إلى الراهباتِ ومفادها أنَّ أفكارَ كاريس الطبيةَ أفكارٌ مهرطقةٌ.

«والمذنبُ بممارسةِ هذهِ الأساليب...»، وتوقفَ لتصعيدِ التوتر في الأجزاءِ ثمَّ انحنى إلى الأمامِ وهو يحدقُ إلى الرعيةِ وتابع: «في المدينةِ...»، والتفتَ لينظرَ خلفهُ إلى الرهبانِ والراهباتِ في الجوقةِ، «أو حتَّى في الديرِ...» ثمَّ عادَ بنظره إلى الرعيةِ، «أقولُ إنَّ من تثبت عليه هذهِ التهمةُ سيُنبذُ»، ومرَّةً أخرى توقفَ عن الكلامِ بشكلٍ درامي ليختتم بقوله: «وتترك أرواحهم لرحمةِ الرَّبِّ».

-61-

دُفنَ بيل والد بيسي قبلَ ثلاثةِ أيام على عيدِ الميلادِ ودُعي جميعُ من وقفَ في المقبرةِ القارسةِ في بردِ شهرِ كانون الأول/ ديسمبر إلى حانةِ بيل لتناولِ مشروبٍ تكريماً لذكراهِ. باتت ابنتهُ بيسي الآن مالكةَ المكانِ ولم تكن راغبةً بالحدادِ على والدها وحدها لهذا وزعت بسخاءٍ على الحاضرين أفضلَ جعةٍ لديها بينما عزفَ ليني فيدلير على آلة موسيقيةٍ بخمسةِ أوتارٍ ألحاناً حزينةً جيشت عواطفَ الحاضرين إلى درجةِ البكاءِ عندما بدأوا يثملون.

جلسَ ميرثن مع لولا في الزاويةِ. كان قد اشترى لها من السوقِ البارحةَ قليلاً من زبيب كورنيث الحلو الذي يعدُّ من الحلويات الفاخرةِ. تقاسمهُ ميرثن مع

لولا وعلّمها العدَّ في الوقتِ عينهِ. أحصى تسعَ حباتٍ لنفسهِ وعندما عدَّ تسعَ حباتٍ لها تجاوزَ رقماً بين كلِّ رقمين.

«واحد، ثلاثة، خمسة، سبعة، تسعة».

«لا!» قالت لولا. «هذا ليسَ صحيحاً!» كانت تضحكُ لعلمها أنّه يحاولُ ممازحتها.

«ولكني عددتُ إلى التسعة»، احتجَّ ميرثن.

«ولكن لديكَ أكثر مما لدي».

«حسناً، كيفَ حدثَ هذا؟»

«لم تحصها بشكلٍ صحيحٍ أيُّها الأحمق».

«إذاً، من الأفضلِ أن تحصيها بنفسكِ إن كانَ بوسعكِ العدُّ بشكلٍ أفضل».

جلست بيسي معهما وقد كانت في أفضلِ أثوابها الذي كانَ ضيقاً بعضَ الشيء.

«هل يمكنني أن أحصلَ على بعضِ الزبيبِ؟» سألت بيسي.

«أجل»، قالت لولا. «ولكن لا تدعي والدي يحصيها».

«لا تقلقي»، قالت بيسي. «فأنا أعرفُ حيلهُ».

«إليكِ الزبيب»، قال ميرثن لبيسي. «واحد، ثلاثة، تسعة، ثلاثةَ عشر.. أوه ثلاثَ عشرةَ حبةً عددٌ كبير. من الأفضل أن أستعيدَ بعضها»، وأخذَ ثلاثَ حباتٍ، «اثنا عشر، أحد عشر، عشرة، إليكِ عشرُ حباتِ زبيبٍ».

ورأت لولا أن ما فعلهُ والدها مضحكٌ جداً فضحكت وقالت: «ولكنها لم تحصل سوى على واحدةٍ!»

«هل أخطأت في عدّها مجدداً؟»

«أجل»، قالت لولا ونظرت إلى بيسي ثمَّ أضافت: «إننا نعلمُ حيلكَ».

«فلتقومي بعدِّها إذاً».

فُتحَ البابُ ومعهُ دخلت هبَّةُ هواءٍ قارسٍ ثمَّ دخلت كاريس ملتفعةً في عباءةٍ ثقيلةٍ فابتسمَ ميرثن؛ ففي كلِّ مرَّةٍ يراها على قيدِ الحياةِ يبتهجُ.

نظرت بيسي إليها بحذرٍ إلا أنَّها خاطبتها بترحابٍ قائلةً: «أهلاً يا أختاه. لطيفٌ منك أن تتذكري والدي».

قالت كاريس: «تؤسفني خسارتكُ لهُ فقد كانَ رجلاً صالحاً». كانت كاريس

تتصرفُ بلباقةٍ أيضاً. رأى ميرثن أن كلتا المرأتين تريان نفسيهما كمتنافستين على حبهِ ولم يعرف ما الذي فعلهُ ليستحقَّ كل هذا الحبِ القوي منهما.
«شكراً لكِ»، قالت بيسي لكاريس. «هل ترغبينَ بكأسٍ من الجعةِ؟»
«هذا من لطفكِ ولكن شكراً فأنا أرغبُ بالتحدثِ إلى ميرثن».
نظرت بيسي إلى لولا وقالت: «هلَّا ذهبنا وشوينا بعضَ المكسراتِ على النارِ؟»
«أجل من فضلكِ!»
غادرت بيسي مع لولا.
«إنهما منسجمتان جداً بعضهما مع بعض»، قالت كاريس.
أومأ ميرثن ثمَّ قالَ: «تملكُ بيسي قلباً حنوناً وهي لا تملكُ أطفالاً».
بدت كاريس حزينةً وقالت: «أنا لا أملكُ أطفالاً... وقد لا أملكُ قلباً حنوناً أيضاً».
لمسَ ميرثن يدها وقال: «أنا خيرُ العارفين بأنكِ تملكين قلباً حنوناً يتسعُ للكثيرِ من الناسِ وليسَ لطفلٍ أو طفلين».
«لطيفٌ أن تراني بهذهِ الطريقةِ».
«هذهِ الحقيقةُ وهذا كلٌّ ما في الأمرِ، كيفَ هي أحوال المستشفى؟»
«لا تحتملُ فالمكانُ ممتلئٌ بالناسِ المحتضرين ولا يمكنني فعلُ شيءٍ لهم سوى دفنهم».
شعرَ ميرثن بموجةٍ شفقةٍ عليها فلطالما كانت شخصاً كفؤاً ويعتمدُ عليهِ إلَّا أنَّ التعبَ كانَ واضحاً عليها ولم تكن لتسمح لأحدٍ سواه بأن يراها على هذهِ الحالة. «تبدين متعبة»، قال لها.
«أنا كذلكَ والرَّبُّ وحدهُ يعلمُ».
«أفترضُ أنكِ قلقةٌ بخصوصِ الانتخاباتِ أيضاً».
«أتيتُ لأطلبَ مساعدتكَ في هذا الأمرِ».
أبدى ميرثن تردداً فقد كانَت مشاعر متضاربةٌ تمزقه. كان يريدها أن تحققَ طموحها وتصبح رئيسةَ الديرِ ولكنه أرادها أيضاً أن تصبحَ زوجتهُ. كان يربي أملاً أنانياً بأن تخسرَ الانتخابات وتتخلى عن نذورها وأشعرهُ هذا بالخجلِ من نفسهِ، ولكنه أيضاً أرادَ تقديم المساعدةِ لها في أيِّ شيءٍ تطلبهُ لأنَّه يحبها. «حسناً»، قال لها.

«لم تكن موعظةُ غودوين البارحة في مصلحتي».
«ألن تتخلصي من تلك التهمةِ القديمةِ بممارسةِ السحرِ؟ هذا سخيفٌ!»
«الناسُ أغبياء وكانَ للموعظةِ تأثيرٌ كبيرٌ على الراهباتِ».
«وبالطبعِ هذا ما أرادهُ».
«لا شكَّ في هذا فقد كانَ عددُ الراهبات اللواتي صدَّقنَ ما قالتهُ إليزابيث عن أنَّ الأقنعةَ الكتانيةَ ممارسةٌ وثنيةٌ وما من أحدٍ رفضَ ارتداء القناع سوى صديقاتها المقرباتِ وهنَّ كريسي وإلين وجيني وروزي وسيميون ولكن عندما سمعت الأخريات برسالةِ غودوين من على منبرِ الكاتدرائيةِ باتَ الأمرُ مختلفاً وتخلَّت الأخوات الأكثر حساسيةً عن ارتداءِ القناعِ الآن وتجنبت بعضهن الدخولَ إلى المستشفى بالمرةِ، وليسَ هناك سوى بضع راهباتٍ يرتدينهُ الآن، أنا وأربعُ راهباتٍ مقرباتٍ مني».
«هذا ما كنتُ أخشى حدوثهُ».
«وبموتِ الأمِّ سيسيليا ومير والراهبة العجوز جولي الآن لم يعد هناك سوى اثنين وثلاثينَ راهبةً يمكنهن التصويت الآن. من يفُزْ يجب أن يحصلَ على سبعةَ عشرَ صوتاً. لدى إليزابيث خمسُ راهباتٍ يدعمنها بقوةٍ وبعدَ عظةِ البارحةِ باتَ لديها إحدى عشرة راهبةً إضافيةً إلى صفها بينما لا أملكُ أنا سوى خمسةِ أصواتٍ وحتى إن كسبتُ الأصواتَ الرماديةَ فسأخسرُ الانتخابات».
شعرَ ميرثن بالغضبِ بالنيابةِ عنها فالرفضُ بهذهِ الطريقةِ مؤلمٌ بخاصةٍ بعدَ كلِّ ما فعلتهُ لديرِ الراهباتِ. «ما الذي يمكنني القيام بهِ؟»
«الأسقفُ أملي الوحيد والأخير فإن قررَ أن يكونَ ضدَّ إليزابيث وأعلنَ أنَّه لن يصادقَ على انتخابها فقد ينسحبُ بعضُ داعميها وقد أستعيدُ فرصتي بالفوز».
«وكيفَ يمكنكِ التأثيرُ عليه؟»
«لا يمكنني ولكنكَ تستطيع أو على الأقل تستطيعُ نقابةُ الأبرشيةِ التأثير عليهِ».
«أفترضُ هذا...»
«لديهم اجتماعٌ هذهِ الليلةَ وأفترضُ أنكَ ستكون حاضراً».
«أجل».
«هذا ما اعتقدتهُ. إنَّ غودوين يُحكمُ قبضةً خانقةً على المدينةِ وهو قريبٌ

من إليزابيث فعائلتها من المستأجرين لدى الديرِ ولطالما حرصَ غودوين على تفضيلهم. إن أصبحت إليزابيث رئيسةَ الديرِ ستكونُ خاضعةً له كإلفريك ولن يعودَ هناك معارضة حقيقية لغودوين داخل وخارج الديرِ وسيكون هذا كفيلاً بالقضاءِ على مدينةِ كينغزبريدج».

«هذا صحيح ولكن سواء وافقَ أعضاءُ النقابةِ على التوسط لدى الأسقفِ...» وفجأةً بدت كاريس محبطةً. «فلتحاول حتّى وإن رفضوا طلبك».

تأثر ميرثن عندما رآها يائسةً وتمنى لو أنّه يستطيعُ أن يكونَ أكثرَ تفاؤلاً وقال: «سأفعلُ هذا من كلِّ بدٍ».

«شكراً لكَ». ووقفت ثمَّ قالت: «لا بد أن مشاعر متضاربةً تنتابكُ حيالَ الأمرِ ولكن شكراً لكَ لأنّك صديقٌ حقيقي».

ابتسمَ بمرارةٍ فقد أرادَ أن يكونَ زوجها وليسَ صديقها ولكنه سيرضى بأيِّ شيءٍ قد تقدمهُ له، وخرجت من البابِ إلى بردِ الخارجِ.

انضمَّ ميرثن إلى لولا وبيسي عندَ نارِ الموقدِ وعاينَ قطعَ المكسراتِ المشويةِ إلا أنّه كانَ مشغولَ البالِ. كانَ نفوذُ غودوين خبيثاً وقوتهُ لا تتوقف عن النمو وتساءلَ ميرثن في نفسهِ عن السببِ. ربما لأنَّ غودوين رجلٌ طموحٌ وبلا ضمير وهذا مزيجٌ قوي.

عندما هبطَ الظلام وضعَ ميرثن لولا في السريرِ لتنامَ ودفعَ إلى ابنةِ الجيرانِ لتراقبها وتركت بيسي الحانة في عهدةِ النادلةِ سيري. سارَ ميرثن وبيسي متلفعين بعباءتين ثقيلتين على الطريقِ الرئيسي إلى غيلد هول لحضور اجتماعِ منتصفِ الشتاءِ لنقابةِ الأبرشيةِ.

في نهايةِ الغرفةِ الطويلةِ التي يجتمعونَ فيها كانَ هناك برميلُ الجعةِ المعتاد والمخصص للأعضاءِ وفكرَ ميرثن بأنَّ جو اللهو الصاخبِ المصاحبِ لعيد الميلادِ حماسي جداً هذا العام. شربَ أعضاءُ النقابةِ بكثرةٍ بعدَ جنازةِ بول بيلِ وبعض هؤلاءِ الناس لحقوا بميرثن إلى الداخلِ وملؤوا كؤوسهم مجدداً بكلِّ توقٍ كأنّهم لم يتذوقوا الجعةَ منذُ أسبوعٍ. ربما كانوا يحاولون نسيانَ الوباء بالإكثار من الشرابِ.

كانت بيسي من بينِ أربعةِ أشخاصٍ قُدموا كأعضاء جددٍ بينما كانَ الثلاثةُ الآخرون من كبارِ أبناءِ تجارٍ بارزين توفوا مؤخراً. كانَ ميرثن على ثقةٍ من أنَّ غودوين وبوصفهِ سيدَ المدينةِ مستمتعٌ بزيادةِ دخلهِ من ضريبةِ الإرثِ.

عندما انتهوا من مناقشةِ الأعمالِ الروتينيةِ في النقابةِ طرحَ ميرثن مسألة انتخابِ رئيسةِ الديرِ.

«هذا ليسَ من شأننا»، قالَ إلفريك على الفور.

«على العكس فالنتيجةُ ستؤثرُ على التجارةِ في هذهِ المدينةِ لسنواتٍ كثيرةٍ وربما لعقودٍ»، جادلهُ ميرثن. «إنَّ رئيسةَ الديرِ من أغنى وأقوى الشخصياتِ في كينغزبريدج، ولذلكَ علينا أنْ نحرصَ على أن نحصلَ على رئيسةِ ديرٍ لا تقومِ بشيءٍ من شأنهِ تقييدُ التجارةِ».

«ولكن لا يمكننا فعلُ شيءٍ فلا نملكُ حقَّ التصويتِ».

«لدينا النفوذ ويمكننا الالتماس إلى الأسقفِ».

«ولكن ما من أحدٍ قامَ بهذا من قبل».

«ولكن هذا لن يمنعنا من القيامِ بهِ».

قاطعهُ بيل واتكين قائلاً: «من المرشحات لرئاسةِ الديرِ؟»

أجابهُ ميرثن قائلاً: «أنا آسف فقد اعتقدتُ أنكم تعلمونَ. إنهما الأختُ كاريس والأخت إليزابيث وأعتقدُ أنه علينا دعمُ الأختِ كاريس».

«بالطبعِ أنتَ تدعمها»، قال إلفريك. «وجميعنا يعلمُ السببَ».

وسرت موجةٌ من الضحكِ في أرجاءِ المكانِ فالجميعُ يعلمُ بعلاقةِ الحبِ الطويلةِ بينَ ميرثن وكاريس.

ابتسمَ ميرثن وقال: «تابعوا الضحكَ فأنا لا أهتم ولكن تذكروا فقط أنَّ كاريس ابنةُ تاجرِ صوفٍ وساعدت والدها في عملهِ وهذا يعني أنَّها تفهمُ المشاكلَ والتحدياتِ التي يواجهها التجارُ بينما منافستها ابنةُ أسقفٍ ولذلكَ من المحتملِ أن تحابي رئيسَ الديرِ».

بدا وجهُ إلفريك شديدَ الاحمرارِ وفكر ميرثن بأنَّ هذا في جزءٍ منهُ يعود إلى إفراطهِ في الشراب إلا أنَّ السببَ الرئيسي هو غضبهُ. «لماذا تكرهني يا ميرثن؟» قال إلفريك.

فوجئ ميرثن بهذا السؤالِ. «اعتقدت أنّك أنتَ من يكرهني».

«لقد أغويتَ ابنتي ورفضتَ الزواجَ منها وحاولتَ منعي من بناءِ الجسرِ، وعندما اعتقدتُ أننا تخلصنا منكَ عُدتَ وقمتَ بإذلالي بسببِ تصدعاتٍ في الجسرِ. ورغم أنَّه لم يمضِ على عودتكَ سوى بضعة أيامٍ إلَّا أنك لم توفرْ جهداً لإقصائي كرئيسٍ للنقابةِ ووضعِ صديقكَ مارك مكاني بل ألمحتَ إلى أنَّ

التصدعات في الكاتدرائيةِ خطأي رغمَ أنني لم أكن مولوداً عندما بنيت ولذلكَ أسألكَ مجدداً لماذا تكرهني؟»

لم يعرف ميرثن بما يجيبهُ. كيفَ يمكنُ لإلفريك ألا يعرفَ ما فعلهُ بميرثن؟ ولكنه لم يرغب في دخولِ مثل هذا الجدال الطفولي أمامَ أعضاءِ الأبرشيةِ. «أنا لا أكرهكَ يا إلفريك. لقد كنتَ معلماً قاسياً عندما كنتُ متدرباً لديكَ وأنتَ بنَّاءٌ سيئ وألعوبةٌ بيدِ غودوين ولكني ورغمَ هذا لا أكرهكَ».

وقالَ أحدُ الأعضاءِ الجددِ ويدعى جوزيف بلاكسميث: «هل هذا ما تفعلونهُ في نقابةِ الأبرشيةِ... تتجادلون في مواضيع غبيةٍ؟»

شعرَ ميرثن كأنّه تعرضَ للاستغلال فلم يكن البادئ بهذا الجدالِ الشخصي ولكنه إن قالَ هذا فسيبدو الأمرُ كأنّه يستمرُ بالجدالِ ولذلكَ لم يقل شيئاً ورأى أنَّ ما قامَ بهِ إلفريك فعلٌ ماكرٌ.

«إنَّ جو على حقٍ»، قال بيل واتكين. «لم نأتِ إلى هنا لسماعِ هذرِ إلفريك وميرثن».

اضطربَ ميرثن عندما سمعَ بيل يضعهُ هو وإلفريك في الكفةِ ذاتها. عموماً، كانَ أعضاءُ النقابةِ يحبونهُ ويعادونَ إلفريكَ قليلاً منذُ خلافهما حولَ تصدعاتِ الجسرِ. في الحقيقةِ كانوا سيُقصون إلفريك لو لم يمت مارك ولكن الأمورَ تغيرت.

قال ميرثن: «هل يمكننا العودةُ إلى موضوعِ التماسنا للأسقفِ كي يختارَ كاريس رئيسةً للديرِ؟»

«أنا أرفضهُ»، قال إلفريك. «رئيسُ الدير غودوين يريدُ إليزابيث».

وعلا صوتٌ جديدٌ قائلاً: «أنا مع إلفريك فنحن لا نريد أيّ مشكلة مع الأب رئيسِ الديرِ». كانَ صوتُ مارسيل تشاندلر ولأنّه المقاول المسؤول عن تزويدِ الديرِ بالشموعِ وهذا يعني أن غودوين أكبرُ زبائنهِ لم يتفاجأ ميرثن بموقفهِ.

على أيِّ حالٍ كانت صدمتهُ أكبر في المتحدث التالي.

قالَ البناء جيرمايا: «لا أعتقدُ أنه علينا تفضيلُ شخصٍ متهم بالهرطقةِ». وبصقَ على الأرضِ مرتين، مرّةً إلى اليسارِ ومرّةً إلى اليمين، ثمَّ رسمَ إشارةَ الصليبِ.

كانَ ميرثن متفاجئاً جداً إلى درجةٍ عجزَ فيها عن الرَّدِ. لطالما كانَ جيرمايا شخصاً متطيراً بشدةٍ، ولكن ميرثن لم يتخيل قط أن يقودهُ هذا إلى خيانةِ معلمهِ.

وانبرت بيسي إلى الدفاعِ عن كاريس قائلةً: «لطالما كانت تهمةً باطلةً».

«ولكنها لم تُبرأ أيضاً»، قال جيرمايا.

حدَّقَ ميرثن إليه ولكن جيرمايا لم ينظر إليهِ. «ما الذي جرى لكَ يا جيمي؟»

«لا أريدُ أن أموتَ من الوباءِ»، قال جيرمايا. «لقد سمعتَ الموعظةَ ويجبُ نبذ أيّ شخصٍ يمارسُ العلاجاتِ الوثنيةَ وها نحنُ هنا نتحدثُ عن الالتماسِ للأسقفِ لجعلِها رئيسةَ الديرِ وهذا ليسَ نبذاً!»

وعلت همهمةُ موافقةٍ بين الحاضرين فأدركَ ميرثن أنَّ الآراءَ لم تعد في مصلحته. رغم أن الآخرين لم يكونوا سُذجاً كجيرمايا إلا أنَّهم كانوا يشاركونهُ خوفهُ. لقد أثارَ الوباءُ رعبهم وقوضَ تفكيرهم العقلاني وكانت لموعظةِ غودوين تأثيرٌ أكبر من الذي تخيلهُ ميرثن.

كانَ على وشكِ الاستسلام وعندما فكرَ بكاريس وكيف بدت قلقةً ومحبطةً قرّرَ أن يحاولَ إقناعهم مرّةً أخرى. «لقد مررتُ بهذا قبلاً عندما كنتُ في فلورنسا»، قال ميرثن. «أنا أحذركم، لن ينقذكم الكهنةُ والرهبانُ من الوباءِ. ها أنتم تسلمونَ المدينةَ إلى غودوين على طبقٍ من فضةٍ وكلّ هذا مقابل لا شيء».

قال جيرمايا: «هذا كلامٌ أقربُ إلى الهرطقةِ».

نظرَ ميرثن حولهُ ورأى أن بقيةَ الحاضرين يوافقون جيرمايا وخائفونَ جداً من التفكيرِ بشكلٍ صحيحٍ وأدركَ أنه لم يعد قادراً على القيام بأكثرِ مما قامَ بهِ.

قرروا ألا يتدخلوا في انتخاباتِ رئيسةِ الديرِ فسرعان ما انفضَّ الاجتماعُ. ساد المكان جو سيئ وتناولَ أعضاءُ النقابةِ أعواداً وأشعلوها من نارِ الموقدِ ليضيئوا طريقهم إلى المنزلِ.

قرّرَ ميرثن أنَّ الوقت متأخرٌ جداً على نقلِ الخبرِ إلى كاريس فالراهباتُ كالرهبانِ يخلدنَ إلى النومِ عندَ هبوطِ الظلامِ ويستيقظنَ في ساعاتِ الصباحِ الباكرةِ ولكنه رأى خيالَ شخصٍ متلفعٍ بعباءةٍ صوفيةٍ واسعةٍ خارج غيلد هول وتفاجأ عندما كشفَ نورُ مشعلهِ عن وجهِ كاريس المضطربِ.

«ما الذي حدثَ» قالت كاريس بقلقٍ.

«لقد فشلت»، قال لها. «أنا آسفٌ».

على ضوءِ نارِ المشعلِ بدت مجروحةً. «ما الذي قالوه؟»

«إنهم لن يتدخلوا وإنَّهم يصدقون ما جاءَ في الموعظةِ».

«أغبياء».

سارا في الشارعِ الرئيسي وعندَ بواباتِ الديرِ قالَ ميرثن: «فلتغادري الديرَ يا كاريس. لا تفعلي هذا من أجلي بل من أجلكِ فلا يمكنكِ العمل تحتَ إمرةِ إليزابيث فهي تكرهكِ وستعارض كل شيءٍ ستقومين بهِ».

«ولكنها لم تربح بعد».

«ستربحُ في النهايةِ وأنتِ من قالَ هذا. تخلي عن نذوركِ وتزوجي بي».

«إنَّ الزواجَ نذرٌ وإن تخليتُ عن نذوري للرَّبِّ فكيفَ ستثقُ بنذري لكَ؟»

ابتسمَ وقال لها: «سأخاطرُ».

«دعني أفكرُ في الأمرِ».

«أنتِ تفكرينَ في الأمرِ منذُ شهورٍ»، قال ميرثن في امتعاضٍ. «إن لم تغادري الآن فلن تغادري أبداً».

«لا يمكنني المغادرةُ فالناسُ الآن في حاجةٍ إلي أكثر من أيِّ وقتٍ مضى».

بدأ الغضبُ ينتابهُ وقال: «لن أستمرَّ بسؤالكِ».

«أعلمُ».

«في الحقيقةِ قررت أنني بعدَ هذهِ الليلةِ لن أسألك مجدداً».

بدأت تبكي ثمَّ قالت: «أنا آسفة ولكنني لا أستطيعُ التخلي عن المستشفى وسطَ الوباءِ».

«المستشفى؟»

«وسكان المدينةِ».

«ولكن ماذا عن نفسكِ؟»

أضفى ضوءُ مشعلهِ على عينيها بريقاً. «إنهم يحتاجونني بشدةٍ»، قالت له.

«إنهم جاحدون... جميعهم، الراهبات والرهبان وسكانُ المدينةِ. رباه يجبُ ألا أنسى هذا».

«لن يشكلَ هذا أيّ فرق».

أومأ برأسهِ مُقراً بقرارها وقامعاً غضبةُ الأناني ثمَّ قال: «إن كانَ هذا ما تشعرينَ بهِ فعليكِ أن تقومي بواجبكِ».

«شكراً لكَ على تفهمكَ».

«كنتُ أتمنى لو أنَّ الأمورَ سارت بشكلٍ مختلفٍ».

«وأنا أيضاً».

«من الأفضلِ أن تأخذي هذا المشعل».

«شكراً لكَ».

أخذت الغصنَ المشتعلَ من يدهِ واستدارت. راقبها وهي تبتعدُ وفكرَ في نفسهِ: هل هذهِ هي النهايةُ؟ هل هذا كل شيءٍ؟ سارت مبتعدةً في مشيةٍ مميزةٍ، مشيةٍ حازمةٍ وواثقةٍ، إلّا أنَّ رأسها كانَ مطأطأً. دخلت من البوابةِ واختفت.

تسربَ ضوءٌ وهاجٌ من بين شقوقِ مصاريع النوافذِ والبابِ في نزلِ بيل. دخلَ ميرثن إلى الحانةِ.

كان آخرُ الزبائن يلقون تحيةَ وداعٍ ثملةً وسيرسي تجمعُ الأكواب وتمسح الطاولات. تفقدَ ميرثن لولا التي غطَّت بالنومِ على الفور ودفعَ للفتاةِ التي كانت ترعاها. فكرَ بالخلودِ إلى النومِ ولكنه كانَ يعلم أنّه لن يغمضَ له جفنٌ فقد كانَ متضايقاً جداً وتساءلَ في نفسهِ عن سببِ نفاد صبرهِ هذهِ الليلةَ بالتحديد. لقد تمكنَ منهُ الغضب وأدركَ الآن بعد أن هدأت أعصابه أن منبعَ هذا الغضبِ هو الخوف. اكتشفَ أن تحتَ كل ذلكَ الغضبِ رعباً حقيقياً من أن تُصاب كاريس بالوباءِ وتموت.

جلسَ على المقعدِ في غرفةِ الجلوسِ في النُزلِ وخلعَ جزمتهُ. بقي في مكانهِ يحدقُ إلى النارِ ويتساءلُ عن سببِ عدمِ حصولهِ على الشيءِ الوحيد الذي يريدهُ في حياتهِ.

دخلت بيسي وعلَّقت عباءتها. غادرت سيرسي وأغلقت بيسي المكانَ ثمَّ جلست قبالةَ ميرثن على الكرسي الكبير الذي اعتادَ والدها الجلوسَ عليهِ. «يؤسفني ما حصلَ في النقابةِ»، قالت له. «لا أعرفُ مع من الحق ولكني أعلمُ أنَّ أملكَ قد خابَ».

«شكراً لكِ على دعمكِ بكلِ الأحوالِ».

«لطالما دعمتني».

«ربما حانَ الوقتُ لأتوقفَ عن التورط في معاركِ كاريس».

«أوافقكَ على هذا ولكني أرى أنَّ هذا يجعلكَ حزيناً».

«حزيناً وغاضباً، يبدو أنني أضعتُ حياتي وأنا أنتظرُ كاريس».

«الحبُ ليسَ مضيعةً للوقتِ».

رفعَ نظرهُ إليها متفاجئاً بكلامها وبعدَ فترةِ صمتٍ وجيزةٍ قالَ: «أنتِ شخصٌ حكيمٌ».

«لا يوجدُ أحدٌ في المنزلِ هنا سوى لولا»، قالت له. «جميعُ زوارِ عيدِ الميلادِ قد غادروا». ثمَّ نهضت عن كرسيها وركعت أمامهُ. «أريد أن أريحكَ»، قالت له. «بأيِّ طريقةٍ ممكنةٍ».

نظرَ إلى وجهها المدور اللطيف وشعرَ بشيءٍ ما في جسدهِ يتحركُ. لقد مضى وقتٌ طويلٌ مُذ حضنَ جسداً أنثوياً ناعماً ولكنه هزَّ رأسهُ وقال: «لا أريدُ استغلالك».

ابتسمت له وقالت: «أنا لا أطلبُ منكَ الزواجَ ولا حتَّى أن تحبني. لقد دفنتُ والدي للتو وأنتَ تعرضت للخيبةِ من كاريس وكلانا بحاجةٍ إلى حضنٍ حنونٍ ليروح عنا».

«لتخديرِ الألمِ ككأسٍ من النبيذ».

أخذت يدهُ وقبّلت راحتها ثمَّ قالت: «بل أفضلُ من النبيذِ»، قالت له ووضعت يدَهُ على ثدييها الكبيرينِ والطريين. تنهدَ ميرثن وهو يداعبهما ثمَّ رفعت وجهها للأعلى وانحنى ليقبّلَ شفتيها فأطلقت آهةً قصيرةً من المتعةِ. كانت القبلةُ لذيذةً كشرابٍ باردٍ في يومٍ حارٍ ولم يرغب قط بالتوقفِ.

وأخيراً أفلتتهُ وهي تتنهدُ ثمَّ وقفت باستقامةٍ أمامهُ وخلعت ثوبها. بدا جسدها العاري في ضوءِ النارِ وردياً. كانت ممتلئةَ الوركين والبطن وبدا ثدياها ريانين، ومن مكانهِ على الكرسي وضعَ يديهِ حولَ خصرها وجذبها نحوهُ. قبّلها على بشرةِ بطنها الدافئةِ وعلى حلمتي ثدييها الورديين ثمَّ نظرَ إلى وجهها الموردِ وقال: «هل تريدين الصعود إلى الطابقِ العلوي؟»

«لا»، قالت له بأنفاسٍ مبهورةٍ ثمَّ أضافت: «فأنا لا أستطيعُ الاحتمال أكثر من هذا».

-62-

أُجريت انتخاباتُ رئيسةِ الديرِ في اليومِ التالي لعيدِ الميلادِ وصباحَ ذلكَ اليوم انتابَ كاريس يأسٌ شديدٌ شعرت معه بصعوبةٍ في النهوضِ من السريرِ. عندما قُرِعَ الجرسُ إيذاناً بموعدِ الصلاةِ في ساعاتِ الفجرِ المبكرةِ شعرت بإغراءِ دفنِ رأسها تحتَ الأغطيةِ والقولِ إنَّها لم تكن على ما يرام ولكن هناكَ العديد من الناسِ المحتضرين في المستشفى ولهذا أجبرت نفسها في النهايةِ على النهوضِ.

جرَّت نفسها عبرَ بلاطِ الممرِ المسقوفِ البارد كالجليدِ إلى جانبِ إليزابيث فكلتاهما الآن تقودان رتلَ الراهباتِ إلى الكنيسةِ، وتمَّت الموافقةُ على هذا البروتوكول لأنَّ كاريس وإليزابيث لم تتنازلا بعضهما لبعض خلالَ تنافسهما في الانتخاباتِ. ولكن كاريس لم تعد تبالي فقد كانت النتيجةُ محسومةً. وقفت في جوقةِ المرتلين تتثاءبُ وترتجفُ خلالَ غناءِ المزاميرِ والقراءاتِ من الإنجيل. كانت غاضبةً لأنَّه وفي وقتٍ لاحقٍ من هذا اليوم ستُنتخبُ إليزابيث رئيسةً للديرِ. كانت كاريس ممتعضةً من الراهباتِ لأنهنَّ رفضنها وكرهت غودوين على عدائه لها واحتقرت تجار المدينةِ على رفضهم التدخلَ في الانتخابات.

شعرت كاريس كأنَّ حياتها بأكلمها فاشلةٌ فهي لم تبنِ المستشفى الجديد الذي كانت تحلمُ بهِ وها هي الآن لن تحصلَ عليهِ أبداً.

كانت أيضاً ممتعضةً من ميرثن لأنه قدَّمَ عرضاً لا يمكنها قبولُه وبدا كأنّه لا يتفهم موقفها، فبالنسبةِ لهُ كان همّه زواجهما إضافةً لحياتهِ كمعماري أمَّا بالنسبةِ لها فالزواجُ سيكونُ بديلاً عن العملِ الذي كرَّست حياتها من أجلهِ ولهذا السببِ ولسنواتٍ عديدةٍ كانت مترددةً في قبولهِ. لم يكن السببُ قط عدم رغبتها بميرثن بل على العكسِ كانت تتوقُ إليهِ بجوعٍ بالكادِ تستطيعُ احتمالهُ.

رددت آخرَ الكلماتِ وراءَ الجوقةِ وعندها وبشكلٍ مكانيكي خرجت من الكنيسةِ في مقدمةِ الرتلِ. وبينما كانت الراهباتُ يعبرنَ الممرَّ المسقوفَ مرَّةً أخرى عطست إحداهن من ورائها إلَّا أنها كانت محبطةً جداً على النظرِ إلى الوراءِ ومعرفةِ هويةِ من عطسَ.

صعدت الراهبات الدرجَ وتوجهنَ إلى المهجعِ وعندما دخلت كاريس إلى الغرفةِ سمعت تنفساً ثقيلاً وأدركت أنَّ إحدى الراهباتِ قد تلكأت في الخلفِ. كشفَ ضوءُ شمعةِ كاريس عن وجهِ القيِّمةِ الجديدةِ، الأختِ سيمون، التي كانت في منتصفِ العمرِ وامرأةً صارمةً وملتزمةً وليست من النوعِ الذي يحتجُّ بالمرضِ. ربطت كاريس قطعةً من الكتانِ حولَ وجهها ثمَّ ركعت بقربِ فراشِ سيمون ووجدتها تتعرقُ والتعبُ بادٍ عليها.

قالت كاريس: «كيفَ تشعرين؟»

«بكثيرٍ من السوء»، قالت سيمون. «لقد راودتني أحلامٌ غريبةٌ».

لامست كاريس جبهتها ووجدتها مشتعلةً من الحرارةِ.

قالت سيمون: «هلَّا ناولتني شيئاً لأشربهُ؟»

«فوراً».

«أعتقدُ أنَّه مجردُ زكامٍ».

«إنَّك تعانين من الحمى دونَ أدنى شكٍ».

«أنا لم أصب بالوباء صحيح؟ الأمرُ ليسَ بهذا السوءِ».

«سنأخذكِ إلى المستشفى على الفورِ»، راوغت كاريس. «هل يمكنكِ المشي؟»

جاهدت سيمون للوقوفِ على قدميها وأخذت كاريس بطانيةً من على السريرِ ولفت بها كتفي سيمون.

وعندما توجهتا إلى البابِ سمعت كاريس أحداً آخر يعطسُ ورأت هذهِ المرة صديقةَ سيمون أمينةَ السجلاتِ الممتلئةَ الأختَ روزي. أمعنت كاريس النظرَ إلى روزي ولاحظت أنَّها بدت مرتعبةً.

نادت كاريس بشكلٍ عشوائي على راهبةٍ أخرى وقالت: «أيتها الأختُ كريسي خُذي سيمون إلى المستشفى بينما أقوم بمعاينةِ روزي».

أمسكت كريسي بذراعِ سيمون وقادتها عبرَ الدرجِ.

رفعت كاريس الشمعةَ إلى الأعلى لترى وجهَ روزي واكتشفت أنها أيضاً تتعرقُ بغزارةٍ أيضاً. سحبت كاريس ياقةَ رداءِ روزي للأسفلِ ورأت طفحاً قرمزياً فوقَ كتفيها وثدييها.

«لا»، قالت روزي. «رجاءً لا».

«قد لا يكونُ الأمرُ خطيراً»، كذبت كاريس.

«لا أريدُ الموتَ بالوباءِ!» قالت روزي بصوتٍ مهزوزٍ.

قالت كاريس بهدوءٍ: «حافظي على هدوئكِ ورافقيني». ثمَّ أمسكت بذراعِ روزي بإحكامٍ.

قاومت روزي قائلةً: «لا سأكونُ على ما يرام!»

«حاولي أن تصلي»، قالت كاريس. «تعالي أيتها الأخت إيڤ ماريا».

بدأت الأختُ روزي بالصلاةِ وبعدَ وهلةٍ تمكنت كاريس من أخذها إلى المستشفى.

اكتظَّ المستشفى بالناسِ المحتضرين وعوائلهم وكانوا جميعاً يقظين رغمَ أنَّ الوقتَ مازالَ مبكراً. علقت في الجو رائحةٌ غريبةٌ وهي مزيجٌ من عرقٍ

الأجسادِ والقيءِ والدمِ. كانت الإضاءةُ القادمةُ من مصابيح الشحمِ والشموعِ على المذبحِ ضعيفةً وهناك بضعُ راهباتٍ يعتنين بالمرضى ويحضرن الماءَ وينظفنَ المكانَ. بعضهن ارتدينَ القناعَ وأخرياتٍ كنَّ من دونهِ.

كانَ الأخُ جوزيف في المستشفى أيضاً فقد كانَ أكبرَ الأطباءِ الرهبانِ عُمراً ومحبوباً بين الناس، وهو الآن يؤدي الطقسَ الأخير لرئيسِ نقابةِ الصاغةِ ريك سيلفرز وقد انحنى فوقَ رأسِ الرجل بينما همسَ الأخير باعترافهِ وأولادهُ وأحفادهُ من حولهِ.

أفسحت كاريس مكاناً لروزي وأقنعتها بالاستلقاءِ ثمَّ أحضرت إحدى الراهباتُ كأساً من مياهِ النافورةِ النقيةِ. استلقت روزي بهدوءٍ إلا أنَّ عينيها كانتا تتحركان في جميعِ الاتجاهاتِ بقلقٍ. كانت تعرفُ مصيرها ولذلكَ كانت خائفةً. «سيأتي الأخُ جوزيف ويراكِ قريباً»، قالت لها كاريس.

«كنتِ على حق أيتها الأخت كاريس»، قالت روزي.

«ما الذي تعنيه؟»

«كنتُ أنا وسيمون من بين صديقاتِ إليزابيث المقربات اللواتي رفضنَ ارتداءَ القناعِ. انظري إلى ما حلَّ بنا نحن الاثنتين».

لم تفكر كاريس بهذا. هل سيكون موتُ من عارضوها إثباتاً قطعياً على صحةِ كلامها؟ ولكنها كانت تفضلُ أن تكونَ مخطئةً على أن يموت أحدٌ.

ذهبت لمعاينةِ سيمون التي كانت مستلقيةً وممسكةً بيدِ كريسي، ورغم أن سيمون أكبر وأهدأ من روزي فإنَّ عينيها وقبضتها المحكمة بقوةٍ على يدِ كريسي فضحت خوفاً كبيراً.

حدَّقت كاريس إلى كريسي ورأت بقعةً داكنةً فوقَ شفتها فمدَّت كاريس يدها ومسحتها بكُمها.

كانت كريسي أيضاً من بين المجموعةِ الأولى التي رفضت ارتداء القناعِ.

نظرت كريسي إلى كُمِّ كاريس وسألت: «ما هذا؟»

«دمٌ»، أجابت كاريس.

***

أُقيمت الانتخابات في غرفةِ الطعامِ بعدَ ساعةٍ على الانتهاء من تناولِ الغداءِ.

جلست كاريس وإليزابيث جنباً إلى جنب خلفَ طاولةٍ في إحدى زوايا الغرفةِ بينما جلست الراهباتُ على صفٍ من المقاعِد.

كانَ كلّ شيءٍ قد تغير؛ سيمون وروزي وكريسي في المستشفى وقد أصبنَ بالوباءِ وهنا في غرفةِ الطعامِ كانت الراهبتان الأخريان اللتان رفضتا ارتداء القناع، إيلين وجيني، تُظهران أعراضاً مبكرةً للإصابةِ فإيلين تعطسُ وجيني تتعرقُ. كانَ الأخُ جوزيف الذي كانَ يعالجُ الضحايا من دونِ قناعٍ منذُ بدايةِ الوباءِ قد استسلمَ أخيراً للعدوى ولذلكَ عادت بقيةُ الراهبات إلى ارتداءِ القناعِ في المستشفى، ولو كانت العودةُ إلى ارتداءِ القناعِ مؤشراً على فوزِ كاريس فستكون بذلكَ قد ربحت الانتخابات.

كانَ الجميعُ متوتراً وقلقاً، وقامت الأختُ بيث التي كانت أمينةَ الخزنةِ السابقةِ وأكبرَ الراهباتِ عمراً بتلاوةِ صلاةٍ عندَ افتتاحِ الاجتماعِ وقبلَ أن تنتهي من التلاوةِ بقليلٍ تحدثت العديد من الراهباتِ معاً. كانت أعلاهن صوتاً الأختُ مارغريت التي كانت أمينةَ المؤنِ السابقة.

«كانت كاريس على حقٍ وإليزابيث على خطأ!» صرخت مارغريت ثمَّ أضافت: «إنَّ من رفضنَ ارتداءَ القناعِ يحتضرنَ الآن».

وعلت همهمةُ موافقةٍ جماعيةٍ.

وهنا قالت كاريس: «كنتُ أتمنى لو أنني كنتُ مخطئةً وأنَّ روزي وسيمون وكريسي يجلسن معنا الآن ويصوتن ضدي»، وكانت تعني ما قالتهُ فقد كانت مرهقةً من رؤيةِ الناسِ يموتون وجعلها هذا تنظر باستخفافٍ إلى كل شيءٍ آخرٍ.

وقفت إليزابيث وقالت: «أقترحُ أن نؤجلَ الانتخاباتِ فقد توفيت ثلاثُ راهباتٍ وهناك ثلاثٌ أخريات في المستشفى. يجبُ أن ننتظرَ انتهاء الوباءِ».

فوجئت كاريس بهذا الكلامِ فهي لم تعتقد قط أن إليزابيث مستعدةٌ لفعلِ أيِّ شيءٍ لتجنبِ الهزيمةِ. كانت إليزابيث مخطئةً فما من راهبةٍ الآن ستصوتُ لإليزابيث باستثناء اللواتي يدعمنها ويفضلن تجنب الاختيار.

وفجأة تبخرت اللامبالاة التي كانت تشعرُ بها كاريس وتذكرت جميعَ الأسبابِ التي أرادت من أجلها أن تصبحَ رئيسةَ الديرِ. لقد أرادت تحسين وضعِ المستشفى وتعليم المزيد من الفتياتِ القراءةَ والكتابةَ والمساعدة في ازدهارِ أحوالِ المدينةِ. إن تمَّ انتخابُ إليزابيث سيكونُ الأمرُ كارثياً.

وعلى الفورِ تلقّت إليزابيث الدعمَ من الأخت الكبرى بيث. « يجب ألا نقيمَ

الانتخابات ونحنُ في حالةِ ذعرٍ ونقوم بخيارٍ قد نندمُ عليهِ لاحقاً عندما تهدأ الأمورُ». بدا كأنّها جهزت نفسها لتقول هذا. لا بد أن إليزابيث قد خططت لهذا ولكن كاريس فكرّت وبشيءٍ من الرعبِ بأنَّ حجةَ بيث منطقيةً.

قالت مارغريت في سخطٍ: «بيث أنت لا تقولين هذا سوى لعلمكِ بأنَّ إليزابيث ستخسر».

تمنعت كاريس عن الكلامِ خوفاً من التلويح بالحجةِ ذاتها ضدها.

قالت الأختُ نعومي التي لم تدعم صراحةً أيّاً من الطرفين: «إنَّ المشكلةَ الحقيقيةَ هي عدم امتلاكنا لقائدةٍ والأمُّ سيسيليا، فلترقد روحها في سلامٍ، لم تقم بتعيين نائبةٍ لها بعدَ وفاةِ ناتالي».

«وهل الأمر بهذا السوءِ؟» سألت إليزابيث.

«أجل!» قالت مارغريت. «لا يمكننا حتَّى أن نقررَ من يترأس رتلَ الراهباتِ!»

قررت كاريس أن تغامرَ بتوضيحٍ عملي. «هناك قائمةٌ طويلةٌ من القراراتِ التي يجبُ أن تؤخذ بخاصَّةٍ قراراتِ ميراثِ ممتلكاتِ دير الراهباتِ التي ماتَ مستأجروها جراءَ الوباء. سيكونُ من الصعبِ الاستمرارُ لوقتٍ طويلٍ من دونِ رئيسةِ ديرٍ».

وهنا حاججت الأختُ إيلين التي كانت صديقةً لإليزابيث ضدَّ التأجيل: «أكرهُ الانتخابات». وعطست ثمَّ تابعت: «فهي تجعل الأخوات يتنافسنَ وتسببُ مرارةً. أرغبُ بالانتهاء منها الآن حتَّى نتحد مجدداً في وجهِ هذا الوباءِ المريعِ».

هللت الأخوات في دعمٍ لما قالته إيلين.

حدَّقت إليزابيث بغضبٍ نحو إيلين وقابلت إيلين نظراتها قائلةً: «كما ترون فأنا لا أستطيعُ الإتيانَ بملاحظةٍ سليمةٍ كهذهِ من دون أن تنظرَ إلي إليزابيث كأنني قمتُ بخيانتها!»

أشاحت إليزابيث بنظرها بعيداً.

قالت مارغريت: «هيا فلنقم بالتصويتِ. من يدعمُ إليزابيث فليقل: «أنا».

ولوهلةٍ لم يتحدث أحدٌ ثمَّ قالت بيث بهدوءٍ: «أنا».

انتظرت كاريس الأخريات ليُعبرن عن موافقتهن إلا أنَّ بيث كانت الوحيدةَ.

شعرت كاريس بضرباتِ قلبها تتسارعُ فهل هي على وشكِ تحقيقِ طموحها؟

قالت مارغريت: «من يريدُ كاريس؟»

وأتى الجوابُ سريعاً وعلى شكلِ صياحٍ بالموافقةِ وبدا لكاريس كأنَّ معظمَ الراهباتِ قد صوتن لمصلحتها.

وفكرت في نفسها بأنَّها نجحت وأصبحت رئيسةَ الدير ويسعها الآن بدء العملِ.

قالت مارغريت: «في هذهِ الحالةِ...»

وفجأة قالَ صوتٌ ذكوري: «انتظري!»

شهقت بضعُ راهباتٍ وصرخت إحداهنَ ثمَّ نظرنَ جميعاً إلى البابِ ووجدن فيليمون يقفُ هناك. فكرت كاريس بأنَّه كانَ يسترقُ السمعَ من الخارجِ.

قال فيليمون: «قبلَ أن تتابعي كلامكَ...»

لم تكن كاريس لتسمحَ بحدوثِ هذا لذلكَ وقفت وقاطعتهُ. «كيفَ تجرؤ على دخولِ ديرِ الراهباتِ؟» قالت له. «أنتَ لا تملكُ الإذنَ وأنت غيرُ مرحبٍ بكَ هنا فلتغادر الآن».

«لقد أرسلني السيدُ رئيسُ الدير...»

«إنَّه لا يملكُ الحقَّ...»

«إنّه أعلى سلطةٍ دينيةٍ في كينغزبريدج، وفي غيابِ رئيسةِ ديرٍ أو نائبةٍ لها فهو يملكُ السُلطةَ على الراهباتِ».

«لم نعد من دونِ رئيسةِ ديرٍ أيُّها الأخ فيليمون»، قالت كاريس وتقدمت منهُ. «لقد تمَّ انتخابي رئيسةً لديرِ الراهباتِ للتو».

كانت الراهباتُ يكرهنَ فيليمون ولهذا هللنَ لكاريس.

قال فيليمون: «يرفضُ الأبُ غودوين السماحَ بإجراءِ هذهِ الانتخابات».

«ولكنه تأخرَ، ويمكنكَ أن تخبرهُ بأنَّ الأمَّ كاريس المسؤولةُ عن ديرِ الراهباتِ الآن وأنَّها من رمتكَ خارجاً».

تراجعَ فيليمون إلى الوراءِ وقال: «أنتِ لست رئيسةَ الديرِ ما لم يصادق الأسقفُ على الانتخاباتِ».

«اخرج!» قالت كاريس.

ورددت الراهباتُ وراءها: «اخرج، اخرج، اخرج!»

ارتعبَ فيليمون فهو لم يكن معتاداً على المواجهةِ، وتقدمت كاريس خطوةً

إلى الأمام فتراجعَ خطوةً إلى الوراءِ. بدا مذهولاً مما يحدث إلا أنّه كانَ خائفاً أيضاً وعلا صوتُ الراهباتِ بشكلٍ أقربَ للغناءِ: «اخرج، اخرج، اخرج!» وفجأةً استدار واختفى.

ضحكت الراهباتُ وهللنَ.

ولكن كاريس أدركت أنَّ ملاحظةَ فيليمون الأخيرة صحيحةٌ فعلى الأسقفِ هنري أن يُصادق على انتخابها.

ولا بد أن غودوين سيبذلُ قصارى جهدِهِ لمنعِ هذا.

***

نظَّفَ فريقٌ من المتطوعين فداناً من أراضي الغابةِ الوعرةِ على الضفةِ البعيدةِ من النهر، وكانَ غودوين في خضمِّ رسمِ الأرضِ الجديدةِ مقبرةً جديدةً ومباركتها فقد امتلأت جميعُ المقابرِ داخلَ المدينةِ وكانت المساحةُ المتوفرةُ في مقبرةِ الكاتدرائيةِ تتقلصُ بسرعةٍ.

خطا غودوين على طولِ حدودِ قطعةِ الأرض وسطَ الرياحِ القارسةِ جداً وهو يرشّ الماءَ المقدس الذي تجمدَ حالما وصلَ إلى الأرضِ بينما الرهبانَ والراهباتُ يسيرون خلفهُ يغنون المزامير. رغمَ أنَّ المراسم لم تنته بعد إلا أنَّ حفاري القبور كانوا قد بدأوا بالعملِ، وكُدِّست كتلٌ من الترابِ البورِ في خطوطٍ مرتبةٍ قربَ حُفرٍ مجاورةٍ وقريبةٍ بعضها من بعض قدرَ الإمكانِ لتوفيرِ المساحةِ، ولكن مساحةَ فدانٍ لن تكفي لوقتٍ طويلٍ ولهذا تابع فريقُ المتطوعين تنظيف قطعةِ أرضٍ أخرى من الغابةِ.

في لحظاتٍ كهذهِ كانَ غودوين يصارعُ للحفاظ على تماسكهِ. كانَ الوباء أشبه بموجةِ مدٍ عملاقةٍ تُغرق كلَّ من يأتي في طريقها... موجة لا يمكنُ إيقافها ففي الأسبوعِ السابقِ لعيد الميلادِ دفن الرهبانُ مئةَ شخصٍ والعددُ في ازديادٍ مستمرٍ. كانَ الأخُ جوزيف قد توفي البارحةَ ووقعَ راهبان آخران ضحيةَ العدوى الآن. أينَ سينتهي الوباء؟ هل سيموتُ جميعُ من في العالم؟ هل سيموتُ هو أيضاً؟

كانَ خائفاً جداً إلى درجةِ أنّه توقفَ عن السيرِ وحدَّقَ إلى المرَشّةِ التي كانَ يرشّ منها الماء المقدَّس كأنّه لا يملكُ أدنى فكرةٍ عن كيفيةِ وصولِ المرشةِ إلى يدهِ، ولوهلةٍ شلَّه الرعبُ وتركهُ عاجزاً عن الحركةِ ثمَّ دفعهُ فيليمون بلطفٍ من الخلفِ فقد كانَ في مقدمةِ رتلِ الرهبانِ والراهباتِ. تعثرَ غودوين وتابعَ السير وقررَ أنَّ عليهِ صرفَ ذهنهِ عن التفكير في مثلِ هذهِ الأفكار المرعبةِ.

عادَ إلى التفكيرِ بمسألةِ انتخاباتِ رئيسةِ الديرِ فقد كان ردُّ الفعلِ على عظتهِ إيجابياً جداً إلى درجةٍ اعتقدَ فيها أنَّ انتصارَ إليزابيث مضمونٌ ولكن الظروف تغيرت بشكلٍ صادمٍ وأصيب بالحنقِ الشديد عندَما استعادت كاريس شعبيتَها. لم يكن التدخل الأخير الذي قامَ بهِ فيليمون سوى إجراء يائسٍ ومتأخرٍ جداً، وعندما فكّر بالأمر أرادَ الصراخ بأعلى صوتٍ.

ولكن الأمر لم ينتهِ بعد فعلى الرغمِ من سخريةِ كاريس من فيليمون فإنَّها لا تستطيع اعتبار منصبها مضموناً حتَّى يُصادق الأسقف هنري على نتيجةِ الانتخابات.

لسوءِ الحظِ لم يكن غودوين قد حظي بعد بفرصةِ كسبِ ودِّ هنري فالأسقفُ الجديد لا يتحدث الإنكليزيةَ ولم يزر كينغزبريدج سوى مرَّة واحدة فقط، ولأنّه ما زال جديداً لم يوفق فيليمون إلى معرفةِ نقاط ضعفهِ القاتلةِ إلا أنَّه كانَ رجلاً وكاهناً ولهذا لا بد أن يأخذ صفَّ غودوين وليسَ كاريس.

كانَ غودوين قد كتبَ إلى هنري رسالةً قالَ فيها إن كاريس قد سحرت الراهبات وأوهمتهن بأنَّها قادرة على إنقاذهن من الوباءِ. كانَ قد فصَّلَ في الرسالةِ تاريخ كاريس واتهامها بالهرطقةِ ومحاكمتها والحكم الذي صدرَ بحقها منذُ ثمانيةِ أعوام وإنقاذ سيسيليا لها. كانَ يأمل أن يصلَ هنري إلى كينغزبريدج ولديه موقفٌ مسبقٌ من كاريس.

ولكن متى سيصل هنري؟ فليسَ من عادةِ الأسقف تفويت مراسم عيدِ الميلاد في الكاتدرائيةِ. وصلت غودوين رسالة من رئيسِ الشمامسةِ الكفء والعملي لويد يشرحُ فيها أنَّ هنري كان مشغولاً بتعيين كهنةٍ جددٍ بدلاً من الذين توفوا في الوباءِ. قد يكونُ لويد ضدَّ غودوين فقد كانَ رجلَ الإيرل ويليام ويدينُ بمنصبهِ إلى شقيق ويليام المتوفى ريتشارد ووالدهما المتوفى الإيرل رولاند الذي كانَ يكرهُ غودوين ولكن لويد ليسَ صاحبَ القرار بل هنري. كانَ من الصعبِ معرفةُ ما الذي قد يحدث وشعرَ غودوين أنّه بدأ يفقدُ السيطرة. كانت كاريس تهددُ مسيرتَهُ المهنية والوباء القاسي يهددُ حياتهُ.

كانت مراسم تقديسِ المقبرةِ تشارف على الانتهاءِ عندما بدأ ثلجٌ خفيفٌ بالهطول وبعيداً عن قطعةِ الأرضِ التي نُظفت للتو اصطفت أرتالُ الجنازات بانتظارِ أن تجهز المقبرة فأشارَ غودوين إلى الرهبانِ والراهبات بالتقدمِ. كانت أول جثةٍ في كفنٍ أمَّا البقيةُ فكانت في أثوابٍ. تعدُّ الأكفان رفاهيةً لا يتمتعُ بها

سوى الموسرين ولكن الآن وبما أنَّ الخشبَ باتَ غالياً وصناع الأكفانِ منهكين من العملِ لم يحظَ بتابوتٍ خشبي سوى الفاحشي الثراء.

في مقدمةِ مسيرةِ الجنازات سارَ ميرثن مع ندفِ ثلجٍ عالقة في شعرهِ ولحيتهِ النحاسيةِ اللون وحاملاً ابنتهُ الصغيرةِ. استنتجَ غودوين أنَّ الشخصيةَ الثريةَ التي كانت في الكفنِ هي بيسي بيل. لقد توفيت بيسي دون أن يكونَ لديها أقرباء ولهذا تركت الحانة لميرثن وفكر غودوين بمرارةٍ في أنَّ المالَ يلتصق بذلكَ الرجل كما تلتصقُ الأوراق الرطبةِ بالمرءِ. كان يملكُ جزيرةَ ليير والثروة التي حصلَ عليها في فلورنسا وها هو الآن يملكُ أكثرَ الحاناتِ إزدحاماً في كينغزبريدج.

علمَ غودوين بوصيةِ بيسي لأنَّ الديرَ يأخذ ضريبةَ الميراثِ وقد اقتطعَ نسبةً كبيرةً من قيمةِ المكان. دفعَ ميرثن المالَ بالعملةِ الفلورنسيةِ الذهبيةِ من دونِ أدنى ترددٍ.

كان الأثرُ الجيد الوحيد للوباءِ هو أنَّ الدير حصلَ وبشكلٍ مفاجئ على كميةٍ كبيرةٍ من المالِ نقداً.

أقامَ غودوين مراسم دفن واحدة للجثثِ السبع فقد أصبحَ هذا العرفُ السائد الآن. كانت تجرى مراسم دفن في الصباحِ وأخرى بعد الظهر بغضِ النظرِ عن عددِ الموتى فلم يكن هناك عددٌ كافٍ من الكهنةِ في كينغزبريدج لدفنِ كل شخصٍ على حدة.

وجددت هذهِ الفكرةُ شعور غودوين بالرعبِ فتلعثمَ خلالَ المراسمِ وهو يتخيل نفسهُ في أحدِ هذهِ القبورِ إلّا أنه نجحَ أخيراً في التحكمِ بنفسهِ ومتابعةِ عملهِ.

وأخيراً انتهت المراسم وقادَ غودوين صفَّ الرهبانِ والراهباتِ في طريقِ العودةِ إلى الكاتدرائيةِ. دخلوا إلى صحنِ الكنيسةِ وانفصلوا ليعودوا إلى أداءِ واجباتهم المعتادة. اقتربت راهبةٌ مبتدئةٌ من غودوين وقالت في توترٍ: «أيُّها الأب رئيس الدير هل تفضّلتَ بالقدومِ إلى المستشفى؟»

لم يكن غودوين يحبُّ تلقي رسائل أوامر من رهبانٍ وراهبات مبتدئات. «لماذا؟» سألها زاجراً.

«أنا آسفة أيها الأب ولكني لا أعلم. لقد طُلبَ مني أن أطلبَ منكَ الذهاب إلى المستشفى».

«سآتي حالما أتمكن من القدوم»، قالَ مغتاظاً. لم يكن لديهِ أعمالٌ مستعجلة ولكنهُ وليثبتَ موقفهُ تلكأ في الكاتدرائيةِ وهو يتحدثُ إلى الأخ إيلي حولَ أرديةِ الرهبان.

بعدَ بضعِ دقائق عبرَ الممرات المسقوفةَ ودخلَ إلى المستشفى.

كانت الراهباتُ محتشدات حولَ سريرٍ قبالةَ المذبح وفكرَ غودوين بأنَّ المريضَ حتماً شخصٌ مهمٌ وتساءلَ في نفسهِ عمن قد يكون هذا الشخص. التفتت إحدى الراهبات المقيمات في المستشفى نحوهُ وكانت ترتدي قناعاً كتانياً فوقَ أنفها وفمها إلا أنَّه تعرَّفَ على العينين الخضراوين ذات البقعِ الذهبيةِ التي يتشاركها مع بقيةِ أفرادِ عائلتهِ. كانت كاريس. ورغمَ أنَّه لم يكن قادراً إلّا على رؤيةِ جزءٍ بسيطٍ من وجهها فإنَّه قرأ تعبيراً غريباً في نظرتها. توقعَ منها الكره والامتعاض إلّا أنَّه لم يرَ سوى التعاطف.

اقتربَ من السرير وشعورٌ بالرهبةِ مسيطرٌ عليهِ. عندما رأتهُ الراهباتُ الأخريات ابتعدن جانباً ثمَّ رأى غودوين المريض.

كانت والدتهُ.

أراحت بيترانيلا رأسها على وسادةٍ بيضاء. كانت تتعرقُ وخيطُ دم يخرجُ من أنفِها وهناك راهبةٌ تمسحُ لها الدم الذي لا يتوقف وراهبةٌ أخرى تقدمُ لها كأساً من الماءِ، وعلى الجلدِ المتغضنِ لعنقِ بيترانيلا لاحَ طفحٌ أرجواني.

صرخَ غودوين كأنّه صُعقَ بشيءٍ ما ثمَّ حدَّقَ في رعبٍ وحدَّقت والدتهُ نحوه في عينين منهكتين. لم يكن هناك أدنى مجال للشكِ بأنَّها وقعت ضحيةَ الوباء. «لا!» صرخَ غودوين «لا! لا!» وشعرَ في صدرهِ بألمٍ لا يُحتمل كأنّه تلقى طعنةً.

سمعَ فيليمون الذي كانَ يقفُ بقربهِ يقولُ بصوتٍ مرتعبٍ: «حاول أن تهدأ أيُّها الأب رئيس الديرِ». ولكن غودوين لم يستطع وفتحَ فمهُ ليصرخَ مجدداً إلا أنَّ صوتهُ لم يخرج وفجأةً شعرَ بأنّه ينفصلُ عن جسدهِ ويفقد السيطرة على حركاتهِ ثمَّ شعرَ بضبابٍ أسود يخرجُ من الأرضيةِ ويحيطُ بهِ تدريجياً إلى أن غطى أنفهُ وفمهُ ولم يعد قادراً على التنفسِ ثمَّ غطّى عينيه ولم يعد قادراً على الرؤيةِ ليفقد الوعي أخيراً.

***

لازمَ غودوين السريرَ لخمسةِ أيام ولم يأكل أو يشرب شيئاً باستثناء ما كان فيليمون يضعهُ على شفتيهِ. لم يكن قادراً على التفكيرِ بوضوحٍ ولا على الحركةِ

وبدا عاجزاً عن أخذِ أيِّ قرارٍ حيال ما عليهِ القيامُ بهِ. كان ينتحبُ وينامُ ويستيقظُ لينتحبَ مجدداً وبالكادِ كانَ يعي وجود راهبٍ يتحسسُ جبهتهُ ويأخذُ عينةً من بولهِ ويشخص حالتهُ بحمى في الدماغِ ويقومُ بفصدِ دمهِ.

وفي نهايةِ شهرِ كانون الأول/ ديسمبر جاءهُ فيليمون مرتعباً وأخبرهُ بوفاةِ والدتهِ.

نهضَ غودوين وحلقَ لحيتهُ وارتدى رداءً نظيفاً وتوجهَ إلى المستشفى.

كانت الراهباتُ قد قمن بغسلِ الجثةِ وإلباسها ومشطن شعرَ بيترانيلا وألبسنها ثوباً من الصوفِ الإيطالي الباهظِ الثمن. عند رؤيتهِ لها في هذهِ الحالةِ وشحوبُ الموتِ على وجهها وعيناها مغمضتين للأبدِ شعرَ غودوين بموجةِ ذعرٍ تطيحُ بهِ إلّا أنّه تمكنَ من المقاومةِ هذه المرة.

«خُذوا جثتها إلى الكاتدرائيةِ»، أمرهم غودوين.

كانَ الرهبانُ والراهباتُ وكبار رجالِ الدينِ والأرستقراطيين فقط من يحظونَ بشرفِ وضعِ جثامينهم في الكاتدرائيةِ ولكن غودوين علمَ أنَّ ما من أحدٍ سيتجرأ على معارضتهِ.

عندما نُقلَ جثمانُ بيترانيلا إلى الكنيسةِ ووضعَ أمامَ المذبحِ ركعَ غودوين بقربها وأخذَ يصلي. ساعدتهُ الصلاةُ على تهدئةِ روعهِ وبشكلٍ تدريجي بدأ يدركُ ما عليهِ القيامُ بهِ الآن، وعندما وقفَ أخيراً أمرَ فيليمون باستدعاءِ الرهبان لاجتماعٍ فوري في قاعةِ المداولات.

شعرَ بأنّه غير متزنٍ إلا أنّه علمَ أنَّ عليهِ تمالك نفسهِ. لطالما تمتعَ بقوةِ الإقناعِ وعليهِ الآن أن يستغلها قدرَ الإمكان.

عندما اجتمعَ الرهبان قرأ عليهم من سفرِ التكوين:

«وَكَانَ بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ أَنَّ اللهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لَهُ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ لَبَّيْكَ. قَالَ خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ الَّذِي تُحِبُّهُ إِسْحقَ وَامْضِ إِلَى أَرْضِ مُورِيَّةَ وَأَصْعِدْهُ هناك مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الجِبَالِ الَّذِي أُرِيكَ. فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ من الْغَدَاةِ وَأَكفَ حِمَارَهُ وَأَخَذَ مَعَهُ غُلاَمَيْنِ وَإِسْحقَ ابْنَهُ وَشَقَّقَ حَطَباً لِمُحرَقَةٍ وَقَامَ وَمَضَى إِلى الموضِعِ الَّذِي أَشَارَ لَهُ اللهُ إِلَيْهِ.»[1]

رفعَ غودوين ناظريهِ عن الكتابِ ورأى أن الرهبان يراقبونهُ بإمعانٍ. كانوا

1- سفر التكوين 22:1 (المترجمة)

جميعاً يعرفون قصة إبراهيم وإسحاق إلا أنَّهم كانوا أكثرَ اهتماماً بهِ وقد بدوا يقظين وحذرين ومشغولين بفكرةِ ما الذي سيقومُ بهِ غودوين الآن.

«ما العبرةُ التي تعلمنا إياها قصةُ إبراهيم وإسحاق؟» سأل غودوين دونَ أن ينتظرَ جواباً. «طلبَ الرَّبُّ من إبراهيم أن يقتلَ ابنهُ، ولم يكن ابنهُ الأكبر فقط بل ابنهُ الوحيد الذي حظي بهِ عندما كانَ عمرهُ مئةَ عام. هل احتجَّ ابراهيم؟ هل التمسَ الرحمةَ؟ هل جادلَ الرَّبَّ؟ هل حاولَ أن يوضحَ أنَّ قتلَ إسحاق جريمةُ قتلٍ بحقِ طفلٍ وخطيئة رهيبة؟» توقفَ غودوين عن الكلام وتركَ هذهِ الأسئلةَ عالقةً ثمَّ نظرَ إلى الكتابِ وقرأ: « فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ من الْغَدَاةِ وَأكفَ حِمَارَهُ...»

رفعَ نظرهُ مجدداً وقالَ: «قد يحاولُ الرَّبُّ إغواءنا أيضاً. قد يطلبُ منا القيامَ بأفعالٍ قد تبدو خاطئةً. وقد يطلبُ منا أموراً ستبدو كأنَّها خطيئةٌ. وعندما يحدثُ هذا يجب أن نتذكرَ قصةَ ابراهيم».

كانَ غودوين يتحدثُ بأكثر أساليبه في الوعظِ إقناعاً ورغمَ أنَّه ذو إيقاعٍ فإنّه كان حوارياً وعلمَ من الهدوء الذي كانَ يعمُّ القاعةَ المثمنةَ أنَّه حظي باهتمامهم السابح في عالمٍ آخر فلم يتملل أحدٌ منهم ولم يكن هناك همسٌ أو حتَّى حركةُ أقدامٍ.

« يجبُ ألا نشككَ»، قالَ غودوين. «يجبُ ألا نجادل وعندما يقودنا الرَّبُّ فيجبُ علينا أن نتبعهُ مهما بدت أمانيه حمقاء أو آثمةً أو قاسيةً أمام عقولنا البشريةِ الضعيفة. نحنُ الضعفاء والخانعين وفهمنا غير معصومٍ عن الخطأ وقدرنا ليسَ أن نأخذَ القراراتِ أو نقومَ بالخياراتِ بل واجبنا بسيطٌ وهو الطاعةُ».

ثمَّ أخبرهم بما عليهم القيامُ بهِ.

***

وصلَ الأسقفُ بعدَ هبوطِ الظلامِ. كانَ الوقت منتصفَ الليلِ تقريباً عندما دخلت حاشيتهُ الكاتدرائيةَ على ضوءِ المشاعلِ. بحلولِ هذا الوقت كانَ معظمُ من في الديرِ قد خلدَ إلى النومِ باستثناءِ مجموعةٍ من الراهباتِ اللواتي كُنَّ يعملنَ في المستشفى وقد أتت إحداهن وأيقظت كاريس.

«إنَّ الأسقفَ هنا»، قالت الراهبةُ.

«لماذا يريدني الأسقفُ؟» قالت كاريس ناعسةً.

«لا أعلم أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ».

بالطبعِ لم تعرف الراهبةُ ما الذي يريدهُ الأسقفُ من كاريس.

توقفت كاريس لبرهةٍ في الممرِ المسقوف وشربت الماءَ بنهمٍ ثمَّ وقفت لبضعِ دقائق تتنشقُ عميقاً هواءَ الليل البارد لتنفضَ النوم من عينيها. كانت تريد أن تتركَ انطباعاً جيداً على الأسقف حتَّى لا يكونَ هناك أيّ مشكلةٍ في المصادقةِ على انتخابها رئيسةً للديرِ.

كانَ رئيسُ الشمامسةِ لويد في المستشفى وقد بدا متعباً وأرنبةُ أنفهِ شديدةُ الاحمرارِ من البردِ. «تعالي ولتلقي التحيةَ على الأسقفِ»، قال بنزقٍ كأنَّه يتوقع منها أن تكونَ صاحيةً بانتظارهم.

لحقت بهِ كاريس إلى الخارج ورأت بقربِ البابِ خادماً يحملُ مشعلاً ثمَّ ساروا عبرَ الحديقةِ إلى حيثُ كانَ الأسقفُ على حصانهِ.

أوحى منظر الأسقفِ تحتَ القبعةِ الكبيرةِ التي يعتمرها بأنَّه رجلٌ ضئيل البنيةِ وبدا ضجراً جداً.

قالت كاريس بالفرنسيةِ النورمانديةِ: «أهلاً بكَ في دير كينغزبريدج يا سيدي الأسقف».

قال هنري في غضبٍ: «ومن تكونين؟»

كانت كاريس قد رأتهُ قبلاً ولكنها لم تتحدث إليه قط وقالت له: «أنا الأخت كاريس ورئيسةُ الديرِ المنتخبةُ».

«الساحرة».

شعرت بقلبِها يغوصُ في صدرها. لا بد أن غودوين حاولَ أن يسمّمَ عقلَ هنري قبل أن يأتي إلى كينغزبريدج وشعرت كاريس بغضب شديدٍ.

«لا يا سيدي الأسقف لا يوجد ساحراتٌ هنا»، قالت بفظاظةٍ أكثرَ مما كانت وقاحةً ثمَّ تابعت: «نحن فقط مجموعةٌ من الراهبات اللواتي يقمن بأفضلِ ما بوسعهن من أجلِ مدينةٍ ضربها الوباء».

تجاهل هنري ما قالتهُ. «أين رئيسُ الديرِ غودوين؟»

«في قصرهِ».

«لا إنَّه ليسَ في قصرهِ».

وشرحَ رئيسُ الشمامسةِ: «لقد ذهبنا إلى هناك ولا يوجد أحدٌ في القصرِ».

«حقاً؟»

«أجل»، قالَ رئيسُ الشمامسةِ بغيظٍ. «حقاً».

في تلكَ اللحظةِ رأت كاريس هرَّ غودوين ذا البقعةِ البيضاءِ المميزةِ في ذيلِه. كانَ الرهبان المبتدئون يطلقونَ عليهِ اسمَ رئيس الأساقفةِ. رأت كاريس الهرَّ يقطعُ الواجهةَ الغربيةَ للكاتدرائيةِ وينبش بين الأعمدةِ كأنّه يبحثُ عن سيدِهِ.

بوغتت كاريس بما سمعتهُ وقالت: «هذا غريب... ربما قررَ غودوين أن ينامَ في غرفةِ النومِ المشتركةِ مع بقيةِ الرهبانِ».

«ولمَ قد يفعلُ هذا؟ آملُ ألا تكونَ هناك أفعالٌ مشينةٌ تجري هنا».

هزَّت كاريس رأسها في رفضٍ لشكِّ الأسقفُ بوجودِ أفعالٍ منافية للعفةِ فغودوين لم يكن ميالاً إلى الوقوعِ في شركِ هذهِ الخطيئةِ. «توفيت والدتهِ بسببِ الطاعون ولم يتلقَ صدمةَ وفاتها بشكلٍ جيد فأصيبَ بنوبةِ انهارَ على إثرها... لقد توفيت اليوم».

«بما أنّه ليس على ما يرام فلا بدَّ أنّه يرغبُ بالنومِ في سريرهِ».

يمكن لأيِّ شيءٍ أن يحدث فقد كانَ غودوين مشوشاً بعضَ الشيءِ بسببِ مرضِ بيترانيلا ولذلك سألت كاريس: «هل يرغبُ السيدُ الأسقف بالتحدثِ إلى أحدِ نوابهِ؟»

أجابَ هنري بانزعاجٍ: «أجل إن عثرت على أحدهم».

«ربما يمكنني أخذُ رئيس الشمامسة لويد إلى المهجعِ...»

«فلتفعلي حالما أحببت!»

أخذَ لويد مشعلاً من الخادمِ وقادتهُ كاريس بسرعةٍ عبرَ الممراتِ المسقوفةِ للكاتدرائيةِ. كانَ المكانُ هادئاً كما هي حالُ الأديرةِ في مثلِ هذا الوقتِ من الليلِ ثمَّ وصلا إلى مطلعِ الدرجِ الذي يُفضي إلى المهجع وتوقفت كاريس ثمَّ قالت: «من الأفضل أن تصعد وحدكَ فلا يمكن لراهبةٍ أن ترى الرهبان في أسرتهم».

«بالطبع»، قال لويد وصعدَ الدرجَ حاملاً المشعلَ في يدهِ وتركَ كاريس في الظلامِ. انتظرتهُ في فضولٍ وسمعتهُ يصرخُ: «مرحباً؟» ولكن لم يكن هناك سوى صمت غريب ثمَّ وبعدَ مرورِ عدةِ دقائق ناداها بصوتٍ غريبٍ: «يا أختاه؟»

«أجل؟»

«يمكنكِ الصعود».

ورغمَ حيرتها صعدت الدرجَ ودخلت إلى المهجع ثمَّ وقفت بقربِ لويد

وحدقت إلى الغرفةِ في ضوءِ المشعلِ المتراقص. كانت الأسرةُ التي ينامُ عليها الرهبان مرتبةً في صفٍ على طولِ أحدِ جوانبِ الغرفةِ ولكن كاريس لم ترَ أحداً في المكان.

«لا أحدَ هنا»، قالت كاريس.

«لا أحد»، وافقها لويد ثمَّ سأل: «ما الذي حدثَ بحقِ السماء؟»

«لا أعلم ولكني أستطيعُ التكهن»، قالت كاريس.

«أنيريني من فضلكِ».

«أليسَ الأمرُ واضحاً؟» قالت كاريس وأضافت: «لقد هربوا».

الجزء السادس

كانون الثاني/ يناير 1349 وحتَّى كانون الثاني/ يناير 1351

-63-

عندما هربَ غودوين من الديرِ أخذَ معهُ كلَّ شيءٍ قيّمٍ في خزنة الرهبانِ وجميعَ الصكوكِ أيضاً، بما في ذلك الصكوك الخاصة بديرِ الراهباتِ التي لم ينجحن في استعادتها من صندوقهِ المُقفل، وأخذَ أيضاً الذخائر المقدسةَ ورفاتَ القديسِ أدولفوس في صندوقه النفيس.

اكتشفَت كاريس ما حدثَ في صباحِ اليوم التالي على هروبِ الرهبان، وكانَ هذا في الأولِ من شهرِ كانون الثاني / يناير، أي في عيدِ ختانِ المسيح. توجهت كاريس مع الأسقف هنري والأخت إليزابيث إلى الخزنة في الجناحِ الجنوبي للكنيسةِ. كان هنري يعاملُ كاريس برسميةٍ صارمةٍ ورأت في هذا أمراً مقلقاً، إلّا أنّه صاحبُ شخصيةٍ نكدةٍ وربما كانَ يُعاملُ الجميعَ بهذهِ الطريقةِ.

ما زالَ الجلدُ المسلوخُ لغيلبرت هيرفورد مُعلقاً على البابِ وقد بدأ يقسو ويميلُ للاصفرارِ وتنبعثُ منهُ رائحةُ عفنٍ خفيفةٌ ومميزة.

لم يكن الباب مُغلقاً فدخلوا إلى الخزنة.

لم تدخل كاريس إلى الخزنة مُذ سرقَ رئيسُ الديرِ غودوين المئةَ والخمسين جنيهاً من أجلِ بناءِ قصرهِ؛ فالراهبات بعدَ هذهِ الحادثةِ بنين خزينتَهن الخاصةَ.

كشفَ الموقعُ بوضوحٍ عمّا حدثَ؛ فالحجارة التي تُخفي الخزنة قد رُفعت ومن دون أن تعاد إلى مكانها وغطاءُ الصندوقِ المُدعّم بالحديدِ مفتوحٌ. كانت الخزنة والصندوق فارغين.

شعرَت كاريس بأنّها حصلت على انتقامها من غودوين؛ فها هو الطبيبُ المدرَّبُ والكاهنُ ورئيسُ ديرِ الرهبانِ يهربُ في أشدِّ اللحظاتِ حرجاً ويتخلى عن الناسِ، والآن ومن دون أدنى شكٍ سيعرف الناس حقيقتهُ.

استشاطَ رئيسُ الشمامسةِ لويد قائلاً: «لقد أخذَ كلَّ شيءٍ!»

قالت كاريس لهنري: «هذا هو الرجلُ الذي أرادكَ أن تُبطلَ انتخابي».

زمجرَ الأسقفُ هنري بشكلٍ مبهمٍ.

جاهدَت إليزابيث في يأسٍ لتجدَ مبرراً لتصرفِ غودوين وقالت: «أنا واثقةٌ من أنَّ السيدَ رئيس الدير قد أخذَ الأشياءَ الثمينةَ معهُ لحمايتِها».

انتفضَ الأسقفُ هنري بحدَّةٍ: «هذا هراءٌ. إن قامَ خادمكِ بإفراغِ محفظتكِ واختفى فجأةً فهل يكون بذلك يحمي مالك؟ لا، سيكونُ قد سرقهُ».

جرَّبت إليزابيث أن تلجأ إلى تكتيكٍ مختلفٍ وقالت: «أعتقدُ أنّها كانت فكرة فيليمون».

«نائب رئيس الديرِ؟» قالَ هنري في احتقارٍ ثمَّ أضاف: «غودوين المسؤول هنا وليسَ فيليمون، ولهذا فإنَّ ما حدثَ من مسؤوليةِ غودوين».

صمتت إليزابيث.

فكرت كاريس بأنَّ غودوين قد تعافى، مؤقتاً على الأقلّ، من صدمةِ وفاةِ والدتِهِ، ولكن نجاحَهُ في إقناعِ جميعِ الرهبانِ باللحاقِ بهِ إنجازٌ حقيقي، وتساءلَت كاريس في نفسِها عن المكانِ الذي ذهبوا إليهِ.

كانَ الأسقف هنري يفكرُ بذاتِ الأمر وسأل: «إلى أينَ ذهبَ هؤلاء الجبناء التعساء؟»

تذكرت كاريس أنَّ ميرثن حاولَ إقناعها بالمغادرةِ قائلاً: « فلنهرب إلى ويلز أو إيرلندا، إلى أيِّ قريةٍ بعيدةٍ لا يزورها غريبٌ إلَّا من عامٍ إلى آخرٍ»، وقالت للأسقف هنري: «لا بدَّ أنَّهم سيختبئون في مكانٍ معزولٍ لا يزورهُ أحدٌ».

«فلتحاولي أن تعرفي أين يقعُ هذا المكان»، قال هنري.

وأدركت كاريس أنَّ كلَّ المعارضةِ على انتخابها قد اختفت باختفاءِ غودوين. شعرت بالانتصارِ وجاهدت كي لا تبدو مسرورةً.

«سأقومُ بالاستفسارِ في المدينةِ»، قالت كاريس وتابعت: «لا بدَّ أنَّ أحداً ما قد رآهم يغادرون».

«هذا جيدٌ»، قالَ الأسقف، «على أيِّ حالٍ لا أعتقد أنهم سيعودونَ قريباً ولهذا سيكونُ عليكِ أن تبذلي كلَّ ما في وسعكِ من دونِ رجالٍ في الوقتِ الحالي. تابعي المراسمَ الدينيةَ مع الراهبات بقدرِ الإمكانِ. أحضري كاهنَ أبرشيةٍ إلى الكاتدرائيةِ من أجلِ القداسِ إن كانَ مايزال هناك أحياءٌ ليحضروه. لا يمكنكِ إقامةُ القداس ولكنكَ تستطيعين سماعَ الاعترافات فقد صادقَ رئيسُ الأساقفةِ على هذا الإجراءِ بعدَ وفاةِ الكثيرِ من رجالِ الدين».

لم تكن كاريس لتتركهُ دون حلِّ قضيةِ الانتخاباتِ ولذلك سألته: «هل تعني بكلامكَ أنني رئيسةُ ديرِ الراهباتِ الرسميةِ؟»

«بالطبع»، قالَ بانزعاجٍ.

«في هذهِ الحالةِ وقبلَ أن أقبلَ بشرفٍ...»

«لا خيار أمامك أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ»، قال بسخطٍ وأضاف: «إنَّ طاعتي واجبٌ عليكِ».

كانت تريدُ المنصبَ بشدَّةٍ إلَّا أنَّها عزمت على التظاهرِ بالعكسِ فقد كانَ عليها عقدُ صفقةٍ صعبةٍ. «إننا في وقتٍ عصيبٍ. أليسَ هذا صحيحاً؟» سألتهُ. «فالراهبات مُنحنَ سلطةَ سماعِ الاعترافاتِ وسمعتُ أنَّكم قصَّرتم مدةَ تدريبِ الكهنةِ إلَّا أنَّكم ما زلتم غيرَ قادرين على رسمهم بالسرعةِ الكافيةِ مع حصادِ الطاعون السريعِ للكثير من الأرواحِ».

«أترغبين بالتحدثِ عن الصعوباتِ التي تواجهها الكنيسة لغايةٍ في نفسكِ؟»

«لا، ولكن هناكَ ما يجبُ أن تقومَ بهِ لأجلي من أجلِ أن أنفذَ تعليماتكَ».

تنهَّدَ هنري وبدا واضحاً أنَّه لا يحب أن يُخاطب بهذهِ الطريقةِ إلَّا أنَّ كاريس استشعرت بأنَّه يحتاجها أكثر مما تحتاجه وسألها: «حسناً، وما هو هذا الأمر؟»

«أريدكَ أن تعقدَ محكمةً كنسيةً وتعيدَ فتحَ قضيةِ محاكمتي بتهمةِ السحرِ».

«ولماذا بحقِ السماءِ قد أفعلُ هذا؟»

«لتعلنَ براءتي طبعاً وإلى أن يحدثَ هذا سيكونُ من الصعبِ علي فرضُ سلطتي على الآخرين فأيَّ شخصٍ يخالفني الرأي يستطيعُ، وبكلِّ سهولةٍ، أن يتحداني بمجردِ التلويحِ بأنني متهمةٌ بممارسةِ السحرِ».

ولأنَّ طريقةَ تفكيرِ رئيسِ الشمامسةِ تميلُ إلى التنظيمِ فقد أحبَّ الفكرةَ ولذلك قال/ «سيكونُ من المفيدِ أن ننتهي تماماً من هذهِ المسألة يا سيدي رئيسَ الأسقف».

«حسناً إذاً»، قالَ هنري.

«شكراً لكَ»، قالت كاريس وشعرت بموجةٍ من البهجةِ والراحةِ فأحنت رأسها خوفاً من أن يفضحَ وجهها إحساسها بالنصرِ وأضافت: «سأقومُ بكل ما بوسعي لأشرِّفَ منصبي كرئيسةٍ لديرِ راهباتِ كينغزبريدج».

«ولا توفري وقتاً في الاستقصاءِ عن مكانِ غودوين. أرغبُ بسماعِ إجابةٍ قبلَ أن أغادرَ المدينةَ».

«رئيسُ نقابةِ الأبرشيةِ صديقٌ مقربٌ لغودوين لذلكَ لا بدَّ أنّه يعرفُ إلى أينَ هربَ. سأذهبُ لمقابلتِه».

«على الفورِ من فضلكِ».

وغادرت كاريس.

لم يكن الأسقفُ هنري شخصاً مُبهراً إلّا أنّه كانَ كُفؤاً، وفكرت كاريس بأنّها ستتمكنُ من العملِ معهُ. إنّه من ذلكَ النوعِ من القادةِ الذين يأخذون قراراتٍ بناءً على معطياتِ القضيةِ بدلاً من الانسياقِ وراءَ أيِّ شخصٍ يتصوره حليفاً، وهذا أمرٌ جيدٌ على سبيلِ التغيير.

عندَ مرورها بحانةِ بيل شعرَت بإغراءِ الدخولِ وإطلاعِ ميرثن على الأخبارِ الجيدةِ، إلّا أنّها اعتقدت أنّه من الأفضلِ إيجادُ إلفريك أولاً.

في الشارعِ وأمامَ حانةِ هولي بوش رأت كاريس دانكن داير مستلقياً على الأرضِ وزوجتهُ ويني جالسة على المقعدِ خارجَ الحانةِ تبكي. اعتقدت كاريس أنَّ الرجلَ مصابٌ إلّا أنَّ ويني قالت لها: «إنّه ثملٌ».

صُدمت كاريس بما سمعتهُ. «في هذهِ الساعةِ وقبلَ موعدِ الغداءِ!»

«عمُّه بيتر داير أصيبَ بالطاعونِ وتوفي وزوجتهُ وأولادهُ توفوا أيضاً. لقد ورثَ دانكن كلَّ أموالِ عمهِ وصرفها على النبيذِ. لا أعرفُ ما الذي عليَّ القيامُ بهِ الآن».

«فلنأخذهُ إلى المنزل»، قالت كاريس. «سأساعدكِ في حملهِ». أمسكت كلُّ واحدةٍ منهما بذراعٍ ورفعتا دانكن على قدميهِ ثمَّ جرتاهُ في الشارعِ باتجاهِ منزلهِ. وضعتاه على الأرضيةِ وغطتاه ببطانيةٍ. قالت ويني: «إنَّه يفعلُ هذا كلَّ يومٍ، وهو يقولُ إنّه لا جدوى من العملِ لأننا جميعاً سنموتُ بالوباءِ. ما الذي عليّ فعلهُ الآن؟»

استغرقت كاريس في التفكيرِ لوهلةٍ ثمَّ قالت لها: «ادفني المالَ في الحديقةِ وهو نائمٌ. عندما يصحو أخبريه أنّه خسرهُ في القمارِ مع رجلٍ غادرَ البلدةَ للتو».

«ربما يجبُ أن أفعلَ هذا»، قالت ويني.

عبرت كاريس الشارعَ باتجاه منزلِ إلفريك ودخلتهُ. وجدت أختها أليس جالسةً في المطبخِ تحيكُ الجواربَ. منذُ زواجِ أليس بإلفريك لم تعد الأختانِ قريبتين بعضهما من بعض، وما تبقى من علاقتهما انتهى عندما شهدَ إلفريكَ ضدَ كاريس خلالَ محاكمتها بالهرطقةِ. ومجبرةً على الاختيارِ بينَ أختها

وزوجها اختارت أليس الاخلاصَ لزوجها إلفريك. ورغمَ تفهمِ كاريس خيارَ أليس فإنَّها فهمت أنَّها باتت غريبةً عنها.

عندما رأتها أليس وقفت وأوقعت ما كانت تحيكهُ. «ما الذي تفعلينهُ هنا؟» سألتها أليس.

«لقد اختفى جميعُ الرهبانِ»، أخبرتها كاريس. «لا بدَّ أنهم غادروا تحتَ جنحِ الظلامِ».

«إذاً، هذا ما حدثَ!» قالت أليس.

«هل رأيتهم؟»

«لا ولكني سمعتُ ضجةَ مجموعةٍ من الرجالِ والجيادِ رغم أنَّها لم تكن ضجةً عاليةً. في الحقيقةِ وبعدَ التفكيرِ بالأمرِ الآن لا بدَّ أنهم كانوا يحاولون ألا يصدروا أصواتاً ولكن من الصعب الحفاظ على هدوءِ الجيادِ، علاوةً على هذا فإنَّ الرجال يصدرون ضجيجاً بمجردِ سيرهم على الطريقِ. لقد أيقظوني ولكني لم أنهض لأستقصي الأمرَ فقد كانَ الجو بارداً. ألهذا السببِ تزورين منزلي لأولِ مرةٍ منذُ عشرةِ أعوامٍ؟»

«ألم تعلمي إلى أينَ هربوا؟»

«هل هربوا؟ بسببِ الطاعونِ؟»

«أفترضُ هذا».

«بالطبعِ لا. ما الفائدةُ من أطباءٍ يهربون من المرضِ؟» شعرت أليس بالاضطرابِ عندما سمعت بما فعله الرهبانِ فمصالح زوجها كانت تعنيها. «لا يمكنني أن أفهم الأمر».

«كنتُ أتساءلُ إن كانَ إلفريك يعلمُ أيَّ شيءٍ حيالَ هذا».

«إن كانَ يعرف فهو لم يخبرني».

«أينَ يمكنني أن أجدهُ؟»

«في كنيسةِ سان بيتر. كانَ ريك سيلفر قد تركَ بعضَ المالِ للكنيسةِ ولذلكَ قررَ الكاهنُ أن يستخدمهُ لتبليطِ أرضيةِ صحنِ الكنيسةِ».

«سأذهبُ وأستفسرُ منهُ». تساءلت كاريس في نفسها إن كانَ عليها التصرف بلباقةٍ. لم تنجب أليس أطفالاً ولكن لزوجها ابنة. «كيفَ حالُ غريزيلدا؟» سألتها كاريس.

«بحالةٍ جيدةٍ وسعيدةٍ»، قالت أليس بشيءٍ من التحدي كأنّها تعتقدُ أنَّ كاريس قد تفضلُ سماعَ عكسِ هذا.

«وحفيدكِ؟» لم تكن كاريس قادرةً على إجبارِ نفسها على ذكرِ اسم الصبي الذي كانَ ميرثن.

«رائع. وهناكَ حفيدٌ آخر على الطريقِ».

«أنا سعيدةٌ من أجلها».

«أجل. بالنظرِ إلى ما آلت إليهِ الأمورِ الآن فمن الجيدِ أنّها لم تتزوج من ميرثن خاصتك».

عزمت كاريس على عدمِ الانجرارِ وراءَ هذا الاستفزاز. «سأذهبُ للبحثِ عن إلفريك».

تقعُ كنيسةُ سان بيتر في الطرفِ الغربي من المدينةِ، وبينما كانت كاريس تشقُّ طريقها عبرَ الشوارعِ العاصفةِ رأت رجلين يتعاركان. كانا يكيلانِ السبابَ ويلكمان بعضهما بعضاً بوحشيةٍ. وهناكَ امرأتان، من المفترض أنهما زوجتاهما، تصرخانِ بالشتائمِ أيضاً بينما وقفَ حشدٌ صغيرٌ من الجيرانِ يتفرجُ على ما يحدث. كانَ بابُ المنزلِ الأقرب إلى كاريس مخلوعاً، وعلى الأرضِ بالقربِ منهُ قفصٌ مصنوعٌ من الخوصِ والقصبِ وفي داخلهِ ثلاثُ دجاجاتٍ حيَّةٍ.

توجهت كاريس إلى الرجلين ووقفت بينهما. «توقفا حالاً»، قالت لهما. «باسمِ الرَّبِّ آمركما بالتوقفِ».

وبقولها هذا لم تكن بحاجةٍ إلى إقناعهما أكثر فهما على الأغلبِ قد استنفدا كلَّ غضبهما بعدَ الضرباتِ الأولى، وقد يكونان ممتنين الآن لوجودِ عذرٍ للتوقفِ. تراجعَ الرجلان إلى الوراءِ وأرخيا ذراعيهما.

«ما الأمر؟» سألت كاريس بلهجةٍ آمرةٍ.

بدآ يتحدثان في نفسِ الوقتِ وانضمت الزوجتان إليهما أيضاً.

«مهلاً، كلٌّ على حدة!» قالت كاريس وأشارت إلى الرجلِ الأكبرِ ذي الشعرِ الداكن إلا أنَّ ورماً حولَ عينهِ شوه مظهرهِ الوسيم. «أنتَ جو بلاكسميث، صحيح؟ فلتشرح لي ما حدث».

«أمسكت توبي بيترسون وهو يسرقُ دجاجات جاك مارو بعدَ خلعِ بابِ منزلهِ».

كانَ توبي رجلاً ضئيلَ البنيةِ بمظهرٍ وقحٍ كديكِ المصارعةِ. تحدَّثَ توبي

من بين شفتيهِ الداميتين: «يدينُ لي جاك مارو بخمسِ شلناتٍ وأردتُ استرجاع حقي بأخذِ الدجاجات!»

قال جو: «توفي جاك وعائلتهُ بالطاعون منذُ أسبوعين، ومنذ ذلكَ الوقتِ وأنا أطعمُ دجاجاتهِ اللاتي كنَّ سيمتن لولاي، وإن كُنَّ من حقِّ أحدٍ فهذا الشخصُ هو أنا».

قالت كاريس: «حسناً، كلاكما تملكان الحقَّ بأخذِ الدجاجاتِ، صحيح؟ يحقُّ لتوبي أخذها بسببِ الدينِ، ويحقُّ لجو أخذها أيضاً لأنَّه كانَ يرعاها».

بدا الرجلان كأنَّهما بوغتا لمجردِ التفكيرِ بأنهما كانا على حق.

قالت كاريس: «جوزيف، فلتأخذ واحدةً من الدجاجاتِ من القفصِ».

قال توبي: «انتظري قليلاً...»

«فلتثق بي يا توبي»، قالت كاريس. «أنتَ تعلمُ أنني لن أظلمكَ، صحيح؟»

«حسناً، لا يمكنني أن أنكرَ...»

فتحَ جو القفصَ وأمسكَ دجاجةً هزيلةً بريشٍ بني من قائمتيها. أخذَ رأسُ الدجاجةِ يتحركُ بشكلٍ أخرق من جهةٍ إلى أخرى كأنَّ الدجاجة مضطربةٌ لرؤيةِ العالمِ بالمقلوبِ.

قالت كاريس: «والآن أعطها لزوجةِ توبي».

«ماذا؟»

«هل سأقومُ بغشكَ يا جوزيف؟»

وعلى مضضٍ سلَّمَ جو الدجاجةَ إلى زوجةِ توبي التي كانت امرأةً جميلةً ولكنها متجهمة. «إليكِ يا جين»، قال جو.

أخذت جين الدجاجةَ بخفةٍ.

قالت كاريس لها: «فلتشكري جو يا جين».

عبست جين إلا أنَّها قالت: «أشكركَ يا جوزيف بلاكسميث».

وبابتسامةٍ راضخةٍ قامَ توبي بالأمرِ ذاتهُ مع زوجةِ جو. ابتسمت إيلي زوجةُ جو التي كانت حاملاً وبطنها كبيراً ثمَّ قالت: «شكراً لكَ يا توب بيترسون».

كانوا قد بدأوا يعودونَ إلى حالتهم الطبيعيةِ ويدركون غباءَ ما كانوا يفعلونهُ.

قالت جين: «ماذا عن الدجاجةِ الثالثةِ؟»

«سأصلُ إلى هذا الموضوع»، قالت كاريس ثمَّ نظرت إلى حشدِ المتفرجين

وأشارَت إلى فتاةٍ بمظهرٍ رقيقٍ في الحادية أو الثانية عشرة من العمرِ. «ما اسمكِ؟» سألتها كاريس.

«أدعى جيسكا أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ، وأنا ابنةُ المأمورِ جون».

«خُذي الدجاجةَ الأخرى إلى كنيسةِ سان بيتر وأعطها للأبِ مايكل. قولي لهُ إنّ توبي وجو سيزورانهِ لطلبِ المغفرةِ على خطيئةِ الجشع».

«حاضر أيتها الأخت». أمسكت جيسكا بالدجاجةِ الثالثةِ وغادرت.

قالت إيلي زوجةُ جو: «قد تتذكرين أيتها الأمُّ كاريس المساعدةَ التي قدمتها إلى أختِ زوجي الصغيرة ميني عندما أحرقت ذراعها في الكيرِ».

«أوه، أجل بالطبع»، أجابت كاريس وتذكرت أن ميني أصيبت آنذاك بحرقٍ سيئٍ جداً. «لا بدَّ أنّها الآن في العاشرة».

«هذا صحيح».

«هل هي بخير؟»

«بأتمّ صحةٍ والشكرِ لكِ ولنعمةِ الرّبّ».

«يسعدني سماعُ هذا».

«هلّا دخلتِ إلى منزلي وتناولتِ كأساً من الجعةِ أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ؟»

«يسعدني هذا ولكني على عجلةٍ من أمري». استدارت كاريس نحو الرجلين وقالت لهما: «بارككما الرّبُّ ولا مزيد من الشجارِ».

قال جو: «شكراً لكِ».

ابتعدت كاريس.

وصاحَ توبي: «شكراً لكِ أيتها الأمُّ».

لوحت كاريس من بعيد ودون أن تنظرَ إلى الوراء.

أثناء سيرها لاحظت كاريس مزيداً من البيوتِ التي تبدو كأنّها اقتُحمت وهذا يعني أنّها تعرضت إلى السطو بعدَ وفاةِ سكانها، وفكرت بأنّه لا بدَّ من القيامِ بشيءٍ حيالَ الأمر. ولكن بوجودِ إلفريك كرئيسِ نقابةِ الأبرشيةِ واختفاءِ رئيسِ الدير لم يكن هناكَ أحدٌ قد يفكرُ بأخذِ زمامِ المبادرةِ لوضعِ حدٍ لما يحدث.

وصلَت إلى كنيسةِ سان بيتر ووجدت إلفريك مع مجموعةِ عمالٍ ومتدربين يرصفون البلاط في صحنِ الكنيسةِ. كانت الحجارةُ مكومةً في أرجاءِ المكانِ في حين جهزَ العمالُ الأرضيةَ بفرشِ الرملِ وتسويتهِ بالعصي. وجدت كاريس إلفريك يتفقدُ السطحَ إن كانَ مستوياً باستخدامِ أداةٍ معقدةٍ لها إطارٌ خشبي يتدلى منهُ حبلٌ في نهايتهِ قطعة من الرصاصِ. بدت الأداة أشبه بنسخةٍ مصغرةٍ

عن مشنقةٍ وذكَّرَ هذا كاريس بمحاولةِ إلفريك إيصالها إلى حبلِ المشنقةِ بتهمة ممارسةِ السحرِ منذُ عشرِ سنواتٍ. كانَ شخصاً لئيماً وغبياً جداً لفعلِهِ هذا، وعندما نظرت إليهِ لم تشعر بشيءٍ آخر غير الاحتقارِ.

انتظرتهُ لينتهي من عملِهِ ثمَّ قالت لهُ بشكلٍ مفاجئ: «هل كنتَ تعلم بأنَّ غودوين وجميع الرهبان قد هربوا؟»

أرادت أن تباغتهُ ولكنها علمت من نظرةِ الاستغرابِ على وجهِهِ أنّه لم يكن يعلم. «لماذا قد...؟ متى...؟ أو الليلة الماضية؟»

«ألم ترهم؟»

«لقد سمعتُ ضجةً».

«لقد رأيتهم»، قالَ أحدُ العاملين وقد اتكأ على عصاه وبدا راغباً بالحديثِ. «رأيتهم أثناء خروجي من حانةِ هولي بوش. كانَ الشارعُ مظلماً ولكنهم كانوا يحملون مشاعلَ. كانَ رئيسُ الديرِ على صهوةِ حصانٍ أمَّا بقيةُ الرهبانِ فقد ساروا وراءهُ وبدوا كأنّهم يحملونَ أمتعةً وصناديق نبيذ وأقراص جبنٍ وأشياء أخرى لا أعرفها».

كانت كاريس قد اكتشفت أنَّ غودوين أفرغَ مخازنَ الطعامِ الخاصةَ بديرِ الرهبانِ. لم يحاول أن يأخذَ مؤن الراهباتِ لأنّها مُخزنة بشكلٍ منفصلٍ. «متى حدثَ هذا؟»

«لم يكن الوقتُ متأخراً، في التاسعةِ أو العاشرةِ».

«هل تحدثتَ معهم؟»

«ألقيتُ عليهم التحيةَ».

«ألديكَ فكرة عن المكانِ الذي كانوا ذاهبين إليهِ؟»

هزَّ العاملُ رأسهُ وقالَ: «لقد عبروا الجسرَ ولكن لم أتبين الطريق الذي أخذوه عند مفرقِ كروس غالوز».

والتفتت كاريس إلى إلفريك ثمَّ قالت: «فلتعد بذاكرتكَ إلى الوراءِ قليلاً. هل تعتقدُ أن غودوين قالَ لكَ شيئاً له علاقة بما حدثَ الآن؟ هل ذكرَ أمامكَ أمكنةً معينةً: مونماوث، يورك، أنتورب، بريمن؟»

«لا، ليسَ لدي أدنى فكرة». بدا إلفريك غاضباً لأنّه لم يعلم بهذا قبلاً وهنا اقتنعت كاريس بأنّه يقولُ الحقيقةَ.

إن كانَ إلفريك متفاجئاً بما حدثَ فما من أحدٍ على الأرجح يعلمُ ما خطط

له غودوين. لقد هربَ من الطاعونِ وبدا واضحاً أنّه لم يكن يريد أن يلحقَ بهِ أحد ويجلب معهُ المرضَ. وكما قالَ لها ميرثن قبلاً: «يجب المغادرة باكراً والابتعاد لأطول فترةٍ ممكنةٍ». ربما هذا ما فعلهُ غودوين.

«إن سمعتَ عنهُ أو عن أيِّ أحدٍ من الرهبانِ شيئاً فلتخبرني من فضلكَ»، قالت كاريس.

لم يقل إلفريك شيئاً.

وقالت كاريس بصوتٍ عالٍ حتّى يسمعها بقيةُ العمالِ: «لقد سرقَ غودوين كلَّ ذخائرنا المقدسة»، وسمعَت دمدمةَ سُخطٍ من العمال فهم يشعرون بأنَّ الذخائرَ المقدسة ملكهم أيضاً. في الحقيقةِ كان الحرفيون الأثرياء قد ساهموا في دفعِ كلفةِ بعضِ هذهِ الذخائرِ. «يريدُ الأسقفُ استعادتها. وأيُّ أحد يساعدُ غودوين، ولو بإخفاءِ معلوماتٍ عن مكانهِ، سيكونُ مذنباً بتهمةِ تدنيسِ المقدساتِ».

بدا إلفريك مضطرباً فقد كانت حياتهُ قائمةً على كسبِ حظوةٍ عند غودوين، وها هو غودوين يهربُ الآن ويتركهُ. وهنا قال إلفريك: «قد يكون هناك تفسيرٌ بريءٌ تماماً...»

«إن كانَ هناكَ مثلُ هذا التفسير فلماذا لم يُخبر غودوين بهِ أحداً؟ أو يترك رسالةً قبلَ رحيلهِ؟»

لم يكن بوسعِ إلفريك التفكيرُ بأيِّ شيءٍ يمكنُه قولهُ.

أدركت كاريس أنَّ عليها الآن التحدث إلى جميعِ كبارِ التجارِ وكلما أبكرت في فعلِ هذا كانَ هذا للأفضلِ. «أرغبُ بعقدِ اجتماعٍ»، قالت كاريس لإلفريك. ومن ثمَّ فكرت بطريقةٍ أكثر إقناعاً لتبريرِ هذا الاجتماعِ. «يريد الأسقفُ من نقابةِ الأبرشيةِ أن تجتمعَ اليومَ بعدَ الغداءِ. من فضلكَ أبلغ بقيةَ الأعضاءِ بهذا».

«حسناً»، أجابَ إلفريك.

علمت كاريس أنَّ الأعضاءَ سيحضرون مدفوعين بالفضولِ لمعرفةِ ما حدث. وعندَ حانةِ وايت هورس رأت أمراً دفعها للتوقفُ قليلاً. كانت هناكَ فتاةٌ صغيرةٌ تتحدثُ إلى رجلٍ كبيرٍ، وشيءٌ ما في طريقةِ حديثهما أثارَ ريبةَ كاريس. كانت تملكُ حدساً قوياً تجاه ضعفِ الفتيات، وقد يكونُ السببُ أنّها تتذكر نفسها وهي بعمرِ المراهقةِ، أو ربما بسببِ الابنةِ التي لم يقدر لها أن تعيش. اختبأت كاريس في مدخلِ أحدِ المنازلِ وراقبتهما من بعيد.

كانَ الرجلُ في ثيابٍ رثةٍ وقبعةٍ فرائيةٍ باهظةٍ على رأسِهِ. لم تتعرف عليه كاريس إلّا أنّها تكهنت بأنّه عاملٌ وأنّه ورثَ تلكَ القبعةَ من أحدِ الأقرباءِ. ماتَ الكثيرُ من الناسِ وتسببَ هذا بوفرةٍ في ظهورِ الأشياءِ الثمينةِ، ولم تعد مثلُ هذهِ المشاهدِ الغريبةِ غريبةً الآن. بدت الفتاةُ كأنّها في الرابعة عشرة من العمر. كانت جميلةً ولها قوامُ فتاةٍ بالغةٍ. راقبتها كاريس في امتعاضٍ وهي تتظاهرُ بالحياءِ رغم أن أداءها لم يكن مقنعاً جداً. رأت الرجلَ يأخذ مالاً من محفظتِهِ، وبدا لها كأنّهما يتجادلان. بعدَ أن أعطى الرجلُ المالَ للفتاةِ أخذَ يداعبُ ثدييها الصغيرين.

اكتفت كاريس من المشاهدةِ واندفعت باتجاههما. حالما وقعَ نظرُ الرجلِ على رداءِ الراهباتِ الذي ترتديهِ كاريس هرعَ مبتعداً، وبدت الفتاةُ كأنّها تشعرُ بالذنبِ والامتعاضِ في آنٍ معاً. قالت كاريس: «ما الذي تفعلينهُ؟ أتحاولين بيعَ جسدكِ؟»

«لا يا أماه».

«فلتقولي الحقيقةَ! لمَ سمحتِ لهِ بمداعبةِ ثدييكِ؟»

«لم أكن أعلمُ بما عليَّ القيامُ بِهِ! ليسَ لدي طعامٌ وها أنتِ الآن قد أخفتهِ». وانفجرت الفتاةُ باكيةً.

لم تكن كاريس قادرةً على التصديقِ بأنَّ الفتاةَ جائعةٌ. بدت نحيلةً وشاحبةً.

«تعالي معي»، قالت كاريس. «سأعطيكِ طعاماً».

وأمسكت كاريس بذراعِ الفتاةِ ثمَّ قادتها إلى ديرِ الراهباتِ. «ما اسمكِ؟» سألتها كاريس.

«إزما».

«ما عُمركِ؟»

«ثلاثةَ عشر عاماً».

عندما وصلتا إلى الديرِ أخذت كاريس إزما إلى المطبخِ حيثُ يتمُّ تحضيرُ طعامِ الراهباتِ تحتَ إشرافِ راهبةٍ مبتدئةٍ تدعى أوناغ بعدَ أن وقعت مسؤولةُ المطبخِ جوزفين ضحيةً للطاعونِ. «أعطي الطفلةَ بعضَ الخبزِ والزبدةِ»، قالت كاريس للراهبةِ أوناغ.

جلست كاريس وراقبت الفتاةَ وهي تأكلُ. بدا واضحاً أنّها لم تأكلْ منذُ أيامٍ فقد التهمت نصفَ رغيفٍ زنتهُ أربعَ باوندات قبلَ أن تُبطئ في الأكلِ.

سكبت كاريس كأساً من عصيرِ التفاحِ. «لمَ كنتِ تتضورينَ جوعاً؟» سألتها كاريس.

«توفي جميعُ أفراد عائلتي بسببِ الطاعونِ».

«وماذا عن والدكِ؟»

«كان والدي خياطاً ولذلكَ أستطيعُ الحياكةَ بمهارةٍ ولكن لا أحد يشتري الأقمشةَ لأنَّهم يأخذونَ أيَّ شيءٍ يريدونهُ من منازلَ من توفوا».

«لهذا كنتِ تحاولينَ بيعَ جسدكِ».

أطرقت الفتاةُ بعينيها. «أنا آسفةٌ أيتها الأمُّ رئيسة الدير. كنتُ جائعةً».

«هل كانت هذهِ أولَ مرَّةٍ تحاولين فيها فعلَ هذا؟»

هزَّت الفتاةُ رأسها بالنفي ولم تنظر إلى كاريس مباشرةً.

شعرت كاريس بعينيها تمتلئان بدموعِ الغضبِ. من هم الرجال الذين يحاولون مجامعةَ فتاةٍ في الثالثة عشرة من عمرها؟ وأيّ نوعٍ من الأربابِ ذلكَ الذي يدفعُ بفتاةٍ مثلها إلى حافةِ اليأسِ؟ «هل ترغبين بالعيشِ هنا مع الراهباتِ والعمل في المطبخِ؟» قالت كاريس للفتاة. «سيكون هناكَ طعامٌ كثيرٌ».

رفعت إيزما ناظريها في حماسٍ وقالت: «أوه أجل أيتها الأمُّ سأحبُّ هذا كثيراً».

«إذاً، عليكِ أن تفعلي هذا. يمكنكِ البدء الآن والمساعدة في تحضيرِ غداءِ الراهباتِ. أوناغ، إليكِ مساعدة جديدة في المطبخِ».

«شكراً لكِ أيتها الأمُّ كاريس فأنا أحتاجُ إلى كل مساعدةٍ ممكنةٍ».

غادرت كاريس المطبخ وهي غارقة في التفكير وتوجهت إلى الكاتدرائيةِ من أجلِ صلاةِ الظهرِ. كانت بدأت تدركُ أنَّ الطاعونَ لم يكن مرضاً جسدياً فحسب فقد نجت إزما من المرضِ ولكن روحها كانت في خطرٍ.

تولى الأسقفُ هنري مراسمَ الصلاةِ ولذلك حظيت كاريس بوقتٍ للراحة خلالَ المراسمِ، وقررت أنَّها خلالَ اجتماعِ نقابةِ الأبرشيةِ ستتحدث عن أمورٍ أخرى غير موضوعِ هروبِ الرهبانِ. لقد حانَ الوقتُ لفرضِ النظامِ في المدينةِ والتعامل مع تبعاتِ الطاعون، ولكن ما شغلَ تفكيرها حقاً كانَ الطريقةَ لتحقيقِ هذا.

خلالَ الغداءِ أمعنت التفكيرَ في المشاكلِ، وبدا لها أنَّه قد حان الوقت المناسب لأخذِ قراراتٍ كبيرةٍ. سيعززُ وجود الأسقفِ معها من سلطتها، وقد تنجحُ في القيامِ بأمورٍ كانت ستلقى معارضةً في غيابهِ.

كانت هذهِ أيضاً لحظةً جيدةً لتحصلَ على مرادها من الأسقفِ. كانت فكرةً مثمرةً...

بعدَ الانتهاءِ من تناولِ الغداءِ توجهت لرؤيةِ الأسقفِ في منزلِ رئيسِ الديرِ. وجدتهُ جالساً إلى الطاولةِ مع رئيسِ الشمامسةِ وقد انتهيا من تناولِ الطعامِ الذي قدمتهُ لهما الراهباتُ من مطبخهنَ ويشربانِ النبيذَ في حين كان عاملٌ من ديرِ الرهبانِ ينظفُ الطاولةَ. «آملَ أن تكونَ قد استمتعتَ بطعامِ الغداءِ يا سيدي رئيسَ الديرِ»، قالت كاريس بلهجةٍ رسميةٍ.

بدا الأسقفُ الآن أقلَّ حدَّةً من المعتادِ. «كانَ جيداً، شكراً لكِ أيتها الأمُّ كاريس. كانت سمكةُ الكراكي لذيذةً. هل من أخبارٍ عن رئيسِ الديرِ الهاربِ؟»

«يبدو أنّه حرصَ على عدمِ تركِ أيِّ دلائل عن وجهتهِ».

«هذا مخيبٌ للآمالِ».

«عندما كنتُ أجوبُ المدينة أستقصي عن الأمر رأيتُ العديدَ من الحوادثِ التي أثارت قلقي واهتمامي. كانت هناكَ فتاةٌ في الثالثة عشرة تبيعُ جسدها، ومواطنان محترمان يتشاجران على ملكيةِ رجلٍ ميتٍ، ورجل ثملٌ إلى درجةِ الموتِ في عزِّ النهارِ».

«هذهِ تبعاتُ الطاعونِ وهي تحدثُ في جميعِ الأماكنِ».

«أعتقدُ أنّه علينا العملُ على مواجهةِ هذهِ التأثيراتِ».

نظرَ إليها في استغرابٍ وبدا عليهِ كأنّه لم يفكر في القيامِ بشيءٍ لوضعِ حدٍ لها. «كيف؟»

«إنَّ رئيسَ الدير هو حاكمُ كينغزبريدج، وهو من يقومُ بالمبادراتِ».

«ولكنه اختفى».

«بصفتكَ الأسقفَ أنتَ رئيسُ ديرنا عملياً. أعتقدُ أنّه عليكَ البقاءُ في كينغزبريدج بشكلٍ دائمٍ واستلام زمامِ الأمورِ».

في حقيقةِ الأمرِ كان هذا آخر شيءٍ قد ترغبُ بهِ كاريس، ولكن احتمال قبولِ الأسقفُ بهذا ضعيفٌ فقد كانَ لديهِ الكثيرُ من الأعمالِ في أمكنةٍ أخرى، ولذلك فهي باقتراحها هذا كانت تحاولُ محاصرتهُ.

بدا متردداً ولوهلةٍ شعرت كاريس بالقلقِ من أن تكونَ قد أخطأت في الحكمِ عليهِ وأن يقبلَ باقتراحِها. قال لها: «هذا أمرٌ غير وارد فجميع مدنِ الأبرشيةِ تعاني من المشاكلِ ذاتها، ووضعُ شايرنغ هو الأسوأ. إن واجبي هو الحفاظُ على

نسيج المسيحيةِ متماسكاً هنا بينما الكهنةُ يموتون. ليسَ لدي وقتٌ للاهتمام بالسكارى والعاهرات».

«حسناً، نحتاجُ إلى رئيسٍ للديرِ فهذهِ المدينة بحاجةٍ إلى قائدٍ أخلاقي».

وتدخلَ رئيسُ الشمامسةِ هنا قائلاً: «يا سيدي الأسقفُ هناكَ أيضاً قضيةُ من سيستلمُ المال التابع للديرِ ويهتم بالكاتدرائيةِ والمباني الأخرى ويديرُ الأراضي والأقنان...»

قال هنري: «حسناً عليكِ أن تقومي بكلِّ هذهِ الأمور أيتها الأمُّ كاريس».

تظاهرت بأنَّها تفكرُ في هذا الاقتراحِ كأنَّه لم يخطرْ لها قط. «يمكنني أن أقومَ بكلِّ المهامِ العاديةِ والأقلِ أهميةً كإدارةِ أموالِ الرهبانِ وأراضيهم، ولكني لا أستطيعُ أن أقومَ بما يمكنكَ القيامُ بهِ يا سيدي الأسقف. لا يمكنني أن أقيم طقسَ المناولةِ».

«لقد ناقشنا هذا الأمر مسبقاً»، قالَ هنري في نفادِ صبرٍ. «أنا أرسمُ كهنةً جدداً بأسرع ما يمكنني، ولكنكِ تستطيعين القيامَ بكلِّ شيءٍ آخر».

«يبدو الأمرُ كأنكَ تطلبُ مني أن أعملَ كرئيسةٍ لديرِ رهبانِ كينغزبريدج».

«هذا تماماً ما أريدكِ أن تقومي بهِ».

حرصت كاريس على عدمِ إظهارِ ابتهاجها. كانَ الأمرُ رائعاً جداً بل أقرب إلى الخيالِ؛ فها هي قد أصبحت رئيسةً للدير ومخولة بالقيامِ بكلِّ شيءٍ باستثناءِ الأمرِ الوحيد الذي لم تكن ترغبُ بهِ. وتساءلت في نفسها إن كانَ هناكَ عقباتٌ خفيةٌ لم تفكر بها.

قالَ رئيسُ الشمامسةِ لويد: «من الأفضلِ أن أكتب لها رسالةً بهذا الشأنِ في حال احتاجت إلى ترسيخ سلطتها».

قالت كاريس: «إن كنتَ تريد من المدينةِ الالتزام بما تتمناه عليكَ أن تقنعهم بأنَّ هذا قراركَ الشخصي. سينعقدُ اليوم اجتماعٌ لنقابةِ الأبرشيةِ وأرجو أيها الأسقف أن تحضرَ الاجتماع وتعلنَ عن هذا بنفسكَ».

«حسناً فلنذهب».

غادروا جميعاً قصرَ غودوين وعبروا الشارع الرئيسي إلى نقابةِ الأبرشيةِ. كانَ الأعضاء ينتظرون سماعَ قصةِ الرهبانِ الهاربين. بدأت كاريس الكلامَ بإخبارهم بما تعرفهُ عن موضوعِ الرهبانِ. ورغمَ أنَّ العديدَ من الناسِ قد رأوا أو سمعوا حركةً بعدَ هبوطِ الظلامِ ولكن ما من أحدٍ منهم أدركَ أو شكَ بأنَّ الرهبان غادروا الدير.

طلبت كاريس من الحاضرين أن يولوا اهتماماً بأحاديثِ المسافرين حولَ مجموعةٍ كبيرةٍ من الرهبانِ المسافرين مع متاعٍ كثيرٍ.

«وبما أننا الآن تقبلنا احتمالية عدم عودةِ الرهبان في أيِّ وقتٍ قريبٍ فلدى الأسقف هنري إعلانٌ هامٌ». أرادت كاريس للكلماتِ أن تخرج من فمهِ وليسَ من فمها.

تنحنح هنري ثمَّ قال: «لقد صادقتُ على انتخابِ كاريس رئيسةً للديرِ وعينتها رئيسةً فعليةً لديرِ الرهبانِ. أرجو منكم جميعاً أن تعاملوها كممثلةٍ لي وكحاكمةٍ في جميعِ الأمورِ باستثناءِ الأمورِ الخاصةِ بترسيمِ الرهبانِ».

راقبت كاريس وجوهَ الحاضرين. بدا إلفريك مُغتاظاً بشدَّةٍ بينما ابتسمَ ميرثن ابتسامةً بالكادِ ترى. لقد تكهنَ بأنَّها ناورت للحصولِ على هذا المنصبِ، وقد كانَ مسروراً من أجلها ومن أجلِ المدينةِ، ولكن تقطيبةَ حزنٍ ارتسمت على فمهِ لعلمهِ أنَّها لن تكون لهُ. أمَّا البقيةُ فقد بدوا سعداءَ؛ كانوا يعرفونها ويثقونَ بها، وقد فازت بدعمٍ أكبر بعدَ هروبِ غودوين.

ولأنَّ كاريس قررت أن تستغل ما حدثَ إلى أبعدِ حدٍ قالت: «هناكَ ثلاثةُ أمورٍ أريدُ أن أعالجها بشكلٍ طارئٍ في أولِ يومٍ لي كرئيسةِ الديرِ الفعليةِ»، قالت كاريس. «أولاً، حالاتُ الثمالةِ. رأيتُ اليوم دانكن داير فاقداً للوعي في الشارعِ قبلَ موعدِ الغداءِ، وأعتقدُ أن هذا سببهُ جو الفجورِ الذي يسودُ المدينةَ، وهذا ما لا نحتاجهُ ونحنُ في خِضم مواجهةِ هذهِ الأزمةِ الرهيبةِ».

علت أصواتٌ بالموافقةِ على ما قالتهُ. كانت نقابةُ الأبرشيةِ محكومةً بكبارِ تجارِ المدينةِ وهم من المحافظين جداً الذين إن رغبوا بالشربِ حتَّى الثمالةِ فسيلزمون بيوتهم.

تابعت كاريس كلامها قائلةً: «أرغبُ بإعطاءِ المأمور جون مهامَّ جديدةً ومن بينها اعتقالُ كل شخصٍ يثملُ في وضحِ النهارِ. إنَّه مخولٌ بسجنهم إلى أن يستفيقوا من ثمالتِهم».

أومأ الجميعُ بالموافقةِ بمن فيهم إلفريك.

«وثانياً، أرغبُ بالتحدثِ عن ممتلكاتِ من توفوا من دون ورثةٍ. وجدتُ هذا الصباح جوزيف بلاكسميث وتوبي بيترسون يتشاجران في الشارعِ من أجلِ دجاجاتِ جاك مارو».

وأثارت فكرةُ رجلين بالغين يتشاجران من أجلِ أمرٍ تافهٍ كهذا الضحكَ بينَ الحاضرين.

كانت كاريس قد فكرت بحلٍ لهذه المشكلةِ. «مبدئياً، ستعودُ هذهِ الممتلكاتُ إلى سيدِ الأرضِ وهذا يعني الدير هنا في كينغزبريدج، ولكن من جهةٍ أخرى لا أريدُ لمباني الديرِ أن تمتلئ بالثيابِ القديمةِ ولهذا أقترحُ أن يتمَّ التغاضي عن تنفيذِ هذا القانون إن كانت قيمةُ ممتلكاتِ الشخصِ أقلَّ من جنيهين، وبدلاً من ذلكَ سيقومُ أقربُ جارين إلى المنزلِ بإغلاقهِ حتى لا يؤخذ منهُ شيءٌ وبعدها يجردُ كاهنُ الأبرشيةِ الملكية والذي بدورهِ سيستمعُ إلى مطالبِ المَدينين لصاحبِ المنزلِ المتوفى. وإن لم يكن هناكَ كاهن فيمكنهم الرجوع إلي. وعندما تستوفى الديونُ سيُقسمُ ما تبقى من ممتلكاتِ المتوفى الشخصيةِ كالثيابِ والأثاث والطعام والشراب بينَ الجيران، وفي حال وجودِ مبلغٍ مالي سيكونُ من نصيبِ كنيسةِ الأبرشيةِ».

وحصلَ هذا الاقتراح على موافقةٍ جماعيةٍ أيضاً؛ فقد أومأ معظمُ الحاضرين في موافقةٍ.

«وأخيراً، وجدتُ فتاةً في الثالثة عشرة من العمر تحاولُ بيعَ جسدها خارجَ حانةِ وايت هورس. كان اسمها إزما وقد فعلت هذا لأنَّها كانت جائعة». ألقت كاريس نظرةَ تحدٍ على الحاضرين. «هل باستطاعةِ أحد الحاضرين أن يخبرني عن سببِ حدوثِ مثل هذا الأمرِ في مدينةٍ مسيحيةٍ؟ توفي جميعُ أفرادِ عائلتها ولكن ألا تملكُ عائلتها أصدقاء أو جيراناً؟ من يسمحُ لطفلةٍ بالتضورِ جوعاً؟»

قالَ إدوارد بوتشر بصوتٍ واطئٍ: «إزما تايلر طفلةٌ شقيةٌ».

لم تكن كاريس لتقبلَ أيَّ عذرٍ: «إنَّها في الثالثة عشرة!»

«ما أحاولُ قولهُ هو أنَّها لربما تلقت عرضاً بالمساعدةِ ولكنها رفضتهُ».

«ومنذُ متى نسمحُ للأطفالِ بأخذِ مثلِ هذهِ القراراتِ بأنفسهم؟ إن كانت الطفلةُ يتيمةً فمن واجبِ الجميعِ رعايتها. إن لم يكن هذا جوهر الدين الذي تعتنقهُ فما هو إذاً؟»

وارتسمَ شعورٌ بالخزي على وجوهِ الجميعِ.

«في المستقبلِ إن فقد أيُّ طفلٍ والديهِ فأريد من أقربِ جارين أن يحضرا الطفلَ إلي. ومن لا نستطيعُ وضعهُ مع عائلةٍ مُحبَّةٍ فسننقلهُ إلى الديرِ. ستعيشُ الفتياتُ مع الراهبات بينما سيشغلُ الصبيانُ مهجعَ الرهبانِ. سيدرسون جميعاً في الصباحِ وسيعملونَ بعدَ الظهرِ».

كانَت هناكَ موافقةٌ جماعيةٌ على هذا أيضاً.

وتحدَّثَ إلفريك هنا: «هل انتهيتِ أيتها الأمُّ كاريس؟»

«أعتقدُ هذا ما لم يرغب أحدٌ بمناقشةِ تفاصيل مقترحاتي».

لم يتحدث أحد وبدأ الأعضاءُ يتململون في أمكنتهم كأنَّ الاجتماع قد انتهى.

ثمَّ قال إلفريك: «قد يتذكرُ بعضُ الرجالِ هنا أنَّهم انتخبوني رئيساً للنقابةِ».

كانَ صوتهُ يفيضُ بالاستياءِ ولذلكَ بدأ الجميعُ يتململُ في نفادِ صبرٍ.

«ونحنُ الآن نرى أنَّ رئيسَ ديرِ كينغزبريدج متهمٌ بالسرقةِ ومدانٌ من دونِ محاكمةٍ»، تابع إلفريك.

كانت حركةً سيئةً من إلفريك لأنَّ الجميعَ أخذَ يدمدمُ في اعتراضٍ؛ فما من أحدٍ بينهم يؤمنُ ببراءةِ غودوين.

تجاهلَ إلفريك الجو الذي سادَ الغرفةَ وتابعَ: «وجلسنا هنا كالعبيد وتركنا امرأةً تُملي علينا قوانين المدينةِ. من يملكُ سلطةَ سجنِ السكارى؟ هي. من الحكمُ النهائي في قضايا الميراث؟ هي. من سيتعاملُ مع يتامى المدينة؟ هي ستفعل. ما الذي حدثَ لكم؟ ألستم رجالاً؟»

قالت له بيتي باكستر: «لا».

وضحكَ الرجالُ.

قررت كاريس عدمَ التدخلِ في هذا النقاشِ؛ فالأمرُ لم يكن مهماً. حدَّقت إلى الأسقفِ وهي تتساءلُ إن كانَ سيرسخُ معارضةَ إلفريك لها، ولكنها رأته مسترخياً في مكانهِ وقد التزمَ الصمتَ، وهذا دليلٌ واضحٌ على اعتقادهِ بأنَّ إلفريك قد شنَّ حرباً خاسرةً.

ورفعَ إلفريك صوته قائلاً: «أقترحُ رفضَ استلامِ امرأةٍ لمنصبِ رئاسةِ الديرِ، فعلاً قبلَ أن يكون اسماً، ورفض حقِ رئيسة الديرِ في حضورِ اجتماعاتِ نقابةِ الأبرشيةِ وفرضِ الأوامرِ».

غمغمَ البعضُ في احتجاجٍ، ووقفَ اثنان أو ثلاثةُ أشخاصٍ كأنَّهم على وشكِ مغادرةِ المكان من شدَّةِ الامتعاضِ، ولكن أحدهم صاحَ بصوتٍ عالٍ: «فلتنسَ الأمرَ يا إلفريك».

ولكن إلفريك تابعَ: «وهذهِ امرأةٌ متهمةٌ بممارسةِ السحرِ ومحكوم عليها بالموتِ!»

وقفَ جميعُ الرجالِ الآن وخرجَ أحدهم من البابِ.

«عُدا» صرخَ إلفريك. «فأنا لم أعلن نهايةَ الاجتماع!»

ولكن لم يلقِ أحدٌ بالاً له.

نهضت كاريس وانضمت إلى البقيةِ عندَ البابِ. ولأنَّها أفسحت الطريقَ أمامَ الأسقفِ ورئيسِ الشمامسةِ فقد كانت آخر المغادرين. وبينما كانت تغادرُ القاعةَ استدارت وألقت نظرةً أخيرةً على إلفريك فوجدتهُ يجلسُ وحيداً في صدرِ الغرفةِ.

ثمَّ خرجت.

-64-

كان قد مضى على آخرِ زيارةٍ لغودوين وفيليمون إلى ديرِ سان جون إن ذا فوريست اثنا عشرَ عاماً، وتذكرَ غودوين كيفَ انبهرَ وقتها بالحقولِ المنسقةِ والأسيجةِ المُقلَّمةِ بعنايةٍ والخنادق النظيفةِ والصفوفِ المستقيمةِ لأشجارِ التفاحِ في البستانِ واستعادَ الإحساس ذاته هذا اليومِ عندما وصلَ إلى الدير؛ يبدو أنَّ سول وايتهيد لم يتغير أيضاً.

عبرَ غودوين مع قافلتِهِ الحقولَ المتجمدةَ باتجاهِ مُجمعِ الديرِ، وبينما كانوا يقتربون رأى غودوين بعضَ التحسيناتِ على المكان. قبلَ اثني عشرَ عاماً كانت تحيطُ بالكنيسةِ الحجريةِ وممرِّها المسقوفِ ومهجعِها أبنيةٌ خشبيةٌ متفرقةٌ كالمطبخِ والإسطبلاتِ والحظيرةِ والمخبز إلا أنَّ هذهِ الأبنيةُ الخشبيةُ المهلهلةُ اختفت الآن واتسعَ المجمع الحجري الملاصقَ للكنيسةِ.

«يبدو المجمع الآن محصناً أكثرَ من ذي قبلٍ»، أشارَ غودوين.

«أعتقدُ أنَّ السببَ هو تصاعد الأعمالِ الإجراميةِ من قبلِ الجنودِ العائدين من الحروبِ الفرنسيةِ»، قال فيليمون.

اكفهرَّ وجهُ غودوين وقال: «لا أتذكرُ أن أحداً طلبَ مني الإذنَ لمشروعِ البناءِ هذا!».

«لم يُطلب منكَ أيُّ إذنٍ».

«أها»، رد غودوين

لسوءِ الحظِ لم يكن بوسعهِ الشكوى فقد يتساءلُ أحدٌ عن قيام سول بهذهِ

التحصينات دون علمِهِ وعندها سيبدو غودوين كشخصٍ مهملٍ لواجبِهِ في الإشرافِ على أحوالِ الديرِ.

علاوةً على هذا كانَ المكانُ مناسباً له الآن لسهولةِ إغلاقِهِ في وجهِ المتطفلين.

ساعدته الرحلةُ التي استغرقت يومين على تهدئةِ أعصابِهِ بعد أن أدخلهُ موتُ والدتِهِ في حالةِ رعبٍ جنونيةٍ، وعلى طولِ الطريقِ من كينغزبريدج لم يفارقهُ الشعورُ بأنّه ميتٌ لا محالة إلا أنّه نجحَ في تمالكِ عواطفِهِ بما يكفي لإجراءِ ذلكَ الاجتماعِ في قاعةِ المداولاتِ ومخاطبةِ الرهبانِ وتنظيمِ عمليةِ الهروبِ، وعلى الرغمِ من فصاحتِهِ فإنَّ بعضَ الرهبانِ عبروا عن شكوكهم حيالَ صوابيةِ خيارِ الهربِ. لحسنِ الحظِ كانوا جميعاً قد أقسموا على الطاعةِ ولذلك رضخوا له بدافعِ العادةِ إلا أنّه لم يشعر بالأمانِ إلى أن قطعَت المجموعةُ على ضوءِ المشاعلِ الجسرَ المزدوج وخرجوا من المدينةِ تحتَ جنحِ الظلامِ.

كان غودوين ما يزالُ يشعرُ بأنّه على حافةِ الهاويةِ وبينَ الفينةِ والأخرى يفكرُ ملياً بأمرٍ ويقرُ أن يسألَ بيترانيلا عن رأيها ليدركَ حينها أنه لا يستطيعُ طلبَ النصيحةِ منها مجدداً ويشعرُ بالرعبِ يصعدُ عبرَ حلقهِ كعصارةٍ هضميةٍ راجعةٍ.

هربَ من الطاعونِ الآن رغم أن هذا ما كان عليهِ القيام به منذُ ثلاثةِ أشهرٍ عندما توفي مارك ويبر. تساءلَ في نفسهِ إن كانَ قد تأخرَ وقاومَ إحساساً بالرعبِ فهو لن يشعرَ بالأمانِ ما لم يشعر بأنّه في مكانٍ مُغلقٍ على بقيةِ العالمِ.

حاولَ أن يفكرُ بالحاضرِ فنظرَ حوله. في مثلِ هذا الوقتِ من العام لا يتواجد مزارعون في الحقولِ ولكن في حديقةٍ محروثةٍ أمامَ الديرِ رأى مجموعةً من الرهبانِ. كانَ أحدهم يضعُ حدوةً لحصانٍ وآخر يقومُ بالفلاحةِ ومجموعةٌ صغيرةٌ تعملُ على معصرةِ تفاحٍ.

توقفوا جميعاً عن أعمالهم وأخذوا يحدقونَ في دهشةٍ إلى حشدِ الزائرين الآخذ بالاقتراب. كان عددهم عشرين راهباً وستةَ رهبانٍ مبتدئين وأربع عرباتٍ وعشرة جيادٍ للتحميلِ فغودوين لم يترك وراءهُ أحداً باستثناءِ خدم الديرِ.

تركَ أحدُ العاملين على معصرةِ التفاحِ عملهُ وتوجهَ نحوهم وأدركَ غودوين على الفورِ أنّه سول وايتهيد. كانا يلتقيان خلالَ زياراتِ سول السنويةِ إلى كينغزبريدج ولكنَّ غودوين لاحظَ الآن وللمرةِ الأولى الشيبَ في شعرِ سولِ الأشقر جداً.

منذُ عشرين عاماً كانا طالبين في أوكسفورد وكانَ سول الطالبَ النجيب والسريع في التعلمِ والماهر في المجادلةِ والأكثر ورعاً بينَ جميعِ الطلابِ. كانَ سيصبح رئيسَ ديرِ كينغزبريدج لو أنَّه كانَ أقلَّ روحانيةً وتعاملَ مع مهنتِهِ بشكلٍ استراتيجي بدلاً من تركِ كل شيءٍ لمشيئةِ الرَّبِّ لأنه عندَ وفاةِ رئيسِ الديرِ أنتوني أقيمت انتخاباتٌ وهزمَه غودوين شرَّ هزيمةٍ.

ولكنَ سول لم يكن ضعيفاً بل يتحلى باستقامةٍ صارمةٍ تخيفُ غودوين الذي تساءلَ في نفسه الآن إن كان سول سينصاعُ لخطتِهِ أم أنَّه سيتسببُ بالمتاعبِ، ومرةً أخرى قاومَ غودوين شعوراً بالجزعِ وجاهدَ للحفاظ على هدوئِهِ.

تفحَّصَ غودوين بعنايةٍ وجهَ سول وبدا له أن رئيسَ ديرِ سان جون متفاجئ برؤيةِ غودوين وغيرُ مسرورٍ رغم أنَّه حرصَ على أن يبدو بمظهرٍ ودودٍ ومهذبٍ ولكن دونَ أن يبتسم.

خلالَ حملتِهِ الانتخابيةِ حرصَ غودوين على أن يعتقدَ الجميعُ بأنَّه لا يرغبُ بمنصبِ رئيسِ الديرِ إلا أنَّه أقصى جميعَ المرشحين الآخرين، بمن فيهم سول، وتساءلَ غودوين في نفسِهِ إن ساورت سول أيُّ شكوكٍ حيالَ تعرضِهِ للخداعِ.

«طابَ يومكَ أيُّها الأبُ رئيس الديرِ»، قال سول وهو يقتربُ من غودوين. «إنَّ زيارتك بركةٌ مفاجئةٌ».

إذاً، يبدو أنَّ سول لن يتصرفَ بعدائيةٍ واضحةٍ فهو بلا شك يعتقدُ أنَّ التصرف بعدائيةٍ يتعارض مع نذرِهِ بالطاعةِ وشعرَ غودوين بالراحةِ ثمَّ قال لهُ: «باركك الرَّبُّ يا بني لقد مضى وقتٌ طويل على آخر زيارةٍ لي لأبنائي في ديرِ سان جون».

نظرَ سول إلى الرهبانِ والجيادِ ثمَّ إلى العرباتِ المحملةِ بالمؤنِ. «يبدو أنَّها أكثرُ من مجردِ زيارةٍ عاديةٍ». ولم يعرض على غودوين مساعدتَهُ في الترجلِ عن حصانِهِ كأنَّه أرادَ تفسيراً قبلَ أن يدعوهم للدخولِ إلَّا أن هذا لم يكن تصرفاً ذكياً فهو لا يملكُ الحقَّ برفضِ استقبالِ رئيسِهِ.

رغمَ هذا وجدَ غودوين نفسهُ يشرحُ له الوضعَ: «هل سمعتَ بأمرِ الطاعون؟»

«إشاعات»، قالَ سول. «لا يزورنا أناسٌ كثر وبالتالي لا تصلنا الأخبار».

وفكرَ غودوين بأنَّ هذا أمرٌ جيدٌ فقلَّةُ الزوارِ هي التي جذبته إلى المكانِ. «قتلَ المرضُ المئات في كينغزبريدج وأخشى أنَّه قضى على جميعِ من في الديرِ لهذا السببِ أحضرتُ الرهبان إلى هنا فقد تكون هذهِ الطريقةُ الوحيدةُ لضمانِ نجاتنا».

«بالطبعِ فأنتم مرحبٌ بكم أيّاً يكن سببُ الزيارةِ».

«هذا أمرٌ مسلمٌ بهِ»، قالَ غودوين بجفافٍ فقد كان غاضباً لأنّه أُجبرَ على تبريرِ نفسهِ.

بدا سول غارقاً في التفكير. «لا أعرفُ أينَ سينامُ الجميع....»

«أنا من سيُقررُ هذا»، قال غودوين فارضاً سُلطتهُ. «يمكنكَ أن تأخذني في جولةٍ في المكان إلى أن ينتهي العملُ على إعدادِ عشائنا». ترجَّلَ غودوين عن حصانهِ من دونِ مساعدةٍ وسارَ باتجاهِ الدير.

واضطرَ سول إلى اللحاقِ بهِ.

بدا المكانُ برمتهِ أجردَ نظيفاً وعكسَ جديَّةِ سول حيالَ نذرِ الفقرِ ولكن غودوين اليوم كانَ مهتماً بجهورية المكانِ أمامَ الغرباءِ. لحسنِ الحظِ كانَ إيمان سول بالنظامِ والانضباط قد قادهُ إلى تصميم مداخل قليلةٍ للمباني فلم يكن هناكَ سوى ثلاثةِ طرقٍ إلى الديرِ فإما عبرَ المطبخ أو عبرَ الإسطبلِ أو عبرَ الكنيسةِ، وعندَ كلِّ مدخل بابٌ متينٌ يُمكن إيصادهُ بقوةٍ.

كانَ المهجعُ صغيراً وبالشكلِ الطبيعي يتسعُ لتسعةٍ أو عشرةِ رهبان ولم يكن هناكَ غرفةُ نومٍ منفصلةٍ لرئيسِ الديرِ. كانت الطريقةُ الوحيدةُ لتأمين المبيت لعشرين راهباً آخرين هي بوضعهم في الكنيسةِ.

فكرَ غودوين بأخذِ المهجع لنفسهِ ولكنه لم يعثر في الغرفةِ على مكانٍ جيدٍ لإخفاءِ ذخائرِ الكاتدرائيةِ التي أرادَ إبقاءها قريبةً منهُ. لحسنِ الحظِ كانَ للكنيسةِ الصغيرةِ مصلى جانبي يُمكنُ إقفالهُ وقررَ غودوين أن يأخذهُ كغرفةٍ لهُ بينما رتبَ بقيةُ رهبانِ كينغزبريدج أسرَّةً قشيَّةً على الأرضيةِ الطينيةِ في صحنِ الكنيسةِ مستغلين أكبرَ قدرٍ من المساحةِ.

أُرسلَ الطعامُ والنبيذ الذي جلبوهُ إلى المطبخ والقبو ولكن فيليمون أخذَ الذخائر إلى غرفةِ غودوين بعد أن تبادلَ الحديث مع رهبانِ سان جون. «يديرُ المكان بطريقتهِ الخاصةِ»، قالَ فيليمون لغودوين. «وهو يطالبُ بطاعةٍ صارمةٍ للرَّبِّ ولأحكامِ القديسِ بنيديكت ولكنهم يقولون إنّه لا يقفُ على منصةٍ ويعظُ وأنّه ينامُ في المهجع ويأكلُ الطعام ذاته الذي يأكلهُ الآخرون ولا يُمتع نفسهُ بأي امتيازاتٍ. لا حاجة هنا للقولِ إنّهم يحبونَهُ لهذا الأسبابِ ولكنَ هناكَ راهباً واحداً يُعاقب باستمرار وهو الأخ جونغويل».

«أتذكرهُ»، قال غودوين. عندما كانَ جونغويل راهباً مبتدئاً في كينغزبريدج

لطالما وقعَ في المتاعبِ بسببِ تلكؤهِ وقذاراتهِ وتكاسلهِ وجشعهِ فهو لم يكن راهباً منضبطاً وعلى الأرجح اختارَ حياةَ الدير ليفرضَ عليهِ الآخرونَ انضباطاً لا يمكنهُ فرضهُ على نفسهِ. «أشكُّ في أن يكونَ مفيداً لنا»، تابعَ غودوين.

«سيكسرُ القواعدَ من أجلِ أيِّ فرصةٍ»، قال فيليمون. «ولكنهُ لا يملكُ سُلطةً ولهذا لن يتبعهُ أحدٌ».

«أليسَ لديهم أيُّ شكوى من سول؟ ألا ينامُ حتَّى وقتٍ متأخرٍ؟ ألا يتجنب الأعمالَ المزعجةَ؟ ألا يحتكرُ أفضلَ نبيذٍ؟»

«يبدو أنَّه لا يفعلُ هذا».

«فهمت». كانَ سول رجلاً عصامياً وما زال كذلك وعلى الرغم من خيبةِ ظن غودوين فإنَّه لم يكن متفاجئاً.

خلالَ صلاةِ العصرِ لاحظَ غودوين رزانةَ وانضباطَ رهبان ديرِ سان جون على الرغم من أنَّه وعلى مدارِ السنوات الماضيةِ أرسلَ الرهبان المثيرين للمتاعبِ من متمردين ومضطربين عقلياً ومشككين بتعاليم الكنيسةِ ومهتمين بالأفكارِ المهرطقةِ إلى هنا، وسول لم يشتكِ من الأمرِ قط أو يُعِد أحداً منهم إلى ديرِ كينغزبريدج وبدا كأنَّه قادرٌ على تحويل الجميع إلى رهبانٍ مثاليين.

بعدَ الانتهاءِ من المراسمِ أرسلَ غودوين معظمَ رهبانِ كينغزبريدج إلى غرفةِ الطعامِ لتناولِ العشاءِ ولم يتركْ معهُ سوى فيليمون وراهبين قويين. عندما أصبحوا وحدهم في المصلى طلبَ من فيليمون حراسةَ البابِ الذي يُفضي إلى الممرِ المسقوفِ ثمَّ طلبَ من الراهبين الشابين أن يُحركا المذبحَ الخشبي المزخرف من مكانهِ ويحفرا حفرةً تحتَهُ.

وعندما رأى غودوين أنَّ الحفرةَ عميقةٌ بما يكفي أحضرَ ذخائرَ الكاتدرائيةِ من غرفتهِ ودفنها تحتَ المذبحِ ولكن قبلَ أن ينتهي من عملِهِ كانَ سول عندَ البابِ.

سمعَ غودوين فيليمون يقولُ: «يرغبُ السيدُ رئيسُ الدير بأن يبقى وحده».

وأتى صوتُ سول قائلاً: «إذاً من الأفضلِ أن يخبرني بهذا بنفسهِ».

«لقد طلب مني أن أقولَ هذا».

علا صوتُ سول قائلاً: «لن يمنعني أحدٌ من دخول كنيستي بخاصةٍ أنت».

«هل تلمحُ إلى أنك ستستخدم العنف معي أنا، نائب رئيسِ ديرِ كينغزبريدج؟»

«سأمسكُ بكَ وأرميكَ في النافورةِ إن تابعتَ الوقوف في طريقي».

تدَخّل غودوين هنا ورغم أنَّه كان يُفضلُ بقاء سول جاهلاً بما يحدثُ ولكن

يبدو أنَّ هذا ما لن يحدث. «دعهُ يدخل يا فيليمون»، صاحَ غودوين من الداخلِ.
تنحى فيليمون جانباً ودخلَ سول وعندما رأى الحقائب فتحَ أحدَ الأكياسِ وعاينَ ما في داخلهِ من دونِ طلبِ الإذنِ بفعلِ هذا. «يا إلهي!» قالَ في استغرابٍ هو يُخرجُ إبريقاً مطلياً بالفضةِ مخصصاً للمذبح. «ما هذا؟»
شعرَ غودوين بإغراءِ القول له إنَّه لا يستطيعُ استجوابَ من هو أعلى منهُ مرتبةً فقد يرضخُ سول المؤمن بالتواضعِ، من حيثُ المبدأ على الأقل، أمام مثلِ هذا التوبيخ ولكن غودوين لم يرغب بأن تساور سول أيُّ شكوكٍ ولهذا قالَ له: «لقد أحضرتُ ذخائرَ الكاتدرائيةِ معي».
علت وجهُ سول نظرةُ إزدراءٍ: «كنتُ أعتقدُ أنَّ مثلَ هذهِ الحلي الرخيصةِ مناسبةٌ لكاتدرائيةٍ عظيمةٍ ولكنها ستبدو غريبةً في ديرٍ متواضعٍ في الغابةِ».
«لن تكونَ مضطراً إلى النظرِ إليها لأنني سأقومُ بإخفائها وما من ضررٍ بأن تعرفَ المكان الذي سأخبئها فيهِ رغمَ أنني كنتُ أنوي توفير عبء هذهِ المعرفةِ عليكَ».
بدا سول مرتاباً ولذلك سأله: «لِمَ أحضرتها أصلاً؟»
«لحمايتها».
لم يبدُ سول مقتنعاً جداً بهذا التفسيرِ وقال: «أنا متفاجئ لأنَّ الأسقفَ سمحَ لكَ بأخذها».
بالطبعِ لم يطلبِ غودوين إذنَ الأسقفِ ولكن غودوين لم يخبر سول بهذا واكتفى بالقول: «إنَّ الوضعَ في كينغزبريدج حالياً سيئٌ إلى درجةٍ كنا معها قلقين على أمانِ الذخائر حتَّى في الديرِ».
«وستكونُ هنا بأمانٍ أكبرٍ؟ إننا محاطون بالخارجين عن القانونِ كما تعرفُ والشكرُ للرَّبِّ أنَّكَ لم تلتقِ بأحدٍ منهم على الطريقِ».
«الرّبُّ يرعانا».
«ويرعى حليّهُ كما أتصورُ».
باتَ سول في موقفهِ أقربَ للمتمردِ ولكن غودوين لم يقم بتأنيبهِ مخافةَ أن يوحي ردُّ فعلهِ المبالغ فيه بأنَّه مذنبٌ. على أيِّ حالٍ لاحظَ غودوين أنَّ لتواضعِ سول حدوداً وهذا يعني أنه قد أدرك خداعَ غودوين له منذُ اثني عشر عاماً.
قال غودوين: «من فضلكَ اطلب من جميعِ الرهبانِ التزامَ قاعة الطعامِ بعدَ العشاءِ فأنا أرغبُ بالحديثِ إليهم حالما أنتهي من عملي هنا».
فهمَ سول من أمرِ غودوين أنَّ عليه الانصرافِ فخرجَ. تابع غودوين دفنَ

الحُلي ووثائقَ الديرِ وبقايا القديسِ سان أدولفوس وكلّ المالِ تقريباً ثمّ أهالَ الراهبانِ الترابَ فوقَ الحفرةِ وقاما بتسويةِ الأرضِ وأعادا المذبحَ إلى مكانهِ وأخذا ما تبقى من الترابِ خارجاً لرميهِ.

بعدَ هذا توجهوا جميعاً إلى قاعةِ الطعامِ. كانت القاعةُ الصغيرةُ مكتظةً الآن بوجودِ رهبانِ ديرِ كينغزبريدج وهناك راهبٌ على المنصةِ يقرأ مقطعاً من إنجيلِ مرقس إلا أنّه لاذَ بالصمتِ عندما رأى غودوين يدخلُ القاعةَ.

أشارَ غودوين للراهبِ بالجلوسِ على مقعدٍ وأخذَ مكانهُ ثم بدأ كلامهُ قائلاً: «هذا اعتزالٌ مقدسٌ. لقد أرسلَ الرّبُّ هذا الوباء الرهيبَ لمعاقبتنا على خطايانا وأتينا إلى هنا لنغسلَ هذهِ الذنوبَ بعيداً عن جو المدينةِ الفاسدِ».

لم يكن غودوين ينوي فتحَ بابِ نقاشٍ إلا أنَّ سول قالَ بصوتٍ عالٍ: «وما هي هذهِ الخطايا بالتحديد أيُّها الأبُ غودوين؟»

وهنا ارتجلَ غودوين قائلاً: «لقد تحدى الرجالُ سلطةَ كنيسة الرّبِّ المقدسةِ وغدت النساءُ فاسقاتٍ وفشلَ الرهبانُ في فصلِ أنفسهم تماماً عن الصحبةِ الأنثويةِ وتحولت الراهباتُ إلى الهرطقةِ والسحرِ».

«وكم ستستغرقُ عمليةُ تطهيرِ ذنوبنا؟»

«سنعلمُ أننا تطهرنا من هذهِ الذنوبِ عندما ينحسرُ الوباء».

وهنا تحدثَ راهبٌ آخرٌ من ديرِ سان جون. تعرَّفَ غودوين على جونغويل الذي كانَ رجلاً ضخماً وأخرق وفي عينيهِ نظرةٌ متوحشةٌ. «وكيفَ ستغسلُ ذنوبكَ؟» سألَ جونغويل.

تفاجأ غودوين بأنَّ الرهبانَ هنا يملكون حريةَ مسائلةِ من هم أعلى منهم وأجاب: «بالصلاةِ والتأملِ والصيامِ».

«إنَّ الصيامَ جيدٌ»، قالَ جونغويل. «فلا نملكُ الكثيرَ من الطعامِ هنا».

ضحكَ البعضُ على ما قالهْ جونغويل.

كانَ غودوين قلقاً حيالَ احتمالِ خسارتهِ لسلطتهِ على جمهورهِ فضربَ على طاولةِ المنصّةِ مطالباً بالهدوءِ ثمَّ قالَ: «من الآن فصاعداً من يدخلُ إلى هنا من العالمِ الخارجي فهو خطرٌ علينا. أريدُ أن توصدَ الأبوابُ التي تُفضي إلى الفناءِ من الداخلِ ليلاً ونهاراً، ولن يُسمحَ لراهبٍ بالخروجِ من دونِ إذني الشخصي الذي لن أمنحهُ إلا في الحالاتِ الطارئةِ، وسيُمنعُ استقبال أيِّ زائرٍ. سنُغلقُ على أنفسنا إلى أن ينتهي هذا الوباء الرهيب».

قال جونغويل: «ولكن ماذا لو...»

قاطعهُ غودوين قائلاً: «لم أطلب رأيكَ على ما قلتهُ أيها الأخ». وحدَّقَ في أرجاءِ القاعةِ داعياً الجميعَ إلى التزامِ الصمتِ ثمَّ تابع: «أنتم رهبانٌ ومن واجبكم أن تطيعوا»، قالَ لهم. «والآن دعونا نصلي».

***

في اليومِ التالي حلَّت الكارثةُ.

شعرَ غودوين أنَّ سول وبقية الرهبانِ تقبلوا أوامرهُ بشكلٍ مؤقتٍ فقد بوغتوا بمفاجأةِ وصوله مع الرهبان ولم يكونوا قادرين على التفكيرِ باعتراضاتٍ كبيرةٍ، ولذلكَ وفي الوقتِ الذي كانوا يملكونَ فيهِ سبباً قوياً للعصيانِ رضخوا بشكلٍ عفوي لرئيسِ الديرِ، ولكنَّ غودوين يعلمُ أنهم عاجلاً أم آجلاً سيأخذون قراراً حقيقياً إلا أنَّه لم يتوقع حدوثَ هذا على الفورِ.

كان الرهبان يؤدون شعيرةَ الصباحِ الباكرِ[1] وسطَ البردِ القارسِ في الكنيسةِ الصغيرةِ. شعرَ غودوين أن جسده متيبسٌ ويؤلمهُ بعدَ ليلةٍ غير مريحةٍ وانتابهُ الحنينُ إلى قصرِهِ بمواقدِهِ وأسرَّتِهِ الناعمةِ. كانَ الضوءُ الرمادي للفجرِ الشتوي قد بدأ يتسربُ من النوافذِ عندما سُمعَ صوتُ قرعٍ ثقيلٍ على البابِ الغربي للكنيسةِ.

شعرَ غودوين بالتوتر وتمنى لو أنَّه حظي بيومٍ أو يومين إضافيين لترسيخِ موقعِهِ.

لاحظَ أنَّ الرهبانَ تجاهلوا صوتَ القرعِ وتابعوا صلاتَهم ثمَّ ترافقَ صوتُ القرعِ بأصواتِ صياحٍ. وقفَ سول وتوجهَ إلى البابِ ولكن غودوين أشارَ إليهِ بيدِهِ ليجلسَ وبعدَ ترددٍ واضحٍ أطاعهُ سول. كانَ غودوين عازماً على البقاءِ في مكانِهِ وعدمِ التحركِ. إن لم يقمِ الرهبانُ بشيءٍ فسيغادرُ الدخلاءُ.

ولكن غودوين قد بدأ يشعرُ بأنَّ إقناع الناس بعدمِ القيامِ بشيءٍ أمرٌ صعبٌ جداً.

أصبحَ انتباه الرهبانُ مشتتاً جداً خلالَ غناءِ المزاميرِ فقد كانوا يتهامسونَ بعضهم مع بعض وينظرون إلى الوراءِ من فوقِ أكتافهم باتجاهِ الطرفِ الغربي من الكنيسةِ ثمَ بات الغناءُ ناشزاً وغير منتظم وواحداً تلو الآخر بدأوا يتوقفون عن الغناءِ إلى أن بقي غودوين وحده.

1- شعيرةٌ تُقامُ الساعة السادسة صباحاً بين صلاةِ الفجرِ وصلاةِ الصبحِ في الكنيسةِ الكاثوليكيةِ. (المترجمة)

غضبَ غودوين بشدةٍ فلو أنَّهم كانوا منصاعين لهُ لتجاهلوا الإزعاج عندَ الباب، ومدفوعاً بهذا الغضبِ من ضعفهم تركَ مكانهُ وعبرَ صحن الكنيسةِ الصغير باتجاه الباب الموصد.

«ما الأمرُ؟» صرخَ غودوين.

«دعنا ندخلُ!» أتاه صوتٌ مكمومٌ.

«لا يمكنكم الدخول»، أجابَ غودوين صارخاً. «غادروا».

ظهرَ سول إلى جانبهِ. «هل تطردُهم من الكنيسةِ؟» قالَ سول في لهجةٍ مرتاعةٍ.

«أخبرتكَ»، أجابَ غودوين. «لا نريدُ زواراً».

استمرَّ الطرقُ على الباب. «دعنا ندخل!»

صرخَ سول قائلاً: «من أنتم؟»

حلَّ صمتٌ وجيزٌ ثمَّ قالَ أحدهم: «نحنُ رجالُ الغابةِ».

وتحدثَ فيليمون هنا قائلاً: «خارجون عن القانون».

قال سول في سخطٍ: «خطاؤون مثلنا وأولادُ الرَّبِّ أيضاً».

«هذا ليسَ سبباً كافياً لتسمح لهم بالدخولِ وقتلنا».

«ربما علينا أن نكتشفَ إن كانَ هذا ما ينوونَ فعلهُ».

توجهَ سول إلى النافذةِ على يمينِ البابِ. كانَ مبنى الكنيسةِ منخفضاً وأفاريز النوافذِ تحت مستوى النظرِ تماماً ولم يكن للنوافذِ ألواح زجاجية لذلك كانت تُغلَقُ في وجهِ البردِ بمصاريع من القماشِ الكتاني الشفيف. فتحَ سول المصراعَ القماشي ووقفَ على رأسِ أصابعهِ لينظرَ. «لماذا أتيتم إلى هنا؟» صاحَ سول.

وسمعَ غودوين الجواب. «إنَّ أحد أفرادِ جماعتنا مريضٌ».

قالَ غودوين لسول: «سأتحدثُ معهم».

حدَّق سول بغودوين.

«ابتعد عن النافذةِ»، قالَ غودوين.

وعلى مضضٍ أطاعهُ سول.

صرخَ غودوين: «لا يمكننا أن ندعكَ تدخل. غادروا».

نظرَ سول إلى غودوين كأنّه لم يصدق ما سمعهُ. «هل سترفضُ دخولَ رجلٍ مريضٍ؟» قال سول. «نحن رهبان وأطباء».

«إن كانَ الرجلُ مصاباً بالطاعون فلا يمكننا مساعدتهُ. إن سمحنا لهُ بالدخولِ فسنكونُ قد حكمنا على أنفسنا بالموتِ».

«هذا أمرٌ بيدِ الرَّبِّ».

«الرَّبُّ لا يجيزُ الانتحارَ».

«أنتَ لا تعرفُ ما خطبُ الرجلِ فقد تكونُ ذراعهُ مكسورة».

فتحَ غودوين النافذةَ المجاورةَ إلى يسارِ البابِ ونظرَ إلى الخارج فرأى مجموعةً من ستةِ أشخاصٍ ذوي مظهرٍ قاسٍ واقفين حولَ حمَّالةٍ أمامَ بابِ الكنيسةِ. كانت ثيابهم فاخرةً إلا أنَّها قذرةٌ أيضاً كأنّهم كانوا ينامونَ فيها، ولكن هذا ما يفعلهُ الخارجون عن القانونِ عادةً فهم يسرقونَ الثيابَ الفاخرةَ من المسافرين ويبلونها بسرعةٍ. كانَ الرجالُ مدججين بالسلاح وبعضهم يحملُ سيوفاً وخناجرَ وأقواساً من نوعيةٍ جيدةٍ وهذا يعني أنَّهم جنودٌ سابقون.

على الرغمِ من أنَّهُ كان صباحاً قارساً من صباحاتِ شهرِ كانون الثاني/ يناير فإن الرجلَ على الحمَّالةِ يتعرقُ بشدةٍ وينزفُ من أنفهِ، وعلى حينِ غرَّةٍ وغفلةٍ استعادَ غودوين مشهدَ والدتهِ في المستشفى وهي تحتضرُ وقطراتُ دمٍ على شفتها العليا التي رغمَ تنظيفِ الراهباتِ لها كانت تعودُ للظهورِ، وتلبستهُ فكرةُ موتهِ بهذهِ الطريقةِ إلى درجةٍ رغبَ معها بإلقاءِ نفسهِ عن سطحِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج. كان يُفضل الموتَ في لحظةٍ سريعةٍ من الألمِ الطاغي على الاحتضار لثلاثةٍ أو أربعةِ أيامٍ والوقوعِ تحتَ رحمةِ هذيانٍ شديدٍ وعطشٍ قاتلٍ. «هذا الرجلُ مصابٌ بالطاعون!» قالَ غودوين في عجبٍ وسُمعَ في صوتهِ نبرة هيستيرية.

تقدَّمَ أحدُ الخارجين عن القانونِ قائلاً: «أعرف من تكون. أنتَ رئيسُ ديرِ كينغزبريدج».

حاولَ غودوين أن يتمالكَ نفسهُ ونظرَ في خوفٍ وغضبٍ إلى الرجلِ الذي يبدو كقائدٍ للمجموعةِ. كان يتصرفُ بتلكَ الثقةِ المتعجرفةِ لرجلٍ نبيلٍ وبدا كأنّه كان رجلاً وسيماً في ما مضى إلا أنَّ سنواتٍ من الحياةِ القاسيةِ قد شوهت مظهرهُ. قال غودوين: «ومن تكون أنتَ لتأتي وتقرع بابَ كنيسةٍ والرهبانُ يغنونَ المزاميرَ للرَّبِّ؟»

«يطلقُ البعضُ علي اسم تام المُتخفي»، أجابَ الخارجُ عن القانونِ.

سرت شهقةُ عجبٍ بينَ الرهبانِ فقد كانَ تام المُتخفي أسطورةً. وصرخَ الأخ جونغويل: «سيقتلوننا جميعاً».

التفتَ سول نحو جونغويل قائلاً: «صمتاً. سنموتُ عندما يشاءُ الرَّبُّ فقط».

«أجل يا أبتاه».

عادَ سول إلى النافذةِ وقالَ: «لقد سرقتم دجاجنا العامَ الماضي».

«أعتذرُ أيها الأبُ»، قالَ تام. «كنا نتضورُ جوعاً».

«وها أنتم الآن تأتونَ لطلبِ المساعدةِ؟»

«لأنَّكَ تعظُ بأنَّ الرَّبَّ غفورٌ رحيمٌ».

قالَ غودوين لسول: «دعني أتعاملُ مع الأمرِ».

فضحت نظراتُ الخزي والتمردِ التي علَت وجهَ سول في آنٍ معاً أنَّه يختبرُ صراعاً داخلياً إلَّا أنَّه انصاعَ أخيراً لأمرِ غودوين.

توجهَ غودوين بالحديثِ إلى تام قائلاً: «الرَّبُّ يغفرُ لمن يتوب توبةً حقيقيةً».

«حسناً، إنَّ الرجلَ يدعى وين فوريستير وقد أعلنَ توبتهُ الحقة عن ذنوبهِ الكثيرةِ وها هو يرغبُ بدخولِ الكنيسةِ والصلاةِ من أجلِ شفائهِ، وإن لم يُشفَ فهو على الأقلِّ سيموتُ في مكانٍ مقدسٍ».

عطسَ رجلٌ آخرٌ من مجموعةِ الخارجين عن القانونِ.

ابتعدَ سول عن النافذةِ وتوجهَ إلى غودوين إلى أن أصبحا وجهاً لوجهٍ ويداهُ على وركيهِ. «لا يمكننا أن نطردهُ!»

حاولَ غودوين أن يُهدِّئ من روعهِ قائلاً: «لقد سمعتَ العطسةَ، ألا تفهمُ ما الذي تعنيهِ؟» ثمَّ استدار ليخاطبَ بقيةَ الرهبانِ ويسمعوا كلامهُ جيداً: «إنَّهم جميعاً مصابون بالطاعونِ!»

سرت غمغمةُ جزعٍ جماعيةٌ وكان هذا ما أرادهُ غودوين لأنَّهم بهذهِ الطريقةِ سيدعمونهُ في حال قررَ سول تحديه.

قالَ سول: «يجبُ أن نساعدهم حتَّى وإن كانوا مصابين بالطاعون فحيواتنا ليست ملكنا لنحميها كأنَّها كنزٌ مدفونٌ تحتَ الأرضِ. لقد سلمنا أمرنا للرَّبِّ وهو يختارُ ما يريدهُ منا وسيُنهي حياتَنا عندما يكون لموتنا غايةٌ مقدسةٌ».

«إنَّ السماحَ لهؤلاءِ الخارجين عن القانونِ بالدخولِ انتحارٌ فهم سيقتلوننا جميعاً».

«نحنُ خدمُ الرَّبِّ وبالنسبةِ لنا فإنَّ الموتَ يعني لمَّ شملٍ سعيداً مع المسيحِ فما الذي لدينا لنخافَ منهُ أيها الأب رئيس الديرِ؟»

أدركَ غودوين أنّه كان يتحدثُ بفزعٍ بينما سول يتحدَّثُ بعقلانيةٍ ولذلكَ أجبرَ نفسهُ على التظاهرِ بالهدوءِ والتفكيرِ ثمَّ قال: «إنَّ السعي وراءَ الموتِ خطيئةٌ».

«ولكن إن وقعَ الموتُ علينا خلالَ تأديتنا لواجبٍ مقدسٍ فيجبُ أن نتقبلهُ بسعادةٍ».

أدركَ غودوين أنَّه يستطيعُ مجادلةَ سول طوالَ اليومِ ومن دونِ أن يُحرزَ تقدماً. كان على ثقةٍ من أنَّه لن يتمكن من فرضِ سلطتِهِ بهذهِ الطريقةِ لذلكَ قالَ: «أغلقْ نافذتكَ أيُّها الأخ سول وتعال إليَّ هنا»، ثمَّ نظرَ إلى سول كأنّه ينتظره ليقومَ بما أمرهُ به.

وبعدَ ترددٍ نفذَ سول ما طُلبَ منهُ.

قالَ غودوين: «ما هي النذور الثلاثةُ أيها الأخ؟»

خيَّمَ صمتٌ وجيزٌ على المكانِ وعلمَ سول ما الذي كانَ يحدثُ الآن: كانَ غودوين يرفضُ معاملتهُ ككفؤ له. في البدايةِ بدا سول كأنّه سيرفضُ الإجابةَ على السؤالِ إلا أن تدريبهُ على الطاعةِ تمكنَ منهُ أخيراً ولذلكَ قالَ: «الفقرُ والعفةُ والطاعةُ».

«ومن عليكَ أن تطيع؟»

«الرَّبَّ وتعاليم القديس بنيديكت ورئيسي في الديرِ».

«ورئيسُكَ يقفُ أمامكَ الآن فهل تقرُّ بهذا؟»

«أجل».

«فلتقل: أجل أيُّها الأبُ رئيس الديرِ».

«أجل أيُّها الأبُ رئيس الديرِ».

«والآن سأخبركَ بما عليكَ القيامُ بِهِ وستطيعني»، ثمَّ نظرَ غودوين حولهُ وقال: «فلتعودوا جميعاً إلى أماكنكم».

سادت لحظةُ صمتٍ قاتلٍ لم يتحركْ أو يتحدث فيها أحدٌ، وفكرَ غودوين بأنَّ أبوابَ الاحتمالاتِ الآن مفتوحةٌ فإمَّا الخضوعُ وإمَّا التمردُ، إمَّا النظامُ وإمَّا الفوضى، إمَّا النصرُ وإمَّا الهزيمةُ، وحبسَ أنفاسهُ.

وأخيراً تحرَّكَ سول مطأطئ الرأسِ وانصرفَ. سارَ على طولِ الممرِ القصيرِ وعادَ إلى مكانِهِ قبالةَ المذبحِ.

وحذا الجميعُ حذوهُ.

سمعوا في الخارجِ مزيداً من الصراخ إلا أنَّ الأصوات بدت كأنّها أحاديث فظةٌ. ربما أدركَ الخارجونَ عن القانونِ أنّهم لا يستطيعونَ إجبارَ طبيبٍ على معالجةِ رفيقهم المريض.

عادَ غودوين إلى المذبح والتفتَ إلى الرهبانِ قائلاً: «سنُنهي المزمورَ الذي توقفنا عندهُ»، ثمَّ تابع الغناء:

المجدُ للرّبّ

وللابنِ

وللروحِ القُدسِ

كانَ الغناءُ ما يزالُ غير مُنظمٍ ومنسجمٍ. وعلى الرغم من أن الرهبان لم يسترجعوا الحالةَ العقليةَ المناسبةَ للغناءِ فإنّهم عادوا إلى أماكنهم وواصلوا ما كانوا يفعلونهُ.

لقد انتصرَ غودوين.

وكما كان في البدءِ

مازال الآنَ

وسيكونُ على الدوامِ

عالمٌ بلا نهايةٍ

آمين.

«آمين»، كررَ غودوين.

وعطسَ أحدُ الرهبان.

-65-

بعدَ هروبِ غودوين بقليلٍ توفي إلفريك بالطاعونِ.

شعرَت كاريس بالأسفِ على أرملتهِ أليس وباستثناءِ هذا لم يكن بوسعها منعُ نفسها من الشعورِ بالفرحِ حيالَ رحيلهِ. لقد كانَ شخصاً لئيماً مع الضعفاء ومداهناً مع الأقوياء، وكادت الأكاذيب التي تفوهَ بها خلالَ محاكمتها أن تكلفها حياتها. كانَ العالمُ بغيابهِ في حالٍ أفضل حتّى عملهُ في البناءِ سيديرهُ صهرهُ هارولد ميسن بشكلٍ أفضلَ منهُ.

انتخبت نقابةُ الأبرشيةِ ميرثن رئيساً للنقابةِ بدلاً من إلفريك.

استمرَّت عجلةُ الموتِ وتابعَ الناسُ دفنَ أقربائهم وجيرانهم وأصدقائهم وزبائنهم والعاملين لديهم، وبدا أنَّ الرعبَ الدائمَ جرَّد الكثيرين من إنسانيتهم فلم يعد أيُّ عملٍ عنيفٍ أو قاسٍ صادماً لهم، ومن اعتقدوا أنَّهم على وشكِ الموتِ أصبحوا بلا ضابطٍ واستسلموا لغرائزهم أيّا كانت العواقب.

جاهدت كاريس وميرثن معاً للحفاظِ على ما يشبهُ الحياة الطبيعية في كينغزبريدج. حققت كاريس نجاحاً في برنامجِ تبني الأيتامِ فقد شعرَ الأطفالُ بالامتنانِ على الأمانِ الذي قدّمه لهم الدير بعدَ محنةِ فقدان أهاليهم جرّاءَ الطاعونِ، وبدورهِ أطلقَ الاهتمامُ بهم وتعليمهم القراءةَ وغناءَ الأناشيدِ الغريزةَ الأموميةَ المقموعةَ لوقتٍ طويلٍ داخلَ الراهباتِ. كانَ هناك طعامٌ كثيرٌ وعددٌ أقلُ من الناسِ المتنافسين على مخازنِ الطعامِ الشتويةِ وامتلأ ديرُ كينغزبريدج بأصواتِ الأطفالِ.

كانت الأحوال في المدينةِ أصعبَ فقد استمرت الشجاراتُ العنيفةُ على ملكياتِ الموتى وكان الناسُ يدخلونَ إلى المنازلِ الفارغةِ من ساكنيها ويأخذونَ أيَّ شيءٍ يعجبهم والأطفالُ الذينَ يرثون مالاً أو مخزناً ممتلئاً بالقماشِ أو الذرةِ يتبناهم جيرانٌ عديمو الضميرِ وجشعون يتوقون لوضعِ أيديهم على إرثِ أولئكَ الأطفال، وفكرت كاريس في يأسٍ بأنَّ فكرةَ الحصولِ على شيءٍ من دونِ عملٍ أو بذلِ أيِّ جهدٍ قد أخرجَ أسوأ ما في الناسِ.

لم تحقق كاريس وميرثن نجاحاً كبيراً في إيقافِ تردي السلوك العام وشعرت كاريس بالخيبةِ من نتائجِ عملِ المأمورِ جون على ضبطِ حالات الثمالةِ بين سكانِ المدينةِ. كانت الأعدادُ الكبيرةُ للأراملِ من الرجالِ والنساءِ الباحثين عن شركاء مخيفةً ولم تعد رؤيةُ أناسٍ في منتصفِ العمرِ في عناقٍ حارٍ داخلَ حانةٍ أو عندَ مدخلِ منزلٍ أمراً غريباً. لم تُبدِ كاريس معارضةً كبيرةً على هذا التصرفِ بحدِ ذاتهِ إلّا أنَّها اكتشفت أنَ هذا المزيج بينَ الثمالةِ والخلاعةِ على مرأى العيانِ غالباً ما يُفضي إلى الشجارِ. على أيِّ حالٍ لم يكن ميرثن ولا نقابةُ الأبرشيةِ قادرين على إيقافِ هذا.

ففي الوقتِ الذي كانَ سكانُ المدينةِ بحاجةٍ إلى من يردعهم أتى هروبُ الرهبانِ وأحدثَ تأثيراً عكسياً ومحبطاً على الجميع فقد نظروا إلى تخلي ممثلي الرَّبِّ كعلامةٍ على تخلي الرَّبِّ نفسهُ عنهم. قالَ البعضُ إنَّ رفاتَ القديس جلبَ

لهم الحظَّ الجيد في الماضي وها هي العظامُ الآن قد اختفت ونفدَ الحظُّ الجيدُ من المدينةِ. كانَ غيابُ الصلبانِ والشمعداناتِ الثمينةِ من مراسمِ صلاةِ الأحدِ أشبه بتذكيرٍ أسبوعي لهم بأنَّ كينغزبريدج محكومٌ عليها بالهلاكِ ولذلكَ لم يكن هناك ما يردعهم عن الثمالةِ وممارسةِ الفجورِ في الشارعِ.

بحلولِ منتصفِ شهرِ يناير/ كانون الثاني كانت كينغزبريدج التي يبلغُ عددُ سكانها سبعةَ آلافِ نسمةٍ قد فقدت ألفَ شخصٍ على الأقلِ، وهذا ما حدثَ أيضاً في مدنٍ أخرى. ورغمَ الأقنعةِ الواقيةِ التي اخترعتها كاريس فإنَّ حصيلةَ الموتِ بينَ الراهباتِ كانتَ الأعلى ومردّ هذا دونَ أدنى شكٍ التواصل الدائم مع ضحايا الطاعونِ. كان هناك خمسٌ وثلاثونَ راهبةً وقد تراجعَ العددُ الآن إلى عشرين ولكن وصلتهم أخبارٌ عن أماكنَ ماتَ فيها كلُّ الرهبانِ والراهباتِ تقريباً تاركين وراءهم بضعة رهبانٍ ناجين وأحياناً ناجياً وحيداً ليتابعَ العملَ ولهذا اعتبرن أنفسهنَ محظوظاتٍ. في هذهِ الأثناءِ اختصرت كاريس المدة الزمنيةِ اللازمةِ لرسمِ الراهباتِ وكثّفت من تدريبهن حتّى تحصلَ على مزيدٍ من المساعداتِ في المستشفى.

كانَ ميرثن قد وظفَ ساقياً من حانةِ هولي بوش وسلَّمهُ مهمةَ إدارةِ حانةِ بيل واستعانَ بفتاةٍ رقيقةٍ في السابعة عشرة من العمرِ تدعى مارتينا كمربيةٍ لابنتهِ لولا.

ثمَّ بدا لكاريس أنّ الطاعون قد بدأ يتراجعُ ووجدت أنهم كانوا حتّى عيدِ الميلادِ يدفنون مئةَ شخصٍ أسبوعياً ولكن العدد تراجعَ إلى النصفِ بحلولِ شهرِ كانون الثاني/ يناير ثمَّ إلى عشرين شخصاً أسبوعياً في شباط/ فبراير، وسمحت لنفسها بالأملِ بأن يكون هذا الكابوس في طريقهِ للنهايةِ.

من بينِ الناسِ غير المحظوظين الذينَ وقعوا ضحيةَ الطاعونِ في هذهِ المرحلةِ رجلٌ بشعرٍ داكنٍ في الثلاثين من عمرهِ ويحملُ علائم وسامةٍ قديمةٍ. كانَ الرجلُ في زيارةٍ للمدينةِ. «اعتقدتُ أنني أصبتُ بالزكامِ البارحةَ»، قالَ عندما وصلَ إلى بابِ الديرِ ثمَّ تابع: «ولكنَّ أنفي ينزفُ والنزيفُ لا يتوقفُ». كانَ يضعُ خرقةً مدماة على منخريهِ.

«سأجدُ لكَ مكاناً لتستلقي فيهِ»، قالت له كاريس من وراءِ قناعها الكتاني.

«أنا مصابٌ بالطاعونِ، أليس هذا صحيحاً؟» قالَ لها الرجلُ. تفاجأت كاريس بنبرةِ الاستسلامِ الهادئةِ في صوتهِ بدلاً من نبرةِ الهلعِ المعتادةِ بينَ المرضى. «هل يمكنكِ فعلُ شيءٍ لتشفيني؟»

«يمكنني إراحتك والصلاة من أجلكَ».

«لن يفيدني هذا في شيءٍ وبالنظرِ إلى وجهكِ أعتقدُ أنّكِ لا تؤمنين بهذا أيضاً».

صُدمت كاريس من سهولةِ قراءتهِ لما دار في بالها. «أنت لا تعرف ما الذي تقولهُ»، احتجّت قليلاً. «أنا راهبةٌ ويجبُ أن أؤمن بهذا».

«يمكنكِ أن تخبريني بالحقيقةِ. هل سأموتُ قريباً؟»

أمعنت النظرَ إليهِ ورأته يبتسمُ ابتسامةً ساحرةً وتكهنت بأنّه خطفَ قلوبَ كثيراتٍ بهذهِ الابتسامةِ. «لمَ لستَ خائفاً؟ الجميعُ خائفون»، قالت له.

«لا أؤمنُ بما يقولهُ الكهنةُ». ونظرَ إليها بمكرٍ. «ولدي شكٌّ بأنّكِ لا تؤمنين بذلكَ أيضاً».

وقررت أنّها لن تخوضَ في هذا الجدالِ مع غريبٍ مهما بدا ساحراً لها. «وسطياً يموت جميعُ المصابين بالطاعونِ بعد ثلاثةِ أو أربعةِ أو خمسةِ أيامٍ»، قالت بصراحةٍ شديدةٍ. «ينجو القلّةُ فقط ولا أحد يعلمُ السببَ».

وتقبلَ الأمرَ بشكلٍ جيدٍ قائلاً: «هذا ما كنتُ أعتقدهُ».

«يمكنكَ أن تستلقي هنا».

افترت شفتاه عن ذاتِ الابتسامةِ الشقيةِ مجدداً وقال: «هل سيفيدني الاستلقاءُ هنا بشيءٍ؟»

«إن لم تستلقِ فستقعُ أرضاً».

«حسناً». واستلقى على الفراشِ الذي أشارت إليه.

أعطتهُ بطانيةً وسألته: «ما اسمكَ؟»

«تام».

تفحصت وجههُ ووجدت أنه على الرغمِ من وسامتهِ الظاهرةِ فإنه يتحلى بشيءٍ من القسوةِ، وفكرت بأنّه كان يغوي النساء وعندما يفشلُ يقومُ باغتصابهنَ. كان جلدهُ خشناً بسببِ ظروفِ الحياةِ في البريةِ وأنفهُ محمرّاً وهذا يعني أنّه كانَ سِكيراً وكانت ثيابهُ باهظةً وقذرةً. «أعرفُ من تكون»، قالت لهُ. «ألا تخافُ من العقابِ على ذنوبكِ؟»

«لو كنتُ مؤمناً بهذا لما ارتكبتها. هل تخافين من أن تُحرقي في الجحيمِ؟»

عادةً ما كانت تتهربُ من الإجابةِ على هذا السؤالِ ولكنها الآن شعرت بأنَّ هذا الخارج عن القانونِ المُحتضرَ يستحقُ إجابةً ولذلك أجابت: «أعتقدُ أنَّ ما

أقومُ بِهِ يصبحُ جزءاً مني. عندما أكونُ شجاعةً وقويةً وأعتني بالأطفالِ والمرضى والفقراءِ فأنا شخصٌ أفضل وعندما أتصرفُ بقسوةٍ وجُبنٍ أو أتفوهُ بالأكاذيبِ أو أثملُ أتحولُ إلى شخصٍ أقلَّ قيمة ولا يعود بوسعي احترام نفسي، وهذهِ هي العقوبةُ الإلهيةُ التي أؤمنُ بها».

نظرَ إليها بإمعانٍ ثمَّ قال: «أتمنى لو أنني قابلتكُ منذُ عشرين عاماً».

ونمَّ عنها صوتُ استنكارٍ وقالت: «منذُ عشرين عاماً كنتُ في الثانية عشرة».

ورفعَ حاجبيهِ بشكلٍ مبتذلٍ.

وقررت أنَّها اكتفت من الحديثِ معهِ فقد بدأ يغازلها وقد بدأت تستمتعُ بالأمرِ لذلكَ استدارت لتغادر.

«أنتِ امرأةٌ شجاعةٌ لقيامكِ بهذا»، قال لها. «لأنَّ هذا قد يقتلكِ».

«أعلمُ»، أدارت وجهها نحوهُ مجدداً. «يبدو أنَّ هذا هو قدري. لا يمكنني أن أهرب وأتركَ الناسَ وهم في حاجةٍ إلي».

«ولكن يبدو أن رئيسَ ديركِ لا يعتقدُ هذا».

«لقد اختفى».

«لا يمكن للناسِ أن يختفوا».

«أعني بكلامي أنَّ ما من أحدٍ يعلمُ مكانَ رئيسِ الديرِ والرهبانِ».

«أنا أعلمُ»، قالَ تام.

***

مع نهايةِ شهرِ شباط وعندما غدا الطقسُ مشمساً ومعتدلاً غادرت كاريس كينغزبريدج على حصانٍ صغيرٍ داكنِ اللونِ باتجاهِ ديرِ سان جون إن ذا فوريست وقد رافقها ميرثن على حصانٍ قوي بقوائمَ قصيرةٍ. عادةً سيثيرُ ذهابُ راهبةٍ في رحلةٍ مع رجلٍ استغراب الناس إلا أنَّ الأحوال كانت جنونيةً حالياً.

كانَ خطرُ الخارجين عن القانونِ قد تراجعَ الآنَ فقد سقطَ العديدُ منهم ضحايا للطاعونِ وقد أخبرها بهذا تام قبلَ أن يموت. علاوةً على هذا كان التراجعُ الكبيرُ في عددِ السكانِ قد أحدثَ فائضاً في الطعامِ والنبيذِ والثيابِ وهي الأشياءُ التي ينهبها الخارجون عن القانونِ عادةً، ومن نجا منهم دخلوا إلى المدنِ الفارغةِ والبلداتِ المهجورةِ وأخذوا كل ما أرادوه.

في البدايةِ شعرت كاريس باليأسِ عندما علمت أنَّ غودوين لا يبعدُ عن

كينغزبريدج سوى يومين على ظهرِ الجوادِ فقد كانت تتخيلُ أنّه ذهبَ إلى مكانٍ بعيدٍ جداً ولن يعودَ منهُ، ولكنها كانت سعيدةً باحتمالِ استعادةِ مالِ ومقتنياتِ الديرِ الثمينةِ وبالأخصّ صكوكَ ديرِ الراهباتِ، فقد كانت الصكوكُ مهمةً جداً في حالِ وقوعِ خلافاتٍ على الملكيةِ أو الحقوقِ.

إن تمكنت من مواجهةِ غودوين ستطلبُ منهُ وباسمِ الأسقفِ استعادةَ مقتنياتِ الديرِ وهي تحملُ رسالةً من الأسقفِ بهذا الشأنِ. إن أصرَّ غودوين على رفضِهِ سيكون هذا بمنزلة إثباتٍ حاسمٍ بأنّه سرقَ المقتنيات ولم يأخذها لحمايتها. إن لم يقبل بإعادتها فسيأخذُ الأسقفُ إجراءً قانونياً لاستعادتها أو قد يأتي إلى الديرِ بنفسهِ مع مجموعةٍ من الجنودِ بكلِّ بساطةٍ.

ورغمَ شعورِ كاريس بالخيبةِ حيالَ عدمِ اختفاءِ غودوين الكاملِ من حياتها فإنّها كانت سعيدةً بفكرةِ مواجهتِهِ على جُبنِهِ وكذبِهِ.

وعلى الطريقِ تذكرت رحلتَها الأخيرةَ إلى فرنسا مع مير وكيف أنها كانت مغامرةً حقيقيةً وبكلِّ ما للكلمةِ من معنى. عندما فكّرت بمير شعرت بالحزنِ الشديدِ فمن بينِ جميعِ من فقدتهم بالطاعونِ كانت مير أكثرَ من تشتاقُ إليه وانتابها شعورٌ بالحنين إلى رؤيةِ وجهِها وقلبِها الطيّبِ وحُبِها.

ولكن وجود ميرثن معها وليومين أمرٌ مبهجٌ. كانا يعبرانِ الغابةَ جنباً إلى جنب على ظهري حصانيهما وهما يتحدثان باستمرارٍ عن كلِّ شيءٍ قد يخطرُ ببالهما كما كانا يفعلان عندما كانا يافعين.

كانَ ذهنُ ميرثن حافلاً بالأفكارِ العبقريةِ ورغمَ الطاعون فقد استمر ببناءِ المتاجرِ والحانات على جزيرةِ ليبر وأخبرها أنّه يخططُ لهدمِ الحانةِ التي ورثها عن بيسي بيل وإعادةِ بناءِ حانةٍ أكبر بمرتين.

تكهنت كاريس أنّه وبيسي كانا عاشقين وإلا لما كانت تركت لهُ ملكيتها ولكن لا يمكنُ لكاريس أن تلومَ أحداً في هذا سوى نفسها. كانت المرأة الوحيدة التي أرادها ميرثن حقاً إلا أن بيسي كانت أفضلَ خيارٍ ثانٍ وعلمت المرأتان بهذا، ولكن كاريس شعرت بالغيرةِ والغضبِ عندما تخيلت ميرثن يضاجعُ ساقيةً ممتلئةً.

عندَ الظهرِ توقفا للاستراحةِ قربَ جدولِ ماءٍ وتناولا الخبزَ والجبنَ والتفاح وهو الطعامُ الذي يحملهُ جميعُ المسافرين باستثناءِ الأثرياء منهم. قدّما للحصانين بعضَ الحبوبِ فلم يكن تناولُ العشبِ وحدهُ كافياً لإعانتهما على

حملِ رجلٍ وامرأةٍ طوال اليوم. عندما انتهيا من تناولِ الطعامِ استلقيا تحتَ الشمسِ لبعضِ الوقتِ ولكن الأرضَ كانت باردةً ورطبةً جداً ولذلك لم يكن النومُ عليها ممكناً فنهضا وتابعا سيرهما.

وسرعان ما انزلقا إلى تلك الحميميةِ الأليفةِ التي عاشاها في يفاعتهما عندما كانَ ميرثن يضحكها ويرفه عنها. كانت في حاجةٍ للترفيهِ ولنسيان الناسِ المحتضرين في المستشفى وسرعان ما نسيت غضبها من بيسي.

كانا على الطريق الذي يسلكهُ رهبانُ كينغزبريدج منذُ مئاتِ السنين ولذلك توقفا ليلاً في منتصفِ الطريقِ ونزلا في نُزلِ ريد كاو الذي يقعُ في بلدةٍ صغيرةٍ تُدعى لوردسبورغ. تناولا اللحمَ المشوي وجعةً غير مُخففةٍ على العشاءِ.

بحلولِ هذا الوقتِ كانت كاريس قد بدأت تتوقُ إلى ميرثن حدَّ الألمِ، وبدا لها أنَّ العشرَ سنواتٍ قد تبخرت من ذاكرتها. كانت تتوقُ إلى احتضانِهِ بينَ ذراعيها وممارسةِ الحبِّ معهُ كما كانا يفعلان ولكن لم يكن هذا ممكناً فلم يكن في نُزلُ ريد كاو سوى غرفتي نومٍ، واحدة للرجالِ وأخرى للنساءِ ويبدو أنَّ هذا ما جعلَ الرهبان يختارونها للمبيتِ. انفصلَ ميرثن وكاريس في الطابقِ السفلي وبقيت كاريس صاحيةً تُصغي إلى شخيرِ زوجةِ فارسٍ وإلى صفيرِ أنفِ بائعةِ توابلِ وهي تداعبُ نفسها وتتمنى لو أنَّ اليدَ بينَ فخذيها يدُ ميرثن. استفاقت متعبةً ومحبطةً وتناولت فطوراً مكوناً من العصيدةِ من دونِ رغبةٍ ولكن سعادةَ ميرثن بالتواجدِ قريباً منها سرعان ما رفعت من معنوياتها، وعندما انطلقا في طريقهما خارج لوردسبورغ عادا إلى التحدثِ والضحكِ بسعادةٍ تماماً كالبارحةِ.

كانت رحلةُ اليومِ التالي عبرَ غابةٍ كثيفةٍ ولم يريا مسافراً واحداً منذُ الصباحِ. باتت أحاديثهما شخصيَّةً أكثر فقد علمت عن حياتهِ في فلورنسا وكيفَ التقى بسيلفيا وكيفَ كانت شخصيتها. أرادت كاريس أن تسألهُ عن شعورِهِ عندما مارسَ الحبَّ معها وإن كانَ شعوراً مماثلاً لشعورهِ عندما مارسهُ معها، وإن كان مختلفاً فأين هو موضعُ الاختلافُ ولكنها لجمت نفسها لأنَّها شعرت بأنَّ هذهِ الأسئلة أشبهُ بالتعدي على خصوصيةِ سيلفيا رغمَ أنَّها ميتةٌ الآن. على أيِّ حالٍ كان بوسعها أن تتكهنَ بالكثيرِ من لهجةِ ميرثن واستشعرت من كلامِهِ بأنَّه كانَ سعيداً بممارسةِ الحبِّ مع سيلفيا رغمَ أنَّ علاقتهما لم تكن عاطفيةً جداً كما كانت علاقتهُ بكاريس.

أصابها ركوبُ الحصانِ لساعاتٍ طويلةٍ بالتعبِ ولهذا شعرت بالراحةِ عندما

توقفا لتناولِ الغداءِ. عندما انتهيا من تناولِ الطعامِ جلسا على الأرضِ وظهراهما إلى جذعِ شجرةٍ عريضٍ كي يرتاحا ويهضما الطعامَ قبلَ معاودةِ الرحلةِ.

كانت كاريس تفكرُ بغودوين وتتساءلُ في نفسها عما ستكتشفهُ في دير سان جون عندما أدركت أنَّها وميرثن على وشكِ ممارسةِ الحبِّ. لم يكن بوسعها تحديدُ السببِ الذي جعلها تدركُ هذا فهما لم يلمسا بعضهما بعضاً حتَّى الآن ولكنها كانت واثقةً من الأمرِ. استدارت لتنظرَ إليهِ ورأت أنَّه كانَ يشعرُ بهذا أيضاً. ابتسمَ لها بأسى ورأت في عينيهِ عشرَ سنواتٍ من الأملِ والندمِ والألمِ والدموعِ.

أخذَ يدها وقبَّلَ راحتها ثمَّ وضعَ شفتيهِ على بشرةِ باطنِ رسغها الناعمةِ وأغلقَ عينيهِ. «يمكنني أن أشعرَ بنبضكِ»، قالَ لها بهدوءٍ.

«لا يمكنكَ أن تعرفَ الكثيرَ من النبضِ»، قالت لهُ وهي تحاول التنفسَ. «فعليكَ أن تقومَ بفحصي فحصاً كاملاً».

قبَّلها على جبهتها وعلى جفنيها وعلى أنفها. «آملُ ألا تشعري بالحرجِ عندما أرى جسدكِ العاري».

«لا تقلق فأنا لن أخلعَ ملابسي في هذا الطقسِ الباردِ».

ضحكا معاً.

قال لها: «ربما يمكنكِ أن تتلطفي وترفعي تنورةَ ردائكِ حتى أتابعَ الفحصَ».

مدَّت كاريس يدها للأسفل وأمسكت بطرفِ ثوبها. كانت ترتدي سروالاً يصلُ إلى ركبتيها ورفعت ثوبها ببطءٍ كاشفةً عن كاحليها وعن ربلتي ساقيها وركبتيها وعن فخذيها البيضاوين. وعلى الرغمِ من الشقاوةِ التي كانت تتصرفُ بها فإنها تساءلت في نفسها إن كانَ سيكتشفُ التغيرات التي طرأت على جسدِها خلالَ السنوات العشر الماضيةِ. كانت قد غدت أكثرَ نحولاً إلا أنَّ مؤخرتها كبرت وجلدها باتَ أقلَّ ليونةً ونعومةً مما كانَ عليهِ قبلاً ولم يعد ثدياها مكتنزين وناهدين كما كانا. تساءلت في نفسها عمَّا سيفكرُ بهِ إلا أنَّها قمعت هذا القلق الذي ساورها وسايرتهُ في اللعبةِ التي كانَ يلعبها. «هل هذا يستوفي الأغراضَ الطبيةَ؟»

«ليسَ تماماً».

«أخشى أنني لا أرتدي ثياباً داخليةً فمثلُ هذهِ الرفاهيات غير لائقةٍ بنا نحن الراهبات».

«نحن الأطباء ملزمون بالتعمقِ جداً في الفحصِ بغضِ النظرِ عن سوءِ ما نجدهُ».

«رباه»، قالت كاريس مبتسمةً. «هذا سيئ، حسناً إذاً». راقبت وجهه وهي ترفعُ تنورةَ ثوبها ببطءٍ حتَّى خصرها.

حدَّقَ إلى جسدها ولاحظت أنَّ تنفسهُ باتَ سريعاً. «رباه، رباه»، قال ميرثن. «هذهِ حالةٌ حرجةٌ، في الحقيقةِ...» ونظرَ إلى وجهها مبتلعاً لعابهُ ثمَّ قال: «لا يمكنني الاستمرارُ بالمزاحِ أكثر».

طوقتهُ بذراعيها وسحبت جسدهُ إلى جسدها وهي تعتصرهُ بكاملِ قوتها كأنّها تنقذهُ من الغرقِ. «ضاجعني يا ميرثن»، قالت لهُ. «الآن وبسرعةٍ».

***

بدا ديرُ سان جون إن ذا فوريست تحتَ شمسِ ما بعدِ الظهرِ هادئاً وفكرت كاريس بأنَّ هذهِ إشارةٌ أكيدةٌ على وجودِ خطبٍ ما. عادةً ما تكون دور الرهبانِ المكتفية ذاتياً محاطةً بالحقولِ الرطبةِ من المطرِ وتحتاجُ إلى حراثةٍ وتسويةٍ، ولكن كاريس لم ترَ أحداً في الحقولِ.

عندما اقتربا رأيا المقبرةَ الصغيرةَ قربَ الكنيسةِ مع صفٍ جديدٍ من القبورِ. «يبدو أن الطاعونَ وصلَ إلى هنا»، قال ميرثن.

أومأت كاريس برأسها وقالت: «إذاً، لقد فشلت خطةُ غودوين الجبانةُ بالهربِ». لم يكن بوسعِ كاريس قمع شعورها بالرضا من هذا الانتقامِ.

قال ميرثن: «أتساءلُ إن كانَ غودوين قد وقعَ ضحيةَ الطاعونِ».

ووجدت كاريس نفسها تأملُ بأن يكونَ الأمرُ كذلك إلا أنّها كانت خجلةً جداً من التعبيرِ عنه.

ومن على ظهري جواديهما استكشفا الديرِ ودارا حولَهُ ثمَّ وصلا إلى ما بدا لهما إسطبلاً. كانَ البابُ مفتوحاً والجياد سارحةً ترعى في مرجٍ تتوسطهُ بركةٌ. بدا لهما أنَّ ما من أحدٍ هنا يمكنه تقديم المساعدةِ لهما على الترجلِ عن مطيتهما.

سارا عبرَ الإسطبلاتِ الفارغةِ باتجاهِ الديرِ. ساد المكان هدوءٌ غريبٌ وتساءلت كاريس إن كانَ جميعُ الرهبانِ قد توفوا ثمَّ استكشفا المطبخ ولاحظت كاريس أنَّه لم يكن نظيفاً كما يجدرُ بمطبخِ ديرٍ أن يكون وفرن المخبزِ باردٌ. ترددَ صدى وقعُ خطواتهما في الممرِ المقنطرِ وعندما اقتربا من مدخلِ الكنيسةِ قابلا الأخ توماس.

«لقد وجدتمونا»، قالَ توماس. «الشكرُ للرَّبِّ».

عانقتهُ كاريس فقد كانت تعلمُ أن أجسادَ النساءِ لا تغري توماس. «يسعدني أنَّكَ على قيدِ الحياةِ»، قالت كاريس.

«لقد مرضت ولكني تحسنت»، شرحَ لها.

«الناجون قليلون».

«أعلمُ».

«أخبرنا بما حدث».

«أتقنَ غودوين وفيليمون التخطيطَ لكلِّ هذا»، قالَ توماس. «ومن دونِ سابقِ إنذارٍ خاطبَ غودوين الرهبان في غرفةِ المداولةِ متحدثاً عن قصةِ إبراهيم وإسحاق ليثبتَ لنا أنَّ الرَّبَّ أحياناً يطلبُ منا القيامَ بأمورٍ قد تبدو خاطئةً ثمَّ أخبرنا بأننا سنغادرُ كينغزبريدج تلكَ الليلة. كانَ معظمُ الرهبان سعداء بالهربِ من الطاعونِ ولكن من ساورتهم الشكوك حيالَ الأمر ذُكِّروا بنذرِ الطاعةِ».

أومأت كاريس برأسها وقالت: «يمكنني أن أتخيلَ هذا فإطاعةُ الأوامرِ التي تصبُّ في مصلحتك الشخصيةِ ليست بالأمرِ الصعب».

«أنا لستُ فخوراً بنفسي».

لمست كاريس ذراعهُ المبتورةِ وقالت: «أنا لا أقومُ بتأنيبكَ يا توماس».

قال ميرثن: «ولكن ما يثيرُ استغرابي أنَّ ما من أحدٍ سرَّبَ معلوماتٍ عن وجهتكم».

«هذا لأنَّ غودوين لم يخبرنا بوجهتنا ومعظمنا لم يعلم بها إلى أن وصلنا وسألنا الرهبان هنا عن اسمِ المكانِ الذي كنا فيهِ».

«ولكن الطاعون وصلَ إلى هنا».

«رأيتما المقبرةَ إذاً. دُفنَ جميعُ رهبانِ ديرِ سان جون هنا باستثناءِ رئيسِ الديرِ سول المدفون في الكنيسةِ. توفي معظمُ رهبانِ كينغزبريدج أيضاً وبعضهم هربَ بعدَ تفشي المرض والرَّبُّ وحدهُ يعلمُ ما الذي حدثَ لهم».

تذكرت كاريس أنَّ توماس كانَ قريباً من راهبٍ معينٍ وهو رجلٌ طيبُ المعشرِ وأصغرُ من توماس ببضعِ سنواتٍ ولذلك قالت له في ترددٍ: «وماذا عن الأخ ماتياس؟»

«ماتَ»، قال توماس بخشونةٍ واغرورقت عيناه بالدموعِ فأشاح بنظرهِ بعيداً وفي إحراجٍ.

وضعت كاريس يدها على كتفهِ وقالت: «أنا شديدةُ الأسفِ».

«لقد عانى الكثيرون من خسارةِ أحبائهم»، قالَ لها.

قررت كاريس أنَّه ومن بابِ اللطفِ ألا تتابعَ الحديثَ بشأنِ ماتياس ولذلك سألتهُ: «وماذا بشأنِ غودوين وفيليمون؟»

«لقد هربَ فيليمون وغودوين على قيدِ الحياةِ وبصحةٍ جيدةٍ فهو لم يُصب بالمرضِ».

«لدي رسالةٌ من الأسقفِ إلى غودوين».

«يمكنني أن أتخيلَ هذا».

«من الأفضل أن تأخذني إليهِ».

«إنَّه في الكنيسةِ فقدَ وضعَ سريراً في المصلى الجانبي وهو مقتنعٌ أنَّه بهذهِ الطريقةِ لن يصابَ بالمرضِ. فلترافقاني».

عبروا الممرَ المسقوف ودخلوا إلى المصلى الصغيرِ. كانت الرائحةُ أشبهَ برائحةِ مهجعٍ وعلى الجدارِ الشرقي عُلِّقت لوحةُ القيامةِ التي بدت الآن وبشكلٍ باعثٍ على الكآبةِ منسجمةً مع الجو السائدِ. كان صحنُ الكنيسةِ مفروشاً بالقشِّ والبطانياتِ كأنَّ أناساً كُثراً ينامون في المكانِ ولكن ما من أحدٍ هنا باستثناءِ غودوين الذي استلقى ووجههُ على الأرضيةِ القذرةِ أمامَ المذبح وذراعاهُ إلى جانبيهِ. لوهلةٍ اعتقدت كاريس أنَّه ميتٌ ثمَّ أدركت أنَّه في وضعيةِ التوبةِ المُطلقةِ.

قالَ توماس: «لديكَ زوار أيُّها الأب رئيس الديرِ».

بقي غودوين على وضعيتهِ وكان يمكن لكاريس أن تعتقدَ أنَّه يستعرض إلَّا أنَّ شيئاً ما في هدوئهِ جعلها تفكرُ بأنَّه كانَ يطلبُ المغفرةَ بحقٍ.

ثمَّ نهضَ غودوين على قدميهِ والتفتَ نحوهم.

لاحظت كاريس أنَّه كانَ شاحباً ونحيلاً وبدا متعباً وقلقاً.

«أنتِ»، قال لها.

«لقد فُضحتَ يا غودوين»، قالت كاريس دونَ أن تكملَ جملتها بـ «أيُّها الأب رئيس الديرِ». كانَ وغداً وقد أمسكت بهِ ولذلك ساورها شعورٌ عميقٌ بالرضا.

قال لها: «أفترضُ أنَّ تام المتخفي قد فضحَ مكاني».

لاحظت كاريس أنَّ ذهنَهُ مازال وقاداً كما كانَ دوماً وقالت له: «لقد حاولتَ أن تفلتَ من العدالةِ ولكنكَ فشلتَ».

«ليسَ لديَ ما أخشى العدالةَ عليهِ»، قالَ لها في تحدٍ. «أتيتُ إلى هنا على أملِ إنقاذِ حيواتِ الرهبانِ وخطأي الوحيد أنني تأخرتُ في المغادرةِ».

«البريءُ لا يتسللُ تحتَ غطاءِ الليلِ».

«كانَ يجب أن أُبقي وجهتي سريَّةً كي لا يلحقَ بنا أحدٌ إلى هنا».

«لم تكن مضطراً لسرقةِ مقتنياتِ الديرِ».

«أنا لم أسرقها بل أخذتها معي لحمايتها وسأعيدها إلى مكانها عندما يعودُ الأمان إلى كينغزبريدج».

«ولماذا لم تخبر أحداً بأنَّك ستأخذها معكَ؟»

«ولكني أخبرتُ الأسقفَ هنري برسالةٍ. ألم يستلم رسالتي؟»

انتابَ كاريس شعورٌ كبيرٌ بالخيبةِ. لا يمكن لغودوين أن يخرجَ من كلِّ هذا كالشعرةِ من العجين. «بالطبعِ لا»، قالت كاريس. «لم يتلقَ أيَ رسالةٍ ولا أصدِّقُ أنَّك أرسلتَ واحدةً أصلاً».

«ربما ماتَ الرسولُ بالطاعونِ قبلَ أن يستلمها».

«وما كانَ اسمُ هذا الرسولِ الذي تبخرَ في الهواءِ؟»

«لا أعرف لأنَّ فيليمون من استعانَ بهِ».

«وفيليمون ليسَ هنا. كم هذا رائع»، قالت لهُ ساخرةً. «حسناً يمكنكَ قولُ ما تشاء ولكن الأسقف هنري يتهمكَ بسرقةِ المقتنياتِ وأرسلني إلى هنا لأطالبكَ بإعادتها. لدي رسالةٌ منهُ تأمركَ بتسليمي كلَّ شيءٍ على الفورِ».

«لن يكونَ هذا ضرورياً لأنني سأعيدها بنفسي».

«هذا ليسَ ما أمرَ بهِ أسقفكَ».

«أنا من يقررُ ما هو الأفضل».

«إن رفضكَ هذا دليلٌ على جريمتكَ».

«أنا واثقٌ من أنني أستطيعُ إقناعَ الأسقف هنري برؤيةِ الأمورِ بشكلٍ مختلفٍ».

وفكرت كاريس بأنَّ المشكلةَ الحقيقيةَ هي قدرةُ غودوين على القيامِ بهذا حقاً فهو يمكن أن يكونَ مقنعاً جداً وهنري لا يختلفُ عن بقيةِ الأساقفةِ فهو سيتجنبُ المواجهةَ قدرَ الإمكانِ. وهنا شعرت كاريس بأنَّ جائزةَ انتصارها تُسحبُ من بينِ يديها.

شعرَ غودوين بأنَّه قلبَ الطاولةَ على كاريس ولذلكَ سمحَ لنفسهِ بابتسامةِ رضا صغيرة وهذا ما جعلها تستشيطُ غيظاً إلّا أنَّه لم يكن لديها المزيدُ لتضيفهُ فكلُّ ما بوسعها القيامُ به الآن هو العودةُ إلى الأسقفِ هنري وإخبارُه بما حدث.

لم تكن قادرةً على تصديقِ ما حدث. هل سيعودُ غودوين إلى كينغزبريدج ويستأنفُ عملهُ كرئيسٍ لدير الرهبانِ؟ كيفَ سيتمكنُ من رفعِ رأسهِ في كاتدرائيةِ كينغزبريدج بعدَ كل الأذيةِ التي ألحقها بالديرِ والمدينةِ والكنيسةِ؟ وحتّى وإن قبلَ بهِ الأسقفُ سيتمردُ عليهِ سكانُ المدينةِ من كلِّ بدٍ. كانت الاحتمالات باعثةً على الكآبةِ إلا أنَّ أموراً غريبةً قد تطرأ في أي لحظةٍ. ألم يعد في العالم أيّ عدالةٍ؟

حدَّقت بغودوين وافترضت أنَّ نظرةَ النصرِ على وجههِ تساوي نظرةَ الخيبةِ على وجهها.

ثمَّ رأت أمراً قلبَ الطاولةَ مجدداً.

كان هناك خيطٌ صغيرٌ من الدمِ فوقَ شفةِ غودوين العليا تحتَ منخرهِ الأيسرِ.

***

في صباحِ اليومِ التالي لم ينهض غودوين من السريرِ.

وضعت كاريس كمامةً كتانيةً واهتمت بهِ. مسحت وجههُ بماءِ الوردِ وقدَّمت له بعضاً من النبيذِ المخففِ بالماءِ كلما طلبَ شيئاً ليشربهُ وفي كلِّ مرَّةٍ لمستهُ فيها غسلت يديها بالخلِّ.

باستثناءِ غودوين وتوماس لم يبقَ أحدٌ في الديرِ سوى راهبين وكانا راهبين مبتدئين من ديرِ كينغزبريدج وكلاهما يحتضران أيضاً ولذلكَ أحضرتهما كاريس من المهجع ووضعتهما في الكنيسةِ واهتمت بهما إلى جانبِ غودوين. تحركت في أرجاءِ صحنِ الكنيسةِ شبهِ المُعتمِ كظلٍ وهي تتنقلُ من مريضٍ إلى آخرِ.

سألت غودوين عن مكانِ مقتنياتِ الكاتدرائيةِ ولكنه رفضَ إخبارها.

فتَّش ميرثن وتوماس الدير بحثاً عن المقتنياتِ وكانَ أولَ مكانٍ يبحثانِ فيهِ تحتَ المذبحِ. بدا لهما أنَّ شيئاً ما قد دُفنَ حديثاً وعرفا هذا من نعومةِ الترابِ حولهُ ولذلكَ بدآ بحفرِ حفرةٍ. كان توماس يحفرُ ببراعةٍ رغمَ أنَّه كانَ يستخدمُ يداً واحدةً. في نهاية المطاف لم يعثرا على شيءٍ فما دُفنَ هنا أزيل.

تفقدا جميعَ غرفِ الديرِ المعزولِ بل بحثا في الفرنِ الباردِ وفي الأحواضِ الجافةِ المخصصةِ لتخميرِ الجعةِ إلّا أنهما لم يجدا جواهرَ ولا رفات القديس ولا صكوكاً.

بعدَ أوَّلِ ليلةٍ تركَ توماس المهجع لميرثن وكاريس ليناما وحدهما. لم يُبدِ أيّ ملاحظةٍ أو إيماءةٍ أو حتّى غمزةٍ وكانا ممتنين له بشدةٍ على تسترهِ الخفي. عانقا بعضهما تحتَ كومةٍ من البطانياتِ ثمَّ مارسا الحبَّ وبعد أن انتهيا استلقت كاريس صاحيةً. كان هناكَ بومةٌ تعيشُ في مكانٍ ما في السقفِ وسمعتْ كاريس نعيبها ثمَّ صوتَ صراخِ حيوانٍ صغيرٍ وقعَ بينَ براثنها. تساءلت في نفسها إن كانت قد حملت من ميرثن فهي لم تكن ترغبُ بالتخلي عن عملِها إلا أنَّها لم تكن قادرةً على مقاومةِ إغراءِ النومِ بينَ أحضانِ ميرثن وقررت أنَّها لن تفكر بالمستقبل الآن.

في اليومِ الثالثِ وبينما كانت كاريس وميرثن وتوماس يتناولون الغداء في غرفةِ الطعامِ الخاصةِ بالديرِ قالَ لهما توماس: «في المرةِ القادمةِ التي يطلبُ فيها غودوين شيئاً ليشربهِ فلترفضي إعطاءَهُ شيئاً إلى أن يخبركَ أينَ خبأ المقتنياتِ».

كانت كاريس قد فكرت بالأمرِ ورأت أنَّه تصرفٌ عادلٌ إلَّا أنه أيضاً شكلٌ من أشكالِ التعذيب. «لا يمكنني فعلُ هذا»، قالت كاريس. «أعلمُ أنَّه يستحقه ولكني لا أستطيعُ القيام بهِ فإن طلبَ مني رجلٌ مريضٌ شيئاً ليشربهُ فيجبُ أن أقدِّمَه لهُ، وهذا أكثرُ أهميةً من جميعِ الحُلي المزدانةِ بالجواهرِ في العالمِ المسيحي».

«أنتَ لا تدينينَ لهُ بأيِّ عطفٍ فهو لم يعاملكِ بالمثلِ قط».

«لقد حولت الكنيسةَ إلى مستشفى ولكني لن أسمحَ بتحويلها إلى غرفةِ تعذيبٍ».

بدا توماس كأنّه يريدُ متابعةَ الجدلِ إلا أنَّ ميرثن هزَّ برأسهِ كأنّه يقول اترك الأمرَ لي. «فكر يا توماس»، قال ميرثن. «متى كانت آخر مرةٍ رأيتَ فيها هذهِ الأغراض؟»

«في الليلةِ التي وصلنا فيها»، قالَ توماس. «كانت في حقائبَ وصناديقَ جلديةٍ وحملها حصانان. أنزلوها مع بقيةِ الأغراضِ وأعتقد أنَّها أُدخلت إلى الكنيسةِ في ذلك اليوم».

«وماذا حدثَ بعدَ هذا؟»

«لم أرها مجدداً، ولكن بعدَ صلاةِ العصرِ عندما ذهبنا جميعاً لتناولِ العشاءِ لاحظتُ أنَّ غودوين وفيليمون بقيا في الكنيسةِ مع الراهبين جوليي وجون».

قالت كاريس: «أنا واثقةٌ حقَّ الثقةِ من أنَّ جوليي وجون راهبان شابان وقويان».

«أجل».

قالَ ميرثن: «أعتقدُ أنهم دفنوا المقتنياتِ تحتَ المذبح ولكن متى قاموا بالحفرِ؟»

«لا بدَّ أنَّ هذا حدثَ عندما لم يكن هناكَ أحدٌ في الكنيسةِ ولا يمكنُ ضمانُ هذا إلا أثناء تناولِ الطعامِ».

«هل غابوا في أوقاتٍ وجباتٍ أخرى؟»

«العديدُ منها على الأغلبِ. لطالما تصرفَ غودوين وفيليمون كأنَّ القوانين لا تنطبقُ عليهما ولم يكن غيابهما عن وجباتِ الطعامِ والطقوسِ أمراً غريباً جداً ولذلك لا أتذكرُ عددَ المراتِ بدقةٍ».

سألتهُ كاريس: «هل تتذكرُ غيابَ جوليي وجون عن وجباتِ الطعامِ مرَّةً أخرى؟ لا بدَّ أنَّ غودوين وفيليمون كانا بحاجةٍ إلى المساعدةِ مجدداً».

«ليسَ بالضرورةِ»، قالَ ميرثن. «فإعادةُ نبشِ حفرةٍ في الأرضِ أسهلُ بكثيرٍ من حفرها لأول مرةٍ. إنَّ غودوين في الثالثةِ والأربعين وفيليمون في الرابعةِ والثلاثين ويمكنهما نبشُ الحفرةِ من دونِ مساعدةٍ إن أرادا هذا».

في تلكَ الليلةِ بدأ غودوين بالهذيانِ. كانَ يتحدثُ أحياناً كأنّه يقتبسُ من الإنجيل وفي أوقاتٍ أخرى كأنّه يقدمُ موعظةً وأحياناً كأنّه يختلقُ أعذاراً. أصاختت كاريس السمعَ إليهِ لبرهةٍ من الزمنِ على أملِ أن تحصلَ على أيِّ دلائلٍ. «سقطت بابلُ العظيمةُ وشربت جميعُ الأممِ من الغضبِ الذي جلبهُ فسوقها ومن العرشِ أتت النارُ والرعدُ وجميعُ تجارِ الأرضِ بكوا. توبوا، توبوا جميعكم يا من ارتكبتم الرذيلةَ مع العاهراتِ! كانَ هذا كلّهُ من أجلِ غايةٍ عُليا، كان كُلهُ من أجلِ مجدِ الرَّبِّ. ولأنَّ الغايةَ تبررُ الوسيلةَ... أعطني شيئاً لأشربهُ حُباً بالرَّبِّ». كانت لهجةُ هذيانهِ توحي بأنَّه متأثرٌ باللوحةِ المُعلَّقةِ على الحائطِ التي تصورُ بوضوحٍ شديدٍ عذاباتِ الجحيمِ.

رفعت كاريس الكأسَ إلى فمِ غودوين وسألتهُ: «أينَ مقتنياتِ الديرِ يا غودوين؟»

«رأيتُ سبعةَ شمعدانات ذهبية مرصعةً باللآلئِ والحجارةِ الكريمةِ وملفوفةً بقماشٍ كتاني فاخرٍ وقماشٍ أرجواني وقرمزي في فُلكٍ من خشبِ الأرزِ وخشبِ الصندل والفضةِ. رأيتُ امرأةً على حصانٍ قرمزي ضخمٍ بسبعةِ رؤوسٍ وعشرةِ قرونٍ تُجدفُ بحقِ الرَّبِّ». وترددَ صدى هذيانهِ في أرجاءِ صحنِ الكنيسةِ.

في صباحِ اليومِ التالي توفي الراهبانِ المبتدئانِ ودفنهما ميرثن وتوماس بعدَ الظهرِ في المقبرةِ شمالَ الديرِ. كانَ الطقسُ بارداً ورطباً ولكنهما تعرقا بغزارةٍ تحتَ وطأةِ مجهودِ حفرِ القبرين. أقامَ توماس مراسمَ الدفنِ ووقفت كاريس قربَ القبرين مع ميرثن. في الأوقاتِ التي يتداعى فيها كلُّ شيءٍ كانت الطقوسُ خيرَ عونٍ في الحفاظِ على المظاهر طبيعيةً. توزعت من حولهم قبورُ جميع الرهبانِ باستثناءِ قبرِ سول وقبر غودوين. كانت جثةُ سول مدفونةً تحت مذبحِ الكنيسةِ وهذا تكريمٌ مخصصٌ فقط لرؤساءِ الديرِ الموقرين.

عادت كاريس بعد هذا إلى الكنيسةِ وحدَّقت إلى قبرِ سول تحتَ المذبحِ. كانَ هذا الجزءُ من الكنيسةِ مرصوفاً بالحجارةِ. لاحظت أنَّ الحجارةَ قد أزيلت لحفرِ القبرِ ثمَّ أعيدت إلى مكانها. كان هناكَ نقشُ كتابةٍ ما على أحد الحجارةِ.

وجدت صعوبةً في التركيز بينما غودوين يهذي بالوحوشِ ذات الرؤوسِ السبعةِ.

لاحظَ ميرثن أنها تُحدقُ بإمعانٍ ونظرَ إلى حيثُ كانت تنظرُ إليهِ. سرعانَ ما تكهنَ بما كانت فكرت بهِ وبصوتٍ مرتعبٍ قالَ لها: «بالتأكيد لم يُخفِ غودوين المقتنياتِ في تابوتِ سول وايتهيد».

«سيكون صعباً على أيِّ راهبٍ أن يفكرَ بتدنيسِ قبرٍ»، قالت لهُ. «ولكن من جهةٍ أخرى لن يكونَ هناكَ ضرورةٌ لنقلِ المقتنياتِ خارجَ الكنيسةِ».

قالَ توماس: «توفي سول قبلَ أسبوعٍ من قدومكما واختفى فيليمون بعدَ يومين».

«ربما ساعد فيليمون غودوين على نبشِ القبرِ».

«أجل».

نظرَ ثلاثتهم بعضهم إلى بعض وهم يحاولون تجاهلَ هذيان غودوين الجنوني.

«هناكَ طريقةٌ واحدةٌ لنعرف»، قال ميرثن.

أحضرَ ميرثن وتوماس مجرفين خشبيين. رفعا البلاطةَ التي نقشت عليها الكتابةُ التذكاريةُ وأزالا الحجارةَ المرصوفةَ ثمَّ بدآ بالحفرِ.

كانَ توماس قد طورَ تقنيةً في الحفرِ بيدٍ واحدةٍ. كانَ يدفعُ بيدهِ السليمةِ المجرفَ إلى الأرضِ ويقومُ بإمالتهِ ثمَّ يهبط بيدِهِ على طولِ عصا المجرفِ إلى أن يصلَ إلى النصلِ ويرفعهُ. كانت عضلات يدِه اليمنى مفتولةً بسببِ هذهِ الأساليب التي كانَ يبتدعها.

على أيِّ حالٍ لم يأخذ منهم الأمرُ وقتاً طويلاً فقد كانت القبورُ هذه الأيام

قليلةَ العمقِ ولكن لأنَّ الميت رئيسُ الديرِ سول فقد حفرَ الرهبان ستةَ أقدامٍ كاملة تحتَ سطحِ الأرضِ. كان الظلامُ قد بدأ يهبطُ في الخارجِ ولهذا أحضرت لهما كاريس الشموعَ ليواصلا العملَ. بدت وحوشُ اللوحةِ في ضوءِ الشموعِ المتراقصِ كأنّها تتحركُ.

وقفَ توماس وميرثن في الحفرةِ برأسين ظاهرين فوقَ مستوى الأرضِ، «انتظر يوجدُ شيءٌ هنا»، قالَ ميرثن.

رأت كاريس مادةً بيضاء متسخةً وبدت كقماشٍ كتاني زيتي من النوعِ الذي يُستخدمُ عادةً ككفنٍ. «لقد عثرتما على الجثةِ»، قال كاريس.

قال توماس: «ولكن أينَ التابوت؟»

«ألم يُدفن في تابوتٍ؟» كان الدفنُ في التوابيتِ من نصيبِ نخبةِ الناسِ أمّا الفقراء فكانوا يُدفنونَ في أكفانٍ.

قال توماس: «سول مدفونٌ في تابوتٍ وقد رأيت هذا بأمّ عيني فنحن في وسطِ غابةٍ وهناك الكثيرُ من الأخشابِ. دُفنَ جميعُ الرهبانِ في توابيت إلى أن مرضَ نجارُ الديرِ الأخُ سيلاس».

«مهلاً!» قالَ ميرثن ودفعَ مجرفةً أسفلَ الكفنِ ورفعَ الترابَ ثمَّ ضربَ بنصلِ المجرفةِ وسمعت كاريس صوتَ خشبٍ. «ها هو التابوتُ إنّه في الأسفل»، قال ميرثن.

قالَ توماس: «كيفَ أُخرجت الجثةُ؟»

وشعرت كاريس برعدةِ خوفٍ تجري في أوصالها.

ومن الزاويةِ أتى صوتُ غودوين وهو يقولُ: «سيُعذبُ بالنارِ والكبريتِ عندَ رؤيةِ الملائكةِ المقدسين وسيصعدُ الدخانُ من جسدِ المُعذبِ إلى أبدِ الآبدين».

قال توماس لكاريس: «هل يمكنكِ جعلهُ يصمت؟»

«ليسَ لدي أيُّ عقاقير».

قالَ ميرثن: «لا أعتقدُ أنَّ الجثةَ خرجت بشكلٍ خوارقي. أظنُّ أنَّ غودوين وفيليمون أخرجا الجثةَ وملآ التابوتَ بالمقتنياتِ المسروقةِ».

تمالكَ توماس نفسهُ وقالَ: «من الأفضلِ أن نبحثَ في التابوتِ إذاً».

في البدايةِ كان عليهما تحريكُ الجثةِ المُكفنةِ ولذلكَ انحنى ميرثن وتوماس وأمسكا بالجثةِ من الكتفين والركبتين ثمَّ رفعاها وعندما أصبحت بمستوى كتفيهما لم يعد هناكَ من مجالٍ لتحريكها إلّا برميها على الأرضِ. قاما برمي

الجثةِ فأصدرتْ صوتاً عالياً عند ارتطامها بالأرضِ ونظرَ الرجلانِ بعضهما إلى بعض في خوفٍ، وحتَّى كاريس التي لم تكن تؤمن بالكثيرِ مما سمعتهُ عن عالمِ الأرواحِ شعرت بالذعرِ مما كانا يقومانِ بهِ ووجدت نفسها تحدقُ بتوترٍ من فوقِ كتفيها إلى الزوايا المعتمةِ للكنيسةِ.

نظَّفَ ميرثن أعلى التابوت من الترابِ بينما ذهبَ توماس لجلبِ عتلةٍ حديديةٍ وأزالا غطاءَ التابوتِ.

حملَت كاريس شمعتين فوقَ القبرِ حتَّى يرى الرجلان بشكلٍ أفضل.

داخلَ التابوتِ كانَ هناكَ جثةٌ مُكفنةٌ أخرى.

قالَ توماس بصوتٍ مرتعشٍ: «هذا أمرٌ غريبٌ جداً!»

«فلنفكر بشكلٍ منطقي»، قال ميرثن الذي بدا هادئاً ومتماسكاً إلا أنَّ كاريس تعرف جيداً أنَّه يبذلُ مجهوداً كبيراً ليظلَّ متماسكاً. «من في التابوت؟» قال ميرثن. «فلننظر».

انحنى ميرثن وأمسكَ بالكفنِ بيديهِ ثمَّ مزَّقَ القُطبَ التي خيطت عندَ الرأسِ. كانَ قد مضى أسبوعٌ على الوفاةِ ولذلكَ صدرت عنها رائحةٌ سيئةٌ ولكن لم يبدُ عليها الانحلالُ الشديدُ بسببِ برودةِ الأرضِ تحتَ الكنيسةِ الباردةِ. وفي الضوءِ المتراقص للشمعتين اللتين تحملهما لم يكن هناكَ أدنى شكٍ حيالَ هويةِ جثةِ الرجلِ ذي الشعرِ الأشقرِ جداً وبتسريحةِ الرهبانِ.

قالَ توماس: «هذا سول وايتهيد».

«في تابوتهِ الحقيقي»، قالَ ميرثن.

قالت كاريس: «ولكن لمن الجثةُ الأخرى؟»

أغلقَ ميرثن الكفنَ حولَ رأسِ سول الأشقر وأعادَ غطاءَ التابوتِ.

ركعت كاريس بالقربِ من الجثةِ الأخرى وعلى الرغمِ من أنَّها تعاملت مع الكثيرِ من الجثثِ فإنَّها لم تتعامل مع جُثةٍ نُبشت من القبرِ ولهذا عاينت الجثةَ بيدين مرتعشتين. فتحت الكفنَ وكشفَت عن الوجهِ وهلعت عندما رأت العينين مفتوحتين كأنَّهما تُحدقان إليها ثمَّ أجبرت نفسها على إغلاقِ الجفنين الباردين.

كانَ راهباً شاباً ضخماً ولكنها لم تتعرف عليهِ. وقفَ توماس على رؤوسِ أصابعهِ ونظرَ من داخلِ القبرِ ثمَّ قالَ: «إنَّه الأخُ جونغويل وقد مات بعدَ يومٍ من وفاةِ رئيسِ الديرِ سول».

قالت كاريس: «ودُفنَ في...؟»

«في المقبرةِ... كما اعتقدنا جميعاً».
«في تابوتٍ؟»
«أجل».
«ولكنّهُ هنا».
«كانَ وزنُ تابوتِهِ طبيعياً»، قال توماس. «فقد ساعدتُ على حملِهِ...»
قالَ ميرثن: «فهمتُ الآن ما حدثَ. بقيت جُثة جونغويل بكفنها هنا في الكنيسةِ قبلَ دفنِهِ وبينما كانَ الرهبانُ الآخرونَ يتناولونَ الغداءَ فتحَ غودوين وفيليمون التابوتَ وأخرجا الجثةَ ثمَّ حفرا قبرَ سول ووضعا جونغويل فيهِ فوقَ التابوتِ وأغلقا القبرَ ووضعا مقتنيات الكاتدرائيةِ في تابوتِ جونغويل وأغلقاه مجدداً».
قالَ توماس: «إذاً علينا أن نحفرَ قبرَ جونغويل».
حدَّقت كاريس إلى نوافذِ الكنيسةِ. كانَ الظلامُ قد حلَّ في الخارجِ بينما كانوا يفتحونَ قبرَ سول. «يمكننا أن نقومَ بهذا في الصباحِ»، قالت لهما.
لزمَ الرجلان الصمتَ لبرهةٍ طويلةٍ ثمَّ قالَ توماس: «فلننتهِ من الأمرِ».
توجهت كاريس إلى المطبخِ وأخذت حطبتين من كومةِ الحطبِ ثمَّ أشعلتهما وعادت إلى الكنيسةِ.
وعندما كانوا ثلاثتهم يغادرون الكنيسة سمعوا غودوين يصرخُ: «وعندما أُلقيت معصرةُ غضبِ الرَّبِّ خارجَ المدينةِ وأفسحَ العنبُ الطريقَ للدمِ ضربَ الأرض طوفان وصلَ إلى مستوى سروجِ الجيادِ».
ارتعدت فرائصُ كاريس عندما سمعت بهذا. كان غودوين يقتبسُ تلكَ الصورةَ الكريهةَ من سفرِ القديسِ يوحنا وشعرت كاريس بالتقززِ ثمَّ حاولت أن تصرف ذهنها عن التفكير بالأمرِ.
هرعوا خارجاً إلى المقبرةِ وساروا على الضوءِ الأحمرِ للمشاعلِ. شعرت كاريس بالراحةِ لابتعادها عن تلكَ اللوحة الجداريةِ وعن هذيانِ غودوين الجنوني. عثروا على شاهدِ قبرِ جونغويل وبدأ ميرثن وتوماس الحفرَ.
كانَ الرجلانِ قد حفرا قبرين للراهبين المبتدئين وأعادا حفرَ قبرِ سول وهذا القبرُ الرابعُ الذي يحفرونهُ منذُ الغداءِ. بدا ميرثن متعباً وتعرَّقَ توماس بغزارةٍ إلا أنهما تابعا العملَ بمثابرةٍ. تعمقا في الحفرِ ببطءٍ وكبرت كومةُ الترابِ على الجانبين وأخيراً ضربَ نصلُ المجرفةِ الخشبَ.

ناولت كاريس ميرثن العتلةَ ثمَّ ركعت عندَ حافةِ القبرِ تحملُ المشعلين. فتحَ ميرثن غطاءَ التابوتِ ثمَّ ألقاه خارجَ القبرِ.

لم يكن هناكَ جثةٌ في الصندوقِ.

كانَ هناكَ أكياسٌ وصناديق مرصوصةٌ بشدةٍ وفتحَ ميرثن كيساً جلدياً ثمَّ سحبَ الصليبَ المُزدان بالجواهرِ.

«هللويا»، قال ميرثن بتعبٍ.

فتحَ توماس صندوقاً يحوي على مجموعةٍ من اللفائفِ الورقيةِ المُكدسةِ بعضها بجانبِ بعض كما يُكدسُ السمكُ في قفصٍ. كانت صكوكُ الكاتدرائيةِ.

شعرت كاريس بعبءٍ ينزاحُ عن كاهلها فها هي تستعيدُ صكوكَ ديرِ الراهباتِ.

وضعَ توماس يدهُ على كيسٍ آخرَ وعندما نظرَ إلى ما كانَ يحملهُ اكتشفَ أنَّها جمجمةٌ فأطلق صيحةَ رعبٍ وأوقعها.

«القديس أدولفوس»، قالَ ميرثن بصوتٍ تقريري. «يقطعُ الحجاجُ مئات الأميالِ للمسِ الصندوقِ الذي يحوي على بقاياه» ثمَّ أمسكَ بالجمجمةِ. «كم نحنُ محظوظون»، قال ميرثن وأعادَ الجمجمةَ إلى الكيسِ.

«هل يمكنني تقديمُ اقتراحٍ؟» قالت كاريس. «بما أنَّه علينا حملُ هذهِ الأغراض وإعادتها إلى كينغزبريدج في عربةٍ لمَ لا نتركها في التابوت؟ إنَّها مرتبةٌ أصلاً ومنظرُ التابوتِ سيمنعُ اللصوصَ من الاقترابِ».

«فكرةٌ جيدةٌ»، قالَ ميرثن. «سنُخرجُ التابوتَ من القبرِ إذاً».

عادَ توماس إلى الديرِ وأحضرَ حبالاً ثمَّ رفع مع ميرثن التابوتَ من الحفرةِ وأعادا تثبيتَ غطائهِ وأحكماه بالحبالِ لجرِّهِ على الأرضِ باتجاهِ الكنيسةِ.

وعندما كانا على وشكِ البدءِ بجرِّهِ سمعا صرخةً.

أطلقت كاريس صيحةَ ذُعرٍ.

نظروا جميعاً باتجاهِ الكنيسةِ ورأوا شخصاً يركضُ نحوهم بعينين جاحظتين والدمُ يخرجُ من فمهِ. وأحسَّت كاريس برعبٍ حقيقي وبدأت تصدِّقُ كلَّ خرافةٍ غبيةٍ كانت قد سمعت بها عن عالمِ الأرواحِ ثمَّ أدركت أنَّها كانت تنظرُ إلى غودوين. كانَ الأخيرُ قد وجدَ وبطريقةٍ ما القوةَ على النهوضِ من سريرِ الموتِ وجرَّ نفسهُ خارجَ الكنيسةَ فرأى مشاعلهم وها هو في ذروةِ هذيانهِ الجنوني يركضُ نحوهم.

راقبوه وقد جمدوا في مكانهم.

توقفَ ونظرَ إلى التابوتِ ثمَّ إلى القبرِ الفارغِ وفي ضوءِ المشاعلِ المتراقصِ اعتقدت كاريس أنّها رأت على وجههِ المتجهمِ تعابير فهمٍ لما يحدث ثمَّ بدا كأنّه يفقدُ قواهُ ويتهاوى. سقطَ ووجهه إلى الأرضِ قربَ قبرِ جونغويل المفتوحِ ثمَّ تدحرجَ فوقَ كومةِ الترابِ ووقعَ في الحفرةِ.

تقدموا جميعاً ونظروا إلى القبرِ.

كانَ غودوين مستلقياً على ظهرهِ وينظرُ إليهم بعينين مفتوحتين وميتتين.

-66-

حالما عادت كاريس إلى كينغزبريدج قررَت أن تغادرها مجدّداً.

لم تكن الصورةُ التي لم تفارقها بعدَ زيارتها ديرَ سان جون إن ذا فوريست صورةَ المقبرةِ ولا الجثث التي نبشها ميرثن وتوماس ولكن صورةَ الحقولِ الخاليةِ ممن قد يهتمُّ بها. ركبت هي وميرثن جواديهما بينما قادَ توماس العربةَ، وخلالَ الرحلةِ رأت الكثيرَ من الأراضي خاليةً من الفلاحين وتنبأت بكارثةٍ وشيكةٍ.

كانَ معظمُ دخلِ الرهبانِ والراهباتِ من الإيجاراتِ؛ فالأقنانُ يزرعونَ المحاصيل ويربونَ المواشي على الأراضي التي تعودُ ملكيتها إلى الديرِ وبدلاً من الدفعِ إلى فارسٍ أو إيرل لقاءَ هذا الامتيازِ كانوا يدفعونَ إلى رئيسِ ديرٍ أو رئيسةِ دير الراهبات، ومن المتعارفِ عليهِ أن يحضروا حصّةً من حصادهم إلى الكاتدرائيةِ وعادةً ما تكون هذهِ الحصة عبارةً عن كيسين من الطحينِ وثلاثةِ خرافٍ وعجل أو عربة من البصل، إلا أنَّ الناسَ حالياً باتوا يدفعونَ الإيجارَ نقداً.

إن لم يكن هناكَ من يزرعُ الأرضَ فهذا يعني أن ما من أحدٍ سيدفع إيجاراً وعندها لن تجدَ الراهباتُ ما يأكلنهُ.

أُعيدت مجوهراتُ ومالُ وصكوكُ الديرِ من ديرِ سانت جون إن ذا فوريست وخُبئت في خزنةٍ سريَّةٍ جديدةٍ كانت الأمُّ سيسيليا قد كلفت جيرمايا ببنائها في مكانٍ يُصعبُ إيجادهُ. عثروا على جميعِ التحفِ باستثناءِ الشمعدانِ الذي قدمتهُ نقابةُ صانعي الشموعِ في كينغزبريدج فلم يعثروا على أي أثرٍ له.

بعدَ استعادةِ رُفاتِ القديسِ أدولفوس أقامت كاريس مراسمَ احتفالية خلال

صدرة أحد ثمَّ كلَّفت توماس بمهمةِ العنايةِ بصبيانِ الميتمِ ممن كانت أعمارُ بعضهم كبيرةً ويتطلبُ ضبطهم وجوداً ذكورياً قوياً. انتقلت إلى منزلِ رئيسِ الديرِ وقد أسعدتها فكرةُ أنَّ رئيسَ الديرِ الراحلِ غودوين سيكون هلعاً في ما لو عرفَ أنَّ امرأةً تشغلُ القصرَ الآن، وحالما أنهت حلَّ جميعِ هذهِ القضايا توجهت إلى قريةِ أوثنباي.

كانَ وادي أوثن وادياً خصباً ذا تربةٍ طينيةٍ سميكةٍ ويبعدُ مسافةَ يومٍ واحدٍ عن كينغزبريدج. حصلت الراهباتُ على الوادي منذُ مئةِ عامٍ من قبلِ فارسٍ عجوزٍ شريرٍ قدَّمهُ لهنَّ على سريرِ الموتِ في محاولةٍ للظفرِ بالغفران على ذنوبِ حياةٍ كاملةٍ. هناكَ خمسُ قرى متباعدة وأراضٍ كبيرة ومنحدرات هضابٍ منخفضة على ضفتي نهر أوثن.

كانت الحقولُ مُقسَّمةً إلى رقعٍ وموزعةً على عائلاتٍ وتحققت مخاوفها عندما رأت العديدَ من هذهِ الرقعِ غير مزروع. لقد غيَّرَ الطاعونُ كلَّ شيءٍ إلا أنَّ ما من أحدٍ امتلكَ الذكاءَ أو ربما الجرأةَ على تنظيمِ زراعتها في ظلِّ الظروفِ الجديدةِ. كانَ على كاريس أن تقومَ بهذا بنفسها ورغمَ أنَّها لم تملك سوى فكرةٍ عامة عن الموضوعِ فإنَّها قرّرت العملَ على التفاصيلِ في خضمِّ الأمرِ.

رافقتها راهبةٌ رُسمت مؤخراً تدعى الأختُ جوان التي كانت فتاةً ذكيةً وتذكرُ كاريس بنفسها عندما كانت في مثلِ عمرها منذُ عشرِ سنواتٍ. لم تكونا متشابهتين في المظهرِ فعلى عكسِ كاريس كانت جوان فتاةً بشعرٍ أسود وعينين زرقاوين إلا أنهما كانتا تتشاركان طريقةَ التفكير النقدي وميلهما السريع إلى الشكِ.

توجهتا إلى أوثنباي أكبرِ القرى في المنطقةِ فقد كان ويل –وكيل الوادي– يعيشُ هناكَ في منزلٍ خشبي قرب الكنيسةِ. عندما وصلتا لم تجداه في المنزلِ إلا أنَّهما عثرتا عليهِ في أبعدِ حقلٍ في الوادي يبذرُ الشوفانَ. كانَ رجلاً ضخماً بطيءَ الحركةِ ورقعةُ الأرضِ التي بجانبهِ مراحة وقد نما فيها العشبُ البري عالياً وهناكَ خرافٌ ترعى فيها.

يزورُ الوكيلُ الديرَ بضعَ مراتٍ سنوياً وعادةً ما يُحضرُ الإيجاراتِ من بقيةِ القرى ولذلكَ كانَ يعرفُ كاريس إلَّا أنَّه شعرَ بالإرباكِ عندما قابلها على أرضهِ. «أيتها الأختُ كاريس!» قالَ متعجباً حالما عرفها. «ما الذي أحضركِ إلى هنا؟»

«أصبحتُ الأمَّ كاريس الآن يا ويل وأتيتُ للتأكدِ من أنَّ أراضي الراهباتِ تلقى العنايةَ المناسبةَ».

«آه». وهزَّ رأسهُ ثمَّ قال: «إننا نبذلُ أفضلَ ما بوسعنا كما ترين ولكننا خسرنا الكثيرَ من الرجالِ ولهذا غدا الأمرُ صعباً جداً».

عادةً ما يشتكي الوكلاءُ قائلين إنَّ الأحوال صعبةٌ إلا أنَّ ويل الآن كانَ يقولُ الحقيقةَ.

ترجَّلت كاريس عن حصانها وقالت: «فلتمشِّ معي ولتخبرني بما يحدث». على بعدِ مئةِ ياردةٍ وعلى منحدرٍ خفيضٍ رأت فلاحاً يحرثُ وراءَ ثمانيةِ ثيرانٍ. أوقفَ الرجلُ الثيران ونظرَ إلى كاريس في فضولٍ ولهذا سارت كاريس باتجاهِهِ.

بدأ ويل يستعيدُ رباطةَ جأشِهِ وسارَ بجانبِ كاريس ثمَّ قالَ لها: «لا أحد يتوقعُ من امرأةٍ تمثلُ الربَّ أن تعرفَ الكثيرَ عن حرثِ التربةِ ولكني سأبذلُ ما بوسعي لشرحِ أدقِّ الأمورِ».

«هذا من لطفكَ». كانت معتادةً على المعاملةِ المتعاليةِ من رجالٍ مثلِهِ وقد اكتشفت أنَّه من الأفضلِ عدم تحديهم بل منحهم شعوراً مزيفاً بالأمانِ فهي بهذهِ الطريقةِ ستحصلُ على معلوماتٍ أكثر. «ما عددُ الرجالِ الذين فقدتهم بسببِ الطاعونِ؟»

«أوه الكثيرُ منهم».

«كم عددهم؟»

«حسناً، دعيني أفكر. هناكَ ويليام جونز ووالـداه، ثمَّ النجارُ ريتشارد وزوجتهُ...»

«لا أحتاجُ لمعرفةِ أسمائهم»، قالت لهُ وهي تكبحُ ضيقها. «ما عددهم التقريبي؟»

«يجبُ أن أحصيهم في عقلي أولاً».

ووصلا إلى حيث كان الرجلُ يحرثُ الأرضَ. يتطلبُ التحكمُ بثمانيةِ ثيران مهارةً ويعتبرُ الفلاحون الذين يقومون بأعمالِ الحراثةِ من أذكى سكانِ القريةِ. توجهت كاريس إلى الشابِ قائلةً: «ما عددُ الذين ماتوا في أوثنباي من الطاعونِ؟»

«أعتقدُ أنَّ عددهم يقاربُ المئتين».

تفحَّصَت كاريس الشابَ. كانَ قصيرَ القامةِ ولكنه مفتولُ العضلاتِ ولحيته شقراء وكثَّة. بدا واثقاً جداً بنفسِهِ إلى درجةِ الخيلاءِ كما هم الشبانُ أحياناً. «من تكون؟» سألتهُ كاريس.

«أدعى هاري بن ريتشارد أيتها الأختُ».

«أنا الأمُّ كاريس. كيفَ عرفتَ أنَّ العددَ يقاربُ المئتين؟»

«يبلغُ عددُ من توفوا هنا في أوثباي اثنين وأربعين كما أعتقدُ وتوفي العددُ نفسهُ في هام وشورتايكر وبالتالي أصبحَ المجموعُ مئةً وعشرين. أمَّا قريةُ لونغووتر فقد نجت تماماً إلا أنَّ جميعَ سكانِ أولدتشرتش باستثناءِ العجوزِ روجر بريتون ماتوا وعددهم ثمانون وهذا يعني أنَّ المجموعَ الإجمالي هو مئتان».

التفتت كاريس إلى ويل وسألتهُ: «كم يبلغُ العددُ الإجمالي لسكانِ الوادي؟»

«آه، دعيني أفكرُ...»

قال الفلاحُ هاري: «ما يُقارب الألف قبلَ الطاعون».

قال ويل: «لهذا السببِ رأيتني أبذرُ أرضي بنفسي فهذا عملُ عمالٍ ولكن لم يعد لدي عمالٌ فقد توفوا جميعاً».

قالَ هاري: «أو غادروا للعملِ في أمكنةٍ أخرى لقاءَ أجورٍ أعلى».

انتفضت كاريس قائلةً: «آه ومن يعرضُ أجوراً أعلى؟»

«بعضُ الفلاحين الأثرياء في الوادي المجاور»، قالَ ويل في سخطٍ. «يدفعُ النبلاء بنساً واحداً في اليومِ وهو الأجرُ الذي كانَ ويجبُ أن يتلقاهُ العاملُ على الدوامِ ولكن هناكَ من يعتقدون أنَّهم يستطيعونَ فعلَ ما يشاؤون».

«وأفترضُ أنهم قاموا ببذارِ محاصيلهم»، قالت كاريس.

«ولكن ماذا عن الخطأ والصواب أيتها الأمُّ كاريس؟» قال ويل.

أشارت كاريس إلى أرضٍ مُراحةٍ فيها خرافٌ ترعى. «وماذا عن هذهِ الأرضِ؟ لمَ لم تُحرث بعد؟»

قالَ ويل: «هذهِ أرضُ ويليام جونز وقد توفي هو وأبناؤهُ وذهبت زوجتهُ للعيشِ مع أختها في شايرنغ».

«هل بحثتَ عن مستأجرٍ جديدٍ؟»

«لا يمكننا الحصولُ على مستأجرين جدد أيتها الأمُّ».

وتدخَّلَ هاري مجدداً قائلاً: «لن نحصلَ عليهم بالشروطِ القديمةِ».

حدَّقَ ويل إليهِ إلا أنَّ كاريس قالت: «ما الذي تعنيهِ؟»

«لقد تراجعت الأسعارُ كما ترين. إننا في الربيع وعادةً ما يكونُ محصولُ الذرةِ عزيزاً خلالَ هذا الفصلِ».

أومأت كاريس برأسِها موافقةً فالجميعُ يعلمُ أنها الطريقةُ التي تعملُ بها الأسواقُ في حال تراجعَ الطلبُ والسعرُ. «ولكن يجبُ أن يعيشَ الناسُ بطريقةٍ ما»، قالت كاريس أخيراً.

«إنهم لا يريدونَ زرعَ القمحِ والشعيرِ والشوفان ولكن عليهم أن يزرعوا ما يُملى عليهم زراعته في هذا الوادي على الأقل، ولهذا من يريدُ أرضاً يستأجرها سيبحثُ في مكانٍ آخر».

«وأينَ هذا المكانُ الآخر؟»

وهنا قاطعهما ويل بغضبٍ: «إنهم يريدون أن يقوموا بما يشاؤون».

أجابَ هاري على سؤالِ كاريس قائلاً: «يريدون أن يكونوا مستأجرين أحراراً وأن يدفعوا الإيجار نقداً بدلاً من العملِ كأقنانٍ يوماً واحداً في الأسبوعِ في أرضِ أحدِ الأسيادِ وهم أيضاً يريدونَ زرع محاصيل مختلفة».

«ما هي هذهِ المحاصيل؟»

«القنَّب أو الكتان أو التفاح والإجاص أو أيّ محصول يعرفونَ أنهم سيتمكنون من بيعهِ في السوقِ. وقد يجربون محاصيلَ مختلفةً كلَّ عامٍ وهذا أمرٌ غير مسموحٍ بهِ في أوتنباي أبداً». ثمَّ بدا هاري كأنه تمالكَ نفسهُ لأنّه أضافَ: «لا أقصدُ الإساءةَ إلى الديرِ أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ ولا إلى الوكيلِ ويل فهو رجلٌ نزيهٌ وهذا ما يشهدُ بهِ الجميع».

وفهمت كاريس كيفَ كانت الأمورُ تسيرُ فالوكلاءُ هم على الدوامِ رجالٌ محافظون وفي الأوقات الجيدةِ لم يكن هذا مُهماً لأنَّ الطرقَ القديمةَ تفي بالغرضِ ولكنهم الآن في خضمِ أزمةٍ.

وتقمصت كاريس سلوكها الأكثرَ سلطويةً قائلةً: «حسناً أصغِ إلي الآن يا ويل فأنا سأخبركَ بما عليكَ فعلهُ». بدا ويل مرتاعاً فقد اعتقدَ أنّها ستستشيرهُ لا أن تأمرهُ. «أولاً يجبُ أن تتوقفَ عن حراثةِ الأراضي المنحدرةِ فهذا عملٌ غبي بوجودِ أراضٍ جيدةٍ غير محروثةٍ».

«ولكن...»

«إهدأ وأصغِ إلي. فلتعرض على جميعِ المستأجرين أرضاً مستويةً بدلاً من أراضي التلالِ».

«وما الذي سنفعلهُ بأراضي التلالِ؟»

«فلتحولها إلى مراعٍ لقطعانِ الأبقارِ في المنحدراتِ المنخفضةِ وللخرافِ

في المناطقِ الأعلى. أنتَ لن تحتاجَ إلى رجالٍ كُثر لرعي القطعانِ بل إلى بضعةِ صبيان».

«أوه»، قال ويل وبدا كأنّه يريدُ مجادلتها إلّا أنه لم يكن قادراً على تقديمِ اعتراضٍ في الوقتِ الحالي.

تابعت كاريس: «أمّا ثانياً فيجبُ أن تعرضَ جميع أراضي الوادي المنخفضةِ التي لم تؤجر بعدُ لقاءَ إيجارٍ نقدي حُرٍّ ولأيِّ أحدٍ يرغبُ بأخذها». إنَّ الإيجارَ النقدي الحُر يعني أنَّ المستأجر لن يكونَ قِناً ومضطراً للعملِ على أرضِ السيدِ أو الحصول على الإذنِ بالزواجِ أو بناءِ منزلٍ فكلُّ ما عليهِ القيامُ بِهِ هو دفعُ إيجارهِ.

«أنتِ تلقين بكلِّ الأعرافِ القديمةِ عرضَ الحائطِ».

أشارت إلى الأرضِ المُراحةِ وقالت: «إنَّ الأعرافَ القديمةَ تدمرُ أرضي فهل يمكنكَ التفكيرُ بطريقةٍ أخرى لإيقافِ ما يحدث؟»

«حسناً»، قال ويل وحلَّ صمتٌ طويلٌ ثمَّ هزَّ رأسهُ بصمتٍ.

«ثالثاً فليكن أجرُ العملِ اليومي في الأرضِ بنسين بدلاً من بنسٍ واحدٍ».

«بنسين يومياً!»

شعرت كاريس بأنّها لا تستطيع الاعتماد على ويل في تنفيذِ هذهِ التغييراتِ بهمَّةٍ وأنّه سيتكاسلُ ويختلقُ أعذاراً فاستدارت إلى الفلاحِ المتعجرفِ. كانت ستجعلهُ بطلَ الإصلاحات التي أرادت القيام بها. «أريدكَ يا هاري أن تزور سوقاً في المنطقةِ بشكلٍ مستمرٍ وعلى مدارِ الأسابيعِ القليلةِ القادمةِ وأن تخبر جميع من تراهم ويبدو عليهم أنهم مسافرون بأنهم يستطيعونَ العملَ مقابلَ أجرٍ جيدٍ في أوثنباي، وإن صادفت عمالاً يبحثون عن عملٍ بأجرٍ أريدكَ أن تحضرهم إلى هنا».

ابتسمَ هاري وأومأ برأسهِ موافقاً وبدا ويل مأخوذاً بعضَ الشيء.

«أريدُ رؤيةَ جميعِ هذهِ الأراضي الجيدةِ مزروعةً بالمحاصيل هذا الصيف»، قالت كاريس. «هل هذا واضح؟»

«أجل»، قالَ ويل. «شكراً لكِ أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ».

***

عاينت كاريس جميعَ صكوكِ ديرِ الراهباتِ مع الأختِ جوان وسجلت ملاحظات بتاريخِ وموضوعِ كل واحدٍ منها وقررت أن تنسخها جميعاً، وعلى

الرغم من أنَّ صاحبَ الفكرةِ هو غودوين الذي عرضها كحجةٍ لأخذِ الوثائقِ من الراهباتِ فإن فكرةَ نسخِ الصكوكِ ما تزالُ منطقيةً فكلما زادَ عددُ النُسخِ تراجعت فرصُ إضاعةِ هذهِ الوثائق القيّمةِ.

أبدت كاريس اهتماماً خاصّاً بصكٍّ يعودُ تاريخهِ إلى العام 1327 ويمنحُ الرهبانَ بموجبهِ مزرعةً كبيرةً قربَ قريةِ لاين في نورفلوك وتدعى لاين غرينج. كانت الهديةُ مشروطةً بقبولِ الديرِ لفارسٍ وهو السير توماس لانغلي.

عادت كاريس بذاكرتها إلى الوراءِ وإلى اليومِ الذي غامرت فيهِ بالدخولِ إلى الغابةِ مع ميرثن ورالف وغويندا ورأوا توماس يتلقى طعنةَ سيفٍ تسببت بفقدانِ ذراعهِ.

عرضت الوثيقةَ على جوان التي هزَّت كتفيها قائلةً: «عادةً ما تُقدّمُ مثل هذهِ الهدايا عندما يدخلُ شخصٌ ما من عائلةٍ ثريةٍ إلى الديرِ ويصبحُ راهباً».

«لكن انظري إلى المتبرعِ».

نظرت جوان مجدداً وقالت: «الملكةُ إيزابيلا!» كانت إيزابيلا أرملةَ الملكِ إدوارد الثاني ووالدةَ إدوارد الثالث. «ما هي مصلحتها هنا في كينغزبريدج؟»

«أو في توماس؟» قالت كاريس.

بعدَ مرورِ يومين حظيت كاريس بفرصةِ معرفةِ الحقيقةِ عندما أتى أندرو وكيلُ مزرعةِ لاين غرينج في زيارتهِ نصف السنوية إلى ديرِ كينغزبريدج. استلمَ أندرو إدارةَ المزرعةِ منذُ أن مُنحت إلى الديرِ وهو من سكانِ نورفلوك الأصليين. كانَ الرجلُ سميناً وفي بدايةِ عقدهِ السادس وقد غزا الشيبُ رأسهُ وهذا ما قادَ كاريس إلى الاعتقادِ بأنَّ أحوالَ المزرعةِ مزدهرةٌ رغمَ الوباءِ. ولأنَّ المزرعةَ تبعدُ مسافةَ أيامٍ عن كينغزبريدج كان الديرُ يحصلُ على مستحقاتهِ نقداً بدلاً من الماشيةِ أو المنتجاتِ ويدفعُ أندرو الإيجار بقطعِ النوبل الذهبيةِ الجديدةِ التي تبلغُ قيمةُ القطعة ثُلثَ الجنيه وتصورُ الملكَ إدوارد واقفاً على سطحِ سفينةٍ. عندما انتهت كاريس من إحصاءِ المبلغِ سلَّمتهُ لجوان كي تضعهُ في الخزنةِ الجديدةِ ثمَّ قالت لأندرو: «هل تعرفُ سببَ تقديمِ الملكةِ إليزابيث المزرعةَ إلى الديرِ منذُ اثنين وعشرين عاماً؟»

تفأجات كاريس عندما رأت وجهَ أندرو المورد يشحبُ ورأت أنّه حاولَ الإجابةَ عدةَ مراتٍ إلّا أنّه كانَ يتراجع في كلِّ مرّةٍ وأخيراً قالَ: «ومن أنا لأشكك بقراراتِ جلالتها».

«لا أقصد هذا حتماً»، قالت كاريس في محاولةٍ لتطمأنة أندرو. «ولقد انتابني فضولٌ حيالَ دافعها لفعلِ هذا».

«إنَّها امرأةٌ ورعةٌ وهي تقومُ بالكثيرِ من الأعمالِ الخيريةِ».

«كأن تقتلَ زوجها»، فكرت كاريس في نفسها إلَّا أنَّها قالت: «على أيِّ حالٍ لا بدَّ أن يكونَ هناكَ سببٌ لاختيارها توماس».

«لقد تقدَّمَ بطلبٍ إلى الملكةِ تماماً كما يفعلُ المئات وبدورها تكرمت جلالتها عليهِ ومنحتهُ ما رغبَ بهِ كما تفعلُ السيدات العظيماتُ أحياناً».

«عادةً ما تكونُ تلكَ السيدات على صلةٍ بصاحبِ الطلبِ».

«لا، لا، فأنا واثقٌ من أنَّه لم يكن هناكَ أيّ صلةٍ».

أدركت كاريس من توترهِ الشديدِ أنَّه يكذبُ وأنَّه لن يخبرها بالحقيقةِ ولذلكَ أنهت الحديثَ في الموضوعِ وأرسلت أندرو لتناولِ العشاءِ في مستشفى الديرِ.

في صباحِ اليومِ التالي أتى الأخ توماس -الراهبُ الوحيدُ في الديرِ- للحديثِ معها وكانَ يبدو غاضباً. «لمَ استجوبتِ أندرو لاين؟» سألها.

«لأنَّ فضولاً انتابني»، قالت وقد بوغتت بكلامهِ.

«ما الذي تحاولين فعلهُ؟»

«لا أحاولُ فعلَ شيءٍ» قالت وشعرت بالمهانةِ من أسلوبهِ العنيفِ في الكلامِ إلَّا أنَّها لم تكن راغبةً في الجدالِ معهُ ولذلكَ وكي تخفف من حدَّةِ التوترِ جلست على جدارٍ واطيءٍ يحيطُ بالممرِ المُقنطرِ بينما الشمسُ الربيعيةُ تشعُّ بقوةٍ في الفناءِ. وانبرت كاريس تتحدثُ بلهجةٍ وديةٍ: «ما الخطبُ؟»

قالَ توماس بحدةٍ: «هل تقومين باستجوابي؟»

«أنا لا أستجوبكَ فلتهدأ»، قالت كاريس. «كنتُ أعاينُ الصكوكَ وأصنفها وأنسخُها عندما رأيت صكاً أثارَ حيرتي».

«أنتِ تبحثين في أمورٍ لا تخصّكِ».

ورغمَ شعورها بأنَّه يلجمها، فإنَّها قالت: «أنا رئيسةُ ديرِ راهباتِ كينغزبريدج والرئيسُ العملي لديرِ الرهبانِ. ولا شيءَ هنا سيكونُ سراً عني».

«حسناً إن بدأت بنبشِ كلّ تلكَ الأمورِ القديمةِ فأنا أعدكُ بأنكِ ستندمين».

بدا الأمرُ كتهديدٍ إلا أنَّها قررت ألا تستفزهُ ولذلك حاولت أن تستخدمَ

تكتيكاً آخر. «توماس لطالما اعتقدتُ أننا أصدقاء. أنتَ لا تملكُ الحقَ في منعي من القيامِ بأيِّ شيءٍ وقد خابَ ظني لمحاولتكَ الوقوفَ في وجهي. ألا تثقُ بي؟»

«أنتِ لا تعرفين ما الذي تطلبين».

«فلتنورني إذاً. ما دخلُ الملكةِ إيزابيلا بكَ وبي وبكينغزبريدج؟»

«لا شيء. إنَّها امرأةٌ عجوزٌ ولم تعد في منصبها».

«إنَّها في الثالثةِ والخمسين وقد خلعت ملكاً ويمكنها على الأرجح أن تخلعَ آخر إن أرادَت. لديها صلاتٌ خفيةٌ مع الديرِ الذي أديرهُ وأنتَ مصرٌ على عدمِ اطلاعي على هذهِ الصلات».

«أفعلُ هذا من أجلِ مصلحتك».

تجاهلت ما قالهُ وقالت: «منذُ اثنين وعشرين عاماً كانَ هناكَ شخصٌ يحاولُ قتلكَ. هل كانَ الشخصُ الذي فشلَ في قتلكَ هو نفسهُ من دفعَ لكَ لتدخلَ الدير؟»

«سيعودُ أندرو إلى لاين وسيُخبرُ إيزابيلا بأنَّكِ قُمتِ باستجوابهِ، هل تدركينَ هذا؟»

«ولمَ قد تهتم؟ لمَ يخافُ الناسُ منكَ يا توماس؟»

«ستحصلينَ على الأجوبةِ عندما أموتُ لأنَّ ما من شيءٍ سيهمني عندها»، قالَ توماس ثمَّ استدارَ وابتعدَ.

قُرِعَ الجرسُ إيذاناً بموعدِ الغداءِ فتوجهت كاريس الغارقةُ في أفكارها إلى قصرِ رئيسِ الديرِ. كانَ هِرٌّ غودوين المدعو «رئيسُ الأساقفةِ» على درجِ المدخلِ ويحدقُ إلى كاريس إلا أنَّها نهرتهُ بعيداً فلن تسمحَ لهُ بدخولِ القصرِ.

اعتادت على تناولِ الغداءِ مع ميرثن كلَّ يوم فقد كانت الأعراف تقضي أن يتناولَ رئيسُ الديرِ ورئيسُ نقابةِ الأبرشيةِ الغداءَ معاً ومع أنَّ القيام بهذا كلَّ يومِ أمرٌ غير معتاد فإنَّها كانت أوقات غريبة وهذهِ هي الحجةُ التي ستسوقها إن استفسرَ أحدٌ عن الأمرِ ولكن ما من أحدٍ فعلَ هذا. في هذهِ الأثناء كانا يبحثانِ عن أيِّ عذرٍ للقيامِ برحلةٍ معاً حتَّى ينفردا بنفسيهما مجدداً.

أتى ميرثن وثيابهُ موحلةً لأنَّه كانَ يعملُ في موقعِ البناءِ على جزيرةِ ليبر وقد توقفَ الآن عن الطلبِ منها تركَ نذورها ومغادرةَ الديرِ. بدا قانعاً بالحياةِ التي كانا يعيشانها حالياً على الأقل فقد كانَ يراها كلَّ يومٍ ويعيشُ على أملِ فرصٍ مستقبليةٍ بلحظاتٍ حميمةٍ تجمعهما.

قدَّمَ لهما أحدُ خدمِ الديرِ يخنةَ لحمِ الخنزيرِ مع خضراواتٍ شتويةٍ. عندما غادرَ الخادمُ أخبرت كاريس ميرثن بأمرِ الصكِّ وردِ فعلِ توماس. «إنّه يعرفُ سِراً من شأنِهِ تدميرُ الملكةِ العجوزِ إن عرفهُ الناس»، قالت كاريس.

«أعتقدُ أنّكِ على حقٍ»، قالَ ميرثن مفكراً.

«في عيدِ جميعِ القديسين من عامِ 1327 بعدَ أن هربت أمسكَ توماس بكَ، أليسَ صحيحاً؟»

«أجل لقد أجبرني على مساعدتِهِ في دفنِ رسالةٍ وجعلني أقسمُ على إبقاءِ الأمرِ سِرّاً إلى أن يموت وعندها يجبُ عليَّ أن أُخرجَ الرسالةَ من مخبئها وأسلمها إلى كاهنٍ».

«أخبرني أنني سأحصلُ على أجوبةِ جميعِ أسئلتي عندما يتوفى».

«أعتقدُ أنَّ الرسالةَ تشكلُ تهديداً على جميعِ أعدائِهِ ولا بدَّ أنّهم يعلمون بأنَّ محتواها سيُكشفُ عندَ موته ولهذا يخشونَ قتلهُ. في الحقيقةِ حرصوا على بقائِهِ حياً وبصحةٍ جيدةٍ من خلالِ مساعدتِهِ على أن يصبحَ راهباً في ديرِ كينغزبريدج».

«أما زالَ الأمرُ مهماً؟»

«بعدَ عشرِ سنين على دفنِ الرسالةِ أخبرتهُ أنني لم أفشِ السّرّ فقالَ لي: ‹لو فعلتَ لكنتَ مُتَّ›. وقد أرعبني كلامهُ هذا أكثر مما أرعبني الوعد الذي قطعتهُ عليهِ».

«أخبرتني الأمُّ سيسيليا أنَّ الملكَ إدوارد الثاني لم يمت بشكلٍ طبيعي».

«كيفَ لها أن تعرفَ أمراً كهذا؟»

«أخبرها خالي أنتوني بهذا على فراشِ الموتِ ولهذا افترضتُ بأنَّ السّرَّ هو أنَّ الملكةَ إيزابيلا من قتلت الملك».

«على أيِّ حالٍ إنَّ نصفَ سكانِ هذا البلدِ يعتقدون هذا. ولكن إن كانَ هناكَ دليلٌ... هل أخبرتكِ سيسيليا عن الطريقةِ التي قُتلَ بها؟»

أمعنت كاريس في التفكيرِ ثمَّ قالت: «لا ولكني الآن وبعدَ التفكيرِ بالأمرِ أتذكرُ أنها قالت لي: ‹لقدَ ماتَ الملكُ العجوزِ جرَّاء سقطةٍ› وعندما سألتُ سيسيليا إن كانَ مات مقتولاً توفيت دونَ أن تجيبني على سؤالي».

«ولكن لمَ قد يخترعون قصةً مزيفةً حولَ موتِهِ ما لم يكن دافعهم التغطية على عملٍ مريبٍ؟»

«لا بدَّ أنَّ رسالةَ توماس إثباتٌ على هذا وعلى أنَّ الملكةَ وراءَهُ».

أنهيا عشاءهما غارقين في أفكارهما. كانت الساعةُ التاليةُ وفقاً لجدولِ أعمالِ الديرِ مخصصةً للراحةِ أو للقراءةِ وقد اعتادت كاريس وميرثن البقاءَ لوقتٍ أطول بعد الغداءِ إلَّا أنَّ ميرثن اليومَ كانَ قلقاً حيالَ السقفِ الخشبي الذي سيبنيهِ في الحانةِ الجديدةِ على جزيرة ليبر وتدعى «ذا بريدج». قبَّلا بعضهما بعضاً في شوقٍ وأجبرَ نفسَه على الابتعادِ عنها ليعود إلى موقعِ البناءِ. بعدَ خيبةِ الأملِ هذهِ فتحت كاريس كتاباً بعنوان «فن الطب» للطبيب اليوناني القديم جالينوس يعدُّ الكتاب أحد أعمدةِ التدريسِ الطبي الجامعي. كانت كاريس تقرأهُ لتطلع على ما يتعلمهُ الكهنةُ في أوكسفورد وباريس رغمَ أنَّها حتَّى الآن لم تجد فيهِ سوى القليلِ من المعلوماتِ المفيدةِ.

أتت الخادمةُ ونظَّفت الطاولةَ ثمَّ قالت لها كاريس: «أخبري الأخ توماس أنني أطلبهُ من فضلكِ». بعدَ تلكَ المحادثةِ الحادةِ التي جرت بينهما أرادت أن تحرصَ على بقائهما صديقين.

قبلَ أن يصلَ توماس سمعت كاريس صوتاً قادماً من الخارجِ وكان عبارةً عن ضجةِ حوافرِ جيادٍ كثيرة وذلكَ الصياحِ المرافقِ لوصولِ نبيلٍ يرغبُ بجذبِ الانتباهِ. وبعدَ برهةٍ فُتحَ البابُ على مصراعيهِ ودخلَ لورد قريةِ تِنش السير رالف فيتزجيرالد.

بدا رالف غاضباً، ولكن كاريس تظاهرت أنَّها لم تلحظ هذا وقالت بلهجةٍ وديةٍ قدرَ الإمكانِ: «مرحباً يا رالف إنَّه لشرفٌ غيرُ متوقعٍ. أهلاً بكَ في كينغزبريدج».

«دعكِ من هذا»، قالَ بوقاحةٍ وتوجهَ إلى حيثُ جلست ثمَّ وقفَ بعدائيةٍ قربها. «هل تدركين أنَّكِ تدمرين الزراعةَ في المقاطعةِ بأكملها؟»

لحقَ رجلٌ برالف ووقفَ بقربِ الباب. كان شخصاً ضخماً برأسٍ صغيرٍ وميزت كاريس مرافقه الدائم آلان فيرنهيل. رأت كاريس أنهما مسلحان بالسيوفِ والخناجرِ وأدركت جيداً أنَّها وحدها في القصرِ ولهذا حاولت نزع فتيلِ المشهدِ. «هل تريدُ بعضاً من لحمِ الخنزير يا رالف؟ لقد انتهيت للتو من تناولِ الغداءِ».

إلا أنَّ هذا لم يُفلح في تهدئةِ رالف الذي قال: «أنتِ تسرقين الفلاحين».

«الفلاحون أم الملاحون؟»

وغرقَ آلان فيرنهيل في الضحكِ.

احمرَّ وجهُ رالف من الغيظِ وبدا خطراً جداً وتمنت كاريس لو أنَّها لم تتفوه بتلكَ الدعابةِ. «إن حاولتِ السخريةَ مني فستندمين»، قالَ لها رالف.

سكبت كاريس جعةً في كأسٍ وقالت: «أنا لا أسخرُ منكَ فلتخبرني بما لديكَ»، وقدَّمت لهُ كأسَ الجعةِ.

كانت يدها ترتعشُ وتفضحُ خوفَها ولكن رالف تجاهلَ الكأسَ ورفعَ إصبعهُ نحوها قائلاً: «العمال يختفونَ في القرى التابعةِ لي وعندما استفسرتُ عن السببِ علمتُ بأنَّهم انتقلوا إلى قرى تعودُ إليكِ حيثُ الأجورُ أعلى».

أومأت كاريس برأسها وقالت: «إن كنتَ تبيعُ جواداً وهناكَ رجلان يريدان شراءَهُ ألن تبيعهُ إلى الرجلِ الذي يُقدمُ أعلى سعرٍ؟»

«هذا أمرٌ مختلفٌ».

«أعتقدُ أنَّه الأمرُ نفسهُ فلتتناول بعضَ الجعةِ».

وبحركةٍ جانبيةٍ مفاجئةٍ أوقعَ رالف الكأس من يدها فسقطَ وانسكبَ على الأرضيةِ المفروشةِ بالقشِ. «إنَّهم عُمالي»، قال لها.

أصيبت برضٍ في يدِها إلَّا أنَّها تجاهلت الألمَ وانحنت لتلتقطَ الكأس ثمَّ وضعتها على طاولةٍ جانبيةٍ. «ليسَ تماماً»، قالت كاريس. «إن كانوا عُمالاً فهذا يعني أنَّكَ لم تمنحهم أيَّ أرضٍ وأنهم يملكونَ الحقَّ في الذهابِ والعملِ أينما شاؤوا».

«اللعنةُ ما أزال سيدهُم. ولكنّ هناكَ أمراً آخر فمنذُ فترةٍ عرضت إيجاراً على رجلٍ حرٍ ورفضهُ بحجةِ أنَّه يستطيعُ الحصولَ على صفقةٍ أفضل من ديرِ كينغزبريدج».

«أنا أواجه الأمرَ عينهُ يا رالف وأحتاجُ إلى عددٍ كبيرٍ من العاملين ولذلك أقدمُ لهم ما يريدون».

«أنتِ امرأةٌ ولا تفكرين بعواقب الأمرِ ولا تفهمين بأنَّ الأمرَ سينتهي إلى دفعَ مالٍ أكثر للفلاحين».

«ليس بالضرورةِ فقد تجذبُ الأجورُ العاليةُ بعضاً ممن لا يعملون الآن كقُطاعِ الطرقِ مثلاً أو عابري السبيل الذين يجولونَ في الأنحاءِ ويعيشونَ على ما يجدونه في القرى التي قضى عليها الطاعون، وقد يصبحُ بعضُ من يعملونَ الآن مستأجرين ويعملونَ بجهدٍ أكبر لأنَّهم يزرعون أراضيهم».

ضربَ رالف بقبضتِهِ على الطاولةِ وجفلت كاريس من الضجةِ المفاجئةِ. «أنتِ لا تملكين حقَّ تغييرِ الأعرافِ القديمةِ!»

«أعتقدُ أنني أملكُ هذا الحق».

أمسكَ بطرفِ ردائها وقالَ: «ولكني لن أقبلَ بهذا أبداً».

«أبعد يدكَ عني أيُّها الغبي الأخرق».

في تلكَ اللحظةِ دخلَ توماس. «أرسلتِ في طلبي. ما الذي يحدثُ هنا بحقِ الشيطان؟»

عبرَ توماس الغرفةَ برشاقةٍ فأفلتَ رالف ثوبَ كاريس كأنَّ الرداءَ اشتعلَ فجأةً. لم يكن توماس مسلحاً وعلاوةً على هذا لا يملكُ سوى يدٍ واحدةٍ إلَّا أنَّه تفوقَ على رالف قبلاً ولذلك كان خائفاً منهُ.

تراجعَ رالف إلى الوراء وأدركَ أنَّه فضحَ مخاوفهُ وبدا خجلاً. «لقد انتهى عملنا هنا!» قالَ بصوتٍ عالٍ وتوجهَ إلى الباب.

قالت كاريس: «ما أفعلهُ في أوثنباي وفي بقيةِ الأمكنةِ عملٌ شرعي جداً يا رالف».

«أنتِ تعبثينَ بالنظامِ الطبيعي للأمورِ!» قالَ لها.

«لا يوجدُ قانونٌ يمنعُني من القيام بهذا».

فتحَ آلان البابَ لسيدهِ.

«إنَّها مسألةُ وقتٍ»، قالَ رالف وخرجَ.

-67-

في آذار عام 1349 توجهَت غويندا وإلفريك ونيثان ريف إلى سوقٍ منتصفِ الأسبوعِ في قريةِ نورثوود الصغيرة.

عملَ إلفريك وغويندا الصالحِ السير رالف وهما حتَّى الآن لم يُصابا بالطاعونِ الذي قتلَ العديد من عمالِ رالف وتركه في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى اليد العاملةِ. عرضَ عليهما نيثان الذي كانَ وكيلَ قريةٍ ويغلي العملَ لقاء الأجر اليومي المعتادِ في الوقتِ الذي اكتفى بيركن بتقديم الطعامِ لهما كأجرٍ.

وحالما أعلنا عن عزمهما العملَ لدى رالف اكتشفَ بيركن أنَّه يستطيعُ دفعَ الأجرِ المعتادِ إلَّا أنَّ اكتشافهُ جاءَ متأخراً.

في ذلكَ اليومِ أخذوا معهم عربةً مُحمَّلةً بالأخشابِ من غابةِ رالف لبيعها في بلدةِ نورثوود حيثُ يُقامُ سوقٌ لبيعِ الأخشابِ منذُ زمنٍ بعيدٍ. رافقهم الصبيان

سام وديفيد فلم يكن هناكَ من يعتني بهما في غياب والديهما ولم تكن غويندا تثقُ بوالدها ووالدتها توفيت منذُ عامين ووالدا ولفريك توفيا منذُ زمنٍ طويلٍ.

وجدوا العديدَ من سكانِ ويغلي في السوقِ فقد رأوا الأبَ غاسبارد يبتاعُ البذارَ من أجلِ حديقةِ الخضارِ خاصتِهِ وكانَ والدُ غويندا جوبي يبيعُ أرانبَ اصطادها حديثاً.

كانَ الوكيلُ نيثان رجلاً قصيراً بظهرٍ مُنحنٍ ولم يكن قادراً على رفعِ قطعِ الخشبِ لذلك قام ولفريك بالعملِ. عندَ منتصفِ الظهرِ أعطاهما بنساً لشراءِ الغداءِ من إحدى حاناتِ الساحةِ وتدعى حانةَ أولد أوك. اشتريا لحماً مقدداً مسلوقاً مع الكُراثِ وتشاركاهُ مع الصبيين. كان ديفيد في الثامنةِ الآن وما يزال يحتفظُ بشهيةِ الأطفالِ إلّا أنَّ سام الذي يبلغُ العاشرة ولا يتوقفُ عن النمو كان نهماً.

وخلال تناولهم الطعامَ جذبت محادثةٌ انتباهَ غويندا.

رأت مجموعةً من الشبابِ الواقفين في إحدى زوايا المكان يشربون الجعةَ في أكوابٍ كبيرةٍ. كانوا جميعاً في ثيابٍ رثّةٍ باستثناءِ شابٍ بلحيةٍ شقراء كثةٍ وثيابٍ أفضل شبيهة بثيابِ فلاحين مقتدرين أو حرفيين قرويين. كانَ الشابُ في سروالٍ جلدي وحذاءٍ جيدين ويعتمرُ قبعةً جديدةً، والجملة التي قالها ولفتت غويندا هي: «ندفعُ للعمالِ بنسين يومياً في أوثنباي».

أصاخت غويندا السمعَ في محاولةٍ لمعرفةِ المزيدِ إلّا أنّها لم تسمع سوى كلماتٍ متقطعةٍ. كانت قد سمعت عن أصحابِ أراضٍ يعرضونَ ضعفَ الأجرِ المعتادِ لأنَّ الطاعونَ تسببَ بنقصٍ في اليد العاملةِ إلا أنّها كانت مترددةً في تصديقِ مثلِ هذهِ القصصِ التي بدت أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقةِ.

لم تقل شيئاً لولفريك الذي لم يسمع تلكَ الكلمات العجيبة إلّا أنّها شعرت بقلبها يخفقُ بسرعةٍ من شدةِ الحماسِ. لقد ذاقت هي وعائلتها الفقرَ لسنواتٍ عديدةٍ وأخذت تتساءلُ في نفسها إن كانت الحياةُ ستبتسمُ لهم.

كانَ عليها أن تستقصي عن الأمرِ أكثر.

بعد انتهائهم من تناولِ الطعام جلست غويندا وولفريك على مقعدٍ في الخارجِ يراقبان الولدينِ وبضعةَ أطفالٍ يركضون حولَ جذعٍ ضخمٍ لشجرةِ بلوطٍ كبيرةٍ سمُيت الحانةُ تيمناً بها. «ولفريك»، قالت غويندا بهدوءٍ. «ما رأيكَ بالحصول على أجرٍ يومي قدرهُ بنسان لكلٍّ واحدٍ منا؟»

«وكيفَ هذا؟»

«بالذهابِ إلى أوثنباي»، قالت له وأخبرتهُ بما سمعتهُ ثمَّ أنهت كلامها قالت: «قد تكونُ بدايةَ حياةٍ جديدةٍ لنا».

«وكيفَ سأستعيدُ أرضَ والدي إذاً؟»

كانَ بوسعِ غويندا أن تضربهِ بعصا لو استطاعت وتساءلت في نفسها كيفَ له أن يعتقد بأنَّ هذا سيحدث وإلى أيِّ درجةٍ كان غبياً.

حاولت أن تتحدثَ بألطفِ نبرةٍ ممكنةٍ قائلةً: «لقد مرَّ على خسارتِك للإرثِ اثنا عشرَ عاماً وفي هذهِ الأثناءِ غدا رالف أكثرَ قوةً من ذي قبلٍ ولم يقم حتَّى الآن بأيِّ بادرةٍ تشي بأنَّه سيتصرفُ بلطفٍ معكَ وبالنظرِ إلى هذا كله ما هي فُرصتكَ باستعادةِ أرضِ والدكَ؟»

لم يُجب على هذا السؤال بل طرحَ سؤالاً آخر: «أين سنعيش؟»

«لا بدَّ أنَّ هناكَ منازلَ في أوثنباي».

«ولكن هل سيدعنا رالف نغادر؟»

«لا يمكنهُ أن يوقفنا فنحنُ عمالٌ ولسنا أقناناً وأنتَ تعلمُ هذا».

«ولكن هل يعلمُ رالف بهذا؟»

«فلنعطهِ فرصةَ الاعتراضِ إذاً».

«كيفَ سننجحُ في تحقيقِ هذا؟»

«حسناً...» قالت غويندا فلم تكن قد فكرت بالتفاصيل بعد إلا أنَّها وفي هذهِ اللحظةِ قررت أنَّه من الأفضل القيامُ بهذا على الفورِ ولذلكَ أضافت: «يجبُ أن نغادر اليومَ ومن هنا».

كانت فكرةً مخيفةً فقد عاشا حياتهما في ويغلي ولم يخرج ولفريك من منزلِ والديهِ طوالَ حياتِهِ وهاهما الآن يفكران بالعيشِ في قريةٍ لا يعرفانها ومن دونِ وداعِ قريتهما.

ولكن ولفريك كانَ قلقاً حيالَ أمرٍ آخر وأشارَ إلى الوكيلِ الأحدبِ الذي يعبرُ الساحةَ باتجاهِ متجرٍ للشمعِ. «وما الذي سيقولهُ نيثان؟» سألها.

«لن نخبرهُ بما نخططُ له وسنخترعُ قصَّةً تبررُ مبيتنا هنا الليلةَ وسنقول له إننا سنعودُ غداً إلى القريةِ. بهذهِ الطريقةِ لن يعرفَ أحدٌ بمكاننا ولن نعودَ إلى ويغلي أبداً».

«لن تعودَ أبداً»، اندفعَ ولفريك قائلاً.

تمالكت غويندا نفسها كي لا ينفد صبرها من ولفريك. كانت تعرفُ زوجها جيداً فحالما يضع ولفريك قدمهُ على الطريقِ لا يعود بالإمكانِ إيقافهُ ولكنه يأخذُ وقتاً طويلاً ليقرر ولذلك سيستوعبُ لاحقاً ما اقترحتهُ غويندا. لم يكن شخصاً غبياً بل يتوخى الحذر والتروي وهو يكرهُ اتخاذَ قراراتٍ سريعةٍ ولكن غويندا تعتقدُ أنَّها الطريقةُ الوحيدةُ.

خرجَ الشابُ ذو اللحيةِ الشقراءِ الكثَّةِ من حانةِ أولد أوك. نظرت غويندا من حولها فلم ترَ أحداً من سكانِ ويغلي ثمَّ وقفت وبادرت الرجلَ الكلامَ: «سمعتك تتحدثُ عن أجورِ عملٍ يوميةٍ تصلُ إلى البنسين، هل هذا صحيح؟»

«هذا صحيحٌ أيتها السيدةُ»، أجابها. «يبعدُ وادي أوثنباي عن هنا مسير نصفِ يومٍ باتجاهِ الجنوب الغربي من هنا ونحن بحاجةٍ إلى كلِّ مساعدةٍ ممكنةٍ».

«ومن تكون؟»

«أنا حارثٌ من أوثنباي وأدعى هاري».

وفكرت غويندا بأنَّ بلدةَ أوثنباي تبدو كبيرةً ومزدهرةً لأنها تملكُ حارثاً خاصًّاً بها فقد كانَ معظمُ العاملين في الحراثةِ يتنقلون بينَ عدةِ قرى. «ومن سيدُ المنطقةِ؟»

«رئيسةُ دير راهباتِ كينغزبريدج».

«كاريس!» قالت غويندا في عجبٍ فقد كان هذا خبراً جميلاً لأنَّ كاريس جديرةٌ بالثقةِ وارتفعت معنويات غويندا بعدَ أن سمعت بهذا.

«أجل، إنَّها رئيسةُ الديرِ الحاليةِ»، قالَ هاري. «وهي امرأةٌ حازمةٌ».

«أعلمُ».

«تريدُ زرعَ حقولها حتَّى تتمكنَ من إطعامِ الراهباتِ وهي لا تقبلُ بأيِّ أعذارٍ».

«هل تملكون منازلَ في أوثنباي يمكن للعمالِ العيش فيها؟ مع عائلاتهم؟»

«الكثير منها لسوءِ الحظِ فقد خسرنا الكثيرَ من الناسِ بسببِ الطاعونِ».

«أنتَ تقولُ إنَّها في الجنوب الغربي من هنا».

«اسلكي الطريق الجنوبي إلى بادفورد ثمَّ سيري على طولِ المجرى العالي لنهرِ أوثن».

واستعادت غويندا حذرها فقالت على الفورِ: «أنا لستُ ذاهبةً».

«آه بالطبعِ»، قال هاري ولكنه لم يصدقها.

«أنا أسألُ من أجلِ صديقٍ»، قالت واستدارت مبتعدةً.

«حسناً فلتخبري صديقكَ أن يسرع فلدينا حراثة الربيعِ والبذار ولم ننتهِ منهما بعد».

«حسناً».

شعرت بقليلٍ من الدوارِ كما لو أنها تناولت جرعةً من نبيذٍ قوي. العملُ لقاءَ أجرٍ مقدارهُ بنسان وتحتَ إمرةِ كاريس وبعيداً بأميالٍ عن رالف وبيركن وآنيت المغناج! كان الأمرُ أقربَ إلى الحلمِ.

جلست بجانبِ ولفريك وسألتهُ: «هل سمعتَ بكلِّ ذلكَ الكلام؟»

«أجل»، قالَ لها ثمَّ أشارَ إلى شخصٍ يقفُ قرب بابِ الحانةِ. «وهو أيضاً سمعَ».

نظرت غويندا إلى الرجلِ. كانَ والدها.

***

«فلتُثبت السيرين إلى الجوادِ»، قال نيثان لولفريك عندَ منتصفِ بعد الظهرِ. «لقد حانَ وقتُ العودةِ».

قالَ ولفريك: «نحتاجُ إلى أجرِ هذا الأسبوعِ».

«ستحصلُ على مالكَ يومَ السبتِ كالمعتادِ»، قالَ نيثان بازدراءٍ. «أوقف تلكَ الفرس».

لم يتحرك ولفريك باتجاهِ الفرسِ وأصر: «سأزعجكَ بالدفعِ لي اليوم. أعلمُ أنَّكَ تملكُ المالَ فقد بعنا كلَّ الخشبِ».

استدارَ نيثان ونظرَ إلى ولفريك بشكلٍ مباشرٍ. «لمَ تريد أخذَ المالِ الآن؟» سألهُ مغتاظاً.

«لأنني لن أعودَ معكَ إلى ويغلي الليلةَ».

أُخذَ نيثان بكلامهِ. «لماذا؟»

وتولت غويندا مهمةَ الشرحِ عن ولفريك قائلةً: «سنذهبُ إلى ميلكومب».

«ماذا؟» كانَ نيثان مغتاظاً بشدةٍ. «أناسٌ مثلكما لا شأنَ لهما في السفرِ إلى ميلكومب».

«قابلنا صيَّاداً يحتاجُ إلى طاقم عمال بأجرٍ يومي قدرهُ بنسان». كانت غويندا قد فكرت بهذهِ القصةِ جيداً من أجلِ قطعِ أيِّ أثرٍ لمعرفةِ وجهتهما.

أضافَ ولفريك: «أوصل سلامنا إلى السير رالف وليكن الرَّبُّ معهُ في المستقبلِ».

أضافت غويندا: «ولكننا لا نتوقعُ أن نقابلهُ مجدداً».

قالت غويندا هذا لتسمعَ ذلكَ الصوت العذب الذي يأتي مع هذهِ الجملةِ.

قالَ نيثان في سخطٍ: «قد لا يوافقُ على رحيلكما!»

«لسنا أقنانا فنحنُ لا نملكُ أرضاً ولا يمكنُ لرالف أن يمنعنا».

«أنتَ ابن أحدِ الأقنانِ يا ولفريك»، قالَ نيثان لولفريك.

«ولكن رالف حرمني من إرثي»، أجابهُ ولفريك. «لا يمكنهُ الآن أن يطالبني بالولاءِ لهُ».

«من الخطير أن يصرَّ رجلٌ فقيرٌ على المطالبةِ بحقوقهِ».

«هذا صحيحٌ»، أقرَّ ولفريك. «ولكني سأصرُّ على أيِّ حالٍ».

شعرَ نيثان بأنَّه هُزمَ. «ستواجهان الكثيرَ من المتاعبِ بسببِ هذا»، قالَ لهما.

«هل تريدني أن أربطَ الحصانَ إلى العربةِ؟»

اكفهرَّ وجه نيثان لأنَّه لم يكن قادراً على فعلِ هذا بنفسهِ بسببِ ظهرهِ المحدودبِ فقد كان يجدُ صعوبة في القيامِ بمهام جسديةٍ معقّدةٍ وعلاوةً على هذا كان الحصانُ أطولَ منهُ.

«أجل، بالطبع»، قال لولفريك.

«سيسعدني القيامُ بهذا ولكن هلَّا دفعت لي أولاً؟»

أخذُ نيثان والغيظُ الشديدُ بادٍ على وجههِ محفظتهُ وعدَّ ستةَ بنساتٍ فضيةٍ.

أخذت غويندا المالَ وربطَ ولفريك الحصانَ إلى العربةِ.

قادَ نيثان العربةَ من دونِ أن يتفوه بكلمة أخرى.

«حسناً!» قالت غويندا. «لقد قُضي الأمرُ» ونظرت إلى ولفريك فرأت أنَّه كانَ يبتسمُ ابتسامةً عريضةً. «ما الأمر؟» سألتهُ.

«لا أعلمُ»، قالَ لها. «أشعرُ كأنني كنت تحت وطأة نيرٍ لسنواتٍ طويلةٍ وانقطعَ فجأةً».

«هذا جيد»، قالت غويندا فقد كان هذا الشعور الذي أرادت ولفريك أن يشعر بهِ وتابعت: «والآن لنجدَ مكاناً نبيتُ فيهِ الليلةَ».

تقعُ حانةُ أولد أوك في وسطِ ساحةِ السوقِ ولذلك كان أجرُ المبيت فيها

غالياً. تجولا في البلدةِ الصغيرةِ يبحثان عن مكانٍ أرخص وأخيراً دخلا إلى حانةِ غيت هاوس وفاوضت غويندا صاحبها على استقبالِ أربعةِ أشخاص وتقديم عشاء ومكان للمبيت على الأرضِ وفطور لقاءَ بنسٍ واحدٍ. كانَ الصبيان بحاجةٍ إلى النومِ بشكلٍ جيد وإلى الفطورِ كي يسيرا طوالَ الصباحِ.

لم تستطع النومَ من شدةِ حماسها إلّا أنها كانت قلقةً حيالَ هذا الخيار الذي أخذتهُ ووضعت عائلتها فيهِ فلم يكن هناكَ ضمانةٌ حيال ما سيجدونهُ في أوثنباي سوى كلمةِ رجلٍ غريبٍ وفكرت الآن بأنّه كانَ عليها إيجادُ ضمانةٍ قبلَ إلزام نفسها بالأمرِ.

ولكنها عاشت هي وولفريك السنوات العشر الماضيةَ كأنّهما عالقان في حفرةٍ وكانَ الحارثُ هاري من أوثنباي أول شخصٍ يعرضُ عليهما طريقاً للنجاةِ.

كانَ الفطورُ بسيطاً جداً ومكوناً من عصيدةٍ مخففةٍ وعصيرِ تفاح مخففٍ أيضاً. اشترت غويندا رغيفاً كبيراً من الخبزِ الطازجِ من أجلِ الطريقِ وملأ ولفريك عبوتهُ الجلديةَ بماءٍ باردٍ من البئرِ. عبروا بواباتِ المدينةِ بعدَ ساعةٍ على شروقِ الشمسِ في رحلةٍ على الطريقِ باتجاهِ الجنوبِ.

خلالَ سيرهم فكرت غويندا بوالدها فحالما يعلم بأنّها لم تعد إلى ويغلي سيتذكرُ المحادثةَ التي سمعها وسيتكهنُ بأنّها ذهبت إلى أوثنباي، ولن تخدعهُ قصةُ ميلكومب فقد كانَ مخادعاً ناجحاً وخبيراً جداً ولا يمكن خداعهُ بمثلِ هذهِ الخدعةِ البسيطةِ ولكن هل سيُفكرُ أحدٌ بسؤالهِ عن المكانِ الذي ذهبت إليهِ ابنتهُ؟ يعرفُ الجميعُ أنّها لا تتحدثُ مع والدها أبداً وإن سألوه فهل سيفشي بما سمعهُ؟ أو ربما شيءٌ من العاطفةِ الأبويةِ سيدفعهُ إلى حمايتها؟

لم يكن هناكَ ما يسعها القيامُ بهِ حيالَ الأمرِ ولهذا قررت عدمَ التفكير بهِ.

كانَ الطقسُ مناسباً للسفرِ فالتربةُ طريّة من المطرِ ولذلك لم يكن هناكَ غبار والجو جافٌ ولكن ليس بارداً أو حاراً بل معتدلاً والشمسُ تغيبُ وتظهرُ من وراءِ الغيومِ. تعبَ الصبيان بسرعةٍ بخاصةٍ الولدُ الأصغر ديفيد ولكن ولفريك كانَ ماهراً في صرفِ انتباههِ عن التعبِ بالأغاني والترانيم واختبارهِ في أسماءِ الأشجارِ والنباتاتِ ولعبِ العديدِ من الألعابِ وقصِّ الحكايات.

كانت غويندا ما تزالُ غير قادرةٍ على تصديقِ ما فعلتهُ فالبارحة وفي مثلِ هذا الوقتِ كانت واثقةً من أنَّ حياتهما لن تتغيرَ وأنَّ العملَ الشاق والفقر والتطلعات المحبطةَ قدرُ عائلتها الأبدي، ولكن ها هم الآن في طريقهم إلى حياةٍ جديدةٍ.

وفكرت بالمنزلِ الذي عاشت فيه مع ولفريك لعشرِ سنواتٍ. لم تكن قد تركت الكثيرَ فيهِ فقط بضع أوانٍ للطبخِ وكومة جديدة من الحطبِ ونصف قطعةٍ من لحمِ الخنزير وأربع بطانياتٍ. لم يكن لديها ثيابٌ غيرُ الثيابِ التي تلبسها الآن وكذلكَ كان ولفريك والصبيّان، ولم تكن تملكُ الجواهر ولا الشرائطَ والقفازات ولا الأمشاط. قبل عشرِ سنواتٍ كانَ ولفريك يملكُ دجاجاً وخنازير في حظيرتهِ ولكنه ذبحها أو باعها خلالَ سنواتِ الفقرِ المدقعِ. يُمكنهما أن يستبدلا هذهِ الممتلكاتِ الشحيحةِ بعدَ أسبوعٍ من العملِ بأجورِ أوثنباي الواعدةِ.

أخذوا الطريقَ الجنوبي ووفق التعليماتِ التي أعطاها هاري لغويندا وصلوا إلى ممرٍ نهري موحل عبرَ نهرِ أوثن انعطفوا جنوباً على امتدادِ المجرى العالي للنهرِ وخلال تقدمهم كانَ مجرى النهر يضيق أكثر فأكثر إلى أن وصلوا إلى أرضٍ تقعُ بين سلسلتين من الهضابِ. «أرضٌ خصبةٌ هذا جيدٌ»، قال ولفريك. «ولكنها تحتاجُ إلى حراثةٍ عميقةٍ».

عندَ الظهرِ وصلوا إلى قريةٍ كبيرةٍ بكنيسةٍ حجريةٍ وتوجهوا إلى بابِ منزلٍ خشبي قريبٍ منها. قرعت غويندا البابَ وهي ترتعدُ خوفاً وتساءل في نفسها إن كانوا سيخبرونها بأنَّ ما قالهُ لها الحارثُ هاري لم يكن صحيحاً وأنَّه لا يوجدُ عملٌ هنا وأن مسير عائلتها لنصفِ يومٍ من دونِ فائدةٍ وكم ستكونُ العودةُ إلى ويغلي والتضرع إلى نيثان ليأخذهما مجدداً أمراً مهيناً.

أتت امرأةٌ بشعرٍ أشيب إلى البابِ وحدَّقت إلى غويندا بارتيابٍ كما يفعلُ سكانُ القرى في كل مكان عندما يرون الأغرابَ. «أجل؟» سألتها المرأةُ.

«طابَ يومكِ يا سيدتي»، قالت غويندا. «هل هذهِ قريةُ أوثنباي؟»

«أجل».

«نحنُ عمالٌ نبحثُ عن عملٍ وأخبرنا الحارثُ هاري بأن نأتي إلى هنا».

«هل فعل هذا الآن؟»

تساءلت غويندا إن كانَ هناكَ خطبٌ ما أم أنَّ المرأة مجردُ عجوزٍ نكدةٍ في الأصلِ ولذلك طرحت السؤالَ بصوتٍ عال. تمالكت غويندا نفسها وقالت للمرأةِ: «هل يعيشُ هاري في هذا المنزلِ؟»

«بالطبعِ لا»، أجابت المرأة. «إنَّه مجردُ حارثٍ وهذا منزلُ الوكيل».

وتكهنت غويندا بوجودِ عداءٍ بين الوكيلِ والحارث ولذلك قالت: «ربما يمكننا مقابلةُ الوكيلِ إذاً».

«إنَّه ليسَ هنا».

وبكلِ أناةٍ سألتها غويندا: «هلَّا تلطفت وأخبرتنا أينَ يمكننا إيجاده؟»

أشارت المرأة إلى الوادي وقالت: «في الحقلِ الشمالي».

استدارت غويندا لتنظرَ إلى حيث أشارت المرأةُ ثمَ استدارت نحوها مجدداً ولكنها كانت قد اختفت في المنزلِ.

قال ولفريك: «لم تبدُ مسرورةً برؤيتنا».

«يكره العجائز التغيير»، علَّقت غويندا. «لنعثرْ على الوكيل».

«الصبيان متعبان!»

«يمكنهما أن يرتاحا عمَّا قريب».

وانطلقوا عبرَ الحقولِ.

كانت هناك حركةٌ نشطةٌ في الحقول فالأطفالُ يلتقطونَ الحجارةَ من الأراضي المحروثةِ حديثاً والنساءُ يبذرن والرجالُ يُسمدون التربةَ. رأت غويندا في البعيد ثمانيةَ ثيران ضخمة تجرُّ بأناةٍ المحراثَ عبرَ التربةِ السميكةِ الرطبةِ.

مروا بمجموعة من الرجالِ والنساءِ يحاولونَ تحريكَ أداةِ تمسيد التربةِ مربوطة إلى حصانٍ وعالقة في أحدِ الأخاديدِ. انضمَّت غويندا وولفريك إليهم وساعدوهم على دفعِ الأداةِ وقد ساهمت قوة ولفريك في تحقيقِ الفرقِ وتحريرِ الأداةِ.

استدارَ جميعُ سكانِ القريةِ ونظروا إلى ولفريك ثمَ تقدَّمَ رجلٌ طويلٌ بندبةِ حرقٍ قديمٍ على أحدِ خديهِ وقالَ لولفريك: «أنتَ رجلٌ قوي، من تكون؟»

«أنا ولفريك وهذهِ زوجتي غويندا ونحن عمالٌ نبحثُ عن عملٍ».

«أنتَ في المكان المناسب يا ولفريك»، قالَ الرجلُ. «أنا كارل شافتسبيري».

ومدَّ الرجلُ يدهُ لولفريك ثمَّ أضاف: «أهلا بكَ في أوثنباي».

***

وصلَ رالف بعدَ ثمانيةِ أيامٍ.

كانَ ولفريك وغويندا قد انتقلا إلى منزلٍ صغيرٍ حسنِ البناءِ بمدفئةٍ حجريةٍ وغرفةِ نومٍ في الطابقِ العلوي حيث يمكنهما النومُ منفصلين عن الصبيين. حظيا باستقبالٍ حذرٍ من سكانِ القريةِ الكبارِ والأكثر تحفظاً وبالتحديدِ من ويل وزوجتهِ ڤيي التي عاملتهم بفظاظةٍ في اليومِ الذي وصلوا فيهِ ولكن الحارث

هاري والشباب كانوا متحمسين وسعداء بوصول ولفريك وغويندا للمساعدةِ في العملِ في الحقولِ.

وكما كانَ الوعدُ فقد حصلا على بنسين يومياً. تطلعت غويندا قُدماً إلى نهايةِ أسبوعهما الأولِ فعندها سيحصلُ كلٌّ واحد منهما على اثني عشرَ بنساً أي شلناً كاملاً وهو ضعفُ المبلغِ الذي كانا يجنيانهِ واحتارا في ما سيفعلانهِ بكلِّ ذلكَ المالِ.

لم يعمل ولفريك وغويندا خارجَ ويغلي قبلاً وتفاجآ عندما اكتشفا أنَّ القرى ليست متشابهةً. كانت صاحبةُ السُلطةِ العليا هنا رئيسةُ ديرِ راهباتِ كينغزبريدج وقد شكّلَ هذا فرقاً كبيراً. ففي الوقت الذي كان فيه حكمُ رالف متحيزاً وتعسفياً والالتماسُ إليهِ ينضوي على مخاطرةٍ، بدا الناس هنا في أوثنباي كأنّهم يعلمون ما تريدهُ رئيسةُ الديرِ في معظمِ المواقفِ ويحلون الخلافاتِ بينهم من خلالِ التفكيرِ بما قد تحكمُ بهِ في مثلِ هذهِ المواقفِ.

كانَ هناكَ خلافٌ صغيرٌ من هذا النوعِ عندما وصلَ رالف.

في أحدِ الأيامِ كانوا عائدين من الحقولِ إلى منازلهم عندَ غروبِ الشمسِ حيثُ البالغون منهكون من العملِ والأطفالُ يركضونَ في المقدمةِ أمّا في المؤخرةِ فقادَ الحارثُ هاري قطيعَ الثيرانِ غير المربوطةِ. كانَ كارل شافتسبيري ذو الوجهِ المحترقِ والقادم الجديد كولفريك وغويندا قد اصطادَ ثلاثَ سمكات حنكليس فجرَ يومِ الجمعةِ من أجلِ عشاءِ عائلتهِ. كانَ السؤال الذي طُرِحَ هو امتلاكُ العمال الجدد للحقِّ نفسه الذي يملكهُ المستأجرون في الصيدِ من نهرِ أوثن، وقالَ لهم الحارث هاري إنَّ هذا الامتياز يشملُ جميعَ سكانِ أوثنباي أمّا فيي زوجةُ الوكيلِ فقالت إنَّ المستأجرين يدفعونَ مستحقاتٍ متعارفاً عليها إلى صاحبِ الأرضِ بينما العمالُ لا يدفعون ومن يملكونَ واجبات إضافية يجبُ أن يحظوا بمزايا إضافية.

طلبوا رأي الوكيلِ الذي قال مخالفاً رأي زوجتهِ: «أعتقدُ أن الأمَّ رئيسةَ الديرِ ستقول إنَّ الكنيسةَ لو أرادت أن يأكلَ الناس السمكَ فسيكونُ السمكُ لهم جميعاً». وأقرَّ الجميعُ بالموافقةِ على ما قالهُ.

عندما نظرت غويندا باتجاهِ القريةِ رأت رجلين على صهوةِ حصانين.

وهبَّت رياحٌ باردةٌ فجأةً.

كانَ الزائران على بُعدِ نصفِ ميلٍ وكانا قادمين عبرَ الحقولِ في طريقهما

إلى زاوية الطريقِ الذي سارَ عليهِ القرويون، وتكهنت غويندا من منظرِهما أنهما جنديان فقد كانا على جوادين ضخمين وثيابهما تبدو منتفخةً. عموماً، يرتدي الرجالُ الذين يمارسون العنفَ معاطف ببطانة سميكة. وكزت غويندا ولفريك بمرفقها.

«لقد رأيتهما»، قالَ لها بتجهم.

لم يكن لمثلِ هؤلاءِ الرجالِ أسبابٌ تدفعهم إلى القدومِ إلى قريةٍ كهذهِ فقد كانوا يحتقرونَ الناسَ الذينَ يزرعونَ المحاصيل ويهتمونَ بالماشيةِ، وعادةً ما تكون زياراتهم إلى مثلِ هذهِ القرى لسلبِ الفلاحين تلكَ الحاجيات التي لا يؤمنها لهم كبرياؤهم كالخبزِ واللحمِ والشرابِ. كانت نظرتهم إلى ما يحقُّ لهم أو إلى المبالغ التي يجب عليهم دفعها مقابل المنتجات تختلفُ عما يعتقد الفلاحون أنهم يستحقونه ولهذا تقعُ المتاعبُ دوماً.

خلالَ الدقائقِ القليلةِ اللاحقةِ رآهما جميعُ القرويين وسادَ الصمتُ بينهم. لاحظت غويندا أنَّ هاري استدارَ بالثيران قليلاً وتوجّه إلى طرفِ القريةِ ولم تفهم سببَ قيامهِ بهذا.

كانت واثقةً من أنَّ الرجلين يبحثان عن عمالٍ هاربين ووجدت نفسها تصلي لأن يكونا هنا من أجلِ كارل شافتسبيري أو أحد آخر من القادمين الجدد. على أي حالٍ اقتربَ القرويون من الرجلينِ وعندما ميزت غويندا رالف فيترجيرالد وآلان فيرنهيل شعرت بقلبها يغوصُ في صدرها.

كانت هذهِ اللحظة التي خشيت حدوثها رغمَ أنها أدركت أن رالف قد يكتشف مكانهما من والدها الذي عرفَ وجهتها ولن يمنعهُ شيءٌ من فضحها. قد لا يملكُ رالف أيَّ حقٍ في أخذهما إلَّا أنَّه كانَ فارساً ونبيلاً وعادةً ما يحصلُ هؤلاء على ما يريدونهُ.

لا يوجد الآن من سبيلٍ للهربِ فقد سارَ الفلاحون على طريقٍ بينَ حقولٍ واسعةٍ محروثةٍ وإن اندفعَ أحدهم هارباً عبرها فسيراه رالف وآلان على الفورِ وسيلحقان بهِ وعندها قد تخسرُ غويندا وعائلتها الحمايةَ التي يمكن أن تؤمنها لهم جموع القرويين. كانوا واقعين في فخٍ في العراء.

نادت غويندا على ولديها قائلةً: «سام! ديفيد! تعالا إلى هنا!»

لم يسمعاها أو ربما لم يكونا راغبين بذلك وانطلقا راكضين فلحقت بهما ولكن ولأنهما اعتقدا أنها تلعبُ معهما حاولا أن يسبقاها. كانا قد أصبحا في

القريةِ الآن ووجدت نفسها متعبةً جداً من الركضِ وراءهما فصرخت وهي على شفيرِ البكاء: «عُودا».

تولى ولفريك عنها المُهمةَ وركضَ متجاوزاً إياها. لحقَ بديفيد بكلِّ سهولةٍ وأمسكَ بالفتى من ذراعيهِ ولكنه لم ينجح في اللحاقِ بالصبي سام الذي ركضَ ضاحكاً بينَ المنازلِ المبعثرةِ هنا وهناك. وعندما ركضَ سام عائداً باتجاههم وكزَ رالف حصانهُ فاندفعَ بسرعةٍ. انحنى رالف من فوقِ الحصانِ ملتقطاً الصبي من قميصهِ وأطلقَ سام صيحةَ ذُعرٍ.

صرخت غويندا.

أجلسَ رالف الفتى أمامه على ظهرِ الحصانِ.

وقفَ ولفريك الذي كانَ يحملُ ديفيد أمامَ رالف.

قالَ رالف: «هذا ابنكَ على ما أعتقد».

كانت غويندا مرتاعةً وخائفةً على سلامةِ ابنها فقد لا ينزلُ رالف إلى مستوى الاعتداءِ على طفلٍ ولكنه يستطيعُ جعلَ الأمرَ يبدو كحادثٍ، ولكن هذا لم يكن الخطر الوحيد الذي فكرت بهِ غويندا.

قد يدفعُ وجود رالف وسام جنباً إلى جنب بولفريك إلى إدراكِ حقيقةِ أنَّ رالف والدُ سام.

كانَ سام ما يزالُ صبياً صغيراً بجسدهِ ووجههِ الطفولي ولكنه يملكُ شعرَ رالف الكثيف وعينيه الداكنتين وكتفيه العريضتين والمربوعتين.

نظرت غويندا إلى زوجها ولم ترَ على وجههِ ما يدل على رؤيتهِ للشبه ثمَّ تفحصت وجوهَ القرويين وبدوا أيضاً جاهلين بالشبهِ الصارخِ بينَ رالف وسام باستثناءِ فيي زوجة الوكيل التي رمقت غويندا بنظرةٍ صارمةٍ. ربما تكهنت هذهِ العجوزُ السليطةُ بالحقيقةِ إلا أنَّ ما من أحدٍ آخر تكهنَ بها بعد.

تقدَّمَ ويل وخاطبَ الزائرين: «طابَ يومكم أيُّها السادة. أنا ويل وكيلُ أوثنباي. هل يمكنكما...»

«فلتصمت أيُّها الوكيل»، قال رالف وأشارَ إلى إلفريك. «ما الذي يفعلهُ هذا هنا؟»

شعرت غويندا بالتوترِ في الأجواءِ يتراجع بعد أن أدركَ بقيةُ القرويين أنَّهم ليسوا هدفَ اللورد الغاضب.

أجابَ ويل: «إنَّه عاملٌ يا سيدي وهو يعملُ لمصلحة رئيسةِ ديرِ كينغزبريدج...»

«إنّه هارب ويجبُ أن يعودَ إلى قريتِهِ»، قال رالف.

وصمتَ ويل مرتعباً.

قال كارل شافتسبيري: «وباسم أيّ سلطةٍ تطالبُ بهذا؟»

حدَّقَ رالف إلى كارل كأنّه يريد حفظَ معالمِ وجههِ ثمَّ قال: «انتبه إلى كلامكَ أو سأشوه الجانب الآخر من وجهكَ».

قالَ ويل بتوترٍ: «لا نريدُ سفكَ أيِّ دماء».

«هذا قرارٌ حكيمٌ أيُّها الوكيل»، قالَ رالف. «ومن يكونُ هذا الفلاحُ الوقحُ؟»

«لا تهتم لأمري أيها الفارس»، قالَ كارل بوقاحةٍ ثمَّ تابع: «أنا أعلمُ من تكون. أنتَ رالف فيتزجيرالد وقد رأيتكُ تدانُ بتهمةِ الاغتصابِ ويحكمُ عليكَ بالإعدامِ في محكمةِ شايرنغ».

«ولكني لم أمت، أليسَ هذا صحيحاً؟» قال رالف.

«كانَ يجبُ أن تموتَ على أيِّ حالٍ. أنتَ لا تملكُ أيّ حقوقٍ إقطاعية على العمال وإن حاولتَ استخدام القوة سنلقنكَ درساً قاسياً».

شهقَ العديدُ من الحاضرين فقد كان التحدثُ إلى فارسٍ مسلحٍ بهذهِ الطريقةِ عملاً متهوراً.

قالَ ولفريك: «فلتصمت يا كارل لا أريدكَ أن تُقتلَ من أجلي».

«ولكني لا أفعلُ هذا من أجلك»، قالَ كارل. «إن سمحنا لهذا السفاح بأخذكَ رغماً عنكَ ففي الأسبوعِ القادمِ قد يأتي أحدٌ ليأخذني. يجبُ أن نكون يداً واحدةً فنحن لسنا بلا حولٍ ولا قوةٍ».

كانَ كارل رجلاً ضخماً وأطول من ولفريك ولكن كتفيه عريضتان مثلهُ وقد رأت غويندا أنّه عنى ما قاله فأصابها الهلعُ. إن بدأوا بالقتالِ فستقعُ أحداثُ عنفٍ رهيبةٍ وابنها سام يجلسُ على الحصانِ مع رالف. «سنذهبُ معكَ يا رالف»، قالت غويندا هلعةً. «سيكونُ من الأفضلِ أن نذهبَ معكَ».

قالَ كارل: «لا، لن يكونَ من الأفضلِ وأنا سأمنعهُ من أخذكم سواءَ أردتم أم لم تريدوا. أنا أفعلُ هذا من أجلِ مصلحتي».

وسرت همهمةٌ بالموافقةِ بين القرويين ونظرت غويندا حولها. كانَ معظمُ الرجالِ يحملونَ رفوشاً أو مجارفَ وبدوا جاهزين لاستخدامها رغمَ الخوفِ المرتسمِ على وجوههم.

أدارَ ولفريك ظهرهُ لرالف وتحدثَ بصوتٍ منخفضٍ وجدِّي: «فلتأخذ النساءُ الأطفالَ إلى الكنيسةِ على الفورِ!»

أمسكت النساءُ بالأطفالِ من أذرعهم وغادرن بينما بقيت غويندا في مكانها وكذلكَ فعلت عدَّةُ شاباتٍ أيضاً، وبشكلٍ غريزي اقتربَ القرويون بعضهم من بعض حتى باتَ الكتفُ إلى الكتفِ.

بدا رالف وآلان مربكين فلم يتوقعا أن يواجها حشداً يفوقُ الخمسين فلاحاً وجميعهم جاهزون للقتالِ ولكنهما كانا على ظهري حصانيهما ولذلكَ كانَ بوسعهما الهرب في أيِّ وقتٍ.

قال رالف: «حسناً ربما سآخذُ الفتى الصغير إلى ويغلي».

وشهقت غويندا من الرعبِ.

تابعَ رالف كلامهُ: «وإن أرادهُ والداه فيمكنهما أن يعودا إلى حيثُ ينتميان».

كانت غويندا مرتعبةً فقد كانَ سام مع رالف الذي قد ينطلقُ هارباً في أيِّ وقتٍ. قاومت صرخةً هيستيريةً كادت تفلتُ منها وقررت أنَّها عندما يستدير رالف بجوادِهِ سترمي بنفسها عليهِ وستحاولُ سحبَ السرج ولذلكَ تقدمت خطوةً إلى الأمامِ.

وعندها رأت الثيران خلفَ رالف وآلان يقودها الحارثُ هاري عبرَ القريةِ من الجهةِ الأخرى. احتلت الثيرانُ الثمانيةُ الضخمةُ المشهدَ بأكملهِ أمامَ الكنيسةِ ثمَّ توقفت. وقفَ هاري خلفها ووجدَ رالف وآلان نفسيهما محاصرين من ثلاثِ جهاتٍ: القرويون والثيران والكنيسة الحجرية.

وتكهنت غويندا أنَّ هاري قد خططَ لمنعِ رالف من أخذِها هي وولفريك معهُ وقام بهذا التكتيك الجيد لمواجهةِ هذا الموقف.

قالَ كارل: «ضع الطفلَ أرضاً أيها السير رالف ولتذهب في سلامٍ».

وفكرت غويندا بأنَّ المشكلةَ الآن هي الصعوبةُ التي سيجدها رالف في الانسحابِ بعد خسارةِ ماءِ وجههِ. لا بدَّ أنَّه سيفعلُ شيئاً ليتجنبَ الظهور بمظهرِ الغبي فقد كانَ هذا أسوأ كوابيس الفرسانِ المُعتدين بأنفسهم ومن لا يكفون عن الحديث عن شرفهم الذي لم يكن يعني شيئاً لأنهم مستعدون للتخلي عنه متى ناسبهم هذا فما كانوا يعتزون بهِ حقاً هو كرامتهم وهم مستعدونَ للموتِ على التعرضِ للإذلالِ.

تجمدَ الجميع في أماكنهم لعدَّةِ دقائق. الفارسُ والطفلُ على الحصانِ والقرويون المتمردون والثيران العنيدة.

ثمَّ وضعَ رالف سام أرضاً.

اغرورقت عينا غويندا بالدموع.

ركضَ سام نحوها وأحاطَ خصرها بذراعيه وانفجر باكياً.

شعرَ القرويون بالراحةِ وأخفضَ الرجالُ رفوشهم ومجارفهم.

شدَّ رالف لجامَ حصانِهِ وصرخَ: «هيا! هيا!» تراجعَ الحصانُ إلى الوراء ثمَّ وكزهُ رالف بمهمازِهِ فاندفعَ الحصان باتجاهِ الحشدِ الذي تفرَّق ولحقَ بهِ آلان. اندفعَ القرويون في يأسٍ بعيداً عن الطريقِ لينتهي بهم الأمرُ مكومين بعضهم فوقَ بعض على الأرضِ الموحلةِ. لحسنِ الحظِ كانوا قد تعثروا ببعضهم ولم يقعوا بسببِ الحصانين.

اندفعَ رالف وآلان خارجَ القريةِ وهما يضحكان بصوتٍ عال كأنَّ الموقف بأكملِهِ ليس أكثر من دعابةٍ كبيرةٍ.

ولكن رالف شعرَ بالعارِ.

كانت غويندا واثقةً من أنَّه سيعود مجدداً.

-68-

لم تشهد قلعةُ الإيرل أي تغيرات منذْ أن طُلب من ميرثن هدمُ الحصنِ القديم وبناء حصنٍ جديدٍ وقصرٍ يليقُ بإيرلٍ في مقاطعةٍ هادئةٍ منذُ اثني عشرَ عاماً ولكن ميرثن آنذاكَ رفضَ العرض وفضَّل بناء جسر كينغزبريدج الجديد، ومنذ ذلكَ الوقت أهملوا المشروع وبقي الجدارُ ذو الشكلِ المنحني كالرَّقم (8) مع الجسرين المُعلقين والقلعةِ المخفيةِ داخلَ الحلقةِ العليا من الشكل (8) حيثُ عاشت العائلةُ كالأرانبِ الخائفةِ والمختبئةِ في عمقِ وجارها دونَ أن تعي أن الثعلب لم يعد بالمرصاد. في الحقيقة لم يتغير المكان منذُ عهدِ الليدي آليانا والبنَّاء جاك.

استدعت الكونتيسة فيليبا كاريس وأتى ميرثن برفقتها. كانَ زوجها الإيرل مريضاً واعتقدت فيليبا أنَّه يعاني من الوباءِ، وعندما سمعت كاريس بهذا أصيبت بخيبةِ أمل فقد اعتقدت أنَّ الوباء انتهى لأن ما من أحدٍ في كينغزبريدج توفي بسببِهِ منذُ ستة أسابيع.

انطلقَت كاريس وميرثن على الفورِ. كانَ الرسولُ قد استغرقَ يومين في

السفرِ من قلعةِ الإيرل إلى كينغزبريدج وتسليمِ الرسالةِ وأخذت منهما الرحلةُ إلى القلعةِ يومين أيضاً ولذلكَ من المحتملِ أنَّ الإيرل توفي أو أنَّه على سريرِ الموتِ.

«كلُّ ما يسعني القيامِ بهِ هو تقديم مستخلص الخشخاش لتخفيفِ ألمهِ»، قالت كاريس لميرثن على الطريقِ.

«أنتِ تقومين بما هو أكثر من هذا»، قالَ ميرثن ثمَّ أضاف: «إنَّ وجودكِ يبعثُ على الراحة فأنتِ هادئةٌ وواسعةُ المعرفةِ وتتحدثين بشكلٍ مُبسطٍ وواضحٍ عندما تشرحين لهم عن الانتفاخات والاضطرابات والآلام، ولا تحاولين إبهارهم بالمصطلحاتِ الطبيةِ التي تجعلهم يشعرون بأنّهم أكثر جهلاً وعجزاً وخوفاً. عندما تكونين بينهم يشعرون بأنَّكِ تقومين بكلِّ شيءٍ ممكن وهذا ما يريدونهُ».

«آملُ أن تكونَ على حقٍ»، قالت كاريس.

كان ميرثن مُتفهماً فقد كان شاهداً أكثرَ من مرَّةٍ على قوةِ سلوكِ كاريس الهادئ في امتصاصِ نوباتٍ هيستريةٍ لرجالٍ ونساءٍ وكيف أنهم استعادوا رشدهم مجدداً وبدوا قادرين على التأقلم مع أيِّ شيءٍ يُمكن أن يحدث.

ومنذُ أن ضربَ الطاعون تعاظمت هذهِ السمةُ الطبيعيةُ لدى كاريس وأصبحت مشهورةً بين الناس بقواها التي تكادُ تكون خارقةً للطبيعةِ، وعلمَ الناسُ في أماكنَ بعيدةٍ عن كينغزبريدج أنَّ كاريس والراهبات خاطرن بحياتهن واهتممن بالمرضى بعد هروبِ الرهبانِ. كان الجميع ينظر إليها كقديسة.

كانت القلعةُ من الداخلِ مظلمةً فالخدم مشغولون بتأديةِ مهامهم المعتادةِ كإحضار الحطب والماء وإطعام الجياد وشحذِ الأسلحةِ وصُنع الخبزِ وتجهيزِ اللحمِ بينما جلسَ آخرون من أمناء السِّرِ والجنود والرُسل لا يفعلونَ شيئاً وينتظرونَ أيَّ أخبار من غرفةِ المريضِ.

عندما عبرت كاريس وميرثن الجسرَ المُعلق إلى القلعةِ نعقت الغربانُ في ترحيبٍ ساخرٍ، ولطالما اِدَّعى جيرالد والدُ ميرثن أنه ينحدرُ من سلالةِ الإيرل توماس ابن جاك وآليانا. أحصى ميرثن عدد العتبات التي تفضي إلى القاعةِ الكبيرةِ وهو يضعُ قدمهُ بحذرٍ في الحفرِ التي خلفتها آلافُ الأحذيةِ ويفكرُ بأنَّ أجدادهُ قد ساروا على هذهِ الحجارةِ القديمةِ. بالنسبةِ لهُ كانت مثلُ هذهِ الأفكار مثيرةً للاهتمامِ إلا أنَّها لم تكن مهمةً قط لشقيقهِ رالف الذي كانَ مهووسا باستعادةِ مجدِ العائلةِ القديمِ أكثر من أيِّ شيءٍ.

تقدَّمتهُ كاريس وراقبَ حركةَ وركيها من الوراءِ بابتسامةٍ. كانَ يشعرُ بالإحباطِ لأنَّه لم يكن قادراً على النومِ معها كلَّ ليلةٍ ولكن ندرة المناسباتِ التي يتمكنان فيها من الانفرادِ بنفسيهما كانتَ أكثرَ إثارةً والبارحة قضيا بعدَ الظهرِ في هذا الجو الربيعي اللطيف يمارسان الحبَّ في فُرجةٍ مضاءَةٍ في الغابةِ وحصاناهما يرعيان بقربهما غير عابثين بحبهما.

كانت علاقتهما قديمةً ولكن كاريس امرأة استثنائية فهي رئيسةُ دير راهباتٍ إلا أنها تشكك في تعاليمِ الكنيسةِ، وهي أيضاً مُعالجة لها صيتٌ ذائعٌ وترفضُ الممارسات التقليديةَ التي يقومُ بها الأطباءُ، وراهبةٌ تمارسُ الحبَّ بحماسٍ مع رجلها كلما سنحت لها الفرصة، وقالَ ميرثن في نفسهِ إنه لو أرادَ علاقةً عاديةً لكانَ اختارَ فتاةً عاديةً.

اكتظت القاعةُ بأناسٍ يعملون أو يفرشون الأرضَ بقشٍ جديدٍ أو يُشعلون النارَ أو يُجهزون الطاولةَ من أجلِ الغداءِ أو ينتظرون فقط. في زاويةِ الغرفةِ الطويلةِ بالقربِ من مطلعِ الدرجِ الذي يُفضي إلى غرفةِ الإيرل الخاصةِ جلست فتاةٌ حسنةُ الثيابِ في الخامسة عشرة من العمرِ. وقفت الفتاةُ وسارت نحوهما بمشيةٍ شامخةٍ وأدركَ ميرثن أنها بلا شك ابنةُ الليدي فيليبا. كانت الفتاةُ طويلةً كوالدتها ولها قوامها الشبيه بالساعةِ الرمليةِ. «أنا الليدي أوديلا»، قالت الفتاةُ بشيءٍ من الخيلاءِ وبالنبرةِ ذاتها التي تتحدثُ بها والدتها ورغمَ أنّها أبدت رباطةَ جأشٍ إلَّا أنَّ البشرةَ تحتَ عينيها بدت مُحمرَّةً ومتغضنةً من البكاءِ. «لا بدَّ أنَّك الأمُّ كاريس. شكراً لكِ على قدومكِ للعنايةِ بوالدي».

قالَ ميرثن: «أنا رئيسُ نقابةِ الأبرشيةِ وبنَّاءُ الجسرِ ميرثن. كيف هي صحةُ الإيرل ويليام؟»

«إنَّه مريضٌ جداً وشقيقاي أيضاً يشعران بالتوعكِ»، قالت أوديلا وتذكرَ ميرثن أنَّ للإيرلِ والكونتيسة ابنان، أحدهما في التاسعة عشرة والآخر في العشرين. «ترغبُ أمي من السيدةِ رئيسةِ الديرِ أن تذهبَ لرؤيتهم على الفورِ».

قالت كاريس: «بالطبع».

صعدت أوديلا الدرجَ وأخذت كاريس من حقيبتها قطعةَ قماشٍ وأحكمت ربطها على أنفها وفمها ثمَّ لحقت بالفتاةِ.

جلسَ ميرثن على مقعدٍ بانتظارِ عودتها ورغمَ ترويضِ نفسهِ على قبولِ ممارسةِ الحبِّ بشكلٍ غير منتظمٍ فإنَّه لم يكن قادراً على منعِ نفسهِ من التطلعِ

بشوقٍ إلى مزيدٍ من الفرصِ ولذلكَ أخذَ يتفحصُ المكانَ بدقةٍ ويُفكرُ بترتيباتِ النومِ فيهِ. لسوءِ الحظِ كانَ تصميمُ المنزلِ تقليدياً: غرفةٌ كبيرةٌ وقاعةٌ عظيمةٌ يأكلُ وينامُ فيها الجميع ودرجٌ يُفضي إلى غرفةٍ علويةٍ مخصصة للإيرل والكونتيسة. في القلاعِ الحديثةِ هناكَ جناحٌ كاملٌ من الغرفِ المخصصةِ لأفرادِ العائلةِ ولضيوفهم إلا أنَّ مثلَ هذهِ الرفاهيةِ لم تكن متوفرةً هنا وقد يضطرُّ ميرثن وكاريس هذهِ الليلة إلى النومِ جنباً إلى جنبٍ على الأرضية هنا في القاعةِ وهذا يعني أنهما لن يكونا قادرين على فعلِ أيِّ شيءٍ آخر غيرَ النومِ مخافةَ افتضاحِ أمرهما.

بعدَ برهةٍ ظهرت الليدي فيليبا من بابِ الغرفةِ العلويةِ ونزلت الدرجَ ثمَّ دخلت الغرفةَ كالملكةِ. لطالما اعتقدَ ميرثن أنَّها تعي أنَّ الجميعَ يحدقُ بها وعززت مشيتها المختالة من تلكَ الاستدارةِ المغويةِ لوركيها ولثدييها الناهدين ولكنَّ وجهَها اليومَ بدا مليئاً بالبقعِ، وعينيها مُحمرتان وتسريحة شعرها العاليةِ مائلة قليلاً وخصلُ شعرٍ تظهرُ من تحتِ غطاءِ رأسها ولكن هذا كله منحها مظهراً ساحراً وجذاباً.

وقفَ ميرثن ونظرَ إليها في ترقبٍ.

قالت لهُ: «زوجي مصابٌ بالطاعونِ كما كنتُ أخشى وكذلكَ ولداي».

همهمَ الناسُ من حولها في خيبةٍ.

وفكرَ ميرثن بأنَّ هذه الإصاباتِ قد تعني نهايةَ الطاعون ولكن قد يعني أيضاً بدايةَ موجةٍ جديدةٍ لا سمحَ الله.

قال ميرثن: «وكيفَ هو حالُ الإيرل؟»

جلست فيليبا على المقعدِ بقربهِ وقالت: «تحاولُ الأمَ كاريس تخفيف آلامه ولكنها تقول إنَّ نهايتهُ قريبة».

كانت ركبهما قريبةً وتكاد تتلامس وشعرَ بقوةِ جاذبيتها الجنسيةِ رغمَ أنَّها كانت غارقةً في الحزنِ ورغمَ غرقهِ هو في حبِّ كاريس. «وماذا عن ولديكِ؟»

أطرقت النظرَ إلى حضنها كأنَّها تعاين الخيوط الذهبية والفضية المنسوجة إلى فستانها الأزرق وأجابت: «كحالِ والدهما».

قالَ ميرثن بهدوءٍ: «لا بدَّ أنَّ الأمرَ صعبٌ جداً عليكِ يا سيدتي. إنّه صعبٌ بحق».

ألقت عليهِ نظرةً حذرةً وقالت: «أنت لا تشبهُ أخاكَ».

يعلمُ ميرثن أنَّ رالف مغرمٌ بفيليبا إلى درجةِ الهوسِ ومنذ سنواتٍ عديدةٍ ولكنه لم يعلم إن كانت تعرفُ بهذا. فكرَ ميرثن بأنَّ رالف قد أحسنَ الاختيار فإن كان المرءُ سيعيشُ قصةَ حبٍ ميئوس منها فليكن خيارهُ شخصاً فريداً. «أنا ورالف مختلفان جداً»، قالَ ميرثن بحياديةٍ.

«أتذكرُ عندما كنتما صغيرين أنك كنتَ وقحاً وأخبرتني بأن أشتري القماشَ الحريري الأخضر لأنَّه يتماشى مع لونِ عيني ومن ثمَّ افتعلَ شقيقكُ شجاراً».

«أعتقدُ أنَّ الشقيقَ الأصغر أحياناً يحاولُ وبدأبٍ أن يكون نقيضَ شقيقهِ الأكبر ليتميز بطريقةٍ ما».

«هذا صحيح وينطبقُ على ولديّ أيضاً. رولو قوي الإرادةِ وحازم كوالدهِ وجدهِ ولكن ريك لطيف المعشر وكريم»، وبدأت تبكي. «يا إلهي سأخسرهما!»

أمسكَ ميرثن يدها وقالَ بلطفٍ: «لا أحد يعلم ما الذي قد يحدث. لقد أصبتُ بالطاعونِ في فلورنسا ونجوتُ منهُ وابنتي لم تُصب بهِ قط».

رفعت ناظريها إليهِ وقالت: «وماذا عن زوجتكَ؟»

أطرقَ ميرثن نظرهُ وحدَّق إلى يديهما المتشابكتين. بدت يدُ فيليبا أكثرَ تغضناً من يده رغمَ أنها لم تكبرهُ سوى بأربعةِ أعوامٍ وقالَ لها: «لقد توفيت سيلفي».

«أصلّي للرَّبِّ كي أصابَ بهِ فأنا لا أريد الحياة إن ماتَ جميعُ الرجالِ في عائلتي».

«لا، لا يجب أن تتمني هذا».

«على الرغم من أن قدرَ النبيلات الزواج من رجالٍ لا يحببن ولكني كنتُ محظوظةً بالزواجِ من ويليام. صحيح أنَّه من اختارني ولكني أحببتهُ منذُ البدايةِ»، وبدأ صوتها يخونها. «لا يمكنني أن أحتملَ فكرةَ أحدٍ آخر...»

«هذا شعورٌ آني»، قال ميرثن وفكر بأنَّه من الغريبِ التحدثُ إليها بهذهِ الطريقةِ وزوجها ما يزال حياً إلا أنَّها كانت حزينةً جداً وغير مهتمة بالمجاملاتِ ولذلك عبرت له عما يجولُ في رأسها بكلِّ صراحةٍ.

تمالكت نفسها بجهدٍ وقالت: «ماذا عنكَ؟ هل تزوجت مجدداً؟»

«لا»، أجابها فهو لا يستطيع إخبارها عن علاقةِ الحبِّ التي تجمعهُ برئيسةِ ديرِ كينغزبريدج. «أعتقدُ أنني سأتزوجُ إن كانت المرأةُ المناسبةُ... مستعدةً لذلك وهذا ما ستشعرين به أيضاً في نهايةِ المطافِ».

«ولكنكَ لا تفهم وضعي فأنا أرملةُ الإيرل وفي غيابِ ورثةٍ من الذكورِ

سيُجبرني الملكُ على الزواجِ من شخصٍ يختارهُ لي ولن يهتم بسؤالي عمن أرغب به لأنَّ همهُ الوحيد هو من سيكونُ إيرل شايرنغ».

«فهمتُ»، قال ميرثن. لم يكن قد فكر بهذا وتخيلَ أن مثلَ هذا الزواج المدبرِ لأرملةٍ أحبَّت زوجها الأول بإخلاصٍ أمرٌ شنيعٌ.

«من المريعِ حقاً أن أتحدثَ عن زوجٍ آخرٍ بينما زوجي الأول ما يزال على قيدِ الحياةِ»، قالت له. «لا أعلم ما الذي يحدثُ لي».

ربَّتَ ميرثن على يدها في تعاطفٍ وقال: «يمكنني تفهم ما تشعرين بهِ».

فُتحَ بابُ غرفةِ النومِ في الطابقِ العلوي وخرجت منهُ كاريس وهي تجففُ يديها بقطعةِ قماش. وفجأة شعرَ ميرثن بالضيقِ فقد كان يُمسكُ بيدِ فيليبا، وشعرَ بإغراءِ إبعادِ اليدِ ولكنَّه أدركَ أنَّه بهذا العملِ سيبدو كأنّه مذنبٌ فقاومَ هذا الدافعَ ثمَّ ابتسمَ لكاريس وقالَ: «كيفَ حالُ مرضاكِ؟»

وقعت عينا كاريس على اليدين المتشابكتين إلا أنَّها لم تقل شيئاً وهبطت الدرجَ وهي تفكُّ قناعها الكتاني.

سحَبت فيليبا يدَها على مهلٍ.

خلعت كاريس قناعها وقالت: «يؤسفني جداً يا سيدتي أن أخبركَ أنَّ الإيرل ويليام قد توفي».

***

«أحتاجُ إلى حصانٍ جديدٍ»، قالَ رالف فيتزجيرالد. كان حصانهُ المُفضل غريف عجوزاً وقد أصيبَ هذا الحصان الكميت من فصيلةِ البلفري والمُفعم بالنشاطِ بالتواءٍ في قائمتهِ اليسرى وأخذَ شهوراً ليشفى منه وهو الآن يعرجُ من قائمتهِ المصابةِ. حزنَ رالف على غريف فقد كان الجواد هديةً من الإيرل رولاند عندما كانَ مرافقاً شاباً ولم يفارقهُ منذئذٍ حتَّى عندما ذهبَ وقاتلَ في الحروبِ الفرنسيةِ. قد يخدمهُ الجوادُ لبضعِ سنواتٍ ولكن في رحلاتٍ غير مستعجلةٍ بينَ القرى وضمن نطاقِ ملكيتهِ إلا أنَّ أيام أخذهِ في رحلات صيد قد ولَّت.

«يمكننا الذهابُ إلى سوقِ شايرنغ غداً وشراءُ حصانٍ جديدٍ»، قال آلان فيرنهيل.

كانا في الإسطبلِ يتفحصان قائمةَ الحصانِ غريف. لطالما أحبَّ رالف الإسطبلات فقد كانَ يستمتعُ برائحةِ المكان الترابيةِ وقوةِ وجمالِ الجيادِ فيهِ ورفقةِ الرجالِ الخشنين الغارقين في مهامّ بدنيةٍ. كان هذا يعيدهُ إلى سنواتِ شبابهِ عندما كانَ العالمُ مكاناً أكثر بساطةً.

في البدايةِ لم يُجب رالف على اقتراحِ آلان فما لا يعرفه الأخير هو أنَّ رالف لا يملكُ المالَ لشراءِ الحصانِ.

عندَ بدايةِ الوباءِ كانت ثروته قد ازدادت بسبب ضرائبِ الإرثِ. أصبحت الأراضي التي تنتقلُ من الأبِ إلى الابنِ في كلِّ جيلٍ تنتقلُ مرتين أو أكثر خلالَ أشهرٍ قليلةٍ وكانَ يحصلُ على الضريبةِ في كلِّ مرةٍ. عادةً تُدفع الضريبةُ بتقديمِ أفضلِ حصانٍ إلّا أنّ الناس كانوا يدفعون مبالغ نقدية ثابتة، ولكن شيئاً فشيئاً باتت الأراضي خارجَ نطاقِ الاستخدامِ بسببِ قلّةِ الناسِ وتراجعِ الأسعارِ ولهذا هبطَ مدخولُ رالف من المالِ والمنتجات بشكلٍ كبيرٍ.

وفكرَ رالف بأنَّ عجزَ الفارس عن شراءِ حصانٍ جديدٍ يعني أن الأمور سيئةٌ.

وعندها تذكرَ أنَّ اليومَ موعدُ زيارةِ نيثان ريف لقريةِ تينش وتقديمِ مستحقاتِ ثلاثةِ أشهرٍ من قريةِ ويغلي. كانَ على تلكَ القريةِ في كلِّ ربيعٍ أن تقدمَ لسيدها أربعاً وعشرينَ خنزيراً وخروفاً عمرهُ عامٌ. يمكن لرالف أن يأخذها إلى سوقِ شايرنغ وبيعها لقاء مبلغٍ كافٍ لشراءِ جوادٍ جديدٍ من فصيلةِ البلفري أو ربما من فصيلةِ الصيّادِ. «حسناً»، قالَ رالف لآلان. «لنذهب ولنرَ إن كانَ وكيلُ ويغلي قد وصل».

توجه الرجلان إلى المنزلِ لكن ولأن المكان منطقةٌ أنثويةٌ شعرَ رالف على الفورِ بفتورٍ في معنوياتهِ. وجدَ تيلي جالسةً قربَ النارِ تُرضعُ ابنهما جيري البالغ من العمرِ ثلاثةَ أشهرٍ. ورغم صغرِ سنها كانت الأمُّ والطفلُ بصحةٍ جيدةٍ. تغير جسد تيلي النحيل والطفولي بشكلٍ كبيرٍ فقد أصبحَ ثدياها كبيرين بحلمتين كبيرتين وقاسيتين يمصهما الطفلُ بنهمٍ وتدلى بطنها كأنها امرأةٌ عجوزٌ. لم يضاجعها رالف منذُ أشهرٍ وهو على الأغلب لن يفعلَ هذا أبداً.

وبقرب تيلي جلسَ الجدُ السير جيرالد الذي سُمي الطفلُ على اسمهِ مع الليدي مود. كان والدا رالف الآن عجوزين جداً وضعيفين ولكنهما كلَّ صباحٍ يسيران من بيتهما إلى منزلِ السيدِ في القريةِ لرؤيةِ حفيدهما. قالت له والدتهُ إنَّ الطفلَ يشبهه ولكنهُ لم يرَ شبهاً بينهما.

سُرَّ رالف عندما رأى نيثان في القاعةِ.

نهضَ الوكيلُ المحدودبُ الظهرِ عن مقعدهِ بسرعةٍ وقال: «طابَ يومكَ يا سيدي رالف».

لاحظَ رالف أنَّ للرجلِ هيئةً بائسةً ولذلك سأله: «ما الأمرُ يا نيثان؟ هل أحضرتَ مستحقاتي؟»

«لا يا سيدي».

«ولِم لا بحقِّ الشيطانِ؟»

«لم يعد لدينا شيءٌ يا سيدي. لا يوجد في ويغلي سوى بضع نعاج عجفاوات».

صُدمَ رالف عندما سمعَ بهذا وسألهُ «هل سرق أحدٌ ما الخراف؟»

«لا، فقد قدَّمنا لكَ بعضها كضريبة إرث عندما توفي صاحبها الراعي جاك الذي لم نجد مستأجراً آخر لأرضِه فماتت العديد من الخرافِ في الشتاءِ، وخلالَ هذا الربيعِ فقدنا معظم الحملان وبعضَ النعاجِ أيضاً».

«ولكن هذا مستحيل!» قالَ رالف بغضبٍ. «كيفَ سيعيشُ النبلاءُ إن سمحَ أقنانهم بموتِ القطعانِ؟»

«اعتقدنا أنَّ الطاعون قد انتهى مع انحسارهِ في شهري كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير ولكن يبدو أنَّه بدأ يضربُ مرَّةً أخرى».

قاومَ رالف رعدةَ خوفٍ سرت في أوصالهِ. وكحالِ الجميعِ شكرَ رالف الرَّبَّ على نجاتهِ من الطاعون ولكن هل يُمكن أن يضربَ مجدداً؟

تابعَ نيثان كلامهُ قائلاً: «لقد توفي بيركن الأسبوع الماضي وزوجتهُ بيغ وابنهُ روب وزوجُ ابنتهِ بيلي هاورد تاركين وراءهم آنيت فقط لتدير كلَّ تلكَ الأراضي وهي لا تستطيعُ فعلَ هذا».

«حسناً لا بدَّ أن هناك ضريبةَ إرثٍ على تلكَ الملكيةِ إذاً».

«سيكونُ هناكَ عندما أجدُ المستأجرَ الذي سيأخذها».

كانَ البرلمان على وشكِ المصادقةِ على تشريعٍ جديدٍ يمنعُ العمالَ من التنقلِ في البلدِ مطالبين بأجورٍ أعلى وحالما يصبحُ مشروع القانونِ رسمياً سيضطرُ رالف إلى فرضهِ بنفسهِ وإعادةِ عمالهِ، ولكنهُ أدركَ الآن أنَّه على الرغم من هذا القانون سيجدُ صعوبةً في إيجادِ مستأجرين جدد.

قالَ نيثان: «أعتقدُ أنَّكَ سمعتَ بموتِ الإيرل».

«لا!» قالَ رالف مصدوماً للمرةِ الثانيةِ.

«ما الأمر؟» قالَ السير جيرالد. «هل توفي الإيرل ويليام؟»

«جرَّاءَ الطاعونِ»، شرحَ لهُ نيثان.

قالت تيلي: «العمُّ ويليام المسكين!»

أحسَّ الطفل بتغيرِ مزاجها فأخذَ يبكي.

تحدَّثَ رالف بصوتٍ عالٍ ليطغى على الضجةِ في المكانِ: «متى حدثَ هذا؟»

«منذُ ثلاثةِ أيامٍ فقط»، أجابَ نيثان.

«إذاً، سيأخذُ أكبرُ أبناءِ الإيرل مكانَ أبيـهِ»، قالَ رالف. «لا يمكن أن يكونَ قد تجاوزَ العشرين من العمرِ».

هزَّ نيثان رأسهُ. «لقد توفي رولو بالطاعونِ أيضاً».

«إذاً سيأخذُ الابن الأصغر...»

«لقد توفي أيضاً».

«كلا الولدين!» وشعرَ رالف بقلبِهِ يقفزُ من صدرهِ. لطالما حلمَ بأن يصبحَ إيرلَ شايرنغ وها هو الطاعون يقدمُ له هذهِ الفرصةَ. لقد زاد الطاعونُ من حظوظِهِ في تحقيقِ هذا لأنَّ العديدَ من المرشحين للقبِ قد توفوا.

التقت عيناه بعيني والدهِ ورأى أنهما كانا يفكران بالأمرِ عينِهِ.

قالت تيلي: «لقد توفي رولو وريك، هذا فظيعٌ جداً»، وانخرطت في البكاءِ.

تجاهلها رالف وحاولَ التفكير بالاحتمالاتِ ثمَّ قال: «فلنفكر بالأمرِ، من بقي من أقرباءِ الإيرل؟»

قالَ جيرالد لنيثان: «هل توفيت الكونتيسة أيضاً؟»

«لا يا سيدي إنَّ الكونتيسة حيةٌ وابنتها أوديلا أيضاً».

«آه!» قالَ جيرالد. «إذاً، من يختارهُ الملكُ سيتزوجُ من فيليبا ويصبحَ الإيرل».

صُعِقَ رالف عندما سمعَ هذا فمنذُ كانَ صبياً حلمَ بالزواجِ من الليدي فيليبا وها هي الفرصةُ تُتاحُ لهُ ليحققَ حُلميهِ بأن يصبح إيرلاً ويتزوج بها.

ولكنه كانَ متزوجاً.

قالَ جيرالد: «إذاً هذا ما سيحدث»، وأراحَ ظهرهُ إلى كرسيهِ وقد تراجعَ حماسهُ بالسرعةِ التي اتّقدَ فيها.

نظرَ رالف إلى تيلي وهي تُرضعُ الطفل وتبكي في الوقتِ ذاتهِ. كانت في الخامسة عشرة من العمر ولا يتجاوزُ طولها خمسةَ أقدامٍ إلّا أنّها وقفت كقلعةٍ بينهُ وبينَ المستقبلِ الذي لطالما تاقَ إليهِ.

وكرِهَها على هذا.

***

أُقيمت جنازةُ الإيرل ويليام في كاتدرائيةِ كينغزبريدج وسطَ غيابِ جميع

الرهبان باستثناءِ الأخ توماس. أقامَ الأسقف هنري مراسمَ الدفنِ بينما غنَّت الراهباتُ الترانيم وسارت الليدي فيليبا والليدي أوديلا المتشحتان بالسوادِ وراءَ النعشِ. على الرغمِ من الجو الكئيب الذي طغى على الحدثِ ولكن رالف وجدَ أنَّ المناسبةَ تفتقرُ إلى تلكَ المهابة التي تفرضها جنازةُ قطبٍ كبيرٍ ويعوزها ذلك الإحساسُ بزمنٍ عريقٍ يمرُّ كنهرٍ عظيمٍ. في هذهِ الأوقات العصيبةِ بات كلُّ شيءٍ عادياً بما في ذلك جنائز النبلاء.

تساءلَ رالف في نفسهِ إن كانَ أفراد الرعيةِ مصابين بالطاعونِ وينشرونَ العدوى بأنفاسهم أو إشعاعات أعينهم غيرِ المرئيةِ. أثارت الفكرةُ رعدةً في أوصالِه فعلى الرغم من أنه واجه الموتَ مراتٍ عديدةٍ وتعلَّمَ السيطرةَ على خوفهِ في المعركةِ فإن هذا العدو لا يُمكنُ محاربتهُ. كانَ الطاعونُ أشبهَ بقاتلٍ يُغمدُ خنجرهُ الطويل في ظهورِ الناسِ ويتسللُ بعيداً قبلَ أن يراهُ أحدٌ، وشعرَ بخوفٍ كبيرٍ يسري في أوصالهِ وحاول عدمَ التفكير بالأمرِ.

بجانبِ رالف وبقامتهِ الطويلةِ وقفَ المحامي الذي تولى قضايا الديرِ في الماضي السير غريغوري لونغفيلو. كانَ السير غريغوري قد أصبحَ عضواً في مجلسِ شورى الملك، الذي كان عبارةً عن مجموعةٍ نخبويةٍ من الخبراءِ العمليين مهمتها تقديمُ النصيحةِ للملكِ حيالَ كيفيةِ القيامِ بالأمورِ فقط لأنَّ اقتراحَ هذهِ الأمورِ كانَ من عملِ البرلمانِ.

غالباً ما تُجرى إعلانات ملكية خلالَ المراسمِ الكنسيةِ بخاصَّةٍ في المناسبات الكبيرة كهذهِ، وقد انتهزَ الأسقفُ هنري الفرصةَ اليوم ليشرحَ مشروعَ قانون العمالِ. تكهنَ رالف أنَّ السير غريغوري من أحضرَ هذا الخبرَ وترقب كيفيةَ استقبال الناس له.

أصغى رالف بانتباهٍ فلم يُستدعَ إلى البرلمانِ قط إلا أنَّه تحدَّث عن كارثةِ الأيدي العاملة مع الإيرل ويليام الذي جلسَ مع اللوردات وممثل مقاطعةِ شايرنغ في مجلسِ العمومِ السير بيتر جيفريز ولذلكَ كان يعرفُ ما ناقشوه.

«على كلِّ رجلٍ أن يعملَ لمصلحة سيدِ القريةِ التي يعيشُ فيها، ولا يمكنهُ الانتقالُ إلى قريةٍ أخرى أو العملُ لدى سيدٍ آخر ما لم يسمح لهُ السيدُ بهذا»، قالَ الأسقفُ.

ابتهجَ رالف عندما سمعَ بهذا فعلى الرغمِ من علمهِ بهذا مسبقاً فإنه كانَ سعيداً لأنَّ الأمرَ باتَ رسمياً الآن.

قبلَ الطاعون لم يكن هناكَ نقصٌ في الأيدي العاملةِ بل على العكس، كان

لدى القرى فائضٌ في الأيدي العاملةِ ولا يعرفون ما الذي يفعلونهُ بها. آنذاك وعندما لا يجدُ العمالُ الذين لا يملكونَ أرضاً عملاً مأجوراً يطلبونَ من اللوردِ أن يُحسنَ إليهم وكانَ هذا مثارَ حرجٍ له سواءَ وافق أم لم يوافق، وكان اللورد يشعرُ بالراحةِ إن أرادَ العاملُ الانتقالَ إلى قريةٍ أخرى، ولذلك لم تكن هناكَ من حاجةٍ لتشريعِ بقاء العمال في قُراهم ولكنهم الآن باتوا يملكون اليد الطولى، وبدا واضحاً أنَّ السكوت عن هذا الوضعِ لم يعد ممكناً.

عندما انتهى الأسقفُ من الإعلان سرت همهمةٌ بالموافقةِ من أفرادِ الرعيةِ فعلى الرغم من أن الإعلان لا يؤثر على سكانِ كينغزبريدج فإنَّه يؤثرُ على أفرادِ الرعيةِ القادمين من القرى لحضورِ الجنازةِ ومعظمهم من أصحابِ الأراضي المنتفعين بهذهِ القوانين الجديدة التي وضعت من قبلهم ولأجلِهم.

تابعَ الأسقفُ كلامهُ: «باتت المطالبةُ أو عرضُ أو قبولُ أجورٍ أعلى من الأجورِ التي كانت تُدفعُ في عام 1347 جريمةً».

أومأ رالف برأسهِ موافقاً فحتّى العمال الذينَ بقوا في قراهم طالبوا بأجورٍ أعلى، وأملَ رالف أن يردعهم القانونُ الجديدُ عن القيامِ بهذا.

التقت عيناه بعيني السير غريغوري الذي سأله: «أراكَ تومئ برأسكَ هل أنتَ موافق؟»

«هذا ما أردتهُ»، قالَ رالف وأضاف: «سأبدأ بتطبيقِ القانونِ في الأيامِ القليلةِ القادمةِ فهناك بضعة هاربين من منطقتي أرغبُ بإعادتهم».

«أتسمحُ لي بمرافقتك؟» سألهُ المحامي، «فأنا أرغبُ برؤيةِ الطريقة التي ستطبقُ فيها القانون».

-69-

توفي الكاهنُ في كنيسةِ أوثنباي جرَّاء الطاعونِ ولم يكن هناكَ من ينوب عنه في إقامةِ المراسم الدينيةِ ولهذا فوجئت غويندا عندما سمعت جرسَ الكنيسةِ يُقرع صباحَ الأحدِ.

توجه ولفريك إلى الكنيسةِ لتقصي الأمرِ وعادَ ليخبرها بأنَّ كاهناً زائراً يدعى الأبُ ديريك قد وصلَ فغسلت غويندا وجهي الطفلين بسرعةٍ وغادروا جميعاً إلى الكنيسةِ.

كانَ صباحاً ربيعياً رائقاً وقد ألقت أشعةُ الشمسِ نوراً قوياً على الحجارةِ الرمادية العتيقة للكنيسةِ الصغيرةِ.

حضرَ جميعُ القرويين لمقابلةِ الزائرِ الجديدِ.

تبينَ أنَّ الأبَ ديريك رجلٌ فصيحٌ وقادمٌ من المدينةِ وكانت ثيابه باذخةً جداً على هذهِ الكنيسةِ الريفيةِ. تساءلت غويندا في نفسها عن الأهميةِ الخاصةِ لزيارتهِ وإن كانَ هناك سببٌ محددٌ لإرسالِ رجالِ الكنيسةِ هذا الكاهن لمثل هذهِ الرعيةِ وبهذا الشكلِ المفاجئ ثمَّ قالت لنفسها إنَّ توقعَ السوءِ عادةٌ سيئةٌ إلا أنها لم تستطع التخلص من ذلك الشعور بأنَّ هناك خطباً ما.

وقفت في صحنِ الكنيسةِ مع ولفريك والصبيين وراقبوا الكاهن يقومُ بالطقوسِ المعتادةِ وإحساسها بأنّ أمرها انتهى يزدادُ قوةً. عادةً ما ينظرُ الكاهنُ إلى الرعيةِ عندما يصلي أو يغني ليشددَ على أنَّ كلَّ ما يجري هو من أجلِ مصلحتهم وليسَ مجردَ حوارٍ بينهُ وبينَ الرَّبِّ، ولكن الأب ديريك لم ينظر إليهم مباشرةً.

وسرعان ما فهمت غويندا سببَ هذا ففي نهايةِ المراسمِ أخبرهم بقانون جديدٍ صادقَ عليه الملكُ والبرلمان.

«على العمالِ الذين لا يملكون أراضي أن يعملوا لمصلحة سيدِ القريةِ التي ولدوا فيها وهم مُلزمون بفعلِ هذا إن كانت قراهم بحاجةٍ إليهم»، قال الكاهن ديريك.

استشاطت غويندا غيظاً وصرخت عالياً: «كيفَ يمكنُ أن يحدثَ هذا إن كان السيدُ غير مُلزم بمساعدةِ العمالِ في الأوقاتِ العصيبةِ. أنا أعلم هذا فوالدي كانَ عاملاً من دونِ أرضٍ وعندما لم يكن يجد عملاً كنا نجوع. كيفَ يمكن للعمالِ أن يدينوا بالولاءِ لسيدٍ لم يُعطهم شيئاً؟»

سرت همهمةٌ بالموافقةِ من الحشدِ واضطرَّ الكاهنُ إلى رفعِ صوتهِ قائلاً: «هذا ما قررهُ الملك الذي اختاره الرَّبُّ ليحكمنا ولهذا يجبُ أن ننفذَ مشيئتهُ».

«هل يمكن للملكِ أن يغيرَ عُرفاً عمرهُ مئاتُ السنين؟» احتجت غويندا.

«هذهِ أوقاتٌ عصيبةٌ وأعلمُ أنَّ العديدَ منكم قد أتى إلى أوثنباي في الأسابيعِ القليلةِ الماضيةِ...»

«لقد دعانا الحارثُ هاري»، قاطعهُ كارل شافتسبيري وقد احمرَّ وجهه المحروق من الغضبِ.

«باسمِ جميعِ القرويين»، أقرَّ الكاهنُ. «وهم شاكرونَ لكم على قدومكم ولكنَ الملكَ بحكمتهِ قد ارتأى أن مثلَ هذا الأمرِ لا يجبُ أن يستمرَ».

«وأن يبقى الفقراءُ فقراء»، قالَ كارل.

«لقد قضى الرَّبُّ أن يبقى كل إنسانٍ في مكانهِ».

قال الحارثُ هاري: «وهل قضى الرَّبّ أيضاً بالطريقةِ التي سنزرعُ بها حقولنا من دونِ مساعدةٍ؟ إن غادرَ جميعُ القادمين الجدد فلن ننتهي من العملِ».

«قد لا يكون جميعُ القادمين الجدد مضطرينَ للمغادرةِ»، قالَ ديريك. «فالقانونُ الجديدُ ينصُّ على عودةِ من تحتاجهم قراهم».

هدأوا عندَ سماعهم هذا فقد كان القادمون الجدد يحاولون فهم ما إن كان سادتهم مخولين باقتفاء أثرهم والسكانُ المحليون يتساءلون عن عددِ العمالِ الذين سيبقونَ في القريةِ، ولكن غويندا عرفت ما الذي سيحملهُ مستقبلها فعاجلاً أم آجلاً سيأتي رالف ليأخذها هي وعائلتها.

وقررت أنَّه بحلولِ ذلكَ الوقتِ سيكونون قد رحلوا.

تركَ الكاهنُ الرعيةَ وتوجهَ إلى بابِ الكنيسةِ.

«يجبُ أن نغادر»، قالت غويندا لولفريك بصوتٍ خفيضٍ ثمَّ تابعت: «قبلَ أن يأتي رالف لأخذنا».

«إلى أين سنذهبُ؟»

«لا أعلمُ ولكن قد يكون هذا للأفضل فإن لم نعلم إلى أينَ نحنُ ذاهبون فلن يعلم أحدٌ آخر».

«وكيفَ سنعيش؟»

«سنجدُ قريةً أخرى بحاجةٍ إلى عمالٍ».

«أتساءلُ إن كانَ هناكَ الكثيرُ منها؟»

لطالما كانَ أبطأ منها في استيعابِ ما يجري ولذلك قالت بأناةٍ: «لا بدَّ أن هناكَ الكثير فالملكُ لا يمرر مثلَ هذا القانون من أجلِ قريةِ أوثنباي فقط».

«بالطبع».

«يجبُ أن نغادر اليومَ»، قالت بحزمٍ. «إنَّ اليومَ أحدٌ ولذلكَ لن نخسر يومَ عملٍ». وحدَّقت من نوافذِ الكنيسةِ وهي تحاول حسابَ الوقتِ ثمَّ قالت: «لم يحل الظهر بعد وسنقطعُ مسافةً جيدةً قبلَ هبوطِ الظلامِ، وربما بحلول الغد قد نبدأ العملَ في مكانٍ جديدٍ».

«أوافقكِ»، قالَ ولفريك «فلا يمكننا أن نتكهنَ بالسرعةِ التي سيتحركُ بها رالف».

«لا تقل شيئاً لأحدٍ. سنعود إلى المنزلِ ونحزم ما نحتاجهُ لنأخذهُ معنا ونتسللُ خارجين».

«حسناً».

وصلوا إلى البابِ وخرجوا ورأت غويندا أنَّهم كانوا متأخرين.

كانَ هناكَ ستةُ رجالٍ على ظهورِ جيادهم بانتظارهم خارجَ الكنيسةِ وهم رالف ومرافقهُ آلان ورجلٌ طويل في ثيابٍ لندنيةٍ وثلاثة رجالٍ لهم هيئةٌ قذرةٌ وشريرة وآثارُ ندوبٍ على أجسادهم، كانوا من ذلك النوعِ الذي يُمكنُ استئجارهُ في الحانات السيئةِ لقاءَ بضعة بنساتٍ.

التقت عينا رالف بعينَي غويندا ورأت أنَّه كانَ يبتسمُ في ظفرٍ.

حدَّقت غويندا حولها في يأسٍ فمنذُ بضعةِ أيامٍ فقط وقفَ رجالُ القريةِ وقفةَ رجلٍ واحدٍ في مواجهةِ رالف وآلان ولكن الموقفَ الآن مختلفٌ. كانوا في مواجهةِ ستة رجالٍ وليسَ رجلين ولم يكن سكانُ القريةِ الخارجون من الكنيسةِ للتو مُسلحين كما كانوا عندما كانوا عائدين من الحقولِ وأدواتهم معهم، والأهمُّ من هذا كانوا وقتئذٍ مؤمنين بأنَّ الحقَ معهم بينما هم اليوم غيرُ واثقين من هذا.

التقت نظراتها بنظراتِ العديدِ من الرجالِ إلَّا أنَّهم أشاحوا بنظرهم بسرعةٍ، وتعززَ شكُّها بأنَّ الوضعَ قد تغيرَ الآن وأن ما من أحدٍ من أهلِ القريةِ سيُقاتل اليوم.

كانت غويندا محبطةً جداً إلى درجةٍ شعرت معها بالضعفِ فأسندت نفسها إلى جدارِ شرفةِ الكنيسةِ خوفاً من أن تسقط أرضاً. شعرت بقلبها يتحولُ إلى شيءٍ ثقيلٍ وباردٍ ورطبٍ ككتلةِ ترابٍ من قبرٍ شتائي وتملكها شعورٌ بعجزٍ لا أملَ معهُ.

منذُ بضعةِ أيامٍ كانوا أحراراً ولكن هذا لم يكن سوى حلم، وهذا الحلمُ انتهى الآن.

***

جالَ رالف أرجاءَ ويغلي وهو يجرُّ ولفريك وراءَهُ بحبلٍ حولَ رقبتِهِ.

وصلوا في وقتٍ متأخرٍ من بعدِ الظهرِ، ومن أجلِ السرعةِ تركَ رالف الولدين الصغيرين يركبان على حصاني الرجلين الذين استأجرهما. سارت غويندا خلفهم ولم يُزعج رالف نفسَهُ بربطها فهي ستُلحق بولديها من كلِّ بدٍ.

ولأنَّ اليومَ كانَ أحداً فقد كانَ معظمُ سكانِ ويغلي خارجاً يستمتعون بأشعةِ الشمسِ تماماً كما توقع رالف. حدَّق القرويون إلى هذا الموكبِ الكئيبِ بصمتٍ واجفٍ، وقد أملَ رالف أن يردعَ مشهدُ إذلال ولفريك الآخرين كي لا يهربوا من أجل عملٍ بأجرٍ أعلى.

وصلوا إلى قصرِ السيد الذي كانَ منزلَ رالف في يومٍ من الأيامِ قبلَ أن ينتقلَ إلى قصر تينش وحررَ ولفريك ثمَّ أرسلهُ مع عائلتِهِ إلى المنزلِ. دفعَ أجرَ الرجلين اللذين استأجرهما ثمَّ دخلَ مع آلان والسير غريغوري إلى القصرِ.

جلسَ غريغوري وأراحَ ساقيهِ الطويلتين فقد كان من ذلكَ النوعِ الذي لا يتورع عن القيام بشيءٍ من أجل راحتِهِ. كان الشيبُ قد بدأ يغزو شعرهُ الداكن والمسترسل ولكن أنفهُ الطويل بمنخريه الواسعين منحهُ مظهراً متكبراً. «كيفَ سارَ الأمر برأيكَ؟» سأل غريغوري.

في طريقِ العودةِ إلى المنزلِ فكرَ رالف بالقانونِ الجديدِ ولذلكَ كانَ جوابهُ جاهزاً. «لن ينجحَ الأمر»، قالَ رالف.

رفعَ غريغوري حاجبيهِ في استغرابٍ: «حقاً؟»

قالَ آلان: «أنا أوافقُ السير رالف في رأيهِ».

«وما هي أسبابكَ؟»

قالَ رالف: «بدايةً سيكونُ إيجادُ أمكنةِ الهاربين مسألةً صعبةً».

وتدخَّلَ آلان هنا قائلاً: «لولا الحظ لما تمكنا من اقتفاءِ أثرِ ولفريك فقد سمعَ أحدهم حديثه هو وغويندا وعرفَ المكان الذي خططا للذهابِ إليهِ».

«وثانياً»، تابعَ رالف. «إنَّ استعادةَ الهاربين عملٌ شاقٌ».

أومأ غريغوري برأسهِ وقال: «أجل لقد قضينا يوماً كاملاً لإعادتهم».

«ويجبُ عليَّ أن أستأجر رجالاً وأؤمن لهم الجياد أيضاً. لا يمكنني أن أضيعَ وقتي ومالي في تقفي أثرِ العمالِ الهاربين عبرَ البلادِ».

«فهمت».

«ثالثاً، ما الذي سيمنعهم من الهربِ مرَّةً أخرى في الأسبوعِ القادمِ؟»

قالَ آلان: «إن أبقوا وجهتهم سريَّةً فقد لا نجدهم أبداً».

«الطريقةُ الناجحةُ الوحيدةُ»، قالَ رالف. «هي تكليفُ شخصٍ بالذهابِ إلى كلِّ قريةٍ وجمع العمال المهاجرين ومعاقبتهم».

قالَ غريغوري: «أنتَ تعني أنَّ يكونَ هناكَ حملةٌ خاصةٌ لملاحقةِ العمالِ؟»

«بالضبط. فلتَقم بتعيين مجلسٍ في كلِّ مقاطعةٍ وليكن مؤلفاً من اثني عشرَ رجلاً يقتفون آثرَ الهاربين ويخيفونهم».

«أنتَ تريدُ شخصاً آخراً ليقومَ بهذا العملِ عنكَ».

كان جوابُ غريغوري وقحاً إلا أنَّ رالف حرصَ على عدم إظهارِ انزعاجهِ: «ليسَ بالضرورةِ. سأكونُ أحدَ العاملين في الحملةِ إن رغبت بهذا، ولكن ما أقصده هو أنّها الطريقةُ الأنجح لتنفيذِ الأمر فلا يمكنكَ أن تحصدَ حقلاً من العشبِ بجزِ كلِّ ورقةٍ على حدة».

«هذا مثيرٌ»، قالَ غريغوي.

أحضرت ڤيرا إبريقاً وبعضَ الكؤوس ثمَّ سكبت النبيذَ لهم ثلاثتهم.

قالَ غريغوري: «أنتَ رجلٌ حصيفٌ يا سير رالف. هل أنتَ عضو في البرلمانِ؟»

«لا».

«هذا مؤسفٌ. أعتقدُ أنّكَ ستكون مستشاراً جيداً للملكِ».

حاولَ رالف أن يخفي شعورَهُ بالبهجةِ لسماعهِ هذا وقال: «هذا من لطفكَ» ثمَّ انحنى للأمامِ وتابع: «بما أنَّ الإيرل ويليام قد توفّي، فلا بدَّ أنَّ هناكَ مكاناً...» ورأى البابَ يُفتح فتوقفَ عن الكلامِ.

دخلَ نيثان رييف وهو يقول: «اسمح لي بالقول لكَ أيها السير رالف بأنّك أحسنتَ عملاً. لقد عادَ ولفريك وغويندا إلى العملِ وهما أكثر عاملين مُجدين عرفتهما في حياتي».

تضايقَ رالف من مقاطعةِ نيثان له عند هذهِ اللحظةِ الحرجةِ ولهذا قالَ مغتاظاً: «أعتقدُ أنَّ القريةَ ستتمكنُ الآن من دفعِ مستحقاتها».

«أجل يا سيدي... إن بقيت غويندا وولفريك».

اكفهرَّ وجهُ رالف فقد وضعَ نيثان يده على الجرحِ تماماً. كيفَ له الآن أن يُبقي ولفريك في ويغلي؟ فهو لا يستطيعُ أن يربط رجلاً إلى محراثٍ طوالَ اليوم.

تحدَّثَ غريغوري إلى نيثان قائلاً: «أخبرني أيُّها الوكيل، ألديكَ أيّ اقتراحاتٍ لسيدكَ؟»

«أجل يا سيدي لدي اقتراحات».

«هذا ما كنتُ أعتقدهُ».

فهمَ نيثان من كلامِ غريغوري أنّها دعوةٌ لتقديم اقتراحه لذلكَ خاطبَ رالف قائلاً: «هناكَ أمرٌ يسعكَ القيامُ بِهِ لضمانِ بقاءِ ولفريك في ويغلي إلى نهايةِ حياتِهِ».

أحسَّ رالف بوجودِ خدعةٍ ما إلا أنّه كانَ مضطراً لحثّه على متابعةِ الكلامِ ولذلك قال: «تابع».

«أعد إليهِ أرضَ والدهِ».

أرادَ رالف أن يصرخَ بهِ إلا أنّه لم يرغب بتركِ انطباعٍ سيئ لدى غريغوري ولذلك تمالك نفسه وقالَ بحزم: «لا أعتقدُ هذا».

«لا يمكنني إيجادُ مستأجرٍ للأرضِ!» أصرَّ نيثان ثمَّ تابع: «لا يُمكن لآنيت أن تديرَ الأرضَ ولم يعد هناكَ ذكورٌ في عائلتها ليرثوها».

«لا يهمني هذا»، قالَ رالف. «لا يمكنهُ أن يحصلَ على الأرض».

قالَ غريغوري: «ولم لا؟»

لم يرغب رالف بالاعترافِ بأنّه يحقدُ على ولفريك بسببِ شجارٍ منذُ اثني عشرَ عاماً. كانَ غريغوري قد أخذَ انطباعاً جيداً عنهُ ولم يرغب رالف بإفسادِ هذا الانطباعِ. كيفَ سينظرُ مستشارُ الملكِ إلى فارسٍ يتصرفُ بما لا ينسجمُ مع مصلحتهِ الشخصيةِ من أجلِ شجارٍ منذ أيامِ الصبا؟ ولذلكَ أخذَ رالف يفكرُ بجوابٍ. «سيبدو الأمرُ كأنني أكافئُ ولفريك على هربهِ»، قالَ رالف أخيراً.

«بالكادِ سيبدو كذلك»، قال غريغوي. «بالنظرِ إلى ما قاله نيثان فأنت ستعطيهِ شيئاً لا يريدهُ أحدٌ».

«ولكن هذا سيترك انطباعاً خاطئاً لدى بقيةِ القرويين».

«أعتقدُ أنكَ تبالغُ في شكوككَ»، قالَ غريغوري الذي لم يكن من النوعِ الذي يحتفظُ بآرائهِ الشخصيةِ لنفسهِ، وتابع قائلاً: «لا بدَّ أنَّ الجميعَ بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى مستأجرين كما هو حالُ جميعِ مُلّاكِ الأراضي. ببساطةٍ سيعتقد القرويون أنّك تتصرفُ من أجلِ مصلحتكَ فقط وأنَّ ولفريك هو المستفيدُ المحظوظُ من هذا».

أضافَ نيثان: «وسيجتهدُ ولفريك وغويندا في العملِ أكثر إن كانت الأرضُ أرضهما».

شعرَ رالفَ بأنّه حوصرَ من جميعِ الأطراف فقد كان يتوقُ للظهور بمظهرٍ جيدٍ أمامَ غريغوري. كانَ قد بدأ حديثاً مبتوراً عن منصبِ الإيرلِ ولا يمكنهُ المخاطرة الآن من أجلِ شخصٍ كولفريك.

واضطر إلى الاستسلام.

«قد تكونُ على حقٍ»، قال رالف وأدركَ أنّه يتحدثُ من بين أسنانهِ التي كانَ يصرُّ عليها من شدةِ غيظهِ ويجاهدُ كي يبدو غير مبالٍ بكلِّ هذا ثمَّ أضاف: «على أيِّ حالٍ يكفيني أنني أعدتهُ إلى القريةِ مذلولاً».

«أنا واثقٌ من هذا».

«حسناً يا نيثان»، قالَ رالف ولوهلةٍ شعرَ كأنَّ الكلمات علقت في حلقهِ فقد كان منح ولفريك ما يرجوه آخر شيءٍ قد يريد فعلهُ إلا أنَّ موضوعهُ الآخرَ كانَ أكثرَ أهميةً وتابع: «أخبر ولفريك أنّه يستطيعُ استعادةَ أراضي والدهِ».

«سأفعلُ هذا قبلَ هبوطِ الليلِ».

قالَ غريغوري: «ما الذي كنتَ تقولهُ عن منصبِ الإيرل؟»

انتقى رالف كلماتهِ بحذرٍ وقال: «بعدَ وفاةِ الإيرل رولاند في معركةِ سيرسي اعتقدتُ أنَّ الملكَ سيمنحني منصب إيرل شايرنغ بخاصَّةٍ بعدَ أن أنقذتُ حياةَ أمير ويلز الشاب».

«ولكن كانَ لرولاند وريثٌ شرعي ولهذا الوريث أيضاً ولدان».

«تماماً والآن وبعدَ موتِ الثلاثةِ...»

«أها» قال غريغوري وتجرعَ النبيذ من كأسهِ ثمَّ قال: «هذا نبيذٌ جيدٌ».

« نبيذُ غاسكون»، قال رالف.

«أفترضُ أنّه يصلكَ عن طريقِ ميلكومب».

«أجل».

«إنّه لذيذٌ»، قال غريغوري ثمَّ تجرَّعَ المزيد وبدا كأنّه على وشكِ قولِ شيءٍ ما ولهذا لزمَ رالف الصمتَ. أخذَ غريغوري وقتاً طويلاً في اختيارِ كلماتهِ بعنايةٍ ليقول أخيراً: «هناكَ في مكانٍ ما في ضواحي كينغزبريدج رسالةٌ... لا بد أن تكونَ موجودةً».

بدا رالف محتاراً حيالَ ما سمعه.

وتابعَ غريغوري كلامهُ: «لسنواتٍ عديدةٍ كانت هذهِ الوثيقةُ بحوزةِ شخصٍ يمكنُ الاعتمادُ عليهِ لأسبابٍ كثيرةٍ معقدةٍ ولكن في الفترةِ الماضيةِ أثارَ أحدهم أسئلةً معينةً حولها مما دفعني إلى الاعتقادِ بأنَّ السِّرَّ في خطرٍ وقد ينكشف».

كانَ الكلامُ غامضاً جداً ولهذا قالَ رالف بنفاد صبرٍ: «لم أفهم. من قد يطرحُ مثلَ هذهِ الأسئلةِ المُحرجةِ؟»

«رئيسةُ ديرِ كينغزبريدج».

«أوه».

«على الأرجحِ أنّها أمسكت بخيطٍ ما وطرحت الأسئلةَ بدافعِ الفضولِ ولكن أصدقاءَ الملكِ يخشونَ أن تقعَ الرسالةُ في يدها».

«أيّ رسالةٍ؟»

ومجدداً اختار غريغوري كلماته بعنايةٍ كأنّه يعبرُ نهراً هائجاً بالقفزِ على حجارةٍ مصفوفةٍ بعنايةٍ: «شأنٌ له صلةٌ بوالدةِ الملكِ العزيزةِ».

«الملكةُ الأمُّ»، قال رالف. يقولُ الناسُ إنَّ العجوزَ الشمطاء ما زالت حيّةً وتعيشُ في رخاءٍ في قصرها بمنطقةِ لاين وهي تمضي وقتها في قراءةِ الرواياتِ الرومانسيةِ بلغتها الفرنسيةِ الأمِّ.

« باختصار»، قال غريغوري. «أريد أن أعرف ما إن كانت رئيسةُ الديرِ تملكُ الرسالةَ أم لا، ولكن من دون أن يعرف أحدٌ بأنني أستقصي الأمرَ».

«وهذا يعني أن تذهب إلى الديرِ وتبحث في وثائقِ الراهباتِ... أو أن تُجلب هذهِ الوثائق إليكَ»، قال رالف.

«أفضّل الخيارَ الثاني».

أومأ رالف برأسهِ فقد بدأ يفهم ما يريدهُ غريغوري منه.

قال غريغوري: «لقد قمتُ ببعضِ التحريات السريّةِ ولكن لا أحد يعلمُ مكان خزنةِ الراهباتِ».

«لا بدَّ أنَّ الراهباتِ يعلمن، بعضهن على الأقلّ».

«ولكنهن لن يُفصحنَ عن مكانها. على أيِّ حالٍ وكما فهمت فأنتَ خبير في... إقناعِ الناس على كشفِ الأسرارِ».

إذاً، غريغوري يعرف بالأفعال الرهيبةِ التي اقترفها في فرنسا وهنا أدركَ رالف بأنَّ هذهِ المحادثة لم تكن عفوية فلا بدَّ أنَّ غريغوري قد خطّطَ لها بل قد تكون السبب الحقيقي وراءَ زيارتهِ إلى كينغزبريدج. «قد أكون قادراً على مساعدةِ أصدقاءِ الملكِ في حلِّ المشكلةِ»، قال رالف.

«هذا أمرٌ جيدٌ».

«إن أُعطيتُ وعداً بمنصبِ إيرل شايرنغ كجائزةٍ لي».

اكفهرَ وجهُ غريغوري وقال: «سيكونُ على الإيرل الجديدِ أن يتزوج من الكونتيسة العجوز».

قررَ رالف أن يخفي رغبتهُ الشبقة فقد أحسَّ بأنَّ غريغوري لن يحترمَ رجلاً

مدفوعاً ولو بشكلٍ جزئي وراءَ شهوتِهِ ولذلك قال: «إنَّ الليدي فيليبا أكبرُ مني بخمسِ سنواتٍ ولكني لا أمانعُ هذا».

نظرَ غريغوري إليه شزراً وقالَ: «إنَّها امرأةٌ جميلةٌ وسيكون الرجل الذي سيختارهُ الملكُ للزواجِ بها محظوظاً».

وأدركَ رالف أنَّه تجاوزَ حدَّهُ فقال: «لا أريد أن أبدو كأني غير مُبالٍ»، ثمَّ أضاف على عجلٍ: «إنَّها جميلةٌ بحقٍ».

«ولكني اعتقدُت بأنَّك متزوج. هل أنا مخطئ؟» سأل غريغوري.

نظرَ رالف وآلان بعضهما إلى بعض ولاحظَ رالف أنَّ آلان يبدو تواقاً لسماعِ جوابِ رالف.

تأوهَ رالف ثمَ قالَ: «زوجتي مريضةٌ جداً وأخشى أنَّها ستموتُ قريباً».

***

أوقدت غويندا النار في مطبخِ المنزلِ القديمِ الذي عاشَ فيهِ ولفريك منذُ ولادتِهِ. بحثت عن أواني الطبخِ وملأت إحداها بالماءِ من البئرِ ثمَّ أضافت بعضَ البصلِ الربيعي لصنعِ اليخنةِ وجلبَ ولفريك المزيد من الحطبِ بينما خرجَ الصبيان بسعادةٍ للعبِ مع أصدقائهما القدامى غير مدركين لحجمِ المأساةِ التي كانت تمرُّ بها العائلةُ.

وبينما كانَ الظلامُ يخيمُ في الخارجِ شغلت غويندا نفسها بالأعمالِ المنزليةِ في محاولةٍ لعدمِ التفكيرِ بما حصلَ فكلُّ شيءٍ خطرَ ببالها ضاعف من شعورها بالسوءِ حيال المستقبل والماضي وزوجها ونفسها. جلسَ ولفريك في المطبخِ وحدَّقَ إلى ألسنةِ النار في الموقدِ دونَ أن يتبادل هو وغويندا أيّ كلمةٍ.

ظهرَ جارهما ديفيد جونز عندَ البابِ حاملاً إبريقاً كبيراً من الجعةِ، كانت زوجتهُ قد توفيت جرَّاء الطاعونِ، ودخلت وراءَه ابنته البالغة جوانا. لم تكن غويندا سعيدةً برؤيتهما فقد أرادت أن تكونَ تعيسةً وحدها إلَّا أنهما كانا يحاولان التصرفَ بلطفٍ ولذلكَ لم يكن بوسعها معاملتهما بازدراء. مسحت غويندا بعبوسٍ الغبار عن بعضِ الكؤوسِ الخشبيةِ وسكبَ ديفيد الجعةَ للجميعِ.

«يؤسفنا أنَّ الأمورَ سارت على هذا النحو ولكننا سعداء برؤيتكما»، قالَ ديفيد بينما شربوا الجعة.

أفرغَ ولفريك كأسهُ دفعةً واحدةً ورفعهُ طالباً المزيد.

بعدَ قليلٍ وصلَ آرون آبلتري وزوجتهُ أوللا. كانت زوجتهُ تحملُ سلةً فيها أرغفةُ خبزٍ صغيرةٌ. «أعلم أنّه ليسَ لديكما أيُّ خبزٍ ولهذا أعددتُ البعضَ منهُ»، قالت أوللا وناولتهما السلةَ وامتلأ المنزل برائحةِ الخبزِ المسيلةِ للعابِ. سكبَ ديفيد جونز بعضَ الجعةِ للجميعِ وجلسوا جميعاً إلى الطاولةِ. «من أينَ واتتكما الشجاعةُ على الهربِ؟» سألتهُما أوللا في إعجابٍ. «لو فعلتها لكنتُ مُتُّ من الهلعِ!»

وقصَّت عليهم غويندا مغامراتهما وعندها وصلَ جاكِ وإيلي فوللر من الطاحونةِ حاملاً صحناً من الإجاصِ المطهو مع العسلِ. تناولَ ولفريك الكثيرَ من الطعام وشربَ بنهمٍ. أصبحَ الجو ألطف وشعرَت غويندا بمعنوياتها ترتفعُ. وصلَ المزيدُ من الجيرانِ وجميعهم حملوا الهدايا. عندما أخبرتهم غويندا عن أهلِ قريةِ أوثنباي وكيفَ واجهوا برفوشِهم ومناجلِهم رالف وآلان ضحكَ الجميعُ بابتهاجٍ.

ثمَّ وصلت غويندا بالقصةِ إلى أحداثِ اليومِ وشعرت باليأسِ مجدداً. «لقد كانَ كلُّ شيءٍ ضدنا»، قالت بمرارةٍ ثمَّ أضافت: «ولا أعني بهذا رالف والرجلين المستأجرين بل الملك والكنيسة. لم يكن لدينا أدنى فرصة».

أومأ الجيرانُ رؤوسهم في كآبةٍ.

«ثمَّ وعندما وضعَ الحبلَ حولَ عُنقِ ولفريك...» وغمرها شعورٌ باليأسِ الشديدِ وارتعشَ صوتها ولم تعد قادرةً على المتابعةِ فأخذت جرعةً من كأسها وحاولت مجدداً أن تُكملَ كلامها: «عندما وضعَ رالف العديم الرحمةِ والمتوحشُ الحبلَ حولَ عُنقِ ولفريك، أقوى وأشجع رجلٍ عرفتهُ أو عرفهُ أحدٌ، وقادهُ في البلدةِ كحيوانٍ أردت أن تُطبقَ السماء علينا وتقتلنا».

كانت كلماتها قويةً ووافقها الجميعَ بهزِّ رؤوسهم فمن بينَ جميعِ الأمورِ التي يفعلها السادةُ بالفلاحين من تجويعٍ وخيانةٍ وإهانةٍ وسرقةٍ كان إذلالهم هو الأسوأ لأنَّ نسيانه صعبٌ.

وفجأةً أرادت غويندا أن يغادرَ الجيرانُ. كانَت الشمسُ قد غربت وحلَّ الظلامُ في الخارجِ وشعرت بحاجةٍ إلى الاستلقاءِ وإغلاقِ عينيها والبقاء وحدها مع أفكارها. لم تكن راغبةً بالكلامِ حتّى مع ولفريك وكانت على وشكِ الطلبِ من الضيوفِ المغادرة عندما دخلَ نيثان ريف.

خيَّم الهدوء على الغرفةِ.

«ما الذي تريدهُ؟» قالت غويندا.

«أحملُ معي أخباراً طيبةً»، قالَ نيثان بمرحٍ.

ارتسم الازدراءُ على وجهها وهي تقول: «لا يمكن أن يكونَ هناكَ أخبار طيبةٌ لنا اليوم».

«أخالفكِ الرأيَ فأنتِ لم تسمعيها بعد».

«حسناً وما هي هذهِ الأخبار؟»

«يقولُ السير رالف إنّ ولفريك يستطيع استعادة أراضي والدهِ».

قفزَ ولفريك على قدميهِ قائلاً: «كمستأجرٍ؟ وليسَ كعاملٍ؟»

«كمستأجرٍ وبالشروطِ التي أخذها والدكَ»، قالَ نيثان مستفيضاً كأنّه صاحب الكلمةِ في الأمرِ وليس مجرد رسول.

أضاءَ وجهُ ولفريك من السعادةِ وقال: «هذا رائعٌ!»

«هل تقبل؟» قالَ نيثان بخفةِ ظلٍ كأنَّ الأمر مجرَّد إجراءٍ شكلي.

قالت غويندا: «لا تقبل يا ولفريك!»

نظرَ إليها ولفريك في استغرابٍ وكعادتهِ كان بطيئاً في رؤيةِ أبعادِ الأمورِ على الفورِ.

«ناقشهُ في الشروطِ»، حثَّتهُ غويندا بصوتٍ واطئ. «لا تكن قِنّاً كوالدكِ واطلب إيجاراً حُرّاً من دونِ التزاماتٍ للسيدِ. لن تحظَى بموقفٍ تفاوضي قوي كهذا مجدداً. فاوض!»

«أفاوض؟» قالَ ولفريك ولبرهةٍ وجيزةٍ بدا متردداً ثمَّ استسلمَ للسعادةِ التي حملها هذا الخبرِ. «هذهِ هي اللحظةُ التي كنتُ أتمنى قدومها منذُ اثنتي عشرة سنة لذلك لن أفاوض»، واستدارَ نحو نيثان قائلاً: «أقبل»، ثمّ رفعَ كأسهُ عالياً.

وهللَ الجميعُ.

-70-

بعد تراجع انتشارِ المرضِ خلالَ الشهور الثلاثةِ الأولى من عام 1349 امتلأ المستشفى مجدداً. عادَ الوباء في شهرِ نيسان/ أبريل على نحو أكثر خُبثاً من ذي قبلٍ، وفي صباح اليوم التالي على عيدِ الفصح نظرت كاريس في ضيقٍ إلى صفوفِ الأسرَّةِ المحشورةِ بشكلٍ متعرجٍ. كانت صفوفُ الأسرَّةِ قريبةً جداً بعضها من بعض، واضطرَّت الراهباتُ اللواتي كنَّ يضعن الأقنعةَ إلى السيرِ بحذرٍ شديدٍ بينها، ولكن الحركة حولَ المكانِ كانت أسهل قليلاً بسببِ قلّة

عددِ أفرادِ العائلات الملازمين لأسرَّةِ المرضى؛ فقد أصبح الجلوس إلى جانبِ قريبٍ يحتضرُ أمراً خطيراً بسببِ الاحتمالِ الكبير في التقاطِ العدوى. لم يعد الناسُ في هذهِ الأيام كما كانوا في السابقِ وباتوا أكثرَ قسوةً. عندما بدأ الوباءُ لم يفارقوا جانبَ أحبائِهم رغمَ احتمالِ التقاطهم للعدوى، ولازمت الأمهاتُ أطفالهن والأزواجُ زوجاتهم والأبناءُ في أوساطِ العمرِ آباءهم المسنين، آنذاك تغلَّبَ الحبُ على الخوفِ ولكن كل هذا تغير بعد أن حلَّ الموت روابط الأسرة القويةِ. كان المريضُ يُجلبُ من قبلِ أمٍ أو أبٍ أو زوجٍ أو زوجةٍ وعندما يوصولونهُ يغادرون ببساطةٍ متجاهلين صراخ وتضرعات المريضِ خلفهم. ما من أحد تحدَّى المرض سوى الراهبات بأقنعتهن وأيديهن المغسولةِ بالخلِّ.

وما كان مفاجئاً حقاً هو أن كاريس لم تعانِ من نقصٍ في المساعدة فقد شهدَ ديرُ الراهباتِ موجةً من الراهباتِ الجديدات اللواتي حللن محلَّ الراهباتِ المتوفياتِ، ويعودُ بهذا في جزءٍ منهُ إلى صيتِ القداسةِ الذي أحاطَ بكاريس، إلّا أن ديرَ الرهبانِ شهدَ موجةً مماثلةً من الرهبانِ الجددِ وباتَ لدى توماس صفٌ من الرهبانِ المتدربين وجميعهم كانوا يبحثون عن النظامِ في عالمٍ عاثَ فيهِ الجنون فساداً.

ضربَ الوباءُ هذه المرة بعضاً من وجهاءِ المدينةِ الذين نجوا منهُ سابقاً وقد استاءت كاريس من وفاةِ المأمورِ جون فعلى الرغمِ من أنّها لم تُحب يوماً طريقتهُ الخشنة في تحقيقِ العدالةِ لأنه كان يجابه مسببي المتاعبِ بالعنف أولاً ثمَّ يطرح الأسئلةَ إلا أنَّ الحفاظَ على النظامِ في المدينةِ سيغدو أصعب في غيابهِ. توفيت باتي باكستر السمينة وخبَّازة الكعك الخاصّ بكلِّ احتفالٍ في المدينة وصاحبة الأسئلةِ الذكيةِ في اجتماعاتِ نقابةِ الأبرشيةِ وتصارعت أخواتها الأربع على ملكيتها، وتوفي أيضاً ديك بروير آخر الرجالِ من جيلِ والدها والخبير في كسبِ المالِ والتمتع بهِ.

نجحت كاريس وميرثن في الحدِّ من انتشارِ الوباء من خلالِ إلغاءِ الاجتماعاتِ العامة الكبرى، ومنعِ المواكب الكبيرة في عيدِ الفصحِ في الكاتدرائيةِ، وعدمِ إقامةِ سوق الصوفِ في عيدِ العُنصرةِ، وقد أُقيمَ السوقُ الأسبوعي خارجَ أسوارِ المدينةِ في منطقةِ لفرزفيلد حيثُ بقي معظمُ سكانِ المدينةِ بعيدين عن الأغرابِ. أرادت كاريس أخذَ مثل هذه الإجراءات عندما ضربَ الوباءُ في المرة الأولى ولكن غودوين وإلفريك عارضاها، ووفقاً لما

أخبرها بهِ ميرثن فقد قامت بعضُ المدنِ الإيطاليةِ بإغلاقِ أسوارها لثلاثين أو أربعينَ يوماً وأطلقوا على هذا التكتيك اسمَ الحَجرِ. وعلى الرغم من أن الوقتَ الآن قد تأخرَ على منعِ المرضِ من دخولِ المدينةِ فإنَّ كاريس كانت واثقةً من أنَّ الإجراءات التي اتخذتها ستنقذُ حيواتِ أناسٍ كثر.

على الرغم من كلِّ هذهِ الصعوبات فإن كاريس لم تعانِ من نقصِ المال فقد منحَ أناسٌ كثر ثرواتهم وممتلكاتهم إلى ديرِ الراهباتِ لعدمِ وجودِ أقرباء، والعديد من الرهبانِ والراهباتِ الجددِ جلبوا معهم ملكياتِ أراضيهم وقطعانهم وبساتينهم وذهبهم إلى الديرِ الذي لم يشهد مثلَ هذا الثراءِ قبلاً.

ولكن هذا لم يُعزها إلّا قليلاً فها هي ولأوَّلِ مرةٍ في حياتها تشعرُ بالتعبِ ولكن ليسَ ذلكَ التعب الناجم عن الإجهادِ بل عن استنزاف الطاقةِ وتراجعِ العزيمةِ وانتصارِ الوهن تحتَ وطأةِ المحنةِ. كان الوباء هذهِ المرة أسوأ من ذي قبلٍ وحصدَ مئتي شخصٍ أسبوعياً ولذلكَ وقفت كاريس حائرة أمام ما ستفعلهُ وكيفية الاستمرار بعملها. آلمتها عضلاتها ورأسها وشعرت أحياناً أنَّ بصرها يغشاها، وتساءلت في نفسها بأسى إلى أين سينتهي بهم المطافُ وإن كانَ الموتُ نصيبَ جميع من في المدينةِ.

دخلَ رجلان مترنحان من بابِ المستشفى وكانا ينزفان فهرعت كاريس نحوهما، وقبلَ أن تقترب منهما كثيراً شمَّت تلكَ الرائحة المعتقة والحلوة للمشروبِ. كانا عاجزين تماماً بتأثيرِ الثمالةِ رغمَ أنَّ الوقتَ لم يتجاوز الظهرَ بعد. زمجرت كاريس في يأسٍ فقد غدا هذا المشهدُ شائعاً جداً هذهِ الأيام.

عرفت كاريس الرجلين إلّا أن معرفتها بهما كانت بعيدةً. كان بارني ولو شابينِ قويينِ وهما عاملان في مسلخٍ من مسالخِ إدوارد سلوترهاوس. تدلّت ذراع بارني على جانبهِ كأنّها مكسورةٌ بينما عانى لو من إصابةٍ رهيبةٍ على وجههِ فقد كانَ أنفهُ مكسوراً وعينه منتفخة بشكلٍ مروعٍ. لاحظت كاريس أنَّ الشابين ثملانِ جداً ولذلك لم يشعرا بأيِّ ألمٍ: «كان شجاراً»، انبرى بارني قائلاً في كلماتٍ بالكاد يُمكن فهمها، «لم أقصد الدخولَ في شجارٍ. إنَّه أفضلُ أصدقائي وأنا أُحبّهُ».

وضعت كاريس والأخت نيلي الشابين الثملين على فراشين متجاورين. فحصت نيلي بارني وقالت لكاريس إنَّ ذراعه ليست مكسورة بل مخلوعة ثمَّ بعثت براهبةٍ مبتدئةٍ لتُحضرَ ماثيو باربر الذي سيحاولُ إعادةَ الكتفِ المخلوعِ

إلى مكانِهِ. غسلت كاريس وجهَ لو ولكن لم يكن هناكَ ما تستطيعُ فعلهُ لإنقاذِ عينِهِ التي انفقأت كبيضةٍ مسلوقةٍ.

أثارت مثل هذهِ الحوادث غضبها الشديد فلم يعانِ الرجلان من أيِّ مرضٍ أو إصابةٍ عرضيةٍ بل قاما بإيذاءِ نفسيهما بسببِ الإفراطِ في الشربِ. بعدَ تراجع الموجة الأولى من الطاعونِ كانَت قد نجحت في دفعِ سكانِ المدينةِ إلى الالتزامِ بالنظامِ والقانونِ، ولكنَّ الموجة الثانية وجهت لأرواحهم ضربةً رهيبةً ولذلك عندما طالبتهم مجدداً بالتزامِ السلوكِ المتحضرِ أتى ردُّ الفعلِ فاتراً وباتت حائرة حيال ما عليها القيامُ بهِ ولهذا السببِ نال منها التعبُ.

وبينما كانت كاريس تتأملُ الشابينِ المشوهينِ والممددينِ بعضهما إلى جانبِ بعض على الأرضيةِ سمعت ضجةً غريبةً قادمةً من الخارجِ، ولوهلةٍ شعرت كأنّها عادت بالزمنِ ثلاثَ سنواتٍ إلى الوراء، إلى معركةِ سيرسي وإلى صوتِ الانفجارِ الرهيبِ الذي أصدرتهُ آلاتُ الملكِ إدوارد الجديدة وهي تقذفُ بالحجارةِ على صفوفِ جيشِ العدو. بعدَ برهةٍ سمعت كاريس الضجةَ مجدداً وأدركت أنّها ضجةُ طبلٍ، أو ربما مجموعةُ طبولٍ يُضربُ عليها وفق إيقاعٍ معينٍ، ومن ثمّ سمعت أصواتَ مزامير قربة وأجراس ناشزة وتلاها أصوات عويلٍ خشنة ونواح وصراخ كالذي يُسمعُ عندَ النصرِ أو عندَ التعرضِ لإصابةٍ، أو ربما في كليهما. كانت ضجةً كضجةِ معركةٍ ولكن من دون صوت الرماحِ القاتلةِ أو صراخ الجياد المشوهة وخرجت متجهمةً تستطلعُ الأمرَ.

رأت كاريس مجموعةً من أربعين شخصاً أو أكثر قادمين باتجاهِ حديقةِ الكاتدرائيةِ وهم يرقصونَ رقصةً مجنونةً. كانَ بعضهم يعزفُ على آلاتٍ موسيقيةٍ، أو بالأحرى يضربُ عليها، لأنَّ الموسيقى افتقرت إلى أي تناغمٍ، وكانت ثيابهم الفضفاضةُ الفاتحةُ اللونِ ممزقةً وقذرةً، وبعضهم شبه عارٍ وغير مبالٍ لكون أعضائه الخاصةِ مكشوفة للعيانِ. ومن لم يحملوا أدواتٍ موسيقيةً حملوا سياطاً. لحقَ بهم حشدٌ من سكانِ المدينةِ وهم يحدقونَ في فضولٍ وذهولٍ.

كانَ الأخُ موردو يقودُ حشدَ الراقصين وقد بدا أكثرَ سمنةً من ذي قبلٍ ويثبُ بكلِّ نشاطٍ والعرقُ يقطرُ من وجههِ القذرِ ومن لحيتِهِ المشعثةِ بغزارةٍ. توجه بالحشد إلى البوابةِ الغربيةِ الكبيرةِ للكاتدرائيةِ حيثُ استدارَ ليخاطبهم وجهاً لوجه في صوتٍ غليظٍ: «لقد وقعنا جميعاً في الخطيئةِ!»

وصرخَ أتباعهُ كأنّهم يوافقونهُ على ما قالهُ إلا أن صراخهم وزمجراتهم لم تكن مفهومة.

«نحنُ قذرون!» قالَ بحماسٍ. «إننا نتمرغُ في الرذيلةِ كما تتمرغُ الخنازيرُ في القذارةِ، ونذعنُ مرتجفين من الرغبةِ لوطأةِ شهواتنا الجسديةِ. إننا نستحقُ الوباءَ!»

«أجل!»

«ما الذي يجبُ علينا القيامُ بهِ؟»

«أن نعاني!» صرخوا جميعاً. «يجبُ أن نعاني!».

واندفعَ أحدُ الأتباعِ من بينِ الحشدِ وبيدهِ سوطٌ مؤلفٌ من ثلاثِ قطعٍ جلديةٍ في نهايةِ كل قطعة ما يشبه الحجر الحاد والمربوط إلى السوط في عُقدةٍ. رمى الرجلُ بنفسهُ تحتَ قدمي موردو وبدأ يجلدُ نفسهُ على ظهرهِ فمزّقَ السوط قماشَ ردائهِ الرقيق وأدمى جلدَ ظهرهِ. صرخَ الرجلُ من الألمِ وبقيةُ أتباع موردو يئنونَ في تعاطفٍ معهُ.

بعد الرجلِ تقدمت امرأةٌ وأنزلت ثوبها حتّى خصرها كاشفةً عن صدرها العاري أمامَ الحشدِ ثمَّ جلدت نفسها على ظهرها العاري كما فعلَ الرجلُ وأخذَ الحشدُ يئنُّ مجدداً.

وبينما كانوا يتقدمون أفراداً أو أزواجاً ويجلدونَ أنفسهم رأت كاريس أنَّ العديدَ منهم يعاني من كدماتٍ وجروح شبهِ ملتئمةٍ وهذا يعني أنهم قاموا بهذا قبلاً، وبعضهم قامَ به مراتٍ عديدةً. هل كانوا ينتقلونَ من بلدةٍ إلى أخرى ويكررونَ هذا العرض؟ ولأنَّ موردو متورطٌ في هذا الأمر فقد كانت واثقةً من أنَّ أحدهم عاجلاً أم آجلاً سيبدأ في جمعِ المالِ.

وفجأةً انطلقت امرأةٌ من بينِ حشدِ المشاهدين وهي تصرخُ: «وأنا أيضاً يجبُ أن أعاني!» تفاجأت كاريس عندما رأت أنَّ المرأة كانت ميرد زوجة مارسيل تشاندلر الشابةَ والعابسة. لم تتخيل كاريس أنَّ ميرد قد ترتكب الكثيرَ من الخطايا ولكنها وجدت في هذا العرضِ فرصةً لإضفاءِ الدراما على حياتها. رفعت ميرد فستانها ووقفت عاريةً أمامَ الأخ موردو، كانَ جلدها خالياً من أيّ علامةٍ بل بدا جميلاً.

حدَّقَ موردو إليها طويلاً ثمَّ قالَ: «قبلي قدمي».

ركعت أمامهُ كاشفةً بشكلٍ فاضحٍ عن مؤخرتها أمامَ الحشدِ الذي وقفَ وراءها ثمَّ أخفضت رأسها أمامَ قدميهِ العاريتين.

أخذَ موردو السوط من أحدِ التائبين وسلَّمها إياه فجلدت نفسها ثمَّ صرخت من شدَّةِ الألمِ لتظهرَ فوراً علاماتٌ حمراء على جلدها الأبيض.

اندفعَ المزيدُ من الناس في حماسٍ وكان معظمهم من الرجالِ. كررَ موردو الطقسَ نفسهُ مع كلِّ واحدٍ منهم، وسرعان ما تحولَ المكانُ إلى حفلةِ اهتياجٍ جماعي، وعندما لا يجلدون أنفسهم كانوا يقرعونَ على طبولهم وأجراسهم ويرقصونَ رقصتهم الشيطانية.

بدت أفعالهم أشبه بانغماسٍ مجنونٍ في الملذاتِ إلا أنَّ كاريس، وبعينها الخبيرةِ، لاحظت أنَّ ضرباتِ السوطِ ورغمَ أنَّها بدت شديدةً ومؤلمةً فإنَّها لم تُحدث أذياتٍ دائمةً.

وقفَ ميرثن بجانبِ كاريس: «ما رأيك في هذا؟»

عبست وقالت: «لمَ يجعلني هذا أشعرُ بالاستياء؟»

«لا أعلم».

«إن أرادَ الناسُ جلدَ أنفسهم لمَ قد أعترض فربما هذا يمنحهم شعوراً أفضل».

«أتفقُ معكِ»، قال ميرثن. «عادةً ما يكونُ هناكَ خدعة ما في أيِّ شيءٍ يتورطُ بهِ موردو».

«قد لا يكون هذا ما في الأمرِ هذهِ المرة».

وحسمت كاريس رأيها بأنَّ الجو الذي يحيطُ بالمكانِ لم يكن جو توبةٍ لأنَّ هؤلاءِ الراقصين لم يكونوا في حالةِ مراجعةٍ أو تأملٍ لحيواتهم بل لم يبدُ عليهم الشعور بالأسى والندمِ على الخطايا التي ارتكبوها. عادةً ما يبدو التائبون الصادقون هادئين وغارقين في التفكيرِ ومتحفظين، وما شعرت بهِ كاريس الآن كانَ شيئاً مختلفاً تماماً فقد كانت الحماسةُ تسودُ الجو.

«هذا فسوقٌ»، قالت كاريس.

«وبدلاً من الإفراطِ في الشُربِ انغمسوا في جلدِ الذاتِ».

«وهناكَ شيءٌ من النشوةِ في هذا».

«ولكن من دونِ جنسٍ».

«أعطهم بعضَ الوقتِ».

قادَ موردو الموكبَ باتجاهِ الديرِ ولاحظت كاريس أنَّ بعضَ من جلدوا أنفسهم أخرجوا أوعيةً وبدأوا يستجدونَ المالَ من الحشدِ، وتكهنت بأنهم سيجوبون شوارع المدينةِ الرئيسيةِ وهم على هذهِ الحالةِ، سينتهي بهم المطافُ على الأغلبِ في إحدى الحاناتِ الكبيرةِ حيث سيشتري لهم الناسُ الطعامَ والشرابَ.

لامسَ ميرثن ذراعها وقالَ لها: «تبدين شاحبةً هل أنتِ بخير؟»

«متعبة فقط»، قالت بخشونةٍ. كانَ عليها أن تتمالكَ نفسها أيًا تكن الحالةُ التي تشعرُ بها ولذلك لم يكن تذكيرها بتعبها مفيداً. على أيِّ حالٍ كانَ لطفاً منهُ أن يلاحظَ هذا ولهذا خففت من حدَّةِ لهجتها قائلةً: «رافقني إلى منزلِ رئيسِ الديرِ لقد حانَ موعدُ الغداء».

عبرا حديقةَ الكاتدرائيةِ بينما الموكبُ يختفي بعيداً عن الأنظارِ. دخلا إلى القصرِ وحالما أصبحا وحدهما عانقت كاريس ميرثن وقبّلتهُ، وفجأةً شعرت بالحماسِ فأقحمت لسانها في فمهِ وهي تعلمُ مدى حُبهِ لهذا فما كانَ منهُ إلا أن أمسكَ ثدييها وعصرهما بلطفٍ. لم يقبلا بعضهما بهذهِ الطريقةِ داخلَ القصرِ قط، وتساءلت كاريس في نفسها إن كانت عربدةُ الأخِ موردو التي رأتها للتو سببَ تراخي ضوابطها المعتادةِ.

«جلدُكِ ساخنٌ»، همسَ ميرثن في أذنها.

أرادتهُ أن ينزعَ عنها ثوبها ويمص بفمهِ حلمتي ثدييها، وشعرت كأنّها على وشكِ فقدانِ السيطرةِ وممارسةِ الحبِّ معه هنا على الأرضيةِ حيثُ سيُمسكان بالجرمِ المشهودِ بكلِّ سهولةٍ.

ثمَّ أتى صوتُ فتاةٍ تقول: «لم أقصد التجسس».

صُدمت كاريس وابتعدت عن ميرثن بسرعةٍ ثمَّ استدارت ونظرت إلى المتحدثةِ. في إحدى زوايا الغرفةِ وعلى مقعدٍ جلست امرأةٌ شابةٌ تحملُ طفلاً. كانت زوجةُ رالف فيتزجيرالد.

«تيلي!»، قالت كاريس.

وقفت تيلي وقد بدت متعبةً وخائفةً ثمَّ قالت: «أنا آسفةٌ جداً على إثارةِ رعبكما».

شعرت كاريس بالراحةِ فقد كانت تيلي في مدرسةِ الراهباتِ وعاشت في

الديرِ لسنواتٍ وتكنُّ حباً جماً لكاريس ولذلك يمكنُ الوثوق بها وبأنّها لن تسبب أيَّ متاعبٍ بشأنِ القبلةِ التي رأتها للتو، ولكن ما سبب وجودها هنا.

«هل أنتِ على ما يرام؟» سألتها كاريس.

«أنا متعبةٌ قليلاً»، قالت تيلي وترنحت فأمسكت بها كاريس من ساعدِها.

بكى الطفلُ فأخذهُ ميرثن وبدأ يهزُّه بيدٍ خبيرةٍ قائلاً: «اهدأ اهدأ يا ابن أخي الصغير»، وتحولَ بكاءُ الطفلِ إلى نشيجٍ خفيضٍ.

قالت كاريس لتيلي: «كيفَ وصلتِ إلى هنا؟»

«لقد مشيت».

«من تينش هيل؟ وأنتِ تحملين الطفلَ؟» كانَ الطفلُ الآن بعمرِ ستةِ أشهر ولم يعد حملهُ سهلاً.

«استغرقتُ ثلاثةَ أيامٍ للوصولِ إلى هنا».

«يا إلهي! هل وقعَ خطبٌ ما؟»

«لقد هربتُ».

«ألم يلحق بكِ رالف؟»

«أجل ومعهُ آلان ولكني اختبأتُ في الغابة عندما مرَّا بالقربِ مني، وقد أحسنَ جيري التصرفَ ولم يبكِ».

وعندما تخيلت كاريس الصورةَ شعرت بغصّةٍ في حلقها. «ولكن...» ثمَّ ابتلعت ريقها وتابعت: «ولكن لماذا هربت؟»

«لأنَّ زوجي يريد قتلي»، قالت تيلي وانخرطت في البكاءِ.

أجلستها كاريس على المقعدِ وأحضر لها ميرثن كأساً من النبيذِ. تركاها تنشجُ من دونِ إزعاجٍ وجلست كاريس على المقعدِ بقربها ثمَّ لفت ذراعها حولَ كتفيها وحملَ ميرثن الطفل جيري. وعندما انتهت تيلي من البكاءِ قالت كاريس: «ما الذي فعلهُ رالف؟»

هزّت تيلي رأسها وقالت: «لا شيء ولكني أعرف من الطريقةِ التي ينظرُ فيها إلي أنّه يريدُ قتلي».

وغمغمَ ميرثن قائلاً: «أتمنى لو كان بوسعي القول إنَّ أخي غيرُ قادرٍ على فعلِ هذا».

قالت كاريس: «ولكن لمَ قد يرغبُ بفعلِ أمرٍ مريعٍ كهذا؟»

«لا أعلم»، قالت تيلي في بؤسٍ. «ذهبَ رالف إلى جنازةِ العمِّ ويليام وكانَ هناكَ محامٍ من لندن يدعى غريغوري لونغفيلو».

«أعرفهُ»، قالت كاريس. «إنَّه رجلٌ ذكي ولكنني لا أستلطفهُ».

«وبعد هذا بدأ الأمرُ. لدي شعورٌ بأنَّ للأمرِ علاقةً بغريغوري».

أضافت كاريس: «لم يكن عليكِ قطعُ كلِّ هذهِ المسافةِ سيراً على الأقدامِ والطفل معكِ بسببِ أمرٍ تخيلتهِ».

«أعلمُ أنَّ الأمرَ يبدو ضرباً من الخيالِ ولكنه يجلسُ ويحدقُ بي في حقدٍ. كيفَ يمكنُ لرجلٍ أن ينظرَ إلى زوجتهِ بهذهِ الطريقةِ؟»

«حسناً، لقد أتيتِ إلى المكانِ المناسبِ»، قالت كاريس. «أنتِ بأمانٍ هنا».

«هل يمكنني البقاءُ؟» سألت تيلي في رجاءٍ. «ألن تعيديني إلى تينش؟»

«بالطبعِ لا»، قالت كاريس والتقت عيناها بعيني ميرثن وعلمت بما كانَ يفكرُ. كان إعطاءُ تيلي ضمانةً عملاً متهوراً. عموماً، يلجأ الكثيرون إلى الكنيسةِ ولكن دير الراهباتِ لا يملك الحقَّ في إيواءِ زوجةِ فارسٍ وإبعادها عنهُ إلى أجلٍ غير مسمى لأنَّ هذا كفيل بإثارةِ الشكوكِ. علاوةَ على هذا يحقُّ لرالف أن يطالبها بتسليمِ طفلها، فهو ابنهُ ووريثهُ، ولكن كاريس حاولت أن تتحدثَ بكلِّ ثقةٍ ممكنةٍ قائلةً: «يمكنكِ البقاءُ هنا قدرَ ما تريدين».

«أوه، شكراً لكِ».

وصلَّت كاريس في داخلها كي تتمكن من الحفاظِ على هذا الوعدِ.

«يمكنكَ أن تعيشي في إحدى غرفِ الزوارِ الخاصةِ في الطابقِ العلوي فوقَ المستشفى»، قالت كاريس.

بدت تيلي مضطربةً. «ولكن إن أتى رالف؟»

«لن يجرؤ على فعلِ شيءٍ، ولكن إن كانَ هذا لن يشعركِ بالأمانِ فيمكنكِ أخذ غرفة الأمِّ سيسيليا في نهايةِ مهجعِ الراهباتِ».

«أجل من فضلكِ».

دخلت خادمةٌ من الديرِ وجهزت طاولةَ الغداءِ وقالت كاريس لتيلي: «سأخذكِ إلى غرفةِ الطعامِ ويمكنكِ تناول الغداء مع الراهباتِ ثمَّ الاستلقاء في المهجع وأخذ قسطٍ من الراحةِ». ثمَّ وقفت.

شعرت كاريس بالدوار فجأةً فوضعت يدها على الطاولةِ لتوازنَ نفسها وميرثن الذي مازالَ يحملُ الطفلَ جيري قالَ لها في قلقٍ: «ما الخطب؟»

«سأكونُ بخيرٍ بعدَ قليلٍ»، قالت كاريس. «أنا متعبةٌ فقط».

وسقطت على الأرض.

***

شعرَ ميرثن بموجةِ رعبٍ تجتاحهُ، ووقفَ مصعوقاً لبرهةٍ من الزمنِ فكاريس لم تمرض قط، لم تكن يوماً بلا حولٍ ولا قوةٍ واعتنت بالمرضى دوماً ولذلك لم يكن قادراً على التفكيرِ بها كضحيةٍ.

مرَّت اللحظةُ كومضةٍ وسلَّمَ ميرثن الطفلَ بحذرٍ إلى تيلي وهو يقاومُ خوفهُ.

توقفت الخادمةُ التي كانت تجهزُ طاولةَ الغداءِ عن العملِ وحدَّقت في صدمةٍ إلى جسدِ كاريس الخامد والممدّدِ على الأرضِ. جاهدَ ميرثن للتحدثِ بصوتٍ هادئ وجاد في آنٍ معاً: «فلتهرعي إلى المستشفى ولتخبريهم أنَّ الأمَّ كاريس مريضةٌ. أحضري الأختَ أوناغ. هيا اذهبي بأقصى سرعةٍ!» وهرعت الفتاةُ راكضةً.

ركعَ ميرثن بجانبِ كاريس وقال: «هل يمكنكِ سماعي يا عزيزتي؟» ثمَّ أخذَ يدها الرخوة وربَّتَ عليها ولامسَ خدَّها ورفعَ جفنها بإصبعهِ. كانت غائبةً عن الوعي.

قالت تيلي: «هل أصيبت بالطاعون؟»

«يا إلهي»، قال ميرثن وحملَ كاريس على ذراعيهِ. كانَ رجلاً نحيلاً إلَّا أنَّه كانَ قادراً على حملِ أغراضٍ ثقيلةٍ وحجارة بناءٍ ودعائم خشبيةٍ لذلك رفعها بسهولةٍ ثمَّ وقفَ منتصباً ووضعها على الطاولةِ. «لا تموتي»، همسَ لها في أذنها. «من فضلكِ لا تموتي».

قبَّلها على جبهتها ووجدها ساخنةً. كان قد شعرَ بهذا عندما كانَ يعانقها منذُ دقائقَ قليلةٍ إلا أنَّ العناقَ أثارَ حماسهُ وأغفلهُ عن القلقِ، وقد يكون هذا سببُ الشغفِ الذي أظهرتهُ منذُ قليلٍ فللحمّى مثلُ هذا التأثيرِ.

دخلت الأختُ أوناغ وشعرَ ميرثن بالامتنانِ الكبير لقدومها إلى درجةِ أنَّه بدأ يبكي. كانت راهبةً شابةً ولم يمضِ على ترسيمها راهبةً سوى عام أو عامين إلا أنَّ كاريس كانت تُقدرُ مواهبَ أوناغ الطبيةَ، ولذلكَ كانت تُجهزها لاستلام زمامِ أمورِ المستشفى في المستقبل.

ربطت أوناغ قناعاً كتانياً حولَ فمها وأنفها وعقدتهُ وراءَ عنقها ثمَّ لامست جبهةَ وخدي كاريس قائلةً: «هل عطست؟»

مسحَ ميرثن دموعهُ وقال: «لا». كانَ واثقاً من أنَّه سيلاحظُ ذلكَ العطاس المشؤوم الذي يُنذرُ بالسوءِ.

رفعت أوناغ ياقةَ ثوبِ كاريس وبدت لميرثن ضعيفةً جداً بصدرها الصغيرِ المكشوفِ، ولكنه سُرَّ عندما لم يرَ أيَّ طفحٍ أرجواني على صدرها. غطتها أوناغ مجدداً ونظرت إلى فتحتي أنفِ كاريس ثمَّ قالت: «لا يوجد نزيفٌ»، وتحسست نبضَ كاريس بعنايةٍ.

بعدَ عدَّةِ دقائق نظرت أوناغ إلى ميرثن وقالت: «قد لا يكون الطاعون بل مرضٌ خطيرٌ آخر، إنَّها مصابةٌ بالحمى ونبضها سريعٌ وتنفسها ضعيفٌ، فلتحملها إلى الأعلى ولتمددها على السريرِ ولتمسح وجهها بماءِ الوردِ، ومن سيهتمُ بها يجبُ أن يرتدي قناعاً ويغسلَ يديهِ كأنّها مصابةٌ بالطاعونِ بمن فيهم أنتَ»، وناولته قطعةَ قماشٍ كتانية.

ترقرت الدموعُ على وجههِ وهو يربطُ القناعَ ثمَّ حملَ كاريس إلى الطابقِ العلوي ووضعها على الفراشِ في غرفتها ورتَّبَ ثوبها. أحضرت الراهباتُ ماءَ الوردِ والخلِّ، وأخبرهن ميرثن بتعليماتِ كاريس بخصوصِ تيلي فأخذنَ الأمَّ الشابةَ وطفلها إلى غرفةِ الطعامِ، وجلسَ ميرثن بجانبِ كاريس وهو يربّتُ على جبهتها وخدها بخرقةٍ مبللةٍ بالسائلِ العطرِ وهو يصلي لتستردَ وعيها.

وأخيراً استعادت كاريس وعيها وفتحت عينيها وعبست في ذهولٍ ثمَّ نظرت في قلقٍ وقالت: «ما الذي حدثَ؟»

«لقد أغمي عليكِ»، قالَ لها.

حاولت أن تجلسَ.

«لا تنهضي»، قال لها. «أنتِ مريضةٌ. قد لا تكونين مصابةً بالطاعونِ ولكنكِ مصابةٌ بمرضٍ خطيرٍ».

كانت ضعيفةً حقاً لأنَّها أراحت رأسها على الوسادةِ دونَ أن تُبدي مزيداً من الاعتراضاتِ وقالت: «سأستريحُ لساعة».

ولازمت السريرَ لأسبوعين.

***

بعدَ ثلاثةِ أيامٍ أصبح بياض عيني كاريس بلونِ الخردلِ وقالت الأختُ

أوناغ إنَّها مصابةٌ باليرقان. حضَّرت أوناغ مزيجاً من الأعشاب وأضافت العسل لتحليتها وسقت لكاريس منه ثلاثَ مراتٍ يومياً فتراجعت الحمى إلا أن كاريس بقيت ضعيفةً. كانت تستعلمُ عن أحوالِ تيلي كلَّ يومٍ وتجيبها أوناغ على أسئلتها إلا أنها رفضت مناقشتها في أيِّ موضوعٍ آخر يخصُّ أحوالَ الديرِ حتَّى لا تُجهدَ رئيسةُ الديرِ نفسها وكانت كاريس ضعيفةً جداً على الاعتراض.

لم يغادر ميرثن قصرَ رئيس الديرِ فقد كان يجلس خلالَ النهارِ في الطابقِ السفلي حتَّى يسمعها إن نادت ويستقبل موظفيه القادمين من أجلِ التعليماتِ حولَ الأبنيةِ التي كانَ يبنيها أو يهدمها، وليلاً يستلقي قربها على الفراشِ وينام، إلا أنَّ نومه كان خفيفاً فقد كان يستيقظ في كلِّ مرةٍ يشعرُ فيها بتغير تنفسها أو عندما تتقلب في السرير، ونامت ابنته لولا في الغرفةِ المجاورةِ.

وعندَ نهايةِ الأسبوعِ الأول أتى رالف.

«لقد اختفت زوجتي»، قالَ وهو يدخلُ قاعةَ قصرِ رئيسِ الديرِ.

رفعَ ميرثن نظرهُ عن الرسمِ الذي كان يقومُ بهِ على لوحٍ كبيرٍ. «مرحباً يا أخي»، قال ميرثن وهو يفكرُ بأنَّ رالف يتصرفُ بشكلٍ مخادعٍ فقد كانت مشاعرهُ المتضاربة حيالَ اختفاءِ تيلي واضحةً. قد لا يكون مغرماً بها إلا أنَّ ما من رجلٍ يتمنى هرب زوجته منه.

وأحسَّ ميرثن بالذنبِ فهو أيضاً انتابتهُ مشاعر متضاربةٌ حيال مساعدةِ زوجةِ شقيقه على تركهِ.

جلسَ رالف على المقعدِ وقال: «هل لديكَ شيءٌ من النبيذِ؟ أنا ظمآن جداً».

توجهَ ميرثن إلى خزانةٍ جانبيةٍ وأمسكَ إبريقاً ثمَّ سكبَ بعضَ النبيذ، وخطرَ لهُ أن يقولَ لرالف إنَّه لا يملك أدنى فكرة عن مكانِ تيلي إلا أنَّه وبشكلٍ غريزيٍ رفضَ فكرةَ الكذبِ على شقيقه بخاصةٍ في أمرٍ على هذا القدرِ من الأهميةِ. علاوةً على هذا لم يكن الحفاظ على سريَّةِ وجودِ تيلي في الديرِ ممكناً فهناكَ الكثيرُ من الراهبات الراهبات المتدرباتِ والموظفين ممن رأوها هنا، وفكرَ ميرثن بأنَّه وباستثناءِ المواقف الحرجة والخطيرةِ فإنَّ الصراحة هي الحل الأفضل دوماً، وعندما سلَّمَ الكأسَ إلى رالف قالَ له: «تيلي والطفل هنا في ديرِ الراهباتِ».

«اعتقدتُ أنَّها ستكونُ هنا»، قال رالف ورفعَ الكأسَ بيدهِ اليسرى بأصابعها الثلاث المقطوعةِ ثمَّ أخذَ رشفةً من كأسهِ وقالَ: «ما خطبها؟»

«لقد هربت منكَ يا رالف».

«كانَ يجب أن تُعلمني بهذا».

«كانَ علي إخبارك وشعرت بتأنيبِ الضمير على عدمِ فعلِ هذا إلا أنني لم أستطع خيانتها فقد كانت خائفةً منكَ».

«لم أخذت صفها وليسَ صفي أنا، شقيقكَ؟!»

«لأنني أعرفكَ، وإن كانت خائفةً منكَ فلا بدَّ أن يكونَ لخوفها سببٌ».

«هذا مشينٌ»، قال رالف وهو يحاولُ أن يبدو ساخطاً إلا أن تمثيليتهُ لم تكن مقنعةً.

وتساءلَ ميرثن في نفسهِ عن شعور رالف الحقيقي.

«لا يمكننا أن نرميها خارجاً»، قال ميرثن. «لقد طلبت اللجوءَ إلى الدير».

«إنَّ جيري ابني ووريثي ولا يمكنكَ أن تبعدهُ عني».

«بالطبعِ لن نستطيعَ إبعادهُ إلى الأبد، وإن بدأت بالإجراءاتِ القانونيةِ ستفوزُ بهِ حتماً، ولكنك لن تحاولَ فصلهُ عن والدتهِ، صحيح؟»

«إن عادَ إلى المنزلِ فستعودُ هي».

كانَ كلام رالف صحيحاً، وبينما كانَ ميرثن يفكرُ بطريقةٍ لإقناعِ رالف دخلَ الأخ توماس ممسكاً بيدِهِ الوحيدةِ ذراع آلان فيرنهيل كأنه بذلك يريدُ منعهُ من الهربِ. «لقد عثرتُ عليهِ يفتشُ في المكانِ»، قالَ توماس.

«كنتُ أتجولُ فقط!» احتجَّ آلان قائلاً. «اعتقدتُ أنَّ ديرَ الرهبانِ فارغٌ».

قالَ ميرثن: «لا بدَّ أنَّك اكتشفت أنه ليسَ فارغاً فلدينا راهبٌ وستةُ رهبانٍ مبتدئين وبضعةُ أطفالٍ يتامى».

قالَ توماس: «ولكنهُ لم يكن في ديرِ الرهبان بل في الردهاتِ المسقوفةِ للدير».

عبسَ ميرثن الذي كانَ بوسعهِ سماعُ إنشادِ أحدِ المزامير قادماً من بعيد. لقد خطط آلان لغارتهِ بشكلٍ جيدٍ فجميعُ الراهبات والراهبات المبتدئاتِ في الكاتدرائيةِ يصلين صلاةَ الظهرِ، وهذا يعني أنَّ معظمَ أبنيةِ الديرِ مهجورةٌ في مثلِ هذهِ الساعةِ، ولا بدَّ أنَّه كانَ يتجول في المكانِ دون أن يزعجهُ أحد لفترةٍ من الزمنِ.

لم يكن الأمر بريئاً وناجماً عن فضولٍ محضٍ.

أضافَ توماس: «لحسنِ الحظِ رأتهُ خادمةُ المطبخِ وأتت إلى الكنيسةِ لإحضاري».

وتساءلَ ميرثن في نفسهِ عمَّا كانَ آلان يبحثُ عنهُ. هل كانَ يبحثُ عن تيلي؟ بالتأكيد لم يكن ليجرؤ على أخذها من ديرِ الراهباتِ في وضحِ النهارِ، واستدارَ نحوَ رالف ثمَّ قالَ له: «ما الذي تخططان لهُ أنتما الاثنين؟»

وانتقلَ رالف بالسؤالِ إلى آلان. «ما الذي كنتَ تعتقدُ نفسكَ أنَّك فاعلٌ؟» سألَ بغضبٍ إلا أنَّ ميرثن رأى أنَّ غضبهُ كانَ مزيفاً.

هزَّ آلانَ كتفيهِ وقال: «كنتُ أتجولُ في المكانِ بانتظاركَ».

لم تكن حجةً مقنعةً فالرجالُ المسلحونَ ينتظرون أسيادهم في الإسطبلاتِ والحاناتِ ولكن ليسَ في الممراتِ المسقوفةِ للأديرةِ.

قالَ رالف: «حسناً... لا تقم بهذا مجدداً».

وأدركَ ميرثن أنَّ رالف سيلتزمُ بالقصةِ التي اخترعها، وقالَ في نفسهِ بحزنٍ: «ها أنا أتصرف معهُ بصدقٍ ولكن لم يبادلني هذا الصدق»، وعادَ ميرثن إلى الموضوعِ الأهم قائلاً: «لماذا لا تتركُ تيلي هنا لبعضِ الوقتِ؟» ثمَّ تابع: «ستكون على ما يرام هنا، وربما بعدَ فترةٍ من الزمنِ ستدركُ أنَّكَ لا تريدُ إيذاءها وتعودُ إليكَ».

«هذا أمر مشينٌ جداً»، قالَ رالف.

«ليسَ تماماً فأحياناً تقضي النساءُ النبيلاتُ بضعةَ أسابيع في ديرٍ ما إن شعرن بالحاجةِ إلى الابتعادِ عن عالمهن لبعضِ الوقت».

«إنهنَّ يفعلنَ هذا عندما يصبحنَ أرامل أو يذهبُ رجالهن إلى الحربِ».

«ليس بالضرورةِ».

«ولكن عندما لا يكون هناك سببٌ واضحٌ سيقولُ الناسُ إنَّها تريدُ الهربَ من زوجها».

«هل الأمرُ سيئٌ إلى هذهِ الدرجةِ؟ قد ترغبُ أنتَ ببعضِ الوقتِ بعيداً عن زوجتكَ».

«قد تكون على حقٍ»، قالَ رالف.

ذُهلَ ميرثن من ردِّهِ فلم يكن يتوقع أنه سينجحُ بإقناعهِ بهذهِ السهولةِ، وأخذَ وقتاً ليتعافى من ذهولهِ قبل أن يقول: «لقد قضي الأمر، فلتعطها ثلاثةَ أشهر ثم عُد وتحدث معها». كان لدى ميرثن إحساسٌ بأنَّ تيلي لن تلين ولكن اقتراحهُ سيؤجلُ الكارثةَ على الأقلِ.

«ثلاثةُ أشهر»، قالَ رالف. «حسناً». ثمَّ نهضَ وهو يهمُّ بالخروجِ.

هزَّ ميرثن رأسهُ. «كيف حالُ أمي وأبي؟ لم أرهما منذُ شهورٍ»؟

«يكبران في العمرِ ووالدي لم يعد قادراً على مغادرةِ المنزل الآن».
«سآتي لزيارتهما حالما تتحسنُ صحةُ كاريس فهي مصابةٌ باليرقانِ».
«أوصل لها تحياتي».
توجهَ ميرثن إلى البابِ وراقبَ رالف وآلان على حصانيهما يبتعدان، وشعرَ باضطرابٍ شديدٍ فهو يعلمُ أنَّ رالف يخططُ لشيءٍ ما ولم يكن لهذا علاقةٌ بإعادةِ تيلي.
عادَ ميرثن إلى رسمتِهِ وجلسَ يحدقُ فيها شارداً لوقتٍ طويلٍ.

***

مع نهايةِ الأسبوعِ الثاني بدأت صحةُ كاريس تتحسن، ورغمَ الإرهاقِ الذي كانَ شعرَ بهِ ميرثن فإنَّه كانَ سعيداً كرجلٍ أُرجئَ حكمُ إعدامِهِ. وضعَ لولا في السريرِ باكراً وخرجَ من منزلِ رئيسِ الديرِ للمرةِ الأولى منذُ أسبوعين.
كانت أمسيةً ربيعيةً لطيفةً وشعرَ بالدوارِ من الهواءِ المنعشِ ونور الشمسِ الغاربةِ. وجدَ حانتهُ مغلقةً فهي ما تزالُ قيدَ إعادةِ البناءِ، ولكن حانةَ هولي بوش مفتوحةٌ وتقدمُ خدمةً سريعةً والزبائن جالسون على المقاعدِ خارجاً يحملون كؤوسهم. كان عدد الناس في الخارجِ ممن كانوا يستمتعون بالطقسِ كبيراً جداً إلى درجة أن توقفَ ميرثن وسألَ أحدَ الزبائن إن كانَ هناك مناسبةٌ ما اليوم لأنَّه كان قد فقدَ إحساسهُ بالتاريخِ والزمنِ. «باتَ كل يوم مناسبةَ الآن»، قالَ أحدهم. «ما الغايةُ من العملِ إن كنا سنموتُ جميعاً بالطاعونِ؟ فلتشرب كوباً من الجعةِ».
«لا شكراً»، قال ميرثن وابتعدَ.
لاحظَ أنَّ العديدَ من الناسِ يرتدون ملابس فاخرة وقبعات حسنةَ التصميمِ ومعاطفَ مطرزة لا يمكنهم أن يشتروها في الأحوالِ العاديةِ، وتكهنَ أنهم ورثوها أو ربما أخذوها من بيوتِ الأثرياءِ بعد وفاتهم. كانَ الجو أشبهَ بجو كابوسٍ؛ قبعاتٌ مخملية على رؤوسٍ قذرةٍ، وخيوطٌ ذهبية ملطخةٌ ببقعِ الطعام، وسراويل رثة مع أحذيةٍ مُطعّمةٍ بالجواهرِ.
رأى رجلين في ثوبين نسائيين يصلان حتّى الأرضِ وغطاءين على الرأس يسيران في الشارعِ الرئيسي وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر كما تفعلُ زوجاتُ التجارِ عندما يستعرضن ثروتهن، إلا أنَّهما كانا رجلين ولا يمكن للعين أن تخطئهما بأيديهما وأقدامهما الكبيرةِ والشعرُ على وجهيهما. بدأ ميرثن يشعرُ بالحيرةِ كأنَّ هذا العالم فقد كلَّ ما يمكن أن يعول عليه.

ومع ازديادِ حلكةِ الظلامِ عبرَ ميرثن الجسرَ إلى جزيرةِ ليبر حيثُ بني شارعاً ومتاجرَ وحاناتٍ بين طرفي الجسرِ، وعلى الرغم من انتهاءِ العملِ عليها فإنَّ المباني ما زالت غير مأهولة والأبوابُ والنوافذ مغلقةً بقطعٍ خشبيةٍ لإبعادِ المتطفلين، وباستثناءِ الأرانبِ لم يسكن أحدٌ هنا، ورأى ميرثن أن المكانَ سيبقى فارغاً إلى أن ينتهي الطاعونُ وتستعيدَ كينغزبريدج حياتها الطبيعيةَ، وإن لم ينتهِ الطاعون فإنَّ ما من أحدٍ سيسكنُ المكانَ وعندها سيكونُ تأجيرُ المكان آخرَ همومِهِ.

عادَ إلى المدينةِ القديمةِ قبلَ إغلاقِ البوابات بقليلٍ، ولاحظَ أن هناك حفلة كبيرة في حانةِ وايت هورس فالمكانُ كان مضاءً بشدةٍ وقد ملأت حشودُ الناس الطريقَ أمامَ المبنى. «ما الذي يجري؟» سألَ ميرثن أحدَ مرتادي الحانةِ.

«أصيبَ ديفي الشاب بالطاعونِ وليسَ لديهِ ورثة شرعيين ليعطيهم الحانةَ لذلكَ فهو يوزعُ ما لديه من مشروب على الجميعِ»، قالَ الرجلُ مبتسماً بابتهاجٍ. «اشرب قدرَ ما تستطيع، إنَّه مجاني!»

يبدو أنَّ ديفي وكثيرين غيرهَ في المكان يفكرون بهذهِ الطريقةِ ولذلك كان الكثيرُ منهم يترنحُ من الثمالةِ. شقَّ ميرثن طريقهُ بينَ الحشدِ ورأى أحدهم يقرعُ على طبلٍ بينما رقصَ آخرونَ. رأى حلقةً من الرجالَ ثمَّ ألقى نظرةً من فوقِ أكتافهم على المشهدِ الذي كانوا يخفونهُ فوجدَ امرأةً ثملةً في العشرين من العمرِ منحنيةً فوقَ طاولة ورجلاً يضاجعها من الخلفِ، وبدا واضحاً أنَّ العديدَ من الرجالِ من حولهما ينتظرونَ دورهم. ابتعدَ ميرثن في تقززٍ، وعندَ أحدِ جوانبِ المبنى نصف المخفي بالبراميلِ الفارغةِ وقعت عينا ميرثن على أوزي أوسلر تاجر الجيادِ الثري راكعاً أمامَ شابٍ يمصُّ قضيبهُ. كانَ هذا عملاً مخالفاً للقانون وعقوبتهُ الحكمُ بالموتِ، ولكن من الواضحِ أنَّ ما من أحدٍ مهتم. كانَ أوزي رجلاً متزوجاً وعضواً في نقابةِ الأبرشيةِ ولذلك عندما التقت عيناه بعيني ميرثن لم يتوقف بل أكملَ وبحماسٍ أكبر كأنَّ حميتهُ اشتعلت لكون أحدهم يراقبهُ. هزَّ ميرثن رأسهُ مذهولاً وتابع طريقهُ. رأى خارجَ الحانةِ طاولةً عليها طعامٌ شبهُ مُلتهمٍ من لحمٍ مشوي وسمكٍ مدخن وبودينغ وجبن وهناكَ كلبٌ واقفٌ على الطاولةِ يمزقُ قطعةً من لحمِ الخنزير ورجل يتقيأ في صحنٍ من اليخنةِ، وبجانبِ بابِ الحانةِ جلسَ ديفي وايتهيد على كرسي خشبي كبير يحملُ كأساً كبيرة من النبيذِ ويعطسُ ويتعرقُ إلَّا أنَّه كانَ ينظرُ إلى هذهِ العربدةِ حولهُ في بهجةٍ. بدا كأنّه يريدُ أن يقتلَ نفسهُ بالشرابِ قبلَ أن يُنهي عليهِ الطاعون.

شعرَ ميرثن بأنّه على وشكِ التقيؤ وهرعَ عائداً إلى الديرِ.

عندما وصلَ تفاجأ برؤيةِ كاريس وقد نهضت من سريرها وارتدت ثيابها.

«أنا بصحةٍ أفضل الآن وسأعاودُ أعمالي الروتينية من الغدِ»، قالت له وعندما رأت نظرةَ الشكِّ على وجههِ أضافت: «قالت لي الأختُ أوناغ إنني بتُّ قادرة الآن على فعلِ هذا».

«إن كنتِ تأخذينَ الأوامرَ من شخصٍ آخر فأنتِ لم تعودي إلى طبيعتكِ بعد»، أجابها وضحكت. جلبَ صوتُ ومشهدُ ضحكتها الدموعَ إلى عينيهِ فهو لم يسمعها تضحكُ منذُ أسبوعين، ومرّت لحظاتٌ تساءلَ فيها إن كانَ سيسمعُ هذا الصوت مجدداً.

«ما الذي كنتَ تفعلهُ؟»

أخبرها عن تجوالهِ في المدينةِ والمشاهدِ المقرفةِ التي رآها. «لم تكن أعمالاً شريرةً مقصودةً»، قالَ ميرثن. «ولكني أتساءلُ عما سيفعلونهُ بعدَ هذا وعندما تنتهي جميعُ رغباتهم المكبوتة، فهل سيبدأون بقتلِ بعضهم بعضاً؟»

أحضرت لهما خادمة من المطبخِ الحساءَ للعشاءِ وأخذت كاريس ترتشفُ الحساءَ في حذرٍ. كان الطعامُ بجميعِ أنواعهِ ولوقتٍ طويلٍ يثيرُ تقززها إلا أنّها وجدت حساءَ الكراثِ الآن شهياً ولذلكَ أنهت الصحنَ بأكملهِ.

نظفت الخادمةُ المكانَ ثمَّ غادرت.

«عندما كنتُ مريضةً فكرت كثيراً بالموتِ»، قالت كاريس.

«لم تطلبي كاهناً لتعترفي».

«سواء أكنتُ شخصاً خيراً أم سيئاً فلا يمكنُ خداعُ الرَّبِّ بتغيرٍ في اللحظةِ الأخيرةِ».

«ماذا حدثَ إذاً؟»

«سألت نفسي إن كانَ هناكَ ما أندمُ عليهِ».

«وهل اكتشفت أموراً تندمين عليها؟»

«الكثير من الأمورِ، فأنا على علاقةٍ سيئةٍ مع أختي، ولا أملكُ أطفالاً، وخسرتُ العباءَةَ القرمزيةَ التي أعطاها والدي لوالدتي في يومِ وفاتها».

«وكيفَ خسرتها؟»

«لم يسمحوا لي بجلبها معي عندما دخلتُ إلى الديرِ، ولذلكَ لا أعلمُ ما الذي حلَّ بها».

«ما هو أكثرُ شيءٍ تندمين عليهِ؟»

«هناكَ شيئان أندمُ عليهما بشدةٍ. الأول هو أنني لم أحظَ بمستشفى لي، والثاني هو أنني لم أمارس الحبَّ معكَ إلا قليلاً».

نظرَ إليها في دهشةٍ ثمَّ قالَ: «حسناً، يمكننا تصحيحُ الأمر الثاني بكلِّ سهولةٍ».

«أعلمُ».

«ماذا عن الراهبات؟»

«لم يعد أحدٌ يهتمُ بشيءٍ، وأنتَ رأيت بأمِّ عينكَ كيفَ هو وضعُ المدينةِ. إننا هنا في الديرِ مشغولاتٌ جداً بالمحتضرين ولا نملكُ وقتاً للتقيدِ بقواعد قديمة فعلى سبيل المثال تنام جوان وأوناغ معاً كلَّ ليلةٍ في إحدى الغرفِ العلويةِ للمستشفى. كما قلتُ لكَ لم يعد هناك ما يهم حقاً».

عبسَ ميرثن وقال: «من الغريبِ حقاً أنهما تقومان بهذا وتذهبان إلى الكنيسةِ في منتصفِ الليلِ للصلاةِ، كيفَ يمكنهما جمعُ مثل هذين الأمرين؟»

«أصغِ إلي لقد جاءَ في إنجيلِ لوقا: «مَنْ لَهُ ثَوْبَانِ فَلْيُعْطِ مَنْ لَيْسَ لَهُ»[1]. ولذلك كيف يمكنكَ أن تتوقع من أسقفِ شايرنغ ألا يجمع بين الأمرين؟ الجميعُ يأخذُ ما يشاءُ من تعاليمِ الكنيسةِ ويتجاهلُ الأمور التي لا تناسبهُ».

«وأنتِ؟»

«أنا أفعلُ المثلَ ولكني لا أكذبَ مثلهم، ولذلكَ سأعيشُ معكَ كزوجتكَ، وإن طرحَ أحدٌ أسئلةً سأقولُ لهُ إننا في زمنٍ غريبٍ»، ثمَّ نهضت وتوجهت إلى البابِ وأوصدتهُ. «أنتَ تنامُ هنا منذُ أسبوعين فلا تغادر».

«لستِ مضطرةً لإيصادِ البابِ علي»، قال لها ضاحكاً. «سأبقى بكاملِ إرادتي»، وأحاطها بذراعيهِ.

«كنا قد بدأنا بأمرٍ منذُ بضعِ دقائقٍ قبلَ أن يغمى علي وتقاطعنا تيلي»، قالت له.

«كنتِ مصابةً بالحمى».

«إن كانَ هذا ما في الأمرِ فأنا مازلتُ محمومةً».

«قد يكونُ من الأفضلِ أن نتابعَ من حيثُ توقفنا».

«يمكننا التوجهُ إلى السريرِ أولاً».

«حسناً».

أمسك كلٌّ منهما بيد الآخر وصعدا الدرجَ إلى الطابقِ العلوي.

1- انجيل لوقا 3:11 (المترجمة)

-71-

اختبأ رالف ورجالهُ في الغابةِ شمال كينغزبريدج في أحدِ أيامِ شهرِ أيار/ مايو حيثُ النهار وفي مثلِ هذه الفترةِ يغدو أطول من الليلِ، وعندما هبطَ الظلام حثَّ رالف الآخرين على أخذِ قيلولةٍ بينما بقي صاحياً للمراقبةِ.

كانَ برفقتهِ آلان فيرنهيل وأربعةُ رجالٍ مستأجرين وجنودٌ مسرحون من جيشِ الملكِ ومقاتلون فشلوا في إيجادِ عملٍ لهم خلالَ أيامِ السِلمِ. استأجرَ آلان الرجال في حانةِ ريد لايون في غلوستر ولذلك لم يعرفوا من هو رالف ولم يروه في ضوءِ النهارِ حتَّى الآن. سيقوم أولئكَ الرجالُ بما سيُأمرون بهِ ثمَّ سيأخذون المال من دونِ طرحِ أسئلةٍ.

بقي رالف صاحياً يراقبُ بميكانيكيةٍ مرورَ الوقتِ كما كانَ يفعلُ عندما كانَ في جيشِ الملكِ في فرنسا فقد اكتشفَ أنَّه لو حاولَ بجدٍ حسابَ عددِ الساعاتِ التي مرَّت فسينتهي بهِ الأمرُ حائراً ولذلك جرَّبَ وبكلِّ بساطةِ التكهن بالوقتِ وقررَ أنَّ أولَ جوابٍ يخطر ببالهِ هو الصحيح. عادةً ما يستخدمُ الرهبان شمعةً مشتعلةً محددةً بدوائر تشيرُ إلى الساعاتِ أو ساعاتٍ رملية أو مائية يتدفقُ محتواها عبرَ قناةٍ ضيقةٍ إلا أنَّ رالف رأى أن طريقتهُ أفضل من طرقهم.

جلسَ رالف ساكناً وظهرهُ إلى شجرةٍ وهو يحدقُ إلى نارٍ أوقدوها في المكانِ. كانَ بوسعهِ سماعُ خشخشة حركةِ الحيواناتِ الصغيرةِ بينَ الأجماتِ أو نعيب بومةٍ مفترسةٍ بينَ الفينةِ والأخرى. لم يكن يشعر يوماً بهدوءٍ شبيهٍ لهذا الهدوء الذي يخيم على ساعات الانتظارِ التي تسبقُ أيَّ حدثٍ. كانَ لديهِ الهدوء والظلمة والوقت ليقضيها في التفكيرِ، ورغم أن العلمَ باقترابِ الخطرِ كفيلٌ بإثارةِ أعصابِ الرجالِ فإنَّ رالف شعرَ بالهدوءِ والسكينةِ خلال الانتظار.

لم تكن المخاطرةُ الحقيقيةُ هذهِ الليلةِ هي الاشتباكُ في قتالٍ لأنَّ اشتباكًا سيحدثُ من كلِّ بدٍ رغم أن الأعداء هذهِ المرة هم سكانُ المدينة السِمان والرهبانُ ذوو البشرةِ الناعمة، بل المخاطرةُ الحقيقية هي أن يتعرفوا عليه فما ينوي القيام بهِ صادمٌ بحقٍ وسيكونُ مثارَ غضبٍ في كلِّ كنيسةٍ في أرجاءِ إنكلترا، وربما في أوروبا أيضاً، وسيكونُ غريغوري لونغفيلو، الرجلُ الذي يخدمهُ رالف بهذا العملِ، من أوائلِ المنددين بما سيحدث. وإن كُشفَ أمرُ تورط رالف في هذا فسيُعدم.

ولكن إن نجحَ فسيصبح إيرلَ شايرنغ.

وعندما تكهنَ رالف بأنَّ الوقتَ تجاوزَ منتصفَ الليل بساعتين أيقظَ الجميع.

تركوا جيادهم ترعى واجتازوا الغابة إلى الطريقِ باتجاهِ المدينةِ. حملَ آلان المعداتِ كما اعتاد أن يفعلَ عندما كانا يقاتلان في فرنسا، وكانت مؤلفةً من سُلمٍ قصيرٍ وبكرةٍ من الحبالِ وخُطافاً استخدماه أثناء الهجوم على أسوارِ المدينةِ في النورماندي، وربطَ إلى حزامهِ إزميلاً ومطرقةً. قد لا يحتاجون إلى كل هذهِ الأدواتِ، ولكنهما تعلَّما فضيلة الجهوزية التامةِ وفي كلِّ الأوقات.

حملَ آلان أيضاً أكياساً كبيرة مربوطة بعنايةٍ بخيطٍ وعلى شكلِّ رزم.

عندما أصبحوا على مشارفِ المدينةِ أعطاهم رالف قلنسواتٍ بثقوبٍ في أماكن الأعينِ والأفواهِ وارتدوها جميعاً، إلا أنَّ رالف وإضافةً إلى القلنسوةِ ارتدى قفازاً في يدهِ المشوهةِ ليخفي ندوبَ أصابعهِ الثلاث المفقودةِ، وإن لم يُقبض عليهِ فلن يتعرف عليهِ أحد بهذا التنكر.

ارتدوا فوقَ أحذيتهم أكياساً تصلُ إلى الركبةِ لكتمِ صوتِ وقعِ أقدامِهم.

كانت قد مرَّت مئات السنين على آخرِ اعتداءٍ شهدتهُ كاتدرائيةُ كينغزبريدج من قبلِ جيشٍ ولكن وبسببِ الوباءِ كانَ هناكِ تراخٍ في حمايةِ المدينةِ، على أيِّ حالٍ كانَ المدخل الجنوبي للمدينةِ مغلقاً تماماً، وعلى طريقِ الجسرِ الكبيرِ الذي بناهُ ميرثن بيتُ الحارسِ وهو بناءٌ حجري ببابٍ خشبي عظيمٍ مقفلٍ، ولكن لم يكن النهر يحمي المدينةَ سوى من الشرق والجنوبِ فمن الشمالِ والغربِ حيثُ لا حاجةَ لوجودِ جسرٍ كانت المدينةُ محميةً بسورٍ في حالةٍ متردية، ولهذا السببِ قررَ رالف التقدم من الشمالِ.

تكاثرت المنازلُ الوضيعةُ خارجَ جدرانِ المدينةِ كما تتكاثرُ الكلابُ خلفَ متجرِ جزارٍ. كان آلان قد استطلعَ الطريقَ منذُ بضعةِ أيام عندما كانا في كينغزبريدج يستعلمان عن تيلي لذلك لحقَ رالف والرجالُ المستأجرون بهِ وتنقلوا بينَ الأكواخِ الحقيرةِ بكلِّ هدوءٍ ممكنٍ فحتَّى الفقراء في الضواحي يمكن أن يطلقوا نفير الإنذار إن استفاقوا من نومهم. نبحَ كلبٌ وشعرَ رالف بالتوترِ، ولكن أحداً ما أطلقَ اللعنات على الحيوانِ وعادَ للنومِ، وبعدَ برهةٍ وصلوا إلى مكانٍ كان السورُ فيه مُحطماً ويستطيعون التسللَ عبرَ الحجارةِ المتساقطةِ بكلِّ سهولةٍ.

وجدوا أنفسهم في زقاقٍ ضيقٍ خلفَ مستودعٍ يصلُ إلى البوابةِ الشماليةِ للمدينةِ حيثُ اكتشفَ رالف عندَ البوابةِ أن لا أحدَ في بيتِ الحارسِ. اقتربَ

الرجالُ الستةُ بصمتٍ، ورغمَ وجودهم داخلَ جدرانِ المدينةِ فإنَّ الحارس سيستجوبهم إن رآهم وسيصرخُ طلباً للمساعدةِ إن لم ترضهِ أجوبتهم، ولكن رالف شعرَ بالراحةِ عندما اكتشفَ أنَّ الحارسَ يغطُّ في نومٍ عميقٍ على كرسيهِ وقد اتكأ على أحدِ جوانبِ الكشكِ الصغيرِ وبقايا شمعةٍ تحترقُ على الرَّفِّ بجانبهِ.

قررَ رالف ألا يُخاطر بإيقاظِ الرجلِ ولذلكَ سارَ على رؤوسِ أصابعهِ وانحنى داخلَ الكشكِ ثمَّ نحرَ عنقَ الحارسِ بخنجرهِ الطويل. استفاقَ الرجلُ وحاولَ الصراخ من شدَّةِ الألم ولكن كلَّ ما خرجَ من فمهِ كانَ الدمُ، وبينما كانَ يتهاوى أرضاً أمسكهُ رالف لبضعِ دقائق إلى أن فقدَ وعيهِ ثمَّ أسندَ ظهرَ الجثةِ إلى حائطِ الكشكِ.

مسحَ الدمَ عن نصلِ خنجرهِ بمعطفِ الرجلِ الميتِ وأعادهُ إلى غمدهِ.

كانَ للبابِ الكبيرِ ذي المصراعين باب أصغر وبارتفاع قامةِ رجلٍ. رفعَ رالف رتاجَ البابِ الصغيرِ كي يسهل الهرب عليهم لاحقاً.

سارَ الرجالُ الستةُ بصمتٍ على طولِ الشارعِ الذي يُفضي إلى الديرِ.

لم يكن هناكَ قمرٌ في السماءِ، وقد اختارَ رالف هذهِ الليلة بالتحديد لهذا السببِ إلا أنَّهم كانوا مرئيين تحتَ ضوء النجومِ الضعيفِ. نظرَ رالف بقلقٍ إلى نوافذِ الطوابقِ العلويةِ للمنازلِ على كلا الجانبين، ولو أن أحداً نظرَ من النافذةِ فسيقعُ نظرهُ على هذا المشهد الذي يُنذرُ بالسوءِ لستةِ رجالٍ مُقنعين ولكن لحسنِ الحظِ كانَ الجو بارداً ولذلكَ أغلقَ الناسُ النوافذَ ليلاً. شدَّ رالف قلنسوةَ عباءتهِ إلى الأمامِ على أملِ أن تُخفي وجههُ والقناع قدرَ الإمكانِ، ثمَّ أشارَ إلى البقيةِ ليحذو حذوهُ.

ولأنَّ رالف قضى سنوات الصبا في شوارعِ هذهِ المدينةِ فقد كانت مألوفةً له، وما زال شقيقهُ ميرثن يعيشُ فيها رغمَ أنَّ رالف لا يعرف موقعَ منزلهِ بالضبطِ.

عبروا الشارعَ الرئيسي وتجاوزوا حانةَ هولي بوش المغلقة منذُ ساعاتٍ ثمَّ انعطفوا باتجاهِ الكاتدرائيةِ. وجدوا بوابات المدخلِ الخشبيةِ المُدعمةِ بالمسامير مفتوحةً فهي لم تُغلق منذُ سنواتٍ ولهذا السببِ كانت مفصلاتها صدئةً وعالقةً.

كان الديرُ مُظلماً باستثناء ضوءٍ ضعيفٍ قادمٍ من المستشفى، وتكهن رالف أنَّ الرهبان والراهبات في هذهِ الأثناء يغطونَ في نومٍ عميقٍ ولن يستيقظوا قبل ساعةٍ أو أكثر من أجلِ صلاةِ الفجرِ التي تبدأ وتنتهي قبلَ شروق الشمس.

كان آلان قد استكشفَ الديرَ قبلاً ولذلك قاد الفريقَ إلى الجانبِ الشمالي من الكنيسةِ، وساروا بهدوءٍ عبرَ المقبرةِ وقصر رئيسِ الديرِ ثمَّ انعطفوا باتجاهِ قطعةِ أرضٍ ضيقةٍ تفصل الطرفَ الشرقي للكنيسةِ عن ضفَّةِ النهرِ. ثبَّت آلان السُلَّمَ القصيرَ إلى جدارٍ غير عالٍ ثمَّ همسَ: «هيا باتجاهِ الممرات المسقوفةِ لديرِ الراهباتِ، اِلحقوا بي».

تسلَّقَ آلان الجدارَ إلى السطحِ وصدرت عن حركةِ قدميهِ على الحجارةِ بعض الضجةِ، ولكن ولحسنِ الحظِ لم يكن بحاجةٍ إلى استخدامِ الخطاف الذي سيصدرُ رنيناً قد يُلفت الأنظار.

وحذا الآخرون حذوهُ وكانَ رالف آخرهم.

نزلوا من الجهةِ الأخرى عن السطحِ إلى الباحةِ المكسوةِ بالعشبِ وأصدرت أقدامهم وقعاً خفيفاً عندَ ارتطامها بالأرض ثمَّ نظرَ رالف بحذرٍ إلى الأعمدةِ الحجريةِ للممراتِ المسقوفةِ حولهُ وتخيلَ أنَّ الأقواسَ رجالٌ يراقبونهُ إلا أنَّ ما من أحدٍ كان في الأرجاء. من الجيد أنَّ الرهبانَ والراهباتِ لا يُسمحُ لهم بامتلاكِ كلابٍ أليفةٍ.

قادهم آلان في ممرٍ مظلمٍ جداً ثمَّ وصلوا إلى بابٍ ثقيلٍ وهمس لهم: «هذا المطبخ». أضاء جمرُ نارٍ كبيرةٍ في الموقدِ الغرفةَ بشكلٍ ضعيفٍ، ثمَّ أضاف آلان: «تحركوا ببطءٍ حتَّى لا توقعوا أيَّ قدورٍ».

انتظرَ رالف قليلاً حتى اعتادت عيناهُ الظلمةَ، وسرعان ما رأى حوافَ طاولةٍ كبيرةٍ والعديدَ من البراميلِ وكومةً من أوعيةِ الطبخِ. «فلتجدوا أمكنةً للجلوسِ أو الاستلقاءِ ولترتاحوا»، قالَ لهم. «سنبقى هنا إلى أن يستيقظَ الجميع ويذهبوا إلى الكنيسةِ».

***

بعدَ مرورِ ساعةٍ استرقَ رالف النظرَ خارجَ المطبخ وأحصى عددَ الراهباتِ والراهباتِ المبتدئاتِ اللواتي اندفعنَ من المهجعِ وسِرنَ عبرَ الممرِ المسقوفِ باتجاهِ الكاتدرائيةِ، بعضهنَّ حملنَ مصابيحَ ألقت بظلالٍ غريبةٍ على السقفِ المقنطرِ. «خمسٌ وعشرون»، همسَ رالف لآلن. لم تكن تيلي بينهن كما توقعَ فالنساء النبيلات اللواتي ينزلن في الديرِ لا يحضرن مراسمَ الصلاةِ في منتصفِ الليلِ.

وحالما اختفت الراهبات عن الأنظارِ تحرَّكَ رالف وبقي البقيةُ في أمكنتهم. هناكَ مكانان في الدير قد تبيت فيهما تيلي، فهي إمَّا ستنزل في المستشفى

أو في مهجعِ الراهباتِ، وتكهنَ رالف أنّها ستشعرُ بأمانٍ أكبر في المهجعِ ولهذا توجهَ إلى هناكَ أولاً.

صعدَ رالف الدرجَ الحجري بهدوءٍ وقد ساعداه الكيسانِ اللذان ارتداهما فوقَ حذائهِ على كتمِ وقعِ أقدامهِ. استرقَ النظرَ إلى المهجعِ الذي كانَ مضاءً بشمعةٍ على أمل أن تكونَ جميعُ الراهباتِ في الكنيسةِ فلم يرغب بأن يضطرهُ أحدٌ إلى جعلِ الموقف أكثر تعقيداً. كانَ يخشى أن يجد راهبةً أو راهبتين تخلفتا عن الصلاةِ بسببِ المرضِ أو الكسلِ، ولكنه وجدَ الغرفةَ فارغةً حتّى تيلي لم تكن فيها، وبينما كانَ على وشكِ التراجعِ رأى باباً في نهايةِ الغرفةِ.

عبرَ المهجعَ وأخذَ الشمعةَ ثمَّ توجهَ إلى البابِ بصمتٍ. كشفَ الضوءُ المتذبذب للشمعةِ عن رأسِ زوجتهِ الشابةِ وشعرها المبعثرِ على الوسادةِ. بدت بريئةً وجميلةً جداً إلى درجةٍ شعرَ معها رالف بشيءٍ من الندمِ ثمَّ ذكرَ نفسهُ بأنّه كرهها جداً لأنّها وقفت في طريقِ ارتقائهِ على السلم الاجتماعي.

في مهدٍ قريبٍ منها نام ابنهِ جيري بسلامٍ بعينين مغلقتين وفمٍ مفتوحٍ.

تسللَ قريباً منها وبحركةٍ سريعةٍ وضعَ يدهُ اليمنى على فمها فأيقظها ومنعها من إصدار أيِّ صوتٍ في الوقتِ عينهِ.

فتحت تيلي عينيها على اتساعهما وحدّقت نحوهُ في هلعٍ.

وضعَ الشمعةَ وبحثَ في جيبهِ بينَ تشكيلةِ الأغراضِ المفيدةِ من خُرقٍ وأطواقٍ جلديةٍ ثمَّ حشا فمَ تيلي بخرقةٍ لتبقى هادئةً، ورغمَ قناعهِ وقفازهِ والتزامهِ الصمتَ فإنه شعرَ بأنّها عرفتهُ، وربما ميزت رائحتَه ككلبٍ، ولكن هذا لم يكن مهماً فهي لن تستطيعَ إخبارَ أحدٍ.

ربطَ يديها وقدميها بطوقٍ جلدي. لم تقاومه الآن إلا أنّها ستفعلُ لاحقاً، وتفقدَ الخرقة في فمها ثمَّ جلسَ منتظراً.

كانَ بوسعهِ سماعُ أصواتِ الغناءِ قادمةً من الكنيسةِ وكان معظمها أصواتاً أنثوية مع بعضِ الأصواتِ الذكوريةِ الناشزة التي تحاولُ الغناءَ بانسجامٍ مع بقيةِ الجوقةِ. استمرّت تيلي بالتحديقِ إليهِ في عينين واسعتين متضرعتين، ولذلكَ أدارها إلى الجهةِ الأخرى حتّى لا يرى وجهها.

قرأت ما كانَ يفكرُ بهِ وتكهنت بأنّه ينوي قتلها، لا بدَّ أنّها ساحرةٌ، ربما جميعُ النساءِ ساحرات. على أيِّ حالٍ عرفت ومنذُ البداية بأنّه يضمرُ النيةَ على قتلها ولذلك بدأت تراقبهُ، بخاصّةٍ في الليالي، ولاحقتهُ بعينين وجلتين وهو يتحركُ

في الغرفةِ أيّاً كان ما يفعلهُ. كانت تستلقي متوترةً وحذرةً بقربهِ طوالَ الليلِ بينما يغطُّ هو في النومِ، وفي الصباحِ عندما يستيقظُ كانت تصحو على الفورِ، وبعدَ مرورِ عدَّةِ أيامٍ على تصرفها بهذهِ الطريقةِ اختفت. بحثَ رالف وآلان عنها ولكن من دونِ أن ينجحا في إيجادها، ثمَّ سمعا إشاعةً مفادها أنَّها لجأت إلى ديرِ كينغزبريدج.

وصبَّ هذا في مصلحة مخططاتِهِ الشخصيةِ بكلِّ روعةٍ.

أخذَ الطفلُ يصدرُ صوتاً في نومهِ، وخطرَ ببالِ رالف الآن أنَّ الطفلَ قد يبكي. ماذا لو عادت الراهباتُ؟ وفكرَ بالأمرِ مجدداً. قد تأتي راهبةٌ أو راهبتان إلى هنا لتفقدِ أحوال تيلي وسؤالها إن كانت بحاجةٍ إلى المساعدةِ وسيضطرُ عندها إلى قتلهما، ولكن لن تكونَ هذهِ المرةَ الأولى التي يقتلُ فيها راهباتٍ فقد فعلَ هذا في فرنسا.

وأخيراً سمعَ وقعَ أقدامِ الراهباتِ وهنَّ يدخلنَ المهجع.

كان آلان في المطبخِ الآن ويُحصي عددهنَ، وحالما سيتأكدُ من أنَّهن جميعاً أصبحنَ في الغرفةِ سيستلُّ مع الرجال الأربعة السيوف ويبدأونَ العملَ.

حملَ رالف تيلي وكانَ وجهها مخضباً بالدموعِ ثمَّ أدارها حتى باتَ ظهرها على بطنِهِ ولفَّ ذراعاً حولَ خصرها وثبتها إلى خصرهِ. كانت خفيفةً كطفلةٍ.

وسحبَ خنجرهُ الطويل.

ومن الخارجِ سمعَ صوتَ رجلٍ يقول: «صمتاً أو ستمتن!» وعرفَ رالف صوتَ آلان رغمَ القناعِ الذي كممَ فمهُ.

كانت لحظةً حاسمةً فهناكَ الكثيرُ من الناسِ في المكانِ، راهباتٌ ومرضى في المستشفى ورهبانٌ في القسمِ الخاصِ بهم، ولم يرغب رالف بظهورهم حتى لا يزداد الموقفُ تعقيداً.

ورغمَ تحذيراتِ آلان فإنَّ رالف سمعَ صرخات الصدمةِ والخوفِ مع أنها لم تكن عاليةً، وفكرَ رالف بأنَّ الأمورَ حتى الآن تسيرُ على نحوٍ جيدٍ.

فتحَ البابَ ودخلَ إلى المهجعِ حاملاً تيلي على خصرهِ.

ومنحهُ ضوءُ مصابيحِ الراهباتِ القدرة على الرؤيةِ في العتمةِ فلمحَ في طرفِ الغرفةِ آلان وقد أمسكَ بامرأةٍ وخنجره على رقبتها وفي نفسِ الوضعيةِ التي كانَ عليها رالف وتيلي. وقفَ رجلان خلفَ آلان والرجلانِ الآخران عندَ أسفلِ الدرج يحرسانِ المكانَ.

«أصغينَ إلي»، قالَ رالف.

عندما تحدثَ أخذت تيلي تتلوى فقد ميزت صوته، ولكن هذا لم يكن مهماً ما دام لا أحد آخر سواها عرفهُ.

عمَّ المكانُ الصمت والخوف.

قال رالف: «من تكون أمينةُ الخزنةِ؟»

لم تتحدث الراهباتُ.

حرَّك رالف نصلَ خنجرهِ على عنقِ تيلي فبدأت تقاومُ إلَّا أنها كانت ضئيلةً جداً ولهذا حملها بكلِّ سهولةٍ، وفكرَ بأنَّ الوقت الآن قد حانَ لقتلها ولكنهُ ترددَ. لقد قتلَ الكثير من الرجالِ والنساءِ ولكنه على حينِ غرَّةٍ وجدَ صعوبةً في غرزِ الخنجر في جسدِ عانقهُ وقبَّلهُ ومارسَ الجنسَ معه وحملَ طفله.

وفكرَ بأنَّ الصدمةَ على الراهباتِ ستكون أكبر إن قتلَ إحداهن.

أومأ رالف لآلن.

وبضربةٍ واحدةٍ قويةٍ حزَّ آلان عنقَ الراهبةِ التي أمسكَ بها فاندفعَ الدمُ من عنقها حتَّى الأرض.

وصرخت إحداهنَ.

لم تكن صرخةَ ذُعرٍ بل صراخ نابعٌ من رعبٍ حقيقي وكفيل بإيقاظ ميتٍ، واستمرَّ الصراخ إلى أن قامَ أحدُ الرجلين بضرب الراهبةِ على رأسها بمضربةٍ فخرَّت أرضاً فاقدةً الوعي والدمُ يسيلُ على خدها.

وكررَ رالف مجدداً: «من تكونُ أمينة الخزنةِ؟»

***

عندما قُرِعَ الجرسُ إيذاناً بصلاةِ الصبحِ غادرت كاريس السريرَ وبقي ميرثن صاحياً لبرهةٍ، وكعادتهِ استدارَ في نومهِ إلى الجهةِ الأخرى وغطَّ في نومٍ خفيفٍ لأنَّها عندما عادت إلى الغرفةِ بدا لهُ أنَّها لم تغب سوى دقيقة أو دقيقتين. عندما استلقت على السرير كانت تشعرُ بالبردِ ولذلكَ شدَّها إليهِ وأحاطها بذراعيهِ. عادةً ما يظلان صاحيين لفترةٍ من الزمنِ يتحدثان ويمارسان الحب قبلَ أن يخلدا إلى النومِ مجدداً، وكانت هذه من الأوقاتِ المفضَّلةِ لميرثن.

ضغطت بجسدها على جسدهِ واستقرَّ ثدياها بلطفٍ على صدرهِ. قبَّلها على جبهتها، وعندما أصبح جسدها دافئاً مدَّ يدَهُ إلى عضوها وداعبَ شعرهُ الناعم برقة.

ولكن كاريس كانت في مزاجٍ للحديث. «هل سمعتَ بإشاعاتِ البارحةِ؟ هناكَ خارجون عن القانونِ في الغابةِ شمالَ المدينةِ».

«يبدو لي أنَّ هذا غيرُ ممكن»، قالَ لها.

«لا أعلمُ فجدران الجهةِ الشماليةِ من السورِ متهالكةٌ».

«ولكن ما الذي سيسرقونهُ فكلُّ شيءٍ يريدونهُ يستطيعون الحصول عليهِ؟ إن أرادوا الخراف فهناكَ آلافُ الخرافِ والقطعانِ من دونِ رعاةٍ في الحقولِ».

«وهذا ما يجعلُ الأمرَ مثيراً للاستغرابِ».

«إنَّ السرقةَ في هذهِ الأيامِ سهلةٌ وأشبهُ بالاتكاءِ على سياجٍ وتنفسِ هواءِ الجيرانِ».

تنهدت كاريس ثمَّ قالت: «منذُ ثلاثةِ أشهرٍ اعتقدتُ أنَّ الوباء الرهيب قد انتهى».

«ما عددُ الناسِ الذينَ ماتوا حتَّى الآن؟»

«دفنا ألفاً منهم منذُ عيدِ الفصحِ».

بدا العددُ لميرثن حقيقياً وقال: «سمعتُ أنَّ الوضعَ مشابهٌ في المدنِ الأخرى».

شعرَ بشعرها يتحركُ على كتفها وهي تومئ لهُ في الظلامِ وقالت له: «أعتقدُ أنَّ ربعَ سكانِ إنكلترا قد توفوا حتَّى الآن».

«وأكثرُ من نصفِ الكهنةِ».

«وهذا لأنَّهم يحتكونَ بالكثيرِ من الناسِ في كلِّ مرَّةٍ يقيمونَ فيها المراسم، ولذلك بالكادِ يستطيعون النجاةَ من هذا القدرِ».

«نصفُ الكنائسِ مغلقٌ».

«أرى في هذا أمراً جيداً فأنا واثقٌ من أنَّ الحشودَ تنشرُ الوباءَ أسرعَ من أيِّ شيءٍ آخر».

«على أيِّ حالٍ لقد فقد معظمُ الناسِ احترامهم للدينِ».

بالنسبةِ لكاريس لم يكن هذا بالكارثةِ العظيمةِ ولذلك قالت: «قد يتوقفونَ عن تصديقِ خزعبلات الطبِ الحالي والتفكيرِ بعلاجاتٍ قد تُحدثُ فرقاً حقيقياً».

«هذا ما ترينهُ أنتِ ولكن من الصعبِ على الناسِ العاديين التميز بينَ العلاجِ الحقيقي والعلاجِ الزائف».

«سأعطيكَ أربعَ قواعد».

ابتسمَ ميرثن في العتمةِ فلطالما أحبت كاريس وضعَ قوائم وقال لها: «حسناً».

«أولاً: إن كانَ هناك عددٌ من العلاجاتِ المختلفةِ لمرضٍ ما يمكنكَ أن تكونَ على ثقةٍ من أنّها لن تكون مُجديةً».

«لماذا؟»

«لأنَّه في حال نجحَ أحدها فسينسى الناسُ أمرَ البقيةِ».

«هذا كلامٌ منطقي».

«ثانياً: الفكرةُ القائلةُ بأن العلاجَ غير المريح مفيدٌ خاطئةٌ فوصفة تناولِ دماغِ القُبَّرَةِ النيءِ لن يفيد شيئاً في ألمِ الحلقِ رغمَ أنّه سيجعلكَ تتعرقُ بينما كأسٌ من الماءِ الدافئ مع العسلِ كفيلة بتهدئةِ الألمِ».

«هذهِ معلومةٌ جيدةٌ».

«ثالثاً: فضلاتُ الإنسانِ والحيواناتِ غيرُ مفيدةٍ وهي عادةً ما تزيدُ الطينَ بلّةً».

«رابعاً: إن كانَ العلاج الموصوف شبيهاً بشكل المرضِ كوصفةِ ريشِ الدُرّجِ المرقطِ للجدري أو بولُ الخرافِ لليرقانِ فهو على الأغلبِ هراءٌ».

«يجبُ أن تكتبي كتاباً عن هذا».

وشخرت في احتقارٍ ثمَّ قالت: «تُفضلُ الجامعاتُ نصوصَ الإغريقيين القدامى».

«ليسَ بالضروةِ أن يكونَ كتاباً لطلابِ الجامعاتِ بل كتاباً للناسِ أمثالكِ من راهباتٍ وقابلاتٍ وحلاقين وحكيماتٍ».

«لا تستطيع الحكيماتُ والقابلاتُ القراءةَ».

«يمكنُ لبعضهن أن يقرأن أمّا من لا تستطعنَ القراءةَ فلا بدَّ أن يكونَ لديهن من يقرأ لهنَ».

«أعتقدُ أنَّ الناسَ سيحبونَ فكرةَ وجودِ كتيبٍ يخبرهم بما عليهم فعلهُ في حالةِ الإصابةِ بالطاعونِ».

وغرقت كاريس في التفكيرِ لبضعِ دقائق.

وفي الصمت الذي رانَ سمعا صرخةً.

«ما هذا؟» سألَ ميرثن.

«يبدو كفأرٍ وقعَ في شركِ بومةٍ»، قالت لهُ.

«لا، إنَّه ليسَ كذلك»، قالَ ميرثن ونهضَ.

***

تقدَّمت إحدى الراهبات وخاطبت رالف، وكمعظمِ الراهبات في المهجع كانت شابةً بشعرٍ أسود وعينينِ زرقاوين. «من فضلكَ لا تؤذِ تيلي»، قالت لهُ راجيةً. «أنا الأختُ جوان أمينةُ الخزنةِ وسنعطيكَ ما تريدهُ. من فضلكَ لا تقم بأيّ أعمالِ عنفٍ».

«أنا تام المُتخفي»، قالَ رالف. «أينَ مفاتيح خزنة الراهباتِ؟»

«إنها معي في حزامِ ثوبي».

«خُذيني إلى هناك».

بدت جوان مترددةً ويبدو أنها كانت تشكُ بأنَّ رالف يعرفُ مكانَ الخزنة. خلالَ الجولةِ الاستطلاعيةِ كان آلان قد استكشفَ ديرَ الراهبات بعنايةٍ قبلَ أن يُمسكَ بهِ، ووضع مخططاً لكيفيةِ دخولهم إلى الديرِ، واختار المطبخ كمكانٍ للاختباءِ، وحددَ موقعَ مهجعِ الراهباتِ، ولكنهُ لم يتمكن من العثورِ على الخزنة، ورأى رالف أنَّ جوان لم تكن راغبةً بكشفِ مكانها.

لم يكن لدى رالف الكثير من الوقتِ لهدرهِ فقد يكون هناكَ من سمعَ الصرخةَ لذلكَ ضغطَ بنهايةِ خنجرهِ على عنقِ تيلي إلى أن بدأت تنزف وقال لجوان: «أريدُ الوصول إلى الخزنة».

«حسناً، ولكن لا تؤذِ تيلي! سأريك الطريق».

«وهذا ما أريدهُ»، قالَ رالف.

بقي الرجلان المستأجران في المهجعِ للحفاظ على هدوءِ الراهباتِ، ولحقَ رالف حاملاً تيلي ووراءهِ آلان بالأختِ جوان عبرَ درجِ الممرِ المسقوفِ.

عندَ أسفلِ الدرجِ احتجز الرجلان المستأجران الآخران ثلاث أو أربع راهباتٍ، وتكهنَ رالف أنهنَّ كُنَّ يعملنَ في المستشفى وأتين ليتقصينَ أمرَ الصرخة. سُرَّ رالف عندما رأى المشهد، فها هو خطرٌ آخر قد تمَّ احتواؤهُ، ولكن أينَ كانَ الرهبانُ؟

أرسلَ رالف الراهبات المحتجزات إلى المهجعِ مع بقيةِ الراهباتِ، وتركَ أحد الرجلين عندَ مطلعِ الدرجِ ليحرسهُ وأخذَ الرجلَ الآخرَ معهُ.

قادتهم جوان إلى غرفةِ الطعامِ الجماعيةِ التي تقع تحتَ المهجعِ تماماً، وكشفَ ضوءُ مصباحها المترافصِ عن طاولاتٍ ومقاعد ومنصّة للقراءةِ ولوحةٍ جداريةٍ للمسيحِ في وليمةِ زفاف.

وفي نهايةِ الغرفةِ حرَّكت جوان طاولةً ظهرَ تحتها بابٌ في الأرضيةِ. كانَ

للبابِ فتحةُ قفلٍ كأي بابٍ عادي، ووضعت جوان المفتاح في القفلِ ثمَّ رفعت البابَ. كشفَ البابُ عن سُلمٍ حجري لولبي وهبطت الدرجَ. تركَ رالف الرجلَ المستأجر للحراسةِ وهبطَ الدرجَ بصعوبةٍ فقد كان يحملُ تيلي ولحقَ بهِ آلان.

وصلَ رالف إلى أسفلِ الدرجِ وألقى نظرةً ملؤها الرضا على المكان فقد كانت خزنةُ الراهبات السريَّةُ أشبه بقدسِ الأقداسِ، ورغم أنها غرفةٌ ضيقةٌ تحتَ الأرضِ وأشبهُ بزنزانةٍ فإنَّها مبنيةٌ بإتقانٍ فالجدرانُ من الحجارةِ المربعةِ الناعمةِ التي تُستخدمُ في بناءِ الكاتدرائياتِ، وحجارةُ الأرضيةِ مرصوفةٌ بعنايةٍ، والهواء في الداخلِ بارد وجاف. ألقى رالف تيلي على الأرضيةِ كدجاجةٍ.

رأى صندوقاً ضخماً ومقفلاً أشبهَ بتابوتٍ عملاقٍ مربوطٍ إلى الجدارِ بحلقةٍ يشغلُ معظم مساحةِ المكان. لم يكن هناكَ أثاثٌ آخر باستثناءِ كرسيين ومكتب ورف فوقهُ كومة من اللفائفِ الورقيةِ وهي على الأغلب سجلاتُ حساباتِ ديرِ الراهباتِ، وعلى الجدارِ خطافٌ تدلى منهُ معطفان صوفيان ثقيلان وتكهنَ رالف أنَّ أمينةِ الخزنة ومساعدتها ترتديانِ المعطفين عندما تعملان هنا في أبردِ أشهرِ الشتاءِ.

كانَ الصندوقُ كبيراً جداً ومن المستبعدِ أنَّه أُنزلَ عبرَ الدرجِ وهذا يعني أنَّهم أحضروا قطعهُ بشكلٍ منفصلٍ ثمَّ قاموا بتجميعهِ في الأسفلِ. أشارَ رالف إلى القفلِ وفتحته جوان بمفتاحٍ آخرٍ مُثبتٍ إلى حزامِ ثوبِها.

ألقى رالف نظرةً إلى داخلِ الصندوقِ ورأى الكثير من اللفائفِ الورقية التي كانت صكوكاً وسندات تُثبتُ ملكيةَ الديرِ لممتلكاتها وحقوقها، وكومة من الأكياسِ الجلديةِ والصوفيةِ التي تحوي دونَ أدنى شكٍ على حُليٍّ مطعمةٍ بالجواهرِ، وصندوقاً صغيراً آخر يبدو كأنّه لحفظِ المال.

كان عليهِ الآن أن يتصرف بذكاءٍ فهو يريدُ أخذَ الصكوك إلَّا أنَّه لم يرغب بفضحِ غايتِهِ الحقيقية، ولذلك يجب أن يسرقها ولكن دونَ أن يبدو كأنّه فعلَ هذا.

أمرَ رالف جوان بفتحِ الصندوقِ الصغيرِ ووجدَ فيه بضعَ قطع نقودٍ ذهبية فذُهلَ من قلةِ المبلغِ الموجودِ، وفكرَّ بأنَّ الأموالَ قد تكون مخبأةً في مكانٍ آخر من هذهِ الغرفةِ، وقد تكونَ خلفَ حجارةِ الجدران. على أيِّ حالٍ لم يتوقف رالف للتفكيرِ في الموضوعِ فقد كانَ يتظاهرُ بأنَّه مهتمٌ بالمالِ ولذلك أخذَ القطعَ النقديةَ ووضعها في جزدانٍ معلقٍ بحزامِهِ. في هذهِ الأثناءِ أفردَ آلان كيساً كبيراً وبدأ يجمعُ مقتنياتِ الكاتدرائيةِ الثمينةِ.

بعدَ أن رأت جوان هذا المنظر أمرها رالف بصعودِ الدرجِ.

كانت تيلي ما تزالُ معهُ تراقبهُ بعينين واسعتين هلعتين، ولكن لم يكن هذا مهماً فهي لن تتمكنَ أبداً من فضحهِ.

أفردَ رالف كيساً آخر وبدأ بتكديسِ اللفائفِ فيه بأسرعِ ما أمكنهُ.

عندما انتهيا من توضيبِ كلِّ شيءٍ طلبَ رالف من آلان تحطيمَ الصناديقِ الخشبيةِ بمطرقتهِ وإزميلهِ ثمَّ أخذَ آلان المعطفين الصوفيين ولفَّهما وقرَّبَ طرفَ شمعتهِ منهما فالتقطَ الصوفُ النارَ على الفورِ ثمَّ كدَّسَ الخشب من الصناديقِ فوقَ الصوفِ المحترقِ، وسرعانَ ما علت ألسنةُ النارِ وأصبح الدخان خانقاً.

نظرَ رالف إلى تيلي مرميةً على الأرضِ بلا حولٍ ولا قوةٍ وسحبَ سكينهُ، ولكنه ومرَّةً أخرى ترددَ في طعنها.

***

في قصرِ رئيسِ الديرِ بابٌ صغيرٌ يُفضي مباشرةً إلى قاعةِ المداولاتِ التي كانت متصلةً بالجناحِ الشمالي للكاتدرائيةِ. أخذَ ميرثن وكاريس هذا الطريقَ ليستطلعا مصدرَ الصرخةِ، ووجدا قاعةَ المداولاتِ فارغةً فتوجها إلى الكنيسةِ. لم تكن شمعتهما كافيةً لإضاءةِ الكنيسةِ الكبيرةِ إلَّا أنهما وقفا في الممرِ وأصاخا السمعَ.

وسمعا صوتَ رتاجٍ يُفتح.

قالَ ميرثن: «من هناكَ؟» وشعرَ بالخجلِ من خوفهِ الذي فضحهُ صوتهُ المرتعشُ.

«الأخ توماس»، أتاهما الصوتُ.

كانَ الصوتُ قادماً من الجناحِ الجنوبي، وبعدَ دقيقةٍ اقتربَ توماس باتجاهِ ضوءِ شمعتهما. «اعتقدت أنني سمعتُ أحداً يصرخُ»، قالَ توماس.

«ونحنُ كذلكَ، ولكن ما من أحدٍ في الكنيسةِ».

«لنستكشفَ الأمرَ».

«ولكن ماذا عن الرهبان المبتدئين والصبية؟»

«طلبت منهم أن يعودوا إلى النومِ».

عبروا الجناحَ الجنوبي إلى ممراتِ الرهبانِ المسقوفةِ، ومجدداً لم يعثروا على أحد أو يسمعوا صوتاً، ومن هناكَ ساروا على طولِ مخازنِ المطبخِ باتجاه

المستشفى. كانَ الوضعُ طبيعياً والمرضى على أسرَّتهم نائمين أو يتحركونَ أو يئنونَ في ألمٍ، ولكن ميرثن لاحظ عدمَ وجودِ راهباتٍ في الغرفةِ.

«هذا غريب»، قالت كاريس.

لا بدَّ أنَّ الصرخةَ أتت من هنا، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى وجودِ أمرٍ طارئ أو أي نوعٍ من الإزعاجِ.

دخلوا إلى المطبخِ وكما توقعوا لم يجدوا أحداً فيهِ.

أخذَ توماس يتشممُ الهواءَ كأنَّه يحاولُ إلتقاطَ رائحةٍ ما.

قال ميرثن: «ما الأمرُ؟» ووجدَ نفسهُ أنَّه كانَ يهمسُ.

«الرهبان نظيفون»، دمدمَ توماس مجيباً. «أشمّ رائحةَ شخصٍ قذرٍ كانَ هنا».

لم يكن بوسعِ ميرثن شمُّ أيّ رائحةٍ غير اعتياديةٍ.

أخذَ توماس ساطوراً من النوعِ الذي يستخدمهُ الطباخون لتقطيعِ اللحمِ والعظامِ.

توجهوا جميعاً إلى بابِ المطبخِ، ورفعَ توماس ذراعهُ اليسرى المقطوعةَ في إشارةٍ تحذيريةٍ فتوقفوا جميعاً. كانَ هناكَ ضوءٌ ضعيفٌ في الممراتِ المسقوفةِ لديرِ الراهباتِ، وبدا كأنَّه قادمٌ من الباحةِ القريبةِ منهم، ولكن ميرثن تكهنَ بأنَّه انعكاسٌ لضوءِ شمعةٍ بعيدةٍ قادمٍ من قاعةِ الطعامِ الخاصةِ بالراهباتِ، أو من مطلعِ الدرجِ الذي يُفضي إلى مهجعهن، أو ربما من المكانين معاً.

خلعَ توماس صندلهُ وتقدَّمَ بقدميهِ الحافيتين كي لا يصدر صوتُ وقع قدميهِ على حجارةِ الأرضيةِ ثمَّ اختفى في ظلالِ الممرِ المسقوفِ، وبدورهِ ميرثن كان على وشكِ التقدمِ باتجاهِ الباحةِ.

والتقطَ ميرثن رائحةً ضعيفةً ولكن واخزةً ولكنها لم تكن رائحةَ أجسادٍ قذرةٍ كالتي التقطها أنفُ توماس في المطبخِ بل رائحة شيء آخر مختلف وجديد، وبعدَ وهلةٍ تأكدَ ميرثن من أنَّها رائحةُ دخانٍ.

لا بدَّ أنَّ توماس شمَّ الرائحةَ أيضاً لأنَّه تجمدَ في مكانهِ قبالةَ الحائطِ.

أطلقَ شخصٌ ما غيرُ مرئي شخرةً تنمُّ عن المفاجأةِ ثمَّ ظهرَ خيالٌ مندفعٌ من الباحةِ باتجاهِ الممرِ المسقوفِ، ورغم أنَّه كان خيالاً باهتاً فإنَّ أبعادَه التي أضاءها نورٌ ضعيفٌ كانت واضحةً وكشفت عن رجلٍ بقلنسوةٍ على رأسهِ وتغطي وجههُ أيضاً.

توجهَ الرجلُ إلى بابِ غرفةِ الطعامِ.

وقامَ توماس بالهجومِ.

ولبرهةٍ وجيزةٍ لمعَ نصلُ الساطورِ في الظلامِ ثمَّ سُمع صوتٌ مقززٌ لنصلٍ يخترقُ جسداً وأطلقَ الرجل صيحةَ رعبٍ وألمٍ، وبينما كانَ يتهاوى أرضاً لوحَ توماس بالساطور مجدداً وتحولَ صراخُ الرجلِ إلى ما يشبهُ خرخرةً مثيرةً للاشمئزازِ ثمَّ توقفَ الصوت وسقطَ على الأرضيةِ الحجريةِ للممرِّ جثةً هامدةً.

إلى جانبِ ميرثن شهقت كاريس في هلعٍ.

ركضَ ميرثن باتجاهِ توماس ثمَّ صرخَ قائلاً: «ما الذي يجري؟»

التفتَ توماس نحوهُ ولوحَ لهُ بالساطورِ لكي يبتعدِ ثمَّ قالَ في صوتٍ كالهسيس: «هدوء».

وفجأةً بات الممرُ المسقوفُ مضاءً بنورٍ قوي.

خرجَ أحدهم من غرفةِ الطعامِ بوقعِ أقدامٍ ثقيلةٍ. كانَ رجلاً ضخماً يحملُ كيساً بيدٍ وشعلةً مضاءةً باليدِ الأخرى. بدا كشبحٍ إلى أن أدركَ ميرثن أنّه يرتدي قناعاً مفتوحاً عندَ العينين والفمِ.

تقدَّمَ توماس ووقفَ أمامَ الرجل الهارب رافعاً ساطوره إلا أنَّ حركتهُ جاءت متأخرةً لأن الرجلَ اندفعَ نحوهُ بسرعةٍ ودفعهُ بعيداً.

اصطدمَ توماس بعمودٍ وسمعوا صوتَ طقطقةٍ كأنَّ رأسهُ اصطدمَ بحجرٍ ثمَّ ترنَّح ووقعَ أرضاً بلا حراكٍ، وبدوره فقدَ الرجلُ المندفعُ توازنهُ وسقطَ على ركبتيهِ.

اندفعت كاريس متجاوزةً ميرثن وركعت بقربِ توماس.

ظهرَ المزيدُ من الرجالِ وجميعهم كانوا مُقنعين ويحملونَ المشاعلَ. لاحظَ ميرثن أنَّ بعضهم خرجَ من قاعةِ الطعامِ وآخرين أتوا عبرَ درجِ المهجعِ، وفي الوقتِ عينهِ سُمع صوتُ امرأةٍ تصرخُ وتولولُ، ولبرهةٍ من الزمنِ عمَّت الفوضى المشهدَ بأكمله.

اندفعَ ميرثن نحو كاريس وحاولَ حمايتها بجسدهِ من أقدامِ الرجالِ المُندفعين.

رأى الرجالُ المندفعين أحدَ أصدقائهم على الأرض فتوقفوا مصدومين بالهدوءِ المفاجئ، وعلى ضوءِ مشاعلهم تأكدوا من أنّه ميت فقد كانَ عنقهُ منحوراً بالكاملِ تقريباً ودمهُ يسيلُ بغزارةٍ على الأرضيةِ الحجريةِ للممراتِ المسقوفةِ. حركوا رؤوسهم من جهةٍ إلى أخرى ونظروا عبرَ ثقوبِ أقنعتهم كأسماكٍ تسترقُ النظرَ خارجَ الماء في جدولٍ.

لمحَ أحدهم ساطورَ توماس المُدمى والمُلقى على الأرضيةِ بجانبِ توماس وكاريس وأشارَ إلى الآخرين، وزمجرَ في غضبٍ ثمَّ سحبَ سيفاً.

انتابَ ميرثن خوفٌ شديدٌ على كاريس فتقدمَ إلى الأمامِ لجذبِ اهتمامِ الرجلِ الذي يحملُ السيفَ، وتحرَّكَ الرجلُ باتجاهِ ميرثن رافعاً سلاحهُ. بعدَ أن تأكدَ ميرثن من أن كاريس لم تعد في خطرٍ انتابه رعبٌ أكبر على سلامتهِ ولذلك أخذَ يتراجع إلى الوراءِ وهو يرتجفُ من الخوفِ فانزلقَ بدمِ الرجلِ الميتِ وسقطَ وظهرهُ للأرضِ.

وقفَ الرجلُ الذي يحملُ السيف فوقهُ رافعاً سلاحهُ للأعلى.

ثمَّ وبسرعةٍ مفاجئةٍ تدخَّل أحدُ الرجالِ، وقد كانَ أطولهم قامةً، فأمسكَ بيدهِ اليسرى يدَ الرجلِ التي رفعَ بها السيفَ فوقَ ميرثن. كان قائدهم حتماً لأنَّه ومن دونِ أن يتحدث ومكتفياً بهزِّ رأسهِ من جهةٍ إلى أخرى أخفضَ الرجلُ سلاحهُ راضخاً.

لاحظَ ميرثن أنَّ الرجل الذي أنقذهُ يرتدي قفازاً في يدهِ اليسرى فقط.

لم تدم المواجهةُ سوى عشر ثوانٍ وانتهت قبلَ أن تبدأ أصلاً. استدارَ أحدُ الرجالِ الملثمين باتجاهِ المطبخِ واندفعَ راكضاً فلحقَ بهِ الآخرون، وأدركَ ميرثن أنَّه المسؤول عن وضعِ خطةِ الهروبِ. كانَ للمطبخِ بابٌ يُفضي إلى حديقةِ الكاتدرائيةِ التي تعتبر أسرعَ طريقٍ للخروجِ من الديرِ. اختفوا جميعاً ومع اختفاءِ أضواءِ مشاعلهم خيَّمَ الظلامُ على الممراتِ المسقوفةِ.

وقفَ ميرثن في مكانهِ ساكناً وحائراً حيال ما عليهِ القيامُ بهِ. فهل عليهِ الركضُ خلفَ المعتدين؟ أو التوجهُ إلى المهجعِ ومعرفةُ سبب صراخِ الراهباتِ؟ أو تقصي مصدر النار؟

ركعَ قربَ كاريس وسألها: «هل توماس على قيدِ الحياةِ؟»

«أعتقدُ أنَّه شجَّ رأسهُ وفقدَ وعيهُ ولكنهُ ما زال يتنفس ولا يوجد نزيف».

ومن ورائهِ سمعَ ميرثن صوتاً مألوفاً للأختِ جوان. «ساعدني من فضلكَ!»، واستدارَ ميرثن ورآها تقفُ على بابِ مدخلِ قاعةِ الطعامِ والمصباحُ الذي بيدها أضاءَ وجهها بشكلٍ مبهرٍ. كانَ رأسها محاطاً بالدخانِ كأنَّها ترتدي قبعةً أنيقةً. «بحق الرَّبِّ تعالَ بسرعةٍ!»

وقفَ ميرثن واختفت جوان في قاعة الطعامِ فلحقَ بها.

ألقى مصباحها ظلالاً مشوهةً إلا أنَّه تمكنَ من تفادي الارتطام بالأثاثِ وهو يلحقُ بها إلى نهايةِ الغرفةِ. كانَ الدخانُ يتصاعدُ من فجوةٍ في الأرضيةِ، ورأى

ميرثن فوراً أنَّ الفجوةَ من عملِ بنَّاءٍ ماهرٍ فقد كانت مربعةً وبحواف متساويةٍ والبابُ الخشبي مُتقن الصنعِ، وتكهنَ بأنَّها خزنة ديرِ الراهباتِ المخفية التي بناها جيرمايا سرّاً، ولكن اللصوصَ الليلةَ عثروا على مكانها.

كانَ المكانُ عابقاً بالدخانِ وبدأ ميرثن يسعل وهو يتساءلُ في نفسِهِ عمَّا يحترقُ في الأسفلِ وعن سببِ اشتعالِ النيران إلا أنَّه لم يكن راغباً باستكشافِ الأمر فقد بدا عملاً شديدَ الخطورةِ.

ومن ثمَّ صرخت جوان في وجهِهِ قائلةً: «تيلي في الأسفل!»

«يا إلهي»، قال ميرثن محبطاً وهبطَ الدرجَ.

كانَ عليهِ أن يحبسَ أنفاسَهُ، ورغمَ خوفِهِ فإنَّه، وبعينِ البنَّاءِ التي يملكها، لاحظَ درجاً حجرياً حلزونياً حسنَ البناءِ أيضاً، وجميعُ درجاتِهِ متساوية في الحجمِ والشكلِ ومستقرةٌ بدقّةٍ في الزاويةِ نفسها ولذلكَ تمكنَ من هبوطِ الدرجِ بثقةٍ حتّى مع انعدامِ قدرتِهِ على رؤيةِ موضعِ قدمِهِ بسببِ الدخانِ.

وجدَ نفسه بعدَ قليلٍ في غرفةٍ تحتَ الأرض وألسنةُ اللهبِ تلتهم وسطَ المكان. كانت الحرارةُ عاليةً، وعلمَ أنَّه لن يستطيع احتمالها لأكثر من بضعِ ثوان، والدخانُ أيضاً كان كثيفاً، ورغمَ أنَّه ما زال يحبسُ أنفاسهُ فإنَّ عينيه بدأتا تدمعان ولم يعد قادراً على الرؤيةِ بوضوحٍ. مسحَ عينيهِ بكُمهِ وحدَّقَ في الضبابِ. أين هي تيلي؟ ولم يكن قادراً على رؤيةِ الأرضيةِ.

خرَّ على ركبتيهِ فتحسنت الرؤيةُ قليلاً لأنَّ الدخان في الأسفلِ أقلَّ كثافةً. تحرَّكَ في المكان على أطرافِهِ الأربعة وهو يحدقُ إلى زوايا الغرفةِ ويتحسسُ بيدِهِ الأمكنةَ التي لم يكن قادراً على الرؤيةِ فيها. «تيلي!» صرخَ. «أينَ أنتِ يا تيلي؟» دخلَ الدخانُ إلى حلقِهِ وعانى من نوبةِ سعالٍ شديدةٍ منعتهُ من سماعِ أيِّ جوابٍ.

لم يكن بوسعِهِ البقاءُ لوقتٍ أطول فقد كانَ يسعلُ بشدةٍ ومع كلِّ نفسٍ أخذَهُ شعرَ بأنَّه يختنقُ بالمزيدِ من الدخانِ. دمعت عيناه بشدةٍ وباتَ شبهَ أعمى، وبحركةٍ يائسةٍ اقتربَ من النار التي بدأت ألسنتها تحرقُ أطرافَ كُمهِ؛ إن تهاوى الآن وفقدَ وعيهُ فسيموتُ من كلِّ بدٍ.

وهنا لامسَ بيدِهِ ما يشبهُ اللحمَ.

أمسكهُ واكتشفَ أنَّه ساقٌ بشريةٌ صغيرةٌ، ساقُ فتاةٍ، وسحبها نحوهُ. كانت ثيابها تحترقُ ولم يكن قادراً على رؤيةِ وجهها ولذلكَ لم يعرف إن كانت واعيةً أم لا، إلا أنَّه اكتشفَ أنها كانت مكبَّلةَ اليدين والقدمين بأطواقٍ جلديةٍ ولهذا

السببِ لم تكن قادرةً على التحركِ بحريةٍ، وبينما كان ميرثن يجاهدُ للتوقفِ عن السعالِ وضعَ ذراعهُ تحتها ورفعها.

وحالما وقفَ على قدميه غدا الدخانُ كثيفاً جداً ولم تعد الرؤيةُ ممكنةً وفجأةً نسي الطريقَ إلى الدرجِ. ابتعدَ مترنحاً عن ألسنةِ اللهبِ واصطدمَ بالجدارِ وكادَ يوقعُ تيلي من بينِ يديهِ. أيُّ طريقٍ؟ اليسار أم اليمين؟ توجهَ يساراً ووصلَ إلى زاويةٍ. ثمَّ غيرَ رأيهُ واستدارَ عائداً.

شعرَ كأنّه يغرقُ وفقدَ قوتهُ وخرَّ على ركبتيهِ، ولكن هذا ما أنقذهُ. اكتشفَ مجدداً أنه قادرٌ على الرؤيةِ بشكلٍ أفضل وهو على الأرضيةِ، ولاحظَ عتبةً حجريةً كأنّها رؤيةٌ سماويةٌ تتجلى أمامهُ.

تقدَّم على ركبتيهِ ممسكاً بجسدِ تيلي شبهِ الميتِ ووصلَ إلى الدرجِ، وبجهدٍ أخيرٍ وقفَ على قدميهِ ووضعَ قدمهُ على أولِ عتبةٍ من السُلَّمِ ثمَّ رفعَ نفسهُ ونجحَ بوضعِ القدمِ الثانيةِ على العتبةِ التاليةِ. وبينما كانَ يسعلُ بلا توقفٍ أجبرَ نفسهُ على التقدمِ إلى أن وصلَ إلى نهايةِ الدرجِ. ترنَّح أرضاً وخرَّ على ركبتيهِ تهاوت تيلي على أرضيةِ قاعةِ الطعامِ.

انحنى شخصٌ فوقهُ وقالَ ميرثن له متلعثماً: «أغلق البابَ، أوقف النارَ!» وبعدَ بضعِ ثوانٍ سمعَ صوتَ البابِ الخشبي يوصدُ بصوتٍ عالٍ.

أمسكهُ أحدهم من تحتِ إبطيه ففتحَ عينيهِ لوهلةٍ ورأى وجهِ كاريس ولكن بشكلٍ مقلوبٍ ثمَّ لم يعد قادراً على الرؤيةِ بوضوحٍ. جرَّتهُ كاريس على الأرضيةِ وبدأ الدخانُ يتراجع. أخذَ ميرثن يتنفسُ هواءً وشعرَ بالفرقِ بينَ الداخلِ والخارجِ وهو يستمتع بنقاءِ هواءِ الليلِ. وضعتهُ كاريس أرضاً وسمعَ صوتَ وقعِ أقدامها عائدةً إلى الداخلِ.

شهقَ ميرثن وسعلَ وشهقَ مجدداً ثمَّ سعلَ وأخيراً عاد ببطءٍ إلى التنفس بشكلٍ طبيعي. توقفت دموعه ورأى أنَّ الفجرَ بدأ ينبلجُ، وفي الضوءِ الضعيفِ للصباحِ المنبلجِ رأى حشداً من الراهباتِ حولهُ.

رفعَ نفسهُ وجلسَ على الأرض بينما جرَّت كاريس وراهبةٌ أخرى تيلي من قاعةِ الطعامِ ووضعتاها بجانبهِ. انحنت كاريس فوقها وحاولَ ميرثن أن يتحدثَ إلا أنَّه أخذَ يسعلُ ثمَّ حاولَ مجدداً ونجحَ بالقولِ: «كيفَ هي؟»

«لقد تلقَّت طعنةً في قلبها»، قالت كاريس وبدأت تبكي. «كانت ميتةً قبلَ أن تصلَ إليها».

فتحَ ميرثن عينيهِ على الضوءِ الساطعِ للنهارِ وعرفَ من زاويةِ أشعةِ الشمسِ المتسللةِ عبرَ نافذةِ الغرفةِ أنَّه أطالَ في النومِ وأنَّ الوقت الآن منتصفُ الصباح. استعادَ أحداثَ الليلةِ السابقةِ كأنَّها كابوسٌ مزعجٌ، ولوهلةٍ داعبت مخليتهُ فكرةُ أن كل ما حدث لم يكن حقيقياً إلا أنَّه شعرَ بالألمِ في صدرهِ في كلِّ مرَّةٍ يأخذُ فيها نفساً وآلمته بشرةُ وجههِ المحترقةِ بشدةٍ، وتذكرَ الرعبَ الذي شعرَ عند اكتشافِ جريمةِ قتلِ تيلي والأختِ نيلي أيضاً. كيفَ يُمكنُ للرَّبِّ أن يسمحَ بحدوثِ مثلِ هذا لامرأتين طيبتين مثلهما؟

أدركَ أنَّ ما أيقظهُ حقاً هو رؤيةُ كاريس تدخلُ الغرفةَ وتضعُ صينيةً على الطاولةِ الصغيرةِ قربَ السريرِ. كانَ ظهرها لهُ ولكنه وبالنظرِ إلى كتفيها المنحنيتين ووضعِ رأسها عرفَ أنَّها تشعرُ بالغضبِ. لم يكن هذا أمراً مفاجئاً فقد كانت حزينةً على تيلي ومغتاظةً بشدةٍ لتدنيسِ قداسةِ وأمانِ ديرِ الراهباتِ.

نهضَ ميرثن وسحبت كاريس كرسيين إلى الطاولةِ ليجلسا عليهما. تفحصَ وجهها بحُبٍ وتساءلَ في نفسهِ إن كانت قد أخذت قسطاً من النومِ ثمَّ لاحظَ لطخةَ سُخامٍ على خدِّها الأيسر فبللَ إصبعهُ بلعابهِ ومسحَ اللطخةَ بلطفٍ.

كانت قد اشترت خبزاً جديداً وزبدةً طازجةً وإبريقاً من عصيرِ التفاحِ، واكتشفَ ميرثن أنَّه كانَ جائعاً وظمآناً فانقضَّ على الطعامِ فوراً، أمَّا كاريس التي كانت تغلي من الغضبِ فلم تأكل شيئاً.

قالَ ميرثن وهو يمضغُ قطعةً من الخُبزِ: «كيفَ أصبح توماس هذا الصباح؟»

«إنَّه في المستشفى فقد آذى رأسهُ، ولكنه يستطيعُ التحدثَ بشكلٍ مفهومٍ والإجابةَ على الأسئلةِ، وهذا يعني أنَّه لم يُصب بأذى دائمٍ في دماغهِ».

«هذا جيدٌ فسيكونُ هناك استجوابٌ بخصوصِ ما حدثَ لتيلي ونيلي».

«أرسلتُ رسالةً إلى مأمورِ شايرنغ».

«سيُلقي اللومِ في هذا الهجومِ على تام المُتخفي».

«تام متوفى».

أومأ ميرثن برأسهِ فقد كانَ يعلمُ ما الذي ينتظرهُ، ومعنوياتهُ التي رفعها طعامُ الفطورِ هبطت الآن. ابتلعَ اللقمةَ في فمهِ ودفعَ بصحنهِ بعيداً.

تابعت كاريس كلامها: «أيّاً يكن من فعلَ هذا الليلةَ الماضيةَ أرادَ أن يُخفي

هويتهُ ولهذا كذبَ وقالَ إنَّه تام المتخفي دونَ أن يكونَ لديهِ أي علمٍ بأنَّ تام توفي في المستشفى منذُ ثلاثةِ أشهرٍ».

«من تعتقدين أنّه الفاعل؟» سأل ميرثن.

«شخصٌ ما نعرفهُ ولهذا كانَ الرجالُ مُلثمين».

«ربما».

«لا يرتدي الخارجون عن القانونِ أقنعةً».

كانَ كلامها صحيحاً فلم يكن الخارجون عن القانونِ يُلقون بالاً لمعرفةِ الناسِ بهويتهم ولا بالجرائمِ التي يرتكبونها ولذلك كان المعتدون الليلةَ الماضيةَ مختلفين، وعززَ وجودُ الأقنعةِ حقيقةَ أنّهم مواطنون لهم مكانتهم ويخشونَ افتضاحَ أمرهم.

وتابعت كاريس تحليلها المنطقي القاسي قائلةً: «لقد قتلوا نيلي لإجبارِ جوان على فتحِ الخزنة، ولكن لم يكن هناكَ من داعٍ لقتلِ تيلي لأنهم كانوا قد دخلوا إلى الخزنة، وهذا يعني أنهم أرادوها أن تموتَ لسببٍ أو لآخر ولذلك لم يكتفوا بتركها تختنقُ بالدخانِ والاحتراقِ حتّى الموتِ بل طعنوها كأنّهم أرادوا الحرصَ على موتها حقاً.

«وما الذي يعنيهِ هذا برأيكِ؟» سأل ميرثن.

لم تُجب كاريس على السؤالِ بل قالت: «كانت تيلي تعتقدُ أنَّ رالف يريدُ قتلها».

«أعلمُ».

«وأحدُ الرجالِ الملثمينِ أرادَ قتلكَ في مرحلةٍ ما»، قالت كاريس ثمَّ شعرت بأن صوتها بدأ يخونها فاضطرت إلى التوقفِ عن الكلامِ وأخذت جرعةً من كأسِ عصير التفاحِ الخاصِ بميرثن لتتمالك نفسها وتابعت قائلةً: «ولكنَّ قائدهم أوقفهُ. لمَ قد يفعلُ أمراً كهذا؟ لقد قتلوا راهبةً وامرأةً نبيلةً فما الذي يمنعهم من قتلِ بنّاءٍ؟»

«أنتِ تعتقدينَ أنّه رالف؟»

«ألا تعتقدُ هذا أيضاً؟»

«أجل»، قال ميرثن وتنهدَ بقوةٍ ثمَّ أضاف: «هل رأيتِ قفازهُ؟»

«لاحظتُ أنّه يرتدي قفازاتٍ».

هزَّ ميرثن رأسهِ في نفي وقال: «قفازاً واحداً وفي يدهِ اليسرى، ولم يكن قفازاً بخمسِ أصابعٍ بل قفازاً يغطي الأصابعَ كلها».

«ليُخفي أصابعهُ المقطوعةَ».

«لست واثقاً من صحةِ هذا الكلامِ، ونحنُ لا نستطيع إثباتَ أيِّ شيءٍ ولكن لدي اعتقادٌ رهيبٌ بأنّه الفاعل».

وقفت كاريس وقالت: «فلنذهب ونستطلع الأضرارَ».

توجها إلى الممرِ المسقوفِ في ديرِ الراهباتِ. كانَ الرهبانُ المبتدئونَ والأيتامُ ينظفونَ الخزنة ويخرجونَ أكداسَ الخشبِ المحترقِ والرماد عبرَ الدرجِ الحلزوني ويسلمون الأغراضَ غير المحترقةِ إلى الأختِ جوانٍ ويتخلصون من البقايا في المكبّ.

على طاولةِ قاعةِ الطعامِ رأى ميرثن حُلي الكاتدرائيةِ: الشمعداناتِ الذهبيةِ والفضيةِ والصلبان والأواني المزدانةِ جميعها بالحجارةِ الكريمةِ.

«لم يأخذوا هذهِ الحلي؟» قال ميرثن متفاجئاً.

«أجل لقد أخذوها ولكن يبدو أنهم غيروا رأيهم فرموها في خندقٍ خارجَ أسوارِ المدينةِ. رآها فلاحٌ كان في طريقهِ لبيعِ البيضِ هذا الصباح ولحسنِ الحظِ كانَ رجلاً أميناً».

أمسكَ ميرثن بإبريق ذهبي له شكلُ ديكٍ صغيرِ بريشٍ يزينُ عنقهُ بكلِّ أبهةٍ ويستخدمُ لغسلِ اليدين ثمَّ قال: «إنَّ بيعَ مثلَ هذهِ الأغراضِ أمرٌ صعبٌ، فلا يمكن أن يدفعَ ثمنها سوى القلة، وسيتكهن معظمُ من ستُعرض عليهم أنّها أغراضٌ مسروقةٌ».

«يُمكنُ للصوصِ أن يذيبوها ويبيعوها كذهبٍ».

«لا بدَّ أنهم قرروا أنَّ في هذا مشقةً كبيرةً».

«ربما».

لم تقتنع بما قالهُ ولا هو أيضاً. كان هذا التفسير يفتقرُ إلى الدقةِ فلم يكن لديهما أدنى شكٍ بأنَّ عمليةَ السطو مخُططٌ لها بعنايةٍ، ولكن لماذا لم يحسم اللصوص أمرهم حيالَ أخذِ الحُلي منذُ البدايةِ؟ فإما أن يأخذوها أو يتركوها خلفهم.

هبطت كاريس وميرثن درجات السُلَّم الحلزوني ودخلا إلى الخزنة. شعرَ ميرثن بمعدتهِ تنقبضُ من الخوف وعادت إلى ذاكرته قساوةُ محنةِ الليلةِ الماضيةِ. كانَ هناكَ رهبانٌ مبتدئون ينظفونَ الجدران والأرضيةَ بالمماسحِ والدلاءِ.

صرفت كاريس الرهبان المبتدئين ليرتاحوا، وعندما أصبحا وحدهما أخذت قطعةً خشبيةً من فوقِ رفٍ واستخدمتها لتحريكِ أحد الحجارةِ في الأرضيةِ. لم يكن ميرثن قد لاحظَ قبلاً أنَّ هذا الحجرَ لم يكن مثبتاً كبقيةِ حجارةِ الأرضيةِ ولا حتَّى الفراغ الضيق حولهُ، وتبينَ له الآن ما الذي كان موجوداً تحتَ الحجرِ. كانَ هناكَ خزنةٌ واسعةٌ تحوي على صندوقٍ خشبي، ومدَّت كاريس يديها إلى الصندوقِ ثمَّ سحبتهُ، وفتحت الصندوقَ باستخدامِ مفتاحٍ أخرجتهُ من حزامِ ثوبها. كانَ الصندوق مليئاً بالنقودِ الذهبيةِ.

تفاجأ ميرثن بما رآه وقال: «لم يعثروا على هذا الصندوقِ».

«توجدُ ثلاثُ خزائن أخرى مخفية»، قالت له كاريس ثمَّ تابعت: «هناك مخبأ في الأرضيةِ ومخبآن في الجدران، وهم لم يصلوا إليها أيضاً».

«لم يكن بوسعهم البحثُ جيداً فالجميعُ يعلمُ أنَّ معظم أمناءِ الخزائنِ يملكونَ مخابئ سريَّةً».

«وبخاصةٍ اللصوص».

«هذا يعني أنَّ سرقةَ المالِ لم تكن أولويتهم».

«تماماً»، قالت كاريس وأقفلت الصندوقَ ثمَّ أعادتهُ إلى الخزنة.

«إن لم يكونوا راغبين بأخذِ الحُلي وغير مهتمين كفايةً بالمالِ ليبحثوا عنه بعنايةٍ في مخابئ خفيةٍ في الخزنة فلماذا أتوا أصلاً؟»

«القتلِ تيلي وعمليةِ السطوِ للتغطيةِ على الجريمةِ فقط».

وغرقَ ميرثن في التفكير بالأمرِ ثمَّ قال بعدَ فترةِ صمتٍ وجيزةٍ: «إنهم ليسوا بحاجةٍ إلى التفكيرِ بعملٍ للتغطيةِ على الجريمةِ، ولو أنهم أرادوا قتلَ تيلي لكانوا فعلوا هذا في المهجعِ وخرجوا منه قبلَ عودةِ الراهباتِ من صلاةِ الفجرِ. كانوا يستطيعون تنفيذَ العمليةِ بدقةٍ أكبر عن طريقِ خنقها بوسادةِ الريشِ على سبيلِ المثالِ، وعندها سيصعبُ علينا أن نكونَ واثقين من أنَّها قُتلت لأنَّها ستبدو كأنَّها ماتت في نومها».

«ولكن لا شيء يبررُ الاعتداء لأنَّهم خرجوا منهُ خالي الوفاضِ باستثناءِ بعضِ العملاتِ الذهبيةِ».

نظرَ ميرثن حولهُ في الغرفةِ. «أينَ الصكوك؟»

«لا بدَّ أنَّها احترقت ولكن هذا غيرُ مهمٍ فلدي نسخٌ عنها كلها».

«الورقُ البني ليسَ من النوعِ الذي يحترقُ بسهولةٍ».
«لم أحاول إحراقهُ قط».
«قد يطلقُ دخاناً وينكمش ويتشوه إلا أنَّه لن يحترق».
«ربما استعادَ الرهبانُ والصبية الصكوكَ من بين البقايا».
«فلنتحقق من الأمرِ».
صعدا درجاتِ السُّلمِ وغادرا الخزنة، وخارجَ الممراتِ المسقوفةِ سألت كاريس جوان: «هل عثرتِ على أيِّ صكٍ بينَ الرمادِ؟»
هزَّت رأسها في نفي وقالت: «لا شيء».
«هل من الممكن أنَّك لم تريها؟»
«لا أعتقدُ هذا ما لم تحترق وتتحول إلى رمادٍ».
«يقولُ ميرثن إنَّها لا تحترقُ»، قالت كاريس واستدارت نحوهُ. «من قد يرغبُ بالصكوكِ؟ إنَّها غير مفيدةٌ لأحدٍ».
وتابعَ ميرثن كلامهُ متبعاً السلسلةَ المنطقيةَ التي بنى عليها الأحداثَ وإلى أين يُمكنُ أن تقود: «فلنفرض أنَّك تملكين وثيقةً، وقد لا تكون لديكِ أو ربما تعتقدين أنَّها بحوزتك، وهم يريدونها».
«وما هي هذهِ الوثيقةُ؟»
اكفهرَّ وجهُ ميرثن وقال: «من المفترضِ أن تكونَ الوثائق عامةً فالغرض من وضعِ أيِّ وثيقةٍ هو أن تكونَ متاحةً للناسِ حتَّى يطلعوا عليها في المستقبلِ. إنَّ وثيقةً سريَّةً قد تكونَ أمراً غريباً...» وخطرَ ببالهِ أمرٌ ما.
سحبَ ميرثن كاريس بعيداً عن جوان وسارا حولَ الأروقةِ المسقوفةِ كأنَّهما يتمشيان إلى أن أصبحا بعيدين عن الأسماع ثمَّ قال: «ولكننا نعرفُ بأمرِ وثيقةٍ سريَّةٍ».
«الرسالة التي دفنها توماس في الغابةِ».
«أجل».
«ولكن لمَ قد يعتقدُ أيُّ شخصٍ أنَّ الوثيقةَ قد تكونُ في خزنة ديرِ الراهباتِ؟»
«حسناً فلنفكر في الأمر. هل وقعَ حدثٌ مثيرٌ للشبهاتِ في الآونةِ الأخيرةِ؟»
وعلت وجهُ كاريس نظرةُ رعبٍ ثمَّ قالت في عجبٍ: «يا إلهي!»
«لقد حدثَ أمرٌ من هذا القبيل».

«أخبرتكَ عن تقديمِ الملكةِ إيزابيلا لبستانِ لاين غرينج إلى الديرِ مقابلَ قبولِه توماس كراهبٍ طوالَ الأعوامِ الماضيةِ».

«هل تحدثتِ مع أحدٍ بهذا الأمرِ؟»

«أجل مع وكيل بستان لاين غرينج، وحينها غضبَ توماس لأنني فعلتُ هذا وقالَ لي إنَّ هذا ستكونُ له عواقب وخيمة».

«إذاً، هناكَ شخصٌ خائفٌ من وقوعِ رسالةِ توماس السريَّةِ بينَ يديكِ».

«رالف؟»

«لا أعتقدُ أنَّ رالف يعرفُ بمسألةِ الرسالةِ فقد كنتُ الوحيد الذي رأى توماس يدفنها، ولا بدَّ أنَّه لم يأتِ على ذكرها أمامَ أحدٍ. لقد قام رالف بهذا بالنيابةِ عن أحدٍ ما».

بدت كاريس مرتعبةً ثمَّ قالت: «الملكة إيزابيلا؟»

«أو الملك نفسه».

«أيمكنُ أن يكونَ الملكُ من طلبَ من رالف غزو الديرَ؟»

«يستحيل أن يفعلَ الملكُ ذلك شخصياً وهذا يعني أنَّه استعانَ بوسيطٍ ما، بشخصٍ وفي وطموح ولا يردعهُ شيءٌ. لقد قابلتُ من أمثالِ هؤلاءِ الرجالِ في فلورنسا في بلاطِ قصرِ الدوج وهم عادةً من حثالةِ الأرضِ».

«من قد يكون هذا الشخص؟»

«أعتقدُ أنني أستطيعُ التكهن بهويتهِ»، أجابها ميرثن.

***

بعدَ مرورٍ يومين اجتمعَ غريغوري لونغفيلو مع رالف وآلان في قصرِ السيد في ويغلي. كانت ويغلي أكثرَ أماناً من القصرِ في تينش بسببِ وجودِ أناسٍ كثر يراقبون كلَّ حركةٍ يقومُ بها رالف سواء أكانوا خدماً أم تابعين أم من أهلِهِ، أمَّا هنا في ويغلي فلدى الناس أعباءٌ ثقيلةٌ كثيرةٌ ليقوموا بها، ولن يستجوبَ أحدٌ رالف بشأنِ محتوياتِ الكيسِ الذي يحملهُ آلان.

«إذاً، سارت الأمور كما هو مخططٌ لهُ»، قالَ غريغوري فقد كانت أخبارُ الإغارةِ على ديرِ الراهباتِ قد انتشرت في أرجاءِ المقاطعةِ.

«من دونِ صعوباتٍ كبيرةٍ»، قالَ رالف وقد أحبطهُ الردّ البارد الذي أبداه غريغوري تجاهَ ما قامَ بهِ فبعدَ كلِّ المتاعبِ التي مرَّ بها للحصولِ على الصكوكِ توقعَ من غريغوري أن يُظهرَ بعضَ البهجةِ.

«وبالطبعِ أعلنَ المأمورِ عن البدءِ بتحقيقٍ»، قالَ غريغوري عابساً.

«سيلقونَ باللومِ على الخارجين عن القانونِ».

«هل تعرَّفَ أحدٌ ما عليكم؟»

«كنا مُلثمين».

نظرَ غريغوري إلى رالف بطريقةٍ غريبةٍ ثمَّ قال: «لم أكن أعلم أنَّ زوجتكَ كانت في ديرِ الراهباتِ».

«يا لها من صدفةٍ سعيدةٍ»، قال رالف. «لقد أصبت عصفورين بحجرٍ واحدٍ».

وازدادت النظرةُ الغريبةُ على وجه غريغوري حدَّةً. ما الذي كانَ يفكرُ بهِ المحامي؟ هل كانَ يتظاهرُ بأنَّه مصدومٌ لأن رالف قتلَ زوجته؟ إن كانَ هذا ما يعتقدهُ فقد كانَ رالف مستعداً للإشارةِ إلى تواطؤ غريغوري في عمليةِ ديرِ الراهباتِ والإشهار بهِ بوصفهِ المُحرِّض على ما حدث. لم يكن يملكُ الحقَّ بالحكمِ عليهِ، وانتظرَ رالف أن يتحدثَ غريغوري الذي قالَ أخيراً وبعدَ فترةِ صمتٍ طويلةٍ: «فلنلقِ نظرةً على هذهِ الصكوك».

أرسلوا مدبرةَ القصرِ فيرا لتقومَ بعملٍ سيستغرقها وقتاً طويلاً وطلبَ رالف من آلان أن ينتظرَ عندَ البابِ لمنعِ دخولِ الزوارِ المعتادين، ثمَّ أفرغَ غريغوري الصكوكَ من الكيسِ على الطاولةِ. استرخى في مكانهِ وبدأ يتفحصُ الصكوك. كانَ بعضها ملفوفاً ومربوطاً بخيطٍ وبعضها الآخر مفتوحاً وهناكَ صكوك خيطت معاً في ما يشبهُ الكتابَ. فتحَ غريغوري صكاً وأخذَ يقرأُ بضعةَ سطورٍ في ضوءِ النهارِ القوي القادمِ من النوافذِ المفتوحةِ ثمَّ رماه إلى الكيسِ مجدداً وتناول صكاً آخر.

لم تكن لدى رالف أدنى فكرةٍ عما كانَ يبحثُ عنهُ غريغوري ولم يقل له شيئاً سوى أنَّ هناكَ أمراً من شأنهُ التسبب بإحراجِ الملكِ، ولم يكن بوسعِ رالف تخيلِ ماهيةِ هذهِ الوثيقةِ التي تملكها كاريس والتي من شأنها أن تُحرجَ الملكَ.

أُصيبَ رالف بالسأم وهو يراقبُ غريغوري، ولكنه لم يكن ليغادرَ المكانَ فقدَ قدَّمَ لغريغوري ما أرادهُ وسيبقى جالساً هنا إلى أن يؤكد لهُ غريغوري أنَّه سيفي بما وعدهُ بهِ كما جاءَ في الاتفاقِ.

بحثَ المحامي الطويل بينَ الوثائقِ بأناةٍ. لفتت انتباهَه وثيقةٌ وقرأها بالكاملِ ثمَّ رماها في الكيسِ مع البقيةِ.

قضى رالف وآلان معظمَ الأسبوعِ الماضي في بريستول، وهذا يعني أنهما

على الأرجح لن يخضعا للاستجوابِ بشأنِ ما حدثَ في الديرِ، ولكنهما أخذا احتياطاتهما على أيِّ حالٍ فقد احتفلا بصخبٍ في الحاناتِ كلَّ ليلةٍ باستثناءِ الليلةِ التي كانا فيها في كينغزبريدج، وسيتذكرُ من كانوا بصحبتهما المشاريب المجانيةَ ولكن لن يتذكروا غيابهما في إحدى الليالي، وإن انتبهوا إلى غيابهما فهم حتماً لن يتذكروا إن كان هذا قد حدثَ في الأربعاءِ الرابعِ بعدَ عيدِ الفصحِ أم يومَ الخميسِ الثالثِ قبلَ عيدِ العُنصرةِ.

وأخيراً امتلأ الكيس ولم يعد هناك أيّ وثيقة على الطاولةِ وقالَ رالف: «هل عثرت على ما كنتَ تبحثُ عنهُ؟»

لم يُجب غريغوري على السؤالِ بل سأله: «هل أنت واثقٌ من أنَّكَ جلبت كلَّ الصكوك؟»

«كلَّ شيء».

«هذا جيدٌ».

«إذاً، لم تعثر على ما كنتَ تبحثُ عنهُ؟»

وكعادتهِ اختارَ غريغوري كلماتهِ بعنايةٍ: «إنَّ الغرضَ المطلوب غيرُ موجودٍ هنا، على أيِّ حالٍ فأنا لم أصادفْ الصكّ الذي يفسر سببَ إعادةِ فتحِ... القضيةِ... في الأشهرِ الماضيةِ».

«إذاً أنتَ راضٍ»، ألحَّ رالف.

«أجل».

«ولم يعد هناك من داعٍ لبقاءِ الملكِ قلقاً».

بدا غريغوري كأنّه قد ضاقَ ذرعاً بهِ فقال: «ليسَ عليكَ أن تشغلَ بالكَ بمخاوفِ الملكِ فهذا عملي».

«إذاً، يمكنني أن أحصلَ على جائزتي على الفور».

«أوه، بالطبعِ»، قال غريغوري. «ستكونُ إيرل شايرنغ بحلولِ وقتِ الحصادِ».

شعرَ رالف بموجةِ رضا تغمرهُ فها هو سيصبحُ إيرلَ شايرنغ أخيراً. لقد ربحَ الجائزةَ التي كانَ يتوقُ إليها على الدوام، ووالدهُ ما يزال على قيدِ الحياةِ ليسمعَ بالخبرِ.

«شكراً لكَ»، قال رالف.

«لو كنتُ مكانكَ»، قال غريغوري. «لذهبتُ وتوددتُ إلى الليدي فيليبا».

«أتوددُ إليها؟» قالَ رالف مذهولاً.

هزَّ غريغوري كتفيهِ بلامبالاةٍ ثمَّ قال: «صحيحٌ أنَّها لا تملكُ خياراً في الأمرِ ولكن احترام الأمور الشكليةِ واجبٌ. أخبرها أنَّ الملكَ أعطاكَ الإذنَ بطلبِ يدها، ولتقل لها إنَّك ترجو منها أن تبادلك الحبَّ».

«أوه، حسناً»، قالَ رالف.

«وخذ معكَ هديةً لها»، قالَ غريغوري.

-73-

في فجرِ اليومِ الذي ستُدفن فيه تيلي صعدت كاريس وميرثن إلى سطحِ الكاتدرائيةِ.

بدا العالمُ من على سطحِ الكاتدرائيةِ كأنَّه عالمٌ آخر ومختلفٌ. في حصصِ الرياضياتِ المتقدمةِ في مدرسةِ الديرِ كان الطلابُ يصعدونَ إلى السطحِ ويقومون على مدارِ العامِ بتمارين هندسيةٍ قائمةً على إحصاءِ أبعادِ الحجارةِ، ولأنَّ العمال كانوا بحاجةٍ إلى وسيلةِ وصولٍ دائمةً من أجلِ أعمال الإصلاحاتِ والصيانةِ فقد كان هناكَ شبكةٌ من الممرات والسلالمِ تربط الأسطحَ المائلةَ والحواف والزوايا والمجاري والأبراج والقباب المستدقةِ والميازيب وتماثيل الكراغل، وعلى الرغم من أنَّ العمل على بناءِ البرج بينَ صحن وجناحِ الكنيسةِ لم ينته بعد فإن المنظر من أعلى الواجهةِ الغربيةِ للكاتدرائيةِ كان أخاذاً.

اكتظَّ الدير بالناسِ في إشارةٍ واضحةٍ إلى أن الجنازة ستكونُ مهيبةً، ورغم أن تيلي لم تكن شخصاً مُهماً في حياتِها فإنَّها باتت شخصاً مهماً في مماتها لكونها ضحيةَ جريمةٍ شنعاء، ولكونها امرأةً نبيلةً قُتلت في ديرِ الراهباتِ، وسيرثيها الجميعُ بمن فيهم من يعرفونها معرفةً سطحيةً. أرادت كاريس منعَ الناس من القدومِ إلى الجنازةِ مخافةً أن ينشروا الطاعون إلا أنَّها لم تتمكن من القيام بشيءٍ لمنعِ هذا.

كانَ الأسقفُ قد وصلَ وقد شغل أفضلَ غرفةٍ في قصرِ رئيسِ الديرِ ولهذا السببِ قضت كاريس وميرثن ليلتهما منفصلين حيثُ نامت في مهجع الراهباتِ، ونزلَ ميرثن ولولا في نُزلِ هولي بوش. نزلَ الأرملُ رالف في غرفةٍ خاصةٍ في الطابقِ العلوي من المستشفى، وقد تكفلت الراهباتُ بأمرِ العنايةِ بابنهِ جيري، وأتت الليدي فيليبا وابنتها أوديلا، وكانتا الناجيتين الوحيدتين من عائلةِ الإيرل المتوفى، وأقامتا في مستشفى الديرِ أيضاً.

لم يتحدَّث أيٌّ من كاريس أو ميرثن إلى رالف منذُ وصولهِ الليلةَ الماضيةَ فلم يكن هناك ما يسعهما القيامُ بهِ لتحقيقِ العدالةِ لتيلي لعدمِ امتلاكهما أيَّ دليلٍ رغمَ ثقتهما بحقيقةِ ما جرى، وحتَّى هذهِ اللحظةِ لم يخبرا أحداً بما كانا يعتقدانِ بهِ فلا جدوى من القيامِ بهذا، وخلالَ جنازةِ اليومِ تظاهرا كأنّهما لا يعرفانِ شيئاً وبأنَّ العلاقة مع رالف طبيعية، ولكنَ الأمرَ لم يكن سهلاً.

وبينما غطَّ الزوارُ المهمين في النومِ انشغلت الراهباتُ وموظفو الديرِ في التحضيرِ لغداءِ الجنازةِ. تصاعدَ الدخانُ من مدخنةِ المخبزِ حيثُ استقرَّت داخلِ الفرن أرغفة كثيرة من خبزِ القمحِ، وكانَ هناكَ رجلان يجرّان برميلين من النبيذِ إلى قصرِ رئيسِ الديرِ بينما قامت مجموعةٌ من الراهباتِ بترتيب المقاعد والطاولات في الحديقةِ من أجلِ عموم الناسِ.

وبينما كانت الشمسُ تشرقُ فوقَ النهرِ وتلقي بأشعتها الذهبية على أسطحِ كينغزبريدج المائلة أمعنت كاريس النظرَ إلى الآثارِ التي خلفتها تسعةُ أشهرٍ من الطاعونِ على المدينةِ، ومن هذا العلو رأت الفراغاتِ في صفوفِ المنازلِ الشبيهة بصفٍ من الأسنانِ. بالطبعِ كانت المنازلُ الخشبية عرضة للانهيار على الدوامِ بسببِ الحرائق أو الأمطار أو البناءِ غيرِ المتقنِ أو بسببِ قِدمِها، ولكن ما كانَ مختلفاً الآن هو غيابُ المهتمين بإصلاحها، فإن انهارَ بناءٌ لن يُكلّفَ سكانهُ أنفسهم عناءَ إصلاحهِ بل ينتقلونَ بكلِّ بساطةٍ إلى أحدِ المنازلِ الفارغةِ في الشارعِ نفسِه. كانَ الشخصُ الوحيدُ الذي ما زالَ يبني هو ميرثن واعتبرهُ الناسُ شخصاً مجنوناً بالتفاؤلِ ويملكُ الكثيرَ من المالِ.

وعلى الجهةِ المقابلةِ للنهرِ كانَ حفارو القبورِ مشغولين بحفرِ قبرٍ آخر في المقبرةِ الجديدةِ. لم يُظهِر الطاعونُ أيَّ علامةٍ على التراجعِ، ولكن أين سينتهي؟ وهل ستستمرُ المنازلُ بالسقوطِ تباعاً حتّى لا يبقى واحدٌ منها وتتحوّل المدينةُ إلى أرضٍ يبابٍ من الحجارةِ المحطمةِ والخشبِ المحروقِ بكاتدرائيةٍ مهجورةٍ في وسطها ومقبرةٍ شاسعةٍ على أطرافِها؟

«لن أسمحَ بحدوثِ هذا»، قالت كاريس.

لم يفهم ميرثن قصدها للوهلةِ الأولى وقال لها عابساً: «أتقصدينَ الجنازةَ؟»

وأشارت كاريس إلى المدينةِ وما بعدها بحركةٍ من يدها ثمَّ قالت: «بل كلَّ شيءٍ، الثمالى الذين يشوهونَ بعضهم والأهالي الذين يتخلونَ عن أطفالهم المرضى على عتبةِ بابِ مستشفاي والرجال المنتظرين دورهم لمضاجعة النساءِ الثملاتِ على الطاولةِ خارجَ حانةِ وايت هورس والقطعان التي تموتُ

في المراعي إلى التائبين نصف العراة وهم يجلدونَ أنفسهم ويجمعونَ المالَ من عابري السبيلِ، ولكن الأهمّ من هذا كله قتلُ أمٍّ شابةٍ بكلِّ وحشيةٍ هنا في ديرِ الراهباتِ. لا يهمني إن كنا سنموتُ جميعاً بالطاعونِ فطالما نحنُ على قيدِ الحياةِ لن أسمحَ بانهيارِ عالمنا».

«وما الذي ستفعلينهُ؟»

ابتسمت كاريس لميرثن في امتنانٍ لأنَّه وعلى عكسِ معظم الناسِ الذين سيخبرونها بأنَّها عاجزةٌ عن الوقوفِ في وجهِ هذا الوضعِ كانَ مؤمناً بها. نظرت إلى تماثيلِ الملائكةِ الحجريةِ على القبةِ المستدقةِ وإلى وجوهها التي شوهتها الرياح والأمطار لمئتي عامٍ، وفكّرت بالروحِ التي حثَّت بنائي الكاتدرائيةِ على العملِ. «سنعيدُ الأمورَ إلى نصابها ونفرض النظامَ هنا، وسنُجبرُ سكانَ كينغزبريدج على العودةِ إلى وضعهم الطبيعي سواء أحبوا هذا أم لم يحبوه، وسنبني هذهِ المدينةَ ونعيد الحياةَ إليها رغمَ الطاعونِ».

«حسناً»، قالَ لها.

«وهذهِ هي اللحظةُ المناسبةُ للقيام بهذا».

«لأنَّ الجميعَ غاضبٌ مما حدثَ لتيلي؟»

«ولأنَّهم خائفون من فكرةِ دخولِ رجالٍ مسلحين إلى المدينةِ ليلاً وقتلِ أيِّ شخصٍ، إنهم يعتقدون أنَّ ما من أحدٍ آمن».

«وما الذي ستفعلينهُ؟»

«سأخبرهم بأنَّ هذا لا يجبُ أن يتكرر مجدداً!»

***

«لا يجبُ أن يتكرر هذا مجدداً!» صرخت كاريس بصوتٍ رنَّ في أرجاءِ المقبرةِ ورجَّعت جدرانُ الكاتدرائيةِ العتيقةِ صداه.

لا يسمحُ للنساءِ بالتحدثِ علناً خلالَ المراسمِ الكنسيةِ إلا أنَّ مراسمَ الدفنِ كانت منطقةً رماديَّةً، أشبه بلحظةٍ وفورةٍ خارجَ الكنيسةِ حيثُ الناس العاديون كأفرادِ عائلةِ الميت يدلونَ بخطاباتٍ أحياناً أو يُصلونَ بصوتٍ عالٍ.

ولكن كاريس خاطرت بمخاطبةِ الناسِ في حضورِ الأسقف هنري الذي أقام المراسمَ ومعهُ رئيسُ الشمامسةِ لويد والمُرتلُ كلود. كانَ لويد أسقفَ أبرشيةٍ لعقودٍ بينما كلود أتى مع هنري من فرنسا، وبحضور هذهِ الشخصيات الكنسيةِ كان قيامُ راهبةٍ بخطابٍ مفاجئ عملاً وقحاً.

ولكن مثلُ هذهِ الاعتبارات لم تكن تعني الكثير لكاريس.

تحدَّثت كاريس وهم يُنزلونَ التابوت في القبرِ، وانخرطَ العديدُ من أفرادِ الأبرشيةِ في البكاءِ. كانَ عددُ الحاضرين لا يقلُّ عن خمسمئةِ شخصٍ ولكن الجميعَ لزمَ الصمتَ عندَما بدأت تتكلم.

«دخلَ مسلحونَ إلى مدينتنا ليلاً وقتلوا امرأةً شابةً في ديرِ الراهباتِ وأنا لن أسكتَ عن هذا»، قالت كاريس.

وعلَت همهمةُ موافقةٍ من الحشدِ.

ثمَّ رفعَت كاريس صوتها قائلةً: «إنَّ الديرَ لن يسكتَ عن هذا، والأسقف لن يسكتَ عن هذا، ورجال ونساء كينغزبريدج لن يسكتوا عن هذا!»

وعلى تهليلٌ بالموافقةِ وصرخَ الحشدُ: «لا!» ثمَّ أضافوا: «آمين!»

«يقولُ الناسُ إنَّ الوباءَ إبتلاءٌ من الرَّبِّ، وأنا أقولُ إنَّ الرَّبَّ عندما يُرسلَ لنا المطرَ فإننا نأخذ ملجأ منهُ، وعندما يُرسلُ لنا الشتاءَ نُشعلَ النارَ لنتدفأ، وعندما يبتلينا بالعشبِ الضَّارِ فإننا نقلعهُ من جذورهِ. لا بدَّ أن ندافعَ عن أنفسنا!»

حدَّقت كاريس إلى الأسقفِ هنري ورأت أنّه بدا مستمتعاً بما يسمعهُ. لم يكن لديهِ علمٍ بأنَّها ستقومُ بهذهِ الموعظةِ، ولو أنَّها طلبت منهُ الإذنَ لكانَ رفضَ طلبها، ولكنه رأى أنَّ الناسَ كانوا إلى جانبِ كاريس في ما تقولهُ ولم يجرؤ على التدخلِ وإيقافها.

«ما الذي يمكننا فعلهُ؟»

نظرت حولها ورأت أنَّ جميعَ الوجوه تنظرُ إليها في ترقبٍ. لم يكن لديهم أدنى فكرةٍ عمَّا يجبُ عليهم القيامُ بهِ، ولكنهم أرادوا منها أنْ تُقدّمَ لهم حلّاً. كانوا سيهللون لأي شيءٍ قد تقولهُ ما دامت تمنحهم الأملَ.

«يجبُ أن نعيدَ بناءَ سورِ المدينةِ!» قالت كاريس.

وعلَت أصواتٌ بالموافقةِ من الحشدِ.

«سورٌ جديدٌ أمتن وأطول من السورِ القديمِ المحطّمِ»، والتقت عيناها بعيني رالف ثمَّ تابعت: «سورٌ يُبعدُ المجرمين عن المدينةِ!»

صرخَ الحشدُ: «أجل!». وأشاحَ رالف بنظرهِ بعيداً.

«ويجبُ علينا أن ننتخب مأموراً جديداً ومساعدين له وخفراً لإرساءِ النظامِ وفرضِ حُسنِ السلوكِ بينَ الناسِ».

«أجل!»

«سيُعقدُ الليلةَ اجتماعٌ في قاعةِ نقابةِ الأبرشيةِ للعملِ على تفاصيلِ الأمرِ، وستُعلن قراراتُ النقابةِ في الكنيسةِ الأحدَ القادمَ. شكراً لكم وبارككم الرَّبُّ جميعاً».

***

أُقيمت وليمةُ الجنازةِ في قاعةِ الطعامِ الكبيرةِ في قصرِ رئيسِ الديرِ وجلسَ الأسقف هنري عندَ رأسِ الطاولةِ، وعلى يمينهِ جلست أرملةُ إيرل شايرنغ الليدي فيليبا، وإلى جانبها جلسَ زوجُ المرأةِ المتوفاةِ السير رالف فيتزجيرالد.

كانَ رالف سعيداً جداً لجلوسهِ إلى جانبِ فيليبا فقد كانَ بوسعهِ التحديقُ إلى ثدييها وانتباهها مُنصبٌ على تناولِ طعامها، وفي كلِّ مرَّةٍ انحنت فيها إلى الأمامِ استرقَ النظرَ إلى ياقةِ ثوبها الصيفي الخفيف المربعةِ. كانت فيليبا غافلةً عما كانَ يفعلهُ، ولكن لن يطولَ الوقتُ إلى أن يأمرها رالف بخلعِ ثوبها والوقوفِ عاريةً أمامهُ والتحديقِ إلى ثدييها المذهلين.

لاحظَ رالف أنَّ الوليمةَ التي أعدتها كاريس وافرةٌ رغمَ أنَّها لم تكن باذخةً، فلم يكن هناكَ بجعاتٌ مذهبةٌ أو أبراجٌ من الحلوياتِ ولكن هناكَ الكثير من اللحمِ المشوي والسمكِ المسلوقِ والخبزِ الطازجِ والبازلاء والتوتِ الربيعي. قدَّمَ رالف لفيليبا بعضَ الحساءِ المصنوعِ من لحمِ الدجاجِ المفرومِ وحليبِ اللوز.

قالت لهُ بحزنٍ: «يا لها من مأساةٍ رهيبةٍ. أُقدّمُ لكَ أحرَّ التعازي».

عاملهُ الناسُ أحياناً بتعاطفٍ كبيرٍ إلى درجةِ أنّه، وللحظاتٍ وجيزةٍ، صدَّقَ أنّه ضحيةٌ مسكينةٌ حلَّ على رأسها مصابٌ جللٌ ونسي أنّه من غرزَ السكينَ في قلبِ تيلي الصغير. «شكراً لكِ»، قالَ لها بوقارٍ. «كانت تيلي صغيرةً جداً، ولكننا، نحن الجنود، اعتدنا على الموتِ المفاجئ. ففي يومٍ يُنقذُ أحدهم حياتكِ ويتعهدُ بالصداقةِ والإخلاصِ الأبدي لكِ ليستقرَّ في اليومِ التالي سهمٌ في قلبهِ وتنسي أمرهُ».

رمقتهُ بنظرةٍ غريبةٍ ذكّرتهُ بالطريقةِ التي نظرَ السير غريغوري إليهِ في ويغلي. كانت النظرةُ مزيجاً بينَ الفضولِ والتقززِ، وتساءلَ في نفسهِ عن المشكلةِ في سلوكهِ حيالَ موتِ تيلي لكي يُنظرَ إليه بهذهِ الطريقةِ.

قالت فيليبا: «الديك طفلٌ صغيرٌ».

«الراهبات يعتنين بهِ اليومَ ولكني سآخذهُ معي إلى تينش هول غداً وهناكَ سأجدُ لهُ مرضعةً». ورأى رالف الفرصةَ سانحةً للقيامِ بتلميحٍ. «بالطبعِ إنّه يحتاجُ إلى من ترعاهُ كأمٍّ لهُ».

«أجل».

وتذكرَ رالف هنا المصابَ الذي كانت تعاني منهُ فيليبا فقال لها: «ولكنكِ تعرفينَ ما معنى أن يخسرَ المرءُ شريكهُ».

«كنتُ محظوظةً بالحياةِ مع الحبيبِ ويليام لواحدٍ وعشرين عاماً».

«لا بدَّ أنّكِ تشعرينَ بالوحدةِ»، قال وفكر بأنّها قد لا تكونُ هذهِ اللحظةُ المناسبةُ لطلبِ يدها ولكنّه فكّرَ بأخذ مسار الحديث في هذا الاتجاه.

«أجل فقد خسرتُ ثلاثةً من رجالي – ويليام وولديّ والقلعة فارغةٌ جداً».

«ولكن ليسَ لوقتٍ طويلٍ».

حدَّقت إليهِ كأنّها لم تكن قادرةً على تصديقِ ما سمعتهُ، وأدركَ أنّه تفوهَ بأمرٍ مهينٍ. أشاحت بنظرها وأخذت تتحدثُ إلى الأسقفِ هنري على جانبها الآخر.

إلى يمينِ رالف جلست ابنةُ فيليبا أوديلا فسألها رالف: «هل ترغبين ببعضٍ من هذهِ الفطيرةِ؟ إنّها مصنوعةٌ من لحمِ الطاووس والأرنبِ». أومأت برأسها واقتطعَ لها رالف قطعةً من الفطيرةِ. «ما عُمركِ؟» سألها رالف.

«سأبلغُ الخامسةَ عشرة هذا العام».

كانت طويلةً وقوامها بات شبيهاً بقوام والدتها بثدييها الممتلئين والعريضين ووركيها الأنثويين. «تبدين أكبرَ»، قال لها وحدَّقَ إلى ثدييها.

وقصدَ بكلامهِ مجاملتها فعادةً ما يرغبُ الصغار بسماع الآخرين يقولون أنهم يبدون أكبرَ من عمرهم، ولكنها خجلت وأشاحت بنظرها بعيداً.

نظرَ رالف إلى صحنهِ وطعنَ بسكينهِ شريحة لحم خنزيرٍ مطبوخة مع الزنجبيلِ. تناولَ شريحةَ اللحمِ في حزنٍ فهو لم يكن ماهراً في خطبِ الودِّ الذي تحدثَ عنهُ غريغوري.

***

جلست كاريس إلى يسارِ الأسقفِ هنري وإلى جانبها جلسَ ميرثن بوصفهِ رئيسَ نقابةِ الأبرشيةِ، وبجانبِ ميرثن جلسَ السير غريغوري لونغفيلو الذي حضرَ جنازةَ الإيرل ويليام منذُ ثلاثةِ أشهر ولم يغادر المقاطعةَ بعد. جاهدت

كاريس طوال الوقتِ لقمعِ تقززها من الجلوسِ إلى الطاولةِ نفسها التي يجلسُ إليها القاتلُ رالف والرجلُ الذي بلا أدنى شكٍ يقفُ وراءَ قيامهِ بهذا، ولكن هناك عملاً عليها إنجازه خلالَ المأدبةِ فقد خططت لإعادةِ إحياءِ المدينةِ، ولم يكن ترميمُ سورها سوى جزءٍ من هذهِ الخطةِ ولذلك اضطرت للجلوس إلى جانبِ الأسقفِ هنري.

سكبت كاريس للأسقفِ كأساً من نبيذِ غاسكون الأحمرِ الصافي، وقامَ الأخيرُ بأخذِ جرعةٍ طويلةٍ من كأسهِ ثمَّ مسحَ فمهُ وقالَ: «لقد قدَّمتِ موعظةً جيدةً».

«شكراً لكَ»، قالت لهُ وقد لاحظت نبرةَ عتابٍ ساخرةً تحتَ مجاملتهِ. «تسيرُ الحياة في هذهِ المدينةِ في طريقِ الانحلالِ والانغماسِ في اللذاتِ، وإن كانَ علينا إعادةُ الأمور إلى نصابها فعلينا أن نُلهمَ سكانَ المدينةِ، وأنا واثقةٌ من أنَّكَ توافقني على رأيي هذا».

«على الرغم من أنَّ طلبكَ متأخرٌ فإنني أوافقكِ من كلِّ بدٍ». كانَ هنري رجلاً براغماتياً ولا يحبُّ معاودةَ الدخولِ في معاركَ خاسرةٍ، وهذا ما كانت تعتمدُ عليهِ كاريس.

أخذت بعضاً من لحمِ طائر البلشون المشوي معِ الفلفلِ وكبشِ القرنفلِ ولكن دونَ أن تبدأ بأكلهِ فقد كان لديها الكثيرُ لتقولهُ. «خطتي تتعدى ترميمَ سورِ المدينةِ وإنشاءَ قوة منظمةٍ لإرساء النظام».

«هذا ما اعتقدتهُ».

«أعتقدُ أنَّكَ وبوصفكَ أسقفَ كينغزبريدج يجبُ أن تحظى بأعلى كاتدرائيةٍ في إنكلترا».

ورفعَ حاجبيهِ في استغرابٍ: «لم أكن أتوقعُ هذا».

«منذُ مئتي عام كانَ هذا الديرُ من بين أهمِّ الأديرةِ في إنكلترا، ولذلك يجبُ أن يستعيدَ مجدهُ القديم. إنَّ بناءَ برجٍ جديدٍ سيكونُ رمزاً لنهوضِ المدينةِ ورفعتكَ بينَ الأساقفةِ».

ابتسمَ هنري في تهكمٍ إلا أنَّه كانَ مسروراً بما سمعهُ، ورغم علمهِ بأنَّها تجاملهُ إلا أنَّه أحبَّ هذا.

قالت كاريس: «وسيقدمُ البرجُ خدمةً للمدينةِ لأنَّه إن كانَ مرئياً من بعيدٍ فسيراهُ الحجاجُ والتجار وهم في طريقهم إلى هنا».

«وكيفَ ستدفعين تكاليف بنائهُ؟»

«إنَّ الديرَ ثري».

تفاجأ هنري بما سمعهُ مجدداً وقال: «كانَ رئيسُ الديرِ غودوين يشتكي من مشاكل مالية».

«كانَ مديراً ميئوساً منهُ».

«ولكنَّه بدا لي كشخصٍ كفؤ».

«كان يوحي بهذا للكثيرِ من الناسِ إلا أنَّ جميع قراراتِه كانت خاطئةً، فمنذُ البدايةِ رفضَ إصلاح الطاحونةِ التي كانت ستدرُّ عليه مدخولاً محترماً، وصرفَ المال على بناءِ هذا القصرِ الذي لا يعود عليهِ بأيِّ مدخولٍ».

«وكيفَ تغيرت الأحوالُ إذاً؟»

«لقد صرفت معظمَ الوكلاءِ وعينت بُدلاء عنهم من الشبابِ القادرين على القيامِ بتغييراتٍ، وحوَّلت نصفَ الأراضي إلى مراعٍ سيكونُ العملُ فيها أسهل بالنظرِ إلى نقصِ الأيدي العاملةِ حالياً وأجّرت بقيَّةَ الأراضي لقاءَ أجرٍ مالي ومن دونِ أيِّ التزاماتٍ متعارف عليها، وانتفعنا جميعاً من ضرائبِ الميراثِ على إرثِ الناسِ الذين ماتوا من دون ورثةٍ جرَّاء الطاعون. إنَّ ديرَ الرهبان الآن ثري كديرِ الراهباتِ».

«إذاً جميع الإيجارات مجانية؟»

«بمعظمها، ولكن يُمكن للمستأجر أن يدفعَ المال بدلاً من القيام بخدماتٍ معقَّدةٍ خلال يومٍ من أيامِ الأسبوعِ كالعملِ في أرضِ السيدِ أو جمعِ القشِّ أو أخذ القطعان للرعي في أراضيهِ، وهذا ما يفضله العمال لأنَّه ومن دونِ أدنى شكٍ يجعلُ حياتهم أكثر سهولةً».

«الكثير من الأسيادِ ورؤساءِ الأديرةِ بشكلٍ خاصٍ يستحقرونَ هذا النوع من الإيجار، ويقولونَ إنَّه يدمرُّ منظومةَ عملِ الفلاحين».

هزَّت كاريس كتفيها وقالت: «ماذا لدينا لنخسره؟ السلطة على فرضِ تغييراتٍ سطحيةٍ وتفضيل بعضِ الأقنانِ على غيرهم واضطهاد بعضهم وإبقاؤهم جميعاً خاضعين. يعرفُ المزارعون ما هي المحاصيل التي يجبُ أن تُزرع وما يمكن بيعهُ، وهم يعملونَ بشكلٍ أفضلٍ إن تُركوا للعملِ بمفردهم».

بدا الأسقف مشككاً بكلامها وسألها: «إذاً، أنتِ تعتقدينَ أن الديرَ قادرٌ على بناءِ برجٍ جديدٍ؟»

وتكهنت كاريس بأنّه كانَ يتوقعُ أن تطلبَ المالَ منهُ ولذلك قالت: «أجل مع بعض المساعدةِ من تجارِ المدينةِ وهنا أريدُ مساعدتكَ».

«عرفتُ أنّك تريدين شيئاً ما».

«أنا لا أطلبُ منكَ المالَ بل ما أريدهُ منكَ أهمُّ من النقودِ».

«لقد أثرتِ اهتمامي».

«أريدُ أن أتقدَّم بطلبٍ إلى الملكِ لتحويل كينغزبريدج إلى منطقةٍ إداريةٍ بامتيازٍ ملكي». شعرت بنفسها ترتجفُ وهي تنطقُ بهذهِ الكلماتِ، وعادت بالزمنِ إلى المعركةِ التي دخلتها مع غودوين منذُ عشرِ سنواتٍ وانتهت باتهامها بممارسةِ السحرِ. كانت القضيةُ آنذاك هي الحصول على الامتياز الملكي وكادت تموتُ في سبيلها، ولكن وعلى الرغم من أنَّ الظروفَ الآن مختلفةٌ تماماً فإنَّ الحصول على هذا الامتياز لم يكن أقلَّ أهمية من أيِّ مسألةٍ أخرى. وضعت سكين الطعام على الطاولةِ وشبكت يديها فوق حضنها حتّى تحافظ على ثباتهما.

«فهمت»، قال هنري بشكلٍ مبهمٍ.

ابتلعت كاريس لعابها بصعوبةٍ وتابعت كلامها: «إنَّ بناءَ البرج أساسي لتحقيقِ نهضةٍ في الحياةِ التجاريةِ للمدينةِ، وقد أعاقَ التأثيرُ السيئ لسيطرةِ الديرِ على المدينةِ تطور كينغزبريدج ولوقتٍ طويلٍ. كان رؤساءُ الأديرةِ حذرين ومحافظين ورفضوا بشكلٍ قاطعٍ أيَّ تغيير أو إبداعٍ جديد. يعيشُ التجار على التغيير وهم في بحثٍ مستمرٍ عن طرقٍ جديدةٍ، أو عن طرقٍ جيدةٍ على الأقل، لجني المالِ. وإن أردنا أن يساعدنا رجالُ كينغزبريدج في تمويل بناء البرج الجديد فيجب أن نعطيهم الحريةَ التي يحتاجونها لتزدهرَ أحوالهم».

«إمتيازٌ ملكي».

«سيكونُ للمدينةِ محكمتها الخاصّة وستضعُ قوانينها المناسبة لها وستكون محكومةً بنقابةٍ لائقة بدلاً من نقابةِ الأبرشيةِ التي لدينا الآن والتي لا تملكُ أيّ سلطةٍ حقيقيةٍ».

«ولكن هل سيمنحكم الملكُ الامتياز؟»

«يحبُّ الملوكُ المناطق الإدارية ذات الامتيازات الملكيةِ فهي تعودُ عليهم بالكثيرِ من الضرائبِ، ولكن رؤساء ديرِ كينغزبريدج السابقين في الماضي عارضوا أخذ المدينة لامتيازٍ ملكي».

«أنتِ تعتقدين أن رؤساء الأديرةِ محافظون جداً؟»

«مترددون».

«حسناً»، قالَ الأسقفُ ضاحكاً. «التردّدُ ليسَ تهمةً».

تابعت كاريس مشددةً على وجهةِ نظرها: «أعتقدُ أنَّ الحصولَ على الامتياز عاملٌ جوهري لبناءِ البرجِ الجديدِ».

«أجل، فهمت قصدكِ».

«إذاً، أنتَ توافقني؟»

«على مسألةِ البرج، أم مسألةِ الامتياز؟»

«القضيتان غير منفصلتين».

بدا هنري مستمتعاً بالحديثِ وسألها: «هل تعقدين صفقةً معي أيتها الأمُّ كاريس؟»

«إن كنتَ مستعداً لعقدِ صفقةٍ».

«حسناً، فلتبني لي برجاً وسأساعدكِ في الحصولِ على الامتياز».

«لا، إننا نحتاج إلى الامتياز أولاً ومن ثمَّ يمكننا البدءُ ببناءِ البرج».

«إذاً يجبُ أن أثقَ بكِ».

«هل الأمرُ صعبٌ؟»

«بصراحةٍ لا».

«هذا جيدٌ، إذاً نحن متفقان».

«أجل».

انحنت كاريس إلى الأمامِ ونظرت إلى جانبِ ميرثن ثمَّ قالت: «سير غريغوري؟»

«أجل أيتها الأمُّ كاريس؟»

أجبرت كاريس نفسها على التصرُّفِ بتهذيبٍ معهُ وقالت له: «هل جرَّبت بعضاً من لحمِ الأرنبِ مع مرقِ السُّكرِ؟ أنصحكَ بهِ».

قبلَ غريغوري الصحنَ منها وأخذَ بعضاً من اللحمِ ثمَّ قال: «شكراً لكِ».

قالت لهُ كاريس: «أنتَ تتذكرُ أنَّ كينغزبريدج ليست منطقةً إداريةً».

«بالتأكيدِ أتذكر»، قال غريغوري الذي استغلَّ هذهِ الحقيقةَ منذُ أكثر من عقدٍ لهزيمةِ كاريس في المحكمةِ الملكيةِ أثناءَ الخلافِ على مسألةِ الطاحونةِ.

«يعتقدُ الأسقفُ أنَّ الوقتَ قد حانَ لنطلبَ من الملكِ منحنا الامتياز الملكي بمنطقةٍ إداريةٍ».

أومأ غريغوري برأسهِ وقالَ: «أعتقدُ أنَّ الملكَ قد يؤيدُ مثلَ هذا الالتماسِ بخاصَّةٍ إن قدمناه بطريقةٍ صحيحةٍ».

وعلى أملِ ألا يفضحَ وجهها القرفَ الذي شعرت بهِ نحوهُ قالت له: «ربما بإمكانكَ أن تتفضل وتقدم لنا النصيحةَ».

«هلَّا ناقشنا الأمرَ بالتفصيل لاحقاً؟»

قال غريغوري هذا لأنَّه سيطلبُ منها رشوةً سيقولُ عنها، دونَ أدنى شكٍ، إنَّها أتعابُهُ كمحام.

«بالطبعِ»، قالت كاريس وهي تكبحُ رعدةً سرت في أوصالها.

بدأ الخدمُ بتنظيفِ الطاولةِ ونظرت كاريس إلى صحنِها فاكتشفت أنَّها لم تأكل شيئاً البتة.

***

«نحن أقرباء»، قالَ رالف لليدي فيليبا ثمَّ أضافَ على عجلٍ: «قد لا نكونُ شديدي القرابةِ بالطبعِ، ولكن والدي ينحدرُ من عائلةِ إيرلِ شايرنغ الذي كانَ ابنَ الليدي أليانا والبنَّاء جاك». ونظرَ عبرَ الطاولةِ إلى أخيهِ ميرثن رئيس النقابةِ قائلاً: «أعتقدُ أنني ورثتُ دماء الإيرلِ وورثَ أخي دماءَ البنَّاءِ».

نظرَ إلى وجهِ فيليبا ليرى ردَّ فعلها على ما قالهُ ووجدَ أنها لم تكن منبهرةً بما سمعت.

«لقد ترعرتُ في منزلِ والدِ زوجكِ الإيرل رولاند»، تابعَ رالف.

«أتذكركَ عندما كنتَ مرافقاً».

«لقد خدمتُ تحتَ إمرةِ الإيرلِ في جيشِ الملكِ في فرنسا، وفي معركةِ سيرسي أنقذتُ حياةَ أمير ويلز».

«يا إلهي، هذا مذهلٌ»، قالت له بتهذيبٍ.

كانَ رالف يحاولُ دفعها إلى رؤيتهِ كشخصٍ مساوٍ لها كي لا يظهر بمظهرٍ غريبٍ عندما يخبرها بأنَّها ستُصبحُ زوجتهُ، ولكن يبدو أنَّه لم ينجحْ بالتحايلِ عليها لأنَّها بدت ضجرةً وحائرةً بعضَ الشيءِ حيالَ ما يريدُ الوصولَ إليهِ بحديثهِ.

قدّموا التحليةَ للضيوفِ وقد كانت عبارةً عن فراولة محلّاةٍ بالسُكرِ ورقاقات العسل والتمر والزبيبِ والنبيذِ المنكهِ بالتوابلِ. تجرَّعَ رالف كأساً من النبيذ وسكبَ كأساً أخرى على أملِ أن يساعدهُ المشروب على الاسترخاءِ في حديثهِ

مع فيليبا. كانَ حائراً حيالَ السببِ الذي يجعلُ الكلامَ معها صعباً، فهل السبب جنازةُ زوجتِهِ؟ أم لأنَّ فيليبا كونتيسة؟ أم لأنّه كانَ مُغرماً بها من دونِ أملٍ طوالَ سنواتٍ وغير قادرٍ على التصديقِ الآن، على الأقلّ، أنّها ستُصبحُ زوجتهُ؟

«ستعودينَ إلى شايرنغ عندما تغادرين كينغزبريدج؟» سألها.

«أجل سنُغادرُ في الغدِ».

«وهل ستبقينَ هناكَ لوقتٍ طويلٍ؟»

«وإلى أين سأذهب؟» قالت في عبوسٍ. «لمَ تسأل؟»

«إن سمحتِ لي فأنا أرغبُ بزيارتكِ هناك».

وجاءَ ردُّها بارداً: «وما الغايةُ من زيارتك؟»

«أرغبُ بالحديث معك في أمرٍ لا يسعني التحدثُ بهِ هنا الآن».

«ما الذي تقصدهُ بكلامكِ؟»

«سآتي لمقابلتِكِ في الأيام القليلةِ القادمةِ».

بدت مغتاظةً جداً وقالت له بنبرةٍ عاليةٍ: «وما الذي لديكَ لتقولهُ لي؟»

«كما أخبرتكِ قبلاً لا يمكنني التحدثُ بالأمرِ اليوم».

«لأنّها جنازةُ زوجتكَ؟»

أومأ برأسهِ.

فرَّ اللونُ من وجهها وقالت له: «يا إلهي، أنت لا تعني بكلامكَ...»

«أخبرتكِ أنني لا أريدُ مناقشةَ الأمر الآن».

«ولكن يجب أن أعلم!»، صاحت بهِ. «هل تُخططِ لطلبِ يدي؟»

أبدى رالف تردداً في الإجابةِ ثمَّ استهجنَ وأخيراً أومأ برأسهِ بالإيجاب.

«ولكن على أيِّ أساسٍ؟» قالت لهُ. «بالتأكيدِ أنتَ تحتاج إلى إذنِ الملكِ!»

نظرَ إليها ورفعَ حاجبيهِ لبرهةٍ وجيزةٍ.

وقفت فيليبا فجأةً قائلةً: «لا!» وحدَّق بها جميعُ من حولها إلى الطاولةِ ثمَّ حدَّقت إلى غريغوري وسألتهُ: «هل هذا صحيحٌ؟ هل سيزوجني الملكُ إليهِ؟» مشيرةً بإبهامها بكلِّ احتقارٍ إلى رالف.

شعرَ رالف كأنّه تلّقى طعنةً فهو لم يكن يتوقع منها هذا القدرَ من الاشمئزازِ. هل كانَ مقرزاً إلى هذهِ الدرجةِ؟

نظرَ غريغوري في عتابٍ إلى رالف وقال: «هذهِ ليست اللحظةَ المناسبةَ لفتحِ الموضوعِ».

صرخت فيليبا قائلةً: «إذاً، الأمرُ حقيقي! الرحمةُ يا ربي!»

التقت عينا رالف بعيني أوديلا ورآها تحدقُ بهِ في هلعٍ. ما الذي فعلهُ لتكرههُ الفتاةُ إلى هذهِ الدرجةِ؟

قالت فيليبا: «لا يمكنني القبول بهذا».

«لماذا؟» قالَ رالف. «ما الخطبُ في الأمرِ؟ ما الحقُّ الذي تملكينهُ لتنظري إليَّ وإلى عائلتي في تعالٍ؟» ونظرَ حولهُ إلى الطاولةِ، إلى شقيقهِ وحليفهُ غريغوري والأسقف ورئيسة ديرِ الراهباتِ ونبلاء عاديين وعلية القومِ في المدينةِ. كانوا جميعاً صامتين ومصدومين وقد أثارَ هيجانُ فيليبا اهتمامهم.

تجاهلت سؤالهُ وتوجهت بكلامها إلى غريغوري قائلةً: «لن أقبلَ بهذا! لن أقبل بهِ، هل تسمعني؟» كانَ وجهها شاحباً من شدَّةِ الغضبِ ولكنَ الدموعَ أخذت تترقرقُ على وجنتيها. نظرَ إليها رالف وبدت جميلةً جداً حتَّى عندما ترفضهُ وتُذلهُ بشكلٍ مؤلمٍ.

قالَ غريغوري بلهجةٍ باردةٍ: «القرارُ ليسَ لكِ أيتها الليدي فيليبا، وبالتأكيد ليسَ قراري، فالملك سيفعلُ ما يناسبهُ».

«قد تُجبرني على ارتداءِ ثوب زفافٍ وعلى السيرِ في ممرِ الكنيسةِ»، قالت فيليبا في غضبٍ وأشارت إلى الأسقفِ هنري قائلةً: «ولكن عندما يسألني الأسقفُ إن كنتُ أقبلُ برالف فيتزجيرالد زوجاً لي فسأرفض حتماً. لن أقبلَ بهِ أبداً. أبداً. أبداً!»

واندفعت خارجَ الغرفةِ ولحقت بها أوديلا.

***

عندما انتهت الوليمةُ عادَ سكانُ المدينةِ إلى منازلهم والضيوفُ المهمون إلى غرفهم ليرتاحوا ويناموا بعدَ الوليمةِ بينما أشرفت كاريس على عمليةِ التنظيفِ. كانت تشعرُ بالأسفِ على فيليبا، وبالأسفِ الأشدِّ لعلمها بما كانت فيليبا تجهلُ به وهو تورط رالف في قتلِ زوجتهِ الأولى، إلا أنَّ ما كانَ يشغلها حقاً كانَ مصيرُ المدينةِ بأكملها وليسَ مصيرَ شخصٍ واحدٍ فقط، ولذلك كانت غارقةً في التفكير بمخططها لمدينةِ كينغزبريدج. لقد سارت الأمورُ على نحوٍ أفضلَ مما توقعت فها هم سكانُ المدينةِ قد هللوا لها ووافقَ الأسقف على كلِّ شيءٍ اقترحتهُ، ورغمَ الطاعونِ قد تعودُ كينغزبريدج مدينةً مُتمدنةً من جديدٍ.

في الخارجِ أمام الباب الخلفي وجدت كومةً من العظام وبقايا الخبزِ ورأت هرَّ غودوين المدعو «رئيس الأساقفة» ينهشُ على مهلٍ بقايا بطةٍ فهشَّتهُ بعيداً

ليبتعد راكضاً بضعَ ياردات ثمَّ يستأنف مشيتهُ الرصينة وذيلهُ بنهايتِهِ البيضاءِ ارتفعَ عالياً بكلِّ عجرفةٍ.

صعدت درجَ القصرِ غارقةً في أفكارِها حولَ الطريقةِ التي يجبُ أن تطبّقَ بها التغييرات التي وافقَ عليها هنري، ومن دونِ أن تتوقفَ فتحت بابَ غرفةِ النومِ التي كانت تتشاركها مع ميرثن ثمَّ دخلت.

لوهلةٍ شعرت بالاضطراب عندما رأت رجلين واقفين وسطَ الغرفةِ، وفكرت في نفسها أنَّها لا بدَّ قد أخطأت المبنى، ثمَّ فكرت بأنَّها ربما أخطأت في الغرفةِ ثمَّ تذكرت أنَّها غرفتها لأنَّها أفضلُ غرفةٍ ولهذا، وبالشكلِ الطبيعي، كان الأسقفُ يشغلها.

ولم يكن الرجلان سوى هنري ومساعدِهِ الكاهن كلود، وأخذت كاريس بعضَ الوقتِ لتدركَ أنهما كانا عاريين ومتعانقين وغارقين في قُبلةٍ.

حدَّقت إليهما مصدومةً ثمَّ قالت: «أوه!»

لم يكونا قد سمعا صوت البابِ ولم يُدركا أنَّ أحداً يشاهدهما إلى أن تحدَّثت كاريس، وعندما سمعا شهقتها من الصدمةِ استدارا نحوها، وعلت وجه هنري نظرةٌ تشي بشعورٍ رهيبٍ بالذنبِ وفغرَ فاه.

«أنا آسفةٌ»، قالت كاريس.

انفصلَ الرجلانِ بعضهما عن بعض بسرعةٍ على أملِ أن يتمكنا من إنكار ما كان يجري، ثمَّ تذكرا أنَّهما عاريين. كانَ هنري ممتلئاً وببطنٍ مدورٍ وذراعين وساقين سمينة وشعرٍ رمادي على صدرِهِ، أمَّا كلود الأصغر عُمراً والأنحف فقد كان الشعرُ على جسدِهِ خفيفاً باستثناءِ شعرٍ كستنائي لامع وكثيف حولَ عضوِهِ. لم تكن كاريس قد رأت قبلاً عضوين منتصبين في الوقتِ عينِهِ.

«أرجو المعذرةَ!» قالت كاريس في حرجٍ وخجلٍ. «إنَّها غلطتي، لقد نسيت». وأدركت أنَّها كانت تثرثرُ وهما ينظران إليها مصعوقين. لم يكن كلامها مُهماً فليس هناك ما يمكنها قوله لجعلِ الموقف أفضل.

وحالما استعادت صوابها اندفعت خارجَ الغرفةِ مُغلقةً البابَ وراءها.

***

غادرَ ميرثن الوليمةَ مع مادج ويبر. لقد كان مُغرماً بهذهِ المرأةِ الضئيلةِ والمكتنزةِ بذقنها الناتئ ومؤخرتها البارزةِ، ومعجباً بالطريقةِ التي تابعت بها حياتها بعدَ وفاةِ زوجها وأولادها جرَّاءَ الطاعونِ، فقد تابعت عملَ زوجها في

نسجِ وصبغِ القماشِ باللونِ الأحمرِ وفقاً لوصفةِ كاريس. قالت لهُ: «أحسنت كاريس الصنعَ، وكالعادةِ كانت على حقٍ فلا يمكننا الاستمرار على هذا الحال في المدينةِ».

«أنتِ تابعتِ حياتكِ بطريقةٍ طبيعيةٍ رغمَ كلِّ شيءٍ»، قال لها.

«المشكلةُ الوحيدةُ التي تواجهني هي إيجادُ عُمالٍ».

«هذا حالُ الجميعِ فأنا أيضاً لا يمكنني إيجادُ بنائين».

«خامُ الصوفِ رخيصٌ وما زالَ الأثرياءُ مستعدين لدفعِ سعرٍ عالٍ مقابل شراءِ قماشٍ قرمزي جيّدٍ»، قالت مادج ثمَّ تابعت: «يمكنني بيعُ الكثير لو كانَ بوسعي إنتاجُ المزيد منهُ».

وقالَ ميرثن مفكراً: «أتعلمين، لقد رأيت نولاً أسرع في فلورنسا، نوعٌ يُحرَّكُ بدواسةِ قدمٍ».

«حقاً؟» قالت ونظرت إليهِ في فضولٍ يقظٍ ثمَّ أضافت: «لم أسمع بهذا النوعِ قبلاً».

تساءلَ ميرثن في نفسهِ كيفَ سيوضح لها الأمرَ ثمَّ قال: «في أيِّ نولٍ عادي تقومين بترتيبِ مجموعةٍ من الخيوطِ فوقَ إطارٍ خشبي لتشكيلِ ما يسمى بالسَّداة ثمَّ تنسجين خيوطاً بشكلٍ معاكسٍ عبرَ خيوطِ السَّداةِ من خلالِ تمرير الخيط تحت الخيط ومن جهةٍ إلى أخرى وتعاودين الكرَّةَ إلى أن تتشكلَ لديكِ اللُحمة».

«أجل هذهِ هي الطريقةُ التي يعملُ بها النولُ البسيط ولكن نولنا أفضل».

«أعلم، ولكن ولتسريعِ العمليةِ تربطين كلَّ خيطٍ ثانٍ من السُّداة إلى قضيبٍ متحركٍ يُدعى «نيرِ النولِ»، وعندما تُحركين النيرَ تُبعدينَ بهِ نصفَ الخيوطِ عن البقيةِ. ولذلكَ وبدلاً من تمريرِ الخيطِ يمكنكِ، وبكلِّ بساطةٍ، تمرير اللُحمةِ بشكلٍ مباشرٍ في الفراغاتِ وبحركةٍ واحدةٍ سهلةٍ، ثمَّ تُنزلين النيرَ تحتَ السُّداة لتكرارِ العملية».

«أجل، وبالمناسبةِ إنَّ خيطَ اللُحمةِ يُنسج على مكوكٍ».

«في كلِّ مرَّةٍ تمررين المكوكَ عبرَ السُّداةِ من اليسارِ إلى اليمينِ تضطرين لوضعهِ واستخدامِ كلتا يديكِ لتحريكِ نير النول ثمَّ التقاطِ المكوكِ مجدداً وإعادتهِ من اليمينِ إلى اليسارِ».

«تماماً».

«في النولِ ذي الدواسةِ تُحركين النيرَ بقدمكِ وبالتالي لا تضطرين إلى وضعِ المكوكِ».

«حقاً؟ يا إلهي!».

«وسيُشكلُ هذا فرقاً، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«فرقاً كبيراً من شأنه أن يُضاعف الكميةَ!»

«هذا ما تخيلتهُ، هل أصنعُ لكِ واحداً لتجربيهِ؟»

«أجل، من فضلكَ».

«لم أعد أتذكرُ بدقةٍ الطريقةَ التي يُصنعُ بها ولكني أعتقدُ أنَّ الدواسةَ تعملُ بنظامِ بكراتٍ ورافعاتٍ...» وغرقَ في التفكير عابساً ثمَّ قال: «على أيِّ حالٍ أنا واثقٌ من أنني سأتمكنُ من فهمِ آليةِ عملِ هذا النول».

***

في وقتٍ متأخرٍ من بعدِ الظهرِ كانت كاريس تمرُّ بالمكتبةِ عندما قابلت الكاهنَ كلود خارجاً منها يحملُ كتاباً صغيراً وعندما التقت أعينهما توقفَ كلود. عاد إليهما المشهد الذي رأتهُ كاريس بالخطأ منذُ ساعةٍ. في البدايةِ بدا كلود مُحرجاً إلَّا أنَّ شبحَ ابتسامةٍ ارتسمَ عندَ زاويتي فمِهِ فرفعَ يدهُ إلى وجههِ لإخفائها. لا بد أنَّه شعرَ بخطأ الابتسام على ما حدثَ. وتذكرت كاريس كيفَ كانَ الرجلان العاريان يبدوان، وبدورها شعرت بضحكةٍ غير لائقةٍ تغلي في داخلها، وبشكلٍ عفويٍ قالت أوَّلَ شيءٍ خطرَ ببالها: «كان مظهركما غريباً!» فضحكَ كلود رغماً عنهُ ولم تتمالك كاريس ضحكتها أيضاً، ولكن الأمر إزدادَ سوءاً عندما أصبحا بينَ ذراعي بعضهما والدموعُ تترقرقُ على وجنتيهما في عجزٍ تامٍ عن تمالك نفسيهما من شدَّةِ الضحكِ.

***

في تلكَ الليلة ذهبَ ميرثن وكاريس إلى الزاويةِ الجنوبيةِ الغربيةِ من الديرِ حيثُ تمتدُ حديقةُ خضار على طولِ ضفَّةِ النهرِ. كانَ الهواءُ معتدلاً وانبعث من الأرضِ الرطبةِ رائحةُ نباتاتٍ جديدةٍ، وكانَ بوسعِ كاريس رؤيةُ البصلِ الأخضرِ والفجلِ النامي.

«إذاً، سيُصبحُ شقيقكَ إيرلَ شايرنغ»، قالت كاريس.

«لن يحدثَ هذا ما لم تقبل بهِ الليدي فيليبا».

«على الكونتيسةِ أن تفعلَ ما يأمرها بِهِ الملكُ، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«نظرياً، يجبُ أن تخضعَ جميعُ النساءِ للرجالِ»، قالَ ميرثن بابتسامةٍ. «ولكن بعضهن يتحدينَ هذا العُرف».

«لا يمكنني التفكيرُ بمن تقصدُ».

تغيرَ مزاج ميرثن على الفورِ وقال: «يا لهُ من عالمٍ! زوجٌ يقتلُ زوجتهُ فيُعلي الملكُ من مكانتِهِ».

«كلانا يعلمُ أنَّ مثلَ هذهِ الأمورِ تحدثُ»، قالت لهُ. «ولكنه يكون صادماً عندما يحدثُ في عائلتكَ. يا تيلي المسكينة!»

فركَ ميرثن عينيهِ كأنّه يحاولُ مسحَ رؤية راودتهُ: «لمَ أحضرتني إلى هنا؟»

«لأتحدثَ معكَ عن دورِ الجنازةِ في خطتي ببناءِ مستشفى جديدٍ».

«آه، كنتُ أتساءلُ...»

«هل يمكنكَ أن تبنيها هنا؟»

نظرَ ميرثن حولهُ وقال: «لا أرى سبباً يمنعني من فعلِ هذا رغم أنَّ أرضَ الموقع منحدرةٌ ولكنَّ الديرَ بأكملهِ مبني على منحدرٍ، وأنت هنا لا تطلبين بناء كاتدرائيةٍ أخرى بل مبنى من طابقٍ أو طابقين، صحيح؟»

«من طابقٍ واحدٍ وأرغبُ أن يكونَ مُقسماً إلى غرُفٍ متوسطة الحجم وأن تحوي كلُّ غرفةٍ على أربعة أو ستة أسرَّةٍ حتّى لا تنتشرَ الأمراض بسرعةٍ كبيرةٍ من المرضى إلى جميعِ من في المكانِ. ويجبُ أن يكونَ للمستشفى صيدليةٌ خاصةٌ به، غرفةٌ كبيرةٌ وحسنةُ الإضاءةِ من أجلِ إعدادِ الأدويةِ وحديقةُ أعشابٍ طبيةٍ في الخارجِ، وأريد مرحاضاً واسعاً وحسن التهويةِ مع أنابيب توصل المياه من أجلِ سهولةِ التنظيفِ. في الحقيقةِ يجبُ أن تكونَ مساحةُ وإضاءةُ المكانِ بأكملهِ وافرتين، ولكن الأهمَّ من هذا كله هو أن تكون على بعدِ مئةِ ياردة على الأقلِّ من بقيةِ الديرِ فيجبُ أن نفصلَ المرضى عن الأصحاءِ وهذهِ ميزةٌ أساسيةٌ».

«سأضعُ بعضَ التصاميمِ في الصباحِ».

نظرت حولها ورأت أنَّ ما من أحدٍ يراقبها فقامت بتقبيلهِ ثمَّ قالت: «أنتَ تُدركُ أن هذا سيكونُ ذروةَ مسيرة حياتي؟»

«أنتِ في الثانيةِ والثلاثين، أليسَ من المبكرِ أن تتحدثي عن مسيرة حياتِكِ؟»

«أنا لم أحقق حلمي بعد».

«لن يأخذَ الأمرُ وقتاً طويلاً ليتحقق. سأبدأ بالمشروع وأنا أحفرُ أساسات البرجِ الجديدِ، ثمَّ حالما أنتهي من بناءِ المستشفى يمكنني أن أنقلَ عمالي للعملِ في الكاتدرائيةِ».

وانطلقا عائدين أدراجهما، ولأن كاريس تعرفُ أن حماسةَ ميرثن الحقيقيةِ هي لبناءِ برجِ الكاتدرائية قالت له: «كم سيكونُ طول البرج برأيكَ؟»

«أربعمئةٍ وخمسةَ أقدام».

«وما طولُ برجِ سالسبيري؟»

«أربعمئة وأربعة أقدام».

«إذاً، سيكونُ أطولَ مبنى في إنكلترا!».

«أجل ولكن إلى أن يبني أحدٌ مبنى أعلى منهُ».

وفكرت كاريس بأنَّ ميرثن سيحققُ طموحهُ أيضاً. أحاطتهُ بذراعيها وهما يسيران باتجاهِ قصرِ رئيسِ الديرِ، وشعرت بالسعادةِ إلا أنَّها وجدت الشعور غريباً. على الرغم من أنَّ الآلاف من سكانِ كينغزبريدج ماتوا بالطاعونِ وتيلي ماتت مقتولةً فإنَّ كاريس شعرت بالتفاؤلِ، والسبب في هذا يعود إلى امتلاكها لخطةٍ. لطالما كانت تشعر بأنَّها على ما يرام عندما يكون لديها خطةٌ، وخطتها الآن هي بناءُ سورٍ جديدٍ وتنظيمُ قوةٍ لفرضِ النظام وبناء برجٍ والحصول على امتيازٍ ملكي والأهمُّ من هذا كلّهُ المستشفى الجديد، ولكن كيفَ ستجدُ الوقتَ لتنظيمِ كل هذا؟

تأبطت ذراعَ ميرثن وهما يسيران باتجاهِ منزلِ رئيسِ الديرِ. كانَ الأسقفُ هنري والسير غريغوري هناكَ غارقين في الحديثِ مع رجلٍ ثالثٍ ظهرهُ لكاريس، وأحسَّت بشيءٍ مألوفٍ ولكن مُزعجٍ في هيئةِ القادم الجديد، وبالنظرِ إلى ظهرهِ فقط شعرت كاريس برعدةٍ تسري في أوصالها، ثمَّ استدارَ الرجلُ ورأت كاريس وجهاً ساخراً ومتعالياً وهازئاً يفيضُ خُبثاً.

كانَ وجه فيليمون.

-74-

في صباحِ اليومِ التالي غادرَ الأسقفُ هنري وبقيَّةُ الضيوف كينغزبريدج، وعادت كاريس التي قضت الأيامَ الماضيةَ في مهجعِ الراهباتِ إلى قصرِ رئيسِ الديرِ بعدَ الفطورِ ثمَّ صعدت إلى غرفتها في الطابقِ العلوي.

وجدت فيليمون في الغرفةِ.

كانت هذهِ المرَّة الثانية خلالَ اليومين الماضيين التي يُباغتها وجودُ رجالٍ في غرفتِها، ولكنَ فيليمون كانَ وحده وفي كاملِ ثيابهِ ويقفُ قربَ النافذةِ يُطالعُ كتاباً، وبالنظرِ إلى وجههِ بشكلٍ جانبي أدركت كاريس أنَّ مشاقَّ الأشهرِ الستةِ الماضيةِ قد جعلتهُ أكثرَ هُزالاً.

قالت لهُ: «ما الذي تفعلهُ هنا؟»

تظاهرَ بأنَّه تفاجأ بسؤالها وقال: «هذا قصرُ رئيسِ الديرِ فلمَ لا يمكنني التواجدُ هنا؟»

«لأنَّها ليست غرفتكَ!»

«أنا نائبُ رئيسِ الديرِ ولم أُعزل من هذا المنصبِ، وبما أنَّ رئيسَ الديرِ ميتٌ فمن غيري يمكنهُ العيشُ هنا؟»

«أنا بالطبعِ».

«أنتِ لستِ من الرهبانِ حتَّى».

«لقد نصبني الأسقفُ هنري رئيساً فعلياً للدير، وفي الليلةِ الماضية ورغمَ عودتكَ لم يعزلني من هذا المنصبِ، ولذلك أنا رئيستكَ ويجبُ أن تطيعني».

«ولكنك راهبةٌ ويجبُ أن تعيشي مع الراهباتِ وليسَ مع الرهبانِ».

«أنا أعيشُ هنا منذُ أشهرٍ».

«وحدكِ؟»

وفجأة أدركت كاريس أنَّها دخلت منطقةً خطرةً فقد كان فيليمون يعلمُ أنَّها وميرثن يعيشان بعضهما مع بعض كرجلٍ وامرأةٍ، ورغم أنهما أبقيا الأمرَ سِرَّاً ولم يجاهرا بعلاقتهما فإنَّ الناس عرفوا بهذا، علاوةً على هذا كان فيليمون يمتلكُ حاسَّةَ شمِّ حيوانٍ برّيّ ويستطيع شمَّ نقطةِ الضعفِ.

وفكرت في الأمرِ ورأت أنَّها تستطيع الإصرار على مغادرةِ فيليمون للقصرِ على الفورِ، وإن تطلَّبَ الأمرُ فيمكنها أن ترميهِ خارجَ الديرِ لأنَّ توماس والرهبان المبتدئين سيطيعونها ولن يطيعوا فيليمون، ولكن ماذا بعد؟ سيفعلُ فيليمون ما بوسعهِ ليجذبَ الانتباهَ إلى ما تفعلهُ هي وميرثن في القصرِ وسيثيرُ إشكاليةً حيالَ الأمرِ، وهذا من شأنهِ أن يؤدي إلى انحيازِ سكانِ المدينةِ إلى أحدِ الصفين، ورغمَ أن معظمَ سكانِ المدينةِ سيدعمونَ كاريس وكلَّ شيءٍ تقوم بهِ تقريباً فهذهِ هي شهرتها، ولكن هناكَ من سيمارسُ دورَ الرقيبِ على سلوكها، وسيُضعفُ

الخلافُ من سلطتها ويقوِّضُ كلَّ شيءٍ تريدُ فعلهُ. سيكونُ الاعترافُ بالهزيمةِ أفضلَ حلٍ.

«يمكنكَ أن تحظى بغرفةِ النومِ»، قالت لهُ. «ولكن لا يمكنكَ أن تأخذَ القاعةَ فأنا أستخدمها للاجتماعاتِ مع أعيانِ المدينةِ والزوار من عليةِ القومِ، وعندما لا تكونُ في الكنيسةِ خلالَ المراسمِ عليكَ اِلتزامُ الممراتِ المسقوفةِ ولا يمكنكَ أن تتواجدَ هنا. لا يحقُّ لنائبِ رئيسِ الديرِ أن يحظى بقصرٍ». وغادرت من دونِ أن تعطيهِ الفرصةِ لمجادلتها. وعلى الرغم من أنّها أنقذت ماءَ وجهها فإنّه انتصرَ عليها.

ما حدثَ الليلة السابقة كان بمنزلة تذكيرٍ على شدَّةِ دهاءِ فيليمون، فعندما استجوبهُ الأسقفُ هنري كانَ لديهِ تفسيرٌ مقنعٌ لكلِّ تصرفٍ حقيرٍ قامَ بهِ، وقد قال للأسقف إنّ السبب الذي دفعهُ لتركِ الديرِ والهرب إلى ديرِ سان جون إن ذا فوريست هو أنَّ الديرَ كانَ يواجه خطرَ الإبادةِ والطريقةُ الوحيدةُ لإنقاذهِ هي العمل بالمثلِ القائلِ: «غادر باكراً وبعيداً ولأطول وقت»، فما زالتْ هذهِ الطريقةُ وباتفاقِ الجميع الطريقةُ الوحيدةُ الناجعةُ لتجنبِ الطاعونِ، وقد كانَ خطأهم الوحيد هو أنهم بقوا في كينغزبريدج لوقتٍ طويلٍ جداً. أبدى فيليمون أسفهُ على ما حدثَ ولكنه قال إنّه هو وبقيةُ الرهبانِ كانوا ينفذون أوامرَ رئيسِ الديرِ غودوين، وعندما سألهُ الأسقفُ هنري عن سببِ هروبهِ من ديرِ سان جون عندما وصلَ الطاعونُ إلى هناك أجابهُ بأنَّ الرَّبَّ قد دعاهُ ليكونَ كاهناً على سكانِ مونماوث، وأنَّ غودوين قد أعطاهُ الإذنَ بالمغادرةِ، وعندما قالَ لهُ الأسقفُ أنَّ الأخَ توماس لا يعرفُ شيئاً عن هذا الإذن الذي أعطاه إياه غودوين بل أنكرَ أن يكونَ مثل هذا الإذن قد أعطي أصلاً كانَ جوابُ فيليمون أنَّ بقيةَ الرهبان لم يعرفوا بقرارِ غودوين مخافة أن يثيرَ هذا الغيرةَ بينهم، وعندما سُئلَ عن سببِ مغادرتهِ مونماوث قالَ إنَّه التقى بالأخِ موردو الذي قالَ له إنّ ديرَ كينغزبريدج يحتاجهُ، وهو بدورهِ رأى في هذا رسالةً أخرى من الرَّبِّ.

واستنتجت كاريس أنَّ فيليمون استمرَّ بالهرب من الطاعونِ إلى أن أدركَ أنّه واحدٌ من أولئك المحظوظين غير المُعرضين للإصابةِ بهِ، ثمَّ علمَ من موردو أنَّ كاريس وميرثن ينامان معاً في قصرِ رئيسِ الديرِ ورأى في هذا فرصةً لاستغلال الموقفِ وزيادةِ حظوظهِ. لم يكن للرَّبِّ دورٌ في هذا.

ولكن الأسقفَ هنري صدَّقَ قصَّةَ فيليمون الذي حرصَ على الظهورِ بمظهرِ المتواضعِ إلى درجةِ الخنوعِ. لم يكن هنري يعرفُ الرجلَ، وقد فشلَ في رؤيةِ أبعد من ظاهرِ سلوكهِ.

تركت كاريس فيليمون في القصرِ وتوجهت إلى الكاتدرائيةِ ثمَّ صعدت الدرجَ الحلزوني الضيقَ في البرجِ الشمالي الغربي ووجدت ميرثن في سقيفةِ البنائين هناكَ يرسمُ التصاميمَ على الأرضيةِ في ضوءِ الشمسِ القادمِ من النوافذِ الشماليةِ الطويلةِ.

نظرت باهتمامٍ إلى ما كانَ يقومُ بهِ، واكتشفت أنَّها لطالما وجدت صعوبةً في قراءةِ المُخططاتِ، فلم تتمكن قط من تحويل الخطوطِ الدقيقةِ على الرُخامِ إلى جدرانٍ حجريةٍ سميكةٍ بنوافذ وأبوابٍ في مخيلتها.

نظرَ إليها ميرثن وهي تعاينُ عملهُ في ترقبٍ، وبدا كأنَّه يترقَّب ردَّ فعلٍ كبيراً.

للوهلةِ الأولى بدت حائرةً أمامَ الرسومِ فلم يكن الرسم يشبه المستشفى ثمَّ قالت له: «لقد رسمت... ممراً مسقوفاً!»

«بالضبط»، قال لها. «لمَ يجبُ أن تكونَ المستشفى غرفةً ضيقةً وطويلةً كصحنِ الكنيسةِ؟ أنتِ تريدين المكان حسنَ الإنارةِ والتهويةِ، إذاً، وبدلاً من حشرِ الغرفِ معاً قمتُ بوضعها بشكلٍ مربعٍ حولَ باحةٍ».

تخيلت كاريس التصميمَ ثمَّ قالت: «باحةٌ معشوشبةٌ وبناءٌ حولها وأبوابٌ تُفضي إلى غرفٍ بأربعٍ أو ستِ أسرَّةٍ، والراهباتُ يتحركنَ من غرفةٍ إلى أخرى يقيهنَ الممرُ المسقوفُ. إنَّه تصميمٌ رائع! لم أكن لأفكرَ بهِ ولكنه سيكونُ مثالياً».

«يمكنكِ زراعةُ الأعشابِ الطبيةِ في الباحةِ المعشوشبةِ حيثُ ستحظى النباتاتُ بأشعةِ الشمسِ إلا أنَّها ستكونُ محميةً من الشمسِ. سيكونُ هناكَ نافورة في وسطِ الحديقةِ من أجلِ الماءِ العذبِ حيثُ سيذهبُ الفائضُ منهُ إلى قسمِ المراحيضِ جنوباً ومن ثمَّ إلى النهرِ».

قبَّلتهُ بحميَّةٍ وقالت له: «أنتَ شديدُ الذكاءِ!» ثمَّ تذكرت الأخبار التي كانت تحملها لهُ.

لاحظَ العبوسَ الذي اكتسى وجهها فجأة فسألها: «ما الأمر؟»

«علينا أن ننتقلَ من القصرِ»، قالت له، وأخبرتهُ عن المحادثةِ التي دارت بينها وبينَ فيليمون وعن سببِ رضوخها له. «أتوقعُ أن تقعَ الكثيرُ من الخلافاتِ مع فيليمون، ولا أريد أن ينتهي الأمر بي أدافع عن نفسي في هذا الشأن».

«كلامكِ منطقي»، قالَ لها بلهجةٍ عقلانيةٍ إلا أنَّها وبالنظرِ إلى وجههِ علمت أنَّه كانَ غاضباً. وانتقلَ بنظرهِ إلى تصميمهِ وحدَّقَ إليهِ إلا أنَّه لم يكن يفكر بهِ.

«وهناكَ أمرٌ آخرٌ»، قالت له. «بما أننا نطلبُ من الجميع ممارسةَ حياتهم بشكلٍ طبيعي قدرَ الإمكانِ والتزامِ النظامِ في الشوارعِ والعودةِ إلى الحياةِ الأسريةِ والتوقف عن عربداتِ الثمالةِ، فعلينا أن نكونَ قدوةً».

أومأ برأسهِ وقال لها: «إنَّ رئيسةَ ديرٍ تعيشُ مع عشيقها أمرٌ غير طبيعي»، ومجدداً ترافقت لهجتهُ العقلانية بحنقٍ شديدٍ ارتسمَ على وجههِ.

«أنا شديدةُ الأسفِ»، قالت له.

«وأنا أيضاً».

«ولكننا لا نريدُ المخاطرةَ بكلِّ شيءٍ أردناه؛ برجُلكَ ومستشفاي ومستقبلُ المدينةِ».

«لا، إننا نضحي بحياتنا معاً من أجلِ هذا!».

«ليسَ تماماً، قد ننامُ منفصلين بعضنا عن بعض وهذا أمرٌ مؤلمٌ إلا أننا سنحظى بالكثيرِ من الفرصِ لنكونَ معاً».

«أين؟»

هزَّت كتفيها ثمَّ قالت: «هنا على سبيلِ المثالِ»، وفجأة تملكها شيطانُ الشقاوةِ فابتعدت عنه وعبرت الغرفةَ ثمَّ، وبكلِّ هدوءٍ، رفعت تنورةَ ردائها ووقفت عندَ البابِ الذي يُفضي إلى الدرجِ. «لا أرى أحداً يصعدُ الدرجَ»، قالت وهي ترفعُ ثوبها حتَّى خصرها.

«يمكنكِ سماعهم على أيِّ حالٍ»، قالَ لها ثمَّ تابع: «فالبابُ عندَ أسفلِ الدرجِ يُصدرُ صريراً عالياً».

انحنت متظاهرةً بأنَّها تنظرُ إلى أسفلِ الدرجِ وقالت: «هل ترى أيَّ شيءٍ غريبٍ من مكانكَ؟»

قهقهَ عالياً فهي عادةً ما تنجحُ في إخراجهِ من حالةِ الغضبِ بالتصرفِ بشكلٍ لعوبٍ. «أرى شيئاً يغمزُ لي»، قالَ لها ضاحكاً.

وسارت عائدةً إليهِ وهي ما تزالُ رافعةً ثوبها وتبتسمُ ابتسامةً ظافرةً. «أرأيت؟ ليسَ علينا أن نتخلى عن كلِّ شيءٍ».

جلسَ على الكرسي وسحبها نحوهُ فباعدت بينَ ساقيها فوقَ فخذيهِ وجلست على حضنهِ. «من الأفضلِ أن تُحضرَ فراشاً قشيّاً إلى هنا»، قالت له بصوتٍ أجشٍ من الرغبةِ.

تحسسَ ثدييها بأنفهِ ودمدمَ: «وكيفَ سأشرحُ حاجتي إلى وجودِ سريرٍ في سقيفةِ البنائين؟»

«فلتقل إنَّ البنائين بحاجةٍ إلى شيءٍ ناعمٍ ليضعوا عليهِ أدواتهم».

***

بعدَ أسبوعٍ ذهبت كاريس وتوماس لانغلي لتفقد أعمالِ ترميمِ سورِ المدينةِ، ورغمَ أنَّ العملَ على ترميم السورِ مشروعٌ ضخمٌ فإنَّه بسيط فحالما يحددُ مسارُ البناءِ يُمكنُ للبنائين الجُدد والمتدربين غير الخبيرين القيام بأعمالِ البناءِ وحدهم. كانت كاريس سعيدةً لأنَّ العملَ على المشروعِ قد بدأ بسرعةٍ حتَّى تتمكنَ البلدةُ من الدفاعِ عن نفسها في الأوقاتِ العصيبةِ، إلا أنَّ لدى كاريس دافعاً آخر أكثر أهمية فقد كانت تأملُ أن يساهم حثُّ سكانِ المدينةِ على حمايةِ أنفسهم من أيِّ قلاقل خارجية إلى وعي جديدٍ بالحاجةِ إلى النظامِ والانضباط بينهم.

وجدت كاريس في لعبها لهذا الدور سخريةً كبيرةً فهي لم تكن قط من النوع الذي يفرضُ النظامَ، ولطالما احتقرت التقاليدَ وهزئت بالأعرافِ. كانت تشعرُ بأنَّ لديها الحق في فرضِ قوانينها، وها هي تقومُ بما يسعدها ومن دون أن يتهمها أحد بالهرطقةِ حتَّى الآن، وكان هذا بحد ذاتِهِ معجزةً.

في الحقيقةِ ساهمت أجواءُ الفوضى في إزدهار أحوالِ البعض، وكانَ ميرثن من بين الذين تحسّنت أوضاعهم بسببِ غيابِ القيودِ، وتذكرت كاريس البابَ بنقوش العذراوات الذي صنعهُ ميرثن والذي كان مختلفاً عن أيِّ شيءٍ رآه أحدٌ من قبلٍ ووقتها استخدم ولفريك هذهِ الذريعة لتدميرهِ. لم يخدم النظامُ السابقُ ميرثن في شيءٍ سوى في تقييدهِ. والآن كانَ على رجالٍ من أمثالِ بارني ولو ممن يعملون في سلوترهاوس أن يضعوا قوانينَ لإيقافِ الشمالي من تشويهِ بعضهم بعضاً خلالَ الشجارات التي تنشبُ بينهم.

ولكن موقع كاريس لم يكن ثابتاً ففي كلِّ مرَّةٍ تحاول فيها فرضَ القانون والنظام تجدُ صعوبةً في الشرح بأن القوانين تنطبقُ على الجميعِ.

كانت غارقةً في التفكيرِ بهذا الشأنِ وهي في طريقِ عودتها مع توماس إلى الديرِ، وعندما وصلت وجدت الأختَ جوان خارجَ الكاتدرائيةِ تذرعُ المكانَ ذهاباً وإياباً وهي مهتاجةٌ: «أنا غاضبةٌ من فيليمون»، قالت جوان. «إنَّه يدَّعي أنَّك سرقتِ مالهُ ويجب أن أعيدهُ لهُ!»

«فلتهدأي»، قالت كاريس ثمَّ قادت جوان إلى رواقِ الكنيسةِ وجلستا على مقعدٍ حجري. «فلتأخذي نفساً عميقاً وأخبريني بما حدثَ».

«أتى فيليمون إلي بعدَ صلاةِ التاسعةِ صباحاً وقالَ لي إنَّه يحتاجُ إلى عشر شلناتٍ لشراءِ شموعٍ من أجلِ ضريح القديس أدولفوس فأخبرتهُ أنني يجبُ أن آخذَ إذنكِ أولاً».

«فعلتِ الصوابَ».

«استشاطَ غيظاً ثمَّ صرخَ قائلاً إنَّه مالُ الرهبانِ وإنني لا أملكُ الحقَ في عدمِ إعطائهِ إياه، ثمَّ طلبَ مني المفاتيح وأعتقدُ أنَّه حاولَ أن يختطفها مني ولكني أشرتُ إليهِ أنَّ المفاتيح لن تفيدهُ في شيءٍ فهو لا يعرفُ مكانَ الخزنةِ».

«كانت فكرةً عظيمةً أننا أخفينا مكانَ الخزنةِ»، قالت كاريس.

كانَ توماس واقفاً بالقربِ منهما يستمعُ إلى حديثهما وتدخلَ هنا قائلاً: «ما لفتني هو أنَّهُ استغلَّ غيابي عن الديرِ ليقوم بفعلتهِ هذهِ، يا لهُ من جبانٍ!»

قالت كاريس: «جوان لقد فعلتِ الصوابَ برفضكِ إعطاءه المالَ، وأنا آسفةٌ حقاً لأنَّه حاولَ التطاولَ عليكِ، فلتذهب يا توماس ولتُحضرهُ لمقابلتي في القصرِ».

تركت كاريس جوان وتوماس وعبرت المقبرةَ غارقةً في أفكارها. لا شكَّ أنَّ فيليمون يريدُ إثارةَ المتاعبِ، ولكنه لم يكن متنمراً مِهذاراً يمكنها التغلبُ عليهِ بكلِّ سهولةٍ بل غريماً ماكراً ولذلكَ كانَ عليها أن تلزمَ الحذرَ معهُ.

عندما فتحت بابَ منزلِ رئيسِ الديرِ كانَ فيليمون في القاعةِ جالساً إلى رأسِ الطاولةِ الطويلةِ.

توقفت في الردهةِ ثمَّ قالت: «لا يمكنكَ التواجدُ هنا. طلبتُ منكَ على وجهِ الخصوصِ...»

«كنتُ أبحثُ عنكِ»، قالَ لها.

أدركت كاريس أنَّ عليها إقفالُ المبنى أو سيجدُ فيليمون حجةً دوماً لعصيانِ أوامرها وتمالكت غضبها ثمَّ قالت: «كنتَ تبحثُ عني في المكانِ الخاطئ».

«وها أنا عثرتُ عليكِ الآن، أليسَ هذا صحيحاً؟»

تفحصتهُ ملياً ولاحظت أنَّه حلقَ لحيتهُ وقصَّ شعرهُ حالما وصل وارتدى رداءً جديداً. كانَ يبدو هادئاً وسلطوياً تماماً كأيِّ مسؤولٍ في ديرٍ.

«كنتُ أتحدثُ إلى الأختِ جوان وهي متضايقةٌ جداً»، قالت له.

«وأنا كذلكَ».

أدركت أنّه كانَ يجلسُ على الكرسي الكبيرِ بينما وقفت أمامهُ كأنّه المسؤولُ عن الأمورِ وهي تستعطفهُ. لطالما كانَ فيليمون ذكياً في استخدامِ هذه الطرقِ للتلاعبِ، وقالت له: «إن كنتَ تحتاجُ إلى المالِ فيمكنكَ أن تطلبه مني».

«أنا نائبُ رئيسِ الديرِ!»

«وأنا رئيسُ الديرِ الفعلي وهذا يجعلني رئيستكَ»، ثمَّ رفعت صوتها قائلةً: «ولذلكَ ليكن أولَ شيءٍ تقومُ بهِ هو الوقوفُ وأنت تتحدثُ إلي!»

حدَّقَ إليها مصدوماً بلهجتها ثمَّ تمالكَ نفسهُ، وبكلِّ بطءٍ مستفزٍ رفعَ نفسهُ عن الكرسي.

جلست كاريس مكانهُ وتركتهُ واقفاً.

بدا فيليمون كأنَّ ما حدث لم يربكهُ ثمَّ قال: «علمت بأنّكِ تستخدمين مالَ الديرِ لبناءِ برجٍ جديدٍ».

«أجل، وبأمرٍ من الأسقفِ».

ولاحَ شيءٌ من الضيقِ على وجههِ. لا بدَّ أنّه كان يأملُ بالفوزِ بحظوةٍ عندَ الأسقفِ وأن يصبحا حليفين ضدَّ كاريس. كان من النوع الذي يتزلفُ لأصحابِ المناصبِ من دونِ خجلٍ، وهو يفعلُ هذا منذُ صباه، وبهذهِ الطريقةِ نجحَ في الدخولِ إلى الديرِ.

قالَ لها: «من حقي أن آخذَ من مالِ الدير فممتلكاتُ الرهبانِ من مسؤوليتي».

«في آخر مرَّةٍ كنتَ فيها مسؤولاً عن ممتلكاتِ الرهبانِ سرقتها».

غدا وجههُ شاحباً فقد أصابت كاريس بكلامها عينَ الحقيقةِ. «هذهِ سخافةٌ»، انبرى قائلاً في محاولةٍ للتغطيةِ على خجلهِ ثمَّ أضاف: «لقد أخذها رئيسُ الديرِ غودوين معهُ لحمايتها».

«حسناً، لن يأخذها أحدٌ «لحمايتها» وأنا رئيسُ الديرِ الفعلي».

«يجبُ على الأقل أن تُعيدي الحليَ إليَّ فهي مجوهرات مقدسةٌ وهي من مسؤوليةِ الكهنةِ وليسَ النساء».

«توماس يهتَّمُ بها كما يجبُ وهو يُخرجها خلالَ المراسمِ ويعيدها إلى خزينتنا بعدها».

«هذا ليسَ كافياً...»

وهنا تذكرت كاريس أمراً وقاطعتهُ قائلةً: «آآه تذكرت، أنتَ لم تُعد كلَّ ما أخذتهُ».

«المال...»

«الحليّ، هناكَ شمعدانٌ ذهبي مفقودٌ وهو هديةٌ من نقابةِ صانعي الشمعدانات، ما الذي حدثَ له؟»

وتفاجأت كاريس بردِّ فعلهِ فقد توقعتهُ أن ينكرَ الأمرَ بغُلظةٍ إلا أنَّه بدا محرجاً وقالَ: «لطالما احتفظنا بالشمعدان في غرفةِ رئيسِ الديرِ».

اكفهرَّ وجهُ كاريس وقالت: «وثمَّ..؟»

«لقد فصلتهُ عن بقيةِ الحليِّ».

دُهشت كاريس بما سمعتهُ وسألتهُ: «هل تعني بكلامكَ أنَّ الشمعدان كان معكَ طوالَ هذا الوقتِ؟»

«طلبَ مني غودوين أن أعتني بهِ».

«وأخذتهُ معكَ في رحلاتكَ إلى مونماوث وإلى بقيةِ الأماكن؟»

«كانت هذهِ أمنيتهُ».

لم تكن قصةً مقنعةً وعلمَ فيليمون بهذا، والحقيقةُ هي أنَّه سرقَ الشمعدان.

«أما زالَ الشمعدان بحوزتكَ؟»سألتهُ.

أومأ بضيقٍ.

وهنا دخلَ توماس وقال لفيليمون: «أنتَ هنا!».

قالت كاريس: «فلتصعد يا توماس إلى الطابقِ العلوي ولتبحث في غرفةِ فيليمون».

«أبحثُ عن ماذا؟»

«الشمعدان الذهبي المفقود».

قال فيليمون: «أنتَ لستَ بحاجةٍ إلى البحثِ عنهُ، يمكنكَ أن تجدهُ على طاولةِ الصلاةِ».

صعدَ توماس إلى الطابقِ العلوي ونزلَ مجدداً حاملاً الشمعدان ثمَّ سلَّمهُ إلى كاريس. كانَ شمعداناً ثقيلاً، ونظرت إليهِ كاريس في فضولٍ. رأت حروفاً ناعمةً منقوشةً على قاعدةِ الشمعدانِ وقد كانت أسماء الأعضاء الاثني عشر في نقابةِ صانعي الشمعدانات. تساءلت في نفسها عن سببِ رغبةِ فيليمون

بالشمعدانِ، وبدا واضحاً أنَّه لم يكن راغباً ببيعِهِ أو إذابتِهِ فقد كانَ لديهِ الكثيرُ من الوقتِ ليتخلصَ من الشمعدان بأيِّ الطريقتين ولكنه لم يفعل هذا. بدا لها أنَّه وبكلِّ بساطةٍ أرادَ الحصول على شمعدانٍ ذهبي لنفسِهِ، فهل كانَ يحدقُ إليه ويلمسهُ عندما يكونُ وحده في غرفتِهِ؟

نظرت إليهِ ورأت الدموعَ في عينيهِ.

قالَ لها: «هل ستأخذينهُ مني؟»

كانَ سؤالاً غبياً وأجابتهُ: «بالطبعِ فمكانهُ في الكاتدرائيةِ وليسَ في غرفة نومكَ فقد قدَّمتهُ نقابةُ صانعي الشمعدانات تمجيداً للربِّ ولتجميلِ الكنيسةِ وليسَ كي يستمتعَ بهِ أحدُ الرهبانِ».

لم يُجادلها، ورغم أنَّه بدا كشخصٍ مكلومٍ فإنَّه لم يبدُ نادماً على فعلتِهِ فهو لم يفهم أنَّ ما قامَ بهِ أمرٌ خاطئ. لم يكن ندمهُ الحقيقي على اقترافِهِ عملاً خاطئاً بل ندماً على ما حُرمَ منهُ، وأدركت كاريس أنَّ فيليمون لا يملكُ أدنى إحساسٍ بالخزي.

«أعتقدُ أنَّ هذهِ نهايةُ حديثنا عن حقّكَ في التصرّفِ بممتلكاتِ الديرِ الثمينةِ»، قالت كاريس لفيليمون ثمَّ أضافت: «يمكنكَ أن تغادرَ الآن». وخرجَ فيليمون.

أعادت كاريس الشمعدان إلى توماس قائلةً: «خُذهُ إلى الأختِ جوان واطلب منها أن تخفيهِ. سنُعلمُ نقابةَ صانعي الشمعدانات أننا عثرنا على الشمعدان وأننا سنستخدمهُ خلالَ صلواتِ الأحدِ القادمِ».

وخرجَ توماس.

بقيت كاريس في مكانها وحيدةً وغارقةً في التفكيرِ. لقد كرهها فيليمون ولم يكن هناك حاجةٌ للتفكيرِ كثيراً بسببٍ لهذا الكرهِ. كانَ يصنعُ أعداءً لنفسِهِ أسرعَ مما يصنعُ عابر السبيلِ أصدقاء له على الطريقِ، ولكنه كانَ عدواً عنيداً لا يردعهُ شيءٌ. لم يكن لديها أدنى شكٍ بأنَّه عازمٌ على إثارةِ المتاعبِ لها مع كلِّ فرصةٍ سانحةٍ ولذلكَ لن تتحسنَ الأحوالُ أبداً، ففي كلِّ مرَّةٍ تتفوقُ عليهِ في مثلِ هذهِ المناوشاتِ الصغيرةِ تزدادُ حدَّةُ مكرِهِ، ولكن إن سمحت لهُ بالفوزِ فسيجدُ في هذا تشجيعاً لهُ على الاستمرارِ بعصيانِهِ.

ستكونُ المعركةُ داميةً ولا يمكنها أبداً أن تتكهن بما ستؤولُ إليه.

***

عادت جماعةُ اللاطمين عشيةَ يوم أحدٍ من شهرِ حزيران/ يونيو.

كانت كاريس في حُجرةِ السجلاتِ مشغولةً بكتابها الذي تتحدثُ فيه عن الأمراضِ وقد قررت استهلالَ الكتابِ بالحديثِ عن الطاعونِ وكيفيةِ التعاملِ معهُ ثمَّ الانتقالِ إلى أمراض أقلّ أهمية. وصفت في كتابها إدخالها لأقنعةِ الوجهِ الكتانيةِ إلى مستشفى كينغزبريدج، ولكنها وجدت صعوبةً في شرحِ فعاليةِ هذهِ الأقنعة وكيف أنّها لا تُقدمُ حصانةً تامّةً. كانَ الحلُّ الوحيدُ الأكيد هو مغادرةُ المدينةِ قبلَ وصول الوباء والابتعادِ عنها إلى أن يتراجع، إلا أنَّ مثلَ هذا الخيارِ لم يكن متاحاً لغالبيةِ الناسِ. كانت الحمايةُ الجزئيةُ مفهوماً يجدهُ الناسُ الذين يؤمنونَ بالعلاجاتِ العجائبيةِ صعباً على الفهمِ. في الحقيقةِ أصيبت بعضُ الراهباتِ اللواتي ارتدينَ الأقنعةَ بالطاعونِ ولكن دونَ أن يكونَ عددهن كبيراً، وقررت أن تُجري مقارنةً بينَ القناعِ والدرعِ، وكيف أنَّ الدرعَ لا يعتبرُ ضمانةً للنجاةِ من هجومٍ ما إلا أنّه وسيلةُ حمايةٍ قيّمةٌ، فما من فارسٍ سيذهبُ للقتالِ من دونِ درعٍ. كانت تكتبُ هذا الكلام على ورقةٍ فارغةٍ ونظيفةٍ عندما سمعت أصواتَ اللاطمين وتأوهت في ضيقٍ.

أتى صوتُ الطبولِ كوقعِ أقدامٍ ثملةٍ وأنغامُ القُربِ كعويلِ مخلوقٍ بريّ يتألمُ وتناهت أصواتُ الأجراسِ كمحاكاةٍ ساخرةٍ لجنازةٍ. خرجت كاريس بينما الحشدُ يدخلُ الديرَ. كانَ عددهم أكبرَ هذهِ المرّة ويُقاربُ السبعين أو الثمانين. بدوا أكثرَ توحشاً من ذي قبلٍ فقد كان شعرهم أطول ومُلبداً وثيابهم ممزقة وصراخهم أكثر جنوناً. كانوا قد تجولوا في المدينةِ وحشدوا صفاً طويلاً من التابعين لهم، بعضهم كان يتفرجُ في عجبٍ وآخرون انضموا إليهم في تمزيقِ ثيابهم وجلدِ أنفسهم.

لم تتوقّعْ كاريس أن تراهم مجدداً فقد كانَ البابا كليمنت السادس قد أدانَ اللطمَ إلا أنّه كانَ بعيداً في أفينيون ولذلكَ كان على الآخرين أن يفرضوا النظام.

وكالعادةِ كانوا بقيادةِ الأخِ موردو. عندما اقتربوا من الواجهةِ الغربيةِ من الكاتدرائيةِ تفاجأت كاريس عندما رأت البواباتِ العظيمةَ مفتوحةً على مصاريعها رغمَ أنّها لم تُعطِ أمراً بفتحها، ويستحيلُ أن يكونَ توماس قد فعلَ هذا من دونِ أن يسألها. لا بدَّ أن فيليمون المسؤول عن هذا. وتذكرت كاريس أنَّ فيليمون قالَ لها إنّه قد التقى بموردو خلالَ رحلاتِهِ، وتكهنت بأنَّ موردو قد أخطرَ فيليمون بهذهِ الزيارةِ وتآمرا معاً ليسمحَ لجماعة اللاطمين بدخول

الكنيسةِ. لا شكَّ أنَّ فيليمون سيُجادلُ بأنَّه الكاهنُ الوحيدُ المرسومُ بشكلٍ رسمي في الديرِ ولذلكَ يملكُ الحقَّ في البتِ بنوعِ المراسمِ التي تُقامُ فيه.

ولكن ما هو دافعُ فيليمون؟ ولمَ قد يهتمُّ بأمرِ موردو واللاطمين؟

قادَ موردو الحشدَ عبرَ المدخلِ الرئيسي الطويلِ باتجاهِ صحنِ الكنيسةِ واحتشدَ من حولهِ سكانُ المدينةِ. ترددت كاريس في الانضمامِ إلى حشدِ المتفرجين إلا أنَّها شعرت بالحاجةِ إلى معرفةِ ما كانَ يجري ولذلكَ، وعلى مضضٍ، لحقت بالحشدِ إلى داخلِ الكنيسةِ.

كانَ الأخُ فيليمون عندَ المذبحِ وانضمَّ موردو إليهِ. رفعَ فيليمون يديهِ للحشدِ كي يلزمَ الهدوءَ ثمَّ قالَ: «نحن هنا اليوم لنعترفَ بشرورنا ونتوبَ عن خطايانا ونكفرَ عنها».

لم يكن فيليمون واعظاً ولذلك لم تُثر كلماتهُ حماسة الحشدِ إلا أنَّ موردو ذا الشخصيةِ الجذابةِ تولى الأمورَ عنهُ.

«إننا نعترفُ بأنَّ أفكارنا فاسقةٌ وأفعالنا قذرةٌ!» صرخَ موردو وهللَ الناسُ موافقين.

وتكررَ ما كان يحدثُ سابقاً وفي كلِّ مرَّةٍ كان يتحدثُ فيها موردو، فبعدَ أن يُثار الناسُ بعظةِ موردو يتقدمون إلى الأمام ويصرخون قائلين إنهم كانوا خطَّائين ويجلدون أنفسهم بينما سكانُ المدينةِ يراقبونَ بحماسٍ مشاهدَ العنفِ والعري. كانَ الأمرُ استعراضاً رغمَ أن ضربات السوطِ كانت حقيقية، وكانت كاريس ترتعدُ عندَ رؤيةِ آثارِ الجَلدِ والجروحِ على ظهورِ التائبين. كان بعضهم قد قامَ بهذا مرّاتٍ كثيرةً وأجسادهم مثخنة بالندوبِ ولكنّ هناكَ آخرين جروحهم حديثةٌ وكانت تفتحُ مجدداً تحتَ ضرباتِ السوطِ الجديدةِ.

وسرعانَ ما انضمَّ سكانُ المدينةِ إلى العرضِ، وهنا رفعَ فيليمون وعاءً لجمعِ المالِ وعندها أدركت كاريس أنَّ دافعهُ هو جمعُ المال. لم يكن بوسعِ أحدٍ الاعترافُ أو تقبيلُ قدمي موردو قبلَ أن يضعَ قطعةً نقديةً في وعاءِ فيليمون وموردو بدورهِ لم يُشحِ النظرَ عن العطايا التي كانت تُقدم.

تصاعدَت أصواتُ القرعِ على الطبولِ والعزفِ على القُربِ مع ازديادِ أعدادِ المتقدمين من سكانِ المدينةِ، وسرعانَ ما امتلأ وعاءُ فيليمون، وأولئكَ الذينَ حصلوا على «المغفرةِ» رقصوا بنشوةٍ على وقعِ الموسيقى الجنونيةِ.

أخيراً، رقصَ جميعُ التائبين ولم يعد هناكَ متقدمون جدد ووصلت

الموسيقى الجنونيةِ إلى الذروةِ ثمَّ توقفت فجأةً. لاحظت كاريس غيابَ موردو وفيليمون فتكهنت أنَّهما انسلا خارجاً عبرَ الجناحِ الجنوبي للكنيسةِ لتقاسمِ الأرباحِ في الممراتِ المسقوفةِ التابعةِ لديرِ الرهبانِ.

كانَ العرضُ قد انتهى واستلقى الراقصون على الأرضِ منهكين، وبدأ المتفرجون بالتفرّقِ خارجين من البواباتِ المفتوحةِ إلى هواءِ الأمسيةِ الصيفيةِ النقي، وعاجلاً ما وجدَ أتباعُ موردو القوة على مغادرةِ الكنيسةِ وفعلت كاريس المثلَ أيضاً وقد لاحظت أنَّ معظمَ اللاطمين توجهوا إلى حانةِ هولي بوش.

عادت كاريس بسعادةٍ إلى الهدوءِ اللطيفِ لديرِ الراهباتِ، وبينما كانَ الغسقُ يتلاعبُ بظلالِ الممراتِ المسقوفةِ ذهبت الراهبات لأداءِ صلاةِ العصرِ ثمَّ توجهن لتناولِ عشائهن، وقبلَ أن تخلدَ كاريس للنومِ توجهت إلى المستشفى لتتفقدَ الأحوال هناك. كان المكانُ مُكتظاً فالوباءُ ما يزالُ مُستعراً.

لم تُقدم سوى بضع ملاحظاتٍ قليلةٍ فقد كانت الأختُ أوناغ تُطبقُ القوانين التي وضعتها كاريس كارتداء أقنعةِ الوجهِ والتوقف عن فصدِ الدماءِ والنظافةِ الشديدةِ. كانت كاريس على وشكِ التوجهِ إلى سريرها عندما أحضروا أحدَ اللاطمين إلى المستشفى.

كانَ رجلاً غائباً عن الوعي وقد جلبوه من حانةِ هولي بوش بعدَ أن فجَّ رأسهُ بمقعدٍ. لاحظت كاريس أنَّه ما زالُ ينزفُ من ظهرهِ وتكهنت بأنَّ فقدانهُ للكثير من الدمِ جعله يفقد وعيه ويرتطم بالمقعد في الحانةِ.

غسلت أوناغ جروحهُ بالماءِ المالحِ والرجل ما يزالُ فاقداً الوعي، وبعدَ ذلكَ أشعلت النارَ في قرنِ غزالٍ ومررت الدخانَ اللاذعَ تحتَ أنفهِ ليستعيدَ وعيهُ، ثمَّ سقتهُ ليتراً من الماءِ الممزوجِ بالقرفةِ والسُكرِ ليستعيدَ سوائلَ جسدهِ التي فقدها.

ولكنه لم يكن سوى أوَّل القادمين فقد أُحضرَ رجالٌ ونساءٌ آخرون وجميعهم يعانون من فقدانٍ شديدٍ للدمِ وإفراطٍ في المشروبِ وإصاباتٍ بسببِ حوادث أو مشاجراتٍ، ورفعت حفلةُ المجونِ التي كانت برعايةِ اللاطمين من أعدادِ مرضى ليلةِ السبتِ بعشرِ مرَّاتٍ. كانَ هناكَ رجلٌ جلدَ نفسه مرَّاتٍ كثيرةً إلى درجةِ أنَّ ظهرَهُ بدأ يتعفن، وأخيراً بعدَ منتصفِ الليلِ أحضروا امرأةً كانت قد قُيدت وجُلدت واغتصبت.

اشتعلت كاريس غيظاً خلال عملها مع بقيةِ الراهباتِ على الاهتمامِ بكلِّ هؤلاءِ المرضى. كانَت جميعُ إصاباتهم بسببِ أفكارهم الدينيةِ المُحرَّفةِ التي

يزرعها رجالٌ من أمثالِ موردو. يقولونَ إنَّ الطاعون عقابٌ من الرَّبِّ على الخطيئةِ، ولكن بوسعِ الناسِ تجنّب الطاعونِ من خلالِ معاقبةِ أنفسهم بطريقةٍ أخرى. إنهم يجعلونَ الرَّبَّ يبدو كأنّه وحشٌ حقودٌ يلعبُ لعبةً ذات قوانين مجنونة. لطالما آمنت كاريس أنَّ حسَّ العدالةِ عندَ الرَّبِّ أكثرُ تعقيداً من حسِّ العدالةِ لدى فتى في الثانيةِ عشرة من العمرِ ويقودُ عصابةً من الصبيةِ.

عملت حتّى موعدِ صلاةِ فجرِ يومِ الأحدِ ثم خلدت للنومِ لساعتين، وعندما استيقظت توجهت لرؤيةِ ميرثن.

كانَ ميرثن الآن يعيشُ في أفخمِ منزلٍ بناهُ على جزيرةِ ليبر وهو يقعُ على الضفةِ الجنوبيةِ للنهرِ ويطلُّ على حديقةٍ واسعةٍ زُرعت فيها حديثاً أشجارُ تفاحٍ وإجاص. كانَ قد وظّفَ زوجين في منتصفِ العمر للاهتمامِ بابنتِهِ لولا وللعنايةِ بالمنزلِ. كان الزوجان يدعيان آرنولد وإيميلي ولكنهما يناديانِ بعضهما باسمي آرن وإم. عثرت كاريس على إم في المطبخِ وأخبرتها الأخيرة أنَّ ميرثن في الحديقة.

وجدت كاريس ميرثن يُعلّمُ لولا كيفيةَ كتابةِ اسمها باستخدام عصا مدببةٍ لتشكيلِ الحروفِ على الأرض وجعلها تضحك عندما رسمَ لحرفِ الـ(O) وجهاً. كانت طفلةً جميلةً في الرابعةِ من العمرِ ببشرةٍ زيتونيةٍ وعينين عسليتين.

وبينما كانت كاريس تراقبهما شعرت بشيءٍ من الندمِ، فعلى الرغمِ من أنّها هي وميرثن يمارسان الحبَّ منذُ نصفِ عام وعدم رغبتها بإنجابِ طفلٍ لأنَّ هذا سيعني النهايةَ لطموحها فإنّها شعرت بالأسفِ لأنّها لم تحمل قط. كانت ممزقةً وهذا على الأرجح ما يفسرُ سببَ مجازفتها بالنومِ مع ميرثن، ولكن لم يحدث أيُّ حملٍ وتساءلت في نفسها إن كانت قد خسرت القدرةَ على الإنجابِ. قد تكونُ الوصفةُ التي أعطتها إياها ماتي وايز لتجهضَ حملها منذُ عقدٍ من الزمنِ قد آذت رحمها بطريقةٍ ما، ومجدداً شعرت بتلكَ الرغبةِ القويةِ بمعرفةِ المزيد عن عملِ الجسدِ وأمراضهِ.

قبّلها ميرثن وتجولا في الحديقةِ مع لولا التي ركضت أمامهما وهي تلعبُ لعبةً مُحكمةً وغريبةً في مخيلتها وتتضمنُ الحديثَ مع كلِّ شجرةٍ تصادفها. بدت الحديقةُ جرداء بالنباتاتِ المزروعةِ حديثاً والتربةِ المنقولةِ من مكانٍ آخر لإغناءِ تربةِ الجزيرةِ الحجريةِ. «أتيتُ للتحدثِ إليكَ عن اللاطمين»، قالت كاريس وأخبرتهُ بما حدثَ الليلةَ الماضيةَ في المستشفى. «أريد منعهم من دخولِ كينغزبريدج»، أنهت كلامها.

«فكرةٌ جيدةٌ»، قالَ ميرثن. «إنَّ هذا العرض بمجملهِ مجرّدُ وسيلةٍ من وسائلِ موردو لجمعِ المالِ».

«وفيليمونَ أيضاً فقد رأيته يحملُ الوعاءَ. هلَّا تحدثت إلى نقابةِ الأبرشيةِ في هذا الخصوص؟»

«بالطبع».

ولأنَّ كاريس كانت الرئيس الفعلي للديرِ فقد كانت أيضاً السيِّدَ على المدينةِ، وهي نظرياً تستطيعُ منعَ دخولِ اللاطمين بنفسها ومن دونِ أن تطلبَ مساعدةَ أحدٍ آخر. على أيِّ حالٍ كان طلبها بالحصولِ على الامتياز الملكي بمنطقةٍ إداريةٍ قد وصلَ إلى الملكِ ولذلكَ كانت تتوقعُ أن تُسلمَ إدارةَ أمورِ المدينةِ إلى النقابةِ قريباً، ولهذا تعاملت مع هذا الوضعِ بوصفهِ أمراً انتقالياً. علاوةً على هذا، لطالما كان الظفرُ بالدعمِ قبلَ فرضِ أيِّ حُكمٍ حركةً ذكيةً ولهذا قررت أن تقومَ بهذا.

قالت له: «أرغبُ بأن تكونَ هناكَ مرافقةٌ أمنيةٌ لموردو وأتباعهِ في أثناءِ إخراجهم من المدينةِ قبلَ صلواتِ منتصفِ النهارِ».

«سيستشيطُ فيليمون غيظاً».

«لم يكن عليهِ فتح أبوابِ الكنيسةِ لهم من دونِ استشارةِ أحدٍ». وعلمت كاريس أنَّ متاعبَ ستقعُ إلا أنَّه لم يكن بوسعها أن تسمحَ للخوفِ من ردِّ فعلِ فيليمون أن يمنعها من القيامِ بما هو صائبٌ للمدينةِ. «إنَّ البابا إلى جانبنا، وإن تصرفنا بسريَّةٍ وسرعةٍ فقد نتمكنُ من حلِّ المشكلةِ قبلَ أن يعي فيليمون ما حدثَ».

«حسناً»، قال ميرثن. «سأحاول جمعَ أعضاءِ النقابةِ معاً في حانةِ هولي بوش».

«سألقاكَ هناكَ بعدَ ساعة».

كانت نقابةُ الأبرشيةِ وكأيِّ مؤسسةٍ أخرى في المدينةِ مستنزفةً، ولكن مجموعة من كبارِ التُجارِ قد نجت من الوباءِ بمن فيهم مادي ويبر وجاك تشيبستو وإدوارد سلوترهاوس. كانَ مونغو الذي أخذَ مكانَ والدهِ المأمورِ جون الراحل حاضراً وقد وقفَ العاملون تحتَ إمرتهِ خارجاً بانتظارِ أوامرهِ.

لم يأخذ النقاشُ وقتاً طويلاً، فما من أحدٍ من كبارِ المواطنين قد شاركَ في حفلِ المجونِ الذي حدثَ في الكنيسةِ وكانوا جميعاً يعترضون على مثل هذه

الاستعراضاتِ العلنيةِ، ورسخَ منعُ البابا لمثلِ هذهِ المظاهر موقفَهم. أعلنت كاريس وبشكلٍ رسمي حظراً قانونياً للجَلدِ والتعري علناً في الشوارعِ، وسيقومُ المأمورُ بطردِ من يخرقونَ المنعَ من المدينةِ بناءً على تعليماتِ أيِّ ثلاثةِ أعضاءٍ من النقابةِ، ومررت النقابةِ قراراً يدعمُ القانونَ الجديدَ.

ثمَّ صعدَ مونغو إلى الطابقِ العلويِ من حانةِ هولي بوش وأيقظَ موردو.

لم يستجب موردو لقرارِ الطردِ بهدوءٍ وأخذَ يهذرُ وهو يهبطُ الدرجَ وبكى وصلَّى وألقى بالسبابِ. حملهُ اثنان من مرافقي مونغو من تحتِ ذراعيهِ وألقيا بهِ خارجَ الحانةِ، وفي الشارعِ علا صخبه وعويلهُ. سارَ مونغو في المقدمةِ ومن ورائهِ أعضاءُ النقابةِ، وأتى بعضُ الموالين لموردو ليحتجّوا وتمَّت مرافقةُ هؤلاء أيضاً. انضمَّ بعضُ سكانِ المدينةِ إلى المجموعةِ المتوجهةِ على الطريقِ الرئيسي إلى جسرِ ميرثن. لم يعترض أيٌّ من المواطنين على ما كانَ يحدثُ، ولم يكن هناكَ من أثرٍ لفيليمون أيضاً، وحتَّى بعض من جلدوا أنفسهم البارحةَ لم يعترضوا اليومَ بل بدا على وجوههم شيءٌ من الخجلِ حيالَ ما حدثَ.

تفرَّقَ الحشدُ حالما وصلت المجموعةُ إلى الجسرِ وعبرت، ومع تراجعِ أعدادِ المحتشدين غدا موردو أكثرَ هدوءاً، وتحوَّلَ سخطهُ الورعُ إلى ضغينةٍ دفينةٍ، وعندما حرروه على الطرفِ الآخرِ من الجسرِ المزدوجِ سارَ بتثاقلٍ عبرَ الضواحي من دونِ أن ينظرَ إلى الخلف بينما لحقت به مجموعةٌ من مريديهِ وقد بدوا مُربكين.

وانتابَ كاريس شعورٌ بأنَّها لن تراه مجدداً.

شكرت مونغو ورجالهُ على ما فعلوه ثمَّ عادت إلى ديرِ الراهباتِ.

في المستشفى كانت أوناغ تُخرجُ من تعرضوا لحوادث في الليلةِ الماضية من أجلِ تأمينِ المزيدِ من المساحةِ لمرضى الطاعون، وعملت كاريس في المستشفى حتَّى منتصفِ النهارِ ثمَّ غادرت في رضا وقادت صفَّ الراهباتِ المتوجهاتِ إلى الكنيسةِ من أجلِ قداس يوم الأحد، ولكنها وجدت أنَّ ما ينتظرها هو ساعةٌ أو ساعتان من قراءةِ المزامير والصلواتِ وعظةٌ مملةٌ، وهذا يعني أنها تستطيعُ الاسترخاء وأخذ قسطٍ من الراحة.

ارتسمت على وجهِ فيليمون نظرةُ مصعوقٍ وهو يقودُ توماس والرهبان المبتدئين إلى الكنيسةِ. لا بدَّ أنَّه سمعَ بأمرِ طردِ موردو. كان يريد من اللاطمين أن يصبحوا مصدرَ دخلٍ مستقلٍ له عن كاريس، وها هو أملهُ يتحطمُ ولذلك كان غاضباً جداً.

ولوهلةٍ تساءلت كاريس عمّا قد يقومُ بهِ فيليمون في ثورةِ غضبهِ هذهِ ثمَّ فكرت في نفسها قائلةً: «فليقم بما شاءَ، ولو أنّه لم يقم بهذا لقامَ بأمرٍ آخر»، فأيّا يكن ما ستقومُ بهِ فإنَّ فيليمون عاجلاً أم آجلاً كان سيغضبُ منها، ولذلك لم يكن هناكَ من داعٍ للقلقِ حيالَ الأمرِ.

سهت قليلاً خلالَ الصلوات ولكنها استيقظت عندما بدأ فيليمون الموعظةَ. كان للمنبرِ تأثيرٌ عليه فقد بدا كأنّه زادَ من عدمِ قدرتهِ على سحرِ الجمهورِ ولذلكَ كانت عظاتهُ عموماً تُستقبل بهمةٍ فاترةٍ، على أيِّ حالٍ لقد نجحَ اليومَ في جذبِ انتباهِ جمهورهِ منذُ البدايةِ بإعلانهِ أنَّ موضوعَ العظةِ هو الزنا.

أخذَ آيةً من أولى رسائلِ القديس بولس إلى المسيحيين الأوائل في كورنثة وقرأها باللاتينيةِ ثمَّ ترجمها بلهجةٍ رنانةٍ: «كتبتُ إليكم في الرسالةِ أن لا تخالطوا الزُناةَ».[1]

واستفاضَ بشكلٍ مملٍ في تفسيرِ معنى مخالطة قائلاً: «لا تأكلوا معهم، لا تشربوا معهم، لا تعيشوا معهم، لا تتحدثوا معهم». وتساءلت كاريس في قلقٍ عمّا كانَ يريدُ الوصولَ إليهِ بهذا الكلام. بالتأكيد لن يجرؤ على مهاجمتها بشكلٍ مباشرٍ من على المنبرِ، وحدّقت عبرَ جوقةِ المرتلين إلى توماس على الجانبِ الآخر برفقةِ الرهبانِ المبتدئين ولمحت نظرةَ قلقٍ تعلو وجههُ.

نظرت مجدداً إلى وجهِ فيليمون المكفهر من الاستياءِ، وأدركت أنَّه كانَ مستعداً وقادراً على القيامِ بأيِّ شيء.

«ولكن إلى من أشيرُ هنا؟» سألَ فيليمون دونَ أن ينتظرَ جواباً ثمَّ تابع: «ليسَ إلى الغرباءِ كما أشارَ القديسون، فالرَّبُّ من يحكمُ عليهم، بل إلى الصحبةِ التي تحكمُ». وأشارَ إلى أفرادِ الأبرشيةِ قائلاً: «أنتم!» ثمَّ عادَ بنظرهِ إلى الكتابِ وقرأ: «فاعزلوا الخبيثَ من بينكم!»[2]

وعمَّ الهدوء بينَ أفرادِ الأبرشيةِ فقد شعروا بأنَّ هذا الكلام لم يكن تحذيراً عاماً واعتيادياً ليحسنوا سلوكهم بل هناك رسالةٌ يريدُ فيليمون إيصالها.

«يجبُ أن ننظرَ حولنا، في مدينتنا، في كنيستنا، في ديرنا! هل يوجد زناةٌ؟ إن كانَ هناكَ فعلينا طردهم!»

لم يعد الآن لدى كاريس أدنى شكٍ بأنَّه كان يقصدها بكلامهِ، وقد خلصَ

1- الإصحاح الخامس الآية التاسعة. (المترجمة)

2- الإصحاح الخامس الآية الثالثة عشرة. (المترجمة)

سكانُ المدينةِ الأكثر دهاءً إلى ذاتِ النتيجةِ، ولكن ما الذي يسعها القيامُ بهِ؟ فهي لم تكن قادرةً على النهوضِ ومعارضتهِ، ولم يكن بوسعها مغادرةُ الكنيسةِ لأنَّ هذا سيكونُ بمنزلة دليلٍ دامغ على صحةِ كلامهِ، وسيتضح لأكثر أفرادِ الأبرشيةِ غباءً أنَّها هدفُ خطبتهِ الغاضبةِ المسهبةِ.

ولذلكَ بقيت في مكانها تُصغي في خجلٍ. ولأولِ مرَّةٍ في حياتهِ كان فيليمون بليغاً فهو لم يتردد أو يتلعثم، وكانَ ينطقُ الكلامَ بوضوحٍ وبصوتٍ عالٍ، وقد نجحَ في التنويعِ على نبرتهِ الرتيبةِ الاعتياديةِ، كانَ الكرهُ مُلهماً له.

بالطبعِ ما من أحدٍ سيطردها من الديرِ، وحتَّى وإن كانت رئيسةُ الديرِ غير كفوءة فإنَّ الأسقفَ سيُبقي عليها لأنَّه، وبكلِّ بساطةٍ، يعاني من نقصٍ حادٍ في الإكليروس، وهناكَ الكثيرُ من الكنائسِ والأديرةِ في جميعِ أرجاءِ البلدِ التي تُقفلُ بسببِ عدمِ وجودِ من يُحيي المراسم ويغني المزامير. كانَ الأسقفُ في حاجةٍ مُلحةٍ لتعيين المزيدِ من الكهنةِ والرهبانِ والراهباتِ وليسَ إلى طردهم، وعلى أيِّ حالٍ سيثورُ سكانُ المدينةِ على أيِّ أسقفٍ يحاولُ التخلصَ من كاريس.

ولكن لعظةِ فيليمون أثرٌ مُدمرٌ فسيغدو من الصعبِ الآن على قادةِ المدينةِ أن يغضوا النظرَ عن علاقةِ كاريس بميرثن، ومثلُ هذا الأمرِ سيقوضُ احترامَ الناسِ ممن لن يترددوا في مسامحةِ رجلٍ على أيِّ هفوةٍ جنسيةٍ وبسرعةٍ أكبر مما قد يسامحون امرأةً لقيامها بذاتِ الأمر، وتذكرت بألمٍ أنَّ هذه المعايير المزدوجة هي التي جلبت عليها قبلاً تهمةَ الهرطقة.

جلست طوال الفقرةِ الختاميةِ من العظةِ تصرُّ على أسنانها، وقد كررَ فيليمون فيها وحتَّى نهايةِ العظةِ ذات الرسالةِ ولكن بصوتٍ أعلى، وحالما غادرت الراهباتُ والرهبانُ الكنيسةَ توجهت كاريس إلى صيدليتها وجلست تكتبُ رسالةً إلى الأسقفِ هنري تطلبُ منهُ نقلَ فيليمون إلى ديرٍ آخر.

***

ولكن هنري قامَ بترقيتهِ بدلاً من نقلهِ.

كانَ قد مضى أسبوعان على طردِ الأخِ موردو، وكانوا جميعاً في الجناحِ الشمالي من الكاتدرائيةِ، ورغم أنَّ الجو كان صيفياً حارَّاً فإنَّه كان بارداً داخلَ الكنيسةِ. جلسَ الأسقفُ على كرسي خشبي مزخرفٍ بينما جلسَ فيليمون وكاريس ورئيس الشمامسةِ لويد والمرتل كلود على المقاعد من حولهِ.

«أنصّبكَ رئيساً على ديرِ كينغزبريدج»، قال هنري لفيليمون.

ابتسمَ فيليمون في ابتهاجٍ وألقى نظرةَ ظافرٍ نحو كاريس.

أصيبت كاريس بالهلع. كانت قد أرسلت منذُ أسبوعين رسالةً طويلةً إلى هنري تُعددُ فيها الأسباب التي تمنعُ فيليمون من الاستمرارِ في منصبِ مسؤولٍ بدءاً بسرقةِ الشمعدانِ الذهبي وانتهاءً بقصةِ موردو ولكن يبدو أن للرسالةِ تأثيراً عكسياً.

وعندما فتحت فمها لتعترضَ حدَّقَ بها هنري ورفعَ يدهُ فقررت أن تلتزمَ الصمتَ وتتابعَ ما لديهِ ليقولهُ، وتابعَ هنري كلامهُ مخاطباً فيليمون: «أنا أفعل هذا رغمَ، وليسَ بسببِ، سلوكِكَ منذُ عودتكَ إلى الديرِ. لقد كنتَ شخصاً خبيثاً مثيراً للمتاعبِ ولو لم تكن الكنيسةُ في حاجةٍ ماسةٍ إلى أناسٍ لم أكن لأقومَ بترقيتكَ ولو بعدَ مئةِ عامٍ».

«إذاً، لماذا تقومُ بترقيتهِ الآن؟» تساءلت كاريس في نفسها.

«ولكن يجب أن يكون لدينا رئيسُ ديرٍ، وببساطةٍ لا يكفي أن تلعبَ رئيسةُ الديرِ هذا الدورَ رغمَ أني لا أشكُّ بقدرتها على فعلِ هذا».

كانت كاريس تُفضلُ تعيينَ توماس بدلاً من فيليمون، ولكنها تعلمُ أن توماس سيرفضُ المنصبَ. لقد آذاه الصراعُ المرير خلالَ انتخاباتِ الديرِ بعدَ وفاةِ رئيسِ الديرِ أنتوني منذُ اثني عشرَ عاماً، وقد أقسمَ آنذاك على عدمِ التورطِ في مثلِ هذهِ الانتخاباتِ مجدداً. في الحقيقةِ قد يكونُ الأسقفُ هنري تحدثَ معهُ في هذا الخصوصِ من دونِ علمِ كاريس وعلمَ بجوابهِ.

«على أيِّ حالٍ هناك قيود على منصبكَ»، قالَ هنري لفيليمون. «أولاً، لن يتمَّ رسمكَ رئيساً رسمياً للديرِ إلى أن تحصلَ مدينةُ كينغزبريدج على الامتيازِ الملكي لأنَّك غير كفؤ لإدارةِ المدينةِ وأنا لن أضعكَ في هذا المنصبِ أبداً. وخلالَ الفترةِ الانتقاليةِ ستتابعُ الأمُّ كاريس مهامها كرئيسٍ فعلي للدير. ستعيشُ أنتَ في مهجعِ الرهبانِ، وسيتمُّ إقفالُ القصرِ، وإن أسأت التصرفَ خلالَ الفترةِ الانتقاليةِ فسأقيلكَ من منصبكَ».

بدا فيليمون غاضباً ومجروحاً بسببِ ما قيلَ ولكنه التزمَ الصمتَ. كانَ يعلمُ أنَّه ربحَ ولهذا قررَ ألا يجادلَ في الشروطِ.

«أمَّا ثانياً سيكونُ لديكَ خزينتكَ الخاصة، وسيكونُ توماس أمينَ الخزنة. لن يُنفق أيّ مالٍ أو تُخرجُ أيّ قطعةٍ ثمينةٍ من دون علمهِ وموافقتهِ. علاوةً على هذا، لقد أمرت ببناءِ البرجِ الجديدِ وصادقت على الدفعاتِ بناءً على الجدولِ الذي

وضعهُ البنَّاء ميرثن، وسيقومُ الديرُ بدفعِ المالِ من أموالِ الرهبانِ، ولا تملك أنتَ أو أيُّ أحدٍ آخر السلطةَ على تغييرِ هذا الترتيب. لا أريد نصفَ برجٍ».

وفكرت كاريس في امتنانٍ بأنَّ ميرثن سيحققُ حلمهُ.

واستدارَ هنري نحو كاريس قائلاً: «لدي أمرٌ أخيرٌ وهو يخصُّكِ أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ».

وفكرت كاريس في نفسها عمَّا يريدُ قولهُ.

«هناكَ اتهاماتٌ بممارسةِ الزنى».

حدَّقت كاريس إلى الأسقفِ وهي تفكر بتلكَ المرَّة التي فاجأت فيها الأسقفُ وكلود عاريين. كيفَ يجرؤ على إثارةِ هذا الموضوعِ؟

تابعَ هنري كلامهُ: «لن أتحدثَ عن الماضي بل عن المستقبلِ. لا يمكن لرئيسةِ الديرِ أن تكونَ على علاقةٍ مع رجلٍ».

أرادت أن تقولَ له: «ولكنكَ تعيشُ مع عشيقكَ!» إلا أنَّها لاحظت فوراً التعبير الذي ارتسمَ على وجهِ هنري. كانت نظرةً فيها التماس كأنَّه يرجوها ألا تبادلهُ الاتهامَ أيضاً وفضحِ ريائهِ. كان يعلمُ بأنه يظلمها ولكن لم يكن لديهِ خيارٌ فقد أجبرهُ فيليمون على أخذِ هذا الموقفِ.

شعرت كاريس بإغراءِ إزعاجهِ بعتابٍ إلَّا أنَّها لجمت نفسها، فلن يعودَ عليها هذا بأيِّ فائدةٍ. كانَ هنري محاصراً ويقومُ بكلِّ ما بوسعهِ، ولذلكَ لزمت كاريس الصمتَ.

قالَ هنري: «هل يمكنني أن أحصلَ على تأكيدٍ منكِ أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ بأنَّه، ومن هذهِ اللحظةِ، لن يكونَ هناكَ ما يسوغُ مثلَ هذا الاتهام؟»

أطرقت كاريس النظرَ أرضاً وفكرت بأنَّه الموقفُ نفسهُ يتكررُ، ومجدداً لم يكن أمامها سوى خيارين: أن تتخلى عن كلِّ شيءٍ عملت لأجلهِ: المستشفى والامتياز الملكي والبرج أو أن تتخلى عن ميرثن.

ومرَّةً أخرى اختارت عملها.

رفعت رأسها ونظرت إلى هنري بشكلٍ مباشرٍ ثمَّ قالت: «أجل يا سيدي الأسقفُ. أعطيكَ كلمتي».

***

تحدَّثت كاريس إلى ميرثن في المستشفى وهي محاطةٌ بالناسِ. كانت

ترتجفُ وعلى حافةِ البكاءِ ولكن لم يكن بوسعها الالتقاءُ بِهِ سراً فهي تعلمُ أنهما لو كانا وحدهما لوهنت عزيمتها ولعانقتهُ وأخبرتهُ بأنّها تحبهُ ووعدتهُ بأنّها ستتركُ ديرَ الراهباتِ وتتزوجهُ، لذلكَ أرسلت له رسالةً وحيّته عندَ بابِ المستشفى ثمَّ تحدثت إليهِ بصوتٍ حيادي وذراعاها متقاطعتان على صدرها حتّى لا تشعرَ بإغراءِ القيامِ بأيّ بادرةِ حبٍ وتلمسَ الجسدَ الذي تحبهُ بشدةٍ.

عندما انتهت من إخبارهِ عن إنذارِ الأسقفِ وقرارها نظرَ إليها كأنّه كانَ مستعداً لقتلها: «هذهِ هي المرةُ الأخيرةُ»، قالَ لها.

«ما الذي تعنيهِ؟»

«إن نفذتِ ما قررتهِ فسيكون فراقنا إلى الأبدِ. لن أنتظركِ بعدَ الآن على أملِ أن تصبحي زوجتي في يومٍ من الأيامِ».

وشعرت كأنّه ضربها.

تابع ميرثن كلامهُ موجهاً إليها لكمةً جديدةً مع كلِّ جملةٍ تفوهَ بها. «إن كنتِ تعنين ما تقولينهُ، فسأحاولُ نسيانكِ الآن. لا يمكنني انتظاركِ إلى الأبدِ فوالدي يحتضرُ وهو بعمرِ الثمانيةِ والخمسين، وسأتزوجُ من امرأةٍ أخرى وأحظى بالمزيدِ من الأطفالِ وسأكونُ سعيداً في حديقتي».

وأثارت الصورةُ التي رسمها عذابها فعضَّت على شفتها في محاولة لكبحِ حزنها ولكن الدموعَ الحارَّةَ انحدرت على وجهها.

كانَ يتحدثُ من دونِ شعورٍ بالندمِ. «لن أضيعَ حياتي في حُبكِ»، قالَ لها وشعرت كأنّه طعنها. «اتركي الديرَ الآنَ أو ابقِ هناكَ إلى الأبدِ».

حاولت النظرَ إليهِ بثباتٍ ثمَّ قالت له: «لن أنساكَ، وسأحبكَ دوماً».

«ولكن هذا غيرُ كافٍ».

صمتا لبرهةٍ طويلةٍ. كانت تعلمُ أنَّ الأمرَ ليسَ كذلكَ، وأنَّ حُبها لهُ ليسَ واهناً أو غير كافٍ، بل كانَ حباً خياراتهُ مستحيلةٌ، ولكنها رأت أنه لا جدوى في متابعةِ الجدال في هذا الأمرِ.

«هل هذا ما تعتقدهُ؟» سألتهُ.

«هذا ما يتضحُ لي».

أومأت برأسها رغمَ أنّها لم تكن متفقةً معهُ وقالت: «أنا آسفةٌ، وهذا أكبرُ أسفٍ شعرتُ بهِ طوالَ حياتي».

«وأنا كذلك»، قالَ لها واستدارَ مبتعداً ثمَّ خرجَ من المستشفى.

وأخيراً سافرَ السير غريغوري لونغفيلو إلى لندن ولكنَّه عادَ فجأةً وبسرعةٍ كأنّه كُرةُ قدمٍ ارتطمت بالمدينةِ الكبيرةِ وارتدت عائدةً. وصلَ إلى قصرِ اللورد في تينش بحلولِ موعدِ العشاءِ والضيقُ بادٍ على وجههِ ويتنفسُ بصعوبةٍ من منخريهِ المُتسعين وشعرهُ الأشيب الطويل مضمخٌ بالعرقِ. دخلَ على نحو مختلفٍ ولم يكن يبدو كعادتهِ مسيطراً على كلِّ شيءٍ حيٍّ في طريقهِ. كان رالف وآلان واقفين قربَ نافذةٍ يعاينان خنجراً بنصلٍ عريضٍ من نوعٍ يدعى بيسلارد، ومن دونِ أن يتفوهَ بكلمةٍ رمى غريغوري بنفسهِ على كرسي رالف الكبير والمُزخرف. أيّاً يكن ما حدث فما زال غريغوري يشعرُ بالعظمةِ الشديدةِ التي تمنعهُ من انتظارِ دعوةٍ للجلوسِ.

حدَّقَ رالف وآلان إليهِ في ترقّبٍ بينما قامت والدةُ رالف بحركةٍ تنمُّ عن الاستهزاءِ فقد كانت تكرهُ السلوكَ الوقح.

وأخيراً قالَ غريغوري: «لا يحبُّ الملكُ أن يعصيَهُ أحدٌ».

ارتعدَ رالف خوفاً لدى سماعهِ بهذا، ونظرَ بقلقٍ إلى غريغوري وهو يتساءلُ في نفسهِ عمّا فعلهُ وفسَّرهُ الملكُ كعصيانٍ ولكنه لم يوفق في الوصولِ إلى جوابٍ لذلكَ قالَ بعصبيةٍ: «يؤسفني أنَّ جلالتهُ غير راضٍ. أرجو ألا أكونَ السببَ في هذا».

«للأمرِ علاقةٌ بكَ»، قالَ غريغوري بغموضٍ مزعجٍ وتابع: «ولهُ علاقةٌ بي أيضاً. لدى الملكُ انطباعٌ بأنَّ أمانيهِ لا تُحقق وبرأيهِ هذهِ سابقةٌ سيئةٌ».

«أوافقهُ تماماً في هذا».

«لهذا السببِ سنغادرُ تينش غداً ونتوجه إلى قلعةِ الإيرل في شايرنغ لمقابلةِ الليدي فيليبا وإجبارها على الزواجِ منكَ».

إذاً هذا ما كان في الأمرِ وشعرَ رالف براحةٍ كبيرةٍ. للأمانةِ، هذا إن كانَت الأمانةُ تعني الكثيرَ للملوكِ، لم يكن لرالف يدٌ في تمرّدِ فيليبا، ولكن من خلالِ القراءةِ بينَ السطورِ تكهنَ أنَّ الشخصَ الذي وقعَ عليهِ لوم الملكِ هو غريغوري، ولهذا بدا عازماً على إنفاذ خطةِ الملكِ وتخليصِ نفسهِ من اللومِ.

ارتسمَ غيظٌ مكظومٌ وخبثٌ على وجهِ غريغوري الذي قال: «بحلولِ الوقتِ الذي ننتهي فيهِ منها أعدكَ بأنها ستتوسلك لتتزوج منها».

لم يكن بوسعِ رالف تخيل طريقةٍ ممكنةٍ لتحقيقِ هذا لأنَّ فيليبا بنفسها قالت إنَّهم حتَّى لو أجبروها على السيرِ في ممرِّ الكنيسةِ فإنَّهم لن ينجحوا في إجبارها على الموافقةِ ولذلك قالَ رالف لغريغوري: «أخبرني أحدهم أنَّ معاهدةَ الماغنا كارتا أقرَّت بحقِّ الأرملةِ رفضَ إعادةِ الزواجِ».

رمقهُ غريغوري بنظرةٍ حاقدةٍ وقال: «لا تُذكرني بهذا فقد ارتكبت خطأً ذكرهِ أمامَ جلالتهِ».

تساءلَ رالف في نفسـهِ عمَّا يمكنُ القيامُ بهِ في مثلِ هذهِ الحالةِ، فهل يخططُ غريغوري لاستخدامِ التهديدِ أم الوعودِ لإخضاع فيليبا؟ ولكن رالف نفسهُ لم يكن قادراً على التفكيرِ بطريقةٍ أخرى للزواجِ منها سوى خطفها بالقوةِ وحملها إلى كنيسةٍ معزولةٍ حيثُ يستطيعُ رشوةَ كاهنٍ ليتجاهلَ رفضها القاطع.

انطلقوا باكراً في صباحِ اليومِ التالي برفقةِ حاشيةٍ صغيرةٍ. كانَ الوقتُ وقتَ حصادٍ في الحقلِ الشمالي، والرجالُ يحصدونَ سويقاتِ الجودارِ العاليةِ بينما النسـاءُ من خلفهم يحزمنها.

في الآونةِ الأخيرةِ كانَ بالُ رالف مشغولاً جداً بأمرِ الحصادِ أكثرَ مما كانَ مشغولاً بأمرِ فيليبا. لم يكن هذا بسببِ الطقسِ الذي كانَ صافياً بل بسببِ الطاعونِ. لم يكن لديهِ سوى عددٍ قليلٍ من المستأجرين في أراضيهِ ويكادُ لا يملكُ أيَّ عمالٍ فقد سرقهم أسيادٌ آخرون عديمو الضميرِ كرئيسةِ ديرِ الراهباتِ كاريس التي أغوت العمال بعرضِ أجورٍ أعلى وشروط استئجارٍ مغريةٍ، ومدفوعاً بيأسهِ مما حصل قدَّمَ رالف لبعضِ أقنانهِ إيجاراتٍ مجانيةٍ وهذا يعني أنَّهم غير مُلزمين بالعملِ على أرضهِ، ومثلُ هذا الترتيبِ سلبَ رالف قوتهُ العاملة خلالَ موسمِ الحصادِ وتركَ بعضَ محاصيلهِ عُرضةً للتلفِ في الحقول بسببِ عدمِ وجودِ من يحصدها.

ولكن رغمَ هذا كلِّه شعرَ رالف بأنَّ متاعبهُ ستنتهي حالما يتزوجُ من فيليبا. سيكونُ لديهِ ضعفُ الأراضي بعشرِ مرَّاتٍ إضافة إلى مدخولٍ من عشراتِ المصادرِ بما فيها الدور والغابات والأسواق والمطاحن، وستسـتعيدُ عائلتهُ حقَّها الشرعي بالنبالةِ، وسيُصبحُ ريجنالد قبلَ أن يتوفى والدَ إيرل.

وتساءلَ مجدداً عمَّا كانَ يدورُ في رأسِ غريغوري. كانت فيليبا قد دخلت في تحدٍ خطيرٍ مع إرادةِ غريغوري المرعبةِ ومع علاقاتهِ القويةِ، ولم يرغب رالف بأن يكونَ في مكانها.

وصلوا إلى قلعةِ الإيرل قبلَ الظهرِ بقليلٍ، وذكّرهَ نعيبُ الغربانِ المتصارعةِ على أسوارِ القلعةِ بالوقتِ الذي قضاه هنا كمرافقٍ للإيرلِ رولاند. كانَ يعتقدُ أنّها كانت أسعدَ أوقاتِ حياتِهِ، ولكن المكان كان هادئاً جداً الآن من دونِ الإيرل، ولم يكن هناكَ مرافقون يمارسون ألعاباً عنيفةً في أسفل المُجمع، ولا جياد حربٍ تنخرُ وتخبُّ بينما السائسون يهتمونَ بها، ولا جنودٌ يرمونَ النرد على عتباتِ القلعةِ.

وجدا فيليبا في القاعةِ القديمةِ الطرازِ مع أوديلا ومجموعةٍ من الوصيفاتِ. كانت الأمُّ وابنتها تعملان على سجادةِ حائطٍ وقد جلستا جنباً إلى جنبٍ على مقعدٍ أمامَ النولِ، وبدت الصورةُ المطبوعةُ على السجادةِ كأنّها مشهدٌ لغابةٍ. كانت فيليبا تعملُ على جذعِ شجرةٍ بخيطٍ بني بينما عملت أوديلا على الأوراقِ بخيطٍ أخضر زاهٍ.

«هذا جيدٌ ولكنها تحتاجُ إلى مزيدٍ من الحياةِ»، قالَ رالف بصوتٍ حاولَ فيهِ أن يبدو ظريفاً وودوداً. «بضعُ طيورٍ وأرانب وربما كلابٌ تلاحقُ غزالاً».

كانت فيليبا حصينةً أمامَ سحرِهِ ولذلكَ وقفت وتراجعت إلى الوراءِ بعيداً عنه، وفعلت الابنةُ الأمرَ عينهُ. لاحظَ رالف أنَّ الأمَّ والابنة بالطولِ ذاتِهِ. قالت فيليبا: «لمَ أتيتَ إلى هنا؟»

وفكرَّ رالف بامتعاضٍ: «افعلي ما شئتِ». ثمَّ استدارَ نصفَ استدارةٍ مبتعداً عنها. «أتى السير غريغوري إلى هنا لأنَّ لديهِ أمراً يريدُ قولهُ لكِ»، قالَ رالف وتوجهَ إلى النافذةِ لينظرَ خارجاً كأنّه ضجرٌ من الحديثِ.

حيَّا غريغوري المرأتين بلهجةٍ رسميَّةٍ وقالَ لهما إنّه يأملُ أنّه لم يتطفل عليهما. كانَ مجرد هراء فهو لا يهتمّ بتاتاً بأمرِ خصوصيتهما، ولكن آدابَ السلوكِ تستدعي مهادنةَ فيليبا التي دعتهُ إلى الجلوسِ ثمَّ قالَ: «إنَّ الملك منزعجٌ منكِ أيتها الكونتيسة».

أحنت فيليبا رأسها ثمَّ قالت: «يؤسفني جداً أن أكونَ قد أزعجت جلالتهُ».

«إنَّه يأملُ بمكافأةِ خادمهِ المطيعِ السير رالف بجعلهِ إيرل شايرنغ، وفي الوقتِ عينهِ سيمنحكِ زوجاً شاباً ونشطاً وعمّاً لابنتكِ». ارتعدت فيليبا لدى سماعها هذا ولكن غريغوري تجاهلَ ما رآه. «إنَّ الملكَ حائرٌ في أمرِ عنادكِ أمامَ تحقيقِ إرادتهِ».

بدت فيليبا خائفةً كما يجدرُ بها أن تكون. كانت الأمور ستختلف لو أنَّ

لديها أخاً أو أباً يدافعُ عنها، ولكن الطاعون قضى على عائلتها، ولأنّها امرأةٌ من دونِ أقرباء ذكور لم يكن لديها أحدٌ ليدافعَ عنها من غضبِ الملكِ. «وما الذي سيفعلهُ؟» قالت مرتاعةً.

«لم يذكر كلمةَ «الخيانةِ»... بعد».

لم يكن رالف واثقاً من أنّه يمكنُ اتهامُ فيليبا بالخيانةِ بشكلٍ قانوني ولكن يبدو أنَّ التهديدَ قد جعلَ الدمَ يفرُّ من وجهِ فيليبا.

تابعَ غريغوري: «لقد طلبَ مني أن أحاولَ إقناعكَ أولاً».

قالت فيليبا: «بالطبعِ يرى الملك في هذا الزواج شأناً سياسياً...»

«إنّه شأنٌ سياسي»، قاطعها غريغوري. «إن سمحت لابنتكِ الجميلةِ هذهِ بالوقوعِ في غرامِ شابٍ ساحرٍ ولكنهُ ابنُ غاسلةِ أطباقٍ ستقولينَ لها ما أقولهُ لكِ الآن وبأنَّ النبيلاتِ لا يسعهنَ الزواج بمن يرغبن، وستحبسينها في غرفتها وتأمرينَ بجلدِ الفتى خارجاً تحتَ النافذةِ إلى أن يتخلى عن ابنتكِ إلى الأبدِ».

بدت فيليبا كأنّها شعرت بالمهانةِ مما قالهُ فهي لم تحب أن يُحاضرها محامٍ في واجباتِ مكانتها الإجتماعية. «أفهمُ الواجباتِ التي تقعُ على كاهلِ أرملةٍ أرسطوقراطيةٍ»، قالت بتغطرسٍ. «أنا كونتيسة، وجدتي كانت كونتيسة وأختي كانت كونتيسة إلى أن ماتت بالطاعونِ، ولكن الزواجَ لم يكن مسألةً سياسيةً فحسب، بل للقلبِ رأي فيهِ أيضاً. نحنُ النساء نرمي بأنفسنا تحتَ رحمةِ الرجالِ الذين هم سادتنا وأسيادنا ومن واجبهم أن يقرروا بحكمةٍ مصيرنا، ونرجو ألا يتمَّ تجاهل مشاعرنا بالكاملِ، وعادةً ما تلقى هذهِ الرجاءات آذاناً صاغيةً».

كانَ بوسعِ رالف أن يرى ضيقها إلا أنّها كانت في كاملِ سيطرتها على نفسها، وبكاملِ احتقارها، ونطقت كلمةَ «بحكمةٍ» برنّةٍ ساخرةٍ.

«قد يكون كلامكِ صحيحاً في الأحوالِ العاديةِ ولكننا في زمنٍ غريبٍ»، أجابَ غريغوري. «عادةً، عندما يبحثُ الملكُ من حولهِ عن شخصٍ يستحقُ لقبَ إيرل يرى العديدَ من الرجالِ الحكماءِ والأقوياءِ والمفعمين بالنشاطِ والمخلصين له والحريصين على خدمتهِ بأيِّ طريقةٍ ممكنةٍ حيثُ يمكنهُ تعيينُ أيِّ واحدٍ منهم في هذا المنصبِ بكلِّ ثقةٍ مطلقةٍ، ولكن الآن ولأنَّ الطاعون قد قضى على الكثيرِ من خيرةِ الرجالِ فإنَّ الملكَ أشبه بربّةِ منزلٍ تذهبُ إلى بائعِ سمكٍ آخرِ النهارِ وتضطرُ إلى أخذِ ما تبقى لديهِ من سمكٍ».

رأى رالف قوةَ جدالِ غريغوري ورغمَ شعورهِ بالمهانةِ فإنّه تظاهرَ باللامبالاة.

وهنا غيَّرت فيليبا تكتيكها فلوحت إلى أحدِ الخدمِ قائلةً: «أحضر لنا إبريقاً من أفضلِ نبيذِ غاسكونِ من فضلكَ، وسيبقى السير غريغوري على الغداءِ هنا لهذا فلتعد لحمَ حمل من هذا الموسمِ مع الثومِ وإكليلِ الجبلِ».

«أجل، يا سيدتي».

قالَ غريغوي: «شكراً على لطفكِ الشديدِ يا سيدتي».

لم تكن فيليبا ماهرةً في التصرفِ بغنجٍ ولا في التظاهرِ بأنَّها مضيافةٌ بكلِّ بساطةٍ ومن دونِ دافعٍ خفي. كان هذا تصرفاً غريباً عنها ولذلكَ عادت مباشرةً إلى الموضوعِ المطروحِ: «أيها السير غريغوري أشعرُ أنه علي إخباركَ بأن قلبي وروحي ووجودي بأكملهِ يتقزز من احتمالِ الزواجِ بالسير رالف فيتزجيرالد».

«ولكن لماذا؟» قال غريغوري. «إنَّه رجلٌ كبقيةِ الرجالِ».

«لا، إنَّه ليسَ كذلك».

تحدثا عن رالف كأنّه غير موجود في المكانِ ووجدَ رالف هذا مهيناً جداً، ولكن فيليبا بدت يائسةً ومستعدةً لقولِ أيِّ شيءٍ ولهذا انتابهُ الفضول لمعرفةِ سببِ كرهها له.

توقفت فيليبا عن الكلامِ لبرهةٍ وجيزةٍ كأنّها تجمعُ أفكارها. «إن قلتُ إنَّه مغتصبٌ ومُعذِّبٌ وقاتل... فسيبدو ما أقولهُ غامضاً جداً».

بوغتَ رالف بما سمعهُ فهو لم يفكر بنفسهِ بهذهِ الطريقةِ. بالطبعِ عذَّبَ أناساً خلالَ خدمتهِ للملكِ واغتصبَ آنيت وقتلَ الكثيرَ من الرجالِ والنساءِ والأطفالِ عندما كانَ خارجاً عن القانونِ... ولكن واسى نفسهُ بالتفكيرِ أنَّ فيليبا لم تتكهن أنّه الشخصُ المُلَثَّمُ الذي قتلَ زوجتهُ تيلي».

تابعت فيليبا: «في قرارةِ أنفسِ البشرُ هناكَ ما يمنعهم من القيامِ بمثلِ هذهِ الأمورِ. إنَّها القدرةُ... لا، الشعورِ بألمِ الآخرِ، وهذا أمرٌ لا يسعنا التحكم بهِ. أنتَ، أيها السير غريغوري، لن تُقدمَ على اغتصابِ امرأةٍ لأنَّكَ ستشعرُ بحزنها وكربها بعدَ هذا وستُعاني معها، وسيرغمكَ هذا على التصرفِ بلينٍ، ولا يمكنكَ أن تعذبَ أو تقتلَ للسببِ ذاتهُ. ومن يفتقدُ هذهِ الخاصيةَ -الشعور بألمِ الآخرِ- ليسَ إنساناً حتَّى وإن كانَ يسيرُ على رجلين ويتحدثُ الإنكليزية». انحنت إلى الأمامِ وقالت بصوتٍ منخفضٍ ولكن رالف تمكنَ من سماعِ كلماتها بوضوحٍ. «وأنا لن أنامَ مع حيوانٍ».

انفجرَ رالف قائلاً: «أنا لستُ حيواناً!»

توقعَ رالف أن يستديرَ غريغوري إلى الوراءِ وينظرَ إليهِ، إلا أنَّه بدا كأنَّه تخلى عن توبيخهِ وقالَ للكونتيسة: «هل هذا قراركُ الأخير أيتها الليدي فيليبا؟»

ذُهلَ رالف عندَ سماعِ هذا. هل سيسمحُ غريغوري بهذا كأنَّه نصفُ مقتنعٍ بحقيقةِ ما قيلَ؟

قالت فيليبا لغريغوري: «أريدكَ أن تعودَ إلى الملكِ وتخبرهُ بأنني خادمتهُ المخلصة والمطيعةُ وأنني أتوقُ إلى الفوزِ بحظوتهِ ولكني لا أستطيعُ الزواجَ من رالف حتَّى لو طلبَ مني الملاكُ جبريل فعلَ هذا».

«فهمتُ»، قالَ غريغوري ووقفَ. «أعتذرُ ولكننا لن نبقى على الغداءِ».

هل انتهى الأمرُ؟ كانَ رالف ينتظرُ من غريغوري أن يأتي بمفاجأةٍ، سلاح سري، رشوةً أو تهديداً خطيراً. لا يمكنُ مواجهتهُ. هل نفدت الحيلُ من هذا المحامي الملكيِ الذكي؟

بدت فيليبا مذهولةً أيضاً ولكن لم يكن لدى رالف ما يقوم بهِ سوى اللحاقِ بغريغوري. حدَّقت فيليبا وأوديلا إلى الرجلين حائرتين وحلَّ أمامَ هذا المشهدِ، وحلَّ الصمتُ بين الوصيفاتِ.

قالت فيليبا: «من فضلكِ فلترجو الملكَ أن يكونَ رحيماً».

«سيكونَ رحيماً يا سيدتي»، قال غريغوري. «لقد خولني بأن أخبركَ بأنَّه وفي ضوءِ عنادكِ لن يجبركَ على الزواجِ برجلٍ تحتقرينهُ».

«شكراً لكَ!» قالت فيليبا. «لقد أنقذتَ حياتي».

فتحَ رالف فمهُ ليحتجَّ. لقد وعدوهُ بهذا! لقد ارتكبَ فعلاً دنساً وقتلَ من أجلِ هذهِ الجائزةِ، لا يمكنهم حرمانهُ منها الآن.

ولكن غريغوري تحدثَ قبلهُ قائلاً: «وبدلاً من هذا يأمرُ الملكُ السير رالف بالزواجِ من ابنتكِ بدلاً منكِ»، وتوقفَ عن الكلامِ لبرهةٍ ومن ثمَّ أشارَ إلى الفتاةِ البالغةِ خمسةَ عشرَ عاماً والواقفة قربَ والدتها ثمَّ تابع قائلاً: «أوديلا»، كأنَّه كانَ بحاجةٍ إلى تأكيدِ هويةِ الشخصِ الذي أشارَ إليهِ.

شهقت فيليبا وأوديلا.

انحنى غريغوري وقال: «طابَ يومكما».

صرخت فيليبا: «توقف!»

تجاهلها غريغوري وغادرَ.

ولحقَ بهِ رالف مذهولاً.

***

استيقظت غويندا على شعورٍ كبيرٍ بالإرهاق، ولأنَّ الوقت حصاد فقد كانت تقضي كلَّ ساعةٍ من أيامِ شهرِ آب/ أغسطس في الحقولِ. حصدَ ولفريك الذرةَ بمنجلِهِ دونَ كللٍ أو مللٍ من الفجرِ حتَّى هبوطِ الليلِ وجمعت غويندا السويقاتِ بعدَ حصدها، كانت تنحني وتجمعُ، وتنحني وتجمع إلى أن تشعرَ بألمٍ كالحرقِ في ظهرها، وعندما يهبطُ الظلام تعودُ مترنحةً إلى المنزلِ وتلقي بنفسها على السرير تاركةً عائلتها تقتاتُ على أيِّ شيءٍ يمكنهم إيجادهُ في الصوانِ.

استيقظَ ولفريك عندَ الفجرِ واستفاقت من نومها العميق على صوتِ حركتهِ. جاهدت للوقوفِ على قدميها فقد كانوا جميعاً بحاجةٍ إلى فطورٍ جيدٍ. وضعت لحمَ ضأن بارد وخبزاً وزبدة وجعةً قويةً على الطاولةِ. كان سام البالغ من العمرِ عشرَ سنواتٍ قد نهضَ الآن ولكنهم أيقظوا ديفي ذا الثمانية أعوام من نومهُ رغماً عنهُ.

«هذهِ الأرضُ لم يزرعها قبلاً رجلٌ وامرأتهُ فقط»، قالت غويندا بتجهمٍ وهم يتناولون الطعامَ.

وأجابَ ولفريك بمرحٍ وإيجابيةٍ مزعجةٍ قائلاً: «أنا وأنتِ قمنا بالحصادِ وحدنا في العامِ الذي انهارَ فيهِ الجسرُ».

«كنتُ أصغرَ باثني عشرَ عاماً آنذاك».

«ولكنكِ أكثرُ جمالاً الآن».

ولكنها لم تكن بمزاجٍ لسماعِ الإطراءاتِ فقالت له: «حتى عندما كانَ والدكُ وشقيقكُ على قيدِ الحياةِ كانا يستعينان بعمالٍ وقتَ الحصادِ».

«لا تهتمي بالأمرِ. إنَّها أرضنا ونحن من زرعَ المحاصيلِ ولهذا سنستفيدُ من المحصولِ بدلاً من العملِ بالأجرة وأخذِ بنسٍ على كلِّ يومٍ. وكلما عملنا أكثر، جنينا أكثر. أليسَ هذا ما كنتِ تريدينهُ؟»

«لطالما أردتُ أن أكونَ مستقلةً ومكتفيةً ذاتياً إن كانَ هذا ما تعنيهِ بكلامكَ»، قالت وتوجهت إلى الباب ثمَّ أضافت: «الرياحُ غربيةٌ وهناكَ بضعُ غيومٍ في السماءِ».

بدا ولفريك قلقاً وقال: «إننا بحاجةٍ إلى الصحو ليومين أو ثلاثةِ أيام».

«أعتقدُ أنَّ المطرَ لن يهطل. تعالا أيها الصبيان لقد حانَ الوقتُ لنذهبَ إلى الحقلِ. يمكنكما تناولُ الطعامِ وأنتما تسيران». وبينما كانت توضبُ الخبزَ واللحمَ في كيسٍ من أجلِ الغداءِ رأت نيثان ريف يدخل فقالت: «أوه لا. ليسَ اليومِ فما زلنا نحصدُ محصولنا».

«إنَّ للسيدِ محاصيلَ أيضاً»، قالَ الوكيل.

كان بصحبةِ نيثان ابنهُ جوناثان البالغ من العمرِ عشرةَ أعوامٍ والمعروف باسم جونو، وقد سارعَ جونو إلى إغاظةِ سامٍ بتعابيرِ وجههِ.

قالت غويندا: «أعطنا ثلاثةَ أيامٍ لننتهي من العملِ في أرضنا».

«لا تحاولي مجادلتي في هذا الشأنِ»، قال نيثان. «أنتما تدينان للسيدِ بيومِ عملٍ في الظروف العاديةِ وبيومين وقتَ الحصادِ، وستقومان اليومَ وغداً بحصادِ الشعيرِ في حقلِ بروكفيلد».

«ولكن عادةً ما يكونُ العملُ ليومٍ واحدٍ فهذا هو المتعارفُ عليهِ منذُ وقتٍ طويلٍ».

«كانَ متعارفاً عليهِ في أوقاتِ وفرةِ العمالِ ولكن السيد الآن بحاجةٍ ماسةٍ إلى العمالِ. فاوضَ الكثيرُ من الناسِ على إيجاراتٍ حُرَّةٍ ولم يعد لديهِ أيّ عمالٍ ليعملوا في أراضيهِ».

«ومن فاوضوكَ وطلبوا منكَ تحريرهم من واجباتهم المعتادةِ كافأتهم، والناسُ أمثالنا ممن قبلوا بالشروطِ القديمةِ عاقبتهم بالعملِ في أرضِ السيدِ بوتيرةٍ مضاعفةٍ لما هو متعارف عليهِ». وألقت على ولفريك نظرةً اتهاميةً وقد تذكرت أنَّه تجاهلها عندما أخبرته بأن عليهِ التفاوض مع نيثان بشأنِ الشروطِ.

«أمرٌ من هذا القبيلِ»، قال نيثان بلامبالاةٍ.

«اللعنة»، قالت غويندا.

«لا تشتمي»، قال نات. «ستحصلين على غداءٍ مجاني، وسيكون هناكَ خبزٌ أبيض وبرميلٌ جديدٌ من الجعة. أليسَ هذا أمرٌ قد تتطلعين إليهِ؟»

«السير رالف كريمٌ مع الجيادِ التي ينوي إجهادها».

«باللهِ عليكِ لا تتجهمي»، قالَ نات وخرجَ.

وأخرجَ ابنهُ جونو لسانَهُ في وجهِ سام الذي لوحَ بقبضتهِ له، ولكن جونو تجنبَ القبضةَ ولحقَ بوالدهِ.

عبرت غويندا المنهكة مع عائلتها الحقولَ إلى حقلِ رالف المزروعِ بالشعيرِ المتراقصِ مع حركةِ الريحِ وبدأوا العملَ: ولفريك يحصدُ وغويندا تحزمُ. لحقَ بهما سام وأخذَ يلتقط السويقاتِ التي تفلتُ من غويندا إلى أن أصبحَ لديهِ حزمةٌ ثمَّ مررها إليها لتحزمها. بدت أصابعُ ديفيد الصغيرة رشيقةً وهو يطوي الخيوطَ القاسيةَ المخصصةَ لحزمِ الأكوامِ. عملت العوائلُ الأخرى التي ما زالت

مستأجرةً بالشروطِ القديمةِ إلى جانبهم بينما الأقنانُ الأذكى منهم يحصدونَ محاصيلهم في حقولهم.

وعندما ارتفعت الشمسُ إلى كبدِ السماءِ جرَّ نات عربةً مُحملةً ببرميلٍ من الجعةِ. لقد وفى بوعدهِ وقدَّمَ لكلِّ عائلةٍ رغيفاً كبيراً من الخبزِ الأبيضِ الطازجِ واللذيذِ. أكلَ الجميعُ حتَّى التخمةِ ومن ثمَّ استلقى البالغون في الظلِّ للراحةِ بينما انطلقَ الأطفالُ للعبِ.

وفي غفوتها سمعت غويندا صراخَ طفلٍ، ورغمَ علمها على الفورِ بأنَّه لم يكن صراخَ أيِّ ولدٍ من ولديها إلا أنَّها نهضت بسرعةٍ. رأت ابنها سام يتعاركُ مع جونو ريڤ، ورغمَ أنهما كانا في العمرِ والحجمِ ذاتهُ إلا أنَّ سام ألقى بجونو أرضاً وأخذَ يلكمهُ ويركلهُ من دونِ رحمةٍ. سارعت غويندا إلى موقعِ القتالِ بينَ الولدين إلا أنَّ ولفريك كانَ أسرعَ منها فأمسكَ بابنهِ سام بيدٍ واحدةٍ وأبعدهُ.

نظرت غويندا إلى جونو بأسى، فالفتى كان ينزفُ من أنفهِ وفمهِ وقد انتفخَ الجلد حولَ إحدى عينيهِ وبدأ يتورمُ، كانت يداه على معدتهِ يئنُّ ويبكي. رأت غويندا شجاراتٍ كثيرةً بينَ الصبيةِ ولكن هذا الشجارَ كانَ مختلفاً عمَّا رأتهُ فقد أبرحَ جونو ضرباً.

نظرت غويندا إلى ابنها ذي العشرةِ أعوامٍ ولم تجد أيَّ أثرٍ للضربِ على وجههِ كأنَّ جونو لم يوجه لهُ أيّ لكمةٍ. لم يبدُ على وجههِ الأسفُ حيال ما فعلهُ بل بدا معتزاً بنصرهِ. شعرت بأنَّها رأت هذا التعبير قبلاً ولكن لم تعرف أين. بحثت في ذاكرتها عمَّا يشبههُ، ولم يأخذ منها الأمرُ وقتاً طويلاً لتتذكرَ الشخصَ الذي رأتهُ ينظرُ بهذهِ الطريقةِ بعدَ أن يضربَ أحداً ضرباً مُبرحاً.

رأت هذا التعبيرَ على وجهِ والدِ سام الحقيقي... رالف فيتزجيرالد.

***

بعدَ يومين على زيارةِ رالف وغريغوري لقلعةِ إيرل شايرنغ وصلت الليدي فيليبا إلى قصرِ تينش.

في هذهِ الأثناءِ كان رالف قد فكرَ باحتمالِ الزواجِ من ابنةِ فيليبا. كانت أوديلا شابةً جميلةً ولكنه يستطيعُ شراءَ شاباتٍ جميلاتٍ لقاءَ بضعة بنساتٍ في لندن، وقد عاشَ تجربةَ الزواجِ من فتاةٍ أقرب إلى الطفلةِ ولاحظ أنَّه أصيبَ بالضيقِ والسأمِ بعد أن فترت حماستهُ الأولية.

وتساءلَ لوهلةٍ إن كانَ يستطيعُ الزواجَ من أوديلا والنومَ مع فيليبا أيضاً. كانت فكرةُ الزواجِ من الابنةِ والاحتفاظِ بالأمِ كعشيقةٍ مثيرةً جداً، وقد يتمكن من النومِ معهما معاً في الوقتِ عينِه. لقد سبقَ لهُ وضاجعَ أمّاً وابنتها وكانتا عاهرتين في كاليه، وأثاره جو الفسقِ لحالةِ سفاحِ القربى.

ولكن بعدَ التفكيرِ بالأمرِ أدركَ أنَّ مثلَ هذا الأمرِ لن يحدث وأنَّ فيليبا لن توافقَ على هذا الترتيبِ. قد يحاولُ إيجادَ طريقةٍ لإجبارها إلا أنَّ إخضاعها لم يكن بالأمرِ الهينِ. «لا أريدُ الزواجَ من أوديلا»، قال رالف لغريغوري وهما في طريقهما عائدين من قلعةِ الإيرل.

«لن تضطرَ إلى الزواجِ منها»، قالَ غريغوري دونَ أن يستفيضَ أكثر.

وصلت فيليبا مع وصيفةٍ لها وحارسٍ شخصي ولكن من دونِ أوديلا، وحالما دخلت إلى قصرِ تينش لم تبدُ معتدّةً بنفسها كما هي عادتها، بل لم تبدُ جميلةً، وفكرَ رالف في نفسهِ بأنها تبدو كأنّها لم تنم منذُ ليلتين.

كان رالف وآلان وغريغوري وحفنةٌ من المرافقين والوكيل جالسين يتناولون غداءهم، ولم يكن من امرأةٍ في الغرفةِ سوى فيليبا.

توجهت فيليبا إلى غريغوري.

تخلى غريغوري عن أيِّ لباقةٍ كان قد عاملها بها مسبقاً، ولم يقف عندما اقتربت منهُ بل عاينها من الأعلى إلى الأسفلِ بكلِّ وقاحةٍ كأنّها خادمةٌ حزينةٌ: «حسناً؟» قالَ أخيراً.

«سأتزوجُ من رالف».

«أوه!» قالَ لها بنبرةٍ ساخرةٍ. «هل وافقتِ الآن؟»

«أجل فهذا أفضلُ من التضحيةِ بابنتي. سأتزوجهُ بنفسي».

«سيدتي»، قالَ لها بسخريةٍ. «يبدو أنّك تعتقدين أنَّ الملكَ أعدَّ لكِ طاولةً عامرةً بالأطايب وطلبَ منكِ اختيار أفضلها. أنتِ مخطئةٌ. إنَّ الملكَ لا يهمهُ ما يسعدكِ. إنّه يأمرُ وإن عصى أحدٌ أوامرهُ فسيصدرُ أمراً آخر، فهو لم يُعطك أيَّ خيارٍ».

أطرقت بنظرها أرضاً وقالت: «أعتذرُ عن سلوكي. من فضلكِ دع ابنتي وشأنها».

«لو أنَّ الأمرَ بيدي لرفضتُ طلبكِ عقاباً لكِ على عنادكِ، ولكنكِ تستطيعين الالتماسَ إلى السير رالف في هذا الشأنِ».

نظرت إلى رالف الذي رأى في عينيها غضباً ويأساً فشعرَ بالحماسِ. كانت أكثر النساءِ اللواتي التقى بهن غطرسةً وها هو قد كسرَ كبرياءها، وأرادَ مضاجعتها في هذهِ اللحظةِ.

ولكن الأمرَ لم ينتهِ بعد.

قالَ رالف: «هل لديكِ ما تقولينه لي؟»

«أعتذرُ».

«تعالي إلى هنا». كانَ رالف جالساً إلى رأسِ الطاولةِ فاقتربت ووقفت بقربهِ. مسَّد بيدهِ على رأسِ الأسدِ المحفورِ على ذراعِ كرسيهِ وقال لها: «هيا، تابعي».

«أعتذرُ عن رفضي لكَ قبلاً وأرغبُ بسحبِ كلِّ ما قلتهُ قبلاً. أقبلُ بعرضكَ وسأتزوجُ منكَ».

«ولكنني لم أجدد عرضي والملكُ طلبَ مني الزواج بأوديلا».

«إن طلبتَ من الملكِ أن يغيرَ خطتهُ فهو بالتأكيد سيحققُ لكَ هذا».

«وهذا ما تطلبين مني القيامَ بهِ؟»

«أجل»، قالت فيليبا ونظرت إليهِ بشكلٍ مباشرٍ وهي تبتلعُ إذلالها الأخير ثمَّ قالت: «أطلبُ منكَ... أتوسلُ إليكَ. من فضلكَ أيُّها السير رالف أن تجعلني زوجتكَ».

وقفَ رالف وأبعدَ الكرسي. «قبليني الآن».

أغلقت عينيها.

أحاطَ كتفيها بذراعهِ اليسرى وسحبها نحوهُ ثمَّ قبَّلها على شفتيها. خضعت لهُ من دونِ أيِّ ردِّ فعلٍ. أخذَ بيدهِ اليمنى يعتصرُ ثديها ووجدهُ مكتنزاً وثقيلاً كما تخيلهُ على الدوامِ، ثمَّ مررَ يدهُ على جسدها إلى أن وصلَ إلى ما بين فخذيها. جفلت فيليبا من حركتهِ إلا أنَّها بقيت ثابتةً بينَ ذراعيهِ، ثمَّ ضغطَ بباطنِ يدهِ على عانتها وأمسكَ بالشعرِ هناكَ ويدهُ تأخذُ الشكلِ المثلثي لعانتها.

ثمَّ وهو في هذهِ الوضعيةِ أنهى القبلةَ وألقى نظرةً على أصدقائهِ في الغرفةِ.

-76-

في الوقتِ الذي أصبحَ فيهِ رالف إيرل شايرنغ أصبحَ شابٌ يدعى ديفيد كيرليون إيرل مونماوث. كانَ الشابُ في السابعةِ عشرة وعلى صلةِ قرابةٍ بعيدةٍ

مع الإيرل المتوفى، وقد أصبحَ الإيرل لأنَّ الطاعون قضى على جميعِ ورثةِ الإيرل الراحلِ ومحاهم عن بكرةِ أبيهم.

قبلَ بضعةِ أيامٍ على عيدِ الميلادِ من ذلكَ العام أُقيمت مراسم مباركةِ الإيرلين الجديدين في كاندرائيةِ كينغزبريدج، وحلَّ بعدها ديفيد ورالف ضيفَي شرفٍ على مأدبةٍ أقامها ميرثن في قاعةِ الأبرشيةِ، وكانَ التجار يحتفلون أيضاً بحصولِ كينغزبريدج على الامتياز الملكي بمنطقةٍ إداريةٍ.

رأى رالف في حصولِ ديفيد على منصبِ إيرل حظاً خارقاً فالشاب لم يُغادر المملكةَ ولم يحاربِ في معركةٍ ومع ذلكَ أصبحَ إيرلاً في السابعةَ عشرة من العمرِ. أمّا رالف الذي جال في جميعِ أنحاءِ النورماندي يُقاتلُ إلى جانبِ الملكِ إدوارد ومخاطراً بحياتهِ في المعاركِ ليخسرَ جرّاءَ هذا ثلاثَ أصابع وليرتكبَ خطايا لا تعدُّ ولا تحصى من أجلِ خدمةِ الملكِ، اضطرَ للانتظارِ حتى الثانيةِ والثلاثين من عمرهِ ليصبحَ إيرلاً.

ولكنه وفي نهايةِ المطافِ نجحَ في الوصولِ إلى هدفهِ وها هو الآن جالسٌ بالقربِ من الأسقفِ هنري إلى الطاولةِ في عباءةٍ مقصّبةٍ بخيوطٍ ذهبية وفضية. ومن عرفوه أشاروا إليهِ للغرباءِ، وأفسحَ له التجارُ الأثرياء الطريقَ وأحنوا رؤوسهم باحترامٍ عندما مرَّ بقربهم، وارتعشت أيدي الخادمات وهنَّ يسكبنَ النبيذَ في كأسهِ، وقال والدهُ السير جيرالد الذي يلازمُ الفراشَ الآن ومتشبثٌ بالحياةِ بكلِّ عنادٍ: «أنا سليلُ إيرل ووالدُ إيرل، ويمكنني القول إنني راضٍ عن حياتي». كانَ كل هذا باعثاً على رضا كبير لرالف.

حرصَ رالف على التحدثِ مع ديفيد حولَ مُشكلةِ العمالِ رغمَ أنّها الآن قد توقفت ولكن بشكلٍ مؤقت لأنَّ الوقت حصاد وفلاحةُ الخريف انتهت، وفي هذهِ الأيامِ يغدو النهارُ قصيراً والطقس بارداً ولذلكَ لم يكن هناكَ الكثير من العملِ في الحقولِ. لسوءِ الحظِ وحالما تبدأ فلاحةُ الربيع وتغدو التربةُ ناعمةً كفايةً ليبذرَها الأقنانُ ستعاودُ المشكلةُ إلى الظهورِ، وسيستأنفُ العمالُ مطالبهم المزعجةَ بأجورٍ أعلى، وإن رفضَ فسيهربونَ بطريقةٍ غيرِ شرعيةٍ إلى أسيادٍ أكثرَ بذخاً.

كانت الطريقةُ الوحيدةُ لوقفِ هذا هي بأن يتكاتفَ جميعُ النبلاءِ ويضربوا بيدٍ من حديدٍ ويرفضوا منحَ أجورٍ أعلى وتشغيلِ الهاربين، وهذا بالتحديد ما أرادَ رالف التحدثَ بهِ مع ديفيد.

ولكن إيرل مونماوث الجديد لم يُبدِ رغبةً بالحديثِ مع رالف بل كان مُهتماً بابنةِ زوجةِ رالف أوديلا التي كانت في مثلِ عمرِه، وفهمَ رالف أنَّ الشابين قد التقيا قبلاً فقد كانت فيليبا وزوجها الأول ويليام ضيفين دائمين في قلعةِ مونماوث عندما كانَ ديفيد مرافقاً للإيرل المتوفى. وأيًّا يكن التاريخ الذي جمعهما فإنَّهما الآن باتا صديقين. كان ديفيد يتحدثُ بحيويةٍ وأوديلا تُصغي إلى كلِّ كلمةٍ يقولها وتوافقهُ على آرائهِ وتشهقُ عندَ سماعِ قصصهِ وتضحكُ على دعاباتهِ.

لطالما نظرَ رالف إلى الرجالِ القادرين على سحرِ النساءِ بعينِ الحسدِ. لقد امتلكَ شقيقهُ هذهِ الميزةَ وكان قادراً على جذبِ أجملِ النساءِ رغمَ أنَّه رجلٌ عادي بقامةٍ قصيرةٍ وشعرٍ أصهب.

ولكن رالف لم يشعر نحو ميرثن سوى بالأسفِ لأنَّ أمرهُ انتهى منذُ ذلكَ اليوم الذي جعلَ فيهِ الإيرل رولاند رالف مرافقاً له وحددَ مصيرهُ كنجارٍ متدربٍ، ورغمَ أنَّ ميرثن الأكبرُ عمراً فإنَّ رالف من كانَ مقدراً له أن يصبحَ الإيرل، وها هو ميرثن الجالسُ الآن إلى جانبِ الإيرل ديفيد لا يملكُ ما يعزيهِ سوى أنه كبير أعضاءِ نقابةِ الأبرشيةِ وقادرٌ على سحرِ النساءِ.

لم يكن لرالف سحرٌ على زوجتهِ فهي بالكادِ تتكلمُ معهُ، بل إنَّها تتكلمُ مع كلبهِ أكثر مما تتكلمُ معهُ.

وتساءلَ رالف في نفسهِ كيفَ يمكنُ لرجلٍ يرغبُ بشيءٍ بشدةٍ كما رغبَ بفيليبا أن يشعرَ بعدمِ الرضا. كانَ يتوقُ إليها مذ كان مرافقاً في التاسعةَ عشرة من العمرِ، وها هو الآن بعدَ ثلاثةِ أشهرٍ على الزواجِ يتمنى من كلِّ قلبهِ أن يتخلصَ منها.

ولكن وعلى الرغمِ من كل شيء لم يكن لديه ما يشتكي منه لأنَّ فيليبا تقومُ بكلِّ ما يتوجبُ على الزوجةِ القيامُ بهِ. كانت تديرُ القلعةَ بكلِّ مهارةٍ كما كانت تفعلُ عندما أصبحَ زوجها الأول الإيرل بعدَ معركةِ سيرسي، وتشرفُ على طلبِ المؤن ودفعِ الفواتير وخياطةِ الثيابِ وإشعالِ النارِ في المواقد وتقديمِ الطعامِ والنبيذِ على الطاولةِ ومن دونِ أخطاءٍ، وكانت أيضاً تخضعُ لجميعِ أفعالِ رالف الجنسيةِ. كانَ بوسعهِ فعلُ أيِّ شيءٍ معها من تمزيقِ ثيابها وإقحام أصابعهِ بحماسةٍ في عضوها ومضاجعتها واقفةً أو من الخلفِ ومن دونِ أن تُبدي أيَّ شكوى.

لم تبادلهُ مداعباتِهِ أبداً وشفتاها لم تتحركا مع شفتيهِ ولسانها لم يدخل

فمهُ ولم تداعب بشرتهُ يوماً. كانت تحتفظُ بزجاجةٍ من زيتِ اللوزِ قريبةً منها لترطيبِ جسدِها المتخشبِ في كلِّ مرَّةٍ يضاجعها فيها، وتستلقي كجثةٍ بينما هو يئنَّ فوقها، وفي اللحظةِ التي ينتهي منها ويبتعدُ عنها تذهبُ للاغتسالِ.

كانَ الأمرُ الوحيدُ الجيدُ في هذا الزواجِ هو الحبُّ الذي أظهرتهُ أوديلا للصغيرِ جيري، فقد أيقظَ الطفلُ في الفتاة غريزةَ الأمومةِ. كانت تحبُّ الحديثَ معه وغناءَ الأغاني له وهزَّه حتَّى ينام، وتوليهِ نوعاً من الحبِّ الأمومي الشغوفِ الذي لن تتمكن أيّ مربيةٍ مأجورةٍ من إعطائه إياه.

ولكن رالف كانَ نادماً فجسدُ فيليبا الشهواني الذي حدَّقَ إليه لسنواتٍ عديدةٍ وبتوقٍ كبيرٍ يرفضهُ الآن. لم يلمسها منذُ أسابيع وهو على الأغلب لن يلمسها مجدداً. نظرَ إلى ثدييها العامرين ووركيها المدورين وشعرَ بالحنينِ إلى الأطرافِ النحيلةِ والبشرةِ الطفوليةِ التي امتلكتها تيلي، تيلي التي طعنها بخنجرٍ طويلٍ وحادٍ بينَ ضلوعها مخترقاً قلبها النابض. ما ارتكبهُ يعتبرُ خطيئةً ولم يكن يجرؤ على الاعترافِ، وتساءلَ في بؤسٍ عن المدةِ التي سيقضيها في المُطهر يعاني بسببِ هذهِ الخطيئةِ.

نزلَ الأسقفُ ومرافقوه في قصرِ رئيسِ الدير ولذلكَ نزلَ رالف وفيليبا وخدمهما في نُزلٍ. اختارَ رالف نُزلَ بيلِ الذي يمتلكهُ شقيقهُ فقد كان البناءَ الوحيدَ في كينغزبريدج المؤلف من ثلاثةِ طوابق وفيهِ غرفةٌ كبيرةٌ في الطابقِ الأرضي ومهاجع للرجالِ والنساءِ في الطابقِ العلوي وطابقٌ ثالثٌ بستِّ غرفٍ فخمةٍ. عندما انتهت الوليمةُ انتقلَ رالف ورجالهُ إلى الحانةِ حيثُ استقروا حولَ النارِ وطلبوا النبيذَ وبدأوا بلعبِ لعبةِ النردِ بينما بقيت فيليبا في الديرِ تتحدثُ إلى كاريس وتراقبُ أوديلا وهي برفقةِ الإيرل ديفيد.

اجتذبَ رالف ورفاقهُ جمهوراً من الشبابِ والشاباتِ كما يحدثُ عادةً عندما يكون هناكَ تجمعٌ للنبلاءِ، وبدأ رالف تدريجياً وبعد أن تملكتهُ مسرّةُ الشرابِ وحماسُ المقامرةِ ينسى متاعبهُ.

لاحظَ شابةً بشعرٍ أشقر تراقبهُ بتعابير تفيضُ توقاً وهو يخسرُ بكلِ مرحٍ أكياساً من البنساتِ الفضيةِ مع كلِّ رميةِ نردٍ. أشارَ إليها لتجلسَ بقربهِ على المقعدِ وأخبرتهُ أنَّها تدعى إيلا. وفي لحظاتِ التوترِ والترقبِ تمسكُ بفخذهِ كأنَّها مأخوذة بالترقبِ رغمَ أنَّها وعلى الأغلبِ كانت تعلمُ ما الذي تقومُ به فالنساءُ عادةً يعرفن هذا.

وشيئاً فشيئاً بدأ رالف يفقدُ اهتمامهُ باللعبةِ ويتحولُ إلى الشابةِ بجوارهِ. تابعَ رجاله المقامرةَ بينما أخذَ هو يتعرفُ على إيلا ووجدها مختلفةً تماماً عن فيليبا فقد كانت بشوشةً ومثيرةً ومسحورةً بِهِ. كانت تلمسهُ وتلمس نفسها كثيراً، وتبعدُ شعرها عن وجهها وتربّتُ على ذراعهِ ثمَّ تضع يدها على عنقها وتضربُ كتفهُ بشكلٍ لعوبٍ، وبدت مهتمةً جداً بمغامراتهِ في فرنسا.

ولكن رالف تضايقَ عندما رأى ميرثن يدخلُ الحانةَ ويجلسُ معهُ. ورغمَ أن ميرثن لا يديرُ الحانةَ بنفسهِ فقد قامَ بتأجيرها إلى أصغرِ بناتِ بيتي باكستر إلا أنَّه حرصَ على أن تنجحَ المستأجرةُ في إدارتها ولهذا سألَ رالف إن كانَ راضياً عن الخدمةِ، وقدَّمَ رالف رفيقتهُ إلى ميرثن الذي قالَ بلهجةِ ازدراء غير لبقةٍ وغريبةٍ عنهُ: «أجل أنا أعرفُ إيلا».

كانت هذهِ المرَّة الثالثة أو الرابعة التي يلتقي فيها الشقيقان منذُ وفاةِ تيلي. التقيا في حفلِ زفافِ رالف وفيليبا ولكن لم يحظيا بوقتٍ للتحدثِ، ولكن رالف عرفَ بالنظرِ إلى الطريقةِ التي ينظرُ بها شقيقُه إليهِ أنَّ ميرثن يشك بأنَّه قاتلُ تيلي. كان لهذهِ الفكرةِ المكبوحةِ بين الشقيقين وطأةٌ غامضةٌ ورغمَ أنَّ الموضوعَ لم يُطرح للحديثِ فإنَّ رالف تجاهلهُ كأنَّه أمرٌ مستحيلٌ كاستحالةِ وجودِ بقرةٍ في كوخٍ مُكتظٍ لفلاحٍ فقيرٍ، وشعرَ رالف بأنَّه لو طرحَ الموضوع فستكون هذهِ المرةَ الأخيرةَ التي يتحدثان فيها.

ولذلكَ فكأنَّهما كانا على اتفاقٍ مسبقٍ تبادلا هذهِ الليلةَ أحاديث تافهةً لا معنى لها ثمَّ غادرَ ميرثن بحجةِ أنَّ لديهِ عملا يريدُ القيام بهِ. تساءلَ رالف لبرهةٍ وجيزةٍ عن العملِ الذي قد يقومُ بهِ ميرثن في ليلةٍ باردةٍ من ليالي شهرِ كانون الأول/ ديسمبر، ولكن لم يكن لديهِ أدنى فكرة عمَّا يقومُ بهِ ميرثن في أوقاتِ فراغه فهو لا يذهبُ إلى الصيدِ ولا يملكُ حاشيةً ولا يهتم بأمورٍ لمصلحة الملكِ. هل يقضي النهارَ وكلَّ يومٍ في وضعِ رسوماتٍ وفي الإشرافِ على البنائين؟ إنَّ مثلَ هذهِ الحياةِ كفيلةٌ بإثارةِ جنونِ رالف الذي كانَ مذهولاً من المالِ الذي كانَ ميرثن يجنيهِ من أعمالهِ. لقد عانى رالف نفسهُ من ضائقةٍ ماليةٍ حتَّى عندما أصبحَ سيداً على قريةِ تينش، ولكن يبدو أنَّ ميرثن لم يعان يوماً من أيّ ضائقةٍ.

وانتقلَ اهتمامُ رالف إلى إيلا فقال لها معتذراً: «إنَّ شقيقي متجهمٌ بعضَ الشيءِ».

«إنَّه كذلكَ لأنَّه لم ينم مع امرأةٍ منذُ نصفِ عامٍ»، قالت إيلا مقهقهةً ثمَّ

أضافت: «كانَ يُضاجعُ رئيسةَ دير الراهباتِ إلا أنَّها تخلصت منهُ بعدَ وصولِ فيليمون».

تظاهرَ رالف بأنَّه مصدومٌ بهذا الكلامِ وقال: «لا يُفترضُ بالراهباتِ أن يُضاجعنَ».

«إنَّ الأمَّ كاريس امرأةٌ رائعةٌ إلا أنَّها شبقةٌ ويمكنكَ أن تعرفَ هذا من مشيتها».

شعرَ رالف بالإثارةِ لسماعهِ امرأةً تتحدثُ بمثلِ هذهِ الصراحةِ وقال: «من الصعبِ على رجلٍ أن يعيشَ لوقتٍ طويلٍ من دونِ النومِ مع امرأةٍ».

«أعتقدُ هذا أيضاً».

«فهذا يسببُ... تضخماً».

أمالت إيلا رأسها جانباً ورفعت حاجبيها. حدَّقَ رالف إلى حُجرهِ ونظرت إيلا إلى حيثُ نظرَ. «يا إلهي»، قالت له. «يبدو أمراً مزعجاً»، ووضعت يدها على عضوهِ المنتصبِ.

وفي تلكَ اللحظةِ ظهرت فيليبا.

تجمدَ رالف في مكانهِ، وشعرَ بالذنبِ والخوفِ إلا أنَّه أيضاً شعرَ بالغضبِ الشديدِ من نفسهِ لأنَّه اهتمَّ لأمرِ رؤيةِ فيليبا لهُ.

قالت له فيليبا: «سأصعدُ إلى الطابقِ العلوي... أوه!»

لم تكن إيلا قد أبعدت يدها بل كانت تعتصرُ عضوهُ بلطفٍ وهي تنظرُ إلى فيليبا وتبتسمُ في ظفرٍ.

احمرَّ وجهُ فيليبا وارتسمت على وجهها علائم شعورٍ بالخزيِ والقرفِ.

فتحَ رالف فمهُ ليتحدثَ إلا أنَّه لم يجد الكلمات المناسبة. لم يكن مستعداً للاعتذارِ إلى زوجتهِ السليطةِ فقد شعرَ بأنَّها من جلبت على نفسها هذا الإذلال، ولكنه شعرَ بالغباءِ لجلوسهِ هنا مع فتاةِ حاناتٍ لعوب تداعبُ عضوهُ بينما زوجتهُ الكونتيسة واقفة أمامهُ محرجةً.

لم يدم المشهد سوى دقيقة ثمَّ نمَّ عن رالف صوتٌ مخنوقٌ فقهقهت إيلا وقالت فيليبا بغضبٍ وقرفٍ: «أوه!» ثمَّ استدارت وابتعدت برأسٍ مرفوعٍ عالياً جداً. اقتربت من الدرجِ العريضِ وصعدت برشاقةِ غزالٍ يصعدُ هضبةً واختفت من دونِ أن تنظرَ إلى الوراءِ.

شعرَ رالف بالغضبِ والإحراجِ في آنٍ معاً رغمَ أنَّه أقنعَ نفسهُ بأنَّه لم يكن بحاجةٍ إلى الشعورِ بالغضبِ أو بالإحراجِ إلا أنَّ اهتمامهُ بإيلا انحسرَ على الفور وأبعدَ يدها.

«فلتشرب بعضَ النبيذِ»، قالت لهُ وهي تسكب النبيذَ من إبريق على الطاولةِ إلا أنَّ رالف شعرَ ببدايةِ صداعٍ ولهذا أبعدَ الكأسَ الخشبية.

وضعت إيلا يدها على ذراعهِ لمنعهِ من إبعادِ الكأسِ وقالت بصوتٍ واطئٍ ودافئ: «لا تتركني وحدي الآن وبعدَ أن، كما تعلمُ، أثرتني».

أبعدَ يدها ووقفَ.

تجهمت وقالت: «حسناً من الأفضلِ أن تعطيني تعويضاً من نوعٍ ما».

أخرجَ محفظتهُ وأخذَ منها حفنةً من البنساتِ الفضيةِ، ومن دونِ أن ينظرَ إلى إيلا ألقى بالمالِ على الطاولةِ ودونَ أن يهتمَّ بمقدارِ المبلغِ الذي نقدها إياه.

وأخذت إيلا تجمعُ العملاتِ المعدنيةِ على عجلٍ.

غادرَ رالف وصعدَ إلى الطابقِ العلوي.

كانت فيليبا على السريرِ وقد جلست باستقامةٍ وظهرها إلى مسندِ الرأسِ وقد خلعت حذاءيها إلا أنَّها لم تخلع ثيابها. حدَّقت إلى رالف بنظرةٍ اتهاميةٍ وهو يدخلُ إلى الغرفةِ.

قال لها: «لا تملكين الحقَ بالغضبِ مني».

«أنا لستُ غاضبةً»، قالت له. «أنتَ الغاضب».

لطالما كانت ماهرةً في التلاعبِ بالكلماتِ لتبدو على حقٍ دوماً.

وقبلَ أن يفكرَ بجوابٍ قالت له: «ألا تريدني أن أتركك؟»

حدَّقَ إليها مذهولاً. كان هذا آخر ما توقعها أن تقول. «إلى أين ستذهبين؟»

«سأبقى هنا»، قالت له. «أنا لن أصبحَ راهبةً ولكنني أستطيع العيش في الديرِ. سآخذُ معي بعضَ الخدمِ؛ خادمة وموظفاً وكاهن اعتراف. لقد تحدثت إلى الأمِّ كاريس بهذا الأمر وأبدت استعداداً لاستقبالي».

«هذا ما فعلتهُ زوجتي الأولى. ما الذي سيقولهُ الناس؟»

«تعتزلُ الكثيرُ من النبيلات في الأديرةِ في مرحلةٍ ما من حياتهن ويكون هذا إمَّا بشكلٍ مؤقت أو دائم. سيعتقدُ الناسُ أنَّك رفضتني لأنني لم أعد قادرةً على الإنجابِ وهذهِ الحقيقةُ على الأغلبُ. على أيِّ حالٍ أنتَ لا تهتمُ بما يعتقدهُ الناس».

ولوهلةٍ فكرَ بأنَّه سيشعرُ بالأسى على خسارةِ جبري لأوديلا إلا أنَّ فكرةَ التحررِ من كبرياء فيليبا ووجودها الساخطِ كانت مغريةً جداً. «حسناً، ما الذي يوقفكِ؟ لم تطلب مني تبلي الإذنَ أبداً».

«أريدُ أن أزوجَ أوديلا أولاً».

«لمن؟»

ونظرت إليهِ كأنّه شخصٌ غبي.

«أوه»، قال لها. «أفترضُ أنّه الشابُ ديفيد».

«إنَّه مغرمٌ بها وأعتقدُ أنَّهما مناسبان بعضهما لبعض».

«إنَّه قاصرٌ وسيتوجبُ عليه طلبُ إذنٍ من الملكِ».

«ولهذا السببِ أتحدثُ معكَ في هذا الشأن. هلَّا ذهبتَ معهُ إلى الملكِ وساندتهُ في طلبِ الزواجِ؟ إن فعلتَ هذا من أجلي أقسمُ لكَ أنني لن أطلبَ منكَ أيَّ شيءٍ آخر وسأتركُكَ في سلامٍ».

لم تكن تطلبُ منهُ أن يقومَ بأيِّ تضحياتٍ فالتحالفُ مع إيرل مونماوث لن يعودَ عليهِ إلا بالخيرِ. «وستتركين قلعةَ شايرنغ وتنتقلين إلى الديرِ؟»

«أجل وحالما تتزوجُ أوديلا».

وأدركَ رالف أنَّها نهايةُ حُلم، إلا أنَّه حلمٌ كان قد تحولَ إلى واقعٍ مريرٍ وأسود، وربما عليهِ الاعترافُ بالفشلِ والمحاولةُ مجدداً.

«حسناً»، قال لها وهو يشعرُ بمزيجٍ من الندمِ والتحررِ، «اتفقنا».

-77-

في عام 1350 حلَّ عيدُ الفصحِ باكراً وفي ليلةِ الجمعةِ الحزينةِ كان هناكَ نارٌ كبيرةٌ في موقد منزلِ ميرثن وعلى الطاولةِ أطباقُ عشاءٍ باردٍ من سمكٍ مُدخنٍ وجبنٍ طري وخبزٍ طازجٍ وإجاص وإبريقٍ من نبيذ الراين. كان ميرثن في ثيابٍ داخليةٍ نظيفةٍ ورداءٍ أصفر جديدٍ والمنزلُ نظيفٌ وهناك باقةٌ من النرجس في إبريقٍ على طاولةٍ جانبيةٍ.

كان ميرثن وحده فابنتهُ لولا مع الخادمين آرن وإم في كوخهما عندَ نهايةِ الحديقةِ. كانت لولا التي تبلغُ الخامسةَ الآن تحبُّ قضاءَ الليلِ هناكَ واعتادت القول إنَّها ذاهبةٌ في رحلةٍ إلى كوخهما فتأخذُ معها حقيبةَ سفرٍ بداخلها فرشاةُ شعرٍ ولعبتها المفضلة.

فتحَ ميرثن النافذةَ ونظرَ إلى الخارجِ فهبَّ نسيمٌ باردٌ عبرَ النهرِ قادمٌ من المرجِ على الجانبِ الجنوبي. كانت عتمةُ الليلةِ قد بدأت تخفتُ وبدا النور في الخارجِ كأنّه يتساقطُ من السماءِ ويغرقُ في الماءِ ليختفي بعدها في لجةِ ظلامٍ دامسٍ.

تخيَّلَ ميرثن شخصاً يرتدي قلنسوةً يخرجُ من الديرِ. رآه يعبر بشكلٍ منحرف

وغير متوازنٍ حديقةَ الديرِ ويخطو بسرعةٍ متجنباً أضواءَ حانةِ بيل ثمَّ يهبط إلى الطريق الرئيسي الموحلِ. كانَ الوجه متشحاً بالسوادِ ولم يحادث أيّ أحدٍ في الطريق، وتخيلَ ميرثن أنَّ الشخصَ قد وصلَ إلى شاطئ النهرِ، ثمَّ تساءلَ ميرثن في نفسهِ إن كان هذا الشخص يحدقُ إلى كلا جانبي النهرِ المُعتمِ والباردِ ويتذكرُ لحظةَ يأسٍ عظيمةً عاشها فتصاعدت أفكارهُ التدميرية. إن كانَ هذا ما حدث فقد انتهى بسرعةٍ لأنَّ هذا الشخصِ توجهَ إلى طريقِ الجسرِ المرصوف بالحجارةِ ثمَّ عبرَ الجسرَ وتوقفَ مجدداً على جزيرةِ ليبر وهناك انحرفَ عن الطريقِ الرئيسي وتجاوزَ شجيراتٍ قصيرةً ومن ثمَّ سارَ على العشبِ القصيرِ الذي قضت عليهِ الأرانبُ واستدارَ حول بقايا منزلِ المجذومين القديمِ إلى أن وصلَ إلى الشاطئ الجنوبي الغربي للنهرِ ثمَّ طرقَ على بابِ ميرثن.

أغلقَ ميرثن النافذة وانتظرَ ولكنه لم يسمع بعد طرقاً على البابِ. ربما تخيلَ الأحداثَ بوتيرةٍ أسرع مما هي في الحقيقة.

وشعرَ بإغراءِ شُربِ بعضِ النبيذ ولكنه لم يفعل. لقد أصبحَ لديهِ طقسٌ خاصٌ ولم يكن راغباً بتغييرِه الآن.

وأخيراً وبعدَ بضعِ دقائق سمعَ طرقاً على البابِ. فتحَ ميرثن الباب ودخلت إلى المنزلِ مُلقيةً قلنسوتها عن رأسها وعباءتها الرماديةِ الثقيلةَ عن كتفيها.

كانت أطولُ منه بإنشٍ أو أكثر وأكبرُ منهُ ببضعةِ أعوامٍ ووجهها يفيضُ كبرياءً واستعداداً لأن يكون متغطرساً رغمَ أنَّ الابتسامةَ المرسومةَ على الوجهِ الآن تفيضُ دفئاً كالشمسِ. كانت في رداءٍ قرمزيٍ من قماشٍ مدينةِ كينغزبريدج الخاص. احتضنها بذراعيه وضغطَ بجسدهِ على جسدها الشهواني وقبَّلَ فمها الواسعِ. «عزيزتي»، قال ميرثن ثمَّ أضاف: «فيليبا!»

تضاجعا على الأرضيةِ فوراً ومن دونِ أن يخلعا ثيابهما حتّى. كانَ لديه جوعٌ لها وهي أيضاً كانت في توقٍ كبيرٍ إليهِ. فرشَ ميرثن عباءتها على قشِّ الأرضيةِ ورفعت تنورةَ ردائها ثمَّ استلقت. تعلَّقت بهِ كأنّها تغرقُ وساقاها حولَ ساقيهِ وقد أطبقت ذراعيها حولهُ وهي تشدهُ إلى جسدها الطري ووجهها مدفونٌ في عنقهِ.

كانت قد أخبرتهُ أنّها بعدَ هجرها لرالف وانتقالها إلى الديرِ اعتقدت أنَّ ما من أحدٍ سيلمسها أبداً إلى يومِ مماتها عندما تُعدُّ الراهباتُ جسدها للدفنِ. كان كلامها محزناً وكادَ يدفعُ بميرثن إلى البكاءِ عليها.

أمّا من جهتِهِ فقد أحبَّ ميرثن كاريس إلى درجةٍ أنَّ ما من امرأةٍ أخرى أشعلت الشغف في داخلِهِ. بالنسبةِ له ولفيليبا أتى هذا الحبُّ كهديةٍ غير متوقعةٍ، كنبعِ ماءٍ باردٍ دفاقٍ في صحراءَ حارقةٍ، وكلاهما شربَ من هذا النبعِ بنهمٍ كأنّهما على وشكِ الموتِ من العطشِ.

بعد أن انتهيا استلقيا متعانقين قربَ النارِ يلهثان ويستعيدان ذكرى المضاجعة الأولى. انتقلت فيليبا إلى الديرِ ولكن ولأنها امرأةٌ عمليةٌ واجهت صعوبةً في ملء الساعاتِ الطويلةِ التي يُفترضُ بها أن تقضيها في الصلاةِ والتأملِ ولذلك أبدت اهتماماً ببناءِ البرجِ الجديدِ. كانت تستمتعُ بقضاءِ الوقتِ في المكتبةِ إلّا أنّها لم تكن تقرأ طوال اليومِ وقررت الذهابَ إلى ميرثن في سقيفةِ البنائين وعرضَ عليها الأخير مخططاتِهِ، وسرعان ما أخذت تزوره يومياً وتتحدث إليهِ وهو يعمل. أُعجبَ ميرثن بذكائها وقوتها، وفي الجو الحميمي للسقيفةِ تمكنَ من التعرُّفِ على روحها الدافئةِ والكريمةِ الكامنةِ تحتَ ظاهرِ سلوكها المتعجرفِ، واكتشفَ أنّها تملكُ حساً فكاهياً حقيقياً فتعلَّمَ كيف يضحكها. كانت تستجيبُ له بقهقهةٍ قويةٍ ومبحوحةٍ تدفعهُ بطريقةٍ ما إلى التفكيرِ بمضاجعتها، وفي أحدِ الأيامِ أطرت عليهِ قائلةً: «أنتَ رجلٌ لطيفٌ ولا يوجدُ الكثيرُ من أمثالكَ». لامسهُ صدقها وقبَّلها على يدِها. كانت بادرةَ حُبٍ تستطيعُ رفضها إن رغبت ومن دونِ إثارةِ أي متاعبٍ وسيعلمُ وقتها أنّه تجاوزَ حدَّه قليلاً، ولكنها لم ترفضهُ بل على العكسِ أمسكت بيدِهِ ونظرت إليهِ بشيءٍ من الحبِ في عينيها ثمَّ أحاطها بذراعيهِ وقبَّلها على شفتيها.

تضاجعا على فراشِ القشِّ في السقيفةِ ولم يتذكّرْ إلا في وقتٍ لاحقٍ أنَّ كاريس من شجعهُ على وضعِ الفراشِ هناك وقالت مازحةً إنَّ البنائين قد يحتاجونها من أجلِ معداتهم.

باستثناءِ خادمةِ فيليبا وآرن وإم لم تعرف كاريس ولا أحدٌ آخر بأمرهِ وأمر فيليبا. كانت فيليبا تخلدُ للنومِ في غرفةٍ خاصةٍ بها في الطابقِ العلوي فوقَ المستشفى وحالما يهبطُ الليل وتتوجه الراهبات إلى المهجعِ ويغطُّ الجميعُ في النومِ تتوجهُ فيليبا إلى الدرجِ الخارجي المخصص للضيوفِ المهمين ليخرجوا ويدخلوا من دونِ المرورِ ببيوتِ عامةِ الناسِ. كانت تعودُ من الطريقِ ذاته عندَ الفجرِ والراهباتُ ينشدن في صلاةِ الفجرِ ثمَّ تجلسُ لتناول الفطورِ كأنّها كانت في غرفتها طوال الليلِ.

تفاجأ ميرثن من أنّه استطاعَ الوقوع في غرامِ امرأةٍ أخرى في أقل من عامٍ على تركِ كاريس له وللأبدِ. بالتأكيد لم ينسَ كاريس بل على العكسِ كانَ يفكرُ بها كلَّ يومٍ، وكان يشعرُ بالحاجةِ إلى إخبارها بأمورٍ ممتعةٍ حدثت أو أخذِ رأيها في قضيةٍ شائكةٍ أو يجدُ نفسهُ يقومُ بأمرٍ ما بالطريقة التي قد ترغبُ بها كأن يمسحَ ركبةَ لولا المخدوشةَ بنبيذٍ دافئٍ. كان يراها في معظمِ الأيامِ فالعملُ على المستشفى يكادُ ينتهي والعملُ على البرجِ الجديدِ بالكادِ قد بدأ وقد تابعت كاريس العملَ على كلا المشروعين. كان الدير قد خسرَ الكثيرَ من قوتهِ في التحكمِ بتجارِ المدينةِ إلا أنَّ كاريس كانت مهتمةً بعملِ ميرثن وما كانت النقابة تقومُ بهِ في بناءِ مؤسساتِ كينغزبريدج الإدارية كبناءِ الدور الجديدةِ والتخطيط لسوقِ الصوفِ وتشجيع النقابات الحرفيةِ على سنِّ معايير ونُظم. ولكن التفكيرَ بكاريس تركَ في داخلهِ تأثيراً مزعجاً كالطعمِ المرِّ الذي تتركهُ جعةٌ فاسدةٌ في حلقهِ. أحبَّها حقاً وهي أحبَّته أيضاً ولكنها رفضتهُ. كان الأمرُ أشبه بذكرى يومٍ جميلٍ انتهى بشجارٍ.

«هل تعتقدين أنني أنجذبُ بشكلٍ خاصٍ إلى النساءِ غير الحُرَّات؟» سألَ ميرثن فيليبا بخمولٍ.

«لا، لماذا تسأل؟»

«بعدَ قضاءِ اثني عشرَ عاماً في حُبِّ راهبةٍ وتسعة أشهرٍ من دونِ علاقةٍ والوقوعِ في حبِ زوجةِ أخي يبدو لي الأمرُ غريباً».

«لا تناديني بهذا الاسمِ»، قالت على عجل. «لم يكن هذا زواجاً فأنا أُجبرت على الزواجِ بشقيقك. لم أشاركهُ السرير سوى لأيامٍ وسيكون بمنتهى السعادةِ إن لم يرَني مجدداً».

ربَّتَ على كتفها معتذراً ثمَّ قال: «ولكن علينا أن نحافظَ على السريةِ كما كنتُ أفعلُ مع كاريس». ما لم يقلهُ صراحةً هو أنَّه يحقُّ لأي رجلٍ بالقانونِ أن يقتلَ زوجتهَ إن ضبطها تخونهُ. لم يسمعُ ميرثن عن أيِّ حادثةٍ من هذا النوعِ، وبكلِّ تأكيدٍ لم يسمع بحدوثها في أوساطِ النبلاءِ، ولكن كبرياء رالف سريعةُ العطب، ويعرف ميرثن هذا لأنَّ رالف من قتلَ زوجتهُ الأولى تيلي وقد أخبرَ فيليبا بهذا.

قالت فيليبا: «أحبَّ والدكَ والدتكَ لوقتٍ طويلٍ وبلا أملٍ، أليسَ هذا صحيحاً؟»

«أجل!» كان ميرثن قد نسي هذهِ القصة القديمة.

«وأنتَ وقعتَ في غرامِ راهبةٍ».

«وقضى شقيقي سنواتٍ يتوقُ إليكِ، إلى الزوجةِ النبيلةِ والزواج السعيد. وكما يقولُ الكهنةُ إنَّ الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون، ولكن كفى حديثاً عن هذا. هل تريدين بعضَ الطعامِ؟»

«بعدَ قليل».

«هل هناكَ ما تريدين القيامَ بهِ أولاً؟»

«أنتَ تعلمُ ما هو».

وعلمَ ميرثن ما أرادتهُ فركعَ بينَ ساقيها وقبّل بطنها وفخذيها. كانت لديها سمةٌ غريبةٌ وهي أنّها رغبت دوماً بالانتشاء مرتين. بدأ بمداعبتها بلسانهِ وأخذت تئنُّ وتضغطُ على رأسهِ من الخلفِ. «أجل»، قالت له ثمَّ أضافت: «أنت تعرفُ أنني أحبُّ هذا بخاصَّةٍ بعدَ أن تزرع بذوركَ في داخلي».

أمالَ رأسهُ وقالَ: «أجل»، ثمَّ انحنى مجدداً لمتابعةِ عملهِ.

***

جاءَ الربيعُ وتراجعَ معهُ مدُّ الطاعونِ، ورغمَ أنَّ حالاتِ الموتِ لم تتوقف فإنَّ أعداد المصابين تراجعت. في يومِ الأحد الذي يصادف عيدَ الفصحِ أعلنَ الأسقفُ هنري أنَّ سوقَ الصوفِ سيُفتتَحُ هذا العامِ وفي وقتهِ المعتاد.

خلالَ مراسمِ عيد الفصحِ قدَّمَ ستةُ رهبانٍ مستجدون نذورهم وأصبحوا رهباناً بشكلٍ رسمي. كانت فترةُ تدربهم قصيرةً ولكن هنري كانَ حريصاً على زيادةِ أعدادِ الرهبانِ في كينغزبريدج، وقد قالَ إنَّ الأمرَ عينهُ يحدثُ في جميعِ أرجاءِ البلدِ. وإضافة إلى هذا رُسمَ خمسة كهنةٍ وقد استفادوا من فترةِ التدريبِ السريعةِ ثمَّ أُرسلوا كبدلاء عن الكهنةِ الذين كانوا ضحايا الطاعون في مناطقَ مجاورةٍ، وقدم راهبان أصلهما من كينغزبريدج من الجامعةِ بعدَ أن حصلا على شهادتيهما كطبيبين بعد دراسةٍ دامت لثلاثةِ أعوامٍ بدلاً الأعوام الخمسةِ أو السبعةِ المتعارف عليها.

كان الطبيبان الجديدان يدعيان أوستن وسايم، ولم تتذكرهما كاريس جيداً لأنّها كانت المسؤولةَ عن استقبالِ النزلاءِ في مستشفى الديرِ عندما غادرا إلى كُليةِ كينغزبريدج في جامعةِ أوكسفورد منذُ ثلاثةِ أعوامٍ. بعدَ ظهرِ يومِ الإثنين في عيدِ الفصحِ أخذتهما كاريس في جولةٍ في المستشفى الجديدِ شبهِ المنتهي والخالي من العمال فقد كان اليومُ عطلةً.

بدا الطبيبان متعاليين وواثقين من نفسيهما جداً، وتبين لكاريس أنَّ الجامعةَ تغرس في خريجيها هاتين السمتين مع تدريسها للنظرياتِ الطبيةِ وتعزيز الحب لنبيذِ غاسكون، ولكن سنوات الخبرةِ مع المرضى منحت كاريس ثقةً بنفسها أيضاً ولهذا أخذت تصفُ مرافقَ المستشفى وخطتها لإدارةِ المكانِ بثقةٍ قويةٍ.

كان أوستن شاباً نحيلاً وموتوراً بشعرٍ أشقرَ خفيفٍ، وقد ذُهلَ من التصميم المبدع للغرفِ التي أخذت شكلَ الممراتِ المسقوفةِ، أمَّا سايم فقد كانَ أكبرَ عمراً بقليلٍ وبوجهٍ مدورٍ ولم يبدِ اهتماماً بالتعلمِ من تجربةِ كاريس التي لاحظت أنَّه يشيحُ بنظرهِ عندما تتكلم.

«أعتقدُ أنَّ المستشفى يجبُ أن يكونَ نظيفاً على الدوامِ»، قالت كاريس.

«على أيِّ أساسٍ؟» استفسرَ سايم بلهجةٍ متعاليةٍ كأنَّه يسألُ طفلةً صغيرةً عن سببِ ضربها لدميتها.

«النظافةُ فضيلةٌ».

«آه، إذاً هذا لا علاقة له بتوازن الأخلاط في الجسدِ».

«ليسَ لدي أدنى فكرة فنحنُ لا نهتمُ كثيراً بأمرِ الأخلاط لفشلهِ الكبير في مواجهةِ الطاعونِ».

«ونجحت الأرضيات النظيفةُ؟»

«لقد ساهمت الأرضيةُ النظيفةُ في رفعِ معنوياتِ المرضى على الأقلِّ».

وتدخلَ أوستن هنا قائلاً: «عليكَ أن تُقر يا سايم أنَّ بعضَ المعلمين في أوكسفورد يشاركون الأم رئيسةَ الديرِ أفكارها الجديدة».

«إنَّهم مجموعةٌ صغيرةٌ من المهرطقين».

قالت كاريس: «إنَّ الهدفَ الأساسي من هذا هو فصلُ أولئكَ المرضى الذين يعانون من أمراضٍ قد تنتقل من شخصٍ مريضٍ إلى آخر سليمٍ وعزلهم عن البقيةِ».

«وما الغرضُ من هذا؟»

«الحدُّ من انتشارِ مثلِ هذهِ الأمراض».

«وكيف تنتقلُ هذهِ الأمراض؟»

«لا أحد يعلم».

ارتسمت على شفتي سايم ابتسامةُ ظفرٍ صغيرة ثمَّ قال: « إذاً، كيفَ لكِ أن تعرفي طُرقَ الحدِّ من انتشارها إن سمحتِ لي بالسؤالِ؟»

اعتقدَ سايم أنَّه نجحَ في جرّها إلى جدالٍ فقد كان هذا أهمُّ تكتيكٍ تعلموه

في أوكسفورد ولكنها كانت أذكى منهُ. «من خبرتي»، قالت كاريس له وأضافت: «إنّ الراعي لا يفهم المعجزةَ التي تجعلُ الحملان تنمو في أرحامِ النعاجِ ولكنه يعلمُ أنَّ هذهِ المعجزة لن تتحققَ إن أبقى الكبشَ خارجَ الحقلِ».

«أها».

كرهت كاريس الطريقةَ التي تلفظَ بها بـهذهِ الـ «أها». كان ذكياً ولكن ذكاءهُ لا علاقة له بالعالمِ الحقيقي، وذُهلت من التناقضِ بينَ هذا النوعِ من الذكاءِ وذكاءِ ميرثن. كانت معرفةُ ميرثن واسعةً وقوة عقلِهِ على فهمِ تعقيداتِ الأمرِ مذهلةً إلا أنَّ حكمتهُ لم تكن بعيدةً عن حقائقِ العالمِ المادي؛ فهو يعلمُ أنّه إن اقترفَ أي خطأ سينهارُ مبناه، وكان والدها إدموند مثلهُ تماماً: شخصاً ذكياً ولكنه عملي. أمّا سايم فقد كانَ أشبهَ بغودوين وأنتوني المتشبثين بإيمانهما بأخلاط الجسدِ سواء شفي المرضى أم توفوا.

ابتسمَ أوستن ابتسامةً عريضةً وقال: «لقد أوقعت بكَ يا سايم»، قال أوستن وقد بدا مستمتعاً بتغلبِ امرأةٍ جاهلةٍ على صديقهِ المتعالي. «قد لا نعلمُ تماماً كيفيةَ انتشارِ المرضِ ولكن فصلَ المرضى عن الأصحاءِ لن يسببَ أيَّ أذى».

قاطعت أمينةُ خزنة ديرِ الراهباتِ الأختُ جوان حديثهم قائلةً: «يطلبُ وكيلُ قريةِ أوثنباي رؤيتكِ أيتها الأمُّ كاريس».

«هل أحضرَ قطيعاً من العجولِ الصغيرةِ؟» سألتها كاريس فقد كان على قريةِ أوثنباي تقديم اثني عشرَ عجلاً بعمرِ العامِ لدير الراهبات كلَّ عيدِ فصحٍ.

«أجل».

«ضعي الحيوانات في الزريبةِ واطلبي من الوكيلِ أن يوافيني إلى هنا من فضلكِ».

طلبَ كل من سايم وأوستن الإذنَ بالمغادرةِ وتوجهت كاريس لتفقدِ الأرضيةِ المرصوفة في الحماماتِ، وعثرَ عليها الوكيلُ هاري بلاومان هناك. كانت كاريس قد طردت الوكيل القديم بسببِ بطئهِ في الاستجابةِ للتغييرِ وقامت بترقيةِ أذكى شابٍ في القريةِ إلى منصبِ الوكيل.

صافحها في بادرةِ ودٍ غير ضرورية إلا أنَّ كاريس كانت تستلطفهُ ولم تُمانع.

قالت له: «لا بدَّ أن قيادةَ قطيعٍ إلى هنا أمرٌ مزعجٌ خاصّة الآن خلالَ الفلاحةِ الربيعيةِ».

«إنّها كذلك»، قالَ هاري الذي كانَ كمعظمِ من يحرثون الأراضي بكتفين

عريضتين وساعدين قويين. تتطلبُ قيادةُ ثمانية ثيرانٍ معاً خلفَ محراثٍ ثقيلٍ يخترقُ التربةَ الطينية قوةً ومهارةً، كانت له سيماءُ الصَّحةِ التامةِ كالتي يملكها من يقضون وقتاً طويلاً في الحقولِ.

«ألن يكون الدفعُ بالمال أفضل لكَ؟» قالت كاريس. «بات السادة يأخذون معظمَ الأجورِ بالأموال هذهِ الأيام».

«حتماً سيكونُ مريحاً أكثر»، قال ونظرَ في دهاءٍ لطيفٍ ثمَّ قالَ: «كم المبلغُ؟»

«عادةً، يتراوحُ سعرُ العجلِ البالغِ عاماً واحداً بين العشرةِ إلى الاثني عشرَ شلناً رغمَ أنَّ الأسعار تراجعت هذا الموسم».

«إنَّها كذلكَ وقد تراجعت حتَّى النصف. يمكنكِ الآن شراء اثني عشرَ عجلاً بثلاثةِ جنيهاتٍ».

«أو ستة جنيهات في الأعوامِ الجيدةِ».

ابتسمَ وبدا مستمتعاً بالتفاوضِ وقال: «وهذهِ هي المشكلة».

«ولكنكَ تفضل الدفعَ نقداً».

«إن اتفقنا على المبلغ».

«فلنقل إنَّها ثمانية شلنات للعجلِ».

«ولكن إن كانَ سعرُ العجلِ خمسةَ شلناتٍ فقط فمن أين لنا، نحن القرويين، أن نحصلَ على المال الإضافي».

«دعني أخبركَ بأمرٍ، في المستقبلِ يُمكنُ لقريةِ أوثنباي أن تدفعَ لديرِ الراهباتِ خمسةَ جنيهاتٍ أو اثني عشرَ عجلاً. الخيار لكم».

أخذَ هاري يفكرُ في أيِّ عقباتٍ خفيةٍ في هذا العرض إلا أنَّه لم يجد شيئاً ثمَّ قال: «حسناً، هلَّا صادقنا على اتفاقنا؟»

«وكيفَ لنا أن نفعلَ هذا؟»

ولدهشتها قبَّلها على فمها.

أمسكَ بيديهِ الخشنتين كتفيها الناحلتين وأحنى رأسهُ ثمَّ وضعَ شفتيهِ على شفتيها. لو أنَّ الأخَ سايم فعلَ هذا لكانت تراجعت إلى الوراء إلا أنَّ هاري كان مختلفاً، وربما ما أثارها فيه سيماءُ الرجولةِ القويةِ التي كانَ يمتلكها. أيَّا يكن السببُ فقد استسلمت كاريس وسمحت له بأن يشدَّ جسدها المستسلمَ إلى جسدهِ وحرَّكت شفتيها مع شفتيهِ فضغطَ بجسدهِ على جسدها حتَّى تشعرَ

بانتصابِ عضوهِ، وأدركت أنَّه على استعدادٍ لمضاجعتها بكل سعادةٍ على أرضيةِ المرحاضِ المرصوفةِ حديثاً، وأعادتها هذهِ الفكرةُ إلى رشدها فأنهت القبلةَ ودفعتهُ بعيداً عنها قائلةً: «توقف، ما الذي تعتقدُ أنكَ فاعل؟»

لم يبدُ عليهِ الارتباك وأجابها: «أقبلكِ يا عزيزتي».

وأدركت أنَّها كانت أمامَ مشكلةٍ. لا شكَّ أنَّ الأحاديثَ حولها وحولَ ميرثن قد انتشرت فقد كانا على الأغلبِ أكثر شخصين معروفين في مقاطعةِ شايرنغ، ورغمَ أنَّ هاري لم يكن يعرفُ الحقيقةَ إلا أنَّ الإشاعات كانت كفيلةً بجعلهِ يتجرأ على القيامِ بهذا. إنَّ مثلَ هذا الأمر كفيلٌ بتقويضِ سلطتها لذلكَ قررت إنهاءَ الأمر الآن.

«لا يجبُ أن تكررَ هذا مجدداً»، قالت له بلهجةٍ قاسيةٍ قدرَ الإمكان.

«بدوتِ مستمتعةً بالقبلةِ!»

«إذاً، خطيئتكَ أكبرُ من خطيئتي فقد أغويتَ امرأةً ضعيفةً وجعلتها تحنث بنذورها المقدسة».

«ولكني أحبكِ».

وأدركت كاريس أنَّه كان يقولُ الحقيقةَ وعرفت السببَ. لقد دخلت إلى القريةِ وأعادت تنظيمَ كل شيء وأجبرت الفلاحين على الخضوعِ لإرادتها ثمَّ رأت إمكانيات هاري وقامت بترقيتهِ ورفعِ مكانتهِ فوقَ البقيةِ. لا بدَّ أنَّه يراها كإلهةٍ ولم يكن وقوعهُ في حبها أمراً مفاجئاً، ولكن من الأفضلِ أن يتخلصَ من هذا الحبِ بأسرعِ ما يمكن.

«إن تحدَّثتَ معي بهذهِ الطريقةِ مجدداً سأقومُ بتعيين وكيلٍ جديدٍ لقريةِ أوثنباي».

«أوه»، قال لها، ورأت أنَّ هذهِ الحجةَ نجحَت في ردعهِ أكثر مما فعلت تهمةُ الخطيئةِ.

«والآن عُد إلى القريةِ».

«حسناً أيتها الأمُّ كاريس».

«ولتجد لنفسكَ امرأةً أخرى، ومن الأفضلِ ألا تكون قد أخذت نذرَ التبتلِ».

«حسناً»، قالَ لها ولكنها لم تصدقهُ.

غادرَ هاري إلا أنَّ كاريس بقيت في مكانها يمزقها القلقُ والشبقُ، ولو أن هناك ما يضمن لها عدمَ دخولِ أحدٍ الآن لقامت بالاستمناءِ. كانت هذهِ المرة

الأولى منذُ تسعةِ أشهرٍ التي تراودها فيها الرغبةُ الجسديةُ. بعدَ انفصالها النهائي عن ميرثن دخلت في حالةٍ شبيهةٍ بحالةِ الإخصاءِ ولم تفكّر بالجنسِ قط، وقد منحتها علاقتها بالراهباتِ الدفءَ والحب. كانت مغرمةً بالراهبتينِ جوان وأوناغ رغمَ أنّها لم تحبهما بالطريقةِ الجسديةِ التي أحبتها بها مير إلا أنَّ قلبها امتلأ بحبٍ آخر وهو المستشفى الجديد والبرج وإعادة بناءِ المدينةِ.

وعندما فكرت بالبرجِ غادرت المستشفى وعبرت حديقةَ الكاتدرائيةِ. كانَ ميرثن قد حفرَ خارجَ الكنيسةِ حولَ أساساتِ البرجِ القديمةِ أربعَ حفرٍ هائلة وعلى عمقٍ لم يشهدهُ أحدٌ من قبل، وبنى روافع كبيرة لرفعِ الترابِ. وخلالَ الأشهر الخريفيةِ الرطبةِ عملت عرباتٌ تجرها ثيران على نقلِ التراب عبرِ الشارعِ الرئيسي إلى القسم الأول من الجسرِ وأفرغت التراب على جزيرةٍ ليبر الصخريةِ، وعلى الجزيرةِ قاموا بتحميلِ أحجارِ البناءِ من رصيفِ الميناءِ الذي بناه ميرثن ثمَّ عادوا من نفسِ الطريقِ وأفرغوا الحجارة على أراضي الكنيسةِ في أكوامٍ.

وحالما انتهى الصقيع الشتوي بدأ البناؤون بالعملِ على وضعِ الأساساتِ. توجهت كاريس إلى الطرفِ الشمالي من الكاتدرائيةِ ونظرت إلى الحفرةِ في الزاويةِ بينَ الجدارِ الخارجي لصحنِ الكنيسةِ والجدارِ الخارجي لجناحِ الكنيسةِ الشمالي. كانت الحفرةُ عميقةً جداً إلى درجةٍ تبعثُ على الدوارِ وقد غُطّي القاعُ بحجارةٍ مربعةٍ مرصوفةٍ في خطوطٍ مستقيمةٍ وطبقاتٍ رقيقةٍ من الملاطِ، ولأنَّ الأساساتِ القديمةَ لم تكن مناسبةً للبرجِ الجديدِ لهذا كانَ بناء أساساتٍ جديدةٍ ومستقلةٍ للبرجِ الجديدِ أمراً ضرورياً. سيرتفعُ البرجُ بينَ الجدران الحاليةِ للكنيسةِ ولهذا لن تكون هناكَ أيّ ضرورةٍ لمتابعةِ عملِ إلفريك وهدمِ الأجزاءِ العليا من البرجِ القديمِ، وعندما ينتهي العمل على البرجِ الجديد سيتمكن ميرثن من إزالةِ السقفِ المؤقتِ الذي بناه إلفريك فوقَ المعبر داخل الكنيسةِ. كانَ هذا تصميماً نمطياً من تصاميم ميرثن؛ تصميماً بسيطاً ولكنه راديكالي ويقدّمُ حلاً مذهلاً لمشاكلِ الموقعِ الخاصةِ.

كما لم يكن هناكَ عمالٌ في المستشفى اليوم لم يكن هناكَ عمالٌ في موقعِ بناءِ البرجِ أيضاً، ولكنها رأت حركةً وأدركت أنَّ شخصاً ما يتجولُ حول الأساساتِ، وبعدَ برهةٍ رأت ميرثن. توجهت إلى أحد السلالم التي يستخدمها البناؤون والمصنوعة من الحبالِ والأغصانِ. تفاجأت برخاوتهِ ونزلت والسلّمُ يهتزّ.

كانت سعيدةً بالوصولِ إلى قاعِ الحفرةِ وساعدها ميرثن على النزولِ عن السلمِ وهو يبتسمُ: «تبدين شاحبةً بعضَ الشيء»، قالَ لها.

«كان الطريقُ لأسفلِ الحفرةِ طويلاً. كيف تسيرُ الأمورُ؟»

«بشكلٍ جيدٍ ولكن قد يطول لسنواتٍ عديدةٍ».

«لماذا؟ يبدو بناءُ المستشفى أكثر تعقيداً وقد انتهيت من العملِ عليهِ».

«هذا يعودُ لسببين. كلما كانَ البناءُ أعلى سيقلُّ عدد البنائين القادرين على العملِ عليهِ. ولدي الآن اثنا عشرَ رجلاً يرصفون الأساساتِ، ولكن عندما يرتفعُ سيضيقُ ولن يكون هناكَ مساحة كافية ليعملوا جميعاً. أمَّا السبب الآخر فهو أنَّ الملاط يأخذُ وقتاً طويلاً ليستقر، ويجبُ أن ندعهُ يقسو خلالَ الشتاء قبلَ أن نضغطَ عليهِ بمزيدٍ من الوزن».

بالكادِ كانت كاريس تصغي إليهِ فقد كانت تراقبُ وجههُ وتتذكرُ ممارسةَ الحبِّ معهُ في قصرِ رئيسِ الدير بينَ صلاةِ الفجرِ والصبحِ وشعاع ضوءِ النهار يتسللُ من النافذةِ المفتوحةِ ويسقطُ على جسديهما العاريين كأنّه يباركهما.

ربتت على ذراعهِ وقالت: «حسناً، إن العملَ على المستشفى لن يأخذ وقتاً طويلاً».

«يمكنكِ الانتقالُ إليهِ بحلولِ عيد العُنصرةِ».

«يسعدني هذا رغمَ أنَّ الوباء ينحسرُ وأعدادُ الموتى تتراجع».

«الشكرُ للرَّبِّ»، قالَ بحماسٍ. «وقد يكون انحسارهُ بلا رجعة».

هزَّت رأسها بكآبةٍ وقالت: «اعتقدنا قبلاً أنَّ الوباءَ ينحسر، أتتذكرُ؟ في مثلِ هذا الوقتِ من العامِ الماضي، ولكنهُ عادَ ليضربَ بشكلٍ أقوى وأسوأ».

«لا سمحَ الرَّب».

لامست خدَّه بباطنِ يدها وتحسست لحيتهُ الخشنةُ ثمَّ قالت: «أنتَ بأمانٍ على الأقلِ».

بدا متضايقاً بعضَ الشيء وقال لها: «حالما ينتهي العملُ على المستشفى يمكننا بدءُ العملِ على سوقِ الصوفِ».

«آمل أن تكونَ على صوابٍ حيالَ اعتقادكَ بضرورةِ معاودةِ الأعمالِ قريباً».

«إن لم نفعل هذا سنموتُ بكلِّ الأحوالِ».

«لا تقل هذا»، قالت وقبّلتهُ على خدهِ.

«يجبُ أن نتصرف كأننا سنستمرُ في الحياةِ»، قال بضيقٍ كأنّها أزعجتهُ.
«ولكن الحقيقةَ هي أننا لا نعرفُ إن كنا سنعيش».

«دعنا لا نفكرُ بالأسوأ»، قالت وأحاطت خصرهُ بذراعها ثمَّ عانقتهُ وضغطت بصدرها على جسدهِ النحيلِ إلى أن شعرت بعظامهِ القاسيةِ على جسدها اللدنِ.

أبعدها بحركةٍ عنيفةٍ فترنحت إلى الوراءِ وكادت تقع.

«لا تفعلي هذا!» صرخَ بها.

صُدمت بما فعلهُ كأنّها تلقّت صفعةً منهُ. «ما الأمر؟»

«توقفي عن لمسي!»

«أنا فقط...»

«لا تفعلي هذا! لقد أنهيتِ علاقتنا منذُ تسعةِ أشهر. أخبرتكِ أنَّها ستكون المرة الأخيرة وقد عنيتُ ما قلتهُ».

لم تتفهم غضبهُ وقالت له: «ولكني كنتُ أعانقكَ فقط».

«حسناً، لا تفعلي. أنا لستُ حبيبك ولا تملكين الحقّ».

«أنا لا أملكُ الحقَ بلمسكَ؟»

«لا!»

«لم أعتقدُ أنني بحاجةٍ إلى إذن».

«بالطبعِ كنتِ تعلمين فأنتِ لا تسمحين لأحدٍ بلمسكِ من دونِ إذنٍ».

«أنتَ لستَ كبقيةِ الناسِ، ونحن لسنا غرباء». ولكنها حالما انتهت من قولِ هذهِ الكلماتِ علمت أنَّها كانت مخطئة وأنّه على صوابٍ. لقد رفضتهُ إلا أنَّها لم تتقبل تبعاتِ رفضها. لقد أشعلَ لقاؤها بهاري بلاومان من أوثنباي شبقها وها هي قد أتت إلى ميرثن لتفرّغ شهوتها. لقد أقنعت نفسها بأنَّها تلمسهُ بدافعِ محبةِ صديقةٍ إلا أنَّ هذا مجرد ذريعة. لقد عاملتهُ كأنّه ما زال متاحاً، كسيدةٍ غنيةٍ وضجرةٍ تضعُ كتاباً ثمَّ تلتقطهُ مجدداً. لقد حرمتهُ من الحقِ بلمسها طوالَ هذا الوقتِ، وقد أخطأت بمحاولةِ ممارسةِ مثلِ هذا الامتياز لأنَّ فلاحاً شاباً مفتولَ العضلات قبّلها.

ولكنها توقعت أنَّ يوضح لها ميرثن هذا الوضعَ بطريقةٍ لطيفةٍ وحنونةٍ لا أن يتصرف بعدائيةٍ وعنفٍ. هل خسرت صداقتهُ وحبّهُ؟ وانحدرت الدموع من عينيها ثمَّ أشاحت بنظرها بعيداً عنهُ وباتجاهِ السلمِ.

وجدت تسلُّقَ السلمِ صعباً ومُتعباً بخاصةٍ أنَّها كانت تشعر بأنَّها فقدت طاقتها. توقفت لترتاح ونظرت إلى الأسفل ورأت ميرثن واقفاً على آخر عتبةٍ من السُلمِ مُثبتاً إياه بوزنِه.

عندما شارفت على الوصول إلى الأعلى نظرت إلى الأسفلِ مجدداً ورأت أنَّه ما زال في مكانه، وفكرت في تلك اللحظةِ في أنَّ تعاستها ستنتهي إن سقطت، ستكونُ سقطةً طويلةً على الحجارةِ القاسيةِ وستموتُ على الفورِ.

ويبدو أن ميرثن استشعرَ ما جالَ في عقلها لأنَّه لوحَ لها في ضيقٍ كي تسرعَ إلى الأعلى، ثمَّ فكرت بأنَّ انتحارها سيُحطمهُ، ولوهلةٍ استمتعت بتخيلِ تعاستهِ وشعورهِ بالذنبِ. كانت واثقةً من أنَّ الرَّبَّ لن يعاقبها في الآخرةِ إن كانَ هناك آخرة أصلاً.

تابعت التسلق إلى أن وصلت إلى السلالم الأخيرةِ ووقفت على أرضٍ صلبةٍ. كم كانت غبيةً! لا يمكنها أن تُنهي حياتها فما زالَ لديها الكثير لتقومَ بهِ.

عادت إلى الديرِ من أجلِ صلاةِ العصرِ وقادت طابورَ الراهباتِ إلى الكاتدرائيةِ. عندما كانت راهبةً مبتدئةً كرهت كثيراً إضاعةَ الوقتِ في تأديةِ المراسمِ. في الحقيقةِ اعتادت الأم سيسيليا تكليفها بأعمالٍ معظمَ الوقتِ كي لا تضطرَ إلى حضورِ هذهِ المراسمِ إلَّا أنَّها الآن باتت ترحبُ بأيِّ فرصةٍ تتيح لها أخذَ قسطٍ من الراحةِ والتفكيرِ.

وقررت في نفسها أنَّها ستتعافى من لحظةِ الضعفِ التي مرَّت بها عصرَ اليومِ، إلا أنَّها وجدت نفسها تكبحُ دموعاً وهي تغني المزامير.

تناولت الراهبات على العشاءِ سمكَ الحنكليس المدخن وكان لحمه مطاطياً وذا نكهةٍ قويةٍ. لم يكن طبقَ كاريس المفضل ولكنها لم تكن جائعةً الليلةَ، ولذلك تناولت بعضَ الخبزِ.

بعدَ العشاءِ توجهت إلى الصيدليةِ. كان هناكَ راهبتان مبتدئتان تنسخان كتابَ كاريس الذي أنهتهُ بعدَ عيدِ الميلادِ. طلبَ منها العديدُ من الناسِ نُسخاً عن الكتاب وكانوا عطارين ورئيسات أديرةٍ وحلاقين وطبيباً أو طبيبين. أصبحَ نسخُ الكتابِ جزءاً من عمليةِ تدريبِ الراهباتِ المبتدئاتِ اللواتي يُردنَ العملَ في المستشفى، وكانت النسخُ رخيصةً فالكتابُ قصيرٌ ولم يكن هناكَ الكثيرُ من الرسومات التوضيحيةِ ولم يُكتب بحبرٍ باهظٍ، وبدا لكاريس أنَّ الطلبَ عليهِ لن ينتهي.

كان وجودُ ثلاثةِ أشخاصٍ في الغرفةِ يجعلها تبدو مكتظةً ولذلك تطلعت كاريس إلى الانتقالِ إلى الصيدليةِ في المستشفى الجديد حيث المساحةُ أكبر والإنارة أقوى.

كانت تريدُ البقاء وحيدةً ولهذا صرفت الراهبتين، ولكن يبدو أنّه لم يكن مقدراً لها الحصول على ما تتمناه فبعدَ بضعِ دقائق دخلت الليدي فيليبا.

لم تشعر كاريس أبداً بالودِّ نحو الكونتيسة المتحفظةِ إلا أنّها كانت تتعاطف معها بسبب ما حلَّ بها وكانت سعيدةً بتقديمِ ملاذٍ إلى امرأةٍ هاربةٍ من زوجٍ كرالف. كانت فيليبا ضيفةً خفيفةً ولم تكن متطلبةً، وتقضي الكثيرَ من وقتها في غرفتها. كان اهتمامها بمشاركةِ الراهباتِ حياتهن القائمة على الصلواتِ وإنكارِ النفسِ محدوداً، ولكن كاريس، ومن بينِ جميعِ الناسِ، تفهمت هذا.

دعتها كاريس إلى الجلوسِ على المقعدِ.

على الرغمِ من أنَّ فيليبا مدربةٌ على آدابِ البلاطِ فإنَّها كانت امرأةً واضحةً بشكلٍ لافتٍ، ومن دونِ مقدماتٍ قالت لكاريس: «أريدكِ أن تتركي ميرثن وشأنهُ».

«ماذا؟» قالت كاريس مذهولةً ومستاءةً.

«بالطبعِ أنتِ مضطرةٌ للحديثِ معهُ، ولكن لا يجبُ عليكِ أن تقبليهِ أو تلمسيه».

«كيفَ تجرئين؟» وتساءلت كاريس في نفسها عما تعلمهُ فيليبا وعن سببِ اهتمامها.

«لم يعد حبيبكِ ولذلكَ توقفي عن إزعاجهِ».

لا بدَّ أنَّ ميرثن أخبرها عن شجارها عصرَ هذا اليومِ فقالت لها: «ولكن لم قد يخبركِ....» وقبلَ أن تنتهي من طرحِ السؤال تكهنت بالإجابةِ.

وأكدت لها فيليبا صحةَ استنتاجها بقولها: «لم يعد ملككِ، إنَّه مُلكي الآن».

«يا إلهي!» قالت كاريس مذهولةً. «أنتِ وميرثن؟»

«أجل».

«هل أنتما... هل قمتما...»

«أجل».

«لم يكن لدي أدنى فكرة!» وشعرت بأنَّها خُدعت رغمَ علمها أنَّها لم

تملك حقَّ الشعورِ بهذا. وتساءلت في نفسها أنى حدثَ هذا. «ولكن كيف... وأين...؟»

«لا حاجةَ لكِ بمعرفةِ التفاصيلِ».

«بالطبعِ لا» قالت كاريس وقد تكهنت بأنَّ الأمرَ حدثَ في منزلهِ على جزيرةِ لير ليلاً على الأغلب. «منذُ متى...؟»

«لا يهم».

وفهمت كاريس لأنَّه لم يمضِ على وجودِ فيليبا هنا سوى أقل من شهرٍ.

«لقد تحركت بسرعةٍ»، قالت كاريس.

كانَ تعليقاً بلا قيمةٍ وتجاهلتهُ فيليبا بكلِّ لباقةٍ ثمَّ قالت: «كانَ مستعداً لفعلِ أيِّ شيءٍ للبقاء معكِ ولكنكِ رفضتِهِ فلتدعيهِ وشأنهُ الآن، وعلى الرغم من أنَّه وجدَ صعوبةً في الوقوعِ بحبِّ امرأةٍ أخرى بعدكَ فإنه نجحَ. لا تفكري حتَّى بمجرد التدخلِ».

أرادت كاريس أن تواجهها بعنفٍ وتقولَ لها بغضبٍ إنَّها لا تملكُ الحقَّ في إلقاءِ الأوامرِ وتقديم مطالب أخلاقية، ولكن المشكلةَ هي أنَّ فيليبا كانت على حقٍ فقد كان على كاريس أن تدعَ ميرثن وشأنهُ وإلى الأبدِ.

لم ترغب كاريس بأن تراها فيليبا مفطورةَ القلب ولذلك قالت لها بطريقةٍ حاولت فيها تقليد أسلوبِ فيليبا المتعالي: «هلَّا تركتني الآن من فضلكِ؟ أرغبُ بأن أكونَ وحدي».

إلا أنَّ التخلصَ من فيليبا لم يكن أمراً هيناً ولذلك أصرَّت قائلةً: «هل ستفعلين ما طلبتهُ؟»

لم تكن كاريس تحبُّ أن يحاصرها أحد ولكن معنوياتها كانت في الحضيض ولذلك قالت لفيليبا: «أجل، بالطبعِ».

«شكراً لكِ»، أجابتها فيليبا وغادرت.

عندما تأكدت كاريس أنَّ فيليبا ابتعدت بما يكفي كي لا تسمعها انخرطت في نوبةِ بكاءٍ.

-78-

لم يكن فيليمون رئيسَ ديرٍ أفضل من غودوين وقد أربكهُ تحدي إدارةِ

مُقدراتِ الديرِ تماماً كسلفهِ. خلالَ الفترةِ التي عملت فيها كاريس رئيس الديرِ الفعلي كانت قد وضعت قائمةً واحتوت هذه القائمة على مصادرِ الدخلِ الرئيسيةِ للرهبان:

الإيجارات.

حصّة من أرباحِ أعمالِ التجارةِ والصناعةِ (ضريبة العشر).

فوائد زراعية من الأراضي غير المؤجرةِ.

فوائد من مطاحن الحبوبِ وطواحين صناعية أخرى.

تعاريف استخدام الطرق المائيةِ وحصّة من مزارعِ الأسماكِ.

تصاريح وضع أكشاكٍ في الأسواقِ.

عوائد قضائية من أجورٍ وغراماتٍ تصدرُ عن المحاكمِ.

هدايا دينية من حجاجٍ وآخرين.

مبيعات الكتب والماء المقدسِ والشموع وما إلى هناك.

قدّمت كاريس اللائحةَ إلى فيليمون إلا أنّه رماها في وجهها كأنّها وجهت له إهانةً. لم يكن غودوين أفضل من فيليمون إلّا أنّه امتلكَ سحراً سطحياً معيناً وكانَ سيشكرها ويتجاهل قائمتها بكلّ هدوءٍ.

أمّا في ديرِ الراهباتِ فقد طبّقت كاريس منهجيةً جديدةً في وضعِ الحساباتِ تعلمتها من كارولي بونافينتورا عندما كانت تعملُ مع والدها. اعتمدت المنهجيةُ القديمةُ ببساطةٍ على تسجيل ملاحظاتٍ مختصرةٍ بكلِّ عمليةٍ تجاريةٍ على لفافةٍ ورقيةٍ، وبذلكَ يُمكنُ للمرءِ العودة دوماً إلى تلك الملاحظات، أمّا المنهجيةُ الإيطاليةُ فقد اعتمدت على تسجيلِ المدخول على الجانبِ الأيسرِ من الورقةِ والنفقات على الجانبِ الأيمن وجمعهما في أسفل العمودين، وعندها سيكون الفرقُ بينَ الناتجين واضحاً ويمكن للمرءِ أن يعرف إن كان العملُ ناجحاً أم فاشلاً. كانت الأختُ جوان قد أخذت على عاتقها وبكلِّ حماسٍ التكفل بأمرِ الحسابات، وعندما عرضت على فيليمون شرحَ المنهجيةِ رفضَ بجفاءٍ لأنّه اعتبرَ عروضَ المساعدةِ إهانةً لكفاءته.

ولكن فيليمون يملكُ موهبةً ويتشاركها مع غودوين وهي الميلُ إلى التلاعب بالناسِ، فقد غربلَ بمكرٍ الرهبانَ الجددَ وأرسلَ الطبيبَ المنفتح الأخ أوستن مع راهبين آخرين لامعين إلى ديرِ سان جون إن ذا فوريست حتّى لا يتحدى أحدٌ سلطته في ديرِ كينغزبريدج.

ولكن فيليمون بات الآن مشكلةَ الأسقف هنري فهو من قامَ بتعيينهِ ولذلكَ كان عليهِ التعامل معهُ بنفسهِ بعدَ استقلالِ المدينةِ عن الديرِ وباتَ لكاريس مشفى جديد.

كان الأسقفُ سيباركُ المستشفى في عيدِ العُنصرةِ، أي بعدَ سبعةِ أسابيع من عيدِ الفصحِ. وقبلَ بضعةِ أيامٍ على افتتاحِ المستشفى نقلت كاريس معداتها ومؤنها إلى الصيدليةِ الجديدةِ. كانت الصيدليةُ واسعةً ويمكن لشخصين الجلوس على مقعدٍ والعملُ على إعدادِ الأدويةِ بينما يستطيع شخصٌ ثالثٌ الجلوس إلى مكتبٍ.

وبينما كانت كاريس تُحضرُ دواءً مضاداً للإقياء، وأوناغ تطحنُ أعشاباً طبيةً مجففةً وراهبةٌ مبتدئة تدعى غريتا تنسخُ كتابَ كاريس دخلَ راهبٌ مبتدئ يحملُ صندوقاً خشبياً صغيراً. كان يدعى جوسيا وهو فتى مراهقٌ ينادى عادةً باسم جوشي. بدا الفتى مُحرجاً في حضرةِ النساء الثلاث. «أين أضعُ هذا؟» سأل جوشي.

نظرت كاريس إليهِ وسألتهُ: «ما هذا؟»

«صندوق».

«أعرفُ أنّه صندوق»، قالت كاريس في أناةٍ. لسوءِ الحظِ لم يكن تعلّم القراءةِ والكتابةِ كافياً لجعلِ أحدهم ذكياً. «ما الذي يوجد في الصندوق؟»

«كتب».

«ولمَ جلبت لي صندوقاً من الكتبِ؟»

«هذا ما طُلبَ مني»، ثمَّ أدركَ بعدَ وهلةٍ أنَّ إجابتهُ لم تكن وافيةً فأضاف: «طلبَ مني الأخ سايم فعلَ هذا».

تفاجأت كاريس بما سمعتهُ وقالت له: «هل أرسلَ لي سايم كتاباً كهديةٍ؟»، وفتحت الصندوقِ.

وهنا هربَ جوشي من دونِ الإجابةِ على سؤالها.

كانت كتباً طبيةً باللغةِ اللاتينيةِ، وعندما تفحصتها كاريس وجدت أنَّ جميعها كتبٌ كلاسيكية: كتاب أرجوزة الطبِ لابن سينا وكتاب الأمراض الحادةِ لأبقراط وكتاب تركيب الأدويةِ لجالينوس وكتاب البول لإسحاق جودياس. كانت جميعُ هذهِ الكتبِ قد وضعت قبلَ ثلاثمئةِ عام.

وظهرَ جوشي مجدداً حاملاً صندوقاً آخر.

«وما هذا الصندوق أيضاً؟» سألت كاريس.

«معدات طبيةِ. يقولُ الأخُ سايم إنّ ليس عليكِ لمسها فهو سيأتي ويرتبها في أمكنتها المناسبةِ».

شعرت كاريس بالإحباطِ وقالت: «بريدُ سايم أن يضعَ كتبهُ ومعداتهِ هنا؟ هل يخططُ للعملِ هنا؟»

بالطبعِ لم يكن لدى جوشي أدنى فكرة عن نوايا سايم.

وقبلَ أن تتفوهَ كاريس بأيِّ كلمةٍ ظهرَ سايم بصحبةِ فيليمون. ألقى سايم نظرةً على الغرفةِ ومن دونِ أن يقدمَ أيَّ تفسيرٍ بدأ بإفراغِ الصندوقين من الأغراض. أخرجَ سكاكين حادةً لفتحِ الأوردةِ وقوارير زجاجية لها شكلُ الدمعة لتفحصِ عيناتِ البولِ.

قالت كاريس بحيادٍ: «هل تخططُ لقضاءِ الكثيرِ من الوقتِ هنا في المستشفى أيُّها الأخُ سايم؟»

وهنا أجابَ فيليمون عن سايم كأنّه كان يتوقع بسعادةٍ طرحَ كاريس لهذا السؤال: «وأين سيعملُ إن لم يعمل هنا؟» تحدثَ بلهجةٍ ساخطةٍ كأنَّ كاريس تحدَّتهُ بسؤالها. «هذا المستشفى، أليسَ كذلك؟ وسايم الطبيبُ الوحيدُ في الديرِ؟ ومن سيُعالج الناس إن لم يكن طبيبها الوحيد؟»

وفجأةً بدت الصيدليةُ لكاريس ضيقةً.

وقبلَ أن تتمكنَ من قولِ أيِّ شيءٍ دخلَ شخصٌ غريبٌ. «لقد طلبَ مني الأخُ توماس أن آتي إلى هنا»، قالَ الرجلُ ثمَّ أضاف: «أدعى جوناس باودرر من لندن».

كانَ الزائرُ رجلاً في العقدِ الخامس من العمرِ ويرتدي معطفاً مطرزاً وقبعةً فرائيةً. لاحظت كاريس ابتسامتهُ الفوريةِ ودماثتهُ وتكهنت بأنّه يعيشُ على بيعِ الأشياءِ. صافح الجميع ومن ثمَّ ألقى نظرةً على الغرفةِ وهو يهزُّ رأسهُ في تقديرٍ لأناقةِ كاريس في ترتيبِ صفوفِ المرطبانات والقوارير. «رائع»، قالَ جوناس. «لم أرَ مثيلاً لهذهِ الصيدليةِ الأنيقةِ خارجَ لندن».

«هل أنتَ طبيب يا سيدي؟» سألَ فيليمون بلهجةٍ حذرةٍ لجهلهِ بمكانةِ جوناس حتّى الآن.

«أنا عطارٌ ولدي متجرٌ في سميثفيلد بجانبِ مستشفى سانت بارثيميلو. لا أرغبُ بالتباهي ولكنه أكبرُ متجرٍ للأدويةِ في المدينةِ».

واسترخى فيليمون بعدَ أن عرفَ أنَّ الرجل ليسَ سوى عطارٍ، أي أنه تاجرٌ وأقلُّ مرتبةً من رئيسِ الديرِ ولذلكَ قالَ فيليمون بشيءٍ من السخريةِ. «وما السببُ الذي يدفعُ أكبر عطارٍ في لندن للقدومِ إلى هنا؟»

«كنت آمل أن أحصلَ على نسخةٍ من كتابِ *ترياق كينغزبريدج*».

«ماذا؟»

ابتسمَ جوناس ابتسامةَ العارفِ وقالَ: «أنتَ متواضعٌ جداً أيها الأب رئيس الدير ولكني أرى أنَّ هذهِ الراهبةَ المبتدئةَ تصنعُ نسخةً عن الكتابِ هنا في صيدليتكَ».

قالت كاريس: «الكتاب؟ إنَّه لا يدعى ترياق كينغزبريدج».

«ولكنهُ يحوي على علاجِ جميعِ الأمراضِ».

وأدركت كاريس أنَّ كلامه منطقي بعضَ الشيء وسألته: «ولكن كيف عرفتَ بأمرهِ؟»

«أنا أسافر كثيراً بحثاً عن الأعشابِ الطبيةِ النادرةِ ومكوناتٍ أخرى بينما يهتمُّ ولداي بالمتجرِ في لندن. قابلتُ راهبةً في ساوثهامبتون وأعطتني نسخةً من الكتابِ وقد أطلقت عليهِ كتابِ الترياقِ وأخبرتني أنَّه مكتوب في كينغزبريدج».

«هل كانت الراهبةُ الأختُ كلاوديا؟»

«أجل، وقد رجوتها أن تعيرني الكتابَ لكي أنسخهُ ولكنها قالت إنَّها لا تستطيعُ التخلي عنهُ حتَّى أنتهي من نسخهِ».

«أنا أتذكرها»، قالت كاريس. كانت كلاوديا قد زارت كينغزبريدج كحاجّةٍ وبقيت في ديرِ الراهباتِ واهتمّت بمرضى الطاعون دونَ أن تخاف على سلامتها ولذلكَ أعطتها كاريس الكتابَ كهديةِ شكرٍ.

«إنَّه عملٌ مذهلٌ»، قال جوناس بحرارةٍ. «وباللغةِ الإنكليزيةِ أيضاً».

«إنَّه كتابٌ للمعالجين من غيرِ الكهنةِ وبالتالي لا يستخدمُ اللاتينيةَ كثيراً».

«لا يوجدُ كتابٌ آخرٌ من نوعهِ في أيِّ لغةٍ أخرى».

«هل الأمرُ غريبٌ إلى هذهِ الدرجةِ؟»

«ترتيبُ المواضيع!» قالَ جوناس بحماسٍ. «بدلاً من التحدثِ عن أخلاطِ الجسمِ أو تصنيفِ الأمراضِ تبدأ الفصولُ بأعراضِ المرضى، ولذلكَ عندما يشتكي المريضُ من وجعٍ في المعدةِ أو نزفٍ أو حمى أو إسهالٍ أو عطاسٍ يمكنُ العثورُ على العلاجِ بالنظرِ إلى عنوانِ الفصلِ!»

قالَ فيليمون بنفاد صبرٍ: «أنا واثقٌ من أنَّ هذا مناسبٌ تماماً للعطارين وزبائنهم».

ومجدداً بدا جوناس غافلاً عن لهجةِ فيليمون الساخرةِ وقال: «أفترضُ أيُّها الأبُ رئيسَ الدير أنَّك مؤلفُ هذا الكتابِ القيِّمِ».

«بالطبعِ لستُ كذلك!» قال فيليمون.

«من يكون...؟»

«أنا»، قالت كاريس.

«امرأة!» قالَ جوناس في عجبٍ. «ولكن من أينَ حصلت على كلِّ تلكَ المعلوماتِ؟ عملياً، لا توجدُ هذهِ المعلومات في أيِّ كتابٍ آخر».

«لم تُفدني الكتبُ القديمةُ في شيءٍ يا جوناس. تعلَّمت في البدايةِ تركيبَ الأدويةِ على يدِ امرأةٍ حكيمةٍ من كينغزبريدج تدعى ماتي التي وللأسفِ غادرت البلدةَ خوفاً من اتهامها بممارسةِ السحرِ، ثمَّ تعلَّمت المزيد على يدِ الأمِّ سيسيليا التي كانت رئيسةَ ديرِ الراهباتِ قبلي، ولكن جمع الوصفاتِ والعلاجاتِ ليسَ بالأمرِ الصعبِ فالجميعُ يعلمُ مئةَ وصفة منها على الأقل، ولكنَّ الصعوبةَ الحقيقية تكمنُ في فصلِ الوصفاتِ المفيدةِ من غيرِ المفيدةِ، وكلُّ ما فعلتهُ هو وضعُ يومياتٍ على مدارِ سنواتٍ بتأثيراتِ كلِّ علاجٍ جرَّبتهُ، ولذلك لم أذكر فيه سوى الوصفاتِ الناجحة وكما رأيتها بعيني مراراً».

«أنا مذهولٌ لأنني أتحدثُ إليكِ شخصياً».

«حسناً، يمكنكَ أن تأخذَ نسخةً من كتابي. أشعرُ بالإطراءِ لأنَّ أحداً قطعَ كلَّ هذهِ المسافةِ للحصولِ عليهِ!» وفتحت خزانةً ثمَّ قالت: «كانت هذهِ النسخةُ مخصصة لديرنا سان جون إن ذا فوريست ولكنهم يستطيعون انتظارَ وضعِ نسخةٍ أخرى».

أخذَ جوناس الكتاب منها كأنَّه يأخذُ غرضاً مقدساً ثمَّ قال: «أنا ممتن لكِ أشدَّ الامتنانِ»، وقدَّم لكاريس كيساً من الجلدِ الناعمِ. «وكرمز امتنانٍ مني أرجو بأن تقبلي هذهِ الهدية المتواضعة من عائلتي إلى راهباتِ ديرِ كينغزبريدج».

فتحت كاريس الكيس وأخرجت غرضاً صغيراً ملفوفاً بقماشٍ صوفي، وعندما فتحتهُ وجدت صليباً ذهبياً مرصعاً بحجارةٍ ثمينةٍ.

لمعَت عينا فيليمون من شدَّةِ الجشعِ عندما رأى الصليبَ.

بوغتت كاريس بما رأتهُ وقالت: «هذهِ هديةٌ باهظةٌ!» ثمَّ أدركت أنَّ ما قالتهُ

لا يفي الهديةَ حقها لذلكَ أضافت: «وهذا كرمٌ استثنائي من قبلِ عائلتكَ يا جوناس».

وقامَ بحركةٍ تشي بالتواضعِ ثمَّ قال: «الحمد للرَّبِّ أحوالنا ميسورةٌ».

قالَ فيليمون بحسدٍ: «كل هذا من أجلِ كتابِ علاجاتٍ سريةٍ تتناقلها العجائز».

قالَ جوناس: «عفواً أيّها الأبُ رئيس الدير بالطبعِ أنت أرقى من هذا المستوى، ونحن لا نطمحُ إلى الوصولِ إلى مراتبكَ الفكريةِ العليا ولا نحاول فهمَ خلائطِ الجسدِ. وكما يمصُّ طفلٌ إصبعاً مجروحة لأنَّ هذا قد يخففُ من الألمِ نصنعُ الأدويةَ لإيقافِ الألم فحسب، أمَّا في ما يتعلقُ بالسببِ والكيفيةِ التي تحدثُ فيها مثلُ هذهِ الأمورِ فإننا نتركُ هذا لأصحابِ العقولِ الأكثرَ عظمةً من عقولنا فخليقةُ الرَّبِّ غامضةٌ على أمثالنا ليفهموها».

اعتقدت كاريس أنَّ سخريةَ جوناس بالكادِ تخفى على أحدٍ ورأت أوناغ تكبحُ ابتسامةً، وسايم أيضاً انتبهَ إلى السخريةِ الخفيةِ ولمعت عيناه في غضبٍ، ولكن فيليمون لم ينتبه وبدا مستمتعاً بالإطراءِ ثمَّ لاحظت كاريس نظرةً ماكرةً ترتسمُ على وجههِ، وتكهنت بأنَّه يتساءلُ في نفسهِ عن الطريقةِ التي سيُقاسمها أرباحَ الكتابِ ويحصل لنفسهِ على صُلبانٍ مُطعَّمةٍ بالجواهرِ.

***

افتتحَ سوقُ الصوفِ في موعدهِ في عيدِ العُنصرةِ، واكتظَّ المستشفى في موعدهِ أيضاً، وهذا العام لم يكن استثناءً عن بقيةِ الأعوامِ فقد سقطَ العجائز ممن قطعوا مسافةً طويلةً للوصولِ إلى السوقِ مرضى وأصيبَ الأطفالُ بالإسهالِ من الأطعمةِ والمياهِ الغريبةِ عن المدينةِ وشربَ الرجالُ والنساءُ كثيراً في الحاناتِ وأذوا أنفسهم والآخرين.

ولأولِ مرةٍ لم تكن كاريس قادرةً على فصلِ مرضى السوقِ عن مرضى الطاعونِ. نُقلَ مرضى الطاعونِ وكانت أعدادهم قد تراجعت بشكلٍ كبيرٍ بحلولِ هذا الوقتِ ومصابون آخرون بأمراضٍ معديةٍ كالاضطراباتِ المعويةِ والجدري إلى المستشفى الجديد الذي باركهُ الأسقفُ باكراً من هذا اليومِ بينما تلقى ضحايا الحوادثِ والشجاراتِ العلاج في المستشفى القديمِ الذي كانَ آمناً من خطرِ العدوى. لقد ولّت تلكَ الأيام التي قد يأتي فيها شخصٌ إلى المستشفى لمعالجةِ كتفهِ المخلوع فينتهي بهِ الأمرُ ميتاً بسببِ التهابٍ رئوي.

ولكن الكارثةَ حلَّت يومَ اثنين العُنصرةِ.

مع بدايةِ فترةِ ما بعدِ الظهرِ وبعدَ الغداءِ ذهبت كاريس إلى السوقِ في جولةٍ لتفقدِ الأحوال. كانَ المكانُ هادئاً مقارنةً بحالتِهِ في الأيامِ الخوالي عندما كانَ مئاتُ الزوارِ وآلافٌ من سكانِ المدينةِ يملؤون حديقةَ الكاتدرائيةِ وجميعَ الشوارعِ الرئيسيةِ. على أيِّ حالٍ وبالنظرِ إلى حقيقةِ أنَّ السوقَ لم يُقم في العام الماضي فقد كان أفضلَ من المتوقعِ، وفهمت كاريس أنَّ الناس فهموا أن الطاعون تراجع واعتقدَ من نجوا منهُ حتَّى الآن أنَّهم منيعون رغمَ أنَّ بعضهم كان كذلكَ حقاً وبعضهم الآخر لم يكن لأنَّ الطاعون لم يتوقف عن قتلِ الناسِ.

أصبحَ القماشُ الذي أنتجتهُ مادج ويبر حديثَ السوقِ بفضلِ النول الجديد الذي صممهُ ميرثن والذي لم يكن سريعاً فحسب بل ساعدها على إنتاجِ أنماطٍ معقدةٍ من النسيجِ، ونجحت مادج في بيعِ نصفِ إنتاجها حتَّى الآن.

عندما نشبَ الشجارُ كانت كاريس ومادج تتحدثان، ومادج تُحرجُ كاريس بحديثها عن أنَّ الفضلَ في كلِّ هذا يعود لها وأنَّها من دونِ كاريس لبقيت حائكةً فقيرةً، وعندما كانت كاريس على وشكِ دحضِ ما كانت مادج تقوله سمعتا صيحات عالية.

وميَّزت كاريس على الفورِ ذلكَ الصوتَ الغليظ لشبانٍ عنيفين قادماً من وراءِ برميلِ جعة على بعدِ ثلاثين ياردةٍ. علت وتيرةُ الصياحِ بسرعةٍ وبدأت نساءٌ شاباتٌ في الصراخِ فهرعت كاريس إلى المكانِ على أملِ أن توقفَ الشجارَ قبلَ أن يخرجَ عن السيطرةِ.

ولكنها كانت متأخرةً.

كانت المشاجرةُ على أشدِّها بين أربعة شبّانٍ من زعرانِ المدينةِ ومجموعةٍ من الفلاحين كما بدا لكاريس من ثيابهم الريفيةِ، وفكرت بأنهم ربما كانوا من ذات القريةِ، ثمَّ رأت فتاةً جميلةً، وربما كانت أول من بدأ الصراخَ، تجاهدُ لفصلِ رجلين يلكمان بعضهما بعضاً بلا رحمةٍ. سحبَ أحدُ الفتيةِ سكيناً ورفعَ الفلاحون مجارفَ خشبيةً ثقيلةً، وبحلولِ الوقتِ الذي وصلت فيهِ كاريس كانَت أعداد الناسِ حول الطرفين قد ازدادت.

التفتت كاريس إلى مادج التي لحقَت بها وقالت لها: «أرسلي أحدهم ليُحضرَ المأمور مونغو على وجهِ السرعةِ فهو على الأغلب في قبو غيلد هول»، وهرعت مادج لتنفذَ ما طلبتهُ كاريس.

كانَ الشجارُ يزدادُ سوءاً وانضمَّ إليهِ الآن العديدُ من فتيةِ المدينةِ وقد سحبوا سكاكين. رأت كاريس فتى فلاحاً ممدّداً على الأرضِ وينزفُ بغزارةٍ من ذراعهِ بينما فتى آخر يُقاتِلُ رغمَ الدماءِ الغزيرةِ على وجههِ. راقبت كاريس ما كان يجري ورأت اثنين أو أكثر من سكانِ المدينةِ يركلونَ الفلاح على الأرضِ.

ترددت كاريس للحظةٍ ثمَّ تقدَّمت وأمسكت بأقربِ المتشاجرين من قميصهِ وصرخت بصوتٍ جاهدت كي يبدو آمراً: «ويلي بيكرسون توقف عن الشجارِ الآن».

وكادَ الصوتُ يحققُ نتيجةً.

تراجعَ ويلي بعيداً عن خصمهِ مذهولاً ونظرَ إلى كاريس نظرةً ملؤها الذنب، وعندما فتحت فمها لتتكلمَ مجدداً تَلقّت ضربةَ مجرفٍ قويةً على رأسها كانت موجهةً إلى ويلي من كلِّ يدٍ.

شعرت بألمٍ مبرحٍ وزاغَ بصرها ثمَّ فقدت توازنها ولم تشعر بنفسها إلا وهي ترتطمُ بالأرضِ حيثُ استلقت مصابةً بدوارٍ رهيبٍ وتجاهدُ لاستعادةِ رشدها بينما العالمُ من حولها يبدو كأنّه يدور. أمسكها أحدهم من تحتِ إبطيها وجرَّها بعيداً عن ساحةِ الشجارِ.

«هل أنتِ بخير أيتها الأمُّ كاريس؟» كانَ الصوتُ مألوفاً إلا أنَّها لم تنجح في تكهنِ هويةِ صاحبهِ.

وأخيراً استعادت رشدها وجاهدت لتنهضَ على قدميها بمساعدةِ هذا الشخصِ الذي أنقذها والذي عرفتهُ الآن. لقد كانَ تاجرَ الذرةِ المفتول العضلاتِ ميغ روبنز. «أشعرُ ببعضِ الدوارِ فقط»، قالت كاريس لميغ ثمَّ أضافت: «يجبُ أن تمنعَ أولئكَ الصبيةَ من قتلِ بعضهم بعضاً».

«ها قد أتى المأمورُ، لنتركَ الأمرَ لهُ».

وصلَ مونغو مع ستةٍ أو سبعةٍ من عناصرهِ وجميعهم يحملون مضاربَ. اقتحموا ساحةَ الشجارِ يضربونَ يمنةً ويسرة على رؤوسِ المتشاجرين، ويلحقونَ أذى كبيراً كالأذى الذي كانَ يلحقهُ المتشاجرون إلّا أنَّ وصولهم أربكَ من كان في ساحةِ القتالِ، وبدا بعضُ الصبيةِ حائرين بينما هربَ الآخرون، وبشكلٍ مذهلٍ وخلالَ بضعِ دقائق كانَ الشجارُ قد انتهى.

قالت كاريس: «مادج، فلتهرعي إلى ديرِ الراهباتِ ولتحضري الأختَ أوناغ واطلبي منها أن تجلبَ معها الضمادات».

وهرعت مادج إلى الديرِ.

وبسرعةٍ اختفى الجرحى ممن لم تؤثر إصابتُهم على قدرتِهم على المشي، وبدأت كاريس بتفحصِ من بقي. كانَ الفتى الفلاحُ الذي تلقى طعنةً في بطنِهِ يحاولُ دفعَ أحشائه داخل بطنِهِ إلا أنّه لم يكن يملكُ فرصةً كبيرةً للنجاةِ من هذهِ الإصابةِ، أمّا الفتى ذو الجرحِ في ذراعِهِ فقد يعيش إن نجحت كاريس في إيقافِ النزيفِ. حلّت كاريس حزامها وشدّت بِهِ ذراع الفتى فوقَ الجرحِ إلى أن لم يعد النزيفُ غزيراً. «أحكم قبضتكَ على هذا هنا»، قالت كاريس للفتى وانتقلت إلى فتى آخر من فتيةِ المدينةِ يبدو كأنّه كسرَ يدهُ. كانت تشعرُ بألمٍ رهيبٍ في رأسها إلا أنّها تجاهلتهُ.

وصلت أوناغ والعديدُ من الراهباتِ إلى المكانِ، وبعدَ برهةٍ وصلَ الحلاقُ ماثيو حاملاً حقيبتهُ، وطوقوا المصابين، وسارعَ المتطوعون عملاً بتعليماتِ كاريس إلى حملِ أسوأ الإصابات إلى ديرِ الراهباتِ. «خذوهم إلى المستشفى القديم وليسَ الجديد»، قالت كاريس.

وقفت كاريس فشعرت بالدوارِ إلا أن أوناغ أمسكتها. «ما الخطب؟» سألتها أوناغ.

«سأكون على ما يرام، من الأفضلِ أن نتوجه إلى المستشفى».

شقت كاريس وأوناغ طريقهما عبرَ أكشاكِ السوقِ باتجاهِ المستشفى القديمِ، وحالما دخلتا لم تريا أحداً من المصابين هناك فأخذت كاريس تشتمُ وقالت: «لقد أخذهم أولئكَ الأغبياء إلى المكانِ الخاطئِ»، ووصلت إلى استنتاجٍ بأنَّ الناس لن يتعلموا بسرعةٍ أهميةَ التميز بينَ المشفيين.

توجهت كاريس وأوناغ إلى المستشفى الجديد. كانَ للممرِ المسقوفِ مدخلٌ مقنطرٌ وواسعٌ وعنده التقتا بالمتطوعين وهم خارجون. «لقد أحضرتم المصابين إلى المكانِ الخطأ!» قالت كاريس بتجهمٍ.

وقال أحدهم: «ولكن أيتها الأمُّ كاريس...»

«لا تجادلني لا أملكُ الكثيرَ من الوقتِ»، قالت بنفاد صبرٍ ثمَّ أضافت: «فلتسارع إلى حملهم إلى المستشفى القديم».

وحالما أصبحت في الممرِ المسقوفِ رأت الصبي ذا الذراعِ المصابةِ يُنقلُ إلى غرفةٍ فيها خمسةٌ مصابين بالطاعونِ فسارعت عبرَ الباحةِ وصرخت بغضبٍ شديدٍ: «توقف! ما الذي تعتقدُ أنّكَ فاعلٌ؟»

وجاءَ صوتُ رجلٍ: «إنَّهم ينفذون تعليماتي».
توقفت كاريس ونظرت حولها فرأت أنَّ المتكلم هو الأخ سايم فقالت له: «لا تكن غبياً. إنَّه مصابٌ بجرحِ سكينٍ، هل تريدهُ أن يموتَ من الطاعون؟»
احمرَّ وجهُ سايم المدور وقالَ: «أنا لا أنتظرُ موافقتكَ على قراراتي أيتها الأمُّ كاريس».
كانَ تصرفاً غبياً ولهذا تجاهلتهُ ثمَّ قالت: «يجبُ فصلُ كلِّ هؤلاءِ الفتيةِ عن مرضى الطاعون أو سيُصابونَ بهِ!»
«أعتقدُ أنَّكِ مُجهدةٌ وعليكِ الاستلقاءِ وأخذ قسطٍ من الراحةِ».
«الاستلقاء؟» قالت بغيظٍ شديدٍ ثمَّ أضافت: «لقد أصلحت أمرَ هؤلاءِ الرجالِ ويجبُ أن أعاينهم كما يجب، ولكن ليسَ هنا!»
«شكراً لكِ على تدخلكِ السريعِ أيتها الأمُّ ولكن يمكنكِ تركُ مهمة معاينتهم بدقةٍ لي الآن».
«ستقتلهم أيُّها الأحمقُ!»
«من فضلكِ غادري المستشفى ولا تعودي إلى أن تهدأي».
«لا يمكنكَ أن تطردني من هنا أيُّها الفتى الغبي! لقد بنيت المستشفى من مالِ الراهبات، وأنا المسؤولةُ هنا».
«هل هذا صحيح؟» قالَ لها ببرودٍ.
وهنا أدركت كاريس أنَّها لم تتوقع مجيءَ هذهِ اللحظةِ إلا أنَّ سايم توقعها، فعلى الرغمِ من أنَّه كان مهتاجاً إلا أنَّه حافظَ على هدوئهِ ولم ينفعل. كانَ من النوعِ الذي لا يتصرف من دون خطةٍ، وتوقفت كاريس لبرهةٍ تقلبُ أفكارها ثمَّ نظرت من حولها ورأت أنَّ الراهباتِ والمتطوعين يراقبون وينتظرون كيفَ سينتهي الأمرُ.
«يجبُ أن نعتني بهؤلاءِ الصبيةِ»، قالت كاريس. «وبينما نحن نتجادلُ هنا إنهم ينزفونَ حتَّى الموتِ. يجبُ أن نقوم بمساومةٍ، للآن على الأقل»، ورفعت صوتها قائلةً: «اتركوا الجميعَ في أمكنتهم من فضلكم». كانَ الطقسُ دافئاً ولم يكن هناكَ من حاجةٍ لوضعِ المرضى في الغرفِ. «سنهتمُ بهم أولاً ثمَّ سنقررُ إن كانوا بحاجةٍ إلى المبيتِ في المستشفى».
ولأنَّ المتطوعين والراهباتِ يعرفون كاريس ويحترمونها بينما سايم شخصٌ جديدٌ عليهم سارعوا إلى تنفيذِ ما طلبتهُ بكلِّ همَّةٍ ونشاطٍ.

وهنا اكتشفَ سايم أنَّه هُزم وعلت وجههُ نظرة غضبٍ حقيقي ثمَّ قال: «لا يمكنني معالجةُ المرضى في هذا الوضعِ»، واستدارَ مبتعداً.

صُدمت كاريس بردِّ فعلِه فقد كانت تحاولُ إنقاذ كرامتهُ بالمساومةِ التي عرضتها ولكن لم يخطر ببالها أنَّه سيُغادر ويتخلى عن المرضى في نوبةِ غضبٍ.

وبسرعةٍ أبعدت هذهِ الأفكار وبدأت بمعاينةِ المصابين مجدداً.

وخلالَ الساعاتِ الأربع التاليةِ غرقت كاريس في أعمالِ غسلِ الجروحِ وخياطتها والإشرافِ على تقديمِ الأعشابِ المهدئةِ والأشربة الدوائيةِ، وعملَ الحلاقُ ماثيو إلى جانبها على تجبيرِ الكسورِ ومعالجةِ الأطرافِ المخلوعةِ. كانَ ماثيو الآن في العقدِ الخامس من عمرهِ وقد كانَ ابنهُ لوك إلى جانبهِ يساعدهُ بكفاءةٍ موازيةٍ لكفاءةِ أبيهِ.

عندما انتهوا من عملهم كان الظلامُ يهبطُ والجو يزداد برودةً. جلسوا جميعاً إلى جدارِ الممرِّ المسقوفِ لأخذِ قسطٍ من الراحةِ، وأحضرت الأختُ جوان أباريقَ من عصيرِ التفاحِ البارد. كانت كاريس تعاني من ألمٍ في رأسها ورغمَ أنَّها نجحت في تجاهلهِ طوالَ فترةِ انشغالها فإنَّه الآن باتَ يزعجها، وقررت أنها ستخلدُ إلى النومِ باكراً.

وبينما كانوا يحتسون عصيرَ التفاحِ ظهرَ الراهبُ الشاب جوشي وقال: «أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ يطلبُ السيد الأسقف حضوركِ إلى قصرِ رئيسِ الديرِ حالما أمكنكِ».

زمجرت كاريس باهتياجٍ، لا بدَّ أنَّ سايم اشتكاها للأسقفِ، وكانَ هذا آخر شيءٍ قد تحتاجهُ الآن. «أخبرهُ أنني سآتي على الفورِ»، قالت كاريس لجوشي وأضافت بصوتٍ خفيض: «ربما يجبُ أن أنتهي من الأمرِ بأسرعِ وقتٍ»، وتجرعت ما تبقى في كأسها من عصير ثمَّ غادرت.

عبرت كاريس حديقةَ الكاتدرائيةِ في ضيقٍ. كانَ باعةُ الأكشاكِ يوضبونَ أغراضهم لهذهِ الليلةِ ويغطون البضائع ويُقفلونَ الصناديقَ، ومن المقبرةِ دخلت إلى القصرِ.

وجدت الأسقفُ هنري جالساً عندَ رأسِ الطاولةِ وبرفقتهِ الكاهنُ كلود ورئيسُ الشمامسةِ لويد إضافة إلى فيليمون وسايم. وقد جلسَ قطُّ غودوين المدعو رئيسُ الأساقفةِ في حضنِ هنري بكل اعتدادٍ.

قالَ الأسقفُ: «من فضلكِ اجلسي».

جلست كاريس إلى جانبِ كلود الذي قالَ لها بكلِّ لطفٍ: «تبدين متعبةً أيتها الأمُّ كاريس».

«لقد قضيتُ فترةَ ما بعدِ الظهرِ أُصلحَ حالَ صبيةٍ أغبياء انخرطوا في شجارٍ كبيرٍ، وتلقيت ضربةً على رأسي أيضاً».

«سمعنا بأمرِ الشجارِ».

أضافَ هنري قائلاً: «وماذا عن الجدالِ حول المستشفى الجديدِ!»

«أفترضُ أنَّ هذا سببُ استدعائكَ لي».

«أجل».

«إنَّ الغرَضَ من بناءِ المستشفى الجديدِ هو فصلُ المرضى الذين يعانون من أمراضٍ معديةٍ...»

«أعلمُ سببَ الجدالِ»، قاطعها هنري ثمَّ توجهَ بكلامهِ إلى الحاضرين وقال: «لقد طلبت كاريس نقلَ المصابين في الشجارِ إلى المستشفى القديم وعارضَ سايم أوامرها فدارَ بينها جدالٌ غير لائق وعلى مرأى الجميعِ».

«أعتذرُ عن هذا سيدي الأسقف»، قال سايم.

تجاهلَ هنري ما قالهُ سايم وقال: «قبلَ أن نتابعَ حديثنا أريد توضيحَ أمرٍ»، ووزعَ نظراتهِ بينَ سايم وكاريس ثمَّ قال: «أنا أسقفكما ورئيسكما وراعي دير كينغزبريدج وأملكُ الحقَّ والسلطةَ على إعطائكما الأوامر ولذلك من واجبكما إطاعتي. هل تقبل بهذا أيُّها الأخُ سايم؟»

أحنى سايم رأسهُ وقال: «أجل».

ثمَّ استدارَ هنري نحو كاريس وسألها: «وأنتِ أيتها الأمُّ رئيسة الديرِ؟»

بالطبعِ لم يكن هناكَ مجال للجدلِ فقد كانَ هنري على حقٍ تماماً. «أجل»، قالت كاريس وشعرت بالثقةِ من أنَّ هنري لن يتصرف بغباءٍ ويجبر المصابين في الشجار على التقاط عدوى الطاعون.

قالَ هنري: «اسمحوا لي بأن أسردَ حججَ الطرفين. بُني المستشفى الجديد من مالِ الراهبات ووفقاً للمواصفات التي طلبتها الأمُّ كاريس، وقد أرادت بهذا أن توفرَ مكاناً لمرضى الطاعون ولغيرهم ممن يعانون من أمراضٍ تقول إنَّها قد تنتقلُ من شخصٍ مريضٍ إلى آخر سليمٍ. إنَّها تؤمنُ بضرورةِ فصلِ هذين النوعين من المرضى وتشعرُ بأنَّها مخولةٌ وفي جميعِ الظروفِ بفرضِ التقيدِ بخطتها هذهِ. أليسَ هذا صحيحاً أيتها الأمُّ؟»

«أجل».

«لم يكنِ الأخُ سايم هنا عندما نفذت كاريس خطتها ولهذا لم تتم استشارتهُ إلا أنَّه قضى ثلاثةَ أعوامٍ يدرسُ الطبَّ في الجامعةِ وحصلَ بموجبِ ذلكَ على شهادةٍ، وقد أشارَ إلى أنَّ كاريس لا تملكُ أيَّ تدريبٍ باستثناء ما تعلمتهُ من خبرتِها العمليَّةِ، وأنها تمتلكُ معرفةً محدودةً بطبيعةِ الأمراضِ بينما هو الطبيب الوحيد المؤهل في الدير، بل وفي كينغزبريدج كلها».

«تماماً»، قال سايم.

«كيف يمكنكَ القولُ إنني غير مُدربة؟» انفجرت كاريس قائلةً. «بعدَ كلِّ هذهِ السنواتِ من العنايةِ بالمرضى».

«هدوءاً من فضلكِ»، قال هنري دونَ أن يرفعَ صوتهُ وشيءٌ ما في هدوءِ نبرتهِ أجبرَ كاريس على التزامِ الصمتِ. «كنتُ على وشكِ بدءِ الحديثِ حولَ كلِّ ما قدَّمتهِ. إنَّ عملكِ هنا لا يقدرُ بثمنٍ، وأنتِ مشهورةٌ بينَ القاصي والداني بإخلاصكِ للمرضى خلالَ فترةِ الطاعونِ الذي ما زلنا نعاني منهُ، ولذلك تجربتك وخبرتك العمليةِ لا تقدران بثمنٍ».

«شكراً لكَ أيُّها الأسقف».

«ولكن سايم كاهنٌ وخريجٌ جامعي... ورجلٌ، والعلمُ الذي قامَ بتحصيلهِ أساسي لإدارةِ مستشفى الديرِ كما يجب ولا نريدُ أن نخسرهُ».

قالت كاريس: «بعض أساتذةِ الجامعةِ يتفقون معي في الطرق التي أتبعها، يمكنكَ أن تسأل الأخ أوستن».

قال فيليمون: «لقد أُرسلَ الأخُ أوستن إلى دير سان جون إن ذا فوريست».

«وها نحنُ الآن نعرفُ السببَ»، قالت كاريس.

قالَ الأسقفُ: «أنا من يجبُ أن يأخذَ هذا القرار وليس أوستن أو أساتذةُ الجامعةِ».

وهنا أدركت كاريس أنَّها لم تكن مستعدةً لهذهِ المواجهةِ فقد كانت مُجهدةً وتعاني من الصداعِ وبالكادِ قادرة على التفكيرِ بوضوحٍ. كانت وسطَ معركةٍ على السلطةِ ولكن لم يكن لديها استراتيجية للقتال، ولو أنها علمت أنَّ هذا ما سيحدث لما أتت عندما طلبها الأسقف بل كانت لتأخذ قسطاً من الراحةِ حتَّى تتخلص من صداعِ رأسها الشديد وتستيقظ بهمَّةٍ جديدةٍ في الصباحِ وتلتقي مع هنري بعد أن تكونَ قد وضعت خطةَ القتالِ.

وتساءلت في نفسها إن كان الوقت قد تأخر على فعلِ هذا.

قالت كاريس: «سيدي الأسقف لا أشعرُ بأنني في حالةٍ جيدةٍ لمناقشةِ هذه المسألة الليلةَ. ربما من الأفضلِ أن نؤجلها إلى الغدِ عندما أكون قد تحسنت».

«لا حاجةَ لهذا»، قال هنري. «لقد استمعت إلى شكوى سايم وأنا أعرفُ موقفكِ، علاوةً على هذا سأغادرُ غداً فجراً».

وأدركت كاريس أنّه اتخذَ قرارهُ وما من شيءٍ يمكنها قوله الآن من شأنه أن يُحدثَ فرقاً، ولكن ما هو قرارهُ؟ وجانبَ من سيأخذ؟ لم يكن لديها أدنى فكرةٍ وتشعرُ بالتعبِ الشديد على القيامِ بأي شيءٍ آخر غير الجلوس والاستماع إلى هنري يحددُ مصيرها.

«الإنسانُ ضعيفٌ»، قال هنري. «ونحنُ نرى، كما يوضحُ الرسول بطرس، كأننا ننظرُ عبرَ الزجاجِ، وكأننا في العتمة، ونحن نخطئ ونحيدُ عن الطريقِ ونقاربُ الأمور بشكلٍ رديء ولذلك نحتاجُ إلى المساعدةِ، ولهذا السببُ منحنا الرَّبُّ كنيستهُ والبابا والكهنوت. لقد منحنا إياهم ليرشدونا لأنَّ إمكاناتنا غير كافيةِ ولا معصومة عن الخطأ، ولهذا يجبُ أن نلجأ إلى السُلطاتِ».

واستنتجت كاريس من حديثِهِ أنّه يأخذُ جانبَ سايم. كيفَ له أن يكون بهذا الغباء؟

ولكنه كانَ غبياً حقاً لأنّه تابع كلامه قائلاً: «درسَ الأخ سايم كتبَ الطبِ القديمةَ تحتَ إشرافِ الأساتذةِ في الجامعةِ، ودعمت الكنيسةُ دراستَهُ، وعلينا أن نقبلَ بسلطةِ الكنيسةِ وبالتالي أن نقبل بسلطتِهِ. لا يمكننا تجاهلُ حكمِهِ والأخذ بحكمِ شخصٍ أمّي مهما كانَ شجاعاً وجديراً بالاحترامِ، لا بدَّ أن يكونَ القرارُ النهائي قرارهُ».

شعرت كاريس بالضيقِ والضعفِ إلى درجةٍ أنّها سُرَّت لأنَّ المقابلة على وشكِ الانتهاءِ. لقد ربحَ سايم وخسرت، ولكن كلَّ ما كانت تريدهُ الآن هو النوم ولذلك وقفت.

قال هنري: «أعتذرُ لأنني خيبت أملكِ أيتها الأمُّ كاريس...»

وبدأ صوتهُ يخفتُ وهي تبتعدُ.

سمعت فيليمون يقولُ: «يا لها من وقاحةٍ».

قالَ هنري بهدوءٍ: «دعها تذهب».

وصلت إلى البابِ وخرجت من دونِ أن تنظر إلى الوراءِ.

وبينما سارت كاريس ببطءٍ عبرَ المقبرةِ بدأ يتضحُ لها معنى كل ما حدث.

كانَ سايم المسؤول عن المستشفى وعليها أن تنفذَ أوامرهُ، ولن يعودَ هناكَ فصلٌ بينَ أنوعِ المرضى ولا أقنعة وجهِ أو تعقيمِ الأيادي بالخلِّ، وسيزداد ضعفُ من تُفصدُ دماؤهم، ويغدو المتضورون جوعاً أكثر هزلاً مع أدويةِ الإسهالِ، وستغطى الجروح بكماداتٍ من روثِ الحيواناتِ لتحثَّ الجسدَ على إخراجِ القيحِ، ولن يهتم أحدٌ بأهميةِ النظافةِ أو الهواءِ المنعشِ.

لم تتحدث مع أحدٍ وهي تسيرُ في الممراتِ المسقوفةِ وتصعدُ الدرجَ وتعبرُ المهجعَ باتجاه غرفتها. استلقت على السرير ووجهها للأسفلِ والألم في رأسها قد ازداد شدَّةً.

لقد خسرت ميرثن وها هي تخسرُ مشفاها وتخسرُ كلَّ شيءٍ.

كانت تعلمُ أنَّه يُمكن للإصاباتِ الرأسيةِ أن تكونَ قاتلةً وقد تنامُ الآن دونَ أن تستيقظ أبداً.

وربما هذا قد يكون للأفضلِ.

-79-

انتهت أعمالُ زراعةِ بستانِ ميرثن في ربيع عام 1349، وبعدَ مرورِ عام اشتدَّ عودُ جميعِ الأشجارِ وأخرجت أوراقاً متفرقةً قويةً. كانَ هناكَ شجرتان أو ثلاث تصارع للبقاءِ وشجرةٌ ميتةٌ دونَ أدنى شكٍ. لم يتوقع ميرثن أن تثمر أيٌّ منها ولكن في شهرِ تموز/ يوليو تفاجأ بإحدى الشجيراتِ وقد أبكرت بالنضوجِ وأخرجت عدداً من ثمارِ الإجاصِ الداكنةِ الخضرةِ، ورغمَ صغرِ حجمِ الثمار فإنَّها كانت قاسيةً كالحجارةِ وتحملُ بشائرَ نضوجٍ كاملٍ في الخريف.

وفي ظهيرةِ يومِ أحدٍ أخذَ ميرثن لولا في جولةٍ في البستانِ. رفضت لولا التصديقَ بأنَّ الثمارَ ستكبرُ لتصبحَ تلكَ الثمار الفوَّاحة والريانة التي تحبها، واعتقدت، أو تظاهرت، بأنَّه يمارسُ معها أحدَ ألعابهِ المزعجةِ، وعندما سألها عن رأيها حولَ مصدرِ الإجاصِ الناضج نظرت إليهِ في عتابٍ وقالت: «من السوقِ أيُّها الأحمق».

كانت لولا أيضاً تنضجُ يوماً بعدَ يومٍ رغمَ أنَّ ميرثن وجدَ صعوبةً في تخيلِ جسدها النحيلِ يتحول إلى جسدٍ أنثوي رقيقٍ، وتساءلَ في نفسهِ إن كانت ستنجبُ له أحفاداً. كانت في الخامسةِ ولم يكن عليهِ أن ينتظرَ سوى عقدٍ من الزمنِ أو أكثر بقليلٍ.

وفي لجةِ أفكارِ «النضوجِ» التي كانت في رأسهِ رأى فيليبا قادمةً عبرَ الحديقةِ باتجاههما، وذهلَ من شدةِ استدارةِ وامتلاءِ ثدييها. كانت زيارتها لهُ في وضحِ النهارِ أمراً غريباً وتساءلَ عمَّا أحضرها إلى هنا، ولأنَّه يعرفُ أنَّهما مراقبان اكتفى بتحيتِها مع قبلةٍ لبقةٍ على الخدِ كما قد يفعلُ أخوةُ الأزواجِ عادةً.

بدت مضطربةً وأدركَ أنَّها ومنذُ بضعةِ أيامٍ تبدو متحفظةً وغارقةً في التفكيرِ أكثرَ من المعتادِ، وحالما جلست بقربهِ على العشبِ قالَ لها: «هناكَ ما يشغلُ بالكَ؟»

«لم أكن ماهرةً أبداً في إيصالِ الأخبار بلطفٍ»، قالت فيليبا ثمَّ أضافت: «أنا حامل».

«ربَّاه!» قال ميرثن في صدمةٍ عجزَ عن كبحها ثمَّ أضاف: «أنا متفاجئ بحقٍ فقد أخبرتني أنَّكِ...»

«أعلمُ وكنتُ واثقةً من أنني أصبحتُ كبيرةً في السنِ، وفي السنوات الماضية لم تعد دورتي الشهرية منتظمة واعتقدت أنَّها توقفت، ولكنني الآن أتقيأ في الصباحِ وتؤلمني حلمتا ثديي».

«لاحظت عندَ دخولكِ الحديقةَ أنَّ ثدييك أكبر من المعتاد، ولكن هل أنتِ واثقةٌ من هذا؟»

«لقد حملتُ ستَ مرَّاتٍ قبلاً. أنجبت ثلاثة أطفالٍ وأجهضت ثلاثة، ولهذا أعلمُ متى أكونُ حاملاً. لا شك أبداً في حقيقةِ حملي».

ابتسمَ وقال: «حسناً، سنحظى بطفلٍ معاً».

لم تبادله الابتسامة بل قالت: «لا تفرح، يبدو أنَّكَ لم تفكر بتعقيداتِ الأمرِ فأنا زوجةُ إيرل شايرنغ ولم أنم معهُ منذُ شهر تشرين الأول/ أكتوبر ولم أعش معهُ منذُ شهرِ شباط/ فبراير ومع ذلكَ ها أنا في شهرِ تموز/ يوليو في الشهرِ الثاني أو الثالث من الحملِ. سيعلمُ رالف والجميع أنَّ الطفلَ ليسَ طفلهُ وأنَّ كونتيسة شايرنغ ارتكبت الزنى».

«ولكنه قد...»

«يقتلني؟ لقد قتلَ تيلي؟ أليس هذا صحيحاً؟»

«ربَّاه. لقد فعلها ولكن...»

«وإن قتلني فسيقتلُ طفلي أيضاً».

أرادَ ميرثن أن يقولَ إنّ هذا غير ممكن وأنَّ رالف لن يقوم بمثلِ هذا الأمرِ إلا أنَّه يعرفُ أنَّ هذا غيرُ صحيح.

«يجبُ أن أقرر ما علي فعلهُ»، قالت فيليبا.

«لا أعتقدُ أنَّ عليكِ محاولةُ إنهاء الحملِ باستخدامِ عقاقير فالأمرُ خطيرٌ جداً».

«لن أفعلَ هذا».

«إذاً، ستنجبين الطفلَ».

«أجل، ولكن ماذا بعد؟»

«فلتبقي في ديرِ الراهباتِ ولتحتفظي بالطفلِ فيهِ سراً. إنَّ المكان مكتظٌ بالأيتامِ الذين خلَّفهن الطاعون».

«ولكن حبَّ الأم لا يمكنُ إخفاؤه. سيعلمُ الجميعُ أنَّ الطفلَ موضع اهتمامي الخاص وسيكتشفُ رالف الحقيقةَ».

«أنتِ على حقٍ».

«يمكنني أن أسافر... أختفي. أذهبُ إلى لندن أو يورك أو باريس أو أفينيون دونَ أن أخبرَ أحداً بمكاني، وبالتالي لن يتمكنَ رالف من مطاردتي».

«ويمكنني أن آتي معكِ».

«ولكن لن تتمكنَ من إنهاءِ العملِ على برجكَ».

«وستشتاقين إلى أوديلا».

تزوجت ابنةُ فيليبا من الإيرل ديفيد منذُ ستةِ أشهرٍ، ولذلكَ يمكنُ لميرثن أن يتخيل الصعوبةَ التي ستواجهها فيليبا في الابتعاد عنها، وللأمانةِ سيشعرُ بالحزنِ إن اضطرَّ إلى التخلي عن مشروعِ بناءِ البرجِ، فقد كانَ حلمهُ منذُ نعومةِ أظفارهِ أن يبني أطول مبنى في إنكلترا، والآنَ وبعدَ أن بدأ فيهِ أخيراً سيتحطم قلبهُ إن تخلى عنه.

وعندما فكَّرَ بالبرجِ حضرت كاريس في أفكارهِ أيضاً، وبشكلٍ بديهي علمَ بأنَّ هذهِ الأخبار ستحطمها. لم يرها منذُ أسابيع فقد كانت طريحةَ الفراشِ بسببِ ضربةٍ تلقتها على رأسها في سوقِ الصوفِ، والآن وبعدَ أن استعادت عافيتها بالكامل بالكادِ تظهرُ في الديرِ، وتكهنَ بأنَّها خسرت في صراعٍ ما على السلطةِ لأنَّ الأخَ سايم يديرُ المستشفى الآن. سيكونُ خبرُ حملِ فيليبا ضربةً قاصمةً أخرى لكاريس.

أضافت فيليبا: «وأوديلا حاملٌ أيضاً».

«بهذهِ السرعةِ! يا له من خبرٍ جيدٍ، ولكن هذا سببٌ إضافي يمنعكِ من السفرِ وعدم رؤيتها مجدداً أو رؤيةِ حفيدك».

«لا يمكنني الهربُ ولا يسعني الاختباء، ولكن إن لم أفعل شيئاً حيالَ الأمرِ سيقتلني رالف».

«لا بدَّ من وجودِ حلٍ ما»، قال ميرثن.

«لا يسعني التفكيرُ سوى بحلٍ واحدٍ».

نظرَ إليها وأدركَ أنّها لم تخبرهُ بالمشكلةِ قبل أن تجدَ الحلَّ، ولكنها حرصت أولاً على استبعادِ جميع الحلولِ الواضحةِ، وهذا يعني أنَّ الخطةَ التي استقرَّت عليها لن تعجبهُ.

«أخبريني»، قال لها.

«يجبُ أن أجعلَ رالف يعتقدُ أن الطفلَ طفلهُ».

«ولكنكِ ستضطرين...»

«أجل».

«فهمت».

وجدَ ميرثن فكرةَ نومِ فيليبا مع رالف مقززةً، ولم تكن الغيرةُ السببَ رغمَ أنّها عاملٌ أيضاً، ولكن ما كانَ يهمهُ أكثر هو فظاعة شعورِ فيليبا حيالَ الأمرِ لأنها تتقززُ من رالف جسدياً وعاطفياً، وتفهمَ ميرثن هذا التقززَ رغمَ أنّه لم يكن يشاركها إياه. لقد عاشَ طوالَ حياتهِ مع شخصيةِ رالف البربرية ولكنه شقيقهُ وبقيت هذهِ الحقيقة راسخةً في عقلهِ رغمَ كل ما اقترفهُ رالف، ولكن فكرةَ أن تُجبر فيليبا نفسها على ممارسةِ الجنسِ مع أكثرِ رجلٍ تكرهه في العالمِ أثارت غثيانه.

«أتمنى حقاً لو أنني كنتُ قادراً على التفكيرِ بطريقةٍ أفضل»، قال ميرثن.

«وأنا أيضاً».

أمعنَ النظرَ إليها وقالَ: «لقد حسمتِ قرارك».

«أجل».

«أنا آسفٌ بشدةٍ».

«وأنا أيضاً».

«ولكن هل سينجحُ هذا الحل؟ هل يمكنكِ.. إغواؤهُ؟»

«لا أعلم»، قالت فيليبا. «يجب أن أحاولَ».

***

كانت كاتدرائيةُ كينغزبريدج مبنيةً بشكلٍ متناظر حيثُ تقعُ سقيفةُ البنائين في الطرفِ الغربي من البرجِ الشمالي الواطئ وتطلُّ على الرواقِ الشمالي، وفي البرج الغربي الجنوبي المقابل هناك غرفةٌ بحجم وشكل سقيفةِ البنائين وتطلُّ على الرواقِ المسقوفِ، وهي مخصصة لتخزينِ أغراضٍ ثانويةٍ لا تُستخدمُ إلّا في حالاتٍ نادرةٍ فقط كالأزياء والرموز المستخدمةِ في مسرحياتِ الغموضِ[1] ومجموعة من الأشياءِ عديمةِ القيمةِ تماماً؛ شمعدان خشبي وسلاسل صدئة وقدور متصدعة وكتابٌ من ورقِ الرِّقِ المتعفن بفعلِ مرورِ الزمنِ فانمحت الكلمات التي كُتبت عليهِ بجهدٍ كبيرٍ.

صعدَ ميرثن إلى هناك لتفقدِ استقامة الجدارِ بإنزالِ حبلٍ طويلٍ ينتهي بقطعةٍ من الرصاص من النافذةِ ولكنه اكتشفَ شيئاً آخر.

وجدَ صدوعاً في الجدارِ، ولكنها لم تكن بالضرورةِ دلالةً على ضعفٍ ولكن لا يمكنُ حسمُ هذا قبلَ أن يفحصَ خبيرٌ الصدعَ. كانت جميعُ الأبنيةِ تتحركُ وقد تكونُ الصدوع دلالةً على تحرّكِ البنيةِ كي تتأقلم مع التغييرِ بكل بساطةٍ، ورأى ميرثن أنَّ جميعَ الصدوعِ في جدارِ غرفةِ التخزينِ حميدةٌ، إلا أن شيئاً ما لم يبدُ طبيعياً أثارَ حيرتهُ، وبعدَ نظرةٍ ثانيةٍ استنتجَ أنَّ أحداً ما استغلَّ صدعاً طبيعياً لإزاحةِ حجرٍ صغيرٍ، وأزالَ ميرثن الحجرَ من مكانهِ.

أدركَ على الفورِ أنّه اكتشفَ مخبأ لصٍ وأخذَ يُخرجُ الأشياءَ منهُ الواحدَ تلو الآخر. عثرَ على دبوس زينةٍ نسائي بحجرٍ أخضر كبير وإبزيم حزام فضي وشال حريري ولفافة كُتبَ عليها مزمورٌ. وعميقاً في داخلِ الفجوةِ عثرَ على غرضٍ مكّنه من تحديد هويةِ اللصّ. كانَ الغرضُ الوحيد في الفجوةِ الذي لم يكن لهُ قيمة مادية وكان قطعةً خشبيةً حُفرَ عليها أحرفٌ: ميم. فيم. آمات.

يشيرُ الحرفُ ميم إلى الحرفِ الأوّلِ من اسمٍ ما، وآمات تعني باللاتينيةِ «يحبُّ»، و«فيم» اختصار فيليمون دونَ أدنى شكٍ.

كان هناكَ شخصٌ ما يبدأ اسمهُ بالميم، صبي أو فتاة، أحبَّ فيليمون في يومٍ من الأيامِ وأعطاهُ هذهِ القطعةَ الخشبيّةَ فخبأها فيليمون مع كنوزهِ المسروقةِ.

لطالما حامت الشائعاتُ حولَ فيليمون عن أنّه لصٌ منذُ طفولتهِ فقد كانت

1- شاعت في القرونِ الوسطى مسرحيات الغموض وقد استمدت مواضيعها من قصص الإنجيل وسير القديسين. (المترجمة)

الأغراضُ من حولِهِ تختفي، ويبدو أنَّ هذا المكان كانَ مخبأهُ. تخيلهُ ميرثن يصعدُ إلى هنا وحيداً، ربما ليلاً، ويسحب الحجر ويتأملُ في إعجابٍ غنائمهُ. لا شكَّ أنَّ هذا مرضٌ من نوعٍ ما.

لم يكن هناك أيّ إشاعاتٍ حول امتلاك فيليمون لعشاقٍ، وكمعلمهِ غودوين بدا واحداً من تلكَ الأقليةِ من الرجالِ الذين يعتبرون الحبَّ الجسدي ضعفاً، ولكن شخصاً ما وقعَ في غرامهِ في وقتٍ ما ولهذهِ الذكرى مكانةٌ عزيزةٌ في قلبِ فيليمون.

أعادَ ميرثن الأغراضَ إلى مكانها وكما وجدها تماماً فقد كان يمتلكُ ذاكرةً جيدةً لمثلِ هذهِ الأمورِ، ثمَّ أعادَ الحجرَ إلى مكانهِ وغادرَ الغرفةَ على مهلٍ وهبطَ الدرجَ الحلزوني.

***

تفاجأ رالف بعودةِ فيليبا إلى القلعةِ.

كانَ يوماً صيفياً صافياً ورطباً على غيرِ العادةِ ولذلك أرادَ الخروجَ للصيدِ. استشاطَ غيظاً لعدم تمكنهِ من الخروجِ فقد كان موسمُ الحصادِ على وشكِ البدءِ ومعظمُ ممثليه ووكلائهِ والمسؤولين عن أراضي مقاطعتهِ يحتاجون إلى مقابلتهِ على وجهِ السرعةِ، وكانوا جميعاً يعانون من المشكلةِ ذاتها: المحاصيلُ تنضجُ في الحقولِ ولا يوجد ما يكفي من الرجالِ والنساءِ لحصادِها.

كان عاجزاً عن تقديمِ المساعدةِ، وعلى الرغمِ من ملاحقتهِ للعمالِ الذين تحدوا القانون بمغادرةِ قراهم باحثين عن أجورٍ أعلى، ولكن القلّة التي أمسكَ بها دفعت الغرامةَ من العوائدِ وهربت مجدداً ولذلكَ كانَ على وكلائهِ تدبير أمورهم، وها هم هنا يريدون أن يشرحوا لهُ الصعوبات التي يواجهونها، ولم يكن لديهِ أيُّ خيارٍ سوى الاستماع إليهم والموافقةِ على خططهم المؤقتةِ.

كانت القاعةُ ممتلئةً بالوكلاء والفرسان والجنود وبضعةِ كهنةٍ ومجموعةٍ من الخدمِ المتسكعين في الجوارِ، وعندما هدأ الجميع سمعَ رالف فجأةً نعيبَ الغربانِ في الخارج وصراخهم الحاد كأنّه تحذير فرفعَ رالف نظرهُ ورأى فيليبا عندَ المدخلِ.

تحدثت إلى الخدمِ قائلةً: «مارثا! ما تزالُ هذهِ الطاولةُ قذرةً منذُ الغداء، فلتحضري ماءً ساخناً ونظفيها على الفور. ديكي، فرسُ الإيرل المفضل مُغطى بما يشبهُ الوحل منذ البارحة وأنتَ هنا تبري عوداً، عُد إلى الإسطبلات حيثُ

يجبُ أن تكون ونظّف الحصان. أنتَ أيها الفتى فلتترك الجرو من يدك لقد تبولَ على الأرضيةِ للتو، الكلبُ الوحيد المسموح لهُ بالتواجد هنا هو كلبُ الإيرل الكبير وأنتَ تعلمُ هذا». وفجأة تحرَّكَ الخدمُ من أمكنتهم يبحثون عمَّا يقومون بهِ بمن فيهم أولئكَ الذين لم تخاطبهم فيليبا.

لم يمانع أن تصدرَ فيليبا الأوامر على خدمِ المنزلِ الذين أصبحوا كسالى في غيابِ سيدةٍ تحثُّهم على العملِ.

تقدَّمت فيليبا نحوهُ وحيَّتهُ بلباقةٍ شديدةٍ كما يُفترضُ بشخصٍ عائدٍ بعدَ غيابٍ طويلٍ، ولكنها لم تقبلهُ.

قالَ لها بحيادٍ: «إن هذا.... غير متوقع».

قالت فيليبا باهتياجٍ: «لم يكن علي القدوم قط».

زمجرَ رالف بصمتٍ وسألها: «ما الذي أحضركِ إلى هنا؟». كان واثقاً من أنَّ هناك متاعب وراءَ قدومها إلى القلعة.

«ملكيتي في إنغسبي».

كانت لفيليبا ممتلكاتها الخاصَّة في قرى في غلاوسترشير، وكانت عوائد هذهِ القرى تُدفعُ لها وليسَ إلى الإيرل، وعلمَ رالف أنَّه ومنذُ مغادرتها القلعةَ إلى ديرِ الراهباتِ باتَ وكلاءُ هذهِ القرى يزورون ديرَ كينغزبريدج بدلاً من القدومِ إلى شايرنغ، ويقدمونَ لها مباشرةً مستحقاتها. ولكن وضعَ إنغسبي كانَ مُربكاً فقد كانَ سيدُ القريةِ قد دفعَ المستحقاتِ لهُ ولذلك على رالف أن يعطيها إياها إلا أنَّه نسي أن يفعلَ هذا منذُ أن غادرت. «اللعنة»، قال رالف. «لقد غابَ الأمرُ عن ذهني تماماً».

«لا بأس»، قالت له في لطفٍ مفاجئ. «لديكَ الكثيرُ من الأمورِ لتفكرَ بها».

صعدت فيليبا إلى الطابقِ العلوي حيثُ غرفةُ نومها الخاصة وعادَ رالف إلى عملهِ. كان انفصالهما لنصفِ عامٍ قد جعلها أفضل بقليلٍ، هذا ما فكرَ بهِ رالف بينما أحدُ وكلائهِ يعددُ له حقول ذرة ناضجة أخرى ويشتكي من قلَّةِ الحاصدين. على الرغمِ من هذا كانَ يأمل ألا تطولَ زيارتها فقد كانَ النومُ إلى جانبها ليلاً أشبهُ بالنومِ مع بقرةٍ ميتةٍ.

ظهرت فيليبا مجدداً على العشاءِ وجلست إلى جانبِ رالف. تحدَّثت بتهذيبٍ إلى العديدِ من الفرسان الزائرين خلالَ العشاءِ، وكانت لطيفةً ولكن متحفظةً في آن معاً، ورغم أنَّها لم تظهر أيَّ عاطفة أو مرح فإنَّه لم يرَ أيّاً من

ذلكَ الحقدِ المتأجج والقاسي التي أظهرتهُ بعدَ زفافهما. ربما اختفى أو ربما نجحت في إخفائهِ عميقاً، وعندما انتهوا من تناولِ العشاءِ عادت إلى غرفتها مجدداً تاركةً إياه يشربُ مع الفرسانِ.

كانَ رالف يفكرُ في احتماليةِ أنّها خططت للعودةِ بشكلٍ دائم، ولكنهُ صرفَ النظرَ عن هذهِ الفكرةِ فهي لم تكن تحبهُ أو حتّى تستلطفهُ، وما حدثَ حقاً هو أنَّ الغيابَ الطويلَ خففَ من حدةِ استيائها إلا أنَّ هذا الشعورَ الدفينَ غالباً لم يفارقها قط.

افترضَ أنّه عندما يصعدُ إلى الغرفةِ سيجدها نائمةً ولكنه تفاجأ عندما رآها جالسةً إلى طاولةِ الكتابةِ في ثوبٍ ليلي عاجي اللون وشمعة وحيدة تلقي بنورها اللطيف على تقاسيم وجهها المُعتدةِ وشعرها الأسود الكثيف، وأمامها رسالةٌ مكتوبة بخطٍ طفولي وتكهن رالف أنَّ الرسالةَ من أوديلا التي أصبحت الآن كونتيسةَ مونماوث وأنَّ فيليبا تخطُّ جواباً على الرسالةِ. وكمعظمِ الأرسطوقراطيين كانت تُملي رسائلَ العملِ على موظفٍ أمّا رسائلها الشخصيةُ فكانت تخطها بنفسها.

دخلَ إلى غرفةِ الملابسِ ثمَّ خرجَ وخلعَ ملابسهُ باستثناءِ ثيابهِ الداخليةِ. كانَ الوقتُ صيفاً وعادةً ما كانَ ينامُ في ثيابهِ الداخليةِ.

أنهت فيليبا رسالتها ووقفت فأوقعت الدواةِ وسالَ الحبرُ على الطاولةِ. حاولت أن تمسكَ الدواةَ قبل أن تقع إلا أنّها تأخرت، وانسكبَ بعضُ الحبرِ عليها مُلطخاً ثوبها الليلي الأبيضَ ببقعةٍ سوداء كبيرةٍ. استمتعَ رالف بالمشهدِ قليلاً فقد كانت فيليبا دقيقةً على نحو صارمٍ ولهذا كانت رؤيتها ملطخةً بالحبرِ أمراً مضحكاً.

ترددت لبرهةٍ إلا أنّها أخيراً خلعت رداءها الليلي.

بوغتَ رالف فعادةً ما كانت سريعةً في خلعِ ملابسها وأدركَ أنّها كانت متضايقةً من مسألةِ الحبرِ. حدّقَ إلى جسدها العاري ورأى أنّها كسبت بعضَ الوزنِ في ديرِ الراهباتِ، وبدا ثدياها أكبر وأكثر استدارةً من ذي قبلٍ وبطنها منتفخاً بعضَ الشيءِ ووركاها مكورين بطريقةٍ مثيرةٍ، وتفاجأ من نفسهِ عندما شعرَ بالإثارةِ.

انحنت لتمسحَ الحبر عن بلاطِ الأرضيةِ بثوبها الليلي الملفوفِ فاهتزَّ ثدياها وهي تمسحُ البلاطَ. استدارت ورأى مؤخرتها الممتلئةَ بشكلٍ كاملٍ، ولو أنّه لم

يكن يعرفها جيداً لاعتقدَ أنّها تحاولُ إثارتهُ، ولكن فيليبا لم تحاول قبلاً أن تثيرَ أيَّ أحدٍ وهي لن تحاولَ أن تثيرهُ أبداً. كانت محرجةً وتتصرفُ بشكلٍ أخرق وزادَ هذا من حماسِ التحديقِ إلى جسدها العاري وهي تمسحُ الأرضَ.

كانَ قد مضى أسابيع عديدة مُذ ضاجع امرأةً وقد كانت المضاجعةُ الأخيرة مع عاهرة في سالزبيري غيرَ مرضية.

وعندما وقفت فيليبا كانَ عضوه قد انتصبَ.

رأتهُ يحدقُ بها فقالت له: «لا تنظر إلي. اخلد للنومِ». ورمت الثوبَ الملطخ في سلّةِ الغسيلِ.

توجهت إلى سلةِ الثيابِ النظيفةِ ورفعت غطاءها. كانت قد تركت معظمَ ثيابها هنا عندما انتقلت إلى كينغزبريدج فلم يكن إرتداءُ ثياب باهظة الثمن في ديرٍ لائقاً حتّى وإن كانَ هذا الشخصُ ضيفاً نبيلاً. عثرت على رداءٍ ليلي آخر بينما رالف يتابعها بنظراتِهِ وهي ترفعُ الثوبَ. حدَّقَ إلى ثدييها الناهدين وشعرِ عانتها الداكنِ وشعرَ بفمِهِ جافاً من فرطِ الإثارةِ.

انتبهت إليهِ ينظرُ وقالت له «لا تلمسني».

لو أنّها لم تقل هذا لكان استلقى وخلدَ للنومِ ولكن رفضها السريع وخزهُ.

«أنا إيرل شايرنغ وأنتِ زوجتي»، قال لها. «سألمسكِ متى أردت».

«لن تجرؤ»، قالت له واستدارت لترتدي ثوبها.

أثارَ ردها غضبهُ ولذلك عندما رفعت الثوبَ فوقَ رأسها لترتديهِ صفعها على مؤخرتها. كانت صفعةً قاسيةً على جلدٍ عارٍ وعرفَ أنَّ الصفعةَ آلمتها فقد قفزت في مكانها وصرخت. «أجرؤ وكثيراً جداً» قال لها. استدارت نحوه وقد ارتسمَ على شفتيها تعبيرٌ ينمُّ عن الاحتجاجِ وفي ردِ فعلي لا إرادي لكمها على فمها فترنحت إلى الوراءِ وسقطت على الأرضيةِ. سارعت إلى وضعِ يديها على فمها بينما سالَ الدمُ من بينِ أصابعها، إلا أنّها كانت على ظهرها وساقاها منفرجتان ورأى رالف مثلثَ الشعرِ بين فخذيها وشقُّ عانتها منفرج قليلاً كأنّه دعوة.

ورمى بنفسِهِ عليها.

اهتّزت تحتهُ تقاومهُ بشراسةٍ ولكنه كانَ أكبرَ وأقوى منها فكبحَ مقاومتها من دونِ جهدٍ وبعدَ قليل كانَ قد أقحمَ عضوهُ داخلها. لم تكن رطبةً وأثارهُ هذا.

انتهى الأمرُ سريعاً ونزلَ رالف عنها وهو يلهثُ. نظرَ إليها بعدَ بضعِ دقائق ورأى الدمَ على فمها إلا أنّها لم تكن تنظر إليهِ فقد كانت عيناها مغمضتين،

ولكن رالف رأى تعبيراً غريباً على وجهها، وفكَّرَ بهِ لبرهةٍ إلى أن فهمهُ وعندها ازدادَ حيرةً أكثر من ذي قبلٍ.

لقد كانَ تعبيراً ينمُّ عن انتصارٍ.

***

علمَ ميرثن أن فيليبا عادت إلى كينغزبريدج عندما رأى خادمتها في حانةِ بيل ولذلكَ توقعَ أن تأتي إلى منزلهِ في تلكَ الليلةِ، ولكن أملهُ خابَ عندما لم تأتِ. وفكرَ بأنَّها حتماً تشعرُ بالحرجِ فما من امرأةٍ ستكونُ مرتاحةً حيالَ ما فعلتهُ حتَّى وإن كانت الأسبابُ قاهرةً والرجلُ الذي تحبهُ يعلمُ ويتفهم.

ومرَّت ليلةٌ أخرى ولم تأتِ فيليبا ثمَّ في يومِ الأحدِ كانَ واثقاً من أنَّه سيراها في الكنيسةِ، إلا أنَّها لم تحضر قداس الأحدِ أيضاً. كان تغيبُ النبلاءِ عن قداسِ الأحدِ أمراً مستغرباً، وتساءلَ ميرثن عن سببِ تغيبها.

بعدَ انتهاءِ القداسِ أرسلَ ميرثن لولا إلى المنزلِ مع آرت وإم ثمَّ عبرَ حديقةَ الكاتدرائيةِ باتجاهِ المستشفى القديم. صعدَ ميرثن الدرجَ الداخلي الذي يُفضي إلى الطابقِ العلوي حيثُ توجد ثلاثُ غرفٍ مخصصةٍ للضيوفِ المهمين.

وفي الردهةِ التقى ميرثن بكاريس وجهاً لوجه.

لم تكلف نفسها عناءَ سؤالِهِ عمَّا يفعلهُ هنا بل قالت على الفورِ: «لا ترغبُ الكونتيسة بأن تراها ولكن ربما عليكَ أن تراها».

لاحظَ ميرثن أمراً غريباً في العبارةِ فهي لم تقل: «لا تريدُ الكونتيسةِ أن تراك»، بل «لا ترغبُ الكونتيسةِ بأن تراها»، ونظرَ إلى الوعاء الذي كانت كاريس تحملهُ ولاحظَ خِرقةً ملطخةً بالدماءِ، وغاص قلبهُ في صدرهِ خوفاً: «ما الخطب؟»

«لا شيء خطير»، قالت كاريس. «الطفلُ بخير».

«شكراً للرَّبِّ».

«أنتَ الوالد بالطبعِ؟»

«أرجوكِ لا تدعي أحداً يسمعكِ تتفوهين بهذا!».

بدت حزينةً وقالت: «كنَّا معاً لسنواتٍ ولم أحمل سوى مرَّة واحدة».

أشاحَ بنظرهِ بعيداً وسألها: «في أيِّ غرفةٍ هي؟»

«أعتذرُ لأنني تحدثتُ عن نفسي فأنا آخرُ شخصٍ قد تهتمُ بهِ. الليدي فيليبا في الغرفةِ الوسطى».

أحسَّ بحزنٍ مكبوحٍ ببؤسٍ في صوتها ورغمَ قلقهِ على فيليبا فإنَّه توقفَ لبرهةٍ ولامسَ ذراع كاريس ثمَّ قال: «أرجوكِ لا تعتقدي بأنَّ أمركِ لا يهمني فلطالما اهتممت بما يحدثُ لكِ وبسعادتكِ».

أومأت برأسها وانحدرت الدموعُ من عينيها ثمَّ قالت: «أعلم، وأنا أتصرَّفُ بأنانيةٍ، فلتذهب لترى فيليبا».

تركَ ميرثن كاريس ودخلَ إلى الغرفةِ الوسطى. كانت فيليبا راكعةً على مقعدِ الصلاةِ وظهرها للبابِ وقاطعَ صلاتها قائلاً: «هل أنتِ بخير؟»

وقفت والتفتت نحوهُ ورأى وجهها في حالةٍ مزريةٍ وشفتيها متورمتين إلى ثلاثةِ أضعافِ حجميهما الطبيعيين ومرضوضتين بشدَّةٍ.

تكهنَ ميرثن أنَّ كاريس كانت تغسلُ الجرحَ ولهذا السببِ كانت تحملُ الخُرقة الملطخة بالدماءِ. «ما الذي حدثَ؟» قالَ ميرثن. «هل يمكنكِ التحدث؟»

أومأت برأسها ثمَّ تحدثت بعسرٍ ولكن بشكلٍ مفهومٍ: «صوتي غريب إلا أني أستطيعُ الكلام».

«هل إصابتكِ خطيرةٌ؟»

«وجهي في حالةٍ مزريةٍ ولكن الأمر ليسَ خطيراً، وباستثناء هذا أنا بخير».

أحاطها بذراعيهِ فأراحت رأسها على كتفهِ وانتظرها وهو يحتضنها، وبعدَ برهةٍ بدأت تبكي.

مسَّدَ على شعرها وظهرها بينما أجهشت بالبكاءِ ثمَّ قال لها: «فلتهدأي، فلتهدأي»، وقبَّلَ جبهتها إلا أنَّه لم يحاولْ إسكاتها.

وشيئاً فشيئاً تراجع نحيبها.

قالَ لها: «هل يمكنني تقبيل شفتيكِ؟»

أومأت وقالت: «بلطفٍ».

لامسَ شفتيها بشفتيهِ بلطفٍ ووجدهما بطعمِ اللوزِ من الزيت الذي دهنتهُ كاريس عليهما ثمَّ قال لها: «أخبريني بما حدث».

«لقد نجحَ الأمرُ وانطلت عليهِ الحيلةُ، وسيكونُ واثقاً من أنَّ الطفل طفلهُ».

لامسَ فمها بأطرافِ أصابعهِ وسألها: «وهل هو من سببَ لكَ هذا؟»

«لا تغضب فقد حاولت استفزازهُ ونجحتُ. يجبُ أن تُسر لأنَّه ضربني».

«مسرورا! لماذا؟»

«لأنَّه اعتقدَ أنهُ أجبرني واعتقدَ أنني لم أكن لأستسلم لهُ من دونِ عنفٍ. إنَّه لا يملكُ أدنى فكرة أنني كنتُ أغويهِ ولذلك لن يشكَّ في الأمر، وهذا يعني أنني بأمانٍ... وطفلكَ كذلكَ».

وضعَ يدهُ على بطنها وسألها: «ولكن لماذا لم تأتِي لرؤيتي؟»

«وأنا على هذهِ الحالةِ؟»

«أريدُ أن أكونَ معكِ حتَّى عندما تكونين مصابةً»، وحرَّكَ يدهُ ثمَّ وضعها على ثدييها. «علاوةً على هذا فقد اشتقتُ إليكِ».

أبعدت يده وقالت: «لا يمكنني أن أنتقلَ من رجلٍ إلى آخر كعاهرةٍ».

«أوه»، قال فلم يفكر بهذا قط.

«هل تتفهم موقفي؟»

«أعتقدُ هذا»، قالَ ميرثن وفهمَ أنَّ المرأةَ إن فعلت هذا فستشعرُ أنَّها رخيصةٌ ولكن لو أنَّ رجلاً فعل هذا لشعرَ بالفخرِ. «ولكن إلى متى...؟»

تنهدت وابتعدت ثمَّ قالت: «المسألةُ ليست إلى متى».

«ما الذي تعنيهِ؟»

«لقد اتفقنا أن نقولَ للعالم أنَّه طفلُ رالف ولقد حرصت على أن يعتقدَ هذا، وهو الآن سيرغبُ بتربيتهِ».

شعرَ ميرثن بخيبةِ الأملِ ثمَّ قال: «لم أفكر بهذهِ التفاصيل، ولكني تخيلتُ أنكِ ستبقين في الديرِ».

«لن يسمحَ رالف لطفلهِ بأن ينشأ في ديرٍ خاصَّةً إن كانَ صبياً».

«إذاً، ما الذي ستفعلينهُ؟ أستعودين إلى القلعةِ؟»

«أجل».

كان الطفلُ مجرَّد مضغة ولم يكن شخصاً ولا حتَّى طفلاً بل مجرَّد انتفاخ في بطنِ فيليبا، ولكن ميرثن شعرَ بحزنٍ كالطعنةِ في قلبهِ. كانت لولا أعظمَ سعادةٍ في حياتهِ وكانَ يتطلعُ بتوقٍ إلى الحصولِ على طفلٍ آخرٍ.

ولكنهُ على الأقلِ سيحظى بصحبةِ فيليبا لبعضِ الوقتِ ولذلكَ سألها: «متى ستغادرين؟»

«على الفورِ»، قالت له ورأت النظرةَ على وجههِ فانحدرت الدموعُ من عينيها. «لا يمكنني أن أعبرَ لكَ عن مدى أسفي حيال هذا ولكني لا أعتقد أن

ممارسةَ الحبِ معكَ في الوقتِ الذي أخططُ فيهِ للعودةِ إلى رالف أمرٌ صائبٌ. سيكونُ هذا موقفي في ما لو كنتما رجلين مختلفين ولكن حقيقة أنكما شقيقان تجعلُ الأمرَ أكثرَ قُبحاً».

ملأت الدموعُ عينيهِ وسألها: «هل انتهى أمرنا؟ الآن؟»

أومأت برأسها وقالت: «وهناكَ أمرٌ آخر يجبُ أن أخبركَ بهِ وهو سببٌ إضافي يمنعنا من استئناف علاقتنا الغراميةِ. لقد اعترفت بممارسةِ الزنى».

يعلمُ ميرثن أنَّ لفيليبا كاهنُ اعترافٍ خاص بها كما يليقُ بالنبيلات المرموقات. ومنذُ قدومها إلى كينغزبريدج عاشَ الكاهنُ مع الرهبانِ، وقد رحبوا بهِ بينَ صفوفهم التي تراجعت بفعلِ الوباءِ. وها هي الآن قد اعترفت لهُ بأمرِ العلاقةِ. كانَ ميرثن يأملُ ألا يُفشي الكاهن أسرارَ الاعترافِ.

قالت فيليبا: «رغم حصولي على الغفران فإنني لا أستطيعُ الاستمرار في ممارسةِ الخطيئةِ».

أومأ ميرثن برأسهِ فقد كانت مُحقةً في كلامها. لقد مارسا الخطيئةَ، وخانت فيليبا زوجها وهو خانَ شقيقهُ. كانت تملكُ عذراً فقد أُجبرت على الزواجِ منهُ إلا أنَّه لم يملك عذراً. لقد وقعت امرأةٌ جميلةٌ في غرامهِ وهو وقعَ في غرامها رغمَ أنَّه لم يملك الحقَّ في فعلِ هذا. وكان شعورهُ بالحزنِ والفقدِ القاتلين الآن نتيجةً طبيعيةً لمثلِ هذا السلوكِ.

نظرَ إليها وإلى عينيها الخضراوين الضاربتين إلى اللونِ الرمادي وفمها المشوهِ وجسدها الرَّيان وأدركَ أنَّه خسرها. ربما لم يملكها قط. على أيِّ حالٍ كانَ الأمرُ برمتهِ غلطتهُ وقد انتهت الآن. حاولَ أن يتحدث، أن يودعها، ولكن يبدو أنَّ حنجرتهُ قد أغلقت ولم يستطع التفوه بشيءٍ. أغشت الدموع بصره وبالكاد كانَ قادراً على رؤيةِ شيءٍ فأشاحَ بنظرهِ بعيداً وسارَ متعثراً نحو البابِ ثمَّ خرجَ.

كانَ هناكَ راهبةٌ تسيرُ في الردهةِ حاملةً إبريقاً، ورغم أنَّه لم يكن قادراً على رؤيتها فإنَّه ميَّزَ صوتَ كاريس عندما قالت: «ميرثن؟ هل أنتَ بخير؟»

لم يُجبها وسارَ في الاتجاهِ المعاكسِ ثمَّ عبرَ البابَ ونزلَ الدرجَ الخارجي وهو ينشجُ علناً دونَ أن يهتم إن رآه أحدٌ، وسارَ عبرَ حديقةَ الكاتدرائيةِ باتجاهِ الطريق الرئيسي ثمَّ عبرَ الجسر باتجاهِ جزيرتهِ.

كانَ شهرُ أيلول/ سبتمبر من عام 1350 شهراً بارداً ورطباً ولكن حالةً من البهجةِ والنشاطِ سادت الأجواء حيثُ جُمعت سنابل القمحِ الرطبةِ في القرى المجاورةِ ولم يقتل الطاعون في كينغزبريدج سوى مارجي تايلر، خياطةُ فساتين في العقدِ السادسِ من العمرِ، ولم يُصب أحدٌ بالعدوى في شهرِ تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر، وفكرَ ميرثن بأنَّ الطاعون اختفى للآن على الأقلّ.

كانت هجرةُ الأيدي العاملةِ، هجرةُ الناس المستائين، من الريفِ إلى المدينةِ قد تحولت إلى هجرةٍ من المدينةِ إلى الريفِ خلالَ فترةِ الوباءِ ولكنها الآن عادت إلى سابقِ عهدها. أتى الناسُ إلى كينغزبريدج وانتقلوا إلى المنازلِ الفارغةِ وأصلحوها ودفعوا إيجارها إلى الديرِ، وبدأ بعضهم بأعمالٍ جديدةٍ كالعملِ في المخابزِ وتخميرِ الجعةِ وصناعةِ الشموعِ، واستولوا على الصناعاتِ القديمةِ التي اختفى مالكوها وورثتهم جرَّاءَ الطاعونِ، وبصفتهِ رئيسَ النقابةِ سهّلَ ميرثن عمليةَ فتح المتاجرِ ونصب الأكشاك في الأسواقِ وقد تخلَّصَ الآن من وطأةِ عمليةِ الحصولِ على إذنِ الدير، وأسبوعاً بعد آخر ازدادَ السوقُ الأسبوعي اكتظاظاً.

نجحَ ميرثن بتأجيرِ جميعِ المتاجرِ والمنازل والحاناتِ التي بناها على جزيرةِ ليبر، الواحد تلو الآخر، وكان المستأجرون لديهِ إمَّا من مُلَّاكِ الأعمالِ الجددِ أو التجار الأصليين في المدينةِ وممن أرادوا مواقع عملٍ أفضل، وأصبحَ الطريقُ عبرَ الجزيرةِ بين الجسرين امتداداً للطريقِ الرئيسي وبالتالي ملكيةً تجاريةً أساسيةً تماماً كما توقعَ ميرثن منذُ اثني عشرَ عاماً عندما اعتقدَ الناسُ أنَّه مجنونٌ لقبولهِ بجزيرةٍ صخريةٍ جرداء كأجرٍ له على عملهِ على الجسرِ.

اقتربَ الشتاءُ وعادَ دخانُ آلافِ المداخنِ في المدينةِ ليتكثفَ في الأجواء كغمامةٍ بنية منخفضةٍ، ولكن الناس استمروا في العملِ والتسوقِ والأكلِ والشربِ ولعبِ النردِ في الحاناتِ والذهابِ إلى الكنيسةِ أيامَ الآحاد، وأقيمت في غيلد هول أول وليمةٍ ليلة عيد الميلاد منذُ أن تحولت نقابة الأبرشيةِ إلى نقابة المنطقةِ الإداريةِ.

دعا ميرثن رئيس الديرِ ورئيسةَ دير الراهباتِ إلى الوليمةِ. لم يعد للرئيس والرئيسةِ السلطةُ على فرضِ قراراتهم على التجارِ ولكنهما ما زلا من بين أهمِّ

الشخصياتِ في المدينةِ. أتى فيليمون ولكن كاريس اعتذرت عن الدعوةِ فقد أصبحت في الآونةِ الأخيرةِ متقوقعةً على نفسها بشكلٍ مقلقٍ.

جلسَ ميرثن إلى جانبِ مادج ويبر التي باتت الآن أثرى تاجرةٍ في المدينةِ وصاحبةً أكبر عددٍ من العمالِ في كينغزبريدج، وربما في جميع أرجاءِ البلادِ. كانت نائبةَ رئيسِ النقابةِ وربما كانَ يجبُ وضعها رئيسةً للنقابةِ لولا أنَّ الأعراف لا تسمحُ لامرأةٍ باستلامِ مثلِ هذا المنصبِ.

من بينِ الأعمالِ الكثيرةِ التي كانَ يديرها ميرثن كانَ لديهِ ورشةٌ لصنعِ أنوالٍ بدواساتٍ وقد ساهمت هذهِ الأنوال في تطويرِ نوعيةِ قماشِ كينغزبريدج القرمزي. كانت مادج تشتري أكثرَ من نصفِ ما تنتجهُ هذهِ الأنوالِ، ولكن التجار الجددَ أتوا من أماكن بعيدةٍ كلندن لشراءِ بقيةِ الإنتاجِ. كانت الأنوالُ آلات معقَّدةً وتتطلبُ صناعتها حرفيةً حقيقيةً وجمعُ قطعها دقةً، ولهذا كانَ على ميرثن الاستعانةُ بأفضلِ النجارين المتوفرين، ورغمَ أنَّه كان يتقاضى على النولِ أكثر من ضعفِ كلفتهِ إلا أنَّ الطلَّبَ على الأنوالِ استمرَّ وبشكلٍ مُلحٍ.

لمَّحَ العديدُ من الناسِ إلى ضرورةِ أن يتزوج ميرثن من مادج ولكن الفكرةَ لم تغرهِ أو تغرِ مادج التي لم تعثر قط على رجلٍ يماثلُ زوجها المتوفى مارك بجسدِهِ الضخمِ وشخصيته الأقرب إلى شخصيةِ قديسٍ. لطالما كانت مادج امرأةً ممتلئةً إلا أنَّها أصبحت سمينةً جداً هذهِ الأيامِ. كانت في الأربعين من عمرها الآن وقد بدأت تتشبهُ بأولئكَ النسوةِ اللواتي يشبهن البرميلَ عندما يكبرن ويصبحن بعرضٍ واحدٍ من الأعلى إلى الأسفلِ. باتَ الطعامُ والشرابُ الآن متعتيها الأساسيتين. هذا ما فكر بهِ ميرثن عندما كانَ يراقبها تقبلُ بشراهةٍ على قطعةِ لحمِ خنزيرٍ بالزنجبيل وصلصة التفاح وكبشِ القرنفلِ، وإضافة إلى هاتين المتعتين استمتعت أيضاً بجني المالِ.

عندَ نهايةِ المأدبةِ تناولوا نبيذاً منكهاً بالتوابلِ يدعى «هيبوكراس»، وأخذت مادج جرعةً كبيرةً من كأسها ثمَّ تجشأت بقوةٍ واقتربت من ميرثن على المقعدِ. «يجبُ أن نقومَ بشيءٍ حيالَ المستشفى»، قالت له.

«حقاً؟» لم يكن يعي بوجودِ مشكلةٍ في المستشفى. «الآن وبما أنَّ الطاعون قد انتهى، أعتقدُ أنَّ الناس ليسوا بحاجةٍ شديدةٍ إلى مستشفى».

«بالطبعِ يحتاجون»، قالت باندفاعٍ. «مازالوا يصابون بالحمى وأوجاعِ البطنِ والسرطانِ، وترغبُ النساءُ بالحملِ ولا يستطعن أو يعانين من مضاعفاتٍ

الولادةِ، والأطفالُ يحرقون أنفسهم ويسقطون عن الأشجارِ، ويقعُ الرجالُ عن أحصنتهم أو يَطعنهم أعداؤهم بالسكاكين أو تضربهم زوجاتهن على رؤوسهم...»

«حسناً فهمتُ الصورةَ»، قالَ ميرثن مستمتعاً بثرثرتها. «ما المشكلة؟»

«لا أحد يرغب بالذهابِ إلى المستشفى فالأخُ سايم غير محبوب، والأهمُّ من هذا لا يثقُ الناس بعِلمهِ. ففي الوقتِ الذي كانوا يتأقلمون فيهِ مع مرضِ الطاعونِ كانَ سايم في أوكسفورد يدرسُ النصوصَ القديمة ويصفُ علاجات تقليديةً كفصدِ الدمِ والحجامةِ التي لم يعد أحدٌ يثقُ بفاعليتها، وهم يريدون كاريس ولكن كاريس لا تذهبُ إلى المستشفى».

«وما الذي يفعلهُ الناس عندما يمرضون؟ ألا يذهبونَ إلى المستشفى؟»

«يذهبون إلى ماثيو باربر أو العطار سيلاس أو إلى معالجةٍ جديدةٍ تدعى مارلا ويزدم وهي متخصصةٌ في أمراضِ النساءِ».

«إذاً، ما الذي يقلقكِ؟»

«بدأ الناسُ يشتكونَ من الديرِ. إن لم يكونوا قادرين على الحصولِ على مساعدةِ الرهبان والراهباتِ فما الغايةُ من دفعِ المالِ من أجلِ بناءِ البرجِ».

«أوه». كانَ مشروعُ البرجِ مشروعاً كبيراً، ولا يوجد من يستطيع تمويلهُ وحدَهُ ولذلك كان التمويل المشترك من ديرِ الرهبان وديرِ الراهباتِ وصندوقِ المدينةِ الطريقةَ الوحيدةَ لتحملِ تكلفتهِ. إن تراجعَ تمويلِ المدينةِ سيهددُ استمرارَ المشروعِ.

«فهمت قصدَكِ»، قالَ ميرثن بقلقٍ. «هذهِ مشكلةٌ».

***

جلست كاريس خلالَ مراسمِ قداسِ عيد الميلادِ تفكرُ بأنَّها كانت سنةً طيبةً على معظمِ الناسِ وأنَّهم تكيفوا مع الدمارِ الذي ألحقهُ الطاعون بسرعةٍ مُذهلةٍ، ورغمَ أنَّ الوباءَ جلبَ معاناةً شديدةً عليهم وكادَ يضعُ نهايةً للحياةِ المتمدنةِ فإنَّه كان فرصةً لإعادةِ تنظيمِ الأمورِ. ووفقاً لحساباتها فقد أبادَ الطاعون نصفَ السكانِ ولكن كان له أثرٌ إيجابي وهو أنَّ معظمَ من بقي من فلاحيها زرعوا معظمَ الأراضي الخصبة وازداد انتاجُ كل فلاحٍ. ورغمَ قانونِ العمالِ وجهودِ النبلاءِ من أمثالِ رالف لتفعيلهِ فإنَّها سُرَّت لرؤيةِ الناسِ ينتقلون إلى أمكنةِ عملٍ تقدمُ أجوراً أعلى، وهذا يعني أنهم كانوا ينتقلون إلى الأراضي الأعلى إنتاجيةً. كانت

الحبوبُ وفيرةً وقطعانُ الأبقارِ والخرافِ تزداد مجدداً، وازدهرت أيضاً أحوالُ الديرِ لأنَّ كاريس أعادت تنظيمَ أمورِ الرهبانِ والراهباتِ بعدَ فرارِ غودوين، وديرُ الرهبانِ حالياً أكثرُ ازدهاراً مما كانَ عليهِ منذُ مئةِ عامٍ، والثروةُ أنتجت ثروةً أكبر والظروفُ الطيبةُ في الريفِ فتحت الطريقَ أمامَ مزيدٍ من الأعمالِ في المدينةِ وبذلكَ بدأ حرفيو وأصحابُ المتاجرِ في كينغزبريدج يستعيدون عزَّهم السابق.

عندَ نهايةِ القداسِ وحالما غادرت الراهباتُ الكنيسةَ تحدثَ إليها فيليمون قائلاً: «أحتاجُ إلى التحدثِ إليكِ أيتها الأمُّ رئيسة الدير، هلَّا رافقتني إلى منزلي؟»

في ما مضى لم تكن لتترددَ في قبولِ هذا الطلبِ بكلِّ لباقةٍ إلا أنَّ ذلكَ الوقتَ قد ولى.

«لا»، قالت له ثمَّ تابعت: «لا أعتقدُ أنني سأفعلُ».

احمرَّ غيظاً على الفورِ وقال لها: «لا يمكنكِ رفضُ التحدثِ إلي!»

«لم أرفض التحدثَ إليكَ بل رفضتُ الذهابَ إلى قصركَ. أرفضُ أن تستدعيني كأنّي تابعةٌ. ما الذي تريدُ الحديثَ عنهُ؟»

«المستشفى، هناكَ الكثير من الشكاوى».

«فلتتحدث إلى الأخِ سايم فهو المسؤول عنهُ كما تعرف».

«ألا توجدُ طريقةٌ يمكن فيها للمرءِ أن يتحدث معك بالمنطقِ؟» قالَ لها بانفعالٍ ثمَّ أضاف: «لو أنَّ سايم يستطيع حلَّ المشكلةِ لكنتُ تحدثتُ إليهِ وليسَ إليكِ».

كانا الآن قد أصبحا في الرواقِ المسقوفِ لديرِ الرهبانِ فجلست كاريس على جدارٍ منخفضٍ يحيطُ بالباحةِ ووجدت حجارة الجدارِ باردةً. «يمكننا التحدثُ هنا، ما الذي تريدُ قولهُ لي؟»

بدا متضايقاً إلا أنّه استسلمَ أخيراً، ووقفَ أمامها الآن كتابعٍ لها ثمَّ قال: «إنَّ سكانَ المدينةِ متضايقون من أمرِ المستشفى».

«لستُ متفاجئةً».

«أتى إلي ميرثن خلالَ عشاءِ عيدِ الميلادِ في غيلد هول وقدَّمَ شكوى حولَ توقفِ الناسِ عن القدومِ إلى المستشفى والذهابِ بدلاً من هذا إلى دجالين كالعطارِ سيلاس».

«إنَّه ليسَ أكثرَ دجلاً من سايم».

وأدركَ فيليمون أنَّ هناكَ بضعة رهبانٍ مبتدئين في الجوارِ يسترقون السمعَ إلى الجدالِ فقال لهم: «غادروا جميعاً وعودوا إلى دراستكم».

وهرعوا مغادرين.

قالَ فيليمون لكاريس: «يعتقدُ سكانُ المدينةُ أنَّه يفترضُ بكِ أن تكوني في المستشفى».

«وأنا كذلكَ، ولكن لن أقبلَ باتباعِ طرقِ سايم ففي أفضلِ الأحوالِ ليسَ لطرقِ علاجهِ أيّ فائدةٍ، وهي في معظمِ الأحيان تزيدُ من سوءِ أحوالِ المرضى، ولهذا السببِ توقفَ الناسُ عن القدومِ إلى المستشفى عندما يمرضون».

«لا يزورُ مشفاكِ الجديدِ سوى قلةٌ من المرضى لدرجةِ أننا حولناه إلى منزلٍ للضيوفِ، ألا يزعجكِ هذا؟»

وضربت هذهِ الجملةُ وتراً حساساً فابتلعت كاريس لعابها وأشاحت بنظرها وهي تقولُ بهدوءٍ: «إنَّه يفطرُ قلبي».

«إذاً فلتعودي إلى المستشفى ولتفكري بتسويةٍ ما مع سايم. لقد عملتِ قبلاً عندما دخلت الدير تحتَ إشرافِ أطباء رهبان، ووقتها كانَ الأخُ جوزيف كبيرَ الأطباءِ هنا، وهو مع غيرهِ من الرهبان الأطباء تلقوا ذاتَ التدريب الذي تلقاه سايم».

«أنتَ على حقٍ فحتى في تلكَ الأيامِ كنا نشعرُ بأنَّ الرهبان يؤذون أحياناً أكثر مما يفيدون ولكننا كنا قادرين على التعاملِ معهم، وفي معظمِ الأوقاتِ لم نكن نستدعيهم بل نقوم بمعالجةِ المرضى وحدنا وبشكلٍ أفضل، وعندما كانوا يأتون لم نكن دوماً ننفذُ تعليماتهم بحذافيرها».

«لا يمكنكِ القول إنَّهم كانوا على خطأ دوماً».

«لا، فقد كانوا ينجحون أحياناً في معالجةِ الناس. أتذكّرُ كيفَ فتحَ جوزيف جمجمةَ رجلٍ وجففَ كلَّ السوائلِ المتجمعة داخلها والتي سببت للرجلِ صداعاً لا يُحتمل. كانَ عملاً مذهلاً بحق».

«إذاً فلتقومي بالأمرِ عينهُ الآن».

«لم يعد الأمرُ ممكناً الآن بعدَ أن وضعَ سايم حداً لهذا، ألم يفعل؟ لقد نقلَ كتبهُ ومعداتهِ إلى الصيدليةِ واستلمَ زمامَ المستشفى، وأنا واثقةٌ من أنَّه فعلَ هذا بتشجيعٍ منكَ. وقد يكونُ الأمرُ برمتهِ فكرتكَ». وبالنظرِ إلى وجهِ فيليمون عرفت كاريس أنَّها كانت على صوابٍ في ما قالتهُ ولذلك تابعت قائلةً: «لقد تآمرتما معاً على إقصائي ونجحتما في مسعاكما وها أنتما تواجهان العواقب».

«يمكنكِ متابعةُ نظامكِ القديم وسأطلبُ من سايم الانتقال».

هزَّت رأسها وقالت: «لقد حدثت تغييراتٌ أخرى، وتعلَّمت الكثيرَ من الوباءِ. أنا الآن على ثقةٍ أكبر من ذي قبلٍ بأنَّ طُرقَ الأطباءِ قد تكونُ قاتلةً، ولن أقبلَ بقتلِ الناس من أجلَ تسويةٍ معكَ».

«أنت لا تدركين حجمَ الأمورِ التي تضعينها على المحكِ»، قالَ فيليمون بنظرةٍ معتدةٍ بعضَ الشيءِ.

إذاً، هناكَ سببٌ آخر، وتساءلت كاريس في نفسها عن السببِ الذي دفعَ فيليمون لإثارةِ الموضوعِ. لم يكن من طبعِهِ القلقُ حيالَ المستشفى فهو لم يهتم قط بالأمور الطبيةِ بل كانَ اهتمامه منحصراً بما يرفعُ مكانتهُ ويحمي كبرياءَهُ الهشَّ. «حسناً»، قالت له. «ما الذي تخفيهِ؟»

«يتحدثُ سكانُ المدينةِ عن قطعِ تمويلِ بناءِ البرجِ الجديدِ، ويقولون إنَّهم ليسوا مضطرين لدفعِ أموالٍ إضافيةٍ إلى الكاتدرائيةِ إن لم تكن تعطيهم ما يريدونه، وبما أنَّ المدينةَ الآن باتت منطقةً إداريةً مستقلةً فأنا وبصفتي رئيسَ الديرِ لا أستطيعُ إجبارَ الناسِ على دفعِ المالِ».

«وإن لم يدفعوا...؟»

«سيضطرُ حبيبكِ ميرثن إلى التخلي عن مشروعهِ العزيزِ»، قالَ فيليمون بابتسامةِ ظفرٍ.

ورأت كاريس أنَّ فيليمون اعتقدَ أنَّه استخدمَ ورقةً رابحةً. في الحقيقةِ كانت هناكَ أوقاتٌ يُمكنُ فيها لمثلِ هذا التصريحِ أن يلوي ذراعها، ولكن الحال الآن لم يعد كذلك. «ميرثن ليسَ حبيبي، أليسَ كذلك؟» قالت له. «أنتَ من وضعتَ حداً لهذا، أيضاً».

وعلت وجهَ فيليمون نظرةُ هلعٍ وقال: «ولكن الأسقف وضعَ كلَّ آمالِهِ على بناءِ هذا البرجِ، لا يمكنكِ المخاطرةُ بهذا!»

وقفت كاريس وقالت: «ألا يمكنني؟ ما الذي يمنعني؟» واستدارت مبتعدةً باتجاهِ ديرِ الراهباتِ.

كان فيليمون مصعوقاً من الدهشةِ وناداها قائلاً: «كيفَ يمكنكِ التصرُّف بطيشٍ؟»

كانت ستتجاهلهُ ولكنها غيَّرت رأيها وقررت أن تشرحَ موقفها فاستدارت إلى الوراءِ وقالت بلهجةٍ تقريريةٍ: «كما ترى، لقد حُرمتُ من كلِّ ما هو عزيزٌ

عني، وعندما تخسرُ كلَّ شيءٍ...» وبدأت علائم الانهيارِ تظهرُ على وجهها وصوتُها يتكسرُ إلّا أنّها تمالكت نفسها وتابعت: «عندما تخسرُ كل شيءٍ لا يعودُ لديكَ ما تقلقُ حيالَ خسارتهِ».

***

في شهرِ كانون الثاني/ يناير بدأ الثلجُ يتساقطُ وغطى سطحَ الكاتدرائيةِ بطبقةٍ سميكةٍ ولكن رقيقةٍ على النقوشِ الدقيقةِ للأبراجِ ووجوه الملائكةِ والقديسين المنحوتةِ على البوابةِ الغربيةِ. كانت أساساتُ البرجِ الجديدِ مغطاةً بالقشِّ لحمايةِ الملاطِ الجديدِ من تأثيراتِ الصقيعِ الشتوي، وها هو الثلجُ الآن يغطي القشَّ.

عادةً كانت المدافئ قليلةً في الأديرةِ ولكن في المطابخِ هناكَ مواقد ولهذا فضَّلَ الرهبانُ المبتدئون دوماً العملَ فيها، ولكن لم يكن هناكَ مدافئ في الكاتدرائيةِ حيثُ يقضي الرهبانُ والراهباتُ ما يقاربُ سبعَ إلى ثماني ساعاتٍ. وفي الحالاتِ التي ينشبُ فيها حريقٌ في كاتدرائيةٍ فالسببُ هو أنَّ أحدَ الرهبانِ اليائسين من شدةِ البردِ قد أدخلَ مِجمرةً إلى المبنى، وتطايرت شرارةٌ من النارَ باتجاهِ السقفِ الخشبي، وعندما لا يكون الرهبان منغمسين في العملِ أو في الصلاةِ يُفترضُ بهم أن يتجولوا أو يقرأوا في الممراتِ المسقوفةِ، أي خارجَ المبنى. ولم يكن امتياز الراحةِ الوحيد سوى غرفةِ التدفئةِ، وهي غرفةٌ صغيرةٌ تقعُ خارجَ الممراتِ المسقوفةِ وتُشعلُ فيها نارٌ عندما يشتدُّ البرد حيثُ يُسمحُ لهم بالدخولِ إلى الغرفةِ لفتراتٍ قصيرةٍ.

وكعادتها تجاهلت كاريس القوانين والأعراف وسمحت للراهباتِ بارتداءِ سراويل صوفية في الشتاءِ فهي لم تكن تؤمن بأنَّ الرَّبَّ في حاجةٍ لرؤيةِ عبادهِ يصابون بالتقرحاتِ جرَّاءَ البردِ.

كانَ هنري قلقاً جداً حيالَ أمرِ المستشفى، أو بالأحرى حيالَ التهديدِ الذي يطالُ برجهُ، ومدفوعاً بهذا القلقِ أتى من شايرنغ إلى كينغزبريدج في عزِّ الثلجِ. وصلَ في عربةٍ خشبيةٍ ثقيلةٍ لُبست بمشمعٍ وزودت بمقاعدَ موسدةٍ، وكانَ الكاهنُ كلود ورئيسُ الشمامسةِ لويد برفقتهِ. توقفوا الوقتٍ قصيرٍ في قصرِ رئيسِ الدير لتجفيفِ ثيابهم وشربِ كأسٍ دافئ من النبيذِ قبلَ طلبِ اجتماعٍ عاجلٍ مع فيليمون وسايم وكاريس وأوناغ وميرثن ومادج.

عرفت كاريس أنَّ الاجتماع سيكون مضيعةً للوقتِ إلا أنّها ذهبت لأنَّ

الرفضَ خلاله سيكون أسهل من الجلوس في ديرِ الراهباتِ والتعامل مع سيلٍ من رسائلِ التوسلِ والأمرِ والتهديدِ.

نظرت إلى نُدفِ الثلجِ المتساقطِ خلفَ النوافذِ الزجاجيةِ بينما الأسقفُ يُلخصُ بدقّةِ المسألةَ التي لم يكن لديها أدنى اهتمامٍ بها. «وسببُ هذهِ الكارثة السلوكُ الغادر والمتمرد للأمِّ كاريس»، قالَ هنري.

عندما سمعت كاريس هذا اندفعت قائلةً: «أنا هنا في المستشفى منذُ عشرِ سنواتٍ، وعملي وعملُ الأمِّ سيسيليا من قبلي ما جعلا المستشفى محبوباً جداً بينَ سكانِ المدينةِ». وأشارت بإصبعها بطريقةٍ وقحةٍ نحو الأسقفِ ثمَّ تابعت: «وأنتَ من غيَّرَ هذا فلا تحاول إلقاءَ اللومِ على الآخرين. لقد كنتَ جالساً على ذلكَ الكرسي عندما أعلنتَ أنَّ الأخ سايم سيكونُ المسؤولَ عن المستشفى، وعليكَ الآن أن تتحملَ عواقبَ قراركَ الغبي».

«عليكِ أن تطيعيني!» قال لها بصوتٍ عالٍ أقربُ لصراخٍ يائسٍ ثمَّ تابع: «أنتِ راهبةٌ وقد قمتِ بنذرِ الطاعةِ» وتضايقَ الهرُّ المدعو «رئيس الأساقفةِ» من الصراخِ فوقفَ وخرجَ من الغرفةِ.

«أنا أدركُ هذا»، قالت كاريس. «لقد وضعتني في موقفٍ لا يسعني تحملهُ». كانت تتحدثُ من دونِ التفكيرِ بما تقولهُ، ولكنها أدركت والكلماتُ تخرجُ من فمها أنّها لم تكن تتحدثُ بطيشٍ. في الحقيقةِ كانت هذهِ الكلماتُ ثمارَ أشهرٍ في الإمعانِ في التفكيرِ. «لم يعد بإمكاني خدمةُ الرَّبِّ بهذهِ الطريقةِ»، تابعت كلامها وقد هدأ صوتها إلا أنَّ قلبها كانَ يخفقُ بسرعةٍ: «لهذا السببِ قررت أن أتخلى عن نذوري وأتركَ ديرَ الراهباتِ».

وهنا وقفَ هنري على قدميهِ حقاً وصرخَ بها: «لا، لن تفعلي! لن أحرركِ من نذوركِ المقدسةِ».

«أعتقدُ أنَّ الرَّبَّ سيحررني»، قالت هذا وهي بالكادِ تُخفي احتقارها.

وصبَّ كلامها هذا الزيتَ على نارِ غضبهِ فقال لها: «تلكَ الفكرةُ التي تقول إنَّ الأفرادَ أحرارٌ في التعاملِ مع الرَّبِّ بأنفسهم فكرةٌ شريرةٌ». كانت قد انتشرت أفكارٌ من هذا النوعِ منذُ انتشارِ وباءِ الطاعونِ.

«هل تعتقدُ أنَّ هذا حصلَ عندما تقرَّبَ الناس من الكنيسةِ طالبين المساعدةَ خلالَ الوباءِ ووجدوا أنَّ كهنتها ورهبانها...» وهنا نظرت إلى فيليمون ثمَّ تابعت: «قد هربوا كالجبناء؟»

رفعَ هنري يده بطريقةٍ آمرةٍ في وجهِ فيليمون لمنعهِ من الإتيان بأيِّ ردٍ ساخطٍ ثمَّ قال: «قد لا نكون معصومين عن الخطأ، ولكن ما من أحدٍ يستطيعُ التقرُّبَ من الرَّبِّ إلا عن طريقِ الكنيسةِ وكهنتها».

«بالطبعِ أنتَ تعتقدُ هذا»، قالت كاريس. «ولكن هذا لا يعني أنّه الصواب».

«أنتِ شيطانةٌ!»

وتدخَّل الكاهن كلود قائلاً: «يجبُ أخذُ جميعِ الأمورِ بعينِ الاعتبارِ ولهذا يا سيدي الأسقفُ لن يكونَ الشجارُ العلني بينكَ وبينَ كاريس مفيداً»، وابتسمَ كلود لكاريس ابتسامةً ودودةً. بدأ كلود يعاملها بودٍ منذُ أن أمسكت بهِ هو والأسقف يقبلان بعضهما ولم تُفشِ السِّرَ. «لا يجبُ أن نجعل عدم استعدادها الحالي للتعاون يُضيع سنواتٍ عديدةً من الإخلاص والعملِ والخدماتِ البطوليةِ أحياناً فالناسُ يحبونها».

قالَ هنري: «ولكن ماذا لو حررناها من نذورها؟ كيفَ لهذا أن يحلَّ المشكلةَ؟»

وهنا تحدثَ ميرثن لأولِ مرةٍ وقال: «لدي اقتراحٌ».

ونظرَ الجميعُ إليهِ.

«دعوا البلدةَ تبني مستشفى جديداً وسأتبرعُ بموقعٍ كبيرٍ على جزيرةِ لير، وليكن طاقمهُ مجموعة من الراهباتِ المستقلاتِ عن الديرِ، مجموعةٌ جديدةٌ تحتَ السلطةِ الروحيةِ لأسقفِ شايرنغ بالطبعِ ولكن لا علاقة لها برئيسِ ديرِ كينغزبريدج أو بالأطباءِ في دير الرهبانِ. فليكن للمستشفى الجديد راعٍ عادي من أعيانِ المدينةِ تختارهُ النقابةُ ومن صلاحيتهِ تعيين رئيسةٍ له».

صمتَ الجميعُ لبرهةٍ طويلةٍ حتّى يستوعبوا هذا الاقتراحَ الراديكالي، وكانت كاريس مصعوقةً بهِ لأنّه يعني مستشفى جديداً على جزيرةِ لير مموّلاً من سكانِ المدينةِ وطاقمهُ مجموعةٌ جديدةٌ من الراهباتِ ولا علاقةَ لهُ بالديرِ...»

نظرتَ كاريس إلى المجموعةِ من حولها ورأت بوضوحٍ أنَّ فيليمون وسايم كرها الفكرةَ بينما ارتسمَ الذهولِ على وجهي هنري وكلود.

وأخيراً قالَ هنري: «سيكونُ الراعي شخصيةً قويةً جداً يمثلُ سكانَ المدينةِ ويدفعُ الفواتيرَ ويعينُ الرئيسةَ، ومن سيلعبُ هذا الدورَ سيتحكمُ بالمستشفى».

«أجل»، قالَ ميرثن.

«إن وافقتُ على بناءِ مستشفى جديد فهل سيعاودُ سكانُ المدينةِ دفعَ كلفةِ البرجِ؟»

وهنا تحدثت مادج وير للمرةِ الأولى: «إن قمتَ بتعيين الراعي المناسب فالجوابُ نعم».

«ومن يجب أن يكونَ هذا الشخص؟» سألَ هنري.

وأدركت كاريس أنَّ الجميعَ ينظرون إليها.

***

بعدَ ساعاتٍ على انتهاءِ الاجتماع التفعَ كلٌّ من ميرثن وكاريس بعباءتين ثقيلتين وانتعلا جِزماً وسارا عبرَ الثلج باتجاهِ جزيرة ليبر. عرضَ عليها ميرثن موقعَ المستشفى الجديد على الجانبِ الغربي من الجزيرةِ، واكتشفت كاريس أنّه لم يكن بعيداً جداً عن منزلهِ بل يطلُّ على النهرِ.

كانت كاريس ما تزالُ تشعرُ بالدوارِ من التغييرِ المفاجئ الذي طرأ على حياتِها، فهي ستتحررُ من نذورها كراهبةٍ وستعودُ مواطنةً عاديةً بعدَ اثني عشرَ عاماً على دخولها الدير، ووجدتْ نفسها تشعرُ بحزنٍ مؤلمٍ عندَ التفكيرِ بمغادرةِ الديرِ حيثُ جميعُ الذين أحبتهم فيهِ ماتوا: الأمُّ سيسيليا والعجوز جولي ومير وتيلي، وأحبت أيضاً الأختين جوان وأوناغ ولكن ليسَ كما أحبَّت من ماتوا.

ستكونُ مسؤولةً عن المستشفى وستملكُ الحقَّ بتعيين ورفضِ رئيسة هذهِ المؤسسةِ الجديدةِ وقادرةً على إدارةِ المكانِ وفقَ العقليةِ الجديدةِ التي طورتها خلالَ فترةِ الوباءِ. لقد وافقَ الأسقفُ على كلِّ شيءٍ.

«أعتقدُ أنّه علينا استخدامُ تصميمِ الرواقِ المسقوفِ مجدداً»، قال ميرثن. «بدا ناجحاً جداً خلالَ الفترةِ القصيرةِ التي كنتِ فيها مسؤولةً».

حدَّقت إلى رقعةِ الثلجِ البيضاء وذُهلت من قدرتهِ على تخيلِ جدرانٍ وغرفٍ بينما هي لم ترَ أمامها سوى البياضِ.

«استخدمَ المدخلُ المُقنطرُ كقاعةٍ تقريباً»، قالت له ثمَّ تابعت: «استخدمهُ الناسُ للانتظارِ والراهباتِ للقيامِ بمعاينةٍ أوليةٍ للمرضى قبلَ أن يقررن ما الذي يجبُ فعلهُ لمعالجتهم».

«هل تريدينهُ أكبر؟»

«أعتقدُ أنّه يجبُ أن يحوي على قاعةِ استقبالٍ».

«حسناً».

بدت مربكةً وقالت له: «من الصعبِ تصديقُ ما حدث، فها هي الأمور تنتهي وكما أريد حقاً».

أومأ برأسِهِ وقال: «ولأنّك تريدينها أن تنتهي بهذهِ الطريقة اقترحت هذا الحل».

«حقاً؟»

«سألتُ نفسي عمّا تمنين نفسكِ بهِ وعثرتُ على طريقةٍ لتحقيقِ الأمرِ».

حدّقت بهِ ولاحظت أنّه قالَ هذا بكلِّ خفةٍ كأنّه يشرحُ عمليةً منطقيةً قادتهُ إلى استنتاجاتِهِ، وبدا بانشغالِهِ بأمانيها وكيفيةِ تحقيقها غافلاً عن عظمةِ تفكيرِهِ.

«هل أنجبت فيليبا؟»

«أجل، منذُ أسبوعٍ».

«وماذا أنجبت؟»

«صبياً».

«تهاني، هل رأيتهُ؟»

«لا، بالنسبةِ للعالمِ أنا مجرَّدُ عمه، ولكن رالف أرسلَ لي رسالةً».

«هل أسمياه؟»

«رولاند على اسمِ الإيرل المتوفى».

وغيرت كاريس الموضوع فقالت: «هذا الجزء من النهر ليسَ صافياً جداً والمشفى بحاجةٍ إلى ماءٍ عذبٍ».

«سأقومُ بوضعِ أنبوبٍ لجرِّ المياه من أعلى النهرِ».

تراجعَ هطولُ الثلجِ ثمَّ توقفَ وباتت الجزيرةُ واضحةً أمامَ عينيهما.

ابتسمت له وقالت: «لديكَ جوابٌ على كلِّ شيءٍ».

هزَّ رأسهُ نافياً وقال: «فقط على الأسئلةِ السهلةِ كالماءِ العذبِ والغرفِ ذات التهويةِ الجيدةِ وقاعةِ الاستقبالِ».

«وما هي الأسئلةُ الصعبةُ؟»

استدارَ وباتا وجهاً لوجه ورأت كاريس ندفَ ثلجٍ عالقةً على لحيتِهِ الصهباء.

«أسئلةٌ كـ: أما زلتِ تحبينني؟» قال لها.

حدَّقا بعضهما إلى بعض لفترةٍ طويلةٍ.

كانت كاريس سعيدةً.

الجزء السابع

من شهر آذار/ مارس وحتَّى تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1361

-81-

في الأربعينِ من عمرهِ كان ولفريك لا يزال أوسمَ رجلٍ رأتهُ غويندا، ورغمَ الشعيرات البيضاء في شعرِهِ الأشقرَ الفاتح فإنَّه بدا حكيماً وقوياً في آنٍ معاً. في شبابِهِ كان ولفريك عريضَ المنكبين ورقيقَ الخصرِ جداً ورغمَ أنَّ الفارقَ الكبيرَ بينَ الكتفينِ العريضتين والخصرِ الرفيعِ الآن لم يعد كبيراً كالسابق فإنَّه مازال يمتلكُ قوةَ رجلين في العملِ، وسيبقى دوماً أصغرَ من غويندا بعامين.

وفكَّرت غويندا بأنَّها هي أيضاً لم تتغير كثيراً فشعرها الداكن لم يغزُهُ الشيب إلا عندما طعنت في السنِ، ولم تكن أسمن مما كانت عليهِ منذُ عشرين عاماً رغمَ أنَّ ثدييها وبطنها منذُ أنجبت الطفلين لم تعد مشدودة كما كانت قبلاً.

لم تشعر بمرورِ السنوات إلا عندما لاحظت ابنها ديفي ببشرتِهِ الناعمةِ ومشيتِهِ الموفورةِ بالحيويةِ. كان ديفي الآن في العشرين ويبدو نسخةً ذكوريةً عنها عندما كانت في مثلِ عمرهِ. كان وجهها خالياً من التجاعيد وتسيرُ بخطى نشيطةٍ ولكن سنواتٌ من العملِ الشاقِّ في الحقولِ وفي شتى الظروفِ الجويةِ خلَّفت تجاعيد في يديها وأكسبَ خديها حُمرةً جافةً تحت الجلدِ وعلَّمها السير ببطءٍ كي توفرَ طاقتها.

كان ديفي ضئيلَ البنيةِ مثلها وماكراً وكتوماً فمُنذ كان صغيراً لم تكن قادرةً على التكهنِ بما يفكرُ فيه، أمَّا سام فقد كان على نقيضهُ، ضخماً وقوياً ولم يكن ذكياً بما يكفي ليكونَ مخادعاً إلا أنَّه كان لئيماً وهذهِ السمة تلومُ بها غويندا والدهُ الحقيقي رالف فيتزجيرالد.

لسنواتٍ عديدةٍ عملَ الولدان إلى جانبِ ولفريك في الحقولِ ولكن منذُ أسبوعين اختفى سام.

كانوا يعلمون إلى أينَ ذهبَ سام لأنَّه وطوالَ الشتاءِ كان يتحدثُ عن مغادرةِ ويغلي والانتقالِ إلى قريةٍ أجورها أعلى وها هو يختفي عندما بدأت فلاحةُ الربيعِ.

علمت غويندا أنَّ سام كان مُحقاً حيالَ البحثِ عن مكانٍ بعرض أجراً أعلى، وعلى الرغم من أن مغادرةَ المرءِ لقريتِهِ أو قبول أجرٍ أعلى مما حددهُ قانونُ عام 1377 يعتبرُ جريمةً، ولكن في جميعِ أنحاءِ البلادِ لم يتوقف الشبابُ عن خرقِ القانونِ والمزارعون اليائسون قاموا بتشغيلهم، ولم يكن بوسعِ أصحاب الأراضي، كالإيرل رالف، القيام بشيءٍ حيالَ هذا سوى أن يصرّوا على أسنانهم حنقاً.

لم يخبرهم سام إلى أين قد يذهب ولم يُنذرهم بمغادرتِهِ، ولو أنَّ ديفي من قامَ بهذا لعرفت غويندا أنَّه قد خططَ وفكرَ بعنايةٍ وقررَ أنَّ هذا العمل هو الحلُّ الأفضلُ إلا أنَّها كانت واثقةً من أنَّ سام لم يفعل هذا بل غادرَ باندفاعٍ ومن دونِ خطةٍ. كان أحدهم قد أتى على ذكرِ اسم قريةٍ واستيقظَ باكراً في صباحِ اليومِ التالي وقررَ أن يتوجهَ إليها على الفورِ.

قالت غويندا لنفسها إنَّها لا يجب أن تقلق عليهِ فقد كان في الثانيةِ والعشرين من العمرِ وكبيراً وقوياً ولن يستغلهُ أحد أو يسيء معاملتهُ، إلا أنَّها أمٌّ في النهاية ولهذا كانت مغمومةً على ابنها.

واستنتجت أنها إن لم تكن قادرةً على العثورِ عليهِ فلن يعثرَ عليهِ أحدٌ وهذا أمرٌ جيدٌ، ولكنها كانت تتوقُ إلى معرفةِ مكانهِ وإن كان يعملُ لدى سيدٍ محترمٍ وإن كان الناسُ يعاملونهُ بلطفٍ.

في ذلكَ الشتاءِ قامَ ولفريك بفلاحةٍ سريعةٍ في القسمِ الرملي من أراضيهِ، وفي أحدِ أيَّامِ الربيعِ ذهبَ مع غويندا إلى نورثوود لشراءِ الشيء الوحيد الذي لا يستطيعان صناعتهِ وهو نصلُ المحراثِ، وكما يحدثُ دوماً فقد سافرا مع مجموعةٍ صغيرةٍ من سكانِ ويغلي إلى السوقِ. رافقهم جاك وإيلاي اللذان يعملان في طاحونةِ معالجةِ القماشِ الخاصةِ بمادج ويبر لشراءِ حاجيات؛ فهما لا يملكان أرضاً خاصةً بهما ولهذا كانا يشتريان طعامهما، ورافقتهم أيضاً آنيت وابنتها آميل التي تبلغ من العمرِ ثمانيةَ عشرة عاماً مع قفصٍ من الدجاجِ لبيعهِ في السوقِ، وذهبَ معهم الوكيل نيثان ريڤ وابنهِ جونو عدو سام في الطفولةِ.

لم تتغير آنيت كثيراً فهي ما تزالُ تغازلُ كلَّ رجلٍ وسيمٍ تلتقي بهِ في طريقها، ومعظمهم كانوا يبتسمون لها بغباءٍ ويغازلونها أيضاً، وخلالَ الرحلةِ إلى نورثوود تجاذبت أطرافَ الحديثِ مع ديفي، ورغمَ أنَّه يصغرها بعشرين عاماً إلا أنَّها ابتسمت له بتكلفٍ وحرّكت رأسها بغنجٍ وصفعتهُ على ذراعهِ كأنَّها تعاتبهُ. كانت تتصرفُ كفتاةٍ في الثانيةِ والعشرين وليس كامرأةٍ في الثانيةِ والأربعين،

وفكرت غويندا بأنَّ آنيت مازالت تعتقدُ نفسها فتاةً، أمَّا ابنةُ آنيت، آميل، الجميلةُ كوالدتها عندما كانت في مثلِ عمرها فقد تقدَّمت البقية بقليلٍ وبدت محرجةً من سلوكِ والدتها.

وصلوا إلى نورثوود بحلولِ منتصفِ الصباحِ، وبعدَ انتهاءِ ولفريك وغويندا من شراءِ نصلِ المحراثِ ذهبا لتناولِ الغداءِ في حانةِ أولد أوك.

ما زالت غويندا تتذكر شجرة البلوط خارجَ النُزلِ. كانت شجرةً قصيرةً وغليظةَ الجذعِ بأغصانٍ مشوهةٍ وتبدو كرجلٍ عجوزٍ محدودبِ الظهرِ في الشتاءِ إلا أنَّ فيئها صيفاً كان لطيفاً وقوياً، ولطالما ركضَ ابناها الصغيران حولها ولعبا. لا بدَّ أنَّ الشجرةَ ماتت أو بدأت تتداعى الآن لأنَّهم قطعوها وبقي جذعها الذي كان بطولِ ولفريك وبات زوارُ النُزلِ يستخدمونه كمقعدٍ وطاولةٍ وأحياناً كسريرٍ لحمَّالٍ متعبٍ.

وعلى حافةِ جذعِ هذهِ الشجرةِ رأت غويندا هاري بلاومان وكيلَ قريةِ أوثنباي يشربُ الجعةَ من كوبٍ كبيرٍ.

شعرت غويندا أنَّها عادت بالزمنِ اثني عشرَ عاماً إلى الوراءِ، وما حضرَ في بالها من ذكريات جلبَ لها الدموعَ، ذلكَ الأملُ الذي ملأ قلبها عندما انطلقت هي وعائلتها في ذلكَ الصباحِ من نورثوود وساروا في الغابةِ إلى قريةِ أوثنباي لبدءِ حياةٍ جديدةٍ، وكيفَ سُحقَ أملها بعدَ أقلَّ من أسبوعين وأُعيدَ ولفريك إلى ويغلي والحبلُ حولَ رقبتهِ. ما زالت ذكرى ما حدث تُشعلُ نيران الغضبِ في داخلِها.

لكن ومنذ ذلكَ الوقتِ لم تسر الأمور وفقَ أهواءِ رالف فقد أجبرتهُ الظروف على إعادةِ أراضي والدِ ولفريك، ورأت غويندا في هذا نتيجةً مرضيةً جداً رغمَ أنَّ ولفريك لم يكن ذكياً بما يكفي ليفوزَ بإيجارٍ حُرٍ للأراضي على عكسِ ما حدثَ مع جيرانهِ. كانت غويندا سعيدةً لأنهما الآن مستأجران وليسا مجرد عاملين ولأنَّ ولفريك حققَ حلمَ حياتهِ، ولكن غويندا مازالت تتوقُ إلى مزيدٍ من الاستقلالِ، إلى إيجارٍ حرٍ من الالتزاماتِ الإقطاعيةِ، إيجارٍ مقابل المالِ، إيجارٍ يوثقُ في سجلاتِ السيدِ حتَّى لا يستطيعَ التراجعَ عن كلامهِ. كانت هذهِ الصيغةُ التي يريدها معظمُ الأقنانِ، وأعدادٌ متزايدةٌ منهم حصلت عليها منذُ الطاعون.

حيَّاهما هاري دونَ تحفظٍ وأصرَّ على شراءِ الجعةِ لهما. بعدَ إقامةِ ولفريك وغويندا القصيرةِ في أوثنباي عيَّنت الأمُّ كاريس هاري وكيلاً للقريةِ، وما زالَ يشغلُ منصبهُ حتَّى الآن رغمَ أنَّ كاريس قد تخلَّت عن نذورِ الرهبنةِ منذُ زمن

طويلٍ وباتت الأختُ جوان الآن رئيسةَ ديرِ الراهباتِ. وبالنظرِ إلى وجهِ هاري الممتلئ وبطنه الكبير بفعلِ الجعةِ يبدو أنَّ أحوالَ أوثنباي مزدهرةٌ.

وبينما كانا يتحضران للمغادرةِ مع بقيةِ الناسِ من ويغلي تحدَّث هاري مع غويندا بصوتٍ منخفضٍ قائلاً: «يعملُ لدي شابٌ اسمهُ سام».

وقفزَ قلبُ غويندا من مكانهِ. «ابني سام؟»

«لا يمكن أن يكون هو».

واضطربت غويندا متسائلةً في نفسها إن لم يكن هذا السببَ فلماذا أتى على ذكرِ الأمرِ.

ولكنَ هاري نقرها على أنفها الأحمرِ بلونِ النبيذِ وأدركت غويندا أنَّه كان يتصرفُ بغموضٍ. «هذا الفتى سام يصرُّ على أنَّ سيدهُ هو فارس هامبشاير الذي لم أسمعْ عنهُ قبلاً، وقد أعطاه الإذن ليغادرَ قريته ويعمل في مكانٍ آخر ولكن سيد ابنك سام هو الإيرل رالف الذي لا يسمح لعمالهِ بتركهِ، وبالتالي هذا يعني أنني لا أستطيعُ تشغيلَ ابنك سام».

وفهمت غويندا مرامهُ فقد كانت هذهِ القصة التي سيرويها هاري إن حدثَ استجوابٌ رسمي.

«إذاً، هو في أوثنباي»، قالت غويندا.

«أولدتشرش، وهي إحدى القرى الصغيرةِ في الوادي».

«وهل هو بخير؟» سألت بإلحاحٍ.

«أحوالهُ مزدهرةٌ».

«الشكرُ للرَّبِّ».

«إنَّه فتى قوي وعاملٌ جيدٌ رغمَ أنَّه يميلُ إلى افتعالِ المتاعبِ».

كانت غويندا تعلمُ هذا وسألته: «هل يعيشُ في منزلٍ دافئٍ؟»

«إنَّه يسكنُ مع زوجين عجوزين طيبين كان ابنهما قد سافرَ إلى كينغزبريدج ليتدربَ كدباغٍ».

أرادت غويندا طرحَ المزيد من الأسئلةِ على هاري ولكنها فجأة رأت أن نيثان ريف المتكئ على مدخلِ بابِ الحانةِ يُحدقُ بها، وكبحت شتيمةً كادت تُفلت منها. أرادت معرفةَ المزيد ولكنها خافت من إعطاءِ نيثان أيَّ دليلٍ قد يقودهُ إلى مكانِ سام ولذلك كان عليها أن تكتفي بالمعلوماتِ التي حصلت عليها إلا أنَّها كانت سعيدةً جداً لمعرفتها بمكانِ سام على الأقلِ.

استدارت مبتعدةً عن هاري في محاولةٍ لإعطاءِ انطباعٍ بأنَّها أنهت محادثةً

عاديةً غير مهمة، ومن زاويةِ فمها قالت لهاري: «لا تسمح له بالتورطِ في أيِّ عراكٍ».

«سأفعلُ ما بوسعي».

ولوحت له بشكلٍ عرضي ثمَّ لحقت بولفريك.

عادوا جميعاً إلى القريةِ سيراً على الأقدامِ. حملَ ولفريك نصلَ المحراث الثقيل على كتفيهِ من دون جهدٍ يُذكر، وكانت غويندا تتوقُ إلى إخبارهِ بما سمعتهُ من هاري إلا أنّها انتظرت إلى أن تفرَّقَ الحشدُ على طريقِ العودةِ وباتت هي وزوجها بعيدين عن البقيةِ بمسافةٍ جيدةٍ، ومن ثمَّ أخبرته بهدوءٍ بما قاله لها هاري.

بدا ولفريك سعيداً بما سمعهُ وقال وهو يتنفسُ بسهولةٍ رغمَ الحملِ على كتفيهِ: «أصبحنا نعرفُ مكان الفتى الآن على الأقل».

«أريد أن أذهبَ إلى أوثنباي»، قالت غويندا.

أومأ ولفريك برأسهِ وقال: «لقد توقعت هذا». كان نادراً ما يجادلها إلا أنَّه أبدى الآن قلقاً إزاءَ هذهِ الرحلةِ: «ولكن الأمر خطير وسيتحتمُ عليكِ التكتم حول المكان الذي ستذهبين إليهِ».

«تماماً، ولهذا لا يجبُ أن يعلمَ نيثان بالأمرِ».

«وكيفَ ستنجحين في تحقيقِ هذا؟»

«حتماً سيلاحظُ غيابي عن القريةِ لبضعةِ أيامٍ ولذلكَ يجبُ أن نختلقَ قصةً ما لتغطيةِ هذا الغياب».

«يمكننا القولُ إنَّكِ مريضةٌ».

«في هذا مخاطرةٌ كبيرةٌ فقد يأتي ليتفقدَ أحوالي».

«سنقولُ إنَّكِ في منزلِ والدكِ».

«لن يصدقَ نيثان هذا، فهو يعلمُ أنني لا أبقى هناك أكثر مما ينبغي علي البقاء»، وأخذت تقضمُ جلداً متقشراً حولَ أحدِ أظافرها وهي تعتصرُ دماغها بحثاً عن حجةٍ أخرى. في القصصِ الخياليةِ والخرافيةِ التي يرويها الناسُ حولَ نار الموقدِ في ليالي الشتاءِ الطويلةِ عادةً ما تصدقُ الشخصياتُ أكاذيبَ الآخرين من دونِ التفكير بصحتها، إلا أنَّ خداعَ الناسِ الحقيقيين لم يكن سهلاً، وقالت أخيراً: «يمكننا القولُ إنني ذهبتُ إلى كينغزبريدج».

«من أجلِ ماذا؟»

«لشراءِ دجاجٍ يبيض من السوقِ ربما».

«يمكنكِ شراءُ الدجاجِ من آنيت».

«لن أشتري شيئاً من تلكَ العاهرةِ والجميعُ يعلمُ هذا».

«هذا صحيح».

«نيثان يعلمُ أنني صديقة قديمة لكاريس ولهذا سيصدقُ أنني سأبيت عندها».

«حسناً».

لم تكن قصةً مُحكمةً إلّا أنّها لم تستطع التفكيرَ بواحدةٍ أفضل، وعلاوةً على هذا، كانت تتوق جداً إلى رؤيةِ ابنها.

غادرت غويندا في صباحِ اليومِ التالي.

التفعت بعباءةٍ ثقيلةٍ اتقاءَ رياحِ آذار/ مارس القارسةِ وانسلّت من المنزلِ قبلَ الفجرِ. سارت بهدوءٍ عبرَ القريةِ في الظلامِ الحالكِ تتحسسُ طريقها باللمسِ وبالاعتمادِ على الذاكرةِ فلم تكن تريدُ لأحدٍ أن يراها ويستجوبها قبلَ أن تكون قد ابتعدت عن القريةِ إلا أنَّ الجميعَ كانوا نياماً. أخذَ كلبُ نيثان يزمجرُ بهدوءٍ إلا أنّه ميّزَ وقعَ خطواتها وسمعت وطئاً هادئاً للكلب وهو يهزُّ ذيلهُ قبالةَ بيتهِ الخشبي.

غادرت القريةَ وأخذت الدربَ الذي يمرُّ بالحقولِ، وعندما انبلجَ الفجر كانت قد ابتعدت ميلاً عن القريةِ. ألقت نظرةً على الطريقِ خلفها ولم ترَ شيئاً وهذا يعني أنَّ ما من أحدٍ لحقَ بها.

تناولت كسرةً من الخبزِ البائتِ على الفطورِ وتوقفت عندَ منتصفِ الصباحِ في حانةٍ على مفترقِ الطرقِ بين طريق ويغلي وكينغزبريدج وطريق نورثوود وأوثنباي. لم تلتقِ بأحدٍ تعرفهُ في الحانةِ، ولكنها راقبت البابَ بتوترٍ وهي تتناولُ يخنةَ السمكِ المالحِ وتشربُ عصيرَ التفاحِ. وفي كلِّ مرّةٍ دخلَ فيها أحدهم أشاحت بوجهها لتخفيَهُ ولكن لم يدخل إلى الحانةِ سوى الغرباء، وما من أحدٍ كان مُهتماً بها. لم تُطل البقاء في الحانةِ وانطلقت على الطريقِ إلى أوثنباي.

وصلت إلى الوادي بحلولِ منتصفِ ما بعدِ الظهرِ، وعلى الرغم من مضي اثني عشرَ عاماً على زيارتها للمكان فإنّه لم يتغير كثيراً بل تعافى من آثارِ الطاعونِ بسرعةٍ. لم ترَ سوى بضعةِ أطفالٍ صغار يلعبون قربَ المنازلِ بينما معظم سكانِ القرية منشغلون في الحراثةِ والزراعةِ والاعتناء بالحملان، ومن الحقولِ حدَّقوا

إلى هذهِ الغريبةِ متسائلين عن هويتها. سيتمكنُ بعضهم منِ التعرّفِ عليها عن قربٍ، فعلى الرغمِ من أنّها لم تبقَ هنا سوى عشرةِ أيام فإنّ هذهِ الأيام العشرة كانت حافلةً بالأحداثِ ولذلكَ سيتذكرونها من كلِّ بدٍ لأنَّ سكان القرى غالباً لا يشهدون الكثير من الأحداث العاصفةِ.

سارت على طولِ نهرِ أوثن المتعرج في السهلِ المستوي بينَ سلسلتين من الهضابِ، وانتقلت من القريةِ الرئيسيةِ إلى القرى الأصغر التي كانت تعرفها عندما أتت إلى هنا قبلاً كقريةِ هام وشورت إيكر ولونغووتر باتجاهِ القرى الأبعد كقريةِ أولد تشيرش.

وعندما اقتربت من قريةِ أولد تشيرش ازدادَ حماسها ونسيت ألمَ التقرحِ في قدميها. كانت أولد تشيرش قريةً صغيرةً مؤلفةً من ثلاثين كوخاً صغيراً لا تشبه بيوت الأسيادِ في القرى أو منازلَ الوكلاءِ، وهناكَ كنيسةٌ قديمةٌ أعطت للقريةِ اسمها[1]. تكهنت غويندا بأنَّ عمرَ الكنيسةِ مئات السنين. كان لها برجٌ قصير وعريض وصحنٌ ضيقٌ ومبنيةٌ من حجارةٍ خام ولها نوافذ مربعة وموزعة كيفما اتفقَ على الجدرانِ السميكةِ.

ابتعدت عن الحقولِ وتجاهلت مجموعةً من الرعاةِ في مرعى بعيدٍ. قالت في نفسها إنَّ هاري بلاومان لن يكلفَ سام بهذا العملِ البسيطِ، بل سيكلفهُ بتسويةِ التربةِ أو تنظيفِ خندقٍ أو مساعدةِ مجموعةِ الحارثين وراءَ محراثٍ تجرهُ ثمانيةُ ثيران. أخذت تدققُ النظرَ في الحقولِ باحثةً عن مجموعةٍ من الرجالِ بقبعاتٍ واقيةٍ وأحذيةٍ موحلةٍ وينادون بعضهم من مسافاتٍ بعيدةٍ بأصواتٍ عاليةٍ وعن رجلٍ أطول من البقيةِ وعندما لم تعثر على ابنها من أولِ نظرةٍ أصابها خوفٌ جديدٌ من أن يكون قد أُمسكَ بهِ أو انتقلَ إلى قريةٍ أخرى.

وأخيراً عثرت عليهِ بينَ صفٍ من الرجال يُسمدون أرضاً محروثةً حديثاً. كان قد خلعَ معطفهُ البردِ وبيدهِ مجرافاً من خشبِ البلوطِ وعضلاتُ ظهرهِ وذراعيهِ تتحرك تحتَ قميصهِ الكتاني القديم. امتلأ قلبها بالفخر لدى رؤيتهِ فهذا الرجلُ القوي قد خرجَ من جسدِها الضئيلِ.

رفعَ الجميعُ أنظارهم عندما اقتربت منهم، وحدَّقَ الرجالُ إليها في فضولٍ متسائلين عمن تكون وعمَّا تفعلهُ هنا. توجهت بشكلٍ مباشرٍ إلى سام وعانقتهُ رغمَ رائحةِ الرّوثِ المنبعثةِ منهُ.

1- أولد تشيرش تعني الكنيسة القديمة (المترجمة)

«مرحباً يا أمّاه»، قال لها وضحكَ بقيةُ الرجال.

وحارت غويندا في سببِ ضحكهم.

قالَ رجلٌ أشعث بعينٍ معطوبةٍ: «فلتهدأ يا سام، ستكون على ما يرام الآن»، وضحكوا جميعاً مجدداً.

أدركت غويندا أنّهم يضحكون لأنَّ رجلاً ضخماً مثل سام تزورهُ والدتهُ وتتفقدُ أحوالهُ كأنّه صبي مشاكسٌ.

«كيفَ عثرتِ علي؟» سألها سام.

«قابلت هاريِ بلاومان في سوقِ نورثوود».

«آمل ألا يكون أحدٌ قد لحقكِ إلى هنا».

«غادرت قبلَ الفجرِ وأخبرَ والدكَ الجميع أنني ذهبتُ إلى كينغزبريدج ولذلك لم يتبعني أحد».

تحدثا لبعضِ الوقتِ ثمَّ قالَ لها إنّ عليهِ العودة إلى العملِ وإنّ بقيةَ الرجالِ سيستاؤون إن تركهم يعملون وحدهم. «اذهبي إلى القرية ولتبحثي عن العجوز ليزا»، قالَ لها. «إنّها تعيشُ قبالةَ الكنيسةِ. أخبريها بمن تكونين وستطعمكِ وتسقيكِ إلى أن أعودَ عندَ الغروبِ».

حدَّقت غويندا إلى السماءِ ورأت أنَّ فترةَ بعد الظهرِ تكاد تنتهي، وسيضطرُ الرجالُ إلى التوقفِ عن العملِ خلالَ ساعةٍ أو أكثر بقليلٍ ولذلك قبّلت سام على خدهِ وتركتهُ.

عثرت غويندا على ليزا في منزلٍ أكبر بقليلٍ من منازلِ البقيةِ وكان بغرفتين بدلاً من غرفةٍ واحدةٍ. عرّفتها المرأةُ على زوجها روب الذي كان أعمى، وتماماً كما قالَ لها سام كانت ليزا مضيافةً وقدَّمت لها الخبز وحساء اللحمِ وسكبت لها كأساً من الجعةِ.

سألتهما غويندا عن ابنهما ولكن الأمرَ كان أشبهَ بفتحِ صنبورٍ لأنَّ ليزا تحدثت من دونِ توقفٍ عن ابنها مُذ كان صبياً إلى أن ذهبَ للتدربِ في كينغزبريدج ليصبحَ دباغاً ولم تصمت إلى أن قاطعها الرجلُ العجوز بخشونةٍ قائلاً: «جواد».

لزموا جميعاً الصمت وسمعت غويندا وقعَ الحوافر المتناغمةِ لجوادٍ يخبُّ.

«جوادٌ صغيرٌ»، قالَ روب الأعمى. «قد يكون من نوع بالفري أو جواد قزم، وهو قصيرٌ جداً ليمتطيهِ نبيل أو فارسٌ ولكن قد تمطيهِ سيدةٌ».

شعرت غويندا بالدمِ يجفُّ في عروقها من الخوفِ.

«زائران في ساعةٍ واحدةٍ»، قالَ روب. «لا بد أنَّ الزيارتين مرتبطتان بعضهما ببعض».

كان هذا ما خشتهُ غويندا.

نهضت ونظرت من البابِ ورأت جواداً أسود قوياً يخبُّ على طولِ الطريقِ بينَ المنازلِ، وعندما ميَّزت راكبهِ غاصَ قلبها في صدرها. كان جونو ريف ابن وكيل ويغلي.

ولكن كيفَ عثرَ عليها؟

حاولت أن تتراجعَ بسرعةٍ إلى داخلِ المنزلِ إلا أنَّه رآها. «غويندا!» صرخَ بها ولجمَ جوادهُ.

«أيُّها الشيطان»، قالت له.

«أتساءلُ عمَّا تفعلينهُ هنا؟» قالَ ساخراً.

«كيفَ وصلتَ إلى هنا؟ لم يلحق أحدٌ بي»؟

«أرسلني والدي إلى كينغزبريدج للتحققِ مما تخططين لهُ هناك، ولكن عندما توقفت في حانةِ كروس رودس أخبروني أنَّك أخذتِ الطريقَ إلى أوثنباي».

وتساءلت في نفسها إن كان بوسعها التغلّبُ على هذا الشابِ الماكرِ قالت له: «ألا أستطيعُ زيارةَ أصدقائي القدامى هنا؟»

«لا يوجد ما يمنعكِ»، قالَ لها. «أين ابنكِ الهارب؟»

«ليسَ هنا رغمَ أنني آمل أن يكونَ هنا».

بدا متردداً لوهلةٍ كأنّه صدَّق أنَّها تقولُ الحقيقةَ ثمَّ قال: «قد يكون مختبئاً، سأبحثُ عنهُ في الأرجاءِ»، وهمزَ جوادهُ وانطلقَ.

راقبتهُ غويندا وهو ينطلقُ وعرفت أنَّها لم تنجح في خداعهِ ولكن ربما نجحت في زرعِ الشكِ في عقلهِ ولذلك إن نجحت في الوصولِ إلى سام أولاً فقد تتمكنُ من إخفائهِ.

عادت بسرعةٍ إلى المنزلِ وتحدثت على عجلٍ مع ليزا وروب ثمَّ غادرت من البابِ الخلفي وتوجهت إلى الحقلِ مُلازمةً في سيرها التخومَ. عندما نظرت وراءها إلى القريةِ رأت رجلاً على صهوةِ جوادٍ يتحركُ في زاويةِ اتجاهها، ولكن ضوءَ النهارِ كان يزدادُ خفوتاً واعتقدت أنَّ بنيتها الضئيلةَ لن تكون مرئيةً لجونو على خلفيةِ التخمِ الداكنةِ.

التقت غويندا بالرجالِ وابنها سام وهم في طريقِ العودةِ حاملين المجارف على أكتافِهم والطين يغطي أحذيتهم. من بعيدٍ وللوهلةِ الأولى لاحظت الشبه الكبير بين سام ورالف في البنيةِ والمشيةِ الواثقةِ والرأسِ الجميلِ فوقَ عنقٍ قوي، ولكنه عندما يتحدثُ كان يشبه ولفريك أيضاً فقد كان يديرُ رأسهُ بطريقةٍ مميزةٍ ويبتسمُ بخجلٍ ويُحرِّكُ يدهُ بطريقةٍ مستنكرةٍ تماماً كما يفعلُ والدهُ غير الحقيقي.

رآها الرجال ولكن ولأن وصولها قبلاً قد أثارَ ضحكهم سارعَ الرجلُ ذو العينِ المعطوبةِ إلى القولِ: «مرحباً يا أمّاه!» وضحكوا جميعاً.

أخذت سام جانباً وقالت له: «جونو ريف هنا».

«اللعنة!»

«أنا آسفة».

«لقد قُلتِ أنَّ ما من أحدٍ لحقَ بكِ».

«لم آره، ولكنه تقفى أثري».

«اللعنة، ما الذي علي فعلهُ الآن؟ لن أعودَ إلى ويغلي!»

«إنَّه يبحثُ عنكَ ولكنهُ غادرَ القريةَ وتوجهَ شرقاً»، قالت متفحصةً المكان الذي بدأ يغرقُ في العتمةِ ولم تعد قادرةً على الرؤيةِ بشكلٍ واضحٍ. «إن عجلنا في العودةِ إلى القريةِ يمكننا إخفاؤكَ في الكنيسةِ».

«حسناً».

سارعوا باتجاهِ القريةِ وقالت غويندا للرجالِ وراءها: «أيُّها الرجال إن قابلتم وكيلاً يدعى جونو... لا تقولوا له إنّكم رأيتم سام من ويغلي».

«لم نسمع باسمهِ قبلاً أيتها الأمُّ»، قال أحدهم ووافقهُ الجميعُ فقد كان الأقنانُ عموماً على استعدادٍ دائم لمساعدةِ بعضهم بعضاً في خداعِ الوكلاءِ.

وصلت غويندا وسام إلى القريةِ ولم يريا جونو ثمَّ توجها إلى الكنيسةِ. اعتقدت غويندا أنهما يستطيعان الدخولَ إليها فعادةً ما تكون كنائسُ القرى فارغةً وجرداء من الداخلِ ومفتوحةً على الدوامِ، ولكن إن كانت هذهِ الكنيسةُ استثناء عن بقيةِ الكنائس فلم يكن لدى غويندا أدنى فكرة عمّا ستفعلهُ عندها.

تسللا بينَ المنازلِ وباتت الكنيسةُ أمامَ ناظريهما، وبينما كانا يعبران من أمامِ بابِ منزلِ ليزا رأت غويندا جواداً أسود وزمجرت في غضبٍ، لا بدَّ أنَّ جونو عادَ على أعقابهِ تحتَ غطاءِ عتمةِ الغروبِ بعد أن أمعنَ التفكيرَ جيداً واستنتجَ أنَّ

غويندا ستبحثُ عن سام وتحضرهُ إلى القريةِ، وكان على حقٍ فقد ورثَ جونو عن والدهِ نيثان نزعتهُ الدنيئة إلى الخداع.

أمسكت بذراعِ سام وهرعت بهِ باتجاهِ داخلِ الكنيسةِ.

توقفَ جونو أمامَ منزل ليزا.

«سام»، قال له. «لقد توقعتكَ أن تكونَ هنا».

توقفت غويندا وسام والتفتا إلى الوراءِ.

اتكأ سام على مجرفهِ الخشبي وقال: «ما الذي ستفعلهُ الآن؟»

ارتسمت على وجهِ جونو ابتسامةُ الظافرِ. «أعيدكَ إلى ويغلي».

«أرغبُ برؤيتكَ وأنتَ تحاول».

ومن الطرفِ الغربي للقريةِ ظهرت مجموعةٌ من الفلاحين، وكان معظمهم من النساءِ، وتوقفوا لمشاهدةِ المواجهةِ.

ومدَّ جونو يدهُ إلى جرابِ جوادهِ وأخرجَ أداةً معدنيةً لها سلسلة ثمَّ قال: «سأكبلكَ بهذهِ السلسلةِ، وإن كانت لديكَ أيّ ذرّةِ عقلٍ في رأسكَ فلن تقاومها».

ذُهلت غويندا من جُرأةِ جونو. كيفَ له أن يعتقد بأنَّه يستطيع القبضَ على سام وحدهُ؟ ورغم أنَّه فتى ضخم فإنَّه لم يكن بضخامةِ سام. هل كان يأملُ بأن يساعدهُ سكانُ القريةِ؟ كان القانون معهُ إلا أنَّ القلَّةَ فقط آمنوا بأنَّ قضيتهُ مُحقةٌ، وكأيِّ شابٍ عادي اعتقد جونو بأنَّه أقوى من أن يُهزم.

قال سام: «كنتُ أبرحكَ ضرباً عندما كنا صبيين وسأبرحكَ ضرباً اليومَ أيضاً».

لم تردهما غويندا أن يتشاجرا فأياً كان المنتصر سيظلُّ سام المذنبَ بعينِ القانونِ لأنَّه هارب، ولذلكَ قالت له: «لقد تأخرَ الوقتُ على الذهابِ إلى أي مكانٍ الآن، لمَ لا نناقشُ هذا في الصباحِ؟»

أطلقَ جونو ضحكةً ساخرةً وقال: «وأدع سام يتسللُ هارباً قبلَ الفجرِ كما تسللتِ أنتِ من ويغلي؟ بالطبعِ لا، سينامُ مُكبلاً بالسلاسلِ الليلةَ».

ووصلَ الرجالُ الذين عملَ معهم سام وتوقفوا لمشاهدةِ ما يحدث. قال جونو: «يجبُ على الرجال الذين يحترمون القانون أن يساعدوني في اعتقالِ هذا الهارب، وأيُّ شخصٍ قد يمنعني سيعاقبهُ القانون».

«يمكنكَ الاعتمادُ علي»، قالَ الرجلُ ذو العينِ الواحدةِ ثمَّ أضاف: «سأمسكُ

لكَ جوادكَ»، وضحكَ الرجالُ. لم يكن هناك تعاطفٌ كبيرٌ مع جونو، ولكن من جهةٍ أخرى لم ينبرِ أحدٌ من البلدةِ إلى الدفاعِ عن سام.

تحرَّكَ جونو على الفورِ حاملاً السلسلةَ بيديهِ الاثنتين وتقدمَ من سام ثمَّ انحنى كي يلفَّ السلسلةَ حولَ قدمِهِ بحركةٍ مفاجئةٍ.

كان الأمرُ سينجح لو أنَّ سام رجلٌ عجوزٌ وبطيء، ولكنه تراجعَ إلى الوراءِ بسرعةٍ ثمَّ ركلَ بحذائهِ الطيني جونو من ذراعهِ اليسرى.

زمجرَ جونو من الألمِ والغضبِ ثمَّ استقامَ ورفعَ يدهُ اليمنى مجدداً ورمى بالسلسلةِ بقصدِ ضربِ سام على رأسهِ. سمعت غويندا صرخةَ رعبٍ وأدركت أنَّها هي من كانت تصرخُ. ولكن سام تراجعَ إلى الوراءِ خطوةً مبتعداً عن مدى الضربةِ.

رأى جونو أنَّ ضربتهُ هذهِ لن تصيبَ الهدفَ ولهذا أفلتها من يدهِ في اللحظةِ الأخيرةِ.

طارت السلسلةُ في الهواءِ فجفلَ سام واستدارَ ثمَّ انحنى إلا أنَّه لم يتمكن من تفاديها. أصابت القطعةُ المعدنيةُ في نهايةِ السلسلةِ أذنهُ والتفت السلسلةُ على وجههِ. صرخت غويندا كأنَّها هي من تلقَّتِ الضربة بينما شهقَ المتفرجون ثمَّ ترنحَ سام وسقطت السلسلةُ على الأرضِ. سادت المكان لحظةُ ترقبٍ. خرجَ الدمُ من أذنِ وأنفِ سام، وتقدمت غويندا خطوةً منهُ فاتحةً ذراعيها.

ولكن سام تعافى من الصدمةِ.

استدارَ إلى الوراء ولوحَ بمجرفتهِ الخشبيةِ في حركةٍ رشيقةٍ، ولأنَّ جونو لم يكن قد تعافى بعد من اختلالِ توازنه بعدَ الجهدِ الذي بذلهُ في رمي السلسلةِ لم يتمكن من تفادي الضربة وأصابتهُ المجرفةُ في طرفِ رأسهِ. كان سام قوياً ولذلكَ رنَّ صوتُ الخشبِ وهو يصطدمُ بعظمِ رأسِ جونو في جميعِ أرجاءِ القريةِ.

كان جونو يترنحُ من أثرِ الضربةِ الأولى عندما عاجلهُ سام بضربةٍ ثانيةٍ، ولكن الضربةَ هذه المرة أتتهُ من الأعلى مباشرةً. لوحَ سام بالمجرفةِ بكلتا يديهِ وهوى بها بشكلٍ مستقيمٍ وبقوةٍ كبيرة على رأسِ جونو، ولكن هذهِ المرة لم يكن للضربةِ رنَّةٌ بل خبطةٌ مكمومةٌ وخشيت غويندا أن تكون جمجمةُ جونو قد كُسرت.

جثى جونو على ركبتيه وعاجلهُ سام بمجرفتهِ الخشبيةِ بضربةٍ ثالثةٍ قوية

شقَّت جبهتهُ، وفكرت غويندا في يأسٍ بأنَّ سيفاً معدنياً لن يحدثَ أذى كهذا الأذى الذي أحدثتهُ المجرفة وتقدَّمت إلى الأمامِ لمنعِ سام من الاستمرارِ بضربِ جونو إلا أنَّ رجالَ القريةِ سبقوها إلى فعلِ هذا فأمسكَ رجلان بذراعي سام وأبعداه عن الضحيةِ.

تمدّدَ جونو على الأرضِ غارقاً في بركةٍ من دمائهِ، وشعرت غويندا بالغثيانِ من هذا المنظرِ. لم يكن بوسعها عدمُ التفكيرِ في مدى حُزنِ نيثان والد الفتى على الإصابةِ التي تلقاها ابنهُ، أمّا والدةُ جونو التي توفيت بالطاعونِ فهي الآن في مكانٍ لن يطالها فيهِ الحزنُ.

ورأت غويندا أنَّ إصابةَ سام لم تكن سيئةً فعلى الرغمِ من أنّه ينزفُ فإنَّه ما زالَ يقاومِ الرجلينِ اللذين أمسكا بهِ في محاولةٍ للتحررِ منهما ومعاودةِ الهجوم. انحنت غويندا فوقَ جونو ورأت أنَّ عينيه مغلقتان ولم يكن يتحركُ ثمَّ وضعت يدها على قلبهِ ولم تشعر بضرباتهِ، وبدا كأنّه لا يتنفس.

وفكرت غويندا الآن بعواقبِ ما حدثَ فبدأت تنتحبُ.

لقد ماتَ جونو وأصبح سام قاتلاً.

-82-

بحلولِ عيدِ الفصحِ من عام 1361 كان قد مضى على زواج ميرثن وكاريس عشرة أعوام.

وقفت كاريس أمامَ الكاتدرائيةِ تراقبُ موكبَ عيدِ الفصحِ وتستعيدُ ذكرى حفلِ زفافها، ولأنّهما كانا حبيبين بشكلٍ متقطعٍ ولوقتٍ طويلٍ لم تكن مراسمُ حفلِ الزفافِ بالنسبةِ لهما سوى مجرد تأكيدٍ رسمي على هذهِ الحقيقةِ القديمةِ ولهذا، وبكلِّ سذاجةٍ، تخيلا أنَّ الحدثَ سيكون صغيراً وهادئاً، وأن مراسمهُ ستُقام بشكلٍ عادي في كنيسةِ سانت مارك ثمَّ حفل غداءٍ متواضعٍ لعددٍ قليلٍ من الناسِ في حانةِ بيل، ولكن الأب جوفروي أخبرهما في اليومِ السابقِ لحفلِ الزفافِ بأنّه ووفقاً لحساباتهِ فإن ألفي شخصٍ على الأقلِّ يخططون لحضورِ حفلِ الزفافِ واضطرا إلى إقامة المراسم في الكاتدرائيةِ ثمَّ اكتشفا أنَّ مادج ويبر نظَّمت وليمةً في غيلد هول لأعيانِ المدينةِ ونزهةً في ليفرزفيلد للجميعِ في كينغزبريدج، وبذلك انتهى المطاف بهذا الحفلِ الصغيرِ أن أصبح حفلَ زفافِ العام في المدينةِ.

ابتسمت كاريس عندما تذكرت هذا. كانت قد ارتدت وقتها ثوباً قرمزياً من قماشِ مدينةِ كينغزبريدج وهو لونٌ سيعتبرهُ الأسقفُ مناسباً لامرأةٍ مثلها بينما ارتدى ميرثن معطفاً إيطالياً باذخاً كستنائي اللون ومطرزاً بخيوطٍ ذهبية وبدا سعيداً جداً. أدركت كاريس وميرثن بشكلٍ متأخرٍ أنَّ علاقتهما الغراميّةَ الطويلةَ التي تخيلا أنّها دراما خاصَّة بهما مثارُ تسليةِ سكانِ كينغزبريدج لسنواتٍ عديدةٍ، وأنَّ الجميعَ أرادَ الاحتفال بالنهايةِ السعيدةِ لهذهِ الحكايةِ.

وعندما رأت عدوها القديم فيليمون يصعدُ إلى المنبرِ تبخرت كل هذهِ الذكريات الجميلةِ. خلالَ العقدِ اللاحقِ على حفلِ زفافها ازداد فيليمون سُمنةً فقد فضح رأسهُ المحلوق على طريقةِ الرهبانِ ولحيتهُ المحلوقة أيضاً سُمنةَ عنقهِ، وبدا رداؤهُ الكهنوتي كخيمةٍ تحيطُ بهِ.

هاجمَ فيليمون في عظتهِ التشريحَ.

قالَ فيليمون إنَّ أجسادَ الموتى ملكٌ للرَّبِّ وأشارَ على المسيحيين بدفنِ أنفسهم وفقاً طقوسٍ محددةٍ بدقةٍ؛ فالمؤمنون الناجون يُدفنونَ في مقابر مباركة أمَّا المغضوبُ عليهم فيدفنون في أماكن أخرى، ولذلكَ كان العبثُ بالجثثِ عملاً ينطوي على تحدٍ لإرادةِ الرَّبِّ، وقالَ بحميَّةٍ ليست من طبعهِ إنَّ تشريحَ الجثةِ عملٌ تدنيسي، بل ارتعشَ صوتهُ قليلاً عندما طلبَ من الرعيةِ تخيلَ المشهدِ الرهيب لجثةٍ مُشرَّحةٍ وقد فُصلت أجزاؤها بعضها عن بعض وقُطعت بينما «الباحثون الطبيون» -كما يطلقون على أنفسهم- يستكشفونها. وقالَ إنَّ المسيحيين الحقيقيين يعلمون أنَّ ما من شيءٍ يبررُ ما يفعلهُ هؤلاءِ الرجالُ والنساءُ القذرون.

لاحظت كاريس أنَّ فيليمون لم يكن يتلفظُ بعبارةِ «الرجال والنساء» كثيراً ولذلك كان استخدامه لها اليوم مدروساً. حدَّقت إلى زوجها الذي وقفَ بقربها في صحنِ الكنيسةِ ورأت أنَّ علائم القلقِ على وجههِ.

باتَ تحريمُ تشريحِ الجثثِ عقيدةً ثابتةً صادقت عليها الكنيسة منذُ زمنٍ طويلٍ جداً ولكن سطوة التحريمِ تراخت في حقبةِ الطاعونِ، فقد كان رجالُ الدين المتقدمون واعين تماماً بحقيقةِ أنَّ الكنيسةَ فشلت في مساعدةِ رعيتها ولذلك كانوا حريصين جداً على تغيير طريقةِ تعليمِ وممارسةِ الطبِ من قبلِ الكهنةِ. على أيِّ حالٍ تمسكَ رجالُ الدين الأكبرُ سناً بالطرقِ القديمةِ وأعاقوا التغيير في سياستهم، وأثمرَ عن هذا التناقض منع التشريح من حيث المبدأ والسماح بهِ كممارسة.

منذُ انتقالها إلى المشفى الجديد وكاريس تقومُ بالتشريحِ ولكنها لم تتحدث عن الأمرِ خارجَ المبنى فلم يكن هناك أيُّ فائدةٍ من إزعاجِ المتطيرين وكانت تقومُ بِهِ كلما أتاحت لها الفرصة.

خلالَ السنواتِ الأخيرةِ انضمَّ إليها طبيبٌ أو طبيبان من الرهبانِ فالعديدُ من الأطباءِ المدربين لم يكونوا قد رأوا ما بداخلِ الجسدِ البشري قبلاً باستثناءِ ما كانوا يرونهُ خلالَ معالجةِ الجروحِ الخطيرةِ. عادةً، كانت الجثثُ الوحيدةُ التي يُسمحُ لهم بفتحها هي جثثُ الخنازير فقد كان هناك اعتقادٌ بأنَّ البنيةَ البدنيةَ للحيوانات شبيهةٌ جداً بالبنيةِ البدنية للبشر.

أثارَ هجومُ فيليمون حيرةَ وقلقَ كاريس فهي تعرفُ أنَّ فيليمون يكرهها ولكنها لم تعرف سبباً لهذا الكره، وهو منذُ المواجهة التي حدثت خلالَ هطولِ الثلجِ في عام 1351 يتجاهلها، وعوَّض نفسهُ عن خسارةِ سلطتهِ على المدينةِ بتأثيثِ قصره بأغراض ثمينةٍ من منسوجاتٍ مزدانةٍ بالرسوم تعلقُ على الجدرانِ وسجاجيد وأدوات مائدة فضية ونوافذ بزجاج نقي ومخطوطات مُجلدةٍ، بل تصرفَ بعظمةٍ أكبر مُطالباً رهبانه ورهبانهُ المبتدئين بإظهارِ احترامِ عظيمٍ له، وارتدى أرواباً لافتةً خلالَ المراسمِ، وسافرَ إلى البلداتِ الأخرى في عربةٍ مؤثثةٍ كأنّها غرفة نوم دوقة.

حضرَ المراسم الكثيرُ من رجالِ الدين الزائرين ومن بينهم هنري أسقفُ شايرنغ وبير رئيسُ أساقفةِ مونماوث وريجنالد رئيسُ شمامسةِ يورك، ولذلك قد يكون غرضُ فيليمون من هذهِ الموعظة إبهارهم بهذهِ الثورة العقائدية المحافظة، ولكن ما الغايةُ منها؟ هل كان يسعى وراءَ ترقيةٍ؟ كان الأسقفُ هنري مريضاً وقد نُقلَ إلى الكنيسةِ محمولاً، ولكن فيليمون حتماً لا يطمحُ لشغلِ هذا المنصب، وكانت فكرةُ وصول ابن جوبي من ويغلي إلى منصبِ رئيسِ ديرِ كينغزبريدج أمراً أشبهَ بالمعجزةِ. علاوةً على هذا عادةً ما يكون الترقي من منصبِ رئيسِ ديرٍ إلى أسقفٍ قفزةً كبيرةً وأشبه بالانتقالِ من كونِ المرءِ فارساً إلى دوقٍ دون أن يصبحَ باروناً أو إيرلاً قبلَ هذا، ولا يمكنُ إلا لأصحابِ المحسوبيات الخاصةِ أن يأملوا بمثلِ هذهِ الترقيةِ السريعةِ.

ولكن لم يكن هناك حدودٌ لطموحِ فيليمون، وفكرت كاريس بأنَّ هذا لا علاقة له بإيمان فيليمون بأنّه مؤهلٌ بشكلٍ خارقٍ، لا، لأنَّ هذا أيضاً كان أسلوب غودوين بثقتِه المتعاليةِ. لطالما اعتقدَ غودوين أنَّ الرَّبَّ نصَّبهُ رئيساً للديرِ لأنَّه

أذكى رجلٍ في المدينةِ، أمَّا فيليمون فقد كان على النقيضِ منهُ؛ فهو ومن أعماقِهِ يؤمنُ بأنَّه نكرةٌ، وحياتهُ برمتها أشبهُ بحملةٍ لإقناعِ نفسِهِ بأنَّه لم يكن نكرةً قط. كان شديدَ التأثرِ بالرفضِ إلى درجةٍ أنه لم يكن قادراً على تحملِ فكرةِ عدم استحقاقِهِ لأيِّ منصبٍ مهما بدا متغطرساً في سلوكهِ.

وفكرت كاريس في أنَّها ستتحدثُ إلى الأسقفِ هنري بعدَ انتهاءِ المراسمِ، وأنَّها قد تذكرهُ بما اتفقا عليهِ منذُ عشرِ سنواتٍ وهو أنَّه لا سلطة تشريعية لرئيسِ ديرِ كينغزبريدج على مستشفى سانت إليزابيث على جزيرةِ ليبر الذي كان تحتَ الحُكمِ المباشرِ للأسقفِ، وأنَّ أيَّ هجومٍ على المستشفى هو هجومٌ على حقوقِ وامتيازاتِ هنري نفسِه، ولكن بعدَ التفكيرِ في الأمرِ أدركت أنَّ مثلَ هذا الاحتجاجِ سيكون دليلاً على أنَّها تقومُ بالتشريحِ، وتحول ما قد يكونُ ريبةً غامضةً من السهلِ تجاهلها إلى حقيقةٍ معلومةٍ سيتوجبُ عليهِ التعاملَ معها، ولهذا ارتأت أخيراً التزام الصمت.

بجانبها وقفَ أبناءُ الإيرلِ رالف. كان جيري في الثالثة عشرة ورولي في العاشرةِ وهما في مدرسةِ الرهبانِ ويعيشان في الديرِ إلَّا أنهما كانا يقضيان معظمَ وقت فراغهما مع ميرثن وكاريس في منزلهما على الجزيرةِ. كان ميرثن يضعُ يدهُ بشكلٍ عرضي على كتفِ رولي. لم يكن هناك من يعرفُ أنَّ رولي ليسَ ابن أخيهِ بل ابنه سوى ثلاثة أشخاصٍ: ميرثن نفسهُ وكاريس ووالدةُ الفتى فيليبا. لطالما جاهد ميرثن حتَّى لا يبدو كأنَّه يفضلُ رولي على أخيهِ ولكنه وجدَ صعوبةً في إخفاءِ مشاعرهِ الحقيقيةِ بخاصَّةٍ عندما يتعلم رولي شيئاً جديداً أو يُبلي جيداً في المدرسةِ.

أحياناً كانت كاريس تفكر بالطفلِ الذي حملت بهِ من ميرثن وأجهضتهُ، ولطالما تخيلت أنَّها فتاةٌ، وكيف لو أنها عاشت لكانت الآن امرأةً في الثالثةِ والعشرين وربما متزوجة ولديها أطفالٌ. كان التفكيرُ بالأمرِ أشبهَ بوجعِ جرحٍ قديمٍ؛ مؤلم إلا أنَّه أليفٌ جداً على أن يكون مُزعجاً.

بعدَ انتهاءِ المراسم غادرَ الجميعُ ودُعي الصبيان إلى غداءِ الأحدِ كالعادةِ. خارجَ الكاتدرائيةِ استدارَ ميرثن إلى الوراءِ لينظرَ إلى البرجِ الذي ينتصبُ الآن عالياً فوقَ منتصفِ الكنيسةِ.

تفحصتهُ كاريس بحبٍ وهو يتحققُ من بعضِ الأعمالِ التي شارفت على الانتهاءِ ويعبسُ عند بعضِ التفاصيلِ التي لم تكن واضحةً له. كانت تعرفهُ مُذ

كان في الحادية عشرة من العمرِ وقد أحبتهُ منذُ ذلكَ الوقتِ تقريباً. ورغم بلوغهِ الخامسة والأربعين الآن وخطُّ شعرهِ الأصهب فوقَ جبهتهِ قد بدأ بالتراجعِ مُكللاً رأسهُ كهالةٍ مُجعدةٍ، ويحرّك يدَهُ اليسرى بصعوبةٍ منذُ أن أوقعَ عاملٌ مستهترٌ على كتفهِ دعامةً حجريةً بنقوشٍ من أعلى السقالةِ إلا أنّه ما زالَ محتفظاً بذلكَ التوقِ الصبياني الذي جذبَ كاريس ذات العشر سنوات إليهِ في عيدِ جميعِ القديسين قبلَ رُبعِ قرنٍ.

استدارت كاريس لتنظر إلى حيثُ كان ميرثن ينظر ورأت كيف يعلو البرجُ بأناقةٍ بينَ الجوانب الأربعة للتقاطعِ، أو بشكلٍ أدقٍ بين عمودين. في حقيقةِ الأمرِ كان وزنُ البرجِ بكاملهِ يرتكزُ على دعامةٍ هائلةٍ بُنيت بينَ الزوايا الداخليةِ لأجنحةِ الكنيسةِ واستقرت بدورها على أساساتٍ جديدةٍ منفصلةٍ عن الأساساتِ الأصليةِ القديمةِ. بدا البرجُ رفيعاً وشاهقاً بأعمدةٍ رفيعةٍ ونوافذ عديدة تُطلُ على سماءٍ زرقاء في يومٍ صافٍ، وفي الأعلى هناكَ سقالاتٌ من أجلِ المرحلةِ الأخيرةِ من البناءِ، وهي بناءُ القمةِ المستدقةِ.

عندما أخفضت كاريس نظرها إلى الأسفلِ رأت أختها تتقدمُ منها. كانت أليس أكبر منها بعامٍ وهي الآن في الخامسةِ والأربعين إلا أنَّ كاريس شعرت كأنَّ أليس من جيلٍ آخر غير جيلها. توفي زوجها إلفريك جرّاءَ الطاعونِ ولكنها لم تعاود الزواجَ بل أصبحت امرأةً مهلهلةَ المظهرِ كأنَّ إيماناً في داخلها أملى عليها أنَّ هذا مصيرُ أيِّ أرملةٍ. منذُ سنواتٍ عديدةٍ تشاجرت كاريس مع أليس بسببِ سوءِ معاملةِ إلفريك لميرثن، إلَّا أنَّ الزمن كان كفيلاً بسحبِ فتيلِ العداءِ المشتركِ بينهما رغمَ أنَّ أليسَ ما زالت تحيي كاريس بشيءٍ من الاستياء.

كانت بصحبتها غريزيلدا ابنةُ زوجها التي تصغرها بعامٍ، وإلى جانبِ غريزيلدا سارَ ابنها الأطولُ منها والمعروفُ باسم ميرثن اللقيط. كان ميرثن رجلاً ضخماً ويتمتع بسحرٍ سطحي كوالدهِ الحقيقي،تريستان، ومختلفاً جداً عن بنَّاءِ الجسرِ ميرثن، ورافقتهم أيضاً بيترانيلا ابنةُ غريزيلدا البالغةُ من العمر ستةَ عشرَ عاماً.

كان زوجُ غريزيلدا هارولد ميسن قد تولى أعمالَ إلفريك بعدَ وفاتهِ، ورغم أنَّه لم يكن بنّاءً جيداً وفقَ معايير ميرثن فإنّه كان يُبلي جيداً ولم يحتكر أعمال البناءِ والصيانةِ في الديرِ كما فعلَ إلفريك. وقفَ هارولد إلى جانبِ ميرثن وقالَ له: «يعتقدُ الناسُ أنَّكَ ستبني القبةَ المستدقةَ من دون قالبٍ».

وفهمت كاريس ما قصدهُ هارولد فالقالبُ أو المحورُ عبارة عن إطارٍ خشبي يُبقي الحجارةَ في مكانها إلى أن يجفَّ الملاط.

قالَ ميرثن: «إن لم تكن هناك مساحةٌ كافيةٌ لقالبٍ داخلَ القُبةِ الضيقةِ فكيفَ سندعمُ البناء؟» كان يتحدثُ بلهجةٍ مهذبةٍ وعرفت كاريس من جوابِهِ المختزل أنَّه لا يحبُّ هارولد.

«إن كانت القبةُ مدورةً يمكننا الاستغناءُ عن القالب».

وفهمت كاريس هذا أيضاً. كانت القبابُ المدورة تبنى برصفِ الحجارةِ دائرياً والواحد تلو الآخر وبشكلٍ أضيق مع كلِّ صفٍ إلى أن تغدو ضيقةً في الأعلى، ولذلكَ لم تكن هناك حاجة إلى استخدامِ قالبٍ لأنَّ البناءَ الدائري لا يحتاج إلى دعائم فالحجارةُ مضغوطة بعضها إلى بعض ولن تسقطَ إلى الداخلِ، ولكن استخدام هذهِ الطريقة على أشكالٍ أخرى لها زوايا غير ممكنٍ.

«رأيتَ الرسومات»، قال ميرثن. «إنَّ القبةَ مُثمنةٌ».

في زوايا أعلى البرجِ المربعِ كانت الأبراجُ الصغيرةُ تواجه بعضها بشكلٍ قطري وإلى الداخلِ وتبدو بامتشاقها إلى الأعلى في أشكالٍ مختلفةٍ من القباب المستدقةِ جميلةً للناظرِ. كان ميرثن قد نسخَ هذه الميزة من كنيسةِ شارتر وهي خاصية تميزُ الأبراج المُثمنة.

قالَ هارولد: «ولكن كيفَ ستتمكن من بناء البرج المُثمن من دونِ دعائم؟»

«انتظر وسترى»، قال ميرثن وابتعدَ.

كانا يسيران في الشارعِ الرئيسي عندما قالت كاريس: «لمَ لا تخبرُ الناسَ بالطريقةِ التي ستبني بها القبةَ؟»

«حتَّى لا يطردوني»، أجابها. «فعندما كنتُ أبني الجسرَ وبعد أن انتهيت من الجزءِ الصعبِ طردوني واستعانوا بشخصٍ أرخص».

«أتذكر هذا».

«لا يمكنهم فعلُ هذا الآن فما من أحدٍ غيري يستطيعُ بناءَ القبةِ المستدقةِ».

«كنت أصغر عُمراً آنذاك، وأنتَ الآن رئيسُ النقابةِ ولا يجرؤ أحدٌ على طردكَ».

«ربما لا يجرؤون، ولكن من اللطيفِ أن أعرف أنهم لا يستطيعون».

عند أسفلِ الطريقِ الرئيسي حيثُ كان الجسرُ القديمُ هناك حانةٌ سيئةُ السمعةِ تدعى وايت هورس. رأت كاريس لولا ابنةَ ميرثن البالغةَ ستةَ عشرَ عاماً متكئةً

على جدارٍ خارج الحانةِ مع مجموعةٍ من أصدقائها الأكبر عُمراً. كانت لولا فتاةً جذابةً ببشرةٍ زيتونيةٍ وشعرٍ أسودَ فاتنٍ وفمٍ واسعٍ وعينين عسليتين شهوانيتين. تحلَّقت المجموعةُ حولَ لعبةِ النردِ وكانوا جميعاً يشربون الجعةَ من كؤوسٍ كبيرةٍ. شعرت كاريس بالأسفِ إلا أنّها لم تكن متفاجئةً لرؤيةِ ابنة زوجها تشربُ في الشارعِ علناً وفي منتصفِ النهارِ.

اشتعلَ ميرثن غضباً عندما رأى لولا فتوجه نحوها وأمسكها من ذراعها.

«من الأفضلِ أن تعودي إلى المنزلِ لتناولِ الغداء؟» قال لها بصرامةٍ.

هزَّت رأسها فاهتزَّ معه شعرها في حركةٍ مقصودةٍ إلى شخصٍ آخر غير والدها وقالت: «لا أريد الذهاب إلى المنزلِ، أنا سعيدةٌ هنا».

«لم أسألكِ عمّا تريدنهُ»، أجابَ ميرثن وسحبها من المجموعةِ.

انسلَّ فتى وسيم في العشرين من العمرِ خارجَ المجموعةِ. كان له شعرٌ مجعدٌ وابتسامةٌ هازئةٌ، وكان يُخلِّلُ أسنانهُ بغصنٍ صغيرٍ. عرفته كاريس. كان جيك رايلي الفتى الذي لا يعملُ في أيِّ مهنةٍ ولكنهُ يبدو كأنّه يحملُ مالاً على الدوامِ. سارَ جايك على مهلٍ وقال: «ما الذي يجري؟» تحدَّثَ والغصنُ ينتأ من فمهِ كإهانةٍ.

«هذا ليسَ من شأنكَ»، قال ميرثن.

وقفَ جايك في طريقِ ميرثن وقال: «الفتاة لا تريدُ المغادرة».

«من الأفضلِ لكَ يا بني أن تبتعدَ عن طريقي ما لم تكن تريد قضاء بقيّةِ اليومِ على عمودِ المدينةِ».

وتجمَّدت كاريس في مكانها من القلقِ فقد كان ميرثن يقوم بما هو صائب وهو مخولٌ بتهذيبِ لولا التي ما زالَ أمامها خمسُ سنواتٍ لتصلَ إلى سنِ الرشدِ إلا أنَّ جايك فتى من النوعِ الذي قد يلكمُ ميرثن بكلِّ سهولةٍ ومن دون تفكيرٍ بالعواقبِ. على أيِّ حالٍ لم تتدخَّلْ كاريس فهي تعلمُ أنَّ تدخلها قد يحولُ غضبَ ميرثن من جايك إليها.

قالَ جايك: «أفترضُ أنّك والدها».

«أنتَ تعرفُ تماماً من أكون ويمكنكَ أن تناديني برئيسِ النقابةِ وتتحدث معي باحترامٍ أو سيكونُ هناك عواقب».

حدَّقَ جايك نحو ميرثن بوقاحةٍ ولبرهةٍ طويلة ثمَّ التفتَ جانباً وقالَ بشكلٍ عرضي: «أجل، حسناً».

شعرت كاريس بالراحةِ لأنَّ المواجهةَ لم تتطور إلى شجارٍ. لم يدخل ميرثن في شجارٍ حتَّى الآن ولكن يبدو أنَّ لولا قادرةٌ على تشتيتِ انتباهه وتوريطهِ.

ساروا باتجاهِ الجسرِ ثمَّ حررت لولا نفسها من قبضةِ والدها وتقدَّمتهما وقد طوت ذراعيها تحتَ ثدييها وطأطأت رأسها عابسةً وهي تغمغم في استياءٍ حقيقي.

لم تكن هذهِ المرة الأولى التي تُشاهد فيها لولا مع رفقةٍ سيئةٍ، وكان ميرثن خائفاً وغاضباً جداً من سعي فتاتهِ الصغيرةِ وراءَ مثلِ هؤلاء الناس. «ما الذي يدفعها لفعلِ هذا؟» سألَ ميرثن كاريس وهما يسيران وراءَ لولا على الجسرِ باتجاهِ جزيرةِ ليبر.

«الرَّبُّ وحده يعلمُ»، أجابت كاريس. كانت قد لاحظت شيوعَ مثل هذا النوع من السلوكِ بينَ الشبابِ الذينَ يفقدون أحدَ الأبوين. بعدَ وفاةِ سيلفيا تلقّت لولا الرعايةَ على يدِ بيسي بيل والليدي فيليبا ومدبرة منزلِ ميرثن إم وكاريس بالطبعِ، وربما كانت الفتاةُ محتارةً حيالَ من عليها إطاعتهُ.

ولكن كاريس لم تُفصح له عن هذهِ الأفكارِ حتَّى لا يشعرَ بأنَّه والدٌ فاشلٌ. «كنتُ أتشاجرُ بشدةٍ مع عمتي بيترانيلا عندما كنتُ في هذا العمرِ».

«وحولَ ماذا كنتما تتشاجران؟»

«حولَ أمورٍ مماثلةٍ فهي لم تكن تحبذُ قضائي الوقتَ مع ماتي وايز».

«ولكن الأمر مختلفٌ فأنتِ لم تذهبي إلى حاناتٍ سيئةِ السمعةِ مع أوغادٍ».

«كانت بيترانيلا تعتقدُ أنَّ صحبةَ ماتي سيئةٌ».

«ولكن الأمرَ مختلفٌ».

«لا أعتقدُ هذا».

«لقد تعلمت الكثير من ماتي».

لا شك أنَّ لولا تتعلمُ الكثيرَ من الوسيمِ جايك رايلي، ولكن كاريس احتفظت بهذهِ الفكرةِ المستفزةِ لنفسها فميرثن غاضبٌ جداً الآن.

كانت الجزيرةُ الآن مأهولةً بالكاملِ بل أصبحت جزءاً حيوياً من المدينةِ وبات لها كنيسةٌ صغيرةٌ خاصةٌ بها. في ما مضى كانت الجزيرةُ أرضاً قاحلةً إلا أنهم الآن يسيرون على طريقٍ مستقيمٍ بينَ منازل ويستديرون عندَ زوايا مستدقةٍ. اختفت الأرانبُ منذُ زمنٍ طويلٍ، واحتلَّ المستشفى معظمَ الطرف الغربي للجزيرة، ورغمَ أنَّ كاريس تتوجهُ إلى هناك كل يومٍ، فإنَّها كانت تشعرُ بشيءٍ

من الفخرِ كلما نظرت إلى الحجارةِ الرماديةِ النظيفةِ للمستشفى وصفِ النوافذ العريضةِ وصفِ المداخنِ المنتصبةِ كالجنودِ.

دخلوا من بوابةِ بستان ميرثن حيثُ الأشجارُ في أوجها والزهورُ تغطي أشجارَ التفاحِ كطبقةٍ من الثلجِ.

وكعادتهم دخلوا إلى المنزل من بابِ المطبخ رغم أنَّ للمنزلِ مدخلاً كبيراً من جهةِ النهرِ إلّا أن ما من أحدٍ كان يستخدمه، وفكرت كاريس بمرحٍ أنَّ حتَّى ألمعَ المعماريين يقترفون الأخطاء، ولكنها مجدداً قررت ألا تفصحَ لميرثن بما فكرت بهِ.

صعدت لولا الدرجَ بصخبٍ وتوجهت إلى غرفتها في الطابقِ العلوي.

ومن الغرفةِ الأماميةِ نادت امرأةٌ: «مرحباً جميعاً!» وهرعَ الصبيان إلى غرفةِ الجلوسِ يصيحان في فرحٍ. كانت والدتهما فيليبا، وحيَّاها ميرثن وكاريس بحرارةٍ.

بزواج كاريس من ميرثن باتت كاريس وفيليبا نسيبتين ولسنواتٍ ساهمَ عدائهما القديم في إبقاءِ العلاقةِ بينهما غريبةً، ولكن الصبيين نجحا بجمعهما معاً في النهايةِ. عندما أتى جيري أولاً ثمَّ رولي إلى مدرسةِ الديرِ كان من الطبيعي أن يرعى ميرثن ابني شقيقهِ، وباتَ من الطبيعي أن تزورَ فيليبا منزل ميرثن عندما تأتي إلى كينغزبريدج.

في البدايةِ شعرت كاريس بالغيرةِ من فيليبا لأنَّها أغوت ميرثن جنسياً، ولكن ميرثن لم يحاول قط أن يتظاهرَ بأنَّ حبهُ لفيليبا كان سطحياً. من الواضحِ أنَّه ما زالَ يهتَّمُ لأمرها، ولكن فيليبا الآن في حالةٍ سيئةٍ فقد كانت في التاسعةِ والأربعين وتبدو أكبرَ عمراً وقد غزا الشيبُ شعرَها واكتسى وجهها بالخيبةِ. كانت تعيشُ الآن من أجلِ أطفالها وهي ضيفةٌ دائمةٌ على ابنتها أوديلا كونتيسةِ مونماوث، وعندما لا تكون في زيارةٍ لابنتها تزور ديرَ كينغزبريدج لتكونَ قريبةً من ابنيها. وكانت تقضي بعضَ الوقتِ أحياناً في قلعةِ شايرنغ مع زوجها رالف.

«يجبُ أن آخذَ الصبيين إلى شايرنغ»، قالت وهي تشرحُ لهما سببَ حضورها إلى هنا. «يريدهما رالف أن يذهبا معهُ إلى المحكمةِ الإقليميةِ. يقولُ إنَّ هذا جزءٌ أساسي من تعليمهما».

«إنَّه على حقٍ»، قالت كاريس. «إن عاشَ جيري لوقتٍ طويلٍ سيصبحُ الإيرل وإن لم يعش سيرثُ رولي المنصبَ، ولذلكَ كان عليهما أن يعتادا على المحاكم».

وأضافت فيليبا: «كنتُ أنوي حضور صلاة عيدِ الفصحِ في الكاتدرائيةِ ولكن عجلةَ العربةِ تحطمت ولهذا تأخرت يوماً».

«حسناً بما أنَّكِ هنا الآن فلنتناول الغداء»، قالت كاريس.

توجهوا جميعاً إلى قاعةِ الطعامِ، وفتحت كاريس النوافذ المُطلَّة على النهرِ فدخلَ إلى القاعةِ هواءٌ عليلٌ. تساءلت كاريس في نفسها عمَّا سيفعلهُ ميرثن بخصوصِ لولا، ورغم أنَّه لم يقل شيئاً إلا أنَّها شعرت بالراحةِ عندما رأته يترك لها صحناً من اليخنةِ في الطابقِ العلوي فقد يكون وجود مراهقةٍ عابسةٍ إلى طاولةِ الغداءِ أمراً محبطاً.

تناولوا لحمَ الضأن المسلوقِ مع الكُرَّاث وسكبَ ميرثن النبيذ الأحمر. شربت فيليبا بشهيةٍ فقد كانت مغرمةً بالنبيذِ في هذه المرحلةِ من حياتها، ربما لأنَّه أصبح السلوى الوحيدة في وحدتها.

بينما كانوا يتناولون الطعامَ دخلت إم والقلقُ بادٍ على وجهها ثمَّ قالت: «هناك شخصٌ عندَ بابِ المطبخِ يريدُ مقابلتكِ يا سيدتي».

وقالَ ميرثن بنفادِ صبرٍ: «حسناً، من يكون؟»

«لم يذكر اسمهُ ولكنهُ قالَ إنَّ السيدةَ ستعرفهُ».

«ومن أيِّ نوعٍ من الرجال؟»

«شابٌ، وبالنظرِ إلى ثيابهِ يبدو كفلاحٍ وليسَ من سكانِ المدينةِ». لطالما شعرت إم بالكره تجاه سكانِ القرى وكانت تعاملهم بتعالٍ.

«حسناً، يبدو شخصاً غير مؤذٍ. فليدخل».

وبعدَ برهةٍ دخلَ شخصٌ طويلٌ بقلنسوةٍ تغطي معظمَ وجههِ، وعندما رفعَ القلنسوةَ تعرَّفت كاريس على سام ابن غويندا البكر.

عرفت كاريس سام طوالَ حياتهِ فقد شهدت على ولادتهِ وراقبت رأسهُ اللزج يخرجُ من جسدِ أمِّهِ الضئيلِ ورأته يكبر ويتحول إلى رجلٍ بالغٍ. كانت تراه الآن شبيهاً بولفريك في مشيتهِ والطريقة التي يرفعُ بها يدهُ قليلاً عندما يوشكُ على الكلامِ إلا أنَّها لطالما شككت بأنَّ ولفريك والدهُ الحقيقي، ولكن ولأنَّها صديقةُ غويندا المقربة لم تذكر لها هذهِ الشكوك فبعضُ الأسئلةِ من الأفضلِ ألا تُطرحَ قط. على أيِّ حال عاودها هذا الشك عندما سمعت أنَّ سام مطلوبٌ بتهمةِ قتلِ جونو ريف، وتذكرت الآن أنَّها عند ولادةِ سام رأت شبهاً كبيراً بينه وبين رالف.

وتقدَّمَ سام من كاريس رافعاً يدهُ بالطريقةِ التي يرفعها ولفريك وترددَ ثمَّ ركعَ على ركبةٍ واحدةٍ وقال لها: «أنقذيني من فضلكِ».

بدت كاريس خائفةً وسألته: «وكيفَ أنقذكَ؟»

«خبئيني فأنا أركضُ منذُ أيامٍ. غادرت أولد تشيرش تحتَ جنحِ الظلامِ وسرتُ طوالَ الليلِ وبالكادِ أخذتُ قسطاً من الراحةِ. حاولت للتو أن أشتري شيئاً لأتناولهُ في حانةٍ ولكن أحدهم تعرَّفَ علي ولهذا اضطررت إلى الهربِ».

بدا يائساً جداً وشعرت كاريس بموجةِ تعاطفٍ معهُ ولكنها قالت: «ولكنكَ لا تستطيعُ الاختباء هنا فأنتَ مطلوبٌ بتهمةِ القتلِ!»

«لم تكن جريمةً بل شجاراً وجونو من بدأهُ. ضربني بسلسلةٍ معدنيةٍ... انظري». وتحسسَ سام أنفه وأذنه ورأت كاريس أنهما يبدوان كجرحين نازفين.

لم يكن بوسعِ الطبيبِ الذي بداخلِ كاريس تجاهل هذهِ الإصاباتِ التي كانت بعمرِ الخمسةِ أيامٍ، ورغمَ أن جرحَ الأنف قد بدأ بالتعافي بشكلٍ جيدٍ فإنَّ جرحَ الأذنِ كان بحاجةٍ إلى قطبةٍ، ولكن ما شغلَ تفكيرها بشكلٍ أساسي هو أنَّ سام لا يجب أن يكونَ هنا.

«يجبُ أن تأخذَ العدالةُ مجراها»، قالت كاريس.

«سينحازون إلى جانبِ جونو. سيفعلونَ هذا من كلِّ بدٍ. لقد هربتُ من ويغلي من أجلِ أجرٍ أعلى في أوثنباي، وكان جونو يحاولُ إعادتي إلى ويغلي. سيقولون إنَّه كان على حق في اللحاق بي وتقييدي».

«كان عليكَ التفكيرُ بهذا قبلَ أن تضربهُ».

قالَ سام لها كأنَّه يتهمها: «لقد استعنتِ بالهاربين في أوثنباي عندما كنتِ رئيسةَ ديرِ الراهباتِ».

بوغتت بهذا الردِّ وأجابتهُ: «كنتُ أستعين بالهاربين ولكن ليسَ بالقتلةِ».

«سيعدمونني».

كانت كاريس ممزقةً بينَ تسليمهِ وإخفائهِ.

وهنا تحدثَ ميرثن قائلاً: «هناك سببان يمنعاننا من إخفائكَ هنا يا سام. السببُ الأولُ هو أنَّ إخفاء هاربٍ يعتبرُ جريمةً، وأنا لستُ مستعداً لوضعِ نفسي في مواجهةٍ مع القانونِ من أجلكَ رغمَ أنني أحبُ والدتكَ، والسببُ الثاني هو أنَّ الجميعَ يعلمُ أنَّ والدتكَ صديقةٌ قديمةٌ لكاريس وإن كان رجالُ مأمورِ كينغزبريدج يبحثونَ عنكَ فسيكون هذا أولَ مكان سيأتونَ إليهِ».

«هل هذا صحيح؟»

كانت كاريس تعلمُ أنَّه لم يكن فتى نبيهاً فشقيقةُ ديفي من يملكُ الذكاءَ.

قالَ ميرثن: «هذا أسوأ مكانٍ يمكنكَ الاختباءُ فيهِ»، ثمَّ تابعَ بلهجةٍ ألطف: «اشربْ كأساً من النبيذ، وخُذ رغيفاً من الخبزِ وغادر المدينةَ. سيتوجبُ علي الآن أن أبحثَ عن المأمور مونغو وإخبارُه بأنَّكَ كنتَ هنا ولكن أستطيعُ أن أبطئهُ إلى أن تبعد»، وسكبَ النبيذَ في كوب خشبي.

«شكراً لكَ».

«إنَّ أمَلَكَ الوحيد هو الابتعاد إلى أن تصلَ إلى مكانٍ لا يعرفكَ فيهِ أحدٌ وتبدأ حياةً جديدةً. أنتَ فتى قوي، وستجدُ عملاً، فلتذهب إلى لندن ولتصعد إلى سفينةٍ ولكن لا تتورط في الشجاراتِ».

قالت فيليبا على حينِ غرَّةٍ: «أتذكرُ والدتكَ... غويندا؟»

أومأ سام برأسهِ.

استدارت فيليبا نحو كاريس وقالت: «لقد قابلتها في كاسترهام عندما كان ويليام على قيدِ الحياةِ. أتت للتحدثِ معي بشأنِ فتاةٍ من ويغلي كان رالف قد اغتصبها».

«آنيت».

«أجل»، قالت ثمَّ استدارت نحو سام وقالت: «لا بدَّ أنَّكَ الطفلُ الذي كانت تحملهُ على ذراعيها في ذلكَ الوقتِ. إنَّ والدتكَ امرأةٌ طيبةٌ وأشعرُ بالأسى عليها لأنَّك في ورطةٍ الآن».

ولوهلةٍ سادَ الهدوءُ المكانَ. تجرَّعَ سام النبيذَ في الكأسِ دفعةً واحدةً، وغرقت كاريس في التفكير وكذلكَ فيليبا وميرثن. كانوا يفكرون في مرورِ الزمنِ وكيفَ أنَّ ذلكَ الطفل البريء والمحبوب تحول إلى رجلٍ مجرمٍ.

وفي أثناء هذا سمعوا أصواتاً.

بدا كأن مجموعةً من الرجال عندَ بابِ المطبخِ.

نظرَ سام إليهم وبدا كذئبٍ واقعٍ في شركٍ. كان هناك بابٌ يُفضي إلى المطبخ وآخر إلى مدخلِ المنزلِ فاندفعَ إلى البابِ الأمامي وفتحهُ ثمَ ركضَ خارجاً منهُ، ومن دونِ أن يتوقف توجهَ مباشرةً إلى النهرِ.

بعدَ برهةٍ فتحت إم بابَ المطبخِ ودخلَ المأمور مونغو إلى قاعةِ الطعامِ مع أربعةِ رجالٍ يحملونَ مضاربَ خشبيةً.

،شارَ ميرثن إلى البابِ الأمامي وقال: «لقد غادرَ للتو».

«وراءهُ يا شباب»، قال مونغو وركضوا جميعاً عبرَ الغرفةِ ثمَّ خرجوا من البابِ.

وقفت كاريس وهرعت إلى الخارجِ ثمَّ لحقَ بها البقيةُ.

كان المنزلُ مبنياً على جُرفٍ صخري لا يزيدُ ارتفاعهُ على ثلاثةِ أو أربعةِ أقدامٍ وأسفل هذا الجرف الصغير يتدفق النهر بسرعةٍ، وإلى اليسارِ الجسرُ الجميلُ الذي بناه ميرثن فوقَ النهرِ، وإلى اليمين شاطئ موحل أمَّا على الجهةِ المقابلةِ للنهر فقد بدأت الأشجارُ في مقبرةِ الطاعونِ القديمةِ تورقُ، وعلى كلا الجانبين امتدت الأكواخ الصغيرة كالعشبِ الضارِ.

كان بوسعِ سام أن ينعطفَ شمالاً أو يميناً، ورأت كاريس في يأسٍ أنَّه قامَ بالخيارِ الخاطئ. كان قد ذهبَ باتجاهِ اليمين وهذا لن يقودهُ إلى أيِّ مكانٍ. رأته كاريس يركضُ على طولِ الشاطئ وحذاؤهُ يُخلفُ آثاراً كبيرةً في الوحلِ. كان رجالُ المأمورِ ككلابٍ تلاحق أرنباً برياً. شعرت بالأسفِ على سام تماماً كما شعرت بالأسى على الأرانبِ البريةِ، ولم يكن للأمر علاقة بالعدالةِ فهو الآن مجرَّد طريدة.

وعندما اكتشفَ أنَّ الطريق لا يفضي إلى أيِّ مكانٍ خاضَ في النهرِ.

بقي مونغو على الطريقِ المرصوفِ أمامَ المنزلِ ولكنه الآن استدارَ في الاتجاهِ المعاكسِ وركضَ نحو الجسرِ باتجاه اليسارِ.

رمى اثنان من رجالهِ بمضاربهما وخلعا جزمتيهما ومعطفيهما وقفزا في الماءِ بثيابهما الداخليةِ، بينما وقفَ الرجلان الآخران على الشاطئ. ربما لم يكونا يعرفان السباحةَ أو لا يرغبان بالقفزِ في الماءِ في يومٍ باردٍ. انطلقَ السباحان في إثرِ سام.

كان سام قوياً إلَّا أنَّ معطفهُ الشتوي الثقيل تشبَّع بالماءِ الآن وبدأ يسحبُه إلى الأسفلِ. راقبت كاريس في ذهولٍ وارتباعٍ السباحين وهما يلحقان بالهارب.

علت صيحةٌ من الجهةِ المقابلةِ. كان مونغو قد وصلَ إلى الجسرِ وعبره ركضاً ثمَّ توقف لحثِّ الرجلين اللذين بقيا على الشاطئ على اللحاقِ بهِ. تعرَّفَ الرجلان على إشارةِ مونغو وركضا في إثرهِ بينما تابعَ مونغو الركضَ عبرَ الجسرِ.

وصلَ سام إلى الضفةِ الأخرى قبلَ أن يلحقَ به السباحان. وقفَ على قدميهِ وترنحَ وهو يخوضُ المياهَ الضحلةَ ويهزُّ رأسهُ والماء يقطرُ من ثيابهِ. استدارَ

ورأى أنَّ أحدَ رجالِ المأمور لحقَ بهِ. تعثرَ الرّجلُ وانحنى إلى الأمامِ سهواً، وبسرعةٍ ركلهُ سام في وجههِ بجزمتِهِ المشبعةِ جداً بالمياهِ. صرخَ الرجلُ ووقعَ إلى الوراءِ.

كان الرجلُ الثاني أكثر حذراً فاقتربَ من سام إلا أنّه بقي بعيداً عنه لمسافةٍ آمنةٍ. استدار سام وركضَ خارجاً من المياهِ باتجاهِ تُخمِ مقبرةِ الطاعونِ ولكن الرجلَ لحقَ بهِ. توقفَ سام مجدداً وبدورهِ توقفَ الرجلُ ثمَّ أدركَ سام أنَّ الرجلَ يحاولُ خداعهُ فأطلقَ صرخةَ غضبٍ واندفعَ باتجاهِ مُعذبهِ. استدار الرجل إلى الوراءِ بسرعةٍ وركضَ ولكن النهرَ كان وراءهُ. خاضَ في المياهِ الضحلةِ ولكن الماء أبطأ حركتهُ ونجحَ سام في الإمساكِ بهِ.

أمسكَ سام بالرجلِ من كتفيهِ وأدارهُ ليصبحَ قبالتهُ ثمَّ نطحهُ برأسِهِ، ومن الطرفِ البعيدِ للنهرِ سمعت كاريس عظمَ أنفِ الرجلِ ينكسرُ. ألقى سام بالرجلِ جانباً وسقطَ الأخير وهو ينزفُ دماً في ماءِ النهرِ.

استدارَ سام مجدداً باتجاهِ الشاطئِ ولكن مونغو كان بانتظارهِ. كان سام الآن أسفلَ منحدرِ شاطئِ النهرِ وأعاقَ الماء هروبه. اندفعَ مونغو باتجاهه إلّا أنّه توقفَ مُفسحاً لهُ المجالَ ليتقدم من ثمَّ رفعَ مضربهُ الخشبي الثقيل متظاهراً بأنّه سيوجه ضربةً وتمايل سام متفادياً الضربةَ ثمَّ ضربهُ مونغو حقاً وأصابَه على رأسِهِ.

بدت كضربةٍ رهيبةٍ وشهقت كاريس من الصدمةِ كأنّها من تلقّت الضربةَ. زأرَ سام من الألمِ وبشكلٍ لا إرادي وضعَ يديهِ على رأسِهِ، وهنا قامَ مونغو الخبير بالقتالِ مع الشبابِ الأقوياءِ بضربهِ بمضربهِ مجدداً ولكن على أضلاعهِ المكشوفةِ هذهِ المرةَ. بحلولِ هذا الوقتِ كان الرجلان الآخران مع مونغو قد وصلا إلى الموقعِ وقفزا على سام وثبتاه في المياهِ الضحلةِ. أمّا الرجلان اللذان ضربهما سام فقد انتقما منهُ بأن ركلاه ولكماه بكلِّ وحشيةٍ بينما ثبتهُ الرجلان الآخران أرضاً. عندما لم يعد سام قادراً على القتالِ رفعوه وجروه خارج النهرِ.

وبسرعةٍ قيّدَ مونغو يدي سام خلفَ ظهرهِ ثمَّ قادَ رجالُ المأمورِ الهاربَ على طريقِ العودةِ إلى المدينةِ.

«كم هذا مريعٌ»، قالت كاريس. «يا لغويندا المسكينة!»

خلالِ جلساتِ المحاكمات الإقليميةِ يسيطرُ على مدينةِ شايريغ جو كرنفالي حيثُ تكتظُ جميعُ النُزلِ المحيطةِ بالساحةِ بالزوارِ، وتمتلئ قاعاتُ الاستقبالِ فيها برجالٍ ونساءٍ في أبهى حللِهم يصرخون طالبين الشرابَ والطعامَ. عادةً ما تستغلُ المدينةُ الفرصةَ وتقيم سوقاً فتكتظُ الساحة بالأكشاكِ التي لا يستغرق نقلها بضع مئاتٍ من الياردات سوى نصف ساعةٍ، وإضافةً إلى باعةِ الأكشاكِ القانونين يتجول باعة وخبّازين مع صواني الكعكِ المُحلّى ولاعبي خفةٍ متجولين ومتسولين مشوهين وعميان وعاهراتٍ بأثداءٍ مكشوفةٍ ودببة راقصة ووعاظ متجولين.

كان الإيرل رالف من بين القلّةِ التي تستطيعُ تجاوزَ الساحةِ بسرعةٍ، وقد ركبَ مع ثلاثةٍ من الفرسان أمامهُ ومجموعة من الخدمِ خلفهُ. اخترقت حاشيتهُ الشجاراتِ في الساحةِ كما يخترقُ المحراثُ التربةَ، وفرّقت الحشدَ جانباً بقوةِ إندفاعها غير عابئة بسلامةِ الناسِ في طريقها.

صعدوا التلَّ باتجاهِ قلعةِ الشريفِ، وفي فناءِ القلعةِ توقفوا بصخبٍ ونزلوا عن الجيادِ ثمَّ سارعَ الخدمُ إلى مناداةِ سائسي الخيلِ والحمّالين بأعلى أصواتهم. لطالما أحبَّ رالف إعلام الناس بوصولِهِ بهذهِ الطريقةِ.

كان متوتراً فابن عدوهِ القديمِ سيُحاكمُ بتهمةِ القتلِ، وكان على وشكِ الحصولِ على أجملِ انتقامٍ قد يتخيلهُ إلا أنّه خشي أيضاً ألا يحققَ مرادهُ، ولذلكَ كان متوتراً جداً إلى درجةِ الحرجِ. لم يكن يريدُ لفرسانهِ أن يعلموا أهمية هذا بالنسبةِ إليه لذلكَ حرصَ على إخفاءِ الأمرِ حتّى عن آلان فيرنهيل الذي كان يتوقُ جداً إلى رؤيةِ سام يُعدمُ. كان يخشى أن يحدث شيءٌ ما ويفشل مسار العدالةِ في اللحظةِ الأخيرةِ. كان أدرى الناس بالتغيرات التي تطرأ في اللحظةِ الأخيرةِ فهو نفسه كان قد نجا من حُكمِ الإعدامِ مرّتين.

سيجلسُ على مقعدِ القاضي خلالَ المحاكمةِ فالقانون يسمحُ له بهذا وسيقوم بكلِّ ما بوسعهِ كي لا تحدث أيّ قلاقل خلالَ المحاكمة.

سلّمَ رالف لجامَ جوادهِ إلى سائسٍ ونظرَ من حولهِ. لم تكن قلعةُ الشريف حصناً عسكرياً بل أشبه بحانةٍ مع فناءٍ غيرَ أنَّ بناءها متينٌ وحراستها مشددة حيثُ يُمكن لشريف مقاطعةِ شايرنغ أن يعيشَ في أمانٍ بعيداً عن الأقاربِ الحاقدين

على الناسِ الذينَ يعتقلهم، والقلعة مزودة بسجونٍ تحتَ الأرضِ يُحجزُ فيها السجناء وغرفٍ للضيوفِ حيثُ يمكنُ للقضاةِ الزائرين أن يبيتوا من دونِ إزعاجٍ.

أخذَ الشريف برنارد رالف إلى غرفتِهِ.

يُعتبر الشريف ممثّلَ الملك في المقاطعةِ والمسؤول عن جمعِ الضرائبِ والإشرافِ على سيرِ العدالةِ. كان المنصبُ مُربحاً فالراتبُ مدعومٌ بالهدايا والرشى والنسبِ من الغراماتِ الكبيرةِ والكفالاتِ المزيفةِ. يُمكنُ للعلاقةِ بين الإيرل والشريف أن تكونَ عدائيةً فمنصبُ الإيرل أعلى من منصبِ الشريف ولكن سلطة الشريف القضائية مستقلة عنهُ. كان برنارد تاجرَ صوفٍ وهو في عُمرِ رالف وعاملهُ بمزيجٍ مختلطٍ من الصداقةِ والاحترامِ.

كانت فيليبا بانتظارِ رالف في الغرفةِ المخصصةِ لهما وقد ثبتت شعرها الأشيب الطويل تحتَ غطاءِ رأسٍ مُتقن الصنعِ وارتدت معطفاً باهظاً بتدرجاتِ الرمادي والأخضرِ. في ما مضى كان سلوكها المتعالي يجعلها تبدو جميلةً مُعتدةً بنفسها ولكنها الآن تبدو كامرأةٍ عجوز نكدة وأشبه بوالدتِهِ.

حيَّا رالف ولديهِ جيري ورولي. كان يجهل الطريقة التي يجب أن يعاملهما بها فهو لا يراهما كثيراً، فعندما كانا صغيرين كانا في عهدةِ النساءِ وهما الآن في مدرسةِ الرهبانِ. كان يخاطبهما كأنّهما مرافقان يعملان في خدمتِهِ ويلقي عليهما الأوامر في لحظةٍ ويمازحهما بودٍ في لحظةٍ أخرى. عندما يكبران سيجدُ الكلامَ معهما أسهل. على أيِّ حال لم يكن هذا مُهماً لأنَّ الولدين في جميعِ الأحوال اعتبراه بطلاً.

«ستجلسان غداً على مقعدِ القاضي في قاعةِ المحكمةِ»، قالَ لهما. «أريدكما أن تريا كيف يسيرُ مجرى العدالةِ».

وقالَ ابنهُ الأكبر جيري: «هل يمكننا التجولُ في السوقِ بعدَ ظهرِ اليومِ؟»

«أجل فلتطلب من ديكي مرافقتكما». كان ديكي خادماً في قلعةِ شايرنغ. «إليكما بعض المالِ»، وأعطى كلَّ واحدٍ منهما حفنةً من البنساتِ الفضيةِ.

خرجَ الصبيان وجلسَ رالف قبالةَ فيليبا. لم يلمسها قط وهو دوماً يحاولُ المحافظة على مسافةٍ بينهما حتَّى لا يحدثَ أي شيءٍ بالخطأ. لطالما شعرَ بأنَّها تلبسُ وتتصرفُ كامرأةٍ عجوز حتَّى لا ينجذبَ إليها، علاوةً على هذا كانت تذهبُ إلى الكنيسةِ كلَّ يومٍ أيضاً.

كانت علاقةً غريبةً بين شخصين أنجبا طفلاً معاً، ولكنهما كانا عالقين فيها

لسنواتٍ ويبدو أنّها لن تتغيرَ أبداً، ولكنها على الأقلِ منحتهُ حريّةَ العبثِ مع الخادماتِ وعاهراتِ الحاناتِ الرخيصات.

بغضِ النظرِ عن هذا كانا مضطرين للحديثِ بعضهما مع بعض بخصوصِ الطفلين، ولسنواتٍ عبَّرت فيليبا عن آراء قويةٍ إلا أن رالف أدركَ أنَّ مناقشةَ الأمورِ معها أسهل من أخذِ قراراتٍ فرديةٍ والشجارِ معها لاحقاً إن اعترضت على هذهِ القراراتِ.

«إن جيرالد كبيرٌ كفايةً ليُصبحَ مرافقاً»، قال رالف.

«أوافقكَ»، أجابته.

«جيد!» قال رالف متفاجئاً فقد توقعها أن تجادلهُ.

«لقد تحدثتُ بأمرهِ إلى ديفيد مونماوث»، أضافت فيليبا.

إذاً، لهذا السببِ أبدت موافقتها وها هي تسبقهُ بخطوةٍ.

«فهمت»، قالَ محاولاً كسبَ بعض الوقت.

«وديفيد موافق ويقترح عليكَ إرسالهُ حالما يبلغ الرابعةَ عشرة».

كان جيري في الثالثة عشرة فقط وها هي فيليبا تحاولُ تأجيل رحيلهِ لعامٍ تقريباً إلّا أنَّ هذا لم يكن ما أقلقَ رالف بل حقيقة أنَّ ديفيد إيرل مونماوث متزوجٌ من أوديلا ابنةِ فيليبا. «أن يكونَ المرءُ مرافقاً فهذا يعني أنّه يتحولُ من صبيٍ إلى رجلٍ»، قال رالف. «وديفيد سيتساهلُ معهُ لأنَّ شقيقتهُ مغرمةٌ بهِ وستحاولُ حمايتهُ وهذا يعني أنّه سيكونُ متراخياً جداً في تدريبهِ»، وبعدَ برهةٍ من التفكيرِ أضافَ: «أتوقعُ أنَّ هذا سببَ رغبتكِ بإرسالهِ إلى هناك».

لم تنكر الأمرَ ولكنها قالت: «اعتقدتُ أنّكَ ستُسرُّ بتعزيز تحالفكَ مع إيرل مونماوث».

كان كلامها منطقياً فالإيرل ديفيد من أهمِّ حلفائهِ، وإرسالُ جيري إلى منزلِ مونماوث سيخلقُ رابطةً أخرى بين الإيرلين وربما يُغرمُ الإيرل ديفيد بالفتى، وفي المستقبل قد يصبحُ أبناءُ ديفيد مرافقين في قلعةِ شايرنغ ومثلُ هذهِ العلاقاتِ العائليةِ لا تقدرُ بثمنٍ. «هل يمكنكِ أن تحرصي على ألا يُدللَ الفتى هناك؟» قال لها رالف.

«بالطبع».

«حسناً، لا بأسَ بالأمرِ إذاً».

«جيدٌ، أنا سعيدةٌ لأننا اتفقنا على هذا»، قالت فيليبا ووقفت.

ولكن رالف لم يكن قد انتهى من كلامِهِ وتابع: «ولكن ماذا عن رولي؟ يمكنهُ أن يرافقَ أخاه ويبقيا معاً».

لم تحب فيليبا هذهِ الفكرةَ قط وعرفَ رالف هذا، ولكنها كانت ذكيةً جداً على معارضتِهِ بشكلٍ صريح. «مازال رولي صغيراً بعضَ الشيء»، قالت فيليبا كأنّها تُقلّبُ الأمرَ في عقلها ثُمَّ أضافت: «فهو لم يتعلَّم الحروف كما يجب بعد».

«بالنسبةِ للرجلِ النبيل تعلمُ الحروفِ غيرُ مُهم مقارنةً بتعلمِ مهاراتِ القتالِ، وهو في النهايةِ الوريثُ الثاني لمنصبِ الإيرلِ إن حدثَ شيءٌ لجيري».

«لا سمحَ الرَّبُّ».

«آمين».

«ولكن أعتقدُ أنّه عليكَ الانتظار إلى أن يبلغَ الرابعةَ عشرة».

«لا أعلمُ، لطالما كان رولي مخنثاً بعضَ الشيء وهو أحياناً يذكرني بشقيقي ميرثن». ورأى في عينيها نظرةَ رعبٍ فتكهنَ أنّها لم تكن ترغبُ بالتخلي عن طفلها بعد وشعرَ بإغراءِ الإصرارِ كي يعذبها، ولكن سن العاشرة باكرة جداً كي يبدأ المرءُ تدريبهُ كمرافقٍ ولذلكَ قال بشكلٍ مبهمٍ: «سننظرُ في الأمرِ»، ثمَّ أضاف: «يجبُ أن يشتدَّ عودهُ عاجلاً أم آجلاً».

«كلٌّ في أوانِهِ»، قالت فيليبا.

***

لم يكن القاضي السير لويس أبينغدون رجلاً محلياً بل محامياً لندنياً يخدمُ في بلاطِ الملكِ وقد أُرسلَ إلى المحاكمِ الإقليميةِ ليحكمَ في قضايا خطيرة. كان رجلاً بديناً وبشرةُ وجهه وردية ولحيته شقراء وهو أصغر من رالف بعشرةِ أعوام.

قال رالف لنفسهِ إنّه ليسَ عليهِ أن يتفاجأ فهو الآن في الرابعةِ والأربعين، ونصفُ أفرادِ جيلِهم ماتوا بالطاعون ولكنه كان يتفاجأ على الداومِ بالرجالِ المهمين والأقوياءِ اللذين كانوا أصغرَ عُمراً منهُ.

انتظرَ رالف وفيليبا مع جيري ورولي في غرفةٍ جانبيةٍ في نُزلِ المحكمةِ إلى أن تجتمع هيئةُ المحلفين ويُحضروا السجناء من سجنِ القلعةِ. تبينَ لاحقاً أنَّ السير لويس كان في سبرسي عندما كان مرافقاً شاباً ولكن رالف لم يتذكرهُ ولذلكَ تصرَّف معه بلباقةٍ حذرةٍ.

وحاولَ رالفِ أن يسبرَ أغوارَ القاضي ليكتشفَ حجم قوتهِ. «اكتشفنا أنَّ

تطبيقَ قانون العاملين أمرٌ صعبٌ»، قالَ رالف ثمَّ تابع: «حالما يكتشف الفلاحون طريقةً لجني المالِ يفقدونَ كلَّ احترامٍ للقانونِ».

«ولكلِّ هاربٍ يعملُ بشكلٍ غير قانوني هناك سيدٌ يدفعُ لهُ»، قال القاضي.

«تماماً! حتَّى الراهبات لم تلتزمن قط بتطبيق القانون».

«إنَّ مقاضاةَ الراهباتِ أمرٌ صعبٌ».

«لا أفهم صعوبةَ هذا».

وغيَّرَ القاضي الموضوعَ قائلاً: «هل أنتَ مهتمٌ بمحاكماتِ هذا الصباحِ بشكلٍ خاصٍ؟». يبدو أنَّ لويس وجدَ رغبةَ رالف بممارسةِ حقِّهِ في الجلوسِ إلى جانبِ القاضي أمراً غريباً.

«القاتل أحدُ أقناني»، اعترفَ رالف. «ولكنني بشكلٍ أساسي أتيت كي يشاهد الصبيان سيرَ العدالةِ فأحدهما سيُصبحُ الإيرلَ يوماً ما عندما أتوفى، ويمكنهما أن يشاهدا الإعداماتِ غداً أيضاً، فكلما أبكرا في رؤيةِ الرجالِ يموتون كان هذا للأفضل».

أومأ لويس موافقاً ثمَّ قال: «يُجبُ ألا يكون أبناءُ النبلاءِ رقيقي القلب».

سمعا موظفَ المحكمةِ يضربُ بمطرقتِهِ وتوقفَ الضجيجُ في الغرفةِ المجاورةِ، ولكن قلقَ رالف لم يتراجع فالمحادثةُ مع لويس لم تقدم له معلوماتٍ كافية عن الرجل إلا أن هذا بحدِ ذاتِهِ قد يكون دليلاً على صعوبةِ التأثيرِ عليه.

فتحَ القاضي البابَ وتنحى جانباً ليمرَّ الإيرل أولاً.

كان في نهايةِ القاعةِ كرسيان خشبيان كبيران فوقَ منصةٍ وبقربهما مقعدٌ خفيضٌ. عندما جلسَ جيري ورولي على المقعدِ علت همهمةٌ من الحشدِ فلطالما كان الناسُ مأخوذين برؤيةِ الأطفالِ الذين سيكبرون ليصبحوا سادتهم، ولكن وإضافة إلى هذا اعتقدَ رالف أنَّ نظرةَ البراءةِ على وجهي الصبيين وهما في مُقتبلِ العمرِ غريبٌ جداً على جو المحكمةِ التي تتعاملُ مع العنفِ والسرقةِ والخداعِ، فقد كانا يبدوان كحملين في زريبةِ خنازير.

جلسَ رالف على أحدِ الكرسيين الخشبيين وفكرَ بذلكَ اليوم منذُ اثني وعشرين عاماً عندما وقفَ في قاعةِ المحكمةِ ذاتها كمجرمٍ مُتهمٍ بالاغتصابِ، وهي تهمةٌ سخيفةٌ عندما يكون المتهم سيداً والضحية أحد الأقنانِ لديهِ. كانت فيليبا من وقفَ خلفَ تلكَ المحاكمةِ الشريرةِ، حسناً، لقد انتقمَ منها وجعلها تعاني بسببِ فعلتها تلك.

في تلكَ المحاكمةِ قاتلَ رالف بالسيفِ وهربَ من القاعةِ حالما أعلنَ القاضي أنَّه مذنبٌ وحصلَ لاحقاً على عفو عندما انضمَّ إلى جيشِ الملكِ ثمَّ ذهبَ إلى فرنسا. لن يهربَ سام فهو لا يملكُ أيَّ سلاحٍ وهو مكبلٌ من ساقيهِ، ويبدو أنَّ الحروب الفرنسيةَ قد انتهت ولهذا لم يعد هناك عفو مجاني.

وبينما كان أحد الموظفين يقرأ مُذكرة الاتهامِ تفحصَ رالف سام ولاحظَ أنَّ الفتى يمتلكُ بنية ولفريك وليسَ غويندا فقد كان طويلاً وعريضَ المنكبين، ولو أنَّه من أصلٍ نبيلٍ لأصبحَ فارساً جيداً، ورغم أنَّه لم يكن شبيهاً جداً بولفريك فإن هناك بعض الملامح المشتركة. وكأيِّ رجلٍ مدانٍ ارتسمَ على وجههِ تعبير تمردٍ سطحي أخفى تحتهُ خوفاً كبيراً، وفكرَ رالف في نفسهِ أنَّه شعرَ بذلكَ أيضاً عندما كان في مكانهِ.

صعدَ نيثان ريف إلى منصةِ الشهودِ أولاً، ورغم أنَّه والد الرجل الميتِ فإنَّه صعدَ ليشهدَ بأنَّ سام هو أحدُ أقنانِ الإيرل رالف وبأنَّه لم يأخذ الإذنَ في الذهابِ إلى قريةِ أولد تشيرش. قالَ نيثان إنَّه أرسلَ ابنهُ جونو ليلحقَ بغويندا على أملِ أن يتقفى أثرَ الهاربِ. لم يكن نيثان شخصاً محبوباً ولكن حزنهُ كان حقيقياً، وسُرَّ رالف بشهادةِ نيثان فقد كانت شهادةً دامغةً.

وبعدها صعدت والدةُ سام إلى المنصةِ ووقفت إلى جانبِ ابنها وهي بالكادِ تصلُ إلى مستوى كتفيهِ. لم تكن غويندا جميلةً فقد كانت عيناها الداكنتان قريبتين من أنفها الحاد وجبهتها وذقنها عريضين جداً وهذا ما جعلها تبدو كحيوانٍ قارضٍ عنيدٍ، ولكن رغمَ أنَّها في منتصفِ العمر فإنَّها كانت تفور بطاقةٍ جنسيةٍ قويةٍ. كان قد مضى عشرون عاماً على ذلكَ اليومِ الذي ضاجعها فيهِ رالف وها هو يتذكرُ تلك المضاجعة كأنَّها حدثت البارحة. كانا في غرفةٍ في نُزلِ بيل في كينغزبريدج وقد أجبرها على الركوعِ على السريرِ. تخيلَ الأمرَ مجدداً وأثارته ذكرى جسدها متكوراً أمامه، وتذكرَ أنَّها كانت تملكُ الكثيرَ من الشعرِ الداكنِ.

وفجأةً التقت أعينهما وبدت كأنَّها تكهنت بما كان يفكرُ بهِ. تذكر رالف أنَّها في البدايةِ لم تكن مباليةً وباردةً وخاضعةً لهُ وهو يُقحمُ عضوهُ، ولكن وعندما كاد ينتهي حدثَ أمرٌ غريبٌ وبدأت تتحركُ بتناغمٍ مع حركتهِ. لا بدَّ أنَّها تذكرت الأمرَ عينهُ فقد ارتسمَ على وجهها القبيح تعبيرٌ ينمُّ عن الخجلِ، وأشاحت بنظرها بعيداً على الفورِ.

بجانب غويندا وقفَ شابٌ آخرٌ وهو على الأغلبِ ابنها الثاني. كان الفتى ببنيتِهِ الضئيلةِ وشعرِهِ المجعدِ ونظرة الدهاءِ على وجهِهِ أكثرَ شبهاً بها من ابنها البكر. التقت عينا الفتى بعينِي رالف وحدّقَ إلى رالف في نظرةٍ شديدةِ التركيز كأنّه مدفوعٌ بفضولٍ ما إلى فهم ما يدور في عقلِ الإيرل ويأمل أن يجد الجوابَ على وجهه.

ولكن اهتمامَ رالف الأكبر كان مُنصباً على الوالد فقد كان يكرهُ ولفريك منذُ عراكهما في سوقِ الصوفِ عام 1337، وتلمسَ رالف أنفهُ المكسور بشكلٍ لا إرادي. في السنواتِ اللاحقةِ على ذلك العراكِ جرحه رجالٌ كثر ولكن ما من أحدٍ منهم آذى كبرياءه كما آذاه ولفريك. على أيّ حالٍ لقد انتقمَ رالف من ولفريك انتقاماً رهيباً فقد حرمهُ من إرثِهِ لعشرِ سنواتٍ، وضاجعَ زوجتهُ، وجرحهُ في خدهِ عندما حاولَ الأخير منعهُ من الهربِ من هذهِ القاعةِ بالتحديد، وجرّهُ إلى ويغلي عندما حاولَ الهربَ وها هو الآن سيعدمُ ابنهُ.

كان ولفريك أكثر امتلاءً الآن مما كان عليهِ قبلاً إلا أنّه لم يبدُ سميناً، وكان شعرُ لحيتهُ قد شابَ ولم يكن هناك شعرٌ على الندبةِ التي سببها له رالف في خدهِ. امتلأ وجههُ بالتجاعيد بسبب العملِ في الظروفِ الجويةِ القاسيةِ، وفي الوقتِ الذي بدت فيه غويندا غاضبةً بدا ولفريك حزيناً، وعندما شهدَ فلاحو أولد تشيرش بأنَّ سام قتلَ جونو بمجرفةٍ من خشبِ البلوط لمعت عينا غويندا في تحدٍ بينما تغضنت جبهةُ ولفريك في كربٍ.

وهنا سألَ كبيرُ المحلفين إن كان سام يخشى على حياتِهِ.

لم يُسر رالف بهذا السؤال لأن الهدفَ منه إيجاد عُذرٍ للقاتلِ.

وأجابَ فلاحٌ نحيلٌ بعينٍ معطوبةٍ: «لم يكن خائفاً من الوكيل. أعتقدُ أنّه كان خائفاً على أمّهِ»، وضحكَ الحشدُ.

ثمَّ سألَ كبيرُ المُحلفين إن كان جونو من استفزّه وبدأ الهجومَ، وتضايقَ رالف من هذا السؤالِ أيضاً لأنّه ينضوي على تعاطفٍ مع سام.

«استفزَّ؟» قالَ الرجلُ ذو العينِ الواحدةِ ثمَّ تابع: «إن كنتَ ترى في ضربِ سام على وجههِ بسلسلةٍ تنتهي بقطعةٍ معدنيةٍ استفزازاً». ومجدداً ضحكَ الجميعُ بصوتٍ عالٍ.

بدا ولفريك مضطرباً من استمتاعِ الناسِ بما يجري بينما حياةُ ابنِهِ على المحكِ.

وبدأ رالف يشعرُ بالقلقِ لأنَّ كبيرَ المحلفين يتصرف بشكلٍ غير عقلاني.

دُعي سام للشهادةِ ولاحظَ رالف أنَّ الشابَ ازدادَ شبهاً بولفريك عندما بدأ يتكلم. كان يميلُ برأسِهِ ويحرّكُ يدَهُ بطريقةٍ ذكرتهُ على الفورِ بولفريك. أخبرَ سام المحلفين كيفَ أنّه عرضَ على جونو الالتقاء في صباحِ اليومِ التالي والعودة إلى ويغلي، وكيفَ أنَّ إجابةَ جونو كانت بمحاولةِ لفِّ السلسلةِ المعدنيةِ حول ساقِهِ.

تحدَّثَ رالف إلى القاضي بصوتٍ أقرب للهمسِ وبسخطٍ مكظومٍ: «لن يشكل أيٌّ من هذا فرقاً. سواء أكان خائفاً أم مُستفزاً أو أنّه عرضَ لقاءً في اليومِ التالي».

ولم يقل لويس شيئاً.

وتابع رالف: «إنَّ الحقيقةَ الوحيدة هنا هي أنّه هاربٌ وأنّه قتلَ الرجل الذي ذهبَ لإعادتِهِ».

«إنّه هاربٌ من كلِّ بدٍ»، قالَ لويس بحذرٍ لم يُرضِ رالف.

وبينما كانت هيئةُ المحلفين تستجوبُ سام نظرَ رالف إلى الحاضرين ورأى ميرثن مع زوجتِهِ. قبلَ أن تدخلَ كاريس إلى الدير كانت تستمتعُ بارتداءِ ثيابٍ رائجةٍ، وبعدَ تخليها عن نذورها عادت إلى فعلِ هذا. كانت كاريس اليوم في ثوبٍ بلونين متناقضين -الأزرق والأخضر- وعباءةٍ بحوافَّ من الفرو مصنوعة من قماش كينغزبريدج القرمزي وقبعةٍ مدورةٍ صغيرةٍ. تذكرَ رالف أنَّ كاريس صديقةُ غويندا منذُ الطفولةِ. في الحقيقةِ كانوا جميعاً معاً عندما رأوا توماس لانغلي يقتلُ جنديين في الغابةِ. لا بدَّ أنَّ ميرثن وكاريس وبدافعِ حبهما لغويندا يأملان بأن يُعامل سام برحمةٍ، وفكرَ رالف في نفسِهِ بأنه لن يسمحَ بحدوثِ هذا.

كانت الأختُ جوان التي تشغلُ منصبَ رئيسةَ ديرِ الراهباتِ الآن بعد تخلي كاريس عنهُ، في القاعةِ أيضاً، وربما أتت لأنَّ ديرَ الراهبات مالكَ وادي أوثنباي ومن يُشغل العمال فيهِ بشكلٍ غير قانوني. وفكر رالف بأنّها يجبُ أن تقفَ مع المتهم على المنصةِ، ولكن عندما التقت نظراتهما ألقت عليهِ نظرةً اتهاميةً كأنّها تعتقدُ أنَّ الجريمةَ خطأهُ أكثر مما هو خطأها.

لم يكن رئيسُ دير كينغزبريدج حاضراً رغم أن سامِ ابنَ أختِهِ، ولكن يبدو أن فيليمون لا يرغب في لفتِ الأنظارِ إلى حقيقةِ أنّه خالُ قاتلٍ، وتذكر رالف أنَّ فيليمون في ما مضى أحبَّ أخته الصغرى حُباً أمومياً، ولكن يبدو أنَّ هذا الحب تراجعَ بمرورِ السنين.

كان جدُ سام السيئ السمعةِ جوبي حاضراً وقد أصبحَ الآن رجلاً عجوزاً بشعرٍ أبيض وفقدَ جميعَ أسنانِهِ واحدودبَ ظهرهُ، ولكن لمَ كان هنا؟ لطالما كان ولسنواتٍ عديدةٍ على خلافٍ مع غويندا، ومن المرجح أنَّ حفيدهُ لا يكنُّ له الكثيرَ من الحب. ربما أتى ليسرقَ المالَ من جزادين الناس المنغمسين في متابعةِ مجرياتِ المحاكمةِ.

نزلَ سام عن منصةِ الشهادةِ ثمَّ أوجزَ السير لويس الحكاية سريعاً، وسُرَّ رالف من تلخيصِ القاضي للمجرياتِ. «هل كان سام من ويغلي هارباً؟» سألَ لويس. «هل امتلكَ جونو رييف الحقَّ في اعتقالِهِ؟ وهل قتلَ سام جونو بمجرفتهِ؟ إن كان الجوابُ نعم على جميعِ هذهِ الأسئلةِ فإنَّ سام مذنبٌ بتهمةِ القتلِ».

كان رالف متفاجئاً ومرتاحاً. يبدو أن كل ذلك الهراء حولَ استفزازِ جونو لسام لم يؤثر على لويس وتبينَ أنّه شخصٌ عقلاني في نهايةِ الأمرِ.

«ما حُكمكم؟»

نظرَ رالف إلى ولفريك ورأى أنَّ الرجلَ بدا مكلوماً، وفكر في نفسِهِ بأنَّ هذا ما يحدثُ عندما يتحداه أحد وتمنى في قرارةِ نفسِهِ لو أنّه يستطيع قول هذا بصوتٍ عالٍ.

التفتَ ولفريك إلى رالف ونظرَ إليهِ ولكن رالف لم يُبعد نظرهُ فقد كان يحاول قراءةَ ما يجولُ في دماغِ ولفريك والمشاعرِ التي تنتابهُ، ورأى رالف أنَّ الرجل يشعر بالخوف. لم يُظهِر ولفريك خوفهُ أمامَ رالف قبلاً، ولكنه الآن بدا محطماً. فها هو ابنهُ على وشكِ الموتِ وجعلهُ هذا ضعيفاً بشكلٍ قاتلٍ. شعرَ رالف برضا كبير وهو يحدقُ إلى عيني ولفريك المرتاعتين وفكرَ في نفسِهِ: «ها أنا أسحقكَ أخيراً بعدَ أربعةٍ وعشرين عاماً. ها أنتَ خائفٌ أخيراً».

تداول أفرادُ هيئةِ المحلفين في ما بينهم، وبدا كبيرُ المحلفين كأنّه يجادلُ الآخرين. راقبهم رالف بنفادِ صبرٍ وفكر بأنّه لا يعقل أن يخامرهم الشك حيالَ الأمرِ بعدَ ما قالهُ القاضي، ولكن لا يمكن أن يكون هناك أيُّ يقينٍ عندما يكون للأمر علاقة بهيئة المُحلفين، وفكرَ بأنَّ الأمور قد تسوء في هذهِ المرحلةِ.

يبدو أنهم أخيراً وصلوا إلى قرارٍ ولكن لم يكن بوسع رالف التكهن بحكمهم.

وقفَ رئيسُ المحلفين وقال: «إننا نجدُ سام من ويغلي مذنباً بتهمةِ القتلِ».

ثبَّتَ رالف أنظارهُ على عدوهِ القديم وبدا ولفريك كأنّه تلقى طعنةً فقد شحبَ لونهُ وأغلقَ عينيهِ من الألمِ. حاولَ رالف ألا يبتسمَ في ظفرٍ.

استدارَ السير لويس نحو رالف فاضطرَ الأخير إلى إشاحةِ نظرهِ عن ولفريك.

«ما هو الحكم الذي يجبُ إصدارهُ برأيكَ؟» سألهُ القاضي.

«لا يوجد سوى حكم واحد».

وأومأ السير لويس ثمَّ قال: «لم يكن هناك توصيةُ بالرحمةِ من جانبِ هيئةِ المحلفين».

«إنَّهم لا يريدون أن ينجو هاربٌ من جريمةِ قتلِ وكيلٍ».

«إذاً عقوبةُ الإعدامِ؟»

«بالطبعِ!»

استدارَ القاضي نحو الحضورِ وعادَ رالف بنظرهِ إلى ولفريك بينما حدَّق الآخرون إلى السير لويس الذي قالَ: «سام من ويغلي، لقد قتلتَ ابن وكيلكَ ولذلكَ حُكمَ عليكَ بالموتِ. ستُعدمُ في ساحةِ سوقِ شايرنغ غداً عندَ الفجرِ، وليتغمد الرَّبُّ روحكَ برحمتهِ».

ترنَّح ولفريك فأمسكَ ابنه الأصغر بساعده ورفعهُ قبلَ أن يقعَ على الأرضيةِ. أرادَ رالف أن يقول له: «دعهُ يقع فقد انتهى أمره».

نظرَ رالف إلى غويندا التي أمسكت بيدِ سام ورأى أنَّها كانت تنظرُ إليهِ. تفاجأ بالتعبيرِ المرتسمِ على وجهها فقد توقعها أن تكونَ حزينةً أو أن تنخرط في البكاءِ أو تصرخ أو تتصرف بهيستيريّة، ولكنَّها حدَّقت إلى رالف بشكلٍ مباشرٍ. كان هناكَ حقدٌ في عينيها وشيءٌ أخر – كانت نظرةَ تحدٍ، وعلى عكسِ زوجها لم تبدُ محطمةً؛ يبدو أنَّها لم تكن مؤمنةً بأنَّ القضية قد انتهت.

نظرت إليهِ وفكرَ رالف في خيبةٍ بأنَّ شيئاً ما في نظرتها يشي بأنها تُخفي أمراً.

-84-

انخرطت كاريس في البكاء وهي تشاهدهم يأخذون سام إلى السجنِ ولكن ميرثن لم يتظاهر بأنَّه حزينٌ، ورغم أنَّ ما حدث لغويندا أمرٌ مؤسفٌ فإنَّ ميرثن شعر بالأسفِ الحقيقي على ولفريك. على أيِّ حالٍ لم يكن إعدامُ سام أمراً سيئاً [illegible] لبقية الناسِ فقد كان جونو ريف يُنفذُ القانونَ، وقد يكون القانون سيئاً [illegible] وقمعياً إلَّا أنَّه لا يخوّلُ سام قتلَ جونو. كان نيثان ريف مفجوعاً بموت [illegible] حقيقةُ أنَّ ما من أحدٍ أحبَّه لتُحدث أيَّ فرقٍ.

بعدَ سام أحضروا سارقاً لمحاكمتهِ وغادرَ ميرثن وكاريس قاعةَ المحكمةِ ثمَّ توجها إلى ردهةِ الاستقبالِ في الحانةِ. أحضرَ ميرثن بعضَ النبيذِ وسكبَ كوباً لكاريس، وبعدَ برهةٍ أتت غويندا إليهما حيثُ جلسا وقالت: «إنَّ الوقتَ ظُهراً، ولدينا ثمانيةَ عشرَ ساعةً لإنقاذِ سام».

نظرَ ميرثن إليها في استغرابٍ وسألها: «وماذا تقترحين؟»

«يجبُ أن نقنعَ رالف بطلبِ عفو من الملكِ»، أجابت غويندا.

وبدا لميرثن أنَّ هذا الحلّ مستحيل فسألها: «وكيفَ ستقنعينه بفعلِ هذا؟»

«من الواضحِ أنني لا أستطيعُ»، قالت غويندا ثمَّ أضافت: «ولكنك تستطيع».

شعرَ ميرثن كأنّه حوصرَ فهو لا يعتقد أنَّ سام يستحقُ العفو، ولكنه من جهةٍ أخرى وجدَ صعوبةً في رفضِ الالتماسِ وقال لها: «لقد تواسطت مع أخي من أجلكِ قبلاً، ألا تتذكرين؟»

«بالطبعِ»، قالت غويندا ثمَّ تابعت: «تدخلتَ عندما حرمَ رالف ولفريك من وراثةِ أرضِ والدهِ».

«ورفضَ الأمرَ رفضاً قاطعاً».

«أعلمُ»، قالت غويندا. «ولكن عليكَ أن تحاولَ».

«لا أعتقدُ أنني الشخصُ المناسبُ لهذا».

«ومن قد يُصغي إليه رالف غيركَ؟»

كان كلامها صحيحاً، ورغم أنَّ فرص نجاح ميرثن في إقناعِ رالف ضئيلةً فإنّه كان الوحيد القادر على فعلِ هذا.

ورأت كاريس التردد على وجه ميرثن ولهذا تدخلت لمصلحة غويندا قائلةً: «من فضلكَ يا ميرثن. فلتفكرْ بالأمرِ. ماذا لو كانت لولا مكان سام؟»

كان ميرثن على وشكِ إجابتها بأنَّ الفتياتِ لا يتورطن في شجاراتٍ ومن ثمَّ أدركَ أنَّ حدوثَ مثل هذا الأمر مع لولا لم يكن أمراً مُستبعداً فتنهدَ وقالَ: «أعتقدُ أنَّ الأمرَ محكومٌ عليهِ بالفشلِ»، ثمَّ نظرَ إلى كاريس وتابع: «ولكني سأجرّبُ من أجلكِ».

قالت غويندا: «لمَ لا تذهبُ الآن؟»

«لأنَّ رالف ما يزالُ في قاعةِ المحكمةِ».

«لقد حانَ موعدُ الغداءِ تقريباً وسينتهونَ عندَ الظهرِ. يمكنكَ أن تنتظرهُ في غرفته الخاصة».

لم يكن بيدهِ إلا الإعجابُ بعزمِها وقال لها: «حسناً».

غادرَ ميرثن الردهةَ والتفَّ وراء الحانةِ ووجدَ حارساً يقفُ على بابِ غرفةِ القاضي الخاصَّة فقال له: «أنا ميرثن شقيقُ الإيرل وأنا رئيسُ النقابةِ في كينغزبريدج».

«أجل أيها الرئيسُ، أنا أعرفكَ»، قالَ الحارسُ ثمَّ تابع: «أنا واثقٌ من أنَّكَ تستطيعُ الدخولَ والانتظارَ في الغرفةِ».

دخلَ ميرثن الغرفةَ الصغيرةَ وجلسَ. كان يشعرُ بالضيقِ حيالَ طلبِ معروفٍ من شقيقهِ، فهما لم يعودا مُقربين منذُ عشراتِ السنواتِ. بالنسبةِ لميرثن أصبح رالف شخصاً غريباً عنه ولم يعد قادراً على التمييز بين شقيقهِ والرجلِ الذي اغتصبَ آنيت وقتلَ تيلي، وبدا مستحيلاً أن يكونَ ذلكَ الرجلُ هو نفسهُ الصبي الذي عرفهُ ميرثن كشقيقٍ. منذُ وفاةِ والديهما لم يلتقيا سوى في المناسباتِ الرسميةِ وحتى آنذاك لم يتحدثا كثيراً. كان استغلاله لعلاقتهما كمبررٍ لطلبِ امتيازٍ ما عملاً وقحاً، ولكنه لا يقومُ بهذا من أجلِ غويندا بل من أجلِ كاريس.

لم ينتظر ميرثن طويلاً لأنَّ القاضي والإيرل قد دخلا بعد بضعِ دقائق. لاحظَ ميرثن أن شقيقهُ يعرجُ بسببِ إصابتهِ في الحروبِ الفرنسيةِ، وأنَّ العرجَ يزدادُ سوءاً مع تقدمهِ في العمرِ.

عرفَ السير لويس ميرثن وتصافحا وفعلَ رالف المثلَ وقالَ بطريقةٍ ساخرةٍ: «إنَّ زيارةَ أخي بهجةٌ نادرةٌ».

لم تكن سخريةً ظالمةً ووافقهُ ميرثن بإيماءةٍ ثمَّ قال: «من جهةٍ أخرى، أفترضُ أنني الوحيد القادر على طلبِ الرحمةِ منكَ».

«ولِمَ تحتاجُ إلى طلبِ الرحمةِ؟ هل قتلتَ أحداً؟»

«ليسَ بعد».

وقهقه السير لويس.

قال رالف: «ماذا إذاً؟»

«أنا وأنت نعرفُ غويندا مُذ كنا صغاراً».

أومأ رالف برأسهِ وقال: «لقد قتلتُ كلبها بالقوسِ الذي صنعتهُ».

كان ميرثن قد نسي تلكَ الحادثةَ وأدركَ بشكلٍ متأخرٍ أن هذهِ إشارة على الموقف الذي سيتخذهُ رالف ولكنه تابع: «ربما أنتَ تدينُ لها بالرحمةِ بسبب تلك الحادثة».

«أعتقدُ أنَّ ابن نيثان ريف أهمُّ بكثيرٍ من كلبٍ لعينٍ، أليسَ كذلكَ؟»

«لم أقصد الإيحاء بالعكسِ، ولكن يمكنكَ الآن أن تحقق توازناً بين القسوةِ واللطفِ».

«أحقق توازناً؟» قالَ رالف والغضبُ يتصاعدُ في صوتِهِ وعلمَ ميرثن أنَّه خسرَ قضيتَهُ. «أحقق توازناً؟» كررَ رالف ونقرَ على أنفِهِ المكسور. «وعلى ماذا يجبُ أن أوازنَ هذا؟» ورفعَ إصبعه بعدائيةٍ نحو ميرثن ثمَّ تابع: «سأخبركَ بالسببِ الذي يمنعني من طلبِ العفو. لقد نظرت إلى وجهِ ولفريك في قاعةِ المحكمةِ اليومِ عندما أُعلنَ ابنهُ مذنباً بجريمةِ القتلِ، وهل تعلمُ ما الذي رأيتهُ على وجهه؟ الخوف. الخوف أخيراً. كان ذلكَ الفلاحُ الوقحُ خائفاً. لقد نجحت في ترويضِهِ».

«وهل هذا يعني الكثيرَ لكَ؟»

«أنا مستعدٌ لإعدامِ ستةِ رجالٍ كي أرى تلكَ النظرة».

كان ميرثن على وشكِ الاستسلامِ عندما تذكرَ حزنَ غويندا ولذلكَ حاولَ مجدداً قائلاً: «إن غلبتهُ الآن ألا تكون بذلك قد حققت مرادك؟ دع الصبي وشأنهُ واطلب العفو من الملكِ».

«لا، أريدُ لولفريك أن يبقى على هذهِ الحالةِ».

وهنا تمنى ميرثن لو أنَّه لم يأتِ فقد أخرجَ الضغط على رالف أسوأ ما لديهِ، وشعرَ ميرثن بالهلعِ من نزعةِ رالف الانتقاميةِ وحقدهِ، ولم يعد راغباً بالتحدثِ إلى أخيهِ مجدداً. كان شعوراً مألوفاً فقد شعرَ به قبلاً ولكنه كان يشعرُ بالصدمةِ في كلِّ مرَّةٍ يُذكَّرُ فيها بحقيقةِ رالف.

استدارَ ميرثن مغادراً وقال: «حسناً، كان عليَّ المحاولةُ. وداعاً».

وهنا غدا رالف مرحاً وقالَ: «تعالَ إلى القصرِ لتناولِ الغداءِ. لقد أعدَّ الشريفُ مأدبةً محترمةً. أحضر كاريس معكَ وسنتحدثُ بشكلٍ حقيقي. ستكونُ فيليبا معي وأنتَ تحبها، أليسَ كذلكَ؟»

لم يكن لدى ميرثن النية في الذهاب إلى الغداءِ في القلعةِ. «دعني أسألُ كاريس أولاً»، قال لرالف، وعلمَ أنَّ كاريس ستُفضلُ تناول الغداء مع الشيطانِ على فعلِ هذا.

«إلى أن نلتقي لاحقاً».

وشقَ ميرثن طريقهُ إلى البابِ هارباً.

عادَ إلى ردهةِ الاستقبالِ ونظرت كاريس وغويندا إليهِ في ترقبٍ وهو يقطعُ الغرفةَ باتجاههما.

هزَّ رأسهُ وقالَ لهما: «لقد فعلتُ ما بوسعي. أنا آسفٌ».

***

كانت غويندا قد توقعت حدوثَ هذا، ورغم خيبةِ أملها فإنَّها لم تكن متفاجئةً. شعرت أنَّه كان عليها المحاولةُ عن طريقِ ميرثن لأنَّ الحلَّ الآخرَ جذري.

شكرت غويندا ميرثن بطريقةٍ مكانيكيةٍ وغادرت النُزلَ متوجهةً إلى القلعةِ على التلِّ بينما توجهَ ولفريك وديفي إلى حانةٍ رخيصةٍ في الضواحي حيثُ يُمكنهما تناولُ غداءٍ مُشبعٍ بمبلغٍ زهيدٍ. على أيِّ حالٍ لم يكن ولفريك ماهراً في مثلِ هذهِ الأمورِ فقوتهُ وصراحتهُ لم تكونا مجديتين في المفاوضاتِ مع أمثال رالف.

علاوةً على هذا لا يمكن لغويندا أن تُطلع ولفريك على الطريقةِ التي ستُقنعُ بها رالف.

وعندما كانت تصعدُ التلَّ سمعَت صوتَ وقعِ حوافرِ جيادٍ وراءها فتوقفت واستدارت ورأت رالف مع حاشيتهِ والقاضي. وقفَت في مكانِها بلا حراكٍ ونظرت إلى رالف بشكلٍ مباشرٍ كي يراها تنظر إليه وهو يتجاوزها ويتكهنُ بأنَّها قادمة لمقابلتهِ.

وبعد برهةٍ وصلت إلى فناءِ القلعةِ ولكنها وجدت الطريقَ إلى منزلِ الشريفِ مغلقاً. توجهت إلى رواقِ المبنى الرئيسي وتحدثت إلى المارشال في القاعةِ قائلةً: «أدعى غويندا من ويغلي. من فضلكَ أخبر الإيرل رالف أنني أرغبُ برؤيتهِ على انفرادٍ».

«أجل، أجل»، قال المارشال ثمَّ تابع: «انظري حولكِ. جميعُ هؤلاء الناس يرغبون برؤيةِ الإيرل والقاضي والشريف».

كان هناك ما يقاربُ العشرين إلى الثلاثين شخصاً في الفناءِ وبعضهم حملَ لفائفَ ورقيةً.

كانت غويندا قد جهزت نفسها للقيام بمخاطرةٍ كبيرةٍ لإنقاذِ ابنها من الإعدامِ، ولكنها لن تحظى بالفرصةِ لفعلِ هذا إن لم تنجح بالتكلمِ مع رالف قبلَ الفجرِ.

«كم تريدُ؟» قالت غويندا للمارشال.

نظرَ إليها ولكن بتعالٍ أقل ثمَّ قال: «لا يمكنني أن أعدكِ برؤيتهِ».

«يمكنكَ أن تُعطيه اسمي».

«شلنين أو أربعة وعشرينَ بنساً».

كان المبلغُ كبيراً ولكن غويندا جلبت معها كلَّ مدخراتهما في حقيبتها. على أيِّ حالٍ، لم تكن مستعدةً لإعطائهِ المالِ بعد.

«ما اسمي؟» قالت له.

«لا أعلمُ».

«لقد أخبرتكَ للتو، كيفَ لكَ أن تُعطي الإيرل اسمي إن لم تكن تتذكرهُ؟»

هزَّ المارشالُ كتفيهِ بلامبالاةٍ وقال لها: «أخبريني بهِ مجدداً».

«غويندا من ويغلي».

«حسناً، سأخبرهُ بالاسمِ».

وضعت غويندا يدها في حقيبتها وأخرجت حفنةً من القطعِ الفضيةِ الصغيرةِ ثمَّ أحصَت منها أربعاً وعشرينَ قطعةً. كان المبلغُ يعادلُ أجرَ عاملٍ لأربعةِ أسابيع، وفكرَّت بالعملِ الشاقِ الذي قامت بهِ لجني هذا المبلغ وهذا الحارسُ العاطل عن العملِ والمتعالي سيحصل عليه الآن من دونِ أن يقومَ بشيء.

مدَّ المارشال يدهُ لأخذِ المالِ.

قالت له: «وما اسمي؟»

«غويندا».

«غويندا من أين؟»

«ويغلي»، قال ثمَّ أضاف: «كان هناك قاتلٌ من ويغلي هذا الصباحِ، أليسَ هذا صحيحٌ؟»

سلمته المال وقالت في إصرارٍ شديدٍ: «سيرغبُ الإيرلُ برؤيتي».

وضعَ المارشال المالَ في جيبهِ.

تراجعت غويندا إلى الفناءِ وهي لا تعلمُ إن كان مالها قد ذهبَ سدى.

بعدَ برهةٍ رأت شخصاً مألوفاً برأسٍ صغيرٍ وكتفين عريضتين. كان آلان فرنهيل. يا لحظها! كان يعبرُ الفناءَ من الإسطبلِ باتجاهِ القاعةِ، ولكن بقية المُلتمسين في الفناءِ لم يعرفوه. وقفت غويندا في طريقهِ وقالت: «مرحباً آلان».

«بات اسمي الآن السير آلان».

«تهاني. هلّا أخبرتَ رالف أنني أرغبُ برؤيتهُ؟»

«ولماذا تريدين مقابلته؟»

«قل لهُ إنني أريدُ مقابلتهُ على انفرادٍ».

رفعَ آلان حاجبيهِ مستغرباً وقال لها: «لا أقصدُ الإهانةَ ولكنكِ كنتُ فتاةً في المرةِ الماضيةِ وأنتِ الآن أكبرُ بعشرين عاماً».

«ما رأيكُ أن نجعلَ رالف يقررُ في هذا الشأنِ؟»

«بالطبع»، قال وابتسمَ بطريقةٍ مهينةٍ ثمَّ أضاف: «أعلمُ أنّه يتذكرُ عصرَ ذلكَ اليومِ في نُزلِ بيل».

كان آلان حاضراً آنذاك وشاهدَ غويندا تخلعُ فستانها وحدَّقَ إلى جسدها العاري ورآها تسيرُ باتجاهِ السريرِ وتركعُ على الفراش بوجهها إلى الحائطِ. آنذاك ضحكَ بفظاظةٍ عندما قالَ رالف إنَّها تبدو أجمل من الخلفِ.

أخفت غويندا تقززها وشعورها بالخجلِ. «كنتُ آملُ أن تتذكر»، قالت بلهجةٍ حياديّةٍ قدرَ الإمكانِ.

أدركَ الملتمسونَ الآخرون أنَّ آلان قد يكون شخصاً مُهماً وبدأوا يحتشدون حولهُ ويتحدثونَ معهُ ويتوسلونهُ ويلتمسونهُ. دفعهم آلان جانباً ودخلَ إلى القاعةِ.

وقررت غويندا أن تنتظر.

بعدَ مرورِ ساعةٍ اتضحَ لها أنَّ رالف لن يقابلها بعدَ الغداءِ وعثرت على مكانٍ لم يكن موحلاً جداً ثمَّ جلست وظهرها للجدارِ إلا أنَّها لم تُبعد ناظريها عن مدخلِ القاعةِ.

مرَّت ساعةٌ ثانيةٌ وثالثةٌ ولكن هذا لم يكن غريباً لأنَّ غداءَ النبلاءِ عادةً ما يستغرقُ فترةَ ما بعدَ الظهرِ بأكملها، وتساءلت غويندا في نفسها كيفَ لهم أن يأكلوا ويشربوا لهذهِ المدةِ الطويلةِ، ألا يُتخمون؟

لم تكن قد تناولت الطعامَ طوال اليوم إلا أنَّها لم تكن جائعةً بسبب شدة توترها.

كان يوماً من أيامِ شهرِ نيسان/ إبريل الغائمةِ وهذا يعني أنَّ الظلامَ سيهبطُ باكراً. ارتجفت غويندا على الأرضِ الباردةِ ولكنها بقيت في مكانها فقد كانت هذهِ فرصتها الوحيدة.

خرجَ الخدمُ وأشعلوا المشاعلَ في الفناءِ، وتسللت أضواءٌ من وراءِ ستائرِ بعضِ النوافذِ. حلَّ الليلُ وأدركت غويندا أنَّ أمامها اثنتي عشرة ساعةً حتَّى الفجر، وفكرت بابنها سام جالساً على الأرضيةِ في إحدى الزنزاناتِ تحتَ

أرضِ القلعةِ وتساءلت في نفسها إن كان يشعرُ بالبردِ وقاومت دموعاً كادت تنحدرُ من عينيها.

قالت لنفسـها إنَّ الأمرَ لم ينته بعد، ولكنَّ شجاعتَها بدأت تخونُها.

ظهرَ شخصٌ طويلٌ حجبَ ضوءَ أقرب مشعلٍ إليها. رفعت ناظريها ورأت آلان وبدأ قلبها يخفقُ بسرعةٍ.

«رافقيني»، قال لها.

قفزت على قدميها وتحرَّكت باتجاهِ بابِ القاعةِ.

«ليسَ من هنا».

نظرت إليهِ مستفهمةً.

«قُلتِ إنَّك تريدين مقابلة الإيرل على انفراد، أليسَ هذا صحيحاً؟» قال آلان. «وهو لن يُقابلك في الغرفةِ التي يتشاركها مع الكونتيسة. تعالي من هنا».

لحقت بهِ عبرَ بابٍ صغيرٍ قريبٍ من الإسطبلاتِ وقادها عبرَ غرفٍ كثيرةٍ وصعدا درجاً ثمَّ فتحَ باباً يُفضي إلى غرفةِ نومٍ ضيقةٍ. دخلت غويندا إلى الغرفةِ ولكن آلان لم يلحق بها بل أغلقَ البابَ من الخارجِ.

كانت غرفةً بسقفٍ واطئٍ وبدت ممتلئةً جداً رغمَ أنَّه لا يوجد فيها سوى سرير واحد. رأت غويندا رالف واقفاً قرب نافذةٍ في قميصهِ الداخلي وقد رمى جزمتهُ وثيابهُ الخارجيةَ على الأرضيةِ. بدا وجهه مُحمراً من الخمرِ ولكنّ كلامَهُ واضحٌ ومتزنٌ.

«اخلعي ثوبكَ»، قال لها مبتسماً ومترقباً.

قالت غويندا: «لا».

بدا رالف كأنّه بوغتَ.

«لن أخلعَ ثيابي»، قالت له.

«لماذا إذاً قُلتِ لآلان أنكِ تريدين مقابلتي على انفرادٍ؟»

«حتَّى تعتقدَ أنني مستعدةٌ لمضاجعتكَ».

«ولكن إن لم تكن ترغبين... لمَ أنتِ هنا؟»

«لأرجوكَ أن تطلبَ عفواً من الملكِ».

«ولكنكِ لا تقدمين نفسكِ لي مقابلَ هذا؟»

«لمَ قد أفعل هذا؟ لقد فعلتُ هذا قبلاً ولكنكَ حنثت بوعدكَ وتراجعت عن

الصفقةِ. أعطيتُكَ جسدي ولكنكَ لم تُعطِ زوجي أرضهُ». وسمحت للاحتقارِ الذي شعرت بهِ أن يظهرَ في نبرةِ صوتها. «وستكررُ فعلتكَ الآن. إنَّ شرفكَ لا يعني شيئاً، وأنتَ تذكرني بوالدي».

اربدَّ وجه رالف حنقاً من الإهانةِ فقد كان القولُ لإيرل أنَّه ليسَ مصدرَ ثقةٍ إهانةً ولكن ما أهانهُ أكثر هو مقارنتهُ بعاملٍ لا يملكُ أرضاً ويصيدُ السناجب في الغابةِ، وقالَ لها بغضبٍ: «وأنتِ تتخيلين أنكِ ستقنعينني بهذهِ الطريقةِ؟»

«لا، ولكنكَ ستطلبُ العفو».

«ولماذا قد أفعلُ هذا؟»

«لأنَّ سام ابنكَ».

حدَّقَ رالف إليها لوهلةٍ وقالَ لها بازدراءٍ: «هاه، كأنني سأصدقُ هذا».

«إنَّه ابنكَ»، كررت غويندا كلامها.

«لا يمكنكِ أن تُثبتي هذا».

«لا، لا أستطيعُ»، قالت له. «ولكن أنتَ تعلمُ أنني نمتُ معك في نُزلِ بيل في كينغزبريدج وبعدَ تسعةِ أشهرٍ ولدَ سام. صحيحٌ أنني كنتُ أنامُ مع ولفريك أيضاً، ولكن من منكما الوالدُ؟ انظر إلى الفتى! إنه يتصرف كولفريك بالطبعِ، فقد تعلمَ تقليد حركاتهِ خلالَ السنواتِ الاثنتين والعشرين التي عاشاها معاً، ولكن انظر إلى ملامحهِ».

ورأت غويندا أن رالف غرقَ في التفكير فعلمت أنَّ ما قالته أصابَ وتراً حساساً في داخلهِ.

«والأهمُّ من هذا فلتفكر بشخصيتهِ»، قالت له في تأكيدٍ على نقطةٍ جوهريةٍ. «لقد سمعتَ الدليلَ في المحاكمةِ. لم يتشاجر سام مع جونو فقط كما سيفعلُ ولفريك. لم يرمِهِ أرضاً ثمَّ ساعدهُ لاحقاً على النهوضِ مجدداً كما سيفعلُ ولفريك. إنَّ ولفريك قوي ويغضبُ بسرعةٍ ولكنه رقيقُ القلبِ، وسام على عكسهِ. لقد ضربَ سام جونو بمجرفةٍ، وكانت ضربةً كفيلةً بإفقادِ أيِّ رجلٍ وعيهُ ثمّ قبلَ أن يسقطَ جونو ضربهُ سام مجدداً بقوةٍ أكبر رغمَ أن جونو كان بلا حولٍ ولا قوةٍ، وقبلَ أن يصلَ جونو إلى الأرضِ ضربهُ سام مرَّةً ثالثةً، ولو لم يسارع [illegible] قرية أولد تشيرش إلى إمساكِ سام لمنعهِ من الاستمرارِ بضربِ جونو [illegible] ضربه بتلكَ المجرفةِ اللعينةِ إلى أن يُهشم رأسهُ بالكاملِ ويسحقه. أرادَ [illegible]!» وأدركت غويندا أنَّها كانت تبكي فمسحت دموعها بكميها.

كان رالف يُحدقُ إليها في هلعٍ.

«من أينَ أتت غريزةُ القتلِ يا رالف؟» قالت له. «ابحث عن الجوابِ في قلبكَ الأسود. سام ابنكَ وهو.. ليسامحني الرَّبُّ.. ابني أيضاً».

***

غادرت غويندا وجلسَ رالف على السريرِ في الغرفةِ الصغيرةِ يُحدقُ إلى لهبِ الشمعةِ. هل هذا ممكنٌ؟ كانت غويندا مستعدةً للكذبِ متى ناسبها هذا، ولذلكَ لم تكن الثقة بها مسألةً مطروحةً. ولكن سام قد يكون ابن رالف تماماً كما قد يكون ابن ولفريك؛ فكلاهما ناما مع غويندا في ذلكَ الوقت، وقد لا يتمكن من معرفةِ الحقيقةِ أبداً.

ولكن حتَّى مجرد فكرة أن يكونَ سام ابن رالف كانت كافيةً لملء قلبهُ بالرُّعبِ. هل يوشكُ على إعدامِ ابنه؟ هل سترتدُّ تلكَ العقوبةُ الرهيبةُ التي أرادها لولفريك عليهِ؟

كان الوقتُ ليلاً وسيتم الإعدامُ غداً عندَ الفجرِ ولذلك لم يكن لدى رالف الكثيرُ من الوقتِ ليقرر.

أخذَ الشمعةَ وغادرَ الغرفةَ الصغيرةَ التي أرادَ أن يلبي غريزةً حيوانيةً فيها ولكن بدلاً من هذا تلقى أكبرَ صدمةٍ في حياتهِ.

خرجَ وعبرَ الفناءَ باتجاهِ السجنِ. في الطابقِ الأرضي للمبنى هناك مكاتبُ رجالِ الشريفِ فدخلَ رالف وتحدثَ إلى رجلٍ في مهمةِ حراسةٍ. «أريدُ أن أقابلَ القاتلَ سام من ويغلي».

«حسناً يا سيدي»، قالَ السجانُ. «سأريكَ الطريق». وقادَ رالف إلى الغرفةِ المجاورةِ حاملاً مصباحاً.

كان هناك حاجزٌ بشباكٍ متقاطعةٍ على الأرضيةِ تنبعثُ منه رائحةٌ نتنةٌ. نظرَ رالف إلى الأسفلِ عبرَ قضبانِ الحاجزِ ورأى زنزانةً بُعمقِ تسعة إلى عشرة أقدامٍ وبجدرانٍ حجريةٍ وأرضيةٍ قذرةٍ. كانت فارغةً وقد جلسَ سام على الأرضيةِ وظهرهُ إلى الحائطِ. بقربهِ كان هناك إبريقٌ خشبي من المفترضِ أنّه يحوي على الماءِ، وهناك أيضاً حفرةٌ في الأرضيةِ ويبدو أنّها المرحاضُ. رفعَ سام نظرهُ إلى الأعلى ثمَّ أشاحَ بلا مبالاةٍ.

«افتح الزنزانةَ»، قال رالف.

فتحَ السَّجان الحاجزَ بمفتاحٍ ورفعهُ.

«أريد النزول».

تفاجأ السّجّان ولكنه لم يجرؤ على مجادلةِ الإيرل. التقطَ الرجلُ سُلماً وأسنده إلى الجدارِ ثمَّ أنزلهُ إلى الزنزانةِ. «فلتحذر من فضلكَ يا سيدي»، قالَ السجّانُ بتوتر. «لا تنسَ أنَّ هذا الشرير لا يملكُ شيئاً ليخسرهُ».

نزلَ رالف إلى الزنزانةِ حاملاً الشمعةَ. كانت الرائحةُ مقززةً ولكنه لم يبالِ. وصلَ إلى أسفلِ السُلمِ واستدارَ.

رفعَ سام نظرهُ إليهِ في استياءٍ وقالَ: «ما الذي تريدهُ؟»

حدَّقَ رالف إلى سام ثمَّ قرفصَ على الأرضيةِ وحملَ الشمعة قريباً من وجهِ سام وتمعنَ في معالمهِ ويحاولُ مقارنتها بالوجهِ الذي يراهُ عندما ينظرُ في المرآةِ.

«ما الأمر؟» قالَ سام في خوفٍ من نظرةِ رالف المتفحصةِ.

لم يُجب رالف. هل كان هذا ابنهُ؟ وفكرَ رالف بأنَّه قد يكون، بل من السهلِ أن يكونَ ابنهُ. كان سام فتى وسيماً، ورالف معروفٌ بأنَّه فتى وسيم في شبابهِ قبلَ أن يُكسرَ أنفهُ. خلالَ المحاكمةِ اعتقدَ رالف أنَّه رأى في وجهِ سام أمراً مألوفاً إلا أنَّه لم يعرف ما هو، وها هو الآن ينظرُ إلى وجههِ بتركيزٍ ويبحثُ في ذاكرتهِ عن الشخصِ الذي يذكرهُ بهِ سام؛ هذا الأنف المستقيم ونظرة العينين الداكنتين والشعر الكثيف الذي قد يثيرُ حسدَ الفتياتِ...

وعندها عرفَ رالف.

بدا سام كوالدةِ رالف الراحلة الليدي مود.

«رباه!» قال رالف في ما يشبهُ الهمسَ.

«ماذا؟» قالَ سام وقد فضحَ صوتهُ الخوفَ الذي انتابهُ. «ماذا؟»

كان على رالف أن يقولَ شيئاً. «أمّكَ...» بدأ كلامهُ ثمَّ تراجعَ. شعرَ كأنَّه يختنق من المشاعرِ التي انتابتهُ وعجزَ عن التفوهِ بكلمةٍ وحاولَ مجدداً قائلاً: «لقد التمست والدتكَ العفو عنكَ... بكلِّ فصاحةٍ».

بدا سام متحفظاً ولم يقل شيئاً، ربما اعتقدَ أن رالف أتى إلى هنا للسخريةِ منهُ.

«أخبرني»، قالَ رالف. «عندما ضربتَ جونو بتلكَ المجرفةِ... هل كنتَ تنوي قتلهُ؟ يمكنكَ أن تكونَ صريحاً معي فلم يعد هناك ما تخافُ منهُ».

«بالطبعِ كنتُ أنوي قتلهُ»، قال سام. «كان يحاولُ تقييدي».

أومأ رالف برأسِهِ وقال: «كنتَ سأفعل الأمرَ عينهُ»، ثمَّ توقفَ لوهلةٍ وحدَّقَ إلى سام ثمَّ قال مجدداً: «كنتُ سأفعل الأمرَ عينهُ».

وقفَ رالف واستدارَ نحو السُّلم متردداً ثمَّ استدارَ باتجاهِ سام ووضعَ الشمعةَ على الأرضيةِ بقربهِ، ثمَّ تسلقَ السلمَ.

أعادَ السجّان الحاجز المشبكي وأقفلهُ.

قالَ له رالف: «لن يكونَ هناك إعدامٌ، لقد حصلَ السجين على عفوٍ، وسأتحدثُ إلى الشريفِ على الفورِ».

وعندما غادر رالف الغرفةَ عطسَ السجّانُ.

-85-

إبانَ عودةِ ميرثن وكاريس من شايرنغ إلى كينغزبريدج اكتشفا أنَّ لولا اختفَت.

وجد ميرثن خادميه العتيدينِ آرن وإم بانتظارهِ أمامَ بوابةِ الحديقةِ ويبدوان كأنّهما تمركزا في مكانهما طوالَ اليوم. بدأت إم بالتحدثِ إلا أنّها بدأت تنشجُ وتشهقُ ولم يعد كلامها مفهوماً فاضطرَّ آرن إلى إطلاعهما على الخبرِ.

«لا يمكننا إيجادُ لولا»، قالَ في اضطرابٍ، «ولا نعرفُ أينَ هي».

في البدايةِ لم يفهم ميرثن ما قاله آرن ولذلك قال: «ستعودُ بحلولِ موعدِ العشاءِ. لا تقلقي يا إم».

«ولكنها لم تعد الليلةَ الماضيةَ ولا الليلةَ التي قبلها»، قالَ آرن.

وهنا أدركَ ميرثن ما الذي كانا يقصدانهِ بكلامهما. لولا هربت. وعصفَ بهِ الخوفُ كريحٍ شتائيةٍ جعلت جلده يقشعر وقلبه يقف. كانت في السادسة عشرة فقط، ولوهلةٍ لم يكن قادراً على التفكيرِ بشكلٍ منطقي، وتخيلها في منتصفِ الطريقِ بينَ الطفولةِ والبلوغِ بعينيها العسليتين الداكنتين ونظرتها الحادَّةِ وفمِ والدتها الشهواني وتعبيرِ الثقةِ المزيفةِ ولكنَ المرحةِ على وجهها.

وعندما استعادَ رشدهُ سألَ نفسهُ عما قد يكونُ الخطبُ. لقد اعتادَ تركَ لولا في عهدةِ آرن وإم لأيامٍ منذُ كانت في الخامسةِ ولم تقع أيّ متاعب قط. هل تغيرَ شيءٌ ما؟

وأدركَ حينها أنّه بالكادِ تحدثَ معها منذُ أحدِ عيدِ الفصحِ، أي منذُ أسبوعين،

عندما سحبَها من ذراعِها بعيداً عن أصدقائها السيئي السُمعةِ خارجَ حانةِ وايت هورس. لازمت غرفتها مستاءً أثناءِ الغداءِ ولم تخرج حتّى عندما اعتقلوا سام. بقيت لأيامٍ في مزاجٍ سيءٍ وحتّى عندما ودَّعها ميرثن وكاريس وقبّلاها منطلقين إلى شايرنغ.

شعرَ ميرثن بندمٍ شديدٍ لأنّه عاملها بقسوةٍ وأجبرها على الابتعادِ. هل كانت روحُ سيلفيا تراقبه وتزدريهِ على فشلهِ في العنايةِ بابنتهما؟

وعادَ إلى التفكيرِ بأصدقاءِ لولا السيئي السمعةِ. «ذلكَ الفتى المدعو ديك رايلي يقفُ وراءَ الأمرِ»، قال ميرثن. «هل تحدثتَ إليهِ يا آرن؟»

«لا يا سيدي».

«من الأفضلِ أن نتحدثَ إليهِ على الفورِ. هل تعرفُ أينَ يعيش؟»

«يعيشُ قربَ منزلِ بائعِ أسماكٍ خلفَ كنيسةِ سان بول».

وقالت كاريس لميرثن: «سأرافقكَ».

عبرا الجسرَ عائدين إلى المدينةِ واتخذا الطريقَ غرباً. تقعُ كنيسةُ سان بول في المنطقةِ الصناعيةِ على طولِ الواجهةِ المائيةِ حيثُ المسالخُ وورشات دباغة الجلدِ ومناشر الخشبِ والمصانعِ وصباغة الأقمشة التي ازدهرت بقوةٍ منذُ إنتاجِ اللونِ القرمزي الخاصِ بمدينةِ كينغزبريدج. توجهَ ميرثن باتجاه البرجِ القصيرِ والعريضِ لكنيسةِ سان بول الذي يعلو فوقَ الأسقفِ الخفيضةِ للمنازلِ، وميّزَ متجرَ السمكِ من رائحتهِ. قرعَ على بابِ منزلٍ كبيرٍ مجاورٍ.

فتحت لهم امرأةٌ فقيرةٌ تدعى سال سويرز وهي أرملةُ نجارٍ مستغلٍ ماتَ جرّاءَ الطاعونِ. «جايك يأتي ويذهبُ متى شاء أيّها الرئيس»، قالت الأرملةُ ثمَّ أضافت: «لم أرهُ منذُ أسبوعٍ، ولكن ما دام يدفع الإيجار فعلَ ما يحلو له».

وسألتها كاريس: «عندما غادر هل كانت لولا معه؟»

نظرَت سال باحتراسٍ من طرفِ عينيها إلى ميرثن وقالت: «لا أحبُّ الانتقادَ».

قال ميرثن: «من فضلكِ أخبريني بما تعرفينهُ. لن أشعرَ بالإهانةِ».

«عادةً ما تكونُ برفقتهِ، وتفعلُ كلَّ شيءٍ يريدهُ جايك، ولن أضيفَ أكثر على هذا الكلامِ. إن بحثتم عنهُ ستجدونها».

«هل تعلمينَ إلى أينَ ذهبَ؟»

«إنّه لا يقولُ أبداً».

«هل يمكنكِ التفكيرُ بأحدٍ قد يعلمُ؟»

«إنَّه لا يُحضرُ أحداً إلى هنا باستثنائها، ولكني أعتقدُ أنَّ أصدقاءَهُ عادةً ما يجتمعون في حانةِ وايت هورس».

أومأ ميرثن برأسِهِ وقال: «سنذهبُ إلى هناك. شكراً يا سال».

«ستكونُ بخيرٍ»، قالت سال. «إنَّها تمرّ بمرحلةٍ عاصفةٍ فقط».

«آمل أن تكوني على حقٍ».

عادَ ميرثن وكاريس من الطريقِ نفسه إلى أن وصلا إلى حانةِ وايت هورس على ضفةِ النهرِ قربَ الجسرِ، وتذكرَ ميرثن حفلةَ المجونِ الجماعيّةَ التي شهدها هنا في ذروةِ الوباءِ عندما وزعَ ديفي وايتهورس كلَّ ما لديهِ من جعةٍ مجاناً. بعدَ موت ديفي بقيت الحانةُ فارغةً لسنواتٍ عديدةٍ ولكنها الآن حانةٌ مكتظّةٌ، وغالباً ما كان ميرثن يتساءلُ عن سببِ شعبيتها فقد كانت غُرفها مزدحمةً وقذرةً، وتقعُ شجاراتٌ متكررةٌ، وكلَّ عامٍ تقريباً يُقتلُ أحدٌ فيها.

دخلَ ميرثن وكاريس إلى الردهةِ وكانت عابقةً بالدخانِ، ورغم أنَّ الوقت منتصف ما بعد الظهرِ فإنَّ هناك مجموعةٌ من السكارى الثملين جداً على أحدِ المقاعدِ، ومجموعةٌ صغيرةٌ تحلَّقت حولَ طاولةِ لعب النرد بأكوامِ بنساتٍ فضيةٍ مكومةً فوقها في ما يبدو كأنّه رهانٌ على نتيجةِ اللعبةِ. رفعَت عاهرةٌ بخدين مُحمرين تدعى جولي نظرَها إلى القادمين الجديدين على أملٍ وعندما رأت من كانا عادتَ إلى الوضعية الخمولةِ والضجرةِ التي كانت عليها، وفي الزاويةِ كان رجلٌ يعرضُ على امرأةٍ معطفاً باهظاً وبدا واضحاً أنّه يريدُ بيعها إياه، ولكن عندما رأى ميرثن طوى المعطفَ وأخفاه، وتكهنَ ميرثن أنَّ المعطفَ مسروقٌ.

كان مالكُ المكانِ إيفان يتناولُ غداءً متأخراً من لحمِ الخنزير المقلي. وقفَ وهو يمسحُ يدهُ بردائهِ وقال بتوترٍ: «طابَ يومكَ أيُّها الرئيس، إنّه لشرفٌ أن تأتي إلى الحانةِ. هل يمكنني أن أقدمَ لكَ الجعةَ؟»

«أبحثُ عن ابنتي لولا»، قالَ ميرثن على عجلٍ.

«لم أرها منذُ أسبوعٍ»، قال إيفان.

كانت سال قد أخبرت ميرثن بأنّها لم ترَ جايك منذُ أسبوعٍ ولذلك قال لإيفان: «قد تكونُ مع جايك رايلي».

«أجل، لقد لاحظتُ أنّهما صديقان»، قالَ إيفان بلباقةٍ. «وهو أيضاً لم أرهُ منذُ أسبوعٍ».

«هل تعلمُ إلى أينَ ذهبَ؟»

«جايك من النوعِ الكتوم»، قال إيفان. «ولو سألتهُ عن المسافةِ بين كينغزبريدج وشايرنغ لهزَّ رأسهُ وعبسَ وقالَ إنَّ معرفةَ مثل هذهِ الأمور ليست من شأنِهِ».

كانت العاهرةُ جولي تسترقُ السمعَ إلى المحادثةِ وتدخلت قائلةً: «إنَّه كريمٌ على أيِّ حالٍ».

رمقها ميرثن بنظرةٍ حادةٍ وسألها: «ومن أينَ يأتي بالمالِ؟»

«من الخيولِ»، قالت له. «فهو يتجولُ في القرى يشتري الأفراسَ الصغيرةَ من الفلاحين ويبيعها في المدنِ».

وفكرَ ميرثن بضيقٍ بأنَّه على الأغلبِ يسرقُ الجيادَ من المسافرين الغافلين أيضاً. «هل هذا ما يقومُ بِهِ الآن؟ شراءُ الجياد؟»

قالَ إيفان: «هذا واردٌ جداً بخاصة أنَّ موسمَ السوقِ الكبيرِ على الأبوابِ. لا بدَّ أنَّه يجمعُ بضاعتهُ».

«وقد تكون لولا معهُ».

«لا أقصدُ الإساءةَ إليكَ أيها الرئيس ولكن من المحتملِ جداً أنَّها برفقتِهِ».

«لستَ من الحقِ الإساءةَ بي»، قال ميرثن. وأومأ رأسَه في وداعٍ مقتضبٍ ثمَّ غادرَ الحانة ولحقت بِهِ كاريس.

«هذا ما فعلتهُ إذاً»، قالَ بغضبٍ. «هربت مع جايك لاعتقادها بأنَّها ستذهب في مغامرةٍ عظيمةٍ».

«أخشى أنَّكَ على حقٍ»، قالت كاريس. «آمل ألا تحملَ منهُ».

«أتمنى لو أنَّ هذا أسوأ مخاوفي».

عادا إلى المنزلِ وبينما كانا يعبران الجسرَ وقفَ ميرثن في أعلى نقطةٍ فيهِ وألقى نظرةً على أسطحِ بيوتِ الضواحي وحتَّى الغابةِ. كانت فتاتهُ الصغيرةُ في مكانٍ ما مع تاجرِ جيادٍ محتالٍ. كانت في خطرٍ إلا أنَّه لم يكن قادراً على حمايتِها.

***

توجهَ ميرثن إلى الكاتدرائيةِ في صباحِ اليومِ التالي لتفقدِ أحوالِ بناءِ البرجِ الجديدِ واكتشفَ أنَّ العملَ عليهِ قد توقفَ. «إنَّها أوامرُ رئيس الديرِ»، قالَ الأخُ توماس عندما استفهمَ منهُ ميرثن عن السببِ. كان توماس في الستين من العمرِ

تقريباً وقد بدأت تظهر عليهِ آثارُ العمرِ فجسدهُ ذو البنيةِ العسكرية قد احدودبَ وبات يسيرُ بلا اتزانٍ في الأرجاءِ. «حدثَ انهيارٌ في الممرِ الجنوبي»، أضافَ توماس.

حدَّقَ ميرثن إلى بارتيملي، البنَّاءُ العجوزُ النكدُ من النورماندي والجالس أمامَ المبنى يشذبُ إزميلاً، ورآه يهزُّ رأسهُ في صمتٍ.

«لقد حدثَ الانهيارُ منذُ اثنين وعشرين عاماً أيُّها الأخُ توماس»، قال ميرثن.

«آه، أنتَ على حقٍ»، قال توماس. «لم تعد ذاكرتي جيدةً كما كانت قبلاً».

ربَّتَ ميرثن على كتفهِ وقال: «كلنا نكبرُ في العُمرِ».

قال بارتيلمي: «إنَّ رئيسَ الديرِ في البرج ويريدُ رؤيتكَ».

وذهبَ ميرثن لرؤيتهِ.

توجهَ إلى جناحِ الكنيسةِ الشمالي ودخلَ عبرَ الممرّ المقنطرِ الصغيرِ ثمَّ صعدَ الدرجَ الحلزوني الضيِّق عندَ الجدار، وبينما كان يعبرُ التقاطعَ القديم باتجاهِ البرجِ الجديدِ تغيرَ لونُ الحجارةِ من اللونِ الرمادي الغامقِ كلون الغيوم العاصفةِ إلى اللونِ اللؤلؤي الفاتح لسماءِ الصباحِ. كان الدرج طويلاً فارتفاعُ البرجِ الآن يبلغُ ثلاثمئة قدمٍ. على أيِّ حالٍ كان ميرثن معتاداً عليه، فقد كان كلَّ يومٍ تقريباً ولأحدَ عشرَ عاماً يصعدُ درجاً يزدادُ ارتفاعاً في كلِّ مرةٍ، وخطرَ له الآنَ أنَّ فيليمون الذي باتَ سميناً في هذهِ الأيامِ يملكُ سبباً قاهراً دفعَهُ لجرِّ نفسهِ على هذا الدرجِ العالي.

وقبلَ أن يصلَ إلى القمةِ مرَّ ميرثن عبرَ غرفةٍ تحوي على عجلةٍ كبيرةٍ وآلةٍ خشبيةٍ دوارةٍ بطولِ رجلٍ. كانوا يستخدمونها لرفعِ الحجارةِ والملاطِ والخشبِ إلى الأعلى حيثُ يريدون، وعندما ينتهون من بناءِ القبةِ المستدقةِ سيتركون العجلةَ في مكانها في حال احتاجتها الأجيالُ القادمةُ من البنائين من أجلِ الإصلاحاتِ وهذا يعني أنَّها ستبقى إلى أن يحلَّ يومُ الدينونةِ.

وصلَ ميرثن إلى أعلى البرجِ. في الأعلى عصفت رياحٌ باردةٌ وقاسيةٌ رغمَ أنَّها لم تكن بهذهِ الشدةِ على الأرضِ. هناك طريقٌ ضيقٌ يلتف حولَ القسمِ الداخلي من قمةِ البرجِ، وأحاطت السقالات بالفتحةِ المثمنةِ الزوايا والجاهزة ليعملَ عليها بنّاءو القمةِ، وكومت أحجارُ التزيين في مكانٍ قريبٍ، وهناك كومةٌ من الملاطِ تُركت لتجفَّ على لوحٍ خشبي دون أن يكون هناك داعٍ لهذا.

لم يكن هناك عمالٌ على السطحِ، ورأى ميرثن رئيسَ الديرِ فيليمون على الجانبِ البعيدِ مع هارولد ميسن. كانا منغمسين في الحديثِ ولكنهما عندما شاهدا ميرثن توقفا كأنَّ الأخير أمسكَ بهما يقترفان ذنباً. وبسببِ الرياحِ كان على ميرثن أن يصرخَ حتّى يسمعاه: «ما سببُ إيقافِ أعمالِ البناءِ؟»

كان جوابُ فيليمون جاهزاً. «هناك مشكلةٌ في تصميمكَ».

نظرَ ميرثن إلى هارولد: «أنتَ تعني أنَّ بعضَ الناسِ لا يستطيعونَ فهمهُ».

«يقولُ الخبراءُ أنَّ تنفيذ التصميم مستحيلٌ»، قال فيليمون متحدياً.

«الخبراء؟» كررَ ميرثن باحتقارٍ ثمَّ تابع: «من هم الخبراءُ في كينغزبريدج؟ من بنى الجسرَ؟ من عملَ مع أعظمِ مهندسي فلورنسا؟ من رأى روما وأفينون وباريس ورون؟ بالتأكيد ليسَ هارولد الواقف هنا. لا أقصدُ الإهانةَ يا هارولد ولكنكَ لم تزر لندن حتى».

قالَ هارولد: «لستُ الوحيد الذي يعتقدُ أنَّ بناءَ قمةٍ مثمنةِ الزوايا من دونِ دعائم أمرٌ مستحيلٌ».

كان ميرثن على وشكِ التفوهِ بشيءٍ ساخرٍ ولكنهُ كبحَ نفسه فقد أدركَ أنَّ الأمرَ بالنسبةِ لفيليمون أكبر من مجرد صعوبةِ التنفيذ. لقد اختارَ رئيسُ الديرِ خوضَ هذهِ المعركةِ عن سابقِ إصرارٍ وترصدٍ، وهذا يعني أنَّه يملكُ أسلحةً أكثرَ قوةً من آراءِ هارولد ميسن. من المفترضِ أنَّه ربحَ دعمَ بعضِ أعضاءِ النقابةِ ولكن كيف؟ لا بدَّ أنَّ البنائين الآخرين الذين كانوا مستعدين للقولِ إنَّ بناءَ القمةِ المستدقةِ التي صممها ميرثن مستحيل قد حصلوا على حافزٍ ما – لقد حصلوا على عقودِ بناءٍ.

«ما الأمرُ؟» قالَ ميرثن لفيليمون. «ما الذي كنتَ تأملُ أن نبني؟»

«لا أفهمُ ما تعنيهِ بكلامكَ»، انفجرَ فيليمون.

«لديكَ مشروعٌ بديلٌ وقد عرضتَ على هارولد وأصدقائه حصةً منهُ. ما هو هذا البناء؟»

«أنتَ لا تعلمُ عمَّا تتحدثُ».

«قصرٌ أكبر لنفسكَ؟ كنيسةٌ جديدةٌ؟ لا يمكنُ أن يكونَ مستشفى، لدينا ثلاثة مشاف. هيا يمكنكَ أن تخبرني ما لم تكن مُحرجاً من الأمرِ».

وهنا اندفعَ فيليمون للإجابةِ بسرعةٍ: «يرغبُ الرهبانُ ببناءِ كنيسةٍ للسيدة».

«آه»، قال ميرثن.

باتَ الأمرُ الآن مفهوماً. كانت طائفةُ السيدةِ العذراء تزدادُ شعبيةً يوماً بعد يوم، وقد أبدت هيئةُ كهنوتِ الكنيسةِ موافقتها على ظهورِ هذهِ الطائفةِ لأنَّ موجةَ الورعِ المرتبطِ بالعذراءِ مريم خففت من حدَّةِ الشكوكيةِ والهرطقةِ التي اجتاحت الأبرشيات منذُ انتشارِ الطاعونِ. كانت أعدادٌ كثيرةٌ من الكاتدرائياتِ والكنائس تضيفُ إليها مصلى صغيراً وخاصاً في الطرفِ الشرقي -أقدس مكانٍ من الكنائسِ- وهذا المصلى مُكرَّسٌ لوالدةِ الرَّبِّ. لم يحب ميرثن هندسةَ هذا النوعِ من المصلى ففي معظمِ الكنائسِ بدا المصلى كإضافةٍ متأخرةٍ، وهو ما كان عليهِ حقاً.

ما هو دافعُ فيليمون؟ كان في سعي دائمٍ إلى الفوزِ بحظوةِ أحدٍ ما وعادةً ما يستخدم هذهِ الطريقة للحصولِ على هذهِ الحظوة. إنَّ بناءَ مصلى للسيدةِ في كينغزبريدج سيُرضي كبارَ رجالِ الدين المتحفظين.

كانت هذهِ هي المحاولةُ الثانيةِ لفيليمون لإرضاءِ هؤلاء الناس. ففي أحدِ عيدِ الفصحِ ومن على منبرِ الكاتدرائيةِ شجبَ تشريحَ الجثثِ، وهنا أدركَ ميرثن أنّه كان يُجهزُ لحملةٍ، ولكن ما هي غايتهُ منها؟

قررَ ميرثن ألا يقومَ بشيءٍ إلى أن يعرفَ مخططَ فيليمون، ومن دونِ أن يقولَ شيئاً غادرَ السطح وبدأ يهبطُ الدرجَ الذي يُفضي إلى الطابقِ الأرضي.

وصلَ ميرثن إلى المنزلِ على الغداءِ ووصلت كاريس من المستشفى بعدَ بضعِ دقائقٍ.

«إنَّ وضعَ الأخِ توماس يزدادُ سوءاً»، قالَ ميرثن لكاريس. «هل هناك ما يمكننا القيامُ بهِ من أجلِهِ؟»

هزَّت رأسها وقالت: «لا علاج للخرفِ».

«أخبرني أنَّ الممرَ الجنوبي قد انهارَ البارحةَ».

«هذا ما يحدثُ عادةً. سيتذكرُ ما حدثَ في الماضي البعيد ولكنه لن يتذكرَ ما يحدثُ اليومَ. مسكينٌ توماس، سيتدهورُ وضعهُ بسرعةٍ على الأرجح، إلا أنّه على الأقلِ في مكانٍ مألوف له فالأديرة لا تتغيرَ كثيراً وتبقى على حالها لعقودٍ، وما زال روتينهُ اليومي على حالِهِ منذُ دخوله الدير، وسيكونُ هذا مفيداً له».

وعندما جلسا لتناولِ غدائهما المكون من يخنةِ لحمِ الضأنِ والكُراثِ والنعنعِ شرحَ لها ميرثن التطورات التي حدثت هذا الصباح. لسنواتٍ كثيرة صارعا رؤساءَ ديرِ كينغزبريدج، أنتوني أولاً ثمَّ غودوين والآن فيليمون،

وقد اعتقدا أنَّ الحصولَ على الامتياز الملكي سيضعُ حداً لهذهِ المناوراتِ المستمرة. كانت الأمورُ قد تحسنت في المدينة حتماً إلا أنَّ فيليمون لم يُظهر علائمَ الاستسلامِ بعد.

«أنا لستُ قلقاً على القبةِ المستدقةِ»، قالَ ميرثن. «فالأسقفُ هنري سيحكمُ ضدَ قرارِ فيليمون وسنعاودُ أعمالَ البناءِ بأسرعٍ مما يتخيلُ فيليمون. يريد هنري أن يكون أسقفَ أعلى كاتدرائيةٍ في إنكلترا».

«لا بدَّ أنّ فيليمون يعلمُ بهذا»، قالت كاريس وهي غارقةٌ في التفكيرِ.

«ربما يريدُ القيام ببادرةِ حسن نيةٍ مع أتباعِ كنيسةِ السيدةِ والفوز بشرفِ المحاولةِ وإلقاءِ اللومِ على شخصٍ آخرٍ في حالِ فشل».

«ربما»، قالت كاريس في تشكيكٍ.

ولكن كان هناك سؤالٌ واحدٌ مهمٌ في رأسِ ميرثن. «ولكن ما الذي يسعى إليهِ؟» سألها.

«كلَّ شيءٍ يقومُ بهِ فيليمون قائمٌ على حاجةِ الشعورِ بالأهميةِ»، قالت كاريس بثقةٍ. «أعتقدُ أنّه يسعى وراءَ ترقيةٍ».

«وما هو المنصبُ الذي يُفكرُ بهِ؟ يبدو أنَّ رئيسَ أساقفةِ مونماوث يحتضرُ ولكن فيليمون حتماً لا يطمعُ في هذا المنصبِ؟»

«لا بدَّ أنّه يعلمُ بأمرٍ لا نعلمهُ».

وقبلَ أن يقولا المزيدَ دخلت لولا.

كان ردُّ فعلِ ميرثن الأولُ هو الشعورِ براحةٍ كبيرةٍ كادت تدفعهُ إلى البكاء. لقد عادت وهي بخير. نظرَ إليها من رأسها إلى أخمصِ قدميها ورأى بأنّها لم تكن تعاني من إصاباتٍ واضحةٍ إلّا أنّها كانت تعرجُ قليلاً في مشيتها وعلى وجهها ارتسمَ تعبيرُ السخطِ المعتادِ.

كانت كاريس أوّلَ من تحدث: «لقد عُدتِ. يسعدني هذا جداً».

«هل هذا صحيح؟» قالت لولا. كانت أحياناً تتظاهرُ بأنَّ كاريس لا تحبها، ولكن هذا لم يخدع ميرثن رغمَ أنَّ كاريس تشعر بالشكِ حيال صحّةِ هذا الشعورِ بسببِ حساسيتها حيالَ عدمِ كونها والدةَ لولا.

«كلانا سعيدان»، قال ميرثن. «لقد أرعبتنا».

«لماذا؟» قالت لولا ثمَّ علّقت معطفها على الخطافِ وجلست إلى الطاولةِ. «كانت الأمورُ على أتمِّ ما يرامِ».

«ولكننا لم نعرف هذا ولهذا كنا قلقين بشدةٍ».

«لا يجبُ أن تقلقا»، قالت لولا. «يمكنني الاعتناءُ بنفسي».

وكبحَ ميرثن ردّاً غاضباً ثمَّ قالَ بلهجةٍ لطيفةٍ قدرَ الإمكانِ: «لستُ واثقاً من أنكِ تستطيعين».

وهنا تدخلت كاريس لتخففَ من حدَّةِ التوترِ في الأجواءِ وسألتها: «إلى أينَ ذهبتِ؟ لقد غبتِ لأسبوعين».

«إلى أمكنةٍ مختلفةٍ».

قالَ ميرثن بصرامةٍ: «هل يمكنكِ أن تذكري لنا اسمَ مكانٍ أو مكانين؟»

«مادفورد كروسينغ وكاسترهام وأوثنباي».

«وما الذي كنتِ تفعلينهُ هناك؟»

«هل هذا استجوابٌ؟» قالت متذمّرةً. «هل يجبُ أن أجيبَ على كل هذهِ الأسئلةِ؟»

ووضعت كاريس يدها على ذراعِ ميرثن وقالت للولا: «نريدُ أن نعرفَ أنَّكِ لم تكوني في خطرٍ».

قالَ ميرثن: «وأريد أيضاً أن أعرفَ مع من كنتِ تسافرين».

«لا أحد محدد».

«هل تعنين بهذا جايك رايلي؟»

هزَّت كتفيها وبدت محرجةً ثمَّ قالت كأنّها تُفصحُ عن تفصيلٍ تافهٍ: «أجل».

كان ميرثن مستعداً لمسامحتها ولكنها تُصَّعبُ الأمرَ عليهِ، وقال بصوتٍ حيادي قدر الإمكان: «وما هي ترتيبات النومِ التي أجريتها أنتِ وجايك؟»

«هذا أمرٌ يخصني!» صاحت لولا.

«لا، إنَّه ليسَ كذلك»، صاح بها أيضاً وتابع: «إنَّه يخصني ويخصُّ زوجةَ والدكِ. إن كنتِ حامل فمن سيهتمُ بالطفلِ؟ هل أنتِ واثقة من أنَّ جايك جاهزٌ للاستقرارِ كزوجٍ وأبٍ؟ هل تحدثتِ معهُ في هذا الأمرِ؟»

«لا تتحدث معي»، صرخت بهِ ثمَّ انفجرت باكيةً وصعدت الدرجَ بصخبٍ.

قالَ ميرثن: «أتمنى أحياناً لو أننا كنا نعيشُ في غرفةٍ واحدةٍ لأنَّها لن تتمكنَ عندها من القيامِ بهذا».

«لم تكن لطيفاً معها»، قالت كاريس باعتراضٍ هادئ.
«وما الذي كان يُفترضُ بي فعلهُ؟» قال ميرثن. «إنَّها تتحدثُ كأنّها لم تقترف أيَّ خطأ!»
«ولكنها تعلمُ الحقيقةَ ولهذا السببِ بكت».
«أوه اللعنة»، قال ميرثن.
سمعا قرعاً على البابِ وظهرَ راهبٌ مبتدئ ثمَّ قال: «عذراً على الإزعاج أيُّها الرئيس. إنَّ السير غريغوري لونغفيلو في ديرِ الرهبان وسيكونُ ممتناً إن أتيتَ للتحدثِ معهُ في الوقتِ الذي يناسبكَ».
«اللعنةَ»، قال ميرثن. «أخبره أنني قادمٌ بعدَ قليلٍ».
«شكراً لكَ»، قالَ الراهبُ وغادرَ.
قالَ ميرثن لكاريس: «ربما يجبُ أن نعطيها بعضَ الوقتِ لتهدأ».
«وأنتَ أيضاً بحاجةٍ إلى بعضِ الوقتِ»، قالت كاريس.
«أنتَ لا تنحازين إلى صفها، صحيح؟» قالَ ميرثن مُستفزاً بعضَ الشيء.
ابتسمَت ولامست ذراعهُ قائلةً: «أنا إلى جانبكَ على الدوامِ، ولكن لا تنسَ ما معنى أن تكونَ الفتاةُ في السادسة عشرة من العمرِ. كانت قلقةً حيالَ علاقتها بجايك مثلكَ تماماً، ولكنها لا تعترفُ بهذا، ولا حتّى لنفسها، لأنَّ هذا سيجرحُ كبرياءها. استاءت منك لأنّكَ أخبرتها بالحقيقةِ فقد بنت دفاعاً هشّاً حولَ اعتدادها بذاتها وأنتَ حطمتهُ».
«وما الذي يجبُ علي فعلهُ؟»
«ساعدها على بناءِ دفاعٍ أفضل»؟
«لا أفهم ما الذي تعنيه هذا».
«ستفهمهُ».
«من الأفضلِ أن أذهبَ لمقابلةِ السير غريغوري»، قال ميرثن ثمَّ وقف.
عانقتهُ وقبّلتهُ على شفتيهِ ثمَّ قالت: «أنتَ رجلٌ صالحٌ وتقومُ بأفضلِ ما بوسعكَ وأنا أحبُّك من كلِّ قلبي».
أبعدَهُ هذا عن حافةِ اليأسِ التي شعرَ بها قبل قليل وجعلهُ يهدأ وهو يجتاز الجسرَ ويعبر الطريقَ الرئيسي باتجاهِ الديرِ. لم يكن يحبُّ غريغوري فقد كان رجلاً ماكراً ومن دون وازعٍ ومستعداً دوماً لفعلِ أيِّ شيءٍ من أجلِ سيدهِ الملك

تماماً كما خدمَ فيليمون غودوين عندما كان رئيسَ الديرِ، وتساءلَ ميرثن في نفسهِ عمّا يريدُ غريغوري مناقشتهُ معه، لا بدَّ أنَّ للأمرِ علاقةً بالضرائبِ فقد كانت الهم الوحيد للملكِ.

توجهَ ميرثن أولاً إلى قصرِ رئيسِ الديرِ حيثُ وجدَ فيليمون، ولاحظ أنه بدا مسروراً، وأخبرهُ الأخير بأنَّ السير غريغوري في الممراتِ المسقوفةِ لديرِ الراهباتِ جنوبَ الكاتدرائيةِ، وتساءلَ ميرثن عمّا قد يكون غريغوري قد فعلهُ ليحظى بامتياز مقابلةِ الناسِ هناك.

كان المحامي اللندني قد بدأ يطعنُ في السنِ فقد شابَ شعره واحدودبَ ظهرهُ وظهرت تجاعيد بشكلِ قوسين عندَ طرفي أنفهِ المتكبر وبدت إحدى عينيهِ الزرقاوين عاتمةً، إلا أنّه كان يرى بحدّةٍ من العينِ الأخرى، وتعرَّفَ على ميرثن على الفورِ رغمَ أنّهما لم يلتقيا منذُ عشرِ سنواتٍ.

«أيُّها الرئيس»، قالَ غريغوري. «لقد توفي رئيسُ أساقفةِ مونماوث».

«فلترقد روحهُ في سلامٍ»، قالَ ميرثن بمكانيكيةٍ.

«آمين. لقد طلبَ مني الملكَ المرور بمنطقةِ كينغزبريدج الإدارية وإيصال تحياتهِ إليك وإطلاعكَ على الأخبارِ المهمةِ».

«أنا ممتنٌ للملكِ. لم يكن موت رئيسِ الأساقفةِ مفاجئاً فهو مريضٌ منذُ زمنٍ طويلٍ». كان ميرثن يشك بأنَّ الملكَ طلبَ من غريغوري الالتقاءَ بميرثن وإطلاعهُ على هذهِ الأخبارِ المثيرةِ للاهتمام.

«أنتَ رجلٌ مثيرٌ للاهتمام إن كنتَ لا تمانع قولي هذا»، قالَ غريغوري بصراحةٍ. «قابلتُ زوجتكَ منذُ أكثر من عشرين عاماً، ومنذئذٍ رأيتكما أنتما الاثنين تسيران ببطءٍ ولكن بخطى وئيدةٍ باتجاه ما يصبُّ في صالح هذهِ المدينة، وحظيتما في النهايةِ بكلِّ ما يتمناه قلباكما: الجسر والمستشفى والامتياز الملكي وبعضكما. عزيمتكما قويةٌ وأنتما صبوران».

تحدَّثَ غريغوري بتعالٍ ولكن ميرثن فوجئَ عندما لاحظَ شيئاً من الاحترامِ في إطراءِ غريغوري، وقال لنفسهِ إنّ عليهِ أن يبقى مُشككاً فالرجالُ من أمثالِ غريغوري لا يطرون على أحدٍ من دونِ غايةٍ.

«أنا في طريقي لمقابلةِ رهبانِ أبرغيفاني الذين سيصوتون على رئيسِ أساقفةٍ جديدٍ»، قالَ غريغوري وأراحَ ظهرَهُ إلى كرسيهِ. «عندما وصلت المسيحيةُ إلى إنكلترا منذُ مئاتِ السنواتِ انتخبَ الرهبانُ رؤساءهم». وفكرَ ميرثن بأنَّ الشرحَ من

عادةِ العجائزِ فلو كان غريغوري في شبابهِ لما كلّفَ نفسهُ عناءَ قولِ هذا. «بالطبعِ في هذهِ الأيامِ باتَ منصبُ الأسقفِ ورئيسِ الأساقفةِ مهماً جداً وبسلطةٍ كبيرةٍ على أن تختارهُ مجموعةٌ من المثاليين الورعين الذين يعيشونَ بعيداً عن العالمِ الحقيقي، ولذلكَ بات الاختيار للملكِ ومن ثمّ يُصادق قداسةُ البابا على الاختيارِ الملكي».

وفكرَ ميرثن بأنّه هو نفسه يعرفُ أنَّ الأمرَ ليسَ بهذهِ البساطةِ فعادةً ما يحدثُ صراعٌ على السلطةِ، ولكنهُ قررَ ألا يقول شيئاً.

وتابعَ غريغوري كلامهُ: «على أيِّ حالٍ طقسُ انتخابِ الرهبانِ مستمرٌ لأن التحكم بهِ أسهل من إلغائهِ، وهذا سببُ رحلتي».

«إذاً، ستخبر الرهبان بمن عليهم انتخابه»، قالَ ميرثن.

«أجل بكلِّ صراحةٍ».

«وما هو الاسم الذي ستعطيهم إياه؟»

«ألم أقل لكَ؟ إنَّه أسقفكَ هنري من مونز. إنّه رجلٌ ممتازٌ وهو وفي وجديرٌ بالثقةِ ولا يسببُ أيّ متاعبٍ».

«يا إلهي».

«أنتَ لستَ مسروراً؟» وتبخرَ استرخاءُ غريغوي وباتَ يقظاً جداً.

أدركَ ميرثن الآن أنَّ هذا سببُ قدومِ غريغوري إلى المدينةِ فقد أراد أن يعرف موقفَ سكانُ كينغزبريدج من خلال موقف ممثلهم ميرثن، حيالَ ما كان يخططُ لهُ وإن كانوا سيعارضونهُ. وهنا عصرَ ميرثن ذهنهُ في التفكير. يشكلُ احتمالُ قدوم أسقف جديد تهديداً لمشروعِ القبةِ المستدقةِ والمستشفى. «إنَّ وجودَ هنري أساسي للحفاظِ على توازنِ القوى في هذهِ البلدةِ»، قال ميرثن ثمَّ تابع: «منذُ عشرِ سنواتٍ حصلت هدنةٌ من نوعٍ ما بين التجار والرهبان والمستشفى وقد حققت هذه الهدنة ازدهار أوضاعِ الأطرافِ الثلاثةِ»، ثمَّ أضافَ ميرثن في محاولةٍ لإثارةِ اهتمام غريغوري، واهتمامِ الملكِ: «وبالطبعِ فإنَّ ازدهارَ الأحوالِ يعني أننا نستطيعُ دفعَ ضرائب أعلى».

وأقرَّ غريغوري على صحةِ هذا الكلامِ بهزِّ رأسهِ.

«يبدو أن مغادرةَ هنري ستؤثر على استقرارِ علاقاتنا»، قال ميرثن.

«أعتقدُ أنَّ هذا يعتمدُ على من سيكون البديل عنه».

«بالطبع»، قال ميرثن وأدرك أنهما وصلا إلى زبدةِ هذا الحديثِ فسأله: «هل تفكرُ بأحدٍ معينٍ؟»

«المرشَّح الأقوى رئيسُ الديرِ فيليمون».

«لا!» بدا ميرثن مذعوراً. «فيليمون! لمَ هو؟»

«إنَّه مُحافظٌ عتيد وهذا مهمٌ في الكهنوتِ هذهِ الأيامِ التي تشهدُ الكثيرَ من الشكوكِ والهرطقةِ».

«بالطبعِ، وأفهم الآن سببُ تقديم موعظةٍ ضدَّ التشريحِ ورغبتِهِ ببناءِ مصلى السيدةِ». وفكرَ ميرثن بأنَّه كان عليهِ توقع هذا.

«أوضحَ فيليمون بأنَّه لا يملكُ مشكلةً مع فرضِ ضرائب على رجالِ الدينِ رغمَ أنَّ هذا موضعُ خلافٍ بينَ الملكِ وأساقفتِهِ».

«فيليمون يخططُ لهذا منذُ وقتٍ طويلٍ» قال ميرثن الذي كان غاضباً لأنَّه لم ينتبه إلى مثلِ هذا الأمرِ.

«أتخيلُ أن هذا حدثَ عندما وقعَ رئيسُ الأساقفةِ صريعَ المرضِ».

«هذهِ كارثةٌ».

«لمَ تقولُ هذا؟»

«إنَّ فيليمون مثيرٌ للمتاعبِ وشخصٌ حقودٌ، وإن أصبحَ الأسقف سيخلقُ خلافاتٍ مستمرةٍ في كينغزبريدج ولذلك يجبُ أن تمنعهُ»، قال ميرثن ونظرَ إلى غريغوري بشكلٍ مباشرٍ ثمَّ أضاف: «لمَ أتيتَ إلى هنا؟ لتحذيري؟» وحالما انتهى ميرثن من السؤالِ حضرهُ الجواب. «أنتَ لا تريدُ فيليمون أيضاً. أنتَ لا تحتاج إلى تأكيدي بأنَّه مثيرٌ للمتاعبِ فأنتَ تعرفُ هذا، ولكنكَ لا تستطيعُ إقصاءَهُ لأنَّه فازَ بدعمِ كبارِ رجالِ الدينِ».

ابتسمَ غريغوري ابتسامةً غامضةً وفهمَ ميرثن منها أنَّه كان على حقٍ فسأله: «إذاً، ما الذي تريده مني؟»

«إن كنتُ مكانكَ»، قالَ غريغوري وتابع: «لبدأت البحثَ عن مرشحٍ بديل لفيليمون».

إذاً، هذا هو غرضُ غريغوري، وأومأ ميرثن برأسِهِ وغرقَ في التفكيرِ.

«سيتعينُ عليّ التفكيرُ جيداً في هذا»، قالَ ميرثن.

«فلتفعل من فضلكَ» قال غريغوري ووقف فأدركَ ميرثن أنَّ اللقاءَ انتهى. «وأطلعني على قراركَ»، أضافَ غريغوري.

غادرَ ميرثن الديرَ وعادَ إلى جزيرةِ ليبر. من قد يشغل منصب أسقف

كينغزبريدج؟ لطالما كانت علاقةُ سكانِ المدينةِ مع رئيسِ الشمامسةِ لويد جيدةً ولكنه كان طاعناً في السنِ، وقد ينجحونَ في انتخابِهِ أسقفاً ولكن قد يضطرون إلى البحثِ عن بديلٍ بعدَ عام.

وعندما وصلَ إلى البيتِ لم يكن قد أفلح في التفكير ببديلٍ ووجدَ كاريس في غرفةِ الجلوسِ. كان على وشكِ طرحِ هذا السؤالِ عليها إلا أنَّها سبقتهُ. وقفت أمامهُ بوجهٍ شاحبٍ والفزع مرتسمٌ عليه ثمَّ قالت له: «هربت لولا مجدداً».

-86-

يقولُ الكهنةُ إنَّ يومَ الأحد يومُ راحةٍ ولكنهُ لم يكن كذلكَ بالنسبةِ لغويندا؛ فاليوم وبعدَ العودةِ من الكنيسةِ صباحاً والانتهاءِ من تناولِ الغداءِ عملت مع ولفريك في الحديقةِ الخلفيةِ لمنزلهما. كانت حديقةً جيدةً وتبلغُ مساحتها نصفَ فدانٍ فيها قنٌ للدجاج وشجرةُ إجاص وحظيرة، وفي الأرضِ المخصصةِ لزراعةِ الخضارِ على أطرافِ الحديقةِ كان ولفريك يحفرُ أخاديدَ وغويندا تزرعُ البازلاء.

كان الصبيان قد ذهبا إلى قريةٍ أخرى للعبِ مباراةِ كرةِ قدمٍ فقد كانت تسليتهما المعتادةُ في أيامِ الآحادِ. كانت مبارياتُ كرةِ القدمِ المرادفَ القروي لمبارزاتِ النبلاءِ وهي أشبهُ بمعاركَ مزيفةٍ إلَّا أنَّ الإصابات فيها تغدو حقيقيةً أحياناً. وصلَّت غويندا لكي يعودَ ولداها سالمين.

واليوم عادَ سام باكراً وقال لها بعبوسٍ: «لقد تمزقت الكرةُ».

«وأينَ ديفي؟» سألت غويندا.

«لم يكن هناك».

«اعتقدتُ أنَّه برفقتكَ».

«لا، فهو يغادرُ وحده دوماً».

«لم أعلمْ بهذا»، قالت غويندا عابسةً ثمَّ سألته: «وإلى أينَ يذهبُ؟»

هزَّ سام كتفيهِ وقالَ: «إنَّه لا يُخبرني».

وفكرت غويندا بأنَّه ربما ذهبَ لمقابلةِ فتاةٍ فقد كان ديفي مهتماً بمثلِ هذهِ الأمورِ، ولكن إن كانت فتاةً فمن ستكونُ؟ لم يكن هناك الكثيرُ من الفتياتِ

المناسباتِ في ويغلي واللواتي نجين من الوباءِ تزوجن على الفورِ كأنّهن يتقن إلى إعادةِ تأهيلِ الأرضِ، ومن ولدن بعد هذا ما يزلن صغيرات جداً. ربما كان يُقابلُ فتاةً من القريةِ المجاورةِ وموعدهما في الغابةِ فمثل هذهِ اللقاءاتِ الغراميةِ شائعةٌ جداً.

عندما عادَ ديفي بعدَ ساعتين واجهتهُ غويندا ولم يحاول أن يُنكر أنّه كان يتسللَ. «سأريكِ ما كنتُ أقومُ بهِ إن كنتِ تريدين»، قالَ لها. «لا يمكنني أن أُبقي الأمرَ سراً إلى الأبدِ. رافقوني».

رافقوه جميعاً، غويندا وولفريك وسام. كانت المراقبةُ في يومِ الراحةِ شديدةً فلم يكن يُسمحُ لأحدٍ بالعملِ في الحقولِ. بدت أرض هاندرايكر مهجورةً عندما عبروها والهواء الربيعي يعصف بهم، وبدت بعضُ الأراضي الأخرى مهجورةً أيضاً فما يزالُ هناك أراضٍ أكثرُ مما يمكن للناسِ العمل فيها. وجدوا آنيت في إحدى هذهِ الأراضي ولم يكن لديها سوى ابنتها آمابيل التي تبلغ الثمانيةَ عشرةَ لتساعدها. كان بوسعها الاستعانة بعمالٍ مأجورين ولكن ما زال الأمرُ صعباً. كان الشوفان المزروع في قطعةِ الأرضِ الخاصةِ بها قد بدأ بالنمو.

قادهم ديفي لمسافةِ نصفِ ميلٍ داخلَ الغابةِ وتوقفَ في فسحةٍ بعيدةٍ عن الدربِ غيرِ المطروقِ. «هذا هو»، قالَ ديفي.

ولوهلةٍ لم تعرف غويندا ما تحدَّث عنهُ ديفي. كانت تقفُ على طرفِ أرضٍ غريبةٍ بشجيراتٍ قصيرةٍ نمت بينَ الأشجارِ، ومن ثمَّ أمعنت النظرَ إلى الشجيراتِ ولاحظت أنّها لم ترَ مثلَ هذهِ النبتةِ قبلاً. كان عبارةً عن جذوعٍ مربعة الشكل بعناقيد من أربعة أوراقٍ مدببةٍ، وذكرتها الطريقةُ التي غطت فيها شجيرات النبات الأرضَ بالنباتِ المتسلقِ ثمَّ اتضحَ لها من كومةِ الأعشابِ المُجتثةِ أنَّ ديفي كان يُنظفُ الأرضَ.

«ما هذا؟» قالت له.

«إنّه يُدعى نبات الفوه الصبغي. اشتريتُ بذوره من بحارٍ عندما ذهبنا إلى مالكومب».

«مالكومب؟» قالت غويندا. «كان هذا منذُ ثلاثةِ أعوام».

«يحتاجُ نموها إلى كلِّ هذهِ المدة»، قال ديفي مبتسماً ثمَّ تابع: «في البدايةِ كنت خائفاً من ألا تنمو أبداً. أخبرني البحار بأنّها تحتاجُ إلى تربةٍ رمليةٍ ويمكنها

النمو في الظلِّ ولذلكَ حفرت في هذهِ الفسحةِ من الغابةِ وزرعت البذورَ، ولكن لم أحصل في العامِ الأولِ إلّا على ثلاثةٍ أو أربعِ نبتاتٍ ضعيفةٍ، واعتقدت بأنني ضيعت أموالي سدى عليها، ثمَّ في العامِ الثاني انتشرت الجذورُ تحتَ الأرضِ وظهرت براعم وانتشرت هذا العامَ في أرجاءِ المكانِ».

ذُهلت غويندا من أنَّ ابنها أخفى عنها هذا الأمر طوالَ هذهِ المدةِ وسألته: «ولكن لِمَ يُستخدم نبات الفوه الصبغي؟ هل مذاقهُ لذيذٌ؟»

ضحكَ ديفي وقال: «لا، إنَّه لا يُؤكلُ. بل تأخذينَ الجذورَ وتجففينها ثمَّ تطحنينها لتصبحَ مسحوقاً تُصنعُ منه الصبغةُ الحمراء. إنَّها باهظةٌ جداً، ومادج ويبر في كينغزبريدج تدفعُ سبعةَ شلناتٍ للغالون».

وفكرت غويندا بأنَّه سعرٌ رائعٌ. يعدُّ القمح أغلى أنواعِ الحبوبِ ويُباع الربع منه بسبعةِ شلنات، والربع يساوي أربعاً وستين غالوناً.

«إنَّه أغلى من القمحِ بأربع وستين مرَّة!» قالت غويندا.

ابتسمَ ديفي وقالَ: «لهذا زرعته».

«لماذا زرعتَ ماذا؟» قالَ صوتٌ جديدٌ والتفتوا إلى الوراءِ جميعاً ورأوا نيثان ريف قربَ شجيرة زعرور بريٍّ بوقفتهِ المحدودبةِ والمتقوسةِ الظهرِ المعتادةِ. كان يبتسمُ ابتسامةَ ظفرٍ لأنَّه أمسكهم بالجرمِ المشهودِ.

كان ديفي سريعاً وأجابهُ: «إنَّها عشبةٌ طبيةٌ تدعى... هاغورات»، قال ديفي. وعرفت غويندا أنَّه كان يرتجلُ ولكن نيثان لن يعرف هذا. «سيكونُ مفيداً لصدرِ والدتي المُتعب».

نظرَ نيثان إلى غويندا وقالَ لها: «لم أكن أعرفُ أنَّ صدرها متعبٌ».

«في الشتاءِ فقط»، قالت غويندا.

«عشبةٌ طبيةٌ؟» قال نيثان في تشكيكٍ. «يوجدُ هنا ما يكفي لعلاجِ جميع سكانِ كينغزبريدج، وقد نظَّفت المكان لتزرعَ المزيد منهُ».

«أحبُّ القيامَ بالأمورِ كما يجبُ»، قالَ ديفي.

كان جواباً ضعيفاً وتجاهلهُ نيثان قائلاً: «هذا محصولٌ غير شرعي، فأولاً يحتاجُ الأقنان إلى الإذن بزراعةِ ما يريدون وحتماً لا يستطيعون زراعة ما يريدونه فهذا سيؤدي إلى فوضى كبيرة. ثانياً، لا يمكنهم أن يزرعوا في غابةِ السيدِ حتَّى وإن كانت أعشاباً طبيةٌ».

لم يُجب أحد منهم على هذا لأنهم يعرفون أنَّها القوانين. كان الأمرُ

مُحبطاً. يعلمُ الفلاحون أنهم يستطيعون جني المالِ من المحاصيلِ غير التقليديةِ التي عليها طلبٌ كبيرٌ وتُباع بأسعارٍ عاليةٍ كالقنَّبِ لصناعةِ الحبالِ والكتان من أجلِ الثيابِ الداخليةِ الباهظةِ أو التوت الذي تتمتعُ بِهِ السيداتُ الثريات، ولكن العديدَ من الأسيادِ والوكلاء المحافظين بطبعهم يرفضون منحَ الإذنِ للأقنانِ.

كان التعبيرُ الذي ارتسمَ على وجهِ نات ساماً. «ابنٌ هاربٌ وقاتلٌ»، قالَ نيثان. «والآخر يتحدى السيِّد. يا لها من عائلةٍ!»

وفكرت غويندا بأنَّه يحقُّ لنيثان الشعور بالغضبِ فقد قتلَ سام جونو ونجا بفعلتِهِ، ولا بدَّ أنَّ نيثان سيكرهُ عائلتها إلى يومِ مماتِهِ.

انحنى نيثان واقتلعَ بقوةٍ نبتةً من الأرضِ.

«سأعرضُ هذا أمامَ محكمةِ السيدِ»، قالَ نيثان في رضا واستدارَ ثمَّ سار بين الأشجار مبتعداً.

لحقت غويندا وعائلتها بِهِ وخرجوا من الغابةِ. كان ديفي مقداماً ولهذا قالَ لهم: «سيفرضُ نيثان غرامةً وسأدفعها فأنا أجني المالَ».

«ماذا إن أمرَ بإتلافِ المحصولِ؟» قالت غويندا.

«كيف؟»

«قد يحرقونهُ أو يسحقونه».

وتدخلَ ولفريك قائلاً: «لن يفعلَ نيثان هذا فالقريةُ لن تسمحَ له بهذا، والغرامة هي الطريقةُ المتعارفُ عليها للتعاملِ مع هذهِ الأمورِ».

قالت غويندا: «ما يقلقني حقاً هو ما سيقولهُ الإيرلُ رالف».

وقامَ ديفي بحركةٍ هازئةٍ بيدهِ ثمَّ قال: «ما من داعٍ لأن يعرفَ الإيرل بهذا الأمرِ البسيطِ».

«إنَّ لرالف أهتماماً خاصاً بعائلتنا».

«أجل، إنَّه كذلكَ»، قالَ ديفي وغرقَ في التفكير ثمَّ قال: «ما زلتُ لا أفهم سببَ عفوهِ عن سام».

لم يكن الفتى غبياً ولهذا قالت غويندا: «ربما أقنعتهُ الليدي فيليبا».

قال سام: «إنَّها تتذكركُ يا أماه. لقد أخبرتني بهذا عندما كنتُ في منزلِ ميرثن».

«لا بدَّ أنني قمتُ بشيءٍ ما وجدتهُ لطيفاً»، قالت غويندا مرتجلةً ثمَّ تابعت:

«أو ربما شعرت بتعاطفٍ أمٍ إلى أخرى». لم تكن قصَّةً مقنعةً ولكن لم يكن لدى غويندا قصَّة أفضل.

منذُ أُطلقَ سراحُ سام تحدثوا مراراً عن سببِ عفو رالف عنهُ، وتظاهرت غويندا دائماً بأنَّها محتارة كالبقيةِ. لحسنِ الحظِ لم يكن ولفريك من النوعِ المُشككِ.

وصلوا إلى منزلهم ونظرَ ولفريك إلى السماءِ ثمَّ قالَ لهم إنهم ما زالوا يملكون ساعةً من ضوءِ النهارِ فتوجهوا إلى الحديقةِ لإنهاءِ زراعةِ البازلاءِ. تطوعَ سام لمساعدتهِ وجلست غويندا ترتقُ شِقاً في بنطالِ ولفريك. جلسَ ديفي قبَّالتها قائلاً: «لدي سرٌّ آخرُ أريد إطلاعكِ عليهِ».

ابتسمت غويندا فهي لم تكن تمانع امتلاكهُ لأسرارٍ ما دامَ سيُخبرُ أمَّه بها.

«أخبرني»، قالت لها.

«أنا واقعٌ في الحبِّ».

«هذا رائعٌ!» وانحنت وقبَّلتهُ على وجنتهِ ثمَّ قالت: «أنا سعيدةٌ من أجلكَ. كيفَ هي الفتاة؟»

«إنَّها جميلةٌ».

قبلَ أن تعرفَ بأمرِ زراعةِ نبات الفوه الصبغي تكهنت غويندا بأنَّ ديفي يُقابلُ فتاةً من قريةٍ أخرى، وكان حدسها في مكانِهِ.

«كان لدي حدسٌ بأنَّك واقعٌ في الغرامِ»، قالت غويندا.

«حقاً؟» قال ديفي وبدا قلقاً.

«لا تقلق فلا مشكلة في هذا. لقد خطرَ لي أنَّك تقابلُ إحداهنَ».

«إننا نذهبُ إلى الفسحةِ في الغابةِ حيثُ زرعتُ نبات الفوه الصبغي، وهناك تطورت الأمور».

«ومنذُ متى وأنتما مع بعضكما؟»

«منذُ أكثر من عام».

«الأمرُ جدي إذاً».

«أريدُ الزواجَ بها».

«أنا مسرورةٌ جداً بهذا». قالت ونظرت إليه بحبٍ. «ما زلتَ في العشرين ولكنك كبير بما يكفي لتجدَ المرأةَ المناسبةَ».

«أنا سعيدٌ لأنكِ تفكرينَ بهذهِ الطريقةِ».

«ومن أيِّ قريةٍ الفتاةُ؟»

«من هذهِ القريةِ. من ويغلي».

«أوه؟» تفاجأت غويندا بما سمعت، ولم تكن قادرةً على التفكيرِ بفتاةٍ ممكنةٍ هنا. «من تكون؟»

«أمَّاه، إنَّها آمابيل».

«لا!»

«لا تصرخي».

«ليسَ ابنةَ آنيت!»

«لا تغضبي».

«لستُ غاضبةً!» قالت وجاهدت لتتمالكَ نفسها. كانت مصدومةً كأنّها تلقّت صفعةً. أخذت نفساً طويلاً ولمرّاتٍ عديدةٍ كي تهدأ ثمَّ قالت: «أصغِ إليّ. منذُ عشرين عاماً وعلاقتنا مع تلكَ العائلةِ مضطربةٌ. تلكَ البقرة آنيت كسرت قلبَ والدكَ وتركتهُ وحدهُ بعد ذلكَ».

«يؤسفني هذا ولكن هذا كان في الماضي».

«هذا ليسَ صحيحاً فما زالت آنيت تغازلُ والدكَ في كلِّ فرصةٍ تتاحُ لها».

«هذهِ مشكلتكم وليست مشكلتنا».

وقفت غويندا فأوقعت البنطالَ عن حجرها.

«كيفَ يمكنكَ أن تفعلَ هذا بي؟ تلكَ العاهرةُ ستكون فرداً من عائلتنا! وسيكون أحفادي أحفادها. ستأتي إلى هذا المنزلِ طوالَ الوقتِ وستجعل بأساليبها المغناجةِ من والدكَ أضحوكةً ثمَّ ستضحكُ عليّ».

«أنا لن أتزوجَ آنيت».

«ستكونُ آمابيل سيئةً بقدرها. انظر إليها. إنَّها تشبهُ والدتها!»

«إنَّها ليست كذلك، في الحقيقةِ...»

«لا يمكنكَ أن تفعلَ بي هذا! أنا أمنعكَ من هذا منعاً باتاً!»

«لا يمكنكِ أن تمنعيني يا أمَّاه».

«بل أستطيع، أنتَ ما زلتَ صغيراً جداً».

«ولكن هذا لن يطولَ كثيراً».

وأتى صوتُ ولفريك عندَ المدخلِ قائلاً: «ما سببُ كلِّ هذا الصراخِ؟»

«يقولُ ديفي إنه يريدُ الزواجَ بابنةِ آنيت ولكني لم أسمح له»، قالت غويندا في صوتٍ أقرب للصراخِ. «هذا لن يحدث أبداً، أبداً، أبداً».

***

تفاجأ الإيرل رالف عندما قالَ لهُ نيثان ريف أنّه يريدهُ أن يعاين نباتَ ديفي الغريب. ذكرَ لهُ نيثان الأمرَ في زيارةٍ روتينيةٍ إلى قلعةِ الإيرل. كان القيامُ بزراعةٍ بسيطةٍ غير مرخصةٍ في الغابةِ خرقاً بسيطاً للقوانين وعادةً ما يتمُّ التعاملُ بهِ بغرامةٍ. كان نيثان رجلاً سطحياً لا يهمه شيء سوى الرشاوي والعمولات، ولم يكن لديهِ فهمٌ حقيقي بقوةِ هوسِ رالف بعائلةِ غويندا؛ كرههُ لولفريك وشبقهُ نحو غويندا واحتمالُ أن يكونَ والدَ سام الحقيقي الآن، ولهذا تفاجأ عندما قالَ له رالف إنّه سيتفحصُ هذا المحصول عندما يذهب إلى ويغلي.

وفي يومٍ رائقٍ من الأيامِ التي تقعُ بين عيدِ الفصحِ وعيدِ العُنصرةِ ركبَ رالف مع آلان فيرنهيل وانطلقا من قلعةِ الإيرل إلى ويغلي. عندما وصلا إلى منزلِ السيدِ الخشبي كانت هناك مدبرةُ المنزلِ العجوزِ فيرا وقد احدودبَ ظهرها وشابَ شعرها إلا أنّها كانت ما تزال قويةً. طلبا منها أن تُحضرَ لهما الغداءَ ثمَّ بحثا عن نيثان الذي أخذهما إلى الغابةِ.

عرفَ رالف النبتةَ على الفورِ، ورغم أنّه لم يكن مزارعاً إلا أنّه كان يميز بينَ الشجيراتِ ففي رحلاتهِ مع الجيشِ عاينَ العديدَ من المحاصيل الغريبةِ خارج إنكلترا. انحنى من على سرجهِ واقتلعَ بعضاً منها. «هذا يدعى نبات الفوه الصبغي»، قال رالف. «لقد رأيتهُ في الفلاندرز ويُزرعُ من أجلِ الصباغِ الأحمرِ الذي أعطى النبتة اسمها».

«لقد أخبرني أنّه عشبةٌ طبيةٌ تدعى هاغورات وتستخدمُ لعلاجِ مرض يصيب الصدر»، قال نيثان.

«أعتقدُ أنّه يملكُ خصائصَ طبيَّةً ولكن الناسَ لا يزرعونه لهذا السبب. ما هي الغرامةُ التي يجبُ أن يدفعها؟»

«شلنٌ كالعادةِ».

«هذا لا يكفي».

بدا نيثان مضطرباً وقال: «عندما يُهانُ الزبائن يا سيدي تقعُ متاعبٌ كثيرةٌ، وأنا أفضلُ ألا....»

«لا تهتم»، قال رالف وهمزَ جوادهُ فانطلقَ عبرَ الفسحةِ وسطَ الغابةِ وبدأ يسحقُ الشجيرات بحوافرِ جوادهِ. «هيا يا آلان»، قال رالف وانطلقَ آلان يُقلدُ ما يفعلهُ رالف. دارا في دوائر ضيقةٍ ساحقين النباتاتِ الجديدةِ وبعدَ دقائقٍ كانت جميعُ الشجيراتِ قد سُحقت.

كانت المزروعات غير شرعية إلا أن رالف لاحظ أنَّ نيثان بدا مصدوماً بحجمِ الدمارِ. لا يحبُّ الفلاحون رؤية محاصيلهم مُدمرةً ولكن رالف تعلَّمَ في فرنسا أنَّ أفضلَ طريقة لإحباطِ الناسِ هي بحرقِ المحاصيلِ في الحقولِ.

«هذا سيتكفلُ بالأمرِ»، قالَ رالف وقد أصيبَ بالسأمِ على الفورِ. كان مغتاظاً من وقاحةِ ديفي لإقدامهِ على زرعِ هذا المحصول ولكن هذا لم يكن السببَ الرئيسي لقدومهِ إلى ويغلي. في الحقيقةِ كان يرغبُ برؤيةِ سام مجدداً.

وفي طريقِ عودتهِ إلى القريةِ تفحصَ رالف الحقول بحثاً عن شابٍ طويلٍ بشعرٍ أسود كثيف. ستكون ملاحظة سام أمراً سهلاً بسببِ طولهِ مقارنةً ببقيةِ هؤلاءِ الأقنانِ الأقزامِ المنكبين فوقَ مجارفهم. رآه من بعيد في حقل بروكفيلد فلجمَ جواده ليتوقف وحدَّقَ عبرَ الحقولِ العاصفةِ إلى الابن البالغِ من العمر اثنين وعشرين عاماً والذي لم يعرف بوجودهِ إلا منذُ وقتٍ قريبٍ.

كان سام والرجلُ الذي يعتقدُ أنّه والدهُ -ولفريك- يحرثان بمحراثٍ خفيفٍ يجرهُ جوادٌ، ويبدو أنَّ هناك خطباً ما فقد كانا يتوقفان باستمرارٍ ويُعدلان عُدَّة الجوادِ. عندما يقفان قرب بعضهما كان الفرقِ بينهما واضحاً. كان شعرُ ولفريك أشقر فاتحاً بينما شعرُ سام أسود داكنٌ، كان لصدرِ ولفريك شكلُ البرميل وأشبه بصدرِ ثورٍ أمّا صدرُ سام فكان عريضاً ولكنه مفتول كصدرِ جوادٍ، وولفريك يتحركُ ببطءٍ وبعنايةٍ بينما سام كان سريعاً ورشيقاً.

كان غريباً حقاً أن ينظرَ المرءُ إلى أحدهم ويفكرُ: «هذا ابني». اعتقدَ رالف أنّه منيعٌ أمامَ مثلِ هذهِ المشاعرِ الأنثويةِ، ولو أنّه كان ضعيفاً أمام الشعور بالعطفِ والندمِ لما عاشَ إلى الآن، ولكن اكتشافَ حقيقة أنَّ سام ابنه هددت هذا الجدار الرجولي الذي عاشَ وراءهُ طوال الوقت.

أجبرَ نفسهُ على الابتعادِ وعادَ إلى القريةِ إلا أنّه استسلم مجدداً للفضولِ والعواطفِ فأرسلَ نيثان ليجلبَ سام إلى منزلِ السيدِ.

لم يكن واثقاً مما أرادهُ من الفتى. هل يتحدث إليهِ أو يضايقهُ أو يدعوه لتناولِ الغداءِ أو ...؟ ربما لن تتركَ غويندا لهُ حريةَ الاختيارِ.

ظهرت غويندا مع سام ونيثان وولفريك ولحقَ بهما ديفي.

«ما الذي تريدهُ من ابني؟» سألتهُ غويندا كأنّه مساوٍ لها وليسَ سيدها.

وتحدثَ رالف من دونِ تفكيرٍ قائلاً: «لم يولد سام ليكونَ قِناً يفلحُ الأراضي»، ثمَّ رأى آلان فيرنهيل ينظرُ إليهِ متفاجئاً.

بدت غويندا حائرةً. «الرَّبُّ وحدهُ يعلمُ ما الذي ولدنا من أجلِهِ»، قالت له بمكرٍ هذهِ المرة.

«إن رغبتُ بمعرفةِ ما يريدهُ الرَّبُّ سأسألُ كاهناً»، قال لها رالف. «يملكُ ابنكِ سمات رجلٍ مُقاتلٍ ولستُ بحاجةٍ إلى الصلاةِ كي أرى هذا. الأمرُ واضحٌ لي تماماً كما سيكونُ واضحاً لأيِّ مقاتلٍ خاضَ حروباً».

«حسناً، ولكنه ليسَ رجلاً مُقاتلاً، إنَّه فلاحٌ وابن فلاح وقدرهُ أن يزرعَ المحاصيل ويربي الماشية كوالدهِ».

«لا تهتمي بأمرِ والدهِ». قال رالف وتذكر ما قالتهُ غويندا في قلعةِ الشريف في شايرنغ عندما أقنعتهُ بالعفو عن سام. «يملكُ سام غريزةً للقتلِ»، قال رالف. «وهذهِ صفةٌ خطيرةٌ في فلاحٍ ولكنها لا تُقدرُ بثمنٍ في جنديٍ».

بدت غويندا مرتعبةً كأنّها بدأت تفهمُ مراد رالف وسألته: «ما الذي ترمي إليهِ؟»

وأدركَ رالف الآن إلى أين يُفضي هذا المنطق الذي تحدث بهِ فقال: «أليس من الأفضلِ لسام أن يكون مفيداً بدلاً من أن يكونَ خطراً؟ دعهِ يتعلم فنونَ الحربِ».

«هذا سخيفٌ إنَّه كبيرٌ جداً على هذا».

«إنَّه في الثانيةِ والعشرين، ولكنهُ في لياقةٍ كاملةٍ وقوي. بمكنهُ أن ينجحَ في هذا».

«لا أرى من سبيل لتحقيق هذا».

تظاهرت غويندا بأنّها تبحثُ عن اعتراضاتٍ عمليةٍ، ولكن رالف رأى تحتَ هذا القناعِ أنّها كرهت الفكرةَ من كلِّ قلبها، ولكن هذا زادهُ إصراراً وبابتسامةٍ ظافرةٍ قال: «يمكنهُ أن يصبحَ مرافقاً بكلِّ سهولةٍ بأن يأتي إلى قلعةِ شايرنغ ويعيشَ فيها».

بدت غويندا كأنّها تلقَّت طعنةً وغدت بشرتها الزيتونية شاحبةً. أغلقت عينيها لوهلةٍ ثمَّ حاولت أن تتفوه بكلمةٍ: «لا»، إلا أنَّ صوتها لم يخرج.

«كان معكِ طيلةَ اثنين وعشرين عاماً»، قال رالف. «وهذهِ مدةٌ طويلةٌ وكافيةٌ»، وفكرَ رالف بأنَّ دورهُ ليأخذَ سام قد حانَ ولكنه بدلاً من قولِ هذا قال: «إنَّه رجلٌ الآن».

ولأنَّ غويندا التزمت الصمتَ بشكلٍ مؤقتٍ تحدثَ ولفريك قائلاً: «لن نسمحَ بحدوثِ هذا. نحن والداه ولا نوافقُ على هذا».

«لم أطلب منكَ موافقتكَ»، قالَ رالف باحتقارٍ. «أنا إيرلكَ وأنتَ قِنٌ لدي وأنا لا أطلبُ منكَ بل آمركَ».

وهنا تدخَّل نيثان ريف: «علاوةً على هذا تجاوز سام الواحد والعشرين عاماً ولذلكَ القرارُ قرارهُ وليسَ قرارَ والدهِ».

وفجأة التفتَ الجميعَ نحو سام.

لم يكن رالف واثقاً من موقفِ سام فقد كانت فرصةُ أن يصبحَ المرءُ مرافقاً حلمُ جميعِ الشبابِ ومن كافةِ الطبقاتِ، ولكنهُ لا يعلم إن كان سام واحداً من هؤلاءِ الشبابِ. كانت الحياةُ في القلعةِ مرفهةً وممتعةً بالمقارنةِ مع حياةٍ من العملِ الذي يكسرُ الظهرَ في الحقولِ، ولكن من جهةٍ أخرى كان الجنودُ يموتونَ شباباً، أو أسوأ من هذا فقد يصابون بإعاقاتٍ، أو يعيشون بقيةَ أيامهم التعسةِ يستجدون أمامَ الحاناتِ.

ولكن عندما نظرَ رالف إلى وجهِ سام علمَ الحقيقةَ. كان سام يبتسمُ ابتسامةً عريضةً وعيناه تلمعان في توقٍ وبالكادِ يستطيع الانتظارِ ليذهب إلى قلعةِ شايرنغ.

وأخيراً استعادت غويندا صوتها وقالت لابنها: «لا تفعل هذا يا سام! لا تستسلم للإغراءِ. لا تدع والدتكَ تراكَ تصبحُ أعمى من ضربةِ سهمٍ أو مشوهاً من سيوفِ الفرسانِ الفرنسيين أو معاقاً بسببِ ضرباتِ حوافرِ جياد الحربِ خاصتهم!»

قال ولفريك: «لا تذهب يا بني. ابقَ في ويغلي ولتعش حياةً طويلةً».

وبدا الشكُ يتسللُ إلى سام.

وهنا قال رالف: «حسناً أيُّها الفتى. لقد سمعتَ والدتكَ وما قالهُ والدكَ الفلاح، ولكن القرار قراركَ. ما الذي تريدُ فعلهُ؟ تعيشُ حياتكَ هنا في ويغلي تحرثُ الأرضَ مع أخيكَ؟ أو تهرب؟»

توقفَ سام لبرهةٍ ونظرَ إلى ولفريك وغويندا نظرة ملؤها الذنب ثمَّ التفتَ إلى رالف وقال: «سأقومُ بهذا. سأكونُ مرافقاً وشكراً لكَ يا سيدي!»

«فتى صالحٌ»، قال رالف.

بدأت غويندا بالبكاء ووضعَ ولفريك ذراعيهِ حولها ثمَّ نظرَ إلى رالف قائلاً: «متى عليهِ المغادرةُ؟»

«اليوم»، قال رالف. «يمكنهُ مرافقتي أنا وآلان إلى القلعةِ بعد الغداءِ».

«ليسَ بهذهِ السرعةِ!» صرخت غويندا.

ولكن ما من أحدٍ اهتمَ بصراخها.

وقالَ رالف لسام: «اذهب إلى المنزلِ وأحضر ما ستحتاجه. تناول الغداء مع والدتكَ وعُد وانتظرني في الإسطبلات، وفي هذا الوقتِ يُمكنُ لنيثان أن يُدبرَ لكَ جواداً يحملكَ إلى القلعةِ». ثمَّ استدارَ بعد أن انتهى من أمرِ سام وعائلتهِ وسأل: «والآن، أينَ غدائي؟»

خرجَ ولفريك وغويندا مع سام ولكن ديفي بقي، وتساءلَ رالف في نفسهِ إن كان اكتشفَ أنَّ محصولهُ قد سُحقَ، أو أنَّه يريدُ التحدث بأمرٍ آخرٍ.

«سيدي، لدي معروفٌ أطلبهُ منكَ».

كان هذا أجملَ من أن يكونَ حقيقياً فهذا الفلاح الوقح الذي زرعَ نبات الفوه الصبغي في الغابةِ من دونِ إذنٍ يتضرع إليه الآن. يا له من يومٍ رائع!

«لا يمكنكَ أن تصبحَ مرافقاً فأنتَ تملكُ بنيةَ والدتكَ»، أخبرهُ رالف وضحكَ آلان.

«أريدُ الزواجَ من آمابيل ابنةُ آنيت»، قال الشابُ.

«لن ترضى والدتكَ بهذا».

«بعدَ عامٍ سأصبح راشداً».

بالطبعِ كان رالف يعلمُ بأمرِ آنيت فقد كاد يُعدمُ بسببها. كان تاريخهُ متداخلاً مع تاريخها تماماً كما مع تاريخ غويندا، وتذكرَ أنَّ جميعَ أفرادِ عائلتها قد ماتوا بالطاعونِ.

«ما زالت آنيت تملكُ بعضَ أراضي والدها».

«أجل يا سيدي، إنَّها مستعدةٌ لإعطائي إياها عندما أتزوجُ من ابنتها».

عادةً يوافق السادة على مثلِ هذا الطلب وعندها سيفرضون ضريبةً على من نُقلت إليهِ الأراضي وتدعى ضريبةَ النقلِ. على أيِّ حالٍ لم يكن أيُّ سيدٍ مضطرّاً إلى الموافقةِ فقد كان من حقِ الأسيادِ رفضُ مثلِ هذهِ الطلباتِ وتدميرِ حياة أقنانهم. إن شاؤوا وتدمير حياةِ أقنانهم. ورغم أنَّ القيام بهذا أكثر ما يبعثُ على استياء الفلاحين، إلَّا أنَّه كان يوفر للسيدِ طريقةً للتأديبِ يُمكنُ أن تكونَ فعَّالةً جداً.

«لا»، قال رالف. «لن أنقلَ الأرضَ إليكَ»، ثمَّ ابتسمَ وقالَ: «يمكنكَ أنتَ وعروسكَ أن تأكلا نبات الفوة الصبغي».

كان على كاريس أن تمنع فيليمون من أن يصبحَ أسقفاً، ورغم أنَّها أكثر مناوراتِهِ وقاحةً حتَّى الآن إلا أنَّه كان قد استعدَّ لها جيداً وكانت لديهِ فرصة للنجاحِ. إن نجحَ فيليمون سيُحكِمُ سيطرتهُ على المستشفى مجدداً وسيمنحهُ المنصبُ السلطةَ لتدميرِ العملِ الذي أفنت حياتها من أجلِهِ، وسيقومُ بإحياءِ التعصّب الديني الأعمى الذي سادَ في الماضي، وسيقومُ بتعيين كهنةٍ قساة القلبِ مثلهُ في القرى ويُغلق مدارس الفتيات ويعظُ ضدَّ الرقصِ.

لم يكن اختيارُ الأسقفِ بيدها إلا أنَّ هناك طرقاً للضغطِ.

وبدأت مع الأسقف هنري.

سافرت كاريس وميرثن إلى شايرنغ لمقابلةِ الأسقفِ في قصرهِ، وفي طريقهما بحثا عن فتاةٍ بشعرٍ داكنٍ. كان ميرثن يتفحص الطريق وعندما يكون خالياً من المسافرين يعاينُ الغابةَ خلال سيرهِ. بحثا بعنايةٍ عن لولا ولكنهما وصلا إلى شايرنغ دون أن يجدا أثراً لها.

يقعُ قصرُ الأسقف في الساحةِ الرئيسيةِ قبالةَ الكنيسةِ وبجانبِ سوقِ الصوفِ، ولأن اليوم لم يكن موعد إقامة السوق كانت الساحةُ خاليةٌ إلا من عمودِ المشنقةِ الذي كان ثابتاً في المكانِ في إشارةٍ تحذيريةٍ صارخةً إلى الأشرارِ حيال ما قد يفعلهُ سكانُ المقاطعة لمن يخرقونَ القانون.

كان القصرُ عبارةً عن مبنى حجري متواضع بقاعةٍ ومصلى في الطابقِ الأرضي ومجموعة من المكاتبِ والغرفِ الخاصةِ في الطابقِ العلوي، ورأت كاريس أنَّ السمةَ الفرنسية التي تطغى المكانِ سببها هنري أغلبُ الظنِ؛ فقد بدت كلُّ غُرفةٍ كأنّها لوحةٌ. لم يكن المكانُ مُزيناً بشكلٍ مُترفٍ كما هو قصرُ فيليمون في كينغزبريدج حيثُ السجاجيد والزينةُ الكثيرة جعلت المكان يبدو كأنّه كهفُ لصٍ. بأيِّ حالٍ كان هناك سمةٌ فنيةٌ ومبهجةٌ في كلِّ شيءٍ في منزلِ هنري: الشمعدان الفضي أمامَ النافذةِ يعكسُ ضوءَ الخارجِ، واللمعان المصقول لطاولةٍ قديمةٍ من خشبِ البلوط، والزهور الربيعية فوقَ الموقدِ البارِدِ، واللوحة القماشية على الجدارِ تصورُ داوود ويوناثان.

خلال انتظارهما للأسقفِ في القاعةِ فكرت كاريس في قلقٍ بأنَّ هنري لم يكن عدواً أبداً إلّا أنَّه لم يكن حليفاً حقيقياً أيضاً، وأغلب الظن سيقول لهما إنّه لا يريد التورط في صراعاتِ كينغزبريدج. فكرت كاريس بأنَّ السخرية الحقيقية

في كلِّ هذا هي أنَّه سيأخذُ قراراً وستبقى رعايةُ مصالحهِ الخاصة محورَ قرارهِ النهائي. كان يكرهُ فيليمون ولكنه لن يسمحَ لهذا بأن يؤثرَ على حُكمهِ.

دخلَ هنري وكالعادةِ لحقَ بهِ الكاهنِ كلود، ورغم أنهما لم يكونا في العمرِ ذاتهِ فالأسقفُ أكبرُ من كاريس بقليلٍ إلَّا أنَّ كلود أصغرُ منها بعشرةِ أعوامٍ على الأغلب، ولكنهما كانا يبدوان كصبيين. لاحظت كاريس أنَّ رجالَ الدينِ عموماً يبدون بحالٍ أفضلِ من الأرستوقراطيين ولا تظهرُ عليهم علاماتُ التقدمِ في العمرِ، وتكهنت أنَّ سببَ هذا هو أنَّ معظمَ الكهنةِ، باستثناء بعضِ سيئي السمعةِ، يعيشون حياةَ اعتدالٍ فنظامُ الصيام يُجبرهم على تناولِ السمكِ والخضارِ أيامَ الجُمعِ وفي أعيادِ القديسين وخلالَ فترةِ الصومِ الكبيرِ، ونظرياً لم يكن يُسمحُ لهم بُشربِ الخمرِ، أمَّا النبلاءُ وزوجاتهم فينغمسون في ملذاتِ تناولِ اللحومِ وشربِ النبيذِ بكمياتٍ كبيرةٍ، وربما لهذا السببِ وجوههم مليئةٌ بالتجاعيدِ وبشرتهم مُتقشرةٌ وظهورهم محنيةٌ بينما يظلُّ رجالُ الدينِ رشيقين ونشيطين خلال حيواتهم الهادئةِ والمتقشفةِ.

هنَّأ ميرثن هنري على ترشيحهِ لمنصبِ رئيسِ أساقفةِ مونماوث ومن ثمَّ دخلَ في الموضوعِ مباشرةً: «لقد أوقفَ رئيسُ الديرِ فيليمون العملَ على البُرجِ».

وقالَ هنري بلهجةٍ حياديةٍ مدروسةٍ: «ولماذا أوقفَ العملَ؟»

«لا يوجدُ سببٌ حقيقي بل حُجةٌ»، قال ميرثن وتابع: «والحُجةُ هي أنَّ هناك خطأً في التصميمِ».

«وما هو الخطأ الذي يدعيهِ؟»

«يقولُ إنَّ بناءَ قبةٍ مستدقةٍ مثمنةٍ من دونِ قوالب مستحيلٌ. عموماً هذا الكلام صحيحٌ إلا أنني وجدتُ طريقةً للالتفافِ على الأمرِ».

«وهذهِ الطريقةُ...؟»

«بسيطةٌ جداً. سأبني قبةً مدورةً ولا تحتاجُ هذهِ إلى قوالب ومن الخارجِ سأكسوها بحجارةٍ قليلةِ العرضِ وبملاطٍ. للناظرِ ستكونُ قبةً مثمنةً ولكن من حيث البنيةِ ستكونُ مخروطيةً».

«هل أخبرتَ فيليمون بهذا؟»

«لا. لأنني إن فعلت سيبحثُ عن حُجةٍ أخرى».

«وما هو سببهُ الحقيقي؟»

«يريدُ أن يبنى مصلى للسيدةِ بدلاً من القبةِ».

«آه».

«هذا جزءٌ من حملتهِ للتقرب إلى رجالِ الدينِ الأكبر. كان قد وعظَ ضدَّ التشريح عندما كان رئيسُ الأساقفةِ ريجنالد في كينغزبريدج، وأخبرَ مستشاري الملكِ بأنَّه لم يشن حملةً على الضرائبِ المفروضةِ على رجالِ الدينِ».

«وما الذي يسعى إليهِ؟»

«يريدُ أن يصبحَ أسقفَ شايرنغ».

ورفعَ هنري حاجبيهِ في استغرابٍ وقال: «أعترفُ بأنَّه لطالما كان وقحاً».

وهنا تحدثَ كلود للمرةِ الأولى قائلاً: «وكيفَ عرفتَ؟»

«أخبرني بذلكَ غريغوري لونغفيلو».

نظرَ كلود إلى هنري وقالَ: «إن كان هناك من سيَعرِفُ بهذا فلا بد أن يكونَ غريغوري لونغفيلو».

وبالنظرِ إلى وجهيهما رأت كاريس أنَّ هنري وكلود توقعا أن يكونَ فيليمون طموحاً جداً، وحرصاً منها على ألا يغضا النظرَ عن أهميةِ هذهِ المعلوماتِ قالت لهما: «إن حصلَ فيليمون على ما يتمناه فستكون مشغولاً جداً عندما تصبحُ رئيسَ الأساقفةِ في حلِّ الخلافاتِ بينَ الأسقفِ فيليمون وسكانِ مدينةِ كينغزبريدج. أنتَ تعرفُ بحدَّةِ خلافاتنا في الماضي».

قالَ كلود: «بالطبعِ نحنُ نعلمُ».

«أنا سعيدٌ لأننا متفقون»، قال ميرثن.

وقالَ كلود وهو يفكرُ بصوتٍ عالٍ: «يجبُ أن نضعَ اسمَ مرشحٍ بديلٍ».

كان هذا ما تمنت كاريس سماعه وقالت: «لدينا اسمٌ».

قال كلود: «من؟»

«أنتَ».

عمَّ الهدوء المكان ورأت كاريس أنَّ كلود أحبَّ الفكرةَ. كانت قد تكهنت بأنَّه يحسدُ هنريِ سراً على الترقيةِ التي حصلَ عليها، ويتساءلُ إن كان مصيرهُ أنْ يقضي بقية حياتهِ كمساعدٍ لهنري. حتماً يستطيع التأقلمَ مع منصبِ الأسقفِ بكلِّ سهولة فقد كان يعرفُ الأبرشيةَ جيداً وتعاملَ مع غالبيةِ الأمورِ الإداريةِ العمليةِ فيها.

على أيِّ حالٍ كان الرجلان الآن يفكران بحياتهما الشخصيَّةِ، ولم يكن لدى كاريس أدنى شكٍ بأنهما يعيشان حياةَ الأزواج فقد رأتهما يقبلان بعضهما، ولكن سنواتٌ كثيرةٌ مرَّت على بدايةِ تلكَ الشعلةِ الرومانسيةِ وعلمت بحدسها أنَّهما قادران على تحمُّلِ فراقٍ جزئي.

قالت كاريس: «وستستمرانِ بالعملِ معاً وبانسجام».

قالَ كلود: «سيكونُ لرئيسِ الأساقفةِ العديدُ من الأسبابِ لزيارةِ كينغزبريدج وشايرنغ».

قال هنري: «وغالباً ما سيحتاجُ أسقفُ كينغزبريدج للذهابِ إلى مونماوث».

قال كلود: «سيكون شرفاً كبيراً لي أن أصبحَ أسقفاً»، وأضافَ مع لمعةٍ في عينيهِ: «بخاصَّةٍ تحتَ إمرتكَ يا رئيسَ الأساقفةِ».

أشاحَ هنري بنظرةٍ متظاهراً بأنَّه لم ينتبه إلى المعنى الخفي لكلام كلود ثمَّ قال: «أعتقدُ أنَّها فكرةٌ مذهلةٌ».

قالَ ميرثن: «ستدعمُ نقابةُ كينغزبريدج كلود ويمكنني أن أضمن لكما هذا، ولكن على رئيسِ الأساقفةِ أن يقدّمَ اقتراحَ اسمِ كلود للملكِ».

«بالطبعِ»، قال هنري.

قالت كاريس: «هل يمكنني أن أقدمَ اقتراحاً؟»

«من فضلكِ».

«فلتجد لفيليمون منصباً بديلاً. لا أعرف، اقترح عليهِ مثلاً منصبَ رئيسِ شمامسةِ لينكولن. سيحبُ هذا المنصب وسيبعده عن هنا».

«هذهِ فكرةٌ منطقيةٌ»، قال هنري ثمَّ تابع: «إن كان مرشحاً لمنصبين فهذا من شأنه أن يقللَ فرصَ حصولهِ على أحدهما. سأستقصي حولَ الأمرِ».

وقفَ كلود وقال: «كان هذا ممتعاً جداً. هلَّا انضممتما إلينا على الغداءِ؟»

وهنا دخلَ خادمٌ وخاطبَ كاريس قائلاً: «هناك شخصٌ يسألُ عنكِ يا سيدتي. إنَّه فتى ولكنهُ يبدو مضطرباً».

قال هنري: «دعه يدخل».

ظهرَ فتى في حدودِ الثالثة عشرة، ورغم أنَّه كان قذراً ولكن ثيابهُ لم تبدُ رخيصةً وتكهَّنت أنَّه من عائلةٍ موسرةٍ إلا أنَّها تمرُّ بأزمةٍ. «هلَّا رافقتِني إلى منزلي أيتها الأمُّ كاريس؟»

«لم أعد راهبةً يا بني ولكن ما المشكلةُ؟»

وتحدثَ الفتى بسرعةٍ: «أبي وأمّي مريضان وكذلكَ أخي، وقد سمعت أمّي من أحدهم أنّكِ في قصرِ الأسقفِ وطلبت مني أن آتي لإحضاركِ لأنّها تعلم أنّك تساعدين الفقراء إلا أننا نستطيع الدفعَ. من فضلكِ هلّا رافقتني؟»

ولأنَّ مثل هذا النوعِ من الطلباتِ لم يكن غريباً كانت كاريس تحمل معها حقيبةً جلديةً من المعداتِ الطبيةِ حيثما ذهبت. «بالطبعِ سآتي يا فتى»، قالت له ثمَّ سألته: «ما اسمكَ؟»

«غيلز سبايسر أيتها الأمُّ، وطُلبَ مني أن أنتظركِ وأحضركِ».

«حسناً»، قالت كاريس واستدارت نحو الأسقفِ ثمَّ تابعت: «من فضلكما تناولا غداءكما، سأنضمُّ إليكما حالما أستطيع»، وحملت حقيبتها ولحقت بالفتى إلى الخارجِ.

تدينُ شايرنغ بوجودها إلى قلعةِ الشريفِ القابعة على الهضبةِ كما تدينُ كينغزبريدج بوجودها إلى الديرِ، وقرب ساحةِ السوقِ كانت بيوت أعيانِ المدينةِ وتجارِ الصوفِ ورجالِ الشريفِ وموظفين ملكيين كمحققي الوفياتِ فخمةً، وعلى مسافةٍ أبعد بقليلٍ كانت منازلُ التجارِ والحرفيين والحدادين والخياطين والعطارين الموسرين إلّا أنّها كانت أقل فخامةً من بيوتِ الساحةِ. كان والد غليز سبايسر تاجرَ بهارات كما يشي اسمه بهذا[1]. قاد غيلز كاريس إلى شارعٍ في حيِّهِ، وكمعظمِ بيوتِ هذهِ الطبقةِ من الناسِ كان المنزلُ حجرياً في الطابقِ الأرضي حيثُ المخزن والمتجر أمّا الطابق العلوي فقد كان خشبياً رديءَ الصنعِ وتعيشُ فيهِ العائلةُ. كان المتجرُ مُغلقاً ومُقفلاً. قادَ غيلز كاريس عبرَ درج خارجي إلى الطابقِ العلوي عبرَ درجٍ خارجي.

وحالما دخلت كاريس المنزلَ وخزت أنفها رائحةُ المرضِ المألوفةِ، ولكنها ترددت فقد كان هناكَ شيءٌ مميزٌ في تلكَ الرائحةِ، شيءٌ ما ضرب وتراً حساساً في ذاكرتها، ولسببٍ ما شعرت بالخوفِ الشديدِ.

وبدلاً من التفكيرِ بما تذكرها بهِ الرائحةُ عبرت غرفةَ المعيشةِ إلى غرفةِ النومِ وعثرت على الجوابِ المريعِ.

كان هناكَ ثلاثةُ أشخاصٍ على فراشٍ: امرأةٌ في مثلِ عمرها ورجلٌ أكبرُ

1- سبايسر تعني بهارات ومن هنا أتى الاسمُ سبايسر (المترجمة)

بقليلٍ وفتى مراهق. كان الرجلُ في مرحلةٍ متقدمةٍ من المرضِ ويئنّ ويتعرقُ من الحمى، ومن فتحةِ قميصِهِ ظهرَت على صدرِهِ وحلقِهِ بقعٌ قرمزية ضاربة إلى السواد، وهناك دمٌ على شفتيهِ ومنخريهِ.

كان يعاني من الطاعونِ.

«لقد عادَ»، قالت كاريس. «فليكن الرَّبُّ في عوني».

ولبرهةٍ من الزمنِ شلَّها الخوف فوقفت بلا حراكٍ تحدقُ إلى هذا المشهدِ في عجزٍ. لطالما عرفَت، وإن كانت معرفةً نظرية، أنَّ الطاعون قد يعود، وكان هذا أحد أسبابٍ وضعها لكتابها إلا أنَّها لم تكن جاهزةً لهذهِ الرؤيةِ الصادمةِ للطفحِ والحمى ونزيفِ الأنفِ.

رفعت المرأةُ نفسها على مرفقِ أحد ذراعيها. لم تكن في مرحلةٍ متقدمةٍ من المرضِ بل تعاني من الطفحِ والحمى فقط ولا علائم على أيِّ نزيفٍ.

«أعطني شيئاً لأشربهُ حُباً بالرَّبِّ»، قالت المرأةُ.

أخذَ غيلز إبريقاً من النبيذِ وهنا بدأ عقلُ كاريس يعملُ وجسدها يتحررُ من الشللِ الذي أصابها به الخوفِ. «لا تعطها النبيذ فهذا سيجعلها تعطشُ أكثر»، قالت لغيلز. «رأيتُ برميلاً من الجعةِ في الغرفةِ الأخرى. اجلبْ لها كأساً منهُ».

وركزت المرأةُ نظرها على كاريس. «أنتِ رئيسةُ الديرِ، أليسَ كذلكَ؟» قالت المرأة ولكن كاريس لم تُصحح لها. «يقولُ الناسُ إنّكِ قديسةٌ، هل يمكنكِ أن تداوي عائلتي؟»

«سأحاولُ ولكني لستُ قديسةً بل امرأةٌ تراقبُ الناسَ في الصحةِ والمرضِ». أخذت كاريس من حقيبتها قطعةً كتانيةً ولفتها حولَ فمها وأنفها. لم ترَ حالةَ طاعونٍ واحدةٍ منذُ عشرِ سنواتٍ، ولكنها كانت قد اعتادت على اتباعِ إجراءاتٍ احترازيةٍ عندما تتعاملُ مع المرضى المصابين بأمراض معديةٍ، ثمَّ أخذت خُرقةً وضمختها بماءِ الوردِ ومسحت وجهَ المرأةِ، وكما يحدثُ عادةً بدأت المريضةُ بالاسترخاء بعدها.

عادَ غيلز مع كوبِ الجعةِ وسقى المرأةَ ثمَّ قالت كاريس له: «فلتُشربهم قدرَ ما أرادوا ولكن لا تقدم لهم سوى الجعةِ والنبيذِ المخفّفِ بالماءِ».

انتقلت كاريس إلى الأبِ الذي كان على مشارفِ الموتِ فقد كان يتحدثُ بكلماتٍ غير مترابطةٍ ولم يستطع التركيز في وجهِ كاريس. مسحت كاريس وجهه أيضاً ونظفت الدمَ المتخثرَ حول أنفِهِ وفمِهِ، وأخيراً توجهت إلى شقيقِ

غيلز الأكبر. كان قد وقعَ ضحيةَ العدوى منذُ فترةٍ قريبةٍ وما زالَ يعطسُ إلا أنَّه كان كبيراً بما يكفي ليدركَ شدةَ مرضِهِ وبدا مرتعباً.

عندما انتهت كاريس قالت لغيلز: «حاول أن تبقيهم مرتاحين قدرَ الإمكانِ وقدّمْ لهم الشرابَ. لا يمكنني القيامُ بما هو أكثرُ من هذا. هل لديكَ أقارب؟ أعمام وأبناءُ أعمامٍ؟»

«جميعهم في ويلز».

وذكرت نفسها بأن تُحذرَ هنري بأنَّه قد يحتاجُ إلى ترتيبِ وضعِ هذا الفتى الذي سيُصبحُ يتيماً.

«قالت أمّي أن أدفعَ لكِ»، قالَ الفتى.

«لم أفعل الكثير لكم»، قالت كاريس. «يمكنكَ أن تدفعَ لي ستةَ بنساتٍ».

كان هناكَ حقيبةٌ جلديةٌ بجانبِ سريرِ الأمِّ فأخذَ منها الفتى ستةَ بنساتٍ فضيةٍ.

رفعت المرأةُ نفسها مجدداً وتحدثت هذهِ المرَّةُ بهدوءٍ قائلةً: «ما الذي نعاني منهُ؟»

«يؤسفني القولُ إنكم تعانون من الطاعونِ»، قالت كاريس.

أومأت المرأةُ برأسِها كشخصٍ حُكمَ عليهِ بالهلاكِ. «هذا ما كنتُ أخشاه».

«ألم تدركي أنَّها أعراضهُ من المرةِ الماضيةِ التي كان منتشراً فيها؟»

«كنا نعيشُ في قريةٍ صغيرةٍ في ويلز ونجونا منهُ. هل سنموتُ كلنا؟»

لم تكن كاريس تؤمنُ بخداعِ الناسِ عندما يطرحونَ مثلَ هذهِ الأسئلة المهمةِ.

«لم ينجُ منهُ سوى البعض»، قالت كاريس. «ولكنهم لم يكونوا كثيرين».

«فلتحلَّ رحمةُ الرَّبِّ علينا إذاً»، قالت المرأةُ.

«آمين»، قالت كاريس.

***

في طريقِ العودةِ إلى كينغزبريدج غرقت كاريس في التفكيرِ بالطاعونِ. بالطبع سينتشرُ المرضُ وبالسرعةِ التي انتشرَ بها سابقاً وسيقتلُ الآلافَ. وملأتها هذهِ الفكرةُ بالغضبِ فقد كان الأمرُ أشبه بمجزرةٍ حربيةٍ باستثناءِ أنَّ الرجال من يقفون وراء الحروبِ ولكن ليسَ وراءَ الطاعون. ما الذي ستفعلهُ؟ لم يكن بإمكانها الاسترخاء والأحداث التي وقعت منذُ ثلاثةَ عشرَ عاماً تتكررُ أمامها مجدداً وبقسوةٍ.

لم يكن هناك علاجٌ للطاعونِ، ولكنها اكتشفت طرقاً لإبطاءِ تقدمهِ القاتل. وبينما كان جوادها يسيرُ بخطى وئيدةٍ على طريق أبلاه المسافرون عبرَ الغابةِ، قلَّبت في عقلها ما كانت تعرفهُ عن المرضِ وكيفيةِ مواجهتهِ. بقي ميرثن صامتاً وقد تكهنَ بمزاجها بل وبما كانت تفكرُ بهِ.

عندما وصلا إلى المنزلِ شرحت له ما أرادت فعلهُ.

«ستواجهين المعارضة على هذا»، حذرها ميرثن. «إنَّ خطتكَ متطرفةٌ جداً، ومن لم يخسروا عائلةً وأصدقاءً في المرةِ الماضيةِ سيعتقدون أنَّهم منيعون وأنَّك تبالغين في ردِّ الفعلِ».

«وهنا ستقدم لي المساعدة»، قالت له.

«في هذهِ الحالةِ أقترحُ أن نُقسم المعارضين ونتعامل مع كلِّ واحدٍ منهم على حدة».

«حسناً».

«لديكِ ثلاثُ مجموعاتٍ لتكسبيها: النقابةُ والرهبانُ والراهباتُ. لنبدأ بالنقابةِ. سأدعو إلى اجتماعٍ ولكن لن أدعو فيليمون».

في هذهِ الأيامِ يجتمع أعضاءُ النقابةِ في سوقِ القماشِ وهو مبنى حجري يقع في الشارعِ الرئيسي ويسمح للتجار بتسيير أعمالهم عندما يكون الطقسُ رديئاً، ودُفعت تكاليف إنشائهِ من أرباحِ قماشِ كينغزبريدج القرمزي.

ولكن قبلَ اجتماعِ أعضاءِ النقابةِ التقت كاريس وميرثن بكلِّ فردٍ منهم على حدة لكسبِ الدعمِ مسبقاً، وهذهِ تقنيةٌ طورها ميرثن منذُ وقتٍ طويلٍ. كان شعارهُ: «لا تدعو إلى اجتماعٍ قبلَ أن تضمن خاتمتهُ أولاً».

وذهبت كاريس بنفسها لمقابلةِ مادج ويبر.

كانت مادج قد تزوجت مجدداً، وتفاجأ الجميعُ باختيارها لقروي وسيم، كزوجها الأول، وأصغر عمراً منها بخمسةِ عشرَ عاماً. كان زوجها يدعى آنسلم وبدا مغرماً بها جداً رغمَ أنَّها كانت سمينةً وشعرها شائبٌ ولديها تشكلية غريبة من القبعاتِ، ولكن ما يدعو للدهشةِ أكثر هو أنَّها وفي الأربعينَ من عمرها قد أنجبت فتاةً معافاةً أسمتها سيلما وهي الآن بعمرِ الثامنةِ وتذهبُ إلى مدرسةِ الراهباتِ. لم تمنع الأمومةُ يوماً مادج من متابعةِ الأعمالِ واستمرت بهيمنتها على سوقِ قماشِ كينغزبريدج القرمزي بمساعدةِ آنسلم.

ما زالت مادج تسكن في المنزلِ الكبير على الشارعِ الرئيسي الذي انتقلت

إليهِ مع مارك عندما بدآ يحققان أرباحاً من غزلِ القماشِ وصبغهِ. وجدتها كاريس مع آنسلم بستلمان بضاعةً من القماشِ الأحمرِ ويحاولان العثورَ على مكانٍ لها في المخزنِ المكتظِ في الطابقِ الأرضي.

«أخزنُ بضاعةً من أجلِ سوقِ الصوفِ»، شرحت لها مادج.

انتظرت كاريس إلى أن انتهت مادج من تفقدِ شحنةِ البضاعةِ ثمَّ صعدتا إلى الطابقِ العلوي تاركتين آنسلم ليدير المتجرِ، وحالما دخلت كاريس إلى غرفةِ المعيشةِ عادت إليها ذكرى ذلكَ اليومِ منذُ ثلاثةَ عشرَ عاماً عندما دُعيت إلى هنا لتعاينَ مارك، أولَ ضحايا الطاعونِ في كينغزبريدج، وشعرت بالاكتئابِ على حينِ غرّةٍ.

لاحظت مادج تعابير وجهها وقالت لها: «ما الأمرُ؟»

هناك أمورٌ لا يُمكن للمرءِ إخفاؤها عن النساءِ في الوقتِ الذي يمكن إخفاؤها عن الرجالِ. «دخلتُ إلى هنا منذُ ثلاثةَ عشرَ عاماً لأنَّ مارك كان مريضاً»، قالت كاريس.

أومأت مادج برأسها وقالت بصوتٍ حيادي: «كان ذلكَ بدايةَ أسوأ مرحلةٍ في حياتي. في ذلكَ اليومِ كان لدي زوجٌ رائعٌ وأربعةُ أطفالٍ معافون. بعدَ ثلاثةِ أشهرٍ أصبحتُ أرملةً من دونِ أطفالٍ ومن دونِ مصدرٍ للعيشِ».

«كانت أياماً حزينة»، قالت كاريس.

توجهت مادج إلى طاولةٍ عليها أكوابٌ وإبريقٌ ولكن بدلاً من أن تعرضَ على كاريس شراباً وقفت تُحدّقُ إلى الجدارِ. «هلّا أخبرتكِ بأمرٍ غريبٍ؟» قالت مادج. «بعدَ أن توفوا توقفت عن قولِ آمين عندَ ترتيلِ صلاةِ الرَّبِّ»، وابتلعت لعابها ثمَّ تابعت بصوتٍ أهدأ: «كما ترين فأنا أعلمُ ما تعنيهِ كلماتُ الصلاةِ المُرتلةُ باللاتينيةِ، لقد علّمني إياها والدي، وأعلم ما تعنيه عبارة 'وبإرادتهِ يُقضى' ولكن لم أعد قادرةً على قولِ آمين. لقد أخذَ الرَّبُّ عائلتي وكان هذا عذاباً كافياً، ولن أذعنَ له». انحدرَت الدموعُ من عينيها وهي تتذكرُ ثمَّ قالت: «لم أرد لإرادةِ الرَّبِّ أن تنتصرَ، أردت أن يعودَ أبنائي.... 'وبإرادته يُقضى'... أعلمُ أنني سأذهبُ إلى الجحيمِ ولكني ما زالتُ غيرَ قادرةٍ على قولِ آمين».

قالت كاريس: «لقد عادَ الطاعونُ».

وترنحت مادج فأمسكت بطرفِ الطاولةِ كي لا تقع، وفجأةً بدا جسدها المتينُ هشاً والثقةُ المرتسمةُ على وجهها تختفي وبدت أكبرَ عُمراً.

«لا»، قالت مادج.

سحبت كاريس مقعداً إلى الأمامِ وأمسكَت بذراعِ مادجِ لتجلسَ عليهِ ثمَّ قالت: «أعتذرُ على صَدمِكِ بهذا الخبرِ».

«لا»، قالت مادج مجدداً. «لا يُمكنُ أن يعودَ. لا يمكنُ أن أخسرَ آنسلم وسيلما. لن أستطيعَ تحملَ هذا. لن أستطيعَ تحملَ هذا». بدت مادج شديدةَ الشحوبِ وعافيتها مسلولةً، وهنا بدأت كاريس تخشى من أن تكون مادج تعاني من ذبحة قلبية.

أخذت كاريس إبريقَ النبيذ عن الطاولةِ وسكبت كأساً ثمَّ ناولت الكأسَ إلى مادج التي بدورها تجرعتهُ بمكانيكيةٍ وخفَّ شحوبُ وجهها قليلاً.

«إننا نفهمهُ الآن بشكلٍ أفضل»، قالت كاريس. «وربما نستطيعُ محاربتهُ».

«محاربتهُ؟ كيفَ يمكننا فعلُ هذا؟!»

«هذا ما أتيتُ لأخبركِ بهِ. هل تحسنتِ بعضَ الشيءِ؟»

وأخيراً نظرت مادج في عيني كاريس وقالت: «نحاربهُ. بالطبعِ، هذا ما علينا القيامُ بهِ. أخبريني كيفَ يمكننا أن نفعلَ هذا؟».

«يجبُ أن نُغلقَ المدينةَ. إغلاقُ البواباتِ وتدعيمُ الأسوارِ ومنعُ أيِّ أحدٍ من الدخولِ».

«ولكن كيفَ ستعيشُ المدينةُ؟»

«سيجلبُ الناسُ المؤنَ إلى جزيرةِ ليبر. سيكون ميرثن الوسيطَ وسيدفعُ لهم فهو أصيبَ بالطاعونِ قبلاً ونجا منهُ، ولا أحدَ يصابُ بهِ مرتين. سيتركُ التجارُ بضائعهم على الجسرِ ثمَّ يذهبون وعندها سيأتي الناسُ من المدينةِ ويحصلونَ على الطعامِ».

«هل بإمكانِ الناسِ مغادرة المدينةِ؟»

«أجل، ولكن لا يستطيعونَ العودةَ».

«وماذا عن سوقِ الصوفِ؟»

«قد يكونَ هذا الجزءَ الأصعبَ في الخطةِ»، قالت كاريس. «يجبُ أن نلغيهِ».

«ولكن تجارَ كينغزبريدج سيخسرون أموالاً طائلةً!»

«هذا أفضلُ من الموتِ».

«إن طبقنا ما قُلتهِ هل يمكننا تجنبُ الطاعونِ؟ هل ستنجو عائلتي؟»

ترددت كاريس وهي تقاومُ إغراءَ التفوهِ بكذبةٍ لتطمينها ثمَّ قالت لها: «لا يمكنني أن أعدكِ. ربما وصلَ الطاعونَ إلينا الآن ونحن لا نعلم فقد يكون هناك أحدٌ ما في كوخٍ بالقربِ من الواجهةِ الأماميةِ يموتُ في هذهِ اللحظةِ من دونِ أحدٍ إلى جانبهِ، ولذلكَ أخافُ من ألا ننجو منهُ، ولكن أعتقدُ أنَّ خطتي ستقدمُ أفضلَ فرصةٍ لكِ لتري آنسلم وسيلما إلى جانبكِ في عيدِ الميلادِ».

«إذاً، سننفذُ الخطةَ»، قالت مادج بحزمٍ.

«إنَّ دعمكَ مسألةٌ حاسمةٌ»، قالت كاريس. «بصراحةٍ ولأنّك ستكونين من أكبرِ الخاسرين بسببِ إلغاءِ سوقِ الصوفِ سيميلُ الناسُ إلى تصديقك أكثر. أريدكِ أن تشددي على جديةِ الأمرِ».

«لا تقلقي»، قالت مادج. «سأخبرهم بهذا».

***

«فكرةٌ منطقيةٌ جداً»، قالَ رئيسُ الديرِ فيليمون.

تفاجأ ميرثن بما سمعهُ فهو لا يتذكر موافقةً سريعةً لفيليمون على عرضٍ قدمتهُ النقابةُ قبلاً. «إذاً، ستدعمُ هذا»، قال ميرثن متحققاً من صحةِ ما سمعهُ.

«أجل، بالطبعِ»، قالَ رئيسُ الدير. كان فيليمون يتناولُ صحناً من الزبيبِ ويحشو فمهُ بحفناتٍ منه ثمَّ يمضغها بسرعةٍ ويأخذ حفنةً أخرى. لم يعرض على ميرثن تناول الزبيبِ وتابع: «بالطبعِ، فهو لا ينطبق على الرهبانِ».

تنهدَ ميرثن فقد كان عليهِ أن يتوقعَ هذا. «بل على العكسِ، إنَّه ينطبقُ على الجميعِ بمن فيهم الرهبان».

«لا، لا»، قال فيليمون بلهجةِ من يؤدب طفلاً. «لا تملكُ النقابةُ سلطةَ تقييدِ حركةِ الرهبانِ».

لاحظَ ميرثن وجودَ قطٍ عندَ قدمي فيليمون. كان سميناً مثلَ فيليمون ولهُ وجهٌ يوحي باللؤمِ ويبدو كقطِ غودوين «رئيس الأساقفةِ»، رغمَ أنَّ ذلكَ القطَّ لا بدَّ أن يكونَ ميتاً منذُ وقتٍ طويلٍ. قد يكونُ هذا القطُ أحد أولادهِ.

قال ميرثن: «تملكُ النقابةُ سلطةَ إغلاقِ أبوابِ المدينةِ».

«ولكننا نملكُ حريةَ الدخولِ والخروجِ. نحنُ لا نخضعُ لسلطةِ النقابةِ. سيكونُ هذا أمراً سخيفاً».

«ولكنِ النقابةَ تتحكمُ بالمدينةِ، وقد قررنا أنَّ ما من أحدٍ سيدخلُ إليها والطاعونُ منتشرٌ».

«لا يمكنكَ أن تفرضَ القوانينَ على الديرِ».

«ولكن أستطيعُ أن أفرضها على المدينةِ والدير جزءٌ من المدينةِ».

«هل تقول لي إنني إن غادرت كينغزبريدج اليومَ لن تسمحَ لي بالدخولِ غداً؟»

لم يكن ميرثن واثقاً من هذا الأمرِ لأنَّ الموقف سيكون محرجاً جداً؛ أن يقفَ رئيسُ ديرِ كينغزبريدج خارجَ بوابةِ المدينة يطلبُ السماح له بالدخولِ. كان ميرثن يأملُ أن يُقنعَ فيليمون بقبولِ تقييدِ الحركةِ فهو لم يكن يرغبُ بوضعِ قرارِ النقابةِ تحتَ الاختبارِ بهذهِ الطريقةِ الدراميةِ، ولذلكَ حاولَ الإجابةَ بثقةٍ قائلاً: «من كلِّ بد».

«سأشتكي إلى الأسقفِ».

«أخبرهُ أنَّه لا يستطيعُ دخولَ كينغزبريدج».

***

أدركَت كاريس أنَّ طاقمَ الراهباتِ في الديرِ بالكادِ تغيرَ منذُ عشرةِ أعوام. بالطبعِ هذهِ هي الأحوالُ في دورِ الراهباتِ في كلِّ مكانٍ، فمن يدخلُ يتوقعُ أن يظلَّ فيها إلى الأبدِ. كانت الأمُّ جوان ما تزالُ رئيسةَ الديرِ والأختُ أوناغ تديرُ المستشفى تحتَ إشرافِ الأخِ سايم حيثُ قلَّةٌ من الناسِ تأتي إلى المستشفى لتتلقى الرعايةَ الصحيةَ الآن فمعظمُ الناسِ الآن يُفضلونَ مستشفى كاريس على الجزيرةِ، والمرضى الذين كان سايم يحظا بهم كان معظمهم من المتشددين دينياً. تلقى هؤلاء المرضى الرعاية في المستشفى القديم الملاصق للمطابخِ بينما خُصصَ المبنى الجديد للضيوفِ.

جلست كاريس مع جوان وأوناغ وسايم في الصيدليةِ القديمةِ التي باتت الآن المكتبَ الخاص برئيسةِ الديرِ وشرحَت لهم الخطةَ. «سيودعُ ضحايا الطاعونِ من خارجِ أسوارِ المدينةِ القديمةِ في مستشفاي على الجزيرةِ»، قالت كاريس. «وخلالَ فترةِ انتشارِ الطاعون سأدوام ليلاً ونهاراً مع الراهباتِ في المستشفى، ولن يغادرَ أحد باستثناءِ تلكَ القلة المحظوظةِ بالشفاءِ».

سألت جوان: «وماذا عن المدينةِ القديمةِ؟»

«إن دخلَ الطاعونُ إلى المدينةِ رغمَ إجراءاتنا الاحترازيةِ سيكونُ هناك ضحايا أكثر مما يمكنكِ أن تستوعبيهِ في هذا المستشفى. لقد صادقت النقابةُ على قرارٍ بحجرِ ضحايا الطاعونِ وعائلاتهم في منازلهم، وهذا ينطبقُ على

أيِّ شخصٍ يعيشُ في منزلٍ ضربهُ الطاعونُ: من آباء وأطفال وأجداد وخدم ومتدربين، ومن يُمسك بهِ يخرج من هذا المنزلِ يُعدم».

«هذا إجراءٌ راديكالي»، قالت جوان. «ولكن إن كان من شأنهِ منعُ المجزرةِ المريعةِ كالتي حدثت خلالَ موجةِ الطاعونِ الأخيرةِ فهو إجراءٌ يستحقُّ النظرَ فيهِ».

«علمتُ أنَّكِ سترينَ الأمورَ بهذهِ الطريقةِ».

لم يقل سايم شيئاً، ويبدو أنَّ أخبارَ انتشارِ الطاعونِ مجدداً قد جردتهُ من غطرستهِ.

قالت أوناغ: «وكيفَ سيأكلُ المرضى إن كانوا مسجونين في منازلهم؟»

«يُمكنُ للجيرانِ أن يتركوا لهم طعاماً على عتبةِ البابِ. لا يُسمحُ لأحدٍ بالدخولِ باستثناءِ الأطباءِ والراهباتِ والرهبانِ الذينَ سيزورون المرضى ولكن من دونِ أن يتواصلوا مع المعافين. سيتنقلون بينَ الديرِ والمنازلِ وبالعكسِ من المنازلِ إلى الديرِ من دونِ الدخولِ إلى أيِّ مبنى آخر أو حتَّى مخاطبةِ أيِّ شخصٍ على الطريقِ، وعليهم جميعاً أن يرتدوا أقنعةً طوالَ الوقتِ ويغسلوا أيديهم بالخلِّ في كلِّ مرةٍ يلمسونَ فيها مريضاً».

بدا سايم مُرتعباً وسألها: «هل سيحمينا هذا؟»

«إلى درجةٍ ما»، قالت كاريس. «ولكن ليسَ تماماً».

«ولكنّ زيارةَ المرضى ستكونُ خطيرةً جداً علينا!»

وأجابتهُ أوناغ: «إننا لا نخافُ من الموت بل نتطلع إليه فهو بمنزلة لمّ شملٍ مرتجى مع المسيح».

«أجل بالطبع»، قالَ سايم.

وفي اليومِ التالي غادرَ جميعُ رهبانِ دير كينغزبريدج المدينة.

-88-

عندما رأت غويندا ما فعلهُ رالف بنباتاتِ ديفي شعرت بغضبِ شخصٍ على وشكِ ارتكابِ جريمةٍ. يعتبرُ تدميرُ المحصولاتِ بهذهِ الطريقةِ خطيئةً، ولا بدَّ أنَّ هناكَ مكاناً خاصاً في الجحيمِ لأولئكَ النبلاءِ الذين يدمرونَ ما عملَ الفلاحونَ على زراعتهِ بكدٍ.

ولكن ديفي لم يكن مرتعباً مثلها بل قال لها: «لا أعتقدُ أنَّ تدميرها بهذهِ الطريقةِ مهمٌ لأنَّ قيمةَ النبتةِ في جذورها وهو لم يلمس الجذور».

«إن قلعها من جذورها عملٌ مُجهدٌ وهو لن يقوم بهِ»، أجابت غويندا بعبوسٍ إلا أنّها ابتهجت بعدَ سماعها لهذا.

في الحقيقةِ لقد تعافت الشجيراتُ بسرعةٍ مذهلةٍ، ومن المرجحِ أنَّ رالف لم يعلمُ بأنَّ هذا النبات يتمددُ تحتَ الأرضِ، وخلالَ شهري أيار/ مايو وحزيران/ يونيو وعندما وصلت أخبارُ الطاعونِ إلى قريةِ ويغلي أخرجت الجذورُ براعمَ جديدةً، وفي بدايةِ شهرِ تموز/ يوليو قررَ ديفي أنَّ الوقتَ قد حانَ ليحصدَ المحصولَ. قضت غويندا وولفريك وديفي بعدَ ظهرِ أيامِ الأحدِ في اقتلاعِ الجذورِ، وكانوا يحفرونَ التربةَ حولَ النبتةِ أولاً ثمَّ ينتزعونها من الأرضِ ويجردونها من أوراقها تاركين الجذرَ مع جذعٍ قصيرٍ. كان عملاً مجهداً ومن النوعِ الذي قامت به غويندا طوالَ حياتها.

تركوا نصفَ الشجيراتِ من دونِ حصادٍ على أملِ أن تجددَ نفسها في العامِ القادمِ.

كانوا يجرون عربةً محملةً بالجذورِ عبرَ الغابةِ باتجاهِ ويغلي ومن ثمَّ يُفرغونها في الحظيرةِ ويقومون بنشرها في مخزنِ التبنِ لتجفَّ.

لم يعرف ديفي متى سيتمكن من بيعِ محصولهِ فقد كانت كينغزبريدج مدينةً مُغلقةً، وما زالَ الناسُ يشترونَ المؤن بالطبعِ ولكن من خلالِ وسطاءٍ. كان ديفي يقومُ بشيءٍ جديدٍ وسيحتاجُ لشرحِ الأمرِ لمن سيشتري منهُ. سيكونُ الأمرُ مربكاً إن فعلَ هذا من خلالِ وسيطٍ، ولكنه على الأغلب سيضطرُ إلى فعلِ هذا. كان عليهِ أولاً أن يجففَ الجذورَ ثمَّ يطحنها لتصبح مسحوقاً وسيأخذُ هذا وقتاً طويلاً على أيِّ حالٍ.

ورغم أنَّ ديفي توقفَ عن الحديث عن آمابيل إلا أنَّ غويندا كانت واثقةً من أنّه ما يزالُ يُقابلُ الفتاةَ، ورغمَ ظاهرِ قبولهِ بمصيرهِ بكلِ سعادةٍ إلا أنّه لم يستسلمِ حقاً لأنَّه لو فعل لغرقَ في الحزنِ.

ولكن لم يكن بوسع غويندا فعل شيء سوى الأمل بأن ينسى آمابيل قبلَ أن يصبحَ كبيراً على أخذِ إذنهما بالزواجِ منها. ما زالت غويندا غير قادرة على استيعاب فكرةِ ارتباطِ عائلتها بعائلةِ آنيت التي لم تتوقف عن إحراجها قط بمغازلةِ زوجها ولفريك الذي يبتسمُ بغباءٍ لكلِّ ملاحظةٍ مغناجةٍ غبيةٍ تُبديها،

والآن وآنيت في الأربعين من عمرِها والعروق بارزةٌ في وجنتيها الورديتين والشيبُ يغزو شعرها الأشقر لم يعد سلوكها مُحرجاً بل مقززاً ومع ذلكَ كان ولفريك يتصرف بقربها وكأنّها مازالت فتاةً.

وفكرت غويندا بأنَّ ابنها الآن قد وقعَ في الفخِّ ذاتهُ الذي وقعَ فيه والدهُ، وجعلها التفكيرُ بهذا ترغبُ بالبصاقِ. كانت آمابيل تبدو كآنيت عندما كانت في الخامسة عشرة بوجهٍ جميلٍ وخصلٍ منفوشةٍ وعنقٍ طويلٍ وكتفين بيضاوين ضيقين وثديين صغيرين كالبيضِ الذي تبيعهُ هي ووالدتها في السوقِ. كانت تُحركُ شعرها تماماً كوالدتها وتستخدمُ الحيلةَ ذاتها في النظرِ إلى رجلٍ نظرةَ عتابٍ مزيفٍ وضربهِ على صدرهِ بظاهرِ يدها متظاهرةً بأنّها تصفعهُ بينما هي في الحقيقةِ تداعبهُ.

على أيِّ حالٍ كان ديفي بأمانٍ جسدياً وبصحةٍ جيدةٍ ولكن غويندا كانت قلقةً على سام الذي يعيشُ الآن مع الإيرل رالف في القلعةِ ويتدرب ليصبحَ مُقاتلاً. كانت تُصلي في الكنيسةِ حتّى لا يتأذى في الصيدِ أو أثناء تعلّمِ استخدامِ السيفِ أو خوضِ المبارياتِ. لم يفارقها لاثنين وعشرين عاماً وها هم أخذوه منها فجأةً، وفكرت بأنَّ حياةَ المرأةِ صعبةٌ فهي تحبُ طفلها من كلِّ قلبها وروحها ولكنه وفي يومٍ من الأيام يتركها.

لأسابيعٍ عديدةٍ بحثت عن عُذرٍ للسفرِ إلى قلعةِ الإيرل وتفقدِ أحوالِ سام، ثمَّ سمعت بأنَّ الوباءَ وصلَ إلى هناك فعزمت على الذهابِ. ستذهبُ قبلَ أن يحينَ موعدُ الحصادِ، ولن يرافقها ولفريك فقد كان لديهِ الكثيرُ من الأعمالِ لينجزها في الأرضِ. على أيِّ حالٍ لم تكن تخافُ السفرَ وحيدةً وكانت تقولُ مازحةً: «أنا فقيرةٌ جداً ليسلبني أحدٌ وكبيرةٌ جداً لأغتصَب»، ولكن الحقيقةَ هي أنّها كانت قويةً جداً ويمكنها مواجهةُ كلا الاحتمالين ولذلك حملت معها خنجراً بنصلٍ طويلٍ.

في يومٍ حارٍ من أيامِ شهر تموز/ يوليو عبرت الجسرَ المتحركَ لقلعةِ الإيرلِ، وعلى شرفاتِ بيتِ الحارسِ وقفَ غرابٌ وريشهِ الأسود الصقيل يلمع تحتَ أشعةِ الشمسِ. عندما رآها الغراب بدأ ينعقُ مُحذراً وكأنّه يقول: «غادري، غادري!» لقد نجت من الطاعونِ قبلاً ولكن قد يكونُ هذا بسببِ الحظِ ولذلك كان قدومها إلى هنا مخاطرةٌ به.

داخلَ القلعةِ عندَ رقعةِ الأرضِ الخفيضةِ كان الجو عادياً يسوده شيءٌ من

الهدوء فهناك حطابٌ يُفرغُ حمولةً كاملةً من الحطبِ خارجَ المخبزِ، وسائسٌ يحرزُ جواداً أرقشاً من سرجهِ أمامَ الإسطبلاتِ. لم يكن هناك أناسٌ كثرٌ ولكن غويندا لاحظت مجموعةً من الرجالِ والنساءِ أمامَ المدخلِ الغربي للكنيسةِ الصغيرةِ فسارت تحتَ الشمس الحارقةِ نحوهم لتتقصى منهم.

«إنَّ ضحايا الوباءِ في الداخلِ»، قالت لها خادمةٌ في جوابٍ على سؤالها.

دخلت من البابِ وهي تشعرُ بالذعرِ ككتلةٍ باردةٍ في قلبها.

كان هناك عشرة أو اثنا عشرَ فراشاً على الأرضيةِ وجميعها قبالة المذبح كما يحدثُ في المستشفيات. بدا لها كأن نصفَ المرضى من الأطفالِ ولم يكن هناك سوى ثلاثةِ رجالٍ بالغين، وتفحّصت غويندا وجوههم بوجلٍ.

لم يكن سام بينهم.

ركعت وصلّت صلاةَ شُكرٍ.

عندما خرجت اقتربت من المرأةِ التي تحدَّثت إليها قبلاً وقالت لها: «أبحثُ عن سام من ويغلي. إنَّه مرافقٌ جديدٌ».

أشارت المرأةُ إلى الجسرِ الذي يُفضي إلى المُجمعِ الداخلي وقالت: «فلتبحثي في القلعةِ».

أخذت غويندا الطريقَ الذي أشارت إليهِ المرأةُ. كان هناك حارسٌ عندَ الجسرِ ولكنها تجاهلتهُ وصعدت الدرجَ إلى القلعةِ.

كانت القاعةُ الكبيرةُ مُظلمةً وباردةً، ونامَ كلبٌ على الحجارةِ الباردةِ للموقدِ، وهناك مقاعد عندَ جميعِ الجدرانِ وزوجٌ من الكراسي الكبيرةِ عندَ نهايةِ الغرفةِ. لاحظت غويندا خلو المكان من الوسائد والكراسي الموثرة واللوحات القماشية المُعلقة، واستنتجت أنَّ الليدي فيليبا لا تقضي الكثيرَ من الوقتِ هنا ولذلك لم يكن هناك اهتمامٌ بمفروشاتِ المكانِ.

وجدت سام جالساً قربَ النافذةِ مع ثلاثة شبانٍ أصغر عُمراً منهُ وأمامهم على الأرضية قطعٌ مبعثرةٌ من بدلة درعٍ بدأوا بترتيبها من المخرطةِ وهي الجزءُ المفتوحُ لواقي الرأس وصولاً إلى درعِ الساقِ. كان كلٌّ واحدٍ منهم يُنظفُ جزءاً وقد كان سامُ يُنظفُ واقي الصدرِ بحصاةٍ ناعمةٍ محاولاً إزالةَ الصدأ.

وقفت تراقبهُ لبرهةٍ في ثيابه الجديدةِ باللونين الأحمرِ والأسودِ الخاصّين بإيرل شايرنغ، وتأملت كيف أطرت هذهِ الألوان على مظهرهِ الجميل بشعرهِ الأسودِ. بدا لها مطمئنَّ البالِ وهو يتحدثُ بطريقةٍ عرضيةٍ مع الآخرين وهم

يعملون. كان بصحةٍ تامةٍ وحسنَ التغذيةِ، وهذا ما كانت تأمله غويندا ولكنها شعرت بخيبةٍ خفيةٍ لأنَّه كان يُبلي جيداً من دونها.

رفعَ نظرهُ ورآها لترتسم علائمُ المفاجأةِ على وجههِ ثمَّ تعتريه فرحةٌ وبهجةٌ. «أيُّها الفتيةُ»، قال سام. «أنا أكبركم سِناً وربما تعتقدونَ أنني قادرٌ على الاعتناءِ بنفسي ولكني لستُ كذلكَ فوالدتي تلحقُ بي إلى كلِّ مكانٍ لتطمئنَ إلى أنني بخيرٍ».

رأوها وضحكوا ثمَّ تركَ سام العملَ وتوجهَ نحوها. جلسَ الابنُ والأمُّ على المقعدِ في الزاويةِ القريبةِ من الدرجِ الذي يُفضي إلى غرفِ الطابقِ العلوي. «أنا أحظى بوقتٍ رائعٍ»، قال سام. «يقضي الجميعُ معظمَ الأيامِ في لعبِ الألعابِ، ونذهبُ للصيدِ ونصيدُ مستعينين بالصقورِ، ونُجري مباريات مصارعةٍ ومسابقاتٍ لركوبِ الخيلِ ولعبِ كرةِ القدمِ. لقد تعلَّمتُ الكثيرَ! ورغمَ أنَّه من المُحرجِ أن أكونَ محاطاً بكلِّ هؤلاءِ المراهقين طوالَ الوقتِ ولكن أستطيعُ تحملَ هذا فلم يبقَ أمامي سوى احتراف مهارةِ استخدامِ السيفِ والدرعِ وأنا على ظهرِ الجوادِ».

ولاحظت أنَّ طريقتهُ في الحديثِ قد تغيرت وبدأ يفقدُ ذلكَ الرتمَ البطيء لكلامِ سكانِ القرى ويستخدم كلماتٍ فرنسيةٍ عندَ الحديث عن الصيدِ بالصقر ومهارةِ ركوبِ الجواد. كان قد بدأ يتماهى مع حياةِ النبلاءِ.

«وماذا عن العملِ؟» قالت له. «لا يمكنكَ أن تلعبَ طوالَ اليومِ».

«أجل، هناكَ الكثيرُ من الأعمالِ لنقوم بها»، وأشارَ إلى الآخرين الذين كانوا ينظفونَ الدرعَ. «ولكنهُ سهلٌ بالمقارنةِ مع فلاحةِ الأرضِ وتسويتها».

استفسرَ عن شقيقهِ وأخبرتهُ بأخبارِ البيتِ وعن تعافي نباتِ ديفي واستخراجِ الجذورِ وعلاقةِ ديفي المستمرةِ مع آمابيلِ وأن ما من أحدٍ وقعَ ضحيةَ الطاعونِ بعد. وبينما كانا يتحدثان انتابها شعورٌ بأنَّ أحداً ما يراقبهما وعلمت بأنَّها لم تكن تتخيل، وبعدَ برهةٍ نظرت من فوقِ كتفيها.

رأت الإيرل رالف واقفاً أعلى الدرجِ قربَ بابٍ مفتوحٍ، ربما يكون بابَ غرفتهِ، وتساءلت عن المدةِ الزمنية التي قضاها يراقبهما. التقت نظراتهما وحدَّقَ إليها بحدَّةٍ إلا أنَّها عجزت عن قراءةِ نظرتهِ وفهمِ معناها، وبدأ ينتابها شعورٌ بأنَّ نظرتهُ حميمية بشكلٍ غير مريحٍ فأشاحت بنظرها بعيداً.

وعندما نظرت إلى الوراءِ مجدداً كان قد اختفى.

***

في اليومِ التالي انطلقت غويندا عائدةً إلى القريةِ وعندما وصلت إلى منتصفِ الطريقِ لحقَ بها فارسٌ على جوادٍ يركضُ بسرعةٍ ومن ثمَّ بدأ عدوهُ يتباطأ وتوقفَ.

وضعَت يدها على حزامها حيثُ ثبتت خنجرها.

كان الفارسُ السير آلان فرنهيل وقال لها: «يريدُ الإيرل أن يراكِ».

«إذاً، من الأفضلِ أن يأتي إلي بنفسهِ بدلاً من إرسالكَ»، أجابتهُ غويندا.

«لطالما كان لديكِ أجوبةٌ متذاكيةٌ وجاهزةٌ. أتعتقدين بأنَّ هذا يجعلك محبوبةً عندَ من هم أرفعُ منكِ مقاماً؟»

كان كلامه منطقياً وقد بوغتت بهِ وربما يعود السببُ في هذا إلى أنَّ آلان وطوالَ كل هذهِ السنين كان رفيق رالف ولم تعرفهُ يوماً كشخصٍ قد يقولُ أيّ شيءٍ ذكي، ولو أنّها كانت ذكيةً حقاً لتملقت إلى الناسِ من أمثالِه ولما سخرت منهم. «حسناً»، قالت بسأمٍ. «إن كان الإيرل يدعوني فهل عليَّ أن أسيرَ عائدةً إلى القلعةِ؟»

«لا، إنَّه يملكُ كوخاً في الغابةِ وهو ليسَ ببعيدٍ عن هنا. يستخدمهُ أحياناً للراحةِ خلالَ الصيدِ. إنَّ الإيرل هناك الآن»، وأشارَ إلى الغابةِ قربَ الطريقِ.

لم تكن غويندا مرتاحةً لهذهِ الدعوة ولكن ولأنها من طبقةِ الأقنانِ لا تملكُ حقَ رفضِ استدعاءِ الإيرل. على أيِّ حالٍ كانت واثقةً من أنَّها لو رفضت لضربها آلان وربطها وحملها إلى هناك.

«يمكنكِ الركوبُ على السرجِ أمامي إن أحببتِ».

«لا شكراً، أفضّلُ السيرَ».

في مثلِ هذا الوقتِ من العامِ تورق الشجيرات القصيرة بكثافةٍ. لحقت غويندا بجوادِ آلان إلى الغابةِ وهي تشقُّ طريقها بينَ نباتِ القرّاصِ والسرخسِ، وبسرعةٍ اختفى الطريق وراءَ النباتاتِ الخضراء الكثيفةِ. تساءلت غويندا في قلقٍ عن النزوةِ التي دفعت برالف إلى ترتيبِ هذا اللقاءِ في الغابةِ، وشعرت بأنَّ الأمرَ لا يبشر بالخيرِ لها ولا لعائلتها.

سارا لربعِ ميلٍ ووصلا إلى مبنى واطئ بسقفٍ من القشِّ، ولو أنَّ غويندا رأتهُ في غيرِ مناسبةٍ لقالت إنَّه كوخُ حارس الغابةِ. ربطَ آلان لجامَ جوادهِ حولَ شجيرةٍ وتقدَّمَ إلى الداخلِ.

لاحظت غويندا أنَّ للكوخِ ذات المظهر الأجرد والعملي للقلعةِ. كانت

الأرضيةُ طينيةً والجدران من القصبِ والأغصانِ المضفورةِ والسقفُ من القشّ. كان الأثاثُ قليلاً فهناك طاولةٌ وبعضُ المقاعدِ وسريرٌ خشبي عادي بفراشٍ من القش. في الخلفِ كان هناك بابٌ مواربٌ يُفضي إلى مطبخٍ صغيرٍ حيث من المفترضِ أن يقوم خدمُ رالف بتحضيرِ الطعامِ والشرابِ له ولرفاقهِ الصيادين.

كان رالف جالساً إلى الطاولةِ وبيدهِ كأسٌ من النبيذِ. وقفت غويندا أمامهُ منتظرة بينما اتكأ آلان إلى الجدارِ خلفها.

«إذاً، لقد عثرَ عليكِ آلان»، قالَ لها.

«ألا يوجدُ أحدٌ غيرنا هنا؟» قالت غويندا بقلقٍ.

«أنا وأنتِ وآلان».

وازدادت غويندا قلقاً بعضَ الشيء وسألته: «لمَ تريدُ رؤيتي؟»

«لنتحدث عن سام بالطبعِ».

«لقد أخذتهُ مني فما الذي لديكَ لتقولهُ أيضاً؟»

«إنَّه فتى طيبٌ كما تعلمين... ابننا».

«لا تقل هذا»، ونظرت إلى آلان ولكنها لم ترَ على وجهِ الأخير المفاجأةَ، من الواضحِ أنَّه عرفَ بالسِّرِ وشعرت بالإحباطِ. لا يجبُ أن يعرفَ ولفريك بهذا.

«لا تقل إنّه ابننا»، قالت له. «لم تكن والداً له. إنَّ ولفريك من ربَّاه».

«وكيفَ كنتُ سأتمكن من تربيتهِ إن لم أكن أعلم بأنَّه ابني؟! ولكنني أحاولُ التعويض عن الوقتِ الضائعِ وهو يُبلي جيداً، ألم يُخبركِ؟»

«ألا يتورطُ في شجاراتٍ؟»

«بالطبعِ، يُفترضُ بالمرافقين أن يتقاتلوا. سيكونُ هذا بمنزلة تدريبٍ لهم عندما يذهبونَ إلى الحربِ. كان عليكِ أن تسألي إن كان يربحُ».

«إنَّها ليست الحياة التي أردتها لهُ».

«إنَّها الحياةُ التي خُلقَ ليعيشها».

«هل أحضرتَني إلى هنا لتتباهى؟»

«لمَ لا تجلسين؟»

وعلى مضضٍ جلست قبالتهُ إلى الطاولةِ فسكبَ لها كأساً من النبيذِ ودفعها باتجاهِها ولكنها تجاهلت الكأسَ.

قال لها: «والآن وبما أنني أعرفُ بأننا نملكُ ابناً، أعتقدُ أنَّ علاقتنا يجبُ أن تكونُ حميمةً».

«لا، شكراً».

«يا للكِ من مُفسدةٍ للبهجةِ».

«لا تتحدث معي عن البهجةِ فقد كنتَ مصيبةَ حياتي، وأتمنى من كلِّ قلبي لو أنني لم ألتقِ بك قط. لا أريدُ علاقةً حميمةً معكَ بل أريد أن أبتعدَ عنكَ، ولو ذهبت إلى القدس فلن أكون بعيدةً كفايةً».

اربدَّ وجههُ من الغضبِ وندمت على تسرعها في الكلامِ ثمَّ تذكرت عتابَ آلان لها، وتمنت لو أنّها رفضت ببساطةٍ وبهدوءٍ ومن دونِ استهزاءٍ لاذعٍ، ولكن رالف يثيرُ غيظها كما لا يفعلُ أيُّ أحدٍ آخر.

«ألا ترى؟» قالت وهي تحاولُ التحدثَ بعقلانيةٍ. «لقد كرهتَ زوجي لخمسٍ وعشرينَ عاماً فقد كسرَ لكَ أنفكِ وطعنتهُ أنت في وجنتهِ. حرمتهُ من الإرثِ ومن ثمَّ أُجبرتَ على إعادةِ أرضِ عائلتهِ له. اغتصبتَ المرأةَ التي كان يحبها في يومٍ من الأيامِ وهربَ منكَ فجررتهُ إلى القريةِ بحبلٍ حولَ عنقهِ، ولذلك وحتى إن كان بيننا ابن فلا يُمكن أن نصبح أصدقاء».

«أخالفكِ الرأي»، قالَ لها. «أعتقدُ أننا لا نستطيعُ أن نكونَ أصدقاء فقط بل عاشقين».

«لا!» كان هذا ما خشيتهُ في سريريتها منذُ أوقفَ آلان جوادهُ أمامها على الطريقِ.

ابتسمَ رالف وقالَ: «لمَ لا تخلعينَ ثوبكِ؟»

وتوترت عندما سمعت هذا.

انحنى آلان فوقها من الخلفِ وانتشلَ الخنجرَ الطويلَ من حزامها بحركةٍ رشيقةٍ، لا بدَّ أنّه خططَ لهذهِ الحركةِ وحدثَ الأمر بسرعةٍ لم تتح لها المجالِ لتقومَ بردِ فعلٍ.

ولكن رالف قال: «لا يا آلان، لن يكونَ هذا ضرورياً. ستقومُ بهذا طواعيةً».

«لن أفعل»، قالت له.

«أعد لها الخنجرَ يا آلان».

وعلى مضضٍ أعادَ آلان الخنجرَ حاملاً إياه من نصلهِ وقدَّمهُ لها.

انتشلتهُ من يدهِ بسرعةٍ وقفزت على قدميها ثمَّ قالت: «تستطيعُ قتلي ولكني أقسم بالرَّبِّ أنني سأقتلُ واحداً منكما».

تراجعت إلى الوراءِ وأشهرت خنجرها في استعدادٍ للقتالِ.

تقدَّمَ آلان باتجاهِ البابِ ليقطعَ عليها الطريقَ.

«دعها وشأنها»، قالَ رالف. «إنَّها لن تذهب إلى أيِّ مكانٍ».

لم يكن لديها أدنى فكرةٍ عن سببِ ثقةِ رالف الزائدةِ ولكنهُ كان مخطئاً جداً فهي ستغادرُ الكوخَ ومن ثمَ ستركضُ بأسرعِ ما يُمكنها ولن تتوقف إلى أن تخرَّ قواها.

بقي آلان في مكانهُ.

وصلت غويندا إلى الباب وباتت خلفهُ ثمَّ رفعت الرتاجَ الخشبي البسيطَ.

قالَ رالف: «إنَّ ولفريك لا يعلمُ، صحيح؟»

تجمدت غويندا في مكانها ثمَّ قالت: «لا يعلمُ بماذا؟»

«لا يعلمُ بأنني والدُ سام».

وباتَ صوتُ غويندا أقربَ إلى الهمسِ: «لا، إنَّه لا يعلمُ».

«أتساءلُ كيفَ سيشعرُ إن علمَ».

«سيقتلهُ هذا»، قالت له.

«هذا ما اعتقدتهُ».

«من فضلكَ لا تخبرهُ»، أخذت تتوسلُ إليهِ.

«لن أفعل... ما دمتِ تفعلين ما أطلبهُ».

ما الذي كان بوسعها أن تفعل؟ كانت تعلمُ أنَّ رالف منجذبٌ إليها جنسياً وقد استغلَّت هذهِ المعرفةَ خلال محاولتها اليائسةِ لرؤيتهِ في قلعةِ الشريفِ. على مدارِ الأعوامِ الماضيةِ كانت ذكرى لقائهما في نُزلِ بيل كريهةٌ لها إلا أنَّها عاشت في ذاكرتهِ كذكرى ذهبية، وربما ازدادت عظمةً بتأثيرِ مرورِ الزمنِ ولذلك كان يفكرُ بإحياءِ تلكَ اللحظةِ مجدداً.

كان هذا خطأها.

هل يمكنها أن تحررهُ من هذا الوهمِ؟ وقالت له: «لم نعد ذاتَ الشخصين اللذين كناهما آنذاك ؟ لم أعد شابةً بريئةً ويجبُ عليكَ أن تعودَ إلى النومِ مع خادماتكَ العاهراتِ».

«لا أريدُ فتيات خادمات، أريدكِ أنتِ».

«لا»، قالت له. «من فضلكَ». وقاومت دموعاً كادت تنهمرُ من عينيها.

كان شخصاً عنيداً ولذلك أصرَّ قائلاً: «اخلعي ثوبكِ».

أغمدَت خنجرها وحررَت حزامَها.

عندما فتحَ ميرثن عينيه فكَّرَ بابنتهِ لولا.

اختفت لولا منذُ ثلاثةِ أشهرٍ، وقد أرسل ميرثن الرسائل إلى سلطاتِ المدينةِ في غلوستر ومونماوث وشافتسبير وإكستر ووينشستر وسالزبيري، وكانت رسالةُ شخصٍ مثلهِ، رئيس أعظمِ المدنِ في البلدِ، تُعاملُ بجديةٍ وتلقي ردوداً دقيقةً عليها. كان الجميعُ متعاوناً باستثناءِ عمدة لندن الذي قال إنَّ نصفَ الفتياتِ في المدينةِ هربن من آبائهن وأنَّ إعادتهن ليسَ من مهامِ المحافظِ.

كان ميرثن قد أجرى تحقيقاتهِ الشخصية في شايرنغ وبريستول وملكومب، وتحدثَ إلى مُلَّاكِ جميعِ الحاناتِ وأعطاهم وصفاً للولا، وجميعهم رأوا الكثيرَ من الشاباتِ ذوات الشعرِ الداكنِ وكنَّ غالباً بصحبةِ أوغادٍ يدعونَ جيك وجاك وجوك، ولكن ما من أحدٍ فيهم كان واثقاً من أنَّه رأى ابنةَ ميرثن أو سمعَ باسمِ لولا.

كان بعضٌ من أصدقاءِ جابك قد اختفوا أيضاً مع حبيبةٍ أو اثنتين ولكن النسوةَ الأخرياتِ اللواتي اختفينَ كُنَّ أكبرَ عمراً من لولا.

يعرف ميرثن أنَّ هناك احتمالاً بأن تكون لولا ميتةً ولكنه رفضَ التخلي عن الأملِ بإيجادها. استبعد إصابتها بالطاعونِ فقد اكتسحت موجةُ الطاعونِ الجديدةِ المدنَ والبلداتِ آخذةً معها معظمَ الأطفالِ ممن أعمارهم لا تتجاوزُ العاشرةَ، ولكن الناجينَ من الموجةِ الأولى، مثلَه ومثلَ لولا وغيرهما ممن امتلكوا ولسببٍ ما القدرة على مقاومةِ المرضِ، أو كما في حالاتٍ قليلةٍ جداً كحالتهِ القوةَ على التعافي منهُ، لن يصابوا بالمرضِ هذهِ المرةَ. على أيِّ حالٍ كان الطاعونُ أحدَ المخاطرِ التي قد تواجهها فتاةٌ في السادسة عشرة بعيداً عن منزلِ أهلِها، وكانت مخيلةُ ميرثن الخصبةُ تعذبهُ خلالَ ساعاتِ الفجرِ الأولى بأفكارٍ عن لولا وعما حدثَ لها.

كانت كينغزبريدج المدينةُ الوحيدةُ التي لم يعث فيها الطاعونُ فساداً ولم يؤثر المرض إلا على منزلٍ من بينِ مئةِ منزلٍ في المدينةِ القديمةِ كما عرفَ ميرثن من المحادثاتِ التي أجراها وهو يصرخ من وراءِ بواباتِ المدينةِ مع مادج ويبر التي شغلت مكانهُ داخلَ جدرانِ المدينةِ بينما اهتمَّ هو بأحوالِ المدينةِ من الخارجِ. كانت نسبةُ الإصاباتِ في ضواحي كينغزبريدج والمدن الأخرى واحدة بين كلِّ خمسةِ أشخاصٍ، ولكن هل تغلبت طُرقُ كاريس على الطاعون أم كانت تؤخرُ وصولهُ فحسب؟ هل سيستمرُ المرضُ ويتخطى الحواجز التي

وضعتها؟ هل سيكونُ الدمارُ هذهِ المرَّة بسوءِ دمارِ المرَّةِ السابقة؟ لن يعلموا هذا إلى أن يأخذ تفشي المرضِ مسارهُ وقد يأخذُ هذا أشهراً أو سنوات.

تنهدَ ميرثن ونهضَ من سريرهِ الفارغِ فهو لم يرَ كاريس مُذ أُغلقت المدينةُ. كانت تعيشُ في المستشفى على بعدِ عدةِ ياردات من منزلِ ميرثن إلا أنَّها لم تغادره قط. كان بوسعِ الناس الدخولُ ولكنهم لا يستطيعونَ المغادرةَ، وقررَت كاريس أنَّ مصداقيتَها على المحَّكِ إن لم تعمل جنباً إلى جنبٍ مع راهباتها ولهذا كانت عالقةً معهن.

وبدا لميرثن أنَّه قضى نصفَ حياتهِ بعيداً عنها، ولم يكن الأمرُ أكثر سهولةً هذهِ المرةَ. في الحقيقةِ كان يحنُّ إليها الآن وهو في منتصفِ عمرهِ أكثرَ مما كان يفعلُ عندما كان أصغرَ عمراً.

استفاقت مدبرةُ منزلهِ إم قبلهُ ووجدها ميرثن في المطبخِ تسلخُ أرنباً. تناولَ قطعةً من الخبزِ وشربَ بعضَ الجعةِ المخففةِ وخرجَ.

كان الطريقُ عبرَ الجزيرةِ مكتظاً بالفلاحين وعرباتهم التي حمَّلوا عليها المؤنَ، وتحدثَ ميرثن وفريقٌ من المساعدين إلى كلِّ فلاحٍ منهم. كان التعاملُ مع من يجلبون منتجات اعتيادية بأسعارٍ متفقٍ عليها هو الأسهلُ فقد كان ميرثن يرسلهم عبرَ الجسرِ الداخلي ليتركوا بضائعهم عندَ البابِ المغلقِ لبيتِ حارسِ البوابةِ ويدفعُ لهم عندما يعودون بعرباتهم فارغةً، أمَّا من جلبوا منتجاتٍ موسميةٍ كالفواكهِ والخضراواتِ فقد كان يفاوضهم على السعرِ قبلَ أن يسمحَ لهم بتوصيلِ بضائعهم إلى بوابةِ المدينةِ، وبالنسبةِ إلى البضائعِ الخاصةِ فتُعقدُ الصفقاتُ قبلَ أيامٍ عندما يرسلُ بطلبها كالجلود من أجل تصنيعها والحجارة من أجلِ البنائين الذين تابعوا بناءَ القبةِ بأمرٍ من الأسقفِ هنري والفضة من أجل الصاغةِ والحديد والفولاذ والقنَّب والخشب للمصنعين في المدينةِ ممن استمروا بالعملِ رغمَ التوقفِ المؤقتِ لمعظمِ طلباتِ زبائنهم، وأخيراً كانت هناك الحمولاتُ المنفصلةُ التي كان ميرثن يحتاجُ إلى تعليماتِ أحدٍ من داخلِ المدينةِ لتسييرها. وصلَ اليومُ تاجرٌ يريد بيع قماشٍ إيطالي مُقصب إلى خياطي المدينةِ، وشخصٌ يرغبُ ببيعِ ثورٍ عمرهُ عامٌ إلى المسلخِ، وديفي من ويغلي.

استمعَ ميرثن إلى قصةِ ديفي بسعادةٍ ومتعةٍ، وأُعجبَ بالفتى ومشروعهِ في شراءِ بذورِ نبات الفوه الصبغي وزراعتها لإنتاجِ الصباغِ الباهظ الثمنِ. لم يُفاجأ عندما علمَ بأنَّ رالف حاولَ أن يُدمرَ المشروعَ فقد كان كمعظمِ النبلاءِ يكرهُ

كل ما له علاقةٌ بالتصنيعِ والتجارةِ، ولكن ديفي كان شجاعاً وذكياً ومثابراً في عملِهِ، ودفعَ إلى طحانِ الجزيرةِ، ولكن الجميع الآن بات يعلم أنَّ ما من علاجٍ للطاعون ولهذا استسلموا ببساطةٍ لموتِ أحبائهم، ولكن القليلَ منهم، ربما يدفعهم الجهلُ أو التفاؤل، آمنَ بقدرةِ كاريس على الاتيانِ بمعجزةٍ.

قالَ ديفي لميرثن: «عندما غسلَ الطحانُ حجارةَ الطحنِ وشربَ كلبةُ ماءَ الغسيلِ ثمَّ تبولَ بولاً أحمر لأسبوعٍ عرفنا أنَّ الصبغةَ ناجحةٌ!»

وها هو الآن هنا مع عربةٍ تُجرُ باليدِ محمَّلة بأربعةِ أكياسٍ سعةُ الكيس منها أربعةُ غالوناتٍ مما يعتقدُ أنَّه صبغةُ الـفوه الثمينة».

طلبَ منهُ ميرثن أن يحملَ أحدَ الأكياسِ ويوصلهُ إلى البوابةِ، وعندما وصلا إلى هناكَ نادى على الحارسِ من الجهةِ المقابلةِ فتسلَّقَ الرجل السورَ ونظرَ إلى الأسفلِ. «هذا الكيسُ لمادج ويبر»، صرخ ميرثن. « أيُّها الحارس هلّا حرصتَ على أن يصلَ إليها شخصياً؟»

«حسناً أيُّها الرئيس»، قالَ الحارسُ.

وكما يحدثُ عادةً فقد حضرَ بعضُ المرضى المصابين بالطاعونِ مع أقاربهم من القرى إلى الجزيرةِ، ولكن الجميع الآن بات يعلم أنَّ ما من علاجٍ للطاعون ولهذا استسلموا ببساطةٍ لموتِ أحبائهم، ولكن القليلَ منهم، ربما يدفعهم الجهلُ أو التفاؤل، آمنَ بقدرةِ كاريس على الاتيانِ بمعجزةٍ. أُلقي بالمرضى على أبوابِ المستشفى كما تُلقى المؤنُ على بواباتِ المدينةِ، وعندما يُغادرُ الأقاربُ ليلاً تخرجُ الراهباتُ ويدخلن المرضى إلى المستشفى. بينَ الفينةِ والأخرى ينجو أحدهم ويستردُّ عافيتهُ ولكن معظم المرضى يموتونَ ويدفنون في المقبرةِ الجديدةِ التي تقعُ على أطراف المستشفى.

وعندَ منتصفِ النهار دعا ميرثن ديفي لتناولِ الغداءِ، واعترفَ له ديفي وهو يتناول فطيرة لحم الأرنبِ وبازلاء طازجة بأنَّه مغرمٌ بابنةِ عدوةِ والدتهِ القديمةِ. «لا أفهمُ سببَ كُرهِ أمّي لآنيت فما حدثَ كان في الماضي البعيدِ، ولا علاقةَ لنا أنا وآمابيل بهِ»، قال ديفي بسخطِ الشبابِ من عدمِ عقلانيةِ الأهلِ، وعندما أومأ ميرثن بتعاطفٍ سألهُ ديفي: «هل وقفَ أهلكَ في طريقكَ كما فعلَ أهلي؟»

وفكرَ ميرثن لوهلةٍ ثمَّ قال: «أجل فقد أردت أن أصبحَ مرافقاً وأن أقضي حياتي كفارسٍ في خدمةِ الملكِ ولكنهم فَطروا قلبي عندما جعلوا مني متدرباً عندَ نجارٍ. على أيِّ حالٍ لقد أبليت حسناً في النهاية».

لم يكن ديفي مسروراً بهذهِ الحكايةِ.

بعدَ الظهرِ أُغلقَ المدخلُ إلى الجسرِ الداخلي من جهةِ الجزيرةِ وعندها فُتحت بواباتُ المدينة وأُدخلت البضائع المتروكة أمامَها ثمَّ وزعت المؤن على أمكنتها في المدينةِ.

ولكن لم تصلهم رسالةٌ من مادج بخصوصِ الصبغةِ.

حظي ميرثن في ذلك اليوم بزائرٍ ثانٍ، فعندما انتهت حركةُ التجارةِ بعدِ الظهر وصلَ الكاهنُ كلود.

كان صديقُ وراعي كلود -الأسقفُ هنري- قد استلمَ رسمياً منصبَ رئيسِ أساقفةِ مونماوث، ولكن منصبه السابق كأسقفِ كينغزبريدج لم يشغله أحدٌ بعد. أرادَ كلود المنصبَ ولذلكَ ذهبَ إلى لندن لمقابلةِ السير غريغوري لونغفيلو وعادَ إلى مونماوث حيث تابع عملهُ كمساعدٍ لهنري حالياً.

«أحبَّ الملكُ تعهدَ فيليمون في مسألةِ ضريبةِ رجالِ الدينِ»، قال كلود وهو يتناولُ صحناً من فطيرةِ لحمِ الأرنبِ الباردِ وكأساً من أفضلِ نبيذِ غاسكون لدى ميرثن. «وقد أحبَّ كبارُ رجالِ الدينِ العظةَ التي قدمها فيليمون بخصوصِ التشريحِ وخطتهُ لبناءِ مصلى للسيدةِ، ولكن من جهةٍ أخرى غريغوري يكره فيليمون ويقولُ إنَّه ليسَ موضعَ ثقةٍ، والنتيجةُ هي أنَّ الملكَ قامَ بتأجيلِ البتِ في هذه المسألةِ وأصدرَ قراراً ينصُّ على عدمِ قدرةِ رهبانِ كينغزبريدج على عقدِ انتخاباتٍ وهم في ديرِ سان جون إن ذا فوريست خارجَ المدينةِ».

قالَ ميرثن: «أفترضُ أنَّ الملكَ لم يرَ فائدةً كبيرةً ترجى في اختيارِ أسقفٍ بينما الطاعونُ يعيثُ فساداً وأبوابُ المدينةِ مُغلقةٌ».

أومأ كلود برأسهِ وقال: «على أيِّ حالٍ لقد نجحتُ في تحقيقِ أمرٍ صغيرٍ»، ثمَّ تابعَ قائلاً: «هناك مكانٌ شاغرٌ لسفيرٍ إنكليزي إلى البابا وعلى المرشحِ أن يعيش في أفينيون. اقترحت اسمَ فيليمون وبدا غريغوري مهتماً بالفكرةِ أو بالأحرى لم يرفضها».

«هذا جيدٌ!» ورفعت فكرةُ إرسال فيليمون بعيداً إلى أفينيون من معنويات ميرثن، وتمنى لو أنَّه يستطيع القيام بشيءٍ ليساعد كلود. كان قد كتبَ رسالةً إلى غريغوري يُقدمُ فيها دعمَ النقابةِ لكلود فهذا أقصى ما يُمكنه فعلهُ في هذا الشأنِ.

«وهناك خبرٌ آخر ولكنه محزنٌ»، قالَ كلود. «في طريقي إلى لندن عرَّجت على ديرِ سان جون إن ذا فوريست فما يزالُ هنري أسقفه وقد أرسلني إلى هناك لتوبيخ

فيليمون على خروجهِ من كينغزبريدج من دونِ إذنٍ، ولكن الأمرَ كان مضيعةً للوقتِ حقاً. على أيِّ حالٍ يبدو أنَّ فيليمون تبنى إجراءاتِ كاريس الاحترازيةِ ولم يسمح لي بالدخولِ ولكننا تحدثنا عبرَ البابِ. حتَّى هذهِ اللحظةِ لم يمت أيُّ راهبٍ، ولكن صديقكَ القديمُ الأخ توماس توفي بأسبابٍ طبيعيةٍ. أنا آسفٌ».

«فلترقد روحهُ في سلامٍ»، قال ميرثن بحزنٍ. «كان ضعيفاً جداً قبلَ أن يموتَ وصحتهُ العقليةُ متدهورةٌ أيضاً».

«إنَّ الانتقالَ إلى ديرِ سان جون لم يكن مفيداً لهُ».

«لقد شجعني توماس عندما كنتُ بنَّاءً شاباً».

«من الغريبِ حقاً كيفَ يأخذُ الرَّبُّ الرجالَ الجيدين ويترك لنا السيئين».

غادرَ كلود باكراً في صباحِ اليومِ التالي.

وبينما كان ميرثن يتابع أعماله اليومية المعتادة عادَ أحدُ الحمالين من بواباتِ المدينةِ مع رسالةٍ. كانت مادج ويبر على سورِ المدينةِ وأرادت التحدثَ إلى ميرثن وديفي».

«هل تعتقدُ أنَّها ستشتري الصبغةَ؟» قالَ ديفي وهما يعبران الجسرَ الداخلي.

لم يكن لدى ميرثن أدنى فكرةٍ. «آمل هذا»، قالَ لديفي.

وقفا جنباً إلى جنبٍ أمامَ البوابةِ المغلقةِ ونظرا إلى الأعلى. انحنت مادج من فوقِ الجدارِ وصرخت: «من أينَ مصدرُ الصبغةِ؟»

«لقد زرعتها»، قال ديفي.

«ومن تكون؟»

«ديفي من ويغلي، ابن ولفريك».

«أوه، ابن غويندا؟»

«أجل، أنا الابن الأصغر».

«حسناً، لقد جرَّبنا صبغتكَ».

«هل نجحت؟» قالَ ديفي بتوقٍ.

«إنَّها ضعيفةٌ جداً، هل طحنتَ كاملَ الجذورِ؟»

«أجل، وما الذي يمكنني فعلُه غير هذا؟»

«يُفترضُ بكَ أن تزيلَ قشرةَ الجذرِ قبلَ طحنهِ».

«لم أكن أعلمُ بهذا»، قال ديفي في خجلٍ. «أليسَ المسحوقُ جيداً أبداً؟»

«كما قلتُ لكَ الصبغةُ خفيفةٌ ولا يمكنني أن أعطيكَ الثمن نفسه الذي أدفعه للصبغةِ المركزةِ».

بدا ديفي مستاءً جداً إلى درجةِ أنَّ ميرثن تألمَ لرؤيته على هذا الحال.

قالت مادج: «كم لديكَ من مسحوقِ الصبغةِ؟»

«تسعةُ أكياسٍ بحجمِ الكيسِ الذي أرسلتهُ لكِ»، قال ديفي في استياءٍ.

«سأعطيكَ نصفَ السعرِ المعتاد، ثلاثةُ شلناتٍ وستة بنساتٍ للغالون، وهذا يعني أربعةَ عشرَ شلناً للكيسِ أي سبعة جنيهاتٍ مقابلَ عشرةِ أكياسٍ».

ارتسمت السعادةُ على وجهِ ديفي، وتمنى ميرثن لو أنَّ كاريس هنا لتشاركهم هذهِ اللحظةَ. «سبعة جنيهاتٍ!» أعادَ ديفي خلفَ مادج.

واعتقدت مادج أنَّ ديفي يشعرُ بخيبةِ الأملِ فقالت له: «لا يمكنني أن أدفعَ أكثرَ من هذا؛ فالصبغة ليست قويةً بما يكفي».

ولكن السبعةَ جنيهاتٍ كانت بمنزلة ثروةٍ لديفي فقد كانت تُعادلُ أجرَ سنواتٍ عديدةٍ كعاملٍ حتَّى بأجورِ الوقتِ الراهنِ. نظرَ ديفي إلى ميرثن وقال: «أنا غني».

ضحكَ ميرثن وقال: «لا تنفقهُ دفعةً واحدةً».

كان اليومُ التالي أحداً وتوجهَ ميرثن في الصباحِ لحضورِ القداسِ في كنيسةِ الجزيرةِ الصغيرةِ –كنيسة سانت إليزابيث الهنغارية راعية المداوين– ثمَّ عادَ إلى المنزلِ وأخذَ مجرفةً من خشبِ البلوطِ القوي من كوخِ البستاني. وضعَ المجرفةَ على كتفهِ وعبرَ الجسرَ الخارجي ثمَ عبرَ الضواحي عائداً بالزمنِ إلى الوراء.

حاولَ بجدٍ تذكرَ الطريقِ الذي أخذهُ عبرَ الغابةِ منذُ أربعةٍ وثلاثين عاماً مع كاريس ورالف وغويندا. بدا مستحيلاً أن يتذكرَ الطريقَ فلم يكن هناك طرقٌ باستثناءِ الطرقِ التي تستخدمها الغزلانُ. كانت الشجيرات قد تحولت إلى أشجارٍ ناضجةٍ وقطعَ حطابو الملكِ شجرةَ البلوطِ العظيمةَ. على أيِّ حالٍ تفاجأ ميرثن بأنَّ بعضَ العلاماتِ المميزةِ ما زالت موجودةً كالنبعِ المتدفق من باطن الأرضِ الذي ركعت كاريس البالغةُ عشرَةَ أعوام بقربِهِ لتشربَ منهُ، والصخرة الكبيرة التي قالت عنها كاريس آنذاك إنَّها سقطت من السماءِ، والوادي الصغير الذي ينحدرُ بشدةٍ نحو سُبخةٍ حيثُ تلطخَ حذاؤها بالطينِ.

وخلالَ سيرهِ عادت إليه ذكرى ذلكَ اليومِ من طفولتِهِ. تذكرَ كيفَ لحقَ بِهِ الكلبُ هاب وكيفَ لحقت غويندا بكلبها، وشعرَ مجدداً بالمتعةِ التي أحسَّ بها عندما فهمت كاريس دعابتهُ، واحمرَّ خجلاً عندما تذكرَ كيفَ بدا عاجزاً أمامَ

كاريس عندما استخدمَ القوسَ الذي صنعهُ، وكيفَ نجحَ شقيقهُ الأصغر في استخدامِ السلاحِ.

ولكن الأهمَّ من هذا كلِّه هو تذكرهُ لكاريس عندما كانت فتاةً. لم يكونا قد بلغا بعد ولكنها أسرتهُ بسرعةِ بديهتها وجرأتها والسهولةِ التي أحكمت بها سيطرتها على المجموعةِ الصغيرةِ. لم يكن حُباً بل نوعاً من الافتتانِ الذي لا يختلفُ عن الحبِّ كثيراً.

شتّتَهُ ذكريات الماضي عن إيجاد الطريقِ وأضاعَ وجهتهُ ثمَّ بدأ يشعرُ كأنّه في منطقةٍ غيرِ مألوفةٍ، وعلى حينِ غرَّةٍ خرجَ إلى فسحةٍ خاليةٍ من الأشجارِ وعلمَ أنّه في المكانِ الصحيحِ. كانت الشجيراتُ أكبرَ وجذعُ شجرةِ البلوطِ أعرض، وبدت الفسحةُ بهيةً بالأزهارِ الصيفيةِ المتفرقةِ هنا وهناك كأنّها لم تكن بهيةً قط منذُ شهرِ تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1327، وبات واثقاً من أنّه في المكانِ الصحيحِ. كان الأمرُ أشبه برؤيةِ وجهٍ لم يره منذُ سنواتٍ ولكن لا يُمكن إخطاؤهُ رغمَ تغيرهِ.

كان ميرثن الأقصر والأكثر نحولاً بينهم وقد زحفَ آنذاك تحتَ الشجيرةِ ليختبئ من الرجلِ الضخمِ الذي تعثرَ بالشجيرات فوقعَ أرضاً. تذكرَ ميرثن كيفَ كان توماس يلهثُ وظهرهُ إلى شجرةِ البلوطِ وقد سحبَ سيفهُ وخنجرهُ.

ورأى في مخيلتهِ شريطَ أحداثِ ذلكَ اليوم يعيدُ نفسهُ مجدداً. كيفَ لحقَ الرجلان في زي أصفر وأخضر بتوماس وسألاه عن رسالةٍ ما، وكيف قامَ توماس بتشتيتِ الرجلينِ بأن قالَ لهما إنَّ هناك من يراقبهم من وراء الأجمةِ. كان ميرثن آنذاك واثقاً من أنَّه سيُقتلُ هو والبقيةُ، ثمَّ رالف الذي كان في العاشرةِ قتلَ أحدَ الجنودِ في حركةٍ سريعةٍ وقاتلةٍ أفادتهُ لاحقاً عندما ذهبَ للقتالِ في الحروبِ الفرنسيةِ، وتخلصَ توماس من الرجلِ الآخر ولكن ليسَ قبلَ أن يتلقى ضربةً بالسيفِ كلَّفتهُ يدهُ لاحقاً، أو ربما كان السببُ طريقة العلاجِ التي تلقاها في مستشفى ديرِ كينغزبريدج، ومن ثمَّ ساعدَ ميرثن توماس على دفنِ الرسالةِ.

«هنا»، قال له توماس. «هنا قبالةَ شجرةِ البلوطِ».

كانت الرسالةُ تحوي على سرٍّ ويعلمُ ميرثن الآن أنّه سرٌّ خطيرٌ يخشاهُ أناسٌ مهمون. لقد منحَ السرُّ توماس الحمايةَ رغمَ أنّه طلبَ اللجوءَ إلى ديرٍ ليقضي بقيةَ حياتهِ فيهِ.

«إن سمعتَ بأنني مُتُّ»، قال توماس للصبي ميرثن. «أريدكَ أن تُخرجَ الرسالةَ وتعطيها إلى كاهنٍ».

رفعَ ميرثن البالغ الآن مجرفتهُ وبدأ يحفرُ.

لم يكن واثقاً من أنَّ هذا ما أرادهُ توماس. كانت الرسالةُ المدفونةُ حمايةً لتوماس من الموتِ قتلاً وليسَ من الموتِ لأسبابٍ طبيعيةٍ بعمرِ الثامنةِ والخمسين. هلِ غيرَ رأيهُ حيالَ إخراجِ الرسالةِ؟ لم يكن ميرثن يعلمُ. سيقررُ ما سيفعلهُ عندما يقرأ الرسالةَ فقد كان لديه فضولٌ قاتلٌ حيالَ ما جاءَ فيها.

ولكن يبدو أنَّ ذاكرتهُ في ما يتعلقُ بموقعِ دفنِ الرسالةِ لم تكن مثاليةً فقد فشلَ في إيجادِها في المحاولةِ الأولى. لم يكن قد حفرَ أكثر من ثمانية عشر إنشاً عندما أدركَ أنّه أخطأ. كان واثقاً من أنَّ الحفرةَ بعمقِ قدمٍ وجرَّبَ الحفرَ مجدداً على بُعدِ عدةِ إنشاتٍ يساراً.

وفي هذهِ المرةِ تكللت محاولتهُ بالنجاح.

على عُمقِ قدمٍ اصطدمت مجرفتهُ بشيءٍ لا يشبهُ التربةَ فقد كان طرياً وقاسٍ في آنٍ معاً. وضعَ المجرفةَ جانباً وحفرَ بأصابعهِ ثمَّ شعرَ بقطعةٍ جلديةٍ قديمةٍ متعفنةٍ. أزاحَ الترابَ عنها بلطفٍ وانتشلها وكانت حقيبةُ توماس التي حملها في حزامِهِ آنذاك.

مسحَ يديهِ الملطختين بسترتهِ وفتحَ الحقيبةَ.

في الداخلِ وجدَ كيساً مصنوعاً من الصوفِ اللامع واكتشفَ أنّه ما يزال سليماً. حررَ خيطَ الكيسِ ومدَّ يدهُ إلى داخلِهِ ثمَّ سحبَ قطعةً ورقيةً ملفوفةً ومدموغةً بختمٍ من الشمعِ.

لامسَ ختمَ الرسالةِ بلطفٍ ولكن الشمعَ تفتتَ على الفورِ، وبحذرٍ فتحَ ميرثن الورقةَ. كانت الورقةُ سليمةً فقد نجت بشكلٍ مذهلٍ بعدَ أربعةٍ وثلاثين عاماً من وجودها تحتَ الترابِ.

ورأى على الفورِ أنَّها لم تكن وثيقةً رسميةً بل رسالةً شخصيةً. وعرفَ من خطِ اليدِ الأشبه بخربشةٍ سريعة أنّه خطُ يدِ نبيلٍ مُتعلمٍ وليسَ خطاً دقيقاً لموظفٍ ما.

وبدأ يقرأ الرسالةَ التي جاءَ في بدايتِها:

إنَّ إدوارد الثاني، ملكِ إنكلترا، في قلعةِ بيركلي، وبواسطةِ خادمهِ المطيع السير توماس لانغلي، يُرسلُ إلى عزيزهِ ابنهِ الأكبر إدوارد تحيّاتهِ الملكيةَ وحُبّه الأبوي.

وشعرَ ميرثن بالخوفِ فقد كانت هذهِ رسالةً من الملكِ الراحلِ إلى الملكِ الحالي. اهتزَّت يدهُ التي كان حمل بها الرسالةَ ورفعَ نظرهُ للأعلى وعاينَ المكانَ حولهُ كأنّه شعرَ بأحدٍ ما بينِ الشجيراتِ يتجسسُ عليهِ.

ابني الحبيب، ستسمعُ قريباً بأنني مُتُ. ولتعلم أنَّ هذا ليسَ صحيحاً.

اكفهرَّ وجهُ ميرثن فلم يكن هذا ما توقعهُ.

قامت والدتكَ الملكةُ وزوجةُ قلبي برشوةٍ وتأليبِ رولاند إيرل شايرنغ وأبنائهِ ليرسلوا قتلةً إلى هنا، ولكن توماس حذرني مُسبقاً وقُضي على القتلةِ.

إذاً، لم يكن توماس قاتلاً بل من أنقذَ الملكَ.

ربما فشلت والدتكَ في قتلي مَرّةً ولكنها حتماً ستحاولُ قتلي مَرّةً أخرى لأنّها هي وعشيقها لن يشعرا بالأمانِ وأنا على قيدِ الحياةِ، لذلكَ قُمتُ بتغييرِ ثيابي مع أحدِ القتلةِ، وهو رجلٌ في مثلِ طولي ومظهري العام، ورشوتُ العديدَ من الناس ليُقسموا على أنَّ الجثةَ جُثتي. ستعلمُ والدتكَ الحقيقةَ عندما ترى الجثةَ ولكنها ستستمرُ بالتظاهرِ بأنني ميتٌ لأنَّ الناس إن اعتقدوا أنني ميتٌ فلن أعودَ خطراً عليها ولن يسعى أيُّ ثائرٍ أو منافسٍ على العرشِ إلى دعمي.

كان ميرثن مذهولاً بما يقرأهُ فقد كان البلدُ بأكملهِ يعتقدُ أنَّ إدوارد الثاني ميتٌ بل أوروبا كلها كانت مخدوعةً بهذا.

ولكن ما الذي حدثَ لهُ بعدَ هذا؟

لن أخبركَ بالمكانِ الذي أخططُ للذهابِ إليهِ، ولكن أريدكَ أن تعلم أنني أنوي تركَ مملكةِ إنكلترا وعدمَ العودةِ إليها. على أيِّ حالٍ فأنا أصلي للرّبِّ يا بني كي أراكَ مجدداً قبلَ أن أموتَ.

ولكن لماذا دفنَ توماس الرسالةَ بدلاً من تسليمها؟ لأنّه خافَ على حياتهِ ورأى في الرسالةِ سلاحاً قوياً لحمايتهِ. وكما التزمَت الملكةُ إيزابيلا بالتظاهرِ بأنَّ زوجها ميتٌ التزمت بالتعاملِ مع القلّةِ التي كانت تعرفُ الحقيقةَ، وتذكرَ ميرثن أنّه عندما كانَ مراهقاً حُكمَ على إيرل كِنت بالإعدامِ بتهمةِ الخيانةِ وقُطعَ رأسهُ لأنّه أصرَّ على القولِ إنَّ إدوارد الثاني ما زالَ حيّاً.

كانت الملكةُ إيزابيلا قد أرسلت رجالاً خلفَ توماس ولحقوا بهِ إلى أطرافِ كينغزبريدج، ولكن توماس تخلّصَ منهم بمساعدةِ رالف ذي العشرةِ أعوام. بعد هذا لا بدَّ أنَّ توماس هددَ بكشفِ الخدعةِ بأكملها باستخدامِ دليلٍ وهذا الدليلُ هو رسالةُ الملكِ الأبِ. في تلكَ الليلةِ وبينما كان مستلقياً في مستشفى ديرِ كينغزبريدج فاوضَ توماس الملكة، أو بالأحرى الإيرل رولاند وأبناءه بصفتهم وكلاءها، وقد وعدَ توماس بعدمِ إفشاءِ السرِ ولكن بشرطٍ واحدٍ وهو أن يقبلوهُ راهباً في الديرِ، وقالَ لهم إنّه في حال تراجعت الملكةُ عن وعدها فإنَّ الرسالةَ

التي كانت في مكانٍ آمنٍ ستُكشفُ عندَ موتِهِ، ولهذا اضطرت الملكةُ إلى إبقائهِ على قيدِ الحياةِ.

كان رئيسُ الديرِ القديمِ أنتوني يعلمُ بهذا وعندما كان على فراشِ الموتِ أخبرَ الأمَ سيسيليا التي بدورها عندما كانت على سريرِ الموتِ أفضَت بجزءٍ من القصةِ إلى كاريس، وفكرَ ميرثن بأنَّ الناسَ قد يحتفظونَ بالأسرارِ لعقودٍ ولكنهم يشعرون بضرورةِ إفشائها على سريرِ الموتِ. علاوةً على هذا كانت كاريس قد رأت وثيقةً دامغةً مُنحَ بموجبها بستانُ لاين غرينج إلى الديرِ بشرطِ أن يقبلوا بتوماس راهباً في الديرِ، وفهمَ ميرثن الآن لمَ سبَّب استقصاءُ كاريس الصريحُ في هذا الشأنِ كل ذلكَ الإزعاجِ فقد أقنعَ السير غريغوري لونغفيلو رالف بأن يقتحمَ الديرَ ويسرقَ جميعَ مخطوطاتِ الراهباتِ على أملِ أن يجدَ هذهِ الرسالةَ الدامغةَ.

هل تراجعت القوةُ التدميريةُ لمثلِ هذهِ الورقةِ بفعلِ مرورِ الوقتِ؟ عاشت إيزابيلا حياةً طويلةً إلا أنَّها ماتت منذُ ثلاث سنواتٍ، ولا بدَّ أنَّ إدوارد الثاني قد توفي الآن، ولو أنَّه حيٌّ فسيكون في السابعةِ والسبعين. هل سيخشى إدوارد الثالث كشفَ حقيقةِ أنَّ والدهُ كان على قيدِ الحياةِ بينما العالمُ أجمع يعلمُ أنَّه ميتٌ؟ إنَّه ملكٌ قوي الآن ولا يمكن لمثلِ هذا الأمرِ أن يهددهُ بشكلٍ جدي، ولكنه سيشعرُ بالإحراجِ والإذلالِ.

إذاً، ما الذي على ميرثن فعلهُ الآن؟

لبثَ في مكانهِ على الأرضِ المعشوشبةِ للغابةِ وبينَ الزهورِ البريَّةِ لوقتٍ طويلٍ، وأخيراً قامَ بلفِّ الورقةِ وإعادتها إلى الكيس ثمَّ وضعَ الكيس في الحقيبةِ الجلديةِ القديمةِ.

أعادَ الحقيبةَ إلى الحفرةِ وأهالَ الترابَ فوقها ثمَّ ردمَ الحفرةَ الأولى الخاطئةَ وسوى الترابَ فوقَ الحفرتين. نزعَ بعضَ الأوراقِ من الشجيراتِ ونثرها أمامَ شجرةِ البلوطِ ثمَّ تراجعَ إلى الوراءِ وعاينَ ما قامَ بهِ. كان راضياً عن عملهِ فلم تعد أعمالُ الحفرِ واضحةً للناظرِ العادي.

ومن ثمَّ استدارَ بعيداً عن الفسحةِ وعادَ إلى المنزلِ.

-90-

عندَ نهايةِ شهرِ آب/ أغسطس قامَ رالف بجولةٍ في أراضيهِ حولَ شايرنغ مع مرافقهِ الدائمِ السير آلان فيرنهيل وابنه الجديد سام. كان رالف يستمتعُ بأخذِ

سام معه فقد كان ابنه وهو الآن بعمرِ الرجالِ. ما زال ابناهُ الآخران جيري ورولي صغيرين جداً على القيام بمثلِ هذهِ الأمور، ولم يكن سام يعلم بأمرِ هذهِ الأبوةِ ولكنَّ رالف استمتعَ بإبقاءِ الأمرِ سراً.

ارتاعوا بما رأوه خلالَ جولتِهم فقد كان المئاتُ من أقنانِ رالف موتى أو يحتضرونَ بينما الذرةُ استوت على سويقاتها في الحقولِ وليس هناك من يحصدها، وفي أثناءِ انتقالهم من مكانٍ إلى آخر تعاظمَ غضبُ ويأسُ رالف، ولجمَت ملاحظاتهُ الساخرة مرافقيه وأثّر مزاجهُ السيئ على جوادهِ الذي أخذَ يجفلُ.

في كلِّ قريةٍ وفي أراضي الأقنانِ أيضاً هناك مساحةٌ مخصصةٌ لاستخدامِ الإيرل الشخصي، ويُفترضُ بالعاملين لديهِ والأقنان الذين كانوا مُجبرين على العملِ لديهِ ليومٍ واحدٍ في الأسبوعِ أن يزرعوها. كان وضعُ هذهِ الأراضي هو الأسوأ. ماتَ العديدُ من العاملين لديهِ وبعضُ الأقنانِ المُجبرين على العملِ ليومٍ واحدٍ مما أعطى الأقنانَ الآخرين الفرصة للحصولِ على شروطِ إيجارٍ أفضل بعدَ موجةِ الطاعونِ الأخيرةِ ولهذا لم يكونوا مضطرين إلى العملِ على أرضِ السيدِ، وفوق هذا كله كانت الاستعانةُ بعمالٍ جددٍ أمراً مستحيلاً.

عندما وصلَ رالف إلى ويغلي توجهَ إلى القسم الخلفي من منزلِ السيدِ وألقى نظرةً على الحظيرةِ الخشبيةِ الكبيرةِ التي عادةً ما تكونُ في هذا الوقتِ من العامِ ممتلئةً بالحبوبِ الجاهزةِ للطحنِ إلا أنَّ الحظيرةَ كانت فارغةً ووجدَ هرَّةً أنجبت صغارها في سقيفةِ القشِّ.

«وما الذي سنفعلهُ من أجلِ الخبز؟» زأرَ رالف في وجهِ نيثان ريف. «ومن دونِ الشعيرِ لصنعِ الجعةِ ما الذي سنشربهُ؟ بحقِّ الرَّبِّ من الأفضلِ أن يكونَ لديكَ خُطة».

وتحدثَ نيثان بغُلظةٍ قائلاً: «كلُّ ما يمكننا فعلهُ هو إعادةُ توزيعِ الأراضي».

تفاجأ رالف بفظاظةِ نيثان فهو عادةً ما يكونُ متملّقاً. عندما حدقَ نيثان إلى الشابِ سام أدركَ رالف سببَ فظاظتهِ. كان نيثان يكرهُ سام لأنّه قتلَ ابنهُ جونو، وبدلاً من أن يعاقبَ رالف سام عفا عنهُ أولاً وجعلهُ مرافقاً ثانياً. لا عجبَ أنَّ نيثان يبدو مستاءً.

قال رالف: «لا بدَّ من وجودِ شبابٍ في القريةِ قادرين على زراعة الأراضي الإضافيةِ».

«أه، أجل، ولكنهم غير مستعدين لدفعِ ضريبةِ الإيجارِ»، قال نيثان.

«هل يريدون الأرضَ مجاناً؟»

«أجل. إنَّهم يعرفون أنَّ لديكَ فائضاً من الأراضي وتعاني من نقصٍ في العمال وأنَّهم في موقعِ تفاوضٍ جيِّد». في الماضي كان نيثان سريعاً في الإساءةِ إلى الفلاحين الوقحين ولكنَّه يبدو الآن مستمتعاً بمُعضلةِ رالف.

«إنَّهم يتصرفونَ كأن إنكلترا مُلكهم وليست مُلكاً للنبلاءِ»، قال رالف بغضبٍ.

«هذا مشينٌ يا سيدي»، قال نيثان بتهذيبٍ أكثر وارتسمَت على وجههِ نظرةٌ ماكرةٌ. «على سبيلِ المثالِ يرغبُ ابنُ ولفريك ديفي بالزواجِ من آمابيل ووضعِ يدهِ على أرضِ أمّها، وهذا منطقي بما أنَّ آنيت لم تتمكن قطُّ من إدارةِ أرضِها».

وهنا تحدَّثَ سام: «لن يدفع والدي ضريبةَ انتقالِ الأرضِ فهما غير موافقين على الزواجِ».

قالَ نيثان: «ولكن قد يتمكنُ ديفي من دفعها بنفسهِ».

كان رالف متفاجئاً وسأل: «ولكن كيف؟»

«لقد باعَ المحصولَ الجديد الذي زرعهُ في الغابةِ».

«نبات الفوه الصبغي! يبدو أننا لم نقم بعملٍ جيدٍ عندما سحقناه. ما هو المبلغ الذي حصلَ عليهِ مقابلَ المحصولِ؟»

«لا أحد يعلمُ، ولكن غويندا اشترت بقرةً حلوباً صغيرةً واشترى ولفريك سكيناً جديدة... وترتدي آمابيل وشاحاً أصفر في قداسِ الأحدِ».

وتكهنَ رالف أنَّ نيثانَ تلقى رشوةً دسمةً. «أكرهُ أن أكافئ ديفي على عصيانهِ»، قال رالف. «ولكني في حاجةٍ ماسةٍ ولهذا أعطهِ الأرضَ».

«ستعطيهِ الإذنَ الخاص بالزواجِ ضدَّ رغبةِ أهلهِ».

كان ديفي قد طلبَ من رالف الإذنَ ورفضَ الأخير طلبهُ ولكنَ هذا حدثَ قبلَ أن يقضي الطاعون على الفلاحين. لا يحبُّ رالف التراجعَ عن مثلِ هذهِ القرارات ولكنه كان ثمناً بسيطاً يدفعهُ مقابلَ ما سيحققهُ من فائدةٍ.

«سأعطيهِ إذني»، قال رالف.

«حسناً».

«لنذهب ونقابلهُ فأنا أرغبُ بأن أقدمَ له الإذن شخصياً».

بوغتَ نيثان بهذا ولكنه لم يحتجّ.

في الحقيقةِ كان رالف يرغبُ برؤيةِ غويندا مجدداً فقد كان هناك شيءٌ ما فيها يجعلُ لعابهُ يسيلُ، ولم يبقهِ لقاؤهُ الأخيرُ بها في كوخِ الصيدِ الصغيرِ مُكتفياً لوقتٍ طويلٍ، وفكر فيها طوال الأسابيعِ اللاحقةِ لذلكَ اللقاءِ. لم تحققْ لهُ نوعيةُ النساءِ اللواتي كان ينامُ معهن هذهِ الأيامِ من عاهراتٍ صغيراتٍ وعاهراتِ الحاناتِ والخادمات رضاً كبيراً فقد كُنَّ يتظاهرنَ بأنَّهن يستمتعن بمغازلاتهِ رغمَ أنَّه يعلمُ أنَّ كلَّ ما أردنهُ هو الحصول على المالِ، ولكن على نقيضهن لم تحاول غويندا قط إخفاءَ احتقارها له بل كانت ترتعشُ تقززاً عندما يلمسها، وقد أطربهُ هذا لأنَّه وللمفارقةِ شعورٌ صريحٌ ولهذا فهو حقيقي. بعدَ لقائهما في كوخِ الصيدِ أعطاها كيساً من البنساتِ الفضيةِ ولكنها رمتهُ في وجههِ بقوةٍ كبيرةٍ بعثت الرضى في نفسهِ.

«إنهم في حقلِ بروكفيلد اليومَ يحصدون الشعير الناضج»، قال نيثان. «سآخذك إلى هناك».

لحقَ رالف ورجالهُ بنيثان إلى خارجِ القريةِ، وساروا على طولِ ضفةِ الجدولِ عندَ أطرافِ حقلٍ كبيرٍ. لطالما كان الجو في قريةِ ويغلي عاصفاً ولكنَّ النسيمَ الصيفي اليومَ كان لطيفاً ودافئاً كثديي غويندا.

كانت بعضُ الأراضي هناك قد حُصدت ولكن اليأس انتاب رالف عندما رأى أراضي أخرى من الشوفانِ الناضجِ والشعيرِ وقد غزتها أعشابٌ ضارَّة وحقلاً من الجودار المحصود ولكن المحصول ما زال على الأرضِ والسنابلُ لم تُحزم بعد.

منذُ عامٍ اعتقدَ رالف أنَّ جميعَ مشاكلهِ الماديةِ ستنتهي. كان قد عادَ إلى الوطنِ من الحربِ الفرنسيةِ الأخيرةِ ومعهُ أسيرٌ فرنسي ويدعى الماركيز دو نوشاتيل، وقد فاوضَ على فديةٍ مقدارها خمسون ألف جنيه، ولكن عائلةَ الماركيز لم تتمكن من جمعِ المالِ، والأمرُ ذاتهُ حصلَ مع الملكِ الفرنسي جان الذي أسرهُ أمير ويلز في معركةِ بواتييه. بقي الملكُ جان في لندن لأربعِ سنواتٍ سجيناً ولكنه عاشَ حياةً مريحةً في قصرِ سافوي الجديد الذي بناهُ دون لانستر. كانت قيمةُ الفديةِ قد خُفضت إلا أنَّ المبلغ لم يُدفع كاملاً بعد. أرسلَ رالف آلان فيرنهيل إلى نوشاتيل للتفاوضِ على الفديةِ، ورغمَ إطلاع آلان العائلةَ على تخفيضِ قيمةِ الفديةِ إلى عشرين ألف جنيه فإنَّ العائلة فشلَت

مجدداً في دفعِ المبلغِ، ثمَّ ماتَ الماركيز في الطاعون وأفلسَ رالف مجدداً وعادَ إلى القلقِ بشأنِ محاصيلِهِ.

كان الوقتُ منتصف النهارِ وعادةً ما يتناولُ الفلاحونَ غداءهم على هذا الجانبِ من الحقلِ. كانت غويندا وولفريك وديفي جالسين على الأرضِ تحتَ شجرةٍ يتناولون لحمَ خنزيرٍ بارداً وبصلاً نيئاً. نهضَ الجميعُ عندما اقتربت الجيادُ وتوجهَ رالف إلى عائلةِ غويندا وهو يلوح لبقيةِ العائلاتِ.

كانت غويندا في ثوبٍ أخضر فضفاض أخفى تضاريس جسدها وربطت شعرها إلى الخلفِ جاعلاً وجهها أكثر شبهاً بوجهِ جُرذٍ. كانت يداها قذرتين وهناكَ ترابٌ عالقٌ تحتَ أظافرها، ولكن عندما نظرَ إليها رالف رآها في مخيلتهِ عاريةً وجاهزةً وبانتظارهِ وعلى وجهها تعبيرُ تقززٍ مُذعن حيالَ ما سيفعلهُ بها واستثارهُ هذا.

انتقلَ بنظرهِ إلى زوجها ورمقَ ولفريك رالف بنظرةٍ لم تكن متحديةً ولا رعديدةً. كان الشيبُ قد غزا شعرَ لحيتهِ الشقراء، ولكن الشعرَ فوقَ الندبةِ التي حصلَ عليها من سيفِ رالف لم يعاود النمو. «ولفريك، ابنكَ يريدُ الزواج من آمابيل ووضع يدهِ على أرضِ آنيت».

وهنا تحدثت غويندا التي لم تتعلم قط التزام الصمت عندما لا يكون الكلام موجهاً إليها.

«لقد سرقت أحدَ أولادي مني، وستأخذُ الآخر الآن»، قالت غويندا بمرارةٍ.

تجاهلها رالف قائلاً: «من سيدفعُ ضريبةَ النقلِ؟»

وتدخلَ نات هنا قائلاً: «الضريبةُ ثلاثين شلناً».

قال ولفريك: «لا أملكُ ثلاثين شلناً».

قال ديفي بهدوءٍ: «يمكنني أن أدفعَ المبلغَ».

وفكرَ رالف بأنّه أبلى جيداً ببيعِ محصولِ الفوه الصبغي ليتحدثَ بمثلِ هذهِ الأريحيةِ عن هذا المبلغِ الكبيرِ من المالِ. «جيدٌ»، قال رالف. «في هذهِ الحالةِ....»

وقاطعهُ ديفي قائلاً: «ولكن ما هي الشروط التي تعرضها علي؟»

شعرَ رالف بأنّه يستشيط غضباً وسأله: «ما الذي تقصدهُ؟»

وتدخّلَ نيثان مجدداً: «الشروط ذاتها المفروضة على آنيت بالطبعِ».

قالَ ديفي: «في هذهِ الحالةِ شكراً لكَ أيها الإيرل ولكن لن أقبلَ بعرضكَ الكريم».

قال رالف: «ما الذي تتحدثُ عنهُ بحقِّ الشيطانِ؟»

«أرغبُ بأخذِ الأرضِ يا سيدي ولكن كمستأجرٍ حُرٍّ يدفعُ إيجاراً مالياً ومن دونِ المستحقاتِ المتعارفِ عليها».

وقالَ السير آلان مهدداً: «كيفَ تتجرأ على مساومةِ إيرل شايرنغ أيُّها الجرو الوقحُ؟»

بدا ديفي مُرتعباً إلَّا أنَّه لم يفقد جرأتهُ: «لا أملكُ نيةَ الإساءةِ يا سيدي. ولكن أريدُ أن أكونَ حُرّاً في زراعةِ ما أرغبُ بهِ. لا أريدُ أن أزرعَ ما يختارهُ نات رييف بغضِ النظرِ عن أسعارِ السوقِ».

وفكرَ رالف بأنَّ ديفي قد ورثَ صفةَ العنادِ من غويندا ثمَّ قالَ بغضبٍ: «يختارُ نيثان ما أرغبُ بهِ! هل تعتقدُ نفسكَ أنَّكَ تعرفُ أكثرَ من الإيرل؟»

«فلتغفر لي يا سيدي ولكنكَ لا تحرثُ الأرضَ ولا تذهبُ إلى السوقِ».

وضعَ آلان يده على غُمدِ سيفهِ ورأى رالف أنَّ ولفريك حدَّقَ بمنجلهِ الملقى على الأرضِ وقد كان نصلهُ الحادُّ يلمعُ تحتَ أشعةِ الشمسِ، وعلى جانبِ رالف جفلَ جوادُ الشاب سام بعصبيةٍ وقد شعرَ بتوترِ راكبهِ، وفكرَ رالف بأنَّه في حالِ وقعَ قتالٌ فهل سيُقاتلُ سام من أجلِ سيدهِ أم من أجلِ عائلتهِ؟

لم يرغب رالف بنشوبِ قتالٍ فكلُّ ما يريدهُ هو أن يحصدَ محاصيلهُ وقتلُ فلاحيهِ سيجعلُ الأمرَ أكثرَ صعوبةً، ولذلكَ أشارَ إلى آلان بتمالكِ نفسهِ. «هذهِ هي الطريقةُ التي يقوضُ بها الطاعون الأخلاق»، قال بتقززٍ. «سأعطيكَ ما تريدهُ يا ديفي لأنَّه عليَّ فعلُ هذا».

ابتلعَ ديفي لعابهُ بصعوبةٍ وقال: «مكتوباً يا سيدي؟»

«أنتَ تطلبُ نسخةً مكتوبةً أيضاً؟»

أومأ ديفي برأسهِ خائفاً من التحدثِ أكثر.

«هل تشك بوعدِ الإيرل؟»

«لا، يا سيدي».

«ولكن لماذا تطلبُ عقداً مكتوباً إذاً؟»

«لتجنبِ الشكِ في السنواتِ القادمةِ».

كان هذا جوابُ الجميع عندما يُسألون عن سببِ طلبهم لنسخةٍ ورقيةٍ عن العقدِ، وما عنوهُ بهذا الكلامِ هو أنَّه في حالِ كان العقدُ مكتوباً فإنَّ السيدَ لن

يُغيرَ الشروطَ بسهولةٍ ولكن هذا يعدُّ انتهاكاً صريحاً للتقاليدِ المتعارف عليها. لم يكن رالف راغباً بالقيامِ بتنازلٍ آخر ولكنهُ مجدداً لم يكن يملكُ الخيارَ فهو يريدُ حصدَ محاصيلهِ بأيّ طريقةٍ.

وعندها فكرَ بشيءٍ قد يكسبهُ من الموقفِ ابتهجَ.

«حسناً»، قال رالف. «سأعطيكَ نسخةً ورقيةً عن العقدِ، ولكن لا أريدُ أن يغادر الرجالُ الحقولَ في وقتِ الحصادِ. تستطيعُ والدتكَ القدومَ إلى القلعةِ وأخذ العقد الأسبوع القادم».

***

في يومٍ صيفي قائظٍ جداً ذهبت غويندا إلى قلعةِ الإيرل سيراً على الأقدام. كانت تعلمُ ما يريدهُ رالف منها وتركها التفكيرُ بالأمرِ في حالةٍ تعسةٍ، وبينما كانت تقطعُ الجسرَ المتحرِّكَ إلى القلعةِ بدا لها أنَّ الغربان على الأسوار تضحكُ في سخريةٍ على مصابها.

غطت أشعةُ الشمسِ الحارَّة والقاسية كاملَ الفسحةِ داخلَ القلعةِ وحجبت الجدرانُ أيَّ نسيم. كان المرافقون خارجَ الإسطبلات يلعبونَ لعبةً وكان سام بينهم ولكنهُ بدا منغمساً جداً في اللعبِ ولم يلاحظها.

كانوا قد ربطوا هِرّاً إلى عمودٍ على مستوى النظرِ وبطريقةٍ لا يمكن فيها للحيوان أن يحرِّكَ رأسه أو قوائمه. كان على المرافقِ أن يقتلَ الهرَّ ويداه مربوطتان إلى ظهرهِ. رأت غويندا هذهِ اللعبةَ قبلاً، وكانت الطريقةُ الوحيدة لينجحَ المرافق في فعلِ هذا هي بضربِ الحيوانِ المسكينِ برأسهِ، ولكن، وبشكلٍ طبيعي، كان الهرُّ يُدافعُ عن نفسهِ بخدشٍ وعضِّ وجهِ المهاجم. كان المُتحدي فتى في السادسة عشرة وحامَ قربَ العمودِ والهرُّ الخائفُ يراقبه، وفجأةً ضربَ الفتى برأسهِ صدرَ الهرِّ ولكنَّ الحيوانَ انقضَّ عليهِ بمخالبهِ فصرخَ المرافقُ من الألم وتراجعَ إلى الوراءِ وخداهُ ينزفان دماً بينما غرقَ بقيةُ المرافقين في الضحكِ. غضبَ المُتحدي فاندفعَ باتجاهِ العمودِ مرَّةً أخرى وضربَ الهرَّ برأسهِ، وخدشهُ الهرُّ بشكلٍ أسوأ هذهِ المرةِ وآذى رأسهُ ووجدَ الآخرون هذا مضحكاً أكثر. وفي المرةِ الثالثةِ كان المرافق أكثرَ حذراً وتظاهرَ بالاقترابِ فأخذَ الهرُّ يخدشُ ولكن في الهواءِ، ثمَّ وبكل عنايةٍ ضربَ المرافقُ رأسهُ برأسِ الحيوانِ وكانت ضربةً مباشرةً. سالَ الدمُ من فمِ ومنخري الحيوانِ وفقدَ الوعي إلا أنّه كان يتنفس، ثمَّ ضربهُ المتحدي ضربةً أخيرةً وقتله فهللَ الآخرون وصفقوا.

شعرت غويندا بالتقزز. ورغم أنها لا تحبُّ القططَ كثيراً، فهي تفضلُ الكلابَ، إلا أنَّ رؤيةَ مخلوقٍ عاجزٍ يُعذب أمرٌ مزعجٌ، وتكهنت أنَّ على الصبيةِ أن يفعلوا هذا استعداداً لتشويهِ وقتلِ البشرِ في الحربِ، ولكن هل يجبُ أن تسير الأمورُ على هذا النحو؟

تابعت طريقها من دونِ التحدثِ إلى ابنها وعبرت الجسرَ الثاني وهي تتعرقُ ثمَّ صعدت درجَ القلعةِ، ولحسنِ الحظِ كانت القاعةُ باردةً.

كانت سعيدةً لأنَّ سام لم يرها وأملت أن تتجنبه قدرَ الإمكانِ. لم تكن تريدهُ أن يشكَ بشيءٍ ما، ورغمَ أنَّه لم يكن شخصاً حساساً فإنَّه قد يلاحظ الضيقَ على والدتِهِ.

أخبرت حارسَ القاعةِ عن سببِ حضورها ووعدها بأن يُخبرَ الإيرل. «هل الليدي فيليبا في القلعةِ؟» سألت غويندا في رجاءٍ فلعل وجود فيليبا يردعُ رالف من القيامِ بشيءٍ.

ولكنَّ الحارس هزَّ رأسهُ بالنفي: «إنَّها في مونماوث مع ابنتها».

أومأت غويندا برأسها في كدرٍ وجلست منتظرةً. لم تنجح في صرفِ ذهنها عن التفكيرِ بلقائها مع رالف في كوخِ الصيدِ، وعندما نظرت إلى الجدارِ الرمادي العاري للقاعة الكبيرةِ رأتهُ يُحدقُ بها كأنَّها عارية وقد فغرَ فاه قليلاً من شدَّةِ الترقُّبِ، وكما كانت حميميةُ ممارسةِ الجنسِ مع الرجلِ الذي تحبهُ ممتعةً كانت ممارستهُ مع رجلٍ تكرههُ مُغثيةً.

في المرةِ الأولى التي أكرهها رالف على ممارسةِ الجنسِ معهُ منذُ عشرين عاماً خانها جسدُها، وشعرت بالمتعةِ الجسديةِ حتَّى عندما كانت تختبرُ تقززاً روحياً منهُ، والأمرُ عينهُ حدثَ مع آلوين، الخارج عن القانونِ في الغابةِ، ولكن الأمرَ لم يتكرر مع رالف في كوخِ الصيدِ هذهِ المرةِ، وعزت هذا إلى تغيراتٍ سببها التقدم في العمرِ. عندما كانتَ شابةً تفور رغبةً أثار الفعل الجسدي ردَّ فعلٍ أوتوماتيكياً، ورغم أنَّه غريزيٍ لكنه جعلها تشعرُ بعارٍ أكبر. وها هي الآن بالغةٌ ولم يعد جسدها ضعيفاً ولا ردُّ فعلها سريعاً، ويمكنها أن تكونَ ممتنةً لهذا على الأقلِّ.

في طرفِ القاعةِ درجٌ يُفضي إلى غرفةِ الإيرل، ورأت الرجال يصعدون وينزلون باستمرارٍ: فرسان وخدم ومستأجرون ووكلاء، وبعدَ ساعةٍ أشارَ لها الحارس لتصعد.

كانت تخشى أن يكونَ رالف راغباً بممارسةِ الجنسِ معها هناك ولكنها شعرت بالراحةِ عندما عرفت بأنَّه يُسيرُ الأعمالَ اليومَ. كان برفقتِهِ السير آلان وموظفان كاهنان جلسا إلى طاولةٍ عليها أدواتٌ للكتابةِ. سلَّمها ورقةً صغيرةً مطويةً.

لم تنظر إليها فهي لا تجيدُ القراءةَ.

«إليكِ»، قال رالف. «ها قد أصبحَ ابنكِ مستأجراً حُراً، أليس هذا ما كنتِ تريدينه دوماً؟»

أرادت الحريَّةَ لنفسها وعلمَ رالف بهذا. لقد كان على حقٍ فهي لم تنجح في الحصولِ عليها ولكن ديفي حصلَ على حريتِهِ. ربما لم تذهب حياتها هباءً في نهاية المطافِ. سيكونُ أحفادها أحراراً ومستقلين في زرعِ المحاصيلِ التي يريدونها ويدفعونَ منها مالَ الإيجارِ ويتركونَ الباقي معهم. لن يعرفوا معنى تعاسةِ الفقرِ والجوعِ اللذين اختبرتهما غويندا.

هل يستحقُ هذا كلَّ ما مرَّت به؟ لم يكن لديها أدنى فكرة.

أخذت اللفافةَ وتوجهت إلى الباب.

لحقَ بها آلان وتحدثَ معها بصوتٍ خفيض وهي تهمُّ بالخروج. «فلتبيتي في القاعةِ الليلةَ»، قال لها. ينامُ معظمُ سكانِ القلعةِ في القاعةِ الكبيرةِ، ثمَّ تابع: «لتذهبي غداً إلى كوخِ الصيدِ بعدَ مرورِ ساعتين على منتصفِ النهارِ».

حاولت أن تغادرَ من دونِ جوابٍ.

ولكن آلان وضعَ ذراعهُ أمامها وقال لها: «هل فهمتِ؟»

«أجل»، قالت بصوتٍ خفيضٍ. «سأكون هناك بعدَ الظُهرِ».

وتركها تذهبُ.

***

لم تتحدث غويندا إلى سام إلَّا في وقتٍ متأخرٍ من الأمسيةِ. قضى المرافقون بقيةَ ما بعدَ الظهيرةِ بأكملها يمارسون مختلفَ الألعابِ العنيفةِ، وكانت سعيدةً لأنَّها حظيت بوقتٍ للبقاءِ وحدها. جلست في القاعةِ الباردةِ وحيدةً مع أفكارها، وحاولت أن تُخبرَ نفسها بأنَّ إقامةَ علاقةٍ جنسيةٍ مع رالف لا يعني شيئاً لها فهي ليست عذراء بل متزوجة منذُ عشرين عاماً ومارست الجنسَ آلاف المرَّاتِ، ولذلكَ سينتهي الأمرُ خلالَ دقائق ولن يتركَ فيها أيَّ ندوبٍ. ستقومُ بهذا وستنساه... حتَّى المرةِ القادمةِ.

كان هذا أسوأ ما في الأمرِ فقد يستمرُ رالف في إجبارها على الخيانةِ الزوجيةِ، وسيظلُ تهديدهُ بفضحِ سرِّ أبوةِ سام مرعباً لها ما دامَ ولفريك على قيدِ الحياةِ.

بالطبعِ سيملُّ رالف منها عاجلاً ويعودُ إلى عاهراتِ الحاناتِ ذوات الأجسادِ الشابةِ.

«ما خطبكِ؟» قالَ لها سام إبانَ وصولهِ مع المرافقين الآخرين عندَ الغسقِ لتناولِ العشاء.

«لا شيء»، قالت على عجلٍ. «اشترى لي ديفي بقرةً حلوباً».

شعرَ سام ببعضِ الحسدِ فقد كان يستمتعُ بالحياةِ ولكن المرافقين لا يحصلونَ على المالِ فهم ليسوا بحاجةٍ ماسةٍ إليهِ بما أنَّهم يحصلونَ على الطعامِ والشرابِ والمأوى والملبسِ، ولكنّ أيّ شابٍ سيُحبُ أن يكون في محفظتهِ بعضُ المالِ.

ثمَّ تحدثت غويندا عن زفافِ ديفي القادم.

«ستصبحين أنتِ وآنيت جدتين»، قالَ سام. «ولذلكَ عليكِ أن تتصالحي معها».

«لا تكن غبياً»، انفجرت غويندا قائلةً: «أنتَ لا تعلمُ عمَّا تتحدثُ عنهُ».

خرجَ رالف وآلان من الغرفةِ عندما قُدمَ العشاءُ واجتمعَ جميعُ القاطنين والزوارِ في القاعةِ. أحضرَ طاقمُ خدمِ المطبخِ ثلاث أسماك كراكي مشويةً مع الأعشابِ. جلست غويندا بالقربِ من نهايةِ الطاولةِ بعيداً عن ناظري رالف الذي لم يلحظ وجودها.

بعدَ العشاءِ استلقت غويندا لتنام على فراشٍ من القشِّ على الأرضيةِ قربَ سام. كان الاستلقاءُ بجانبهِ يُشعرها بالراحةِ تماماً كما لو أنّه ما زال طفلاً صغيراً. تذكرت كيفَ كانت تُصغي إلى تنفسهِ الطفولي الهادئ والمطمئن في هدوء الليلِ. وبينما كانت تغرقُ في النومِ فكرت بالأولادِ وكيفَ يكبرونَ ولا يحققون توقعاتِ والديهما. لقد عاملها والدها كبضاعةٍ يمكنهُ المتاجرةُ بها ولكنها رفضت بكلِّ غضبٍ أن تُستخدم بتلكَ الطريقةِ، وها هما ولداها الآن يفعلان ما فعلتهُ ويشقان طريقهما في الحياةِ، وكلاهما اختارا طريقاً لم تخططهُ لهما. سيُصبحُ سام فارساً وسيتزوجُ ديفي من ابنةِ آنيت، وفكرت في نفسها بأنّها لو علمت ما ستؤول إليه الأمور فهل كانت ستتوقُ لإنجابهما؟

حلمت بأنّها ذهبت إلى كوخِ الصيدِ الخاص برالف ولم تجدهُ هناك بل

وجدَت هِرّاً على سريرِه. كانت تعلمُ أنّه عليها قتلُ الهرِّ ولكنَّ يديها كانتا مقيدتين وراءَ ظهرها ولهذا أخذت تضربُ الهرَّ برأسها إلى أن ماتَ.

عندما استيقظت أخذت تتساءلُ إن كان بوسعها قتلُ رالف في الكوخِ.

لقد قتلَت آلوين في الماضي بأن غرزت سكينَها في عنقِهِ ودفعتها باتجاهِ رأسِهِ إلى أن خرجَ طرفُ السكينِ من عينِهِ، وقتلَت أيضاً سام تشابمان وقد ثبتت رأسهُ تحتَ الماءِ وهو يتلوى ويضربُ وأبقتهُ على هذهِ الحالةِ إلى أن امتلأت رئتاه بماءِ النهرِ وماتَ. إن ذهبَ رالف إلى كوخِ الصيدِ وحده واختارت اللحظةَ المناسبةَ فقد تتمكنُ من قتلِهِ.

ولكن رالف لن يكونَ وحدهُ فالإيرل عادةً لا يذهبُ إلى أيِّ مكانٍ وحدهُ، سيرافقهُ آلان حتماً، ورغم أنَّ تنقله بصحبةِ مرافقٍ واحدٍ أمرٌ غريبٌ فإنّه من المستبعدِ أن يكون وحدهُ من دون مرافقٍ.

وتساءلت غويندا في نفسها إن كانت تستطيعُ قتلهما معاً. لا أحد يعلمُ أنّها ذاهبةٌ لمقابلتهما ولذلك إن قتلتهما وعادت إلى القريةِ فلن يشكَّ أحدٌ في تورطها. لا أحد يعلمُ دافعَها فهو سرٌ لا يعرفه أحدٌ سواهم هم الثلاثة، وهذا هو المطلوب. قد يدركُ أحدهم أنّها كانت بقربِ الكوخِ في ذلكَ الوقتِ، ولكن لن يفعلوا شيئاً سوى استجوابها عمّا رأته وستقول أنّها رأت رجالاً بمظهرٍ مثيرٍ للريبةِ في الجوارِ، ولن يخطرَ ببالهم أنَّ رجلاً ضخماً كرالف قُتلَ على يدِ امرأةٍ ضئيلةٍ في منتصفِ العمرِ.

ولكن هل ستنجحُ في فعلِ هذا؟ فكرت بالأمرِ ولكنها علمت ومن صميمِ قلبها أنَّ الأمرَ ميئوسٌ منهُ فقد كانا رجلين خبيرين في استخدامِ العنفِ ويذهبانِ إلى الحروبِ بينَ الفينةِ والأخرى وقد عادا مؤخراً من حملةِ الشتاءِ ما قبلَ الماضي. كانت ردودُ فعلِهما سريعةً وقاتلةً وأرادَ العديدُ من الفرسانِ الفرنسيين قتلهما وماتوا وهم يحاولون.

قد تقتلُ أحدهما باستخدامِ عنصري الخفَّةِ والمفاجأةِ ولكنها لن تنجحَ بقتلهما معاً.

كان عليها أن تستسلمَ لرالف.

وتوجهَت إلى الخارجِ متجهمةً لتغسلَ وجهها ويديها، وعندما عادتَ إلى القاعةِ الكبيرةِ كان طاقمُ خدمِ المطبخِ يقدمونَ خبزَ الجودارِ والجعةَ الخفيفة على الفطورِ. وجدت سام يُغمسُ الخبزَ البائتَ في الجعةِ ليغدو طرياً.

«ها هي النظرةُ ذاتها على وجهكِ مجدداً»، قال سام. «ما الخطبُ؟»

«لا شيء»، قالت له وسحبَت سكين الطعام لتقطعَ شريحةً من الخبزِ ثمَّ قالت له: «أمامي مسيرٌ طويلٌ».

«هل هذا ما يُقلقكِ؟ لا يجب أن تسافري وحدكِ فمعظمُ النساءِ لا يفعلنَ هذا».

«أنا أقوى من معظمِ النساءِ»، قالت وسُرَّت لأنَّه أبدى اهتماماً بها فقد كان هذا أمراً لم يفعلهُ والدهُ الحقيقي رالف يوماً، لا بد أنَّ ولفريك في نهايةِ المطافِ تركَ تأثيراً على الصبي، ولكنها شعرَت بالحرجِ لأنَّه رأى هذا التعبيرَ على وجهِها وتكهنَ بما تشعرُ بهِ ولذلك قالت له: «ما من داعٍ للقلقِ علي».

«يمكنني أن أرافقكِ»، عرضَ عليها وتابع: «أنا واثقٌ من أنَّ الإيرل سيسمحُ لي. إنَّه لا يحتاجُ إلى مرافقيهِ اليومَ فهو سيذهبُ إلى مكانٍ ما مع آلان فيرنهيل».

كان هذا آخرَ شيءٍ قد تريدهُ. إن فشلت في الذهابِ إلى الموعدِ فسيُفشي رالف السرَّ، وكان بوسعها أن تتخيلَ المتعةَ التي سيشعرُ بها رالف وهو يفعلُ هذا. لم يكن بحاجةٍ إلى الكثيرِ من التحريضِ ليقومَ بهذا.

«لا»، قالت غويندا بحزمٍ. «ابقَ هنا فأنتَ لا تعرفُ متى قد يستدعيكَ الإيرلُ».

«لن يستدعيني الإيرل ويجبُ أن أرافقكِ».

«أمنعُكَ من فعلِ هذا» قالت وتناولت لقمةً من الخبزِ الذي في يدِها ثمَّ وضعت البقيةَ في محفظتها. «أنتَ فتى طيبٌ لاهتمامكِ بي ولكن هذا ليسَ ضرورياً»، ثمَّ قبَّلتهُ على وجنتهِ. «فلتهتمَّ بنفسكِ، ولا تقم بمخاطراتٍ غير ضروريةٍ. وإن أردت فعلَ شيءٍ من أجلي حاول أن تبقى على قيدِ الحياةِ».

وخرجت.

عندَ البابِ استدارت إلى الوراءِ ورأته يراقبها عن كثبٍ فأجبرت نفسها على الابتسام ابتسامةً راضيةً ثمَّ خرجت.

***

توجهت غويندا إلى الكوخِ وعلى الطريق بدأ القلقَ ينتابها حيالَ افتضاحِ أمرِ علاقتها الغراميةِ مع رالف فمثلُ هذهِ الأمور تُفتضحُ بسهولةٍ. لقد التقتهُ قبلاً وهي الآن على وشكِ الالتقاءِ بهِ مجدداً وخشيت أن يتكررَ الأمرُ في المستقبل. كم من الوقتِ سيمرُّ قبلَ أن يراها أحدٌ تغادرُ الطريقَ في مرحلةٍ ما من رحلتِها وتدخلُ إلى الغابةِ فتخامرهُ الشكوكُ؟ ماذا لو دخلَ أحدٌ بالصدفةِ وفي اللحظةِ

عير المناسبةِ إلى كوخِ الصيدِ؟ كم من الناسِ سيلاحظونَ أنَّ رالف وآلان يختفيان عندما تسافرُ غويندا من القريةِ إلى قلعةِ الإيرل؟

قبلَ الظهرِ توقفت في حانةٍ وتناولت بعضَ الجعةِ والجبنةِ. عموماً، يُغادرُ المسافرون في جماعاتٍ من أجلِ الأمانِ ولكنَّ غويندا حرصت على الانتظارِ إلى أن خلا الطريق من المسافرين وعندما وصلَت إلى نقطةِ الانعطافِ إلى الغابةِ نظرت وراءها وأمامها لتتأكدَ أنَّ ما من أحدٍ كان يراقبها. رأت حركةً بينَ الأشجارِ على بعدِ ربعِ ميلٍ وراءها، وحدَّقت إلى الأفقِ الضبابي في محاولةٍ لتتبين ما رأتهُ، ولكنها لم ترَ أحداً؛ كانت قد بدأت تتوترُ بشدةٍ.

وفكّرَت مجدداً وهي تشقُّ طريقها عبرَ الشجيراتِ الصيفيةِ بخطةِ قتلِ رالف. إن حالفها الحظُّ ولم يكن آلان هناك فهل ستجدُ فرصةً سانحةً؟ ولكن آلان كان الشخصَ الوحيدَ في العالمِ الذي يعلمُ بأمرِ لقائها برالف هناك. إن قتلت رالف فسيعلمُ آلان أنَّها القاتلةُ، وستضطرُ إلى قتلهِ أيضاً، وبدا هذا مستحيلاً.

خارجَ الكوخِ رأت غويندا جوادين ووجدت رالف وآلان في الداخلِ جالسين إلى طاولةٍ صغيرةٍ وبقايا وجبةٍ أمامهما: نصفُ رغيفٍ من الخبزِ وعظمُ خنزير وبقايا جبنٍ وزجاجةُ نبيذٍ. أغلقت غويندا البابَ خلفها.

«ها هي قد أتت كما وعدت»، قالَ آلان في رضا فقد كُلفَ بعملِ جلبها إلى هذا الموعدِ وشعرَ بالراحةِ لأنَّها أطاعت الأوامرَ. «إنَّها التحليةُ المناسبةُ لكَ الآن»، قال آلان. «فهي كالزبيبِ؛ مجعدةٌ ولكنها حلوةٌ».

قالت غويندا لرالف: «ألن تطردهُ من هنا؟»

وقفَ آلان وقال: «إنَّ كلامكَ الوقحَ على رأسِ لسانكِ، ألن تتعلمي أبداً؟» ولكنهُ غادرَ الغرفةَ إلى المطبخِ وصفقَ البابَ خلفهُ.

ابتسمَ رالف وقال لها: «تعالي إلى هنا». أطاعتهُ واقتربت منهُ ثمَّ قال لها: «سأطلبُ من آلان أن يكفَّ عن التحدثِ بفظاظةٍ معكِ إن أردتِ هذا».

«من فضلكَ لا تفعل!» قالت لهُ مرتعبةً. «إن بدأ يعاملني بلطفٍ سيبدأ الناسُ بطرحِ الأسئلةِ».

«كما تشائين» قال وأخذَها من يدها وحاول أن يقربها منه ثمَّ قال: «اجلسي على حُجري».

«ألا يمكننا أن نتضاجع وننتهي من الأمرِ؟»

ضحكَ رالف وقال: «هذا ما أريدهُ منكِ.. أنتِ صريحةٌ»، ووقفَ وأمسكها من كتفيها ونظرَ في عينيها وانحنى ثمَّ قبَّلها.

كانت هذهِ المرَّةَ الأولى التي يفعلُ فيها هذا. لقد مارسا الجنسَ مرتين من دونِ قُبلٍ، وشعرت غويندا الآن بالتقززِ. عندما ضغطَ بشفتيهِ على شفتيها شعرَت بأنَّها منتهكةٌ أكثر مما كانت تشعرُ عندما كان يُقحمُ عضوهُ داخلها. فتحَ فمهُ وشعرت بطعمِ الجُبنِ في نفسهِ فتراجعَت إلى الوراءِ متقززةً وقالت له: «لا».

«تذكري ما الذي يُمكنُ أن تخسريهِ».

«من فضلكَ لا تفعل هذا».

بدأ يغضبُ وقالَ بصوتٍ عالٍ: «سأحصلُ عليكِ! اخلعي ثوبكِ!»

«من فضلكَ دعني وشأني»، قالت لهُ وبدأ يتفوه بشيءٍ ولكنها رفعَت صوتَها ليعلو فوقَ صوتهِ. كانت الجدرانُ رقيقةً وعلمت أنَّ آلان في المطبخِ يستطيعُ سماعَها تتوسلُ إلى رالف ولكنها لم تكن تهتمُ.

«لا تجبرني، أتوسلُ إليكَ!»

«لا يُهمني ما تقولينهُ!» صرخَ. «اصعدي على ذلكَ السرير!»

«من فضلكَ لا تُجبرني!»

وفجأةً انفتحَ البابُ الأمامي على مصراعيهِ.

التفتَ كلٌ من غويندا ورالف إلى الوراءِ وحدَّقا.

كان سام عندَ البابِ.

قالت غويندا: «يا إلهي! لا!»

وفي تلكَ اللحظةِ تجمَّدَ ثلاثتُهم لبرهةٍ من الزمنِ وفجأةً استوعبت غويندا ما حدثَ. كان سام قلقاً عليها ولذلك عصا أوامرَها ولحقَ بها سِرَّاً من قلعةِ الإيرل ودونَ أن يُبعد ناظريه عنها ثمَّ رآها تغادرُ الطريقَ وتدخل إلى الغابةِ. كانت قد لاحظت حركةً عندما نظرت إلى الخلفِ ولكنها لم ترَ شيئاً ولهذا لم تعبأ بالأمرِ. وصلَ سام إلى الكوخِ بعدَ دقيقةٍ أودقيقتين من وصولها الكوخَ، ولا بدَّ أنَّه سمعَها تصرخُ. بدا لسام أنَّ رالف على وشكِ إجبارِ غويندا على ممارسةِ علاقةٍ جنسيةٍ لا تريدها، وعندما استعادت في عقلها بسرعةٍ كلَّ الكلامِ الذي تبادلتهُ مع رالف أدركَت أنَّها لم تذكر السببَ الذي سيجعلها ترضخُ لرالف فهو لم يكشف السّر... بعد.

وسحبَ سام سيفهُ.

قفزَ رالف على قدميهِ واندفعَ سام باتجاهِهِ ولكن رالف نجحَ في سحبِ سيفهِ. وجهَ سام سيفهُ إلى رأسِ رالف ولكن رالف رفعَ سيفهُ في الوقتِ المناسبِ وصدَّ الضربةَ.

ها هو ابن غويندا يحاولُ قتلَ والدهِ.

كان سام في خطرٍ كبيرٍ فهو بالكادِ رجلٌ بالغٌ ويواجه جُندياً عتيداً.

صرخَ رالف: «آلان!»

وأدركت غويندا أنَّ سام لم يكن في مواجهةِ جندي واحد بل جُنديين.

اندفعَت عبرَ الغرفةِ وعندما فُتحَ بابُ المطبخِ وقفت غويندا وراءَهُ وظهرها للحائطِ ثمَّ سحبت خنجرها من حِزامها.

فُتحَ البابُ بقوةٍ ودخلَ آلان.

نظرَ إلى المُقاتلين ولم يرَ غويندا ثمَّ توقفَ لبرهةٍ ليستوعبَ المشهدَ الذي أمامهُ. ارتفعَ سيفُ سام في الهواءِ مجدداً وقد وجهه هذهِ المرة إلى عنقِ رالف، ومجدداً صدَّ رالف الضربةَ بسيفهِ.

رأى آلان على الفورِ أنَّ سيدهُ يتعرضُ إلى هجومٍ شرسٍ لذلكَ سحبَ سيفهُ من غمدهِ بسرعةٍ وتقدَّمَ فطعنتهُ غويندا من الخلفِ.

غرزَت خنجرها الطويل عميقاً ونحو الأعلى بأشدِّ ما يُمكنها وقد ساعدتها القوةُ التي اكتسبتها من العملِ في الحقولِ في دفعِ الخنجرِ عميقاً في عضلاتِ ظهرِ آلان إلى أن وصلت إلى كليتيهِ ومعدتهِ ورئتيهِ على أملِ أن تصلَ إلى قلبهِ. كان الخنجرِ بطولِ عشرةِ إنشاتٍ ومدبباً وحادّاً واخترقَ أعضاءَ آلان ولكنه لم يقتلهُ على الفورِ.

أخذَ آلان يصرخُ من الألمِ ولكنهُ توقفَ فجأةً ثمَّ ترَّنحَ واستدارَ وأمسكَ بها محاولاً سحبها نحوه كما يفعلُ المصارعُ فطعنتهُ مجدداً ولكن هذهِ المرَّةَ في معدتهِ. استخدمت التقنية ذاتها وصعدت بخنجرها إلى الأعلى عبرَ أعضائهِ الحيويةِ فخرجَ الدمُ من فمهِ ثمَّ توقفَ عن الحركةِ وتراخت ذراعاه. وللحظةٍ حدَّقَ إلى المرأةِ الضئيلةِ والوضيعةِ التي أنهت حياته غير مصدقٍ ثمَّ أغلقَ عينيهِ وخرَّ على الأرضِ صريعاً.

نظرت غويندا إلى الرجلين الآخرين.

كان سام يضربُ ورالف يصدُّ، وسام يتقدَّمُ ورالف يتراجعُ، ويعاودُ

سامِ الضربَ ورالف بصدهُ من جديدٍ. دافع رالف عن نفسهِ بهمّةٍ غيرَ أنّه لم يُهاجم.

كان خائفاً على ابنه.

ولأنَّ سام لا يعرفُ أنّه يُنازلُ والدهُ لم يكن هناك ما يردعهُ ولهذا أخذَ يكيلُ الضرباتِ ويلوحُ بسيفهِ.

علمت غويندا أنَّ هذا لا يمكنُ أن يستمرَّ لوقتٍ طويلٍ، لأنَّ أحدهما سيؤذي الآخرَ ومن ثمَّ سيتحولُ إلى قتالٍ حتّى الموت. حملَت خنجرها المُلّطخ بالدمِ في استعدادٍ وانتظرت على أحرَّ من الجمرِ فرصةً للتدخلِ وطعنِ رالف بالطريقةِ التي طعنَت بها آلان.

«انتظر»، قال رالف رافعاً يدهُ اليُسرى ولكن سام كان غاضباً واندفعَ يكيلُ إليهِ ضربةً. صدَّ رالف الضربةَ وتحدَّثَ مجدداً: «انتظر!» كان يلهثُ من التعبِ ولكنهُ تمكنَ من قولِ بضعِ كلماتٍ. «هناك أمرٌ لا تعرفهُ».

«أعلمُ ما يكفي!» صرخَ سام وشعرت غويندا بنبرةٍ هيستيريةٍ صبيانيةٍ في صوتهِ الرجولي ثمَّ لوَّحَ بسيفهِ مجدداً.

«لا تفعل!» صرخَ رالف.

علمت غويندا أنَّ رالف يريدُ إخبارَ سام بالحقيقةِ وكان على وشكِ أن يقولَ لهُ: «أنا والدكَ».

ولكنَّ هذا ما لا يجبُ أن يحدثَ.

«أصغِ إلي!» قال رالف واستجابَ لهُ أخيراً فتراجعَ إلى الوراءِ ولكنه لم يُخفض سيفهُ.

كان رالف يلهثُ ويحاولُ التقاطَ أنفاسهِ ليتحدثَ، ولكن غويندا اندفعت نحوهُ.

التفتَ رالف إلى الوراءِ ليواجهها ملوحاً بسيفِه إلى اليمينِ في حركةٍ على شكلِ قوسٍ مستوٍ. اصطدمَ نصلُ سيفهِ بخنجرها فأوقعهُ أرضاً من يدها. كانت الآن عاجزةً تماماً وعلمَت أنّه لو ضربها ضربةً أخرى لقتلَها.

ولكن وللمرةِ الأولى منذُ أن سحبَ سام سيفهِ كان صدرُ رالف مفتوحاً وبلا حمايةٍ.

تقدَّمَ سام إلى الأمامِ وغرزَ سيفهُ في صدرِ رالف.

اخترقَ الطرفُ المدببُ للسيفِ سترةَ رالف الصيفيةَ الخفيفةَ ودخلت

جسده من الجهةِ اليسرى لصدرِه. لا بدَّ أنَّ السيفَ دخلَ بينَ ضلعين لأنَّ حركةَ الاختراقِ استمرَّت. أطلقَ سام صيحةَ ظفرٍ متعطشةٍ للدمِ ودفعَ بقوةٍ أكبر فترنحَ رالف إلى الوراءِ بفعلِ عزمِ الضربةِ واصطدمِ كتفاه بالجدارِ خلفهُ ولكن سام تقدَّمَ وضغطَ بكلِّ قوتهِ. بدا السيفُ كأنّه يخترقُ كاملَ صدرِ رالف وعندما خرجَ رأسُ السيفِ من ظهرِ رالف وعلقَ بخشبِ الجدارِ خرجَ صوتٌ أشبهُ بخبطةٍ غريبةٍ.

كانت عينا رالف مثبتتين على وجهِ سام وعلمت غويندا ما كان يُفكرُ بهِ. لقد استوعبَ رالف أنَّ الأذيةَ التي تلقاها قاتلةٌ، وفي اللحظاتِ الأخيرةِ من حياتهِ كان على علمٍ بأنَّ ابنهُ من قتلهُ.

أفلتَ سام السيفَ ولكن السيف لم يسقط فقد كان مُثبتاً إلى الجدارِ وقد ثبَّتَ معهُ رالف بشكلٍ مريعٍ. تراجعَ سام إلى الوراءِ مرتاعاً.

لم يمت رالف بعد فقد كانت ذراعاه تتحركان بوهنٍ وهو يحاولُ الإمساكَ بالسيفِ وسحبه من صدرهِ إلا أنّه كان عاجزاً عن تنسيقِ حركاتهِ، وأدركت غويندا في لحظةِ رعبٍ أنّه كان يبدو كالهرِّ الذي قيَّدهُ المرافقونَ إلى عمودٍ.

انحنت والتقطت خنجرها عن الأرضيةِ.

ثمَّ وبشكلٍ مثيرٍ للذهولِ تحدَّثَ رالف.

«سام»، قال رالف. «أنا...» ثمَّ خرجَ دمٌ غزيرٌ من فمهِ منعهُ من متابعةِ كلامهِ.

وشكرَت غويندا الرَّبَّ في نفسها.

توقفَ سيلُ الدمِ الغزيرِ بالسرعةِ التي بدأ فيها وتمكنَ رالف من التحدثِ مجدداً. «أنا...»

ولكن هذهِ المرَّة أوقفتهُ غويندا بأن قفزت إلى الأمامِ وغرزت خنجرها في فمهِ. أصدرَ رالف صوتاً مريعاً كأنّه يختنقُ وغاصَ نصلُ الخنجرِ في حلقهِ.

أفلتت غويندا الخنجرَ وتراجعت إلى الوراءِ.

حدَّقت في رعبٍ إلى ما فعلتهُ فها هو الرجلُ الذي عذَّبها لوقتٍ طويلٍ مصلوباً إلى الجدارِ بسيفٍ في صدرهِ وسكينٍ في فمهِ. ورغم أنّه لم يصدر صوتاً فإنَّ عينيه بدتا حيَّتين وهو يتنقلُ بنظرهِ في ألمٍ ورعبٍ ويأسٍ بين غويندا وسام وبالعكسِ.

وقفت غويندا وسام يحدقان إلى رالف في صمتٍ وانتظارٍ.

وأخيراً أطبقَ عينيهِ.

تراجعَت موجةُ الطاعونِ بحلولِ شهر أيلول/ سبتمبر وتراجعَ عددُ المرضى في مستشفى كاريس بالتدريجِ مع موتِ من كانوا مصابين وعدمِ وصولِ حالاتٍ جديدةٍ. نُظفت ومُسحت الغرفُ الفارغةُ وفي المواقدِ ألقيت جذوعُ الصنوبرِ وامتلأ المستشفى برائحةٍ خريفيةٍ قويةٍ. دُفنَ آخر مريضٍ في مقبرةِ المستشفى مع بدايةِ شهرِ تشرين الأول/ أكتوبر، وبينما أنزلَ أربعةُ شبانٍ الجثة المكفنة في حفرةٍ في الأرضِ علت شمسٌ حمراء باهتةٌ فوقَ كاتدرائيةِ كينغزبريدج. كانت الجثةُ لنسَّاجٍ أحدب من أوثنباي وعندما حدَّقت كاريس إلى القبرِ رأت عدوها القديم -الطاعون- في باطنِ الأرضِ الباردةِ، وبصوتٍ واطئٍ قالت: «هل مُتَّ حقاً أم ستعودُ مجدداً؟»

بعدَ الجنازةِ عادت الراهباتُ إلى المستشفى فلم يكن لديهن ما يفعلنهُ.

غسلت كاريس وجهها وسرَّحت شعرها وارتدت ثوباً جديداً كانت قد خبأتهُ من أجلِ هذا اليوم. كان بلونٍ أحمر زاهٍ من قماشِ كينغزبريدج ثمَّ خرجت من المستشفى لأول مرَّةٍ منذُ ستةِ أشهرٍ.

توجهت على الفورِ إلى حديقةِ ميرثن.

ألقت أشجارُ الإجاصِ تحتَ شمسِ الصباحِ ظلالاً طويلةً وقد بدأت الأوراق تحمرُّ وتتفتّتُ ومازالت بضعُ ثمارٍ مدورةٍ وبنية عالقةٌ بالأغصانِ. كان البستاني آرن يُقطِّعُ الحطبَ بالفأسِ وعندما رأى كاريس بوغتَ وارتعبَ في البدايةِ ثمَّ أدركَ ما عناه ظهورها وارتسمَت على وجههِ ابتسامةٌ ثمَّ رمى فأسهُ وركضَ باتجاهِ المنزلِ.

كانت إم في المطبخِ تُعدُّ العصيدةَ فوقَ نارٍ قويةٍ ونظرت إلى كاريس كأنّها رؤيةٌ سماويةٌ. كانت متأثرةً جداً إلى درجةِ أنّها قبّلت يدي كاريس.

صعدَت كاريس الدرجَ إلى غرفةِ نومِ ميرثن.

كان واقفاً بقربِ النافذةِ في قميصهِ الداخلي ينظرُ إلى النهرِ الذي يجري قرب المنزلِ. استدارَ نحوها وشعرت بقلبها يخفق بسرعةٍ عند رؤيةِ وجههِ المألوفِ بقسماتهِ غير المتناسقةِ والنظرةِ المتقدةِ ذكاءً والابتسامة الجاهزةِ والظريفةِ، وبحُبٍ حدَّقَ إليها بعينيهِ العسليتين وفمه المفتوحِ على ابتسامةٍ ترحيبيةٍ. لم تبدُ عليهِ المفاجأةُ وهذا يعني أنّه لاحظَ تراجعَ أعداد المرضى في المستشفى وتوقع ظهورها في أيِّ يومٍ. بدا كرجلٍ تحققت كلُّ آمالهِ.

وقفت بجانبِهِ عندَ النافذةِ ووضعَ ذراعهُ حولَ كتفيها فأحاطت خصرهُ بذراعها. كان الشيبُ في لحيتهُ الصهباءِ قد ازدادَ قليلاً عمّا كان عليهِ منذُ ستةِ أشهرٍ، وتخيلت أنَّ خطَّ شعرِ رأسِهِ قد تراجعَ قليلاً ولكن لم تكن واثقةً من دقةِ هذا.

ولوهلةٍ أخذا يُحدقانِ إلى النهرِ الذي تلون بلونِ الحديد في ضوءِ الصباحِ الرمادي بينما سطحهُ ينتقلُ دون توقفٍ بينَ الصقيلِ اللامعِ وتشكيلاتٍ غير متناسقةٍ من الأسودِ الداكنِ. كان يتغيرُ على الدوامِ وبالطريقةِ ذاتها.

«لقد انتهى»، قالت كاريس.

ثمَّ قبّلا بعضهما بعضاً.

***

أعلنَ ميرثن عن إقامةِ معرضٍ خريفي خاص احتفالاً بإعادةِ فتحِ المدينةِ، وأُقيم في الأسبوعِ الأخيرِ من شهرِ تشرينِ الأولِ/ أكتوبر. كان موسمُ تجارةِ الصوفِ قد انتهى ولكن الصوفَ لم يعد البضاعةَ الأساسيةَ لمدينةِ كينغزبريدج وأتى آلافُ الناس لشراءِ القماشِ القرمزي الذي باتت المدينةُ مشهورةً بهِ.

خلالَ وليمةِ السبتِ في ليلةِ افتتاحِ السوقِ قامت النقابةُ بتكريمِ كاريس، ورغمَ عدمِ نجاةِ كينغزبريدج من الطاعونِ بالكاملِ فإنّها لم تعانِ كما عانت بقيةَ المدنِ ولذلكَ شعرَ الناسُ أنّهم يدينونَ بحياتهم إلى إجراءاتها الوقائيةِ. كانت بطلةَ الجميعِ وأصرَّ أعضاءُ النقابةِ على الاحتفالِ بإنجازها وجهّزت مادج ويبر لمراسمَ تشريفيةٍ جديدةٍ قُدمَ فيها إلى كاريس مفتاحٌ ذهبي يُمثلُ مفتاحَ بوابةِ المدينةِ، وشعرَ ميرثن بالفخرِ الشديدِ.

في اليومِ التالي الذي كان يومَ أحد توجهَ ميرثن وكاريس إلى الكاتدرائيةِ، ولأنَّ الرهبانَ ما زالوا في دير سان جون إن ذا فوريست أقامَ الأبُ مايكل من كنيسةِ سان بيتر القداس، وكانت الليدي فيليبا كونتيسةُ شايرنغ حاضرةً.

لم يرَ ميرثن فيليبا منذُ جنازةِ رالف. لم تذرف الكثيرَ من الدموعِ على زوجها. عادةً ما يُدفنُ الإيرل في كاتدرائيةِ كينغزبريدج، ولكن ولأنَّ المدينةَ كانت مُغلقةً دُفنَ في شايرنغ.

بقي موتُ رالف غامضاً فقد عُثرَ عليه في كوخِ الصيدِ مطعوناً في الصدرِ إلى جانبِ جثة آلان فيرنهيل الذي مات متأثراً بجراحِهِ. بدا كأن الرجلين تناولا الغداء معاً فقد كان هناك بقايا وجبة على الطاولةِ. يبدو أنَّ الرجلين تناولا الغداء

معاً فقد كان هناك بقايا وجبةٍ على الطاولةِ. هناك أيضاً آثار قتالٍ في الكوخ، ولكن ما لم يكن واضحاً هو إن كان رالف وآلان قد قتلا بعضهما بعضاً أم أنَّ أحداً آخراً متورطٌ في الأمرِ. لم يُسرق شيءٌ من الكوخ ووجدَ المالُ قرب الجثتين إضافة إلى سلاحيهما الباهظين والجوادين الثمينين في الفسحةِ خارج الكوخ يرعيانِ العشبَ، وبسببِ هذا مالَ محقق الجرائمِ في شايرنغ إلى نظريةِ أنَّ الرجلين قتلا بعضهما بعضاً.

بعبارةٍ أخرى لم يكن هناك غموضٌ حيال موتهما فقد كان رالف رجلاً عنيفاً ولذلكَ لم يكن موتهُ بطريقةٍ عنيفةٍ أمراً مُفاجئاً، وكما قالَ المسيحُ: من يعِشْ بالسيفِ يمت بالسيفِ، رغمَ أنَّ الكهنةَ لم يقتبسوا هذهِ الآيةَ كثيراً خلالَ عهدِ الملكِ إدوارد الثالث، ولكن ما كان مُذهلاً للجميع هو أنَّ رالف قد نجا من حملات عسكرية ومعارك دامية كثيرة والعديدِ من الهجماتِ على سلاحِ الفرسانِ الفرنسي ليموتَ في شجارٍ قربَ قلعتهِ.

تفاجأ ميرثن من نفسهِ عندما بكي في الجنازةِ، وتساءلَ في نفسهِ عمَّا أحزنهُ. لقد كان شقيقهُ رجلاً شريراً وسببَ الكثير من الشقاءِ ولذلك كان موتهُ رحمةً، ومنذُ موت تيلي لم يعد الشقيقان مقربين. إذاً فما الذي أحزنهُ؟ وقررَ ميرثن في نهايةِ المطافِ أنّه كان حزيناً على الشقيقِ الذي لم يحظَ بهِ، الرجل الذي يتحكمُ بعنفهِ ولا يطلقُ العنانَ لهُ ويوجهُ عدوانيتهُ المدفوعة بحسِّ العدالةِ وليسَ بطموحهِ لتحقيقِ مجدٍ شخصي. في وقتٍ ما ربما كان رالف سيكبر ويصبح هذا الرجل. عندما كانا صبيين بعُمرِ الخامسةِ والسادسةِ يلعبانِ بالقواربِ الخشبيةِ في بركةٍ موحلةٍ لم يكن رالف قاسياً وحقوداً ولهذا السببِ بكى ميرثن شقيقهُ.

أتى الولدان مع فيليبا إلى الجنازةِ وكانا برفقتها اليوم: جيري ابن رالف الكبير من المسكينةِ تيلي والأصغر رولي الذي يعتقدُ الجميعُ أنّه ابن رالف من فيليبا رغمَ أنّه في الحقيقةِ ابن ميرثن. لحسنِ الحظِ لم يكن رولي ضئيلَ البنيةِ وأصهب جداً مثلَ ميرثن وسيكبرُ طويلاً ومعتداً بنفسهِ كوالدتهِ.

كان رولي يُمسكُ بقطعةٍ خشبيةٍ محفورةٍ وقدَّمها إلى ميرثن في وقارٍ. كانت منحوتةَ جوادٍ ورأى ميرثن أنّه أبلى جيداً في صناعتها بالنسبةِ إلى فتى في العاشرةِ. كان بإمكان معظم الأطفالِ أن يصنعوا حيواناً واقفاً على قوائمهِ، ولكن رولي صنعهُ متحركاً وقوائمه في وضعياتٍ مختلفةٍ وعُرفهُ يبدو كأنّه يطيرُ

مع الريحِ. كان الولدُ قد ورثَ قدرةَ والدِهِ على تخيلِ أشياء معقدةٍ بأبعادٍ ثلاثيةٍ، وشعرَ ميرثن بغصَّةٍ مفاجئةٍ فانحنى وقبَّلَ رولي على جبينِهِ.

ابتسمَ ميرثن لفيليبا ابتسامةً تفيضُ امتناناً، وتكهنَ بأنَّها شجعت رولي على إعطاءِ الجواد له فهي تعلمُ ما الذي يعنيهِ هذا لميرثن. نظرَ ميرثن إلى كاريس ورأى أنَّها أيضاً فهمت أهميةَ الأمرِ رغمَ أن ما من أحدٍ قالَ شيئاً.

كان الجو السائدُ في الكنيسةِ العظيمةِ بهيجاً رغم أنَّ الأب مايكل لم يكن واعظاً جذاباً وقضى القداسَ يتلعثمُ إلَّا أنَّ الراهباتِ غنينَ بشكلٍ جميلٍ كالعادةِ، وأشرقت الشمسُ بشكلٍ يبعثُ على التفاؤل عبرَ زجاجِ النوافذِ الملونِ بألوانٍ داكنةٍ غنيةٍ.

كان الهواءُ خريفياً بارداً وبعدَ الكنيسةِ تجولوا في السوقِ. أمسكت كاريس بذراعِ ميرثن بينما سارت فيليبا على جانبِهِ الآخر، وركضَ الصبيان أمامهم وحارسُ فيليبا ووصيفتها يسيران خلفهم. رأى ميرثن أنَّ سيرَ الأعمالِ في السوق جيدةٌ وأنَّ حرفيي وتجارَ كينغزبريدج قد بدأوا بإعادةِ بناءِ ثرواتهم. ستتعافى المدينةُ من الطاعونِ بسرعةٍ أكبر من المرةِ الماضيةِ.

كان كبارُ أعضاءِ النقابةِ يتجولون ويتفقدونَ الموازين والمعايير. هناك مقاييس محددةٌ لوزنِ كيسِ الصوفِ وعرضِ قطعةِ القماشِ ومكيالِ الحبوبِ كي يعرفَ الناس تماماً ما يشترون. شجَّعَ ميرثن أعضاء النقابةِ على القيامِ بهذهِ الجولاتِ التفقديةِ بشكلٍ مهيبٍ حتَّى يرى الشارون أنَّ تجارَ المدينةِ يراقبونَ سيرَ الأمورِ فيها وبكلِ عنايةٍ. بالطبعِ إن حامت شكوكهم حولَ قيامِ أحدٍ بالغشِ فسيتحققون من الأمرِ بسريَّةٍ وإن وجدوهُ مذنباً فسيتخلصونَ منهُ بهدوءٍ.

ركضَ ابنا فيليبا بحماسٍ من كشكٍ إلى آخر، وقالَ ميرثن لفيليبا بهدوءٍ وهو يراقبُ رولي: «الآن وبعدَ وفاةِ رالف هل هناك سببٌ يمنعُ رولي من معرفةِ الحقيقة؟»

بدت فيليبا غارقةً في التفكير وقالت: «أتمنى لو أنني أستطيعُ أن أخبرهُ... ولكن إن أخبرناه فهل هذا من أجلهِ أم من أجلنا؟ لعشرِ سنواتٍ اعتقدَ رولي أنَّ رالف والدهُ، ومنذُ شهرين بكى على قبرِ رالف ولذلكَ سيكونُ إخبارُه الآن بأنَّ والدهُ رجلٌ آخر صدمة رهيبة».

كانا يتحدثان بصوتٍ واطئٍ ولكن كاريس سمعتهما وقالت: «أتفقُ مع فيليبا. يجبُ أن تفكرَ بمصلحة الطفلِ وليسَ بمصلحتك».

ورأى ميرثن أن ما قالتاه منطقي. على أيِّ حالٍ كان أمراً صغيراً مُحزناً في هذا اليومِ السعيد.

«وهناك سببٌ آخر»، قالت فيليبا. «لقد أتى غريغوري لونغفيلو لمقابلتي الأسبوعَ الماضي. يريدُ الملكُ أن يجعلَ من جيري إيرلَ شايرنغ».

«بعمرِ الثالثة عشرة؟» قال ميرثن.

«يصبحُ لقبُ الإيرل إرثاً حالما يُمنحُ على عكسِ لقبِ البارون، ولكني سأسيِّرُ شؤونَ المقاطعةِ للسنواتِ الثلاث القادمةِ».

«كما كنتِ تفعلين عندما كان رالف يذهبُ لمحاربةِ الفرنسيين. لا بدَّ أنَّك مرتاحةٌ لأنَّ الملكَ لا يطلبُ منكِ أن تتزوجي مجدداً».

وقالت عابسةً: «أنا عجوزٌ جداً على هذا!».

«إذاً في حالِ أبقينا الأمرَ سِرّاً سيكونُ رولي الوريثَ الثاني»، وفكرَ ميرثن بأنَّه في حالِ حدثَ خطبٌ لجيري فإنَّ ابنهُ سيُصبحُ إيرل شايرنغ. من كان ليتخيلَ هذا!

«سيكونُ رولي حاكماً جيداً»، قالت فيليبا. «إنَّه ذكي وهادئ وحازم وليسَ قاسياً كرالف».

كانت طبيعةُ رالف القاسية واضحةً منذُ الطفولةِ فقد قتلَ كلبَ غويندا عندما كان بعمرِ رولي. «ولكن قد يُفضل رولي أخذَ طريقٍ مختلفٍ»، ونظرَ مجدداً إلى الجوادِ الخشبي.

ابتسمت فيليبا، ورغم أنها لا تبتسمُ كثيراً فإنَّها عندما تفعلُ تبدو ساحرةً، وفكرَ ميرثن بأنَّها ما تزالُ جميلةً.

«استسلم للأمرِ ولتكن فخوراً بِهِ»، قالت لهُ.

وتذكرَ ميرثن كيف كان والدهُ فخوراً عندما أصبحَ رالف الإيرل، ولكنهُ كانوا يعلمُ أنَّه لن يشعرَ بهذا أبداً لأنَّه سيكونُ فخوراً برولي في أيِّ شيءٍ يختاره ما دامَ يُبلي فيهِ جيداً. قد يصبحُ الفتى نحاتاً وينحت القديسين والملائكة، أو قد يصبح نبيلاً حكيماً ورحيماً، أو يصبح شيئاً آخر، شيئاً لا يتوقعهُ والداه.

دعا ميرثن فيليبا والصبيين إلى الغداءِ وغادروا جميعاً منطقةَ الكاتدرائيةِ ثمَّ عبروا الجسرَ بينما تدفقت العرباتُ المُحملةُ بالبضائعِ إلى السوق بشكلٍ معاكسٍ لمسارهم. وصلوا إلى جزيرةِ ليبر ودخلوا من البستانِ إلى المنزلِ.

وفي المطبخِ وجدوا لولا.

حالما رأت لولا والدها انفجرت باكيةً فأحاطها بذراعيهِ وأخذت تشهقُ على

كتفهِ. أياً كانت الوجهة التي أتت منها لا بدَّ أنَّ الفرصة لم تسنح لها لتستحم فقد كانت رائحتها كرائحةِ زريبةِ خنازير ولكنهُ كان سعيداً جداً ولم يُلقِ بالاً إلى هذا.

ومرَّ وقتٌ طويلٌ قبلَ أن يفهموا شيئاً منها. عندما تحدَّثت أخيراً قالت لهم: «لقد ماتوا، جميعهم!» ثمَّ انفجرت مرَّةً أخرى في البكاءِ، وبعدَ وهلةٍ هدأت وتحدثت بوضوحٍ أكبر: «لقد ماتوا جميعاً»، كررت وهي تكبحُ بكاءها ثمَّ تابعت: «جايك، بويو وهال، جواني وتشالكي وفيريت، الواحد تلو الآخر، وكلُّ ما قمتُ بهِ من أجلهم لم يكن مفيداً».

وفهمَ ميرثن أنَّهم كانوا يعيشونَ في الغابةِ؛ مجموعةُ شبانٍ يتظاهرون بأنَّهم حواري ورُعيان، وبدأت التفاصيلُ تتبدّى لهم تدريجياً. كان الفتيةُ يقتلونَ ظبياً بينَ الفينةِ والأخرى، وأحياناً يغيبون ليومٍ ويعودونَ مع برميلٍ من النبيذِ وبعضِ الخبز. قالت لهم لولا إنَّهم كانوا يشترونَ المؤنَ ولكن ميرثن تكهنَ بأنَّهم كانوا يسلبونَ المسافرين. بطريقةٍ ما تخيلت لولا أنَّهم يستطيعونَ العيشَ بهذهِ الطريقةِ إلى الأبد، ولم تفكر بأنَّ الأمورَ ستكونُ مختلفةً في الشتاءِ، ولكن الطاعون وليسَ الشتاء ما وضعَ حداً لهذهِ الأنشودةِ الرعويةِ في نهايةِ المطافِ.

«كنتُ خائفةً جداً»، قالت لولا. «احتجت إلى كاريس».

أصغى جيري ورولي إلى حديثها في عجبٍ. لطالما كانا يعبدان ابنةَ عمهما الكبيرة لولا، ورغمَ أنَّها عادت إلى المنزلِ باكيةً فإنَّهما نظرا إليها بإعجابٍ أكبر بعدَ سماعِ قصة مغامراتها.

«لا أريدُ أن أختبرَ هذا مجدداً»، قالت لولا. «أن أكونَ عاجزةً وأصدقائي مرضى ويموتونَ من حولي».

«يمكنني تفهمُ هذا»، قالت كاريس. «هذا ما شعرتُ بهِ عندما توفيت أمي».

«هل ستعلمينني كيفَ أشفي الناسَ؟» قالت لولا لكاريس. «أريد أن أساعدهم حقاً كما تفعلين وليسَ بغناءِ التراتيل وعرضِ صورةِ ملاكٍ عليهم. أريد أن أفهمَ عملَ العظامِ والدمِ والأعشابِ الطبيةِ وكل ما يجعلُ الناسَ يشعرونَ بشكلٍ أفضل. أريد أن أكونَ قادرةً على فعلِ شيءٍ عندما يمرضُ أحدهم».

«بالطبعِ سأعلمكِ إن كان هذا ما تريدينهُ»، قالت كاريس. «سأكونُ مسرورةً جداً».

ذُهل ميرثن مما سمعهُ فقد كانت لولا لسنواتٍ متمردةً ونكدةً وإحدى ذرائعها لرفضِ السلطةِ هو أنَّ زوجة أبيها كاريس لم تكن أمَّها الحقيقيةَ التي

يتعينُ عليها احترامها. كان ميرثن سعيداً بهذا التغير في مسارِ الأمورِ وشعرَ بأنَّه يستحقُّ تقريباً ألمَ القلقِ الذي مرَّ به.

بعدَ برهةٍ دخلت راهبةٌ إلى المطبخِ وقالت لكاريس: «تعاني آني جونز الصغيرةَ من نوبةٍ، ولا نعرفُ ما خطبها. هل يمكنكِ أن تأتي؟»

«بالطبع»، قالت كاريس.

قالت لولا: «هل يمكنني أن أرافقكِ؟»

«لا»، قالت كاريس. «إليك الدرس الأول: يجبُ أن تكوني نظيفةً أولاً. فلتذهبي وتستحمي. يمكنكِ أن ترافقيني غداً».

وبينما كانت كاريس تهمُّ بالمغادرةِ دخلت مادج ويبر وقالت بعبوسٍ: «هل سمعتَ الأخبارَ؟ لقد عادَ فيليمون».

***

في ذلكَ الأحد تزوجَ ديفي وآمابيل في كنيسةِ ويغلي الصغيرةِ.

أعطتهم الليدي فيليبا الإذنَ باستخدامِ منزلِ السيدِ لإقامةِ حفلةِ الزفافِ، وذبحَ ولفريك خنزيراً وشواه كاملاً على النارِ في الحديقةِ. أحضرَ ديفي زبيباً واستخدمتهُ آنيت لإعدادِ الكعك. لم يكن هناك جعة لأنَّ معظمَ محصولِ الشعيرِ قد تعفنَ في الحقولِ بانتظارِ حصادهِ، ولكن فيليبا أرسلت سام إلى القريةِ مع هديةٍ وهي برميلٌ من عصيرِ التفاحِ.

كانت غويندا تسترجعُ كلَّ يومٍ مشهدَ كوخِ الصيدِ، وفي منتصفِ الليلِ تحدقُ في العتمةِ وترى رالف وخنجرها في فمهِ ومقبضُ الخنجرِ ناتئ من بينِ أسنانهِ البنيةِ بينما سيفُ سام يثبتهُ إلى الجدارِ.

استعادَت هي وسام أسلحتهما وبينما كانا يسحبانِ الأسلحةَ بقوةٍ من رالف تكومت جثتهُ على الأرضيةِ. بدا الرجلان كأنّهما قتلا بعضهما بعضاً وقد لطَّخت غويندا سلاحيهما النظيفين بالدمِ وتركتهما في مكانهما، وفي الخارجِ حلَّت قليلاً لجامي الجوادين حتَّى يعيشا لبضعة أيامٍ إن تطلَّبَ الأمرُ إلى أن يجدهما أحدٌ ما، ثمَّ ابتعدت هي وسام عن الكوخِ.

كان محققُ الجرائمِ في شايرنغ يشكُّ بأنَّ الخارجين عن القانونِ متورطون في موتهما، ولكنه أخيراً وصلَ إلى الاستنتاجِ الذي كانت تتوقعهُ غويندا. لم تحم أيُّ شكوكٍ حولها وحولَ سام ونجيا بفعلتهما.

كانت قد أخبرت سام بنسخةٍ مُعدلةٍ عما حدثَ بينها وبينَ رالف، وتظاهرت

بأنَّها المرةُ الأولى التي يحاولُ فيها إكراهها على ممارسةِ الجنسِ معهُ، وقالت لهُ إنَّه هددها بالقتلِ إن رفضت. كان سام مصعوقاً لقتلهِ إيرلاً، ولكنه لم يشك قط بأنَّ عملَهُ مبررٌ، وأدركت غويندا أنَّه كان يملكُ الطبعَ المناسبَ ليكونَ جندياً فهو لن يعاني من كربِ تأنيبِ الضميرِ لأنَّه يقتلُ.

ولا هي أيضاً كانت تعاني من كربِ تأنيبِ الضميرِ رغمَ أنَّها أحياناً كانت تسترجعُ المشهدَ في تقززٍ. لقد قتلت آلان فيرنهيل وأنهت على رالف، ولكنها لم تكن نادمةً قط. إنَّ العالم من دونهما مكانٌ أفضلُ. ماتَ رالف وهو يعاني من ألمِ المعرفةِ بأنَّ ابنه طعنهُ في قلبهِ. لقد استحق هذا حقاً. كانت واثقةً أنَّه وبمرورِ الوقتِ ستتوقفُ تلكَ الرؤيةِ التي تأتيها ليلاً.

وضعت جانباً ذكرياتها وألقت نظرةً حولها إلى سكانِ القريةِ المحتفلين في قاعةِ قصرِ السيدِ.

لقد أنهوا الخنزيرَ المشوي وشربَ الرجالُ كلَّ عصيرِ التفاحِ. جلبَ آرون آبلتري قربتهُ فمنذُ وفاةِ والدِ آنيت بيركن لم يعد هناك من يقرع على الطبلِ، وتساءلت إن كان ديفي سيبدأ بتعلمِ قرعِ الطبلِ الآن.

أرادَ ولفريك الرقصَ كما يفعلُ عادةً عندما يشربُ كثيراً. رقصت معهُ غويندا الرقصةَ الأولى وهي تضحكُ وتحاولُ مجاراتهُ في رقصهِ المرح. رفعها في الهواءِ ودارَ بها ثمَّ ألصقها بجسدهِ بقوةٍ ووضعها أرضاً ليدورَ بها في قفزاتٍ كبيرةٍ. لم يكن لديهِ حسٌّ بالإيقاعِ ولكنَ حماسهُ كان مُعدياً. وبعدَ ذلكَ قالت لهُ إنَّها تعبت ولهذا رقصَ مع زوجةِ ابنهِ آمابيل.

ثمَّ وبالطبعِ رقصَ مع آنيت.

كان قد نظرَ إليها حالما انتهى اللحنُ وأفلتَ آمابيل. في طرفِ القاعةِ كانت آنيت جالسةً على مقعدٍ في ثوبٍ أخضر قصير قليلاً ويكشفُ عن كاحليها الجميلين. لم يكن فستانها جديداً إلا أنَّها طرَّزت صدرهُ بزهورٍ صفراء وورديةٍ، وكالعادةِ كان هناك بضعُ خصلٍ من شعرها أفلتت من قبعتها وتحركت حولَ وجهها. كانت أكبرَ بعشرين عاماً على الظهورِ بهذا المظهرِ ولكنها لم تعلم، وولفريك لم يعلم أيضاً.

ابتسمت غويندا عندما بدأ الرقصَ. أرادت أن تبدو سعيدةً ومبتهجةً ولكنها أدركت أنَّ ابتسامتها أشبه بتقطيبةٍ ولهذا تخلَّت عن المحاولةِ. ابتعدت بناظريها عنهما وراقبت ديفي وآمابيل. ربما لن تكونَ آمابيل كوالدتها، ورغمَ أنَّها

تتصرفُ بشكلٍ مغناجٍ كوالدتها فإنَّ غويندا لم ترها قط تُغازلُ أحداً حقاً، وهي الآن لا تبدو مهتمةً بأحدٍ آخر غير زوجها.

ألقت غويندا نظرةً فاحصةً على الغرفةِ ورأت ابنها الآخر سام. كان مع شبانٍ آخرين يخبرهم بقصةٍ ويُمثلها متظاهراً بأنّه يُمسكُ بلجامِ جوادٍ متخيلٍ ويكادُ يقعُ عنهُ. كانوا مأسورين بهِ، وربما كانوا يحسدونهُ لأنّه كان محظوظاً لكونهِ مرافقاً.

ما زالَ سام يعيشُ في قلعةِ الإيرلِ فقد أبقت الليدي فيليبا على معظمِ المرافقين والجنودِ لأنَّ ابنها جيري سيحتاجهم ليذهبَ معهم إلى الصيدِ ويمارسَ المسايفةَ ورمي الرمحِ. كانت غويندا تأملُ أن يصبحَ سام خلالَ فترةِ وصايةِ فيليبا أكثرَ ذكاءً ورحمةً مما كان عليهِ خلالَ فترةِ رالف.

لم يكن هناك المزيدُ لتراهُ وعادت غويندا بنظرها إلى زوجها والمرأةِ التي أرادَ الزواجَ منها في يومٍ من الأيام، وتحققت من مخاوفها عندما رأت آنيت تستغلُ طاقةَ وثمالةَ ولفريك. كانت تبتسمُ لهُ بطريقةٍ مثيرةٍ وعندما كانا يبتعدان ثم يقتربان كانت تتعلقُ بهِ كأنّه قميصٌ رطبٌ عالقٌ بالجلدِ.

بدا لها كأن الرقصةَ لن تنتهي فقد كان آرون آبلتري يعيدُ ذات النغم الحماسي على قُربتهِ. تعرف غويندا مزاج زوجها ورأت الآن تلكَ اللمعةَ في عينهِ التي تراها عندما يطلب مضاجعتها، وغضبت جداً عندما أدركت أنَّ آنيت تعرفُ ما الذي كانت تقومُ بهِ، وبدأت تتململ على مقعدها بضيقٍ وهي تتمنى أن تنتهي الموسيقى بأسرع وقت كيلا تُظهر غضبها.

عندما انتهى اللحنُ بشكلٍ حماسيٍ كانت تفورُ بالسخطِ، وقررت أن تُهدِّئَ ولفريك وتجلسهُ بقربها. ستبقى قريبةً منهُ حتّى نهاية الأمسيةِ ولن تحدثَ أيّ متاعب.

ولكن آنيت قبَّلتهُ.

وبينما كانت يدا ولفريك على خصرِ آنيت وقفت على رؤوسِ أصابعها وأمالت وجهها ثمَّ قبَّلتهُ على شفتيهِ بشكلٍ سريعٍ ولكن بقوةٍ، واشتعلت غويندا غضباً.

قفزت عن مقعدها وعبرت القاعةَ، وبينما كانت تمرّ بقربِ العروسين رأى ديفي التعبيرَ المرتسم على وجهها وحاولَ منعها ولكنها تجاهلتهُ. توجهت إلى ولفريك وآنيت اللذين مازالا يحدقان بعضهما إلى بعض ويبتسمان بغباءٍ.

وكزت غويندا آنيت في كتفها وقالت لها بصوتٍ عالٍ: «اتركي زوجي وشأنهُ!»

قالَ ولفريك: «غويندا من فضلكِ...»
«لا تقل كلمةً واحدةً»، قالت غويندا. «فلتبتعد عن هذهِ العاهرة».
واشتعلت عينا آنيت في تحدٍ: «الرقصُ ليسَ مهنةَ العاهراتِ».
«أنا واثقةٌ من معرفتكِ الكاملةِ بما تفعلهُ العاهراتُ».
«كيفَ تجرُئين!»
وتدخلَ ديفي وآمابيل.
قالت آمابيل لآنيت: «من فضلكِ يا أمي لا تفتعلي مشكلةً».
أجابتها آنيت: «أنا لا أفتعلُ شيئاً بل غويندا».
قالت غويندا: «ولكنني لا أحاولُ إغواءَ زوجِ امرأةٍ أخرى».
قال ديفي: «أمّي أنتِ تُفسدينَ حفلَ الزفافِ».
ولكنَ غويندا كانت غاضبةً جداً على سماعِ كلامهِ. «إنّها تفعلُ هذا على الدوامِ. لقد حنثت بوعدها لهُ منذُ ثلاثةٍ وعشرين عاماً وهي لم تدعهُ وشأنهُ منذئذٍ!»
بدأت آنيت بالبكاءِ ولكن غويندا لم تتفاجأ فقد كانت آنيت تستخدم البكاءَ لتنجو بما تفعلهُ.
ومدَّ ولفريك يدهُ ليربتَ على كتفِ آنيت ولكن غويندا انفجرت قائلةً: «لا تلمسها!» وسحبَ يدهُ كأنّه أصيبَ بحرقٍ فيها.
«أنتِ لا تفهمين»، قالت آنيت وهي تشهقُ باكيةً.
«أنا أفهمكِ جيداً»، قالت غويندا.
«لا، أنتِ لا تفعلين»، قالت آنيت ومسحت دموعها ثمَّ وبشكلٍ مفاجئ ألقت على غويندا نظرةً مباشرةً وصريحةً. «أنت لا تفهمين أنكِ الفائزة وأنّه أصبحَ لكِ. أنتِ لا تعلمين كم يُحبكِ ويحترمكِ ويُقدركِ. أنت لا ترينَ الطريقةَ التي ينظرُ فيها إليكِ عندما تتحدثين إلى شخصٍ آخر».
بوغتت غويندا.
«حسناً»، قالت غويندا متلعثمةً فهي لم تعرفْ ما يجب عليها قوله.
تابعت آنيت قائلةً: «هل يحدّقُ إلى نساءٍ أصغر؟ هل يتسلل بعيداً عن ناظريكِ؟ ما هي الليالي التي قضيتهما بعيدين بعضكما عن بعض منذُ عشرين عاماً؟ ليلتان؟ ألا تفهمين أنّه ما دامَ على قيدِ الحياةِ فهو لن يحبَّ امرأةً أخرى؟»
نظرت غويندا إلى ولفريك ورأت أنَّ كلامَ آنيت صحيحٌ؛ في الحقيقةِ كان

الأمرُ واضحاً وهي تعلمُ هذا بل الجميعُ يعلمُ بهِ. حاولت أن تتذكرَ سببَ غضبها من آنيت ولكن بسببِ عماءِ عدائها لها فقد غابَ عن ذهنها.

توقفَ الرقصُ ووضعَ آرون قربتهُ جانباً وتجمَّع الآن جميعُ سكانِ القريةِ حولَ المرأتين - والدتي العروسين.

قالت آنيت: «لقد كنتُ فتاةً غبيةً وأنانيةً وأخذتُ أغبى قرارٍ في حياتي، وبسبب هذا القرار خسرت أفضلَ رجلٍ قابلتهُ، وأنتِ حصلتِ عليهِ. أحياناً لا يمكنني أن أقاوم إغراءَ التظاهرِ بأنَّ الأمور سارت بشكلٍ معاكسٍ وأنَّه مُلكي لذلكَ أبتسمُ له وأرَّبت على ذراعهِ وهو لطيفٌ معي لأنَّه يعلمُ أنَّه فطرَ قلبي».

«أنتِ من فطرتِ قلبكِ»، قالت غويندا.

«أجل، لقد فعلت. وأنتِ الفتاةُ المحظوظةُ التي استفادت من حماقتي».

كانت غويندا مصعوقةً فهي لم تنظر إلى آنيت كشخصٍ حزينٍ. بالنسبةِ لها لطالما كانت آنيت شخصيةً قويةً ومصدرَ تهديدٍ وتخططُ على الدوامِ لاسترجاعِ ولفريك، ولكن لم يخطر ببالها أن تكونَ عكسَ ذلكَ.

وتابعت آنيت: «أعلمُ أنَّكِ تتضايقين عندما يتصرفُ ولفريك معي بلطفٍ. ما أريدُ قوله لكِ هو أنَّ هذا لن يحدث مجدداً، ولكني أعرفُ نقطةَ ضعفي فهل يجب أن تكرهيني بسببِ هذا؟ لا تدعي هذا يُفسدُ بهجةَ الزفافِ والأحفاد الذين نرغبُ بهم، وبدلاً من اعتباري عدوةً أبديةً لكِ ألا يمكنكِ أن تعتبريني أُختاً تسيءُ التصرفَ أحياناً وتغضبكِ إلا أنَّ عليكِ معاملتها كفردٍ من العائلةِ؟

كانت آنيت على حقٍ. لطالما نظرت غويندا إلى آنيت كفتاةٍ جميلةٍ ولكن غبيةٍ ولكن آنيت الآن كانت الأكثر حكمةً بينهما وشعرت غويندا بالتواضعِ.

«لا أعلمُ»، قالت غويندا. «قد أحاول».

اقتربت آنيت من غويندا وقبَّلتها على خدِّها فشعرت غويندا بدموعِ آنيت على وجهها.

«شكراً لكِ»، قالت آنيت.

ترددت غويندا ثمَّ وضعت ذراعيها حولَ كتفي آنيت الهزيلتين وعانقتها.

صفقَ وهللَ جميعُ سكانِ القريةِ حولهما.

وعادت الموسيقى لتصدح مجدداً.

***

مع بدايةِ شهرِ تشرين الثاني/ نوفمبر رتَّبَ فيليمون لقداسِ عيدِ الشكرِ على

نهايةِ الطاعونِ، ووصلَ رئيسُ الأساقفةِ هنري مع الكاهنِ كلود وحضرَ السير غريغوري لونغفيلو أيضاً.

فكرَ ميرثن بأنَّ غريغوري أتى إلى كينغزبريدج ليخبرهم باختيارِ الملكِ. سيُطلعُ غريغوري الرهبانَ على اسمِ الشخصِ الذي اختارهُ الملكُ ولكن الأمر يعودُ إلى الرهبانِ في انتخابهِ أو انتخابِ شخصٍ آخر، وأغلبُ الظن سيكون التصويتُ لمصلحة الشخصِ الذي اختارهُ الملك.

لم يرَ ميرثن على وجهِ فيليمون ما يشيرُ إلى أنَّ غريغوري كشفَ لهُ عن خيارِ الملكِ. كان القرار يعني كلَّ شيءٍ لميرثن وكاريس فإن اختيرَ كلود للمنصبِ فستنتهي متاعبهما لأنَّه شخصٌ معتدل وعقلاني، ولكن إن أصبحَ فيليمون الأسقفَ فستكونُ السنوات القادمة سنواتٍ من النزاعِ والدعاوى القضائيةِ.

بدأ هنري مراسمَ القداسِ ولكن فيليمون قدَّمَ العظةَ. في البدايةِ قدَّمَ شكرهُ للربِّ على استجابته لصلوات رهبانِ كينغزبريدج وتجنيبِ مدينتهم تأثيراتِ الطاعونِ الأسوأ. لم يأتِ على ذكرِ أنَّ الرهبانَ هربوا إلى دير سان جون إن ذا فوريست وتركوا سكان المدينةِ ليحموا أنفسهم ولا أنَّ كاريس وميرثن من ساعدا الرَّبَّ في الاستجابةِ إلى صلواتِ الرهبانِ بإغلاقِ أبوابِ المدينةِ لستةِ أشهرٍ، جعلَ الأمرَ يبدو كأنَّه من أنقذَ كينغزبريدج.

«هذا يثيرُ حنقي»، قال ميرثن لكاريس دونَ أن يكلِّفَ نفسهُ عناءَ التحدثِ بصوتٍ منخفضٍ. «إنَّه يقلبُ الحقائقَ رأساً على عقبٍ».

«فلتهدأ»، قالت كاريس. «الرَّبُّ يعرفُ الحقيقة وكذلكَ الناسُ ولذلك فيليمون لا يخدعُ أحداً بهذا الكلامِ».

بالطبعِ كانت على حقٍ فبعدَ انتهاءِ المعركةِ يشكرُ جنودُ الجانبِ المنتصرِ الرَّبَّ على الدوامِ، ولكنهم وفي الوقتِ عينهِ يعرفون الفرقَ بينَ القادةِ الجيدين والسيئين.

بعدَ انتهاءِ مراسمِ القُداسِ دُعي ميرثن بصفتهِ رئيسَ النقابةِ لتناولِ الغداءِ في قصرِ رئيسِ الديرِ. جلسَ إلى جانبِ الكاهنِ كلود، وحالما انتهوا من صلاةِ الشكرِ على الطعامِ علت همهمةُ أحاديث جانبيةٍ وتحدثَ ميرثن إلى كلودِ بلهجةٍ لجوجةٍ وخفيضةٍ: «هل يعلمُ رئيسُ الأساقفةِ بالشخصِ الذي اختارهُ الملكُ رئيسَ أساقفةٍ؟»

وأجابَ كلودَ بإيماءةٍ بسيطةٍ جداً.

«هل أنتَ هذا الشخص؟»

أومأ كلود برأسِهِ إيماءةً بسيطةٍ تشي بالنفي.

«إذاً، هل هو فيليمون؟»

أومأ برأسِهِ بشكلٍ بسيطٍ مجدداً.

وغاصَ قلبُ ميرثن في صدرِهِ. كيفَ يُمكنُ للملكِ أن يختارَ شخصاً أحمقاً وجباناً كفيليمون ويُفضلهُ على شخصٍ كفؤٍ وعقلانيٍ ككلود؟ ولكن ميرثن عرفَ الجوابَ. لقد استخدمَ فيليمون بطاقاتٍ رابحةٍ. «هل أعلمَ غريغوري الرهبانَ بخيارِ الملكِ؟»

«لا»، ثمَّ اقتربَ من ميرثن قائلاً: «سيُخبرُ فيليمون بشكلٍ غير رسمي بعدَ العشاءِ الليلة ثمَّ سيتحدث إلى الرهبانِ في قاعةِ الاجتماعاتِ صباحَ الغدِ».

«إذاً، أمامنا وقتٌ حتَّى نهايةِ اليومِ».

«من أجلِ ماذا؟»

«لتغييرِ رأيهِ».

«لن تقومَ بهذا».

«سأحاولُ».

«لن تنجح».

«لا تنسَ أنني يائسٌ».

أخذَ ميرثن يلعبُ بطعامِهِ ويتناولُ القليلَ منه وهو يصارعُ للحفاظِ على صبرِهِ إلى أن ينهضَ رئيسُ الأساقفةِ عن الطاولةِ ليتحدث إلى غريغوري.

«هلَّا تمشيتَ معي في الكاتدرائيةِ. أرغبُ بالتحدثِ معكَ عن أمرٍ أنا واثقٌ من أنَّه يُهمُّكَ جداً»، قالَ ميرثن وأومأ غريغوري برأسِهِ موافقاً.

سارا جنباً إلى جنبٍ عبرَ صحنِ الكنيسةِ حيثُ كان ميرثن واثقاً من أن ما من أحدٍ قريبٌ منهما ليسترقَ السمعَ. أخذَ ميرثن نفساً عميقاً فما كان على وشكِ القيامِ به خطيرٌ فهو سيحاولُ إجبارَ الملكِ على تغييرِ خيارِهِ، ولكنَّه إن فشلَ فسيُتهمُ بالخيانةِ ويُعدم.

قالَ ميرثن: «لطالما كانت هناكَ إشاعاتٌ تتحدثُ عن وجودِ وثيقةٍ في مكانٍ ما في كينغزبريدج وعن رغبةِ الملك الشديدةِ في تدميرها».

وتجمدَ غريغوري ولكنه قالَ: «تابع».

بالنسبةِ لميرثن كان هذا التأكيدُ جيدٌ بما يكفي.

«والوثيقة بحوزةِ فارسٍ توفي منذُ فترةٍ قريبةٍ».

«هل توفي حقاً؟!» قالَ غريغوري وقد بوغتَ بهذهِ الحقيقةِ.

«لا بدَّ أنّكَ تعلمُ عمَّا أتحدثُ عنهُ».

أجابَ غريغوري بطريقةِ المحامين: «لنفرض جدلاً أنني أعلمُ».

«أرغبُ بأن أقدّمَ للملكِ خدمةً وأعيدَ إليهِ هذهِ الوثيقة أيّاً تكن». يعرفُ ميرثن حقَّ المعرفةِ ما جاءَ في تلك الوثيقة ولكنه يستطيع إدعاءَ الجهلِ بحذرٍ كما يفعلُ غريغوري.

«سيكونُ الملكُ ممتناً»، قالَ غريغوري.

«إلى أيِّ درجةٍ؟»

«ما الذي تفكرُ بهِ؟»

«أسقفٌ متعاطفٌ مع سكانِ كينغزبريدج أكثر من فيليمون».

أمعنَ غريغوري النظرَ إليهِ وسأله: «هل تحاولُ ابتزازَ ملكَ إنكلترا؟»

وعلمَ ميرثن الآن أنّه دخلَ منطقةَ الخطرِ في خطتهِ ولذلك قال وهو يحاول أن يكون عقلانياً: «إننا في كينغزبريدج تجار وحرفيون ونحن نبيعُ ونشتري ونصنعُ ونتاجرُ. أنا أحاولُ عقدَ صفقةٍ معكَ، وأريد أن أبيعكَ شيئاً ولذلك أخبرتكَ بسعري. أنا لا أبتزكَ ولا أهددكَ. إن كنتَ لا تريدُ شراءَ ما أبيعه سيكونُ هذا نهاية الأمر».

وصلا إلى المذبح وحدَّقَ غريغوري إلى الصليبِ فوقهُ. كان ميرثن يعرفُ تماماً ما الذي يفكرُ بهِ غريغوري. هل عليهِ أن يُطالبَ باعتقالِ ميرثن وأخذهِ إلى لندن وتعذيبهِ إلى أن يكشفَ عن مكانِ الوثيقةِ؟ هل ستكونُ تسميةُ رجلٍ مختلفٍ كأسقفِ كينغزبريدج حلاً وسطياً ومناسباً للملكِ أكثر؟

وحلَّ صمتُ طويلٌ.

كانت الكاتدرائيةُ باردةً فأحكمَ ميرثن عباءتهُ حولهُ، وأخيراً قال غريغوري: «أينَ الوثيقة؟»

«في مكانٍ قريبٍ، سآخذكَ إلى هناك».

«حسناً».

«وماذا عن صفقتنا؟»

«إن كانت هي الوثيقةَ التي أعتقدُ أنّها هي فسأنفذُ ما عليَّ في الاتفاقِ».

«وتجعل الكاهنَ كلود الأسقفَ؟»

«أجل».

«شكراً لكَ»، قال ميرثن. «سنضطرُ إلى السيرِ في الغابةِ قليلاً».

سارا جنباً إلى جنب على الطريقِ الرئيسي وعبرا الجسرَ وغمائمُ أنفاسهما تشقُّ الهواءَ الباردَ. وبينما كانا يسيران في الغابةِ توهجت الشمسُ الشتويةُ بحرارةٍ ضعيفةٍ. عثرَ ميرثن على الطريقِ بسهولةٍ أكبر هذهِ المرةَ وقد اتخذَ الطريق ذاته الذي سارَ عليهِ منذُ أسابيع قليلةٍ، وميَّزَ الينبوعَ والصخرةَ الكبيرةَ والوادي الشديدَ الانحدارِ، وسرعان ما وصلا إلى فسحةٍ خاليةٍ من الأشجارِ بشجرةِ بلوطٍ ضخمةٍ. توجها مباشرةً إلى الموقع الذي حفرَ فيهِ ميرثن وأخرجَ اللفافةَ.

ولكنه شعرَ بالاستياءِ عندما اكتشفَ أنَّ أحداً ما كان هنا.

كان قد سوَّى الأرضَ بعنايةٍ وغطاها بالأوراقِ ورغمَ هذا عثرَ أحدهم على المخبأ. كان هناك حفرةٌ بعمقِ قدمٍ وكومةٌ من الترابِ إلى جانبها.

كانت الحفرةُ فارغةً.

حدَّقَ ميرثن إلى الحفرةِ في هلعٍ وقالَ: «أوه، اللعنة».

قالَ غريغوري: «آمل ألا يكونَ هذا مقلباً..»

«دعني أفكر»، انفجرَ ميرثن قائلاً.

وصمتَ غريغوري.

«هناك شخصان يعرفانِ بهذا»، قالَ ميرثن وهو يفكرُ بصوتٍ عالٍ. «لم أخبر أحداً ولذلكَ لا بدَّ أنَّ توماس قد فعلَ فقبلَ أن يتوفى كان قد بدأ يُخرّفُ. أعتقدُ أنّه أفشى السّرَ؟»

«لمن؟»

«أمضى توماس الشهورَ الأخيرةَ من حياتهِ في ديرِ سان جون إن ذا فوريست ولذلكَ لا بدَّ أن يكونَ راهباً».

«وكم كان عددهم؟»

«نحو العشرين، ولكن الكثيرَ منهم لا يعلمونَ خلفيةَ الأمرِ ولا يفهمونَ أهميةَ هِذارِ رجلٍ عجوزٍ حولَ رسالةٍ مدفونةٍ».

«حسناً، ولكن أينَ الرسالةُ الآن؟»

«أعتقدُ أنني أعلمُ»، قالَ ميرثن. «أعطني فرصةً أخيرةً».

«حسناً».

عادا إلى المدينةِ وبينما كانا يعبران الجسرَ كانت الشمسُ تغربُ فوقَ جزيرةِ ليبر. توجها إلى الكنيسةِ المعتمةِ ثمَّ إلى البرجِ الجنوبي الغربي وصعدا الدرجَ الحلزوني الضيّقَ إلى غرفةٍ صغيرةٍ حيثُ تُخزنُ أزياءُ المسرحيات.

لم يدخل ميرثن الغرفةَ منذُ أحدَ عشرَ عاماً، ولكن المخازنَ المُغبرةَ لا تتغيرُ كثيراً بخاصةٍ في الكاتدرائياتِ، ولذلك لم تكن هذهِ الغرفةُ مختلفةً عنها. عثرَ ميرثن على الحجر غير الثابت في الجدارِ وسحبهُ.

كانت جميعُ كنوزِ فيليمون خلفَ الحجرِ بما فيها رسالة الحبِّ المحفورة على الخشبِ، وبينَ هذهِ الأغراضِ وجدَ كيساً من الصوفِ اللامعِ. فتحَ ميرثن الكيسَ وأخرجَ لفافةً ورقيةً.

«هذا ما اعتقدتهُ»، قال ميرثن. «لقد عرفَ فيليمون بالسِّرِ من توماس عندما بدأ يفقدُ قواهُ العقليةَ». لا بدَّ أنَّ فيليمون أخذَ الرسالة ليستخدمها من أجلِ المفاوضاتِ في حالِ لم تسر الأمورُ كما يشتهي ووقعَ اختيارُ الأسقفِ على أحدٍ آخر، ولكن بوسعِ ميرثن أن يستخدمها الآن.

سلَّمَ اللفافةَ إلى غريغوري.

حلَّ غريغوري اللفافةَ وعلت وجهه نظرة ضيقٍ وهو يقرأها.

«ربّاه»، قال غريغوري. «كانت تلكَ الإشاعاتُ صحيحةً»، وفتحها مجدداً. كان أشبه برجلٍ عثرَ على شيءٍ بحثَ عنهُ لسنواتٍ عديدةٍ.

«هل هذا ما كنتَ تتوقعهُ؟»

«أوه، أجل».

«وهل سيكونُ الملكُ ممتناً؟»

«جداً».

«إذاً، ستنفذُ وعدكَ كما اتفقنا؟»

«سأنفذهُ»، قالَ غريغوري. «سيكونُ كلود أسقفكما».

«شكراً للرَّبِّ»، قال ميرثن.

***

بعدَ ثمانيةِ أيامٍ وباكراً في الصباحِ كانت كاريس في المستشفى تُعلِّمُ لولا

كيفَ تربطُ ضمادةً عندما دخلَ ميرثن وقال لها: «أريد أن أريكِ شيئاً، فلترافقيني إلى الكاتدرائيةِ».

كان يوماً شتوياً مُشمساً ولكن كاريس تدثرت بعباءةٍ حمراء ثقيلةٍ. وبينما كانا يقطعانِ الجسرَ باتجاه المدينةِ توقفَ ميرثن وأشارَ بيدهِ ثمَّ قال: «لقد انتهى العملُ على القمةِ المستدقةِ».

رفعَت كاريس نظرها إلى الأعلى ورأت القمةَ المستدقة رغمَ السقالاتِ التي أحاطت بها كشبكةِ العنكبوتِ. كانت القُمةُ عاليةً وأنيقةً وعندما حدَّقت إلى قمتها المدببةِ شعرت بأنَّها خالدةٌ منذُ الآن.

«وهذا أطولُ مبنى في إنكلترا؟»

ابتسمَ وقالَ: «أجل».

عبرا الشارع الرئيسي باتجاه الكاتدرائيةِ وقادها ميرثن عبرَ الدرجِ الداخلي للبرجِ المركزي. كان معتاداً على صعودِ السلالمِ ولكنَّ كاريس أخذت تلهثُ بحلولِ الوقتِ الذي خرجت فيه إلى الهواءِ المفتوحِ عندَ قمةِ البرجِ ووصلت إلى الطريقِ الذي يلتفُ حولَ قاعدةِ القمةِ. هناك كان الهواءُ عاصفاً وبارداً.

حدَّقا إلى المنظرِ بينما التقطت كاريس أنفاسها. أمام ناظريهما امتدت كينغزبريدج إلى الشمالِ والغرب: الشارع الرئيسي والمنطقةُ الصناعيةُ والنهرُ والجزيرةُ مع المستشفى. كان الدخانُ يتصاعدُ من آلافِ المداخنِ؛ وأناسٌ صغارٌ يهرعونَ عبرَ الشوارعِ أو يسيرون أو يركبونَ أو يقودونَ عرباتٍ أو يحملونَ أكياساً وسلالاً من المنتجاتِ أو أكياساً ثقيلةً؛ رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ، سمينون ونحيلون، بثيابٍ فقيرةٍ ومهترئةٍ أو باهظةٍ وثقيلةٍ وجميعها كانت بلونٍ بني وأخضر وأحياناً بلونٍ أزرق وأحمر زاهٍ. نظرت كاريس إليهم في عجبٍ وفكرت في نفسها بأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يعيشُ حياةً مختلفةً، وأنَّ دراما الماضي وتحديات المستقبلِ أغنتهم وصنعتهم على ما هم عليهِ الآن من ذكرياتٍ سعيدةٍ وأحزانٍ دفينةٍ وحشودٍ من الأصدقاءِ والأعداءِ والأحبةِ.

«هل أنتِ جاهزةٌ؟»

أومأت كاريس.

وقادها لتصعدَ السلم الذي كان واهياً ومصنوعاً من الحبالِ والأغصانِ. لطالما أثار صعود هذه السلم توترها ولكنها لم ترغب قط بقولِ هذا؛ فإن كان

ميرثن قادراً على تسلقهِ فهي قادرةٌ أيضاً. وبسببِ الرياحِ أخذ السُلم يتحركُ ويتمايلُ ففُتحت تنورةِ ثوبِ كاريس حولَ ساقيها وبدت كشراعٍ على ظهرِ سفينةٍ. كانت القمةُ عاليةً كالبرجِ وكان تسلّقُ السُلمِ المصنوعِ من الحبالِ مُضنياً.

توقفا في منتصفِ الطريقِ ليرتاحا.

«إنَّ القمةَ بسيطةٌ جداً»، قال ميرثن الذي بدا كأنّه لم يكن بحاجةٍ إلى التقاطِ أنفاسِهِ. «إنَّها مكسوةٌ بالمعدنِ المصهورِ عندَ الزوايا فقط». وأدركت كاريس أنَّ القبابَ الأخرى التي رأتها مزينةٌ بزخارف أو بالحجارةِ أو القرميدِ الملونِ مع فجواتٍ أشبه بالنوافذِ. إنَّ بساطةَ تصميمِ ميرثن ما ستجعلُ البناءَ خالداً.

وأشارَ ميرثن إلى الأسفلِ: «انظري إلى ما يحدث!»

«أفضلُ ألا أنظرَ للأسفلِ..»

«أعتقدُ أنَّ فيليمون على وشكِ الذهاب إلى أفينيون».

كان عليها أن ترى هذا.

رغم أنَّها كانت تقفُ على منصةٍ عريضةٍ من الألواحِ الخشبيةِ فإنَّها شعرت بأنَّ عليها الإمساك بالعمودِ جيداً وبكلتا يديها لتقنعَ نفسها بأنَّها لن تسقط. ابتلعت لعابها بصعوبةٍ ونظرت إلى الأسفلِ على طولِ البرجِ حتَّى الأرضِ.

ولكن المنظر في الأسفلِ استحقَّ كلَّ هذهِ المشقةَ. رأت كاريس خارجَ قصرِ رئيسِ الديرِ عربةً يجرها ثورانِ مع حاشيةٍ مؤلفةٍ من راهبٍ وجندي وكلاهما على جوادين وينتظران بأناةٍ. وقفَ فيليمون قربَ العربةِ بينما رهبانُ كينغزبريدج يتقدمون منه، الواحدَ تلو الآخر، ويُقبلونَ يدهُ.

عندما انتهوا من هذا تقدّمَ الأخُ سايم وأعطاهُ الهرَّ الأسودَ والأبيض وعرفت كاريس أنَّه حفيدُ «رئيس الأساقفةِ» – هرّ غودوين.

صعدَ فيليمون إلى العربةِ وساطَ السائقُ الثورين فتحرَّكت العربةُ ببطءٍ وخرجت من البوابةِ باتجاهِ الطريقِ الرئيسي. راقبها ميرثن وكاريس وهي تعبرُ الجسرَ المزدوجَ وتختفي في الضواحي.

«شكراً للرَّبِّ لأنَّه رحلَ»، قالت كاريس.

ونظرَ ميرثن إلى الأعلى ثمَّ قال: «القمةُ ليست بعيدةً، وقريباً جداً ستقفين على أعلى نقطةٍ وستكونين أول امرأةٍ في إنكلترا تقفُ على هذا الارتفاع».

وعاودَ التسلّقَ.

ازدادت قوةُ الرياحِ ورغمَ القلقِ الذي شعرت بهِ كاريس فإنَّها كانت سعيدةً جداً. كان هذا حُلمَ ميرثن وكان عليهِ أن يحققهُ، ولمئاتِ السنين القادمةِ سيرى الناسُ البرجَ يوماً ومن بعيدٍ وسيقولون إنَّه جميلٌ جداً.

وصلا إلى أعلى السلمِ ووقفا على المنصةِ المحيطةِ بأعلى القمةِ، وحاولت كاريس أن تتجاهل فكرةَ عدمِ وجودِ حوافٍ تقيهما من خطرِ السقوطِ.

في أعلى القمةِ صليبٌ، ورغمَ أنَّه بدا صغيراً من الأسفلِ فإن كاريس اكتشفت الآن أنَّه أطولُ منها.

«هناك صليبٌ دوماً على القمةِ المستدقةِ»، قال ميرثن. «هذا أمرٌ متعارفٌ عليهِ، وباستثناءِ هذا تتنوعُ الإضافاتُ. في كنيسةِ تشارترز على الصليبِ رسمٌ للشمسِ ولكني قُمتُ بأمرٍ مختلفٍ».

ورأت كاريس أن ميرثن وضعَ ملاكاً حجرياً بالحجمِ الطبيعي عندَ قاعدةِ الصليبِ. لم يكن التمثالُ الراكعُ ينظرُ إلى الصليبِ بل إلى المدينة باتجاهِ الغربِ، وعندما أمعنت كاريس النظرَ إليه لاحظت أن تقاسيمَ وجهِ الملاكِ لم تكن تقليديةً فقد كان الوجهُ الصغيرُ المدورُ أنثوياً وبدا مألوفاً بشكلٍ غريبٍ بتقاسيمهِ الدقيقةِ وشعرهِ القصيرِ.

وأدركت كاريس أنَّه يشبهُ وجهها.

كانت مذهولةً وسألته: «هل سيسمحونَ لكَ بفعلِ هذا؟»

أومأ ميرثن وقالَ: «ألا يعتقدُ نصفُ سكانِ المدينةِ بأنَّكِ ملاكٌ؟»

«ولكني لستُ كذلكَ»، قالت له.

«لا»، قال لها بابتسامةٍ أليفةٍ تحبها جداً ثمَّ أضاف: «ولكنكِ بالنسبةِ لهم أقربُ تجسيدٍ للملائكةِ».

عصفت الرياحُ فجأةً فأمسكت كاريس بميرثن فأمسكها بقوةٍ وهو ما يزال على وقفتهِ الواثقةِ وقدميه المتباعدتين. تراجعت الرياحُ بالسرعةِ التي هبَّت بها ولكن ميرثن وكاريس بقيا متعانقين هناك على قمةِ العالمِ ولوقتٍ طويلٍ بعدَ ذلك.



شكرٌ وتقديرٌ

أقدمُ شُكري وتقديري إلى المستشارين التاريخيين الرئيسيين: سام كون وجيوفري هيندلي ومارلين ليفينغستون. اقتبستُ الجزء المتعلّق بالضعفِ في أساساتِ كاتدرائيةِ كينغزبريدج عن ذلكَ الذي أصابَ أساسات كاتدرائيةِ سانتا ماريا في فيتوريا-كاسيز، إسبانيا، وأنا ممتنٌ لطاقمِ مؤسسةِ كاتدرائية سانتا ماريا على مساعدتي وإلهامي، وأخصُّ بالذكر هنا كارلوس رودريغز دي ديغو وغونزالو آريوتا والمترجم لويس ريڤيرو. أشكرُ كهنةَ يورك على المساعدةِ التي قدموها وأخصُّ بهذا الشكر الكاهن جون ديفيد. وقد تكرَّمَ مارتن آلين من متحفِ فيتزويليام في كينغزبريدج، إنكلترا بالسماحِ لي بمعاينةِ العملاتِ المعدنيةِ من حقبةِ الملكِ إدوارد الثالث، أمّا في لي مون-سان-ميشيل، فرنسا فقد كانت الأخت جوديث والأخ فرانسوا خير عونٍ لي، وكالعادةِ، قدَّمَ دان ستارتر من مركزِ «البحثِ عن كُتَّابٍ» في نيويورك يد المساعدةِ في عمليةِ البحثِ. وأقدم شكري أيضاً إلى مستشاري الأدبيين: آمي بركوير وليزلي غيلبمان وفيليس غران ونيل نايرن وإيموجن تايلر وآل زوكرمان، وبالنسبةِ إلى الملاحظات والنقد فأنا أشكر أفراد عائلتي وأصدقائي: باربرا فوليت وإيمانويل فوليت وماري كلير فوليت وإيركا جونغ وتوني ماكولتر وكريس مانرز وجان تيرنر وكيم تيرنر.

المحتويات

«ما يمتازُ به فوليت هو قُدرتُه على سردِ الحكاياتِ ففي حبكاته المتداخلة مُتعةٌ كافيةٌ لأسرِ القارئ لواحدٍ وتسعين فصلاً... لن تكون قادراً على وضعِ الكتابِ من يدكَ».

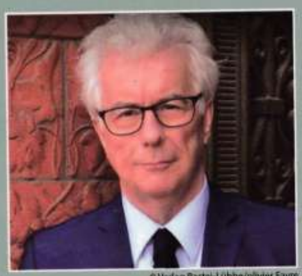
الإندبندنت

«هذا كتابٌ ضخمٌ بامتيازٍ، وهو شاملٌ ومُفصّلٌ في آنٍ معاً. بين دفتيه حكايةٌ عظيمةٌ تفيضُ بشخصياتٍ آسرةٍ جداً وتستَحْضِرُ بكلِّ براعةٍ حِقبةَ وباءِ الطاعون الأسود الفتّاكِ وولادةَ الطبِّ الحديثِ».

مجلة تشويس

كين فوليت روائي بريطاني يجنح إلى التاريخ في رواياته.وكتبه من أكثر الكتب مبيعاً حول العالم حيث باع أكثر من "١٦٠" مليون نسخة.

عُدّ ثلاثيةُ كينغزبريدج: أعمدة الأرض- عالمٌ بلا نهايةٍ- عمودُ نارٍ (صدرت ترجمتها العربية عن دار المدى)، من أكثرِ الكتبِ مبيعاً على مستوى العالم منذُ نشرِ أول جزء منها عام ١٩٨٩. من رواياته المشهورة: الظلام والفجر، عالم بلا نهاية، مفتاح ريبيكا .


© Verlag Bastei-Lübbe/olivier Favre

ولد فوليت في كارديف، إنكلترا عام ١٩٤٩ حصل على إجازة الفلسفة من جامعة كوليج في لندن، ثم أتبعها بشهادة جامعية في الصحافة، فتحت الطريق أمامه ليعمل محرر تحقيقات، أكسبته خبرة في نشر أول رواية له عام ١٩٧٤ بعنوان" الإبرة الكبيرة ". عام ١٩٧٨ ينشر روايته بعنوان "خُرم الإبرة" التي رفعتهُ إلى مصاف كبار الروائيين البريطانيين. واكتسحت أرقام المبيعات منذ تصدرها واجهات المكتبات البريطانية، لأنها عادت بالذاكرة إلى التفاصيل الدقيقة للسنة الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. عام ١٩٨٩ نشر روايته " أعمدة الأرض" التي شكل صدورها حدثاً أدبياً كبيراً و"أعمدة الأرض" الجزء الأول من ثلاثية كينغزبريدج.

سحرت ثلاثية كين فوليت " الملايين من القراء بدراما الحرب والعاطفة والصراع الأسري التي تدور أحداثها في بريطانيا في العصور الوسطى حيث يتصارع رجال ونساء وأطفال المدينة مرة أخرى مع الاجتياح المدمر للتغيير التاريخي.

يتحدث عن ثلاثيته قائلا :" قراءة الروايات هي وسيلة لتوسيع أذهاننا، والدخول في مشاعر الناس المختلفين ..إنّها أهم من دراسة التاريخ ، لكنني أعتقد أنّ القارئ عندما يقرأ في روايتي عن هذهِ الفترة سيكتشف بأن خرق القانون من قبل الأقوياءِ يمثل مشكلة كبيرة ، إذ لم يكن الملك في ذلك الوقت قوياً بما يكفي لدعم القانون ، وكان الحكام يفعلون مايريدون ..اليوم ، نرى قادة يخالفون القانون وحكومات تحد من سلطة القضاء ".